14 me Année No. 653

Lundi—7—1—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
٨٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة عشرة — « القاهرة في يوم الإثنين ٣ صفر سنة ١٣٦٥ — ٧ يناير سنة ١٩٤٦ » — العـــدد ٦٥٣

أوربا والإسلام



شيع الناس بالأمس عاماً قالوا إنه نهاية الحرب، واستقبلوا اليوم عاماً يقولون إنه بداية السلم. وما كانت تلك الحرب التي حسبوها انتهت، ولا هذه السلم التي زعموها ابتدأت، إلا ظلمةً أعقبها عمى، وإلا ظلماً سيعقبه دمار! حاربت الديمقراطية وحليفتها الشيوعية عدوتيهما الدكتاتورية، وزعمتا للناس أن أولاهما تمثل الحرية والعدالة، وأخراهما تمثل الإخاء والمساواة، فالحرب بينهما وبين الدكتاتورية التي تمثل العلو في الأرض، والتعصب للجنس، والتطلع إلى السيادة، إنما هي حرب بين الخير والشر، وصراع بين الحق والباطل. ثم أكدوا هذا الزعم بميثاق خطوه على مياه (الأطلسي)، واتخذوا من الحريات الأربع التي ضمنها هذا الميثاق مادة للدعاية شغلت الإذاعة والصحافة والتمثيل والتأليف أربع سنين كوامل، حتى وهم ضحايا القوة وفرائس الاستعمار أن الملائكة والروح يتنزلون في كل ليلة بالهدى والحق على روزفلت وتشرشل وستالين، وأن الله الذي أكمل الدين وأتم النعمة وختم الرسالة قد عاد فأرسل هؤلاء الأنبياء الثلاثة في وشنطون ولندن وموسكو، ليدرأوا عن أرضه فساد الأبالسة الثلاثة في برلين وروما وطوكيو! وعلى هذا الوهم الأثيم بذلت الأمم الصغرى للدول الكبرى قسطها الأوفى من الدموع والدماء والعرق؛ فأقامت مصر من حريتها وثروتها وسلامتها في (العلمين) سداً دون القناة، وحجزت تركية بحيادها الودي سيل النازية عن الهند، وفتحت إيران طرقها البحرية والبرية ليمير منها العتاد إلى روسيا؛ ولولا هذه النعم الإسلامية الثلاث لدقت أجراس النصر في كنائس أخرى!

ثم تمت المعجزة وصُرِع الجبارون ووقف الأنبياء الثلاثة على رءوس الشياطين الثلاثة، يبصرون الأستار عن العالم الموعود؛ وتطلعت شعوب الأرض إلى مشارق الوحي في الوجوه القدسية، فإذا اللحى تتساقط، والقرون تنتأ، والمسابح تنفرط، والسوح تنهتك؛ وإذا التسابيح والتراتيل عواء وزئير، والوعود والمواثيق خداع وتغرير؛ وإذا الديمقراطية والشيوعية والنازية والفاشية كلها ألفاظ تترادف على معنى واحد: هو استعمار الشرق واستعباد أهله!

إذن برح الخفاء وانفضح الرياء وعادت أوربا إلى الاختلاف

والانفاق على حساب العرب والإسلام !

هذه إيران المسلمة ، ضمن استقلالها الأقطاب الثلاثة ، حتى إذا جد الجد تركوها تضطرب فى حلق الدب ثم خلصوا نجيا إلى فريسة أخرى !

وهذه تركية المسلمة ، واعدوها وعاهدوها يوم كانت النازية الغازية تحوّم على ضفاف الدردنيل ؛ وهم اليوم يخلّونها وجهاً لوجه أمام هذا الدب نفسه يطرق عليها الباب طرقاً عنيفاً مخيفاً ليعيد على سمعها قصة الذئب والحمل !

وهذه أندونسيا المسلمة ، آمنت بالإنجيل الأطلسى وقررت أن تعيش فى ديارها سيدة حرة ؛ ولكن أصحاب الإنجيل أنفسهم هم الذين يقولون لها اليوم بلسان النار : هولندا أوربية ، وأندونسيا أسيوية ، ونظرية الأجناس ، هى القانون النافذ على جميع الناس !

وهذه سورية ولبنان العربيتان ، أقر باستقلالهما ديجول ، وضمن هذا الإقرار تشرشل ، ثم خرجت فرنسا من الهزيمة إلى الغنيمة ، واختلف الطامعان نخاس المضمون بعهده ، وبرّ الضامن بوعده . ثم قيل إنهما اتفقا ! واتفاقهما لن يكون على أى حال قائماً على ميثاق الحريات الأربع !

وهذه فلسطين العربية ، يفرضون عليها أن تؤوى فى رقعتها الضيقة ، الشريد والطريد والفوضوى واللص ، وفى أملاكهم سعة ، وفى أقواتهم فضل ؛ ولكنهم يضحون بوطن العرب ، لعجل السامرى الذهب ، ويتخلصون من الجرائيم ، بتصديرها إلى أورشليم !

وهذه أفريقية العربية ، يسممون أن ديجول أخا (جان دارك) قد حالف على أهلها الخوف والجوع ، ثم انفرد هو بمطاردة الأحرار حتى ضاقت بهم السجون والمقابر ، ولا يقولون له : حسبك ! لأن السفاكين أوربيون يؤمنون بعيسى ، والضحايا أفريقيون يؤمنون بعيسى ومحمد !

بل هذه هى الأرض كلها أمامك ، تستطيع أن تنفضها قطعة قطعة ، فهل تجد العيون تتشوف ، والأفواه تتحلب ، والأطماع تتصارع ، إلا على ديار الإسلام وأقطار العروبة ؟ فبأى ذنب وقع خُمس البشرية فى هذه العبودية المهلكة ، وهو الخمس الذى انبثق منه النور وعُرف به الله وكرُم فيه الإنسان ؟ ليس للثلاثمائة مليون من العرب والمسلمين من ذنب يستوجبون به هذا الاستعمار المتسلط إلا الضعف وما الضعف إلا جريرة الاستعمار نفسه . فلو كان المستعمر الأوربى صادق الحجة حين قال : إننا نتولى شؤون الشرق لنقوى الضعيف ونعلم الجاهل وندفع المتخلف ، لوجد من العرب سنداً قوياً لحضارته ، ومن الإسلام نوراً هادياً لعقله ؛ ولكنه ورث الخوف من الإسلام عن القرون الوسطى ، فهو يسايره من بُعد ، ويعامله على حذر . وإذا عذرنا قسوس العصور المظلمة فيما افتروا عن جهالة ، فما عذر الذين كشفوا الطاقة الذرية إذا جمدوا على الضلال القديم وكتاب الله مقروء ، ودستور الإسلام قائم ؟ !

لقد فشلت مذاهبهم الاجتماعية كلها ، فلم تستطع أن تخلص جوهر الإنسان من نزعات الجاهلية الأولى ؛ فلم يبق إلا أن يجربوا المذهب الإسلامى ولو على سبيل الاقتباس أو القياس .

لا نريد أن نقول لهم : أسلموا لتحكموا ، وتعلّموا لتعلموا ، فإن هذه الدعوة يعتاقها عن الغاية القريبة عوائق من العصبية والوراثة والتقاليد والعادة ؛ ولكنا نقول لهم : تصوروا نظاماً واحداً يصلح لكل زمان ومكان ، ويقطع أسباب النزاع بين الإنسان والإنسان : يوحد الله ولا يشرك به أحداً من خلقه ؛ ويقدس جميع الشرائع التى أنزلها الله ولا يفرق بين أحد من رسله ؛ ويؤاخى بين الناس كافة فى الروح والعقيدة لا فى الجنس والوطن : ويسوى بين الأخوة أجمعين فى الحقوق والواجبات فلا يميز طبقة على طبقة ولا جنساً على جنس ولا لونا على لون ؛ ويجعل للفقير حقاً معلوماً فى مال الغنى يؤديه إليه طوعاً أو كرهاً ليستقيم ميزان العدالة فى المجتمع ، ويجعل الحكم شورى بين ذوى الرأى فلا يحكم بأمره طاغ ، ولا يصر على غيه مستبد ؛ ويحرر العقل والنفس والروح فلا يقيد النظر ولا يحصر الفكر ولا يقبل التقليد ولا يرضى العبودية ؛ ويأمر معتقديه بالإقساط والبر لمن خالفوهم فى الدين وعارضوهم فى الرأى ؛ ويوحد الدين والدنيا ليجعل للضمير السلطان القاهر فى المعاملة ، وللإيمان الأثر الفعال فى السلوك . وجملة القول فيه أنه النظام الذى يحقق الوحدة الإنسانية فلا يعترف بالعصبية ولا بالجنسية ولا بالوطنية ، وإنما يجعل الأخوّة فى الإيمان ، والتفاضل بالإحسان ، والتعاون على البر والتقوى . فإذا تصورتم هذا النظام ، فقد تصورتم الإسلام . وإذا أخذتم به فقد اطمأن العالم المضطرب واستقر السلام المزعزع . ولا يعنينا بعد ذلك أن تطلقوا عليه لفظاً يونانياً أو لاتينياً ما دمتم تسلمون وجوهكم إلى الله ، وتسلّمون قيادكم لمحمد !

احمد حسن الزيات

الجامعة العربية حركة طبيعية

للأستاذ عباس محمود العقاد



قيل فى الغرب — وردد بعض الشرقيين هذا القول — إن الجامعة العربية حركة مصطنعة تدبرها بعض الدول الأجنبية لأغراضها السياسية فى الوقت الحاضر، وإنها تستطيع أن تبطلها كما استطاعت أن تختلقها متى فرغت من حاجتها إليها.

والذى نريد أن نقرره قبل بيان الحقيقة فى هذه الأقاويل أن الحركات العالمية، أو الحركات القومية، لا يخلقها تدبير مصطنع على الإطلاق، وأنها توجد بأسبابها الكامنة فيها وتتجه إلى غاياتها الموافقة لتكوينها، فلا تستطيع قوة فى الأرض أن تظهرها وهى خافية، أو تتجه بها إلى غاية لا توافقها ولا تلائم مصالح ذويها.

والحركة العربية قامت فى نشأتها الحديثة على الرغم من السياسة الأوربية ولم تقم باختيارها وتدبيرها، وعادت إلى التجمع والوحدة بين الحربين العالميتين؛ لأنها لا بد أن تعود بعد تلك القومة الأولى.

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر سئل إبراهيم باشا وهو يناضل الدولة العثمانية: إلى أين تنتهى فتوحاته؟ فقال: إلى حيث لا يوجد من يتكلم العربية. يريد بذلك أنه ينشىء دولة عربية محضا، ولا يريد أن يتجاوزها إلى بلاد أخرى.

وحوالى هذا الوقت كان محمد بن عبد الوهاب فى نجد يعلن الثورة على الحكومة العثمانية، ويجمع القبائل فى جزيرة العرب لتوحيد كلمتها، والإتجاه بها إلى وجهة الإستقلال، عن السيطرة الخارجية.

ولم تكن جزيرة العرب يومئذ تعترف بشىء من السلطان الأجنبى غير السيادة الإسمية والرقابة البعيدة التى لا تتعرض لشؤونها الداخلية، فكان أمراء نجد والكويت والحجاز واليمن يأخذون وقلما يعطون فى علاقتهم بالدولة العثمانية، وكانوا على استقلالهم الذى تعودوه منذ القدم فى حواضر الصحراء وبواديها، ولا سيما البوادى التى تحجم عنها جنود الدولة ولا تنفذ إليها بغير إذن من أبنائها.

أما فى سورية ولبنان فقد رحبت جمهرة الشعب بحركات الوحدة مع الأمم العربية الأخرى وكانت على اتصال دائم بوادى النيل والجزيرة، وكانت علاقة أمرائها بمحمد على الكبير على ما يعلم المطلعون على تاريخ ذلك الحين.

وفى كل هذا كانت السياسة الأوربية تقف من حركات العرب موقف المقاومة والتثبيط، لأنها عملت على بقاء الأمم العربية فى حوزة الدولة العثمانية، محرومة جهد المستطاع من حقوق السيادة والإستقلال.

ولم تفلح هذه المقاومة إلا ريثما استجدت تلك الأمم نشاطها وتحفزت مرة أخرى للوثوب إلى غايتها.

فقامت فى مصر حركة المطالبة بمصر للمصريين، وقامت فى السودان حركة «الترك» كما كانوا يسمون الأجانب أجمعين، وقامت فى بلاد العرب دعوة واحدة إلى الإستقلال، ولكنها كانت تمتحن من آونة إلى أخرى بمحنة المنافسة بين زعماء العشائر وأمراء الأقاليم، ودخل السوريون واللبنانيون والعراقيون فى حزب تركيا الفتاة؛ لأنه الحزب الذى كان يمنيهم بالحكومة «اللامركزية» أى حكومة العرب فى بلادهم، كما يشاءون، وبمن يشاءون.

وفى هذا الدور أيضا من أدوار القضية العربية كانت السياسة الأوربية تخذل العرب أو تمنعهم أن يبلغوا من الإستقلال غاية ما يقدرون عليه.

ثم نشبت حرب الأمم قبل ثلاثين سنة فتحركت الجامعة العربية من جديد، تارة على هدى وتارة على ضلال، فتسابقت دول أوربا إلى كسب الأنصار من أمم العرب التى استقلت أو طمحت إلى الإستقلال، وانتهت الحرب والأمم العربية جمعاء متفقة على المطالبة بالحرية والمناداة باسم العروبة فى جامعة تتوافر لأعضائها حقوق الإستقلال.

وعلى ما كان من موقف أوربا فى المقاومة والتثبيط كانت لها فلتات هنا وفلتات هناك تبدر منها حينا بعد حين ؛ فى سبيل التشجيع والإغراء .

فكان الإنجليز مثلا يشجعون المناداة بمصر للمصريين لأنها تفصل مصر عن الدولة العثمانية ، ولكنهم يثبطونها من جهة أخرى لأنها ثورة صريحة على الإحتلال البريطانى ، وما عسى أن يتطور إليه من بسط الحماية البريطانية فى صورة من صورها الكثيرة .

وكان الفرنسيون ينشئون المدارس فى البلاد السورية ، كما ينشئون فيها المطابع والمجامع لنشر كتب العرب وثقافة العرب وإحياء التراث العربى القديم ، سعياً إلى الفصل بين العرب والدولة العثمانية لا سعيا إلى استقلالهم عن جميع الطامعين ، وفى طليعتهم الفرنسيون .

وكان الألمان يقابلون هذا بالتقرب إلى « الجامعة الإسلامية » لأنها تشمل التقرب من الترك والعرب على السواء ، ولكنهم كانوا يطمحون من وراء هذه الجامعة إلى بلاد العرب فى طريقهم إلى الهند والأقطار الأسيوية ، ويدفعون السلطان عبد الحميد إلى مد خطوط المواصلات فى أنحاء سورية والجزيرة تحقيقا لأحلامهم التى تتلخص فى صيحتهم « من برلين إلى بغداد » ، ثم إلى الهند من هذه الطريق .

فالسياسة الأوربية قد وجدت حركة قائمة فاستفادت منها تارة بالمقاومة وتارة بالتشجيع .

أما أنها تخلقها خلقا فذلك مخالف للواقع ومخالف لفحوى التاريخ ، وهو على هذا وذلك مستحيل .

واليوم تدخل « الجامعة العربية » فى طور جديد بفضل كيانها القديم لا بفضل السياسة المصطنعة أو التدبير الخارجى من جانب الإنجليز أو جانب الأمريكيين .

وقد تكون للانجليز مصلحة فى مصادقتها ورغبة فى التفاهم بينهم وبينها ، ولكنهم يجدون مثل هذه المصلحة فى التفاهم بينهم وبين الأغريق أو التفاهم بينهم وبين الإيطاليين ، فلا يقول قائل إنهم خلقوا القومية الاغريقية أو خلقوا القومية الإيطالية ، أو إنهم قادرون على تجاهل القوميتين وإحباط ما ترميان إليه إذا تحولت السياسة من خطة إلى خطة فى المستقبل القريب ، أو المستقبل البعيد .

وكل ما يعنينا أن التفاهم بين الجامعة العربية وكائن من كان من أصدقائها والراغبين فى مصادقتها لا ينتهى إلى ضرر يحيق بالإستقلال أو يحيق بالمصالح الجوهرية ، أو يتجه بها إلى غير الوجهة التى يرضاها أبناء الجامعة لأوطانهم ، ولأوطان العروبة على الإجمال .

ومتى وثقنا من ذلك فنحن القانعون باتفاق المصالح بيننا وبين الإنجليز وغير الإنجليز ، بل نحن خلقاء أن نزيد من هذا الإتفاق فى المصالح والسياسات لأننا لا نحب أن نصطدم بسياسة غيرنا إذا تسنى لنا أن نعامله على وفاق .

ان الجامعة العربية حركة طبيعية من قديم الزمن وهى طبيعية فى هذا الزمن على التخصيص ، لأن العصر الحاضر ينادى باحترام حقوق الأوطان ، وأبناء العروبة يذودون عن أوطانهم وينشدون لها نعمة الحرية الكاملة ، ولأن العصر الحاضر ينادى بالتعاون فى الجوار وأبناء العروبة متجاورون محتاجون إلى التعاون فيما بينهم على المرافق المشتركة وهى أكثر من أن تنحصر فى مرافق الماضى أو مرافق الحاضر أو مرافق المستقبل على انفراد ، ولأن العصر الحاضر ينادى بالتعاون الشامل فى المسائل العالمية الكبرى ، ونحن نستطيع أن نعين ولا نكره أن نعان ولا نستغنى عن المعونة بحال

وحسب الجامعة العربية أنها عمل ينفع أبناءه ولا يضير غيره — وقد ينفعهم فى كثير من الأحوال — ليستحق البقاء ويستحق السهر عليه من ذويه ويستحق الصداقة ممن يعمل فى العالم الجديد عمل البصراء والعارفين .

عباس محمود العقاد

ضربات معول

للدكتور عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب



في العام الخامس من الهجرة تألب الشرك على التوحيد، وائتمر الباطل بالحق، وكاد الشر للخير. تقاسم رءوس الضلالة ليغزُونّ المدينة وليقتلُنّ هذه الجماعة الناشئة، وليبطلُنّ تلك الدعوة الجديدة.

مشى يهود خيبر إلى قادة قريش، وحرضوا القبائل الضاربة غربيّ نجد وشرقيّ خيبر، قبائلَ غطفان. فاجتمعت كلمة هؤلاء وهؤلاء على غزو المدينة والبطش بالمسلمين.

ورأى المسلمون أنهم لا قِبلَ لهم بهذه الأحزاب، لا يستطيعون دفع قريش وغطفان وألفافهما، لا قبل لهم بهذه الجموع الحاشدة من قيس عيلان وقريش ومَن انحاز إليهم، هذه الجموع التي قال فيها حُيَيّ بن أخطب أحد زعماء اليهود الذين ألّبوا الناس على المسلمين، حين جاء إلى كعب بن أسد القرظي رئيس بني قريظة وهم بقية اليهود في المدينة فقال له يحرضه على نقض عهد المسلمين:

«ويحك يا كعب جئتك بعزّ الدهر وببحر طام. جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمَى إلى جانب أُحُد؛ قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه».

أهمّ المسلمين هؤلاء الأعداء، فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق يصد الجيوش عن المدينة. فخطّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في موضع المخافة من المدينة. وذلكم شمالها حيث يطمع العدو في دخولها. وأما الجوانب الأخرى فكانت ممتنعة على الغزاة بجبالها ونخيلها. خط الرسول الخندق من أُجُم الشيخين إلى المذاد(١) وقطّعه بين الصحابة أربعين ذراعاً لكل عشرة رجال. وجدّ المسلمون ليفرغوا من الخندق قبل أن يدهمهم العدو. والرسول يشرف عليهم يشاركهم أحياناً في عملهم وارتجازهم.

— ٢ —

وبينا عشرة من الصحب يحفرون قسمهم من الخندق لقوا صخرة قاسية أثرت في معاولهم ولم تؤثر فيها المعاول. وكرهوا أن يعدلوا عنها فيحيدوا عما خطّه الرسول لهم. فقالوا لسلمان الفارسي أحد هؤلاء العشرة اصعد فانظر ماذا يأمر رسول الله. فرقي سلمان فقال:

«يا رسول الله بأبينا أنت وأمنا. خرجت صخرة بيضاء من الخندق مَرْوة فكسرت حديدنا وشقّت علينا حتى ما نُحيك فيها قليلا أو كثيراً. فمُرنا فيها بأمرك. فإنا لا نحب أن نجاوز خطك».

قال راوي القصة عمرو بن عوف المُزَني:

فهبط رسول الله مع سلمان في الخندق. ورقينا نحن التسعة على شقة الخندق. فأخذ رسول الله المعول من سلمان فضرب الصخرة ضربة صدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها(٢) حتى لكأن مصباحاً في جوف ليل مظلم. فكبّر رسول الله تكبير فتح. وكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله الثانية فصدعها وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر رسول الله تكبير فتح وكبر المسلمون. ثم ضربها رسول الله الثالثة فكسرها وبرقت برقة أضاءت ما بين لابتيها حتى لكأن مصباحاً في جوف بيت مظلم. فكبر رسول الله وكبر المسلمون. ثم أخذ بيده سلمان فرقي. فقال سلمان بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيته قط. فالتفت رسول الله إلى القوم، فقال هل رأيتم ما يقول سلمان؟ قالوا نعم يا رسول الله — بأبينا أنت وأمنا — قد رأيناك تضرب فيخرج

(١) لم يكن الخندق محيطا بالمدينة كما يتوهم بعض الكتاب.
(٢) اللابة الحرة. لابتا المدينة حرتاها الشرقية والغربية.

برق كالموج فرأيناك تكبر فنكبر . ولا نرى شيئاً غير ذلك[١] » .

قال رسول الله : أما الأولى فقد أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى ؛ والثانية أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم ؛ والثالثة أضاءت لى منها قصور صنعاء[٢] . « فأبشروا يبلغهم النصر . وأبشروا يبلغهم النصر . وأبشروا يبلغهم النصر » .

— ٣ —

إن هذا الشيء عجاب : جماعة قليلة لم تستطع الدفع بأيديها وأسلحتها فاعتصمت بالخندق تتقى به عدواً أكثر عدداً وأعظم عُدّة ؛ جماعة قليلة جاهدة يدهمها عدو حاقد مُحنَق قد صمم على أن يستأصلها . وليس لهذه الجماعة رِدء على الأرض ولا مدد . وهى تكدح لحفر الخندق وتكلّ أيديها فينزل قائدها يعينها ويواسيها ، على حين أحاط بها الخوف « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » .

وفى هذه المخاوف ، وعلى هذه الحال يتحدث هذا القائد بفتح المشرق والمغرب ! ما أعظمها دعوى ، وما أعجبها أمنية !

كذلك قال الذين رأوا عدداً قليلا من الناس يحفر أرضاً ليتقى عدوه ، ولم يروا ما وراء هذه الأجسام القليلة من معان كثيرة . قالوا :

«ألا تعجبون! يحدثكم ويُمَنّيكم ، ويعدكم الباطل . يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرُزوا » .

« وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .

أجل من يرى هذه الجماعة القليلة تدرأ عن نفسها بهذه الحفيرة يعجب ألا يشغلها ضعفها ، والهول الذى دهمها ، والخوف الذى أحاط بها ، عن التحدث بالفتح فتح المشرق والمغرب . إنها لإحدى الكُبَر .

(١) الطبرى : غزوة الخندق .

(٢) مختصر من الطبري . وفى رواية بن هشام ، أن الأولى فتحت بها صنعاء ، والثانية فتح بها المشرق ، والثالثة فتح بها الشام والمغرب .

— ٤ —

لا لا . لم تكن فى المدينة جماعة قليلة ولكن كان الحق يصاول الباطل ، والخير يدفع الشر ، والإيمان ينازل الكفر ، والتوحيد يواثب الشرك ، والعزم يقابل الخورَ ، والاجتماع يثبت للافتراق ، والصبر يصمِد للجزع ، واليقين يتحدّى الشك . كانت معان تقاتل معانى . وما ضرّ المعنى الظافرَ فى سنة الله قلةُ أنصاره على الأرض ؛ ولا نفع المعنى المنهزم فى قانون الله كثرةُ سواده فى الناس .

وما كان مسلمو الخندق يحادّون قريشاً وغطفان ويهود وحدهم بل كانوا يحادّون الأمم كلها . لقد انقسم العالم يومئذ فريقين : أهل المدينة الذين يحفرون الخندق ، ومَن خارج المدينة فى جزيرة العرب وفى غير الجزيرة من أقطار الأرض كلها . لقد كان هذا الخندق فاصلا بين جماعتين : جماعة قليلة تحتضن حقاً وليداً ، وتاريخاً جديداً ، وتلتفّ حول عقيدة وشريعة وخلق ، وبين سواد الأمم كلها يموجون فى باطلهم ، ويسيرون فى مواكب للجهالة والإثم ، والعدوان والظلم ، ويحوطون أوثاناً من الحجر أو أصناماً من البشر .

وما كان العرب إلا العدوّ الأدنى ، عرف هذه الجماعة فحذرها ، وكرهها فآذاها ، ثم أشفق منها فائتمر بها وعزم ليأخذَنّ عليها الطريق ، وليمنعنّها أن تنتشر على الأرض ، وليفرقنّ جمعها ، ويبددّن نظامها ، ويبطلنّ دعوتها .

وكانت أمم الأرض كلها من وراء هؤلاء العرب ، حرباً على هذه الجماعة لو قاربوها وخالطوها . وما كان العرب المشركون فى حرب العرب المسلمين إلا طلائع جيش للباطل جنوده أهل الأرض قاطبة . كذلكم كان هذا الخندق المحفور بين المسلمين وأعدائهم حدًّا بين عصر وعصر ، وفاصلا بين تاريخ وتاريخ .

ولكن العرب الكثيرين من قريش وغطفان ويهود ، وهم طلائع جيوش الأرض كلها ، لم يكونوا فى أنفسهم ، وفيما انطوت عليه هذه الأنفس من معان ، أقوى ولا أولى بالظفر من هذه الجماعة القليلة . دع العدد القليل ، والعدد الكثير ، وانظر هذه المعانى تتقاتل ، تجد التوحيد يحارب الوثنية ، والفضيلة تقاتل الرذيلة ،

والنظام بدافع الفوضى ؛ تجد الخير والشر ، والعدل والجور ، والحرية والعبودية ، والحق والباطل فى معترك . فانظر لأى هؤلاء العاقبة !

وهل كان المعول فى يد رسول الله ، وضربات المعول فى هذا الصخر الأصم ، وهذه البرقات التى ماج بها الهواء كالمصباح فى بيت مظلم ، إلا الحق يصادم الباطل ، والإيمان يصاول الشرك ، والنور يمزق الظلام ، والحق العزيز المصمم يكسر ما يعترضه ، ويدمغ مايصده . كانت هذه الضربات رموزاً لما وراءها من جهاد وجلاد ، وكان هذا الضوء بياناً لما يتصل به من هدى ، وكانت يمين الرسول العزمُ المصمم ، وكان كل خير وحق وفضيلة فى النفس التى تبطش بهذه اليد .

كانت هذه المعانى كالشرارة الصغيرة تؤجج ما شاء الله من نار ونور ، والآحاد فى الأعداد تستوعب كل ما يدركه العد ، وكالفكرة الأولى تفتح للعقل طريقاً مديداً ومذهباً جديداً ، وكحروف الهجاء تنتظم لغات العالم ، وكقرص الشمس يغمر العالمين نوراً .

— ٥ —

كذلك سخر الذين سمعوا قصة محمد ومعوله ، وعرفوا حديث القائد المحصور يبشر بفتح العالم! ولكن كثيراً من هؤلاء الساخرين عاشوا حتى سمعوا صدى هذه الضربات فى اليرموك والقادسية وما تلاهما شرقاً وغرباً ، وأبصروا برقها يصعق يزدجرد وهرقل وجنودهما ، وكل جند للباطل على ظهر الأرض .

ورأوا المعانى التى مثلتها هذه الضربات وقد ثارت بالباطل غير رفيقة ، وزلزلت الظلم غير مشفقة ، وانتشرت فى المشرق والمغرب كالسحاب مجلجلا مضيئاً صاعقاً ممطراً منبتاً .

عاش الساخرون عشر سنين فرأوا جزيرة العرب تدين لصاحب المعول ، ورأوا فارس والروم تخر لضرباته ، والمشرق والمغرب يستضىء بهذه البرقات . وعلموا يقيناً أن محمداً صدقهم حينما وعدهم فتح العالم وهو قائم فى الخندق يحطم بمعوله الصخرة التى أعيت أصحابه .

عبد الوهاب عزام

من وراء حجاب

للأستاذ محمود محمد شاكر



أخي الأستاذ الزيات :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ، فقد أكرمتني ودعوتني لكتابة مقالتي لعدد الهجرة من الرسالة ، فجعلت أماطل الساعات كعادتي حتى تضطرّني إلى مأزق أجد عنده مفرًّا من حمل القلم ، والإكباب على الورق ، وترك الزمن يعدو عليَّ وأنا قارٌّ في مكان لا يتغير وزمان لا يتحول . فلما كارب الوقت وأزفت الساعة ، فزعت إلى ذلك الكتاب القديم الذي طال عهد « الرسالة » به ، وهو « مذكرات عمر بن أبي ربيعة » ، حملت الكتاب حريصاً عليه ، ووضعته على المكتب بين يديّ ، وترفقت بصفحاته وأنا أقلبه كما يقلب العاشق المهجور تاريخاً مضى من آلام قلبه . ووقعت على ورقة حائلة اللون قد تخرّمها البِلى ، وإذا فيها هذه الأبيات الثلاثة ، لم ينل منها شيء ، لا تزال ظاهرة السواد بينة المقاطع :

« فصروف الدهر في أطباقه خِلْفَةٌ فيها ارتفاع وانحدارُ
بينما الناس على عليائها إذ هَوَوْا في هوّة منها فغاروا
إنما نعمة قوم مُتْعَة وحياة المرء ثوب مستعارُ »

لم أدر لِمَ نقل « عمر بن أبي ربيعة » هذه الأبيات في مذكراته ، فإنها قائمة وحدها ليس قبلها ولا بعدها شيء يدل على ما أراد من ذكرها ، فجعلت أداور الأوراق لعلي أبلغ مبلغاً من توهُّم خبرها الذي سيقت من أجله ، وجعل معناها يداور قلبي ويساوره حتى كفَّت يدي عن الحركة ، وسكن بصري على مكانها ، وأحسست كأن القدر قد نام في ظلالها كالمارد الثمل طرحه طغيان السكر حيث استقر ، وأطاف بنفسي جو من السكون والرهبة والجلال ، وأخذت أستغرق في تأمل هذه الحياة المتكررة المتطاولة الدائبة منذ عهد أبينا الشيخ آدم رحمه الله إلى يوم الناس هذا . فآنست فترة تأخذني ، ثم نعسة تتغشَّاني ، وسبحت في غمرة طويلة لذيذة لا عهد لي بمثلها منذ عَقَلْتُ .

وإذا أنا أفضي من غمرتي إلى ميدان فسيح أخضر الجوانب متراحب الأرجاء ، وإذا مسجد بعيد يستقبلني كأحسن ما رأيت من مسجد بناء وبهاء ، قد تباعدت أركانه وتسامت في جو السماء مآذنه ، ويبرق بابه ويتلألأ شعاع الشمس عليه . فقصدت قصده ، ولم أكد أدنو حتى رأيت جموعاً غفيرة من الخلق يستقبلون الباب خارجين ، في ثياب بيض وعمائم بيض كأنها غمام تزجّيه الرياح . فوقفت وسألت أول من لقيت : ما الذي جمع الناس ؟ قال : إنه الشيخ أيها الفتى . قلت : فمن الشيخ يرحمك الله ؟ قال : غريب والله ، إنه الشيخ أبو جعفر الطبري إمام أهل السنة ، وشيخ المفسرين ، وعمدة المحدثين ، وثقة المؤرخين ، ردّ الله غربتك يافتى . قلت له : جزاك الله خيراً ورضي عنك وأرضاك ، أتراني أدركه الساعة ؟ قال : هو رهين هذا المسجد لا يبرحه ، فادخل تلقه .

ولم أزل أحتال للدخول وأمواج الناس تتقاذفني عن الباب حتى كدت أيأس من لقاء الشيخ ، وظننت أني لو بقيت دهراً لم تنقطع هذه الأمواج المتدفقة من باب المسجد . وظللت أزاحم حتى بلغ مني الجهد ، وانتهيت إلى صحن المسجد وقد انفضّ جمع الناس ، ولم يبق فيه غيري . وجعلت أسير وأتلفت وأنظر في مقصورة بعد مقصورة ، حتى رأيت بصيصاً من ضوء في مقصورة بعيدة ، فلما وافيتها ، وكانت الشمس قد آذنت بغروب ، رأيت مسرجة معلقة وحجرة واسعة ، وآلافاً مؤلفة من الكتب قد غطت الجدران . فاستأذنت ثم سلمت فلم أسمع مجيباً ، فدخلت ، وإذا في جانب منها شيخ ضافي اللحية أبيضها جميل الوجه ، قد اتكأ وأخذته سِنة من نوم ، وقد مالت عمامته عن جبين يلمع كأنه سُنَّة مصقولة من ذهب ، وبين يديه كتب وأوراق مبعثرة

أو مركومة ومحابر وأقلام .

سرقت الخطو حتى تمت بين يدى هـذا الشيخ النائم ، ثم جلست وجعلت أقدم ثم أحجم أريد أن أمسك شيئاً من ورقه لأقرأه ، ثم عزمت فأخذت ما وقعت عليـه يدى ، فإذا هو تتمة تاريخ أبى جعفر الطبرى الذى كان سماه « تاريخ الأمم والملوك » ، وكان الجزء الذى فيه يبدأ من سـنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف من الهجرة (سنة ١٣٦٥ هجرية الموافق لسنة ١٩٤٦م) ، فانطلقت أقرأ تاريخ هذا الزمن ومابعده . وعسير أن أنقل لك كل ما قرأت ، فسأختارلك منها نتفاً تغنى ، كما كتبها الإمام أبوجعفر، وبعضها منقول بتمامه ، وبعضها اختصرت منـه حتى لا أطيل عليك . قال أبو جعفر :

[ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

فمن ذلك ما كان من إجماع المجلسين الأمريكيين على فتح أبواب فلسطين لشذّاذ المهاجرين من اليهود . وكتب إلىَّ السُّدّى ، وهو مقيم هناك فى أمريكا ، أن موقف الرئيس ترومان الذى كان ادّعاهُ من إيثاره العقل على الهوى فى هذا الأمر ، إنما كان حيلة مخبوءة أراد بها أن يغرر بالبلاد العربية والإسلامية ، ثم يفاجئها بحقيقته . وهو فى ذلك إنما يعمل للظفر بمعونة اليهود فى الانتخاب الآتى للرياسة . ولما كان هواه هو الذى يُصرّفه ، فقد علم أنه طامع فى الرياسة حريص عليها ، وأن اليهود فى أمريكا هم أهل المال ، أى أهل السلطان ، أى هم الأنصار الذين إذا خذلوه فقد ضاع . قال السدّى : وقد سمعت بعض أهل العقل والرأى فى أمريكا يستنكرون ما كان منه ومن قرار مجلسيه ، ويرون أن الديمقراطية اليوم قد صارت كلمة يراد بها التدليس على عقول البَشر ، ليبلغ بها القوى مأربه من الضعيف المغرور بهذه الرقية السـاحرة التى يدندنون بها فى الآذان . وقد أخبرنى الثقة أن الرئيس ترومان قد أوحى إليه بعض بطانة السوء أن العرب والمسلمين قومٌ أهل غفلة ، وأن دينهم يأمرهم بالصبر ويلح فيه ، فهم لا يلبثون أن يستكينوا للأمر إذا وقع ، ولا يجدون فى أنفسهم قوة على تغييره أو الانتقاض عليه ، وأن الزمن إذا تطاول عليهم فى شىء ألفوه ولم ينكروه . فإذا دام دخول اليهود فلسطين ، وبقى الأمر مسنداً إلى الدولة المنتدبة (وهى بريطانيا) ، وانفسح لحق اليهود مجال الدعوى والعمل والتبجح ، وألح على العرب دائماً إجماع الدنيا كلها (أى الديمقراطية) بأن الدولة اليهودية فى فلسطين حقيقة ينبغى أن تكون وأن تتم كما أراد الله ، فيومئذ يلقى العرب السَّلَم ، ولا يزالون مختلفين حتى ينشأ ناشئهم على إلف شىء قد صبر عليه آباؤه ، فلا يكون لأحد منهم أدنى همة فى تغيير ما أراد الله أن يكون ، مما صبر عليه آباؤهم وأسلافهم — وهم عند العرب والمسلمين — أهلُ القدوة .

وفى هذه السنة كتب إلىَّ السُّدّى أيضاً يقول إنه لقى أحد كبار الدعاة من اليهود ، وكان لا يعرفه ، فحدثه عن أمر اليهود فى فلسطين ، فقال له الداعى اليهودى : لا تُرَع ، فنحن لا بدّ منتهون إلى ما أردنا ، رضى العرب أم أبوا . وما ظنُّك بقوم كالعرب خير الحياة عندهم النساء ، وقد قال نبيهم : « حُبِّبَ إلىَّ من دنيا كم النساء والطيب ، وجعلتْ قُرَّة عينى فى الصلاة »، ولقد سلطنا عليهم بنـات صهيون ، وهن من تعلم جمالا ورقة ، وأبداناً تجرى الحياة فيها كأنها نبع صافٍ يتفجر من صفاة شفافة كالبلّوْر . وهن بنات صهيون دلال وفتنة ، وعطر يساور القلوب فيسكرها ويذهلها ثم يغرقها فى لذة يضن المرء بنفسه أن يصحو من خمارها أو نشوتها ، منصرفاً عن أمر الدنيا كله لا عن الصلاة وحدها التى جعلت قرة لعين نبيهم . فهن فى فلسطين ، وهن فى الشام ، وهن فى مصر والعراق وتونس والجزائر ومراكش ، ولولا تلك البقعة العصية التى لا نزال نخشى بأسها على ضعفها وقلتها وفقرها — أعنى الحجاز وما جاوره — لقلت لك : لقد قضينا على هذه العرب ، وعلى هذا الدين الدخيل الذى سرق منا التوحيد وادّعاه لنفسه ...

[ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

فمن ذلك ما كان من اجتماع ملوك العرب وأمرائهم ووزرائهم بعد الحج من السنة التى قبلها ، اجتمعوا فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرَّ قرارهم على أن يعلنوا للناس جميعاً وينذروهم بما

رأوا وبما أجمعوا عليه :

الأول : أن ميثاق الأطلسي ومواثيق الدول الكبرى كلها تغرير بالضعفاء وتلعب بعقولهم .

الثاني : أن فلسطين ستجاهد ، ومن ورائها بلاد العرب والمسلمين جميعاً تظاهرها بالمال والولد .

الثالث : أن الفتك والغدر والاغتيال ليس من شيمة العرب ولا من دين المسلمين ، وأن حوادث الاغتيال الشنيعة المنكرة التي اقترفها اليهود ينبغي أن تقابل بالصدق والصراحة لا بالغيلة والغدر .

الرابع : أن الأمم العربية والإسلامية تعلم أن ليس لديها اليوم من السلاح ما يكفي لقتال الأمم المعتدية التى تظاهر اليهود بالمال والسلاح ، ولكنها ستقف كلها على بكرة أبيها صفاً واحداً تقاتل بما تصل إليه يدها من مقاطعة ومنابذة وكبرياء . وأنها تفعل ذلك ما استطاعت ، ولكنها لن تظلم يهودياً ولا نصرانياً ولا أحداً من أهل الأديان ، ولن تضطهد بريئاً ولا لاجئاً ، وأنها لن تقنع بشيء بعد اليوم إلا بجلاء المعتدين والمستعمرين من بلادها ، وجلاء اليهود عن أرض فلسطين ، ومن شاء أن يبقى فيها من يهود ، فله ما لنا وعليه ما علينا .

الخامس : أن الأمم العربية والإسلامية قد عزمت على أن تبدأ منذ هذا اليوم فى انتخاب مجلس عام تمثل فيه جميعاً ، وهذا المجلس هو الذى سيضع الدستور العام للدول العربية والإسلامية ، حتى إذا تمّ وحّدت هذه الدول سياستها الداخلية والخارجية ، وصارت يداً واحدة فى العمل ، لتقاوم بذلك اتحاد الأمم الديمقراطية الغربية ، التى لم تزل تريد أن تجعل الشرق سوقاً وأهله عبيداً .

[ثم دخلت سنة ثمان وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

ففيها أراد اليهود فى بعض البلاد العربية أن يظاهروا إخوانهم فى فلسطين ، فأجمعوا على جعل يوم السبت كله منذ الصباح يوم عطلة فأغلقوا دكاكينهم ، ورفعوا عليها أعلام الدولة الصهيونية المجترئة ، واجتمعوا فى بِيَعهم وجمعوا مالاً كثيراً بلغ عشرين مليوناً من الجنيهات لمساعدة المصانع التى كادت تغلق أبوابها من جرّاء المقاطعة التامة التى أحسنت الأمم العربية توجيهها وتدبيرها .

ومما كان من ذلك فى هذه السنة اجتماع المؤتمر العام لنساء العرب فى دمشق ، وقد قرّرن أن تعود المرأة إلى بيتها عاملة على إنشاء جيل من البنين والبنات لم تفسده الشهوة التى استبدت بالناس فى تقليد ذلك الفجور القبيح الذى عملت يهود على نشره فى بلادهنّ من زينةٍ وتبرجٍ ورقص وتحلّل من أخلاق السلف ، وذلك لكثرة ما وقع من حوادث هدمت بيوتاً عزيزة وأسراً كريمة ، وأفضت إلى ضروب من المآسى لم يطق أحد عليها صبراً .

وفيها أيضاً أجمعت الصحف العربية والهندية الإسلامية والتركية والفارسية مقاطعة الإعلان اليهودى . وكل صحيفة تخالف هذا الإجماع يُمحى اسمها واسم رئيس تحريرها ومحرّريها من سجل نقابة الصحافة ، ولا تفسح لأحد منهم فرصة حتى يعمل فى صحيفة أخرى بعد هذه المخالفة .

[ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

اشتعلت نيران الحروب فى الشرق كله ، واجتمع رؤساء الدول العربية والإسلامية فى مكة المكرمة ووحّدوا قيادة الجيوش العربية ، ولكن لم يلبث سفير بريطانيا فى مصر وسفير أمريكا أن أرسلا برقية إلى المجتمعين فى مكة يطلبون وقف الحركات الحربية التى سموها (ثورة) ، ورغبوا إلى ملوك العرب ووزرائهم أن يتمهّلوا حتى يصدر تصريح مشترك من الدولتين الكبيرتين ، على شريطة أن تمتنع البلاد العربية من متابعة السياسة الروسية التى تتظاهر بمؤازرة العرب والمسلمين .

وبعد أيام صدر هذا التصريح ، وهو ينص على أن للعرب ما أرادوا من وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وعلى العرب أن يتولوا بأنفسهم مفاوضة يهود فلسطين على السياسة التى يريدونها ، وأن بريطانيا وأمريكا ، لن تتدخلا فى الخلاف الناشب بين الفريقين ،

وأن الدولتين الكبيرتين ستمنعان كل مساعدة تُرسل من بلادهما إلى فلسطين . من مال أو سلاح ...

[ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

تمَّ استخدام الذرَّة وانفلاقها فى كل شىء ، وحدث فى زراعة البلاد انقلاب عظيم ، إذ أصبح من اليسير استنبات نبات الصيف فى الشتاء ، ونبات الشتاء فى الصيف . وقد بدأ ملوك العرب أعظم عمل فى التاريخ ، وهو استخدام أسلوب جديد يحوّل الرمالَ العاقرة إلى أرض خصب وافرة الزَّرع ، وقد نفّذ هذا فى جزء كبير من صحراء جزيرة العرب . أما فى مصرَ والسودان ، فقد تمّ توزيعُ ماء النيل وضبطُه حتى لا يضيع من مائه إلا أقل قدر ، وبذلك أتيح لمصر أن تُنشىء ثلاثة فروع جديدة شقَّتها فى الصحراء الشرقية حتى أفضت إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) ، وصار ما بينها أرضاً مَريعة ذات خصب . وبذلك سيتاح لمصر أن يبلغ عدد سكانها أربعين مليوناً من الأنفس فى أقل من عشرين سنة .

ومما كان من ذلك نهضة عامة فى سياسة البلاد العربية ، جعلت الرأى العام العالمى يناصر القضية العربية مناصرة تامة فى أكثر بقاع الأرض ...

[ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

كثرت حوادث الاغتيال والفتك فى كثير من البلاد العربية والأجنبية ، وقُتل من العرب وأنصار العرب من سائر الأمم خلق كثير ، واستفحل الشرّ استفحالا عظيما ، حتى ثارت الصحف الإنجليزية والأمريكية وطالبت حكوماتها بإعلان قرار واحد بأن الرأى العام والسياسة العامة فى سبيل السلام تقتضى أن تُبذل النصرة الكاملة للعرب وللقضية العربية ، وأن تتعاون الدول على ردّ العدوان الصهيونى الذى صار طغياناً شديداً فى جميع بلاد الأرض ، وأنه ينبغى على الدول جميعاً أن تضحى فى سبيل ذلك بكثير من المصالح المالية ، وهى قيود اليهودية التى جعلت كل الأمم ترسف فى أغلالها ...

[ثم دخلت سنة ثمانين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

كتب إلى السُّدِىّ يقول : إن أمريكا قد قررت إجلاء اليهود من أرضها كلها ، وأن تستصفى أموالهم ، ولا يبقى فيها إلا علماء اليهود وحدهم إن شاءوا . ومن المنتظر أن تفعل بريطانيا وسواها من الدول مثل ما فعلت أمريكا .

وفيها ثار العمال اليهود فى فلسطين على أصحاب المصانع اليهودية ، وذلك من جرّاء بوار أكثر التجارة اليهودية التى نهكتها المقاطعة العامة فى بلاد العرب والمسلمين ، ولقلة الأجور، ولكن الحكومة اليهودية ضبطت الأمر وبذلت الأموال ، وجنّدت جيوشاً عظيمة العدد والمدد . وحدثت أحداث عظيمة فى أكثر بقاع الأرض . حتى وقع التنابذ بين الدول الكبيرة التى لا يزال لليهود فيها سلطان عظيم .

وأخوف ما يُخاف أن تقع فى هذه السنة حرب عالمية تستخدم فيها جميع الأسلحة الجديدة التى يخشى أن تكون على العالم دماراً وخراباً .

***

واستيقظ الشيخ من غفوته ، ونظر إلىّ نظرة المتعجب ، وقال من أنت ؟ وما تفعل ؟ فانتبهتُ فزعاً ، وإذا أنا أقرأ فى تفسير الشيخ أبى جعفر الطبرى تفسير قوله تعالى : « وقالتِ اليهودُ يدُ اللهِ مَغلولةٌ غُلَّتْ أيديهم ولُعِنوا بما قالوا ، بل يَداهُ مبسُوطتان يُنفقُ كيفَ يَشاء ، وليَزيدَنّ كثيراً منهم ما أُنزل إليكَ طُغياناً وكفراً ، وألقيْنا بينهمُ العداوةَ والبغضاءَ إلى يومِ القيامةِ كلما أوقدُوا ناراً للحربِ أطفأها اللهُ ، ويسعون فى الأرضِ فساداً واللهُ لا يُحبُّ المُفسِدين » .

محمود محمد شاكر

التيارات الفكرية العالمية والأزهر

للأستاذ محمد فريد وجدي



كتب الله للجامعة الأزهرية أن تكون مثابة علمية للعالم الإسلامي كله ، تشد إليها الرحال من جميع أقطار الأرض لتستمد الشعوب الإسلامية من ينبوعها النمير علماً وحكمة ؛ وهي مكانة تجب المحافظة عليها مهما كلفتنا من الأموال والجهود . وأنت ترى أن الأمم تتنافس في سبيل نشر ثقافتها في بقاع الأرض منفقة في هذه السبيل مالا جماً لا يعود عليها من ورائه في الظاهر شيء غير علاقات أدبية ، ولكن هذه العلاقات تستحيل إلى منافع من ضروب شتى تحرص عليها الأمم التي تعرف كيف تستفيد الثروة والمجد .

حرص المسلمون بدافع قوى من دينهم من لدن أن قامت لهم دولة ، على أن يكون قوامها العلم والحكمة ، فقرب ولاة أمورهم العلماء ، ومكنوهم من تقوية بناء جماعتهم ، وأمدوهم بكل الوسائل الممكنة لإقامة الجامعات ، وتأسيس المكتبات ، وترجمة المؤلفات؛ فكان طلاب العلم يجدون بين أيديهم من المدرسين والكتب مالا يحتاجون معه إلى المزيد . وكان مما حرص عليه أولئك المدرسون ليحفظوا للإسلام سلطانه على العقول،أن يجمعوا كل ماوجهه الملاحدة والمضللون إلى العقائد من تشكيكات وشبهات ، وأن ينقدوها نقداً تحليلياً لا يدع في قلوب الطلاب حاجة للمزيد على قدر ما سمحت معارفهم به في تلك الأزمان .

ونحن اليوم في القرن العشرين ، وقد تطورت فيه العقلية الإنسانية بتطور المعارف ، وتعاقب الحوادث ، تطوراً بعيد المدى بحيث ما كان يقنعها من العلم والحكمة قبل قرنين أو ثلاثة قرون لا ينقع لها غلة اليوم . فقد حدثت فيها أحداث اجتماعية ، وتعارضت فيها مصالح طائفية ، وتناقضت أساليب اقتصادية ، وتصادمت عقائد دينية ، وتفجرت بين كل هذه الماجريات المتعاكسة ، ينابيع لنظريات جديدة لم يكن للعالم عهد بها ، وقد تناولتها الفلسفة الأوربية شرحاً ونقداً ، وتصويباً ودحضاً ، ولا تزال الخصومات المذهبية قائمة إلى اليوم . وقد تسربت إلينا تيارات هذه المنازعات الفكرية ، وأخذت في التأثير علينا كما أثرت على سوانا ، ولكن مع هذا الفارق العظيم ، وهو أنها تعتبر أهم مواضيع الحوار عندهم ، ومسدول عليها حجب الكتمان عندنا ، ولكنها مع هذا الكتمان الشديد تعمل عملها في الخفاء فتوجه النفوس وجهات شتى ، ولا تجد النفوس الحيرى ما يستقر بها على قرار علمي مكين . أفلا تعذر إن خبطت في دياجيها خبط العشواء ، وقمشت حشواً رثاً من النظريات من هنا وهناك ، لا يجعل لها مذهباً مقرراً تعمل عليه ، ولا غاية معينة تسعى لتحقيقها ؟

جاء الإسلام ليؤسس ديناً للبشرية يستوعب الأديان عامة ، ومجتمعاً عالمياً يسع الناس كافة ، ووضع لذلك أصولا أولية ، وقرر له مبادىء كلية ، وانطلق الآخذون الأولون به يحققون أغراضه هذه ، فجالوا في أكناف الأرض نحو ثمانين سنة نشروا لواءه فيها على نحو ربع الكرة الأرضية ، وأبلغوا دعوتهم إلى من لم يصلوا إليهم، وثبتوا في مواقفهم ثبات الرواسي ، مستعينين على ذلك باقتباس كل ما صادفوه من خير لدى من احتكوا بهم من الشعوب . ونحن اليوم نتزع لا إلى مثل ما عملوا ، فهذا مالا سبيل إليه ، ولكن إلى الاحتفاظ بما حصلوا ، فكيف يكون ذلك بغير اتباع السنة التي جروا عليها ؟

إنهم كما قلنا عملوا على حفظ العقيدة الإسلامية ، والدفاع عن طريقتهم الاجتماعية ، بكل ما أوتوه من نشاط في العقل ، وسعة في الصدر ، حتى إنهم لم يتورعوا عن نقل الكفر الصراح والرد عليه ، وأباحوا في سبيل الوصول إلى لباب المعارف ، أن يتعلم

المسلمون كل ما يمكن تعلمه حتى السحر مع تحريمهم العمل به ؛ فهل نضن نحن بأنفسنا على ما لم يضنوا بنفوسهم عليه ، فنظل على أسلوبنا فى تجاهل المؤثرات التى تنصب علينا حتى تزداد تغلغلا فى قلوب نابتتنا ، وتسوقهم إلى الخروج عن حظيرتنا ، قانعين بأن ما ينشر من إبطال فعلها فى الجرائد والمجلات يكفى لدرء شرها عن المقول ؟

إن الأزهر الذى أرادت العناية الإلهية أن تجعله مثابة علمية للمسلمين لا يزال يعنى بالمؤلفات نفسها التى كان يعنى بهـا آباؤنا الأولون لحياطة الدين من شبهات المشككين، ومذاهب المضللين ؛ ولـكن أين ما كان عليه المتكلمون فى ذلك العهد مما عليه خلفاؤهم اليوم ؟ وماذا كنت قائلا حين تعلم أن أكثر ما يعنى به الأزهر من دفع الشبهات والاستنكارات قد انقرض أهله منذ قرون ، وحلت محلها مذاهب ونظريات تحتاج للفهم الدقيق ، ويحتاج دحضها أو تعديلها للنظر البعيد ، والعلم الغزير ؟

كان آباؤنا الأولون يعنون بعلم الكلام لمجرد دحض الشبهات عن الدين ، ونحن نطالب اليوم بوجوب تقرير دراسة التيارات الفكرية العالمية فى الأزهر لا لهذه الغاية فحسب ، ولـكن لمقصد لا يقل عنها قيمة ، وهو لما لدراسة هـذه التيارات الفكرية من الأثر العظيم فى رفع مستوى النظر والتفكير ، وتوسيع مجال الفهم للشئون الإنسانية ، وهو ما يجب أن يكون عليه رجال الدين الذى جعل العلم أساسه الركين .

إن مهمة الإسلام لم تنته بعـد ، وإن ما علينا وعلى الأجيال الآتية أن نتمه يحتاج لتفكير طويل ، وجهد عظيم . فإذا كان آباؤنا قد قاموا بما استطاعوا أن يعملوه فى سبيله فى طفولة البشرية ، فعلينا له واجب خطير فى عهد العلم والفلسفة الطبيعية ، ولا سبيل لنـا إلى القيام بهذا الواجب ونحن فى غفلة عما ينشأ فى العالم من آراء ، وما يعترك فيه من مبادىء وأصول ، وما يسقط ويقوم من مذاهب ونظريات .

محمد فريد وجدى

درس فى التفسير على طريقة التصوير

للأستاذ سيد قطب

يتجه الباحثون فى الأدب العربى إلى أن الشعر قد ضعف فى أوائل العهد الإسلامى ضعفاً ظاهراً بالقياس إلى الشعر الجاهلى. ويعزون هـذا الضعف الظاهر إلى أسباب كثيرة ؛ أولها اشتغال المسلمين بالعقيدة الدينية الجديدة، ومحاربة الدين الجديد لكثير من ملابسات الحياة الجاهلية التى كانت تثير الشاعرية — وفى مقدمتها العصبيات القبلية والعائلية — ويضيف بعضهم إلى هذه الأسباب أن القرآن قد حارب الشعر « والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » وأنه كان لهذا أثره فى نفوس الشعراء المسلمين.

وأنا أعتقد أن هناك مبالغة فى قيمة هذه الأسباب وتأثيرها فى الشعر العربى ؛ كما أن هناك إغفالا لسبب أساسى آخر كامن فى نسج القرآن ذاته.

أعتقد أن الجمال الفنى فى القرآن كان من القوة والضخامة بحيث بده الحس العربى بمفاجأة عنيفة، وكان وحده كافياً لتغذية مشاعر العرب وإشباع الحاسة الفنية فى نفوسهم بزاد أجمل من زاد الشعر الذى عرفوه وأقوى.

كان فيه من سمات الشعر الفنية، ومن طلاقة النثر التعبيرية مزاج يجعله نسقاً خاصاً أعلى مما تبلغ إليه آفاقهم الشعرية، بل أعلى مما تتطلع إليه حاستهم الفنية، فامتلأت مشاعرهم به امتلاءها بالعقيدة ذاتها، وأحسوا له وقع السحر فى نفوسهم، واستوى فى ذلك السحر المؤمنون به والكافرون (كما فصلت ذلك على سعة فى كتاب التصوير الفنى).

وهـذا الجمال الفنى فى تعبير القرآن كان عنصره الأول هو « التصوير » ومواجهة الحس البشرى بما يروعه من الصور والمشاهد، وبما يستجيشه من الهيئات والظلال. وقد كان القرآن أغنى — بما لا يقاس — من الشعر العربى كله بهذه الصور والظلال، فى مستوى رفيع من التناسق يبلغ حد الإعجاز.

وحينما وفقت إلى إخراج كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » — وقد حوى عـدد الهجرة الماضى من الرسالة فصلا منه — لم أكن أريد بإخراجه مجرد عرض طائفة من الصور الفنية الجميلة فى القرآن ؛ إنما كانت نيتى الكبرى أن يتوجه البحث فى جمال التعبير القرآنى كله هذا الاتجاه، وأن ننظر إلى هذا الجمال الخالد من زاوية أخرى غير الزاوية البلاغية المعهودة، القائمة على أساس المعانى والألفاظ.

وحين ننظر إلى القرآن من هـذه الزاوية الجديدة تبدو لنا بدائع من الجمال الفنى لم تكن تخطر على البال. ويبدو لنا أن هذا الكتاب الخالد يخاطب الحس الإنسانى غالباً من حيث تخاطبه الصورة الفنية، والمشهد المتحرك، والموسيقى التصويرية ؛ وأنه يعتمد كثيراً على الظلال النفسية التى تلقيها الصور والمشاهد والإيقاعات فى الحس الإنسانى، فتحركه، وتفتحه، وتجعله أشد ما يكون استعداداً لتلقى العقيدة الدينية ؛ وبخاصة الجانب الغيبى منها — وهو جانب أصيل فى كل عقيدة، وله فى النفس الإنسانية مكانه الذى لا يملؤه سواه — وإذا كان فى كل عقيدة دينية قسط أصيل من الفن كما أعتقد، وكما يبدو من الدراسات المقارنة للأديان، فقد تكفل القرآن بتحقيق هذا القسط الفنى، دون أن يخل بنصوع العقيدة وبساطتها، ذلك أنه حققه فى طريقة التعبير، بينما الكثير من الديانات الأخرى حققه فى صلب العقيدة.

وإذا نحن تجاوزنا الديانات الوثنية لأنها خارجة من الحساب هنا، واقتصرنا على الديانة الموسوية والديانة المسيحية، فإننا نجد القسط الفنى فى العقيدة الموسوية كامناً فى الأساطير التى تزحم العهد القديم وتتخذ لها طابعاً فنياً يكاد يكون طليقاً. أما فى الديانة المسيحية فقد تكفل بهذا الجانب مأساة المسيح ذاتها — على حسب ما ترويه الأناجيل والرسائل فى العهد الجديد — وحتى لو نظرنا إليها فى صلب القرآن، فإننا نجد القسط الفنى كامناً فى تضاعيفها منذ مولد عيسى إلى رفعه.

أما العقيدة الإسلامية فقد ظلت بسيطة واضحة، وتكفل التعبير القرآنى وحده — عن طريق التصوير — بتحقيق الجانب الفنى فى هذه العقيدة، بما يناسب وضوحها ونصاعتها.

* * *

قصدت — إذن — فى كتاب « التصوير الفنى » إلى أن

يتجه البحث فى الجمال القرآنى ، هذا الاتجاه ... واليوم فى عدد الهجرة من الرسالة أحب أن أعرض نموذجاً كاملا لتفسير « سورة الحاقة » على هذا الأساس . والله المستعان ...

سورة الحاقة من السور المكية ، وهى فى جملتها تتولى بسط قضيتين غيبيتين من قضايا العقيدة الإسلامية ، بينهما ارتباط وثيق .

أولاهما : قضية البعث والقيامة ؛ والثانية قضية الوحى وأمانة التبليغ . فلننظر كيف عرضت هاتين القضيتين الكبيرتين ، ومن أى منافذ النفس الإنسانية سلكت بهما إلى مستقر اليقين :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحاقّة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ؟ كذّبتْ ثمودُ وعادٌ بالقارعة . فأمّا ثمودُ فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتية ، سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُوماً ، فترى القومَ فيها صَرْعى كأنهم أعجازُ نخْلٍ خاوية — فهلْ ترى لهم من باقية ؟ — وجاء فرعونُ ومَنْ قَبْلَه والمؤتَفِكاتُ بالخاطئة ، فعَصَوْا رسولَ ربِّهم فأخذَهم أخذةً رابيةً . إنّا لما طغى الماء حملنا كم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرةً وتَعِيَها أذنٌ واعية . فإذا نُفِخَ فى الصُّورِ نفخةٌ واحدة ، وحملتِ الأرضُ والجبالُ فدُكّتا دكّةً واحدة ، فيومئذٍ وقعتِ الواقعةُ ، وانشقّتِ السماء فهى يومئذٍ واهية » .

الحاقة : القيامة . وهو يختار هذا اللفظ من الناحية المعنوية لما سيعقبه من ذكر التكذيب بها من عاد وثمود ... فهى الحاقة التى تحق ، والتى تقع لأحقيتها بالوقوع ، إحقاقاً للعدل الإلهى ، وتقريراً للجزاء مع الخير والشر كما سيجىء فى السورة بعد قليل .

وهو يختار هذا اللفظ من الناحية التصويرية لأن له جرساً خاصاً ، هو أشبه شىء برفع الثقل ثم استقراره استقراراً مكيناً ، رفعه فى مدّة الحاء بالألف ، واستقراره فى تشديد القاف بعدها والانتهاء بالتاء المربوطة التى يوقف عليها بالهاء الساكنة . والجرس فى ألفاظ القرآن وعباراته يشترك فى تصوير المعنى وإيقاعه فى الحس .

وهنا ينتهى الحديث فى لفظ « الحاقة » لننظر فى محيط أوسع إلى السياق الكامل :

الجو كله فى هذه الآيات جو تهويل وترويع ، وتعظيم وتضخيم ، يوقع فى الحس الشعور بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة ، وبضآلة الكائن الإنسانى بالقياس إلى هذه القدرة من جهة أخرى . والألفاظ بجرسها وبمعانيها وباجتماعها فى التركيب ، وبدلالة التركيب كله ، تشترك فى خلق هذا الجو وتصويره : فهو يبدأ فيلقيها كلمة مفردة لا خبر لها فى الظاهر : « الحاقة » ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم « ما الحاقة » ؟ ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل وإخراج المسألة عن حدود الإدراك : « وما أدراك ما الحاقة ؟ » ثم يدعك فلا يجيب على هذا السؤال . يدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستعظم المستهول الذى لا تدريه ولا يمكن أن تدريه . يدعك لحظة مفعم الحس بالاستهوال والاستعظام ، ليدور بك هنيهة حول الموضوع ، مادامت مواجهته غير مستطاعة !

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة » !

إنك لا تدرى ما الحاقة ... فهى القارعة ! ...

أأحسست وقعها فى حسك ، وقرعها فى نفسك ! ... إن عاداً وثمود كذبوا بهذه القارعة ! فماذا كان ؟ « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ... » والطاغية — على ما فى اسمها من صورة الطغيان عليهم وغمرهم وتغطيتهم — وكذلك الريح الصرصر العاتية ، كلتاهما أخف من القارعة ، ولكن لعلهما تقربان إلى حسك هذه القارعة ، فهما من جنسها ونوعها . وهكذا قضى على عاد وثمود فى هذه الدنيا ، قضى عليهما بطرف من تلك الحاقة ومن هذه القارعة ، فإذا عجز إدراكك وهو عاجز — عن تصور الحاقة ، فإليك نموذجاً مصغراً منها فى الصيحة الطاغية وفى الريح العاتية ، فهما من مشاهدات هذه الحياة الدنيا ، وإن نضح اسمهما ووصفهما هولاً ! هولاً تنقله إلى حسك هذه الصورة المروّعة : صورة العاصفة مزمجرة مدوية سبع ليال وثمانية أيام ؛ وصورة القوم فيها « صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » وإنك لتراهم الآن فالصورة حاضرة — « فترى القوم فيها صرعى ... » — « فهل ترى لهم من باقية » ؟ كلا لا باقية ولا أثر ؛ فلتتمعظ إذن وتعتبر ، وليخشع حسك للهول ، ولتتفتح نفسك للإيمان بالغيب المجهول .

ثم إليك مشهداً آخر لعله يقرب إلى حسك روعة الحاقة وهول القارعة . إن فرعون ومَن قبله وقرى قوم لوط المعروفة قد جاءوا بالفعلة الخاطئة ... جاءوا بها فكأنما هي شيء محسوس أو كائن حي يُجاء به ، فهي شاخصة محسوسة حين ارتكبوها . « فعصوا رسول ربهم » ، وهم رسل متعددون ولكنهم بمثابة الرسول الواحد ، فجميعهم يحمل رسالة واحدة من عند إله واحد — « فأخذهم أخذة رابية » والأخذة هنا « رابية » ليتم التناسق بينها وبين « الطاغية » فكلاهما تربى وتطغى ، وتنطى وتغمر . والتناسق فى المناظر ملحوظ فى اللوحة الكبرى .

وما دمنا بصدد استعراض المشاهد الهائلة ، والروائع الغامرة ، فمشهد الطوفان إذاً يتسق مع هذا الاستعراض كل الاتساق ؛ « إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية » لتكون هذه الحادثة عبرة تذكرونها وتعيها الآذان الواعية .

والآن وقد استعد الحس البشرى المحدود لتصور هول الحاقة غير المحدود . الآن وقد تهيأ الحس باستعراض هذه الصور المروعة الطاغية الرابية الغامرة ... فقد آن الأوان لاستكمال العرض ، وتهيأ الموقف للوثبة الكبرى : « فإذا نُفخ فى الصُّور نفخةٌ واحدة ، وحملت الأرض والجبالُ فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية » وننظر فى اللوحة الكبرى التى تجمع هذه المشاهد جميعاً . فماذا نرى ؟

نرى نوعا من التناسق الفنى العجيب بين الحاقة والقارعة والطاغية والعاتية والرابية والدكة الواحدة والواقعة ... تناسق اللفظ والجرس ، وتناسق الوقع فى الحس ، وتناسق الحجم والقوة ، فى ضخامة الحادثة وروعتها ، وتناسق المناظر التى تخيِّل للحس أنها جميعاً ثائرة فائرة طاغية غامرة ، تذرع الحس طولا وعرضاً ، وتملؤه هولا وروعاً ، وتهزه من أعماقه هزاً .

ولن يجد مصور بارع اتساقاً أعظم من اتساق الصيحة الباغية الطاغية : والريح الصرصر العاتية ، والأخذة القوية الرابية ، والطوفان الطاغى تخوض غماره الجارية ، والنفخة الهائلة الواحدة ، والدكة المحطمة الواحدة ، وبين وقعة الواقعة ، والسماء المنشقة الواهية ... إنها كلها من لون واحد وحجم واحد ونغمة واحدة ، وكلها تؤلف اللوحة الكبرى ، وترسم الجو العام الذى أراده القرآن .

وكأنما العاصفة تهدأ ، والسكون يخيم ، خطة ليبدأ استعراض جديد ، فيه هول ، ولكنه هول ساكن رابض ، بعد ما سكن الهول الهائج المائج :

« والمَلَكُ على أرجائها ؛ ويحمل عرشَ ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تُعرَضون لا تخفَى منكم خافية : فأما من أوتىَ كتابَه بيمينه ، فيقول : هَاؤُمُ اقرءوا كتابِيَهْ . إنى ظننتُ أنى مُلاقٍ حسابيه . فهو فى عيشة راضية ، فى جنةٍ عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية . وأما من أوتىَ كتابَه بشماله ، فيقول : ياليتنى لم أوتَ كتابيهْ ، ولم أدرِ ماحسابيهْ ، ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليهْ ، هلَكَ عنّى سُلطانيهْ ... خذوه فَغُلُّوه ، ثم الجحيمَ صَلُّوه ، ثم فى سلسلةٍ ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلُكوه . إنه كان لايؤمن بالله العظيم ، ولايحُضُّ على طعام المسكين ، فليس له اليومَ هاهُنا حميمٌ ولا طعامٌ إلا من غِسْلِين لا يأكله إلا الخاطئون » .

ها نحن أولاء نشهد العرض . نشهده مجسّماً مخيّلا فى أشد المواضع التى يحرص الإسلام على التجريد فيها والتنزيه . ولكن طريقة التعبير بالتصوير تختار التجسيم فى هذا الموضع أيضاً لمجرد إثارة الحس وإشراك الخيال والتأثر الوجدانى الحار ...

فهنا السماء قد انشقت فهى واهنة واهية ، وهنا الملائكة موزعون على أرجائها ، فى هذا الاستعراض الإلهى العظيم ، وهنا العرش — عرش ربك — يظلل الجميع فى وقار رهيب ، يحمله حملته وهم ثمانية ... ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منهم ، فالجرس الوسيقى لثمانية يتسق مع جرس الفاصلة كلها ، والمقصود ليس حقيقة العدد ولكن تنسيق المشهد وتكثير المدود ... هنا مجلس قضاء تم فيه الحشد ، فليبدأ الاستعراض ؛ حيث لا تخفى خافية فى الحس أو الضمير

وتكملة للعرض المجسم ينقسم المعروضون ويكون هناك كتاب يُؤتى باليمين وكتاب يُؤتى بالشمال . « فأما من أوتى كتابه بيمينه » فما تسعه الساحة من الاطمئنان والمباهاة : « فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه » لقد ظننت لشدة خوفى من القارعة « أنى ملاقٍ حسابيه » فإذا أنا ألقى الغفران والنعيم ! ثم ليلق صاحبنا السعيد جزاءه الطيب على مشهد من النظارة جميعاً : « فهو

فى عيشة راضية . فى جنة عالية قطوفها دانية » وليلتق التكريم المعنوى كما لقى التكريم الحسى ، فها نحن أولاء نسمع من عليين : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية » فذلك التكريم حق لكم بما أسلفتم من صالحات .

وننظر فى الجانب الآخر من الساحة لنرى ذلك الذى أوتى كتابه بشماله : لقد أدركته الحسرة ، وركبته الندامة ، فلنسمعه يتوجع توجعاً طويلا وقد ثبت المشهد كأنه لا يتحرك : « ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ... » ولكن ما باله هكذا لا ينوى مغادرة الموقف ، ولا ينوى كذلك السكوت عن التفجع ؟ لقد طال استعراضه ليتحقق التأثر الوجدانى بتأوه الندم وتفجع الحسرة . فإذا تم هذا الغرض فهنا نسمع الأمر العلوىّ الذى لا يرد ، فلنكتم أنفاسنا ولنستمع ! « خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلُّوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » هنا كل شىء مفصل مطوّل ، ثمن الجمال الفنى ، ومن التأثير الوجدانى ، ومن الغرض الدينى ، ما يجعل لطول الموقف غايته المقصودة . وهنا يشترك جرس الكلمات وإيقاع العبارات مع السلسلة التى « ذرعها سبعون ذراعاً » — وذراع واحدة تكفى ! — يشترك هذا كله فى إطالة الموقف أمام النظارة وفى حسهم أيضاً ، ليتم التناسق بين المشهد المعروض والتأثر المطلوب .

ثم لا تقف المسألة عند الأمر العلوى الذى لا يرد بسحبه فى عنف من موقفه ، بعد أن أطال التفجع والندم ؛ إنما هو يلقى التقريع والتشنيع ، فيكشف جرمه على أعين النظارة جميعاً : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » فماذا يكون الجزاء المرتقب بعد السحب والغل ، إن كل من فى ساحة العرض سيعلمون : « فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين [1] لا يأكله إلا الخاطئون » فهو معذب الحس فى طعامه ، معذب الروح فى نبذه « فليس له اليوم ها هنا حميم » ليتم جحيم الجسم والروح !

وإذ يبلغ التأثر الوجدانى هنا ذروته بعد هذا الاستعراض الحى للبشرية فى يوم الهول العظيم ، يوم الحاقة القارعة ... فى هذا الأوان الذى تتفتح فيه منافذ النفس جميعاً للإيمان ، لا تكون هناك حاجة للتوكيد والقسم والأيمان .

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيلٌ من رب العالمين » .

لا أقسم . ثم التعميم والتهويل . بما تبصرون وهو كثير . وما لا تبصرون وإنه لأكثر ، وإن علمكم كله لقاصر ... لا أقسم . فالأمر حقيقة : « إنه لقول رسول كريم ، هذا القرآن الذى تسمعون أرسل به من عند الله . فما هو بقول شاعر — وإن كنتم لا تؤمنون إلا قليلا — وما هو بقول كاهن — وإن كنتم لا تريدون أن تفكروا فى الأمر ، وتتعظوا بالتذكر .

ثم يتابع التأكيد المؤثر فى الحس والقلب ، الوحى بصحة ماينقل الرسول عن ربه من قرآن ودين ، وذلك بتصوير محمد صورة المبلغ الأمين ، ولو أنه خان أمانته ما عصمه من الله عاصم ، وللاقى أشد مايلقاه المبلغ الخائن ، فى حسم جازم ، لا شفيع فيه ولا نصير .

« ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين » .

وبهذه الصورة الحسية ، صورة الأخذ الشديد باليمين ثم قطع العرق الذى يودى قطعه بالحياة ، حيث لا يحجزه أحد منهم من هذا المصير المخيف ... بهذه الصورة الحسية يؤثر فى وجدانهم تأثيراً عميقاً شديداً ، وهذا الوجدان متفتح من قبل للتأثر ... وهنا — وعلى ضوء هذه الصورة المؤثرة — يعاود التوكيد واليقين ثم التهديد الذى يتسق مع التهديد السابق لرسوله الأمين !

وإنه لتذكرةٌ للمتقين . وإنا لنعلمُ أن منكم مكذّبين » ولكن هذا التكذيب لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً وسيكون وباله على أصحابه « وإنه لحسرةٌ على الكافرين ، وإنه لحقُّ اليقين » .

ثم يدع القوم سكارى من التأثر ، غارقين فى التصور والتذكر ، ليلتفت إلى النبى الكريم مخاطباً له فى أمر وتقرير : « فسبح باسم ربك العظيم » .

وهكذا يبدأ بالتصوير الاستعراضى الفنى ، لينتهى منه إلى التأثير الوجدانى القوى ، فإلى الإيمان العميق القلبى . وتلك طريقة القرآن غالباً فى مخاطبة الحس الإنسانى ، وهى أقوم طريق وأقرب طريق .

سيد قطب

(١) من غسالة أهل جهنم أو مما يسيل من أبدانهم بعد الاحتراق !!!

ذو الجناحين

للأستاذ محمود الخفيف

[إلى كل مؤمن تهون عليه روحه فى سبيل الله]



لذكرى شهادته أطرب وإنى بها الساجع المطرب
ألوذُ بها فى سواد الخطوب فيؤنس روحى ومض لها
كما يؤنس المدلجَ الكوكب

كمىٌّ أبوّته هاشم يشع الهدى وجهه الباسم
إذا الهول ضجت به حومة فكالسهم وثبته فى الصفوف
وكالسيف عزم له صارم

أخوه علىٌّ إمام الهدى وخير السيوف غداة الفدا
شبيه به جعفر فى خجاه ويشبهه إذ يهز الحسام
لضرب وإذ يتحدى الردى

أتى الروم آلافهم تزحف بمؤتة واد بهم يرجف
تضيق الأباطح عن سيلهم فلا العين أولَهم تستبين
ولا الوهم آخرهم يعرف

خضم ترامى بهم زاخر يغطى الضحى نَقْعُهُ الثائر
إذا أحصت العين آلافَهُم رأت حولها مائة أو تزيد
يَعِجُّ بهم مَوجُه الحادرُ

دخان هناك ونقع هنا وبرْق لهم يبرق الأعْيُنا
وخيل تحمحم مهتاجة وَبِيضٌ يظَلِّلُ إيماضها
مُثارُ الغُبار وسُمرُ القنا

دَنَت من مُخَيَّم جند العرب جياد من الروم رُعْنُ الخبب
جياد تلألأ ديباجها فوارسها يلبسون الحديد
على سُرُجٍ وُشِّيَتْ بالذَّهبْ

تداعوا إلى الضرب إذ أحدقوا بِجَمع يكاد بهم يُغرَقُ
بجيش من البيد لم يدَّرع بغير اليقين ولا رَاعَهُ
نُضَارٌ يَرَاهُ وإسْتِبْرقُ

قليل العديد ضئيل الخطر وما فى الصحارى له من وزر
عجاف من الجوع خيل لهم مئات ثلاثون قد هدَّهم
على قلة الزاد طول السفر

قليل ولكنهم فى اللقا كثير إذا اضطرم الملتقى
شداد وإن لم يجروا الحديد خفاف إلى الموت إن أقبلوا
ثقال إذا دخلوا مأزقا

تأمَّر زيد وأعلى اللِّواءَ أميرٌ من السيف أقوى مضاء
له البدء حتى إذا ما هوى فجعفر للجيش بعدُ الأمير
يعيد اللقاء ويحيى الرجاء

مشى بهم الفارس الأروع له الجيش من كَفِّهِ أطوع
هم المؤمنون الذين اشتروا بأرواحهم جنة مالهم
وراء الخلود بها مطمع

تداعى الرجال فسَوَّى الصفوفا وشدَّ بهم ليخوضوا الحتوفا
فكاثره الروم إذا غاظهم من القلة البارزين لهم
حفاظ به يدفعون الألوفا

وراحت بهم ترجف الراجفة رُعُودُ المنايا بها قاصفة
وخَفُّوا يبيعون أرواحهم فكم زلزلوا من صفوف العدو
وكم حَسَروا لُجَّة جارفَهْ

وسارَ ابنُ حارثةٍ مُعْجَلاَ فكان الشَّهيدَ بها الأوّلا
ألحتْ عليه غِلاظ السُّيوفِ وكم وثْبَةٍ هدَّها سيْفُهُ
وحيداً ، وكمْ فارسٍ جَنْدَلا

وأقدمَ من بعده جعفرُ غَضُوباً كما وثبَ القَسْوَرُ
تلاطمَ موْجُ الرَّدى حوْلَهُ وُجنَّ جنونُ الوغى إذ جرَى
على الأرضِ ذائبُها الأحمرُ

وقلّتْ بها القِلّةُ الصابره   رَحى الموتِ جدَّت بهم دائره
على الأرض من حولهم ظالمة   غبار ورعـد وبرق هنا
ومن ها هنـا كرَّةٌ سافره

وخاض الوغى الفارس المُعْلَمُ   يسربله . نقعهـا والدم
بيمناهُ رايتهـا جعفرٌ   يثور به عِرقُهُ الهاشمىُّ
كما نَفِرَ القَسْوَرُ الضَّيْغَم

تحدَّى الحتوفَ وأهوالها   وقد هاجت الحرب أبطالهـا
وما زُلزلَ القِلةُ المؤمنونَ   وإن غصَّ بالأكثرين الفضاء
وزلزلتِ الأرضُ زلزالهـا

تنقَّل فى حرِّها جاهـدا   صبوراً لِلأوائها صامـدا
إلى أنْ تصَدَّى له فاتكٌ   فأهـوى على يده ضاربا
بسيفٍ أطنَّ به السَّاعِدا

تماسكَ لِلخطب لم يجزعِ   وكرَّ الكَمِىُّ ولم يرجعِ
بيسراه رايته ، واليمين   على الأرض ساعدها فِلْذةٌ
تموت ، من البطل الأروَعِ

وظلتْ بقيَّتُها نازفـهْ   وقد صخبت حوله العاصفهْ
فلله وثبتـه إذ يفورُ   دم قـد سقى الأرض منه
ومن كَثَبٍ كثرةٌ زاحفه

مضى مُنْهكاً يتلقى الرماحا   وصمم ليس يخاف اجتياحا
تراه ورايتـه فى الشمال   كنسر يجر الجناحَ المهيضَ
ويرفع كيما يطـير جناحا

وفتيان صدقٍ مضوا حوله   وقـد رقَّ كل فؤادٍ له
يذودون عن بطل نازفٍ   يقـل المثيل له فى الرجال
وما فاقـه فارس قبـله

جليدٌ مع النزف لا يستطارُ   وفى وجهه للحِمام اصفرارُ
تسلَّلَ حتى دنا دارعٌ   فما زال يضرب حتى هَوت
من الليث بعد اليمين اليسار

فهلْ فزعَ الحرُّ واستسلما   ولم تُبق منه السيوف دما ؟
تقـدم محتضناً ممسكا   بزنديه رايته فى الصفوف
وظل الكمىُّ بهـا المعلما

ترنح بمـا به الفـارسُ   وما وهنَ الأسدُ العابسُ
وظلَّ على صهواتِ الخطوب   يلاقى الرَّدى فِلذةً فِلذةَ
وما فلَّ عـزمٌ له هاجسْ

وأسـلم مهجته للظُّبا   كؤوسَ المنيَّة مُستعذبا
فياهول مصرعه والسيوف   تهاوى على جسمه القسورى
وما يملك الليث أن يضربا

تكلم مُرتجزاً مُنشدا   «لدينِ الهدى قلَّ منى الفدا
ألا خسىء الكفر والكافرون   جزائى غـدا جنة المتقين
وأعظم بجنَّتهم موردا »

تبسَّمَ للموت إذ أغمضا   على وجهـه لمحات الرضا
فتى بات للمجـد أنشودة   إذا ذَكَرَ المؤمنون الفداء
على الدهر ذكرٌ له أوْمضا

تقشَّع من فوقه العِثْيَرُ   وآماق أصحـابه تُمطِرُ
جراح ثمانون فى جسمه   ومن عَضُدَيه نجيعٌ يسيل
ومن عاتقيـه دم يقطر

بقيَّةُ لَيثٍ رَدَاه استبقْ   وجسمٌ بتلك الفيافى مِزَقْ
تجاوز فى البأس جهد الخيال   وأبلى بَلاءَ امرىء صادق
وأين له النـد فيما صدق

نَعَـاهُ النبىُّ وفى قلبـه   بكاء عليـه وبشر به
وصلى عليه الرسول الكريم   وقال وفى مقلتيه الدموع
لمن علم الرزء من صحبه :

« هنيئاً له نفسـه الراضية   بجنات عدن غدت ثاوية
سيبدلك الله بالساعـدين   جناحين يا ابن أبى طالب
فتسبح فى الجنـة العالية »

وزاد الرسول : « كأنى أرى   هناك الشهيد الفتى النيِّرا
ففى جنة الخلد رهط يطير   ملائكة بينهم جـعفر
يهز الجناحين مستبشرا »

شهيـد فؤادى له يطرب   وإنى به الشاعر المطرب
أجَـدِّدُ ذكراه مُستوحياً   فيملأ قلبى وحىٌ لهـا
يغنىْ كما بزغ الكوكب

الخفيف

مثل عليا في سيرة الرسول

للأستاذ محمد محمد المدني



يحتفظ التاريخ لكثير من العباقرة والعظماء بسير مفصلة أو مجملة تطالع الناس منها مثلٌ تحتذى فى العلم أو الشجاعة أو الصبر أو التضحية أو الإيثار أو التفانى أو نحو ذلك من خصال العظمة أو صفات الشرف . ولهذه المُثل تأثيرات فى النفوس ، وتوجيهات للقلوب ، تتفاوت ويختلف مداها تبعاً لقيمها الخاصة ، واختلاف مصادرها ومواردها ، وتفاوت وجوه النظر إليها .

ولا يعرف التاريخ سيرة هى أزكى أصولا ، وأطيب فروعاً ، وأدنى قطوفاً ، وأحفل بالثمار ، وأملأ بالمثل العليا ، وأكبر تأثيراً فى النفوس ، وأصبر على البحث والدرس ، وأثبت على اختلاف النظر ، وأبقى على وجه الزمان ، من سيرة نبى الإسلام « محمد صلى الله عليه وسلم » :

فصول متلاحقة ، وصفحات مشرقة ، وصور رائعة ، ومعان كلما زدتها نظراً تجلت لك منها نواح متجددة تزيدك إيماناً ، وتزيدك نوراً ، وتفتح أمام عينيك آفاقاً واسعة لا يكاد ينتهى مداها . ولم يكن ذلك لأن « محمداً » صلى الله عليه وسلم « عظيم » أو « عبقرى » فما كانت العظمة ولا العبقرية من الصفات التى يحدَّد بها فضل الله على نبى اصطفاه وصنعه على عينه ، ورعاه ورباه ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وأكرمه برسالته ، وأمده بوحيه ، وإنما كان ذلك لأن « محمداً » رسول الله فحسب ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

* * *

من بين المثل الكثيرة التى تطالعنا من خلال السيرة المحمدية الطاهرة ثلاثة مثل يقف المرء أمامها معجباً بها مأخوذاً بعظمتها وجلالها كما يقف الناظر أمام صورة رائعة ذات معنى قد احتفل بها رسامها وأودعها فنه وذوقه وماوهبه الله من قدرة على الإبداع والإتقان . ثلاثة مُثُل يصوِّر كل واحد منهما أسمى ما يتصوره البشر من الكمال ، وأنبل ما يتطلع إليه الناس من النبل ، ولا أذكر أنى مررت بمثل منها إلا وقفت عنده وقفة تطول أو تقصر ، ولكنها تهز قلبى هزاً ، وتحلِّق بى فى جو من الصفاء الروحى ، والنعيم الفكرى ، لا أحسبنى قادراً على وصفه .

وإليكم أيها القراء الكرام هذه المثل الثلاثة :

١ — هذا يوم من أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاه « بالطائف » تلك البقعة الخصبة الغنية بكرومها وبساتينها وفاكهتها الكثيرة : جاء إلى هذه البلدة ، وقد اجتوته مكة ، وضاقت عليه بما رحبت ، ولم يألُه المشركون فيها إيذاء واضطهاداً ، وقد مات نصيراه : أبو طالب وخديجة ، وتجرأ عليه بعدهما من لم يكن يتجرأ عليه فى حياتهما . جاء إلى هذه البلدة وحيداً فريداً يلتمس النصرة من ثقيف لدينه ودعوته ، ويستعين بهم على أهل مكة الذين أذاقوه وأصحابه الويل بضع سنين . يا لجلال الإيمان ! ويا لحرارة الإخلاص ! رجل واحد يقدم على بلدة لا يعرفه فيها أحد ، ولا يؤمن بدعوته أحد ، وهو حلف ضنى ، ونضو أذى ، وموضع اضطهاد من قومه وإعنات ، وقد سارت بذكرى مساءاتهم إليه الركبان ، ولكنه مع ذلك يقدم على هذه البلدة مستهيناً بما فى ذلك الإقدام من أخطار ، لأنه قد فنى فى دعوته ، وأخلص نفسه لربه ، فلم يعد يثنيه خطر ، ولا يرهبه غرر ! فكيف استقبلته « الطائف » ؟ كيف استقبلته هذه البلدة الطيبة ذات الجو الهادىء الصافى ، الذى من شأنه أن يهذب النفوس ، ويعطف القلوب ، ويثير نوازع الكرم وبواعث النخوة والنجدة ؟ كيف استقبلت هذا الداعىَ الكريم الذى تتفجر من لسانه

الحكمة ، وتبدو على قسمات وجهه علائم الصدق والإخلاص ؟

لقد « عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتها وأشرافها ، وهم إخوة ثلاثة ، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : أنا أمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ! لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك ! فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم ، وقد يئس من خيرهم » .

وتمثل ، عليه السلام ، قومه وقد علموا برد ثقيف إياه ، فكره ما يكون من شماتتهم به وانبعاثهم فى إيذائه ، فقال للذين ردوه : أما إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى . ولكنهم « أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، فكان يمشى بين سماطين منهم ، فكلما نقل قدماً رجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء ، فإذا أذلقته[1] الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ... وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، فكلما انصرف عنه من كان يتبعه من السفهاء اتجه ببصره إلى السماء ودعا ربه قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ! ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ! إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ! ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك! لك العتبى حتى ترضى ، ولاحول ولا قوة إلا بك ! » .

شكا إلى ربه ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس ، لا تبرما بما لقى ، ولا تهربا مما حمل ، ولكنه يريد للدعوة نجاحا عاجلا ، ونصرا سريعا ، ويرى الناس وقد تنكروا لها فى شخصه فأمعنوا بها تنكيلا وحربا لا فرق فى ذلك بين المشركين فى شعاب مكة ، والمشركين فى سهول الطائف ، فكأنما تواصى

(١) أذلقته : أضعفته

الجميع على وأد هذه الدعوة والحيلولة بينها وبين الحياة ، ولذلك قال : إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ فإلقاء هذا المعنى فى روع النبى صلى الله عليه وسلم ، وإجراؤه على لسانه فى دعائه لربه كان إيذانا بأن أمر الدعوة سيتجه بعد اليوم وجهة أخرى ، وسيهيء الله له من القلوب المستعدة ما يكون كفيلا بتقدمه ونجاحه ، وهذه سنة الله فى خلقه : أن يأتى الفرج بعد الشدة ، والنور بعد الظلمة . وقد كان ذلك فعلا فلم يطل الأمر بدعوة الإسلام حتى هيأ الله لها قلوب الأنصار فى يثرب ، واستبدل بالمعاندين المصرين قوما آخرين .

وما أعظم هذه الكلمة الطيبة التى يقولها « محمد » لربه فى مناجاته إياه « إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ! » تلك مرتبة الرضا والفناء فى الحب ، والإستهانة بكل ماسواه من أهوال الدنيا .

هذا مثل التضحية ، والاخلاص للفكرة ، والاقدام فى سبيلها على الخطر ، والفناء وانكار الذات !

٣ — ومثل آخر يضربه للمؤمنين « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ، هو مثل السياسة الرشيدة الحكيمة ، المستندة إلى المحبة ، القائمة على الاخلاص :

لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم عطاياه السمحة وكان فيهم من قومه أبو سفيان وابنه معاوية وغيرهما ممن أسلموا بعد فتح مكة ، وجد الأنصار بعض الشىء من ذلك ، وضاقت له صدورهم ، وكأنهم نظروا إلى هؤلاء الذين كانوا بالأمس أعداءهم ، والذين أذاقوا رسول الله وأذاقوهم ألوان العذاب وقد أصبحوا فيما بين يوم وليلة يتمتعون بهذا العطف النبوى الكريم حتى ليزيد حظهم عند القسم على حظوظ السابقين من المؤمنين ، فلم تتضح عندهم الحكمة فى هذا الصنيع ، ومشى بعضهم إلى بعض يتهامسون ويتساءلون، وقال قائل منهم لصاحبه « لقد لقى رسول الله قومه ! » يريد أن عاطفته لقومه وعشيرته قد غلبته حتى أنسته سابقة الأنصار ، وفضل الأنصار .

كان من الممكن أن تستشرى هذه الموجدة فى نفوس الأنصار، وكان من الممكن أن تغذيها الطبيعة البشرية بغذائها حتى يستفحل داؤها ، وكان من الممكن — على الزمن — أن تمرض هذه القلوب الصافية المؤمنة التى تلقت الإسلام غضا فتعهدته حتى نما وترعرع

وأظهره الله وأتم به النعمة . كان من الممكن أن يكون ذلك كله لو كان أحد ما مكان « محمد » ولو كانت بيئة ما غير بيئة الإيمان والحب والثقة . ولكن الله ألهم سعد بن عبادة الأنصارى أن يبلغ النبى صلى الله عليه وسلم قالة الأنصار، فلما سمعها بادر بجمعهم وقال لهم : يا معشر الأنصار . ما قالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى . الله ورسوله أمن وأفضل . قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار؟ قالوا : بماذا نجيبك ؟ لله ولرسوله المنّ والفضل ! قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مُكذَّباً فصدّقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى لُعاعة[1] من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ ! فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . ولو سلكت الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار !

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كلمته تأثر بها الأنصار حتى بكوا وقالوا : رضينا برسول الله قِسما وحظاً !

هذه هى السياسة الرشيدة التى تستل ما فى النفوس من موجدة ، وتتلافى بوادر الشر فتحسمه قبل أن يتفاقم . وإن هذا الكلام الذى ألقاه النبى فى الأنصار ليحتاج إلى عالم قدير من علماء النفس ليبين لنا مدى انطباقه على الأسلوب العلمى الحديث لطب النفوس !

٣ — والمثل الثالث — ويا له من مثل — هو آية العدل والتسوية وعدم المحاباة ، وإيثار الله على كل ما سواه : ذلك أن أبا طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم وكافله وناصره ومجيره من أعدائه ، على الخلاف بينهما فى الدين ، لما مات ، كأن المسلمين ترقبوا أن يستغفر له الرسول وأن يؤذن لهم فى أن يستغفروا له ، إعظاماً لشأن أبى طالب ، ووفاء لصنيعه مع النبى ، وتسلية لأبنائه وقرابته وفيهم علىّ ، وكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هم بذلك أو فعله فنزل قوله تعالى « ما كان للنبى والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » .

بذلك وضع الأمر فى نصابه ، وتبين للمؤمنين أن لا محاباة ولا قرابة ولا صهر أمام الحق ، وأن العلاقة الوحيدة التى تجب رعايتها والاعتداد بها هى علاقة الإيمان فحسب .

ولقد كان هذا الأمر كافيا لزلزلة النفوس فى هذه البيئة العربية التى تعنى بالقرابات ، وتهتم بالعصبيات ، ولا سيما فى شأن أبى طالب شيخ قريش ، وأبى على ، وأخى العباس ، وعم محمد ، ولكن القوم قبل كل شىء مؤمنون قد امتلأت نفوسهم بحب الله ، فما على الرسول إلا البلاغ ، وما عليهم إلا الرضا والامتثال !

***

من لنا بأن نجتلى هذه المثل العليا وأمثالها فى سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لتكون لنا نوراً وهدى فى هذه الظلمات التى يتخبط فيها الناس .

اللهم إنا نسألك التوفيق .

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

(1) اللعاعة الشىء اليسير .

شراء المعاني من أسواق الرحمات

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف



فى موسم الحج الماضى، ومع روح العربية الحديثة وقلبها المخلص وفكرها الملهم وأمينها الأول عبد الرحمن عزام بك ، رحت أبتاع لنفسى معانى من أرض محمد ، صلى الله عليه وسلم ، مع ذلك الركب الإنسانى العظيم الذى يقصد كل عام أسواق الرحمات ، يسافر لها من كل صوب عبر البحر والصحارى والجبال ، ويخرج لها بائعاً كل شىء إلا قلبه ، مودعاً كل عزيز من أهله وماله ووطنه .

وكيف لا أخرج إلى تلك الأسواق وقد رأيت الكساد والبوار والخسار تضرب كل تجارة فى أسواق العالم غير هذه السوق التى عرف تجارتها وأرباحها قصادها وروادها فقصدوها على بعد الدار وقلة الزاد ؟

لقد أقبلوا بأجسامهم من كل صوب نحو مركز الدائرة الذى يسافرون إليه بالروح كل يوم خمس مرات

إنها أرباح من المعانى التى لا تنفد والطمأنينة والسلام النفسى يدفع لها هذا الركب ما يجمع أفراده من حطام الدنيا وما يدخرونه ينقلونه عن طيبة خاطر راضية نفوسهم بالمشقات والصعاب ...

إنهم يشقون الجسد ويبذلون المادة لإراحة الروح ونشدان السلام وطلب الحسنى أمام ديان الخلائق ...

ذهبوا يعرضون نفوسهم وقلوبهم فى تجرد وحفاء وشمائة فى أسواق الرحمات لعل الله يشتريها منهم ويمسح عنها أوضار الإثم . يلوذون بالمطهر الأول الذى جعله الله أول بيت وضع للناس لتزكية النفس وتأهيلها للدنو منه والعلو إليه بعد الهبوط من جنة السماء ... يطوفون حوله فى ابتهال وتبتل وفناء وسط الإنسانية الشقية التى دمرتها الآلام ... ويطيعونه طاعة مبصرة وعمياء فى كل ما فرضه عليهم فى تلك الرحلة ... ويتنقلون بين يديه فى مجالى الطبيعة ، يصلون له فى هياكلها ملبين فى الأسحار والإصباح والظهيرة والضحى والأصائل ...

يصعدون الهضاب والجبال ، ويهبطون الوديان والرحاب فى استغراق وابتهاج وبكاء ، يبتغون إليه الوسيلة ويطرحون أجسامهم فى مطارح الطبيعة أمام نظره العالى لعله يرحم ضعفهم وإخلاصهم ويمسح بيده الكريمة على قلوبهم .

يتعرضون لنفحاته من ظهيرة يوم عرفة ، ويبيتون له بمزدلفة وينحرون ويتزكون له فى منى . ويعزمون على ترك الشر فى (شارع الشياطين !) يرجمونهم فى فكاهة وجد وابتهاج ... ثم يقبلون بعد ذلك إلى حياة المدن فى أم القرى ويشهدون منافع لهم من التعارف والائتمار والاتجار ...

ثم يرمون بأبصارهم إلى الشمال نحو مرقد الجسد المطهر الذى مدّ ظلال رحمة الله على هذه الأمة المحرومة المعزولة ثم مدها على العالم وأوسع له فى آفاق الروح ...

وعند قدمى محمد صلى الله عليه وسلم اتخذت مجلسى أول قدومى عليه ، وقد أغمضت عينى وفتحت خيالى يستحضر الصور التى شهدها التاريخ ووعتها ذاكرتى من حياته الشريفة وتعاليمه الهادية ووحيه العالى . وأحسست حين جلست أن العالم كله يجلس معى تحت قدمى هذه القمة البشرية التى لم تطاولها سماء أخرى ... وأننى تحت ظلال أنضج ثمرة أدركت أسرار النوع البشرى وصفوة معانيه ونهاية استعداده وحدود قواه ... أخرجها رب الإنسانية ومكرمها من الأمة الوسط التى يلتقى فيها الشرق والغرب ، وتتصل بزنوج الجنوب وبيض الشمال وصفر الشرق وحمر الغرب وتأخذ منهم جميعاً أحسن ما فيهم جميعاً ...

وهذا هو قانون الله فى جميع الأشياء : يجمع أسرار كل شىء فى مركزه و « عقدة » ثمرته ...

فلتفهم هذا العربية الحديثة فى نهضتها الجديدة لأداء رسالتها الثانية .

أنا مؤمن عن طريق عقلى أكثر من إيمانى عن طريق قلبى . ومع ذلك حين وجدتنى أقترب من قبر « محمد » القطب الذى

تدور بدورته روحى وتهتدى بإشعاعه نفسى أحسست قلبى يهتز ويختلج اختلاج الباكى ووجدانى يطغى على عقلى فأحبذ تقبيل المقصورة الشريفة واستلامها وأخفف من منع الحراس للناس وأفلسف لهم أن الحب يدفع إلى أكثر من ذلك … ثم يستقر الأمر فأعود إلى القبر فى هدوء الإجلال وسكينة الإعظام لهذا المقام أن يدور عنده همس لغط ، أو يدنو منه مقترب بالجرأة والاقتحام كما يفعل العوام وأشباه العوام الذين لا يملكون عقولا وإنما يملكون قلوباً …

وشهدنا أول احتفال بالهجرة فى دار الهجرة على الطريقة المصرية فى التكية المصرية ، وخطب فيه عزام (بك) خطبة من خطبه التى هى مزيج من الروح والسياسة والتجربة والعلم والتاريخ فكان صوته أول نغمة جديدة من بيان أهل هذا الزمان ترتفع فى جو المدينة التى ولد فيها فجر المؤاخاة الكاملة بين الأوس والخزرج من الأنصار ، وبين المهاجرين والأنصار ، وبين المسلمين وأهل الكتاب والمسالمين من الجاهليين ، فى تلك المعاهدة الأولى التى لا يمكن أن يبنى سلم عالمى دائم إلا على مثلها وروحها الذى يؤمن بالإنسانية الواحدة وبالحرية والمساواة والعدالة فى الوطن الواحد وفى الأوطان المختلفة ويأبى إلا أن يكون الدين لله .

ولِيَاذُ الزنوج والأجناس الملونة واعتزازهم بهذه المشاهد المقدسة التى تتجلى فيها المساواة المطلقة شىء عظيم ! وخاصة فى هذا العصر الذى جار فيه « الرجل الأبيض » واغتر بلونه ، وبنى على الفروق السطحية فلسفة ظالمة ، استعبدت الأحرار ، وأذلت الكرامة الإنسانية ، وأهدرت لباب القلوب ، واعتزت بالقشور والجلود ، وعاثت بالفساد فى ديار الناس ولم تحاول محاولات جدية أن ترفع مستوى الحياة فى بلاد الملونين ليلحقوا بالقافلة الإنسانية السريعة المراكب ، بل على العكس أثقلت أرجل غيرها بالقيود وعوائق الفساد ليتخلفوا عنها ويحتاجوا إليها دائما ويكونوا معها « حيوانات بشرية » لحمل أثقالها وجلب مغانمها.

ولكن رب البشرية بالمرصاد ، فقد خرب ديار الطغاة ، وجوعهم وأهلك حرثهم وعمرانهم ونسلهم ، ووقفهم على هاوية الدمار التام ليترددوا فيها عما قريب إذا لم يراعوا أمانة الاستخلاف فى الأرض ورعاية حرمات الناس وحقوقهم الطبيعية .

إن الأجناس المتخلفة تدرك بفطرتها ما فى طبيعة المسلمين من رحمة بها واعتراف بحقوقها وغيرة على حرماتها وحب لتقدمها ، ولذلك تقبل على الإسلام ، وعلى شعيرة الحج بنوع خاص ، لتشعر لأول مرة فى هذا العصر بقيمة ذاتها ، وا كتمال حقوقها واعتراف الدنيا بإنسانيتها .

ومن يرى الإنسانية فى ثيابها البسيطة ، وحفائها وابتهالها حول الكعبة وبكائها لربها واصطفافها جميعا على قدم المساواة ، يبيع نفسه لخدمتها وإنصافها ومكافحة الطواغيت والمظالم التى تهدر كرامتها ، وتذل عزتها .

ولن أنسى ذلك الشيخ الأسود الذى وقف أمام باب الكعبة يبكى ويبلل لحيته ويجأر بالدعاء وينادى : اللهم اجمع قلوب المسلمين كما جمعت أجسامهم ! ولا ذلك الهندى الساجد فى نشيج ودموع بجوار مقام إبراهيم …

ولا تلك الزمرة من زنوج نيجريا فى ثياب الإحرام البيضاء تتلو وراء المطوِّف دعاءها فى رطانة ولكنة ومع إتلاع الأعناق ومشية العزة والمسرة والشعور بالحضارة الروحية ولقاء قلوبهم مع قلوب غيرهم من الناس فى ثقة ومحبة .

ولا تلك الأرتال السائرة على أقدامها على طريق مكة والمدينة أياماً وليالى تقصد زيارة المدينة ، بعد أن جاءت من أعماق القارة السوداء [إفريقية] ، والقارة العجوز [آسيا] يحدوها الحب ، ويسوقها الإلهام إلى أرض التحرر والعتق من ظلمات الوثنيات والثنويات والسحر الأسود والرهبة من القوى الجبارة المبهمة التى تطالعها من طلعات هاتين القارتين الغامضتين !

ويكفى أحدهم جوار الكعبة عاما ليحصل علما من جميع أجناس الأرض لم يكن ليجده عمره فى دياره ولو عاش أبد الأبيد .

إن الحج نسك عجيب تفرد به الإسلام ، وجعله مثارا لعالم فنى « سينمائى » ورمزى بجانب ماله من الآثار التعبدية والاجتماعية .

وكم ترك من آثار عميقة فى حياة المسلمين وحياة الناس جميعا وسير التاريخ العالمى إذ كان بمثابة الرياح التى تحمل البذور من مكان إلى مكان لتنتج خليطا من الأنواع ، فهو قد حمل الشخصية الإسلامية المتفرقة بافتراق البقاع على اللقاء فى معهد واحد . وكما كان سببا لاجتماع القبائل العربية فى الجاهلية على معناها العام ووحدتها وعرض أمجادها ومفاخرها فى أسواق الدين والتجارة واللغة ، كذلك يحمل العالم الاسلامى بأممه المختلفة على اللقاء الدائم فى عصور التاريخ . فالعالم الاسلامى مدين له بجانب القرآن بوحدته الفريدة على مدى الأجيال .

وإنه لعمل عظيم فى جذور الوحدة العربية والوحدة الإسلامية والوحدة العالمية .

عبد المنعم خلاف

معجزة الدهر

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

مرت المعجزات وبقيت معجزة واحدة خالدة هى القرآن .



والمعجزات هى براهين الأديان أنها من عند الله وليست من عند الإنسان . والأديان لا تكون شيئاً إن لم تكن من عند الله ويقم البرهان الناصع الساطع على أنها من عنده . فصدورها من الله ضمان هدايتها الإنسانيـة فى كل الظروف ما أطاعتها الإنسانيـة . ووضوح البرهان على أنها من عند الله ضمان استيقان الإنسان إياها وطاعته لها . وسواء أكان الدين خاصاً بأمة أم عاماً للبشر فالبرهان عليه ينبغى أن يكون عاماً يخضع له كل عقل ، لا خاصاً تخضع له بعض العقول . وليس يفى بهذا الشرط فى البرهان على الدين الحق أنه من عند الله إلا المعجزات .

والإنسانية الآن فى حاجة إلى دين تخرج به من ورطاتها بعد أن كادت تهلك حين نسيت الدين . ولو أرادت البحث بعقلية علمية عن دين الفطرة — كما لا بد لها يوماً أن تبحث — فليس أمامها إلا أن تنظر فى الأديان كظاهرة كونية . وفى الحق أنها ظاهرة من أكبر الظواهر الواقعية وأعظمها مظهراً وأثراً فى حياة الإنسان . والواقع هو موضوع الدراسات العلمية أو هو موضوع العلم الطبيعى بشرط ألا يكون لهوى الإنسان دخل فيه ، لأن الهوى والحق قلما يجتمعان . لذلك لم يجعل العلم التاريخ مجالا لبحثه لأن الأهواء من عوامل التاريخ .

لكن هناك ظاهرة تاريخية هى أهم ظواهر التاريخ وأشبهها بالظواهر الطبيعية التى ليس للانسان عليها سلطان وإن جرت على أفراد من النـاس . تلك هى ظاهرة النبوة وظهور الأنبياء . وهى فى تاريخ البشرية أشبه ببعض الظواهر الفلكية النادرة المتجددة ؛ ولو ضربنا لها مثلا ظاهرة المذنَّبات لم نبعد . يظهر النبى فى أفق البشرية من عصر لعصر كما يدخل المذنب أفق الأرض بين حقبة من الزمن وحقبة ، فيشغل به الناس ما لبث فى أفقهم ، ثم يذهب المذنَّـب غير تارك أثراً ويبقى للنبى عظيم الأثر فى الناس .

وظاهرة الأنبياء فيها كل ما فى الظواهر الطبيعية الفلكية من مميزات . فهى من ناحية ظاهرة واحدة متجددة ، فالنبى أشبه بالنبى من النجم بالنجم :

واحد من الناس يظهر فيهم على غير إعداد منهم ، يتجرد من كل ما يشغل الناس من إقبال على الدنيا واستمتاع بها ، جاعلا شغله الشاغل دعوة قومه إلى فاطر الفطرة وخالق الناس . ثم هو لا يدعوهم من عنده فيلتبس عليهم بالفلاسفة والحكماء الذين يكثرون فى بعض العصـور ولا يكاد يخلو منهم عصر ، ولـكن يدعوهم باسم الله الذى خلقهم ، مؤكداً لهم أنه مرسل إليهم من عند الله ربهم برسالة ليس له فيها إلا التبليغ . وسـواء آمن به كثير أو آمن به قليل ، فإنه هو يعمل فى جميع الأحوال بما يدعو إليه من دين مهما شق العمل به على الناس ، ويتحمل فى سبيل تأدية الرسالة على وجهها ما يتحمل ، لا يصرفه عن رسالته أذى أو إغراء . فهو يطلع على الناس طلوع نجم أو قمر أو شمس أو مذنَّـب : يجرى مجراه ولا يحيد قيد أنملة عن مسراه .

تلك ظاهرة تاريخيـة ، ولـكن فيها كل ما فى الظواهر الفلـكية من صفات أساسية : فيها التجدد ، وفيها رغم تجددها الاطراد ؛ وفيها التجرد عن هوى البشرية ومشاغلها ، وفيها التقيد بأوامر فاطر الفطرة سبحانه تقيد النجم فى مشرقه ومغربه . وفيها الإشراق على الناس بهدى الله كما تشرق الشمس عليهم بالضياء .

وتصحب النبوة والرسالة عادةً ظاهرةٌ أخرى هى أشبه بما يشتغل به العلم من الظواهر نسميها معجزة ويسميها القرآن آية . وهى دليل دعوى النبى أو الرسول أنه نبى الله ورسوله ؛ وهى حجة الله على من شهدها أو تواتر سماعه بها عمن شهدها . والمعجزات تشبه ظواهر الفطرة فى أنها مما لا يقدر عليه الانسان . كلها تشترك فى هذا التفرد لتكون دليلا عند من يعقل على أن

الذى أجراها على يد الرسول هو الله فاطر الفطرة ومرسل الرسول .

والعلم أسرع إلى التسليم بمثل هذا الدليل إن ثبت لديه وقوعه ، لأن العلم أعرف وأبصر بعجز الإنسان عن خرق عادة الفطرة وسننها فى الكون . فابتلاع العصا لعصىّ السحرة وحبالهم ، وإبراء الأكمه والأبرص فى لحظة ، وإحياء الموتى بكلمة — هذا وشبهه يعرف العلم ويعرف الناس أنه مما لا يقدر عليه البشر . فلو ثبت لدى العلم وقوعه فى ظروفه لسلَّم العلم بدلالته .

لكن إذا قُدر أن يبحث العلم الأديان عن طريق بحث ظاهرة النبوة فسيجد أن العقبة فى سبيله هى أن معجزاتها قد مرت وانقضت فهو لا يجد سبيلا إلى بحث شىء منها . إلا معجزة واحدة لرسول واحد على دين واحد : إلا القرآن ، معجزة الإسلام على يد محمد بن عبد الله . لقد ذهبت المعجزات كلها وبقى ، وتغيرت الكتب وحرفت ولم يتغير هو ولم يحرف . وعلى أى حال فهو هنا معنا ومع العلم والعلماء لمن شاء أن يبحث أو يفحص . فلو قدر للانسانية أن تفحص الأديان بعقلية علمية لما وجدت غير الإسلام ديناً يثبت للفحص العلمى ، إذ ليس غير الإسلام دين بقيت معجزته إلى اليوم وتبقى إلى ما شاء الله لتكون موضوع بحث وامتحان وفحص ، وليهتدى البشر بفحصها إلى الله ، وليعلموا عن طريقها أن الإسلام هو دين الله فاطر الفطرة وخالق الناس : جعل كتابه عين معجزته ومعجزته عين كتابه ليكون حفظ الدين وحفظ معجزته أمراً واحداً سواء ، ولتدوم حجة الله على الناس .

ودلالة القرآن على نفسه أنه من عند الله لا من عند بشر أمر تنبهر منه العقول إذا نظرت فيه نظرة علمية صادقة . ففيه أولا التحدى : تحدى العرب وتحدى البشر أن يأتو بسورة من مثله . وهذا التحدى وحده دليل عجيب على أنه ليس من عند محمد . فلو علم محمد من نفسه أنه قائله ما اجترأ وهو ما هو من العقل ، وهم ما هم من الفصاحة ، أن يتحدى العرب بله البشر أن يأتوا بمثله ، ثم بعشر سور من مثله ، ثم بسورة ، ثم يجعل أقصر سورة لا تزيد على عشر كلمات !

فهذا من غير شك دليل عجيب . وأعجب منه عجز العرب خصومه — وقد كانوا جميعاً خصومه فى الأول — أن يقبلوا هذا التحدى ويهدموا محمداً ودعوته بالإتيان بسورة من مثل سور القرآن القصار .

وعجزهم ذلك جاء مصدقاً لنبوءة تنبأها لهم حين تحداهم أنهم لن يفعلوا . ولم يفعله أحد من البشر إلى الآن . فاعجب من كلمتين اثنتين — ولن تفعلوا — قامتا بصدقهما المستمر معجزة باقية على الزمن

وعجز العرب والبشر عن سورة قصيرة من القرآن أمر غريب عجيب يجعل من القرآن الكريم ألف معجزة فى معجزة ، لأن القرآن قدر أقصر سوره آلافاً من المرات .

وسر هذا العجز هو نفس سر عجز البشر عن خلق شىء مما حولهم فى الفطرة . فالقرآن والفطرة كلاهما من عند فاطر الفطرة بل هو دين الفطرة وكتابها . وقد جهد الناس قديماً وحديثاً فى الوقوف على سر إعجاز القرآن فلم يبلغوا من ذلك إلا قدر ما يغرف غارف من بحر وإن ظن ظان أنه قد بلغ . وليس إعجاز القرآن الناسَ هو كل دلالة القرآن على أنه من عند الله .

ليت من يقوم بالقرآن وللقرآن يحفظه ويفحصه ، ويجلو برهانه للناس من جديد . ليت المسلمين لم يشغلوا عن القرآن بكلام البشر ، ولم يحاولوا أن يتأولوه حين يجدونه غير نازل على أهوائهم وعلى ما يظنونه المناسب للعصر الحديث . ليت فى علماء الإسلام جماعات تلقوا صنوف العلم الطبيعى وتمكنوا من علوم القرآن ليجلوا للإنسانية القرآن على النمط العلمى الذى هو من نمط النظر القرآنى وفيه للانسانية فى هذا العصر العلمى مقنع .

ليت المسلمين ينتبهون إلى هذا فيتداركوا ما فاتهم ، ويعدوا للدعوة إلى الله وإلى القرآن عدتها . فالإنسانية فى حاجة إلى دين الفطرة ، وما المسلمون بأقل حاجة من الإنسانية إلى تبصير بالإسلام

محمد أحمد الغمراوى

هجرة محمد (*)

للأستاذ علي الطنطاوي



... في هذه الأيام التي ذاق فيها الأغنياء عَضَّةَ المجاعة ، والأقوياء ذِلّة الضراعة ، ومشى داء الهمجية إلى ديار المتمدنين ، وشمل الظلام مدائن النور ، وهان الحق والعلم والفن ، وعزّ السيف وغلى الرغيف ...

في أيام الحرب السود ، ولياليه العوابس ، تجتمعون آمنين مطمئنين ، غير جائعين ولا مروّعين ، فاحمدوا الله على نعمة السلام فلولا خطرها ما كانت تحية الإسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

يا سادة :

في المشرق والمغرب ، من شواطئ الأطلنطي إلى سواحل الهادي ، في القرية الخاملة والمدينة الآهلة ، يجتمع هذه الليلة إخوان لكم مثل اجتماعكم ، قد تناسوا الحرب وأهوالها ، والغلاء والبلاء ، والموت آتياً من الأرض ومنصبًّا من السماء ، ليحتفلوا في أيام الحيرة والخوف ، بذكرى الهدى والأمان ، ويهتفوا باسم من أدرك العالم حينما دهمه ليل كهذا الليل ، فأطلع عليه من نور الحق فجراً ساطعاً ، ليهتفوا باسم سيد العالم : « محمد » ...

(*) ألقيت في جامع بني أمية في الاحتفال بعيد الهجرة .

يا سادة :

إن لكل أمة مواسم تجتمع فيها ، وذكريات تحييها ، وعظماء يمجدهم خطباؤها ، ومآثر يفخر بها شعراؤها ، ولكن الذكرى التي اجتمعنا لأجلها ، لا تقاس بها الذكريات ... إنها أجل منها وأعظم : إن الحادث الذي جئنا لتمجيده لا تشبهه الحوادث ، إنه أعز على التاريخ منها وأكرم ، إنه أسمى من كل مأثرة فخرت بها أمة ، واعتز بها جيل ، فإذا أردتم أن تروا فيم كان جلالها وسموها ، فدعوا هذا الحاضر لحظة ، وأوغلوا معي في مسارب الماضي مرّوا بين القرون وتخطوا أعناق السنين ، حتى تقفوا على القرن السابع الميلادي ، وقد أهلّ على دنيا رثّت فيها حضارة الأولين ، ونسي الدين ، وآضت العبادات عادات ، والعلم ترديداً بلا فهم ، والفن تقليداً بلا تجديد ، وأخذ الملوك الطغاة بمخانق الشعوب ، ونخرت الفوضى عروش الطغاة ، وسكت العلماء وهربوا إلى الصوامع ، وأيس المصلحون واختبأوا في الأغوار ، وأوشكت الإنسانية أن تتردى في هوة ما لها من قرار !

هنالك وقد غلب اليأس ، بعث الله الفرج على يد رجل ، رجل واحد طلع من وسط الرمال المتسعرة الملتهبة التي يشوى عليها اللحم ، لحم كل عادٍ يطأ ثراها ، وعاتٍ يريد بالشر حماها ، من القرية التي هجعت دهراً بين الحرّتين ، لا يدرى بها قيصر ، ولا يحفلها كسرى ، من أرض الفطرة والحرية التي لم تبلغها أوضار المدنية ، من حيث انبثقت الحياة البشرية أول مرة : من جزيرة العرب ...

رجل واحد قام وحده لإصلاح الدنيا ، قال لقريش سادة العرب : اتركى هذه السيادة ، فالناس كلهم سواء ، لا فضل إلا بالتقوى والأخلاق وبارع الخلال ؛ وقال للعرب المشركين : حطموا هذه الأصنام ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، واعبدوا الله الواحد الأحد ؛ وصرخ بكسرى وقيصر : أن دعا هذا الجبروت الظالم ، وهذه الربوبية الكاذبة ، فما كان بعض البشر أرباب بعض ، واتبعاني أجعل منكما عبدين لله صالحين !

فثارت به قريش ، وقام عليه العرب ، وعاداه الملكان كسرى وقيصر ، وأعلنت أقدس حرب وأعجبها : الحرب بين محمد وبين العالم كله ، الحرب التي انتصر فيها « محمد » على الدنيا !

ولكن ما شأن الهجرة فى ذلك ؟ ليست الهجرة ، يا سادة ، انتقالا من مكة إلى المدينة ، وليست سفراً كالأسفار ، ولكنها المرحلة الأولى من هذا الزحف المجيد للحملة التى جردها الله على الكفر والظلم والفحشاء والمنكر وجعل قائدها « محمداً » ! إنها الخطوة الأولى من هذا الزحف الذى لم يقف ولم يتباطأ ، حتى امتد من الهند إلى مراكش ، ثم عبر البحر من هنا إلى الأندلس ، ومن هناك إلى البلقان ، ثم دخل فى الزمان ، واجتاز العصور ، حتى انتظم أربعة عشر قرناً ، وغمر نصف المعمور بالنور ، ثم إنه سيمتد حتى يبلغ آخر الزمان ، ويعم الأرض كلها ... إن الهجرة هى الحلقة الأولى من سلسلة المعارك الظافرة الفاصلة التى خضناها دفاعاً عن الحق والعدل ، والتى منها بدر والخندق والقادسية واليرموك ، ونهاوند وجبل طارق ، وعمورية والحدث ، وحطين وعين جالوت والقسطنطينية ، وطرابلس والنوطة ، وجبل النار .

لقد مشى « محمد » ليزيح الظلام ، ويحطم طواغيت الظلم حيثما قامت ... وقريش الحمقاء تحسب أنه بعث لها وحدها ، وأن مدى رسالته متسع هذا الوادى ، وأنه هاجر خوفاً منها ، لذلك بعثت رسلها ينفضون الأرض ليأتوا به ويرجعوه إليها ...

يا لجهالة قريش ، ويا للغرور السيء ما يصنع بأهله !

مه يا قريش الحمقاء ، إنك لا تعرفين من هو « محمد » ، ولا تدرين ما رسالته ! مه يا قريش ، دعيه يمر ، إن فى يثرب أنصاراً له ينتظرونه ، إن وراء الرمال ، فى بلاد الظل والماء ، شعوباً ترقب مجيء النبى ، قد علقت به آمالها ، ونفد فى ترقبه صبرها ! إن وراء القرن السابع أمماً لا تزال فى أحشاء الغيب تنتظر النبى ، فهل حسبت قريش أن فى الغار رجلين اثنين ؟ إن فيه أمل الدنيا ، فيه رحمة الله للعالمين ، فيا لجهالة قريش حين تريد أن تمنع رحمة الله عن العالمين !

* * *

أتعرفون ما ذا صنع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟

وجد العرب قبائل وبطوناً : لكل قبيلة عالم ، ولكل بطن دين ، آلهتهم شتى ، وأربابهم أصنام ، همهم سيف يجرد ، أو جمل ينحر ، يأكل بعضهم بعضاً : فبكر تحارب تغلبا ، وعبس وذبيان ، واليمن ومضر ، لهم ملوك فى مشارف الشام وأطراف العراق ، ولكن ملوكهم خول لكسرى وقيصر ، يقتلون إخوانهم فى العروبة فى سبيل الأجنبى !

وجد فى مكة ، وهى حاضرة العرب ، ودارة قريش ، بضعة عشر يقرأون ويكتبون ، وسائر أهلها أميين ، ووجد علماء العرب هم الكهان والشعراء ، أولئك يسجعون فيهرفون بما لا يعرفون ، وهؤلاء يشبّبون ويمدحون ويذمون !

أفهؤلاء يصلح العالم الفاسد ؟ إنه لموقف يؤيس العظيم ، ولكن « محمداً » لا يعرف اليأس أبداً ، ولا يعرفه أتباع « محمد » !

إنه يريد أن ينشىء من الأمة المشركة المتفرقة الجاهلة ، أمة واحدة مؤمنة عالمة ، فليصنع كما يصنع البناء : يضع الحجر على الحجر ، فيكون جداراً ، وكذلك فعل « محمد » : بنى أمة صغيرة من ثلاثة ، من رجل وامرأة وصبى ، من أبى بكر وخديجة وعلى ، فكانت نواة هذه الأمة الضخمة التى ملأت بعدُ الأرض ، وكان أسلوباً يخلق احتذاؤه بكل مصلح . ثم صار المسلمون عشرة ، ثم نموا أربعين ، فخرجوا يعلنون الإسلام بمظاهرة لم تكن عظيمة بعددها ولا بأعلامها وهتافها ، ولكنها عظيمة بغايتها ومعناها ، عظيمة بأثرها ، عظيمة بمن مشى فيها : محمد وأبو بكر وعمر وعلى وحمزة ، أربعون لولا محمد لعاشوا ولماتوا منكرين مجهولين ، فلما لامسوه وأخذوا من نوره ، وسرت فيهم روح من عظمته ، صاروا من أعلام البشر ، وصارت أسماؤهم مناراً للسالكين ، فلما بلغوا ثلاثمائة ، خاضوا المعركة الأولى فى الدفاع عن الحق ، معركة بدر ، فلما بلغوا عشرة آلاف ، فتحوا مكة ، وطهروا الجزيرة العربية ، فلما بلغوا مائة ألف فتحوا الأرض !

فتحوا الأرض ، فلما انقادت لهم ، فتحوا القلوب بالعدل ، والعقول بالعلم ، فما عرفت هذه الدنيا أنبل منهم ولا أكرم ، ولا أرأف ولا أرحم ، ولا أرق ولا أعلم ، ولا أجل ولا أعظم !

فإذا كان فى العظماء من كشف مكروبات ، فمحمد قد كشف أبطالا ، وإن يكن فيهم من داوى مريضاً ، فمحمد قد داوى أمماً ، وإن يكن فيهم من برع فى الحرب وفى فن القتل ، فمحمد كان فنه الأحياء والهدى ، وإن يكن فيهم من ألف قصصاً وروايات ،

فالذى صنعه محمد لو تخيله قاص أو أديب لكان أكبر الأدباء ، فكيف بمن أقامه من الحس لا الوهم ، والحقيقة لا الخيال ؟ وإن يكن فيهم من أفضل على أمة ، فمحمد قد أفضل على الناس كلهم ، فما على الأرض أمة لم تستضئ بنور دعوته ، ولم تقتطف من ثمار حضارته ، ولم تنتفع فى قضائها بشريعته ، لولا « محمد » وقرآنه ما كانت حضارتنا ، ولا علومنا ، ولولا حضارتنا وعلومنا ما كانت حضارة الغرب ، نحن حفظنا إرث فارس والروم واليونان ، وصححناه وزدنا فيه وأفضنا عليه من نور القرآن . ثم علمناه تلاميذنا من أهل أوربة ، وأعطيناه فى فلسطين لمن جاء يبغى لنا الموت ، وحمل إلينا سيوفاً أحدّها التعصب وشحذها الجهل ، فحملنا إليه الحضارة والعلم والحياة ، وأريناه نُبل أتباع « محمد » !

أفبلغ بالناس أن ينسوا فضل « محمد » عليهم ؟ إن ينس الناس فما نسى التاريخ ، وإن تسكت الألسنة تروى الصحف وبتحدث الصخر : سلوا هذه القبة السامقة والسواعد التى أقامتها(١) ، سلوا هذه الأساطين والعلماء الذين استندوا إليها ، سلوا هذا المنبر : كم صدع فوق أعواده بحق ، وكم أعلن من مبدأ كريم ، سلوا الظاهرية وما فيها من الكتب ، سلوا النظامية والمستنصرية والأزهر ، سلوا دجلة : كم ألقى فيه من نتاج أدمغتنا ، سلوا الأندلس : كم أحرق فيها من ثمرات عقولنا ، وما نقصت مكتبتنا بما أغرق وما أحرق ، سلوا جامعات الغرب : ألم تعش على كتب ابن سينا وابن رشد والإدريسى والبيرونى دهراً طويلا ؟ سلوا تلك البيض : هل جردت إلا دفاعاً عن الحق والفضيلة والمثل الأعلى ؟ بل سلوا قلوبكم وما صنع فيها الإيمان ، تروا أن هذا الإرث القليل الذى وصل إليها يثبت أن الإسلام هو أعظم شىء عرفه هذا الوجود ... إننا برغم ما صنع الدهر بنا وما صنعنا بأنفسنا حين أهملنا شريعتنا لا نزال نحتفظ بعزة المؤمن الذى يعلم أن الأجل محتوم ، فلا يخاف أن يعاجله الموت إن صدع بحق أو خاطر فى واجب ، وأنه لا إله إلا الله ، لا يضر ولا ينفع سواه ، فلا يخاف مع الله أحداً ، قم حيثما شئت من ديار العربية التى قبست من نور « محمد » ، ثم ادع باسم الدين ، وباسم العرض ، تر كيف تقتحم الأهوال ، وتستسهل الصعاب ، بل ادع بذلك فى بوادى نجد ، وفيافى اليمامة ، تلبك رمالها ، وتنقلب فرساناً ، إن لم تجد من الناس ملبياً !

لا تعجبوا ، يا سادة ، فإن من معجزات « محمد » أن جعل أتباع دينه كلهم (على رغم أنوفهم) أبطالا !

إننا اجتمعنا فى محبة « محمد » ، ولكن منا من لا يعرف على حقيقته « محمداً » !

ولم يكن « محمد » عبقرياً فحسب ، وإن آتاه كل صفات العبقريين ، ولم يكن نبياً فقط ، وإن جعله الله خاتم النبيين ، بل كان بشراً عظيما أوحى إليه بدين عظيم ، فهو — بشراً — أعظم البشر على الإطلاق : فى كبر عقله ، ونبل نفسه ، فى سمو خلاله ، فى أحاديثه وأقواله ، فى آثاره وأعماله ، إنه ليس فى العظماء ، أو قلّ فيهم من عرفت حياته بدقائقها وتفاصيلها كمحمد ، فانظروا أىّ خلق عظيم لم يتخلق به ، أى موهبة لم يعطها ، أى مكرمة لم ينلها ؟ وهو — نبيًّا — أعظم الأنبياء على الإطلاق ، جاءت الشرائع الماضية بأحكام تصلح لزمان واحد ، وكانت شريعته قواعد وأسساً تستخرج منها الأحكام التى تصلح لكل زمان ، شريعة عقل لا تخاف العقل ولا تجزع من اعتراضاته ، بل تواجهه وتتحداه ، وتدعوه إلى المناقشة مهما كان مدعاه ، لما قالوا المقالة الشنعاء قال لهم : (أإلٰه مع الله قل هاتوا برهانكم) : تعالوا ناظرونا ، نقرع دليلكم بدليلنا ، وما نغلبكم إلا بقوة البرهان ، شريعة تدعو إلى العلم النافع ، رياضياً كان أو طبيعياً أو اجتماعياً ، وترغب فيه وتحضّ عليه ، شريعة جمعت ديناً وعبادة ، وتشريعاً وسياسة ، وأخلاقاً واجتماعاً ! إن الدنيا بغير شريعة « محمد » جسم بلا روح ، ولفظ بلا معنى !

فما بالنا نظلم الإسلام ، ونظن به العصبية والجمود ؟ ما بالنا نستحيى به ونحسبه يعود بنا إلى الوراء والإسلام مذ كان دين سماحة وعقل وتقدم ؟ ألا لقد آن لنا أن نفهم الإسلام على وجهه ، وأن نعرفه على حقيقته ، ونأخذه من منابعه ، لا من أفواه أشباه العلماء ، ولا من أشباه الكتب ، وأن نعتز بالانتساب إليه ، وأن نرفع الرأس فخراً ، وأن نجعله أمامنا فى حياتنا ...

يا سادة ! إننا طالما احتفلنا بهذه الذكرى ونحن محزونون متألمون ، أدنى إلى اليأس وأبعد عن الأمل ، فلنحتفل بها اليوم

(١) قبة الأموى فى دمشق .

— ونحن فرحون مستبشرون — فقد بدا لنا النور ، ودنت الأمانى ، ولاحت أعلام الوحدة ودقت طبولها ، وقد طالما هجمنا ومرت بنا ليال حوالك طوال ، فترت فيها الهمم ، وخبت العقول ، ولكن وقت النوم انقضى ، وأذن مؤذن النهضة : حىّ على الفلاح ... فنفضنا عن أنفسنا غبار الأحلام ... ونهضنا !

لقد كتب على المسلمين أن يذلوا ، ولكنها مرة واحدة ، وقد مرت ولن تعود !

لقد انبلج الفجر ، وانتهى الليل ، وبدا نور النهضة ، نور الاستقلال والوحدة ، فاقسموا فى هذا البيت الأطهر ، فى هذا اليوم الأنور ، إنكم لن تناموا ولن تنوا ولن تضعفوا ، فما ينال المجد نائم ولا وان ولا ضعيف !

إن « محمداً » علمنا معنى العزة والكرامة ، وعرفنا قيمة العقل والعلم ، وشرع لنا شرعة الإيمان والعدل والإحسان ، فلنعد إلى ما شرع الله على لسان « محمد » : نفتح فى التاريخ صفحة مجد وسمو ونبل كالتى كتبها أجدادنا ، ألا إنها كلة صدق ، ألا إنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ألا إنما أعز الله العرب بالإسلام ، فإن ابتغوا العزة بغيره ذلوا .

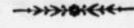
فيا أيها الرئيس ! ارفع راية القرآن ، ثم ادعنا للعمل شيوخاً لهم عزيمة الشباب ، وشباباً لهم حكمة الشيوخ ، تجبك من جنود الحق جحافل ، وصلت يوم القادسية واليرموك بأيام الغوطة ونابلس التى فيها جبل النار ، اعمل للوحدة الكبرى ، فإنها حياتنا لا حياة لنا إلا بها ، أقمها على صخرة الإسلام الراسية ، لا تعبث بها الزعازع ، ولا تزلزلها الأعاصير !

إنك القائد الحكيم ، ولكنها ضجت فى العروق الدماء ، وتلوّت فى الأغماد الصفائح ، فانشر اللواء ، وسُق الخميس لتعلم الإنس والجن ، إنه لا يزال فى عروقنا ذلك الدم الذى نضح الأرض من بواية إلى الصين ، وفى قلوبنا ذلك النور الذى أضاء الدنيا من مشرقها إلى المغرب ، وفى سواعدنا ذلك العزم الذى هدّ بروج الطغيان وتهاوت له التيجان ، وفى أفواهنا ذلك النشيد الذى علا فى كل مكان ، فكانت تخشع له الرواسى وتطأطىء الشامخات : لا إلـه إلا الله ... والله أكبر !

على الطنطاوى

محمد والإنسانية

للأستاذ عمر الدسوقي



ظلت الإنسانية تتعثر فى حلكة دامسة ، منذ درجت على أديم هذه البسيطة ، قروناً تتراجع بعيداً فى أغوار الزمن السحيقة ، لا ترى قبساً من نور يهديها الطريق فى سدفة الظلام إلا غرائزها الفطرية التى نمت وفقاً للبيئة التى شب فيها الإنسان ، والحياة التى انتهجها لنفسه — حياة الأدغال والكهوف والصيد — وإلا لمحات من النور تلمع فى الفينة بعد الفينة فى أفق الانسانية حينما يرسل الله نبياً من أنبيائه ، لا يلبث بعده قومه أن يعودوا أدراجهم إلى أحضان الظلام .

أما العقل ، ذلك النور الكامن فى الإنسان ، فكان يغط غطيطاً ثقيلا ، وإذا حاول اليقظة ردته غشاوة التقاليد ، وكابوس الغرائز ، وهبت عليه أعاصير الخرافات ، فأطفأت الشعلة التى تجرأت أن تبرق فى ذياك الديجور المرعب .

نشأ الإنسان فى هذا الظلام الروحى يقدس كل ما أعيته الحيلة فى إدراك كنهه ، وكل ما خشى سطوته وبأسه ، يقدس الشمس مصدر الحرارة والضوء والحياة ، والنهار ، والرياح العاتية ، والرعود القاصفة ، والسيول الجارفة ؛ ويقدم لها جميعاً القرابين حتى تهدأ ثائرتها ، وترضى عنه فلا تعرقل سعيه فى طلب القوت ، وهو كل مبتغاه ، ولا تطرح بنسله ، وهو كل ما يحرص عليه .

نشأ الإنسان تستوعب قلبه الأثرة والمادة ، والتعصب للجنس والقبيلة ، التى يطمئن إلى حمايتها ؛ ونشأ يمجد القوة والبطش .

وحاشاى أن أرجع إلى عهود الظلام فأسرد تاريخ الإنسانية الرهيب ، تلك العهود التى نظن أنها مترامية فى أعماق التاريخ ، أو ما قبل التاريخ ، وماعهد الإنسان بها ببعيد ؛ فعصور الحضارة منذ اكتشفت النار حتى اليوم تعد شهوراً قليلة فى عمر إنسان لا ينيف عن الخمسين ؛ ولذلك كانت الحضارة فى الإنسان غير أصيلة وهو دوماً نزاع إلى التحفظ والتمسك بأهداب التقاليد القديمة ، سيان منها ما استحسنه العقل الحر وما استهجنه . ولذا أيضاً يخشى على الحضارة أن يعصف بها صراع هائل كالذى شهدنا فى هذه السنوات الماضية فيرتد الإنسان ثانية إلى غياهب الظلمات .

أذكر هذا ، وأذكر رسالة محمد عليه السلام ، وكيف كانت حال الإنسان لعهدها : فمصابيح الحضارة اليونانية والرومانية والفارسية قد أوشكت أن تنطفىء ، وأخذ الناس يرجعون القهقرى إلى غرائزهم وطباعهم ؛ يتنازع العالم المعروف إذ ذاك دولتان قد استعرت بينهما نار الحرب ، وتكالب الناس على المادة ، فلا ترى إلا عقولا ذاوية وقلوباً خاوية ؛ ولذلك كانت رسالة محمد دفعاً قوياً إلى وضح النهار ، وطالما ذكر القرآن الكريم العالم بهذا :

« قد جاءكم من اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ يهدى به اللهُ من اتَّبَعَ رِضوانهُ سُبُلَ السلام ، ويُخرجُهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم » .

جاء محمد عليه السلام ، يحرر الإنسانية من أغلال الجهل والفساد ، يبنى لها حياة هادئة وادعة ، يغمرها نور الأيمان والعلم ، ويعيش فيها الناس على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات ، فى السراء والضراء ، فحارب بشدة تلك النعرات الجاهلية الناشئة ، والعصبيات القبلية الذميمة ، وأعلن أن الناس سواء ، فلا يفضل إنسان ما غيره من البشر بالجنس أو الدم أو القوة ، ونادى ذلك النداء الذى يشع النور من كلماته :

« الناس سواسية كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية »

« الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب » .

« لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى » وجاء القرآن مصدقاً لهذا حيث يقول :

« يا أيها الناس إنا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

رأى محمد عليه السلام النفوس تغص بالجشع ، والقلوب تجيش بالطمع ، والأثرة تسيطر على العقول ، فاستبد القوى بالضعيف لا يفكر المرء إلا بنفسه ، ولو تقطعت الأرحام ، وذوت صلات القربى ، وأصبح بذلك الظلم والبغى والمنكر قانوناً يطبقه الغنى

والقوى ، ويرضخ له الذليل والفقير ؛ وما هذا لعمرى سوى قانون الأدغال والغابات ، فنادي الله تعالى فى كتابه :

« إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

نظم محمد عليه السلام العلاقات الإجتماعية على أساس التعاون الوثيق بين الأفراد ، والمحبة والأخاء ، فالسادة الذين يشمخون بأنوفهم كبراً ، وتنتفج قلوبهم عنجهية ، يجب أن يتطامنوا ويتواضعوا ، وإلا فإنهم محرومون رضاء الله حيث آذوا عباده :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » . ويقول مرة أخرى :

« يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » .

أما هؤلاء الذين أدركوا معنى الإنسانية ، وتجافوا عن الكبرياء ، ورضى الله عنهم ، فهم الذين قال فيهم القرآن :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

ويجمع محمد عليه السلام قانون العلاقات الإجتماعية فى حديثه الشريف : « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ». ونرى القرآن يحد من غريزة العدوان ، ودفع الشر بمثله فيقول :

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

ولم تك هذه التعاليم مجرد آيات تتلى ، وأحاديث تتردد ، بل تشربتها قلوب العرب ، أكلة الشيح والقيصوم ، واتخذتها نبراسا تستضىء به ؛ فملأوا الدنيا عدلا وأمناً وحرية ، فاستمع إلى أبى بكر يقول :

« إن القوى فيكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم عندى القوى حتى آخذ الحق له » .

واستمع لعمر بن الخطاب يقول :

« متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

ولا بدع فدين محمد عليه السلام ليس مجرد صلاة وعبادة ؛ وإنما أساسه حسن المعاملة بين الناس ، وشعور كل فرد بشخصيته وحريته فى حدود القانون والمصلحة العامة ، فيقول الله تعالى :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

ولم تكن الصدقات تفضلا من ذوى اليسار على ذوى المتربة يؤدونها تارة ، وينكرونها أخرى ، بل كانت فرضاً محتوماً يخرجونه من أموالهم عيناً كانت أو عروضاً ، ثابتة أو منقولة .

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم » .

وأصرح من هذا قوله تعالى :

« إن الإنسان خُلِقَ هلوعاً ، إذا مَسَّه الشرُّ جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حقٌ معلوم للسائل والمحروم » .

ولما كان حب المادة متأصلا فى النفوس البشرية منذ كانت فى عصور الظلام رأى محمد عليه السلام أن طالب المادة لا يشبع ، وأن الروح لابد لها من غذاء ، ولقد كانت حياته هو نموذجاً لتغذية الروح ، وتجنب زخرف الحياة ، ومع هذا فلم يحث القرآن الناس على ترك الدنيا ؛ لأن الإسلام دينٌ عملى يتمثل فى الآية :

« ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسِنْ كما أحسَنَ الله إليك » ، ويتمثل فى الأثر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . وإنما كان القرآن يعقد تفاضلاً بين الحياة الدنيا والآخرة مخافة أن يطغى حب المادة على الروحانيات ، ولهذا يقول تعالى :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » ويقول عز وجل : « وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون »

ولما كان العقل قد طال ركوده نفخ محمد عليه السلام فى تلك الجذوة المطمورة حتى عادت شعلة ملتهبة ، ولهذا كثر توجيهه الناس إلى التفكر فيما حولهم من بدائع المخلوقات حتى يحرك أذهانهم :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »

ولما كان العرب فى عهده أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب حثهم على التعلم ، رافعاً من شأن العلم وأهله ، وافتداؤه أسرى بدر بتعليم كل منهم عشرة من أبناء المسلمين خير مثال عملى على ذلك ، وقوله فى الحديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » كان أكبر حافز على اهتمام المسلمين بالعلوم ، واستمع إلى القرآن الكريم كيف يعظم العلماء ويوجه الفكر توجيها صحيحا :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » .

وهذا يفسر لنا تلك النهضة العربية الإسلامية التى ظهرت بعد بعثته ، وشغف المسلمين بالفلسفة والعلوم العقلية التى أحيا المسلمون شعلتها وزادوا فى سناها ، وتلقفتها أوربا من أيديهم ساطعة منيرة .

ولم يك محمد عليه السلام متعصباً لدينه ، ينكر الأديان قبله ويذمها ، بل جعل شرط الإسلام الإيمان بما أتى به النبيون من قبل :

« قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

دين محمد لا يعرف التعصب بل يشمل الإنسانية كلها لا يفرق بين الأجناس ولا البلاد ولا الحدود : « وهو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » .

هذه لمحات سريعة من بعض تعاليم الإسلام التى أخرجت الإنسانية من الظلمات إلى النور ، فهل لنا بنفحة من نفحات محمد عليه السلام ترف على العالم فتهديه سبل السلام وقد أوشكت مآسيه أن تلقف كل ما بنى النور وشيد ؟ !

عمر الدسوقى

موقفنا من الحضارة

للأستاذ قدري حافظ طوقان



تقدم العلم تقدماً نتج عنه انقلاب خطير فى الأوضاع والمرافق، فقد غزا جميع نواحى الحياة صغيرها وكبيرها، جسيمها وتافهها، ودخل فى الطعام والشراب، فى الترف والنعيم، فى الحقل والبيت، فى الحرب والسلم.

وأصبحنا لا نعيش إلا فى جواء من العلم، ولا نسير إلا على طريقة تحيط بنا الاكتشافات وتكتنفنا الاختراعات، فآثار العلم بادية فى كل مكان وأصوله متغلغلة فيما جلّ من الشئون وما هان.

سرّح الطرف وانظر ما أخرجه العلم من مميزات ومعجزات فى عالم الصناعة والآلات، تجد أن العلماء استغلوا الطبيعة والكيمياء والهندسة وما إليها فأتوا بالكهرباء وقالوا لها كونى نوراً فكانت، كونى ناراً فكانت، كونى حركة فكانت المحركات تسير فى ركابها القاطرات والساريات والطائرات كما تدير الآلات، تعمل ما يعمله الإنسان بيديه وما لا يستطيع، ولكن بقوة وعزيمة ودقة قاربت حدود الكمال.

ثم أتى إلى الأمواج اللاسلكية وجعلها رهن إرادته، فإذا المستحيل ممكن بل واقع، وإذا الإنسان يملأ بها الجواء تحمل له الأنباء والأخبار والصور. واتجه العلماء إلى الإنسان وجسده فتمكن العلم من كشف بعض أسرار الحياة وقواعد الصحة وأسباب الأمراض ووسائل العلاج فتفنن فى صنع الأدوية والأمصال واستخرج من العفن البنسلين والفينيسيلين فأتى بالعجب العجاب من فتك بالجراثيم والأمراض وإبادة آثارها وما تتحفه من آفات.

ولم يقف الغرب عند هذه الحدود، بل أقام الزراعة والفلاحة والاقتصاد والتجارة والتعليم والسياسة على أساس من العلم فدانت هذه لمآربه وغاياته ونجم عن ذلك تقدم مادى لم يخطر على بال إنسان.

وجاء بعد ذلك إلى الشرق فدرسه وخبر أحواله، ورأى أن من حقه استعماره واستغلاله، كما يستغل الأرض ويستعمرها، وهكذا كان وهذا ما هو جارٍ الآن فإذا الشعوب كالحديد والنحاس تستغل لحساب الأمم ذات القوة والبأس، وتُسخَّر لمصالحها وغاياتها، ذلك لأن الغرب سار على مقتضى العلم يستخدمه فى الحياة والعمران بينما الشرق بقى بعيداً فلم يَسِرْ فى حياته وفق العلم ولم يدرك بعد أن العلم هو الذى يدفع الأمم دفعاً فى مضمار التقدم، وأن لا حياة لأمة تعيش بعيدة عن العلم وآثاره، ولا كيان لشعب لا يؤسس حياته على العلم، فهو مفتاح النهوض وهو أسُّ الارتقاء فى معارج المجد والخلود.

هذا هو طابع المدنية الحديثة — طابع العلم — الذى دخل فى صميم الحياة وانبثّت حقائقه فى شؤونها العملية منها وغير العملية. هذا هو الوجه الحسن فى الحضارة الحالية والجانب اللامع منها.

ولكن مهلاً ... هناك ناحية ضعف أدت إلى ما نراه فى المدنية من أفلاس، ومن عدم ملاءمتها للحياة الهادئة القائمة على قواعد الخلق والروح والفضائل.

لقد استغل العلماء العلم بعيداً عن قوى الروح والقلب، فأعلوا من شأن العقل والعلم علواً كبيراً، وحكموا العقل فى القلب كما حكموا العلم فى الدين فنتج عن ذلك ما نراه من فوضى خلقية وحروب طاحنة رهيبة، فاستأسدت الغرائز وأسرفت المطامع فإذا آلة العلم تتجه نحو التدمير والتخريب والفتك والتقتيل حتى أصبحت القوة مقياس تقدم الأمة وعظمتها، ولو تدخل القلب واتجهت آلة العلم نحو البناء والأثمار والخير والكمال لسمت المدنية وارتفع شأن الإنسانية ولسار العلم فى خدمة الحياة وإعلاء مقامها.

ومن هنا يتبين أن الأمم لا تصلح بالعلم بقدر ما تصلح بالقلب والأخلاق، وأن التقدم الذى وصل إليه الإنسان — وقد توافرت فيه أسباب الرفاهة والرخاء — لم ينج الإنسانية من المصائب المحيطة بها ولا من الأهوال التى تنصب عليها.

هل قضى هذا التقدم على المشاكل العديدة التى يعانيها المجتمع؟

الواقع المشاهد أن المدنية الحديثة قد زادت المشاكل تعقيداً والتواء كما سلبت العالم راحة البال وطمأنينة النفس، ذلك لأن حكمة الإنسان قد قصرت عن تثقيف الرغبات والنوازع الإنسانية غير

حاسبة حساباً للخلق العالى ومعانى الحق والواجب والمثل العليا .

والذى يخشاه كبار الفلاسفة أن الحكمة البشرية إذا أفلست فى النهوض بعبء ادماج العلم فى أغراض الروح والخلق استمرت هذه القوى فى اتجاهها نحو التدمير وهددت بزوال ما بقى من معالم الحضارة وآثار الفكر والعقل .

وعندئذ يسكن العلم المصنع ، ويطغى العلم على القلب ، والماديات على المعنويات فتبقى الحضارة على مشاكلها والناس فى قلقهم والأفكار فى اضطرابها وتتضاعف متاعب الإنسان وتزيد تعقيداً فلا يخرج من فوضى إلا ويجابه فوضى أشد وأنكى فلا راحة ولا أمان ، ولا سلام ولا اطمئنان .

وعلى هذا فالعلم وحده لا يكفى لوضع حد لشرور العالم وآثامه ، والعلم وحده لا يكفى للخلاص من الصعاب المحيطة به من كل جانب يجب أن يقوم العلم على عناصر روحية ومعنوية تعلى من شأن المثل العليا والأخلاق الفاضلة كما يجب أن تقوم الحضارة على المعنويات وتوفق بين العلم والروح كما تلائم بين العقل والقلب . والحياة لا تكون آمنة يسودها رحمة وسلام إذا طغى العلم على الأرواح والأوضاع ، بل إنها لا تكون نامية رائعة إذا لم تسر على وحى القلوب ولن يستطيع الإنسان أن يرد عن الحياة الآثام والشرور والمفاسد إذا حكَّم العلم وحده منصرفاً عن معانى الخير والجمال .

والعيش لا يصفو فى جو مادى تفرغ فيه القلوب وتمتلأ به الجيوب ، والأعصاب لا تهدأ وهى عرضة للنزعات التى تذكيها المادية ! وهل لحياة قيمة بل هل يكون لهـا روعة إذا بعدت عن المعنويات وهزأت بالروحيات ؟.

إن العلم قد وضع فى أيدينا قوة عظيمة إذا لم نحطها بسياج من الخلق والروح انقلب إلى قوة هدامة مدمرة . وعلى المعاهد والمفكرين أن يعملوا على حفظ هذه القوة ضمن هذا السياج لتجنى منها الإنسانية قوى الخير والبناء والأثمار .

وعلى المفكرين والمعاهد أن يحاولوا المساهمة فى هـذا السبيل ويسيروا بجهودهم فى طريق ادماج العلم فى أغراض الروح العليا حتى يعرف النشء كيف يعيشون وكيف يقومون بواجبهم ويؤدون رسالاتهم بنفحات روحية وعلى أساس من الخلق متين .

يهمنا ألا يغتر النشء بهذه الحضارة وأن لا يسيروا وراءها دون روية وتمحيص ، وأن لا يأخذوا بآراء القائلين بالسير مع المدنية والانغماس فى ماديتها ونبذ التقاليد الشرقية والعربية وقطع كل صلة بالماضى .

يظن كثيرون من الشباب أن قطعة صغيرة من طائرة أو سيارة أفضل لنا من كل ما ورثناه من خلق ومعنويات وتراث روحى خالد .

لقد شطَّ الفكر . انظروا إلى أوربا فعندها الاختراع وعندها الآلات ، وعندها المصانع والأدوات ... انظروا ماذا حل بها ؟ وكيف حالها فى هـذه الأيام ؟ نظروا إلى العلم لكنهم لم يعبأوا بالقلب أو الروح .

نظروا إلى النجوم ، لكنهم لم ينفذوا ببصيرتهم إلى الله وراءها.

ماذا كانت النتيجة ؟ كروب أحاطت بهم وحيرة انتابتهم فإذا هم فى جحيم يتلظى وفى دنيا من نار ودخان .

لا كانت مدنية ، ولا كان علم يقود العالم إلى هذا الدمار وإلى هذه الفوضى فى الخلق والأوضاع .

ليس العلم كل شىء فى هذا الوجود .

إن الأخلاق والمعنويات شىء عظيم فى هذا الوجود . والإنسان لا يكون الرجل الذى ينشده الدين والفضيلة إلا إذا صح إيمانه بالله وحكم القلب على العقل والمعنويات على الماديات .

والمدنية لا تكون سامية فاضلة إلا إذا سيرت العلم مع القلب والعقل مع الإيمان واليقين .

إذا أيقن الإنسان أنه عماد أمته ، به يرتفع شأنها وبه تقوى وتزداد حيويتها ، إذا أيقن أنه من وثبات مجدها ومن خفقات قلبها وأن أعزر الناس حياة أعمقهم تفكيراً وأنبلهم شعوراً وأصلحهم عملا ... عندئذ فهو الجدير بالحياة الكريمة وحمل أمانيها وتبعاتها .

إن الجماعة إنما تصلح بالخلق والضمير لا بالعلم .

وأن النفوس لا تقوى إلا بتذليل الصعاب ومجابهة المتاعب والعقبات والأخطار ، وإن من يقف أمواله وأيامه وجهوده على إمتاع نفسه لا يعرف الحياة لأنه لا يعرف الوطن .

وأخيراً إن العلم وحده نقمة وشقاء وهدم وتدمير .

وإن العلم لا يزكو ولا يثمر ولا يصبح أداة خير وبنـاء وإصلاح إلا على أساس من الروح والخلق العالى ، وإن الرجل العظيم هو الذى يرشد بالمعرفة والعطف لا من يستفز بالتحكم والبطش وإن أعظم الجماعات أقواها قلباً وأحياها ضميراً .

(نابلس) **قدرى حافظ طوقان**

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٥٤ — الاثنين ١٤ يناير ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 654

Lundi — 14 — 1 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٦٥٤ — « القاهرة فى يوم الإثنين ١٠ صفر سنة ١٣٦٥ — ١٤ يناير سنة ١٩٤٦ » — السنة الرابعة عشرة

عاهل الجزيرة العظيم !

من بوادى نجد منبت العَرار والخُزامَى ، ومهبّ الصَّبا ومسرى النُّعامَى[1] ، فاحت عطور الإسلام والعروبة من جديد ، وباحت الرمال الصامتة بسرها المكنون منذ بعيد ؛ وهبّت نفحات الرسول على آل الشيخ[2] وآل سعود فجددوا ما رثّ من حبل الدين ، وجمعوا ما شتّ من شمل العرب ؛ وتهيأت الفرصة مرة أخرى لشريعة الله لـتُرىَ الناس كيف بسطت ظلال السلام والوئام والأمن على أشد بقاع الأرض ضلالة وجهالة وفتنة ؛ وتجلت فى طويل العمر عبد العزيز فضائل العرب الأصيلة : فتمثل شاعريتها فى رهافة حسه ، وأريحيتها فى سماحة نفسه ، وحميَّتها فى صرامة بأسه ؛ فهو فى دينه النقى الخالص ، وفى خلقه السَّرىّ الصريح ، دليل ناهض على أن الجزيرة العربية لم تعقُم بعد أنصار الدعوة وأبطال الفتوح . ولا يضيرها أن تتباعد فترات الإنجاب ما دامت تنجب فى القرن الأول ابن الخطاب ، وفى القرن الأخير ابن السعود !

والملك عبد العزيز كالخليفة عمر من القادة المصطَفَين الذين صنعهم الله على عينه ، وأمدهم بسلطانه وعونه ، ليؤيدوا رسالة أو يجددوا دعوة أو يوحدوا أمة . وقد اصطفاه الله من آل سعود ليكشف على يديه ما ادخر فى هذه الأرض المقدسة المجهولة من ثراء وقوة ، وليعود العرب بنعمة الله عليهم وعليه أمة واحدة ذات عزة وسطوة . والعرب والمسلمون على اختلاف المذاهب ، وتباين الأجناس ، وتنائى الديار ، يولون وجوههم كل يوم خمس مرات شطر المملكة السعودية ، لأنها صلتهم بالسماء ، ورابطتهم فى الأرض ، ومنارتهم فى الحياة !

وابن السعود هو ملك الوطن المشترك ، وإمام القبلة الجامعة ؛ لذلك أوتى مَحابّ القلوب وطواعية النفوس ، فله فى صدر كل عربى مكانة ، وفى عنق كل مسلم ذمة !

ولقد كان استقباله فى مصر يوم الخميس الماضى تعبيراً شعبياً قوياً عن هذه المعانى التى تجول فى كل خاطر وتتمثل فى كل ذهن : كان استقبالا رائعاً لم تشهد الكنانة مثله لزعيم أو فاتح ؛ لأن العواطف التى حشدت هذه الألوف المؤلفة فى طريق الموكب الملكى على أطورة الشوارع وطنوف العمائر ، وفى أفواه الأزقة ونوافذ البيوت ، كانت شيئاً آخر غير الفضول الذى يسوق الناس فى مثل هذا اليوم ليشهدوا ضخامة الحشد وفخامة الجند وروعة السلطان : إنما كان استقبالا روحياً طبيعياً فيه الحب والإعجاب ، وفيه التجلة والقداسة ، وفيه معنى أسمى من كل أولئك وهو شعور كل مصرى بأنه يستقبل فرعاً من أصله ، وعزيزاً من أهله

فعلى الرحب والسعة يا مجدد التوحيد والوحدة ، ومقيم ملكه الأشم على الحميّة والنجدة ! وعلى الرحب والسعة يا حامى الحرمين ، وثِمال القريتين ، وباعث الجزيرة الهامدة إلى عصر جديد سعيد يقوم فيه أمر الله على سيف على ومصحف عثمان ودرة عمر وعزيمة الصديق !

احمد حسن الزيات

(١) العرار والخزامى من رياحين نجد ، والصبا تهب فى نجد شرقا والنعامى تهب جنوبا وهما أبل الرياح وأرطبها .

(٢) الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

فلســـطين ... !

للأستاذ عمر الدسوقي

وإن تعجب فعجب لأمريكا القوية العالمة كيف عمى عليها فلم تتبين الحق الأبلج الوضاء كأنه الصبح المشرق ، من الباطل الخبيث المعتم كأنه قطع الليل البهيم :

حق فلسطين العربية المجاهدة ، وفى يمينها سفر يسطع بالكفاح المجيد ، والتاريخ العتيد ، والتراث التليد ، والحجج الدامغة ؛ ومن ورائها جمهرة بنيها تلهج بلسان عربى مبين ، وتتقد حماسة ، وتشتعل وطنية فى الدفاع عن الوطن الغالى ، متحدية فى شمم وكبرياء مال اليهود وجيش الإنجليز .

وباطل الصهيونية المدلسة الناشئة ، ولا تملك من برهان تقنع به بعض الأمم إلا المال تشترى به ضمائر الساسة ، وتسخر به أقلام الكتاب ، وتفتن به أرباب الصحف ، وتسيطر به على الأسواق ، وتزخرف به الدعايات المزورة .

من كان يظن أن أمريكا تناصر البهتان فى أبشع صوره ، وقد دوت صرختها فى أرجاء المعمورة ، يوم أن نزلت إلى ساح الوغى تملأ البر جيوشاً ، والبحر أساطيل ، والسماء أسراباً ، وحشدت العلم والمال ، وأرخصت العزيز ، والتفتت إلى العالم تنبئه أنها ستصرع الباطل ودولته ، والبغى وصولته ، وأنها درء الضعيف المهضوم الحق ، وكفيلة الحريات بشتى أنواعها ، وأنها تنشد للعالم سعادة ورفاهية وحياة مديدة فى رخاء وبلهنية .

أكان ذلك خداع المحتاج ، ونفاق المضطر ؟ أضحى بألوف الألوف من الشباب الغض ، وروعت الأسر الآمنة ، والمدن الوادعة ، وضربت الأرض العامرة الممرعة ، ودكت المصانع المزدهرة اليانعة ، وقوضت أركان المدنية وبلبلت أفكار الإنسانية وزلزلت مبادئها من القواعد ، فى سبيل قضية ملفقة ، ودفاعاً عن النهم ، ونصرة للباطل فى مسوح الحق ؟ !

يا للعار ! !

إن هذا الحكم الجائر على فلسطين العربية الذى افتتح به نواب أمريكا وشيوخها عهد السلم ، لأكبر وصمة للمدنية الغربية وأنصع دليل على الضمائر المعتلة ، والموازين المختلة ، والمواثيق الكاذبة ، والأيمان الحانثة .

ومن عجب أنهم يصدرونه حفاظاً على ضمائرهم أن تلوث وعهودهم أن تدنس ! فأى باطل وأى إفك ! !

فيم التحكيم ، وقد صدر الحكم ؟ إنه أمر بيت بليل ، وقد وضحت سرائر القوم وما يضمرونه من سوء ، وبدبرونه من مكيدة !

ليست فلسطين صنيعة لبعض أرباب الملايين فى أمريكا حتى توهب لأفاق الأرض ومن لفظتهم ديارهم من اليهود .

إن العرب وحدهم هم أولو الشأن فى فلسطين ، مهما ظاهر الباطل من قوى وأيده من جاه ، وعاضده من ضغط سياسى وأدبى ومادى .

الكلمة فى فلسطين للعرب ، والحكم لهم دون سواهم ، فإن شاءوا تحطمت قوى الباطل وعظموته على صفاة إيمانهم وشجاعتهم وصبرهم ، وإن شاءوا استناموا للوعود المعسولة ، والمماطلات الكاذبة ، والأساليب الملتوية الدنيئة ؛ فضاعوا وضاعت ديارهم كلها لا فرق بين فلسطين وغيرها .

إن الأمم التى تريد الحياة العزيزة الحرة لايضيرها ما يبيته لها الأعداء ، وما يحكمون به عليها ، ما دام الإيمان يملأ جوانح قلوب أبنائها ، وما دامت عزائمهم مبرمة ، وأمورهم محكمة ، وكلمتهم واحدة .

أمريكا تريد أن تتخلص من اليهود الذين ينافسون أبناءها ويسدون عليهم سبل العيش ، ويسيطرون على تجارتها ، وصحافتها ومسارحها ، وخيالتها ، وشركاتها ، شأنهم فى هذا شأن إخوانهم فى كل بقاع الأرض ؛ وتدعى أمريكا أنها حزينة تذوب من الأسى والحسرة لهؤلاء اليهود المشردين فى خرائب أوربا ؛ وأنها لن تهدأ حتى تجد لهم مأوى — لا فى سهول أمريكا الخصبة الغنية ، ومدنها العامرة الفتية ، ولكن — فى أرض فلسطين الجرداء وعلى ضفاف البحر الميت . فأى إفك وأى زور ! !

لتقل أمريكا ما تشاء ، فالكلمة الأخيرة للعرب ، وهم

يؤثرون الفناء بالقنابل الذرية أو بغيرها ، عن أن يجعلوا من فلسطين أندلساً أخرى تغتصب من بين أيديهم وهم ينظرون . لو حدث هذا — لا قدر الله — فقل على الجنس العربي العفاء ، ولن يكون ذلك مادام في العرب أنفاس تتردد وقلوب تنبض .

أول سلاح للمقاومة هو المقاطعة التجارية ، وقد وضع السلاح في أيدي الشعوب العربية ، وهو سلاح فعال قتال ؛ لأن اليهود من عباد المال ، وقديماً حينما أغواهم الشيطان ، فضلوا عن عبادة الرحمن ، اتخذوا لهم عجلا من ذهب يعبدونه من دون الله . ولا يزالون حتى اليوم يقدسونه ويؤلهونه .

ولكن الأمر يتطلب مِنّا جداً ، حكومات وشعوباً ، فالسلع الصهيونية قد غمرت الأسواق مدة الحرب ، واليهود يسيطرون على التجارة : فهم الوسطاء ، وهم كبار المستوردين ، وهم أثرياء التجار ، ولن ننجح في المقاطعة إلا إذا منعت الحكومات استيراد سلعهم ، وتيقظت الشعوب ، ورفضت في أنفة وحمية أن تعامل اليهود أو تشتري منهم . إني لا أخشى على أهل الشام إخفاقهم في المقاطعة فهم رجال ذوو دربة وجرأة في التجارة ، وجلد على الأسفار ، يستطيعون بما رزقوا من موهبة عملية أن يرحلوا إلى أوربا ويغشوا أسواقها ويجلبوا منها السلع المتباينة ، ويقضوا على الوساطة اليهودية ، والاستيراد اليهودي ، فيربحوا ربحاً مزدوجاً في المال وفي الوطنية ، ويضربوا اليهود ضربتين مادية ومعنوية .

ولكني أخشى على المصريين ، فالوساطة اليهودية في كل السلع تسيطر على أسواقهم ، ولم نر منهم من شمّر ، وغامر وسافر واتصل بالمصانع والمتاجر الكبرى في بلاد الغرب ؛ فاكتسب تجربة ومالا ، وقضى على عدو يمتص دمه ويعرق لحمه ، ويلقي له بالفضلات والنفايات بعد أن يشبع ويبشم .

إن اليهود بعضهم لبعض ظهير ، ونحن إن لم نقاطع السلع اليهودية والوساطة اليهودية نكون قد جرحنا العدو ولم نقتله . فهل نرى من شبابنا الناهض وتجارنا الذين أثروا مدة الحرب شجاعة وإقداماً ؟ فيجددوا في طرق التجارة المصرية ؟ . وهل نجد عند الشعوب العربية حماسة ويقظة تجعلهم دائماً حريصين على استعمال سلاح المقاطعة الفتاك حتى تُدحر الصهيونية ؟

يستطيع اليهود بأموالهم العظيمة ، وبعطف إخوانهم الأثرياء عليهم في كل بقاع الأرض ، أن يشيدوا المصانع في فيافي فلسطين إذا عجزوا عن زرعها ، وأسسوا المدن التي تزخر ببني جنسهم إذا لم يستطيعوا تأسيس القرى والضياع ، فإذا أردنا أن ندك تلك المصانع ونهدم تلك المدن ، ونجعل فلسطين عليهم بلقعاً جديباً يضيق بهم فيأكل بعضهم بعضاً أو يخلونه ويرحلون ؛ فعلينا بالمقاطعة وتنظيمها حتى يحسوا بها قريباً ، ويعلموا أننا أمم جادة لا هازلة ، وأننا نريد الحياة ونتقن الكفاح ، وأننا في غنى عنهم ، وعما يتشدقون به من إصلاح لأرض فلسطين وزيادة في ثروتها .

أيها العرب ! الكلمة لكم ! والأمر خطير !

اذكروا ضحاياكم ، وقراكم ، وأرضكم ، وتاريخكم !

اذكروا أنكم إن تقاعستم شرد إخوانكم ، ونكبتم في أموالكم ، واستولى عليكم اليهود ، وصرتم لهم أجراء ، وعبيداً أذلاء ! !

اذكروا أن الجامعة العربية — تلك الأنشودة القوية ، والأمنية الحلوة التي طالما ترنمنا بها هي التي تشهر سلاح المقاطعة وهي التي تخوض تلك المعركة ، فإما نصر بعده مجد مؤثل ، وإما إخفاق يتبدد به هذا الحلم الجميل — لا قدر الله .

عمر الدسوقي

في إرشاد الأريب

إلى معرفة الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٢٢ —

ج ٥ ص ٢٤٥ :

فهلا فلى فى الأرض عن منزل العلا
مسار إذا أخرجتنى ومسارب
وإن كنت ترجو طاعتى باهانتى
وقسرى فان الرأى عنك لعازب

قلت : إذا أحرجتنى :

***

ج ١٠ ص ٢٠٨ : ومن جيد شعره (شعر أبى زبيد الطائى) :

إن نيل الحياة غير سعود وضلال تأميل نيل الخلود[1]
علل المرء بالأمانى ويضحى غرضاً للمنون نصباً لعود[2]
كل يوم ترميه منها برشق فمصيب أوصال غير بعيد
كل ميت قد اغتفرت فلا واجع (م) من والد ومن مولود[3]

قلت : (علل المرء بالرجاء ويضحى غرضاً للمنون نصب العود)

(فمصيب أوصاف غير بعيد) فى اللسان : صاف السهم عن الهدف يصيف صيفاً : عدل بمعنى ضاف .

(فلا أجزع من والد ولا مولود) .

فى (الشعر والشعراء) لابن قتيبة : وعلى هذه القصيدة احتذى ابن مناذر فى مرثية عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى .

فى (الكامل) : ومن حلو المراثى وحسن التأبين شعر ابن مناذر فانه كان رجلا عالماً مقدّماً شاعراً مفلقاً وخطيباً مصقعاً وفى دهر قريب ، فله فى شعره شدة كلام العرب بروايته وأدبه ، وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته . ولا يزال قد رمى فى شعره بالمثل السائر والمعنى اللطيف واللفظ الفخم الجليل والقول المتسق النبيل . وقصيدته لها امتداد وطول ، وإنما نملى منها ما اخترنا . قال يرثى عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى ، واعتبط عبد المجيد لعشرين سنة من غير ما علة وكان من أجمل الفتيان وآدبهم وأظرفهم .

وروى أبو العباس من القصيدة تسعة وثلاثين بيتاً ، منها :

حين تمت آدابه وتردى برداء من الشباب جديد
وسقاه ماء الشبيبة فاهتز (م) اهتزاز الغصن الندى الأملود
وسمت نحوه العيون وما كان (م) عليه لزائد من مزيد
ما درى نعشه ولا حاملوه ما على النعش من عفاف وجود !

فى (الأغانى) : لما قال ابن مناذر :

ولئن كنت لم أمت من جوى الحزن (م)
عليه لأبلغن مجهودى
لأقيمن مأتماً كنجوم الليل (م) زهراً يلطمن حر الخدود
موجعات يبكين للكبد الحرى (م) عليه وللفؤاد العميد !

قالت أم عبد المجيد : والله لأبرن قسمه ، فأقامت مع أخوات عبد المجيد وجواريه مأتماً عليه ، وقامت تصيح عليه : (واى ويه! واى ويه !) فيقال : إنها أول من فعل ذلك وقاله فى الإسلام .

***

ج ١٥ ص ١٨٥ :

فاسلم على الدهر شديد القوى ذا مرة ما شد كف بنان

قلت : (ما شد كفاً بنان) فى التاج : قال شيخنا هى (الكف) مؤنثة وتذكيرها غلط غير معروف وإن جوزه بعض تأويلا ، وقال بعض : هى لغة قليلة . فالصواب أنه لا يعرف ، وماورد حملوه على التأويل ، ولم يتعرض المصنف (صاحب القاموس) لذلك قصوراً أو بناء على شهرته أو على أن الأعضاء المزدوجة كلها مؤنثة . وفى اللسان : الكف : اليد أنثى ، وفى التهذيب : والعرب تقول : هذه كف واحدة . وفيه : البنان الأصابع وقيل : أطرافها واحدتها بنانة . وفى الصحاح : ويقال : بنان مخضب لأن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء فانه يوحد ويذكر .

***

(١) رواية (جمهرة أشعار العرب) للقرشى : (طول الحياة وطول الخلود) ورواية الشعر والشعراء لابن قتيبة (نيل ونيل) مثل رواية (الارشاد)

(٢) فى طبعة (عيون الأخبار) : (يعلك المرء بالرجاء ويضحى) .

(٣) فى الشعر والشعراء :
كل ميت قد اعترفت فلا أوجع (م) من والد ولا مولود

ج ١٠ ص ٨٦ : قال (أبو القاسم الحسين بن على المعروف بالوزير المغربى) :

لى كلما ابتسم النهار تعـلة بمحدّث ماشـاء قلبى شأنه
فاذا الدجى وافى وأقبل جنحه فهناك يدرى الهم أين مكانه

وجاء فى شرح (ما شاء قلبى شأنه) : يريد أن حاله لا تتخطى ما أشاء .

قلت : (بمحدث ماشأن قلبى شانه) بتخفيف شانه ضرورة .

الوزير المغربى هـذا هو الذى بعث إليه أبو العلاء برسالة (المنيح) وأولها « إن كان للآداب أطال الله بقاء سيدنا نسيم يتضوع ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد فغمنا على بعد الدار أرج أدبه ، ومحا الليل عنا ذكاؤه بتلهبه[1] » وبرسالة (الاغريض) « لمـا أنفذ إليه مختصر إصلاح المنطق الذى ألفه وفيها وصف المختصر » وأولها : « بسم الله الرحمن الرحيم السلام عليك أيتها الحكمة المغربية والألفاظ العربيـة ، أى هواء رقاك ، وأى غيث سقاك[2] » .

قال العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام فى مبحثه (لزوم ما لا يلزم متى نظم وكيف نظم ورتب) :

« كان أبو القاسم المغربى الوزير ممن أقام بالمعرة ، وكان يواد المعرى ويراسله ، وكان المعرى يحفظ له ولأبيه من قبل أياديه ، فلما توفى رثاه بأبيات مثبتة فى اللزوميات ، ولا أعرف رثاء لغيره أو مدحاً صريحاً » وروى العميد اللزومية وهى سبعة أبيات ثم قال : « وهذا الوزير توفى سنة ٤١٨ . فهذه القطعة نظمت فى هذه السنة » .

قلت : ورد فى ختامها هذا البيت :

إن يخط الذنب اليسير حفيظاك (م) فكم من فضيلة محا يه

وإنى أرى أن البيت يشـير إلى شىء لم يذكر فى (إرشاد الأريب) ولا فى (وفيات الأعيان) ولم يشر إليه . وفى شرح النهج لابن أبى الحديد حديث عن الوزير المغربى فيه ما ليس فى ذينك الكتابين ، ومنه تعرف تلك الاشارة . وأن يذكر (الشيخ) ذنب الرجل — وإن صغره وقال بعده ما قال — براعة منه

(١)،(٢) رسائله ص ٥ ، ٣٥ وروى الاغريضية (صبح الأعشى) ج ١٤ ص ١٨٣

وإنصاف بأعلامه أن هناك مأثماً . وقل : « إنه كان حوبا كبيرا » .

قال ابن أبى الحديد : حدثنى أبو جعفر يحيى بن محمد بن زيد العلوى نقيب البصرة قال : لما قدم أبو القاسم على بن الحسين المغربى من مصر إلى بغداد استكتبه شرف الدولة أبو على بن بويه وهو يومئذ سلطان الحضرة وأمير الأمراء بها والقادر خليفة . ففسدت الحال بينه وبين القادر ، واتفق لأبى القاسم المغربى أعداء سود أوحشوا القادر منه ، وأوهموه أنه مع شرف الدولة فى القبض عليه وخلعه من الخلافة ، فأطلق لسانه فى ذكره بالقبيح ، وأوصل القول فيه والشكوى منه ، ونسبه إلى الرفض وسب السلف وإلى كفران النعمة وأنه هرب من يد الحاكم صاحب مصر بعد إحسانه إليه . قال النقيب أبو جعفر (رحمه الله تعالى) فأما الرفض فنعم ، وأما إحسان الحاكم إليه فلا ، كان الحاكم قتل أباه وعمه وأخاً من إخوته ، وأفلت منه أبو القاسم بجريعة الذقن[1] ، ولو ظفر به لألحقه بهم . وكان أبو القاسم المغربى ينسب فى الأزد ويتعصب لقحطان على عدنان وللأنصار على قريش ، وكان غالياً فى ذلك مع تشيعه . وكان أديباً فاضلا شاعراً مترسلا وكثير الفنون عالماً . وانحدر مع شرف الدولة إلى واسط فاتفق أن حصل بيد القادر كتاب بخطه شبه مجموع ... أتحفه به من كان يشنأ أبا القاسم ويريد كيده ، فوجد القادر فى ذلك المجموع قصيدة من شعره فيها تعصب شديد للأنصار على المهاجرين حتى خرج إلى نوع من الالحاد والزندقة لإفراط غلوه ، وفيها تصريح بالرفض مع ذلك ، فوجدها القادر تمرة الغراب ، وأبرزها إلى ديوان الخلافة فقرىء المجموع والقصيدة بمحضر من أعيان الناس من الأشراف والقضاة والمعدلين والفقهاء ، ويشهد أكثرهم أنه خطه وأنهم يعرفونه كما يعرفون وجهه ، وأمر بمكاتبة شرف الدولة بذلك ، فالى أن وصل الكتاب إلى شرف الدولة بما جرى

(١) هذه الجملة كان أصلها فى الكتاب (وأفلت منـه أبو القاسم بخديعة الدين) ولا معنى لها بهذا التصحيف . فى (مجمع الأمثال) : أفلت فلان جريعة الذقن : نصب جريعة على الحال كأنه قال : أفلت قاذفا جريعة : تصغير جرعة وهى كناية عما بقى من روحه يريد أن نفسه صارت فى فيه وقريباً منه كقرب الجرعة من الذقن ، ويقولون : أفلت بجريعة الذقن وبجريعاء الذقن . أضافها إلى الذقن لأن حركة الذقن تدل على قرب زهوق الروح والتقدير أفلت مشرفا على الهلاك .

اتصل الخبر بأبى القاسم فهرب ليلا ... وكنت برهة أسأل النقيب أباجعفر عن القصيدة وهو يدافعنى بها حتى أملاها على بعد حين، وقد أوردت هنا بعضها لأنى لم أستجز ولم أستحل إيرادها على وجهها.

وروى ابن أبى الحديد من القصيدة سبعة وعشرين بيتاً. ثم قال: فهذه الأبيات هى نظيف القصيدة التقطناها وحذفنا الفاحش، وفى الملتقط المذكور أيضاً ما لا يجوز...

قلت: أجترىء برواية هذا البيت من النظيف الملتقط ...:

والفضل ليس بنافع أربابه إلا بمسعدة من الأقدار

***

ج ١٦ ص ٣٠٣: ... فان من سلك الجدد أمن العثار، وسلم من سالم النقع المثار.

وجاء فى الشرح: المثار: المهاج المتطاير فى الهواء.

قلت: وسلم من سالمَ النقعَ المثارَ. وقد فسر المثار بالمهاج. والذى جاء فى اللغة فى هذا المعنى هو ما ذكره الأساس: «هاج الغبار، وهاجه وهيجه» فهو مهيج ومهيّج، وهاج يتعدى ولا يتعدى. و «أهاجه أيبسه» كما فى القاموس، وفى اللسان: «أهاجت الريح النبت أيبسته» ومثل ذلك فى التاج. وفى (الضياء) للشيخ اليازجى: «ويقولون: أهاجه الغضب، والصواب فى ذلك التجريد».

***

ج ١٠ ص ٩٠: وكان سبب تقدمه ونواله الأمارة.

وجاء فى الشرح: النوال العطاء واستعمله هنا بمعنى النيل.

قلت: يقول العلامة الشيخ إبراهيم اليازجى فى مجلته الضياء (س ١ ص ٣٨٥): ويقولون: هو يسعى لنوال بغيته، وإنما النوال بمعنى العطاء أى الشىء الذى يعطى وليس بمصدر لنال، والصواب لنيل بغيته.

ويقول العلامة الأمير شكيب أرسلان فى كتابه (شوقى أو صداقة أربعين سنة) ص ٥٦: ... وكان — يعنى الشيخ اليازجى — يمنع أن يقال (نوال) بمعنى (نيل) ولا يرضى لها تخريجاً. ولو قرأ — وأظنه من شعر الحماسة:

أرى الناس يرجون الربيع وإنما ربيعى الذى أرجو نوال وصالك

لعلم أنه لم يكن على صواب فيما ذهب إليه.

قلت: البيت فى مقطوعة بديعة مما اختار حبيب، وبعده:

أرى الناس يخشون السنين وإنما سنىّ التى أخشى صروف احتمالك

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرنى أنى خطرت ببالك

ليهنك إمساكى بكفى على الحشا ورقراق عينى رهبة من زيالك

***

ج ١٦ ص ٢٠٢: (من قصيدة فى وصف هرة):

ثم قلدتهـــا لخوفى عليها ودعات ترد شر العُيون

وإذا ما وترتها كشفت لى عن جراب ليست متاع العيون

وجاء فى الشرح يريد بالجراب ماتخرجه منه براثنها حين المغاضبة.

قلت: (العيون) الأولى بفتح العين. فى اللسان: رجل معيان وعيون شديد الاصابة بالعين والجمع عين (بضمتين) وعين (بكسر العين) وما أعينه! وذكر الأساس الكلمتين وأضاف إليهما العيَّان. و (الجراب) هو (الحراب) بالحاء.

***

ج ١٥ ص ٢٢٠:

وخُرْق رحيب الباع لو نيط طوله بعروة عمـــــر لم تكد تتصرم

وجاء فى الشرح: الخرق الصحراء وصفها بالسعة والطول حتى أنها لو نيطت بعمر فإن العمر يتصرم وهى لا تكاد تتصرم.

قلت: الخرق — بفتح الخاء — القفر والأرض الواسعة كما فى القاموس.

(بعروة عمر لم يكد يتصرم) أى لو نيط طول هذا القفر بعروة عمر لم يكد هذا العمر يتصرم.

***

ج ٤ ص ١٨٠: ... ولا يعرف فتيلا من وثير، ولا يؤلف بين كلمتين فى تعبير.

وجاء فى الشرح: الفتيل: السحاة التى بشق النواة، يقال ما أغنى عنه فتيلا أى شيئاً تافهاً مثل الفتيل — الوثير: الوطىء اللين من الفراش.

حكومة النساء لدى الخلفاء

من بنى العبـــــــاس

للأستاذ صلاح الدين المنجد

يقول (دوڤيل) فى كتابه عن الأمبراطورة (جوزفين)، إن من النساء من أوتين الميل إلى الحكم والرغبة فيه، رغم ما فيه من مشاق ومصاعب، لأنهن لا يرين فى شىء من الأشياء مستحيلا. فتلك ظاهرة فى طبعهن وغريزتهن. فهن يرغبن فى الإحاطة بكل شىء علماً، وعرفان ما تحته وما فوقه، ليتممن النقص الذى فيهن.

فهن يحكمن على عشاقهن؛ فإذا أخطأهن ما أملن، حكمن على أزواجهن وأولادهن ثم تعدين ذلك إلى حكم صواحبهن، فإذا وجدن المجال ذا سعة، وكن ممن يلوذ بالملوك والأمراء والوزراء، سولت لهن أنفسهن أن يحكمن الرعية ويدبرن أمورها.

أما حكمهن العشاق، فأمر لاريب فيه، فهن فى أغلب الأحايين، عابثات بالقلوب، لاعبات بالألباب. أما حكمهن الأزواج فأمر كثير الوقوع، وندر أن تجد امرأة لاتحكم زوجها. ولكن حكمهن العباد، وتصرفهن فى الأمور، وتدبيرهن الملك قد تبدو مستحيلة لا تقع، بعيدة لا تنال. على أن لحاجة النساء لا توصف وإلحاجهن لا يدرك، ثم هن لا يعرفن المستحيل. وفى التاريخ الإسلامى ألوان من البرهانات، تدل على حكمهن. وسأسوق الأدلة من بدء العصر العباسى، إلى منتصف القرن الرابع الهجرى.

وقبل أن أبدأ، أذكر أن الجاحظ قد لاحظ بعض هذا، فقال: «إنه لم يزل للملوك إماء يختلفن فى الحوائج ويدخلن فى الدواوين، ونساء يجلسن للناس» فيذللن ماصعب وينلن ما بعد. على أن سلطانهن، كان على قدر مبلغ سحرهن ونفوذ أثرهن، وتملكهن قلوب الخلفاء. وواضح أن تحكمهن يكون على قدر ضعف الخليفة ورقة عقله، وانقياده. ولذلك تجد أن بعضهم تركوا لهن الأمر كله، وأن بعضهم سايروهن مرة، وغاضبوهن مرة، وآخرون لم يحفلوا بهن أبداً.

فالسفاح، ابتعد عن النساء، فلم يرغب فيهن لملذاته بَلْه استشاراته. وحاول خالد بن صفوان أنه يثير شهواته مرة بذكر الجوارى وأوصافهن ليغريه بشرائهن، فلم يفلح. وكان يقول: العجب ممن يترك أن يزداد علماً، ويختار أن يزداد جهلا. فسئل: ما تأويل ذلك؟ قال: تترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ويدخل إلى امرأة فلا يزال يسمع سخفا ويروى نقصا.

على أن المنصور كان ألين منه، وأندى سمعاً للنساء. فقد تزوج ابنة منصور الحميرية، فشرطت عليه أن لا يتزوج ولا يتسرى إلا عن أمرها، ففعل. ولم يتعد سلطانها زوجها[1].

وبدأ سلطان المرأة يقوى مذ تولى المهدى الخلافة، وتزوج

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ٣٠٠

قلت: (ما يعرف قبيلا من دبير) ذكره الميدانى فى (مجمع الأمثال) وأورد اللسان له أكثر من عشرة تفاسير ... منها: لا يعرف الأمر مقبلا ولا مدبرا ... وقيل: ما يعرف نسب أمه من نسب أبيه ... وقيل: القبيل القطن والدبير الكتان ... وقال المفضل: القبيل فوز القدح فى القمار والدبير خيبة القدح ...

***

ج ١٩ ص ٥٢٨: البحترى:

وكأن اللقاء أولُ من أمس (م) ووشك الفراق أولَ أمس

قلت: (أولُ من أمس و (أولَ أمس) فى الصحاح: تقول ما رأيته منذ أمس فان لم تره يوماً قبل أمس قلت ما رأيته مذ أول من أمس فان لم تره مذ يومين قبل أمس قلت ما رأيته مذ أول من أول من أمس ولم تجاوز ذلك. فى التاج: أمس جمعه آمس وأموس وآماس، قال:

مرت بنا أول من أموس تميس فينا مشية العروس

والنسبة إلى أمس إمسى على غير القياس وهو الأفصح.

نسيت أن أروى من قبل بيتاً للبحترى فى أمثاله وحكمه يحتاج إلى التمثيل به كثيراً، والبيت هو هذا:

ليس الذى يعطيك تالد ماله مثل الذى يعطيك مال الناس (١)

(١) فى الرسالة ٦٥٠ فى القسم — ٢٠ — إلى ذى السنى هى (إلى ذا السنى) ومحقود أو حاقد هى (ومحقود عليه أو حاقد) وفى (عليه) الشاهد

٢٦٠٤

الخيزران . فقد كان لها سلطان على القصر ، والندماء والحجاب والأطباء ، تقرب منهم من تشاء وتبعد من تشاء . ولقد أخذت مرة فى مناكدة بختيشوع بن جورجيس الطبيب ومضاربته ، وأثرت فى المهدى ، فلم ير بداً من إعادته إلى جند يسابور[١] .

فلما ولى الخلافة الهادى زاد نفوذ الخيزران وتدخلها فى شؤون الدولة . وقد كان الهادى يتناول المسكر ، ويلعب ويلهو ، ويركب حماراً فارهاً ، ولا يقيم للخلافة أبهة ولا عظمة ؛ فلا عجب ممن كان هذا شأنه إن وكل أمور الدولة كلها إلى أمه الخيزران . فقد كان كثير الطاعة لها يجيبها فيما تسأل من الحوائج . فكانت المواكب لا تخلو من بابها . وبلغ الأمر بها أن استولت على زمام الأمور . واستيقظ الهادى من غفوته أو غفلته ، ورأى أن أمور الدولة بين يدى أمه . فكلمته ذات يوم فى أمر ، فلم يجد إلى إجابتها سبيلا فاعتل بعلة ، فقالت لا بد من إجابتى . قال لا أفعل . قالت : إذاً لا أسألك حاجة أبداً . قال إذاً والله لا أبالى ، ولئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك » . ثم أخذ يعنفها ويؤنبها ويقول لها : « ما هذه المواكب التى تغدو إلى بابك كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أومصحف يذكرك أو بيت يصونك ، إياك إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولاذمى[٢] » .

وكانت الخيزران من ذوات الأثرة . وهذا النوع من النساء لا يبالى بما يفعل فى سبيل إرضاء الأثرة والأنانية وبسط النفوذ . ولقد كانت ترغب فى الأمر والنهى والحكم . فوقف الهادى — بعد أن اتسع الخرق — ليسترد سلطانه . فلما ضايقها الأمر ، وآنست من ابنها معارضة وقوة ، وآلمها أن يذهب سلطانها ، وترد المواكب عن بابها ، أرادت أن تنتقم منه ، فدست إليه جوارى من جواريها ، غطين وجهه وجلسن فوقه ، فقتلنه[٣] . كل ذلك ليعود الأمر إليها وحدها كما كان . وقد تم لها ما أرادت وتدفقت عليها الأموال ، حتى بلغت غلتها قبيل موتها مائة ألف ألف ، وستين ألف درهم[٤] . وقد قدر أحدهم أن هذا المبلغ يعادل نصف خراج المملكة العباسية آنئذ وثلثى غلة روكفلر فى أوائل هذا القرن[١] .

فلما ولى هارون الخلافة كانت الخيزران هى الناظرة فى الأمور ، وكان يحيى بن خالد يعرض عليها ويصدر عن رأيها[٢] . وكان الرشيد لا يعصى لها أمراً . وقد ذكر الطبرى أن الرشيد لما عاد من دفنها ، دعا الفضل بن الربيع وقال له : وحق المهدى ، إنى لأهم لك من الليل بالشىء من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها[٣] .

أما بعد مقتل البرامكة فقد استبد الرشيد برأيه ، حتى إن ظئره أم جعفر — وكانت قد أرضعته وربته — دخلت عليه أيام النكبة ، فتلقاها وأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها . فقالت يا أمير المؤمنين : أيعدو علينا الزمان ويجفونا ، خوفاً لك ، الأعوان ، وقد ربيتك فى حجرى وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ... ثم أخذت تستشفعه فى يحيى والفضل ، فلم يسمع لها ولم يرق لكلامها[٤] .

ولم يكن لزبيدة من الأمر ، زمن الرشيد ما كان للخيزران وإن كانت هى أيضاً ذات سلطان . وكانت تهب وتصل وتعطى وتستشفع ، ولكنها ما كانت لتتدخل فى شؤون الدولة . ولعل ذلك راجع إلى البرامكة الذين استولوا على الأمور كلها .

وفى الحقبة الممتدة بين خلافة المأمون والمعتضد ، نلاحظ تدخل القيان من مسمعات ومغنيات وشواعر فى أمور الدولة . ونلاحظ عظيم سطوتهن عند الخلفاء . فكن يستشفعن ويقربن ويولين ويبعدن . وإن كان بعض هذا قد حدث زمن الرشيد أيضاً . فقد كان كلفاً بذات الخال فحلف لها يوماً أن لا تسأله شيئاً إلا قضاه ، فسألته أن يولى رجلا يحبها ، الحرب والخراج بفارس سبع سنين ، ففعل ذلك وكتب عهده به وشرط على ولى العهد بعده أن يتمها له إن لم تتم فى حياته[٥] . ولعله أجابها إلى ماسألت ليخلو له الجو ...

(١) القفطى ص ١٠١
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٨
(٣) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٠ .
(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣

(١) زيدان ٢ — ١١١
(٢) الطبرى سنة ١٧٠ ١٠ — ٦٠٤
(٣) المصدر السابق ١٠ — ٦٠٩
(٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٦٧ .
(٥) الأغانى ج ١٥ ص ٧٦

ويذكر الأصبهانى أن إبراهيم بن المدبر ، لما سجن ، سألت عريب — وما أدراك ما عريب ! — الخليفة فى إخراجه ، فوعدها بما تحب ، ثم أطلقه[1] .

وكانت القيان ذوات السلطان ، يتعصبن لطائفة سياسية ، ويشايعن مذهباً ، ويقضين حوائج أهله عند أولى الأمر . وقد ذكر ابن المعتز أن فضلا الشاعرة — وكانت فى نهاية الجمال والكمال والفصاحة وجودة الشعر — كانت تتشيع ، وتتعصب لهذه العصابة من الناس ، وتقضى حوائجهم بجاهها ومنزلتها عند الملوك والأشراف[2] .

وغضب الواثق مرة على إسحاق الموصلى ، فرضته عليه فريدة جاريته ، وكانت فريدة أثيرة عند الواثق حظية لديه[3] .

* * *

وإذا تتبعنا أخبار هؤلاء النساء والقيان ، نجد أنهن ، حوالى سنة ٣٠٠ هـ ، أصبحن ذوات سلطان كبير . ويذهب آدم متز إلى أنهن كن يطالبن بالحق فى المهام الكبيرة — وما أشبه الليلة بالبارحة — لأن ابن بسام الشاعر يقول :

ما للنساء وللكتا بة والعمالة والخطابه

هذا لنا ، ولهن منا أن يبتن . . . [4]

على أن القرن الرابع قد امتاز بالقهرمانات ؛ فقد كان لهن الأمر كله ، وكن يعملن الأعمال الكبار ؛ يعزلن الوزراء ، ويولين الولاة ، ويجلسن للمظالم . وقد ذهبن إلى أبعد من هذا وذاك ، فكن يقضين بين الناس . فأم موسى القهرمانة هى التى أوصلت أبا الحسين بن أبى البغل إلى الوزارة ، فكان لا يخرج عن أمرها[5] وكانت تجلس أخاً لها عند القصر ، فيلقاه الناس وأصحاب الحوائج فيأخذ رقاعهم وشكاواهم وقصصهم إليها[6] .

وهى التى أغرت المقتدر بالله والسيدة أمه ، بعلى بن عيسى بن داوود فى وزارته (سنة ٣٠٤) فقبض عليه وأودع السجن[1] .

وهى التى كانت تزيد فى أرزاق الخدم وتنقص منها[2] .

والسبب فى تدخل هؤلاء القهرمانات فى أمور الدولة ، ضعف المقتدر . فقد كان مشهوراً بالتدبر بآراء النساء[3] . وكانت السيدة والدته وخاطف ، ودستنبويه ، أم ولد المعتضد ، يدبرن الأمر لصغره . ثم ظل تدخلهن جارياً . وهكذا انتقلت الحكومة فى أيامه ، فى بغداد ، من الرجال إلى النساء .

وفى سنة (٣٠٦ هـ) ، صار الأمر والنهى لحرم الخليفة — المقتدر دائماً — ولنسائه . وآل الأمر إلى أن أمرت أم المقتدر قهرمانة لها تعرف (بثمل) أن تجلس للمظالم بالتربة التى بنتها بالرصافة ، وأن تنظر فى رقاع الناس كل جمعة ، فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها[4] .

وقبضت أم المقتدر على زمام الأمر . وامتد سلطانها على كل شىء حتى إنها كانت تراقب — لحذرها — ما كان يقرأه أبناؤها . وقد ذكر الصولى أنه كان يوماً عند الراضى يقرأ عليه شيئاً من شعر بشار ، وبين يدى الراضى كتب لغة وكتب أخبار ، إذ جاء خدم من خدم السيدة جدته ، وهى شغب أم المقتدر ، فأخذوا جميع ما بين أيديهما من الكتب ، فجعلوه فى منديل أبيض كان معهم ومضوا . فاغتاظ الراضى . فسكن منه أستاذه ، وأفهمه أنهم أرادوا أن يمتحنوا الكتب . ولما مضت ساعتان أو نحو ذلك ردوا الكتب بحالها ، فقال لهم الراضى : قولوا لمن أمركم بهذا : قد رأيت هذه الكتب ، وإنما هى حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء . وليست من كتبكم التى تبالغون فيها مثل عجائب البحر ، وحديث سندباد ، والسنور والفأر[5] .

وظل المقتدر على عرش الخلافة زهاء خمسة وعشرين عاماً ، والنساء من حوله يحكمن .

ومن الطرافة أن نذكر هنا أن المعتضد كان قد تنبأ لابنه

(١) الأغانى ج ١٩ ص ١١٦ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٠٠ .
(٣) الأغانى ج ٥ ص ٩٠ .
(٤) آدم متز ج ٢ ص ١٤٥ .
(٥) الصابى ص ٢٧٢ .
(٦) الصابى ص ٢٧٧ .

(١) الصابى ص ٢٨٦ .
(٢) الصابى ص ٣٥٣ — ٣٥٤
(٣) الصابى ص ٢٧٩ .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٥٣ ، والمنتظم ج ٦ ص ١٤٨ .
(٥) آدم متز ج ١ ص ١٦ (نقلا عن أوراق الصولى) .

المقتدر بأن النساء سيستولين عليه . حدث صافى الحرمى مولى المعتضد قال : مشيت يوماً بين يدى المعتضد ، وهو يريد دور الحرم فلما بلغ باب (شغب) أم المقتدر ، وقف يتسمع ويتطلع من خلل الستر فإذا هو بالمقتدر ، وله إذ ذاك خمس سنين أو نحوها وهو جالس ، وحواليه مقدار عشر وصائف من أقرانه فى السن ، وبين يديه طبق فيه عنقود عنب فى وقت لا يوجد فيه العنب ، والصبى يأكل عنبة واحدة ثم يطعم الوصائف كلهن على الدور ، حتى إذا بلغ الدور إليه أكل عنبة واحدة ، حتى فنى العنقود ، والمعتضد يتميز غيظاً . فاهتم ورجع ، فسألته فقال : والله ياصافى لولا النار والعار لقتلت هذا الصبى اليوم ، فإن فى قتله صلاحاً للأمة . فقلت يا مولاى حاشاه ، أى شىء عمله ؟ أعيذك بالله من اللعين إبليس . فقال ويحك ، أنا أبصر بما أقول . أنا رجل قد سست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ، ولا بد من موتى ، وأعلم أن الناس بعدى لا يختارون غير ولدى ، وسيجلسون ابنى علياً (يعنى المكتفى) ، وما أظن عمره يطول للعلة التى به (يعنى الخنازير التى كانت فى حلقه) فيتلف عن قريب ، ولا يرى الناس إخراجها عن ولدى ، فلا يجدون بعده أكبر من جعفر (يعنى المقتدر) فيجلسونه وهو صبى ، وله من الطبع فى السخاء هذا الذى رأيت فتحتوى عليه النساء لقرب عهده بهن ، ويقسم ما جمعه من الأموال كما قسم العنب .

وكانت الصورة كما قال المعتضد بعينها[(١)] .

وفى عهد المقتدر اشتد سلطان امرأة أخرى يقال لها (زيدان) وكان لها طبيب خاص بها ، هو عيسى البغدادى ، يحمل الرقاع بين الوزراء وربما حملها إليها لتعرض ذلك على الخليفة[(٢)] .

وقد استطاعت زيدان هذه أن تتمكن من جواهر المقتدر وأن تأخذ سبحة لم ير مثلها ، كان يضرب بها المثل ، فيقال سبحة زيدان . وكانت قيمتها ثلثمائة ألف دينار[(٣)] . واستطاعت أن تجعل دارها سجناً . فقد سجن عندها على بن عيسى بن داود

(١) المنتظم لابن الجوزى ج ٦ ص ٧١

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى ص ٢٤٩

(٣) المنتظم ج ٦ ص ٧٠

بعد وزارته[(١)] ، ومن قبله وكل بابن الفرات عندها[(٢)] ، كما سلم إليها الأمر الحسين بن حمدان أيضاً[(٣)] .

وثمة خليفة آخر لعبت به النساء ، هو المستكفى . فقد كان عبداً لحسن الشيرازية . وكانت هذه قد سفرت بينه وبين توزون القائد التركى ، واستطاعت أن يكون خليفة ، وتولت أيضاً سمل المتقى بيد غلامها السندى[(٤)]

وأصبحت بعد ذلك تستبد بالمستكفى ، وتتولى عرض الغلمان والحجاب فى قصر الخليفة ، فى مجلس يقال له الحوذان . فانخرقت الهيبة بهذه المرأة ، وذهبت الرسوم التى كانت للخلافة ، وصارت الدار طريقاً لكل من يراها[(٥)] .

***

ويتضح من هذا ، ما كان عليه خلفاء بنى العباس ، حتى منتصف القرن الرابع ، وما كان من أثر النساء فيهم ، وما أدى إليه تدخلهن فى الأمور ، من انخراق الهيبة ، وضياع الأمور ، وانتشار الفوضى . وهذه نتائج طبيعية محتومة لمن يولى أمره امرأة ويدعها تفعل ما تشاء .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

(١) تاريخ الوزراء ... للصابى ص ٢٨٦

(٢) المصدر السابق ص ١٠٥

(٣) آدم متز ج ١ ص ٢٤٣

(٤) آدم متز ج ١ ص ٢١ (نقلا عن مخطوط كتاب العيون ٢٢٠ — ٢٢٣)

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٠ (نقلا عن المخطوط السابق ٢٢٤ آ — ٢٢٦ ب)

من محاسن التشريع الاسلامى

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

— ١١ —

بره بأهل الذمة :

من مزايا الشريعة الإسلاميـة ، ومظاهر برّها ، وشواهد فضلها ، ودلائل إنمائها وخيرها ، ومن آى تسامحها — كفالتها لأهل[1] الذمة ورحمتها بهم ، ورعايتها لهم ، ودفع الظلم والأذى عنهم ، فإنهم متى أعطوا الجزية — وجب تأمينهم ، وحمايتهم ، والدفاع عنهم ، وتوفير الحرية لهم فى دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية ، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم مالا يطيقون كالمسلمين ، ويسمون أهل الذمة ، لأن هذه الحقوق ثبتت لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله صلوات الله وسلامه عليه[2].

أما الجزية التى تفرض عليهم فليس فيها مشقة ، ولا عنت ، كما أنها لم تجب عليهم اعتسافاً وتحكما ، فهى قدر يسير من المال ، لا يفرض إلا على الرجل الحر القادر على الكسب[3] : فلا جزية على صبى ، ولا على امرأة ، ولا على فقـير غير معتمل ، كما أنها لا تجب على أهل الصوامع ، وهى عند الحنفية ثمانية وأربعون درهما على الغنى كل سنة ، وأربعة وعشرون على المتوسط ، واثنا عشر على الفقير؛ وعند الشافعى أقلها ، وهو دينار ، وأ كثرها غير محدود ، وذلك بحسب ما يصالحون عليه . وقال قوم : ليس لهم قدر معين ، وإنما هو متروك لاجتهاد الإمام[4].

واختلف العلماء فى سبب أخذها منهم[5] ، وأقرب الآراء ، وأولاها بالترجيح ما رآه العالم المحقق السيد محمد رشيد رضا ، من أنها واجبة للدفاع عنهم وحمايتهم من الاعتداء عليهم ، كما يفهم من سيرة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة ، وأعدلهم فى تنفيذها ، فمن ذلك ما كتبه خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا ، حينما دخل الفرات : « هذا كتاب من خالد ابن الوليـد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إنى أعاهدكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا » ، وذكر البلاذرى فى فتوح البلدان ، والأزدى فى فتوح الشام — أن الصحابة رضوان الله عليهم ردّوا ما أخذوه من أهل حمص من الجزية ، حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك لعجزهم عن الدفاع عنهم فى ذلك الوقت ، فعجب أهـل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من ردّ الفاتحين أموالهم إليهم .

ذلك ، وقد أوصى الإسلام بأهل الذمة خيراً ، أوصى ببرهم ، والإحسان إليهم ، وحرم ظلمهم ، أو أخذ شىء منهم بغير حق ، كما أنه لم ينه المسلمين عن معاملة مخالفيهم فى الدين — بالقسط والبر ، وإن لم يكونوا أهل ذمة إذا لم يقع منهم عدوان ولا بغى ، قال الله تعالى[1] : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم — أن تولوهم — ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» ، وروى داود عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم — أن رسول الله قال : « من ظلم معاهداً أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ شيئاً منه بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة »[2].

وجاء فى كتاب لعمر بن الخطاب أرسله لعمرو بن العاص عامله على مصر (وإن معك أهل ذمة وعهد ، وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال : « استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً » ، ورحمهم أن أم إسماعيل منهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :« من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » فاحذر يا عمرو أن يكون رسول الله لك خصما ، فإنه من خاصمه فالله خصمه » .

---

(١) هم الذين أقاموا بين المسلمين ، ورضوا بحكمهم ، مع بقائهم على دينهم ودفعهم الجزية .

(٢) الوحى المحمدى ص ٢٦٠ ، ٢٦١ من الطبعة الثانية .

(٣) يشترط فى وجوبها الذكورة والحرية والبلوغ باتفاق راجع بداية المجتهد .

(٤) بداية المجتهد لابن رشد

(٥) راجع تفسير القرطبي

---

(١) فى سورة الممتحنة .

(٢) الجزء التاسع من تفسير القرطبى ص ١١٥ مطبعة دار الكتب .

حول تعقيب

الحـــديث المحمدى

للأستاذ محمود أبو رية

لما أجمعت النية على نشر كتاب عن « حياة الحديث المحمدى » بعد أن جمعت مواده وهيأت فصوله — قدرت أن هذا الكتاب ستضيق به صدور الذين يكرهون التحقيق فى البحث، والاجتهاد فى الفهم، والحرية فى الفكر؛ ولا يرون العلم إلا فيما أخذوه عن شيوخهم تلقيناً، والاستمساك بما وجدوا عليه آباءهم غثاً كان أو سميناً.

وقد وقع ما قدرت، فلم تكد تبدو فى أفق « الرسالة » لمعة عن هذا الكتاب حتى انبعث « حشوى »(١) فى إحدى صحف العوام ينضح علينا من رضاع مسكته سباً وشتماً وسفاهاً، فلم نعره التفاتاً، لأن المناقشة بين العلماء لا تكون إلا بعلم وبرهان؛ أما الفحش والسفه والسباب، فهى أداة الجاهل الذى أعوزته الحجة واستعصى عليه الدليل، ولا يصح أن يتخذ الجهول فى البحث قريناً.

ولما قرأت فى العدد ٦٤٢ من « الرسالة » كلمة الأستاذ محمد محمود أبوشهبة رأيتها تنزع إلى الحق وتطلبه، وهى وإن كانت قد حملت بعض مآخذ — نجاوزنا عنها — تستحق العناية، وتستأهل الرد:

١ — قلت فى كلمتى التى نشرتها بالرسالة: إنى وجدت بعد البحث والتنقيب أنه لا يكاد يوجد فى كتب الحديث كلها حديث قد جاء على حقيقة لفظه ومحكم تركيبه. فجاء الأستاذ أبو شهبة يسأل عن مبعث هذا الحكم، وبعد أن يسلم بأن من الأحاديث ما روى على المعنى قال: « ومن الأحاديث ما (اتفقت) الروايات على لفظها! وإن لم تصل إلى درجة المتواتر، ومن الأحاديث ما لا يشك متذوق للبلاغة أنها من كلام أفصح العرب ». كأنه يقول: إن هنالك أحاديث كثيرة (معروفة) قد جاءت على كمال صياغتها كما نطق الرسول بها، فبدت تحمل مزايا نظمها واتساقها وأسرار بلاغتها، وخصائص ألفاظها ومعانيها.

ونحن لو سلمنا جدلا بأن هنالك أحاديث — قد اتفقت الرواة على لفظها لأنا لم نقف على إحصاء صحيح لها، فإنه لا يصح اعتبارها ولا الاستشهاد بها ما دامت — كما يقول هو عنها — لم تصل إلى درجة المتواتر، ذلك بأنه ما دام شرط التواتر لم يتحقق لها فإنها تصبح فى حكم الآحاد الذى لا يعطى إلا الظن، والظن سواء أكان فى اللفظ أم فى المعنى لا يغنى من الحق شيئاً.

ومن هنا كان استشهادنا بكلمة الشاطبى وقولنا: إنه لا يكاد يوجد حديث قد جاء على حقيقة لفظه ومحكم تركيبه، وقد سبقنا إلى هذا القول ابن الصلاح فقال فى المتواتر: « إنه لا يكاد يوجد

(١) لم يدع هذا الحشوى علماً من أعلام الفكر والعلم والبيان إلا ناله بنصيب من سفهه، وقد بلغ من جهله أن بسط لسانه فى الأستاذ الامام محمد عبده ومما قاله فيه (أن له موبقات مكشوفة ...).

وجاء فى كتاب آخر أرسله عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة ابن الجراح قوله فى شأن أهل الذمة « وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحقها، ووف لهم بشرطهم الذى شرطت لهم فى جميع ما أعطيتهم ».

أدرك المسلمون الأولون من هذه النصوص وغيرها، ومن تعاليم الإسلام وسمو مبادئه — مدى رحمة الإسلام وعطفه على مخالفيه من الذمة والكتاب — ما استقاموا على الطريقة، ونأوا عن الإثم والعدوان — فلم يعرف عنهم اضطهاد لهم فى دينهم، ولا حرمان لهم من حقوقهم، واستخدمهم الخلفاء الأمويون والعباسيون فى ترتيب دواوين الخراج، وترجمة علوم اليونان، وقربوا النابغين منهم، واعتمدوا عليهم فى شفاء عللهم، بل عدهم المسلمون عضواً فى هيئتهم الاجتماعية، يحافظون عليه، كما يحافظون على أنفسهم، وساسوهم بالعدل والرفق، وأشركوهم معهم فى مرافق الدولة، وكان شعارهم — حيال أهل الذمة — « لهم ما لنا وعليهم ما علينا »، وهى سياسة عادلة رحيمة، جعلت المؤرخ الاجتماعى جوستاف لوبون يقول: ما رأيت فاتحاً أعدل، ولا أرحم من العرب.

(للبحث بقية) حسن أحمد الخطيب

فى رواياتهم ومن سئل عن إبراز مثال لذلك فيما يروى من أهل الحديث أعياه تطلبه » .

على أنا نزيد الأمر توكيداً فنسوق بعض ما قاله أئمة النحو فى سبب عدم إثبات القواعد النحوية بألفاظ الحديث ، لأنها لم تتواتر عن النبى .

قال السيوطى فى الاقتراح : وأما كلامه صلى الله عليه وسلم ، فيستدل منه بما يثبت أنه قاله على اللفظ المروى ، وذلك نادر جداً ، وإنما يوجد فى الأحاديث القصار على قلة أيضاً [(١)] ، فإن غالب الأحاديث مروى بالمعنى ، وقد تداولها الأعاجم والمولدون فرووها بما أدت إليه عبارتهم ، فزادوا ونقصوا وقدموا وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ... ومن ثم أنكروا على ابن مالك إثباته القواعد النحوية بالألفاظ الواردة فى الحديث .

وقال أبو حيان فى شرح التسهيل : قد أكثر هذا المصنف من الاستدلال بما وقع فى الأحاديث على إثبات القواعد الكلية فى لسان العرب ، وما رأيت أحداً من المتقدمين والمتأخرين سلك هذه الطريقة غيره . على أن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب : كأبى عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر والخليل ، وسيبويه من أئمة البصريين ، والكسائى والفراء وعلى بن مبارك الأحمر ، وهشاماً الضرير من أئمة الكوفيين ، لم يفعلوا ذلك ، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس ... » وقد قالوا : « إنما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم بأن ذلك لفظ الرسول إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن فى إثبات القواعد الكلية ، وإنما كان ذلك لأمرين :

أحدهما : أن الرواة جوزوا النقل بالمعنى ، فتجد قصة واحدة قد جرت فى زمانه صلى الله عليه وسلم ، ولم تنقل بتلك الألفاظ جميعها نحوما روى فى قوله : (زوجتكها بما معك من القرآن ، ملكتكها بما معك ، خذها بما معك) ، وغير ذلك من الألفاظ الواردة فى هـذه القصة [(٢)] ، فنعلم يقيناً أنه صلى الله عليه وسلم لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ ، بل لا نجزم بأنه قال بعضها ، إذ يحتمل أنه قال لفظاً مرادفاً لهـذه الألفاظ غيرها فأتت الرواة بالمرادف ، ولم تأت بلفظه ، إذ المعنى هو المطلوب ، ولا سيما مع تقادم السماع وعدم ضبطه بالكتابة والاتكال على الحفظ ، والضابط منهم من ضبط المعنى ، وأما ضبط اللفظ ، فبعيد جداً لا سيما فى الأحاديث الطوال . وقد قال سفيان الثورى : إن قلت لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدقونى إنما هو المعنى !

الثانى : إنه وقع اللحن كثيراً فيما روى من الأحاديث ، لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو ، فوقع اللحن فى كلامهم وهم لا يعلمون ذلك ، وقد وقع فى كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، ونعلم قطعاً من غير شك أن رسول الله كان أفصح الناس ، فلم يكن ليتكلم إلا بأفصح اللغات وأحسن التراكيب وأشهرها وأجزلها ...

وقال ابن الأنبارى فى الإنصاف فى منع (أن) فى خبر كاد ، وأما حديث كاد الفقر أن يكون كفراً ، فإنه من تغيرات الرواة لأنه صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد .

ومن قول الشاطبى فى شرحه على ألفية ابن مالك :

« ... إن النحاة يستشهدون بكلام سفهاء العرب وأجلافهم وبأشعارهم التى فيها الخنى والفحش ولا يستشهدون بالحديث . ثم روى عن أبى حاتم عن الجرمى أنه أتاه أبوعبيدة معمر بن المثنى بشىء من كتابه فى تفسير غريب القرآن الكريم قال : فقلت له عمن أخذت هذا يا أبا عبيدة ، فإن هذا تفسير خلاف تفسير الفقهاء؟ فقال : هذا تفسير الأعراب البوالين على أعقابهم ! فإن شئت فخذ وإن شئت فدع ... ثم قال : ولا أعرف لابن مالك سلفاً إلا ابن خروف [(١)] .

نجتزىء بما نقلناه من أقوال هؤلاء الأئمة ، لأن الكلام فى ذلك يطول :

---

(١) كما سترى فى الحديث الآتى .

(٢) لهذا الحديث — الذى لا يزيد عن ثلاث كلمات صيغ أخرى غير التى أوردها أبو حيان : انكحتكها بما معك ... أملكتكها بما معك ... انكحتكها على أن تقرئها وتعلمها الخ قال ابن دقيق العيد هذه لفظة واحدة =

= فى قصة واحدة واختلف فيها مع اتحاد مخرج الحديث ، وقال العلائى من المعلوم أن النبى لم يقل هذه الألفاظ كلها فلم يبق إلا أن يكون قد قال لفظة منها وعبر عنه بقية الرواة بالمعنى . وللفقهاء فى ذلك إختلاف كبير . راجع فتح البارى ج ٩ ص ١٧١ وما بعدها .

(١) كان مالك يرى الاستشهاد بالحديث ولم يشاركه فى ذلك إلا ابن خروف

٢ — عرض الأستاذ لقولنا إن المعانى قد ظلت تتوالد ، والألفاظ تختلف باختلاف الرواة . فاتفق معنا فى اختلاف الألفاظ وتباين الأساليب ، وخالفنا فى توالد المعانى ... ونحن لا نتوسع بالرد عليه فى ذلك ، لأن فيما أوردناه من كلام أئمة النحو واللغة غناء ، فقد أثبتوا أن الرواة قد زادوا ونقصوا وقدموا وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ ، ولحنوا وأخرجوا لفظ الحديث عن القياس العربى ، فإذا لم يكن فى ذلك كله توالد للمعانى ، فمن أى شىء إذن يكون هذا التوالد ؟ !

ويقول الأستاذ : إنه كان يحب منا « أن نقرأ فى كتب الرجال ، وبخاصة الصحابة والتابعين ، لنعرف ما خص الله به هؤلاء القوم من حافظة قوية وذاكرة وقادة .

وما كان يحبه الأستاذ منا قد قمنا به ، بل زدنا عليه ، فقد أبعدنا النجعة فى مطارح البحث ، حتى انتهينا إلى منطقة وجدنا فيها أن الصحابة كانوا يرغبون عن رواية الحديث ، بل كانوا ينهون الناس عنها . ومما ألفيناه من أسباب ذلك أنهم كانوا يخشون أن تخونهم هـذه الحافظة (القوية) فيروون الحديث على غير ما نطق به النبى فيبدو وقد أصابه التحريف أو الزيادة أو النقصان ! وهم لم يكونوا يروون ما يروون عنـد سماعه ولا بعد سماعه بقليل ، وإنما كانوا يفعلون فى المناسبات ، وقد لا تتهيأ هذه المناسبات إلا بعد سنين طويلة ، فكان كل صحابى يروى ما يجده فى ذهنه من معنى الحديث الذى سمعه من النبى (ص) أو من أحد أصحابه أو من أحد التابعين ، إذ لم تكن رواية الصحابة موقوفة على ما يسمعونه من النبى فحسب ، فيعبر عنه بألفاظ من عنده ومن هنا جاءت رواية الحديث الواحد بألفاظ مختلفة .

وإلى الأستاذ بعض الأمثلة مما عثرنا عليه فى بحثنا :

جمع أبو بكر الصديق الناس بعد وفاة نبيهم وقال لهم : إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها ، والناس بعدكم أشد اختلافاً ، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه . ونسى عمر حديث تيمم الجنب ، وعلى أن عماراً قد ذكره به فإنه لم يذكره !

وقال عمران بن حصين : والله إن كنت لأرى أنى لو شئت لحدثت عن رسول الله يومين ولكن بطأنى عن ذلك أن رجالا من أصحاب رسول الله سمعوا كما سمعت وشهدوا كما شهدت ويتحدثون أحاديث ما هى كما يقولون وأخاف أن يشبه لى كما شبه لهم فأعلمكم أنهم كانوا يغلطون وأنهم ما كانوا يتعمدون !

وقيل لزيد بن أرقم حدثنا عن رسول الله فقال : كبرنا ونسينا والحديث عن رسول الله شديد . وكان عبد الله بن مسعود — وهو من هو — يتغير عند ذكر الحديث عن رسول الله ، وتنتفخ أوداجه ويسيل عرقه وتدمع عيناه ويقول ، أو قريبا من هذا ! أو نحو هذا ، أو شبه هذا . كل ذلك خوفا من الزيادة والنقصان أو السهو والنسيان . وسأل مالك بن دينار ميمون الكردى أن يحدث عن أبيـه الذى أدرك النبى وسمع منه فقال : كان أبى لا يحدثنا عن النبى مخافة أن يزيد أو ينقص !

ولهـذه الأخبار نظائر كثيرة أوردنا طائفة صالحة منها فى كتابنا .

وعلى أن الأستاذ قد اعترف بأن رواية الحديث بالمعنى كان لها ضرر من الناحيتين اللغوية والبلاغية فإنه قد منع أن يكون لها ضرر من الناحية الدينية . ونحن نعجب أن يخفى على مثله هذا الأمر وهو مشهور بين الفقهاء جميعاً .

وإذا كان الكلام فى ذلك يطول فإنا نحيل الأستاذ إلى ما كتبه العلامة نجم الدين الطوخى فى آخر كتابه (صفة المفتى) وإن أبى إلا أن يرى أمثلة على ذلك من بعض الأحاديث ليعرف ما جرى فيها من خلاف بين الفقهاء — ولا شىء أضر من الخلاف — بسبب رواية الحديث بالمعنى ؛ فليرجع إلى حديث استفتاح الصلاة بسورة الفاتحة ، وإلى الحديث الذى أوردناه من قبل وهو (زوجتكها بما معك) .

٣ — تكلم الأستاذ عن الحديث الذى قلنا إنهم استجازوا به وضع الحديث وهو : إذا لم تحلوا حراماً ولم تحرموا حلالا — وأصبتم المعنى — فلا بأس . فقال : وهذا الحديث بعضه لا يدل على الوضع ! وإن فى قوله وأصبتم المعنى ما يدل على أن الحديث قيل تجوزاً للرواية بالمعنى !

ولم يقل أحد إن بعض هذا الحديث صحيح ، وبعضه الآخر موضوع ! وإنما ذكر الجوزقانى وابن الجوزى أنه موضوع . ولو أن هـذه العبارة التى قضى الأستاذ بصحتها كانت معروفة

للصحابة لمنعت من تحرج من تحرج منهم من رواية الحديث ! ولرفعت ذلك الخلاف الكبير الذى وقع بين العلمـاء فى جواز رواية الحديث بالمعنى وعدم جوازها .

على أنه قد وردت أحاديث صحيحة تقطع بأنه صـلوات الله عليه ما كان يريد إلا أن تروى أحاديثه على حقيقة لفظها مهما تحرى الراوى فى إصابة معانيها ، ولم يـكن ليشدد فى عدم استبدال لفظ بلفظ فحسب وإنما كان يضرب عليه ، فقـد روى أصحاب السنن هذا الحديث : نضر الله امرأ سمع مقالتى فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » . وهذا الحديث القولى قد أيده النبى بسنة عملية ؛ فقد روى البخارى وغيره عن البراء بن عازب أن رسول الله علمه دعاء يقوله عند ما يأتى مضجعه ، ومن هذا الدعاء : « آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت » فقال البراء يستذكر ماعلمه النبى « وبرسولك الذى أرسلت » فقال له النبى « وبنبيك الذى أرسلت » وفى بعض الروايات فطعن فى صدره ورده إلى الرواية الصحيحة . ومعلوم أن اللفظ الذى جاء به البراء يؤدى المعنى وأكثر ، فهو بهذا قد أصاب المعنى ولـكن النبى لا يريد ممن يروى عنه إلا أن ينقل كما سمع .

٤ — ويقول الأستاذ عن كلمة (متعمدا) التى جاءت فى بعض روايات حديث من كذب على: إن القاعدة عند المحدثين أنه إذا تعارضت الروايات رجح الأكثر والأقوى ، وهنا ترجح رواية ذكر اللفظ ويحمل المطلق على المقيد ! !

ولا نطل القول فى مناقشة هذه القاعدة ولا فى طلب الدليل على هذا الأكثر والأقوى ! ! وإنما نقول إن علماء الحديث قد جعلوا للترجيح اعتبارات متعددة ، منها اعتبار الاسناد ، ومنها اعتبار المدلول وغير ذلك . وقالوا فى اعتبار الإسناد إن رواية أحد كبار الخلفاء ترجح على غيرها ، وكذلك ترجح رواية من كان فقيهاً ومن كان أكثر مخالطة للنبى الخ ورواية هذا الحديث بغير كلمة (متعمدا) قد نالت كل اعتبارات الترجيح فقد رواها ثلاثة من الخلفاء الراشـدين وهم كبار فقهاء الصحابة وأكثر مخالطة للنبى ، والزبير بن العوام — وهو من هو يؤيد روايتهم ورواية غيرهم من كبار الصحابة ويقسم بأن النبى لم يقل هذه الـكلمة ، وفى سنن ابن ماجه عن الليث بن سعد عن ابن شهاب عن أنس ابن مالك قال رسول الله من كذب على — حسبته قال متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . ورسالة الشافعى (١) التى هى الأصل الأول لعلم الأصول ومؤلفها أقرب إلى معين السنة الصافى قد ورد فيها هذا الحديث بصيغ كثيرة لم يأت فى واحدة منها كلمة (متعمدا). وابن قتيبة الذى قالوا إنه لأهل السنة كالجاحظ للمعتزلة لم يوردها فى كتابه (تأويل مختلف الحـديث) الذى دافع فيه عن رجال الحديث إلا بغير هذه الـكلمة . على أن الأقرب إلى العقل السليم والأشبه بخلق النبى العظيم أن تـكون الرواية التى جاءت بغير هذا اللفظ هى الصحيحة ، والتى يطمئن بها القلب ؛ لأن الـكذب هو الـكذب .

٥ — ذكرنا فى كلمتنا أن تدوين الحديث قد تقلب فى أدوار أربعة ، فـكان فى أول أمره مشوباً بغيره من أقوال الصحابة فى التفسير وغيره من مسائل دينية أو طرق أدبية الخ مما كانوا يعنون بجمعه وتدوينه على طريقة العصر الذى وقع فيه التدوين من غير ترتيب ولا نظام إلى أن جاءت طبقة ابن جريج الخ » فقال الأستاذ من أين وصلنا إلى ذلك ! ونحن نذكر له بأن كل من درس تاريخ التدوين فى الإسلام وبخاصة فى عصر بنى أمية يعرف ما عرفنا ويصل إلى ما إليه وصلنا ، وإذا أراد أن يقف على (طفولة التدوين الإسـلامى) فليرجع إلى مظانه ، ولـكى لا نشق عليه بكثرة البحث فى المصادر الـكثيرة نحيله إلى أدنى المصادر إليه : الجزء الثانى من كتاب ضحى الإسلام للاستاذ الـكبير أحمد أمين بك . والجزء الثالث من تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان بك .

٦ — قال الأستاذ فى أول مقاله إنه تتبع الحقائق التى وصلت إليها فوجد أن فيها ما يجافى الحقيقة ! ولم يكن مبنياً على دراسة عميقة ! . راجعة إلى مصادر الحديث الأصلية ! ! ولا يؤاخذنا الأستاذ بما نصارحه به من أنه قد تعجل فى الحكم وأسرع فى القضاء ، ذلك بأنه لم يقرأ الـكتاب كله ولادرس مواده وفصوله ، ولا عرف مراجعه وأسانيده ، وكل الذى رآه منه إنما هو (لمحة ضئيلة عنه) وقد كان عليه إذا آثر الحق والعدل أن يستأنى فى

---

(١) راجع ١٠٨٩ — ١١٠٠ من الرسالة تحقيق وشرح الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد محمد شاكر

الملجأ الإسلامي الأول

فى عهد النبوة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

لله أنت يا رسول الله يا سيد المصلحين وإمام المشرعين ، لقد مضى على أتباعك المسلمين قرون طويلة مظلمة حجبت عنهم محاسن شريعتك ، وجعلتهم ينظرون إليها فيها وعلى أبصارهم غشاوة من الجهل ، فتبدلت أوضاعها عندهم ، وانحرفت عن سبلها المستقيمة إلى سبل معوجة ، وصار كل شىء صالح فيها إلى فساد ، وكل نظام جميل فيها إلى اختلال ، وكل مظهر نشاط فيها إلى كسل وخمول ، والإسلام دين إصلاح ونظام ، ولا بد لنا فى نهضتنا الحاضرة من أن نرجع به إلى عهد نهضته ، حتى لا يعوق المسلمين عن النهوض عائق من ناحية دينهم ، وتسير فينا النهضة الدينية إلى جانب النهضة المدنية ، متعاونتين فى الوصول بنا إلى الإصلاح المنشود

وها نحن أولاء نعالج الآن مشكلة السُّؤَلة[1] التى انحرفنا فيها عن أوضاع ديننا معالجة مدنية ، ونضع فى ذلك الأوامر تلو الأوامر ، والنواهى تلو النواهى ، فلا يفيد فى ذلك علاج ، ولا ينقطع السُّولة عن هذه الحرفة الدنيئة ، لأنا نقتصر فى ذلك على علاجها من ناحية القانون الوضعى ، ولا نحاول علاجها من ناحية الشرع السماوى ، ليعلم الناس أن دينهم لا يبيح لهم هذه الحرفة الدنيئة ، فيكف السُّولة عن تعاطيها ، ويكف الذين يتصدقون عليهم أيديهم عنهم

لقد ذم النبى صلى الله عليه وسلم هذه الحرفة وشدد فى الوعيد عليها ، ومدح الذين يتعففون عن سؤال الناس . ومما ورد فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفْطَنُ به فَيُتَصَدَّقُ عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس . وقوله أيضاً : لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ، وقد

(١) السولة : الكثير السؤال

الحكم ويتمهل فى إبداء الرأى حتى يطلع على ذلك كله ثم يصدر بعد ذلك حكمه .

٧ — وفى ختام مقالته جاءت عبارة غريبة لا أدرى كيف أرسلها ، ذلك أنه يقول ، إن مما يحتاج إليه عالم الحديث (الرحلة فى سبيله إلى من أحاط به خبراً ! !) .

وإنى ولا مراء فى الحق لم أكد أفهم ما هى هذه الرحلة التى يحتاج إليها علم الحديث فى هذا العصر ! وكذلك لم أعرف إلى أى الأقطار تكون ؟ ومن هم أولئك الذين قد أحاطوا بعلم الحديث خبراً حتى نرحل إليهم ونأخذ عنهم !

إنى لم أكد أعرف من ذلك كله شيئاً ، وإنما الذى أعلمه أن طلاب الحديث فى القرون الأولى هم الذين كانوا يحتاجون إلى الرحلة ليتلقوا الأحاديث من أفواه الرجال إذ كانت سلسلة الرواية فى هذه القرون متصلة ، والحفاظ يومئذ هم أوعية الحديث لا يوجد إلا عندهم ولا يؤخذ إلا عنهم ، أما الآن وقد انفصمت هذه السلسلة بتدوين الحديث وأصبحت الكتب هى المراجع الصحيحة للحديث — وهى من كل طالب على حبل الذراع — فإن هذه الرحلة قد صارت لا حاجة إليها ولا غناء فيها . على أن عهد الحفظ نفسه قد انقطع أثره منذ قرون ، حتى قالوا إنه قد ختم بالحافظ ابن حجر ، وانقضى على أثره عهد المحدثين .

وإذا كان الأستاذ أبو شهبة لا يرضى إلا بالرحلة فإنى قد قمت بما يرضيه ورحلت فى سبيل تصنيف هذا الكتاب إلى جميع الأقطار وقضيت فى هذه الرحلة سنين طويلة اختلفت فيها إلى مئات من العلماء والمحدثين والأصوليين والمؤرخين ومن إليهم[1] ممن يؤخذ عنهم ويستفاد منهم لكى يأخذ كتابى حظه من التمحيص والتدقيق وقد اصطنعت فى سبيل التلقى عنهم الصبر والأناة حتى ظفرت منهم بما أرجو أن يكون عملى به موفقاً صالحاً إن شاء الله ، وما آمل أن يجد فيه كل من ينشد العلم والحق ما يحبه ويرضاه .

محمود أبو رية

(١) بلغت أسانيد هذا الكتاب أكثر من مئة وخمسين كتاباً وبعض هذه المراجع يقع فى أجزاء تبلغ العشرات وهذا غير ما نقلت عنه هذه المراجع وسيحمل كتابى أسماء هذه الأسانيد كلها إن شاء الله

عالج الإسلام هذه المشكلة بعد منعه لها معالجة إيجابية ، لأنه لا يصح أن يمنع المحتاجين من السؤال ويتركهم يتضورون جوعاً ، أو يشقون فى الحياة بجانب غيرهم من أهلها ، فَسَنّ الصدقة وفرض الزكاة على الأغنياء ، وجعل من وظيفة الحكومة جمع الزكاة من أهلها ، وصرفها على من يستحقها من الفقراء ونحوهم ، فوقاهم بذلك ذل السؤال ، وحفظ لهم كرامتهم ، لأنهم لا يأخذونها من الحكومة امتنانا ، وإنما يأخذونها حقاً تتقاضاه لهم من الأغنياء ، وتقوم فيه بوظيفة الوسيط بينهم .

ولما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة منعهم المشركون أموالهم فى مكة ، فأصابهم من ضيق العيش فى المدينة ما أصابهم ، وعانى كثير منهم من شدة الفقر ما عانى ، وهم أبناء سادة قريش وأشرافها ، ولا تسمح لهم عزتهم وكرامتهم أن يمدوا أيديهم إلى الناس بالسؤال ، فأنشأ لهم النبى صلى الله عليه وسلم ملجأ يجمع بينهم ، واختار له مكاناً متواضعاً بمسجد المدينة ، وكان موضعاً مُظَلّلاً من ذلك المسجد ، فسماه من أجل ذلك صُفَّة ، واشتهر أهله بين أصحابه بأهل الصفة ، وكانوا نحواً من أربعمائة رجل من مهاجرى قريش ، لم يكن لهم مساكن فى المدينة ولا عشائر ، فآواهم النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك المكان ، وكان بهذا أول ملجأ اتخذ للفقراء فى الإسلام .

وكان لهذا الملجأ نظامه فيمن يدخله من الفقراء ، فكان لا يدخله منهم إلا الفقير الذى لا يستطيع ضرباً فى الأرض للكسب ، فلا يجد من كسبه ما يغنيه عن قبول الصدقة فى هذا الملجأ من المسجد ، وقد جاء هذا الشرط فى وصف الله تعالى لفقراء هذا الملجأ فى الآية — ٢٧٣ — من سورة البقرة (للفقراء الذين أُحْصِرُوا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) .

وكان من نظامه أن جُعِلَ مدرسة لأولئك الفقراء ، وكان مدرسة ليلية يتعلمون فيها القرآن وغيره من العلوم ، لأن لهم عملا آخر سيأتى بيانه بالنهار ، وبذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم أول من جعل من الملاجىء مدارس ، لتكون دور علم وتعليم ، وينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم ، ولا يذهب ما يتصدقون به عليها سدى .

وكان من نظامه أن جعل لهم عملا بالنهار ينفقون منه على أنفسهم ، ولا يكلهم إلى الصدقة التى يتصدق بها عليهم ، لأنها لم تكن مورداً دائما ، بل كان من عنده فضل من المسلمين أتاهم به إذ أمسى ، ولأن الإسلام دين عمل وجهاد ، فلا يرضى لفريق من أهله أن يقعد عن العمل ، ويتكل على ما يتصدق به عليه الناس . فكانوا يخرجون بالنهار فيجمعون النوى ، ثم يرضخونه ويبيعونه لأصحاب الجمال .

وكان من نظامه أن جعل منهم جنداً للمسلمين ، فكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى كل غزوة يغزوها بنفسه ، فيكون شأنهم فى ذلك شأن كل مسلم ، ولا ينقطعون إلى ملجئهم كما ينقطع الرهبان إلى صوامعهم .

ولقد قام هذا الملجأ يؤدى عمله على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم تولى الخلافة أبو بكر رضى الله عنه فأبقاه على حاله التى كان عليها ، ثم تولى بعده عمر رضى الله عنه ، فاتسعت فى عهده الفتوح ، وفتحت للمسلمين خزائن الفرس والروم ، وصارت أسباب الغنى سهلة ميسرة ، فأمر رضى الله عنه بإغلاق هذا الملجأ ، وأمر أهله أن يسلكوا تلك السبل الميسرة للغنى ، لأنه لا يرضى بالفقر إلا أهل الخمول والكسل ، والدنيا دار جهاد وعمل .

ومن ينظر إلى نظام هذا الملجأ يجد أنه هو النظام الذى تأخذ به الأمم الحديثة فى ملاجئها ، لأنه هو النظام الذى يتفق وأسباب المدنية التى تأخذ بها ، ولكن المسلمين حين انحرفوا عن دينهم بعد ضعفهم ، تغير نظرهم إلى هذا الملجأ كما تغير نظرهم إلى غيره من أمور دينهم ، فاتخذوه أساساً لما أنشأوا فى تلك القرون المظلمة مما سموه تكايا وخانقاه ، وأخذ أهلها من الصوفية يتمسحون بأهل ذلك الملجأ ، ويزعمون أن اسمهم مشتق من الصُّفَّةِ التى كانوا يأوون إليها ، على بعد ما بين اسمها واسمهم ، وعلى بعد ما كان من نظام أهلها ونظامهم ، وعلى أنه كان نظاماً زال بزوال سببه ، ولم يرضه عمر رضى الله عنه لأهله ؛ ومثل عمر يؤخذ الدين عنه .

عبد المتعال الصعيدى

الحيـــاة الادبية في الحجاز

تتمة النهضة السعودية

للأستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم

الخطابة :

لقيت الخطابة عناية فائقة من أدباء الحجاز فى العهد الأخير ، فسلكت طريقها إلى النهوض ووجدت فى المجتمعات والأندية تشجيعاً دَفَع بها إلى الأمام ولكنها مع ذلك لا تزال عنــد الحجازيين متأخرة عن الكتابة لأنها لا تروج إلا فى الرجّات العنيفة التى تساق إليها الشعوب ولا تنمو إلا فى ظل الخلافات المذهبية والسياسية ، والحجاز – كما يعلم الناس جميعاً – آمن هادئ لا تتوزعه القلاقل ولا تثور به الخلافات ، ثم إنه بعيد عن التحزب والحزبية ولا يعرف معنى المنافرات والمذاهب السياسية وهى التى تؤجج نيران الخطابة وتبعث فيها القوة والحياة .

ولعل الذى بعث فى الخطابة الحجازية بعض الحياة فى العهد الأخير إنما هو نشاط الشبان ومساعدة أولى الأمر من الساسة وقادة الفكر ؛ فهم يهتمون بالأندية الأدبية التى تقام فى المدن الكبيرة ويولونها من عطفهم وعنايتهم ويمهدون لها السبيل لأداء مهمتها على الوجه الأكمل ، فسمو الأمير فيصل والشيخ محمد سرور الصبان وغيرهما لهم أياد محمودة فى تشجيع القائمين بها ، فهم يشعرونهم دائماً بالعطف والتكريم ؛ ولهذا نرى هذه النوادى جادة ناشطة ، ونرى القائمين بها يحددون يوماً من أيام الأسبوع يجتمعون فيه حيث يستمعون إلى خطبة جيدة أو محاضرة قيمة حتى إذا ما انتهى القائل علقوا على كلامه بالنقد أو الإعجاب .

وليس فى الحجاز من ألوان الخطابة غير خطب المحافل والخطب الدينية، ولعل أولاهما أرقى من الثانية ؛ إذ تقال فى مناسبات التكريم وفى المحافل التى تكثر فى الحجاز فى موسم الحج وفى المدارس فى المناسبات الكثيرة .

والخطب الدينية فى الحجاز أقل من خطب المحافل ؛ فلا تكاد تعدو خطب المساجد . ويظهر أن الحالة الدينية هناك لا تدعو إلى هذا اللون من الخطب : فالناس هناك منصرفون إلى العبادة ، بعيدون عن الانغماس فى الشهوات ، وإنما يلقى هذا النوع من الخطابة رواجاً فى المجتمعات التى يحيد الناس فيها عن جادة الصواب فيجد الوعاظ عندئذ مجالا لدعوتهم ومحلا لعظاتهم ، فلا يكاد الزائر يسمع هناك إلا الخطب التى تلقى فى الحرمين والمساجد الأخرى فى الجمع والأعياد .

وقد كان الارتجال غير معروف إلى عهد قريب فى الحجاز ، ولكن العهد السعودى الذى شمل كل ناحية بالقوة خلق فى الناشئين من الخطباء الاعتداد بالنفس فارتجلوا فى المناسبات الاجتماعية خطباً لها مكانتها الأدبية .

ولا بد لى أن أشير هنا فى هذه الكلمة إلى أثر « المذياع » فى الخطابة ، فهو – وإن توهم بعض الناس أنه قليل الخطر – ذو أثر فعال فى هذا الفن من الأدب ، فقد كان فى السنين الأخيرة حلقة الاتصال بين لهجات الشرقيين : فى النطق والمواقف ومقاطع الكلام ، ولهذا نجد المحدثين من خطباء الحجاز يتأثرون الخطباء المصريين فى مواقفهم وطرائقهم ، على حين نجد القدامى منهم يختلفون عنهم فى الأداء واللهجة ، وما ذلك إلا لأن الحديثين نشأوا يستمعون إلى خطباء مصر فقلدوهم وتأثروا خطاهم ، ولم يستطع القدامى مجاراتهم فى هذا السبيل بعد أن سلخوا عهداً طويلا وهم على طريقتهم الأولى .

الصحافة :

لم يكن للصحافة خطر كبير قبل العهد السعودى وإن صدر بعضها قبله ، فلما كانت الحيــاة الجديدة فى ظل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، نشطت حركتها وأخذت تناضل فى سبيل الأدب والإصلاح الاجتماعى ، فكان يصدر منها إلى عهد قريب صوت الحجاز وأم القرى والمدينة المنورة وغيرها ، وكان يجانب هذه الجرائد بعض المجلات التى تتناول الموضوعات العلمية والأدبية كمجلة المنهل لصاحبها الأستاذ عبد القدوس الأنصارى ، وقد قرأت حديثاً فى كتاب « ماذا فى الحجاز » للأستاذ محمد أحمد جمال أن هذه الصحف قد عطلت بسبب غلاء الورق ولم يبق منها

هذا العـــالم المتغير

[تصيب الذبحة الصدرية صفوة أبناء العالم ، فكيف وفق الأطباء المصريون إلى اكتشاف علاجها ؟]

من وصفة بلدية : علاج للذبحة الصدرية

للأستاذ فوزى الشتوى

فى حضرة عزرائيل — وصفة بلدية — جهل يقود العلم — نجاح باهر — وتقدم العلاج أيضاً — عقبات

فى حضرة عزرائيل :

جاءته الأزمة كما عرفها ، فأوى إلى فراشه وقد نسى مهمته التى ارتدى من أجلها ملابسه ، يرى زوجه وبنيه يهرعون إليه بعقاقير الطبيب ، فيتناول الجرعات فى سكون ، وهو يحس بتلك النغصة فى صدره ، ويشعر بحاجته الماسة إلى تنفس عميق ، فلا يقوى على الزفير أو الشهيق ، لأنهما يضاعفان الألم ويقربانه من عزرائيل وهو يطوف بفراشه . فيكتم الزفير ويمنع الشهيق إبقاء على سعادة أسرته ، فأى مصير يحل بهم إن أتم عزرائيل مهمته فى إحدى تلك الأزمات ؟

ربما ينفذها فى هذه الأزمة ، وربما ينفذها فى مرة تالية ، وقد يهادنه مدة طويلة . ولكن أحمد بك كان يحس بجناحى ملك الموت تصفقان حوله كلما واتته أزمة الذبحة الصدرية ، فيشفق على سعادة أسرته أكثر مما يشفق على نفسه !

وفى كل مرة كان ينظر إلى عقاقير الأطباء ، فيعجب لعجزها ، وتتولاه الدهشة لقصر يده ويد الطب عن إزالة غمته ، واستقرار أمنه ، ومستقبل عائلته . لم يدخر أحمد بك — كما حلا لى أن أسميه — وسعا فى استشارات الأطباء والخضوع لوصاياهم ، فقلل من نشاطه كما أمر ، وداوم استعمال العقاقير ، وهو يعرف

إلا جريدة « أم القرى » وهى لسان حال الحكومة السعودية .

وكانت هذه الجرائد والمجلات مع اجتهاد أصحابها المحمود وعنايتهم المشكورة لا تزال بادئة ناشئة : فالجرائد لاتصدر إلا كل أسبوع أو نصف أسبوع والمجلات لا تصدر إلا كل شهر .

وكان الحجازيون يدركون هذا الضعف فيهاويودون لو تنهض فتساير زميلاتها فى الأقطار العربية ، وفى ذلك يقول الأستاذ عبد الحميد عنبر : « من حسنات العهد السعودى هذه الروح الصحافية القوية التى نراها فى أطراف البلاد ، فقد شجعت حكومة جلالة الملك عبد العزيز الصحافة فى الحجاز وأعطت امتيازات لعدة جرائد ومجلات صدر منها البعض وتوقف ، وبعضها لايزال يصدر حتى الآن ، ومنها ما أعطى امتيازه ولم يصدر حتى الآن . ونحن نسأل لِمَ لم يصدر ما أعطى امتيازه ؟ ولِمَ توقف عن الصدور ما كان صادراً ؟

ذلك لأن الصحافة لم تستقر لدينا على أساس قوى وأنها فى حاجة إلى تنظيم ، كما أنها فى حاجة إلى صحافيين مدربين يستطيعون قيادة الجماهير ، وغرس المبادئ الوطنية والأخلاق الرفيعة فى نفوسهم » .

ويرى الأستاذ محمد جمال كذلك : أن فى الحجاز تربة صالحة للصحافة ولكن ينقصها رجال الصحافة الماهرون .

ويبدو لى أن الصحافة فى الحجاز لا تسمو إلى المنزلة التى نرجوها لها إلا إذا توافر لديها المال الكثير الذى تؤمن به حياتها وتقوى نواحيها المختلفة ؛ فيكون لها بعد ذلك مراسلون فى الأقطار المختلفة يوافونها بأخبار العالم ، ويشترك فى توجيهها طبقة متمرنة من صحافيى العرب فى الأقطار الأخرى حتى تشتد وتقوى ، وعندئذ نأمل لها الفوق والرواج ؛ فالتشجيع الحكومى قائم ، ولم يبق إلا العمل مع الأخذ بالأسباب .

وأهم ما تعنى به الصحف الحجازية النواحى الاجتماعية والأدبية والأخبار المحلية وبعض ما تقتطفه من حوادث العالم نقلا عن الصحف الكبرى . ويمتاز أسلوبها بالهدوء والاتزان ؛ فلا نجد فيها تلك الثورة الجامحة التى نجدها فى صحف مصر نتيجة للخلافات الحزبية الكثيرة ، فإذا كان هناك من حماس ففى بعض مقالات النقد الأدبى والإصلاح الاجتماعى .

(تم البحث)

أحمد أبو بكر ابراهيم

أنها قد تأتيه بشر آخر ، لأن الطب لم يعرف علاجاً أو مسكناً يهدئ العلة بغير أن يترك أثراً جديداً مؤذياً !

وهو يدرك تمام الإدراك أن العقاقير التي يتناولها تزيد ضربات قلبه وتضعفه ، وتقلل ضغط الدم ، وتجهد عضلات القلب قبل أن تؤثر على الشرايين التاجية للقلب ، وتكسبها السعة اللازمة لمرور كميات الدم اللازمة للحياة . فالذبحة الصدرية علة تصيب هذه العضلات ، فتجعلها تنقبض وتضيق وتمنع مرور كميات الدم اللازمة لتغذية القلب ، فتعرقل مهمته .

وصفة بلدية :

وأحمد بك كسواه من الطبقة المثقفة النشطة القليلة الإيمان بالوصفات البلدية : قدمت إليه زوجه مغلى بذر الخلة مرات ليجرب ، فنظر إليها ساخراً أن يفلح الجهلة فيما فشلت فيه علوم الطب . سمع أحاديثها ، وقصص جيرانه ومعارفه مرات عن فائدة بذر الخلة في شفاء الذبحة الصدرية ، فلم يصدق أن الطب عمى عن رؤيتها . وقالوا له : جرب ، فلن تخسر شيئاً . فأجابهم وأقنع نفسه بأنه قد يأتي لنفسه بعلة جديدة قد تكون أقوى وألعن .

واستشار أطباءه ، فرأى في عيونهم نظرات السخرية والاحتقار ، وقرأ فيها أمارات اللوم ، لأنه يقبل أقوال الجهلاء والعامة . ولكن العلة كانت شديدة الإلحاح ، فلا يكاد ينفعل ، أو يبذل جانباً من نشاطه حتى تفاجئه ، فتأتيه في مكتبه ، وفي الطريق ، وفي بيته أيضاً . تخشى أن ينفذ ملك الموت مهمته في غفلة منه ، ودفعته فظاعة الألم وحب الحياة لأن يجرب ، ولا سيما أن كثيراً من معارفه يتعاطونها ، فلم تحدث لهم من مضاعفات كما يتوهم .

وأخيراً ، استسلم وأقبل على تناول مغلى بذر الخلة وهو يتجاهل طعمه الكريه ، ويتحمله في صبر ؛ فإذا العلة تهادنه ، وإذا النغصات المؤلمة تبتعد عنه ، فتقصى شبح عزرائيل واصطفاق جناحيه . واستمر بضعة أسابيع ، فاسترد حالته المعنوية ، وأحس في وصفته البلدية بسر جهله الطب وأنكره ، أو سخر منه !

جهل يفوق العلم :

فقصد إلى طبيبه واثقاً من توفيقه ، متوقعاً أن يسمع عبارات السخرية ، وأن يرى نظرات اللوم . ولكن الطبيب لم يكن أقل دهشة منه لما رآه في حالته من تحسن ملموس ، ولما وجده فيه من إيمان ويقين . ومن ثم بدأ الكشف العلمي يزيح الستار عن عقار جديد وعلاج فعال للذبحة الصدرية التي تفتك بالصفوة المختارة من أبناء العالم كله . فهي لا تصيب في الغالب سوى الطبقة المفكرة الشديدة النشاط ، والكثيرة الحساسية والإدراك .

واحتضن الكشف العلمي ثلاثة من أطباء كلية الطب وهم : الدكتور انرب أستاذ علم وظائف الأعضاء ، والدكتور قناوى في الأمراض الباطنية ، والدكتور شفيق برسوم من مدرسي علم وظائف الأعضاء أيضاً . وتكاتف ثلاثتهم لاستطلاع السر الجديد وإجراء أبحاثه وتجاربه منذ سنة ونصف ، فاستخرجوا المادة الفعالة نقية خالصة من المواد الغريبة ، وأطلقوا عليها اسم « الخلين » .

واختبروا فعلها في الكلاب الضالة فيحقنونها بالبنج حتى تستغرق في رقادها العميق . وعندئذ يفتحون قفصها الصدرى ويكشفون عن القلب والرئة ، ثم يقيسون مقادير الدم الواردة إلى القلب عن طريق الشرايين التاجية ، فإذا هي عادة تتراوح بين ٣٠ إلى ٤٠ سنتمتراً مكعباً في الدقيقة . ويحقنون الشرايين بمادة الخلين في جرعات تتراوح بين ملليمترين وعشرة ملليمترات ، فإذا بالدم الوارد إلى القلب يتضاعف ثلاثة أمثاله في الحالات العادية ، وإذا الشرايين تتسع ويستمر أثرها في الكلاب لمدة ثلاث ساعات .

نجاح باهر :

ولكن هذه النتيجة وحدها لا ترضى البحث العلمي الدقيق فأي أثر آخر يتركه الخلين على الأوعية التي يمر بها ؟ وماذا يصيب القلب وعضلاته ؟

واكتشف أطباؤنا نجاحاً باهراً ، فإن الخلين لا يؤثر إلا على العضلات الملساء للشرايين التاجية ، وهي العضلات التي تسبب الذبحة الصدرية . أما عضلات القلب كما يقول الدكتور قناوى فلا تتأثر . وكذلك القلب ذاته لا يتضخم ، كما أن استخدام الخلين لا يؤدي إلى انخفاض ضغط الدم كما يحدث عند استخدام العقاقير الطبية المعروفة . وقد سجلت نتائج هذا البحث بالموجات الكهربائية مما يوضح تأثير العقار .

ومعنى هذا أن الطب وفق إلى عقار بالغ القدرة على اتقاء شر الذبحة الصدرية بدون أن يترك أثراً . أضف إلى ذلك أن تأثيره على الإنسان يختلف عن تأثيره على الكلاب لأن مفعوله فى الإنسان يتراوح بين ٢٤ ساعة إلى ٤٨ ساعة تبعا لحالة المرض والمريض

وقد انتقل البحث فتناول الإنسان . ويعالج به الآن حوالى خمس وسبعين حالة أدى علاجها إلى نجاح باهر فى ٧٠ حالة . وكان نجاح خمس منها ضعيفا . ويرجع سبب ضعفها إلى تقدم المرض وإلى أن تصلب العضلات وصل إلى درجة التيبس نتيجة لكبر السن أو اقتران الذبحة الصدرية بمرض السكر أو غيرها من العوامل .

وتقدم العلاج أيضاً :

وتقدمت أبحاث العلاج أيضا فان الخلين مادة لا تستسيغ النفس مرارتها ، فجرب استعماله فى أقراص (برشام) ، وفى حقن تعطى فى الدم . والخلين لا يزيل المرض نهائيا ولكنه وقتى التأثير حتى الآن . ويتعاطى المريض مقادير منه تبعا لحالته . ولكن الأمل قوى فى أن يصل البحث إلى العلاج النهائى ؛ فقد لوحظ أن بعض الحالات شفيت نهائيا ، واستغنى المريض عن مواصلة العلاج . والمهم أن يوالى المريض استخدام الخلين حتى لا يصاب بنوبات الذبحة ، حتى تستعيد العضلات حالتها الطبيعية بالتدريج .

ونوبات الذبحة الصدرية أو أزماتها تفاجىء مريضها فى أوقات مختلفة ، وتتراوح مدتها من نصف دقيقة إلى ٢٠ . وقد تصيبه مرة فى اليوم ، كما أنها قد تصيبه بضع مرات . وهى غالبا تحدث على أثر أى إجهاد سواء أكان عقليا أم جسمانيا .

وتكثر الإصابة بالذبحة الصدرية فى الفترة التى نسميها منتصف العمر نتيجة لكسل بعض الغدد عن أداء وظيفتها مما يسبب تصلب الشرايين . ورغم أن نسبتها كبيرة فى مصر إذ تبلغ ٥٠ ٪ من المرضى من الطبقة النافعة ، فان مصر تعد أقل بلاد العالم فى انتشار هذه المرض الذى يموت بفعله حوالى ٢٠ ٪ من مرضاه نتيجة لهبوط القلب أو انقباض العضلة .

أما فى الخارج فالإصابة بالذبحة الصدرية شديدة الإنتشار مما جعل اكتشاف العقار من المسائل العالمية فاهتمت به الدوائر العالمية ، ونشرته كبريات الصحف الطبية ، مرحبة باستخدامه كعلاج ناجع لمرض مستعص .

ويقدر العنصر الهام من بذر الخلة بنسبة ٣ ٪ ، أما الباقى فشوائب وجد أن بعضها يترك أثراً ضاراً بالكلى .

عقبات :

ولم تمر فترات البحث حتى الآن سهلة لينة ، بل اعترضته عقبتان كادت أولاهما توقف البحث فى مراحله الأولى . فعندما أريد استخلاص مادة الخلين من بذر الخلة تحطم جهاز التقطير . وواجه الأطباء معضلة إحضار جهاز آخر . وطريق الواردات ممنوعة أو مستحيلة . ولكنهم أقبلوا على صنع جهاز جديد ، فاستعاضوا عن الزجاج بالمعادن ، وأدخلوا عليها من التعديلات ماجعل الجهاز أصح استخداما ، وأجدى نفعا من الأصلى .

وفى المرة التالية توصلوا إلى المادة التى يذاب فيها الخلين ، ولكنها كانت قليلة وأوشكت على النفاد من القطر المصرى كله ؛ ولكن الحظ واتاهم فتطوع بعض مندوبى مصر إلى مؤتمر العدل الدولى لإحضارها من أمريكا ، واشتروها فعلا . ولكنهم لاحظوا عند العودة أن الحقيبة التى تحملها ناقصة فأبرقوا إلى المحطات التى مروا بها حتى عثروا عليها وأعادوها لأصحابها وهم فى المطار يستعدون لركوب الطائرة إلى مصر .

وهكذا قدمت مصر للعالم بحثا طبيا بالغ النفع لأنه يحتفظ للعالم أجمع بصحة صفوة أناسه ممن خبروا الحياة ، ويساهمون فى بناء الدنية بأكبر قسط . كما قدمت أيضا لباحثينا مادة جديدة لأبحاث يانعة توارثناها مئات الأجيال فى وصفاتنا البلدية التى طالما احتقرناها . ولو أنصف علماؤنا لأحتضنوها فلا يتركون منها واحدة حتى يثبت البحث العلمى الدقيق ضررها فما لا شك فيه أن شوائبها كثيرة وواجبهم تنقيتها .

فوزى الشتوى

فى مآتم الأشـــواق

للأستاذ محمد العلائى

[إلى طه حسين ، والمازنى ، والعقاد ، والزيات ، إلى الصديق سيد قطب ، إلى هؤلاء أولا ، إلى أدباء العربية ثانياً أقدم هــذه اللوحة المشبوبة ، وهى : مواقد أشواق تسامت بلهيبها أوهام الليل ، وترامت على ضوئها مخاوف الرحيل ، فباركتها بدعائى ، وأحرقت فيها مواهبى ، ثم تنفس الفجر فعصفت بقداستها سخرية اليقين ، واختنق شيطانها بأريج السلام ... فسارعت إليها وأطفأتها بأقدامى] :

تذكرتُ أيامى ودارَ متـــاعى
ومَشرق أحلامى ومَسرى مواهبى
تراءى لنـــا الماضى ولاحت معاهدٌ
عليت أوهامى بهـــا وتجاربى
ومأساتُنا الأولى هناك تنزلت   علىّ بدار الشمس قبل الغياهب
وراحت توافينى بكل كريهة   وتقذف ألوان القذى بمشاربى
وتفجر ما بين الضلوع نزيفَها   لنغمة شاد أو لآهــة نادب
لها كلَّ يوم فى الشروق مناحةٌ   وأوجع منها عند زحف المغارب
ظلام الضحى أبلى جديدى وعاقنى
ويبَّـض فى شرخ الشباب ذوائبى
وأطفأ منى القلب فى ميعة الصبا   ويتَّم أفراحى وأذوَى رغائبى
وحجَّبنى بين اللذّاتِ فكلهم   لعوبٌ وهذا منزو غير لاعبِ
وأخرج من أدنى القلوب محبتى   فأمى لا ترجو بقائى ولا أبى
وأشهدُ أنى كنتُ نورَ عيونهم   وكنت عزيز الدار نجم الملاعب
ولكن أمراً والزمان أراده   فلست على أهل الزمان بعاتب
تناسيتُ إلا محنتى ومواجعاً   تُقَلِّبها الساعات بين جوانبى
ورحلتنا الأولى ويوم تضاحكت   أمامى أساريرُ المنى والمطالب
ولاح رجائى واطمأنت مشيئتى   بطالع عن فى جبين الكواكب
فأجمعت أمرى لا أخاف على غدى   لقاء العوادى أو ركوب المصاعب
وخلفتُ أحباباً ورائى وأنفساً   يعزُ عليها غربتى ومتاعبى
وتحنو على ضعفى وترحم جرأتى   وتخشى على حظى عثار المراكب
وقلت وداعاً وانتهجنا سبيلها   وسرنا بأرض الله ذات المناكب

وكانت ليـــالٍ ثم أشرف ركبنا
على شاطىء الصحراء مثوى العجائب
ســلامٌ على دار المنــايا وأهلها
من ابن سبيل أشعث الوجه شاحب
يروم الغنى فيها ويبغى كنوزها   ويرجو بها ظلا وضجعة لاغب
طلبتُ على جهل سواء سبيلها   وأُنسيت حظى والتفاف المشاعب
وكلفنى ما لا يراد توهمى   وشفَّت أحاسيسى بروق الغايب
وأشربت حب الخير حتى أضلنى   وشبَّـه معوجاً بآخر لا حب
وغشَّى على عقلى فأكبرت تافها   وسُمْتُ البلايا رغبة فى المكاسب
وران على نفسى صـــداها فعانقت
— لها الله — أمواج السراب المُكاذب
وخايلها يمٌّ غرُورٌ فأنزلت   بأتعس ثغر فيــه أشأم قارب
أسائل مَــنْ حولى وليسوا نواطقا
وليسوا ســوى أشباح غرقى رواسب
وتُؤذِن بالرجعى نوايا عُبابه   وأين وما بالشط مرسى لراكب
أمامى سدود كالقضاء ومفزعى   إلى غُصص مشبوبة وكوارب
وأفنى السُّرى زادى ومائى ولم أجــد
بهـــا مستقراً واستدارت مذاهبى
وضـــاق بوعثاء الطريق تفكرى
ومصَّت شعورى موبقات السباسب
وضمَّت على أدهى من اليأس أضلعى
وناءت بأثقـــالى ظهور النجائب
وأرَّقنى خوف المصـــير ولم أعُد
أطيقُ الدياجى وارتجـــافَ المهاوب
فأخرجت من صحبى كريماً يودنى   وذا بصر يومَ الشدائد ثاقب
وملّكته أمرى فكان دليلها   وسيرت ركبى خلفه غير ناكب
وسِرْتُ زماناً مُغمَض القلب سادراً
تُلمِّجى الذكرى وأحـــدو ركائبى
وأخشع أحياناً أحيِّى مقابراً   دفنت بها أهلى وبعض صواحبى
وأسمع للصحراء جُنَّت رياحها   وردَّت على الموتى نُواحَ الأقارب
وأهوى مع الآفاق جسما مفرغاً   وروحاً أتاه الموت من كل جانب
وبعد أعاجيب تراءت كنوزها   وراء ضباب كالدجى وسحائب

وأذّن حادى الركب : لا هَمّ نعمةً
ونادى بيــوم طافح البشر واهب
فصدقتُ مأخوذاً وجئتُ وصيدَها
أغالبُ خــوفاً واندفاعــةَ راغب
وأشعلت مصباحى فلما تكشفت … عرفت نصيبى عند بيض العواقب
ودُرتُ كمغشىٍّ عليــه وحينما
تمالكت أنفاسى ابتسمت لصاحبى
وقلت جزانى يوم خدّرَ مسمعى … منجم سوء بالأمانى الكواذب
وأيضاً جزانى يوم حمّت بصيرتى … وملكت أمرى خائباً وابن خائب
فقال : مقــادرٌ ولمــا تنزلت
وقعْتَ وخابَ الحزمُ يا ابن التجارب
وعدتُ كأن الأرض حولى مآتمٌ
وليس عليهــا غيــرُ باكٍ وناعب
أصانع أبناء السبيل وأشتكى … تعثر أقدامى ورعشة غاربى
أراودُ يأسى والقضاء كخاتم … وأسبحُ فى بحر مخيف وناضب
أباعدُ عن نفسى حقيقة رجعتى … وأجبر بلواها بشتى المصائب
وأحكى رؤاها فى مضاجع ذابل … ينام على جنبين صادٍ وساغب
ومرّ بما أبكى رحيلا مُرَزَّأً … جنيت الردى منه وشوك المجادب
ولاحت على مرمى العيون مواطنى … تحيةَ مشتاقٍ وفرحة آيب
هى الجنة الأولى وفيها منازلٌ … تنسمتُ أهلى بينها وحبائبى
وفاح شذاها من بعيدٍ فهزنى … وذكّرنى عهد الصِّبا ومآربى
وهاج زماناً كالربيع فشاقنى … ترنح آصالى بهــا ومغاربى
وأنهارها تحت الظلال جوارياً … وفلكى عليها بين طاف وراسب
تموج بمــا فيها كأن غصونها … على شغب مابين راضٍ وغاضب
هى الجنة الأولى وتحت سمائها … رأينا تباشير المنى والشبائب
مجالان هذا للشراب وللندى … وذاك لأفراح الهوى والكواعب
وقلبان فى صدرى أروح بجامد … وأغدو بمنساب الإرادة ذائب
يفزعنى مَسُّ اليقين ولونه … وأومن مسحوراً بما هو رائبى
أميل مع الأهواء وسنان حالماً … مكانٌ ينادينى وآخر جاذبى
وقلتُ سأنسى فى رُباها مَهالكاً
أضلّت صـوابى واستباحت مضاربى
ولـكن دخلناها فيا بؤس جنتى … ويا بؤس إيمانى وبؤس مثاوبى

هى الجنةُ الأولى ولستُ بتائه … فهذى مغانيها وتلك ملاعبى
رجعنا إليها بعد همّ وغُربة … وبعد ملمّات أشبن ذوائبى
وها أنا فيها لا ضميرى ضاحك … ولا أملى بين الرياض بواثب
على بابها الميمون ظلٌّ كآبةٍ
وفى الساحة الكبرى عبيرُ النوائب
وأشهى جناها ليس فيــه مذاقُه
وكوثرُها — لا كان — جمُّ الشوائب
وأشجارها الموتى غصون تهدّلت
وكانت عناقيــد الثمار الأطايب
وأزهارها صُفرٌ عليها مَذَلّةٌ … وأطيارها مبحوحة كالنوادب
وما كان منها دافقاً رُدَّ ماؤه … وصاحبها أمسى وليس بصاحب
مرابعها جفّت وراحت أجادبا … وكانت مزاراً للحيا والسواكب
خمائلها محزونةٌ وسماؤها … تميل بأشباه النجوم النوارب
ومالت أعاليها وزارت رُبوعها … عواصف شتى بين ساف وحاصب
تحوّل عنها أهلها وتناوحت … بأبهى مجاليها ظِباء النواعب
وجوهٌ كأحداث الزمان مخيفةٌ … أطلت عليها من قصور خوارب
وتلك التى بالأمس كنا نُريدها … ونسأل عنها كلَّ آتٍ وذاهب
هى الجنة الأولى وكنتُ أمامها … أحس بأن الكون بين جوانبى
وأشهدُ آفاقاً كباراً وعالماً … عرفتُ به قلبى وأُولَى عجائبى
ونادمتُ أشواق هناك مواسماً … أجِدُّ وألهو بالظنون اللواعب
وأرسلتُ أحلامى وراء غُيوبه … أخاف وأرجو مُبهمات العواقب
وفى النفس أهواء وفيها مواجد … وفيها تهاويلٌ سدَدْنَ مذاهبى
وفيها تسابيحٌ لعرش أظلّنى … وفكّ قيودى واستفزّ مواهبى
وألهمنى حتى كأنى مُنَوَّمٌ … أزال حجاب السر عن كل غائب
وأنطقنى حتى تخلتُ أضالعى … ستعلن أسرارى وتفشى مآربى
وأسكتنى حتى تجمّد خاطرى … وماتت بأعراق اللسان غرائبى
وغيّر حالاتى وصفّى مشاعرى … أحس كمخدور وأهذى كشارب
وأغرى بأسباب الحياة نوازعى … وحرّكَ أوهامى وأذكى رغائبى
ونضّر أجوائى فأضحت خمائلا … يفوح شذاها من صبا وجنائب
وتحظى بما دون القليل مطامعى … فتُشرق آمالى وتصفو مشاربى
وأصبح والدنيا بصدرى مباهج … وأمسى وأفلاك الزمان مواكبى
هى الجنة الأولى وبات نسيمها … روائح أنقاضٍ ورجعَ منادب

٢٦٠٥



عزها ...

أقول — ومن أصعب الأشياء توضيح الواضح — إن الشاعر شبه خفقان قلبه الوجاب بارتجاف القطاة المسكينة وقد عزها الشرك (أى غلبها وقهرها) شبه حالة قلبه بحالتها (وقت مغلبة الشرك إياها) فاضطرابها الشديد هذا وتلك المجاذبة إنما هما من تلك الغلبة لا من الغر ولا من الجر ؛ فما ارتعشت حين غرت وما كان ذلك الاضطراب العظيم لما جرت ، ولكن تتابع اضطرابها حين استمكن الشرك منها وغلبها وقهرها ورامت الافلات منه . وإنه لينادى على أن اللفظة (عز) لا غيرها هو ما جاء بعدها : « فباتت تجاذبه وقد علق أو غلق الجناح » ولو لم يكن هذا الحرف المروى ما كان أبو العباس أعلن فى (كامله) تلك الشهادة : « قد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقدار » وبلفظة يقوى ويموت وبلفظة يهوى .

ورحم الله قائل الشعر ورواته ، أبا تمام ، وأبا العباس ، وأبا الفرج وغيرهم ،وشارحيه أبا زكرياء التبريزى وأبا على المرصفى [1] وغيرهما ممن لم تصل إلينا شروحهم . ورحم مخالف من شعر ، ومن روى ، ومن شرح الأديب العبقرى (الرافعى) ، وهم العبقريون يشذون ويخالفون ، وحيهل بخلافهم وشذوذهم ! ويا طول حزن العربية ومجلتها على حجة الأدب وأديب العربية حقا (مصطفى صادق الرافعى) ، ومد الله فى عمر الأديب العالم الباحث الأستاذ الشيخ محمود أبو رية المصرى المسلم الكريم المفضل .

السهمى

الى الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق :

الآن ، وقد سكنت تلك المجاجة واستنارت الشبهة بعد ذلك للناس وصرح الحق عن محضه — يحق لكل من ينشد الإصلاح

(١) رغبة الآمل جـ ٥ صـ ١٥

معالمها ليست كأمس وإن هفت ... عليها ظلال من أمان ذواهب
وأمست خلاءً غير ماضٍ يعودها ... وريح كأنفاس الخطوب الأشايب
سلامٌ عليها يوم كانت رياضُها ... مشارقَ أفراحٍ وقبلةَ راهب
سلامٌ عليها يوم أطفئ نورها ... وغشّى زواياها نسيج العناكب
تعلمت من هذا الزمان ولم أكن ... لأعلم لولا واصبٌ بعد واصب
هضمنا الليالى واعتصرنا بلاءها ... وعريت أجسادَ المنى والنوائب
وقلبت فى جدّ الحياة وهزلها ... وما عِفت إلا مائعات المصائب
وساجلت أقدارى وكانت مريرة ... فعدت بما شاءت سليباً كسالب
وأدهى من الحالين سِلْمٌ تنالها ... بوجدان مغلوب وبسمة غالب
وملت إلى ظلّ السلام فأطمعت ... سماحة إغضائى ضعاف الثعالب
وأبلغ رُزْء أن تكون فريسةً ... لأفواه ما ليست ذوات مخالب
وقاويت دهرى فاستحانى ضميره ... ولما يحذرنى طريق المعاطب
وباصرته فازورّ عنى حنانه ... وألقى رزاياه حيال مساربى
حياةٌ وليست بالقليل وإنما ... يقلل منها كل أعزل هارب
خِضَمٌّ من اللذات يلعن موجه ... لفيف من الغرقى ضعاف المناكب
هى الكأس يحلو مُرُّها لمعاقر ... ويجزع منها كلُّ غِرٍّ مُجانب
كرهنا على عجز ولم نر غيرها ... وعند بلوغ اليأس خلق المعايب
حياةٌ وموتٌ ليس بعدُ حقيقةٌ ... وليس سوى هذين معنى لحاسب
رسائلُ شتى والضمير مغيَّبٌ ... وإغراء مطلوب وشهوة طالب
ومُعتركٌ والحظ يعرف أهلهُ ... وأنات مغصوب وتعليل غاصب
نصيبى مقدور فما اخترت موطنى ... وما اخترت أمى قبل ذاك ولا أبى
حبيب إلىّ العيش رغم توجعى ... ورغم شعورٍ بالفجيعة ناصب
ورغم انطوائى لا أضاحك غايةً ... ولا أمنحُ الدنيا بشاشة راغب
أصمٌّ وفى أذنىَ وقرٌ وإننى ... لتخرق سمعى هامسات المغايب
وأبكم لا أُفضىَ وأنّى لمنطق ... وأسمى نواديهم صريرُ جنادب
بأنفسهم عثراتُ سوء تردّنى ... وتخجلُ وجدانى فأغضى كهائب
وأرحمهم مما تكنُّ صدورُهم ... وأرثى لأبناء الأذى والعقارب
وأصغرت ما يرجون حتى زمانهم ... ودنيا غوانيهم وعُليا المراتب
وأوصدت باب المجد لما تكشفت ... أمامى أربابُ العُلا والمناصب
وأسأمنى دهرٌ يَمُرُّ عجيبُه ... وأعجبُ منه ماثلٌ فى تجاربى

(القاهرة) محمد العلائى

أن يتوجه إلى جليل مقامك ليفضى إليه بما يريد .

تعلم — يا سيدى الجليل — أن الأزهر ظل قروناً معتسفاً فى طريقه ، مكبلا بجموده ، قائما على طريق أبعدته عن أداء ما عليه ؛ فهو فى الدين لم يكشف بعد عن جليل أسراره لينشرها ، ولم يبين عقائده الصحيحة التى جاء بها ، ولم يستطع أن يثبت أن أحكامه الصائبة تساير نظام الإجماع فى كل زمان ومكان . وفى الدنيا لم يشارك سائر الجامعات العلمية فى جميع أرجاء الأرض بقليل أو كثير فيما يتخذ من أسباب ونظم لإصلاح العمران . ولقد نهض أستاذك الإمام محمد عبده رحمه الله منذ أكثر من نصف قرن ليعمل على إصلاحه ، ويجعل له مقاماً يعلو به فاصطلحت عليه قوتان تعارضانه وتصدان عن سبيله ، أولاهما من كان بيدهم الأمر يومئذ ، والأخرى الموقون من الشيوخ الذين تراهم فى كل زمان لا يعملون صالحاً ، ولا يقبلون إصلاحاً ، فقضى رحمه الله ولما يقض ما كان يحبه ويصبو إليه .

وجاء الإمام المراغى فكان كل ما رأيناه فى عهده أن تحرك الأزهر (فى مكانه) ولم يستطع الشيخ رحمه الله على كثير ماسعى أن يزحزحه أو يخطو به ، — واليوم — يلقى أمر هذا المعهد العظيم على عاتقك والمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إلى ما سيكون شأنه فى عهدك ، ويرقبون تحقيق ما يأملونه على يدك . وإنك اليوم للمرجو والمسئول بين يدى الله وأمام العالم الإسلامى عن إصلاح هذا المعهد وتقويم ما اعوج منه ، فامض فى هذا السبيل بقوة وعزم ، واحشد لما تتخذ من ذرائع وما تبتغى من أسباب صادق العزم . ولا تن فى ذلك فقد توافرت فيك — ولك — كل أسباب الإصلاح وعوامل النجاح . فأنت فى نفسك من الفضل والعلم والكفاية بأعلى مناط العقد ، وأمامك الفاروق يأخذ بيدك فى الإصلاح إلى أقصى حد ، ووراءك الصفوة المختارة من طلاب الأزهر وشيوخه — والأمة جميعا معهم — يؤيدونك فى كل قصد ، حتى يبلغ الأزهر مكانته اللائقة به بين جامعات الأمم ، ويفاخر بحق بأنه كان أول جامعة شقت حجب الجهالة بين العرب والعجم .

أيها الأستاذ الجليل : لقد انشرحت صدور المسلمين جميعا بتوليك مقاليد أمور الأزهر وتمنوا أن يكون الله قد استجاب فيك دعوة أستاذك الإمام التى دعا بها قبل موته حيث قال :

فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا
رشيدا يضىء النهج والليل قاتم
يماثلنى نطقاً وعلماً وحكمة
ويشبه متن السيف والسيف صارم

فحقق أيها الإمام المصلح رجاء المسلمين فيك ، وانهض بما كان أستاذك سينهض به من قبل والله معينك وكافيك .

محمود أبو ريه

حول كلمة « تاجيك » « Tadjik » :

قرأت فيما أنا متصفح للرسالة الغراء مقالة : « العرب » للدكتور جواد على فرأيتها بحثاً طيباً ، وتحقيقاً شاملا ، يشكر عليها الدكتور شكراً جزيلا .

وانتهت بى القراءة إلى فقرة من فقرات البحث يشرح فيها الدكتور لفظة « Taits » وما طرأ عليها من تغير وتطور وكيف أطلقت على العرب إلى أن قال :

« ونقل الفرس هذه الكلمة بصورة محرفة تحريفاً يلائم لغتهم فقالوا « تاجيك » « Tadjils » و « Tawih » و « Tawi » فى العهد الأخير » مستنداً إلى مصدر .

وعلى أى حال نحن واجدون ههنا مجالا للتحقيق فنقول : يطلق الفرس هذه الألفاظ الثلاثة « تَاْجِيْكْ » و « تَاْوِكْ » و « تَاْوِىْ » على المغول الذين غزوا إيران فبغداد فى القرن السابع الهجرى ، ويطلقونها أيضاً على بعض القبائل الشمالية فى إيران فيقولون : « تُرْكِ تاجِيْكْ » . وأما العرب فيعرفون عند الفرس بهذى اللفظة « تَاْزِىْ » « Tazi » ومعناها حرفياً « صحراوى » إذ أن لفظة « تَاْزْ » « Taz » تعنى فى اللغة الفارسية الأرض القفرة الخالية . ولما اشتهر العرب بأنهم قوم «صحراويون» أطلق عليهم الفرس هذه اللفظة بعد أن أضافوا إليها ياء النسبة فقالوا « تَاْزِىْ » فالمصدر الذى استند عليه الدكتور خاطىء بناء على هذا ألبتة .

(نجف) ح . م . ع



من ذكريات الشباب
اجترار

للأستاذ حبيب الزحلاوى

— ١ —

قرأ أربعة رجال من نزلاء مصر خبر الحفلة التى أزمع السوريون إقامتها لتكريم رئيس الوزراء الذى قدم مصر ليشترك فى حفلة افتتاح جامعة الدول العربية ، فطاب لكل واحد منهم مشاركة مواطنيه فى هذا التكريم الدال على أن الاغتراب عن الوطن والانتساب إلى غيره لا يحدان من العاطفة الوطنية ولا يصدان عن الحدب على أبناء وطنهم الأول ، بل على العكس ، يوقظ حادث كهذا الكثير من خبايا الذكريات الكامنة الحبيبة إلى النفس ، خصوصاً ذكريات الطفولة والمدرسة والصبى .

لعل الذين اشتركوا فى حفلة تكريم الوزير السورى ، كان وجدانهم يضطرب بهذا الشعور أو ما يقاربه من أحاسيس بريئة ، إلا أربعة رجال أزعم أنهم اشتركوا فى هذا الإحتفال بدافع يخالف تلك الدوافع ، ولعلنا لو سألنا كل واحد من هؤلاء الأربعة عن السبب لعجز عن ذكره .

رأيتهم يدخلون قاعة الإحتفال واحداً إثر واحد كأنهم على ميعاد ، ولاحظت أنه ما من واحد من أعضاء لجنة الاستقبال التفت إليهم أو خصهم بكلمة ترحيب .

أهرعت إليهم وحييتهم أطيب تحية وأجلستهم مجلساً حسناً .

وما كاد أولئك السادة يطمئنون فى مجلسهم حتى التفت كل منهم إلى جليسه ثم صوبوا نظرهم إلى فكانت مفاجأة من أبهج مفاجآت العمر وأحلاها ، وكان أبهج من ذلك وأحلى أننا نتعانق ونبكى .

كنا أصدقاء ، ولعل كلمة الصداقة تعجز عن تصوير الروابط الدموية التى كونت صداقتنا ، وقد فرقتنا حوادث جسام ابتدأت فى مستهل هذا القرن ، ولم ننج منها إلا عقب إخفاق الثورة الدرزية ، ولياذنا بمصر هذا البلد الأمين .

كنا فتيانا أغرارا يوم اقتفينا إثر زعمائنا فى مناصبة الدولة العثمانية العداء ، وكنا فى حمأة من الضلال يوم حاربنا الإنجليز فى « كوت الإمارة » وعلى ضفاف قناة السويس مع الجند العثمانى جنبا إلى جنب ، وكنا فى غمرة من الجهل يوم اقتادونا لننتظم فى جيش الخلافة نقاتل الأتراك ، وكنا فى جنون مطبق يوم قاتلنا الفرنسيين فى « ميسلون » على أبواب دمشق ، ثم لم يدركنا الرشد إلا بعيد فشل آخر ثورة دموية ، وكانت جبال الدروز ميدانا لآخر قتال اشتركنا فيه بعد حرب العصابات فى « غوطة » دمشق .

مرت بذهنى صور تلك الحادثات ، وتذكرت أياما قضيناها فى السجون ، تارة مجتمعين وتارة متفرقين ، أما الليلة ، أى بعد مضى حوالى ثلاثين عاما ، فقد جمعتنا مصادفة من مصادفات المناسبات لتكريم الوزير السورى الأول : الذىساير ولا بد حياتنا الجهادية تلك التى فتحنا عليها أذهاننا قبل أن تفتح لأنوار المعرفة عقولنا .

هل يعرفنا الوزير ؟ هل نعرف الوزير ؟ من من شهود هذا الحفل الحاشد يعرفنا ؟ ! !

أسئلة ألقتها عيوننا بالنظرات ، وبالنظرات أجابت عنها ، فتفاهمنا كما كنا نتفاهم على تنفيذ أمر خطير مدبر ! فانسللنا من مكان الإجتماع متعاقبين ليضمنا مجلس هادئ نتكلم فيه على هوانا ! !

استوينا فى مقاعدنا بمقهى ندخن النارجيلة ونحتسى القهوة ، نتكلم عن ماضينا وكيف قطعنا مرحلة الشباب فى الثورات والتشرد والمحاكمات والسجون حتى وهنت عزائمنا ، وكلت هممنا فصرنا لا نصلح إلا لعلك حياتنا الماضية واجترار أحداثها .

قال أحدنا : « منذ أخفقت الثورة الدرزية بسبب اختصام زعمائها على الزعامة الكبرى ، وعلى استئثار كل فئة من المتحزبين بالأموال التى كانت ترد من هنا ومن هناك باسم الثورة ، انسللت من بين الصفوف ولذت بمصر أداوى جراحاً حملتها أوسمة لا تصدأ ولا تجد حاملها ؟ ! !

فأجابه أحدهم مازحاً: « ظننت والله أنك سبقتنا إلى العالم الآخر » . فرد عليه بلهجة جدية قائلا: أتحسب وفاء منى أن أرحل وأترككم هنا ؟

وقال آخر: لقيت السلامة فى سكنى هذا البلد الذى لم يعرفنا أهله إلا عن طريق السياسة ؛ فصرت أعمل ، لا عمل المطمئن المستقر ، بل عمل إنسان « على سفر » . وبالرغم من هذا القلق المعنوى ، أسست تجارة ، وبنيت أسرة ، وتطورت ميولى الوطنية فصارت أشبه بميول المشتاق لحبيب بعيد ، واستوطنت مصر .

قال أحدهم يذكر صديقه بموقعة مع الفرنسيين وقعت لهما « برأس بعلبك » ، وذكر آخر حادثة ثانية وقعت له يوم ثورة « حماه » ، وذكر هذا واقعة جبال العلويين ، وذاك حادثة « القنيطرة » وأخذوا يذكرون حوادث لثورات أشعلوها على الإستعمار الفرنسى .

قلت وقد كفوا عن اللغط: حقا يا إخوانى إن ذكرياتكم سجل لتاريخ حقبة من حياة سورية ، وإن هاتيكم الذكريات ستبقى مكتومة فى الصدور ، أو مبعثرة على ألسنة الرواة ، حتى تصادف مؤرخا غير مأجور على تلفيق تاريخ لسورية ، والآن وقد جمعتنا المصادفة ، هل لكم أن تذكروا أروع حادث وقع لكم فى جهادكم وأخطر موقف وقفتموه ؟

لم يدم صمتهم طويلا ، فقد انبرى واحد منهم وقال :

— ٢ —

لست أحسن التنميق ولا التزويق ، إنما أقص الواقعة كما وقعت: أخذنا الأعداء على غرة ، كانت أجنادهم فى ذلك النهار عديدة ، وكأنوا لوفرتهم وتراصهم هدفا لطلقات من بنادقنا لا تخطىء ولا تطيش . أخذتنا نشوة الإمعان فى التقتيل ، وعلى الأخص حين رأينا طرائدنا تتلوى وتتساقط . كنا نسرف فى إطلاق الرصاص ونرمى رمى الواثق المطمئن ، ولكنى فطنت إلى نفاد ذخيرتى ، وكانت صناديق الذخيرة يحملها إلينا فى متاريسنا فتيان كتموا حماستهم من شدة سرورهم بالقتال والنصر . أخذت الشمس تزول وتنحدر ، ولم أفطن إلى عطش أو جوع ، وإنما فطنت إلى نفاد ذخيرتى ، ولما التفت إلى زميل كان إلى جانبى لأستعير منه طلقات لبندقيتى ، لقيته فى حالة من التوتر والإنفعال يعبر عنها بزغردات الظافر الناجى ، ولكن نشوة الظفر تلك لم تطل إذ افتقد جعبة (الخرطوش) فإذا بجيوبه فارغة ، فالتفت يطلب النجدة منى ، ولم نلبث أن سمعنا خطوات إخواننا تقترب منا تطلب قذائف .

أنى لنا بذخيرة لا نعرف لها مستودعا غير أكتافنا والصناديق ملقاة على الأرض فارغة أمامنا ؟ أجمعنا على الإفلات من العدو الذى أدرك نفاد عتادنا فأخذ يتقدم بل يسرع فى الدنو منا .

عمدنا إلى خيولنا ، وكانت مربوطة فى غيضة تبعد قليلا عن ميدان المعركة ، وما كدنا نقطع بها البقعة الكثيفة الأشجار حتى تبين أن أسرابا من جند الأعداء تسرع من ناحيتين لتطويقنا . أطلقنا الأعنة لأفراسنا التى استثارتها صيحاتنا لننجو من الرصاص المصوب إلينا من الجانبين ومن الخلف وكان يتساقط علينا كالبرد .

ليس من المغالاة فى شىء أن أقول لكم يا إخوانى إن الخيول تنخو ككرام الرجال ، وتنتشى إذا انتصرت كطبائع الناس . إن أنس لا أنس كيف كنت أتشبث بعرف فرسى كالطفل ، وكيف ألصقت صدرى بالسرج ، تاركا لها العنان ، وكيف تمهلت ثم التفتت ، ثم أطلقت صهيلا تتحدى به اللاحقين بنا ، وتندد بعجزهم عن إدراكنا ، وأخذت تمشى الهوينا متبخترة كالغادة الهيفاء .

زال عنا خطر إحداق أعدائنا بنا ، وأخذنا نفكر أين نبيت وماذا نأكل . قال أحدنا يمازحنا ، ننام حيث تنام خيولنا ، ولكن هل فى وسعنا أن نأكل من زادها ؟ !

نبه مزاح صاحبنا معدنا فأخذنا نتلمسها ، وبينما نحن نلاطف معدنا الخاوية ، وإذا بأزيز طيارة يملأ الفضاء . نسينا الجوع كما نسيتنا معدنا ، وفى هنيهة وجيزة ، وبدافع من حب البقاء عمدنا إلى خيولنا ؛ فأنمناها على جوانبها متباعدات ، وانبطحنا بعيدين قليلا عنها .

عجباً لتلك الأفراس كيف أدركت الخطر الداهم فاستنامت كأنها خائفة مثلنا ، وكأن حب البقاء كان رائدها أيضا !

أخذت الطيارة تهبط كأنها فوقنا وتحوم حولنا . لقد كشفنا قائدها الخبيث ، رأيتها ترتفع ، ثم سمعت بأذني سكوت محركاتها ، وسمعت أيضا أزيز القنبلة في سقوطها وقد أدركت هدفها .

نزلت النازلة ورأيتها رأى العين تسقط على قيد أمتار منى ، أحسست أنا الذى ما آمنت قط بغير قدرة الإنسان ، أن كل ذرة من وجودى تهتف بقوة وضراعة تستنجد بخالق الإنسان ، وقدرت أنى ورفاقى من الموت على طرفة عين .

انقضت الثوانى والدقائق . لقد تفكك فى غضونها كل عضو فى مفاصلى إلا ذهنى فقد بقى فى يقظة يرتقب الموت المحتوم حين انفجار القنبلة ...

القنبلة لم تنفجر ! لم تنفجر القنبلة لأنها صادفت أرضاً رطبة !

آه ... يا للأسف ! ! صرخة صرخها أحد المنصتين ، وقد خرجت من أعماق صدره ، وقد أتبعها بقوله : « والله لو انفجرت تلك القنبلة الخائبة وجرحت فرساً من أفراسكم لجزعت عليها ، ولكن الله سلم » ! ! !

(يتبع) **حبيب الزحلاوى**

محكمة ميت غمر الجزئية الوطنية

إعلان بيع عقار نشرة (ثالثة)

فى القضيتين رقم ١٤٥٩ سنة ١٩٤٤و/ ٢٥٣١ سنة ١٩٤٣

إنه فى يوم الأحد ٣ فبراير سنة ١٩٤٦ من الساعة الثامنة أفرنكى صباحاً بسراى محكمة ميت غمر الجزئية الوطنية سيباع بالمزاد العلنى المقاد الآتى بيانه بعد ملك متولى سالم عكر من حصة الرهبان مركز ميت غمر كطلب فاطمة الهنداوى صالح من جهة الراهبان فى القضية رقم ١٤٥٩ سنة ١٩٤٤ وفاء لمبلغ ٦٢ ج و٥٠٠ م وما يستجد من المصاريف بثمن أساسى قدره ٣٩ ج و٦٨٠ م بخلاف المصازيف بعد تنقيص مرتين و كطلب الخواجا وديع ملطى عبد السيو القاول بمصر بشارع الدرملى / ١١ ومحله المختار مكتب حضره الأستاذ سليم يوسف سعد المحامى بميت غمر فى القضية رقم ٢٥٣١ سنة ١٩٤٣، وفاء لمبلغ ٧٧ ج و٣٢٠ م بخلاف المصاريف وبثمن أساسى قدره ٦٤ ج بعد تنقيص الخمس مرتين .

نفاذاً لحكم نزع الملكية الصادر فى القضية الأولى بتاريخ ٤ / ٢ / ١٩٤٥ ومسجل بمحكمة المنصورة الكلية الوطنية فى ٦/ ٢/ ١٩٤٥/ ٩٠ وحكم نزع الملكية الصادر فى القضية الثانية من محكمة ميت غمر الوطنية فى ٢٨ / ١١ / ١٩٤٣ ومسجل بمحكمة المنصورة الكلية الوطنية / ٤٤ جزء ٨٢ فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣

وهذا بيان العقار الكائن بزمام ناحية حصة الرهبان مركز ميت غمر دقهلية

س ٥ ط ١ فدان ٠٠ فدان المينا البحرى الحوض ٩ رقم القطعة ٦٨ أصلية تعامل البحرى القطعة / ٦٧ بحوضه ملك ورثة سالم والشرقى القطعة / ٩٦ بحوضه ملك الخوجا ينى نقولا جورجى زجور وما للى والقبلى القطعة / ٧ بحوضه ملك إبراهيم سالم سالم عكر والغربى فاصل حوض / ٦

١٩ ٦٩ ٤ ٧ س ٠٠ ط / المنيا البحرى الحد البحرى ورثة سالم عكر بالقطعة / ٧ بحوضه والشرقى الخواجا ينى نقولاجورجى زجور ما للى بالقطعة ن ٩٦ بحوضه والقبلى ورثة سالم عكر بالقطعة خصوصية مناقصة فاصل ٦٨ بحوضه والغربى مسقة حوض / ٦

١٩ ٧٠ ١٧ س ٣ ط ٠٠ ف / ٧ المينا البحرى الحد البحرى عزب عبده ضيف بالقطعة / ٢٠ بحوضه وشرقى الخواجا ينى نقولا جورجى زجور وما للى بالقطعة ن ٩٦ بحوضهوالقبلى ورثة سالم عكر بالمطفة / ٩٦ بحوضه والغربى فاصل حوض ن ٦

٥ س ٩ ط ٠٠ فدان ما قبلهفقط تسعة قراريط وخمسة أسهم أطيان

فعلى راغبى الشراء الحضور للمزايدة وشروط البيع وكافة الأوراق مودعة بقلم الكتاب لمن يريد الاطلاع عليها ؟

كاتب البيوع

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٥٥ — الاثنين ٢١ يناير ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون



14 me Année No. 655

Lundi —21—1—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٥٥ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٧ صفر سنة ١٣٦٥ — ٢١ يناير سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

فى الحـــرم

للأستاذ عباس محمود العقاد

ركبنا البحر ونحن لا نعلم على التحقيق أين نلقى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، لأن برنامج الرحلة لا يشير إلى المكان

فمن الجائز أن يكون فى جدة ، لأنها الميناء الذى ينتقل منه جلالته إلى يخت المحروسة ، ولجلالته قصر منيف فى أرباضها هو القصر المعروف بقصر خزام

ومن الجائز أن يكون فى مكة المكرمة ، لأن اليخت يصل إلى جدة قبل سفر جلالته بيومين

فإذا كان استقبال البعثة الملكية فى جدة فلا عمرة ولا إحرام ، وإذا كان الاستقبال فى مكة المكرمة ، فقد وجبت العمرة ووجب الإحرام

ولكن كيف السبيل إلى الإحرام ؟ وكيف السبيل إلى خلع المخيط فى الشتاء ، وإن كان الجو فى مكة أدفأ من جو القاهرة بدرجات ؟

إننى ألبس الصوف شتاء وصيفاً منذ خمس وعشرين سنة ، وإذا صح أن « الصوفى » منسوب إلى الصوف ، فليس على ظهر الأرض رجل أحق منى بهذه الصفة ، فكيف السبيل إلى التحلل من هذه الصفة التى لصقت بالموصوف ، فلا فكاك منها ولا فرار؟

جاءنا النبأ فى عرض البحر بأن صاحب الجلالة عاهل الجزيرة العربية يستقبلنا فى قصره العامر بمكة المكرمة ، فنوينا الفدية ، ونوى أصحابنا الإحرام ، ولم يبق معى بملابسه غير الأستاذ عوض البحراوى بك وزير مصر المفوض فى المملكة السعودية ، لأن الإحرام لايلزمه ، وإنما يلزمه أن يطوف بالكعبة عند مغادرة مكة طواف الوداع

وقد خصصت الحكومة السعودية قصر « الكندرة » بجدة لتبديل الملابس قبل المسير إلى الحرم الشريف . وتولى الإشراف على راحة البعثة ومن معها صاحب المعالى الشيخ يوسف ياسين وزير الدولة ، وصاحب العزة الأستاذ فؤاد شاكر مدير المطبوعات .

فلما تهيأ أصحابنا للسفر تحرك الركب بالسيارات ، فكان من نصيبى الركوب فى سيارة الوزير المفوض عوض البحراوى بك ، وهو رجل فاضل عرف أهل البلاد كما عرفه أهلها ، فانعقدت بينه وبينهم صلات المودة والزمالة ، وارتفعت بينهم الكلفة كل الارتفاع فيما عدا المراسم التى تقضى بها المعاملات الدولية ، وقد عبر الطريق مرات فعلمت منه كل ما احتجت إلى علمه من معالمها وأحوالها ، ووصلت إلى مكة بزاد غير قليل من المعرفة العملية بالحجاز .

***

هذه جبال مكة

وهذا جبل حراء

بلغناه بعد ساعة ونصف ساعة من السير المعتدل فى السيارة ، ومررنا إليه بمناظر كثيرة نرى أمثالها فى بلادنا ، ولا سيما بلدى الذى نشأت فيه ، وأعنى به أسوان : جبال وبطاح ومراع يتخللها العشب فى الأودية والسفوح ، وبعض الجبال يليح لنا بألوان المعادن التى يحتويها ، وبعض البطاح ينم على مجارى الماء فى باطنه القريب

كل ذلك مألوف نرى أمثاله حيث نشأنا على مقربة من صحراء أسوان ، أما الجديد كل الجدة على النظر وعلى النفس فهو غار حراء هو فى قمة مرتفعة فى جبل ، كأنما بنيت بناء على شكل القبة المستطيلة إلى الأعلى ، ولكنها عسيرة المرتقى لا يبلغها المصعد فيها إلا من شعاب وراء شعاب

أخبرنى من صعدوه أنهم كانوا يعانون شديد العناء من وعورة مرتقاه ، وأن القليل من الناس يصعد فى صعوده إلى نهايته العليا ، حيث كان الرسول عليه السلام يتنسك ويبتهل إلى الله

والحق أن الرؤية غير السماع

والحق أن ما يلمحه الناظر فى نظرة خاطفة قد يعيى الكاتب بوصفه فى الصحف والأسفار

والحق أننا قرأنا ما قرأنا عن الجبل وعن الغار ، ثم نظرنا إليهما ، فعلمنا أن القراءة قد تركت الكثير من فراغ النفس لتملأه هذه النظرة العابرة فى الطريق

مررنا به عابرين كما كان سكان البلاد يمرون به غادين رائحين فى غفلة عن ذلك الرجل المفرد الذى يأوى إليه ويسكن إلى غاره .

كانوا فى غفلة عن ذلك الرجل المتوحد فى سبيل التوحيد ، كما كان العالم كله فى مثل تلك الغفلة وفى مثل تلك الظلمات

ولكنها كانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور ، فلما انقضت مدتها لم يبق فى الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغار ، أو جاهل بآثار تلك الساعات التى كان يقضيها فيه بالليل والنهار

وحسبك نظرة واحدة إلى الجبل ومرتقاه لتحيط بعض الإحاطة بتلك النوازع المرهوبة التى كانت تنهض بالرسول فى صباه إلى ذروة تلك القمة مرات بعد مرات وأياماً بعد أيام

كل مرة من تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعث المحتدمة فى نفسه الشريفة ، وترينا كيف بلغت هذه البواعث المحتدمة أن تدفع بالعالم كله فى طريق غير طريقه ، وإلى غاية لم تكن له من قبل فى حساب ، فلولا لاعج من الشوق الإلهى ينهض بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر لما توالت تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العكوف

إن اللواعج التى حملت الرسول إلى مرتقى الغار هى السر الروحانى الذى استجاش العالم كله بعد ذلك فى حركة دافقة تقتحم السدود وتخترق الأسوار والحدود

وكل أولئك كان فى نشأته الأولى خاطراً فى قلب رجل وحيد يتفرد فى سبيل التوحيد

وكل ذلك السيل الجارف إنما تجمع قطرات قطرات عند هذه القمة العالية .

كل ذلك كان فى هذا المكان

***

وعبرنا خاشعين مطرقين ، وسكتنا لأن مهبط الوحى هنالك قد ألهمنا السكوت

مكان آخر عند الكعبة كان له فى قلوبنا مثل هذا الخشوع ومثل هذا الرجوع مع الزمن إلى أيام الرسالة وأيام الجهاد

ذلك هو موقف الدعاء الذى كان الرسول عليه السلام يختار الوقوف فيه كلما طاف بالكعبة ودعى إلى الله

أنت هنا لا ريب فى مقام قام فيه ذلك الرسول الكريم ، ذلك السر السرمدى الذى تتعلق به مقادير التاريخ ومصائر الأمم وضمائر بنى الإنسان ، ذلك الإنسان الذى يقترن اسمه فى صلوات الألوف بعد الألوف باسم خالق الكون العظيم

أنت هنا تقف حيث وقف وتدعو حيث دعا وتنظر حيث نظر وتحوم بنفسك حيث حام فى اليقظة لا فى المنام

قيل لنا : هنا يستجاب الدعاء

قلنا نعم : هنا أخلق مكان أن يستجاب فيه دعاء ، وألهم الله كلا من الواقفين معنا أن يدعو دعاءه وأن يستجمع فى الدنيا والآخرة رجاءه ، وساق إلى لسانى هذه الدعوة فدعوت : اللهم ناولنى ما أريد لى وللناس ، واجعل الخير كل الخير فيما أريد لى وللناس

وما بى من حاجة فى الحياة إذا استجيب هذا الدعاء

* * *

منظر ثالث أخذنى بجماله فى جوار البيت الحرام ، وهو منظر الحمام الآمن الوادع فى ذلك المقام

لا يخشى ولا يفزع ، بل يظل طوال نهاره فى طواف على الأرض وطواف على الهواء

وأعجب ما سمعت ورأيت أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات

وقد سمعت بهذه الخاصة فى حمام البيت قبل أن أراه ، فلما رأيته فى طواف العمرة وطواف الوداع تحريت أن أتعقبه فى كل مذهب من مذاهب مطاره ، فإذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العبور

أدب الناس فى هذا المقام المهيب نعرف سره ونعرف مصدر الوحى منه إلى القلوب الآدمية

أما أدب الطير فى هذا المقام فسره عند الله

* * *

وأمن الحمام يذكرنى بأمن السائلين فى جوار الكعبة وجوار المسجد الحرام

إنهم ليتدفعون حول الزائرين ولا يتجملون كما يتجمل الطير فيقطع بعضهم رزق بعض ، ولا يدعون لمن يريد أن يعطى سبيل العطاء

وهم فى أمان لا يهانون ولا يصيبهم الأذى من الشرطة فى جوار البيت الذى يأمن فيه الخائفون

وحسن هذا وايم الله

حسن أن يأمن المساكين كل سطوة فى حرم الأمان ، وأحسن منه أن يجيئهم الوازع من القلوب والعقول لا من العصى والسياط

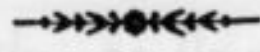
فإن كان فى تهافت السائلين على صغائر الدنيا غضاضة ، فإن فى هذا الأمان لقداسة البيت العتيق ، وإنه لمن القداسة أن يتعلم الإنسان كيف يجيب من يسألونه ، وهو يدعو الله ويرجو أن يستجاب .

عباس محمود العقاد

حق تقرير المصير

لأهل ليبيا وبرقة

للأستاذ أحمد رمزى



فى أحد شهور عام ١٩١١ ، روّع العالم الإسلامى والعربى ، بخبر اعتداء صارخ ، قامت به إيطاليا ، على القطر الطرابلسى ، بغير إعلان حرب وبدون مسوّغ ، ولم يكن هناك نزاع أو ما يشبه النزاع ، بل هناك أمن وسلام ، ولم يعلم الناس بأمر مفاوضة انقطعت أو أمر اختلاف على مبدأ أو رأى أو قاعدة مما تختلف عليه الأمم والشعوب فيُتخذ ذريعة للحرب ، بل لم يسمعوا بشىء أو بعض الشىء مما يحضر الأذهان لمثل هذا العدوان ، وينبه العقول لمقدمه .

* * *

وإنما سيرت إيطاليا بوارجها وجحافلها ، واستيقظ أهل مدن طرابلس وبنغازى ودرنة الآمنة ، على أصوات المدافع وجللها المتفجرة ، تقذف عليهم الحمم والموت فى عقر دارهم . فيالله ! عندئذ وجمت النفوس — كنا صغاراً لا نعقل من الأمر شيئا ، ولكننا لمسنا الألم والأسى ، مرتسمين على وجوه الآباء والأهل والعشيرة والجيران ، فخزنت قلوبنا لحزنهم وتألمنا لألمهم .

كنا صغاراً نلعب ونلهو — فتركنا اللهو وقاطعنا اللعب ، وشعر كل منا ، بأن ساعة فاصلة فى حياته قد دقت ، نعم كان وقع الاعتداء شاملا ، وكان الجرح عميقاً ليس من الجراح التى تبرأ وتلتئم وتنسى مع الزمن .

وسرت بين الناس موجة دافعة ، من تلك الموجات التى تملأ النفوس والمشاعر ، وتخفق لها القلوب ، لرد العدوان ، وارتجت مصر من أقصاها ، فمن كتب عليهم القتال من المجاهدين قاتلوا وقتلوا ، ومن لم يقدر على تحمله جاد بالمال عن نفسه وبنيه .

وأتى المجاهد أنور ومعه حفنة ممن باعوا أنفسهم فى سبيل الله ، وصمدت عرب طرابلس وعرب برقة وعلى رأسهم السيد أحمد السنوسى ، ليكتبوا بدمائهم ملحمة من ملاحم الملثمين والموحدين فى دفاعهم وجهادهم واستماتتهم عن أرض أندلس ، فواجهوا الموت

وعاينوا الهزيمة ، كما لاح لهم الظفر والمجد ، وقاتلوا وانتصروا واستشهدوا ، وامتلأت أيديهم بالعتاد والسلاح وأسرى العدو .

* * *

وانتهت الحرب بقيام حرب أشد هولا ، هي حرب البلقان ، تخفتت أصوات المجاهدين ، واتجهت الأنظار لمعارك في جبهة مقدونيا ، وتساءل الناس عن المصير .

أما مقدونيا فرثاها شوقي بقوله :

يا أخت أندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام

وأما ليبيا وبرقة فقد استحوذ عليهما الطليان ، ورتل قائل بشعر قديم[1] فقال :

أحقاً خبا من جو رُندة نورها
وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلها ذات العلا وقصورها
أحقا خليلي أن رُندة أقفرت وأزعج عنها أهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلت عروشها ودارت على قطب التفرق دورها
ترى للأسى أعلامها وهي خشع ومنبرها مستعبد وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وإمامها وزائرها في مأتم ومزورها

كلا لم تدم تلك المحنة ، ولم تصبر على الضيم نفوس أبت إلا أن تعيش في ظلال الكرامة والعزة ، وقامت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ، ودخلت إيطاليا الحرب ، فارتجت البلاد ، وغمرتها تكبيرة المجاهدين ، والدعوة إلى الخلاص ، وبدأت ملحمة جديدة من تلك الملاحم الخالدة في تاريخ العروبة ، التي تقاتل فيها فئة صغيرة فئة كبيرة — فيأتيها النصر من عند الله .

* * *

لقد فرحت مصر وفرحنا بمعارك درنة ، وعين زارة[2] وغيرها ، من التي من الله بها على المجاهدين والمرابطين وذوى البأس في قتال الطليان ، وكان ذلك إبان الحرب التركية عامى ١٩١١ — ١٩١٢ . أما أيام الحرب العظمى فقد سار المجاهدون فيها من نصر إلى نصر ، بل كان كل يوم يمر يأتي إليهم بنصر جديد من عند الله ، ولم تمض ١٩١٥ إلا وقد زحزحوا الطليان عن برقة ، واستعادوا فزان ، واقتحموا حصونهم ومعاقلهم واحداً بعد الآخر ، واستحوذوا على أسلحتهم وسياراتهم وأسروا كتائبهم المرتزقة ، من سود وحبش وغيرهم ، وساقوهم بأسلحة الطليان لقتال الطليان ، وتلك والله مقدرة لأهل برقة وليبيا .

وتتبعوا المنهزمين وسدوا عليهم المنافذ والطرق ، وفي يوم أصبحت العاصمة تحت أزيز رصاصهم ، وغدا الساحل تحت سيطرتهم ، فأتتهم المؤن والذخائر من حيث شاءوا .

فهل رأيتم دفعة كهذه الدفعة ، أو قوة من المستضعفين يملؤها الايمان والثقة في النفس والدعوة إلى الحق والقتال في سبيل الله ، عملت في القرن العشرين عملا يشبه هذا ؟ إنها وايم الله وقفة رائعة ...

* * *

وانتهت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٨ ، وتدخل الانجليز بين الطليان وأهالى البلاد فاعترفوا بنظام ليبيا ومراطة وأقروا إمارة برقة ، ووقعوا المعاهدتين وضمنوا استقلال الداخل ، وخيل للناس أن عهداً من الطمأنينة والأمن قد أشرق ، كان هذا وإيطاليا تلبس لباس الديمقراطية وتتئد .

وفي يوم من أيام موسوليني ، بعد أن اغتصب الحكم في بلاده ، عبث الثعلب المستأسد بمواثيق بلاده وضماناتها وقيودها ، وحنث بالايمان المأخوذة ، وأثار حرباً ضروسا مهلكة ، يحاول بأساليبها إبادة شعب بأسره ، كانت تعليماته وقراراته وأوامره واضحة لا شبهة فيها ، فليراجعها من يشاء ، يجدها في كتبهم وما نشره قوادهم .

أمامنا ما كتبه فولبي عن عهده ، وما أذاعه جرازياني ، وما خطه بادوليو ، فليقرأ كل من يشك فيما نكتب أو تحدثه نفسه أننا ننطق عن الهوى .

وكان أمامهم شعب أبي ، يرغب أن يحيا حياته على النحو الذي يريده هو ، لا كما يريد النير أن يكون عليه ، قد صمم أن يعيش بغير أن تفرض عليه سيادة روما وسياطها شعب يأنف أن تبسط عليه شخصية غريبة عنه ، غير الشخصية المنبثقة من روحه وإيمانه وتاريخه وكتاب الله ، أمة لا ترضى بلغتها وثقافتها بديلا ولو أعطيت الكون بأكمله ، وهي لا تتراجع أن تدفع العدوان بما لديها من شجاعة وصبر ومجالدة .

(١) من مراثي الأندلس ومن نظم أبي جعفر بن خاتمة في حوالى سنة ٩٠٤ هجرية ، أوردها الأمير شكيب أرسلان في كتابه : (الحلل السندسية) . (٢) تبعد ١١ كيلومتراً من مدينة طرابلس وهي واحة .

قابل هذا الشعب ، صدمة الخيانة بشجاعة نادرة ، رأى الحرب تفرض عليه فى دياره ، فواجهها كما يواجهها كل مقاتل كريم كتبت عليه التضحية فقدم بنيه وأحفاده ، ضُيق عليه الخناق بحصار من البر والبحر ، فتحمل وصبر ، أوذى فى نفسه ومعاشه وماله ودكت بيوته ، ولكن لم ينزل على حكم ظالميه ، ولا طوى مطلباً من مطالبه ، ولا تراجع عن مبدأ من مبادئه .

واتبعت إيطاليا سياسة العنف والتشريد ، فلم ترع شيخاً ولا مقعداً ولا طفلا ولا رضيعا ، خربت المنازل وأفنت قبائل ، وحولت بقاعا عامرة فجعلتها صعيدا جردا .

وفى تلك الحقبة المظلمة ، والعالم لا يعرف شيئا ، عن مأساة أهل ليبيا وبرقة ، ظهر عمر المختار ، وكلنا قد سمع عنه ، وعن عراكه وكفاحه وجهاده ، فاسألوا أنصاره ورجاله ، ينبئوكم عن حوادث عشرين عاما متتالية ، والحرب سجال ، يوم لك ، ويوم عليك .

هذا هو الشعب الأبى الكريم الذى حررته الديموقراطية فى الحرب الأخيرة ، واتخذت من اسمه عنوانا ومثلا لتحرير الشعوب المظلومة المغلوبة على أمرها . والذى جمعت من أفراده ورجاله المتطوعة ، وحاربت بهم ، وقالت للعالم هأنذا قد أرجعت الحق لأهله ، وأنقذت أول شعب وقع العدوان عليه ، وأزلت أثر الظلم والطغيان عن عاتقيه .

* * *

وترقب أهل البلاد نعمة الخلاص ، وباتوا يعلقون الآمال ، فماذا يراد بهم اليوم ؟ إننا لنسمع الكثير من اللغط . فمن قائل بعودة هذه الأرض البائسة إلى سادتها الطليان ، ومن قائل سلموها للروس ، وآخر يقول بانتداب الغير عليهم كأن هذه البلاد خلو من السكان .

إنه ليهمنا نحن معاشر الأمم العربية ، شأن برقة وليبيا ، ويهمنا شعب هذه البلاد . لماذا ؟ لأننا منه وهو منا ، إنها لصلات الدم والقربى والثقافة والتاريخ الحى ، لا التحجر الجامد ، ثم ما يوحيه هذا التاريخ المشترك من ذكريات الجهاد والنصر والهزيمة .

إننا نعبر عن رأيه ونقول : هذا الشعب لا يريد شيئا مستغربا أو فوق متناول يد الإنسان ، إنه يريد أن ينعم بحدوده وبلاده وموقعه الجغرافى واستقلاله وحريته — أى بتقرير مصيره — فهو يطلب كيانا تحت الشمس ، كغيره من عباد الله ، شأنه شأن بقية الشعوب الصغيرة .

فهل تجاب دعوته ، وهل يحسب لتضحياته حساب ، وهل يعترف بجهوده ؟

أم ستعرض بلاده للبتر والتقسيم ، ويوضع مصيره وحريته ليضارب بها فى سوق توزيع مناطق النفوذ .

الله يشهد أن هذه الأرض فقيرة ، وأن تجربة إسكان الأوروبيين التى قامت بها إيطاليا لم تنجح ، فهل يقنع هذا الأقطاب الثلاثة بإعادة الحق لذويه أم ترد إلى سيطرة إيطاليا أو وصايتها نيابة عن الأمم المتحدة ؟

أظن أن المنطق الأولى يقول : إن الأمم العربية ومعها شعوب الأرض الحرة بأكلها ، لن تقبل ولن تسلم بعودة شعب شهيد ، قد ذاق مرارة الاضطهاد إلى سيطرة جلاديه .

ونحن وإن كنا لا نصدق هذا ، ونجده بعيداً عن المثل العليا ، التى أعلنتها الدول المتحدة ، لا نر غضاضة على أنفسنا ، أن نصارح الأمم التى تسيطر على الأرض ببعض الحقائق فنقول :

إن حق أهالى هذه البلاد الشقيقة فى تقرير مصيرهم لا ينازع وأن إقرار استقلال البلاد وإيجاد حكومة ديموقراطية ، أمانة فى يد الأمم المنتصرة ، حسب وعودها المتكررة .

كان عدد سكان ليبيا وبرقة العرب فى مستهل عام ١٩١٠ أكثر من مليون نسمة ، وقد هبط هذا العدد إلى أقل من النصف ، على أثر سياسة التشريد التى اتبعتها الحكومة الفاشستية فكأن هذا الشعب قد بذل من الأنفس والأرواح دفاعاً عن كيانه واستقلاله ما لم يبذله الشعب الإيطالى طوال قرن من الزمن ثمنا لتحريره . فهل رأيتم شعبا يضحى بنصف عدده فى سبيل مثله العليا ؟

هذا هو الشعب العربى فى ليبيا وبرقة .

احمد رمزى

القنصل العام السابق بسوريا ولبنان

في إرشـــاد الأريب

إلى معرفة الاديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٢٣ —

ج ٧ ص ٢٣٦ : حدث السمعانى عن أحمد بن سعد العجلى قال : كان السلطان نازلا على باب همذان فرأيت الأديب الأبيوردى راجعاً من عندهم ، فقلت له : من أين ؟ فأنشأ يقول ارتجالا :

ركبتِ طِرفى فأذرى دمعه أسفا   عند انصرافى مَنهم مضمر الياس

وقال : حتام تؤذبنى فان سنحت   جوائح لك فاركبنى إلى الناس

وجاء فى الشرح : سنحت جوانح : جرى فألك باليمن .

قلت : (سنحت سوانح لك) أى خطرت على بالك خواطر أوخطرات . فى التاج : سنح الرأى والشعرلى: عرض لى أوتيسر. وفى الصحاح : سنح لى رأى فى كذا أى عرض .

وقد يراد بالسوانح جمع السانح ، وهو ما كانت العرب فى القديم تتيمن به . ومن أمثالهم : (من لى بالسانح بعد البارح) والسانح ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك ، والبارح ما أتاك من ذلك عن يسارك ، ومنهم من يتشاءم بالسانح ويتيمن بالبارح ...

لم أجد هذين البيتين ومقاطيع كثيرة فى (الإرشاد) وفى (الوفيات) فى ديوان الأبيوردى المطبوع فى بيروت سنة ١٣١٧. ولهذا الشاعر الأموى ميمية خالدة ألهمه الله إياها فى (الحروب الصليبية) لم تسعد بها تلك الطبعة . ولم يذكر منها فى (الإرشاد والوفيات) شيء . وقد ذكرها العلامة النويرى فى (نهاية الأرب[1]) قال : « قال أبو المظفر[2] الأبيوردى لما استولى الفرنج على البيت المقدس فى سنة (٤٩٢) قصيدة[1] منها » وروى اثنين وعشرين بيتا . يقول الأموى فى هذه الخالدة المخلدة :

(١) ج ٥ ص ٢٢٣ . كان العلامة الأستاذ السيد طه الراوى سأل هذا الضعيف فى المهرجان العلائى — والسائل أعلم من المسئول — عن مظنة هذه الدرة فلم أتذكرها وقتئذ

(٢) فى (نهاية الأرب) : المظفر ، وهو أبو المظفر ، كما ذكر ابن خلكان .

فإيها بنى الإسلام ، إن وراءكم   وقائع يلحقن الذرى بالمناسم[2]

أتهويمة فى ظل أمن وغبطة   وعيش كنوار الخميلة ناعم

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم   ظهور المذاكى أو بطون القشاعم

يسومهم الروم الهوان وأنتم   تجرون ذيل الخفض فعل المسالم

وتلك حروب من يغبْ عن غمارها   ليسلم يقرعْ بعدها سن نادم

أرى أمتى لايشرعون إلى العدى   رماحهم والدين واهى الدعائم

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى   وتغضى على ذل كماة الأعاجم

فليتهم إذ لم يذودوا حمية   عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى   فلا عطست إلا بأجدع راغم[3]

دعوناكم والحرب ترنو ملحة   إلينا بألحاظ النسور القشاعم

نراقب فينا غارة عربية   تطيل عليها الروم عض الأباهم

* * *

ج ٥ ص ٢٣٣ : قال : (أسامة بن مرشد بن منقذ) ، فى أخيه يحيى :

بالشام لى حدث وجدت بفقده   وجدا يكاد القلب منه يذوب

فيه من البأس المهيب صواعق   تخشى ومن ماء السماء قليب

(١) كانت وفاة الأبيوردى سنه ٥٥٧ فهل نظم هذه القصيدة وهو صغير أم نظمها بعد ذلك التاريخ .

(٢) (إيها) للكف والسكوت و (ويها) للاغراء والتحريض . وقد روي اللسان والتاج هذا البيت لحاتم الطائى شاهدا للأولى :

أيها فدى لكم أمى وما ولدت   حاموا على مجدكم واكفوا من اتكلا

وروياه فى (ويها) شاهدا للمغرية المحرضة . .

(٣) في نهاية الأرب للثرى — بالثاء — وهي للبرى بالباء . فى اللسان : البرة الحلقة في أنف البعير من صفر أو غيره ، وإذا كانت البرة من شعر فهى الخزامة . في الصحاح : قد خششت الناقة وعرنتها وزممتها وخطمتها وأبريتها هذه وحدها بالألف إذا جعلت فى أنفها البرة .

قلت : لئن أذعنت ... فلا عطست . الجواب هو للقسم وقد جاء هنا للشرط . وما أظنّ أن الأصل : (إذا أذعنت) فهذا الاستعمال فى كلام المحدثين كثير .

فارقت حتى حسن صبرى بعده وهجرت حتى النوم وهو حبيب

وجاء فى الشرح : حدث أى رجل فتى .

قلت : جدث ، وهم يعنون من فيه . قال الحماسى (متمم ابن نويرة) :

فقال أتبكى كل قبر رأيته لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

وقال الحماسى (مسلم بن الوليد) :

قبر بحلوان استسر ضريحه خطرا تقاصر دونه الأخطار

فى التاج : ابن برى : ثوى أقام فى قبره .

***

ج٦ ص ١٦٠ : ومن شعره (الجوهرى صاحب الصحاح) :

يا صاحب الدعوة لا تجزعن فكلنا أزهد من كرّز

فالماء كالعنبر فى قومس من عزه يجعل فى الحرز

فسقّنا ماء بلا منة وأنت فى حل من الخبز

وجاء فى الشرح : الكرّز اللئيم الخبيث ، وفى الأساس : لا أحوجك إلى كرز أى إلى غنى لئيم .

قلت : (فكلنا أزهد من كرْز) إن اللئيم لن يكون زاهدا دع عنك أمر القافية . وربما عنى الجوهرى كرز بن جابر الفهرى أو كرز بن أسامة العامرى أو كرزا التميمى ، وهم صحابيون (رضوان الله عليهم) أو كرز بن وبرة وهو تابعى (عليه رحمة الله) أو زاهدا من زهاد زمانه اسمه كرز . والكرز هو كما نقل فى الشرح من الأساس ، وعبارته هى « لا أحوجك الله إلى كرز » ومن معانى الكرز ما ذكر الإمام موهوب الجواليقى فى كتابه (المعرب)[1] ص ٢٨٠ :

الكرز البازى ، وهو الرجل الحاذق ، وأصله بالفارسية (كرّه) قال ابن دريد : الكرز الطائر يحول عليه الحول من طيور الجوارح ، وأصله (كره) فعرب فقيل : كرز .

***

ج ١٣ ص ١٩٤ : ... اذهب بهذين إلى الكسائى حتى يتناظرا بين يديه ثم يخبرك لمن الفلح منهما .

(١) طبعته (دار الكتب المصرية) « بتحقيق وشرح الشيخ أبى الأشبال أحمد محمد شاكر » ، و « تقديم الكتاب بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام » .

وجاء فى الشرح : الفلح الفوز ، أقول : وربما كانت الفلج أى النصر .

قلت : هى الفلج . فى الأساس : فلجت على خصمك ، ولمن الفلج والفلج . وفى السادسة والعشرين الحريرية وتعرف بالرقطاء : « من لف لفه فلج وغلب » . والفلح يحمل من المعانى أكثر من الفوز الذى فسر به . فى التاج : الفلح والفلاح الفوز بما يغتبط به وفيه صلاح الحال والنجاة والبقاء فى النعيم والخير . وفى النهاية : حىّ على الفلاح : الفلاح البقاء والفوز والظفر أى هلموا إلى سبب البقاء فى الجنة والفوز بها وهو الصلاة فى الجماعة .

***

ج ٨ ص ٤١ : (أفضل الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الملك فى الحسن أحمد العطار الهمذانى) :

صبرا فأيام الهموم تزول والدهر يعطيك المنى وينيل

لا تيأسن إذا ألم ملمة إن الشدائد تعترى وتحول

لا تشتغل بالعسر واطو مشمرا بسط الفيافى والشباب مقيل

والبس سواد الليل مرتديا به إن التجلد للرجال جميل

حتى تنيخ العيس فى كنف العلا حيث التحرم بالنجىّ كفيل

وجاء فى شرح البيت الثالث : ويريد بكون الشباب مقيلا أنه فى حياة المرء كالقيلولة .

قلت : (لا تيأسن إذا تلم ملمة) فى (المغنى) : ويكون الفعل بعدها ماضيا كثيرا ومضارعا دون ذلك ، وقد اجتمعا فى قول أبى ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع[1]

(بسط الفيافى والشعاب مقيل) ومن طوى بسط الفيافى فالشعاب فنادقه لمنامه ومقيله ... والشعب بالكسر — كما فى القاموس — : الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن الأرض أو ما انفرج بين الجبلين .

(حيث التحرم ، بالنجاح كفيل) فى الأساس : وتحرم فلان بفلان إذا عاشره ومالحه ، وتحرمت بطعامك ومجالستك أى حرم عليك منى بسببهما ما كان لك أخذه .

***

(١) فى الايجاز والاعجاز للثعالبى : كان الأصمعى يقول : هو أبرع بيت العرب .

ج ٩ ص ٨ : فكتب إليه المهلبي : وصل كتابك يا أخي … المتضمن نفيس الجواهر من بحار الخواطر ، الحاوي ثمار الصفاء من منبت الوفاء . وفهمته ، ووقع ما أهديته من نظم ونثر … موقع الري من ذي الغلة ، والشفاء من ذي العلة ، والفوز من ذي الخيبة ، والأدب من ذي الغيبة .

وجاء في الشرح : الأدب التأديب . قلت : عندي أن المهلبي قال : (والغنم من ذي الغيبة) ويعزى إلى امرىء القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

***

ج ٥ ص ١٣ :

فإن يك حرب بين قومي وقومها فإني لها في كل نائبة سلم

قلت : تمثل البديع الهمذاني بالبيت في إحدى رسائله وهو من قصيدة .

والرواية هي (وإن تك حرب) في اللسان : السيرافي : الحرب أنثى ، وحكى ابن الأعرابي فيها التذكير ، والأعرف تأنيثها ، وإنما حكاية ابن الأعرابي نادرة ، في التاج : ودار الحرب بلاد المشركين الذين لا صلح بيننا معشر المسلمين وبينهم ، وهو تفسير إسلامي .

***

ج ٨ ص ٢٣١ :

القائل القول الرفيع الذي يَمرع منه البلد الماحل

قلت : في القاموس : مرع الوادي مثلثة الراء مراعة ومرعا أكلأ كأمرع ، وفي الصحاح : قد مرع الوادي بالضم وأمرع أي أكلأ فهو ممرع ، وفي اللسان والتاج : وقيل : لم يأت مرع وقال ابن الأعرابي : أمرع المكان لا غير .

***

ج ١٣ ص ٢٠٦ :

قد عزمنا على الصبوح فبادر قبل أن تضحى السماء المخيله

قلت : (قبل أن تضحى السماء مخيلة) وهي الخبر . في الأساس والسماء مخيلة للمطر : متهيئة له ، وقد أخالت السماء ، وخيلت وتخيلت ، وخايلت ، وسحابة مخايلة إذا رأيتها خلتها ماطرة .

***

ج ١٥ ص ٢١٥ :

يصوب على العافين مزن بنانه فيَكبت حسادا ويبنت أنعما

قلت : (فيَكبت) هناك الكبت لا الإكبات .

في الأساس : كبت الله عدوك كبه وأهلكه ، ومن المجاز : فلان يكبت غيظه في جوفه . في التاج : في التنزيل (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) أصل الكبت الكبد فقلبت الدال تاء ، أخذ من الكبد وهو معدن الغيظ والأحقاد فكأن الغيظ لما بلغ بهم مبلغه أصاب أكبادهم فأحرقها ، ولهذا قيل للأعداء : هم سود الأكباد . وفي الكشاف في تفسير (ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين) : أو يكبتهم أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ، ويقال : كبته بمعنى كبده[1] بالغيظ والحرقة ، وقيل في قول أبي الطيب (لأكبت حاسدا وأرِي عدوا[2]) هو من الكبد والرئة .

قلت : يقال للأعداء : هم زرق العيون كما يقال لهم سود الأكباد . في الكشاف :

إن الزرقة أبغض شيء من ألوان العيون إلى العرب ، لأن الروم أعداؤهم ، وهم زرق العيون ، ولذلك قالوا في صفة العدو : أسود الكبد ، أصهب السبال ، أزرق العين …

(١) الأساس : كبدته : أصبت كبده .

(٢) اللسان : ورِيته وريا أصبت رئته فهو موري ، وفي الصحاح : ورى القيح جوفه يريه وريا أكله

من كلام الامام الزمخشري : إذا أردت أن تكبت عدوك فازدد فضلا في نفسك .

على هامش النقد:

شيلوك الجديد
أو
قضية فلسطين

مسرحية للأستاذ باكثير

للأستاذ سيد قطب

هذه المسرحية من عمل الأستاذ «على أحمد با كثير» صاحب مسرحيات: «مملكة السماء، والفرعون الموعود، وقصر الهودج»؛ وقصص: «سلامة القس، وا إسلاماه» ... أصدرتها «لجنة النشر للجامعيين» فى سلسلتها التى بلغت إلى اليوم أربعاً وثلاثين حلقة، معظمها لأسماء شابة أبرزتها اللجنة، وكشفت عن مواهبها، وهيأت لها فرصتها للظهور، والإنتاج المفيد؛ ولعلها كانت وشيكة أن تطمر، أو أن تنتظر طويلا حتى تنال حقها الطبيعى فى الميدان الأدبى. وذلك فضل للجنة ليس باليسير.

ومسرحية «شيلوك الجديد» عمل أدبى يجيء فى إبانه، ليلقى على «قضية فلسطين» فى هذه الأيام ضوءاً منيراً كشافاً، وليصورها على حقيقتها التاريخية والواقعية، وليرسم الحل الناجع لها، وهو الحل الذى اهتدت إليه جامعة الدول العربية بعد شهر من ظهور المسرحية. وحسب المؤلف — وهو فرد — أن يلتقى فى تفكيره مع أبرز رجال الجامعة العربية فى حل قضية فلسطين!

وهذه المسرحية — من الوجهة الفنية البحتة — ليست أحسن أعمال الأستاذ باكثير؛ ولكنها من الجهة الأخرى تعد أكبر عمل أدبى تصدى لقضية فلسطين منذ نشأتها إلى اليوم ... إنها تقريرحى عن هذه المأساة، لا يسرد القضية سرد التقريرات، بل يعرضها عرضاً حياً على المسرح، فيكشف عن حقيقة مطامع الصهيونيين فى هذه البلاد المقدسة، وعن وسائلهم الخسيسة والجهنمية فى تحقيق هذه المطامع، وعن نواحى الضعف التى يستغلونها فى جسم الأمة العربية أفراداً وشعباً، وعن مدى مشاركة السياسة البريطانية فى هذه الوسائل، وهى مشاركة كانت كلية سافرة فى وقت من الأوقات، وما تزال إلى اليوم تعمل، ولكن فى حذر ومن وراء ستار؛ لأن القوانين والإجراءات المالية والنظامية التى سنتها لا تزال باقية تخدم القضية الصهيونية أجل الخدمات، وتهيء لها امتلاك الأراضى، بعد أن تضيق الخناق على الاقتصاد العربى، وتجعله مضطراً لأن يمد يده إلى الاقتصاد الصهيونى، أو إلى الشرك الصهيونى بتعبير أدق!

ولا تخلو المسرحية — بعد هذا — من عرض لوحات حية من المشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية، والغرائز البشرية تتصارع وتتزاحم، وإن كان المؤلف — على عادته دائماً — يغلب عواطف الخير والطهر، ويمكن للأريحية والنبالة ... وذلك نضح نفسه الطيبة على أبطاله وقصصه

وهو إذ يصور الوسائل الخسيسة العجيبة التى تلجأ إليها الصهيونية لسلب أموال العرب وشبابهم!!! ويستعرض المكايد والدسائس المحبوكة التى تستخدمها، لا يكون الأمر مجرد حوادث ودسائس تستعرض؛ ولكنه يتعمق صميم النفس اليهودية، فيبرزها «نموذجاً بشرياً» واضح السمات متميز الملامح. وهذه المواضع فى المسرحية هى أجودها من الناحية الفنية. ولو أن المسرحية كلها فى مستوى هذه المواضع لارتفعت إلى مستوى شكسبير، فى رواية «تاجر البندقية». فطبيعة النفاذ إلى صميم الشخصية الإنسانية تكاد تتساوى فى هذه المواضع المعدودة!

وأخيراً يهتدى المؤلف إلى الحل الحاسم الذى اهتدت إليه الجامعة العربية أخيراً ... يهتدى إلى سلاح المقاطعة الحاسمة الباتة، التى تخنق الصهيونية فى فلسطين خنقاً. وقد ذهب المؤلف إلى أبعد الحدود، ففرض تخلى العرب عن فلسطين كلها، وضرب نطاق من الحصر الاقتصادى عليها. فما لبثت الصهيونية أن اختنقت فجاءت تطلب الصفح والمغفرة، وتتخلى عن مطامعها فى الوطن القوى ليرفع العرب عنها هذا الخناق المميت.

* * *

ولست أشك لحظة فى أن هذه المسرحية تقدم لقضية فلسطين أعظم خدمة فى طوق عمل أدبى واحد أن يقدمها، بل فى طوق عمل سياسى ضخم أن ينهض بها؛ ذلك أنها لا تدع «قضية

فلسطين » جملة رنانة ترد فى الخطب الحماسية ، ثم تنقضى مناسبتها فتبرد وتتلاشى ... إنما تحيلها حقائق ووقائع حية ، وتردها أموراً عملية محسوسة ، فى الوقت الذى تثير فيه الأريحية الإنسانية ، وتوقظ فيه النخوة العربية ، وتكشف عن الوسائل والدخائل فى الصراع بين العرب والصهيونية ، وتوازن بين القوى الحقيقية التى يملكها الفريقان فى الميدان ... تكشف ذلك كله كما لم يكشف من قبل أبداً .

وأنا أحد الذين كانوا يزعمون لأنفسهم أنهم ممن يهتمون بقضية فلسطين ويتتبعون خطواتها ، ويهتفون بها هتاف المتحمسين لها ... وقد تضمن ديوانى الأول منذ أكثر من عشر سنوات تحية لأبطال فلسطين جاء فيها :

عهد على الأيام ألا تهزموا   فالنصر ينبت حيث يهراق الدم
فى حيث تعتبط الدماء فأيقنوا   أن سوف تحيوا بالدماء وتعظموا
تبغون الاستقلال ؟ تلك طريقه   ولقد أخذتم بالطريق ، فيمموا
وهو الجهاد حمية جشامة   ما إن تخاف من الردى أو تحجم
إن الخلود — لمن يطيق — ميسر   فليمض طلاب الخلود ويقدموا
وطن يقسم للدخيل هدية   فعلام يحجم بعد هذا محجم ؟
الشرق . يا للشرق ! تلك دماؤه   والغرب . يا للغرب ! يغريه الدم
الشرق . ويح الشرق ! كيف تقحموا
حرماته الكبرى وكيف تهجموا
غرتهمو سنة الكرى فتوهموا   باللذكاء ! فكيف قد غرتهمو !
سنة ومرت والنيام تيقظوا   فليعلموا من نحن أو لا يعلموا !

* * *

أبطال الاستقلال . تلك تحية   من مصر يبعثها فؤاد مفعم
إخواننا فى الحال والعقبى معاً   إخواننا فيما يلذ ويؤلم
مصر الفتاة ولن تزال فتية   تهفو إليكم بالقلوب وتعظم
فى كل مطلع وكل ثنية   نار من الشرق الفتى ستضرم

أنا الذى زعمت لنفسى يوم نظمت هذه القصيدة ، وأيام تتبعت قضية فلسطين فى مراحلها المختلفة أننى ممن يعرفون هذه القضية . أشهد أن رواية « شيلوك الجديد » قد أطلعتنى على أننى كنت واهما فيما زعمت ، مغاليا فى حقيقة اهتمامى بهذه القضية المقدسة ، فلقد كشف لى الأستاذ « با كثير » عن حقيقة وضع القضية ، وحقيقة العوامل التى تتصارع فيها ، بما لم يكشفه لى كل ما وصل إلى يدى عنها فى خلال خمسة عشر عاماً أو تزيد .

* * *

ولكننى أختلف مع الأستاذ « با كثير » فى أمر واحد . ذلك أنه يبدو فى سياق الرواية وفى ختامها أنه واثق بأن هنالك شيئا اسمه « الضمير البريطانى » أو « الضمير الغربى » على وجه العموم . يبدو ذلك فى فصل « المحاكمة » الذى عقده فى نهاية المسرحية !

وأنا أخشى هذه الثقة على قضية فلسطين ، كما أخشاها على جميع قضايا البلاد العربية .

ليس للسياسة البريطانية ضمير . وليس للعالم الغربى شرف .

هذه هى العقيدة التى أعتقد أن من واجب كل كاتب وكل سياسى فى هذا الشرق العربى أن يمكن لها فى ضمير الأمة العربية بل فى ضمير الشرق الذى ما نكب فى تاريخه كله بمثل ما نكبته الثقة فى الضمير البريطانى ، وفى الشرف الغربى !

ولن ينال الشرق العربى — أو الشرق عامة — شيئا من حقه ، ولن يعرف الطريق الصحيح والوسائل المجدية لنيل هذا الحق ، قبل أن ييأس اليأس الكامل من هذا الضمير البريطانى ، ومن هذا الشرف الغربى . وقبل أن يعتمد على نفسه اعتمادا كاملا فى الصراع مع ذلك الوحش الأوربى — والأمريكى أيضا — ذلك الوحش الناعم الملمس ، واللبد على بعد ملليمتر من هذا الأديم الرقيق !

وإذا كان الشرق العربى لا يزال مبتلى إلى اليوم بجماعة من الساسة المخدوعين فى حقيقة هذا الضمير الغربى عامة ، فإن من واجب حملة القلم أن يكون لهم شأن غير شأن الساسة ، وإلا كانوا غير جديرين بالهبة الإلهية اللدنية التى منحتها إياهم السماء .

سيد قطب

في جذور الشجرة العربية

للأستاذ عبد المنعم خلاف

يعمل ساسة العرب على طريقتهم فى توطيد أسس الجامعة العربية . والسياسة ليست دائماً ذات إيمان ... ونحن أفراد الشعوب العربية ينبغى أن يكون اندفاعنا إلى هذه الجامعة حركة ذاتية فردية مؤمنة تعمل دائبة سواء أكانت السياسة تريد ذلك أم لاتريده ، وسواء أكان السياسيون متحمسين أم فاترين . فالسياسيون كثيراً ما ينقلبون ويغشون ويدمرون ما اشتركوا فى بنائه حينما يهزمون فى المجال الشخصى الضيق ، وتتصادم المصالح الصغيرة ويزول العمل للمصلحة الكبيرة . فيجب دفعهم بأيدى الجماهير المستنيرة حتى يكونوا دائماً شاعرين بحرارة إيمانها وقوة دفعها لهم .

وفى بعض الأحيان يجتمع السياسى ورجل الدعوة والإيمان فى شخصية فتسير الأمور عندئذ فى أمان وتقدم ، ولايخشى عليها من النكوص والتقلب والضعف ؛ لأن عناصر الإيمان والإلهام المتجدد وشبح النجاح المأمول فى تلك الشخصية من شأنها أن تحول بين الحركة وبين الارتداد والضعف مهما كان من عقبات ومغريات وعوامل تثبيط .

غير أن هذا النوع القيم من السياسيين لا يوجد كل حين . فيجب العناية والاهتمام والاحتراس من العناصر السياسية المحترفة التى تصطنع السياسة للحكم وشهوة الغلبة أو السيطرة أو الخيلاء ولا تعلم من أهداف السياسة إلا ما يحقق لها ذلك . ولا يكون ذلك الاحتراس إلا فى إعلان إرادة الرأى العام وإظهار أعماق شعوره وجلو أهداف إيمانه وتجديدها دائماً أمام عيونه ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الوسائل الثقافية والوجدانية التى فى أيدى الكتاب والأدباء المفكرين الذين يتعمقون الأشياء ويجلون دفائنها على أعين الجماهير جلواً يستهوى ويثير .

ومن الفطنة أن نعلم أن قيام الجامعة العربية على أسس فكرية ووجدانية يجب أن يسبق قيامها على الأسس السياسية ، لأن قيامها على الأسس الأولى هو من طبيعة الأشياء إذا أردنا أن نسير على قوانين النمو والتقدم والارتقاء مسترشدين الله فى إنضاج الثمار .

فالقلب هو أول ما يتكون فى الجنين ومنه تمتد الشرايين لتغذية الجسم الصغير الذى يتخلق منه الكائن الإنسانى أو الحيوانى . وكذلك عقدة البرعم التى فيها سر الشجرة ونوعها هى منطقة النمو فى النبات .

ذلك فى عالم الأحياء والمحسوسات وهو بذاته فى عالم الأمر والمعانى . فيجب أن نرعاه ونعرف له حقه ونؤدى له واجبه حتى لا نضل أو تلتوى بنا السبل أو يبطىء علينا نضج الثمرات المرجوة .

ومن الملحوظ فى الحركات السياسية الكبيرة التى تمت فى مراحل التاريخ ، أن كل حركة عظيمة كان بجوارها مفكرون يفلسفونها ويضعون لها أسساً تنهض فى أعماق الضمائر والعقول فتكون الحركة مدعمة بالإيمان والاستنارة .

فالبلشفية تقوم على فكرة وفلسفة وطدها كارل ماركس ولينين ، والنازية كذلك استمدت من فلسفة (نيتشه) وكان بجوارها (روزنبرج) ، والحركة الاشتراكية فى انجلترا يفلسفها الأستاذ (لاسكى) .

وهكذا تقوم الحركات السياسية الكبيرة دائماً على واضح الأسس الاجتماعية فى أعماق الوجدان والفكر .

والجامعة العربية لها فلسفة أو يجب أن يكون لها فلسفة ملخصة تنير طريق العربى إلى غايته وتجعل إيمانه بقوميته وحركتها السياسية إيماناً بصيراً مستنيراً . حتى إذا خاب جيل فى تحقيق الأهداف أتى الجيل الذى يليه فوجد الغاية صحيحة صالحة مركزة فى قضايا واضحة تستحق العمل لها فيعمل لها بحرارة واندفاع ذاتى غير ملق بالا إلى الخيبة السابقة إلا بمقدار أخذ العظة منها .

والأسس الفكرية للعربية الحديثة تلخص فى أننا « الأمة الوسط » بين أمم العالم جميعه من حيث المكان واللون والفكر .

فنحن فى المكان الوسط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب غير منازع ولوننا وسط بين الجميع . وقد أخذنا من بيض الشمال وصفر الشرق وسود الجنوب وحمر الغرب بحيث يأنس بنا الجميع ولا يجدون بيننا وبينهم ما يجدونه حينما يتلاقى الأبيض بالزنجى أو بالأصفر أو يتلاقى الأصفر بالزنجى أو بالأبيض وهكذا . وما دام فى الأرض فلسفة سياسية ظالمة تقوم على الفروق اللونية

بمناسبة تعديل المناهج في سورية

أسلوب جديد في التعليم

[مهداة إلى إمام المربين ساطع بك الحصري]

للأستاذ علي الطنطاوي

لي أخ كان كلما غشى المدرسة الثانوية رق جسمه ونحل وعراه ذبول ، فأعفيته منها وأبقيته في الدار سنوات ثلاثا لم ألزمه فيها مطالعة شيء من دروس المدرسة ، وإنما كنت أدله على بعض كتب الأدب والتاريخ مما لا يثقل عليه ولا ينال من صحته ، وما يجزل فائدته وتعظم المنفعة به ، فقرأ فيما قرأ تاريخ الطبري كله والأغاني ... فلما أزف موعد امتحان الكفاءة منذ سنتين قلت له : لو دخلت هذا الامتحان مع رفاقك فلعل الله يكتب لك النجاح . فأطاعني واستعد للامتحان شهراً واحداً ثم دخله فكان من الناجحين ، على رغم أن الناجحين في تلك السنة كانوا دون الثلث ، وعاد إلى مثل ما كان عليه ، حتى كان امتحان الشهادة الثانوية (البكالوريا) هذه السنة ، فدخله كما دخل الأول ونجح فيه أيضاً ...

هذا النجاح الغريب دفعني إلى التفكير في الموضوع الذي أكتبه اليوم ، وجعلني أسائل نفسي فأطيل سؤالها : ألا يمكن أن نسهل للطلاب هذه الدراسة ؟ وإذا كانت هذه الغاية وهي شهادة الكفاءة (والصحيح أن تسمى شهادة الكفاية) تدرك بمسيرة شهر واحد في طريق مهل لاحب ، فعلام نمشي إليها ثلاث سنين في طرق صعبة معوجة من ينقطع فيها أكثر ممن يبلغ آخرها ؟ أليس لنا بدّ من أن نضيع زهرة شباب أبنائنا في المدرسة لنعلمهم ما لا يكاد ينفعهم في حَيَواتهم ، إذا هم خرجوا منها ، ولم يقدروا أن يشتغلوا بعده بما يشتغل به العامي الجاهل من أعمال اليد ، وأشغال السوق ؟ ألا يمكن أن نعلم كل طالب ما ينتفع به ويميل إليه ونعفيه من علوم يكرهها ولا يعتقد فائدتها له في حياته ؟

والجنسية ، فوضعنا يرشحنا أن نكون الحكم بين الجميع ، لأننا نرضي الجميع إذ أننا خليط من الجميع .

ونحن أمة الوسط في الفكر . وهذا يستلزم بسطاً في الحديث لا تفي به هذه العجالة . ولكننا نجتزىء بطرف منه : وأعني بالفكر جميع القوى العليا في العقل والروح . وقد ورثنا ذلك من كثرة التجارب والأحداث والحضارات الروحية والمادية التي مرت بنا ، ففي مهود بلادنا وعلى ضفاف أنهارنا قامت أول الحضارات المادية وما زالت تقوم وتدول وتنتقل على هذه الرقعة التي تسمى اليوم الشرق الأوسط . حتى انتقلت إلى الغرب على يد اليونان والرومان في حضارتهم الأولى ، ثم جاء عهد النهضة الأوربية بالحضارة الحالية وهي الحضارة الثانية فقط لهذه البقاع . والأولى هي حضارة الدولة الرومانية التي قامت على أسس عسكرية عنيفة ولم تتصل بالروح إلا بعد أن أخذت بـ « المسيحية » وهي وليدة الشرق أيضاً .

وعلى قمم جبالنا تعلقت قلوب أجدادنا بالسماء وبكت لله وأدركت وحدته واتصلت بها رسالات وحيه فأتت بالخير والبر والتفاؤل والاطمئنان والسمو بالانسان وكانت للانسانية بمثابة الأمومة المربية المسددة المرشدة .

وفي صحفنا كتب أول السطور بالقلم الهيروغليفي ثم الفينيقي الذي ابتدأ به التاريخ البشري والفكر العظيم والجهد المنيف يدون ويسجل ويختزل في تلك « القماقم » السحرية الصغيرة : الحروف والكلمات ، فينتقل بذلك الفكر الإنساني إلى المرحلة الكبرى التي ترجم بها كلمات الله في الطبيعة ، وبنى على أسسها علومه وآدابه إلى ما شاء الله أن يبني .

فإذا كان حاضرنا سيئاً بفعل الجهالة والجمود وعدم إدراك رسالتنا بعد أن تقسمت العرب دول غريبة عن العربية ، فإن ماضينا يبعث فينا الثقة بأنفسنا وبما فيها من استعدادات كامنة .

وإن مستقبلنا ينادينا أن ننهض لوصل الماضي بالحاضر بالمستقبل حتى نؤدي دورنا المنتظر من الأمة الوسط التي ترضى حكمها أمم الأطراف التي فيها دائماً الغلو والإسراف .

عبد المنعم خلاف

فقالت النفس : لقد أقمت بناءك على غير أساس ، وجعلت من هذه الشاذة قاعدة ، وأصّلت عليها أصلا . إن أخاك هذا وإن أخذ الشهادة فليس له علم من درس يوماً بيوم ، وسار على الجادة خطوة خطوة ، ولم يقفز من فوق الأسطحة ولم يتسور الجدران ، وهذه العلوم كلها لازمة لا استغناء عنها ، وأسلوب التعليم صالح لا داعى لتبديله .

فرجعتنى والله إلى الشك وكدت أدع الموضوع . ثم فكرت فرأيت أن لكل عمل نتيجة ، ولكل مسير غاية ، والغاية من المدرسة إما أن تكون الشهادة أو العلم أو الإعداد لخوض لجّة الحياة والنضال عليها . أما الشهادة فلا بحث فيها لأنها عرض لا جوهر ، ووسيلة إلى غيرها لا يصح الوقوف عليها ، ولا القناعة بها ؛ وهى بعد كاسمها (شهادة) قد تكون مزكاة عادلة ، وقد تكون شهادة زور تعطى لغير أهلها ، وتمنح من ليس من مستحقيها . وما ينفع الفقير المفلس أن يشهد له الناس جميعاً بأنه الغنى ذو القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ؟ أما العلم فاسألوا المتعلمين ماذا بقى لهم من دروس الثانوية ، بل تعالوا أحدثكم ما جربته بنفسى وما شاهدت عليه تلاميذى ، ولقد كنت فى دراستى الثانوية مجلّياً دائماً أو مصلّياً ، ولم أكن فسكلا[1] ، ولقد اشتغلت بالتعليم الأولى والابتدائى والثانوى ، الأهلى والرسمى والدينى ، أربع عشرة سنة ، قبل أن ألى القضاء ، فى مدارس الشام والعراق ولبنان ، وعرفت الآلاف من الطلاب . وأقل ما أستفيده من هذا أنى إذا تكلمت أتكلم عن خبرة واطلاع . أقول : إنى وجدت بالتجربة أنه لم يبق عندى الآن مما أمضيت فى تعلمه السنين الطوال ، إلا ما كان طبعى منصرفاً إليه من علوم الدين واللسان والتاريخ والفلسفة ، وما عدا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية (لا الطبَبيعية كما يقول بعضهم ...) فلا أكاد أعرف منه الآن إلا أشياء عامة جداً . أما التفاصيل والدقائق وأعيان المسائل فقد نسيتها كلها . ولو سئلت عما أعرفه من المثلثات (مثلا) لأجبْت صادقاً أنى لا أعرف إلا شيئاً اسمه الجيب والتجيب (تمام الجيب) والماس . لا أعرف ما هو على التحقيق ، حتى موضوع العلم على وجه التحديد فقد نسيته ، مع

(١) هو آخر خيول السباق .

أن علامتى فى السنة التى قرأنا فيها المثلثات كانت تسعاً من عشر وكنت المجلّى (الأول) فى صفّى (أى فصلى) أما الكيمياء العضوية فلا أعرف منها إلا أن فيها شيئاً اسمه (الميتان) وتركيبه جزء من الفحم وأربعة من مولد الماء أى الهيدروجين — وقد درست جغرافية بلاد الدنيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية ، وكنت مع ذلك كلما سمعت باسم مدينة جديدة يأتى فى أخبار الحرب أجدنى أجهل مكانها ، وأذهب فأسأل عنها الكتب والمصورات ، أستوى فى ذلك أنا ومن لم يقرأ الجغرافية قط[1] .

وكل من عرفت من الطلاب هذه حالهم لا يستقرّ فى رؤوسهم إلا ما يختصون به أنفسهم ، وإخلاصات موجزة ، أفما كان خيراً لهم لو أقرأناهم هذه الخلاصات من الأصل ؟

ولست أقول ، دعوا هذه العلوم لا تقرئوها التلاميذ ، ولكن أقول إن هذا الخلط بين العلوم الكثيرة يؤدى إلى إضاعتها كلها ، وهذا سرّ ما نشكوه من ضعف الطلاب فى مصر والشام والعراق فى اللغة وهى أداة العلم كله ، وما نلمسه من عقم القرائح ، وفقد المخترع والباحث . ولو أنا رجعنا إلى طريقة أجدادنا الذين كانوا يتعلمون علمين أو ثلاثة فإذا أحسنوها شرعوا بغيرها لكان أجدى علينا . فمدارسنا إذاً لا توصل إلى الغاية العلمية النظرية ، فلننظر إلى الغاية العملية هل تبلغنا إياها ؟ هل تعد مدارسنا التلاميذ إعداداً جيداً للنجاح فى الحياة ، وضمان الكسب الطيب والعيش الرغد ، مع الخلق القويم والإيمان الدينى والقوى ؟ الجواب مشاهد ملموس هو أن مدارسنا لا (تكاد) تخرج اليوم إلا أطباء أو محامين أو موظفين . أما الوظائف فعددها محدود لا يمكن أن يتسع لكل المتعلمين ولا ينبغى أن يتسع لهم . أما الأطباء والمحامون فى دمشق فقد صاروا من الآن أكثر من اللازم بكثير ، وغدا جلّهم يقتنع بالكسب القليل . أما التجارة والزراعة وسائر طرق الرزق فإن أكثر أهلها أو كلهم ... ممن لم تخرجهم المدارس بل خرّجوا أنفسهم فى مدرسة الحياة الكبرى ، ولا نستطيع أن نغْلوَ فنقول بأن خريجى المدارس يمتازون من الناس بأخلاقهم الشخصية والاجتماعية ، أو أن المدارس جعلتهم طبقة مختارة ممتازة

(١) والأب أنستاس الكرملى يرى أن تسمى الجغرافية علم (التفريع) من قولهم فرع الأرض .

من طبقات الشعب بل إنهم كغيرهم من الناس ، منهم الصالح ومنهم الفاسد ومنهم من هو بين ذلك !

والسبب فى هذا كله أن نظام التعليم فى بلادنا كالبيت العتيق الخرب ، المختل الهندسة ، الذى لا يفتأ أصحابه يتعهدونه بالترميم والإصلاح ولكنهم لا يجرؤون على هدمه من أساسه وبنائه من جديد على هندسة صالحة ، ونمط صحىّ نافع . إننا نحبس التلاميذ ست سنين للدراسة الثانوية ، ونحشو رؤوسهم بمعلومات أكثرها لاينفع فى الحياة . وماذا لعمرى استفدت أنا من دراسة المثلثات والهندسة النظرية و (حفظ) معادلات الكيمياء وقوانين الفيزياء فى القضاء أو فى تدريس الأدب أو فى فن الكتابة ، وتلك هى أعمالى فى حياتى ؟ سيقول قائل ، ومن كان يدرى أنك ستكون أديباً أو قاضياً ، أفما كان فى الإمكان أن تكون مهندساً أو صيدلياً ؟ بلى ، ولكن الدراسة العالية حددت طريقى فى الحياة ، فلماذا لم أحدده قبل ذلك بسنوات ؟

هذه هى المسألة ، كما يقول شكسبير . إن الدراسة العالية هى المقصودة بالذات ، وما قبلها ثقافة عامة هى بمكان المقدمة إليها والتمهيد لها ، أفلا يستطيع الشاب الواعى دراسة الحقوق مثلا ، من غير إحاطة بدقائق الكيمياء والفيزياء والرياضيات ؟ أو لايجزئه ويكفيه أن يعرف عنها الشىء المجمل المختصر ؟ وطالب الطب هل يستحيل عليه تحصيله من غير معرفته بعلل الشعر واختلافات الكوفيين والبصريين ؟. لقد شاهدنا محامين بارعين وقضاة لا يعرفون شيئاً من المشتقات ولا تحول التابع ولاصفات البروم ، وشاهدنا أطباء كباراً استطاعوا أن يعملوا عمليات فى شق البطن وفتح الجمجمة ، على جهلهم الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وشروط عمل اسم الفاعل .

* * *

فما العمل ؟ أنا أرى ، إذا كان فى الدنيا من يسمع رأيى ، أن نجعل مدة الدراسة الابتدائية والثانوية معاً سبع سنين على الأكثر يتمكن فيها الطالب من العربية بالمران والتطبيق وتنبيه السليقة لا بحشو رأسه بالقواعد وقتل وقته بمعرفة أوجه الإعراب حتى يقيم لسانه ويتنزه عن الخطأ الفاحش ، ويبصر مرامى الكلام ودقائق معانيه ، ويتعلم من دينه ما يمسك عليه إيمانه وخلقه ويرغبه فى الخير ويصرفه عن الشر ، ويمنعه الحرام ؛ ويعرف من الرياضيات الشىء العملى الذى لا يستغنى عنه من غير اشتغال بالنظريات المجردة ، وما لابد من معرفته من علوم الطبيعة وقوانينها الأساسية وأسرار المخترعات ، وأن يدرس الصحة والجغرافية والتاريخ العربى[1] وأن يعرف مبادىء لغة من اللغات الغربية وأمثال ذلك فما أردت الاستقصاء بل التمثيل .

فإذا تخرج الطالب منها عرضنا عليه فروع الجامعة ، فإذا اختار فرعاً منها حضرناه له فى سنتين أو ثلاث ، علمناه فيها ما يتصل به ، فيكون فى كل كلية قسم تحضيرى فيه من العلوم ما يحتاجه طالبها ، فيتلقاها الطالب برغبة فيها وحب لها لأنه هو الذى اختارها ، ووافقت هواه ، وظهر له النفع منها ، وينجو بذلك من خلق شاعراً من حفظ طلاسم الرياضيات ، أو الرسوب دونها والانقطاع عن المدرسة وحرمانه التحصيل من أجلها ، وهو من بعد لا يحتاج إليها أبداً ، ولايتعلم كل طالب إلا ما يحتاج إليه مع اختصار مدة الدراسة وتقوية الاختصاص ، وكسب الوقت الذى يستطاع الاستفادة منه فى تقوية الأجسام بالرياضة ، ومعرفة الوطن بالسياحات ، والعناية بالتربية الخلقية والوطنية … ومن شاء بعدُ الاكتفاء بالدراسة الثانوية ودخول معركة الحياة لم نسلبه وقته وسلحناه بثقافة عامة يعلو بها مستوى السوقة وأصحاب المهن ، ومن أراد التخصص فتحنا له بابه ، وعجلنا له دخوله وقويناه فيه . وهذا إيجاز للاقتراح والشرح حاضر إن احتاج إليه القراء .

أما التعليم الدينى فلنعد فيه إلى مثل الطريقة الأزهرية الأولى مع

---

(١) وهنا مسألة مهمة جداً لا أعلم أحداً نبه عليها أو انتبه لها ، هى أن تاريخنا السياسي الذى يدرس الآن فى مدارسنا سلسلة فضائع من انقسام إلى ثورات إلى قتل إلى استبداد . حاله فى ذلك كحال تواريخ الأمم كلها ، وإذا استثنيت أمثال العمرين وثانيهما ابن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين لم نجد من الملوك من تصلح سيرته لتكون قدوة ، والتاريخ العظيم الذى يجب تدريسه هو تاريخنا العلمى الفياض بالمكارم والمفاخر ، ولذلك عنى علماؤنا بتراجم الأفذاذ أكثر من عنايتهم بالتاريخ العام . ومن العلماء من أثر فى عصره أبلغ الأثر حتى وجب أن ننسب العصر إليه لا إلى خليفة الوقت كأحمد بن حنبل والغزالى وابن تيمية . هذا بعد أن يدرس كل تلميذ تاريخ بلده الذى يعيش فيه . وإن من أقبح العيب ألا يعرف الطالب العربى أين تقع سر من رأى وماذا فيها الآن ، وإلام صارت الكوفة ، وأن يعرف التلميذ الدمشقى تاريخ الثورة الفرنسية قبل أن يعرف من بنى القلعة وكم مرة احترق الأموى وأين أبواب دمشق ومن أنشأ حى الصالحية .

فرنسيس بيـــكن

لألفرد فيبر

للأستاذ عبد الكريم الناصري

في انجلترا (١) يتلقى الإصلاح الفلسفي طابع الخلق الانجلوسكسوني ، ويتخذ وجهة تختلف كل الاختلاف عن وجهة الحركة الإيطالية . فالعقل الإنجليزي الوضعي الرصين عديم الثقة بتقاليد الفلسفة المدرسية ، وبما تصل إليه الميتافيزيقا المستقلة من نتائج متسرعة . وهو يؤثر التصعيد المتدرج البطيء في طريق التجربة على النظر الإيطالي الذي يبلغ القمة بسرعة ، ثم لا يلبث حتى يهن عزمه ، ويفقد توازنه ، فيهوى في حضيض الشك . ثم إن هـذا العقل متوقف عند حقيقة واقعة ، وهي أن المدرسيين لم يساهموا قط في تقدم العلوم ، وأن هذه الفتوحات الفكرية إنما تحققت خارج المدرسة ، بل على الرغم منها .

أجل ، فإن العلوم مدينة بنجاحها لا إلى أرسطو ولا إلى أي مرجع تقليدي سواه ، بل إلى التأمل المباشر في الطبيعة ، والتأثير المباشر للواقع ، والفهم الواقعي المشترك . صحيح أن بحاث العلم الجريئين لم يكونوا أقل مهارة في القياس والاستدلال من مناطقة المدرسة ، بيد أن استدلالهم يقوم على ملاحظة الواقع .

وكانوا — من جهة أخرى — إذا بدأوا من فرض أو تصور قَبْلي ، تحققوا منه بالتجربة ، كما فعل كولومبس ، ولم يعترفوا بصدقه حتى يظفر بهذا « التصديق » الذي لا مفر منه .

وهكذا نجدنا ، من جهة ، حيال فلسفة رسمية عاجزة عقيمة ، ومن جهة أخرى حيال تقدم مدهش في العلوم . وكان الاستنتاج الذي فرض نفسه على العقلية الإنجليزية العملية ، هو وجوب ترك التأمل القبلي والقياس المساء استعماله ، والأخذ بالملاحظة والاستقراء .

وهذا الموقف الذي أعرب عنه روجر بيكن في القرن الثالث عشر

(١) انظر الفقرة الأخيرة من مقالة (توماسو كمبانلا) المنشور في العدد (٦٤٦) .

إصلاح يسير فيها ، فقد ثبت أنها أنفع وأجدى ، دنيا وأخرى ، وأن تلك الثورة عليها حتى تم العدول عنها ، والقضاء على الجامعة الأزهرية ، كان فيها إغراق أدركناه الآن . وأنا أعرف الأزهر الجديد وأعرف كليات ثلاثاً أنشئت على غراره في دمشق وبغداد وبيروت علّمت فيها كلها ، وأشهد لله شهادة حق أن الأزهر القديم كان في الجملة خيراً منها ، إذ كان أهله يطلبون العلم لله وللعلم فصار أهلها يطلبونه للشهادات والوظائف ، وكانوا يصبرون على تلك الحواشي المطولات وإن تكن عقيمات ، فصار هؤلاء لا يقرأون إلا خلاصات يجوزون بها الامتحانات . وكانوا علماء عاملين لدينهم أهل تقى وورع في سمتهم وسلوكهم ، وسرهم وعلنهم ، فصار بعض المدرسين وأكثر التلاميذ ... صاروا على حال من عرفها فقد عرفها ومن جهلها فلا يسأل عن الخبر .

وأنا لا أعمم ولا أطلق القول ، وإنما أعني الكثرة ممن أعرف ، ولعل فيمن لم أتشرف بمعرفته خيراً لم يصل إليّ علمه ولا بلغني خبره — هذا على أن تكون المدارس الدينية بمثابة مدارس الاختصاص لا يدخلها الطالب إلا بعد أن يدرس هذه الدراسة الثانوية ويفهم علومها ويأخذ شهادتها ، لأنها ثقافة عامة يحتاج إليها عالم الدين وعالم الدنيا والموظف وصاحب العمل الحرّ .

* * *

ولا بأس بعدُ بارتياد مناهل العلم في غير بلادنا ، على أن يطلب فيها العلم المبني على المشاهدة . أما علوم الرواية وما أصوله عندنا، كعلوم العربية فلا ، وهذه الحماقة التي كان أتاها الفرنسيون إذ أرسلوا شباننا يتعلمون العربية في باريس لا يجوز أن تعاد ، وحسبنا أن صَلينا نحن نارها ، وتجرعنا صابَها ، (ولا نزال نتجرعه ...) وأن أضحكنا الناس علينا ، وزدنا طلابنا على ضعفهم في لغتنا ضعفاً .

* * *

هذه كلمة صغيرة في موضوع كبير ، أعرف أنها تثير مناقشات وتحتمل جدالا ، وأنها لم تلم بأطراف الموضوع ولم تستوف البحث فيه وإنما هي تنبيه إلى فساد ، ودعوة إلى إصلاح ، أهديتها إلى إمام المربين ساطع بك الحصري ، لأنه مرجع هذا الفن أولا ، ومرجع كل أمر في وزارة معارف الشام ثانياً .

دمشق (المحكمة الشرعية) **علي الطنطاوي**

هو الذى أعلنه من جديد وبشر به ودعا إليه سميه فرنسيس بيكن Bacon بارون فيرولام[1] (١٥٦١ — ١٦٢٦) فى مؤلفاته المختلفة : « شرف العلم وتقدمه » و « آلة العلوم الجديدة » وسواهما .

والمشكلة هنا هى أن نبدأ مسعى العقل كله من جديد — أن نبنى العلم على أساس جديد كل الجدة Instauratim magna . فاننا إذا رمنا التيقن من طبيعة الأشياء الخفية ، فيجب ألا ننشدها فى الصحائف والكتب ، ولا فى ثقات المدرسة ، ولا فى التصورات السابقة والأنظار القبلية . ويجب قبل كل شىء أن نقلع عن تقليد الأقدمين الذين عاق نفوذهم تقدم المعرفة . فقد كان فلاسفة اليونان — باستثناء ديمقريطس وبضعة وضعيين — قلما يلاحظون ، وإذا لاحظوا لم يبعدوا عن السطح . وقد حذا المدرسيون حذو الأوائل فضربوا بالواقع عرض الحائط ، حتى ليخيل إليك أنهم فقدوا الشعور به .

هذا ، إلى أن معارفنا مليئة بسوابق الأحكام Prejudices ، فإن لنا أوهامنا وأهواءنا و « أصنامنا » — أصنام الجنس ، والكهف ، والسوق ، والمسرح — التى نفرضها على الطبيعة ، والطبيعة منها براء . فبما أن الدائرة خط منتظم يعجبنا انتظامه ، ترانا نستنتج أن أفلاك الكواكب دوائر كاملة . إنا لا نلاحظ أبداً ، أو لا نلاحظ إلا أسوأ الملاحظة ، فإذا نجا قوم من كارثة خمس مرات ، استدللنا من ذلك على أن قوى غيبية قد تدخلت فى الأمر ، ولم نحسب حساباً لخمس حالات أخرى لم ينج فيها قوم آخرون ، لخليق بنا أن نقول كما قال ذلك الحكيم الذى أروه فى بعض المعابد ألواح نذور علقها ناس نجوا من الغرق : « ولكن أين صور الذين هلكوا من بعد ما نذروا ؟ » . إنا نفترض عللا غائية ، ونفرضها على العلم ، ونحمل بذلك إلى الطبيعة ما ليس يوجد إلا فى الخيال .

إنا بدلا من أن نتفهم « الأشياء » نتنازع على « الألفاظ » ، التى يفسرها كل امرئ كما يهوى . إنا على الدوام نخلط بين موضوعات العلم وموضوعات الدين ، فلا نظفر إلا بفلسفة مشوبة بالخرافة ، ولاهوت مشوب بالهرطقة : « إن الفلسفة الطبيعية لم تلف بعد خالصة غير مغشوشة ؛ وإنما هى فاسدة مشوبة بالمنطق فى مدرسة أرسطو ، وباللاهوت الطبيعى فى مدرسة أفلاطون ، وبالرياضيات فى مدرسة أفلاطون الثانية - مدرسة أبرقلس وأصحابه - مع أن شأن الرياضيات أن تحدد الفلسفة الطبيعية ، لا أن تولدها أو تنشئها » .

ورجاء الفلسفة الوحيد فى هذه الفوضى من الآراء ، ومن الأنظمة القبلية يستقر فى الخروج على التقاليد اليونانية والمدرسية ، وفى تقبل المنهج الاستقرائى . إن ما تدعوه الفلسفة التقليدية « استقراء » يسير بالتعداد البسيط ويؤدى إلى نتائج غير يقينية ، وهو معرض للخطر يأتيه من مثال واحد يناقض تلك النتائج ، لأنه يبث فيها استناداً إلى عدد قليل غير كاف من الوقائع . أما الاستقراء الصحيح ، منهج العلم الحديث ، فإنه لا يسرع من بضع ظواهر متفرقة غير محققة إلى أعم البديهيات ، بل يدرس الوقائع والجزئيات فى عناية وصبر ، ويرتقى إلى القوانين بالتدريج وبغير توقف . وينبغى لنا عند وضع القانون من القوانين العامة : « أن نفحص وننظر أنه هل صيغ وفصل بحيث يتسع للأمثلة الجزئية التى استنبط منها فحسب ، أم هل هو أوسع وأعم ؟ فإن كانت الثانية ، فينبغى أن نلاحظ أنه هل يؤيد سعته وعموميته ، ويضمن لنا ذلك ، بأن يشير إلى جزئيات جديدة ؛ فلا نقف عند معروفاتنا السابقة ، أو نقبض على ظلال وأشكال مجردة .

***

من الغلو فى تقدير بيكن أن نعتبره خالق المنهج الإختبارى Experimemtal والعلم الحديث ؛ بل عكس ذلك هو الصحيح ، فقد كان بيكن نتاجاً للاحياء العلمى فى القرن السادس عشر ، وليست دعوته إلا النتيجة ، أو قل المغزى الذى استنبطه العقل الانجليزى من الحركة العلمية . ولكن إذا لم يجز لنا أن نعده منشئا لمنهج التجريب والاختبار ، فلا أقل من أن نرد إليه فضل انتشال هذا المنهج من الحضيض الذى ألقاه فيه تحامل المدرسيين وإعطائه كيانا قانونيا ، إن صح هذا التعبير ، بأبلغ دفاع قيل فيه

---

(١) كان بيكن فى أول أمره محامياً ، ولكنه استطاع أن يصل — بسلسلة من المكائد والأساليب الدنيئة — إلى منصب « اللورد تشانسلر » الرفيع (رئيس قضاة إنجلترا ، وأيضاً رئيس مجلس اللوردين) . وقد عزل من منصبه بعد ثلاث سنوات بتهمة الارتشاء (المعرب) .

فليس بالأمر اليسير أن نجهر بما يفكر فيه الكثيرون ، ولا يجرؤ أحد على أن يعترف به حتى لنفسه .

بل وأكثر من ذلك . فإن « العلم » الاختبارى وطرائقه وإن كانت أنشئت قبل عهد بيكن بزمن طويل ، فإنه مع ذلك مؤسس « الفلسفة » الاختبارية ، وأبو الفلسفة الوضعية الحديثة ، من حيث أنه أول من أثبت(١) ، بأفصح القول وأبلغه ، أن الفلسفة الحق والعلم الحق مشتركا المصالح ، وأن الميتافيزيقا المستقلة عبث لا طائل وراءه . إنه ، وهو العدو المجاهر بعداوته للروح « الميتافيزيقية » ، ليرجو قراءه بصراحة : « ألا يحسبوا أنا نطمع فى إنشاء فرقة فلسفية ، كاليونان القدامى أو بعض المحدثين ، فما نقصد إلى ذلك ، وليس من رأينا ، بعد ، أن الآراء المخصوصة المجردة فى الطبيعة ومبادىء الأشياء ذات أهمية تذكر فى حظوظ الناس » . ومن هنا فهو لا يعارض أرسطو فقط ، بل « كل رأى مجرد فى الطبيعة » ، أى كل مذهب ميتافيزيقى لا يقوم على العلم .

وأيضا فإنه يميز بين « الفلسفة الأولى » و « الميتافيزيقا » . فالفلسفة الأولى تعالج التصورات والقضايا العامة المشتركة بين العلوم الخاصة ، وهى (بحسب قسمة بيكن الغريبة « المشتقة من قوى النفس الثلاث » : الذاكرة والخيال والعقل) ثلاثة علوم رئيسية :(التاريخ) الذى ينتظم التاريخ المدنى والتاريخ الطبيعى ، و (الشعر) و (الفلسفة) التى تنقسم عنده إلى اللاهوت الطبيعى والفلسفة الطبيعية ، والفلسفة الانسانية . أما « الميتافيزيقا » ؛ فهى القسم النظرى من الفلسفة الطبيعية ، وهى تنظر فى الصور (بالمعنى المدرسى) والعلل الغائية ؛ بينا القسم العملى من الفلسفة الطبيعية — وهو « الفيزياء » بالمعنى اللائق — ينظر فى الجواهر والعلل الفاعلية . على أن بيكن لا يعطى « الميتافيزيقا » كبير قيمة ؛ ويبدو كأنه يتهكم حين يسمى العلل الغائية « عذارى عواقر » ، ثم يخص بها هذه الصناعة . أما اللاهوت الطبيعى فهدفه الوحيد « تفنيد الالحاد » : فان العقائد موضوعات للايمان دون المعرفة .

إن هذا الأسلوب ، أسلوب التميز بين العلم واللاهوت ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقل والوحى ؛ يضاد أساليب المدرسة على خط مستقيم . لقد وحدت المدرسية الواقعية القديمة بين الفلسفة واللاهوت . أما بيكن فإنه كالإسميين ، يطالب فصلهما إلى أقصى حد ممكن . وهو يبرر كونه طبيعيا فى العلم وغيبياً فى اللاهوت على أساس هذا التميز المطلق . وقد حذا حذوه فى ذلك عدد من مفكرى الانجليز .

بيد أن المسافة ليست كبيرة بين إقصاء المغيب عن ميدان العلم ، وبين إنكاره وإبطاله : فإن توماس هوبز — من أصدقاء بيكن — يقول بضرب من المادية لا تكاد (محافظته) السياسية تفلح فى تغطيته وإخفائه .

(بغداد) **عبد الكريم الناصرى**

تصويب: ورد فى مقالة (كنبانلا) المنشورة فى العدد ٦٤٦ (التعليق رقم ٣ ص ١٢٦٣) اسم كتاب من كتب الفيلسوف هيوم على أنه « مقال فى الطبيعة الانسانية » ، والصواب « رسالة فى الطبيعة الانسانية » .

(١) أى قرر ، وليس بمعنى « برهن » (المعرب)

ذكريات عن أستاذي :

امبرتو ريتشي

١٨٧٩ – ١٩٤٥

للأستاذ مصطفى القوني

[أمبرتو ريتشي « Umberto Ricci » الاقتصادي الإيطالي ذو الشهرة العالمية . أستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة روما ، وأحد مؤسسي معهد الزراعة الدولي . وأستاذ المالية العامة بجامعة فؤاد الأول ، بين سنتي ١٩٢٨ ، ١٩٤٠ . وأستاذ الاقتصاد السياسي في جامعة اسطنبول بين سنتي ١٩٤٢ ، ١٩٤٥ كان ماراً بمصر ، عائداً من تركيا إلى بلاده ، وكان مريضا فبقي في سرير المرض أسابيع ومات في القاهرة في ٣ يناير سنة ١٩٤٦ ودفن في أرضها]

أعود اليوم بالذاكرة إلى عشر سنين مضت ، إلى يوم رأيت أستاذي « أمبرتو ريتشي » لأول مرة ، في أول درس حضرته عليه . كنا في مقاعدنا ننتظر . وما هي إلا لحظات حتى أقبل وئيد الخطى ، ممتلىء الجسم ، قصير القامة ، كبير الهامة . وجه أسمر فيه من سمات الشرق أكثر مما فيه من سمات الغرب ، ولحية قصيرة فيها من البياض أكثر مما فيها من السواد ، وعينان تطرفان وراء منظار سميك ، وتنمان عما أضاع صاحبهما من نورهما في جريه وراء نور المعرفة ، وكأنما كان عليه ألا يستبدل نوراً إلا بنور ؛ ورجل لو رأيته ، دون أن تعرفه ، لما ترددت في أن تسائل مَن حولك : من يكون هذا « العالم » ؟ هذا هو أستاذنا « أمبرتو ريتشي » .

بدأ يعرض علينا موضوع العلم الذي جئنا نأخذه عنه عرضا سريعا ، وانتهى درسه الأول . وبدا لي أن ليس في كلامه من جديد . وسرت إليه ، ونحن خروج من قاعة الدرس ، واندفعت أقول له : « لقد درست هذا العلم من قبل ، ولست أدري ماذا علي أن أصنع في عامي هذا » قال متسائلا : « درسته ؟ وتعرفه كله ؟ » قلت : « حق المعرفة » فنظر إلى نظرة فيها كثير من العطف وفيها كثير من الإشفاق وقال : « اسمع يابني ! إني لي نحواً من ثلاثين عاما ، لا أكاد أذكر أن يوماً منها قد مر دون أن أفكر أو أقرأ أو أكتب شيئا في هذا العلم الذي تقول إنك تحيط به . ومع ذلك ... فإني لا أظن أني أستطيع أن أقول ما تقول » .

ومرت الأيام ، وتوالت دروس أستاذي ريتشي ، وتوالت عنايته بي : فكان يختار لي ما أقرأ ، ويسألني فيما قرأت ، ويفتح لي آفاقا جديدة للتفكير والتأمل . وبدأ نطاق العلم ينفرج أمامي ، وبدأ طريقه يتشعب ، هذا الطريق الذي كان يبدو لي ، فيما مضى واضح المعالم بيّن الحدود . وتزداد صلتي بأستاذي ، مع الأيام ، ويرى ما أنا فيه من حيرة ، ولكنه لا يقول لي عن ذلك شيئا . ويقارب العام نهايته ، ونحن نسير يوماً ، وإذا هو يقف ويسألني باسما : « هل تذكر ما قلت لي بعد درسي الأول ؟ ألا تزال تظن أنك تعرف موضوع علمنا كله ؟ » فخجلت مما كان من اعتدادي بنفسي وقلت له : « لست أدري ما ذا جرى . ولكن الذي أدريه هو أني أحس وكأني لم أعد أعرف شيئا » . فضحك وقال : « إني الآن سعيد . لقد أخذت بيدك إلى أول الطريق . لقد بدأت تعرف . إنه حقٌّ ذلك المثل الذي يقول ، لو عرف الإنسان أنه جاهل لكان هذا قدراً غير قليل من المعرفة . ولكني لست أدري هل تحمد لي ذلك في مستقبل أيامك ، أم سوف يساورك الشك أحيانا ، وأنت تضرب في هذا الوادي ، وادي المعرفة ، الشبيه بوادي التيه ، فتسأل نفسك : ما الفائدة ؟ ما الفائدة من كل ما أضعت من أيام شبابي في الضرب في هذا الطريق الذي لا ينتهي ؟ » .

وإنه ليعبر الطريق ذات يوم فتكاد سيارة تدهمه فيقص علي الخبر . وكنت أعلم أنه لم يكن ، في ذلك الحين ، زوجاً ولا أبا ، وأنه لا تربطه بدنياه هذه الروابط التي كنت أظن أنها هي كل ما يفزع الناس من الموت فقلت له : « كنت أعتقد أنك لا تخاف الموت » ففكر قليلا ثم قال : « ألا تدري أن بين يدي كتابين لما أتمها . لو أني انتهيت منهما لكان سيان عندي أن أموت أو ألا أموت » .

وتمر السنون وأزداد معرفة بأستاذي ، فأرى كيف رفعه علمه إلى حيث لاحدود ولا قيود ، إلى حيث يحس جوهر الأشياء

في الأدب الانجليزى

ماثيـــو أرنولد

Mathew Arnold

للأستاذ خيرى حماد

— ٤ —

آراؤه في التربية :

عند ما انتخب أرنولد لمنصب مفتش المعارف قامت هنالك معارضة قوية من قبل رجال الدين . فقد كان هنالك اتفاق بين الحكومة والكنيسة يقضى بانتخاب أحد رجال طائفة الاكليروس لشغل هذا المنصب العظيم . ولذا لم يكن من المستطاع انتدابه للتفتيش على مدارس الكنيسة ؛ بل اقتصرت مهمته على زيارة مدارس الحكومة والمدارس الأهلية .

وكان من واجبه مراقبة زمرة المفتشين لأن الحكومة وضعته رئيساً عليهم . وعندما كانت الحكومة تقصد تشريع قوانين جديدة وأنظمة حديثة لادارة المدارس كانوا يستشيرونه ويسيرون على ضوء آرائه ونظرياته . ومن أمثلة هذه القوانين الخاصة مشكلة تدريس اللغة الانكليزية فى المدارس ؛ فكانت لمدة خلت موضوعا اختيارياً مثله كمثل الدروس الأخرى ، كعلم الجغرافية والعلوم الابتدائية الأخرى . ولكن أرنولد حبذ تعليمها كدرس يجبر جميع الطلاب على تعلمه ودرسه فقد اعتبر كل نظام للتعليم العام ناقصاً إذا لم يبذل اهتماما كبيرا نحو لغة البلاد كشرط أساسى فى تعلم العلوم الأخرى .

وكانت الطريقة الرئيسية التى يعتمد عليها فى تنفيذ آرائه ، ووضعها موضع التجلة والاعتبار هى تقاريره السنوية التى كان يقرؤها نفر قليل من أفراد المجتمع الانكليزى . وهذه التقارير تتضمن آراء قيمة ملذة فى بعض المواضع الطريفة . وقد استنار خلفاؤه بهذه التقارير ؛ فأصبحت طريقتهم واضحة وعملهم سهلا لا يحتاج إلى كثير صعوبة وإجهاد .

« وقد اهتم أرنولد اهتماما عظيما فى إدخال بعض العلوم الأولية التى يحتاج إليها الطالب كثيرا فى حياته العملية المقبلة فهى تهيئه لقبول جميع النظريات والتعاليم التى جاء بها العلم الحديث . ومع أن علم الحساب والكتابة والهجاء ضرورية جداً للطلاب إلا أنها لا تتعدى حدود الكماليات بالنسبة إلى تهيئ الانسان لما يقبله من العلوم فى حياته المستقبلة . فقدرة القراءة لا تجعل من الفرد قادراً على تحضير المواد التى يحتاج إليها فى حياته المقبلة[1] » .

نصح أرنولد الطلاب بمطالعة الكتب التى تستحق القراءة . وفى رأيه أن دراسة الآداب من أهم العوامل التى يحتاج إليها الطلبة فى حياتهم . فهى تساعد فى تنمية ذوق الطلبة وقوة حكمهم وخاصة إذا حفظوا قطعاً من الشعر يحتاجون إليها فى تغذية أرواحهم والترفيه عن أنفسهم . واعتقد أرنولد بأهمية دراسة قواعد اللغة فى المدارس ودافع عن نظريته هذه بقوله : « إنى لأعلق أهمية كبرى على دراسة قواعد اللغة فى المدارس لمساعدتها الأطفال فى التفكير وإشغال الناحية العقلية أكثر مما يحدثه علم الحساب ؛ فهى تعلم الانسان قواعد المنطق والمجادلة لأنها تختص بالكلمات المحدودة لا بالأرقام والحسابات .

فالاعراب من أهم محتويات هذا العلم ولا يصعب على الطلبة دراسته قط إذا كان تعليمه بطريقة دقيقة منظمة . وقوة التحليل Gnalysis فى اللغة الانكليزية تجعل من السهولة فى مكان عظيم على الطلبة أن يطلعوا على القواعد بكل سهولة بدلا من تعليمهم

(١) Fitch : The Grnald. P. 182

الذى يستتر وراء مختلف الصور : صور المذاهب والأوطان والأجناس ، التى لا ينفذ إلى ما وراءها إحساس عامة الناس . لقد كان « عالما » . والعلم قبس من نور الله ، لا شرقى ولا غربى .

لقد طالما تمنيت أن أعود فألقى أستاذى يوماً ما ، بعد غيبته عن مصر خمس سنين طوال ، فأحدثه عما أصنع بأيامى وعما تصنع بى الأيام . ولكنه يفد إلى القاهرة[1] ، فلا أراه على فرط ما كنت أتمنى أن أراه ، ثم هو يمرض ويموت دون أن أعلم من الأمر كله شيئا ، ودون أن أستطيع ، الآن ، شيئا سوى مثل هذه الكلمات .

مصطفى القونى

(١) لازم « الأستاذ ريتشى » طوال أيام مرضه ، وبقى إلى جانبه حتى لحظاته الأخيرة ، تلميذه الدكتور محمد توفيق يونس ، ولولا ذلك لحز فى نفوس تلاميذه الذين لم يعلموا بمقدمه أن يكون أستاذهم ، فى سرير مرضه ، قد أحس بالغربة ، فى بلد له فيه على مريديه الكثيرين حق الأبوة الروحية .

إياها بتلك الطرق العقيمة القديمة ، التى كانوا يجرون فيها مجرى اللغات الجامدة . ويسرنى جدا أن أرى الأساتذة يعتنون بالطريقة التحليلية الحديثة فى تدريس علم اللغة[1] » .

وكان الناس يعتقدون أن اللغات اليونانية ، واللاتينية والفرنسية لاتخرج عن كونها دراسات ثانوية يقوم بها المتقدمون فى الثقافة والعلم . ولكن هذه الفكرة لم تكن لتتفق مع مذهب أرنولد فى التربية والتعليم . فقد آمن بوجوب تدريس مبادىء هذه اللغات أو إحداها على الأقل فى المدارس الابتدائية . وهذا الأساس يفيد جميع الطلبة الذين يقصدون الالتحاق بالكليات العالية والجامعات .

وأما الطلبة الآخرون الذين لا تساعدهم ظروفهم على متابعة دراستهم فان هذا الاطلاع ينفعهم فى تفهم الحقيقة الراهنة . وهى أن هنالك لغات غير لغتهم وعلوما غير علومهم .

وزيادة على ذلك فقد ارتأى أرنولد أن دراسة الرياضيات وعلم الفسيولوجيا والجغرافية الطبيعية والنبات هى من أشد الأخطاء التى يرتكبونها فى نظام المدارس الابتدائية . فان من الحماقة تعليم الأطفال اصطلاحات علمية لايتفهمونها ولا تستطيع أدمغتهم الفتية قبولها وإساغتها .

وأما الأساتذة فيجب أن يتوخى فى انتخابهم مقدرتهم العلمية وميلهم إلى المطالعة ومتابعة الدرس، وقد كتب فى أحد تقاريره: « إن الأستاذ الذى يستطيع أن يخلق فى طلبته الميل لتوسيع أدمغتهم ليستحسن منه أن يزيد فى معلوماته ومعرفته . وكلما استطاع أن يجعل آراءه العلمية واضحة أمكنه أن يجعل طلابه أكثر وضوحا واتساعا . وكم كان يسره أن يرى أحد الأساتذة الذين يشتغلون معه يتابعون دروسهم فى إحدى الجامعات .

وكنتيجة للجدل الدينى الذى قام فى عصره شعر أرنولد بفقدان الشعور الدينى فى تلامذته ؛ ولذلك فكر فى تدريس التوراة فى الصفوف الابتدائية لمعالجة هذه الحالة . ولتنفيذ هذه الفكرة وضع أرنولد كتابا جمع فيه الفصول السبعة والعشرين الأخيرة من إنجيل أشعيا وشرحها شرحا يمكن طلابه من فهمها حق الفهم .

وكان أرنولد يميل إلى النظام التربوى المتبع فى المدارس الفرنسية مع انتقاده إياها ببعض انتقادات لا تخرج عن جادة الصواب ؛ فلا يوجد هنالك توافق وتعاون بين مختلف درجات العلم والتعليم . ولذلك فان نظام المدارس الداخلية لم يكن مقنعاً . فان العريف الذى كان يعد مسئولا عن سلوك الطلبة وأخلاقهم لم يكن فى الحقيقة إلا واحداً منهم لا يسره أن ينم عن رفاقه أو يشى بهم .

وقد أعجب أرنولد بقلة النفقات التى يدفعها الطالب الألمانى لمتابعة دروسه . فكان هنالك فى بروسيا سلم تعليمى يمكن للطالب النابه ارتقاءه درجة إثر أخرى حتى يصل إلى القمة . وهذا النظام كان فى رأيه أحسن نظام عرفته أوربا منذ القدم ؛ فكان يجمع إلى الحرية الانكليزية نظام الفرنسيين .

أما الجامعة فيجب أن تشمل ثلاثة فروع مختلفة ، الأول منها فرع التعليم العادى الذى يمكن لجميع الطلبة على اختلاف مراتبهم العلمية مزاولته والإستماع إلى محاضراته الكثيرة فى أى وقت شاؤوا . والثانى يشتمل على بعض الدروس الليلية التى تعطى رجال الأعمال أو الموظفين الحكوميين الذين لا يمكنهم حضور الدروس النهارية . والفرع الثالث هو فرع المراسلة الذى يضم إليه جميع الطلبة الذين لا تمكنهم ظروفهم من الحضور إلى المدينة والاستماع إلى المحاضرات .

فلسفته الدينية :

اعتقد غلادستون أن أرنولد قد جمع إلى الديانة المسيحية فكرة الإخلاص والتكريس المقدس بطريقة لا يمكن لأصدقائه وأعدائه على حد سواء تفهمها وحل غوامضها . وأما بول فقد كتب عنه قائلا : « إن أرنولد وضع لنفسه هدفاً منطقياً معقولا ولكن تعابيره الجميلة كانت موانع هامة أمام تقدمه ونجاحه[1] » .

لم يكن نقد أرنولد للتوراة نقدا قويا ولم يكن بحثه فيها بحثاً ناضجاً قيماً . وكتابه : « القديس بولس والبروتستنتية » لم يكن كتاباً دينياً حقيقيا . لكنه يخرج فيه على قواعد المسيحية الموروثة ، وعلى الكنيسة المتحدة أيضاً . فكان يؤمن بالمعجزات ويقف موقف الشك من شخصية الإله . فلم تكن عقائد الآخرين لتؤثر عليه أى أثر مهما كان ضئيلا .

أما كتابه « الأدب والعقائد » فيفوق سابقه بروعته وقوة

(١) Repsrt fsr 1872 Grnsld

(١) Paul : Grnsld. P. 130.

أسره . فهو جد مشبع بالعواطف الدينية المختلفة مما جعله أداة فعالة فى إعلاء الأخلاق وترقية أمرها . ويبحث هذا الكتاب فى المسائل الدينية بحثاً جدياً منطقيا . فيبرهن بشتى الطرق على أن الديانة الحالية قد أفسدت التعاليم الجميلة الكثيرة التى جاء بها السيد المسيح منذ القدم .

وكانت رغبته تنحصر فى منح الناس الحرية الكافية لتمييز الأشياء وتمحيصها . فقد رأى بعينيه التقلب والتطور الذى أخذ يدب دبيبه فى روح الدين وتعاليمه فلم يستطع احتمال ذلك . أصبح الناس لا يؤمنون بالمعجزات ولا بوحى التوراة ؛ وقد خالف علماء الدين بقوله إن التوراة كتاب أدبى أكثر منه كتاباً علمياً . وليس من واجب الدين إلا أن يهتم بالأخلاق التى تكون ثلاثة أرباع الحياة الإنسانية . وصدق الديانة يجب أن يدعم بالتجارب العملية أكثر من الحقائق الفلسفية والأخلاقية . وخلاصة القول فقد عرف الديانة بقوله إنها الأخلاق تحفزها العاطفة والإخلاص .

أما إيمانه بالله فكان يختلف عن عقائد أهل عصره فلم يعتقد بشخصية الإله وأنه شخص له صفات تخالف صفات البشر ؛ بل قال بأنه القوة السرمدية الأبدية التى تسيطر على هذا الكون . وتظهر لنا عقيدته هذه من جميع الفقرات التى اقتبسها من التوراة وسجلها فى كتاباته فكان يغير لفظة الرب بلفظة الخالد .

والإيمان يجب أن يشمل جميع ما جاء به العهد الجديد وإلا فلا حاجة للناس بالإيمان ببعض أجزائه ونكران البعض الآخر . وأما عقيدة الإعتراف فيجب أن لا توضع بمنزلة عقيدة المعمودية ، وإذا كان الناس لا يعتقدون الإعتقاد التام بجميع ما جاء فى التوراة وبصدق الرواية والزمان والمكان كان إيمانهم بالسيد المسيح أشبه بالخرافات والأمور الخيالية .

أما ثالث كتبه الدينية فهو كتاب « مقالات فى الكنيسة والديانة » . ويبحث هذا المؤلف فى وصف أحد المطارنة الملقب بمطران بتلرفهو يقول عنه « إن هذا المطران لم يعترف بوجود الإله فحسب؛ بل بوجود الحياة المستقبلة ، وقد عرض للناس دوافع خطأ الإنسان وأغلاطه بطريقة دقيقة لا تقبل الشك والنكران . والعقل هو الحاكم الوحيد الذى يلجأ إليه الإنسان فى فهم دقائق الأمور وخفاياها فهو الأداة الوحيدة التى يمكننا بواسطتها تفهم جميع العقائد حتى وجود الإله وحقيقته[١] » .

(١) Psul. Grnsld : P. 144.

وفى مقدمة هذا الكتاب نرى أرنولد يوضح عقائده بشكل جذاب فهو يقول : « إنى لأعتقد بخلود الديانة المسيحية نظراً لصدقها وصراحتها الطبيعيين . وإن هؤلاء الناس الذين اعتقدوا تخلصهم من حملها والإيمان بها تبعاً للعقائد الزائفة التى بشر بها الكثيرون من رجال الدين سيرجعون إليها مرة ثانية ويدرسونها درساً أوفى ، وأشد دقة وتفهماً[١] » . فكان يؤمن ببعث روح جديدة تطهر الديانة مما لحق بها من الأدران والأوساخ . وهذه الفكرة السامية تجاه الديانة المسيحية لتظهر لنا جلياً فى فقرة ثانية كتبها حيث يقول : « إن الكنيسة يجب أن تعتبر كؤوسسة وطنية تسعى إلى إعلاء شأن الوطن ورفع كلمته . فمن واجب الناس على اختلاف طبقاتهم أن يتمنوا لها التقدم واطراد النجاح[٢] » .

والهدف الوحيد الذى سعى إليه أرنولد فى جميع مؤلفاته هذه وخاصة كتابه « الأدب والعقائد » كان لاسترداد التوراة مكانتها القديمة وإعلاء شأنها بين طبقة العامة الملحدة . وهذا الهدف كان سامياً فى حد ذاته ، ولذا فإن تحقيقه كان من السهولة بمكان عظيم . وقد أشبهت كتاباته هذه من نواح عدة مؤلفات الكردينال نيومن الكاتب الإنكليزى الشهير . فعرف أن الشك فى المعجزات يقود الناس حتما إلى إنكار جميع الحقائق السماوية .

رأى أرنولد جمهرة المتعلمين من قومه يخرجون عن عقائد التوراة وأحكامها فحاول إرجاعها إلى قلوبهم بإقناعهم أن مكانتها فى عقول الناس يجب أن لا تبنى على أساس المعجزات التى جاء بها أو على العقائد التى استخلصها الكاثوليك والكلفنيون من ثناياها بل إلى أدبها السامى وإلى روح النشاط والحماسة التى يبعثها السلوك الحسن والتضحية وحب الإنسانية .

فالديانة فى رأيه لم تكن إلا الأخلاق تبعثها العاطفة وطهارة النفس ، والرجل الورع هو الكريم الخلق الحسن الشيم . واندفاعه هذا فى طريق الإخلاص يجب أن يكون ناتجاً عن عقيدة راسخة هى عقيدة العاطفة والميل . أما إذا كان الرجل مضطراً إلى اتباع سنن الأخلاق وتعاليمها فهو ليس بخير كريم . إذ أن الرجل الكامل ، هو من كان مندفعاً برغبته وميوله لا تحت تأثير الطاعة والخنوع .

(يتبع) خيرى حماد

(١) Psul. Grnsld : P. 144.

(٢) Gssay m Chwch Qnd Ribgion : Cnnold. P. 37.

عاهـــل الجزيرة

فى وادي النيل

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

حادٍ من البيدِ هزَّتنى قوافله والنيلُ يصغى إليه أو يساجله
يلقى الغناء حجازياً فتحسَبهُ تهجُّد الفجر أوَّابٌ يواصلهُ
أصغت له مصر ، فاهتاجت مزاَمرُها
وللديارِ هـــوى تهفُو شواغله !
معـلِّم كيف يُشجى الريح! كيف لما
تعيدُ تسبيح« داودٍ » فواصِـلهُ!
وكيف تخطفُ سحر الشمس نغمته
فينتهى كل ما قصته « بابلهُ »
وكيف بالجبـل الراسى مزامرُه
تشـجيه حتى يريد الخطو كاهله
خرت لموكبه الوديان ساجدة
إن الصحارى أذان ، وهو قائله !
وللجزيرة وحىٌ فى قَيـــاثِرهِ
كادت تضىء به الدنيـا أنامله
مهد النبوات أرض النور موطنه
وفى مزار الهـدى قامت منازله
سارٍ يهاب الضحى أنوارخطوته ويعلمُ الفجر أن الركبَ حاملهُ
وتسمع الطير عنه ، وهى شاردة فإن دنا سربُها قرَّت بلابله
حَبٌّ ، وماء ، وأعشاش ، وأمن حِمى
فيـه الغريب أخٌ ، والضيف آهلهُ
سألته : لمن الركبان سائرة ؟ وللكريمِ اهتزازإذ تسائله !
فقال إنى من الشرق الذى سطعت ونورت منـه للدنيا رسائله
من بقعة عمَدُ الاسلام فى يدها سواعد الدهر يعييها تطاوله !
مشى الرسول عليها فاغتدت حرما يجرد النفس للتسبيح داخله
وشع منها كتاب الله ، فهى حمى لا بد يسجد قبل الخطو نازله
بنى عليها ، وشاد الملك معتلياً على المهابة ، سيف عز حامله

عرش (الجزيرة) مركوز بقبضته وفوق خدَّيه أجرى البأس عامله!
تلألأت منه فوق النيل زاخرة رُؤى جبينٍ أضاءته فضائلهُ
نورُ الشهادة تُبديه أسرَّتهُ وهالةُ المجد تُضفيها حمائله
وحوله من سماء البيد شارقةٌ من البـداوة تذكيها شمائله
عطر النبوات نضَّاح على يده كأنَّ خلداً زكتْ فيه خمائله
وفوق عينيه للتوحيد بارقة شعَّتْ ضياء بما تطوى دخائله:
شهادتانِ هما للروح مرفأة فيها منارُ الهدى، فيها مشاعله!
البيرقُ الأخضر الرفراف ضمهما هدْياً، ونوراً ، لمن زاغت دلائله !
«الله أكبر» فى الشَّطين هاتفة كطير مكة إذ هاجتْ زَواجلهُ
رأيتـه وضفاف النيل تحمله والنيل يهتزُّ للأبطال ساحله
فى موكب تُفرح الأسلام عزَّته وتلفتُ الشرق للماضى مخايله !
وتدهش الدهر إرهاباً بضجَّتها
ما خلَّفته على الوادى جلاجلهُ



ملـكان فى مفرق الدنيا ضياؤهما
عالى الركاب ، رحيب الخطو ، جائله
قاما على عزةٍ للشرقِ شـامخةٍ
وموردٍ للعُـلا فاضت مناهله
كانا شعاعين للأيام فى زمنٍ
كانت تَغطُّ على ليـلٍ مجاهله
هـذا على جبهة الصحراء صولجه
يثنى الجبـال إذا هبَّت تصاوله
عالٍ مع الشمس ، طواف بسيرتها
على الوجود نَداه أو جحافله !
وذاك تسحرُ كبرُ الخلد هيبته بمـا بنى لِبَـنى الدنيا أوائله
على محارب من نهر ومن شجرٍ أسحاره قانتاتٌ أو أصائله
كم كبَّرت لأذان الفجر نخلته ! وسبَّحت بهوى البارى سنابله!

* * *

يا سائران على نور ، وخلفهما قلب من الشرق تضنيه مشاغله
مُرَّا عليه بسحر فى أكُفِّكُما
دانى التَّداوى ، قريب البُرء ، عاجلهُ
براحةٍ فى حواشيها وصفحتها طبُّ الشعوب حنى النورمائله
مازال « رضـوَى» يناجيها ويذكرُها
عهـداً إلى أبد الدنيـا يزامله

روته للشرق كثبان مهللة   وسطرته مواثيقاً جنادله
عهداً من الحب هز الطود فارتجزت   به الخيام ، وغنته قبـائله !
ليث البوادى وحاميها وسيدها   تاريخ سيفك إنشاد تواصله
ضممتها وعصبت البأس فى يدها   وكنت غيثاً تناديها سوابله
تعلقت بك حين الركب قال : هلا   وأوشكت بخطى النجوى تنـاقله
وحين يممت كاد البحر لجته   تغدو بساط فلاً ، غنت قوافله !
ركبت بيضاء بالأرواح دارعة   جنـان مصر لها تهفو بلابله
أحبابك ارتقبوها منذ ماسبحت   «فاروق» والنيل والوادى وآهله
جرى النسيم سعودياً بجنته   وللرياض هفت شوقاً هوادله
«عبدالعزيز» إليك الحب، يدفعه   واد ترفرف بالبشرى خمائله
حيتك منه سماء شاركته هوى   بالغيث يفتر فى الشطآن وابله
تحية البيد ساق الله فرحتها   على يديك بشيراً أنت حامله
حار العبـاد أنجدىٌّ هواؤهم   والقطر والريح أنسام تزايله
أم أنها فرحة الإسلام سار بها   ركب المليكين فى شوق يعاجله؟!
عبير يثرب تذكيه مطارفه   وخيلة العُرب تحكيها صواهله
هذا أذان العلا ياشرق ! فاتحة   يراع منها غوى القلب غافله !
ضيف الجزيرة ، لاوصفاً ولا حلما   جنان مصر جنان أنت نازله !
أخوك «فاروق» راعيها وعاهلها   وأنت فيها أخ طابت منازله ! !

أواخر الخريف

« فيك اختفى سر الربيع كما اختفى
فى جنح أمسية جناح صباح »

للأستاذ ادوار حنا سعد

طير مروعة وخفق رياح   وخمائل مهجورة الأدواح
صفراء عاطلة تجرد عطفها   من ورد منطقة وزهر وشاح
طاف التجهم والذبول على الربى   بعد الربيع الناضر المراح
فرنت لماضيها الوضىء وأسبلت   تبكيه أنوارا وطيب نفاح
تهتز راعشة وتذرف دمعها   ورقا ينوح على رحاب الساح
تزجيه خفاق الرياح كساحر   تزجى لديه مواكب الأشباح
وعلى الأصيل حلى سحاب أبيض   متنـاثر متموج سباح
فكأنه زمر القطيع تفرقت   ما بين أودية وبين بطاح
وكأنه بيض الزوارق هومت   أرخت أعنتها يد المـلاح
فاذا تواكب جمعهن وركمت   سود الغمائم فى وضيء نواح
غالت بقيات النهار وغيبت   من ضوئه المترقق الوضاح
كخريف آلامى وليل مواجدى   وغيومهن وسيلها المجتاح
حجبت ضيائى واستباحت نغمتى   وطحت بزهر مطامعى وطماحى
أقبلت تغنى الزرع كى يحبابه   ويبذره زرع بعيـد رواح
إن كنت شردت الطيور فإنما   لتزدننا فى العود سحر نواح
أو كنت حجبت الربيع وخمره   فلكى تعتق من شهى الراح
وتزيد من سحر الأزاهر والسنا   وجنى الرياض وهتفة الصداح
فيك اختفى سر الربيع كما اختفى   فى جنح أمسية جناح صباح

فرحة الحب (*)

للشاعر حسين محمود البشبيشى

ما بال ثغرك ضاحك البسمات   مابال قلبك راقص النبضات
قد كنت والأحزان فى ليل الأسى   تسرى وحيداً حائر النظرات
واليوم من أحياك؟ من بثَّ المنى   فى جانبيك وضيئة القسمات
من ذا الذى أجرى الحياة خواطراً   تنساب من عينيك مؤتلقات
فكأن فيض شعاعها أنشودة   أبديَّة الأصـداء والنغمات
وكأن قلبك نغمة سكرى الهوى   من خمرها الروحى والكاسات
وكأن روحك ومضة أنوارها   فتن الجمال وفرحة النشوات
ماذا بقلبك؟ ... أى سرٍّ لم يزل   ينساب فى جنبيه كالنسمات
..الحب! ماأحلى الحياة إذا جرت   أيامها نشوى من الصبوات
لحن الفؤاد جمالها ... فسمى لها   شوقاً يذيب الروح فى الدعوات
وجرى النشيد منغماً بغرامه   ثملا من البسمات واللفتات
وشدا فطار القلب من أضلاعه   نغماً يبث الحب فى الصدحات!
ومضى يحلق فى سماء غرامها   لهفان مشتعلاً من اللهفات
فى كل صبح باسم اللمحات   يرنو وفى عينيه شوق عاتى
ويكاد يهتف فى الطريق متى؟ متى؟   يا صبح تقبل فتنتى وحياتى
حتى إذا ابتسم الطريق وأشرقت   جنبـاته من رقة الخطوات
وهفا الفؤادُ يكاد يسبقنى إلى   محبوبتى ليبوح بالحـرقات!
أسرعت والأشواق تصرخ فى دمى   والحب فى عينى وفى نبراتى
وهتفت.. ماأحلى صباحك يامنى   نفسى ويا قلبى وسرّ حياتى
وأكاد من فرط الغرام أغار من   قلبى ومن عينى ومن خطراتى

(*) من ديوان ألحان قلب الذى صدر فى ٢٠ يناير.



فضيحة . . . فمن المسئول ؟ !

ليس لها اسم إلا « الفضيحة » ، وقد وقعت مع الأسف فى استقبال العاهل العربى المعظم ، الذى تهيأت مصر لاستقباله بما لم تستقبل به أحداً من قبل ... فمن يا ترى هو المسئول ؟

لقد وددت أن أسكت حتى تنتهى الزيارة الكريمة ، ولكنى خفت أن تتهم مصر فى ذوقها فى حين أنها بريئة ، وأنها « عملة » ذهن عامى كليل . ولا بد أن كثيراً من الضيوف الكرام قد لحظ هذه « الفضيحة » ، فمن حق مصر أن أبرئها من « عملة » هذا الذهن العامى الكليل !

فى مصر شعراء والحمد لله — فلم تعقم بعد — وشعور هؤلاء الشعراء فياض بالحماسة والحب والتكريم للعاهل العظيم ... ولكن ذهناً عامياً كليلا فى محطة الإذاعة ، أو فى غيرها ، أراد أن يختار قطعة تغنيها مطربة الشرق العربى « أم كلثوم » ، فلم يجد أن شعور مصر الدافق كله يستطيع أن ينشئ قطعة مناسبة لهذا الغرض الكريم ، فبحث وبحث حتى وجد قطعة للمرحوم شوقى بك (قيلت فى مناسبة المولد النبوى الشريف) ، فاختار أن تغنيها لتحيي بها الملك العظيم .

ولكن القطعة — وهى فى مناسبة خاصة — لا تحوى نصاً صريحاً يتفق مع المناسبة الحاضرة ... وهنا يتفتق ذلك الذهن العامى الكليل عن حيلة طريفة ... يستدعى شاعراً معاصراً هو الأستاذ محمد الأسمر لينظم أبياتاً تلصق بأبيات « شوقى » ، وتفى بهذا الغرض الجديد !

يا للذكاء ! ! أيجرؤ ذلك الذهن العامى على اتهام الشعراء المعاصرين أجمعين بأنهم لا يستطيعون الوفاء بمناسبة حاضرة كريمة تهز شعورهم وشعور المصريين أجمعين ؟

وإذا كان قد قدر عليه القدر (كما يقولون فى العامية) ، ولجأ إلى شعر قديم يستوحيه ؛ فإما أن يجده وافياً بالغرض ، وإما أن ينصرف عنه ، بغير هذا الترقيع الذى لا أدرى كيف أسميه !

وتشاء المصادفات أن تمضى « الفضيحة » إلى نهايتها ، فتأتى الرقعة الجديدة — على غير مألوف الشاعر الذى قبل القيام بهذه المهمة العجيبة ركيكة مهلهلة ضعيفة ، لا تتسق مع الأبيات الأصلية معنى ولا مبنى !

ثم يأتى التلحين رديئاً إلى الحد الذى يقضى على الصوت الغنى الرخيم ، فلا يكاد يبين !

من المسئول عن هذه الفضيحة ؟ وهل يصلح مثل هذا الذهن العامى الكليل للاشراف على مثل هذه البرامج الخاصة بمناسبة عظيمة لا تعرض كل حين ؟ !

سؤال يوجهه الأدب والذوق والكياسة للمسئولين !

سيد قطب

الأستاذ النشاشيبى فى مصر :

قدم القاهرة إمام العربية الأستاذ المحقق محمد إسعاف النشاشيبى وتبوأ الصدر من مجلسه المشهود فى الكنتنتال ، فأقبل عليه عارفو فضله وعشاق أدبه يرحبون به ويستفيدون منه . فأهلا ومهلا بحجة الإسلام وعمدة الأدب .

فى قصيدة الغزالى :

نبهنى إلى ما نشرته « الرسالة » الغراء فى عددها رقم ٦٥٢ تحت هذا العنوان الصديق الفاضل ثروت أباظه ، وهو يواسينى فى غمرة الأسى على والدى — ندّى الله مضجعه بفيض من رحمته ورضوانه — ثم عاد — أمتعه الله بأبيه — فأثار هذا الموضوع بعد أن رجعت إلى عملى فى مصر ، فتذاكرنا معاً ما بقى بذهنى من علمى العروض والقافية ، أيام دراستى فى الأزهر ودار العلوم .

والأستاذ رضوان يذكر أن صاحب (الشافى فى علمى العروض والقوافى) قسم السناد ، ثم مثل لسناد التأسيس بهذا البيت :

يا دار مية اسلمى ثم اسلمى   بخندف هامة هذا العالم

فإهمال ألف التأسيس مشاهد فى كلة (اسلمى) ، ويوافقنى الأستاذ على أن البيتين المشار إليهما فى قصيدتى ليسا من قبيل هذا البيت . والمثال كما يقولون مصدر القاعدة .

وفى بريد الرسالة الأدبى كلمة لكاتب فاضل يخطىء فيها الأستاذ رضوان ويذكر أن فى البيتين سناد الإشباع لا سناد التأسيس فما رأى الأستاذ رضوان ؟ إنى لأرجو أن ينفى ما ذهب

إليه صاحبه ، كما نفى صاحبه ما ذهب إليه وبذلك يخرج البيتان فى عافية .

وأحب أن أهمس فى أذن الأديبين الناقدين أن كلمة (الخطأ) التى وردت فى نقدهما فيها كثير من التجوّز ، فلم يقل أحد من العروضيين إن هذا أو ذاك خطأ ، ولكنه على حد تعبيرهم (خلاف الأولى) .

وإنى لأشكر للاديبين غيرتهما ، وحينما أرزق سعة النفس والوقت أعدهما ببحث مستقل أستعرض فيه سنن الشعر العربى فى مختلف عصوره لدفع هذا الزعم الذى يدفع الناقد لمثل هذه اللفتات . والشعر مصدر ما وضعه العروضيون من قواعد ، ويا ويل الشاعر من العروضيين

أحمد عبد المجيد الغزالى

١ – شعر حماد :

جاء فى المقالة الخامسة من مقالات (حماد الراوية) العدد (٦٥١) عند الكلام على انتحال حماد « وإنما الذى به النحل لا الإنتحال » أن شعره (يميل إلى الغثاثة والركة ، ولم يبلغ من الجودة ما بلغه شعراء الجاهلية حتى تختلط أشعاره بأشعارهم) . وجعل ذلك أحد أوجه ذكرها لأبطال روايات مشهورات عن ثقات ، واستدل عليه :

١ – بنقل أبيات لحماد استهدى بها جبة من بعض الرؤساء . أولها (إن لى حاجة فرأيك فيها) .

٢ – بضبطه (فرأيك) بالرفع والتحشية عليها بأن حماداً (يريد أن يقول : فما رأيك فيها) .

٣ – بنقل أبيات جزلة منسوبة إلى حماد والإشارة إلى أن قائل تلك لا يقول هذه .

وأنا أقول :

١ – إن أبيات حماد فى استهداء الجبة ، ليست غثة ولا ركيكة بل هى أبيات بليغة . والبلاغة وضع الكلام فى موضعه ومطابقته لما تقتضيه الحال ، وتلك الحال لا تقتضى إلا مثل هذه الأبيات ، ولو ساقها جاهلية فخمة غريبة اللفظ بدوية الأسلوب ، لكانت باردة غثة ، لأن لكلٍ مقام مقالا .

٢ – أما (فرأيك) فالخطأ فى ضبطها ، جر على حماد عارها وإنه لبرىء منه ، وإنما هى (فرأيك) بالنصب . وهذه من قبيل (زناه فخذه) التى كنا تكلمنا عنها …

٣ – أما إن الذى يقول الشعر الخفيف الفكه فى موضعه ، لا يقول الشعر الجزل فى موضعه ، فغير صحيح ، وهذا بشار يقول (ربابة ربة البيت) الأبيات وما تمنعه أن يقول (إذا ما غضبنا …) وبينهما أكثر مما بين قطعتى حماد ، وشوقى صاحب المعجزة البيانية (قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا) هو صاحب (الحيوان خلق له عليك حق) وناظم (تلك) الأنشودة لجمعية الشبان المسلمين سنة ١٩٢٩ .

وما شاعر فى الدنيا ، ولا كاتب ولا متكلم يهزل كما يجد ، ويقول لصديقه مؤنسا ما يقول لعدوه هاجيا ، ويتغزل بأسلوب الفخر ، ويخطب يوم المعممة بمثل ما يناغى به الحبيب ليلة اللقاء ، ويرقص وليده بمثل أراجيز العجاج ، وهذا أبو نواس فى خمرياته غيره فى طردياته ، والرصافى فى أخلاقياته ، أين منه الرصافى فى مجونياته ، ولولا أن هذا أمر قد فرغ من تقريره نقاد العرب والافرنج من زمن طويل ، لسردت مثالا عليه من شعر كل شاعر !

٢ – سادة الكتاب :

هذه حاشية على العمود الثانى ، من الصفحة (١٤١٨) من الرسالة (٦٥٢) :

وأنا أقول : إن سادة الكتاب (عندى) خمسة : هم الذرى وهم القمم ، وإن كثرت من دونهم الهضاب والجبال : الجاحظ فى الأدب ، وأبو حيان فى الفكر ، والغزالى فى التحليل النفسى وابن عربى (محيى الدين) فى التصوف ، وابن خلدون فى الإجماع هؤلاء الأئمة المجتهدون ، وأما الآخرون فأكثرهم مقلدون . وأستاذنا النشاشيبى أوسع منى علما ، وأصح حكما .

٣ – بين قوسين :

لتفهم كلمتى فى بريد الرسالة (١٤١٨) ضع كلمة (عنوانه) فى السطر الثانى بين قوسين ، لأنها جاءت للتفسير لا للتقرير .

على الطنطاوى



من ذكريات الشباب
اجترار
للأستاذ حبيب الزحلاوى
— ٢ —

حكايتى أيها الأصدقاء تدور حول الأثر الذى تركته حوادث الجهاد الوطنى فى نفسى ، لا حول أبلغ حادث حدث لى .

كنت أتوقع عندما عينت ضابطاً فى الجيش أن ألق مشاكسة من زملائى الفرنسيين ، وتعالياً على الضابط « العربى » فوطدت النفس على التمسك بالكرامة مع السلاسة واللطف ، نجحت بعض النجاح فى السير على منهاجى ، وكنت أفشل فى قطع ألسنة أولئك الضباط عن القدح فى قومى وسب « السوريين القذرين » ولاسيما حينما كانت تضمنا مائدة شراب ، ولم يكن بين عنهم إلا ضابط من رتبتى كان يقف دائماً فى وجه أولئك القادحين فيصدهم عن المضى فى طعن الأمة العربية إكراماً « لزميلنا الضابط السكيس والخلصاء الذين عرفناهم من السوريين » فكان أولئك الضباط الأجلاف ينحرفون عن الموضوع ، ناسبين ذلك إلى ما يلاقون من الشعب من كراهية وبغض ، وكان ذلك الضابط ، نضر الله وجهه ، يدافع عن حق السوريين وينعت حكام قومه بالطيش والهوج فى مد حكمهم وبسط وأخبار رجال السياسة البعيدين عن مواطن الخطر ، وأخبار إخواننا المهاجرين تصلنا منبئة بقيامها كلها متساندة متضافرة تعمل لجعل هذه الثورة هى الأخيرة للخلاص التام من الأجنبى المستعمر .

عملت ما فى وسعى لأقنع الأجناد الوطنيين تحت إمرتى أن نهرب بسلاحنا وميرتنا للالتحاق بإخواننا المجاهدين لتحرير الوطن ، وقبل انبلاج الصبح كانت دوابنا المثقلة بالأحمال على

سناد التأسيس :

فى العدد (٦٥٢) من أعداد الرسالة خطأ الأستاذ محمد محمود رضوان بيتى الشاعر أحمد عبد المجيد الغزالى وهما :

كأن به فى حلة الملك رافلا   يخب بدنيا ليس يدنو لها مدى
عوالم هذا العصر أنت وسعتها   بفنك لم تعجز لسانا ولا يدى

وقال إن الخطأ فيما يسميه العروضيون « سناد التأسيس » .

والحقيقة غير ما قال الأستاذ الناقد إذ أن « سناد التأسيس » فى البيتين السابق ذكرهما موجود وإنما الخطأ فى « سناد الإشباع » كما يقول أهل العروض ، وليس فى « سناد التأسيس » كما قال الأستاذ المفضال .

فحركة الدخيل فى الأبيات كلها بالخفض ، إلا فى البيتين المنقودين فإنها جاءت بالفتح ، وذلك ما يسمونه سناد الإشباع .

ومنى على الناقد والمنقود تحية وسلام .

عدنان أسعد

حول سجون بغداد :

أرجو ، أن يتفضل من كان لديه أخبار تتعلق بسجون بغداد وما يتصل بها — لم أذكرها فى مقالاتى التى نشرت فى هذه المجلة — فينشرها فى هذا البريد الأدبى ، وله منى الشكر سلفاً .

صلاح الدين المنجد

بضعة كيلو مترات من مرابط الثوار ، والفضل فى هربنا يعود إلى زملائى الضباط الفرنسيين الذى أثقل « الحشيش » أدمغتهم تلك الليلة .

فى منتصف ليلة من الليالى ، مرنا بطوائف منظمة من الثوار لنقطع الطريق على حملة من الفرنسيين جاءت لتطويقنا من ناحية الشمال ، بلغنا الموقع الذى قدرت أن الواقعة ستقع فيه ، ووزعت رجالى توزيعاً يوهم العدو بكثرة عددنا ، وأوصيت بعدم الاسراف فى إطلاق الرصاص ليكون متواصلا ، ووقفت فى مكان مرتفع مع بعض زملائى نرقب الموقعة وندبرها .

لم أر ولم أسمع فى حياتى عن موقعة التزم رجالها ضبط النفس والعمل بإقدام وشجاعة وحزم كتلك الموقعة التى كانت كأن الصخور والمتاريس وأكوام الحجارة هى التى تتفجر فتطلق النار فتصيب الهدف ، لا رجالا مثلنا من لحم ودم .

أخذت الشمس تميل إلى الغروب ، ولم يتقدم العدو خطوة إلى الأمام ، ولم يتبين له أآدميون يقاتلونه ، أم مردة وشياطين يصبون عليه الموت ، وبينما نحن فى هذا الموقف ترفرف فوقنا أجنحة الشعور بالظفر على العدو وإفساد خططه ، وإذا بصوت من الخلف ينادينى باسمى مقرونا بصفة حبيبة إلى قلبى « يا صديق العزيز ، لا تظن أنى أغتالك غدراً بل أقتلك دفاعاً عن قومى وشرفى العسكرى » وصوب بندقيته وسددها .

يكفى أن أقول لكم يا إخوانى إن خمس بندقيات صوبت فى لحظة واحدة إلى صدر « صديق العزيز » وإلى من كان معه من ضباط ، وأن رصاصتى كانت الأسبق إلى قلبه .

بكيت ذلك الصديق ، وما برحت أبكى سجاياه وشمائله ، لأنه إنسان مهذب .

سأل واحد من المستمعين بتلهف عن مصير تلك الموقعة فأجاب المتحدث بصوت تخنقه العبرة الجامدة ، « لقد تولى رفاق إدارتها بنجاح حتى ارتد العدو أما أنا فقد واريت قتيلى التراب » .

***

من راقب أولئك الأصدقاء يؤلفون دائرة فى وسطها رجيلات تكركر ، وأنفاس تطلق فى الهواء ، يحس بأن لا فارق بين المتحدث والسامع فى اعتصار أحداثه من قرارة نفسه ، وأن الكلمات المهموسة تبلغ مكمن الضمير وحنايا الوجدان .

— ٤ —

أحدثكم أيها الرفاق عن حادثين متناقضين يسبقان أحداث الثورات الداخلية ، لعلى أعيد بهما نضرة الحياة إلى وجوهكم وقد فنيت فيها البشاشة وغاضت مياهها .

وحكايتى لا بد لها من مقدمة أقرر لكم فيها ، أن المبادىء التى يصطنعها أصحاب الأغراض الوطنية ويتخذها الشبان مثلا عليا ، ليست إلا سطورا مسجاة فى صدورنا ، أو جثثا مدفونة فيها ، قيمتها فى الثرثرة عنها ، وهى على وجه التمثيل كالبخور الذى يطلقه المشعوذ ، أما تنفيذ المبادىء والعمل للمثل العليا ، أو العمل على الأقل ، فى حيز غير بعيد عنها ، فليس فى وسع الرجل أو الشعب الذى قضى عليه بأن يكون محكوماً ، ولا راد لقضاء القوة عليه ؟ ! !

ولبيان ذلك أقول : ألفنا نحن الطلاب العرب ، أيام كنا نطلب العلم فى الاستانة ، جمعية اتخذنا لها القانون الذى قننه لنا أصحاب المثل العليا فى الوطنية والقومية ، وأقسمنا بالله وبالشرف والوطن على تنفيذه بسلاحنا ودمائنا .

ساقتنا الدولة العلية التى كنا نعمل للخلاص منها ، والانعتاق من عبوديتها ، إلى محاربة دولة غربية كنا نؤمن آنذاك أن لا سبيل لنيل استقلالنا الوطنى ، وتحقيق آمالنا القومية العربية ، إلا بمساعدتها إيانا .

وقفت ورفاق نتحسس المبادىء المدفونة فى صدورنا ، وإذا الأوامر العليا تستحثنا على التقدم والقتال ، وشعرنا بأن قوة جارفة من حديد ونار تجرفنا من الوراء إلى الأمام .

حاربنا ، أجل لقد حاربنا من قال زعماؤنا عنهم إنهم عدتنا للاستقلال ، وقاتلنا قتال المجاهدين فى صفوف من قالوا لنا إنهم أعداء استقلال وطننا وقوميتنا !!!

لقد أنستنا الحرب إنسانيتنا وردتنا إلى أصولنا المتوحشة .

كنت فى بداية الحرب ، وقد خفت ميدان القتال ، لا تفارقنى الأشباح المرعبة ، والخيالات المزعجة لشخوص من كنت أراهم يسقطون بضربة سيف ، أو بطلقة مسدس أطلقها من دون وعى ،

وما عتّمت أن تأكسدت مشاعرى فصرت كالجزار ينحر الكبش وهو يكبّر .

صدرت إلينا الأوامر من القيادة بأن نحتفظ بمواقفنا مهما كلفنا الأمر ، وبأن نعمل على التقدم مهما بهظ الثمن . كانت المدافع تدوى ، والقذائف تحفر فجوات فى الفضاء فتكظم بزخمها نفس من يدنو من طريقها العريض ، وبرغم ذلك كنا كالمناجذ نتقدم فنحفر حفرة تتحول فى وقت قصير إلى خندق يقينا ويلات المدافع الرشاشة .

لم نكن نحفل بمن يستشهد منا ، أو يجرح فيتلوى كالطفل المغوص ، بل كان همنا أن نتقدم وأن نقى أنفسنا ، ونحتفظ بمراكزنا ، كأن فى ذلك منجاة لنا من موت يحوم فوقنا .

يالله يا أصدقائى من نزعة حب البقاء كيف تدفع بنا إلى الموت حباً للحياة ، كان الوجود بأكمله فى ناحية ، وكنت أنا وحدى فى الناحية الأخرى ، فلو فنى الوجود بمن عليه وبقيت أنا وحدى لكنت الوجود بتمامه وكماله ، ولم أكن أفكر ساعة الموقعة إلا فى شىء واحد هو « أنا » .

لا أدرى كيف لم تغب شمس ذلك النهار ، لأن الجو كان منارا بآلاف من ومضات المدافع وشرار البنادق فكان من مجموعها يتألف نور وضاء ساعد على مواصلة القتال .

لم يكن الزاد ينقصنا ، وأكوام الذخيرة تطمئننا على أن فى وسعنا الدفاع عن أنفسنا حباً فى البقاء .

أين الراحة ؟ كيف السبيل إليها والموقعة ما برحت تتطلب الدماء !! لقد ارتوت هاتيك البطاح بدماء المتقاتلين فلمن منهم تنبت الإصلاح بارى ؟ كنا نتقدم تارة ونتراجع أخرى ، هذه هى الحرب السجال ولكن متى تنتهى الموقعة أو تخمد نارها ؟

انبلج الفجر ، وأشرقت الشمس ، وأقبل الليل الثانى !! لم أعد أحس بحماس للحياة ، ولا بدافع إلى البقاء ، إنما أنا فى حاجة إلى النوم ، إلى نوم عميق طويل ينقذنى من نفسى ، إلى هروب من هذه النفس التى تحوطها عناية الله ، وينزل بها بلاء الإنسان .

يا للشيطان !! هل هناك تناقض بين غايتين غاية الله فى الحياة وغاية الإنسان فى إزهاق الحياة ؟

ألقيت بجسمى فى حفرة من هذه الحفر التى شققناها بمعاولنا وأظافرنا فصارت خنادق طويلة عميقة ، ألقيت مسدسى كأن لم يعد لى حاجة إليه ونمت .

كم ساعة قطع النوم من عمرى ؟ لا أدرى !! أقسم لكم يا إخوانى أن لو اتصل نومى بالأبدية لما قلت إلا أنه الراحة الكبرى ... ولكنى استيقظت . لقد أيقظتنى مياه غمرت الخندق وقد بلغ ارتفاعها فمى ، وقد أخذت امتصها مع التنفس وكدت أختنق من الغصّة . نهضت كالكلب المبلول ، أنفض جسمى والسعال يكاد يخنقنى وكنت أرتعد من البرد ، وإذا بجماعة من الجند يصوبون فوهات بنادقهم إلى صدرى ، بحمت منها رطانة تنبهنى إلى أنى أسير .

عرفت بعد إذ بلغت مكان الاعتقال من زملائى الأسرى الذين جاءوا بعدى أننا لم نخسر تلك الموقعة ، ولم نفقد مراكزنا الأمامية ، ولكن حين شعر الأعداء بأعيائنا وبحاجتنا إلى الراحة ، خففوا ضغطهم علينا ، وعند ما طلبنا الراحة مستسلمين للنوم ، حوّلوا مجرى مياه النهر نحونا فغمرت خنادقنا وأغرقتها ، فغطس فيها من غطس غرقاً ، ونجا من الموت من أفاق من النوم وداهمته قناصة الأعداء ليلقى منهم الأسر كما لقيته أنا . ومن العجب العجاب أن حكومة الدولة التى أسرتنى ، بعثت بى إلى ميدان حرب جديد أقاتل فيه مع إخوانى مَن كنا نقاتل فى صفوفهم !! والفرق بين الدولتين أن العثمانيين ضنوا علينا بالاستقلال وأن الانجليز وعدونا به فصدقنا وعدهم !!! والأغرب من هذا ، أنى بينما كنت أحارب الأتراك بسلاح من الانجليز معار إلى الدولة العربية التى ارتجلتها السياسة ارتجالا ، التقيت عفواً بأخى الضابط يحافظ على الخط الحديدى الحجازى الذى انتدبت لنسفه بالديناميت ؛ وقد ساعدنى على إتمام مهمتى وعاد هو ورجاله معى لا كأسرى حرب بل كجنود بالجيش العربى ، جيش الخلافة العربية .

(يتبع) **حبيب الزحلاوى**



(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٥٦ - الاثنين ٢٨ يناير ١٩٤٦ - السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 656

Lundi —28—1—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٥٦ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٤ صفر سنة ١٣٦٥ — ٢٨ يناير سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

بين شيخ وشاب :

حوار ســـــياسى

فى مجلس من مجالس الرأى يندو إليه صحابة من أحرار الفكر قد اطمأنوا فى حياتهم الوديعة إلى قسمة القدَر بعد أن اضطربوا فى المكاسب، وتقلبوا فى المناصب، وتمرسوا بالأمور، وبلغوا غاية المقدور لهم من مطالب العيش ومآرب النفس؛ فهم يمثلون الرأى الصريح، ويستعملون المنطق الخالص، ويرفعون أنفسهم فوق الأوضاع والأطماع والسياسة، فلا تقيدهم وظيفة، ولا تعبدهم شهوة، ولا يقودهم حزب؛ فى هذا المجلس تُستعرض كل ليلة أخبار اليوم وأقوال القوم، فتوزن بالميزان القِسط، وتنقد بالنظر الثاقب، فلا يورَد خبر أو قول إلا حاكه رأى، ولا رأى إلا هاجه اعتراض، ولا اعتراض إلا ساوره شبهة.

وأكثر السامرين فى هذا المجلس من الكُنتيين، فكثيراً ما تسمع كنتُ وكنتُ، وقليلا ما تسمع سأكون وأكون؛ لذلك كان التشاؤم الذى تقتضيه ذكرى الماضى، غالباً فيه على التفاؤل الذى يستوحيه رجاء المستقبل! والشباب الذين يختلفون إليه يهولهم منه عُرى الحقيقة وجفاء الواقع، فيستحبون عليهما توشية الأحلام وتزوير المنى، ليستديموا لأنفسهم بواعث النشاط وحوافز الأمل:

وفى إحدى الجلسات الأخيرة جرى بين شاب من هؤلاء وشيخ من أولئك هذا الحوار نسوقه إليك على سرده تصويراً لروح هذا المجلس:

الشاب: وما ذنبنا فى هذا الضعف الذى نعانيه؟ أيستطيع قصير القامة أن يطول، ورخو العظام أن يصلب؟

الشيخ: أما الضعف الناشئ عن قلة العدد وضيق الرقعة فلا حيلة لنا فيه؛ وأما الضعف الناشئ من سوء الخلق وقلة العلم فلا عذر لنا منه. والناس يقوِّمون بالأرواح لا بالأجساد، ويقدِّرون بالصفات لا بالأعداد. فلو كان الشرقيون قد بلغوا ما بلغ الغربيون من المدنية والثقافة، لاستحيا هؤلاء أن يعاملوهم كما يعاملون الأرقاء، وأن يساوموهم كما يساومون الأشياء!

الشاب: وهل يمنعنا هذا الضعف العارض من أن نطلب الحق ونغضب له ونفاوض فيه؟

الشيخ: وهل تطلب حقك من غاصبيه إلا بإحدى وسيلتين: وسيلة القوة وليس لك جيش، ووسيلة المنطق وليس عندك سمعة؟ إن طلب الحق على هذه الحال استجداء؛ والمستجدى يسأل ولا يفاوض، ويقبل ولا يعارض!

الشاب: إن الضعيف يستطيع أن يخدش إذا لم يستطع أن يبطش. والخدش فى وجه القوى عيب يهمه ألا يكون على أن القوة ستحققها الجامعة العربية. ومن حبات الرمل يكون الجبل، ومن قطرات المطر يكون النهر. واستعباد العروبة المتحدة عسير؛ وازدراد الكتلة الضخمة أعسر. ومتى تيسرت

القوة للقادة ، تيسرت الحجة للساسة .

الشيخ : إن الجامعة العربية من وحي الخصم وتدبيره . ولو كان (إيدن) يخشاها لما أوحاها . والعبرة ليست بالعدد كما قلت لك ؛ فإن فى الهند وفى جزر الهند كمية ، ولكن فى انجلترة وهولندة كيفية . ومايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور!

على أن العرب تيقظوا متأخرين . تيقظوا فى عصر الذرة ، ولو أنهم استيقظوا فى عصر الفحم لوجدوا مسافة تخلفهم عن الغربيين فيه تبلغ قرناً أو تزيد .

الشاب : وماذا يضير لو كانت الجامعة العربية من وحي الخصم وتدبيره ما دام يومها لغدنا وأمرها بيدنا وقوتها بنا وخيرها لنا ؟ وهل يقدح فى ملكيتك لبيتك أو يمنع من انتفاعك به أن يعاونك صديق على بنائه ليستند إلى جداره ، أو يفيء إلى ظله وهو فى الطريق إلى داره ؟

على أن الإنجليز أكيس من أن يناصبوا العرب العداء ، فإن البلاد العربية إذا عادتهم يكون موقعها من ملكوتهم موقع الغصة فى الحلق والخثرة فى الدم ، هذه تقف القلب وتلك تكظم النفس . وما كان أيسر الغصة وأهون الخثرة لولا أنهما اعترضتا طريق الحياة ! ونشوب العظم فى حلقك يؤذيك وقد يرديك ، ولكنك لا تتخلص منه بالرصاص إلا إذا تخلصت من نفسك !

ذلك إلى أن الخلاف بين الدول العظمى على استعمار الشرق يقبض عنان كل دولة عن الافتيات بالأمر والجنوح إلى القوة . ولو صح أن روسيا وفرنسا تسيران وحيًا فى طريق الكشف عن القنبلة الذرية ، لكان من أمل الأمم الضعيفة أن تجداها حتى يصبح التهديد بها عبثاً لا يجدى ولغواً لا يفيد !

الشيخ : أوافقك على أن موقع البلاد العربية يملك على انجلترة الحياة والموت ، وأن الخلاف بين الدول المستعمرة يفوت على كل منها الانفراد بالرأى والحكم ، وأن شيوع الطاقة الذرية يبطل الركون إلى القوة فى تسويغ العدوان والظلم ؛ ولكن من من الساسة الذين تراهم اليوم يتبوأون كراسى الحكم فى دول العروبة يستطيع أن يستغل هذه الأسباب لفائدة مصر ومنفعة العرب ؟ إن أكثرهم يحترفون السياسة من غير أداة ولا آلة . وإن وثوب من يثب منهم إلى الحكم أو بقاءه فيه ، إنما يعتمد على ذرائع غير طبيعية ليس منها على كل حال براعة الذهن ولا نبالة الغرض ولا إرادة الشعب . وأمثال هذه (الكفايات) التى أقامتها المصادفات والحظوظ على أسناد من الدعاية والخداع والتمليق والتفريق والمحاباة والتساهل لا يمكنها أن تزاول الإصلاح لأنها صنيعة الفساد ، ولا أن تصاول القوة لأنها وليدة الضعف ، فقصارى أمرها أن تصانع ولا تصنع ، وتقول ولا تعمل ، وتدور ولا تسير . وما دام الرجل الذى يخلقه الله للاصلاح ويرسله بالهدى ويؤيده بالخلق ، لا يزال وراء الغيب ، فإن الأمل فى وحدة العرب ونهضة الشرق يظل أوهن من حبال الهباء وأبعد من أشباح الوهم ! وإنى لأجيل النظر والفكر وأتقراهما فى الأفق القاتم البعيد فلا أتبين لظهور هذا الرجل المنتظر شرطاً ولا علامة .

الشاب : أراك أسقطت الشباب من حسابك ، كأنهم غير أحرياء بحمل الشعلة وهم ثمار جهد طويل بذلته الأمة فى تنشئتهم وتثقيفهم ؛ فهل كانت الشهادات المختلفة الدرجات والغايات ، والألقاب الممنوحة من المعاهد والجامعات ، دلائل على الجهالة وعناوين للأمية ؟

الشيخ : إن الأبناء أشبه بآبائهم من الليلة بالليلة . وإن الدار والمدرسة على حالها الحاضرة لتعجزان عن تخريج طبقة من الشباب يخرج منها ذلك الرجل الموعود الذى تموت (أنا) فى لسانه وتحيا فى ضميره ، ويتحد فى ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه ؛ فهو يحس ألمه لأنه مجتمع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه مجتلى عقله ، ويملك قياده لأنه مظهر إرادته ؛ ثم يرتفع بسمو نفسه ونزاهة هواه عن أوزار الناس وأقذار الأرض ، فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابى لأن فضله أوسع من العصبية ، ولا يقول قولا أو يعمل عملا إلا إذا وافق الدين الذى يعتقده ، والمبدأ الذى يؤيده ، والشعب الذى يقوده !

الشاب : إنك يا سيدى تسرف فى التشاؤم لأنك شيخ !

الشيخ : وإنك يا بنى تسرف فى التفاؤل لأنك شاب . ولعل الحق أن يكون بينى وبينك !

احمد حسن الزيات

في إرشـــاد الأريب

إلى معرفة الاديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٢٤ —

ج ١٤ ص ٨٤ : قال (على بن عيسى الرَّبَعى : أخرج إلىّ عضد الدولة بيده مجلدا بأدم مبطناً بديباج أخضر مذهباً مفصولا بالذهب بخط أحسنَ ، فيه شعر مدَبَّرٌ وحسن ليس له معنى، فقال لى كيف ترى هذا الشعر ؟ فقلت : شعر مدَبَّر والذى قاله خرب البيت ، مسود الوجه . ثم يمضى على ذلك زمان ودخلت إليه ، فأومأ إلى خادم وقال له : امض إلى مرقدنا وجئنا بشعرنا ، فمضى وجاء بالمجلد بعينه ، وهو هو ، فأبلست ، فقال : كيف تراه ؟ وتلجلج لسانى وربا فى فمى فقلت : حسنا جيدا .

قلت : (بخط حسن أو محسَّن) .

(فيه شعرُ مدْبِر ليس له معنى) أو (شعرٌ مُدْبِرٌ)

(فقلت شعر مدبر والذى قاله خرب البيت) .

ومدبر متأخر متخلف ، والأدبار نقيض الاقبال وأدبر أمر القوم : ولى لفساد كما فى اللسان .

ويظهر من خبر رواه أبو البركات الانبارى فى (نزهة الالباء فى طبقات الأدباء) ص ٤١٥ أن الربعى كان يستعمل هذا الوصف — أعنى مدبرا — لكل ضعيف متأخر فى صناعته ، قال :

كان (الربعى) مبتلى بقتل الكلاب ، فيحكى أنه اجتمع هو وأبو الفتح بن جنى يمشيان فى موضع ، فاجتازا على باب خربة ، فرأى فيها كلبا ، فقال لابن جنى : قف على الباب ، ودخل فلما رآه الكلب يريد أن يقتله هرب ، ولم يقدر ابن جنى على منعه ، فقال له الربعى : ويلك يا ابن جنى ! مدبر فى النحو ، ومدبر فى قتل الكلاب ...

قلت : قول الربعى لابن جنى — وهو يداعبه — مدبر فى النحو — طرفة الطرف ، وياليت أنه قال مدبر فى التصريف حتى يجىء كلامه أعجوبة ...

فى يتيمة الدهر للثعالبى :

كان (عضد الدولة) على ما مُكن له فى الأرض ، وجُعل إليه من أزمة البسط والقبض ، وخُص به من رفعة الشأن ، وأوتى من سعة السلطان يتفرغ للأدب ، ويتشاغل بالكتب ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، ويقول شعرا كثيرا يخرج منه ما هو من شرط هذا الكتاب من الملح والنكت .

فى نزهة الألباء فى طبقات الأدباء :

يحكى أن أبا على (الفارسى) لما صنف كتاب (الإيضاح) لعضد الدولة وأتاه به ، قال له عضد الدولة : هذا الذى صنفته يصلح للصبيان ، فصنف له (التكملة) بعد ذلك . ولو صدر هذا الكلام من بعض أئمة النحويين لكان كبيرا فكيف من بعض الملوك ؟

فى وفيات الأعيان :

وهو (عضد الدولة) أول من خوطب بالملك فى الإسلام ، وأول من خطب له على المنابر ببغداد بعد الخليفة . وكان فاضلا محبا للفضلاء مشاركا فى عدة فنون .

فى شرح النهج لابن أبى الحديد :

قال بعضهم دخلت على عضد الدولة فوجدت فى وجهه ألف عين ، وألف فم ، وألف أذن ...

فى الإيجاز والإعجاز للثعالبى :

كان عضد الدولة يقول : الدنيا أضيق من أن تسع ملكين .

يقول أبو بكر الخوارزمى فى عضد الدولة :

خَتمت بك العجم الملوك وراجعت
بك تاج ملكهم القديم المبهج

لم يفقدوا بك أردشير وإنما فقدوا نقيصة دينه المستسمج

وفيه يقول المتنبى :

أروض الناس من ترب وخوف وأرض أبى شجاع من أمان
تذم على اللصوص لكل تجر وتضمن للصوارم كل جان
إذا طلبت ودائعهم ثقات دُفعن إلى المحانى والرعان
فباتت فوقهن بلا صحاب تصيح بمن يمر أما ترانى ؟!
رقاه كل أبيض مشرفى لكل أصم صل أفعوان
حمى أطراف فارس شمَّرى يحض على التباقى بالتفانى
فلو طرحت قلوب العشق فيها لما خافت من الحدق الحسان (١)

(١) قلت : هذا البيت ذو معنى عجيب .

دان له شرقها ومغربها ونفسه تستقل دنياها
تجمعت في فؤاده همم ملء فؤاد الزمان إحداها
فان أتى حظها بأزمنة أوسع من ذا الزمان أبداها

في كتاب الفَرْق بين الفِرَق :

... كان أبو شجاع فناخسرو بن بويه قد تأهب لقصد مصر وانتزاعها من أيدى الباطنية (يعنى العبيديين) وكتب على أعلامه السود : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، الطائع لله أمير المؤمنين ، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . فلما أخرج مضاربه للخروج إلى مصر غافصه (فاجأه) الأجل فمضى لسبيله .

في كتاب تجارب الأمم لمسكويه :

وفى سنة ٣٦٩ دبر عضد الدولة أن يقع بينه وبين الطائع لله وصلة بابنته الكبرى ، ففعل ذلك ، وعقد العقد بحضرة الطائع لله وبمشهد من أعيان الدولة والقضاة على صداق مئة ألف دينار ، وبُنى الأمر فيه على أن يرزق ولداً ذكراً منها فيولى العهد ، وتصير الخلافة في بيت بنى بويه ، ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الديلمية ... !!!

قلت : وهذه الخلافة لم يبق لها قبل أن ينوى القوم سلبها إلا الاسم . قال البيرونى فى (الآثار الباقية عن القرون الخالية) : إن الملك قد انتقل في آخر أيام المستكفى من آل العباس إلى آل بويه ، والذى بقى فى أيدى العباسيين إنما هو أمر دينى اعتقادى لا ملك دنياوى كما لرأس الجالوت عند اليهود من أمر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دولة ، فالقائم من ولد العباس الآن إنما هو رئيس الإسلام ...

***

ج ١٢ ص ٩٢ :

تحبب أو تدرع أو تأبى فلا والله لا ازداد حبا
أخذت ببعض حبك كل قلبى فان رمت المزيد فهات قلبا

وجاء في شرح (تأبى) : كانت فى الأصل تقبأ فأصلحناه إلى ما ذكر للمناسبة والألف للاطلاق .

قلت : قال ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) :

أخبرنى بعض الأفاضل بمدينة إربل فى سنة (٦٢٥) قال : كنت ببغداد فى سنة (٦٢٠) بالمدرسة النظامية فقعدت يوما على بابها إلى جانب أبى الدر (ياقوت بن عبد الله الرومى الملقب مهذب الدين) ونحن نتذاكر الأدب إذ جاء شيخ ضعيف القوى والحال يتوكأ على عصا فجلس قريبا منا ، فقال لى أبو الدر : أتعرف هذا ؟ فقلت : لا ، فقال : هذا مملوك حيص بيص الذى يقول فيه :

تشربش أو تقمص أو تقبَّا فلن تزداد عندى قط حبا[1]
تملك بعض حبك كل قلبى فإن ترد الزيادة هات قلبا[2]

فجعلت أنظر إليه ، وأفكر فيما كان عليه ، وما آل حاله إليه .

قلت : (تشربش) لبس ثوبا ذا شرابيش . فى التاج : الشربش كجعفر : هدب الثوب جمعه شرابيش .

فى (المعرب) للجواليقى : القباء قال بعضهم هو فارسى معرب ، وقيل : هو عربى ، واشتقاقه من القبو وهو الجمع والضم . وفى التاج : قال القاضى المعافى : هو (القباء) من ملابس الأعاجم فى الأغلب ، ومن قال إنه عربى فاما لما فيه من الاجتماع ، وإما لجمعه وضمه إياه عند لبسه ج أقبية ، وقبّى الثوب : جعل منه قباء وتقبّاه لبسه .

فى الفائق : كعب رحمه الله تعالى : أول من لبس القباء سليمان ابن داود (عليهما السلام) فكان إذا أدخل رأسه الثياب كنصت الشياطين أى حركت أنوفها استهزاء به ، يقال : كنص فلان فى وجه صاحبه .

---

(١) (قط) ذكرناها من قبل ، وقد يكون أصل (تحبب أو تدرع) تجلبب أوتدرع أو تدرع أى البس جلباباً أو مدرعة .

(٢) (هات قلباً) لم يربط الجزاء بالفاء ، يقول القسطلانى فى شرح البخارى : حذف الفاء من الجزاء سائغ شائع ، ومن خص هذا الحذف بضرورة الشعر فقد حاد عن التحقيق ، وضيق حيث لا تضييق .

الفكرة العربية

وحاجتها لمذهب سياسى فلسفى

تعليق على مقال

للأستاذ أحمد رمزى

أثار مقال الأستاذ عبد المنعم خلاف بعدد (الرسالة) الماضى حول الجامعة العربية وضرورة قيام فلسفة خاصة بها الكثير من الشجون، وأحيا لى ذكرى فترات من الماضى القريب، فرجعت إلى صفحات مطوية من مذكرات يومية وتقارير سياسية، لألمس مرة أخرى المصاعب والمشاكل التى وقفت فى طريق الفكرة العربية بمصر، وما لقيه أنصارها من عنتٍ ومصادمة، وما واجه كل مؤمن بها مجاهد لأجلها من صدٍّ عنها وتحويل عن طريقها السوى.

ونعيد النظر اليوم إلى ما وصلت إليه وما حققت من أهداف، فنفرح مع الفرحين ونهلل، وتمتلئ نفوسنا إيماناً من جديد وثقة وأملا فى المستقبل، ونحمد المولى جل وعلا أن ظهرت جامعة الأمم العربية كعامل مستقل من العوامل التى سيحسب لها فى شؤون العالم وأموره حساب، وذلك ما أشرنا له ونادينا به وتحملنا الكثير من الأذى فى سبيل الوصول إليه.

وكلما رجعت بالبصر إلى الوراء، وقست المراحل التى قطعت، والعقبات التى أزيلت، مع قصر الوقت وضعف الجهود، ازددت يقيناً على يقين بأن نجاح الفكرة العربية بمصر ونضوجها وإيمان الناس بها: هى نفحة من نفحات الله، وإن هذه الحركة المباركة ليست من عمل الإنسان، بل يد الله فوق الجميع، هى التى هيأت لها الأسباب وجمعت لها القلوب، ودفعت بالفكرة دفعاً إلى الأمام فآمن بها جماعات من الناس، واقتنعوا بها أفواجاً، بعد أن كان اللائذون بها يعدّون على الأصابع.

وكان من دلائل الساعة وإرادة الله أنه ما ارتفع صوت ضدها إلا وانضم فى النهاية إليها، وما جُرِّد قلم لمحاربتها والحط من قيمها ومبادئها إلا وانطوى تحت لوائها، وأصبح بوقاً من أبواقها، وسيفاً من سيوفها.

فلا فضل لأحد على العروبة بمصر، وإنما هى إرادة الله، ولا راد لحكمه، سبحانه إذا أراد شيئاً هيأ له الأسباب. هذا هو إيمانى، وتلك هى عقيدتى.

ومن الناس من يقول: إن الدفعة المصرية نحو العروبة مفتعلة وغير دائمة ولا جذور لها. ودليلهم على ذلك أنهم يردون أصولها إلى بعض عوامل السياسة الداخلية، فهى فى نظرهم تسابق بين فريقين لنيل الحظوة واقتناص الظفر واحتكار الجهاد، وهناك آخرون ممن لا يؤمن بها قطعاً ويرى فيها شراً مستطيراً، فهو ينفر منها على أنها ليست من صنع العرب، وإنما هى من عمل الإنجليز تحمل طابع إيدن وختم وزارة الخارجية البريطانية، ولا سبيل لإقناع الطرفين، وإنك لن تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء.

كل هذا لا يعنينا بقدر حماس الجماهير للفكرة وتشبثهم بها، وبقاء هذا الحماس حياً ملموساً واضحاً لا يعتريه هبوط أو فتور، وإنا لنأخذ على الجماهير أنها سريعة الحماس لأخذ الفكرة والتمسك حيناً من الدهر بها، ولكنها سريعة التسليم بخطأ هذه الفكرة إذا تأخرت عن تحقيق الأهداف العاجلة، وأن آفة الجماهير هو سرعة الانتقال من الغضب إلى الرضا، ومن الحماس إلى الفتور، ثم من الفتور إلى النسيان، فما الذى أعددناه لكل ذلك؟

الجواب على ذلك أننا لم نعمل شيئاً، إذ لا تزال الفكرة العربية فى حاجة إلى حشد جميع القوى العليا فى العقل والروح، لتكون عنصراً ثابتاً من عناصر الشخصية المصرية المنبثقة من روح الشعب وإيمانه وتاريخه.

ولقد أحسن الأستاذ عبد المنعم خلاف صنعاً حين أثار موضوع فلسفة العروبة لما قال: «إن السياسة ليست دائماً ذات إيمان»! إنى أسلم بأن دعوته جاءت فى وقتها، فله عظيم الشكر والأجر على إثارتها، وأدعو الله أن يوفق العاملين لتلبية هذه الدعوة، وأن تلقى دعوة العروبة من ناحية رجال الفكر ما تستحق من عناية، حتى تخرج لنا فلسفتها الحية التى سوف تملك النفوس والعقول معاً. وأعتقد أنه يسر إن وجد من يشاركه إحساسه، ومن يشعر

بشعوره ، فقد ورد شيء من ذلك في تقرير بعثتُ به إلى الحكومة المصرية قلت فيه : « إن مبادىء الحركة العربية ودوافعها لم تتبلور بعد التبلور الكافي في شكل مذهب سياسي وفلسفي ، كما أن نشاطها وأهدافها واتجاهاتها لم تأخذ بعد القالب الذي يجعل منها عاملاً قائماً بذاته فيحسب له حساب في الشئون الدولية مستقلاً عن العوامل الأخرى . ولكن القضية العربية عامة — برغم هذا — قد أصبحت حقيقة تاريخية لها وزنها وأهميتها بدليل تقدم الدول المحاربة وغير المحاربة لخطب ود العرب واستمالتهم والمناداة بصداقتهم ، فليس من مصلحة مصر تجاهل هذه القضية والإعراض عنها أو الوقوف إزاءها موقفاً محايداً ، خصوصاً وأن وراء مصر ثلاثة عشر قرناً من التاريخ العربي لها في حقباته وأدواره المختلفة مواقف تاريخية خالدة .

***

كان ذلك في ١٢ مارس سنة ١٩٤١ ، حينما أتاحت لي الظروف المساهمة بقسط ضئيل في خدمة قضية العرب ، وقد مرت الأيام سراعاً ، وحققت الفكرة بعض أهدافها السياسية وأخذت طابع العامل المستقل عن العوامل الأخرى في شئون العالم ، ولكن لم تتحقق الناحية الأولى ، وهي ظهور الفكرة كمذهب سياسي فلسفي .

فهل نؤمل أن تتبنى مصر هذه الفكرة وتخرجها كما تبنت الناحية السياسية ؟

إن أشد الناس تفاؤلاً لم يكن يؤمّل نجاح الفكرة العربية هذا النجاح الشاهد اليوم ، خصوصاً في مصر دون سائر البلاد العربية ، حيث استمرت عوامل الهدم والتفرقة تعمل بنشاط وحماس ضد كل ما هو عربي لسنوات عديدة بغير أن تلقى أي مقاومة ، حتى همدت الروح المصرية العربية المستمدة من عناصر الفتح وجهاد القرون الماضية . ولما كانت سنوات الحرب العالمية الثانية بمثابة فترة لا تقل في أهميتها عن نصف قرن من الزمن ، جاء تطور الأهداف السياسية وتقارب الشعوب العربية سريعاً جارفاً للدرجة لم تتمكن العقول من استيعاب وتقدير ما مر حولها من الأحداث والتغييرات المفاجئة .

ولذلك لا تستغرب أن تجد الكثير من شباب مصر يتساءلون: ما هي العروبة ؟ وما هي أهدافها ؟ كيف تكون عربياً ومصرياً في نفس الوقت ؟ !

وهي أسئلة ليس من السهل الإجابة عليها ، ويصعب إقناع ذويها بالقيم العربية إذا لم تكن أفهامهم وعقولهم وآذانهم مستعدة لقبولها ، خصوصاً إذا كان بعضهم يجهل التاريخ العربي جهلاً تاماً ولا تستهويه حلقات التاريخ المصري في العهود العربية ، أو يكون قد تلقى دروس الماضي على طريقة تجعله يأنف منها كلما اتصلت بالعرب وفتوحاتهم ومدنيتهم وثقافتهم وأثرهم في قيادة العالم وشعوبه ، فهو مضطر : إما أن يجدّد معلوماته ، وإما أن يترك الفكرة لغير سبب بيديه !

ونجد أن الجامعة العربية ، وقد اختارت القاهرة مركزاً لها ، من أول واجباتها أن تحضّر الرأي العام المصري لذلك ، وأن تجعل لهذا النشاط قسماً خاصاً به ، ولن تهتم بالناحية الفكرية التي تحدثنا عنها لتبني بناء ثابت الأركان .

وسوف تسمع أن فريقاً من الناس يستكثر ما تصرفه مصر على الجامعة ، أو على بعثاتنا الثقافية في البلاد الشقيقة ، وأن فريقاً لا يفهم معنى لحفلات التعارف والتفاهم بين العرب ، وذلك كله نتيجة لسياسة التفكك التي فُرضت على المصريين ، والتي عملت على قطع الصلات بين حاضرهم وماضيهم ، وحصرت آمالهم في دائرة ضيقة ، مما يجعل العناصر الإنشائية في البلاد محتاجة إلى بذل مجهود طويل لإزالة آثارها .

ونحن نؤمن بأن عناصر العروبة الكامنة في الشعب المصري لن تفنى بعد اليوم ، بل ستخرج وهي أكثر مضاء وقوة وعزيمة ، وستحطم هذا الغشاء الصناعي الواهي الذي أحاطتها به سنوات الجمود وسياستها الغاشمة التي أفهمته أنه أمضى آلاف السنين يرزح تحت أغلال العبودية ، حتى لا يتعرف على صفحات المجد التي كتبتها العروبة في بلاده ، ولكي يعمى عن شخصيته ومجد الآباء والأجداد .

***

لقد أوحى إلينا مقال الأستاذ عبد المنعم خلاف بهذه الكلمة العابرة عن هذه الحركة التاريخية ، ونحن إذ نختتمها نؤمل أن يوالي هو وغيره من كتاب العرب في مصر وبقية البلدان العربية

من ذكريات بغـــداد

للأستاذ على الطنطاوى

ما الذى هاج فى نفسى هذه العشية ذكر بغداد ، ونشر أمام عينىّ ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها ؟ ما الذى رجعنى إلى تلك الليالى حتى كأنى — لفرط ما تشوقت إليها ، وأوغلت فى ادّكارها — أعيش فيها ؟ أى سحر فيك يا بغداد جذب قلبى إليك ، فلم أنسَك إذ أنا فى بلدى الحبيب ، ولم أزل أحنّ إليك وأشتاقك ؟

بغداد ... يا بغداد ، عليك منى سلام الود والحب والوفاء ، على المعظّم على الصُّلَيخ على الكرّادة على الكرخ سلام الفؤاد المشوق الولهان ، على ليالينا « بين الرصافة والجسر » . ما كان أحلى تلك الليالى ! لقد كنت أشكو فيها ألم الغربة وأحن إلى الوطن ، فصرت فى وطنى أحن إلى تلك الغربة ولياليها ، وما ظلمنى موطنى وما أنكرنى ، وما كنت لأذمّه صادقاً فكيف أذمه بما ليس فيه ، ولكنما هى الدّعة ، مللتها واجتويتها : إنى أشكو ألم الراحة ، فأعطونى به راحة الألم ، ذلك الألم العبقرى الذى يفتح القلوب بآيات الشعر ، فانى منذ فقدته لم أعد أحسّ بأننى ذو قلب !

على الرستمية ... ألا تزال الرستمية جنة من جنان الأرض ، حافلة بالعاشقين وبالحور العين ، أم طاف بها طائف من هذه الحرب فجفت خمائلها وهجرها قاصدوها ؟ على الصالحية ... بروحى صالحية دمشق وصالحية بغداد . على (قهوة المطار) ، على ظبائها على جآذرها ألف سلام .

على الجسر ... ياجسر بغداد ، كم جمعت وفرقت ، ماذا رأيت وسمعت ، كم وصلت بين قلوب وقطعت ، أنت الصلة بين ماض لنا كان أعز من النجم وأسمى ، وآت لنا سيكون أسمى من النجم وأعز . ياجسر بغداد ، يا مربع الحب والأدب والمجد ، يا من كنت سرة الأرض ، وكنت لىَ مسرّة القلب ، عليك منى ألف سلام .

يا ربوعاً تركت فيها قطعاً من حياتى ، وخلفت فيها بقايا من فؤادى ، ماذا صنعت بفؤادى وحياتى يا ربوع ؟ !

* * *

ويادارنا فى (الأعظمية) من حلّ فيكِ بعدنا يا دار ؟ وهل صوّح لبُعدنا زهرك أم ضحكت من بعدنا الأزهار ؟ وهل حفظت آثارنا أم لقد طمست من بعدنا الآثار ؟ لقد كنت أنت مستقرّى ومثواى ، وكان إليك مفرّى من دنياى ؛ وكنت شاهدة أفراحى كلها وأتراحى ، وكنت مستودع أسرارى وأخبارى ، كتمتها عن الناس إلا عنك ، فهل كتمتِ سرّى هذه الجدران ؟ هل سترت ما رأت من نقائصى التى أخفيتها عن الأصدقاء والإخوان ؟

ما هذه الدنيا يا ناس ؟ هذه الدار التى كنت أفرّ إليها من رحب الحياة ، وزحمة المجتمع ، فأغلق بابها علىّ ، وأخلو فيها إلى نفسى ، فأحسّ أنها جزء منى ، وأنها لى وحدى ، صارت غريبة عنى ، تنكرنى وتجهلنى كأنى لست منها وليست منى وصارت لغيرى ، فإذا ما جئت أطرق بابها ، رددت عنها ، أو قبلت فيها ضيفاً غريباً لا أرى إلا ما يراه الضيف ، ولا ألبث إلا ما يلبث ... لا يا سكانها ؛ ما أنا بالضيف الغريب ، إنها كانت دارى ، إن لى فيها حقاً ، لى فيها ذكريات ؛ فيها من حياتى ، من أنفاسى ، من روحى !

* * *

أبحاثهم ، ذلك لأن أسس الفكرة العربية وفلسفتها ستأخذ مجهود عدد كبير من المفكرين والباحثين ، ولكن أثرها سيكون عميقاً فى مصر ، إذ ستعيد حتما للشعب المصرى إرادته وشخصيته وتلقنه تاريخه الحى . وسنرى كيف أن الكثير من مشاكلنا الخلقية والقومية والتى تبدو لنا مستعصية الحل ، سيسهل علينا مواجهتها على ضوء الأسس الاجتماعية التى تخاطب الوجدان والفكر ، وتحرّك القلوب والمشاعر .

إن الفلسفة التى تنير طريق الفرد منا إلى غايته ، وتجعل إيماننا بالفكرة العربية وحركتها السياسية وأهدافها إيماناً بصيراً مستنيراً ستقود الشعوب العربية من الظلمات إلى النور ، ومن الجمود إلى الحركة ، ومن الاستكانة إلى الرفعة ، وتعلم الفرد والجماعات معنى الآية الكريمة : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » . ولمثل هذا فليعمل العاملون !

أحمد رمزى

القنصل العام السابق بسوريا ولبنان

ودار العلوم ؟ خبروني سألتكم بحق الاخاء عن ظلال أيامي فيها . سقى الله ظلالها صَوْب القلوب ! خبروني، ألارجل كريم، يحسن إلى هذا البعيد النائى ، فيمر بالدار عند مسجد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، فيصعد إلى الغرفة التي تطلّ من هنا على صحن المسجد المنوّر المبارك ، ومن هناك على صحن المدرسة الزهر المشرق ، فيحيي عني هذه الغرفة ، فإني سكنتها عاماً ، كان لي عام دنيا ودين ، وفيها جددت طباعي وأفكاري و كونت نفسي .

ثم ليجل عني في هذه المدرسة في حدائقها ، في صحونها ، في ممراتها ودهاليزها ، ثم ليصعد سطوحها الواسعة التي تمتد حتى تتصل بقبة المسجد ، وتشرف على تلك الحديقة العتيقة ، وتلك المقبرة المهجورة ، وعلى طريق الكاظمية ، فإن لي على هذا السطح ذكريات ... وإنني إن أنس لا أنس يوم العيد ، وقد خلت المدرسة من ساكنيها ، فلم يبق فيها غيري ، فأوغلت في هذه السطوح ، وصعدت حتى انتهيت إلى أصل القبة ، ونظرت فإذا أنا على بحر من النخيل ، تهتز قممه من تحتي كأنها الأمواج في اللجة الساكنة ، وتظهر في فُرَج النخيل طرق الفلاحين ، وقد خرجوا مع أطفالهم وأولادهم بثياب لها مثل لون الزهر ، ثم تختفي خلال الأشجار ، كشاعر سادر أو محب متغزل ، ذهب يناجي ذكريات الوصال ، ودجلة عند منعطف الصليخ تلوح بعظمتها وجلالها ، كأنها سماء من نور ركبت في الأرض ؛ وبغداد ، بلد الأساطير والأحلام ؛ يبدو طيفها على حاشية الأفق البعيد بقبابها ومآذنها ، كأنه (هو أيضاً) أسطورة ساحرة ، يقصها الأفق المشرق على الدنيا ، وإلى اليمين قباب الذهب من الكاظمية ، والقبة الخضراء التي ثوى تحتها رمس مُلك شابّ ، وشباب مليك ، حين ثوى غازي بن فيصل بن الحسين بن عليّ !

لقد لبثت مكاني حتى شملت الظلمة الكون ، وضوأت المصابيح في شبابيك المنازل فنظرت ... إليها ، أنا الغريب المنفرد ، الذي يمضي عيده وحيداً على سطح المسجد ، لا رفيق له إلا ذكريات سعادة ولت تؤلمه وتحزّ في قلبه ذكراها ، وحبّ مات وليداً ، وفكرت في أمري لو اصابني مرض فلبثت هنا شهراً ، فمن ذا يصل إلي ؟ من يسأل عني ؟ وأي فؤاد يخفق من أجلي بعد أن سكت ذلك الفؤاد الذي كان خفاقاً بحبي ، فؤاد أمي ، إلى الأبد ؟

فنظرت إليها فغبطت أهلها إذ يغلقون أبوابهم على الشمل الجميع ، والأهل الحضور ، والأنس والسعادة .

ونزلت في طرق الحديقة العتيقة ، وإذا أنا أتعثر بحجر . فنظرت إليه على شعاع ينحدر إليه من مصباح الشارع ، فإذا هو قبر متخلف من المقبرة التي كانت هناك في غابر الأزمان ، فامتلأت نفسي بصورة الموت ، ولم أعد ألمس في هذه الغصون المخضرة إلا الربيع الماضي الذي مات ، ولا أرى من الناس إلا قلوباً ميتة دفنت في صدور أصحابها ؛ ولا أجد تراب الأرض إلا ناساً كانوا مثلنا وماتوا ... فأكلت هذه الأشجار أجسامهم ، وشربت دماءهم ، فمنه كان زهرها الذي نشم عطره ، وغصنها الذي نأكل ثمره ... ولم أر الدنيا إلا موتاً في موت .

وأممت غرفتي وأنا غارق في بحر من الأفكار السود ، فسمعت العِشاء يرنّ في صفاء الليل قوياً عذباً يومض ضياؤه في طيات الظلام ، إذ يحمل اسم الله منيراً مشرقاً ، فقمت إلى الصلاة ، فلما قضيت وخرج الناس ، رأيت المؤذن ينادي على عادته بذلك الصوت الممدود : الفاتحة ! ثم يغلق المسجد وينصرف ، وأبقى وحدي ، ليس في المسجد ولا في المدرسة غيري ، وبينهما باب من داخل ، فأعود إلى غرفتي ...

وما كاد يكتهل الليل ، حتى سمعت الصوت في المسجد كرة أخرى ، ولكنه خرج هذه المرة ضعيفاً وانياً ، في نغم حزين ، من لحن الصبا ، فنظرت من شباكي ، فإذا في أرض المسجد الذي اشتمل عليه الظلام ثلاثة مصابيح بترولية خافتة النور ، تكشف عن نفر من الناس ، لا يبدو منهم إلا أرجلهم وظلال لهم ممتدة فكأنهم الجنّ ، أو كأنه فلم مخيف من أفلام ألف ليلة ... ثم سمعت تكبيرات الجنازة ، فنزلت فرأيتهم يصلون على ميت في نعش .

فسألت : من هذا ؟ قالوا : مؤذن المسجد !

فانصرفت لأدوّن في دفتري ماعرض لي ذلك اليوم من صور وخواطر ، ثم أضمت الدفتر ونسيت الخواطر والصور ... وأن في الدنيا موتاً ...

كذلك أمضيت يوم العيد في دار العلوم ، وإني على هذا أشتاقها وأشتهي أن ترجع لي أيامي التي مرت فيها . فيارحمة الله على أيامي في دار العلوم وعلى من بقي من أهلها السلام !

وإن أنس لا أنس (ليلة البلاط) ، ياليت ليلة البلاط تعود !

لقد رجعت أنا وأنور العشية من الأعظمية إلى بغداد ، فتركنا السيارات وجفونا الطريق الأعظم ، وسلكنا محجّة على سِيف دجلة فسرنا فيها ، وكانت تنكشف لنا تارة فنسلكها ، وتضل (طريقها ...) تارات ، فتتيه بين النخيل ، وكان النهر أبداً عن أيماننا ، يبدو حيناً بصفحته البيضاء المشرقة التى تشبه وعد الوصال ، يشرق للمحبّ فى ليل الهجران ، والأمل البسام يلوح لليائس فى غمرة القنوط ، ثم يحجبه عنا النخيل ويستره الظلام ، كما يخلف المحبوب بدلاله الوعد ، وتمحو الحياة بواقعها الأحلام ، وتطمس صور الأمانى . وكان أنور يحدثنى حديث ماضيه فيثير فى نفسى عالماً من الذكر الألمية ، كلما نزلت به فى أعماق قلبى ، ودفنته فى هوة النسيان ، وحسبته مات . انبعث فجاة ، كأنما ولد الساعة ، عالم فيه صور أبى وأمى وآمالى وحبى ، واستغرقنا فى خواطرنا ، وغبنا عن حاضرنا ، فما نبهنا إلا جندى بحربته المسددة إلى بطوننا وبندقيته الموجهة إلينا ، وصاح بنا : أن ارفعا أيديكما ؛ ففعلنا .

قال : ما أدخلكما حمى (بلاط الملك) ، وفيم أنذركما فلا تقفان ؟ لقد هممت أن أرميكما بالنار ! وكانت تلك هى الأوامر ، مابعد الانذار إلا النار ، فقلنا : نحن أديبان ، أرأيت أديباً نفع معه إنذار ، أو أفاد معه تخويف ، ثم إننا برمنا بالحياة ، لا نرى فيها إلا ماضياً لاسبيل إلى إرجاعه ، وأملا لا وصول إليه ، ولو أنت رميتنا لمننت علينا بميتة سهلة ، نرجو من بعدها ثواب الشهداء ، وإن الموت يا عسكرى درجات ، وألوان بعضها أطيب من بعض ، ومانظنك سمعت بدعاء الأعرابى الذى سأل الله ميتة كميتة أبى خارجة ، لأن هذه الجفوة منك دلتنا على أنك لا تقرأ كتب الأدب . أفتحب أن تعرف كيف مات أبو خارجة حتى صار موته أمنيّة ؟

أكل حنيذاً ، وشرب نبيذاً ، ونام فى الشمس ، فمات شبعان دفآن ريّان !

قال الجندى ، ولم يفهم منا شيئاً :

— يشنو إنتو يابه ؟

قلنا : نحن معلمون !

فضحك وأرخى سنان بندقيته ، وقال : معلمون صحيح ، أما غير مخبّلين ، (وغير هنا للتأكيد ومخبلين ، أى مجانين) ! وتركنا نمضى لأن المجنون لا يسأل ...

تلك هى ليلة البلاط ، وإنى لا أذكرها إلا أسفت على هذه الميتة الحلوة التى فاتتنى ، وخشيت ألا أتمكن من مثلها ، وأظن أنور آسفاً مثلى ، إلا إذا استطاب حياته بعد الزواج وتعليم البنات الأدب ... أما حياتى أنا فليس فيها لذة تستطاب ، وليس فيها ألم يستكره . أعنى أننى لست إنسانا يحيا ولكن (شيئاً) يعيش !

* * *

مالى كلّ هذه الليلة ذهنى ، ولم يسعفنى شيطانى ؟ مالى أكتب عن بغداد ، فلا أذكر من أيامها إلا هذا الحديث التافه ، وأيام بغداد ، مواسم للمجد وأعياد ، ولياليها فرحة الفؤاد ، وأسرّة للحب ومهاد ، وماضيها مآثر ومفاخر وأمجاد ؟

مالى لا أتحدث عن دجلة ، ويطول شوقى إليها ، وإلى زوارق المحبين وهى تمضى فيها حالمة سكرى ، والأغانى تتراقص على أمواجها ضاحكة مرحى ، والسمك المسقوف . خبرونى ، ألا تزال مرفوعة سقوفه . مشتعلة ناره ، أم هوت من هول الحرب الدعائم وانطفأت النار ؟

مالى لا أناجى إخوانى وتلاميذى الذين عشت دهراً من عمرى بهم ولهم ، وأسألهم أيذكرون هذا المعلم ... أم قد مرّ فى حياتهم مرور شخص (السينما) ثم تنقضى الرواية ، ويسدل الستار ، فكأنما لا شخص مرّ بهم ، ولا (فِلم) عرض عليهم ؟

أما أنا فاشهدوا يا تلاميذى ويا إخوانى أنى ما نسيتكم . أأنسى نجدة وعلياً ونزارَ بن البطل الشهيد ، إلا إذا نسى الأب أولاده ؟ أأنسى الأخ الأكبر (بهجة) العراق ، وقد طالما قبست الجزْل من فضله ، ورأيت الفذّ من نبله ؟ ما نسيت ، ولئن كبا بى القلم الليلة ، فسأعود إلى الحديث عن بغداد ، وما كل مرة يكبو الجواد .

وعلى إخوانى وتلاميذى وبغداد وأهلها سلام الله ورحمته وبركاته .

علي الطنطاوى

المدرس (سابقاً) فى ثانويات بغداد والبصرة وكركوك

بمناسبة عيد الجهاد الوطني :

مراكش حية ... !

للأستاذ عبد الكريم غلاب

في يوم ١١ يناير احتفلت مراكش بعيد جهادها الوطني ، وهو يوم يقف فيه المراكشيون خاشعين أمام قبور شهدائهم الذين صرعتهم بنادق السينيغاليين ومدافع الفرنسيين . يقفون خاشعين ليتذكروا تلك الأيام السود التي حوصر فيها المراكشيون من كل صوب ، وسلط عليهم جحيم المادة ، فلم يفقدهم صوابهم ، ولم يثنهم عن عزمهم في استرجاع استقلالهم من الذين استلبوه منهم بالقوة ، فعبثوا به واستهانوا بقدسيته . ففي مثل هذا اليوم من سنة ١٩٤٤ أعلنت الأمة المراكشية مطالبتها باستقلالها ، وقدمت لذلك مذكرة طالبت فيها بإلغاء الحماية الفرنسية على مراكش ، وبإفساح المجال أمام الشعب ليسلك سبيله في الحياة الديمقراطية الحرة ، وليتمكن من الانضمام إلى إخوانه العرب في الشرق .

ولقد كان لتقديم هـذه المذكرة إلى جلالة ملك مراكش والحكومة الفرنسية وسلطات الحلفاء ، ولما صاحبه من مظاهر العزم — التي بدت من الشعب — على تحقيق هذه المطالب ؛ كان لكل ذلك أثره العميق في الدوائر الفرنسية ، فقررت أن تقمع هذه الحركة بكل مابقي لها من قوة ، وبكل ما يملك أبناؤها من عزيمة صارمة في الدفاع عما يسمونه امبراطوريتهم . وتقابلت القوة مع الإيمان الأعزل ، وكان من ذلك تلك المأساة المروعة التي يندى لها الضمير الإنساني الحي ، والتي برع الفرنسيون في تمثيلها مع العرب سواء في الشرق أو الغرب .

ولكن المراكشيين لم ترعهم هذه المأساة ، فقد ألفوا ذلك منذ وطئت أقدام الفرنسيين أرضهم المقدسة في سنة ١٩١٢ . فالمأساة الأخيرة ليست إلا فصلا من رواية الجهاد الوطني المراكشي الذي ابتدأ منذ ثلث قرن ، والذي سينتهي لا محالة بفوز المراكشيين ، لأنهم أصحاب حق ، ولأنهم أهل لأن ينالوا هذا الحق . لقد دافع المراكشيون عن بلادهم يوم فرضت عليهم معاهدة الحماية ، وواصلوا جهادهم في الجبال والغابات الجنوبية ، ثم قام الأمير عبد الكريم الريفي يسترد أرض أجداده من الأسبانيين والفرنسيين ، وما كاد يضع سلاحه حتى قام الجهاد السلمي ممثلا في الأحزاب والهيئات الوطنية التي انتهى بها المطاف — رغم ما أصيبت به من نكبات — إلى أن تعلن مطالبة الأمة المراكشية باستقلالها في ١١ يناير من سنة ١٩٤٤

هذا هو جهاد مراكش الذي يعد صراعاً بين الموت والحياة ، وهو إن دلنا على شيء ، فإنما يدلنا على أن هذه الأمة الكريمة لن تموت ، لأن عناصر الحياة كلها تتدفق في دمها ، وهي كفيلة بأن تحفظ هذه الأمة من الانهيار .

وأول عنصر من عناصر الحيـاة في مراكش هو تاريخها الطويل في الاستقلال والحرية ، وقد تسلسلت حلقات هذا التاريخ منذ عرفت الحياة على الأرض المراكشية ، فلم يحكم مراكش غير أبنائها الذين دافعوا عن أرضهم طوال عصور التاريخ إلى أن تآمرت عليهم الدول الأوربية في أوائل القرن العشرين ، وكان نتيجة لذلك الاتفاق الإنجليزي المصري سنة ١٩٠٤ الذي بمقتضاه أطلقت انجلترا يد فرنسا في مراكش ، كما أطلقت فرنسا يد انجلترا في مصر . وقد أتاحت هذه المؤامرة الفرنسية الإنجليزية لفرنسا أن تفرض حمايتها بالقوة على مراكش ، فخرت هذه الأمة صريعة أمام قوة الفرنسيين وغدرهم وخيانتهم . وبذلك وضع حد لتاريخ الاستقلال في مراكش .

والعنصر الثاني من عناصر الحيوية المراكشية هو العنصر الخلقي ، فقد ورث هذا الشعب عن أجداده البربر والعرب الأنفة والكبرياء ، والدفاع عن النفس والصبر والتضحية والاستهانة بالحياة في سبيل كرامته ؛ وتلك صفات — ولا شك — تجعل هذا الشعب من أكثر الشعوب استعداداً للدفاع عن أرضه ونفسه ، بل تجعله من أكثر الشعوب شعوراً بالكرامة وتمسكا بالاستقلال . وقد أدرك هذا أولئك الذين وضعوا أسس الحماية الفرنسية — وفي مقدمتهم المرشال ليوطي — فحذروا فرنسا من الاستهانة بهذا العنصر الحيوي في مراكش .

والعنصر الثالث هو الدين ، فالمراكشيون من أشد الأمم تمسكا بالدين الإسلامي ، وهم يدركون إلى حد كبير معنى التدخل

الأجنبي فى الشؤون المراكشية ، ويفسره ابن الشعب فى مراكش بأنه تدخل ينافى عقيدته ودينه ، وهو من أجل ذلك يعمل على أن يكون صحيح الإيمان سليم العقيدة . وذلك ولا شك عنصر من عناصر الحيوية فى مراكش .

وعنصر آخر لا يقل عن العناصر السابقة قيمة ، وهو عنصر اللغة . فمراكش تستعمل لغة واحدة هى العربية ، وهى بذلك تتصل بماضيها العتيد ، فتستمد منه الوحى والإيمان وتتصل ببقية الشعوب العربية فى الشرق التى تكافح وتجاهد فى سبيل استكمال استقلالها ، وذلك من شأنه أن يجعل شعور هذه الأمم كلها واحداً نحو قضاياها الاستقلالية ، ويجعلها تسلك سبيلا واحداً نحو الهدف الأسمى . ولعل تاريخ الحركات الاستقلالية فى البلاد العربية كلها يدلنا على قيمة هذا العنصر ومظهره . فاللغة العربية — إذن — هى السبيل الوحيد لاتصال مراكش بالشعوب العربية فى الشرق اتصالا روحياً ومادياً .

ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن من أكثر الأشياء حيوية فى الشعب المراكشى هو العرش . فالعرش العلوى فى مراكش عتيد فى التاريخ ، لأنه ناهز ثلاثة قرون كاملة . ومن أجل ذلك اتصل العرش بالشعب والشعب بالعرش ، وأصبحا يعملان معاً لخير البلاد المراكشية ومصلحتها . وهكذا نجد الشعب يتعلق بملكه المحبوب وخاصة فى أوقات الفزع ، فينجده جلالة الملك ويرفع عنه عدوان المعتدين

تلك هى عناصر الحياة فى مراكش ، وتلك هى الدعامات الأساسية التى تعتمد عليها فى دفاعها عن استقلالها ، وقد عرف الفرنسيون خطر هذه العناصر ، فأرادوا هدمها حتى يتمكنوا من إدخال هذا الشعب تحت امبراطوريتهم . وعرف المراكشيون بدورهم نية الفرنسيين فقاوموها بكل ما يملكون من قوة . وذلك هو جوهر الصراع بين المراكشيين والفرنسيين منذ سنة ١٩١٢ . أراد الفرنسيون أن يفصلوا مراكش عن تاريخها ويهدموا خلقها ، ويحولوا بينها وبين دينها ، ويفرنسوا لغتها ، ويقطعوا ما بينها وبين الشرق العربى من صلة ، ثم أرادوا أن يفصلوا بين الشعب والعرش .

ولكن المراكشيين تشبثوا بتاريخهم وخلقهم ، ثم دافعوا عن دينهم ضد (الظهير البربرى) المشئوم سنة ١٩٣٠ ، وقاوموا برامج التعليم الفرنسية التى طبقت فى مراكش حتى يحتفظوا باللغة العربية كلغة رئيسية فى المدارس المراكشية ، ثم هم يعملون على أن يضموا إلى الجامعة العربية ، حتى يضمنوا بذلك اتصالهم بإخوانهم العرب فى الشرق . أما صلتهم بالعرش وإخلاصهم له ، فلا تزداد إلا توطداً ونمواً .

تلك خلاصة الصراع فى مراكش طيلة ثلث قرن . وقد نجح المراكشيون فى الاحتفاظ بعناصر الحياة فيهم ، وهم إذ يطالبون اليوم باستقلالهم ، فإنما يريدون أن يبنوه على أساس متين من التاريخ واللغة والدين والخلق . وذلك ما يجعلنا نؤمن بأن مراكش ستصل ... وأنها حية تسير — رغم ما ينتابها من نكبات — نحو الحياة الحرة الكريمة .

عبد الكريم غلاب

من محاسن التشريع الاسلامي

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

– ١٢ –

الدعوة إلى الخير

إن من أعظم مزايا الشريعة الإسلامية ، وأبرز محاسنها – إرشادها إلى أعظم وسيلة لإصلاح المجتمع ، وتنقيته من أدران الشر والفساد ، وخير أداة لإصلاح الأفراد والجماعات ، وتحقيق التضافر والتعاون الاجتماعي – تلك هي الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو من فروض الكفاية ، إذا قام به بعض الأمة سقط عن الباقين ، وإذا لم يقم به أحد أثموا جميعاً ووقعوا في حوب كبير ، ولم يكن فرض عين فلم يجب عليهم أجمعين لما ينبيء عنه قوله عز وجل : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، ولأنه من عظائم الأمور وعزائمها التي لا يضطلع بها ولا يتولاها إلا من هو أهل لها – والأهلية تتحقق بشروط : منها العلم بالأحكام ، ومراتب الاحتساب ، وطرق إقامة هذا الواجب ، ومعرفة الأحوال المختلفة وما يناسب كل حالة ، فإن من لا يعلم ذلك قد يأمر بمنكر ، وينهى عن معروف ، ويغلظ في مقام اللين ، ويلين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده الإنكار إلا تمادياً وإصراراً – كما يشترط في الوجوب التمكن من القيام به ، غير أن الأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً – على حسب المأمور به – أما النهي عن المنكر فهو واجب في كل حال لأن جميع ما أنكره الشرع حرام .

وإنما وجب ذلك لأن صلاح الامة في أمر دينها ودنياها ، ونفي الفساد عن الأرض ، وتقليل الشرور والآثام – لا يكون إلا بأداء هذا الواجب ، فإن الظالمين والمفسدين ومرتكبي الآثام إذا تركوا وشأنهم – من غير نكير – استشرى داؤهم وتفاقم شرهم ، وكثر سوادهم ، فتقع الأمة في بلاء عظيم وسوء لا مرد له ، وتبوء بسخط من الله وعذاب ، وذلك هو الخسران المبين .

والأصل في ذلك ما ورد في الكتاب والسنة من تلك النصوص التي جمعت بين القوة والكثرة في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – قال الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – من أعظم الواجبات وأبعدها أثراً في إصلاح المجتمع – مدح الله به المؤمنات كما مدح به المؤمنين ، وجعله من صفات الرجال والنساء معاً ، وقرنه بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وبطاعة الله ورسوله ، فقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله » .

وجعل الله – جلت حكمته – قيام الأمة بهذا الواجب دليلا على تمكن الخير من نفسها ، ورسوخ خلق الإصلاح فيها فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، بل أنبأنا – جل شأنه – أن من أسباب استحقاق بعض الأمم اللعنة أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه : « لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وسئل عليه صلوات الله وسلامه عن خير الناس ، فقال : آمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم للرحم » ، بل روى عنه أنه جعل الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر خليفة الله ورسوله في الأرض ، فقال : من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه » .

وقد ورد في الحديث ما يدل على أن سنة الله في الأمة التي فرطت في هذا الواجب – أن يسومها سوء العذاب ، وألا يتقبل دعاء خيارها إذا سكتوا عن منكراتها ، فقد روى عنه – صلوات الله وسلامه عليه : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم (١) » . وقال علي رضي الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف

(١) روى هذا الحديث بعبارات مختلفة لفظا ، ولكنها متحدة أو متقاربة معنى .

والنهي عن المنكر ، ومن شنئ الفاسقين وغضب الله — غضب الله له[١] » .

ولتقصيرنا فى أداء هذا الواجب — ظهر فينا الفساد الذى جنى على كثير من آدابنا الاجتماعية ، وعاداتنا المرضية ، وأخلاقنا الإسلامية ، فمتى نثوب إلى رشدنا ، وننفذ أحكام شريعتنا ؟ ! ! ومتى ينجم فينا رجال أشداء على الباطل والظلم ليحيوا ما اندثر من السنن القويم ، ويجددوا ما رثّ من حبل الدين المتين ؟!! ، اللهم جدّد عزائمنا ، وابعث فينا مشبوب الهمم لإحياء مجد الإسلام ووصاياه وأحكامه ، وهيئ لنا من أمرنا رشدا[٢]

حسن أحمد الخطيب

(١) تفسير أبى السعود والبيضاوى ، وشنئه : أبغضه .

(٢) جاء فى المقال السابق المنشور بالعدد ٦٠٤ من الرسالة ص٤٧ ، ٤٨ بعض الأخطاء المطبعية نصححها فيما يلى :

(أ) وعند الشافعى أقلها وهو دينار — صوابها : وعند الشافعى أقلها محدود وهو دينار .

(ب) على مخالفيه من الذمة والكتاب — صوابها : على مخالفيه من أهل الذمة والكتاب .

توماس هـــوبز

لالفرد فيبر

للأستاذ عبد الكريم الناصرى

كان توماس هوبز (١٥٨٨ — ١٦٧٩) المولود فى مالمسبرى ، من أعمال ولتشاير ، صديقاً مخلصاً لآل ستيوارت ، وكان ذا حظوة عندهم ، بفضل نفوذ تلميذه اللود كاڤندس .

وقد غاب فيلسوفنا عن وطنه ثلاثة عشر عاما ، فلما عاد إليه انقطع للبحث والتأليف[١] .

غطت شهرة هوبز كمؤلف سياسى وأخلاقى — إلى حدما — على شهرته كأنطلوجى ونفسانى ؛ وبغير الحق ، فانه السابق Forerunner إلى المادية ، والنقد ، والوضعية الحديثة .

(١) جمع مؤلفاته اللاتينية والانجليزية ، ونشرها مولسورث Molesworth فى ١٦ مجلدا — لندن (١٨٣٩ — ١٨٤٥) .

يحد هوبز الفلسفة بأنها الاستدلال على المعلولات من العلل ، وعلى العلل من المعلولات[١] .

والتفلسف هو التفكير الصحيح ؛ ولكن التفكير معناه « أن تركب وتحل التصورات Concepts ، أن تجمع أو تطرح ، أن تحسب وتعد . فالتفكير الصحيح إذن هو تأليف ما يجب أن يؤلف ، وتفريق ما يجب أن يفرق . ويلزم عن هذا أن الفلسفة ليس لها من موضوع سوى الأشياء القابلة للتركيب والتجزئة ، وهى « الأجسام »[٢] . أما الملائكة ، والأشباح والأرواح المحض والله ، فليست بموضوعات للفكر والعلم ، ولا شأن للفلسفة بها ، وإنما هى موضوعات للدين والإيمان ، ومردها إلى اللاهوت . وبحسب انقسام الأجسام إلى أجسام طبيعية وصناعية ، وأجسام أخلاقية وسياسية ، تنقسم الفلسفة إلى : فلسفة طبيعية (المنطق ، والأنطلوجيا ، والرياضيات ، والفيزياء) وفلسفة سياسية (الأخلاق والسياسة) . والفيزياء والفلسفة الأخلاقية كلتاهما علم تجريبى ، موضوعه الأجسام ، وآلته الحس — الحس الظاهر للأول ، والحس الباطن للثانى . وليس وراء علم الملاحظة observation من معرفة حقيقية[٣] .

إن هذه المقدمات تسلم هوبز إلى نظرية فى الإدراك مادية من كل جهة . فالإدراك الباطن ، الذى هو أساس حياتنا الفكرية وشرطها الأول ، ليس إلا شعورنا أو إحساسنا بفعل الدماغ . فأن تفكر think هو أن تحس feel . والمعرفة تتكون من إضافة الأحاسيس . والإحساس ، بعد ، ليس إلا حركة تحصل فى الجسم . ثم إن الذاكرة ، التى تلازم الفكر ، ليست شيئا أكثر من ديمومة الإحساس ؛ فتذكرك الشىء هو إحساسك بما سبق أن أحسست به[٤] . وليس من الممكن أن تعلل الإحساسات ، على طريقة بعض القدماء ، بأنها فيوض صادرة من الأجسام ومشابهة لها . إن أشباح الأجسام هذه ، أو — على حد تعبير المدرسيين — « أنواعها المحسوسة والمعقولة » ، لا تقل

(١) De Corpore, P .2

(٢) Id, P. 6

(٣) De Corpore

(٤) يسمى هوبز الذاكرة بالخيال أو التخيل أيضا (المعرب)

بطلانا عن « الكيفيات المستورة » وأشباهها من فرضيات القرون الوسطى . وإنما الواجب أن نقول : إن الحركة البسيطة التى تثيرها الموضوعات الخارجية فى المادة المحيطة بها تنتقل إلى الدماغ بواسطة الأعصاب .

وهوبز يقرر هنا حقيقة خطيرة ، عرفها من قبل ديمقريطس ، وبروتاغوراس وأرستبس ؛ وهى أن الإدراك الحسى ذاتى بالكلية فإن ما ندركه — كالضوء مثلا — ليس بموضوع خارجى ألبتة ، وإنما هو حركة أو تكيف يحدث فى المادة المخية . وليس أدل على ذلك من أننا نبصر ضوءاً إذا لُطمت العين ، إذ ليس هذا الإحساس إلا نتيجة التهيج الحاصل فى العصب البصرى . وما يصدق على الضوء بوجه عام يصدق على تعيناته المختلفة التى هى الألوان . فالحواس إذن تخدعنا حين تلقى فى روعنا أن الصوت والضوء والألوان تقوم خارج النفس . إن موضوعية الظواهر وهم خادع ، وليست صفات الأشياء غير أعراض لاحقة بكياننا ، وما من شىء موضوعى سوى الحركة التى تثير فينا هذه الأعراض ، وهى حركة الأجسام الخارجية [1] ... إن فيلسوفنا ليستدل كما استدل بعده « بركلى » ؛ بيد أن الأخير يسير بحجته إلى النهاية فإنه بعد أن يبدأ بمقدمات أهل الحس ، ينتهى إلى إنكار وجود الأجسام ، وإلى القول بالمثالية الذاتية . أما هوبز فيقف فى منتصف الطريق ، لأن شيئية reality المادة عنده عقيدة لا تقبل الشك .

أما النفس soul أو الروح spirit فإنه يحدها أحيانا بأنها فعل الدماغ ، وأحيانا بأنها مادة أو جوهر عصبى ؛ ويقول فى ذلك : إنى أقصد بالروح جسما فيزياوياً يلطف عن إدراك الحواس . أما الروح « اللاجسمانية » فحديث خرافة . والتوراة نفسها لاتذكر موجوداً من هذا القبيل . إن الإنسان لايختلف otippcr عن الحيوان إلا بالدرجة ، إذ كلاهما كائن جسمانى . وإذا كان لنا من مزية advantage حقيقية على العجماوات ، فتلك هى النطق . إنا ، كهذه الأحياء الدنيا ، لاخيار لنا فيما نفعل ، وإنما تسيرنا شهوات لا تقاوم ؛ وليس للعقل بغير انفعال ، ولا للمبادىء الأخلاقية بغير جاذب مادى ، أدنى تأثير فى إرادة الإنسان ؛ وإنما هى مدفوعة بالخيال وما يتوقعه ، وبالعواطف والانفعالات : بالحب والبغض والخوف والرجاء .

نعم : « إن الفعل الإرادى هو الذى يصدر عن الإرادة » ؛ ولكن الإرادة نفسها ليست « إرادية » — إنا لا سلطان لنا

---

(١) السطور التالية مترجمة (باختصار) عن الفصل الأول من الباب الأول من كتاب هوبز الموسوم (بالتنين) : —

« كل فكرة من فكرنا فانما هى (تمثل) أو (بدو) لعرض من « أعراض » جسم أو موضوع خارجى فهذا الموضوع يؤثر فى حواسنا ، ومن تنوع تأثيره تنشأ أنواع التمثلات . فالاحساس إذن هو أصل جميع فكرنا وتصوراتنا .

« وعلة الاحساس هى الجسم الخارجى ، أو الموضوع ، الذى يؤثر فى عضو الحس ، إما بلا واسطة ، كالحال فى الذوق واللمس ، وإما بواسطة ، كالحال فى البصر والسمع والشم ؛ ثم إن هذا التأثير ، أو الضغط ، ينتقل بواسطة الأعصاب والأوتار والأغشية إلى الدماغ والقلب ، ويحدث فيهما مقاومة ، أوضغطاً مضاداً ، أو مجهودا ؛ وبما أن هذا المجهود موجه « نحو الخارج » . فإنه يبدو كأنه مادة قائمة فى الخارج وهذا « البداء » ، أو « التوهم » هو ما يدعوه الناس إحساسا ؛ وهو بالاضافة إلى العين ضوء أو لون ، وبالاضافة إلى الأذن صوت ، وبالاضافة إلى الأنف رائحة ، وبالاضافة إلى اللسان طعم ، وبالاضافة إلى سائر البدن حرارة أو برودة أو صلابة أو ليونة ؛ وسائر الكيفيات التى تسمى شعورا أو إحساسا . وعلى ذلك فليست هذه الكيفيات والأعراض في الموضوع نفسه ، وإنما هي حركات فى مادته ، وهو يؤثر بهذه الحركات فى آلاتنا (أعضائنا) الحسية ، على أنحاء شتى . بيد أن مايحدث فينا ، إنما هو ، فى الحقيقة ، جملة حركات =

= إذ ليس تنتج الحركة إلا حركة وإنما تبدولنا هذه الحركات ضوءاً أو صوتاً ، على جهة التوهم فقط . وكما أننا نرى ضوءاً إذا فركت العين أو لطمت ، ونسمع دوياً إذا سدت الأذن ، فكذلك تثير الأجسام الخارجية فينا أمثال تلك الكيفيات بفعل تأثيرها الشديد ولكن غير الملحوظ . ولو كانت الأصوات والألوان فى الموضوعات نفسها ، لما أمكن فصلها عن الموضوعات ، مع أن هذا ممكن ، كما هو مشاهد فى انعكاس الضوء أو الصوت (الصدى) ، إذ يكون الموضوع فى موضع ، وظهوره فى موضع آخر . وعلى ذلك فليس الحس ، فى جميع الحالات ، إلا توهما أصليا ، علته حركة الأشياء الخارجية ، وضغطها على عيوننا وآذاننا وآلاتنا الحسية الأخرى « بيد أن مدارس الفلسفة ، فى جميع ديار النصرانية ، تقول بمقالة أخري ، مصدرها بعض نصوص من أرسطو ، فتقول فى علة الرؤية إن الشىء المرئى يرسل إلى كل جانب « نوعا مرئيا » ، وقبول العين له هو « الرؤية » وتقول فى علة السمع ، إن الشىء المسموع يرسل « نوعا مسموعا » ، يدخل الأذن فيحصل السمع بل تقول في علة « الفهم » إن الشيء المفهوم أو المعقول يبعث « نوعا معقولا » ، فاذا ولج العقل حصل الفهم لدينا . وهذا كله كلام لا معنى له ولا محصل فيه » . المعرب

الطبيعية عبارة عن « حرب الجميع (ضد) الجميع » . والدولة هي الوسيلة التي لا بد منها لوقف هذا الصراع . وهي تحمي حيوات الأفراد وأموالهم في مقابل خضوعهم لها خضوعاً مطلقاً . فما تأمر به خير ، وما تنهى عنه شر ، وإرادتها هي القانون الأعلى .

لا نريد أن نقف عند هذه النظرية التي تقول بضرورة الحكم المطلق ، والتي هي النتيجة المنطقية لمذهب المادة . وإنما نريد أن نشير — في ختام هذا البحث — إلى أن هوبز يختلف عن بيكن في ناحيتين هامتين : أما أولاهما فهي أنه يقول بنظام ميتافزيقي : النظام المادي . وأما الثانية فهي أنه يعطي القياس قيمة تفوق قيمته عن بيكن . لقد أغفل هذا الأخير ، حين جعل الاستقراء المنهج الكلي ، أمرين :

١ : الدور الذي يلعبه الإستنتاج في الرياضيات .

٢ : الدور الذي لعبه العنصر الرياضي والنظر القبلي في مكتشفات القرن الخامس عشر . ومن هنا فإن هوبز يقف موقفاً وسطا بين مذهب التجربة الخالص ومذهب ديكارت العقلي .

(بغداد) عبد الكريم الناصري

ماثيـــو أرنولد

Mathew, Arnold

للأستاذ خيري حماد

— ٥ —

آراؤه السياسية :

كان أرنولد محافظا معتدلا ، ورغما عن أنه لم يرشح يوماً ما لعضوية البرلمان إلا أنه كان شديد الميل للسياسة . وقد ظهرت هذه الرغبة جلية في السنين الأخيرة من حياته ؛ فلما نزع يده من الأمور الدينية اشتغل ببحث المسائل والمشاكل السياسية بحثا استنفد قسما كبيراً من اهتمامه ووقته . وكانت له من تجاربه في وظيفته الحكومية حنكة سياسية يندر أن توجد في أمثاله . ناهيك عن قدرته على استطلاع خفايا المشاكل العويصة وطريقة حلها بأسلوب منطقي محكم ، لاسيما وقد امتزج بسائر طبقات الشعب فعرف عنهم جميع صفاتهم وأخلاقهم .

ولكن أولى مهامه السياسية باءت بالفشل الذريع ، فقد عارض بكل قواه قانون الدفن . ولكن جهوده السياسية كانت خائبة فطبق هذا القانون مدة طويلة من الزمن ، وكان يرهب نتائج الحكم اللامركزي ويعارضه بكل قواه ، فجاهد في سبيل القضاء عليه جهود الجبابرة ، ولكنه لسوء حظه فشل للمرة الثانية وباء بالخسران . ولتبرير سقوطه كتب قائلا : « لست أدعي السياسة ، ولكني شخص عادي أبصر بهذه الحالة التي تسود البلاد . ولم يعتمد على أنصار وأحزاب منظمة ؛ بل جاهد بمفرده ليسعى في إنالة بلاده قسطاً أوفر من الدنية[1] » .

وفي مقدمة مقالاته الإرلندية نراه يكتب : « إن دهاة القوم وكبار الساسة ليعارضون فضول رجل أديب مثلي . ولكنهم في الحقيقة لم يعارضوه إلا عند مخالفته لآرائهم السياسية . وفي الجدال السياسي الذي حدث سنة ١٨٨٦ ، نرى كلا الطرفين من أنصار

(١) Poul Grnald, P. 153

عليها ، ولا يدلنا فيها . لكل فعل سببه الكافي . والقائلون بالاختيار يذهبون إلى أن الفعل الارادي أو الحر هو الفعل الذي وإن كان للقيام به سبب كاف ، فإنه — أي الفعل — ليس ضروريا . وتهافت هذا التعريف ظاهر لاخفاء به . فإنه إذا لم يقع حدث أو فعل ما ، فلأن سبباً كافيا لوقوعه لا يوجد . إن السبب الكافي يرادف الضرورة . والإنسان ، كسائر المخلوقات ، خاضع لقانون الضرورة ، للقدر ، أو — إن شئت — لإرادة الله ؛ والخير والشر ، بعد ، معنيان نسبيان ، فالأول يرادف الموافق أو المرضي ، والثاني يرادف المكروه أو الغير الموافق . و «المصلحة» هي الحكم الفصل في الأخلاق وفي كل شيء . أما الخير المطلق ، والشر المطلق ، والعدالة المطلقة ، والفضيلة المطلقة ، فأوهام ابتكرها العقل اللاهوتي ، وما بعد الطبيعة ...

إن فلسفة « هوبز » السياسية تتفق مع هذه المقدمات الأنطلوجية . فالحرية ممتنعة عنده في ميدان السياسة ، كما هي ممتنعة في ميدان الأخلاق ، وميدان ما بعد الطبيعة . وإنما الحق للقوة ، في الدولة وفي حال الطبيعة على السواء . وحالة البشر

الوحدة والحكم الذاتى فى أرلندة يعتزون بانتساب عدد من الأدباء والكتاب لحزبهم .

وكل محاولة لتبيان آرائه السياسية تعد ناقصة إذا لم تتناول عقيدته فى الحكم الذاتى لإرلنده . فقد عارض بقوة قانون الحكم الذاتى الذى صدر سنة ١٨٨٦ ، وكتب إلى جريدة التايمس مقالا يحتج فيه على السياسة الخرقاء التى يرتكبونها بسن مثل هذا القانون . وفى هذا الاحتجاج نراه يعدد المساوىء التى يرتكبها القوم فى إرلنده وطالب بازالتها والقضاء عليها . واقترح إنشاء نظام حكومى فى إرلنده يرتبط تمام الارتباط بالحكومة المركزية فى لندن .

وهذه المحاولات العديدة التى قام بها من الناحية السياسية لم تكن كافية لإقناع القوم بشخصيته كسياسى بارع . فلم يصبح عضواً فى البرلمان ولم تكن له القوة يوما ما لإدارة دفة الإنتخاب ، ولكن عند وفاته نرى البرلمان يعلن الحداد عليه رسمياً مدة ليست بالقصيرة ، مما يدل على تأثرهم بنظرياته وآرائه التى كان لها شأن عظيم فى التأثير على أفكار القوم ، ووضعها فى الصورة التى يريدها .

وفى الحقيقة كان أرنولد حر الفكر يجاهد فى سبيل إعطاء سائر الأمم المستعمرة حريتها وخاصة إرلنده . ولكن هذه الحرية لاتعنى انفصال هذه المستعمرات انفصالا تاماً عن الحكومة المركزية ؛ بل تظل تهتدى بهديها وتستن سننها .

كتبه ومؤلفاته :

إن من الصعب علينا فى هذا المقال القصير أن نحاول تحليل جميع الكتب التى ألفها أرنولد من أدب وشعر وفلسفة ودين . ولكنى أكتفى بتحليل بعض مؤلفاته تحليلا موجزاً يظهر لنا نبوغه وعبقريته الأدبيتين . وهذه المؤلفات هى : —

١ — أمبدوكليس على جبل إتنا

ظهر هذا الكتاب سنة ١٨٥٢ يحوى بعضاً من خير القصائد التى كتبها المؤلف فقابله الجمهور بفتور شديد مما كان يدعو إلى يأس أرنولد وقنوطه لولا التشجيع الذى قابله به الشاعر روبرت براونينج المشهور . ويشتمل هذا الكتاب على قصائد عدة أهمها « أشعار الذكرى » التى قالها فى رثاء الشاعر الكبير وليم وردزورث . ومطلع قصيدته كما يلى :

« لقد دفن جيتى منذ مدة طويلة فى مدينة ويمر .
« وقد شهدت بلاد اليونان جهاد بيرون الطويل وموته
« ولكن وفاة هذا العظيم كانت منتظرة منذ مدة طويلة
« لتخمد جذوة الشعر .
« ما الذى يمكننا أن نقوله فى وصف وفاة وردزورث ؟ »

وقد أعجب براونتج بهذا الكتاب إعجاباً شديداً دعاه إلى إعادة طبعه مرة ثانية سنة ١٨٦٧ . فكلا الموضوع والأسلوب كلاسيكى جذاب . وقد وصف أرنولد أمبدوكليس وصفاً دقيقاً وأظهره بصورة فيلسوف يونانى ولد فى جزيرة صقلية فى القرن الخامس قبل الميلاد وفلسفته الباقية لدينا تدل على تصوفه وعلى حياة الأحلام التى كان يحياها .

والأغنية التى يناشد أمبدوكليس كأنه بها لا تقل عن قصيدة (ربى بن عزرا) فى القوة والخيال الشعريين فهى تحوى بعض الأبيات الرائعة كقوله :

« قد نرغب فى الحصول على الهدوء النفسى .
« ومع ذلك فإننا لا نتطلع إلى أنفسنا .
« ونحب القضاء على التعاسة والبؤس .
« بينا لا نحاول الإمتناع عن الشرور والآثام » .

وأكثر أبيات هذه القصيدة روعة هى أغنية غالسيس فى نهايتها .

« إن هذه الأمكنة لا تصلح لسكناك أيها الإله العظيم أبولو.
« ولكن حيث تلتقى الجبال الغربية بصخور الشواطئ والبحار.

ويتممها بقوله :

« لقد أتى أبولو قائداً .
« بفرقته الموسيقية المؤلفة من تسعة أشخاص .
« فالقائد جيل .
« وكل الأعضاء من أهل السماء » .

وجمال هذين المقطعين يتلخص فى احتوائهما على بعض الاصطلاحات الشعرية ويمتاز المقطع الأول بأسلوبه الشعرى الذى

يعد أساساً من أسس الفن والأدب .

والقسم الثانى من هذا الكتاب يشمل على أقصوصة تريسترام والفنانتين الملقبتين بأيسولت . وقد أحب تريسترام إحدى هاتين الفنانتين ولكنه اضطر إلى الزواج من الفتاة الأخرى . ولم يكن أرنولد موفقاً جداً فى سرد هذه القصة لأنه لم يتمها ولكنه جاء بها بطريقة جذابة . وبعض أبياتها لا يسعنا إلا ترددادها لنشبع شهوتنا باللذة التى نجنيها منها :

« إن صوتها ليعلو على الضوضاء فيصل إلى أذنى .

« وأرى لألاءها من خلال الرماح المتشابكة .

« فتظهر ميتة تحت غطاء الشباب والعنفوان » .

وليس من المستحسن قراءة هذه القصيدة للقصة التى تحكيها . فهى أشهر من أن تقرأ فى مثل هذا الشعر الذى لا يظهرها بل يحافظ على غموضها وإبهامها . ولكنها تقرأ فى نفسها لهذه الأبيات الرائعة التى لا يمكن نكران قوتها وعذوبة أسلوبها .

٢ — رستم وسهراب

أجمع محبو أرنولد على أن هذه القصيدة من خير ما نظمه الشاعر . وقد ظهرت لأول مرة سنة ١٨٥٣ تحمل بين ثناياها جمالا طبيعياً مبتكراً يندر أن يوجد فى قصائده الأخرى . فهى قصة بطولة أسيوية نظمها الشاعر فى قصيدة من الشعر المرسل متبعاً فيها أسلوب الشاعر اليونانى العظيم هوميروس فى إلياذته . والقصة فى حد ذاتها رائعة ولكنها طويلة ، ولا يمكننى سردها فى هذه الرسالة لطولها . ولكنها تتلخص فى مبارزة وقعت بين والد وولده وكلاهما يجهل صاحبه . سقط الولد صريعاً فعرفه الوالد وحزن حزناً شديداً لقتله ولده . صمم على الانتحار فشجعه الولد بقوله :

« لا ترغب يا والدى فى الانتحار — يجب عليك أن تعيش .

« لأن كثيراً من الناس خلقوا للقيام بأعمال جليلة فى حياتهم

« بينما هناك كثيرون قدر عليهم أن يعيشوا مغمورى الذكر ثم يموتون .

« وإنى لأتوسل إليك أن تقوم بجلائل الأعمال التى كنت

« أتوق لعملها فتجنى نصراً آخر وفخراً فى حياتك »

يقلد أرنولد هوميروس فى سهولة وبساطة . فهذه القصيدة تحوى مشاعر خيالية رومانتيكية تعبر عنها تضحية الشاب فى سبيل القيام بجلائل الأعمال وعظائمها . فيموت فى الآونة الأخيرة التى كان يطمح فيها أن يصبح من كبار المحاربين والأبطال مقتولا بيد والده الذى يجهله ولا يعلم بوجوده .

٣ — ميروب

فى هذه الرواية التمثيلية نرى أرنولد يحاول أن يجعل من بوليفونتيس ملكا قوياً عاقلا يقوم بخير الأعمال للتكفير عن الذنوب العديدة التى ارتكبها أيام شبابه . ولم يكن أرنولد فى هذه الرواية موفقاً تمام التوفيق لأنه لم يخلق فيها شخصية تجتذب الجماهير وتأسر قلوبهم . ومع أن أسلوبها يونانى صرف إلا أن تقليده ليفوق تقليده فى رواية « الاطلانتيد فى كاليدون » أما من حيث الجمال والروعة فإن « ميروب » تقصر بكثرة عن سابقتها التى مع شذوذ أسلوبها وعدم ترتيبه تحوى روحاً فنية خالدة . فميروب جسد بلا روح وهى لا تحوى العاطفة التى تتقد فى الرواية الأخرى .

وقد نجحت الرواية نجاحا لم يكن ينتظره مؤلفها وبيعت بكثرة فى الطبقات الراقية من الأمة ، بينما طبقة العامة لم تأبه لها لعدم تفهمهم الآراء الفلسفية العديدة التى يضمنها فيها . وفى القصائد التى تحويها أبيات رائعة خالدة . ومنها هذه الأبيات :

« إن الطغاة ليجعلون من البشر رجالا حسنى الأخلاق

« أكثر مما يتظاهرون » . أو

« إن تاجك ليقضى عليك بينما لسانك ينقذك مما يحل بك »

أو الأربعة أبيات التالية :

« اسمع هذه الضوضاء التى تنبعث من الشوارع الأخرى

« واسمع ما يحدث من قتل الناس فى مثل هذه القاعات

« وهكذا تحكم أنت كما كان والدك يشاء ويهوى

« أو تحكم فتجعل من أعدائك عبيداً يخضعون لأمرك »

وجميع هذه الأبيات تخلو من القافية والوزن ، ولذا فإنها عدت خشنة الأسلوب مع احتوائها لبعض الأفكار المألوفة .

هذا العالم المتغير :

هل يكشف الفيتامين عن سره؟

الأستاذ فوزى الشتوى

الفيتامين والأكسوجين :

يسجل الفيتامين فى هذه الأيام صفحة جديدة فى تاريخ الصحة البشرية وعلاج العقم الإنسانى والروماتيزم ووجع الظهر وكل ما له صلة بتليف العضلات وتصلبها . وهو يطرق اليوم واديا جديداً غير الوادى الذى عرفناه فكلنا يدرك أهمية الفيتامين للاحتفاظ بالصحة ولكننا لم نعرف السبب .

ويدور الآن بأذهان العلماء سؤال : ما هى العلاقة بين كمية الفيتامينات فى الجسم والتفاعل الأكسوجينى مع أعصابه وعضلاته ؟

ولا يجول هذا السؤال فى أذهانهم عن مجرد تخمين أو فرض خيالى ، بل تدعمه حقائق واكتشافات علمية . وله قصة طويلة بدأت عام ١٩٢٢ حين اكتشف فيتامين E . وخلاصتها أن حيوانات التجارب تصاب بالشلل إذا حرمت منه . فإذا استخرجت عضلاتها الملتهبة وجدتها مخرمة كقطعة جبن نخرها الدود .

وقيست كميات الأكسوجين التى يستنشقها حيوان التهبت عضلاته فوجد أنهما تتضاعف مرتين ونصفاً عن الكمية التى يستهلكها وهو فى صحته ، ومن ثم نبت الفرض العلمى بأن فيتامين E يحفظ أنسجة الجسم من الاحتراق بالأكسوجين ويمنعه من التأثير عليها . ويقصر عمل الأكسوجين على مهمته الأساسية التى نعبر عنها بالتنفس .

تأثيره على العقم :

ظن العلماء على أثر اكتشاف هذه المادة أنهم وفقوا إلى علاج يشفى حالات العقم فى الإنسان ويزيل الأسباب التى تقضى على الأجنة وهم فى بطون أمهاتهم أو بعد ولادتهم بفترة معينة . واحتضن البحث عالم دانيمركى اسمه فوبت مولر .

ولكننا لو أردنا مقارنتها مع غيرها من روائع الشهر لعدت من سقط المتاع .

٤ — مقالات فى النقد :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٨٦٥ ويعد من أحسن مؤلفاته فى عالم النثر ؛ فهو المحور الرئيسى الذى يرتكز عليه نقده ، وتعتمد عليه شهرته . ومع قلة انتشاره بين طبقات الشعب ؛ إلا أن جمهرة النقاد أعجبوا به أيما إعجاب . وقد أحدث حركة جديدة فى عالم النقد الانكليزى . فهو لم ينتقد فى كتابه هذا جمهرة الكتاب ولكنه علم الآخرين كيف ينتقدون ؛ فوضع قواعد جديدة يسير عليها النقاد فى البحث والتحليل .

وفى الطبعة الثانية من كتابه هذا كتب أرنولد مقدمة قيمة يخاطب فيها جامعة أكسفورد خطابه الشهير الذى يقول فيه : « إنها مدينة جميلة ، صفحتها بيضاء ناصعة لم تلطخها الحياة العقلية التافهة التى سادت البلاد مدة من الزمان » .

وفى هذا الكتاب وضع أرنولد بعض قواعد فى علم النقد ، منها ماهو مهم ومنها ما هو تافه .

ومن شروط النقد فى رأيه الرغبة والميل . فكل ما هو مرغوب حسن وقيم والعكس بالعكس . وفى هذا الكتاب يعرف مؤلفنا الشعر بقوله : « الشعر هو أحسن الطرق فى الدلالة على الأمور وأكثرها تأثيراً فى نفوس القراء » .

ومن آرائه القيمة فى عالم النقد الطريقة التى خالها أحسن الطرق فى دراسة الشعر والتفكير فيه . فقد اعتقد أن أهم مايتوخاه دارس الشعر هو الفكر أو الغاية . فالفكر هو الحقيقة الراهنة التى يبنى الشعر على أساسها . ولا شك أننا بعد مدة قصيرة سننظر إلى الشعر كالوسيلة الوحيدة لتفهم الحياة ودراسة مناحيها المختلفة ؛ فبدونه لا قيمة للعلوم وسيأتى يوم عما قريب يحل فيه الشعر محل الفلسفة والأديان . فقديماً دعاه وردزورث بخلاصة روح المعرفة أو بالنتيجة المتوخاة فى عالم العلوم والمعرفة . وما الدين والفلسفة إلا خيالات وأشباح تجول جولاتها المعهودة فى عالم المعرفة . وسيأتى يوم عما قريب ننظر فيه نحوهما نظرة المستخف المهمل فنشعر بسخافتهما وقلة ما فيهما من المدارك والمعلومات .

(البقية فى العدد القادم)

خيرى حماد

واختار العالم ٧٤ امرأة يلدن الأطفال أصحاء ، فلا يلبثون أن يقضوا نحبهم بعد سنة أو بضعة شهور . واتبع فى علاجهن اعطاءهن مقادير وافرة من زيت الحنطة الكريه الطعم وهو أغنى مصدر لفيتامين E . ونجحت تجربته ولكن إلى حد ، فإن ٥٩ امرأة فقط تيسر لهن القدرة على ولادة أطفال أصحاء لا تتأثر حياتهم بالعوامل الخارجية . وظلت الباقيات محتفظات بسيرتهن الأولى يعانين الحمل والوضع ويرين أطفالهن فى شهورهم الأولى ثم يوارينهم التراب .

وجربه العالم مراراً فكانت النتيجة واحدة ولم يصل إلى حل حاسم لجميع أطراف الموضوع بل وجد العلم سبيله إلى اتجاه آخر يؤدى إلى فكرة جديدة ، فلوحظ أن حيوانات التجارب إذا منع عنها فيتامين E تصاب بالشلل ، كما لوحظ أن نشاط القردة فى تسلقها الأغصان يقل كلما قل نصيبها منه حتى إذا وصل النقص إلى حد معين رقدت مشلولة بدون حراك .

وكان من الطبيعى أن تشرح فإذا بعضلاتها كالمصفاة تتناوبها الثقوب ، وإذا العلم يلمس ناحية من المرض المعروف بتصلب العضلات فأية علاقة بين الفيتامين وبين العضلات ؟

اتجاه جديد :

والمعروف أن تصحيح العضلات والأعصاب إن انتابها مثل هذه الأعراض من المسائل التى يعجز الطب عن إرجاعها إلى حالتها الأولى ، فهى فى عالم العلاج بمثابة ساق يفقدها الإنسان ولن يفيد لإعادتها أية جرعة أو أى دواء ولكن فيتامين E ارسل فى العلماء بصيصاً جديداً من الضوء .

فهل آلام العضلات إنذار بنقص كميات فيتامين E ؟

إننا نسمى التهاب العضلات بأسماء مختلفة فان كانت فى الظهر سميناها لومباجو وإن كانت فى الساق سميناها روماتزما ، ومنشؤها واحد . وهى بأنواعها وأسمائها المختلفة منتشرة بين الناس .

وتوافر الدكتور شارلس ستينبرج من أمريكا على البحث فاختار ٦٠ مريضاً وغذاهم بجرعات كبيرة من فيتامين E فبرىء منهم ٥٥ من أمراضهم فى مدة تراوحت بين ثمانية أسابيع وثلاثة وثلاثين ولكن آلامهم توقفت عقب الأسبوع الأول .

من ذكريات الطفولة :

وصادف الأطباء عقبة تحول دون استخدام فيتامين E على نطاق واسع فأن الحصول عليه بالطرق الصناعية التى اكتشفت عام ١٩٣٨ كانت باهظة التكاليف فيساوى الرطل الواحد منه ٣٦٠ جنيهاً إلى أن ظهر كيماوى اسمه هكمان كان يشتغل فى تجارب تجفيف الأفلام فى مصانع كوداك . وكان يجرب إحدى طرق التجفيف فى أنبيق مفرغ من الهواء للحصول على ضغط منخفض يساعد على سرعة الغليان بدون ارتفاع كبير فى درجة الحرارة .

وفى أحد الأيام كان هكمان يسير الهوينا فى طريقه فوقف قبالة أحد الحوانيت يرقب معروضاته ، وهناك شهد زجاجات زيت كبد الحوت ، فأحس بالقيء يتولاه ، إذ ذكر طفولته حينما كانت أمه تجرعه مادته الكريهة التى عافت نفسه طعمها ورائحتها فسأل نفسه :

— لماذا لا يستخرج الفيتامين الحيوى من هذا الزيت المؤلم ؟ لماذا لم يجمعه العلماء فى أقراص صغيرة يبتلعها الإنسان فلا تتلوى أمعاؤه ؟

وشغلت الفكرة باله ، فما كاد يرى الأنبيق المفرغ من الهواء حتى طرأت على ذهنه تجربة : فلماذا لا يغلى ذلك الزيت فى الأنبيق فيتيسر له الحصول على مبتغاه دون أن يقتل فيتاميناته ؟ وهرع إلى الحانوت ثانية ، فاشترى زجاجة من زيت كبد الحوت ، وعاد بها إلى أنبيقه لينفذ فكرته

ونجحت التجربة وولدت صناعة جديدة ، وافتتح مصنع كوداك فرعاً جديداً لتقطير الزيوت ، فلما أعلنت الحرب وحرمت الولايات المتحدة من حيتان النرويج وزيتها غذت المصانع الشعب بالفيتامين المستخرج من أسماك المياه الأمريكية

من مخلفات المصانع :

وتحول « هكمان » إلى فيتامين E يجرب استحضاره ، وكان هدفه الإنتاج الرخيص المهين . وكان من اليسير أن يستخرجه من زيوت الحنطة ، ولكنها كانت غالية الثمن مما يتعذر معه إنتاج الفيتامين بأثمان ميسورة للفقراء ورقيقى الحال

وفكر فى زيوت النباتات وأهمها حبوب الصويا والفول

السوداني وبذرة القطن . والمعروف أنها تحتوى على واحد فى الألف من فيتامينات E ، فلما مرت فى عمليات الحزم والضغط ، وجد أن فيتامينها قل إلى النصف ، فأين ذهب النصف الآخر ؟

ووجه همه وهم أتباعه إلى مهملات المصانع التى تستغل هذه الزيوت ، فوجد النصف الباق قد تسرب إلى قاذوراته ومهملاته من أوراق لف ونباتات حزم . وإلى كل مكان انتقلت إليه الحبوب أو زيوتها .

ومن هذه المخلفات التى تعودت أن تلقيها المصانع (كزبالة) استخرج مادته الثمينة بتقطيرها بالأنبيق المفرغ ، فهبط ثمن رطل الفيتامين من ٣٦٠ جنيها إلى عشرة جنيهات . ووجد الناس وفرة من مادته كما تيسر للأطباء ومعامل التجارب ما يساعدهم على الاستمرار فى أبحاثهم

ويحتاج جسم الإنسان من هذا الفيتامين فى كل يوم إلى كمية تتراوح بين ١٠ — ٣٠ ملليجرام أى ما لايتجاوز ثمنه بضعة مليمات

وكثير من آلام الظهر والمفاصل تنتج من تأثير أمراض أخرى ليست وحدها كفيلة بإلقاء المريض فى فراشه ، ولكن إحداثها للألم يلزم المريض الفراش شهوراً وسنين ، فكان من المباحث الرائعة أن عولج أولئك المرضى بحبوب فيتامين E فزالت آلامهم وعادوا إلى أعمالهم

ويكثر فيتامين E فى ردة القمح والخضروات ، ولاسيما أوراقها والإكثار من التغذية بها مفيد جداً للحوامل وأطفالهن . ويعد حيوياً لصحة الأعصاب والعضلات ، ولعل هذا البحث يفسر عادة المرضعات عندنا من الإكثار من أكل الفجل والجرجير .

قلم حبر لسنة كاملة :

سجلت إحدى شركات صناعة أقلام الحبر ، قلما عاديا جديدا يستطيع الكتابة فى الماء على عمق خمسين ألف قدم فلا يؤثر الماء على الحروف ولا يزيل المداد .

ويتغذى سن هذا القلم بنوع جديد من المداد يجف بمجرد ملامسته لورقة أو قطعة قماش أو أى مادة صالحة للكتابة . ويصلح خزانه لتغذية القلم مدة سنة كاملة يتغير بعدها بخزان جـديد .

ولهذا القلم أهميته فى اكتشافات أعماق البحار ، فكثيرا ما كان الغواصون يفقدون حياتهم نتيجة لحوادث تحدث لهم وهم فى الأعماق فلا يدرى أحد ماذا حدث أو الأسرار التى رأوها فى الأعماق وبواسطته يدونون ملاحظاتهم فيستطيع زملاؤهم معرفتها .

ومن الطبيعى أن فائدته قد تعم المدنيين ، فكثير من مستخدمى أقلام الحبر يتضايقون من عمليات ملئه بين يوم وآخر ، ولكن مثل هـذا القلم سيوفر عليهم ملأه عاماً كاملا لا يخشون فيه نفاد مداده .

عصر الطيران بيدأ

بدأت المطارات الأمريكية تهتم بتنظيم حركة مرور الطائرات المدنية فتضع فى طرقها علامات لسير الطائرات والسيارات . فالمعروف أن الطائرات تحتاج إلى طرق خاصة لهبوطها ولوضعها فى حظائرها .

وتنتظر شركات أمريكا أن يقبل شعبها على الطيران اقباله على السيارات فيصبح لكل فردين من السكان طائرة كما هى الحال فى السيارات . وتصمم مصانع الطائرات أنواعا من ذات الراكبين ، منها يصعد عموديا وما يحتاج إلى مسافة لسيره .

وقد وضع مطار لاجارديا لافتات يديرها رجال البوليس كما يفعلون مع السيارات . وهذه اللافتات مؤلفة من جزئين أحدها يأمر بسير الطائرات والآخر يوقف الطائرات ويسمح للسيارات بالمسير

١٤ مليما للميل بالطائرة

وتنتج شركات الطيران البريطانية طائرات صغيرة تصلح لنقل ١٢ راكبا أو حمولة طن من البضائع ولكن عملها سيقتصر على المسافات القصيرة .

ومدى طيران هذا السفن الهوائية ٤٥٠ ميلا تسيرها بسرعة ١٫٥ ميلا فى الساعة ويتكلف مسيرها ١٤ مليما فى الميل الواحد .

ويقول غواة الرحلات الخلوية إن هـذا النوع صالح جداً للرحلات الخلوية وأعمال الكشافة لأنها مصنوعة مثل سيارة نقل كبيرة يسهل تحويلها لشتى الأغراض .

فوزى الشتوى

بعد الحرب

للأستاذ كمال النجمي

لمن أربع يشجو القلوب دثورها   تحمل أهلوها وأقوت قصورها

منازل كم باتت بأمن وغبطة   ونازِلها غافى العيون قريرها

تحيّفها الموت الوحِىُّ فأصبحت   بلاقع تهتاج الدموعَ قبورها

نعم درست من حسنها كل لمحة   إذا ذكرتها النفس هيج ضميرها

ولولا يد للحرب ما غيل أمنها   ولا باعد السُّمار منها سرورها

سلوا : أين أوربا وماشاد أهلها   وأين مجاليها الفساح ودورها ؟

وأين رياض أثّ منهن كرمها   وأين دنان طاب فيها عصيرها ؟

وأين صباياها الملاح سوافرا ؟   وهل حجّب الأقمار إلا سفورها ؟

معاهدُ فيها للقلوب منازه   أضاءت لياليها الحسان بدورها

لسرعان ما جال الردى فأدالها   كأن لم يكن رىّ القلوب حبورها

سلوا غائل الأرباع لو يُسأل الردى   ألم تجن موتاً إذ زهاها غرورها

تملكها زهو القوىّ فأوفضت[1]   جوارح تغتال اليمام صقورها

فأين ليوث يتقى الدهر بأسها   إذا ما دأت هز السماك زئيرها

تباهى بها الجرمان حتى تبددت   حزائق أسرى لا يُعدُّ غفيرها

وما العاشقون الحرب إلا عصابة   إذا مُكِّنتْ فى الأرض فاضت شرورها

وليس الذى يستعبد الخلق بطشه   بناج إذا ما غيظ يوماً شعورها

فهل مُبلغ عنا بنى مصر عصبة   حموا أمماً أن تُستباح ثغورها

بأنا وقد كنا لهم خير مُسعد   إذ الحادثات الدهم طمّ نكيرها

نذكّرهم والحرب أُخمد وقدها   بما قطعوا والحرب ذاكٍ سعيرها

بذلنا لهم أمناً ومالا وأنفساً   يجل عن الحصر القليل وفيرها

ولما دجا ليل الخطوب وأشرقت   قناتهمُ أن يُستلان عسيرها

مددنا لهم راح المعونة برّةً   تعاضدهم حتى انجلى قمطريرها

وإن وردت أجنادهم حوض وقعة   فنحن لها خلف الخطوط ظهيرها

منحناهم من قوتنا ونفوسنا   فهم أمة جازت ونحن جسورها

ولم تنس مصر دورها إذ تقوضت   وغيل بها ولدانُ مصرَ وحورها

(١) أوفض : أسرع .

تماورها (الأعداء) بضعة أشهر   ولم تك إلا الدهر طولا شهورها

طوائرُ تجتاز السماء مغيرةً   ألا شد ما راع النفوس مغيرها

إذا زأرت هبَّ الرقود كأنما   دعاهم إلى يوم القيامة صورها

أصابت رجالا آمنين وروّعت   صغاراً وشيخاناً يجل وقورها

إذا قوضت من لندن بعض دورها   على الرغم مما ذاد عنها نسورها

ففى مصر أمثال لذاك عديدة   إذا أُنصفت لا يُستقل كثيرها

وللماسطا (روميلُ) سطوة ظافر   وبان من المهواة[1] حيناً شفيرها

وقفنا لهم دون الحوادث وقفة   تغنت بها أقلامهم وصريرها

وكنا لهم أعوان صدق تحاشدوا   على المحنة الكبرى فهان خطيرها

صبرنا لها حتى تبلج فجرها   وأذّن بالنصر المبين بشيرها

* * *

فيا حلفاء النيل أين مواثق   منمقة ألفاظها وسطورها ؟

صدحتم بها فوق المنابر عذبة   كما صدحت فوق الغصون طيورها

فكانت حداء ساقنا عذبُ لحنه   كقافلة تُحدى فتدأب عيرها

فهل حان تحقيق الذى قد قطعتمُ   وآن لمصر أن يبين مصيرها ؟

ولسنا وإن كنا السِّماحَ ضيافة   سوى أُسد غيلٍ لا تُرام ظهورها

ألقحها[2] حرباً عوانا إذا انجلت   عدانا ولم يعد الأباعد خيرها

وكيف يذيق النيل أوّلها لظى   أليماً ويغتال الرجاء أخيرها ؟

على أننا نرجو اعتدال أمورنا   وحق لمصر أن تصح أمورها

* * *

بني مصر إن الأرض خيس ضياغم   فهل أنتم مثل الضعاف جزورها[3]

حييتم حياة المستنين[4] لتنصروا   قضية قوم لا يُضام نصيرها

فها هى ذى أمنية النصر حققت   وجلجل فى سمع الوجود نضيرها

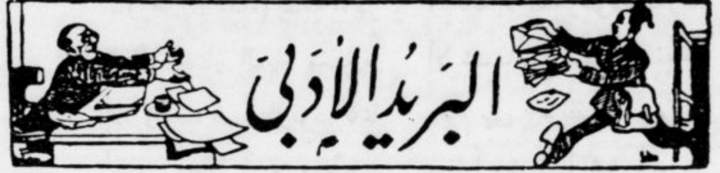
ولا رأىَ إلا أن تهبوا جماعةً   فما صلحت دار تشظى عشيرها[5]

لنا وطن حر نريد حياته   كما حى عملاق الدنا وصغيرها

وأنفس أحرار إذا سيمت الأذى   رأى عسلاً صابَ المنون غيورها

وإنا وإن نيأس من الشيب إذ جروا   لإحراز أسلاب يُذم حقيرها

(١) المهواة : الهوة .
(٢) ألقح الحرب : أشعلها .
(٣) الجزور : الذبح من الابل
(٤) المستنين : المجدبين .
(٥) تشظى : تفرق



مقاطعة الصهيونية :

كان الأستاذ عادل حمزة بدير من المحامين المعروفين فى دمشق وكيلا لجماعة من يهود فلسطين فى قضية مهمة فى محكمة الاستئناف فى دمشق موضوعها ملكية قرية على حدود سورية له منها فائدة ومنفعة وأجر كبير ، فلما قُررت مقاطعة الصهيونية ، رأى أنه لم يعد يجوز له السير فى القضية ، فكتب إلى موكليه أنه قد عزل نفسه من الوكالة تنفيذاً لقرار الجامعة العربية وأبلغهم وجوب حضورهم بأنفسهم المحاكمة ، أو توكيل غيره ، وأنه مُرجع إليهم الأجر المقدم الذى دفعوه له .

أخبرنى بذلك ، فرأيت فيه مأثرة تستحق أن تنشر فى الرسالة مجلة العرب ، وقدوة صالحة يقتدى بها ، فأنا أنشرها وأبعث إليه بإعجابى وإكبارى .

على الطنطاوى

لفينا شباب يعجب المجد فعلهم ... هم روح مصر فى الحياة ونورها
فيا بنى مصر دعتكم بلادكم ... وما غيركم من جور عاد يجيرها
سراعاً صغار النيل لبوا نداءه ... فقد خذل الأوطان ضعفاً كبيرها
وما غيركم ينتاشها من عذابها ... ويطلقها من بعد ما ضاق نيرها
فكونوا لها جيش الخلاص فإنكم ... نفوس زكت حتى أضاء طهورها
بنى مصر قد حان التفات لإخوة ... تبيت من البلوى بحرّ صدورها
إذا العدل لم ينظم بنى مصر كلهم ... فأقرب شىء أن يجوع فقيرها
عجبت ، وهل فى مصر إلا عجائب ... إذا خطرت فى نفس حُر تثيرها ؟
للصانعين الخبزَ واللبس كسرةٌ ... وخرقةُ جلباب تهاوت ستورها
وللناعمين المترفين نعيمها ... وآكالها موفورةً وحريرها
لهم بُر مصر طاعمين وشُهدُها ... وللشعب منها فولُها وشعيرها
ألا مصلح فينا فيدرأ دمعة ... إذا انبجست أعيا الجهود مطيرها

كمال النجمى

زرقة العين يمن :

نقل الأستاذ العلامة النشاشيبى (فى عدد الرسالة ٦٥٥) قول الزمخشرى : « إن الزرقة أبغض شىء من ألوان العيون إلى العرب ... »

والحافظ السخاوى والمحدث العجلونى يقولان : زرقة العين يمن ، ذكره فى الجامع الصغير عن أبى هريرة بلفظ : الزرقة فى العين يمن ، قال المناوى : أى بركة ... قال الشاعر :

وما عليك أن تكون أزرقا ... إذا تولى عقد شىء أوثقا

كما فى (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للعجلونى) والمقاصد الحسنة للسخاوى

محمد شفيق

١ — النفاق فى الأدب :

النفاق فى الأدب يجرى على سنن النفاق الاجتماعى سواء بسواء ، فكما أن الناس أسرفوا فى مجاملاتهم الكلامية الكاذبة ، أسرف الأدباء فى مراعاة التجمل ، ولجأوا إلى الكناية والمجاز ، واستعملوا المحسنات البديعية ليخفوا المعنى الصريح الذى يريدون .

ولا كان كذلك الأدباء فى عهود الأدب الزاهرة ، وما زلنا نقع كلما شققنا كتاباً من الكتب القديمة ، على المعانى تلتمع صريحة واضحة . ولا مشاحة فى أن العهود الماضية كانت عهود تماسك خلق ، والوازع الدينى أشد ما يكون أخذاً للناس فى أسباب الحياة ، فإذا نزع الأدباء فى هاتيك الأزمان إلى الصراحة التى نستهجنها اليوم فى كتب الأدب الحديث ، فإنما يحمل ذلك على أن الكتب لم تكن متداولة قديماً إلا بين الخاصة ، فلا خطر ولا ضرر من شيوع بعض ما فيها من ألفاظ قد يأباها الذوق أو يأباها العرف .

أما الآن ، ونحن فى عصر تزايل خلق ، فلا مرية فى أن الذوق لا يستسيغ كثيراً من الألفاظ كالتى استعملها الجاحظ مثلا فى كتاب الحيوان أو كتاب المحاسن والأضداد ، ذلك لأن هذه الكتب أمست فى متناول الناس جميعاً ، يطالعها الأستاذ ويطالعها تلميذه ، ومن ثم يكون الضرر فى الشيوع .

غير أن للتاريخ حرمة ، فينبغى ألا تحل كلمة محل أخرى ، ولا يحذف لفظ ليظهر مكانه خاوياً ويكتب فى هامشه مثل هذه العبارة « كلمة تنافى الأدب » أو غير ذلك ، فالحذف هنا لا يتفق والأمانة العلمية ، وقد يذهب القارئ مذاهب شتى فى تأويل اللفظة المحذوفة ، فيجيء الضرر على حين قصد الناشر النفع .

لقد قرأنا كثيراً من الكتب القديمة التى أعيد طبعها وتصويبها ففزعنا لكثرة ما حذف منها من العبارات « النابية » أو « التى تنافى الأدب » ، فاضطررنا إلى الرجوع إلى الطبعات القديمة الممسوخة الطبع والمشوهة الحروف ، فوقعنا منها على الأصل القريب . ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما قلنا إننا فى كثير من الأحيان لم نر نبواً ولا خروجاً على الأدب المألوف .

على أن للعلم حقه ، وهو فوق الأدب ، وفوق الذوق ، والناس لا يجترئون على حذف لفظ من ألفاظ القرآن الكريم أو الكتب المقدسة الأخرى ، ولا يطمسون ألفاظاً فى الحديث الشريف بحجة قصاراها أنها لا تتسق والعصر الحديث . فحرى بالناسخين أن يبقوا على أمانتهم تلك فى نشر الكتب القديمة ، وليس شيء أولى بالاتباع من الحق الصريح .

٢ — فيشر ومعجمه :

قالوا : إن إدارة مجمع فؤاد الأول للغة العربية أرسلت تستفسر عن مصير المستشرق الألمانى الدكتور فيشر عضو المجمع منذ نشأته

ولقد عرفنا الدكتور فيشر عن كثب يوم كان كاتب هذه السطور فى عداد موظفى المجمع ، فإذا هو رجل ذرّف على السبعين ضربه الشلل فى فكه الأسفل ، إذا تكلم فلا يكاد يبين .

ولقد كان الدكتور فيشر أظهر الأعضاء المستشرقين ، حين نهد لوضع معجم لغوى تاريخى يبدى تحولات الألفاظ العربية خلال القرون .

ولقد نذكر أن كثيراً من اللغويين شجبوا عمل هذا المستشرق الكبير وسمعنا المرحوم الشيخ أحمد الإسكندرى يقول عنه إنه عمل لا يتم ، وقال غيره متهكما إنه « مشروع نازى » !

بيد أن كل أولئك لا يذهب بجلال هذا العمل ، ولو أنه تم لكان مفخرة لمصر ولمجمعها . ولا نريد أن يصرف غياب الدكتور فيشر المجمع عن إكمال عمل يستحق الكمال .

٣ — ديوان ابن الرومي :

أصدرت وزارة المعارف قراراً بتأليف لجنة لجمع ديوان ابن الرومى ونشره مصححاً . وهذه اللجنة مؤلفة من الأساتذة : كامل كيلانى ، ومحمد شوقى أمين ، ومحمد جبر ، ومحمود لطفى .

والأديبان الأولان غنيان عن التعريف ، وأما الآخران ، فقد غلب عليهما التواضع العلمى فلا يكادان يظهران للجمهور فى كتاب أو مقال . ولعل هذه هى الساعة الأولى للتعريف بفضلهما ونشر أدبهما بين الخاصة والجمهور .

وأول ما قرأنا ديوان ابن الرومى إنما طالعنا النسخة التى نشرها صديقنا الأديب الكبير الأستاذ كامل كيلانى ، أذاعها على الناس أيام الشباب والفراغ ، يوم انصرف هو للأدب ، وانصرف غيره لملاذ الحياة وأطايبها . فإذا اقتنص له الكاشحون بعض المآخذ فحسبه أنه كان أول المتصدين لعمل لا يقدم عليه سوى المغامرين الشجعان .

(الرمل) منصور جاب الله

لجنة النشر الفلسفية :

تكونت هيئة من بعض خريجى قسم الفلسفة بجامعة فؤاد الأول قوامها الأساتذة : أنور فريد ، وسعيد زايد ، ومحمد إمام الحوت ، ومحمد محمد وهبه ، باسم « لجنة النشر الفلسفية » ، تهدف إلى نشر الدراسات الفلسفية التى ترتبط بحياتنا الواقعية ارتباطاً وثيقاً ، وذلك عن طريق ترجمة وتأليف بعض الكتب وإذاعة بعض المحاضرات . وستظهر باكورة أعمالها قريباً ، وهى ترجمة سلسلة الكتب السيكلوجية التى تصدرها مجلة « بسيكلوجست » تحت عنوان « Practical Psychology Hanolbooks » .



حـــازم ... !

للأستاذ عدلي طاهر نور

— ١ —

— حنان !

— ماذا يا حازم ؟

كانت حنان مستلقية على العشب تنظر إلى السماء بعينين حالمتين وقد شبكت يديها تحت رأسها لتتقى صلابة الأرض ، وسقط شعرها الفاحم متدرجاً على ذراعيها الناصعتين والخضرة الناضرة فأكسب تآلف هذه الألوان وجهها جمالا بارعاً ، وكان حازم مضطجعاً على جانبه بالقرب منها يعبث بالعشب وعلى شفتيه ابتسامة الذكرى .

مالت حنان برأسها قليلا لترد على نداء حازم بقولها : « ماذا يا حازم ؟ » فقال:

— هل تذكرين يوم تعارفنا ، حينما قدمت إليك فظللت ممسكا بيدك وقد بهرتني صورتك وأذهلني جمالك فلم يردني إلى صوابي غير تخضب وجهك وتهكم الأصدقاء ؟ يا لهـا من لحظة لا أنساها ! فقد تاه الطرف في صفاء تقاسيمك ، لا يستقر على جمال حتى يجذبه جمال آخر . وهل تذكرين ذلك اليوم ، حينما ابتعدنا عن الأصحاب فوق المقعد تحت الصفصاف ؟ كم بقينا طويلا في صمت عميق ، هذا الصمت الذي يخدر الحواس وينشط المخيلة ولا يقطعه غير اختلاس النظر ليغذى الخيال . وتلك اللحظة ، هل تذكرينها يا حنان ؟ تلك اللحظة التي تقابلت فيها عينانا تحاول كل منا أن يحول نظره ولكنه ما استطاع . فقد شخص بصرانا وتخضب وجهانا من المفاجأة ، ثم ابتسمنا فكانت الابتسامة إذناً بالكلام .

أغمضت حنان عينيها تستعيد الماضي وقد أشرق وجهها بنشوة الذكرى ، وامتلأ صدرها بلذة الرؤية . وصمت حازم وعاد يعبث بالعشب ويستنشق النسيم الملىء بالذكريات ، وهاج قلبه بالحب فنطق يقول :

— لا شك يا حنان أن حبي لم يخف عليك . فكل ما فيّ ينبض بالعاطفة . ولكن هل تعلمين قدره ؟ إن المرأة تأسر الرجل بجمال خَلقها أو حسن خُلقها ؛ وأنت ياحنان قد جمعت الجمال كله . ويزيد في ولهي ما بك من سمو ساذج يصدر من القلب . فلست كمن شاهدت من النساء يتصنعن السمو في نظرة أو لفتة أو مشية ، فلا يعدو الأمر الظاهر . إن ما بك من فضائل يا حنان يسحر لبي ويملك قلبي .

فاعتدلت حنـان وعيناها تفيضان حباً ، وقالت وصوتها يصوّحه الوجد :

— وأنت يا حازم . أما تعرف أنك سيد قلبي ؟ لست أملك فصاحتك فأصف لك حبي ؛ ولكني أشعر ... أشعر أنك كل شيء في حياتي ؛ فطيفك يلازمني في يقظتي وأحلامي . وإني لأمرض لبعدك وأسعد بقربك . آه يا حازم إن حبي لك لعظيم !

— إن روحينا ياحنان قد امتزجتا ؛ فما من قوة تفرق بيننا . أنا سعيد يا حنان . وما أستطيع أن أكتم سعادتي فانا أرددها لكل ما حولي ، للشجر والطيور ، للقمر والنجوم . وأوحي بها إلى كل من يصادفني فتنبسط الأسارير وتبتهج الأنفس . ما أجمل الحياة إذا ملأها الحب والسعادة معاً ... وسكت حازم فجأة فقد بدت في عيني حنان سحابة حزن انحدرت دمعاً . ولم يلبث أن صاح :

— حنان أنت تبكين ؟ بالله أما تفصحين ! فكم لمحت هذا الشجن يكسر طرفك ويؤلم قلبي . ولكن غمرة السعادة جارفة فما كان ألمي يدوم أطول من خفقة ، والآن أنت تبكين فما أستطيع صبراً . بالله يا حنان ما ذا بك ؟ حدثيني .

لم تستطع حنان أن تغالب الدمع فقامت تجرى وارتمت على مقعد قريب تذرف العبرات . وأسرع حازم وراءها وجلس بجانبها يجفف دمعها ويخفف تأثرها : أنا آسف يا عزيزتي ؛ فما أردت أن أثير ذكرى أو أنكأ جرحاً . وإنما ظننت أن الافضاء بذات الصدر يرفع عن النفس الحمل . هيا يا حنان . انسى كل شيء ولا تفكرى في غير حبنا وسعادتنا .

فأجابت حنان على الفور : « لا يا حازم ، يجب أن تعلم . فأنا ... . ولكن البكاء غلبها فلم تنبس بغير شهقة . فمدت يدها إلى حقيبتها وظلت تبحث فيها وهى لا تستطيع الكلام ولا تنقطع عن البكاء .

حتى أخرجت (دبلة) ذهبية وضعتها فى بنصرها الأيسر . وكان حازم يتبعها بنظره مشدوهاً ، لا يعي ما تفعل ؛ ولكنه سرعان ما صرخ فزعاً : « أنت ياحنان . أنت ! » فأجابت بحزن عميق : « نعم ياحازم . تلك مشيئة القدر » وساد سكون طويل أثقله صمت الطيور كأنها أشفقت من التغريد على قلبين يتعذبان . ساد السكون فبدا صوت حازم المتصاعد فاجعاً يرسل القشعريرة إلى البدن . لم يا حنان ؟ لم تركتني أتدله فى حبك ؟ لم هذه القسوة ؟ ثم أمسك بيدها متوسلا: « قولى إنك تمزحين . قولى إنك لم تتزوجى. قولى لى أى شىء غير ذلك » . ولكن أصابعه لمست الدبلة فجذب يده بشدة وابتعد عنها قليلا وهو ينظر إليها نظرة الحزن والغضب والحب الخائب .

واندفعت حنان تقول : « أنا شقية يا حازم . فلا تقس علىّ ولا تزد فى شقائى . أواه ! لو علمت كم قاسيت ، وصبرت حتى مل الصبر . أرهف الله حساسيتى إلى حد المرض فلم أنعم فى دنياى بسعادة . وكان شغفى بالمطالعة منذ فجر شبابى طريقاً إلى الشقاء ، فقد غذيت عقلى وقلبى بأعلى المثل وأجمل الأحلام . فكانت صدمة الواقع قاسية وتبدُّد أوهامى مؤلماً . وغشينى هم من الناس فأخلدت إلى العزلة وانطويت على نفسى حتى أذوانى السقم وشفنى الهزال . وأزعج أمرى والدىّ ففزعا إلى الأطباء يرجوان لى علاجاً ، ولكن هيهات أن ينجع دواء الجسد فى شفاء النفس ، فقررا آخر الأمر أن يزوجانى . واستقبلت حياتى الجديدة تهدهدنى الآمال وتغمرنى الأمانى ؛ فقد كان قلبى يهفو إلى دار هانئة يرعاها زوج حنون ويبهجها أطفال عزاز ؛ ولكن جدى العاثر كان يلاحقنى فكنت كالظمآى فى صحراء ، أنشد السعادة وهى سراب .

أحببت زوجى لطيبة أخلاقه ، ولكنه كان يقتل حبى بإعراضه ؛ فقد طغى عشقه لعمله على كل عاطفة . وما كان يعنى بى أكثر من عناية الثرى بتحفة تجمل بهو منزله . والله أعلم كم حاولت أن أوجد لنفسى فى حياته أثراً ؛ ولكنه سامحه الله كان يعتقد أن سعادة المرأة أن تنعم بفاخر الزينة وأن تفوز بحرية التصرف . فنسى أن الزواج ألفة يوحى بها الحب المتبادل ، وأن العشرة الخالصة لا تتحقق بغير صيانة هذا الحب . نسى أن الزواج شرّع للصحبة المشتركة والتعاون الوثيق فتصفو الروح وترق الحياة . نسى أن ملاطفة المرأة والتودد إليها ليس مقدمة للزواج فحسب ، بل عاملا حيوياً فى علاقة الزوجين . آه لو حاول الرجل أن يخبر زوجه فيحقق لها أحلام الصبا وسعادة الشباب ، إذن لأحبته العمر ولظل سيدها الأوحد وسلطان قلبها المطلق . ولكن الرجل وا أسفاه لا يحاول فهم المرأة وإدراك حقيقة نفسيتها ، ثم ينعمها بالبرود والأعراض ، ولا يلبث الزواج أن يصبح واجباً يؤدى . وهكذا عشت مع زوجى لا أحبه ولا أستطيع أن أكرهه . عشت معه بقلب ينغض بالخيبة والحسرة .

ولم يقف عذابى عند هذا ، ولم يغفل القدر عنى . ففقدت والدىّ واحداً بعد آخر . ففقدت معهما قلبين كانا يعطفان علىّ ويخففان عنى قسوة الحياة ، وشعرت باليتم يهصر قلبى والوحشة تفجع نفسى . ثم كانت صديقاتى ؛ فقد كن يروين لى بعضاً من حوادث لهن ليخففن عنى . فكان شعورى بهذا الفضاء الذى أحدثته النوائب فى نفسى يشتد وينتشر . ولم ألبث أن ضعفت يا حازم تحت إلحاح صاحباتى ، فانطلقت معهن ذلك اليوم إلى حيث قابلتك . فكنتُ أنا الزهرة الذاوية ، وكنتَ أنت القطر الباعث . وساقنى القدر فى طريق الحب فلم أفكر لحظة ، ولم أثب إلى نفسى إلا بعد أن أحببتك . ولم أقو على الإفضاء لك بزواجى ، بتعاستى يا حازم .

وغلبها البكاء فانقطعت عن الكلام . وصاح حازم وهو يكفكف دمعه : « مسكينة يا حنان ! »

— ٢ —

مضى كل منهما فى سبيله مكسور الفؤاد . وعادت حنان إلى عزلتها وقد حرك اليأس رماد قلبها وأهاج لهيب شجنها . وكانت تعمد ، حينما يشتد بها ألم الشوق إلى الذكريات تلتمس منها عزاء ضن به عليها العالم الخارجى ، فتصبح كصريع الخدر تقاسى بعد لذة قصيرة وسعادة واهية أشد الآلام . وكان أكثر ما يعذبها شعورها بما يكابد حازم من اضطراب نفسى بعد هذا الحادث ، ويأسها من حل لموقفها البائس . فما كانت تستطيع أن تهجر زوجها لطيبة قلبه ، وقد همت بذلك خضوعاً لحبها الجارف لولا أن خشيت لوم حازم فانتظرت أن يخطو هو الخطوة الأولى واستسلمت فى انتظارها لحزن دائم وعزلة شديدة .

وعاد حازم وهو لا يفكر فى غير اعتراف حنان ، ورأسه يدق بالحقيقة القاسية ، وقلبه يخفق بحبه الشديد . وكان كل عصب فيه ينبض بقوة كأنه يصيح : إنها متزوجة ! ومضت أيام قبل أن يسكن هذيانه ويروق ذهنه . ثم لم يلبث أن اختلى بنفسه فى محرابه وهو يرتعد لمجابهة قلبه لعقله . كم كان يود أن يفر فى هذه الساعة الحاسمة ، ولكنه كان يشعر بقوة خفية تدفعه إلى مكتبه

أخذ يراجع حديث حنان وهو يقطع الغرفة بخطوات واسعة وقد وضع يديه خلف ظهره وطأطأ رأسه لشدة التفكير . كان عقله الرشيد وتربيته القويمة قد حصنا نفسه ؛ ولكن قلبه كان قويا بالحب ملتهبا بالشوق . فكان الصراع بين ضميره وعواطفه عنيفا . كان ضميره يثور تارة وقلبه يطغى أخرى ، ونفسه بين هاتين القوتين حائرة معذبة .

كان يحدث نفسه قائلا : « ماذا دهاك يا حازم ؟ كيف تخلد إلى هذا الوسواس فيحرضك على الشر ، وتثابر على هذا الحب فتسلب بريئا امرأته ؟ كيف تقدم على هـذا الأمر فتنقلب شيطانا يحث على المعصية ويهدم بيتا هادئا ؟ كيف تحل رباطا مقدسا وتقطع صلة طاهرة فتحقر نفسك وتفقد عزتك ؟ ثب إلى رشدك وعد إلى جهادك . فحذار حذار أن تستسلم لعواطفك . فالعاطفة المطلقة كالسيل ، أوله انقضاض يجرف ويقتلع ، وآخره نضوب وقحط . وقد وهبنا الله العقل لنقيمه سدا يحبس تلك القوة الطاغية وينظم تصريفها . إن حنان ليست لك يا حازم ... »

ووقف حازم فجأة وضرب كفه بقبضته صائحا : « يجب أن تنساها » . وتابع سيره وهو يكرر تلك العبارة بتؤدة ويقطعها ليوحى إلى نفسه معناها ويملى عليها إرادته . ولكن أنى لعقله أن يثبت ولم يكن أمر حبه مشكلة دارجة ؟ فهو لم يكن يعرف الحب من قبل . أما وقد نهله فقد أصبح الأمر مشكلة حياته . فكان قلبه المضطرم يصهر عزيمته ويشوش منطقه ، وحبه المتدفق يخنق ضميره ويذهب بصوته فلا تلبث نفسه أن تصيح :

« تباً لك ياحازم! مادمت عبدا لعقلك فقد تحرم الحياة ومتعها وتعرض عن الحب ، فيطغى العقل وتنضب النفس ويفسد الذوق وتنقطع صلتك بالحياة . لا يا حازم . لا تفعل ذلك ! إن حنان لك ، فالأقدار لم تجمعكما عبثا . إنه نداء القلب فأنت تلبيه ، وماء الحياة فأنت ترشف منه . وكيف يقبل عقلك أن يعيش زوجان بلا حب ويأتلف قلبان بلا تمازج ؟ إن حنان لك يا حازم . ولك وحدك .

كان حازم يجد فى حديث نفسه لذة عظيمة ، ولكنها لذة يكدرها صوت الضمير الذى يأبى أن يخضع فيعود ويرتفع من الأعماق : « حذار حذار أن تسلك هـذا الطريق » . فكانت نفسه كرمال الشاطىء بين كر الأمواج وفرها لا تهدأ ولا تستقر . كان حبه قويا ، ولكن عقله كان يقظا وضميره حيا . ولهذا كان حزينا برما . فهو لا يستطيع أن يعود إلى حنان ، ولا أن يبتعد عنها

وبينما هو فى عذاب اليأس والتردد ، إذ فاجأ نفسه بهذه الهمسة : « مسكينة يا حنان ! » . وكان يكرر تلك العبارة ولا يفطن بادئ الأمر إلى معناها . ولكن سرعان ما قفز من كرسيه حيث أقعده الأعياء ، وهو يهتف : « نعم ! مسكينة يا حنان » ألم ينطق بتلك العبارة من قبل عند ما قصت حنان عليه قصتها المحزنة ؟ ألم تذرف حنان وقتئذ دموع الشقاء بين يديه فأرمضت قلبه ؟ إذن كيف يتركها تذبل وتتعذب؟ كيف يقتلها بالهجر وهو لم يقس قط؟ كيف لا يعطف عليها ويؤنس وحدتها ؟ إن فى حبه لها صداقة ، والصداقة عاطفة تجمع بين القلب والعقل . أليس من واجب الصديق أن يعين صديقه ؟

ملأت الشفقة نفس حازم بغتة . وقد أثارها الحب ليستعين بها على العقل ؛ فما كانت هنا غير قناع لبسه الحب فجأة فشلّ العقل وأسكت الضمير . والحب قد يأتى بالمعجزات .

وخف حازم إلى حنان يتمتعان بسعادتهما السابقة فيركبان سيارته ويتنقلان بين الرياض ، فتستلقى حنان على الأعشاب الغضة تنظر إلى السماء بعينين حالمتين ، ويضطجع حازم على جانبه بالقرب منها ، تعبث يداه بالأزهار ويشع وجهه بالغبطة .

— ٣ —

وحدث ذات يوم أن قام حازم وحنان برحلة من رحلاتهما العزيزة إلى ضواحى القاهرة ، ودهمهما الليـل فى طريق العودة . وكان الليل مقمرا ، فأغراهما جمال الطبيعة بالبقاء حيث كانا على شاطىء النيل .

كان القمر يسيل رقة تلين الأبدان ، وكانت أشعته تهبط على المياه كقبلة العاشق على كتف حبيبته فتسرى فيهـا رعشة لذيذة وتهتز لها اهتزازاً لطيفا . وكان هـذا الاختلاج يسحر الناظر ويهدهد عقله فيغوص فى هذا المزيج من الأشعة والماء .

وكان السكون رائعـا يقطعه بل يزيده صفير الصرصور المتتابع فتؤثر وحدة الصوت المتواصلة فى المرء ، فتصيبه غشية هادئة ترفعه إلى عالم الأحلام ، ويزيد نشوته عطر ثقيل من الزهور المختلفة ينتشر الى جسمه فيثقل تفكيره وأطرافه .

كانت الطبيعة تنشد نشيدها الأبدى فى معبدها الساجى ، وقد أطلقت بخورها العبق ، ولبست حللها الفاخرة ، فيتصاعد الى السماء تآلف من الأصوات والعطور والألوان ، ينعقد سحبا رقيقة لازوردية رنانة تخلع على الأرض غموضا مقدسا ، يحير البشر فيعتريهم الخشوع ويغشاهم الوجوم .

وكانت حنان مستلقية على العشب ، وقد أكسبها القمر شحوبا عاجيا ليس فى الانسان ، وجمالا مبهما ليس على الأرض ولا فى السماء ، جمالا يتصوره الشاعر فى مخيلته ويعبده فى خلوته كلما تردد عليه وتراءى له . وكان حازم مضطجعا الى جانبها يقلب الطرف فى جمالها وقد سلبته الفتنة كل إرادة ، وأثار الوجد كل حواسه . وتحولت حنان بنظرها إليه فتلاقت عيناهما وشخص بصراها ، وكان ينبعث منهما بريق ساطع متدفق لم يلبث أن هدأ ورق . وفى همس يقطعه الهيام امتزج اسماهما : حازم ! حنان ! والتقت شفتاهما فى قبلة حارة طويلة . كانت عواطفهما كحمم البركان تصعد من الأعماق متراخية ملتهبة ثم تفيض فتنحدر بشدة كاسحة . وفى ذلك الوقت اختفى القمر وراء سحابة كثيفة كبيرة . وفى تلك اللحظة التى ينسى الانسان كل شىء غير أن الطبيعة حبته بقوة عاطفية جامحة ، فى تلك اللحظة التى تطغى فيها حرارة القلب على قدرة العقل ، فى تلك اللحظة لبيا نداء الجسد . إنهما من جسد ، والجسد ضعيف والهوى غلاب ، فكيف يعدمان الشهوة ؟ كان عقلها فى يقظتهما راجحا ؛ ولكن الطبيعة خدرت ذلك الحارس، فتنفست الشهوة المكبوتة ، وكانت تعمل فيهما خفية والعقل يحجبها ، فجهلاها حتى نمت واشتدت فتحركت وغلبت

وظهر القمر ومر أحد العسس يقرع بنعليه الطريق ، فاستيقظ العاشقان من حلمهما اللذيذ وتبينا أمرهما مضطربين: وما أقسى أن ينقلب المرء من حال إلى آخر بلا انتقال . فاستولى عليهما الوجوم والحيرة ، وفرق الخجل بينهما لحظة طويلة قطعها حازم بعد جهد بقوله :

— إن الليل قد تقدم ، فدعينى أصحبك إلى منزلك .

ولم تجب حنان بغير نظرة مبهمة ، وقامت تخطو وئيدا إلى السيارة ، وأدار حازم المحرك وسأل :

— أين تسكنين ؟

ولم يكن حازم يعرف حتى ذلك الوقت مسكن حنان إذ كانت بعد كل لقاء تفضل أن ترجع وحدها . وأجابت حنان :

— فى الدقى ، سأبين لك الطريق .

— ٤ —

واندفعت السيارة إلى منزل حنان . فكان حازم يشعر كلما توغل فى السير أن الطريق مألوف . ولكن هذا الشعور لم يتعد طبقات نفسه الأولى فلم يلتفت إليه تماما ، حتى أشارت حنان بالوقوف . وبينما هو يودعها وقع نظره على منزلها فثبتت عيناه فى محجريهما وتملكه فزع شديد ؛ فصاح بصوت قلق يكاد يسمع :

— أنت ... تسكنين هنا ؟

فأجابت حنان وقد راعها حاله :

نعم ! ولكن ما ذا بك ؟ هل رأيت شبحا ؟

ولم يجب حازم وانطلق إلى مسكنه بأقصى سرعة . كان همه الأول أن يبتعد عن هذا المنزل ولكن صورته باتت تلازمه وتزيد فى عذابه . فكان يهمس : رحماك يا إلهى . فما أقسى العقاب !

كان منزل صديقه أحمد ، فكانت حنان إذاً زوج صديقه ...

وكان أحمد لا يجتمع بأصدقائه كثيرا لشغفه بالعلم وانقطاعه له ، ولكنهم كانوا يكنون له الحب والاحترام لدماثة خلقه وكرم طباعه . وهذا هو حازم ، بالقسوة القدر ، يكتشف أنه كان يخون صديقه فينقض عهد الصداقة . كأن يخونه فى عرضه . والعرض كيف يلأم صدعه ... آه . لو استمع إلى صوت عقله !

كان حازم يفكر فى ذلك فيحز الألم فى نفسه . كانت الصدمة عنيفة أودت بكل عاطفة أثارها الحب . فما وجد لفعله عذرا ولا لضميره ردا . وساد ضميره وقام يؤنبه بعنف ويلاحقه بشدة ، ونفسه قد خلت من كل توازن يقيه شر الاختلال . كان صوت الضمير يتبعه وصورة صديقه لا تفارقه ؛ فلم يستطع البقاء فى مكانه وخرج يهيم على وجهه فى الطرقات . ولكن الصوت كان يطارده فيعدو المسكين هربا منه ، فيملأ أذنيه ، فيسرع فى الجرى حتى يصرعه التعب ، فلا يلبث طويلا حتى يبدو له وجه صديقه يشخص إليه فى حزن وأسف ، فيعود إلى الجرى ليسقط مرة بعد مرة حتى خر على الأرض مغشيا عليه .

وأشرقت الشمس وقامت الطيور تعلن قدوم الصباح ودبت الحياة فى الكون ، ووقف الشرطى يتأمل جسما طريحا وانحنى يهزه ليتبين أمره ؛ فانتفض النائم وجلس لحظة ورأسه بين يديه ، ثم نظر إلى الجندى المستفهم نظرة بلهاء ولم يلبث أن نهض مسرعا وهو يهمهم بكلام لا يفهم .

إنه كان حازما الرقيق . صرعته الصدمة فاختل عقله ، وأصبح يكفر عن خطيئته . كان ملكا فى وجدته فسولت له النفس أن يهبط إلى الأرض ؛ فتدهور من العلياء وعاد آدميا تسوده الغرائز الشهوانية والرغبات الدنيئة ، واقترف الخطيئة فاستحق العقاب ، والسماء لا تغفر لملك هوى .

عدلى طاهر نور

من ذكريات الشباب

سقط بعض السطور من مقدمة القصة الثانية (اجترار) المنشورة فى العدد الماضى للأستاذ حبيب الزحلاوى فرأينا إعادة نشرها .

« حكايتى أيها الأصدقاء تدور حول الأثر الذى تركته حوادث الجهاد الوطنى فى نفسى ، لاحول أبلغ حادث حدث لى :

كنت أتوقع عندما عينت ضابطاً فى الجيش أن ألقى مشاكسة من زملائى الفرنسيين وتعالياً على الضابط « العربى » ، فوطدت النفس على التمسك بالكرامة مع السلاسة واللطف

نجحت بعض النجاح فى السير على منهاجى ، وكنت أفشل فى قطع ألسنة أولئك الضباط عن القدح فى قومى وسب « السوريين القذرين » ، ولا سيما حينما كانت تضمنا مائدة شراب ، ولم يكن بينهم إلا ضابط من رتبتى كان يقف دائماً فى وجه أولئك القادحين ، فيصدهم عن المضى فى طعن الأمة العربية إكراماً لى : « أنا زميلهم الضابط الكيس والمخلصاء الذين عرفناهم من السوريين » . فكان أولئك الضباط الأجلاف ينحرفون عن الموضوع ، ناسبين ذلك إلى ما يلاقون من الشعب من كراهية وبغض ، وكان ذلك الضابط — نضر الله وجهه — يدافع عن حق السوريين ، وينعت حكام قومه بالطيش والهوج فى مد حكمهم وبسط سلطانهم على شعب لا تنقصه خصيصة من خصائص الاستقلال ، ولا تحوجه الدراية بتحمل المسئولية الاجتماعية ، ولا الوعى القومى ، فقد استمد مزاياه من تاريخه العربى ومن الانقلابات التى تأثر بها فى مطلع هذا القرن ، وكان يقول :

« لقد أيقظنا نحن الفرنسيين نفوس الشعب السورى ذاته بتلقينه فى مدارسنا مبادئ ثورتنا للحرية والمساواة وتعاليمنا فن الحياة ، وكان يساير زملاءه فى الطعن على الدهماء فى كل الأمم ، لأنهم يتساوون والسوائم فى إرضاء شهواتهم وتسكين معدهم ، ولا فرق فى طوائف العامة بين شرقى وغربى وبين ألوان وأجناس.

وكان كلام ذلك الضابط الأريب يشجعنى على إبراز فضائل قومى الأصيلة والمكتسبة ، وعلى إبداء الرأى أيضاً فى الوسائل التى قد تقرب بين الحاكم والمحكوم» اشتعلت نار الثورة فى جبل الدروز ، وسرعان ما امتدت ألسنتها إلى دمشق فمدينة حماه . جن جنون الفرنسيين ، فأمر قائدهم الأرعن الأعلى بإطلاق المدافع تدك قذائفها أحياء دمشق، وانطلق أجناد الجيش فى «حماه» يمعنون فى قتل الناس وإحراق بيوتهم ومزارعهم . كانت أخبار الثورة فى كل ميدان تصلنا بالميعاد ، عرفنا بما حل بحملة الجنرال «ميشو» وكيف مزقها أبطال الدروز شر تمزيق، وعرفنا أيضاً بفزع زهرة شبان دمشق من طلاب المدارس العليا يلتحقون بثوار الغوطة ، وهكذا كانت أخبار إخواننا الثائرين فى داخل البلاد من نساء ورجال ، وأخبار رجال السياسة منا البعيدين عن مواطن الخطر تصلنا منبئة بقيامها كلها متساندة متضافرة تعمل لجعل هذه الثورة هى الأخيرة للخلاص التام من حكم الأجنبى المستعمر

عملت ما فى وسعى لأقنع الأجناد الوطنيين تحت إمرتى أن نهرب بسلاحنا وميرتنا للالتحاق بإخواننا المجاهدين لتحرير الوطن وقبل انبلاج الصبح كانت دوابنا المثقلة بالأحمال على بضعة كيلومترات من مرابط الثوار، والفضل فى هربنا يعود إلى زملائى الضباط الذى أثقل « الحشيش » أدمغتهم تلك الليلة ...

... فى منتصف ليلة من الليالى ، سرنا بطوائف منظمة من الثوار نقطع الطريق على حملة من الفرنسيين جاءت لتطويقنا من ناحية الشمال . بلغنا الموقع الذى قدرت أن الواقعة ستقع فيه ، ووزعت رجالى توزيعاً يوهم العدو بكثرة عددنا ، وأوصيت بعدم الإسراف فى إطلاق الرصاص ليكون متواصلا ، ووقفت فى مكان مرتفع مع بعض زملائى نرقب الموقعة وندبرها . لم أر ولم أسمع فى حياتى عن موقعة التزم رجالها ضبط النفس والعمل بإقدام وشجاعة وحزم كتلك الموقعة التى كانت كأن الصخور والمتاريس وأكوام الحجارة ، هى التى تصد قنابل المدافع ، وهى هى التى تتفجر فتطلق النار فتصيب الهدف ، وكأن رجالنا الأبطال ليسوا من لحم ودم ، بل قدر محتوم ينزع أرواح المستعمرين إلخ .

حبيب الزحلاوى

سكك حديد الحكومة المصرية

صرف تذاكر مشتركة إلى الوجه القبلي بأجور مخفضة للسفر بها بالسكك الحديدية والمبيت فى عربات النوم والاقامة فى اللوكاندات

يتشرف مدير عام السكك الحديدية باعلان الجمهور أنه بموجب اتفاق مع شركة لوكاندات وجه قبلي وشركة عربات النوم قد تقرر إعادة صرف التذاكر المشتركة بمعرفة مصلحة السكك الحديدية للحكومة المصرية إبتداء من ١٥ يناير سنة ١٩٤٦ لغاية ٣٠ أبريل سنة ١٩٤٦ بأجور مخفضة للسفر بالسكك الحديدية والمبيت فى عربات النوم والاقامة فى اللوكاندات وتشمل هذه التذاكر الاقامة فى اللوكاندات يومين وليلة أو ٥ أيام و ٤ ليال أو ٧ أيام و ٦ ليال أو ١٠ أيام و ٩ ليال حسب الأثمان الموضحة بالتعريفة الموجودة بالمحطات وشركة عربات النوم والشركات المعتمدة لصرف هذه التذاكر.

أولا — تشمل أجرة التذكرة المشتركة ما يأتى : —

(ألف) أجرة السفر بالسكك الحديدية . (ب) أجرة المبيت بعربات النوم للدرجة الأولى فقط . (ج) أجرة المبيت باللوكاندات حسب الأجور والفئات المخصصة لكل درجة سواء أولى أو ثانية .

ملاحظة — يحصل بمعرفة اللوكاندات ١٠ ٪ خدمة و٥ ٪ عوائد بلدية .

ثانياً — التخفيض فى أجور السكك الحديدية بنسبة ٥ر٢٧ ٪ من ثمن تذكرتى الذهاب والاياب المفردتين . ثالثاً — كوبونات السكك الحديدية معتمدة لمدة ٢١ يوماً من تاريخ صرفها بمعرفة المحطات أو الشركات للسفر بها فى خلال هذه المدة ذهاباً وإياباً أي لغاية مساء اليوم العشرين وتتم السفرية فى اليوم الحادي والعشرين أى أن السفرية في الذهاب والاياب لا تتجاوز الـ ٢١ يوماً من تاريخ صرف التذكرة بأى حال من الأحوال والتذاكر التى تصرف فى المدة من ١٠ إلى ٣٠ أبريل تنتهى جميعها فى ٣٠ أبريل . رابعاً — مصرح لحاملى هذه التذاكر التخلف بمحطات البلينا وقنا لركاب الأقصر وبمحطات الأقصر وإسنا وأدفو وكوم امبو أيضاً لركاب أصوان حسب الموضح على كوبونات السفر، كذا التخلف بمصر للركاب القادمين من الاسكندرية أو بور سعيد أو بور توفيق . خامساً — على المسافر أن يقدم كوبون السكة الحديد للمحطة التى يسافر منها سواء فى الذهاب أو الاياب لختمها برقم وتاريخ القطار المزمع السفر به كل مرة وإلا تعتبر تذكرته لاغية ويلزم حاملها بدفع أجرة السفر والغرامة طبقاً لقانون المصلحة . سادساً — لا يمنح أى تخفيض فى أجور السكك الحديدية من الأقصر لأصوان لحملة التذاكر المنصرفة للأقصر فقط . وإذا رغبوا التوجه لأصوان يجب دفع الأجرة بالكامل.

سابعاً — بما أن المحلات الموجودة بعربات النوم واللوكاندات محدودة فيجب حجز هذه المحلات مقدماً بواسطة شركات السياحة أو بمعرفة الركاب أنفسهم . وعلى حاملى تذاكر الدرجة الأولى استبدال تذاكر عربات النوم قبل السفر من مكاتب شركة عربات النوم أو مكاتب الخواجة كوك وولده بكوبون مبينا به تاريخ السفر ورقم محل النوم المحجوز . ثامنا — إذا تصادف عدم وجود محلات بعربات النوم أو اللوكاندات وأقام الركاب باللوكاندات بأقل فئة فيجوز مطالبة اللوكاندات بالفرق وكذا شركة عربات النوم بمحطة مصر بأجرة النوم . يمكن الحصول علي هذه التذاكر من الجهات الآتية :

محطات مصر والاسكندرية وبور سعيد وبور توفيق وشركات السياحة المعتمدة وشركة عربات النوم وتوماس كوك وولده .

تاسعا — يجوز رد أثمان هذه التذاكر فى حالة عدم استعمالها أو استعمال جزء منها إذا تقدمت للمحطات فى خلال مدة اعتمادها بطلبات (تقدم من أصحابها للمحطات لتحويلها) للمراقبة لاجراء اللازم نحوها .

ملاحظات : (١) يجوز لحاملى كوبونات عربات النوم السفر بها فى عربات صالون بولمان عند سيرها بين مصر والأقصر فى الذهاب أو الاياب بدون تحصيل أو رد أى فرق . (٢) كوبونات السكك الحديدية المشتركة من بور توفيق إلى الأقصر أو أصوان وبالعكس يجوز استعمالها عن طريق الاسماعيلية أو الخط الصحراوى بدون تحصيل أى فرق . (٣) لزيادة الايضاح يستعلم من المحطات الموضحة أعلاه .

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٥٧ - الاثنين ٥ فبراير ١٩٤٦ - السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 657

Lundi —5—2—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العــدد ٦٥٧ « القاهرة فى يوم الإثنين غرة ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ٥ فبراير سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

هؤلاء الفرنسيون ...

للأستاذ سيد قطب

فى الوقت الذى تنال فيه قضية سوريا ولبنان عطفنا وعطف الجامعة العربية ، وتتمتع بالاهتمام الذى تستحقه من كل عربى ، توجد قضية أخرى لا تتمتع بهذا الاهتمام بالدرجة الكافية ... تلك هى قضية الشمال الأفريقى — الجزائر وتونس ومراكش — الذى ترتكب فيه الدولة الفرنسية أشنع مأساة يخجل منها المتحضرون .

والواقع أن أشنع ما ارتكبه الفرنسيون فى سوريا ولبنان ، لا يعد شيئاً بالقياس إلى ما يرتكبونه فى الشمال الإفريقى إلى هذه اللحظة . فلم تزد شناعاتهم فى سوريا ولبنان على فعلة حمقاء — جرياً على طبيعتهم فى تاريخهم الطويل — بالقبض على رئيس جمهورية لبنان ووزرائه ؛ ولم تزد على مؤامرة خسيسة دبروها لاغتيال أعضاء الوزارة السورية وأعضاء البرلمان فى أثناء اجتماعهم ؛ هذه المؤامرة التى فشلت لوقوع بيانات سرية فى أيدى الحكومة السورية قبل تنفيذ المؤامرة الخسيسة ! ثم ضرب دمشق بالقنابل مرتين فى خلال عشرين عاماً ...!

وهذه كلها بالقياس إلى ما يرتكب فى الجزائر ومراكش خاصة لا تعد شيئاً . وقد هزت شعورنا تلك الحوادث التى ارتكبت فى البلدين الشقيقين ، فمن حق ما يقع فى الشمال الإفريقى أن يثير نفوسنا وأن يدفعنا إلى التدخل الحاسم .

وأنا لا أتوجه بهذا الكلام إلى الجامعة العربية وحدها ، ولا إلى رجال السياسة فى البلاد العربية كذلك ؛ إنما أتوجه إلى ضمير الشعوب العربية جميعاً . فأنا على ضعف ثقتى برجال السياسة فى هذا الجيل لا أزال شديد الثقة فى الجماهير ، وفى ضمير هذه الجماهير ؛ وهو وحده الضمان لتقوية الجامعة العربية ودعمها ، ولدفع رجال السياسة مهما اعتور نفوسهم من الضعف والتردد .

فإلى هذا الضمير الشعبى العام أتوجه بالحديث .

ولكى لا أتهم بالتحامل فإنى أعرض على قراء العربية صورة لتصرف الفرنسيين فى الجزائر ليست من صنعى ولا من صنع كاتب عربى ، إنما هى من رسم رجل فرنسى شذ فكان له ضمير ! ولعله هو أيضاً ضمير مدخول ، فهو يكشف لأبناء وطنه عن شناعة الحكم الفرنسى فى الجزائر خشية أن يؤدى بهم هذا إلى فقدان الجزائر . فليس شعوراً إنسانياً هو الذى يدفعه إلى بسط سوء الحالة فيها ، إنما هو روح استعمارى بصير ، هدأت فيه الحماقة التى هى طابع السياسة الفرنسية التقليدى فى التاريخ !

هذا الكاتب هو المسيو « جان ميليا » من كبار الدبلوماسيين الفرنسيين ، وقد ضمن ملاحظاته هذه كتاباً باللغة الفرنسية نستعرض هنا مقتطفات منه نقلها إلى العربية الأستاذ « محمد عبد الكريم » ونشرتها مجلة « الشرق الجديد » .

«ضرب المؤلف الفرنسى مثلا مما يسميه مواطنوه الفرنسيون قانوناً بالجزائر ، بذلك القانون العجيب المسمى قانون الغابات .

« فالمستعمر الفرنسى يُمنح الأرض ليستغلها ، وهو يُعطى ما يختاره بسخاء بدون مقابل . وقد حدث مرة أن احترقت غابة يستغلها فرنسى ، وحامت الشبهة فى هذا حول الوطنيين ، فكان أن عمدت الحكومة إلى إصدار قانون ينص على أنه فى حالة احتراق أى غابة يملكها فرنسى ، فإن العرب المقيمين فى أقرب منطقة مجاورة للغابة يلزمون بدفع تعويض للمستعمر الفرنسى صاحب الغابة حسب ما يقرره حاكم المدينة .

« ويردف الكاتب الفرنسى ذلك بقوله : ومن يوم أن صدر هذا القانون أصبح شائعاً فى أوساط المستعمرين الفرنسيين أن من يصاب فى مشروعه بالفشل أو من يسوقه الحنين للعودة إلى بلاده فما عليه إلا أن يعمد إلى غابته يحرقها ، ويبلغ الحاكم ليشهد فى اليوم التالى إبلا وغنما وحميراً وخياماً وأقوات أهل القرية المجاورة تباع كلها فى السوق قسراً ، ليعطى ثمنها تعويضاً لذلك الفرنسى عن ضرر أحدثه هو بيده ! »

هذا ما قاله الكاتب الفرنسى ، أما الذى لم يقله فى هذا الصدد فهو أن المساحات الشاسعة من الحقول والبساتين تنزع ملكيتها من أيدى ملاكها العرب لتعطى إلى المستعمرين الفرنسيين حيث يطرد هؤلاء الملاك إلى البقاع المحلة ، حتى إذا راحوا يفلحونها بالجهد الشديد ويصلحون تربتها بسواعدهم وكواهلهم والبقية الباقية من أموالهم إلى أن تصبح صالحة للزراعة ... عاد الفصل السابق يمثل معهم من جديد فيطردون منها لتعطى للمستعمرين من جديد !

ثم يقول المؤلف الفرنسى :

« إن حق المواطن فى الجزائر يمنحه كل يهودى دون استثناء ولا يجوز منحه للمسلمين إلا لعدد قليل ممن يرى الحاكم الفرنسى منحه لهم : ولم ينتفع بهذا الحق حتى الآن من المسلمين أكثر من ألف وخمسمائة .

« وحرمان رجل أولى حقوقه العامة كمواطن لا لجرم سوى أنه مسلم هو أعجوبة الأعاجيب فى الأوضاع الدستورية ، حتى أن « بارتلمى » أستاذ القانون الدستورى بجامعة باريس لم يستطع كتمان تعجبه ، فهو يسائل مواطنيه فى مناقشته حق الانتخاب بكتابه الذى يدرس بالجامعات الفرنسية : إنا لنعجب للتفرقة بين مواطنين من بلد واحد ! كيف يمنح حق المواطن لأحدهما ولو كان من الرعاع لأنه يهودى ، ويحرمه الآخر ولو كان مؤهلا بالدكتوراه وحاملا لوسام جوقة الشرف ، لا لذنب إلا لأنه مسلم ؟ ! »

وينقل الكاتب الفرنسى فى كتابه شهادة كاتب فرنسى آخر هو « بليسيه دى رينو » حيث يرجع رينو « عدم تحقق الألفة بين الوطنى والفرنسى إلى ما يكنه ويبديه الفرنسى للجزائرى من مهانة واحتقار . فالمستعمر الفرنسى بل الحكام الفرنسيون يهبطون إلى أرض الجزائر مشبعين بفكرة وعقيدة لا تتزعزع ، هى أنهم بين أعداء ، وهم لهذا لا يبدون نحو العرب أى عطف أو حسن معاملة »

وينقل كذلك شهادة كاتب فرنسى ثالث هو « جوليوفيرى » « إن المستعمر يستبد بالوطنى أى استبداد ، وهو يستشعر العسف لا فى أقواله فحسب ، بل فى سلوكه الذى لا يرعى فيه للعرب حقاً ولا كرامة »

هذا ما قاله المؤلف الفرنسى وما نقله عن غيره . أما ما لم يقله ، فهو أن كلمة « عربى » هى من ألفاظ الشتائم والتحقير فى الاصطلاح الفرنسى ، فإذا شاء أن يشتم إنساناً أو يحقره نبزه بلفظ « عربى » !

وهذه حقيقة معروفة أضعها تحت أنظار العرب لينظروا فى رد هذه الإهانة عن أنفسهم باحتقار كل ما هو فرنسى - مهما اشتدت حاجتهم إليه - واحتقار كل من يخدع بفرنسا أو ينتمى إليها ، أو يرفع رأسه ليعجب بهؤلاء الذين يدعون أنفسهم متحضرين

أما الفرنسيون فى مراكش فهم الفرنسيون فى الجزائر — وفى كل مكان على ظهر هذه الأرض يبتلى باستعمارهم الوحشى .

بين يدى نشرة صغيرة وزعتها « رابطة الدفاع عن مراكش » فى ١١ يناير الماضى ، بمناسبة « ذكرى عيد الجهاد الوطنى » الذى بدأ فى ١١ يناير سنة ١٩٤٤ . وقد جاء فيها بأسلوب معتدل كل الاعتدال تحت عنوان « السياسة الفرنسية فى مراكش » ما يأتى :

« هناك مبدأ شعاره السيف والمحراث ، وهو مبدأ قديم ابتدع شعاره الكونت ديسلى منذ أوائل القرن التاسع عشر ؛ والسيف رمز لقهر أصحاب البلاد وإرهابهم ؛ والمحراث رمز لاستغلال كل الخيرات التى تشتمل عليها تلك البلاد ، وإذا أردنا أن نقلب العبارة من الرمزية إلى الصراحة قلنا : الإستغلال بالقوة !

« ومراكش اليوم مستغلة بالقوة بكل ما تحمل هـذه العبارة من معنى . وفرنسا حجر عثرة فى سبيل رخائها وتقدمها بأكثر مما فى هذه العبارة من معنى . ومبدأ العرقلة يتمثل فى كبت الحريات ، وعدم التشجيع على التعليم ، وعدم السماح بوجود صحافة حرة أو جمعيات حرة ، وغير ذلك من الحقوق البسيطة التى تتمتع بها أحط المستعمرات فى العالم . فالمثقف غريب فى مراكش لا عمل له ولا مستقبل . بينما يتقلب الجهال فى الوظائف العليا ؛ وبذلك يساعدون على بث الانحلال فى أداة الحكومة الوطنية . وسلطة الحماية تعرقل أيضاً كل ما من شأنه أن يغير أسلوب الحياة الإجتماعى . وهى لاتسمح للصحف العربية بالدخول إلى البلاد ولا تسمح للطبقة المثقفة بإصدار الصحف لتنوير عقول الناس . وهى تعرقل قيام المؤسسات الوطنية الإقتصادية . وهكذا لاتوجد وسيلة لعرقلة التقدم فى مراكش إلا تفنن هؤلاء الوظفون فى تنفيذها .

« أما سياسة السيف والمحراث أو الإستغلال بالقوة فهى تتمثل فى نزع ملكية الأرض من الأهالى وتوزيعها على المستعمرين الفرنسيين ؛ وفى تأسيس الشركات الإحتكارية التى تستحوذ على الصادرات والواردات ، وتهيمن على السوق ؛ وفى استغلال المناجم استغلالا لا تعرف عنه مراكش شيئاً ؛ وفى تسخير الأيدى العاملة بأجور زهيدة ؛ وفى إشعار رجل الشارع بأنه دون الفرنسى ؛ وفى فرض الضرائب الفادحة حتى أصبح المراكشى يدفع من الضرائب ما لا يدفعه أى شخص فى العالم ؛ وفى استغلال المياه الإقليمية والأنهار والغابات والمزارع وآبار البترول وكل الخيرات التى توجد فى هذه البلاد . وقد تمت سياسة الإستغلال هذه بشكل أصبح يهدد كيان البلاد الإقتصادى بالإفلاس »

هذا ماقالته مذكرة رابطة الدفاع عن مراكش . أما ما لم تقله — ولدىّ عنه أخبار وثيقة — فهو الوحشية البربرية المتبعة فى نفى الزعماء السياسيين وتعذيبهم واختيار أماكن اعتقالهم ، حتى أصبح معظمهم مريضاً بالسل . وهى وحشية مقصودة لتخويف الآخرين !

وليس لأحد أن يشك فى صحة هذه البيانات المراكشية ، فهناك مايؤيدها فى الجزائر بشهادة الكتاب الفرنسيين أنفسهم . فهى إذن سياسة واحدة تدل على هـذه العقلية البربرية التى تعيش بها فرنسا فى القرن العشرين فى ساحات شاسعة تستحق الإهتمام .

ومما يدل على الظلم والجحود أن هؤلاء الجزائريين والمراكشيين هم الذين نصروا فرنسا فى حربين متواليتين ؛ فكل الشجاعة التى يتشدق بها الفرنسيون فى معركتين كبيرتين فى هـذه الحرب والحرب الماضية — وهما معركة بئر حكيم ومعركة المارن — كان أبطالها هم الجزائريين والمراكشيين . أما الجندى الفرنسى — الذى يشيع المغرضون عنه خرافة الشجاعة — فقد تحطم وانهارت قواه وهو يدافع عن بلاده فى الحربين على السواء

معركة المارن كسبها « الفيلق الإفريقى » وكانت نقطة التحول فى الحرب العظمى . ومعركة بئر حكيم ثبت فيهـا الجزائريون واللبنانيون . ومعركة الصحراء الغربية كسبها جنود مستعمرة تشاد وإفريقية الإستوائية . أما الجندى الفرنسى فقد انهارت قواه أو استأسر استئسار الجبان فى كل مكان !

ثم تكون المكافأة التى يوحى بها الجحود لهؤلاء الذين نصروا فرنسا مرتين فى ربع قرن هى هذه المعاملة القاسية !

ولكن مما يعزى الشرق العربى أن فرنسا قد انتهت — على الرغم من كل تشبث لها بالبقاء — انتهت ، ومن واجب الشرق العربى أن يدق المسامير فى نعشها

وآية انتهائها هو هذا الجمود فى سياستها وعقليتها الاستعمارية ، بينما الآخرون يحاولون التجديد ، ولو فى الألفاظ والأساليب

ففرنسا قد استحالت أمة جامدة متمسكة بكل وضع قائم تمسك الغريق . كانت هى الأمة الجامدة المحافظة فى إلغاء الامتيازات بمصر بمؤتمر مونتريه . وكان هذا موقفها مع سورية ولبنان ، فلم تبرم معهما المعاهدة التى اتفقا عليها ، وكانت النتيجة أن فقدت نفوذها كله . وبالمثل كان موقفها فى هيئة الأمم المتحدة وهى تتمسك بالاستعمار والانتداب ولا تقبل كلمة « الوصاية » كما قبلتها انجلترا الماكرة المرنة اللعوب !

هو التحجر . وهو آية الفناء . فليعمل كل عربى مخلص على الإسراع بهذه النهاية السعيدة . وليكن اهتمامنا بالشمال الأفريقى العربى ضربة حاسمة فى دق المسمار الأخير .

سيد قطب

في إرشـــاد الأريب

إلى معرفة الاديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٢٥ —

ج ٢ ص ١٩٢ : جواب الخوارزمى (عن رسالة الهمذانى) : شريعة ودى لسيدى إذا وردها صافية ، وثياب برى إذا قبلها ضافية ، هذا مالم يُكدِّر الشريعة بتعنته وتعصبه ، ولم تحترق الثياب بتجنيه وتسحبه[1] ، فأما الإنصاف فى الإخاء فهو ضالتى عند الأصدقاء ، ولا أقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب   يرق ويصفو إن كدرت عليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والإخوان إخوان ، وحسن العشرة سلطان . ولكنى أقول : وإنى لمشتاق إلى ظل

رجل يوازنك المودة جاهداً   يعطى ويأخذ منك بالميزان

فاذا رأى رجحان حبة خردل   مالت مودته مع الرجحان

وقد كان الناس يقترحون الفضل فأصبحنا نقترح العدل ، وإلى الله المشتكى لا منه .

قلت : أغلب الظن أن الأصل (ما لم تكدر الشريعة ... ولم تخرّق الثياب) بالخاء لا بالحاء . وعجز البيت الأول هو : (يروق ويصفو إن كدرت عليه) والبيت الأول لأبى العتاهية ، وقبله :

عذيرى من الانسان لا إن جفوته

صفالى ولا إن صرت طوع يديه

والبيتان صوت ، فى الأغانى فى خبر :

« قال علّويه[2] : فدخلت إلى المأمون فأقبلت أرقص من أقصى الديوان ، وأغنى بالصوت (بالبيتين) فسمع المأمون والمغنون مالم يعرفوه فاستظرفوه ، وقال المأمون : ادن يا علويه ، وردّه[1] ، فرددته عليه سبع مرات ، فقال لى فى آخرها عند قولى (يروقُ) يا علويه : خذ الخلافة ، وأعطنى هذا الصاحب » .

وجواب الخوارزمى عن رسالة الهمذانى (وما أوردته هو قسم منه) لم أجده فى رسائل أبى بكر المطبوعة فى قسطنطينية سنة ١٢٩٧ كما لم أجد رسالة أخرى للخوارزمى رواها ياقوت[2] وذكرها الهمذانى فى حديث المناظرة المشهورة . وهذه الرسالة جواب عن رسالة للهمذانى[3] . ولا ريب فى أن الرسالتين هما للخوارزمى . وفقدها فى تلك الطبعة دليل على خلوها من غيرها .

يقول الإمام الثعالبى فى اليتيمة : أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى باقعة الدهر ، وعلم النثر والنظم ، وعالم الفضل والظرف ، وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة ، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والأدب والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة ، ويبلغ فى محاسن الأدب كل مبلغ ، ويغلب على كل محسن بحسن مشاهدته ، وملاحة عبارته ، وديوان رسائله مخلد سائر ، وكذلك ديوان شعره .

وفى (وفيات الأعيان) أبو بكر أحد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير[4] كان إماماً فى اللغة والأنساب ، وله ديوان رسائل وديوان شعر ، وكان يشار إليه فى عصره ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ ، مات سنة (٣٨٣) .

وجاء فى (بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة[5]) قال الحاكم : كان واحد عصره فى حفظ اللغة والشعر .

ذلكم أبو بكر الخوارزمى ، وتلكم منزلته ، فلن تخدع أحداً براعة (البديع) وشيطنته وشعبذته فى رسالته[6] ذات الأفانين

---

(١) قلت : تسحبه : تدلله فى اللسان : تسحب عليه أى أدل ، فلان يتسحب علينا أى يتدلل وكذلك يتدكل ويتدعب . فى الصحاح : تدكل الرجل أي تدلل ، والدكلة القوم الذين لا يجيبون السلطان من عزهم ، يقال : هم يتدكلون على السلطان أى يتدللون .

(٢) علويه : بالياء .

(١) المفصل : حركوا نحو رد ولم يرد بالحركات الثلاث ولزموا الضم عند ضمير الغائب ، والفتح عند ضمير الغائبة .

(٢) ج ٢ ص ١٨٨ و (رسائل بديع الزمان) شرح العلامة الشيخ إبراهيم الأحدب صـ ٣٣ .

(٣) ارشاد الأريب جـ ٢ صـ ١٨٦ و (رسائل بديع الزمان) صـ ٣١

(٤) هذا الجمع في كلام الأدباء واللغويين ، فى مقدمة المخصص : « أعيان رواتهم ومشاهير ثقاتهم » جـ ١ صـ ٩ .

(٥) يستدل من قول رواه السيوطى فى هذا الكتاب أن ياقوتاً ذكر الخوارزمى فى كتابه فى أخبار الشعراء

(٦) هى أجل رسائل الهمذانى وأعظمها .

فى تلك المناظرة . ومن يصدق أن الخوارزمى لا يعرف « أن للشاعر أن يرد ما لاينصرف إلى الصرف كما أن له رأيه فى القصر والحذف » ويجهل أن معنى « كند النعمة كفرها » ويقول : « ذئب غاض ... يأكل الغضا » وينظم « تسعة أبيات جمع فيها بين إقواء وإكفاء وإخطاء وإيطاء » فيقول البديع « لمن حضر من وزير ورئيس وفقيه وأديب : أرأيتم لوان رجلا حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قط[1] ثم أنشد هذه الأبيات فقط ، هل كنتم تطلقون امرأته ؟ فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ... » .

من يصدق هـذا الشيطان (بديع الزمان) فى الذى نمقه وزوقه ، وقد سمعنا قصته ، وغابت عنا مقالة خصمه وإن أيقنا بأن بداهة الفتى أعجزت روية الشيخ . ورسائل الخوارزمى تحقق قول الثعالبي وغيره فيه ، وتخبر بأن منشيها يفوق الهمذانى علماً وسعة اطلاع . وكلام أحمد بن الحسين الهمذانى ألطف وأرشق ، وكلام الخوارزمى أرصن وأدق ، وهو مسجع وكأنه مرسل .

ولأبى بكر رسالتان عجيبتان كتب الأولى إلى جماعة الشيعة بنيسابور ، وكتب الثانية إلى أبى الحسن البديهى الشاعر . وقد اشتملت كلتاهما على إشارات وأسماء كثيرة تدهشان القارىء ، وتطيلان تعجبه من تلك الإحاطة . وتشاكل الأولى فى الاستقصاء رسالة أبى العلاء فى تعزية خاله ابن سبيكة بأخيه[2] . وتشبه الثانية رسالة ابن زيدون إلى ابن عبدوس الملقب بالفار ؛ وهذه مشهورة ، شرحها ابن نباتة المصرى . والظن بل اليقين أن ابن زيدون قد وقف على رسالة الخوارزمى وقلدها واقتبس منها . ورسالة الأول أطول وأكثر تشعباً ، ورسالة الثانى أقصر ، والمقصد فى الرسالتين واحد ، وهو التقريع والتهكم . وهذه الإغارة — وسمها معارضة — لاتنقص شيئاً من مقدار ابن زيدون الشاعر الساحر والناثر القادر ، و « الذى رزق السعادة فى سعة العبارة » كما قال صاحب (الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم)[3] .

أوردُ من رسالة أبى بكر إلى جماعة الشيعة بنيسابور هـذه القطعة نموذجا ، وهى المقيدة ، وهى الخصومة ، وهو الخوارزمى الداهية يلغو (يتكلم) كما يهوى :

« ... وقل فى بنى العباس فانك ستجد بحمد الله تعالى مقالا ، وجل فى عجائبهم فانك ترى ما شئت مجالا . يجبى فيؤهم فيفرق على الديلمى والتركى ، ويحمل إلى المغربى والفرغانى ، ويموت إمام من أئمة الهدى وسيد من سادات بيت المصطفى فلا تتبع جنازته ، ولا تجصص مقبرته . ويموت (...) لهم أو لاعب ، أو مسخرة أو ضارب ، فتحضر جنازته العدول والقضاة ، ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاة ، ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً أو سوفسطائياً ، ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً أو مانوياً ، ويقتلون من عرفوه شيعياً ، ويسفكون دم من سمى ابنه عليا » .

ثم يَعلق الخوارزمى يقول ... ويجول ...

أخبرنى العلامة الأستاذ أمير البيان الأمير شكيب أرسلان أنه كان ينوى شرح هذه الرسالة . وقد ثناه عما نواه أن الشرح يشيّع ناراً أشعلتها المذاهب والمقالات ، ويزيد « الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً » تفريقاً[1] ، ويظلّم كبارا لم يكونوا ظالمين ، وكانوا خير مظاهرين لشائد هذا المجد . والأمير شكيب يستظهر رسائل الخوارزمى كلها ، ذكر ذلك فى إحدى مقالاته فى جريدة (المؤيد) يوم سأله أحد الأدباء كيف وصل فى الكتابة والأدب إلى هذه المرتبة العليا .

وهذه نتف من رسالة الخوارزمى إلى البديهى :

« ... كأنك لم تخلق إلا لتطمس عين النور ، وتقلب أعيان الأمور ، وتعكس البدعة سنة حتى كأن سوفسطا[2] استخلفك على جحد ما يدرك عياناً ، ويعرف إيقانا .

« ... ولو ذوكرت فى القائم[3] ادعيت أنه مضى ... ولو

---

(١) فى درة الغواص والقاموس ومغنى اللبيب تخطئة مثل هذا . وفى شرح الدرة للخفاجى : قد ورد ما يخالفه في كلام الناس وفى كلام الزمخشرى فى تفسير قوله تعالي (فمنهم مقتصد) إن ذلك الاخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط ، فاعمل فيه لا يبقى وهو مضارع .

(٢) رسائل أبى العلاء ص ١٠٧ .

(٣) ج ١ ص ١٧٨ . وهذا هو الاسم الصحيح للكتاب لا (الغيث المسجم) كما جاء فى الطبعة . وقد هدانى إلى التسمية الصحيحة العلامة الأستاذ صاحب (الرسالة ، الغراء .

(١) إنى أعم ولا أخص

(٢) حسب الخوارزمى تلك المقالة أو الطريقة الأغريقية شخصا .

(٣) يعنى المهدى عند إخواننا الامامية الاثنى عشرية ، وهو الآن فى الغيبة الكبرى . فى كتاب الغيبة للامام الطوسي ص ١٢٠ : .. عن الحسن بن الزياد قال سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام يقول : إن القائم لا يقوم حتى ينادى مناد من السماء تسمعه الفتاة فى خدرها ويسمعه أهل المشرق والمغرب وفيه نزلت هذه الآية : إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين .

ذكر أبو جهل حكمت له بالاسلام ، ولو مررت بإيوان كسرى استقللت بنيانه ، ولو رأيت إرم ذات العماد استصغرت شانه ، ولو خوطبت فى التراويح أخذت بابتداعها الشيعة ، ولو عد الاجبار والتشبيه ألزمت دينهما المعتزلة ، ولو حلم الأحنف بن قيس استخففت عقله ، واستعظمت جهله ، ولو تعجب الناس من بناء الهرمين أخذت تذكر انتقاصه ووهنه ... ولو فضل التوحيد أفردت به النصارى ... »

« لقد أعجبت بنفسك الخسيسة التى لا تستحق العجب حتى كأن كسرى أنو شروان حامل غاشيتك ، وكأن قارون وكيل نفقتك ، وكأن بلقيس ذات العرش العظيم دايتك ، وكأن مريم البتول أمتك ، وحتى كأن العود وجميع الملاهى وضعت لطربك ، وحتى كأن المريخ يستقى من صولتك ومضائك ، وعطارد يستمد من لطفك وذكائك ، وحتى كأن زرقاء اليمامة لم تنظر إلا بمقلتك ، وكأن لقمان لم ينطق بغير حكمتك ، وكأنك بنيت منارة الإسكندرية من آجرّ دارك ، وكأنك علمت زيادا السياسة ، وأفدت عبد الحميد الكتابة ، ولقنت يحيى بن خالد الفصاحة ، وألقيت على الحسن البصرى المحبة ، وعلى الحجاج بن يوسف الثقفى الهيبة ، وحتى كأنك زرعت غوطة دمشق ، وشققت أنهار البصرة ، وهندست كنيسة الرها[1] ، ووضعت قنطرة سنجة[2] ... وحتى كأن فضائل أمير المؤمنين على (عليه السلام) من فضائلك مسترقة . وحتى كأن خالد بن الوليد قاتل تحت رايتك ، وقتيبة بن مسلم فتح البلاد ببركة دعوتك ، وحتى كأنك وضعت التنويم لآدم بن يحيى ، وحللت الزيج[3] الأول ، وعدلت الطبائع الأربع ، وحتى كأنك كشفت لبطليموس الفلك حتى نظر إليه ، ومثلت لجالينوس تركيب الجسد حتى وقف عليه ، وحتى كأنك أورثت بنى أسد العيافة وبنى مدلج القيافة ، وعلمت شقا وسطيحا[4] الكهانة ، وحتى كأنك علمت حاتم بن عبد الله السخاء ، والسموءل بن عاديا الوفاء ، وقيس بن زهير المكر والدهاء ، وإياس بن معاوية الفطنة والذكاء ، وأخذ عنك سيف بن ذى يزن أخذ الثار ، والإدراك

(١) معجم البلدان : الرهاء بضم أوله والمد والقصر ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ .

(٢) معجم البلدان : سنجة : نهر عظيم . وعلى هذا النهر قنطرة عظيمة هى إحدى عجائب الدنيا وهي طاق واحد من الشط إلى الشط .

(٣) التاج : فى مفاتيح العلوم . الزيج كتاب يحسب فيه سير الكواكب وتستخرج التقويمات أعنى حساب الكواكب سنة سنة وهو بالفارسية زه أى الوتر ثم عرب فقيل زيج وجمعوه على زيجة كقردة .

(٤) فى مقالتى (شق وسطيح والقرآن وابن خلدون والعربانيون) فى الرسالة ٢٤٩ السنة ٦ — أثبت أن هذين لم يكونا قط ، وأن قصتها حديث خرافة .

بالأوتار ، وحتى كأنك لا أحد أعلم منك فأضرب به مثلا ، ولا أعلى منك فأجعله غاية وأمدا ، ومن شبهك به فقد رد الوصف إليك ، ووفره عليك ، والفرد لا يشبه بغيره ، والراجح لا يوصف بمن تقاصر عن رجحان قدره ... » .

« قد اتفق الناس على ضياع النسخة الأولى من كتاب العين فأمله علينا ، وأجمعوا على ذهاب قراءة أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود فأخرجهما إلينا ، وتخالف الناس فى المهدى وشكوا فى السفيانى وفى الأصفر القحطانى[1] فعرفنا متى يخرجون ؟ فانى أعلم أنهم إليك يختلفون ، وفى أمرك ونهيك مترددون ، وبمشورتك يغيبون ويحضرون . وآل أبى طالب قد علمت أنهم مسلوبون حقهم ، ومغصوبون إرثهم ، فتقدم إلى غلامك الدهر بأن يرفع رايتهم ، ويرد إليهم ولايتهم ... »

« ... إنى — وفقدك — فلا شيء أعز على منه ولا أحسن منه ما سمعت قول على بن جبلة فى أبى دلف :

إنما الدنيا أبو دلف   بين باديه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف   ولت الدنيا على أثره

إلا غضبت عنك عليه ، واعتقدت أنه سرق صنعتك ، وأعار أبا دلف مدحتك ، ولا سمعت قول ليلى :

فتى كان أحيا من فتاة حيية   وأشجع من ليث بخفان خادر

إلا قلت : فكيف لو رأت ليلى أخانا فتعلم دعواها من دعوانا ؟ أنت (رحمك الله تعالى) من أيدى هؤلاء الشعراء الكذابين مرحوم ، وفيما بينهم مظلوم ؛ سلبوك علاك وهى حلاك ، ونحلوها قوما سواك ، والمدح الكاذب ذم ، والبناء على غير أساس هدم ... »

أجتزئ بهذه النتف القصيرة القليلة من تلك الرسالة المتبجحة المتفننة الطويلة .

وللخوارزمى شعر كثير جيد ، منه هذه القطوعة فى نقد الألقاب فى زمانه :

مالى رأيت بنى العباس قد فتحوا   من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم   ما كان يرضى به (للدار) بوابا
قل الدراهم فى كفى خليفتنا   هذا فأنفق فى الأقوام ألقابا

وأختم الحديث عن أبى بكر بهذا الخبر الدال على فرط كلفه بالعلم : « قيل لأبى بكر الخوارزمى عند موته : ما تشتهى ؟ قال : النظر فى حواشى الكتب ... ! »

(١) ذكرت هؤلاء الثلاثة في مقالتى : (المهديون المنتظرون) ، فى الرسالة ١٩٢ السنة (٥) وفى كتابى : (الاسلام الصحيح) قلت ما قلته فى المهدى والمهدوية .

وأين صالحية مصر؟

للأستاذ أحمد رمزى

كتب الأستاذ على الطنطاوى مقالا فى عدد الرسالة الماضى تحت عنوان من « ذكريات بغداد » ، أشار فيه إلى صالحيتين فقال « بروحى صالحية دمشق وصالحية بغداد » ، ونسى صالحية مصر ، فسامحه الله — لذا جئت أذكره بها .

أما موقعها فعلى نهاية الخط الحديدى المعروف بها ، وكانت تربطها بالقنطرة سكة حديدية ، أقيمت أيام الحرب الماضية ، ثم نزعت قضبانها الحكومة المصرية لسبب لا يعلمه إلا الله ، وبقيت المحطات بين الصالحية والقنطرة أنقاضاً ، تذكر الناس بحملة فلسطين وأنفار السلطة ، وكانت القطارات تمر على الخط بعد منتصف الليل ، ولا يزال صدى صوت المجندين للسلطة وأغانيهم البريئة يرن فى أذنى ، حينما كنا صغاراً فيقطع نومنا الهادىء صفير القطارات العسكرية تحمل العتاد والرجال للجبهة فى شرق القنال .

وصالحية مصر ، فيها جمال الواحة وجمال الريف ، ولقد دخلتها وقت طلوع الفجر ، فأخذتنى روعة الصحراء ، ورأيت الرمال ممتدة الى نهاية النظر ، تلك الرمال التى قال عنها العرب : الجفار والغرابى والهبير ، وهى الواقعة وراء جبال طى إلى أرض مصر ، أما نخيلها فيبدو كغابة من غابات اقليم الشرقية ، التى ينفرد بها اقليم الحوف كما كان يطلق عليه قديماً ، إذا أتيت إليها من الغرب مشرقاً ، شممت لأرض الحوف نسيما أرق من نسيم الدلتا ، لأنه يحمل أريج الصحراء ، وإذا نظرت إلى نخيل الصالحية عند الشروق أوفى ليالى القمر ، شهدت منظراً لا تشبع العين منه ، وتحس فى صالحية مصر بالنشاط الذى يملأ النفس والجسد ، ويجعلك تفكر فى آفاق بعيدة فيما وراء النظر ، فيما وراء هذه الرمال ، حيث مشرق الشمس ومطلع سراج الدنيا . والصالحية من بناء سلطان عظيم ، هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، طيب الله ثراه ، أنشأها سنة ٦٤٤ هجرية ، على طريق القوافل بين مصر ودمشق ، لتكون منزلة لعساكر الاسلام ، إذا خرجوا من مصر للجهاد فى الأراضى المقدسة ، أو عادوا من الحرب إلى مصر ، وبنى بها قصراً وجامعاً وسوقا ، وكان ينزل بها ويقيم فيها ، ودخلها من بعده الكثير من ملوك مصر وأمرائها فى ذهابهم للفتوح وعودتهم منها ، ولذا تألق اسم الصالحية فى تاريخ مصر العربى ، وعرف صعيدها الكثير من العز والمجد ، وورد ذكرها فى مختلف التواريخ والسير .

وأهلها من صميم العرب ، لهم فى التاريخ المواقف الخالدة ، وكانت الرياسة فيهم ولا تزال إلى اليوم فى آل الحوت ، وهم فرع من بنى سليم [1] ، جاءوا مع السيد عزاز صاحب الجزيرة البيضاء ، وكانت هذه النواحى وماحولها من قديم الزمن وقبل بناء الصالحية منازل الجماعات من القيسية واليمنية ، وكان كبيرهم ربيعة بن قيس ، ورد ذكره إبان حوادث المأمون وأخيه الأمين ، فهو الذى تمسك ببيعة الأمين الخليفة العباسى ، وكانت مصر قد خطبت باسم المأمون وله عامل بالفسطاط ، فبعث برجل اسمه الجروى ، الذى سار فى جماعة من لخم وجذام إلى بلدة فاقوس ، فنزل مع قومه بها وكانت له مع قبائل البلاد وقائع وحروب .

وكانت هذه المناطق موطناً للعرب ، من بنى عمرو وبنى حرام وبنى عقبة وبنى زهير وبنى واصل والبقرية ، وهم الذين تفرقوا فى النواحى وعمروا القرى والبلاد ببطونهم وأفخاذهم .

ولما تم بناؤها أصبحت الصالحية من أهم منازل الدرب السلطانى الذى كان يربط قلعة مصر القاهرة بقلعة دمشق ، طوال الأزمان الماضية ، وقد وصفه المقريزى فقال انه كان عامراً إلى سنة ٨٠٦ هجرية ، وكان لايخلو من المسافرين لانه ممر البريد السلطانى بين العاصمتين . ولما جاء الفرنسيون رسموه على خرائطهم ووضعوا عليها أماكن الآبار ، وساروا فيه بجنودهم الى الشام وفى عودتهم إلى مصر .

ولقد قطعت الطريق بين مصر وفلسطين فى ذهابى إلى سوريا وعودتى منها مراراً عديدة ، وكنت أقطع القنال أحياناً من السويس وأحياناً من الاسماعيلية مخترقا سينا ، وكنت كلما لاح لى نخل القرين وأنا على مفترق الطريق قبل بلدة التل الكبير ، أذكر الدرب السلطانى القديم ، الذى كان يتجه من العباسة إلى بلدة القرين

(١) خطط على مبارك باشا .

ثم إلى الصالحية ، وأحدّث نفسى بالآمال فأقول « متى يعبّد للسيارات فتسير عليه » ، ومتى تهتم السلطات المختصة بالنواحى التاريخيـة ؟ أليس فى كل مرحلة منه ذكريات ، وفى كل محطة بريد أثر أو بقايا أثر ، يحدثنا عن ماضينا المجيد الذى يحاول البعض أن تنساه مصر ، وما كان لمصر أن تنساه .

وهـذا الدرب السلطانى يعرفه ابن بطوطة الرحالة المشهور فقد سار فيه وتحدث عن منازله ، ووصفها بقوله « ولـكل منزل منها فندق ينزل فيه المسافرون بدوابهم ، وبخارجه ساقية للسبيل وحانوت للشراء » وذكر الصالحية عند نزوله بها .

أما الشيخ عبد الغنى النابلسى فـكان أوسع وصفاً منه حينما تناول الصالحية بكلامه ، فقال « وفى داخل القرية جامع السلطان قايتباى وعمارته متينـة ، له إيوان عريض فيه المنبر والمحراب وله منارة عظيمة . . . وأهل الصالحية حارتان متميزتان فى الألفاظ والمعانى فنهم القيسى الأحمر واليمنى الأبيض »

ولو شئت دليلا على قيام القيسية واليمنية بقرى مصر ، فاذهب اليوم إلى بلدة السماعنة من قرى فاقوس ، تجد فتياتها لايتخذن غير اللون الأبيض لخمارهن ، واذا جئت لجزيرة سـعود وجدت نساءها يلبسن الحزام الأحمر ، ولا تعرف واحدة منهن شيئاً عن النزاع القديم الطويل الأمد بين اللونين ، والذى يمـكن تتبعه من خراسان الى ماوراء النهر فى أواسط آسيا والعودة به الى أيام الجاهلية ، والتحدث عنه فى الجزيرة الخضراء أى بأرض الأندلس .

ونعود إلى الصالحية فنقول إن موقعها على طرف الأراضى الزراعية وعلى حافة الصحراء ، قد جعل منها مركزاً هاماً لتجمع وحشد الجيوش الإسلامية فى القرون الوسطى ، حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية ، فورد اسمها كثيراً فى حملات ملوك مصر ضد هولاكو وأبنائه وأحفاده ، وكانت لها شهرة تاريخية بتوالى هذه الحروب ، وتتابع الأحداث التاريخية والمواقف الرائعـة التى حدثت بها .

فنى سنة ٦٥٦ هجرية دخل هولاكو بغداد مقتحما الجزء الغربى من بلاد المسلمين فقضى على خلافتهم ، وكان جدّه قد سبقه عام ٦١٨ فدمّر الأجزاء الشرقية من أرض الإسلام فى بخارى وسمرقند والرى ، فأراد أن يتم عمله بتدمير مصر والشام ، ولذا زحف على حلب واستولى عليها ، وبعث برسالة إلى سلطان مصر الملك المظفر ، يهدّد ويتوعد ، وسار إلى دمشق ففتحها ، وكان المظفر من أبطال المسلمين ، فلم يرهبه التهديد ولا الوعيد ، وكانت جيوش هولاكو لا تقهر ولم يسبق لقوة فى العالم أن هزمتها أو صمدت أمامها ، فاكتسحت بقية الشام ووصلت طلائعها إلى غزة فقام المظفر يدعو إلى الجهاد ، واتخذ الصالحية مركزا تجتمع فيه الجيوش المصرية ، وكان الناس فى قلق وخوف ووجل ، حتى هاجر الـكثيرون إلى بلاد اليمن وبرقة والنوبة ، ولما تكامل حشد الجنود فى معسكر الصالحية ؛ طلب السلطان الأمراء وتحادث معهم بشأن الرحيل لقتال هولاكو وجنوده ، وكان الرأى الغالب أن جيش التتار لايقاوم ولا يدفع ، فلم ينطق أحدهم بكلمة واحدة بل امتنعوا عن الـكلام فاحتد السلطان وقال لهم « يا أمراء ، لـكم زمن تأكلون أموال بيت المـال وأنتم للجهاد كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع لبيته ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين » ولما جاء الليل ركب المظفر وقال « أنا ألتى التتار بنفسى » .

فقويت العزائم وسار الأمراء معه وتحرك الجيش إلى الشام ، والتقى الجمعان فى يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هجرية بأرض فلسطين ، فى بلدة عين جالوت وهى المعركة التى صرخ فيها السلطان ثلاثاً « وا إسلاماه » فمن الله بالنصر المبين عليه ، فخلصت الشام ونجت مصر .

كان هذا الجمع فى النصف الأخير من شعبان سنة ٦٥٨ بالصالحية ، وكنت كلما قرأت عنه فى المراجع ؛ أحدّث نفسى : متى أرى نصباً تذكارياً على ربوة عالية ، فى ميدان متسع ، يذكر الناس ويوحى إلى الأجيال القادمة ، بهذه الوقفة الرائعة به وهذه كلمة واحدة قد غيرت تاريخ الشرق ولو صدر مثلها من ملك من ملوك أمة من بعض الأمم لنقشوها على الأحجار وللقّنوها للاحداث والنشء عندهم ، وليس هناك أحق من الصالحية فى نظرى بمثل هذا الأثر ، الذى يعلم الناس ما يجهلون من آيات تاريخهم ، لأن على أرضها قيلت هذه الـكلمة الفاصلة .

ويطول بنا الـكلام إذا تحدثنا عن كل ملك نزل بها وأقام فيها ، ولـكنى أكتفى بمناسبة سارة . فنى يوم الإثنين ٣٠ المحرم

سنة ٧٠١ عاد الناصر محمد بن قلاوون من الصيد بالبرّية إلى معسكره بالصالحية ، وكانت هناك بعثة من قازان ملك التتار من سلالة هولاكو ، فخلع السلطان على الأمراء واستعرض الجيوش ، فدهش السفراء من زى عساكر مصر واستعدادهم ، وقال المقريزى « إن الرسل أدخلوا إلى الدهليز السلطانى بالصالحية بين يدى السلطان، وقد أوقدت الشموع والفوانيس والمشاعل وغيرها ،حتى أن البرّية أصبحت حمراء تلتهب نوراً وناراً ، فخلع عليهم وأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم» وانصرفوا بكتاب من الملك الناصر.

ومثل هذا كثير لو تناولناه بالجمع فى تاريخ الصالحية لأخرجنا كتاباً عنها ، ولكنها نظرات عابرة فى حياة بلدة أعزها ولها مكانة فى نفسى ، أكتبها لعلمى بأن البلدان والرسوم والاطلال مثلها كمثل الرجال تتكلم أحياناً ، وتوحى عن ماضيها ولا سيما إذا حفل هذا الماضى بعظائم الأمور .

ونزلها آخر ملوك مصر المستقلة ، السلطان الغورى فى يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هجرية ، ولما أراد الرحيل أذن للخليفة الإسلام وللقضاة الأربعة أن يتقدموه إلى غزة . وكانت رحلة بعيدة عن السعد ، اختتمت بها مصر حياتها الحرة ، فانتهى عهد وبدأ بها عهد ، وجاء ذكر الصالحية فى تاريخها كنغمة غير مسموعة ، وسط قطعة موسيقية مملوءة بنغمات أقوى ، ولكنها كانت للأسف نغمات الحزن والأسى والدموع ...

هذه صالحية مصر ، أشير إليها كى يذكرها الناس فى وقت نسى الناس فيه كل شىء ، وتقرر الحكومة المصرية فيه إنشاء مركز جديد ، يقتطع من أراضى مركز فاقوس ، فتقلب جميع الأوضاع ، وتدرس مختلف الأسماء ، وشتى القرى والبلاد ، وتنسى الصالحية ، كما نسيها الأستاذ الطنطاوى سامحه الله — وأجتهد أن أذكر الناس بها ، وأحاول ذلك المرة بعد المرة ، فلا يسمع لى أحد ، ولكن الصالحية هى من بناء ملك عظيم ، وكانت من منازل عظماء الملوك ، ومنها خرجت جيوش الإسلام وعادت إليها منصورة . فكم منا من يعرف ذلك ويذكره ! وكم من أهلها يعرف أن هذا الثرى الذى يمشون عليه ، حمل أعلام العز والمجد والقوة والعمل فى سبيل الله ؟ لن يضيرها أن تتجاهلها وزارة الداخلية ولكن يضيرها أن ينساها الناس ولا سيما أهلوها .

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

المختار

فبراير ١٩٤٦

[إقرأ أمتع ما يكتب وخير ما ينشر]

العلامة اينشتين يبحث القنبلة الذرية : إذا كانت القنبلة الذرّية سلاح الحرب المقبلة فقد يكون فيها القضاء على ثلثى البشر وفى هذا الحديث ترى أينشتين يبين لمَ يمتنع عن إفشاء سرّها للاتحاد السوفييتى ، ولِمَ يرضى أن يبيحه لحكومة عالمية .

***

لماذا تختلف على النفس فترات « النشاط » و « الفتور » ؟

لِمَ تشعر يوماً أنك متوفز الأعصاب سريع الغضب ، أو فاتر النفس مسترخى القوى ؟ ثم لمَ تشعر فى يوم آخر بنشاط جمّ ومرح فلا يزعجك مزعج ؟ هذا بيان عما كشفه العلم من أدوار فى العواطف تتعاقب على النفس ، وكيف تستطيع أن تنتفع بما كشف .

***

القضية الكاملة : اعترف الأفّاق بأنه قتل الأب داهم ، وتعرّف عليه الشهود ، وتتبع رجال المباحث الرصاصة القاتلة إلى مسدسه . ولكن رئيس النيابة الذى ترافع فى القضية ، أقام الدليل على براءة الرجل الذى كان ينبغى له أن يدينه . فلماذا فعل ؟ قصة قضية رائعة أصبحت تروى وتدرس فى مدارس القضاء والبوليس

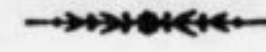
***

باب الكتب : قضية السلام : بحث فى الأخطار التى تحفّ بالسلام قائم على مواجهة الحقائق ، ويبين فيه مؤلفه كيف عجزت الرأسمالية والاشتراكية عن توطيد السلام ؟ وكيف يفضى الأمر بهما إلى انتحار الحضارة إذا تسلمتا الزمام مرة أخرى ؟ هذا هو الجزء الأول من كتاب ، عسى أن يصبح أبعث ما نشر فى المختار إطلاقاً على المناقشة واحتدام الآراء . ١٤٤ صفحة **٣ قروش**

من أخلاقنا :

الأمـــانة ... !

للأستاذ على الطنطاوى



جعل النبى صلى الله عليه وسلم للمنافق آية يعرف بها بين الناس، ومن آياته أنه إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان. وهذه الثلاث أركان الحياة الخلقية الاجتماعية ، وتضافرت الآثار على ذم الكذب وأهله ، ومدح الصدق وأهله ، وبيان خطر الأمانة وأنها عرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وهن َّ كن َّ أقوى عليها، وحملها على ضعفه الإنسان ... وإن المسلم ربما ألم َّ ببعض الذنوب ولكنه لا يكذب أبداً ، كما جاء فى الحديث .

ثم إنك مع ذلك كله تجد المنتسبين إلى الإسلام اليوم ، من أرباب الصناعات وأهل السوق ، أكذب لهجة ، وأخلف وعداً ، وأضيع لأمانة من كثير ممن ليسوا مسلمين ، حتى صار المثل يضرب بالوعد الشرقى فى خلفه وإضاعته والتأخر عنه ، وصار من يريد أن يؤكد وعداً يصفه بأنه (وعد أوروبى) !

اللهم إن هذا لمن العجب العجاب ! !

***

إن الله بيّن خطر الأمانة ، وأنزلها هذه المنزلة ، وخوّف من حملها لأنها جماع الأخلاق ، وسلكة عقد الفضائل ، وعمادها ، فما من شعبة من شعب الأخلاق والخير الإجتماعى الا اليها مردّها ، وماخصلة من خصال الشر إلا والخيانة أساسها وحقيقتها ، وليست الأمانة هى أن تحفظ الوديعة حتى تؤديها إلى أصحابها (فقط) ، فان هذه صورة من صورها ، وشكل من أشكالها ، وإن السلطان فى يد الموظف أمانة ، فان وضعه فى غير موضعه ، أو اتخذه وسيلة إلى جلب منفعة له أو لأسرته أو لأصحابه فقد خان أمانته ، والدرجات أمانة فى يد الأستاذ الممتحن يوم الإمتحان، فان أعطى منها واحدة لغير مستحقها أو منع واحدة من يستحقها أو راعى فى منحها شفاعة أو صداقة أو بغضاً أو موجدة فقد خان أمانته ، والقدرة على الحكم أمانة فى يد القاضى فان زاغ عن الحق شعرة فقد خان ، والعمل أمانة فى يد الأجير المستصنع ، فمن قصر فى تجويده أو أفسد فيه شيئاً ولو كان الفساد خفياً لا يظهر فقد خان ، واعتقاد الناس بك الصلاح والتقى أمانة فى يدك ، فان اتخذت هذا الاعتقاد سبباً إلى جمع المال ، وعملت من لحيتك العريضة وعمامتك المنيفة شبكة لاصطياد الدنيا ، أو كتمت الحق ابتغاء الحظوة عند العامة أو الزلفى إلى الحاكم فهى خيانة ، إلى غير ذلك من الصور والأشكال .

بل إنك إذا دققت وتلطفت وجدت هذه الجوارح التى أعطاكها الله أمانةً فى يدك ، فإذا نظرت بعينك إلى حرام أو حركت به لسانك أو خطوت اليك برجلك ، أو مددت اليه يدك ، فقد خنت أمانتك ، بل إن عمرك كله أمانة لديك ، فلا تنفق ساعة منه إلا فيما يرضى (صاحب الأمانة) !

فأين المسلمون اليوم من هذا ؟

لقد رأيت من قلة الأمانة ، عند الصناع والتجار والعلماء والجهلاء ومن يظن ّ به المغفلون الولاية ويرونه قطب الوقت [1] ما لا ينتهى حديثه ولا العجب منه ، وما خوفنى الناس أن أعاملهم ، حتى جعلنى أحمل همّا كالجبل ثقلا كلما عرضت لى حاجة لا بد فيها من معاملة الناس ، ولا والله لا أتألم من اللص يتسور على ّ الجدار ويسرق الدار ، كما أتألم من الرجل يظهر لى المودة ويعلن التقى ، فاذا كانت بينى وبينه معاملة ، وتمكن منى أكلنى بغير ملح ... وتمرق عظامى !

تذهب إلى الخياط الحاذق الذى ألفته وألفك واستمررت على معاملته عمرك ، والخياط من شرور المدنية لا يستغنى اليوم عنه ، وقد انقضى زمان كان الرجل فيه يخيط لنفسه أو يخيط له أهله . وكان الثوب يتخذ فيه لمجرد الستر والدفء ، ولم يبق لك منجى من أن تؤم الخياط تحمل اليه (الجوخ) الثمين ، وتسأله أن يضرب موعداً لا يخلفه ينجز لك فيه ثوبك الذى تريده للعيد أو للزفاف أو للسفر . ولكل واحد من أولئك وقت لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فالعيد لا ينسأ لك فى أيامه ، والزفاف ان أعلنته لا يؤجل ، فيعدك

---

(١) حكاية القطب والأوتاد لا أصل لها فى نقل ولا عقل ، ولم يرو فى ذلك إلا حديث ضعيف فى (الابدال) لا يثبت بمثله حكم ، فليفهم ذلك

ويؤكد الوعد ، فاذا جئت فى اليوم الموعود وجدته لم يمس بعد قماشك ، فاذا زجرته أو أنبته أخذك باللين وراغ منك وحلف لك مائة يمين غموس ... إنه نسى أو مرض ، أو إنه لم يعدك فى هذا اليوم ولكن كان (سوء تفاهم) ، وإنك راجع فى يوم كذا فواجد ثوبك معداً ، وتعود ويعود إلى كذبه ، حتى يمضى العيد أو الزفاف ، ولا يبقى للثوب فائدة ، وربما جعله قصيراً أو ضيقاً أو معتلا أو مضاعفاً أو مجوفاً ... أو على خلاف ما استصنعته عليه ولا حيلة لك فيه ، ولا سبيل إلى إصلاح مافسد ، فتلبسه مكرهاً أوتلقيه فى دارك حتى تأكله (العثة) والأرضة ...

وهذه الحال من اخلاف المواعيد ، واختلاق الأكاذيب ، عامة فى أرباب الصناعات فى بلادنا لم ينج منها الا الأقل الأقل ممن عصم ربك . ولقد وقع لى أنى كنت على جناح سفر إلى العراق ، وقد أعددت له كل شىء ، واتخذت لى مكاناً فى السيارة ولم يبق إلا يوم واحد فخطر لى أن أبعث إلى الكواء(١) بحلتى الجديدة لكيّها حتى إذا نزلت بغداد لبستها صالحة ، وبيّنت له استعجالى ونفضت إليه قصة حالى ، ونهيته أشد النهى عن غسلها ، لأنه يفسدها ويؤخرنى عن غايتى ، فما كان منه إلا أن غسلها ، طمعاً بفضل أجرة ينالها ، فأفسدها وجعلنى أسافر وأدعها ...

وآخر من الكوائين غسل معطفى بصابون له مثل رائحة الخنازير الأهلية ... فلم أستطع لبسه وحملته إليه ووبخته ، فما كان منه إلا أن أنكر أن يكون له تلك الرائحة (وإنها لتشمّ من مسافة فرسخ) ، وقلت : شمّها أليس لك أنف ، فشمها بمثل خرطوم فيل . وقال : ما بها شىء ! فكدت أنشق من غيظى وقلت لجماعة عنده : شموا بالله عليكم . فمدوا أنوفهم إليها ونظروا إليه ، وقالوا بلسان واحد مثل مقالته ... فاضطررت إلى أن أخرج فأدفع الثوب إلى فقير وإنى لفقير إلى مثله !

واحتجت مرة إلى عامل يصلح لى طائفة من المقاعد ، أستقبل عليها ضيفى وأكرمها زوارى ، وهى وحدها التى أخشى اللصوص عليها ، لأنها خير ما فى الدار ، حاشا الكتب ، فدلونى على رجل له دكان ظاهر فى شارع كبير ، وفوقه لوحة كتب عليها اسمه وصناعته ووصف براعته وأمانته ، فأنست به وكان كهلا مشقشق اللسان ، وأخذته فأريته المقاعد واستأجرته لإصلاحها ، ودفعت إليه أكثر الأجرة مقدماً ، وتركته ووكلت أخاً لى صغيراً به ، وذهبت إلى عملى لم أرجع إلا المساء ، فوجدت الرجل قد بعج بطون الكراسى وأخرج أحشاءها ، وكسر عظامها وأرجلها ، ولم يقدر على إعادتها سيرتها الأولى لأنه جاهل بالصناعة ، فهرب وذهبت أفتش عنه حتى قبضت عليه ، وأعدته إلى الدار ، فاجتهد جهده ، فكانت غاية ما استطاعه أنه جعل من مقاعدى المريحة آلات التعذيب ، ومقاعد للأذى ، إن لم يشق ثوب القاعد عليه مسمار ظاهر منها ، ثقبت ظهره خشبة بارزة ، أو كان مجلسه على أحدّ من شوك القتاد ، وقبض الأجرة كاملة غير منقوصة ...

ولو شئت أو لو شاء القراء لسردت ثلاثين واقعة ، ما هذا الذى ذكرت بأشدّ منها ولا أعجب ، فأين تقع الأمانة من نفوس هؤلاء الذين يدعون أنهم من المسلمين .

* * *

وكيف أصنع إذا كان هؤلاء (المسلمون) لا يوثق بهم ، ولا يطمئن إليهم ، أأعامل الأرمنى والرومى والصهيونى وأقاطع بنى دينى ووطنى ؟

أما إنه لخطب جسيم — فماذا تصنع المدارس ومعلموها ، والمساجد وواعظوها ، والصحف وكاتبوها ، إذا لم يعلنوا على الخيانة حرباً لا هوادة فيها ولا مسالمة حتى يكون النصر عليها ؟ وكيف لعمر الحق يكمل لنا استقلال ، أو تتم سيادة ، أو نجارى شعوب المدنية ونسابقها ، إذا لم تسد الأمانة فينا ، وإذا كان الواحد منا لا يستطيع أن يطمئن إلى أخيه ولا يعتمد على أمانته ؟ وإذا كنا نقلد الغربيين فى الشرور فلماذا لا نقلدهم فى الصدق فى المعاملة والوفاء بالوعد ، والاستقامة فى العمل ؟

أما إن من أشكال الأمانة وصورها ، أن القلم المتين ، واللسان البليغ ، أمانة فى يد الكاتب والخطيب ، فإذا لم يستعملاها فى إنكار المنكر ، والأمر بالمعروف ، والدعوة إلى الإصلاح ، كانا ممن خان أمانته ، وأضاعها ، وفرّط فيها ... فلينظر لنفسه كل كاتب وشاعر وصحفى وخطيب !

(دمشق) **على الطنطاوى**

(١) أى المكوجى

صور من العصر العباسى :

القرية الفضـــية . . .

للأستاذ صلاح الدين المنجد

هذه القرية ، هى إحدى عجائب العصر العباسى فى بغداد . وما أكثر ما كان فى زمن العباسيين من عجائب ! وكانت قرية من فضة ، وفيها كل ما تجـد فى القرى من بقر ، وغنم ، وجمـال ، وجواميس ، وأشجار ، ونباتات ، ومساح ، وناس ، وكل ذلك قد صنع بأدق صنعة من الفضة ، وأنفق عليه آلاف من الدراهم . وكانت هـذه القرية قد صنعت للخليفة المقتدر ، ليرى كيف تـكون القرى ، وأغلب الظن أنه اشتهى رؤية قرية فصنعت هذه له .

وقد نعجب بالحضارة الإسلامية التى بلغت فى القرن الرابع نضجها فأبدعت أشباه هذه الأشياء . وقد يدهشنا ما أنفق هذا الخليفة من الأموال ، لتصنع له هذه القرية ، ولـكن الذى يدعو إلى العجب والدهشة معاً ، قصة هـذه القرية ، وأثر النساء فى مصيرها .

وهذه القصة جـديرة بأن تـكون خاتمة لمقالى السابق عن حكومة النساء لدى الخلفاء فى زمن بنى العباس .

ذلك بأن أم المقتدر ، — وكان لها من الشأن ما علمت — كان لها داية تخدمها تسمى « نظم » وكانت نظم بارعة ذكية ، فما زالت حتى صارت من قهارمها ، وصارت تجرى على يديها الـكبير من الأمور والصغير ، وكانت نظم ترغب فى رجل اسمه أبو القاسم يوسف بن يحيى ، فرفعته ، وانتهت به إلى أسنى الأرزاق وأوسع الأحوال ، وقربت بينـه وبين السيدة حتى أخرجت له الصلات ، فتأثلت حاله ، وصار صاحب عشرات ألوف من الدنانير ثم خلطته بخدمة السيدة الأم ، فزاد منها تقرباً .

وعزم أبو القاسم هـذا ، على تطهير ابنه يوماً ، فأعد لوليمة الختان عدة كبيرة ، وأنفق على ذلك ما لم يسمع أن فعل مثله رجل من الحاشية ، حتى إنه لـكثرة ما ابتاع من الحاجات أفرد عدة دور للحيوان ، وعدة دور للفاكهة ، وبلغ « نظم » خبره ، فسمعت عند السيدة الأم وجاءته من عندها بالأموال والفرش والآنية والثياب والمخروط (وهو نوع من الزجاج) ، فلما مضت أيام سألت السيدة نظما : يا نظم إيش خبر طهر ابن يوسف ؟ قالت : يا ستى قد بقيت عليـه أشياء يريدها ، فقالت : خذى ما تريدين واحمليه إليه ، فجاءت نظم إليه فقالت : إن كان قد بقى فى نفسك شىء ، فعرفنى . فقال لها : الختان غداً ، وما بقى فى نفسى شىء إلاوقد بلغته بك ، وقد بقى فى نفسى شىء لست أجسر على مسألته. قالت : قل ما فى نفسك . قال : أشتهى إعارة القرية الفضية التى عملت لأمير المؤمنين ليراها الناس فى دارى ، ويشاهدوا ما لم يشاهدوا مثله ، فيعلموا مالى من الإختصاص والعناية . فوجمت ، وقالت هـذا شىء عمله الخليفة لنفسه ، ومقداره عظيم ، وفى هذه القرية مئات الألوف من الدراهم ، ولا أحسب جاهى يبلغ إليها . وكيف يستعار من خليفة شىء ؟ ومتى سمع بخليفة يعير ؟ ولـكن أنا أسأل السيدة . ومضت .

قال أبو القاسم : فلما كان الليل جاءتنى ، فقلت ما الخبر ؟ فقالت كل ما تحب ، قد جئتك بالقرية هبة لا عارية ، وجئتك معها بصلة ابتدأ بهـا أمير المؤمنين من غير مسألة أحد . فقلت ما الخبر ؟ قالت : مضيت وأنا منكسرة القلب ، آيسة من أن يتم هذا . فدخلت على السيدة ، على هيئتى تلك . فقالت من أين ؟ قلت من عند عبدك يوسف ، وهو على أن يطهر ابنه غداً . قالت أراك منكسرة ، قلت : ببقائك ما أنا منكسرة . قالت : ففى وجهك حديث ، فقلت : خير ، قالت : بحياتى عليك ، ماذاك ؟ قلت : قد شكر ماعومل به ودعا وقال إنى كنت أحب أن أتشرف بما لم يتشرف به أحد قبلى ليعلم موضعى من الخدمة . قالت :وماهو؟ قلت : يسأل أن يعار القرية ليتجمل بها ، ويردها من غد . فأمسكت . ثم قالت : هذا شىء عمله الخليفة لنفسه ، كيف يحسن أن يرى فى دار غيره ؟ وكيف يحسن أن يقال إن الخليفة استعار منه بعض خدمه شيئاً ثم استرده منه ، وهـذا فضيحة . وليس يجوز أن أسأله هبتها له لأنى لا أدرى إن كان قد ملها وشبع منها أم لا ؟ فإن كان قد ملها فقيمتها عليـه هينة . وإن كان لم يملها لم أرض أن أفجعه بها ، وسأسبر ما عنده فى هذا .

ثم دعت بجارية فقالت : اعرفوا خبر الخليفة ، فقيل لها هو عند فلانة ، فقالت (أى لنظم) تعالى معى ، فقامت ، وأنا معها وعدة جوار حتى دخلت ، وكانت عادته إذا رآها أن يقوم لها قائماً ، ويعانقها ، ويقبل رأسها ، ويجلسها معه فى دسته (قالت نُظم) : فحين رآها قام وأجلسها معه ، وقال : يا ستى — وهكذا كان يخاطبها — ليس هذا من أوقات تفضلك وزيارتك ! فقالت : ليس من أوقاتى . ثم حدثته ساعة ، وقالت : يا نظم متى عزم ابنك يوسف (!) على تطهير ابنه ؟ قلت . غداً . فقال الخليفة : إن كان يحتاج إلى شىء آخر أمرت به . فقالت : هو مستكف داع ، ولكن قد التمس شيئاً ما أستحسن خطابك فيه . قال أريد أن أشرف على أهل المملكة كلهم ، ويرى عندى ما لم ير فى العالم مثله . قال : وما هو ؟ قالت : يا سيدى يلتمس أن تعيره القرية ، فإذا رآها الناس عنده ارتجعت . فقال يا ستى ، والله هذه ظريفة ! يستعير خادم لناحيتنا ، وتكونين أنت شفيعة ، فأعيره ثم أرتجعه ، هذا من عمل العوام لا الخلفاء . ولكن إذا كان محله من رأيك هذا ، حتى قد حملت على نفسك بخطابى وتجشمت زيارتى ، وأنا أعلم أنه ليس من أوقات الزيارة ، فقد وهبت له القرية ، فرى يحملها بجميع آلاتها إليه ، وقد رأيت أن أشرفه بشىء آخر ، يحمل إليه غداً جميع وظائفنا ، ولا يطبخ لنا شىء البتة ، بل يرسل إليه ، ويؤخذ لنا سمك طرى فقط .

وأمرت السيدة بنقل القرية ، فتملكها أبو القاسم (١) .

***

فهذه قصة بسيطة ، على أن فيها كثيراً من حياة القصر زمن المقتدر ، وهى تبين لنا طرق الكلام ، والمحادثة ، وطرق تآمر النساء على الخليفة ، وطرق تبذير الأموال . على أن أعظم هذه الأشياء كلها ، هو تأثير نظم والسيدة فى الخليفة ، وانقياد هذا الخليفة للنساء ، وتركه الأمور لهن يصرفنها كيفما شئن وأردن .

دمشق **صلاح الدين المنجد**

(١) : انظر هذه القصة فى المنتظم لابن الجوزى ص ٧٤ ج ٦ (طبعة الهند)

في الأدب الانجليزي :

ماثيـــو أرنولد

Mathew Arnold

للأستاذ خيرى حماد

(تتمة)

ولكن إذا كان الناس ينظرون للشعر هذه النظرة العظيمة ، أليس من الخليق بهم أن ينهضوا به نهضة عظيمة ، ويعلوا من شأنه إعلاء لا يجارى . أليس من الحرى أن يبوئوه مكانة بين العلوم الإنسانية حتى يمكنهم الحصول على مايتوخونه له من نتائج هامة ، فإن من أهم العوامل الضرورية فى الشعر التفريق بين الغث والسمين ، بين الجيد والسيء ، بين الجميل والقبيح . فالشعر هو المرآة الحقيقية التى نصور بواسطتها الحياة فى أحسن معانيها ، وأبهى حللها ، وهو المصلح الإجتماعى الأوحد الذى تتجاوز سلطته العقائد والقوانين ، وتتعدى عرف المجتمع .

إن أحسن الشعر فى رأى أرنولد ما أردنا إنشاءه ونظمه ؛ فهو الذى باستطاعته أن يسرنا وأن يخلق فينا الأفكار والظنون التى نريدها . ويجب علينا دائماً عند دراستنا للشعر من مختلف نواحيه أن نخلق فى أنفسنا روح الإعجاب بالحسن والإستنكاف للسيء أو الرديء . فإن أغراضنا وميولنا الشخصية لها قيمتها العظمى فى الحكم على الشعر وتقديره بالميزان الحقيقى الذى لا غلط فيه ولا ميل . فكثيراً ما تقود الإنسان ميوله الشخصية إلى المبالغة فى الأحكام التى يصدرها . وهذا مما يقود إلى ارتكاب الأخطاء ، وتحمل المشاق فى إصدار الحكم الذى يريده .

يعتمد جمال الشعر على المقدرة التقليدية أو الإبتداعية عند الشاعر . ويختلف تقديرنا للشعر باختلاف جماله وابتداعه ، فإن كان من النوع العالى ، من النوع الخالد ، وجب علينا تقديره والثناء عليه ، وإن كان من النوع الرديء تحتم علينا أن نصب عليه جام غضبنا ، وأن نظهره للناس بمظهره الحقيقى خاليا من الرونق والبهاء ، وتقدير الشعر واستحسانه مصحوبان بالتميز بين الحسن والسيء هما الغايتان الوحيدتان لدراسة الشعر والإقبال عليه . وكل مايعوقنا عن نيل هذه الغاية فهو مضر وغير صالح .

وإذا كنا نرغب فى دراسة الشعر الحقيقى كما هو دون أيما مبالغة أو عز ، فما علينا إلا أن نظل مفتوحى الأعين بعيدين عن عالم الخرافة والكذب محاولين وزن القصيدة بقسطاس عادل ، فنحكم على الشعر حكما صادقا . ويتحتم علينا عند دراستنا للشعر أن ننظر إليه نظرة نقدية من الوجهة التاريخية فنطلع تمام الإطلاع على الحقائق التاريخية ونحاول ربطها بما جاء فى القصيدة أو الملحمة ، ويجب على الشاعر عند انتخابه لأشخاص قصدته أن يتوخى الرجال المشهورين فيضع فى كل ناحية من مناحى البطولة رجلها اللائق بها .

فأغنية رولند فى رأيه تختلف تمام الإختلاف فى معناها الشعرى ومغزاها العاطفى عن قصائد هوميروس . وعند ما ننقل بصرنا من هذه القصيدة إلى تلك نشعر كأننا قد انتقلنا من عالم إلى آخر مخالف له . وعلينا أن نزن كلمات الثناء والحمد وزنا فلا نضعها دون أى تمعن . وقد قال أرسطو قديما : « إن الشعر يمتاز من التاريخ التاريخ بميزات كثيرة أهمها الصدق والثبات اللذان لا يوجدان فى التاريخ كوجودهما فى الشعر . فإذا عبر الشاعر فى قصيدته عن فكرة ما كان فى شعره مثلا أعلى للصدق والنزاهة يحاول جهده أن يعرض على قرائه وسامعيه أفكاره الحقيقية النزيهة دون أى رياء ونفاق . فمن الواجب المحتم على الشاعر إذن أن ينتقى مواضيعه له سداها الصدق ولحمتها الثبات .

ويختلف شعر شوسر الشاعر الإنكليزى المعروف عن شعر سابقيه من ناظمى الملاحم والقصائد الطويلة فى شيئين هامين : أولهما المادة ، وثانيهما الأسلوب . فنشعر عند انتقالنا من قراءة شعر أسلافه إلى قراءة شعره أننا انتقلنا من عالم مادى إلى آخر ملؤه الخيال والإبتداع . وامتيازه فى مادة الشعر يتناول نظرته الواسعة نحو الحياة البشرية بما فيها من بساطة ودعة ، جلاء ولطف ، فله المقدرة الشعرية على اختراق حجب الحياة والتطلع بعين المستطلع نحو سور الحياة الحقيقية . وأما أسلوبه فيختلف عن أسلوب سابقيه اختلافا واضحا بينا ، فهو أول من وضع للشعر الإنكليزى صورته الحقيقية التى نشاهدها فى عصرنا هذا . وقد

أثنى عليه النقاد فى مختلف عصور اللغة الإنكليزية ، فمدحه جونسون ، وأطراه درايدن .

وفى شعر شوسر نرى عذوبة وسلاسة لا نشاهدهما فى شعر غيره من أسلافه ومعاصريه ، فقد كانت له المقدرة اللغوية التامة للتحكم بألفاظ اللغة ووضعها فى أوضاعها الحقيقية دون أى تكلف ، ومع كل هذه الميزات فإن شوسر لا يعد من كبار الشعراء المقلدين . فقد كانت تعوزه القدرة على ضبط الوزن والموسيقى الشعرية التى نجدها كثيراً فى شعر الشاعر الخالد دانتى الإيطالى ، ولكن يمكننا أن نجزم أن هذه الموسيقى لم يستطع أحد من الشعراء الإنكليز حتى عصر وليم شكسبير أن يأتى بمثلها أو يقلدها .

واعتقد أرنولد أن عصر درايدن وما تلاه من العصور كان عصر تأليف وابتداع وترقية للشعر عما سلفه من العصور . وكان درايدن يظن أن أسلافه لم يفهموا الشعر الإنكليزى حق فهمه . وكولى نفسه لم يؤمن بشاعرية شوسر ونبوغه . وعند ما أراد جوزيف أديسن أن يمتدح شعر درايدن اتخذ من قصائده مثلا أعلى للمقابلة والمقارنة . وكان الاعتقاد السائد طوال القرن الثامن عشر أن درايدن وجونسون وبوب وأديسن هم فحول الشعر الذين لم يجارهم سابق ولا لاحق .

وهنا يسائل أرنولد نفسه : أنعتبر درايدن وبوب شعراء مقلدين؟ وهل التقدير التاريخى فى معظم الكتب الأدبية لهذين الشاعرين تقدير صحيح؟ فقد أنكر وردزورث وكوليردج على هذين الشاعرين مقدرتهما الشعرية . ولكن القرائن والدلائل تشير بأنه سيأتى يوم عما قريب ، ترجع فيه سطوة القرن الثامن عشر الشعرية ، ويرجع الناس إلى تقدير شعرائه وكتابه .

وينتقل أرنولد بعد هذا البحث الطويل فى الشعر إلى تطور النثر وأثره فى الأدب الانكليزى . وفى هذا الكتاب تتجلى لنا عظمة أرنولد فى النقد ، وكيف ينقد بأسلوبه اللاذع الكتاب والشعراء من أسلافه ومعاصريه .

ولأرنولد كتب أخرى أهمها كتاب : « الثقافة والفوضى » وكتاب : « القديس بولس والبروتستنية » . وكتاب : « الأدب والعقائد » وكتاب : « الله والتوراة » وغيرها من الكتب الكثيرة .

خاتمة :

مما تقدم فى بحثنا عن حياة ماثيو أرنولد وفنه ، يمكننا أن نتأكد من أن حياته كانت مثمرة مفيدة . فقد كتب قبل وفاته أكثر من عشرين كتاباً اعتبر البعض منها من أحسن ما كتب فى اللغة الإنكليزية .

ويجدر بنا قبل أن نختم مقالنا أن نضيف بعض الحقائق التى لا غنى لنا عنها . لقد هجر أرنولد الشعر وسنه لم تتجاوز الأربعين حيث اعتقد أن الشعب الإنكليزى لا يفهم الفن والشعر مطلقا ، وإنما يهتم بالأمور المادية فحسب ، وهذا ما حمل أرنولد على أن يهاجم مجتمعه هجمات شديدة فى كتابه الأول الذى أصدره فى عالم النثر . ومن هذه السنة إلى يوم وفاته يندر أن نجد له قصيدة مشهورة ، فقد وجه معظم انتباهه إلى النقد والنثر والسياسة .

كان أرنولد من أنصار المدرسة الكلاسيكية التقليدية فى أفكاره ، ولذا نراه يحاول أن يعيد لهذا العصر بهاءه ورونقه بعد أن طغت عليه صروف الزمان وظهرت تلك الثورة الأدبية المخيفة التى بدأ بها الشاعران وليم وردزورث وكولردج سنة ١٧٩٨ ، عندما أخرجا إلى العالم كتابهما الخالد : « القصائد الغنائية » ، فقضت على الأدب الكلاسيكى قضاء مبرما . ولكن أرنولد بدوره رغب فى الرجوع إلى المواضيع الكلاسيكية القديمة ، فنظم بها عيون قصائده كقصة تريسترام وامبدوكليس وميروب ، وكان ينكر على الرومانتيكيين فرديتهم ومحاولتهم إشباع رغبتهم فحسب ، بينما فى الحقيقة على الشعب أن يهتم بالآداب العالية فى جميع اللغات ، ولا يقتصر بحثهم على الآداب الإنكليزية فقط .

وقد حمل حملة شعواء على المتطرفين لاعتقاده أن هذه الفكرة أو هذا المذهب يحصران الدماغ فى محيط لا يتجاوزه ولا يتعداه ، وهذا مما يضيق نطاق الأدب ، ويهدم ذلك الصرح الذى بناه الأدباء من سالف العصور .

وعلى الإجمال فإن أرنولد يعد من خير حملة الأدب فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وشهرته آخذة بالازدياد شيئا فشيئا ، فلا غرو أن رأيناه بعد مدة ليست بالطويلة يتبوأ محله اللائق به فى عالم الفن والنقد والأدب .

خيرى حماد

كيف نحبب الكتاب إلي الأطفال ؟

[مقدمة الجزء الأول من كتاب حكايات الأطفال بمناسبة الطبعة الأخيرة منه .]

للأستاذ كامل كيلاني

من المشاهد المألوف أن الطفل إذا قص عليك خبراً ، لجأ إلى تكرار الجمل كأنما يتثبت من معانيها فى ألفاظها المكررة ، فلنكتب له — وهو فى هذه السن — محاكين أسلوبه الطبيعى فى تكرار الجمل والألفاظ ، لنثبت المعانى فى ذهنه تثبيتاً ، ولنكرر له الجمل برشاقة ، لنسهل عليه قراءتها ، فإن لكل مقام مقالا .

ومن المقرر أن الطفل — فى هذه المرحلة — ملول يتهيب الكتاب ، فلننزع من نفسه هذا الملل ، ولنحبب إليه الكتاب بكل وسيلة ، فنبسط له الأسلوب تبسيطاً ، ونكثر له من الصور الجذابة الشائقة التى تسترعى انتباهه ، لنشعره أن الكتاب تحفة تُهدى إليه إهداء ، وليس واجباً يكلَّف به تكليفاً ، فإن الطفل — إذا ساء ظنه بالكتاب — صعب اجتذابه إليه بعد ذلك .

وقد وفق أكثر من تصدوا لتأليف كتب الأطفال توفيقاً عجيباً فى تبغيض القراءة إلى نفوسهم ، وتنفيرهم من المطالعة ، فأصبحوا يمقتون الكتاب أشد المقت ، ويهربون من قراءته ، لأن المؤلفين لم يراعوا سن الطفل وميوله ورغباته ، ولم ينزلوا — أو هم على الحقيقة — لم يستطيعوا النزول إلى مستواه ومخاطبته باللغة التى يفهمها وترتاح إليها نفسه ، ومن الإنصاف أن نقرر — بصراحة — أنهم لم يضعوا كتبهم على نسق خاص أو منهج بعينه ، وأنهم فى تأليفهم لم يتشبعوا بفكرة فنية تنتظم الكتاب وتؤلف بين أجزائه ؛ لأنهم يقنعون بتصيد موضوعات الكتاب — كيفما اتفق لهم أن يتصيدوها — فيخرج الكتاب خليطاً مضطربا لا تؤلف بين أجزائه فكرة بعينها ، ولا يتناسب أسلوبه مع مدارك الأطفال .

إن الطفل ميال — بطبعه — إلى الحكايات والقصص ، وهو بغريزته مفتون برؤية الصور الجذابة . فلنختر له منها ما يناسب سنه ، ويتفق مع ميوله ورغباته وتفكيره ، وقد حفزنا هذا الإعتبار إلى تأليف « قصص للأطفال » بالأمس ، كما حفزنا اليوم إلى تأليف « حكايات للأطفال » . وقد كتبنا الأولى لكبار الأطفال ، والثانية لصغارهم . ولقيت قصص الأطفال — من الإقبال والعناية — ما شجعنى على تأليف هذه الحكايات .

***

أما الفكرة التى انتظمت هذه السلسلة « حكايات الأطفال » فهى « التكرار » ، يكثر فى أولها ثم يقل — كلما تقدم الطفل فى القراءة — بالتدريج ، حتى يصل إلى قراءة الأسلوب الموجز الذى لا تكرار فيه بلا مشقة أو إعنات .

وقد تدرجنا بالطفل فى هذه السلسلة حتى يكون آخر جزء منها ممهداً لقراءة أول جزء من أجزاء السلسلة الأخرى « قصص الأطفال » ، وإنما عمدنا إلى التكرار عمداً ، بعد أن أقنعتنا التجارب العملية ، أنه أصلح أسلوب يلائم الطفل الناشىء ، ويشجعه على القراءة .

وذلك أن الطفل الناشىء لا يقرأ الكلمة إلا بجهد كبير ، ولا يتم قراءة السطر إلا بشق النفس ، فلنقتصد جهدنا فى استعمال الألفاظ الجديدة ، ولنؤلف له من الألفاظ القليلة التى يقرؤها الكبير فى بضعة أسطر عدة صفحات كاملة لندخل فى روعه أن القراءة ليست صعبة كما يتوهم ، وليست شاقة مضنية ، كما ألفها فى الكتب الأخرى ، بل هى سهلة ميسورة ، وهى — إلى سهولتها ويسرها — ممتعة شائقة . تملأ نفسه بهجة وانشراحا ، وثمة يشعر الطفل بثقة فى نفسه إذ يرى أنه يقرأ صفحة كاملة بجهد يسير ، فهو لن يتم قراءة السطر الأول حتى يسهل عليه قراءة السطر الثانى والثالث والرابع وهكذا ، لأن الألفاظ لا تكاد تتغير فى الجمل إلا بمقدار يسير .

***

هذا هو المنهج الذى أخذنا به أنفسنا فى تأليف هذا الجزء وما يليه من الأجزاء . فإن وفقنا فى هذه الخطوة — ونرجو أن يكون ذلك — فقد أدينا بعض ما يجب علينا أداؤه لهذا الجيل الناشىء الذى نعلق عليه أكبر الآمال .

كامل كيلاني

تأملات :

من الســـــاخر !؟

للأستاذ عبد العزيز الكرداني

ذات يوم .. ركبت ترام « المترو » في رفقة صديق له مثل اتجاهاتي ونظراتي وتأملاتي في الناس وفي الحياة . وكان الوقت مساء .. وكانت الأضواء الباهتة تترنح سكرى في سدفة الليل .. وكانت النسمات لينة تنفذ إلى الرئتين في رفق ودعة ، فتستجيش انفعالات وخواطر شتى !

ولما بلغنا في الطريق إلى منتصفه ، أشار صديق خفية إلى رجل يجلس قبالتنا .. وهمس في أذني قائلا : « انظر ..! »

... ونظرت .. فإذا شيخ هِمٌّ أرسل لحيته الكثة إرسالا فطرياً مستبشعاً ، فبدت كأنها دغل كثيف منتن . وكان الشيخ في أسماله الحائلة الرثة ، ووجهه القذر المتغضن ، وفمه الفاغر ، ونظراته الشاخصة ، قابعاً في غفلة وتبلد أشبه ما يكون بركام مطّرح من قذر وعفونات !

قال صديق بعد فترة من النظر المتأمل إلى وجه هذا المسخ الآدمي « أترى إلى هذا (الشيء !) ؟! أتراه يكون (إنساناً) ؟! »

.. قالها صديق ، ولم يكن يرمي إلى الزراية بهذا التعس .. ولا كان يقصد إلى اصطناع السخر منه .. وكل ما كان يبتغيه هو أن يفصح — في صدق — عن حقيقة تجسمت أمام ناظريه !

... وافترقنا .. وطوت الذاكرة هذا المشهد فيما طوته من مشاهد ، وإن تحصّل في نفسي راسب منه ، لم يكن من اليسر أن يقتلعه النسيان ومرور الأيام من واعيتي الباطنة ... حتى كان يوم من أيام هذا الشتاء الجهم لقيت فيه صديق .. فتذاكرنا سوياً هذا المشهد ، واسترجعنا في خيالنا صورة ذلك الشيخ . ثم خلفت صديق ، ومضيت إلى داري . وهنالك ـ حين خلوت إلى نفسي ـ وجدتني أردد هذه العبارة : «من .. من الساخر؟!» ؛ ثم وجدت الذهن ينبثق عن خواطر .. رأيت أن أسجلها في هذه القطعة الفنية ، التي أقدمها لصديق .. شريكي في النظر والتأثر — هدية متواضعة .. طالباً منه أن يعمل الفكر والحس والشعور في مضمونها ونحواها .. ثم أسأله — بعد ذلك — أن يتحرى أن يحاول مطابقة الراسب المتحصل في نفسه بتأثير هذا المشهد ، بالراسب الذي أوحى إليّ هذا الكلام :

« .. من ؟! من يكون الساخر في هذي الحياة ؟!

أتراه يكون ذلك الشيخ الهم الذي طوى السنوات الطوال — وما زال يطويها — لا يدري من أمر خلقه شيئاً .. لا يعلم للحياة غاية إلا أن يعيش .. ويظل يعيش !

.. لا يعرف من هدف في الدنيا سوى أن يعمل على أن تمتد به الحياة .. ليظل يحيا .. لينسأ أجل الوفاة !

إنه ليأتدم بالخبز مختلطاً بالقذر ؛ ويطعم شرائح اللحم ممزوجة بروث البهائم ، ويكرع في الماء الآسن ، حمما ذائباً فيه الطين ؛ وينام الليل الطويل على فراش من حصى وقش يابس ! إن حياته لتطرد على هذه الصورة السنين تلو السنين . وهو على حاله من طلب البقاء والرغبة الملحة في الدوام !

أترى ذلك « الشيخ » يكون الســـاخر ؟ أم يكون هذا « الفنان » الذي انصرف عن كل شيء إلا فنه .. ونظر إلى الكون على أنه مرسح تمثل عليه رواية ، لا يهمه من أمرها شيء .. إلا بقدر ما تشبع حاسته الفنية وتروى ...

إن كل ما في الكون ، إنما يتخذ قيمه وخصائصه ـ عنده ـ بهذا الفن .. هذا الفن وحده !

وإن ناساً يعيشون في هذه الحياة ، ولا يعرفون من أمر « هذا الفن » شيئاً ، لهم — في نظره — والعدم سواء !

إنه ليلهو عن الحيـاة في واقعها ، بتلك الحيوات الكثيرة المتنوعة .. وتلك العوالم العريضة الرائعة يفتقها خياله الفنان الصناع ، الذي يجد معينه الدافق — دائماً — في عالم النفس الرحيب ، وعالم الروح الطليق !

أترى الساخر يكون ذلك « الفنان » .. أم تراه يكون هذا « الباحث » المنقب الذي سلخ جل حياته حبيس عقله الراصد للظواهر ، المستكنه للعلائق المستورة الخفية ، والخصائص الكامنة المطوية .. تنقلب به الدنيا ، وتدور من حوله الأحداث ، ويجلل الشيب رأسه يوماً بعد يوم ... وهو لا يدري من أمر هذا كله

هذا العالم المتغير:

أبحاث الذرة وفلسفة الكون

للأستاذ فوزى الشتوى

[لكى تفهم ما هى الذرة يجب أن تعرف شيئاً عن تاريخ فلسفة الكون فقد عرفنا الذرة بالفلسفة لا فى المعمل وعرفنا بعد تفكير دام آلاف السنين] :

الشمس فى الأرض

يخطىء من يظن أن أبحاث الذرة وطاقتها بنت القرن الحاضر أو الماضى، فدارس التاريخ . والفلسفة يجد بذورها الأولى فى عصور قد ترجع إلى ما قبل التاريخ . والذرة باليونانية (Atemno). وقد عرف المصريون القدماء فى عصور الاسرات الأولى إلهاً باسم أتوم ورمزوا له بالشمس وما تضم من قدرة وحيوية . فإن أردت أمثلة من تراتيله تجدها منتشرة فى كل كتب العبادات المصرية . فله قالوا :

المجد لك يا أتوم خالق نفسه بنفسه .

فأنت إله الشمس وخالق العالم .

خالق الآلهة ومنتج كل شىء .

وهو أيضاً : خالق الجرثومة فى المرأة .

وصانع البذرة فى الرجل .

ومانح الحياة للابن فى جسد أمه .

وادرج مع التاريخ تجد فلسفته تنتشى مرة وتخبو أخرى حتى يظهر له مثيل على يدى أخناتون الذى رأى فيه إلهاً عالمياً سماه أتون، ورأى فيه « القوة التى تمثل الشمس فى الأرض » لا يقتصر أمره على مصر أو طيبة بل يمتد ويشمل الأرض كلها . فهو الرمز الماثل فى كل حيوان أو نبات أو جماد أو غاز ، أو مايفسره العلماء الآن من أن ذرات الأجسام تشبه النظام الشمسى .

من مصر إلى اليونان

ولكن الخلافات الدينية وقوة كهنة الآلهة آمون عصفت بفلسفة اتون وديانته . وهى خلافات سياسية أكثر منها دينية . فلم يكن الفرق بين فلسفة الالهين يبرر استئصال شأفة اتون عقب وفاة اخناتون مباشرة

وقد بلغ الحقد بالكهنة حداً دفعهم الى تدمير كل ما وصل إلى أيديهم فلم تنج منه سوى تراتيل قليلة لا ندرك منها بالضبط سر فلسفة أتون ، ونظرها إلى الكون وتركيبه . ولكن الثابت

شيئاً .. إلا هذا « الكل » الذى يعيش فيه ... ويعيش من أجله ويأمل أن يمتد به العمر ليصل حلقة من حلقاته المفرغة !

أتراه يكون الساخر فى هذى الحياة ؟ أم يكونه هذا « الطفل » الغرير الذى لا يستشعر « الوجود » وجوداً إلا أن يرد ظواهره كلها إليه ... إلى ذاته ؟ ولا يحس « الحياة » حياة إلا أن تتفاعل بكل ما فيها وكل من فيها فى داخل نفسه ... فى محيطه الخاص المستقل ، الحافل بالصور الغريبة ومستطرف التهاويل !

إنه ليرى أن كل شىء فى هذا الكون له .. وهو لا يملك شيئاً منه فى واقع الحال ، وما من شىء فى الكون — إن علم — ليقبل أن يخضع للتخصيص !

كل أهدافه أن يستشعر الناس أحاسيسه ، ويجاوبوه عنها ! كل مبتغاه أن تلبى مطالبه ، وتقضى حوائجه للحظة التى هو فيها ، وبالصورة التى يريد !

أيكون هذا « الطفل » هو الساخر فى هذى الحياة ؟!

أيكونه ؟ ! أم يكونه واحداً من هؤلاء ؟ أم يكونونه جميعاً ؟ أم لا يكونه واحد من أيهم !

لست تدرى ... ولست أدرى ... ولسنا — جميعاً — نملك إلا أن نتساءل : من ؟ ! ... من يكون الساخر فى هذى الحياة !

لنجد الجواب — دائماً — حيرة أبدية مشبوبة ... وقلقاً سرمدياً ... هما وسم كل « حى » ... وسر كل « حياة » !

(مصر الجديدة) عبد العزيز الكرداني

أن سلطة الكهنة أكرهت الملك توت عنخ آمون الذى ولى العرش عقب اخناتون على تغيير اسمه من توت عنخ آتون الى توت عنخ آمون كما لقبوا اخناتون « بمجرم اخيتاتون » وهى إحدى المدن التى جعلها مقراً لفلسفته الجديدة

ولا يستطيع باحث أن يجزم بأن الفلسفة اليونانية لم تتأثر بالفلسفة المصرية فى عهد الفراعنة . بل الراجح انهم أخذوا عنهم الكثير من دياناتهم ، ومبانيهم ، وحضارتهم ، وشتى نواحى الحياة ، بما فيها فلسفة الكون وعناصر تركيبه

وقد نتساءل ومادخل الذرة بفلسفة اليونان أوقدماء المصريين؟ ولكن علومها بنيت على أساس فلسفى ، ولم تبن على أساس كيماوى أوطبيعى منبته المعمل . بل شيدت نظريات الذرة والكون على منطق دقيق أطلق فيه الفلاسفة العنان لخيالهم وتقديرهم

اليونان والذرة

ففى عام ٤٠٠ ق . م . ظهر فيلسوف يونانى اسمه ديموقريطس قال إن العالم يتألف من فراغ لا نهائى ومن عدد لا نهائى من دقائق لا تدرك ، وأن المادة تتألف من تجمع هذه الدقائق المعروفة باسم Atoms الذرات ومعناها باليونانية التى لا تتجزأ . وفسر خلفاؤه دعواه فقالوا انك لو تناولت قطعة من المعدن وقسمتها الى جزءين متساويين ثم واليت التجزئة فانك ستصل فى النهاية إلى جزء لا يمكن تقسيمه

وكان هذا التفسير هو بدء عهد الذرة كما يسميه التاريخ الواضح . وامتدت العقول أيضاً إلى خواص الذرة وطبيعتها فقالوا إن السوائل تتألف من ذرات ناعمة سهلة الحركة ، بينما الأجسام الصلبة تتألف من ذرات خشنة ذات خطاطيف تتشابك إحداها بالأخرى . ولكن علماء اليونان ومنهم ارسطو رفضوا الأخذ بهذه النظرية فانغمرت حينا من الزمن ، وإن بقى لها أتباعها ومؤيدوها

وفى عام ١٣٤٨ ظهر نيقولا انتروشيا وقال إن الظواهر الطبيعية يمكن أن تفسر على أساس اتحاد الذرات وتفرقها ولكنه اضطر الى نقض أقواله التى عدت فى ذلك الوقت الحاداً

ولكن ارسطو ابتدع نظرية جديدة حين قال إن المواد التى نشهدها ونتناولها تتألف من أربعة عناصر : هى الأرض والهواء والماء والنار . ولم يفهمها بالمعنى الكيماوى المعروف الآن بل من حيث خواصها . فالأرض مركب من الجفاف والبرودة ، والماء من البلل والبرودة ، والنار من الجفاف والحرارة ، والهواء من البلل والحرارة .

العرب وحجر الفلاسفة

وأضاف العرب إلى هذه العناصر فى العصور الوسطى ثلاثة عناصر أخرى هى الكبريت والزئبق والملح . وكان من الطبيعى أن تؤدى هذه النظريات إلى انه من الممكن تحويل معدن إلى معدن مما أنتج البحث عن حجر الفلاسفة ، أو قلب المعادن الخسيسة الى ذهب ، وضمان دوام الصحة الكاملة ، والشباب الناضج الحى

وكان أصحاب هذا المذهب يتفرقون شيعاً فى الاحتفاظ بأسرار أعمالهم التى كانوا يحرصون كل الحرص على اخفائها عن عيون الناس وافهامهم . وقد وصلت قصص دعاياتهم إلى نهايتها فى عام ١٧٨٢ حين قدم جيمس بريس أحد أعضاء الجمعية الملكية فى لندن إلى الملك جورج الثالث عينة من الذهب ، وقال انه استطاع استخراجه من معادن أخرى

وكان لتصريحه ضجته ، فمنحته جامعة اكسفورد إحدى درجاتها العلمية . كما قام المعارضون يناقضونه ويهاجمونه فى قسوة، فطلب اليه مدير الجامعة أن يكرر التجربة أمام أعضائها . وتلكأ بريس بضعة أشهر ثم وافق على الاقتراح . فلما حان موعد التجربة تجرع بريس سماً زعافاً من قارورة صغيرة فقضى عليه فى دقائق

الذرة فى مرحلة النشاط

ودبت الحياة مرة ثانية فى ابحاث الذرة واستنتاجاتها ، حين نشر جوزيف بروست مبدأ النسب المحدودة . ومضمونه أن أى مركب كيماوى يحتوى دائما على ذات النسب المتساوية فى الوزن ثم تبعه جون دالتون فى عام ١٨٠٨ فاعتنق مذهبه وأضاف اليه مبدأ النسب المضاعفة ، ومضمونه أن عناصر كيماوية معينة تتحد

بيعضها البعض لتؤلف مركبات كيماوية مختلفة فى أوزان ذرية مضاعفة .



جون دالتون

وقد كان جون دالتون مدرساً بائساً فى مدرسة صغيرة بانجلترا ولكنه وضع أسس النظرية الذرية ، حين قال إن قانون النسب الثابت لبروفست يمكن أن يفسر بأن العناصر مؤلفة من ذرات ثابتة . كما بين أن ذرة عنصر يمكن أن تتحد بذرات عناصر أخرى فى حالات مختلفة . وعلى هذين الأساسين تقوم الكيمياء الحديثة

وكانت لفظة الذرة تستخدم بطريقة غير محدودة ، حتى قام اماديو افوجادرو العالم الايطالى فى عام ١٨١١ ، ففرق بين الذرة والجزىء .

والمعروف الآن أن الماء يتكون من ذرتى ايدروجين وذرة اكسوجين ؛ ولكن العلماء كانوا يقولون ذرة ماء وذرة ايدروجين برغم الاختلاف بينهما ، وان الذرة جزء من كل . فلما جاء إفوجادرو فرق بين المعنيين وجعل الذرة وحدة العنصر . والجزىء وحدة المركب ، أى أن الجزىء يتكون من عدة ذرات تختلف باختلاف المادة

ووضع فوجادرو مبدأ آخر ، وهو أن المواد الغازية تتألف من جزيئات لا من ذرات . فجزىء الايدروجين مثلا يتكون من ذرتى ايدروجين ، ومثله جزىء الأكسوجين من ذرتى اكسوجين وان الذرة لا توجد مفردة

والمفكرون أيضاً

وكما ساهم رواد الكيمياء والطبيعة فى التفرقة بين الذرة والجزىء ، ساهم المفكرون من أمثال بيكون وديكارت فى تعليل بعض الظواهر الغريبة وأهمها الحرارة فسموا الوحدات الحرارية « بالسعر » وقالوا انها تحرك دقائق المادة . فلما كانت سنة ١٧٢٨ تقدم دانيل بارنويلى بنظريته القائلة بان دقائق المواد الغازية فى ذبذبة وحركة مستمرة . وان ارتفاع درجة الحرارة معناه زيادة فى ذبذبة الدقائق . وافترض بان الضغط الذى ينشأ على جدران وعاء ليس فى الواقع سوى احتكاك تلك الدقائق ببعضها البعض .

وقد فسرت هذه النظرية خواص الغازات بطريقة طريفة مقبولة مازلنا نعتنقها حتى الآن ، ونسير على هديها فى أبحاثنا ، وإن كنا قد فسرناها على ضوء الأبحاث والتسميات الجديدة ، فوضحت لنا لماذا تتمدد الغازات بالتسخين وتحتاج إلى حيز أكبر لما ينتابها من شدة الذبذبة ، وحاجة حركتها إلى فراغ أكبر . وهى التى تعلل سبب اندفاع الغاز بقوة أكبر إن سخناه فى حيز محدود .

ولم يفهم العلماء آراء نويلى لأنها كانت سابقة لأوانها فتجاهلوها ، ولكن الأيام مرت ، وأوشك قرن كامل أن ينقضى على دعوته ، حين ظهر العالم الإنجليزى جيمس برسكوت جول وكان من تلاميذ دلتون ، فأحيا نظرية نويلى . وفسرها بأن النشاط الميكانيكى يمكن أن يحول إلى حرارة تتناسب مع مقدار الجهد . ويمكنك أن تلحظ هذه الظواهر فى حياتك العملية ، فمند ما تحس البرد تفرك يديك إحداها فى الأخرى لتسخنا . وإن نشرت قطعة خشب ترتفع حرارة المنشار تبعاً لسرعة حركته .

مواد لا وجود لها فى الحياة

ومن المكتشفات الذرية قائمة العناصر التى وضعها الكيماوى

الروسى ديمترى إيفانوفتش ماندليف فى عام ١٨٦٩ فقد أثبت أنه إذا رتبت العناصر الكيماوية ترتيباً تصاعدياً تبعاً لوزنها الذرى فان العناصر تتشابه كل عدد معين . فإذا بدأت بالليثيم مثلا وعددت ثمان مواد فانك ستجد الصوديوم ثم عد ثمانية عناصر أخرى فتجد البوتاسيوم . فهذه العناصر الثلاثة تشترك فى كثير من الخواص وكلها معادن بيضاء تتفاعل مع الماء بشىء من العنف .

ديمتري إيفانوفتش ماند ليف

وعلى أساس الأوزان الذرية ، وضع مندليف قائمة بأسماء المواد . وكان من الجرأة والثقة بعلمه وبنظريته حتى ترك بعض الأماكن بيضاء لأنها تنقص معادن غير معروفة . ولكنه تنبأ بخواصها تبعاً لنظريته . فلما مرت السنوات واكتشفت بعض هذه العناصر الناقصة كانت خواصها مطابقة للخواص التى تنبأ بها مندليف . وتتألف هذه القائمة الآن من ٩٢ عنصراً ما زال اثنان منها مجهولين .

ولعلك تتساءل عن حجم الجزىء أو الذرة . وهو سؤال يصعب تصوره ، ولكن البوصة المكعبة من الهواء تتألف من ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٨٠٠ جزىء . والذرة أصغر من الجزىء لأنها جزء منه . فان أردت لها قياساً ، فتصور أنك لو رصصت ذرات حول الجدران الخارجية لأدق نقطة تراها فان عدد هذه الذرات يبلغ خمسة ملايين ذرة .

وقد تنكر وجود هذه الدقائق التى لم يرها إنسان ، ولكن العلماء يرونها ضرورية لتفسير بعض الظواهر الغريبة التى تطرأ على المادة ، كما يجدونها معقولة من الناحية المنطقية . ولم يجدوا ما يمكن أن ينفيها . وعندما تتحدث عن الذرة ، فيجب أن نذكر شيئين ، وهما الصلابة والسكون . فهما لفظان لا معنى لهما فى عالم الذرة والجزىء لأنهما ليسا صلبين ولا ساكنين . والجسم الساكن الصلب الذى تراه يتكون من رقم بالغ الضخامة من الأجسام الدقيقة الدائمة الاهتزاز ، والتى لا تمس واحدة منها الأخرى ولكن تربطها قوة جاذبية . ويمتنع التصاق جزىء بآخر بفعل هذه الذبذبة الدائمة .

فوزى الشتوى

بنلوب ... ! (*)

PENELOPE

أسطورة تمثيلية غنائية

للشاعر عبد الرحمن الخميسى

الراوى: اطرحْ قيودَ الحاضر   واحلمْ بعصرٍ غابرِ
واصنعْ جناحَ توهمٍ وخيالِ   واعبرْ إلى الماضى ذرى الأجيالِ
طرْ نحو عهدٍ فى الزمان سحيق   واشهدْ (أثيكا) درةَ الإغريق
تلك المدينة جلَّ من أنشاها   انظرْ إليها ودّعتْ مولاها
هرعت يزين جموعها أوديسيوس   ملكٌ تخر إذا أرادَ له النفوسْ
لبى نداء الحرب والأوطانِ   متدرعا ببطولة الشجعانِ
هذى أثيكا نسوةً وصغارا   وقفتْ تودع جيشها الجبارا
اسمع وداعَ الأهل للفرسانِ   من كل معتنقين يفترقان !

كورس: حاربوا المعتدينْ   بالسلاح اليقينْ
وارجعوا ظافرينْ   للحمى ... والربوعْ
يا شباب الجهادْ   يا حماة البلاد
اغمروا كل واد   بالدما ... والدموعْ
ليس بعد الحروبْ   غير لقيا الحبيب
وشفاء القلوبْ   وارتياح الضلوعْ !
حاربوا المعتدينْ   بالسلاح اليقينْ
وارجعوا ظافرينْ   للحمى ... والربوع

الراوى: طوى الجيوش عباب   من الزمانِ رهيبُ
وليس يُسمع عنها   إذا سألتَ مجيبُ
وكلُّ ما قيلَ حدسٌ   مما تودُّ القلوبُ
وأدبرتْ سنواتٌ   ما عاد فيها غريبُ
وزوج أوديسيوسٍ   جارت عليها الكروب
غام الأسى فى سماها   مسكينةٌ بنلوبُ !
أكلما جنَّ ليلٌ   أوهى قواها النحيبُ ؟
وراقَ فى ناظريها   خياله المحبوبُ ؟!
ما شوقها إذ تناديـه   والحنايا لهيبُ
فى مخدعٍ ليس فيه   سوى خطاها دبيبُ
يا حزنها إذ تناجيه   وهو لا يستجيبُ

بنلوب: أوديسيوس حبيبى   طال الحنين إليكا !
ولم تعُدْ ... يا بلائى   يا ويل روحى منكا !
أقمتُ فى البُعد محرا   با للهوى والوفاء
ورحتُ أسجد فيه   لذكريات هنائى
وليس يرحم ما بى   سوى الدجى والسكونِ
وطيفُكَ الحلو يغرى   بالسهد نورَ عيونى
كفنتُ من أجل حبى   باليأس زهر شبابى
وعشتُ أحرق نفسى   ومهجتى فى عذابى

الراوى: وفية أوردتْ صباها   متالفَ الدمع والحنينِ
ودار باليأس حولها العمـرُ شاكياً   فاجعَ الأنينِ
ولم يَعُدْ ذاكرٌ سواها   لزوجها الفارس الأمينِ
فهذه حولها (أثيكا)   تضج باللهو والمجونِ
نسيانُ ! يا طبَّ كلِّ داء !   أبْعِدْهُ عن قلبها الحزينِ
وضُمَّهُ مثلما ضممتَ الـ   ـذين تاهوا مع السنين
وانفضْهُ من روحها وأغرقْـ   ـه فى دجى سرك الكنينِ
أنتَ الذى تمنحُ الشقيّيـ   ـنَ كلَّ سلوى فى كلِّ حينِ
وتمسحُ الهمَّ بالتأسّى   وبالأمانى وبالحنينِ !
صغرتَ والله عن أساها !   وضقتَ عن شوقها الدفين !
نسيانُ ! إنى أراكَ أوهى   من حبها الخالدِ المكينِ !
كم مرة أحرقتْ فؤاداً   بنظرة غضة الجفونِ
يشع من وجهها سنى خا   طفٌ من السحرِ والفتونِ
يضىء يغرى القلوبَ تجثو   لحسنها الرائع الحزينِ
كم راجح العقل تيَّمَتْهُ   فصيَّرَتْهُ إلى الجنون !
وكم أميرٍ مُداهنٍ عطـ   ـفها لدى قلبها الحصينِ
وطيفُ محبوبها مقيمٌ   يُقْصِيه عن حرمة العرينِ

الأمير: وهبتكِ قلبى فلا تنبذيه   وصونيه ... إن غرامك فيهْ
ألا ترحمينَ له خفقةً   تنادى فؤادك كى يحتويهْ
بحسنك يا ربتى أنقذيهْ   وفى قبضةِ اليأسِ لا تتركيهْ

(*) نظمت هذه الأسطورة للاذاعة ، وحقوق تمثيلها وغنائها لمحطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية .

بنلوب : نأيتُ بروحي عن الحب

الأمير : ... ... لا لقد ظلمَ الحبَّ فيكِ الجمالْ

بنلوب: وأوشك يطفئ في ناظرى بريقَ الشبابِ ونورَ الخيالْ

فما ترتجيه بحبي ؟

الأمير : ... ... إني أراه يُنيلُ فؤادى المُحالْ !

بنلوب : واهمٌ فيما تراهْ أنا أحيا لهواهْ

هو زوجي وحبيبي

الأمير : ... ... حلمٌ طاحت رؤاهْ

تخذى منى حليلاً وأخا عيش سواهْ

وارحمى حسنك أن تذ وِيهِ أحزانُ الحياهْ

بنلوب : مرحباً بالهم لو غا لَ شبابى فى نواهْ

حبه كعبة نفسى ودمى طولَ الحياه

وشجونى ... ودموعى هى قربان الصلاه

الراوى : تنافسَ الأمراءُ فى حبها كيف شاءوا

كلٌّ غريقُ هواها وفى يديها النجاه

فليرحم العشاقَ المُتَيَّمين الرجاه

لم يسمعوا صوتَ قلبٍ تغلى به البرحاه

وخيَّروها لتحظى بمن ترى وتشاه

لكنها والأسى أجرى دمعها والوفاه

آلت بأن تنتقى مَنْ يكون فيه الكفاه

وأرجأت ذاك حتى لها يتمّ رجاه

تريد تنسج بُرْداً فليصبر الأمراه !

عذرٌ تصير لها منه عصمةٌ ووقاه

تظل تعمل فى البُرْ دِ والظلامُ دعاه

وحينما تنشر الفجر فى الأعالى ذُكاه

تحل ما نسجته حتى يحين المساه

وهكذا ليس للبُرْ دِ والنسيج انتهاه

ملَّ انتظارُ المحبين جمعهم واستاءوا

مَنْ ذلك الفارسُ الفر دُ حوله لألاه ؟

تفيض من مقلتيه عزيمةٌ ومَضاه

يمشى فتعمر دنيا هُ فرحةٌ وضياه

يزهى بما قد حباهُ الش(م) باب والعلياه !!

الفارس : كوانى لهيبُ الجوى فانطلقتُ

ألوذ بظلك يا جنتى !!

بنلوب : وما أنا فاعلة يا أميرى؟

الفارس : ... ... أعيدى بوصلك لى مهجتى

حرامٌ علىَّ نسيمُ الحياة إذ أنتِ لم تصبحى زوجتى

بنلوب : ولكننى لم أتم النسيج

الفارس : ... ... وأشعلتِ يا أملى حرقتى

تعالى ندوق الهناء

بنلوب : ... ... دعونى ولا تحرمونى من شقوتى

الراوى : أكلما لاح عاشق با عدته مُربدّةَ الجبين ؟

وكلما ضاء بارقٌ أسـ ـدلت عليه من الدجون ؟

واستعذبت وحدة الحزانى بلا أنيس ... ولا خدين !

واستسلمت للشجونِ حتى لم يبق منها سوى الشجونِ

وشبَّ فى يأسها (تليما كُ) صورةً من أبٍ أمينِ

وكلما أبصرتْهُ ... ثارت لزوجها موجةُ الحنينِ

نما ولم يدرِ ما أبوه إلا على صفحة الظنونِ

منرفا : تليماك !! ياولدى !

تليماك : ... ... من أرى ؟

منرفا : ... ... منرفا تشقُّ عبابَ الظلام

تليماك : وتنفض عن مقلتىَّ الكرى؟

منرفا : ... ... وتسكبُ بين يديك السلامْ

تليماك : ومن أين جئتِ ؟

منرفا : ... ... طويتُ إليكَ بساطَ السماء وهولَ الجبالْ

تليماك : وماذا تريدين ؟

منرفا : ... ... إنى حملتُ لأحزان أمك آىَ الزوالْ

أبوك الذى شردتهُ السنينُ

تليماك : ... ... أراهُ ولكنْ بعينِ الخيالْ

أما زالَ فى حلقاتِ الحياةِ ؟

منرفا : ... ... وسوف يعودُ وفيرَ الشبابْ

تليماك : تباركتِ ياليلتى !

منرفا : ... ... قُلْ لأمـ ـك أوشك يذهب عنها العذابْ

الراوى : وطارت ربة الحكمة عنه وهو مذهول !!



وهذه أيضا . . . فضيحة !

ساء نفراً فى الشام أن اختصت مصر بمكرمة محاربة الشيوعية بجد وحزم ، فبعثوا يحتجون على حكومة مصر ، بأسلوب أقل ما يوصف به أنه كفر بالجامعة العربية ، وإساءة للخلق النبيل ، وإخفاء للحق الظاهر ، وترويق للباطل القبيح ، فغضب لذلك وزير مصر المفوض فى دمشق ، وأركان حكومة الشام ، وأساتذة المدارس (لأن هؤلاء النفر الشيوعيين المعلنين شيوعيتهم من كبار موظفى المعارف !) وغضب علماء دمشق وتجارها وطلابها ، والجمعيات الإسلامية والعربية فيها ، وغضب عمالها الذين يتخذهم الشيوعيون فى الشام ، كقميص عثمان ... وبعثوا بسيل من البرقيات والمقالات ، يدفعون بهذا الحق باطل النفر المخالفين ، ويثبتون به أن دمشق بلد العربية المسلمة لا تكون أبداً دار الشيوعية الملحدة ، وأن هؤلاء النفر لا ينطقون إلا بلسان أنفسهم ولا يعلون إلا بوظائفهم — فإذا أزلتهم عن كراسيهم فى وزارة المعارف لم يعودوا شيئاً ، وما (فلان) و(فلان)؟ أى حسب وأى نسب؟ أى علم وأى أدب؟ أى مال وأى نشب ؟ كراسى على كراسى . ومناضد وراء مناضد! ولولا أنها فضيحة قبيحة أن يكون بيد هؤلاء تنشئة أمة المستقبل ، وأن فى هذه الكلمة اعتذاراً إلى مصر ، وتبرئة للشام وإحقاقا للحق ، وتقوية للجامعة العربية ما بعثت بها إلى الرسالة .

(دمشق) **علي الطنطاوي**

أيكذبها ؟ وكيف ؟ وإن ما قالته تنزيلُ !
وهبَّ إلى حمى بنلوب يطرح باقة البشرى
وزف الصبح أوديسيوس وهو الفرحة الكبرى

كورس : بنلوب يا أوفى النساء ضاءتْ حواليك السماء
راح الأسى وأتى الهناء هذا أليفُ الروح جاء !
استقبلى طيرَ السلامْ واشكى له ظلم الغرامْ
وأربه ما جرح الهيامْ وأربه ما فعل الوفاء
بنلوب يا أوفى النساء ... ...

عبد الرحمن الخميسي

١ — قصة عجيبة

من أيادى الحكومة المصرية تعليم الصم والبكم ، فقد اجتمعت فى دار الأستاذ فهمى رضوان بمحسن افندى شاهين أحد المتخرجين من (مدرسة الصم والبكم باسكندرية) فأخبرنا أنه ولد أبكم وتعلم فى هذه المدرسة ، وتفاهمنا معه بالكتابة وبالكلام أيضاً ؛ فإنه يدرك ما يحدثه به مخاطبه من حركة الشفتين أو حركة اللسان فى الحروف غير الشفهية ، ثم أدهش الحضور بوضع راحته على حنجرة أحدهم وتحويل وجهه عنه ، وطلب منه أن يتكلم بما يريد ، فعرف ما قاله تماما من حركة الحنجرة ، وأعاد مثل ذلك مرات مع عدة من حاضرى المجلس المعجبين به .

محمد شفيق

٢ — بل هى حوائج :

أورد الأستاذ النشاشيبى (فى عدد الرسالة ٦٥٥) بيتى الأبيوردى المذكورين فى إرشاد الأريب .

ركبت طرفى فأذرى دمعه أسفاً
عند انصرافى منهم مضمر الياس
وقال حتام تؤذينى فإن سنحت
جوائح لك فاركبنى إلى الناس

ورأى أن الصواب (سنحت سوانح لك) . والصواب ما جاء فى الكامل لابن الأثير عند ذكر وفاة الأبيوردى وهو (حوائج) حيث ذكر البيتين . وقال الأستاذ النشاشيبى أيضاً . كانت وفاة الأبيوردى سنة ٥٥٧ ولعله اعتمد على وفيات الأعيان أو الأعلام للزركلى ، والصواب أنها سنة ٥٠٧ كما بينت ذلك (فى العدد ٥٦١ من الرسالة) نقلا عن (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد) وورد مثله فى معجم البلدان لياقوت وتاريخ الكامل وغيرهما .

محمد شفيق

من تاريخ مصر المجهول :

فى مكتبتى مخطوطة من كتاب (التنوير فى إسقاط التدبير) لابن عطاء الله الإسكندرى . وابن عطاء الله هذا مفخرة من مفاخر الإسكندرية بل من مفاخر مصر . توفى سنة ٧٠٩ هـ وكتابه التنوير من أشهر كتبه بعد كتابه (الحكم العطائية) وقد طبع

التنوير عدة مرات ونسخه المخطوطة كثيرة . أما مخطوطتى فحسنة الخط مشرقة الحرف فيها تواليع بالحمرة فى عناوينها وبعض كلماتها ولم يذكر فى آخرها اسم ناسخها ولا تاريخ نسخها ، غير أن الناسخ بعد أن أتم نسخها عاد فنقل من كتب الوعظ والحكم فوائد ملأ بها عشر صفحات وقد بدأ الفائدة الأولى بقوله : (ومن فوائد مؤلف هذا الكتاب : الوجود أقسام أربعة : خير محض وشر محض وشر وخير ولا شر ولا خير الخ) ثم ذكر أبياتا فى الحكم ثم ثلاث قطع من الشعر فى آخر كل قطعة تاريخ بحساب الجمل سجل فيه حادثة جرت فى مصر منذ ثلاثمائة سنة ونيف . وقد كتب الناسخ القطع الشعرية الثلاث من دون مقدمة ولا عنوان ولا تعليق ولا مناسبة لما قبلها أو لما بعدها .

وبعد أن أتم القطع رجع إلى سرد فوائده الحكيمة كأنه لم يأت بشىء جديد ولم يستطرد إلى خبر غريب لا علاقة له بالفوائد والرقائق التى يسردها . وهذه هى القطع الثلاث نثبتها هنا على ما فيها من خلل فى الوزن وركاكة فى التعبير أو أن ذلك كله إنما وقع من جهل الناسخ لا من بلادة الناظم .

— ١ —

لقد كانت الأمصار تحسد مصرنا
وتدعى بروض الملك فى سائر القرى
رماها ملكها بالنُّحاس فأصبحت
خرابا وأهلوها غدت أفقر الورى
وصارت ديار الذل من بعد عزها
ألا فى سبيل الله يا مصر ما جرى
وقد قلت فى عام النُّحاس مؤرخا
نحاس كأحجار على مصر أمطرا

١٠٣٤ هـ

— ٢ —

عصر كل إنسان قد صار مسكين حيران
من كثرة الغم لما رموا بها الزيف بهتان
زمانه أرخوه به نحاس وخسران
رميته نؤرخها بها نحس وخسران

١٠٤٣ هـ

— ٣ —

عصر حل تشويش وتنكيد وأحزان
برى نحاس أرسله لها سلطاننا الآن
فأضحت مصر فى وهج وأهلوها بها انهانوا

والتاريخ فى القطعة الأولى مغاير للتاريخ فى القطعتين الأخيرتين والفرق قليل لا يتجاوز بضع سنوات . وربما كان سببه اختلاف الاعتبارات فى حساب بعض الكلمات أو أن الحادثة تكررت ويكون السوء أصاب مصر مرتين أصابها سنة ٣٤ و ٤٣ وبينهما تسع سنوات وكلمة (نحاس) مضبوطة بالشكل بضم النون وفتح الحاء غير المشددة . ومن معانى النحاس الدخان وبه فسر النحاس فى آية (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس) فهل كانت الكارثة التى نزلت بمصر فى ذلك الزمن شيئاً من هذا القبيل ؟ بيد أن الشاعر قال (نحاس كأحجار على مصر أمطرا) فجعل النحاس كالأحجار ، أو لعله يريد بالنحاس قنابل مدافع من نحاس محشوة بأحجار . وفى دار الكتب المصرية ست نسخ مخطوطة من كتاب التنوير المذكور فقلت فى نفسى لعل نسختى نقلها ناسخها من إحدى هذه النسخ فيكون خبر (النحاس كالأحجار) مثبتاً فى آخرها فراجعتها فلم أجد أثراً فيها . وراجعنا بمعونة موظفى دار الكتب بعض كتب التاريخ التى وصلت فى تدوين الحوادث إلى سنتى ١٠٣٤ و ١٠٤٣ فلم نجد بينها أثراً للخبر العجيب المذكور.

فنحن نروى لقراء الرسالة هذا الخبر على علاته ، وننصه على زلاته ، فلعل فيهم من يسعفنا باليقين من أمره فنكون له من الشاكرين .

عبد القادر المغربى
عضو المجمع

الأبيوردى

تساءل الأستاذ الجليل محمد إسعاف النشاشيبى فى مقاله بعدد « الرسالة » الماضى عن « إرشاد الأريب » عند ذكر قصيدة الأبيوردى المعاوى التى قالها عند استيلاء الفرنج على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ تساءل فى بعض حواشى المقال : هل نظم الأبيوردى القصيدة وهو صغير أم نظمها بعد ذلك التاريخ ، ويرجع تساؤل الأستاذ الجليل إلى اعتماده رواية ابن خلكان أنه مات سنة ٥٥٧ هـ وللاستاذ الجليل الحق فى هذا التساؤل لأن المدة حينئذ بين نظم القصيدة وبين الوفاة هى خمس وستون سنة ... وأقول : — لعل الحق أن وفاته كانت سنة ٥٠٧ هـ لا سنة ٥٥٧ هـ كما فى بغية الوعاة صفحة ١٦ والدليل الذى لا يتطرق إليه الشك على صحة

هذا التاريخ أن السيوطي ذكر نقلا عن السلفي أن الأبيوردي «أحضر عند السلطان أبي شجاع محمد بن ملك شاه تشخيصاً وهو على سرير ملكه فارتعد ووقع ميتاً وذلك يوم الخميس بين الظهر والعصر العشرين من شهر ربيع الأول سنة سبعة وخمسمائة» وإذا علمنا أن هذا السلطان توفى سنة ٥١١ هـ كما في تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهاني صفحة ١٠٨ بين لنا وجه الحق في وفاة الأبيوردي العظيم ...

جعفر محمد

الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي للدكتور محمد البهي

من الجوانب الفكرية التي لاتزال يتغشاها كثير من الضباب؛ ذلك الجانب الفلسفي من التراث الإسلامي ؛ ومبعث الاختلاف هو : هل هذا اللون من التفكير ؛ وليد العقلية الإسلامية ؛ وبين أحضانها درج ؛ وفي بيئتها شب وترعرع ؛ أم هو ربيب بيئة أخرى لا صلة لها بهذه البيئة ؛ وإن كانت تلك البيئة قد آوته في كنفها حينا ؛ فطبعها بطابعه ؛ كما خلعت عليه هي أيضاً بعض شياتها ؛ فموقف المؤرخ لهذه الظاهرة العقلية الإسلامية ؛ موقف دقيق يحيط به الغموض ؛ ويحتاج إلى منطق متئد ، وفكر ثاقب ؛ حتى يتسنى له أن يرد كل فكرة إلى مصدرها ، وأن يحرص على أن يظل بمنأى عن التورط والانغماس فيما يلبس عليه المحجة ؛ ويجره إلى التحزب والمشايعة ؛ وقد استطاع الدكتور محمد البهي أن يحتفظ بموقفه بعيداً معتصماً بكنف البحث العلمي الذي يرد عنه عوادي الأهواء ، ويقيه مزلة الانزلاق ؛ فخرج البحث عن أن يكون رواية للمشاكل الآلهية كما تركها المسلمون ؛ وصح أن يعد تاريخاً للتفكير الإسلامي الألهي ؛ يبين قيمة العمل العقلي للمسلمين في الناحية الإلهية من حيث هو في ذاته ؛ وأثره في تطور العقيدة باعتبار أنها شيء قام على أسلوب الدين ؛ وعلى ما لطبيعته من خصائص . وهذا البحث يقع في قسمين : الأول يصور الفكر الاسلامي في مرحلة عزلته ، والقسم الآخر يصوره بعد اختلاطه بالثقافات الأخرى . فالمرحلة الأولى تتناول تاريخ الجانب الألهي من التفكير الإسلامي ؛ وهي مرحلة العزلة ؛ ويعني بها ما كان تفكيرها عربياً محضاً لم يشتبك بعد فيها مع تفكير آخر غير عربي ؛ ثم يعرض لموضوع التفكير في هذه المرحلة وهو — الله — فالله باعتبار ذاته ؛ وباعتبار علاقته كخالق للمخلوقات ؛ وباعتبار علاقته بالإنسان ؛ كان المحور الذي تركزت حوله الدعوة المحمدية كما عرفها القرآن ؛ وعوامل التفكير التي نلتمسها أولا وبالذات في الخلاف والتصدع الذي طرأ على الجماعة الإسلامية بعد وفاة الرسول ؛ والمرحلة الثانية هي تدفق الثقافات الأجنبية في القرن الثامن الهجري ؛ ولهذه الثقافة غير الإسلامية مصدران : شرقي . وهوماقام حول الديانات وخصوصا اليهودية والمسيحية وشروحها ؛ وغربي وهو الفلسفة الإغريقية . ثم تكلم المؤلف عن طريق الترجمة وأسبابها ؛ وسبب ترجمة المنطق ؛ والفلسفة الإلهية ؛ والأخلاقية والنفسية ؛ وأشهر الكتب المترجمة ؛ والكتب المزيفة ؛ ومقياس الصحيح والزائف ؛ وأسباب التزييف ؛ تناول كل هذا تناول الفاهم الملم ؛ الهاضم لموضوعه ؛ فسد ثغرة كانت لا تزال غير محكمة السد في هذا الجانب الفلسفي من التفكير الإسلامي .

محمد عبد الحليم أبو زيد

تصويب :

جاء في مقال (الدعوة إلى الخير) المنشور في العدد ٦٥٦ من الرسالة بعض الأخطاء المطبعية ، نذكرها ونصححها فيما يلي :

(ا) لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل — صوابها : لُعِن الذين كفروا ... الخ .

(ب) ومن شنئ الفاسقين وغضب الله — صوابها : وغضب لله

الخطيب



من ذكريات الشباب
اجترار

للأستاذ حبيب الزحلاوى

(تتمة)

— ٥ —

تلبس القصة الواقعية ، فى بعض الحين ، ثياب الأسطورة الخرافية وتبذها فى الغرابة ، وكثيراً ما يحار العقل فى تحليل وقائعها فينسبها إلى المصادفة والإتفاق ، فإذا أعيته الحيل وعجز عن بلوغ الحقيقة المادية لجأ إلى القول بالقدرية والأسرار المجهولة ، وأخيراً يعترف اعتراف المستسلم بالعناية الإلهية وهى قدرة فوق طاقة العقل الأنسانى تحده عن إدراك الغاية الإلهية من صنع العجائب والخوارق والمعجزات

وحكايتى أيها الأصدقاء فيها الأعجوبة الخارقة ، والأسطورة الخرافية الحية ، والواقعة المادية

كنا عشرين رجلا ، منا الطبيب والجراح والساعد والصيدلى فضلا عن الأتباع ، وكان عددهم يناهز الثمانين ، وقد انتحينا ناحية فى مؤخرة الجيش فى ميدان القتال اتخذناها مستشفى للاعمال الجراحية والإسعافات الطبية ، وكان كلما تقدم المحاربون من رجالنا تأتينا النقالات حاملة الجرحى فنضمد البسيط منها ونقطع الرأى فى الأمور الخطيرة التى تتطلب السرعة .

تقدم جنودنا تقدماً محسوساً أدركنا مداه من الدوى الذى كان يصل إلى أسماعنا مخنوقاً خافتاً حتى حسبنا أننا انقطعنا عن الجيش لم نأبه لتقدم الجيش لأن حاملى الحفات لم يشكوا من طول الشقة الفاصلة بيننا وبينهم ، وبينما نحن فى مكاننا ذاك تستغرقنا أعمالنا إذا بالدوى قد عاد ، وإذا بصفير الرصاص وقرقعة القنابل وجلبة القتال كأنها استردت نشاطها الحى ، وأخذت المدافع تقصف وترعد وبدت كراتها تشق الفضاء وتمزقه تمزيقاً ولكنها كانت بجانب الإتجاه السوى

لفت نظر زميل طبيب الى تحول المعركة من الجبهة إلى الجناح فأجابنى إجابة تهكمية أسكتتنى ، كان زميلى المتهكم ذاك ، سبط القوام ، عريض الألواح ، بديناً يحسن السخرية والتندر . لقد أحس ذلك الزميل مبلغ الألم من تهكمه فتقدم منى يلاطفنى ويطيب خاطرى

فى تلك اللحظة سقطت قذيفة بالقرب منا ، أقول سقطت ، لأن العجاجة التى أثارتها ، والرجال الذين تراكموا منا فانقلبوا على الأرض ، والحصى والحجارة والأتربة وقد عقدت سحابة داكنة فوقنا ، ثم تساقطت علينا جعلتنى أرجح سقوطها بالقرب منا

ألقيت جسمى بين يدى زميلى الطبيب البدين فحتضننى كما تحتضن الأم ولدها ، ورأيتنى أتشبث به كصبى مقرور أو مرعوب

انفجرت القذيفة بعيدة عنا ، ولم أكد أنحى وجهى عن صدر زميلى حتى رأيت محفات جرحانا تطير فى الفضاء وأحسست بجسمينا تحملهما عاصفة شيطانية كأنها خرجت علينا بغتة من أودية الجحيم ففقدت الوعى !!

لست أدرى كم كان عدد الساعات أو الدقائق التى رحت فيها فى غيبوبة أحسبها تماثل راحة الموت... ولكنى تنبهت على معالجة إخراج وجهى من حمأة كادت تكتم أنفاسى

الحمأة لزجة كريهة الرائحة ، وجفونى مقفلة بإحكام ... أجفلت من نفسى ... حاولت التخلص مما أنا فيه لأتبين حالى على حقيقته فإذا ركبتاى لا تسعفانى بالنهوض وساعداى غريقان فى بركة من دم ولحم

دم ولحم ؟!! صورة مفزعة وثبت إلى ذهنى فكدت أجن ، أخذت أنزع يدى كأنى ملسوع ، رفعت أصابعى إلى جفونى ... رفعت أصابع ملطخة تنقذ جفوناً ملطخة ؟! حاولت مجتهداً الإبتعاد عن بركة أنا الغريق فيها ، لأنى ما كدت أنقلب على ظهرى حتى أحسست أنى أتوسد أرضاً مرملة ... استعنت بالرمل على تنظيف

يدى فكانتا تتلطخان من جديد ؟! هل هما مجروحتان ؟ لا أحس ألم جراح ولكننى أشم رائحة الدم ... عدت إلى أصابعى أمسحها بالرمل ، وإلى أهداب جفونى أغسلها بلعابى ، كنت حتى تلك الساعة أجهل أن الدم كريه الطعم كريه الرائحة ، ولكن لامناص من إنقاذ جفونى من التصاق أهدابها حتى أرى على أى حال أنا وفى أى بقعة من الوجود أكون ، وهل من وسيلة إلى تضميد جراحى ؟ وهل هى تنزّ وتنفصد ، ولم يجل فى خاطرى أنى كنت ميتاً ولا فى حالة قريبة من الموت بل كانت دوافع الحياة تدفعنى إلى الكفاح للنجاة مما أنا فيه

انفتح جانب من طرف إحدى عينى فاندفع النور فيها أو كأن النور انبثق من هذا الجانب !!! حاولت الجلوس فإذا بركبتى تشعراننى بألم محتمل ، طأطأت رأسى وأخذت أفتح ثغرات أخرى فى أهدابى

ها أنذا أرى الحياة من جديد !!

شمس ساطعة ، وسماء صافية ، وصحراء هادئة ساجية ، كأن ليس عليها سواى أنا المهشم المجروح وهذه الجثة المهروسة التى كنت غريقاً فيها ، جثة مهروسة حقاً أنا هرستها بجسمى فآويت إلى أحشائها أتقى الموت فحملت عبئه وحدها وأنقذتنى ، جثة انسان ضخم الجسم غرقت فيها من شدة ضغط القنبلة العادية ولم تكن غير جثة زميلى الطبيب المفراح المزّاح

فى تلك اللحظة التى تبينت فيها جثة زميلى وتحققت أنه الميت وأنا الحى ، فى تلك اللحظة جمد ذهنى ، وركد تفكيرى ... كنت أنظر فلا أرى ، وأعى فكأنى لا أعى ! كانت صورة جثة زميلى المهروسة ماثلة أمامى ، أرى الأحشاء مندلقة بشكل تنفر منه العين وتتقزز منه النفس ، وأشم رائحة نتنة هى رائحة الإنسان !!

لازمنى ذهول مركز ، كنت أرى فرق الجيش تمر بى من بعيد ، وثاب الىّ رشدى ساعة أقبل رسل الإنسانية فحملونى على محفة إلى المستشفى .

* * *

ساد المجلس صمت ... أما أنا ، فلم أكد أهم بحكاية أخرى من وقائعى حتى شعرت كأن رفاقى يستمهلوننى بل يستوقفوننى وقال لى أذلقهم لساناً ، عليك أنت أن تدون حكاياتنا ولا عليك أن تبتدع لنا حكايات ، يكفيك أنك ألهبت شعورنا الوطنى وإحساسنا القومى بما كنت تكتب وتنشر على زعم أنه مقتبس أو مستمد من أرواح الزعماء ، فالزعماء يا صاحبى أرواح لا يفهمها الشعب ، وإن ميعاد عظمة الزعيم رهينة بلبس ثياب الأسطورة ليصير خرافة لا حقيقة ، وفى مقدرته على إنارة هالة قدسية حوله تجعل الشعب يؤمن به ، فهو فى كل أمم الشرق مجموعة من شخوص متحركة يعرفها جيداً كل زعماء الشرق ، يعرفونها جيداً لأنها شخوص مثلهم تتحرك بدوافع غير منظورة لا يراها الشعب ولا يعرفها ... كننا يا صاحبى ذلك المجتر ، شعب وزعماء !

حبيب الزحلاوى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٥٨ - الاثنين ١١ فبراير ١٩٤٦ - السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 658

Lundi — 11-2-1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٦٥٨ « القاهرة فى يوم الإثنين ٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ١١ فبراير سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

شـــــئون عربية

فلسطين — شرقي الأردن

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

لا ندرى كيف نعلل سماح الحكومة البريطانية لليهود بأن يهاجر منهم إلى فلسطين ألف وخمسمائة كل شهر حتى تقدم لجنة التحقيق البريطانية الإنجليزية اقتراحاتها أو توصياتها ، وهى مكلفة أن تفعل ذلك فى أربعة أشهر .

فقد نقضت عهدها الصريح فى الكتاب الأبيض أن لايباح ليهودى أن يهاجر إلى فلسطين بعد انقضاء السنوات الخمس — وقد انقضت — ودخول العدد المنصوص عليه فى الكتاب ، وهو خمسة وسبعون ألفاً ، وقد دخلوا — إلا بإذن العرب وموافقتهم ، وقد أبى العرب كل الإباء أن يأذنوا ويوافقوا .

ولسنا نظن أن أحداً سيزعم أن الحكومة البريطانية جنبت أى خير بنقضها هذا العهد . فإن ستة آلاف يؤذن لهم فى الهجرة إلى فلسطين فى أربعة شهور رقم ضئيل لا يرضى اليهود أو يقنعهم ولا يتألفهم من نفرتهم ، ولا يسكن من ثائرتهم على بريطانيا ، ولا يغريهم بالكف عن قتل أبنائها فى بلاد فلسطين . وإذا قيل إنها فعلت ذلك مجاملة منها للرئيس ترومان ، قلنا : وما ستة آلاف ، وقد كان يطلب السماح لمائة ألف بالدخول ؟ وأين المجاملة

وقد مضى على طلبه هـذا شهور وشهور ألفت فى خلالها لجنة التحقيق وشرعت فى أداء ما وُكل إليها ؟ ومثل هذا يقال عما يزعمه البعض من أنها أرادت أن تظهر للكنغرس الأمريكى أن هواها مع اليهود ، وآية ذلك أنها نقضت الكتاب الأبيض بهذه الهجرة الجديدة ، وأول الغيث قطر كما يقولون . وبها حاجة إلى رضى الكنغرس الأمريكى ، حتى لا يرفض القرض الذى عقد لها فى أمريكا .

فلا هى أرضت اليهود ، ولا هى أحسنت المجاملة ، ولا أقنعت الكنغرس ، وكل ما كسبته بهذا النكث أنها أثبتت لليهود أنها ضعيفة ، وأنها توسعهم حلماً وليناً كلما أوسعوها عدواناً وأسرفوا فى تقتيل رجالها .

وأثبتت للعرب أنها لا وفاء لها ولا عهد . فما حاسنها أحد محاسنة العرب ، وعاونوها أصدق معاونة فى أيام الحرب ، ولو شاءوا وكان ذلك فى طباعهم لغدروا بها واغتنموا فرصة الحرب ، فأقلقوها وأزعجوها ، وكانوا شوكة فى جنبها ، وإنها لتعرف بالتجربة ، فى ثورتهم ، أنهم لايخافون البطش ، ولايهابون القوة ولا يروعهم البأس ، إذا صمموا وألقوا عزمهم بين أعينهم ، ولكنهم آثروا الوفاء لها فى محنتها وكانوا كراماً ، وهذا جزاؤهم ! يضربها اليهود بسلاحها الذى يسرقونه من مخازن قواتها ، وينسفون منشآتها ، ويقتلون رجالها ، ويستخفون بقوتها أيما استخفاف ، فتربت لهم على ظهورهم وتقول لهم : تعالوا ادخلوا على بركة الله !

وكانت أيام ثورة العرب عليها قبل هذه الحرب ، إذا عثر رجالها على بندقية قديمة بالية نيست أجدى على صاحبها من سيف أبى حية النميرى تشنق الرجل ، وتفرض الغرامات الفادحة على القرية ، وتفعل الأفاعيل المنكرة !

ومن الغريب أنها تسوغ السماح بهذه الهجرة الجديدة بأن عليها تبعات تفرضها عليها شروط الانتداب ما دام قائماً . كأن الحكومة البريطانية التى أصدرت الكتاب الأبيض كانت تجهل شروط الانتداب حين قررت أن تنقطع الهجرة الصهيونية بعد السنوات الخمس إلا بإذن العرب ! أو كأن شروط الانتداب لا تنص صراحة على اجتناب أى عمل يضر بأهل البلاد الأصليين أى العرب !

ومن الغريب كذلك أنها تقول فى البلاغ الذى أذاعته فى هذا الصدد إن « المداولات » مع العرب طالت ، والذى نعرفه أنها لم تطل ، فقد رفض العرب أن يوافقوا على هذه الهجرة الجديدة ، وكانوا على حق فى رفضهم ، فإنها بلادهم ، ولهم أن يأبوا أن يدخلها من لا يأمنون جانبه ولا يطمئنون إليه ، بل من يخافون شره . وطبيعى أن يرفضوا دخول يهود آخرين لئلا يصبح اليهود هم الكثرة ، فيؤول أمر البلاد إليهم ، ويصبح العرب قلة وغرباء فى أرضهم . ثم إن الكتاب الأبيض الإنجليزى نفسه يخول لهم الحق فى القبول أو الرفض ، ويجعلهم أصحاب الرأى والقول الفصل فى ذلك ، وقد رفضوا بحقهم ، فكان على بريطانيا أن تحترم ما ذهبوا إليه ، وأن تحترم عهدها هى نفسها . فأما وهى لم تفعل ، فمن ذا الذى يسعه أن يثق بعهد جديد لها ، أو يطمئن إلى لجنة التحقيق وقد بدا من بريطانيا هذا الهوى ؟

وقد أعلنت الحكومة البريطانية أنها ستعترف قريباً باستقلال شرق الأردن ، وكان تحت الانتداب تبعاً لفلسطين ، وسيسافر صاحب السمو الأمير عبد الله أمير شرق الأردن إلى لندن للاتفاق على الشروط التى يتم بها الاعتراف باستقلال إمارته ، وسينادى سموه بنفسه ملكا بعد ذلك على الأرجح ، فما يبقى بعد الاعتراف لبلاده بالاستقلال مايحول دون اتخاذه أى لقب يشاء بإرادته الحرة.

ولاريب أن الاعتراف باستقلال شرق الأردن سيكون خطوة لها ما بعدها ، وقد يعفى — أو لا يعفى — بريطانيا من العون المالى الذى تبذله له كل عام ، فإنه بلد فقير إلى الآن ، وقليل عديده ، وإن كان من أطيب البلاد وأكثرها كنوزاً ، وسيحول استقلال شرق الأردن دون امتداد الصهيونية إليه ودخولها فيه ، وكان ذلك مطمعها ، وقد سخطت ونقمت لما أذيع الوعد بالاستقلال ، وعدت هذا غدراً من بريطانيا بالصهيونية ، لأن الصهيونية تعد البلاد العربية كلها والشرق الأوسط أجمعه مجالاً حيوياً لها ، كما كان « هتلر » يعد شرق أوربه وشرقها الجنوبى مجالا حيوياً له أو للرايخ . على أنى لا أظن إلا أن هتلر كان تلميذاً لليهود ، فقد أخذ عنهم « العنصرية » وأسرف فيها كاسرافهم الذى كلف العالم — ويكلف العرب الآن — شططاً .

ونحن نعرف معنى الاستقلال فى معجم السياسة البريطانية ، وما يحتاج الاعتراف باستقلال بلد ما ، إلى شروط ، فإذا احتاج فالشروط ولا شك قيود ، وتدلنا التجربة على أن بريطانيا قد أعدت لاستقلال شرق الأردن شروطاً تجعل لها نفوذاً فيه وسلطاناً عليه ، وتخولها اتخاذ مطارات — على الأقل — فى أرضه ، على نحو ما صنعت فى العراق . وبهذه الشروط — كائنة ما كانت ، وفى أى قالب صُبت — يدخل شرق الأردن فى منطقة النفوذ البريطانى .

ومثل هذا الاستقلال لايعد تاماً ، ولاحقيقياً ، ولا وطيداً ، وقد رأينا ما آل إليه استقلال العراق واستقلال مصر ، وعرفنا حقيقة الأمر فى البلدين ، ولن يكون شرق الأردن أجزل حظاً ، فإن الاستقلال « يؤخذ ولا يُعطى » كما قال المرحوم الملك فيصل فى خطبة له بالشام بعد أن دخلها فى أخريات الحرب العالمية الأولى على رأس الجيش العربى ، فإذا أعطى فهو منحة ، والمنحة تكون بقدر .

ولكن هذا الاعتراف سيكون خطوة على كل حال ، لها ما بعدها كما أسلفنا ، وبه يستفيد البلد قدراً من الحرية تتيح له أن يتجه وجهته إلى حد ما ، وتشجعه على الأمل والتطلع والسعى ، وتغير ما به تغييراً غير هين ، ومن المحال بعد أن ينعم بهذا القدر من الحرية أن يُسلبه ، بل الطبيعى أن يتسع النطاق ، فتصدع القيود شيئاً فشيئاً على الأيام . وتلك سنة الحياة ، فلا وقوف ولا رجوع . وهل تكف الأيام عن الدوران ، وسن الإنسان الحى

في إرشـــاد الأريب

إلى معرفة الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

— ٢٦ —

ج ٦ ص ٢١٠ : قال أبو حيان : قال الصاحب بن عباد لأبى واقد الكرابيسى :

يا هذا ، ما مذهبك ؟ قال مذهبى أن لا أقر على الضيم ، ولا أنام على الهَون ، ولا أعطى عِصمتى لمن لم يكن ولى نعمتى ، ولم تصل عصمته بعصمتى . قال : هذا مذهب حسن ، ومن ذا الذى يأبى الضيم طائعاً ، ويركب الهـون سامماً ؟ ولكن ما نحلتك التى تنصرها ؟ قال : نحلتى مطوية فى صـدرى ، لا أتقرب بها إلى مخلوق ، ولا أنادى عليها فى سوق ، ولا أعرضها على شاك ، ولا أجادل فيهـا المؤمن . قال : فما تقول فى القرآن ؟ قال : ما أقول فى كلام رب العالمين الذى يعجز عنه الخلق إذا أرادوا الاطلاع على غيبه ، وبحثوا عن خافى سره وعجائب حكمته ، فكيف إذا حاولوا مقابلته بمثله ، وليس له مثل مظنون فضلاً[1] عن مثل متيقن . فقال له ابن عباد : صدقت . ولكن أمخلوق أم غير مخلوق ؟ فقال : إن كان مخلوقاً كما يزعم خصمك فما يضرك ، فقال : يا هذا ، أبهذا تناظر فى دين الله ، وتقوم على عبادة الله ؟

قلت : ضبطت (الهون) فى (لا أنام على الهون) (ويركب الهون سامماً) بالفتح وإنما هى بالضم . فى الصحاح : الهون بالضم الهوان ، وفى الكشـاف فى تفسير (أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) : على هون على هوان وذل ، وقرئ على هوان . وقال فى تفسير (اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق) : الهون الهوان الشديد ، وإضافة العذاب إليه كقولك: رجل سوء ، يريد العراقة فى الهوان والتمكن فيه .

و (الهون) بالفتح : السكينة والوقار كما فى الصحاح . وفى الكشاف فى تفسير (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) : الهون الرفق واللين [2] .

(ولا أعطى عصمتى لمن لم يكن ولى نعمتى) هى (ولا أعطى عصمتى) أى قيادى وزمامى . فى التاج : قال محمد بن نشوان الحميرى فى (ضياء الحلوم) : أصل العصمة السبب والحبل . وفى اللسان أصل العصمة الحبل وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه .

---

(١) قلت : قال العلامة الفيومى فى مصباحه : قال شيخنا أبو حيان الأندلسى نزيل مصر المحروسة أبقاه الله تعالى : لم أظفر بنص على أن مثل هذا التركيب (لا يملك درهما فضلا عن دينار) من كلام العرب .

قلت : هو تركيب مولد صالح ، وهو فى كلام أئمة فى نثر وفى شعر ، قال أبو تمام فى قصيدة يهنىء الواثق ويعزيه بأبيه المعتصم :

لو يقدرون مشوا على وجناتهم ... وعيونهم فضـلا عن الاقدام

(٢) المعنى أنهم يمشون بسكينة ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم ، ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا ، ولذلك كره بعض العلماء الركوب فى الأسواق والمراد بالجهل السفه وقلة الأدب وسوء الرعة ، وعن أبى العالية : نسختها آية القتال . ولا حاجة إلى ذلك ، لأن الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن فى الأدب والمروءة والشريعة وأسلم للعرض والورع (الكشاف) الرعة : الطريقة ، السيرة .

عن الارتفاع ؟ أو هل تكر الكهولة راجعة إلى الشباب الذى ولى عهده ، أو الطفولة التى تقضى أوانها ؟ كذلك الأمم لاوقوف فى حياتها ولا رجوع ، حتى تستنفد حيويتها ويبلغ أجلها مداه ، كما يبلغ أجل الفرد مداه ، وكل ما هنالك من الفرق أنها لا تفنى فناء الفرد ، بل يدركها ما نسميه الانحطاط ، وليس يحفظها من الانقراض إلا دخول دماء جديدة فيها ، فتصبح وكأنها تسربت فى غيرها وغابت فيه ، لأن هذا الغير أقوى وأزخر حيوية ، فإذا لم يتح لها ذلك بادت كما بادت القرون الخالية .

من أجل هذا نؤثر أن نستبشر بالاعتراف القريب باستقلال شرق الأردن ، ويسرنا أن الله قد حقق لصاحب السمو الأمير عبد الله ما كان مأربه من أول يوم دخل فيه هذا البلد الطيب ، فما دخله ليضمه تحت الانتداب البريطانى ، بل ليستقل به ويكون ملكا عليه حراً فيه ، غير أن المقادير جرت بخلاف ذلك . فالآن تم له ما أراد ، أو بعضه ، فله منا التهنئة ، والرجاء المخلص أن يرى فى هـذا ما يغنيه عن التفكير فى « سورية الكبرى » ، فإن نجاح المسعى إذا اتجه إلى العراق ، أقرب منه إذا اتجه إلى سورية. والله أعلم ، وهو الموفق .

ابرهيم عبد القادر المازنى

(إن كان مخلوقاً كما يزعم خصمك) هي (إن كان غير مخلوق كما يزعم خصمك) لأن (القدم) قول خصمه و (الخلق) قول الصاحب ومن تمذهب بمذهبه . وفيه يقول أبو محمد الخازن في إحدى قصائده :

أرى الأقاليم قد ألقت مقالدها … إليه مستبقات أى إلقــاء
فساس سبعتها منه بأربعـة … أمر ونهى وتثبيت وإمضاء
كذاك (توحيده) ألوى بأربعة … كفر وجبر وتشبيه وإرجاء[1]

« والمعتزلة — كما فى شرح المواقف — لقبوا أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد وذلك لقولهم بوجوب الأصلح ونفى الصفات القديمة يعنى أنهم قالوا : يجب على الله ما هو الأصلح لعباده ويجب أيضاً ثواب المطيع فهو لا يخل بما هو واجب عليه أصلا ، وجعلوا هذا عدلا ، وقالوا أيضاً بنفى الصفات الحقيقة القديمة القائمة بذاته تعالى احترازاً عن إثبات قدماء متعددة وجعلوا هذا توحيداً » .

فى (الفرق بين الفرق) : « وكلهم (أى فرق المعتزلة) يزعمون أن كلام الله عز وجل حادث ، وأكثرهم يسمون كلامه مخلوقاً » .

فى (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) : « قالت المعتزلة والخوارج وأكثر الزيدية والمرجئة وكثير من الرافضة إن القرآن كلام الله سبحانه وإنه مخلوق لله لم يكن ثم كان ... وحكى عن ابن الماجشون أن نصف القرآن مخلوق ، ونصفه غير مخلوق ، وحكى محمد بن شجاع أن فرقة قالت : إن القرآن هو الخــالق ، وأن فرقة قالت هو بعضه ، وأن فرقة قالت : إن الله بعض القرآن وذهب إلى أنه مسمى فيه ، فلما كان اسم الله فى القرآن ، والاسم هو المسمى كان الله فى القرآن » .

قلت : روى ياقوت فى معجم البلدان عن كتاب لمسعر بن مهلهل فى ذكرما شاهده فى بلاد الترك والصين والهند أن « قبيلة تعرف بالبغراج لهم أسبلة بغير لحى يعملون بالسـلاح عملا حسناً فرساناً ورجالة ، ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوى وأنه من ولد يحيى بن زيد ، وعنده مصحف مذهب ، على ظهره أبيات شعر رثى بها زيد ، وهم يعبدون ذلك المصحف[2] .

(١) قال الثعالبي فى اليتيمة : لما قال هذا جعل الصاحب يحرك رأس مستحسن .

(٢) وفى هذا الكتاب : وزيد عندهم ملك العرب ، وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه عندهم إله العرب ، لا علكون عليهم أحدا إلا من ولد ذلك العلوى ، وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم ، وشخصوا أبصارهم إليها = يقولون إن إله العرب ينزل منها ويصعد إليها ، ومعجزة هؤلاء الذين علكونهم عليهم من ولد زيد أنهم ذوو لحى ، وأنهم قيام الأنوف ، عيونهم واسعة ...

والزمخشرى يقول فى ديباجة الكشاف : « الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً ، ونزله بحسب المصالح منجماً ، وجعله بالتحميد مفتتحاً وبالاستعاذة مختتماً ، وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً ، وفصله سوراً وسوره آيات ، وميز بينهن بفصول وغايات . وما هى إلا صفات مبتدأ مبتدع ، وسمات منشأ مخترع . فسبحان من استأثر بالأولية والقدم ، ووسم كل شىء سواه بالحدوث عن العدم » .

قال السيد الجرجانى فى حاشيته : « يروى أنه وقع فى أم النسخ (نسخ الكشاف)[1] خلق مكان أنزل ثم غيره المصنف لأن كون القرآن حادثاً أمر شنيع عند الخصم فأراد أن يكتمه أولا ثم أن يظهره بعد سوق مقدمات مسلمة عنده ، ومستلزمة للحدوث فى نفس الأمر ، فإن ذلك أقوى فى استدراجه إلى التسليم من حيث لا يشعر به » .

وشاعرنا البحترى كان فى قوله فى القرآن يدور مع الدول ... قال الإمام المرزبانى فى كتابه (الموشح) :

أخبرنى محمد بن يحيى قال حدثنا ابراهيم بن عبد الله الكجى قال : قلت للبحترى : ويحك ! أتقول فى قصيدتك التى مدحت بها أبا سعيد (ألآفاق صب من هوى فأفيقا) :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم … ويحرفون كلامه المخلوقا

أصرت قدرياً معتزلياً ؟ فقال لى : كان هـذا دينى فى أيام الواثق ، ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل . فقلت له : يا أبا عبادة ، هذا دين سوء يدور مع الدول ...

قلت : فى تعريفات الجرجانى : القدرية هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ولا يرون الكفر والمعاصى بتقدير الله .

وفى (شرح المقاصد) : اتفقت المعتزلة ومن تابعهم من أهل الزيغ على أن العباد موجدون لأفعالهم مخترعون لها بقدرهم ، واجترأ

(١) ذكر ابن خلدون الكشاف فى فصلين من مقدمته فما قاله فى الأول : ومن أحسن مااشتمل عليه هذا الفن — اللغة والاعراب والبلاغة — من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشري إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال فى العقائد فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة . . فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ... مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة ، وإذا كان الناظر فيه واقفا على المذاهب السنية فلا جرم أنه مأمون من غوائله فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه فى اللسان .

صحائف مطوية

الجنرال فيجان في سوريا ولبنان

للأستاذ أحمد رمزي

حينما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية ، عين في سبتمبر ١٩٣٩ الجنرال فيجان القائد الفرنسي المعروف ، وصاحب الشهرة الذائعة في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ على رأس جيش الشرق في ميدان البحر الأبيض المتوسط ، وقد حضر إلى بيروت وجعل عمارة كبيرة ذات عدة طبقات مركزاً لقيادته — وهي العمارة التي أصبحت بعد الاحتلال البريطاني مركزاً لبعثة الجنرال اسبيرز — فكأن القادر قد ربطت هذا البناء بأكبر الحوادث التاريخية لسوريا ولبنان إذ اتخذت في حجراته أخطر القرارات وجرت فيه معظم المفاوضات التي غيرت الكثير من أوضاع البلدين

وكان الجنرال فيجان في نوفمبر ١٩٣٩ يقيم في قصر شاهق برأس بيروت تعرفه من مفرزة الجنود الجراكسة التي تتولى حراسته ليل نهار ، والتي كانت موضع انتقاد زميلين لي من ممثلي الدول الشرقية ، وقد حظيت بمقابلة الجنرال في مركز قيادته ، ودارت بيننا محادثات ، ففي المقابلة الأولى لقيته في صباح يوم من شهر نوفمبر ، وكان قد تحدد موعدها قبل ذلك بيومين ، وقد أخذت الأهبة لهذا اللقاء لعلمي بمنزلة القائد التاريخية ، ولوثوق من شخصيته ونظرته النافذة ، ولذلك حرصت على أن أتحين الفرصة وأخرج من المقابلة الأولى ، وقد توطدت بعض الثقة بيننا ، أو شيء من العلاقة غير الرسمية ، أقصد التي يتخللها بعض الصراحة .

فكيف أعمل لذلك ؟

كان عليّ أن أستجمع كل معلوماتي وما بقي بالذاكرة من حوادث الحرب الماضية وتجاربها ودروسها ، فمنها بعض ما قرأته في المؤلفات المختلفة وبعض ما سمعته بمعهد زوريخ ، ثم كان عليّ أن أراجع ما قرأته من مؤلفات الجنرال فيجان نفسه ، وأولها مؤلفه عن « حروب محمد علي » ، وهو كتاب معروف ومتداول ، ولم ينقصني سوى كتابه عن « تاريخ الجيش الفرنسي » ، وسرعان ما جبت المدينة باحثاً منقباً لدى باعة الكتب ، حتى حصلت على نسخة من هذا الكتاب ، فأمضيت ليلتين في تصفحه ، وقرأت المقدمة مرات ، وأخذت أتعرف على أسلوبه وطريقته في سرد الحوادث وشرح المعارك التي خاضتها فرنسا ؛ ولا تنس أن فيجان عضو في الأكاديمية الفرنسية ، فهو قائد وكاتب وأديب .

ولقد أفادني ذلك كثيراً : أولا لأني من ثنايا كتابته تعرفت على الجنرال ، ومن تقليب صفحات كتابه الأخير فهمت ميوله السياسية ، ولذلك شعرت بهدوء وثبات ، وكأني أعرف الجنرال معرفة أكيدة قديمة لما توجهت إلى مركز القيادة ، واستقبلني ياوره وصعد بي إلى الطابق الثاني ، وأدخلني إلى حجرة تطل على ناحية المدينة بعكس الجنرال اسبيرز الذي حينما احتل المكان كانت حجرته دائماً تطل على البحر ، ولما استأذن لي من الجنرال أدخلني إلى غرفة متسعة ، أول شيء لفت أنظاري هو أن حيطانها قد غطيت بالخرائط المفصلة : لأفريقية الشمالية إلى حدود مصر ،

المتأخرون فسموا العبد خالقاً على الحقيقة .

* * *

ج ١٩ ص ٣٩ : وقال ابن شرف القيرواني في وصف وادي عذراء بمدينة برجة من أعمال المُرِّيَة .

رياض غلائلها سندس توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خط الربا لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنة وكل طريق إليها سفر

وجاء في شرح (سفر) سفره وأسفره أضاء ، فلعله يريد أن الطريق إليها مضيء مشرق ، فإن هذا مناسب للشطر قبله وللمدح.

قلت : (المرية) بفتح الميم وكسر الراء مخففة كما ضبط ياقوت ، وقد أورد مقطوعة في (معجم البلدان) لابن الحداد يقول فيها :

أخفي اشتياقي وما أطويه من أسف
على المرية والأنفاس تظهره

وصدر البيت الثاني (مدامعها فوق خدي ربا) وعجز البيت الثالث (وكل طريق إليها سقر) أي وعر صعب .

في النفح : وبمدينة برجة (وهي من أعمال المرية) معدن الرصاص ، وهي على واد مبهج يعرف بوادي عذراء ، وهو محدق بالأزهار والأشجار ، وتسمى برجة بهجة لبهجة منظرها ، وفيها يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني : (رياض تعشقها سندس)

وأخرى لسوريا ولبنان مع الجزء الجنوبى لتركيا ، وفى مقابل المكتب خريطة كبرى لأوروبا الوسطى تظهر فيها بوضوح تام أراضى المجر والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ، والجزء البلقانى الذى يبدأ من مقدونيا ، وفيه أراضى بلغاريا ويوجوسلافيا ، وقد ظهرت عليها التضاريس الأرضية وطرق المواصلات بمختلف الألوان . وقد أكثرت من ذكر الخرائط لأن الجنرال يحتاج دائماً إليها للتعبير عن آرائه إذا اتصلت بالناحية العسكرية ، وتتجه أنظاره باستمرار إليها فى حديثه ، وأحياناً يشير بأصابعه إليها .

وكان أثاث الحجرة بسيطاً للغاية ، لدرجة أنه لا يرضى به موظف بسيط بإحدى المصالح إذا أعطى بعض ما يشبه الرئاسة فى بلادنا مصر . وكان المكتب على شمال الداخل ، فما فتح الباب حتى خف الجنرال من أمام مكتبه مرحباً بى ، ولازمنى حتى جلست على مقعد أمامه ، وعاد هو إلى مكتبه ، معتذراً بأن حالة الحرب لا تمكنه من الحصول على أثاث لائق .

وبعد تبادل العبارات المألوفة بدأ حديثه : بأنه ليس غريباً عن مصر ، إذ هو عضو بمجلس إدارة شركة قنال السويس ، وقد أتاحت له هذه العضوية رؤية بلادنا ، ثم هو مدعو قريباً لزيارتها بناء على طلب مجلس الحرب الأعلى للحلفاء لتقديم تقرير واف عن الحالة العسكرية وما يتطلبه الموقف الحربى إذا دخلت إيطاليا الحرب وقررت مهاجمة مصر .

أفادتنى معلوماتى التى حصلت عليها بمطالعة ليلتين ، والتى أشرت إليها فى إلقاء بعض الجمل والتعليقات التى جعلته يطمئن إلى نسبة فهم محدثه لبعض الأمور ، فاعتدل فى مجلسه وأخذ يتحدث ببعض الإسهاب عن القوات التى تجمعت تحت قيادته فى بلاد الشرق فقال : إن فرنسا لم تقصد من حشدها أن تدافع عن سوريا ولبنان ، لأن القوات المحتلة للبلدين تكفى لحفظ الأمن وتوطيد سلطتها ، ولرد كل عدوان يقع عليها ، وإنما القصد من تجمع هذه الوحدات أن تكون تحت تصرف مجلس الحلفاء الأعلى ، لترسل إلى الجهة التى يبدو الخطر فيها ، فهو كقائد لهذه المنطقة على رأس مجموعة جيوش فرنسية بينها قوات مؤلفة من البولونيين والتشيكوسلوفاكيين وغيرهم ممن لم تمكنهم الظروف أو لم تسمح لهم وسائل النقل من الالتحاق بوحداتهم الأصلية فى بلدانهم .

وقال : إن هذه القوة منظمة تنظيما تاماً ، وعددها يزيد كثيراً عما يعتقده الكثيرون ، بل هى دائمة الزيادة بفضل البواخر التى تنقل من فرنسا ومن مستعمراتها الرجال والعتاد .

وهنا اتجه الجنرال لجهة الخريطة الأوروبية وقال : إن حملة سلانيك فى الحرب الماضية قد قصرت أجل الحرب وساهمت فى النصر النهائى بتعجيل انهيار النمسا والمجر وبلغاريا ، وأعتقد أن مجموعة الجيوش التى تحت قيادتى قد تفتح جبهة ثانية فى الميدان ؛ وأشار إلى سهول المجر المتسعة قائلا : إذا لم تدخل إيطاليا الحرب ولم يحدث شىء على الميدان الغربى ، فإن الحلفاء قد يضربون الألمان بفتح ثغرة من هذا المكان ضد ألمانيا ، وقد تكون ضربة حاسمة ، وذلك باعتمادهم على جيش الشرق حينما يتم تجمع وحشد قواته ومعداته . وتفهم طبعاً من حديثه هذا أنه قصد تطمين الحكومة المصرية وتمهيد زيارته القادمة لمصر .

وكنت أتلهف لمعرفة رأيه عن المدة التى قضاها فى سورية ولبنان ، ولذلك أردت أن أنقل الحديث إلى ناحية تشير إلى الماضى ، فذكرت له المدة التى أقامها بهذه البلاد ، وأنها برغم قصرها لا يزال يذكرها الكثيرون — ففهم مرادى من هذه الناحية وقال : إن أصدقاءه يأتون إليه من كل جانب ، وأنه يحب هذه البلاد وأهلها ، وإن صلات فرنسا بها صلات قديمة راسخة .

والجنرال أقرب إلى القصر منه إلى الرجل المتوسط الطول ، يبدو لك فى الخمسين من عمره ، وإن كان قد ترك الستين وأخذ يقترب من السبعين ، وهو دائم النشاط والحركة ، يظهر لى من حركاته أنه شديد الوطأة على معاونيه ، إذ يطلب درجة فوق المستوى اللاتينى من الضبط والربط ، وهذه الدرجة غير متوفرة فى ذلك الوقت ، لأن جيوشه تنقصها المعسكرات والثكنات ، فهى فى حكم المضطرة لمشاركة الأهالى فى مساكنهم ، وناهيك بأثر ذلك فى نفسية الجنود ومعنوياتهم وخضوعهم لأنظمة الجيوش . ولما كان غالب هذه الفرق قد وصل من أفريقيا الشمالية ، وأكثر من الجنود الملونة من أهالى المستعمرات والسنغال والمغرب ، كان جل اعتمادها فى النقل على الحيوان أو على عربات يجرها الحيوان ، فكانت أشبه شىء بالجنود التى زحف بها اللورد اللنبى عام ١٩١٧ على فلسطين وسوريا وحارب بها الأتراك .

كنا نعلم الكثير من هذا ، ولكن ثقتنا بالجنرال كانت كبيرة ولا حد لها ، خصوصاً فى فنه وعبقريته . ولما استأذنت ، ودعنى قائلا : إنه يسر أن يرانى من وقت لآخر . ولم تعرض المرة الثانية إلا قبيل سفره إلى مصر فى فبراير التالى ، إذ بدأت حديثاً معه ، فأشرت إلى الماريشال فوش ، وكان الجنرال رئيساً لأركان حربه ، وقلت : إننى أقف فى كل مرة أزور الانفاليد بباريس أمام الخريطة الكبيرة التى كان يدير بها العمليات الحربية بالميدان الغربى ، وأعجب من عبقريته ، وأفضى بنا الحديث إلى معركة المارن وأثر فوش ، وإلى النظرية الفرنسية للحروب ، وعبقرية نابليون وإشادة فوش بها فى دروسه بأكاديمية الحرب الفرنسية . وانتقلنا عرضاً إلى الديمقراطية ، وهى وإن بدت ضعيفة فى الاستعداد الحربى ، إلا أن الكلمة الأخيرة لها ، لأنها ستكسب فى النهاية المعركة الفاصلة .

وكان هذا الحديث الشائق يسير متواصلا إلى أن قطعه بأن أخذ يتحدث عن الجيش المصرى فوجه إلى عدة أسئلة دقيقة مثل: من كم فرقة يؤلف جيشكم ؟ كم شهراً يأخذ التدريب الفنى لجندى المشاة ؟ هل لديكم مدارس لضباط الصف ؟ ما هو التسليح الجديد والأنظمة الحديثة التى أدخلتها البعثة العسكرية البريطانية على جيشكم ؟ ما هى الوحدة الأساسية التى يبنى عليها التدريب لكى تدخل القتال مستقلة اللواء أم الفرقة ؟ هل لديكم سلاح للمهندسين بالجيش ؟ هل بوسع جيشكم أن يدخل الميدان أمام قوات منظمة على الحرب الحديثة ولصد هجوم جيوش أوروبية ؟ ما هو مستوى ضباط الأركان حرب عندكم ، وهل لديكم ضباط درسوا فى دول غير بريطانيا ؟

كانت ترتكز حول بعض المبادئ العامة مما جعله يعتقد أنه أمام جندى فى زى ملكى ، أما أنا فقد احترت كثيراً ، وكنت كمن فتح لنفسه باباً لا يقدر عليه ، ووقفت أسائل نفسى : هل أجيب على أسئلة الجنرال على الطريقة المتادة لدينا ، وفى صحفنا وأنديتنا فأقول : إن جيشنا على تمام الأهبة والاستعداد لتلبية واجب الوطن ، وإن لدينا معدات كاملة ، وإن قوادنا من الدرجة الأولى فى فنون الحرب والقتال ، بل إن منهم من وضع خطط الدفاع للصحراء الغربية . لا شك فى أن قولى هذا لم يكن يقدم

أو يؤخر ، ولكن أمامى قائد من كبار قواد فرنسا سوف يذهب بعد أيام إلى مصر ، وسيلتقى برجالنا وقوادنا ، وسيعرف بالضبط مقدار معلوماتهم ، وسوف يحادث رجال فرنسا عندنا ويقابل الجنرال ويفل والجنرال ويلسون وضباط البعثة البريطانية ، وسيقف على كل صغيرة وكبيرة . فوقفت متردداً ثم قلت : إن الجيش المصرى يتطور بسرعة نحو استكمال أسلحته ، وسترى فى مصر وتسمع الكثير عنه ، ولا شك أن الخطوات ثابتة . ويذكرنى حديثكم عن أيام قضيتها بإيران ، والتقيت مرة بأفراد البعثة العسكرية الفرنسية المكلفين بتنظيم الجيش الإيرانى ، فسمعت أحدهم يقول : « إن الحكومة الإيرانية تطلب منا أن نخرج لها ضباطاً صالحين للقيادة بعد دراسة لا تطول أكثر من سنتين ، ونحن فى فرنسا نحتاج إلى عشرين عاماً لتهيئة وتكوين ضابط من ضباط الأركان حرب الذين تستطيع أن تعتمد عليهم الدولة فى تحريك فرقة من الجنود وقيادتها فى ميدان القتال » .

وهنا نظر إلىّ الجنرال طويلا وابتسم ، إذ فى ذلك كل الإجابة على أسئلته المحرجة ، ولكنى أردفت ذلك بقولى له : إن مواد العمل صالحة وجيدة ، وإن قوة احتمال الجنود وصبرهم من ميزات الجيش المصرى ، بل هى أهم عوامل البناء التى يمكن الاعتماد عليها فى إخراج جيش حديث يعيد بعض مواقف السلف فى الماضى ، ولا شك أنكم كتبتم شيئاً من ذلك فارجعوا إلى ما أشرتم إليه فى كتابكم

فهز رأسه موافقاً على ما قلت ، وافترقنا ، وبعد أسبوع من هذه المقابلة سافر الجنرال إلى القاهرة ، ولقى من السلطات المصرية والبريطانية كل ترحاب ، وأقيمت له المآدب وحفلات التكريم ، منها مأدبة رفعة على ماهر باشا التى أقامها على شرف الجنرال فى فندق سميراميس ، وقد دعى إليها كثير من العظماء وأهل الرأى من السفراء وكبار ضباط الجيشين المصرى والبريطانى ، وأدلى رفعته بحديث نقلته وكالات البرق قال فيه :

« إن مصر تغتبط باستقبال القائد العظيم وتقدر صفاته العسكرية الممتازة وماضيه المجيد وتحيى فيه ممثل فرنسا النبيلة » .

وأقيم له استعراض عسكرى اشتركت فيه بعض الوحدات الميكانيكية من القوات البريطانية والمصرية والهندية ، وكان يرافقه

القائد البريطانى الجنرال ويفل أثناء العرض .

وتعود بى الذكرى هنا إلى عام ١٩٤٢ ، حينما تعددت مقابلاتى مع الجنرال كاترو الفرنسى ، وذلك بعد احتلال سوريا ولبنان ، وفى إبان المفاوضات التى انتهت بعودة الحياة الدستورية بالبلدين ، إذ أننى قابلته فى يوم ١٦ أكتوبر ١٩٤٢ ، وتناول الحديث مسائل متنوعة ، ولكنه صرح لى وقد قيدت ذلك فى حينه :

إنه كان حاضراً فى مجلس الحرب الأعلى للحلفاء فى باريس ، وذلك قبل خروج فرنسا من الحرب ، حينما عرض التقرير الذى وضعه الجنرال فيجان عن رحلته إلى مصر فى فبراير ١٩٤٠ وعن الحالة الحربية ، وأن الجنرال سجل إعجابه بالجنود المصريين وحسن استعدادهم للخدمة العسكرية ، واقترح وجوب زيادة الجيش المصرى ، كما أشار إلى ما يجنيه الحلفاء من الفائدة والمعونة إذا وقف بجانبهم جيش مصرى قوى ، وقد أخذ مجلس الحرب الأعلى بهذا الاقتراح ، وكان من ضمن القرارات التى وافق عليها .

وعاد الجنرال فيجان من مصر فبدأ رحلاته إلى الداخل ، وكثرت تنقلاته ، وكانت مقابلاته بعد ذلك عرضية ونادرة ، وأغلبها فى ميدان السباق ، ولكن توطدت مع معاونه الجنرال كايو ومع أركان حربه ومكتبه علاقات ودية ثابتة ، فما اتصلت بشىء لدى السلطات العسكرية عن طريق القيادة ، وإلا وأجيب طلبى أو رجائى فوراً ، أو كان محل اهتمامهم وتحرياتهم بعكس السلطات المدنية التى طالما تمهلت وتأخرت ، ثم ألفت أسباب عجزها على السلطات العسكرية ، ولقد كان ذلك موضع تندرنا فى المفوضية الفرنسية خصوصاً المكتب الدبلوماسى الذى إذا احتج بالعسكريين بادرتُ بأن أعلمه أننى مستعد للذهاب إليهم رأساً لإزالة ما نشكو منه ، وكان المكتب يعلم بما تقدمه السلطات العسكرية من تسهيلات لمصر فى مقابل ما تبذله مصر من تسهيلات للعسكريين

هذا هو الجنرال الفرنسى الذى ساهم مساهمة فعلية فى قيادة فرنسا إلى النصر فى الحرب الأولى ، والذى وطد نفوذ بلاده فى الأشهر الأولى من الحرب العالمية الثانية ، كان فى حركاته ومشيته تفيض منه الطمأنينة والثقة ، فيتأثر منها الغير لدى مواجهته أو مصافحته أو رؤيته ، ويشعرون بنفس الثقة والاطمئنان .

وأذكر مرة أنى رأيته داخلا الجامع العمرى بمدينة بيروت بمناسبة المولد النبوى الشريف ، فهتفت له الجماهير الإسلامية طويلا ، وحملته على الأعناق ، ودخلت به المسجد .

ولقد رأيت الكثيرين من ممثلى البلاد الأوروبية فى الشرق فلم أر مثل فيجان ، ولقد وصل غيره ، ورتبت لهم الهتافات ، إلا أن الجماهير لم تغمرها روح الحماس الذى كانت تحس به عند رؤيتها الجنرال الشيخ والشاب فى نفس الوقت .

وفى ليلة من الليالى استدعى إلى باريس لقيادة جيوش الجمهورية وسد ثغرة سيدان ، لقد تحطمت الجبهة واندكت حصون خط ماجينو فى الشمال والزحف الألمانى لا يقف ، وراديو برلين يصيح : « لو بعث نابليون من قبره ، لما كان فى وسعه أن يغير القدر المحتوم ! » لقد هزمت فرنسا وتمزقت جيوش الجمهورية !

وكنت جاراً للجنرال كايو ، وقد زالت الكلفة بيننا ، وفى عصر أحد الأيام دعانى لمنزله ، وقال إنه يغادر البلاد الليلة إلى مصر فالسودان فأفريقيا الغربية فراكش إلى فرنسا ، وذلك بناء على دعوة فيجان ، إذ يجب أن يكون بجبهة القتال قبل أربعة أيام . قلت إنكم تنتظرون قرارات حاسمة . قال : إن إنقاذنا يحتاج لمعجزة

Seul un miracle peut nous sauver

ودمعت أعين القائد أمام هذا التصريح ، فاستأذنت بعد أن حملته سلاماً للقائد الذى وضعت فرنسا وبلادى مصر وغيرنا من البلاد آمالها فى عبقريته وفنه العسكرى يوماً من الأيام .

وانتهت صفحة من تاريخ العالم بمعاركه وفواصله وأسلاكه الشائكة !

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

دمشـــــق . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

« كتب إلى صديق كبير وأستاذ جليل ممن عرفت في مصر أن أصف له مدخل دمشق ، وأن أعرفه بمتنزهاتها وآثارها ، وإن ذلك لمطلب على مثلي عسير ، وحمل على قلمي ثقيل ، وإني أحاوله اليوم محاولة ربما ينهض به من هو أضخم مني في زحمة الأدب منكبا ، وأحد فكرا ، وأمضى قلما .. » .

هذي دمشق يا أيها الأخ السائح ، قد لاحت لك أرباضها ، ودنت رياضها ، أفما تراها وأنت قادم عليها من نحو فلسطين [١] ، مع الصباح الأغر كيف نامت من غوطتها على فراش من السندس صنعته يد الله ، وقد توسدت ركبتي حبيبها البطل الشامخ بأنفه الصخري : قاسيون [٢] ، فكان رأسها في الصالحية ، وقدمها في (القدم) [٣] وقلبها في (الأموي) بيت الله الأطهر ، فانظر أما تراه أول ما يبدو من دمشق للقادم عليها ، يطل عليها بقبته التي ليس لها في الدنيا نظير : قبة النسر التي راعت بجلالها الأولين والآخرين وما رأى الرائي أضخم منها ولا أعلى ، ومآذنه الثلاث معجزات الصنعة في تاريخ العمران الإسلامي ، يسبغ على المدينة جلال القرون الأربعين التي رآها وعاشها ، مذ كان معبداً وثنياً ، إلى أن صار منسكا مسيحياً ، إلى أن استقر مسجداً إسلامياً ، يخرج من مناراته خمس مرات كل يوم النداء الأقدس : « الله أكبر لا إله إلا الله » فيردده إخوان مسلمون في المشرق ، وإخوان في المغرب حتى يفيض طهره على الأرض كلها . ألا تراه يعلو كل عمارة في المدينة على ما فيها من عمارات شاهقات ، حتى كأن أعلاها إلى جانبه الطفل بجنب الرجل الضخم الطويل ؟ فإن كان برج (إفل) علم باريز وذلك التمثال علم نيويورك ، فعلم دمشق بيت الله العلي ذي الجلال .

لقد دنونا ، هذا المطار إلى يمينك ، وهذه القرية من ورائه (داريا) [١] ، والغوطة الغناء ، جنة الأرض ، ما رآها أحد إلا أحس بأنه يرى مدينة مسحورة من مدن (ألف ليلة ...) ، قد تراءت له في غمرة حلم ممتع ... لقد اقتربنا منها ... هذه (المزة) ضاحية دمشق ، أصح المنازل ، وأبعدها عن العلل ، مساكن العرب الغر من سالف الدهر ، لقد جاوزنا سهلها المشرق ، وجبلها المشرف ، وساحتها الفيحاء ، وعماراتها البارعات ، وولجنا حمى الغوطة . هذه بساتينها التي تتصل حافلة بالثمار ، مليئة بكل ما يفتن ويفيد ، مسيرة تسع ساعات على الماشي وما ينفك يمشي في ظلال شجرة مثمرة ، أو نبتة مزهرة ، ولو اجتمع على مائدة واحدة ما تخرج من الثمار من أنواع المشمش والعنب والتفاح والكمثرى والخوخ ... لاجتمع أكثر من ثلاثمائة صحن ما في صحن منها مثل ما في الآخر . وحسبك أن في الشام من العنب أكثر من خمسين نوعاً ... ومن التفاح فوق الثلاثين [٢] ...

هذه هي الغوطة ، أفما ترى نساءها يلحن من بعيد وهن ساريات خلال الأشجار ، أو منثورات وسط الحقول ، بثيابهن التي لا يحجبنها ، على سترها وشمولها ، إلا زاهية تضحك فيها الألوان ، فتحسبهن الزهر ، وتظن الربيع قد جاء في كانون [٣] والأرض مفروشة ببسط نسجت بخيوط الذهب ، من صفرة الأوراق التي بعثرها وتركها الخريف ، فكانت كنثار الدنانير ، على بساط من السندس ، في عرس أمير ، والبقر الفاقع الصفرة الصافي اللون ، تماثيل في متحف الطبيعة صبت من خالص العسجد ، والشتاء إذ حل خلعت فيه الأشجار ثيابها ، على حين يتدثر الناس بالصوف ،

(١) لدمشق أربعة مداخل : من الشمال يدخل منه القادم من بغداد ومن حمص وحلب فيمر على كروم دوما ، ويجتاز طرف الغوطة ، حتى يلج دمشق من حي النصارى سالكا على (شارع بغداد) العظيم ، ومن الغرب يدخل منه القادم من بيروت ومن فلسطين ، ويلتقي الطريقان في أسفل عند الربوة ، ومدخلان في القطار ينتهيان في محطة الحجاز في شارع النصر .

(٢) قاسيون جبل دمشق علوه عن وجه البحر (١٢٠٠) متر وعن المدينة نحو (٥٠٠) وقد بلغت منازل حي المهاجرين والصالحية ثلثية علواً .

(٣) القدم قرية على باب دمشق من جهة الميدان ، تبعد عنها مسيرة عشر دقائق فقط .

(١) قرية من أكبر قرى الغوطة وهي قديمة ذكرها ياقوت ، وهي مشهورة بنوع من العنب الفاخر لا يثمر إلا فيها . وفي الغوطة أكثر من خمس وعشرين قرية ، وقصبتها بلدة دوما .

(٢) في حديقة منزل عمي صلاح الدين الخطيب ، في دمشق أربعة وعشرون نوعا من التفاح !

(٣) كانون الأول في لسان العرب هو (ديسمبر) في لغة الانكليز !

فكأنما هن الغيد الفواتن تعرين على الشط ، ليضنين الشباب لوعة وشوقا :

وما يتنحين الشـط يبغين برده
ولكن ليقتلن البرىء (المغفلا ...)

فهذا الحور لم يبق منه إلا عيدان ، فكأن الحور فتية أذاب جسومهم الحب ، فأضحوا من جواه جلداً على عظم ، والشمس كملاح هجرهن الأحبة ، بعد ما قطفت زهراتهن ، فأنّ بلوعة ليست تنفع وحسرة ، ورحن إلى خزى لا يريم وإلى ألم ؛ والجوز العارى على جلاله ، ملك عزل واستلب منه تاجه ، ولكنه كان عظيما فى نعمته . أما الزيتون ، وما أعظم الزيتون ، فلا يرى إلا لابساً ثيابه التى لاينضيها ولا تبلى عليه ، ثابتا على حاله ، لايحس بالغير ، ولاتستخفه الأحداث ، فلا يضحك بالزهر إن أقبل الربيع ، ولا يبكى إذا جاء الشتاء ، فهو الفيلسوف الساخر بالحياة ، أفراحها وأتراحها ، الذى لا يبالى نعمها ولا نقمها ، والسواقى وهن جوار من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، ومن كل جهة إلى أختها : ساقية تجرى عميقة — بين الأعشاب ، لا يوصل إليها ، ولا ينال ماؤها ، وأخرى ظاهرة مكشوفة ، وواحدة تتحدر تحدراً ولها صخب وهدير — وثانية تسير صامتة فى أصول الأشجار وصافية نقية — وعكرة خبيثة — وسالكة طريقها قانعة بمجراها ، وكاسرة حدودها عادية على غيرها ... فكأن سواقى الغوطة صورة لنا فى حياتنا نحن الناس ، كل يعمل على شاكلته ، وكل ميسر لما خلق له ، مول وجهته ساع إلى غايته ، والوجهات متعارضات ، والغايات مختلفات ، ولكن كل ساقية تعرف طريقها ، والناس يهبطون إلى حضيض الشهوات والمعاصى على أهون سبيل ولكنهم يلقون فى التسامى إلى معالى الأمور عنتا وأينا . وكذلك السواق تنحدر بلا سوق ولا تعب ، ولكنها لا تعلو إلا أن تضخها بمضخات وترفعها بآلات ، وهذا عميق النفس لا تدرك قرارته ولا تعرف حقيقته ، وهذا واضح بين ، ظاهره كباطنه — وهذا جياش صخاب ، وهذا صامت سكوت ، ونقى الطوية وخبيث الداخل ، ومنصف وظالم ، وكبير وصغير ، وكل يستمد من غيره ، ويمد سواه ، وكذلك السواقى فى الغوطة ...

***

هذه هى الغوطة إن يفتنك جمالها وبهاؤها ، فقد فتنت من قبلك ملوكا وقواداً وأدباء وعلماء ، وأنطقت بالشعر ناساً ما كانوا من قبل شعراء ، وأشاعت فى الناس فرحة لا تنقضى ، وما فقدت على الأيام فتنتها ولا شاخت على طول المدى ، بل ازدادت شبابا وفتونا وحسناً ... هذه هى الغوطة رأيت جانباً منها فى الشتاء ، ولو رأيتها وهى مياسة فى حلل الزهر تختال فى أفراح الربيع ، عرس الدهر ، تملأ الدنيا بالعطر والسحر ، وتقرأ على القلوب أبلغ الشعر ، لرأيت عجبا ، ما يبلغ وصف حقيقته بيان !

***

لقد تركنا هذا الطريق القديم الذى يمر على ثكنات الجند ، ومنازل الجيش ، وملنا من هذه الجادة المحدثة إلى الشارع العظيم شارع فاروق الأول لندخل دمشق من أفخم مداخلها . هذا هو بردى يا أيها الأخ ! وهذا ؟ ... أترى هذه العظمة وهذا الجلال ؟ أتسأل ما هذا الوادى ، وما هذه الأنهار تجرى فى سرة الجبل وعلى السفح ، سبعة بعضها فوق بعض ، كعقود اللؤلؤ فى عنق كأنه العاج ، والشلالات تهبط من أعاليها إلى أسافلها ؟ هذا ياسيدى معبد الجمال ، هذا دير الحب ، هذا منسك القلوب ، هذه الربوة ... لا يا أيها الأخ ، إن من الإلحاد فى شرعة الجمال أن نصف الربوة ونحن نمر بها مرور الكرام باللغو ، إن لها حديثها وستسمعه إن شاء الله . ولقد قلت عنها كلاما كثيراً ، ولكن مكان القول ذو سعة ، وسأقول عنها إن أنا وقفت كلاما أكثر ، على أنه لا يغنى فيها كلام عن شهود ، ولا يجزىء بيان عن عيان ...

***

وصلنا يا أيها الأخ ؛ هذا ميدان دمشق (المرجة) وهذا النصب الفخم فى وسطه المتوج بتمثال مسجد السراى فى (اسطامبول) ، هو نصب التذكار بمد الأسلاك البرقية إلى دمشق[1] وهذا القصر الصخرى الهائل ، سراى أحمد عزت باشا ، وهذه دار البلدية ، وهذا البناء الرفيع الذرى ، نزل أمية ، وهذه الشوارع الثمانية المفضية إلى الميدان ، بسياراتها وتراماتها ، طرق أحياء دمشق ... أتعجب من هذه الحانات وهذه الملهيات . ومن كثرة السينمات ؟ هذه يا صاحبى (دمشق الجديدة ...) ، لا تلق فيها

(١) الشائع فى العامة أنه تذكار مد سكة الحديد إلى الحجاز .

ما لا تلقى مثله فى أى مدينة كبيرة : خير وشر ، وعلم وجهل ، وتقى وفجور ، وحجاب وسفور ، حياة كالبحر فيه اللؤلؤ وفيه الحصى ، وفيه الحياة وفيه الموت . هذى دمشق التى مزقت ثوبها لتلبس ثوبا أوربيا ، فلم تجده على مقياسها فبقيت عريانة إلا من خرق وأسمال . هذه هى القبرة التى أراد لها حمقها أن تقلد الغراب فنسيت على جمالها مشيتها ، ولم تتعلم على قبحها خطوة الغراب . انزل فى نزل أمية ، أو فى فندق الشرق (أوريان بالاس) الضخم ، القائم هناك ، بحيث يشرف على بردى وواديه ، والشرف الأعلى ومغانيه ، وقاسيون وقصور المهاجرين ... تحس أنك فى (شبرد) القاهرة ، أو (الكونتننتال) — أعنى أنك فى أوربة ؛ فالأثاث والرياش ، والطعام والشراب ، والزى واللباس ، والسماع والغناء ، واللغة واللسان ، كل ذلك أوربى أوربى أوربى !

ولو أنك عرفت هذه (المرجة) فى عصورها الخوالى ؛ وهذان الشرفان الأعلى والأدنى ، وما كان فيهما من مدارس ومساجد وزوايا وتكايا ، وما قام الآن مقامها ، وأخذ مكانها ... ولكنى لن أسوق لك المزعجات وأنت قادم على البلد ، فاقرأ إن شئت ابن عساكر ، والمحاسن للبدرى ، ورحلة ابن بطوطة ، وما أظنك إلا قد قرأتها كلها !

هذه دمشق الجديدة ... أما دمشق العربية المسلمة ، بلدك وبلد خلائف الأرض ، من أبناء عبد شمس ، من إذا قالوا لبت الدنيا ، وإن مالوا مالت الأرض ، وإن حكموا أطاع الزمان ، من كانت دولتهم (تفصل ...) تسع عشرة من دول هذه الأيام ، من كانت راياتهم تخفق على بطاح فرنسا وسهول الهند ، وما بينهما وكانت قصورهم تتيه على النجوم ، وكانت أبوابهم تقف عليها الملوك . أما دمشق معاوية والوليد فليست هنا ، إنها مختبئة هناك فى دروب ضيقة وحارات حول المسجد الأطهر ، هناك المجد والعلم والتقى وبارع الخلال ، فامش إليها وادخل دورها ، وجالس أهلها ، تقرأ تاريخ المجد فى صفحات من دور ووجوه وعادات ، وتر بقايا الحضارات من لدن نوح قد استقرت فيها ، ففى كل بقعة منها تاريخ ، وكل حجر منها يتلو من سور الجلال آيات .

فإذا أردت أن تعرفها وتصل إليها ، فاخرج من نزل أمية ، وسر قليلا تجد أمامك جامع الأمير (يلبغا) الذى سرقوا نصفه فجعلوه مدرسة للصبيان ، وتركوا منارته قائمة فى المدرسة ، تعلن لكل ذى عينين شكواها وتذيع خبر بلواها ، فلا تقف عليه وخذ إلى يمينك ، إلى جادة الفنادق ، (الجوزة الحدباء) ، حتى تبلغ سوق صاروجا[1] الذى كان حى الباشوات من الأتراك والمجددين فصار الآن حى التجار المحافظين ، فرر فى طريقك جامع الورد[2] ثم سر إلى العقيبة ، منزل الإمام الأوزاعى[3] وادخل جامعها الأنور المبارك الذى لا يخلو من قائم لله بحجة ، جامع التوبة[4] ثم اسلك طريق العمارة ، وجز بزقاق النقيب ، وعرج على منازل علماء الأمس[5] ، فقد كانت هذه المنازل مدارس ، وكانت جامعات ، وكانت منائر هدى للناس ، وكانت هى دعائم نهضتنا ، وزر الكلية الشرعية ثم ادخل الجامع الأموى ، وامكث فيه وسائله عن الماضى واستنطقه ، وطر بروحك فى سمائه ، واسم بها إلى عليائه ، ثم عد إلى أحدثك إن شاء الله حديثه ، وإن حديثه لطويل !

ثم جل فى القيمرية ، ولج تلك الدور ، وشاهد تلك القاعات والأبهاء ، وهذه الزخارف والنقوش ، والبرك والنوافير ، فمنها يا سيدى أخذ الأندلسيون هندسة هاتيك القصور ، ومر بهذا الزقاق الذى تباع فيه القباقيب ، ولا تحقره لضيقه وفقره ، ثم انزل إلى تلك الحارة المعتمة القذرة ، فاقرع باب مصبغة هناك ، فإذا فتحوا لك فاهبط درجها ، ولا تفزعك رطوبتها وظلمتها ، ثم قف خاشعاً متذكراً معتبراً ؛ فإن فى مكان هذه المصبغة التى يسمونها (مصبغة الخضراء) كان قصر الخلفاء من بنى أمية ...

فإذا خرجت منها فاسأل عن زاوية هناك ، فإن فيها قبر معاوية الصغير (ابن يزيد) ، ثم اذهب إلى السميساطية تلك المدرسة المحدثة البناء ، العامرة ، فقف عليها فقد كانت منزل خامس الخلفاء الراشدين ، عمر بن عبد العزيز ، ثم أم المعاهد فى جوارهما : الجقمقية

---

(١) نسبة إلى صاروجا ، الأمير صارم الدين من أمراء المماليك مات سنة ٨٤٣ والعامة تسميه سوق ساروجا .

(٢) ويقوم عليه العلماء آل عابدين من سلالة صاحب الحاشية .

(٣) وكانت يومئذ قرية فى ظاهر دمشق .

(٤) سمى بذلك لأنه كان خانا ترتكب فيه أنواع الموبقات ، فجعله أمير لا يحضرنى الآن اسمه وتاريخه مسجدا ، وهو أحد جوامع الاحياء فى دمشق ، ومنها جامع السادات فى حى الأقصاب ، ويلبغا فى سوق الخيل ، والسنانية فى باب الجابية ، نسبة إلى المهندس التركى المشهور صاحب المآثر العمرانية سنان باشا ، وقد وقف عليه أوقافا جليلة ، وجامع باب المصلى ، وسيدى صهيب ، وجامع منجك والدقاق فى الميدان وفيه (بسيط) نادر من عمل جدى العالم الفلكى محمد الطنطاوي المصرى الأزهرى الذى نزح من طنطا إلى دمشق وتوفي سنة ١٣٠٣ هـ وجامع محي الدين بن عربى .

(٥) كالأمير العالم عبد القادر الجزائرى والشايخ محمود الحمزاوى المفتى ومحمد الطنطاوى وسليم العطار وبكرى العطار وابن عابدين صاحب التكملة والكزبرى والحايك والعمادى والحانى والشطى والطيبي والاسطوانى والخطيب والميتى وغيرهم رحمهم الله أجمعين

ومدرسة بطل الدنيا صلاح الدين ، فقم على قبره ساعة ، وترحم عليه واحمد الله ، على أن خزى ذلك الطاغية (غورو) وذل[1] والظاهرية[2] دار الكتب ، والعادلية[3] مثوى المجمع العلمي العربي ثم اسلك على باب البريد ، ومر بخرائب (المرادية) التي كانت إلى العهد القريب مدرسة عامرة ، حتى تزور العادلية ودار الحديث الأشرفية ، التي كان فيها البدر الحسني بقية السلف، وزر المارستان النوري ، الذي كان مستشفى كأكبر ما يكون مستشفى في هذه الأيام وكان مدرسة للطب ، ثم أم قبر الملك المظيم صاحب هذه المآثر نور الدين القائد الظافر والملك العادل والحاكم الكامل ، ثم ادخل القلعة ، وشاهد السور والأبواب ...

هذه دمشق ياسيدي ، أفيوفى حديث دمشق في مقالة ؟ فأمهلني أعد إليك محدثاً ... وأطل الحديث[4] .

هذي دمشق أقدم مدن الأرض[5] وأجملها ، هواؤها أطيب هواء ، وماؤها أعذب ماء ، وطعامها أمرأ طعام ، ومنظرها أبهى منظر ، ومخبرها أحسن مخبر ، ولسانها أفصح لسان ، وسكانها من أكرم السكان ، فيها العلم والأدب ، والتقى والصلاح ، والحب فيها واللهو ، وفيها الفتون والجمال .

هذي دمشق كانت لب العربية ، وبقيت لب العربية ، وستطلع على العصور القوادم وهي للعربية لب وقلب وفؤاد ، لها لين الماء الذي يضحك به بردى ، وشدة الصخر الذي يشمخ به قاسيون ، وصراحة السهل الذي تزدهي به المزة ، وكرم الأرض التي تعطي (في الغوطة) أكلها أربع مرات في العام .

لهالين بردى ، ولكن بردى إذا ضويق بالسدود ، علا وفاض واجتاح البلاد والعباد ، ودمر كل شيء يقف في طريقه ، ويقطعه عن مراده ، فقل للغافلين : « لا يغرركم من بردى لينه وابتسامه فإنه سرعان ما يعبس ويثور » . فاتقوا غضبة الحليم !

(دمشق) **علي الطنطاوي**
القاضي الشرعي
ومدرس الأدب بالكلية الشرعية (العليا)

(١) لما دخل عدو الله غورو مدفن السلطان ، استل سيفه وقال : الآن انتهت الحروب الصليبية !

(٢) والذي يعود إليه الفضل في إنشاء المكتبة الظاهرية ، إذ جمع فيها الكتب التي كانت متفرقة في المساجد والزوايا ، هو مربي الجيل العلامة الشيخ طاهر الجزائري أحد نوادر الدنيا علما وعملا وصراحة وتدليكا ، وشرف نفس وجرأة وسعيا للمصلحة العامة ، وبفضله أنشئت المدارس الابتدائية في دمشق

(٣) نسبة للملك العادل محمد بن أيوب أخي السلطان صلاح الدين ، انتهى إليه ملك مصر والشام والتين وأرمينيه وكان ملكا عظيما توفي سنة ٦١٥ ودفن في مدرسته ، التي اتخذها المجمع العلمي العربي في دمشق داراً له ، وكان يسكنها القاضي المؤرخ الأديب ابن خلكان ، وحول بركتها كان يدور ليله ويهتف بيتيه المعروفين أما الظاهرية فنسبتها إلى الملك الظاهر بيبرس قائد المظفر صاحب الوقائع الهائلة وله تاريخ طويل ومآثر مشهورة توفي سنة ٦٧٦ ودفن في هذه المدرسة ، وضريحه في قاعة من أنفس القاعات الباقية في دمشق .

(٤) انظر العدد ٥٢ من الرسالة سنة ١٩٣٤ والعدد ٣٤٠ سنة ١٩٤٠ و ٤١٩ سنة ١٩٤١ وكتابي (في بلاد العرب) .

(٥) أعني المدن العامرة ، فأروني مدينة عامرة أقدم منها ؟

صور من العصر العباسي :

مآكل الخلفاء العباسيين

للأستاذ صلاح الدين المنجد

لعلّ الملوك والخلفاء من أشد الناس حرصاً على انتقاء ما لذّ من الطعام وطاب ، فهم يتخيرون اللذيذ من كل شيء ، وماعليهم إن أتعبوا غيرهم ، أو أنفقوا الأموال الطوال في سبيل ذلك .

والخلفاء العباسيون ، كانوا يعنون بهذا الأمر كل العناية ، وكانوا يحرصون على ألا يفوتهم من لذائذ المآكل والثمار شيء . فكانت هذه اللذائذ تحمل من الأقطار إلى قصورهم في بغداد ليتمتعوا بها ، وكانوا يفرضون أن يُحمل إليهم مع خراج كل بلد ، ما حسن فيه من مأكل أو ثمر أو زهر . وهكذا كان يحمل مع خراج الرى [1] الرمان والخوخ القدد ، ومن أصبهان [2] والوصل العسل والشمع ، ومن الكوفة البنفسج ، ومن جرجان [3] النرجس ، ومن الصيمرة [4] النارنج ، ومن طبرستان [5] الأترج . وكان يحمل من مكة والمدينة والحجاز إلى الخليفة العنبر والزبيب ، ومن الأهواز [6] ثلاثون ألف رطل من السكر ، ومن فارس [7] ماء الورد والزبيب الأسود والرمان والسفرجل والتين . أما دمشق ، فكانت ترسل إلى الخليفة التفاح ، وكان المأمون معجباً به ، يؤخذ إليه منه ثلاثون ألف تفاحة مع الخراج .

وكانوا إذا اشتهوا شيئاً ولم يكن له نصيب في الخراج ، أرسلوا يطلبونه . فقد كانوا يطلبون ألوان اللحوم والطيور ، ولو بعد مكانها ، فتأتيهم على البريد . وينفقون في ذلك الأموال الكثيرة .

(١) انظر ما كتبه ياقوت (معجم البلدان ٢ / ٨٩٢) عن الرى .
(٢) انظر ما كتبه ياقوت (معجم البلدان ١/٢٩٢) عن أصبهان .
(٣) انظر ما كتبه ياقوت (معجم البلدان ٢ /٤٨) عن جرجان .
(٤) انظر ما كتبه ياقوت (معجم البلدان ٣/٤٤٢) عن الصيمرة .
(٥) انظر ما كتبه ياقوت (معجم البلدان ٣/٥٠١) من طبرستان .
(٦) انظر ما كتبه ياقوت (معجم البلدان ١ ــ ٤١٠) عن الأهواز .
(٧) انظر ما كتبه ياقوت (معجم البلدان ٣ ــ ٨٣٥) عن فارس .

وكل هذا ليتمتع الخليفة بالطيبات من المآكل والأثمار . [1]

ومظهر هام من مظاهر هذه العناية يتجلى لنا ، عند بعض الخلفاء ، بالألوان الكثيرة التي كانت تهيأ له من الطعام . وقد كان عدد هذه الألوان يبلغ مبلغاً ، ما سمع ولا عرف . حدث جعفر بن محمد — وكان أحد العشرة الذين اختارهم المأمون لمجالسته ومحادثته من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم — قال : تغدينا يوماً عنده — أى عند المأمون — فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون . وكلما وضع لون ، نظر إليه المأمون فقال : هذا يصلح لكذا ، وهذا نافع لكذا . [2]

ومهما يكن أمر هذا الظن الذى ظنه هذا الفقيه ، فلابد أن يكون عدد ألوان الطعام كبيراً . وقد كنا نرتاب بالخبر لولا أن ذاكره هو ابن طيفور ، ولم يؤرخ المأمون أحد مثله .

ويؤيد ما ذكرناه من تكثير الخلفاء ألوان الطعام ما رواه المسعودى ، فقد ذكر أن الرشيد كان ينفق على طعامه فى كل يوم عشرة آلاف درهم . وأنه ربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لوناً من الطعام . [3] وكان يتخذ للقاهر اثنى عشر لوناً (آدمتز ١/٢٤٧)

فلننظر الآن فيما كانوا يرغبون فيه .

نلاحظ أن أكثر ميل ملوك بنى العباس كان إلى اللحوم ، وخاصة لحوم الدجاج . يقول الجاحظ : وملوكنا وأهل العيش منا لا يرغبون فى شيء من اللحمان رغبتهم فى الدجاج . وهم يقدمونها على البط والنواهض والدراج ، وعلى الجداء ... وهم يأكلون الرواعى كما يأكلون المسمنات . [4]

أما رغبتهم فى الدجاج فذلك لأنه أكثر اللحوم تصرفاً . فهى تطيب شواء ، ثم حاراً ، وبارداً ، ثم تطيب فى البز ماورد ، وهو طعام من البيض واللحم ، أو من رقاق ملفوفة بلحم ، ثم تطيب فى الهرائس ، وتطيب طبيخاً ، وإن قطعتها مع اللحم دسم ذلك اللحم ، وتصلح للحشاوى . وسمينها يقدم فى السكباجة على البط . [5]

(١) انظر فيما يتعلق بهذا الخبر ، وبما سبقه : ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبي ص : ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، وانظر لطائف المعارف للمؤلف نفسه (ليدن) ص ٩٥ .
(٢) تاريخ بغداد لطيفور (الجزء السادس) ص ٥٣ .
(٣) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ١١٠
(٤) الحيوان (تحقيق هارون) ١ ــ ٢٣٣ .
(٥) الحيوان ج ٢ ص ٢٥٠ .

وفي الشتاء كانوا يرغبون في الأطعمة الحارة المهيجة . فقد قال المأمون لأبي كامل الطباخ يوماً : اتخذ لنا رؤوس حملان تكون غداءنا غداً . ثم التفت إلى علي بن هشام ، وكان حاضراً ، فقال إن من آيين الرؤوس أن تؤكل في الشتاء خاصة ، وأن يبكر آكلها عليها ، وألا يخلط بها غيرها ، ولا يستعمل بعقبها الماء[١] .

وكان المأمون يميل أيضاً إلى لحم الغنم ، وقد قال للحسن بن سهل يوماً : نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة ، سوى سبعة. قال الحسن : وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال : خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد . وعد أربعة غيرها[٢] .

وقد يعجب بعضهم بالمملحات والمقورات . فقد خرج المقتدر يوماً إلى بستان الخلافة ، فطلب طعاماً ، فلم يحضر طعامه ، فقدم له ملاح جونة مليحة من خيازر (ج خيزران) فيها جدي بارد ، وسكباج مبرود ، وبزماورد وأدام ، وقطعة مالح ممقور ، وأرغفة سميذ جيدة . فاستنظفها وأكل منها ، واستطاب المالح والادام ، فكان أكثر أكله منه[٣] .

وعلى ذكر البزماورد ، نقول إنه كان يسمى في العصر العباسي لقمة الخليفة ، ولقمة القاضي ، ونرجس المائدة[٤] . وهذه التسمية تدلنا على أن الخلفاء والقضاة كانوا يأكلونه ويحلون به موائدهم .

وهذا البزماورد ، كان يتخذ من اللحم والبيض في بغداد . ويذكر لنا الجاحظ أن أهل خراسان كانوا يعجبون باتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير[٥] .

ويبدو أن اتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير ليس بعجيب ، فقد كان الفضل بن يحيى يوجه خدمه في طلب فراخ الزنابير ليأكلها ، وفراخها ضرب من الذبان الكبار ، كما يقول الجاحظ[٦] .

وكانوا يرغبون في السكباج ، ويسمونه مخ الأطعمة وسيد المرق . ولقد تشكى خليفة يوماً لجارية له من هذا الطعام ، فقال لها : إلى كم سكباج ؟ قالت : هو مخ الأطعمة ، لا يكره بارده ولا يمل حاره ، بل يستطاب في الحضر ، ويتزود منه في السفر ، ولا يؤثر عليه الضيف في الشتاء والصيف[١] .

وإلى جانب ما ذكرنا ، كانوا يعنون بالسكارج والبقول ، ويقولون : لكل شيء حلية ، وحلية الخوان السكرجات والبقول[٢] . ويقدرون الأرز حق قدره ، ويقولون الأرز غذاء صحيح[٣] .

وكانوا يأكلون ألسنة السمك ، يعمدون إلى السمك فينزعون ألسنته ويأكلونها . ولقد دعا ابراهيم بن المهدي الرشيد مرة فأعد له طبقاً ألسنة السمك ، وأنفق على صحفة صغيرة منه مبالغ طائلة[٤] .

أما السمك نفسه ، فكانوا يأكلونه أيضاً ، ويلاحظ أنه كان مرغوباً فيه من النصارى كثيراً . فكانوا يأكلونه أكلا ذريعاً . ويحدثنا الجاحظ أنه لكثرة إقبالهم عليه كانوا يغلونه على الناس ، حتى تتوخى أياماً بأعيانها فلا يشترى السمك إلا فيها طلباً للامكان والاسترخاص وهي يوم الخميس ، ويوم السبت ، ويوم الثلاثاء[٥] .

ومن المآكل التي كانوا يعجبون بها ألبان الظباء . وكان الرشيد يسر بها . ولقد زار جعفر بن سليمان والي البصرة سنة ١٩٦ ، فأحضر له على مائدته ألبان الظباء وزبدها فاستطاب طعومها وسر بها[٦] .

ولون آخر كانوا يشتهونه ، هو كبود الدجاج وحدها . ويحدثنا التنوخي أن ابراهيم الحراني الصابيء الطبيب كان بين يدي الموفق يوماً ، فقال له : أنا أشتهي شهوة منذ سنتين ، وأستقبح أن أطلبها وقد غن لي الساعة مواضعتك على طلبها . قال ابراهيم : قلت يا أمير المؤمنين مر ، قال : ويحك أنا والله منذ سنين كثيرة أشتهي كبود الدجاج وقوانصها مطبهجة ، وأستقبح أن أطلبها … وأريد إذا قدمت المائدة ، وجلست معي للأكل ، أن تشتهي

(١) تاريخ بغداد لطيفور ص ١٠٥ .
(٢) المستطرف ج ١ ص ١١١ .
(٣) نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٥٢
(٤) شفاء الغليل ص ٩٨ .
(٥) الحيوان ج ٤ ص ٤٤ .
(٦) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٥

(١) ثمار القلوب للثعالبي ص ٤٩٠
(٢) المصدر السابق ص ٤٨٧
(٣) مطالع البدور ٢ – ٤١ . والقول قول الرشيد .
(٤) مروج الذهب (المطبعة البهية) ج ٢ ص ٢٧٩
(٥) كتاب الحيوان ج ٤ – ٤٣١ – ٤٣٣ .
(٦) مطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ٥٩ .

ذلك على وتشير به من طريق الطب لأتقدم إليهم باتخاذ شيء منه ، بشيء يسير ، فيصير ذلك القدر رسماً في كل يوم لا يؤثر عليهم قدره . قال فعجبت من كرمه وفرط حيائه من خدمه حتى يلفق الحيلة ، وقدمت المائدة ، فجلس يأكل وحده وجلست مع الندماء آكل على مائدة بين يديه . فلما أكل بعض أكله قلت : لم لا يأمر أمير المؤمنين بأن يتخذ له شيء يسير في زبديات من كبود الدجاج السمن وقوانصه بالبيض والمرى فيطجن بعضه ... فأصلح له زبدية من كبود الدجاج وقوانصها ، وصار رسماً جارياً[1] .

أما الخبز . فكانوا ينوعونه ، ويتخيرون أطيبه ، وقد كان الرشيد يأكل يومين متواليين خبز السميذ ، والثالث الحوارى ، والرابع الخشكار والخامس والسادس خبز الأرز النقي من خبز التنور[2] .

ويبدو أن الخبز وكثرته كان يؤثر في نفس بعض الخلفاء . فلقد سأل الواثق أحمد بن أبي دؤاد يوما ما جمال الموائد ؟ فقال : كان يقال : جمالها كثرة الخبز عليها . فقال : أصبت وأحسنت فإن اختلفت الألوان وكان الخبز كثيراً شهد لصاحبها بالشرف.[3]

* * *

فهذه بعض الألوان التي كان الخلفاء العباسيون يرغبون فيها من المآكل وهي ألوان فيها النادر والغريب . ولقد كانوا ينفقون في سبيل الحصول على هذه المطاعم الأموال الكثيرة في كل شهر. وقد ذكروا أن الرشيد كان ينفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم .[4] ، وأن نفقات المطابخ والمخابز بلغت في القرن الرابع ، في دار الخلافة عشرة آلاف دينار في الشهر[5] . وهذا المبلغ دليل على كثرة الانفاق . وإن كان أكثر هذا في باب الاسراف . ويحدثنا التنوخي أن المعتضد طلب يوما لوناً من طعام ، فقيل له ما عمل اليوم ، فأنكر ذلك ، وقال يجب ألا يخلو المطبخ من

(١) نشوار المحاضرة (المجمع العلمي العربي بدمشق) ج ٢ ص ٤٧
(٢) مطالع البدور ج ٢ ص ٤٢ .
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٤١ .
(٤) المسعودى ج ٢ ص ٣٤٢ (بولاق) .
(٥) الصابي ص ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣٥٢ .

كل شيء حتى إذا طلب لم يتعذر ، ووقع إلى ديوان النفقات بإقامة ذلك اللون إلى أن يرد التوقيع بقطعه ، فكان يعمل وينفق عليه دراهم كثيرة ولا يحضر المائدة توقعاً أن يطلبه ، فيقدم عند الطلب كما رسم . فمضى على ذلك سنة ولم يطلبه ، وهو يصنع . وكان هذا اللون جزورية وكان الطباخ يذبح في كل يوم قلوصاً .[1]

على أنه إذا كان بعض هؤلاء الخلفاء ينفقون الأموال على الدجاج وكبود الدجاج ، وعلى ألسنة السمك والجداء وغير ذلك ، ويحرصون كل الحرص على التلذذ بها، فقد كان بعضهم الآخر كالقاهر يستكثر صنوف الطعام أن توضع أمامه ، ويقتصر على ما يكفيه[2] وكان آخرون كالمهتدي لا يأكلون غير الخبز النقي ومعه الملح والخل والزيت .[3]

وسنفصل في مقال آخر ما يتعلق بعلمهم فوائد المآكل ، وانتقائهم صاحب الطعام والشراب في قصورهم ، وكيف كانوا يأكلون ، والآلات التي كانوا يرغبون فيها لأجل ذلك .

دمشق **صلاح الدين المنجد**

(١) نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٠٢ .
(٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ٢٤٧ .
(٣) أخبار الخلفاء للسيوطي ص ١٤٥ .

المجلس الأعلى وسياسة التعليم

للأستاذ عبد الحميد فهمى مطر

أخيراً عاد والحمد لله مجلس التعليم الأعلى إلى الظهور بعد أن طال احتجابه وبعد أن طلبنا مراراً وناديناً تكراراً على صفحات « الرسالة » الغراء بضرورة إحيائه من جديد ليوجه التربية والتعليم الوجهة الصحيحة النافعة المثمرة . وإنه لجميل حقاً أن اضطلع بعضويته رجال ذوو خبرة ودراية كوزراء المعارف السابقين وآخرون من ذوى الفكر وحملة القلم، وهم جميعاً بتعاونهم جديرون برسم السياسة المستقيمة وتوجيهها التوجيه الطبيعي القويم .

ولقد سبق إحياء هذا المجلس مؤتمر لرجال التعليم دام عمله ثلاثة أيام فى شهر نوفبر الماضى عقد فيها عدة جلسات وألقيت عدة محاضرات ودارت مناقشات ومباحثات بين المؤتمرين عن أهداف التعليم وسياسته ، وأصدروا عدة قرارات كان أهم ماجاء فيها ضرورة العمل على خلق المدرسة الشعبية لتضم أطفال الأمة جميعاً بين السادسة والثانية عشرة على أنقاض المدارس المتعددة الأساليب والمقاصد التى سبق أن نددنا بقيامها لما ينتاب الوالد من حيرة إذا أراد أن يلحق ولده بإحداها ولما تبعث فى نفوس أطفال البلد الواحد من غل وضغينة وحسد وسخيمة تكون عوامل جفاء وفرقة بين أفراد الشعب طوال الحياة . تلك هى المدارس الابتدائية والمدارس الأولية والمدارس الإلزامية والمدارس الريفية ومدارس رياض الأطفال .

قرر مؤتمر التعليم إدماج هذه المدارس جميعها فى مدرسة واحدة مدتها ست سنوات وأن تكون مرحلتها هذه خالية من اللغة الأجنبية ، وهو قرار حكيم طالما تُقنا إليه ، وإنا نؤيده بكل قوانا لدى مجلس التعليم الأعلى ولدى جميع المهيمنين على التعليم تخفيفاً من حدة نظام الطبقات الذى لا تعرفه عقائدنا ولا تقاليدنا إلا فى العصور الأخيرة التى طغى عليها زيف المدنية المادية ، وصوناً لوحدة هذا الشعب الذى مزقت وحدته اختلافات نواحى التفكير واختلافات الوحدات والمقاصد ، فأصبح تراثه نهباً للمستعمرين ولبعض السياسيين المحترفين الذين أشعلوا نار الخصومة والفرقة بين أفراده وأسره وجماعاته ، وساعدهم على ذلك تكوين الناشئة فى مدارس متباينة فى الأساليب مختلفة فى الأوضاع والمقاصد .

وإنا وإن كنا حمدنا الله تبارك وتعالى لتوفيق المؤتمر إلى هذا القرار، إلا إنا كنا نرجو منه أن يوفق إلى أكثر من ذلك . كنا نرجو توكيداً لفكرة الوحدة الشاملة أن يعنى فى قراراته بالقضاء على ثنائية التعليم التى تقضى بوجود نوعين متباعدين منه ، هما التعليم فى المعاهد الدينية والتعليم فى المدارس المدنية ، خصوصاً وقد تناول هذا الموضوع بالبحث أحد أعضائه . فإنها ثنائية ما أفساها على شعب موحد اللغة موحد العادات موحد التقاليد . ثنائية لا يعرفها شعب من الشعوب المتحضرة قد أدخلها علينا المستعمرون فى غفلة الزمان بل فى غفلتنا عن تقلبات الأيام ، دون مراعاة لحاجتنا الملحة إلى أساس نهضات الأمم من الاتحاد والوئام ، فكانت عاملا قوياً من عوامل الفرقة الحقيقية بين المتعلمين فى المعاهد الدينية والمدارس المدنية منذ فجر حياتهم التعليمية . ولن تجد هذا النوع من التفرقة فى بلد آخر غير هذا البلد . فهلا تزال مصر بلد المفارقات والعجائب ، وهل يصح أن نستمر على هذه الحال من السكوت على عوامل الفرقة وتركها تنخر فى عظام الأمة !

فإذا كان التعليم فى المرحلة الأولى بالمدارس المدنية سواء فى ذلك المدرسة المقترحة أو المدارس القائمة أصبح مجانياً كما هو الحال فى المعاهد الدينية ؛ وإذا كانت اللغة الأجنبية لن يبقى لها وجود فى هذه المرحلة فى المدارس المدنية كما هو الحال فى المعاهد الدينية ، وإذا كانت هذه المعاهد الدينية قد أخذت من زمن بعيد بفكرة إدخال العلوم الحديثة جميعها فى مناهجها فماذا يبقى بعد ذلك من فروق تستوجب هذه الثنائية المقوتة !

لم يعد هناك غير فارق واحد يستند عليه الأزهر وشيوخه فى بقاء هذه الثنائية ، ذلك هو إهمال المدارس المدنية لدراسة الدين دراسة علمية وعملية توحى إلى نفوس الأبناء بنور الروحانيات وجلالها وعظيم أثرها . إننا نعرف حقاً بأن المدارس المدنية قد

فقدت هذه الروح فقداناً تاماً ، حتى وُجدت عندنا طبقة من الكتاب والأدباء وطبقة من أصحاب النفوذ والسلطان لا يقدرون للروحانيات قدرها ولا يدركون أثرها !

وإنه ليؤسفني أن أقرر أن المدنية المادية التي ساقها إلينا الغرب قد طغت على عقول هؤلاء جميعاً . غير أن الحرب الأخيرة التي استخدم فيها العلم شر استخدام لم تكن كلها شراً ، بل كان فيها بعض الخير لأنها نبهت أذهان الكثيرين من علماء الغرب وأتباعهم في الشرق إلى أن ساسة العالم وقادته يجب أن يغيروا من عقلياتهم القديمة ، وأن يفكروا تفكيراً جديداً يناسب ما أوحته هذه الحرب المدمرة إلى النفوس ، ويناسب ما أوحاه النصر في نفوس المنتصرين من غرور وجشع ، وما أملاه عليهم من سخرية بالمواثيق وهزء بالعهود وقضاء على حقوق الضعفاء ، وأثرة ونهم وطمع استولت كلها على نفوس الأقوياء .

نعم إن هذه الحال التي أوجدتها الحرب المدمرة وما تلاها من تصادم قوى بين الآراء الاستعمارية الجشعة التي زادت من تمكنها من النفوس سكرة النصر والشغف بالتسلط وبين الآراء الجديدة التي توحي بحرية الأمم والشعوب قد هزت الكثيرين من كتاب الغرب والشرق فنادوا بضرورة العودة إلى الدين ودراسته دراسة عملية بين جدران المدارس لأنه صمام الأمن الذي يهدئ النفوس ويردها عن الغي والظلم والطمع والفساد في الأرض حتى لا يكون طغيان الماديات سبباً في القضاء على المدنية القائمة . من أجل ذلك أنذرنا رجال التعليم في مؤتمرهم وأعلناهم بما يجره إهمال التعليم الديني والانصراف عن الروحانيات في أهداف التعليم وسياسته من استهتار بالفضائل في تكوين أخلاق النشء ومن ابتعادهم عن المثل العليا الروحية التي تربي القلوب ، والتي تشيع في الصدور النور والهداية والتي تحفز النفوس أبداً إلى الرقي والسمو وتعلو بها عن مدنسات المادة ودناياها ، كما تحفزها إلى العمل أبداً للمثل العليا للفضيلة والأخلاق الكريمة . ولكنا مع الأسف لم نجد من المؤتمرين سميعاً لأن قادة الشرق وزعماءه وكتابه لا زالوا سائرين على نسق الغرب وما يجري فيه . والغرب الآن لم يستقر على رأي ، ولا زالت الآراء والأفكار تصطرع فيه اصطراعاً . وقادتنا وكتابنا في انتظار ما يتمخض عنه هذا الصراع . ولا أدري لماذا نعيش عالة على آراء الغرب وتفكيره ، في حين أننا نجاهد في طلب الاستقلال . وهل هناك استقلال سياسي إلا إذا صحبه أو سبقه استقلال فكري ؟

وإذا كان مؤتمر التعليم قد اقتدى بالغرب القديم فانصرف انصرافاً عن الأخذ بجعل التعليم الديني في صلب مناهج المدارس المدنية وامتحاناتها كما يجب أن يكون ، وعن العمل للقضاء على ثنائية التعليم التي رسمها المستعمرون ، فإنا نرى في رجال المجلس الأعلى وهم البعيدو النظر من المفكرين ضماناً كافياً لبحث هذين الموضوعين الجليلين بحثاً حراً غير متأثر بالسياسة القديمة في سبيل وحدة هذا الشعب وتقارب أفكار أبنائه وتعاونهم وانسجامهم في اتجاهاتهم المختلفة . أما الأزهر ورجاله وعلى رأسهم فضيلة الأستاذ الأكبر وهو من أعلام الأدب وقادة الفكر فبعيد عن الظن أنهم يعارضون في فكرة التوحيد في صفوف الناشئة ما داموا يضمنون أن التعليم الديني سيأخذ سبيله المستقيم إلى المدارس ، وسيكون معنياً به كسائر العلوم الأخرى . بل أعتقد أن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر سيكون أول مناد بهذا التوحيد الذي أصبح من الضرورات الملحة في سبيل لم الشمل وتخفيف حدة المنازعات والمخاصمات التي لا تجر على هذا البلد غير الويلات والنكبات .

ولقد أحس بعض القادة والمثقفين بضرورة العناية عناية صحيحة بالتعليم الديني في المدارس فتألفت لجنة في المركز العام للإخوان المسلمين للعمل على إحياء الروح الدينية الحقة في المدارس المدنية ، وجعل الدين من العلوم الأساسية التي يمتحن فيها التلاميذ امتحاناً حقيقياً لا صورياً حتى يأخذ حقه من عناية المدارس نظارها ومدرسيها وتلاميذها فيكون له أثره الفعال في النفوس . وإنا لنأمل أن تلقى هذه اللجنة تعضيداً من جميع الهيئات الإسلامية العاملة في مصر ، وأن يشد أزرها الكتاب والأدباء المؤمنون بالفكرة حق الإيمان والذين لم تتلوث قلوبهم بالشبهات والزيغ عسى أن تلقى الفكرة ما تستحقه من عناية وتقدير في المجلس الأعلى وعند أولي الأمر جميعاً ، والله ولي التوفيق .

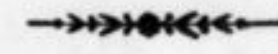
عبد الحميد فهمي مطر

المفتش بوزارة المعارف

٦ – الزندقـــة
فى عهد المهدي العباسى

أصولها الفارسية

للأستاذ محمد خليفة التونسى



ذهبنا فى المقال الخامس (الرسالة ٦٥٢) إلى أن الفرس آمنوا بإلهين : أحدهما للنور والآخر للظلمة قبل أن يظهر فيهم زرادشت أول حكيم يعيه التاريخ من حكمائهم الأولين ، وبينا أن المعتنقين لهـذا المذهب قبـل زرادشت هم الذين يسمون « الكيومرتيه » نسبة إلى كيومرت أبى البشر فى رأيهم مما يدل على إيمان الفرس بقدم هذا المذهب فيهم ، وقد أوضحنا شيئاً من آراء هذه الفئة وعبادتها فى المقال السابق [١] .

لا خلاف فى أن الفرقة الأولى من المجوس هى الكيومرتيه . فأى الفرق ظهر فى التاريخ بعدها ؟

كل الكتب التى بين يدينا والتى تعرضت لهذه الموضوعات من طريق مباشر أو غير مباشر لا تجيب جواباً صريحاً على هـذا السؤال ، ونجدها تذكر الكيومرتيه والمجوسية والثنوية والزنادقة والزرادشتية والمانوية والمزدكية ولكنها لا تحدد تمام التحديد مكان هذه الطوائف من حيث ظهورها فى التاريخ وإن حدثتنا أنه قد ظهر زرادشت وتلاه مانى ثم مزدك . ثم نسأل ما المراد بكل كلمة من هذه الكلمات ، وماذا تمتاز به تعاليم كل طائفة عن مثلها ؟ هذا على فرض أن هذه الكلمات ليست مترادفة ولا مشتركة ولا متداخلة . فان كانت مترادفة أو مشتركة أو متداخلة فكيف تترادف أو تشترك أو تتداخل ؟

(١) الزندقة فى عهد المهدى العباسى — الرسالة ٦٥٢ . وانظر أيضاً صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٢ وما يليها ومروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ١٠٥ ، ٢٩٣ (طبع بولاق سنة ١٢٨٣ هـ) وكتاب الآثار الباقية للبيرونى ص ٢٠٤ (طبع ليبك سنة ١٩٢٣ م ، وقد نشره أتوهراسويتز O. Aarrassoultz) ونهاية الأرب للنويرى ج ١ ص ١٠٢ وما يليها .

إن النصوص التى بين يدينا فيها كثير من الاضطراب والخلاف ، فالمجوسية تطلق أحياناً على كل المذاهب الفارسية ، وتطلق أخرى على بعضها دون بعض ، والزندقة تطلق على جميع الثنوية أحياناً وتطلق أخرى على طائفة من الثنوية ، وهكذا ، ثم إن الثنوية قد تذكر قبل الزرادشتية ، وأحياناً تذكر دون أن يعين موضوعها فى التاريخ إزاء الزداشتية وهكذا ، ونحن مضطرون فى معرفة معنى الزندقة ولا سيما فى عهد المهدى العباسى وهى موضوع هـذا البحث – مضطرون إلى فهم أصول التعاليم التى ظهر بها الزنادقة على عهده ، وإذن فنحن مضطرون إلى فحص هذه المذاهب لبيان ما له أثر منها فى هـذه الزندقة وما ليس له أثر منها فيها . هـذا وإن كثيراً من الكتب التى بين أيدينا تربك عقولنا لأنها تفاجئنا بآراء من غير أن تذكر لنـا أصولها وتطوراتها حتى وصلت إلى صورتها الأخيرة ، ومن شأن هذه المفاجأة أن تربك العقل لسقوط بعض الحلقات فى سلسلة تطورها ، ومن أجل ذلك نستميح القراء و « الرسالة » الصفح لهذا الاستطراد الذى لا مفر لنا منه ولا غنى لنـا عنه لفهم الزندقة فى عهد المهدى فهماً يسيراً لا تعقيد فيه ولا مفاجأة .

فى الفصل الذى عقده القلقشندى للكلام فى المجوسية وفرقها [١] يقول : « المجوسية : وهى الملة التى كان عليها الفرس ومن دان بدينهم » ثم يقسمهم ثلاث فرق : الفرقة الأولى الكيومرتية والثانية الثنوية والثالثة الزرادشتية، وفى الزرادشتية يفصل القول فى زرادشت ومانى ثم يذكر مزدك . فهو يطلق المجوسية على كل المذاهب الفارسية ، وترتيبه الفرق على هذا النحو يدل على أنه يذهب إلى أنها قد ظهرت فى التاريخ كذلك : الكيومرتية ثم الثنوية ثم الزرادشتية ، وكل هـذا غير صحيح ، وسندلى بحججنا فى ذلك إن شاء الله ، على أنا لم نجد فيما قرأنا من رتب هذه الفرق من حيث ظهورها فى التاريخ فلا بد من ترتيبها الترتيب الصحيح .

سبق الكلام فى الكيومرتية وأنها الفرقة المجوسية الأولى وأقدم الفرق الفارسية بلا شك ، وهى كذلك فى رأى القلقشندى

(١) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٢ ، ٢٩٨ .

فأما الثنوية فلم يقل فيهم إلا ما نصه : « هم على رأى الكيومرتية فى تفضيل النور والتحرز من الظلمة ، إلا أنهم يقولون : إن الاثنين اللذين هما النور والظلمة قديمان » قد أنكرنا عقلا أن تظهر فى التاريخ الثنوية قبل الزرادشتية لأن الزرادشتية لم تقل بقدم النور والظلمة ، بل ذهبت مذهب الكيومرتية فى سبق النور الظلمة ، ومعنى ذلك - كما فهمنا من الكيومرتية والزرادشتية - القول بتضاد الأشياء وتعاقبها وأن النور قد سبق الظلمة فى الوجود أما القول بقدم النور والظلمة معاً ففكرة زائدة جديدة ، فمن المنكر عقلا أن تظهر الثنوية القائلة بالقدم قبل الزرادشتية ، لأن رأيها أعقد من رأى الزرادشتية ، والآراء - ككل ما فى الوجود - تبدأ بسيطة ثم تتعقد ، ولا عكس ، ومن أجل ذلك شككنا ثم أنكرنا رأى القلشقندى فى وضع الثنوية قبل الزرادشتية ورجعنا إلى ما بين يدينا من المصادر فوجدنا فيها ما يؤيد هذا الإنكار ، ونبادر بدفع ما قد يسبق إلى العقل من توهم يوقعنا فيه ما يدل عليه لفظ الثنوية لغويا ، وهو أن الثنوية تطلق على كل القائلين بأن للكون أصلين : النور والظلمة ؛ أو خالقين أحدهما إله النور يزدان وإله الظلمة أهرمن . بل إن الثنوية فرقة يميزها من سائر الفرق القائلة بأصلين : النور والظلمة — أنها تقول بقدم الاثنين كما حكى مذهبهم القلشقندى ، فالقول بالقدم ركن هام فى العقيدة الثنوية .

ويسند ابن النديم فى الفهرست القول بالقدم إلى مانى المولود فى سنة ٢١٥ م فيقول إنه « يزعم بأن العالم مصنوع من أصلين قديمين هما النور والظلمة ، وأنهما أزليان سرمديان ، وأنه ما من شىء إلا وهو من أصل قديم » وكل ما ذكره ابن النديم صحيح ، ولكن ليس مانى أول من قال بقدم الأشياء من بين الحكماء عامة ولا حكماء الفرس خاصة . لقد ظهرت الثنوية بعد الزرادشتية وقبل المانوية فيما نرى ، فلنتكلم فى الزرادشتية قبل الثنوية ، ولينظرنا القراء الأدلة على رأينا وبيان المراد من الثنوية ومن ظهر مذهبها على يده إلى حيث الكلام فى الثنوية إن شاء الله .

ظهرت الزرادشتية بعد الكيومرتية وصاحبها الذى تنسب إليه هو زرادشت [1] أول حكيم يعيه التاريخ من حكماء فارس ، وقد ظهر فى عهد الملك كيستاسف [2] السابع من ملوك الكيانية وهم الطبقة الثانية [3] من ملوك الفرس ، وكان مولده فى منتصف القرن السابع قبل أن ينهض الفرس بقرن كامل نهضتهم السياسية على يد كورش الأكبر (٥٥٠ ق . م) ويستقلوا ببلادهم ويطردوا منها الميديين ثم يمتلكوا ميديا أيضاً ويخضعوا الليديين فى آسيا الصغرى وتصل حدودهم إلى البسفور ، لقد سبقت النهضة العقلية فى فارس النهضة السياسية بأكثر من نصف قرن كما سبقت النهضة العقلية فى الصين والهند بنحو قرن فلم يولد جوتاما مؤسس الفلسفة البوذية فى الهند ولا كنفشيوس مؤسس الفلسفة المنسوبة إليه فى الصين إلا فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد .

---

(١) زرادشت (بضم الدال) وفى بعض الكتب زردشت (بضم الدال وفتحها) وزرادشترا وزروسترا عند الغربيين Zoroaster و Zoroastre وكذا Zardushi وترسم أيضاً زردشت ، والرسم الأول أشهر ولذا استعملناه دون غيره .

(٢) كيستاسف فى محاضرات الراغب وعند ابن خلدون والقلقشندى ، وكشتاسب عند المسعودى ، وكشتاسف فى الملل والنحل ، ويستاسف فى التاج للجاحظ ، وجشتاسب فى الشاهنامة للفردوس ، وبستاسب فى الكامل لابن الأثير ، وقد استعملنا الأول لأن هذه الطبقة الكيانية التى ينتسب إليها الملك إنما سميت كيانية لأن أسماء ملوكها تبدأ بكلمة كى وهى أظهر فى الأول من غيره .

(٣) يقسم المؤرخون ملوك فارس منذ القدم حتى الفتح الاسلامى لفارس أربع طبقات الأولى الفيشداذية أو البيشداذية (البيرونى) أو الحداهان (المسعودى) من كيومرث إلى أفريدون والثانية الكيانية وهم من بعدهم إلى دارا بن دارا الذى هزمه الاسكندر المقدونى فى موقعة أربل سنة ٣٣١ ق . م . وعند الغربيين الأكينية Acheamenian وهكذا يسميهم مترجمو دائرة المعارف الاسلامية إلى العربية وكان الأولى الرجوع إلى التسمية العربية القديمة (الكيانية) المستعملة فى كتب التاريخ العربية ، والطبقة الثالثة الأشكان أو الأشغان أو ملوك الطوائف (ابن خلدون والمسعودى) وهم من حكموا فارس متفرقين من القبط والعرب والفرس بعد فتح الاسكندر فارس إلى سنة ٢٦٦ م إذ استولى أردشير الأول فيها على فارس ووحدها ، والطبقة الرابعة الساسانية وأولهم أردشير الأول هذا وجده ساسان الذى تنتسب إليه هذه الطبقة وآخرهم يزدجرد بن شهريار الذى قتل فى عهد عثمان بن عفان سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م) وخضعت فارس للعرب بعد قتله ، وبعضهم يدمج الطبقتين الأوليين معاً فيجعل الطبقات ثلاثا (القلقشندى) ، وتنطق الكاف نطق الجيم القاهرية .

وليس من همنا هنا أن نخوض بالاثبات أو النفي فيما يحيط به الفرس حكيمهم زرادشت ومولده وخلقه وحياته من مناقب ولا فيما روته القصص الفارسية في ذلك من أساطير مما يدل على أنهم كانوا يكنون له أسمى درجات الحب والتقديس ، ولمن شاء ذلك أن يرجع إلى المبسوط من كتب التاريخ وكتب الملل والنحل وكتب الفلسفة ، كما أنه ليس مما يعنينا الحكم على هذه الروايات فلها مثيل عند كل الأمم قديمها وحديثها في موقفها تجاه أبطالها أيا كانت الناحية التي برزوا فيها ، ولن نعرض لما نسب إليه من صلات ببعض أنبياء بنى إسرائيل وما قيل عن تأثير ذلك فيه وما كان من خيانته وهربه من فلسطين إلى بلخ فكل ذلك فيما أرى زعم يهودى أساسه العصبية اليهودية التي تأبى إلا أن تحتجز الفضل في كل نبوغ في اليهود ، وترد كل نبوغ خارج عنهم إلى أصل فيهم ، وحسبنا من الكلام في زرادشت أن نبين إجمالا تعاليمه التي كان لها أثر في الزندقة الفارسية قبل الاسلام ثم الزندقة على عهد المهدى العباسى ، وحسبنا في هذا الإجمال ما يجنبنا المفاجأة المربكة .

ولد هذا الحكيم في منتصف القرن السابع في أذربيجان من إقليم ميديا الذى كان تابعاً في هذا الوقت للدولة الكيانية التي عاصمتها بلخ[١] ، وقد طوف بالبلاد الفارسية واتصل بكثير من حكمائها للدرس والمشاورة في العقائد والأساطير الكيومرتية التي كانت قبله والإصلاحات التي تحتاج إليها فارس في عهده وهي تتأهب للنهضة السياسية التي ظهرت آثارها بعد وفاته ، وقد اتصل بالملك كيستاسف في عاصمة بلخ واستطاع أن يقنعه بالدخول في مذهبه ، وقد كان ذلك نصراً كبيراً له إذ عمل الملك على نشر مذهبه وإدخال الناس فيه فانتشر في جميع الأنحاء الفارسية ، ومما أعان على ذلك بقاء زرادشت يبشر بمذهبه في الفرس خمساً وثلاثين سنة ومات نحو سنة ٥٨٣ ق . م بعد أن عاش سبعاً وسبعين سنة ، وقد خلف زرادشت مذهباً وكتاباً[٢] .

(١) انظر ما كتبه سترك streck في مادة أذربيجان في دائرة المعارف الاسلامية ، والنسبة إليها أذربى .

(٢) المسعودى في مروج الذهب ج ١ ص ١١٠ ، وابن خلدون =

فأما المذهب فقد جاء به مصدقاً لما بين يديه من الكيومرتية أو الصابئية التي كانت قبله[٣] فأيد القول بالهين اثنين أحدهما يزدان للنور والآخر أهرمن للظلمة لأنه وجد من المتعذر إسناد الخير والشر في العالم إلى مصدر واحد مع اعتقاده بأن يزدان أسبق من أهرمن وأنه خالقه ، والقول بأن العالم خلق من النور يدل على عبقرية ثاقبة ، ولولا ضيق المقام لفصلنا القول فيما تدل عليه هذه النظرة الرائعة ، وحسبنا أن نشير إلى أنها لا تختلف عن النظرة العلمية الحديثة في بناء الكون ، فقد فقدت المادة اليوم ماديتها بعد أن ثبت أن أجزاءها كالضوء ذات خاصية موجية ، وأنها مؤلفة من كهرباء ، وثبت ذلك بالبرهان المحسوس بعد أن أخذت صور البروتونات والألكترونات المتحركة وثبت أن كتلة الألكترون وهي معيار ماديته علتها حالته الكهربائية ، وبذلك صارت المادة نوعا من أنواع الطاقة ، فيقال الطاقة المادية ، كما يقال الطاقة الكهربائية والطاقة المغناطيسية بلاخلاف ، ولا ريب أن زرادشت عبر عن هذا بلغة الأسطورة لا لغة العلم وأنه لم يصل إلى ذلك من طريق المنطق ولا التجربة ، بل من طريق اللمح الفني العبقرى المنبعث من الشغف القوى بالطبيعة ، وقد كان لهذا الرأى أثر في كثير من مفكرى الأمة الفارسية وغيرها كاليونان والعرب ، وقد رمز القرآن الكريم إلى هذا المعنى العميق وعبر عنه تعبيرا واضحا في الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس[١] » .

(يتبع) **محمد خليفة التونسى**

= في العبر ج ٢ القسم الأول ص ١٦١ (طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) ابن الأثير في الكامل ج ١ ص ١٠٠ (طبع المطبعة المصرية الأزهرية سنة ١٣٠٢ هـ) .

(٣) يسميها الكيومرتية القلقشندى في صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٢ ويسميها الصابئية البيرونى في الآثار الباقية ص ٢٠٤ وابن الأثير في الكامل ج ١ ص ١٠١ .

(١) سورة النور : الآية : ٣٥ .

أغنية :

سماء الهرم . . .

للشاعر عبد الرحمن الخميسى

جئت لا أحمل إلا سقمى
فتعالى . . أطفئى نار دمى !
واشفى لى يا سماء الهرم
كم تلونا ها هنا سفر الجدود
هذه الصحراء والليل شهود

طالعتنى بين أطواء الرمال
قصة للحب وارتها الليالى
نسجت من ذوب قلبى وخيالى
آهِ لو كانت لياليها تعود
هذه الصحراء والليل شهود

كم دعونا ليلة البدر هنا
وارتمى الفجر على أقدامنا
فإذا نحن . . حبيبى وأنا
فى جلال الهرم العاتى سجود
هذه الصحراء والليل شهود

كان يصغى لأناشيدى السكون
وتباهى بغرامينا السنين
يا حبيبى . . إننى قلب أمين
عدت للماضى أغنى من جديد
هذه الصحراء والليل شهود

أسكر البيد هنا وقع خطانا
وأعاد الليل الحان هوانا
وتمنى الصبح لو كان يرانا ،
فيغنى حولنا كل الوجود !
هذه الصحراء والليل شهود

يا حنينى . . كل شىء ذاكرى
وأنا أسأله عن هاجرى
كيف ينسانى ويشقى حاضرى ؟
أين ولّى يا تماثيل الخلود ؟!
هذه الصحراء والليل شهود

عدت لا أحمل إلا سقمى
فتعالى . . أطفئى نار دمى
واشفى لى يا سماء الهرم
كم تلونا ها هنا سفر الجدود
هذه الصحراء والليل شهود

فى ليلة قمراء . . .

للشاعر ابراهيم محمد نجا

كل قيس مع ليلى قد طواها … ومعي الأحلام لا شىء سواها !
وأنا الشاعر قلبى مسرح … لمنى علوية لا تتناهى
أخلق الحب من الوهم ، وكم … تخلق النفس من الوهم رؤاها !
وهنا الحب . . . قلوب تلتقى … حيث تدعوها أمانىُّ صباها
إيه يا بدر لمن هذا السنا … غازل الأمواج وهْناً فسباها ؟
ولمن يا نيل تسرى حالماً … بليالٍ موجك الشادى رواها ؟
وتغنى أغنيات خلوةً … فيوافيك من الشط صداها
ولمن يسرى نسيم هامس … بأغانٍ تفهم الروح لُغاها ؟
لقلوب لقيت ألافَها … فاطمأنت واستراحت من جواها
ونفوس سعدت فى حبها … حين نالت منه ما بلَّ صداها
من لقلب لم يعانق إلفه … ولنفس لم تجد بعدُ هواها ؟
إيه يا نيل لطير مغرد … فى مغانيك ، وآهاً ثم آها
كلما وافى المغانى شادياً … غلب الحزن عليها فبكاها !
إيه يا نيل لروح شارد … مستطار ضل فى الدنيا وتاها
كلما جدَّد فى الحب المنى … غلب اليأس عليه فطواها !



١ — هذى دمشق !

ما بدا حب دمشق أختها الكبرى مصر ، وتعلقها بها ، وتمسكها بالعروبة وكرهها لهذه الشيوعية الآثمة كما بدا فى هذين اليومين ، أثر تلك البرقية الوقحة التى بعث بها النفر الضالون المنكرون من رجال وزارة المعارف ، ولم يقتصر الأمر على البرقيات والاحتجاجات ، بل لقد أضربت مدارس دمشق كلها يوم الخميس وخرج تلاميذها يقدمهم طلاب الجامعة السورية ، فى مواكب لها أول وليس لها آخر يهتفون للعروبة ولمصر ، ويبرؤون من هذه النحلة والداعين إليها . وتبعتهم مظاهرات العمال ، تهتف مثل هتافهم ، وتنادى بندائهم ، ولم يبق الجمعة منبر مسجد فى دمشق إلا هبطت من فوق أعواده اللعنات على الشيوعية وعلى أذنابها فى المعارف ، أما الصحف الشامية ، فلقد قرأ الناس فى مصر

إيه يا نيل لصب ضارع	يشتهى اللقيا ، ويشتاق جناها
طافت الغيد عليه فى الكرى	ورأى فيهن « ليلى » فاصطفاها
وتغنى بهواها ، وشدا	بصباها ، وهفا نحو سناها
ثم ردته الليالى شاكياً	ثائراً لأشواق يبكى من لظاها
إيه يا نيل لعمر ضائع	فى منى الروح ، وأحلام كراها
وشباب تنقضى أيامه	وخطى الحرمان واليأس خطاها
روضة العشاق فى دنيا الهوى	ليس لى من زهرة فوق رباها
غير همس من رباها ذائع	ونسيم عطرته من شذاها
آه لو جئتك يوماً ومعى	فرحة النفس ، وأنوار دجاها
لجلسنا نتناجى فى الهوى	بقلوب طائف الشوق دعاها
ونسينا العمر والدنيا معاً	وتركنا الروح تسرى فى عُلاها
وبنينا حيث شئنا معبداً	وعبدنا مبدع الحب إلها
أيها العشاق غنوا فى الهوى	وانهبوا اللذات فالعمر فداها
واذكرونى زهرة لم يُروها	نبع حب ... آه لو كان سقاها !
واسمعونى يا رفاق طائراً	طاف بالآفاق يبكى فشجاها
فعسى الأيام أن يسمن لى	ولعل النفس أن تلقى مُناها

ما كتبت ونشرت ، وكان أول من انتدب نفسه من الصحفيين لدرء هذا الشر الأستاذ نجيب الريس صاحب (القبس) ونائب دمشق فى المجلس ، وابن عمه الأستاذ منير الريس ، المجاهد ذو المواقف صاحب (بردى) ، فسجل هذا لهما فى (الرسالة) سجل العرب .

وما كان ذلك اهتماما بأصحاب تلك البرقية ، فهم أقلّ وأذلّ من أن تهتم بهم دمشق ، ولكن اعتذاراً إلى مصر ، ومحاربة لهذه الشيوعية المدمرة ، واحتجاجا على وزارة معارف الشام إذ تجعل كُبْر أمر التعليم إلى مثل هؤلاء ، مع مجاهرتهم بالدعوة إلى الشيوعية ، والعمل لمصلحة دولة أجنبية ، والتدخل فى شؤون المملكة المصرية ، ومع ما هم عليه من الخفة والرعونة والطيش ، ولقد وعدت الحكومة وعد الصدق بطردهم من وظائفهم ومحاكمتهم ، وإنا لمنتظرون !

٢ — تأديب السفهاء :

أما وقد عرف قراء الرسالة بداية خبر تلك البرقية التى تطاول فيها النفر الشيوعيون على حكومة مصر ، فليعرفوا نهايته ، وهى أن وزير المعارف الأستاذ صبرى العسلى بك قد أحال هؤلاء النفر إلى «لجنة تأديب الموظفين» — وكذلك يؤدب الكبار إذا فعلوا مثل فعل الصغار ...

وإنا لنشكر الوزير على أن أنقذ أبناءنا من مربين ومؤدبين ، لا يزالون محتاجين إلى التربية والتأديب !

دمشق «على»

الى الأستاذ الفاضل محمد محمود شاكر :

سلام عليك . وبعد فقد قرأت مقالك فى مجلة الرسالة المباركة فى العدد الخاص بالعام الهجرى فأعجبت به كثيرا . إلا أنى دهشت فى أوله من عبارتك (السلام عليكم) موجهة للأستاذ الزيات ، ذلك أن القاعدة التى ذكرتها كتب اللغة لاستعمال هذه العبارة ، هى أن نبتدىء فى أول الكتاب بـ (سلام عليك ، أو عليكم) بدون (أل) التعريف ، ثم ننتهى بـ (والسلام عليك أو عليكم) بذكر (أل) ، وتكون أل هنا العهدية ، وهذا نظير قولك :

(جاءنى ضيف فأكرمت الضيف) ، ولك يا أستاذ أن ترجع إلى كتاب أدب الكاتب لتقف على حقيقة الأمر .

وفى القرآن الكريم شواهد كثيرة تشير إلى صحة قسم من القاعدة . قال تعالى : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » وقال تعالى : « قال سلام قوم منكرون » ... الخ فالملاحظ هنا أنه لا حاجة إلى تعريف (سلام عليكم) بالألف واللام .

وقال ذو الرمة :

أمنزلتى مىّ سلام عليكما هل الأزمن اللائى مضين رواجع

وقال البحترى :

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد أما لكم من هجر أحبابكم بُدّ

والواقع أن هذه غلطة شائعة فى الوقت الحاضر ، وما كنت أستغرب لو وجدتها عند بعض الكتاب ، إلا أن ثقتى القوية بعلمك فى اللغة العربية وتبحرك بها هى التى دفعتنى إلى الإستغراب .

وأخيراً : أرجو التفضل بإبداء رأيك فى الموضوع ، فى ذلك خدمة للأدب العربى وأدبائه . والسلام عليك .

بغداد **صبحى البصام**

صحف طرابلس الغرب :

كانت فى طرابلس الغرب قبل احتلال الطليان لها نهضة أدبية مباركة ، وكان للأدباء فيها رابطة كما لهم صحف ومجلات ، وقد نبغ الكثيرون من الشعراء والأدباء الذين لولا استعمار إيطاليا لبلادهم — كان لأدبهم شأن يذكر فى البلاد العربية . وقد كانت جريدة « الرقيب العتيد » رسولة هذه النهضة وحاملة لوائها . وكان صاحبها المرحوم الأستاذ محمود فهمى نديم بن موسى من قادة الرأى والفكر يسانده نخبة من الشباب المثقف الحر .

وهناك جريدة « العدل » وصاحبها الأستاذ محمد بانون التى كانت نبراساً للوطنية والحق . وما احتل الإيطاليون هذه البلاد حتى خمدت هذه النهضة الأدبية ، وخارت عزائم الأدباء ، ولكن الإيطاليين بدأوا يدفعون فاقدى الضمائر ومريضى القلوب من الأدباء إلى تمجيدهم والإطناب بذكرهم ، وأجبروا صاحبى الرقيب والعدل على السير بموجب سياستهم ، وأصدروا مجلة مصورة سموها « ليبيا المصورة » كانت هى المجلة الرسمية للايطاليين ، تعبر عن رغباتهم وتشيد من ذكرهم ومجدهم ، وظلت الحال هكذا حتى كانت الحرب الأخيرة ، إذ اضمحلت الروح الأدبية تماماً ، واختفى ذلك البصيص الضئيل من الشعر والنثر ، وساد القطر جهل وصمت وسواد ! فهل نرى الآن وقد بدأ طائر السلام يرفرف بجناحيه نهضة جديدة فى طرابلس الغرب تقوم على أكتاف وسواعد شبابه العربى ونرى مجلاته تشق طريقها فى الحياة كزميلاتها صحف العروبة ؟ فلعل ذلك قريب .

(دمشق — دار المعلمين) **صلاح الدين بن موسى**

الشيخ نصر الهورينى وتيمور باشا :

ذكر الأستاذان أحمد أمين بك ، ومحمد كرد على بك فى كتاب « ذكرى أحمد تيمور باشا » الذى ظهر حديثاً فى ص ٣٠ و ص ٧٧ أن العلامة أحمد تيمور باشا كان فى جملة أساتذته الشيخ الهورينى

وأنا أعلم أن وفاة الشيخ نصر الهورينى كانت سنة ١٢٩١ ، كما ذكره العلامة تيمور فى كتابه « تصحيح القاموس » ص ٤٢ ، والأستاذ الزركلى فى « الأعلام » . والعلامة تيمور ولد سنة ١٢٨٨ ، فتكون سنه ثلاث سنوات عند وفاة الشيخ الهورينى . ويمتنع أن يكون الباشا تيمور فى هذه السن صديقاً للهورينى أو تلميذاً له . فذكره فى معارف أحمد تيمور خطأ ، وجل من لا يخطئ .

عبد الفتاح غدة

حول سناد التأسيس

أخذ الأستاذ — رضوان — على قصيدة الشاعر الغزالى فى عدد ٦٥٢ أن فى بيتين منها ما يعده العروضيون سناد التأسيس .

فقال الأستاذ — عدنان — بل هو سناد الاشباع عدد ٦٥٤ والواقع بأن فى البيتين سناد التأسيس لأن سناد الاشباع إنما يعرض على الدخيل ولا يكون الدخيل إلا بعد التأسيس وقد انعدم التأسيس فلا دخيل فضلا عن سناد الاشباع فليس فى البيتين إلا سناد التأسيس . وقد حاول الشاعر الغزالى أن يدفع عن البيتين مستنداً إلى أن ما استشهد به — الكافى فى علمى العروض والقوافى — لسناد التأسيس من قول العجاج :

يا دار سلمى يا اسلمى ثم اسلمى تخندف هامة هـذا العالم

يختلف عن بيتيه ؛ والواقع أن بيت العجاج وبيتى الشاعر متساويان فى سناد التأسيس .

وبعد فاستكمالا للفائدة نقول : إن العلماء لم يعترفوا بالاستشهاد على سناد التأسيس ببيت العجاج لأن روايته المشهورة همز ألف . فقد استشهد به الزمخشرى — فى مفصله لهمز الألف فى باب الإبدال . وكذا — الرضى — فى شرحه للشافية .

محمد الطنطاوى
أستاذ بكلية اللغة العربية

١ — تصوير الأنبياء :

رأينا فى مجلة « الطالب » التى تصدر فى القاهرة صورة على غلاف العدد (٧٠) صورة تمثل سيدنا ابراهيم الخليل وأمامه ابنه اسماعيل الذبيح عليهما الصلاة والسلام ، وفوقهما ملك ذو جناحين يمثل سيدنا جبريل وأمامهما كبش ... !

ثم رأينا على غلاف العدد (٧١) صورة تمثل ناقتين أمامهما رجلان ، والصورة تشير إلى الهجرة . فاستنكرنا واستنكر معنا الكثيرون هـذه الطريقة الجديدة فى تمجيد الذكريات المجيدة والأعياد الإسلامية ...

إنها طريقة لا يقرها الشرع ولا العقل ولا الذوق ؛ وفى العدد نفسه صورة متخيلة للامام الجليل أحمد بن حنبل . وإن مجلة لا تحترم الأنبياء ولا الأئمة ، ولا تعرف لهم مكانتهم ، لهى مجلة جديرة بالوأد فى المهد ...

٢ — وقاحة الشيوعيين :

ثارت فى هـذا الأسبوع فى دمشق ضجة كبرى بشأن الكتاب الذى أرسلته إلى مصر فئة ضالة من أذناب الشيوعيين تحتج فيه على حكومة مصر لمكافحتها لجماعة الشيوعيين ومقاومتها إياهم ، وكانت النقمة شديدة على موقعى الكتاب ، وهم من أبرز موظفى وزارة المعارف ، وقد اهتمت الحكومة السورية بهذا الأمر وقررت أن تفصل هؤلاء الموظفين عن مناصبهم ، وأن تحيلهم على لجان التأديب لينالوا جزاء وقاحتهم وخيانتهم . ولا يزال هياج الشعب على أشده ، وهو يطالب باتخاذ التدابير الفعالة للقضاء على الشيوعية الخبيثة قضاء مبرماً لا قيامة لها بعده .

(دمشق) **ناجى الطنطاوى**



دهاء سيدة

للقصصى الايطالى (موفالى بوكاشيو)

بقلم الأستاذ محمد عبد اللطيف حسن

كان يقطن فى بلدة أرامينو بإيطاليا تاجر غنى متزوج من سيدة جميلة صغيرة السن. وكان هذا الزوج شديد الغيرة والقسوة على زوجته، لا لشيء إلا لأنه كان يحبها غاية الحب، ويهواها من كل قلبه هوى عنيفاً مبرحا. فكان يظنُّ لهذا السبب أن الناس جميعاً يحبونها كما يحبها، ويهوونها كما يهواها، وأنها تبادلهم إعجابا بإعجاب، وافتتاناً بافتتان! ومن هنا نشأت غيرته العمياء عليها، وتولد فى قلبه الخوف والقلق من حسنها الذى كان يخلب الألباب ويستهوى الأفئدة. فكان يراقبها مراقبة شديدة ويمنعها من الذهاب إلى الكنائس والولائم والحفلات العامة، بل لقد بلغت به الغيرة إلى حد أنه كان يمنعها من الخروج فى المواسم والأعياد التى كان يحتفل بها عامة الشعب، فكان ذلك سبباً فى تنغيص حياتها وتكدير صفوها.

وهداها التفكير أخيراً إلى أن تقابل هذا العدوان وتلك القسوة بمثلهما. ففى أحد الأيام وقعت عيناها على شاب جميل وسيم الطلعة يقطن فى المنزل اللاصق لمنزلها. وقد استرعى هذا الشاب انتباهها قبل ذلك عدة مرات، ولكنها لم تكن تعيره أدنى التفات، ولم يخطر ببالها أن تهتم بغير زوجها فى يوم من الأيام، حتى إذا ما طفح الكيل، وبلغت غيرته وقسوته أقصى حدودها، لم تستطع السيدة صبراً أكثر من ذلك، فأخذت تبحث فى جدران مسكنها علها تعثر على ثغرة يمكنها أن تخاطب هذا الشاب بواسطتها، لتذهب عن نفسها ذلك الملل الذى كانت تحس به من جراء حبسها فى المنزل آناء الليل وأطراف النهار. وهداها البحث أخيراً إلى العثور على ثغرة صغيرة فى إحدى الغرف الخلفية لمسكنها، فسرت لهذا الكشف السعيد سروراً عظيما وخاطبت نفسها بقولها (إذا كانت هذه الثغرة تؤدى إلى غرفة فلبو — وهو اسم الشاب — فإن خطتى لا بد أن تصل إلى النجاح المنشود، والفوز المرتقب!) ولم تلبث أن دعت إليها خادمتها وكلفتها بأن تتحقق من هذا الأمر بنفسها. فمادت اليها الخادمة التى كانت ترثى لحالها، وتتألم لسوء معاملة زوجها لها، وأخبرتها أن فلبو يبيت فى هذه الغرفة التى عثرت على الثغرة المؤدية اليها بطريق المصادفة. فسرت السيدة لهذه البشرى الطيبة وأتت بباقة صغيرة من الزهور اليانعة ذات العطر الشذى، والأرج الزكى، وألقتها من الثغرة التى كانت لا تتسع لأكثر من إدخال رأسها، فى مكان ظاهر من غرفة فلبو وظلت واقفة فى مكانها تترقب أوبته بفروغ صبر. فلما حضر الشاب ووجد باقة الزهور فى حجرته دهش لذلك دهشة عظيمة، سيما وأنه لم يكن متزوجا وكان يقطن فى هذا المسكن بمفرده، وزادت دهشته حينما أطلت السيدة برأسها من الثغرة الضيقة ونادته باسمه ثم عرفته بنفسها! ووقف الشاب مبهوتاً زائغ البصر لحظة ولكنه لم يلبث بعد أن هدأ روعه، واسترد هدوءه، أن رحب بهذه الصداقة الجديدة التى كان ينتظرها منذ زمن طويل من غير طائل، ومن هذا الوقت بدأت السيدة والشاب يقطعان الوقت فى المسامرة والحديث فكان ذلك سبباً فى سرورها وغبطتهما معاً.

ولما اقترب عيد الميلاد كانت السيدة قد دبرت خطتها للانتقام من زوجها فقالت له ذات يوم وهى تحاول جهدها أن يكون كلامها طبيعياً على قدر الإمكان:

— إننى أود الذهاب إلى الكنيسة لأعترف للقسيس بخطاياى!

فذعر الزوج لهذا الطلب الغريب الذى لم يكن يتوقع سماعه منها وقال:

— وأى خطيئة ارتكبتها حتى تودين الاعتراف بها للقسيس؟

فابتسمت زوجته ابتسامة ماكرة وقالت:

— أو لست يا عزيزى بشراً كسائر البشر؟ أم تحسبنى قديسة من القديسات أو راهبة من الراهبات؟

ثم سكتت سكتة قصيرة واستطردت قائلة:

— وهل تعتقد أنني معصومة من الزلل، أو بعيدة عن الوقوع

فى الخطأ ما دمت تشدد الرقابة على وتحبسنى بين جدران منزلك ؟

وهنا أطرقت برأسها إلى الأرض وقالت له بلهجة حزينة ، ونغمة مؤثرة :

— آه لو كنت قسيساً لاعترفت لك بكل شىء . ، ولكنك مع الأسف لست إلا فردا عادياً كسائر الأفراد ، وبشراً سوياً كبقية البشر !

فذهل الزوج لجرأة زوجته وكاد يصعق فى مكانه لأنه كان يعتقد أنها آخر من تفكر فى ارتكاب الخطيئة أو الوقوع فى الإثم، ولكنه تظاهر أمامها بالهدوء والسكينة بالرغم من أنه كان يغلى فى قرارة نفسه كالمرجل .

ثم صمم أخيراً على أن يعرف خطاياها بنفسه مهما كلفه ذلك من جهد ، أو كبده من مشقة وعناء ...

فلما حل عيد الميلاد صرح لها بالخروج فى ذلك اليوم ولكنه حظر عليها الذهاب إلى كنيسة غير كنيستها ،وأمرها بألا تعترف بخطاياها لقسيس غير قسيسها ، ثم نبه عليها بأن تعود بعد ذلك إلى المنزل مباشرة . ففهمت السيدة غرضه وأجابته إلى رغبته بهزة خفيفة من رأسها !

وكان زوجها قد سبقها فى الذهاب إلى الكنيسة قبل ذلك ببضعة أيام واتفق مع القسيس على أن يرتدى ملابسه ويحل محله فى مقابل أجر كبير أعطاه إنيه ليتسنى له معرفة خطايا زوجته بنفسه ، فلما حضرت وسألت عن القسيس ذهبوا بها إلى زوجها الذى كان قد سبقها فى الوصول إلى الكنيسة ببضع دقائق ! فعرفته زوجته لأول وهلة بالرغم من أنه كان قد أخفى وجهه بحيث لم يكن يتبين منه سوى عينيه ، ولكنه لم يستطع أن يغير لهجته ، ولا أن يبدل صوته بالرغم من أنه كان يحاول ذلك جهد طاقته ! وهذا ما أكد للسيدة أن الواقف أمامها ليس إلا زوجها دون سواه !

فابتسمت لمرآه ابتسامة مريرة متكلفة وخاطبت نفسها بقولها: (حمداً لله وشكراً ! لقد أصبح هذا الزوج الغيور قسيساً ،ولكنى لن أبوح له بما يود معرفته ، ويتوق اللحظة إلى سماعه !) ثم تظاهرت بأنها لم تعرفه وارتمت تحت قدميه وقبلت يديه بعذلة وخشوع وقالت :

— بالرغم من أننى متزوجة من رجل غنى كما تعلم ، إلا أننى أحب يا أبتى قسيساً يأتى إلى منزلى ويبيت فى مخدعى كل ليلة !

فدهش الزوج لهذا الاعتراف الفاضح ولكنه أخفى دهشته بكل مشقة وصعوبة لأنه أراد الوثوق من هذا الأمر ، والتأكد من معرفته ، فقال لزوجته وقد بهت لونه ، وا كفهرت سحنته:

— وكيف ذلك يا ابنتى ؟ ألا يقضى زوجك الليل فى مخدعك؟

فقالت زوجته وهى تخفى براحة يدها ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيها :

— بلى ياسيدى ...

فقال الزوج وقد زادت دهشته عن ذى قبل :

— وكيف يبيت إذن هذا القسيس فى مخدعك فى الوقت الذى يكون فيه زوجك موجوداً معك ؟

فتظاهرت الزوجة بالغرابة لهذا السؤال وقالت :

— لست أدرى ذلك تماماً ياسيدى ، ولكنى أعتقد أنه ليس هناك باب إلا ويفتح بمجرد ملامسة هذا القسيس له .وقد أخبرنى أنه يتلو عند مجيئه إلى منزلى تعويذة غريبة فتلقى بزوجى المسكين من فراشه على الأرض وتجعله يروح فى سبات عميق دون أن يدرى بمجيئه ، أو يحس بزيارته لى !

فارتبك الزوج فى موقفه ارتباكاً شديداً وقال لها وهو يحاول أن يكظم غيظه ، ويكبح جماح غضبه :

— إننى أرثى حقاً لحالتك ياسيدتى ، ولكن ليس لك عندى مع الأسف أى حل . وكل ما أستطيع أن أفعله أننى سأصلى كل ليلة من أجلك ، وسأرسل إليك — فضلا عن ذلك — رسولا من قبلى بين الفينة والفينة لأرى نتيجة صلاتى لك ، عسى أن يغفر الله لك ويبعد عنك هذا القسيس إلى الأبد ...

فتظاهرت السيدة بالخوف الشديد وقالت :

— لا ترسل بربك أحداً إلى منزلى لأن زوجى شديد الغيرة على!

ولكن القسيس — أو الزوج — طمأنها بقوله :

— لا تهتمى بذلك مطلقاً لأننى سأتخذ الحيطة اللازمة لذلك.

فقالت السيدة وهى تهم بالوقوف :

— إذا استطعت أن تفعل ياسيدى ؛ فإننى لن أنسى لك هذا

الصنيع ما حييت ، وسأكون مدينة لك بشكرى مدى العمر بالرغم من أننى أحب هذا القسيس حباً جماً ولا أطيق فراقه عنى بأى حال!

قالت ذلك ثم غادرت الكنيسة على عجل وهى تضحك فى سرها من سذاجة زوجها الذى كان يتميز من الغيظ ، ويقرض على أسنانه من شدة الغضب ! وألقى الزوج بعد أن تركته زوجته بقلنسوة القسيس وبردائه على الأرض ثم هرع من فوره إلى منزله . فلما وصل إليه خاطب زوجته بعد أن فكر ملياً فى هذا الأمر ، ودبر خطته للانتقام منها ومن القسيس الذى يأتى لزيارتها كل ليلة فقال:

— سأتناول الليلة عشائى خارج المنزل لدى أحد أصدقائى ، وإذا تأخرت قليلا فلا تقلقى لغيابى لأننى سأقضى سهرتى عنده .

وقبل أن يغادر المنزل حدجها بنظرة حادة صارمة ثم قال لها بغلظة وجفاء :

— لا تنسى أن تغلقى ورائى باب المنزل بالمزلاج ، وكذا باب مسكنك ، بل وباب غرفة نومك كذلك إذا شئت أن تأوى إلى فراشك مبكرة ...

ففهمت السيدة غرضه وابتسمت له على كره منها ثم تمنت له ليلة طيبة دون أن تسأله عن المكان الذى سيقضى فيه سهرته ...

ولما غادر المنزل هرعت إلى الثغرة وأخبرت فلبو الذى كان فى انتظارها بكل ما حدث لها مع زوجها فى صباح ذلك اليوم ، ثم قالت له وهى تضحك ملء شدقيها :

— إننى واثقة من أن زوجى لن يتحول هذه الليلة من أمام المنزل ليتسنى له القبض على هذا القسيس الزعوم فهل يمكنك أن تأتى إلى فى المساء عن طريق سطح منزلك لنتبادل الأحاديث الحلوة والأقاصيص الشهية ؟

فأجابها فلبو وهو يكاد يطير من شدة الفرح لهذا اللقاء القريب الذى كان لا يشتهى فى الدنيا غيره :

— سأحاول ذلك يا عزيزتى .

فلما أقبل المساء تسلح الزوج بهراوة ثقيلة واختبأ خلف بوابة قريبة من المنزل . ثم وقف ينتظر على مضض مجىء ذلك القسيس الذى اعترفت له زوجته بأنها تحبه ! وقد حدث ذلك فى نفس الوقت الذى ذهب فيه فلبو إلى مسكن معشوقته عن طريق سطح منزله ! وظل الإثنان فى لهو ومرح إلى ساعة متأخرة من الليل ، ثم عاد الشاب ثانية إلى مسكنه !

فلما بزغ النهار عاد الزوج إلى بيته بعد أن فرغ صبره ، وجمدت أطرافه من شدة البرد ! ثم ذهب إلى غرفة نومه وهو خائر القوى ، منهوك الأعصاب ، واستلقى على فراشه وراح فى سبات عميق ! فلما استيقظ من نومه غادر المنزل ثم أوفد إلى زوجته رسولا من قبله على زعم أنه موفد من القسيس الذى اعترفت له بخطاياها بالأمس ، عما إذا كان القسيس قد جاء لزيارتها فى الليلة الماضية أم لا ؟ فأجابته السيدة بقولها :

— لا ! إنه لم يأت فى الليلة الماضية ، وإذا انقطع عن زيارتى عدة ليال أخرى فإننى لن ألبث أن أنساه بمضى الزمن وإن كنت سأتألم بعض الشىء لغيابه عنى ، وانقطاعه عن زيارتى !!

وكرر الزوج مراقبته للقسيس الموهوم عدة ليال فى الوقت الذى تلهو فيه زوجته مع جارها فلبو كل ليلة دون أن يدرى أحد من أمرها شيئاً ! فلما عيل صبره ، ولم يجد أدنى فائدة من تلك المراقبة ، سأل زوجته ذات يوم وشرر الغضب يتطاير من عينيه ، والحنق الكامن فى أعماق نفسه يلوح على أسارير وجهه المتجهم فقال :

— ما الذى اعترفت به للقسيس فى صبيحة يوم عيد الميلاد ؟

فذعرت زوجته لهذا السؤال الفاجىء ، ولاذت بالصمت المطبق ، والسكوت العميق ، فلما كرر عليها زوجها هذا السؤال استولى عليها الغضب ثم التفتت نحوه وقالت :

— أظن أنه ليس من حقك ، ولا من حق أى إنسان آخر أن أطلعك على أسرارى ، أو أكاشفك بخبيئة نفسى !

فازداد غضب الزوج لهذا الرد وقال :

— أيتها المرأة المنافقة ، والمخادعة الشريرة ، إننى على علم بكل ما اعترفت به فى الكنيسة ، وسأجبرك الآن على إخبارى بكل شىء عن ذلك القسيس الذى يبيت فى مخدعك كل ليلة ...

فلم تكترث زوجته لتهديده وقالت :

— إننى لا أستقبل فى مخدعى أحداً سواك ...

ولكن الزوج الغاضب لم يقتنع بإجابتها وانفجر فيها قائلا :

— ماذا تقولين ؟ أتنكرين هذا أيتها الحية الرقطاء ؟ أو لم تخبرى القسيس الذى اعترفت أمامه بذلك ؟

فنظرت إليه زوجته نظرة شزراء ثم قالت له بجرأة وثبات :

— إننى لا أنكر شيئاً مما قلته له ، ومادمت قد سمعت اعترافى كاملا فلا حاجة بى إلى تكراره أمامك مرة أخرى !

فقال لها زوجها وهو يعجب من شجاعتها ورباطة جأشها :

— والآن ما دمت قد اعترفت بخطيئتك ، وكاشفتنى بإثمك فيجب أن تخبرينى بكل شيء عن هـذا القسيس العاشق ، وإلا فالويل لكما منى معاً ... ...

فهزت زوجته كتفيها بسخرية واستخفاف ولم تأبه لوعيده أو تكترث لغضبه ، ثم أرادت أن تلقى عليه فى تلك اللحظة درساً قاسياً لا ينساه مدى الحياة ، فقالت له بصوت هادىء ، وعبارة متزنة هادئة :

— إننى فى أشد العجب من تلك الغيرة العمياء التى تظهرها نحوى فى كل وقت ، وبدون سبب . أتظننى غبية قصيرة النظر مثلك ؟ لا ! فلقد عرفت لأول وهلة أن القسيس الذى اعترفت أمامه بخطاياى هو أنت دون غيرك ! ولكنى أردت أن أثير انتباهك بهذه الحكاية الملفقة ، وأظننى قد نجحت فى ذلك إلى حد بعيد ! ولو كنت عاقلا حقاً لما حاولت الإطلاع على أسرار زوجتك بهذا الشكل المزرى القبيح ! ولكن الغيرة — قاتلها الله — أعمت بصيرتك ، وذهبت بلبك وجعلتك عاجزاً عن تبيان الحقيقة الواضحة أمامك وضوح الشمس فى رابعة النهار ! ولقد اعتقدت خطأ أن كل كلمة من كلماتى إنما هى حقيقة ثابتة لا شك فيها ، وغاب عنك أنها محض اختلاق ، ولم تكن إلا مجرد درس لك ولأمثالك من الأزواج الذين تعمى الغيرة الحمقاء عيونهم عن معرفة أبسط قواعد اللياقة والذوق ! ولقد قلت فى اعترافى إننى أحب قسيساً ، أفلم تكن أنت ذلك القسيس الذى كنت أحبه فى تلك اللحظة التى اعترفت فيها أمامك ؟ وقد قلت أيضاً إنه لا يعصى عليه أى باب عند ما يأتى إلى منزلى وهل هنا لك باب فى منزلك يستعصى عليك دخوله ؟ ولقد قلت أخيراً إن هذا القسيس يبيت فى مخدعى كل ليلة ، أو لا تفعل ذلك حقاً يازوجى العزيز ؟ وكلما أوفدت إلى رسولا من قبلك ليسألنى عما إذا كان القسيس لا يزال يكرر زياراته لى كنت أجيبه بالنفى ، وهذه حقيقة لا شك فيها لأنك اعتدت أن تسهر إلى ساعة متأخرة من الليل خارج منزلك منذ اليوم الذى اعترفت فيه أمامك فى الكنيسة ، حتى ظننت بدورى أنك تقضى سهراتك عند امرأة سواى وتلهو معها ماشاء لك اللهو والمجون! وقد كان يجب عليك أن تفهم كل هذه الحقائق بنفسك دون أن تكلفنى عناء شرحها وتوضيحها لك !

وهنا تظاهرت أمامه بالبكاء فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت له بلهجة مؤثرة ، وصوت مختنق النبرات :

— فكر فى هذا الأمر المشين بك ياعزيزى ، واطرح عنك هذه الغيرة والعمياء التى نغصت علينا صفونا وراحتنا . وإذا كنت تعتقد أنك بحبسك لى بين جدران منزلك تمنعنى من اللهو والعبث مع غيرك ، وتحول بينى وبين تحقيق رغباتى ، فأنت جد مخطىء فى ذلك يازوجى العزيز ، لأن المرأة كما تعلم لا يقف أمامها أى حائل ، ولا يمكن لأى مخلوق مهما كان ، أن يعترض سبيلها إذا هى أرادت ذلك بمحض مشيئتها ورغبتها ...

فلما سمع الزوج ذلك تأثر لكلامها ، وأحس بالحسرة والندم على ما فعل ، ثم أبعد عنه هذه الغيرة التى سببت له كل هـذا التعب والعناء ! وفى الوقت الذى كان يجب عليه فيـه أن يغار على محليتها ، ويشدد فى مراقبته لها ، نراه قد أهمل هذا الأمر إهمالا تاماً وترك حبل الأمور على غاربها ! وزيادة على ذلك فقد صرح لها بالخروج فى أى يوم تشاء ، وفى أية ساعة ترغب ، ولم يعد يهتم كثيراً بغيابها عن المنزل أو عدم غيابها ! فلما نالت الزوجة حريتها ، واطمأنت إلى عدم شك زوجها فى وفائها ، تمادت فى غيها ، وأوغلت فى ضلالتها ، وأصبح حبيبها فلبو يقابلها مرة أو مرتين فى اليوم . فاذا تصادف وحضر زوجها فى أثناء وجوده فسرعان ما يفر إلى مسكنه عن طريق سطح منزله دون أن يدرى به أحـد ، أو يعلم بأمره إنسان !

وهكذا ظل العاشقان يرتشفان معاً كؤوس الهوى حتى الثمالة بعد أن أفلحت الزوجة فى خطتها ، ونجحت فى الانتقام من زوجها!

اسكندرية **محمد عبد اللطيف حسن**

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

السنة الرابعة عشر — الاثنين ١٨ فبراير ١٩٤٦ — العدد ٦٥٩

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 659

Lundi —18—2—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٦٥٩ « القاهرة في يوم الإثنين ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ١٨ فبراير سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

حمــــام الحرم

للأستاذ عباس محمود العقاد

أشرت في مقالي السابق عن الرحلة الحجازية إلى حمام الحرم فقلت عن أعجب ما سمعته ورأيته من شأنه « إنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات » .

« وقد سمعت بهذه الخاصة في حمام البيت قبل أن أراه ، فلما رأيته في طواف العمرة وطواف الوداع تحريت أن أتعقبه في كل مذهب من مذاهب مطاره فإذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العبور » .

وهذه خاصة لابد لها من سبب مفهوم ، ولابد من استقصائها في جميع أحوالها قبل التيقن منها وقبل تعليلها بالخوارق التي لا تقبل التعليل ، فإن الذهن لا يقبل الخارقة إلا إذا ضاقت به علل الطبائع التي أودعها الله في خلقه وتواترت بها المشاهدة في جميع الأحوال ، وبخاصة حين لا يكون هناك مقتضى من حكم الدين ولا حكم العادة لامتناع الطيران في فضاء الكعبة أو أي فضاء مقدس مصون ، ولا معابة على فضاء السماء في كل مكان أن تحلق فيه الطيور أو تعبر به الطائرات .

وقد شغلني أن أتيقن أولا من تطابق الأقوال على اطراد هذه الظاهرة ، وأن أجرب حماما غير حمام الحرم لأرى كيف يطير إذا أطلق في جوانب الكعبة وحده ، وأن أجرب طيراً غير الحمام من القماري أو العصافير أو فصائل اليمام ، لأن الجوارح قد يصرفها النظر إلى فرائسها عن تحقيق التجربة بما يفيد الحرية في اختيار جو الطيران ، وخطر لي قول الطائي :

يسقط الطير حيث يلتقط الحب   وتغشى منـــازل الكرماء

ولكن الطير يسقط حيث يلتقط الحب ولا يقصر طيرانه على مواضع التقاطه ، فإذا كان حمام البيت قد تعود أن يلتقط غذاءه في المماشي التي حول الكعبة فليس ثمة ما يمنعه إذا صعد في الجو أن يتجاوز تلك المماشي إلى ما جاورها ، وهو قريب من قريب .

وأوصيت بعض رفاقنا أن يرقبوا هذه الظاهرة في زياراتهم المتعددة ، وهم يزورون البيت متفرقين حسب النوبة التي يفرغون فيها من العمل في اليخت أو في الطوافتين . فلما عادوا جميعاً كفيت مؤنة التجربة أو التجارب الكثيرة التي كان لا بد لنا منها قبل التيقن من تلك الظاهرة وتعليلها بما يكشفها على جليتها ، لأن ثلاثة منهم اتفقوا على أنهم شاهدوا الحمام يطير أحياناً فوق الكعبة وإن لم يكن ذلك مطرداً في جميع الأوقات ، وممن شاهدوا ذلك إمام اليخت الملكي المحروسة وهو شاب مهذب أديب حسن المعرفة بالدين حسن التفسير لأحكامه وفروضه ، فإنه قال إن الحمام يطير فوق الكعبة ولكنهم يلحظون فيما يطير منه عليها شيئاً من الضعف والانكسار ، كأنه مريض يلتمس

الشفاء ببركة العبور على ذلك المقام ، وهذا وحده يبطل ما ذهبوا إليه من تلك الملاحظة ... لأن طالب البركة لا يلتمسها بما يخالف حرمة المكان فيما جرى عليه عرفه أو عرف بداهته الفطرية ، فان كان طير البيت يتجنب الطيران فوق الكعبة تقديساً لها كما يتخيلون فليس من شأنه أن يلتمس البركة بما يخالف التقديس .

وقد أصبحت الظاهرة معقولة بعد ما سمعته من تلك المشاهدات بغير خارقة أو التجاء إلى إغراب .

حتى ندرة الطيران فوق الكعبة لا تستعصى على التفسير الموافق للعادات والمشاهدات ، فان الحمام الأليف يجتمع إلى أسرابه فى ملاقط الحب ، ولكنه لا يطير أسراباً أسراباً كالفصائل البرية من نوعه حين تهاجر من مكان إلى مكان . فإذا جاوز الحمام الأليف مساقط أسرابه فإنما يطير زوجين زوجين أو فرداً فرداً فى التماس أليفه الذى يغيب عن نظره وسط الأسراب ، وهذه العادة خليقة بأن تفسر لنا ندرة الطيران على بعد من الماشى التى يتجمع فيها الحمام كما تفسر لنا بطء حركة الطائر الذى يخرج على الطريق فى بحثه واستطلاعه ، لأنه لا ينوى الطيران إلى بعيد حيث يعبر فضاء الكعبة لينظر حوالها إلى أليفه المفقود .

على أن جمال المعنى الذى يتمثل فى حمام الحرم لا ينقص ذرة بطيرانه هنا أو طيرانه هناك ، لأن معناه الجميل هو الأمن فى حماية الإيمان لا فى حماية الحراس أو حماية الأبراج والسدود . فهذا أضعف الطير يراه الجائع والطامع ولا يمسه بسوء ، وهو يطمئن إلى هذا الأمن بطبعه وإن لم يفهمه بعقل فيه يفهم أمثال هذه الأمور ، فلا يجفل من الإنسان ولا تراه يطير منه إلا طيران الدلال واللعب لا طيران الفزع والاضطراب .

* * *

ولم يزل للحمام نصيب من القداسة أو الطهارة منذ آمن الناس بالدين على سنة الوثنية أو سنة التوحيد ، وكان هذا النصيب ينفعه حيناً ويجنى عليه فى أحايين ، فكان قربان الحمام مفضلا فى شريعة موسى على القرابين من سائر الطيور ، وكان الأغريق يتقربون إلى الزهرة ربة الحب عندهم بالحمام الأبيض أو باليمام وما إليه ، ولا يزال السحرة فى أيامنا يخدعون السذج بالحمامة البيضاء أو الحمامة السوداء ، ويتوسلون بالأولى فى استعطاف الملائكة والأرواح الكريمة ، وبالأخرى فى استعطاف الشياطين والأرواح الخبيثة ، بل لا يزال أناس من المعاصرين يعتقدون فى الحمام اعتقاد الأقدمين الذين زعموا أنه أقدر الطير على استجابة داعى العشق والغرام ، وأنه من ثم طعام صالح للأزواج وهدية صالحة فى الأعراس .

والشعراء يضربون به المثل فى الوفاء والفناء ، وبعضهم يسمى هديله بالبكاء لفرط الحنين إلى الالفاء والأحباء ، ويجارى الشعراء فى هذا الرأى بعض من كتب عنه من الطبيعيين والمشغولين بتسجيل عادات الطيور .

أما الصواب فهو ما قاله المعرى حيث قال :

أبكت تلكم الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد

وهو أيضاً ما قاله حيث قال :

ظلم الحمامة فى الدنيا وإن حسبت
فى الصالحات كظلم الصقر والبازى

ويؤيد المعرى فى هذه الملاحظة هواة الحمام من العرب ، وأشهرهم مثنى بن زهير حيث يقول فيما رواه عنه الجاحظ فى كتاب الحيوان : « ... لم أر شيئاً قط فى رجل وامرأة إلا وقد رأيت مثله فى الذكر والأنثى من الحمام : رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها كالمرأة لا تريد إلا زوجها وسيدها ، ورأيت حمامة لا تمنع شيئاً من الذكورة كالمرأة لا تمنع يد لامس ، ورأيت الحمامة لا تزيف إلا بعد طرد شديد وكثرة طلب ، ورأيتها تزيف لأول ذكر يريدها ساعة يقصد إليها ... ورأيت حمامة لها زوج وهى تمكن ذكراً آخر لا تعدوه ... ورأيتها تزيف لغير ذكرها وذكرها يراها ، ورأيت الحمامة تقمط الحمام الذكور ورأيت الحمامة تقمط الحمامة ... » .

إلى آخر ما قال وهو صواب :

ولا ندرى هل ذم الحمام أو أثنى عليه حين قال إنه يشبه الناس فى أطواره ذكوره وأناثه . فقد يكون ذلك غاية الذم فى عرف قوم وغاية الثناء فى عرف آخرين !

* * *

ولسنا نختم هذا المقال قبل أن نستوفى سيرة الحمام كما عرضت

خلال الزيارة الحجازية إما بمكة أو خلال الطريق .

فقد كان الحمام ذات عشاء بعض صحاف المائدة على اليخت « المحروسه » أثناء عودته الأولى من جدة إلى السويس ، فعلمنا أن جلالة الملك عبد العزيز لا يأكل منه ولا من السمك على اختلافه إلا فى النادر القليل .

وأراد صاحب السعادة مراد محسن باشا أن يوفق بين رغبة الملك عنه ورأى بعض الفقهاء فى تحريمه ، فقال : إن أناساً من المتشددين يحرمون أكل الحمام الذى يربّى فى بروج الحقول والغيطان فصمت جلالة الملك وتردد ثم سأله : ولم يحرمونه ؟

قال مراد باشا : لأنهم يتركونه يأكل من مال غيرهم ولا يطعمونه من عندهم ، فحرمه أولئك الفقهاء كما يحرمون مال « الغير » المأخوذ بغير علم من أصحابه .

وكنا نحسب أن هذا التشدد مما يرتاح إليه فقهاء نجد لأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب منسوب إلى التشدد فيما يترخص فيه عامة الفقهاء .

ولكن جلالة الملك ظل على تردده والتفت إلى أخيه صاحب السمو عبد الله بن عبد الرحمن كمن يستفسر رأيه فى هذا التحريم .

فقال سمو الأمير : لاحرج فى أكله وما أرى وجهاً لتحريمه ولا قولا يعتد به فى ذلك ، وإنما حكمه حكم العصافير التى تأوى إلى أشجار الناس وتأكل من حيث أصابت الطعام .

فعرفنا شيئاً جديداً من مذاهب أهل نجد فى التحريم والتحليل ، فهم لا يأخذون بكل تشديد ولا يعزفون عن كل ترخيص ، وإن كانت لهم أقوال يخالفون بها جمهرة المتشددين والمترخصين .

وأطرف من هذا أن رئيساً من رؤساء الحكومة السعودية سأل الباشا : أهم يحرمون من الحمام الـ Pigeon أو الـ Dove turtle ؟ لأن الأول يأوى إلى البيوت والثانى قلما يأوى إليها وإن عرفت الأمم القديمة استئناسه فى بعض البلدان .

فكان هذا السؤال مما لم يخطر على البال ، قبل الاستدلال على الحرام والحلال .

عباس محمود العقاد

فى إرشاد الأريب
إلى معرفة الأديب

الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

— ٢٧ —

ج ١ ص ٢٦٨ : ومن شعر نفطويه :

الجد أنفع من عقل وتأديب   إن الزمان ليأتى بالأعاجيب
كم من أديب يزال الدهر يقصده   بالنائبات ذوات الكره والحوب
وامرئٍ غير ذى دين ولا أدب   معمر بين تأهيل وترحيب
ما الرزق من حيلة يحتالها فطن   لكنه من عطاء غير محسوب

وجاء فى الشرح : (كم من أديب يزال الخ) لايزال حذفت لا كما فى كلام العرب أو هى يظل حرفت يزال والأول أوفق لوروده كثيراً . (وامرئٍ غير ذى دين الخ) . لا يستقيم الوزن إلا إذا جعلت همزة امرئٍ همزة قطع .

قلت : (كم من أديب يظل الدهر يقصده) يظل هى الرواية (وجاهل غير ذى دين ولا أدب) و (لا) لا تحذف قياساً إلا بعد قسم ، وقد شذ الحذف — كما قال ابن عقيل — دون القسم كقول الشاعر :

وأبرح ما أدام الله قومى   بحمد الله منتطقا مجيدا[1]

أى صاحب نطاق (منطقة) وجواد .

وحذف هذا النافى بعد القسم كثير بل أكثر من الكثير ، وقد بينت المصنفات فى علم العربية (أعنى النحو[2]) وفى أسرار العربية[3] ، وفى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامهم[4] ، وفى

---

(١) قلت : وشذ الحذف فى قول عمرو ذى الكلب من شعراء هذيل (ج ١ ص ٢٣٣ الطبعة الأوربية) :

فأبرح غازياً أهدى رعيلا   أؤم سواد طود ذى نجال
ويبرح واحد واتنان صحبي   ويوما فى أشاميم الرجال
وأبرح فى طوال الدهر حتى   أقيم نساء بجيلة بالنعال

(النجال) ما يستنجل من الأرض يخرج منها .

(٢) سيبويه ١ ص ٢٩٣ ، شرح المفصل ٧ ص ١٠٩ .

(٣) أسرار العربية للأنبارى ١١٠ .

(٤) الصاحبي لابن فارس ص ١٧٥ ، فقه اللغة للثعالبي ٥٠٨ .

فنون البيان والأدب [١] ، وفى التفاسير [٢] — هذه القاعدة خير تبيين ، بيد أن المتسمين بـ (المبشرين) المتجسمين من الضلالة والجهالة والوقاحة والسفالة أبوا إلا تخطئة علوم العربية كلها وأقوال العرب جميعاً فادبروا يقولون [٣] — أبادهم الله — فى كتابهم (مقالة فى الاسلام وذيلها) ص ٤٥٩ : « ومنه (أى خطأ القرآن فى العربية) قوله فى سورة يوسف : تالله تفتؤ تذكر يوسف ، والوجه لا تفتؤ لان فتىء وما جرى مجراها لا تستعمل إلا منفية » .

والوقح صخر الوجه لا يستحى من شىء .

لا يعمل البرد فى وجهه   بل وجهه يعمل فى البرد

والقول القرآنى يعضد فى بلاغة الحذف وصحته قول معقل ابن خويلد (ديوان شعراء هذيل ج ١ ص ١٠١ الطبعة الأوربية) :

إذا أقسموا أقسمت أنفك منهم   ولا منهما حتى أفك السلاسلا

وقول ساعدة بن جؤية (شعراء هذيل ج ٢ ص ١٥ الطبعة الأوربية) :

تالله يبقى على الأيام ذو حيد
أدفى صلود من الأوعال ذو خدم [٤]

وقول المتلمس فى قصيدته وهى من (المنتقيات) فى (جمهرة أشعار العرب) :

آليتَ حبَّ العراق الدهرَ أطعمه
والحب يأكله فى القرية السوس [٥]

وقول امرىء القيس فى قصيدة مشهورة رويت فى ديوانه وفى كتب كثيرة :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى [١]

وقول النابغة فى قصيدة فى ديوانه وفى كتب كثيرة :

فقال : تعالى نجعل الله بيننا   على مالنا أو تنجزى لى آخره
فقالت : يمين الله أفعل إننى   رأيتك مشؤوما يمينك فاجره

وقول ليلى الأخيلية فى قصيدة فى رثاء توبة (الأغانى ١١ ص ٣٢٠) :

فتالله تبنى بيتهـا أم عاصم   على مثله أخرى الليالى الغوابر
فأقسمت أبكى بعد توبة هالكا   وأحفل من نالت صروف القادر

وقول امرأة سالم بن قحفان رواه المفضل وشرحه (ج ٧ ص ١٠٩) :

حلفت يميناً يا ابن قحفان بالذى
تكفل بالأرزاق فى السهل والجبل
تزال جبال مبرمات أعدها   لها ما مشى يوماً على خفه جمل

وقول الأعشى (روى فى تهذيب إصلاح المنطق ص ٢٢٤ ، والاصلاح لابن السكيت ، والتهذيب للتبريزى) :

وإنى ورب الساجدين عشية
وما صك ناقوس النصارى أبيلها [٢]
أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها   كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها [٣]

وقول أبى حنبل الطائى (رواه الميدانى فى مجمع الأمثال فى شرح : أوفى من أبى حنبل ج ٢ ص ٢٢٣) :

لقد آليت أغدر فى جداع   وإن منيت أمات الرباع [٤]

إن القرآن الكريم ليعضد هذه الأقوال المتقدمة وأقوالا غيرها لا تحصى روى طائفة منها سيبويه (ج ١ ص ٤٥٤) والفائق (ج ١ ص ٤٨) وأمالى الشجرى (ج ١ ص ٣٣٢)

---

(١) المثل السائر ص ٢٠٧ أمالى الشجرى ١ ص ٣٣٢ .

(٢) إعراب القرآن للعكبرى ٢ ص ٢٢ ، الطبرى ١٣ ص ٢٥ الكشاف ٢ ص ١٢٢ ، الرازي (٥) ص ١٥٨ .

(٣) فى الكشاف فى تفسير : ثم أدبر يسعى : أريد ثم أقبل يسعى كما تقول أقبل فلان يفعل كذا بمعنى أنشأ يفعل فوضع أدبر موضع أقبل لئلا يوصف بالاقبال .

(٤) الحيد فى القرن أى فى قرنه ، الأدفى الذى تحنى قرناه إلى ظهره الصلود الذى إذا فزع صلد فى الجبل أى صعد فيه ، ذو خدم أى أعصم (شرح ديوان شعراء هذيل) الأعصم الذى فى ذراعيه أو إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر ، والصلود المنفرد ، والحيد العقدة فى قرن الوعل .

(٥) من أبيات الكتاب . قال الشنتمرى : أراد على حب العراق فحذف الجار ونصب ، يخاطب عمرو بن هند وكان قد أقسم أن لا يطعم المتلمس حب العراق لما خافه على نفسه وفر إلى الشام ، فقال له المتلمس مستهزئاً آليت على حب العراق لا أطعمه وقد أمكننى منه بالشام مايغنى عما عندك ، وأشار إلى كثرة ما هنالك منه بما ذكر من أكل السوس له ، وأراد بالقرية الشام وبالحب البر (ج ١ ص ١٨) .

(١) يمين الله : منصوب بمعنى حلفت بيمين الله ثم اسقط الحرف فتعدى الفعل . ويروى بالرفع على الابتداء وخبره محذوف (التبريزي) .

(٢) الأيبل صاحب الناقوس ، والايبل رئيس النصارى ، والراهب (اللسان) .

(٣) قبلت القابلة الولد قبالا أخذته من الوالدة وهى قابلة المرأة وقبولها وقبيلها (اللسان) يقول : لا أصالحكم حتى تعترفوا بمثل الحرب التى أوقعتموها وتصرخون من شدتها كصراخ المرأة الحامل التى ضربها المخاض فهى تصيح لما يؤلمها من ذلك ، وقوله أسلمتها قبيلها يريد أن القابلة يئست منها ، إصلاح المنطق)

(٤) الرباع جمع الربع — كصرد   وهو ما نتج فى أول النتاج ، وهو أحمد النتاج وخص أمات الرباع لأنها أصبر الابل (الأنبارى شارح المفضليات) .

والمثل السائر (الطبعة الجديدة ج ٢ ص ١١١) والطبرى فى تفسيره (ج ١٣ ص ٢٥) .

وكتاب (المضللين) المعزو إلى الشيخ اليازجى قد شرحت حاله فى مقالاتى[1] فى الرسالة الغراء ، وبرأت الشيخ اليازجى بالحجة الشهباء من ذلك الهذر والسفه والجهل والهراء ، وأثبت أن المضللين مزورون ومفترون ، وأظهرت من أغلاط كتابهم فى العربية نحواً من مئة غلطة ...

* * *

ج ٢ ص ١٨ : أبو إسحاق المتوكلى (إبراهيم بن ممشاذ) كتب للمتوكل ، ثم صار من ندمائه فسمى المتوكلى ، ولم يكن بالعراق فى أيامه أبلغ منه ، وله رسالة طويلة فى تقريظ المتوكل والفتح بن خاقان يتداولها كتب العراق إلى الآن ، وتسخط صحبة أولاد المتوكل فتركهم ولحق بيعقوب بن الليث . كتب من عند يعقوب إلى المعتمد :

أنا ابن الأكارم من نسل جم   وحائز إرث ملوك العجم
ومحيى الذى باد من عزهم   وعفَّى عليه طِوال القدم
وطالب أوتارهم جهرة   فمن نام عن حقهم لم أنم
يهم الأنام بلذاتهم   ونفسى تهم بسوق الهمم
إلى كل أمر رفيع العماد (م) طويل النجاد منيف العلم
وإنى لآمل من ذى العلا   بلوغ مرادى بخير النسم
معى علَم الكائنات الذى   به أرتجى أن أسود الأمم
فقل لبنى هاشم أجمعين (م) هلموا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكم عنوة بالرما   ح طعناً وضرباً بسيف خذم
وأولاكم الملك آباؤنا   فما إن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز (م) لأكل الضباب ورعى الغنم
فإنى سأعلو سرير الملوك (م) بحد الحسام وحرف القلم

قلت : رواية الراغب فى (محاضراته[2]) : (أنا ابن الأكارم من آل جم) .

(وعفى عليه طَوال القدم) فى الصحاح : الطوال بالفتح

(١) المقالات ذوات العنوان : (كتاب المبشرين الطاعن فى عربية القرآن أمسلم مصري أم مبشر برستنق) الرسالة ١٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٢) ورواية الباحث الفاضل الأستاذ خليفة التونسى في الرسالة الغراء ٦٤٥

من قولك لا أكلمه طوال الدهر وطول الدهر بمعنى . وفى القاموس : الطوال كسحاب : مدى الدهر ، وضبط فى المخصص ج ٧ ص ٧٣ وفى اللسان بالفتح . وجاء فى التاج : « وذكره ابن مالك فى المثلثات » ولا أدرى من أين جاء ابن مالك بهذا التثليث .

(لنا علم الكابيان) كما روى الراغب ، وأغلب الظن أنه مثل الدرفس فى بيت البحترى :

والمنايا مواثل وأنو شروان (م) يزجى الصفوف تحت الدرفس

(وأكل الضباب ورعى الغنم) رواية الراغب[1] .

(بحد الحسام ورأس القلم) رواية الراغب .

والميمات فى الأبيات الأربعة يحذفن ، فليست الكلمات فيها فى الصدر بمتصلات بالأعجاز ، والشعر هو من بحر المتقارب ، والقبض فى هذا البحر كثير ، وقال بعضهم : القبض فى عروض هذا البحر أحسن من التمام ، وعزوا إلى امرىء القيس هذا البيت الذى لم يقله :

أفاد فجاد ، وساد فزاد   وقاد فذاد ، وعاد فأفضل

وفى هذا البحر تجتمع العروض الصحيحة والمحذوفة والمقبوضة .

يقول الإمام ابن قتيبة فى (كتاب العرب أو الرد على الشعوبية[2]) :

لم أر فى هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصباً للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم فيعرفون مالهم وما عليهم ...

وإنما لهجت السفلة منهم بذم العرب لأن منهم قوماً تحلوا بحلية الأدب فجالسوا الأشراف ، وقوما اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان فدخلتهم الأنفة لآدابهم والغضاضة لأقدارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم ، فمنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم ، واعتزى إلى ملوكهم وأساورتهم ودخل فى باب فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه . ومنهم من أقام على خساسة ينافح عن لؤمه ، ويدعى الشرف للعجم كلها ليكون من ذوى الشرف ، ويظهر بغض العرب ؛ يتنقصها ، ويستفرغ مجهوده فى مشاتمها وإظهار مثالبها ، وتحريف الكلم فى مناقبها ، وبلسانها نطق ، وبهممها أنف ، وبآدابها تسلح عليها .

(١) ورواية الأستاذ التونسى .

(٢) نشره العلامة الأستاذ الشيخ جمال الدين القاسمى (رحمه الله) فى مجلة المقتبس الغراء لصاحبها العلامة الأستاذ السيد محمد كرد على .

واحـــة كفرة

كيف احتلها الطليان وفتكوا بأهلها سنة ١٩٣٠

« كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولاذمة »
« سورة التوبة »

للأستاذ أحمد رمزى

إنى من القوم الذين يؤمنون بأن مصر بلادنا هى قلب العروبة . هذا ما ناديت به ، وكنت أول من أذاعه من راديو الشرق أيام الانتداب الفرنسى ، وأعتقد أن موقع مصر بين بلاد العرب فى الجزيرة وبلاد العرب فى شمال أفريقية وجنوبى وادى النيل ، يجعل لها هذه الميزة ، ويحتم عليها أن تحمل الأمانة التى عجز عنها غيرها ، وأعتقد أن تاريخ مصر فى عهدها العربى قد ألقى هذه الرسالة على المصريين ، ولذلك اتجهت أنظارهم وآمالهم نحو هذه البلاد الشقيقة المحيطة بهم ، وكلما مرت الأيام ازدادت النفوس اطمئنانا لمصر ، وتقاربت القلوب وتماسكت واتجهت نحو حياة جديدة . ونحن الذين نشأنا على هـذه العقيدة قد أشربت نفوسنا محبة هـذه البقاع وتاريخها .

ومن بين دروس الماضى المملوءة بالذكريات ، لا أجد درساً أشد وقعاً على نفسى ، وإيلاما لها من درس احتلال الكفرة وما حل بها ، يوم خرج أهلوها من أوطانهم وهم يعدّون بالمئات خشية بطش الطليان وفتكهم ، فأخذتهم الصحراء وماتوا فى سبيل الله .

وواحة كفرة معقل من معاقل الإسلام والعروبة ، فى هذه الصحراء الكبرى الممتدة من وادى النيل إلى مياه المحيط ، ذلك الجزء من العالم ، الذى كان بوتقة تختمر فيها الدعوات والحركات الشعبية ، التى إذا قامت اكتسحت فى وجهها كل شىء ، فلا تصمد أمامها الحصون ولا الأسوار ، ولا تردها المهالك ولا الجيوش ، ولا تقف البحار بينها وبين الفتوح ، ففيها قامت دعوة أبى عبدالله الشيعى مؤسس قواعد الملك للخلافة الفاطمية ، فكان من أمرهم ما كان ، ملك يطاول ملك الشمس ، لا تزال آثارهم باقية ظاهرة واضحة فى هذه القاهرة المعزيّة ، التى احتضنت العروبة والإسلام لألف عام ، والتى أصبحت اليوم موطن العروبة ومقر الجامعة العربية وفى هذه البطائح موطن الأسود ، ظهرت دعوة المرابطين ، فانتشرت وامتدت . ومن منا يجهل يوسف بن تاشفين وجهاده وحروبه بالأندلس ؟ والله لو تأخر مقدمه ، لاكتسح الفرنجة أرضها قبل يوم الميعاد بأربعة قرون . فبالله ما رأيك فى سيف يؤخر حكم القدر أربعمائة عام ؟

وعلى هذه الرمال ظهرت قوة الموحدين ، وهم أناس شيدوا ملكا وقادوا الجحافل ولهم أيام ومعارك وفتوح .

وإذا نزلت جنوباً عن الكفرة ، ذكرت حركة المهدى ، وهى دعوة إصلاح وإخلاص تحركت بها النفوس وآمنت ، وسارت فى طريقها ، ولم يضعف من شأنها غير وفاة صاحبها قبل أن تثبت جذورها .

وأخيراً دعوة السنوسية وانتشارها ، وافتتاح الزوايا والأربطة والعمل فى سبيل الله ، والدفاع عن أراضى برقة وليبيا .

إن أرض العروبة فى أفريقيا ، سواء فى شمالها أو صحاريها أو جنوبى مصر ، موطن للحركات القوية ، التى تنبثق من إيمان أهلها ، فتخرج إلى الدنيا ، لتهز الدنيا ، وتؤسس الملك وتقود الشعوب وتحرك الهمم . هـذا شأن هذه البقاع منذ عرفتها العروبة وعرفها الإسلام .

فأهل مراكش فى جهاد دائم منذ الأعصر الأولى ، يرابطون فى منازلهم ويقاتلون فى سبيل الله ، وما من ملحمة فى تاريخ العرب بالأندلس إلا وسمعت أن لأهل المغرب لهم فيها المواقف الباسلة والأيادى التى لا تنسى .

وقس على ذلك سائر سكان هذه البلاد ، كان هذا شأنهم حتى دهم الاستعمار بلادهم ، فهل هبطت عزائمهم ؟

إن تاريخ المغرب فى قرن من الزمن ، هو صفحة مجد لم تكتب ليومنا هذا ، ولكنها ستكتب يوماً وسيعلم الناس من أمرهم الشىء الكثير ...

وأعود إلى الكفرة ، بقيت هذه البقعة آخر معقل للاسلام والعروبة ، حتى دهمها الطليان فى يوم من آخر أيام سنة ١٩٣٠ فافتتحوها واقتصوا من أهلها وشردوهم ، وفى طريقهم إلى واحات مصر ، حلت بهم أكبر نكبة فى القرن العشرين .

والآن وقد طوى حكم الطليان عنها هل عادت لأهلها ؟ كلا لا تزال تحتلها جنود فرنسا ، بل هناك أكثر من ذلك ، فقد قرأنا أنها تطالب باقتطاع إقليم فزّان وأجزاء من جنوبى طرابلس وبرقة لضمه إلى مستعمراتها . فهل سمعتم بذلك ؟ وما هو موقف جامعة الأمم العربية وشعوبها ؟

لم يقصر أهل الكفرة عن الدفاع عنها بأموالهم وأرواحهم بل استشهد الكثير منهم فى سبيلها ... وإليكم صفحة من آخر أيام عاشتها الكفرة وكيف استولى الطليان عليها ...

يحدثنا الطليان فى كتبهم ومراجعهم بأن جراتزيانى قائدهم يعرف تماماً أن البادية بأخطارها وفيافيها كانت دائماً معقلا للمجاهدين ، فكانت حكومات المستعمرين تهاب الرمال ، ولذا اتخذت فرنسا وهى العتيقة فى أساليبها وتقاليدها الاستعمارية واتصالها بالشعوب المظلومة ، سياسة خاصة بالصحراء الكبرى ، إذ أخذت تتقرب لزعماء الطوارق وتتخذ منهم أنصاراً لها .

ولكن إيطاليا الفاشستية أرادت أن تضرب للناس مثلا ، وأن تقوم بأكبر العمليات الحربية فى صحراء ليبيا ، وأن تحرز لأسلحتها نصراً عجز الغير عن إحرازه ، فتراه يتحدث مفتخراً بأن فرنسا لم تبدأ حملاتها ضد الصحراء قبل سنة ١٩٠٠ ، حينما احتلت واحة عين صلاح ، على حافة الصحراء الكبرى فى الجنوب من أراضى الجزائر ، أى بعد مضى سبعين عاماً من دخولهم القطر الجزائرى الشهيد ، واستخلص من تجارب الفرنسيين ، أنهم اقتنعوا باستحالة إتمام الفتح ، إذا بقوا معتمدين على كواكب الخيالة من السباهيين الوطنيين ، ولذا فكروا منذ سنة ١٩٠٠ فى إنشاء قوة من الرجال سموها : قوات البادية والتى عليها عبء القتال والفتح — والفضل فى إنشائها وتدريبها وتكوينها يعود إلى ضابط فرنسى اسمه الماجور لابيرن .

أما الطليان فقد أخذوا بكل تجارب ودروس من تقدمهم فى فن الاستعمار ، ولذلك اتجهوا إلى إنشاء قوة ممتازة من الرجال ، فى مستعمرة طرابلس ، أطلقوا عليها أيضاً إسم قوة البادية ، وهى التى أشرف على تدريبها وقيادتها المرحوم الدوقا داوستا الذى أسر فى الحرب الحبشية ومات باستراليا . وهذه القوة الجديدة باشرت عمليات الفتح فى مستعمرتى ليبيا وبرقة ، وبعد أن كانت مشكلة من فصيلة واحدة من الهجانة فى سنة ١٩٢٢ ، إذا بها مكونة من عدة وحدات وإذا بجنودها يتدربون على استعمال الأسلحة الخفيفة السريعة الطلقات . وعلى هذه الوحدات مدعمة بسيارات النقل والطيران ألقى واجب افتتاح واحة الكفرة ، والقضاء على آخر معقل من معاقل الإسلام والعروبة فى الصحراء .

١٤ ـ ٢٦

وكان الزحف على الكفرة من إجدابية إلى جالو ، وهى تبعد (٢٤٠ كيلو مترا) ومنها إلى بئر زيجن (٤٠٠ كيلو متر) ومنه إلى الكفرة (١٤٠ كيلو مترا) وتحركت الحملة فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٠ من إجدابية متجهة إلى الجنوب فقطعتها السيارات فى أربعة أيام للوصول إلى جالو ، وكان جراتزيانى قد زار إجدابية فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٠ متفقدا المعسكرات ، فوجد أن الحملة تجهز فى أقرب وقت ، وقد ذكر فى تقاريره ، أنه وازن الأمور والمصاعب وقدّر لكل شىء ما يلزمه ، وذكر أن الحملة بأكلها دربت تدريبا شاقاً بحيث يكون بوسعها أن تنزل أثقالها فى ٢٠ دقيقة وترفعها للسير بها بعد مضى نصف ساعة من صدور الأمر إليها بالسفر .

وذكر أنه فى ليلة ٢٨ و ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠ هبت عليها ريح صرصر عاتية محملة بالرمال فأخفت كل شىء أمامها ، حتى فكر الجنرال الإيطالى فى إصدار أمره بالعودة ، حينما امتنعت الجمال والدواب عن العليق والماء ، وأعقب ذلك زمهرير قارس . ولكن جاء يوم ٣٠ ديسمبر هادئاً صحواً ، فانتهز الفرصة وأصدر أمره الحاسم بالسير إلى الجنوب حتى لا تفلت الفريسة من يده .

وكان المرابطون بتلك الجهات حفنة من الرجال ، هم بقايا الأمم والممالك التى سادت الصحراء ، ليس أمامهم إلا المقاومة فى بئر زيجن ، أو على الطريق ، أو الوقوف للدفاع عن الكفرة ، وكانوا يعتقدون أن الطليان سيأتون من الغرب عن طريق فزان ، أما جراتزيانى فاستعان بسرب من الطائرات للاستكشاف ، ثم أصدر أمره إلى فصيلتين من قوات البادية أن تتقدم كل واحدة منهما فى طريق يفصلها عن الأخرى ثمانون كيلو متراً ، فالتقت إحداها بالمجاهدين واشتبكوا معها فى قتال دام ثلاث ساعات ، واقتحم الطليان الواحة على أجساد الشهداء .

ويهلل القائد بأن قواته دخلت فى الموعد الذى سبق له أن حدّده على خريطته ...

وانتهت بذلك آخر مأساة فى تاريخ الإستعمار الإيطالى بالصحراء

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

بعد إباحة الهجرة الصهيونية :

اللغـــة الوحيدة

التي يفهمها الإنجليز

للأستاذ سـيد قطب

كتبت فى « الرسالة » بتاريخ ٢٦ نوفبر الماضى كلمة تحت عنوان : « أيها العرب . استيقظوا واحذروا » . واليوم وبعد أن قررت الحكومة الإنجليزية إباحة الهجرة الصهيونيـة إلى فلسـطين ، على رغم أنف العرب ، وأنف الكتاب الأبيض الإنجليزى أيضاً . اليوم يهمنى أن أعيد نشر الفقرات الأولى من هذا المقال ، قبل التعليق على هذا القرار الأخير :

« إن قضية العرب فى فلسطين تتأخر ولا تقدم !

« ويسوءنى أن أكون نذير سوء ؛ ولـكن لأن نواجه الحقائق الواقعة ، خير من أن نستنيم للأحلام ...

« حينما صدر الـكتاب الأبيض الإنجليزى ، أعلن كل عربى مخلص أنه لا يرضى عن هذا الـكتاب ، وأنه صدمة لآمال العرب بما تضمنه من استمرار الهجرة الصهيونية فترة أخرى — وإن تكن موقوتة — تصبح الهجرة بعدها مرهونة بمشيئة العرب ، إن شاءوا أمضوها ، وإن شاءوا لم يسمحوا من بعد بها .

« واليـوم يتمسك العرب بسياسة الـكتاب الأبيض ، ويدعون انجلترا للمحافظة عليها .

« إذن قضية العرب فى فلسطين تتأخر ولا تتقدم !

« تتأخر ، فيصبح الـكتاب الأبيض الذى كان بالأمس موضع شكوى العرب ، هو موضع رجائهم ، وينقلب الحد الأدنى — أو ما هو دونه — حداً أعلى لآمال العرب ، أو الناطقين باسمهم فى هذه الأيام !

« ألا إنها المحنة التى يجب أن تتفتح عليها الأبصار !

« فلننظر فيم كان هذا الانقلاب ؟

« صـدر الـكتاب الأبيض بالأمس ترضية للعرب الثائرين الساخطين . فرفضوه واستصغروه . فلما سرى البرد إلى دمائهم الفائرة ، ودب الخدر إلى أعصابهم الثائرة ، رضوا عن الـكتاب الأبيض ، ووقفوا ينتظرون ...

« وألنى الـكتاب الأبيض اليوم ترضية للصهيونيين الثائرين المتدين ، وهم يرفضون إلغاءه ، ويستصغرون اقتراحات « بيفن » الأخيرة ، لأن العرب لا يزالون فى خدر لذيذ يستنيمون إليه ... ذلك أنهم يثقون بالضمير البريطانى ! ! !

« ومن هنا نستطيع أن نعرف : متى يسترضينا الإنجليز ، ومتى يسترضون الصهيونيين ؟ ! ». ثم قلت فى نهاية ذلك المقال :

« والآن ... ما هو طريقنا المأمون ؟

« طريقنا ألا نثق بضمير أحد ، فما لأحد فى العالم الغربى ضمير ! لقد برهنت هذه الحضارة الغربية على إفلاس فى الضمير لا عهد للعالم به فى جميع الحضارات السابقة

« وقبل أن نثق بالضمير الأوربى أو الأمريكى ، يجب أن نتذكر لفرنسا حوادث سوريا ولبنان — وهى قريبة لم تغب عن العيان — ويجب أن نذكر لانجلترا يوم ٤ فبراير الشنيع ، ثم موقفها فى أندونسيا — وهو حاضر الآن — ويجب أن نذكر لأمريكا نداء « ترومان » ونصرته للصهيونيين !

«وطريقنا ألا نستنيم لمخدرات التأجيل ، إلا إذا وقفت الهجرة وقفاً تاماً حتى يتم التحقيق . فلقد رأينا أن الزمن ليس فى صالحنا. وإذا شاء أحد أن يستنيم ، فليتذكر متى صدر الـكتاب الأبيض بوقف الهجرة الصهيونية فى موعد محدد ، ولمـا ذا صـدر هذا الـكتاب ؟ ثم ليتذكر متى ألنى الـكتاب الأبيض وأبيحت الهجرة من جديد ، ولمـا ذا كان هذا الانقلاب ؟

« صدر الـكتاب الأبيض ترضية للعرب الساخطين الثائرين ، وصدر تصريح « بيفن » الأخير ترضية لليهود المعتدين الإرهابيين»

قلت ذلك من نحو ثلاثة أشهر ، فقال لى قوم ممن يسمونهم « العقلاء! »: لا تنس أن إباحة الهجرة الصهيونية مرهونة بمشيئة العرب ، وأن مستر « بيفن » قدم قراره الأخير فى صورة « اقتراح » ، فإذا رفض العرب ، فلن تكون هجرة للصهيونيين!

ثم ها هو ذا مستر « بيفن » يقرر تنفيذ اقتراحه ، بعد أن رفضه العرب وأبلغوه قرار الرفض مجتمعين !

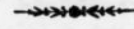
ذلك أن قرار الرفض من جانب العرب لم يبلغ للمستر« بيفن» باللغة الوحيدة التى يفهمها الإنجليز! فهم معذورون حين لا يفهمون!

ومصيبتنا الـكبرى — سواء فى قضية فلسطين أو فى قضايا البلاد العربية جميعاً — أننا لا نخاطب الإنجليز باللغة الوحيدة التى يفهمونها كل حين !

بمناسبة « المولد » :

حقائق مؤلمة

للأستاذ على الطنطاوى



« الكتاب أطباء الأمة . فإذا جامل الطبيب مريضه فسكت عنه دائه ، لم يبرأ منه أبداً » . « على »

هذا يوم « المولد » ، وإنه لمحطَّة فى طريق الزمان ، فلنقف عليه كما يقف المسافر فى المحطة ، ليلقى ببصره حوله ، فينظر إلى أين يسير ، وكم قطع من طريقه إلى غايته ، وهل يمشى إليها على الصراط السوىّ ، أم قد ضلّ عنها وجانفها ، وهل يساير القافلة أم شرد عنها وفارقها ؟ ولنحاسب فيه أنفسنا كما يحاسب التاجر نفسه ، فيرى ما له وما عليه ...

أما أنا ، فقد وقفت ونظرت ، فأبتُ وقد فاضت النفس حسرة ، وامتلأت ألماً ، وأيقنت أن الذى علينا ، أكثر من الذى لنا ، وأننا قد « خسرنا » !

ولم يكن التشاؤم من شأنى ، ولا اليأس مذهبى ، ولكن ما نحن فيه يُؤيس الآمل ، ويكْرب المتفائل ، وأين لعمرى باب الأمل حتى أَلجه ، وأية حال من أحوالنا تبشر بالخير ، وتدعو إلى السرور : أحالنا فى بيوتنا ، أم فى مدارسنا ، أم فى أسواقنا ، أم فى دواوين حكومتنا ؟ وأى طبقة من طبقاتنا تتبع هدْى نبينا : أعلماؤنا أم قادتنا ، أم أدباؤنا ، أم عامتنا ؟ وأى بلد من بلداننا ، كان البلد الإسلامى الخالص : أحجازنا ، أم شامنا ، أم مصرنا ، أم عراقنا ؟

***

أما البيوت ، وهى الحجارة فى صرح الوطن ، لا يصلح إن فسدت ، ولا ينهض إن تهافتت ، فلقد كان العهد بها مؤسسة على التقوى ، قائمة على الخلق النبيل ، والود المبذول ، وكان الرجل

ويبلغ بنا البله والغفلة أن نخاطبهم باللغة الدبلوماسية — وهم لا يفهمون هذه اللغة مع الأسف من الشعوب الصغيرة ، بل هم لا يفهمونها من الشعوب الكبيرة فى بعض الأحايين !

والضمير السياسى البريطانى؟ تلك الخرافة التى يتعلق بها ساستنا حينما تضعف نفوسهم عن اختيار الطريق الوحيد المؤدى إلى حقوقنا الوطنية ، وتعجز ألسنتهم عن اللغة الوحيدة التى يفهمها الانجليز .

هذه الخرافة التى لم ننكب مرة واحدة إلا عن طريق التعلق بها ، ولم ننجح مرة واحدة إلا عن طريق اليأس منها . . ومع كل التجارب الماضية يوجد بيننا من لا يزال يثق فى هذا الضمير

ها هى ذى الهجرة الصهيونية تباح أيها الواثقون بالضمير السياسى البريطانى . فما ذا أنتم قائلون ؟ بل ما ذا أنتم فاعلون ؟

مذكرات دبلوماسية ! وبيانات دبلوماسية ! وانتظار للردود على هذه البيانات والمذكرات ، تأتيكم أولا تأتيكم بعد حين ! والهجرة تستمر ، والصهيونيون يدخلون !

أيتها الأمة العربية :

أفيك رصيد مذخور ، أم أنت من المفالسين ؟ فأما إن تكن الأولى أيتها الأمة نخاطبى القوم باللغة الوحيدة التى يفهمون ، وأما إن تكن الثانية ، فإن الإنجليز معذورون ، والصهيونيين محقون !

أيتها الأمة العربية : لا تعتمدى على رجال السياسة ، فقد تكون لهم قيود وحدود . ولكن اعتمدى على نفسك ، وادفعى إلى الأمام ليتخطوا هذه السدود والقيود !

أيتها الأمة العربية :

« احذرى رجال السياسة من أبنائك ، لا لأنهم قد يخونونك أو يخدعونك ؛ ولكن لأنهم هم قد يخانون ويُخدعون . ولأن كراسى الحكم والمناصب ، قد تكون فى بعض الأحيان وثيرة إلى حد تستنيم له الأعصاب الثائرة ، وتخمد فيه الدماء الفائرة !

أيتها الأمة العربية :

خذى الأمر فى يديك من جديد . فإنى أرى الموقف يستدعى جهود الشعوب نفسها ، لا جهود زعماء الشعوب !

وما يخدعك أيتها الأمة — فى كل قضاياك الوطنية لا فى قضية فلسطين وحدها — إلا مخدوع ، يقصيك عن الأمر ويستنيم للوعود ! »

تلك صيحتى لك بالأمس ، وإنها لصيحتى لك اليوم . نخاطبى القوم باللغة الوحيدة التى يفهمونها ، وإلا فسيذهب صوتك الدبلوماسى الناعم صرخة فى واد . والأمر إليك ، فانظرى ما ذا تأمرين !

سيد قطب

فيها سـيداً يطيعه أهلها ويطيع هو ربه ، وكان لعمله وبيته ، لا يعرف غيرهما ، ولا يهمه سواهما ، وكان الولد براً بأبيه ، والزوجة موافقة لزوجها ، همها دارها ، ومطمحها إسعاد زوجها وولدها ، فتغيرت الحال ، فصارت المرأة قوامة على رجلها ، والولد متكبراً على أبيه ، والرجل داره قهوته أو ملهاه أو ناديه ، والمرأة بيتها الشارع ودينها زينتها ، تتخذها لتتجمل بها للرجال الأجانب في الترام والطريق ، لا لزوجها في المنزل ، وآثرت على دارها زياراتها وسينماها ، وربما خالف الزوج إلى غير أهله ، وخالت هي غير زوجها ، ونشأ الولد على المجون ، وشبت البنت على الاستهتار ، هذا وميزان النفقات في البيت مختـل ، وحبل الود مصروم ، والتعاون على الخير مفقود ، وظل الدين غير ممدود ، وما بقي من البيوت صالحاً ، فإن الفساد يسعى إليه ، وهو يسعى إلى الفساد !

أما المدارس ، فلقد كنا نعرفها مشارق أنوار العلم ، ومنابع الهدى ، ونعرف المعلمين فيها مربين مهذبين ، ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء ، ونعرف التلاميذ وهم طلاب علم وقصّاد خلق ، دنياهم مدرستهم ، وعملهم درسهم ، وأئمتهم معلموهم ، فكانت المدارس تخرج علماء ومهذبين ، أصحاب خلق متين ودين ، تعتز بهم بلادهم ، وتسمو أوطانهم ، فصار همَّ التلاميذ حزبٌ سياسي ينتسبون إليه ويصرِّخون في مظاهراته ، ويضعون أكتافهم سلماً لزعمائه ، يرتقون عليه إلى مايشتهون من كراسي الحكم ، أو نحلة ينتحلونها ، ويحملون في صدورهم شارتها ، ويهرعون إلى ناديها ، ثم لا يفهمون من حقها أو باطلها إلا هذه المظاهر التي طلبوها لها وحدها ، ثم يشتغلون عن الدرس بالخلاف عليها والكلام فيها ، من غير فقه لها ، أو وقوف على مبادئها ، أو فلم سينمائي يحرصون عليه أكثر من حرصهم على دروسهم وعباداتهم ، أو رواية في مسرح ، أو صورة مكشوفة في مجلة ، وصار المعلمون — أعني أكثر المعلمين — أصحاب شهادات لا علوم ، ودعاة مذاهب سياسية أو اجتماعية ، لا دعاة إلى الله ولا إلى الخلق ، وصاروا قدوة الطلاب في قصد السينمات والملاهي ، لا قصد المساجد والمكتبات ، وصار منهم الشيوعي الذي يعلن شيوعيته ، والقوي الذي يظهر قوميته ، والجاحد الذي لا يتوارى بجحوده ، والماجن الذي لا يتستر بمجونه ، إى والله العظيم ، ووسـدت الأمور إلى غير أهلها ، فجعل غير العالمين معلمين ، والمحتاجون إلى التربية مربين ، وتكلم في المسائل من ليس من أربابها ، وتصدر في محرابها من لم يلج بابها ، وجيء بالشباب العزاب ليعلموا البنات ، فكنا كمن يدني سلكتي[1] الكهرباء ، حتى تنقدح شرارتهما ، ويضع إلى جانبهما البارود ، ثم ينام الأحمق آمناً من الانفجار ، ما بقي والله إلا أن يجيء بالبنات ليعلمن الشباب ، وما دمنا نمشي على هذا الطريق ، فما بقي شيء عجيب ، وكل آت قريب ! !

اللهم الطف بنا ، ولا تكلنا إلى أنفسنا ، ولا تسلط علينا سفهاءنا ، يا رب !

أما الأسواق ، فلقد كانت فيها التجارة فصار فيها الاحتكار ، وكان فيها قوم منا ، يجلبون لنا أرزاقنا ، فصار فيها أعداء لنا ، يسرقون فيخزنون أقواتنا ، ليجمعوا القروش من جيوبنا فيجعلوها ذهباً في صناديقهم ، ولقد انتهت الحرب ، وحل السلام ، ولا يزال هؤلاء الفجار الأشرار يرفعون الأسعار ، ويكوون الفقراء بالنار ، لا يعرفون الإنصاف ولا الرحمة ولا الإنسانية ...

أما دواوين الحكومة ، فقد نسي من فيها أنهم أجراء الناس ، يأكلون الخبز من فضل أيديهم ، ويجلسون مجالسهم هذه لخدمة مصالحهم ، وحسبوا أنهم ملوك والناس لهم خول ، وسادة وهم لهم عبيد . ثم لم يكف أكثرهم ما يأخذون من وقت من يرجع في حاجته إليهم ، ومن كرامة نفسه حتى أخذوا الرشوة من جيبه ، وربما ... وربما مدوا أعينهم إلى عرضه ... وهم بعد ذلك جيش مجيَّش ، نصفهم لا يحتاج إليه ، ولا ينتفع به ، قد جاءت به الوساطات والشفاعات ، فرفعته من غير كفاية على أهل الكفايات ، ومن اقتصر منهم على مرتبه ليعيش به ، عاش من قلة المرتب حياة هي كالموت ، ولم يكفه المرتب ثمنَ الخبز ، فكأن الحكومة تقول لصغار الموظفين : اذهبوا فاسرقوا لتعيشوا ، فإن ثمن خبزكم أعطيناه لكبار الموظفين ، لينفقوه على الترف والسرف والقرف[2]

ثم إن العلماء ، وهم عدة الإصلاح ، ولُسُن الحق ، ودعاة الله ، هربوا واختبأوا في بيوتهم ، فمنهم من لا يرى المنكر ولا يعرفه ، ومنهم من يراه ولا ينكره ، ومنهم من ينكره همساً ، ومنهم من يعلن ولا يعرف الطريق الموصل إلى رفع المنكرات ، ومنهم من ملأت قلبه الدنيا ، فهو يسعى إليها ، ويزاحم عليها ، وربما اصطادها بشبكة من لحية عريضة ، وقيدها بسبحة طويلة ، وأخفاها تحت عمامة ضخمة ، وذلّ من أجلها للحكام ، وخضع

(١) السلك جمع والناس يظنونه فرداً . والواحدة سلكة وهي الخيط .
(٢) القرف . الاسم من المقارفة

للأغنياء ، وفقد القلب الذى يقتحم الأهوال ، واللسان الذى يصدع بالحق ، فغدا يقول ولا يستمع لقوله ، وينكر ولا يلتفت لإنكاره ، وجلّهم لا قلم له يخاطب به الناس ، ويسوقهم به إلى الحق ، ولا لسان ، فكيف يكون داعياً من لا يكون خطيباً ولا كاتباً ؟

والقادة ما صاروا قادة بعبقرية اختصهم بها الله ، ولا بعلم اختصوا به أنفسهم ، وأحيوا فى تحصيله لياليهم ، ولا بعقل هو فوق العقول ، وذكاء لايدانيه ذكاء ، ولكنما هى حرفة احترفوها ومسلك سلكوه : زيد وعمرو ، أما زيد فجدّ واستقام ودرس حتى أكمل المدرسة ، فصار معلما أو كاتباً ، أو موظفاً ... وأما عمرو ، فأهمل درسه ، وأضاع وقته ، والتوى مع الطرق الملتوية ، فالتحق بالأحزاب ، وعاشر الأغراب ، وولج حيث لا يحسن الولوج ، وخرج من حيث يستقبح الخروج ، ورفع ووضع ، وخرب وأصلح ، حتى عرفه الناس ، فكان نائباً ، ثم صار وزيراً ، ثم تمت آثار قدرة الله القادر على كل شىء ، فاستحال قائداً من القادة ... !

والأدباء وأهل الصحف ، همّ أكثرهم التزلف إلى القراء ، والوصول إلى رضاهم ، رأوا أقرب الطرق طريق الشهوة فسلكوه ، وركبوا فيه الصعب والذلول : من الصور العارية ، والقصص المثيرة ، وطريق الإغراب فى عرض الأخبار ، وتكبير الصغير ، وتعظيم الحقير ، وتشويه أوجه الحقائق ، فيقرأ الناشئ الشىء وضده ، فلا يؤمن من بعد بشىء ، وإن كان فى الكتاب من يدعو إلى إصلاح ، فى لغة صحيحة ، وأسلوب منقح ، لم يقرأه إلا الخاصة ، وإن كانت مجلة على هذه الصفة لم يُبع منها مع كل ألف من تلك عدد واحد !

ولعلى بالغت ، أو غلب علىّ التشاؤم ، فلم أر إلا ما ذكرت ووصفت ، ولكنى صدقت ولم أقل إلا حقاً ، ولعل الذى قلت أقل من الحق !

إن العالم اليوم واقف على مفرق الطرق ، حائر بينها أيَّها يسلك منها ، ونحن أشد أهل العالم حيرة وتردداً ، فنحن فى المكان الذى تلتقى فيه محل الشرق والغرب ومذاهبهما كلها ، فيأخذ كل واحد ما تصل إليه يده ، ثم يصيح فى الدعوة إليه ، ثم يزاحم ليشق له طريقاً ... فنحن فى زحمة وضجة دونها ما يروون عن ضجة برج بابل ، والله وحده يعلم عمّ تنجلى ... فى الدين سلفيون وصوفيون ، ودعاة إلى التمسك بالمذاهب وترك الاجتهاد ، وإلى الاجتهاد ونبذ التقليد ، وإلى الأخذ بالحديث وترك كتب الفقه وإلى الاقتصار عليها ، وفى البدع دعاة إلى القاديانية والبهائية والنصيرية والتيجانية ووحدة الوجود ، وفى غير الدين شيوعيون وقوميون سوريون ، وملحدون ومستهترون ، ثم الدعاة إلى السفور والاختلاط ، والمدافعون عن الحجاب ، وفى السياسة كتلويون وعصبويون ومعارضون ومؤيدون ، وعاملون للانكليز أو للفرنسيين أو للروس ، وقائلون بالجمهورية أو بالملكية ، أو بالاستقلال أو بسورية الكبرى أو بالوحدة العربية ، والمناقشات مستمرة لا تنقطع ، والخلافات قائمة ما تقعد ، قد انشقت البيوت ، وانصدعت الأسر ، وإنى لأعرف أخوين : شيوعياً أحمر ، وعضواً فى شباب محمد ، شقيقين فى دار واحدة ، وأبوهما شيخ طريقة... وأعرف شيوعياً وأبوه نقيب أشراف ، فالإخوان فى المنزل ، والرفاق فى المدرسة ، والزملاء فى الديوان ، يختلفون أبداً ويتقاتلون ... !

فعمّ تنجلى هذه الغمرة ؟ الله وحده العالم !

هذا فى دمشق ، أما الحجاز ومصر والعراق ، فإنى أعرفها كلها وعشت فيها ، ولكن ليكتب عنها كتاب من أهل مصر والعراق والحجاز ، يفتح فى « الرسالة » باب من أبرك الأبواب ، وأكثرها فائدة ونفعاً ، إذ أن أول الدواء تصوير الداء ... !

(دمشق) **على الطنطاوى**

الكذب والنسيان

كما يراهما « أبو العلاء المعري »

للأستاذ كامل كيلاني

١ — آفة الأخبار

المعري أديب محقق ، وراوية ثبت ، ومؤرخ نافذ البصيرة ، وناقد منصف ، يستخدم كل ما وهبه الله من ميزات باهرة ، وثقافة شاملة نادرة ، في سبيل الوصول إلى الحقيقة ، وتجليتها مما يكتنفها من الأستار والحجب ، وإماطة اللثام عما يعترض الباحثين عنها من الشكوك والريب .

يقول الشاعر :

« هُمُ نقلوا عني الذي لم أفُهْ به وما آفةُ الأخبار إلا رواتها »

٢ — آفة الرواة

وآفة الرواة — فيما يرى أبو العلاء — شيئان : الكذب والنسيان . فلا غرو إذا ضجر بهما ، وعرض لهما في كثير من المناسبات ، واحتفل لهما ما شاء له أدبه وخياله ، وأتى في الحديث عنهما بالشائق المعجب .

٣ — قتل الفكرة

فهو إذا فزَّعه من الموت أنه يبيد الجسم الذي لا يعنيه منه إلا أنه سياج الروح وهيكلها ، فزّعه من الكذب أنه قتل للفكرة وإضاعة للحقيقة التي يبحث عنها جاهداً ، وفزّعه من النسيان أنه قتل للعقل الذي يعتز به ولا يعدل به شيئاً . قال : أصبحتُ في بيت مدر لا أملكه ، كبيت قريض أستدركه ، اشتمل عليه النسيان فهو مهلكه .

٤ — تمني الموت

على أنه قد يتمنى الموت أحياناً ، لأنه يريح الإنسان من آلام الحياة ، ويريح الجسم من أذيتها ، ويغني صاحبه عن حاجات الدنيا فيقول :

العيش أفقر منا كل ذات غنى والموت أغنى بحق كل محتاج
إذا حياة علينا للأذى فتحت باباً من الشر لاقاه بإرتاج

أو يقول :

على البلى سيفيد المرء فائدة فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا

٥ — تسويغ الكذب والنسياله

وقد يوصي بالكذب إذا عرَّض الصدق صاحبه للهلاك فيقول :

أصدق إلى أن تظن الصدق مهلكة
وبعد ذلك فاقعــــد كاذباً وقم
فالين جيفةُ مضطرّ ألمَّ بها والصدق كالماء يجفي خيفة الشبم

وقد يتمنى النسيان والذهول ليتمثل بذلك همومه وأحزانه فيقول :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أني بالعراق على شفا رزى الأماني لا أنيس ولا مال
مقل من الأهلين يسر وأسرة كفى حزنا بينٌ مشِتٌ وإقلال

وهي لفتات ذهنية عارضة لا يجهل القارئ مغزاها ، وصور كلامية لعله أعرف منا بغايتها ومرماها .

٦ — تمجيد العقل

على أن الأدب العلائي قد حفل — شعراً ونثراً — بتمجيد العقل، وحب الصحيح والتفزع من الذهول والنسيان فهو يقول :

الفكر حبل متى يمسك على طرف منه ، ينط بالثريا ذلك الطرف
والعقل كالبحر غيضت جوانبه شيئاً ، ومنه بنو الأيام تغترف

ويقول :

وينفر عقلي مغضباً إن تركته سدى واتبعت الشافعي ومالكا

ويقول :

وإذا الرياسة لم تعن بسياسة عقلية خطئ الصواب السائس

ويقول :

صدقت ياعقل فليبعد أخو سفه صاغ الأحاديث إفكا أو تأولها

٧ — طول الأمد

ويرى طول الأمد كفيلا بالنسيان . فيقول :

لأنسينك إن طال الزمان بنا وكم صديق تمادى عهده فنسى

ويقول :

وسوف ننسى فنمسى عند عارفنا وما لنا فى أقاصى الوهم أشباح

ويقول فى رسالة الغفران على لسان المهلهل ، حين سأله ابن القارح عن بيت ينسبه إليه ، كان الأصمعى ينكره ويقول إنه مولد ، وكان أبو زيد يستشهد به ويثبته : فيقول المهلهل : « طال الأبد على لُبَدٍ ، لقد نسيت ما قلت فى الدار الفانية » .

٨ – رسالة الشياطين

ومن أبدع ما قرأناه للمعرى فى هذا الباب ما كتبه عن النسيان فى رسالة الشياطين التى ألحقناها برسالة الغفران فى طبعتها الثالثة . فقد نسى اسمه أحد عارفيه ولم يُثبته ، وجعله محمداً بدلا من أحمد ، ثم نسى مرة ثانية فقصر كنيته فقال : « أبو العلا » بدلا من « أبى العلاء » فعاتبه المعرى متلطفاً وإن بدا من ثنايا عتابه الرقيق ألمه لنسيان صاحبه الذى حداه إلى تبديل اسمه وقصر كنيته . قال : « ودلنى كتابه على أنه يحسبنى قد أضعت وده ، وتناسيت فى طول الزمان عهده . إنى إذاً لمن الظالمين . عرفنى بنفسه أنه من أهل البصرة ، وقد صح معى أنه من أهل البصيرة الساكنة فى خلده ، وتلك أجل من البصرة بلده ، وهل البصرة إلا حجارة بيض ، يطؤها إنس وربيض (يعنى الأغنام ورعاتها) إلى أن يقول : وأهل البصرة – سلمهم الله – ينسبون إلى قلة الحنين . أليس قد مرت به هذه الحكاية ، وهى أنه وجد على حجر مكتوب :

ما من غريب ، وإن أبدى تجلده

إلا سيذكر – عند العلة – الوطنا

وقد كتب تحته : إلا أهل البصرة . فإذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطانهم ، فكيف بالذين عرفوهم من إخوانهم .

٩ – تغيير الاسم

وهنا خلص إلى غرضه الذى يهدف إليه فقال :

والدليل على ما قلت إنه – أدام الله عزه – لم يثبت اسمى . جعلنى « محمداً » واسمى « أحمد » فإن احتج بأن هذين الاسمين سواء لقوله تعالى : « محمد رسول الله ، والذين معه ... الخ » . ولقوله فى موضع آخر : « برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » فإن ذلك إنما كان للنبى (ص) خاصة ، لأنه قال : « اسمى فى السماء أحمد ، وفى الأرض محمد » .

فإن قال : « إن العرب قد يكون للرجل منهم الإسمان والثلاثة » واحتج بقول دريد بن الصمة :

« تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارسا

فقلت : أعبد الله ذلكم الردى »

وقال فيها :

فإن تُنسنا الأيام والعصر تعلموا

– بنى قارب – أنا غضاب بمَعْبد

(والمعرى إنما يستشهد بهذا البيت لأن معبداً وعبد الله علمان على شخص واحد) فإن ذلك لا يخلو من أحد أمرين :

« إما أن يكون للرجل اسمان » ولست كذلك ، وإما أن يكون الشاعر غير اسمه للضرورة . ولو كان غير اسمى فى النظم – دون النثر – لكان عذره فى ذلك منبسطاً لأن الشعراء الجلة يغيرون الأسماء . قال الحطيئة :

« وما رضيت لهم حتى رفَدتهم

من وابل[1] رهطِ بسطامٍ بأحرام

فيه الرماح ، وفيه كل سابغة قضاء محكمةٍ من نَسج سلام

أراد سليمان عليه السلام . وهذا تغيير على غير قياس لا يسلك مسلك غيره ، من قولهم : عالية وعُلَيَّة . وفاطمة وفطيمة فى القصيدة الواحدة يعنون امرأة بعينها .

ولا مجرى قولهم أبو قابوس وأبى قبيس للنعمان بن المنذر لأن هذا ترخيم التصغير . إلى أن قال : « ولا ندفع أن الشعراء قد سموا الرجل باسم أبيه على سبيل الضرورة وهكذا إلى أن قال : « وأنا أتسامح له ، وأعدها زيناً لا شيناً ، إذ كانت قذاةً فى بحرٍ مُزبد ، بل أثر سجود فى جبهة متعبد . وله أن يقول : إنه تشبث بالكنية فاستغنى بها عن الإسم . أما أنا فحفظت اسمه ونسبه وكنيته ، ولم أنس أيامه ولا مذاكرته . وقد جعلت جواب كتابه نائباً مناب الاجتماع معه ، فلا ينكر علىّ الاسهاب فى المحاورة ، والإكثار من المفاوضة .

(البقية فى العدد القادم)

كامل كيلانى

(١) الوابل : الابل والغنم .

العـــرب واليهود (*)

للدكتور جواد على

صلات العرب بالعبرانيين صلات قديمة ، ترجع إلى عصور مضت قبل المسيح . وقد تعرضت التوراة والتلمود و كتب يهودية أخرى إلى أخبار العرب . ونحن نعول فى أكثر ما نكتبه عن صلات العرب بالعبرانيين فى العصور التى سبقت الإسلام على هذه الكتب .

وكانت صلات العرب بأرض فلسطين قديمة كذلك ، ولعلها أقدم من علاقة العبرانيين بهذه الأرض . وكلمة «فلسطين» نفسها لا ترجع إلى أصل عبرانى على رأى بعض العلماء [١] ، ولعلها كلمة عربية قديمة . وبهذه الصورة انتقلت إلى اليونانية واللاتينية ثم إلى سائر اللغات العالمية [٢] . ولعلها استعملت فى العبرانية المتأخرة عن الاستعمال العربى القديم .

وقد أطلقت هذه الكلمة فى الأصل على المنطقة الساحلية الضيقة التى تقع فى جنوب الكرمل والتى كان يسكنها شعب يطلق عليه اسم « فلسطية philistia » [٣] . ثم أطلقت من قبيل التعميم على جميع الأراضى المجاورة لهـــذه المنطقة . وقد وردت اللفظة فى العهد القديم بأشكال مختلفة . جاء فى سفر الخروج « يسمع الشعوب فيرتعدون تأخذ الرعدة سكان فلسطين » [٤] . وجاء فى سفر أشعياء « لا تفرحى يا جميع فلسطين لأن القضيب الضارب بك انكسر فإنه من أصل الحية يخرج أفعوان وثمرته تكون ثعباناً ساماً طياراً » [٥] .

وتاريخ فلسطين تاريخ غامض جداً ، ولا يمكن أن نجد أى أثر للشعب القديم الذى كان يسكن فى هذه البلاد قبل ثلاثة آلاف عام قبل المسيح . والظاهر أن الشعب الذى أقام فى هذه البلاد بعد هذا التاريخ كان على شىء من الإنحطاط . فكانوا يسكنون الكهوف الطبيعية والكهوف الصناعية ، والظاهر أنه لم يكن من السلالة السامية ، وأنه كان من شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط . ولم يتمكن العلماء على كل حال من تشخيص ما تبقى من عظام هذا الشعب لقدمها وتلف أكثر ما تبقى منها ، ولعل الحوريين الذين ورد ذكرهم فى سفر التكوين من بقايا هؤلاء [١] :

وأول سلالة سامية هبطت أرض فلسطين ، هى سلالة : « الكنعانيين » أو « العموريين » « Amorites » ، والظاهر أنها نزلت فى هذه البلاد بعد سنة (٢٥٠٠ قبل الميلاد [٢]) .

وقد حاول بعض العلماء التفريق بين الكنعانيين والعموريين إلا أنهم لم يتمكنوا من إيراد حجج علمية قطعية ، تؤيد هذا الرأى [٣] . وسكن هؤلاء العموريون فى منطقة واسعة هى منطقة الهلال الخصيب فى أرض بابل حيث كون ملكهم « حمورابى » مملكته فى العراق وسكنوا فى مختلف مدن سوريا كذلك [٤] .

ولما كانت أرض فلسطين على اتصال تام بمصر فقد بدأت تتأثر بالحضارة المصرية وبالسياسة المصرية منذ سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، ثم أصبحت تابعة للامبراطورية المصرية بعد أن فتحها تحتمس الثالث « Tahutmes. 3 » (١٥٠٠ و.م) ثم امنهوتب الثالث « Amenbotep. 3 » (١٤٥٠ و.م) فكان يحكمها مشائخ باسم حكام مصر [٥] .

ولم يتمكن الفرعون أمنهوتب الرابع « Ameubotep .4 » من الإهتمام بشؤون مصر ولا بشؤون سائر الأقطار الأخرى التى كانت تابعة للامبراطورية المصرية ، بسبب انشغاله بالإصلاح الدينى ولاعتقاده بعقيدة التوحيد التى أراد جعلها العقيدة الرسمية للدولة ولمعارضة رجال الدين لهذا الإصلاح . فانتهزت المستعمرات المصرية تلك الفرصة وأخذت تستقل [٦]

(*) فصل من كتاب « العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على وهو لم يطبع بعد .

(١) راجع J M N. Jeffries. Palestine the reallity 1939 p,5

(٢) نفس المصدر .

(٣) Hastings. Dictionary of the Bible p, 672

(٤) سفر الخروج إصحاح ١٥ آية ١٤، ١٥ .

(٥) سفر أشعياء إصحاح ١٤ آية ٢٩ وما بعد .

(١) راجع سفر التكوين ١٤ آية ٦ كذلك Hastings p, 673

(٢) نفس المصدر .

(٣) Hastings p, 673

(٤) Hastings p 673. 27

(٥) Hastings p 673

(٦) Hastings p 673 عن النزاع الدينى راجع برستيد « العصور القديمة » .

استقلت فلسطين قبل مجيء القبائل الآرآمية إليها ، وقد وردت كلمة « Khabiri » في نص تل العمارنة إلا أن تلك الكلمة لا ترادف كلمة عبري « Hebreur » التي وردت في التوراة[١].

وليست هنالك أدلة علمية تثبت ترادف الكلمتين[٢].

والذي يفهم من المصادر العبرية هو أن اليهود كانوا مستعبدين في مصر ، ثم خرجوا من هذا الإستعباد في أوائل القرن الثالث عشر قبل المسيح إلى أرض كنعان « فلسطين » وكان زعيمهم جميعاً « يشوع »[٣] ، وذلك ما يفهم من سفر يشوع « وكان بعد موت موسى عبد الرب ، إن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدي قد مات . فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أي لبني إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات . جميع أرض الحيثيين والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم ، لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك[٤].

والذي يظهر من مصادر قديمة أخرى هو أن اليهود عندما دخلوا أرض كنعان ، دخلوا على صورة قبائل متفرقة وبأوقات مختلفة ، فلم يكن عليهم زعيم واحد . ويؤيد مضمون نص تل العمارنة هذا الرأي غير أنه يحتاج إلى فحص وإلى تدقيق تاريخي عميق ، لمعرفة كيفية هجرة اليهود إلى أرض كنعان[٥].

لم يتمكن الاسرائيليون من الاستيلاء على أرض فلسطين دفعة واحدة ، بل كان ذلك تدريجيا ، ظلت الأرض الساحلية السهلة في قبضة الفلسطينيين« Philistines » . وهنالك نظريات مختلفة عن أصل هذا الشعب . وتدعى أحدث نظرية من هذه النظريات بأن أصل الشعب الفلسطيني من جزيرة « كريت » على أنها نظرية لا زالت في حاجة إلى أدلة علمية .

وظل « الجعبونيون » « Yibconites » والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون وأمثالهم في أماكنهم يقاومون اليهود[١].

وبدخول اليهود إلى أرض فلسطين ولا سيما بعد استقرارهم فيها تكونت الصلات التاريخية فيها بين العرب واليهود . وقد كان العرب يسكنون في أرض فلسطين ذاتها وفي جوار شعوب فلسطين . فلما تمكن اليهود من بعض هذه الشعوب احتكوا احتكاكا مباشرا بالعرب .

يرى المستشرق الإنكليزي مارجليوث أن صلات العرب باليهود مرت في أدوار ثلاثة :

أما الدور الأول فهو الدور الغامض الذي تعرف فيه العرب باليهود بعد دخول اليهود إلى أرض كنعان ، ومعلوماتنا عن هذا الدور لا تكاد تكون شيئاً . وهي تستند على الدراسات المقارنة فقط ، على دراسة الخصائص اللغوية والكلمات المشتركة فيما بين اللغتين العبرية والعربية وعلى الأساطير والعقائد الدينية القديمة ، وتشير مثل هذه الدراسة ، إلى وجود احتكاك قديم بين العرب واليهود[٢].

وفي المرحلة الثانية اتصل اليهود بالعرب اتصالا مباشراً . وقد ذكر ذلك الإتصال في التوراة في مواضع مختلفة منه ، وقد كانت صلات العرب باليهود صلات حسنة نوعا ما في بادىء الأمر ، ثم ساءت تلك الصلات على أثر ما ظهر للقبائل العربية من ميل العبرانيين إلى الإعتداء عليهم ، ومحاولة الإستيلاء على أرض فلسطين[٣]. وأكثر معلوماتنا عن هذا الدور من التوراة ومن المصادر العبرانية ذاتها ونادراً ما تشير المصادر العربية إلى ذلك .

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة ينتقل اليهود من فلسطين إلى الحجاز واليمن والعراق بعد احتلال الرومان لأرض فلسطين وبعد العبث بالهيكل ، فيتشتت شمل اليهود ، وتسقط آخر حكومة لليهود . وتكاد تكون المصادر العربية الإسلامية في طليعة المصادر التاريخية بالنسبة لهذا العهد[٤].

البقية في العدد القادم

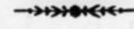
جواد علي

(١) Hastings p 673 . ونص تل العمارنة
(٢) نفس المصدر .
(٣) راجع Hastings p 673
(٤) راجع سفر يشوع أصحاح ١ آية ١ وما بعد .
(٥) Hastings p 674

(١) راجع سفر يشوع اصحاح ٣ آية ١٠ وما بعد ومواضع أخرى
(٢) Margoliouth p, 1
(٣) نفس المصدر .
(٤) Margoliouth p, 1

الرغيف القـــومى

للدكتور محمد بهجت



حتى الرغيف نحاول أن نضفى عليه صفة القومية ، فيصبح كالسياسة والتعليم واللباس وغيرها من المسائل العامة ، وتصبح له مشكلة كمشاكلها العديدة ! ولم لا تكون له مشكلة نعطيها من وقتنا وتفكيرنا شيئاً يتناسب مع خطره وأثره فى اقتصاد الشعب وصحته ؟

والرغيف كاللباس فى مصر ، يجمعهما شبه واحد ، فبينا ترى للرءوس أنواعاً شتى من العمائم والقلانس والطرابيش والقبعات ، وللأجسام أشكالا عديدة متباينة من الثياب لا تقارب بينها ولا تشابه ، وللأقدام ضروباً متعددة من الخفاف والنعال والمراكيب والأحذية ، حتى ليخيل للزائر الطارىء أننا أفراد أمم مختلفة امتزجت ببعضها على صعيد واحد ، كذلك نرى لأكثر المدن رغيفاً معيناً ، فلبعض مدن الوجه القبلى رغيفاً بشكل ولون خاصين ، ولبعض قرى الوجهين البحرى والقبلى أرغفة خاصة تشتهر بها ، حتى ليقول لك خبير إن هذا الرغيف من ناحية كذا أو كذا ، وترى للأجانب وأشباههم أرغفة مميزة ذات طابع خاص وهكذا .

وهذا الاختلاف الظاهر فى أشكال وأحجام وألوان الأرغفة يتبعه بطبيعة الحال اختلاف باطنى فى طعومها وتركيبها الكيميائى ومشتملاتها الغذائية ، ومن ثم اختلاف فى تأثيرها على صحة الأجسام ونشاطها . وقد لا يعنينا هنا ظاهر تلك الأرغفة بقدر ما تعنينا قيمتها الغذائية وأثرها فى الأجسام والعقول . ومما لا ريب فيه أن مكونات الرغيف تختلف كثيراً أو قليلا تبعاً للمواد الأولية التى يصنع منها والتى ينتجها إقليم ما . فإذا كان الإقليم ينتج قمحاً فرغيفه من القمح ، وإذا كان ينتج ذرة فرغيفه من الذرة ، بينما يكون الرغيف فى إقليم ثالث خليطاً من القمح والذرة بنسب تتفاوت كثيراً أو قليلا تبعاً لغلبة أحد المحصولين على الآخر وهكذا.

ولا ينبغى أن ننسى أن للتقاليد والعادات الموروثة أثراً كبيراً فى عمل الرغيف كما هو الأمر فى عمل بعض ألوان الطعام الأخرى .

ومع قيام مثل هذه الاعتبارات وغيرها نرى أن الأرغفة المصنوعة من القمح تختلف فيما بينها أيضاً . فبعضها يكون أبيض اللون ناعماً قوامه الدقيق الخالص ، وبعضها أسمر خشناً نوعا تدخله كل عناصر الطحين ، وبعضها يكون بين هذه وتلك . ومع أنها كلها مصنوعة من القمح أو من بعض أجزائه دون الأخرى فان لكل منها تأثيراً مختلفاً فى تغذية الجسم كما سنرى فيما بعد .

دخلت مخبزاً من المخابز الأفرنجية أطلب شيئاً معيناً فشاهدت أرغفة من الخبز الأبيض الجميل مرتبة بجانب بعضها بشكل يثير الشهية ويغرى بالشراء ، ولا سيما بعد أن احتجبت عنا طوال مدة الحرب . فابتعت شيئاً منها وحملته إلى بيتى وهناك أكلناه فى شراهة ولذة عجيبتين . ولم لا ؟ إن نظافتها وطعمها ورائحتها لتبرر ذلك وتدفع إليه . وعند ذلك ذكرت رغيفنا الذى نأكله الآن بعد أن وضعت الحرب أوزارها وما به من عيوب وشوائب تجعل المرء يأكله فى تحفظ ، ثم ذكرت رغيفنا الذى كنا نأكله طول سنى الحرب — ذلك الرغيف المخيف الذى كان يصنع من القمح مخلوطاً بالذرة أو الأرز ، وبكل ما يمكن أن يختلط به من ردادة وسوس وطين وحصى وخيوط وحشائش أخرى تطحن معه وتعجن وتخبز ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله والذين كانوا يصنعونه ، ولا يعلمه أحد ممن يأكلونه ، حتى إذا خرجت منه أرغفة جاءت بشمة تنبو عنها العين وتعافها نفس الحيوان فما بالك بنفس الانسان . نعم ذكرت ذلك الرغيف الذى كنت إذا اقتطعت منه لقمة أحاول مضغها وازدرادها لم أستطع فألفظها من فى محنقاً مغضباً . ذكرت ذلك مما يذكره الكثرة من هذا الشعب المسكين الذى يخيل إلىّ أنه أذل بفرض هذا الرغيف البغيض الملعون عليه فرضاً . ولعمرك لا يمكن أن يستذل شعب بأكثر من أن يلقى إليه برغيف هذه بعض صفاته . وتزداد بشاعة هذا الذل إذا علمنا أنه ضرب على شعب مصر صاحب أخصب أرض فى العالم ، الذى يحترف كثرة أهله الزراعة والذى أرغم على زرع ٦٠ بالمائة من أرضه حبوباً ومع ذلك لم يستطع أن يأكل رغيفاً نظيفاً ، ذكرت ذلك وذكرت معه دوى الشكاوى التى جأر الناس بها على غير جدوى ،

وذكرت الكثيرين ممن أصابهم السوء وانتابتهم العلل من جراء سوط العذاب الذى سيطوا به فى غير شفقة أو رحمة . ذكرت كل ذلك وكثيراً غيره ثم هززت رأسى أسى وقلت عسى أن يكون هذا بعض الثمن الذى اقتضاه نصر الديموقراطية !

وأخيراً انكشفت الغمة وعاد الرغيف الأبيض — وقد علت مكانته وقدر الناس قيمته — وها نحن أولاء نأكل منه شبع بطوننا ، واختفى الرغيف الأسود أو كاد . ولكن مهلا فما الأول بخير كله ولا الثانى بشر كله . فقد ذكرت بعد الذى ذكرته أن الخبز الأبيض مصنوع من دقيق القمح الصافى بعد أن خلص بالغربلة من الردادة والنخالة التى هى عبارة عن القشور اللابسة للحبوب ، وكذلك من حبيبات الأجنة التى بأطارف حبات القمح ، فقلت بذلك قيمته الغذائية لحد كبير ، إذ تذهب مع النخالة مواد غذائية عظيمة الفائدة يحتاج إليها الجسم فى غذائه ونموه ، أودعتها الطبيعة الحبوب المختلفة ولكن الإنسان يفصلها جهلا ويرمى بها إلى الحيوان والطير لتعلفها فتصح هذه ويعتل هو . أما هذه المواد فهى بعض العناصر المعدنية والحوامض العضوية والفيتامينات والالياف . وهذه كلها كان يحتويها الرغيف اللعين الذى لولا قذارة فيه ولوثة به لكان صالحاً للجسم أى صلاح . وكلما بولغ فى تبييض الدقيق ازداد فقراً فى العناصر الغذائية .

وهاك بعض الفقد الذى يحصل من تصفية الدقيق الأبيض الناصع :

١٠٠ ./. من الألياف وفيتامين د والكاروتين ومعدن المنجنيز .

٨٥ ./. من الثيامين وحامض النيكوتين (كلاهما فيتامين) .والحديد .

٧٥ ./. من الفوسفور والبوتاسيوم والنحاس والريبوفلافين (والأخير فيتامين) .

٥٠ ./. من الكالسيوم وبعض فيتامينات أخرى .

١٣ ./. من الزلال وحوامض زلالية هامة .

وعلى ذلك لا ينبغى أن نفرح الفرح كله بأكل الرغيف الأبيض ، بل يجب أن نصنع الرغيف الصحى ونأكله ، ولا يخرج هذا الرغيف عن حبة القمح بكل مشتملاتها الطبيعية .

ولما شعر العلماء بسوء التغذية تتفشى بين عامة الشعب فى أمريكا فكروا فى معالجة هذه المسألة بإضافة بعض الفيتامينات أو بعض المواد الغذائية الأخرى كالزبيب ولكن هذا لم يأت بالفائدة المطلوبة ، ففكروا أخيرا فى عمل رغيف قومى يأكله جميع أفراد الشعب مصنوع من الدقيق الأبيض مضافا إليه قليل من اللبن الفرز وبعض الفيتامينات الضرورية كالتى فصلت من الدقيق ، ولا زالت هذه أمنية تجول فى أذهان علماء التغذية هناك ولما تخرج إلى حيز التنفيذ بعد .

أما الإنجليز فقد وفقوا إلى اتخاذ رغيف قومى بمعنى الكلمة بل قل إنهم اضطروا إلى اتخاذه اضطرارا ، وذلك عند ما نشبت الحرب وقل الوارد وأصبح الإقتصاد فى الغذاء أمرا محتوما ، والمحافظة على الصحة العامة بين أفراد الشعب الذى ينتج الميرة والذخيرة للجيش المحارب فى المرتبة الأولى من الأهمية .

وبعد دراسة طويلة فى بداية الحرب قرر علماء التغذية الإنجليز الحصول على دقيق يعادل ٨٠ ./. من وزن القمح النظيف بعد أن كان المتحصل منه قبل الحرب ٧٥ ./. ، وهذا معناه إضافة ٥ ./. من قشرة الحبة إلى الدقيق الأبيض ، وبعد ذلك بقليل قررت الحكومة زيادة النسبة إلى ٨٥ ./. وذلك بعد أن أثبت العلماء أن خبزا يصنع من هذا الدقيق يكون صحيا ومحتويا على جميع العناصر الغذائية اللازمة لسلامة الجسم والعقل . ومن ثم كان الشعب الإنجليزى كله يأكل فى زمن الحرب خبزا موحدا مصنوعا من دقيق القمح النظيف غير مخلوط بذرة أو أرز أو غيرهما من الحبوب الأخرى ولم يستبعد منه إلا ١٥ ./. من وزن القمح أى الأجزاء الخشنة فقط ، ومع ذلك فإن هذا الجزء المستبعد به عناصر غذائية هامة أيضا . وكان الخبز المصنوع من هذا الدقيق لذيذا شهيا إلا أنه أقل هضما من خبز ما قبل الحرب بنحو ٣ ./. غير أنه يفضله من حيث احتوائه على المواد الغذائية . ويكفى الفرد الكامل النمو رغيف واحد فى اليوم زنته ثلاثة أرباع الرطل يحصل منه على أكثر ما يحتاجه جسمه من الفيتامينات وغيرها من مقومات الحياة . وفى يناير من عام ١٩٤٥ أرادت الحكومة الإنجليزية الرجوع إلى حالة ما قبل الحرب بالتدريج فقررت خفض نسبة الدقيق المستخرج من القمح من ٨٥ إلى ٨٠ ./. ظنا منها أنها

القضايا الكبرى فى الإسلام :

مجرمو الحرب في فتح مكة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

حكم أسير الحرب فى الاسلام القتل أو الاسترقاق أو المن بفداء أو غير فداء ، وقد جاء فى كتاب المبسوط للسرخسى أن بعض الفقهاء ذهب إلى أنه لا يجوز قتل الأسير ، واستدل على ذلك بأن القتل لم يذكر فى قوله تعالى فى الآية (٤) من سورة محمد (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء) ولو صح هذا لقضى بأنه لا يجوز استرقاق الأسير ، لأنه لم يذكر فى تلك الآية أيضا ، وهذا هو حكم الأسير بالنظر إلى اشتراكه فى القتال ، فإذا كان عليه تبعات أخرى كان عليه عقابها الخاص بها ، ومثل هذا يسمى الآن مجرم حرب .

وقد كان من مجرمى الحرب فى فتح مكة خمسة عشر شخصا :

١ — عبد الله بن خطَل ، وكان ممن قدم المدينة قبل فتح مكة وأسلم ، وكان اسمه عبد العزى فسماه النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وبعثه لأخذ الصدقة ، وبعث معه رجلا من الأنصار يخدمه ، فنزل منزلا وأمر الأنصارى أن يذبح تَيْساً ويصنع له طعاما ونام ، ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئا ، فعدا عليه فقتله وارتد مشركا ، وكان شاعرا فجعل يهجو النبى صلى الله عليه وسلم فى شعره .

٢ ، ٣ — قينتان لعبد الله بن خطل : وهما فرتْنى وقُريبة ، وكانتا تغنيانه بما كان يهجو به النبى صلى الله عليه وسلم .

٤ — هبَّار بن الأسود ، وكان قد عرض لزينب بنت النبى صلى الله عليه وسلم حين هاجرت ، فنخس بها الجمل حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها ، ولم تزل مريضة حتى ماتت .

٥ — الحُوَيرث بن نُقيد ، وكان العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة وأم كلثوم بنتى النبى صلى الله عليه وسلم من مكة يريد بهما المدينة ، فنخس بهما الجمل فرمى بهما الأرض ، ثم شارك هباراً فى نخس جمل أختهما زينب .

٦ — مقيس بن صُبابة ، وكان قد أسلم ثم أتى على أنصارى فقتله ، وكان الأنصارى قتل أخاه هشام بن صبابة خطأً فى غزوة ذى قرد ، ظنه من العدو ، فجاء مقيس فأخذ الدية ثم قتله وارتد ورجع إلى قريش

٧ — وحْشِيُّ بن حرب ، وكان قد قتل حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم غيلة فى غزوة أُحد ، وكان حمزة قد قاتل فى ذلك اليوم قتالا شديداً ، وكان يقاتل بسيفين ، وكان آخر قتيل قتله

بذلك ترفه عن الشعب ، فذعر العلماء من هذا القرار ونوهوا بما سيفقده الرغيف القومى من المواد الغذائية الهامة مما قد يؤثر على صحة أفراد الشعب وطالبوا بإبقاء النسبة التى كانت مقررة فى زمن الحرب لثبوت فائدتها ثبوتا قاطعاً . ولا يفوتنى أن أقرر هنا أن رغيف الجيش الروسى كان من القمح الخالص بجميع أجزائه .

فلم لا نفيد من هذه التجربة القيمة ونعمل على إيجاد رغيف قوى تأكله الكثرة الغالبة من الشعب تتوفر فيه العناصر الغذائية حتى لو اضطررنا إلى خلطه بنسبة صغيرة من نوع آخر من الدقيق على أن يكون طيب الرائحة لذيذ الطعم ، ومثل هذا الأمر يحتاج إلى دراسة وافية تقوم بها هيئة مكونة من الطبيب والإجتماعى والكيميائى والضابط الحربى وصاحب المطحن والمخبز والمزارع وغيرهم على أن تؤدى هذه الدراسة إلى وضع تشريع يحدد تركيب هذا الرغيف ودرجة نظافته بحيث يفيد منه الشعب فى الظروف العادية وفى الظروف الطارئة كأية حرب محتملة الوقوع حتى لا ننكب برغيف خطر كالرغيف الذى فرض علينا فى هذه الحرب الأخيرة .

ورجاؤنا أن نصل فى هذا إلى قرار سريع ، وأن لا يكون نصيب الرغيف القومى ما للسياسة والتعليم واللباس وغير ذلك من تذبذب وتأرجح واختلاف فى وجهات النظر وعدم الاستقرار ، وأن لا يبتلى بلجنة تنعقد وتنحل بضع مرات ثم لا تنعقد بعد ذلك أبداً فيموت المشروع بين يديها .

دكتور محمد بهجت

قسم البساتين

سباع بن عبد العُزى ، فلما أكبّ عليه ليأخذ درعه قتله وحشى ابن حرب ، وهو غلام جبير بن مطعم .

٨ — هند بنت عُتْبَةَ زوج أبي سفيان بن حرب ، وكانت قد مثّلت بقتلى أحد من المسلمين ، فكانت هى ونساء معها يُجدّعن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت منها خدما وقلائد ، وأعطت خدمها وقلائدها و قُرْطَيْها وحشى بن حرب ، وبقرت عن كبد حمزة فلا كتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها .

٩ — عبد الله بن أبي سرح ، وكان قد أسلم وكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فزعم أنه كان يملى عليه — عزيز حكيم — فيكتب — غفور رحيم — ثم يقرأ عليه فيقول : نعم سواء ، فإن كان يوحى إليه فقد أوحى إليّ ، وإن كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله .

١٠ — عِكْرمة بن أبي جهل ، وكان من أشد الناس على النبي صلى الله عليه وسلم ، وبلغ فى أذى المسلمين بمكة مابلغ .

١١ — كعب بن زُهير ، وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم بشعره ، ويُعَيِّرُ أخاه بُجَيْراً لإسلامه .

١٢ — الحارث بن هشام ، وكان شديداً على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان شديد الأذى على المسلمين بمكة .

١٣ — زهير بن أبي أُميَّة ، وكان شديداً فى كفره كعكرمة بن أبي جهل ، والحارث بن هشام .

١٤ — صفوان بن أمية ، وكان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أشدهم أذى للمسلمين بمكة .

١٥ — سارَّةُ مولاة لبنى المطّلب ، وكانت مغنية بمكة ، فقدمت على النبي صلى الله عليه وسَلم بالمدينة تشكو الحاجة ، وتطلب الصلة ، فقال لها : ماكان فى غنائك ما يغنيك . فقالت : إن قريشاً منذ قتل من قتل منهم ببدر تركوا الغناء . فوصلها وأوقر لها بعيراً طعاماً ، فرجعت إلى مكة ، وكان ابن خَطَل يلقى إليها هِجاء النبي صلى الله عليه وسلم فتغنى به .

فلما كان يوم الفتح نادى النبي صلى الله عليه وسلم بأمان من يترك القتال من قريش ، واستثنى منهم هذا العدد لحكم بإهراق دمائهم ، وأمر المسلمين بقتلهم لهذه التبعات التى أخذت عليهم ، وكانوا بها من مجرمى الحرب الذين يؤاخذون على إجرامهم بعد أسرهم.

فأما عبد الله بن خَطَل فإنه ركب فى ذلك اليوم فرسه ، ولبس درعه وأخذ بيده قناة ، وصار يُقسم لايدخلها محمد عنوة ، فلما رأى خيل المسلمين خاف وذهب إلى الكعبة وتعلق بأستارها ، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم عند طوافه وهو بهذه الحالة فقال : اقتلوه ، فإن الكعبة لا تعيذ عاصياً ، ولا تمنع من إقامة حد واجب . فقتله أبو برزة الأسلمى .

وأما فرتَنى و قُرَيْبةُ قينتا ابن خطل فإن أولاهما وهى فرتنى أسلمت فلم تقتل ، ولم تسلم قريبة فقتلت .

وأما هبَّارُ بن الأسود فإنه هرب واختفى ، ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم فاعترف بذنبه وأسلم فعفا عنه .

وأما الحوَيْرث بن نُقيْد فإنه دخل بيته وأغلق عليه بابه ، فقصده على بن أبي طالب فقيل له : هو فى البادية . فتنحى على عن بابه ، فخرج يريد أن يهرب من بيت إلى آخر ، فتلقاه على فضرب عنقه .

وأما مِقيس بن صُبابة فقتله نُمَيْلَة بن عبد الله الليثى وهو رجل من قومه .

وأما وحشىٌ بن حرب فإنه هرب إلى الطائف ، ولما خرج وفد الطائف ليسلموا ضاقت عليه المذاهب ، فخرج حتى قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ، فعفا عنه ثم قال له : أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ فحدثه بذلك إلى أن فرغ منه ، فقال له : ويحك غَيِّبْ وجهك عنى . فكان يتنكبه حيث كان لئلا يراه حتى قبضه الله .

وأماهند بنت عُتبة فإنها اختفت فى بيت زوجها أبي سفيان ، ثم أسلمت وأتت النبي صلى الله عليه وسلم بالأبطح فقالت : الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره ، لتمسنى رحمتك يا محمد ، إنى امرأة مؤمنة بالله مصدقة به . ثم كشفت نقابها فقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال لها : مرحباً بك ، وعفا عنها .

وأماعبد الله بن أبي سرح فإنه لجأ إلى عثمان بن عفان ، وكان أخا له من الرضاع ، فقال : يا أخى استأمن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يضرب عنقى . فغيبه عثمان حتى هدأ الناس واطمأنوا ، ثم أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فصار يقول : يا رسول الله أمنته فبايعه . والنبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ثم قال : نعم . فبسط يده فبايعه .

وأما كعب بن زهير ، فخاف وخرج حتى قدم المدينة بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من فتح مكة ، فأسلم أمامه ومدحه بقصيدته :

« بانت سعاد فقلبي اليوم متبول »

فلما وصل إلى قوله فيها :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

رمى إليه بردة كانت عليه ، فلما ملك معاوية بذل له فيها عشرة آلاف درهم ، فقال له : ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أعطانيه أحدا .

وأما عكرمة بن أبى جهل فإنه هرب ليلقى نفسه فى بئر ، أو يموت تائها فى البلاد ، وكانت امرأته أم حكيم أسلمت فاستأمنت له النبى صلى الله عليه وسلم فأمنه ، فخرجت فى طلبه حتى أدركته فرجع معها فأتت به النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم .

وأما الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية فإنهما هربا واختبآ فى بيت أم هانىء بنت أبى طالب فأجارتهما ، وقد أجاز النبى صلى الله عليه وسلم جوارها ، ثم جاءته بهما فأسلما .

وأما صفوان بن أمية فاختفى وأراد أن يلق نفسه فى البحر ، فأتى ابن عمه عمير بن وهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : يا نبى الله ، إن صفوان سيد قومه ، وقد هرب ليقذف نفسه فى البحر ، فأمنه فإنك أمنت الأحمر والأسود . فقال له : أدرك ابن عمك فهو آمن . فخرج فأدركه وأتى به النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إن هذا يزعم أنك أمنتنى . قال : صدق . فقال : أمهلنى على الشرك شهرين . فقال : لك أربعة أشهر . ثم خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة حنين ، فلما قسم الغنائم أعطاه مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة ، ثم رآه يرمق شعباً مملوءاً نعما وشاء فقال له : يعجبك هذا . قال : نعم . قال : هولك وما فيه . فقبض صفوان ما فى الشعب وقال : إن الملوك لا تطيب نفسها بمثل هذا ، ما طابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا نبى ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله . فأسلم وترك المدة التى كان طلبها .

وأما سارة مولاة بنى المطلب فإنها هربت واختفت ، ثم استؤمن لها النبى صلى الله عليه وسلم فأمنها ، فجاءته فأسلمت .

فقتل من هذا العدد الذى كان مجرم حرب قاتلان : هما عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة ، وقد قتل عبد الله بن خطل بعد استعاذته بالكعبة ، فلم تنجه استعاذته بها من القتل ، لأنه كان شديد الجرم بقتله ذلك الأنصارى الذى كان يخدمه ، والكعبة كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لا تعيذ عاصيا ، ولا تمنع من إقامة حد واجب . وقد قتل منهم بعد ذلك اثنان لم يتول النبى صلى الله عليه وسلم قتلهما ، ولو أنهما أسلما وطلبا الأمان منه لأمنهما كما أمن الذين كان جرمهم مثل جرمهما ، وهما الحويرث بن نقيد الذى قتله على بن أبى طالب ، وقريبة مولاة عبد الله بن خطل .

والمهم فى هذه القضية ما حصل من عفو النبى صلى الله عليه وسلم عن أكثر ذلك العدد ، فهل حصل هذا بما له من حق العفو ، فرأى أن ما ارتكبوه من جرم لم يصل إلى القتل حصل فى حال لهم فيها شىء من العذر ، فيكون أخذهم بالعفو أولى من أخذهم بالعقوبة ، أو حصل هذا لأنهم أسلموا والاسلام يجب ما قبله ، كما قال تعالى فى الآية (٣٨) من سورة الأنفال : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) .

وقد اختلف العلماء فى معنى هذه الآية ، فذهب بعضهم إلى أن المراد أنهم إن ينتهوا عن عداوة النبى صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ما قد سلف منها ، وذهب بعضهم إلى أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصى ، ويخرجون منها كما تنسل الشعرة من العجين ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : الاسلام يجب ما قبله . وقالوا : الحربى إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط ، وأما الذى فلا يلزمه قضاء حقوق الله ، وتبقى عليه حقوق الآدميين .

وما حصل فى هذه القضية يشهد للذين ذهبوا إلى أن الاسلام لا يسقط شيئا من تبعات الدنيا ، ولو كان الذى أسلم حربيا ، ولهذا قتل النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن خطل مع استعاذته بالكعبة ، ولو كان الاسلام ينجيه من القتل لعرض عليه الاسلام قبل أن يقتله ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر سراياه بأن يعرضوا الاسلام على أعدائهم قبل أن يقاتلوهم ، ومثل هذا يجعل الإسلام خالصاً لله تعالى ، ولا يجعله وسيلة للتخلص من تبعات الدنيا

فلم يبق إلا أن النبى صلى الله عليه وسلم عفا عنهم بما له من حق العفو ، ليضرب بذلك مثلا صالحا فى معاملة مجرمى الحرب ، فيعلم الناس أنه لا يجب التشديد فى أمرهم ، وأنه لا يصح أن يؤاخذوا إلا بمثل ما أوخذ به عبد الله بن خطل ، وقد قال الأول فى أمثالهم : القدرة تذهب الحفيظة .

عبد المتعال الصعيدى

أُنشودَة المشاعل

فى عيد « الفاروق »

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

مَن القبسُ الذى طارا يشقُ رُبى وأنهارا ؟
ويَطوى العشبَ ، والغارا ويسكبُ أينما سارا
ضياء يبهرُ الشطآن ؟ !

تدفق منه بالأنوارْ شعاعٌ يسحرُ الأبصارْ
فتحسبُه من الأقدارْ أذانًا بالليالى دارْ
ليوقظ فجرَها الوسنان !

لهيبٌ واثبٌ خفّاقْ سناهُ يفجِّرُ الأشواقْ
إذا ظمِئتْ له الآفاق وأهلك زيتَهُ الإحراق
سقته سواعِدُ الفِتيان !

سقته بعزمِها الجبّار فراح يُسابقُ الإعصار ؛
سواعدُ فتيةٍ أحرار توهّجَ فوقَها بالنار
هوًى مُترنّحٌ سكران !

أضاء الكرنكُ المسحور وشعشع حوله الدَّيجور
بنرٌ معابدٍ وقصور وغيبِ ممالكٍ وعصور
وفنٍّ حيَّرَ الأزمان !

وساق لمصرَ من دنياه تمائِمَهُ ، وسرَّ علاه
إلى « الفاروق » طار هواه وشق طريقَه لضُحاه
شعاعًا يوقظ الأوطان !

هفا متطلعًا للقناه حبيبُ ضِفافِهِ ، وأخاه
مِنَ الجبل الذى يهواه ويعشق أرزَهُ ورُباه
أتاه مُحيِّيًا « لبنان »!

شُعاعا عزّةٍ وجلال ورمزا صحوةٍ ونضال
على نهَرٍ ، وفوقَ جبال طوى رَكباهما الأجيال
إلى كفَّيهِ يستبقان !

فيا فاروق هذا النور ضياؤُك سابغٌ منشور
يطوف على الحمى ويدور كرِفٍّ للعُلا مسطور
ليقرأ وحيَه الهرَمان !

وهذا الحبُّ يا «عبْدين» حياةٌ للعبادِ ودين !
لِبابك خفَّ كلُّ قطين تقودُ خطاهُ نارُ حنين
كأنَّ قبابكِ الحرَمان ! ؟

محمود حسن إسماعيل

أبرلسية

ميلاد ملك

للشاعر محمد البرعى

شارف الأرض وحيَّا فى ابتسام فسألنا من على الأرض هفا
وتلفتنا لأطياف الغمام لم نجد إلا شعاعاً مرهفا
كلما أمعن سيراً فى الظلام شقق الفجر وأسنى وصفا
ملك جاء إلى دنيا الأنام أم على أجفاننا حلم غفا

هذه أنسامه دلت عليه حينما لاح مع الصبح وبان
كل روح طيرت قلباً إليه وتملت من مرائيه الحسان
الهدى والنور والسحر لديه معجزات للورى فى كل آن
لو تمس المزن إحدى راحتيه جاءنا الوبل بخيرات الزمان

صولجان الملك ملء الراحتين وعلى المفرق تاج لمعا
سجد النيل له بالضفتين حينما رف به وارتفعا

وشدت طيبة لحن الهرمين وعلى سينـــاء نور سطعا
ورنا الشرق وحيا باليدين لوليـــد كنبي طلعا

ومضى فاروق يسمو قدما نحو عرش تالد المجد عتيق
ثابت الأصـــل له فرع سما مده عهد من الماضي السحيق
هذه أعلامـــه تطوى السما ولها ظـــل مديد وبريق
عرش من أحيا بمصر الهمما جد إسماعيل والبيت العريق

تاجـه للشرق نور الأرب وهوًى يخطر فى أحلامـه
وحمى مغناه حصن العرب تستمد العزم من إقدامه
زاره بالأمس من أرض النبي عاهل كالسبط فى إسلامه
طيب الجـد نقى النسب تجتلى معناه من أعلامه

وعلى النيل تلاقى الأخوان تاج فاروق وتاج ابن سعود
موكب يوحى بآيات المعانى ولقـاء حظ ذكراه الخلود
وعهود حققت حلم الأمانى لشعوب شفها مطل الوعود
وحدة قامت على أقوى كيان غيلها الشرق تفدّيه الأسود

شعلة تطوى دياجير الدروب تحمل البشرى لمن تفديه نفس
نورها من نور فاروق الحبيب فهى شمس قد تسامت فوق شمس
فى سناها فرحة الروح الغريب حينما يلقى حبيباً بعـد يأس
إنها من ذلك الوادى القريب من ربى لبنان جاءت يوم عرس

ليلة الميلاد حياها الشباب عامر الإيمان مرفوع الجبين
إنها فتح لوعـد مستجاب رب وعد جاء بالحق المبين
شعلة الفاروق سيرى فى الشعاب نجمة تسرى بليل الدلجين
وأضيئى فى دياجير السحاب واخلدى ماشئت فى كف السنين

ليلة الميلاد عيـــد أى عيد هات كأسى واسقنى من خمرها
ليلهـــا راح وشعر ونشيد نغمة مستلهم من سحرها
فى سماها فجر ميـلاد سعيد رفرفت أعلامـــه فى غمرها
إنه فاروق ذو الملك العتيد فرحة الدنيا ومجلى نورها

محمد البرعى



الأمير شكيب أرسلان والنشاشيبي :

أضيف هذه (الحاشية) إلى الحديث عن (أبي بكر الخوارزمي) في « الرسالة » الغراء ٦٥٧ ، القسم ٢٥ (في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) :

يطلع العلامة الأستاذ أمير البيان الأمير شكيب أرسلان على خطبة النشاشيبي (كلمة في اللغة العربية) ، فيبعث إليه بهذا الكتاب :

أخي العلامة الأستاذ :

أهنيك بهذه الخطبة في محاسن اللغة العربية ، لا بل أهنيء هذه اللغة الشريفة بك ، وأرجو لها من خير الحافظين بقاءك . كتبت إلى مصر بأن يرسلوا لك نسخة من (حاضر العالم الإسلامي)، وعليك أن تسدل عليه ذيل الستر ، لأنه كتب وأنا أجوب في الأقطار ، ومن قطار إلى قطار ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

(مرسين ٨ حزيران ١٩٢٥) **شكيب أرسلان**

وينشر الأمير — بعد الكتاب — مقالة بليغة في مجلة (الزهراء) الغراء ، منها قوله :

« قرأت هذه الخطبة أولا في الجرائد ، وفتنت بها ، وأعجبت بما حوته من جزالة لفظ ، وبلاغة معنى ، وسداد حجة . ثم أهديت إليّ في كتاب نفيس الطبع ، بهيج المنظر ، لم أرَ أليق منه قالباً لتلك الروح العالية ، ولا أبدع صدفة لهاتيك الدرة الغالية . فذ الآن أقول : إنه كتاب مع وجازته قد زخر عبابه ، ومع قلة قراطيسه قد قرطس نشابه ...

ولتهنأ العربية بهذا النصير قليل النظير ، والعاشق الساهر الليالي في رعى نجوم التحقيق والتنقير . ومع أني هجرت الشعر لم أملك نفسي أن قلت :

قد قالت اللغة الفصحى بغربتها قد أحسن الله إسعافي ب(إسعاف)
هو المجيب لمن قد بات ينشده انصر أخاك لدى ظلم وأس عافي »

ولما قرأ النشاشيبي تلك الحواشي العظيمة في (حاضر العالم الإسلامي) . أرسل إلى الأمير بكتاب جاء فيه :

« ذكرتني هذه الحواشي بقولين لإمامين : قيل لأبي بكر الخوارزمي عند موته : ما تشتهي ؟ قال : النظر في حواشي الكتب . وقال أستاذ الدنيا جار الله : الزيت مخ الزيتون ، والحواشي مخخة المتون » .

فبعث الأمير إلى النشاشيبي بهذا الكتاب :

أخي الأستاذ الأجل :

شفيت غليلي بهذين الشاهدين اللذين جئت لي بهما على فائدة الحواشي ، ومن كان يقدر أن يأتي بهما غيرك ؟ لله درك ! وقد أتممت تحبير كتاب اسمه « أناتول فرانس في مباذله » ، يحتوى ترجمة كتاب لكاتب سره (بروسون) ، وخلاصة آخر لصديقه (سيغور) ، وتلخيص لتأبين أدباء فرانسة (لفرانس) يوم وفاته . ولما كان فيه من الأعلام الكثيرة والمسائل الفلسفية والاجتماعية والأدبية ما لا بد من تفسيره إعانة للقارئ الشرقي على فهم الكتاب ، فقد جاءت في هذا التأليف أيضاً حواش ، إن لم تكن على نسبة حواشي (حاضر العالم الإسلامي) : فهي حواش لا بأس بها ، وما كان أسرعني إلى تأييد وجهي في (الحواشي) إلى نقل كلام ذينك الإمامين عن الأستاذ المحقق النشاشيبي ، ولعمري لو أنجدتني بجيش مجر ومال دثر ، ما أحسست فضل تلك النجدة كما أحسست بها عند ما قرأت ذينك الشاهدين ...

(مرسين ٢٤ تموز ١٩٢٥) **شكيب أرسلان**

مد الله في عمر الأمير ، وأعز به دولة الأدب !

« السهمي »

تهجم على التحية « السلام عليكم » :

إلى أخي البصام :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ، فقد رأيتك تستغرب هذه التحية المباركة التي يهديها الرجل إلى أخيه ، وأتاك هذا الاستغراب من أن قوماً زعموا أن « القاعدة » هي أن نبتدئ الكتاب بـ (سلام عليك أو عليكم) ، بدون (ال) التعريف ، فإذا جاء الختام قلنا : (السلام عليك أو عليكم) .. وأن بدء الكتاب بقولنا (السلام عليكم) خطأ شائع في هذه الأيام ! ! الخ . واستدللت بقول الله تعالى في كتابه الكريم : « سلام عليكم طبتم ... » وقوله سبحانه : « سلام قوم منكرون » في أكثر من ثلاثين موضعاً على وجوه مختلفة . وصدق الله الذي يقول في

سورة مريم : « والسلام علىّ يومَ ولدتُ ويوم أموتُ ويوم أبعث حياً » بـ (ال) التعريف ، وصدق الله الذى يقولُ فى سورة طه لموسى وهرون : « فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى » بـ (ال) التعريف أيضاً . فلا تستغرب ياسيدى!

ولا تستغرب أيها السيد الكريم إذا علمت أن أهل القبلة جميعاً كانوا ، ولا يزالون ، وسيظلون إلى آخر الدهر ، يقول الرجل منهم إذا انتهى من سجوده وقعد للتشهد : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . ولا تستغرب إذا أنت قرأت فى صحيح البخارى فى باب (ما يتخير من الدعاء بعد التشهد ليس بواجب) : « حدثنا مسدَّد ، قال حدثنا يحيى ، عن الأعمش ، حدثنى شقيق ، عن عبد الله قال : كنا إذا كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تقولوا ، السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين — فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد فى السماء ، أو بين الأرض والسماء — أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو » . وكذلك فى باب (التشهد فى الآخرة) من صحيح البخارى

ولا تستغرب ياسيدى أيضاً إذا مر بك وأنت تقرأ فى مسند أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٤٣٩ من حديث عمران بن حصين : « أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم ، فرد ، ثم جلس فقال (يعنى رسول الله) : عشرٌ . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد ، ثم جلس ، فقال : عشرون . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد ، ثم جلس ، فقال : ثلاثون » . أقول : يعنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : عشر حسنات ، وعشرين حسنة ، وثلاثين حسنة . وكل ذلك بـ (الـ) التعريف أيضاً .

ولا تستغرب يا سيدى إذا رأيت فى مادة (سلم) من لسان العرب : « ويقال السلام عليكم ، وسلام عليكم ، وسلام ، بحذف عليكم . ولم يرد فى القرآن غالباً إلا منكَّراً .. فأما فى تشهد الصلاة ، فيقال فيه معرَّفاً ومنكَّراً ... وكانوا يستحسنون أن يقولوا فى الأول : سلام عليكم ، وفى الآخر : السلام عليكم ، وتكون الألف واللام للعهد ، يعنى السلام الأول » . ومن هنا أتى من لا يُحسن العربية ، وقلّ اطلاعه على كتبها وفقهها . والاستحسان هنا منصبٌّ على ما كان فى التشهد . فإنه ، كما ترى ، عنى بالأول ، ما كان فى التشهد ، وبالآخر السلام الذى يُخرجُ به من الصلاة . وهذا شىء قال به بعض فقهائنا وأئمتنا استحساناً من عند أنفسهم أو مما روَوا .

ولا تستغرب يا سيدى إذا وقفتَ يوماً على قول الأخفش : « ومن العرب من يقول : سلام عليكم ، ومنهم من يقول : السلام عليكم .. فالذين ألحقوا الألف واللام حملوه على المعهود ، والذين لم يلحقوه حملوه على غير المعهود » . ثم عاد فقال : « وفيهم من يقول : سلام عليكم ، فلا ينوّن » ؛ ثم ذكر العلة فقال : « حمل ذلك على وجهين : أحدهما حذف الزيادة من الكلمة كما يُحذف الأصل على نحو « لم يكِ » ؛ والآخر أنه لما كثر استعمال هذه الكلمة ، وفيها الألف واللام ، حذفا لكثرة الاستعمال ، كما حذفا من اللهم فقالوا : لَهُمّ » . وكأنه جعل « السلام عليكم بالتعريف هى الأصل الذى كثر استعماله » .

فلا تستغرب إذا نظرت فرأيت أن الذى جاء فى مقالتى ليس خطأ ولا مجاراة على خطأ . ولا تستغرب إذا أنا قلت لك : إن أدعياء اللغة إنما يؤتون من سوء التقدير لما يقرأون ، ومما انطوت عليه قلوبهم من حب التعالم على الناس بشىء يدعونه ويلتمسون له الحجة ، حتى ما يدرك أحدهم فرق ما بين « سلام عليك » و « سلام » و « سلاماً » ، كما جاءت فى كتاب الله فى أكثر من ثلاثين موضعاً ، وبين ما جاء فى كتاب الله أيضاً من قوله : « والسلام على من اتبع الهدى » ، وقول رسول الله الذى تلقاه المسلمون عنه فى تشهد الصلاة وفى التحية .

واعلم يا سيدى أنى قنعت لك ولنفسى وللناس بالنقل مجرداً ، ولم أتبعه ببيان الفروق فى المعانى ، وما ينبغى وما لا ينبغى ، ولا تحرّيت لك ولا للناس أن ألج بهم موالج فى دقيق العربية وغامضها تدل على أن من نقلتَ أنتَ عنه هذا القول قد تمحّل وتهجّم على ما لا علم به ، وعلى ما لا يحسنه ولا يجيده !

فلا يغرنْك التبجح بالعلم ، ولا تقنع من المتحذلقين بما يسمونه « القاعدة » ، فلعلها باطل مزور ، وكذب مختلق ، واجتراء على العربية هى من سوآته براء ، ولعل دليلهم يكون هو الدليل على بطلان ما يزعمون كما رأيت . وفى هذا مَقنع وهدًى .

والسلام عليكم ورحمة الله . **محمود محمد شاكر**



في الـــريف ...

للكاتب الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأستاذ محمد عبد اللطيف حسن

هناك في منحدر التل الواقع بقرب مجرى النهر ، وفي كوخين حقيرين متجاورين ، كان يقطن فلاحان يشتغلان بكد وعناء ليخرجا من الأرض المجدبة ما يقوم بأودها وأود عيلتيهما الفقيرتين ...

وكان يقيم في كل كوخ منهما أربعة أولاد تتراوح أعمارهم بين الست سنوات والخمس عشرة سنة ، وكثيراً ما كان هؤلاء الأولاد الثمانية يتجمعون بمقربة من الكوخين ويظلون في لهو دائم ومرح مستمر من الصباح إلى الغروب .

وكان كلا الفلاحين متزوجا ، وكلاهما ينجب الأولاد بنسبة واحدة وفي وقت واحد تقريباً ! وكانت كل أم من الأسرتين تميز أولادها بصعوبة من بين أولاد الأم الأخرى ، ولا سيما حينما كانوا يلعبون جميعاً أمامهما !

وكان الأبوان يخلطان في كثير من الأحيان بين أولادهما وبين أولاد الأب الآخر ! وكم كان فكهما إذا أراد أحدهما أن يدعـو ولداً من أولاده أن يردد على الأقل اسم ولدين أو ثلاثة قبل أن تنطق شفتاه باسم الولد الذي يريده !

وكانت عيلة توفاسن تسكن في الكوخ الأول ولها ثلاثة أولاد وبنت ، في حين أن عيلة فالنس التي كانت تقطن في الكوخ الآخر لها ثلاث بنات وولد .

ففي ظهر يوم من أيام شهر أغسطس الحارة ، وقفت مركبة صغيرة أنيقة أمام هذين الكوخين ، وقالت السيدة الصغيرة التي كانت تقود المركبة لزوجها الشاب الجالس بجوارها حينما وقع بصرها على الأولاد الثمانية الذين كانوا يلعبون وقتئذ أمام الكوخين :

— انظر يا هنري إلى هؤلاء الأطفال السعداء .

ثم أشارت بيدها إلى طفل منهم كان يتمرغ مع آخر على الأرض وقالت :

— ما أظرف هذا الغلام وهو يتقلب على الأرض بفرح وسرور ويمرغ نفسه في التراب مع زميله الآخر ! !

فلم يجب زوجها على ملاحظتها بشيء على حين استطردت السيدة قائلة :

— كم أود أن أقبل هؤلاء الأطفال جميعا ! !

ثم تنهدت تنهدة عميقة حارة صادرة من قلب يائس مكلوم وتابعت حديثها إليه فقالت :

— كم أشتهي ياهنري أن يكون لدينا ولد من هؤلاء الأولاد ولا سيما هذا الولد الواقف هناك بمفرده ، وأظنه أصغرهم سنا .

قالت ذلك ثم قفزت من المركبة بخفة ونشاط وهرعت نحو الأطفال وأمسكت بالولد الذي أشارت إليه ورفعته بين ذراعيها وأخذت تقبل خديه القذرين وشعره المجعد المعفر بالتراب ، ويديه الصغيرتين اللتين كان يحاول أن يخلص نفسه بهما من بين يديها اللتين كانتا تمسكان به بحنان بالغ ورفق عظيم ، ثم تركته وعادت إلى المركبة منصرفة إلى حال سبيلها .

وفي الأسبوع التالي عادت هذه السيدة مرة أخرى وجلست تشاطر الأطفال ألعابهم كما لو كانت واحدة منهم ! وقد أحضرت لهم معها في هذه المرة كمية من الكعك والفطائر والحلوى ، وأخذت تقدمها إليهم وتوزعها عليهم بنفسها ، بينما كان زوجها ، واسمه هنري دوبرييه ، ينتظرها في المركبة على مضض ، وينظر إلى ما يجري حوله بشيء من الدهشة والغرابة .

وصـارت تلك السيدة الرحيمة الطيبة القلب ، تتردد على الكوخين من وقت لآخر ، وكانت تحشو حقيبتها وجيوبها في كل مرة بالحلوى التي كان يتقبلها الأطفال منها بكل لذة وسرور .

وبمرور الأيام تعرفت مدام دوبرييه إلى كل من العائلتين المتجاورتين ، وعرضت عليهما صداقتها التي كان لها أحسن وقع وأجمل أثر في نفوسهما الحزينة البائسة .

وفى صباح يوم نزل المسيو هنرى دوبريبه من المركبة واصطحب زوجته معه ثم دخلا كوخ آل توفاسن دون أن يخاطبا فى هذه المرة أحداً من الأطفال الذين كانوا قد تعلقوا بهما وأحبوهما حباً جماً.

وكان توفاسن وزوجته موجودين فى الكوخ فى ذلك الوقت فدهشا لدخول مدام دوبريبه وزوجها الفجائى، وقدما إليهما مقعدين نظيفين، وانتظرا بفارغ صبر ما ستقوله لهما هذه السيدة التى بدأت حديثها وقتئذ بصوت خافت ولهجة مترددة:

— لقد أتينا لزيارتكما اليوم، لأننا نريد أن نتبنى ولدكما الأصغر شارلوت. فذهل توفاسن وزوجته لقولها وعقدت الدهشة لسانيهما فلم ينبسا ببنت شفة. ولكن مدام دوبريبه لم تكترث لدهشتهما البالغة وتابعت حديثها فقالت:

— ليس لدينا أطفال ولهذا نود أن نتبنى ابنكما، فهل تقبلان ذلك؟

وهنا بدأت مدام توفاسن تفهم ما تعنيه مدام دوبريبه بهذا الكلام فقالت لها بلهجة لا تخلو من الإستنكار:

— هل معنى ذلك أنكما تريدان أن تأخذا ولدنا شارلوت منا؟

فتدخل المسيو هنرى دوبريبه عند ذلك فى الحديث وقال:

— إن زوجتى لم تبين لكما غرضنا تماما، فكل ما فى الأمر أننا نرغب فى أن نتبنى طفلكما الصغير، وليس معنى ذلك أننا سنحول بينه وبين زيارتكما، بل إننا سنترك له مطلق الحرية فى التردد عليكما فى أى وقت، وإذا سلك معنا مسلكا حسناً — وهو ما ننتظره منه فى المستقبل — فسنجعله وريثنا الوحيد، وحتى إذا أنجبنا أطفالا فى المستقبل فسنشركه مع أبنائنا فى الميراث. وإذا لم تثمر فيه تربيتنا وتعليمنا، فإننا لن ندعه وشأنه كما يفعل بعض الناس، بل سنعطيه حينما يبلغ أشده عشرين ألفاً من الفرنكات وسنودع هذا المبلغ بإسمه فى أحد المصارف الكبيرة على أن يسحبه إذا بلغ سن الرشد ضماناً لحسن تصرفه فيه، وزيادة على ما تقدم فإننا سنمدكما بمنحة شهرية قدرها مائة من الفرنكات مدى الحياة.

ولكن أبت عقلية مدام توفاسن البسيطة الساذجة إلا أن تفهم هذا القول على غير حقيقته، وتؤوله تأويلا آخر، واستبد بها الحنق والغضب عندئذ فقالت:

— أتريدان منا أن نبيعكما ولدنا شارلوت فى نظير جاهكما العريض، وثروتكما الطائلة؟ هذا محال... محال!!

وكان يبدو على محيا توفاسن — زوجها — علامات التردد والتفكير العميق دون أن ينبس طول هذه المدة ببنت شفة، ولكن كان يلوح عليه أنه موافق على اعتراض زوجته بدليل أنه كان يهز رأسه من وقت لآخر موافقة منه وتأييداً لقولها!!

وبدأ اليأس يتطرق حينئذ إلى نفس مدام دوبريبه فحولت وجهها شطر زوجها وقالت له بصوت مكتئب حزين:

— هنرى! إنهما يمانعان فى أن نأخذ ولدهما شارلوت معنا!

وحاول المسيو هنرى دوبريبه أن يقنع الزوجين العنيدين لآخر مرة فقال: فكرا جيداً فى مستقبل ولدكما وهنائه قبل أن ترفضا هذا الطلب نهائيا...

فهزت مدام توفاسن كتفيها بسخرية واستخفاف وقاطعته بقولها: لقد فكرنا يا سيدى فى كل هذا من قبل، والآن أرجومنكما أن تكفا عن الكلام فى هذا الموضوع ولا تحاولا إثارته مرة أخرى. وبينما المسيو هنرى دوبريبه وزوجته يهمان بالخروج إذ فتح باب الكوخ فى تلك اللحظة ودخل منه ولد صغير يشبه شارلوت إلى حد كبير حتى أن من يراهما لأول وهلة يظن أنهما توأمان! فلما وقع بصر مدام دوبريبه عليه سألت زوجة توفاسن قائلة: هل هذا الولد الصغير ابنكما أيضاً؟؟ فأجاب توفاسن باقتضاب وهو يحك بيده لحيته البيضاء الكثيفة الشعر: كلا إنه جان فالنس، ابن جارنا الآخر فالنس الذى يقطن فى الكوخ المجاور، ويمكنكما أن تحاولا أخذه منه إذا استطعتما ذلك!!

فرد عليه المسيو هنرى دوبريبه بحزم وإصرار وقال: سنحاول ذلك بكل تأكيد! فابتسم توفاسن ابتسامة عريضة ماكرة وقال له وهو يهم بالوقوف لتوديعه: إذن أرجو لكما النجاح والتوفيق فى مهمتكما!! ولما دخلت مدام دوبريبه وزوجها الكوخ المجاور، وعرضا على فالنس وزوجته اقتراحهما السابق، رفض الزوجان هذا الإقتراح فى بادىء الأمر، ولكن مدام دوبريبه وزوجها ما زالا بهما حتى أقنعاهما بوجاهة فكرتهما، وصواب رأيهما، ولا سيما حينما ذكرا لهما المبلغ الذى سيمنحانه فى كل شهر!! وبعد فترة قصيرة وجهت مدام فالنس حديثها لزوجها فقالت: ما رأيك فى هذا العرض السخى يا زوجى العزيز؟ فأجابها زوجها وهو يفتل بيده الخشنة شاربيه الكثيفين: إننى لا أمانع فى ذلك يا عزيزتى، وليس عندى أى اعتراض مطلقاً. وتكلمت مدام دوبريبه حينئذ عن مستقبل الطفل، وسعادته، وعن النقود

الكثيرة التي سوف يمد بها عائلته في المستقبل . فلما أتمت كلامها سألها فالنس وقد ارتسمت على شفتيه إبتسامة الرضا والإرتياح ، وشاعت الغبطة والسرور في قسمات وجهه الكثير التجاعيد : وهل سنأخذ المائة فرنك على يد أحد المحامين ؟ فأجابه المسيو هنري دوبرييه وهو يهز رأسه موافقاً : بلا شك ... بلاشك ! !

وأرادت مدام فالنس أن تنتهز الفرصة فتزيد هذا المبلغ قليلا فقالت لمدام دوبرييه وهي تنظر من طرف خفي إلى زوجها نظرة ماكرة ذات معنى :

— أظن أن المائة فرنك ليست بالمبلغ الكافي في نظير انتزاع ولدنا منا لأنه سيصبح بعد بضع سنوات قادراً على العمل والكسب، ولذا يستحسن أن يكون هذا المبلغ مائة وعشرين فرنكا في الشهر !!

فوافقت مدام دوبرييه على ذلك بعد قليل من التردد دون أن يخفى عليها جشع مدام فالنس وشدة طمعها !!

ولكي تثبت للزوجين الفقيرين مدى غناها وجودها ، فقد أخرجت من حقيبة يدها مائة وعشرين فرنكا وأعطتها لمدام فالنس التي تناولتها منها بمزيد من الغبطة والسرور ، في حين جلس زوجها هنري يكتب شروط الاتفاق بتؤدة وإمعان . فلما انتهى منه استدعى عمدة القرية وأحد الشهود فوقعا معه على العقد الذي أصبح قانونياً من كل الوجوه ...

وخرجت مدام دوبرييه من الكوخ فرحة مسرورة لنجاح مسعاها ، وتوفيقها في مهمتها ، في حين كان الطفل الذي حملته بين ذراعيها يبكي بحرقة وحرارة لفراق والديه وتخليهما عنه ، ويحاول أن يخلص نفسه من بين ذراعيها ولكن بلا فائدة ...

وشاهد توماس وزوجته رحيل الطفل جان بوجهين كالحين . والظاهر أنهما قد لاما نفسيهما على رفضهما التنازل عن ولدهما شارلوت ، وندما — بعد فوات الوقت — على ضياع هذا الكنز الثمين منهما ! !

ولم يسمع أحد من أهل القرية شيئاً عن جان فالنس لمدة طويلة من الزمن . وكان أبواه يذهبان في أول كل شهر إلى مكتب المحامي فيتسلمان منه المائة والعشرين فرنكا ثم يعودان إلى كوخهما آمنين مطمئنين ...

وساءت العلاقات حينئذ بين عائلة فالنس وبين عائلة توفاسن التي كانت تعيرها وتحط من شأنها أمام أفراد القرية لأنها فرطت في ولدها جان وباعته لمدام دوبرييه وزوجها بيع السلع ! وكانت مدام توفاسن تمسك بولدها شارلوت من وقت لآخر وتضمه بين ذراعيها ثم تخاطبه بقولها :

— إنني لم أبعك ولن أبيعك ياولدي العزيز بالرغم من أنني لست غنية كما تعلم ويعلم جميع الناس ...

وكانت لا تفتأ تردد هذه العبارات التهكمية وأمثالها في كل يوم بلهجة ساخرة وبصوت عال مسموع كان يصل في كثير من الأحيان إلى مسامع فالنس وزوجته ! وبلغ الغرور بمدام توفاسن إلى حد أنها كانت تزعم نفسها أعظم شأناً من أهل قريتها جميعاً ، وأرفع منهم منزلة وأعلاهم مقاماً ، لا لشيء إلا لأنها لم تبع ولدها شارلوت ! ولم يغب هذا الغرور عن أهل القرية أنفسهم ولم يفتهم أن يلاحظوا عليها ما كانت تدعيه من العظمة المصطنعة والخيلاء الكاذب ، ولكنهم كانوا مع ذلك لا يفتأون يرددون أمامها أنها سلكت مسلك الأمهات الطيبات القلب ! ! ولما بلغ شارلوت الثامنة عشرة من عمره كان يتباهى على أقرانه ، ويعتقد — كوالديه — أنه أعلى منهم مرتبة وأسمى مكانة لأن أمه المحبة لم تبعه كما باعت مدام فالنس ولدها جان ! ! وبينما كانت عائلة فالنس ترتع في بحبوحة العز والرفاهة ، كانت عائلة توفاسن لا تزال على ماهي عليه من الفقر المدقع والفاقة البالغة ! وكان يسار أسرة فالنس وغناها هما السر في هذا البغض ، والباعث على تلك الكراهية التي كانت تبديها عائلة توفاسن نحوها في كل وقت وفي أي مناسبة !! وبعد مضي مدة انخرط الابن الأكبر لمدام توفاسن في سلك الجندية ، بينما توفي ولدها الآخر إثر مرض خطير ألم به ولم يمهله إلا بضعة أيام . أما شارلوت فقد ظل في القرية ليساعد والده الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً ، وليعين أمه العجوز وأخته الوحيدة على العيش ومكافحة صعاب الحياة . وكان شارلوت قد بلغ الحادية والعشرين من عمره حين وقفت في صباح يوم مركبة صغيرة جميلة أمام الكوخ المجاور ، ونزل منها شاب قوي وسيم الطلعة ، أنيق الثياب ، . ثم دخل الكوخ بقدمين ثابتتين ، وخطوات متزنة واسعة ... وكانت مدام فالنس تغسل ثيابها في ذلك الوقت ، بينما كان زوجها الذي بلغ من العمر أرذله يستدفىء بنيران المدفئة . وقبل أن يفيق الوالدان من دهشتهما تقدم الشاب — ولم يكن إلا ابنهما جان فالنس نفسه — نحوهما وقال لهما وهو

يمد كلتا يديه لمصافحتهما : أسعدتما صباحا يا والدى العزيزين ...

فهب الأب من مكانه دهشاً مذهولا ، وعقدت المفاجأة السارة لسانه عن النطق ، بينما ألقت الأم بقطعة الصابون فى الوعاء الذى كانت تغسل فيه ثيابها لفرط اضطرابها ودهشتها وهرعت نحو ابنها الذى لم يكن قد زارها منذ أن اصطحبته مدام دوبريه معها ، وقالت له بصوت مضطرب مرتعش النبرات وهى تتأمله بزهو وإعجاب من قمة رأسه إلى أخمص قدميه : هل أنت حقاً ولدنا جان ؟ ؟ فضمها الشاب إلى صدره بحنان ورفق وقال لها وهو يضحك ملء شدقيه : نعم إننى ولدكما جان ! وقد جئت اليوم لزيارتكما بعد أن أصبحت أحد المحامين الذين يشار إليهم بالبنان وسأمكث فى ضيافتكما بضعة أيام . فقال له الأب بصوت يرتجف من فرط الانفعال وشدة الفرح والسرور : على الرحب والسعة يا بنى العزيز . وبعد أن استرد أنفاسه اللاهثة استطرد فى حديثه فقال : كم أنا سعيد بلقائك يا والدى ، ولا سيما بعد أن أصبحت رجلا كامل الرجولة ... ولما أفاق الأب والأم من دهشتهما صمما على أن يقدما ولدهما جان إلى أهل القرية جميعاً . فعرفاه أولا بعمدتها وقسيسها وناظر مدرستها . ثم عرفاه أخيراً بباقى أفراد أهل القرية الذين استقبلوه بحفاوة بالغة وسرور عظيم . وشاهد توفاسن كل هذا بعين دامعة تفيض بالألم والهم والعذاب ، ونفس حزينة تملأها الحسرة والندم على ما فات ! وقد تغيرت نظرته إلى الحياة بعد ما رأى جان فالنس فى ملبسه الأنيق وثيابه الغالية وشبابه الحيوى الفياض ، بينما هو لا يزال فى فقره المدقع وأسماله الرثة البالية ،

وفى المساء حينما اجتمع شارلوت بوالديه حول المائدة ، قال لهما بصوت باك حزين تخنقه العبرات : أظنكما رأيتما جان فالنس فى هذا الصباح وشاهدتما ما هو عليه الآن من وسامة الشكل وفخامة الثياب ؟ فأجابته أمه باكتئاب دون أن يفوتها تغير ابنها الفجائى غير المنتظر : نعم يا بنى ! لقد شاهدنا كل ذلك ! ولكننا لم نشأ أن نبيعك إلى مدام دوبريه وزوجها كما فعلت مدام فالنس وزوجها بابنهما جان ! لأننا رأينا أن فى ذلك عارا عليك وإثما فى حقك كما هو عار علينا وإثم فى حقنا أيضاً ... ولم يفه والده أثناء ذلك بكلمة واحدة ، بينما استمر الابن فى حديثه الساخط المؤلم فقال :

— إنها لغباوة منكما حقاً أن تدعا جان فالنس يذهب مع مدام دوبريه وزوجها بدلا منى ! وإنه من سوء حظى أيضاً أنكما لم تضحيا بى بسبب حنانكما وغروركما وأنانيتكما ... وهنا تدخل الأب فى الحديث فقال موجهاً كلامه لابنه : هل تلومنا الآن يا ولدى لأننا لم نشأ أن نفرط فيك كما فرطت مدام فالنس وزوجها فى ولدهما جان ؟ ولكن شارلوت لم يأبه لدفاع والديه بل هز كتفيه ساخراً واستمر فى ثورته فقال : نعم إننى ألومكما لأنكما فوتما على هذه الفرصة التى قل أن يجود الدهر بمثلها . وإن الآباء والأمهات أمثالكما كثيراً ما يجنون على أولادهم بجهلهم ، ويحطمون مستقبلهم بمثل هذا الحنان الضار ، والحب المرذول ، والأنانية المقوتة . فقالت له أمه وقد حز فى نفسها حديث ولدها المؤلم وثورته الصاخبة : هل هذا جزاء حبنا لك واحتفاظنا بك ؟ فأجاب شارلوت وهو يكاد يبكى من شدة الحنق والغيظ وقد اعتمد ذقنه براحة يده : كم أتمنى الآن لو لم أكن قد ولدت حتى لا أظل فى هذه الحالة المؤلمة التى أنا عليها الآن . وبعد لحظة سكوت قصيرة تابع حديثه إليهما فقال بلهجة أشد وأعنف من الأولى : إننى عندما رأيت جان فالنس فى صباح هذا اليوم وهو ينزل من مركبته الأنيقة الفاخرة جرت دماء الحقد والغضب حارة فى عروقى وقلت مخاطبا نفسى : (لو قبلت عائلتى ما عرضته عليها مدام دوبريه وزوجها من قبل ، لكنت الآن فى مركزه وظل هو فى مركزى) . قال ذلك ثم نهض من مقعده فجأة وقال لهما وشرر الغضب يتطاير من عينيه الدامعتين ، والحنق الكامن فى أعماق نفسه الثائرة يلوح على أسارير وجهه الحزين المكتئب : إننى لن أغتفر لكما هذه الغلطة ما حييت ، وقد استقر رأيى الآن على مغادرة هذه القرية إلى الأبد ، والنزوح إلى قرية بعيدة نائية لا يعرفنى فيها أحد ولا أعرف بها أحداً ، لأكسب فيها عيشى بعيداً عنكما وعن أهل هذه القرية جميعا . قال ذلك ثم فتح باب الكوخ بسرعة وهرع إلى الخارج بعد أن صفق الباب وراءه بشدة وعنف حتى لا يتمكن والداه من اللحاق به وإثنائه عن عزمه ، ثم سار فى الطريق مسرعا على غير هدى واختفى فى ظلام الليل الحالك السواد .

محمد عبد اللطيف حسن

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

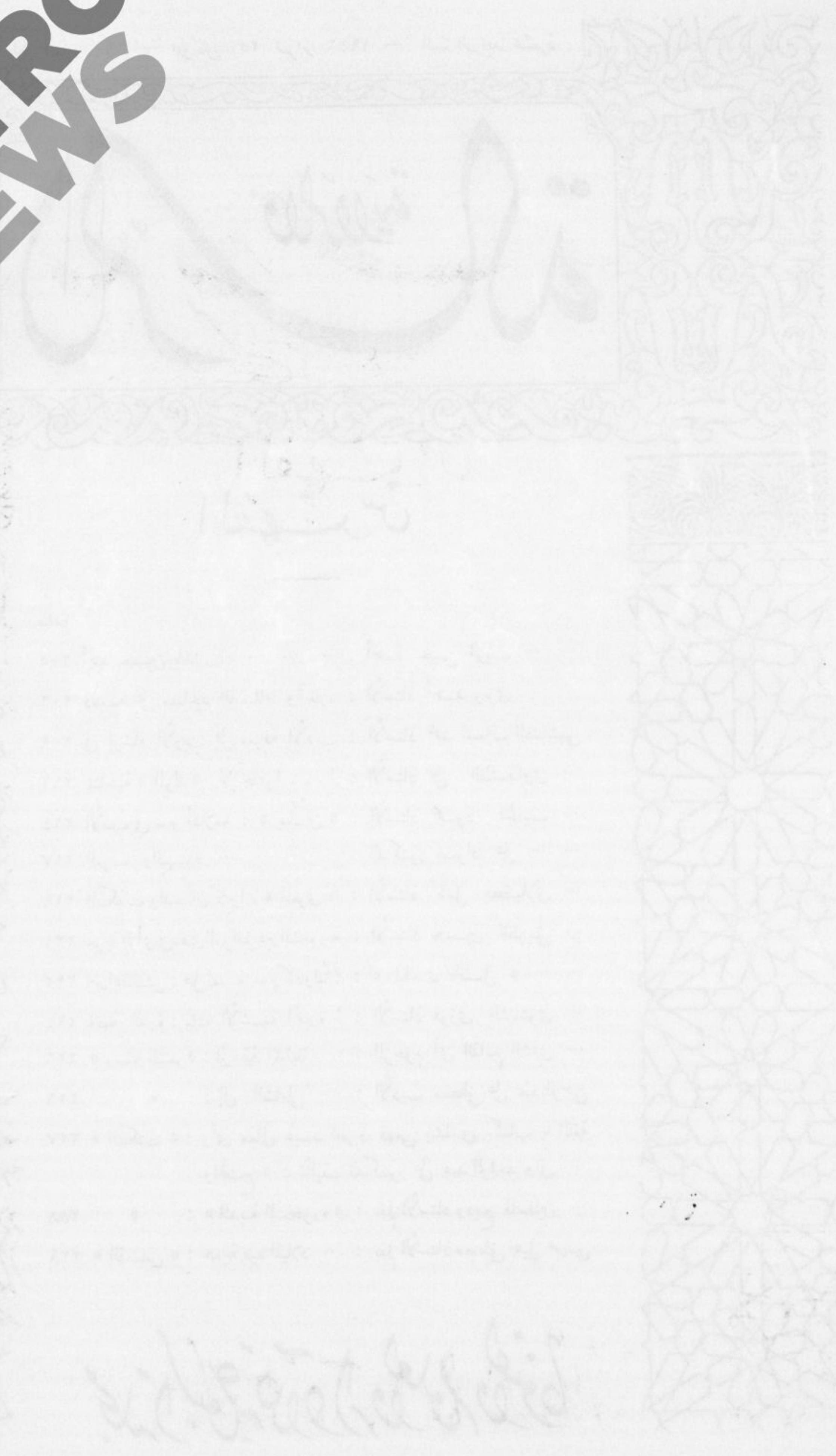
العدد ٦٦٠ — الاثنين ٢٥ فبراير ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

صفحة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون



14 me Année No. 660

Lundi —25—2—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٦٠ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

أحمد حسنين باشا

١٨٨٩ - ١٩٤٦

مات صاحب المقام الرفيع والخلق الرفيع والأدب الرفيع أحمد باشا حسنين في غير الميادين التي تحدى فيها الموت ! !

تحداه في الصحراء المجهل حين رحل ، وفي السماء المرعدة حين طار ، وفي الداء العقام حين مرض ، فخنس عن تحديه ؛ ثم اختلسه اختلاساً في حادث من حوادث القدر على غفلة من إرادته وحيويته ! ! ولو كان الموت حليفاً للحياة لأمهل الفقيد حتى يتم عمله الذي تهيأ له بخير الفضائل والوسائل من تربيته وخلقه وثقافته وتجربته ؛ ولكن أجل الله إذا جاء لا يؤخر !

كان أحمد باشا حسنين — سقى الله بصيّب الرحمة ثراه — مزيجاً حلواً من طبيعتين كريمتين : صوفية مؤمنة ، وعسكرية مغامرة . أخذ الأولى عن أبيه وكان من علماء الدين في الأزهر ، وورث الأخرى عن جده وكان من أمراء البحر في الأسطول . أما أثر البيئة الأزهرية فيه فخلوص العقيدة ، وبلاغة الأسلوب ، واستقامة الطريقة ؛ وأما فضل الوراثة العسكرية عليه ، فحبه للنظام ، وولعه بالرياضة ، وميله إلى المخاطرة . ثم تخرج في اكسفورد فوجدت هاتان الطبيعتان في البيئة الإنجليزية والثقافة السكسونية الغذاء الناجع والجو الصالح ، فنمتا أعظم النمو ، وأثمرتا أكرم الثمر . والخلق الإنجليزي الأصيل قائم على جوهر هاتين الطبيعتين وفي هذا سر نجاحه .

كان الفقيد الكريم رياضي الروح والعقل والجسم ؛ فمن رياضة روحه نبالة نفسه ، ومن رياضة عقله سلامة تفكيره ، ومن رياضة جسمه شجاعة قلبه . وهذه الصفات هي التي تندر في أكثر الناس ، وتعسر على قادة الشرق ؛ لذلك كان فقد أمثاله رزءاً لا يحتمل وخسارة لا تعوض .

وكان من خواص الأدباء ونبغاء الكتاب ؛ وكتابه (في صحراء ليبيا) وآثاره في منشآت (القصر) تتسم بسمة الفكر الناضج والذوق السليم والفن العالي . والبلاغة ظاهرة من ظواهر القوة ، وأدب اللسان مظهر لأدب النفس .

وكان من حملة العرش الأقوياء الأوفياء المخلصين . آثر التاج بحبه ، وآزره بقلبه ، وأحسن السفارة بينه وبين شعبه . ومن اعتدال الزمان وإقبال الأمور أن تكون بطانات الملوك من هذا الطراز : رأس مفكر ، ولسان عف ، ويد طاهرة ، وقلب مؤمن .

ومما يُطمئن القلب على سلامة الفطرة في هذه الأمة أنها أجمعت على حب هذا الرجل ، فكأنها تحب الفاضل لذاته ، وتكره أن يدخل الهوى في تقدير حسناته .

إن الشعب الفقير في الرجال خليق بأن يطول حزنه على فقد رجل . وإن المصاب في أمثال أحمد باشا حسنين مصاب في الكيف لا في الكم ، وفي الجوهر لا في العرض ، وفي الرعاية لا في القطيع . تغمده الله برحمته ، وأجزل له ثواب المتقين في جنته ، وأخلف بالخير على أسرته وأمته .

أحمد حسن الزيات

دمعـــــة ...

على مساجد الفسطاط وآثاره

للأستاذ أحمد رمزى

كانوا مصابيحاً لدى ظلم الدجى يسرى بها السارون فى الإدلاج
كانوا ليوثاً لا يرام حماهم فى كل ملحمة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلق لهم علماً بكل ثنية وفجاج

* * *

نشرت مجلة الإخوان المسلمين كلة فى عددها الماضى تتلخص فى أن أحد النواب صرح بأن فى مصر القديمة ثمانية أديرة وكنائس عدة، تقابلها مصلاة واحدة من الطين والبوص على شاطىء النيل وقد اهتمت السلطات لهذا الأمر.

وأبدأ حديثى بأن أشكر إخواننا المسيحيين من مختلف طوائفهم ومللهم أن عرفوا كيف يحفظون آثارهم ومعابدهم وهى حق لهم ومفخرة لمصر؛ وأجزل لهم الشكر والثناء لأنهم بعملهم هذا وسهرهم على تراث آبائهم والمحافظة عليه قد ألقوا علينا درسا مفيداً نحن معاشر المسلمين فى القرن العشرين.

ولا أجد ما أعبر عنه للسلطات إذا صدق ما قيل من اهتمامها لهذا؛ فإن هذه الحمية لدليل على وعى قوى ويقظة لم نعهدها من قبل؛ ولذلك نؤمل وننتظر أن تتبع هذه الحمية أو هذه البادرة الطيبة بالعمل الصالح الجرىء النافذ؛ فتعيد لهذه البقعة بعض ما اندرس من آثارها ومفاخرها.

ولقد أثارت هذه الكلمة الكثير من شجونى وآلامى، وأعادت إلى ذكرى الماضى العربى فى أجلى مظاهره؛ فعدت لنفسى ورجعت إلى الوراء، وتذكرت ما قرأته وسمعته عن عهود كانت فيها هذه البقعة من الأرض عامرة بمساجد الله وبالآثار الإسلامية؛ فعلمت كيف نزلت بها القبائل العربية أيام الفتح الإسلامى، وكيف استوطنتها واتخذت فيها الخطط والمنازل وكيف أصبحت اليوم خالية خاوية.

فمن المسئول عن هذا الخراب الشامل؛ وهذا الليل الذى نعيش فيه؟

إن تحميل الزمن وأحداثه كل العبء من الأخطاء والأرزاء التى نعانيها أمر سهل؛ ولكنه لا يتفق مع الحياة؛ والأمم تحيا وتتغلب بحيويتها ونشاطها وتصميمها وعنادها على حوادث الزمن ومصاعبه؛ ولذلك فإنى أحمّل المسلمين فى مجموعهم مسئولية هذا العبث بآثارهم، لأنهم جهلوا ماضيهم وآباءهم وأجدادهم وتهاونوا فى أمورهم لما تنكروا لأصولهم وأمجادهم، وتناسوا منزلة دينهم وأثره فى شؤون العالم، فحقت فيهم كلمة التنزيل «ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها».

وقلت أين علماء الإسلام؟ ما لهم لا يقومون بأداء الأمانة التى فى أعناقهم فيعلمونا ما نجهل من أمرنا وأمر ديننا وشؤون من تقدم منا؟ لقد قرأنا عن السلف الصالح من رجال الدين ممن حملوا رسالة الشافعى وغيره من أئمة المسلمين طول القرون الماضية أنهم قوم جاهدوا فى الله خير جهاده؛ بذلوا أنفسهم فى سبيل العلم، والبذل فى سبيل العلم بذل فى سبيل الله، وكانوا أشداء إذا اقتنعوا بالحق فجهروا به، رحماء بين أنفسهم ومع الناس

فأين جهودهم وأين علومهم وهم أولى الناس، أن نتلقى دروس الماضى عنهم؟

* * *

والآن قف بالله على أرباض الفسطاط ومنازل العروبة الأولى وموطن الإسلام أيام الفتح! ماذا نرى؟ أطلالا وراء أطلال، وكانت هذه الجهة عروس الدنيا. إننى أنظر إلى وصف الأقدمين لها، وأرجع إلى ما كتبه المقريزى والسيوطى وابن دقاق وغيرهم وإلى علماء المزارات، فأشعر بالحسرة تملأ نفسى وتحزّ فى قلبى. وأعود إلى الخرائط الحديثة والقديمة وإلى وصف الرحالين لهذه البقاع فلا أعثر على ضالتى، وإلا فاعلمنى أين جامع الفتح مثلا، بل وأين جامع راشدة؟

لقد كان موقعه بين دير الطين والفسطاط، فى خطة راشدة وهى قبيلة من قبائل العرب وبطن من لخم، نزلوا هناك عند الفتح، وأنشأوا لهم جامعاً، ثم عاد الحاكم بأمر الله فجدده وعلّق فيه قناديل

من فضة ، وعُمِّر بعد ذلك مراراً ؛ وكان يمتلىء بالناس لكثرة ما حوله من السكان . هذا هو قول المقريزى ، فانظر ما يقوله على مبارك باشا فى خططه ، وقد زال هذا الجامع ولم يبق له من أثر .

أما جامعنا العتيق وهو جامع عمرو فباق مع الزمن ، يحدّث عن أمجاد العروبة والإسلام ، وقد فكر المغفور له الملك احمدفؤاد الأول طيب الله ثراه أن يعيده إلى سابق مجده ، متخذا فى ذلك سنة من تقدمه من ملوك الإسلام فى مصر ، وعملت له مسابقة دولية ، فمتى يتم هذا العمل الجليل وأراه يتألق فى مجده القديم ، وأمتع ناظرى بلوحة من الرخام وقد نقشت عليها بحروف ذهبية كلمات عمرو بن العاص فى إحدى خطبه حينما قال لأهل مصر :

« إعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، تتجه قلوبهم إليكم وتتشوق إلى دياركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية » وكانت خطبته بجامع عمرو

واستشهد بما سمعه عن الرسول صلوات الله عليه إذ قال :

« إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خيرأجناد الأرض» فمتى يتم ذلك وتعمر الأحياء حوله ،وتعود أيام المسجد العتيق فتمتلىء رحباته بالمصلين يوم الجمعة ؟ وهوالذى يمثل وحده إذا ذكر ، أمجاد مصر وأياديها فى خدمة الشريعة ونصرة دين الله ، وهو الذى سطع نجم الشافعى فيه ، والإمام مفخرة من مفاخر مصر العربية فى الماضى ، وموضع اعتزازها فى الأجيال القادمة باذن الله

وذكرصاحب النجوم الزاهرة أن الملك المعزأيبك ، وهوأول ملوك الدولة التركية بالديار المصرية والشامية ، أنشأ المدرسةالمعزية على النيل بمصر القديمة ووقف عليها أوقافا ، وكان مدرسها القاضى برهان الدين الخضر ابن الحسن السنجارى. فأين الآن هذه المدرسة الإسلامية ؟ ولماذا لا تعاد إلى مكانتها من العزالسالف ، كما أعزها منشئها وبانيها ؟

لئن قلت موارد وزارة الأوقاف ونضبت ، فهل أعلنت أن المدرسة فى حاجة إلى المال فقبض الناس أيديهم عنها ، وبخلوا بأعطياتهم وتبرعاتهم ليعيدوا أثراً لهم من آثارالسلف الصالح يقيمون فيه شعائر الإسلام ويفخرون به .

* * *

وكان على شاطىء النيل الجامع الجديد الناصرى ، أنشأه الناصر محمد سنة ٧١٢ هجرية وكانت له أربعة أبواب وفيه مائة وثلاثون عموداً وكان بمصر القديمة ، ووصفه المقريزى وصفاً دقيقاً وقال « تولى الخطابة فيه قاضى القضاة بدر الدين محمد بن ابراهيم ابن جماعة الشافعى، ورتب فى إمامته الفقيه تاج الدين بن مرهف».

وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون ملكا ملء عين الزمن، وكان أئمة الدين وعلماء الإسلام وقضاتهم يتقربون إلى الله بخدمة الشعب والامتزاج به ورعايته كما رعى أنبياء اسرائيل خراف اسرائيل الضالة ، ولم تكن لتأخذهم الأنفة وعلوا علواً عظيماً ، فوجدوها كبيرة على أنفسهم ، إذا تولوا الخطابة والإمامة بمساجد الله ، وقد كان الملوك والخلفاء والعظماء يتولونها فى السابق ، وكان النبى يؤدى رسالته بالمسجد ويقوم بين الناس إماما وخطيبا .

وأعود لمسجد الناصر فهل تعرفون له مكاناً فتدلونى عليه ؟ من استملك أرضه واستحلّ بناءه ؟ وأين أنقاضه وحجارته ؟

وتعال معى إلى أثر النبى، وهى التى يريدون برغم أنف الزمن، تعويد الناس أن يطلقوا عليها اسم الساحل القبلى ، وابحث عن رباط الآثار النبوية ، تجده لا يزال قائما ، ولكن لو كان ملكا لطائفة من طوائف الأديان الأخرى ، سواء أقلت أم كثرت، هل ترضى لنفسها أن تتركه على مثل حالته ؟ وهل يليق بدولة إسلامية عربية أن تترك هذا الأثر الإسلامى المنسوب إلى النبى عليه الصلاة والسلام على ما هو عليه ، وهو أول مسجد يقابلك وأنت تدخل القاهرة من الجنوب ؟ ذكره القدماء وأشاروا إلى الآثار النبوية التى كانت مودعة فيه وإلى تبرك الناس به . وقال المقريزى إنه أدرك لهذا الرباط بهجة وللناس فيه اجتماعات ، وقال إن سلطاننا الملك الأشرف شعبان تغمده الله برحمته ، قرر فيه درساً للشافعية وكانت به خزانة كتب عامرة .

وهذه الآثار النبوية هى التى أوحت بالشعر لكثير من شعراء ذلك العهد ومنهم خليل بن أيبك الصفدى فقال :

أكرم بآثار النبى محمد ... من زاره استوفى السرورمزاره
يا عين دونك فانظرى وتمتعى ... إن لم تريه فهذه آثاره

فهل فكر أحد من الناس أن يعاد ترميمه وأن ترجع آثار النبى إليه ؟ وأن تزرع حوله حديقة على النيل ، وأن ترد إليه

مكتبته ، والكتب رخيصة الآن ؟ وأخيراً درس الحديث فى هذه البقعة ما أجمل وقعه على النفس !

هذه مصر القديمة أو العتيقة أو الساحل القبلى ، لماذا لا نعيد إليها اسم الفسطاط الذى عرفت به وعرف بها طوال القرون الماضية ، ونعيد اسمى العسكر والقطائع للجزء الشمالى منها ؟ فنقول قسم الفسطاط بدل مصر القديمة ، ومحطة الفسطاط ونضع مشاريع الإصلاح بشرط ألا نمس القديم ، ونتخذ فيها ما يحفظ الباقى منه .

إننى أرسلها كلمة حق فى سبيل الله ، لأنها فى نظرى البقعة الطاهرة ذات التاريخ التالد ، أبينا أم رضينا ، إذ يقع بينها وبين قرافة الإمام الشافعى مئات من المزارات والقباب والقبور والآثار التى تستحق عناية المسلمين ويقظتهم وانتباههم . وسيكون من نتيجة الوعى القومى العربى ، العود إلى الماضى ، وسيؤم هذه الجهة عالم الآثار للبحث عن آثارها وما ترك السلف ، ويأتيها عالم المزارات لتحقيق موضع قبر من قبور العلماء أو القضاة أو الأولياء ، ويجىء إليها المؤرخ المولع بتتبع حوادث الفتوح الإسلامية والعصور الأولى من الهجرة ، فهل نترك هذه الجهات كما هى عليه الآن بغير حمايتها ممن يهدمون الأنقاض وينقلون الأسمدة ، وهل ضاقت مصر القاهرة بضواحيها وبيدائها ، فلم تجد للمدابغ والمذابح ومخامر الأسمدة غير بقعة الفسطاط وجوار جامع العسكر ودار الإمارة ؟ بالله زر هذه الأماكن وتأمل ثم احكم مع وضم صوتك لصوتى لتقول :

إن أشنع تحقير لعصر الفتح الإسلامى وللمسلمين وكرامتهم وعزتهم فى القرن العشرين بقاء هذه الحالة فى جهة تتصل بماضيهم كما هى فى الوقت الحاضر .

***

وأعود لما كنت فيه ، إننا سنجد هناك ما يدعو الواجب الإسلامى والعربى إلى إعادته كما كان فى أوج عظمته ومجده ، مثل جامع عمرو وجامع العسكر ورباط الآثار والمدرسة المعزية ، ومنها ما يكتفى بالمحافظة عليه انتظاراً لجهود الأجيال القادمة ، ومنها ما اندثر مع الزمن فيجب تحقيق موضعه ، وبناء نصب يذكرنا به . ولقد سمعت من بعض الجهات أنها تطلب مليوناً من الجنيهات لتصرف على تحسين أماكن الآثار القديمة بالوجه القبلى ، فهل فكر أحد فى الفسطاط ، إنها المدينة التى خرجت من تحت الأنقاض ، أنفقوا عليها جزءا من أجزاء هذا المبلغ الضخم لتكون فرجة لمختلف الفرنجة من السائحين إذ فيهم من يشتاق لرؤية آثار العرب ويقدر ذوقه آثارهم إن لم نقدرها نحن .

ونحن لا نبالى بذلك ، بقدر اهتمامنا بالشعب المصرى الذى يطالب بما يذكره بماضيه وانحداره من تلك الأصول الثابتة . إن وراء الآثار الإسلامية مجداً وقوة ، إذ تمس من أبنيتها صولة تملأ النفس ، وعظمة تخلق جيلا من الناس ، سيسلك حتما مسلك السلف الصالح من المسلمين . وإياك أن ننسى فتصدق فينا الآية الشريفة بسورة الأنعام :

«فلما نسوا ما ذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون »

احمد رمزى

القنصل العام السابق بسوريا ولبنان .

فى إرشاد الأريب

إلى معرفة الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

— ٢٨ —

ج ٨ ص ٢٣٠ : قال أبو حيان انعقد المجلس وغص بأهله فرأيت العامرى وقد انتُدب فسأل أبا سعيد السيرافى فقال : ما طبيعة الباء من بسم الله ؟ فعجب الناس من هذه المطالبة ...

وفى ج ١٦ ص ٣١٢ :

وحبذا همة فى العزم ماانتُدبت   لمبهم الخطب إلا زالت الحجب

قلت : ضبطت (انتدب) فى الموضعين بلفظ ما لم يسم فاعله .

فى الجمهرة : ورجل ندب إذا كان معواناً منجداً ينتدب للامور إذا ندب إليها .

وفى الصحاح : ندبه لأمر فانتدب له أى دعاه فأجاب . ومثل ذلك فى (النهاية) وقال الامام الزمخشرى فى مقدمة مقاماته : وحين أتاح له الصحة التى لا يطاق شكرها انتدب للرجوع إلى رئاس عمله[1] فى إنشاء المقامات حتى تممها خمسين مقامة . وقال فى الشرح : ندب إلى كذا فانتدب له من كلام العرب .

فانتدب المتعدية لم ترد فى كلام العرب الأقدمين ولا المحدثين الأولين ولم يذكرها معجم نعرفه ما عدا (المصباح) .

وللعلامة الأستاذ الجليل أحمد بك العوامرى بحث محقق فى هذه اللفظة روى فيه قول القاموس وشرحه والأساس واللسان والمختار والمصباح ثم قال :

« فأنت ترى أن أحداً ممن روينا عنهم لم يتعرض لانتدب المتعدى إلا صاحب المصباح وتبعه الشيرازى فى (معيار اللغة) نقلا عنه ، فقد قال : (وانتدبه للأمر على افتعل : دعاه إليه ، فانتدب له يتعدى ولايتعدى) ، فقد جاء انتدب متعدياً ، والمصباح من الكتب التى نرجع إليها ونعول عليها ، وإن انفرد أحياناً بما لم يروه أحد ممن سبقوه فيما نعلم » .

(١) الزمخشرى : من تحريف العامة رجع إلى رأس عمله .

قلت : نقل (التاج) من (المصباح) مسمياً إياه شيئاً فى مادة (ندب) ، ولم يذكر هذا (الانتداب) المتعدى ولم يشر إليه . واليقين أن (التعدى) مولد متأخر نجم فى عصر العلامة الفيومى ، ولم يكن فى زمان الإمام السيرافى .

وإذا قبلنا الانتداب اللغوى العوامرى فى هذا الوقت ، فلن نقبل (انتداب) غيره ولا (حمايته) ولا (وصايته) ولا (مشاركته) ولا شيئاً من هـذه (المترادفات) المقوتات الملعونات اللواتى أطرفتنا إياها بعـد الحربين — عجّل الله بالثالثة ! — تلكم (الديمقراطيات) ذوات الختل والمين ، و « أنا أعرف الأرنب وأذنها[1] » .

***

ج ٨ ص ٢٤٦ : صاحب مخرقة وزرق .

وجاء فى الشرح : المخرقة مصدر خرق ، والمراد الحمق بالتمويه والكذب . الزرق : المعمى .

قلت : المخرقة : مصدر مخرق ، وقد أوردها اللسان والتاج فى هذا الفعل لا فى الفعل خرق . قال اللسان الممخرق المموه ، وهى المخرقة مأخوذة من مخاريق الصبيان . وقال التاج : المخرقة إظهار الخرق توصلا إلى حيلة وقد مخرق . والممخرق المموه وهو مستعار من مخاريق الصبيان ، هنا أورده صاحب اللسان ، وهو على شرط المصنف ... فبالأحرى أن تذكر المخرقة هنا ، وأما الجوهرى ، فإنه أورده فى (خرق) وحكم على أنها مولدة ، والميم عنده زائدة .

قلت : أوردها الصحاح بعد قوله : « والمخراق المنديل يلف ليضرب به ، عربى صحيح ... وأما المخرقة فكلمة مولدة » ، فكأن الجوهرى يشير إلى أن اللفظة مأخوذة من المخراق — كما قال غيره — ولا يدل إيراده إياها فى (خرق) على أخذها من هذا الفعل ، وأن ميمها زائدة . وفى شفاء الغليل : قال ابن جنى فى سر الصناعة فى وزن مفعل وقالوا : مرحبك الله ومسهلك ، وقالوا مخرق الرجل وضعها ابن كيسان ... وأصل اشتقاقها من المخراق ، وهو منديل يلعب به . وجاءت اللفظة فى المقامات الحريرية فى

(١) الأساس : وفى المثل : (أنا أعرف الخ) أى أعرفه ولا يخفى على كما لا تخفى على الأرنب .

المقامة الأربعين التبريزية : «فقال أبو زيد : إنها ومرسل الرياح ، لأكذب من سجاح . فقالت: بل هو ومن طوّق الحمامة ، وجنّح النعامة ، لأكذب من أبي ثمامة ، حين مخرق باليمامة .

وأما (الزرق) ، فهذا ما وجدته فيه . فى اللسان والتاج : ورجل زراق خداع ، وفى شفاء الغليل : أكذب من زراق ، وهو الذى يقعد على الطريق ، فيحتال وينظر فى النجوم ، وزرقت أى موهت عليه ، قاله أبو بكر الخوارزمى فى أمثاله ، ولم يذكر كونه مولداً ، لـكنه مذكور فى اللغة الساسانية ، وهو يدل على أنه مولد[1] . وفيه : بنو ساسان قوم من العيارين والشطار ، لهم حيل ، ووضعوا بينهم لغة اخترعوها ، ونظم فيها أبو دلف قصيدة طويلة ، وكان الصاحب يتحاور معه بذلك اللسان ويعجب بحفظه ، وهى قصيدة بديعة مذكورة فى اليتيمة . ويقع من لغتهم كثير فى أشعار المولدين ، فلا يعرفها الناس ... منها قول أهل مصر لآكل الحشيش مسطول ، ومنها زرق ، وهو تعاطى التنجيم وصاحبه زراق .

ذكر الثعالبى فى اليتيمة صاحب القصيدة التى أشار إليها الخفاجى فقال : أبو دلف الخزرجى مسعر بن مهلهل شاعر كثير الملح والظرف ... وكان ينتاب حضرة الصاحب .. ويتزود كتبه فى أسفاره ، فتجرى مجرى السفاتج فى قضاء أوطاره ، ولما أتحفه أبو دلف بقصيدته ، وذكر (فيها) المكدين .. وأنواع رسومهم ، وتنادر بإدخال الخليفة الطيع فى جملتهم ... اهتز ونشط وأجزل صلته عليها .

يقول العلامة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده المصري (رضى الله عنه) فى شرحه مقامات أحمد بن الحسين الهمذانى :

« بنو ساسان الشحاذون وأهل المسألة ، وساسان يقولون إنه كان رجلا فقيراً حاذقاً فى الاستعطاء ، دقيق الحيلة فى الاستجداء ، فنسب إليه المكدون . وعندى أن الساسانية وبنى ساسان ، وما شاكل ذلك من الألفاظ المشيرة بالتحقير لساسان ، وأنه جد السفلة أو شيخهم ، إنما جاءت بعد زوال الدولة الساسانية من الفرس التى كان مؤسسها أردشير بابك ، فلما محقها الإسلام ، وبقى من أطرافها أفراد أذلاء سقطوا فى ألسنة فتيان المسلمين الأولين ، فكانوا يطردونهم من مكان إلى مكان ، ويعيرونهم بعنوان آبائهم . فبعد أن كانت نسبتهم إلى ساسان نسبة مجد وحسب صارت نسبة قذف وسب . وكان فى شهر هذا الإسم بالتحقير غاية سياسية فضلا عما تطمح إليه نفس الغالب من إذلال المغلوب ، وهى أن لايبقى لدولة الساسانية ذكر فى لسان ، ولا أثر فى جنان ، ينبئ عن سلطانها أو رفعة شأنها ، وإذا خطر أمرها بالبال ، فلا يخطر إلا مع لازمه الجديد ، وهو السفالة والدناءة ، ثم نسى ذلك بمرور الأيام ، وبقى اللفظ مستعملا فى الشحاذين ، وهم أدنى طبقة فى الناس .

قلت : سجاح فى كلام الحريرى المذكور آنفاً هى بنت الحارث بن سويد بن عقفان من بنى يربوع ارتدت وتنبأت ، ثم حسن إسلامها ، وفيها يقول عطارد بن حاجب :

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

وأبو ثمامة هو مسيلمة بن حبيب الحنفى ارتد وفطس قتيلا كافراً و« لم يكن مسيلمة نبياً صادقاً ولامتنبياً حاذقاً » . كما قال الأحنف ابن قيس، وقد عده عربانيون غربيون — مهرئين ومبطلين[1] — وطنياً ثائراً ... وهى عداوة الإسلامية لا تزايل علماء القوم فى أقوالهم ولا ساستهم — أرى الله بهم[2] — فى أعمالهم . وقد نسبت إلى مسيلمة مقولات سخيفات صاغها صواغها كى يجعلوه شهرة ، منها قوله :

والمبذرات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما إهالة وسمنا — لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغى فناوئوه .

ومن تلك المقولات «ياضفدع ابنة ضفدع ...»وهى مشهورة.

---

(١) فى رسائل الهمذانى : « ... إلى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق » « عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يحق ومن يزرق »

قال العلامة الشيخ إبراهيم الأحدب شارح الرسائل فى تفسير الجملة الأولى : الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى ص ٤٢ . وقال فى تفسير الثانية : يزرق من زرقت عينه إذا انقلبت وظهر بياضها أو المراد من زرق الطائر أو من الزرقة ، وهو اللون المشهور ص ٥٧

قلت : التفسير الصحيح هو الموضح فى المتن ، وهو مراد الهمذانى . وقوله : (من الزرقة وهو اللون) الأصح وهي اللون .

(١) أهرأ : جاء بالهراء ، وأبطل : جاء بالباطل .

(٢) تقول العرب : أرى الله بفلان : نكل به ، ومعناه أرى عدوه فيه مايشمت به ، قال الأعشى :

وعلمت أن الله عمدا خسها وأرى بها . هذا تفسير الأساس ، وفى القاموس : أرى الله بفلان أى أرى الناس به العذاب والهلاك .

٢ – بمناسبة (المولد) :

لا تخـــافوا . . . !

[مهداة إلى (جماعة الاخوان المسلمين)]

للأستاذ علي الطنطاوي

لا تخافوا ، فوالله لا الفرنسيون ولا آل صهيون ، ولا دول الأرض كلها تستطيع أن تبيد شعباً عربياً مسلماً ، أو تذلّه فتسلبه عزّة نفسه وقوة إيمانه . فجدوا واعملوا ، ولا تدخروا وسعاً ولا طاقة ، وفتشوا عن القادة ، فإنما تنقصنا القيادة ، ولكن لا تخافوا على عرب فلسطين أو أفريقية ، ولا على مسلمي أندونسية ، فإن « محمداً » قد وضع في دمائهم المصل الواقي من الخوَر والجبن والتهافت ، وصبّ المناعة في أعصابهم صبًّا ، وعلمهم الصبر على المصائب وإن تتالت ، والشدائد وإن تعاقبت ، مع العمل على دفع المصائب ورفع الشدائد ، فكان الجهاد في سبيل الله ، وبذل النفس من أجل الدين والشرف ، فطرة في أتباع « محمد » ، وخلقة فيهم لو أرادوا الانفكاك عنها ما طاوعتهم قلوبهم !

ألا ترون إليهم كم غامروا وجاهدوا واحتملوا من الأذى ، ثم ها هم أولاء يدعون إلى الجهاد نزْلة أخرى فيمسحون الدموع ، ويربطون على الجروح ، ويقومون من القبور ، ويثبون مع الداعي يأخذون الطعام من أفواه بناتهم ، والكسى من نحور صبيانهم ، ليبيعوها فيشتروا البندقية ويمشوا إلى الجهاد !

أولئك هم الأبطال حقاً ، لا أعني الزعماء الذين يملأون بطونهم من الطيبات ، ويمضون إلى الحفلات بالسيارات ، ثم يقومون إلى المنبر لا يطيقون الوقوف من التخمة ، فيخطبون بصوت متقطع الأنفاس من البَشَم لا من الحماس ... يصرخون : نحن المجاهدون ، نحن الذين فعلوا والذين يفعلون ... ثم يروحون إلى دارهم فينامون وهم يحلمون بالمجد المؤثّل الذي شادته لهم خطبهم في الهواء !

ولا السياسيين الذين لا يعرفون من الوطنية إلا أنها أقرب الطرق إلى الكراسي ، فإن جاءت من قبل الشعب ، فهم من الشعب وإلى الشعب ، وإن لم تجيء إلا من الفرنسيس والإنكليز ، فما هم غرباء عن الإنكليز ولا عن الفرنسيس !

ولا التجار الفجار الذين يعبدون الدرهم والدينار ، والذين أجاعونا في هذه الحرب وعرّونا ، ليربقوا ما سرقوه من ثمن خبزنا وكسوتنا على قدمي كل بغي ، وزلفى إلى كل شيطان ، فهؤلاء جميعاً ليسوا منا ، وإنا منهم لبُرءاء !

وإنما أعني هذا الشعب الذي ثار في غوطة دمشق ، وميادين القاهرة ، وسهول العراق ، وصحاري طرابلس والجزائر ، ورحاب الريف الأقصى ، وثار في فلسطين من ديار الشام ، فأترع الدنيا بطولة ونبلا ...

هذا الشعب الذي خرج منه حارس أميّ من حراس الليل إلى غوطة دمشق ، فوقف على نهر ثورا ، وما نهر ثورا ؟ جدول عرضه سبعة أمتار ... ووقف جيش فرنسا في الشرق على الضفة الأخرى ، وبينهما جسر ، وما معه إلا فئة من الثوّار ، فلم يستطع جيش فرنسا وقائده الجنرال اجتياز هذا الجسر إلا بعد ما مات الحارس الدمشقي ، حسن الخراط[1] ، بعد ثمانية عشر شهراً كلها وقائع داميات ومعارك حاميات ، ولقد ردّ حسن وأصحابه الجيش الفرنسي مرّةً حتى ألجأوه إلى دمشق ، ثم حاربوه في شوارعها حتى أخرجوه منها إلى المزّة ، ولبثوا في دمشق ثلاثة أيام وما فيها فرنسي واحد .

هذا الشعب الذي فرّ ضابط من ضباطه من بغداد مع ستين جندياً ، إلى الصحراء التي قطعها (خالد) من قبل والعدوّ من أمامه ، والعدو من ورائه ، والعدوّ من فوقه ؛ ولو وقفت عليه سيارة ، أو كشفته طيارة ، لذهب بدداً ، فقطع الصحراء ، ثم بلغ فلسطين ، ثم قاد الثورة فيها ، فظفر كما ظفر خالد بالروم ، وقذف الله به الرعب في قلوب الجنـد ، فكانوا يرجفون هلعاً ،

---

(١) الذي وضع أول حجر في صرح الاستقلال ، وأول مسمار في نعش الانتداب . فلما ذهب الانتداب . وجاء الاستقلال نسي القائمون عليه أن يبنوا لحسن الخراط قبرا ، أو يجعلوا له في تاريخ الجهاد في المدارس ذكراً .

وينهزمون فزعاً إذا قيل : « فوزى القاوقجى » !

هذا الشعب الذى كان يحارب ضابطاً آخر من ضباطه مع فئات من أتباعه ، جيشان أوربيان جيش فرنسى فيه مائة ألف ، وجيش أسبانى فيه مائة وخمسون ألفاً ، هؤلاء كلهم يكافئون فى الميزان الأمير المسلم عبد الكريم بطل الريف[1] .

هذا الشعب الذى قابلت حفنة منه مفلولة السلاح ، قليلة العتاد ، انكلترا ذات الحول والطول ، ومالكة خمس العالم ، وثبتت فى وجهها سنتين اثنتين ، لا يوماً ولا يومين ، وأرتها من قوة الإيمان العجب العجاب :

بين يدى الآن عدد قديم من جريدة « بيروت » صادر سنة ١٩٣٧ ، أفتحبون أن ألخص لكم خبراً وجدته فيه :

« التقى فى (حيفا) نفر من المسلمين المجاهدين فى سبيل الله ، وفرقة آليّة من الجيش البريطانى ، ودارت رحى الحرب ، فهجم المجاهدون على الدبابات والمصفحات ، فكان إيمانهم أمضى من نارها وأقوى من حديدها ، فنفذ منها إلى قلوب من فيها ، فلم تغن عنهم صفائحهم ولا بارودهم شيئاً ، وأعان الله عليهم حزبه بالرعب ، فانهزموا ، وهربت مصفحة ... فطارت على وجهها ، لا تلوى على شيء ، إلى ... أتدرون إلى أين ؟ إلى عكا ... إلى صور ... إلى صيدا ... إلى بيروت ... إلى طرابلس — إى والله — ولولا أن الأخبار سبقتها إليها حملتها الأسلاك ، فقطعوا عليها الطريق بالحجارة ، ووقفوها ، لولّت منهزمة إلى بريطانيا ! »

هذا الشعب الذى أدهش أهل الدنيا بفتوحاته غابر الدهر ، وأدهشهم بثوراته حاضره ، وسيدهشهم فى مستقبله ويدعهم مفتوحة أفواههم من عظم مايرون ، حين يثب الوثبة الكبرى ، التى يعود بها كما بدأ شعباً واحداً ، يعبد رباً واحداً ، ويتبع الكتاب قانوناً واحداً ، لا تعجبوا فتقولوا : أين السبيل إلى الاتحاد الإسلامى ؟ ! فهذه انكلترا لها خمس الأرض ، قد تفرقت بلادها فى أرجائها ، ثم إن لها ملكاً واحداً وراية ورابطة ، أفنعجز أن نوجد للمسلمين نظاماً جديداً مبتكراً ، يجمع متفرقهم ، ويدنى بعيدهم ، ويصلحهم ويصلح لهم ؟ !

***

وليس الذى انتصر حسن الخراط ، ولا فوزى القاوقجى ، ولا عبد الكريم ، لأنه لا يعقل أن يغلب أفرادٌ دولةً ، ولكن الذى انتصر هو الإسلام ، ولو ثار هؤلاء لغيره ما صنعوا شيئاً ، إذ يُتركون لقوتهم وذكائهم وعلمهم ، وأعداؤهم أشد قوة وأحد ذكاء ، وأكثر علماً . الإسلام أعجوبة الدهر الباقية ، معجزة كل عصر ، فيا أيها الأغبياء الذين يجرؤون على قياس الإسلام بنزوات هتلر ، وخيالات لينين ، وحماقات كل متسلط على العقول أو البلدان ، يحسب لجهله أنه يشرع ديناً ويضع شريعة ، إنكم لفى ضلال مبين ، أين دين الهتلرية ؟ لقد ذهبت به هزيمة واحدة ، وهزيمة مثلها تذهب بباقى الحماقات التى حسبتموها أدياناً !

أما الإسلام : فهو فى ذاته قوة لا يحتاج إلى قوة أتباعه ليؤيدوه بها ، بل هو الذى يؤيدهم بقوته فينصرون . ولقد تأخر المسلمون ورجع بهم الزمان القهقرى ، ولكن الإسلام نفذ من الحجب ، ولبث يتقدم . إن المبشرين ينفقون كل سنة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ثم لا يأخذون واحداً ، حتى يأخذ الإسلام بغير مال ولا عمل تسعة وتسعين ...

الإسلام ينتشر اليوم بنفسه فى أرقى ممالك أوربة ، وفى أحط بقاع أفريقية ، والمبشرون لم يستطيعوا أن يدخلوا فى النصرانية (مسلماً) واحداً . إنهم يجمعون الجهلة من المغاربة الذين لا يعرفون ما الإسلام ، فيطعمونهم ويطمعونهم ، ثم يلقون عليهم عجائب المسيح ، فإذا وصلوا إلى موضع المعجزة ، صاحوا كلهم بلسان واحد متعجبين : الله أكبر ، لا إله إلا الله !

وينزل المبشر على القبيلة فى أواسط أفريقية فيعطى ويرغّب ، ويبقى سنة كاملة ، فلا يستجيب له منها إلا النفر المعدودون ، ثم يأتى التاجر المسلم الجاهل ، فينام عندهم ، ويأكل طعامهم ، فلا يأتى الشهر حتى تكون القبيلة كلها قائمة وراءه تصلى على دين « محمد » ... والمبشرون ينظرون ! !

---

(١) وقد نسي الناس أن يبحثوا : أين اليوم عبد الكريم ، وماذا فعل الله به ؟ !

أفتشكّون بعد هذا أن الإسلام قوة هائلة للمسلمين ؟ !

هل عرفتم الصواعق المنقضة ؟ هل رأيتم الصخور المنحطة من أعالى الجبال ، والسيول الجارفة ، والبركان الهائج ، و ... وكل ما فى الكون من قوة ؟ إنها لن تصد غضبة المسلم إذا كانت لله ولمحارمه ولدينه ! هل فيها أشد من الموت ؟ فهل يخيف الموت رجلاً خرج يطلب الموت ؟ !

* * *

إن سر قوة هذا الشعب ، إنما هى عقيدة القضاء والقدر على الوجه الإسلامى الصحيح ، ولكن القادة قلما يدركون هذا السر وقلما يعمدون إلى الاستفادة منه ، لأنهم نشأوا يوم كان الشرق ينظر إلى أوربة نظر التائه فى البحر إلى المنار الهادى ، ويأخذون كل ما يأتيهم منها على أنه الحق الصراح ، فكان فيما أخذوه وقلدوا فيه بلا فهم ، مبدأ (فصل الدين عن السياسة) ، ورأوه استقام فى النصرانية ، فحسبوه يستقيم فى الإسلام ، وما درسوا الإسلام على حقيقته ، حتى يعلموا أنه دين وسياسة وأخلاق ، وأن سورة (براءة) سياسة ، أفنفصل سورة (براءة) عن القرآن ؟!

وأمر آخر ، هو أن هذا الشعب تلقى عشرة آلاف دعوة إلى البذل فى سبيل الله ، فلباها كلها ، ولكن الدعاة لم يكونوا يلبون أنفسهم فى كل حين ، وكان فيهم من يلقى كلمته لا يتصور منها إلا ألفاظها ووقعها فى الآذان ، فهى من لسانه إلى أسماع الناس ، لا من قلبه إلى قلوبهم ، فهو من أجل ذلك يدع الشعب وحده ويمضى إلى داره ليتحدث عن براعته فى الإلقاء ، وقدرته على الخطابة ، وفيهم من يريد أن يسوق الناس ويقعد ، وهذا الشعب لا يطيع إلا من يمشى أمامه ، ويشاركه سرّاءه وضراءه ، أما المترفون الذين يريدون أن يناموا على عواتق الشعب ، ويغتنوا من مال الشعب ، فإن هذا الشعب ينكرهم ويبرأ منهم فعلى الزعماء أن يفهموا ذلك حق الفهم ، وأن يكون لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، يجوع كما يجوع قومه ، ويتعب كما يتعبون ، ويعمل بيده مثلما يعملون ، بنى معهم مسجد المدينة ، وحفر معهم الخندق ، وكان يسرع إلى الخطر بنفسه . وقع الصريخ مرة فى المدينة ، فخرج الناس عجلين ، فإذا هم برسول الله ، قد وصل إلى مكان الخطر على فرس عريان ، لم ينتظر حتى يسرج له ، ورجع يطمئنهم بأنه لا شىء هناك . ولقد ثبت يوم أحد ويوم هوازن لما انهزم الناس ، وكان يقول معرفاً بنفسه : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . لم يسق الناس إلى الموت ويقم فى قصره ، ولم يختص نفسه بمأكل ولا ملبس ولا مركب ، ولم يربط لنفسه وظيفة من بيت المال ، ولم يحمل أسرته وأهله على الناس ، ولم يول عاجزاً ولاية لصداقة أو قرابة ، ولم يبعد عنها قادراً لبغض أو عداوة ، ولم يتخذ قصراً ، ولم يقم حاجباً . وكذلك كان خليفته وصاحبه أبو بكر ، وكذلك كان أمير المؤمنين عمر ، ومن أجل ذلك أجمع الناس على طاعة أبى بكر وعمر ، فلم يختلف عليهما اثنان !

أما إن هذا الشعب أقوى الشعوب روحاً ، وأطيبها عنصراً ، وأصفاها جوهراً ، ولكنه ينقصه الزعماء ، فهاتوا واحداً مثل عمر ليقوده ، وانظروا كيف يأتى بالمعجزات !

(دمشق) **على الطنطاوى**

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —



بين عهدين : عصر إليزابث وعصر البيوريتانز

في اليوم التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٦٠٨ ، فتح الوليد جون ملتن عينيه على نور الوجود ؛ وبمولده رزقت انجلترة أعظم شعرائها قاطبة حتى يومنا هذا ، إذا استثنينا «شكسبير» وحده ، واستقبلت الدنيا قرين الثلاثة الأفذاذ من شعراء الغرب الخالدين : وهم « هوميروس » و « دانتي » و « شكسبير » .

وكانت انجلترة حين مضى الطفل يستقبل حياته ، تستدبر في حياتها الأدبية عهداً وتستقبل عهداً . كانت إذا شبهنا ذينك العهدين بفصلين من فصول السنة ، بين أعقاب الربيع وطلائع الصيف ؛ فأما الربيع الدبر ، فكان العصر الأليزابيثي ، وأما الصيف المقبل ، فكان العصر البيوريتاني . ولقد ألف مؤرخو الأدب الإنجليزي أن يسموا العصر الأول عصر « شكسبير » ، والعصر الثاني عصر « ملتن » .

وكان العصر الذي تستدبره انجلترة ويستدبره ذلك الوليد ، عصراً فذاً في العصور الأدبية جميعاً ، إذا استعرضنا التاريخ الأدبي لهذه الدنيا قديمها وحديثها ...

كان حافلا كما يحتفل الربيع بالضوء والنماء والزينة ، وكانت ألحانه كألحان الربيع أنماطاً تملأ الأسماع من كل ركن وفي كل سهل ، وكانت نفوس أهله تستشعر روح العصر كأقوى ما تستشعر الأنفس روح الربيع ، ففي كل قلب تسري الفرحة ، وفي كل جسم تدب القوة ، وفي كل ذهن يقوم إحساس قوي غامر بجمال الحياة ، والأمل في الحياة ، والرغبة في الاستزادة من لذائذ الحياة ...

وإنك لتجد لهذا العصر روحاً مميزة شاعت في حياة الناس ، وسيطرت على تلك الحياة ، وتتلخص هذه الروح فيما يفهم من كلمتين هما النهضة والحرية : فأما الأولى ، فقوامها إحياء علوم الأقدمين من اليونان والرومان ، وإحياء فنونهم وآدابهم ؛ وأما الثانية ، وهي ثمرة للأولى ، فقوامها الانطلاق من ليل العصور الوسطى ، والانعتاق من قيودها إلى حيث يفيض النور ، ويتسع مجال التفنن والابتداع .

أقبل الناس على دراسة مخلفات اليونان والرومان في حماسة ولذة ، وآمن الناس إيماناً قوياً بأن لهم أن يستمتعوا بالحياة أعظم استمتاع وأوسعه ، فيغنموا ما في الدنيا من مسرات وزينة ؛ فما منحوا الحياة لكي يقضوها مترمتين منها برمين بها ؛ وأيقن الناس أن من أهم ما يجب أن تتصف به حياتهم الجديدة هو بث روح الجمال في النفوس والعمل على السمو بها حتى تستشعر الجمال وتبحث عن الجمال وتأنس به لا كمتعة من متع الدنيا فحسب بل كنشوة روحية لا غنى للروح عنها إن هي أرادت التحليق والسمو . وتمسك الناس بفكرة لن يحيدوا عنها ، وذلك أن الله وهبهم العقل لينظروا ويتدبروا غير مقيدين بما سلف من آراء مهما بلغ من قيمتها ، ولذلك كرهوا القيود كرهاً شديداً وأحبوا الحرية حباً شديداً ، وظهر أثر هذا الحب فيما ابتدعوا من شعر ونثر ، لا في مادة ذلك الشعر وذلك النثر فحسب ، ولكن في الطريقة والصورة بل وفي الألفاظ المستعملة كذلك .

وملأ قلوب الناس التطلع إلى توسيع أفق الحياة العقليـة فى كل ناحية من نواحيها ، وقد جاءهم ذلك مما تم لهم فعلا من توسيع أفق الحياة المادية بعد كشف الدنيا الجديدة ، نتيجة لمغامرة المغامرين منهم وراء البحار فى الغرب وفى أسواق آسيا فى الشرق؛ وأقبل الناس على كل طريف يتقصونه من الأنباء عن العالم الجديد وعن الشرق ، فأثر ذلك فى اتجـاه عقولهم وفيما أنتجته تلك العقول ، تلمس ذلك فى الكثير من قصصهم ومسرحياتهم وما تعج به من مواقف مثيرة وحوادث تستهوى الألباب وأفانين من مبتدعات الخيال تبث المرح فى النفوس وتحملهـا على الإعجاب والاستزادة وتيسر لها سبل الابتكار والخلق .

وطاف بالناس شعور بمجد وطنهم وعظمته وتفوقه على غيره ، وبخاصة بعد أن حطم أسطولهم الأرمادا أسطول أسبانيا الهائل ؛ كما ملأت أفئدتهم وطنيـة صادقة يلتقى عندها ويتفق عليهـا المتنازعون فى الدين من الكاثوليك والبيوريتانز ؛ وإلى جانب ذلك كله أنجب العصر من أفذاذ الرجال فى كل ميدان من ميادين الحياة ما يصعب الوقوع على أمثالهم مجتمعين على هـذا النحو فى غيره من العصور ، فلم تخل ناحية من النواحى من أماثل نابهين، فى الأدب والفن والفلسفة وفى الجندية والبحرية والسياسة والحاشية عظماء يزدان بهم العصر وتعظم بهم الحياة .

هذا هو العصر الذى كانت تستدبره انجلترة ويستدبره ملتن ، أو هذا هو الربيع الراحل ؛ ولن تعدم العين فى أخريات الربيع أن تقع على زهرات شتيتة هنا أو هناك فى جنته التى تنذرها أنفاس الصيف بالفناء القريب ؛ ولن تعدم الأذن كذلك أن تسمع فى ذلك الفردوس الذاهب نغمات حائرة بين الحياة والموت . وكذلك كان الحال فى أخريات عهد إليزابث ، فكانت بعض ثمرات العقول مثل كتابات بيكون لا تزال تقدم إلى المجتمع ، كما كانت بعض ألحان العصر كأصداء الربيع الذاهب لا تزال توقع على أوتار شكسبير إذ لم تسكت تلك الأوتار إلا بموت صاحبها عام ١٦١٦ أى بعد ثمانية أعوام من مولد ملتن .

وأقبل الصيف فى إثر الربيع فجاء منذراً بالقيظ تلفح أنفاسه لفحاً يبدو قاسياً وتشعر النفوس فى مقدمه بالصرامة والقسوة والعبوس حتى كان ينسيها ذلك طلاقة الربيع ومفاتن الربيع .

تمكنت البيوريتانية من المجتمع وتسلطت على الناس ؛ وكان ملتن يستقبل شبابه بينما كان ذلك المذهب يستقبل فتوته وسلطانه . واعتنق ملتن ذلك المذهب وتحمس له ، ولكن كانت قد استقرت فى حسه وخياله تلك المواكب التى انطوت ، وتلك النغمات التى احتبست ، فراح كالطائر المنفرد المتخلف يغنى فى هجير الصيف ألحان الربيع !

وما هذه البيوريتانية التى سوف يعتنقها الشاعر فى شبابه والتى سوف تؤثر تأثيراً قوياً فى مزاجه وفنه وسلوكه وموقفه من حياة عصره ؟ أجل ، ما هذا الصيف الصارم العابس الذى أعقب ذلك الربيع الرضى الطلق ؟

* * *

جدير بنا أن نعرف أولا من هم البيوريتانز ولماذا أطلق عليهم هذا الإسم قبل أن نتعرض لمذهبهم ونظرتهم إلى مسائل الحياة وأثر تلك النظرة فى العصر الذى تم لهم فيه السيطرة والجاه .

أطلقت هذه الكلمة أول ما أطلقت على فريق من رجال الكنيسة فى انجلترة فى عهد الملكة اليزابث ، فقد أرادت هذه الملكة أن توحد طقوس العبادة فى كنائس مملكتها جميعاً ، وكان أبوها الملك هنرى الثامن قد فصل الكنيسة فى انجلترة عن كنيسة روما عام ١٥٢٩ بسبب ماشجر بينه وبين البابا من خلاف يتصل بقضية زواجه ، وجعل الملك نفسه الرئيس الأعلى للكنيسة بدلا من البابا ؛ فأصدرت الملكة عام ١٥٥٩ المرسوم الذى يوحد العبادات ويحرم من صورها ما لم يرد ذكره فيه ؛ فكان رجال الدين حيال هذا المرسوم فريقين ، فريقا رضى عنه ، وفريقا ود لو أنه كان أكثر تطرفا فى الابتعاد عن روما فأبطل ما لا يزال من صور العبادات يأتى على شاكلة ما يتبع فى الكنيسة البابوية وما يعد فى نظرهم من البدع والخرافات . وهذا الفريق الثانى هم الذين أطلق عليهم إسم البيوريتانز أو المطهرون ، وذلك لأنهم كانوا يريدون تطهير العبادات من آثار كنيسة روما . ولم يمض على

صدور ذلك المرسوم إلا نحو خمسة أعوام حتى كان هذا الاسم شائعاً على الألسن يطلقه الناس على هذه الفئة المغالية فى القضاء على كل ما له صلة بروما .

ولكن ما هى إلا أعوام ثمانية أخرى حتى خرج بعض الناس ممن كرهوا هؤلاء المغالين بهذا اللفظ عن مدلوله البسيط فصاروا يطلقونه على كل من يرمونهم بالمروق من الدين ليلحقوا وصمة الفسوق بالبيوريتانز إذ يسلكونهم والفاسقين والمنافقين فى سلك واحد ، حتى لقد أوشك أن ينسى مدلول الكلمة كما نشأت فى وضعها الأول وأصبح البيوريتانز فى نظر خصومهم ومن يجهلون أغراضهم هم الضالين الملحدين .

وتزايد استعمال الكلمة فى مدلولها الجديد الظالم حتى أصبحت البيوريتانية فى أذهان بعض الناس مرادفة للإلحاد والنفاق والضلال وما كانت حين نشأت إلا الرغبة فى الاصلاح والتطهر من البدع والتملص من كل ما لا يعد من جوهر الدين .

وزاد بعض خصوم المذهب بعداً بالكلمة عن معناها الأول فنسوا ما فى ذلك المعنى من عنصر دينى طيباً كان ذلك العنصر أو خبيثاً ، وصارت عندهم كلمة سباب عامة يعبرون بها عن كل معيب ويطلقونها على كل من يريدون الطعن فيهم من الناس كما يطلق لفظ الشيطان مثلا على كل شرير أو معتد أو عابث .

ولما شاعت البيوريتانية فى المجتمع ونمت كمذهب لا يقتصر على النظرة الدينية بل يتناول كذلك السياسة والخلق والفكر والفن دأب خصوم هذا المذهب فى محاربته بالطعن فى أشياعه ، وحسبهم أن يطلقوا على الرجل منهم ذلك اللفظ الذى بعد عن مدلوله كل البعد والذى أصبح مسبة عامة ليشفوا ما فى صدورهم من غل . تجد مثلا واضحا لذلك فى العبارة الآتية التى وصفت بها كاتبة فى أوائل القرن الثامن عشر ما كان يلاقى البيوريتانز من خصومهم فى عهد الملك جيمس الأول الذى خلف إليزابث على العرش عام ١٦٠٣ أى بعد نحو أربعين عاما من مبدأ ظهور البيوريتانية قال: « إذا أظهر الرجل حزنه على ما ينال شرف الملكة وما يصب من العذاب على رؤوس الرعية فهو بيوريتان ؛ وإذا تمسك أحد أفاضل الريف بقوانين الأرض وحرص على المطالبة بحسن الإدارة وانتظام الحكم فهو بيوريتان ؛ وجميع من لا يأبهون بمطالب رجال الحاشية الممتدة أيديهم والقساوسة المعتدين على الحقوق وذوى الرذيلة من النبلاء فهم كذلك بيوريتانز ! ومن لا يطيقون سماع الأيمان الحانثة والحوار الذى يكتنفه الأسفاف ، والتعريض الماجن والاستهزاء بكلام الله فهم جميعا فى عداد البيوريتانز ؛ ومتى كانوا بيوريتانز فهم أعداء الملك وحكومته وهم متمردون متبجحون منافقون وهم الطاعون فى هيكل المملكة »

على أن هؤلاء البيوريتانز على الرغم من مطاعن خصومهم يتكاثر عددهم ويتغلغل فى النفوس مذهبهم منذ أواخر القرن السادس عشر ، ولن يزالوا فى تكاثرهم وتحمسهم حتى تم لهم السيطرة السياسية على البلاد عقب الحرب الأهلية التى انتهت بأعدام الملك شارل الأول ، وكان مرد الانتصار على الملك وحزبه إلى عبقرية حربية ظهرت فى شخص أليفر كرمويل أحد أشياع ذلك المذهب .

يتبع **الخفيف**

العـــرب واليهود

للدكتور جواد على

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

وقد قرب هذا الدور على الأخص اليهود من العرب كثيراً . فإن دخول اليهود إلى أراض عربية بحتة والتجاءهم إليهم بعد طردهم عن أوطانهم ، جعلتهم يطلبون حماية العرب. ولأجل تقريب أنفسهم من القبائل العربية تظاهروا بروابط النسب والقربى ونشروا سلسلة الأنساب المعروفة عند العرب . وحاولوا ولا شك التأثير على العرب من النواحي الأخرى ، من النواحي الدينية ومن النواحي الثقافية ؛ إلا أنهم لم يتمكنوا من التأثير فى العرب من الناحية الدينية على مايظهر، فقد كان للعرب منذ القدم اعتزاز عظيم بآلهتهم وبأصنامهم ، ولم يكن من السهل عليهم ترك عبادة هذه الأصنام . فى حين أن اليهود كانوا يعبدون إلهاً واحداً خلق هذا الكون بأجمعه ، إلا أنه إله شعب واحد هو إله إسرائيل فحسب . والظاهر أنهم لم يرغبوا فى إشراك شعب آخر بعبادة هذا الرب الذى خصص نفسه بهذا الشعب .

أما من النواحي الأخرى فلم يكن هنالك مانع يحول بين اليهود وبين الشعوب الأخرى ، لأن فى رابطة النسب خدمة عظيمة تساعد هذه الجاليات اليهودية كثيراً ؛ فنشروا الأساطير اليهودية بين العرب وعلموهم شيئاً كثيراً من أخبار التوراة ، ولا سيا ما يخص الخلقة ومنشأ التكوين وقصص بنى إسرائيل . يجعل جدول الأنساب الوارد فى العهد القديم العرب فى نفس الحقل الذى دون فيه نسب اليهود . فابراهيم هو جد العرب الأكبر كما هو جد اليهود . وإذا كان إسماعيل هو والد العرب الإسماعيليين وهو ابن ابراهيم فإن اليهود وهم من نسل ابراهيم على هذا هم أقرباء العرب وأبناء عمهم ومن شجرة واحدة .

وتنتسب بعض القبائل العربية الشمالية إلى إبراهيم رأساً . وإبراهيم على ما تقول التوراة لم يترك له خلفاً فى البلاد العربية ، وإنما ذهب نسله إلى تلك البلاد ، وأن إبراهيم كان قد ذهب إلى فلسطين فانتشر أحفاده الذين تكاثروا وظهرت من ذرياتهم تلك الشعوب[1] .

وإسماعيل هو ابن إبراهيم من زوجته هاجر التى تعرف عليها أثناء هجرته إلى فاران (paran) فى القسم الشمالى من شبه جزيرة طورسيناء . وقد ترك إسماعيل له اثنى عشر ولداً تشعبت منهم القبائل الإسماعيلية التى انتشرت فى شبه جزيرة طورسيناء وفى وادى الأردن[2] . وعلى هذه النظرية العبرية يكون موطن القبائل الإسماعيلية هذه المنطقة التى نزل بها إبراهيم وإسماعيل وهى منطقة فلسطين وطورسيناء وشرق الأردن ومنها انحدرت القبائل الإسماعيلية إلى سائر الأنحاء كالحجاز .

ومن رأى المستشرق مرجليوث أن كلمة « اسماعيل » العربية التى وردت فى القرآن الكريم عدة مرات ، هى ذات الكلمة التى وردت عند اليهود بصورة « يشماعيل » مبتدأة بحرف العلة . وإن هذا التشابه يجعلنا نعتقد بأن العرب قد أخذوها عن اليهود بطريق اليونانية أو السريانية ، لأن النصوص العربية القديمة التى وردت فيها كلمة « اسماعيل » كانت تكتبها « يشماعيل » ، أى مبتدأة بحرف « ى » ، أى على نحو ما كان يدونه اليونان أو السريان[3] .

ويرى هذا المستشرق أيضاً أن العرب القدماء لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ابراهيم ، ثم تعلموا ذلك فى أيامهم المتأخرة بعد اتصالهم بيهود الحجاز ، فلما تعلموا ذلك صاغوا الكلمة بالقالب الذى صاغوا به كلمتى « إسماعيل » و « إسرائيل » وما شابه ذلك[4] . وعلى كل ، فإن هذا هو رأى مستشرق وهو رأى يحتاج إلى دليل .

وما دامت معرفتنا بالأساطير العربية القديمة وبديانة العرب وأخبارها لا تكاد تكون شيئاً ، فإننا لا نستطيع أن نبحث فى هذا الباب بحثاً صحيحاً . والمصادر العربية الكتابية لا تشير على كل حال بأية إشارة إلى اطلاع العرب على جداول الأنساب اليهودية ، بل يظهر منها أن القبائل العربية كانت تنتسب حينما تنتسب إلى آلهتها المحلية ، فقد كان لكل قبيلة صنم أو أصنام

(١) مرجليوث Margoliouth p, 12
(٢) Hastings. Dictionary of the bible p,22
(٣) Margoliouth p, 12
(٤) نفس المصدر .

تنتسب إليه أو إليها ، وقد كانت هـذه الأصنام هي رابطة تلك القبائل ، وكانت تحتمى بتلك الأصنام ، كما تدل على ذلك عبارات مثل « عم صدوق » أو « عم نكرح » وما شابه ذلك[١] .

وإذا ما تقوت القبيلة وازداد نفوذها ، تقوى صنمها طبعاً ، وكثر أتباعه ومعظموه ، فتندمج القبائل المتحالفة بها ، وتنتمى إليها وتنتسب إلى ذلك الصنم ، وتصبح وكأنها من نفس تلك القبيلة[٢] . وهذا النوع من النسب الذى يكثر وجوده فى مملكة المعينين والسبئيين لا يشابه جدول الأنساب عند اليهود[٣] .

وقد حاول المستشرق ماركليوث البحث عن الوطن الأصلى لليهود ، ذلك الوطن الذى أهملته الكتب اليهودية تماماً ولم تتعرض له ألبتة . وقد قارن بين أسماء الآلهة عند اليمانيين وطريقة التفكير الدينى والمعتقدات وأسماء الأشخاص عند عرب الجنوب وبينها عند اليهود ، فتوصل إلى رأى هو أن الوطن الأصلى لليهود لم يكن أرض فلسطين أبداً ، بل قد تكون أرض اليمن ، وهى أرض الهجرات السامية ، ذلك الوطن الذى ارتحل عنه هذا الشعب[٤] .

على كل ، فقد هاجر اليهود إلى أرض فلسطين ، وصاروا يحاربون الأمارات والمشيخات مدة طويلة . وقد تألف من هذه الأمارات حلف قوى لطرد العبرانيين أمثـال : الـكنعانيين والعموديين والحيثيين والفلسطينيين الذين كانت لهم حكومة متحالفة تشمل خمس مدن أو أمارات صغيرة ، هى غزة وأشدود وعسقلان « اشقلون » وجت « معناها المعصرة » وعقرون[٥] .

أضف إلى كل ذلك الأمارات الأخرى أمثال إمارة العموتيين وإمارة بنى عمون[٦] وإمارة موآب[٧] وأدوم التى تقع فى جنوب البحر الميت على تخوم موآب فى مرتفع من الأرض يطلق عليه اسم جبل سعير . وقد عارضت كل هذه الأمارات الاسرائيليين وقطعت عليهم الطريق ، وكبدوهم خسائر كثيرة لم تنقطع طول مدة بقاء اليهود فى فلسطين .

(١) نفس المصدر .
(٢) نفس المصدر راجع Rhodokankis stud.
(٣) Margoliouth p, 13 (٤) Margoliouth p, 12
(٥) قاموس الـكتاب المقدس جـ ٢ ص ١٨٢ hastings p ,674
(٦) قاموس الـكتاب المقدس جـ ٢ ص ١١٦ .
(٧) قاموس الـكتاب المقدس جـ ٢ ص ٣٨٥ .

دخل اليهود فلسطين ومعهم فـكرتهم الدينية ، إلا أن هذه الفـكرة لم تكن تتجاوز تلك العقيدة التى نقرأها فى التوراة والتى تتمثل فى سفر يشوع على الأخص . وهى أن إله إسرائيل قد وعد شعب إسرائيل بأرض إسرائيل ، فعلى هذا الشعب أن يخلص تلك الأرض من أيدى الشعوب السا كنة فيها ، وعلى يشوع أن يتشجع ويحارب ليخلص تلك الأرض وليسيطر عليها من نهر الفرات الـكبير إلى البحر[١] . فلما دخل الاسرائيليون تلك الأراضى وجدوا شعوباً كانت مقيمة فيها خضعت لهم ولـكنها لم تخرج عن أرض فلسطين بل ظلت جذورها باقية إلى زمن الفتح الاسلامى[٢] . ويرى بعض الاختصاصيين فى التاريخ العبرى أن الـكنعانيين من شعوب فلسطين القديمة على الأخص لم يرحلوا عن فلسطين بل ظلوا فيها إلى الفتح الاسلامى . ولما أصبحت فلسطين أرضاً إسلامية دخل هؤلاء فى الديانة الاسلامية وظل بعضهم على دين النصارى حتى هذا اليوم . ويستطيع الانسان على ما يقوله هؤلاء الثقات فى التاريخ العبرى أمثال الأستاذ روبنسون والسير فرازر أن يلاحظ ملامحهم فى سكان فلسطين الذين يتكلمون اللغة العربية ، إلا أن كثيراً منهم ينحدر من ذلك الجيل الـكنعانى القديم صاحب فلسطين قبل هجرة العبرانيين إلى الأرض الموعودة بمئات وألوف السنين[٣] . وهم يمثلون اليوم أرضهم خير تمثيل[٤] .

وهنالك فرق عظيم بين هذه الهجرة العبرية التى كانت تحمل فـكرة دينية وبين تلك الهجرة الاسـلامية التى كانت تحفزها فـكرة دينية أيضاً . فالمسلمون الذين غادروا الحجاز لنشر كلمة التوحيد لم يكتفوا بالحجاز أو فلسطين أو سوريا والعراق وبشبه الجزيرة كلها ، بل أرادوا فوق ذلك نشر دين الله فى جميع أنحاء الأرض فى كل بقعة يقيم فيها إنسـان . ففكرتهم إذاً فـكرة إنسانية عالية تستوى عندها جميع الأقوام والجنسيات فى الحقوق والقانون . أما هجرة العبرانيين فقد كانت موضعية تريد شعباً واحداً من بين سائر الشعوب .

جواد علي

(١) راجع سفر يشوع أصحاح ١ آية ١ وما بعد .
(٢) Th. Robinson a history of Israel. Jeffries p, 5
(٣) James Frazer jeffries p 5 falk lore in the old testament
(٤) Jeffries p, 5

الـكذب والنسيان

كما براهما « أبو العلاء المعرى »

للأستاذ كامل كيلانى

— ٢ —

١٠ — قصر الكنية

ثم راح يعاتبه على قصر كنيته ، بعد أن امتدحه فى رسالته تلك بأنه قد برأ نظمه من الضرورات التى يضطر إليها غيره من الشعراء ، فقال بعد بيان ممتع : فن هجر هذه الضرورات وغيرها مما لو ذكرته لطال به الـكتاب ، كالتقديم والتـأخير ، والفرق بين المضاف والمضاف إليه .. فـكيف استجاز أن يقصر كنية صديقه . أما السِّمة (أى : الإسم) فغيرها ، وأما الـكنية فقصَرها . فإنا لله وإنا إليه راجعون . هـذا أمر من الله ، ليس من ضعف الشاعر ولا وهن القائل ، ولـكنه من سوء الحظ لمن خوطب ، والاتفاق الردىء لمن سُمِّى وذكر .

١١ — ضرورات الشعر

ثم قال وأبدع : ولا يقل سيدى الشيخ — أدام الله عزه — قد قصرت الشعراء ، قديمها ومولَّدها ، وأولها السالف وآخرها ، وفصيحها الطَّبِيعىء[1] ومتكلَّفها .

فإنه لو كان استعمل ضرورة غير تلك لقبلت حجته . ولـكنه ألغى الضرورات بأسرها ، ورفض العيوب فلم يستعملها . وإنما تنوّنت من ذلك لأنى قصير الهمة ، قصير اليد ، مقصور النظر (أى : مكفوف) مقصور فى البيت (أى : لازم له) محبوس فيه . فما كفانى ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الإسم . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

١٢ — سبب النسيان

وما زال المعرى ينتقل فى هذه الرسالة من طرفة إلى طرفة ، ومن دليل إلى دليل ، وهو يدس فى أثناء مديحه عتابه ، ويمزج شهد الـكلام وصابه ، حتى كشف لنا عن سر ذهول صاحبه عن اسمه . فقال : وفى كتابه — أدام الله عزه — شكوى رعشة ، وما أعرف سبباً يؤدى إلى ذلك إلا أن يكون الافراط فى درس العلم ، فقد قال الشاعر :

أرعشتنى الخمر من إدمانها ... ولقد أُرعِشتُ من غير كبر

والعجيب أن المعرى كان لا يخشى من مصائب الدهر إلا أن تسلمه الشيخوخة إلى الذهول والنسيان وتفضى به إلى الهتر والخبال ، فقال فى لزومياته :

وما أتوقى والخطـــوب كثيرة
يد الدهر إلا أن يَحُل بى الهُتْرُ

والهتر — وقاكم الله ووقانا شره — هو ذهاب العقل من كبر ، أو مرض ، أو حزن . ولقد ظل شيخنا محتفظاً بيقظة ذهنه ورجاحة عقله حتى لحن ذات يوم ، فتنبأله بعض خاصته بدنو أجله ، وصح ظنه فمات بعد أيام قلائل .

أما النسيان فيعلله المعرى فى رسالة الغفران أبرع تعليل فى حوار ابن القارح والجنى أبى هدرش . يقول ابن القارح : « أيها الشيخ ، لقد بقى عليك حفظك » فيقول الجنى : « لسنا مثلكم يا بنى آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة ، لأنكم خلقتم من حما مسنون ، وخلقنا من مارج من نار » .

١٣ — طول الأمد

وإذا علل أحد الشعراء نسيانه بفرط الحب ، فقال :

« وحبك قد أنسانىَ الشىء فى يدى
وأذهلنى عن كل أمر أحاوله »

فإن المعرى يرى أن طول الأمد كفيل بنسيان كل شىء ، فيقول فى لزومياته :

« كل ذِكر من بعده نسيانُ ... وتمرُّ الدهور والأزمانُ »

ويقول :

سيُنْسَى كل ما الأقوام فيه ... ويختلط الشآمى باليمـانى

ويقول :

وسوف ننسى فنمسى عند عارفنا ... ومالنا فى أقاصى الوهم أشباحُ

ويقول :

سيسأل ناس ما قريش ومكة ... كما قال ناس ماجديس وماطسم

أرى الدهر يفنى انفسا بفنائه ... ويمضى فما يبقى الحديث ولاالرسمُ

---

(١) هذه الـكلمة نص على أنى يقطع بأى كلمة طيعى هى الصواب لا كلة طبعى .

١٤ — الهول والفزع

والمعرى يرى أن الهول والفزع ينسيان أذكر الناس وأذكاهم ، فنرى فى غفرانه صاحبه ابن القارح يسأل الخليل بن أحمد فى الجنة عن أبيات ينسبها الرواة إليه فيقول الخليل :

« لا أذكر شيئاً من ذلك ، ويجوز أن يكون ماقيل حقاً »

فيقول ابن القارح : « أنسيت يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكى العرب فى عصرك ؟ » فيقول الخليل : « إن عبور الصراط ينفض الخلد مما استودع » .

ونرى أبا العلاء يتخيل صاحبه ابن القارح وهو يسأل « تميم ابن أُبَىّ » عن معنى كلمة المرانة التى وردت فى قوله :

« يا دار سلمى خلاءً لا أُكلّفها

إلا المرانةَ حتى تسأم الدّينا »

فيقول تميم : « ما أردت بالمرانة فقد قيل إنك أردت اسم امرأة وقيل هى اسم أمة ، وقيل العادة » فيقول تميم : « والله ما دخلت من باب الفردوس ومعى كلمة من الشعر أو الرجز . وذلك أننى حوسبت حسابا شديداً ، وقيل لى كنت فيمن قاتل « على بن أبى طالب » وانبرى إلى النجاشى الحارثى ، فما أفلتُ من اللهب حتى سفعتنى سفعات . وإن حفظك لَبُقّى عليك . كأنك لم تشهد أهوال الحساب الخ .

١٥ — هول الموت

أما هول الموت فينسى كل شىء ويذهل الشجاع عن كل شىء . قال المعرى :

والموت ينسى كَمِىّ الحرب صارمه
ودرعهُ وفتـــاة الحى مِجْولَها

وقال :

وأظننى أن لست أذكر بعده ما كان من يُسر ومن إملاق

١٦ — نشوة الخمر

وقد رأينا — فيما سبق — كيف رأى فى الخمر مذهلا له عن كُربتهِ ، منسياً لغربته ، فتمنى أن تصبح حلالا لتذهله عن همومه وأحزانه ، فلا يفوتنا أن نذكر قوله فى لزومياته :

« أيأتى نبى يجعل الخمر طِلْقة فتحمل ثقلامن همومى وأحزانى
وهيهات لوحلت لما كنت شاربا مخففة فى الحكم كِفّة ميزانى »

١٧ — شعر آدم

والمعرى يقول فى لزومياته فى معرض الإشارة إلى نسيان الشيخ آدم أبى الخليقة :

احتج فى الغى بالنسيان والدهم
وقد غووا بادكار ، لا أقول : نَسُوا

ويقول فى غفرانه ، متخيلا صاحبه ابن القارح وقد عمد لمحله فى الجنان ، فيلقى آدم عليه السلام ، فى الطريق ، فيقول : يا أبانا صلى الله عليك ، قد رُوى لنا عنك شعر ، منه قولك :

نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليهـــا نعودْ
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس تمحوه ليالى السعودْ »

فيقول : «إن هذا القول حق . ومانطقه إلابعض الحكماء . ولكنى لم أسمع به إلا الساعة .

فيقول : «فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت فقد علمت أن النسيان متسرع إليك . وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوة فى قرآن محمد (ص) : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما» وقد زعم بعض العلماء أنك سميت إنسانا لنسيانك ، واحتج على ذلك بقولهم فى التصغير : « أُنَيْسِيان » وفى الجمع أناسى . وقد روى أن الإنسان من النسيان ، عن ابن عباس . وقال الطائى :

لا تنسَيَن تلك العهود ، وإنما سميت إنســانا لأنك نامى

فيقول آدم (ص) أبيتم إلا عقوقا وأذية : إنما كنت أتكلم العربية وأنا فى الجنة . فلما هبطت الأرض نقل لسانى إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت . فلماردنى الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت على العربية . فأى حين نظمت هذا الشعر . فى العاجلة أم الآجلة . والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة . ألا ترى قوله : « منها خلقنا وإليها نعود » فكيف أقول هذا القول ولسانى سريانى . وأما الجنة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدرى بالموت فيها ، وأنه مما حكم على العباد . وأما بعد رجوعى إليها فلا معنى لقولى : « وإليها نعود » لأنه كذب لا محالة . ونحن معاشر أهل الجنة خالدون مخلدون . فيقول : « إن بعض أهل السير يزعم أن هذا الشعر وجده يعرب فى متقدم الصحف السريانية ، فنقله إلى لسانه . وهذا لا يمنع أن يكون . وكذلك يروون لك — صلى الله عليك — لما قتل قابيل هابيل :

حرية الرأى

فى مدى العوامل غير الشعورية

للأستاذ حسين الظريفى

إن حرية الرأى لاتتمثل فى أن لنا أن نختار فيما نفكر وفى طريقة التفكير وفيما نصل اليه من مبدأ وغاية ، ثم نقف عند هذا الترفع من الحرية لانتقدم . وانما هناك شىء يسبق الاختيار، هو أن نكون بمعزل عن التأثر بما ورثنا وبما حرثنا حتى اذا تلقينا الفكرة من غيرنا أو من عند أنفسنا بصفاء لايشوبه كدر كان من حقنا أن ندعها أو نصدع بها ، وتلك هى حرية الرأى فى شقيها المتلازمين .

إذا كان من حق الباحث أن يكون حر الاختيار تجاه أية فكرة تعن له من محيط نفسه أو من الخارج ، فأن من حق تلك الفكرة ألا تنظر بالعين الملونة بأصباغ الماضى القريب والبعيد ، وما قيمة الخيرة فى وسط غير مختار ؟

لقد عرف التاريخ أناساً كان فى وسعهم أن يأتوا ببعض الحقائق فى بعض المواقف ، وكان الظرف الذى عاشوا فيه يدعو إلى هذه الدعوة ويهيىء لها ، إلا أنهم كانوا من الخضوع لما عرفوا وألفوا بحيث تهيبوا التفكير بكل جديد فروا بالحياة ولم تمر هى بهم . وعرف التاريخ أناسا جاؤوا بالفكرة الصالحة وبالمبدأ الصالح ثم قبروا وما جاؤوا به ، ملومين غير مكرمين . ذلك لأن آراءهم لم تلمس إلا بيد كانت داخل قفاز مما وهب الماضى وكسب الحاضر، فتراءت بلون غير لونها وأعطى لها دون وزنها . وكذلك يفعل المقلدون .

وظاهر ، أننا نرث ماترك لنا الاولون من عقائد وتقاليد . . . بشىء كثير من التقديس . وكل فكرة جديدة تعن لنا أو تعرض علينا إنما يحدد لها أمد البقاء بالقياس إلى قوة اصطدامها بالقديم الموهوب أو المكسوب . أما التقديس فأنه وليد الغموض الذى يحيط بنشأة كل قديم ، ولذلك نجد هذا التقديس يزداد أثراً فى النفس وقوة على البقاء كلما كان أوغل فى إبعاد الماضى السحيق وأبعد عن التعليل والتحليل . فالعقدة فى تقديس الشىء هى فيما يعلو أصله من جهالة ، فمتى ما استطعنا رد ذلك الشىء إلى أصله الذى صدر عنه ، ظهر لنا تقديسه وكأنه ضرب من الوهم . وكان فى استطاعتنا أن نأخذه بضروب النقد وبالأخذ والرد وأصبحنا أحراراً فى موضوعه .

إن الخطورة ليست فى ذات الفكرة ، وإنما هى فى تلك الهالة التى تحيط بها وهى ليست منها فى شىء . ولاحق لنا فى حرية الرأى تجاه ذات الفكرة إن لم نهتك دونها الحجاب ونخرجها من الاطار الذى وضعت فيه . عند ذلك فقط يصح لنا أن نتمتع بحرية الرأى ونقول : هذا خطأ وهذا صواب .

وقد يقوم بيننا وبين حقيقة الشىء حجاب هو من صنعنا ومن وضعنا ، فيخرج الشىء عن حقيقته ويظهر لنا بغير مظهره فنشط بالحكم ونجور فيه ، على غير إرادة وعن غير شعور .

لقد قامت خصومات كثيرة على المناهج والمبادىء ، ولكنها كلها لم تنته بالنصر لأحد الفريقين المتخاصمين وبالتسليم على الفريق الآخر وانما بقيت الخصومة قائمة بينهما تهدأ تارة وتثور أخرى . كذلك الخصومات التى قامت وتقوم بين بعض المعاصرين على غير فكرة واحدة وفى أكثر من ميدان واحد ، فأنها لم تنته إلى نقطة اتصال وتفاهم ، وإنما زادت كل مخاصم تعصباً لفكرته ومقتاً لآراء الآخرين ، ولم ينقطع البحث إلا على القطيعة . وماكان هذا الحوار فى التلقى والإلقاء فى ميدان البحث والمناظرة إلا وليد تلك الأحياء التى تعيش فى أحشاء العقل الباطن ، وهى من غور قاعه ، ومن وراء قناعه تملى إرادتها على الشعور ، فتعمل ولا تُسأل .

« تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
وأودى رُبْع أهليها فبانوا وغودر فى الثرى الوجه المليح

ويندد به فى معرض حديث ابن القارح مع آدم (ص) فى الجنة ، وسؤاله عن بيتين يعزوهما الرواة إليه فيجيبه آدم بقوله : «أعزز علىّ بكم معشر أبنىّ . إنكم فى الضلالة متهوكون (أى : خابطون على غير هدى) آليت ما نطقت هذا النظيم ولا نطق به فى عصرى ، وإنما نظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . كذبتم على خالقكم وربكم ، ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ، وكذب بعضكم على بعض » .

(البقية فى العدد القادم) كامل كيلانى

مراكش

هل تصبح معتركا دوليا ؟

لباحث فاضل

نقلت الأخبار أخيراً تصريحا أدلى به مستر تشرشل فى نيويورك قال فيه (يجب أن تكون ميناء الدار البيضاء أو مدينة مراكش مركز قوات الأمم المتحدة) وقد سبق لوكالة الأخبار الأمريكية (يونايتد بريس) أن نشرت منذ بضعة شهور نقلا عن مصدر مسئول بأن مداولات تجرى بين الحكومتين الإنجليزية والأمريكية فى شأن ترشيح مدينة طنجة كمركز لقوات الأمم المتحدة ، وزادت الوكالة الأخبارية بأن نفس الدوائر الأمريكية والانجليزية تبدى قلقا وتتساءل فيما إذا كان وجود جيش احتلال بمراكش تابع لواحد من أعضاء المؤسسة الدولية ليس من شأنه أن يعرقل أعمال المؤسسة أحيانا أو يضايقها على الأقل .

وقد احتج الجنرال ديجول على هذه الأخبار ، ولكن أى تكذيب لم يصدر فى شأنهما لا من الولايات المتحدة ولا من انجلترا ، وكانت بعض المصادر الفرنسية المطلعة ترى أن إذاعة كهذه فى الوقت الذى سافر فيه جلالة ملك مراكش إلى باريس إجابة لدعوة ديجول ربما كان له مدلول خاص فى العرف السياسى .

وقد جاء مؤتمر طنجة الذى انعقد فى شهر أغسطس الماضى وانفصل فى الواقع على غير شىء على أمل أن ينعقد بعد ستة شهور دليلا على أن مراكش لنم دائم فى السياسة الدولية ، فقد صرحت روسيا بأن الدستور الذى يربطها بمراكش هو عقد الجزيرة الخضراء الذى أمضته سنة ١٩٠٩ ولذلك فهى ترى أن الاتحاد السوفياتى غير ملزم بأن يرتبط بأية تصفية أو تعهد أو اتفاق فى شأن مراكش أمضى بعد ذلك بدون مشاركته .

ولعل القراء يذكرون أن اتفاقية الجزيرة الخضراء التى تشير لها الروسيا هى اتفاقية دولية تقوم على مبادىء :

لتكن لنا نية الخلوص إلى الحقيقة فيما نلقيه وفيما نتلقاه . ولنرفع النقاب عن تلك الرغائب العاملة فيما وراء الوعى فنحسن بها الانتفاع هنا ونتجرد منها هناك ونتخذ منا علينا حافظاً ورقيباً

ونحن إذا انسللنا فى ميدان البحث عما سوى البحوث ، أعطينا الفرصة لأنفسنا وللآخرين فى تحرى مواضع الحق والصدق واختصرنا الزمن لتطور الاذهان وتتابع الحقائق ، فدنّا بما يدين به العقل السليم ولم يقل بعضنا لبعض : لكم دينكم ولى دين . وعرفنا من بيننا من الزعيم ولم نقل : منا أمير ومنكم أمير .

تلك هى خطورة التجرد من هوى النفس عند التعرض للآراء بالتأييد أو التفنيد . وتعظم هذه الخطورة عند ما تحكم فى الموضوع كلمة ولى الأمر ومن يستمد منه القضاء .

ونعود فنقول إن وراء الشعور منطقة نفوذ أخرى غير ذات شعور ، تصنع فيها الألوان فتصطبغ بها الأفكار والآراء . وتصدر عنها الأوامر فتتكيف بها الأقوال والأعمال . ويخرج منها النور فيضىء الطريق ويسار فيه إلى الغاية . وكل أولئك عوامل تكوين وتلوين غير شعورية ، يخضع بها العقل الواعى الى أخيه الكبير فيما وراء الوعى . فاذا أردنا التمتع بحرية الرأى بالحق وبالصدق ، والاتيان بالأفكار المستقلة ، كان علينا التصرف بتلك المنطقة النائية من العقل والتجرد من نزعاتها الشاذة فيما ندع وفيما نصدع وفيما نقدر به الأشياء ونقول كلمة الفصل .

ليست الحرية عندى فى أن نفكر فيما نريد وكيفما نريد وأن نقول وأن نعمل ، وانما الحرية فى تلك السيادة التى يفرضها العقل الشاعر على ما وراءه من عقل غير شاعر تحيا فيه جراثيم الزمن لتكون ذاته وصفاته وتجعل منه وليا للأمر ، ينطق بفصل الخطاب ولكن من وراء حجاب . ولسنا من الحرية فى شىء إن لم نخضع العقل إلى تجارب الواقع وننقذه من غوائل ما بكته فكبته .

لا حرية إلا فى ذلك التجرد الذى يجريه العقل على نفسه ، فيمحو ويثبت غير خاضع إلا لما يرى أنه الحق المطلق من قيود الماضى واثقال كل رغبة شاذة . وفى موضع هذا التجرد من العقل تتلاشى الالوان وتزول الموانع . ويصبح العقل فى موقف من الطبيعة كموقف الطبيعة منه ؛ يتفاعلان على هدى ويعملان على غير سدى ولا يزالان دائما أبداً . (بغداد) **حبيب الظريفى**

(ا) استقلال مراكش

(ب) وحدة الأقليم المراكشي

(ج) سياسة الباب المفتوح من الوجهة الاقتصادية .

ولا نعرف بالضبط إلى أى حد ستساعد الظروف روسيا على الاستفادة من هذا الاساس الذى وضعته لسياستها فى مراكش والذى قد يؤيده الشعب المراكشى المقدام على ما نظن إذا وجد فيه ضمانا لاستقلاله ووسيلة لتحريره من استعمار الفرنسيين الرجعى.

وإذا كان الأنجلو ساكسون لايستطيعون أن يبقوا مكتوفى الأيدى وخاصة الأمريكيين حتى تنفذ روسيا خطتها فى مراكش ويصبح بذلك البحر الأبيض بحيرة روسية والنفوذ الأمريكى تحت رحمة القوات السوفياتية المرابطة بالدار البيضاء واجادير فمن المحقق أيضا أن الأنجلو سكسون لا يستطيعون أن يدافعوا عن الوضعية الحالية التى تعيش فيها مراكش تحت السيادة الفرنسية والإسبانية .

وذلك لثلاثة أسباب :

(ا) لأن فرنسا وإسبانيا دولتان ضعيفتان لايمكن التعويل عليها مطلقا فى فرض حياد مراكش حتى لا تستغلها قوة عظمى ضد قوة عظمى أخرى لدى وقوع اعتداء ما .

(ب) لأن وجود فرنسا وإسبانيا بمراكش يعتبر كوجود الأعضاء الفزيولوجية الزائدة فى الجسم الحى ، أى كنتيجة باقية لسياسة مرية بائدة تغيرت عليها مقتضيات الأحوال ولا سيما بعد التصريح الروسى الذى لايعترف بأى اتفاق أوتعهد وقع بعد ١٩٠٩ وفى مقدمة العقود التى لاتعترف بهاروسيا عقد ٣٠ مارس ١٩١٢ الذى حول مراكش عمليا إلى مقاطعة فرنسية خالصة فى صورة حماية.

(ج) لأن حالة جديدة تكونت فى البلاد العربية بسبب فكرة الجامعة العربية التى تستند على أساس دبلوماسى واضح ومعترف به ، وهذه الجامعة تعتبر مراكش امتدادا طبيعيا لها وذلك للأسباب نفسها التى تعتبر بها مصر مثلا ولبنان وسوريا امتدادا طبيعيا لها ، ففصلها عنها — بالنظر لشعور المراكشيين — قد يمهد الجو لجعل (اللغم المراكشى) أكثر حدة ويفتح الشهية للمتآمرين ، ولاسيا وفرنسا قد فشلت فى استمالة قلوب المراكشيين إليها وأصبحت الأحزاب السياسية هناك بعد أن تألفت فى كتلة واحدةهى حزب الاستقلال تحرك الرأى العام بمشيئتها ساعية به لتحرير البلاد وحمل فرنسا على التصريح بالغاء الحماية المفروضة ، ويعتبر جلالة ملك مراكش على ما يقال من المؤيدين لهذه الاتجاهات التحريرية . ويظهر للانسان خطورة الحالة من الآن عند ما يرى فى صحافة اليمين الفرنسية من حين لحين قلقاً على مستقبل الحماية وضغطا على حكومة فرنسا بأن تبدل المندوب السامى الحالى بجنرال حازم يضبط الأمور ويزود بأوسع السلطات .

لهذه الأسباب نرى أن الأنجلو سكسون لا يستطيعون أن يدافعوا عن الوضعية الحاضرة فى مراكش وهم فى الحقيقة من الخاسرين فيها ، فماذا إذاً سيكون موقفهم وماذا سيكون عمل روسيا بعد أن أعلنت موقفها أولا وأكدته بصفة غير مباشرة فى قضية طرابلس ... ...

من الصعب التكهن بالأمر ، ولكننا متحققون بأن مسألتها ستوضع تقريبا بنفس الحدة التى وضعت بها مسألة اليونان والمضايق التركية وسوريا ولبنان .

(باريس) « خبير »

قصة الذرة :

تلك الاشعة المحيرة !

للأستاذ فوزي الشتوي

— ١ —

وكذبه صدى صوته

وللذرة أيضاً قصتها المثيرة الملیئة بشتى أنواع المفاجآت. تقرأها مرة ، فإذا أنت حيال قصة بوليسية شائقة لا يكاد متعقبو طلاسمها يوفقون إلى حل لغز حتى يتعثروا ويفاجأوا بألوان من العجائب والطرائف التي لم يفكروا فيها ولم تكن لهم على بال .

وفي وسعك أن تقسم قصتنا إلى ثلاث مراحل : أولاها في الاستنتاجات الفلسفية الكلامية ، والثانية حين عثر رونتنجن على أشعة إكس المجهولة فانتقلت القصة من مجرد الفروض والتخمينات إلى الحقائق الثابتة المشيدة على الحقائق الملموسة . والثالثة حين ألقيت القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما اليابانية ، فسجلت ختام الحرب العالمية الثانية . كما بدأت عصراً جديداً يسعى فيه العلماء إلى القبض على لجام الذرة ، وتطبيق معلوماتها على الكون ، وكشف غوامضه وأسراره .

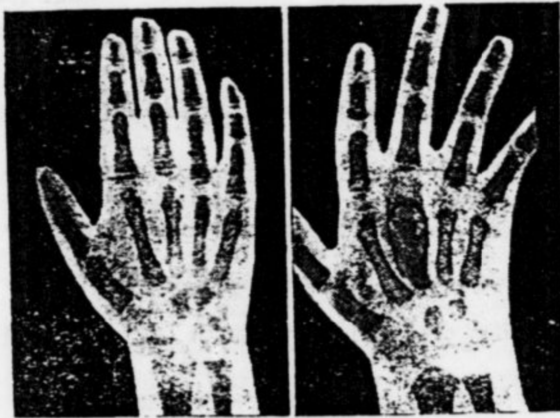
ولا تعجب لأن عالماً كبيراً وقف في عام ١٨٩٣ ليعلن على الملأ أجمع أن الاكتشافات والأبحاث الطبيعية وصلت إلى ذروتها ، وأن العلماء في المستقبل لن يجدوا من المكتشفات الحديثة ما يستحق الذكر ، وأن كل ما سيعملونه مجرد تكرار وصقل للتجارب البارعة التي أجراها القرن التاسع عشر .

الأشعة الغريبة

لا تعجب لأن صدى صوته ارتد إليه يكذبه ويستنكر عبارته ، فما كاد شهر ديسمبر عام ١٨٩٥ ينتهي حتى أعلن البروفسور رونتنجن اكتشافه لأشعة إكس المجهولة وأرفق إعلانه بصور لعظام اليد ، وبمفاتيح ونقود تظهر من خلال أكياسها الجلدية . فهذه الأشعة ذاتها هي التي نستخدمها الآن في الكشف عن العظام والأعضاء الداخلية للجسم .

ومحا الكشف العلمي الجديد الغريب صوت العالم ، وأثبت أن العلماء ومكتشفاتهم لا تزال ترسم الحرف الأول من حروف الهجاء ، ولم ينتقلوا بعد إلى الحرف التالي ، فقد عثر رونتنجن على أشعة بالغة الغرابة تخترق الأجسام المعتمة كما تخترق أشعة الشمس لوح زجاج شفاف . فما هي ؟ وكيف تحدث ؟ ولماذا تحدث ؟ ومن أين أتت ؟ وما خواصها ؟

أسئلة لم يجب عنها علم القرن التاسع عشر بحرف واحد ، ولم يعرف لها علة ولا تعليلا . فلقبوها بالأشعة المجهولة (إكس) . ولو توفرت المصادفة لكثير من العلماء الذين كانوا يجرون نفس تجارب رونتنجن لاكتشفوها ، فان أنبوبة كروكس الكهربائية التي كان يسعى لمعرفة خواص أشعتها كانت من الأجهزة الشاعة بين العلماء .



شكل ١ — توضح أشعة إكس إصابة العظام بالرواش وفي الصورة اليمنى صورة يد سليمة وأخرى أصيبت عظامها بالسل

أفادت الطب والصناعة

وقد تلقى الأطباء أبحاث رونتنجن وأشعته بكثير من العناية ، فعلى هديها تيسر لهم الكشف عن الكثير من الأمراض التي تصيب الإنسان ، ولا سيما في حالات كسر العظام ووجود أجسام غريبة في الجسم . فإذا أطلق الرصاص على إنسان حددت أشعة إكس مكان القذيفة ليخرجها الجراح . وإذا تكونت داخل الجسم أجسام غير طبيعية أصابته بالمرض استطاع الطبيب بأشعة إكس أن يتأكد من وجودها أو ينفيه، وعلى هذه الصورة يعالج العلة

وعلى هدى أشعة رونتنجن أيضاً يستطيع بعض الصناع فحص الأدوات الدقيقة التي يشترط فيها النقاء ومعرفة ما بها من مواد غريبة. ومثال ذلك كرة البليارد وغيرها. وقد أصبحت أشعة إكس الآن من مستلزمات الطب الحديث، وكثير من العمليات الصناعية.

ولكن رونتنجن نفسه لم يدرك شيئاً من خواص الأشعة الجديدة سوى طريقة صنعها التي عثر عليها بمحض المصادفة فقد كان كسواه من أكثر علماء تلك الفترة يجرى تجاربه على أنابيب كروكس الكهربية. وهى أنابيب تشبه فى نورها أضواء النيون التى تشهدها كل ليلة فى شتى أنحاء البلاد فى تلك الاعلانات الضوئية الوهاجة..

ولكن الأشعة المنبعثة من الجانب السالب لأنبوبة كروكس كانت ضعيفة وذات خواص عجيبة إذ تسير فى خط مستقيم مرسلة أشعة خضراء ذهبية تنحرف إذا سلطت عليها مغناطيساً. كما كانت مصدر قوة. فلو وضعت فى مسارها عجلة دوارة فانها تديرها. وكانت أيضاً ترسل الحرارة فى الأجسام التى تعترضها، وتضىء الماس وغيره من الأحجار الكريمة.

الحالة الرابعة

وكان السير وليام كروكس مكتشف هذا الأنبوب يعتقد أن هذه الأشعة فريدة فى نوعها، واستنتج أن الأنبوبة تحوى حالة رابعة للمادة غير الحالات الثلاث المعروفة وهى الصلابة والسيولة والغازية، وتكهن بأن الحالة الرابعة هى فوق الغازية أو الاشعاع. فكان من الطبيعى أن يدرس ظواهرها أكثر العلماء.

ولأنبوبة كروكس أم استنبطها هينريش جيسلر صانع الأدوات العلمية؛ وهى تتألف من أنبوبة زجاجية فرغ أكثر هوائها وفى كل من طرفيها قطعة من المعدن. وقد أثبت جيسلر أنه إذا وصل أحد طرفى هذه الأنبوبة بمورد كهربائى، فإن الأنبوبة كلها ترسل ضوءاً لامعاً. وقد كانت هذه الأنبوبة بالذات الأساس الذى صنعت منه أنابيب أضواء النيون.

وتختلف عنها أنبوبة السير وليام كروكس فى أنها أكثر تفريغاً من الهواء نتيجة لاستنباطه لمضخة أقوى وأدق من طريقة جيسلر، ومن ثم خالفتها فى خواص أشعتها وغرابة تطوراتها ودفعت بالعلماء إلى دراستها.



شكل ٢ — اكتشف السير وليام كروكس حالة رابعة للمادة

وكان رونتنجن كسواه من العلماء، فأجرى عليها التجارب العديدة. وفى أحد الأيام غطى الأنبوبة بمادة سوداء فكانت دهشته بالغة. فعلى مقربة منه اتفق وجود لوح مغطى بمادة مضيئة وجدها تلمع وتضىء فى الظلام. وأدرك من فوره أن أشعة الأنبوبة اخترقت المادة وانعكست على اللوح، وعرض كيس نقوده فإذا هو يرى محتوياته أيضاً، وواصل تجاربه حتى أدرك أن أشعة كروكس ترسل أشعة غريبة لا تراها العين، ولكنها تضىء الأجسام اللامعة. كما وجد أنها تخترق المواد الصلبة وتسجل صورتها على ورق التصوير الحساس. فاستمر فى تجاربه حتى قدمها للعالم فى ديسمبر عام ١٨٩٥.

وكان من السهل على أكثر العلماء أن يتحققوا بأنفسهم من اكتشاف رونتنجن، فما لبثوا أن وجدوا أن أنابيب كروكس التى لديهم كانت دائماً ترسل تلك الأشعة الغريبة فحسنوا أنبوبة كروكس وأضافوا إليها مهبطا من البلاتينيوم وسموها « أنبوبة أشعة إكس ».

(البقية فى العدد القادم)

فوزى الشتوى

الزنبقة الذابلة

للمرحوم أبي القاسم الشابي

أزنبقة السفح مالى أراك تساورك اللوعة القاسيه ؟
أفى قلبك الغض صوت اللهيب يرتل أنشودة الهاويه ؟

أأسمعك الليل ندب القلوب ؟ وأرشفك الفجر كأس الأسى ؟
أصب عليك شعاع الغروب نجيع الحياة ودمع المسا ؟

أوقفك الدهر حيث يفجر نوح الحياة صدوع الصدور ؟
وينبثق الليل طيفاً كئيباً رهيباً ويخفق حزن الدهور ؟

إذا أضجرتك أغانى الظلام فقد عذبتنى أغانى الوجوم
وإن هجرتك بنات الغيوم فقد لازمتنى فتاة الجحيم

وإن سكب الدهر فى مسمعيك نحيب الدجى وأنين الأمل
فقد أجج الدهر فى مهجتى شواظاً من الحزن المشتعل

أصيخى فما بين أعشار قلبى يرف صدى نوحك الخافت
معيداً على مهجتى بخفيف جناحيه همس الردى الصامت

فقد أترع الليل بالحب كأسى وشعشعه بلهيب الحياه
وجرعنى من نمير الآله مرارة شجو تفت الصفاه

إلىّ فقد وحدت بيننا قساوة هذا الزمان الظلوم
فقد فجرت فىّ هذى الكلوم كما فجرت فيك تلك الكلوم

إذا جرفتنى أكف المنون إلى اللحد أوسحقتك الخطوب
فحزنى وحزنك لا يبرحان أليفين رغم الزمان المصيب

فيصدع عند سكون الدجى إذا نسيتنا عذارى السحر
صدى يتهادى كنغم شجى تطاير من خفقات الوتر

يرنمه شجن المستكين لدى القبر تحت ظلال المسا
فتهجع تحت الثرى الهاجع جميعاً على نغمات الأسى

إلى الشاطئ

للأديب مصطفى على عبد الرحمن

فاض بى شوق ونادانى إليك فهفا قلبى وأصغى للنداء
آه . لو ترجع أيامى لديك وشبابى من فتون ونماء
نبصر الفرحة فى الشط الحبيب
والتماع النور فى الأفق الرحيب
قبلما تذهب شمسى للمغيب
ويولى من سنا العمر الرواء

أيها الشط وهل تذكرنى ؟ أنا من غنى بألحان الوفاء
والرمال البيض هل تنكرنى عندما يسأل عنى الأوفياء
أبلغ الأحباب يا شاطئ عنى
أن نيران الهوى تأكل منى
لتمنيت إذا أجدى التمنى
لو على رملك نازعت البقاء

كم أتيناك مع الصبح سكارى نتساقى الكأس من خمر الضياء
نتبع الصفو ونمشى حيث سارا ونرى الفرحة فى نعمى اللقاء
تسكر الأرواح منا قبلات
ونشيع الأنس فينا صبوات
وعيون الدهر عنا غافلات
والليالى من فتون وهناء

ذكريات كلما مرت ببالى أسرفت عينى وقلبى فى البكاء
لأمانٍ باسماتٍ وليالٍ كسنا الحلم وإقبال الرجاء
كن أنسى وأناشيدى وخمرى
والذى أينع من يقظة عمرى
والسنا اللماح فى ظلمة دهرى
والربيع الطلق . أمن وصفاء



رأى معالى عبد العزيز فهمى باشا فى كتاب:

اللغـــة والمجتمع

تأليف الدكتور على عبد الواحد وافى

[تفضل حضرة صاحب المعالى الأستاذ الجليل عبد العزيز فهمى باشا فأرسل إلى الدكتور على عبد الواحد وافى رأيه فى كتابه « اللغة والمجتمع »] :

تفضلتم فبعثتم إلىَّ بكتابكم « اللغة والمجتمع » ، فتناولته مسروراً شاكراً ، ثم قرأته بكل عناية واهتمام . وقد وجدتكم تناولتم فيه موضوع تطور اللغات وبحثتموه لامن « كل أطرافه » كما يقول الأدباء ، بل فليتموه وفحصتموه من « شوشته إلى قدمه » كما يقول أهل قريتنا . ولقد نهجتم فى عرضه طريقة البيان السهل الممتع الممتنع ، وزدتم التنوير والإيضاح بما تزيدتم من التشقيقات والتفريعات ، وبما ضربتم الأمثال من ماضى اللغات وحاضرها وقاصى البيئات ودانيها ؛ وانتهيتم من استدلالاتكم القيمة إلى تقرير تلك الحقيقة الأبدية وهى : « أن اللغات ومايتفرع عنها من اللهجات كانت وما زالت ولن تزال فى تطور مستمر ، وأن هذا التطور قانون ثابت يجرى مجراه ويأخذ حكمه حتما كلما توافرت دواعيه وعوامله ، وأن هذه الدواعى حاصلة لا محالة وإن أبطأ ظهورها حينا طويلا أوقصيراً » . وأن هذا القانون — الذى حصّلتُ بيانكم إياه بالعبارة السابقة — هو قانون عام ما شذت ولا تشذ عنه أية لغة من لغات العالم قديمها وحديثها . فهو متمش على العربية كما تمشى من قبل على اللاتينية وغيرها ، وكما هو متمش وسيتمشى حتما على الألمانية والفرنسية والإنجليزية وغيرها .

كل هذا يا سيدى من جانبكم كلام صحيح معقول مقبول رضى الناس أو أبوا ؛ فإن القوانين الاجتماعية لا تعرف المحاباة ، ولا ترعى لبنى آدم حرمة ولا عاطفة ولا شعوراً ، بل هى كقوانين الطبيعة من نشوء وشباب وهرم وموت ، تسرى على الناس كافة بغير تفريق بين أجناسهم ولا دياناتهم ولا لغاتهم .

وأكرر أن هذا خلاصة رأيك ، وهو حق كل الحق ، وجميل كل الجمال .

غير أننى لاحظت أنك ، وأنت فى معرض الكلام على اللغات وتطورها ، قد تعرضت — وبحق — إلى رسم كتابة اللغات . وهنا أشرت — فيما أشرت — إلى شكوى الناس قديماً وحديثاً من رسم الكتابة العربية . ولكن سعة علمك ، وجميل منطقك ، وسلامة ذوقك ، كل هذا أبى عليك إلا الاحتراس فى التقرير ، فقلت فى آخر صحيفة ٣٨ : « ولكن الرسم العربى ليس فى حاجة إلى كثير من الإصلاح ، فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطا فى القواعد ، ومطابقة للنطق » .

بقطع النظر عن سلامة القول بأن فى رسم العربية دقة وضبطا فى القواعد ومطابقة للنطق ، أو عدم سلامته ، فمن رأيك أن هذا الرسم محتاج للاصلاح ، ولكن لا لكثير من الاصلاح . ما هو هذا الإصلاح الذى يستلزمه رسم العربية قلَّ أو كثر ؟

إن سيدى الأستاذ يعلم حق العلم أن الشكوى من رسم العربية ليست آتية من جهة أن أهلها يصعب عليهم إخراج نغماتها الصوتية ، فإن كل الأطفال الذين يقرءون شيئاً من القرآن الكريم بكتاتيب القرى ، وكل أطفال المدارس الأولية يعرفون كيف ينطقون نغمات الثاء والجيم المعطشة والذال والظاء والقاف ، تلك النغمات الخمس التى ليست أصيلة ولا عامة عند أهل اللهجات العربية البعيدة عن الفصحى . أما سائر حروف الفصحى كالباء والتاء والحاء والخاء والدال والراء ... إلى آخر الأبجدية ، فنغماتها يعرف المصرى وغير المصرى من أهل البلاد العربية أن ينطق بها نطقاً لا شائبة فيه ، بلا فرق فى هذا بين متعلم وأمى . لكن هذه النغمات ليست هى اللغة العربية الفصحى المراد خدمتها ، وإلا لما تعذرت على أحد . بل الفصحى هى هذه النغمات موجهة فى الكلمة الواحدة توجيهات مختلفة يقوم بها فى اللغات الأجنبية حروف الحركات ولا يقوم بها عندنا إلا الشكل الذى أفلس . هذا هو موطن الصعوبة عندنا ومثار الشكوى . وما يهم فيما يتعلق بنا أن تكون كتابة اللغات الأجنبية فيها مساوىء

أو لا يكون ، إنما الذى يهمنا هو رسم كتابتنا دون غيرنا . فعند ماتقول إن رسم العربية هو من أكثر أنواع الرسم «سهولة ودقة وضبطا فى القواعد ومطابقة للنطق » ، اسمح لى أن أقول إن هذا لا يطابق الواقع إلا من جهة السهولة أى الاختزال المخل فقط . أما من جهة الدقة وضبط القواعد والمطابقة للنطق ، فإن هذا تجوّز فى التعبير . إذ معنى الكلمة العربية لا يتأدى بمجرد نغمات الحروف ، بل بهذه النغمات محركة فى اتجاهات مختلفة . وهذا الغرض لا يؤديه الرسم العربى مطلقاً ، أو هو يؤديه ويؤدى كثيراً غيره فى آن ، مما يوجب التشوش والاضطراب . وهيهات أن يسعفنا هذا الرسم العاجز ، ولو أضيف إليه الاضطلاع المتين بقواعد اللغة من صرف ونحو وغيرهما . — وما تقوله فى صدر صحيفة ٣٩ مما حاصله أن لجود الرسم فائدة تخليد ما خلّفته قرائح أهل اللغة من الآثار ، فاسمح لى أن أقول إن هذا كلام جيد معقول ، ولكن على شرط واحد وهو أن تكون هذه المخلفات ممكناً لأى عارف بالقراءة والكتابة أن يقرأها على الوجه الذى أراده واضعها . وما أظن السيد يعارض فى هذا الشرط أو يرى سهولة تحققه ، خصوصاً مع تطور اللغة وعدم استقرارها على حال واحدة ، ذلك التطور الذى وضع كل كتابه لبيانه . وإذن بقينا مرتطمين بالصعوبة التى نحن فيها الآن .

لا أريد أن أقول إن حضرة الأستاذ الفاضل يستعمل فى عرض أفكاره القيمة التَّـقِيَّـةَ التى طالما استعملها الجاحظ وغيره من كبار السلف المحترمين ، بل كل ما أريد أن أقوله للسيد هو أنى أنست كثيراً بكتابه وفرحت بسمة علمه . وإنى أرجو الله أن يكثر من أمثاله وأن يوفقه فى عمله ويأخذ بيده فيه ، والسلام مع أوفى الشكر والاحترام .

عبد العزيز فهمى

المدينة المسحورة

للأستاذ سيد قطب

بقلم الأستاذ وديع فلسطين

عز على الأستاذ سيد قطب أن تتوفر شهر زاد على العناية بأطفالها بعد ما أمضت ألف ليلة وليلة تقص فيها على زوجها الملك شهريار قصصاً جذابة تستهوى فؤاده ، وتحفزه إلى طلب المزيد . وعز عليه أن تسكت شهر زاد عن الكلام المباح وفى جعبتها تلك القصة الرائعة « المدينة المسحورة » التى استطاع الأستاذ سيد أن ينتزعها من صدر الملكة بقدرة فائقة .

فلم تكد تمضى مئة ليلة على صمت شهر زاد ، حتى دب الملل إلى قلب الملك شهريار وخرج يعسعس فى الظلام صوب حجرة زوجه ، تراوده نفسه على إيقاظها لتستأنف أحاديثها الشهية ، ولكن العزة الملكية تحاول تنحيته ، وسرعان ما تحس شهر زاد بحركته وهو بين الإقدام والإحجام ، فتستوضحه الأمر ، وهى به من قبل عليمة ، ثم ترضى أن تمنح الملك عشر ليال من أجمل ليالى حياته ، تقص فيها عليه قصة حب عجيب وقصة انتقام أعجب .

ملك تيمه حب راعية شويهات ، فلم يطب له مستقر ، ولم يستطع أن يستوى على أريكة عرشه ، حتى تزوجها مؤثراً إياها على قريبة له من الأسرة الملكية أوصى والده بالزواج منها .

وينجب الملكان أميرة ذات قد مياس ، ووجه مشرق ، وجمال يشع على بدنها نوراً علوياً .

ويدور دولاب الزمن ، فيستهوى قلب الأميرة راع من رعاة النغم ؛ ولكن المرأة المنبوذة التى أبى الملك أن يقبلها زوجة له احترفت السحر ، ثم انتقمت من نابذها — ويا لها من نقمة — فى شخصه وابنته وعائلته ومدينته ، فأحالت المدينة بسكانها تماثيل ، وماتت هى بدورها مقتولة تضم بين جنبيها سر هذه المدينة المسحورة وكيفية فضه .

وبعد ألف من السنين ، يجىء مثّال من سلالة راعى النغم الذى كان يزمع الزواج بالأميرة ، لزيارة تلك المدينة المسحورة ،



من أدب القصص الأمريكي

هدية عيد الميلاد..

للكاتب الأمريكي برت هارت

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

عيد الميلاد في « كلفورنيا » من أروع فصول السنة ... فهو الفصل الذى تنحدر فيه المياه من جو السماء إلى أديم الأرض ، فإذا به يهتز ويربو ويفيق من غفوة الشتاء ، وإذا الأرض مجلوة مزهوة بما انبسط عليها من زهور الربيع وأقاحيه ...

وكانت الشمس تسرب شعاعها خلال السحب المنعقدة — التى تتهادى أمام موكب الريح — فيلق الروابى فى روعة وجلال فإذا مظاهر الحياة قد تجمعت : الموت والحياة ، والفناء والبعث ، والألم والبهجة ... نعم ... فالروابى التى كان يطوبها مطرف الموت والفناء قد ذهت ... وسرت نسمة الحياة تراودها ، فإذا البعث والنشور يدب فى أكنافها ، وإذا البهجة والحبور تجول فى أطرافها ... وإذا الريح التى كانت تنوح فى ثورتها تداعب براعم الأزهار وقد استقرت مكان الأوراق الذابلة الذاوية ...

ربما كان هذا كله علة هذا الرونق الذى أحله عيد الميلاد فى حجرة الاستقبال ... والذى أكسب الحضور منظراً خلاباً فريداً وأكسب الأزاهر فتنة وجمالا ...

قال الطبيب وهو يدنو بكرسيه من النار : « والآن : . »
ثم قلب طرفه فى لطف ودماثة ولكن فى حزم وثبات بين الوجوه الملتفة حوله ... وقال :

— أود قبيل أن أمضى فى قصتى ... أن أحذركم من مقاطعتى بتلك الأسئلة الساذجة المضحكة ... فعلى كل غلام منكم ألا يعبث برجله أو بذراعه ... وإلا فسيكون جزاؤه الطرد والحرمان ... أفتعدوننى بذلك ؟ ! »

فأجابته الجماعة فى صوت واحد فيه غضاضة الطفولة ورنة الصبية — « أجل ... ياسيدنا ! »

فعاد الطبيب يقول فى صوته الرقيق الحازم :

— « إذن عليكم بالسكون ... « بوب » ... دع رجلك ، وارغب عن صليل هذا السيف الصغير ... وستجلس « فلورا » جوارى كالسيدة الصغيرة ، وتكون فى هدوئها وإصاختها السمع مثلا يحتذيه باقى الجماعة ... « تانج » اجلس كما يحلو لهواك وبغيتك ، ولكن فى هدوء وإصغاء ... والآن . أديروا صنبور الغاز قليلا لكى تستعر النار وتتوهج ... وينبغى على كل صبى أن

فيستلبه تمثال الأميرة إعجابه ، ثم لا يلبث أن يهوى هذا التمثال ويعشق صاحبته عشقاً مبرحاً ، وإذ ذاك يُفَكُّ عن المدينة نطاق السحر الذى ضرب حولها ، فما يشفى داء الحب سوى الحب ، ومايبرىء المريض من كَلَبِه سوى مصل الكلب . فتدب الحياة ثانية إلى المدينة ، ولكن عوامل البلى التى أوقفها السحر ألف عام ، سرعان ما تعمل فى جسوم قطان المدينة بعد ما ردوا إلى الحياة ، فتتحلل أجسادهم تراباً مذورا .

أما الأميرة ، فقد عجزت عوامل البلى عن إصابتها لأنها كانت تحب ! وما حيلة الزمان أمام قلب يحب ؟ !

ذلك إيجاز القصة المسحورة التى كتبها الأستاذ سيد قطب .

وما كنت أحسب أن الصديق سيداً يعرف عن الحب كل هذا ، بل ما كنت لأتخيله يستطيع أن يصور تلك العاطفة النبيلة فى هذه الصورة الرائعة الأخاذة .

ويحق للقصاص أن يغتبطوا لأن ملقن شهر زاد — أعنى الأستاذ قطب — أبدى فى كتابة هذه القصة ميلا فطرياً إلى مراس هذا اللون من الأدب ، بل التمهر فيه . فالأسلوب له مطواع ، والصورة فى مخيلته مجلوّة ، والتفكير متجه اتجاهاً صائباً والحبكة الروائية فى مقدوره . فلا عجب إذن إذا أصاب الأستاذ سيد قطب من التوفيق قدراً كبيراً ، وإذا كانت كفته من النجاح راجحة .

وديع فلسطين

يجنح إلى الصمت ... ومن يسبب أدنى ضوضاء ، فلن يبقى بين جدران هذه الغرفة ... »

وسادت إثر ذلك آونة من الصمت العميق ... فأسند « بوب » سيفه إلى جانبه ... وداعبت « فلورا » دميتها قليلا ، ثم أرقدتها وجلست جوار الطبيب ... أما « فنج تانج » — ذلك الطفل الوثني الصغير الذي أتيح له أن يحضر مباهج « عيد الميلاد » — فقد ارتسمت على ثغره ابتسامة عذبة فيها حلاوة وفيها براءة .

وكانت الدقات التي تنبعث من الساعة الفرنسية المستقرة فوق المدفأة ... تعكر صفو ذلك الهدوء الذي خلعته روعة « عيد الميلاد » على حجرة الجلوس حيث تناثرت اللعب ، والعلب المصنوعة من خشب الأرز الطيب الرائحة ... والأزهار الفياحة عطراً ...

* * *

بدأ الطبيب يسرد قصته قائلا :

« منذ أربع سنوات — في مثل هذا الوقت — حضرت حفلة « عيد الميلاد » في منزل صديق من أصدقائي المدرسين ... وشملني شيء من المرح ، إذ سيتاح لي أن أرى إبناً من أبنائه على الرغم من أنه في الثانية عشرة من عمره إلا أنه كان على مبلغ وافر من العبقرية والنبوغ ... فقد حفظ من قصائد الشعر اللاتيني والإنجليزي مالا أستطيع له حصراً ...

كما كان في مقدوره أن يؤلف قصائد وأشعاراً رقيقة لها روعتها ولها جمالها ...

وليس بمقدوري أن أحكم على أشعاره ، فما أنا ممن أوتوا القدرة على النقد ، ولكن ثمت بعض النقاد أعجبوا بما أوتي من الموهبة الفائقة على نظم الشعر في مثل سنه المبكرة . وتنبأوا له بمستقبل زاهر في ساحة الشعر والأدب ... بيد أن والده كان على الضد من ذلك : رجل حقائق وعمل لا رجل خيال وأدب ...

كانت الحفلة مبهجة مرحة ... وكان الأطفال قد تجمعوا من كل صوب ومكان ... ووقف معهم ذلك الغلام — وهو في طوله مثل « بوبي » ... وفي أدبه وخلقه مثل « فلورا » التي بجواري ... كان الجميع يدعونه « روبرت » ... أما صحته فكانت معتلة ضعيفة واهنة ... وطالما شكا إلي أبوه من قلة لعبه مع من هم في سنه من الصبية وتفضيله اللبث في البيت مغموراً بين الكتب والأوراق يطالع ويكتب ...

وكان ثم « شجرة لعيد الميلاد » كشجرتنا هذه ... وكثيراً ماضحكنا في عبث ولهو مع الأطفال الذين راحوا يتسلمون هداياهم المعلقة في الشجرة ... وشملنا جميعاً جو من المرح والصفو ...

وبغتة ندت عن غلام صيحة فيها مزيج من العجب والطرب وقال : « هاك !! شيء لروبرت ! فماذا أنتم قائلون ؟! »

فراح يخمن كل منا :

— « قلم من الذهب . »

— « كتاب للشاعر ملتون ... »

— « قاموس للقوافي ... »

بيد أن الغلام قال على دهش منا :

— « ليس شيء من ذلك إنما هو ! . طبل . »

— « ماذا ؟!! »

— « طبل ... وعليه اسم روبرت » !.

فارتفعت صيحات الضحك من أفواهنا ... فقد كانت دعابة حقاً ... وقال أحدنا : « هه ... أرى أنك ستحدث في العالم دوياً هائلا ياروبرت !. » وقال آخر « ما هذا الطبل إلا لوزن الشعر ! » وترت الأقوال وتعددت فيها دعابة وفيها عبث ... بيد أن روبرت أبى أن ينبس بكلمة ... وشحب لون وجهه ... وأطلق صيحة فيها حقد واضطراب ، وبرح الغرفة ... فأحس هؤلاء الساخرون شيئاً من التألم والتأنيب ... وانهالت الأسئلة فيمن أتى بهذا الطبل ... ولكن دون جدوى ... ولم يعد « روبرت » إلى الغرفة ثانية تلك الليلة ...

* * *

وضرب النسيان ستارة على هذه الحادثة فقد اشتعلت حرب العصيان الأهلية في الربيع التالي ... وعينت في أحد الفيالق .

وفي طريقي إلى ساحة القتال مررت بالأستاذ المدرس ... فكان أول سؤال — ابتدره به لساني — عن « روبرت » ... فهز الأستاذ رأسه في حزن وألم ! وقال :

— « ليس على ما يرام ! فقد أصيب بانحراف ظل ملازمه

منذ عيد الميلاد حينما رأيته ... حالة غاية فى الغرابة ... ولكن اذهب فانظره لعلك تستطيع أن تزيل عنه ما يعتريه ! »

فذهبت من فورى إلى منزل الأستاذ حيث وجدت روبرت مضجعاً فى مقعد طويل ... وقد تناثرت ثم حوله كتبه وأوراقه وعلق الطبل فوق رأسه ... وكان وجهه شاحباً ذابلا ... ولكن عينيه كانتا فى بريق ولمعان ...

ابتهج وسر حينما رآنى ... ولما علم بوجهتى ... طفق يسألنى كثيراً عن الحرب ... وظننت أنى بحديثى إليه قد سليته عن مرضه ، غير أنه فجأة أمسك بيدى وقربنى إليه قائلا فى صوت خفيض كالنبأة تسرى فى الفضاء .

— « سيدى الطبيب ... أرجو ألا تسخر منى حينما أخبرك بعض الأشياء ! إنك لتذكر ذلك الطبل ... » وأشار إلى الطبل المعلق فى الحائط فوق رأسه ... « وتعلم كيف أتى إلى من حيث لا أدرى ولا تدرون ... فبعد بضعة أسابيع من عيد الميلاد وكان الطبل معلقاً هكذا فوق رأسى ... وكانت عيناى بين النعاس واليقظة ... إذ يطرق أذنى صوت قرعات خافتة تنبعث من الطبل ثم إذا بها تعلو وترتفع ... ثم توالت وتتابعت سريعاً ، ودوى صوتها جليلا رهيباً ... حتى لكأنها ملأت البيت ضجة ودوياً . طرقت أذنى ثانية عند ما وافى الليل نصفه ولم أجرؤ على أن أنبىء أحداً بخبرها ... ولكنى كنت أسمعها كل ليلة إثر ذلك ...

وانقطع صوته برهة ... ولكنه لم يلبث أن عاد يقول فى قلق واضطراب «أحياناً تكون القرعات خافتة هينة ... وأحياناً تكون مرتفعة مدوية ... ولكنها ظلت سريعة متتابعة حتى كنت أخشى أن يسمعها أحد من أهل البيت فيسألنى فلا أجد له جوابا ...

بيد أنى أعتقد يا سيدى الطبيب ، ونظر إلىَّ نظرة فيها ألم وفيها قلق « أعتقد ... أن أحداً لم يسمعها سواى ... إنها تأتينى من هذا الطبل مرتين فى اليوم ... عند ما أكون غارقا فى القراءة أو الكتابة ... أسمعها ... فكأنها غاضبة حانقة فى قرعها ... وتعمل على أن تستلب عقلى من بين كتبى ... » .

وكانت عيناه تلمعان وتتألقان ، وصدره بين ارتفاع وانخفاض ، فحاولت أن أخبره أن هذا ليس إلا ضعفاً وإنهاكاً عقلياً وجسمانياً أدى إلى اضطراب فى الحواس ، كما يحدث لكثير من الناس .

فأنصت إلى ما أقول ، وعلى ثغره ابتسامة حزينة كأنه لا يعتقد ما أقول ، ولكنه شكرنى ، ثم لم ألبث أن ودعته ورحلت ، وقابلت الأستاذ فى طريقى ، فأوضحت له رأيى عن حالة ولده فقال :

— إذن فهو يحتاج لهواء منعش ، وجو رائق ، ورياضة جيلة !

ولم يكن الأستاذ بالرجل السىء البغيض ، ولكن كان كثير الألم والإشفاق لما يعترى ولده .

وغادرت المدينة فى نفس ذلك اليوم ، وكاد داعى النسيان أن يأتى على هذه الذكرى فيطويها ويمحوها ، فقد انهمكت فى تمريض للجرحى ، ومعالجتهم فى مستشفيات القتال ... لولا أن قدر لى أن ألتقى رجلا عسكرياً ، كان على صلة صداقة بالأستاذ فأخبرنى أن «روبرت» أصيب بلوثة وخبال فى عقله ، وفى إحدى النوبات التى كانت كثيراً ما تعتريه ، فر من المنزل ، ولم يعثر له على أثر ، وكان الخوف من أن يكون النهر قد طواه فى أعماقه .

فاهتزت نفسى فى فرق وروع لهذه الفاجعة ، ولكن لم يقيض لى الله وقتاً أجلس فيه حزينا لما أصاب «روبرت» الصغير

ومضت الأيام بعد هذا النبأ ، وإذ بفيلق من جيشنا قد أتى عليه الثوار ، وفتكوا به فى وحشية وجنون

فنقلت من ساحتى إلى مستشفى هذا الفيلق لأعاون زملائى الأطباء فى معالجة حياة هؤلاء المنكوبين والصرعى

وعثرت برجل طويل القامة عملّس بتع ، كان مثخناً بالجراح فى فخذيه ، ولكن رجانى أن أدعه وأنصرف إلى زملائه الذين هم أحوج منه بالعناية والرعاية ، بيد أنى لم أكترث لرجائه فى بادىء الأمر ، لأن هذه الرحمة وإنكار الذات سائدة شائعة بين رجال الجيش جميعاً ، ولكنه ما لبث أن عاد يقول : « بالله أيها الطبيب دعنى ، فثمت غلام كان يقرع الطبل ، غلام باسل جسور ، يجود بأنفاسه الآن ، فاذهب إليه وانظره لعلك مستطيع له علاجاً ، لقد أنقذ هذا الغلام ببسالته وجسارته كثيراً من رجالنا ، لقد أنقذ شرف فيلقنا بما أتاه من جليل الأعمال هذا الصباح فأنقذه بالله أيها الطبيب ! »

أثرت فى نفسى روح هذا الرجل وسجيته أكثر من منظر هؤلاء الجرحى وهم مبعثرون فى كل مكان يئنون ويصيحون فى حشرجة وزحير مما بهم من ألم وعذاب . فمضيت بينهم إلى حيث كان ذلك الغلام — قارع الطبل — راقداً وجواره طبله ملق ... فلمحت وجهه فإذا به « روبرت » .

ولم أكن فى حاجة إلى وصف ذلك الرجل الجريح ولا إلى البرودة التى سرت إلى جبينه ... لكى أعرف أن ليس ثمت من أمل فى حياته — ناديته باسمه ؛ ففتح عينيه وعرفنى ... وقال فى صوت هامس فيه ضعف يسرى «إنى لمسرور بلقائك ... ولكن أحسب أن القضاء حم ولا مفر من الحمام » ، فلم أجد فى نفسى القدرة على أن أكذبه القول ، ولا القدرة على أن أخبره بالحقيقة ، فأمسكت بيده وضغطت عليها فى رفق ولطف أحثه على التجلد ، وتابع حديثه فى صوت أوهن وأضعف .

« ... ولكنك سترى والدى ، فاسأله أن يغفرلى ، ويصفح عنى ، وقد يلام كل إنسان سواى ، لقد تقضى وقت طويل قبل أن أدرك علة إرسال هذا الطبل لى كهدية فى عيد الميلاد ! وكذلك علة هذا النداء الذى ظل ينبعث من دقاته يدعونى ويدعونى ... وأخيراً عرفت ما كانت تدعونى إليه . وإنى لراض بما فعلت ، فبهذا تحدثنى نفسى : خبّر والدى أن هذا أفضل من لبثى معه ، أنغص عليه عيشه ، وأكدر عليه صفو حياته ، لما يعترينى من شذوذ واضطراب ومرض »

وتوقف حديثه هنيهة ، ثم إذا به يمسك يدى ويقول : « انصت ! » ... فأصخت السمع ، ولكن لم يطرق أذنى سوى أنات الجرحى وزحير المرضى ، فقال فى صوت خافت : « الطبل ! ألا تسمعه ؟ إنه يدعونى » ، ومد راحته إلى حيث ألقى طبله كأنه يود لو عانقه ، وعاد يقول : « انصت ! أفلا تسمع دقات الطبل وهى تنبعث فى رهبة وجلال ؟ ! ها هى الصفوف تنتظم ... أفلا ترى الحراب والأسنة وهى تتألق تحت شعاع الشمس ؟ ! إن وجوههم مشرقة طلقة يعلوها البشر والرضا . . مه ! ها هو القائد إنه ينظر إلى وعلى ثغره بسمة الرضا والبر ! » وانطبقت شفتاه ، وارتخت أهدابه على عينيه ، وسكن سكنته الأبدية ! !

(طنطا) مصطفى جميل مرسى

سكك حديد الحكومة المصرية

جداول مواعيد القطارات لفصل الصيف سنة ١٩٤٦

لقد شرعت المصلحة فى الاستعداد لإصدار طبعة الصيف المقبلة من جداول مواعيد القطارات المتداولة بين آلاف الجماهير وذلك إعتباراً من أول مايو سنه ١٩٤٦ .

وفضلا عن أهمية الإعلان فى الجداول المذكورة فإن المصلحة تتقاضى مقابل النشر فيها أجراً زهيداً فالصفحة الكاملة بستة جنيهات ونصف الصفحة بأربعة جنيهات .

فاغتنموا الفرصة وسارعوا من الآن إلى حجز ما يروقكم من صفحات هذه الجداول نظراً إلى أن الإقبال على الإعلان فيها شديد .

ولزيادة الاستعلام اتصلوا . —

بقسم النشر والإعلانات — بالإدارة العامة — بمحطة مصر .

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٦١ - الاثنين ٤ مارس ١٩٤٦ - السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 661

Lundi —4—3—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٦١ « القاهرة فى يوم الإثنين ٣٠ ربيع الأول سنة ١٣٦٥ — ٤ مارس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الاسلام والنظام العالمى الجديد

للأستاذ عباس محمود العقاد

في سنة ١٨٨٩ ، ظهر فى بنجاب بالهند ، ميرزا غلام أحمد القاديانى صاحب الطريقة القاديانية المشهورة ، وأخذ — وهو فى الخمسين من عمره — ينشر الدعوة إلى تلك الطريقة التى تشتمل على عقائد كثيرة لا يقرها الإسلام ، ولا يقبلها دين من الأديان الكتابية ، ومن ذلك أنه هو نبى الله المرسل وأنه عيسى بن مريم قد بعث إلى الأرض فى جسد جديد !

وفى سنة ١٦١٤ تطورت تلك الطريقة إلى حركة إسلامية تنكر نبوة القاديانى ، وتنكر الحكم بالكفر على من يؤمن بالقرآن ورسالة محمد عليه السلام كائنا ما كان الخلاف بينه وبين الشيع الدينية الأخرى ، وتحول إلى هذه الحركة كثير من أتباع القاديانى وكثير من طلاب التجديد بين السنيين والشيعيين ، وظهرت لهم كتب كثيرة ، باللغة الاردية واللغة الإنجليزية فى التبشير بالإسلام ، مع ترجمة خاصة للقرآن الكريم ، وتواريخ موجزة للنبى وخلفائه الراشدين .

وليست تفسيرات هذه الجماعة للكتاب والسنة بالتى توافق مذاهب الفقهاء المتفق عليها ، لأنها تصرف معانى القرآن إلى تأييد أقوال لم تخطر للأولين على بال ، وليست من مقتضيات الدين فى رأى الأقدمين أو المحدثين .

ولكن الحق الذى لا مراء فيه أن هذه الطائفة هى أوفر المسلمين نشاطا ، وأشدهم دفاعا عن العقائد الإسلامية ، وأكثرهم اجتهاداً فى نشر فضائل الدين وأعرفهم بالأساليب التى توجه بها الدعوة إلى العقول الأوربية ، وإلى جماهير المتعلمين فى الشرق والغرب على الإجمال .

وهم يحسنون انتهاز الفرص من الحركات العالمية والدعوات الثقافية حيثما ظهرت فى قطر من أقطار المعمور ، فيبدرونها فى إبانها بكتاب يثبتون فيه أن الإسلام أصلح من تلك الدعوة لعلاج المشكلة التى تتصدى لعلاجها ، ويقرنون ذلك دائما بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشواهد التاريخية ، وإن فسروها بعض الأحيان تفسيرا لا يقرهم عليه السلفيون أو المتزمتون .

فلما دعا النازيون والشيوعيون إلى « نظام عالمى جديد » لإنقاذ العالم من معضلاته الروحية والسياسية والاقتصادية بادر كاتب من أقدر كتاب هذه الجماعة إلى تفصيل موقف الإسلام من هذه النظم أو من مذاهب الفلسفة التى تعتمد عليها ، فصدر باللغة الاردية مؤلف قيم لهذا الكاتب القدير — وهو السيد محمد على مترجم القرآن إلى اللغة الانجليزية ، ثم نقله حديثا إلى اللغة الانجليزية فوصل إلينا عن طريق العراق منذ أسبوع .

قرر السيد محمد على فى الصفحات الأولى من كتابه أن خلاص النوع الإنسانى لا يتأتى ولا يعقل أن يكون بغير عقيدة

روحية عاطفية صالحة لتوحيد الناس فى نظام واحد ، يتكفل بحاجات الضمائر والأجساد ، وأن تقسيم الأرزاق بالأسهم والدوانق والسحاتيت قد ينشىء بين الناس — إذا تيسر — شركة من شركات التجارة وتوزيع الأرباح ، ولكنه لا يخلق فى الإنسان تلك العواطف النبيلة التى تسمو به على مطالب الجسد ، وتكبح فيه نوازع الأثرة العمياء وهو مغتبط قرير الفؤاد .

قال : ولم تفلح عقائد الغرب فى إحياء هذه العاطفة الروحية ، لأن أوربة قد انحرفت بالمسيحية عن سوائها ، ولأن المسيحية تعنى بخلاص روح الإنسان فى حياته الأخروية ولا تعرض عليه حلا من الحلول التى تقبل التطبيق فى الحياة الدنيا بين وحدة عالية من جميع العناصر والأقوام ، ولو كانت مسيحية الغرب علاجا لمشكلات الإنسان فى العصر الحاضر لعالجت تلك المادية الماركسية التى طغت على الروسيا الحديثة واقتلعتها من أحضان الدين والإيمان بالله .

أما الشيوعية فيقول السيد محمد على عنها إنها شر من نظام رأس المال ، لأن شرور هذا النظام تتفاقم كلما قل أصحاب رؤوس الأموال ، ومن خطط الشيوعية أنها تحصر رؤوس الأموال فى يد واحدة هى يد الدولة ، وهى نهاية شر على الإنسان من حصر رؤوس الأموال فى يد فرد واحد أوجملة أفراد ، لأن الدولة تصول بالقوة التى لا تقاوم ولا يملكها الأغنياء بالغا ما بلغ نصيبهم من الثراء . وقصارى الأمر إذا اجتمعت الأموال فى أيدى الحكومة أن يصبح الحكام عصبة مستغلة تحل مع الزمن محل الشركات والمصارف الكبرى ، وتصول على الناس بقوة لا تملكها تلك المنشآت .

لكن الإسلام وسط بين نظام رأس المال ونظام الشيوعية ، ينفى المساوىء عن النظامين معا ، ويأخذ بالمحاسن منهما بالقدر الصالح للجماعات .

فهو يكره للمسلم أن يكنز الذهب والفضة قناطير مقنطرة ، ويحرم عليه الربا الذى يتيح لأصحاب رؤوس الأموال أن يستغلوا جهود العاملين بغير جهد مفيد ، ثم هو يأمر بالزكاة ويسمح بالملك ، ويطلق السبيل للمنافسة المشروعة ، فلا يقتل فى النفوس دواعى السعى والتحصيل .

وقواعده الخلقية صالحة لإنشاء الوحدة العالمية ، لأنه يسوى بين الأجناس، ولا يرى للأبيض على الأسود فضلا بغير التقوى ، ويعترف للأفراد بالمساواة والحرية ، ويجعل الحاكم « إماما » يقتدى به ولا يجعله ربا متصرفا بمشيئته فى عباد الله .

ومن هنا يتقرر المستقبل فى العالم الحديث لمبادىء الإسلام ، لأنه يقود العالم كله إلى الخلاص بعد فشل رأس المال ، وفشل الشيوعية وقصور العقائد الروحية الأخرى عن تدارك أحوال المعاش وتدبير الحلول للجماعات الانسانية فى مشكلات الإجتماع والإقتصاد وما يتفرع عليها من مشكلات الأخلاق والآداب .

والإسلام يحول بين الإنسان وبين الإستغراق فى شؤون المعاش ومطالب الأجساد ، لأنه يناديه إلى حضرة الله العلى الأعلى خمس مرات فى الليل والنهار ، فلا تطغى عليه النزعات المادية وهو يتردد بين عالم الروح وعالم الجسد من الصباح الباكر إلى أن يضمه النوم بين جناحيه .

وقد دبر الإسلام مشكلة البيت ، كما دبر مشكلة السوق والسياسة ، لأنه فرض للمرأة حق الاكتساب ولم يجعلها سلعة تباع وتشرى لإشباع الشهوات ، وربما دبرت لها حكومات الغرب صناعات للرزق وأجورا فى حالات البطالة ، ولكنها لا تدبر لها « البيت » الذى هو ألزم لها من القوت والكساء .

ومما يؤكده السيد محمد على أن الإسلام يزكى وحدة الزوجة ويفضل هذا الزواج على كل زواج ، إلا أن الشرائع لا توضع لحالة واحدة ، والدنيا كما نراها عرضة لطوارىء الشذوذ والاختلال ، ومن هذه الطوارىء ما ينقص الذكور عدة ملايين ويزيد الإناث بمقدارهذا النقص فى عدد الذكور ، فضلا عن الزيادة التى تشاهد فى عدد النساء من كل أمة على وجه التقريب فى غيرأوقات الحروب .

وإن تعدد الزوجات فى أمثال هذه الأحوال لخير من البغاء المكشوف ، فقد قبلت المرأة الأوربية مشاركة الخليلات المعترف بهن وقبلت مشاركتهن فى الخفاء ، وأصبحت هذه المشاركة نظاما إجتماعيا مقرراً لا معنى بعد قبوله وتقريره للاعتراض على تعدد الزوجات الشرعيات ، فهو على الأقل أصون للآداب ، وأكرم للنسل ، وأجمل بمنزلة المرأة من مهانة الابتذال ، وأصلح للاعتراف به فى علاقات المجتمع وقوانين الأخلاق .

آمال نزكيها صحائف مطوية :

المساجد الجامعـــة

وأثرها في حياة المسلمين وتربيتهم الدينية

للأستاذ أحمد رمزي

يوم أول مايو ١٩٣٣ بأنقرة . طيف وفلسفة ثورة :

كانت دعوة غداء شائقة تلك التي أقامها الأستاذ الكبير توحيد بك السلحدار ، وهو قائم بأعمال المفوضية الملكية المصرية بأنقرة ، لشرف حمد الله صبحي بك ، وزير تركيا المفوض في رومانيا بمناسبة وجوده بالعاصمة التركية ، فجلس في صدر المائدة وعلى يمينه الوزير المحتفى به ، وأمامه السيدة زوجة روشن أشرف بك ، وعلى يمينها صاحب السمو الملكي الأمير زيد بن الحسين وزير العراق المفوض بتركيا ، ثم تلا ذلك ترتيب مقاعد غيرهم من المدعوين . وامتازت هذه الدعوة على غيرها من الدعوات ، بما دار فيها من الأحاديث الشائقة التي اهتم كل من الحاضرين بتتبعها وبالإصغاء إليها ، وحرصت من جانبي على تدوين بعضها .

وكان ذلك في يوم الاثنين الموافق أول مايو سنة ١٩٣٣ ، ولم يكن اختيار هذا اليوم بالذات موضع تفكير وإنما جاء وليد المصادفة . وما أدراك ما أول مايو ، هو يوم عيد لطوائف العمال من مختلف الأجناس والألوان ، علمنا بمقدمه من العلم الأحمر الذي كان يرفرف على بناء سفارة السوفييت ، إذ كانت حكومتهم أول دولة اعترفت رسمياً بهذا العيد وكانت بنايتهم أمامنا .

أما وكالات الأنباء والإذاعة فأخذت تتحدث عن الاجتماعات والخطب والمظاهرات التي سينفرد بها أول مايو . وأذكر أنني اعتكفت في صباح ذلك اليوم فراجعت بعض مؤلفات « كارل ماركس » وصاحبه « انجل » وقلبت بين يدي صفحات مما كتبه رأس الثورة الروسية « لينين » وكنت مشغوفا به لدرجة أنني بحثت عن المنزل الذي كان يقيم به في مدينة زوريخ من مدن سويسرة الألمانية ، وتعرفت على المقعد الذي كان يجلس عليه في قاعة المطالعة بمكتبة جامعتها ، ولكثرة ما قرأت عنه وعن حياته لم تعد شخصيته غريبة عني ، وكان من تكرر ما رأيته من صوره في أوضاع مختلفة أن ثبتت صورته في مخيلتي ، فإذا وضعت ذلك بجانب الكتب التي قرأتها عنه بمختلف اللغات صدق قول الأديب العربي : « والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره » فهو أمامي كما تلوت في كتبه ، برأسه الكبير وعينيه الصغيرتين الحادتين وفمه الجبار وبروز عظمتي الوجنتين وهذا الإسم الذي يحمله[1] ، أجدها دائماً مشاهد تؤكد لي أصله الأسيوي المغولي المنحدر من سلالة الفاتحين التتار الذين سادوا أنحاء روسيا مدة قرون طويلة ، وصبغوها بلونهم وتركوا فيها آثارهم ودماءهم . وليس في هذا ما ينقص من قدر الزعيم الروسي والمعلم الشيوعي ، إن لم يكن في ذلك ما يزيد من قدره وما يرفع من شأنه كبطل أسيوي عالمي .

قلت خلوت صباح ذلك اليوم لنفسي وأطلقت لها العنان تحلق كما تشاء ، فأخذت أنتقل بالمطالعة من كتاب إلى كتاب غير مقيد بنظام أو قاعدة ، والوقت يمر سريعا حتى وقع ناظري على جملة تقول : « هذا عصر تنظيم الجماعات وقيادة وتوجيه الحركات الشعبية الكبرى ، عصر عمل ونشاط وخلق وتصميم أكبر مظاهره سيطرة الإنسان بيديه القويتين على قوانين الطبيعة وإخضاعها لمشيئته وإرادته . تعالوا إلى الفلسفة المادية وارجعوا إلى المنهج التاريخي لكي تتفتح أذهانكم لآفاق بعيدة . إننا لا نؤمن بالعاطفة إلا إذا احتجنا اليها لمحاربة الجمود والرجعية ولتحطيم الأصنام المزيفة . »

(١) أولو يانوف . والجزء الأول منه تترى .

والكتاب لطيف الحجم لا يتجاوز مائة وخمسين صفحة من كتب اللغة الإنجليزية الصغيرة ، ولكنه واف بموضوعه متقن في أدائه واستدلاله ، ولا نعده من كتب التبشير التي تراد بها الدعوة بين الأمم الأوربية وكفى ، فقد يحتاج المسلم لقراءته والتأمل في مراميه ، ليعلم أن المذاهب المادية والدعوات السياسية التي تتمخض عنها أفكار المبشرين بالإصلاح في أوربة وأمريكا لا تحتوي من أسانيد الإقناع ما هو أقوى وأجدر بالتأمل من هذه الأسانيد .

عباس محمود العقاد

إيمانه تظهره جرأة ، وجرأة يدعمها علم :

وبينما أنا أقرأ هذا الكلام ، إذ قرع حاجب المفوضية الباب ودعانى لاستقبال الضيوف مع أستاذنا الكبير ، فقمنا للترحيب بهم . وبعد برهة اجتمعوا ودخلنا حجرة المائدة ، وقد رتبت أحسن ترتيب يدل على ذوق الداعى واهتمامه بالصغيرة والكبيرة من تنسيق واختيار وتدقيق فى كل ما يقدمه لضيوفه . وما بدأت الخدمة حتى أخذ الحديث حمد الله صبحى ضيف الشرف ، وهو محدث من الطبقة الأولى يتناوله بأسلوب عذب وصوت هادىء ويعبر عن آرائه بالفرنسية وبالتركية ، فتكلم عن أمور مختلفة ، وأشياء متعددة ، ولفت الأنظار حينما أخذ يتحدث عن حياة المسلمين فى رومانيا ، فأحاط بما هم عليه فى وقته وما كانوا عليه فى الماضى وما تنبأ لهم به فى المستقبل ، وأشار إلى اللغة المستعملة فى رومانيا وكيف تأثرت بالألفاظ التركية التى امتزجت بها ، وكثير من هذه الكلمات عربى الأصل ، دخلت وأصبحت من لغة يتكلمها الملايين من الناس ، ثم عدد مساجدهم وعلماءهم وما هم عليه من التمسك بدين الإسلام وما يلقونه من حرية العقيدة والتسامح فى القيام بشعائرهم الدينية ، بغير حرج ولا ضغط عليهم .

ثم رأيته انتقل فجأة لموضوع شائك وعر المسلك لا يجرؤ أحد من الأتراك أن يخوض فيه وقتئذ ، فقال : « إن الدين لازم لكل أمة وفى كل عصر » ثم استشهد بعقلية الشعب اليونانى الحديث ، فقال : « إن هذا الشعب الذى يجاورنا ونجاوره ويعاصرنا ، يستمد إلهامه ومثله العليا من ثلاثة منابع : تاريخه القديم ، وعصر بيزنطة والدين الأرثوذكسى . فهذه دعائم ثلاث لتفكيره ولمثله العليا ولحياته » .

وهنا التفتت السيدة زوجة دوشين أشرف بك ، وكان زوجها نائبا بالمجلس الكبير ثم وزيراً مفوضا وسفيراً ، وهو كاتب من ألمع كتاب الأتراك وأدبائهم ، وسبق أن شغل منصب الأمين العام لرئاسة الجمهورية فى أول عهد الغازى كمال أتاتورك ، فأبدت الكثير من الشك فى أقوال الوزير التركى وكان مما قالته : « هناك أشياء أخرى غير الدين ومبادئه ، تستلهمها الأمم فى حياتها وجهادها ونهضتها ، ثم ما هو الدين ؟ أليس هو المثل الأعلى الذى يكونه الفرد منا لنفسه » ، وعبرت عن المثل الأعلى باللفظ التركى المستحدث .

أما حمد الله بك فاستمر فى حديثه لا يبالى بالرد على ما يوجه إلى كلامه من اعتراض ، وكان صوته يعبر عن إيمانه العميق وشعوره بالألم والحسرة ، فخرجت كلماته وهى تلهب الصدور ، ولذلك بقيت عالقة بأذنى ، قال : « نحن معاشر أهل الإسلام فى أشد الحاجة إلى ما أسميه تربية المسجد ، وأقول بكل أسف إن المسجد لا يلعب فى حياتنا الدور الذى تقوم به الكنيسة فى حياة المسيحى أو المعبد فى حياة الإسرائيلى ، ونحن أحوج ما نكون إلى رجل الدين الذى يوفق بعلمه وروحه وشخصيته وجرأته لأن يحيط المسجد أو الجامع بهالة من القدسية والاحترام ، وأن يتخذه مركزاً لعمله الروحى والاجتماعى ، الرجل الذى يمكن أن يطمئن الناس إليه فى تربية النشء وتثقيفهم وتلقينهم قواعد الدين الصحيح وأسسه وفضائله . إن المساجد بيوت الله وبيوت العبادة وبيوت المسلمين ، فيجب أن تتجه أنظارهم إليها وأن تجمعهم وقت الصلاة وفى أعيادهم ومناسباتهم المفرحة والمحزنة ، وأرى أن تربية المسجد عنصر أساسى من عناصر نهضة المسلمين » .

وأخذ يشرح هذه الناحية بوجهة نظر جديرة بكل اعتبار وتقدير ، ويؤيدها بمنطق الرجل المسلم الشاعر بأهمية العمل الروحى ، والمؤمن إيماناً لا يتزعزع بقوة المبادىء والدوافع التى قامت عليها الرسالة المحمدية .

وكنا نشعر وقتئذ بما بين تركيا وروسيا السوفيتية من علائق الود والصفاء والتحالف ، وكنا نعرف أشياء عن محاربة البلاشفة للعقائد ولنظام الأسرة ، وكان الأتراك يقلدون الروس فى أشياء ، ولكن حمد الله بك صرح بما يعتقد أنه الصواب بقوله « لا يمكن لمجتمع بشرى يحترم نفسه أن يحارب الأسرة ، إذ هى الرابطة الأساسية الأولى التى تصل بين الفرد والمجتمع وبين الطبيعة البشرية وبين المادة والروح » .

كنا نستمع إليه جميعاً ونحن نسلم بأن هذه الكلمات تخرج من وحى إيمانه وعقيدته فهى ليست من قبيل المجاملة ، بل نتيجة

تفكير طويل ورأى ناضج . وكان يتحدث عن الشعب التركى حديث رجل يفيض قلبه بمحبة هذا الشعب الإسلامى الكبير ، كما يتحدث الوالد عن أعز بنيه أو أحب شىء لديه . وكان وطنياً بغير تعصب ، قومياً مع سعة صدر . وأذكر أنه ختم كلامه بقوله : « ليس أصعب على السياسى أو التصدر لقيادة نهضة أمة وهى فى غمرات تحررها ويقظتها ، من أن يلقنها كيف توفق بين الشعور بالوطنية الصحيحة ومراميها وأهدافها المشروعة وما يلابسها من حماسة وتطرف ، وبين الإيمان بمحبة الأمم الأخرى والأخذ بالتساهل معها والشعور بأهمية العمل فى حقل التعاون الدولى وما يتطلبه من تفاهم وتساند » .

إن قليلين من رجال السياسة الذين استبقوا حوادث الزمن ونظروا هذه النظرة ، وأن هذا المبدأ من المبادىء التى تحاول أن تحققها الأمم بعد الحرب العالمية التى انتهت أخيراً ، ولكنى أنقلها كما هى من مذكرات عام ١٩٣٣ .

من هو الرجل ؟

إلى هنا انتهى حديثه ، وانفض بعد ذلك جمع أناس من أهل الرأى والفضل ، كان أستاذنا الكبير توحيد بك السلحدار يعرف كيف يجمعهم فى دار المفوضية ، حينما مثل مصر تمثيلا عالياً ورفع من شأنها ، وجعلها موضع احترام الأمة التركية وحكومة الجمهورية ، فكان أول ممثل لدولة أجنبية جاء إليه رئيس الدولة ، وعُدّ ذلك بين الأتراك ورجال السلك الأوروبى وبين من يفهم من الناس ، أكبر توفيق حصل عليه ممثل دبلوماسى لمصر منذ أنشئت علاقات سياسية بين المملكة المصرية والجمهورية التركية .

وتعجب معى كيف يتحدث حمد الله صبحى بهذه الشجاعة وكيف يجاهر بآراء لا تتفق مع الرأى السائد لدى السلطات العليا بتركيا ، ولكن الرجل القوى المخلص لمبادئه لا يبالى بأن يجهر بما يقول وبما يشعر ، وكان حمد الله بك عالماً فاضلا ، والعلم قوة دافعة تسبغ على صاحبها شجاعة وجرأة وثباتاً ، وكان تاريخه نقياً صافياً ، فقد خدم بلاده أجل الخدم ، يوم كان زعيما لحركة « التورك أوجاغى » وهى التى أيقظت غريزة الشعور القومى لدى شباب الأتراك ، ونفخت فيهم روحاً جديدة ، ومهدت الطريق لثورة مصطفى كمال التى قادتهم إلى حرب الاستقلال ، فهو رجل من صميم الشعب ، خرج من صفوفه وأمضى السنوات يعلم الشعب ويلقنه ويقوده ، ولما اختلفت وجهة النظر بينه وبين الغازى سلم لرئيس الجمهورية مقاليد الحركة ، التى أمضى عشرات السنين فى بنائها وقنع بمنصب دبلوماسى خارج بلاده ، ولكنه يحن إلى الشعب التركى ويتحدث بفضائل الإسلام ويأبى أن يفرق بين الترك والإسلام ، ويجاهر بما يعتقد ولا يخشى إلا الله ، وتلك منزلة لا يرقى إليها كل الناس كما نعلم ونلمس لدينا .

كان ذلك فى عام ١٩٣٣ وها نحن فى عام ١٩٤٦ ، وقد مضت السنوات وتغيرت الأيام ، وتبدلت الأوضاع ، وبينما أكتب مقالا للرسالة عن مساجد الفسطاط ، وجدت مجلداً من مذكراتى اليومية ، فإذا أنا أمام حديث حمد الله بك عن تربية المسجد . فرأيت أن أنقله كما هو وأن أعلق عليه بما دار فى خلدى طول السنين الماضية ، وأجعله تتمة لحديث الفسطاط ودمعتها الغالية على مساجدها وآثارها .

* * *

« يأيها النبى بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس » (المائدة)

بهذه الآية الكريمة خاطب الله رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وأدى النبى رسالته ، فهل اتبع المؤمنون سنة رسولهم ، وقاموا بتبليغ الأمانة التى حملوها فى هذا العصر الذى نعيش فيه ؟

إن الرسالة المحمدية للعالم قائمة ، فإذا أداها أصحابها ، نشروا بين الخلق تعاليم ومبادىء ودوافع تنفخ فيهم روحاً جديدة ، وتكون كشعلة لا يلبث ضياؤها أن يزيد يوماً بعد يوم حتى تعم أجزاء الأرض فتؤثر فى حركة العالم وسيره وتطوره ، وفى تكاتف الأمم وتساندها وإخراجها من الظلمات إلى النور .

هذا هو إيمان كل مسلم دخل فى زمرة طائفة المؤمنين ، وهذه آماله نعبر عنها ، ونحن على ثقة منها ؛ ولكن كيف الوصول إلى تحقيق ذلك ؟

(البقية فى العدد القادم)

أحمد رمزى
القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

منطق الدماء البريئة

فى يوم الجلاء

للأستاذ سيد قطب

أيًّا كان الألم الذى يعتصر قلب كل مصرى لمنظر الدماء البريئة تراق ، والأرواح الطاهرة تزهق ، والبيوت العامرة تخرب ، وقلوب الآباء والأمهات تقطر دماً على فلذات الأكباد تخرج فى الصباح ولا تعود فى المساء !

أيًّا كان هذا الألم الدافق الحار فى حنايا كل مصرى لتلك الدماء البريئة التى أريقت فى « يوم الجلاء » الذى أرادته الأمة المسالمة تعبيراً بريئاً عن الحق الطبيعى فى إبداء الشعور ؛ وأراده المستعمرون القساة ، معركة دموية تهرق فيها الدماء !

أيًّا كان هذا الألم ، فإن له ثمنه الذى لن يضيع . فالدم هو عربون الحرية فى كل زمان ومكان ، والاستشهاد هو ثمن الكرامة على تغير الأزمان ، وإن لليوم لغداً ، وإن للحرية لفجراً ، وإن النصر لآت !

لا ، بل إن ثمن تلك الدماء البريئة لحاضر ، وإنا لنقبضه الآن إن لتلك الدماء البريئة لمنطقاً واضحاً صادقاً ، يكذب ويجبه أولئك الكتاب المصريين والعرب أجمعين الذين وقفوا يناصرون الإنجليز فى محنتهم ، ويدعون لهم فى أمتهم ، ويقربونهم إلى قلوب مواطنيهم ، مأجورين أومخدوعين . فالمخدوع فى حق أمته لا يبعد كثيراً عن المأجور .

وإن لتلك الدماء البريئة لمنطقاً واضحاً صادقاً يكذب ويجبه ، أولئك الزعماء والساسة من المصريين والعرب أجمعين ، الذين وقفوا يناصرون الإنجليز فى محنتهم ، ويؤدون لهم جميع الخدمات التى تكفل النصر ، دون أن يحصلوا فى ذلك الوقت حتى على وعد قاطع بالجلاء ، اعتماداً على شرف الضمير السياسى البريطانى المزعوم!

إن ثورة واحدة مدة ثمان وأربعين ساعة ، إبان معركة العلمين ، وتوالى الأمداد والذخائر ، ثورة واحدة تعطل المواصلات ، كانت كفيلة بترجيح كفة النصر ، وانقلاب وجه الحرب كلها — باعتراف القادة البريطانيين والأمريكان فى هذا الأوان — ولكن مصر لم تعطها ، وثوقاً بشرف هذا الضمير المزعوم . ولم تنتفع بهذا الظرف فى قضيتها الوطنية ، ضعفاً ، أو جهلا ، من الساسة والزعماء المصريين !

ولقد ظل هؤلاء جميعاً : الكتاب المأجورون ، أو المخدوعون . والساسة الضعفاء ، أو الجهال ... ظلوا يسكبون فى سمع الأمة المصرية ، والأمة العربية كلها ، منطقاً زائفاً مدخولا عن الديمقراطيات الغربية ، وعن الضمير البريطانى ، وعن ميثاق الأطلنطى ، وعن الحريات الأربع ، وعن الحرية والإخاء والمساواة ، إلى آخر تلك الخدع الماكرة اللئيمة ، التى ألقاها الأقوياء للضعفاء ، فتلقفها هؤلاء ، وغنوا بها كالببغاء !

ظل هذا المنطق البائس المجرم يسكب فى سمع الأمة ، حتى انبعث أخيراً ذلك المنطق الحق الصارم ، الذى لا عوج فيه ولا خفاء . . ذلك منطق الدماء !

انبعث هذا المنطق من جراحات الجرحى ، ومن طعنات القتلى ، فى ميدان الاسماعيلية ، وانطلق كذلك من أفواه البنادق الآثمة ، التى دوّت بالموت والجراح ، فى الأبدان والأرواح . فغطى هذا المنطق الحاسم الصارم ، على ذلك المنطق المريب الكذوب ، الذى ظل الكتاب المأجورون أو المخدوعون ، والساسة الضعفاء أو الجهلاء ، يسكبونه فى سمع الأمة ستة أعوام !

وإذا كان المنطق الزائف البائس ، قد وصل إلى سمع الأمة ووقف هناك ، فلقد اخترق المنطق الحق الحاسم سمعها ، واستقر فى قلبها ، وردده ضميرها ... فهيهات هيهات أن تخدع بعد اليوم! وهيهات هيهات أن تنسى منطق الدماء !

انتهينا ... انتهينا أيها الحلفاء ! ! !

لقد قبضنا اللحظة الثمن الغالى لتلك الدماء ! !

قبضناه وعياً وصحواً لن تخدرهما المخدرات ! قبضناه حزماً وعزماً لن تفلهما المغريات ! قبضناه احتقاراً ومقتاً لكل تلك الدعايات ! !

***

الحمد لله . لقد انكشف الغطاء !

انكشف فى مصر فى يومين خالدين فى تاريخها الحديث ،

على ما يثيران من ألم فاجع فى صدور المصريين أجمعين : يوم ٤ فبراير المشؤوم . ويوم الجلاء ... المضمون !

وانكشف فى لبنان يوم انقضت السلطات الغاشمة الفرنسية على رئيس الجمهورية ووزراء الجمهورية ، فأودعتهم بطون السجون!

وانكشف فى سورية يوم انطلقت المدافع المتبربرة تصب حممها على دمشق ، وتنثر الأشلاء ، وتقتل المجاهدين الأبرياء !

وانكشف فى فلسطين ، يوم قام « ترومان » يطالب بفتح أبواب الهجرة لمئة ألف من اليهود ، وقام « بيفن » يسحب كلمة « الشرف » فى الكتاب الأبيض ، ويبيح الهجرة للصهيونيين !

وانكشف فى أندونسيا يوم قامت القوات البريطانية ، تقتل الأندلسيين المسلمين ، وتسلط عليهم الفرق اليابانية ، وتزعم أنها جاءت لتجريد الجنود اليابانية !

إن النضال بين الشرق والغرب فى الحقيقة يثيره الإنجليز والأمريكان والفرنسيون والهولنديون ، على الشرقيين عامة ، والبلاد الإسلامية على وجه الخصوص

هذه عقيدة يجب أن تستقر فى ضمائر الشرقيين . فى ضمير الهنود والأندونسيين والمصريين والسوريين واللبنانيين والعراقيين والحجازيين والنجديين والفلسطينيين والطرابلسيين والجزائريين والتونسيين والمراكشيين ... وهم كما يرون حشد عظيم ، حين يواجهون الاستعمار الغربى متكاتفين .

إنه النضال ... والويل فيه للمتخاذلين !

***

وبعد ...

فبوركت هذه الدماء الزكية التى كشفت عن عيوننا القناع! بوركت هذه الدماء التى أسكتت بمنطقها الحق الواضح ، كل منطق مبهرج أو مدخول !

لقد ارتفعت صيحة الجلاء البريئة ، فقوبلت بصيحة الرصاص الأثيمة . هذا منطق ، وذلك منطق . ولقد شهدت الإنسانية فى مواقع كثيرة انتصار الصيحة الأولى مهما بدت ضعيفة ، على الصيحة الثانية مهما بدت عنيفة . بل لقد شهدنا نحن انتصارها فى عام ١٩١٩ .

هنالك فارق واحد بين الموقعتين :

فى سنة ١٩١٩ كان على رأس الأمة سعد زغلول ، ولم يكن هذا الرجل يعرف ذلك المنطق المخنث الضعيف . منطق الثقة بالضمير البريطانى المزعوم . وكان الشعب مثله لا يقر مثل هذا المنطق المضحك فى تلك الظروف !

فيا أيتها الأمة !

اعرفى طريقك ، واعرفى زعماءك ، واعرفى أبناءك !

انبذى كل من يحدثك عن ثقته فى الضمير السياسى البريطانى . فالضمير السياسى البريطانى هو هذا الذى يضربك بالرصاص ، لأنك تهتفين هتافاً سلمياً بالجلاء ! والذى يدعوك من أبنائك إلى الثقة بهذا الضمير ، يطعنك أشد من طعنات الرصاص ، لأنه يطعن ضميرك ، وهو ملاذك الأمين !

أيتها الأمة !

لقد هتفت مرة بالجلاء ، وإنه لهتاف مطرب رخيم ، وهتاف شريف كريم ... فاهتفى أيتها الأمة بالجلاء ، وصفقى لمن يهتفون معك به من الساسة والزعماء ، على أن تكونى أنت الرقيب عليهم فيما يقولون وفيما يفعلون !

سيد قطب

مقالات في كلمـات

للأستاذ على الطنطاوى

١ – حرية الكتابة

لست أدعو فى هذه الكلمة إلى سلب الكتاب حرية الكتابة ، ولكنى أدعو الى الإبقاء على حرية الناس فى التدين والتخلق بكريم الأخلاق . وإن لكل حرية حدوداً ، لا ينبغى لها أن تعدوها ، وإلا كانت حرية المجنون الذى يفعل ما شاء وشاء له الجنون . أنت حر فى دارك ولكنك لا تستطيع أن تتخذ منها أتوناً للفحم ولا ماخوراً للفجور ، ولا تستطيع أن تحرقها أو تنسفها بالبارود . وأنت حر فى نفسك ولكنك لا تقدر أن تبسط سفرتك فتأكل فى المحراب يوم الجمعة والناس فى الصلاة ، ولا تقدر أن تلق الصحون وتصلى على المائدة ساعة الوليمة فى الحفل الحاشد ، أو أن تحضر المحاضرة بلباس الحمام ، أو أن تصرخ فى المستشفى أو تغنى فى المأتم . وأنت حر فى قلمك ، ولكنك لا تملك أن تدعو إلى هدم استقلال وطنك ، والخروج على قوانين بلادك . إنهم يمنعونك ويسكتونك ويضربون إن فعلت على يدك .

فلماذا لا يمنعونك أن تكفر بالله ، وتهدم الأخلاق ، وتخرج الناس على الدين ، والأخلاق أساس الاستقلال والدين أولى من القانون ؟ وكيف صح ذلك المنع ، وساغ ، ولم يمسّ حرمة هذه الحرية ، ولم ينل من قدسيتها ، ولا يصح هـذا ولا يسوغ ولا يكون إلا عدواناً على حرية الكتابة ، وإلحاداً فيها .

أو ليس من عمل الحكومة الذى كانت من أجله الحكومات أن تقر الأمن والسلام فى الأمة ، وتضمن لها العزة والسيادة بين الأمم ؟ إنه لا يكون أمن أو تكون عزة إلا بالخلق المتين وبالدين ، فإن ذهبا لم يخلفهما شىء ... وما القانون ؟ هو الشرطى ... فإن أمن العاصى أن يراه الشرطى أو يدرى به القاضى ، أو يناله العقاب ، ركب فى طريق الغواية رأسه فلم يرده شىء ، أما المؤمن فيردعه عن المعصية علمه أن الله مطلع عليه فى سره وعلنه ، وأما صاحب الخلق فربما رده خلقه ، وعصمه الله به ، فلماذا نهدم بأيدينا هذين الحصنين ، وندع الضعف والهوان يدخلان علينا بدخول الإلحاد والفجور .

أو من العدل أن تحفظ الحكومة أموال الناس من اللصوص وتضيع عقائدهم ؟ وتحمى جسومهم من القتلة وتبيح قلوبهم ؟ وتقيم الحراس يحرسون البيوت والأثاث وتدع أعراض البنات وأخلاق الصبيان هملا يسرقها ويعبث بها ، كل صحفى مفسد ، وشاعر ماجن ، وكاتب خبيث ؟

سيقولون : حرية الكتابة ...

نعم إنها حرية ينبغى أن تصان وتضمن ، ولا يعتدى عليها ، ولا ينال منها ، ولكن الدين والأخلاق ، ينبغى كذلك أن يصانا وأن يضمنا ، وألا يعتدى عليهما ولا ينال منهما ، فإن تعارض الأمران ، فلنحتمل أخف الضررين ، ولنقبل بأهون الشرين ، وأهونهما أن نخسر حرية الكتابة (أحيانا) لنحفظ الدين والشرف ، لا أن نخسر الدين والشرف لنحفظ (حرية الكتابة) ، ونقول لكل صاحب نحلة ضالة ، أو هوى خبيث ، أو رأى هدام : اكتب ما تريد ، واطبعه ، وهاته نقرأه على أبنائنا وبناتنا ، وننصبه فى عقولهم وننشّهم عليه !

ونحن اليوم فى مطلع حياة جديدة ، وقد غيرت هذه الحرب المقاييس ، وبدلت قيم الأشياء فى أفهام الناس ، وكانت امتحاناً قاسياً للأمم ، لم تنجح فيه أمة فشا فيها الفجور ، وعمت الفاحشة وضعفت الرجولة ، ونسيت العقيدة ، ولن يدوم نجاح لأمة لاتزال تستهين بالعفاف ، وتميل إلى المجون ، وتؤمن بالكفر ... وحسبنا فرنسا مثلا معروضاً لكل ذى عينين تبصران وعقل يفكر ، فلنعتبر بغيرنا قبل أن نصير عبرة للمعتبرين ، ولتفهم حكوماتنا ، أنه لا حياة لنا إلا إذا أنشأنا من أبنائنا جيلا مؤمنا متين الخلق ، ظاهر الرجولة ، مقبلا على الجد ، عارفا بالواجب عليه ، فإذا تركت الحكومات الصحفيين والكتاب (أعنى بعضهم) ينقض كل يوم حجراً من صرح الأخلاق ، ويوهى جانباً ، وينشر فى الناس حديث الشهوة البهيمية ، ويستكثر من القراء بإثارة أحط الغرائز البشرية ، لم ننشىء والله إلا جيلا رخواً ضعيفاً ، همه شهوته ، ومطلبه لذته ، قد ضاعت رجولته ، وذهبت قوته ... ثم نبنى بهذا الجيل مجدنا ، ونقيم عزنا ، ونأخذ بين الأمم مكاننا !

إن المسألة أكبر من أن نلوك فيها هذه الألفاظ (حرية الكتابة) و (حرية الفكر) ... إنها مسألة حياة أو موت !

٢ — أمثلة على حرية الكتابة

وما فى نشر الفاحشة صعوبة ، ولا يحتاج إلى عبقرية أو بلاغة أو أدب أو نبوغ ، وحسب الرجل أن ينشر فى كتاب ما يطوى فى الخلوة ، أو أن يظهر فى صورة ما يستر من العورة ، حتى ينال منه ما يريد .

فتجرأ الناس على الأدب ، واقتحموا حماه من غير أن يعدوا لذلك عدته من وقوف على اللغة وأساليبها ، واطلاع على صرفها ونحوها ، ونظر فى رسائل بلغائها ودواوين شعرائها . وفيم هذا العناء كله ، وأدب الشهوة ، لا يحتاج إليه ، ولا يعتمد عليه ؟ وما هى إلا سهرة فى الخمارة ، أو ليلة فى (المرقص ...) حتى تجمع أسبابه كلها ومقوماته .

طبع فى دمشق منذ سنة كتاب صغير ، زاهى الغلاف ناعمه ملفوف بالورق الشفاف الذى تلف به علب (الشيكولاته) فى الأعراس ، معقود عليه شريط أحمر كالذى أوجب الفرنسيون أول العهد باحتلالهم الشام وضعه فى خصور (بعضهن) ليعرفن به ، فيه كلام مطبوع على صفة الشعر ، فيه أشطار طولها واحد ، إذا قستها بالسنتيمترات .. يشتمل على وصف ما يكون بين الفاسق القارح ، والبغى المتمرسة المتوقحة وصفاً واقعياً ، لا خيال فيه ، لأن صاحبه ليس بالأديب الواسع الخيال ، بل هو مدلل ، غنى ، عزيز على أبويه ، وهو طالب فى مدرسة . . . وقد قرأ كتابه الطلاب فى مدارسهم ، والطالبات .

وفى الكتاب مع ذلك تجديد فى بحور العروض ، يختلط فيه البحر البسيط بالبحر الأبيض المتوسط ، وتجديد فى قواعد النحو لأن الناس قد ملوا رفع الفاعل ، ونصب المفعول ، ومضى عليهم ثلاثة آلاف سنة وهم مقيمون عليه ، فلم يكن بد من هذا التجديد .

ومع ذلك فقد قرأنا فى الجرائد من نحو شهر ، أن صاحب هذا الكتاب ، قد دعى إلى محطة الإذاعة فى القاهرة ، ليذيع منها شعره ، رغبة منهم بنشر الأدب السورى ، وتوثيقاً للتعاون الثقافى بين الأقطار العربية !!.

وها كم مثالا آخر ، هو الكتاب الذى صدر فى دمشق منذ عهد قريب ، واسمه (مختصر تاريخ الحضارة العربية) ، وقد وضع لطلاب المدارس الثانوية ، ونصف مباحثه ، فى القرآن وعلومه ، والحديث وفنونه ، والفقه أصوله وفروعه ، والكلام ، والفرق الإسلامية وعقائدها ، والذى راع صدور العلماء لما فيه من التخليطات التى يكفر بمثلها المؤمن ، ويجهل العالم ، ويضحك منه على ذقن قائله ، وألف مفتى الجمهورية لجنة للنظر فيه . فنظرت فوجدت فيه من الغلطات ما لا ينتهى العجب من صدوره ممن ينتسب إلى العلم ولو من وراء خمسة جدود . فكان مثال مؤلفيه فيه — كالنحوى إذا ألف فى علم التشريح ، والكيميائى إذا كتب فى فن التمثيل .

على أن النظر فى الغلاف إلى اسم مؤلفيه يبطل هذا العجب ، لأن أحدهما اسمه جورج حداد — والآخر اسمه من أسماء المسلمين ولا أعرف عنه ولا عن زميله شيئاً ، ولكن أبحاث الكتاب تدل على أن هذا المسلم أجهل بعلوم المسلمين من الخواجه جورج ! إنها (حرية الكتابة) ، فليتعلم طلابنا الأباطيل على أنها حقائق ، والأوهام على أنها الإسلام ، ويحفظوها ليؤدوها يوم الامتحان ، ما دامت هذه الحرية مصونة ، والكلام فى الحد منها عدوان على الفكر المقدس .

(دمشق) **على الطنطاوى**

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢ —



بين عهدين : منشأ البيوريتانية

وما ذلك المذهب الذي جر على أتباعه كراهة مخالفيهم زمنا ، والذي قدر له آخر الأمر أن يظفر بخصومه جميعا ويسيطر على البلاد حقبة من الزمن ؟

إذا أردنا أن نعرف كيف نشأت البيوريتانية في إنجلترة ، وجب لنا نرجع إلى تلك الحركة التي انبعثت في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر ، والتي اصطلح المؤرخون على تسميتها الإصلاح الديني ، فني هذه الحركة الإصلاحية أرومة البيوريتانية ، على أن نراعي في نظرنا إلى حركة الإصلاح الديني مشاعر الإنجليز التي هي نتيجة ما أحدثته بيئتهم من أثر في ميولهم ومزاجهم وفلسفة حياتهم ؟ لنتبين كيف استجاب فريق منهم لدعوة الإصلاح ، وسوف نرى من ذلك أن استجابة هذا الفريق على نحو اختصوا به هو روح البيوريتانية ؛ فما كانت البيوريتانية في إنجلترة إلا صورة معينة من صور الإصلاح الديني العام الذي شملت دعوته أوروبا في النصف الأول من القرن السادس عشر .

كانت هذه الحركة الإصلاحية ثمرة من ثمار النهضة الأوروبية العامة ومظهرا من مظاهرها ، فقد نفذ نور النهضة إلى كل ركن من أركان الحياة ومنها الدين ؛ وما كان لوثر بطل الدعوة الإصلاحية في ألمانيا وأول رجل تحدى البابوية إلا معبرا في الواقع عن معان وآمال كانت تهجس في نفوس كثير من المفكرين غيره ، وإنما كان له فضل البدء والسبق في مضمار الجهاد ، وكان بدء دعوته سنة ١٥١٧ .

وكانت دعوة لوثر في جوهرها ثورة على دعوى البابوية أنها تحكم مفوضة من الله في أمور الدين والدنيا ، وعلى امتيازات القساوسة وأطماعهم ، وعلى ما ورثته المسيحية من مظاهر الوثنية القديمة ؛ فهي من ناحية وثبة على سلطان الكنيسة ، ومن ناحية أخرى رغبة في العودة بالدين إلى جوهره الخالص من شوائب البدع والضلالات ...

رأى لوثر أن في وسع كل مؤمن أن يتصل بربه مباشرة لا عن طريق قسيس كما تزعم الكنيسة ، بل إن في وسع كل امرىء أن يكون قسيسا إذا أخلص قلبه لله . وأنكر لوثر عقيدة الكنيسة في العشاء الرباني إنكارا شديدا ، فما يقبل عقله أن صلاة القسيس لدى قربان من الخبز والنبيذ على المذبح تحيله فعلا إلى مادة المسيح نفسه لحما ودما . وطعن لوثر أشد الطعن على زعم البابا أنه يملك الغفران والحرمان ، وسخر أعظم السخرية من بيع الكنيسة صكوكا تمحو الذنوب والآثام . وخطا لوثر خطوة إيجابية فترجم الإنجيل إلى الألمانية ، وطلب إلى الناس أن يكون مصدرهم الإنجيل وحده لا تعاليم الكنيسة . وتداول الناس قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم ولم يأخذوه عن القساوسة وشاع فيهم هذا الكتاب عامتهم وخاصتهم بفضل ما استحدث من وسائل الطباعة فرأوا مبلغ ما دخل على الدين من زيف ، وعجب الناس إذ وجدوا في الإنجيل أن القديس بطرس نفسه لم يعصم من الخطأ وأنه أنب على أخطائه . وإذا كان هذا شأن بطرس القديس فما بال

رجال الدين ، وقد بعدوا عن المسيح وعهده هذا البعد الزمنى ، يزعمون العصمة لأنفسهم من الأخطاء !

وأمعن لوثر فى إظهار مبلغ ما صار إليه رجال الدين من إقبال على الدنيا وبعد عن الزهد ، فما يهم الرجل منهم إلا جمع الهبات والصدقات ، وإنهم ليديرون الأراضى الموقوفة على الكنيسة منذ الأقطاع ، ويشغلون أنفسهم بأمور دنيوية بحتة ، ويتدخلون فى الشؤون السياسية يطمعون أن تكون لهم سلطة كما للأمراء سلطة ، حتى لقد نسوا رسالتهم الروحية ولم يبق لهم من الدين إلا مظهر يتجلى فى ملابسهم وفيما يشخصون فيه من طقوس الأدعية والصلوات وما إليها مما لا يعد من جوهر الدين ولا من رسالته العليا . وألقى لوثر تبعة هذا الفساد على عاتق البابوات الذين ادعوا لأنفسهم السلطة الدنيوية فى العالم المسيحى أثناء العصور الوسطى مخالفين بذلك آباء المسيحية الأولين الذين كانوا يدعون ما لقيصر لقيصر وما لله لله …

ولم يكن مرد ما أحدثه من عظيم الأثر فى ألمانيا ثم فى أوروبا كلها إلى آرائه وحدها ، ولكنه أثر فى الأذهان أعمق الأثر بمسلكه كذلك ؛ بهذه الجرأة البالغة التى خيل إلى الناس أنها أعظم من أن تكون صيحة بشر ؛ فهذا أحد رجال الدين يتحدى البابا ويسخر من الكنيسة ، وكان من يفكر بينه وبين نفسه أن أحد القساوسة يخطىء بله البابا نفسه يأثم بهذا إثما لا يمحوه إلا التوبة والندم !

وكثيرا ما يؤثر العظماء فى الناس بأعمالهم ولو لم يقولوا شيئا فتكون أعمالهم أبلغ من كل مقال ، وهذا لوثر يؤثر بقوله وعمله ، فهو لا يتردد أن يحرق رد البابا على آرائه ويفعل ذلك على أعين الناس ، ثم يقابل قرار البابا بكفرانه وطرده من رحمة الكنيسة ، بكل ما فى وسعه من عدم مبالاة وسخرية … ويعد عمل لوثر هذا فى الحق فصلا رائعا فى تاريخ حرية الفكر منذ أن بدأ الناس يعشقون حرية الفكر وينادون بحرية الفكر ، وستظل وثبته وقوته وجرأته حديثا عذبا تجرى به الألسن وتبتهج له النفوس كلما اتجه الناس بأذهانهم إلى ذلك الأمل الحلو ، وأعنى به انطلاق الفكر من قيوده …

عصفت دعوة لوثر بسلطة الكنيسة وزلزلت مكانة القساوسة ومكنت لحرية الفرد أكبر تمكين ، فلكل امرىء الحق أن يفكر فى أمر دينه تفكيرا حرا لا يتقيد فيه بقيد ؛ وكانت ترجمته للانجيل إلى الألمانية فتحا ونورا ، بهر العقول ، وحرك النفوس الجامدة ، وكشف للناس العقيدة الأولى نقية من شوائب الوثنية سليمة من ضلالات الكنيسة .

وما لبثت دعوة الإصلاح أن نهض بها زعماء غير لوثر ، نخص منهم بالذكر كلفن الفرنسى الأصل الذى أحدثت آراؤه من عميق الأثر فى أوروبا كلها ما لم تبلغ إلى مثله آراء لوثر نفسه .

وقد بدأ هذا الداعى دعوته سنة ١٥٣٣ ، وكانت أول خطوة خطاها هى توجيه الطعن إلى كنيسة روما وإظهار معايبها على نحو ما فعل لوثر .

ولئن أثر لوثر بأقدامه وحميته وتحديه وفصاحته ، فلقد أثر كلفن بفلسفته القوية ، ومنطقه الصارم الواضح ، الذى لا عوج فيه ، ثم بمبادئه الخلقية التى استمسك بها ولم يسمح فى تنفيذها بأية هوادة .

آمن كلفن بعقيدة القدر المحتوم ؛ فكل إنسان مقدر عليه أمره من قبل أن يبرأ ؛ والناس من أجل ذلك فريقان : فريق هدى وفريق حقت عليه الضلالة . وليس يتسنى فى هذا العالم أن نعرف من هم أهل النعيم ومن هم أهل الشقاء ، أعنى لا نستطيع أن نحكم على امرىء أمن الذين شقوا هو أم من الذين سعدوا .

وإذا كان لوثر قد مكن لحرية الفرد وشعوره بذاتيته وكيانه ، فإنه فى الوقت نفسه مكن لسلطة الأمراء ، وذلك لأنه استمالهم واعتمد عليهم واستغل رغبتهم فى التخلص من سلطان الكنيسة ومطالب الكنيسة . أما كلفن فقد كانت فلسفته ترمى إلى التحرر من كل سلطة استبدادية ، سواء أتمثلت فى الكنيسة أم فى الأباطرة والملوك والأمراء ؛ وكانت نزعته ديموقراطية ترمى إلى الاعتماد على جمهور الناس ، وكان يرى أن القوى هو الله وحده ، وأن الحاكم هو الله وحده ، وأن الذى يخشى هو الله وليس غير الله ؛ فالناس جميعا ملوكهم وسوقتهم أمام قوة الله سواء ، وليس على الأرض من يتمتع بما يسمى حقا إلهيا ، وإنما الحاكمون هم ممثلو إرادة المجموع ، وكان يرى بآرائه هذه إلى تدعيم نظامه الكنسى الذى كان قوامه قوما يختارون من عدد من القساوسة وعدد من غير رجال الدين لإدارة الكنائس الكلفية ، فلا سلطة على كنائسه لبابا ولا لأمير .

وثبتت عقيدة الخوف من الله وحده فى نفوس أتباعه عدم الخوف من غيره ، بل والتمرد على كل مستبد من ذوى الطغيان ؛

ولـكن إذا كانت هذه الحرية حقا للفرد ، فعليه فيما يقابلها واجب يتلخص فى اتباع المبادىء الخلقية التى رسمها كلفن ، وكان صارما كل الصرامة فى تنفيذها . وعنده أن الفضائل تطلب لذاتها أولا قبل أن تطلب طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب .

حرم كلفن الخمر والميسر والرقص والخلاعة وأعمال السحر والشعوذة والربا الفاحش وفرض لـكل منها عقوبة صارمة وجعل عقوبة الزنى الموت ، وكانت وظيفة كنائسه إرشاد الناس ومراقبتهم وأخذهم بالشدة إذا فرطوا فى جنب الفضيلة .

شاعت اللوثرية والـكلفنية فى أوروبا ، ثم انتقلت آراؤهما إلى إنجلترة ؛ فـكان أثرها هناك على صورة خاصة توضحها مشاعر الإنجليز وأثر البيئة فى تلك المشاعر .

ونقصد أثر البيئة الطبيعية وما يتصل بها من مؤثرات مناخية ، فما لا شك فيه أن لهذه البيئة فعلها فى تـكوين مزاج أهلها على نحو معين ، ثم يأتى فعل الوراثة متمما لفعل البيئة فتتكون مشاعر الأمة بمرور الزمن وهذه المشاعر هى مزاجها العام .

وكان لبيئة الضباب والسحاب والبرد الشـديد والأعاصير الهوج والغابات الموحشة والبحر المخوف أثرها فى بث نوع من الظلمة العابسة والجد الصارم يشبه أن يكون كآبة فى مشاعر الإنجليز والأمم التيوتونية على العموم ؛ وقر فى مشاعرهم أن صعوبة الحياة وقسوتها ضرب من القدر يقاوم فى شجاعة وتحد ، ويذعن له فى رضى واستسلام ؛ وذلك على خلاف ما كان فى الطرف الجنوبى الشرقى لأوروبا مثلا حيث الشمس والدفء والنور كانت تبث المرح والحيوية فى مشاعر الأغريق ، وتميل بهم إلى متع الحياة ومسراتها .

فلما تحررت العقول نتيجة للنهضة الأوروبية العامة ، لم يكن عجبا أن يتجه الإنجليز بعقولهم المحررة إلى أمور الدين أكثر مما اتجهوا إلى مسائل العلم والفلسفة والفن ، وأحدثت آراء كلفن أثرها العميق فى نفوسهم وعلى الأخص رأيه فى القدر المحتوم الذى لا سبيل قط إلى تغيير حكمه .

وعم تيار النهضة فغمر الحياة العامة وأشاع فيها البهجة والمرح والجمال والزينة ، والرغبة فى الاستمتاع بجمال الحياة ولذاذاتها ، فكان منه ربيع حافل يتمثل فى العصر الأليزابيثى أو عصر شكسبير

ولـكن الربيع لم يطل ؛ وما ذلك إلا لأنه كان أمرا طارئا على مشاعر الأمة غريبا على مزاجها العام . وما أسرع ما استيقظت تلك المشاعر من حلم العصر الأليزابيثى فـكانت يقظتها هى البيوريتانية وفلسفتها التى أخذت تسيطر على المجتمع الإنجليزى . والفرق بين ما أنتجته العقول فى الأدب والفن فى العصر الأليزابيثى أو عصر شـكسبير وبين ما أنتجته فى العصر البيوريتانى أو عصر ملتن ، يرينا مدى التغير الذى أخذ يطرأ على الحياة بعد حلم النهضة. ولقد لوحظت شواهد ذلك التغير فى فن شـكسبير نفسه فى أخريات أيامه ، وتجد أمثلة لذلك فى روايتيه « العاصفة » و « قصة الشتاء » .

هذه اليقظة من الحلم البهيج الفاتن ، أو هذه الفلسفة التى عادت بمشاعر الأمة إلى طبيعتها هى روح البيوريتانية ، ولـكن رد الفعل كان شديدا ؛ فداخل الحياة الإنجليزية نوع من التزمت الشديد كان أكثر مما تطيق النفوس فى مواطن كثيرة ، والبرهان على ذلك ما شاع فى الأمة من سرور مع الملكية العائدة بعد زوال عهد كرمويل .

وقد رأينا كيف ظهر البيوريتانز كجماعة أول الأمر حين أصدرت الملكة إليزابث مرسوم توحيد العبادات عام ١٥٥٩ ، ورأى فريق من رجال الدين أنه كان ينبغى أن يكون المرسوم أكثر تخلصا من مظاهر روما والـكنيسة البابوية ، فهؤلاء هم البيوريتانز . ونستطيع أن نلمح أثر اللوثرية والـكلفنية فى رغبة هذا الفريق فى التخلص من مظاهر الـكنيسة البابوية . ولقد كان لغضبة هنرى الثامن على البابا وفصله كنيسة إنجلترة عن كنيسة روما أثره كذلك فى نفوس هذا الفريق ؛ فلئن كان ذلك الفصل من حيث الرياسة فحسب ، مع بقاء العقيدة الكاثوليكية وطقوسها على ما هى عليه ، إلا أنه زعزع هيبة البابا فى نفوس الإنجليز إلى مدى واسع ، وجعل نزعة الإصـلاح تستند إلى دعوى مشايعة السلطة الحاكمة ضد البابوية .

وأخذ يزداد عدد هؤلاء الذين رغبوا فى التخلص من مظاهر البابوية ، وأخذت تشيع فيهم مبادىء الإصلاح الدينى العام وعلى الأخص آراء كلفن وتعاليمه الخلقية ، فلم ينته القرن السادس عشر حتى كان منهم فئة دينية رأينا كيف سميت باسم البيوريتانز ؛ وأصبح لهذه الفئة نظرة إلى الحياة خاصة بها ، لا فى العقيدة الدينية وحدها ، ولـكن فى السياسة كذلك وآداب المجتمع والأدب والفن ؛ ولما تم لهم السيطرة السياسية استطاعوا أن يأخذوا المجتمع بمبادئهم أخذا قويا لا هوادة فيه ، ولـكنهم غلوا فى تلك المبادىء غلوا كبيرا حتى تجاوزوا ما تطيقه مشاعر الأمة .

(يتبع) الخفيف

الكذب والنسيان

كما يراهما «أبو العلاء المعرى»

للأستاذ كامل كيلانى

[تتمة ما نشر فى العددين السابقين]

١٨ — شعر الضب :

ويندد فى رسالة الأغريض بالرواة الكاذبين فيقول : « وقد تمادى بأبى يوسف — رحمه الله — الاجتهاد فى إقامة الاستشهاد ، حتى أنشد رجز الضب ، وإن معداً من ذلك لجد منغضب . أعلى فصاحته يستعان بالقرض ، ويستشهد بأجناس الأرض . ما رؤبة عنده بنضير ، فما قولك فى ضب دامى الأظافير .

١٩ — كذب النجوم

وقد خشى أن يصل الكذب إلى الكواكب والنجوم فقال :

« فياليت شعرى هل تُراعُ من الروى
وتركعُ نُسكا بالعشــاء وبالظهر
وتكذب أن المين فى آل آدم غرائز جاءت بالنفاق وبالعهر

٢٠ — حديث مهلهل

ويسأل عدى بن ربيعة المعروف بمهلهل التغلبى ، أخبرنى لم سميت مهلهلا فقد قيل إنك سميت بذلك لأنك أول من هلهل الشعر ، أى رققه . فيقول : إن الكذب لكثير . وإنما كان لى أخ يقال له امرؤ القيس ، فأغار علينا زهير بن جناب الكلبى ، فتبعه أخى فى زرافة من قومه ، فقال فى ذلك :

لما توقل فى الكراع هجينهم[1] هلهلت[2] أثأر مالكا أو حنبلا
وكأنه باز ، علتــه كبرة يهدى بِشِكته الرعيل الأولا

فسمى مهلهلا ، فلما هلك شبهت به ، فقيل لى مهلهل . فيقول الآن شفيت صدرى بحقيقة اليقين .

---

(١) يعنى بالهجين : زهير بن جناب .

(٢) هلهلت : قاربت .

٢١ — حديث المرقشين

ويسأل المرقش الأكبر عن الأبيات التى يرويها له بعض الناس :

« تخيرت من نَعمانَ عُودَ أراكة
لهنـد ، ولكن من يبلغه هِندا
خليلى جوزا — بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا
وقولا لها : ليس الضلال أجازنا ولكننا جُزْنا لنلقاكم عمدا»

ويقول له : ولم أجدها فى ديوانك ، فهل ماحكى صحيح عنك ؟» فيقول المرقش : « لقد قلت أشياء كثيرة ، ولكنى سرقتها (أى : غفلت عنها وجهلتها) لطول الأبد .

وينعطف إلى المرقش الأصغر ، فيسأله عن شأنه مع بنت المنذر ، وبنت عجلان ، فيجده غير خبير ، قد نسى لترادف الأحقاب . فيقول : « ألا تذكر ما صنع بك جنـاب . فيقول : وما صنع جناب ؟ لقد لقيت الأقورين (أى : الدواهى) وشربت الأمرَّينَ .

٢٢ — نطق اللسان

ومن أبرع ما قاله فى التنديد بالكذب قوله فى رسالة الغفران : « وإذا رُجع إلى الحقائق فَنُطْقُ اللسان ، لا يُنبىء عن اعتقاد الإنسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً ، وإنما يجعل ذلك تزيناً ، يريد أن يصل به إلى ثناء ، أو غرض من أغراض الخالية أم الفناء . ولعله قد ذهب جماعة هم فى الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون . ومايلحقنى الشك فى أن « دعبل بن على » لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع ، وإنما غرضه التكسب ، وكم أثبت نسباً بتنسب .

ولا أرتاب أن دعبلا كان على رأى الحكمى وطبقته . والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشية .

٢٣ — الكذب الفنى

أما الكذب الفنى الذى كان يضطر إليه الخيال ، فقد أبدع شاعرنا فى الاعتذار عنه فى مقدمة سقط الزند — كما قلت فى

رسالة الهناء — حين عرض لتسويغ اضطراره إلى حذف أسماء من غلى فى مجاملتهم ، وأسرف فى تخيل المزايا الباهرة التى نحلها إياهم فى قصائده ، معتذراً عما ارتكبه من الشطط بأنه لم يعن أحداً منهم بما قال ، ولم يقصد — بما نظم فى ريان الحداثة (أول الشباب) وجنّ النشاط (شدة المرح) إلى غير مرانة الطبع ورياضته ، ثم شفع ذلك الاعتذار بآخر فقال : « ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طالباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السُّوس (الطبع) فالحمد لله الذى ستر بِغُفَّةٍ من قوام العيش ، ورزق شُبْعَة من القناعة أوفت على جزيل الوفر » .

* * *

ولكنه لم يلبث أن عزف عن هذا الباطل ، ونفر طبعه من تلك الأكاذيب فهجر الشعر قائلا فى مقدمة سقط الزند : « ثم رفضته (يعنى الشعر) رفض السَّقب غرسه ، والرأل (ولد النعام) تريكته (بيضته التى خرج منها وهو فرخ) ، رغبة عن أدب معظم جيده كذب ، ورديئه ينقص ويجدب (يعيب) . وهنا يقول : « وما وجد لى من غلو ، عَلِق — فى الظاهر — بآدمى ، وكان مما يحتمله صفات الله — عز سلطانه — فهو مصروب إليه .

وقد أخذ نفسه — فى قابل أيامه — بهذا العهد فوقف تمجيده وإجلاله على خالقه وحده ، كما ترى ذلك فى اللزوميات ورسالة الغفران ، والفصول والغايات .

٢٤ — المثل العليا

وقد أشار فى تلك المقدمة النفيسة إلى مبدأ جليل ما أجدر محبى الأدب العربى أن يتنبهوا إلى خطره ونفاسته ، فآثر أن يوجه مدائحه إلى المثل العليا — حيثما وجدت — فى أفذاذ الموهوبين ، من سالف القدامى الغابرين ، وقابل الذرارى القادمين ، فقال : « وما صلح لمخلوق سلف من قبل ، أو لم يخلق بعد ، فإنه ملحق به » . ثم أعلن براءته مما جمح به طبعه ، فقال مستغفراً نادماً : « وما كان من محض المين لا جهة له ، فأستقيل الله العثرة فيه » .

ثم وصل إلى ذروة التوفيق فى تعليل الكذب الفنى وتسويغه ، فقال : « والشعر للخلد ، (للنفس أو القلب) مثل الصورة لليد : يمثل الصانع ما لا حقيقة له ، ويقول الخاطر (القلب) ، ما لو طولب به لأنكره » .

ثم لخص دستور الشعراء ، ومن لف لفهم من رجال الفنون فقال : « ومطلق — فى حكم النظم — دعوى الجبان : إنه شجيع ، ولبس العِزهاة ثياب الزِّير ، وتحلى العاجز بحيلة الشهم الزميع (النشيط الجرىء) » .

* * *

ومما نقبسه فى هذا الباب قوله فى رسالة الشياطين ١٣٩ :

وزعم صاحب المنطق فى كتابه الثانى من الكتب الأربعة : أن الكذب ليس بقبيح فى صناعة الشعر والخطابة . ولذلك استجازت العرب أن تقول فتفرط ، وتسرف فى الشىء فتغرق .

كامل كيلانى

فلسطينيات :

أخيـــال أم حقيقة ؟

فلسطين بعد ربع قرن !..

الأستاذ نجاتى صدقى

سيقول ولدى : أذكر أننى فى ليلة من ليالى الشتاء القارس جلست إلى جانب والدى وقد أحاطنى بذراعيه وكان يمتحننى فى دروسى ، ولما تطرقنا إلى الجغرافيا وأوضاع الدول والأمم ، سألنى فى أية سنة تم تقسيم فلسطين يا بنى ؟. فأجبته على الفور : سنة ١٩٥٠ يا والدى ! .

فربت على كتفى وقال : عافاك الله ، حقاً إنك لتلميذ نبيه ، ولكن هل طالعت شيئاً عن تاريخ ذلك التقسيم وكيف حصل ؟

قلت : قرأت فى كتاب تاريخ فلسطين للأستاذ سعيد الزيتاوى الصادر فى يافا سنة ١٩٦٥ ، والذى أقرته وزارة المعارف العربية الفلسطينية ، أن مشروع التقسيم لاقى وقتئذ مقاومة عنيفة من العرب واليهود على السواء . وكانت وجهة نظر العرب فى ذلك كما أوجزها الأستاذ الزيتاوى فى كتابه تتلخص فى أن الموافقة على التقسيم يعنى الاعتراف بحقوق اليهود فى جزء من فلسطين ، وإنه يخول اليهود حق إقامة دولة لهم فى أراضيهم ، وتأليف جيش ، وفتح باب المهاجرة إليها على مصراعيه ، ثم إنه يمكنهم من تصميم الصناعات فى دولتهم الأمر الذى يهدد كيان الدول العربية الاقتصادى ، وأن الدولة اليهودية فى ذلك الجزء من فلسطين ستصبح المخفر الأول للرأسمال الأمريكى فى الشرق الأوسط !.. كما أنها ستكون مصدر متاعب لا نهاية لها للجمعية العمومية الدولية ، وللمجلس الأمن العالمى ! .

وهنا قاطعنى والدى وقال : ولكن ألم يكن اليهود أحراراً فى تل أبيب والمستعمرات اليهودية ؟. ألم تكن لهم مجالسهم البلدية ، وصناعاتهم المحلية ، ومدارسهم الأهلية ؟ وهل كان العرب يتدخلون فى شئون اليهود الخاصة ؟ أو هل كان بمقدور أية أسرة عربية أن تسكن تل أبيب ؟ . أو هل كان يحق لعربى أن يقيم له حانوتاً فى مستعمرة (بنى براك) مثلا ؟ إذن كان التقسيم واقعاً فعلا قبل سنة ١٩٥٠ ، وكل ما فعلته لجنة التقسيم الدولية أنها خططت الحدود ، وعينت منطقة الحرام !..

ارتبكت لدى سماعى اعتراض والدى هذا والتزمت الصمت ، إلا أنه ابتسم وقال : يظهر أن معلومات الأستاذ الزيتاوى كانت غير كافية ، فجاء كتابه التاريخى هذا ناقصاً ، وهذا عيب لا يغتفر للمؤرخ النزيه .

واسترسل والدى قائلا : شرحت لى وجهة نظر المعارضين من العرب لمشروع التقسيم ، فهل لك الآن أن تبين لى وجهة نظر ذلك الفريق من العرب الذين أيدوا مشروع التقسيم بواسطة حزبهم المعروف بحزب الديمقراطيين الأحرار العرب ؟..

قلت : روى لنا الأستاذ الزيتاوى فى الصفحة ٩٧ من كتابه المذكور ، أن أنصار التقسيم من العرب رأوا فى التقسيم الحل الوحيد للقضية الفلسطينية ، لأنه يضع حداً فاصــلا للمطامع الصهيونية ، ويمكن العرب من إقامة دولة مستقلة لهم فى فلسطين ، فيضربون حولها نطاقا حديديا ، قوامه الخنادق ، والمخافر ، والأسلاك الشائكة المكهربة ، والجيش العربى الفتى المتيقظ المجهز بأحدث الأسلحة ؛ ثم إن العرب إذا ما رأوا أنفسهم فى جوار دولة مالية صناعية مخيفة ، تمسكوا بناموس المنافســة والتطور ، واستنجدوا برؤوس الأموال العربية ، وأرسلوا أبناءهم إلى البلاد الراقية ليتخصصوا فى مختلف العلوم والصناعات ، وهكذا فلا تنقضى حقبة من الزمن حتى يكون العرب قد أقاموا فى فلسطين مجتمعاً عربياً راقياً فاضلا تتضاءل إزاءه أخطار الدولة اليهودية ، ويصير مصيرها إلى التلاشى ، أو إلى البقاء فى الشرق كما هى إمارة لختنشتاين فى الغرب !..

قال والدى : أحسنت الجواب ... لكن هلا حدثتنى عن موقف اليهود من مشروع التقسيم وكيف قبلوه ؟

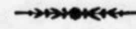
قلت : هذا ما افتقر إليه كتاب الأستاذ الزيتاوى ولم يتطرق إليه إلا لماماً ، وأذكر أنه قال : إن غلاة الصهيونيين عارضوا

تحقيق علمي واستنتاج

الأبيــوردى . . .

ولادته ووفاته

للأستاذ ممدوح حقى



تتجه أكثر عناية مؤرخينا القــدماء إلى تعيين وفاة من يؤرخون ، وقد يقدرون عمره يوم وفاته أحياناً ولكن ذلك نادر ، أما يوم ميلاده فأقل ما يأبهون له أو يتحرون صــدقه .

وإنك لواجد كتاب وفيات الأعيان وفوات الوفيات ولكنك لا تجد كتاب ميلادهم غالباً . ومع هذا فإن الاختلاف على سنى الوفاة عظيم جداً قد يبلغ الخطأ فيه أحياناً نصف قرن ، ووفاة أبى المظفر الأبيوردى مثال لهذا الاختلاف بينهم ، فابن خلكان ومن نقل عنه يعينون سنة وفاته في عام ٥٥٧هـ . وياقوت ومن روى عنه يعينونها في عام ٥٠٧ هـ . ولقد قرأت كل من ترجم للأبيوردى من قدماء ومحدثين مما عثرت عليه مخطوطاً ومطبوعاً ، فلم ألق واحداً تنبه لهذا الاختلاف بله أن يبحثه ويحققه مع طول المسافة بين التاريخين وانفساح مجال البحث فيهما ، فدائرة معارف البستانى وشارح الديوان والزركلى الشاعر في أعلامه من المحدثين يتبعون رأى ابن خلكان ولعلهم نقلوا عنه ساهين سهوة العلماء ، ودائرة المعارف الإسلامية تؤكد رأى ياقوت ، فأيهما الصحيح يا ترى ؟ أو أيهما أقرب إلى الصحة إن شئنا التوفيق ؟!

إن فى تحليل الوقائع التاريخية شفاء من هذا الكسل العقلى ، ولنقرأ ديوان الشاعر نفسه ، ونتجه إلى من مدحهم أو اتصل بهم ، فإن تجاوز أحدهم نصف القرن السادس ، فالأبيوردى زميله .

وأكثر قصائد شاعرنا فى المقتدى (توفى عام ٤٨٧ هـ) والمستظهر (توفى عام ٥١٢ هـ) ونظام الملك (قتل عام ٤٨٦ هـ) وعميد الدولة (قتل عام ٤٩٣هـ) وسيف الدولة صدقة بن دبيس (قتل عام ٥٠١ هـ) وشيرويه (توفى عام ٥٠٩هـ) .. فهؤلاء جميعاً ، ماتوا حول أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس مما يؤكد

مشروع التقسيم بشدة . فنهم من نعته بـ (غيتو) يهودى كبير ، ومنهم من قال إن الدولة اليهودية بمقتضاه تكون بمثابة (معتقل) المهاجرين اليهود ! وإن المهاجرين لن يجدوا متسعاً لهم فى تلك الرقعة الضيقة ، فيزاحم بعضهم بعضاً ، فيتنغص عليهم عيشهم ، وتتحول دولتهم إلى جحيم لا يطاق ! أما أنصار التقسيم منهم ، فدحضون هذه المخاوف بقولهم : ستنمو الدولة اليهودية عمودياً لا أفقياً !

فقاطعنى والدى قائلا : وما الذى تفهمه بالنمــو العمودى لا الأفقى ؟

تلعثمت بالجواب ، واحمر وجهى خجلا ، وقلت : لا أدرى!

فقال : عيب عليك أن تتلفظ باصطلاحات وأنت تجهل معناها ألنت ببغاء ؟ فالتطور العمودى هى ناطحات السحاب التى تراها اليوم فى بعض مناطق الدولة اليهودية المجاورة ، والتى أقامها أصحابها لضيق الرقعة ، وكثرة السكان ... أما التطور الأفقى ، فهو التوسع على حساب الأراضى العربية ، وهذا غير ممكن ، لأنه يؤدى إلى وقوع حرب بين الدولتين ، لن يسمح بها مجلس الأمن الدولى !

وإذ هم والدى بطرح أسئلة مضنية أخرى ، طرق باب الدار ، وكان الطارق السيد عبد الحليم الملاح صاحب جريدة (الكوكب) وكان من عادته أن يسهر ووالدى ويتبادل وإياه أطراف الأحاديث . فرحب به والدى كعادته ، وأجلسه على الأريكة إلى جانبه ، وكان مدار حديثهما أخبار الحدود ، فروى السيد الملاح خبر اكتشاف قوة الحدود العربية نفقاً نقبه اليهود تحت الحدود ، كانوا يهربون منه البضائع المصنوعة فى تل أبيب ، وأن مصلحة الجمارك اليهودية القائمة بالقرب من مرج بنى عامر أو (إيتك) ، صادرت سلعاً عربية غير مجمركة ، وأن عربياً حاول الانتقال من يافا إلى تل أبيب بلا جواز سفر ، فاعتقل وظل طيلة يومه فى استجواب مستمر ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن أثبت للمسئولين أنه يجهل وجود دولة يهودية مجاورة ، وما إلى ذلك من أخبار الحدود المتعاقبة يومياً !

وهنا أخذنى النعاس ، واستغرقت فى نوم عميق ، تاركا والدى وصديقه يتناوبان أحاديث السهرة ....

نجاتى صدقى

رأى ياقوت أن وفاة شاعرنا كانت سنة ٥٠٧ هـ إذ كانوا كلهم معاصريه.

ولو قبلنا رأى ابن خلكان لأضعفه الحساب التالى: نفترض أن الأبيوردى اتصل بالمقتدى — وهو أول خليفة اتصل به الشاعر — وعمره لم يتجاوز الثلاثين، فيكون عمره يوم وفاته نحو مئة عام، والمسافة بين رأيى ياقوت وابن خلكان نصف قرن بالضبط فكيف أنفقها الشاعر؟ وبمن اتصل مادحاً أومصاحباً ؟! ونحن لا نجد لذلك أثراً فى ديوانه وكله بين أيدينا، اتفق عليه كل من أرخه بأنه هو نفسه نسقه ونظمه بيده وقسمه إلى فصول ثلاثة سماها: النجديات والوجديات والعراقيات. نعم لا نجد إلا قصيدة واحدة رثى بها الملك أحمد معز الدين المتوفى عام ٥٥٢ هـ[1] فيكون عمره يوم نظمها — على الحساب المتقدم — خمساً وتسعين سنة. ولو رجعنا إلى القصيدة، لوجدنا فيها روح شاب متفلسف لا روح شيخ هرم وضع قدميه على حافة القبر. فنحن هنا بين أمرين: إما أن نقول بأن القصيدة مدسوسة عليه — وهذا رأى يعوزه النقد — وإما أنها له لكنها قيلت فى إنسان آخر اسمه أحمد عاصره الشاعر. ونحن إلى الرأى الثانى أميل، لأن روح الأبيوردى ترفرف عليها فى كل مقطع (ولعله أحمد بن مروان صاحب الموصل المتوفى عام ٤٥٣ هـ بعد أن حكم إحدى وخمسين سنة وكان كعبة شعراء زمانه).

هذا وإن من أوائل من نوه بالشاعر، تاج الإسلام ابن السمعانى المتوفى عام ٥٦٢ هـ، وهو ينقل عن شيرويه المتوفى عام ٥٠٩ هـ. فلو قبلنا رأى ابن خلكان لكان معناه أن شيرويه حدد وفاة الأبيوردى قبل سبع وأربعين سنة، وهل يعقل أن يحدد من سبق نهاية من لحق ؟! ولقد كان السمعانى ثقة لا شك فيه، ونعتقد أن ابن خلكان لم يخطئ، وإنما جاء الغلط إلى كتابه عن طريق النساخ والكتبة الذين شغلوا من رسالتنا هذه صفحات لتحقيق صفر كوروه فكبروه فرقم لخمسة فى العدد !!

ويؤكد هذا الرأى أن الأبيوردى تسلم خزنة خزانة الكتب فى المدرسة النظامية بعد الأسفرائينى المتوفى عام ٤٩٨ هـ، وهذا المنصب لم يكن يتولاه إلا ذو مكانة علمية كبيرة وللسن قيمتها فيه، ولانعتقد أن الأبيوردى وصل إليه إلا بعد أن اجتاز مرحلة واسعة من عمره تسلح فيها بعلم وفير وظهرت مؤلفاته ونبهت شهرته وانتشر شعره.

إذا تأكد لدينا هذا، وعرفنا أن الأبيوردى توفى عام ٥٠٧ هـ ففى أى سنة ولد يا ترى ؟ وكم كانت سنه يوم وفاته ؟ هذا ما لم يذكره أحد فلنرجع إلى ديوانه، ولن نطوف فيه كثيراً حتى نقع على قصيدة يمدح بها الأمير سيف الدولة المتوفى عام ٥٠١ هـ ويصور له فيها ألمه لبياض شعره إذ ألم الشيب برأسه قبل بلوغه الأربعين فيقول:

أقبل بلوغ الأربعين تسومنى ... صروف الليالى أن أشيب وأهرما

ونحن نعلم أن سيف الدولة ولى الإمارة مدة اثنتين وعشرين سنة، فلو فرضنا أنه مدحه سنة توليه الملك أى عام ٤٧٩ هـ لكانت ولادة الأبيوردى عام ٤٣٩ هـ على أبعد تقدير.

غير أنا لا نلبث حتى نرى له قصيدة أخرى يشكر بها الوزير محمد بن منصور المتوفى عام ٤٥٦ هـ فيكون عمر الشاعر يوم نظمها — على حسابنا المتقدم — سبعة عشر عاماً فقط، وهذا غير معقول إذ لا يحتمل أن تكون شهرته فى هذه السن المبكرة قد بلغت من الذيوع درجة تجعل شرف الدين بن منصور يتبرع تبرعاً بجميل يسديه إليه التماساً لشعره وشكره كما يدعى فى القصيدة نفسها إذ يقول:

تبرع بالمعروف حتى كأنه ... بعد اقتناء المال إحدى المثالب

ونحن أميل إلى الظن أنه ولد قبل هذه السنة، وما وصفه الشيب الذى حدث عنه سيف الدولة إلا حكاية ألم متقدم مزمن، وأنه حين توفى عام ٥٠٧ هـ كان قد بلغ من العمر طولا مديداً ظهر أثره فى شعره المحكم حين اتصاله بالمقتدى والمستظهر وسيف الدولة وكلهم عاصروه أواخر القرن الخامس.

ممدوح حقى

---

(١) الديوان ص ٧

أبى . . . !

للأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالى

راحل ! يا ضلالَ هذا الوجود هو باق فى خاطرى ونشيدى
ومن الرحلة البعيدة لقيا بين روحين فوق دنيا القيود
هامتا بعد فرقة الجسد الفانى (م) إلى غير فرقة أو شرود
تنثران الأشواق همساً ونجوى وتعيشان فى ادّكار العهود
السرار الخفى يسرى بسمعى سريان الحنين بين العود

يا أبى ... شاهت الحياة بعينى والجديد البهيج غير جديد !
ألق لى الحكمة الكبيرة واملأ مِسمعى من يقينها المنشود
قد عبرت الحياة من شاطئ دانٍ (م) إلى شاطئ قريب بعيـد
واجتليت الأسرارَ فى حلك الدنيا (م)
بهـاد من فطرة التوحيد
عشقت روحك الرياضة والسَّبح (م)
بواد لا ينتهى لحـدود
أنت أطلقتها تهامت بسرّ أدركته على رماد الشهيد
ما انطلاق الأرواح ؟ ما هجعة الجسم؟ وقد قرَّ فوق هذا الصعيد
ما انطفاء الحياةِ حين تُولّى ؟ ما حياة الأرواح فوق اللحود؟
ما اللقاء الكبير فى الجدث الضيق ؟ (م)
ما السر بين تلك السدود ؟
ما ارتياد المجهول من سبل الغيب؟ (م) أنمشى لغـاية أم نودى
طالما قلتَ لى تحدثُ عنها وتعيد الحديث للمستعيد
كاشفاً عن حقائق الكون دقّت وتأبّت على اللجوج العنيد
ترسل القولةَ الصريحة لله وما عن رضائه من محيد
صادراً عن صفاء نفس تسامت وتعالت عن الهوى والحقود
عشـقت عالم السماء وباعت عالمَ الأرض بالرضاء الحميد
عشت لم تدخر سوى العملِ الصالح(م)
لله لا لجـاه العبيد !

لهف نفسى، وقد ضممت وليدى قائلا : ذاك طارفى وتليدى !
واثباً حوله تناغيه فرحان (م) فيهتز هِزّة الأملود
وتغنيه فى ضجيج وشـدو ناسياً عنده وقار الجدود !
من له بعـد رحلة لك طالت فيناديه صائحاً : يا حفيدى ؟ !
لكأنى به يسـائلنى الآن وتلك الدموع سؤل الوليد
حين يلقى بنظرة لى حيرى ويجيل العينين بين الشهود
دافق الدمع فى صراخ كئيب ذقت منـه مرارة التسهيد
يرسل النظرة الأسيفة وهى تتنـدّى فى طرفه المكدود
موحش شاقه حنوٌ عطوف ما جفاه فى يقظة وهجود
حينما يشتكى تهدهد شكواه ليغفو فى صدرك المجهود
فإذا نام كنت أحلى رؤاه أى حلم يـرف فيها سعيد ؟!

جلَّ فيك العزاء يا والدى البر وآهٍ من يومك المشهود !
شئت أن ترتقى لربك فى الفجر (م) مع النور هادياً فى الصعود !
سمةُ المؤمنين ، يسعى سناهم بين أيديهم بدار الخلود
وُعدَ المتقون جنة عدن فتمتع بظلها الممـدود
وانهل السلسل النمير رحيقاً شمشموها فى حوضها المورود

يا أخى والعزاء منك جميل ما الجرح القصيد غير القصيد(١)
مسحت أدمعى دموعُك تنثال عقوداً ؛ أكرم بها من عقود
نثروها فوق الضريح وروداً فتنـدى بدمع تلك الورود

(١) إشارة إلى الشاعر أحمد مخيمر وستنشر قصيدته فى العدد القادم .

يا ابن أمى . . .

للمرحوم أبى القاسم الشابى

خلقت طليقاً كطيف النسيم وحراً كنور الضحى فى سماه
تغرد كالطير أين اندفعت وتشدو بما شاء وحى الإله
وتمرح بين ورود الصباح وتنعم بالنور أنى تراه
وتمشى كما شئت بين المروج وتقطف ورد الربى فى رباه
كذا صاغك الله يا ابن الوجود وألقتك فى الكون هذى الحياه
فما لك ترضى بذل القيود وتحنى لمن كبلوك الجباه
وتُسكت فى النفس صوت الحياة القوى إذا ما تغنى صداه
وتطبق أجفانك الناعسات عن الفجر والفجر عذب ضياه
وتقنع بالعيش بين الكهوف فأين النشيد ؟ وأين الإباة ؟ !

أتخشى نشيد السماء الجميل ؟ أترهب نور السما فى فضاه ؟ !
ألا انهض وسر فى سبيل الحياة فمن نام لم تنتظره الحياه
ولا تخش مما وراء القلاع فما ثم إلا الضحى فى صباه
وإلا ربيع الوجود النضير يطرز بالورد ضافى رداه
وإلا أريج زهور الصباح ورف الأشعة بين المياه
وإلا حمام المروج الأنيق يغرد مندفعاً فى غناه
إلى النور ! فالنور عذب جميل إلى النور ! فالنور ظل الإله !

شفتاها . . . !

للأستاذ أحمد أحمد العجمى

كلما قبَّلتُ فاهـا أسكرتنى شـفتاها
وهما كأسان من صهـباء لا أسلو هواها
صَبَّها باخوسُ فى فيـها وكوبيدُ احتساها
فغدا باخوس رباً وكيوبيـد إلها
شـفتاها غُنوَتا نجـوى لعشَّاق صباها
أسمعُ الأنغـامَ بالأذن وبالعين أراها
أىُّ لحنٍ ذلكَ اللحـن الذى قبَّل فاها ؟ !

شـفتاها منهل الأشـواق للصب الشوق
وشعاعان من الشمـس زهتْ وقتَ الشروق
وهما عاشـقةٌ مالت على صـدر عشيق
مَن رأى جمرة نارٍ فوق قوسٍ من عقيق ؟
أو رأى الورد زها واخـضلَّ فى كأس رحيق ؟
تنهلُ الأنظارُ منهـا رِيَّها وهو صـداها !
ويودُّ الثَّـغر لو كا ن محيَّاها شـفاها !

فهما ذاك الفم الور دىُّ رىٌّ وعبيرُ
شفتاه من صـفاء النَّـفس روح وضمير
وهما من رقة الإحـساس شعر وشعور
ومحياها هو الجنـةُ والثغر سمير
وهى الحسناء من خفَّـتها كادت تطير ! !
أنا أهـواها وتهوا نى ولن أهوى سواها
شفَّـها الوجد ولـكن شفتاها ... شفتاها ! !

قصة الذرة :

تلك الأشعة المحيرة !

للأستاذ فوزى الشتوى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

المصادفة أيضا

وقضى اكتشاف أشعة إكس على أحدوثة القرن التاسع عشر من أنه ختم الاكتشافات الطبيعية العظيمة . ودفع العلماء والباحثين فى شتى أنحاء الأرض لكشف مجاهل هذه الأشعة وموادها .



٣ — اكتشف أنطون هنري بكرل العالم الفرنسى أن اليورانيوم دائم الاشعاع

فأجرى العالم أنطون هنرى بكرل فى باريس مجموعة من التجارب أراد بها أن يعرف إن كانت المواد التى تضىء عند عرضها فى الشمس تخرج أيضاً أشعة إكس . ولحسن حظه وحظ العالم اختار أحد أملاح اليورانيوم فلف ورقة تصوير حساسة فى ورقة سوداء ووضع فوقهـا صليباً ثم عرض ملح اليورانيوم لضوء

الشمس ثم وضعه فوق الصليب . فلما حمض الورق الحساس ظهرت عليه صورة الصليب .

وكأن المصادفة تأبى إلا أن تتحكم فى كل كشف بالغ الأهمية . ففى أحد الأيام أراد أن يكرر تجربته ، وأعد الورقة الحساسة فى لفتها السوداء، وفوقها الصليب . وانتظر أن تبزغ الشمس ليعرض فى ضوئها ملح اليورانيوم ولكن الغيوم تجمعت فحجبتها تماما فوضع الملح فوق الصليب ، وحفظ الجميع فى أحد أدراج مكتبه .

ومضت أسابيع فتذكر بكرل تجربته وعاد ليكررها . ولكن إحساساً غريباً دفعه لأن يحمض الورقة الحساسة بغير أن يعرض اليورانيوم للشمس ، فأصابته الدهشة التى أصابت رونتجن فان صورة الصليب ظهرت فيها أيضاً . وأدرك من فوره أن عرض اليورانيوم فى أشعة الشمس ليس له من قيمة فى إرسال ذلك الإشعاع الغريب وأن ملح اليورانيوم لسبب مجهول يرسل باستمرار أشعة غريبة تشابه أشعة إكس .

المواد المشعة ؟

وكان بيير كورى وزوجه مارى يعملان فى معمل بكرل . وكان كلاهما مغرما بالأبحاث . فلما أعلن بكرل كشفه فى عام ١٨٩٦ استأذنته مدام كورى فى مواصلة البحث وكان هدفها أن تعرف إن كانت هناك أملاح أخرى غير ملح اليورانيوم ترسل هذا الإشعاع الغريب فوجدت ملحاً واحداً آخر هو ملح الثوريوم يرسل مثل هذا الإشعاع .

ولكنها اكتشفت أيضاً أن خام اليورانيوم يرسل إشعاعاً أقوى أربع مرات من إشعاع ملحة الملح النقى . وكان معنى هذا أن خام اليورانيوم يحتوى على مادة غنية باشعاعاتها العجيبة . وعزم بيير كورى على أن يتخلى عن إكمال بحثه ويعثر هو وزوجه على تلك المادة الفذة .

الراديوم

وتبرعت لها الحكومة النمسوية بطن من اليورانيوم الخام . فأخذا يحللانه بكل حذر ، ويستخلصان مواده مادة بعد أخرى فكانت أول نتائج عملهما العثور على مادة تعطى «أشعة بكرل» .

وقد أطلقت عليها مدام كورى إسم « بولونيوم » تكريماً لبلادها بولونيا . ولكنه لم يكن غنياً بالأشعة ليحقق أحلام البحث فواصلاه حتى كانت سنة ١٨٩٨ فاستخلص آل كورى من الطن أقل من قمحة من مادة تشع مليونين ونصف مليون ضعف إشعاع مادة اليورانيوم وسمياها « الراديوم » .



٤ — فى عام ١٨٩٨ عرف آل كورى الراديوم كما عرفا الدراجات

وكانت ذات خواص أخاذة فتشع الحرارة ، وتكهرب الجو حولها ، وتجعل كثيراً من المواد مضيئة إن قربت منها . كما كانت تقتل أنواع الميكروبات والأحياء الدقيقة . وأصيب العالم والعلماء بهزة عنيفة ، ففى سنوات ثلاث فوجىء العالم بأكبر اكتشافات عرفها التاريخ ، وأولها أشعة اكس عام ١٨٩٥ ثم أشعة بكرل عام ١٨٩٦ . ثم الراديوم عام ١٨٩٨ .

ولكن الأيام لم تترك آل كورى ينعمون بنتائج بحثهم ففى ابريل عام ١٩٠٣ دهمت سيارة بيير كورى وقتلته . وأسدلت الستار على حياة عالم وضع أساساً جديداً لأبحاث العلم الحديث . ففى جميع أطراف العالم ، وعلى أثر اكتشاف الراديوم بدأ العلماء يبحثون عن سبب الأشعة المجهولة ، والنشاط الاشعاعى . وأن يحصلوا على تفسير معقول للمواد الطبيعية ومنها هاتان الظاهرتان .

فوزى الشتوى



إلى معالى دسوقى أباظة باشا :

« كان معاليه فى الصدر ممن نالوا رضا المليك فأنعم عليهم ، وقد كان من نصيب معاليه الوشاح الأكبر من نيشان النيل »

يا سيدى ، أقل منك ما أراك نلته !
ما زانك اليوم الوسام ... إنما قد زنته
صدرك يوحى مجده لكل ما حملته
المجد بحر خضته ومنهج سلكته
المجد معنى مبهم وأنت قد أوضحته
بيت الأباظيين أفق قد رفعت سمته
يألق بالنور من الأقمار ... لكن زدته
أعزك البيت الكريم قدر ما أعززته
فإن أكن جعلته منك ... فقل أنصفته !

***

من الفراش ذلك الشعر إليك يرسل
ما عاقنى عن نظمه أنى بسقمى مثقل
خلا هواك ... كل شىء فى النهى معطل
إن لم أقله ... إنه فى خاطرى يرتل
إن يك حب صادق فالنظم شىء يسهل
يا سيدى ... أنت الذى نحبه ونأمل !
فنل علاء دائماً وإننا نسجل !
وابق ودم وازدد علا أنت بذاك أمثل

العوضى الوكيل

إلى من يكتبون باللغة العربية :

من المعلوم أن رقم (١٠٠) يكتب (مائة) بزيادة الألف ويلفظ (مئة) . وهذه قاعدة قديمة فى اللغة لجأ إليها الناس تحاشيا من الإلتباس بين (مئة) و (منه) وذلك حين لم يكن للشكل والإعجام وجود . قال ابن قتيبة « و (مائة) زادوا فيها ألفاً ليفصلوا بينها وبين (منه) ، ألا ترى أنك تقول : (أخذت مائة) و (أخذت منه) ؟ فلو لم تكن الألف لا لتبس على القارىء » .

أما الآن فنحن نستعمل الشكل والإعجام ولم يبق ما يدعو إلى الإلتباس فى القراءة بين الكلمتين المذكورتين آنفاً أو غيرهما أو لم يبق ما يدعونا إلى أن نكتب (مائة) بزيادة الألف . وبديهى أنه إذا زالت العلة زال المعلول .

ولست أسوق كلمتى هذه عبثاً ، فإن كثيراً ممن يحسنون قراءة اللغة العربية يغلطون فى هذه الكلمة ، فإذا رأوا (مائة) لفظوها (مائة) حاسبين أن الألف أصلية ، وربما توهم السامع فظنها (ماءة) أى ماء ، وهنا نكون تجاه التباس آخر ناشىء من غلط فظيع ! حتى إن جماعة من مذيعى الإذاعات العربية يقعون فى هذه الغلطة ، ولا شك فى أن ملايين من المستمعين يتعلمون ذلك . وأذكر أنى كنت يوماً مع أستاذ جليل فى بيته نستمع إلى المذياع فوقع المذيع فى هذه الغلطة ؛ فتأوه الأستاذ وقال : « لقد فسدت لغتنا فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وأخيراً : أقترح على كل من يكتب باللغة العربية أن يكتب (مئة) ويلفظ (مئة) جارياً على القول الذى قدمناه : (وإذا زالت العلة زال المعلول) .

(بغداد) **صبحى البصام**

من خماسيات الأميرى :

من الذين يزورون القاهرة فى هذا الشتاء الأستاذ عمر بهاء الأميرى ، وهو من شعراء حلب المجيدين ، ومحاميها النابهين . وقد اعتاد أن يجالس الأستاذ كامل كيلانى رجلا استثقله فى فندق (الكونتنتال) فمر به ذات ليلة فوجد فى مجلسه ثقيلا فجرى لسانه بهذه الأبيات يقابل فيها بين ظرف صديقه وسماجة جليسه :

شتان بين مهفهف غض الحواشى ، كالفراشه
يصغى إليك ، ووجهه زانته أضواء البشاشه
وغليظ أوداج ، إذا لاطفته ، أبدى انكماشه

فظ السكوت ، وإن يناقش قلت : ما أدرى نقاشه
هـذا يضيع به الخشيش⁽¹⁾ ، وذاك يفدى بالحشاشه

البعثات الأزهرية إلى الخارج :

إلى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر :

أنت يا مولاى أزهرى نلت أرقى الشهادات الأزهرية ، وهى « شهادة العالمية من الدرجة الأولى » ولكنك لم تقنع بهذا الزاد العربى الشرقى مع خصبه ودسامته ، بل أردت أن تجمع بين علم الشرق الموروث وعلم الغرب المستحدث ، فرحلت إلى فرنسا ، وطلبت العلم فى رحاب «السوربون» وأجدت الفرنسية ، وكنت أستاذاً فى الجامعة الفؤادية سنوات وسنوات ، وبذلك أدركت أكثر من سواك مبلغ الخير الذى يحصله الأزهرى إذا ما جمع بين القديم والحديث ، وقارن بين تراث العرب وتراث الغرب ؛ فهل يكون عجيبا بعد هذا ، أو غريبا أن نلجأ إليك هاتفين بك لتسارع بتنظيم البعثات العلمية الأزهرية إلى الخارج من شباب الأزهر المعمور الذين أتموا دراستهم فى الكليات الأزهرية ، وعندهم استعداد وقدرة على الارتحال ومواصلة الطلب أكثر من الطاعنين فى السن المقتربين من هدوء الشيخوخة والهرم ؟ ! .

لقد سارعت الجامعات المصرية ، والوزارات والهيئات فى مصر فكتبت كتائبها ، وحشدت جموعها ، وأوفدت بعثاتها إلى الخارج ، عقيب الحرب مباشرة ، مع أن هذه الجامعات والوزارات تجد من أبنائها القدامى والمحدثين من ينوبون عن هذه البعثات أو يحلون محل أفرادها ...

أما الأزهر الشريف الذى يحتاج إلى البعثات أكثر من غيره فلم نر من أبنائه فرداً واحدا يرسل إلى الخارج فى بعثة من البعثات !

إن الأزهريين فى أمس الحاجة إلى دراسة اللغات الأجنبية ، وإلى الوقوف على شبه المستشرقين والملحدين ليدافعوا عن دينهم وإلى معرفة ألوان الحياة الاجتماعية والثقافية عند الغربيين ، ليستفيدوا منها فى بناء مجتمعهم الإسلامى الجديد ! فتى يتمكنون من تحقيق هذه الأهداف ! ! ...

لقد تشرفت يا مولاى الأستاذ الأكبر بالحديث أمام فضيلتكم منذ حين عن موضوع البعثات ، وتفضلتم بتقدير هذه اللهجة التى تهدف إلى الخير العام ، وتتحدث عن الرغبات الاصلاحية الشاملة ، واعتذرتم بأن العام الدراسى قد انتصف أو كاد ينتهى ، ولا يمكن إيفاد أحد من المبعوثين الأزهريين فى هذا العام ، ووعدتم بتنفيذ هذه الرغبة فى بداءة العام القادم ؛ ولكنا نخشى يا مولاى أن تشغلنا الأيام القادمة بشواغلها ، فلتستخر ربك ، ولتصدر أمرك بتنظيم لجنة تنظر من الآن فى تنظيم البعثات حتى إذا ما بدأ العام الجديد أو أقبل كانت الكتائب مجهزة ، والبعوث مهيأة ، والله يسدد خطاك ، ويديم عليك هداك ، ويحقق بك الآمال

أحمد الشرباصى
المدرس بالأزهر الشريف

ابن حكينا :

فى (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد) : الحسن بن أحمد بن حكينا الشاعر المشهور ، قال العماد الكاتب : أجمع أهل بغداد على أنه لم يرزق أحد من الشعراء لطافة طبعه . وقيده فى تاج العروس بكسرتين مشدد الكاف (فى حكن) ، ومع شهرته وقع فى (فوات الوفيات) و (دائرة معارف البستانى) و (الأعلام للأستاذ الزركلى) مصحفا إلى (جَكِينا) بجيم مفتوحة وكاف مكسورة .

عبد القادر محمد

---

(١) مثل سورى معناه . أن ما يأكله من الحشيش يذهب ضياعاً أى لا يساوي ما يأكله .



المـــلك ...

ديوان شعر للأستاذ محمود حسن اسماعيل

للأستاذ زكى طليمات

فى عنوان هذا الديوان كفاء للدلالة على ما تضمنه ، ولن أجد أبلغ ما أقدم به مقالى عنه ، غير هذه العبارة التى أقتطعها من إهداء الشاعر شعره إلى سيد الكنانة وأمير البلاد .

« هذا هتاف الفن لأنوارك الجديدة فى كل آفاق الحياة ، سكبته من دمى غناء يفيض للدنيا بحبك ، وينبض فى جوانح الزمن بآيات وطنيتك »

وفى الحق أنه لهتاف يشق أجواز السماء ، أرسله الشاعر فى تواجد الصوفى وفى نشوة الفتى الشابل ، فإذا الهتاف تارة تمتمات وتسابيح وترانيم تشع منها أضواء الروح ، وتارة أخرى إرنانات مدوية تشهر فى الفضاء شهر السيوف ، تحى مقدم للبطل وتشيد بمفاخر البطولة ، وترفع رفع أعلام الأعياد ومشاعل الزينات .

ومباعث هذا الشعر مآثر (الفاروق) حفظه الله ، وقد فاضت به يداه فى مناسبات ، فكانت أمن الخائفين والمروعين ، وأفراح المحزونين والمكروبين ، وبشائر الخير والفرج للمحرومين والصابرين . مآثر سجلها الشعر الموفق الأثر ، فإذا هى دستور للبر والإحسان ، فى زمن قل فيه البر والإحسان ، فهبت النظم الاجتماعية تفرض على الغنى أن يشاركه الفقير فى ماله ، وتقضى على المتخومين ذهباً وفضة بأن يخففوا مما ثقلت به بطونهم بأن يبذلوا مما بين أيديهم . ثم يشرق الشاعر إشراقة أخرى ، فإذا بالشعر بين يديه يحكى قولة الحق فى (الفاروق) ، قولة تتلخص . . فى أنه ملك بنفسه وبشعبه ، وليس ملكا لنفسه وبدون شعبه .

كرم الباعث الذى فجر الشعر عيونا ونبل ، كما طاب قول الشاعر ونبه .

ولكل قصيدة فى هذا الديوان مناسبتها ، وفى كل مناسبة تسجيل لمأثرة فاروقية . هذا والقصيد يجرى على غرار ما هو مألوف فى شعر المدائح والمناسبات ، فهو عرض لمآثر من سيق الشعر فى ركابه ، ثم تنويه بفعل هذه المآثر فى كشف الغمة وزوال الكروب ، ثم رسم لأصداء هذه المآثر فى نفوس متلقيها ...

ولو قصر شعر (محمود حسن اسماعيل) على هذا فحسب، ولم يتجاوزه إلى ما هو أعرق فى الشاعرية ، لقصر كلامنا على التنويه بشعر شاعر دفعه إخلاصه لمليك البلاد إلى أن يصدر ديوانا يحمل اسمه الكريم ، فالمدائح وشعر المناسبات يتسم أكثره بفيض فى المبالغة والاجتلاب ، وبوشى محمل بالتزاويق البيانية ،هذا والأدب العربى ، قديمه وحديثه ، ينوء بأحمال ثقيلة منه ، وما كان ليؤبه بهذا اللون من الشعر لو لم ينسب منه عرق رفيع يعتبر بحق من جيد الشعر مبنى ومعنى ، إذ يحمل طابع الصدق والاعتدال فى التعبير ، ويلمع بإشراقات الحذق الفنى فى الصياغة والأسلوب ، ويتسم بالاتزان ، إذ فيه يعوض الشاعر عن شطحاته وهو يزف آيات المديح ، غوص على المعانى وتوفيق فى استخراج طريفها ولطيفها ، ويتجاوز استيحاؤه صفات الممدوح إلى الاستلهام من القيم الإنسانية العامة ، فتكون للشاعر التفاتات تجىء من غير افتعال وكأنها هجس الخاطر ، فتشد إلى القصيد صورا أخرى من الحياة لا تلبث أن تزوده بجديد من المعانى ، فيتسع أفق الشاعر فيما يقول ، وتعظم متعة القارىء أو المستمع له ، وكأن الشاعرية الدافقة فى نفس الشاعر لا يكفيها محور واحد تدور عليه ، فهى تتجاوزه قادرة إلى سواه من غير أن تجعل العرض يطغى على الجوهر ، وبدون أن تنفصم عرى التلاحم بين المعانى الأصيلة والواردة عليها .

والمتأمل شعر (محمود حسن إسماعيل) فى هذا الديوان ، لا يعدم موطناً يطالعه بهذا .

انظر إلى قصيدته (نور من الله) ، فبعد مديح فى الفاروق يبلغ ذروته فى هذا البيت :

« مُمَـلَّكٌ فى شباب العمر تحسبه
لحكمة الرأى تحدوه القداسات »

إذ بك منقول على جناح خياله ، وقد يمم شطر الأهرام فى

لفتة لطيفة ، ليحيط بك فى رحاب البطل (إبراهيم) ، وإذ بالشاعر يقول :

أهرام خوفو تهاب الجن ساحتها — كأنما هى للأقدار خيمات
مُخيمات وأسرار السماء بها — كأنما هى للأفلاك جارات
وخيل رمسيس مازالت سنابكها — تلقى حديث الوغى عنها الفتوحات
والسيف فى يد إبراهيم مافتئت — للنصر ترعش حديه الخيالات
واد أشم العلى ، مرت به حقب — أيامهن بكف الدهر رايات

واسمع الشاعر يقول فى قصيدته (تشهد الفأس) . . .

قل لسارين مشوا فوق الثرى
بقلوب كخطاهم داميات . . .
ومشت أيامهن بين الورى
فى ظلام البؤس حيرى حافيات
أسبغ التاج عليكم نوره
ورعاكم وحباكم بره
فاطرحوا الشكوى وإن طال الثرى
أيقظ الله لكم جفن الحياة .
فى عبير الحقل أو رمل الهجير
تشهد الفأس على آلامكم

الخ . . . ما ورد فى هذه القصيدة . . . . . .

هذا شعر يتفجر من القلب وليس مما يخرج من اللسان ، من قلب رجل لابس حياة الفلاح وشاهد حفاه وعريه ، وصلى فى محراب أحزانه وآلامه ، واشترك فى ضراعاته . وفى هذا الشعر ما ينبىء عن أن قائله إنما يصدر مخلصاً عما يحسه ، وليس عن هوى فى زف الكلام الموزون الموشى ، ومثل هذا الشعر يأسر القارىء ويغريه بإعادة تلاوته ، لا لجودة الحبكة فى الصياغة ، ولا لطف التعبير ، ولكن لما يتمشى فى جنبات الشعر من نفس حار يشع منه الصدق واليقين .

وفى الديوان ما يماثل هذا ، ولكن فى ألوان أخرى من المعانى والمناسبات ، فلا عجب أن يجىء أكثر الشعر فيه ، تارة زفرات وتنهدات ، وأخرى ابتهالات وتمنيات ، والشاعر فى كل هذا فتى الريف ، سليل حملة الفؤوس ، وعروس شعره جنية من الريف لها خفر أهله ، تطيف به وتهوم فوق رأسه فى دلال المرأة اللعوب ، إن أقبل عليها أدبرت ، وإن أغضى عنها أقبلت ، كما وصفها الشاعر فى قصيدته (تكلم أيها البحر) .

ومحمود حسن إسماعيل قد عرفناه بهذا ولهذا فى ديوانه الأول « أغانى الكوخ » ، وهى قصائد يجرى فيها الشعر جريان السيل الجارف ، ويحمل من الريف غبار مساربه ، وعبقة حقوله ، كما يتنفس عن ألم الفلاح وسقم العامل ، ويصف وصف المستبطن دخائل النفوس ، من طرحتهم عبودية الفقر والجهالة فى كهوف النسيان .

ونرى أن الصلة بين ديوانه « أغانى الكوخ » وبين ديوانه الجديد « الملك » قائمة على أحسن حال من حيث الباعث اللاشعورى لاطلاق شعره ، بيد أن الشعر فى الديوان الجديد يتسم بمسحة ظاهرة من الاناقة ولا أقول التأنق ، لأنه يحنى الرأس فى ساحة المليك ، فإذا الشاعر الذى عرفناه فى (أغانيه) وغيرها يهدر هدر الأمواج الصاخبة وينطلق بيانه كالسيل العرم الذى يحمل من الأرض كل ما يعلوها ، يستحيل نهراً صافى الأديم ، رقراق الماء ، ينساب منمقا حوافيه على إيقاع نسمات الأصيل ...

فإذا افتقدنا فى هذا الشعر الجديد الفورة المزبدة ، فقد أعاضنا الشاعر عنها الهدءة المؤنسة الموحية ، ولهذه كما لتلك ، جمال ودلال ، ومذاق ومتعة .

ولا عجب أن يبدو محمود حسن إسماعيل أنيقاً منمقاً فى شعره هذا ، فأى امرىء لا يصلح من هندامه وينفض عنه ماعسى أن يكون عالقاً به ويأخذ بأسباب الأناقة والنظام ، ما دام يعرف أنه سيمثل بين يدى مليك البلاد ! !

وثمت ظاهرة جديرة بالتوضيح فى هذا الديوان ، فإن أبياتاً من الشعر قد وردت وهى تأبى ألا تكشف عن معانيها إلا بعد ممانعة ومماطلة ، فهى تلوح ولا تفصح ، وتومىء ولا تبين . وقد يتوهم البعض أن هذا غموض أو إغراب من جانب الشاعر فى سوق المعانى ، وما هو كذلك ، وإنما هو طبع فى الشاعر يدفعه أحيانا — وقد يصدر فى هذا عن وعى أو فى غير وعى — إلى إيراد بعض من معانيه فى صيغة (التركيب[1]) أو الاجمال . فتكون مناوشة ومصاولة بين المعنى وذهن القارىء ذى النظر والتأمل ، وتكون متعة ذهنية دونها كل متعة يحسها القارىء بعد أن يمانعه الشعر فى الكشف عن كل مفاتنه عند النظرة المجلى .

(١) أى الذهاب فى التعبير والمعالجة من البسيط إلى المركب Synthése وهذا نقيض (التحليل) Analyse

القصص

قصة ألبانية :

المهـــد الذهبي

[مهداة للأستاذ الكبير كامل كيلاني]

نقلها الأديبان :

وهبي اسماعيل حقي وابراهيم خير الله

— ١ —

كانت الساعة تدق السابعة صباحا ، حين طرق الخادم باب المكتب ودخل قائلا لسيده فريد إن بباب المنزل قرويا يلح في طلب الدخول لأنه سيتحدث إليك في أمر على جانب كبير من الخطورة كما يقول ، فبماذا تأمر ؟

— قروي ؟ !

— نعم يا سيدي !

— يريد أن يتحدث إلى أنا أم إلى والدي ؟

— لقد أخبرته أن سيدي الكبير خرج مبكراً إلى السوق ، وهو الآن في متجره ، وأنك أنت الذي هنا ، فقال : إنه سيتحدث إليك .

— وهل أخبرك من هو ؟

— لا ، ولست أذكر أني رأيته قبل الآن .

— ما دام الأمر كما تذكر فأذن له . قال « فريد » هذا ثم أخذ يحرك يده في سرعة على الآلة الكاتبة لأنه كان يريد أن يتمم الرسائل التجارية الخارجية قبل الحادية عشرة ثم يذهب ليساعد والده في المتجر، لذلك لم يرفع رأسه ليرد على تحية الزائر إلا بعد أن أكمل السطر ثم قال : خيرا تريد أيها الفاضل ! فتلفت الرجل يمنة ويسرة وكان قصيرا ، واسع الصدر ، عريض المنكبين ، يرتدي حلة واسعة من حلل الجيش ، وقد ربط رأسه بمنديل أحمر تدلى تحت ذقنه ، وأمسك بيده عصا عجراء ، فوقعت عينه في جانب من جوانب الحجرة على مكتب رصت فوقه أكداس مكدسة من الدفاتر والملفات التجارية ، ورأى الكاتب قد انهمك في تقليبها واحدا واحدا ، وقد أمسك القلم بيده يثبت في ورقة أمامه ما يلزم منها ؛ وأنه لم يشعر بدخول القروي لانصرافه إلى ما بين يديه . ورأى أيضا الخادم الذي قاده ما زال ممسكا بمقبض الباب في انتظار أمر سيده ثم قال : أريد أن أقول لسيادتك كلمة على انفراد . فأومأ « فريد » إلى الخادم أن ينصرف ، والتفت إلى الكاتب وقال :

— « يا أكرم » ! أعتقد أنه ليس لديك ما يمنع أن تشرب القهوة في حجرة الإستقبال ، وأن تأمر لنا بقهوتنا هنا ، فغادرها الكاتب صامتا . ثم إن فريدا ابتعد بكرسيه عن المكتب ، وجلس قريبا من الموقد ، وأذن للقروي أن يجلس بجواره ، ثم أخرج علبة « التبغ » وقدمها للضيف فاعتذر بأنه لا يدخن

فقال له فريد : وأية كلمة تلك التي تريد أن تتحدث إلي بها ؟

— وهل أنت السيد عفت ؟

— نعم أنا هو .

— اعذرني يا سيدي ! فقد أزعجتك وأنت مشغول ، ولكني — أطال الله عمرك — اضطررت إلى ذلك لأني في مسيس الحاجة إلى صادق معونتكم ، وحسن إرشادكم ، لنصبح في وقت قصير ذوي مال وفير ، وجاه عريض .

وقد تكون إلى جانب هذا الطبع الغلاب ، نزعة من جانب الشاعر إلى إيراد غير المطروق والمبذول من المعاني ، فيأخذ بأسباب التنقيب والتوليد ، ويمعن فيهما إمعانا قد يحوطه شيء من التعقيد الذي ينشط التأمل ، فإذا الخطوط التي تستوي فيها معانيه منكسرة وليست مستقيمة ، وقد تلم بأكبر قسط من حيز المعنى كما يشغل الخط المنكسر أطول مسافة وهو منطلق من نقطة إلى أخرى ، تقابلها في حيز المرسوم ، ولكن المعنى على هذه الحال قد يأتي على غرار لم يألفه من تعود أن يلم بالأشياء في كامل كيانها عند النظرة الأولى ، وعلى نمط لا يروق من دأب على أن يأخذ الأشياء في يسر ومن غير كد وانعام نظر .

في شعر (محمود حسن إسماعيل) ما يعطي طواعية ومن غير حساب وما لا يعطي إلا بعد مطالبة وممانعة وحساب ، والناس أمام هذا وذاك أذواق وأفهام .

زكي طليمات

مدير المعهد العالي لفن التمثيل العربي

— وأى معونة تحتاج إليها منا ... ؟

— أنت — ولله المنة — فى بسطة من العيش ؛ فقد وهبك الله فوق ما يتمنى الإنسان من الغنى . وأنا — والحمد لله — لا أشكو ضيق العيش فحالتى المادية ليس بها من بأس ، ولكن قل أن يقنع المرء .

دهش فريد من هذا الكلام وأراد أن يطلب إلى الضيف أن يختصر هذه المقدمة وأن يأخذ فى الموضوع الذى جاء من أجله ، ولكن مهارة « بيرام » — وهكذا كان يسمى — فى إلقاء الكلام حملته على أن يصغى إليه ليتم حديثه فقال : منذ أيام وأنا أواصل البحث فى « اشقودراه » عن رجل جمع إلى شرف النفس ، مضاء العزم ، وأصالة الرأى ، وغزارة المعرفة ، وسلامة التفكير ، وإنى أعتقد أنى قد وصلت الآن إلى ما كنت أبغى فإنى أقرأ فى صفحات وجهك آيات الحزم والوفاء ، وإنى واجد — لا محالة — فى قلبك حصنا للأسرار حصينا .

— هو ما تقول . ولك — إن شاء الله — ما تريد .

— لست أدرى يا سيدى من أين ، ولا كيف أبدأ الكلام ؟ فإن موضوع الحديث مستغرب وستشاركنى فى الدهش والحيرة عندما تسمع ، ولا إخالك إلا متعجبا — وهنا أدنى فريد كرسيه من القروى حتى تلاصقا ، فقد استهواه أن يقف على جلية الخبر بعد هذه التقدمة الشائقة ، وقد شرع «بيرام» يتكلم فى موضوعه بعد أن تحرك فى كرسيه فقال : لقد عثرت فى الأدغال على أشياء كثيرة ذات قيمة عظيمة جدا وهى لا بد أن تكون غالية الثمن . فصوب إليه فريد نظره فى هذه اللحظة ليستدل من ملامحه على نصيب حديثه من الصحة ، فلم ير أمامه إلا وجها كساه جمال الرجولة ، وبدت عليه سمات الجد ، ومخايل الذكاء ، وحب المغامرة . أما بيرام فقد استمر يقول : لا تيأس أيها السيد فإنى أود أن أبسط لك الموضوع من بدايته كما حدث ، وأرجو أن تفسح لى صدرك وتلقى إلى بالك فإنه من الخطورة بمكان .

— لك ما تشاء ، وستجد منى صدرا رحبا .

— إنى أمتلك قطعة أرض قريبة من بيتى ، وقد نبت العشب والكلأ فيها بكثرة ، وبها كثير من الأحجار الصالحة للبناء . ولما كنت على عزم تجديد البيت واستصلاح الأرض رأيت أن أجمع تلك الأحجار لأنتفع بها ولأنظف الأرض منها لتصير صالحة للانبات ، ولم يكن يساعدنى فى ذلك غير والدتى ، وبينما نحن نعمل بجد وقعت فأسى على حجر كبير ، ودفعنى حب الاستطلاع إلى إزالة ما عليه من الأتربة ، وإخلاء ما حواليه فدعوت والدتى لتعاوننى فى ذلك العمل ولتعيننى على نقله ، وبعد جهد ومشقة استطعنا أن نحركه من مكانه ، فإذا به غطاء لبئر عميقة يصل الإنسان إلى قاعها بواسطة سلم طويل قد نحت فى الصخر ، وكانت البئر حالكة الظلمة ، فأرسلت والدتى إلى البيت فأحضرت المصباح بسرعة ! ... إنى عاجز يا سيدى عن أن أصور لك حالتى فى تلك اللحظة ، وقد كنت أسمع والدى — عليه رحمة الله — دائما يقول : لو حفر إنسان هذه الأرض لعثر على كنوز قيمة جدا .

كان فريد يستمع إلى « بيرام » وهو مبهوت ، وكانت عيناه لا تبرحان النظر إلى شفتيه وهو يتكلم ، وحينما وصل من حديثه إلى هذا الحد سأله : هلا دخلت البئر ؟

— وكيف لا يا سيدى ؟ سأحدثك بكل شىء فلا تتعجل . فإنه لما عادت والدتى بالمصباح أمسكته بيدى ونزلت وكل همى أن أعرف عن المكان كل شىء : عددت درجات السلم فوجدتها خمسين درجة ، وبعدها انتهيت إلى حجرة واسعة تبلغ مساحتها ضعف مساحة هذه الحجرة ، ثم فرك « بيرام » عينيه وغير من نبرات صوته مما زاد فى التأثير على « فريد » الذى كان بجواره جامدا كالتمثال ، كله انتباه وإصغاء حتى لا يفوته من حديث القروى شىء ، لذلك نراه يستعجله بقوله : وأخيرا ماذا رأيت ؟

— رأيت يا سيدى أشياء غريبة جدا ! لا أدرى عن أيها أتكلم أولا : رأيت تماثيل لرجال من الأحجار ، ورأيت كثيرا من الأوانى الكبيرة المصنوعة من الفخار التى يطلق الناس على الواحد منها إسم « الزير » ويبردون فيها مياه الشرب ؛ هذه الأوانى ملأى بتراب ثقيل لامع ، ورأيت كرسيا كبيرا من الذهب . فاستعاد « فريد » فى استغراب وفى صيغة سؤال عبارة بيرام الأخيرة : « كرسيا كبيرا من الذهب » ؟ ثم مال بجسمه نحوه كأنه يريد أن يفصح أكثر من هذا وقال له : وماذا رأيت أيضا ؟

— ماذا أقول لك ياسيدى ؟ إن ذاكرتى لا تعى كل مارأيت فإنها كثيرة جداً ، وستراها بنفسك عند ما تذهب معى !.. هناك أسلحة كثيرة مزينة بالأحجار الكريمة . وهناك لوحات كبيرة من الرخام على الجدران نقشت عليها نقوش قديمة . ثم سكت برهة كأنه يستذكر ما رآه وعاد يقول : فاتنى أن أقول

لسيدى إن فى وسط الحجرة تماما كرسياً طويلا جداً وهو دقيق الصنع جميل الشكل فاقع الاصفرار ، وقد ثبت فى الأرض بمسامير وتتدلى فوقه من السقف سلسلة طويلة من الذهب الخالص تنتهى بقنديل صغير الحجم أصفر اللون لم أر فى حياتى أجمل منه ... وفى ركن من الأركان مهد من الذهب تجلت فيه آية الفن القديم ، وأبدعت فيه يد الصانع فكان تحفة نادرة المثال . هذا كل ما أذكره الآن يا سيدى من تلك الأشياء التى تخلب اللب وتبهر العين . ثم سكت ونظر إلى فريد إيذاناً بأن حديثه قد انتهى وليعرف مدى تأثره بما سمع . وفى هذه اللحظة كان الخادم يدق الباب حاملا إليهما القهوة فصاح فيـه فريد بصوت الذى استيقظ من نومه دون أن يتم حلمه اللذيذ : لا نريد قهوة ، فاخرج واتركنا وحيدين . ثم التفت إلى بيرام وقال له : هل أنت متأكد أن أحداً غيرى لم يطلع على هذا الموضوع ؟

— قلت لسيدى إننى قضيت أكثر من سبعة أيام أفتش فى «أشقودراه» عن رجل أستطيع أن أعتمد عليه . وأنايا سيدى رجل ولدت ونشأت فى الجبل ولم تمكنى ظروفى من الاختلاف إلى المدرسة ، ولذلك تنقصنى الشجاعة لأقوم بمثل هذا العمل وحدى لجهلى بقيمته من ناحية ، ولأن حالتى المادية وحالتى الاجتماعية لا تساعداننى ، ولخوفى من أن أحداً يكتشف أمرى فيرشد ولاة الأمر على من ناحية أخرى . وإن القدر ساقنى إليكم ؛ فقد علمت من أهل الناحية أنكم — أنت ووالدك — أهل ثقة وكرم ، ومروءة وشرف ، فكن على ثقة ياسيدى من أننى لم أتحدث إلى أحد قبلك فى هذا الشأن وأنه لايعلم به الآن سوى ثلاثة : أنت ، وأنا ، ووالدتى .

انتصب فريد واقفاً واخذ يذرع أرض الحجرة ذهوبا وجيئة ؛ فقد هجمت عليه جيوش جرارة من الأفكار ؛ ساوره أولا قليل من الشك لم يلبث أن تبدد وحل محله إيمان راسخ بكل ما قال بيرام حينما اقترب منه وألقى عليه نظرة جبارة لم يتأثر القروى منها ، فاعتقد فريد أن ما سمعه لم يكن حلماً يزول بالاستيقاظ من النوم ، ولا قصة أعمل الكاتب فيها خياله ، ولا أكذوبة لفقها بيرم ؛ فإن سذاجته وعدم تعلمه ومظهره العام وما يدل عليه من طيبة نفس ، وسلامة ضمير ، ونقاء سريرة كل ذلك يباعد بينه وبين الكذب . لا شك أن هذه حقيقة واقعة وأن الحظ قد ساقها إلى والحظ هو كل شىء فى الدنيا . والآن نحن فى حاجة إلى سرعة العمل ، وحكمة الارشاد وكتمان الخبر . ثم كف فريد عن المشى فى الحجرة وتيار هـذه الأفكار يدور فى رأسه ونظر إلى القروى الذى كان يشم فى اطمئنان عبير وردة كانت فى يده مما لايجعل للشك أثراً فى نفس فريد ، ولذلك قال له : أنت تعرف يا أخى أن مثل هذه الحكاية يجب ألا يطلع عليها أحد حتى لا يتسرب خبرها إلى أذن الحكومة فتتركك صفر اليدين لأن الآثار ملك للدولة ، وقد أحسنت صنعاً بالمجىء إلى هنا فهذا عمل لا يستطيع امرؤ أن يقوم به وحده ، أو هل تعتقد فى نفسك القدرة على الاستفادة من هذه الكنوز من غير أن تستعين بأحد ؟

— لو كان الأمر كذلك لما كلفت نفسى مشقة البحث عمن أطمئن إلى معونته .

— أؤكد لك — وأنا صادق — أن التوفيق قد حالفك حين اهتديت إلينا ، وإنى أعاهدك عهداً لا أحنث فيه أن كل شىء نكسبه من هـذه سنقسمه مناصفة ، وهذى يدى وعلى عهد الله وميثاقه وهو على كل ما نقول شهيد ، فمد إليه بيرام يده وتعاقدا على ذلك ، ثم أخذ فريد يقطع الحجرة ثانية ذهاباً وإياباً تاركا العنان لأفكاره التى تضاربت وتعددت وتشعبت ، فمن رحلات للبلاد النائية ، إلى مشروعات تجارية واسعة ، إلى تمرغ فى أعطاف النعيم ، وتمتع بما لذ وطاب من أنواع المتع ، إلى إنشاء فنادق فاخرة ، وابتياع سيارات فخمة ، وعبث مع النساء ، وغير هذا وذاك مما يمليه الهوى وتسعف به النقود . ثم إنه تذكر فجأة أن الوقت أثمن من أن يضيعه فى مثل هذه الأفكار ، وإنما يجب العمل السريع الحاسم ، فرجع إلى بيرام وجلس بجانبه . وقال له : قل ثانية ماذا رأيت فى هذا الكهف العجيب ؟ فأخذ القروى يعيد تعداد الأشياء التى سردها آنفا مسهباً فى وصفها وفريد يستزيده ويستوضحه ويمطره بوابل من الأسئلة فقد سأله ما عدد الأزيار ؟

— أربعة عشر كل واحد منها أطول من قامتى .

— وهل أدخلت يدك فى أحدها ؟

— لا ! ولكنى رأيت فيها تراباً أصفر اللون .

— وهل هو ذهب ؟

— لا أستطيع أن أؤكد هذا .

— وماذا فى الكهف غير ما ذكرت ؟

— فيه كل شىء ! ... فيه تمثال لإنسان فى ناحية منه وحجمه كبير جداً وفى وسط التمثال باب من الحديد .

— وهلا فتحت ذلك الباب ؟

— فى اليوم الأول اعترانى خوف شديد فلم أفتحه ، وإنما فتحته بعد يومين اثنين .

— وماذا رأيت ؟

— رأيت أشياء لا يكاد العقل يتصورها ، فالباب الحديدى الذى فى وسط التمثال إنما هو باب حجرة تبلغ مساحتها مثل مساحة الأولى سبع مرات تقريباً . وهى مملوءة على سعتها بأعمدة من الرخام وتماثيل رجال من الأحجار وكراسى كثيرة صنعت من معادن مختلفة وكلها موضوعة فى نظام دقيق غريب .

— وهل هذه المقاعد من الذهب ؟

— لست أدرى لأنى لم أقترب منها .

— ولماذا لم تأت بقطعة منها « كمينة » ؟

— نحن يا سيدى أناس جهلة ! تصور أن والدتى ترتعد خوفا عند ما ترانى أهم بالدخول ، وهى لا تتركنى أدخل إلا إذا أقسمت لها أغلظ الأيمان أننى لن أمس شيئاً من الآثار بيدى . وهى تؤمن بالخرافات إيمانها بالله فتعتقد أن هذه الكنوز أمانات للموتى تحرسها الأرواح ، وأن هذه الأرواح تنال بالأذى من تمتد يده إلى تلك الأمانات .

— هذا كلام فارغ ! واعتقاد فاسد ، ووهم باطل ... كم من الوقت تستغرق المسافة بين هنا وبين منزلكم ؟

— تستغرق ساعتين أو ساعتين ونصفاً على أكثر تقدير .

— إنى أود أن أرى قطعة من هذه الآثار فما رأيك ! أود أن أراها لأتحقق أذهب هى أم فضة أم ماذا ؟ فرجائى أن تذهب الآن وتعود بقطعة منها .

— أمرك نافذ ياسيدى ! ولكنى أرى أن القيام بهذا العمل فى النهار غير مناسب ، وإنما يناسبه الليل ؛ لأنه أحفظ للأسرار ثم إنى على ميعاد فى السوق اليوم ولا بد من الذهاب إليه قبل العودة إلى المنزل .

— أنصحك بترك كل عمل آخر لنتفرغ لعملنا نحن ؛ فإننا سنعيش منه مترفين ولن نحتاج لشىء ولا لأحد مدى الحياة .

— الحق ما تقول ، وإننى لن أذهب إلى السوق لقضاء مصلحة ، وإنما لمقابلة صديق ينتظرنى . فسأله فريد فى صوت الخائف الشاك ، ومن يكون ذلك الصديق ؟

— رجل لا تعرفه . وسأكون بعد غروب الشمس فى بيتى ، ومهما تأخرت فسأرجع إليك الليلة « بالعينة » موضوعة فى غرارتين مملوءتين بالفحم .

— وأى شىء تأتى به من هذه الآثار ؟

— سآتى — إن استطعت — بشىء من القنديل ، ومسامير المقعد الكبير ، وما يمكننى قطعه من المهد .

— لا ! لا ! لا تمس المهد بسوء ، ولكن أدخل يدك فى قاع « زير » وأت بشىء مما تحت الغبار ، وإن لم تجد غير الغبار فيكفى أن تأتى ببعضه فى منديل .

— إنها يا سيدى مهمة شاقة ؛ فإنى كلما أردت الدخول بكت والدتى وملأت الدنيا صياحاً ، ولكنى سأفعل المستحيل لإرضائها ، والقيام بما أمرتنى به .. وهنا أدخل فريد يده فى جيبه وأخرج كيس نقوده وأخذ منه جنيهين من الذهب ووضعهما فى يد بيرام وقال له : خذ هذا المبلغ الضئيل واشتر لوالدتك هدية وحاول أن تقنعها أنها إن تركتك حراً فستصبح بعد زمن يسير من أغنى الناس، وأن ما تدعيه من أن ما فى الكهف أمانات تحرسها الأرواح إنما هو خرافة ، فأخذ بيرام المبلغ ووضعه فى جيبه ثم استأذن فى الخروج على أن يعود ثانية بعد الظهر . فقال له فريد : سنتعشى هنا معاً .

— لا ! يا سيدى أشكرك .

لا ! لا ! لابد بعد عودتك من السوق أن نتناول العشاء معاً ثم تخرج إلى بيتك .

— أمرك يا سيدى !

— سأنتظرك . ولما هم بيرام بالخروج ناداه فريد وقال : هل تسمح أن تشرفنى بمعرفة اسمك ؟ فإنى نسيت .

— إسمى بيرام يا سيدى ... قال هذا ثم انصرف .

(يتبع) **وهبى إسماعيل حقى و ابراهيم خير الله**



(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٦٢ — الاثنين ١١ مارس ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 662

Lundi —11-3—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٦٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ٧ ربيع الآخر سنة ١٣٦٥ — ١١ مارس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

جمال الدين الأفغانى (*)

جهاده فى سبيل الشورى والحرية

[بمناسبة ذكرى وفاته التاسعة والأربعين]

فى اليوم التاسع من شهر مارس عام ١٨٩٧ قضى السرطان فى عاصمة الخلافة على الحكيم الثائر المصلح السيد محمد جمال الدين الأفغانى، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ومسح عن عيون الشرقيين ما فترها من همود الكرى ، وجلا عن قلوب المسلمين ما غشاها من صدإ الجهل ، فاطمأن الاستبداد ، وأمن الاستعمار ، وظن الذين ينقضون أوطانهم ليقيموا عروشهم ، والذين يزيفون أديانهم ليملأوا كروشهم ، أن الصوت قد خفت ، وأن المشعل قد انطفأ ؛ ولكنهم نسوا أن الرسل يبلغون والله يُثبت ، وأن المصلحين يبذُرون والدهر يُنبت ، وأن جمال الدين إنما كان صيحة الحق وإشراقة الهدى انبعثتا فى يومها الموعود كما ينفجر المكظوم فيدوّى ، ويحلولك الليل فيُصبح . وهل كانت الثورات الديمقراطية التى شبها العرابيون ثم المهديون ثم الاتحاديون ثم السعديون ثم الهاشميون ثم الفهلويون إلا أقباساً من تلك الشعلة المباركة التى حملها الأفغانى وتنقل بها فى ممالك الشرق ، يحرق ويضىء ، وينضج ويُحمى ، ويُقبس ويشمل ، وساعده مرفوعة لا تكل ، وعزيمته ماضية لا تنكل ؟

وسر القوة فى هذا الرجل أنه كان صاحب رسالة لا طالب مُلك : هاجم السياسة الإنجليزية فى (العروة الوثقى) أعنف الهجوم أيام الثورة المهدية ، فدعى إلى لندن ليلوح له اللورد ساليسبُرى بمُلك السودان ليطفئ الثورة ويقترح الإصلاح . فما كان جواب الأفغانى إلا أن قال : « إن السودان لأهله . وهل تملكونه حتى تملكونى عليه ؟! »[1]

وأراده السلطان عبد الحميد على مشيخة الإسلام فأباها وقال : إن وظيفة العالم فيما يزاول من تعليم، وإن رتبته فيما يحسن من علم[2].

أما كيف تهيأت نفسه لرسالة البعث والتجديد على فترة من رسل الهدى وأئمة الإصلاح فجّر فيها الحاكم وكفر المحكوم ، فذلك من علم الله الذى يصطفى من يشاء كما يشاء لنصرة حقه وهداية خلقه . وكل ما نظنه معيناً على هذا التهيؤ أنه ولد فى بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين ، سؤددَ الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية ؛ وأنه درج فى بيئة تمتز بطباع البداوة من حرية وحميَّة وأريحية وأنفة ؛ وأنه درس فيما بين الثالثة والثامنة عشرة من عمره علوم الدين والدنيا ، وفنون اللسان والعقل ، على منهاج محيط شامل ؛ وأنه حذق فى مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية ، وألم بالإنجليزية والروسية ، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب فى القديم والحديث ؛ وأنه طوّف ما شاء الله أن يطوّف فى أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وانجلترا وفرنسا وروسيا ،

(*) أذيعت فى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية فى مساء يوم الجمعة الماضى .

(١) خاطرات جمال الدين للمخزومى ص ٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ .

فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب ؛ وأن موقع أفغانستان بين الهند وإيران أمكنه من أن يرى ميادين الاستعمار المدل المذل تتواثب عليها قوى الإنجليز والروس ظاهرة وباطنة . فهاله منذ شب عدوان الأجنبي على استقلال أمته وجيرته

كل أولئك الذى ذكرت من كرم المحتد، وشرف المولد، وبداوة البيئة، وعمق الثقافة، وحذق اللغات، وإدمان الرحلة، ومعاناة الاستبداد، ومكابدة الاستعمار، لم يخلق وحده الرجل المصلح فى جمال الدين، وإنما كان مساعداً لسر العبقرية الذى أكنّه الله فيه على أن يظهر مهيأ الأسباب مستكمل الوسائل.

***

كان رضى الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم، جرئ الصدر لأنه حر، ندى الراحة لأنه زاهد، ذرب اللسان لأنه قرشى، أبى الضيم لأنه أمير، حاد الطبع لأنه مرهف، صريح القول لأنه رجل. ولم يبتغ من وراء هذه الصفات — كما قال — إلا سكينة القلب. وكان يحمد الله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد ويفعل ما يقول[1]. ومن تمازج هذه الشمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض، وامتد أمامه الأفق، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة إلى الوطن الإسلامى كله، والشرق الإنسانى كله، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر، وبالحكومة الدستورية لتقمع شرّة المستبد

وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى فى سبيلها السجن رياضة والنفى سياحة والقتل شهادة ![2]

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغانى على الهامش يظنون أنه قصّر جهده فى تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة ؛ والواقع الذى لا شك فيه أنه فكر ثم قدّر ثم دبّر، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم

تولى الوزارة وهو فى ريق شبابه لأمير الأفغان محمد أعظم، فجمع نفسه على الاستقلال، وأدار أمره على الشورى، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة، فأرسلوا ذهبهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير. وخرج السيد إلى الهند يبتغى السكينة عند تاجر صديق، فاستقبله الإنجليز على الحدود، وأنزلوه بالإكراه ضيفاً على الحكومة. فسألهم الإقامة شهرين، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه، وإصغاءهم الشديد إليه، قصّروا هذه المدة وأمروه بالخروج. وكادت الأعصاب الهندية المخدّرة تثور حين قال لزعماء الهنود وهو راحل: « وعزة الحق وسر العدل، لو أن ملايينكم مُسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند. ولو انقلبت سلاحف، وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع » !

***

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجلة، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة. ثم عُين عضواً فى مجلس المعارف، فرأى فى التعليم رأياً، وخطب فى الصناعة خطبة، أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم، وإخوان الضلال من شيوخ الدين. وتولى قيادة الإرجاف شيخ الإسلام لحاجة فى نفسه، فافترى على الرجل الأباطيل، وبثّ حواليه النمائم، فلم يجد الأفغانى بدّاً من النزوح إلى القاهرة.

وهنا وجد الصدر الأرحب فى رياض باشا، فتجلت عبقريته فى التعليم والتنبيه والتوجيه ؛ وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة فى البيت وفى القهوة، فعشا على ضوئها الهادى طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وأدباء وساسة وقادة. ثم اتخذ من المحفل الماسونى الذى أنشأه، منارة لهذه الشعلة، فقسم الإخوان العاملين فيه شُعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة. فشعبة الحربية تنظر فى ظُلامة الضباط المصريين، وتنذر (ناظر الجهادية) أن يُنصفهم من الضباط الجراكسة. وشُعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساووا المصريين بغيرهم فى العمل والمرتب. وراع أولى الأمر ما قرأوا فى تقارير الشُعب، وما سمعوا من لغط الموظفين، وما رأوا من قلق المثقفين، فاستدعاه الخديو توفيق وفاوضه فى ذلك، فقال له فيما قال: « إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب فى حكم البلاد عن طريق الشورى ». ثم ازداد جمال الدين إمعاناً فى حملته، وانقلب الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته ؛ حتى انتهى الأمر — بعد جهاد ثمانى سنوات — إلى أن ضاق الإنجليز بسعة نفوذه، فزينوا للخديو أن يخرجه من مصر فأخرجه

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ٢١ (٢) المصدر نفسه ص ٢٣

آمال تذكيها صحائف مطوية :

المســاجد الجامعة

وأثرها في حياة المسلمين وتربيتهم الدينية

للأستاذ أحمد رمزى

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

كانت فكرة تربية المسجد تعاودنى من وقت إلى آخر . وكانت حوادث الزمن تمر علىّ فلا أشعر بمرورها . لقد قضيتُ أسعد سنوات العمر وأزهرها مغترباً عن بلادى ، مشرّقاً حيناً ومغرّباً أحياناً ، وأطلقت العنان لنفسى أقرأ وأستمع وأبحث ، وأدرس الحركات الشعبية وتأثيرها ، وأتصل بأصناف مختلفة من الناس ، وألمس عن قرب تطور العالم وتمخضه بالحركات الفكرية الكبرى ، ومع ذلك كانت تلازمنى فكرة حمد الله صبحى عن تربية المسجد وأثرها فى حياة المسلم .

وأجتهد أن أصل إلى تكييفها وفهمها لإيجاد طريقة أومنهج لتحقيقها . وكان أشد ما يقابلنى من المصاعب ، ويصدنى عنها هو مناقضتها بمنطق يستند على أنها بعيدة عن الإسلام وأنها تقليد للمذاهب والأديان الأخرى ، وفى ذلك هدم للفكرة وإخراج لها من حيز القبول إلى حيز التحريم والإنكار .

ففى يوم من أيام إقامتى بسوريا ولبنان مدة هذه الحرب اتجهت نية بعض الاخوان إلى زيارة الحصون والقلاع التى تركتها الحروب الصليبية . فلما زرناها وقفنا دهشين لأن ما نقش على الحجارة ينطق بفتحها على يد ملوك مصر أمثال بيبرس وقلاوون وابنه الأشرف خليل ، فبدأت أشعر شعوراً جديداً ، بعظمة مصر الإسلامية العربيـة وأثرها فى العالم العربى ، وحنقت على وزارة المعارف التى أهملت هذه الناحية فلم تلقنى شيئاً عن تاريخ بلادى فى معاهدها سوى أنها أنقصت من قدر ملوك الإسلام الذين تولوا الحكم فيها ، فلم تكشف لى عن صفحة مجد واحدة تحبب إلىّ ذلك العصر المملوء بالفتوح والحروب والمعارك والانتصارات التى منّ الله بها على جند مصر العربية الاسلامية وملوكها ، ومكنتهم من هـذه الحصون التى وقفت تقارع الزمن حتى مهد الله فتحها على أيديهم بعد أن عجز غيرهم عنها ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وكان أن أخذت نفسى بقراءة المراجع كما كتبها المعاصرون لتلك الحوادث ، فهدانى الله إلى حقائق كانت مغلقة على ، إذ عرفت أهمية المساجد الجامعة وأثرها فى تاريخ المسلمين ، وكيف أسند ملوك الإسلام وظائف الإمامة والخطابة للقضاة وكبار العلماء من مشايخ الحنفيـة والشافعية والمالكية والحنابلة ، وكيف أرصدوا الأوقاف والأموال والخيرات والنعم الوافرة على مساجد الله . فأين ذهب كل هذا ؟

ولم نتلق شيئاً عن هذه المساجد وتاريخها ما يدفعنا لزيارتها والتحدث عنها كجزء متمم لتاريخنا وشخصيتنا ولكن هذا النقص تكفلت به كتب التاريخ والتراجم والأدب .

فقرأنا فى صبح الأعشى الكثير عن الوظائف الدينية

وانتقلت الشعلة إلى باريس ، وسطعت فى العروة الوثقى ، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض فى جنبات الشرق كما تومض المنارة فى ظلمات المحيط ، حتى دلت على أوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة ، فاستقدمه شاه العجم واستوزره ، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه . واستزاره قيصر الروس واستخبره ، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه . واستدعاه خاقان الترك واستشاره ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الامبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أمراء عثمانيون ، زوى عبد الحميد ما بين عينيه ؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع ، وظل على إكرامه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدور !

وهكذا كانت حياة جمال الدين كلها جهاداً مضنياً فى سبيل الله والعلم والحرية والشورى .

كان أينما حل تنفس الصبح واستيقظ الهجود ، وأينما رحل ارتجفت العروش واضطربت القيود !

طيب الله ذكرى هـذا الإمام العظيم ، وأجزل له ثواب المصلحين المخلصين فى جنات النعيم !

احمد حسن الزيات

ودرجاتها وأهميتها ، فمن ذلك صورة تقليدين لمشيخة الشيوخ أحدهما للخانقاه الصلاحية « سعيد السعدا » من إنشاء المقر الشهابي ابن فضل الله العمرى ، والثانى لمشيخة الخانقاه الناصرية بسرياقوس من إنشاء السيد الشريف شمس الدين ، وكلاهما تحفة من تحف الأدب الديوانى ، ودليل على العناية والاهتمام بمراكز الدين وأهمية الإمامة والخطابة بالمساجد فى صميم الدولة الإسلامية .

فبالله عليك ماذا يكون موقفنا لو أبقى الزمن على محفوظات ملوك الاسلام بمصر بأكلها ؟ وإنه لشيء عظيم يدل على أن المساجد الكبرى مثل جامع عمرو وابن طولون والجامع الأزهر بعد ذلك وجامع الحاكم والسلطان حسن وجامع الملك الظاهر ، وجامع القلعة ، كان يتولاها أكبر علماء العصر . ولو شئنا أن نؤرخ لكل منها وأن نصف ما مرّ من العزّ عليها ، لاحتجنا كتاباً لكل منها .

إذا تقرر ذلك ، فما الذى يمنع أن يردّ اعتبار هذه المساجد إليها ؟ فتسند وظائف الخطابة والإمامة إلى أكبر علماء الدين وأعلاهم قدراً ، وأكثرهم غيرة على الدين ، مثل فضيلة الأستاذ الأكبر ، ومفتى الديار المصرية ، وقاضى القضاة وهو اسم تاريخى ما أجمل وقعه لو أطلق على رئيس المحكمة العليا الشرعية ، وإلى غيرهم من هيئة كبار العلماء وأساطين الشريعة السمحاء ، وأن يقلدوا هذه الوظائف بمراسيم عالية تصدر بالألقاب التى كانت تستعمل فى العهود الاسلامية .

فجامع عمرو بن العاص متى يتولى الإمامة فيه شيخ من فطاحل شيوخ الاسلام من ذوى المراكز العالية والمراتب الكبرى ؟ فيضع بطاقته مفتخراً بأنه إمام جامع عمرو وخطيبه قبل وظيفته الرسمية العالية ، حينئذ يأتى الكبراء إليه ويزدحم المسجد العتيق بجماهير المصلين ليؤدى لهم بحق رسالة الاسلام .

أما جامع ابن طولون فتى يعود لسابق عهده ، فتى تعلق ستائره وتفرش أرضيته بالأبسطة والطنافس ومتى تعود أيامه وتوقد القناديل فيه ؟ إنهم يرونه أثراً من آثار الجاهلية الأولى كمعابد الكرنك وإدفو ، وأراه دعامة من دعائم الاسلام فى هذا البلد المسلم . إنه ينتظر عالماً كبيراً بمنزلة القاضى بكار ، يرجّ بصوته الجهورى أركانه ويدعو فيه إلى ذكر الله ويعلم الناس فى أروقته الكتاب والدين والتقوى . وإذا سألتنى ومن يأتى إليه ؟ أجبتك إن شخصية الامام العامل العالم تكفل لك أن تنقل المسجد الجامع من معبد أثرى إلى بيت من بيوت الله ، حينئذ يؤمه الألوف لسماع ذلك النداء الخالص الذى يدعو إلى الرسالة المحمدية .

وإذا ذهبت إلى حىّ العباسية مخترقاً الظاهر قابلك الجامع الظاهرى ، مفخرة العمارة الاسلامية فى العصور الوسطى . لو كان ملكاً لشعب من أصغر شعوب الأرض لما قبل أن يتركه على هذه الحالة . بالله هل سمعتم أن كاتدرائية ريمس حينما هدمتها الحرب الأولى أو كاتدرائية وستنمستر حينما هدمتها الحرب الثانية ، اتخذ الناس أرض الأولى متنزها والثانية مرتعاً ؟ أما فى مصر ، فقد انفردنا بهذا الفتح إذ جعلنا الجامع الظاهرى الذى بناه أعظم ملوك الإسلام متنزهاً فى حى أشعر أنه بحاجة لمسجد جامع يؤمه الناس . إن أهل العباسية فى مجيئهم من محطة باب الحديد إلى مساكنهم ، ألا يشعرون بشيء من الخجل حينما يرون المعابد العالية التى يقوم بالإنفاق عليها أفراد من مختلف الطوائف ، وأن مسجدهم لعظيم يتخذ متنزهاً ؟

حينما أعادت فرنسا كاتدرائية ريمس ، توالت عليها التبرعات من جميع أنحاء الأرض ، ولو رغبت وزارة الأوقاف فى إعادة جامع الظاهر أظن أن الكثيرين من عشاق الفن الإسلامى لا يتأخرون عن مد يد المساعدة إليها وسيكون لنا عودة لهذا الجامع فنذكر ما مر به من حوادث الزمن .

« وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » .

إن الطوائف الأخرى تقيم أعيادها واجتماعاتها فى معابدها ، ونحن معاشر المسلمين ، فى حاجة للرجوع إلى المساجد فى هذه المناسبات ، وليس فى ذلك من حرج ، لأن ذلك كان سنة من تقدمنا — ذكر ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات فى تاريخه عن حوادث رمضان سنة ٦٧٧ أنه بمناسبة مرور سنة على وفاة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس « عملت غدة أعزية بمدرسة

الإمام الشافعى رضى الله عنه وجامع أحمد بن طولون والجامع الظاهرى بالحسينية[1] والمدرسة الظاهرية[2] والمدرسة الصالحية النجمية[3] ودار الحديث الكاملية[4] بين القصرين والخانقاه الصلاحية برحبة باب العيد والجامع الحاكمى داخل القاهرة المحروسة وذكر الختمات التى قرأت والخيرات التى عملت ، وفى ذلك دليل على أن المآتم كانت تقام بالمساجد وكان الناس يجلسون للعزاء ، وكانت تقام فيها صلاة الغائب وينادى بالنعي من المآذن .

فهل هناك ما يمنع من الأخذ مرة أخرى بتلك السنن ، وأن يجتمع الناس بالمساجد الجامعة فى أحيائهم لذكرى المولد النبوى ، وللاحتفال بأعيادهم ؟ لا أجد نصاً واحداً يمنع الأخذ بذلك ، بل قد رأيت طول القرون الماضية ما يؤكد المنزلة التى كانت للمساجد الجامعة فى مصر وغيرها .

ذكر صاحب الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، حديثاً طويلا عن الخطباء ، الذين أمرهم السلطان الغورى أن يخطبوا بين يديه فى أيام الجمع ، يفهم منه الاهتمام الكبير الذى كانت توليه الدولة المصرية فى عهدها الإسلامى العربى لشؤون الخطابة فى المساجد الجامعة . ولذلك لا نختلف مع نظرية حمد الله صبحى بك فى شىء بل إن الفكرة تستند على ماض طويل ، وتحتاج أولا إلى من يحييها ثم من يجعلها ملائمة لتطور الزمن .

ونقول بكل صراحة : إن مظاهر الضعف والتفكك والتدهور الأخلاقى البادية فى صفوف المسلمين المعاصرين ، ترجع إلى اعتكاف علماء الدين ، وإلى اتخاذهم المكاتب والحجرات بدل المساجد ، ولو نزلوا إلى الشعب الإسلامى كما نزل الرسول وأصحابه والتابعون وتابعو التابعين ، وتولوا الإمامة والخطابة بأنفسهم ، لخلقوا حول المساجد هالة من التقديس والاحترام ، ولأصبحت المساجد الجامعة فى قاهرة المعز لدين الله ، عامرة آهلة بألوف المصلين من عباد الله .

إن المساجد الجامعة بيوت الله ، يجب أن يعمل علماء الدين على اجتذاب الناس إليها ، وأن يربى الطفل والطفلة والشاب والفتاة والنساء والرجال على المداومة على الذهاب إليها ، وأن يكون الإمام والخطيب رجل دعوة وإيمان وعلم وجرأة ، عالماً بشؤون الدنيا بقدر علمه بشؤون الدين ، أعظم صفة لديه «الابتكار» وأن يفيض قلبه بمحبة الشعب ودعوة الناس وخدمتهم وإقالة عثرتهم ، فيقول للحيارى تعالوا : هذا هو بيت الله وهذا هو دينه وهذه شريعته وهذه سيرة رسوله ، « وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » .

تمر الأيام سريعاً ويتطور العالم ويسير ويواجه أزمة وراء أزمة ، فهل نعيش لنرى ذلك اليوم فى مساجد الله ؟ وهل سيسمع لنا نداء ؟ أم سيخرج من صفوفنا نحن الذين لم نلبس العمامة من يقوم بهذا الغرض الاجتماعى ويدعو لهداية الله ويحمل الأمانة التى تخلى عنها رجال الدين ؟

هذه أسئلة يجيب عنها المستقبل ...

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

(١) الآن حديقة عامة .
(٢) زالت للأسف مع الوجود .
(٣) الباقى منها قليل وأرضها عمارات ومساكن .
(٤) الباقى منها الواجهة فقط .

نشر بإعلان ٤٩٧٤ بالعدد ٦٦١ وتطلب المواصفات نظير دفع مبلغ جنيه ، ٥٠٠ مليم والصواب ٥٠٠ مليم فقط .

الفتح الإسلامي

للأستاذ علي الطنطاوي

لما وثب الألمان تلك الوثبة ، فطحنوا جيوشاً ، ودوّخوا ممالك ، وطمسوا في مصور أوربة حدوداً ومحوا دولا ، وأخذتهم العزة بالإثم والعدوان ، فقال فرعونهم : أنا ربكم الأعلى ! ...

وقام من بعدهم اليابان ، فقفزوا كالجنّ على جزر المحيط ، وحازوا أطراف المشرق ، وتمّ ذلك في اللمحة الخاطفة ، كأنه حلم نائم ، أو كأنه سحر ساحر ...

... أذاع مذيع (عربي ...) من محطة لست أسميها ، يمجد هذا النصر ، ويفرغ فيه كل ما يملأ رأس الضعيف من الاعجاب ببطولة القويّ ، وكان مما وسوس له به شيطانه أن قال : (هذا هو الفتح ، لا فتوحاتنا التي لم نملّ من الفخر بها وقد مضى عليها ألف وثلثمائة سنة) !

وقالوا : ردّ عليه ، وضَعْ في فمه حجراً . قلت : لا ! إنه لم يأنِ أوان الردّ عليه ، فانتظروا ، فإنها سترد عليه الأيام .

وها هي ذي الأيام قد قالت فأبلغت ، وردّت فأفحمت ، ولكن أين ذلك المذيع ليستمع ويفكر ، فيرى فتوح هتلر كفتوح تيمورلنك ، عاصفة عاتية مدمرة ، تهب على الكون فتقتلع الأشجار ، وتهدم البنى ، وتدحرج الصخور ، ثم تضعف العاصفة وتضمحل ، ولا تدع وراءها إلا الموت والخراب والفوضى ! وما أسهل الهدم ، وما أهون القتل ! إن كلباً عقوراً يقتل أعظم نابغة في الدنيا . وأكبر عالم في الأرض لا يستطيع أن يخلق ذبابة . والبناء الفخم الذي ينشئه مائة مهندس بارع ، يهدمه اللص بقنبلة واحدة ، أو يحرقه بعود كبريت ... والسفينة المدرعة العظيمة التي يجتمع على إنشائها الآلاف ، ويمضي العمر ، يغرقها مجنون في ساعة ... كذلك كان فتح تيمورلنك وهتلر ... وأين اليوم هتلر وتيمور ومن كان بينهما من فاتحين وغزاة مظفرين ؟ وأين من كان قبلهما ؟ لقد طواهم الزمان ، فلم يبق منهم إلا قبور تحتها رفات رميم ، أو صحائف فيها مجد ميّت ، وربما أغرقهم السيان في لجته ، فلم يمنحهم قبراً على الأرض ، ولا ذكراً في التاريخ ... وكذلك الفتوح التي تفخر بها الأمم ، ويشغل بها الطلاب في المدارس ، كلها فتوح قوة وتغلب ، فإذا ضعف القويّ ، أو قوي الضعيف ، عاد الغالب مغلوباً ، والمغلوب غالباً .

أما (الفتح الاسلامي) فنسيج وحده في تاريخ البشر ، لا يشبهه فتح ولا يدانيه ولا يقاس به . إن هذا (المذيع) رأى جانباً واحداً منه ، وخفيت عنه جوانب : رأى الظفر في المعارك والغلبة في الميادين ، فقاسها على أشباهها ونظائرها ، وتحكم فيها بما أوصله إليه عقله ، وما دفعه إليه هواه ... أما الجوانب التي لم يرها ، فقد وصفها الامام العبقري ابن تيمية بكلمة جامعة ، لو كان إعجاز بعد القرآن ، لقلت إنها من معجزات البيان ، هي : (إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم ، ولكن نقلوا الأمم إلى الإسلام) . إن في هذه الكلمة القصيرة سرّ الفتح الإسلامي ومزاياه وعلة بقائه واستمراره ، وهاك بعض البيان :

إنها لم تدر في الأرض رحى الحرب ، ولم يطأها جيش فاتح ، إلا ابتغاء أرض يضمها الفاتح إلى أرضه ، أو شعب يحكمه مع شعبه ، أو غنائم ينالها ، أو ثأر يطلبه ، أو خيرات يستولي عليها ، أو كنز يملكه ، هذه هي غايات الحروب ، وهذه مقاصد الفاتحين .

أما المسلمون فقد خرجوا يُعلنون كلمة الله ، وينشرون دينه ، يبذلون في سبيل ذلك دماءهم وأرواحهم ، ويفارقون من أجله ديارهم وأولادهم ، لا يريدون علواً في الأرض ولا استكباراً ، ولا يبتغون دنيا ولا يريدون مالا . وهذه هي المزية الأولى .

وكانت غايتهم إصلاح البشر في أخلاقهم ومعايشهم ، وسعادة الناس في دنياهم وآخرتهم ، فكانوا يحملون إليهم مفتاح هذه السعادة ، وهو القرآن ، فإن كانوا عقلاء وقبلوا الهداية واستجابوا لها ، وارتضوا هذه السعادة ورحبوا بها ، كفّوا عنهم فلم يقاتلوهم ، وإن لم يقبلوا وركبوا رؤوسهم عناداً ، ولم يحبوا أن يجلبوا لأنفسهم النفع ويمنعوا عنها الضرر ، عدّوهم كالأولاد القاصرين أو المتوهين والمجانين ، لابد لهم من وصيّ يقوم عليهم ، ويصرّف شؤونهم فيما فيه صلاحهم ، وفرضوا عليهم أجرة قليلة هي كأجرة الوصيّ الأمين ، فإن دفعوها برضاهم قبلوا منهم ، وإن والوا عنادهم وأبوا إلا الإفساد في الأرض ، وأذى أنفسهم

وإخوانهم فى الإنسانية ، دعوهم إلى الحروب ، لأن الإسلام يرى البشر كلهم كراكبى السفينة إذا أراد أحدهم أن يخرق موضعه ، كان عليهم أن يمنعوه ويكفوه ويضربوا على يده ، لئلا يهلك نفسه ويهلكهم معه ، فكأن الإسلام وصل منذ أربعة عشر قرناً ، إلى ما تسعى إليه الآن ولا تدنو منه (هيئة الأمم المتحدة) . وهذه هى المزية الثانية .

وكانوا إذا حاربوا ، حافظوا على شرفهم ، وأقاموا على كرمهم فكانوا أشرف محاربين عرفهم ظهر هذه الكرة ، لا يغدرون ولا يمثلون ، ولا يجهزون على جريح ، ولا يحاربون امرأة ، ولا يعرضون لعاجز ، ولا يمسون معبداً ولا يؤذون متعبداً ، ولا يخربون داراً ، ولا يفسدون ماء ، وإن هذه الخلائق فى الحرب لتعدّ غريبة فى هذا القرن ، الذى يسمونه (قرن العشرين) ، ويزعمون أنهم بلغوا فيه نهاية الارتقاء ، وذروة المدنية ، فكيف وقد جاءت فى القرون (المظلمة ! !) التى يسمونها القرون الوسطى ؟ ! هذه الثالثة .

ولم يكن يلهيهم عن غايتهم مال ، ولا يشغلهم جاه ، ولا ينسيهم هذه الغاية خطر ، فكانوا إذا اشتد الخطب ، وادلهمت المعركة وعبست ، يلجأون إلى الله الذى حاربوا من أجله ، وقاتلوا فى سبيله . هذا قتيبة بن مسلم الفاتح المظفر ، يثب عليه كمين من الترك ، ويقع بين حجرى الرحى ، فيقول : انظروا إلى محمد بن واسع ماذا يصنع ؟ فيقولون : هو قائم هناك يشير بأصبعه نحو السماء ، فيشرق وجهه ويطمئن ، ويقول : والله لهذه الأصبع أحب إلىّ من عشرة آلاف سيف يشهر ، أقدموا على بركات الله .

وكانوا يعملون لله وحده ، لا لجاه ولا لذكر . هذا بطل الدنيا وعبقرىّ الحروب خالد ، يعزله عمر فيقاتل جندياً كما كان يقاتل قائداً ، لأن الله لا يجزى القواد وحدهم ولكنه يجزى كل عامل مخلص . وهذا رجل لا يعرفه أحد ، يفعل الفعلة التى تكسبه مجد الدهر ثم يخفى اسمه ولا يعلنه ويقنع بثواب الله : يلقى المسلمون فى معركة من المعارك شدة وكيداً من أحد أبطال العدو ، فينادى قائدهم إن من قتل هذا الرجل فله ألف دينار ، فلا يصبحون إلا ورأسه ملقى فى خيمة القائد ولا يعرف من قتله ، ويسألون فلا يجابون ، فيقوم القائد فيقول : أنشد بالله من فعل هذا ، إذا كان يسمع كلامى ، إلا خرج إلىّ . فيخرج رجل لا يعرفونه ، فيسأله : أأنت فعلت هذا ؟ فيقول : نعم . فيقول : خذ الجائزة فيأبى ، ويقول : إنما فعلت ذلك لله وحده . فيقول له : ما اسمك؟ فيقول : وما لكم ولاسمى ، أتريدون أن تنشروه فى الناس ، فتضيعوا علىّ ثوابى ، وتفسدوا علىّ نفسى ، دعونى .

ووقعوا — وهم المصحرون المدمون ، الذين كانوا يأكلون القد ، ويتبلغون بالتمرة — وقعوا على كنوز كسرى ، وإن الحبة الواحدة منها يأخذها الرجل تغنيه وتغنى ولده من بعده ، وما يراه إلا الله ، فلم يغلُّوا منها شيئاً وأدّوها كاملة ، لأن نبيّهم نهاهم عن الغلّ ، ولأنهم إنما خرجوا لله ، لا للمال ولا للكنوز! هذه الرابعة.

ثم إنهم إذا دخلوا بلدة لم يحملوا إليها الاسلام فى محاضرات يلقونها ، ونشرات يذيعونها ، وكتب يطبعونها ، فيكونوا هم الأساتذة أبداً ، وأولئك كالتلاميذ ، ويكونوا المتقدمين إلى كل خير ، والمستأثرين بكل نفع ، لا ولكنهم يدلون أهلها على منابع الإسلام ، ويرشدونهم إلى الكتاب والسنة ، ثم يتركونهم لينتقلوا هم بأنفسهم إلى الإسلام . فلم تمرّ برهة حتى سبقوا العرب وبذوهم ، وكان منهم أئمة الدين ، وعلماء القرآن والحديث والفقه وعاد العرب الفاتحون وجلسوا بين أيديهم ، وتتلمذوا عليهم ، وأخذوا الدين عنهم . وهذه الخامسة .

ثم إن الفاتحين الأولين ، لم يعلنوا عن الإسلام بألسنتهم ، ولم يدعوا إليه بأقوالهم ، ولكن أروا الناس فى أخلاقهم ومعاملاتهم وسيرتهم أمثلة من أحكام الإسلام ، فحببوه بذلك إليهم ورغّبوهم فيه ، وها هم أولاء فى حمص بعد أن فتحت لهم ودخلوها وأخذوا الجزية من أهلها ، يبلغهم أن الروم قد توجهوا إليهم ، ويعرفون عجزهم عن مقابلتهم ، وحماية أهل البلد الذين صاروا فى ذمتهم ، ويعزمون على الخروج منها ، فيدعون البطاركة والرؤساء ، ويخبرونهم بعجزهم ويردون إليهم ما قبضوا منهم من مال الجزية كاملا فيبلغ العجب والإعجاب قرارات نفوسهم ، ويقولون : والله ما رأينا مثل هذا من الروم وهم أهل ملتنا ، وإن ديناً يأمر أصحابه بهذا لنعم الدين هو ، ولأنتم أحب إلينا منهم . هذه السادسة .

ولم يَنْجَلِ الفتح ، عن غالبين ومغلوبين ، لا تزال تهيج بينهم الأحقاد ، وتضرم نيران الثورات والحروب ، كما هى الحال فى كل فتح ، وإنما انجلى عن أمة واحدة لها ربّ واحد ، ونبى واحد ، وكتاب واحد ، أمة مسلمة ، فلا عرب ولا فرس ولا روم ، ليس منهم من دعا إلى عصبيته ، بعد أن تبت يدا أبى لهب العربى القرشى الهاشمى عم النبىّ ، صلى الله عليه ، وكرمت أيدى بلال

الحبشي وصهيب الرومي وكان من أهل البيت الفارسي سلمان. هذه السابعة

بهذا استقر (الفتح الإسلامي) وخلد، وبقيت هذه البلاد للاسلام إلى يوم القيامة، وإذا كانت أحياناً حروب عصبية ومعارك على الملك، فإنما كانت لمخالفة قواعد الإسلام، والدعوة إلى العصبيات والقوميات، وجعل الخلافة ملكا، وتحويلها وراثية كسروية، ولو بقيت بكرية عمرية، لما كان خلاف ولا نزاع.

هذه هي الجوانب التي لم يشهدها ذلك (المذيع) ولم يعرفها، فحسب أن الفتح الإسلامي كفتوح هتلر، فتح غلبة وقهر ... كلا، إنما هو فتح هداية وإصلاح. على أننا كنا أقوى من جند هتلر قلباً، وأعظم بطولة، وأعجب نصراً، فلقد حارب هتلر بعدّة ضخمة وعديد، وجيش مدرب شديد، ووسائل إلى التقتيل والتدمير يعجز عن تصورها إبليس، ثم غلب هتلر ووسائله وجيوشه، وقام العرب لفتح الدنيا أمام القرآن، وهم لا يملكون جيشاً مدرباً، ولا قائداً عسكرياً متعلماً، وما سلاحهم إلا سيوف ملفوفة بالخرق، ثم طحنوا بإيمانهم أعظم إمبراطورية في معركتين اثنتين، القادسية ونهاوند، وأزاحوا عن ظهر الأرض أثقل عرش، وخلصوا دنيا القرن السابع من جبروت كسرى وقيصر، ثم انتشروا في أرجاء الكون، من جنان الشام إلى سهول العراق ومصر، إلى صحارى أفريقية وتركستان، إلى جبال الألب والقفقاس، إلى جزر البحار إلى ثلج روسيا، إلى لظى الحبشة، لم يدعوا بقعة من الأرض إلا سكنوها وحكموا فيها باسم الله وبشرع محمد، وهم كانوا القابعين في رمال الجزيرة، يخشون تابعاً من أتباع قيصر في الشام، ويرجون تابعاً من أتباع كسرى في العراق، ويسمونه ملك العرب!

هذه هي مزية الفتح الإسلامي؛ فاذا كانت الفتوح عاصفة مدمّرة فهو الغيث الممرع، وإن كانت القتل والخراب والفوضى، فهو الحياة والبناء والنظام ... فيا أيها (المذيع) قد بطل فخرك بفتح هتلر، وقد ذهب هتلر وفتوحه مع أمس الدابر، ولم يعقب إلا الفساد في الأرض، وسيذهب كل فتح قام على القهر واعتمد على الظلم ... ويظلّ (الفتح الإسلامي) راسخاً رسوخ الأرض، باقياً بقاء الزمان، ولا يزال مفخرة لكل من قال أنا إنسان!

فيا أيها المتمصرون؛ هاتوا مثل هذا الفتح، أو فاسكتوا، لا تفتخروا!!

(دمشق) **على الطنطاوى**

الأدب في سير أعلامه :

ملتن...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

- ٣ -



البيوريتانية كمذهب :

يتلخص مذهب البيوريتانز في العقيدة الدينية ، في الإيمان بالقدر المحتوم ، ويرون وجوب خشية الله أشد خشية في عمق وإخلاص ، فالله وحده هو الحاكم ، وهو وحده القادر ذو الجبروت والجلال ؛ ويعتقدون أن معينهم الذي يجب أن يستقوا منه دينهم هو كلام الله كما ورد في الأنجيل ، فلا وساطة للكنيسة البابوية بشرح أو تأويل ؛ وهم ينفرون أشد النفور من الكنيسة البابوية لتحكمها في العقول وانغماسها في شؤون السياسة والحكم وأخذها بالبدع والضلالات ، واعتمادها على الزخرف والبهرج الزائف من النقوش والصور والغناء والتماثيل وما إليها من مظاهر الوثنية ؛ وبعد رجالها عن روح الدين ورسالته ، وإقبالهم على الحياة الدنيا وزينتها ، وانخداعهم بغرورها وماديتها ، وجرى الأشراف على كنائسهم وفق نظام « كلفن » ، فلا تكون الرياسة للقساوسة ، وإنما تكون لفريق منهم يختار ، ويشاركهم فريق من غير رجال الدين على نحو قريب من الديمقراطية بعيد كل البعد عن الاستبداد ؛ ويتمسك البيوريتاني بأهداب الدين ، ويحرص على العبادة ، ويغلو في ذلك كل الغلو ، فكل رب أسرة هو في الواقع قسيسها ومرشدها ومنفذ ما توجبه روح الدين فيها ، وقارئ الإنجيل ومفسره لأبنائها وبناتها ...

أما في السياسة ، فإن شعورهم القوى بأن الله هو الحاكم الأعلى ، وأنه القاهر فوق عباده ، الملوك منهم وغير الملوك ، جعلهم يستصغرون كل سلطة غير سلطته ، ويرون الناس جميعاً بالقياس إلى الله سواء ؛ وينفرون من كل استبداد أو إرهاب في أية صورة من صورها ؛ وقوى هذه الروح عندهم شعور آخر هو تمسكهم بحرية الضمير في الفكر الديني بتخلصه من آراء الكنيسة ، وعلى هذا فحرية الرأي في السياسة جزء من هذه الحرية الفكرية التي بثها مذهبهم في نفوسهم واستمدها من التحرر العقلي العام الذي هو وليد النهضة والإصلاح الديني ، والذي هو مظهر من مظاهر شعور الفرد بشخصه وذاتيته بالنسبة للمجتمع كله ...

وفي آداب المجتمع نرى لهؤلاء البيوريتانز مبادئ خلقية يتمسكون بها تمسكهم بدينهم ويغلون فيها غلوهم فيه ، وعندهم أن الروح فوق الجسد ، فتطهير الروح من مفاسد الحياة لا يكون إلا بقهر الجسد وفطامه عن الشهوات ومحاربة الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولقد أسرفوا حتى كرهوا كل زينة وخافوا من كل متعة ، وعدوا طيبات الحياة مبعث النزوات ووسائل الشيطان وحبائله . والبيوريتان صريح شجاع حر الرأي ، إذ هو يميل إلى الطهر في كل شيء ، ويميل إلى النزاهة في جميع صورها ، ولذلك يطلب العدالة والحق قولا وعملا . وكما أن الأسرة البيوريتانية تأثرت بالدين نراها تأثرت كذلك بهذه المبادئ الخلقية ، فرأس الأسرة حريص على أن يغرس هذه الصفات في أفرادها في صرامة وحزم ، ولقد صبغ ذلك الأسرة البيوريتانية بصبغة خاصة في المجتمع الإنجليزي ...

وأثرت نزعتهم الدينية ومبادئهم الخلقية في نظرتهم إلى الفن

والأدب ، فمن حيث نزعتهم الدينية نجد انشغالهم بالدين ومايتصل به ، وتأثرهم بمذهبهم وتحمسهم له ، يصرفانهم عن التفكير فيما سواه من معرفة أو أدب أو فن ، مما يتصل بالحياة الدنيا ومسائلها ؛ بل لقد كرهوا هذه الأشياء وخافوا مغبتها على عقيدتهم ومذهبهم ومالوا إلى حصر الأدب فى أضيق نطاق له . وعندهم أن فى الإنجيل غناء عن كل كتاب غيره ، وحاربوا فى شدة وعنف دراسة آداب الإغريق لما فيها من وثنية ومادية ورجس من عمل الشيطان ..

ومن حيث مبادئهم الخلقية نجدهم يحاربون الفنون فى ضروب تعبيرها ، لأنهم يعدونها لهواً ولعباً من غرور الحياة وفتنتها ، فلا يقرون التمثيـل ، بل يرون فيه أنواعاً من الإغراء والفتنة تسوق إلى الفجور والضـلال ؛ وهم بالضرورة يمقتون الرقص ويعدونه فسوقاً وضلالا بعيداً وحيوانية جامحة ؛ وينظرون إلى الموسيقى نظرة أخف حدة من نظرتهم إلى المسرح والرقص ، فإذا كانت للعبث واللهو والفتنة ، فهى باطل وإثم ، وإذا ذهب الناس إلى الكنيسة ليستمعوا إلى الموسيقى فحسب ، وهم منصرفون عن العبادة بعيدون عن الخشوع ، فوجب إبطالها من الكنيسة .

وكره البيوريتانز إلى جانب ذلك التصوير والنقش والحلى والزينة وما يتصل بالجمال ، لأنهم يرون فى ذلك مدعاة للترف وصلة قوية بالدنيا توبق الروح وتميت فى القلوب الورع والخشوع

هذا هو الجانب السئ من البيوريتانية ، وأى شىء أسوأ من أن تكون حرباً على الأدب والفن والمعرفة إلا ما كان معرفة دينية تستمد من الأنجيل ؟

ولم يقتصر الأمر على هذه العيوب الأساسية فى البيوريتانية ، بل إن المذهب نفسه قد تطرق إليه الفساد ، شأن كل مذهب ينشأ قوياً صالحاً ، ثم يجر إليه الغلو والجهل وسوء الغرض ما يبعد به كل البعد عن حقيقته حتى ليقلب كل حسنة من حسناته إلى سيئة وبيلة

فأول ما دخل عليه من فساد هو التعصب ، فقد انقلب التحمس للمذهب والغلو فى الدفاع عنه تعصباً فيه الزراية بغيره ، وإنكار كل حق إلا ما يراه أصحابه أنه الحق ؛ وتبع ذلك التمسك بالشكل دون الجوهر فى كثير من المواقف

وتطرق إلى بعض النفوس النفاق : فأصحابها يظهرون فى العلن التمسك بالمذهب ، ويأتون فى السر ما ينكره ذلك المذهب أشد الإنكار ، وشاع الحمق والغضب وحدة الجدل وسرعة التخاصم والتنابذ بين فريق من البيوريتانز الغالين فى مذهبهم وبين الناس ، وأساء هؤلاء بلا ريب إلى أصحاب المذهب جميعاً ، إذ يحسبهم الناس كلهم من هذا الطراز ...

وظهر بعض البيوريتانز بمظهر الضعف العقلى لمجافاتهم المعرفة كما ظهرت فى بعضهم الجلافة والغلظة لأنكارهم الفنون ونفورهم من الجمال .

إلا أنه لا يجوز أن نحكم على هذا المذهب بما تطرق إليه من فساد ؛ ولئن كان فيه ذوو العقول الضيقة والحمقى والمتعصبون والمنافقون ، فلقد جاء إلى المجتمع بمبادىء سامية وبث فى النفوس الحمية والأقدام وخبب إليها الحرية .

هذه هى البيوريتانية أو هذا هو الصيف الصارم العابس الذى يمثل عصر ملتن والذى أعقب ذلك الربيع الطلق الرخى الذى يمثل عصر شكسبير ؛ وبين الربيع الراحل والصيف القادم ولد ملتن كما أسلفنا عام ١٦٠٨ ، ولد والبيوريتانية تستقبل فتوتها ، وسيستقبل كذلك فتوته ويبلغها إذ تبلغ البيوريتانية أشدها ، فيكون شاعرها الفذ الذى تتمثل فيه روحها فى أسمى أوضاعها وأجمل صورها ، والذى يجتمع فى فنه جمال الربيع الراحل ، وجد الصيف القادم .

طفولة ملتن ونشأته

انتصف الليل أو تجاوز المنتصف ولا يزال صبى جميل فى الثانية عشرة من عمره جالساً إلى مكتبه فى حجرته الخاصة به فى بيت أبيه بلندن يفرك عينيه الواسعتين الجميلتين بيديه الصغيرتين ، وقد أخذ النعاس يداعب جفنيه ، وأخذ الكلال يغمض مقلتيه ، والمصباح يكاد زيته ينفد ، بعد ساعات طويلة لم يكد يحول فيها الصبى عن الكتب بصره ، وذلك دأبه فى أكثر لياليه . وجلست على مقربة من الصبى إحدى الخادمات وقد أمرها أبوه أن تظل بقربه حتى يأوى إلى مضجعه ؛ وقد أوى أبوه إلى مضجعه منذ

وقت غير قصير بعد أن عزف بعض ألحانه الجديدة والقديمة كما يفعل كل ليلة ما عدا ليلة الأحد ؛ وإنها لتعجب من إقبال الصبي على كتبه واستغراقه في قراءته على صورة لم تشهد مثلها قبل في صبي مثله لم يتجاوز الثانية عشرة .

وماذا يقرأ الصبي في تلك السن ؟ أيقرأ القصص الخرافيـة وحكايات الجن وأشباهها مما يقرأ أنداده في مثل سنه ؟ لا فهو لا يحب هذا النوع من الـكتب كثيراً كما يحبها الصبية من أقرانه ؛ ومثل هذه الـكتب لا تـكون إلا للتسلية ، ولن يكون من أجل التسلية هذا السهر الذي تـكاد تعشى منه العينان .

كان الصبي يقرأ كتب الأدب وعلى الأخص الشعر ، وكان يقرأ التاريخ على قدر ما تسمح سنه ، ويدرس اللغـات اللاتينية والعبرية واليونانية والطليانية . وفي ليالي الآحاد حين كانت تجتمع الأسرة حول الموقد ، كان يستمع الصبي إلى ما يذكر أبوه عن آخر لحن له من ألحان الموسيقى ، إذ كان يشغل الأب نفسه بالموسيقى كما كان يشغل الابن نفسه بالقراءة ، وكان لأبيه في صوغ الألحان حس مرهف وذوق مهذب وإن لم يك طويل الباع ؛ كما كان له إلى قرض الشعر ميل ، ولـكنه سرعان ما انصرف عن الشعر إلى الموسيقى إذ أعيته معاناة قرضه من أول الأمر ...

وإنه ليعجب إذ يستعصى عليه الشـعر ، وهو يجده سهل الانقياد إلى ابنه منذ سن العاشرة ! وها هو ذا ابنـه الآن في الثانية عشرة يسمع أباه وأصحابه من نظمه ما يطربون له جميعاً وعلى الأخص أبوه ؛ وكان ينظر إليه أبوه في تلك الليالي التي يخلوان فيها من الجـد ، ويجلسان قرب الموقد نظرات ملؤها الإعجاب والمحبة ؛ ويقول لمن حوله : لقد كنت أريد أن أجعل منه كلفن ثانياً بتوجيهه الوجهة الدينية وإلحاقه بالـكنيسة ، فإذا به ينفر من هذا ويأبى إلا أن يجعل من نفسه هوميروس آخر ، ولست أحب أن أميل به إلى غير ما يريد ويهوى ، ولئن فعلت ذلك فما آتى غير العبث ، فليمض فيما هو فيه من شعر وأدب .

ويرهف الرجل أذنيه إلى ابنه إذ يتكلم أو يقرأ الشعر فتملأ نفسه الغبطة ، فلهذا الغلام الجميل المحيا ، فضلا عن ذكائه ورشاقته ، صوت حلو النبرات ، موسيقى الجرس ، وكأن مقاطع كلامه أسجاع مفصلة ؛ وإن أذني أبيه لتحسان ذلك إحساساً صادقاً ، فليس يلقى ذلك في روعه فرط محبته إياه ؛ ولا هي أمنية يخالها حقيقة كما عسى أن يتوهم الآباء من صفات ينسبونهـا لأبنائهم وإن لم يك لهم منها شيء .

واطالمـا أرهف الصبي أذنيه إلى ألحان أبيه فطرب لها قلبه واستقرت نغماتها في أعماق نفسه ؛ وإن أثر هذه الألحان ليبدو جلياً في أشعاره الأولى وهو بعد غلام ، فأخص مايميزها موسيقى حلوة تختلط بالنفس ، حتى ألفاظه فأنك تحس في كل لفظ منها سحر الموسيقى ، وتجده منذ أول شوط له قادراً على أن يختار اللفظ الذي يؤدي المعنى إلى الذهن ويطرب بوقعه وجرسه النفس .

كان أبوه مُـوَثِّقاً وتلك هي حرفته التي اكتسب منها ماله ، أما الموسيقى فـكانت هوايته ؛ وكان يكتب للناس الوثائق والعقود والظلامات وغيرها من ضروب الـكتابة ، وكان الموثق في تلك الأيام رجلا عند الناس عالي المكانة ينظر إليه عامة الناس إلى عالم خبير ، إذ لم يكن الأمر مجرد الـكتابة ، وإنمـا كان نوعا من الـكتابة يقتضي معرفة الصيغ الخاصة والعبارات التي جرى بها العرف ، وذلك كله يطلب عند الموثق وله أجره على ما يكتب ؛ وبقدر ما يتفق له من طالبي خبرته يكون كسبه ؛ ولقد مهر الرجل في عمله وبات بحرفته ينعم برغد العيش .

واحترف الموثق حرفته في لندن ؛ وقد جاءها منذ أن طرده أبوه من بيته ؛ وكان أبوه يعيش على مقربة من أكسفورد ، وكان مزارعا من ملاك الأرض يتعصب للـكاثوليكية تعصباً شديداً ، فلم يعجبه من ابنه ميله إلى البروتستنتية وإقباله على البيوريتانية وعد ذلك منه مروقا من دينه وعصياناً لأمره ، ولما لم تجد معه حيلة طرده ساخطاً عليه . فلما جاء لندن اشتغل بالتوثيق فنبه فيه شأنه ، وبنى له بيتاً تمتع فيه بهدوء الحياة ونعم بالطيبات من الرزق .

وكانت لندن غداة شخص إليها في ربيع العصر الأليزابيثي ؛ فلم تشغل الموثق چون ملتن حرفته عن الأدب والفن والعلم فأخذ من كل بطرف .

(يتبع) **الخفيف**

أوهـــام آثارية

الأستاذ صلاح الدين المنجد

العادلية أم الأشرفية ؟ — سنان المهندس أم سنان باشا الوالي ؟ — النصب التذكارية — قصير عمرة ، أهو حمام أم قصر ؟ تاريخ بناء مسجد نور الدين في الموصل .

١ — العادلية أم الأشرفية :

ذكر العلامة الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام بك فى مقاله المسمى « فى عيد المعرى » المنشور فى هذه المجلة (العدد ٦٠٠) ما نصه :

« واجتمعنا ، نحن وجماعة من علماء الشام وأدبائها أعضاء المجمع ، فى دار المجمع ، وهى المدرسة الأشرفية التى بناها الملك الأشرف الأيوبى . اه » .

قلت : دار المجمع العلمى بدمشق ، هى المدرسة العادلية ، وهى غير الأشرفية . وتنسب إلى الملك العادل سيف الدين أخى صلاح الدين . كان نور الدين أول من بدأ بها ، فمات ولم يتمها . ثم شرع الملك العادل سنة ٦١٢ هـ ببنائها ، ومات سنة ٦١٥ هـ ولم يتمها . فأتمها من بعده ابنه الملك المعظم .

وقد ذكرتها أمهات الكتب كلها باسم العادلية .

أما الأشرف الأيوبى ، فلم يبن العادلية ، وإنما بنى دار الحديث الأشرفية الجوانية ، وهى « جوار باب القلعة الشرقى ، غربى العصرونية » وما تزال قائمة . ودرس بها فى أيامها ابن الصلاح وأبو شامة وغيرهما .

وبنى الأشرف مدرسة ثانية هى دار الحديث الأشرفية البرانية وهى فى السفح شرقى المرشدية ، وغربى الأتابكية .

(وإن شئت التفصيل فانظر من المخطوطات : النعيمى فى إرشاد الطالب ، والعلموى فى مختصر النعيمى ، وبدران فى منادمة الأطلال ، وبدران فى مختصر المنادمة ، وابن طولون فى تاريخ الصالحية ، وابن كنان فى المروج السندسية . ومن المطبوعات : بالعربية : ابن كثير فى البداية والنهاية ج ١٣ ص ٦٨ ، وبالفرنسية المبانى الأيوبية بدمشق لسوفاجه ج ٢ ص ٧٦ ، ومبانى دمشق التاريخية للمؤلف نفسه ص ٦٢ ، وبالألمانية : وتزنجر وولزنجر E. 3. 5. ويمكن مراجعة سوفير فى المجلة الآسيوية : مايس وحزيران سنة ١٨٩٤ . الفصل الثالث ص ٤٢٣) .

٢ — سنان المهندس أم سنان باشا الوالى ؟

وذكر فضيلة الأستاذ الشيخ على الطنطاوى فى مقاله الممتع عن (دمشق) المنشور فى العدد ٦٥٨ من الرسالة الغراء ، أن مسجد السنانية سمى نسبة إلى سنان المهندس التركى المعروف .

قلت : المعروف أنه ينسب إلى بانيه سنان باشا ، نائب الشام والوزير الأعظم . ولى الوزارة للسلطان مرادخان ، ومات سنة (١٠٠٤) هـ . وقد بدأ بعمارة مسجده هذا سنة ٩٩٥ هـ ، وتمت عمارته سنة ٩٩٩ هـ .

أما سنان المهندس ، فهو الذى وضع تخطيط التكية السليمانية التى قامت مكان القصر الأبلق الذى بناه الملك الظاهر بيبرس فى المرج الأخضر .

(انظر للتفصيل : المنادمة لبدران ، ومختصر المنادمة له ، وذيل العلموى للعدوى ، وكتاب الباشات والقضاة لابن جمعة ، وولزنجر ووتزنجر D. 5. 8 ، ومبانى دمشق التاريخية لسوفاجه ص ٧٨ ، ٨٤) .

٣ — النصب التذكارية :

وذكر الدكتور زكى محمد حسن فى مجلة الكتاب الزاهرة فى مقال له عن قصور الأمويين أنه لا يوجد نصب تذكارية لتخليد انتصارات العرب .

قلت : فى دمشق ، فوق ذروة من ذرى قاسيون ، بناء مربع مفتوح الجوانب ، فوقه قبة . كانت من متنزهات الصالحية ، لاشرافها على الربوة ، وعلى دمشق ، اسمها قبة النصر ، بناها نائب الشام برقوق الذى قاتل سوار بك فأخذه غدراً ، ثم أقام هذه القبة سنة ٨٧٧ هـ ذكرى انتصاره ، وقد ذكرها ابن طولون .

(انظر للتفصيل : تاريخ الصالحية لابن طولون ، المروج السندسية لابن كنان ، المبانى التاريخية بدمشق ص ٥ السوفاجه ولزنجر ووتزنجر Dn lv a ويمكن مراجعة :

Sauvaget un Monument Commémoratif d.époque Mamloukç dans les environs de Damaș

٤ — قصير عمرة . أهو حمام أم قصر ؟

وأدخل الدكتور زكى محمد حسن ، فى مقاله عن قصور الأمويين ، المنوه به فى الفقرة السابقة ، أدخل قصير عمرة ، وحمام الصرخ فى عداد القصور .

أما حمام الصرخ ، فاسمه حمام ، ولا محل لدسه بين القصور ، بقى قصير عمرة ، فما هو ؟

لقد أصر الدكتور على جعله أو سرده مع القصور لأمرين :

١ — لأن علماء الآثار ساروا على ذلك .

٢ — لأن فيه ، وفى حمام الصرخ قاعات استقبال (؟)

قلت : قول الدكتور لا يطمئن إليه ، فالرجل ذو الفكر الناقد لا يجعل الحمام قصراً ولو قال ذلك أكبر العلماء الأجانب . لأن قولا كهذا يجدر التروى فيه قبل نقله . فالدراسات الآثارية الحديثة أجمعت على جعل قصير عمرة حماماً لا قصراً ، وأن أمام هذا الحمام كان قصر فتهدم واختفت معالمه . (انظر مجلة المجمع العلمى بدمشق . المجلد السابع عشر مايس حزيران سنة ٩٤٢) .

إن تخطيط قصير عمرة ، وحمام الصرخ يدل على وجود غرفة كبيرة واسعة فى كل منهما ، وقد ظن بعضهم أنها غرفة استقبال (!) ونقل الدكتور هذا الظن . أغرفة استقبال فى حمام ؟ أمر عجب . على كل أنا أشك فيما نقله الدكتور ، وأشك أن تكون غرفة استقبال ، ولن يجد الدكتور أى نص قديم صحيح يثبت ما ذهب إليه ، ويؤيد أن خليفة استقبل الناس فى حمام .

والأقرب للعقل أن تكون هذه الغرفة الواسعة للاستراحة بعد الاستحمام أو للهو واقتناص اللذة قبل الاستحمام ، أو للأمرين معا ، فالملوك لا يستقبلون فى الحمامات .

إن وجود هذه الغرفة الواسعة فى الحمام لا يجعل الحمام قصراً ، فالحمام الأموى الذى كشف فى جبل سيس فى بادية دمشق ، يشبه تخطيطه قصير عمرة والصرخ تماماً . وبرغم الغرفة الواسعة فيه لم يقل أحد إنه قصر ولا جعله فى عداد القصور (انظر : Sauvaget les ruines Omayyades du djebel Seis) .

وفى دمشق حمام اسمه حمام السروجى ، فيه غرفة واسعة تشبه تماماً غرفة قصير عمرة ، وقد لاحظ هذا ايكوشار ، ومع ذلك فلم يجعل أحد هذه الغرفة غرفة استقبال أو يجعل الحمام قصراً . وأنت واجد مثل هذا فى أغلب حمامات دمشق (انظر : Ecochard et lecoeur les Bains de Damas) .

على أن ما يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أن هذه القاعة الواسعة فى قصير عمرة ليست للاستقبال ، وجود مشاهد مثيرة على الحيطان ، لا يمكن أن يضعها خليفة فى قاعة يستقبل بها الناس .

فمن هذه المشاهد : مشهد امرأة ذات قامة فارعة نصفها الأعلى عار رفعت يديها فوق رأسها المحاط بضفائرها ؛ ومشهد آخر يمثل امرأة عارية تماماً يبدو جسمها كله وهى ترقص وتقوم بحركات تظهر فتنة جسمها . ومشهد ثالث يمثل امرأة مستلقية فى سريرها ، وضعت يدها على ذقنها وأخذت تنظر بيأس . ومشهد رابع يمثل امرأة عارية ، يخفق ثوب شفاف عند سيقانها ، وهى مستندة إلى نضد ، كفها اليسرى على ذقنها ، تحلم وترنو إلى رجل فى الطرف الثانى ، مستلق يتأملها أيضاً ويرنو إليها ، وغير ذلك . (انظر : Gaussen et Savignac Mission Archeolcgioue eu Arabie 111 Les Châteaux Arabes Qeseir Amra Haraneh et Tuba PP 87—92.

وانظر هذه المشاهد مصورة فى ملحق هذا الجزء) .

فهذه المشاهد المثيرة لا توضع إلا فى مكان يلهو الخليفة به مع قيانه قبل الاستحمام أو بعد الصيد ، وهذا أقرب للعقل لو تفكر المرء فيه .

وعلى هذا يكون إدخال قصير عمرة وحمام الصرخ فى عداد القصور غير صحيح .

٥ — تاريخ بناء مسجد نور الدين فى الموصل :

فى المقال الجيد الذى كتبه معالى الدكتور داود الجلبى عن بدر الدين لؤلؤ فى مجلة سومر (ج ١ ، م ٢) — التى تهيئ مديرية الآثار العراقية عليها — إشارة إلى تاريخ بناء مسجد نور الدين محمود بن زنكى فى الموصل .

فقد ذكر الدكتور أن المسجد كملت عمارته سنة ٥٨٦ هـ .

قلت : إن نور الدين توفى سنة ٥٦٩ هـ بدمشق . والمصادر تشير إلى أن نور الدين أمر بعمارة مسجده فى حياته ، وما أدرى إن كان المسجد كملت عمارته بعد سبع عشرة سنة من وفاة نور الدين ؟ ولعل الصواب سنة ٥٦٨ أى بتقديم الثمانية على الستة ، ولعل الدكتور يصف لنا هذا المسجد ، ويحدثنا عنه .

دمشق — صلاح الدين المنجد

٧ – الزندقة
فى عهد المهدى العباسى

للأستاذ محمد خليفة التونسى

وقد أيد زرادشت عبادة النار وشجع على زيادة بناء بيوتها ، وذهب إلى أن يزدان فى حرب دائمة مع أهرمن لتنازع السيطرة على الكون ولاسيما الإنسان ، وأن من يعمل صالحاً يساعد يزدان فى النصر على أهرمن ، ومن يعمل سوءا يساعد أهرمن على يزدان ؛ ولذا دعا إلى عمل الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان مبالغاً فى التفاؤل فادعى أن النصر سيكون أخيراً ليزدان على أهرمن فينتصر الخير على الشر ويقضى عليه ، فتبطل المتاعب والفتن ، وعندئذ ينتهى العالم . وبين أن الإنسان بعد موته يحاسب على أعماله فمن رجحت حسناته عبر الصراط بسلام فلقى يزدان وأنزله منزلا طيباً ، وأن من رجحت سيئاته وقع من الصراط فى النار وصار مستعبداً لأهرمن ، وأن من استوت حسناته وسيئاته صار إلى الأعراف ، وهذه الآراء تمثل آراء كثير من الطوائف الاسلامية منذ ظهر الاسلام إلى اليوم ، وقد ذهب إلى أن الخير هو الأصل وأن الشر طارئ ، ويؤيد ذلك الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل فقد قال : « زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن ، وكان أهلها فى خير محض ونعيم خالص ، فلما حدث أهرمن حدثت الشرور والآفات والفتن [1] » .

ويقول ماسبرو فى كتابه « تاريخ الشرق » ما خلاصته : « إن يزدان خلق كل شيء بكلمته ، واتخذ ستة أرواح لنفسه من طبقة سامية يعينونه على تدبير شؤون العالم وصونه ، وجعل لهم أرواحا دونهم يأتمرون بأمرهم وهم منتشرون فى العالم ، وحيال ذلك خلق أهرمن ستة أرواح شريرة تعادل أولئك الستة فى البطش وجعل لهم جنداً دونهم من الشياطين يطيعونهم فى أداء مايكلفهم به أهرمن من أعمال ، والقوتان دائماً فى نضال مستمر حتى ينتصر يزدان أخيراً على أهرمن وعندئذ تقوم القيامة » .

ومن تعاليمه وجوب إكثار النسل لإكثار جند يزدان فى نضاله أهرمن ووجوب إصلاح الأرض وزراعتها وتربية الحيوان والجد فى العمل ، وتحريم الصوم لأنه مضعف للقوة مثبط على العمل فى الحياة ، وتفضيل العمل على العبادة ، فمن يحرث الأرض ويبذر فيها الحب ويرويها أكرم ممن يتزلف بألف قربان أو يصلى عشرة آلاف صلاة أو يدعو عشرة آلاف دعاء .

ويزعم القلقشندى أن زرادشت : «ادعى النبوة وقال بوحدانية الله وأنه واحد لا شريك له ولا ضد ولا ند ، وأنه خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وأن الله تعالى هو الذى مزجهما لحكمة رآها فى التركيب ، وأنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، وأنه لا يزال الامتزاج حتى يغلب النور الظلمة ، ثم يخلص الخير فى عالمه وينحط الشر إلى عالمه وحينئذ تكون القيامة» . والقلقشندى يخلط صوابا بخطإ فيما زعم ، وأواخر زعمه تنقض أوائله ، ولا يصعب تمييز الخطأ من الصواب فى زعمه هذا إذا عورض بما قدمنا فى بيان مذهب زرادشت وسيرته ، فزرادشت — وإن كان يعتقد بأن أصل الكون واحد هو النور — اضطر إلى القول فى تفسير الظواهر الكونية والحياة الإنسانية بقوة أخرى ضد النور هى الظلمة ونسب إليها الشر الذى هو ضد الخير ، فهو موحد فى أصل الكون ، ولكنه ثنائى فى تفسير مايجرى فيه ، ويزدان عنده ليس فى تدبير الكون وخلقه واحداً لا شريك له ولا ضد ولا ند ، بل له شريك وضد وند هو أهرمن ، فهو يقول كالكيومرثية بأصلين. ومما أسنده القلقشندى إلى زرادشت يشبه أن يكون محاولة للتوفيق بين القول بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام ، والقول بأصلين كما جاءت بها المذاهب الفارسية . وتشبه هذه المحاولة كثيراً رأى أبى العتاهية معاصر المهدى العباسى ومادحه وصاحب جاريته عتبة التى اتهم بالزندقة من أجلها حيناً ، ولأسباب غيرها أحياناً أخرى [1] فقد كان يدين بالتوحيد لله ويرى أن للكون طبيعتين [2] على ما سنفصله فى موضعه من هذا البحث إن شاء الله ، ففى مزاعم القلقشندى هنا ظلال لمذهب أبى العتاهية ، ومرجع الخطإ فى هذا

---

(١) قارن بين ما ذكره الشهرستانى هنا وما ذهب إليه الكاتب الفرنسى جان جاك روسو من أن الناس كانوا سعداء قبل نشوء الحضارة فلما نشأت ظهر الشقاء بين الناس ، وما رتبه على ذلك من وجوب الرجوع إلى الطبيعة فى كل شيء لاستعادة السعادة المفقودة .

(١) أغانى دار الكتب ج ٤ ص ٢١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥ وانظر ترجمة أبى العتاهية فى هذا المصدر ص ١ — ١١٢ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ٦ ص ٢٥٠—٢٦١ (مطبعة السعادة سنة ١٩٣١)

وغيره عند القلقشندى وأمثاله ممن لم يفهموا هذه الأقوال على أنها رموز — إنما هو الوقوف عند ظواهرها دون التأدى إلى البواطن المستسرة وراءها ، والجهل بالدوافع التى جعلت أصحابها ينزعون إليها من حيث يشعرون ولا يشعرون ، وقياسها على غيرها من المذاهب الدينية دون مراعاة الفوارق كما أشرنا إلى ذلك قبل .

أما اتهام القلقشندى وابن الأثير[1] زرادشت بادعاء النبوة فأرى أنه غير صحيح ، فابن خلدون يقول فيه إن المجوس يزعمون نبوته ولم يقل إنه ادعى النبوة ، وهناك أبو الريحان البيرونى ، وهو أولى أن تسمع شهادته فى هذا الموضوع ، لأنه أقدم من ابن الأثير والقلقشندى[2] وقد كان فارسياً عارفا بالثقافة الفارسية واللغة الفارسية ومؤلفاً بها واطلع بنفسه على بقايا الطوائف التى تدين بالزرادشتية وغيرها فى عهده واتصل بهم ، وهو أكثر استقصاء وإحاطة بهذا الموضوع من سائر المؤرخين الذين خاضوا فيه وليس لهم ثقافته ولا استقصاؤه ولا عبقريته ولا علمه الواسع بأخبار الأمم الشرقية فى عصره وقبله واطلاعــه على حوادثها وأساطيرها وأخلاقها لسياحته فيها ومعرفته بلسانها واتصاله بها ووقوفه على كتبها وآثارها[3] . فلقد عقد هذا العالم الكبير فى كتابه « الآثار الباقية » فصلا عنوانه « القول على تواريخ المتنبئين وأممهم المخدوعين عليهم لعنة رب العالمين[4] » وذكر فيه كثيراً منهم سواء من كانوا قبل زرادشت مثل بوذاسف الذى ظهر بأرض الهند ومن كانوا بعده مثل مانى ومسيلمة ولم يعد فيهم زرادشت ، وكل ما ذكره فى هذا الفصل أن الملوك البيشداذية وبعض الملوك الكيانية ممن كان يستوطن بلخ كانوا يعظمون النيرين والكواكب وكليات العناصر ويقدسونها إلى وقت ظهور زرادشت[5] .

فزرادشت لم يدع النبوة كما نفهمها ، وما كان الفرس ليفهموها ولا ليتصوروها كما نفهمها ونتصورها نحن حين نسندها إلى الأنبياء الحقيقيين كموسى وسواه من أنبياء بنى إسرائيل وكمحمد صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين ، أو حين نفهمها ونتصورها كما ادعاها المتنبئون كمسيلمة وسجاح والأسود العنسى ، فهذه نظرة فى أساسها يهودية ، لم تصل إلى فارس إلا فى القرن الثالث الميلادى على عهد مانى كما سنذكره مع سببه عند الكلام فيه ، وأمر آخر يؤيد ذلك هو أن هذا المذهب المنسوب إلى زرادشت ليس له من فضل فيه يتفرد به إلا التنقيح والبيان إذا بالغنا فى إسناد الفضل إليه فإنه قد قام بجولة فى أنحاء البلاد الفارسية للاستطلاع ومشاورة حكماء الفرس لإصلاح العقائد التى كانت قبله مملوءة بالخرافات وتطهيرها من الشوائب[1] ، ولا يتفق الادعاء بالنبوة التى تقتضى بنزول وحى من السماء حاسم القول فى كل شىء مع هذه الرحلة والمشاورات الواسعة ، ومما يؤيد ذلك أيضا أن كيستاسف الملك الذى اعتنق الزرادشتية ، منع من تعليمها العامة[2] حين منع تعليمهم كتاب زرادشت ، فالزرادشتية كما اصطفاها زرادشت كانت تحتوى على تعاليم وآراء لا قبل للعامة بفهمها واستساغتها فهى بذلك مذهب خاص وضع كثير منه للخاصة ، وذلك لا يتفق وآثار النبوة التى يقصد بهـا الناس عامتهم وخاصتهم ، وبذلك يكون كيستاسف قد سبق كثيرا من الفلاسفة الذين أوجبوا قصر بعض المعارف على الخاصة دون العامة لأن العامة لا تطيقها ولا تفيد منها وقد تتأذى وتؤذى بهـا : من هؤلاء الفلاسفة سقراط الذى أنكر الكتاب لأنه مفتوح لكل من يقع فى يده وآثر التعليم بالاختصاص ، ومنهم الفارابى الذى حرم تعليم العلم الرفيع على السفلة ، ومنهم الغزالى الذى نادى بأن من المعارف « المضنون به على غير أهله » وألف كتابه « إلجام العوام عن علم الكلام » لأن الناس كما قال فى كتابه هذا ، وكما يعرف العارفون بعقول الناس قد خلقوا أشتاتا متفاوتين فى المدارك ، فهم كالمعادن تختلف صورة ولونا وخاصة ونفاسة ، وكذلك القلوب معادن فبعضها لمعدن النبوة ، وبعضها للولاية ، وبعضها للشهوة البهيمية والأخلاق الشيطانية ، وكل ما قدمنا ينفى ادعاء زرادشت النبوة وإن كان لا ينفى ادعاء أتباعه النبوة له ، والمرء غير مسئول إلا عما يقول ويفعل لا على ما يتقوله عليه الناس ويسندون إليه من أعمال

(١) ابن الأثير ج ١ ص ١٠ .

(٢) البيرونى (من ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ إلى رجب سنة ٤٤٨ هـ) وابن الأثير (من سنة ٥٥٥ هـ إلى سنة ٦٣٠ هـ) والقلقشندى عاش فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع .

(٣) انظر ما كتبه الأستاذ بروكلمان C Brockelmann وفيدمان E wiedemann عن البيرونى فى دائرة المعارف الاسلامية وتعليق الأستاذ محمد بك مسعود عليهما فى الترجمة العربيــة ولا سيما ما نقله عن دائرة المعارف الفرنسية الكبرى .

(٤) و (٥) الآثار الباقية ص ٢٠٤ .

(١) دائرة المعارف للبستانى : مادة زرادشت Zoroastre Zoroaster المجلد ٩ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢) ابن خلدون فى العبر : ج ٢ القسم الأول ص ١٦١ وابن الأثير فى الكامل ج ١ ص ١٠١ .

لم يأتها سواء أكانوا أصدقاء أم أعداء ، ونحن نعلم أن العظمة فى كل زمان ومكان مبتلاة من هذه الناحية بأصدقائها ابتلاءها بأعدائها والعامية لا العظمة هى المسئولة عن كل ذلك .

وقد كان مما دعا إليه زرادشت إبطال عبادة الأصنام ووجوب التوجه للشمس أو النار عند الصلاة ، وعدم تدنيس العناصر الأربعة : النار والهواء والتراب والماء ، والشفقة على الحيوان ، والتزام الفضائل فى المعاملة ، والإمتناع ما أمكن عن أكل اللحم .

نجح زرادشت فى إقناع الملك كيستاسف بالدخول فى مذهبه وكان لذلك أثره من دخول الناس فيه وإيمان الشعب به ، ولا سيما أنه لم يكشف لهم منه إلا ما تطيق عقولهم ، وبذلك صارت الزرادشتية المذهب الرسمى فى البلاط الملكى والمذهب الذى ارتضته العامة طوعا وكرها . ومن أسباب نجاح الزرادشتية أنها ولا سيما ما كشف منها للعامة لم تبعد كثيرا عما كان عليه الفرس قبله ، فأعظم جهده ينحصر — كما قدمنا — فى التنقيح والتبيين لما كان قبله ، ومكانه فى ذلك لا يزيد فى رأينا كثيرا عن مكان الفيلسوف الهندى الكبير رابندرانات تاجور فى الفلسفة الهندية البرهمية ، حين نقحها وعبر عنها كما ارتضاها عقله . وما كتاب زرادشت الذى سنتحدث به بعد ، إلا كمثل كتاب تاجور «السدهانا» ودواوينه التى نظمها وعبر فيها عن آرائه وإحساساته تجاه الكون الذى يحبه ويعد نفسه جزءا منه ، فلا نبوة ولا تهجم على المشاكل الغيبية عند زرادشت ولا تاجور ، بل فلسفة وفن مردهما الشغف بالكون . والخطأ كل الخطأ أن ننتظر من البراهمة العوام أن يحدثونا حديثا صحيحا بفلسفة البراهمة كما فهمها تاجور ، وكذلك الخطأ فى انتظارنا أن نسمع حديث عوام الفرس بفلسفة الفرس القدماء كما ارتضاها زرادشت ومن شاورهم من حكماء فارس ، وكان كيستاسف سديد الرأى حين حرم تعليم العامة كتاب زرادشت . ومن أسباب نجاح المذهب الزرادشتى أنه كان ينزع إلى التفاؤل والإقبال على الحياة ويبشر العاملين فيها بالخير وهو فى هذا وغيره بل فى شخصيته إجمالا يشبه شخصية تاجور شبها قويا . ولا ريب عندنا فى أنه بهذا التفاؤل كان بشيرا معبرا تعبيرا صادقا عن الآمال القوية الطامحة التى كانت تثقل قلوب الفرس فى ذلك الحين ، وأنه كان ممهدا وصاحب فضل كبير على النهضة السياسية التى انتهت بقيام الملك الفارسى كورش الأكبر على تخليص الفرس من عبودية الميديين ، ثم مد حدود الدولة الفارسية الناشئة إلى خليج البسفور ، وهدم الدولة الليدية فى آسيا الصغرى .

كان زرادشت بنهضته العقلية ، بشيرا وممهدا لهذه النهضة السياسية ، فقد استطاع — وهو ينقح تعاليمهم القديمة — أن يحدد لهم طريق النجاح فى الحياة ويدفعهم إلى حبها والكفاح فيها ، وركز آمالهم ومطالبهم منها ، وربما كان ذلك أيضا سببا من أسباب إقبال الملك كيستاسف المتطلع إلى المجد والسيطرة على الزرادشتية .

ولا ريب أن من أسباب نجاحه أنه عرف فى تجوله خلال البقاع الفارسية ومراجعة أعلام الفكر فيها نفسية قومه والحالة التى كانوا عليها ، والغاية التى يتوقون إليها ، كما كان لانتسابه إلى أصل ارستقراطى أثر كبير فى اتزان آرائه وذلك مما يسهل له حمل كيستاسف على مذهبه ، ولا ريب أن مما ساعده على ذلك فهم كيستاسف حالة شعبه وما يتوق إليه وما يطيق وما لا يطيق من مذهبه ، وكل أولئك مما ماز الزرادشتيين من غيرها من المذاهب التى بعدها على ما سنوضحه ، فأنالها من الذيوع والثبات وإقبال الخاصة والعامة عليها ما لم ينل غيرها .

(يتبع)

محمد خليفة التونسى

« فلسطينيات » :

الأب جريجورى . . . !

للأستاذ نجاتى صـــدقى

(كلارا هاينز) فتاة يهودية ألمانية فى الثلاثين من عمرها ... نشأت وترعرعت فى (ليبزيغ) من أعمال ألمانيا . ولما بلغت الثامنة عشرة ، أحبت (ريشارد كراوز) أحد زملائها فى مدرسة ليبزيغ الثانوية ، فعقدا النية على الزواج رغم مسيحيته ويهوديتها . غير أن هتلر استولى على الحكم — فجأة ، فانضم ريشارد إلى الشباب الهتلرى ، وفرت كلارا إلى فلسطين .

***

وبينما كانت كلارا ذات مساء فى زيارة صديقة لها فى القدس ، تعرفت إلى قسيس روسى فى الخامسة والخمسين من عمره يدعى (جريجورى فون فيخت) وينتمى إلى عائلة روسية ألمانية أرستوقراطية كان قبل سنة ١٩١٧ ضابطاً فى الجيش الروسى ، ثم فر إلى فرنسا ، واشتغل فى جريدة (الترانسيجان) ؛ وإذ حلت أزمة سنة ١٩٢٥ فى فرنسا ، رحل جريجورى إلى فلسطين ، واندمج فى الـكنيسة الروسية الأرثوذكسية ، بمثابة قس ... وكان رجلا متعلماً ذكياً ، يجيد اللغات الروسية ، والألمانية ، والفرنسية ، والانجليزية .

ودعى الأب جريجورى مرة لـكى يلقى محاضرة خاصة فى حلقة أصدقاء كلاره وصديقاتها فلبى الدعوة ، وكان موضوعه (دستويفسكى) واتجاهاته الدينية ، فأجاد فيها وأفاد ، وبرهن على أن دستويفسكى رجل صوفى يؤمن بأن الله هو المثل الأعلى للفن ، وأن روحه تكمن فى الحب ، والجمال ، والعظمة ، والعبقرية وفى كل شىء بديع ... وإن الناس — فى حبهم للفنون إنما يحبون روح الله المتجسمة فى كل جزء من أجزائها ...

طربت (كلارا) لهذه المحاضرة . وأعجبت بالمحاضر ، وأمطرته أسئلة كثيرة مستفسرة مستفهمة ... وعند الوداع سألته إذا كان يقبل إعطاءها دروساً باللغة الإنجليزية فى بيته ، فرحب الأب جريجورى بهذه الرغبة ، ووعدها ألا يتقاضى منها أجراً ، لأنه رجل زاهد فى الحياة ، لا تهمه المادة ما دامت الـكنيسة تعنى بمسكنه وقوته ... !

وهكذا أخذت كلارا تتردد على بيت الأب جريجورى فى القدس فقرأت عليه الدرس الأول والثانى بالإنجليزية ، وكانت فى هـذين الدرسين تكتفى بجلب كتابها ودفترها ، وأما الدرس الثالث فقد ذهبت الفتاة لتتلقاه على أستاذها ، وهى تحمل حقيبتين تتضمنان كل ما لديها من ألبسة ومتاع ... !

قال « زيد » احتجت فى أحد الأيام إلى ترجمة مادة إلى اللغة الإنجليزية فقيل لى : (عليك برجل روسى يدعى الأب جريجورى فهو مترجم من الطراز الأول ، فذهبت إليه وطرقت الباب ، فسمعت صوتاً من الداخل يقول (تفضل ... تفضل ...) ولما وطئت قدماى الغرفة وجدت فى ركنها الأيمن رجلا ذا لحية شقراء طويلة ، وقد استلقى على سريره . فسألنى أن أجلس وأفهمنى بأنه يشكو قرحة فى معدته ، وبعـد ثوان دخلت علينا من غرفة داخلية فتاة فتانة ، آرية الهيئة ، خرنوبية الشعر ، عسلية العينين ، ممشوقة القد ، بارزة النهدين ، وكان وجهها إذ ذاك ممتقعاً وعيناها تميلان إلى النعاس ، وشعرها مشعثاً ، وقد علت شفتيها ابتسامة مغتصبة ، فمدت إلى أنامل طويلة رقيقة ، ورحبت بى ... فقلت للرجل : ألى الشرف بالتعرف إلى ابنتكم ؟ ... ففتح جريجورى من بين شاربيه ولحيته فماً وأصدر منه ضحكة مزعجة وقال : كلا إنها ليست ابنتى ... وأخذ يدها بين راحتيه وطبع عليها قبلة ... وإنما هى سكرتيرتى ... وزوجتى ... وهى يهودية ألمانية ...

لم يصدق الزائر ما سمع ، وراح يجيل النظر فى جريجورى تارة وفى الفتاة تارة أخرى ، فاحتشدت فى رأسه أسئلة عديدة حار فى تعليلها ... أقسيس ويهودية ؟ أشيخ وصبية ؟ ... أقبح وجمال ؟ ... أموت وحياة ... إلهى ، كيف جمعت هذين الضدين ؟ وكيف وفقت بين هذين العالمين ؟

وخرج « زيد » من لدن الأب جريجورى وخرجت كلارا فى أثره تشيعه ، ولمـا بلغا الباب الخارجى قالت له : — لقد أصبحت الآن من معارفنا ... فلا تبخل علينا بزيارات أخرى ... ورمقته بنظرة عميقة ساحرة ... وأقفلت الباب ...

***

قضى « زيد » أياماً وليالي وهو يفكر في أمر ذينك المخلوقين ، وكلما حاول تناسيهما عادا إلى مخيلته فتصور الأب جريجورى بلحيته الراسبوتينية ، وهو يضحك ، ويتألم من مرضه ، وارتسم أمامه هيكل تلك المرأة الحسناء الغريبة الأطوار ، فأحس بدافع الفضول أو حب المعرفة يدفعه إلى القيام بزيارة خاصة لهما فلعله يظفر هذه المرة بما يحل له تلك الرموز والمعميات ...

وإذ بلغ «زيد» باب بيت القس شم رائحة البخور تنبعث منه ، وسمع صوت تراتيل دينية تتصاعد من أرجائه ، فدفع الباب برفق ، وأطل برأسه إلى الداخل ، فشاهد الأب جريجورى يلفظ النفس الأخير ، ومن حوله رهط من الرهبان والراهبات الروس يصلون من أجل روحه وكلارا جاثية إلى جانب سريره تذرف الدمع السخين، فالتاع لهذا المشهد وارتد إلى الشارع مضطربا مذهولا .

ومضت أيام علم الشاب العربي في أثنائها أن الأب جريجورى مات ، وأن كلارا ظلت وحيدة حزينة فزارها مرة ليعزيها ، فاستقبلته بوجه شاحب وبعينين غائرتين ووجد عندها (قواصاً) كان من معارف زوجها ، وكان يعزيها بقوله : (موش لازم يبكى) موش لازم يزعل ... مافيش جوزك ، فى ... أنا !) ... ثم خرج القواص ، وجاء رجل آخر من معارف المرحوم أيضاً فسلم عليها وعزاها . ثم قال لها : —

(أوفدنى أبونا أنسطاس كرياكوس رئيس دير (... ...) وسألنى أن أبلغك رسالة شفهية ... يقول لك أبونا إنه تأثر جداً لفقدك زوجك . وأن المرحوم كان من أصدقائه الحميمين ، ولما علم أنك غدوت وحيدة أحب أن يمد لك يد المعونة فهو يعرض عليك الإقامة فى جناح من الدير ويتعهد لك بكل ما يلزمك من ملبس ومأكل . أفلا تلبين سؤاله ؟

فأجابته كلارا وقد أسندت رأسها بين يدها : قل لرئيسك إذا كانت كلارا قد تزوجت قسيساً وتوفاه الله فذلك لا يعنى أنها مستعدة لأن تتزوج رهبان ديره ... !

وتوطدت عرى الصداقة بين « زيد » وكلارا وعلم منها الشيء الكثير عن علاقتها بذلك القس الروسى الراحل ، علم منها أنه كان يعلمها اللغة الإنجليزية ، فسرعان ما سلبها عقلها بأحاديثه الطلية وبفلسفته الصوفية ، وبآرائه الاعتزالية ، فسألته بأن تتلمذ على تعاليمه ، فسألها بأن تسكن وإياه ، فلم تمانع وانتقلت للحال إلى مسكنه .

وإذ علم رؤساء الكنيسة بفعلته هذه ثارت ثائرتهم وتساءلوا كيف يبيح قس لنفسه الزواج بفتاة يهودية ؟ فطردوه من الكنيسة وحرموه من لقب قس ومنعوا عنه كل مساعدة وألصقوا به شتى التهم ...

أما أهل الفتاة فقد حنقوا جداً على فعلتها هذه وقالوا كيف تبيح فتاة يهودية لنفسها أن ترتمى فى أحضان قسيس روسى كان فيما مضى من الأيام ضابطاً فى الجيش القيصرى ، وساهم فى أعمال الاعتداء على اليهود ، واغتصب نساءهم وقتل رجالهم ؟ ...

وبعد مضى ستة أشهر على حياتهما المشتركة أحس جريجورى بألم فى معدته وتبين له أنها قرحة ، فلزم الفراش وكانت كلارا تشتغل وتقدم له القوت ، ومرت بها أيام لم تعمل فى أثنائها ، فكانا يقتاتان بالشاى والخبز فقط ، ولما اشتد عليه المرض نقلوه إلى المستشفى وأجروا له عملية ، وتطوعت الفتاة بنقل دمها إلى جسمه فلم تنجح العملية ، ومات ذلك الشيخ الذى أحبته كلارا بكل جوانحها ...

لم يترك جريجورى لزوجته أو لخليلته من حطام هذه الدنيا سوى الوصية التالية : « أنا جريجورى فون فيخت ، قس فى الكنيسة الروسية ، أوصى بأن ينتقل كل ما فى هذا البيت من أثاث — سريران ، وخزانة ، وطاوله ، وكرسيان ، وأدوات منزلية — إلى السيدة كلارا هاينز وذلك مقابل ما قدمته لى من خدمات أثناء مرضى ! »

وجرى مرة حديث بين « زيد » وكلارا حول الدوافع التى حدت بها إلى معاشرة ذلك القس فقالت وهى تذرف الدمع بغزارة من مآقيها ، إننى أحببته لأدبه وعلمه ... إننى عشقته لخبرته وبعد نظره . لقد تهافت على عدد كبير من الشبان من أبناء جنسى ورفضتهم كلهم ، لأننى لم أبحث عن مال ... أو جمال ... أو قوة جسدية ، إننى بحثت عن رجل يشبع نهمى الروحى ، ويرضى مطامحى الأدبية والفنية ، فعثرت عليه فى نهاية الأمر فى شخص القس جريجورى .! ...

الصهيونى الأول

[مهداة إلى الأقلام النبيلة المجندة لنصرة فلسطين]

للأستاذ محمد سعيد الأفغانى

— ٢ —

في الفاجعة الكبرى : فتنة الجمل :

سقط الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان مضرجا بدمه ، ضحية المؤامرة الخطرة التى دبرها باحكام عبدالله بن سبأ مالىء الأرض فتنا وشرورا وفسادا . فضج الناس من هول الفاجعة وفداحة الخطب وجأروا يطالبون بثأر عثمان . فانبلج ذهن ابن السوداء عن خطة مضاعفة ينجو بها هو ومن معه من القصاص ، ثم يتحفز هو لإحكام مؤامرة أكبر ، وسوق هذه الجماهير نحو فاجعة أكبر وكارثة لا تذكر إلى جانبها الكارثة بعثمان رضى الله عنه .

انضم هو ومن تابعه إلى على بن أبى طالب ، حين انبرت السيدة عائشة وطلحة والزبير يؤلبون الجماهير للطلب بدم عثمان ، فكان لابد للإمام على من الخروج لرد السيدة ومن معها خشية أن ينبثق صدع جديد ، فلما وصل إلى الكوفة كان ابن السوداء وأعوانه أنشط جنده فى الدعوة لأمره ، وبذلك كانوا فى حرز حريز من الثائرين لعثمان الذين احتلوا البصرة يستعدون .

جرت بين على وأصحاب الجمل مكاتبات ثم سفراء ووفود ، وتفاهم الفريقان ، وفرح الناس بانقشاع الغمة ، وتراضى المسلمين وجمع الكلمة على المشاورة فى كل أمر ، وعلى أن يكون أول الأمور حلا أن يأخذ على فى قصاص قتلة عثمان ، ورتق هذا الفتق الذى أحدثه ابن سبأ وأعوانه فى أرض الجزيرة .

أرسل على إلى رؤساء أصحابه بما تم عليه الإجماع من اتفاق وكذلك فعل طلحة والزبير ، واتفقوا على الصلح ، وبات الناس بليلة لم يبيتوا بمثلها فرحاً وابتهاجاً بما أشرفوا عليه من العافية والسلامة . أما ابن السوداء وأصحابه فقد باتوا بشر ليلة باتوها قط، وجعلوا يتشاورون ليلتهم فى سر من الناس خشية أن يفطن أحد لما يبيتون من الشر .

المؤامرة :

أشرف الفريقان من أصحاب على وأصحاب الجمل على الصلح والإجماع ، واطمأنوا إلى يوم هنيء لما وفقهم الله إليه ، وكان فى هذا مايسر الناس جميعا ، إلا هذا الفريق الذين لايطيب لهم عيش إلا بتأريث الشر ، وهم هؤلاء السبئية المؤلبة على عثمان والوالغة فى دمه ، عرفوا أن لا مقام لهم سواء انتصر على أم خصومه . لأن علياً لن يسكت عن إقامة حد متى تم له الأمر وأمكنته الفرص، وكذلك أصحاب الجمل إن ظفروا لم يتركوا أحداً ممن شرك فى دم عثمان ؛ لقد كان هم الناس من الفريقين قتلة عثمان أينما كانوا .

جمع ابن السوداء هؤلاء النفر فى ظلمة الليل البهيم ، وكان منهم علباء بن الهيثم وعدى بن حاتم وخالد بن ملجم وسالم بن ثعلبة العبسى وشريح بن أوفى والأشتر ... ، فى عدة ممن وقعوا فى شرك الطاغية عبد الله بن سبأ فلعب بعقولهم وسيرهم وأتباعهم إلى عثمان ، جمعهم فتداولوا بينهم هذا الكلام :

« ما الرأى ؟ وهذا والله على — وهو أبصر الناس بكتاب

لقد كان المرحوم جريشا (تصغير لجريجورى ويستعمل غالباً فى التحبب) أستاذى الروحى ، وزوجى الغيور ، ووالدى الحنون !.

لم يود جريشا مفارقة هذا العالم ... وكان وهو على فراش الموت يصرخ قائلا : — لا أريد الموت ... أريد الحياة ... أريد البقاء إلى جانبك ... لدينا رسالة روحية سنؤديها معا ... فلم يجبه الله إلى سؤاله وفاضت روحه بين ذراعى .

انظر إلى ملابسه ... فها هى معلقة حيث تركها .. هاك كتبه اللاهوتية ، وسريره وعصاه ، وسترة نومه ، ثم ها هى صورة (يسوع) لا تزال حيث أحب أن تكون ... كلا ؛ إن جريشا لم يمت . إنه حى فى قلبى . وقد قطعت على نفسى عهداً بألا أعاشر رجلا سواه ! ...

فالداخل إلى بيت كلارا اليوم ، يرى فى صدره تمثالا نصفيا للقسيس جريجورى ، وقد علقت أرملته فوقه قنديلا زيتياً لا تنطفىء شعلته ، وإذا ما جاء يوم الأحد من كل أسبوع ارتدت السواد ، وابتاعت باقة من الزهور واتجهت إلى مقبرة تقع على جبل صهيون فى القدس لتبكى ذلك القس الغامض الراحل .

نجاتى صدقى

الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك — وهو يقول ما يقول[1] ولم ينفر إليه إلا قتلة عثمان والقليل من غيرهم ، فكيف به إذا شام (نظر) القوم وشاموه ، وإذا رأى قلتنا فى كثرتهم ؟ ؟ ... أنتم والله ترادون ، وما أنتم بأنجى من شىء » .

الأشتر : أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما ، وأما على فلم نعرف أمره حتى كان اليوم . ورأى الناس فينا واحد ، وإن يصطلحوا فعلى دمائنا ... فهلموا — يا قتلة عثمان — فلنتواثب على على فنلحقه بعثمان ، فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون .

ابن السوداء : بئس الرأى رأيت : أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفة بذى قار ألفان وخمسمائة ، وهذا ابن الحنظلية (القعقاع ابن عمرو) وأصحابه فى خمسة آلاف : بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلا ؛ فارقأ على ظلعك[2] .

علباء بن الهيثم : — انصرفوا بنا عنهم ودعوهم ؛ فإن قلوا كان أقوى لعدوهم عليهم ، وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم . دعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تتقون به ، وامتنعوا من الناس .

ابن السوداء : — بئس ما رأيت ، ودّ — والله — الناس أنكم على جديلة (ناحية) ولم تكونوا مع أقوام برآء ، ولو كان ذلك الذى تقول لتخطفكم كل شىء .

عدى بن حاتم : — والله ما رضيت ولا كرهت ، ولقد عجبت من تردد من تردد عن قتله فى خوض الحديث ؛ فأما إذا وقع ما وقع ونزل من الناس هذه المنزلة ، فإن لنا عتاداً من خيول وسلاح محموداً ؛ فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتم أحجمنا »

ابن السوداء : — أحسنت .

سالم بن ثعلبة : — من كان أراد فيما أتى الدنيا فإنى لم أرد ذلك ، والله لئن لقيتهم غداً لا أرجع إلى بيتى ، ولئن طال بقائى إذا أنا لاقيتهم لا يزيد على جزر جزور[3] . وأحلف بالله : إنكم لتفرقون من السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف .

ابن السوداء : — إن هذا قد قال قولا .

شريح بن أوفى : — أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ، ولا تؤخروا أمراً ينبغى لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمراً ينبغى لكم تأخيره ؛ فإنا عند الناس بشر المنازل ، فلا أدرى ما الناس صانعون بنا غداً إذا ما هم التقوا .

ثم تكلم ابن السوداء بعد أن أدلى كل بدلوه فقال :

« يا قوم ، إن عزكم فى خلطة الناس ، فصانعوهم ، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر : فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون . فأبصروا الرأى وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون[1] » .

وعلى ذلك انفض الاجتماع الأثيم ، وأحكمت الخطة .

قاتل الله ابن السوداء ، فوالله ما أراه إلا شيطاناً خلق من مارج من نار ، ما أبصره بطرق الفتنة وبث العقارب ، وما أدق توهينه تلك الطرق التى أشار بها أصحابه ، ما أفطنه إلى ضعفها وقلة غنائها ، ثم كيف آل به تقليب الرأى حتى اهتدى إلى التى ليس بعدها شر منها : قاصمة الظهر ومبيدة الأمم .

ومنذ الذى يقرأ هذه المؤامرة ، وكيف أدار أصحابها الآراء على وجوهها المختلفة ، ثم لا يرجع ذهنه بسرعة البرق إلى ما ذكره أصحاب السير عن مجلس كفار قريش فى دار الندوة : يجيلون الرأى فى محمد صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، وقد حضر اجتماعهم ذاك إبليس بهيئة شيخ نجدى ، فجعل كلما عرض أحدهم رأياً فى القضاء على دعوة محمد وهنه وأظهر فساده ، حتى أعيا القوم جميعاً بحجته ، فسألوه : ما عنده ؟ فقال : تختارون من كل قبيلة رجلا جلداً ، فيجتمعون ويضربون محمداً ضربة رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل ، ولا طاقة لبنى هاشم بقبائل العرب كافة » .

أليست تلك المؤامرة نسخة (طبق الأصل كما يقولون) عن هذا المجلس ؟

---

(١) كان على بعد أن اتفقت الكلمة خطب فى أصحابه فقال : « ألا وإنى راحل غدا فارتحلوا ، ألا لا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشىء ، وليغن السفهاء عنى أنفسهم » الطبرى ٣—٥٠٧ وهم يعنون قوله هذا وقد نزل عليهم كالصاعقة إذ كانوا يرون أنفسهم أخلص جنده وأقواه

(٢) أى : إنك ضعيف فتكلف ما تطيق وأصلح أمرك . القاموس

(٣) يريد : وقتاً بمقدار ما تنحر الذبيحة ويسلخ جلدها .

(١) خلد حديث هذه المؤامرة المؤرخ الطبرى فى تاريخه ٣/٥٠٧—٥٠٨

أليس ابن السوداء هذا إبليس بعينه ؟ وأستغفر الله ، فأين يقع منه إبليس ؟ لهو والله أبلغ نكاية بهذه الأمة من إبليس ، وأبعد أثراً فى الدس والكيد . وأخشى أن يكون الذى ظنوه إبليس ابناً من أبناء السوداوات أبطال الشر والمكر والفساد من اليهود : تنكر لهم شيخاً نجدياً إحكاماً لدسيسته .

* * *

لما كان الغلس انسل هؤلاء المؤتمرون — وما يشعر بهم جيرانهم — إلى الأمر الذى أجمعوا عليه انسلالا وعليهم ظلمة ، فخرج مضريهم إلى مضريهم ، وربعيهم إلى ربعيهم ويمانيهم إلى يمانيهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم فى وجوه أصحابهم الذين بغتوهم ، وحيرتهم الصدمة فقد كانوا باتوا على صلح تغشاهم الطمأنينة والسكينة .

فجيء الناس جيماً ، وخرج طلحة والزبير فسألا : «ماهذا ؟ » فقالوا : « طرقنا أهل الكوفة ليلا » . فقالا :

« قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ، ويستحل الحرمة ، وأنه لن يطاوعنا » .

ثم خرجا فى وجوه الناس من مضر ، فبعثا إلى الميمنة — وهم ربيعة — عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يعبئها ، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وثبتا فى القلب .

استطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم ؛ فسمع على الصوت — وكان السبئيون المتآمرون قد وضعوا طبقاً لخطتهم رجلا قريباً منه ليخبره بما يريدون — فلما قال : « ما هذا ؟ » قال ذاك الرجل :

« ما فجئنا إلا وقوم منهم قد بيتونا ، فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل ، فركبونا وثار الناس » .

فقال على لصاحب ميمنته : « ائت الميمنة » وقال لصاحب ميسرته : « ائت الميسرة » ثم قال : « قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ، ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا » .

والسبيئة مجتهدون فى إنشاب القتال لا يفترون ، والتحم الناس بعضهم ببعض ، ودارت المعركة فاصطلى بنارها الناس جوعاً ، وكاد هؤلاء الناس الذين باتوا مصطلحين على خير حال ، كادوا أن يتفانوا ، وانحسرت المعركة عن خمسة عشر ألفاً من القتلى وما لا يحصى من الجرحى ، وكان فيمن قتل رؤوس المهاجرين والأنصار وزعماء الناس وعدد جم من القراء والعلماء والمجاهدين الأولين ، وسجل التاريخ أفجع نكبة حلت بالمسلمين منذ كان للناس تاريخ .

* * *

وبعد ، فهل ألب الأمصار على عثمان إلا ابن السوداء ؟

وهل غرهم أحد بمثل ما زور لهم من كلام ترويجاً لدعوته ؟

وهل دم عثمان إلا نجاح خطة ابن السوداء هذا ؟

• وهل استطاعت الروم وفارس أن تنال من هؤلاء الفاتحين بمثل ما نال منهم ابن السوداء ؟

وهل هذه العشرات الألوف من دماء المهاجرين والأنصار من صحابة محمد صلى الله عليه وسلم وتابعيهم إلا ثمرة خبه وكيده ومكره بهذا الدين وأهله ؟

وما زال المسلمون من يومهم ذاك إلى الآن فى شرور متتالية يزجها إليهم أبناء السوداوات[1] فى مختلف الأعصار والأمصار : دساً فى دينهم وتفرقة لكلمتهم ، واستهانة بتاريخهم ، واستخفافاً بتقاليدهم ومقوماتهم ، ووضعاً من شأن لغتهم ، وإفساداً لأخلاقهم ، وتهويناً من سلامة نظمهم ، وإشادة بكل مذهب أجنبي يفكك عراهم ويأتى بنيانهم من القواعد . والغريب أننا قوم (طيبون جدا) لا نرى غضاضة فى توسيد أمورنا الصغيرة أو الكبيرة إلى الذين كانوا مطايا الاستعمار وجواسيس الأجانب ، وأجراء لكل دعوة هدامة ودولة طاغية . نفعل ذلك عن غفلة تارة وعن غرور تارة ، وقد كتب الله على هذه الأمة ألا تفطن إلى أبناء السوداوات هؤلاء ، إلا بعد أن يبلغوا منها ما أرادوا ليقضى الله أمراً كان مفعولا[1] .

ترى هل بدأنا نتعظ ؟ ؟

سعيد الأفغاني

---

(١) يصح أن تطلق (أبناء السوداوات) على الذين يقومون فى المجتمع الاسلامى ، فى ميادينه الفكرية والعلمية والتربوية والسياسية و... بمثل مهمة (الطابور الخامس) لأيامنا هذه ، تسمية لهم باسم أعظمهم شراً ودساً وكيداً : عبد الله بن سبأ ، ابن السوداء .

(٢) من كتابنا المعد للطبع (عائشة والسياسة) .

من أغانى الحرية :

صدىء القيد ! !

[إلى قطرات من دم رآها الشاعر فى ميدان قصر النيل يوم هب شباب الوادى هاتفين بالجلاء !]

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

صدىء القيد ! ألا نا رٌ من الوادى تذيبه ..
بعد ما طال على النيل أساه ولهيبه ؟!

***

صدىء القيد ، وهذى صرخة الأرواح منه
زفرات ، ودماء تنقل الأحزان عنه !

***

وهتاف زمجرت فيه أناشيد الضحايا
ظامىء للموت نشوا ن إلى خمر المنايا !

***

صدىء القيد ، وناح الغاشم الطاغى عليه
وتعايا كل ظلم وظلام فى يديه !

***

دقت الأجراس .. فلنضرب على تلك السلاسل
بيد ملت هوان الطير فى تلك الخمائل !

***

بيد للنار والنور بها رىٌّ وزاد
من دم الأحرار يغذوها ، ويسقيها الجهاد

***

غضب النيل ، وإن يغضب ، فقل: ذاب الحديد !
وانبرى كالعاصف المجنون شيخ ووليد

***

دقت الأجراس ، فلنسمع لها فى كل صدر
ولنسر صفاً لنحيا أو نحطم قيد « مصر » !

عـــزاء ... !

للأستاذ أحمد مخيمر

العزاء العزاء يا مبدع الشعـ ر عزاء لكل قلب عميد
أنا لولا مخافتى موقف الحز ن لما كنتُ باكياً من بعيد
وبكائى كتمته فى ضلوعى ثم رقرقتُ دمعه فى نشيدى
حجزته عن المسيل قوافيـ ـه ، فكانت لفيضه كالسدود
وأشد البكاء فى النفس لذعاً ما توارى عن أعين وخدود

سهَّد القلب يا غزالىّ أن بتَّ (م) تعانى مرارة التسهيد
وأن ارتبتَ فى خطوب الليالى عند ما حان باليقين السديد
وجعلتَ الحياة يأسَ سجين ورجاء الحياة شجو طريد
وعبرتَ الزمان للغيب ملهو داً ، وما كنتَ قبل بالملهود
ساخراً من حقيقة العيش والمو ت ، ومن كل كائن فى الوجود
كلما جاءك الواسون دافعـ ـتَ ابتسامات موجع مجهود
باهتات كأنما هن أكفا ن رجاء مَيْتٍ ، وبشر فقيد
بسمات من غور صمتك تنمو كورود تمون فوق اللحود
كشفتْ ما كتمتَ من لهب شب (م) لظاهُ بأضلع وكبود
وأبانت عما دفنتَ من البشـ ـر ، وعما كفنتَ من تغريد
ولقد يبسم الحزين إذا لم يلق فى الدمع غاية المستزيد ..

يا صديق العزاء لا تبعث السخـ ـر عنيداً من الزمان العنيد
إنما الوالد الكريم سيبقى خالد الذكر ، باقى التمجيد
زودته الحياة بالحكمة الأو لى ، وبالسر أيما تزويد
وأتاحت لقلبه نبعها الأسـ ـمى ، ليحظى هنيهة بالورود
خبر العيش فطرة ، ورأى الدنـ ـيا بعينى مجرب محمود
وتعالى عن الدنايا ، وصفَّى قلبه من عداوة وحقود
فهو ناهيك من صفاء وحلم وهو ناهيك من عفاف وجود
تشتكى الأرض منه من طول ماعفـ ـر فى الترب وجهه بالسجود
وتظل الطيور تسأل عن مُلْـ ـقٍ بمنقارهن حب الحصيد
فطرة ذلك الحنان ، وهذا الـ ـعطف فى ذلك الأبىّ المجيد

العزاء العزاء يا مبدع الشعـ ر عزاء لكل قلب عميد
وإذا كانت الحياة إلى خلـ ـدٍ ، فإن البكاء غير حميد
شهد الله أن والدك البر (م) رجاء الحياة للتخليد
غاب فى رحلة إلى العالم الأسـ ـمى بوادى فردوسه المفقود



إلى الأستاذ محمود محمد شاكر :

سلام عليك . وبعد فقد قرأت ردك على فاستغربته ، فإنك ذكرت الآية الشريفة « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » واتخذت منها شاهداً على صحة عبارتك وعلى غلط رأيي فيها . والحق أن هذه الآية دليل على بطلان قولك ودليل على صحة قولى . ففيها عبارة (والسلام على) معرفة بأل لأنها تشير إلى (سلام عليه) فى آية قبلها هى « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » . قال الزمخشرى فى الكشاف عن هذه العبارة المتصلة بأل : « قيل أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك : جاءنا رجل فكان من فعل الرجل كذا . والمعنى ذلك السلام الموجه إلى يحيى فى المواطن الثلاثة موجه إلى » . وإن لم ترض بهذا أيها الأستاذ فانظر إلى تعقيب الزمخشرى عليه ، قال : « والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً بالأصل وباللعنة على متهمى مريم وأعدائها من اليهود ، وتحقيقه أن اللام للجنس فإذا قال : وجنس السلام على خاصة ، فقد عرض بأن ضده عليكم . ونظيره قوله تعالى : والسلام على من اتبع الهدى ، يعنى أن العذاب على من كذب وتولى »

وبديهى أيها الأستاذ أنك لا تعنى بقولك (السلام عليكم) فى بدء كتابك الأول تعريضاً بأحد إذ لا حاجة للتعريض .

ولو أعدت النظر فى تعقيب الزمخشرى لوجدت رداً على شاهدك الآخر فى الآية الشريفة : « فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى »

وبعد أن أظهرت لك الحقيقة بآيتين تناولتهما أنت من القرآن الكريم للرد على ، أقول :

إنك دللت على صحة عبارتك بالاستشهاد بصحيح البخارى ومسند ابن حنبل ، وفاتك أن الحديث لا يستشهد به أهل اللغة والنحو لأن كثيراً منه مروى بالمعنى وفى خزانة الأدب للبغدادى أقوال للعلماء كثيرة تؤيد ذلك . قال السيوطى : « فإن غالب الأحاديث مروى بالمعنى ، وقد تداولتها الأعاجم والمولدون قبل تدوينها فرووها بما أدت إليه عبارتهم فزادوا ونقصوا وقدموا وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ — ج ١ ص ٦ »

وقال سفيان الثورى وهو أحد رواة الحديث المعول عليهم « إن قلت لكم إنى أحدثكم كما سمعت فلا تصدقونى إنما هو المعنى ج ١ ص ٦ » . وجاء فى الكتاب نفسه كلام لأبى حيان يفيد أن أئمة البصريين والكوفيين كالخليل وسيبويه والكسائى والفراء وغيرهم لم يستشهدوا بالحديث ، وعلل ذلك بما تقدم من العلل .

وأظنك الآن أيها الأستاذ توافقنى على إغلاق باب الاستشهاد بالحديث .

أما أهل القبلة فتشهدهم بعد الصلاة مختلف فيه فمنهم من يقول (سلام عليك ...) ومنهم من يقول (السلام عليك ...) وحبذا لو أطلعتنى على نص يوثق به يشير إلى أنهم منذ زمن الرسول (ص) يقولون فى التشهد « السلام عليك أيها النبى . »

وأما قول الأخفش الذى اتخذت منه حجة لقولك فلا يعتد به لأنك لم تذكر المصدر الذى نقلت عنه .

وحسبك أيها الأستاذ أن تجد القاعدة مختصرة فى هذا البيت القديم :

سلام الله يامطر عليها   وليس عليك يامطر السلام

والحق أنه لم يكن ينبغى لى أن آتيك بشواهد من آى الذكر الحكيم أو الشعر لأنى لست بصدد ذلك .

والمسألة هى أن العرف الجارى بين الكتاب القدامى أن يبدأوا كتبهم بـ (سلام عليك أو عليكم) ويختموها بـ (السلام عليك أو عليكم) . وحسبى أن أثبت كلام ابن قتيبة الذى تحاملت عليه فى ردك على ، قال : « وتكتب فى صدر الكتاب : سلام عليك وفى آخره : السلام عليك ، لأن الشىء إذا بدىء بذكره كان نكرة فإذا أعدته صار معرفة . وكذا كل شىء نكرة حتى يعرف بما عرف ، تقول : مر بنا رجل . ثم تقول : رأيت الرجل قد رجع . وتقول : رأيته قد رجع . فكذلك لما صرت إلى آخر الكتاب وقد جرى فى أوله ذكر السلام عرفته أنه ذلك السلام

المتقدم - أدب الكاتب ص ٢٥٤ » .

وحسبي أن أعزز قول ابن قتيبة بالأدلة ، فتفضل بالاطلاع على قسم من الكتب للعصر الإسلامي .

كتب الرسول (ص) إلى المقوقس ما يأتي :

« من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام .. الخ — فتوح مصر لابن عبد الحكم ص٤٢ ،والطبري ج ٣ ص ٢٨٧ »

وكتب الرسول (ص) إلى كسرى فارس :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله . الخ صبح الأعشى ص ٢٧٦ » وكتب أبو بكر (ر) للمرتدين :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا عامة أو خاصة أقام على إسلامه أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى.. الخ ..الطبري ج ٣ ص ٢٧٦ » .

ومعلوم أن هذه الكتب مدونة ويستشهد بها اللغويون والنحاة . . .

واعلم ياسيدي أني — كما تقول — « قنعت لك ولنفسي وللناس بالنقل مجرداً ... » والسلام عليك .

بغداد

صبحي البصام

يا ابن أمي :

قرأت في الرسالة المباركة في العدد الأخير : قصيدة للمرحوم أبي القاسم الشابي تحت عنوان (يا ابن أمي) فدهشت لتلك القصيدة العصماء يجيء فيها هذا التعبير الذي تأباه قواعد اللغة .

ذلك أن القاعدة التي ذكرتها كتب اللغة لاستعمال هذه العبارة هي : إذا أضيف المنادى إلى مضاف إلى ياء المتكلم وجب إثبات الياء إلا في ابن أم وابن عم فتحذف الياء منهما وجوبا لكثرة الاستعمال . وتكسر الميم أو تفتح فتقول يا ابن أم ويا ابن عم بفتح الميم وكسرها .

قال الله تعالى (قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي)

وقد قرر ابن مالك هذه القاعدة بقوله :

وفتح أو كسر وحذف اليا استمر في يا ابن أم يا ابن عم لا مفر

محمد عبد المقصود هيكل

إلى الأستاذ محمود الخفيف :

لاحظت أنكم جريتم في مقاليكم بالعددين الأخيرين من الرسالة على كتابة كلمتي « بيوريتان » و « البيوريتانية » كما هما . وأرى أنه كان يحسن أن تستخدموا بدلا منهما تعبير « الطهريين » لأن هذه ترجمة للكلمة الإنجليزية تؤدي بالضبط المعنى المقصود ، فضلا عن أنها سهلة فصيحة لا تعقيد فيها .

فلعلكم ترون رأيي والسلام .

وديع فلسطين

نسبة بيت :

نسب الأستاذ العقاد في مقاله عن « حمام الحرم » هذا البيت:

يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

إلى الطائي وهو بالطبع يعني أبا تمام ، والمعروف أن البيت لبشار بن برد من قصيدة يمدح بها عقبة بن سلم ، ويقول فيها :

إنما لذة الجواد ابن سلم في عطاء ، ومركب للقاء

وأكبر الظن أن هذا الخطأ في النسبة وقع من أستاذنا الكبير سهواً كما هو ظاهر .

محمد أحمد عبد

في عالم الكتب :

حـــــواء الخالدة

[للأستاذ محمود تيمور بك]

بقلم الأستاذ وديع فلسطين

أفردت مجلة « الكتاب » فى عدد يناير الماضى فصلا مسهبا عن التآليف التى ظهرت فى عام ١٩٤٥ سردت فيه هذه الكتب بعدما بوبتها ونسقتها وفقاً لموضوعاتها . وقد استوقف نظرى آنذاك أن المسرحية لم تظفر من هذا الحصاد الوافر بأكثر من أربعة كتب هى : مسرحيتان ترجمهما الأستاذ محمد عوض ابرهيم بك عن شكسبير وهما : « الليلة الثانية عشرة » و « أنطونى وكليوباترة » ومسرحية شعرية للأستاذ عامر محمد بحيرى عن « خالد بن الوليد » ومسرحية ترجمتها عن الكاتب السويدى أوجست سترندبرج وهى « الأب » . ودفعنى هذا إلى السؤال عن سبب تخلف الإنتاج المسرحى فى مصر برغم أن المسرح أصبح من دعائم الثقافة ووسائل التهذيب ، فضلا عن التسلية . فجاء الجواب من صديق من أصحاب دور النشر بأن المسرحيات لا تصادف إقبالا من القراء، وأنهم يصدفون عنها ويولون عنايتهم شطر الأقاصيص .

وإنه لأمر يدعو إلى العجب حقاً ، لأن المسرحية فى الأدب الغربى لها مقام ممتاز ، بل إنها كثيراً ما تتقدم على القصة . وما ذلك إلا لأن المسرحيات عامة — ولا سيما الأدبية منها — تعتمد إلى حد كبير على جودة الحوار وقوته ، بينما الأقاصيص لا تعلق مثل هذا الشأن على الحوار لأن الوصف يغلب فى معظم الأحيان على عنصر الحوار فيها .

ومما يدعو إلى الدهشة كذلك أن غالبية الكتاب العظام فى العالم كتبوا المسرحية أمثال شكسبير (الذى اقتصر على كتابة هذا اللون من الفن) وإبسن Ibsen وتشيكوف وجوركى وشنتزلر وجورج برنرد شو ، أما الأدب العربى فهو معرض عن هذا الفن لأسباب قد يكون منها المحافظة على القديم . والمعروف أن العرب الأقدمين لم يكتبوا المسرحية ، وأن المرحوم أحمد شوقى بك كان من رواد هذا الضرب من الأدب بما أنتجه من مسرحياته الشعرية : « مصرع كليوباترا » و « مجنون ليلى » و « قمبيز » ... الخ

لهذه الأسباب مجتمعة ، سرنا أن أقدم الأستاذ محمود تيمور بك على كتابة المسرحية الطويلة — إذا جاز أن يكون فى المسرحيات طويل وقصير كالقصص — فهو ولا شك يمهد السبيل لازدهار هذا الفن الذى لم يرتد مجاهله من كتاب الضاد سوى القليلين . وهؤلاء لم يكتبوا للأدب بقدر ما كتبوا للتسلية ، مما أفضى إلى هزال حركة التمثيل المسرحى ، لا فى مصر وحدها ، بل فى الشرق قاطبة .

ومسرحية « حواء الخالدة » التى نحن الآن بصددها ، قطعة من حياة العرب ، بطلاها عنترة العبسى وعبلة بنت مالك .

أحب عنترة عبلة فتدللت وتمنعت بعدما حملته المشاق والصعاب وسخرته فى معابثاتها ومغازلاتها ليقنص لها أسداً ويجىء إليها بجلده ، ولما انصرف عنها أحبته وأخذت تتسمع أنباءه وانطوت على نفسها يوم أنبأها رسول كاذب أن عنترة لقى حتفه . ولكن عنترة لم يمت وعاد إلى بلده بعد غربته ، ثريًا تعلم كيف يجرد الجيوش ويستل الحسام ، وينازل الأعداء ، ويحترب الحروب . عاد وقد غادرته ليونته وطراوته وتدلهه فى الحب ، وأصبح رجلا شديد المراس معتزاً بنفسه ، يأبى أن يسأل أحداً أمراً ولو كان هذا الأمر حبيباً إلى قلبه .

وكأنما أرادت عبلة أن تسخر منه ، فرضيت بالزواج من أمير ولكن عنترة بارز ذاك الأمير وبذه وسبى عبلة وشد بها الرحال .

هذا محصل « حواء الخالدة » ، صور تيمور فيها تثنى المرأة ودلالها ، إعراضها وإقبالها ، غدرها وغيرتها ، تشفيها ومخاتلتها ، حبها وبغضها ، طمعها وطموحها ، حشمتها وتبذلها . وجعل تيمور بك يوجه عنايته القصوى إلى لغة الحوار حتى إن المرء ليحتاج أحياناً إلى الرجوع إلى المعجم ليقف على معانى بعض الكلمات من أمثال : « الطباهج الرشراش » و « اللوزبنج » و « النياق العصفورية » وسواها .

ولعل المؤلف اضطر إلى الالتجاء إلى هذه الكلمات وأترابها لأنه تخير موضوعا عربياً تدور حوادثه فى بيداء العرب ، وهم حريصون على الفصاحة والعناية باللغة ، لأنها تجارتهم الوحيدة التى يتعاملون بها فى الأسواق .

وحسبنا من المؤلف أنه ولج هذا الباب المسرحى ، وسلك هذا الطريق غير المطروق ، وأنه حاول فيه محاولة موفقة سبقتها منه محاولات مماثلة . ولسنا نزعم أن تيموراً بلغ فى « حواء الخالدة » حد الكمال ، وإنما يمكن القول إنه يسير فى هذا الإتجاه .



قصة ألبانية :

المهـــد الذهبي

[مهداة إلى الأستاذ الكبير كامل كيلاني]

نقلها الأديبان :

وهبي اسماعيل حق وابراهيم خير الله

— ٢ —

... يلعب الحظ أدواراً عجيبة فى حياة الإنسان ؛ فبينما هو يستيقظ من نومه مبكراً ليباشر كعادته عمله فى غير رغبة ولا اشتياق ، وهو لا يفكر إلا أن يومه سيمضى كأمسه فى عمل آلى لا يشعر معه بلذة روحية ولا بقيمة ذاتية ، وإذا بيد القدر تمتد إلى مجرى حياته ، فتحولها إلى ناحية مضادة كلها نعيم وكلها سرور ... إن نقطة التحول فى حياتى بدأت منذ زارنى القروى اليوم ، فكأنى به قد نزل من السماء ليهيئ لى حياة أهنأ وأسعد ، حياة تلمع بأشعة الذهب الذى يمكن تبديله بأرقام ليست لها نهاية من النقود ...

حقاً ، إن بيرام نقطة الفصل فى حياتى بين منطقتين : منطقة الماضى الصامت العابس ، ومنطقة المستقبل الزاهر الباسم ، وعلى ذلك فإننى سأمتع النفس بكل أنواع المتع ما دمت أمتلك نقوداً بهذه الكثرة ... سأجوب كل البقاع ، وأشترى يختاً كبيراً أستخدمه فى رحلاتى ... إن والدى سيدهش عند ما يطلع على الموضوع . ترى هل فى الكهف حجر لم يرها بيرام ؟ وكم يكون عدد الكراسى ؟ وهل كلها ذهب ؟ إن العالم كله ستعتريه موجة من الاستغراب وسيقول : من أين لهذا الشيطان بكل هذا المال ؟ لعل بيرام لا يتحدث إلى أحد فى هذا الشأن . كان يجب أن أكافئه بمبلغ كبير ، عشرة جنيهات على الأقل ، ليكون ذلك تشجيعاً له على السكوت ، وإغراء لوالدته على تركه حراً ... ترى من هذا الذى هو معه على موعد ؟ كم سينال الاستغراب من صديقى الوفى الأديب « محمود » ؟ سأهدى إليه مكتبة قيمة تقديراً لإخلاصه . سأجهز له مكتباً فخماً . لا أدرى إن كان من المستحسن أن أقص عليه القصة ، أم أترك الظروف تتولى عنى ذلك ؟ وإن كنت على يقين أنه يستطيع أن يرشدنى إلى ما يحسن عمله ، كما يستطيع أن يعرف عهود تلك الآثار وقيمتها التاريخية ؛ فهو أكثر منى ثقافة ، وأطول تجربة ، وأعظم خبرة ، وهو فوق ذلك مدرس نابه ، وأديب ذائع الصيت ؛ ولكن ... كم يكفيه من النقود للقيام بهذه المهمة ؟ إنه يكاد يجن من فرط السرور عند ما يقف على قيمة الكنوز المادية والتاريخية ! على كل حال سأذهب إليه الساعة لأسرد له حكايتى ، أنا فى مسيس الحاجة إلى مخلص يأخذ بيدى إلى الطريق السوى ، فهذا عمل شاق ومن غير المعقول أن أقوم به وحدى !

هذه هى بعض الخواطر التى كانت تمر بمخيلة فريد وهو يقطع الحجرة بعد أن غادره القروى على أن يعود إليه فى المساء ، ولم يقطع عليه سلسلة هذه الأفكار إلا دخول الكاتب يسأله عن رسائل اليوم ، وليستأذنه فى الانصراف !

حرك فريد يديه حركة عصبية ، ولعن فى نفسه المراسلات والمكاتبات ، ثم أذن للكاتب أن ينصرف . ودعا الخادم وأمره أن يخبر الطاهى أن بعض الأصدقاء سيتناولون العشاء معه هنا فى الساعة الخامسة ، وأنه يود أن يكون الطعام فخماً . وتناول عصاه وخرج ميمماً صوب « الليسيه » ليقابل صديقه « محموداً » ، فقد وطد العزم على أن يستعين بنصائحه ويستفيد من إرشاداته . ولقد كانت السماء ملبدة بالغيوم ، والمطر لا يكف عن الانهمار ، والطريق بما تجمع فيه من ماء ووحل يتعب المارة ويلوث ملابسهم ؛ ولكن فريداً كان عن كل ذلك فى شغل ، فهو لا يبالى ، بل لا يشعر : أفى جفاف يمشى أم فى وحل . فقد طرأت عليه فكرة سيطرت على كل حواسه وصرفته عن كل ما يحيط به ، هذه الفكرة كانت فى مبدئها فرضاً ، ثم لم تلبث أن صارت فى قوة الحقيقة الواقعة عنده ، وهى لا يبعد أن تكون الأزيار مملوءة بنقود ذهبية قديمة ، ثم غطيت بهذا الغبار حتى لا تمتد إليها يد عابثة ... أربعة عشر زيراً ... يا لها من ثروة طائلة ... سأهرب الأشياء

ذات القيمة فى أسرع وقت إلى الخارج ، وسأضع النقود فى بنوك سويسرا وانجلترا ، لأنها بنوك مضمونة ... وإلى هنا كان قد وصل إلى المدرسة وعلم أنه قد بقى عشر دقائق على خروج التلاميذ ، فرأى أن ينتظر فى الحديقة بعيداً عن الناس ، وليخلو إلى نفسه ويواصل حديثها . وما إن أخذ موضعه منها حتى تساءل: ترى ما هى اللغة التى نقشت على اللوحات ؟ أهى اللاتينية أم اليونانية القديمة ؟ كم من المكتشفات ستحتل الميدان فى الأيام القليلة المقبلة ؟ سأترك فخر الاكتشاف لزميلى وصديقى « محمود » إنى واثق أنه سيعجب كثيراً حينما أشرح له مقابلتى لبيرام ...

وفى هذه اللحظة دوى فى الفضاء صوت المؤذن منبعثاً من مئذنة مسجد « فوش كلس » يملأ الأرجاء : « الله أكبر ... الله أكبر ! » دعوة يلبيها المؤمنون الصادقون الذين امتلأت قلوبهم من خشية الله ، وترطبت ألسنتهم بذكر الله ... فيسرعون لصلاة الظهر شكراً لله على نعمائه ، وابتهالا إليه أن يوفقهم لرضائه ... فى نفس الوقت دقت أجراس الكنائس القريبة تستحث أتباع المسيح عليه السلام أن يبادروا إليها للتبرك ! وفى هذه اللحظة أيضاً بدأ الطلبة يخرجون من المدرسة زرافات ووحداناً مسرعين إلى بيوتهم لتناول الغداء ، وكلهم يتأبط كتبه وأدواته ؛ فرأى فريد صديقه محموداً خارجاً مع زميل له ، فناداه ، فاستأذن صديقه ولحق بفريد ... وبعد أن تصافحا قال له: لماذا أنت هنا يا فريد ولست فى المتجر؟

— جئت آخذك لنتناول الغداء معاً ، ولأقفك على موضوع هام

— ما ذا ؟ هل تمت خطوبتك ؟

— لا ! ولكن لدى أخبار فى نهاية الغرابة . فتعال معى إلى المنزل

— لا أستطيع ؛ فإنى سأعود بعد الظهر لإتمام دروسى .

— إنك عندما تعرف الخبر ستنسى الدروس ولن تفكر فيها ، بل ستلعنها ولا تذهب إليها .

— ما دمت تقول ذلك فسأجىء معك وأفوض أمرى إلى الله . ثم أخذا طريقهما إلى منزل فريد الذى بدأ يقول لصديقه : لا شك يا محمود أننا سندهش « أشقودراه » بل العالم بأسره .

— لست أفهم هذه الألغاز يا عزيزى فأرجو أن تفصح .

— لقد عثرت على كنز ! فنظر إليه محمود فى استغراب وقال : بربك قل الصدق ما ذا بك اليوم ؟ فقد تغير فيك كل شىء .

أؤكد لك أنى وجدت كنزا .

— بالله لا تهزأ بى ، أأنت الذى وجدته ؟

— لا ! ولكن قرويا جاءنى فى صباح اليوم وأفضى إلى أنه عثر عليه مصادفة ، وشرح له فريد ما كان من بيرام فتعجب محمود وقال : وهل وقع كلام القروى منك موقع الصدق ؟

— ولم لا ؟ ومن أين لقروى مثله خيال يحسن سبك مثل هذا الموضوع بمثل هذه المهارة ؟ إن من يفعل ذلك لا بد وأن يكون قد قرأ على أقل تقدير عجائب الكشف عن آثار « توت عنخ آمون » ذلكم الملك المصرى القديم . ولكن أنى لبيرام وهو الأمى الذى لا يقرأ أن يطلع على ذلك ويخترع مثله ؟ وإنك ستسمع منه بأذنيك وستحكم كما حكمت أنا — استنادا على طيبته — بصدق قوله .

حرك محمود رأسه دهشة واستغرابا وكانا قد وصلا إلى البيت واستدارا حول المائدة ، وأخذ كل منهما يتكلم بهواه ويدلل لرأيه ، قال فريد : إن قيمة الكنز المادية — وإن كانت عظيمة — إلا أنها ليست بشىء يذكر بجانب قيمته التاريخية .

— لا زلت أشك فمن المستحيل أن تكون هذه حقيقة ؛ إن الرجل قد رأى كل هذا فى المنام .

— فى بعض اللحظات كان يعتريني مثل هذا الشك ، ولكن نظرات القروى ، وملامح وجهه ، وسذاجة حديثه ، جعلنى أعتقد صدق خبره ، وستجعلك كل هذه الأشياء تعتقد مثلما اعتقدت .

— كل شىء ممكن فى هذه الدنيا !

— ألا تكون هذه الآثار يا محمود من زمن أجدادنا « الإلير » ؟

— لا أعتقد ، فإن التاريخ لم يحدث عنهم أنهم برعوا فى النقش على الأحجار وعمل التماثيل ، وإن كان غير بعيد أن يكونوا قد أخذوا هذه الآثار وهذه التماثيل من معابد يونانية ؛ فقد ذكر التاريخ أنهم أغاروا على شواطىء بحر اليونان كثيراً . وقد يكون الملك « غنس » قد خبأ هذه الكنوز قبل معركته الأخيرة مع الرومان التى أسر فيها .

— لو كان هذا الفرض صحيحاً لكان كشفاً عظيما جداً . ونسى محمود أنه يأكل من فرط سروره بهذا الفرض ، بل نسى أنه فرض وتخيله حقيقة ناصعة ، وأنه أول من اهتدى إليها فذاع صيته وخلد اسمه فى صفحة كبار المكتشفين فقد أزاح الستار عن فترة من تاريخ ألبانيا كانت فى زوايا الجهل ، فانتصب واقفاً والشركة لا زالت فى يده وأخذ يخطو فى الحجرة إلى نهايتها ثم يعود ببطء

ثم كف عن المشى فجأة وقال بصوت ضعيف : لعل الحروف المنقوشة فى الرخام تلق لنا ضوءاً على اللغة الألبانية ، ولعلنا نجد لهذه المسألة أدلة « إليرية » وإن كان الشك لا زال يساورنى . وكنا نستطيع أن نحكم على أفكار « هاهن »[1] الذى يقول : إن أصل اللغة لهجة « البلازغ » وكذلك رأى « ماير »[2] الذى يقول : إن أصلها من لهجة « إليرية » ... مستحيل أن يكون هذا حقيقة ، وإلا كانت سعادة لا تعدلها فى الدنيا سعادة ، وكان فتحاً جديداً فى تاريخنا القومى العظيم .

لم يفهم فريد من كلام صديقه شيئاً فقد كان مشغولا بتقدير الأرقام الكثيرة التى يمكن تبديل الكنوز بها من النقود وكيفية إنفاقها . لكنه نادى محموداً وقال له : إن شهرتى – كصياد – ذائعة فى « أشقودراه » فإذا حملت بندقيتى ورافقنى كلبى واتجهت خارج المدينة نحو الغابة ، فإن الأنظار لا تلتفت إلىّ ، وبذلك أستطيع أن أرى بنفسى محتويات الكهف على أن أكون مع بيرام على موعد ، ولكن! بعد أن أطلع على الأشياء التى سيأتينيها الليلة

ترك محمود دروسه بعد الظهر وبقى مع فريد فى حجرة الطعام يشربان القهوة بعد القهوة ، ويدخنان « السيجارة » بعد « السيجارة » ينتظران بصبر قليل وشوق كثير عودة بيرام ، وكانا كلما سمعا طرقاً بالباب قفزا من مقعديهما يستبينان الطارق ، وقبيل الساعة الخامسة وصل بيرام وبعد أن تصافحوا قال فريد لبيرام مشيراً إلى محمود:

— الأستاذ محمود ، صديق مخلص ، ومدرس نابه ، يحمل أرفع الشهادات ، ويكتب فى أرقى الصحف والمجلات . وإننا فى أشد الاحتياج إليه ليقفنا على قيمة الكنوز التاريخية . فقال القروى فى غير استغراب ، تشرفنا يا سيد محمود ؛ ثم التفت إلى فريد وقال : أنت أعرف بما يفيدنا وبمن يفيدنا فى هذه المهمة ، وقد اعتمدت بعد الله عليك فتصرف أنت حسبما تريد . فقال فريد : ولكن لينمحى كل أثر فى نفس محمود يود أن يسمع منك وصفاً مجملا لكيفية عثورك على الكهف من الوقت الذى وقعت فيه فأسك على البلاط لأول مرة ، فشرع القروى يقص عليهما فى هدوء ما سبق أن تحدث به إلى فريد فى الصباح . وقد حاول محمود أن يتأكد إن كان صادقاً حقاً ، فأمطره وابلا من الأسئلة التفصيلية كان يجيب بيرام عليها بمهارة حملت محموداً على الاعتقاد بأن ما يقوله حق لا مرية فيه .

كانت المائدة قد أعدت فأخذوا يتناولون الطعام ونظر فريد ومحمود لم يرفعا عن بيرام الذى كان يأكل فى غير نهم ولا شره وهو يجيب على ما يوجه إليه فى هدوء ورزانة . وبعد أن انتهوا من طعامهم شربوا جميعاً القهوة واستأذن بيرام فى الانصراف ، وقبل أن يأذنا له أكدا عليه ألا يتأخر عن المجىء بالعينات الليلة مهما تكبد من مشقة. وذكره فريد بما يلزم الإتيان به فطمأنهما بيرام بقوله : لكما ما تريدان . والتفت إلى فريد وقال : سآتى بما أمرت به ياسيدى. ثم مد يده مصافحا ، فاستوقفه فريد وأسر إليه : هل أنت فى حاجة إلى نقود أخرى ؟ فقال بيرام بصوت مسموع — لا يا سيدى لا يلزمنى شىء ! ما ذا أفعل بها ؟ ثم خرج .

ولما عاد فريد إلى مجلسه نظر إلى محمود يستطلع رأيه فى إجابات القروى وكل حديثه ، وسأله عن الأثر الذى تركته مقابلته له . فقال محمود : ألا تعتقد معى أننا لو أدمنا التفكير فى هذه المسألة لذهبت عقولنا من فرط السرور ؟ وأى إنسان يعتوره أدنى شك فى كلام هذا الرجل الساذج ؟

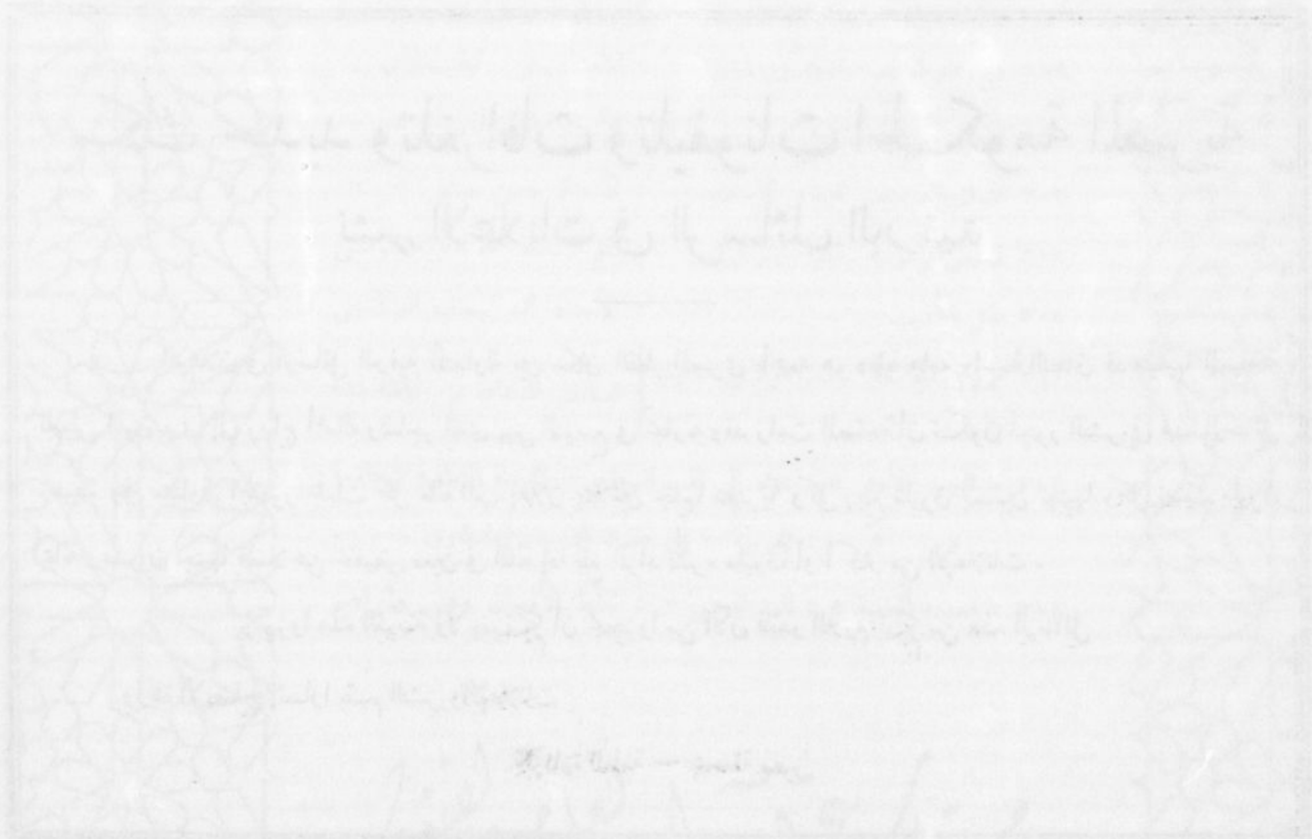
وبينما هما منهمكان فى حديثهما هذا وإذا بباب الحجرة يفتح ويدخل السيد عفت والدفريد ويحيهما تحية المساء. ثم صافح صديق ابنه والتفت إلى فريد وقال : لقد انتظرتك فى المتجر فلم لم تجىء ؟ فقال فريد فى سرور :

— شغلنى عن المجىء أمر مهم سيدر علينا مالا كبيرا ، فرفع الرجل عينيه وتأمل ابنه مليا فى دهشة واستغراب كأنه يستوضحه فقال له فريد : سأقص عليك حكاية غريبة . فأخذ الرجل يجيل طرفه فى وجهى الشابين اللذين كانت تلمع عيناهما سرورا ؛ فلم يشأ فريد أن يطيل حيرته فأخبره بمجىء القروى فى الصباح وما كان منه ، وأنه كان معهما منذ قليل ، وقد فارقهما على أن يعود حاملا عينة مما وجد ...

تعجب السيد عفت مما سمع ، ولم يصدق بادىء ذى بدء لكنه أذعن أخيرا عندما أكد له محمود الخبر وأنه ناقش بيرام كثيرا ، ووجه إليه أسئلة عديدة وأن بيرام كان يجيب دون تردد ولا تلعثم ، ثم هو فوق ذلك أكبر من أن تحوم حوله الشبهات ، فهو سليم القلب ، طيب النفس ، نقى الضمير ... ومع إذعان السيد عفت لم يبد عليه أن هذا الخبر سره كثيرا كما فعل الشابان فقد جلسوا معا وقتا غير قصير تدور أحاديثهم حول الموضوع ، فلما لمس الشابان أنه لا يشاركهما الفرح استأذناه فى الخروج .

(١ ، ٢) هاهن ومابر . عالمان ألمانيان قاما برحلات علمية كثيرة إلى ألبانيا ولهما مؤلفات قيمة عن أصل اللغة الألبانية .





العدد ٦٦٣ — الاثنين ١٨ مارس ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

لجنة النشر للجامعين

« هذه اللجنة ظاهرة أخرى من ظواهر ما يمكن أن نسميه عصر الإحياء »

« البلاغ »

أصدرت من مايو ٤٣ إلى مايو ٤٦

			م
أحمس	: عبد الحميد جودة السحار	نقد	١٠
* زادوبيس	: نجيب محفوظ	»	١٠
أبوذر الغفارى	: عبد الحميد جودة السحار	»	١٥
قنابل	: محمود بك تيمور	»	١٥
* أخناتون ونفرتيتى	: على أحمد باكثير	»	١٠
ثلاثة رجال وامرأة	: ابرهيم المازنى		٢٠
أقاصيص	: لنخبة من الأساتذة	»	١٥
* سلامة القس	: على أحمد باكثير	طبعة ثانية	١٥
ويك عنتر	: عادل كامل	نقد	١٥
ع الماشى	: ابرهيم المازنى		١٥
حديقة أبى العلاء	: كامل كيلانى		١٥
* كفاح طيبة	: نجيب محفوظ		١٥
خريف امرأة	: ابرهيم المصرى		١٥
قصر الهودج	: على أحمد باكثير		١٥
عشاق العرب	: كامل محمد عجلان		١٥
مليم الأكبر	: عادل كامل		٢٠
فى الوظيفة	: عبد الحميد جودة السحار		١٥
محمد رسول الله	: مولاى محمد على		١٥
عطر ودخان	: محمود تيمور بك	نقد	١٥

		م
* وا إسلاماه	: على أحمد باكثير	١٥
الأطياف الأربعة	: سيد قطب واخوته	١٥
مرايا الناس	: السيدة وداد سكاكينى	١٥
الشىء الصغير	: الفونس دوديه	٢٥
* ملك من شعاع	: عادل كامل	١٥
* الفرعون الموعود	: على أحمد باكثير	١٥
ابرهيم الكاتب	: ابرهيم المازنى	٢٥
هتاف الجماهير	: أمين يوسف غراب	١٥
سعد بن أبى وقاص	: عبد الحميد جودة السحار	١٥
تحليل النفس	: محمود محمود	٢٠
مسرحية الأب	: أوجست سترندبرج	١٠
خان الخليلى	: نجيب محفوظ	١٥
شيلوك الجديد	: على أحمد باكثير	١٥
الكأس السابعة	: صلاح ذهنى	١٥
مسرحيات يوربيتز	: محمود محمود	٢٥
همزات الشياطين	: عبد الحميد جودة السحار	١٥
الإمام على	: عبد الفتاح عبد المقصود	٢٥
طفل من القرية	: سيد قطب	١٥
ليلة النهر	: على أحمد باكثير	١٦

تطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها

٦٣ شارع الفجالة . مصر

روايات نالت جوائز أدبية خصم ٢٠ ٪ للجملة

14 me Année No. 663

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

Lundi — 18 — 3 — 1946

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٦٣ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٦٥ — ١٨ مارس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

إرادة الغفـــلة

للأستاذ عباس محمود العقاد

زيد وعمرو تاجران لهما دكانان فى حى من الأحياء .

وأنت تروّج بضاعة زيد وترغب فيها أبناء الحى وبناته .

فليس لك فى هذه الحالة إلا وسيلة من وسيلتين : إحداهما أن تثنى على الأصناف الجميلة التى يعرضها زيد فى دكانه ولا وجود لها عند غيره ، وأن تشيد برخص الأسعار وحسن المعاملة التى يلقاها المترددون على ذلك الدكان .

والوسيلة الأخرى أن تتناول عمرا بالقدح والتشهير وتنحى بالعيب على كل سلعة يعرضها وكل ثمن يطلبه وكل معاملة يتلقى بها قاصديه ، وتتهمه بالاحتيال عليهم بهبوط البضائع وارتفاع الأسعار .

دعاية مكشوفة وأخرى مستورة ، ولكنهما تؤديان إلى نتيجة واحدة ، وهى كساد واحد ورواج الآخر من الدكانين .

ولا شك فى هذه الحقيقة ولا خفاء .

ولكنهما على ما يظهر لنا تحتملان الكثير من الشك ، وتحاطان بالكثير من الخفاء عند أناس فى هذا الشرق التعس يزعمون لأنفسهم أنهم « يفهمونها وهى طائرة » وهم لا يفهمون ما يحبو على أربع فوق جدار العينين .

***

فى أيام الحرب الطرابلسية حمل المسلمون والشرقيون على الدولة الإيطالية حملة المظلوم المشترك فى المصاب ، فكانت حملتهم عليها حملة رجل واحد لا يشذ عنها مسلم أو شرقى كائناً ما كان مذهبه فى السياسة والدين .

ثم عملت الدعاية الإيطالية عملها الذى لم تنقطع عنه قط فى إبان الدولة الفاشية ، فسكت عنها من كان قائماً قاعداً بالحملة عليها وعاش منهم من عاش فى بلادها وبين أكناف حكومتها .

ثم نشبت الحرب الحبشية وتجددت الثورة على إيطاليا فى الشرق العربى من أقصاه إلى أقصاه ، وكانت الثورة عليها شاملة للمسلمين والمسيحيين وجملة العرب والشرقيين ، لأنها ثورة المظلوم على الظلمة المستعمرين .

وهؤلاء أصدقاء إيطاليا الجدد ماذا يصنعون ؟

لقد كانوا بالأمس يحملون عليها فكيف يحملون عليها اليوم ؟ إنهم قبضوا الثمن ولا بد من الوفاء بالبضاعة .

أو قل إن الإيطاليين بذلوا المال وإن يثابروا على بذله إلا إذا استفادوا منه بعض الفائدة .

فما هى الفائدة المنظورة ؟ وما هى الفائدة المستطاعة ؟

أما الترويج لدكان « زيد » فغير مستطاع .

فلم يبق إلا التشهير بدكان عمرو المسكين ... ورزقه على الله ! وكذلك قد كان !

وكذلك ظهر للسادة « الغيورين » على حين غرة أن النجاشية الذين جلسوا على عرش الحبشة فى ماضى العصور وحاضرها كانوا يظلمون المسلمين ويعطلون شعائر الإسلام .

ولتسقط « الحبشة » معناها « لتحى إيطاليا » فى ذلك الصراع القائم .

وتمت الصفقة على هذه الصورة بين قبض الثمن وتسليم البضاعة من غير الطريق المستقيم .

أما أنت أيها الرجل الذى لم تقبض ثمناً ولم تسلم بضاعة فقد باعك هؤلاء الدجالون واشتروك وأنت صاغر لا تدرى ما تفهم وما تقول .

إن دخلت فى الصفقة ومضيت مع التيار الذى حملوك عليه إلى حيث يشاءون فأنت كما رأيت بضاعة تباع وتشترى .

وإن فتحت عينيك وقلت لهم إنكم دجالون منافقون ، وإنكم سماسرة استعمار مأجورون — فأنت إذن لست بالرجل الغيور على الدين ، ولست بالمسلم المنافح عن الإسلام والمسلمين ، ولكنهم هم الغيورون المنافحون ... هم أولئك الدجالون المنافقون ، الذين يبيعون فيك ويشترون !

ودارت الأيام ورأينا مذاهب النازية ومذاهب الديمقراطية تصطدم فى أخطر ميدان .

ثم دارت الأيام ورأينا الشيوعية والديمقراطية تتصارعان .

وعادت حكاية الدكاكين من جديد : دكان زيد ودكان عمرو فى الحى المأهول بالشرقيين المساكين .

أما الدعاية لزيد فعرضة للاتهام الصريح .

فلماذا يتعرض لها « السماسرة الأمناء » وهم فى غنى عنها بالانحاء على عمرو فى غير حرج ولا مبالاة .

لتسقط الديمقراطية معناها لتحى الشيوعية ... والثمن مقبوض والبضاعة مسلمة ، وكفى الله المؤمنين القتال .

فالديمقراطية إذن كذب وخداع ، والديمقراطية إذن فخ منصوب للضعفاء ، والديمقراطية إذن مسئولة عما يجنيه الديمقراطيون ، والديمقراطية إذن هى مصدر البلاء وعلة الشرور .

وما شأن « الشيوعية » يا هؤلاء ؟

شأنها أنها بذات الثمن فى الخفاء ، فلا يليق أن تذكر فى معرض النقد والاستياء .

هى ملك معصوم ، أو هى شىء مسكوت عنه إلى أن يخرب دكان عمرو فيقبل « الزبائن » على دكان زيد طائعين أو مكرهين .

ومن المحقق أن الديمقراطيين يكذبون ويخدعون ، ولكن من المحقق كذلك أن الديمقراطية خير من الاستبداد بعد كل ما يقال عن مساوىء الديمقراطيين .

هل تسقط الديمقراطية لأن الضعفاء فى الأرض لا يعاملون اليوم معاملة الأقوياء .

هل تسقط الديمقراطية لأن الأرض البشرية لم يهبط عليها فردوس الملائكة أو لم ترتفع إلى ملكوت السماء ؟

إن كانت المذاهب تعاب بذنوب أبنائها فماذا نقول فى المسيحية والإسلام ؟ وماذا نقول فى سائر الأديان ؟

منذ القدم تبشر الأديان بالخير ولا يزال الشر فى هذه الأرض كما نراه ، فهل نقول إن الأديان لم تنفع أبناءها بشىء لأنهم لا يسلمون من الخسار ؟

منذ القدم تنص الشرائع والقوانين على عقاب الأئمة والمجرمين . ولكن الأئمة والمجرمين لا ينقطعون ولعلهم لا ينقصون . فهل نقول من أجل ذلك : دعوهم يجرمون ويأثمون وأغلقوا المحاكم وافتحوا أبواب السجون ؟

منذ القدم ننادى بالاصلاح ويعمل الناس أعمال المفسدين . فهل نقول من أجل ذلك إن الفساد خير من الصلاح وإن الدعوة إلى الاصلاح سعى عقيم ورأى سقيم ؟

إن الذى ينكر الديمقراطية لأن الديمقراطيين يلامون ويعملون مايستنكره المنصفون لخليق أن ينكر القوانين والشرائع لأنها تنادى بالخير ولا يزال فى الناس شر كثير .

ولكنهم مع ذلك يقبضون الثمن ويعقدون الصفقة ، ويدخلون فيها تلك الرؤوس التى تستمع إلى ذلك الهراء الذميم فتصغى إليه وتقرهم عليه .

ودعوا دكان عمرو أيها الناس .

وهات يا زيد أجرتك ... فقد أقبل عليك أولئك الناس .

كان دارون يتحدث عن إرادة الحياة أو حب الحياة .

وكان نيتشه يتحدث عن إرادة القوة أو حب القوة .

فاذا جاز لنا أن ننشىء مذهباً جديداً نستمده من غفلة الأغرار وحيلة الشطار قلنا إنها « إرادة الغفلة » قد أصابت أناساً من الشرقيين فاتسع بينهم المجال لكل أفاك دجال ، وأصبحوا بين أمم العالم أعجوبة من الأعاجيب ، لأن أمم العالم تخيب بينهم ألف تدجيلة لكى تصيب بينهم تدجيلة واحدة بعد طول التلفيق والتدبير وتكرار المحاولة والتزييف . أما هؤلاء المصابون « بارادة الغفلة »

من شرقيينا الأعزاء فما أسرع من ظهور التدجيلة بينهم إلا أن يقبلوها ويقبلوا عليها ، لأنهم يتلذذون بالاستغفال كما يتلذذ بعض الرجال بالاغضاء عن العرض فى غير سبيل ... ولو سبيل المال .

وأقسم إننا لا نمزح فيما نقول ، لأن الغفلة لذة عند المغفلين المطبوعين على هذه الخليقة . فهى نوم أو استرسال ، ولا عناء فى النوم أو الاسترسال ، وإنما العناء فى اليقظة والانتباه ، ومن ترك المخدوع ينام ويسترسل فهو لا يزعجه بهذا الترك المريح ، ولكنه يزعجه أشد الإزعاج حين يفتح عينيه ويصيح فى أذنيه ويحذره من اللصوص والطراق .

معشر الدجالين !

ما قولكم فى مذاهب الإصلاح كلها منذ القديم ؟

إن قلتم إنها باطلة فقولوا عن الديمقراطية إنها باطلة لأنها لم تحسم الشرور ولم تجعل الديمقراطيين من الملائكة الأبرار .

وإن طال بكم المطال على هذا المقال فالبركة فى « إرادة الغفلة » التى تفتح لكم مجال القول فتقولون ما تشاءون .

عباس محمود العقاد

صحائف مطوية :

أول زيارة للمسجد الأقصى

الأستاذ أحمد رمزى

كان حتما علىّ أن أسافر بالباخرة التركية « أزمير » من ثغر الأسكندرية فى ربيع سنة ١٩٣٥ ، وإذا تأخرت احتج رياض بك الصديق العزيز مدير المستخدمين ، ومحبته لدى فوق كل شىء ، فلم يكن هناك بد من أن ألحق قطار الصباح المبكر من محطة صغيرة بالريف المصرى لأكون على الباخرة قبل موعد سفرها . وكانت الساعة الرابعة صباحاً حينما استيقظت وخرجت من منزلى فى يوم برده محتمل وسماؤه لا تزال نجومها ظاهرة ، ورذاذ من بعض المطر الليلى يتساقط من جريد النخل العالى ، وكان أمامى أكثر من كيلو متر ونصف سرتها على شريط السكة الحديدية قفزاً على الفلنكات الخشبية ، حتى دخلت القرية وأهلها نائمون . وقد ظهر ضوء المحطة من بعيد ، فإذا بقهوة عبد القدوس فى الشارع الرئيسى تفتح أبوابها وعلى مقعدها قارىء يرتل آيات الذكر الحكيم ، ما طللنا على الزاوية إلا وهو يستقبلنا بقوله تعالى « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » تهلل وجهى واستبشرت وفرحت بهذا اللقاء وزال أثر التعب ، وعددت هذه نعمة من نعم الله .

ولم يمض على ذلك سوى شهر أو بعض شهر حتى صدر أمر ملكى عينت بمقتضاه قنصلا لمصر بمدينة القدس على رأس قنصلية عامة يشمل اختصاصها كل أراضى فلسطين وشرق الأردن ، فانتقلت من حياة ألفتها فى تركيا أو عودت نفسى عليها إلى حياة أكثر نشاطاً وإنتاجاً وحركة وأعمق أثراً ، ورددت كل ذلك إلى القارىء الذى استفتحت بوجهه .

شعرت بأن نفسى قد اطمأنت وقنعت وتركزت حينما نسيتنى وزارة الخارجية لمدة تزيد على سبع سنوات فى أراضى الجمهورية التركية ، فغدوت لا أشكو من شىء ولا أطلب الرحمة من أحد ، وتحجر قلبى فلم أعد أخاف من الوعيد أو التهديد ، أو يحركنى التهويش ، وكنت أنظر إلى الماضى فأراه قد مرّ بغير تبديل ، وإلى المستقبل فأقول بأنه سيمر على وتيرة واحدة كما ذهب الماضى ، وأحدث نفسى بأن أرجو لكثيرين من ذوى الأطماع والنفوس الطامحة أن ينتهوا إلى الحالة النفسية التى انتهيت إليها ، ذلك لأننى بمضى السنوات ومرورها متشابهة متلاحقة ، وجدت اليقين المفقود ووصلت إلى تسكين البال وراحته ، وهما أعظم ما يمكن أن يصل الإنسان إليه إذا بقى اسمه منسياً . ومر علىّ هذا الزمن وهو مملوء بالحوادث أتفرج عليها وأقيدها وأتأمل فيها ، وكان أكبر انتصار على النفس هو أن يردها صاحبها عن أن تقف فى الصف الأول أو يقعدها عن أن تزج بنفسها فى أمور لا يتسامى إليها إلا أولو العزم الشديد والعبقرية الفائقة .

ووصلت إلى شىء من ذلك بالمران حيناً وبالضغط أحياناً حتى وفقت لحد ما إلى تكييف حياتى ، فلاءمت بينها وبين عملى وتفكيرى ، وعودتها الرضا مع اليقظة والقناعة مع الانتباه ، ولم يمض وقت طويل حتى تبين لى أن أعظم الأشياء والحوادث من سياسية واجتماعية والتى يراها الناس بمظهر الجد ويلقون عليها مسحة من الاهتمام ، تفقد رونقها الجدى وأهميتها إذا نظرنا إليها بنظرة

بعيدة عن الجد ، وحللنا كل موقف وكل حركة على أنها إنسانية صرفة . وقد أتاحت لى الخدمة بالخارج معاينة الكثير من هذه المواقف فأصبحت بعض المسائل ذات الصف الأول مثاراً للضحك والسخرية لو عرف الناس حقيقتها الأولى .

إن اعتقاد الكثيرين من الناس أن لديهم مزايا خارقة للعادة ، وغالبيتهم من الأذكياء كان سبباً فى وقوعهم فى أخطاء ، من ذلك توهمهم أنه بوسعهم غش المجتمع الذى يعيشون فيه أو الضحك على لحى كل من يتصل بهم ، والوصول إلى تغطية الحقائق وإنكارها مدة طويلة من الزمن . إن هؤلاء قابلتهم كثيراً فى أوساط الأمم الشرقية فكانوا أول الضحايا لأطماعهم ، وكانوا هم المخدوعين بأنفسهم حينما حاولوا خداع الناس وغشهم . وكانت هذه الأفكار تعاودنى فى وقت انتهيت فيه إلى الاكتفاء بما كنت عليه ، إلى الاقتناع بأن كفايتى وعملى وتجاربى وهذه هى كل رأس مالى ، أقول قد أوصلتنى بالطرق والأساليب التى اطمئن إليها للنقطة التى تركزت فيها ، فلم أكن أفكر ولا أؤمل ولا أنتظر شيئاً من التغيير أو التبديل أو المزيد .

هذه كانت حالتى حينما دهمتنى حركة من حركات السلك السياسى المصرى ، فإذا أنا بغير تحضير أو بذل مجهود أو رجاء ، أنقل من بلاد اقتطعت سبع سنوات ونصفاً من عمرى فى دراستها وفهمها إلى بلاد جديدة أعلم عنها أشياء وأجهل عنها أشياء ، وما أجهله أكثر مما أعلمه برغم قربها وجوارها ومحبتى لها .

وكان هذا النقل حداً فاصلا فى حياتى ، إذ لو بقيت بتركيا أو نقلت لأميركا لاتجهت حياتى اتجاهاً آخر ، ولربما لم يكن لى هذا الشرف بأن أكتب هذه الكلمة ، وأن يقرأ لى قراء الرسالة بعض ما أكتب اليوم . ولقد جاءت هذه النقلة وليدة المصادفة والأقدار ، رمية من غير رام ، ذلك لأن أولى الأمر لم ينظروا فيها إلى تحقيق شىء من المصلحة العامة أو ما يلابسها من اختيار الأصلح أو الأوفق وإنما قصدوا سد خانة من بعض خانات كانت مفتوحة أمامهم فقذفوا بى إليها ، وكان ذلك من حظى إذ غدوت جندياً من جنود الإسلام والعروبة حينما تفتحت أنظارى على أرض فلسطين ومنازل الوحى الخالدة والنبوة .

وحضر قوم لتهنئتى أو لتعزيتى ، إذ المتفق عليه أن القدس والشرق منفى يرسل إليه من أفلس فى بلاد أميركا وأوربا ليستجم ثم يعود إلى بلاد النور . وهذا ما تراءى لهم ، وقد كان يصح أن يبدو لى شىء من ذلك ، ولكن الآية التى سمعتها من ذلك القارىء الأعمى فى محطة من إقليم الشرقية كانت تخفف وقع كل هذا علىّ وتجعلنى أسلم بأن فى ذلك الخير كل الخير ، وأقول هذه إرادة المولى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

ووصلت إلى مدينة القدس فى الجزء الأخير من سنة ١٩٣٥ لأتولى عملا جديداً ولألقى وجوها جديدة . وكان أول ما قمت به هو توجهى لزيارة المسجد الأقصى ، وكان ذلك فى شهر رمضان ، ودخلته وأنا على نية ثابتة بأنه المسجد الذى ورد ذكره فى الآية التى تلاها القارىء .

دخلته وقد غمرتنى نفحة من نفحات الله ، جعلتنى أشعر فى قرارة نفسى بحوادث التاريخ الجلى التى حملها هذا الصعيد ، وكأن كل ركن من أركان هذا المسجد يشير إلىّ ، وكأن كل حجر من أحجار قبة الصخرة يحادثنى . ثلاث عشرة مائة من السنين ، تركة ضخمة من الجهاد والمجد ، هل يدرك أهلها ما هى ؟

إن الأمم الإسلامية التى نعيش وسطها ونحيا ، كانت تبدو فى ذلك الوقت وقد أفلست إفلاساً يكاد يكون تاماً فى حياتها وتنازلت عن حيويتها وعن أى مظهر من مظاهر الاستقلال ، حتى اعتقد كثيرون أنها موطن الخمود والنوم والجمود والتخاذل ، فهل تكون لها عودة ؟ وهل تقوى أذرعتها ونفوسها الواهية على حمل الأمانة ؟ أم ستقعد بها الهمم ؟ يوم لم تعد تفكر فى شىء سوى ملاذها وتكالبها على المادة وما تسوقه إليه غرائزها الواهية ، حينما فقدت كل عناصر القوة والأنفة ، وانحطت إلى درجة الجماد فلم تعد تهمها هذه المساجد والمدارس ، أو تترك فى نفوسها شيئاً أو بعض الشىء ، وبعد أن خيل إلى كثيرين أن ماتت لديها كل دوافع الكفاح وفنيت فيها بواعث الثورة والدعوة لخير العمل ؟

كنت أطوف بالصخرة وأنا أتأمل كل ذلك وأقول متى تتحرك أمم العروبة وتنهض من كبوتها وتستيقظ من نومها العميق وتخلع ما هى فيه من ذلة ومسكنة ؟ إن كل ما أراه أمامى فى وجوههم وسيرهم ومعاشهم وفى المدن وفى القرى يدعو إلى الأسى والألم ، وهم بعيدون كل البعد عن حيوية المبادىء التى قامت عليها الرسالة المحمدية الكبرى .

سرت فى أنحاء الحرم وهو متسع الأرجاء ، لا أقول يكاد يكون خالياً ، بل هو أكثر من أن يكون خالياً ، أما أنا فتخيلته فى نفسى يفيض بصفوف المصلين : كان يبدو لى صحنه ووجهاته

وجوانبه يوم الفتح الأكبر ، يوم دخله سلطاننا صلاح الدين بجند مصر فأقام أول صلاة للجمعة فيه ، وكيف تبارى العلماء والفضلاء فجهز كل واحد منهم خطبة بليغة طمعاً فى أن يكون خطيب ذلك اليوم .

كنت أفكر كيف أذن المؤذنون على منائر المسجد الاقصى وأسواره فارتجت المدينة بأصوات التكبير والتهليل ، ومر أمامى كيف تقدم الملك السلطان المتواضع بقبة الصخرة فرسم للقاضى محيى الدين محمد بن زكى الدين على القرشى ، أن يخطب ، وكيف ألبسه العماد الكاتب جبة سوداء من تشاريف الخلافة العباسية ، فلبسها وصعد المنبر واستفتح بسورة الفاتحة ، فقرأها بأكملها ، وقرأ أول سورة الأنعام ، ثم قرأ من سورة الأسراء ، ثم قرأ من سورة الكهف ، ثم من سورة النمل ، ثم من سورة سبأ ، ثم من سورة فاطر ، كما تجد ذلك مفصلا فى كتاب الأنس الجليل .

ثم شرع فى الخطبة فبدأها : «الحمد لله معز الأسلام بنصره» وصلى على نبيه الذى أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى وعرج به إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ... وذكر أبا بكر وعمر وعثمان وعلى وصلى على آله وأصحابه والتابعين ؛ وقال « أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة وردها إلى مقرها من الأسلام ... وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه » ... لقد جددتم للاسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية ... »

كان كل هذا يمر أمام عينى ورأسى مطرق وخطواتى سريعة وأحبس الدمع فى عينى حتى انتهيت من قبة الصخرة واتجهت إلى المسجد فدخلت إلى المحراب لأقرأ أثر السلطان المجاهد بحروف ذهبية :

«أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الأقصى الذى هو على التقوى مؤسس ، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عند ما فتحه الله على يديه سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة » .

فأديت تحية المسجد فى هذا المحراب الخالد وترحمت على بانيه وعلى أرواح الشهداء وشعرت براحة تملأ نفسى حينما خرجت متجهاً إلى المجلس الإسلامى الأعلى ، ماراً بمدرسة قايتباى سلطان مصر ، واستقبلنى أعضاؤه ومعهم سماحة مفتى فلسطين الأكبر ، وقد غمر الإيمان نفسى وتملكتنى نشوة لم أتمالك لسانى عن التعبير بما يجول بين جوانحى . قلت :

« إننا فى فلسطين ومصر أمة واحدة ، اشترك الآباء والأجداد فى هذا التراث الإسلامى العربى كما اشتركنا فى السراء والضراء ، فهم قد واجهوا الموت معاً ، وعاينوا الهزائم سوياً ، كما فرحت نفوسهم بأيام النصر المتلاحقة المتتابعة . وها نحن اليوم نلاقى من أيام الشدائد ما يذكرنا بالأيام الحالكة السواد التى عاشها السلف ومن تقدمنا ، فهل كانت أيامهم أقل سواداً من الأيام التى نعيشها ؟ كلا كانت أشد وأوقع ، فلم يفت ذلك فى عضدهم ولا لانت قناتهم أمام مصائبها ، ولذلك ألقوا علينا درساً باستشهادهم وموتهم وهزائمهم ومعاركهم وانتصاراتهم ، ألقوا علينا درس يقظة وصبر وأناة وعناد وتمسك بالعروة الوثقى وتعاليم الإسلام الخالدة .

يا صاحب السماحة ! إن دروس الماضى باقية فى نفوسنا لن تبيد أبداً ، وإننا نستمد منها قوة إذا ضعفت قوتنا ، ونستلهم من وحيها آمالا إذا ضعفت آمالنا فى المستقبل . وإنا لنأتى إلى هذه البقعة الطاهرة وننظر إلى هذا الجامع وإلى صحنه ورحباته وصخرته فنجدد عهدنا لكم ، وتغمرنا روح الإيمان والثقة والتمسك بالأمانة التى فى أعناقنا نحن إخوانكم الذين اشتركنا معكم طول القرون الماضية ، ولنؤكد لكم مرة أخرى أن مصيرنا مرتبط بمصيركم وأن حياتنا لا قيمة لها بدونكم .

وأقول إننا نعيش أياماً مملوءة بالآلام والأحزان ، ولكن المستقبل لله وحده ، وهو الذى ذكرنا فى محكم آياته ، وأنزل سكينته على قلوبنا وخط فى سجل القدر أن هذه الأرض لنا ، وأن الأيام التى وعدنا بها مرة بعد مرة ، آتية لا ريب فيها .

إن كل الدلائل لتقنعنى أن الأمم العربية ومعها مصر ستبعث بعثاً جديداً » ...

كانت عيونهم تفيض بالإيمان ودموع الغبطة ، وكانت مودة وصداقة وأخوة ، وبدأت حياة جديدة ودخلت دنيا يعمرها الإيمان والعمل فى سبيل الله ، وكان التوفيق وحقت كلمته تعالى فكانت هى العليا .

حصل ذلك فى صباح يوم السبت ١٤ ديسمبر ١٩٣٥ وكانت أول زيارة رسمية لى بالقدس وأول عمل أبدأه .

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

على هامش النقد :

« بين الفلسفة والأدب »

تأليف الأستاذ علي أدهم

الأستاذ سيد قطب

عنوان يلخص موضوعات الكتاب ، ويلخص الكاتب في الوقت ذاته — وهي مصادفة فذة ! — فالكتاب بين اتجاهين في كل موضوعاته : إما فلسفة الأدب ، وإما أدب الفلسفة . والكاتب كذلك في هذا الكتاب وفي سواه من كتبه وبحوثه يتجه إلى هذين الاتجاهين ؛ فهما قطبا تفكيره وإحساسه بالحياة . سواء كتب في الأدب أو الفلسفة أو التاريخ وهي موضوعاته المختارة

أخرج قبل هذا الكتاب : محاورات رينان (مترجمة) ، وصقر قريش ، والمنصور بن أبي عامر ، والخطايا السبع (مترجمة) . والمذاهب السياسية المعاصرة ، ونظرات في الحياة والمجتمع . كما نشر عشرات الفصول في شتى المجلات في مثل هذه الموضوعات .

وحيثما نظرت في عمل من أعماله لاحظت أنه ينظر للأدب بعين الفيلسوف ، ويتذوق الفلسفة بحس الأديب ، ويتناول الشخصيات والحوادث بشعور مزيج من الفلسفة والأدب على السواء

والأستاذ أدهم هنا في كتابه الجديد يجول في ميدانه الأصيل ، ويستخدم أفضل ملكاته ، فينتج أفضل نتاجه . فالكتاب مجموعة فصول متفرقة يلخصها العنوان المتقدم ، وتحتوي على الموضوعات التالية بعد المقدمة : « ملتقى الشعر والفلسفة ، موازنة بين أبي العلاء وشوبنهاور ، أبو العلاء وفلسفة التاريخ ، تولستوي وفلسفة التاريخ ، شوبنهاور وفلسفة التاريخ ، فكرة التقدم ، فلسفة تاريخ الفلسفة ، بين الفن والفلسفة ، البطل والإنسان الأعلى . السياسة والأخلاق ، التمرد على العقل ، التاريخ والأبطال »

فهي من حيث الموضوع تلخص اتجاهاته جميعاً على حسب ما أسلفنا . وهي من حيث الشكل فصول مستقلة . وفي هذا النحو من الكتابة يتفوق الأستاذ علي أدهم . وهو هنا خير منه في أي كتاب ذي موضوع واحد وفصول مترابطة داخل هذا الموضوع

ولست أدري إن كان هذا القول يسره أو يغضبه . ولكنه هو الواقع — في تقديري — فهو حين يكتب بحثاً في مقال تتجلى أفضل خصائصه من الدقة والعمق والوضوح ، والإحاطة بأطراف موضوعه ، وتجليتها للقارئ ، بحيث تعطيه الكفاية التي يستريح إليها في حيز محدود ؛ وبحيث يشعر أن في هذا الفصل غناء ، ما لم يكن من هواة المراجع المطولة في الموضوع الذي يطالعه

فهو كاتب مقالة مجيد ، بل هو في الصف الأول عندنا من كتاب المقالة .

ويحسن أن أصوب هنا خطأ أو بدعة يروجها من يفهمون الأدب كما يفهمه عشاق الأزياء و « الموديلات » !

لدينا طائفة من هؤلاء يفهمون أن لفنون الأدب مواسم ومواعيد ، ولكل فن أو لكل « موديل » باباً معيناً لا يتعداه .

فأدب المقالة قد انتهى في عرف هؤلاء المتحذلقة ، كما أن الأوان هو أوان القصة ، وكل ما ليس بقصة فهو فصل متخلف في الأدب .

وفي وقت ما كان المطلوب من الأدباء أن يكتبوا تراجم أو يوميات . وكان المطلوب من الشعراء أن يكتبوا ملاحم أو مسرحيات ! كما يطلب من الأدباء اليوم أن يكتبوا قصة أو أقصوصة ، وإلا فهم متخلفون !

كل هذه الحذلقات منشؤها ضيق الأفق وضعف التذوق ، والنظرة إلى الأدب كالنظرة إلى الأزياء كما أسلفت ، لكل زي موعد وإبان !

والحقيقة أن لكل لون من ألوان الأدب موسمه الحاضر في كل آن ، والعبرة هي بطريقة التناول لا بشكله ، وكل ميسر لما خلق له ، وكل أدب أصيل في ذاته فهو أصيل في شكله على تعدد الأشكال وتباعد الأعصار ، والمفاضلة بين فنون الأدب على أساس الشكل الذي تؤدى به مفاضلة زائفة ، فالفنون كلها من هذه الناحية سواء

وإذا لم يكن بد من المفاضلة ، فإنني أحس أن كتابة « المقالة » قد تكون أشقها جميعاً . إذا أردنا أن نحصل على مقالة جيدة ، فلا بد في المقالة من فكرة وموضوع ، ولا بد من تنسيق داخلي في تسلسل الموضوع ، لا يقل عن التنسيق الخارجي بين الفصول المتعددة في الكتاب . أو القصة أو المسرحية أو في الترجمة . وأقل فراغ في المقالة أو تقصير يظهر للقارئ بارزاً ، في حين قد تختفي هذه المواضع في القصة ، لأن الحكاية أو الحبكة تغطي عليها . ولا أحب أن أرتكب الغلطة ذاتها التي يقع فيها من يفاضلون

بين فنون الأدب على أساس الشكل الذى تؤدى فيه . ولكنى أريد فقط أن أقول : إن أدب المقالة ليس أسهل ولا أقل مؤنة من سائر الآداب .

ونعود إلى كتاب الأستاذ أدهم ، فأقرر أننى خرجت من كل فصل من فصوله بفكرة واضحة كاملة عن موضوعه — بمقدار ما تستطيع « مقالة » أن تحيط بحدود الموضوع — وكل فصل من هذه الفصول لا يقف عند إعطاء فكرة عن الموضوع الذى يعالجه ، بل هو يصلح مرجعاً قريباً للباحث فى موضوعه ، وعلى الأقل مفتاحاً لمراجعه ودليلا إلى هذه المراجع مأمون الإشارة ، موثوقاً بصدقه فى الهداية إلى الطريق !

ويشعر القارئ — مع سهولة الأداء ودقته ووضوحه — بأن هناك جهداً ضخماً قد بذل فى التحضير ، وإخلاصاً للبحث قد توافر فى المراجعة ، وتثبتاً وتدقيقاً أمام الجزئيات التى يعرض لها ... وهذه الخصائص هى أقوى ما تطلبه من كاتب يقدم لك قطافه من شتى حدائق الفكر فى الشرق والغرب فى حيز صغير محدود

كذلك يشعر القارئ فى نهاية قراءته للكتاب أنه خير منه وأوسع نظرة إلى الأدب والأشخاص والحياة قبل أن يقرأه — وهذه ميزة ليست بالقليلة ، وليست كذلك بالشائعة فى الكثير مما تخرجه المطبعة العربية من سيل الكتب فى السنوات الأخيرة — بل لا أبالغ إذا قلت : إنها لا تتوافر إلا لعدد محدود من الكتب الكثيرة التى تصدر فى كل عام .

ومع أن طبيعة الموضوعات التى تناولها الأستاذ على أدهم تجعل مجال الخلق الفنى فيها محدوداً ، إلا أنها استعاضت عن هذه السمة سمات أخرى من الدقة والعمق والوضوح تجعلها فى النهاية عملا فنياً فى هذا الحيز المعلوم ، وبخاصة ذلك الفصل القيم الذى كتبه عن أبى العلاء ، فهو من أفضل ما قرأت عن المعرى فى القديم والحديث . وقد جاء فى مقدمة المؤلف قوله :

« عمل المفكرين والفلاسفة هو إعداد الجو الذى يموج بمختلف الآراء والمذاهب والنظريات . ومن طبيعة القوة الخالقة أنها لا تكشف الأفكار ولا تبتكر النظريات ، ولا توجد المذاهب الفكرية ، لأنها موكلة بالبناء والتركيب والإنشاء ، وليس من أربها الكشف والتحليل والتوضيح والتفسير . فهى تتناول الأفكار والمذاهب والنظريات ، وتنفخ فيها روح الحياة ، وتضفى عليها الحلل السابغة والألوان الزاهية ، ولكى يزدهر الأدب ويسمو الفن ، لا بد من وجود هذا الجو الملىء بالأفكار ، الحافل بالمذاهب والنظريات . ومن ثم كانت أزمنة الخلق الأدبى العظيم فى تواريخ الآداب قليلة نادرة ؛ وبلوغ هذه الذروة فى الأدب والفن يستلزم تلاقى قوتين : قوة العبقرية الخالقة ، وقوة الزمن . والشاعر أو الكاتب أو الفنان يسمو فنه ويتسع أفقه إذا عرف أشياء قيمة عن الحياة والدنيا قبل أن يتناولها فى فنه ؛ والتفكير الفلسفى يجدى على الأدب ويزيد ثروة الخيال ، ويعين على إطلاق العقول من قيود الأهواء والنعرات ، وتصفيتها من شوائب التعصب والضيق ؛ وتأمل عظمة الكون وجلاله ، يكسب الفكر عظمة وجلالا . وقد تخفق الفلسفة فى معالجة مشكلات الحياة ومسائل الوجود ، وربما كانت تلك المشكلات والمسائل من وراء طاقة عقولنا المحدودة ؛ ولكنى أعتقد أنها توفق على الدوام فى شىء واحد ، وهو أنها ترينا أن الكون أرحب مما نقدر ، وأعظم مما نرى » .

وهذه كلمات جيدة ، وهى تعطى القارئ فكرة عن طريقة المؤلف فى تناول موضوعاته ؛ وفكرة عن نظرته للحياة والأدب والفلسفة أيضاً ، وهى جديرة بأن تفتح أعين الأدباء الخالقين من الشعراء والقصاصين وغيرهم على أن الموهبة وحدها لا تكفى ، فلا بد من التزود والاطلاع ، لا فى موضوع فنهم وحده ، ولكن فى محيط أوسع ، يشمل الفلسفة فيما يشمل .

ومع أننى أنا شخصياً ممن يدعون إلى تخليص الفن ، والشعر خاصة ، من ربقة الذهنيات ؛ إلا أن القصد والاعتدال والدقة فى بيان الأستاذ أدهم لمنطقة الفلسفة ومنطقة الفن فى مقدمته وفى الفصول التى تلتها ، تجعلنى أتفق معه فى وجوب تنوع الدراسات والثقافات لمن يريد أن ينشئ فناً ذا قيمة إنسانية .

وكل ما أبديه من تحفظات هو ألا تظهر الذهنية ، وقد أغالى فأقول ، بل الفكرية ، فى العمل الفنى ، وبخاصة الشعر الذى أحب له أن ينطلق مرفرفاً متخففاً من أثقال الذهن المقيد ، والفكر الواعى على قدر الإمكان .

وفى النهاية أذكر أن كتاب الأستاذ أدهم قد حقق فى اللغة العربية قسطه المناسب من تحقيق هذا الغرض الذى يريده مؤلفه . وهو « تزويد الثقافة المصرية العربية الشرقية بطائفة من الأفكار والآراء والنظريات التى تمهد السبيل للخلق الأدبى والفنى العظيمين »

وقد حقق هذا الغرض بأكثر مما حققتها كتب كاملة ظهرت فى بعض الموضوعات التى تناولها أوفى موضوعات قريبة منها . وذلك بلا شك حسب فصول مختصرة فى كتاب

سيد قطب

من صميم الواقع :

الكأس الأولى ...

للأستاذ علي الطنطاوي

أكثر الموظفين قد شربوا هذه (الكأس الأولى) فصاروا من بعدها سكارى ما يصحون ، ولا ينتصحون .. وهذه قصة (الكأس الأولى) فانظروا من هو المسئول عنها : آلذى أخذ الرشوة ، أم الذى أعطاها ، أم الذى أمر بها ، أم الحكومة التى قللت المرتب فدفعت إليها ؟

كانت ليلة مخيفة من ليالى شتاء سنة ١٩٤١ ، وكانت تعول رياحها كما تصرخ الشياطين ، وترقص فى الجو كأنها مردة الجحيم قد أفلتت من قيودها ، وأقبلت تلذع وجوه الناس بمثل حد المواسى من شدة بردها ، والثلج يتطاير كأنه القطن المندوف ، ويتراكم على الأبواب والنوافذ ، حتى لقد بلغ سمكه على الأعتاب وفى أصول الجدران قريبا من ذراع ، والناس قد فزعوا إلى بيوتهم فاعتصموا بها ، وخلت الشوارع وأقفرت السبل فلا ترى فيها سالكا ...

فى تلك الليلة ، كانت نوبة عبد المؤمن أفندى فى مخفر (الكسوة) : يقضى ليلته وحيداً يرقب الطريق ليحرسه من المهربين والفارين من المكس (الجمرك) ، ومن مخالفى أنظمة التموين ، منفرداً بعيداً عن رفاقه وعن مساكن القرية ، وكان قد أخذ معه على عادته طعامه وسلاحه ، ولبس كل ما يملك من دثر الصوف ، واشتمل بمعطفه ، ولف عليه شملته ، وأدخل كفيه فى قفازيه ، وأغلق عليه بابه ، وأوقد ناره ، واضطجع على سريره مطمئنا إلى أن أحداً لن يجتاز الليلة هذا الطريق ، إلا إذا كان مجنوناً والمجنون لا يؤاخذ ... وحاول أن يهجع ساعة فيدفأ فلم يستطع لا خوفاً من أن يطرقه المفتش ، فما فى الدولة مفتش يخرج الليلة من بيته ، بل من شدة البرد ، فلقد كان النفس يتجمد على زجاج الشباك ... ثم استدارت الريح فجعلت ترد الدخان على المدفأة حتى امتلأت به الغرفة ولم يجد لدفعه حيلة ، فاضطر لاطفاء النار ولبث يتقلب فى البرد حتى أحس بأن أصابعه قد تجمد فيها الدم ، فامتلأت نفسه بالنقمة على هذه الوظيفة وعلى حظه من الدنيا ، وعلى الرئيس الذى ألقاه فى هذه القفرة المنقطعة بعيداً عن زوجته وبنته وولديه بمرتب لا يتجاوز مائة ليرة سورية (نحو أحد عشر جنيهاً) وهو قد أشرف على الأربعين وقطع سن الأمل والنشاط ، ونظر فإذا الذين هم دونه سنا وعلماً قد بلغوا بالوساطات والشفاعات المرتبة الخامسة أو الرابعة ... وفكر فى هذا المرتب ماذا يشترى به ، وكيف يعيش ... وأجرة داره الصغيرة المخربة التى استأجرها من قبل الحرب ثلاثون ليرة فى الشهر ، وثمن رغيف الخبز من السوق عشرون قرشاً ، وكيلو اللحم بخمس ليرات ، وكيلو الرز المصرى بأربع ليرات والسكر مثله ، وكيلو الشاى بعشرين ليرة ، والحذاء المتوسط بثلاثين ، وثمن القميص مهما استرخصه عشرون ، وأجرة الطبيب العادى المبتدىء خمس ليرات ، وحبة الكينا الواحدة بأربعين قرشا ، ولوح الزجاج إن انكسر زجاج الشباك سبع ليرات[1] ...

وطفق يدير حسابه على الوجوه كلها ، ويضرب الأخماس بالأسداس ، ويتذكر كل ما تعلمه فى المدرسة وفى الحياة من علم الإقتصاد وفن تدبير المنزل ، وما سمعه من أشياخ قومه وعجائز أسرته ، فلم يسعفه شىء من ذلك كله فى الاكتفاء بهذا المرتب ، وقصر مصروفه عليه ، وتذكر ولده الصغير وأن أثمان كتبه بلغت أربعين ليرة ... أما كتب ولده الكبير الطالب فى الثانوية فإن مجرد التفكير فى أثمانها يفقده مابقى من عقله ، وإذا هو أكمل الثانوية غداً ، ودخل كلية الحقوق مثلا ... رأى بلاء أنكد وخطباً أشد ، ذلك أن الأساتذة قد استحدثوا فى هذه الأيام شيئا سبقوا فيه التجار والمحتكرين ، وأتوابما لم يأته أحد من الأولين ، فطبعوا كتبهم فى مطبعة الجامعة ، ثم حددوا لها أثمانا تجمل قرش أحدهم عشرة ، ثم ألزموا الطلاب بشرائها إلزاما ، فلا يدخل الامتحان من لا يدفع هذه الأثمان ، وحجتهم فى ذلك أن الطلاب لا يشترونها إذا هم لم يجبروهم ، مع أن الطلاب وغير الطلاب يشترون كتب العلماء والأدباء من غير إكراه ولا إلزام ، لأنها نافعة لهم ولأن فيها متعة ، فلماذا لا يجعل هؤلاء الأساتذة كتبهم ممتعة ويجعلون فيها نفعاً ... ؟ وماذا يصنع عبد المؤمن أفندى ! أيدع ابنه محروما من التعليم ، ويضيع هذا الذكاء النادر الذى راعت بوادره المدرسين ، ويسلمه إلى وظيفة حقيرة مثل وظيفته ، لا لشىء ، بل لأن المدرسين والأساتذة المحترمين ذاقوا لذة الربح ، فنسوا فضيلة القناعة ، ولأن وزارة المعارف وإدارة الجامعة ، لا تحددان الأسعار ، ولا تمنعان الأساتيذ أن يكونوا كالتجار .

(١) هذه أسعار الحرب ، وقد رخص الآن بعضها .

وعى عبد المؤمن أفندى بهـذا الحساب ، وأحس بالبرد قد وصل إلى عظامه ، فازدادت نقمته على الوظيفة وعلى الحياة وعلى نفسه . وعظم سخطه حين سمع صوت سيارة ... من هذا المأفون الذى يمر الليلة على الطريق ، فيزعجه من فراشه ليخرج فيفتشه ؟ إنها سيارة مهربين من غير شك ، ولا بد له من ضبطها لئلا يخون أمانته التى يأكل من ورائها الخبز . ثم عاد فتذكر أن الخبز الأبيض القفار لم يستطع أن يأكله من وراء هذه الوظيفة ، فحمل مصباحه البترولى وخرج وهو ساخط على كل شىء . فلما فتح الباب ، هبت عليه عاصفة مثلجة كاد تقتلعه من أرضه ، ولـكنه استند إلى الجدار وقفز إلى الطريق ، فأقفله بالحواجز الحديدية قبل أن تصل السيارة ... وصفر لها بصفارته ، فضاع صوتها فى هزيم الرياح ؛ بيد أن السيارة كانت قد وصلت ورأى من فيها المصباح الخافت ، فوقفت ، فنظر عبد المؤمن أفندى فلم يجد فيهـا إلا السائق ، ووجدها من سيارات الشحن الـكبار ، وكانت عادته التى يعرفونها عنه أنه يقوم بالواجب عليه على الوجه الأكمل ، ولم يمد يده فى عمره إلى حرام ، ولـكن هذا البرد ، وما فى نفسه من السخط والضيق عدلا به عن عادته ، فاكتفى بادخال السائق إلى المخفر ليسائله ... وأغلق وراءه الباب ، وأعد مسدسه خوفاً من أن تطمع وحدته السائق وتغريه به ، وكان عبد المؤمن أفندى رجلا جلدا جريئا حذراً ، وكانت قد تراءت على وجهه ظلال نقمته التى كان يحسها ، فبدا مخيفا مروعا .

ونظر إلى السائق فإذا هو أحد المهربين المعروفين الذين يقودون القوافل بين عمان ودمشق عن طريق البادية ، وربما بلغت أثمان ما فى السيارة الواحدة منها مائة ألف ليرة ... فهز رأسه ، وأزمع أن يضربه الضربة القاضية ، فما يعقل أن يأخذ السائق أجرة السفرة الواحدة عشرين ألف ليرة ، ويعطى مثلها رشوة لرجال الأمن على الطريق ، ثم يأكل التاجر الباقى ، يسحبه من أفواه المساكين والفقراء ... ويبقى هو الموظف المسكين على مائة ليرة كل شهر ، وقال له :

— أوراقك ، والبيان المصدق بما معك فى السيارة . ثم إن عليك أن تنتظر ريثما تهدأ العاصفة ويطلع النهار لنتمـكن من تفتيشها فإذا كان فيها مهرب ، صودرت السيارة وما فيها !

— قال السائق : أتحب الصدق ؟

— قال : نعم .

— قال : وهل تعدنى أن نتفاهم بهدوء ، ومن غير لجوء إلى الشدة ، أو اقتراب من الهاتف (التليفون) ؟

— قال عبد المؤمن أفندى مستغربا : وما ذاك ؟

— قال : إن فى هذه السيارة بضاعة مهربة ، هى لفلان ، وهو من تعلم مكانته وصلته بالنواب والحاكمين ، وله فيها شريك لو سميته لك لأرعبك اسمه ، وإذا أنت حجزتها ، أطلقها هو ، وأبت بسواد الوجه ، وربما نقلك إلى الجزيرة ...

— فصاح به : اسكت .. وقح ! أتهددنى ؟ سترى كيف أفتشها وأحجزها ، واذهب فاعمل ما تستطيعه . إن القانون يمشى على الـكبير والصغير ...

— قال الرجل بهدوء : لقد وصفتنى بالوقاحة ، وإنى أسامحك. إنى أتـكلم بلسان الواقع ، وأنا أحب أن نتفاهم على مهل . إنك رجل أمين شريف ، وأنا تقديراً لأمانتك أهدى إليك هدية ، قد فوضنى صاحب البضاعة بتقديمها إليك ، تغنيك عن هذا المرتب .

— فغضب وقال : أتعرض على الرشوة ؟ الآن أكتب ضبطا بالحادث ، وأريك ما جزاء من ...

— فوالى السائق كلامه وكأنه لم يسمع شيئا فقال : وهذه الهدية هى عشرة آلاف ليرة ...

فلما سمع بها عبد المؤمن أفندى تراخى ، ورأى السائق ذلك منه ، فقال :

وألف فوقها منى لتدعنى أمر الآن ، فهذا آخر مخفر قبل دمشق ، وأنا أود أن أدخلها فى هذه العاصفة كيلا يعرض لنا أحد ، وإذا أنا وقفت فلن أخبر مخلوقا بما كان بيننا ، بل أقول إنى قادم من طريق آخر ...

لبث عبد المؤمن أفندى لحظة واجما ، ولـكن فـكره كان يدور كما تدور عجلة (الاكسبرس) ، لا يستقر على فـكرة حتى ينتقل عنها إلى غيرها . وكان ماضيه الشريف ، والمستقبل الذى أطل الآن عليه يتقاذفانه ، فـكأنه بينهما كراكب الأرجوحة ، لا يبلغ طرفاً حتى يكر مسرعا إلى الطرف الآخر . وكان صوت ضميره يهتف به أن : دعها ولا تدنس نفسك بها ، فإنها سحت ، ونفسه تناديه أن خذها ووسع بها على عيالك ، وعلم بها ولدك ... ولبث كذلك وهو يسمع من داخله مثل دقات عقرب الثوانى فى الساعة : خذ ، لا تأخذ . خذ . لا تأخذ . إلى ما لا نهاية له ...

وفى دقة منها ، كان فيها (خذ) ، مد يده فأخذ المبلغ ودسه فى جيبه بلا شعور ، وترك الرجل ينصرف .

* * *

أفاق عبد المؤمن أفندى من ذهلته ، فأحس بمثل ما تحس به

الفتاة التى فرطت ببكارتها فى لحظة ضعف وخور ، وتنبهت فى نفسه عواطف الخير التى كان يمسكها دفعة واحدة ، واحتقر نفسه وأبغضها وكره المال ، وتمنى لو استطاع أن يلحق الرجل فيردها إليه ، ورأى ماضيه الذى فقده الآن حلواً جميلا ، وأحب ذلك الفقر الشريف ، واستحال ما كان يجد من السخط عليه رغبة فيه وشوقاً إليه ، وفكر كيف يلقى غداً أهله وصحبه ، وتوهم أنه سيكون بينهم كمن سقط فى حفرة موحلة فامتلأت ثيابه طيناً ، ثم جاء ليجالس الأطهار الأنقياء ، وشعر بجسمه يتلهب كأن فيه ناراً تتوهج ، وبالعرق يقطر فى هذا البرد من فوْدَيه ... وصار كلما حركت الريح الباب ظن أنهم قد جاءوا لاعتقاله ، وأن أمره قد افتضح ، وحار فى هذا المال أين يخفيه ، فوضعه فى جيبه ، ثم خاف أن يفتش ، فنزع حذاءه وجواربه ، فأحاط به رجله ثم لبسها عليه ، ثم تراءى له أن أول مكان يفتش هو الجوارب ، أليس كذلك كان يصنع كلما فتش مهربى الحشيش والهنات الصغيرات ؟ وآلمه أن يرى نفسه قد انحطت إلى دركة مهربى الحشيش ، ولكنه مع ذلك مضطر إلى إخفاء هذا المال ، فأخرجه ولفه فى منديل ، ثم خلع سراوبله ووضعه فى المكان الذى لا يصل إليه أحد ... وعاد يفكر ما ذا يصنع بهذا المال ، وما ذا يقول لأولاده إذا سألوه من أين لك هذا ؟ وما ألف الكذب ولا تعوّده ، وإن هو كذب ألا تفضحه نظراته وحركاته ؟ ثم ما هى الكذبة التى يكذبها ؟ وتصور نفسه أمام المحكمة العسكرية ، وقد سقط من أعين أولاده وأصحابه ... إن زوجته تؤثر أن تراه فقيراً معدماً ، على أن يدخل عليها سارقاً مرتشياً ... واستغرق فى خواطره ... فما نبهه إلا حركة فى الطريق ، فأيقن أنهم جاءوا لاعتقاله ، ففزع إلى مسدسه ليقتل به نفسه ، ثم تذكر أن أشد المصائب أهون من أن يموت عاصياً ، وأنها فضيحة الدنيا بين الرفاق ، ولا فضيحة الآخرة على عيون الخلائق كلها . فمشى بنفسه إلى القضاء المحتوم ، وفتح الباب ، وكانت الرياح قد هدأت قليلا والثلج قد انقطع ، فرأى سيارة مطفأة الأضواء قد تعثرت بالحواجز التى كان أعادها من غير شعور منه بالذى يفعله ، وحاول سائقها أن يدوس الحواجز ويفر ، ولكنها علقت بالدواليب واعترضت سيرها فاضطر إلى الوقوف ، بعد حركة عنيفة كاد يطوّح فيها بالسيارة فيرميها فى الأخدود المائل على جنبى الطريق ...

وصرخ عليه عبد المؤمن أفندى ومسدسه بيده ، فخرج من السيارة وتبعه إلى المخفر وهو مصفر الوجه ، مرتعد الأوصال ، إذ كان حديث عهد بصناعة التهريب ليس له جرأة الأول وثباته ، وأقبل على الجندى فزعاً يقول : دخيلك ، أنا فى عرضك ، والله هذه أول مرة ، وقد ورطونى ، وليس لدى إلا هذه السيارة ، هى مالى كله ومنها معيشة عيالى ...

وانكب على يديه يقبلها ، فتنبهت غريزة الطمع فى نفس الجندى ، وعاد مثله مثل الرجل الذى أقدم على الفاحشة ، ثم ندم عليها وذهب يحاول التوبة ، فدخلت عليه امرأة أخرى قد لبست بدل الثياب الفتنة والإغراء ودعته إلى نفسها ... وقال للسائق :

— دعك من هذا الكلام الذى لايفيد . لا بد من مصادرة السيارة وما فيها ، إلا إذا شئت أن نتفاهم ...

وكأن شعور عبد المؤمن أفندى ، وهو يقول هذه الكلمة ، وقد توترت أعصابه كلها واشتدت ، وقد تجمع كالقط الذى يرى الفأر ، مثل شعور المقدم على الوصال المحرّم ، وهو يرى قبح عمله ولكن الميل إليه غالب عليه ، فهو لا يملك لشهوته رداً ، ولما رأى السائق لايفهم ، ويعود إلى استعطافه ورجائه ، تجرأ وقال له باختصار : كم فوضوك أن تدفع ؟ ثم نظر حواليه هل سمعه أحد ؟ وحول وجهه حتى لا تقع عينه على عين السائق ، وغلب عليه الحياء إذ كانت تلك أول مرة ... فرأى السائق باب الفرج ، وقال عجلا ، الذى تريده ، الذى تأمر به ، بَسْ(1) اسمح لى أمرّ .

قال : اثنا عشر ألف ليرة ! وتوهم لما قالها أنه قذف قنبلة ذرية أخرى ، كالتى ألقيت على هيروشيما ، وأحس رجتها فى أذنيه ... فارتاع الرجل وصاح : أرجوك ، أنا داخل على حريمك(2) ، والله ما معى إلا خمسة آلاف ، إن السيارة محملة غزلا ، وليست كالتى مرت قبلها ، تلك فيها حرير . قال : هات وامش .

وقبض عبد المؤمن أفندى المبلغ فصار معه ستة عشر ألفاً ، مرتب مائة وستين شهراً فى الوظيفة كسبها فى ليلة ، فكيف غفل عن هذا المورد أيامه الماضية كلها ... وعاد يفكر فى الشرف والطهر وفى الفضيحة . . وأحس كأنه قد جن ... ففتح الباب ، وخرج يعدو مع الريح لا يدرى إلى أين يذهب ...

لقد كان يريد أن يفر من المخفر ومن الحكومة ، ومن الرشوات ، ومن صوت الضمير ... ويريد أن يفر من نفسه !

ولم يدر أنه شرب (الكأس الأولى) وفسد ، ولم يعد يصلحه شىء !

(دمشق) **على الطنطاوى**

---

(1) بس معربة قديمة ولا بأس باستعمالها .

(2) هذا من العامى الذى لا ينكره الفصيح

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والجمال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٤ —



طفولة ملتن ونشأته

وأحدثت الوراثة والبيئة أثرهما في جون ملتن، فأحب الأدب وأحب الموسيقى كما أحبهما أبوه ، وظهرت فيه منذ صغره تلك النزعة الاستقلالية التي طرد بسببها الأب من كنف أبيه .

ولا ريب أن جون ملتن قد حرص على أن تنمو هذه النزعة الموروثة في نفس ابنه ، وآية ذلك أنه لم يشأ أن يحمله على ما لا يحب فتركه وشأنه حين أعرض عن الالتحاق بالكنيسة . والحق أن نزوع ملتن إلى الاستقلال سينمو مع الزمن حتى يصبح من أبرز صفاته .

وكان إعجاب جون ملتن بابنه عظيما ، وكذلك كان إعجاب أصحاب أبيه به ، فما سمعوا أشعاره التي ينظمها وهو في الثانية عشرة من عمره إلا أفاضوا من ثنائهم عليه ، وما رأوا إقباله على الدرس إلا تحدثوا بنباهة مستقبله ؛ وإنهم ليرون سمات العبقرية تختلج على محياه الأبلج الجميل وهو بعد في سن اللعب واللهو ...

وأحدثت كثرة الثناء عليه أثراً قوياً في نفسه سوف ينمو على مر الأيام ؛ فقد داخله شعور منذ طفولته أنه فوق مستوى غيره من الأطفال، وأنه سوف يغدو رجلا عظيما، وكان يقوى شعوره بنفسه وإحساسه بمقدرته كلما ازداد اطلاعه واتسع مجال ثقافته .

وكان أبوه عظيم الثقة في كفاية ابنه ومقدرته ، فمول لا يدخر وسعاً في تنشئته ليكون رجلا عظيما ، فاختار له مربياً يعلمه في المنزل هو توماس ينج ، وأرسله إلى مدرسة قريبة هي مدرسة سنت بول ؛ وكان للمربي الذي يتعهده في البيت شهرة في فنه فائقة كما كان (لاسكندر جل) رئيس المدرسة التي ألحق بها صيت عظيم، يمتدح الناس أسلوبه وفنه في التربية والتعليم .

وكان أبوه إذا فرغ من توثيقه ومن ألحانه يعينه بنفسه على فهم ما يقرأ ويرشده إلى الكتب التي تلائم مزاجه وطبعه ، وكذلك كان يعلمه الموسيقى إذ أنس منه إقبالا شديدا على سماع الألحان وتذوقها وتفهم تأليفها .

وشهد مربيه في المنزل ومعلموه في المدرسة أن عقل الصبي أكبر من سنه ، وأن له إلى الأدب ميلا قوياً ، وأن ذوقه الأدبي مولود فيه ، فهو جزء من نفسه ، وهو قوام إدراكه وجسه ، وما وقعت عينا امرىء عليه إلا تبينتا فيه شاعر الغد ؛ فالشواهد فيه على ذلك بينة متعددة ، تطالع المرء في تأمله وتفكيره وفي عذوبة حديثه وسعة ثقافته وجمال عبارته وإشراقها ، وقدرته منذ حداثته على اختيار اللفظ الجميل وقعه في النفس والذهن ، وانفعال نفسه للموسيقى وللبليغ من القول منثوره ومنظومه ، هذا إلى ما تنم عنه ملامح وجهه الوسيم وما تنطق به عيناه الحالمتان الواسعتان من رقة وظرف وصفاء نفسي ، وما يتسم به مظهره من رشاقة وأناقة وسلامة ذوق .

وكان محيط قراءته واسعاً في اللغة الانجليزية وآدابها . وكان للشاعر العظيم سبنسر المتوفى سنة١٥٩٩ مكانة عظيمة في نفسه ، تعمق دراسته وتأثر به تأثراً شديداً ، واستوعب قصيدته العظيمة أو على الأصح كتابه الشهير « الملكة الجنية » وأحاط بما فيها من خيال وجمال ، وفطن إلى ما أراده سبنسر فيها من آراء دينية وخلقية ، فقد كان كل فارس من فرسانها الإثنى عشر يمثل فضيلة من الفضائل ، وكان كل من هؤلاء الفرسان بطل فصل من فصول القصة يدور حول معنى مقصود اتخذت الحكاية وسيلة

لإبرازه وألبسه الشعر القوى الجميل لباساً ساحراً حبيباً إلى القلوب ، وكانت شخصية الفارس الأمير أرثر هي الرابطة التي تربط بين فصول القصيدة كلها ؛ ولهذا كانت أهم شخصيات الكتاب وأحبها إلى القراء . ولقد كان سبنسر أعظم شعراء عصر شكسبير غير المسرحيين ، ومن أشدهم تأثيراً في جيله ، وبعد ثمة من القمم الشوامخ في تاريخ الشعر الانجليزي كله .

وثمة شاعر آخر أقبل على قراءته الصبي انجد ، هو سلفستر المتوفى سنة ١٦١٨ أى بعد عامين من وفاة شكسبير والذى نقل إلى الانجليزية القصة الشعرية الشهيرة التي نظمها الشاعر الفرنسي دى بارتس سنة ١٥٧٨ وموضوعها يدور حول خلق الدنيا ، والتي طبعت ثلاثين مرة في ست سنوات وترجمت إلى ست لغـات .

ولقد أعجب سبنسر نفسه إعجاباً شديداً بهذه القصيدة وبموضوعها ، ولكم وجد فيها الصبي ملتن متعة لنفسه وبخاصة موضوعها الذى ظل خياله في خاطره حتى ظهر بعض أثره فيما بعـد في قصيدته الخالدة الكبرى ، الفردوس المفقود . ولقد أعجب الصبي في تلك السن بمقدرة دى بارتس الفرنسي على اشتقاق ألفاظ جديدة لمعانيه ، كما أعجب بمحاكاة سلفستر إياه في الانجليزية ، فكان لهذه الترجمة أثرها في ذوقه وفنه إلى جانب أثرها في خياله وحسه .

وتطاول الصبي إلى قراءة شكسبير فقرأه على قدر ما يتسع له إدراكه ، كما قرأ بعض المسرحيات الشهيرة لشعراء المسرح النابهين غيره في العصر الأليزابيثي .

وكان كثير المطالعة للإنجيل حتى وعت ذاكرته أكثر أجزائه ، وألف لغته وتذوقها وتأثر بها قلبه ولسانه .

ونهل مع هذا كله من مناهل الإغريق والرومان ، في التاريخ والأدب والشعر والميثولوجيا ، وأحب المنهل الأخير حباً شديداً فكان لا يمله مهما استزاد منه ، وصارت له خبرة بهذه الناحية من خيال الإغريق والرومان قل أن يتوافى مثلها لمن كان في مثل سنه ، ولسوف يمتلىء شعره منذ حداثته بالإشارات البارعة إلى آلهة الإغريق وإلاهاتهم فيما يعرض له من وصف فيلبسه الجمال والسحر ....

هكذا نرى الصبي في أولى مراحل ثقافته ينتقل كالفراشـة الطليقة بين أفواف الربيع الأليزابيثي فيبهج نفسه جمال الربيع ، ويملأ حسه افتتان الربيع ، وترن في جوانب سمعه ألحان الربيع ، وتستقر في خاطره تلك الأصداء الساحرة الجميلة التي تجاوبت بها قيثارات سبنسر وسلفستر وشكسبير ...

فتطير روحه الوثابة فتطوى العصور إلى ربيع قديم أشبه بهذا الربيع الذى انطوى مهرجانه من قريب ، وذلك هو الربيع الإغريقي فتنعم روحه بزينته وقوته وسحر أساطيره وأنغام مزاميره وتختزن ذلك نفسـه كما تختزن الزهرة العطر ، وتحلم تلك النفس الشـاعرة أحلام الخيال والجمال حتى تصرفها عن حلمها البهيج الرؤى فترة فيها كثير من الجد ولا يكاد يوجد فيها شىء من الزينة .

ملتن في الجامعة :

وفى السادسة عشرة من عمره تأهب ملتن ليدخل الجامعة ، فقد اجتاز الامتحان الذى يؤهله لها في يسر ، وتفوق في نجاحه تفوقا ملحوظا وأقدم مزهوا ليلتحق بكمبردج ، وكانت الكلية التي انتظم في سلك طلابها ، والتي لبث فيها من عمره سبع سنين هي كريست ، ولسوف تفتخر تلك الكلية فيما بعد بأن كان ملتن أحد أبنائها ، ولكنها اليوم تتلقاه كما تتلق غيره من الفتيان ، لا تدرى ما ذا يكون غدا من أمره .

وأقبل الفتى على كليته فرحا يداخله من الزهو ما يداخل كل يافع في مثل موقفه ؛ يحدث نفسه في حماس عما هو عسى أن ينهل فيها من المعرفة ويصاحب من الأقران ؛ وما هو عسىٌ أن يأخذ منه بقسط من المناظرة والحوار وتبادل الرأى بينه وبين أقرانه ، وكل أولئك حبيب إلى نفسه التواقة إلى الدرس الطلابة للعلم .

وتلفت الذين سبقوه إلى الكلية يتطلعون على عادة الطلاب إلى أقرانهم الجدد في أول الموسم ، فوقعت أعينهم من بينهم على فتى أنيق الملبس ، جميل الطلعة ، حلو السمت ، في قسماته وسامة رائعـة ، وفى ملامحه أمارات الذكاء ، وفى نظراته جد يشبه الكبرياء ، وفى عينيه تأمل وحلم ، وفى مشيته والتفاتته هدوء ودعة ، وفى تحيته رقة ودمائة .

وسرعان ما تعرف إليه فريق منهم ، فما لبثوا أن أعجبهم اتساع أفقه وحدة ذكائه ؛ وإن كانوا يرون فيـه كثيرا من الاعتداد بنفسه ورأيه ، ويرون فيه كذلك حرصا شديدا ما رأوا قبل مثله على قواعد السلوك واحترام النفس ، يكادون يحسبونه تزمتا وانقباضا لا يرتاحون إليه ؛ وإن فيه لميلا قويا إلى الشعر ، يحفظ منه قدرا عظيما ويشير إلى مواضع الجمال فيما يحفظ ويستمع في شغف وطرب

إلى ما ينشد أقرانه مما غاب عنه ويعجب كيف غاب عنه ؛ ولما توثقت بينهم وبينه المعرفة رأوا فيه شابا يأخذ نفسه بقواعد الطهر والعفة وهو فى ذلك صلب الارادة لا يلين ولا يحيد .

وما لبث ملتن أن أحس أنه علق من الآمال على الكلية أكثر مما يريه الواقع ، فأين منه أيام قراءاته فى بيته ، وأين منه حريته فى هاتيك الأيام الحلوة ؛ إنه كلما ازداد صلة بالكلية أحس فى نفسه النفور شيئا فشيئا من جوها ، والضيق من كثيرين من القائمين بأمرها ؛ ولكن ما من البقاء زمنا بها بد ، وما على المرء إلا أن يحمل نفسه على الصبر حتى ينقضى أمر بقائه ... بهذا كان يتحدث الفتى إلى نفسه ، كلما ساوره من حاله ضيق أو كدر خاطره أمر .

وكانت الكلية غداة التحق بها ملتن لا تزال فيها على الرغم من النهضة بقية من العصور الوسطى ، وذلك فى روحها وفى مواد دراستها ، وكانت أهم مواد الدراسة بها المنطق والبلاغة والفلسفة المدرسية ، واللغتين اللاتينية والأغريقية ، وشىء من علوم الرياضة ، وقليل من الفلك ، وقدر يسير من التاريخ الرومانى ومن عجب ألا يكون التاريخ الانجليزى ولا الأدب الانجليزى من مواد الدراسة ، على أنه كان لمن يشاء أن يدرس هاتين المادتين أن يفعل ذلك إذا أبدى للكلية رغبته .

ولكن على الرغم من طابع العصور الوسطى ، دبت فى الكلية روح النهضة ، فشاعت فيها رغبة الإصلاح والنهوض ، وملأ جوانبها كفاح من أجل هذا الغرض ؛ وكان دعاة الإصلاح يبتغون أن يصلحوا نواحى الحياة كلها ، التعليم والسياسة والدين والاجتماع ؛ فى التعليم رغب فريق أن تتخلص الكلية من بقية العصور الوسطى ، وتعنى فى مناهجها ودراستها بما هو أقرب إلى روح العصر ، وما هو أدنى إلى الإنسانية والحرية الفكرية ؛ وفى السياسة تطلع المصلحون إلى إبراز حق الفرد والاعتراف بكيانه واحترام إرادته ؛ وفى الدين قوى الميل إلى البيوريتانية والبروتستنتية ؛ وإن كان ثمة خلاف قد دب بين الكلفنية والأرمينية ، أعنى بين عقيدة القدر المحتوم التى آمن بها كلفن ، وبين عقيدة قبول التوبة وغفران الذنب التى نادى بها أرمينيوس الهولندى سنة ١٦٠٣ ؛ وفى الاجتماع دعا المصلحون إلى الفضيلة وإلى محاربة الرذيلة ، وظهر أثر ذلك فى تشدد القائمين على أمر الطلبة ألا يسمحوا للفتيات اللائى يتعهدن حجرات نوم الطلاب بدخول تلك الحجرات إلا إذا غادرها أصحابها .

واستجاب ملتن لهذه النزعة الإصلاحية ، فقد صادفت هوى فى نفسه التى تعشق الحرية وتنزع إلى الاستقلال ، وتعلقت بها روحه الوثابة الفتية ؛ وبدأ بها أول شوط له فى الدفاع عن حرية الفكر ؛ ولكن ذلك أخذ يغضب عليه القائمين بالأمر إذ اتهموه بالتمرد والثورة إلا قليلا منهم ، وسبب له كراهة بعض أقرانه ممن لم يعجبه اعوجاجهم وإسفافهم وشراسة طباعهم .

لم يدع ملتن فرصة اجتماع إلا وقف يندد بالفلسفة المدرسية معلنا أنه لا يرى فيها أية فائدة ، ولئن اقتصرت الكلية على هذا المنهج فلن يكون من ورائه جدوى . وراح ملتن يسخر من تلك الكتب التى تدرس فى الكلية ، والتى هى آثار أشياخ ضيق الصدر من القساوسة تشم فيها رائحة الحجرات الضيقة المظلمة التى كتبت فيها ؛ ويتساءل : أليس أجدر بنا وأجدى علينا أن ندرس بدلا منها طبائع الكائنات الحية وأخلاق الناس وأحوال دول العالم ؟ ويوجه ملتن سهاما لاذعة إلى مدرسى المنطق والبلاغة ، فهم يتكلمون كما يتكلم المتوحشون والأطفال ، وإنه يراهم أقرب إلى العصافير منهم إلى الرجال ...

ويعجب الطلاب من حمية هذا الفتى الذى عهدوه فى مجالسهم وديعاً رقيق الحاشية ، وتعجبهم حماسته وجرأته وصراحته وتمرده على القيود التى طال بها العهد ؛ ولكن المدرسين ساخطون عليه ناقمون على ثورته ، يرمونه بالغرور ويتهمونه بالشغب والعناد والعصيان ، وقد شاع أمره فيهم حتى ضاقوا به ذرعا من يعلمه منهم ومن لا يعلمه .

وأدى بالضرورة مسلكه هذا إلى الشحناء بينه وبين القائم على أمره من رجال الكلية وهو « شابل » فكان يحس أن الطالب جون ملتن يحتقره بنظراته ، ولعله يراه متوحشاً أو طفلا أو نوعا من العصافير ؛ ويرى أنه يخالف عن أمره ، فلا يؤدى ما يطلب إليه أداؤه كتابة من دروسه ، ولا يتقيد بما رسم له من نظام فى حياته اليومية ؛ يريد أن ينصرف إلى ما يحب من قراءة ، ويعلن إلى معلمه أنه لا يقتنع بجدوى تلك العلوم التى هى تراث العصر المدرسى ، وأنه يأسف على فقدانه حريته التى نعم بها قبل التحاقه بالكلية ؛ ويرى أنه كان يجد فى مدرسة سنت بول من العلم المجدى ما لم يجد مثله هنا ، ومن الحرية ما لا يجد بعضه فى الكلية ، ومن عطف معلميه ومسايرتهم إياه إلى ما يحب ما لا يتمتع هنا بشىء منه .

(يتبع)

الخفيف

الســـــلاجقة

عنصر قوة فى الاسلام

[بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء] « حديث شريف »

للأستاذ حسن حبشى

ليس من شك فى أن ظهور السلاجقة على مسرح التاريخ يعد نقطة انتقال هامة فى التاريخ الإسلامى ، فقد نشأت عدة دويلات من هذه الزمرة الصغيرة التى خرجت من بخارى يقودها سلجوق ويدفعها حبها للمخاطرة . أما من الناحية الدينية فقد كانوا حماة الإسلام ، يذبون عن بيضته ، وينافحون عنه ، ونبغ فيهم رجال نصروا الحنيفية السمحة ، كما ظهر فى أيامهم أئمة أدرجوا فى عداد المجتهدين ، وحسبنا أن نذكر من هؤلاء حجة الإسلام الغزالى . كتب الأستاذ هربرت لوى يقول : « إنه لا يعزى إليهم فحسب ما منى به الصليبيون من فشل ذريع ، بل يرجع إليهم كذلك الأثر غير المباشر للشرق على الغرب ، ذلك الأثر الناجم عن الاختلاط الذى كان بين الفرنجة والمسلمين فى الحروب المقدسة ، وقد كان ظهور شأو السلاجقة مقويا للمذهب السنى ، كما يرجع إليهم الفضل فى إعادة الوحدة إلى الإمارات الإسلامية الممزقة ، كما أنهم وضعوا أسس الأمبراطورية العثمانية فى القسطنطينية[(١)] » .

هاجر سلجوق[(٢)] من تركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، ويعزو الأستاذ هربرت ظهور سطوته إلى هذه الهجرة وإلى اعتناقه هو وقبيلته الإسلام . وأصبحوا من دعاة المذهب السنى على عكس الفرس الذين سايروا المذهب الشيعى[(٣)] .

ظهر السلاجقة فى وقت كانت عوامل الضعف والانحطاط تعمل فى جسم الخلافة العباسية ، فقد أحاط الخلفاء العباسيون أنفسهم بالحرس التركى ، وذلك يرجع كما يذهب الأستاذ شفيق غربال بك[(١)] إلى موازنة النفوذ الفارسى الذى كان قد تغلغل فى جميع مصالح الدولة ، وقصة البرامكة — وهم من أشراف الفرس — وما نكبوا به ، أجلى برهان على ما وصلوا إليه من عليا المراتب فى الدولة « حتى غدوا الحكام الحقيقيين لهـا مما جعل الخليفة (هرون) يجمع العزم على التخلص من العائلة بأكملها[(٢)] » .

لما تسلم بنو العباس أزمة الحكم ، لم يكن معنى ذلك استتباب الأحوال لهم ، فقد انقلب عليهم بنو عمهم العلويون الذين لولاهم لكان نجاح العباسيين ضئيلا[(٣)] ، وكان بجانب هؤلاء الخوارج والمعتزلة والزيدية وغيرها من الفرق الإسلامية ، وكان الشيعة أعداء أقوياء الشكيمة ، وإن كان ينقصهم التنظيم . ودب الضعف فى الدولة العباسية ، فانسلخ منها كثير من الولايات الخاضعة لها « فكان قيام دولة الأدارسة فى مراكش (٧٨٨ م) على يد إدريس بن عبد الله ، والأغالبة فى تونس (٨٠٠ م) على يد إبراهيم بن الأغلب ، ودولتى الطولونيين والإخشيديين فى مصر . كان قيام هذه الأمارات خسارات فادحة للخلافة منيت بها فى نواحيها الغربية ، ولم يكن الشرق أوطد مركزاً من ذلك ، فقد كان من أثر السياسة التى سلكها الخليفة المأمون أن ظهرت فى فارس وبلاد ما وراء النهر روح قومية عظيمة ، كان من نتائجها قيام دويلات مثل الصفراوية (٨٦٧ — ٩٠٣ م) والسامانية (٨٧٤ — ٩٩٩) كما نشأ من الأخيرة الغزنويون ، لأن البتچين

---

(١) Cambridge med. Hist. vol III p, 299—300

(٢) تزعم القصص الموضوعة أنه من نسل أفراسياب ملك تركستان ، والعدو الخرافى للأسرة الفارسية الأولى (المرجع السابق ص ٣٠٠ س ١٥ — ١٧) وإن كان الأستاذ توت فى (Empire & Papacy) يرى أن الشهرة التي يتمتع بها سلجوق يعتورها كثير من الخرافة .

(٣) لعل سائلا يسأل عن سر ذلك الاختلاف بين هذين الجنسين والذي أراه ينبنى على ما ذهب إليه دوزي ، من أنه لما كان الفرس مفطورين على اعتبار ملوكهم من نسل الآلهة فقد نقلوا هذا التوقير الوثنى — إلى على وذريته ، وكانوا يعدون الخضوع التام للامام الناجم من بيت على أعظم عمل يؤديه المرء منهم ويثاب عليه ، كما كان الامام عندهم كل شىء ، فكانوا يرونه الله صيغ فى شكل آدمى ، راجع Dozy : Essai sur l'histoire de l'islamisme, p, 219 . وقد ذهب الأستاذ براون لما يقرب من هذا حين تكلم عن ميل الفرس للشيعة ، فذكر مسألة (الحق الالهي) وما كان لها من تأثير كبير فى تاريخ الفرس فى العصور الاسلامية ، وإن كانت ترجع إلى عهد الوثنية . راجع Browne : A Lit. Hist. of persia, vol I p, 130.

(١) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ غربال ألقاها على طلبة السنة الثالثة بكلية الآداب فى الفصل الدراسى (١٩٣٦ — ٧ م)

(٢) R. Nicholson : A Lit Hist. of the Arabs p, 260

(٣) Herbest Lœwe in Cam. M. Hist. vol III p, 300

مؤسس هذه الأسرة الأخيرة كان مملوكا تركيا فى البلاط السامانى، كما أن سلطان آل بويه قد شل قوة الخلفاء، وألزمهم قصورهم[١] » ومع أن هذه الدول اعترفت بالسلطان الدينى للخليفة إلا أن هذا الاعتراف كان إسميا . ويذكر السيد أمير على أن هذا الاعتراف كان لإكساب هاتيك الدول قوة ظاهرة ، وحتى تعتبر كل ثورة ضدها ثورة غير شرعية[٢] .

لكن متى بدأ الضعف فى الدولة ؟

التاريخ سلسلة متصلة الحلقات ، ومعنى لا نستطيع أن نحده . ولو فعلنا ذلك ، كان اعتمادنا عادة على الظواهر العامة البارزة التى يمتاز بها عهد من عهد .

وقد ذهب الأستاذ نيكلسون إلى تقسيم الخلافة العباسية قسمين : أحدهما عهد القوة ، ويبدأ باعتلائها العرش حتى حكم الواثق وهو قرن من الزمان . أما عهد التدهور ، فيبدأ بالمتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م) ، ويمتاز بأنه عهد انحطاط سريع أعقبه سقوط هائل خابت كل الوسائل فى علاجه[٣] . أما أبو المحاسن[٤] فيذهب إلى أن تدهور الخلافة بدأ باعتلاء المستكفى عام ٩٠٢م . وربما كانت علة هذا التدهور أيضا سعة الأقطار التى كانت تحت إمرة الخلافة العباسية ، إذ كانت دولا كبيرة متعددة لا يربطها بها غير دفعها الجزية[٥] .

والملاحظ فى الدولة العباسية أن السلطة — أيام قوتها — كانت فى يد الخليفة ، أما حيث بدأ الضعف يدب فى أوصالها ، فقد انتقلت هذه السلطة إلى أيدى الوزراء ، فأين وزراء المنصور[٦] والسفاح ، من هذه الوزارات الست[٧] فى عهد المأمون ؟

(١) Loc. Cit.

(٢) Cf, Sayed A. Ali : Short Hist. of the Saracens, p, 403.

(٣) نيكلسون : نفس المرجع ص ٢٥٧ (س ١٣ — ٢٢)

(٤) النجوم الزاهرة (طبعة جينبول) ج ٢ ص ١٣٤ ، ونيكلسون هامش رقم ١ ص ٢٥٧ .

(٥) T. Arnold Preaching of Islam, p, 275

(٦) قال الفخرى (الآداب السلطانية ص ١٠٦) « لم تكن الوزارة فى أيامه طائلة ، لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور فى الأمور دائماً ، وإنما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف ، فلا تظهر لهم أبهة ولا رونق »

(٧) الفخرى (الآداب السلطانية) ص ٢٠٢ — ٢٠٨

هذه مقدمة وجيزة لتبيان حال الضعف التى وصلت إليها الدولة العباسية وكاد يودى بها لولا أن قيض الله لها (السلاجقة) ، فأنقذوا الإسلام « كما أن شخوصهم شطر الغرب أضاف عنصرا جديدا إلى الإسلام مكن المسلمين من الوقوف ضد الغزاة الأوربيين ، ووحدوا الإقليم الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند تحت زعامة واحدة وإن كان لفترة محدودة ، وردوا الصليبيين والبيزنطيين[١] مادين فى حياة الخلافة العباسية التى ظلت قائمة حتى تخريب المغول لبغداد عام ١٢٥٨ م ، ويعزى إليهم قيام الدولة الأيوبية فى مصر[٢] » .

من هذه العبارة نستدل على ما كان للسلاجقة من شأن عظيم فى تاريخ الإسلام والشرق عامة ، وبخاصة أنهم ظهروا فى وقت قد تمزقت فيه أوصال الخلافة أو كادت ، « وما كان من قبل مملكة متحدة تحت إمرة حاكم مسلم أصبح الآن عدة دويلات مبعثرة لا رابط بينها[٣] » ومما زاد فى تفرق بعضها عن بعض هذه المذاهب المختلفة ، فكان قيام السلاجقة رجحانا لكفة أهل السنة ولم يطل بهم الزمن حتى أسسوا ممالك سلجوقية خارج العراق كما فى الهند وتركيا .

وحد السلاجقة دويلات كثيرة منها فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى ، فرفرف علم إسلامى واحد على آسيا من حدود أفغانستان الغربية حتى البحر الأبيض المتوسط[٤] .

عرف السلاجقة بالجرأة والقوة والحول[٥] ، وتعاور الحكم كثيرون من أمرائهم ، وحسبنا إشارة موجزة لبعضهم .

كان لسلجوق أربعة أبناء يدعى أحدهم إسرائيل ، ألقى القبض عليه السلطان محمود وأسره وظل فى أسره سبع سنوات[٦] ومات

(١) يقول لين بول فى (Moham. Dynasties, p, 150) « ولقد أحيوا عصبية المسلمين بعد ركودها ، وأوجدوا جيلا من المحاربين المسلمين المتعصبين الذين يرجع إليهم — أكثر من أى شىء آخر — ما منى به الصليبيون من إخفاق مرات عدة ، وهذا ما يجعل للسلاجقة المكانة الهامة فى التاريخ الاسلامى »

(٢) تاريخ كمبردج السابق (نفس المرجع والجزء والصفحة) .

(٣) S. Lame-Pool op. cit. p, 149

(٤) Camb. Med. Hist. III p, 150

(٥) الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق (طبعة مصر ١٣١٨هـ) ص ٥

(٦) Browne op. cit. vol II p, 167

فى أسره ، فأثار ذلك غضب أهله . ورأى ابنه قتلمش الخير فى الهرب ، ومن ثم اتخذ طريقه إلى بخارى حتى يكون بمنجاة من نقمة السلطان ، وهناك أثار حمية أقاربه للأخذ بثأر أبيه ، والثأر عند القبائل – كما يقول نيكلسون – مرض من أمراض الشرف هو أقرب إلى الجنون ، أورد الأستاذ براون[١] (عن الراوندى) أن هجرة قتلمش وأهله ، كانت فى أيام السلطان محمود وبأمره .

وأول من يهمنا أمرهم طغرل بك ، دخل هذا الزعيم السلجوقى بغداد فى ديسمبر عام ١٠٥٥ م ، « وأجلس على عرش وألبسوه لباس التشريف » . ومما زاد فى توثيق العلاقات بين طغرل وبين الخليفة القائم زواج الأخير من ابنة أخى الأول وتدعى خاتون خديجة ، وتذكر الأقاصيص أن هاتفا جاء لطغرل فى المنام يدعوه للخروج لغزو بلاد الموصل وديار بكر وسنجار ، فلبى الهاتف ثم عاد إلى بغداد فشكره الخليفة لنصرته الدين ، وسماه ملك المشرق والمغرب[٢] .

لم يقنع طغرل بك بما نال من سلطة واسعة ، وما هو فيه من نعمة يتقلب فى مطارفها ، بل تاقت نفسه لتوثيق صلاته أكثر بالخليفة ، فهداه تفكيره إلى الزواج من ابنة السلطان[٣] ، وتدعى سيدة النساء[٤] ، ويظهر أن الخليفة لم يكن راضيا عن هذا الزواج ولعله كان يرى فى ذلك طمع طغرل فى أن يكون خليفة من بعده . ومن يدرى ؟ فلربما كان يريد الاستئثار بالحكم من دونه ، ذكر ابن الأثير أن الخليفة انزعج من ذلك وأرسل فى الجواب أبا محمد التميمى ، وأمره أن يستعفى فإن أعفى وإلا تمم الأمر[٥] . وعقد له عليها ، لكن عاجله الأجل إذ توفى فى العام التالى فى مدينة طغرشت ، فرجعت ثانية إلى بغداد ، وقد وصفه ابن الأثير[٦] بقوله : « إنه كان حليما عاقلا من أشد الناس احتمالا ، وأكثرهم كتمانا لسره . ظفر بملطفات كتبها بعض خواصه إلى الملك أبى كاليجار فلم يطلعه على ذلك ، ولا تغير عليه ، حتى أظهرها بعد مدة طويلة لغيره » .

(١) Ibid, p 170

(٢) Ibid. p 172—173

(٣) وفى قول آخر « أخت الخليفة » وهذا ما ذهب إليه البندارى فى كتابه « راحة الصدور » (راجع Browne Lit. Hist of Persia, p, 173 ، أما ابن الأثير فقد ذكر أنها ابنة الخليفة .

(٤) Rare accounts p 28

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٧

(٦) شرحه ج ١٠ ص ١٠

جاء بعده ابن أخيه جغرى داود[١] ، ويدعى ألب أرسلان ، وقد حدث قبل توليته أن مال عميد الملك الكندرى لتولية أخيه سليمان بدلا منه ، غير أنه أخفق فى مسعاه مما أثار ضغينة ألب أرسلان ، فما كاد يتبوأ العرش حتى نفى الكندرى إلى مرو ، ولم يطل عليه الزمن فى السجن فقد لقى مصرعه وقتل بأمر ألب نفسه ، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ براون[٢] ، وكان مقتله كما يذكر ابن الأثير بعد سنة فى الاعتقال ، وفى ذلك يقول أحد الشعراء مخاطبا السلطان :

وعمك أدناه وأعلى محله ... وبوأه من ملكه كنفاً رحبا
قضى كل مولى منكما حق عبده ... فخوله الدنيا وخولته العقبى[٣]

واختير مكانه الأديب العالم « نظام الملك » . وأهم ما يذكر به عهد ألب أرسلان انتصاره على ملك الروم أرمانوس[٤] Romanus TV ، كما انتصر على قتلمش ، وامتدت رقعة مملكته حتى ليقول ابن الأثير إن ملكه امتد من أقصى بلاد ما وراء النهر إلى أبعد أطراف الشام . ولقد أجمل الأستاذ براون فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى (ص ١٧٧) كل أعماله ، وهى جديرة بأن تجعله فى مصاف أعظم السلاطين . أما مصرعه فكان على يد مستحفظ قلعة يدعى يوسف الخوارزمى إذ ضربه بسكين فى خاصرته . وكان قد أخذ البيعة فى حياته لابنه السلطان ملك شاه ، وهو آخر السلاطين السلاجقة الذين ظلت أزمة الحكم فى يدهم ، ولم تتوزع الأهواء بينهم .

حسن حبشى

(١) ذكر الأستاذ براون فى (Rare acc. (No 1 أنه وجد فى المخطوطات التى عثر عليها أن هذا الاسم يكتب عادة جغرى ، ولكن فى الورقة ٤٥ كتب چغرى .

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia vol III p, 173—4.

(٣) ابن الأثير : ص ١٢

(٤) لانرى بأساً من إيراد ماذكره الأصفهانى (تاريخ آل سلجوق ص ٣٧ — ٤٢) فى هذا الصدد « قال ألب أنا أحتسب عند الله نفسى ، فإن سعدت بالشهادة فنى حواصل الخضر من حواصل النسور الغبر رمسى ، وإن نصرت فما أسعدنى » ولما وقع أرمانوس فى يده لم يقتله لقوله « انظر عاقبة بغيى ، والعقوبة التى جرتها لى جريرتى » ولكن شعبه أبى أن يوليه عليه زاعماً أن المسيح ساخط عليه .

قصص فرعونية :

قصـــة سينوحيت

لأديب مصري قديم

بقلم الأستاذ محمد خليفة التونسي

الأدب المغبون :

أما قبل أن نضع القصة بين يديك فلنقف وقفة قصيرة لننظر ما حل بأدب مصر التي تدين لحضارتها بالفضـــل العميم كل الحضارات التي أعقبتها منذ فجر التاريخ حتى حضارتنا الراهنة في جميع بقاع الأرض .

نعرف لكل أمة أدبها : فلكل من الإغريق والرومان والعرب والأتراك والفرس والإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والألمانيين والروس أدبهم ، ولأدب كل أمة قراء يقبلون على قراءته ودرسه للتمتع والانتفاع ، وله في ثقافتنا نصيب كثير أو قليل ، ولكن أدب مصر القديمة لم يقدر له حتى اليوم في اللغة العربية أنصار يقدمونه إلى أبنائها — ولا سيما المصريون — كما قدر له أنصار مقتدرون في سائر اللغات الأجنبية الحية ، ولا يعدو ما كتب باللغة العربية حتى اليوم أن يكون محاولات فردية ضئيلة لا تجد معيناً ولا موالياً ، وهو شيء قليل لا خطر له ، فهو لا يعرفنا بحقيقة هذا الأدب الرائع وآفاقه التي امتد إليها ، ولم يقدر له أن يكون ذا أثر ما في ثقافتنا الراهنة التي لأدب كل أمة فيها نصيب

ومحاولتي هذه لا غنى بها عن قراءة ما كتب في هذا الباب في المؤلفات الأجنبية المطولة والمختصرة ، فهي محاولة ضئيلة لتعريف القارىء العادي ببعض آثار الأدباء المصريين الأقدمين في بعض نواحي الأدب ؛ فليعلم أنها جهد المقل إن شاء قنع به في غير مقنع ، وإن شاء المزيد اتخذ سبيله إلى التواليف الأجنبية الحافلة بكل ما يشتهيه ، وكل ما يقنعه بخطر هذا الأدب الرائع . ولعل هـذا يصادف قارئاً أوسع مني فراغاً وأغزر ثقافة وأوفر صبراً فيكون أقدر مني على النهوض بإنصاف هـذا الأدب المغبون ، وإعطائه ما له في اللغات الأجنبية الحية ، فيصحح نظرتنا إلى أولئك الأجداد الكرام حتى نعرف لهم فضلهم ونقدر أدبهم قدره ، وذلك في نظري مظهر لوطنية لا يقل جمالاً وفضلاً عن سائر مظاهرها الأخرى .

عصر الفصة :

أما بعد فربما كنت أيها القارىء محتاجاً إلى أن يتهيأ لك جو القصة لتكون أكثر فهماً لها وإحساساً بها ، فقليل ما وقفنا عليه في تعليمنا المدرسي والجامعي من تاريخ المصريين الأقدمين ، وهأنذا أقدمه على قدر المستطاع .

أمر ملك مصر بطليموس فيلادلفوس كاهناً مصرياً كان يعيش في مدينة سمنود ويسمى ما نيثون أن يكتب تاريخ الفراعنة قبله ، فصدع بما أمر وابتكر تقسيمهم إلى طبقات أو أسرات . ومنذئذ حتى الآن وكثير من المؤرخين الذين أعقبوه يتابعونه في ابتكاره فيسلسلون الفراعنة في ثلاثين أسرة ، ويقسمون هـذه الأسر إلى ثلاث دول : الدولة القديمة وتبدأ بالأسرة الأولى ومؤسسها مينا أو نارمر على خلاف وتنتهي بالعاشرة . والدولة الوسطى وتنتهي بالسابعة عشرة. ثم الدولة الحديثة وتمتد إلى الثلاثين حين احتل الفرس مصر حتى أجلاهم عنها الإسكندر الأكبر .

قبل أن تأفل شمس الدولة القديمة ، وإن شئت الدقة فقل في عهد الأسرة السادسة الذي أعقب عهد بناة الأهرام بدأت مصر تضعف بضعف ملوكها ، وظهرت في كل إقليم أسرة قوية على رأسها أمير اغتصب من الملك وظائف الدولة كالإدارة والقضاء وصار له فيه شبه استقلال ، وبذلك ظهرت الإمارات أو ما يسمى العهد الإقطاعي .

وكان لكل من هذه الإمارات عاصمة ، فكانت تلك العواصم كأرمنت وطيبة وأسيوط تتنازع السلطان وتحترب فيما بينها طمعاً في توسيع رقعتها بالاستيلاء على أملاك جاراتها ، وامتدت تلك الفوضى حتى نهاية الأسرة العاشرة .

كان أظهر أسرتين إذ ذاك أسرة هركليوبوليس (أهناسية) وأسرة طيبة (الأقصر) وقد ظلتا تحتربان زمناً وتم الغلب أخيراً لأمراء طيبة فبدأ شأنها يعظم وسلطانها يمتد حتى شمل مصر ، وكان ذلك بدء نشوئها وارتقائها حتى نالت شهرتها التاريخية

الخالدة . وكما انتصرت طيبة على سائر العواصم انتصر إلهها أمون على سائر الآلهة المصرية فصار أبرزها ، وعمت عبادته أرجاء مصر وصار لكهنته السلطان على سائر الكهنة والمصريين .

وقد ساعد على نشوء طيبة وتفوقها موقعها الجغرافي . فهي تتوسط سهلا خصيباً واسعاً أمامه أرض قاحلة ذات أخاديد ووهاد مما يساعد على حمايتها وسد وادي النيل عندها في وجوه غزاتها ، كما ساعد على ذلك قوة حكامها ، وبسالة رجالها الذين يؤلفون جيشها ، وتلك طبيعة رجال الجنوب الأقصى حتى الآن بحكم ذلك الموقع الجغرافي ...

وقد استطاع أميرها أن يوحد مصر ، ويخضع سائر أمرائها لسلطانه ، وذلك بدء الأسرة الحادية عشرة (الدولة الوسطى) وأعقبتها الأسرة الثانية عشرة التي يعد عصرها أزهر عصر في الدولة الوسطى ، وأول ملوكها أمنمحعت الأول(سحتب آب رع) الذي شق طريقه إلى عرش مصر واستوى عليه فرعوناً جباراً برغم كل الاضطرابات التي كانت تسود مصر ، واستطاع ضم مصر في وحدة قوية ضماً تاماً بأن استمال بعض الأمراء بتوسيع إقطاعاتهم وتأديب العصاة منهم ، واهتم بمصالح الفلاحين ، ووضع الحجارة لتكون حدوداً بين الأراضي ، وبين لكل منهم أرضه ، وأمده بالمياه التي تكفيها ، وجيش الجيوش ورمى بها من كانوا يهددون حدود مصر ولا سيما في الجنوب لإخضاع بلاد النوبة (كما ورد في القصة عن خليفته) وملأ جو مصر رغداً وأمناً ، حتى قال بحق : لا جائع ولا ظمآن تحت حكمي . »

ومما يدل على حصافة الرجل وبعد نظره أنه ربى ولي عهده أسرتسن أفضل تربية ، وأسند إليه قيادة كثير من حملاته التي وجهها لدفع الغزاة عن مصر أو لتوسيع أملاكها ، وقبل أن يقضي نحبه بعشر سنوات شعر بضعف الشيخوخة فاعتزل الملك وأقام أسرتسن خلفاً له ، وظل إلى جانبه يرعاه ويسدد خطاه في السياسة والإدارة والحرب ، ويشرف على أعماله أثناء غيابه عن العاصمة في غزواته ، إذ أنه كان يقود جيوشه بنفسه .

وحوادث هذه القصة تبدأ في هذه الفترة أثناء عودة أسرتسن من إحدى حملاته في غرب (ليبيا) قافلا إلى عاصمته طيبة في الجنوب ، ففي طريقه جاءه رسول من القصر ينعى إليه أباه ، وكان من رجال حملته الأمير سينوحيت الذي أورد الكاتب القصة على لسانه ـ واقفاً بجانبه والرسول يسِرّه بالنعي ، ففر بحياته الهددة مجتازاً واديا شرقي إدهى (الدلتا) ثم الصحراء الشرقية ثم شمال سينا حتى بلغ فلسطين التي كان يسكنها العامو ، وبهذا الاسم ورد ذكرهم في القصة .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن سينوحيت الذي أجرى الأديب القصة على لسانه كان ابناً لامنمحعت ، وقد يزيد بعضهم أنه ابن غير شرعي بدليل ماورد في القصة من اتصاله المسكين بالملكة والأميرات ، وهذه الألقاب الضافية التي أسبغها عليه الأديب مما يدل على قوة قرابته من الملك .

ويذهب البعض أيضا إلى أنه لم يهرب من مصر إلا خوفاعلى حياته من أسرتسن أن يقتله حتى لا ينازعه بعد موت أبيه العرش الذي استولى عليه قبلئذ بعشر سنوات في حياة أبيه .

وهذه القصة تصف كثيراً من أحوال مصر وأمنمحعت وأسرتسن والبدو من قبائل الصحراء الشرقية وسينا وسكان فلسطين وعلاقة مصر بجاراتها في ذلك العهد البعيد(نحو ٢٠٠٠ سنة ق . م) وكل أولئك ينطبق على ما هو معروف في التاريخ عن ذلك العهد حتى أن أثريا ثقة هو العالم الإنجليزي السير فلندرز بتري[١] Sir Flinders Petrie يذهب إلى أنها قصة دونها صاحبها لإثبات حوادث تاريخية كما كان الملوك قبل ذلك يدونون وقائعهم على جدران قبورهم وآثارهم . ويرى أنه لا يبعد أن يعثر المنقبون يوما على قبر هذا الأمير سينوحيت ، وأن يجدوا هذه القصة منقوشة في قبره .

القصة

حدّث الأمير سينوحيت حافظ أختام الملك ونديمه الوفي ، والفيصل في المشكلات ، والقيّم على أحوال الغرباء . قال : كنت في حاشية سيدي الأمير وقرينته العزيزة عنخت أسرتسن سليلة الملوك وشريكة حياة ولي العهد .

---

(١) راجع كتابه : قصص مصرية Egypttan Jales وله أيضاً كتاب تاريخ مصر في ثلاثة أجزاء A History of Egypt (3 vol) وكتاب مصر قبل التاريخ Prehistoricc Egypt

وحدث فى السابع من بابة من العام الثلاثين أن تسلل الإله القمر ، وقبض روح الملك الطيب سحتب آب رع (امنمحعت الأول) التى صعدت إلى السماء راجعة إلى مصدرها ، وهكذا قدر للقصر الزاهر أن تطبق عليه الكآبة ، فتوصد أبوابه ، ويخر خدمه على وجوههم حداداً على مولاهم العظيم .

حدث ذلك بينما كان جيش مصرى جرار يخوض غمار معارك طاحنة فى الغرب ، إذ كان الملك قد بعث قبل موته بهذا الجيش إلى تمهو (لوبية) وزوده بطائفة من خيرة قواده ، وكانت قيادته العليا للإله الباسل الملك أسرتسن ابنه وخليفته فى ملكه ، وما انتهى الجيش من حروبه حتى قفل راجعاً وقد غنم كثيراً من الأسرى ، وقطعاناً لا حصر لها من الأنعام .

قرّ رأى رجال البلاط أن ينهوا إليه خبر الفاجعة ، فبعثوا إليه برسول يحمل النعى إليه أثناء رجوعه من الغرب قبل أن يصل ، ولما جاءه الرسول كان الظلام قد أطبق على الأرض فأفضى إليه برسالته قائلا : « لقد طار الصقر » .

كان غرض الرسول بهذه التعمية ألا يقف أحد من رجال الجيش على جلية ما حدث ، غير أنى لم أكن بعيداً عنه حين أفضى إليه الرسول برسالته ، فسمعتها ، وما كدت أسمعها حتى وعيتها فزلزلت لها زلزالا شديداً .

استحوذ الخوف علىّ ، واشتدت خفقات قلبى ، وسرت فى أوصالى هزة هائلة ، وإذا بساقىّ تنطلقان بى بعيداً عن الجيش ، وكانت عيناى أثناء عدوى لا تنفكّان تنقبان ذات اليمين وذات الشمال عن مأوى ألجأ إليه من مخاوفى ، فما ظفرت بعد لأى إلا بنباتات قليلة انطرحت خلالها مختفياً عن أعين الجيش ، متربصاً أن يمر علىّ فلا يرانى .

وعَبر بى الجيش فلم يرنى أحد ، ولم أكد آمن نظراته حتى انطلقت أعدو إلى الجنوب ، ولكن لا لأعود إلى العاصمة بل لأهرب بحياتى ؛ فقد رسخ عندى أن لاحياة لى بعد أن مات الملك .

وطفقت أغذ خطاى حتى انتهيت إلى الجيزة فجعلتها خلفى ، وواصلت سراى حتى بلغت سنفرو فبت ليلتى تلك فيما حولها من المزارع .

وعند ما أشرقت الشمس شرعت أسير ، وفى أثناء الطريق لقينى رجل فخاف منى ، وطلب منى الأمان ، فتركته وتابعت رحلتى ، وقبل حلول الليل رأيتنى عند كراهاو ، وهنا وجدت طوفا على شاطىء النهر لا سكان له ، فامتطيته تاركا نفسى تحت رحمة التيار الذى دفع طوفى إلى شرقى آكو ، وهى للربّة حربت ربة الجبل الأحمر ، وكان بها كثير من المحاجر ، وهناك بلغت الضفة الشرقية فهبطت من الطوف وتركته .

ولم أتمهل هناك بل انطلقت إلى الشمال حتى بلغت مسلحة أقامها الملك فى ذلك الثغر [1] لمدافعة جموع الساتى ، فاعترانى الخوف من أن يرانى رجال الحامية الذين كانوا يتناوبون حراسة الحدود من فوق الأسوار ، فاختبأت وراء شجرة هناك حتى لا تقع أنظارهم علىّ .

وقد أفلحت فيما أردت ، وبقيت فى مخبئى حتى إذا عسعس الليل برزت أخدس فى مناكب الأرض إلى أن تنفس الصبح ، وإذا أنا عند بتن ، فتركتها وانحدرت فى وادى كيمور [2] .

وفى هذا الوادى مرت علىّ تجربة قاسية شعرت معها بأنى هالك لا محالة ، فقد عرانى ظمأ ملح ، جفف حلقى ، وحشرج أنفاسى ، وجعل صدرى ضيقاً حرجاً . ولكنى لم أيأس ولم أهن ، بل اعتصمت بالصبر ، وأجمعت أمرى ، وإذا أنا بأصوات تطرق أذنى ، وغناء عذب يهبط علىّ بالسكينة والأمل ، ثم إذا رجال من الساتى كانوا يتجولون هناك ، وكان فيهم رجل رحل إلى مصر فعرفها وأحبها ، وقد عرفنى الرجل فأكرم وفادتى ، وسقانى ماء ولبناً فرويت وشبعت ، وقادنى إلى خيمته ، وأضافنى هو ومن معه فأحسنوا ضيافتى ، ثم دعتنى قبيلة أخرى إلى الإقامة بينهم فلبيت دعوتهم ، ونزلت فيهم أياما ، ثم رحلت شرقا حتى بلغت بى الرحلة أدوم فنزلتها .

(البقية فى العدد القادم) **محمد خليفة التونسى**

---

(١) الثغر الموضع الذى يخاف منه هجوم العدو ، وربما كان المقصود بالمسلحة هنا مدينة (عين شمس) التى كان الملك أسرتسن قد بدأ بناءها فى ذلك الحين ، ويعزز ذلك قربها من الجبل الأحمر المذكور فى القصة .

(٢) هو وادى طوميلات جنوبى إقليم الشرقية .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٦٧٣ — عزله بنقرة ...

ولى عبد الله بن طاهر بعض بنى أعمامه مرو ، فاشتكاه أهلها ، ووفد جماعة منهم على عبد الله وشكوه إليه ، وأكثروا القول فيه . فقدر أنهم يتزيدون عليه فلم يعزله . فلما انصرفوا قال بعض المشايخ أنا أكفيكموه ، وورد على عبد الله فسأله عن حال البلد ، فأخبر بالهدو والسكون ، ثم سأله عن خبر واليهم ، فوصفه بالفضل والأدب وما يجمعه والأمير من النسب ، وبالغ فى ذكر الجميل ثم قال : إلا أنه ، ونقر باصبعه على رأسه نقرة (يعنى أنه خفيف الدماغ) .

فقال عبد الله : ما للولاة والطيش : اعزلوه فعزله .

وانصرف الشيخ إلى مرو فأعلمهم أنه عزله بنقرة ..

٦٧٤ — أبو نواس والعباس بن الأحنف

فى (المثل السائر) لابن الأثير :

لما دخل أبو نواس مصر مادحا للخصيب ، جلس يوما فى رهط من الأدباء وتذكروا منازه[1] بغداد فأنشد مرتجلا :

ذكر الكرخ نازح الأوطان فصبا صبوة ولات أوان

ثم أتم ذلك قصيدة مدح بها الخصيب . فلما عاد إلى بغداد دخل عليه العباس بن الأحنف وقال : أنشدنى شيئا من شعرك بمصر ، فأنشده (ذكر الكرخ نازح الأوطان) فلما استتم الأبيات قال له : لقد ظلمك من ناواك ، وتخلف عنك من جاراك ،

(١) فى مستدرك التاج : المنازه : المواضع للتنزهات وقد استعمله المصنف (يعنى صاحب القاموس) ، فى كتابه هنا استطرادا فى وصف بعض البلاد .

وحرام على أحد يتفوه بقول الشعر بعدك .

فقال له أبو نواس : وأنت أيضا يا أبا الفضل تقول هذا ، ألست القائل :

لا جزى الله دمع عينى خيرا وجزى الله كل خير لسانى
نم دمعى فليس يكتم شيئا ووجدت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طى فاستدلوا عليه بالعنوان[1]

ثم قال ومن الذى يحسن أن يقول مثل هذا !

٦٧٥ — العيون

أبو تمام :

إن لله فى العباد منايا سلطها على القلوب عيون

البحترى :

قال بطلا وأفال الرأى من لم يقل : إن المنايا فى الحدق

٦٧٦ — هذا لا يدعها أبدا

قيل لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : إن بنيك يشربون الخمر . فقال : صفوهم لى . فقالوا : أما فلان فإذا شرب خرق ثيابه وثياب نديمه . فقال : هذا سوف يدعها . قالوا : وأما فلان فإذا شربها تقيأ فى ثيابه . قال : وهذا سوف يدعها . قالوا : وأما آدم فإذا شربها فأسكن ما يكون ، لا ينال أحدا بسوء . فقال : هذا لا يدعها أبدا . ومن قول آدم بن عبد العزيز :

شربنا الشراب الصرف حتى كأننا نرى الأرض تمشى والجبال تسير
إذا مر كلب قلت قد مر فارس وإن مر هر قلت ذاك بعير
تسايرنا الحيطان من كل جانب نرى الشخص كالشخصين وهو صغير

٦٧٧ — وعيسه بنى الدنيا لقاء بنانها

فى (ثمار القلوب) : بنو الدنيا هم الناس ، وقيل لعلى (رضى

(١) أنشد الحرمازى هذه الأبيات ثم قال : هذا (والله) طراز يطلب الشعراء مثله فلا يقدرون عليه .

الله تعالى عنه) : أما ترى حب الناس للدنيا ؟ !

فقال : هم بنوها .

وسمعت الخوارزمى يقول : أحسن ما قيل فى مدح النساء ، قول الشاعر :

ونحن بنو الدنيا وهن بناتها　　وعيش بنى الدنيا لقاء نباتها

٦٧٨ — فلم يفتلذك المال الا حقائقه

نصيب :

إذا المال لم يوجب عليك عطاءه
صنيعةُ تقوى أو صديق توامقه[1]
بخلت وبعض البخل حزم وقوة　　فلم يفتلذك المال إلا حقائقه[2]

٦٧٩ — فنفشت أذنابها

فى (خزانة الحموى) : كتب ابن جلنك الحلبى إلى قاضى القضاة كال الدين بن الزملكانى رقعة يسأله فيها شيئا فوقع له بخبز ، واستحى أن أقول : إنه رطلان[3] ، فتوجه ابن جلنك يوما إلى بستان يرتاض فيه ، فقيل : إنه لقاضى القضاة المشار إليه فكتب على حائط البستان :

لله بستان حللنا دوحه　　فى جنة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبها سنانيرا رأت　　قاضى القضاة فنفشت أذنابها[4]

٦٨٠ — اتفاق عجيب

قال صاحب المسهب : كنت بمجلس القاضى ابن حمدين وقد أنشده شعراء قرطبة وغيرها وفى الجلة هلال شاعر غرناطة ومحمد ابن الاستجى شاعر استجه الملقب بحكون . فقام الاستجى وأنشد قصيدة منها :

إليك ابن حمدين انتخلت قصائدا　　بها رقصت فى القضب ورق الحمائم
أنا العبد لكن بالمودة اشترى　　إذا كان غيرى يشترى بالدراهم

فشكره ابن حمدين ونبه على مكان الإحسان ، فحسده هلال البيانى ، فلما فرغ من القصيدة قال له هلال : أعد على البيت الذى فيه ورق الحمائم ، فأعاده . فقال له : لو أزلت النقطة عن الخاء كنت تصدق .

فقال له محمد الاستجى فى الحين : ولو أزلت أنت النقطة عن العين كنت تحسن (وكان على عين هلال نقطة) فكان ذلك من الاتفاق العجيب والجواب الغريب .

٦٨١ — من زاوية إلى زاوية

كان مهيار الديلمى الشاعر الأديب صاحب المحاسن والشعر العذب الرائق مجوسيا فأسلم على يد السيد المرتضى وكان يتشيع .

قال له القاسم بن برهان يوما : يا مهيار قد انتقلت باسلامك فى النار من زواية إلى زاوية .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : لأنك كنت مجوسيا ، فصرت تسب أصحاب محمد فى شعرك ...

٦٨٢ — فلا يسب أبا بكر ولا عمرا

قال ابن قطرال : كنت بالمدينة إذ أقبل رجل بفحمة فى يده ، فكتب بها على جدار هناك :

من كان يعلم أن الله خالقه
فلا يحب أبا بكر ولا عمرا

وانصرف ، فألقى على من الفطنة وحسن البديهة ما لم أعهد مثله من نفسى قبل ، فجعلت مكان يحب يسب . ورجعت إلى مجلسى ، وجاء فوجده كما أصلحته ، فجعل يتلفت يمينا وشمالا ، كأنه يطلب من صنع ذلك ولم يتهمنى ، فلما أعياه الأمر انصرف .

محمد اسعاف النشاشيبى

---

(١) وامقه يوامقه موامقة ووماقا : أحبه

(٢) افتلذه المال وافتلذه منه : اقتطعه منه ، أخذ من ماله فلذة : قطعة .

(٣) الرطل بالكسر والفتح والأول أفصح والثانى أشهر .

(٤) قاضى : بسكون الياء ضرورة . قال ابن حجة : قول ابن جلنك أظرف ما رأيت فى هذا الباب (يعنى الاستطراد فى البديع) ، ومن الاستطراد قول بعضهم يصف خمرا طبخت حتى راقت وصفت :

لم يبق منها وقود الطابخين لها　　إلا كما أبقت الأنواء من دارى

انظر ما أحلى استطراده من وصف الخمر إلى وصف داره بالخراب .

يوم في الجامعـــة

مسرحية في مشهد واحد

لصاحب السعادة عزيز أباظة باشا

مثلها طالبات معهد التمثيل وطالباته في حضرة صاحب الجلالة الملك بقصر صاحبة السمو الأميرة شويكار في ليلة عيد الميلاد الملكي السعيد .

الممثلون :

شفيق . يحيى . عباس . طلبة بالجامعة

زينب . سعاد . سميرة . طالبات بالجامعة .

« يدخل الخمسة الأول »

زينب : « لشفيق وهو منهمك في قراءة صحيفة » :

صاح ما الأنباء ؟

شفيق: عن ما ذا ؟

سعاد : عن الدنيا

شفيق : مهازل ! !

عالم يذخر بالخلف ويغلي كالمراجل
يقلب الباطل حقاً ويرد الحق باطل

يحيى : وبلاد تخلف الوعد وسُوَّاس تماطل
وشعوبٌ في ظلال السـ ـلم بالختل تقاتل

شفيق : « في اشمئزاز »

قيل دولات صغيرات ودولات كبيره ! !

عباس : قولة الظلم وإن لم تطمس الحق كبيره
قيل ضم الناس عدل وعلى الأرض سلام
ظلموا العدل فما العدل اعتداء واهتضام

شفيق : لن يعيش الكون في سلم ولن تطوى شروره
ما استمر العالم المغرور يحدوه غروره

يحيى : كل يوم صور للعسـ ـف والغصب جديده
احتلال فانتداب فوصايات رشيده ؟؟

عباس : حفظوا المعنى وزانوا اللفظ والدنيا شهيده

يحيى : يا دهاة العصر رو ح العصر عدل وتصافى
ياحماة السلم ليس السـ ـلم إذلال الضعاف

زينب : روّحوا عنكم فمصر حرسَ الله علاها
هي بالفاروق قد أو فت على أسمى مناها

سعاد : ملك منَّ به الله عليها فاجتباها
وحماها كل مكروه وبالنفس افتداها

يحيى : مصر والفاروق صنوان جلالا وعلاء
هو يحبوها خلوداً وهي تحبوه ولاء

عباس : ذكرت الولاء لمولى البلاد وباعث نهضتها الرائعه
وأولى العباد بهذا الولاء شباب البلاد بنو الجامعه

شفيق : رعانا وأنشأنا نشأة نباهي بها في الشعوب الشبابا

زينب : وهيأنا لُغد صالح فكان الدعاء وكنا الجوابا

عباس : وشجع من نبغوا بيننا فزدنا دنواً له واقترابا

شفيق : « في فخر وادعاء »

دعانا فأنزلنا قصره وبوأنا النزل المستطابا

زينب : « في استنكار مرح »

دعاك ؟ وهل كنت فيمن دعا ؟

سعاد : « في حال كحالتها »

ومثلك ما همّ إلا وخابا

شفيق : « ينظر لهما في غيظ مرح ويقول في نغمة يائسة » :

دعاهم فأنزلهم قصره فنالوا المنى عنده والرغابا

يحيى : وأطعمنا قبل حلو الطعام رضا فزكا الحمد منا وطابا
وكرمنا فحنينا الرؤوس بأعتابه وخفضنا الرقابا

شفيق : وحملنا

« ثم يستدرك ويقول »

وحملكم مشعلا يهتدى به الجيل بين طوايا الظلَم

عباس : وأيقظ فينا شعور الجهاد وزودنا بالحجى والهمم
وقال إذا شدتمو للبلاد صروحا على الفضل لم تنهدم

زينب : وعلمنا السبق للمكرمات وكم من بيننا من سبق

شفيق : وقال بأخلاقكم فابدأوا فإن عتاد النجاح الخُلُق

سعاد : وكان لنا مثلا نحتذيه فأنعم وأكرم بهذا المثل

يحيى : رعى شعبه واتقى ربه على سنة الراشدين الأوَل

فبوأه الله عرش القلوب وأسكنه الشعب بين المقل

[تدخل سميرة وهي تكاد تعدو وتشير إليهم بأوراق فى يدها فى فرح وزهو]

الجميع : سميرة

سميرة : بشراكمو إخوتى وأبناء جامعتى النابهينا

بلغنا منى العمر فزنا بما حسبناه حلما

بعضهم : « فى لهفة » : ألا خبرينا

سميرة : مدينة فاروق زين الملو ك للطالبات وللطالبينا

عباس : ألا إنها أمل لم يكن به الدهر إلا شحيحاً ضنينا

يحيى : قطعنا الزمان وأحلامنا تداعبه وعبرنا السنينا

سميرة : ألا فاهنأوا قد ظفرتم به

شفيق : أحقاً تقولين أم تهزلينا

سميرة : أأهزل فى منة للمليك ستلزم أعناقنا ما حيينا ؟

زينب : بربك قولى الذى تعرفين

شفيق : وقولى كذلك ما تجهلينا

[تتكلف سميرة التحفظ في مرح]

سعاد : « فى صبر نافد » :

ألا تنطقين !!

سميرة : « تشير بيدها إشارة لا »

شفيق : « فى حركة صبيانية » : سنمضى إلى

العميد فنعلم ما تعلمينا

« يهمون بالخروج فتقف سميرة فى سبيلهم مادة ذراعيها لمنعهم »

سميرة : تعودوا الصبر

يحيى : إن الصبر عادتنا

فى النائبات . وهذى فرحة العيد

شفيق : بحق فاروق قولى ما أحطت به

فما سكوتك عن هذا بمحمود

سميرة : « فى فخر ومرح » :

إذن خذوا أكرم البشرى وأروعها

وتوجوها بتحميد وتمجيد

مدينة الجامعيين التى وعدوا

قدماً فكانت سراباً فى المواعيد

قد هيأ العاهل الفاروق مولدها

على يديه . فكانت خير مولود

قال ارفعوها وساق المال عن سعة

وذاك أقدس تعضيد وتوطيد

وساهمت أمراء البيت تقدمهم

أميرة الفضل والإحسان والجود

شفيق : قد كان يعلم ما يلقى الغريب إذا

نبت به الدار من هم وتسهيد

عباس : رمت بنا مصر من أقصى أطارفها

فلم تزل بين إرهاق وتشريد

يحيى : « بشير لشفيق » :

وبيننا فئة لج الشباب بهم

تحت العثار فألقوا بالمقاليد

شفيق : لأنهم حرموا دوراً تزف لهم

رقابة الأهل فى عطف وتسديد

يحيى : ما زال فاروق يهدينا ويكلانا

سميرة : فى ظل ملك منيع الركن ممدود

[الجميع فى صوت واحد] :

هذى مدينتنا كدنا نطيف بها

ياعيد فاروق . هذى منحة العيد

ستار



عود الى لقب السفاح :

كنت ذهبت فى مقالات نشرتها بالأعداد (٣٤٦،٣٤٧،٣٤٩) من مجلة الرسالة الغراء ، إلى أن لقب السفاح لم يكن اللقب الحقيقى لأبى العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وإنما هو لقب أطلقه عليه بعض المؤرخين ، وأخذه من قوله فى بعض خطبه (فأنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح) فغلب عليه فى كتب التاريخ ، وغطى على لقبه الحقيقى ، ثم ذكرت أن لقبه الحقيقى كان القائم أو المهتدى أو المرتضى ، كما ذكر الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ، والقلقشندى فى صبح الأعشى .

وقد ذكر الأستاذ ميخائيل عواد نصاجديدا فى العدد الأول من السنة العاشرة من مجلة المعلم الجديد العراقية ، نقله عن هلال بن المحسن الصابى صاحب كتاب رسوم الخلافة ، وقد جاء فى هذا النص أنه اختلف فى لقب أبى العباس ، فقيل القائم ، وقيل المهتدى ، وقيل المرتضى ، لما غلب عليه السفاح ، وإنما ذكر بذلك لكثرة ما سفح من دماء بنى أمية .

ولا شك أن هذا النص يؤيد الرأى الذى ذهبت إليه ، ويثبت أن لقب السفاح قد وصف به أبو العباس من بعض المؤرخين ، ولم يكن لقبا حقيقيا له .

عبد المتعال الصعيدى

اللجنة الثقافية للجامعة العربية :

عقدت اللجنة الثقافية العامة جلستها الأخيرة فى الأسبوع الماضى فبحثت فى مشروع إنشاء معهد لإحياء المخطوطات العربية الموجودة فى العالم وتصوير أقيمها وأفيدها ووضعها تحت تصرف العلماء والبحاثين والناشرين فى أطراف العالم .

وقد قابلت اللجنة هذا المشروع بتحمس شديد لأنه يضمن الوصول إلى كنوز الفكر العربى ويحفظ تراثه الموجود من الضياع والتشتت ، وقد أقرت هذا الموضوع ، وطلبت عرضه على مجلس الجامعة العربية فى دورته المقبلة ، ثم نظرت فى مشروع عقد مؤتمر عام يجتمع فيه عدد كبير من علماء العرب الذين يعنون بالثقافة العربية فيبحثون فى أمرين على غاية من الأهمية فى تقوية الروح القومية والثقافية العربية .

أولهما : وضع مناهج للحد الأدنى من الثقافة العربية فى التاريخ والجغرافيا والأدب والأخلاق ينبغى أن يتلقاها طلاب العرب فى مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية لتقوى فيهم الروح العربية الفاضلة ، ويطلعون على ماينبغى أن يطلعوا عليه من الثقافة العربية .

وثانيهما : بحث وسائل تحسين الطرق والأساليب التى تدرس بها اللغة العربية ؛ فأقرت اللجنة فكرة عقد هذا المؤتمر وعهدت إلى مكتبها الدائم بأن يؤلف لجنة من خبراء فى الثقافة العربية يعدون وسائل عقد المؤتمر ويحضرون موضوعاته ويدعون إليه .

الى فضيلة الاستاذ الطنطاوى :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قدمت — أعزك الله — فى معرض حديثك عن حرية[1] الكتابة ، مثالين اعتمدتهما سناداً لما رويته عما يرتكب فى هذا الزمن من خطيئات ، وما ينشر من مفاسد وإهانات ، تسىء إلى أرباب العلم والأدب ، فيكون نشرها جرماً بالنسبة إلى المجتمع العلمى والأدبى ، كما يكون السكوت عن مثل هذه الافتراءات ، وترك أصحابها يسرحون ويمرحون كما يحلو لهم جرماً أشد وقعاً على ذلك المجتمع ؛ وقد كان أول المثلين عن كتاب أو ديوان ... « قالت لى السمراء ... » ، الذى لم أر فيما قلته عنه إلا الحق الصراح ، والنقد المباح الذى لا يترك فى نفس المطالع حقداً ولا تميزاً ، وإنما هو الإقناع مأتى من أحسن نقاطه ، لكل من تهمه الأخلاق ، ويهمه أن يكون الدين أو المجتمع مبنياً على ركيزها .

وأما المثل الثانى ، فكان عن كتاب يدرس فى الصف المنتهى للمدارس الثانوية ، هو : « مختصر تاريخ الحضارة العربية » . وهنا أيضاً لا أرى مانعاً من نقده بما حواه من تخليطات يكفر بمثلها المؤمن ، وغلطات علمية لا تغتفر ، يجب أن يحاسب المؤلف

(١) الرسالة : عدد (٦٦١) ص ٢٤٠ — ٢٤١ تحت عنوان : (مقالات فى كلمات) .

عليها حساباً عسيراً ، وإنما الذى راعنى وراع كثيرين غيرى ممن يحفظون اسمكم كبير المقام ، ويرمقونكم بنظرات الإكبار أن تأخذوا على المسيحى ، أو غير المسلم ، تدريس علم التاريخ ، والعلوم كما يراها كل الناس ، مشاع لا يجوز أن يحتكرها المسلم أو غيره . وليس عجيبا أبداً أن يدرس هذا العلم مسيحى ما دام يقوم بتأدية قسطه العلمى على أتمه ، ويؤدى واجب هذا الفرع من العلم بما يرضى الله ويرضى عباده العالمين الراسخين بذلك العلم .

لقد قلت — حفظك الله — قبل الآن : « أفسمعت بأعجب من تدريس [١] الخواجه ميشيل والخواجة توما سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ؟ » ، وما يمنع — يا سيدى — الخواجه ميشيل من ذلك إذا رأيناه عند تدريس سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، متحمساً لها ، متعمقاً بدراستها ، لا يترك كبيرة أو صغيرة ، ولا شاردة أو واردة من تلك السيرة إلا أتى عليها ، ولا مصدراً إلا كشف عنه وبين محاسنه ومساوئه ؟ وما الفرق بين عدنان وغسان ، أو (نظيم) و (ميشيل) أو سواهم ، والكل درس فى فرنسة ، وتلقى علمه وأدبه ونال شهادته التى هو موظف بموجبها ، ويتقاضى راتباً بموجب درجتها ، من تلك البلاد الأجنبية؟ ليس من فرق بين هذا وذاك ، سوى أن الأول رجع إلينا بمذهب شيوعى وزوجة فرنسية ... ولم يرجع الآخر وهو أحرى بذلك — إلا بعلمه .

إن معظم هؤلاء المعلمين يا صاحب الفضيلة ، ملحدون ، ولأمور دينهم ودنياهم لا يفقهون ، وعن طريقها القويم ضالون ، وما أنت — أيها الأستاذ — بغريب عن كل ذلك ، وما المشادة التى حصلت بينك وبين بعضهم فى زمن ليس بالبعيد ، وكانت السبب الأول فى تركك التعليم فى المدارس الثانوية ، وتوجهك وجهة القضاء الشرعى ، إلا من أدعم البراهين لما أقول .

أنا أول من يقول بإبعاد من لم يكن كفئاً للتدريس عن مسارح التعليم ، كائناً ما كان دينه ، وأول من يؤيد فكرة القيام بفحص عام لهؤلاء الذين يحملون شهادات الجامعات الفرنسية ، وبينهم من يحمل الدكتوراه فى الأدب العربى ، وكانت أطروحته عن أحد الخلفاء الراشدين ، والمجاز فى علم الجغرافيا ، ولا يعلم حدود بلاده على التحقيق ! ويقول أثناء إلقاء دروسه : « هؤلاء الجبال يمتدون مرتفعين » وإذا كنت كذلك فلا أرانى معارضاً إبقاء من هو أهل لتعليم من هؤلاء — وهم كثرة أيضا — فى مركزه.

وأخيرا ، أرجو أن لا أكون أغضبت فضيلة الأستاذ ، بما أقدمت على لفت نظره إليه ، وهو الواسع الصدر ؛ وما دفعنى إلى ذلك إلا حبى لصراحته وأسلوبه النقدى أولا ، ثم لأدفع عنه تهمة أحب البعض ممن يدعون التجدد من الشباب إلصاقها به ، وهو بعيد عنها ، حيث قالوا : إن فضيلته من (المتعصبين) أو ممن يدعوهم مركزهم الدينى ووظيفتهم الشرعية إلى مثل هذا الكلام فى صدد بعض المعلمين المسيحيين ، وأنا أول من يشهد بأن الأستاذ — وهو الجرىء فى كل شىء — لم يقصد بما قال إلا وجه الحقيقة والدين والأخلاق ، وهو عما ينعتونه بعيد ، ومما يلصقونه براء

وعلى كل حال فالرأى له ، وهو أجدر بالرد على هؤلاء ، بما عرف به من لسان فصيح ، ونطق بليغ ، وحجة قوية ؛ بشرط أن يميز بين هؤلاء ، وأولئك ممن عنيتهم فى صدر كلمتى هذه ، والسلام .

دمشق **عزت عثمان**

مجاز فى الآداب والفلسفة

(١) الرسالة عدد ٦٥٠ ص ١٣٧٢ تحت عنوان (تعميم الثقافة الاسلامية)



قصة ألبانية :

المهـــد الذهبي

[مهداة للأستاذ الكبير كامل كيلانى]

نقلها الأديبان :

وهبي اسماعيل حقي وابراهيم خير الله

— ٣ —

اتجه الشابان إلى المقهى الذى اعتادا الجلوس عليه ، وقبل أن يصلاه قابلهما صديقهما « شفيق حامد » ومر بهما دون أن يحييهما ، فظنا أنه لم يرهما ، أو أن شاغلا شغله عنهما ، ثم إنهما انتحيا فى المقهى ناحية خالية من الناس واتخذا مقعدين متقابلين وبعد صمت لم يدم طويلا قال فريد :

— لا يعلم إلا الله وحده أين أكون بعد شهر من هذا التاريخ ؟

— من الرأى ألا تبرح المدينة إلا إذا دعت ضرورة ملحة.

— وهل أنا مجنون ؟ كيف لا أبرحها وعندى جبل من النقود ؟

— لا تبرحها لترى أولا مقدار النقود التى ستحصل عليها من هذا الكنز .

— إنها عدة ملايين على أقل تقدير .

— ما دمت تريد الملايين يجب أن تظل هنا مؤقتا .

— أظل هنا لأخرج كل يوم إلى المتجر وأقضى نهاراً متعبا فى البيع والشراء كما كنت قبلا ! إن ذلك لن يكون .

— أمهلنى لأتم حديثى . يجب أولا أن تعرف قيمة الآثار المادية ،ثم يجب ثانياً أن تبحث عن طريقة لبيعها ، فإذا ما تم ذلك وأصبحت النقود معك فيجب ابقاء عليها من الضياع أن تضع مقداراً كبيراً منها فى بنوك سويسرا وانجلترا ، ومن النقود الباقية يجب أن تنشىء معهداً خيريا يعلو به ذكرك ، ويخلد اسمك .

— نعم ! فى مقدمة مشروعاتى أن أعمل شيئاً خدمة للوطن وليكن معهداً كما تقول للتعليم بالمجان .

— معهد خيرى لتعليم المواد المختلفة ويتبعه مستشفى لمعالجة الفقراء ، وتجلب لهما كبار العلماء ، ومشاهير الأطباء فى العالم ، عدا من يقع عليهم الاختيار من أبناء الوطن المبرزين ، وتدفع لهم أجوراً طيبة .

وماذا أيضاً ؟

— تريث لحديثى لما ينته ، ثم تنشىء أيضاً ملجأ للمعجزة والمعوزين الذين نكبهم الدهر فى أنفسهم وأهليهم ... وتؤسس مكتباً للمحاماة يضم أشهر المحامين ليقوموا بالدفاع عن أولئك القرويين الذين تضيع كثير من حقوقهم لجهلهم بالقضايا وعدم ترددهم على المحاكم . وتلحق بهذا المكتب داراً للكتب ! ولكن اترك لى أنا هذه الأخيرة فإنى أريد أن أقوم بها .

— لماذا ؟ — هل تريد أن تعمل أنت الآخر شيئا ؟ قال فريد هذه العبارة بتعجب رداً على استدراك صديقه كأنه لم يرقه . فأجابه محمود :

— نعم ! أريد أن أخلد أنا الآخر اسمى ولكن ذلك يتوقف على المقدار الذى ستتنازل لى عنه ، فإن كان كثيراً فسأقوم أنا أيضاً بتأسيس معهد آخر .

— ومن أى أنواع المعاهد يكون هذا المعهد ؟

— معهد ثقافى أجمع فيه علماء اللغة ، وأقوم بطبع مجلة شهرية ، وأدون مفاخر الألبان وقصص القدماء وأشعارهم وأغانيهم وعاداتهم بحيث لا أترك بقعة من بقاع ألبانيا إلا سردت تاريخها وطبائع أهلها ، وكل ما مر بها ، وأخرج كل ذلك فى كتب مفيدة ، وأكافىء مؤلفيها أحسن مكافأة تشجيعاً وحثاً على الاستزادة ، وسأؤلف لجنة تقوم بتصحيح وطبع القواميس وترجمة كتب من عيون الأدب العالمى ، وسأنشىء داراً عظيمة للكتب

وصالة عظيمة للمحاضرات .

— هذا حسن ، وستقوم به إن شاء الله..

ثم إنه يلزم تكوين بعثة من رجال ممتازين ممن تفوقوا فى مدارسنا لإرسالها إلى الخارج لتتخصص فى الفنون التى ستقوم معاهدنا بتعليمها . وفى هذه اللحظة دخل المقهى صديقهما شفيق حامد وتلفت عن يمينه وعن يساره وأمامه وخلفه كأنه يبحث عن شخص بعينه ، ولما وقع نظره على فريد ومحمود اقترب منهما فحياهما وسألهما عن السيد لطفى فأجابا أنهما لم يرياه فاستأذنهما وخرج يواصل البحث عنه ، ولم تمض بضع دقائق على خروجه حتى دخل السيد لطفى يتلفت هو الآخر ولما مر بجانبهما قال له فريد : لقد كان هنا منذ قليل « شفيق » يبحث عنك .

— وإلى أين ذهب ؟ . ألم يقل لكما ؟

— لا ندرى ! فقد خرج دون أن يقول إلى أين ذاهب ؟

— لعله يرجع ، فإنى متعب من البحث عنه ، ثم أدنى كرسيه منهما وقال : هل لديكما ما يمنع من أن أتشرف بالجلوس إليكما فقالا له :

— تفضل فليس أحب لدينا من ذلك .

خلع السيد لطفى معطفه ووضعه فوق مسند الكرسى ثم جلس مع الشابين تبدو عليه مظاهر الحزن ودلائل التفكير مما حمل فريدا ومحمودا على سؤاله.

— ماذا عندك ؟ وفيم تفكر ؟

— لا شىء ، فلم يجد للآن جديد وإنى أعتقد أنه بعد قليل من الزمن سيكون لدينا أخبار جديدة مهمة .

— وهل تعتقد أن شيئاً مهماً سيحصل ؟

— أقصد أخباراً شخصية خاصة لا مصلحية عامة .

— طبعاً ، إنك تعرف أننا نحب أن نسمع عنك كل خير ونتمنى لك كل سعادة .

— أعرف ذلك جيداً وأشكركما .

— على كل حال فإننا نهنئك مقدما بما تنتظر من خير .

— آه ! لو تعرفان ما ذا أنتظر ؟ ثم رأى صديقه شفيقا قد دخل من باب المقهى فقال لهما : هذا هو شفيق ؛ وناداه فاقترب منهم وقال للسيد لطفى : أين كنت ؟ فقد فتشت عنك كثيراً ، إنى أريد أن أحدثك على انفراد فى موضوع هام .

— انتظر قليلاً حتى أشرب الشاى فقد أوصيت عليه .

— المسألة مهمة ، لا تحتمل الانتظار ، فاعتذر السيد لطفى للشابين ولبس معطفه وخرج مع شفيق .

قال فريد لصاحبه ضاحكا ماذا بهما ؟

— قد سمعت إنه يقول : أعمال خصوصية ، ولست أدرى ما ذا يريد بها ؟

— لا يبعد أن يكون قد التحق بوظيفة ؛ فإنه يسعى لهذا من زمن بعيد ، وأنا أعلم أن حاله سيئة جداً .

— مسكين والله ؛ فقد كانت أسرته من أغنى الناس ، وكانوا جميعاً يرتعون فى بحبوحة النعيم ولكن ! هى الأيام .

— يقال فى المثل : ارحموا عزيز قوم ذل ، فإن مصيبته أكبر من مصيبة من لم يذق للعز طعما .

— لقد باعوا كل شىء بالمزاد ؛ فقد كانت بيوتهم مجاورة لبيوتنا ... وبعد فترة سكوت قصيرة رجعا إلى ما كانا فيه من حديث قبل مجىء السيد لطفى ، فأخذا يتباحثان فى أحسن الوسائل وأنجح الطرق لإنفاق هذه الأكداس المكدسة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ...

ولما دقت الساعة الثامنة خرجا من المقهى وفى الطريق دعا فريد محموداً للمبيت معه فى منزله ، ولكن محموداً اعتذر ؛ فقد فهم من بعيد أن والد صديقه قد ثقل عليه أن يراه مع ابنه فى البيت . وقال لفريد . سنتقابل فى الصباح المبكر؛ ثم افترقا بعد أن تمنى كل منهما لصاحبه ليلة سعيدة .

عند ما وصل فريد إلى منزله قصد إلى حجرة والدته التى كانت مريضة مرضاً مزمناً من سنوات مرت ، وليست تستطيع أن تفارق الفراش ولا أن ترى الموقد غير مشتعل ليلا أونهاراً ، وكان فريد يقضى معها بعض الوقت كل يوم فى الصباح قبل الخروج إلى المتجر وفى المساء بعد العودة منه ، ولما رأته فى هذه الليلة والسرور يشع من قسمات وجهه قالت له بعد أن صرفت الخادم التى تقوم بشئونها : لقد أخبرنى والدك بما حدث فهل أنت مسرور؟ فرد عليها بصوت تعمد أن يكون رزيناً هادئاً فقد ضبط شعوره حتى لا تتأثر والدته ... نعم أنا مسرور جداً ؟ فإن الحظ قد ابتسم لنا وأصبحنا نستطيع أن نمد يد المساعدة للآخرين . وأنت ماذا قلت عند ما بلغك الخبر ؟ . فابتسمت ابتسامة لطيفة وإن ظل بريق الحزن المكبوت فى قلبها يشع فى عينيها ؛ فقد كانت محرومة من كل نعيم فى الدنيا ، وقد علمها المرض أن التقديس لا يكون

إلا للكنوز المعنوية وهى العمل الصالح الذى ستلقاه شفيعاً لها أمام الله يوم الضيق ، والضنك ، يوم القيامة ولذلك أجابت :

— لم أقل شيئاً ! وإنما سررت كثيراً جداً من أجلك أنت .

فقال بصوت امتلأ حناناً وعطفاً وإجلالا وتقديراً : سيكون أول عمل أبدأ به أن أرسل فى طلب أشهر الأطباء العالميين المتخصصين ليقتلع جذورهذا المرض الوبيل من جسمك الطاهر. فأخذت يده فى يدها وجعلت تضغط عليها تعبر بذلك على أنها سعيدة بسعادته وأنها تتمنى له كل خير ...

غادر فريد حجرة والدته ، وعطف إلى حجرة المائدة فوجد والده يتناول عشاءه وهو عبوس الوجه ، مقطب الجبين ، شارد اللب ، مبلبل التفكير ، ورد تحية ابنه بصوت ضعيف حزين ، ثم خيم سكون شامل ، لم يكن يقطعه إلا رنين الشوك والملاعق وخشخشة السكين فى الأطباق ، وإن فريداً — وقدتناول عشاءه مع بيرام ومحمود مبكراً — جلس ساجى الطرف ، مطرق الرأس متحيراً ، لا يدرى السر فى حزن والده المفاجىء ، ولا يعرف من أين ولا كيف يبتدىء الحديث معه ؛ فقد انسدت عليه مسالك القول من هذا الجو القاتم ، ولم ير من المستظرف أن يغادر المكان دون أن يتكلما فى الموضوع على انفراد ليكونا طليقين .. وأخيراً وبعد صمت طويل قال الوالد فى تأثر ظاهر : كان يسرنى أن تكون أبعد نظراً ، وأسد رأيا ، وأكثر حكمة ، فلا تقع فى هذا الخطأ الذى وقعت فيه فإن قعودك عن مرافقة القروى إلى الكهف قد يفوت عليك الفرصة ، فى المثل « إذا خرج الطير من الوكر فإن القبض عليه ثانية مصادفة قد لا تكون » . وها هى السيارات تحت تصرفك فلم لم تركب إحداها وتذهب معه ؟ ألا تخشى أن يذهب القروى إلى غيرك ؟

— لست أعتقد ذلك ، فقدخرج شاكراً لأنى أعطيته جنيهين

— وهذا أيضاً تصرف سىء ؛ فإن جنيهين مبلغ لا يغرى كان الواجب أن تعطيه خمسة على أقل تقدير .

— إنه غير محتاج ؛ فقد سألته عند انصرافه أن يأخذ غيرها فرفض .

سكت التاجر لحظة والغضب يشيع فى وجهه ، ثم قال فى شىء من الحدة : ولماذا أطلعت محموداً على هذا الموضوع ؟ ألا تعلم أنك بهذا العمل قد برهنت على قصر نظرك ، وقصور عقلك ، وعقم تفكيرك ، وأن محموداً سيطالب هو الآخر بمثل نصيبك فى هذا الكنز ؟ ولن تستطيع أن تدافع عن أحقيتك منه ... فنكس فريد رأسه ولم يقل شيئاً بل جمد فى مكانه يستمع إلى والده وهو يقول : أتستبعد أن يتسلل محمود فى هذا الوقت إلى القروى ويعرض عليه شروطاً أسخى ؟ وطبيعى لا يرفض القروى ، بل إنه يرحب به وينساك وينسى هذه الساعات التى قضاها معك هنا ... إنك دائماً لا تحسن التصرف فى الأمور التى تتولاها وأنا غائب ! فرفع فريد رأسه وعارض والده فيما نسبه لصديقه وقال له فى قوة : لا ياوالدى ! إن محموداً لا يفكر فى مثل هذا .

— يا بنى ، مثل هذه الأعمال يجب على الإنسان أن يخفيها حتى عن أقرب الناس إليه ، فقديما قيل : « اسْتعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » وأنت لا زلت فتى غراً ، قليل الدراية بأخلاق الناس ومعاملتهم ...

— إنني ياوالدى لم يصادفنى مثل إخلاص محمود ولا مثل مروءته وحفظه لحقوق الزمالة .

— قد يكون ما تقول حقا ، ولكن على الإنسان أن يحتاط لنفسه . ثم ساد بينهما الصمت حتى فرغ الوالد من طعامه وقال: متى يأتى القروى ؟

— سيأتى فى منتصف هذه الليلة .

— أذن عليك أن تنتظره حتى يجىء بالعينات لنراها ونعمل حسابا مبدئياً لما قد نحصل عليه من مكسب . فإنه قبل الشروع فى العمل يجب أن نتعقل ونتروى ؛ لأن أقل خطأ يتركنا صفر اليدين . وإن عليك ألا تسير خطوة واحدة فى غير الطريق التى أرسمها لك ، فالآثار ذات القيمة يلزم نقلها على الخيل أو السيارات أولا وإخفاؤها فى الدور الأسفل من هذا المنزل ، وإن كان فى الأزيار نقود — كما أعتقد — فإنه لا بد من سفرك إلى الخارج لتبيعها على دفعات متواليات . وأما الأشياء الأخرى فما نستطيع تصريفه منها نبقيه وما لا نستطيع تصريفه نرسله إلى الخارج أيضاً

— هذه يا والدى عملية شاقة تحتاج — كما تقول — إلى كثير من التبصر والحكمة .

— نعم يابنى ! ومن أجل ذلك فإن المكسب سيكون عظيما وسيعيننا على توسعة تجارتنا وإنشاء متجر كبير لنا فى « تيرانا » العاصمة ... إنك لم تقص على ما اتفقت عليه مع بيرام ، وماذا يكون نصيبه من المكسب ؟

— لقد اتفقت أن تبذل له معونتنا ، وأن نقتسم ما نحصل عليه مناصفة .

— أبك جنون ؟ كيف نتفق معه هذا الاتفاق ؟ ولكن لا بأس ! فسأعرف كيف أرضيه . إن مائتين من الجنيهات نفرغها فى جيبه — بعد أن ننقل من الكهف كل شىء مبلغ لن يحلم به ولن يقدر أنه سيحصل عليه . فقال فريد : وماذا نعطى محموداً ؟

— إنك قد أدخلت محموداً فى هذا الموضوع من غير داع، وهذا خطأ كبير، فلنترك له تماثيل الأحجار، واللوحات المكتوبة وليذهب بنفسه ليأخذها بعد أن ننتهى من بيع الأشياء الأخرى

— قد يكون ثمن التماثيل واللوحات أكثر من ثمن تلك الأشياء ؟

— إن ذلك هو الواقع ! ولكن من المستحيل تهريبها خارج القطر ، ثم إن الحكومة ستعلم — إن عاجلا وإن آجلا — بشأنها وتستولى عليها ، والمهم أن ننجو نحن بما نريد .

مكث التاجر مع ابنه طويلا يتحدث إليه فى هذه المسألة وكان كل هم الوالد أن يؤسس لهما تجارة جديدة فى « تيرانا » وفى العاصمة الثانية « دورس » أكبر موانى ألبانيا . ولكن « فريداً » كان غير مرتاح لهذا الرأى فكان إذا أبداه والده اعتصم بالصمت ، وقد كان من رأيه أن التوسعة فى التجارة لا فائدة منها ما دامت لديهم هذه الكثرة من النقود ... ثم إن « السيد عفت » أوى إلى فراشه وترك ابنه فى انتظار « بيرام » فقام « فريد » إلى الموقد — وكانت ناره قد خبت — فأشعله ، وجلس بجانبه يتصفح جريدة صباحية ؛ إذ لم يكن إلى هذا الوقت قد استطلع الأخبار ؛ ولكنه عجز أن يحصر انتباهه فى الجريدة فقد كان بعيداً بعقله عنها وعن كل ماحوت . وإن عينيه لم تغادرا السطر الأول ؛ فقد احتلت اقتراحات محمود بؤرة شعوره ، وسيطرت على تفكيره ؛ فرأى نفسه على رأس معهدين كبيرين ومشى وراء خياله فى تلك الشوارع الواسعة التى ضمت المؤسسات الخيرية التى أنشأها ، وتحدث كرئيس أعلى لتلك المؤسسات إلى كبير الأطباء ، ومديرى المعاهد ، وأمناء دار الكتب ، وإلى المؤلفين ، وإلى غيرهم من الموظفين الذين يأتمرون بأمره ؛ فكانوا جميعاً يحوطونه بهالة من الإكبار والإجلال ، كسباً لعطفه ، واغتناما لمودته ، ثم طار فى عالم اللذات فرأى أن المؤسسات تحت رعاية طيبة لا تحتاج إلى الكثير من عنايته ، وأن فى استطاعته أن يقوم بسياحات واسعة فى أوربا ، وأمريكا ، وأفريقية ، ليتيح نفسه تمتع من يملك مثل ثروته . وإنه لفى هذه الأحلام اللذيذة وإذا بأجراس الكنيسة تعلن انتصاف الليل فتدق اثنتى عشرة مرة ، فاهتز جسمه ، واضطرب قلبه ، وأرهفت حواسه ، وانقطعت سلسلة أفكاره ؛ فقد اقترب موعد « بيرام » ... ولقد طغت عليه موجة من الخوف والحزن كادت تعتصر قلبه ، وتسلبه شعوره ، حينما دقت الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، فأخذ يدور فى الحجرة فى غير وعى ؛ وظل هذا حاله إلى أن دقت الساعة دقتين فثاب إليه بعض الرشد وقصد إلى حجرة الأضياف وأطل منها على الطريق غير عابىء بقارس البرد ؛ فإن حرارة جسمه ، وثورة غضبه ، وإشفاقه من أن يتحكم فيه سوء الطالع وتلعب به يد الأقدار ، جعلته فى حالة لا يحس معها برداً ...

أمسكت السماء عن المطر ، وانجابت السحب فى بعض الأماكن ، وأرسلت النجوم من عليائها على الأرض ضوءاً خافتاً ضعيفاً ، ومضى الوقت وئيداً وئيداً ، واشتد الحزن بفريد شيئاً ؛ فشيئاً ؛ فملأت الدموع عينيه وضاق به المكان ، فرجع ثانية إلى حجرة المائدة ، ووقف بجوار الموقد — وقد نسى أن يضع عليه وقوداً — جامداً كالتمثال ، إلى أن طلع الفجر ، واستنار الكون فأيقن أن رجاءه قد خاب ، وأن أمله قد ضاع لأن « بيرام » لم يرجع .

(يتبع)

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٦٤ – الاثنين ٢٥ مارس ١٩٤٦ – السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

صفحة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 664

Lundi—25—3—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

السنة الرابعة عشرة — « القاهرة فى يوم الإثنين ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٦٥ — ٢٥ مارس سنة ١٩٤٦ » — العـــدد ٦٦٤

أعداؤنا الثـــلاثة

كانت « الرسالة » أول من حصر أعداءنا الثلاثة فى الجهل والفقر والمرض حين اقترحت على وزارة الشئون الاجتماعية أن تحرر دستورها الإصلاحى تحت هذه العناوين ، لأنها جُمّاع العلل التى يصدر عنها كل فساد وينجم منها كل شر [1] ؛ وقالت يومئذ : إن هذه الوزارة تجديد رسمى لدعوة النبوة ، فملاك الأمر فيها الدرس والروية والمشورة والعزيمة والنفاذ ، على أن يكون كل رأى فى وجهه ، وكل عمل فى وقته ، وكل أمر فى أهله . ثم انتظرنا وانتظر الناس ، فإذا هى وزارة كسائر الوزارات : مكاتب وكتاب ، وسعاة وحجاب ، وأوراق تفرّق وتجمّع ، وأرزاق تقدّر وتوزّع ، ثم علم من غير عمل ، أو عمل من غير علم ؛ وإذا نحن بعد ثمانى سنوات من عمرها لا نزال من الأمية والفاقة والعلة فى الموضع الذى كنا فيه إذا لم نكن تأخرنا عنه . ذلك لأنها وزعت جهدها الضئيل ومالها القليل على ما سلبت من اختصاص الوزارات فعجزت عن أداء ما خلقت له ؛ وتعاقب عليها الوزراء والوكلاء تعاقب الظلال الخفاقة فلم يمهلوا حتى ينضجوا الرأى ويرسموا الخطة ويتبينوا الوسيلة . فإذا سنح لها خاطر فى الإصلاح بدأته من آخره أو أخذته من طرفه فينتشر عليها الأمر وتلتبس أمامها الوجهة . فالأمل إذن فى استعدائها على الجهل والفقر والمرض وهى مصابة بهن جميعاً أشبه الأشياء باستثمار الصفصاف واستيلاد العقيم . ولكن علل الشقاء المصرى كانت قد برزت فى وعينا القومى بروز العقيدة الراسخة والضرورة الملحة ، فهى تثب إلى العيون وثوب الحصى ، وتقع فى القلوب وقوع النبل ، فمن حاول أن يفر منها أو يغضى عنها كان كالمصحِر فى وسط الزوبعة أنّى اتجه وجد الرمل فى وجهه والظلام فى وجهته . وذلك مثل الذين زعموا نهضة الأمة فى مدى ربع قرن فقصّروا الجهود وحصروا الأفكار فى مكافحة العدو الرابع وهو الاحتلال . ولو كتب الله لهم التوفيق لشبوها على الأعداء الأربعة فى وقت واحد ؛ ولو مهد لهم سبيل الفوز لجعلوا الميدان الأول للعدو الأول وهو الجهل ؛ لأنه هو الذى ولد الفقر والمرض ثم استعان بهما على سلب الاستقلال وجلب الاحتلال ، وقتل الروح القومية فى الشعب ، فلم يكن له رأى عام لنقص إدراكه ، ولا خير مشترك لضعف إنتاجه ، ولا كيان صحيح لوهن جسمه . ولكن زعماءنا اختاروا أسلم الميادين ، ونهجوا أسهل الطرق ، وابتغوا عرَض الحياة ، لأن محاربة الاحتلال لا تكلفهم غير تأليف المظاهرات وإنشاء المقالات وإلقاء الخطب ، ثم تنتهى بهم وشيكاً إلى الحكم والثروة والجاه عن طريق الدستور أطال الله عمره وأعز نصره ! أما محاربة الجهل والفقر والمرض ، فجهاد لا يثبت له ولا يصبر عليه إلا أولو العزم من المجاهدين المخلصين المضحين الذين يعملون ليرضى الله ، ويشقون ليسعد الناس ، ويموتون ليحيا الوطن !

(١) العدد ٣٢٩ (٢٣ أكتوبر سنة ١٩٣٩) وما بعده .

على أن الزعيم الحكيم يستطيع أن يدرك من وراء السياسة والحكم رضا قلبه ورضا شعبه ورضا ربه إذا تأبّى على المطامع، وتعالى عن الشهوات، ووجّه قوى الحكومة والأمة كلها إلى هذا الجهاد المقدس. إنه إن أحسن التنبيه وأخلص التوجيه وأحكم القيادة، أبلى بلاء الرسل دون أن يتصدى لمخاطر الرسالة، وجوزى جزاء الملوك دون أن يتعرض لمكاره المُلك، فأجناده يضحّون وهو يُعبّد، وقواده يحاربون وهو ينتصر، وأنداده يفنون وهو يخلد!

***

ليت شعرى هل كان يفكر فى ذلك صاحب الدولة رئيس الحكومة القائمة حين قطع العزم على أن يكون برنامجه فى الحكم مفاوضة الاحتلال فى مصر والسودان على الجلاء، ومجاهدة الجهل والفقر والمرض حتى الفناء؟!

نعم، طوى برنامجه السياسى على هذين المطلبين، ثم أخذ يهيئ لهما الأسباب ويُرصد الأهَب، فألف وفد المفاوضة من رجالات السياسة، وفى الوقت عينه ألف مجلساً أعلى لشؤون الطبقات الفقيرة من وزراء المعارف والشؤون والصحة والزراعة والتجارة، وجعل لنفسه الرياسة فى الوفد المفاوض وفى المجلس الأعلى، ثم بدأ العمل فى الميدانين على السواء. والذى يعنينا اليوم ذكره أن هذا المجلس الأعلى قرر القيام بطائفة من أضخم المشروعات الثقافية والاقتصادية والصحية، تحقق العدالة الاجتماعية، وترفع مستوى العيش لجمهور الشعب وهو صلب المجتمع وأداة إنتاجه وعدة دفاعه؛ ورأى تنفيذاً لتلك الأعمال الخطيرة أن يعقد لها قرضاً وطنياً بخمسين مليون جنيه يُثمّر فيه عفو المال وفضلات الرزق فتجدى على صاحبها مرتين: مرة فى نفسه، وأخرى فى جنسه!

من تلك المشروعات العتيدة ما يعالج الجهل كاصلاح التعليم الإلزامى، ومحو الأمية فيمن شبوا عن الطوق وجاوزوا حد الإلزام. ومنها ما يعالج الفقر والمرض كتقسيم القطر إلى وحدات اجتماعية عامة، تنقسم كل منها إلى عشرة آلاف وحدة، تتمثل فى كل وحدة جميع الوزارات المشتركة فى هذا المجلس الأعلى فتكون سفيراً بين الحكومة والفلاح، وصلة بين العلم والزراع، ورسولا من الطب إلى المرضى، ووسيطا بين التاجر والمنتج، وبرزخاً بين الناس والمعرفة؛ وتلك هى الأعمال التى أنشئت لها وزارة الشؤون فلم تستطع النهوض بها، ولم تصارح الناس بالعجز عنها؛ وظلت تعمل على هامش الحكومة: تصدر المجلة، وتعلن الموالد، وتسجل النقابات، وتزور المساجين، وتستقبل العمال، وتأخذ شيئاً من كل شىء، ولا تؤثر أبداً فى أى شىء! وكان من وسائلها المرجوة لو رزقت ملكة الابتكار، أن تدبر المال والرجال بمثل ما يدبره اليوم رئيس الحكومة فتذلل العقبة التى وقفت دونها خائرة حائرة لا تعرف لأمرها قِبلة ولا دِبرة.

لقد عبأ رئيس الوزراء قوى الحكومة والشعب لمحاربة أعدائنا الأربعة، وليس فى الأمة اليوم كما يقول شبابها ويردد كهولها من يضن بماله ونفسه على هذه الحرب، فهل آن لمصر السادرة فى الخلاف واللهى أن تدرك سر النهوض، وتعرف حقيقة الإصلاح، وتعلم أن الأمة لا تكون متمدنة إلا إذا امّحت هذه الفروق المخيفة بين الخاصة والعامة، وبين المدينة والقرية؟ إنك ترى الفقير القروى فى جسمه الضاوى وثوبه الخلق وجهله المطبق، ثم ترى الغنى الحضرى وعليه زهرة العيش ونضرة الصحة ونور العلم، فلا تصدق أن هذين الرجلين يرأمهما وطن واحد، وترعاهما حكومة واحدة!

إن معرة الاحتلال العسكرى تصيب المحتل فى شرفه وضميره، لأنه يبرره بضعفنا ويؤيده بقوته؛ ولكن معرة الإنحلال الفكرى والجسدى والاجتماعى تصيب الشعب فى كرامته ودينه، لأنه يرضاه وهو قادر على الافلات من ربقته.

لذلك كنا أحرياء أن نفكر بعض التفكير فى عاقبة هذه الأمور؛ فان الوزارة الصدقية محدودة الأجل بنتيجة المفاوضات، فإذا أخفقت مفاوضة الاحتلال، أو مال ميزان الانتخابات إلى الشمال، اعتزلت الوزارة الحكم لا محالة. وإذن يحق لنا أن نتساءل عن مصير العملين العظيمين اللذين بدأهما صدقى باشا؛ فأما المفاوضات السياسية فسيستأنفها وفد يتلوه وفد إلى أن يرث الله الجزر البريطانية ومن عليها، لأن هذا النوع من الجهاد كلام ونحن نجيده، وسلام ونحن نريده. وأما هذه الهبّة الإصلاحية فأغلب الظن ألاّ تستمر، لأنها بناء ونحن نحب الهدم، وعناء ونحن نؤثر الراحة، وجد ونحن نكره أن يكون لغيرنا الإكرام! والله سبحانه وتعالى قادر على أن يخيب هذه الظنون. وأن يقول للشىء كن فيكون!

احمد حسن الزيات

كافور الأخشيدى

للأستاذ أحمد رمزى

احتدم الجدال فى إحدى الليالى بين مصرى وعراقى ، فقال الأول : « رحم الله الحجاج بن يوسف الثقفى » ؛ ورد عليه الثانى وقد تملكته سورة الغضب : « رحم الله كافوراً الأخشيدى » . واشتد حنق المصرى إذ وجدها كبيرة على نفسه أن يحكم بلاده كافور ، فلما ألقى إلىّ ذلك قلت : « يا صاحبى لا تحزن ، إن أبا المسك الأستاذ كافور كان أميراً من أكبر الأمراء ، وعاهلا من أعظم ملوك المسلمين بمصر ، ويزيد بلادنا فخراً أن تولاها مثله كما لا ينقص من قدره سواد لونه ، بل فى ذلك دليل على علو همته . وإن لونه لم يقعد به عن بلوغ أعلى المراتب ، ودليل على أننا لا نفرق بين الأبيض والأسود ، لأننا جميعاً سواء . وإذا أخذ عليك ولاية كافور علينا ، فقل إن ملكه شمل مصر والشام ، وإنه كان يخطب له على المنابر بمكة والمدينة والحجاز جميعه ودمشق وحلب وأنطاكية والثغور وفيها طرسوس[1] والمصيصة وغيرها من الأقاليم التى خضعت لسطوته ودانت لسلطانه كما ذكره الفرغانى ونقله ابن خلكان فى ترجمته لكافور . فإذا وجدت معرة بكافور فاسأل غيرنا تجدهم قد شاركونا فيها ، فكيف وليس فى الأمر معرة علينا ، بل مفخرة لنا ؟ »

« أليس كافور من أبناء السودان ، وكلنا ننشد الوحدة الشاملة ؟ فكيف تستكثر على أحد أبنائه ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحته ؟ وهل كان كافور عاطلا هملا حتى تؤاخذنا به ، أو نبرأ من ولايته وإمارته ، وهو الذى قال فيه أبو الطيب المتنبى برغم تحامله بعد ذلك عليه :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

وهو القائل فيه :

فإن لم يكن إلا أبو المسك أوهمُ فإنك أحلى فى فؤادى وأعذب
وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب »

قال : « أو لم تسمع بقارع الهجاء وشنيع الذم ؟ » قلت : « إذاً فلنتخذ ماتنشره جرائدنا ومجلاتنا الحزبية دليلا على إفلاسنا وفنائنا ، فمتى كان يقام وزن للهجاء والتشنيع الذى يمليه الحقد والنفس الموتورة ؟ »

أما أنا فآخذ بما ذكره الذهبى[1] عن كافور إذ قال : « كان يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية . وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب » ؛ ثم قال : « إنه تقدم لدى الأخشيد صاحب مصر لعقله ورأيه وسمده إلى أن صار من كبار القواد ، ثم أتابك ولده أبى القاسم أنوجور ، ووصل إلى أن زاد ملكه على ملك مولاه الأخشيد » . وتكلم على مقدرته وكفايته وحسن تدبيره فقال : « إنه كان خبيراً بالسياسة فطناً ذكياً جيد العقل داهية » ، وضرب مثلا لذلك حين قال : « إنه كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ، وكان يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء حتى تم له الأمر » . أليس فى ذلك دليل على قوته ؟

وأذكر لك ما عثرت عليه من أن كافور كان أول من غزا ، ولازمه التوفيق فى فتح الأقاليم النوبية ، فقد هاجمها قبله أبومنصور تكين التركى هى وبرقة فى عام واحد ، ولم يتم فتحها على يديه . ولما غزاها كافور كان التوفيق حليفه ، لأن جيش المسلمين كان من السودان ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ولما غزا كافــور دنقــلة غدا
بجيش كطول الأرض فى مثلها عرض
غزا الأسود السودان فى رونق الضحى
ولما التقى الجمعان أظلمت الأرض

فهو أول من تمت الوحدة على يديه . وهو حامل لواء الإسلام والعروبة فى أراضى السودان . ولو شئت أن تعلم عن كافور وأيام كافور وأياديه البيضاء ، وأنفاسه الطاهرة ومجده وسلطانه وحسن بلائه ، فعليك بكتب التاريخ تنبئك عن عقل ودراية وحكمة وسياسة وحسن تصريف للأمور وفهم للناس وطبائعهم ، وهذه أشياء شهد له بها المعاصرون ووفوه حقه فيها . أما نحن فنرى

(١) هما مدينتان فى ولاية أضنه داخل الجمهورية التركية

(١) النجوم الزاهرة جزء رابع .

فيه رجلا عظيما من عظماء القرن الرابع الهجرى ، خدم بإخلاص مولاه الأخشيد ، وصان استقلال مصر سنوات ، وواجهته المصاعب والمشاكل والحروب ، فتغلب عليها وخرج من مآزقها ، وهو بطل من أبطال تاريخ مصر العربية ، ولذلك تجدنى من أنصار كافور ومن المعجبين به ومن الداعين لحفظ ذكراه ، ولو كان لى من الأمر شىء ، لبحثت عن قبره ، وأقمت قبة عليه ، ثم لطلبت من أولى الأمر فى مصر والسودان أن يطلق اسمه على ميدان أو شارع بالقاهرة وأم درمان والخرطوم ، صيانة لذكره وإقراراً لفضله ، وتوكيداً لصلات مصر والسودان .

فإذا كان الأميركان من الملونين يبحثون عن صورة بوشكين الشاعر الروسى المشهور ، ويضعونها فى أحسن مكان لصلة القربى معهم لسمرة لونه ، فكيف ينكر فضل كافور وهو ملك من أعظم الملوك ؟ ولم لا يقوم السودان ويقعد له ويحتفى به وهو منه وإليه منسوب ؟

إننى يا صديقى لا أتفق معك ولا أجاريك فى قولك بأن الوطنية والكرامة تمليان حذف اسمه وسيرته وعهده من كتب التاريخ ، بل أقول : إنهما تمليان علينا نشر فضائله ومحاسنه ؛ وإنى كلما تأملت فى عصر أستاذنا أبى المسك كافور وقرأت عنه وعن أخلاقه وسيرته بين الناس ، بدت شخصيته ممتازة محبوبة عليها وقار واحترام وحشمة ، لا بأعماله السياسية وحياته العامة ، وهى ليست موضع نزاع ، بل بأدبه وتواضعه وخضوعه لأحكام الله ، وكرمه وإخلاصه لمن حوله ، ولصلاته ودأبه على عمل الخير وإسداء المعروف ، وهى نواح إن أهملتها بعض كتب التاريخ ، فقد وجدت مبعثرة ، ولذلك رأيت أن أشير إليها .

قال ابراهيم بن اسماعيل إمام مسجد الزبير : « إن كافورا كان يداوم الجلوس بالغداة والعشى لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرّغ وجهه ساجداً ويقول : « اللهم لا تسلط علىّ مخلوقاً » . وكان لا يأنف من أصله ومولده ، ويحمد الله أن رفع من قدره ، وينسب ما لقى من خير إلى توفيق الله ونعمته . فقد ذكر أبو بكر المارداني ، وكان وزيراً لكافور ولأبى منصور تكين التركى : « إن كافورا كان دائم التحدث بنعمة الله عليه ، ويذكر أيامه بالسودان ، وكيف جىء به إلى مصر وعمره أربع عشرة سنة » . وحدّث أنه كان بمدينة الفسطاط فى السوق المنسوبة لبنى حباسة طباخ يبيع الطعام ، فعبر كافور فى شبابه وطلب منه شيئاً من الطعام ، فضربه بالمغرفة على يده وهى حادة ، فوقع مغشياً عليه ، فأخذه رجل ورشّ عليه الماء ، وأواه حتى وجد العافية . قال : « فكلما عزّت عليه نفسه يذكر ما أصابه من الطباخ ، وقد يركب ويأتى إلى ذلك الزقاق ، ويسجد شكراً لله على نعمائه » . وكان يفعل ذلك فى إبان ملكه ومجده وعظمته .

قلت لصاحبى وقد يكون فى ذلك بعض المبالغة من أصحاب السير؛ ولكن ما الحكمة فى ذلك وكافور لم يعقب نسلا ولم يترك أهلا ولم تصمد دولته بعده ليتملقها الكتاب والمؤرخون ؟ وهذه ناحية أخرى تحبب إلىّ الرجل : هى فهمه للناس وعطفه عليهم وأخذهم باللين مع تعاليه عن تصديق الوقيعة وقبول الفتن . فقد ذكر ابن خلكان فى ترجمة الشريف ابن طباطبا ولا يزال قبره يزار بقرافة الإمام الشافعى : « أنه كان طاهراً كريماً فاضلا صاحب ضياع ونعمة ظاهرة وعبيد وحاشية ؛ وكان يرسل لكافور فى كل يومين جامين حلوى ورغيفاً فى منديل مختوم ، فحسده بعض الأعيان وقال لكافور « الحلو حسن فما لهذا الرغيف فإنه لا يحسن أن يقابلك به » فأرسل إليه كافور يعتذر عن قبول الرغيف ، فركب الشريف إليه وعلم أنهم قد دسوا عليه ، فلما اجتمع به قال له : « أيدك الله إنا لا ننفذ الرغيف تطاولا وتعاظما ، وإنما هى صبية حسنية تعجنه بيدها وتخبزه فنرسله إليك على سبيل التبرك ، فإن كرهته قطعناه » فقال كافور : لا والله لا نقطعه ولا يكون قوتى سواه »[1] .

وكان محدثى قوياً لا يلين ، فيه عنجهية من بقايا القرون التى سبقت الإسلام والرسالة المحمدية ، فهو مصر على التفرقة بين الناس حسب ألوانهم كما قسم هتلر الناس وصنف الشعوب أصنافاً ، فقلت له إن ابن زولاق ، وهو حجة فى الموضوع ، قد اعترف لكافور فقال « إنه كان ديّناً كريماً » ، فانظر ما نقله صاحب الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة عن ابن المجلى فى تاريخه ، إذ قال :

حدثنى أبو الحسن البغدادى قال : وردت إلى مصر وأنا مع

---

(١) ذكر صاحب كنز الدرر ونقله صاحب النجوم الزاهرة : أن سماط كافور كان في اليوم مائتا خروف كبار ومائة خروف رميس غير الأوز والدجاج والحمام والحلوى والشراب .

أبي وكنت دون البلوغ فى أيام كافور الأخشيدى ، وكان أبو بكر المحلى يتولى نفقة كافور ومصالحه وخواص خدمته ، فانتسجت بينه وبين أبى مودة ، فكان يأتى إلى أبى ويزوره ، فجلس فى بعض الأيام يتحدث ويتذاكر أخبار كافور ، فقال أبو بكر لأبى وأنا أسمع : إن هذا الأستاذ كافور له فى كل عيد أضحى عادة ، وهو أنه يسلم إلىّ بغلا محملا ذهباً وورِقاً وأمضى مع صاحب الشرطة ونطوف من بعد العشاء إلى آخر الليل حتى أسلم ذلك لكل من أجد اسمه فى تلك الجريدة فأطرق أبوابهم وأقول لهم هذا من عند أبى المسك كافور .

وقال أبو جعفر مسلم بن عبد الله بن طاهر العلوى النسابة : ما رأيت أكرم من كافور : كنت أسايره يوماً وهو فى موكب خفيف يريد النزهة وبين يديه عدة جنائب ، فوقعت مقرعته من يده ، ولم يرها ، فنزلت عن دابتى وأخذتها من الأرض ، فقال : أيها الشريف ، أعوذ بالله من بلوغ الغاية ، ما ظننت أن الزمان يبلّغنى حتى تفعل أنت هذا معى ، وكاد يبكى ... فقلت : أنا صنيعة الأستاذ ووليه . فلما بلغ داره ودعنى . ولما سرت التفت ، فإذا بالجنائب والبغال كلها خلفى . فقلت : ما هذا ؟ قالوا : أمر الأستاذ أن يحمل مركبه إليك بجنائبه . فأدخلته دارى ، وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار !

تلك أقاصيص موزعة مفرقة أوقعتنى الصدف عليها فى مواضع متعددة ، وهى تكشف الطريق لنا لبحث نفسية كافور ، فهذا رجل وصل إلى درجة من أعلى درجات عصره وكانت تهابه الدنيا ، فانظر إلى تواضعه وخجله ، وإلى نفسه الهادئة المطمئنة ، وقس على ذلك فقاقيع الرجال ممن نلقاهم كل يوم ، وهم لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم من الأمر شيئاً تراهم يخفون ضعفهم بالتظاهر بالقوة ، وجهلهم بتعاليهم على الناس ، وهم فى مشيتهم وغطرستهم وحديثهم وما يبدو فى وجوههم مضحكة ومهزأة للعصر الذى نعيش فيه وللعصور القادمة : « يا أيها الناس ، ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » صدق الله العظيم(١) .

وفى ذى القعدة سنة ٣٦٢ هـ ، وهى السنة التى قدم فيها المعز لدين الله إلى القاهرة من بلاد المغرب ، ركب لكسر خليج القنطرة ، فكسر بين يديه ، ثم سار على شاطئ النيل حتى بلغ إلى بنى وائل ، ومر على سطح الجرف فى موكب عظيم ، وخلفه وجوه أهل الدولة ، ومعهم أبو جعفر أحمد بن نصر يسير فى ركابه ، ويعرفه بالمواضع التى يجتاز عليها ، وتجمعت الرعية للدعاء له ، ثم عطف على بركة الحبش ، ثم على الصحراء ، وسار على الخندق الذى حفره القائد جوهر ، ومر على قبر كافور ، وعلى قبر ابن طباطبا الحسنى ، ثم عاد إلى قصره(١) .

عثرت على هذا النص عرضاً ، فوقفت مندهشاً أمام النصوص التى تقول : بأن تابوت كافور نقل إلى القدس ودفن بها وكتب على قبره :

ما بال قبرك يا كافور منفرداً
بصحصح الموت بعد العسكر اللجب ؟
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد
كانت أسود الشرى تخشاك فى الكتب

ودخلت بحر أيموج بالمسائل ، وكلها تحتاج لتحقيق ، وسنرى ما يكون من أمرها .

أحمد رمزى

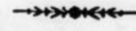
القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

(١) ٧٢ من سورة الحج .

(١) ابن زولاق فى كتاب سيرة المعز لدين الله نقله المقريزى فى الخطط لما ذكر ما كان يعمل عند فتح الخليج .

من غزل الفقهاء

للأستاذ على الطنطاوى



قال لى شيخ من المشايخ المتزمّتين ، وقد سقط إليه عدد من الرسالة ، فيه مقالة لى فى الحب :

— مالك وللحب ، وأنت شيخ وأنت قاض ، وليس يليق بالشيوخ والقضاة أن يتكلموا فى الحب ، أو يعرضوا للغزل ؟! إنما يليق ذلك بالشعراء ، وقد نزه الله نبيّه عن الشعر ، وترفع العلماء وهم ورثة الأنبياء عنه ، وصرّح الشافعى أنه يزرى بهم ؛ ولولا ذلك لكان أشعر من لبيد ...

فضحكت ، وقلت له :

— أماقت مرة فى السَّحر ، فأحسست نسيم الليل الناعش ، وسكونه الناطق ... وجماله الفاتن ، فشعرت بعاطفة لا عهد لك بمثلها ، ولا طاقة لك على وصفها ؟

أما سمعت مرة فى صفاء الليل نغمة عذبة ، من مغنّ حاذق قد خرجت من قلبه ، فهزت منك وتر القلب ، ومسّت حبّة الفؤاد ؟

أما خلوت مرة بنفسك تفكر فى الماضى فتذكر أفراحه وأتراحه ، وإخوانا كانوا زينة الحياة فطواهم الثرى ، وعهداً كان ربيع العمر فتصرم الربيع ، فوجدت فراغا فى نفسك ، فتلفتّ تفتش عن هذا الماضى الذى ذهب ولن يعود ؟

أما قرأت مرة قصة من قصص الحب ، أو خبرا من أخبار البطولة فأحسست بمثل النار تمشى فى أعصابك ، وبمثل جناح الطير يخفق فى صدرك ؟

أما رأيت فى الحياة مشاهد البؤس ؟ أما أبصرت فى الكون روائع الجمال ؟ فمن هو الذى يصور مشاعرك هذه ؟ من الذى يصف لذائذك النفسية وآلامك ، وبؤساك ونعماك ؟ لن يصورها اللغويون ولا الفقهاء ولا المحدثون ، ولا الأطباء ولا المهندسون . كل أولئك يعيشون مع الجسد والعقل ، محبوسين فى معقلهما ، لا يسرحون فى فضاء الأحلام ، ولا يوغلون فى أودية القلب ، ولا يلجون عالم النفس ... فمن هم أهل القلوب ؟

إنهم الشعراء يا سيدى ، وذلك هو الشعر !

إن البشر يكدّون ويسعون ، ويسيرون فى صحراء الحياة ، وقيد نواظرهم كواكب ثلاثة ، هى هدفهم وإليها المسير ، ومنها الهدى وهى السراج المنير ، وهى الحقيقة والخير والجمال ، وإن كوكب الجمال أزهلها وأبهاها ، إن خفى صاحباه عن بعض الناس فما يخفى على أحد ، وإن قصرت عن دركهما عيون فهو ملء كل عين ، والجمال بعدُ أسّ الحقائق وأصل الفضائل ، فلولا جمال الحقيقة ما طلبها العلماء ، ولولا جمال الخير ما دعا إليه المصلحون . وهل يتنازع فى تفضيل الجمال إنسان ؟ هل فى الدنيا من يؤثر الدِّمْنة المقفرة ، على الجنة المزهرة ؟ والعجوز الشوهاء على الصبية الحسناء ؟ والأسمال البالية على الحلل الغالية ؟

فكيف يكون فيها من يكره الشعر ، وهو جمال القول ، وفتنة الكلام ؟ وهو لغة القلب فمن لم يفهمه لم يكن من ذوى القلوب . وهو صورة النفس ، فمن لم يجد فيه صورته لم يكن إلا جماداً . وهو حديث الذكريات والآمال ، فمن لم يذكر ماضياً ، ولم يرجُ مستقبلا ، ولم يعرف من نفسه لذة ولا ألماً ، فليس بانسان .

* * *

ومن قال لك يا سيدى إن الله نزه نبيه صلى الله عليه وسلم عن الشعر لأن الشعر قبيح ؟ إنما نفى عنه أن يكون شاعراً كمن عرف العرب من الشعراء ، وردّ عليهم قولهم : « إنه شاعر » . لأن الشاعر يأتيه الوحى من داخل نفسه ، والنبى يجيئه الوحى من السماء ، وهـذا الذى لم تدركه العرب ، فقالوا قولتهم التى ردّها الله عليهم !

وأين وجدت حرمة الشعر ، أو مذمته من حيث هو كلام جميل ، يصف شعوراً نبيلا ؟ إنما يقبح إذا اشتمل على الباطل ، كما يقبح كل كلام يشتمل عليه .

ومن أين عرفت أن العلماء قد ترفعوا عنه ، والكتب مملوءة بالجيّد من أشعارهم ، فى الحب والغزل ووصف النساء ؟

أو ماسمعت بأن النبى صلى الله عليه وسلم أصغى إلى كعب وهو يهدر فى قصيدته التى يتغزل فيها بسعاد ... ويصفها بما لو ألقى

عليك مثله لتورعت عن سماعه ... وتصاممت عنه ، وحسبت أن التقى يمنعك منه وذهبت تلوم عليه ، وتنصح بالإقلاع عنه قائله ...

وما سعاد غداة البين إذ برزت
إلا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت
كأنها منهل بالراح معلول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة   لا يشتكى قصر منها ولا طول

وأن عمر كان يتمثل بمثل ما تكره أنت ... من الشعر ، وأن ابن عباس كان يصغى إلى إمام الغزلين عمر بن أبى ربيعة ، ويروى شعره ؟ وأن الحسن البصرى كان يستشهد فى مجلس وعظه ، بقول الشاعر :

اليوم عندك دلها وحديثها   وغداً لغيرك كفها والمعصم

وأن سعيد بن المسيب سمع مغنيا يغنى :

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت   به زينب فى نسوة خفرات

فضرب برجله وقال : هذا والله مما يلذ استماعه ، ثم قال :

وليست كأخرى أوسعت جيب درعها
وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وحفاً مرجلا
على مثل بدر لاح فى الظلمات
وقامت تراءى يوم جمع فأفتنت   برؤيتها من راح من عرفات

فكانوا يرون هذا الشعر لسعيد بن المسيب !

* * *

ومالى أدور وأسوق لك الأخبار ، وعندنا شعراء كان شعرهم أرق من النسيم إذا سرى ، وأصفى من شعاع القمر ، وأعذب من ماء الوصال ، وهم كانوا أئمة الدين وأعلام الهدى .

هذا عروة بن أذينة الفقيه المحدث شيخ الإمام مالك يقول(١) :

ان التى زعمت فؤادك ملها   خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فبك الذى زعمت بها وكلاكما   يبدى لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحى حب لها   لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها   يوماً وقد ضحيت إذن لأظلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة   شفع الفؤاد إلى الضمير فسلها

(١) الأغانى الجزء ٢١ . ٢٤ ، ٢٦

بيضاء باكرها النعيم فصاغها   بلباقة فأدقها وأجلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبى   ما كان أكثرها لنا وأقلها !
فدنا فقال ، لعلها معذورة   من أجل رقبتها، فقلت: لعلها!

هذه الأبيات التى بلغ من إعجاب الناس بها أن أبا السائب المخزومى لما سمعها حلف أنه لا يأكل بها طعاماً إلى الليل !

وهو القائل ، وهذا من أروع الشعر وأحلاه ، وهذا شعر شاعر لم ينطق بالشعر تقليدا ، وإنما قال عن شعور ، ونطق عن حب ، فما يخفى كلام المحبين :

قالت (وأبثثتها وجدى فبحت به) :
قد كنت عندى تحب الستر ، فاستتر
ألست تبصر من حولى؟فقلت لها: غطى هواك وما ألقى على بصرى

هذا الشاعر الفقيه الذى أوقد الحب فى قلبه نارا لا يطفئها إلا الوصال :

إذا وجدت أوار الحر فى كبدى   عمدت نحو سقاء الماء أبترد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره   فمن لحر على الأحشاء يتقد ؟ !

وهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، أحد فقهاء المدينة السبعة الذين انتهى إليهم العلم ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول فى خلافته(١) : لمجلس بن عبيد الله لو كان حيا ، أحب إلى من الدنيا وما فيها . وإنى لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله بألف دينار من بيت المال ، فقالوا : ياأمير المؤمنين ، تقول هذا مع شدة تحريك وشدة تحفظك ؟ قال : أين يذهب بكم ؟ والله إنى لأعود برأيه ونصيحته ومشورته على بيت المال بألوف وألوف . وكان الزهرى يقول : سمعت من العلم شيئا كثيرا ، فظننت أنى اكتفيت حتى لقيت عبيد الله فإذا كأنى ليس فى يدى شىء !

وهو مع ذلك الشاعر الغزل الذى يقول :

شققت القلب ثم ذررت فيه   هواك فليم فالتام الفطور
تغلغل حب عثمة فى فؤادى   فباديه مع الخافى يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب   ولا حزن ولم يبلغ سرور

أفسمعت بأعمق من هذا الحب وأعلق منه بالقلب ؟ ولم يكن يخفى ما فى قلبه ، بل كان إذا لقيه ابن المسيب فسأله : أأنت الفقيه الشاعر ؟ يقول : « لا بد للمصدور من أن ينفث » فلا

(١) ابن خلكان فى الوفيات .

طبيعة البـــلاد العربية [*]

للدكتور جواد على

على الرغم من الموقع الممتاز الذى تشغله البلاد العربية فى وجه الكرة الأرضية ، وعلى الرغم من الأهمية العسكرية التى تتمتع بها هذه البلاد باعتبارها قنطرة عظيمة تصل بين قارات ثلاث هى قارات العالم القديم ، فإنها كانت ولا تزال قليلة السكان جداً بالنسبة إلى سعة مساحتها واتساع أرضها ، وفيها بقعة كبيرة تكاد تكون خالية من السكان تتغلب عليها الطبيعة الصحراوية ، هى البقعة المعروفة بالربع الخالى ، وحولها منطقة واسعة قليلة السكان كذلك . ويغلب على هذه المناطق الجفاف والتغير السريع فى درجات الحرارة بين الليل والنهار تغيراً يؤثر فى طبيعة السكان تأثيراً كبيراً ، فيصعب على الإنسان والأجسام الحية تحمله .

(*) من كتاب « العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد على لم يطبع بعد .

ينكر عليه ابن المسيب . وهو القائل [1] :

كتمتَ الهوى حتى أضر بك الكتم
ولامك أقـوام ولومهم ظـلم
ونم عليك الكاشحون وقبلهم ... عليك الهوى قد نم لو نفع النم
وزادك إغراء بها طول بخلها ... عليك وأبلى لحم أعظمك الهم
فاصبحت كالنهدى إذ مات حسرة
على إثر هند أو كمن سقى السم [2]
ألا من لنفس لا تموت فينقضى ... شقاها ولا تحيا حياة لها طعم
تجنبت إتيان الحبيب تأثماً ... ألا إن هجران الحبيب هو الأثم
فذق هجرها إن كنت تزعم أنه ... رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

ألا إن هذا هو الشعر !

البقية فى العدد القادم

على الطنطاوى

(١) أمالى القالى .

(٢) قال البكرى في اللآلى ، هذا من للقلوب كخرق الثوب المسمار وترجمة النهرى هذا فى الأغانى (١٩) .

على أن فى الروايات اليونانية القديمة وفى المصادر السريانية والعربية ما يشير إلى أن بعض هذه المناطق الصحراوية الجرداء فى الوقت الحاضر لم تكن فى السابق على ما هى عليه الآن ، بل كانت مخصبة معشبة كثيرة الكلأ والماء ، معتدلة نوعاً ما فى درجات الحرارة . ولم يكن هنالك بطبيعة الحال فروق كبيرة بين الحرارة والبرودة فى الليل والنهار ، وأنها كانت عامرة توجد فيها المدن المأهولة والقرى .

وتلاحظ فى الوقت الحاضر آثار أنهار وعيون ونبات وواحات لا بد وأنها كانت مأهولة معمورة ، ثم تغير الطقس فيها وحدثت فيها كوارث طبيعية دعت إلى هجرة سكانها عنها وإلى تحولها إلى تربة صحراوية . ولما جاء الإسلام كانت هذه الأماكن نسياً منسياً ، فتصور الناس أنها من أعمال قوم عاد أو من أعمال الجن [1] .

وقد عرف أكثر الرواة العرب مثل تلك الانقلابات الطبيعية والتقلبات الجيولوجية ، فأشاروا إليها فقالوا إنما حدث ما حدث انتقاماً من تلك الأقوام القديمة والشعوب التى أجابت داعى الهوى وكفرت بأنعم الله فأذاقها الله سوء العذاب [2] .

وفى القرآن الكريم — وهو أصدق مرجع بين أيدينا — إشارات كثيرة إلى تلك الأقوام التى عاشت فى الأيام الخالية فى شبه جزيرة العرب تؤيد هذا الرأى وتقويه . ففى كتاب الله آيات مفصلة عن عاد وإرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها البلاد [3] وقوم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد [4] . وعن الأيكة [5] . وردت عرضاً على سبيل القصة والوعظة .

وقد عرض المفسرون لهذه الآيات وأطنبوا فى وصف تلك الأماكن والمحلات ، وذكروا شيئاً مما كان قد رسخ فى

(١) mortizy arabia p, 25 . المسعودى ج ١ مروج ص ٩٤ (طبعة أوربا) . النقائض ٢٨٩ ، ٤٠٢ .

(٢) mortizy p, 28

(٣) القرآن الكريم سورة ٨٩ آية ٧

(٤) القرآن الكريم سورة ١١ آية ٩٦ وسورة ٢٢ آية ٤٢ وفى مواضع أخرى .

(٥) القرآن الكريم سورة ١٥ آية ٧٨ وسورة ٢٦ آية ١٧٦ سورة ٣٨ آية ١٣ سورة ٥٠ آية ١٤ .

مخيلتهم عن تلك الأقوام . وهى صورة وإن كان رواء الوضع يتغلب عليها ، ومادة الخيال فيها خصبة ، إلا أنها صورة مهما قيل فيها فإنها مستمدة من واقع قديم تؤيده الآثار والتجارب العلمية الحديثة .

وكانت عناية الأهالى بالسدود عظيمة على ما يظهر من آثارها فى هذا اليوم . فعلى تلك السدود التى كانت تحافظ على مياه الأمطار أو مياه الأنهار والعيون كانت تتوقف حياة الأرض والسكان . والظاهر أن الناس فى ذلك الوقت كانوا على علم بأصول خزن المياه كالذى نشاهده من آثار سد مأرب ، ومن آثار السدود الأخرى فى اليمن أو قرب يثرب فى الحجاز (المدينة) وفى أرض بنى سليم . وكانت تعرف بأسماء مختلفة تختلف باختلاف القبائل ولهجاتها فتعرف باسم « مسك للماء » أو « مسد » أو سد أو مساك للماء[١] .

ولم تخل البلاد العربية الشمالية من السدود[٢] . وقد استمر العرب على إنشاء السدود حتى بعد تدهورهم فى العصور الجاهلية التى سبقت الإسلام واتصلت به بل حتى فى العصور الإسلامية كالعصر الأموى[٣] .

وامتازت منطقة يثرب بكثرة ما أنشىء فيها من النواظم والسدود والترع الفنية . ففى وادى بطحان وهو واد من أودية المدينة سد للماء . وفى وادى العقيق سد آخر عند جبل شوران[٤] وثالث فى وادى مهزول وقد كان حتى زمن الرسول[٥] . ثم سد رابع هو سد معونة قرب الأرحاضية جنوب المدينة[٦] ، وخامس فى وادى أظم[٧] .

وحتى نجد لم تكن لتخلو من هذه السدود[٨] . وقد وجدت السدود بكثرة فى جنوب الحجاز[٩] ، وفى أراضى قبائل هذيل وبنى سليم . وقد حافظت أراضى بنى سليم على خصبها وإنباتها حتى العصر العباسى . ولما أهمل أمرها فى هذا العهد بسبب الفتن والكوارث السياسية تحولت منذ هذا الوقت إلى أرض قاحلة صحراوية غادرها الناس وعافوها حتى غدت اليوم من المناطق الظلمة القفرة التى لا تزار[١] .

وقد اشتهرت بنو سليم على ما يظهر بنشاطها وبذكائها الخارق ، فابتكرت ولا شك طرقاً فنية لاستنباط الماء وخزنه إلى وقت الحاجة . فلما أراد الحجاج حفر آبار على طريق الحج لم يجد من يحسن حفر الآبار واستخراج الماء غير رجال هذه القبيلة[٢] .

وطبيعى أن يكون للعرب علم خاص بطرق استنباط الماء وإقامة الحواجز ، وكيفية حفر الآبار والتعرف على نوع الأراضى التى يمكن استخراج الماء منها وإلا فكيف يعقل أن تنشأ هذه الحواجز وأن تحفر تلك الآبار لو لم يكن لهم علم بذلك ؟ ثم إن النصوص اليمانية التى عثر عليها حتى الآن وهى قليلة تؤيد هذا الرأى وتدعمه[٣] .

وقد انتقل هذا الفن إلى المسلمين فظهر نفر من العلماء فى العصرين الأموى والعباسى نظموا صرف المياه وكيفية السيطرة عليها وتوزيعه . وألف بعضهم فى « كتب المياه » وفى إحياء الأراضى « الموات » وقد أضافوا إلى معلوماتهم العربية الخالصة ما أخذوه عن الأعاجم من آراء ونظريات وما قرأوه فى كتبهم من أبحاث[٤] .

على أننا نسمع فى نفس الوقت أصواتاً ترتفع من جوف البلاد العربية ومن مختلف الأنحاء تشكو الجفاف وتتألم من تراكم الأتربة فى مجارى الأنهار . ومن جفاف مياه الواحات فجأة ومن موت النباتات والأشجار وتحول الأرض إلى صحار رملية ، وقد استمرت تلك الشكاوى بدون انقطاع حتى القرن التاسع عشر . وقد تكون من بين أسباب هذا الجفاف وتحول المياه أسباب

(١) moritzy p, 27 . البكرى ٤٦٣ ياقوت جـ ٣ ص ٥٦٤
(٢) moritzy p, 27
(٣) نفس المصدر أيضاً البكرى ٤٦٢ ياقوت جـ ٢ ص ٢٤٩ .
(٤) moritzy p, 27 . البكرى ص ٤٦٢ ياقوت جـ ٢ ص ٢٤٩
(٥) moritzy p, 27 . البلاذرى فتوح ، ١٠ ، ١٣ .
(٦) moritzy p, 27 . ابن سعد ٢ ، ٢١ .
(٧) moritzy p, 27 . ياقوت جـ ١ ص ٣٠٥ .
(٨) moritzy p, 27 . البكرى ٢٠٥ ياقوت جـ ٣ ص ٧٣٨
(٩) moritzy p, 27

(١) البكرى ٤٦٧ ياقوت جـ ١ ص ٨٦٠ جـ ٢ ص ٨٥٥ . moritzy p, 27
(٢) البكرى ص ٢٠٧ moritzy p, 28
(٣) moritzy p, 26
(٤) moritzy p, 26 . راجع أيضاً الفهرست لابن النديم (الأوربية) ٢٦٩ . وص ٥٥ .

سياسية نشأت عن تضعضع مركز الخلافة والثورات والانقلابات العسكرية الكثيرة التي كانت تدبرها الأسر الشريفة أو أصحاب القوة والبسطة من الأعاجم وأصحاب العساكر والأتباع . فلم يعد في وسع الحكومة الاهتمام بشؤون الزراعة والري وسائر الشؤون الأخرى . وقد تكون عوامل طبيعية وقتية أو طوارىء طبيعية فجائية سببت انحباس الأمطار وإلى غور المياه إلى الأعماق . على كل فهي كوارث مزعجة حولت تلك الأماكن المثبتة المأهولة إلى أماكن صحراوية رملية لا يمكن لأحد النزول بها لعدم ملاءمتها لشروط الحياة[١] .

وقد خلقت هذه الكوارث الطبيعية والتقلبات الجيولوجية التي حدثت في الأزمنة التي سبقت الإسلام قصصاً مختلفة وحكايات توارثها الناس جيلا بعد جيل عن هلاك تلك الأقوام وتبدل وجه المعمورة وتحول الأرض المأنوسة إلى أرض موحشة . وقد تردد صداها في الكتب العربية ؛ ففي كتب الأدب والتاريخ سيل من هذه الأخبار عن عاد وثمود وطسم وجديس ووبار[٢] .

تكون الكوارث الطبيعية في بعض الأوقات على صورة انحباس مياه الأمطار مدة طويلة مقرونة برياح شديدة جافة حادة تحرق المزروعات ، وتجفف الأرض . وقد يعقب ذلك هزات أرضية لا تترك شيئاً في تلك البقعة التي تتحول عندئذ إلى صحراء جرداء[٣] يتركها سكانها إلى منطقة أخرى تصلح للزراعة والرعي والعيش .

يقول المستشرق موريتس لا بد وأن تكون هنالك حقيقة تاريخية فيما يروى عن هلاك قوم عاد وثمود . فإذا ما عرفنا أن منطقة الحجر كانت منطقة ثمود ، وأن هذه المنطقة منطقة بركانية كثيراً ما كانت تثور وتلقي بحممها على ماجاورها وأن «الحرات» هي فوهات تلك البراكين وأماكن حممها عرفنا لم هلكت ثمود وزالت معظم آثارها من عالم الوجود[٤] .

(١) moritzy p, 28 .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) moritzy p, 28 .

والحرّات هي مناطق بركانية خمدت براكينها وبقيت حممها وموادها التي كانت تقذفها ، وقد بردت منذ مدة قبل ظهور الإسلام ، إلا أن الدخان كان لا يزال يخرج من بعضها حتى في العصور الإسلامية . فقد ذكروا أن النيران كانت تخرج من حرة النار في جنوب شرقي المدينة ، وكانت تشاهد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[١] . وتحدث الناس عن نشاط بركاني ظهر فجأة في الحرة الكبرى التي تقع على مقربة من المدينة سنة ١٢٥٦ م . وقد دام ذلك عدة أسابيع ، وذكروا أن حمم هذه الحرة أخذت تسيل (Lave) وتزحف نحو المدينة حتى أصبحت على مسافة كيلو مترات قليلة من المدينة التي لم تنج منه إلا بمعجزة[٢] .

ولم نعد نسمع بحوادث بركانية مهمة منذ سنة ١٢٥٣ للميلاد في أكثر أنحاء شبه جزيرة العرب غير ما ذكرناه آنفاً . ففي هذه السنة حدث انفجار بركاني عظيم في منطقة عدن ثم خفت صوت البراكين منذ ذلك الحين ولم نعد نسمع بحوادث حرّات تخرب وتدمر كما كانت تفعل في السابق . ومعنى هذا أن تطوراً جيولوجياً عظيماً حدث في هذه المنطقة بدون شك[٣] .

وقد بحث العلماء في طبيعة البلاد العربية من حيث الوجهة الجيولوجية ورأوا أن هذه البلاد قد جابهت عدة انقلابات وتطورات أرضية حدثت فيها منذ العصور الجيولوجية حتى الآن . ورأى الجوابون آثاراً صدفية ومحاراً في الربع الخالي استدلوا منه على أن هذه المنطقة كانت مغطاة بالمياه ويجوز أنها كانت تحت مياه البحر[٤] .

وبنى المستشرقون على هذه الفرضيات العلمية نظرياتهم عن الأصل السامي وعن موطن الأصل السامي وهجرات الساميين . كما بحثوا عن موطن العرب الشماليين ، ووطنهم الأصلي هل كان

(١) moritzy p, 13 الطبري ج ١ ص ٢٩٨٢ (أوربية) .

(٢) Wustenfeld. Ge. medina moritzn p, 14 p, 18 ابن إياس ١ ، ٩٤ .

(٣) moritzy p, 14

(٤) راجع ما كتبه الرحالة الانكليزي برترام توماس . ودوتي وفلبي وغيرهم عن وصف تربة جزيرة العرب .

فى اليمن أو فى شمال اليمن ، وهل كانت الكوارث الطبيعية هى العوامل الأساسية فى الهجرة أو عوامل أخرى[١] .

تتحدث الكتب عن حادثة انفجار سد مأرب وكيف أن هذا الانفجار سبب جفافَ منطقة كبيرة من أرض اليمن كانت تتغذى منه . وكيف تمزق الناس أيدى سبأ وكيف هاجرت القبائل من الجنوب نحو الشمال .

وقد أدى ذلك الجفاف والتحول إلى تبدى القبائل المستقرة وتنقلها من مكان إلى مكان على سنة الأعراب . وهى ظاهرة تحدث كثيراً فى شبه الجزيرة ، فتتنقل على أثرها العشائر المتحضرة إلى البادية حيث تتخذ عيشة البدو الرحل . وقد حدث مثل هذا التطور فى العصور الإسلامية أيضا ولاسيما فى الأوقات التى تردّت فيها الحالة السياسية وضعف فيها نفوذ الحكومة فلم يعد فى إمكانها صيانة الأمن ولا السيطرة على النظم الاقتصادية ؛ فكانت القبائل المتحضرة أو النصف متحضرة تضطر لحماية نفسها إلى الالتجاء إلى الصحراء حيث لا تصل إليها لهيب الحروب السياسية والثورات وحيث لا تضطر إلى الاشتراك فى حروب لا نفع لها منها ولا ضرر .

ويشاهد السواح فى الوقت الحاضر آثار بيوت ومنازل فى أمكنة قاحلة رملية لا يمكن أن يستقر بها الإنسان فى مثل هذه الظروف بأى حال من الأحوال . وقد كانت مأهولة فيما مضى كما يظهر ذلك من هذه الآثار . فكيف حل فيها هذا الخراب وحولها هذا التحول !

وفى المصادر اليونانية أسماء مدن وقرى رآها الكتبة اليونانيون وحلوا بها وقد أعجب بها هؤلاء . إلا أنها اندثرت فيما بعد ولم يبق منها أى أثر حتى عند ظهور الرسول الكريم . وفى المصادر العربية مثل هذه الأسماء أيضاً زالت من عالم الوجود . وقد أنشأ المسلمون عدداً من المدن والقرى لم يبق منها اليوم أى أثر . وقد حدث مثل هذا الحادث فى العصور الحديثة كذلك[٢] .

إن الجفاف هو أعظم عدو هدد البلاد العربية وحارب الحضارة والعمران فى شبه جزيرة العرب . وهو الذى حول الجزيرة العربية إلى صحار رملية لا تصلح للانبات ولا للسكنى . وللجفاف عوامل مساعدة هى الشمس والتغير السريع فى درجات الحرارة وهبوب الرياح وتبدل مجارى المياه[١] .

وقد بحث عن هذا العامل العالم المستشرق كيتانى فتوصل إلى هذه النتيجة ، وهى أن جو بلاد العرب قد تغير وتبدل ، ولما حل به الجفاف لم يعد فى إمكان الإنسان ولا الأجسام الحية البقاء . فتركت تلك الأراضى التى تحولت إلى صحراء مقفرة[٢] .

والظاهر أن جو بلاد العرب كان مشبعاً فى الأزمنة القديمة التى سبقت الإسلام بالرطوبة وكانت الأرض مخصبة منبتة لوجود المياه ثم جف الجو وتوسعت منطقة الجفاف هذه وارتحل عنها السكان[٣] .

جواد علي

---

(١) راجع أبحاث المستشرقين فى الهجرة مثل غويدى وكيتانى وبيكر راجع أيضاً المقتطف جـ ٢ مجلد ١٠٥ تاريخ يولية ١٩٤٤ ص ١٢١ .

(٢) كما حدث فى تبوك عام ١٨٨١ م راجع moritzy p, 30

(١) نفس المصدر ص ٣٦ .

(٢) Leond coetani annali 11 l'arabia nello storia del movdo 16 Jan 1907 Becker vol 1 p,291

(٣) moritzy p, 36 .

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والجلال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٥ —



وكان تشابل عنيداً ضيق الصدر ، وكانت وظيفته تقتضيه ألا يتساهل فيما كلفته به إدارة الكلية ، ولم يكن في وسعه أن يتغاضى عن تمرد ذلك الطالب وإلا تعرض لمؤاخذة القائمين بالأمر ، فما يحب هؤلاء أن تشيع العدوى في بقية الطلاب ؛ لهذا لم يكن بد من معاقبة جون ملتن على في ذلك رادعاً له وعبرة لغيره .

وعوقب الفتى بإبعاده من الكلية إلى حين ؛ وقيل إنه عوقب بالضرب إلى جانب ذلك ، وإن كان أكثر المترجمين له ينكرون ذلك أو يستبعدونه ؛ على أن الضرب في ذاته يومئذ كان أمراً يقع في الكلية ، فلم تكن العقوبة البدنية محرمة حتى في الكلية .

وقضى ملتن فترة النفي في لندن غير آبه بما حدث ؛ يظهر في كل حين عدم مبالاته ، فلن تنال منه قسوة مدرس يتجنى عليه ، كما ذكر في بعض رسائله إلى « ديوداتي » أحد خلانه في مدرسة سنت بول ؛ وإنه ليفضي إلى ديوداتي أنه جد سعيد بإبعاده عن كمبردج فما يطيب بها انغام زهط أبولو ؛ وأنه يستمتع بفراغه فيغشى المسارح كثيراً ، ويقرأ من الكتب ما يحب غير مقيد بقيود تشابل ؛ وأنه يسرح الطرف في شوارع المدينة إذ يذرعها جيئة وذهابا ، ويمد عينيه إلى حسان لندن وقد لحُبِّن له بعد أيامه الجافة في كمبردج أروع مما كن حسناً وأشد فتنة ، حتى إنه ليرى من الحكمة أن يبادر بالرحيل قبل أن تمسه جراح كيوبيد .

وتكشف لنا رسائله المنظومة والمنثورة إلى صاحبه عن بعض نوازع نفسه ، فهو يحب المسرح ويكثر غشيانه ؛ ولن يفعل ذلك متزمت يرى من أدلة الاستقامة أن يحرم على نفسه زينة الله التي أخرج لعباده ؛ وهو يمد عينيه إلى الغيد ولكنه هنا يخشى الغواية فيطلب النجاة ؛ وكان حريا أن يقع في حبالهن وأن يقمن في حباله بما توفر له من الجمال والوجاهة وأناقة الملبس ورشاقة الجسم ، ولكنه حريص على عفته متمسك بطهره ، تهفو إلى الجمال روحه إلا أنه يحلق ويأبى أن يرد ...

وعاد ملتن إلى الكلية ، وقد انقضى أمر النفي ؛ ولكنه لم يعد إلى تشابل فقد نقل إلى غيره ، وهو إجراء له مغزاه ، إذ لم يكن مثل هـذا النقل بالعمل المعتاد في تلك الأيام ، ومنه يفهم أن القائمين على أمر الكلية يحملون تشابل شيئاً من اللوم .

ولم يفل النفي حدته ولا أوهن نشاطه ولا أذل كبرياءه ؛ وعادت نفسه الحرة تنشد الاصلاح ، وانطلق لسانه الفصيح يندد بما يرى من عيوب أيا كان أصحابها ؛ فلا تنقطع له شكوى ، ولا يفتر له نقد .

ونال أقرانه شيء غير قليل من نقده ؛ وكانوا أحرياء إلا قليلا منهم ، ألا يرتاحوا إليه ، وإن أعجبهم كثير من خصاله وراقهم شخصه ، فأن تمسكه بالفضيلة وتشدده في الطهر والعفة هو في ذاته تأنيب صامت لما يظهرون من نقائص ، ناهيك بما يقول في كل فرصة ، وبما يرسله كل آونة من عبارات التهكم أو نظرات الازدراء . وقف يخطب ذات مرة فقال « كيف آمل أن أجد فيكم الرغبة إلى الخير وأنا أرى في حفل عظيم كهذا الحفل وجوهاً تنطق بالعداوة يكاد يبلغ عددها عدد ما هنا من رؤوس » .

وكان جزاؤه على ذلك العنت من الكثير من طلاب الكلية ، فأخذوا على طريقة الطلاب يعابثونه ويهوشون عليه ويلاقونه أينما تكلم بشغبهم وزياطهم ، ويسخرون منه كما سخر منهم ، وجعلوا عفته موضعاً لاستهزائهم به ، وكانوا قد أطلقوا عليه من

قبل إسم « السيدة » لما رأوا من رقته وظرفه ودماثته ، فأخذوا الآن يعيدون هذه التسمية فى موضع الأعنات والاستهزاء ، فاذا سأل أحدهم صاحبه عنه قال هل رأيت سيدة الـكلية ، أوهل رأيت سيدة كريست ، ويقصدون أن يسمعوه هذا وهو على مقربة منهم ليغيظوه ، فيكظم غيظه ويحاول أن يغيظهم بترفعه عنهم وازدرائه إياهم .

ولم يأبه ملتن بمـا يقولون ؛ ففيه على رقة حاشيته صبر على النضال ، يلذ له الأذى فى سبيل إعلان رأيه والدفاع عن مبدئه ، ولذلك نراه ينهض ذات مرة خطيباً ، فيشير فى خطابه إلى هذه التسمية ، فيقول متهكما إنه يعتقد أن ليس مردها إلى حسن وجهه وقصر قامته وجمـال هيكله فحسب ، ولـكن إلى طهره كذلك ورقة حاشيته ودماثته وحسن سلوكه ؛ ثم يتساءل فى ازدراء عما إذا كان يقصر اسم الرجولة على من كانت لهم القدرة أن يعبوا أقداحا كبيرة من الخمر ، أو على الفلاحين الذين غلظت أيديهم وجمدت من أثر المحراث ، أوعلى من يبرهنون على رجولتهم بالعربدة والفجور والفسوق ؟ … ويستخذى الجميع أمام حماسته وشجاعته ورباطة جأشه .

ولا يفوته أن يقارن بين نفسه وبين من اتهموا قبله من النابهين الأعلام بمثل ما اتهم به ، قائلا إن ديموستين نفسه لم ينج من اتهام أعدائه إياه بالنقص فى رجولته !

والحق أن مرد هذه التسمية لم يكن إلى ضعف فيه ولا إلى خور ، فقد كان منذ يفاعته شجاع القلب والرأى ، ولسوف يقيم الدليل فى مستقبل أيامه على أنه ما حمل القلم يوما أشجع منه ؛ وكان فى الـكلية لا يهمل المران على استعمال سيفه يوماً ؛ وكان لا يرهب التحدى ، ولا يحب أن يصانع ذا غافلة أو يتواضع لذى كبرة ، وإن كان فى غير ذلك من المواقف جم الأدب مرموق الوداعة …

وما سماه أقرانه هذا الاسم أول الأمر إلا لأنهم أساءوا فهم وداعته ورقة حاشيته ، ثم عادوا يرددونه رغبة منهم فى إغاظته وإمعانا فى إعناته ، ولا يجد الشباب عادة فى الزراية على من لا يتابعهم إلى ما يحبون من العبث واللهو الخشن أنـكى من نعته بالأنوثة .

وكان مرد عفته واعتصامه بالفضيلة إلى معنى طريف يضاف إلى وازع الدين وداعى الخلق ؛ وذلك أنه كان يرى أن الشاعر الذى يعد نفسه لرسالة سامية ، ينبغى قبل كل شىء أن يكون أهلا لما يستشرف له ، ولن يكون لذلك أهلا إلا إذا سمت نفسه وخلت من الأوضار ، واتصلت فى كل متجه بالمثل الأعلى لا تتخلف قط عنه ، أو على حد تعبيره ينبغى أن يكون هو قصيدة سامية .

ولقد نجح ملتن نجاحا عظيما فى ضبط نفسه وكبح جماحها ، على الرغم من توقد عاطفته وشاعرية روحه ، وتفهمه أسرار الجمال ، وتفطنه إلى موطن الفتنة فى دنيا الطبيعة وفى دنيا الناس ، هذا إلى ما اتصف به من فراهة الجمال وروعة الشباب ؛ ولذلك فأن سيطرته على نفسه مع هذا أعظم من أن تـكون نجاحا ، فأنها تشبه أن تـكون معجزة .

وحق لهذا الشاب أن يفخر بقهر نفسه ، أو على الأصح بقهر شهوات نفسه ، فقد أطلق نفسه على سجيتها بعد إذ جنبها مزالق الضلال ومهاوى الفتنة لتنطلق حرة فى مسارح الجمال ومواطن الرأى …

وكان ملتن يؤمن بأن من يسمو بنفسه لا بد أن تواتيه قوة خارقة على التعبير عما يريد من معانى السمو ، وبقدر ما يكون من طهر نفسه يـكون ما يتوافى له من البيان فيما ينهض لبلوغه من معارج القول

وإلى جانب ذلك كأن ملتن كثير الذهاب بنفسه ، يعتقد أنه فوق غيره فى الذكاء والعلم ، يتداخله منذ صغره شعور قوى بتفوقه وامتيازه ، وهو نوع من الاعتداد بالنفس حرى أن يسمى الـكبرياء العقلية ، جعل ملتن الشاعر الشاب يؤمن بفـكرة هى تغليب العقل على العاطفة ، وهذه هى الحـكمة ، ثم يأخذ نفسه من غير هوادة بما تقتضيه منه الفـكرة ، فلا ينقاد لعواطفه كيما يعيش حكيما معتصما بالزهد والعفة

وإنه ليعتقد أنه خلق لعظيمة من العظائم فى دنيا الشعر ، وأن الزمن يهيئه فيعزله عن الناس ويرفعه فوقهم درجات ليتسنى له أن يأتى بمـا لا يستطيعون أن يأتوا به ، وكأن ولوعه بالأدب وشغفه بالبيان واستمساكه بالفضيلة ، كل ذلك إرهاص يكون بعده الإعجاز !

ولم تصرف ملتن عنايته بالأدب والشـعر عما فرضت عليه الـكلية من دروس . كذلك لم تصرفه عنها كراهته إياها ودعوته القائمين بالأمر إلى إصلاحها ، وتوجيه المطاعن إليها ، فهى أمر لا بد منه إذا شاء أن يظفر بالأجازة الجامعية ؛ وهو منذ صغره دؤوب على العمل صبور جليد ، فـما ينوء اليوم بأن يجمع بين دروسه الرسمية ومتعة نفسه من الأدب والشعر وغيرهما مما لا يدخل فى محيط الدروس المقررة .

ويشهد أكثر القائمين على أمر الكلية أنه طالب مجد فى عمله ، نشط فى طلب المزيد من العلم ، يحب أن يحيط بما يدرس إحاطة تامة ، ولولا نزعته الاستقلالية ونفوره من القيود ورغبته أن يختار الوقت الذى يحب لينجز ما كلف من عمل ، ما شكا منه أحد ، ولا كان بينه وبين تشابل عريفه الأول ما كان من شحناء وتنابذ .

ولم يتخلف ملتن عن أقرانه على الرغم من فترة إبعاده عن الكلية ، فحصل عند نهاية الأجل المقرر للدراسة الأولى على درجته العلمية الأولى ، وكان اللاهوت هو العلم الأساسى الذى اختار من أول الأمر أن يمتحن فيه ، ويحصل على درجته ، فدرسه ودرس ما يتصل به أو يتفرع منه من معرفة .

ولئن درس اللاهوت على عسره دراسة جد ، واستوعب ما يحيط به ، فإن قلبه كان يجد العزاء فى مجال آخر محبب إليه ، وأى مجال أحب إليه من الشعر وأنغامه وأحلامه ؟ وهل يشغله عنه شاغل مهما جل ، وهو من افتتن به وظن أنه خلق له منذ سن العاشرة ؟ لذلك كان يعمد إلى قيثارته يغنى عليها أناشيده كلما نفض من اللاهوت يده !

ففى أول سنة له فى الكلية ، وقد دخل فى سنته الثامنة عشرة ، نظم الفتى باللاتينية — أول ما نظم — قصائد ست ، ثم نظم واحدة بالإنجليزية ، ولعله اختار اللاتينية لأنها لغة أوفيد ، وهو به متعلق مشغوف منذ صغره ؛ وكانت معظم أشعاره اللاتينية مراثى فى مناسبات على نحو ما يفعل عادة من يستطيع النظم من الطلاب ؛ ولكن طموح ملتن وثقته فى نفسه ألقيا فى روعه أنه شاعر حقاً ، وأنه لا يتكلف النظم كما يتكلفه غيره ، وأنه ما يسطر على القرطاس شيئاً إلا استحق أن يعيش وأن يشيع فى الأدباء !

ولكن الذين كتبوا تاريخ حياته ، ممن لهم علم باللاتينية ، يرون التقليد فى هذه الباكورة يغلب على الأصالة . وكان ملتن يقلد أوفيد ، وقد اتجه بقلبه وخياله إليه ، كما يصنع الأفراخ النواهض من الشعراء أن يتأثر كل منهم فى صدر شبابه بواحد ممن حلقوا قبلهم فى سماء الشعر !

وكانت القصيدة الإنجليزية كذلك مرثية بكى بها الشاعر الشاب طفلة من ذوى قرباه ، وعنوانها « فى موت طفلة جميلة أودت بها سعلة » . ونلمس فى هذه المرثية خصائص ملتن الأولى فى الشعر : فموسيقاه حلوة ، وألفاظه تنساب فى يسر وإشراق ، وإن لها فى السمع لجرساً ساحراً جميلا ... وهو كثير الإشارة إلى الميثولوجيا الإغريقية والمسيحية ، يكثر من ذكر الآلهة ؛ وهو يأتى بالصفة تتداعى بها إلى الذهن المعانى المتصلة بما يصف فى قوة ومهارة ، فتوحى بذلك الأبيات القليلة معانى كثيرة ، بل لقد يجعل للكلمة الواحدة معنى واسعاً بما يسبقها أو يلحقها به من الكلام ، فيرمز للموت هنا مثلا بالشتاء ، وقد ناجى الطفلة فى مستهل القصيدة باسم زهرة من أشهر زهرات الربيع يكفى النطق بها لتذكر الأنفس الربيع وموسمه الحافل ؛ ثم يعود فيتحدث عن الطفلة كأنها ملاك عاد إلى أفقه ، وقد اتخذ صورة الإنسان لحظة ، ليُرى الناس كيف يحتقرون هذه الأرض ، وكيف تهفو إلى السماوات أرواحهم ، ويسأل أمها تبعاً لذلك ألا تحزن ، فما فقدت شيئاً ... !

وبعد ذلك بسنتين ينظم باللاتينية أولى غرامياته ، وفيها يذكر أن عينيه وقعتا فى سرب من حسان لندن على فتاة استأثرت بلبه ونفذت نظرتها إلى أعماق قلبه ... فتاة هى فينوس حسناً وشكلا ... وسرعان ما جرحه كيوبيد بها فى ألف موضع من جسمه ... ثم غابت عن بصره وتولت وقد شغفته حباً ... فأحس كأنه يحترق وكأن اللهب يحتويه ... ولم يرها بعد ذلك أبداً ، وأصبح بعدها كغيره من العشاق ينعم بشقاء حلو !

وأردف هذه القصيدة بأخرى لاتينية غرامية كذلك يصف فيها الحب ، ولا يشير فيها إلى موقف بعينه كما فعل فى سالفتها ، ولكن ... إلى الهوى وأسقامه وأحلامه ...

ويحرص ملتن دائماً أن يسمو بحبه ، فما تنم كلماته ولا إشاراته عما يستهجن من قول أو فعل ، وما يصدر عن مثله إلا كل سام نبيل ، وقد جعل سمو النفس وطهرها كما رأينا وسيلة إلى سمو التعبير ؛ على أنه يفصح أحياناً عما يظهره أنه يحس شيئاً من المرح إذ يصف هيام الحب وأحلامه ومتعه ؛ ولعله أراد بذلك أن يوحى إلى لداته أنه يتخفف من تزمته ، أو مما يأخذونه على أنه تزمت منه ، وما هو فيما يرى إلا التوقر والاحتشام والجد ؛ ولقد أشار فى بعض خطبه إلى شىء من هذا ، فجهر بأنه اليوم يحبذ المرح والسرور ، وإن كان قصير الباع فى التندر والفكاهة ؛ ولعله كذلك يجد فى هذا المرح الذى يصفُ والذى يحبذ ، وفى هذا الحب الذى يصوغ ألحانه ، ما يرد به على من أطلقوا عليه ذلك الإسم السخيف الذى ضايقه بعض الثقلاء به !

(يتبع) **الخفيف**

فلسطينيات :

أولجا رومانوف

للأستاذ نجاتي صدقي

يعرفها الناس باسم « السيدة المسكوبية » ، وهى تجيد خمس لغات أوربية ، كما أنها تتحدث قليلا بالعربية العامية ، ويعجبها أن تعرب عن أفكارها أحياناً باللفظ العربى الفصيح فتقول مثلا: « يغلب على ظنى أن الأمر كذا وكذا » و « ثق يا عزيزى بأننى متمسكة برأيى » ، و « أجل » ، و « ربما » ...

والسيدة المسكوبية هذه تقع فى حدود الخمسين من عمرها ، قصيرة القامة ، نحيفة الجسم ، عظيمة الهيئة ، مجعدة الوجه ، غائرة العينين ، مصفرة الأسنان ، وبعضها قد نخره السوس ، لكنها تحتفظ بشعر أشقر طويل تضفره وتعقده حول رأسها ، وهى تحاول دائماً أن تكون ضحوكا لعوباً ، ميالة إلى تقليد الفتيات اليافعات الطارقات حديثاً أبواب الحياة ...

وتسكن هذه السيدة فى دير الأرز الواقع بين منعطفات المرحلة الثالثة من طريق الآلام فى مدينة القدس القديمة ... وغرفتها على قدرها ، طولها أربعة أمتار ، وعرضها متران ، ويتألف أثاثها من سرير مفرد ، يستند إلى قوائم أربع ، إلا أن فراشه يُقبل الأرض ! وخزانة ضيقة عتيقة عرجاء ، تقف فى الزاوية كما يقف المسكين مستعطياً ... ومائدة صغيرة تستعمل لكل شىء : للطبخ والأكل والزينة ، فغدت سوداء براقة لاختلاط دهانها بالزيوت التى تنساب عليها من الصحائف والملاعق ، وبساطاً «موزاييكا» حيك من مختلف الشرط البالية ، وصورة علقت على الحائط تمثل « الخضر » راكباً على فرسه وهو يلقم التنين رأس حربته ... وألبسة وقبعات نشرت على مشجب خشبى ... أما باب الغرفة ، فقد دقت فيه من الداخل مسامير صغيرة تستعمل لتعليق بعض المناشف وأوائل منزلية أخرى ... وألصقت عليه من الخارج رقعة كتب عليها : « أولجا نيقولا يفنا رومانوفا »

وتدعى السيدة المسكوبية بأنها منحدرة من آل رومانوف قياصرة الروسيا ، وأن « الدهر الخؤون » طوّح بها إلى بلاد العرب ، وأنها فقدت زوجها ، ولم تنجب منه أولاداً ، فتفرغت للعبادة والخدمة فى الصليب الأحمر ، وهى تعتقد أن لها « صلات قدسية » مع بعض القديسين ، وبوسعها أن تكون وسيطة فيما بينهم وبين قاصديهم من طلاب الحاجات .

وللسيدة المسكوبية جيران يشفقون عليها فيمدونها بين حين وآخر بما تيسر من حواضر البيت ، وتغتنم هى الفرص فى كثير من الأحايين فتقف عند باب غرفة جارها وتناديه ، فإن كان داخلها ورد عليها سألته :

— هل لى أن أعرف الوقت الآن ؟

وإن كان خارجها دفعت الباب صارخة :

— ما بك يا جارى ... عساك بخير ؟ فإن لم تجد فى الغرفة أحداً تناولت شيئاً ، وانسحبت على عجل !

وفى أحد أيام شهر كانون الثانى (يناير) سنة ١٩٤٣ حلّ فى الدير ضابط بولونى اسمه «يوزيك غروزنى» سرح من الجيش لعدم صلاحيته للخدمة العسكرية ، واستأجر غرفة فى الطابق الأسفل من الدير ، وكان متاعه ما جلبه معه من الجيش من سرير عسكرى وأحزمة وألبسة وأدوات أكل ...

وهنا تبدأ القصة :

فبينما كان يوزيك مستلقياً على سريره ذات مساء ، يستعرض بحرقة وألم الأيام العصيبة التى مرت به منذ أن فر من بولونيا ، حتى اشتراكه فى معارك ليبيا ووقوعه جريحاً ، وإحالته إلى هذا الدير عاطلا ، إذ به يلمح امرأة تقف عند نافذة غرفته وهى تبسم له وتقول بالبولونية :

— حضرتك جارنا الجديد ؟

— نعم !

— أأنت جندى ؟

— أجل ، وسرحت لعطل فى ساق

— ومن أية بلدة بولونية أنت ؟

— من لودز

— أحقاً أنت من لودز ؟ يا لغريب المصادفات ! إننى قضيت شطراً من شبابى فى هذه المدينة الجميلة !

— وحضرتك ما اسمك ؟ ومن أين ؟

— أنا أولجا نيقولا يفنا رومانوفا ! (ورفعت رأسها إلى العلاء قليلا) إن الدم الأزرق يجرى فى عروق ، دم آل رومانوف !

فانتفض يوزيك فى سريره وانتصب واقفاً وهو يحدق النظر بـ «الأميرة» المشردة ، وكان ينتابه عاملان خفيان : عامل الكره للروس ، وعامل الحاجة إلى المعونة . يود أن يصرخ فى وجه «سليلة» آل رومانوف ، ويسمعها قارص الكلام فى حق أبيها وعمها والحاشية القيصرية كلها ، لكنه أحس أنه أصبح من مساكين هذا الدير ، وهو فى مسيس الحاجة إلى من يساعده ويواسيه ، وعليه أن يكون سمحاً متواضعاً ، فخرج إلى حيث تقف السيدة المسكوبية ، وقرع قدمه اليمنى بقدمه اليسرى ، وحياها بإصبعيه التحية العسكرية البولونية ، ثم انحنى على يدها وطبع عليها قبلة رشيقة !

وتوالت الزيارات فيما بعد بين يوزيك وأولجا ، فكانت هى تدعوه إلى شرب الشاى عندها ، وكان هو يشترى لها بعض الهدايا من المعاش الذى يتقاضاه من الوكالة البولونية . وهكذا توطدت أواصر الصداقة فيما بينهما ، وشعرا بالدفء إلى جانب بعضهما ... وفى ليلة كانا يتبادلان فيها أنخاب الفودكا ، فاتحها يوزيك بالزواج ، فأسبلت عينيها خجلا وتمتمت قائلة : «حقاً إنك لعفريت يا يوزيك ... أيتزوج عملاق لم يبلغ الأربعين من امرأة ضعيفة قد ناهزت الخمسين ؟ !

قال : ولم لا ؟ الحب يا سيدتى لا يقر بحد للأعمار ، ولا يعترف بالسمن أو الهزال ... الحب هو تبادل العاطفة المشبوبة بين نفسين متجانستين متفاهمتين ...

قالت : أتحبنى إذن ؟

قال : فلتشهد السماء على حبى لك ... ولنشرب نخب الحب والزواج ...

ولم تمض أيام على هذا الحديث حتى عرف كل من فى الدير أن أولجا أصبحت زوجة ليوزيك ، وأنهما سعيدان فى زواجهما هذا . ومن مظاهر هذه السعادة أنهما كانا دائماً منطويان على نفسيهما فى غرفة أولجا ، يشربان الشاى نهاراً ، والفودكا ليلا ، ويدخنان ويتماجنان ويقهقهان عالياً ، ويعربدان أحياناً بصورة تقلق راحة الجيران ، إلا أن هؤلاء كانوا يتسامحون مع العروسين الجديدين ، ويغضون الطرف عما يبديانه فى الدير من طيش ناتج عن انفعالات النفس والعاطفة ...

وحدث فى منتصف الليلة الثانية من الشهر الثانى لزواج يوزيك باولغا أن هبّ سكان الدير مذعورين على صراخ عنيف ، وقرع شديد على باب الممر المؤدى إلى الغرف ، وسمعوا أولغا تكيل السباب والشتائم ليوزيك ، فتقول له : — اذهب أيها السكير إلى غرفتك ... إننى آويتك وأحسنت إليك ... اذهب أيها المتشرد ... وكان يوزيك يجيبها : لقد سرقتِنى يا فاعلة كذا وكذا ... والله لأبطشن بك ... واحتدم الجدل فيما بينهما وحطم يوزيك باب الممر ، ثم اقتحم غرفة أولغا ولكمها على عينها لكمة قوية تركت حولها هالة زرقاء ، فاستنجدت بالجيران ، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على التدخل ، فاستنجدت مرة أخرى بأهل الحى ، فجاءها الحراس واعتقلوا يوزيك ، واقتادوه إلى دائرة الشرطة حيث حرر الضابط المسئول محضراً ، وكانت أولجا هى المدعية والشاهدة ، فقالت فى إفادتها : «لقد حطم زوجى الأبواب وضربنى ، فاننى أطلب له أقسى درجات العقوبة» ...

ولما عادت إلى بيتها وسكنت إلى نفسها أخذ ضميرها يؤنبها ، فراحت تبكى وتنتحب وتتساءل قائلة : — «رباه ؟ من الذى سبب لزوجىَ الاعتقال غيرى ؟ ... ومن الذى أسكره ، وسرقه وقاده إلى سطح الدير سواى ؟» .

يبدو أن الإنسان مهما انحطت أخلاقه وفسدت ، ومهما تدهور إلى مصاف الأسافل وتخبط فى حضيض الحياة ، يظل حاملا فى نفسه القليل من الكرامة ، واليسير من المعنويات ، فتراه إذا ما هزته مساوئه يثوب إلى رشده ، ولو إلى حين ، فيذكر أنه لا زال ينتمى إلى بنى الانسان ، وأن ما يقوم به من أعمال شريرة لأمر يناقض الأنظمة العامة التى اتفق عليها الناس ، يخالف الطبيعة البشرية على الجملة .

وهكذا أحست أولغا بعامل خفى يدفعها لأن تسعف يوزيك ، فعادت للتوّ إلى دائرة الشرطة وقالت للضابط المسئول : — أودّ إدخال بعض توضيحات فى إفادتى .

فقال — وما هى ؟ ...

وأيضا ، تهجم على التخطئة !

للأستاذ محمود محمد شاكر

إلى أخى البصام :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فيخيل إلى — والله أعلم — أنك رجل واسع المعرفة ، مغرًى بالتحصيل ، دقيق البصر ، تطلب الكلام وإسناده ووجهه ومكانه وضوابطه . وحسب طالب المعرفة أن يكون كمثلك .

وقد طلع على مقالك فى الرسالة ، فما أدرى والله من أى أمريك أعجب ؟ من واسع معرفتك ، أم من حسن تهديك إلى مواطن الشبهة فى كلامى . أم لعلى أعجب من استجلابك للحجة بعد الحجة فى تخطئة شىء كان الناس فى غنى وراحة عن اضطرابهم بين صوابه وخطئه ؟

ومختصر القول هو أنك تريد أن تقول إن الكتاب ينبغى أن يبدأ كما بدىء فى بعض كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتب أصحابه بقولك : « سلام عليك » فإذا كان الختام قيل : « والسلام عليك » ، وأن من بدأ الكتاب بقوله : « السلام عليك » فقد أخطأ . أفهذا شىء من أدب الكتابة واتباع السنة وحسب ، أم هو قاعدة توجب الاتباع نحواً ولغة ورواية ، فيكون من بدأ بقوله : « السلام عليك » معرفاً فقد أخطأ فى حق النحو واللغة والرواية ؟ وكلامك كله يدل على أن البدء بالسلام المعرف خطأ من قبل النحو واللغة والرواية . أليس كذلك ؟

فإذا كان ذلك كذلك ، فقد رويت لك قول صاحب اللسان فى مادة (سلم) : « ويقال السلام عليكم ، وسلام عليكم ، وسلام بحذف عليكم » ، وهذا ولاريب قول اللغة والرواية والنحو فيما رواه لنا الرواة ، فى تحديد بدء السلام (الذى هو التحية) . هذه واحدة .

ثم ذكرت لك قول الأخفش الذى رددته على ، وقلت إنه لايعتدّ به (هكذا) ، لأنى لم أذكر مصدره الذى نقلت عنه ، وفيه تصريح بين كتصريح صاحب اللسان ، ثم زاد فأظهرنا على العلة فقال إن « سلام عليكم ، حذفت منه الزيادة (وهى الألف واللام) كما يحذف الحرف الذى هو من أصل الكلمة فى قولنا : (لم يك) . وعلة أخرى هى أنه لما كثر استعمال « السلام عليك » بالألف واللام حذفا لكثرة الاستعمال . وهذا تقرير يدل على أن اللغة

قالت : وإننى لأقر بأن زوجى لم يقصد من تحطيم الأبواب إلحاق الأذى بى ، أو العبث بحوائجى ، وإنه فعل ذلك وهو تحت تحت تأثير الخمر فقط ، وأما اللكمة التى أصابتنى منه فقد كانت عفواً ...

وبالرغم من هذا التوضيح فى الإفادة حكم على يوزبك بالسجن أسبوعين ، وفى السجن قص على زملائه قصته فقال فيما قاله : « ... وكان من عادة زوجتى إذا ما وجدتنى ثملا أن تفتش جيوبى ، وتأخذ ما تجده فيها من مال . وحدث مرة أن قبضت معاشى وجئت البيت ، فوجدتها قد أعدت لى زجاجة كبيرة من الفودكا فأتيت عليها . ولما لعبت الخمر برأسى قالت لى : « هيا يا منى قلبى لنتنزه فى ضوء القمر ! » . فقمت أترنح مستنداً إلى ذراعها ، واقتادتنى إلى حيث أرادت . ولا أذكر كيف أفقت فوجدتنى ملقى على السطح فتفقدت معاشى فلم أجده ... فأدركت للحال أن « الأميرة » سرقتنى .

فقال أحد الساجين : — ماذا تقول ... أميرة ؟ ...

فأجاب يوزبك : — أجل ، تدعى زوجتى أنها من سلالة آل رومانوف ! ...

فقال سجين آخر : — ومن تكون زوجتك إذن ؟

قال : — ليست زوجتى سوى امرأة مقامرة فى حياتها . فرت من روسيا إبان الحرب الأهلية ، ثم قامت بأعمال مظلمة هنا وهناك ، وتجولت بين تركيا والبلقان وعمان ! ... وها هى اليوم تبارك الناس فى النهار وتسطو على فى الليل .

ولما خرج يوزبك من السجن كانت أولجا تنتظره ، فتصالحا وتعانقا ، وعادا إلى مسكنهما سوية ، وكانت هى قد أعدت له كعكا وشايا ، فجلسا إلى المائدة ، ودار بينهما حديث عتاب . وحديث آخر عن الإنسان وحظوظه العاثرة ...

نجاتي صدقي

والنحو والرواية تجعل الأصل في السلام المبدوء به هو التعريف .

فإن شئت أن تعرف أن وقع هذا الكلام عن الأخفش فاطلبه في ص ١٥٢ ج ١ من كتاب تهذيب الأسماء واللغات للنووي وفي غيره أيضاً . هذه ثانية .

فإذا شئت أن تزداد علماً فخذ كتاب « المخصص » لابن سيده ج ١٢ ص ٣١١ واقرأ قوله : « فأما قولهم : سلام عليك ، فإنما استجازوا حذف الألف واللام منه ، والابتداء به وهو نكرة ، لأنه في معنى الدعاء ، ففيه وإن رفعت معنى المنصوبَ » . يريد كأنك تدعو فتقول : « سلاما » . وقوله « استجازوا » دليل على أن الأصل هو التعريف بالألف واللام في ابتداء التحية ، وأن الحذف ترخُّص منهم ، وهو شبيه بقول الأخفش . هذه ثالثة .

فإن شئت أن تضرب الأمثال لنفسك بالشعر كما ضربتها لي ، فاقرأ قول جرير في ديوانه ص ٤٤٣ وفي النقائض ج ١ ص ٢١٢

يا أمّ ناجية السلام عليكم   قبل الرواح وقبل لوم العذّل

هذه رابعة .

وإن شئت أن تقرأ قول لبيد في الخزانة ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ ، وفي ديوانه :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما   ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فافعل تجد قولهم أن كلمة (اسم) مقحمة ، وتقدير الكلام فيما يقول النحاة : « ثم السلام عليكما » ، وتجد أيضاً في إحدى روايات « إلى سنة ثم السلام عليكما » . هذه سادسة .

فانظر لنفسك هل أخطأ كل هؤلاء وأصبت أنت ؟

واعلم مشكوراً أن المقام في هذا كله مقام ابتداء لا مقام ختام مسبوق بسلام منكرٍ غير معرف .

وأما نص ابن قتيبة فهو كلام بين لا غموض فيه ، فالرجل يقول لك : « تكتب في صدر الكتاب : سلام عليك ، وفي آخره السلام عليك » ولم يقل لك إنه ينبغي ، ولا أن القاعدة « أن تكتب في صدر الكتاب كذا ... » ، وهو إنما ذكر هذا في كتابه في (باب الهجاء) لا في باب أدب الكتابة كما ترى ، ولم يأمر الرجل ولم ينه ، ولم يقل لك إن من قال في أول كتابه « السلام عليك » معرفاً فقد أخطأ ، كما شئت أنت تقوّله . وأما ما ذكره من أمر التعريف ، فإنه أراد أن يعلمك لِمَ عُرِّف ثانيا وقد جاء منكراً وهو أول ، وكان حقه أن يأتي في الآخر منكرا مرفوعاً كما جاء في الأول فقال لك : « لأن الشيء إذا بدىء بذكره كان نكرة ، فإذا أعدته صار معرفة ، وكذا كل شيء . تقول : مر بنا رجل ، ثم تقول : رأيت الرجل قد رجع . فكذلك لما صرت إلى آخر الكتاب ، وقد جرى في أوله ذكر السلام عرفته أنه ذلك السلام المتقدم » ، ويريد أن يقول إن التعريف هنا « للعهد لا للجنس » . هذا كل ما في كلام الرجل ، لم يوجب شيئاً ولم يمنع شيئا .

وأما الآية التي في سورة مريم من قول عيسى عليه السلام : « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ... » ، وما جاء من قول الزمخشري فيها : « قيل أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله » يعني في قول الله تعالى ليحيى : « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ... » فذلك تفسير من الزمخشري لمعنى (ال) في قول من قال إن التعريف هنا للعهد . وأبى الزمخشري أن يكون كذلك ، لأن العهد ههنا باطل عنده ، فالسلام المذكور في قصة يحيى كان من قول الله سبحانه قبل مولد عيسى ، وهو آت في أول السورة في الآية (١٥) ، ثم مضى بعدها « واذكر في الكتاب مريم » وذكر الله سبحانه قصتها ، حتى أفضت إلى كلام عيسى وهو في المهد إذ قال : « والسلام على يوم ولدت ... » في الآية (٣٣) ، فبين السلام الأول والثاني (١) انقطاع في المدة (٢) وانقطاع في السَّرْد (٣) واختلاف في مبتدىء السلام وملقيه ، فالأول من الله والثاني من عيسى . هذا وسلام عيسى في الآية الثانية المعرف فيها السلام ، ابتداء ولا ريب .

ومن أجل ذلك ذهب الزمخشري إلى أن التعريف ههنا للجنس لا للعهد (وهذا كما ترى يخالف كل المخالفة ما أراده ابن قتيبة في كلامه) . ثم ذكر الزمخشري نكتة البلاغة في التعريف فقال إن تعريف الجنس هو الصحيح لا تعريف العهد « ليكون ذلك تعريضاً باللعنة على متهمي مريم وعلى أعدائها من اليهود » . وهذا عندي تعليل ضعيف جداً من الشيخ رضي الله عنه ، وكان خليقاً به أن يصرف عنه وجهه . ولولا أنه كان مولعاً بنكت البلاغة لما وقع في مثل ما وقع فيه . وإن شئت أن تزداد فقهاً ومعرفة بما قلت فاقرأ تفسير الشهاب الخفاجي والألوسي والقونوي وأبا حيان

وكتاب الأنموذج للرازى وتدبر ما فيها كل التدبر .

وأما قوله فى الآية الأخرى من سورة طه : « والسلام على من اتبع الهدى » إن معنى التعريف ههنا التعريض بحلول العذاب على من كذب وتولى ، فهذا جيد وحسن لقوله تعالى فى الآية التى تليها : « إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى » . وهذا أيضاً طلب لنكت البلاغة ، وتبيان لأن التعريف ههنا للجنس . ولكن الزمخشرى لم يقل لك ، ولا غيره فيما أحسب يقول لك : إن تعريف الجنس ينبغى أبداً أن يكون متضمنا معنى التعريض بشىء كالعذاب أو الويل أو الهلاك أو سوى ذلك كله .

ولو كان ذلك كذلك أيها الصديق لكان قصر تعريف الجنس على التعريض عجباً من العجب المضحك ، فانظر إلى قولك « سلام عليك » التى كان أصلها « سلاما عليك » منصوبة بفعل محذوف ، والتى عدل بها من النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات معنى السلام واستقراره ، مع بقائها فى معنى الدعاء ، فأنت إذا عرفتها تعريف الجنس فقلت « السلام عليك » اقتضت التعريض ، فعندئذ تقول لى كما قلت : « وبديهى أيها الأستاذ أنك لا تعنى بقولك (السلام عليكم) فى بدء كتابك الأول تعريضاً بأحد إذ لا حاجة إلى التعريض » .

فخذ عندئذ أختها وهى قولهم « حمد لله » التى كان أصلها « حمداً لله » منصوبة بفعل محذوف ، والتى عدل بها من النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات معنى الحمد واستقراره ، مع بقائها فى معنى من معانى الشكر والدعاء . فإذا عرفتها تعريف الجنس فقلت : « الحمد لله رب العالمين » أفيقتضى ذلك تعريضاً أو توبيخاً أو تهكماً !!! ألا يكون هذا عندئذ عجباً من العجب المضحك ...

ومن أجل تعريف الجنس ما أتعب الزمخشرى نفسه فى آية مريم وفى آية طه ، وفى سورة الفاتحة من تفسير قوله : « الحمد لله » فاقرأه هناك وتدبره كل التدبر .

وأما مسألة حديث التشهد فأراك جُرْت فيها على الحق . ولقد قلت فى مقالك : « أما أهل القبلة فتشهدهم بعد الصلاة مختلف فيه ، فمنهم من يقول (سلام عليك) ومنهم من يقول (السلام عليك) » . وقبل كل شىء ، فتشهد أهل القبلة لا يكون « بعد الصلاة » وهو « من الصلاة » ومن تركه أو بدّل فيه بطلت صلاته . هذه واحدة ، وأما الثانية ، فاختلاف أهل القبلة ليس يقال كما رويتَ ، فالصحابة جميعاً والتابعون من بعدهم ، وأئمة المذاهب من عرفت منهم ومن لم تعرف ، مذهبهم تعريف السلام فى التشهد كله إلا (ابن عباس) من الصحابة ، والشافعى من أصحاب المذاهب ، فإنه ارتضى تشهد ابن عباس وآثره لأنه عنده (هو) أتم الروايات وأكملها ، ولكنه لم ينكر التعريف ، ولا استنكره المزنىّ ولا سواه من أئمة مذهبه . فلو أنت عنيت نفسك فرجعت إلى شرح البخارى كابن حجر (ج ٢ ص ٢٦١ وما بعدها) والعينى (ج ٦ ص ١٠٩ وما بعدها) لعرفت أن الصحابة والتابعين مجمعون على روايته بالتعريف فى التشهد جميعاً ، ولرأيت أن أكثر الصحابة قالوا فى حديث التشهد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم التشهد كما يعلمهم السورة من القرآن ، ولرأيت النووى وهو من أصحاب الشافعى يقول : « قوله السلام عليك أيها النبى ، يجوز فى السلام فى الموضعين حذف اللام وإثباتها ، والإثبات أفضل » . أبعد هذا يا سيدى تطالبنى بأن أطلعك أنت « على نص يوثق به يشير إلى أنهم منذ زمن الرسول (ص) يقولون فى التشهد السلام عليك أيها النبى » ! عسى ولعل ، ولعل أهل القبلة أخطأوا جميعاً وأصبت أنت ! بما أوتيت من التدقيق والتحقيق والفحص وطلب المواثيق ! !

وأما إنكارك الحديث على ما خيّلت لك ، وأنه مما لا يستشهد به أهل اللغة والنحو ، واحتجاجك على ذلك بشىء اقتطعته من بحث فى خزانة الأدب ج ١ ص ٦ ، ولم تتمه على وجهه بالتدقيق والتحقيق والفحص وطلب المواثيق كدأبك وعلى عادتك ، فهذا باب وحده لو ارتطمت فيه لم تعرف مخرجك منه . وما الذى ألجأك إلى هذا أيها العزيز ؟ ألأنى أتيتك بحديث المسند ج ٤ ص٤٣٩ وفيه النص على أن المسلمين كانوا يبدأون التحية بقولهم « السلام عليك » ؟

والحديث الصحيح الذى استخلصه رواتنا رضى الله عنهم ، فنفوا عنه كذب الكاذبين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين حجة فى اللغة والنحو ، ولو زعم لك زاعم أنه لا يكون حجة فى اللغة ولا فى النحو فاعلم أنه مبطل ، وأنه غافل لا يدرى ما يقول . ولو رجعت إلى الخزانة التى نقلت عنها (وحسبك ولا أزيدك) علمت أن صاحبك نقل الذى نقلت لى فى كلامك ، وأنه رجل عالم طالبُ حق لا مغرور بباطل ، فقد ذكر وجوه اعتراض المبطلين فى الاحتجاج بالحديث ثم نقضها حجة حجة ، وصرح

بأن تدوين الأحاديث وضبطها وقع فى الصدر الأول من الاسلام قبل أن تفسد اللغة وتتصنع الألسنة بالملكة الأعجمية ، كما يعلم ذلك من درس تاريخ رواية الحديث وتدوينه حقّ دراسته ، ثم صرح فى آخر كلامه بأن لا فرق بين جميع روايات الحديث مهما اختلفت ألفاظها ، فى صحة الاستدلال بها فى اللغة والنحو . وكنت حقيقاً أن تقرأ كلَّ هذا قراءة طالب العلم ، فلا تسألنى أن أغلق باب الاستشهاد بالحديث ، من أجل كلمات رويتها لم تحسن وضعها فى مواضعها .

وإلا فحدثنى أيها العزيز لم ترى علماء اللغة ، كصاحب اللسان ، وابن الأثير ، والزمخشرى صاحبك وصاحب كتاب الفائق ، وسواهم ممن عرفت ومن لم تعرف — يملأون كتبهم استشهاداً بالحديث على معانٍ لم توجد فى غير الحديث ، ولو طلبت لها شاهداً من الشعر أو غيره لم تجد . فإما أن يكونوا هم المبطلين ، وإما أن تكون أنت على حق ، فنبطل من أجلك نصف اللغة ونصف النحو وأشياء أخرى كثيرة .

ثم انظر إلىّ أيها الصديق ! ألست أنت الذى تقول هذا ، وتقول لى أيضاً فى صدر من كلامك معلّما ومنبّها ومقرعاً إنه « فاتنى أن الحديث لا يستشهد به أهل اللغة والنحو » . هو أنت أنت الذى لم يلبث فى آخر كلامه أن يأتى بشىء يناقض هذا كل المناقضة ، فنقلت كتاب رسول الله إلى المقوقس ، وهو من الحديث ومما رواه المحدثون ، وكتابه إلى كسرى ، وهو من الحديث ، وكتاب أبى بكر إلى المرتدين ، وهو من رواية أهل الحديث ، ثم أردفت ذلك بقولك : « ومعلوم أن هذه الكتب مُدَوّنة ويستشهد بها اللغويون والنحاة » ؟! ياعجبا كل العجب ! فمن الذى روى لك هذه الكتب ؟ أليسوا هم الذين رووا لك الحديث ، وحديث التشهد ، وحديث السلام فى المسند ؟ وأين دوّنت هذه الكتب إلا فى الكتب التى دوّن فيها الحديث ؟ وما فرق ما بين تدوين الحديث وتدوين هذه الكتب ؟

وإن كنت قد ارتضيت هذه « الكتب المدونة » حجة يوثق بها ، فخذ كتاب الزمخشرىّ صاحبك ، وهو المسمى بالفائق ج ٢ ص ٣ ، واقرأ فيه وفى غيره أيضاً : « من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد . السلام على من آمن بالله ورسوله ... » إلى آخر الكتاب ، ولم يعترض الزمخشرى أيضاً على هذا البدء ، ولم يقل إنه خطأ فى اللغة ولا فى النحو .

ثم خذ صاحبك الطبرى ج ٣ ص ١٥٦ الذى نقلت منه كتاب رسول الله إلى المقوقس ، وكتاب أبى بكر ، وصاحبك « كتاب صبح الأعشى » ج ٦ ص ٤٦٥ ، الذى نقلت عنه كتاب الرسول إلى كسرى ، ثم اقرأ هداك الله : « لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ... » إلى آخر الكتاب .

فهل قنعت أيها العزيز بما سقت إليك ؟ وأمحضك النصح أن لا تتبع تلك الناجمة التى نجمتْ بين أهل اللغة تريد أن تتبجح بالعلم والمعرفة والفقه ، فتأتى صواب الناس ترميه بالخطأ على الشك والتوهم وسوء التأويل وفساد الفهم . واعلم أن العربية تعلّم العقل ، فمن شاء أن يطلبها بحقها فليصبر عليها صبر المؤمن . وأنت امرؤ فيك خير فلا تضيع ما آتاك الله بالعجلة والتسرّع ، فتثبت قبل أن تحكم ، وتدبر قبل أن تقطع ، واستقص قبل أن تستوثق ، وانظر لنفسك قبل أن تزلّ بك قدمٌ ، واعلم أن شرّ أخلاق الناس اللجاجة ، وشرُّ اللجاجة لجاجة العالِم ، وشر لجاجة العالم لجاجته فيما لا يعلم أو فيما لا يحسنُ ، وأن نصف العلم قول المرء فيما لايدرى لست أدرى . فالفهمَ الفَهْمَ فيما تلجلج فى صدرك ، هداك الله وأعانك وسدّد خطاكَ . والسلام عليك ورحمة الله .

محمود محمد شاكر

من مذكراتي في أمس القريب :

حول إنعـــام ...

للأستاذ فؤاد صروف

في ٢٦ أبريل ١٩٤٥ :

شرف الملك أمس حفلة افتتاح معمل المصل الجديد ، وأنعم على الدكتور شوشه برتبة باشا . فنعم المنعِم ونعم المنعَم عليه ...

وقد كنت منذ سنوات في مجلس أديب كبير ، فدار الحديث على الرتب والأوسمة . وكان أغلب الرأى بين المتحدثين أن تُلغى الرتب كما فعلت العراق وسوريا ولبنان ، ولكن الكبير قال : إذا ألغيناها فكيف نستطيع أن نميز الرجل الذى يستحق التقدير والتمييز لما يسديه من خدمة إلى الدولة ، أو لما يتفوق فيه على الأقران من علم أو أدب أو فضل ؟ وكانت الكلمات الأخيرة في السؤال لا تزال تضطرب على شفتى السائل ، حين دخلت المجلس سيدة ذكية حصيفة ، فوجه السؤال إليها ، فقالت دون أن تتردد لحظة واحدة : حسبه تقدير النخبة من المثقفين . فكان قولها فصل الخطاب .

والدكتور شوشه ، ظفر أمس بعد إنعام الملك السامى ، بالحسنيين : تقدير الملك المتمثل في رتبة عالية ، وتقدير النخبة من المثقفين ، الذين عرفوه فأنزلوه من تقديرهم في المنزلة العالية .

وحين قرأت ذكر الدكتور على توفيق شوشه أمس ، تزاحمت الخواطر على ذهنى ، فقد عرفته أول ما عرفته ، حين كان وكيلا لمعامل الصحة فدبراً لها . فكان يومئذ مكباً على البحث العلمى الأصيل ، مستغرقاً فيه دون أن ينصرف عن شئون الإدارة . ولم يكن بحثه بحثاً في فراغ — على ما يقول علماء الطبيعة ، بل كان بحثاً في مشكلة معينة ، لها صلة بالإنسانية التى تتعذب ، وبالإنسانية المصرية على وجه خاص . فقد كان همه أن يكشف سبيلا لمكافحة سم العقرب الذى يكثر المصابون به في مصر . وقد فعل .

ثم عرفته محاضراً مجيداً بالإنجليزية والعربية ، وقد قيل لى إنه أحسن محاضر بالألمانية ، ولكننى لا أعرفها . وعرفته زميلا محترم الرأى في المجمع المصرى للثقافة العلمية ، وكنت سكرتير المجمع حين تولى رئاسته . فتجلى لى في كل هذا رجلا آخر : فهو رجل ليس واسع العلم دقيق البحث وحسب ، بل يستطيع أيضاً أن يبسط العلم وينقله من لغة إلى لغة نقلا بارعاً ، تعلو عبارته العلمية الدقيقة سمةٌ من طرافة الأدب . وقد أتيح لى أن أنشر في المقتطف ، وفى كتب المجمع السنوية ، نصوص أربع من محاضراته في الغازات الحربية ، وسيرة كوخ وأعماله ، والمعركة اليومية في الجسم البشرى ، وتقدم الطب خلال خمسين سنة . وكان لابد من أن أديم النظر فيها عند تصحيح التجارب ، وكنت أتوسل بتلك التجارب لكى أذهب إليه في المعامل لأظفر بشيئين : أن أتخصها معه فأضمن دقتها ، وأن أستمتع بتعليقه عليها وعلى ما فيها من وجوه التعبير . فتعلمت في خلال هذه الساعات التى كنت أسترقها من وقته ، بين إدارة المعامل وبحثه العلمى الأصيل ، أن أقدر أسلوبه البارع في تقريب العلم ، وحسه اللغوى الدقيق في التعبير عن المعانى العلمية ومصطلحاتها ، قديمها وجديدها على السواء .

ثم عين وكيلا لوزارة الصحة ، وكأن السنين الطويلة التى قضاها في تحصيل العلم وممارسة بحوثه الأصيلة ، وإعداد المحاضرات لتقريب معانيه وإلقائها ، وما علمه بالتجربة من حاجة مصر إلى الإصلاح الصحى من وجوهه الكثيرة ، وما فطر عليه من حب الخير والعمل — قد احتشدت جميعاً ، لتكون الأساس لمشروعات الصحة المتعددة التى وضعها أومحصها مع الوزراء الذين تولوا الوزارة ، والمتخصصين من رجال الوزارة ورجال كلية الطب ، فصح فيه يومئذ ذلك القول المأثور: « هذا المنصب لهذا الرجل » .

هذه المعانى الثلاثة : البحث العلمى الأصيل الذى يحول بعض المجهول معلوماً — والمحاضرة العلمية المثقفة التى تجعل بعيد معانى العلم دانياً منقاداً ، وتطبيق قواعد العلم وأغراض العلم في أعمال الحكومة والإدارة لتحقيق خير الشعب — هى التى تألقت في ذهنى حين علمت بأن جلالة الملك تفضل فخصه بإنعام سام ، كان إنعاماً على العلم والعمل النافع جميعاً .

وهذه المعانى الثلاثة تقرر حقيقة ، وترسم دستوراً لجميع العاملين . أما الحقيقة ، فسطورة في سجل خدمته ، وأما الدستور فركن من الخطة العظيمة التى لا بد لمصر من أن تختطها — منذ اليوم بل منذ الساعة ، لكى تعد نفسها لمواجهة مشكلات الغد وحلها ، حتى تستطيع أن تقيم في هذا الوادى عالماً أفضل من

عالم أمس الغابر ، عالماً يقوم على الوفر دون العوز ، وعلى الصحة دون السقم ، وعلى العلم دون الجهل ، وعلى أخلاق الرجال .

وفى وضع هذه الخطة وإنفاذها ، لابد لنا من أن نربى العلماء الذين يتولون العلم ببحوثهم الأصيلة . ولست فى حاجة إلى إقامة الدليل على أن العلم قوة ، وينبغى أن نطلبه ولو فى الصين . فليس ثمة ناحية من نواحى حياة الفرد أو المجتمع لم يتغلغل فيها العلم فرفع من شأنها وأصلح من أمرها : الزراعة والصناعة والغذاء والصحة والمواصلات والمخاطبات . وكثير مما أنجبه العلماء فى سائر بلاد الناس ، يصلح لنا فيصح أن نتعمق فيه ونتدرب عليه ثم نتخذه فى ما يصلح له من شئوننا . ولكننا نجد فى بيئتنا مشكلات خاصة ، لا يصلح لبحثها أو حلها إلا علماؤنا . وهم ماضون فى ذلك بحمد الله ، ولكن عددهم يجب أن يزداد أضعافا . وتأييدهم من الحكومة والشعب يجب أن يستفيض فى الميزانية ، وعلى ألسنة الناس وفى مجالسهم وصحفهم ، وصلتهم بالصناعة المصرية ينبغى أن تتوثق . وحبذا لو طالع القراء الكتب السنوية التى أصدرها المجمع المصرى للثقافة العلمية — هذا المجمع الذى كان الدكتور شوشه أحد مؤسسيه ، ثم أحد رؤسائه — إذن لوجدوا فى مئات من الصفحات ، فى خمسة عشر مجلداً نفيسا أو تزيد ، عشرات من المسائل القومية فى الزراعة والصناعة وتوليد الطاقة ، وحفظ التربة ، وكفاح المرض ، وتجويد الغذاء وتحسين الصحة العامة لا يصلح لبحثها وحلها إلا الأكفاء من المصريين ، الذين جرى حب البلاد والشعب فى عروقهم ، وتدربوا على البحث العلمى الأصيل . وما خبرية الدكتور شوشه وسم العقرب ، ومرشحات الماء فى المنازل الريفية والقرى الصغيرة والمتوسطة التى أخرجها منذ سنوات ، سوى مثلين وحسب .

أما تبسيط العلم وتقريب معانيه البعيدة ، وبث روحه العالية فى جماعات الناس التى لم تظفر لسبب من الأسباب بالقسط الذى تتوق إليه منه ، فقد أصبح لزاما فى هذا العصر الذى اتسع فيه نطاق المعرفة اتساعا لا عهد لنا بمثله فى عصر سابق من عصور التاريخ . فكل علم من العلوم القديمة قد نما واتسع نطاقا وتشعب فروعا ، فتولدت منه علوم جديدة كل منها أدق من سابقه معنى وأشد عناية بالتفاصيل ، فهو لذلك أشق على الحصر والإحاطة به . فقد كشف النظار عن كواكب ونظم منظومة من النجوم والسدم يتعذر على عقل واحد أن يلم بها جميعا ، وأصبح رجال الجولوجيا يذكرون ألوف الملايين من السنين ، على حين كان رجال العصور السابقة لا يذكرون إلا الألوف ، وأماط علم الطبيعة اللثام عن كون منتظم فى الذرة ، والبيولوجيا عن كائن حى فى الخلية . وأبان علم وظائف الأعضاء طائفة يتعذر حصرها من أسرار الأعضاء ، وأثبت علم النفس وجود عوالم وعوالم من الفكر والشعور فى كل حلم ، وجاء رجال علم الإنسان فوصفوا لنا صورة عجيبة عن قدم الإنسان على سطح الأرض ، وجاراهم رجال الآثار فأخرجوا من جوف الأرض مدناً وحضارات ، وتبعت ذلك المخترعات العجيبة التى يسرت أساليب الحياة ، ولكنها خلقت طائفة كبيرة من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية تكاد تستعصى على الحل .

وفى هذا كله روعة تأخذ بمجامع النفس ، ولكن يكمن فيه خطر لا بد من تبيينه والتحذير منه . فالتخصص يزداد على الزمن تعمقا فى شئون لا يدركها المثقف من أوساط الناس ، والمثقف الوسط يتسع نطاق ما يعرفه ، ويضيق نطاق ما يفهمه . ولما انقسمت المعرفة على هذا النحو عجزت عن توليد الحكمة ، وصار لكل علم ، ولكل فرع من علم ألفاظ خاصة لا يفهمها إلا المتخصصون . وصار زعماء معظم الأبحاث عاجزين عن وصف ما يكشفون بلغة الناس .

ومن هنا اشتدت الحاجة إلى المعلم الذى يستطيع أن يُفهم الشعب ما يفعله المتخصص أو يكشفه ، فمهمته أن يتعلم لغة المتخصص ، كما تعلم المتخصص لغة الطبيعة ، ثم يحطم الحاجز اللغوى القائم بين المتخصص والأمة ، أو الحاجز اللغوى بين لغة ولغة أو كليهما ، كما هى الحال عندنا الآن .

ومن آيات التوفيق فى كفاح هذا الخطر ، أن قام فى الغرب علماء وهبوا هذه القدرة التى نطلبها فى هذا الطراز من المعلم المثقف . والدكتور شوشه مثال بيننا لما أسداه أولئك العلماء إلى قومهم . فعلمه الواسع الدقيق يمده بالقدرة على الغوص على المعانى البعيدة فى العلوم التى توفر عليها ، وخياله الخصب يمهد له تصوير تلك المعانى صورا شائقة قريبة ، وحسه اللغوى الأدبى يمكن له إفراغها فى عبارات ناصعة عربية وبيان عال . والقوى الثلاث تضبط إحداها الأخرى : فالعلم يضبط الخيال فلا يشذ ، ويمسك القلم فلا يغرق ، وإذا العبارة القصيرة ، أو المحاضرة الطويلة ، آية فى الوضوح والرواء والإحكام .

(البقية فى صفحة ٣٤٠)

من الأغانى العالمية :

حنين الغريب

[لناظمها فوستر]

بقلم الأستاذ كامل كيلانى

ذكرنا فى العدد ٦١٤ من الرسالة أن جمعية مصرية ألفت لتعريب الموسيقى العالمية قوامها الأساتذة على مصطفى مشرفة باشا وكامل كيلانى ومحمد زكى على وإسماعيل راتب وعلى بدوى ، وأنها اختارت عشر أغان لعباقرة الموسيقى فنقلها نظما إلى اللغة العربية الأستاذ كيلانى ، ثم نشرتها على الناس منظومة مدونة . ونزيد اليوم أن الجمعية لا تزال دائبة على تنفيذ هذا المشروع العظيم ، وأنها على وشك أن تخرج للناس مجموعة أخرى من هذه الأغانى . ويسرنا أن ننشر منها هذه الأغنية الجميلة لتكون أمشاق هذه الفكرة ومرتقبها عجالة لهفان وعلالة مشوق .

يانهر سْوَانى (1) : نفسى تهواكْ   قلبى حَيّاكْ
من كلِّ أرضٍ فكرى يَرْعاكْ   قَلْبي يَهْوَى نجْواكْ
فى التّلِّ العالى فوق الوديانْ   أمْشِى حَيْرانْ
فى الروْضِ الخالِى تحْتَ الأفْنانْ   تَقْتُلُنى الأحْزانْ
يا صِحابى : يا رفاق :   بَلّغُوا السَّلامْ
يافؤادى: كَمْ تُلاقى   من لاعِجِ السَّقامْ

يا عَهْدَ الوادى ، يا عَهْدَ النُّورْ   عَهْدَ صِباىْ
أجْرى وأُغَنِّى وأدُورْ   وأُناجِى لَيْلاىْ

يا عَهْدًا وَلَّى والدَّهْرُ سَعِيدْ   حُلْوُ التغْرِيدْ
ترعانى أُمّى ، والعَيْشُ رَغِيدْ   أتُراهُ يَعُودْ !
يا صِحابى يا رِفاق :   بَلّغُوا السَّلامْ
يا فؤادى كَمْ تُلاقى   من لاعِجِ السّقامْ

أوطانِى فيها كُوخٌ أرْعَاهُ   أنا لا أنْساهْ
كم تَشْكُو قَلْبى حُزْنًا ذِكْراهْ   سَحَرَتْنى رَيّاهْ

والنَّخْلُ تَجْنِى النُّورَ البَسّامْ   بَيْنَ الأكامْ
أفْدِى بِحَيَاتِى تلكَ الأيامْ   أفدى عَهْدَ الأحْلامْ
يا صِحابى يا رِفاق :   بَلّغُوا السَّلامْ
يا فُؤادى كَمْ تُلاقى   مِنْ لاعِجِ السّقامْ

(1) نهر بجنوب أمريكا .

ليتنى . . . !

للمرحوم أبى القاسم الشابى

«أيها الشعب ليتنى كنت حطّا   با فأهوى على الجذوع بفأسى
ليتنى كنت كالسيول إذا ما   لت تهد القبور رمسا برمس
ليتنى كنت كالرياح فأطوى   كل ما يخنق الزهور بنحسى
ليتنى كنت كالشتاء أغشّى   كل ما أذبل الخريف بقرسى
ليت لى قوة العواصف ياشعـ   ـبى فألقى إليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الأعاصير لكن   أنت حى تقضى الحياة برمس
أنت روح غبية تكره النو   ر وتقضى الدهور فى ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق إن طا   فت حواليك دون مس وجس
فى صباح الحياة ضمخت أكوا   بى وأترعتها بخمرة نفسى
ثم قدمتها إليك فأهرقـ   ـت رحيقى ودست ياشعب كأسى
فتألمت ثم أسكتُّ آلا   مى وكفكفت من شعورى وحسى
ثم نضدت من أزاهير قلبى   باقة لم يمسها أى أنسى
ثم قدمتها إليك فمزقـ   ـت ورودى ودستها أى دوس
ثم ألبستنى من الحزن ثوباً   وبشوك الصخور توجت رأسى
ها أنا ذاهب إلى الغاب ياشعـ   ـبى لأقضى الحياة وحدى بيأسى
ها أنا ذاهب إلى الغاب علّى   فى صميم الغابات أدفن نفسى
ثم أنساك ما استطعت فما أنـ   ـت بأهل لخمرتى ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أناشيـ   ـدى وأفضى لها بأحزان نفسى
فهى تدرى معنى الحياة وتدرى   أن مجد النفوس يقظة حس
ثم أقضى هناك فى ظلمة الليـ   ـل وألقى إلى الوجود بيأسى
ثم تحت الصنوبر الناضر الحلـ   ـو تخط السيول حفرة رمسى
وتظل الطيور تلغو على قبـ   ـرى ويشدو النسيم فوقى بهمس
وتظل الفصول تمشى حوالىَّ   كما كن فى غضارة أمس
أيها الشعب أنت طفل صغير   لاعب بالتراب والليل مغس
أنت فى الكون قوة لم تسسها   فكرة عبقرية ذات بأس
أنت فى الكون قوة كبلتها   ظلمات العصور من أمس أمس

والشقى الشقى من كان مثلى في حساسيتى ورقة نفسى »

* * *

هكذا قال شاعر ناول الشعـ ـب رحيق الحياة فى خير كأس
فأشاحوا عنها ومروا غضابا واستخفوا به وقالوا بيأس :
قد أضاع الحياة فى ملعب الجن فيا بؤسـه أصيب بمس
طالما خاطب العواصف فى الليـ ـل وناجى الأموات فى كل رمس
طالما رافق الظلام إلى الغا ب ونادى الأرواح من كل جنس
طالما حدث الشياطين فى الوا دى وغنى مع الرياح بجرس
إنه ساحر تعلمه السحـ ـرَ الشياطين كل مطلع شمس
أبعدوا الكافر الخبيث عن الهيـ ـكل إن الخبيث منبع رجس
اطردوه ولا تصيخوا إليـه فهو روح شريرة ذات نحس

* * *

هكذا قال شاعر فيلسوف عاش فى شعبه الغبى بتعس
جهل الناس روحه وأغانيـ ـها فساموا شعوره سوء بخس
فهو فى مذهب الحياة نبى وهو فى شعبه مصاب بمس
هكذا قال ثم سار إلى الغا ب ليحيا حياة شعر وقدس
وبعيدا هناك فى معبد الغا ب الذى لا يظله أى بؤس
فى ظلال الصنوبر الحلو والزيـ ـتون يقضى الحياة حرسا بحرس
فى الصباح الجميل يشدو مع الطيـ ـر ويمشى فى نشوة المتحسى
نافخا نايه حواليه تهتز ورود الربيع من كل قنس
شعره مرسل تداعبه الريـ ـح على مكتفيه مثل الدمقس
والطيور الطراب تشدو حواليـ ـه وتلغو فى السرو من كل جنس
وتراه عند الأصيل لدى الجد ول يرنو للطائر المتحسى
أو يغنى بين الصنوبر أو ير نو إلى سدفة الظلام المبسى
فإذا أقبل الظلام وأمست ظلمات الوجود فى الكون تقسى
كان فى كوخه الجميل مقيما يسأل الكون فى خشوع وهمس
عن مصب الحياة أين مداه وصميم الوجود أيان يرسى
وعبير الورود فى كل واد ونشيد الطيور ساعة تمسى
وهزيم الرياح فى كل فج ورسوم الحياة من أمس أمس
وأغانى الرعاة أين يواريـ ـها سكون الدجى وأيان تمسى؟
هكذا يعرف الحياة ويفنى حلقات السنين حرسا بحرس
يا لها من معيشة فى صميم الـ ـغاب تضحى بين الطيور وتمسى
يا لها من معيشة لم تدنسـ ـها نفوس الورى بخبث ورجس
يا لها من معيشة هى فى الكو ن حياة غريبة ذات قدس

أبو القاسم الشابى

حول إنعـام . .

(بقية المنشور فى صفحة ٣٣٨)

وهذه مهمة شاقة كالصبابة لا يعرفها إلا من يعانيها ، ولولا العمل العظيم الذى يضطلع به الدكتور شوشة فى وزارة الصحة ، وما لمشروعاتها من أثر خطير فى مستقبل الشعب المصرى ، لكنت رجوته ، ولكنت أحث الحكومة ، على أن ينقطع للمحاضرة فى الموضوعات التى توفّر عليها وشغف بها .

ولكن العمل الذى يضطلع به فى الحكومة ينزل فى الصميم من مستقبلنا . فصحة الشعب ، من أى النواحى أتيتها ، هى والأرض رأس مالنا الأول ، وواجب محتوم على كل قادر أن يشارك فى دراسة المشكلات واقتراح حلول لها والعمل عملا جادّا متصلا على تنفيذها . وقد مضت سنون على الدكتور شوشه ، وهذه الناحية من حياة مصر فى المركز من عنايته ، وقد طالما سمعته يتحدث فيها مع زملائه حين كانت وزارة الصحة وكالة ، ثم فى وزارة الصحة وكلية الطب ومعهد الأبحاث وغيرها من الهيئات .

وما قطعه هو وزملاؤه . ليس إلا مرحلة قصيرة من طريق وعر ، فى حرب تُشن على الجهل والمرض والفاقة ، وستظلُّ أرحاؤها تدور ؛ حتى تصبح الكنانة جنّة على الأرض .

فؤاد صروف



كليتان تتنافسان :

بين كلية اللغة العربية وكلية دار العلوم تنافس طال أمده ، وكنا نحب أن يكون هذا التنافس بينهما في ميدان التجديد الذى مات بموت الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ولكنهما يتنافسان على وظائف التدريس فى المدارس الأميرية ، وفى دخول معهد التربية ، وما كان يصح أن يكون بينهما تنافس على ذلك ، لأن المدارس الأميرية بعد أخذ الحكومة فى تعميم التعليم الابتدائى وتوسيع التعليم الثانوى ستسع أبناء الكليتين ، وربما تحتاج الحكومة إلى كلية أخرى من نوعهما ، ويجب أن يعلم أبناء الكليتين أنه يوجد كلية آداب بجامعة فؤاد وكلية آداب بجامعة فاروق ، كما يوجد بهما كليتان للطب وغيره ، وليس بين هذه الكليات مثل هذا التنافس على الوظائف ، مع أن باب الوظائف لا يتسع أمام هذه الكليات ، كما يتسع أمام كلية اللغة العربية وكلية دار العلوم . ويجب على الحكومة أن تبادر بإزالة أسباب ذلك التنافس ، لأنه مما يضر بمصلحة الوطن ، ونحن فى أشد الأوقات حاجة إلى جمع الكلمة ، وإزالة أسباب الخصام بين طوائف الأمة .

عبد المتعال الصعيدى

إلى الأستاذ وديع فلسطين :

قرأت بشغف تلك القصة التى أهديتها إلى[1] ، وإذا كنت لم أر فيها أفكارك الخاصة ، فقد رأيت فيها أسلوبك الخاص الذى أضفيته عليها ، كما لمست فى مقدمتها شخصيتك واستعدادك اللذين عرفتهما من قبل .

إنك تسير فى الطريق الصحيح ، وإننى أرى من الآن تلك المكانة التى ستتبوأها قريباً بفضل اجتهادك ومثابرتك ومواهبك ، فإلى الأمام .

حماده الناصل

موقف اليهود العرب من الصهيونية

كتب شيخ الصحافة فى الشام الأستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة « ألف باء » مقالا بليغاً عن الموقف الأخير الذى وقفه اليهود العرب من الصهيونية ذكر فيه أن ممثل اليهود أمام لجنة التحقيق السيد عبادى أجاب هذه اللجنة حين سألته عن الفرق بين اليهودية والصهيونية بقوله :

إن اليهود والعرب يسلمون كل التسليم بالفكرة الصهيونية ، وبوجوب إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين ، وبلزوم هجرة اليهود والعرب من العراق ومصر وشمالى أفريقية إلى هذه الدولة اليهودية الجديدة

قال الأستاذ العيسى : « وهكذا قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وانتهى التدجيل الكلامى الذى دأب زعماء اليهود العرب يسمعونه مواطنيهم المسيحيين واليهود من أنهم يشجبون ويلعنون ويمقتون كل من يقول بالصهيونية لأنهم يعتبرون أنفسهم عرباً » .

ثم قال الأستاذ : « كنا دائماً نتجنب إدخال اليهود الوطنيين فى القضية الصهيونية ونحافظ على التفريق بينهما كما كتبنا فى الموضوع ؛ أما اليوم فقد أراحنا هؤلاء المواطنون من هذا التكلف وصاحوا بأعلى أصواتهم أنهم لا شأن لهم معنا بل هم مع الصهيونية ضدنا ، أما اليوم وقد صرح الزبد عن الخمر وأظهروا حقيقتهم برضاهم واختيارهم ، فقد حذفنا من قاموسنا كلمة صهيونيين وغير صهيونيين لأن الخصام السياسى أصبح محصوراً بين عرب ويهود على الإطلاق » .

(دمشق) **ناجى الطنطاوى**

حول لفظ البيوريتنز :

لست أرى ما ذهب إليه الأستاذ وديع فلسطين مع احترامى له وثنائى على حسن عنايته ، فليست هذه الألفاظ صفات ، وإنما هى أسماء لها مدلول أوسع مما تدل عليه الكلمة فى اشتقاقها اللغوى . وهل نترجم الكاثوليكية مثلا والبروتستنتية إلى العربية ، والمعتزلة ، والمرجئة ، والقدرية ، والشيعة ، إلى الأفرنجية ؟

هذا ، ولست أنكر أن إيراد تلك الأسماء الأفرنجية وسط الكلام العربى فيه شىء من الثقل ، ولكن ذلك هو الصواب فيما أعتقد والسلام .

الخفيف

حفلة المعهد الملكى للموسيقى العربية :

قدم الدكتور محمد شرف الدين سليمان منذ عامين فى حفلة المعهد الملكى للموسيقى العربية للأستاذ على محمود طه « أرواح وأشباح » وقد اختار لحفلته هذا العام أوبريت « دموع الرشيد » وهى للشاعر عبد القادر محمود وسيقوم بإخراجها الأستاذ عثمان أباظة فنرجو للمعهد التوفيق فى عهده الجديد .

عين

(١) مسرحية «الأب» تأليف أوجست سترندبرج . لجنة النشر للجامعيين



قصة ألبانية :

المهــــد الذهبي . . .

[مهداة للأستاذ الكبير كامل كيلاني]

نقلها الأوبيان :

وهبي اسماعيل حقي وابراهيم خير الله

— ٤ —

أخذ « محمود » طريقه إلى بيته — بعد أن فارق فريداً — وهو يكاد يطير من شدة الفرح ، يلقى التحية على من يقابله من إخوانه ، ويرد تحياتهم بثغر باسم ، ووجه باش ، وصوت يشيع فيه السرور ... وإن رأسه لميدان فسيح تتسابق فيه الأفكار حول المشروعات العمرانية والثقافية التي أراد أن يشق بها طريقه إلى الخلود والمجد ، فسيكون أول مكتشف يجلو عن جبين التاريخ الألباني العظيم ما غمض من حقيقته . وسيتسع بذلك أفق حياته ، ويصبح إنساناً آخر غير محمود المدرس الذي خرج في صباح هذا اليوم إلى المدرسة يعمل جاهداً طول نهاره ، ويعود متعباً مع الليل . سيصبح « مليونيراً » ترنو إليه العيون ، وتشير إليه الأصابع ، ويسير في ركابه الاحترام . وإنه لمشغول بهذه الأفكار إذ مر به صديقه فتحي ماشياً على حذر خشية أن تزلق رجله فيسقط في الوحل ، ولقد اختلس النظر إلى محمود على ضوء الكهرباء التي أنارت الطريق ، لكنه لم يخطر له على بال أن محموداً سيكون — بين عشية وضحاها — مذكوراً على كل لسان ، وموضوع حديث كل إنسان ، وأن اسمه سيتداول مع الأجيال المقبلة ، لما وفق إليه من اكتشافات غيرت وجه التاريخ ، وسجلته مع الخالدين ...

إن المظاهر الخارجية قد لا تعبر تعبيراً صادقا عما تنطوي عليه نفس الإنسان ، من نعيم أو شقاء ، أو حزن أو سرور ؛ فإن فتحي قد رأى محموداً ولم يلحظ فيه هذا التحول ، وكذلك لم تلحظه أمه ولا أخواته الثلاث عندما جلس معهن على المائدة ، ليؤنسهن ، ويسامرهن ، فقد تناول عشاءه في منزل فريد . ولقد رأينه أكثر سروراً منه في كل وقت ، ولكن لم يمتد بهن الخيال أبعد من أن نجاحه في عمله المدرسي وتمتعه بثقة أصدقائه هو الذي يضفي عليه ثوب هذا السرور دائما .

إن الإنسان ليضيق به المكان ، ولا يستطيع الاستقرار فيه إذا أفعمه الفرح ، وكذلك كان محمود ؛ فقد استحال عليه أن يقنع نفسه بالبقاء في المنزل ، بعد أن فرغت أمه وأخواته من عشائهن ، وانصرفن لبعض الشئون ، فغادر البيت وليس له مقصد معين . ولما كان الوقت قريبا من شهر رمضان : والناس جادون في الاستعداد له ، فإن المحال التجارية والمقاهي كانت تعمل إلى وقت متأخر من الليل ، فراق لمحمود أن يذهب إلى المقهى ثانية يقضي فيه شطراً من هذا الليل ، وقدر أنه سيتلاقى — حتما — مع فريد ، فإنه لن يستطيع الصبر على الانتظار في البيت ، ولكنه أخطأ التقدير ، فلم يجد إلا صديقه « شفيقا » فحياه وقال له : هل أنت هنا وحدك ؟ فرد عليه شفيق التحية وقال : ما دمت قد حضرت فلن أكون وحدي . ثم جلسا متقابلين ونظر محمود إلى شفيق وقال وهو يبتسم : إن ملامح وجهك ، ونبرات صوتك ، تدلنا على تغير طرأ عليك فماذا بك يا شفيق ؟

— لا شيء ! وكيف أتغير ؟

— لا أدري ! ولكنك لست كما أنت في كل يوم .

— إن الإنسان لا يدوم على حال واحدة ، وتلك سنة الطبيعة وناموس الوجود . وعسى الله أن يأتي بالفرج . وعند ما نطق شفيق بهذه العبارة اجتهد أن يملك زمام نفسه أمام نظرات محمود النفاذة إلى القلوب . ولكن محموداً وقد أراد التسلية ، وقتل الوقت ، فقد أمطر شفيقا وابلا من الأسئلة ؛ فقال له : ألست من أصدقائك ، ومن حقي أن أعرف ما حل بك ؛ فقد أستطيع أن أمد لك يد المساعدة ؟

— لم يحل بي مكروه ، والحمد لله . ثم لماذا تسألني هذا السؤال ؟

— لأني رأيتك هذا اليوم في الطريق مهموما ، وآية ذلك

أنك لم تحينا . فتحرك شفيق فى كرسيه فى حركة عصبية وقال فى شىء من الغضب : ذلك لأن لدى أشغالا هامة ، فليس صديقك فريد هو المشغول وحده .

— ولماذا تقحم فريداً فى هذا الكلام وهو ليس معنا .

— إنه متكبر ، يدل بثراء والده ، ويضع نفسه فى غير موضعها ، وأولى له أن يطرح هذا جانبا وإننى أمقته لذلك .

— لو تعلم عنه مثل ما أعلم ، ما خالجك شك فى سمو خلقه ، وصفاء نفسه ، إنه مثل من أمثلة المروءة والنبل .

— أنا لا أعلم عنه إلا أن ثراء والده أفسد خلقه ، ووأد مروءته ، وإن الغنى الذى يفاخر به ليس وقفا عليه ؛ فربما أصبح أناس آخرون فى وقت قريب أكثر منه ثراء ، وأيسر منه حالا

— « اشقودراه » كبيرة وبها كثير من الأغنياء .

— نعم ! ولكنى أقصد أن من الممكن أن يظهر فى سمائها أغنياء جدد فجأة لا يستطيع الخيال أن يصل إلى ما يملكون من مال . فاضطرب قلب محمود خوفا من أن يكون شفيق قد التقى ببيرام وعلم من أخباره شيئا ، ولكنه اجتهد فى إخفاء تأثره وقال : نعم ! ذلك ممكن وميسور ، وإنه ليكفى الإنسان ليكون غنياً أن يربح « يانصيب دوبلين » .

— وما قيمة « اليانصيب » ؟ . إن سبلا كثيرة للغنى تنفتح أمامك ، إذا أسعدك الحظ ، وواتتك الظروف .

— وماذا تكون هذه السبل ؟ بربك دلنى على إحداها !

— ها أنت تسخر من كلامى ! ولكن حقا توجد طرق كثيرة

— أنا لا أنكر أنها توجد ! ولكنى أومن بأن الحظ لن يحالفك أبداً .

— وأنى لك ذلك ؟ ألأنه خدم صديقك فريداً ، أم ماذا ؟

— وما شأن فريد هنا ، لكل إنسان خطة فى الحياة .

— على كل حال ، سأحدثك بعد قليل . ثم سكتا وقتاً تشتت فيه فكر محمود واعتقد أن شفيقا قد اشتم عبير الكنز — لا محالة — وأن بيراما — لا بد — وأن يكون قد خانهما . ولم يتحول عن هذا الاعتقاد إلا عند ما قال شفيق : هل تعرف شيئاً عن مادة « أبونوس » .

— نعم أعرفه ! ولماذا ؟

— ما قيمة هذا المعدن بين المعادن الأخرى ؟

— إن قيمته عظيمة ! كالذهب تقريبا ، ولكن لماذا تسألنى عنه ؟ هل اكتشفت منجما ؟

— إن لم أكن قد اكتشفته فسأكتشفه قريبا . فقال محمود ضاحكا — بعد أن اطمأن أن بيرام لم يفلت من يدهم ، وأن شفيقا إنما يحلم بآبار من «أبونوس» : أرجوك ألا تنسانى ياشفيق ، ثم أخذ الحديث مجرى آخر إلى أن انتصف الليل فقام كل منهما إلى منزله . وقد آثر محمود أن يسلك إلى بيته طريقا طويلا يمر بمنزل فريد ، رجاء أن يقابله بيرام عائداً فإن ميعاده قد حان ، ولكنه لم يصادفه .

قضى محمود ليلة « نابغية » فقد أخذ موضعه من سريره ، ولكن النوم ضل طريقه إلى عينيه ، فلم يغمض له جفن . وقد تمثلت له حوادث النهار حقائق لا يعتورها شك ، ولا يتسرب إليها وهم . ولقد امتد به الخيال فذهب يرافقه السيد عفت ونجله فريد إلى « دومن » وقابلوا بيراما فى بيته وأرشدهم إلى الكهف وقادهم فى مسالكه ورأوا بأنفسهم ما احتواه الكهف من ذهب نضار ، وتماثيل عجيبة ، انفسح لها مجال الفخر بأن يد الزمن عجزت أن تمتد لها بسوء طوال هذه القرون العديدة ، التى مرت بها ، وفى هذا دلالة على أن صانعها فى ذلك العهد الغابر قد ضرب فى جودة الفن بسهم وافر . وأن الألبان أهل حضارة قديمة ، ومدنية عريقة ، وهذا الكهف بما فيه شاهد عدل ، وحجة دامغة على من يدعى الإنكار .

وهاهى ذى الأزيار الكبيرة قد امتلأت بالذهب ولا يعلم إلا الله وحده متى جمع هذا الذهب ؟ ومن أين جمع ؟ ومن جمعه ؟ فقد تكون الجنود الألبانية المنتصرة قد غنمته من عدو مغلوب فى ذلك العهد البعيد ، أو تكون الحكومة القائمة آنذاك قد استبدلت به الأسرى والسبايا التى عادت بها جيوشها المظفرة ، أو تكون قد جمعت من أفراد الشعب ظلما بأيدى حكام طغاة ضلت الرحمة طريقها إلى قلوبهم ...

وهاهى ذى قد زالت من الوجود الوسائل والغايات التى جمع بها ومن أجلها هذا الذهب ، وبقى هو ليبدأ اليوم صفحة جديدة فى حياة أناس آخرين لا صلة تربطهم — فى الواقع — بمن جمعه ، ولم يقدروا فى يوم ما أن القدر قد كتب لهم فى سجل حياتهم هذه السعادة ، وهذا النعيم .

ها هو ذا القنديل المعلق فى وسط الكهف يقرأ علينا من أخبار ذلك القصر العظيم الذى كان يشع فيه ضوؤه ، ويقص علينا من تاريخ أهله العجب العجيب ، فهؤلاء أمراء الأجناد وأبطال الحرب ينتظم عقدهم كل مساء إذا أوغل الليل ، يدبرون

مع الحاكم خطط الهجوم على العدو ، ويتشاورون فى أنجع الطرق وأضمن الوسائل للتغلب عليه ، وإن عددهم ليتناقص واحداً واحداً على مر الأيام حتى لم يبق منهم أحد ، فقد فنوا جميعا ، ولحق بهم الملك بعد قليل — سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا. ولقد قام على أنقاضهم جماعة فهموا الحياة فهما آخر فكان وقتهم موزعا بين الرقص والغناء وغيرهما مما يشيع البهجة والسرور فى النفس ، ويمسح عن القلب ما يكون قد علق به مما يباعد بينه وبين الانشراح .

وقد طوى الزمن هؤلاء وأولئك فأصبحوا تاريخا يسرد وبقيت وحدى تذكاراً لذلك الماضى البعيد ...

المهد فى زاوية من زوايا الكهف يتحدث فى صلف عن أولئك الملوك الذين تأرجحوا فيه أطفالا وداعبوا فيه صغارهم حكاما كباراً ، وهم معقد رجاء الأمة ، وملتقى آمال الشعب .

دارت كل هذه الخواطر فى رأس محمود فباعدت بينه وبين النوم إلى أن طلعت الشمس ، فهب من سريره واستبدل ملابسه وأسرع إلى منزل فريد ، وكله شوق إلى رؤية ما استحضره بيرام من العينات .

ولكنه لما دخل على فريد ، ورأى الألم والحزن مرتسمين على صفحة وجهه ، والقلق والاضطراب فى حركاته وسكناته قال له : ماذا بك ؟ ألم يأت بيرام بعد ؟

— لقد انتظرته إلى طلوع الشمس . لكنه لم يأت .

— كيف ذلك ؟ أتراه كان يهزأ بنا ؟

— لا أدرى ! وإنى متعب جداً ، ولم أذق طعم الراحة طيلة الليل وأود أن أستريح فأذن لى ، فخرج محمود وترك فريداً يستعد للنوم . ولما كان فى الطريق غير بعيد عن منزل فريد رأى السيد لطفى يذهب ويجىء — فى طول الشارع وعرضه — كأنه يراقب من فى المنزل ، أو كأنه على موعد مع أحد ، فعجب من وجوده هذا الوقت المبكر فى هذا المكان ، الذى ليس لأحد فيه صلة به ، ثم فى سرعة البرق تذكر ما دار بينه وبين شفيق فى الليلة المنصرمة ، وبدأ يتسرب الشك إلى قلبه ، وكان قد حاذاه ، فحياه تحية الصباح ، فرد لطفى تحيته فى صوت مضطرب خافت ، وبدا عليه شىء من الإرتباك ، فقد كان يود ألا يراه أحد من أصدقائه فى وقفته تلك . أما محمود فقد أسرع فى طريقه إلى المدرسة شارد التفكير ، حائر اللب ، يود أن يعرف لماذا تأخر بيرام ؟ ولماذا وقف لطفى أمام منزل فريد بالذات فى هذه الساعة المبكرة

وقد أحس فى نفسه شعورا قويا بأن شفيقا وصديقه لطفى إنما يقومان معا بعمل مشترك ، وليس بعيداً أن يكونا قد أوقعا بيراما فى الشرك . ولقد طغى هذا الشعور على محمود — وكان قريباً من المدرسة — فرأى أن من الحيطة ان يرجع ، ويقف فريدا على ما كان من شفيق ليلة أمس ، وأنه رأى السيد لطفى الآن يدور حول منزله ، ويطلعه على إحساسه من أن شفيقا ولطفى يعملان معاً لغرض مشترك . وبينما هو عائد لمح من بعيد السيد لطفى يتحدث فى كثير من الاهتمام إلى قروى ربط رأسه بمنديل أحمر ستر كثيراً من وجهه ، بحيث يصعب على إنسان لم يكن رآه كثيراً — أن يعرف من هو ، ولكن محموداً أحس إحساسا قويا أن هذا القروى لن يكون غير بيرام ، فاندفع نحوهما بغضب وقال بحدة :

— أين كنت يا بيرام ؟ لماذا لم تجىء الليلة كما وعدت ؟ أتكذب علينا ؟

— تمهل ياسيدى ! ولا تجعل للغضب سبيلا إلى قلبك ، فسأقص عليكم كل شىء .

وهنا تدخل السيد لطفى ، وقال لمحمود بصوت شاع فيه الغضب ... ... :

— إن هذا الرجل لا سلطان لك عليه ، فقد تكلم معى أولا وليس من حقك أن تقف معنا ، فامض فى طريقك ، ولا تتدخل فيما ليس من شأنك .

— كيف تقول إنه تكلم معك أولا ؟ إنه أكد الأيمان أنه لم يسبقنا إلى معرفة أمره أحد .

— لا أريد أن أعرف ماذا قال لكم ، ولكن أريد أن تفهم أنه مرتبط معى فقط .

— معك أنت ؟ قال محمود هذه الكلمة بغضب شديد ، دل عليه احمرار وجهه ، وبريق عينيه ، وتقلص شفتيه ، وخشونة صوته ثم تراميا بألفاظ شديدة اللهجة قوية الوقع ... ولكن بيراما قد وضع حداً لهذا التراشق بالشتائم ؛ فقد صاح فيهما :

— مهلا أيها الفاضلان ! فلست مرتبطا مع أحد منكما ، فلا تقتتلا من أجلى ، فمهمتى فى هذا المنزل . وأشار إلى منزل السيد عفت والد فريد : فقال محمود :

— حسن ! عليك أن تذهب إليه الآن .

فابتعد السيد لطفى عنهما وقال مهدداً متوعداً :

— اذهبا حيث شئتما ، وسنرى .

(البقية فى العدد القادم)

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٦٥ – الاثنين أول أبريل ١٩٤٦ – السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

محكمة كوم حمادة الوطنية

إعلان بيع فى القضية المدنية رقم ٨٨٠ سنة ١٩٣٥

إنه فى يوم الاثنين ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٦ فى الساعة الثامنة أفرنكى صباحا بسراى المحكمة.

سيباع بطريق المزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد والمملوك إلى كل من : — أولا : ن ١ عبد المجيد على الصوفانى ثانياً — ورثة حسنين حميده وهم . ن ٢ عبد الحليم ن ٣ علي ن ٤ عبد المقصود ن ٥ حفيظة ن ٦ كشاف حسنين حميده ن ٧ عبد الحفيظ ن ٨ عبد القادر ن ٩ محمود ن ١٠ إمام السيد حميده ن ١١ السيد محمد حميده عن نفسه وبوصايته على القصر أحمد وحامد وتوفيق السيد حميده ن ١٢ نظيمة سالم حميده ن ١٣ نجية ن ١٤ ساكنة السيد حميده ثالثاً — ورثة عبد الغنى السيد حميده وهم ن ١٥ عبد القوى ن ١٦ عباس ن ١٧ محمود عبد الغنى السيد حميده ن ١٨ السيد محمد السيد حميده رابعاً ورثة زكية السيد حميده وهم ن ١٩ محفوظة ن ٢٠ وسيلة محمد حسنين حميدة خامساً — ورثة محمد على حميده وهى ن ٢١ زكية محمد على حميدة سادساً — ورثة إبراهيم محمد على حميده وهم ن ٢٢ رضا عبد الهادي حميده ن ٢٣ مسعوده عز العرب حميده ن ٢٤ زكية محمد على حميده بصفتها وصية على السعداوى ، محمد إبراهيم محمد حميده سابعاً — ورثة عبد السيد السيد حميده وهم ن ٢٥ حميده عبد السيد السيد حميده عن نفسه وبصفته قيما على أخويه محمد ، أحمد عبد السيد حميده ن ٢٦ فهيمة ن ٢٧ خطرة ن ٢٨ فاطمة ن ٢٩ البكباشى السيد عبد السيد السيد حميده ثامناً — ورثة وسيلة عبد السيد السيد حميده وهم ن ٢٩ أمين محروس عسل أغا عن نفسه وبصفته وصيا على عبد العليم ، أحمد ، عبد القوى ، عبد اللطيف ، فردوس ، زهية ، وحيدة أمين محروس أغا ثم ن ٣٠ سنية أمين محروس أغا تاسعاً — ورثة زكية عبد السيد السيد حميده وهم ن ٣١ على ن ٣٢ شاكر ن ٣٣ زاهية ن ٣٤ صبحية ن ٣٥ مصطفى ن ٣٦ أمنة علوانى محمد مناع .

الجميع من أبى الحناوى مركز كوم حمادة عدا الثانى والثالث والرابع والثالث عشر مقيمون بعزبة أرباب المعاشات بناحية أشمون منوفية وأما التاسع والعشرون فهو أركان حرب اللواء الثالث البيادة ومقيم بشارع كليوبترا ن ١٤ بمصر الجديدة وأما من الحادى والثلاثين حتى السادسة والثلاثين فقيمون بناحية علقام مركز كوم حماده .

وهذا البيع بناء على طلب مصلحة الأملاك الأميرية وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٢٦ ــ ٥ ــ ١٩٣٥ والمسجل بمحكمة اسكندرية الوطنية فى ٢٨ ــ ٥ ــ ١٩٣٥ ن ١٠٣٢ وفاء لمبلغ ١١٧ جنيه و ٩٤٠ مليم وما تستجد من المصاريف على أن يكون البيع بثمن أساسى قدره ٥٤ جنيه و ٤٠٠ مليم وهذا بيان العقار .

٧ ف و ١٣ ط و ١٧ س كائن بزمام ناحية أبو الحناوى مركز كوم حمادة بحوض القصالى والتمساح ن ٥ قطعه ٦٤ حدها البحرى بجوار مواد ن ٦٤ بحوضه و ١٨ قصبة باسم الحكومة وبحر مائلا الغرب بجواره ٩ قصبة وبجوار ن ٦٢ بحوضه نحو ١٠ قصبة باسم ورثة المرسى بدر وأحمد البقل بدر وحسن بدر وإخوته وعبد المقصود بدر ومدلان بدر وإخوته أحمد المرسى بدر وعبد السيد المرسى بدر وعبد اللطيف بدر ومغرب مائلا لقبلى بجوار ن ٦ بحوضه ٣ قصبة باسم منصور إبرهيم رحومة وبجوار ن ٦١ بحوضه ١٢ قصبة باسم الحكومة والحد الغربى مائلا الشرق بجوار ن ١ بحوضه ن ٢ ٩٤ قصبة منكسر خفيف باسم الحكومة والحد القبلى بجواره ن ١٠ قصبة والحد الشرقي مائلا الشرق وبجواره ١١ قصبة ومعدل من بجواره ٤٨ قصبة ويميل الغرب بجواره ١٨ قصبة .

٧ ف و ١٣ ط و ١٧ س فقط سبعة أفدنة وثلاثة عشر قيراطا وسبعة عشر سهما

فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان المبين بعاليه للمزايدة وجميع الأوراق مودعة بقلم كتاب المحكمة لمن يريد الاطلاع عليها .

كاتب البيوع

محكمة المحمودية الجزئية الوطنية

إعلان بيع فى القضية المدنية رقم ٥٤٦ سنة ١٩٤٥

نشرة أولى

إنه فى يوم الأحد ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٦ الساعة ٨ أفرنكى صباحا وما بعدها بسراى المحكمة سيباع بالمزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد المملوك إلى عبد الحميد حسن على مغربة بناحية العطف ن ٢ محمد حسن على مغربة بكفر الرصائد ن ٣ أحمد حسن على مغربة عسكرى بحرس الحائط طرة وهذا البيع بناء على طلب إسماعيل أحمد بدوى التاجر من المحمودية بناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٣ مارس سنة ١٩٤٦ ومسجل بمحكمة دمنهور الابتدائية الوطنية فى ٦ منه ن ٨١ سنة ١٩٤٦ .

وهذا بيان العقار

١٨ ط ثمانية عشرة قيراطا شائعة فى منزل ٢٤ ط ضمن سكن العطف مركز المحمودية بمديرية الجيزة بحارة قبم ن ٤ ملك فى جميع ما اشتمل عليه ومحدود بحدود أربع الحد البحرى إسماعيل الديبى بطول ٢٠ متر و ٤٣ س مكون من أربعة خطوط الأول من الشرق إلى غرب ميل البحرى بطول ٥ متر و ٣٤ س ثم يتجه إلى غرب ميل لقبلى بطول ٥ متر و ٣٥ س ثم قبلي بطول ٣ متر و ٢٥ س ثم يغرب بطول ٦ متر و ٤٩ س والحد القبلى شارع غير ملون وبه باب بطول ١٥ متر و ١٥ س والحد الغربى سيد أحمد نعيم بطول ٨ متر و ٣٠ س ثم ينكسر من الشرق شارع غير ملون مكون من ثلاث خطوط الأول من بحرى إلى قبلى بطول ٤ متر و ٥٠ س ثم يغرب بطول ٢ متر و ٥٠ س ثم يقبل بطول ٦ متر و ٣٠ س والجملة ١٤ متر و ٨٠ س ومساحة العقار المراد نزع الملكية ١١٦ متر و ٣٢ س شارع ١٥٥ متر و ١٠ س مساحة المنزل جميعه .

وهذا البيع وفاء لمبلغ ١٣ جنيه و ١٨٠ مليم والمصاريف وما يستجد منها بثمن أساسى قدره ١٥ جنيه خمسة عشرة جنيه مصري وباقى الشروط والاوراق بدوسيه الدعوى لمن يرغب أو يريد الاطلاع عليها .

فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان المبين عليها للمزايدة .

كاتب البيوع

---

14 me Année No. 665

Lundi—1—4—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٦٦٥ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٣٦٥ — أول أبريل سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الأمريكيون والأمريكيات

يتكلمون فى تعدد الزوجات والطلاق

للأستاذ عباس محمود العقاد

عرضنا فى كتابنا عبقرية محمد لمسألة تعدد الزوجات ، ولخصنا فى عدد ماض من الرسالة ما كتبه المصلح الهندى السيد محمد على عن هذه المسألة فى كتابه عن الإسلام والنظام العالمى الجديد ، وخلاصته « أن الإسلام يزكى وحدة الزوجة ويفضل هذا الزواج على كل زواج . إلا أن الشرائع لا توضع لحالة واحدة ، والدنيا كما نراها عرضة لطوارئ الشذوذ والاختلال ، ومن هذه الطوارىء ما ينقص الذكور عدة ملايين ويزيد الاناث بمقدار هذا النقص فى عدد الذكور ، فضلا عن الزيادة التى تشاهد فى عدد النساء من كل أمة على وجه التقريب فى غير أوقات الحروب . وإن تعدد الزوجات فى أمثال هذه الأحوال لخير من البغاء المكشوف . فقد قبلت المرأة الأوربية مشاركة الخليلات المعترف بهن وقبلت مشاركتهن فى الخفاء ، وأصبحت هذه المشاركة نظاما اجتماعيا مقررا لا معنى بعد قبوله وتقريره للاعتراض على تعدد الزوجات الشرعيات ، فهو على الأقل أصون للآداب وأكرم للنسل وأجل بمنزلة المرأة من مهانة الابتذال ، وأصلح للاعتراف به فى علاقات المجتمع وقوانين الأخلاق » .

ولم يكد هذا المقال يظهر فى « الرسالة » حتى وصلت إلينا مجلة أمريكية حديثة من طراز جديد تسمى المساجلة أو المناقشة أو الحوار Debate وتدور على موضوعات اجتماعية أو سياسية تختلف فيها الآراء ، ويؤيد كل رأى منها فريق من الكتاب أو القراء ، ومن هذه الموضوعات موضوع الطلاق وتعدد الزوجات وهل الأفضل للمجتمع الانسانى أن نبيح تعدد الزوجات تجنبا للطلاق أو نبيح الطلاق تجنبا لتعدد الزوجات . فكان من الطريف حقا أن نطالع هذه الآراء كما تخطر عندهم للرجال والنساء والفتيان والفتيات . فانهم فى الواقع يقدمون الوجهة « الذوقية » فى هذه المسألة على الوجهة الاجتماعية الخطيرة التى من أجلها توضع الشرائع وتسن المباحات والمحظورات ، ولكن الوجهة الذوقية مع هذا قد تتغلب فى أثرها على الوجهات الاجتماعية مع جلالة خطرها وضرورة النظر فى علاجها . لأن المعارضة فى تعدد الزوجات تفقد الكثير من أسبابها القوية إذا أمكن التغلب عليها من جانب الذوق والشعور .

قالت الآنسة فرانسين دوفال وهى ممن قبلن تعدد الزوجات : إنها تعرف فتاة صديقة لها طلبت الطلاق بعد زواجها بستة شهور ، لأنها علمت أن زوجها يغيب عن المنزل بعض الليالى ويعتذر بالاستعداد لامتحان الحقوق ، وهو فى الحقيقة يقضى تلك الليالى فى صحبة فتاة أخرى كان يعاشرها قبل الزواج ، وأن

الطلاق فى هذه الحالة أكرم الحلول فلا ملامة على الفتاة أن تطلبه ولا على الشريعة أن تنص عليه .

قالت : « وإننى وإن كنت أعتقد أن تعدد الزوجات يوافق الرجال أكثر مما يوافق النساء لأحسبه شيئا لا يخلو من الطرافة والغرابة . ولست من الطفولة بحيث يخفى على أن كواكب الصور المتحركة يعشقهم كثير من النساء ويعلمن وهن يعشقنهم أنهن لا يسيطرن على قلوبهم ومشيئتهم . ومهما يكن رأيك مثلا فى (إيرول فلن) فإنك لن تجهل الواقع الذى لا شك فيه من أمره وهو أن طائفة كبيرة من النساء يقبلن الشركة فيه . نعم ليس كل الرجال فى وسامة إيرول فلن أو فكتور ما تيور أو فان جونسون أو كلارك جابل ؛ ولكن الرجال الذين لهم نصيب من الوسامة والقسامة كثيرون فى كل مكان . فلماذا لا تشترك فى قربهم عدة نساء ؟ إنهن ينفردن فى الحجرات متى كبر الأطفال وتقدم السنون فتبرد حرارة الشباب وتهدأ مرارة الغيرة ولا يبعد أن يجد هؤلاء الشريكات مواطن للتسلية والمقارنة فى التحدث عن ذلك الرجل الذى ارتبطن به جميعا برابطة الزواج . ولقد عشت معظم أيامى فى ضاحية مدينة كبيرة فلا أحسب صديقاتى إلا مستغربات عاتبات لو أصبح من حظى غدا أن أكون واحدة من هؤلاء الزوجات المشتركات . ولكن هب الرجل كان مليح الشمائل قادرا على إيوائنا جميعا ألا يخطر لك أن اللاغطات بحديث زواجى يلغطن إذن من الغيرة لا من الانكار ؟ » .

وكتبت آمى هتشنسون وهى زوجة لها ولدان — فقالت إنها نشأت فى ولاية (أوتاه) التى أقام فيها المورمون الذين يدعون إلى تعدد الزوجات ، وأنها قضت فى عشرة زوجها أربع عشرة سنة ولا ترى للزوجة أن تطلب الطلاق إلا إذا آمن زوجها بمذهب تعدد الزوجات !.

وقالت : « ما من امرأة ولدت فى هذه الدنيا الحديثة ترضى أن تشاطرها أخرى فى حقوق فراشها إلا إذا كانت قد أضاعت صوابها . وهذه كلمة مكشوفة لا مراء . ولكنها هى أهم ما تفكر فيه امرأة حين يذكر لها تعدد الزوجات . ثم ما ذا يقول الأطفال إذا فارقهم « بابا » ليلتين أو ثلاث ليال أو أكثر من ذلك ليذهب إلى زوجاته الأخريات ؟ » .

وكتب جوزيف ماردفلد — وهو من المشتغلين بدراسة علم الأجناس والسلالات — فاستحسن تعدد الزوجات وغلب عليه حكم الصنعة فعلل استحسانه بالفائدة العلمية التى يجنيها الإنسان من هذه التجربة الضرورية إذا صرفت إلى غايتها الصحيحة . فنأخذ رجلا قويا ذكيا وسيما ونراقب نسله من عدة نساء مختلفات النماذج والأخلاق ، ونستخلص من ذلك أصدق المبادىء الصالحة لتحقيق الكمال المثالى فى القران بين الذكور والإناث . أما الطلاق فهو لازم للفصل بين الزوجين كلما ظهر النقص فى شروط القران واستحال التوفيق بينهما على النحو الذى ينفع الذرية ونوع الإنسان . ويرى هذا الكاتب أن تجربة المورمون فى القارة الأمريكية قد أسفرت عن نجاح لاريب فيه وأنجبت فى اقليم أوتاه جيلا من أصحاء الرجال والنساء صمدوا للمقاومة التى كانت تحيط بهم من كل صوب ، وذللوا الصعوبات التى أقامها لهم رجال الدين وغيرهم من أعداء تعدد الزوجات .

***

وأنكر فرانك شيهان تعدد الزوجات كما أنكر الطلاق لأنه لا يريد أن ينفصل ما عقده الله ليبقى منعقدا مدى الحياة . وحاول أن يعلل إنكاره بعلة اجتماعية فقال إن السماح بتعدد الزوجات ظلم للطبقات الفقيرة ، لأن إيواء الزوجة فى العصر الحاضر يكلف الزوج نفقات لا قبل بها للفقير بغير جهد جهيد . فكيف بالزوجات المتعددات ؟ وكيف نستخدم القانون لتمييز طبقة واحدة من طبقات المجتمع وحرمان سائر الطبقات من هذه المزية ؟ .

قال : « ولنتكلم بعد هذا عن الحياة اليومية التى يحياها رجل يجمع بين زوجات متعددات ، ولنقدر أنهن لا يعشن تحت سقف واحد بل فى حجرات متقاربات . ولنتخيل الزوجة رقم (١) حين تنظر إلى النور موقدا فى مسكن الزوجة رقم (٢) ثم ينطفىء النور ساعة الرقاد . أين يا ترى يكون الزوج هذه الساعة ؟ أعند هذه الزوجة أم عند الثانية أم عند الأخرى ؟ ... » .

***

وعلى هذا المثال تبدى الآراء فى هذه المسائل الجلى فيثبت للناظر فيها شىء واحد على الأقل وهو أن المعارضة فى مذهب تعدد الزوجات لا تستند إلى سبب أخطر من سبب « المزاج » كما يصح

نظرة لمعركة عين جالوت

وقتل قائد التتار كتبغا فى ٢٥ رمضان ٦٥٨ هجرية

للأستاذ أحمد رمزى

[ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين] قرآن كريم

قلت مرة لصاحب من إخواننا الذين يغلب عليهم التشاؤم « إن فى الكون قوات طبيعية هائمة لا تلبث أن تصيب الرجل الذى اختارته العناية لعمل عظيم ، فستفيق من غشيته متنبهاً ليقبض على تلك القوى الضائعة ويجمعها ويحشدها ويحركها ويقودها ببصيرته وعزيمته وجرأته ، ليغير معالم الأشياء فيخلق من الجمود حركة ومن الخمود حياة ومن التسليم أملا ، ويحوّل مجرى التاريخ ليكتبه كما يشاء . هؤلاء الرجال الأفذاذ كثيرون فى تاريخ الإسلام ، كانوا كالصخور الصلبة التى توجه السيول ، وكانوا كالسدود الضخمة التى تحوّل مسير المياه إلى جهات ونواح غير التى كانت تقصدها بدفعتها الأولى » .

« وأعرف فى تاريخ مصر العربية معارك كثيرة ومواقف خالدة كانت كالسدود العالية تصد حوادث الزمن وتقارع نكبات الدهر لتتغلب عليها : ولكننى أعرف منها معركتين فاصلتين يجب أن يعرفهما كل واحدمنا لأنهما مفخرة لنا ولآبائنا ولأجدادنا ، وقعت كل منهما فى أرض فلسطين الشهيدة ، فى الجزء الشمالى منها أى على مقربة من بحيرة طبرية ، تلك البحيرة التى أعدها وماحولها بقعة من أجمل بقاع الأرض ، أما أولى المعركتين فهى معركة حطين ، وأما الأخرى فهى معركة عين جالوت . كان بطل الأولى سلطاننا صلاح الدين وكان صاحب الأخرى سلطاننا الشهيد المظفر قطز ، ففى الأولى تحطم ملك أورشليم وفى الأخرى تحطمت أطماع هولاكو فى فتح مصر ، وفى الأولى ظهرت مزايا جند مصر وعسكرها على فرسان أوروبا ، وفى الأخرى انتهت خرافة العهد

أن تعبر عن أشباه هذه الأسباب .

فالدواعى التى تلجىء المشترع إلى إباحة تعدد الزوجات عند الضرورة التى تسوغه أخطر جداً من هذه الموانع التى تساق لحظره على النحو الذى أجملناه فيما تقدم . فهذه الزوجة التى يخشى عليها الكاتب الأخير من وساوس الغيرة هل يظنها تنجو من هذه الوساوس إذا كانت السهرة التى يغيب فيها زوجها قد انقضت فى الحانة أو الماخور أو فى الأندية التى لا فرق بينها وبين الحانات والمواخير ؟ أو هل تنجو من هذه الوساوس إذا كانت السهرة مع زوجة رجل آخر يخونها فى تلك الساعة كما تخونه لأنهم جميعا لا يستسهلون الطلاق ؟

إن الذين يبيحون تعدد الزوجات لا يبيحونه لأنه حسنة مشتهاة ولا لأنهم يفضلونه على الاكتفاء بالزوجة الواحدة متى تمت شروط الوفاق والعشرة الدائمة بين الزوجين ، ولكنهم يبيحونه لأن السيئات التى تبيحها الحضارة أبغض منه وأولى بالمحاربة والانكار ، ويعلمون أن كرامة الزوجة التى تشاركها فى رجلها زوجة أخرى أعز وأوفر من كرامة الخليلة التى يعترف بها المجتمعات الأوربية والامريكية ولا تحسب لها حسابا فى الشرائع والقوانين غير حساب التهاون والاغضاء .

ولعل هذه الأجوبة التى قدمناها لا تشتمل على جواب هو أولى بالتدبر وإطالة الروية من جواب الفتاة التى قالت إن النساء لا يرفضن المشاركة فى الرجل الوسيم القسيم وإنهن إذا لغطن بحديث هذا الزواج فأغلب الظن أنهن يلغطن من الغيرة لا من الإنكار .

فهذه فتاة من بنات العصر الحديث فى القارة الامريكية موطن الحرية النسائية التى جاوزت جميع الحدود ، كشفت عن دخيلة شعورها فإذا هو ينم على حقيقة المانع النفسانى الذى يجنح بالمرأة إلى التأفف من المشاركة فى المعيشة الزوجية ، وإذا هو مسألة استحسان للزوج الذى يستحق هذه المشاركة لا مسألة كرامة أو مسألة من مسائل العقيدة والروح .

ونحسب أن الأجوبة الصريحة التى من هذا القبيل أجدى من الفصول المنمقة والمباحث المتعمقة فى الإبانة عن مركز المرأة الصحيح من مسائل الزواج والطلاق .

عباس محمود العقاد

من أن جيش المغول لا يغلب ، فغلب وهزم وتشتت شمله ، وظهر أن الدماء التي تجري في عروق الآباء والأجداد ، أقوى وأمتن وأثبت من الدماء التي تجري في عروق فرسان أوربا وزمازمها من الاستبار[١] والداويّة ، وعلم الناس والعالم بأكمله والأجيال السالفة واللاحقة أن صلاح الدين وقطز هما من رجال الله » .

فاذا فتحت خريطة لفلسطين الشقيقة ، فابحث عن بيسان ، تجدها تحت جسر المجـــامع جنوبي بحيرة طبرية وتطل على وادي نهر الأردن ، وعلى اليسار وادي جالوت حيث كانت تقع بليدة باسم عين جالوت ، ففي هذه الناحية ومنذ سبعمائة وسبع سنوات ، التقى جيش مصر بقيادة سلطانها الملك المظفر قطز مع جيوش المغول ودارت بينهما معركة هائلة فاصلة ، وكان مجيء المغول من الشمال حيث أراضي البقاع الخصبة — بقاع العزيزي المشهورة — وهي الواقعة الآن داخل حدود الجمهورية اللبنانية . وكان مجيء جيش مصر من القاهرة إلى الصالحية إلى غزة إلى الرملة ثم عكا ثم إلى المصاف بعين جالوت .

ولما التقى الجمعان كتب الله النصر للمسلمين فسجد ملك مصر المظفر قطز شكراً لله ومرّغ وجهه في تراب الأرض ، أما قائد المغول فكان اسمه كتبغانوين ، وقد قتله بطعنة واحدة أمير من أمراء مصر هو جمال الدين أقوش الشمسي . وكتبغا اسم تترى مركب من كلمتين قيل إن معناه الثور الذي يدهشك أو يدعو للدهشة أو يثير الإعجاب ، وكان أولى أن يُسمى بالثور الهائج . ونوين قيل في معناه قائد العشرة آلاف ؛ وجندهم كما نعلم تتحرك بالآلاف وعشراتها .

وصفه الشيخ قطب الدين اليونيني فقال « رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها وكان شيخاً حسناً له لحية طويلة مسترسلة قد ضفرها مثل الدبوقة ، يعلقها من خلفه بأذنه ، وكان مهيباً شديد السطوة » دخل الجامع[٢] ، وصعد المنارة ليتأمل القلعة ومن فيها من جنود الإسلام ، قال : « خرج من الباب الغربي ودخل دكانا خربا وقضى أمراً والناس ينظرون إليه » ثم أردف ذلك بقوله . :

ولما بلغه خروج العساكر المصرية حار في أمره ماذا يفعل ولكن حملته نفسه الأبيّة على اللقاء وظن أنه منصور على جاري عادته ، فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيّد الله المسلمين وثبتهم في المعركة » وجاء النصر من عنده تعالى .

وجيء بالأسرى وبينهم ابن القائد العظيم فأخذه الملك المظفر قطز وسأله : « أهرب أبوكَ » . فأجاب : « إن مثله لا يهرب » . وعرضت القتلى فتعرف الابن على أبيه وصرخ باكياً ، فعلم المظفر بموته وسجد لله شكراً مرة أخرى .

وكان المغول يؤمنون بعبقرية كتبغا ويستبشرون به خيراً ، إذ هو الذي أخضع البلاد لهم من حدود فارس الشرقية إلى حدود الشام ، ولما قتل ذهب سعدهم ، وألف قوادهم الهزيمة واعتاد رجالهم الفرار . وكانوا يعتقدون بالتنجيم والعرافة ، ذكر ابن الفرات في تاريخه أن هولاكو ملكهم لما دانت له الدنيا بفتح بغداد واستيلائه على العراق وحلب وامتلاكه دمشق ، حدّث نفسه أن يقهر الديار المصرية ويفتحها ويطأها بجنده .

قال : إنه أحضر نصير الدين الطوسي وقال له « اكتب أسماء مقدمي الجند وانظر أيهم سيملك مصر ويجلس على تخت السلطنة » فكتب أسماءهم وحسب ودقق النظر فما ظهر له أن يملك مصر غير رجل اسمه كتبغا فذكر ذلك لهولاكو وكان اسم صهره كتبغا نوين فسلّمه قيادة جنده وسيّره لفتح مصر وكان مقتله في عين جالوت » بعد أن أدرك أيام جنكيزخان وحارب تحت قيادته وقاد جحافلهم إلى النصر طول أيام هولاكو .

وإني لأتخيل كتبغا هذا على صورة « تاراس بولبا » في القصة الروسية رجلا جباراً عملاقاً مهيب الطلعة يلبس البغلطاق التترى وقد استبدل بالشاربين الطويلين المنحدرين على كتفيه باللحية الطويلة التي وصفها الشيخ قطب الدين والتي كان يعلقها على أذنيه لإرهاب الناس وقذف الرعب في قلوبهم .

ومن الغريب أن يكون بين عسكر المغول فتى لا يكاد يدرك سن البلوغ واسمه كتبغا أيضاً فيؤخذ أسيراً ويربى بقلعة مصر ويطلق عليه اسم زين الدين ، ثم يؤمّر في عهد المنصور قلاوون ، ثم يستقر في نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وأخيراً ينادى به سلطانا فتصح النبوءة المذكورة بعد ست وثلاثين سنة من معركة عين

---

(١) الاستبار Hospitaliers والداوية أو الهيكليون Templiers وهم منظمات صليبية لقتال المسلمين .

(٢) هذا الجامع البعلبكي للأسف خرب اليوم وإن كانت أعمدته باقية كما هي .

جالوت التى أخذ فيها من بين الأسرى .

ويصح أن نشير هنا إلى ما ابتدعه المغول فى فن الحروب وما أدخلوه من التغيير فى كيفية ترتيب الجنود والزحف وتسوية الصفوف لأنه ابتداء من جينكيزخان . اتجه هؤلاء إلى ضبط الزحف بعشرات الآلاف من الرجال وإلى توجيه ضربات حاسمة من عدة جهات بطرق وأساليب لم تخطر على بال هنيبال ولا الاسكندر الأكبر وغيرهما من كبار قواد العالم . وهـذا ما سنعرض له إن شاء الله فى دراسة حملات جنجيز وأولاده وأثرها فى التربية العسكرية بمصر وفى عقلية كبار قواد الدولة المصرية وملوكها وما أخذوه من الأنظمة عنها ، ولا أترك هذا دون أن أعطى فكرة أولى عما ابتدعه كتبغا نوين من أساليب الحروب وخداعها لأنه من تلاميذ مدرسة جنكيزخان فى هذه الناحية .

فقد نقل صاحب البداية والنهاية أنه كان يعتمد فى حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها ، فكان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الذى يليه ، فكان هؤلاء اللاجئون يدخلون فى هروبهم الخوف والرعب على الناس . وإذا دخلوا البلد شاركوا الناس في أقواتهم ، فاذا حاصرهم تقصر مدة الحصار عليه لاضطراب شؤون التموين والاعاشة لدى البلد الذى يقصده ، وإذا رفض أهل البلد قبولهم وإيواءهم ساق هؤلاء المقاتلة اللاجئين عليهم لقتالهم وتلقى الضربات الأولى ، وحينما يضعف الطرفان يقذف بجنوده لاتمام الفتح .

ومن حيله التى لا يمكن أن تقرها قوانين الحرب أن يبعث إلى المدينة المحاصرة من يقول : إن ماءكم قد قلّ بعد طول الحصار وإنّا على وشك أن نأخذكم عنوة فنقتلكم جميعاً ، أما إذا فتحتم صلحاً أبقينا عليكم فيغتر أهلها بذلك ويقولون إن المـاء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء فيقول الرسول لا أصدق حتى أبعث من عندى من يشرف عليه فان اقتنعت بأنه كثير انصرفت إلى بلد آخر . فيقولون ابعث من يتأكد ، فيرسل برجال من جيشه معهم رماح مجوّفة محشوة سما ، فاذا دخلوا المدينة التى أعيته الحيل فى فتحها لعظم أسوارها وقلاعها أدخلوا فى آبارها وصهاريجها تلك الرماح على أنهم يقيسون أعماق المياه فيقذفون السم فى قاع المياه ويكون سبباً فى هلاك كل من يشرب منه .

ولو شئنا أن نعدّد أساليبهم فى القتال وطريقتهم فى ابتداع الحرب الخاطفة والهجوم فى جبهتين تفصل الواحدة عن الأخرى مئات الأميال لتبين لنا أن آسيا هى أم الحروب وأن الأوروبيين لم يبتدعوا شيئاً جديداً . ولقد أجمع المؤرخون على مقتل كتبغا فى عين جالوت ، وذكر المقريزى أن رأسه حُمل إلى القاهرة ، ولذلك تعجبت حين اطلعت على حاشية للاستاذ الدكتور مصطفى زيادة تقول « إن السلطان كتبغا كان تترى الأصل وهو الذى قاد الجيوش التترية التى انكسرت على يد السلطان قطز » . إذ هناك إجماع على مقتل قائد التتار وعلى اسم قاتله وهو الأمير جمال الدين الشمسى وكان من أعيان الأمراء المصريين وأماثلهم وشجعانهم ، ذكره صاحب النجوم الزاهرة فى المنهل الصافى ضمن وفيات ٦٧٨ وذكره ابن كثير ضمن وفيات هذه السنة فقال « إنه أحد أمراء الاسلام وهو الذى باشر قتل كتبغانوين » . أما المقريزى فيقرر وفاة الشمسى سنة ٦٧٩ وهو الأصح إذ كان آخر عمل له أنه تولى نيابة السلطنة المصرية بمدينة حلب عن السلطان المنصور قلاوون وتوفى ودفن بها كما جاء ذلك فى أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، وكان قبل ذلك نائباً لسلطان مصر بمدينة دمشق وهو الذى قبض بها على الأمير عز الدين إيدمر الظاهرى حينما توقف عن البيعة للمنصور قلاوون ، ويدل تاريخه على الهيبة ووفرة الحرمة والوقار والنفوذ التى كان يتمتع بها لدى ملوك مصر نظراً لأياديه البيضاء فى معركة عين جالوت وأن هـذه الهيبة كان يتمتع بها حتى مماليكه بالقاهرة وهو غائب عنها لما كان أميراً بالشام . فقد قبض الملك الظاهر بيبرس على عدة من أمراء مصر بدمشق ولما وصل إلى جمال الدين الشمسى لم يجسر أن يقبض عليه بل تركه على حاله ومات رحمه الله فى الخمسين من عمره .

فلا محل إذاً لكى تختلط شخصية كتبغا نوين مع العـادل زين الدين كتبغا وإن تشابها فى الاسم . وقد ورد فى السلوك أنه فى سنة ٦٧٨ أنعم المنصور قلاوون على أربعين من رجاله فرفعهم إلى مرتبة الأمراء وذكرهم واحـداً واحداً بالاسم ، وكان منهم زين الدين كتبغا وسنجر الشجاعى وأغلب المؤرخين يقررون أنه أخذ أسيراً فى عين جالوت وهوشاب وإن كان البعض اشتبه عليه نسبته إلى المنصور بقوله المنصورى فظن أنه أخذ أسيراً من يوم معركة حمص (رجب ٦٧٨) فيكون بين أخذه أسيراً وتعيينه

من غزل الفقهاء

للأستاذ على الطنطاوى

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

واسمع يا سيدى أنشدك ما يحضرنى من غزل الفقهاء ، لا أستقصى ولا أعمد إلى الترتيب ، وإنما أروى لك ما يجيئنى ، وما يدنو منى مصدره .

هذا أبو السعادات أسعد بن يحيى السنجارى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ فاسمع من شعره ما ترقص منه القلوب ، وتطرب الألباب : حلاوة ألفاظ ، وبراعة معنى ، وحسن أسلوب ، قال من قصيدة له :

وهواك ما خطر السلو بباله ولأنت أعلم فى الغرام بحاله
ومتى وشى واش إليك بأنه سال هواك فذاك من عذاله
أو ليس للكلِف المعنى شاهد من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه ، وهتكت ستر غرامه ، وصرمت حبل وصاله
أفزلة سبقت له أم خلة مألوفة من تيهه ودلاله

وهذا الإمام الصوفى عبد الله بن القاسم الشهرزورى الملقب بالمرتضى أفما قرأت قصيدته :

لمعت نارهم وقد عسعس الليل ومل الحادى وحار الدليل

التى لم يقل فى معانى أهل الطريق مثلها ، والتى نطاول بها أعلى شعراء (الرمزية) منكباً ، ونسابق بها أوسعهم خطوة[1] ؟

أو ما سمعت شعره ؟ هاك منه قوله :

فعاودت قلبى أسأل الصبر وقفة
عليها فلا قلبى وجدت ولا صبرى
وغابت شموس الوصل عنى وأظلمت
مسالكه حتى تحيرت فى أمرى

وهاك قول ظهير الدين الأهوازى الوزير الفقيه ، تلميذ أبى اسحق الشيرازى[2] :

(١) تجدها كاملة فى ترجمته فى الوفيات ، وتجد بعضها فى المنتخب من أدب العرب لمدارس مصر .

(٢) الوفيات ٢ — ٩١

أميراً أقل من سنة ، وهذا لا يمكن وقوعه نظراً لما تطلبه الجندية الإسلامية فى مصر من تهيئة واستعداد وتدريب ، ولا يتحقق ذلك إلا بعد سنوات طويلة .

والعادل كتبغا رجل من أعاظم رجال القرن السابع والقرن الثامن الهجرى ، وقد وفاه المؤرخون حقه أيام توليه السلطنة ، وبعد عزله منها وإقامته أميراً بالشام وهو الذى قضى على الفتن عند مقتل الأشرف خليل ، ووطد أركان الملك للناصر محمد وهو فى العاشرة من عمره ، وقد بدأ حياته وهو على دين التتار ، وأسلم وحسن إسلامه ، وقال عنه صاحب الدرر الكامنه « كان قليل الشر يؤثر أمور الديانة شجاعا مقداما سليم الباطن رفيقا بالرعية »

وفى عهد سلطنته لجأ إلى مصر آلاف من بلاد التتار وهم الاويراتية فسكنوا بالقاهرة واختلطوا بأهل البلاد . ولما عزل من السلطنة تولى قلعة صرخد ثم نائبا بمدينة حماة ، وفى أثناء نيابته بها هجم التتار على الديار الشامية فى عام ٧٠٢ فحضر الجهاد وهو محمول على محفة لمرضه وكبر سنه وهذه نهاية ما يمكن أن يصل إليه الإيمان وكان ذلك فى معركة «شقحب» التى ساهم فيها شيخ الإسلام ابن تيمية وحرّض فيها جيوش المسلمين على القتال .

وفى يوم الجمعة الموافق يوم عيد الأضحى من تلك السنة توفى العادل زين الدين كتبغا التترى الأصل وهو مسلم ومؤمن ونقل إلى التربة التى بناها بسفح جبل قاسيون بمدينة دمشق غربى الرباط الناصرى رآها ابن كثير وقال « هى تربة مليحة ذات شبابيك وبوابة ومئذنة وله عليها أوقاف للصرف على وظائف من قراءة وأذان وإمامة » وختم بقوله « كان من خيار الملوك وأعدلهم وأكثرهم براً وكان من خيار الأمراء والنواب رحمه الله » .

وانتهت حياة الشاب التترى الذى جاء محاربا للاسلام والمسلمين فأصبح مجاهداً فى سبيل الإسلام والمسلمين فأعطى مثلا لقوة الإسلام وعظمته وأثره فى شؤون الكون وكيف ينقلب أعداؤه فيصبحون سيوفا يذودون عنه وأنصاراً يقاتلون فى سبيله .

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

وإنى لأبدى فى هواك تجلدا   وفى القلب منى لوعة وغليل
فلا تحسبن أنى سلوت فربما   ترى صحة بالمرء وهو عليل

وقول أبى القاسم القشيرى الإمام الصوفى العلم :

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا   ورأيت كيف نكرر التوديعا
لعلمت أن من الدموع محدثا   وعلمت أن من الحديث دموعا

والبيت الثانى من مرقصات الشعر .

وكان مع ذلك علامة فى الفقه والتفسير والحديث ومن فقهاء الشافعية الكبار ، وهو صاحب الرسالة التى يعتدها الصوفية ككتاب سيبويه عند النحويين ، ولا ينصرف الإطلاق إلا لها ، ومن شعره :

ومن كان فى طول الهوى ذاق لذة   فإنى من ليلى لها غير ذائق
وأكثر شىء نلته من وصالها   أمانى لم تصدق كخطفة بارق

ومن شعر القاضى عبد الوهاب المالكى الفقيه المشهور المتوفى سنة ٤٢٢ والمدفون فى قرافة مصر ، وصاحب الخبر المستفيض لما خرج من بغداد وخرج أهلها لوداعه وهم يبكون ويعولون وهو يقول : والله يا أهل بغداد ، لو وجدت عندكم رغيفا كل يوم ما فارقتكم . ويقول :

سلام على بغداد فى كل موطن   وحق لها منى سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها   وإنى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على بأسرها   ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه   وأخلاقه تنأى به وتخالف

ويقول فيها :

بغداد دار لأهل المال طيبة   وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشى فى أزقتها   كأننى مصحف فى بيت زنديق

وهو معنى جيد وتشبيه عجيب .

وهو القائل :

متى يصل العطاش إلى ارتواء   إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثنى الأصاغر عن مراد   وقد جلس الأكابر فى الزوايا
وإن ترفع الوضعاء يوما   على الرفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافل والأعالى   فقد طابت منادمة المنايا

ومن غزله الذى يتغزل فيه بلغة الفقه والقضاء ، فيأتى فيه بالمرقص المطرب قوله :

وناعمة قبلتها - فتنبهت   وقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إنى (فديتك) غاصب   وما حكموا فى غاصب بسوى الرد
خذيها وكفى عن أثيم ظلامة   وإن أنت لم ترضى فألفاً على العد
فقالت قصاص يشهد العقل أنه   على كبد الجانى ألذ من الشهد
فباتت يمينى وهى هميان خصرها!   وباتت يسارى وهى واسطة العقد
فقالت ألم تخبر بأنك زاهد ؟   فقلت : بلى مازلت أزهد فى الزهد

وهناك القاضى الجرجانى مؤلف (الوساطة) على بن عبد العزيز الفقيه الشافعى ، الذى ذكره الشيرازى فى طبقات الفقهاء[1] ، صاحب الأبيات الملمة المشهورة :

يقولون : لى فيك انقباض، وإنما   رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم   ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لى يستفزنى   ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وإنى إذا ما فاتنى الأمر لم أبت   أقلب طرفى إثره متندما
ولكنه إن جاء عفواً قبلته   وإن مال لم أتبعه لولا وربما
وأقبض خطوى عن أمور كثيرة   إذا لم أنلها وافر العرض مكرما
وأكرم نفسى أن أضاحك عابساً   وأن أتلقى بالمديح مذمما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم   ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا   محياه بالأطماع حتى تجهما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ؟   إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

وياليت كل عالم ينقش هذه الأبيات فى صدر محرابه ، وعلى صفحة قلبه ، ويجعلها دستوره فى حياته ، وإمامه فى خلائقه !

والأبيات الأخرى :

وقالوا: توصل بالخضوع إلى الغنى   وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال شيئان حرما   على الغنى : نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه   مواقف خير من وقوفى بها العسر

وله فى هذا المعنى الشعر الكثير الجيد ، أما غزله فسهل حلو منه قوله :

مالى ومالك يا فراق   أبداً رحيل وانطلاق
يا نفس موتى بعدهم   فكذا يكون الإشتياق

وقوله :

قد برح الحب بمشتاقك   فأوله أحسن أخلاقك

(١) الوفيات ١ — ٤٠٨

لا تجفه وارع له حقه فإنه آخر عشاقك

وهناك القاضي سوار (الأصغر) بن عبد الله من أهل القرن الثالث الذي يقول:

سلبت عظامي لحمها فتركتها عوارى في أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فكأنها أنابيب في أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت باسم الفراق ترعدت مفاصلها من هول ما تتحذر
خذى بيدى ثم اكشفي الثوب فانظرى
بلى جسدى لكنني أتستر!
وليس الذي يجرى من العين ماءها ولكنها روح تذوب فتقطر

وهناك قاضي القضاة ابن خلكان المشهور، وكان يعشق الملك المسعود بن المظفر، وكان قد تيمه حبه، قال القاضي التبريزي: كنت عنده في العادلية (دار المجمع العلمي اليوم) في بعض الليالي، فلما انصرف الناس من عنده قال لي: نم أنت ههنا. وألقى على فروة، وقام يدور حول البركة، ويكرر هذين البيتين إلى أن أصبحنا فتوضأنا وصلينا، والبيتان هما:

أنا والله هالك آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي

ولما فشا أمره، منع الملك ابنه من الركوب، فاشتد ذلك على ابن خلكان، فكان مما قال:

إن لم تجودوا بالوصال تعطفاً ورأيتم هجرى وفرط تجنبي
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبي ما الذي ألقاه من كمد إذا لم تركب
لرحمتني ورثيت لي من حالة لولاك لم يك حملها من مذهبي
ومن البلية والرزية أنني أقضي ولا تدرى الذي قد حل بي
قسما بوجهك وهو بدر طالع وبليل طرتك التي كالغيهب
لو لم أكن في رتبة أرعى لها العهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت ستري في هواك ولذ لي خلع العذار ولو ألح مؤنبي
لكن خشيت بأن يقول عواذلي قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي
فارحم فديتك حرقة قد قاربت كشف القناع بحق ذياك النبي
لا تفضحن بحبك الصب الذي جرعته في الحب أكدر مشرب

وله فيه شعر كثير جدا.

ومن شعر محمد بن داود الظاهري، وكان فقيهاً على مذهب أبيه داود وكان شاعراً:

أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو انه يصب على الصخر الأصم تهدما

ومن شعر أبي الفضل الحصكفي[1] الفقيه الشافعي:

أشكو إلى الله من نارين: واحدة في وجنتيه وأخرى منه في كبدي
ومن سقامين: سقم قد أحل دمي من الجفون وسقم حل في جسدي
ومن نمومين: دمعي حين أذكره يذيع سرى وواش منه بالرصد
ومن ضعيفين: صبري حين أبصره ووده ويراه الناس طوع يدي

* * *

ولو ابتغيت الاستقصاء، وتتبعت المراجع، لجمعت من غزل الفقهاء كتابا، فأين بعد هذا يزعمون أن الفقهاء كرهوا الشعر، وتنزهوا عنه؟

أما إنها لم تفل ألسنة علمائنا، ولم تكل أقلامهم، ولم تخفت أصواتهم، إلا حين أضاعوا ملكة البيان، وزهدوا في الأدب، وحقروا الشعر ... فهل لعلمائنا عودة إلى ما هم أخلق به، وأدنى إليه، وأقدر لو أرادوه عليه؟!

وردت في المقال المنشور في العدد الماضي كلمتان في أبيات سعيد بن المسيب على غير وجههما الصحيح وهما:

وعلت فتات المسك، وقامت ترائي يوم جمع، وصوابهما: وعالت، وتراءى.

علي الطنطاوي

(١) نسبة إلى حصن كيفا في العراق، وأظنه هو المعروف اليوم بتل كيف والتحقيق عند صديقنا الأستاذ العزاوي.

هذا هو الريف :

بعثة طبيـــة ... ! (*)

للأستاذ سـيد قطب

« إلى المترفين فى المدينة أولئك الذين يتشدقون بإصلاح الريف وهم لا يدرون شيئاً عن هذا الريف »

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً ... كانوا قد تلقوا الدرسين الأول والثانى فى مدرسة القرية ، ثم انطلقوا ... انطلقوا من الفصول كالعصافير الحبيسة حينما تنطلق من القفص بعد حبس طويل ، انطلقوا يقفزون ويركضون ، ويزعقون ويتصايحون ، لغير ما قصد ولا غاية إلا تأكيد شعورهم بأنهم طلقاء بعد الحبس الطويل !

ثم لكى يفرغوا لنقل ما تحمله جيوبهم من بعض الأطعمة إلى بطونهم ، فلقد حملوه نحو ساعتين ، ولكن « النظام » فى الفصل لم يكن ليسمح لهم بعملية تفريغ الجيوب !

ثم لكى ينصرف أبناء الأغنياء منهم إلى « عشة عم خليل » بائع القصب والبلح ، فيشتروا منها بمليم !

ولم تكن هذه كل قيمة « الفسحة » ، فلقد كان لهؤلاء الأطفال مآرب فى تلك الفسحة القصيرة — ربع الساعة — لقد كانت المدرسة فى طرف القرية على حدود الحقول الواسعة . وإذا كانت وظيفة الحقل أن ينبت للناس والماشية الحبَّ والأبَّ ، فلقد كانت له وظيفة أخرى عند تلاميذ المدرسة ، وعند غيرهم من سكان القرية ... إنه يقوم لهم بوظيفة المراحيض العمومية !

انطلق التلاميذ إذن فى كل مكان يفرغون ما تحمله جيوبهم فى بطونهم ، وما تحمله بطونهم فى الحقول القريبة ... ولكنهم فوجئوا بجرس المدرسة يدق دقاً عنيفاً متواصلا قبل الميعاد المقرر للحصة الثالثة .

(*) فصل من كتاب (طفل فى القرية) يظهر فى أول أبريل .

وانتظموا صفوفاً بعد قليل ، ولم يسمعوا تلك النداءات المعهودة التى يؤدون على أساسها بعض الحركات الرياضية الساذجة ، ولكنهم سمعوا ناظر المدرسة يلقى عليهم خبراً غريباً عجيباً لم يسمعوا به قبل الآن ... إنهم الآن ذاهبون إلى « دُوّار العمدة » ، وسيسيرون فى الطريق بنظام . وكان هذا يقتضيهم أن يقطعوا شوارع القرية كلها تقريباً ، فدوار العمدة فى أقصى الطرف الآخر من القرية ، والناظر يحذرهم من الإخلال بالنظام فى أثناء السير ، والالتفات إلى اليسار أو إلى اليمين ، وبخاصة عند مرورهم « بسويقة القرية » ، حيث يعرض القصب والبلح والتفاح البلدى الفج !

يذهبون إلى دوار العمدة ؟ ولماذا ؟ وهم لم يدخلوا هذا الدوار قط ، وإن سمعوا من آبائهم وأهليهم أنهم يذهبون فى بعض الأحيان ، عند ما يستدعيهم أحد الخفراء ، أو لأداء شهادة ، أو للشكوى من بعض الفلاحين ... أما هم ... هم تلاميذ المدرسة ، فما لهم وكل هذه الأشياء ؟

وكان هو جريئاً بعض الشىء على ناظر المدرسة ومدرسيها ، فاستطاع أن يسأل : ولماذا نذهب إلى دوار العمدة ؟

سأل ، ويا ليته لم يسأل ! لقد كان الجواب كارثة عظمى لم تخطر له ولا لزملائه على بال .. إن « الحكيم » هناك — أى الطبيب — وهو يطلبهم جميعاً !

الحكيم ؟ يا للداهية ! اليوم دنت آخرتهم ولاشك ، فعهدهم بالحكيم هذا ألا يزور القرية إلا فى يوم أغبر أكدر ، يوم يقع فى البلد قتيل ، ثم تحضر « النيابة » ، ويحضر معها الحكيم لتشريح الجثة !

والنيابة والحكيم هذان هما الشيئان الهائلان المخيفان فى القرية كلها . أما فى أذهان الأطفال ، فهما « هيولى » لا يتصورون لها شكلا ولا حجما ، فخيالهم الصغير يستطيع أن ينطلق فى تصورهما كيف شاء ، ولكنه لن يميزهما بحدود مما يميز الأشخاص والأشياء .

ثم ها هو ذا الحكيم يطلبهم ، يطلبهم هم بالذات ، فماذا يكون الأمر ؟

إنهم لا يعرفون لماذا يطلبهم مطلقاً ؛ ولكنهم واثقون

فى قرارة نفوسهم أنه لن يكون خيراً ، وأنهم لن يخرجوا من الدوار — إذا خرجوا — وهم سالمون مثلما دخلوا بحال من الأحوال !

وما وظيفة الحكيم ؟

أليست وظيفته أن يشرّح جثث الموتى ، وأن يبقر بطون المصابين ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم لمجرد الإيذاء ، أو ليكى يفحصها ويلتذ بفحصها ؟ أو أن يسقى بعض المرضى « الفنجان » — أى السم — ليموتوا ، حتى لا يتعب فى علاجهم ، أو تلبية لرغبة العمدة الذى يرشوه للتخلص من خصومه الذين يصابون فى الحوادث !

فما هم وهذا الحكيم ؟

إنهم ليسوا قتلى يشرحهم ، وليسوا مصابين بقطع أوصالهم ، أو يسقيهم « الفنجان » ... ولكن ، أو يستدعيهم إلا لأمر ما ؟ أخف شىء يصنعه بهم هو « التجريح » ... (وهو الاصطلاح الذى يطلقونه على عملية التطعيم) ، تلك العملية المرعبة التى يندب لها بعض معاونى الصحة ، وبعض المرضين فى الحين بعد الحين ، فتروّع القرية ترويعاً ... وما إن يعلن أن فى البلد « الحكيم الصغير » (تمييزاً له من « الحكيم الكبير » الذى يطلبهم الآن والذى يرافق النيابة دائماً ولا يحضر منفرداً) ما إن يعلن هذا فى القرية حتى ترتج وترتجف ، فتخرج الأمهات إلى الشوارع مولولات مذعورات يلتقطن أطفالهن من كل مكان فى ذعر وعجلة ، ثم يغلقن على أنفسهن الأبواب ، ويصعدن إلى السطوح استعداداً للقفز عليها من بيت إلى بيت ، فكثيراً ما يدق هؤلاء الشياطين الأبواب ، ويكسرونها بمساعدة الخفراء ، ويهجمون على من فيها « للتجريح » !

فأما من تستطيع القفز إلى البيوت المجاورة ، فلن تقصر فى سلوك طريق النجاة ، وأما من لا تستطيع ، فإنها تختبئ فى صومعة الغلال ، أو فى خم الدجاج ، حيث لا يخطر على قلب « الحكيم » أنها هناك !

هذا هو الحكيم الذى يعرفونه ... فما بالهم بالحكيم الكبير الذى لا يحضر إلا مع النيابة ، والذى لا يقع أحد فى يده ، ثم ينجو إلا بمعجزة من معجزات القدر ، أو ببركة « غيمة » لولى من كبار الأولياء ؟ !

وارتجفت مفاصلهم جميعاً وهم يسمعون الخبر الفاجع ، واصفرت وجوههم ، وعلا صوت بعضهم بالنحيب والعويل !

***

ووصلوا إلى الدوار ، ولا يعلم إلا الله كيف وصلوا . ووقفوا صفاً طويلا . أوله فى داخل الدوار — أى فى منطقة الخطر — وآخره فى الشارع أمامه ... وعن اليمين وعن الشمال وقف الخفراء ببنادقهم « ولبدهم » الطويلة (جمع لبدة) ؛ ووقف أحد المدرسين فى أول الصف وأحدهم فى آخره . أما الناظر فقد سبقهم إلى الحكيم ليطمئنهم قليلا ، ويظهر أمامهم بمظهر الشجاعة المطلوب!

وكان ترتيب الصف حسب الطول ، فتقدم كبار التلاميذ وتبعهم الصغار أو القصار . وفى هذه اللحظة أصبح القصر نعمة كبرى من نعم الله !

فأما الذين تقدموا فلا يعلم عنهم أحد شيئاً إلا الله ، وأما المتخلفون فهم فى تطلع مستمر وقلق دائم ، ينظرون ماذا سيُفعل بأول الداخلين ، ليعرفوا نوع المصير الذى ينتظرهم بعد حين !

وكانت مفاجأة حينما بدأ بعض الكبار يخرجون ، بينما بقية الصغار لا يزالون فى الصف الطويل ... وانبعثت الصيحات والأسئلة التى لم يستطع كبحها الخفراء ولا المدرسون :

— دخلتم للحكيم ؟

— نعم دخلنا !

— وماذا صنع بكم ؟

— لا شىء ! غزّنا فى إصبعنا بالدبوس وشَفط الدم ! الدم ! ولكن رؤيتهم لهم أحياء أصحاء مطمئنة على كل حال !

— وماذا هذا فى أيديكم ؟

— حق من الصفيح نأتى فيه بعينة براز وزجاجة صغيرة نأتى فيها بعينة بول !

— عينة براز وعينة بول ؟ ولماذا ؟

— لا ندرى ! هكذا طلب منا الحكيم !

— الحكيم نفسه طلب منكم هذا ؟

— لا ... الحكيم الكبير غزنا . والحكماء الصغيرون سلمونا الحق والزجاجة وطلبوا منا العينة للحكيم !

***

وتوارى الفزع قليلا ليحل محله التساؤل المصحوب بالدهشة والاستغراب لهذا الطلب الغريب !

إن أحداً لم يطلب منهم مثل هذا الطلب من قبل . وماذا يصنع الحكيم بهذه العينات العجيبة ؟ إنهم إن فهموا غزهم بالدبوس وشفط الدم ، فإنهم لا يفهمون طلب العينات . إن الغز والدم لازمتان طبيعيتان للحكيم ... ولكن هذا ! من يدرى ؟ إنه الحكيم !

وعلى مهولة الطلب ورخصه فإنه بدا صعباً عزيزاً فى كثير من الحالات ... لقد طلب إليهم جميعاً أن ينطلقوا إلى دورات المياه بمساجد القرية ، وأن يعودوا بعد نصف ساعة ومعهم المطلوب .

وليس كل تلميذ بمستعد لتلبية هذا الطلب فى مثل هذا الوقت ، ولا سيما أن « الفسحة » المدرسية كانت قد أفرغت ما فى البطون ... لو كان هذا قبل الفسحة لكان كل شىء حاضراً وبخاصة إحدى العينتين التى لا تأتى هكذا عند اللزوم !

فأما الذين كان فى أمعائهم بقية فقد انطلقوا مطمئنين ، وأما الذين أحسوا أن أمعاءهم لا تستجيب لهم ، أو حاولوا ولم يفلحوا ، فقد علا وجههم الاصفرار ، وارتفعت دقات قلوبهم من الخوف ، وركبتهم الحيرة التى تركب المذعورين !

ماذا يصنعون ؟ وكيف يعودون إلى الدوار ، أو كيف يغيبون عن الموعد المرسوم ؟

إن أقل ما يتصورونه إن هم عادوا فارغين أن يبقر الحكيم بطونهم ليتناول منها العينة المطلوبة أو أن يدخل فى أجسامهم قنوات طويلة لسحب هذه العينة . وفى الأولى الموت أو خطر الموت ، وفى الثانية العار أمام إخوانهم وعند القرويين !

وهنا تتفتق الحيلة ، وتبدو قيمة التعاون !

إن التلاميذ لإخوة ، فمتى تظهر قيمة هذه الأخوة إن لم تظهر الآن ؟ !

لقد انطلق المحرجون يرجون إخوانهم أن يمدوهم بعونهم ، وأن يتولوا عنهم ملء هذه الأحقاق !

وهنا تظهر الطبائع على حقيقتها . فالشدائد هى أفضل محك لها ! فأما ذوو الأصل الطيب والطبع النبيل من التلاميذ فقد تقدموا لمعاونة زملائهم بلا تردد . وأما قليلو الأصل وذوو الطبائع اللئيمة ، فبعضهم امتنع شفاء لحزازات قديمة ، وبعضهم تمنع لؤما وانتهازاً للفرصة !

ولكن هذا التعاون لم يسد الحاجة إلا إلى حدّ معين ، وبقى عدد من الإخوان الذين لا يجدون ما ينفقون ! ... وهنا تفتقت عبقرية أحدهم عن حيلة بارعة :

إن فى مراحيض المساجد متسعاً للجميع !

أما كيف كان ذلك ! فلا بد من بيان عن هذه المراحيض :

كان فى القرية نحو عشرة مساجد مبنية كلها على الطراز العتيق . وكانت دورات المياه بها عجيبة . فهى مؤلفة من « مغطس » هو حوض مبنى من الطوب ومطلى بالسمنت من الداخل والخارج ، يملؤه عامل خاص ، يمتح بالدلو من البئر ويصب فيه حتى يمتلىء . وفى الحائط الخارجى للمغطس ركبت صنابير تصل من البناء مباشرة إلى الماء بداخله . ومنها يتوضأ المصلون .

ولكن المغطس لا يستخدم فقط للوضوء . إنما هو الحمام المختار لعدد كبير من الناس الذين يعوزهم الماء فى بيوتهم للغسل ، فيذهبون إليه فى جنح الظلام قبيل الفجر ، حيث يتسورون حائطه ، ويرفعون غطاءه الخشبى ؛ ثم ينطسون ، فينقون أجسامهم من الأوضار المادية والمعنوية ، ويدعونها هناك للمتوضئين !

ويلحق بدورة المياه المراحيض ، وبناؤها عجيب . فهى تقع فى صف طويل ، يفصل بين كل اثنين منها حائط ؛ ولكنها من الداخل متصلة بقناة مكشوفة يجرى فيها الماء للجميع من منفذ فى الحوائط الفاصلة بسمة القناة . وتملأ هذه القناة بالماء من البئر كما يملأ المغطس ومن هذا الماء الجارى المتصل ، يتناول المصلون وغير المصلين للاستنجاء بأيديهم ، وهم داخل المراحيض ، والماء يجرى ويتصل بالجميع !

أما بناء المراحيض ذاتها فأعجب . فالرحاض يتكون من

« كتفين » يجلس فوقهما من يريد . وبينهما فجوة واسعة تضطر الجالس إلى أن يباعد مابين رجليه كي لا يسقط في الفتحة الكبيرة. في هذه الفتحة يتساقط ما يتساقط ، فيتراكم قريباً من الجالس . لأن خزانات المساجد محدودة ، والعدد الذي يتردد عليها ضخم جداً — إذ ليس في المنازل مراحيض إلا نادراً — وجميع الرجال والأولاد الكبار يلجأون إلى المساجد والحقول . أما النساء والأطفال ففي سطوح المنازل متسع للجميع !

وتبقى هذه الحالة طوال السنة ، والرائحة التي لا تطاق تنبعث من هذه المراحيض المكشوفة ، والمواد النازلة على مرأى من الجالس لقضاء الحاجة ، والبعوض يتبادل مواقفه تارة على هذه المواد المكشوفة ، وتارة على وجوه الجالسين ، فإذا خلت منهم المراحيض أخذ طريقه إلى المصلين وإلى البيوت المجاورة جيئة وذهاباً حيثما يريد !

وفي موعد خاص يستقدم « السَّرَبَاتِيَّة » أي الذين يكسحون المجارير . يستقدمون من المدينة القريبة بمقاولة خاصة لنزح خزانات مسجد أو عدة مساجد ، ولهذا النزح طريقة عجيبة.

إن العربات الخاصة لم تكن تستخدم هناك على النحو المتبع في بعض المدن الخالية من المجاري . وما الداعي لهذه العربات ؟ وهناك طريقة طبيعية مقتبسة من البيئة الزراعية ؟!

ألا تستخدم القنوات في الحقول لنقل الماء من مكان إلى مكان ؟ فلماذا لا تستخدم كذلك في نقل هذه المواد من المجارير إلى الحقول ؟!

ألا إنها لتستخدم ! فما هو إلا أن تحفر قناة مكشوفة من المسجد الذي يراد كسح خزاناته إلى الحقول خارج القرية ، وتمر هذه القناة بالبيوت والحوانيت في وسط الشارع ، ثم يربط جردل بحبل ويعلق هذا ببكرة ، ويقف عاملان يتناوبان فوق الخزان ، يملآن هذا الجردل من الخزان ويصبانه في أصل القناة وبعد هنيهة يجري التيار حاملا كل شيء إلى الحقول المحظوظة بهذا السماد الطبيعي الثمين !

هذا ويتفق أن تكون عدة مساجد متفرقة في القرية في حاجة إلى التطهير ، فتوفيراً للقنوات المتعددة ، توصل قناة بقناة ، وإذا بالقرية كلها شبكة واحدة من القنوات المتصلة ... وعلى سكان البيوت والحوانيت أن يتمتعوا بالمنظر القذر والرائحة القوية أسبوعاً أو أسبوعين ... فتلك بيوت الله ، ولا يجوز أن يتأذى أحد من فضلات المصلين !

***

قرب المواد المطلوبة في فتحات هذه المراحيض العجيبة ، هو الذي فتق الحيلة البارعة التي نبتت في ذهن هذا التلميذ العبقري !

وما إن طلع بها على إخوانه الملهوفين ، حتى طلع عليهم الفرج بعد الضيق ... وما هي إلا دقائق حتى كانت الأحقاق كلها مليئة ، فتسلمها الحكماء في اطمئنان عميق ... وسمح للتلاميذ بإجازة بقية اليوم ، فعادوا إلى منازلهم غير مصدقين !

***

وعلم فيما بعد أنها كانت بعثة طبية للقيام بإحصاء طبي عن حالات الانيميا والبلهارسيا والانكلستوما والإسكارس .

ولكنه لم يعلم كيف كانت النتائج التي دونتها البعثة في إحصاءاتها الرسمية الوثيقة !!!

سيد قطب

الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٦ —



وبينما كان يتكلف ملتن المرح ، ويستجيب لدواعى الشباب فيغنى أنغام الحب ، كانت نفسه تنطوى على معان غير هذه هى فى الواقع أرب مشاعره ومهتجع خواطره ومتجه خياله ، فتراه ينظم قصيدة استهلها بقوله « إيه يالغة قومى » أشار فيها إلى رغبته فى التخلص من اللعب واللهو وعبر عن عظيم طموحه فقال إنه يفضل أن يتخذ لغة قومه سبيلا إلى موضوع أخطر شأنا فيستخدمها إذ يسمو عقله حتى يبلغ أسباب السموات فيطلع إلى الآلهة وهم منصتون إلى ما يترنم به أبولو ؛ ثم يغنى هو بدوره فينبىء عن الأشياء الخفية التى وقعت ولم تزل الطبيعة فى مهدها .

وهكذا يصور له كبرياء عقله موضوعا عظيما لشعره فيتخيل وهو دون العشرين ملحمة كونية تدور على خلق الدنيا وتكشف عن أغراض الدين وعن وظيفته فيها ؛ وما رتضى طموحه موضوعا أقل من هذا ، ولا تقنع فطرته الشاعرة ولا عبقريته الباكرة بما يقنع به غيره من الشعراء فيتعلق خياله بأعظم ما يتعلق به خيال وأعمقه ، وماذا وراء الخليقة والآلهة فى مسارح الذهن ومطارح الخيال ؟ وإنا لنلمح فيما يطمح إليه صورة مبهمة غامضة للفردوس المفقود ، ونراها هنا إغريقية الأشباح أولمبية الآلهة ، فهل كان يفكر الشاعر الناشىء منذ ذلك العهد فى آيته الكبرى ويريد أن يتخذ من ميثولوجيا الأغريق مادتها ولباسها ؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به ؛ على أننا نجزم فى هذا الصدد بأن الشاعر كان يومئذ يشغل باله ويهجس فى نفسه موضوع عريض فخم ، ولسوف نرى أن هذا الموضوع لن يبرح يطرق خياله ويهز نفسه حتى يتغنى بالفردوس المفقود ...

وإنه ليرتفع بشعره إذا تناول أمراً يتصل بالدين ، فيمد جناحى عبقريته ويرتفع ويحلق فى أفق لم يكن ليبلغ فى العلو مثله فى غير ما يتصل بالدين ؛ نجد مثلا رائعاً لذلك فى أنشودته الجميلة النبيلة التى نظمها سنة ١٦٢٩ وهو فى الحادية والعشرين من عمره فى عيد ميلاد المسيح وسماها « أنشودة فى صباح الميلاد » وهى إذا نظرنا إلى سنه وقتئذ جديرة بالاعجاب حقاً ، تستحق ما نالت يومئذ من عظيم الثناء ويستحق صاحبها ما اكتسب من ذيوع الصيت ونباهة الإسم . ولقد أحس كل من قرأها أنه تلقاء روح عبقرية وثابة غلابة تملأ النفس شعوراً بتكامل القوة وإعجابا بروعة الفن وافتنانا بسحر الخيال . هذا إلى براعة الموسيقى وسمو اللحن وجلال الفكرة ، ولعلها فى زعم بعض مؤرخى الأدب أجمل أنشودة فى بابها فى اللغة الانجليزية كلها .

تخلص ملتن فى هذه الأنشودة من تأثير أوفيد ، وما عسى أن توحيه أوصافه وصور جماله من فتنة وإغراء ، وأراد أن يلبس معانيه لباساً روحانياً طهوراً وذلك بأن يطلق روحه من عقال الجمال اللغوى فيختار موضوعاً يواتى ما يطلب . ولقد جمع فى أنشودته هذه بين جلال الدين وجمال الطبيعة ، وكأنما أراد بذلك أن يشير إلى وظيفة الشاعر الملهم إلهاما قدسياً وإلى صفات فنه ، فجاءت هذه الأنشودة مثلا يضربه لمقدرته على التوفيق بين الجمال الذى يطرب له والسمو الروحى الذى يتعلق به .

تتألف هذه الأنشودة من سبع وعشرين فقرة بكل فقرة

ثمانية أسطر ؛ ومهد لها بمقدمة من أربع فقرات ، فهى كما ترى ليست بقصيرة وبخاصة إذا ذكرنا بعض ما يختص به شعر ملتن وهو الإيجاز البليغ الرائع فى التعبير عن المعنى المراد ، والإيحاء القوى الواسع فى استعمال الكلمة المختارة .

يصف ملتن الطبيعة قبيل مولد الطفل وبعد مولده فيبدع ويعجب ؛ يصور فرحة الكون المتطلع إلى المولود تنبعث من سمائه وأرضه لحناً جديداً تغنى به الكواكب وتجاوبها الأرض ويمتزج به غناء الملائكة ، فتنتشى أنفس الرعاة والناس ، ويحسون تآلفاً واتساقاً بين موسيقى الكون وموسيقى نفوسهم ؛ وما هذا اللحن الجديد الذى تتجاوب به أرجاء الطبيعة وتستجيب له الأنفس إلا رمز لما يبشر به المسيح وما يدعو إليه من سلام وصفاء ومحبة . ويملأ الشاعر نشيده بما أبدع من صور ، فهناك رهط الرعاة فوق المروج الخضر فى هيئتهم القروية الساذجة . وهناك الصفان الأول والثانى من قبيل أولى أجنحة من الملائكة بين لابس خوذة وحامل سيف ، ومدرع بدرع براق . ثم هناك رهط من الآلهة بين إغريقية وفرعونية ، وأنماط من الأرواح الطيبة والخبيثة ، وعدد من عذارى الميثولوجيا ومخلوقاتها من طير ووحش وجن . هذا إلى ما سوّى خياله من مباهج الطبيعة ومفاتنها ، وما ابتدع بيانه من ضروب التعبير وصور التشبيه ، وأشكال المجاز ، وألوان الاستعارة ، تنظمها جميعاً موسيقى تكافىء موضوع الأنشودة وتواتى غرض الشاعر ، وينهض كل أولئك أدلة قوية على ذوق مطبوع وفن موهوب وذهن متمكن .

وكأنما أغراه نجاحه فى أنشودته هذه بهذه الناحية الدينية فأراد أن يعكف عليها . فهاهو ذا ينظم قصيدة جعل موضوعها صلب المسيح، وأخذ يمهد لوصف ما لاقاه من ألم هائل وعذاب مخيف ؛ غير أنها لم تصادف ما صادفته أنشودة الميلاد من هوى فى نفوس سامعيها من أقرانه فكرهها وشهد على نفسه أنه أخفق فيها ، وأمسك عن إتمامها لأنها « مطلب فوق ما يصح أن تتطاول إليها منه يومئذ » ؛ وكان ملتن على شدة اعتداده بنفسه يرى مواطن الضعف فيما يأتى من عمل فينتقد نفسه ويتخلص من ضعفه وتلك إحدى محامده وهو من أجلها خليق بأوفر الثناء .

وفترت بعد تلك القصيدة حماسته لما هو موصول بالدين ، وتطامن طموحه إلى حين ؛ فانصرف إلى مجال آخر لم يتناوله من قبل وهو مجال الطبيعة ومشاهدها وما انبث فيها من جمال . ولعل إغلاق الكلية بضعة أشهر لتوقى الطاعون وزيارة ملتن أثناء ذلك للريف مما ساعد كذلك على إقباله على هذه الناحية الجديدة فى شعره .

نظم ملتن فى العام التالى قصيدة فى عيد الربيع عنوانها : « أغنية فى أحد أصباح مايو » فوصف شهر الورد وبهجته وما يبثه فى النفوس من مرح وشباب وسحر ، وكيف ترتدى الغابات والخمائل برداءه ، وتزهى الربى والخمائل بنعمائه ؛ ونظم قصيدة أخرى هى « نجوى البلبل » تفيض كسابقتها باحساسه بالجمال والمرح وتعبر عن حيوية الشباب ولهوه ؛ وتنبىء بأنه لا يزال يهفو إلى الحب قلبه وتتعطش إلى لذاذاته نفسه .

وبرهن ملتن بقصيدتيه هاتين على استعداد عظيم لوصف مشاهد الطبيعة ، وتجلت فى هذه الناحية مقدرته على الإيحاء والتصوير بالكلمة المختارة تجر وراءها مختلف الصور حتى ليرى المرء بعين خياله ما يرى مثله ببصره من صور الكون ومشاهده ، وتلك موهبة تجعله يصنع بألفاظه ما يصنع الرسام بريشته ؛ وسيغدو ملتن من شعراء الطبيعة الأفذاذ فى أدب العالم كله ؛ وسيظل فى الأدب الانجليزى بعد شكسبير فى وصف الطبيعة الشاعر الذى لا يتطاول إلى أفقه حد ...

وظهرت دلائل ما يعتلج فى أطواء نفسه من حب فى سلسلة من الأغنيات نظمها بالطليانية ، بعد قصيدتيه الأخيرتين ، وقد كتب إلى صديقه ديودانى يقول : « أكتب إليك ما أكتب وأنا دهش منه ! اعلم أنى أنا الذى طالما تهزأت بالحب واحتقرته وضحكت من شركه قد وقعت بغتة فى هذا الشرك » . والحق أن ملتن كان يومئذ يضطرب بين الاستجابة القوية لداعى الحب والخوف من ضلالاته حتى غلبه الحب على أمره ، فأخذ يغنى ألحانا يشهد من قرأها أنها من أجمل ألحانه وأعذبها ارتفع فيها بالحب إلى جوه المثالى وأفقه العذرى وخياله الشاعر .

وكانت الفتاة التى يشير إليها فى أغنياته الجديدة طليانية الأصل يزينها نمط من الجمال الأجنبى يعد جديدا على نفسه جديدا فى ناظريه ، وقد افتتن بمحياها الأسمر وعينيها الدعجاوين ، وأخذ حبها بمجامع

قلبه ، وأحست بموقعها من نفسه فلم تلبث أن بادلته الحب ، وطارحته أحاديث الهوى ، فقد نظم أغنياته بالطليانية استجابة لطلبها إذ قالت له « إن الطليانية لغة الحب » .

ونظم ملتن فى نفس السنة أبياتا عن شكسبير لتطبع فى صدر مجموعة من آثاره ، وتبين الناس فى هذه الأبيات مبلغ ما أوتيه من قوة البلاغة ومهارة التعبير فضلا عن أصالة الخيال الشعرى وجماله . وحسبك منه قوله : « ما حاجة شكسبير إلى صرح من الأحجار يعمل جيل فى إقامته فوق عظامه المجيدة ؛ ما حاجة رفاته إلى هرم يومىء إلى النجم ؟ يا ابن الذكر الحى يا أيها العزيز ، ويا وارث الصيت المجيد ، يا أيها العظيم ما حاجة اسمك إلى تزكية ضعيفة كهذه ، وقد بنيت لك من إعجابنا ودهشتنا تمثالا لا يبلى ؟ إنك قد أفضت علينا من شعرك الدفاق ما يخجل حياله كل فن متعثر بطىء ، واستمد كل قلب من أوراق كتابك الذى يجل عن كل قدر ، تلك الأسطر التى تنتمى إلى « دلفى » ، تلك الأسطر الخوالد التى تركت فيه أعمق الأثر ، ولقد سحرتنا عن أنفسنا حتى أحالتنا إلى مرمر من فرط ما تخيلنا وعجبنا ! وكان لك وأنت هكذا دفين ، من عظمتك ومن أبهة ذكرك ونخامته قبر من أجل الظفر بمثله يتمنى الملوك الموت » .

وبعد نشر هذه الأبيات القوية فى صدر تلك المجموعة من آثار شكسبير دليلا على أن ناشريها كانوا ينظرون إليه يومئذ وهو لا يزال طالباً فى الكلية نظرتهم إلى شاعر بدأت تتحقق له نباهة الإسم .

ونظم ملتن فى سنتيه الأخيرتين بالكلية بضع قصائد فى مناسبات ، أهمها ثلاث مرثيات وقصيدة كتبها عن نفسه هى أقرب إلى شعر التأملات . أما المرثيات فاثنتان منها كانتا عن هوبسون الشيخ أحد موظفى الكلية وقد قضى فيها من عمره سنين طويلة ، وفيها يمزج ملتن العطف بروح الدعابة . وكانت الثالثة عن سيدة فى مقتبل العمر تدعى ليدى ونشستر أحدث موتها حزنا عميقا فى أوساط المجتمع العليا . ولقد ذاعت مرثية الشاعر الشاب ذيوعا عظيما فى تلك المناسبة ، وأحبها كل من قرأها وأثنى على الشاعر من أجلها ثناء كبيراً .

أما القصيدة التى كتبها عن نفسه فكانت فى عيد ميلاده الثالث والعشرين ، وفيها يعجب الشاعر من سرعة انقضاء الزمن ، ويأسف أن يخلو ربيع حياته الأخير من البراعم والأكمام ؛ وهو بهذه الاشارة يضطغن على نفسه ، فربيعه زاخر بالحياة والنماء ، ولعله يقصد أن أكثر ماجادت به يراعته لم ينشر ليدل على وفرة ثماره ، أو لعله ضرب من الطموح ، فهو إذ يستقل ما عمل حتى يومه هذا إنما يشير إلى ما هو جامع له عزمه فى غده .

والشواهد على عزمه المصمم قائمة فى موضوع ألقاه فى سنته الرابعة والعشرين وهى السنة التى غادر فيها الكلية ، وكان الطلاب يتناظرون فى العلم والجهل وأن العلم يجلب للمرء من السعادة أكثر مما يجلب الجهل ؛ وتحدث ملتن فأفاض وأجاد فى بيان فضل العلم وقارن بين أوروبا فى عصر الظلمات وبينها فى عصر النهضة ، وأشار إلى الإنسان فى بداوته إذ كان يهيم على وجهه ويتخذ من الجبال بيوتا ويعيش بلا دين ولاقانون ولاثقافة كما تعيش ضوارى الوحش ، وإلى الإنسان فى حضارته وما ينعم به من المعرفة ويهتدى به من الدين ويتمتع به من روابط الثقافة ، واختتم كلامه فأهاب بالمستمعين أن يكتسبوا كل يوم معرفة جديدة حتى يكون شأنهم شأن الاسكندر حين بكى لأنه لا يجد أمامه عوالم أخرى تطويها انتصاراته ...

وفى سنة ١٦٣٢ غادر ملتن الكلية بعد أن حصل على درجتها العلمية الثانية وبعد أن قضى فيها سبع سنين ؛ رحل عنها وإنه ليأسف على رحيله كثيرون والكل به معجبون . ولا غرو أن تتغير نظرة الأساتذة والطلاب إليه عما كانت قبل ممن كان له مثل متانة خلقه ورجاحة عقله وفصاحة لسانه وقوة جنانه وشاعرية روحه وطموح نفسه ، خليق بمن عرفوه أن يأسفوا على فرقته وأن يعجبوا بشخصيته . ولقد طلب إليه أكثر من مرة القائمون على أمر الكلية أن يبقى بينهم زميلا بعد أن تخرج فيها ولكنه لم يجد فى نفسه الميل إلى ذلك ؛ ونجد مصداقا لتغير نظرتهم إليه فيما كتبه بعد ذلك بعشرة أعوام إذ أشار إلى ما لقى من احترام على أيدى أساتذة الكلية يفوق ما لقى أنداده منه ، وإلى رغبة هؤلاء الأساتذة فى أن يبقى معهم إلى أن قال « ولقد وثقت فوق ذلك من اختصاصهم إياى بالمودة والعطف وذلك من كتبهم التى تلقيتها قبل رحيلى وبعد ذلك بزمن طويل وكلها تفيض بعطفهم على ومودتهم إلى ومحبتهم إياى » .

أما هو فما كان يذكر أيامه فى كمبردج بخير ، بل ما برح يشكو من تخلفها فى المعرفة وتمسكها بالماضى وتعودها عما كان يرجو من نهوض .

(يتبع) **الخفيف**

كعب الأحبار

هو الصهيونى الأول

للأستاذ محمود أبو رية

[نشر الأستاذ سعيد الأفغانى أن الصهيونى الأول هو عبد الله بن سبأ الذى تظاهر بالاسلام على عهد عثمان . وإنا على احترامنا لما نشر الأستاذ الأفغانى نبين أن الصهيونى الأول فيما حققناه هو (كعب الأحبار) ذلك الكاهن اليهودى الذى أسلم على عهد عمر خداعاً ونفاقاً ، وكان أول من أرسل الصيحة (بالصهيونية) فى بيت المقدس ، ولكن الفاروق فطن لهذه الدعوة الخبيثة وقضى عليها . ولما وجد أن عمر صخرة عاتية تحول بينه وبين ما يريد بالاسلام من كيد ، أخذ مع جماعة من فارس يأتمرون به ليقتلوه . ولما اندك حصن الاسلام بقتل عمر أرصد مكره ودهاءه لما أسلم من أجله ، فأنشأ يبث من إفكه — ما شاء أن يبث — فى تفسير كتاب الله وأحاديث رسوله . وإنا نكشف هنا عن حقيقة هذا الحبر الذى لا يزال يظفر بثقة المسلمين ، ويعتبرونه من خيار التابعين ، حتى يكون الناس على بينة من أمره ، ويعرفوا مبلغ ضرر هؤلاء اليهود الذين تظاهروا بالاسلام وانطوت قلوبهم على غيره]

لما قويت شوكة الدعوة الإسلامية واشتد ساعدها لم ير الذين كانوا يقفون أمامها ، ويصدون عن سبيلها ، إلا أن يكيدوا لها من طريق الحيلة والخداع ، بعد أن عجزوا عن النيل منها بوسائل القوة والنزاع .

ولما كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، لأنهم بزعمهم شعب الله المختار فلا يعترفون لأحد من غيرهم بفضل ، ولا يقرون لنبى بعد موسى برسالة ، فإن رجالهم وأحبارهم لم يجدوا بعد أن غلبوا على أمرهم ، وأخرجوا من ديارهم ، إلا أن يستعينوا بالمكر ويتغلبوا بالدهاء لكى يصلوا إلى ما يبتغون . وهداهم المكر اليهودى إلى أن يتظاهروا بالإسلام ويطووا نفوسهم على غيره حتى يخفى كيدهم ويجوز على الناس مكرهم . وكان أقوى هؤلاء الدهاة (كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سبأ) فاستعلنوا بإسلامهم واندسوا بين المسلمين مظهرين عبادتهم وتقواهم . ولما وجدوا أن حيلهم قد راجت وأن المسلمين قد اغتروا بهم وسكنوا إليهم ، جعلوا أول همهم أن يضربوا المسلمين فى صميم دينهم فيدسون فيه ما يريدون من أساطير وخرافات وأوهام لكى يهى هذا الدين ويضعف . ولكى يحكم هؤلاء الدهاة أمرهم كانوا يزعمون تارة أن هذه المفتريات من كتابهم ويدعون أخرى أنها من مكنون علمهم ، وما هى فى الحقيقة إلا من مفترياتهم ، وأنى للصحابة أن يفطنوا لتمييز الصدق من الكذب من كلامهم ، وهم من ناحية لا يعرفون العبرانية التى هى لغة كتبهم ، ومن جهة أخرى فإنهم لا يجارونهم فى دهائهم ومكرهم . وبذلك كان الصحابة ومن تبعهم يأخذون كل ما يبثه هؤلاء الدهاة بغير بحث ولا نقد معتبرين أنه صحيح لا ريب فيه .

وإنا نلم هنا بطرف صغير من تاريخ زعيم هؤلاء الدهاة وشيخهم وهو (كعب الأحبار) وهو الذى نسوق من أجله هذا الحديث .

كعب الأحبار :

هو كعب بن ماتع الحميرى من آل ذى رعين ، وقيل من ذى الكلاع — من اليمن — كان من أحبار اليهود وعرف بكعب الأحبار ، أسلم على عهد عمر على الراجح وسكن المدينة فى خلافة عمر وتحول إلى الشام فى زمن عثمان فسكنها ومات بحمص سنة ٣٤ هـ .

وقد استصفاه معاوية وجعله من مستشاريه لكثرة علمه كما كانوا يقولون عنه أو كما زعم هو فى قوله « ما من الأرض شبر إلا مكتوب فى التوراة التى أنزل الله على موسى ، ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة !!! »

وقد اغتر به الصحابة ومن بعدهم فرووا عنه وسمعوا منه ، وكان أكثر من روى عنه من الصحابة أبو هريرة الذى كان كذلك أكثرهم تحديثاً عن النبى ، ذلك بأن هذا الكاهن سلط عليه قوة دهائه لكى يستحوذ عليه وينيمه ليلقنه كل ما يريد . ومما اتخذه من أساليب المكر والخداع ليطويه تحت جناحه أن قال فيه كما روى الذهبى : ما رأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبى هريرة ! !

(١) على أنه قد دفن بحمص فان له قبراً يزار بالقاهرة بحى الناصرية قائم بمسجد يسمى باسمه .

سبب إسلامه :

وضع هذا الكاهن لإسلامه سبباً عجيباً فقد أخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب قال : قال العباس ما منعك أن تسلم فى عهد النبى وأبى بكر ؟ فقال إن أبى كتب لى كتاباً من التوراة فقال اعمل بهذا وختم على سائر كتبه ، وأخذ علىّ بحق الوالد على الولد أن لا أفض الختم عنها ، فلما رأيت ظهور الإسلام قلت لعل أبى غيب عنى علماً ففتحتها فإذا صفة محمد وأمته فجئت الآن مسلماً !

وروى عبد الله بن عمر أن رجلا من أهل اليمن جاء إلى كعب فقال له : إن فلاناً الحبر اليهودى أرسلنى إليك برسالة ! فقال كعب هاتها ، فقال له الرجل : إنه يقول لك ألم تكن سيداً شريفاً مطاعاً ؟! فما الذى أخرجك من دينك إلى أمة محمد ؟ فقال له كعب أتراك راجعاً إليه ؟ قال نعم ! قال فإن رجعت إليه فخذ بطرف ثوبه لئلا يفر منك ! وقل له : يقول لك ، أسألك بالذى فلق البحر لموسى ، وأسألك بالله الذى ألقى الألواح إلى موسى بن عمران فيها علم كل شىء !! ألست تجد فى كلمات الله تعالى أن أمة محمد ثلاث أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة ، وثلث يدخلون الجنة بشفاعة أحمد !! فإنه سيقول لك نعم ! فقل له يقول لك كعب : اجعلنى فى أى الأثلاث شئت !

كيف كانوا يمكرون بالمسلمين :

اتبع هؤلاء الأحبار طرقاً عجيبة لكى يستحوذوا على عقول المسلمين ، وإليك طرفاً من هذه الأساليب :

أخرج الترمذى عن عبد الله بن سلام وهو من أحبار اليهود أنه مكتوب فى التوراة فى السطر الأول « محمد رسول الله عبده المختار مولده مكة ومهاجره طيبة وملكه فى الشام » وهذا الذى قاله ابن سلام قد أحكمه الداهية كعب ، فقد روى عنه الدارمى : فى السطر الأول محمد رسول الله عبده المختار لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام[١] وفى السطر الثانى : محمد رسول الله أمته الحمادون يحمدون الله فى كل منزل ويكبرون على كل شرف رعاة الشمس يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ولو كانوا على رأس كناسة ! ويأتزرون على أوساطهم ويوضئون أطرافهم وأصواتهم بالليل فى جو السماء كأصوات النحل .

(١) تخصيص الملك فى الشام على لسان هؤلاء الأحبار إنما كان لغرض سياسى وقد عقدنا له فصلا برأسه فى كتابنا (حياة الحديث المحمدى)

كعب وعمر :

لما أتى كعب إلى المدينة على عهد عمر مظهراً إسلامه أخذ يعمل فى دهاء لما أسلم من أجله ، فكان أول أمر وجه إليه همه أن يفترى الكذب على النبى ، ولكن عمر فطن لكيده فنهاه عن أن يروى عن النبى شيئاً وتوعده بأن يترك الحديث عن رسول الله أو يلحقه بأرض القردة .

وعلى أن عمر رضى الله عنه قد ظل يراقب هذا الداهية بحكمته وحزمه وينفذ إلى أغراضه الخبيثة بنور بصيرته كما جرى ذلك فى قصة الصخرة التى ستعرفها بعد ، فإن شدة دهاء هذا الرجل قد تغلبت على حزم عمر ويقظته فظل يعمل بكيده فى السر والعلن حتى انتهى الأمر بقتل عمر بمؤامرة اشترك فيها هذا الكاهن وجماعة معه منهم الهرمزان ملك خورستان وكان قد جىء به أسيراً إلى المدينة .

قتل عمر :

ذكر المسور بن مخرمة[١] أن عمر لما انصرف إلى منزله بعد أن أوعده أبو لؤلؤة جاءه كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين (أعهد) فأنت ميت فى ثلاث ليال (رواية الطبرى فى ثلاثة أيام) قال وما يدريك ؟ قال أجده فى كتاب التوراة ! قال عمر : أتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ؟ قال اللهم لا ، ولكن أجد حليتك وصفتك ، وأنك قد فنى أجلك ! قال ذلك وعمر لا يحس وجعاً ، فلما كان الغد جاءه كعب ، فقال بقى يومان ! فلما كان الغد جاءه وقال: مضى يومان وبقى يوم ! وهى لك إلى صبيحتها ، فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالا فإذا استوت كبّر ، ودخل أبو لؤلؤة فى الناس وبيده خنجر فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهى التى قتلته . ودخل عليه

(١) ص ٢٤ ج ٣ تاريخ ابن الأثير .

كعب وقال له : ألم أقل لك إنك لا تموت إلا شهيداً وإنك تقول من أين وإنى فى جزيرة العرب ؟ وفى رواية أخرى : لما دخل كعب على عمر قال له « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين »

ومما يمتلخ عرق الشك فى أمر تآمر كعب بعمر ما أخرجه الخطيب عن مالك ، أن عمر دخل على أم كلثوم بنت على وهى زوجته فوجدها تبكى ، فقال ما يبكيك ؟ قالت هذا (اليهودى) أى كعب يقول إنك باب من أبواب جهنم! فقال عمر ماشاء الله ! ثم خرج فأرسل إلى كعب فجاءه فقال يا أمير المؤمنين والذى نفسى بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة ! فقال ما هذا ! مرة فى الجنة ! ومرة فى النار ! فقال : إنا لنجدك فى كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقتحموا فيها فإذا مت اقتحموا !!

وقد برت يمينه فقد قُتل عمر فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ

فهل بعد ذلك يمترى أحد فى أن كعباً هو رأس مؤامرة قتل عمر !

ولعل المسلمين قد ازدادوا ثقة بكعب بعد مقتل عمر إذ حسبوا أن التوراة كما يزعم فيها علم ما كان وما سيكون وما هو كائن ! ولكن لما كثر كذبه وفشا بهتانه أخذ بعضهم يقابل ما يرويه بالشك فقد روى البخارى أن معاوية قال فيه (إنا كنا لنبلو عليه الكذب ، وقال عنه على (إنه لكذاب) وكذبه كذلك عبد الملك بن مروان .

قصة الصخرة بين عمر وكعب :

لما افتتحت إيلياء وأرضها على يدى عمر فى ربيع الآخر سنة ١٦ هـ ودخل عمر بيت المقدس دعا كعب الأحبار وقال له : أين ترى أن نجعل المصلى ؟! فقال كعب : إلى الصخرة . فقال له عمر: يا ابن اليهودية ، ضاهيت والله اليهودية ، وفى رواية أخرى خالطتك يهودية ! وقد رأيتُك وخَلْعَك نعْليك !

ولما أخذوا فى تنظيف بيت المقدس من الكناسة التى كانت الروم قد دفنته بها سمع التكبير من خلفه فقال ما هذا ؟ فقالوا كبر كعب وكبر الناس بتكبيره ! فقال علىَّ به فأُتىَ به فقال يا أمير المؤمنين : إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبى منذ خمسمئة سنة ! قال وكيف ؟ فقال إن الروم أغاروا على بنى إسرائيل فأديلوا عليهم فدفنوه ! إلى أن وليت فبعث الله نبياً على الكناسة فقال أبشرى، أورى شلم، عليك الفاروق ينقيك مما فيك! وهكذا يلعب بعقول المسلمين .

وقال كعب مرة : « إن الله قال للصخرة أنت عرشى الأدنى وأنها موضع قدم الرحمن . وقد وضع كعب وإخوانه فى فضائل بيت المقدس وغيره من البقاع التى فى الشام أكاذيب كثيرة ملأت مؤلفات .

ما بثه كعب فى التفسير والحديث :

بلغ من دهاء كعب أن جعل بعض الصحابة يروون عنه أحاديث معزوة إلى رسول الله. وفى كتب الحديث فى باب رواية الأكابر عن الأصاغر أن العبادلة الثلاثة[1] وأبا هريرة ومعاوية وغيرهم قد رووا عن كعب الأحبار .

ولا نستطيع أن نسوق هنا كل ما بثه فى تفسير كتاب الله ، وما رواه من أحاديث عن رسول الله لأنها إذا جردت تملأ مجلدات وإنما نجتزىء ببعض الأمثال :

قال لمعاوية عن ذى القرنين : إنه كان يربط خيله بالثريا .

وقال عن العرش : إنه لما خلق اهتز تعظيما فطوقه الله بحية لها سبعون ألف جناح ، فى كل جناح سبعون ألف ريشة ، فى كل ريشة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم، فى كل فم سبعون ألف لسان يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وعدد ورق الشجر... الخ فالتوت الحية على العرش... وهى ملتوية عليه فتواضع عند ذلك !

وقال الأرضون السبع على صخرة والصخرة فى كف ملك والملك على جناح الحوت والحوت فى الماء والماء على الريح والريح على الهواء ريح عقيم لا تلقح وأن قرونها معلقة فى العرش .

وقال : إن لله ديكا عنقه تحت العرش وبراثنه فى أسفل الأرض فإذا صاح صاحت الديكة .

وما قاله كعب لم يلبث أن جاء حديثاً مرفوعا .

(١) هم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو ابن العاص .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٦٨٣ – قضية خمرية . . .

فى (شرح المقامات) للشريشى :

قال أحمد بن ظبيان الحائر : اجتمع قوم على شراب لهم فغناهم مغنيهم بشعر حسان :

إنَّ التى ناولتَنى فرددتُها
قُتِلتْ (قُتِلتَ) فهاتها لم تُقتل[1]

كلتاهما حلب العصر فعاطنى
بزجاجة أرخاهما للمِفصل[2]

(١) يقال : قتلت الخمر إذا مزجتها ، وقد أحسن كل الاحسان فى تجنيس اللفظ : دعا عليه بالقتل فى مقابلة المزج (شرح الشريشى)

(٢) المفصل : اللسان لأن به يفصل بين الحق والباطل ، وليس فيما اعتمده عبيد الله بن الحسن من الأسجاح وخفض الجناح ما يقذف فى نزاهته أو يغض من نبله وبراعته (شرح الشريشى)

وفى التوراة : أربعة أنهار فى الجنة ، وفى حديث أبى هريرة أحد من رووا عن كعب أن النبى قال : النيل وسيحان وجيحان والفرات من أنهار الجنة ، أما ابن عباس وقد روى كذلك عن كعب فقد جعلهم خمسة أنهار .

***

هذا هو كعب الأحبار – الصهيونى الأول – أبرزناه على حقيقته بعد أن نزعنا عنه ثوب الرواية الإسلامية فبدا لهم عارياً – كما خلقته الصهيونية – حتى يكون المسلمون على بصيرة من أمره ، ولعلهم بعد ذلك يعملون على تطهير كتب التفسير والحديث والتاريخ من مفترياته ومفتريات إخوانه من كهنة اليهود ليبدو نور الدين مشرقاً فى محكم آياته ، وتتجلى لهم فضائله فى ناصع بيناته ، ويتحقق قول الله : سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .

(المنصورة) **محمود أبو ريه**

فقال بعضهم : امرأتى طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضى عن علة هذا الشعر لمَ قال : (إن التى) فوحد ثم قال : (كلتاهما) فثنى ؟ فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا عليه ، ومضوا يتخطون القبائل حتى انتهوا إلى بنى شقرة ، وعبيد الله بن الحسن يصلى ، فلما فرغ من صلاته قالوا قد جئناك فى أمر قد دعتنا إليه ضرورة ، وشرحوا له خبرهم ، فقال : (إن التى ناولتنى فرددتها) عنى بها المزوجة بالماء ثم قال من بعدُ (كلتاهما حلب العصير) يريد الخمر المحتلبة من العنب والماء المحتلب من السحاب[1] المكنى عنهما بالمعصرات فى قوله تعالى وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا .

٦٨٤ – وصرت أنسى أنتى أنسى

ابن الحجاج البلوى : أنشدنى العمانى لبعضهم فى النسيان

أفرط نسيانى إلى غاية
لم يدع النسيان لى حسا

فصرت مهما عرضت حاجة
مهمة ضمنتها الطرسا

وصرت أنسى الطرس فى راحتى
وصرت أنسى أننى أنسى

٦٨٥ – على يد الإفلاس

قال ابن الهبارية :

يقول أبو سعيد إذ رآنى
عفيفاً منذ عام ما شربت

على يد أى شيخ تبت ؟ قل لى
فقلت : على يد الإفلاس تبت

٦٨٦ – وإن تركناك فلنفسك

قال أبو العيناء : كنا عند ابن أبى دؤاد ومعنا محمود الوراق وجماعة من أهل الأدب والعلم فجاءه رسول إيتاخ فقال : إن الحاجب أبا منصور يقرأ على القاضى السلام ويقول : القاضى يتعنى ويجىء فى الأوقات وقد تفاقم الأمر بينه وبين كاتب أمير المؤمنين (يريد ابن الزيات) فصار يضرنا عنده ، قصد القاضى . وما أحب أن يتعنى إلىَّ لهذا السبب إذ كنت لا أصل إلى مكافأته .

فقالَ : أجيبوه عن رسالته . فلم ندر ما نقول ونظر بعضنا إلى بعض فقال : أما عندكم جواب ؟

(١) السحاب : اسم جنس جمعى واحده سحابة يذكر ويؤنث ويفرد ويجمع (التاج)

قلنا : القاضى (أعزه الله) أعلم بجوابه منا .

فقال للرسول : إقرأ عليه السلام ، وقل له : ما أتيتك متكثراً بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولا طالباً منك رتبة ، ولا شاكياً إليك كربة ، ولكنك رجل ساعدك زمان ، وحركك سلطان ، ولا علم يؤلف ، ولا أصل يعرف ، فإن جئتك فلسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك . فعجبنا من جوابه .

٦٨٧ — القدر والطلب

قال الطرطوشى : القدر والطلب كأعمى ومقعد فى قرية يحمل الأعمى المقعد ويدل المقعد الأعمى .

٦٨٨ — نصيحة . . .

قال محمد بن الجهم : من شأن من استغنى عنك ألا يقيم عليك ، ومن احتاج إليك ألا يزول عنك ، فمن حبك لصديقك وضنك بمودته ألا تبذل له مايغنيه عنك ، وأن تتلطف فيما يحوجه إليك ، وقد قيل فى مثل هذا : أجع كلبك يتبعك ، وسمنه يأكلك . فمن أغنى صديقه فقد أعانه على الغدر ، وقطع أسبابه من الشكر . والمعين على الغدر شريك الغادر كما أن مزين الفجور شريك الفاجر .

٦٨٩ — انظر إلى وجهك ثم اعشق

جاريةٌ أعجبهـــا حسنُها فمثلُها فى الناس لم يخلق
خبّرتهـــا أنى محبٌّ لهـا فأقبلت تضحك من منطقى
والتفتت نحو فتاة لهــا كالرشأ الوسنان فى قرطق
قالت لها قولى لهذا الفتى : انظر إلى وجهك ثم اعشق

***

اسمعيل القراطيسى :

وقد أتانى خبر ســاءنى مقالها فى السر : واسوأتاه !
أمثل هذا يبتغى وصلنـــا أما يرى ذا وجهه فى المراه ؟!

٦٩٠ — فتوى الفتوة

قال الصفدى فى شرح اللامية :

أخبرنى من لفظه الشيخ العلامة أثير الدين أبو حيان سماعاً من كتابه المسمى مجانى العصر فى ترجمة جمال الدين ابرهيم الوراق الكتبى (عرف بالوطواط) أنه كان بينه وبين بعض القضاة مودة فلما تولى ذلك القاضى قضاء الديار المصرية توهم جمال الدين أنه يحسن إليه ويبره ، فسأله فلم يجبه إلى شىء من مقصوده . فاستفتى عليه فضلاء الديار المصرية فكتبوا على فتياه بأجوبة مختلفة وصير ذلك كتاباً ، وسماه (فتوى الفتوة ومرآة المروة) وقد راحت به نسخة إلى المغرب .

قلت : سألت أنا الشيخ أثير الدين عن ذلك القاضى فيما بينى وبينه فأخبرنى أنه شهاب الدين محمد الخولى ، وقد وقفت أنا على ذلك الكتاب ونقلته بخطى ، وهو فى الجزء الثانى عشر من التذكرة والفتيا نثر حسن ، وأجوبة الجماعة أهل عصره نثر ونظم . ومعنى الفتيا : أيجوز لمن حسنت حاله وارتفعت منزلته ألا يحسن إلى صاحبه ولا يفى له بشىء من دنياه ؟

٦٩١ — فإن لم تجد عقلا فماذا تحيف

قال الصاحب فى رجل كثير الشرب ، بطىء السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما توالت عليه من نداماه قرقف
فقلت : سبيل الخمر أن تنقص الحجى فإن لم تجد عقلا فماذا تحيّف ؟

٦٩٢ — ما يمنعك من ذلك ؟

قال رجل لخالد بن صفوان : إنى أحبك

قال : وما يمنعك من ذلك ولست لك بجار ولا أخ ولا ابن عم ؟ (يريد أن الحسد موكل بالأدنى فالأدنى)

٦٩٣ — جوابان لسؤالين

سأل إنسان ابن الجوزى فقال : ما لنا نرى الكوز الجديد إذا صب فيه الماء ينش ويخرج منه صوت شكواه ؟

فقال : لأنه يشتكى إلى برد الماء ما لاقاه من حر النار .

فقال السائل : فما لنا نراه إذا ملأناه لايبرد فإذا نقص برد ؟

فقال : حتى تعلموا أن الهواء لا يدخل إلا على ناقص

نجوى الشهيد...

للشاعر حسين محمود البشبيشي

[لكأنى بتلك الأرواح الشهيدة ، قد ترنمت بهذه الأنغام وهى تموت أجسادا ، لتخلد أرواحا ...]

أبى ، إن مزقوا بالنار قلباً بين أحنائى
وسار الظلم مختالا على أطلال أشلائى
ومت ولم يعد منى سوى ماض وأصداء
أبى لا تبك فالدنيا سبيل النازح النائى
أبى لا تبكنى فالموت لم يذهب بأضوائى
أبى لا تبكنى أبدا
قُتلت على الثرى جسدا
وروحى ظل متقدا
أبى لا تبك من خلدا

فلم يذبل سوى جسدى وروحى لم تزل تسرى
فسل فتياننا عنها ... ففيهم يقظة العمر
وفيهم صورة لفتاك ... رغم الموت والقبر
فما متنا ... ولكن مات من لم يسع للنصر
وماتت نفس من قد عاش بين الذل والقهر
أبى لا تبك من خلدا
قتلت على الثرى جسدا
وروحى ظل متقدا
أبى لا تبكنى أبدا

وأنتم يا بنى الأوطان ... أنتم عمرى الثانى
ففى أضلاعكم قلبى وفيكم روح وجدانى
سأخلد فى شبابكم باحساسى وإيمانى
إذا ما نصركم قد لاح أحيا ميت جثمانى
وأسعد كلما ابتسمت بكم آمال أوطانى
قتلت على الثرى جسدا
وروحى ظل متقدا
وبين قلوبكم خلدا
أبى لا تبكنى أبداً

أبى إن حقق الله على الأيام مسعانا
وتم جلاؤهم عنا ... فلا تحزن لما كانا
وحسبك أننا للنيل أرواحاً وأبدانا
تظللنا سماء النيل أطفالا وشبانا
وقد عدنا لأرض النيل يوم الموت قربانا
أبى لا تبكنى أبدا
وحسب فتاك أن خلدا

من ليالى الفراق :

دموع...

للشاعر عبد الرحمن الخميسى

دموعُك هذى التى تسكُبين — صبيبُ لظىً فى فؤادى الأمين
فلا تحبسِى سَيْلها ، إنّنى — أراكِ بما فيه تحترقين !!
وصُبّى على كَبِدى ... نارها — فأحمل عنكِ الشقاء الدفين
يُفَدّيكِ منّى ما خلّفَتْهُ — رزايا الزمان ، وظُلم السنين !
ألا قرّبى شفتيكِ ، وألْقى — على كتفى رأسَك المسْتكين
فذاكَ المساء لنا حارسٌ — يهوّمُ فى رَحَباتِ السكون
وهذا هو النهر مَيْتٌ ... عليه — من البدرِ ثوبٌ وضىءٌ حزين
وذاك الشتاء عجوزٌ تدِبُّ — فتسرى البرودةُ فى العالمين
وهذا هو البدرُ يصعدُ فى — مراقى السماء كليلَ الجبين
تحياته ... دُرَرٌ من سَناهُ — يُبعْثرُها فى حِمى العاشقين
ونحن على شاطئ النيل ، لا — يرانا سوى شجرَ الياسمين
فلا تكتمى شهقةً فى الضلوع — بحرقتِها كدتِ تختنقين ... !!
دعينىَ أرشف دموعَك حتى — أذوق بها لذعاتِ الشجون
وأشربْ بأنفاسِك المحرقاتِ — سلافاً تخدّرُ روحى الحزين
فأنسى الحياةَ وما فوقها — سوى أننا فى ذُرى الخالدين !

(يافا) **عبد الرحمن الخميسى**



كيف صار والد المرحوم أحمد حسنين باشا أزهريا ؟

كان الشيخ محمد حسنين البولاق من كبار علماء الدين فى الأزهر ، وكان أبوه من عظام أمراء البحر فى الأسطول ، وكان العرف المتبع أن يكون التعليم المدنى للخاصة والتعليم الدينى للعامة، فكيف صار ابن أمير البحر الأرستقراطى أزهرياً ؟

حدثنا صديقنا الأستاذ محمود حسن زناتى عن أبيه — وكان أبوه رحمه الله أستاذاً للطيب الذكر المغفور له أحمد حسنين باشا — أن الصبى محمد حسنين وقع فى نفسه منذ صغره أن يقرأ القرآن ويحفظ آداب الدين ، وازداد هذا الميل فيه حتى سأل أباه أن يرسله إلى الأزهر . فسخر منه أبوه وأمره ألا يجرى هذا الأمر على لسانه وألا يخطره بباله ، فتوسل إليه بالشيخ الانبابى شيخ الأزهر إذ ذاك فلم يقبل الوسيلة . وأصر الابن على طلبه ، وأصر الأب على رفضه ، وزاد على ذلك أن توعده بالطرد إذا أقدم على هذه المعرة . ولكن العاطفة الدينية كانت تعصف برأس الغلام عصفاً شديداً فلم يحفل بوعيد أبيه ، ودخل الأزهر وأوى إلى الشيخ الانبابى فآواه وأكرم مثواه وأنفق عليه حتى بلغ الغاية من الفقه فى الدين والتبحر فى علوم العربيـة . ثم ظفر بشهادة العالمية وارتقى إلى كرسى من كراسى الأزهر .

وفى ذات يوم دعا شيخ الأزهر أمير البحر إلى داره فلبى الدعوة ، وعرض عليه أن يزور الأزهر فقبل العرض ، وعلى حلقة من حلقات الدروس ازدحم فيها الطلاب واصطف حولها الوقوف ، وقف الشيخ الانبابى وسأل أمير البحر : أتعرف هذا العالم الشاب يا باشا ؟ فحدق الباشا فى العالم ثم فغر فاه وقال دهشاً : هذا ابنى محمد ! فقال الشيخ الانبابى فى لهجة لا تخلو من تأنيب وسخرية: نعم هو ابنك محمد يا باشا ؟ وإنى أناشدك الله أن تقول الحق: أيكما أعظم قدراً عند الناس وأرفع مكانة عند الله ؟ فلم يسع الباشا إلا أن يقول : هو ولا شك .

ومنذ ذلك اليوم كان الشيخ محمد حسنين ابن الباشا يغدو إلى الأزهر ويروح إلى القصر فى عربة فخمة يجرها جوادان مطهمان !

من أخلاق العلماء :

وعلى ذكر الشيخ الأنبابى روى لنا الصديق موقفاً من مواقفه التى يعتز بها الخلق ويكرم فيها الدين؛ وخلاصته أن اللورد كرومر رغب فى أن يزور شيخ الأزهر ، وكان الشيخ الأنبابى قد جعل إدارة الأزهر فى داره بحى الظاهر ، فلما كلموه فى أمر تلك الزيارة أنكر أن يكون للورد معه شأن ، ولما قبل أن يزوره وسئل كيف يستقبله أبى أن يلقاه على باب الدار، وصمم أن يسلم عليه وهو قاعد . فقالوا له إنه كبير الانجليز وقد يجد فى هذا اللقاء إهانة له ولقومه ، وخير من ذلك أن نجلسه فى غرفة ثم يدخل الشيخ عليه فيقف هو وينتهى الأمر . فقال : هذه حيلة وأنا أكره الالتواء والتحيل ، وسألقاه على الوجه الذى أختاره فدعونى وإياه .

وأقبل اللورد كرومر فى جبروته وسلطانه فاستقبلوه إستقبال الملوك ؛ ودخل على الشيخ فى البهو وفى يده قبعته فلم يهتز الشيخ ولم يقف . إنما رد التحية وصافح اللورد وهو قاعد ، ثم قال لكبير من كبار المصريين كان حاضر الزيارة: قل للورد إنى أحترمه ، ولكنى سلمت عليه قاعدا لأن دينى ينهانى أن أقوم له . فانحنى اللورد وأثنى وشكر، ثم قال بعد ذلك لمن معه : هذا أول شيخ رأيته فى مصر يكرم نفسه ويحترم دينه !

الأستاذ منصور جاب الله :

كان الأستاذ منصور جاب الله كالشمعة التى تحترق لتضىء ما حولها . كان أديبا ملء إهابه ، وكان فناناً ملء بردنيه ، اتخذ الأدب غاية ، ولم يلتمسه وسيلة ، فتعفف عن التكسب به على وفرة إنتاجه ، وعلى أنه لم يكن على شىء من الثراء قل أو كثر ، وإنما كان غنى النفس عفيف القلب طاهر اليد واللسان .

وكان رحمه الله آية فى الوفاء للصحب والأصدقاء ، وإذ يعوزه أن يسد خلة لأحد منهم ، أو تتقاصر يده عن معونتهم ، يعمد إلى مساعدتهم بأدبه ، فيكتب لهم المحاضرات أو المقالات التى تدر عليهم المكاسب ، لا يقتضى على ذلك أجراً إلا المثوبة من عند الله . ولقد عرفنا فيما عرفنا عنه أنه كان يساعد بعض إخوانه الذين نالوا درجات جامعية عالية ، فيعد لهم المراجع وينسق لهم

الفصول والأبواب ، ثم يصوغ الرسالة فى صيغتها النهائية ، ثم يتقدم بها الطالب فينال درجة الدكتوراة أو الماجستير ! !

إذن مات هذا الأديب المغمور ، فهل ذكره أحد ؟ أو نعته صحيفة من تلك الصحف التى كان يرسل قلمه فيها فياضاً جزلا ؟ لم يذكره أحد ، وجزى الله صديقه الأستاذ عبد اللطيف النشار إذ أنشد على قبره هذه الأبيات :

على « منصور » يبكى قارئوه ... فقد عرفوا له صدق الزماع
تنسك فى اليفاعة للأمالى ... وأخبت فى الشبيبة للسيراع
فكان بجده كهلا وشيخا ... فعاش كفاء أعمار تباع
له صغرى مجالات وضاء ... وكبرى ذات حسن وامتناع
فيا أسفا عليه وقد توارى ... وراء الغيب كالشفق المشاع

رحم الله الفقيد وعوض فيه الأدب خيرا .

فؤاد علي الاديب
جامعة فاروق — كلية الآداب

ملاحظة على مقال « غزل الفقهاء »

طالعت للاستاذ الكبير علي الطنطاوى فى عدد الرسالة الأخير مقالا ممتعاً عن « غزل الفقهاء » وقد نسب فيه إلى الشاعر الفقيه « عروة بن أذينة » بيتين من الشعر هما :

قالت « وأبثثتها وجدى فبحت به »
قد كنت عندى تحب الستر ، فاستتر
ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها :
غطّى هواك وما ألقى على بصرى

ولكنى كنت أطالع فى كتاب « شاعر الغزل » للأستاذ الكبير عباس العقاد فوجدته فى صفحة ١٣٢ ينسب هذين البيتين إلى الشاعر الغزلى « عمر بن أبى ربية » المخزومى الذى لم يشتهر بالتنسك والتفقه وإنما اشتهر بالتشبيب ومتابعة النساء فى خلواتهن .

ابراهيم عبد المجيد النزنى

(مهد العرب) للدكتور عبد الوهاب عزام

مهما تباينت آراء النقاد فى مقدار تأثير البيئة فى الأدب فلا مفر لفهم هذا الأدب فهما صحيحا من دراسة بيئته التى أمدته بالغذاء ، وتعهدته بالنمو ، وأحاطته بالرعاية ، واستمد عناصره من مشاهدها ، والأدب العربى لا يزال يعوزه ليسهل هضمه تلك الدراسات التى تتناول بيئاته الطبيعية لاتصال تلك الآثار الأدبية ببعض الأماكن ، أو القبائل ، أو الحيوان ، أو النبات ، أو القصص ، مما يعين على استكناه روح البيئة التى ولدت ونشأت تلك الآثار بين أحضانها . فكانت هذه الدراسة الموجزة ، الوافية لمهد العرب عاملا قويا يتكىء عليه طلاب الأدب العربى عامة ، وقديمه خاصة ؛ لأنها تجلو لهم هذا المهد الذى كان له فى حياة العالم السياسية ، والاجتماعية ، والروحية ، والأدبية ، أعظم الأثر ، ويعين الباحث الأدبى على تمثل هذا الشعر واستمراء روحه ، وتعمق مراميه ، والوصول إلى أهدافه ، مما عجز عن القيام به المعاجم والشروح التى تتعلق بالألفاظ والأساليب ، وهذا الكتاب يقوم على وصف الجزيرة العربية الطبيعى ؛ وأقسامها وأعلام بلدانها ؛ ومحالها ؛ ووصل كل هذا بطرف مما يتصل به من الأشعار والأخبار والأساطير فى غير توسع ولا تعمق ، وذكر فيها أمهات القبائل ومواطنها فتناول بالكلام مهد العرب والجزيرة وأقسامها وما يتصل بكل قسم من بعض الأخبار والشعر ، فتناول الحجاز مولد الاسلام ومبعث النور الذى تتجه إليه القلوب والأوجه كل حين ، ويملأ كل قلب إليه حنين

بهذا الروح القوى استلهم — الدكتور — تلك الأماكن التى توحى بأروع الآيات التى تصور بهاء ذلك الماضى الحافل الذى يلقى فى النفس الجلال ، ويشيع فيها الخشوع ، وهكذا تكلم عن نجد ، والأحساء ، واليمن ، وحضرموت ، والربع الخالى ، وعدد سكان الجزيرة فى القديم والحديث ، تناول كل هذا الشتيت المبعثر ، ونسقه عقدا جميلا ؛ بهذا الأسلوب الأدبى الجزل ؛ فكان خير ما يقدم بين يدى الدراسات الأدبية والتاريخية .

محمد عبد الحليم أبو زيد



قصة ألبانية :

المهـــد الذهبي ...

[مهدة للأستاذ الكبير كامل كيلانى]

نقلها الأديباله :

وهبي اسماعيل حقى وابراهيم خير الله

تتمة

— ٥ —

أسرع محمود إلى فريد فى حجرة النوم — بعد أن قابل بيراما بالسيد عفت فى حجرة الأضياف — فوجده ما زال مستلقيا فى سريره ، فقال له :

— قم ، فقد جاء بيرام .

فقفز فريد من السرير وقال فى لهفة :

— وهل أحضر العينة ؟

— ليس معه شىء ، وإن الموضوع قد ارتبك ، فإن الخائن قد أخبر أناسا آخرين .

— وكيف كان ذلك ؟ ألا عليه اللعنة من الله .

قص محمود على فريد ما حدث — منذ دقائق فى الشارع من منزله — بينه وبين السيد لطفى وبيرام ، وسرد عليه ما دار بينه وبين شفيق فى الليلة الفائتة ، وختم حديثه بقوله :

— إننى بعد أن سمعت إلى شفيق ليلة البارحة فى المقهى ، بدأ الشك يتسلل إلى قلبى .

فقال له فريد وهو جاد فى استبدال ملابسه :

— والآن ما العمل ؟

— أمامنا مشاكل كثيرة ، كلها يتطلب سرعة الحل .

وكان فريد قد أتم تبديل ملابسه ، فصحب محمودا إلى حيث والده وبيرام يجلسان ، فلما وقع نظره على القروى ابتدره — من غير أن يحييه — بقوله :

— كيف أخبرت غيرنا بهذه المسألة ... ؟

ولم يدعه بيرام يتم حديثه فقد أجابه فى سرعة بقوله :

— لقد أخطأت خطأ كبيرا يا سيدى ، ولكن مع الأسف الشديد ، هذا هو الذى حصل .

— ولكنك ، أكدت لى أننى الوحيد الذى أفضيت إلى بهذا الموضوع .

— ولم أكن كاذبا حين قلت لك ذلك يا سيدى .

— إذن ما ذا حدث ؟

— سأشرحه لك كما وقع ، ولك أن تحكم — بعد ذلك — لى أو على . قبل أن أجىء إليكم ، قابلت شابا أعرفه معرفة سطحية ، وهو طويل الجسم ، حسن الهندام ، جميل المنظر ، يرتدى — فى معظم أوقاته — معطفا أسود ، فصاح الجميع بصوت واحد :

— شفيق حامد .

— نعم ، هو شفيق حامد ، ها أنتم تعرفون اسمه . إننى متصل بهذا الشاب — من زمن بعيد — اتصالا غير وثيق . ونحن أيها السادة أناس أغبياء ، لم تصقلنا التجارب ، ومن السهل أن نتأثر بغيرنا ؛ لعدم ثقافتنا فى المدارس ، ولقلة درايتنا بأخلاق الناس ، بالأمس قابلت هذا الشاب ، وسألته عن تاجر يبتاع الآثار ، فأجابنى أنه لا يعرف أحدا ، ولم أتحدث إليه بأكثر من ذلك ، ولكنه — على ما يظهر — كان ذكيا ؛ فقد ارتاب فى أمرى ، لأنى عندما خرجت من هنا ليلة أمس وجدته ينتظرنى فى المحل الذى اعتدت النزول فيه كلما جئت إلى المدينة ، ولقد هددنى بأنه سيرفع أمرى إلى الحكومة إن لم أصارحه . أنا لا أستطيع الكذب ، فقد خفته كثيرا ، وخشيت أن ينفذ وعيده . ولما رأى ذلك منى ، قادنى إلى بيته ، ثم تركنى فيه وحيدا ، وعاد بعد قليل مع صديق له .

فقال محمود :

— السيد لطفى ؟ فقد تذكر أن شفيقا قد جاء إلى المقهى ،

واستدعاء حينما كان جالسا معــه هو وفريد ، فأجابه بيرام فى هدوء واطمئنان :

— لم يذكر اسمه أمامى . ولـكنى — إزاء تهديدهما لى — أخبرتهما أننى عثرت — بمحض الصدفة — فى حفرة قريبة من بيتى على بعض نقود قديمة ، ولم أقل لهما أكثر من ذلك ، وقد وعدتهم أن أرشدهم إلى الحفرة ، فإنى ما كنت أستطيع الإفلات منهم بغير هذا الوعد .

فقال له فريد فى حدة وغضب :

— إنك مخطىء .

ولـكن السيد عفت — وهو الذى حنكته الأيام — بدأ يتـكلم فى هدوء ورزانة فقال :

— إن المسألة — بوضعها الآن — ليست صعبة التسوية ، وإنه يجب البحث عن شفيق ولطفى والتفاهم معهما .

فأمن الجميع على هذه الفكرة ، ثم سأل فريد بيراما :

— ولماذا لم تأت بالعينة ؟ .

فتـولى السيد عفت الإجابة عنه ، — فقد عرف منـه السبب — فقال :

— قد فاض النهر هذه الليلة ، وأضحى من المستحيل الوصول إلى « دومنى » .

وقال بيرام :

— إن الجو جميل فى هذا اليوم ، ونستطيع أن نذهب جميعا الليلة .

فى هذه اللحظة دخل الخادم ، يعلن سيده أن شابين يريدان مقابلته ، فعلم الجميع أنهما لا بد وأن يكونا شفيقا وصديقه .

قال السيد عفت :

— انتظروا سأخرج أنا وحدى إليهما ، وغادرهم إلى حيث الشابان ينتظران . ولـكن القروى بدا عليه كثير من الاضطراب وعدم الاطمئنان ، وخاض فى بحر عميق لجى من الأفكار . ثم إن فريدا قال له فى صوت العاتب :

— إنك السبب فى كل هذا الارتباك يا بيرام ! ولولا أنك أطلعت هذين الشقيين على هذا الموضوع ، ما حدث هذا اللغط ، ولا كانت هذه الضجة .

— إننى معذور يا سيدى ! فأنا رجل غير مثقف ، وإن قلبى يضطرب — خوفا وفرقا — عند ما يذكر اسم الحكومة أمامى إننى أضحى بكل شىء فى سبيل أنى لا أقاد إلى دار الشرطة ، وأنى لا أوقف موقف الإبهام .

نخفت ثورة الغضب من نفس فريد وأسرع إلى حيث أبوه والشابان ، فوجد شفيقا بجوار المكتب ، يرغى ويزبد ، ويهدد ويتوعد بأنه سيخطر أولى الأمر ، ووجد التاجر يجيبه — فى هدوء لفظ ، وخفوت صوت — قائلا :

— ولـكن ذلك فى غير مصلحتك ، وأولى لك وأنفع أن نتفاهم فى جو يسوده الصفاء . فقال شفيق فى صوت أقل حدة :

— أنا أريد قسطى من هذا الكنز .

وهنا تدخل السيد لطفى وقال :

— يا شفيق ! إن السيد عفت أهل للثقة والشرف ، وهو أكبرنا سنا ، وأطولنا تجربة ، فلنترك له هـذه المسألة ، يتولى التصرف فيها بحكمته ، ولنا من مشهور عدالته ، وكثرة خبرته ، أكبر الرجاء فى أن يصل إلى كل منا نصيبه فى غير صخب ولا منازعة . فهدأت ثائرة شفيق ، ووقع منه هذا الرأى موقع القبول .

وانتقلوا جميعا إلى حجرة الاستقبال وانضموا إلى محمود وبيرام ، ثم أخذوا يتبادلون الرأى ويتشاورون فى الأمر ، وبيرام بينهم ينظر إلى كل منهم نظرة فاحصة ، فى ثبات ورزانة ، ولا ينطق بكلمة إلا إذا تطلب الموقف أن يقول شيئا . وأخيرا — وبعد طول جدل ومناقشة — استقر الرأى على أن يخرجوا — بعد الظهر — فى سيارة فريد بملابس الصيد ومعداته إلى قرية بيرام وينتظروا فى بيته إلى أن يجن الليل ، فيتسللوا إلى الـكهف ، ويحصون بأنفسهم الأشياء الموجودة فيه ، ثم بعد عودتهم يبحثون عن أنجع الوسائل ، وأنجح الطرق فى تصريفها .

وقد اختتم التاجر الحديث بقوله :

— والآن ! يجب أن نتعاهد على أن نعمل متحدين فى إخلاص ، وعلى أن تسمعوا لإرشادى ونصحى ، فتعاهد الجميع على ذلك ، ثم انصرفوا على أن يجتمعوا فى الرابعة مساء وهم على أتم استعداد لبدء الرحلة . ولقد استبقى فريد محمودا ليعاونه على تجهيز السيارة ، وأما السيد عفت فقد بقى مع بيرام ؛ لأنه قـرر

بقاءه فى البيت إلى أن يعودوا فيستأنفوا السفر إلى « دومن » حيث الكهف العجيب .

ولقد تناول محمود وبيرام غداءهما على مائدة السيد عفت ، ثم توجه محمود إلى منزله بعد الغداء مباشرة ليستبدل بملابسه ملابس الصيد . وما إن وافت الساعة الرابعة حتى التأم الجمع ، لكنهم وجدوا أن السيارة لا تتسع لجميع كلاب الصيد التى معهم ؛ فاقترحوا أن يتركوا كلب لطفى فى منزل فريد إلى أن يرجعوا ، ثم أخذوا أماكنهم فى السيارة إلا بيراما ، فإنه انتحى بالسيد عفت بعيدا عنهم وقال له هامسا :

— إننى لا أستطيع مغادرة أشقوداره ، قبل أن أدفع دينا صغيرا لتاجر هنا قد وعدته أن أؤديه إليه فى هذا اليوم ، وأخاف إن أنا لم أف بوعدى أن يجىء إلى القرية ويرانا هناك ، وحينئذ نقع فى ورطة يتعذر علينا الخلاص منها .

فقال له السيد عفت :

— وكم يبلغ دينك ؟

— إنه صغير جدا ، لا يزيد على ستة جنيهات .

فتشكك التاجر لحظة ، لكنه طرد عنه هذا الشك عندما رأى السيارة وبها الشبان ينتظرون بيراما ، وقال :

— انتظر إلى أن أحضر لك المبلغ ، ثم دلف إلى المنزل وعاد بعد قليل وسلم له النقود ، فوضعها فى جيبه وعمد إلى السيارة وأخذ مكانه منها ، فانطلقت بهم ، والتاجر ينظر إليهم وهو يخشى أن تلفت كثرتهم الأنظار إليهم .

أخذت السيارة طريقها إلى القرية مارة بسوق المدينة ، وقبل أن يجتازوه رجا بيرام فريدا — وقد جلس إلى عجلة القيادة — أن يقف السيارة ، فإنه سينزل ليؤدى دينا صغيرا — حل موعده — فى هذا المكان وأشار إلى محل معين ، فأوقف فريد السيارة ، ونزل بيرام واتجه إلى المحل الذى أشار إليه . فناداه شفيق وقال له :

— أسرع يا بيرام ! لنصل قبل الغروب .

وانتحى فريد بالسيارة فى الجانب الأيمن من الطريق حتى لا تعطل المارة ، وانتظروا وقتا غير قصير ، ولكن بيراما لم يرجع فزفر فريد زفرة حارة وقال :

— لست أعلم ، ماسبب هذا التباطؤ !

فقال السيد لطفى :

— أسرع إليه يا شفيق ! واستحثه على العودة بسرعة . فنزل شفيق وقصد المحل الذى دخله بيرام ، لكنه عاد مسرعا وهو يصيح !

— إننى لم أجده هناك . فاستولت الدهشة على الجميع ، وتملكتهم الحيرة ، وقالوا :

— وإن أين ذهب هذا اللعين ؟ عد ثانية يا شفيق ! وسل عنه صاحب المحل . فرجع شفيق ، ولما رآه الرجل قال له :

— عمن تبحث يا سيدى ؟

— أبحث عن القروى الذى دخل هذا المحل منذ قليل ، فقال الرجل مبتسما :

— أظنك تبحث عن بيرام .

— نعم أبحث عنه ، ولكن من أين لك معرفة هذا الرجل ؟ .

— كيف لا أعرفه ، وهو أكبر شيطان ، وأذكى محتال أنجبته جبالنا . إنك لو علمت كيف لعب بكبار التجار ، وابتز أموالهم ، لاستولى عليك العجب . إن الوقت لا يتسع لأقص عليك أعمال ذلك الداهية الماكر . ثم حانت من الرجل التفاتة إلى السيارة فى جانب الطريق ، فاتسعت الإبتسامة على شفتيه وقال :

— يلوح لى أنه قد أوقعكم فى شباك حيله . وفى هذه اللحظة انضم إليهما السيد لطفى ، فقد استبطأ شفيقا فجاء يستعجله ، وقد سمع الرجل يقول لشفيق :

— إن هذا الشيطان يلج على التجار بيوتهم ، فى ساعات مبكرة ، ويزعم لهم أنه اكتشف — مصادفة — آثاراً قديمة ، وكنوزاً عظيمة ، ويبتز نقودهم على حساب هذا الكشف …

جمد السيد لطفى فى مكانه حينما سمع هذا الكلام ، فقد انماعت الآمال التى بناها على أساس هذا الكنز فى حرارة الحقيقة المؤلمة ، لكنه لم يلبث أن انفجر ضاحكا حتى كادت أنفاسه تنقطع ، فقد تذكر ما حدث منذ الصباح الباكر أمام منزل السيد عفت وفى داخله . ثم عاد مسرعا إلى رفاقه فى السيارة ، وأكد لهم أن بيرام غير موجود ، وأنه محتال كذاب ، وأعاد عليهم ما سمعه من

الرجل ، فاصطبغ وجهاهما بحمرة الغضب وضاقت فى عينيهما الدنيا ، وامتلأ قلباهما بالحزن ، وأخيراً لم يجدوا مناصاً من العودة إلى المنزل يجررون أثواب الخزى ، وتركوا شفيقاً يواصل البحث فى السوق عنه .

سمع السيد عفت صوت السيارة أمام المنزل فخرج مسرعاً فرأى السيد لطفى وفريداً ومحموداً ينزلون منها فسألهم فى لهفة :

لماذا عدتم ؟ ماذا حدث ؟ أين بقية الرفاق ؟ .

فاستغرقوا جميعاً فى الضحك وقالوا :

— لم يخطر لنا على بال أن قروياً ساذجا ، لم يذهب إلى المدرسة ولم يقرأ شيئاً عن المغامرات يستطيع أن يخدعنا إلى هذا الحد ، ثم شرحوا للتاجر كل ما جدَّ بعد أن فارقوه . وكان كل واحد منهم يأخذ بنصيبه فى الشرح والتفصيل ضاحكا . أما السيد عفت فلم يستطع أن يتمالك نفسه وقال مغضباً :

— يجب البحث عن هـذا السافل حتى نقبض عليه ، ونسلمه للشرطة ، إنه أخذ منى نقوداً ، وكذلك أخذ من فريد .

— وقال السيد لطفى :

— لقد أعطيته أمس جنيهاً ذهباً ، وكذلك فعل شفيق ، وإن النقود لم تكن لنا ، فقد اقترضناها .

وقال فريد — موجهاً حديثه إلى والده : —

— أعتقد يا والدى أننا لن نستطيع أن نمد له يد السوء ، فإننا نعجز أن نثبت ضده إدانة يؤاخذ عليها القانون ، ويبدو لى أننا لم نكن أول من وقع فى فخه ، وأنه مثل هذا الدور مع كثيرين .

فأجابه والده — وهو يكظم غيظه — بقوله :

الواقع أننى لم أصادف فى حياتى كلها قرويا له ذكاء هذا الرجل ، فقد أتقن حيلته ، وحملنا على أن نؤمن إيمانا عميقاً بكل ما يقول ، فقد كان بريق عينيه ، ونبرات صوته ، ينفذان إلى القلب فيمسحان عنه ما يكون قد علق به من شك .

وقال محمود :

— لقد عرف هذا الرجل كيف يلقى فى روعنا جميعاً أن ما جاء به حقيقة لا يشوبها خيال . فعباراته كانت دائماً هادئة رزينة ، خالية ، من المبالغة والتمييق ، وإن إجابته — فى غير ارتباك — على ما وجهته إليه من الأسئلة جعلتنى أشعر بالفرح يغمرنى من منبت شعرى إلى أخمص قدمى ؛ فقد أيقنت أن الحظ قد ابتسم لنا ، وأن الدنيا قد أقبلت علينا ، وما خالجنى شك أن هذا الرجل يستطيع أن يتفنن فى الكذب إلى هذا الحد .

واضطر السيد عفت — مع ما كان يحس به من حزن يعتلج فى قلبه — أن يجارى الشبان فيما هم فيه فطلب قهوة للجميع وعطف بهم إلى حجرة الطعام واستداروا حول المائدة وأخذ كل منهم يقص على الباقين ما كان قد اعتزمه من المشروعات على أساس هذا الكنز ، فقال محمود لفريد مازحا :

— وهكذا بقيت معاهدنا — يافريد — فكرة حبيسة فى نفوسنا لم تتنسم نسيم الحقيقة ، ولم تأخذ مكانها اللائق بجلالها فى عالم الوجود . ثم أردف بعد صمت لم يدم طويلا . والله ياسادة ! لقد كدت ليلة أمس — بعد أن طار عنى النوم — أن أقوم إلى مكتبى فأحبر قصيدة عامرة فى وصف ذلك المهد الذهبى الذى حرك بيرام فى قلوبنا الشوق إلى رؤيته ، ولكنى — تحت تأثير الإعياء — فضلت الانتظار ريثما أراه ليكون الوصف أتم وأشمل .

أما السيد لطفى فقد اعتدل فى جلسته وشرع يقول :

— تصوروا أننى قضيت ليلة أمس بين لذيذ الأحلام ، ومعسول الأمانى ، وكان أول شىء فكرت فيه — استغلالا لهذا الكنز — أن أسترد — بأى ثمن كان — قصرنا الذى ألجأتنا الضرورة إلى بيعه — وهنا سالت على خديه عبرة لم يستطع ردها — واستمر يقول : ولم يكد ضوء النهار يشيع فى الكون حتى أسرعت إلى هذا المكان وبى شوق كثير لرؤية القصر ، ولقد مررت ببابه كثيراً ، وناجيته أحرَّ مناجاة ، وإنه ليدور بنفسى آنذاك أنه لن يمضى أكثر من يومين ثم نعود إليه ، ونسعد مرة أخرى بسكناه ، ونمرح فى جنباته ونلبسه حللا من الفخامة ليتناسب مع عهدنا الجديد ... كم رتبت من حفلات الابتهاج باستعادة مجدنا القديم ، واسترداد عزنا الدابر . ثم التفت إلى محمود وقال : ولقد رآنى محمود وقتئذ . فقال محمود :

— لعل ذلك حينما كنتُ خارجا من هنا قاصداً إلى المدرسة قبل أن تقابل بيراما .

— نعم ! وإنى لم أكن أعلم أن بيراما سيحضر فى هذا الوقت ، فقد كنا على موعد معه بعد الظهر لنرحل إلى قريته سويا ويرشدنا إلى الكهف . وإنما الذى دفعنى إلى الخروج فى ذلك الوقت المبكر هو رغبتى فى أن أرى قصرنا وأناجيه على ماسمعت ، ثم صمت فصاح الجميع :

— أما إن بيراما لأبليس !

وفى هذه اللحظة وصل شفيق ، وجعبته ملأى بشتى الأخبار وأخذ فى سردها واحداً واحداً ثم ختم حديثه بقوله : فها أنتم أيها السادة — بعد أن سمعتم الكثير من أعمال هذا الرجل — ترون أننا لسنا أول ضحاياه ، فقد سبقنا عدد ليس بالقليل من سراة أشقودراه وكبار التجار فيها . فقال فريد :

— إننى لو رأيت بيراما بعد هـذا سأعانقه بحرارة وأقبل جبينه ، اعترافا بفطنته وسرعة خاطره ، وسأقول له : مرحى ! مرحى ! يا أذكى من أنجبته القرى !

وقال السيد عفت ضاحكا ، محاولاً أن يستر ما يحسه من ألم وغضب :

— من الرأى أن تكتموا ما حدث لنا عن الناس جميعاً ، حتى لا يفطن إلى بيرام أحد ، فيقع غيرنا فى مثل ما وقعنا نحن فيه ، فاننا سنشعر من غير شك عند ذلك بشىء من التعزية تخفف من مرارة الخيبة التى ذقناها من يد هـذا الرجل ولسانه ، ... وقال محمود أخيراً :

— الحق يقال : إن بيراماً ليس من الرجال العاديين . فهو فذ بين اللصوص ، محبوك الحيلة ، إنه لا يسرق وإنما يبيع أحلاماً لذيذة جميلة ، تنتقل بالإنسان إلى عالم ملىء بالآمال والسرور والسعادة . إن النقود التى استطاع أن يسلبها منكم لهى ثمن زهيد جداً لما أضفاه علينا من سعادة يعجز الوصف عنها . فقد أرجعنا جميعاً بهوادة ولطف شعرنا معهما بلذة ليس فى مقدور الإنسان أن يأتى على وصفها — فى مهده ... الذهبى ... الخيالى ...

وهبى اسماعيل حقى وابراهيم خير الله

العدد ٦٦٦ – الاثنين ٨ أبريل ١٩٤٦ – السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مصلحة السجون — إعلان مناقصة

تقبل عطاءات لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم ١٥ أبريل ١٩٤٦ عن توريد صوف مغزول ميكانيكا للبطاطين وخوص وليف نخيل بلدى ويمكن الاطلاع على الشروط بوزارة التجارة والصناعة وبالغرف التجارية المصرية وتشترى نقداً من المصلحة بمبلغ ٢٠٠ مليم للصوف و ٧٠ مليم للخوص والليف

ويقدم الطلب المرسل بالبريد على عريضة تمغة فئة ٣٠ مليم وطوابع البريد لا تقبل .

٥١١٤

إدارة البلديات — طرق

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوباره) لغاية ظهر يوم ١٤ أبريل سنة ١٩٤٦ عن مناقصة رصف وصيانة طرق برأس البر . وتطلب الشروط والمواصفات من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ٣ جنيه خلاف مصاريف البريد وقدرها ستون مليما لا غير .

٥١٠٣

مجلس بلدى — طنطا

يعلن عن مزايدة علنية لتقليع وبيع الأشجار الموضح بيانها بالمجلس وقد تحدد ظهر يوم الخميس ١٨ أبريل سنة ١٩٤٦ موعداً لحضور المزايدة بديوان البلدية وتطلب الشروط مجانا على ورقة دمغة بخلاف ٣٠ مليم أجرة البريد .

٥١٤٨

محكمة الوايلى الجزئية الوطنية
إعلان بيع

إنه فى يوم الثلاثاء ٢٣ أبريل سنة ١٩٤٦ من الساعة ٨ صباحا وما بعدها لآخر اليوم والأيام التالية إذا لزم الحال بعزبة الجواهرجى قسم مصر الجديدة .

سيباع بالمزاد العلنى زراعة محاصيل زراعية ومواشى جميعها موضحة الأوصاف بمحضر الحجز المرقيم ١٨ — ١٠ — ١٩٤٥ نفاذاً لحكم رقم ٣١ مدنى الوايلى سنة ١٩٤٦ تعلق الشيخ إبراهيم زكي سامى شيخ عزبة الجواهرجي قسم مصر الجديدة .

وفاء لمبلغ ٩٧٢ جنيه و ٢٧٥ مليم المحكوم به ورسم الدعوى وإتعاب المحاماه ورسم التنفيذ والدوامغ — وأجرة النشر .

وهذا البيع كطلب حضرة على حيدر سامى أفندى ناظر وقف المرحوم حسين أغا الجواهرجى ومقيم بشارع الملكة نازلى رقم ٣٧١ بمصر .

فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان المحددين أعلاه

المحضر

فى يوم الاثنين ١٣ مايو سنة ١٩٤٦ من الساعة ٨ أفرنكي صباحا بناحية نزه الخاجر مركز طهطا وزمامها وزمام ناحية نزله على مركز طهطا وما بعدها من الأيام التالية .

سيباع علنا محاصيل زراعية الموضحة بمحضر الحجز التحفظى المرقم ١٢ أغسطس سنة ٩٤٥ ملك عبد المجيد جودة سليمان من نجع الخليسة تبع نزله على مركز طهطا نفاذاً للحكم رقم ١٤٥٣ سنة ٩٤٥ مدنى طما وفاء لمبلغ ٢١٩ جنيه و ٥٨٠ مليم بخلاف أجرة النشر وما يستجد .

كطلب الأستاذ لويس أفندى بنيامين المحامى بطما .

فعلى راغب الشراء الحضور للمزايدة .

طالب البيع

14 me Année No. 666

Lundi—8—4—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٦٦ « القاهرة فى يوم الإثنين ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ — ٨ أبريل سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

إلى مشيخة الأزهر ووزارة المعارف :

حل حاسم لمشكلة الأزهر

غاية الأزهر التى اتجه إليها منذ اكتمل أمره أن يفقّه الناس فى الدين وفيما تفرّع عن أصوله من شتى العلوم ؛ وسبيله إلى هذه الغاية أن يعلم اللغة وما اتصل بآدابها من مختلف الفنون ؛ فالدين واللغة إذن هما علة وجوده وجوهر علمه وثمرة عمله . ومن مزية الإسلام أن يمرُن مع الزمن ويتجدد بالعلم ليلائم كل عصر ويعالج كل حالة . ومن طبيعة العربية أن تتطور مع الجماعة وتتسع بالحضارة لتعبر عن كل معنى وتدل على كل ذات . وكان من ثمر هذه المرونة فى الدين هذا الفقه العالمى العجيب ، ومن أثر هذا التطور فى اللغة هذا الأدب الإنسانى الخصيب . فلما تدفقت الخطوب على حواضر الإسلام والعروبة فمال الميزان ودال السلطان وانتقض الأمر وعجز العقل ، جهل المسلمون مرونة دينهم فأغلقوا باب الاجتهاد ، وأنكر العرب تطور لغتهم فصدوا عن سبيل الأدب . وتقدم الغرب وتأخر الشرق ، وسيطر العلم وتعطل الإسلام ، وتطور التعليم وجد الأزهر ، وولى المصريون وجوههم شطر أوربا يأخذون عنها ما كانت أخذته عنهم ، ثم استأنفوا السير فى ركب الحياة . ولكن الأزهر ظل فى موقفه فلم يسر ، وأخذته الصيحة من كل مكان فلم ينتبه ، وسألوه أن يمدهم بشيوخ الدين ورجال العربيـة وهما غايته ووسيلته فلم يستطع . حينئذ اضطر أولو الأمر إلى إنشاء (دار العلوم) لتعليم اللغة ، ثم إلى إنشاء (مدرسة القضاء) لتطبيق الشريعة ، وتركوا الأزهر المعمور مُتحفاً لآثار غير ثمينة من الكتب القديمة والآراء العقيمة ؛ يتعبد بألفاظها قوم من فارغى القلوب قد اطمأنوا إلى الخمول ، ورضوا بالدون ، وعاشوا على فضل الناس ، حتى دخلت النهضة المصرية فى أوائل ربيعها المزهر ، فهب كل وسنان وانتعش كل ذابل . وتيقظ الأزهريون من رقادهم الطويل فإذا هم عراة من حلل الثقافة الحديثة ؛ فطفقوا يخصفون على سوءاتهم مما تناثر حول الأزهر من ورق الربيع ؛ ولكنهم ظلوا متميزين من سائر المصريين بهـذا الورق الذى لا يدفىء ولا يستر ، ففزعوا بأنفسهم عن معرة التخلف ، وتنافسوا فى اقتباس المعرفة ، وأرادوا الدين للدنيا ، وطلبوا العلم للحياة ، وهتفوا وهتفنا معهم بالإصلاح .. ولكن بقايا الراقدين على حطام الماضى يفزعون من هذا الإصلاح لأنه يجرفهم كما يجرف السيل الهشيم ! فهم يُلقون بأجسادهم إلقاء فى طريق الشباب ليعوقوهم عن بلوغ الأمد المحتوم ، والأمد المحتوم الذى سيبلغه الشباب الأزهريون ولاشك هو أن يتعلموا ليعيشوا ما دام الإسلام لا يتبنى الرهبان ولا يبنى الأديرة . وقد أخذوا ، منذ نقل الأستاذ المراغى طيب الله ذكره صورة النظام الجامعى إلى الأزهر ، يفكرون فى مصيرهم بعد العالمية والتخصص ، وفى موقفهم من دار العلوم وكلية الآداب ، ويقولون لأنفسهم حينا وللناس حينا آخر : نحن خمسة عشر ألفاً

من شباب الأمة أو تزيد ، فينا مواهب وعلينا تكاليف ولنا مستقبل ؛ فلِمَ نتعلم إذا قضى علينا ألا نعمل ؟ وكيف تنفق أموال الدولة على معاهد قصارى أمرها أن تخرّج فى كل عام قوما متبطلين لا هُمْ لأنفسهم ولا لله ولا للوطن ؟ وإذا كان تعليمنا على هذا المنهج الخاص لا يؤهلنا لابتغاء الرزق إلا من تعليم اللغة والدين فى المدارس ، فما غاية الحكومة إذن من قيام هذه المعاهد التى تنافسنا فى الحرفة وتخاصمنا على القوت ؟ وإذا كان تخلف الأزهر فى عهد إسماعيل قد اضطر على مبارك باشا إلى إنشاء (دار العلوم) فما الضرورة الملجئة اليوم إلى بقائها والأزهر جامعة والدرس مُستقصًى والمدرس مختص ؟ ولكن الدرعميين والجامعيين فى الجهة الأخرى يجيبون على هذه النجوى أو الشكوى بأن الإعداد مختلف والتحصيل متفاوت ، وما تستوى الفوضى والنظام ولا النقص والتمام ولا التقليد والأصالة . ووقف الفريقان يتلاحيان ، رأياً إزاء رأى ، وإضراباً وراء إضراب ، واحتجاجا إثر احتجاج ، ومن هنا نشأت المشكلة بين المعاهد وأعضلت . وجهدت مشيخة الأزهر ووزارة المعارف جهدهما أن تعالجاها بالدواء المسكن لا بالطِّباب الحاسم ، فكانت كالثوب المتداعى كلما رتق من جانب تفتق من جانب آخر .

لذلك نتقدم اليوم إلى هاتين الجهتين باقتراح نرجو إذا خلصت النيات وصدقت العزائم ، أن يكون مقطع الحق فى فض الخلاف وإصلاح الأزهر .

ذلك الاقتراح هو :

١ — أن يلغى التعليم الابتدائى من جميع المعاهد الدينية ليُلحق بمقاليده إلى وزارة المعارف ، تُلزمه وتقسِّمه وتعممه على الوجه الذى تراه . وذلك بدء الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة

٢ — أن تجعل المعاهد الدينية فى القاهرة وفى الأقاليم مدارس ثانوية يدخلها حاملو الشهادة الابتدائية العامة ، و تعلم فيها اللغات والرياضيات والآداب والعلوم على منهج وزارة المعارف . وفى أول السنة الثالثة منها يتجه طلابها اتجاهين على حسب مرادهم واستعدادهم : إما اتجاها إلى الدين وعلو ، ، وإما اتجاها إلى اللغة وفنونها . فاذا انقضت السنوات الدراسية الخمس تقدم طلاب الشعبتين إلى امتحان الشهادة الثانوية مع سائر إخوانهم من جميع المدارس، يمتحنون معهم فيما يتفقون فيه ، وينفردون انفراد شُعب التوجيهية فيما اختصوا به . والناجحون فى هذا الامتحان سيجدون أمامهم طريقين هم بالخيار فى سلوك أحدهما : طريق الوظيفة الوسط، وطريق الدراسة الأزهرية العليا. فإذا اختاروا طريق الوظيفة عينوا كتَبة فى المعاهد الدينية ، أو فى المحاكم الشرعية ، أو فى المجالس الحسبية ، أو فى بعض الأقسام من وزارات الأوقاف والمعارف والشؤون ، أو عينوا موثقين شرعيين فى المدائن والقرى . ذلك إلى أن لهم الحق بحكم شهادتهم أن يسابقوا فى الامتحان إلى أى وظيفة من وظائف الدولة . وإذا اختاروا طريق الدراسة العليا دخلوا القسم الجامعى بالأزهر

٣ — أن يقتصر فى التعليم الجامعى فى الأزهر على كليتين اثنتين : كلية الدين وتندمج فيها كلية الشريعة وكلية أصول الدين. وكلية اللغة وتندمج فيها كلية اللغة العربية ودار العلوم وقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعتى فؤاد وفاروق . ويشترك الكليتان فى الدراسة العميقة للغتين العربية والأوربية ، وتنفرد كلية اللغة بتاريخ الآداب العربية والأجنبية ، كما تنفرد كلية الدين بتاريخ الأديان السماوية والأرضية . وذلك بالطبع فوق ما تختص به كلتا الكليتين من علوم الدين ، أو من فنون اللغة . وما يتصل بهذه أو بتلك من العلوم الحديثة . ومدة الدراسة فى الكليتين أربع سنين للعالية أو الليسانس ، وست سنين للتخصص أو الدكتوراه . ومن يرد من طلاب الكليتين الاستعداد للتعليم قضى فى معهد التربية سنتين بعد الليسانس لمن يريد التعليم فى الثانويات ، ومثلهما بعد الدكتوراه لمن يريد التعليم فى الكليات. والمتخرجون فى كلية اللغة يزاولون تعليم اللغة والأدب فى المعاهد الدينية ، وفى جميع مدارس الدولة ابتدائية وثانوية وعالية ، فضلا عن مزاولتهم الترجمة والتحرير والصحافة . وأما المتخرجون فى كلية الدين فيزاولون القضاء ، والمحاماة ، والامامة ، والوعظ ، والخبرة ، والتفتيش فى المساجد والمعاهد ، وتدريس الدين والشريعة فى كل مكان يدرسان فيه .

بهذا النظام يحتفظ الأزهر بقديمه ويشارك فى جديد الناس ، وبهذا النظام تمحى الفروق المعنوية والمادية بين طلابه وسائر الطلاب ، وبهذا النظام تتحقق وحدة الثقافة وتنقطع أسباب الفرقة ويساهم الأزهر فى شركة المدنية . فان أردتم الإصلاح فهذه سبيله واضحة ؛ وإن أبيتم إلا التخدير والتجبير والتقيّة ، فأضيفوا من فضلكم كلية للدين إلى جامعة فؤاد ثم أغلقوا الأزهر !

احمد حسن الزيات

يوم من أيام مصر الخالدة بأنقرة

الغازى مصطفى كمال

بدار المفوضية الملكية المصرية

للأستاذ أحمد رمزى

في مساء يوم الأحد ٢٦ مارس سنة ١٩٣٣ شرف أتاتورك أو الغازى مصطفى كمال رئيس الجمهورية التركية وزعيم تركيا بزيارته دار المفوضية الملكية المصرية بأنقرة ، وكان ذلك في منتصف الليل تماماً حين دقت الساعة الثانية عشرة ، وحدث هذا في الحفلة التي أقامتها المفوضية بمناسبة عيد ميلاد المغفور له الملك أحمد فؤاد الأول طيب الله ثراه . ولما دخل وقف المدعوون من رجال الحكومة وأعضاء السلك السياسى وغيرهم ، وقد تملكتهم الدهشة ، لأنها كانت أول مرة يزور فيها الرئيس الغازى دار مفوضية أجنبية ، إذ لم يسبق حدوث شيء من ذلك للسفارات أو المفوضيات التي يتولاها السفراء والوزراء المفوضون ، فما بالك بزيارته لمفوضية على رأسها قائم بالأعمال !

وكتبت في مذكراتى اليومية عن أثر هذه المفاجأة وقت دخوله ما يأتى : « كنت ترى في عينيه بريقاً يشع من القوة المعنوية الهائلة التي تعتمد على إرادة راسخة فعّالة ، وتلمس من نظرته الحادة قدرة وثقة في النفس يدعمها إيمان ثابت وعقيدة لا تلين في الرسالة التي سلمتها الأقدار إليه لخدمة بلاده وأمته » !

كان يوماً لا ككل الأيام التي عشتها لا أدرى كيف ابتدأ ، ولا أشعر متى انتهى حتى مطلع الفجر ، إذ كان يحمل إلىّ في كل ساعة مفاجأة ، فقد أصبحنا كعادتنا لم نغير موعداً للقيام ، ولكن المفوضية كانت في حركة دائمة منذ الصباح البكر ، إذ حضر « المتالون » فأخذوا ينقلون كل شيء من مكاتبنا ، ويجيء الخدم بعدهم لترتيب الحجرات وتنسيقها لحفلة المساء . وفي الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم زارنا مدير المراسم أو التشريفات أو البروتوكول معها كما شئت ، وكان اسمه شوكت فؤاد بك ، جاء لابساً بدلة « البونجور » ، وفي يده قبعته العالية ، ومعه قفازه ، حضر ليعرب لحضرة توحيد السلحدار بك القائم بأعمال المفوضية الملكية المصرية عن تهانى حكومة الجمهورية التركية وأمانيها الطيبة لجلالة ملك مصر المعظم ولشعب مصر ، وقد أفرغت هذه الزيارة في قالب خاص من الود الصميم والمجاملة ، فكانت خير ما يعبر عن العواطف الودية الأكيدة التي تشعر بها تركيا نحو مصر ، ولما تناول القهوة والمرطبات انصرف مشيعاً بالاحترام اللائق .

وأمضينا اليوم قياماً لا نملك وقتاً يتسع لطعام أو راحة ، إذ المخابرات التلفونية لم تنقطع مع استانبول ، والخدم في حركة وذهاب وإياب بين المحطة والمفوضية ، وبينهما وبين المدينة لاستكمال ما يلزم لمأدبة العشاء التي سيحضرها رئيس الوزراء والوزراء ، والتي ستعقبها حفلة ساهرة لمئات المدعوين .

وكنت مأخوذاً ذات اليمين وذات الشمال أتنقل بين الطابقين ، ولما وجدت برهة أخلو فيها لنفسى أخذت أرتب ملابس السهرة وكانت الساعة السادسة مساء ، فإذا بجرس التليفون يدق ويدعونى بسرعة إلى المستشفى العسكرى ، لأن القائم بالأعمال الأستاذ توحيد السلحدار بك قد أصيب في حادث تصادم وقع بين سيارته وعربة نقل محملة بالرمال . فتركت ما بين يدىّ ، وخرجت مسرعاً إلى الطريق العام ، ومنه لمحت سيارة أجرة من نوع فورد الخشبية ، وهى التي تحمل أربعة أو خمسة من الركاب يشتركون فيها ، حتى أشرت إليها بالوقوف وقفزت فيها ، وكان الأتراك يطلقون عليها اسم «قابتى قاشتى» ، وأهل أنقرة ينطقون الكاف قافاً ، ومعنى ذلك أخذ وهرب ، أى استلم وأسلم رجليه للريح . وذهبت إلى المستشفى فأدخلت تواً إلى حجرة العمليات ، فوجدت توحيد بك هناك والدم قد غمر بدلته وقميصه ، ورأيت طبيب الغازى يعنى به ويضمد جرحاً كبيراً في جبهته ، ويعالج ذلك برفق وتؤدة ، وقد بدا بعض الاصفرار على وجه الجريح ، ولكنه لم يفقد شيئاً من ثباته وهدوئه ورباطة جأشه . ولما أراد الطبيب أن يستعمل مخدراً يخفف من ألم الجرح وشدة وقع الصدمة رفض ذلك ، إذ تمثلت رجولته في شجاعته وصموده واحتماله لما يشكو منه في رأسه ويده ، فدهش من حضر لما رأوه يقظاً واعياً يحادثهم والطبيب يلازم عمله في خياطة جرح الجبهة .

وكان معنا فى الحجرة نعمان رفعت بك وكيل الخارجية ، وقائد الحرس الجمهورى ، وهو ضابط يجمع فى شخصيته مظاهر الجندية التركية التى خلدتها المعارك والحروب الدائمة والأخطار المزمنة ، وكان شديداً فأطلقنا عليه « صاحب الضبط والربط » ، قال : « إنه حضر بأمر عال من فخامة رئيس الجمهورية ، وأن الأمر الصادر إليه يلزمه ألا يترك توحيد بك لحظة واحدة حتى يستعيد قواه ، وأن يتصل بالغازى مباشرة لأى حادث يطرأ . فشكره توحيد بك على هذه الالتفاتة ، وطلب إليه أن يرفع للرئيس شكر المفوضية وتقدير مصر قاطبة . ولما أتم الطبيب عمله وقام توحيد بك ، التفت إليه وأعلمه بأن واجبه كطبيب يحتم عليه أن ينصحه بأن يستريح هذه الليلة ولا ينهك نفسه بعمل » . فأجابه بغير تردد : « كيف أقبل الراحة وقد دعوت الناس لحفلة مليكى؟ إن إخلاصى يملى علىَّ أن أحضر الحفلة ، أما الألم فشئ هين يسهل علىَّ احتماله فى سبيل قيامى بواجبى نحو بلادى ، وقد اعتادت هذه الرأس أن تتحمل وتحمل الكثير » . ثم التفت إلى قائد الحرس ، وإلى وكيل الخارجية ، وقد أبديا كلاهما ضرورة الرفق بصحته والعودة للراحة . فقال : « أبلغا الغازى والحكومة التركية أننى بخير والحمد لله ، وإنى لعاجز عن التعبير عن شكرى لهذا الاهتمام الفائق الذى لا أعتبره موجهاً لشخصى ، بل لمليكى وبلادى » . وترك المستشفى مستنداً على ذراعى الطبيب وقائد الحرس ، وركبنا سيارة أوصلتنا إلى منزله ، واستأذن وكيل الخارجية والقائد ، وبقى معنا الطبيب لا يتركه حتى بدّل ملابسه ولبس ثياب السهرة ووضع أوسمته ، واتجهنا إلى دار المفوضية المصرية ، وقد استعدت لحفلة الليلة كأن لم يحصل شيء ، وكأن التصادم أمر قد كان لأيام مضت ، ولم يظهر على توحيد بك غير رباط الجرح واليد .

وكان الوقت قد أزف لحفلة العشاء التى تبدأ فى الثامنة ، وأخذ المدعوون من علية القوم يحضرون ويأخذون أماكنهم ، وفى مقدمتهم رئيس الوزارة التركية عصمت باشا ، وهو الرئيس الحالى للجمهورية ، وقبيل انتهاء المأدبة أخذ المدعوون للسهرة يفدون ، وهم من كبار رجال الدولة والسلك السياسى بأكمله المكون من ثلاثين هيئة بين سفارة ومفوضية ، وقد توزعوا فى أركان الدار وحجراتها ، وقد بدت تتألق فى رونقها وحسنها .

وكان الجميع يهنئون بالعيد ، ويستفسرون عن صحة توحيد بك ، ويبدون إعجابهم بعزيمته ، وقالت قرينة وزير الترويج: « لا أقدر أن أطيل النظر إليه وهو على هذه الحالة ، فأرجو أن تنصحه ليعود إلى منزله فيستريح ، إذ أخشى أن ينفتح الجرح فى أى وقت فيسبب له نزيفاً » . فقلت لها : « كيف يحصل هذا وطبيب الغازى يلازمه ملازمة الظل لا يتركه لحظة واحدة ؟ ! »

وفى منتصف الليل تماماً ، والناس فى شغل بأنفسهم ، وهم جماعات متفرقة ، بعضهم يرقص على نغمات الموسيقى ، وبعضهم يلعب الورق ، والقصف عامر ، دخل الغازى فاستقبلته الفرقة بالنشيد الجمهورى ، ثم بنشيد مصر ، واتجه بخطوات ثابتة نحو القائم بالأعمال ، فعانقه على مرأى من الحاضرين ، وهنأه على رباطة جأشه وقال : إنه يحضر إلى بيت مصر كما يحضر إلى بيته ، فهو صاحب الدار ، وإن مجيئه إلى المفوضية هو تحية منه للشعب المصرى فى عيد مليكه المعظم ، فبلغ مصر ذلك ، كما أنه تقدير منى لشخصك . ثم اتجه إلى ركن صغير بإحدى الصالات فجلس ومعه توحيد بك ، ووزير الخارجية توفيق رشدى بك ، وانضم إليهم صاحب السمو الملكى الأمير زيد وزير العراق المفوض بأنقرة ، فأجلسه الغازى إلى شماله على نفس المقعد ، وجلس الكونت دى شامبران سفير فرنسا ، ودارت فى تلك الجلسة أحاديث تناولت الكثير من الشؤون ، ولم يأت الوقت بعد لإذاعتها . وفى الساعة الثالثة صباحاً طلب الغازى من توحيد بك أن يستريح وألح عليه فى ذلك وقال له : إننى معجب بموقفك وتصميمك ، وأفهم ما يمليه عليك الواجب ، ولكنى أنا « مصطفى كمال » سأنوب عنك فى الترحيب بضيوفك . ونزل توحيد بك على إشارته ، ولازمته حتى ركب إلى منزله . ولما رجعت من توديعه ، إذا بوكيل الخارجية يدعونى إلى الركن الجالس فيه الغازى ، وكان قد انضم إلى الجماعة وزير المجر ، وها أنا أعطى القارئ صورة من بعض ما دار من الحديث :

استؤنف الكلام بشأن المجر ، فذكر وزيرهم ما نزل بهم من الظلم وما حاق بهم من الاضطهاد ، وكأنه شعر بألم عميق ، أو أراد أن يستعطف الغازى على وطنه ، إذ ضرب مثلا لأنواع

الإرهاق التي يلاقيها ، فقال وقد اغرورقت عيناه : « لقد أصبح والدى تشيكوسلوفاكيا وصارت جدتى رومانية ليحافظا على أملا كنا ومزارعنا فى البقاع التى انتزعت من وطننا ، وهكذا تشتتت أسرتنا وأصبحت مجرياً وحدى . فنظر إليه الغازى محدقاً وقال : « إنما أنت رب عائلة ، ومواطن طيب القلب ، ولكنك بعيد عن أن تكون رجل سياسة . أنظر إلىّ تجدنى لست بصاحب عائلة ، ولم أشغل نفسى بطلب البنين ، وذلك لأ كرس حياتى منذ نشأت لخدمة بلادى ». وكان الجنرال ناجى باشا ، وهوأستاذ الغـازى فى الكلية الحربية ، قد انضم للجماعة فعقب على ذلك بقوله : « لك سبعة عشر مليوناً من الأولاد هم أبناؤك الترك ».

وهنا قال وزير المجر كلمة لم تعجب القارئ وهى : « إنك تستطيع أن تدفع العدوان عن بلادك ، لأنك فى الأناضول ، أما بلادى ، فهى بين الأعداء المحيطين بها من كل جانب » . فسأله الغازى مسترسلا : « إلى أى عنصر تنتسب ؟ » فأجاب بغير تردد : « إلى العنصر التركى كأهل المجرجميعاً » . فضحك الغازى وأجابه : « لا تنس أنكم ظللتم قروناً حتى نهاية الحرب الماضية (١٤ — ١٩١٨) كان كل رأس مالكم ونخركم اللذين تتقربون بهما إلى شعوب أوربا وحكوماتها وسياسيها هو أنكم أعداء الترك الألداء ، وإنكم كنتم أول من تحرر من تحت نيرهم ، فأنتم كما ترى تدفعون ثمن الكفارة غالياً الآن » .

ثم التفت إلى سفير فرنسا ، وقد دنا الكونت استرودوج سكرتير السفارة الفرنسية من المجلس بإشارة من الغازى ، فقال لفخامته : قل له أن يحضر ورقاً وقلماً ، وأريد أن أملى عليه شيئاً . ولما أحضر الورق أملاه ما يأتى : « لا أستطيع بحال أن أقول للترك إن فرنسا صديقة لهم ، إذ كيف أصل لإقناعهم بذلك ؟ إن هذا لن يكون إلا بعمل ظاهر ، وهى لا تفعل شيئاً من ذلك ، حتى المعاهدة التى عقدناها أخيراً لم تصادق مجالسها النيابية عليها للآن » .

وانتقل الحديث إلى ذكر جنيف وتخفيض السلاح ومشروع اتفاق الدول الأربع العظمى : بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ، وهو المشروع الذى أطلق عليه اسم « الديركتوار الرباعى » إحياء لنظام المحالفة المقدسة بعد حروب « نابليون » . وهذا مشروع يبغضه الغازى ، فتحمس كل التحمس وقال : « ما معنى الدول العظمى ؟ » وأشار إلى السفير أن يكلف استرودوج بأن يكتب مرة أخرى ما سيمليه ، وأن ينقل ذلك إلى دولته فيما يلى : « إن فرنسا لن تكون لها سيطرة على تركيا ، وإن تركيا لن تذعن لشئ تقرره فرنسا مع تلك الدول ما دمت أنا على قيد الحياة ، ولوفرضنا أن الحكومة قبلت ذلك ووافقها المجلس الوطنى الكبير ، فإنى لن أقبل ذلك ، ولو أحوجنا الأمر لوجدتم الشعب التركى بأكمله ورائى يشد أزرى ، ويبذل أقصى جهده ، وإنه لجهد لو تعلمون عظيم ، وقد سبق أن برهن على ذلك مرة للعالم ، وإنى مستعد أن أقوده ثانية ليبرهن لكم مرة أخرى ! »

هذه صورة خاطفة لبعض ما كان يدور فى أحاديثه العديدة التى حرصت على جمعها وصيانتها توفراً منى على رغبتى يوماً فى نشرها ، وكنت كلما أتاحت لى الظروف لقياه ، وقفت أتأمل هذه القوة الدافعة المجسمة فيه ، وأعجب بسوقه للحديث ومجانبته الانزلاق وتوجيهه المخاطب للناحية التى يرى الوصول إليها ، فكنت أغبط نفسى على كل دقيقة أقضيها معه ، وكان يعرف ذلك عنى ، ويفهم روحى ، ويعلم أننى أعرف بالتفاصيل كل حادث مهم مر به فى حياته ، وإنى أداوم على قراءة خطابه التاريخى بالتركية وباللغات الأخرى . وفى أثناء جلوسى أمامه مر الخادم النوبى الذى يخدم توحيد بك ، وهو يلبس ملابس الحفلات بمصر ، وعلى رأسه الطربوش ، ليقوم ببعض الخدمة للجالسين ، ولما أتم عمله وتراجع صاح به الغازى بالعربية قائلا : تعال هون اخلع طربوشك نخلعه ، ثم قال البسه فلبسه وانصرف . وكنا على مقربة من حادث الطربوش المشهور الذى وقع فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، إذ لم تمض على وقوعه خمسة شهور ، وهنا اتجه الحاضرون إلىّ ، وكانت وظيفتى ومركزى لايسمحان لى بمواجهته بالخطاب ، فإذا هو يقول لى : متى تخلعون الطربوش ؟ وهنا وقفت متردداً كيف أجيب ، وأخيراً فتح الله علىّ بكلمة قلتها فى تلك الليلة هى : « يا فخامة الرئيس ، إن الطربوش غطاء الرأس عندنا ، كما كان يوماً ما عندكم ، وها نحن لا نزال فى الدور البدائى من كفاحنا وجهادنا فى سبيل تحريرنا وتحقيق مثلنا العليا التى تتمثل فى مواجهة الحضارة الحالية وأخذها والاستفادة منها ،

ألا ترى أن الطربوش رمز يذكرنا بعصر نعيش فيه لنخرج منه إلى عصر جديد ؟ وإنه عنصر هام يذكي روح العمل لدينا ؟ ويذكرنا كل يوم وكل ساعة بالواجب المحتم علينا وبالسعى فى خلاص البلاد ؟ ولا شك أنك لم تخلع القالباق أو الطربوش إلا حينما تخلصت بلادك من قيودها وانتصرت فى عراكها وكفاحها ، إننا فى اليوم الذى نتخلص فيه من قيودنا ونتغلب على العقبات التى أمامنا نفكر فى خلعه واستبداله ، ويكون ذلك بوحى إرادتنا وحدها ، ولكن قبل أن نصل إلى أهدافنا الكبرى ، وننقلها من عالم الخيال إلى عالم الحقائق ، لا توجد إرادة فى العالم تفرض علينا أو تجبرنا على رفعه ، ذلك لأنه يذكرنا كل يوم بعراكنا الدائم المستمر ، وبأن أمامنا واجباً نعمله وأعباء نحملها وعقبات نقتحمها ومصاعب نتغلب عليها » .

ولم يكن الغازى ينتظر ذلك ، فتلألأ وجهه وأدنانى منه ، وقال كلاماً كثيراً عن مبادئ الثورة الكمالية ويقظة الشعب التركى وآماله ، وهنا تحدث الزعيم الخالد عن أدوار حياته الأولى فى البلاد العربية ، والتفت إلى سمو الأمير زيد ووجه إليه عبارة رقيقة ، وتكلم عن عرش سوريا وما يقال بشأنه ، ثم عرض لحادث الطربوش المشهور ، وقال كلاماً لا تسمح الظروف لى بنشره الآن ، ثم قال : « كنت أقود الأتراك فى داخل حدودهم وأراضيهم ، وكنت أكتفى بذلك ، أما اليوم ، فسمعت صوتاً جديداً ، ونغمة حلوة ، جعلانى أشعر بأن هناك خارج حدودنا من يفكر مثل تفكيرى ، ومن يأخذ نفسه بالعمل الصالح لخدمة بلاده » . وكان الجمع قد ازداد حولنا ، إذ وصل الغازى إلى القمة فى أحاديثه ، فأخذ يعبر عن روحه وإيمانه ، وقد ارتسمت على وجهه عظمة الخالدين ، وازداد إشعاع العينين من قوته الدافعة المؤمنة ، وكان الفجر قد أخذ يبدو وراء الشفق والتلول التى تحيط بأنقرة ، وأمامه شباك بعرض الحائط ، وقد بدأت شمس يوم الإثنين ٢٧ مارس ١٩٣٣ تقدم علينا ، فنظر إلى العدد المحتشدين من الأتراك وممثلى الدول الأجنبية ، وحدق فى وجوههم واحداً واحداً ثم قال : « إن نهضة تركيا شاملة ، وهى ستعم ما حولها من الأمم ، إذ ليس بالتهويش والوعود تحيا الأمم ، بل بالإخلاص والعمل الصالح ، وإنى لألمس نهضة الشرق وشعوبه ، وأراها قادمة لا ريب فيها ، كما أرى فجر هذا اليوم وقدوم شمسه إلينا ... انظروا إلى ضوء الشفق يحمل إلينا الشمس من الشرق مطلع سراج الدنيا ، إن العالم ينتظر بعثاً جديداً ، وسيعود الشرق — كما بدا — قوياً عظيما » ... ثم نظر يميناً وشمالا وقال : « إن الذى يتكلم هو مصطفى كمال ، لا رئيس الجمهورية التركية ، مصطفى كمال التركى : إننى أشعر بأن الأمم فى الشرق ستتخلص من نكباتها وويلاتها ، وإن أول ما تشكو منه هو الاستعمار ، فهذا لن يعيش ولن يبقى حينما تبدأ يقظتها ووعيها واتجاهها للحقائق بدل الأوهام والأحلام

« إن أكبر دعائم الاستعمار هم رجال السياسة المحترفين الذين تستعملهم الدول الأجنبية لأغراضها . لقد تأكدت مما رأيت فى بلد من البلاد — ولا داعى لذكر اسمه — أن تسعين فى المائة من المتصدين للمسائل العامة عملاء للدول الأجنبية ، يخدمون مصالحها على حساب أمتهم » .

وكانت الشمس قد أشرقت ، فقال : « انظروا إلى طلوع الشمس ، إنه يمثل لنا نهضة الشرق وأممه ! »

وقام الغازى من مكانه ، وقد وضع يده بيدى ، وسرت معه إلى الباب الخارجى ومنه إلى سيارته ، حيث ركب ومعه ناجى باشا وقال : « إنه يذهب لتناول طعام الفطور لدى أستاذه الجنرال ناجى باشا » . وانتهت ليلة من ليالى مصر الخالدة بأنقرة !

* * *

كثر التحدث عن تلك الليلة ، وما دار فيها من أحاديث ، وعلق الكثيرون من أهل الرأى ورجال السياسة والممثلين الأجانب عليها ، وكان لها صدى فى الشرق والغرب ولدى الحكومة التركية والمفوضيات الأجنبية ، إلا فى مصر ، وهى التى قصدت بهذه الزيارة وأكرمت بها ، لم يكن لها أى أثر ولا صدى ولا حماس ، ولا ما يشبه الحماس فيها ، وسنعرض لهذا كله فى حديث لاحق .

أحمد رمزى

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

أين الأقـــلام ؟

للأستاذ على الطنطاوى

نحن اليوم فى معركة مع الاستعمار ، قد اندلعت نارها ، وطار فى كل أرض من أرض الإسلام شرارها ، فهل رأيت جيشاً فى معركة يدع مدافعه فلا يطلقها ، وينسى دباباته فلا يسيّرها ، ويلق بنادقه فلا يحملها ؟ هذا ما نفعله نحن حين نهمل أقلامنا فلا نسخرها فى هذا النضال ، وإن من أمضى أسلحتنا وأنفذها وأبقاها على الزمان وأثبتها للغير، لهذه الأقلام ... فما لهذه الأقلام نائمة لا تفيق ، جامدة لا تتحرك ؟ وما لبعضها لا يزال يلهو ويلعب ، كأنه مدفع العيد يتفجر بالبارود الكاذب وسط المعمعة المدلهمّة التى جُنّ فيها الموت ؟ !

* * *

إنها معركة الاستعمار : استعمار البلاد بالجيوش ، والأسواق بالشركات ، والرؤوس بالمذاهب ، والقلوب بالشهوات ، فجنود العدو تخطر على أرضنا ، وشركاته تتحكم فى أسواقنا ، ومذاهبه الخبيثة تملأ رؤوسنا ، وتقليده فى إباحته وشهوته وسفوره وحسوره ، وتكشفه فى نسائه وفى أدبه يفسد قلوبنا ... فأين تلك الأقلام تنبه القوم النيام ، وتطهر الرؤوس والقلوب ، وتحمل نور الحق لتبدد به ظلمة الباطل ؟ !

أين تلك الأقلام تعرّف هذا الشعب بنفسه ، وتتلو عليه أمجاد أمسه ، وتذكره أنه لم يخلق ليذل ويخنع ، وإنما خلق ليعز ويحكم ، وأن الله ما براه من طينة العبيد ، بل سوّاه من جِذْم الصيد الأماجيد ، وأنه أثبت من هؤلاء المستعمرين ... أصلا فى الأرض ، وأعلى فرعاً فى السماء ، وأكرم نفساً ، وأشرف عنصراً ، وأنقى جوهراً ، وإنها إذا أفقرت الأيام الغنى ، وأذلت العزيز ، فإن الفلك دوار ، والأيام دولاب ، فلا يغتر الفقير بالغنى الحادث ، ولا ييأس الغنىّ على اليسار الذاهب ، فإن كل شىء يعود إلى أصله ، وإن كل حال إلى زوال ... !

. أين الفوهرر الذى نطح النجم كبرياءً ؟ وأين الدوتشى ؟ فاعتبروا يا قهارة اليوم ... فما أنتم بأمنع من الموت ، وما أنتم بأعصى على القدر ، وإن لهذا الكون دياناً جباراً ما شاركه أحد كبرياءه إلا قصمه ... وما أنتم حتى تشاركوا الجبار كبرياءه ؟ !

* * *

وأين تلك الأقلام تفهم الشعب أن المستعمرين ما زهدوه فى قرآنه ، وصرفوه عن دينه ، وشغلوه عن تاريخه ، إلا ليسلبوه أحدّ أسلحته ، ويجردوه من أمتن أدراعه ، حتى إذا قابلوه أعزل عارياً ، هان عليهم اصطياده ، وسهل استعباده ، فكان إليهم قياده! وإنه آن لنا أن ننتبه لمكرهم بنا ، وأن نفيق من غفلتنا ، ولا نمشى إلى الهوان بأرجلنا ، ونمكن عدونا منا بملكنا ... !

وأين تلك الأقلام تعلن للناس أن هذه القوانين الأجنبية فى محاكمنا ، إنما هى أثر من آثار الاستعمار الذى نحاربه ، وأن لنا شرعاً هو أفضل من قانونهم ، ودبناً هو أحسن من نُظمهم ، وأننا نستطيع أن نأخذ القانون المدنى والجزائى من ديننا وفقهنا ، وأن نحكم فى محاكمنا بما أنزل ربنا ، وأن من العار علينا أن نفتقر إلى قوانين عدونا ... وما قوانينه ؟ إن كانت من فكره فلنا أفكار ، وإن كانت من تجاربه فلنا تجارب ، وإن كانت من دينه ... وأنى ؟ فما فى الوجود دين تستمد منه القوانين كلها إلا الإسلام ... !

فهل رأيت غنياً مؤلفاً (مليونيراً) أورثه أبوه صناديق الذهب ، ثم يتكاسل عن القيام إليها ، ومعالجة قفلها ، ثم يذهب فـ(يشحد) ذليلا الملاليم والقروش من أكف أعدائه ليتبلغ بها ؟

هذا مثالنا حين نترك ديننا ونأخذ قوانين المستعمرين !

* * *

أين تلك الأقلام تقول للناس : إن الإسلام جاء يكسر الأصنام وأنتم رجعتم تعبدون أصناماً من لحم ودم ، تأكل الخبز والحلوى والذهب وورق النقد (البنكنوت) ... وتأكل كل شىء وتهضمه معدها ... أصناماً تسمونها « زعماء ! » تجدون وتتعبون ليستريحوا هم ، وتشقون لينعموا ، وتنخفضون ليرتفعوا ، وتدفعون إليهم ما كسبتموه بأيديكم الخشنة من العمل ، وأنتم تقبّلون أيديهم الناعمة من الكسل ، وتمنحونهم كل نعمة ... ولا يمنحونكم شيئاً ... وإن من بقايا الاستعمار هذه الأحزاب التى لا تتقاتل إلا على أكل الحكم ، وامتصاص دمكم وحكمكم !

وهذا الأسلوب الأحمق الذى يشترط فى معلم المدرسة الابتدائية وكاتب المحكمة الجزئية ، شروطاً فى نفسه ودرسه ، وامتحاناً وتجربة ، ولا يشترط فى الوزير شرطاً ، فكل من أراد الوزارة وسلك سبيلها نالها ، ومن نالها يوماً لصقت به (معاليها) إلى آخر أيامه …

ستقولون : وما ذا نعمل وهذه سنة المتمدينين فى كل بلاد الله ؟ نعم هى سنة المستعمرين ، ولكن فى بلادهم هم علماء ، فلا تلقى وزيراً جاهلا ، وشعباً يقظاً ، وصحافة ساهرة ، وإن فيها انتخابات صحيحة ، وإدراكا شعبياً ، أما الأحزاب ، ففى بلد واحد من بلادنا (كمصر مثلا) أكثر مما فيها كلها ، وهل فى أميركا إلا حزبان : الجمهوريون والديمقراطيون ؟ وهل فى انكلترا إلا ثلاثة : الأحرار والعمال والمحافظون ؟ فكم حزباً فى مصر يا أيها المصريون ؟

فإذا كرهتم الاجتهاد ، وأبيتم إلا أن تكونوا مقلدين ، فقلدوا فى المذهب كله ، ودعوا التلفيق !

***

وأين هذه الأقلام تقول للناس : إن ثكنات قصر النيل فى القاهرة ، ومطار المزة فى دمشق ، ومعسكر الحبانية فى العراق ، حصون العدو وقلاع المستعمر ما فى ذلك خلاف ، ولكن للاستعمار قلاعاً أخرى ، إن تكن أخفى فقد تكون أخطر ، وهذه القلاع هى بيوتنا التى انتشر فيها (التحرر …) فى الشباب والشابات ، و (التجدد …) فى الصلات بينهما ، فقلل الزواج وزهد فيه الشبان ، وكسّد البنات ، ونشر الأمراض ، وشغل بالهزل عن الجد ، وبالسعى للشهوة عن العمل للوطن … ولقد قلت إنها أخطر ، لأن ثكنات قصر النيل قتلت عشرين مصرياً فى عشرين سنة ، وهذه تقتل كل سنة مليوناً من أهل مصر ، كان يكون منهم العبقرى النابغ ، والقائد البارع ، والأديب الملهم ، والعامل النافع ، ويكون منهم حماة الحمى ، ودرع الوطن ، خسرناهم لانصراف الشباب عن الزواج وزهدهم فيه ، ولولا هذا التحرر ، وهذا التجدد . ولو عادت بنا الأيام كما كنا من خمسين سنة ، إذ لا تلقى شاباً فى العشرين إلا متزوجاً ، ولا فتاة فى الثامنة عشرة إلا ذات بعل ، لزادت مصر مليون إنسان فى كل سنة ، أفرأيتم كيف قتل استعمار البيوت هذا المليون ؟

***

أين تلك الأقلام تفضح أكبر خدعة سريت إلينا ، وترد أفظع كذبة جازت علينا ، وهى دعواهم أن من الخير لنا أن نأخذ المدنية الغربية بكل ما فيها ، وأن كل ما جاء من أوربة فهو خير ورشاد ، وكل ما بقى لدينا من الشرق فهو شر وفساد !

وهذا من أقبح ما خلَّفه فينا الاستعمار

فأين تلك الأقلام تدل الناس على مزايانا لنحتفظ بها ، وشرور الغرب لنتجنبها ، وتقيم لهم الميزان العادل ، وتحكم فيهم الحكم السديد ، فنرتفع عن أن نكون قردة مقلدين ، ونرجع عقلاء مميزين ، يعرفون ما يأخذون وما يدعون !

***

وبعد ، فهذى المعركة ، وها هم أولاء المسلمون فى كل بقاع الأرض يكتبون بدمائهم على جبين الزمان أروع قصائد المجد ، وأبلغ آيات البطولة والبذل . ها هم أولاء يردون بأيديهم وبأيمانهم وبحقهم الجيوش التى لم يستطع ردها هتلر بحديده وناره … لا يرونها أكبر من أن تُغلب ، ولا يرون نفوسهم أصغر من أن تَغلب . ها هى ذى المعجزات تظهر كل يوم على أيدى أتباع محمد : فى ميدان الاسماعيلية ، وفى شوارع الأسكندرية ، وفى بلاد الشام ، وفى مدن فلسطين ، وفى الهند ، وفى جاوة ، وفى إيران ، فأين تلك الأقلام تدوّن خبرها وتخلد ذكرها ؟ !

أين الشعراء ، وأين ملاحمهم فيها ، وهناك شىء ينطق الجماد بالشعر ؟ أين القصصيون وأين ما وضعوا فيها من القصص ، وهناك قد جلس الزمان يقص من أفعال هذا الشعب أعجب الأقاصيص ؟ أين من فى نفوسهم قرائح ، أفلا تفيض اليوم بالبينات هذى القرائح ؟ أين من بين أصابعهم أقلام … ألا تلتهب اليوم بالحماس هذى الأقلام ؟ !

أين كتاب العربية وشعراؤها وبلغاؤها ؟ !

يا خجلتاه غداً من كتاب التاريخ إذا جاءوا يترجمون لأديب فيقولون : لقد رأى أعظم بطولة بدت من بشر ، وشاهد أجل الأحداث التى رآها الناس ، ثم لم يكتب فيها حرفاً … لقد شغلته عنها شواغل الأيام ، ومباهج الأحلام ، وملذات الغرام !

(دمشق) **علي الطنطاوي**

ألدوس هكسلي

مؤرخ طبيعي للإنسانية

بقلم اسكندر هندرسون

مؤلف كتاب « تفسير لشخصية ألدوس هكسلي »

كان ألدوس هكسلي Aldous Huxley فى وقت ما لا أدريا وماديا ، أما الآن فهو يؤمن بمعتقدات مستمدة من الفلسفة الدينية الهندية وهو فى قصصه ومقالاته وقصائده يكشف عن شخصية شديدة التعقيد ، دقيقة على الفهم ، ذات ميول متضاربة لا يوازن بينها إلا ذهن جبار مشغوف بالتأمل والتفكر .

فمنذ سبعة عشر عاما ، قال فى كتابه « دراسات صحيحة Proper Studies » (١٩٢٧) : لو ألزمت بتحديد موقفى لقلت إننى امرؤ مثقف يوجه اهتمامه الأكبر إلى دراسة العالم الخارج دون التأمل الباطنى ... وأنا أفهم التفسير المادى للحياة الباطنة .

ولكنه فى سنة ١٩٤٤ يقرر أن أركان عقيدته هى : « أن هناك لاهوتا ، أساسا ، براهما ، ضوءا مبينا ينير الفراغ ، هو القانون غير الظاهر الذى يكمن وراء كل المظاهر ؛ وأن الأساس حالّ فى الأشياء ومتجاوزلها فى وقت معا ؛ وأن فى مقدور الإنسان أن يحب الأساس الإلهى ، ويعرفه ، ويتحد معه وحدة فعل بعد وحدة قوة ؛ وأن البلوغ إلى هذه المعرفة الاتحادية باللاهوت هو القصد والهدف الأخير للوجود الإنسانى » .

ولقد كان هكسلى دائما يدرك العناصر المتضاربة فى شخصيته وفى مجموعة مقالاته : « اعمل ما شئت Do what you will » (١٩٢٩) وضع خلاصة لفلسفة « عبادة الحياة life worship » أو « الافراط المعتدل balanced excess » ، بناها على الإيمان بمبدأ أساسى هو تعدد جوانب كل شخصية . قال : « إن عابد الحياة هو يقينى أحيانا ، وصوفى أحيانا أخرى ، لا أدرىٌّ ، ملىء بالسخرية ، ومؤمن فياض بالإيمان ... والخلاصة أنه يقبل كل نفس من نفوسه المتعددة ، حين تظهر فى عقله الظاهر ، ويعتبرها إذ ذاك نفسه الحقة فى تلك اللحظة . هو يقبل كل نفس وجميع النفوس — حتى الخبيثة ، حتى الوضيعة المذبة ، حتى العابدة للموت والمسيحية بطبعها . هو سيقبل كلا منها وسيعيش فى كل منها عيشة مفرطة » .

إن شخصية ألدوس هكسلى المعقدة ، والقالب العلمى لذهنه ، وأسلوبه النثرى الجلى الساطع ، يمكن اعتبارها ميزات ومواهب موروثة ، فان من سلفه الذين حملوا إسم هكسلى أفرادا كانوا من جبابرة العقول فى القرن التاسع عشر بانكلترة .

ولد فى ٢٦ يوليه سنة ١٨٩٤ ، وكان الإبن الثالث لليونارد هكسلى وجوليا آرنولد . أما أبوه ، الذى ولد فى سنة ١٨٦٠ ، فكان ابن توماس هنرى هكسلى العالم الذى بذل أعظم الجهد فى تقريب مذهب داروين من عقول عامة الشعب . وأما أمه فكانت ابنة أخ ماثيو آرنولد ، مؤلف « رستم وسهراب » وغيرها من القصائد الكثيرة ، ومؤلف « الثقافة والفوضوية » وغيره من كتب النقد الأدبى الرائع . وكانت أيضا حفيدة توماس آرنولد القسيس والناظر المشهور لمدرسة ركبى الذى أدخل إصلاحات كثيرة على نظام المدارس العامة الانكليزية .

كانت البيئة التى نشأ فيها ألدوس هكسلى بيئة تهذيب وثقافة كما كان أجداده رجال تهذيب وثقافة . عين أبوه أستاذا مساعدا لليونانية فى جامعة سنت آندروز ولما يتجاوز عمره الثالثة والعشرين ثم صار رئيسا لتحرير مجلة The Cornhill Magazine وهى من أبرز المجلات الانكليزية . وقد احتفظ بهذا المنصب سنوات كثيرات ، كما عين مستشارا أدبيا لشركة الطبع والنشر سميث وإلدر . وفى سنة ١٨٧٢ تزوجت خالته مارى أوغستا آرنولد بالناقد والمحرر توماس همفرى وارد ، وكانت من أبرز كاتبات الروايات فى عصرها . ورواياتها « روبرت إلزمير Robetr Elsmere »

التى نشرت فى سنة ١٨٨٨ ، قد نالت الشهرة فى كل أنحاء أوربا وأمريكا .

وفى قصة « التاريخ المزلى لرتشارد جرينو » ، وهى من القصص الأولى لألدوس هكسلى ، إشارة إلى تلك الرواية المشهورة التى كتبتها خالته ، إذ يصف البطل بأنه « قد قرأ المجلدات الثلاثة لرواية روبرت إلزمير وابتلعها ابتلاعا وهو بعد فى الثامنة من عمره » . وقد استمرت المسز همفرى وارد تكتب سنوات كثيرات ، وظهرت روايتها الأخيرة فى سنة ١٩٢٠ ، وهى السنة التى توفيت فيها . وكان زوجها الناقد هو الذى خول ألدوس هكسلى فرصة نشر مقالاته النقدية الأولى ، إذ طبعت فى مجموعة منتخبات شعرية إنكليزية نشرهات . ه . وارد فى سنة ١٩١٨ .

هكذا ورث ألدوس هكسلى العلم عن أسرة والده والأدب عن أسرة والدته ، فليس عجيبا أن يصير أديبا ، ولا أن تتجلى الروح العلمية فى أدبه بصور شتى . بل إنه حين كان صبيا أراد أن يتخذ العلم مهنته ، مثل أخيه الأكبر جوليان ، العالم البيولوجى العظيم . ولكن عينيه أصيبتا بمرض حال بينه وبين عمله العلمى ثلاث سنوات . وتلك السنوات الثلاث أكسبته هذه النظرة المستقلة إلى الحياة التى تلاحظ فى الكثير من كتاباته .

تعلم ألدوس هكسلى فى إيتون ، ثم ذهب كأبيه إلى كلية باليول بأكسفورد . وقد أحب كلا المهدين . فهو يقول : « إن ذهنى من النوع الذى يحب التدريب المدرسى ويقبله قبولا تاما . فأنا ثقافى بولادتى ، ذو ميل إلى الأفكار وصدوف عن النشاط العملى ، ولذلك شعرت بالراحة والاطمئنان فى الظلال المدرسية » وقد أحب أكسفورد حبا خاصا إذ تركت له هناك حريته الكاملة فى أن يعمل كما يشاء ، وكان معنى ذلك أنه أقبل على قراءة كل شىء ، وفضل ذلك على مجرد تدوين الملاحظات أثناء سماع المحاضرات . فهو يقول « أما أنا فانى لم أستمع قط إلى أكثر من محاضرتين فى الأسبوع » .

أما فى البيت فقد نشىء على حب شعر وردزورث وفلسفته ، وآراء رسكن فى الجمال والفن . يقول ألدوس : « لما تقوضت أركان الكثير من العقائد الدينية المتزمتة ، صار كثير من الأسرات الذكية ذات الفكر المتسامح يعتبر شعر وردزورث إنجيل ذلك النوع من الحلولية ، ذلك الاعتقاد المبهم بوجود عالم روحى ، الذى ملأ — إلى حد غير كاف — الفراغ الذى كانت تشغله العقائد القديمة . وحين كنا أطفالا ربينا على التقليد الوردزورثى ، وغرس فى قلوبنا الاعتقاد بأن جولة بين التلال يوم الأحد تعادل بكيفية ما الذهاب إلى الكنيسة » .

ومن قصتى هكسلى الأوليين ، المليئتين بالتهكم والهزل ، Limbo سنة ١٩٢٠ ، و Mortal Coils سنة ١٩٢٢ ، ومن روايته الأولى Chrome Yellow سنة ١٩٢١ ، يتبين رد الفعل الذى قابل به جو الوقار الأخلاقى الرفيع الذى فيه نشأ . ففى شبابه كان بطبيعته الذهنية حذرا ، متشككا ، غير ميال إلى الغلو الأخلاقى . ولكنه تحت ظاهره المتهكم الساخر قد احتفظ دائما بعنصر جاد لا يقل وقارا ورصانة عن ماثيو آرنولد نفسه . وقد أخبرنى مرة قائلا : « فى قصصى المبكرة كنت أيضا أرد على الناحية المتزمتة المتفيهقة من نفسى » .

وكانت أهم المؤثرات فى تطور أسلوبه المبكر كتابات الأدباء الفرنسيين فى آخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين ، وخاصة رمبو ، ولافورج ، وأناتول فرانس . وقد أخبرنى فى سنة ١٩٣٥ قائلا : « أظن أن لافورج ذو شأن المراهق ، ولكنى حين قرأته من وقت قريب لم أشعر له باعجاب زائد . وأناتول فرانس ... لقد كنت فى وقت ما أظن أن تهكمه هو قمة الذكاء والبراعة » . وقد مال أيضا إلى كتابات ريمى دى جومون ، وخاصة بسبب اهتمام ريمى بالتاريخ الطبيعى ، وهو اهتمام ما انفك هكسلى يبديه ، وخاصة فى كتابه Point Counter Point (سنة ١٩٢٨) .

وفى أكسفورد نظم هكسلى قدرا كبيرا من الشعر ، وهو دون كتاباته النثرية أهمية ، ولكنه مع ذلك هام إذ يلقى ضوءا على مزاجه ؛ لأنه يتجلى فيه شعور عاطفى خيالى ميال إلى المثل العليا ، منهمك فى الصراع بين العاطفة والعقل ، ذلك الصراع الذى هو السبب فى انقسام النفس ، والذى تطور فيما بعد فى كتابيه Point Counter Point و Brave New world (سنة ١٩٣٢) . والقصائد المبكرة تنم أيضا عن رجل حيى عزوف عن الاختلاط بغيره من الرجال والنساء ، يفرح إذ ينجو

(البقية على صفحة ٣٨٦)

الأدب في سير أعلامه:

ملتن...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٧ —



في هورتون:

على مسافة سبعة عشر ميلا من لندن كانت تقع قرية هورتون الصغيرة الجميلة ، حيث اشترى الوثق جون ملتن بعض الأرض وأقام بيتاً ليأوى إليه إذا اعتزل العمل وجنح للراحة .

وكانت هورتون قرية هادئة تحيط بها المروج والمراعى ، والحقول بين ضيقة محصورة وواسعة منبسطة ، والغابات والخمائل عن يمين وشمال ، تتراءى بينها على بعد أبراج وندسور ، تلك القلعة العالية القديمة ، فيتألف من مجموعها مجتلى ساحر جميل تستريح النفس لمرآه ، ويسعه البصر من أوله إلى منتهاه .

واتخذ ملتن طريقه إلى هورتون ، تاركا وراء ظهره الكلية ومن فيها من ثقلاء وظرفاء ، ومن أولى الغلظة والعنت من العرفاء ، ومن المتبجحين بالعلم من الأغبياء ، مبتعداً عن دروسها ومناظراتها ، وقد نفض قدميه من ثراها ويديه من كتبها .

وأوى الفتى إلى هورتون لا ليقضى بين ربوعها أياماً معدودات ثم يعود إلى لندن ، ولكن ليقيم فيها سنين تطول أو تقصر حسبما يشاء ، فهو لا يتقيد في مقامه بشيء !

وما ذا عسى أن يصنع ملتن في تلك القرية ؟ وهل درس ما درس في الجامعة وحصل على درجتين من درجاتها ليركن إلى البطالة والدعة في ظلال الريف ؟ ليس هذا مما ألفه الناس ، ولا هو مما يجرى على سنن العقل ، وليس يقره عليه أحد ؛ بذلك كان يحدث الوثق نفسه ويحدثه أصحابه ، ويتناقله بينهم من يعرفونه من الناس !

ولكن الشاعر لا يأبه لما يقولون ، فقد عقد العزم بادئ الرأى على رفض أية وظيفة في الحكومة ، كما رفض الالتحاق بالكنيسة ، وإن كان قد درس اللاهوت ؛ وليس يعنيه أن يبين لهم وجهة نظره ، فأكبر الظن أنهم لن يقروه عليها ؛ وهل فيهم من يقره على إقامته في الريف ، حيث تكون له عزلة يستريح فيها من ضجيج المدينة ولهوها وزحمتها ليتفرغ للقراءة والدرس ، فيستدرك ما فوتت عليه قراءته الكلية من كتب ، ويستكمل ثقافته في الأغريقية واللاتينية ، فهما عدته فيما يتهيأ له من رسالة ؟ وهو إنما يزداد شعوراً بأنه يتهيأ لرسالة ، وأن عليه أن يستزيد من المعرفة والحكمة ليكون أهلا لما يستشرف له .

ذلك كان مأربه من إقامته في الريف ، فهمه في الحياة أبعد من كسب القوت وأجل من ذلك شأناً ، وما يرى العلم والحكمة بل والفضيلة نفسها إلا وسائل يتوسل بها إلى ما يبتغى من غاية ؛ وإنه لواثق أن الناس ينكرون عليه ذلك ، وأنهم يعدونه حلماً من الحلم يوسوس به الشباب في صدر شاعر سحره عن نفسه ، وأذهله عن الصواب حب الشعر ... وما ذا عسى أن يقولوا غير ذلك وليس فيهم من يصدق أن الشعر مطلب ترصد له الحياة ، وغاية يحتقر في سبيلها المال والجاه !

وكان أبوه يطمع أن يلتحق الفتى بالكنيسة ، ولكنه منذ صغره لا يحب أن يحمله على ما لا يريد ، فحسبه أن يمنى بذلك نفسه ، على أنه كان خليقاً أن يدرك بعد أمنيته عن التحقيق ،

فهو أعلم الناس بابنه ، وأخبرهم بنوازعه وآرائه .

كانت صفات ملتن تحول بينه وبين الكنيسة ، فإباؤه ونزوعه إلى الحرية لا يسمحان أن يتقيد بقيد ، ورغبته فى التفرغ لقراءته والتهيؤ لرسالته يبتعدان به عن أن يشغل نفسه بغيرهما ؛ وإنه فضلا عن ذلك ليحس فى نفسه الكراهة لرجال الدين ، ويشمئز قلبه إذا ذكرت عقيدة روما الكاثوليكية ، فهى عنده علة التعصب وأصل تحكم القساوسة واستبدادهم وجمودهم ؛ وهو فتى يعشق الحرية الفكرية وحرية العمل ، ولا يستطيع أن يتصور كيف تخلو الحياة منهما وتسمى مع ذلك « حياة » ! ولا نجد ما يوضح رأيه فى رفض الالتحاق بالكنيسة خيراً مما كتبه بعد ذلك ببضع سنين عن الكنيسة وأشار فيه إلى ما نحن بصدده قال : « أما عن الكنيسة التى أزمع إعدادى لخدمتها منذ طفولتى حتى بلغت مرحلة من مراحل نضجى ، فإنى مذ رأيت مبلغ ما دخل فيها من طغيان ، وأن من يلتحق بها يجب أن يكون عبداً ، وأن يقسم على ذلك قسما ، وجدت خيراً لى أن أفضل الصمت الذى ليس فيه ما يعاب على الوظيفة الكلامية المقدسة التى تشترى بالقسم سلفاً ، وبالعبودية ، وتبدأ بهما !»

ولم يكن ملتن حتى ذلك اليوم بيوريتانى المذهب ، وإن كانت عفته وطهره وترفعه عن الدنايا تمثل خلق البيوريتانية ، وإن لم يقصد ؛ أما عن مذهبه الدينى ، فكان حتى ذلك الوقت يتبع الكنيسة الإنجليزية الحرة ، دون أن يعنى بتحديد ما فيما يتعلق بقواعد مذهبها ؛ ولقد كان يكره من هذه الكنيسة ما كان يكرهه من كنيسة روما من التعصب لرأيها والرقابة على المذاهب الأخرى وعلى المطبوعات ؛ وأبغضت نفسه طريقة كبير أساقفتها (لود) فى تعقبه مخالفيه والتجسس عليهم ورفع أسمائهم إلى الملك ؛ ويعد ملتن فى هذا الاتجاه كذلك أقرب إلى البيوريتانية فى ناحية من نواحيها ، وإن لم يرم إلى ذلك .

وإن شخصاً هذه نظريته إلى الكنيسة ورجالها لخليق ألا يقبل مركزاً دينياً مهما منى أبوه نفسه أن يقبل ، ومهما ألح عليه أصحابه أن يفعل !

أما القانون ، وقد كانت لحرفة أبيه صلة به ، فقد فكر فيه عقب تركه الكلية ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنه ؛ وأما الوظيفة الحكومية ، فلم تكن أحب إلى نفسه من الوظيفة الكنسية ، وما ترتاح نفسه فى الواقع ، ولا يتجه قلبه وعقله إلا إلى الشعر ، فلتكن له من عزلته فى هورتون فرصة أجمل بها وأعظم من فرصة يتهيأ فيها لما يريد !

وعكف الفتى على محرابه فى هورتون ، فما يبرحها إلى لندن إلا لماماً ليشترى بعض الكتب ، أو يستمع إلى الموسيقى ، أو يستعين بمن يفهمه بعض مسائل الرياضة ، وألف حياة الريف واستروح نسيمه ، واستغرقت فى هدوئه نفسه ، واستمتع بصفائه حسه ، وتقلب فى مشاهده بصره فى بكره وآصاله وفى متوع نهاره ، وإذا كان غيره من الشعراء قد تغنى بحياة الريف ولم يره ، فلسوف يحيا ابن المدينة حياة الريف حقبة من عمره ، ثم يمسها مسة العبقرية فيغنيها ويصور مشاهدها ، ويضيف بذلك إلى أدب لغته وفنها ما تباهى به وتعتز !

كان يقضى كثيراً من ساعات نهاره بين كتبه ، وكان يقوم الليل كدأبه منذ سن العاشرة ، وقد قوى جلده على القراءة واشتد صبره ، ويعجب المقيمون فى القرية من ذوى الثقافة من هذا الشاب الذى تخرج فى الجامعة ، ولا يزال يكب على الكتب ليله ونهاره كأنما هو مقبل على امتحان !

أما أهل القرية فإنهم لم يألفوا أن يقيم بينهم إقامة متصلة شاب من هذا الطراز ؛ وقد ظنوا أول الأمر أنه لاغب يستجم ، أو زائر لن يلبث حتى يبرح القرية إلى حيث يكون مقام أمثاله فى المدينة ؛ وكانت ترمقه عيون فتيان القرية وصباياها فى إعجاب ومحبة ؛ فهم حيال شاب عليه فوق رونق الشباب وغضارته روعة الجمال وسيماء الوقار والاحتشام ، وإنهم ليحسون فى صوته عذوبة الموسيقى ، ويرون فى محياه إمارات النبل والأريحية والكرم ؛ وما يطمع القرويات منه فى أكثر من أن يرينه ويراهن ، وإن كان له فى كل قلب محبة ، وما عسى أن تنتظر صبايا القرية فوق ذلك من هذا الشاب الذى يتهامسن بأنه تخرج فى الجامعة وأنه من ذوى المحتد ؟ على أنه فضلا عن ذلك كان فى شغل عنهن بعرائس شعره !

وإنه لأشد بالطبيعة ولوعا ، يقلب فى مشاهدها بصره ، ولكن يرى فى مجالى القرية مما يشرح صدره ويهز قلبه ؛ وكانت تعجبه الوجوه القرويات الوضاء لما توحيه سذاجتها من طهر ،

كما كان يطرب لأغانى الرعاة ويحس ما فيها من المعانى والأخيلة والصور القروية ، التى يراها الآن تتصل بنفسه صلة قوية بتأثير بيئته الجديدة ؛ وتبعث تلك الأغانى ما كمن فى ذاكرته من أشعار أوفيد وألحان سبنسر مما يتصل بالحياة القروية فيرجع إليها ويعيد فى هذا الجو قراءتها فيستشعر من جمالها ويستبين من معانيها أكثر مما اتفق له من قبل ؛ وهكذا يعيش عيشة الريف ويقرأ أدب الريف ، فيكون لذلك أثره العميق فى خياله وحسه ، ولا يلبث أن تتضح صبغته فى فنه !

ولكن الموثق الشيخ وقد ركن إلى الراحة فى القرية لايزال يأمل أن يراجع ابنه نفسه فيرضى بوظيفة من الوظائف ، فأنه ما يرى حياته هذه إلا ضربا من البطالة لا يسيغها عقله ولا يحبها لابنه ، ويدأب الرجل على الشكوى إلى جيرانه ويصل نبأ شكواه إلى ابنه فتتكدر خاطره حينا ، لأنه يكره أن يغضب أباه ويكره فى الوقت نفسه أن ينصرف عما يتهيأ له من رسالة تهجس بها نفسه .

ويرد الفتى على أبيه بقصيدة لاتينية جميلة فيتوسل إليه أن يدعه فيما هو فيه ، ويرجو منه ألا يحتقر الشعر ويتساءل كيف يدهش أبوه وهو الموسيقى النابه من أن يكون ابنه شاعراً ؟ لقد قسم أبولو إله الموسيقى والشعر موهبته بين الأب وابنه ؛ والموسيقى والشعر صنوان ، والشعر أقوى مواهب الانسان دلالة على قداسة عنصره ؛ وإنما يتظاهر الأب فحسب بأنه يكره الشعر . ويحتقر الشاعر فى قصيدته الثراء والمادة مما يدل على أن أباه قد أشار إلى رغبته فى أن يعمل على كسبهما ويستطرد موجها الخطاب إلى أبيه فيقول : « يا أبت لقد عودتنى منذ الصغر أن أطلب المعرفة من أجل المعرفة فكيف تطلب إلىّ أن أحفل بالمال ، وأنت دون الناس جميعاً من لا يخلق ذلك به . يا أبت إن الوالد الذى لا يقتصر على أن يعلم ابنه اللاتينية فيعلمه معها الأغريقية والعبرية والفرنسية والطليانية والفلك وعلوم الطبيعة ، لا يسأله أن يجعل كسب المال غرضه من الحياة . يا أبت إنى اخترت ماهو خير بذلك وكان بوحيك ما اخترت . وإنى أعلم أنك تقر ذلك بقلبك وتشاطرنى الرأى فيه . وعلى هذا فما دمت أيها الوالد العزيز لا أستطيع أن أقابل جميلك بمثله ، فانى أرجو أن تكتفى منى بالاعتراف به وببقائه أبدا فى ذاكرتى ؛ وإذا كان لأشعارى الفنية أن تتطاول إلى الأمل فى الخلود ، فسوف يكون لى من اسمك موضع لشعرى » .

وأكبر الظن أنه قد أصلح بهذه القصيدة ما بينه وبين أبيه ، فلم يعد أبوه يشكو من إقامته فى هورتون ، ولعل الرجل إنما صالح نفسه على هذا الوضع إذ لم يجد لشكاياته من جدوى ، ولم يهتد فى إقناع ابنه إلى وسيلة .

وظفر ملتن بالهدوء فى عزلته الريفية الجميلة ، واتفق له جو شعرى ساحر ، ندر أن اتفق مثله لغيره من الشعراء فى مستهل عهدهم بالشعر ، فما نعلم منهم إلا من لقى أول أمره عنتا وضيقا كثيرين ، وإنهم ليبتلون بالعذاب من الحياة ومن أنفسهم ، وما كان لينعم ملتن بما نعم به لولا زكانة أبيه وسماحة طبعه وإدراكه قيمة الفن وإيمانه به .

ولكن عبثا آخر يهبط على الشاعر فى عزلته من صاحب لم يعرف اسمه ، فقد عثر فيما بعد بين أوراق ملتن فى تلك الحقبة على ورقتين بهما سطور من رسالة كان يرد بها على كتاب صاحبه ، وقد جاء فيه أنه لا يرضى لملتن أن يقضى سنى عمره حالما فى عزلته شأن أنديميون مع القمر بينما يمضى الزمن مسرعا . ورد ملتن بأنه يقضى أرب نفسه من الثقافة والمعرفة ليكون أرفع مما هو قدرا ، ولولا أنه يؤمن بهذا الذى يأخذ نفسه به فى غير رفق لما وقف مصمما فى وجه كثير من غرور الحياة كالطموح إلى المناصب والرغبة فى جمع المال ، والميل إلى البناء بزوجة وتكوين أسرة ، والإقامة فى مسكن خاص . ويرسل ملتن إلى صاحبه تلك القصيدة التى نظمها وهو فى الجامعة واستغل فيها ثمار جهوده ليدرأ بها عن نفسه تهمة التبطل والخمول .

وأقبل ملتن على القراءة إقبالا عظيما ؛ وكان أكثر همه منصرفا إلى الشعر فى أشهر آداب الأمم ، وعلى الأخص الأغريق والرومان ، واطلع إلى جانب ذلك على الأدب الفرنسى والأدب الإيطالى ، وقرأ الفلسفة القديمة وبخاصة أفلاطون ، وفلسفة العصور الوسطى كما قرأ التاريخ يستخرج منه الحكمة والعبرة ؛ وعنى بعصر شكسبير عنايته بعصر بركليس ، فكان أكثر وقته مخصصا لهما وأحب هوميروس وفرجيل وأوفيدودانتى حبا لا يضارعه إلا حبه لشكسبير وسبنسر ، وكان ولعه عظيما بما استحدث فى العصر

الألبزابيثي من صور البيان ، وما تولد فيه من مشرق اللفظ وبديعه ، وما افتنه المفتنون أثناءه من أساليب الوصف والغناء ؛ وأعانه على استيعاب ذلك سليقة فنية خالصة ، وروح إلى الفن وجماله متعطشة ، وعبقرية طامحة توحي إليه أن يجري في مضمار هؤلاء العباقرة الأفذاذ وألا يتخلف عنهم في شيء .

أما عن أدب عصره فالأرجح أنه قليلا ما كان يتناول بعض آثار ذلك العصر ، لأنه قليل الإشارة إليها فيما كتب قليل التأثر بها ، ولعل مرد ذلك إلى أنه حصر ثقته في الروائع السالفة من أدب العالم ، ولم يجد ما يكافئها إلا آثار شكسبير وأفذاذ عصره .

ولم يك يقرأ ملتن قراءة عجلان لا يقع على مطلب حتى يطير عنه إلى غيره ، وإنما كان يقرأ قراءة المتثبت المتقصي ، الذي يعمل فكره ويقدح ذهنه في غير ملل أو نصب ؛ يتمكأ على نفسه حتى ينفذ إلى أعماق ما يقرأ ، ولن يبرح ينشره ويطويه ويقلبه على أوجه الرأي جميعا حتى يطمئن إليه ، ويقضي في أمره بالقبول أو بالرفض . ولقد عثر سنة ١٨٧٤ على كراسة من مخلفات ملتن بها ملاحظات واقتباسات من نحو ثمانين مؤلفا دونها أثناء قراءته ومنها يقف المرء على مثال لكدحه وصبره على عناء الدرس .

على هذا النحو قضى ملتن ست سنوات في هورتون ؛ وما نظن أن شاعرا قبله أو بعده اتسع أفق ثقافته أكثر مما اتسع أفقه ، وما نظن أن أحدا من الناس شاعرا كان أو غير شاعر قد أعد نفسه لما يريد من أمر بما هو أقوى مما أعد به هذا الفتى للشعر نفسه

وكان يزور المدينة أحيانا فلا تغريه حياتها عما وطن عليه النفس من الجد ، وأقصى ما كان يقضيه فيها إذا حل بها بضعة أسابيع ، ولكن ذلك كان نادرا فان معظم إقاماته بها كانت لا تعدو بضعة أيام ؛ وكان في المدينة يسعى إلى حيث يستمع الموسيقى ، كما كان يغشى المسارح ويزور علية القوم ، ويمتع ناظريه بما يرى من جمال الحياة ، ولكنه يملك زمام نفسه ، ويسيطر عليها سيطرة قوية تامة قل أن توافى مثلها لغيره في سن كسنه ، فاذا قضى أرب مشاعره من الجمال ، وأرب جسده من الراحة ، واشترى ما تتطلب دراسته من كتب عاد إلى هورتون فأقبل على أوراقه وكتبه .

(يتبع) **الخفيف**

ألدوس هكسلي

(بقية المنشور على صفحة ٣٨٢)

من حقائق الصراع الانساني إلى عزلة عالم الأفكار المبهمة . وأبحاثه الحاضرة في التصوف والفلسفة الدينية تمثل عودة إلى تفضيله المتأصل هذا للحياة الباطنة ، هذا التفضيل الذي ظل كمينا زمنا ما إذا حكمنا بكتاباته اللاأدرية التي نشرها في العقد الثالث من القرن العشرين ، وهو الزمن الذي تصادف أن كان زمن مادية وكلبية عامة في إنكلترة .

وقد ظل هكسلي عدة سنوات تحت التأثير الشخصي الشديد للروائي د . هـ . لورنس ، مؤلف Sons and Lovers وغيرها من الروايات الفذة . وقد تقابلا أول مرة في سنة ١٩١٥ ، ولكنهما لم يكثرا من رؤية أحدهما الآخر حتى السنوات من ١٩٢٦ إلى سنة وفاة لورنس . وقد كتب هكسلي في سنة ١٩٢٧ قائلا : « إن لورنس من الأفراد القلائل الذين أشعر نحوهم بتقدير وإعجاب حقيق . فالأشخاص البارزون الآخرون الذين قابلتهم أشعر بأنني على أية حال أنتمي إلى نفس الجنس الذي ينتمون إليه . أما هذا الرجل فان به شيئا مختلفا ، وهو شيء أسمى في النوع لا في القدر » .

وفي سنة ١٩١٩ تزوج هكسلي بماريا نايز ، وهي بلجيكية ؛ وله ابن واحد . وقد قضى قسما كبيرا من حياته خارج إنكلترة ؛ عاش في فرنسا وإيطاليا وقام بأسفار واسعة في الهند وبورما (التي كتب عنها وصفا ممتعا في Jesting Pilate سنة ١٩٢٦) ، وفي المكسيك وغواتمالا وهندوراس وجزائر الهند الغربية (اقرأ كتابه Beyond the Moxique Bay سنة ١٩٣٤) . وهو منذ قبيل الحرب التي وضعت اليوم أوزارها يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة في كليفورنيا .

وهكسلي في مظهره إنكليزي صميم ، فهو طويل القامة رمادي العين ، وشعره الكثيف مرتب إلى الوراء من الجبهة . وهو ذو أدب جذاب ساحر . والمرء في حضرته يلاحظ أولا صوته الجميل ويديه الطويلتين اللينتين ، وهو مشغوف بعقدهما حول ركبته حين يجلس ويتحدث . وبين آن وآخر يكتسي فمه بابتسامة هادئة تهكمية ، ولكنها في العادة ذات مسحة حزينة .

(عن مجلة الأدب والفن الانجليزية) **اسكندر هندرسون**

مقابلات بين أقوال جحا

وأقوال الشعراء والكتاب

للأستاذ كامل كيلانى

١ – الأسلوب الجحوى

لقد كان الأسلوب الجحوى – ولا يزال – مثالا رائعاً يفيض من إشراقه ومرحه على حقائق الحياة المرة فيكسوها من ألوانه الزاهية جدة وإشراقا .

والأسلوب الجُحَوىّ الباسم : يكاد يقابل الأسلوب العلائى العابس . حتى ليبلغ جحا – أحيانا – فى سَبْر أغوار الحياة بسخريته المرحة الباسمة ما يبلغه المعرى بسخريته العابسة القاتمة .

وقد عرضت للموازنة بينهما فى غير هذا المقام ، فلأجتزىء بهذه اللمحة العابرة الآن .

وبحسبنا أن نعرض على القارىء أمثلة قليلة على ما نقول :

٢ – تقسيم الأرزاق

فنحن إذا استمعنا إلى صرخة « ابن الرومى » وحيرته فى تقسيم الأرزاق ، ومافيها من تفاوت يحار فى تعليله اللُّب وينقطع منه نياط القلب حين يقول :

« لا تعجبن لمرزوق أخى هوج حظا تخطى أصيل الرأى طرافا
نخالق الناس أعراء بلا وبر كاسى البهائم أوباراً وأصوافا »

أو يقول :

« إن للحظ كيمياء إذا ما مسّ كلبـاً أحاله إنسانا
يفعل الله ما يشاء كما شا ء متى شاء كائنا ما كانا »

أو أصغينا إلى « ابن الراوندى » ونستعيذ بالله من جرأته وتنطسه فى إلحاده وكفره حين قال :

« قسمت بين الورى حظوظهم قسمة سكران بيّن الغلظ
لو قسم الرزق هـكذا رجل قلنا له : قد جننت فاتعظ »

إلى آخر ما يزخر به غلاة الساخطين الناقين من أساليب تكاد لفرط عنفها تلتهب التهابا ، وتكاد لغليانها تقذف بالحمم ، وترمى بشواظ من نيران الفكر ، ويكاد إهاب قائلها يتفطر من الغيظ والنقمة .

ثم رُحنا نستمع إلى جحا لنتعرف كيف يعبر عن هذه المعانى الحزينة بأسلوبه الباسم الذى تنطوى فى ابتسامته أعنف معانى المرارة والجد ، رأينا العجب العاجب :

رأينا فيلسوفنا الساخر يحتكم إليه أربعةٌ من عارفيه ليقسِمَ بينهم زكيبة مملوءة بلحاً .

فماذا يصنع ليعبر بأسلوبه المرح عن تلك المعانى الملتهبة التى عرض لها أعلام الساخطين على توزيع الأرزاق ؟

يقبل عليهم متبالها ويسألهم متغابياً :

« أىُّ قسمة تريدون ؟ قسمتى أم قسمةَ الله ؟ » .

فيجيبونه على الفور : « بل قسمةَ الله يا جحا » .

فيعطى أحدهم بلحاتٍ خمساً أو ستاً .

ويعطى الثانى حُفنتين أو ثلاثا .

ثم يعطى الثالث كل ما فى الغرارة من بلح .

ثم يحرم الرابع فلا يعطيه شيئاً . ويتركه يضرب كفاً على كف من فرط الحيرة والدهش .

فإذا سألوه : « أىُّ قسمة هذه يا جحا ؟ » .

أجاب فى تغافل الساخر العميق :

« أليست هذه قسمةَ الله ؟ أليس يعطى واحداً دراهم معدودة ، ويعطى الثانى قليلا من الدنانير ، ويعطى الثالث من خزائن الأرض وكنوزها ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . ثم يترك الرابع فلا يعطيه شيئاً » .

أليس فى هذا لون من التعبير الجحوى الباسم المرح يترجم عن قول من أسلفنا من كبار الساخطين ؟

أليس فى هذا لون من قول المعرى :

« كذلك مجرى الرزق : وادٍ به ندى
ووادٍ به فيض ، وآخر ذو جَفْرِ »

وقوله :

« لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته فقير معرّى أو أمير مدوَّج
وقد يرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج »

وقول الآخر :

« كان يحيي هالـكا من ظما فضل ما أوبق ميتا من غرق »

أو قول الحلاج :

« كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقاً »

إلى آخر ما قاله المبدعون الساخطون .

٣ — النطف العذاب

وإلى القارىء معنى ثانيا :

« يقول « ابن الرومى » :

« وما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الرى فى النطف العذاب »

فكيف يعبر جحا بأسلوبه المرح عن هذا المعنى الجاد :

يخبرنا الرواة أنه كان يستحم ذات يوم فى البحر ؛ فلما اشتد به العطش جرع منه جرعة ليروى بها ظمأه ، فزاده الماء الملح عطشاً على عطش ، وأحس كأن معدته تلتهب .

فأسرع إلى نهر قريب منه فشرب منه نطفاً عذابا ، فارتوى وهدأت ثائرة العطش ، فأسرع إلى وعاء فملأه من النهر ثم صبه فى البحر قائلا فى ثورة الغضب :

« قبح الله غرورك أيها البحر ، فما أدرى فيم كبرياؤك وصلفك ؟ وما أدرى والله كيف يسمى ماؤك الأجاج ماء ؟ إليك أيها المتعجرف هدية أحضرتها لك من الماء لترى حقيقة الماء الجدير بهذا الإسم » .

٤ — فائدة المصائب

وإذا قال « ابن الرومى » :

« ومحال أن يسعد السعداء الدهر إلا بشقوة الأشقياء »

وقال المتنبي :

« بذا قضت الأيام مابين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد »

وقال أبو العلاء :

« غنى زيد يكون لفقر عمرو وأحكام الحوادث لا يقسنه

وجرم — فى الحقيقة — مثل جمْر ولكن الحروف به عكسنه »

وقال :

« وسخط الظباء بما نالها تولد منه رضا الحابل »

فكيف يعبر صاحبنا عن هذا المعنى بأسلوبه الجحوى الرائع :

يخبرنا الرواة أن جحا سافر — ذات مرة — لزيارة بنتيه ، وكان زوج أولاهما زارعا وزوج الأخرى فخاريا : يصنع الفخار ويبيعه .

فعرّج على الأولى يسألها : كيف أنت ؟

فأجابته : بخير — يا أبتاه — إذا أغاثنا الله فى هذا العام بما نأمله من الغيث . فادع لنا الله سبحانه أن ينزل علينا أمطاراً غزيرة تحيي موات أرضنا ، وتجلب لنا مانرجوه من رخاء وهناء .

ثم عرّج على الأخرى ، ولما سألها عن حالها أجابته :

نحن بخير — ياأبتاه — إذا انقطع الغيث عنا فى هذا العام. فادع لنا الله أن يكف عنا المطر حتى ينجو من البوار والتلف ماعندنا من الآنية والتحف التى جهدنا فى صنعها من الفخار والخزف .

فخرج صاحبنا وهو لا يدرى بأى الدعوتين يبتهل إلى الله ؟ فمصيبة هذه فائدة تلك . واستجابة إحدى الدعوتين — كما ترى — شقاء إحدى بنتيه وهناء الأخرى ، ولا مناص من ذلكم على أى الحالين ؟

وفى هذه القصة تعبير رائع عن قول المتنبى الذى أسلفناه :

« بذا قضت الأيام مابين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

ثم يخبرنا الرواة أيضاً : أن لصاً سرق منه عشرين دينارا . فذهب جحا إلى المسجد ضارعا إلى الله أن يعيدها إليه . وأراد الله سبحانه أن يلهم تاجراً من أهل القرية كادت العواصف أن تغرق سفينته أن ينذر لذلكم الرجل الصالح عشرين ديناراً إذا كتب الله السلامة لمركبه .

فلما ظفر التاجر بالسلامة ، وفى لصاحبنا بنذره بعد أن قص عليه قصته .

فأطرق جحا برأسه إلى الأرض ثم قال بعد تأمل عميق :

« تباركت يارب فى علاك : لو أننى سلفت أحداً غيرك هذا المبلغ لأعاده فى هدوء ، دون أن يخطر على باله أن يزعج أحداً ويعرض حياته للتلف ، ليرد مبلغى إلىّ » .

وهو — كما ترى — تعبير جحوى بارع ينطوى — فى

فكاهته — على أقصى الجد المرير . وفى هذا يقول فى بعض خواطره :

وهكذا ترك لى « أبو مرة ظالم بن الحارث » زاده كله ، فرحت آكل من طعامه هنيئاً مريئاً بعد أن هيأت لى كوارثه ونكباته ، ما لم تهيئه لى مباهجه ومسراته .

إلى أن يقول : وكم سعد سعيد بشقوة شقى ، وللقدر تصريف خفى . وغرق مركب بمن فيه ، ولم ينج أحد من راكبيه . فهلك السفر والربان ، وراحوا زاداً للسمك والحيتان .

تم هذا كله فكان ماذا ؟

قامت المنادب فى ديار الغرقى والناحات ، وأعلنت الأفراح فى قاع البحر وعمت المباهج والمسرات . ولولا غرق المركب بمن فيه من الناس، لما تم للسمك مايطمح إليه من بشر وإيناس، ولما أقام الولائم والأعراس . وكم للقدر من عجائب وفنون ، ولله فى خلقه شئون .

(البقية فى العدد القادم) كامل كيلانى

حزب الاستقلال المراكشى

مظهر من مظاهر الكفاح العربى للحرية

لباحث فاضـــل

فى فاتحة يناير ١٩٤٤ تأسس بمراكش حزب سياسى كبير تحت اسم (حزب الاستقلال) انتظمت فى سلكه جميع الأحزاب والهيئات السياسية الموجودة من قبل . وفى يوم ١١ يناير ١٩٤٤ حرر مذكرة قدمها إلى جلالة ملك مراكش وإلى ممثلى انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وروسيا يعلن ضرورة الاعتراف باستقلال مراكش استقلالا تاما وإجراء انتخابات لتأليف مجلس تأسيسى ينظم البلاد تنظيما دستوريا وتوقيع الحكومة المراكشية على وثيقة الأمم المتحدة ليصبح لها الحق فى مشاركة العالم الحر فى مؤتمراته ومسئولياته فى تنظيمات ما بعد الحرب .

وقد وجدت الأمة المراكشية فى مذكرة حزب الاستقلال تعبيراً صريحاً وصادقا عن رغبتها فاندفعت تؤيدها بكل حماسة بوادى وحواضر ، ورأى الفرنسيون والحلفاء بأعينهم إجماع أمة بأكلها طيلة ثلاثة أسابيع إلى أن انقلبت ميادين التأييد وتقرير المصير إلى ميادين قتال ودماء ووحشية مظلمة تسجل العار الأبدى على الفرنسيين .

وأقيل من منصبه ونفى إلى الصحراء صاحب المعالى وزير العدلية الإسلامية سيدى محمد بن العربى ، وصاحب المعالى وزير المعارف العلامة الحاج احمد بركاش ، وسعادة محافظ العاصمة ، كما اعتقل الكاتب العام لحزب الاستقلال احمد بلافريج وقدم للمحاكمة العسكرية هو وثلة من الزعماء السياسيين ، بحجة الاتصال بالألمان ، وقد حكمت المحاكم العسكرية ببراءتهم جميعاً ، فأخرج بالافريج من السجن العسكرى إلى جزيرة كورسيكا حيث هو الآن منفى مع زوجه .

وقد أكد حزب الاستقلال فى تلك الظروف السود أن موقفه لم يتغير وأن مذكرة ١١ يناير هى الأساس الوحيد لكل تفاهم مع الفرنسيين . أما الفرنسيون فقد نظموا هجوما سياسياً مضاداً هو إعلان دار الحماية عزمها على إدخال بعض الإصلاحات بعد أن تؤسس لجاناً رسمية تدرس لها ما تحتاجه مراكش من الإصلاحات . وقد كتب حزب الاستقلال مذكرة مطولة قدمها للفرنسيين وأظهر فيها ما يحتوى عليه برنامج دار الحماية من مراوغة وسخف ، كما أكد أن مذكرة ١١ يناير هى وحدها الحل الوحيد الممكن للتقارب بين المراكشيين والفرنسيين .

ماذا يريد الفرنسيون من مراكش ؟

يريدون أن تبقى جاهلة ، ولا أدل على ذلك من أن المراكشيين لم ينتجوا زهاء ثلث قرن كامل قضوه تحت تحكمات الفرنسيين سوى ثلاثة أطباء ونحو سبعة محامين ونزر من المدرسين !

ويريدون منها أن تكون مفككة العرى متنازعة مقسمة على نفسها ، ولا أدل على ذلك من (الظهير البربرى) التهير الصادر يوم ١٦ مايو ١٩٣٠ والمرسومات والقرارات التى تبعته والتى فرضت على سكان البوادى المغربية أن يخرجوا عن الإسلام بالنار والحديد والشنق، وأن يقطعوا كل صلة باللغة العربية وأن يعزلوا عزلا عن كل اتصال ببقية مواطنيهم المراكشيين . ويريد الفرنسيون من مراكش أن يكون فلاحوها متشردين

وقطاع طرق ، ولا أدل على ذلك من مرسوم ١٩٢٧ القاضى باعتبار نزع أراضى الفلاح المراكشى لفائدة « المستعمر » الفرنسى من المصلحة العامة . وليتصور القارىء أن مراكش من الأقاليم التى تشيع فيها الملكية الصغيرة ، فتكوين (عزبة) للتعمير تطلب اعتياديا نزع أراضى مئة إلى مئة وخمسين فلاحا مراكشياً يسلمون أراضيهم العزيزة لسيدهم المستعمر وينزلون هم إلى المدن يائسين من الحياة يزيدون فى عدد البؤساء المجرمين . وهذه السياسة مستمرة منذ صدر مرسوم ١٩٢٧ .

ويريد الفرنسيون من مراكش ألا يسمع فيها صوت غير صوتهم ولا تنفذ إرادة غير إرادتهم ، وليس أدل على ذلك من أن مراكش تعيش قانونياً وعملياً تحت الحصار « الأحكام العرفية » منذ سنة ١٩١٤ إلى اليوم ، وهى مقسمة إلى مناطق على رأس كل منطقة منها حاكم عسكرى ليس لسلطته حدود ، وعلى رأس الحكام العسكريين القائد الأعلى لجيوش الإحتلال بيده تفويض تام لإصدار أوامر باسمه متى شاء وكيف شاء ، فالمراسيم الملكية نفسها يوقف تطبيقها أو يناقضها أو يعدلها بحسب مصلحة جيش الإحتلال ووفقاً للمرسوم الملكى نفسه الصادر سنة ١٩١٤ القاضى بوضع البلاد تحت حالة الحصار « الأحكام العسكرية » وطبقاً لهذه الحالة المؤلمة ليس للمراكشيين ولا جريدة واحدة أو مجلة ، بينما تصدر الجالية الفرنسية عشرات الجرائد والمجلات من كل الألوان والنزعات . وليس للمراكشيين الآن ولا جمعية واحدة . وقد حلت إبان حوادث يناير ١٩٤٤ جميع الجمعيات والهيئات التى كان سمح بها من قبل لغايات استعمارية مختلفة . والمراكشيون محظور عليهم بحكم مرسوم ١٩٣٨ أن ينتسبوا لأية نقابة ، ومحظور عليهم أن يعقدوا أى اجتماع كيفما كانت صبغته ، ومحظور عليهم أن يتظلموا أو يقدموا عرائض تكشف عن رغباتهم . وليس للمراكشيين أية هيئة انتخابية تمثلهم إزاء السلطة بينما ينتخب الفرنسيون فى مراكش للمجالس البلدية والغرف الفلاحية « الزراعية » والتجارية والصناعية ولمجلس شورى الحكومة المراكشية والبرلمان الفرنسى مباشرة برغم وضع مراكش الدولى والوطنى . والمراكشيون محظور عليهم التعليم الحر بينما أطفالهم الصغار على حد ما جاء فى خطاب جلالة الملك يوم ١٨ نوفمبر الأخير متشردون فى الطرقات العامة لا يجدون مدارس تكون منهم رجالا قديرين ، ولا تتسع المدارس الحالية لأكثر من ثلاثين ألف طفل فقط .

والمراكشيون يعيشون تحت نظام بوليسى محكم ، يسير الإنسان والأرصاد الجواسيس تتبعه وأخباره يبحث عنها حتى فى منزله ومع أولاده ، وكل شخص من المحتمل استدعاؤه لإدارة المحافظة على الأمن حيث يذوق ألواناً من التعذيب الجثمانى والكلام على تهمة مختلقة أو تافهة ، ومن الممكن إبقاؤه تحت يد الشرطة فى آفاق التعذيب المظلمة شهراً أو أكثر ثم إطلاقه من غير أن يمر بمحكمة أو يسمع له بدفاع يثبت براءته عند البوليس ... ليتصور القارىء أن روح الشرف وعاطفة التضامن والشجاعة ونقاوة الضمير وكل ما يعتبر فضيلة فى علم الأخلاق يعتبر فى نظر الفرنسيين فى مراكش جرائم خطيرة يطارد أصحابها وينكل بهم شر تنكيل ؛ لأن العقلية الاستعمارية الفرنسية لا تعترف بحياد لأحد مطلقاً ؛ فإما خادم لهم يدل على غيره ويتعلق لأصغر الجواسيس وهو يتظاهر بالرضى والابتسام ، وإما عدو تعرقل مصالحه اليومية باستمرار وينتظر به أول فرصة ليرمى به فى السجن أو ليساق إلى غرف التعذيب فى قسم المحافظة على الأمن .

هذه هى الحالة النفسية والمادية التى تعيش عليها مراكش تحت الاستعمار الفرنسى المفروض ، ولكن المراكشيين يفضلون الموت على هذه الحياة التعيسة التى سامتهم من البؤس الفظيع ما لا يطيقون . لذلك صرخ حزب الاستقلال حزب مراكش الأعظم والوحيد باسم اثنى عشر مليون مراكشى أن (لاحماية) ، فزلزل الفرنسيون للتأييد الجارف الذى لقيته هذه الصرخة العنيفة من ملايين المواطنين ابتداء من صاحب الجلالة ملك البلاد المحبوب إلى أصغر فلاح فى جبل الأطلس ، ثم سددوا بنادقهم المجرمة ونيرانهم إلى صدر شعب برىء وقالوا إن يد الألمان حركته .

وهذا الشعب الذى لم يخجل الفرنسيون أن يقولوا إن يد الألمان حركته هو الشعب الذى قدم بسخاء دم أبنائه النفيس ليحرر صقلية وتونس وإيطاليا وفرنسا ووضع جميع موارده الاقتصادية وقواعده الحربية تحت تصرف المكافحين فى سبيل الحرية لتصبح العدالة فارضة على الجميع أن يحترموا له حريته هو أيضاً من غير أن يضطر إلى إراقة دمه مرة أخرى .

مراكش «خبير»

فلسطينيات :

العـــزاب . . . !

للأستاذ نجاتي صدقي

تجاوز فهيم عبد الجواد الخامسة والأربعين ولا يزال عـزَباً. فـكم من مرة نصحته أمه فى شبـابه أن يدخر عندها كل يوم خمسة قروش فلا تمضى أربع سنوات أو خمس إلا وتـكون قد جمعت له مهر العروس ... لـكنه كان يقابل رأيها هذا بابتسامة ساخرة ويقول لها : حسن . هاك نصف جنيه عن عشرة أيام ! فينساها ، وتنسى أمه مسألة الادخار إلى أن تثار الحكاية من جديد ، فتنصحه ويدفع ، فينسى ، فتنسى ، وهكذا ظل فهيم دون زواج .

فـكان مكبوت العاطفة ، رقيق الشعور نزقا فى بعض الأحايين . وفى عصر أحد الأيام ، بينما كان يحاول إغلاق مكتبه الذى يتعاطى فيه أعمال تأجير البيوت ، جاءته فتاة أجنبية ، وسألته عن غرفة مفروشة أو غير مفروشة ، لـكنها رجته والحت فى السـؤال فوعدها خيراً ... ولما علم منها فى سياق الحديث أنهـا جاءت المدينة فى ذلك اليوم ، وأنها وحيدة لا أهل لها ولا معيل ، أحب أن يمثل معها دور العاطف عليها ، فحدثها عن مصاعب الحياة ، والحرب وذيولها ، وغلاء المعيشة ، وأزمة المساكن ، وكانت الفتاة توافقه تارة وتخالفه تارة أخرى ، وفى نهاية الأمر دعاها لتناول العشاء معه ، فترددت ، فأغراها بمآكل المدينة القديمة الشرقية وبالتفرج على بيوتها وفرشها ، فترددت ثانية ، لـكنها استعرضت فى مخيلتها صوراً خيالية براقة فرأت فى هذه الدعوة ما يكشف لهـا أسراراً طالما طالعتها فى الروايات والقصص ، فأومأت إليه برأسها موافقة ، وذهبا سوية إلى مسكنه فى دير الأرز الواقع فى وسط المدينة القديمة .

كانت الساعة وقتئذ تقارب الثامنة مساء ، وقد انتشر الظلام فى حارات المدينة وأزقتها ، ولم ينرها سوى قناديل زيتية تـكاد لا تعكس ضوءها إلا على نفسها فقط ! . وكانت الفتاة تسير إلى جانب فهيم أفنـدى وتتعثر ، فيعينها بوضعه راحته تحت رسغها برفق ، وإذا ما تراءى له أنها ستقع ، تأبط ذراعها ، فتشـكره بكلمات غير واضحة متقطعة . ولما اقتربا من الدير قال لها : حذار من إحداث ضجة أثناء دخولنا الدير . سيرى على أطراف قدميك قالت : وهل من شىء تخشاه ؟ إننى ضيفتك ، ومن يجرؤ ويمانع فى زيارتى لك ؟ ...

قال : للمسألة صلة بالتقاليد وليس بقواعد الاتيـكيت . فمن عاداتنا ألا تزور امرأة رجلا أعزب فى بيته .

قالت : حقاً إنها لعادة غريبة ! ...

ودخلا الدير كما أفهمها فهيم أفندى ، وصعدا إلى الطابق الثانى بهدوء مطلق ، وولجا الغرفة بهدوء أيضاً .

ودير الأرز هذا كان فيما مضى من الأيام ملجأ للمتعبدات اليونانيات ، إلا أنه تحول إلى مسكن لرقيق الحال من الناس ، فضمت جدرانه مهاجراً بولونياً ، ولاجئاً يونانياً ، ومجلد كتب ، وممرضاً ، وبائع الخضار ، وغيره بائع الألبـان ، وصاحب مكتب تأجير البيوت فهيم عبد الجواد ، وكان جميع ساكنى هذا الدير من العزاب ، ولذا كانوا يفرضون على بعضهم بعضاً رقابة أخلاقية شديدة الوطأة .

وما إن أجلس فهيم الفتاة إلى المائدة حتى سمع لغطاً خلف الباب ، ثم رأى وجهاً يطل عليه من النافذة التى تعلوه ، فعرف فيه وجه جاره مجلد الـكتب ، وقد اتقدت عيناه فغدتا أشبه بالجمر وأخذ ينقر الزجاج بسبابته مشيراً إلى فهيم أن يفتح باب الغرفة .

فما كان من فهيم إلا أن زجره ، لـكن المجلد تمادى فى النقر وعلى حين غرة حطم الزجاج بجمع يده فأحـدث فيه فجوة ومد أصابعه منها إلى المزلاج الداخلى وفتحه ... وكان الهرج خلف الباب يتزايد ، ثم بادر المجلد فهيما بقوله :

— ألا تخاف ربك يا جارى ؟ !

فقال فهيم : خسئت أيها اللئيم ، إنهـا ضيفى ، وحاشا أن أدنس بيتى ...

فقال المجلد : فوالله إن لم أقض السهرة برفقتـكما أثرت سكان الحى عليـكما ! ...

وكانت الفتاة ترتجف من شدة الخوف والفزع ، وكان زملاء

فى كتاب البخلاء للجاحظ

قرأ عظيم من عظماء الفكر فى مصر كتاب البخلاء للجاحظ فى طبعة وزارة المعارف التى ضبطها وشرحها وصححها الأستاذان أحمد العوامرى بك وعلى الجارم بك ، عضوا مجمع اللغة العربية الملكى فرأى فيها بعض المآخذ على التصحيح أو على الشرح آثر حفظه الله أن ينشرها فى الرسالة خدمة لهذا الكتاب القيم عسى أن تفيد من اقتناه فى هذه الطبعة ، ومن يريد أن يعيد طبعه عنها. ونحن ننشرها شاكرين للأستاذ العظيم فضله على اللغة ، وعطفه على الأدب ، وصلته بمواصلة الرجل الكامل الذى يأخذ كل شىء مأخذ الجد الصارم ، وإن لم يكن من صميم عمله ولا من حر اختصاصه .

فى الجزء الأول

فى ص ٣٨ : « وإذا كان البكاء (الذى) ما دام صاحبه فيه فإنه فى بلاء — وربما أعمى البصر وأفسد الدماغ ودل على السخف وقضى على صاحبه بالهلع ، وشُبِّه بالأمة اللكعاء وبالحدث الضرع — كذلك ، فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ؟ »

قال الشارحان : لم تكن (الذى) فى النسخ التى بين أيدينا وقد أثبتناها من نسخة الشنقيطى ليكون المعنى بها أوضح .

ثم قالا فى رقم ٥ من الشرح : وقوله « كذلك » خبر كان .

وأنا أرى أن كلة « الذى » مقحمة لأنها تفسد المعنى ، وأن جواب الشرط « إذا » هو قوله : فما ظنك بالضحك الخ لا قوله « كذلك » ؛ لأن كلة كذلك إنما هي لضم « الحدث الضرع » إلى « الأمة اللكعاء » فى تشبيه صاحب البكاء بهما ، ومن الخطأ الفصل بين كلمتى الضرع و(كذلك) بتلك « الشرطة » — بذلك تتحرر العبارة ، وتنزل على المعنى المعقول الذى يريده الجاحظ وهو أن البكاء مطلقا ما دام صاحبه متلبسا به فهو فى بلاء ؛ وربما أعمى البصر ، وشبه بالأمة اللكعاء وبالحدث الضرع كذلك . وإذا كان هذا شأن البكاء على الإطلاق « أى لا شأن نوع منه » فما ظنك بالضحك الخ .

الجلاد يدفعون باب الغرفة بمناكبهم وكادوا يحطمونه لو لم يسارع فهيم إلى فتحه ، فإذا به يشاهد المرض وقد رفع مجلد الكتب على كتفيه ، وهو فى قميص النوم ، وبائع الخضار وقد التف بعباءة وهو حاسر الرأس حافى القدمين ، وبائع الألبان واقفاً بسرواله الواسع وبيده هراوة ثقيلة ...

ما هذه الاغارة ؟ وما الذى يريده هؤلاء القوم ؟ ...

إنهم العزاب ... شموا رائحة الأنوثة المسكرة تعبر بأبواب غرفهم ، فهبوا من فراشهم وتتبعوا الأثر إلى أن قادتهم أقدامهم إلى غرفة فهيم ، وكان منهم ما كان ...

قال المرض لجاره الذى أخل بشروط العزوبة :

— نحن جيران يا أخى منذ خمس سنوات ، وهل قصرت معك فى شىء ؟ هل طلبت يوماً روحى ولم أضعها تحت تصرفك ؟

وقال بائع الخضار : يافهيم ... إننى أعهدك صريحاً فلو أطلعتنى منذ الأمس على قصدك لكنت مددت لك يد المعونة ، ولسترت عليك الأمر ، ولما درت هذه الكف ما تفعله الكف الأخرى .

وتقدم بائع الألبان مزمجراً والهراوة فى يده وقال : وحق من بسط الأرض ، ورفع السماء ، إن لم تقبلنا فى سهرتك هذه ، لأنثرن دماغك فى جنبات هذه الغرفة ! ...

أما المسكينة فكانت تسمع ولا تفقه ، لكنها أدركت أنها بيت القصيد ، وأنها قد وقعت فى الفخ .

ولما رأى فهيم أن المسألة قد تأزمت ، وأن غرفته ستصبح مسرحاً لرواية مخزية ، ولفاجعة مؤلمة ، قال للفتاة بلغة لا يفقهها جيرانه : —

— لا تجزعى ، سأغلق عليك الباب ، وسأذهب فى طلب بوليس الأخلاق ...

وأقفل الباب على الفتاة واجتاز العزاب وقد تربعوا فى الممر يهدرون كالابل . وبعد دقائق معدودات ، عاد فهيم وبرفقته نفران فتبعثر العزاب هنا وهناك ، وخرجت الفتاة بحراستهما ، وقد سترت رأسها ووجهها بمنشفة حتى لا يراها أحد ، ثم تركوا الدير أربعتهم وساروا فى الطريق معا ، دون أن ينبسوا بكلمة واحدة . وإذ بلغوا مسكن النفرين ، وقف فهيم يستودعهما ويشكرهما على حسن صنيعهما . فأجابه أحدهما : لا شكر على واجب . ولكن هلا تفضلت مع الفتاة لنقضى السهرة عندنا ؟ !

نجاتي صدقي

على أن من يريد إقحام « الذى » بعد كلة البكاء لتقابل كلة «الذى» الواردة بعد كلة الضحك فى جواب الشرط ، لا بد أن يحذف الواو قبل كلة « ربما أعمى » لتكون ربما وما بعدها خبرا لكان .

وجاء فى صفحة ٣٤ : « وإن من أعظم الشقوة ، وأبعد من السعادة ، ألا يزال يتذكر زلل المعلمين ، ويتناسى سوء استماع المتعلمين » وأظن أن كلة (من) فى قوله وأبعد من السعادة زائدة أو واجبة التقديم على « أبعد » ؛ وإذا خذفت على اعتبارها زائدة فلا بد من جر « أبعد » بالعطف على أعظم .

وجاء فى صفحة ٧٧ : « قال أبو مازن وأرخى عينيه وفكيه ولسانه ، ثم قال : سكران والله ! أنا سكران » . وقال الشارحان تعليقا على (قال) الثانية : كان يمكن أن يستغنى عن قال هذه ، والصواب فى رأيى أن قال الأولى صحتها « مال » إذ لو حذفت قال الثانية لبقى الإشكال فى ثم .

وجاء فى صفحة٨٩ : «قد عرفت الرأس حق معرفته ، وفهمت كسر الإكسير على حقيقته » والصواب على ما أظن سر الإكسير لا كسر الإكسير . وفى الصفحة نفسها «وعرفت التنجيم والزجر والطرق والفكر» وقد فسر الشارحان كلة الفكر بقولهما :يحتمل أنه يريد بالفكر هنا طرق التفكير ، والذى أراه أن المراد بالفكرهنا هو قراءة أفكار الناس لا كيفية تفكيره هو ، وهذا النوع هو الشائع الآن عند كثير من المتكهنين .

وجاء فى صفحة ٩٠ : « ولولا أن أكون سببا لتلف نفسك لعلمتك الساعة الشىء الذى بلغ بقارون » وفسر الشارحان المراد بتلف النفس هنا بما قد ينشأ بتعلم هذا العلم من طغيانها وتمردها. وأقول إن المراد صعوبة حمل هذا العلم لما ذكره بعد من عجائبه ، تلك الصعوبة التى تقتضى بذل جهود مهلكة . وفى الصفحة نفسها فسر الشارحان « صنعة التلطيف » فى قول الجاحظ : « ولكنى سألقى عليك علم الإدراك ، وسبك الرخام ، وأسرار السيوف القلعية ، وعقاقير السيوف اليمنية ، وعمل الفرعونى ، وصنعة التلطيف على وجهه» فسرا صنعة التلطيف بصنعة النقش والتزيين. والأظهر أن التلطيف عملية كيميائية كما جاء فى طبعة ليدن . وما لا يعرف معناها بعد مراجعة كتاب الحيوان ، فالغالب أن معناها التصعيد أى تأويل الأجسام إلى غازات ، أو تخفيف الكثيف وجعله رقيقا .

وجاء فى صفحة ٩١ : « ولست أرضاك ولو كنت فوق البنين ، ولا أثق بك وإن كنت لاحقا بالآباء ، لأنى « لم أبالغ » فى محبتك » والصواب فى محنتك لا فى محبتك ؛ لأن عبارة « لم أبالغ » لا تتفق فى هذا المقام مع فى محبتك ، إذ الأب يصف حالة قائمة بنفسه قبل الكلام وأثناءه وبعده ، فإذا فرضنا أن (فى محبتك) غير محرفة ؛ فلا بد أن يكون ما قبلها محرفا عن « لا أبالغ » وبهذا التصحيح قد تكون عبارة ذلك الأب مفهومة . على أن الحق هو أنها صحيحة ، والمحرف إنما هى العبارة التالية ، إذ الأب يقول لابنه إن معارفى التى شغلنى تحصيلها عنك لم تترك لى وقتا أستزيد فيه من اختبارى درجة عقليتك وامتحان مبلغ استعدادك . ولذلك تمشت عبارة « لم أبالغ » مع عبارة « فى محنتك » لأن الوالد يبالغ دائما فى محبة ابنه .

وجاء فى صفحة ٩٣ :«احتال الآباء فى حبس الأموال على أولادهم بالوقف ، فاحتالت القضاة على أولادهم بالاستحجار»وقال الشارحان وقد عدل عن الحجر ، وهى الكلمة المألوفة إلى الاستحجار التى لم نجدها بهذا المعنى فيما بين أيدينا من المراجع . وأقول : ليس الاستحجار هو الحجر حتى يكون الجاحظ قد عدل عن هذه إلى تلك ؛ بل الواضح أن الاستحجار هو طلب الحجر ؛ واحتيال القاضى فى الاستحجار هو سعيه بسوء نية فى جعل أحد الناس يطلب الحجر على الموقوف عليه ، وهذا ظاهر لا يدعو للتشكك ولا للرجوع إلى المعاجم .

وفى الصفحة نفسها يقول الجاحظ:« يا ابن الخبيثة : إنك وإن كنت فوق أبناء هذا الزمان فإن الكفاية قد مسختك » وأقول إنها مسحتك بالحاء المهملة لا مسختك كما فى المتن ، ولامحنتك كما فى نسخة ليدن ، ولا محنتك بتشديد الجيم كما ينطق بعض المستشرقين . وذلك أن مسح الرجل أو مسحه بالتشديد معناها قال له قولا حسنا ليخدعه به ؛ فالمراد إذن أن الكفاية أى رغد العيش الذى أنت فيه قد فتنتك وخدعتك عن نفسك .

وجاء فى صفحة ١٠٢ :« وزرته أنا والمكى ، وكنت أنا على حمار مكار ، والمكى على حمار مستعار ، فصار الحمار إلى أسوأ من

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٦٩٤ — وأنت فى جد

فى (مسالك الأبصار) : قال عبد الله بن الربيعى : دخلت أنا وأبو النصر البصرى (بِيعة[1] ما سَرجِس) وقد ركبنا مع المعتصم نتصيد . فوقفت أنظر إلى جارية كنت أهواها ، وجعل هو ينظر إلى صورة فى البيعة استحسنها حتى طال ذلك ، ثم قال أبو النصر :

فتنتنا صورةٌ فى بيعـــة ! فتن اللهُ الذى صورهـــا !
زادها الناقشُ فى تحسينها فضلَ حسن أنه نضّـرها
وجهها (لا شك عندى) فتنة وكذا هِىَ عند من أبصرها
أنا للقَس عليها حاســـد ليت غيرى عنــد كَــسْرها !

قال الربيعى : فقلت له : شتان ما بيننا ، أنا أهوى بشراً ، وأنت تهوى صورة .

قال لى : هذا عبث ، وأنت فى جد .

(١) البيعة — بالكسر — متعبد النصارى ج بيع كعنب .

٦٩٥ — وصاحبها عند الكمال بموت

حكى أن إنسانا رفع قصة إلى الصاحب كمال الدين بن العديم فأعجبه خطها فأمسكها وقال لرافعها : أهذا خطك ؟

قال : لا ، ولكنى حضرت إلى باب مولانا فوجدت بعض مماليكه فكتبها لى . فقال : علىّ به . فلما حضر وجده مملوكه الذى يحمل مداسه وكان عنده فى حال غير مرضية . فقال له الصاحب : أهذا خطك ؟ قال : نعم . قال : فهذه طريقتى فمن الذى أوقفك عليها ؟

قال : يا مولانا كنت إذا وقعت لأحد على قصة أخذتها منه وسألته المهلة على حتى أكتب عليها سطرين أو ثلاثة . فأمره أن يكتب بين يديه ليراه فكتب :

حال المذود) والصواب الزَّور لا المذود ، والزور : الضيوف جمع زائر ، مثل ركب وصحب جمع راكب وصاحب .

وجاء فى الصفحة نفسها : «فأعاد المسألة فأمكنه من أذن من لايسمع إلا مايشتهى» ، وقال الشارحان : « فأمكنه إلى آخره ، أمكنه من الشىء مكنه بتشديد الكاف منه ، وفاعل أمكنه يعود إلى المكى ، وضمير المفعول إلى المسألة بمعنى الطلب ليطابق المرجع . وأقول إن هذا التفسير يفسد عبارة الجاحظ ، وهى من أجمل العبارات . والصواب أن صاحب البيت هو الذى أمكن المكى من أذن صماء كما تقول : أعارنى أذنا صماء . وجمال العبارة هو فى التمكين الموهم بلوغ المقصود ، ثم اتباع هذا التمكين ببيان أن الباب الذى انفتح لا يؤدى إليه ، وإنما يؤدى إلى نقيضه .

وجاء فى صفحة ١٠٣ :«وصديق كنا قد ابتلينا بمؤاكلته ، وقد كان ظن أنا قد عرفناه بالبخل على الطعام ، وهجس ذلك فى نفسه ، وتوهم أنا قد تذاكرنا أمره ؛ فكان يتزيّد فى تكثير الطعام ، وفى إظهار الحرص على أن يؤكل حتى قال : من رفع يده قبل القوم غرمناه دينارا . فترى بغضه إن غرِّم دينارا . وظاهرُ لائمته ، محتمل فى رضا قلبه ومايرجو من نفع ذلك له » .

وقال الشارحان بعد أن فسرا هذا الكلام على هذا الضبط : (ولا يخفى مافى هذه العبارة من إيجاز وغموض ، وأقول : إن سوء الرسم هو الذى أدى إلى تفسيرهما المعقد ، وصواب العبارة أن تضبط هكذا « فترى بغضه أن غرم دينارا ، وظاهرَ لائمته ، محتملين فى رضا قلبه إلى آخره) وإذن يكون معنى العبارة أنك أيها القارىء ترى أن بغضه للكرم المدلول عليه بتغريمه الدينار ، والدينار أكبر قيمة من كل طعامه ، ثم إكراهه نفسه على الظهور بمظهر من يلوم على عدم الأكل ، هاتين الخصلتين المتناقضتين قد وسعهما قلبه فاحتملهما لما يرجوه من الظفر فى النتيجة .

(يتبع)

وما تنفع الآداب والحلم والحجا وصاحبها عند (الكمال) يموت

فكان إعجاب الصاحب بالشعر أكثر من الخط لأن فيه تورية لطيفة، ورفع منزلته حينئذ.

٦٩٦ — قد أبلغناه محبته

في (شرح النهج) لابن أبي الحديد: قيل لأبي مسلم الخراساني إن في بعض الكتب المنزلة: (من قتل بالسيف فبالسيف يقتل) فقال: القتل أحب إلى من اختلاف الأطباء، والنظر في الماء، ومقاساة الدواء والداء. فذكر ذلك للمنصور بعد قتل أبي مسلم، فقال: قد أبلغناه محبته ...

قال المنصور للمهدي: ما أُيدت بمن أيد به من كان قبلي، أيد معاوية بزياد، وأيد عبد الملك بالحجاج. فقال المهدي: قد أيدت بمن فوقهما. فقال تعني أبا مسلم؟ قال: نعم. قال: قد كان كذلك لكنه خيرنا بين أن نقتله أو يقتلنا فاخترنا قتله ...

٦٩٧ — وعليه زيتهم

في (تاريخ بغداد):

قال أبو بكر بن شاذان: سألت أبا الطيب محمد بن الحسين اللخمي أن يملي على شيئا فأبى، ثم سألته فأجاب، فقلت له: أعطني ورقة. فقال لي: والورق من عندي؟!! اكتب، وأنشدني هذه الأبيات:

رب، ما أقبح عندي عاشقا مستهاما يتفقا سمنا!

قلت من ذاك؟ أنا؟ فاستضحكت ثم قالت: من تراه؟ فأنا؟

قلت: زوريني فقالت: عجبا أنا والله إذن قاري منى

إذ يصلى وعليه زيتهم أنت تهواني وآتيك أنا؟!

٦٩٨ — إن اهتمامك بالمعروف معروف

قال عبد الأعلى بن حماد النرسي، قدمت على المتوكل بسر من رأى، فدخلت عليه يوما فقال لي: يا أبا يحيى، قد كنا هممنا لك بأمر، فتدافعت الأيام به، فقلت: يا أمير المؤمنين، سمعت مسلم ابن خالد المكي يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة، وأنشدته:

لأشكرنك معروفا هممت به إن اهتمامك بالمعروف معروف[1]

ولا ألومك إن لم يمضه قدر فالشيء بالقدر المحتوم مصروف

فجذب الدواة فكتبهما، ثم قال: ينجز لأبي يحيى ما كنا هممنا له به، وهو كذا، ويضعف لخبره هذا.

٦٩٩ — لا يعقل

أبو سعيد الكرماني:

عزلت وما خنت فيما وليت وغيري يخون فلا يعزل

فهذا يدل على أن من يولى ويعزل لا يعقل

٧٠٠ — أهذا أيضا مما أعده؟

في (الكشاف): عن عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) أنه شكر عبد الملك حين زوجه ابنته، وأحسن إليه فقال: وصلت الرحم وفعلت وصنعت وجاء بكلام حسن. فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعده لهذا المقام، فسكت عبد الملك. فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر، فسأله عن نفقته وأحواله فقال: الحسنة بين السيئتين. فعرف عبد الملك أنه أراد ما في هذه الآية: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكان بين ذلك قواما[1]» فقال لابنه: يا بني، أهذا أيضا مما أعده؟ ...

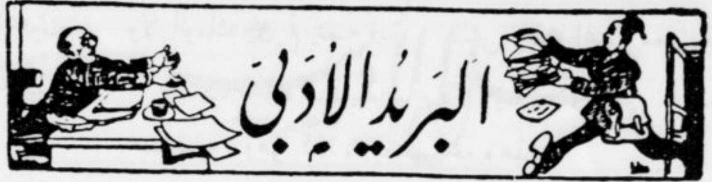
٧٠١ — حتى تغرب الشمس

قال أحمد بن طاهر: كنت في مجلس بعض أصدقائي يوما، وكان معي علي بن عبيدة الريحاني[2] في المجلس، وفي المجلس جارية كان يحبها، فجاء وقت الظهر فقمنا إلى الصلاة وعلي والجارية في الحديث. فأطال حتى كادت الصلاة تفوت فقلت له: يا أبا الحسن، قم إلى الصلاة، فأومأ بيده إلى الجارية وقال: (حتى تغربَ الشمس) فجعلتُ أتعجب من حسن جوابه، وسرعته وكفايته.

(١) القوام: العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالها، ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء. وقرئ قواما (بالكسر) وهو ما يقام به الشيء (الكشاف)، وفي اعراب القرآن للعكبرى: (وكان بين ذلك) أي وكان الانفاق و (قواما) الخبر، ويجوز أن يكون (بين) الخبر و (قواما) حالا.

(٢) هنيات: جمع هنية، في (النهاية): أنه أقام هنية أي قليلا من الزمان ويقال هنيهة أيضا في (المصباح): مكثت هنيهة أي ساعة لطيفة.

(١) شكرت له وشكرته وأنكر الأصمعي شكرته وقال بابه الشعر (المصباح) شكرته وشكرت له وباللام أفصح، وشكرت نعمة الله (اللسان)



مجون كالجنون :

إذا جاز لغيرنا من أمم الغرب أن يستحلوا الكذب الطريف فى أول ابريل لأنهم قلما يكذبون فى سائر الأيام ، فما الذى يجيز لنا نحن أن نتعمد الكذب فى هذا اليوم ، وحياتنا ومعاملاتنا وأخلاقنا ومبادئنا كلها كذب صراح فى جميع أيام العام ؟ لقد كان الأخلق بنا أن نستريح فى هذا اليوم إلى الصدق ترفيها لأنفسنا وألسنتنا من عناء الكذب المتصل فى كل ساعة وفى كل شيء . وإذا لم يكن بد من هذا التقليد البليد فمن لوازمه أن يتوخى الكذاب الطرافة والظرف فيما يكذب ليكون له من هذه الحال مبرر . ولا ندرى أى طرافة وأى ظرف فى هذه الكذبة المؤلمة التى صاغها ذلك الطالب الماجن حول حياة الأستاذ منصور جاب الله ، وبعث بها إلى الرسالة فنشرتها فى العدد الماضى ! لقد رُوع أصدقاء الأستاذ منصور ، وبخاصة صديقه الأستاذ كامل كيلانى ، فقد بات بليلة الوفى المرزوء يكابد مرارة الحزن ، ويعد كلمة الرثاء ، ويتمنى مع ذلك على الله أن يرد علينا فى الصباح خبر يكذب الخبر لأننا لم نقرأه فى صحيفة ولم نسمعه من أحد . وقد حقق الله ما تمناه ، وجاءنا من الأستاذ منصور هذا الكتاب الذى يكذب والحمد لله ما نشرناه :

سيدى ... رئيس تحرير « الرسالة »

تحية واحتراما ، وبعد ، فقد دهشت أن يعمد أحد المجان إلى صحيفة الأدب الرفيع الوقور ، فيتخذ منها متنفسا لمجونه العابث ومرتعا لهذه العادة السخيفة التى يسمونها « أكذوبة إبريل » .

وإنى إذ أشكر الصحب والإخوان الذين شملونى بعطفهم وأولونى برهم ، أعجب لهذا العابث الذى يزعم أنه ينتسب إلى إحدى جامعاتنا ، حين تزيد فى القول فادعى أنى أكتب الرسائل الجامعية لأصحابها ، وأنى أحرر المقالات والمحاضرات للأصدقاء الموزين .

من أين علم هذا ؟ وكيف لى بهذا ؟ إن مثل هذا التعريض لا يليق بشاب ينتظره مستقبل لامع وأمة ناهضة .

إنها على كل حال سانحة طيبة لأبادل إخوان الأدب وأهل الفضل شعورهم . جزاهم الله خيراً ، وأجزل بين الأبرار ثوابهم . والسلام عليكم ورحمة الله .

(اسكندرية) **منصور جاب الله**

رسالة فى القدر :

[لصاحب ديوان « وحى المرآة »]

سيدتى الفاضلة :

تلقيت كتابك الكريم الحزين ، وإنى لألمس فيما يضطرم فيه من لاعج الألم : وفيما ينطوى عليه من احتجاج كظيم وثورة مكبوتة ، مبلغ السعادة التى فجعك فيها القدر ، ذلك القدر الذى فجعنى مثل فجيعتك .

وما أحسب أهل الحضارات القديمة من الأمم الخالية إلا على عذر فى تصورهم أن الآلهة تحسد من تهيأت لهم السعادة فى تمامها وكمالها من البشر ، فتبتدرهم بما يقتضب تلك السعادة عليهم .

ولقد كنت فى صدر حياتى أعجب للمأساة عند الاغريق وتصويرهم فيها للقدر يقضى قضاءه لغير موجب نعقله ، فلا تجدى حيلة ولا شفاعة ، لا حيلة فى الأرض ولا شفاعة فى السماء تقف فى وجه القدر الطاغية فيما يروونه من أساطير تاريخهم . وذلك أنهم كانوا — مع إيمانهم بسلطان الأرباب على البشر — يجعلون القدر فوق الأرباب .

وإننى لأذكر اليوم هذه الصورة للقدر التى كنت أعجب لها عند الإغريق الأقدمين ، ثم أذكر هذا الذى ما نزال عليه نحن عامة المسلمين من الاعتقاد بالمقدور المكتوب من قديم لكل واحد منا ، وما يستتبعه من الدعاء بدعائنا المأثور « اللهم لا أسألك رد القضاء ، ولكن أسألك اللطف فيه » فلا أملك نفسى من مراجعة النظر والتفكير . أجل ، إنى لأديم التفكير فى هذا على الرغم منى .

ولست أزعم ولا أنت تزعمين يا سيدتى أن الفجيعة التى نزلت بنا لم تنزل قط بأحد غيرنا . ولكنى لا أجد فى ذلك عزاء وأظنك مثلى ، وإنما ذلك أدعى إلى زيادة الأسى على حظ البشر المساكين .

وكل ما يستطيعه الإنسان فى رأيى ويليق بكرامته أن يواجه الحقيقة وينظر إلى وجهها سافرة معتصما بذلك الاستسلام الجليد النبيل الذى عرف به الفلاسفة الرواقيون . فهل نحن مستطيعون ؟ وقبل أن أختم هذه الكلمة اليائسة التى كنت أود لو قلت

غيرها من قبيل الكلام الذى تعوده الناس فى هذه المناسبات الحزينة ، أعتذر مخلصاً للسيدة الفاضلة عن خروجى عن المألوف ، وأرجو أن تتقبل اعتذارى . أما اعتذار السيدة عن ترديدها لشعر الديوان فى بكاء حبها الضائع وإلفها الراحل فهو حقها ، فالديوان ديوانها مثل ماهو ديوانى ؛ إنه ديوان كل من أصيب فى حبيب . أما ثناؤك الكريم يا سيدتى على ناظم الديوان ، فانه ينصرف إلى صاحبة وحيه ولك عليه أجزل الشكر منى

عبد الرحمن صدقى

حول نقل الأديب

تتحف الرسالة الغراء قراءها الفينة بعد الفينة بما يعتمى الأستاذ الجليل النشاشيبى فى (نقل الأديب) ويشفعه بالبيان والنقد مما لا يذر طلبة لمستزيد .

وفى عدد الرسالة الأخير رقم ٦٦٥ الطرفة الأولى (قضية خمرية) التقطها الأستاذ من (شرح المقامات) للشريشى . غير أنه لم يعقب عليها بالرد على تفسير القاضى عبيد الله بيتى حسان فى زعمه أنه يريد بقوله (كلتاهما حلب العصير) الخمر ومزاجها ، فالخمر عصير العنب والماء عصير السحاب . كدأبه فى التنقيب والاستيعاب .

إن تلك الطرفة الأدبية (على ما زعم القاضى) سبق بقصها الأصبهانى فى الأغانى ، أخبار الواثق ج ٩ ص ٢٨٨ طبع الدار ، وحكاها الحريرى استطراداً فى درة الغواص الوهم ١٠٨ ثم نقلها عنه ابن حجة الحموى فى أوائل (ثمرات الأوراق) كما ذكر الشريشى .

وقد فند ابن الشجرى فى أماليه تفسير القاضى بأوجه ثلاثة : الأول أن (كلتاهما) للمؤنث والماء مذكر ؛ والثانى أن (أرخاهما) للمشاركة والزيادة والماء لا إرخاء منه ؛ والثالث التدافع بين قولى القاضى الخمر عصير العنب وحسان حلب العصير للزوم إضافة الشىء إلى نفسه . ثم ارتأى بعدئذ أن الشاعر أراد كلتا الخمرتين الصرف والممزوجة حلب العصير .

نقل ذلك كله عن الأمالى الشهاب الخفاجى فى شرح الدرة ، وكذا البغدادى فى خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٤٠ .

ولسيدى الأستاذ الجليل آى الاكبار والاجلال . **محمد الطنطاوى**

مدرس بكلية اللغة العربية

المرأة ووظائف النيابة والقضاء :

« الرسالة » مهبط الوحى الشعرى ومنار البيان النثرى فلا غرابة فى أن يتسع صدرها لعرض موجز لقضية طريفة أثيرت أخيراً فى إحدى المجلات وهى قضية المرأة وحقها فى تولى وظائف النيابة والقضاء ... فقد سألت المجلة سعادة النائب العام فتركزت إجابته فى نقط ثلاث : هى أن طبيعة العمل فى النيابة طبيعة شاقة . وأن القانون لا يسمح للمرأة أن تتولى النيابة . وأن حرمان المرأة هذا الحق هو فى الواقع — عند رأيه —

هذا رأى النائب العام . وللرد عليه نقول : أفليست المرأة تحمل ليسانس الحقوق كالرجل ؟ وإذا كانت قد استوعبت قواعد التقنين وأصول التشريع ووسائل التحقيق وطرائق المرافعات كما استوعبها الرجل سواء بسواء ، فما المانع الجدى الذى يحول دون الانتفاع بها فى وظائف النيابة ما دامت الأداة والوسيلة بين يديها ... ؟

وإذا احتج حضرة النائب العام بأن هناك بعض القضايا التى قد تخجل من ممارستها وتحقيقها « النائبة » فاحتجاجه هذا يدفعه أن المرأة بطبيعة الحال قد درست مثل هذه القضايا ، والدراسة مهما كانت تحمل لون التصور والتخيل للوقائع والتطبيقات العملية .

وإذا طلبت المرأة أن تتولى النيابة فى طلبها هذا رضاء ضمنى منها للقيام بسائر تبعات وظيفتها ... وعندئذ تسقط الحجة القائلة بأنهم يحرمونها لا ظلماً لها وإنما محاباة لها وإكراما ...

هذا ويعرض سعادة النائب العام بطلب زميلة فاضلة أرادت الاشتغال بالنيابة مع اشتراطها أن تعمل وكيلة للنائب العام فى قضايا الأحداث ... ولست أدرى ... أكان يجب أن تشكر على اختيارها هذا القائم على المنطق والدراية والقياس ... أم كان ينتظر أن تمنع ويعرض برأيها ... الحقيقة أن خير من يزن ويقدر أحوال ودوافع الجريمة عن الأحداث هن المرأة ... إنها وحدها التى تحمل التوجيه والتربية فى عطفها الأموى . ثم لم تتجه الإرادة والرغبة إلى تخصيص قضاة للأحداث ، فلم لا تترك هذه الوظائف للمرأة ... وظائف قضاة الأحداث ونيابة الأحداث ...

وبعد فهذه مشكلة نعرضها على صفحات « الرسالة » الغراء راجين من كتابها القانونيين أن يسارعوا إلى دراستها ...

(إسكندرية) **عواطف بيومى**

قصص فرعونية :

٢ — قصة سينوحيت

لأديب مصري قديم

للأستاذ محمد خليفة التونسي

[ملخص ما نشر فى العدد ٦٦٣]

أشرك ملك مصر أمنمحعت الأول قبل وفاته بعشر سنوات ابنه وولى عهده أسرتسن الأول فى حكم مصر ، وكان أسرتسن يقوم بقيادة الجيوش فى حملاته على البلاد الخارجية بينما يبقى أبوه فى العاصمة لتدبير شئون مصر .

في إحدى حملات أسرتسن على ليبيا كان يرافقه بطل القصة سينوحيت الذى كان حافظ أختام الملك ونديمه ومستشاره والقيم على شئون الغرباء ، وبينما الجيش عائد إلى العاصمة من الغرب جاء رسول من القصر إلي أسرتسن يحمل إليه نعي أبيه سراً ، وسمع سينحوت بموت أمنمحعت فقرر الفرار من الجيش بل من مصر ، لأنه رأى أن فى بقائه فيها خطراً على حياته بعد موت أمنمحعت واستبداد أسرتسن بالأمر فيها ، فاختفى فى أحد الحقول حتى مر الجيش على مكمنه فلم يره ، ثم سار إلى سنفرو ثم الجيزة ثم عبر النيل إلى الشرق على طوف وجده هناك حتي وصل الجبل الأحمر ، ثم سار إلى الشمال مجتازاً مسلحة عند عين شمس كانت تحمى مصر من غارات الأسيويين ثم انحدر فى وادى كيمور (طوميلات) وفيه كاد يهلك ظمأ لولا أن عثر عليه رجل من الساتي (بدو آسيا) فعرفوه وأنقذوه وأضافوه عندهم أياماً ، ثم رحل عنهم إلى أدوم . وها هو ذا سينوحيت يروى بقية القصة ...

لم تطل إقامتى فى أدوم[١] أكثر من ستة أشهر ، وهناك وافانى من الأمير أمونشى الحاكم على مرتفعات تنو[٢] رسول يطلب منى أن أرحل إليه ، إذ كان فى حاشية هذا الأمير بعض المصريين الذين كانوا يعرفوننى ، فوصفونى عنده ، وأخبروه بمنزلتى[٣] فلبيت دعوته وأتيت ، فطلب منى الإقامة معه معللا ذلك بقرب بلاده من مصر ، وبأن من اليسير على ، وأنا فى بلاده ، أن أقف على ما يجرى فى مصر من أحداث .

وربما كان الرجل خالجه أن أمراً ما هو الذى الجأنى إلى أن أهجر بلادى ، فشاء الوقوف عليه ، فحاول استدراجى لأكشف له عنه ، فسألنى عما دفعنى إلى المجىء ، وعما جرى فى البلاط ، وما إذا كان الملك سحتب آب رع (أمنمحمت الأول) قد رحل إلى السماء[١] .

فهمت حيلة الرجل فلم تنطل علىّ ، وقلت له مداوراً حتى لا يهتدى إلى ما كان : « إننى لم آت هنا فراراً من ذنب جنيته : فأنا لم أنطق بفاحشة ولا أصغيت إلى رأى امرىء ، ولا حوكت أمام القضاء ، ولكنى — إذ كنت فى تمهو (ليبيا) — ترددت فى السفر ، غير أننى وجدت أنه لا يليق بشجاعتى أن أعدل عما أزمعت من الرحلة فرحلت ، لم يكن من أمرى غير ما حدثتك ، فأنا لا أدرى ما دفعنى إلى هذا الاقليم » .

قال الأمير : « إنما هى مشيئة الإله الكريم[٢] ، وإنّ ذكره ليلقى من الروع فى قلوب الأجانب ما يلقى عام القحط فى قلب الفلاح » .

فقلت : « عفواً فلقد تسلم ابنه مقاليد الملك ، وتربع على عرشه ، وإنه لفريد بين من سبقوه فى أخلاقه وعظمته ، فهو حازم أريب فى كل مايدبر من أساليب ملكه ، وهو يسبغ عطفه على كل من يخلص له ، وهو — إلى ذلك — قائد بارع دوخ بجيوشه الأقطار الأجنبية عند ما كان أبوه حياً فى القصر[٣] ، وهو بطل صنديد فريد فى قتاله : إنه — إذا دارت المعركة —

(١) ، (٢) أدوم مكان زراعى فى الجنوب الشرقى من فلسطين شمالى خليج العقبة ، وبجانبه مرتفعات كان يطلق على سكان بعضها تنو ، وأميرهم فى ذلك الوقت هو أمونشى كما يسميه الكاتب ، وقد كانت خيرات هذا المكان وفيرة نترك للقصة تفصيلها .

(٣) يلاحظ أن معرفة جوع الساتى فى الصحراء وبعض حاشية الأمير أمونشى لبطل القصة عنوان على عظيم مكانته فى البلاط المصرى ، وعلى اهتمام الأمم الساكنة شرق مصر بأخبارها ، وكان لقربها منها واختلاط أهل البلدين معاً أثر كبير فى ذلك كما يفهم من القصة .

(١) يلاحظ أن الأمير يريد التجسس على أحوال مصر من سينوحيت الذى يفطن إلى مقصده فأخذ يراوغ فى الجواب ، ثم يصكه فى رفق وكياسة بما يملأ قلبه خوفاً من مصر وإجلالا لها بعد أن ينفى عن نفسه التهم من الذنوب ، حتى يبين للأمير الذى ظنه مجرماً مضطراً إليه ، سهل الكشف عن عورات وطنه أنه ليس مضطراً إلى الاغتراب ، وأنه ما يزال مخلصاً لوطنه غيوراً عليه .

(٢) هو الملك ، وقد كان المصريون أول من ألهوا ملوكهم وأسبغوا عليهم صفات الآلهة .

(٣) حكم أسرتسن الملك مصر فى آخر حياة أبيه أمنمحعت الأول عشر سنين كما ذكرنا فى المقدمة ، وكان أبوه يخلفه فى الحكم عند ارتحاله للحرب كما يفهم من القصة .

لَيقتحم صفوف أعدائه الطَّغام غير هياب ولا وجل ، فيطيحُ أبواقهم ، ويهشم جماجمهم ، ويصدع صفوفهم بضرباته القوية حتى يشل قواهم ، فيكفوا عن القتال ، ويولوا الأدبار ، وهو مقتحم لا يأبه بالأخطار ، ولا قبل لأشجع الشجعان بالوقوف في وجهه ، كما أنه عداء سريع لا يستطيع أحد أن يفلت منه ، بل يتخطفه قبل أن يبلغ مأمنه ، وإذا ما استحرَّ القتل انقضَّ على أعدائه فنفضهم من حوله نفضاً ، وهجم ذات اليمين وذات الشمال ومن الخلف ومن الأمام ، وتساقطت ضرباته المنيفة الثقيلة في كل ناحية ، والويل لمن حلت عليه إحدى ضرباته ، إنها لتُجندله وتسحقه ، إنه هو الأسد الهصور ينشب براثينه في أعدائه بلا شفقة ، فإذا هم كالكلاب الذليلة الخاشعة قد انفضوا من حوله ، حتى إذا ما انهزموا لم يعفهم بل يطاردهم حتى يلحق بهم ، ويمزقهم شر ممزق . لقد أمدته الآلهة ببطشها وجبروتها ، وإنها دائماً لترعاه ، وتكفل له الغلبة على الأعداء الذين لا يؤمنون بها . وقد جمع إلى كل ذلك فضائلَ جمةً ؛ فهو أنيس حلو الشمائل لطيف المعشر نافذ البصيرة قدير على أن يخلب الألباب ويستميل القلوب ، وما من أحد في شعبه إلا وهو يؤثره على نفسه ، ويفتديه بحياته . وقد تمرَّس بالحكم ومصاعبه منذ ولد ، وكان مولده بشيراً بتكاثر الذريات ، وشعبه متمسك به ، يحبه ويستريح إلى حكمه ، وهو حريص على أن يمد حدود مصر نحو الجنوب ، وإن كانت الأقاليم الشمالية لم تخضع له[1] ، وهذه قبائل الساتي[2] لم تذق ضرباته ، ولكن من يدرى فربما احتاج يوما هذه الأقاليم ، فخير لك أن تقدم له فروض الولاء حتى يعرفك ، ولا ريب أنه سيشملك بعطفه[1] » .

فقال : « ما أسعد مصر ! إن موقعها حسن وشئونها مدبرة بإحكام وسداد ، وهأنذا أعاهدك على أن أقدم إليك كل مساعدة أستطيعها ما دمت أنت بجانبي آية تقديري لمصر التي أنت منها » .

وقد أوفى الأمير بعهده فزفَّ إلىَّ كبرى بناته ، وترك لي أن أختار ما أشاء من أرضه ليقطعني إياه ، وكان — فيما عرض علىَّ غير ذلك — مقاطعة « له على جانب عظيم من الخصوبة ووفرة الثمرات ، اسمها « ياع » كانت حافلة بالحبوب من حنطة وشعير ، فياضة بالفواكه من عنب وتين ، زاخرة بالعسل ، ونبيذها كثير كالماء ، وكانت تمرح فيها قطعان لا حصر لها من الماشية[2] .

ولم يقنع الأمير أن غمرني بعطاياه ، بل أقامني — رغبة في استبقائي إلى جانبه ، والانتفاع بي في ولايته — أميراً على قبيلة من أضخم القبائل التي تمرح في ولايته ، فكان رجالها يتكفلون بطعامي كل يوم ، فيقدم لي خير الأطعمة من خبز ولحوم وطيور وغزلان ، وأشهى الأشربة من لبن ونبيذ ، وكان يقدم لي الزبد مستخلصاً من اللبن ، وكثيراً ما كنت أصيد الغزلان أو تصيدها لي كلابي المكلَّبة[3] فوق ما كان يُقدَّم إلىَّ من رجال القبيلة .

أقمت في تلك القبيلة سنوات طويلات رزقت في أثنائها عدة أولاد ، ولما بلغ أولادي أشُدَّهم جعلتهم زعماء على العشائر ، وكنت حاكما باراً كريماً أمد الطعام للجوعان ، والماء للظمآن ، وأبسط رعايتي على كل من يطلب الأمان ، وأبذل عوني لكل من أذله الزمان ، وأعاقب اللصوص وقطاع الطرقات حتى عم

(١) كانت العاصمة أولا طيبة (قرب الأقصر) في الجنوب وكان سلطان الملك ضعيفاً على الشمال بدليل تجول قبائل الساتي الأجنبية بلا رقابة شمالي عين شمس كما ورد في القصة ، وكانت عناية الملك متجهة إلى الغزو جنوباً ، ثم صارت العاصمة في الشمال قرب منف لتكون وسطا ولتسهل منها مراقبة الدلتا وحمايتها .

(٢) قبائل أسيوية كانت تتجول حينذاك في الأراضي التي تمتد من الدلتا إلى الشرق ، ولم يكن المصريون يأبهون بتجوالها لأنهم لم يكونوا مسيطرين على الدلتا كل السيطرة ، ولأنهم كانوا دولة متحدة قوية منظمة بينما هذه القبائل رحالة متفرقة ضعيفة ، ولم يكن المصريون حينذاك قد ذاقوا مرارة الاحتلال ، وكانت لهم على الحدود الشمالية الشرقية مسالح تحميها من الغارات منها مسلحة عين شمس المشار إليها في القصة ، وقد استطاعت هذه القبائل بعدئذ فتح مصر وإخضاعها وهم المعروفون بالهكسوس .

(١) لا ينتظر من مهاجر ضاق وطنه عن إيوائه وهرب بحياته خوفاً من ملكه أن يكون أشد وطنية ولا أبلغ قولا من سينوحيت فقد جمع في جوابه الحسن الأريب بين الترهيب والترغيب ، فنزع من قلب الأمير كل طمع في عداوة مصر ودل على أن حالها لم تتبدل شراً بل خيراً بموت السابق وتولية اللاحق ، ورفع ملكه ، وهو الفار من وطنه خوفاً منه ، إلى أعلى منزلة ، وملأ قلب الأمير اطمئنانا إلى خلائق الملك وطيب شمائله وميلا إلى حبه والوفاء له من طريق غير مباشر فهو يتحدث بما يتحدث كأنه يصف أمرا لا يعنيه سوى إحقاق الحق فيه ، وهو يترك للإيحاء أن يفعل فعله للوصول إلى ما يطمع فيه .

(٢) لا تزال هذه البلاد حتى اليوم على ما وصفتها القصة

(٣) المدربة على الصيد .

الأمن والرخاء إقليمى ، وكنت أواسى بمالى من انتهب ماله ، وكان قصرى ملجأ لذوى الحاجة ، وماضنت بمساعدتى على أحد ممن لاذ بى .

وكان الأمير قد أسند قيادة جيشه إلىَّ ، فكنت فى غزواتى عند حسن رأيه فىَّ ؛ وأظهرت من البسالة والحنكة ماظننى أهله ؛ فما غزوت قوما إلا انتصرت عليهم ، وظفرت منهم بمغانم كثيرة وماعدت من حرب إلا وأنا أسوق معى أسراهم وماشيتهم ، وكنت لا أنفك أدبر مكايد الحروب ، وألقى فى المعارك بنفسى ضاربا بحسامى أو راميا بنبالى[١] ، وكانت جموع الساتى تهجم على بلاد الأمير فتعيث فيها فسادا ، فاستطعت أن أوقف غزواتهم وأنقذ البلاد من شرورهم ، وأردهم إلى مواطنهم فى القفار .

ولما نمت أخبارى إلى الأمير عظمت مكانتى عنده ، وتمكنت محبتى فى قلبه .

وكان هناك فى أرض تنو بطل صنديد شديد البأس لانظير[٢] له فى قوته وشجاعته ونزاله ، وربما كان قد امتدت عيناه إلى ما أنا فيه من نعيم وفيرة وخير سابغ ، فطمع فى أن يقتلنى ليستحوذ على ثروتى .

جاء هذا الرجل يوما يتحدانى ويطلب مبارزتى ، فلم أدر ما دفعه إلى معاداتى ، ولما استشارنى الأمير فى أمره أجبته : « لست أعرف الرجل ، ولا أرانى نداً له فى بطشه ، ولا كفؤا له فى قتاله ، ولا أذكر أننى انتهكت له حرمة ، ولا هجمت دارا ولا عثت فى أرض . فماذا يدعوه إلى مبارزتى ! لست أظنه إلا حسودا .

ليعلمن هذا الزنيم أننى لست كالعجل بين البقر يتربص[٣] هجوم الثور عليه ليفتك به ، فإن الثور المرير[٤] ولوع بالنطاح ، وليس على الثور الخرع إلا الفرار . سأتدبر أمرى معه ولو أنه بدوى مدرب على القتال ، ولنتركه وشأنه حتى يظهر أنه شجاع مقدام ولوع بالنزال وأنه يعنى ما يتوعد به » .

شاع خبر المبارزة فى البلد وما جاوره ، وبات أهل تنو ليلتهم تلك ومالهم من حديث تلوكه ألسنتهم إلا حديث المبارزة بينى وبين البدوى فى الصباح . ونمت أنا تلك الليلة حتى إذا ما تنفس الصبح نهضت من نومى لآخذ للمبارزة عتادها ، فأعددت قوسى ووضعت نبالى فى كنانتى[١] ، وما طلعت الشمس حتى كانت الجموع ممن نمى إليهم خبر المبارزة فى الجهات المجاورة قد تجمهرت لشهود المبارزة ، وكان القوم يبكون ، والنساء يعولن خوفا على من خصمى الجبار الذى جاء ليبارزنى وقد لبس درعه ولأمته ، وحمل فأسه ، وتأبط كنانته الحافلة بالنبال ، وكان المتجمهرون فى حزنهم يودون لو أن مبارزا غيرى افتدانى وتقدم عنى لمبارزته .

وحل موعد المبارزة فخرجنا ، ودعوته إلى أن يبدأ الرمى ففوق نباله إلى ، بيد أنى حدت عن طريقها فطاشت نبلة فنبلة ، وحلت نوبتى فتفترت له ثم سددت إليه قوسى ، وما هو إلا أن أطلقت نبلتى الأولى حتى أصمته فى نحره ومرقت من عنقه فخر مجدلا يتلوى ويصرخ من شدة أوجاعه ، فاستللت فأسه التى أعدها الذبحى ، وأجهزت بها عليه ، ثم وقفت فوقه وهتفت بأعلى صوتى هتاف الانتصار

عندئذ صاح المتجمهرون صيحات الفرح والغبطة ، حتى لقد بلغ الأمر بمن كانوا معه أن عداهم هذا الشعور الفياض فشاركوهم فى ابتهاجهم وحمدوا إلههم منث إله الحرب وأثنوا عليه ، كما ركعت له وصليت إذ مكننى من عدوى . وعندئذ أقبل على الأمير فاحتضننى وعانقنى عناقا حارا دل على محبته وإخلاصه لى ، وابتهاجه بفوزى على غريمى .

وقد انتقمت من خصمى ما وسعنى الانتقام ، فصنعت به مثل ما أجمع رأيه على أن يصنع بى ، فما كدت أفرغ من القضاء عليه حتى ذهبت إلى فسطاطه فحطمته بعد أن استحوذت على كل ما فيه من متاع ، كما ضممت إلى ثروتى كل ما كان له من أنعام .

ونبهتنى هـذه الواقعة إلى حقيقة حالى ، وأحسست بآلام وحدتى فى غربتى ، وفرط شوقى إلى وطنى ، فعملت على تقوية مكانتى بالاستزادة من الأموال والأنعام لتكون عونا لى عند البلاء ، كما بعثت إلى مولاى الملك هذه الرسالة : « لقد جعلت الإله معتمدى ، فانظر — يا مولاى — ما وهبنى من خير جزاء اعتمادى عليه . لقد غادرت وطنى مهاجرا خاملا ، فصرت ذا ولاية وسلطان ، ونبه صيتى . وها أنذا — بعد أن كدت أهلك من المخمصة — صرت أمد الناس بالطعام ، وبعد أن كنت عريان أصبحت أختال فى أنفس حلل الكتان ، وبعد أن كنت وحيدا طريدا أصبحت ذا أسرة كثيرة الأبناء ، وفى خدمتى كثير من الحشم ، ولى قصر باذخ فخم ، وأراض خصيبة شاسعة .

(البقية فى العدد الآتى) **محمد خليفة التونسى**

(٢) النبال الهام . (٢) النظير المثيل .
(٣) يتربص ينتظر . (٤) المرير القوى .

(١) الكنانة وعاء من جلد للسهام .

محكمة الجيزة الوطنية الجزئية

إعلان بيع عقار

نمرة ثمانية عشر فى القضية رقم ٢٣٠٥ سنة ١٩٣٥

إنه فى يوم الثلاثاء ٢٣ أبريل سنة ١٩٤٦ من الساعة الثامنة أفرنكى صباحا بسراى المحكمة بالجيزة سيباع بالمزاد العلنى العقار الآتى بيانه بعد ملك ورثة المرحوم موسى عضيم وهم فاطمة محمد صيام زوجته عن نفسها ووصية على أولادها القصر عبد الفتاح وموسى الشهير بممدوح وجوهرة أولاد موسى عضيم

(٢) عباس موسى عضيم

(٣) شفيقة موسى عضيم

المقيمين جميعاً بجزيرة أمبابة مركز إمبابة جيزة

وهذا البيع بناء على طلب وزارة الأوقاف بصفتها ناظرة على وقف جامع الملعة وسنان باشا ومحلها المختار قسم قضاياها بباب اللوق بمصر وفاء لمبلغ ١٤٣ جنية و ١٢٢ مليم وما يستجد من المصاريف وبناء على حكم نزع الملكية الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ١٧ ــ ١١ ــ ١٩٣٥ ومسجل بمحكمة مصر الأهلية فى ٢٠ منه بنمرة ١٨٨٤ وبناء على الحكم الصادر من هذه المحكمة بتاريخ ٣ يولية ١٩٤١ القاضى بقصر البيع على المقادير الآتية .

بيان العقار

(١) نصف المنزل البالغ مسطحه ١٠٦ متر مربع و ٣٠ س بحوض النخل والعبادية رقم ٨ بحارة العمدة بناحية تاج الدول وكفر الشيخ إسماعيل مركز إمبابة مديرية الجيزة البحرى منزل موسى عضيم والشرقى حارة العمدة والقبلى الحاج حسين دكرورى والغربى حارة أبو رية وسيكون الثمن الأساسى لهذا المقدار ٤ جنيه و ٩٥٠ مليم بعد تقيص الخمس .

(٢) ٧٦ متر و ٧٥ س من المنزل البالغ مسطحه ١٧١ متر مربع و ٧٥ س بحوض داير الناحية رقم ٢١ بشارع غربى البلد رقم ٢١٩ بوائد ناحيه الجيزة والدقى مركز الجيزة البحرى بعضه منزل محمد حفناوى وعلى عوض وبعضه شارع غربى البلد وبه الواجهة والباب والشرقى بعضه منزل مريم شحاته على والقبلى بهية جاد وبعضه منزل إبراهيم عبد السميع وبعضه طلبة خليل النجار وبعضه منزل عبد النبى سالم وفتحية منزل حلبية مصطفى الأبحر والغربى منزل مصطفى أبو غنيم وسيكون الثمن الأساسى فى هذا العقار ٤ جنيه و ٤٨٠ مليم .

فعلى راغب الشراء الحضور فى الزمان والمكان الموضحين بعاليه للمزايدة وشروط البيع وباقى الأوراق مودعة بقلم الكتاب لمن يريد الاطلاع عليها .

كاتب البيوع

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

يوم الاثنين ٨ ابريل

معرض عام

لأحدث ازياء

فصل الصّيف

عند

شيكوريل

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٦٧ — الاثنين ١٥ أبريل ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون



14 me Année No. 667

Lundi—15—4—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٦٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ — ١٥ أبريل سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

مستقبل الجامعة الأزهرية

للأستاذ عباس محمود العقاد

الجامعة الأزهرية معهد يراد به البقاء ، ما فى ذلك ريب عند أحد من المصريين ، لأنها مرجع العلوم الدينية والثقافة العربية ، وهى عدا هذا أقدم جامعة فى العالم بأسره ، فالأمة التى تملكها قمينة أن تحافظ عليها وتستديم بقاءها وازدهارها . ومن أول أسباب الاستدامة أن يتجدد التوفيق بينها وبين مطالب الزمن بغير انقطاع ، وأن تكون مطلوبة لما حضر ولما سيأتى ، ولا يقتصر طلبها على ما مضى وكفى .

ومع هذه الرغبة الوثيقة ، لا نرى فى الأمر مشكلة تعترض الراغبين فى دوامها ودوام ازدهارها إلا من ناحيتين لا يصعب تذليل العوائق فيهما : أولاهما الثنائية فى نظم التعليم بمدارس الأمة الواحدة ، والثانية أن تكون نتيجة التعليم فى الجامعة الأزهرية تخريج « طائفة معاشية » يربط بعضها ببعض تحصيل المعاش أو حاجتها هى إلى المعاش ، وإنما الواجب أن يكون بقاؤها منوطا بحاجة الأمة إليها لا بحاجتها هى إلى الأمة ، ولا سيما حاجتها من الوجهة المعاشية دون غيرها .

وقد أحسنتم التوصيف والتعليل حين أشرتم فى عدد الرسالة الماضى إلى « بدء الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة » .

فإننا لا نعرف فى البلاد الإسلامية داعيا إلى انفصال طائفة من الطوائف بمنهج من مناهج العلم أو مسلك من مسالك المعيشة ، لأن رجال الدين من المسلمين لا يعتزلون الحياة ولا ينفصلون عنها ولا يلوذون بالصوامع ولا يترهبون ، ويستطيع الرجل منهم أن يسلك فى معاشه مسلك المهندس والطبيب والصانع والفيلسوف ، وكل ذى عمل من الأعمال الدنيوية التى يزاولها سائر الناس . فإذا استعد للدراسة كما يستعد المهندسون والأطباء والصناع والفلاسفة ؛ فليس فى ذلك ما يخل بوظيفته المقبلة أو ينقص من عدته التى يستعد بها لغده . بل هى عزلة التعليم التى تضيره وتقطع ما بينه وبين أبناء العصر من صلات المعيشة وأسباب التفاهم وتبادل الشعور ، فلا تزال الفجوة بينه وبين عصره بابا للاختلاف والاشكال .

فمن الواجب قبل كل شىء أن نبطل الثنائية فى نظم التعليم بالمدارس الابتدائية والثانوية ، وأن يتدرب الأزهرى للتخصص فى علومه العالية كما يتدرب كل مصرى للتخصص فى جميع العلوم العالية ما دام فى دور التأهب والتحضير . فيتعلم الأزهرى اللغة الأجنبية ويتعلم المبادىء الضرورية من معارف العصر الحديث ، ويبدأ فى التعلم وفى إمكانه بعد أن يتبين حقيقة ملكاته وميول عقله ونفسه أن يصبح من الأطباء أو علماء الفلك والرياضة كما يصبح من فقهاء الدين أو فقهاء اللغة العربية .

وقد أردتم فى مقالكم القيم بالعدد الماضى من الرسالة « أن

يقتصر فى التعليم الجامعى فى الأزهر على كليتين اثنتين : كلية الدين وتندمج فيها كلية الشريعة وكلية أصول الدين . وكلية اللغة وتندمج فيها كلية اللغة العربية ودار العلوم ، وقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعتى فؤاد وفاروق ، وتشترك الكليتان فى الدراسة العميقة للغتين العربية والأوربية ، وتنفرد كلية اللغة بتاريخ الآداب العربية والأجنبية ، كما تنفرد كلية الدين بتاريخ الأديان السماوية والأرضية ، وذلك بالطبع فوق ما تختص به كلتا الكليتين من علوم الدين أو من فنون اللغة ، وما يتصل بهذه أو بتلك من العلوم الحديثة ... »

وعندنا أن هذا الرأى فى إجماله مقبول لا يكثر عليه الخلاف ولا أرى من جانبى ما أخالفكم فيه قبل الدخول فى التفصيلات .

أما التفصيلات ، فهى مما يعرض لنا عند البحث فى تقسيم الكليات ، وفى مدد التعليم التى يحتاج إليها الطالب الجامعى فى كل منها .

فنحن نعتقد أن المجال يتسع فى الجامعة الأزهرية لثلاث كليات على الأقل : إحداها للدين الإسلامى ، والثانية للدراسات الدينية والفلسفية ، والثالثة لدراسة اللغات والآداب ، ويجد الطالب فى كل واحدة منها ما يشغله سنوات قبل الوصول إلى دور التخصص والاستيعاب .

سمعت فى حياة الشيخ المراغى أنه رحمه الله كان يفكر فى تدريس « مقارنة الأديان » بالجامعة الأزهرية ، فاستكبرت الاقدام على ذلك قبل تمكين المقدمات التى يتطلبها هذا البحث الجسام ، فان علم المقارنة بين الأديان أخطر العلوم على من يهجم عليه بغير أهبة وتمهيد ، وأنفع العلوم لمن يشارفه بعد تأهب صالح وتمهيد طويل .

وهذا العلم وحده — وما يتصل به من المسائل الإلهية — يستغرق السنوات للاحاطة به والايغال فى شعابه ودروبه ، وهو يدرس ببعض الاسهاب تارة وببعض التلخيص تارة أخرى فى الجامعات العلمية والجامعات الدينية ، ويلتقى بعلوم أخرى لا محيص عن الإلمام منها بالقدر المفيد ، كعلم الإنسان وعلم الأجناس البشرية . وعلم اشتقاق اللغات ، ودلالات الكلمات التى تدل فيها على أسماء الأرباب وشعائر العبادات .

فدراسة هذه المباحث لازمة للطلاب الأزهريين وهم أحق بها من سائر الطلاب ، ولا يتأتى لهم أن يدرسوها مع التخصص لغيرها أو التوسع فى أبواب التخصص الأخرى ، وإنما يتوسعون هنا ويأخذون بأطراف من علم يحتاج إليه رجل الدين .

على أن « المقارنة بين الأديان » حظ مشترك بين المسلمين وغير المسلمين ، ويجوز أن يدرسه المسيحى والإسرائيلى والبوذى ومن لا دين له ، كما يجوز أن يدرسه الطلاب الأزهريون .

لكن الموضوع الذى تتعين دراسته فى الجامع الأزهر ، ولا يعقل أن يستوفيه طلاب جامعة من جامعات الدنيا غير الجامعة الأزهرية هو موضوع المدارس الفكرية الإسلامية التى أنشأها المتكلمون والمعتزلة وأئمة التصوف والحكمة فى المشرق والمغرب من الصدر الأول إلى أواخر الدولة الفاطمية ، فإن هذا المحصول الهائل من التفكير الإنسانى أمانة لا بد لها من حفيظ بين أمم الحضارة الإنسانية . فمن عساه يكون أولى بحفظ هذه الأمانة من معاهد الأزهر وعلمائه ؟ ومن أين لهذه المذاهب وهذه الدراسات من يفهمها ، ويصبر على تمحيصها واستخلاص زبدتها فى غير مصر والبلاد العربية ؟

إن المستشرقين لا يفهمونها ولا يؤتمنون عليها ، ولا أعرف فيما اطلعت عليه من كتبهم كتابا يدل على حسن فهم وحسن إنصاف مجتمعين ، فإن وجد من يفهم على الندرة ، فهم متهمون فى الإنصاف ، وإن وجد من ينصف فليس هو من الصابرين على التعمق والتفرغ للتحصيل . وليس من المروءة أن نكل إلى غيرنا ما نحن أحق به من واجباتنا وأعمالنا ، وليس فى غير المعاهد الأزهرية مكان لاستيفاء هذه الواجبات والأعمال .

ومن الإجحاف أن نستخف بمحصول هذه المدارس الفكرية لأنها فى الواقع تشتمل على كثير من النفيس القيم ، كما تشتمل على كثير من البخس الزهيد . ولا إخال أن مسألة من مسائل الفلسفة التى تصدى لها حكماء أوربة فى قديم العصور وحديثها لم تدخل فى نطاق هذه الدراسات على وجه من الوجوه ، وقد وصل بعض المفكرين الإسلاميين فى مسائل منها إلى مقطع القول الذى وقف عنده بعدهم خلفاؤهم فى مباحث المنطق والحكمة الإلهية من الأوربيين وغير الأوربيين . ولعل البخس الزهيد

الذى أشرنا إليه يفيد فى دلالته التاريخية أو دلالته النفسية ما يكافىء العناء فى تحصيله ويعوض الباحثين عن غثاثته وقلة غنائه، فلا يضيع فيه الوقت بغير جزاء.

هذه المادة الزاخرة وما يقترن بها من مواد المقارنة بين الأديان السماوية والأرضية أعظم من أن تضاف كما تضاف العلاوة على حمل التخصص فى الدراسات الأخرى. لأن أبواب البحث فى الدين الإسلامى وحده تستغرق السنوات بعد السنوات إذا لوحظ فيها أن تحيط بجوانب الفقه والتشريع والتاريخ والتطبيق على المذاهب الاجتماعية التى تتمخض عنها أطوار الأمم جيلا بعد جيل، ومن القصور أن يفوت العالم المسلم تحصيل المعلومات عن تلك المذاهب الاجتماعية، وهى تتطلب منه رأيا وردا وإقناعا لمن يحسبونها مغنية عن إصلاح الدين أو مناقضة لقواعد الدين فى الإصلاح. فهل يتأتى للعالم المسلم فى أربع سنوات أو ست سنوات أن يتوسع هذا التوسع فى علم دينه، ثم يتوسع فى الوقت نفسه توسعا مثله فى علوم الديانات ومذاهب المسلمين وغير المسلمين؟

والذى يصدق على كلية الدين يصدق على كلية اللغة العربية. لأن تعلم النحو والصرف والبلاغة لا يجدى بغير تعلم الأدب وفروعه؛ وتعلم الأدب وفروعه فى لغة واحدة لا يتمم ثقافة الأديب المتخصص لهذه الثقافة مع هذا الاتساع فى آفاق الكتابة وهذا التنوع فى قواعد النقد ومناهج التعبير، وهذا التعدد فى شواهد كل قاعدة من قديم اللغات وحديثها. فلا بد مع اللغة من أدب، ولا بد مع الأدب العربى من آداب أمم أجنبية، ولا بد مع هذا جميعه من مشاركة فى بحوث اللغة الإنسانية نفسها، وهى التى تسمى عندهم « بالفيلولوجية ». لأنها دراسة لا بد لها من مكان تدرس فيه، ولا مكان لدرسها غير الجامعات الكبرى ولا سيما الجامعات التى تزود الطالب بكل ما يحتاج إليه فى ثقافته الأدبية واللغوية، وليست ست سنوات أو ثمانى سنوات بالوقت الكثير على هذه المطالب اللازمة التى تنفق فيها الأعمار الطوال.

***

وأيا كان الرأى فى عدد الكليات أو عدد السنوات؛ فالمهم فى الأمر أن ننتهى بالتقسيم إلى نظام واحد فى التعليم، فلا يبقى للثنائية أثر بين كليات الجامعة الأزهرية وغيرها من الجامعات،

ولا يحسب الفرق بينها جميعا إلا كما يحسب الفرق الآن بين كلية الطب وكلية الزراعة أو كلية الآداب.

ويومئذ يجد العالم الأزهرى مكانه من وظائف الحكومة كما يجد الطبيب والمهندس والضابط أمكنتهم فى كل ديوان يحتاج إليهم، ومن لم تتسع لهم الدواوين فشأنهم فى ذلك شأن المتعلمين العاملين فى الحياة الخارجية، لأنها تتسع لهم وتزداد سعة كلما شاعت المعرفة وتشعبت منادح التثقيف والإطلاع. ويحق للعالم الذى تفتقر مباحثه إلى التشجيع الحكومى، ولا تقوم على إقبال الشعب وحده أن يعتمد على المرتبات والمكافآت التى رصدت فى الأوقاف للعلماء الأزهريين من قبل النظام الحديث.

ويبدو لنا أن الجامعة الأزهرية لن تلقى فى طريقها عقبة تزعج أبناءها إذا زالت الثنائية من التعليم، وقام التعليم فيها على إخراج أناس تحتاج الأمة إليهم، ولا يكون قصاراهم من السعى أن يحتاجوا إلى الأمة فى تدبير سبل المعاش.

عباس محمود العقاد

من صميم الحياة :

الخـــــادمة ... !

هذه قصة (المشكلة) التى قلما تخلو منها دار فى مصر والشام ... (ع)

للأستاذ على الطنطاوى

قال : إن لدىّ قصة أحب أن أقصها عليك ، وإنك لتعلم أنى لست ممن يؤلف القصص ، ولست ممن يحسن الاستعارة والتشبيه وسائر أبواب المجاز التى تعلمنا أسماءها فى المدرسة ، فلا تأمل أن تسمع منى قصة أدبية معقودة من وسطها بعقدة فنية ، مردودة الأول على الآخر ، فيها الصورة النادرة ، والفكرة المبتكرة ، والأسلوب البارع ، فليس عندى من ذلك شىء ، وإنما هى واقعة أرويها كما رأيتها وسمعتها ، وإن فيها لدرساً نافعاً لمن يرى الحياة مدرسة ، فهو يدأب على الاستفادة منها والانتفاع بها ، فهل تحب أن تسمعها ؟

قلت : نعم

قال : لا أدرى من أين أبدأ القصة لتجئ محكمة الوضع يرضى عنها أهل الأدب ، فدعنى أبدأها من نصفها ، فما لك فى أولها كبير نفع ، وإن أولها ليلخص مع ذلك فى كلمة ، هى أن لى أقرباء إخوة ثلاثة شباباً أعزاباً يقيمون مع أمهم العجوز التى ربتهم وقامت عليهم منذ تركهم لها أبوهم أيتاماً صغاراً ، حتى إذا كلّت وهرمت ، وعجزت عن خدمة الدار ، ذهبوا يفتشون لها عن خادم تعينها ، ولو فتشوا عن ثلاث زوجات لهم لكان ذلك أهون عليهم وأدنى إليهم ، فلما طال التفتيش وزادت الحاجة ، وجدوا بنتاً من (التوانى) فقنعوا بها ، وأنت تعلم أن (التوانى) قرية منزوية فى حدود (القلمون) الأدنى ، مما يلى (القطيّفة) ضائعة بين تلك الأودية المقفرة والجبال ، وأن أهلها من أقذر القرويين وأجفاهم وأبعدهم عن المدنية ؛ على صحة فيهم وجمال . وكانت بنتاً — كما يقولون — ذكية ، فسرعان ما ألفتهم وألفوها ، وأقامت فيهم سنين طويلة ما أنكروا منها شيئاً ، ولم أرها أبداً على كثرة ما كنت أتردد على الدار ، حتى كان اليوم الذى جعلته مبدأ قصتى هذه ...

***

وكنت أزور أقربائى هؤلاء ، فدعونى إلى الشاى ، فإذا هى تدخل فتقدمه إلىّ ، وإذا فتاة فى نحو السادسة عشرة قد تخمرت بخمار أبيض لفّته من فوق رأسها إلى ما تحت ذقنها ، فعلَ القائمة إلى الصلاة ، فسترت به شعرها وجيدها ، وبدا منه وجهها مدوّراً أبيض مورّداً يطفح بالصحة والصبوة ، ويُشعُ منه السحرُ والدلال ، وكانت تلبس ثوباً قصيراً لا يكاد يعلو عن الركبتين ، يكشف عن ساقين بضّتين غضّتين ممتلئتين فى غير سمن ، ممشوقتين فى غير هزال ، مصبوبتين صبّ التمثال ، وفوق الثوب صدار من وشى رقيق كالذى تتخذه أنيقات الخادمات ، قد شدّ شدًّا ، فهو يُبرز من ورائه نهدين راسخين ، يلقيان عليه ظلاًّ لهما خفيفاً لا يعرف موقعه من النفس إلا من قرأ سطور النهود فى صدور العذارى ... وكانت تحمل الشاى بأكف كأنها خلقت بلا عظام ، وكان جسمها ينبض بالعاطفة التى تلين أقسى الرجال ، وتستخرج الصبوة من قرارات النفوس فتظهرها ، ولو قيدتْها قيود من الخلق المتين ، ولو غطّتْها ستُور من الهمّ الدفين ، ولو أنساها صاحبَها علمٌ يشتغل به ، أو مال يسعى وراءه ، ولو أن الصبوة قد ماتت ، لردّها هذا الجمال المطبوع حيّة ... أما عيناها ، فدعنى بالله من وصفهما ، فما أدرى ما لونهما وما شكلهما ، فإن لهما سرًّا يشغلك عن التفكير فى وصفهما ... إنهما تروعانك فتبقى معلقاً بهما ، فإذا حاولت أن تضبط نفسك وتعود إلى ما كنت فيه ، لم تشعر إلا وأنت قد عدت إليهما ... إن فيهما مغناطيس يجذب الأبصار والقلوب ... !

فلما خرجت ، قلت : أهذه هى الخادم القروية التى جئتم بها من (التوانى) ؟

قالوا : نعم .

قلت : فأخرجوها من هذه الدار ، فإنها أخطر من البارود !

فضحكوا وعدّوها نكتة ...

***

وعدت مرة أخرى ، فإذا هى بلا خمار ، فسألتها عنه ، فقالت

— ويا ليتها لم تقل ، فما كنت أدرى أن لها مع جمالها هذا الصوت الذى يرنّ كأجراس الفضة فى مواكب الأحلام . . أو كرنّات العيدان فى خيال متذكر ليلة غرام — قالت :

— إنى قد استثقلته فألقيته أمام الأقرباء ، وأنت منهم (مُشْ هيك) ؟

وشفعتها بيسمة من فيها ، وغمزة من مقلتيها ، وهزة من كتفيها … فما هذه البنت ؟ ! ومن أين لها هذا كله ؟ ! وحياتك لو أنها ربيت فى مسارح (مونمارتر) فى باريز لكان هذا كثيراً منها ، فكيف تعلمته فى مزابل (التوانى) ؟ !

وعبستُ فما أحببت أن أوغل معها فى هذا الطريق ، فولّت ترقص رقصاً لا تمشى مشياً ، وشعرها الذهبى حقاً لا تشبيهاً ، المنشور على كتفيها وظهرها ، البالغ حقويها يرقص معها !

وعدت بعد ذلك ، فإذا هى قد جزّت شعرها على (المودة) ، وأمرّت يد الزينة على وجه ما يحتاج إلى زينة ، وطرحت صدارها ، ولبست ثياب فتاة غنية مدللة ، لا ثياب خادم ، فانفردت بأ كبر الأخوة من أقربائى فقلت له :

— إنك أنت واخوتك من أمتن الناس خلقاً وأقومهم سيرة ، ولكن هذه البنت تفتن والله العابد ، وتستزل الزاهد ، وتحرك الشيخ الفانى .. وإنها لتسحر بكل نظرة وكل حركة ، ويكاد جسمها يتفجر إغراء بالمعصية ، وإذا أنتم أبقيتموها فى هذه الدار فما أظن الأمر ينتهى بسلام !

واستجاب لما قلته له ، ورآه حقاً ، فأخرجها وأدخل مكانها زوجة صالحة … !

***

قال : ودخلت البنت داراً أخرى ، دار قوم مترفين منعّمين لا يسألون عن المال أين ذهب ، وكانوا كلهم ثلاثة : أباً تاجراً جاهلا ، همه عمله فى النهار ، وسهراته فى الليل ، وأماً شغلها ثيابها وزياراتها واستقبالاتها ، وولداً شاباً فى العشرين طالباً فى الجامعة صاحب جد ودراسة وخلق ودين ، غير أنه كان — ككل الصالحين من لداته — يطوى صدره على مثل البارود المحبوس فى القنبلة إذا طار منها مسمار الأمان ، أو صدمتها صدمة فرجّتها تمزقت ومزقت من حولها ! وكانت الصدمة لها هذه الخادمة اللعوب !

وبدأت من اليوم تولى اهتمامها صاحبنا الذى أسميه (الشاب) كراهة أن أصرح باسمه ، وتنسج حوله خيوطها … فإذا ناداها لحاجة له — ولم يكن له بدّ من أن يناديها — قفزت قفزة الغزال وأقبلت تحفّ بها شياطين الشهوة … فتراه منصرفا عنها ، فتبسم له ، وتسأله عما يريده ، بصوت يقطر فتونا ، وتسلط عليه من عينيها مغناطيس مكهرباً يذيب القلوب ، ولو كانت من صفا الجلمود ، وإن أعانته فى رفع نضد ، أو تسوية كرسى ، أو ناولته شيئا ، دنت الملعونة منه حتى لامست بهذا الجسم اللدن الدافىء المكهرب ، جسمه القوىّ القَرِمَ … إلى (اللحم) ! … أو قرّبت وجهها الفتان من وجهه حتى ليحسّ لسع أنفاسها ، ويشم رائحة جسمها ، وإنها لأفتن من كل عطور الدنيا وطيبها ، وأين العطر من ريح جسم المرأة ؟ أو تتعمد حركة تزيح ثوبها القصير لحظة عن بياض فخذيها . وكان المسكين بشرا ، اجتمعت عليه صبوة الحب فى نفسه ، وإغراء الجمال فى خادمته … وحماقة أبويه اللذين جاءاه بها وغفلا عنه وعنها ، وصارا يتركانه معها وحيدين فى الدار طول النهار ، حتى لقد بعثاها مرة تناوله الصابون فى الحمام … وثار فى أول الأمر عليها ، وأعرض عنها ، ثم أحسّ أن سمّها سرى فى جسده وروحه ، فاستنفر آخر قوى الفضيلة فى نفسه وألح على أبويه فى إخراجها من المنزل ، فأبيا ، وكيف يفرطان فيها وقد وجداها بعد طول البحث ، وكبير العناء ؟ وهل تدع (الستّ) زياراتها وسينماها ، وتشتغل هى : بالطبخ والكنس لمجرد أن البنت الخادمة جميلة و (دلّوعة) ويخشى منها ؟ كلام فارغ !

هكذا كان يفكر الأبوان المحترمان ·· وضُربا بالعمى عن حقيقة لا تخفى على عاقل ، هى أن الرجل والمرأة حيثما التقيا وكيفما اجتمعا : معلماً وتلميذة ، وطبيبا وممرضة ، ومديرا وسكرتيرة ، وشيخاً ومريدة ، فإنهما يبقيان رجلا وامرأة ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ماخلا رجل بامرأة (هكذا ، على الاطلاق) إلا كان الشيطان ثالثهما !

ومرض الشاب ، وعجز عن الاحتمال … فكانت الخادمة هى التى تقوم على خدمته ، وتصرم الليل كله ساهرة عليه ، وتبدل ثيابه فتراه كما هو وتستبيح بالنظر واللمس كل إصبع فى جسده ، وهو لا يحسّ بها ؛ حتى إذا تماثل للشفاء ، ومرّ فى طريق النقاهة

رآها إلى جانبه ، وكان المرض قد أضعف عزمه وأوهن إرادته ، فانكسر السد وطغى الحب ... وفي ليلة كان فيها النعاس قد نال منها ، حلف عليها إلا أن تستريح وتنام ، ولم يكن في الغرفة سرير ، فاندست معه في سريره ... وكان هذا أكثر من أن تحتمله أعصاب رجل في الدنيا ، فطار النعاس ، وكانت النتيجة المحتومة لهذه المقدمات ! ودخلت (الست) في الصباح ، فرأت الخادمة بين ذراعي ابنها ! !

صحت البنت من سكرتها ، وصحا الأهلون وأرادوا إصلاح ما فسد ، وهيهات ! إن الماء قد انسفح على الرمل فمن يردّ الماء المسفوح ؟ وعود الكبريت قد احترق فمن يعيد العود المحروق ؟ وعرض البنت قد مزق فمن يرتق العرض الممزق ؟ لا أحد !

ووثبوا يفتشون كالمجانين عن طريق للخلاص ، وأقبل الشيطان مرة ثانية ، وكانت المؤامرة ، وانجلت عن ستر هذه الجناية بجناية أخرى ، هي أن ترد البنت إلى أبيها الذي يطلبها ليزوجها من ابن عمها ، وقبلت : وماذا تصنع إذا هي لم تقبل ؟

وكان الفصل الآخر من المأساة وإني سأختصره اختصارا :

هذه البنت الحلوة المستهترة التي ذاقت طراوة الحضارة ولينها وحريتها وفسوقها وعريها ، عادت إلى القرية المنقطعة في أودية (القلمون) الأدنى وجباله ، لتعيش حياة قروية قذرة صعبة ، ولكنها طاهرة مستورة مقيدة ، لتلبس الملاءة الزرقاء الشاملة بعد (الروب) الذي لا يستر ربع الجسد ، والسراويل البالغة الكعبين بعد (الكلسون) الذي لا يتجاوز طوله الإصبعين ، وتشتغل في الحقل بالأكف التي كأنها خلقت بلا عظام والأظافير ذات (المانيكور) ، وتأكل بعد (الكاتو) والفراني[1] خبز الشعير ، وتعاشر بعد شباب دمشق البقر والحمير ، وتمشي إلى الإصطبلات بدل السيمات .

دبّر الأمر على عجل ، وعقد العقد ، وسيقت العروس (الشامية ...) إلى القرية ، وحسب ابن العم كأنما رأى ليلة القدر فدعا فهبطت عليه حوراء من حور الجنان ... وكان الدخول ، وتجسم خيال المسكين فكان واقعا ، والحلم صار حقيقة ، واحتوى بين ذراعيه الخشنين ذلك الجسم الذي تتقطع عليه نفوس أبناء الأمراء حسرات و ... فإذا الثمرة مقطوفة !

قلت : ثم ماذا ؟

قال : ما ذا ؟ صار ابن العم في السجن ، والبنت في القبر ، وافتضح الشاب فضيحة لن ينجو من آثارها مهما عاش !

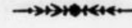
علي الطنطاوي

(١) الفراني ج فرنية هي الكاتو بعينه — راجع المعاجم مادة (فرن) .

د . هـ . لـــورنس

D. H. LAWRENCE

للأستاذ فخرى قسطندى



لعل د . هـ لورنس أجدر القصصيين المحدثين بالدراسة والبحث وأحقهم بالذكر والتنويه . فهو ظاهرة طبيعية فذة كتلك الظواهر التى تبرز إلى عالم الوجود كما ارتقى الفكر وتقدم العصر وتعقدت الحضارة . وهو كغيره من الكتاب له نواح من الإجادة والافتنان يغبطه عليها القارىء والناقد ، وله نواح من النقص والضعف ينعيها القارىء والناقد أيضا . وتفسير ذلك هين ميسور ، ذلك أن لورنس كان فنانا مطبوعا ، ولكنه يخشى أن يتملك الفن زمام نفسه ويطغى على حواسه ، فهو يضطرب لذلك أشد الاضطراب ، ويجزع لذلك أشد الجزع ، وما دام فى نفس الفنان اضطراب وجزع ، فى نتاجه اختلال وقصور .

ولورنس أمير من أمراء الكتابة الفنية عند الإنجليز بلا مراء ، لا يسبقه فى هذا المضمار أحد من كتاب القرن العشرين . ولا غرو فقد كان نادرة فى انتقاء الكلمة اللائقة ، وصياغة الاستعارة المبتكرة ، تتصرف أنامله الرقيقة الصناع فى اللغة فتخلقها خلقا جديداً ، وتضفى عليها ثوبا شعريا جميلا تجعلها أقرب الشبه بالشعر المنثور منها بالنثر الرقيق الأنيق .

وينفرد لورنس من بين سائر الكتاب بالجدة والطرافة والإبتكار التى تبدهك دون كبير انتباه فيما تقرأ له من وصف وقصة ومقال . وحسبه أنه كاتب الفكرة وأنه كاتب العاطفة ؛ ولكنه ليس كاتب الفكرة الصرفة أو العاطفة الخالصة . فهو يقول « أنا أفكر » ثم يستدرك سريعا ويقول « أنا أحس » . ومن ثم فإن الفكرة والعاطفة عنده تتداخلان وتتشابكان وتطغى كل منهما على حدود الأخرى . وعهدنا بالعاطفة المشبوبة أن لها شأنا كبيرا فى تلك الرنة الموسيقية الرائعة التى تشيع فى كتابات كبار الأدباء وأئمة الروائيين . فلا عجب إذن أن يكون لأسلوب لورنس وقع جميل وسحر أخاذ .

ولد لورنس من أب سكير عربيد ، يشتغل بالتعدين فى قرية بالقرب من نوتنجهام ، وقد حرم عطف الأب منذ نعومة أظفاره ، إذ كان أبوه منهالكا على الملذات غارقا فى غمرة من المفاسد والموبقات ، فلم يلق بالا إلى أسرته ولم يرع مصالحها ، غير أن حدب الأم عوضه ما قد فقده من عطف الأب . إذ كانت أمه تنفث فيه موجة إثر موجة من ذلك الحب الحبيس الذى كانت تحتجزه لزوجها أيام أن كانت تعده رجل أحلامها ومحط آمالها .

ويحدثنا لورنس فى كتابه «أبناء وعشاق Sons And Lovers» كيف أن أماً ذاقت أهوال الجحيم كى تتعهد وليدها المريض بالرعاية والعناية ، وتنقذه من التهلكة والموت .

وليس ثمة شك فى أن لورنس كان يصور جزءا من نفسه وبعضا من أمسه حين يعرض لهذا الحدث وما على شاكلته من الأحداث التى اكتنفته فى طفولته . وقد شعر لورنس بحب الأم المفرط يجيش فى كيانه ويجرى فى عروقه فيأسره ويتملكه . وقد يكون حب الأم خيرا فى عالم يمكث فيه الأطفال أطفالا ، غير أنه شر مستطير فى عالم يشبون فيه عن الطوق ويدخلون فى طور الرجولة . فكما أن المرء يفسد طفله كلما بالغ فى إعزازه وتدليله ، كذلك أفسدت تلك الأم وليدها بما أغدقت عليه من حب جامح فياض . فقد انقلب حب لورنس لأمه وجدا وهياما ، ويتجلى ذلك بوضوح فى مرثيته التى يشيد فيها بذكرها والتى مطلعها :

معشوقتى الصغيرة ! محبوبتى !

أقبلك قبلة الوداع ، يا أحب مخلوق إلى .

فهنا استحالت عاطفة البنوة إلى صبابة ووله ، ولم يعد لورنس ينظر إلى أمه كشىء أثير عنده عزيز عليه فحسب ، بل كمحبوبة خليقة بالتشبيب والتقديس . ويقول مدلتون مرى Middleton Murry فى كتابه « ابن امرأة Son of awoman » الذى ترجم فيه للورنس « أنه لم يكن فى مقدوره أن يسبغ حبه على امرأة أخرى ما دامت أمه على قيد الحياة . ولقد كان لهذه التنشئة أثر ضار ، إذ أشرب كاتبنا عقيدة جديدة شاذة ناضل عنها بكل قواه ، وضحى فى سبيلها بما كان يرتجى له فى ميدان الأدب من رفعة وسمو وجاه ، فما وهنت له عزيمة ، وما فترت له همة ، وما خف له حماس حتى دهمه الموت وفارق الحياة .

ذلك أن لورنس ذهب إلى القول بأنه ما من سبيل إلى فهم

الحياة على حقيقتها ما لم نتصل بالمرأة اتصالا جنسيا ، فنقرب الشقة بيننا وبين الجنس الآخر ونفهم نياته وخفاياه ، ونطلع على أحاجيه وأسراره ونبرزها للعيان . وما كانت الحياة عند لورنس إلا رجلا وامرأة ، رجلا سبرنا أغواره واستقصينا أعماقه وأدركنا ماهيته ، وامرأة تحيطها بغلالة من الإبهام والغموض والإلتواء والتعقيد ، ولا أمل لنا فى فهم الحياة ما لم تبد لنا المرأة كما هى مجردة عارية من جميع الدوافع والنوازع والمغريات والمؤثرات . وإذا كانت الحياة كذلك فلا غنى للرجل عن المرأة ، ولا غنى للمرأة عن الرجل ، فكلاهما شطر يكمل الآخر ولا ينفصل قط عنه . ومن ثم فليس ببعيد أن تثير سيرة المسيح فى لورنس الحقد والموجدة ، وتؤجج فى صدره نيران الغيظ والكراهية ، إذ كأن المسيح الشخصية الوحيدة الفريدة فى تاريخ البشرية التى تهدم نظريته من أساسها . فلم يلجأ المسيح إلى المرأة يبتغى منها أن تملأ ما فى حياته من فراغ وأن تسد ما بها من نقص . ولم يدع المسيح إلى الحياة الجنسية يؤزرها ويعضدها ، بل فرق مابين الروح والجسد بنطاق من الطهر والعفاف ، وأحدث خرقا لاسبيل إلى رتقه ما لم نرجع إلى الحياة البدائية الأولى حيث كان اتصال الجنسين حرا طليقا لا تعوقه العوائق ولا تعترضه العقبات .

والفتح الجديد الذى فتحه لورنس فى القصة هو محاولته أن يفلسف الجنسيات . ولا أدل على ذلك من أن أسلوبه بدع فى مرماه ومغزاه ، إذ هو يسعى فى غير خجل وحياء إلى التعبير عن العلاقات الجنسية بين العشاق ، وما تستتبعه من لذة ونشوة حسيتين عظيمتين ، وقد يصيب لورنس ويجيد ويوفى على الغاية ، وقد يخطىء ويخفق ويقصر دون بلوغ الغاية ، ولكنه على ذلك كله حاول أن يبتدع أسلوبا غير معهود من قبل فيما كتب الكتاب وألف المؤلفون . ومن الكتاب من يثنى على لورنس لنجاحه فى التعبير عن الجنسيات ، ومنهم من يرثى لفشله فى هذا الضرب من الكتابة دون اعتبار لأى معيار من معايير الأخلاق ، فما زالت تدوى حتى الآن تلك الصرخة : الفن للفن Art fo arts saek . والذى يعنينا هو أن لورنس كان يعمد إلى كد الذهن ، وإعنات الفكر ليتحقق ما كان ينشده من التعبير عن الجنسيات فى لغة مثيرة غنية بالصور الحسية والاستعارات غير المألوفة . فما كانت المتعة الجنسية وما يدخل فى نطاقها من لذة ونشوة غير مشاعر وأحاسيس خفية لا يسهل الافصاح عنها إلا عن طريق المجاز ، وبرغم ذلك كله فإن لورنس لم يظفر بالنجاح المنشود ولم يبلغ الغاية المرموقة .

ويبدو لنا التجديد الذى أدخله لورنس على القصة قويا رائعا أخاذاً فى تقديمه لقصته « عشيق ليدى تشاترلى Lady Chatleily's Loves » بقوله « إن الصورة التى يفيض عليها الشعور وينحسر هى التى تقرر حقاً مصائر حياتنا ، وهنا تكمن الأهمية العظمى للقصة حين نتصرف فيها تصرفا صحيحاً ، ففى مقدورها أن تقود فيض شعورنا المتسق فى مواضع جديدة ، وفى مقدورها أن تقود شعورنا بعيداً فى ارتداده عن الأشياء التى انتهت إلى العدم . ومن ثم كان فى استطاعة القصة حين نتصرف فيها تصرفا صحيحاً على المواضع الخفية جداً فى حياتنا ، لأن فيض الشعور المرهف فى حاجة إلى أن ينحسر ويتدفق منظفاً ومجدداً فى الأماكن الخفية العاطفية فى حياتنا » ، والذى لا شك فيه هو أن لورنس يريد أن يصور الحياة كفيض يتعاقب عليه الجزر والمد . فالحياة إذن أفراح وأتراح ، وحب وبغض ، وآمال وآلام ، وحقائق وأوهام ، وتفاهة وخطر ، إلى غير ذلك مما يضمه كتاب الحياة اللىء بين دفتيه . أما مايعنيه لورنس بفيض الشعور وانحساره فهو أن النفس البشرية ذات خوالج مختلفة ونوازع متنافرة . ونحن لا نرى فى الشخوص التى يعرضها علينا لورنس فى قصصه الطويلة والقصيرة إلا النفس فى حالة قبضها وبسطها ورضائها واستيائها .

وحين ينقم لورنس على المدنية الحديثة ، ويصب جام سخطه عليها يضع نصب عينيه فلسفته للجنسيات . فالمدنية الحديثة معتلة معوجة ، مختلة مضطربة ، متداعية منهارة ، لأن الإنسان الحديث أطلق العنان للعقل . وأسلم له قياده ، وتركه يهيمن على عواطفه ، ويسيطر على حياته . حتى بلغ الأمر بالعاطفة أنها صارت نتاجا تافهاً للعقل ، ولورنس ينحى باللائمة على الرجل المتمدين الحديث لأنه بإذعانه للعقل ، أفقر الدم الذى هو ينبوع العاطفة ، ومن ثم فقد أرسل لورنس غضبته المدوية بأن على المرء أن يحيا حياة عاطفية لا تكبلها الأديان ولا تحدها الطرق . ولورنس يذهب إلى أبعد من هذا فينادى بالاتصال الجنسى ويحث عليه ، إذ أن فيه تحقيقا

للحياة الفطرية العاطفية القديمة التي لا يشوبها تكلف وتصنع أو أوشاب وأدران .

ولورنس يحمل على المدنية الحديثة لأنها حطت من قدر الحياة القديمة ، وشوهت من قيمتها . ذلك لأن التكالب على جمع المال ، وتحصيل الثروة وطلب الجاه ، وحب السيطرة والرئاسة ؛ دفعت بالمرء في طريق غير مأمون العاقبة ، فأخمدت شعوره بدلا من أن تذكيه ، وأسكنت عاطفته بدلا من أن تثيرها ، ومن ثم فقد صار من الصعب أن يأخذ فيض الشعور وانحساره طريقه المعهود .

هذه النقدات الجارحات التي أرسلها لورنس عن طريق قصصه أثارت ثائرة النقاد عليه ، وأحفظتهم ضده ، فحملوا عليه حملات شعواء ونددوا بآرائه وكتبه . وكأنه أراد أن يقابل العدوان بالعدوان ، فلجأ إلى إصدار قصته الطويلة «عشيق ليدى تشارلى» التي وصف فيها وصفاً سافراً العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة . والواقع أن رغبته الجامحة في أن يكتب لجمهرة القراء قصصاً تكشف بوضوح عن انحسار العاطفة وفيضها كان بليغ الأذى بعيد الضرر .

ولقد قصر لورنس نفسه في مستهل حياته الأدبية على وصف ذلك اللون من ألوان الحياة الذي يدور على حياة المعدنين المضطربة التعسة ، ونفوسهم الحزينة الكسيرة ، وآمالهم المحطمة الذابلة . ولقد وفق لورنس في هذه الناحية توفيقاً بعيداً ، وأجاد إجادة كبيرة لا تتوفر إلا فيمن خبروا مثله صنوف الألم ومتاعب الحياة في مهد الصبا وميعة الشباب . فلما تألق اسمه في سماء الأدب حين حظيت قصته الطويلة « الطاوُوس » بالرواج والذيوع ، ترك هذا اللون من ألوان القصص إلى غيره مما لم يستكشف من قبل ، وما أتينا على ذكره حين عرضنا لفلسفته . فلما كانت قصته الطويلة « عشيق ليدى تشارلى » ، لم يجد بداً من أن يشد رحاله بعيداً عن انجلترا حيث أغضب الرأى العام ، وابتدأ تجواله في طول الأرض وعرضها ، فزار فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، واستقر به المطاف في المكسيك . وهناك عاش ناعم الحال رضى البال يحيا لفلسفته ويعيش على كتبه ، وهناك أيضاً خبر الحياة البدائية الطبيعية البعيدة عن أدران المادية والمدنية .

وصفوة القول أن لورنس كان شاعرى النزعة يحتل مكانه في عالم الأدب بجانب أميلى برونتى ، وتوماس هاردى وغيرهما من الكتاب الذين حاولوا أن يفهموا الحياة ككل ، فلم يعرضوا لها من جانب واحد يقتلونه دراسة وبحثاً . ولئن كان لورنس قد تنكب جادة الصواب في بعض الأحيان ، فله بعض العذر إذ عاش عيشة مضطربة قاسية أملت عليه ما أذاعه للرأى العام .

ومهما يكن من شيء فللورنس على القصة فضل كبير ، إذ أدخل عليها الجرأة في التفكير والصراحة في التعبير .

فخرى قسطندى

ليسانسيه الامتياز في الأدب الانجليزى

الأدب فى سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والجمال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٨ —



أشعاره فى هورتون :

كان كل هذا العناء وكل هذا الكدح من أجل الشعر ، فالشعر كان فى قرارة نفسه بحيث لو حاول بكل ما فى وسعه ألا يكون شاعرا ما استطاع . وهو يعتقد أن الله سواه ليكون شاعرا ، ولذلك فهو يعلى قدر رسالته ويجعل لها شبه ما للرسالات الإلهية من سمو وخطر ؛ فلا يقتصر على طلب الحكمة والوقوف على ما هو بسبب من تلك الرسالة والإفادة منه ، بل يتطهر إلى جانب ذلك فينقى نفسه من كل شائبة ليكون لرسالته أهلا وليتنزل عليه نورها . ثم إنه يستغرق فى حال صوفية يمدها كذلك من مكونات الشاعرية فيتقرب إلى الله ويبتهل إليه ، لأنه يؤمن أن وحى الشعر يهبط من الله ، يوضح ذلك قوله : « إن مثل هذا لن يصل إليه المرء إلا بالصلاة والقنوت لتلك الروح السرمدية ، لله الذى يؤتى الحكمة ويهب البلاغة فيغنى بهما الأنفس ، ويرسل رسله بالنار المقدسة من لدن عرشه فيطهر بها روح من يشاء من عباده . ويجب أن يكون مع الصلاة قراءة مختارة فى جد متصل ، يصحبها تدبر يقظ ، وتعمق للأعمال والمسائل ما هو خير منها وما يبدو كأنه خير . ولقد وصف ملتن مدة إقامته هذه فى هورتون بقوله : « إنها سنوات كثيرة مليئة بالدراسة والتفكير ، قضيت كلها فى البحث عن المعرفة الدينية والمدنية » .

وحق لأصحابه أن يعجبوا من صبره على المقام فى الريف ، وزهده فى مباهج المدنية. وعجب حتى (ديودانى) من ذلك فكتب إليه يسأله عما هو فيه ، فرد عليه ملتن قائلا : « لقد طالما تساءلت عما أنا فى شغل به ، وفيم أفكر ، فاعلم أن ذلك بمعونة الله هو الخلود . وأرجو أن تغفر لى هذه الكلمة فإنما أهمس بها فى أذنك . أجل ، إنى أريش جناحى استعدادا لأن أطير فأحلق تحليقة » . وكان كتاب صاحبه هذا إليه ، ورده عليه فى أخريات أيامه فى هورتون .

وما كان يريش جناحيه إلا ليطير فى سماء عالية ، ويحلق فى آفاق فسيحة ، فإن موضوعا عظيما لن يبرح يهجس فى خاطره ، ولن يزال حديث نفسه ومنتجع هواه ؛ فأى موضوع هو ومتى ينهض له ؟ ذلك ما لم يتبينه يومئذ على وجه التحديد ؛ ولكن المرء يستطيع أن يستخلص من مادة دراسته ومن طول انكبابه عليها أنه يتأهب لرسالة عليا يتحقق له بها الخلود . ويقول الدكتور جونسون فى هذا الصدد : « مِن هذا الذى يعد به وقد جمع فيه بين الحماسة والتقوى والتعقل يمكن أن نتوقع الفردوس المفقود » .

على أنه لا يزال بينه وبين الفردوس المفقود سنوات طويلة ، فماذا جرت به يراعته فى هورتون ، أو على الأصح ماذا تغنت به قيثارته ؟

نظم ملتن ثلاث قصائد ، وغنائيتين مسرحيتين إحداهما قصيرة تقرب من مائتى سطر ، والأخرى طويلة نيفت على الألف . ولئن عظمت شهرة قصيدته الكبرى « الفردوس المفقود » فيما بعد حتى بهر نورها القلوب والأبصار ، وأنسى الناس هاتيك القصائد

التى نظمها فى هورتون ، فإن جمهرة النقاد متفقون على أنه بلغ ذروة الفن فى تلك القصائد الخمس ، وعلى أنه لو لم ينظم غيرها ، لكانت كفيلة أن تحله فى الصفوة المختارة من الشعراء الغنائيين فى العالم كله قديمه وحديثه ، إن لم تجعل له موضع الصدارة بينهم أجمعين .

وقد نشرت تلك القصائد سنة ١٦٤٥ بعد رحيله عن هورتون بست سنوات ومعها بعض أشعاره اللاتينية . وكان ما ذكره ملتن عنها أنها بمثابة امتحان لقدرته وأنها مقدمة بين يدى وعده بخمس ، ولم يفتأ بعدها يعد بعمل خالد فى دنيا الشعر دون أن يشير إلى تلك القصائد كأنه نسيها أو كأنه لا يرى فيها شيئا يحقق جانبا مما يعد به ، وتكشف تلك القصائد الجميلة الخمس ، فضلا عما ترى الناس من مقدرته الفنية ، عن كثير من خلجات نفسه واستجابة حسه ونوازع قلبه ، ومتجه فلسفته . لذلك كانت عظيمة الخطر كسجل لحقبة من حياته ، أما تلك القصائد فهى « الليجرو » ، و « البنسروزو » و « أركاوس » و « كومس » و « ليساوس » .

أما الأولى والثانية فكلتاهما تعيض الأخرى فى موضوعها ؛ فمعنى الليجرو فى الطليانية « الرجل الطروب » ومعنى البنسروزو « الرجل المتفكر » . وتصف الأولى كيف يكون المرح واللهو فى أحضان الطبيعة وفى زحمة المدنية ، وتصف الثانية كيف يكون التفلسف فى الحياة والركون إلى العزلة ، والتفكر بين الأوراق والكتب . وأما الثالثة فهى الغنائية القصيرة . وأما الرابعة فهى الغنائية الطويلة . وأما الأخيرة فهى فى رثاء صديق

***

افتتح ملتن قصيدته الأولى « الليجرو » بقوله « إليك عنى أيها الأسى المتلكئ » ثم راح يصف الأسى فصوره فى صورة مخيفة سوداء . وحسبك أن ينعته أنه ولد من أحلك سواد فى منتصف الليل ، ومن الكلب الخرافى ذى الرؤوس الثلاثة والذيل الثعبانى ، ذلك الوحش الذى يقوم على حراسة أغلاق العالم السفلى ؛ ويولد الأسى من هذين مجتمعين فهو ابنهما ... ويعود الشاعر فيقول : « اذهب أيها الأسى فابحث عن مأوى لك بين الأشباح المرعبة والصراخ والمناظر الخبيثة حيث يمد الليل الكئيب جناحيه الحريصين على الظلام ، وحيث تغنى البومة طائر الليل هنالك تحت الظلال السود وتحت الصخور المكتئبة المتداعية كذوائبك المهوشة . اذهب أيها الأسى ، وابق أبدا فى تلك الصحراء الخرافية القصية المظلمة التى ينتهى عندها العالم فى الغرب على حافة المحيط » .

وينتقل الشاعر بعد هذه الصورة الكريهة إلى مناجاة الفرح فيقول :

« أقبلى أيتها الآلهة الجميلة الطليقة التى سميت فى السماء « أفروسين »[(١)] ، وسماك الناس السرور الذى يشرح الصدر ؛ أنت يا من ولدتك ڤينوس[(٢)] وحملتك وأختين لك أخريين إلى باخوس[(٣)] ؛ أنت يا من حملت بك أورورا[(٤)] ، وهى تلاعب زفير[(٥)] حيث لقيها أول أيام مايو وهما يمرحان على سرر من البنفسج الأزرق والورود الجنية تفتحت لساعتها وغسلها الندى ، فجئت ابنة حسناء بضة مرحة . ثم يمضى الشاعر يعرض صور المرح الذى تجلبه معها عذراء الأساطير التى يناديها ، فهناك الشباب المتوثب الطروب ، واللعب والبسمات العذاب ، والضحك الذى يمسك جنبيه . ويعود فيهتف بتلك العذراء ، ويسألها أن تسرع إليه تخطر على أطراف أصابعها مصطحبة معها عذراء الجبل ، الحرية الحلوة ممسكة إياها بيمناها ، ويشعر المرء بالبون العظيم بين ما سرده من صور الأسى وبين ما صوره من أشكال المرح وأنماطه ، ويقابل بين الناحيتين فتزداد كل منهما انجلاء تلقاء الأخرى .. »

ثم يعمد ملتن إلى فنه الذى امتاز به فيرى فى أسطر متتابعة إلى صور كثيرة متلاحقة يرسلها واحدة تلو الأخرى ، يريد أن يقول : إنها أطياف الفرح يوحيها إلى النفوس إذا لاذت به . وكلها مما يملأ القلوب بهجة ونشوة ، « فهناك ضوء القمر فى الليل الساجى وغناء القبرة ينبعث من برجها العالى فى السماء ، ثم صياح الديك بعد ذلك يبدد به الظلام ، بينما يسوق أمامه فى نشاط حسانه إلى باب الحظيرة ، ثم كلاب الصيد ونفيره توقظ فى مرح الصباح الناعس ، والشمس تنحدر من الباب الشرقى متشحة بالشمل فتبدد السحب ، والحراث يصفر لحناً على مقربة من الأرض التى خططها بالأمس ، وحالبة اللبن تغنى طربة ، والرعاة يتلو كل منهم

---

(١) إحدى إلهات الجمال والرقة الثلاث ومعنى اسمها البهجة وأختاها هما « أجاليا » أو الضوء و « ثاليا » أو النماء.

(٢) إلهة الربيع فى الأساطير اللاتينية .

(٣) إلهة الخمر .

(٤) إلهة الفجر .

(٥) ريح الغرب المؤذنة بالربيع .

قصته إلى جانب الألفاف الخضراء ، والقطعان والمراعى والمروج الخضر ، والجبال والبحيرات والأنهار الواسعة تجتليها العين فى نظرة ، والأبراج الشاهقة بين الأشجار لا يبعد أن تكون مقراً لذات حسن ، فهى لذلك مهوى البصر لكل عين قريبة ؛ ويتراءى غير بعيد دخان ينبعث من كوخ قائم بين شجرتين عتيقتين باسقتين من أشجار البلوط ، حيث يطعم الرعاة طعامهم الشهى الريفى قدمته إليهم الراعيات ، ثم انطلق النساء منهن والصبايا إلى الحصاد يحصدن الزرع ويسوينه حزماً ؛ وثمة فرحة أخرى طليقة يتعتعها مرأى القرى القريبة يلحن للعين على مرتفع ، هنالك حيث تصلصل الأجراس المرحة تباعاً ، ويغنى المزمار الطروب فيشجى الفتيان والصبايا ، إذ يرقصون جماعات فى الظلال الرقطاء ، وقد خرج الكبار والصغار يرتعون ويلعبون فى يوم بطالة ضاح ، ولن يزالوا فى مرحهم حتى ينطوى ضوء النهار الطويل . ثم إن لهم بعده متعة فى الصهباء تدار عليهم أكوابها إلى جانب المواقد ، ومتعاً فى حكاياتهم عن الحصاد وموسمه يقضون فيها شطراً من الليل ... »

ولن ينسى الشاعر أن يورد صور المرح فى المدينة ، وقد وفاها حقها فى القرية ، فينتقل بخياله إلى المدن ذات الأبراج وما تزدحم به من أخلاط الناس وأغماطهم ، وفيهم زمر الفرسان وذوو البأس من البارونات ، يتفق لهم فى ملابس السلم نصر عال على أسراب الغوانى ، تمطر أعينهن البراقة السحر على من يبتغون الوسيلة إلى قلوبهن ، ومن يرتقبون مايجزين به اللباقة والفروسية ، إذ تسعى كلتاهما جاهدة للظفر بعطف ملكة الجمال . ويستطرد ملتن فى وصف متع المدينة ومباهجها ، فيسوق منها صوراً متتالية كأنها صور فلم بهيج : فثمة حفلات الأعراس وإليها يشير فى مهارة بذكر « هيمن » إله الزواج فى أساطير الإغريق بملابسه الصفراء ومصباحه الذى يلوح به ، وثمة الولائم والسوامر ومعالم الزينة تتخللها الثنائيات المسرحية بمشاهدها القديمة ، كما يتخللها مايحلم بمثله شعراء الشباب فى أمسيات الصيف على ضفاف الغدران المنعزلة ، يضاف إلى ذلك روعة التمثيل ، فإما ملاهى بن جونسون وإما ملاهى أحلى الشعراء فناً ولحناً ابن الخيال الساحر شكسبير يتغنى فيها بألحانه البرية ألحان غابات وطنه ومشاهدها[١] .

(١) يشير ملتن بذلك إلى الفرق بين فن بن جونسون الذى تثقف الأغريقية واللاتينية وفن شكسبير الذى غنى على سجيته ولم يعرف إلا قليلا من الأغريقية وأقل منه من اللاتينية .

ويعود الشاعر فى ختام قصيدته الرائعة إلى مناجاة إلهة الفرح فيسألها أن تحيطه بجو ملىء بالأغانى الشعرية الجميلة التى تدرأ عن القلب الهم الذى يأكله ، تلك الأغانى الرقيقة العذبة التى تتمثل فى الشعر القوى الرصين يجمع بين جمال السبك ومهارته ، وروعة الفن وفتنته ، فيبلغ من السحر ما يحطم به ما يقيد النفس من قيود الحياة ومشاكلها فتحرمها من نشوة الموسيقى ، ويبلغ من الجمال ما يوقظ به أرفيوس[١] نفسه ، فيرفع نفسه من غفوته الذهبية على سريره المتخذ من أزهار الجنة ، ويستمع إلى تلك الألحان التى لو كان تغنى بمثلها لاستمال إليه أذن بلوتو ...

تلك هى خلاصة قصيدته الأولى الليجرو ، وشتان بين هذه الخلاصة فى لباس النثر وفى لغة غير لغتها ، وبين الأصل فى لباس الشعر وفى بلاغة ملتن وبراعة فنه وروعة لحنه !

* * *

ويفتتح ملتن قصيدته « البنسروزر » بنقيض ما افتتح به قصيدته الأولى فيقول : « إليك عنى أيتها المسرات الخادعة ، من الحماقة وحدها ولدت بغير أب . ما أقل عودك على العقول الرزينة ، وما أقل ما تبثينه فيها من ألاعيبك ... استقرى فى بعض الرؤوس الكليلة ، وسيطرى على تلك المخيلات المولعة بما لا يحصى عدده من الأباطيل والمظاهر البراقة ، تبلغ فى كثافتها وعددها ما يبلغ الهباء الملق فى أشعة الشمس »

ويناجى الشاعر الشجن ليأتى إليه ، وينعته بالحكمة والقدسية ، بل يغلو فيجعله أقدس مايلحق به التقديس ؛ ويصف آلهة الشجن بأنها أعظم سناً من أن تطيقها عيوننا ، وعلى ذلك فأننا نراها مجللة بالسواد ، ولكن هذا السواد لن يشينها ، فما أشبهها بمملكة أثيوبيا الجميلة التى غالبت فى الأساطير جنيات البحر فبذتهن ملاحة وأغضبتهن بذلك وأساءت إليهن .

ولا يفتأ الشاعر يدعو هذه الآلهة إليه مصطحبة من يليق من رفقة ، ويضفى عليها صفات الحكمة والتؤدة والتعقل والوقار

(١) أرفيوس . فى الأساطير الأغريقية . أهدى إليه أبولو قيثارة بلغ من مهارته فى العزف عليها أن كان يتبعه الصخر والشجر والوحوش أينما سار وقد أراد أن يستنقذ زوجته بسحر الموسيقى من بولوتواله العالم السفلى .

والدأب والجد ، ويصورها تنقل بصرها من السماء إلى الأرض متدبرة متفكرة ، أما الرفقة التى تصطحب فالسلام والهدوء والصوم والعزلة والتأمل والصمت ؛ ويجعل الشاعر من هذه المعانى شخصيات فيتحدث عنها ويصفها كأنما يتحدث عن أشخاص .

ويعرض الشاعر أنماطاً من الصور تناسب حالة التفكر التى يصف أو ماسماه الشجن العاقل . وبقدر ما كان فى قصيدته السالفة من مرح وجلبة وفتون ، تنطوى قصيدته الثانية على الوجوم والهدوء والسكون . وأكثر صوره هنا فى الليل ، فهو يحب أن يمد سمعه إلى صوت الكروان ، ويحب أن يمشى فى سكون تحت القمر حتى يبلغ فى السماء أقصى ارتفاعه ؛ ويحب أن يجلس فى ضوء مصباحه فى هدأة الليل لا يسمع إلا صوت خفرائه ، فيقرأ فلسفة أفلاطون ، ويقرأ الشعر والمسرحيات والقصص الرفيع . والليل هو الوقت الذى يعشق فهو قائمه كله لا يبرح مكانه حتى الصباح كما لا يبرح الرب الأكبر من النجم أفقه ، فاذا كان الصباح فليكن صباحا تكتنفه الغيوم وتتناوح فيه الرياح الهوج ، ويتساقط المطر ؛ وإذا ما قدر للشمس أن تبدد الغيوم بعد لأى فليتوار عن ضوئها فى كوخ أو فى عش منعزل بين الشجر لا تقع عليه عين ، وهناك فلينم حتى ينهض وفى أذنيه موسيقى حلوة من ألحان جن الغابة . وهو يحب أحيانا أن ينقل الخطا متأملا فى فناء كتدرائية قوطية عتيقة عالية الأقواس ، توحى إلى النفس ذكرى الدين ، ثم يستمع إلى الأرغن يتصاعد فى الجو لحنه فيذيبه اللحن من فرط انتشاء روحه ويستنزل كل ما فى السماء حتى يراه ماثلا أمام عينيه . وأخيراً فما أحب إلى نفسه أن يقضى عمره فى صومعة منعزلة حيث لا يبرح يطلب الحكمة ويستزيد من المعرفة مما هو بسبب من كل ما فى السماء وما فى الأرض ، حتى تهيىء له خبرته الطويلة حالا أشبه بحال النبوة .

وتلك هى خلاصة قصيدته الثانية ، وهى من حيث الأسلوب والبيان والفن الشعرى كسابقتها روعة بناء وبراعة تصوير وقوة أداء وسمو فن ، كما أنها مليئة كأختها بالاشارات إلى أساطير الأغريق والرومان فلا تكاد تخلو فقرة منها من إله أو آلهة .

ولا يكاد يفرغ المرء من قراءة القصيدتين حتى يتبين أنهما تصفان حياة الشاعر فى عزلته بهورتون ، فذلك الأليجرو أو الفتى الطروب هو ملتن فى إحدى حالاته ، وذلك البنسروزو أو الفتى المتفكر هو كذلك ملتن فى حالته الأخرى ، وما هاتيك الصور التى صورها فى القصيدتين إلا ما كان يقع تحت بصره من حياة الريف ومباهجه وحياة المدينة ومسراتها ، ثم ما كانت تحسه نفسه من حب العزلة وطلب الحكمة والانكباب على الدرس ، وما كان يهجس فى خاطره من تطلع إلى حالة كحالة النبوة .

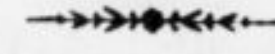
أما من حيث الفن فقد بلغ ملتن فى هاتين القصيدتين ذروة الشعر الغنائى ، ولم يبلغ قبله ولا بعده من الشعراء فى لغة قومه مثل ما بلغه من السمو فيهما . ولا تزال القصيدتان حتى اليوم ينظر إليهما شعراء الغناء نظرتهم إلى قمتين شامختين تطاولان النجم ، وينطق سموها بالتحدى والاعجاز . ولا تجد فى وصفهما أبدع مما ذكره ماكولى عنهما إذ يتعرض لبيان خصائص شعر ملتن ، فعنده أن من أبرز خصائصه قدرته على أن يؤثر فى نفس قارئه بما توحيه ألفاظه من صور وأخيلة وأفكار تتداعى من بعد ، أكثر مما يؤثر فيها بالمعنى الذى يؤديه اللفظ ، فكأنما ينتقل تأثيره إلى ذهن القارىء بهذه الصور وبهاتيك الأخيلة والأفكار كما تنتقل الكهرباء إلى هدفها خلال موصل . وكذلك من أشهر خصائصه جزالة اللفظ وإشراقه وجماله وعذوبة موسيقاه وهى جميعاً أظهر ماتكون فى قصيدتيه السالفتين . يقول ماكولى : « لن تجد هذه الخاصة أظهر فى شىء مما كتبه ملتن منها فى الاليجرو والبنسروزو ، ويستحيل على المرء أن يتصور أن تبلغ الصياغة اللغوية درجة أرفع فى الكمال مما بلغته فيهما . وتختلف هاتان القصيدتان عن غيرهما كما تختلف خلاصة العطر عن ماء الورد العادى ، أو كما يختلف ذلك القدر الغالى من العطر الذى نعبه حريصين عليه عن ذلك السائل المائع الرقيق .

وما هما فى الحقيقة بقصيدتين أكثر مما هما طوائف من التلميحات ، يستطيع كل امرىء أن يتخذ من كل واحدة منهما قصيدة لنفسه ، فكل تلميحة وصف منها كافية لبناء مقطوعة » ولم تخل القصيدتان من هنات يتمسك بها النقاد ، ولكنها أقل من أن تشينهما أو تنزل بهما عن المستوى الفذ الذى بلغتاه . ونحب أن نرجىء الكلام عن هذه الهنات حتى نفرغ من شعره كله فى هورتون ثم ننظر فيما له وما عليه .

(يتبع) **الخفيف**

الاسلام والحكمة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى



لا يزال هناك فريق من الناس ينفر من الحكمة وعلومها ، ولا يعلمون ما للحكمة من شأن عظيم فى الإسلام ، وأن القرآن نوّه كثيراً بشأنها ، وذكر أن من فضل الله على بعض الأنبياء أنه أوتيها ، وجمع بينها وبين النبوة ، ومن أولئك الأنبياء الذين جمعوا بينهما ، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفضله فى ذلك يربو على فضل كل الأنبياء . ولاغرو فهو الذى أخرج من تلك الصحراء القاحلة ، أمة كانت ترتع فى البداوة والجهالة ، فجعلها خير أمة أخرجت للناس ، شأن العلم عندها أرفع شأن ، تحمل مصباحه بيمينها لتضىء به العالم شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، لا تبغى بذلك إلا وجه العلم ، ولا تقصد من ورائه مغنما من مغانم الدنيا ، ولا تجعله وسيلة لحكم الشعوب وإذلالها ، ولا تحتكره لمصلحتها ، ولا تكتمه عن الشعوب لئلا ينتفعوا به كما تنتفع به ، وكان العلم مشاعا فى عصرها بين كل الأمم ، وكان العلماء فى عهدها موضع التجلة على اختلاف شعوبهم وأديانهم ، وكان علمهم موضع التقدير والاحترام ، وتشد إليه الرحال فى سائر الأقطار ، وتبذل نفائس الأموال فى الحصول على كتبه من بلاد الروم ، ومن بلاد غيرهم من الأمم السابقة فى الحضارة ، فلم يكن هناك حواجز من دين أو غيره بين العلماء ، ولم يكن هناك حواجز من دين أو غيره بين العلماء والملوك ، فاجتمع العلماء إخوانا فى مجالس العلم ، لا فرق بين مسلم ونصرانى ، ويهودى ومجوسى ، وصابئى ووثنى ، وقد أزالت رابطة العلم ما بينهم من فوارق ، وغمرتهم بفيض عظيم من التسامح ، إذ كان شعار هذه الأمة التى جمعت بينهم ، أن الحكمة ضالة المؤمن يطلبها أنى وجدها، وأن العلم غاية المسلمين يطلبونه ولو بالصين، وأن فضل العالم على العابد كفضل النبى صلى الله عليه وسلم على أدنى رجل من المسلمين .

ولم يكن هذا كله إلا لأن القرآن الكريم رفع شأن العلم والحكمة على كل شأن ، وجعل تعليم الحكمة من الأغراض التى بعث من أجلها الأنبياء ، ليقضوا بها على الجهل والجاهلين ، ويجعلوا مقام العلماء فوق كل مقام ، فتصلح الدنيا بعلمهم وحكمتهم ، ويسعد الناس بهديهم وإرشادهم .

وقد جاء تنويه القرآن الكريم بالحكمة على وجوه شتى ، فمرة ينوه بشأنها فى ذاتها ، كما جاء فى الآية — ٢٦٩ — من سورة البقرة « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يُؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يَذَّكَّرُ إلا أولو الألباب » .

ومرة يعقد سورة باسم حكيم من الحكماء ، وهو لقمان بن باعورا الحكيم القديم ، وقد ذكر الله فى هذه السورة ممتناً ما آتاه من الحكمة ، فقال فى الآية — ١٢ — من آياتها (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد) .

ومرة يجعل الحكمة مما تفضل به على بعض أنبيائه ، فيذكر أنه تفضل بها على إبراهيم وآله ، فى الآية — ٥٤ — من سورة النساء (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) .

ويذكر أنه تفضل بها على داود ، فى الآية — ٢٠ — من سورة ص (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) .

ويذكر أنه تفضل بها على عيسى ابن مريم فى آيات كثيرة ، فيقول فى الآية — ٤٨ — من سورة آل عمران (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) ويقول فى الآية — ١١٠ من سورة المائدة (إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة) الآية .

ويذكر أنه تفضل بها على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه بعثه فى أمة أمية لينقلها بتعليم الدين والحكمة ، من الأمية إلى العلم ، ومن البداوة إلى الحضارة ، فيقول فى الآية — ١٢٩ — من سورة البقرة (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم) ويقول فى الآية — ١٦٤ — من سورة آل عمران

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) ، ويقول فى الآية — ٢ — من سورة الجمعة (هو الذى بعث فى الأميين رسولا ، منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وقد جاء بعد هذه الآية آية لها شأن نبينه فيما يأتى ، وهى قوله تعالى (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم)

وقد اضطرب المفسرون فى بيان معنى الحكمة اضطرابا كبيراً ، فذهب فريق منهم إلى أن المراد بها السنة ، وهى ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم . وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها المعرفة بالدين ، والفقه فيه ، والاتباع له . وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها العلم بأحكام الله تعالى ، التى لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمعرفة بها منه . وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها الفصل بين الحق والباطل ، وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها معرفة الأحكام والقضاء ، وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها العقل والفهم ، وذهب فريق منهم إلى أن المراد بها كل كلمة وعظتك ، أو دعتك إلى مكرمة ، أو نهتك عن قبيح .

ولقد تهيب هؤلاء المفسرون أن يحملوا الحكمة على معناها الشائع عند العرب وغيرهم ، لأن كلمة الحكمة عند العرب ترادف كلمة الفلسفة عند اليونان ، وتُنْطَقُ عندهم (فيلا سوفيا) وفيلا معناها الإيثار ، وسوفيا معناها الحكمة ، وقد اشتق العرب من ذلك كلمة الفلسفة بمعنى الحكمة ، كما اشتقوا كلمة الفيلسوف من (فيلوسوفوس) بمعنى الحكيم ، وهو فى الأصل بمعنى المؤثر للحكمة .

ثم جاء بعد هؤلاء المفسرين فريق لم يتهيب ما تهيبوه ، من حمل الحكمة على معناها الشائع عند العرب وغيرهم ، فذهب إلى أن المراد بالحكمة معرفة الأشياء بحقائقها ، وهو بعينه ما يقوله العلماء فى تعريف الفلسفة ، من أنها العلم بحقائق الأشياء بقدر الطاقة البشرية ، وعلى هذا يكون تعليم الكتاب إشارة إلى العلوم النقلية ، ويكون تعليم الحكمة إشارة إلى العلوم العقلية ، وهى العلوم التى تدخل تحت كلمة الحكمة أو الفلسفة ، وتشمل ما يشمله اسم الفلسفة النظرية والعملية .

ولا يراد من تعليم النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لأمته إلا أن يهيئها له ، بأن يعلمها الدين الصحيح ، ويعمل على محو الأمية فيها ، بتعليمها القراءة والكتابة ، ويحبب إليها النظر فى العلوم على اختلاف أنواعها ، ويرشدها إلى الاستفادة ممن سبقها من الأمم إلى درس العلوم ، لتبنى على أساسها ، وتقوم بقسطها فى النهوض بها ، فتؤدى زكاة العقل فى رفع منار العلم ، والوصول به إلى ما لم تصل إليه الأمم قبلها ، ولا تقف به عند الحد الذى وصل إليه قبل أن تتناوله . فلا يتم ذلك إلا بالتدريج ، وهو سنة الله فى الترقى والنهوض ، وهذا هو الذى تشير إليه الآية السابقة فى سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم) فقد قيل إن المراد بالآخرين الفرس ، ويؤيده ما روى عن أبى هريرة قال : كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ نزلت سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قال رجل : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثا ، قال — وسلمان الفارسى فينا — فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ، وقال : والذى نفسى بيده ، لو كان الإيمان بالثريا ، لتناوله رجال من هؤلاء .

وقيل إن المراد بهم التابعون ، وقيل هم جميع من دخل فى الإسلام بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى يوم القيامة . وقد كان أن تلك الحركة العلمية الإسلامية أخذت فى التدرج إلى أن دخل الفرس فى الإسلام ، وهم قوم لهم سابقة فى العلم والحضارة ، فوصلت بهم الحركة العلمية الإسلامية إلى ذروتها ، ودونت على عهدهم العلوم الدينية ، ونقلت علوم الحكمة إلى اللغة العربية ، فدرسها المسلمون ، وبذوا فيها من تناولها قبلهم من السابقين ، وحققوا بذلك ما وعد الله من تعليمهم الكتاب والحكمة ، وما كان الله تعالى ليخلف وعده .

وما أخطأ المسلمون حين أخذوا علوم الحكمة عمن سبقهم إليها من الأولين ، لأن الله قد حثنا على النظر فى الآية — ١٨٥ — من سورة الأعراف (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) فهذا حث على النظر فى جميع الموجودات

والتأمل فيما أودعه الله فيها من عجائب وأسرار ، لاستنباط العلوم والمعارف التى تدل على عظيم قدرته ، وتشهد ببديع حكمته .

فإذا وجدنا نظراً لمن كان قبلنا فى جميع الموجودات ، ووجدنا لهم علوما تعنى ببحثها وكشف أسرارها ، وجب علينا أن ننظر فى تلك العلوم ، وأن ننقل ما ألف فيها من كتب إلى لغتنا ، لنستعين بها فيما أمرنا الله به من النظر فى الموجودات ، ولا نضيع زمناً فى بحث ما سبقونا إلى بحثه فيها ، فما كان فيها موافقاً للحق قبلناه منهم ، وما كان غير موافق للحق صححناه لهم ، ولا يصح أن يمنعنا خطؤهم من الانتفاع بصوابهم ، كما لا يصح أن يمنعنا من النظر فيها أن يضل بعضنا به ، لنقص فى فطرته أو لغير ذلك من الأسباب ، لأن هذا الضرر إنما يلحقها بالعرض لا بالذات ، ولا يصح أن يترك ما يكون نافعاً بطبعه لضرر يوجد بالعرض فيه ، وشأنها فى ذلك شأن العسل ، حين أمر النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أن يسقيه أخاه ، فزاد إسهاله به ، فلما شكا ذلك إليه قال له : صدق الله وكذب بطن أخيك . يعنى صدقه تعالى فى قوله فى الآية — ٦٩ — من سورة النحل (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) .

وليست هذه العلوم وحدها هى التى عرض لبعض أصحابها ذلك الضرر ، فقد عرض مثله لكثير من العلوم ، كعلم الفقه الذى يعد من أمهات العلوم الدينية ، فكم من فقيه كان الفقه سبباً لقلة تورعه ، وخوضه فى الدنيا ، مع أن صناعته تقتضى بالذات الفضيلة العملية .

ولقد حوى القرآن الكريم كثيراً من مسائل تلك العلوم ، ولا سيما مسائل الحكمة العملية ، لأن الدعوة إليها هى الأهم ، أما الحكمة النظرية فليس من شأن الأنبياء تقرير مسائلها ، وليس من شأن الكتب المنزلة شرح علومها ، وإنما يوجه الأنبياء الناس إليها توجيها ، وتشير الكتب المنزلة إلى بعض مسائلها إشارة مجملة .

وقد جاء ما يمكن أن يعد فصلا من الحكمة العملية فى سورة الإسراء ، وذلك من قوله تعالى فى الآية — ٢٣ — (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما) إلى قوله تعالى فى الآية — ٣٩ — (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلها آخر ، فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) .

ولقد حوت السنة النبوية كذلك كثيراً من مسائل الحكمة العملية ، كما حوت كثيراً من مسائل الحكمة النظرية ، كالطب وغيره ، وكان من طبه صلى الله عليه وسلم ما يسمى الطب النبوى ، وقد وضع العلماء فيه كتباً أثبتوا فيها ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى هذا العلم ، وقد شهد له المقوقس أمير مصر بهذه الحكمة ، وذلك حين أرسل إليه يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل إليه هدايا فيها طبيب ، فقبل النبى صلى الله عليه وسلم هداياه ، وقال للطبيب : ارجع إلى أهلك ، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع . وقيل إن رسول النبى صلى الله عليه وسلم ، هو الذى قال ذلك للمقوقس ، فقال له : أنت حكيم جئت من عند حكيم .

وكان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم حكيم يقال له الحارث ابن كلدة ، رحل إلى مدرسة جنديسابور ، فتلقى علوم الحكمة من الطب وغيره على فلاسفتها ، ثم رجع إلى بلاد العرب فاشتغل فيها بعلاج المرضى ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يأمر أصحابه بالعلاج عنده .

ولما فتح عمرو بن العاص مصر وجد من فلاسفتها يوحنا النحوى فقربه عمرو من مجلسه ، وكان يصغى إليه ويستمع إلى حكمته ، ويُعْجَب بما يسمعه منها ، ويكثر من الثناء عليه .

وكذلك فعل الملك الصالح عمر بن عبد العزيز مع حكماء عصره وكان فى ذلك كله تمهيد للنهضة العلمية الكبرى ، التى حصلت فى عهد العباسيين ، فزخرت بها البلاد الإسلامية علما وحكمة ، وصار المسلمون فى ذلك العهد حكماء العالم ، والفضل فى ذلك للنبى الحكيم ، الذى قضى على تلك الأمية ، ومهد لمن جاء بعده طريق الحكمة .

عبد المتعال الصعيدى

فى كتاب البخلاء

« طبعة وزارة المعارف »

للأستاذ عظيم

– ٢ –

فى الجزء الاول

جاء فى صفحة ١١٢ : « واستلف منه على الإسوارى مائة درهم فجاءنى وهو حزين منكسر فقلت له : إنما يحزن من لا يجد بدا من إسلاف الصديق ، مخافة أن لا يرجع إليه ماله ، ولا يعد ذلك هبة منه ، أو رجل يخاف الشكية ، فهو إن لم يسلف كرما أسلف خوفا » قال الشارحان فى قوله : ولا يعد الخ ، الواو للحال والجملة حال من فاعل يرجع ، أى غير حاسب أن ذلك المال الذى استلفه هبة بل كأنه حق له لا يرد .

وأقول إن هذا تعقيد فى الإعراب وفى التفسير إذا أخذنا عبارة المتن كما هى ، إذ يكون المتعين فيها اعتبار جملة (ولا يعد ذلك) حالا من فاعل (يجد) أو من فاعل (اسلاف) الذى هو نفسه فاعل يجد ، وإذن فالمعنى أن الذى يحزن إنما هو الرجل الذى يضطر إلى أن يعطى الصديق سلفة غير عاد إياها هبة . أما إذا أريد جعل جملة (ولا يعد الخ) حالا من فاعل (يرجع) كما يقول الشارحان فلا بد من حذف حرف النفى (لا) قبل (يعد) ويكون المعنى : مخافة أن يمسك المستلف عن رجع السلفة عادا إياها هبة .

وفضلا عن هذه الصورة الثانية التى تقتضى حذف لا مع بقاء (يعد) مرفوعا ليستقيم تفسير الشارحين يجوز مع حذف لا أيضا أن ينصب هذا الفعل بالعطف على يرجع .

وجاء فى صفحة ١١٤ : «وكان يقول : أشتهى اللحم الذى قد تهرأ ، وأشتهى أيضا الذى فيه بعض الصلابة . وقلت له مرة : ما أشبهك بالذى قال أشتهى لحم دجاجتين » وقال الشارحان فى تفسير قوله (وقلت له مرة) أى لما قال أشتهى اللحم الخ . وكان مقتضى الظاهر أن يقول : فقلت له الخ .

وأقول إنما يصح الاعتراض لو كان الجاحظ ذكر أن ذلك البخيل (قال) أو (قال مرة) ؛ أما وقد ذكر أنه (كان يقول) فمعنى هذا أن قول البخيل تكرر مرارا ، فالجاحظ أجابه على مرة منها .

وجاء فى صفحة ١٢٠ : « ثم قال خالد هأنذا مبتلى بالمضغ ، ومحمول على تحريك اللحيين ، ومضطر إلى مناسبة البهائم ، ومحتمل ما فى ذلك من السخف والعجز . ما أبالى ! احتملته فيمن ليس لى منه بد ، ولى عنه مذهب » وقال الشارحان : وقوله فيمن ليس لى منه بد الخ ، أى فى مؤاكلة من لا فرار من مؤاكلته كأولادى وأهل بيتى . وفى النسخ التى بين أيدينا : (فيمن لى منه بد ، ولى عنه مذهب) وهو تحريف ظاهر لا يلائم السياق ، ولا سيما أن بد لا يعرف استعمالها إلا مقرونة بالنفى .

وأقول إن هذه العبارة التى فى النسخ الأخرى لا يمكن أن تكون صحيحة حتى على فرض أن كلمة بد يجوز استعمالها بغير نفى ؛ وذلك لأن المعنى يكون مكررا فى عبارتين تكريرا سخيفا لا يقبله الجاحظ ولا خالد القسرى الذى يدعى الرواية عنه . والذى عندى أن الجاحظ يكون قد أراد أنه احتمل ذلك المظهر السخيف فى الأكل سواء مع أهل بيته الذين لا يستطيع التوارى منهم ولا يخشى نقدهم إياه ، أو مع أضيافه الغرباء الذين يستطيع التوارى منهم فيأمن شر نقدهم . وعلى هذا الترديد المستوفى لأوضاع الصورة المتعينة فى هذا المقام تكون جملة الجاحظ هى : (ما أبالى آحتملته فيمن ليس لى منه بد ، أو فيمن لى عنه مذهب) وذلك بهمزة الإستفهام وأم التى للتسوية . ويصح أن تكون الجملة تقريرية إثباتية منفصلة عن (ما أبالى) فتكون صحتها : (احتملته فيمن ليس لى منه بد ، وفيمن لى عنه مذهب) باضافة كلمة فيمن فى الفقرة الثانية ، ليستقيم الوضع العربى .

وجاء فى صفحة ١٣١ : « وقيل له أيضا : فكيف سخاؤه على الخبز خاصة ؟ قال : والله لو ألقى إليه من الطعام بقدر ما إذا حبس نَزْف السحاب ما تجافى عن رغيف » وقال الشارحان فى تفسير ذلك : لو ألقى الخ ، هكذا فى نسخة الشنقيطى . والطعام البر بضم الباء . أى لو أعطى من الطعام مقدارا لو جمل كومة واحدة

فارتفعت حتى وصلت إلى السحاب ، فمنعت ماءه من أن يصل إلى الأرض ، ما تجافى الخ .

وأقول : إن العبارة محرفة وإن التفسير تعسف لوروده على أصل غير صحيح ، والأصل كما أرى هو : « بقدر ما إذا يبس نَزَفَ السحاب » ، أى لو أن الله رزقه من الأرغفة بمقدار لو يبس لنزف ماء السحاب وتشربه ، لما نزل منه عن رغيف . وهذا كناية عن البخل البالغ درجة لايتصور وقوعها العقل . ويلاحظ أن قوله ما تجافى عن رغيف يفيد أن الطعام هنا ليس هو البر بل هذا الخبز ورغفانه .

وجاء فى صفحة ١٥٧ : «وأنتم أيضاً إنما أكتريتم مستغلات غيرنا بأكثر مما اكتريتموها منا ، فسيروا فينا كسيرتكم فيهم ، وأعطونا من أنفسكم مثل ماتريدونه منا» ، وقال الشارحان: إذا رجعنا إلى نسخة ليدن وجدنا هناك اضطراباً فى الضمائر لايفهم منه معنى . لذلك وضعنا (غيرنا) بدل (غيركم) و (منا) بدل (منه) و (منا) بدل (منهم) ، وهذا ما نظنه الوضع الأصلى .

والذى أراه أن العلة فى هذا الغموض هو تصحيف وقع فى كلمة (أكريتم) فسارت (اكتريتم) . فإذا أصلحناهذه الكلمةوحدها استقامت العبارة بدون احتياج لكل التغييرات التى لجأ إليها الشارحان ؛ إذ يكون المعنى : إنكم أيها المستأجرون قد أكريتم أى أجرتم من باطنكم مستغلات مملوكة لغيركم بأجرة تزيد على الأجرة التى استأجرتم بها من أصحاب الملك ، وأنتم لا تجدون على أنفسكم حرجا من اقتضاء هذه الأجرة الزائدة من المستأجرين من باطنكم ، فسيروا فينا كسيرتكم فى هؤلاء المستأجرين من باطنكم وأعطونا من أنفسكم مثل ما تريدونه منا .

كل ما قد يعترض به على هذا التفسير أن أولئك المستأجرين من الباطن لم يذكروا فى العبارة حتى يعود عليهم الضمير فى كلمتى فيهم ومنهم — ولكن وجودهم مفهوم حتما من سياق العبارة . وكأن الواضع أشار إلى هذا باستعمال كلمة غير على لفظها المفرد وإعادة الضمير عليها فى (منه) بصيغة المفرد ، ولو كان الضميران فى فيهم ومنهم عائدين على (غير) لراعى النسق وجعلهما هاء فقط .

وجاء فى صفحة ١٦١ : « وليس كل خرق يُرْقع ، ولا كل خارج يَرْجع » والأشكل (يُرْجَع) .

وجاء فى صفحة ١٦٨ : « فإن للنفس عند كل طارف نزوة ، وعند كل هاجم نزوة » . وقال الشارحان : لعلها نزرة ، مصدر للوحدة من نزره إذا استعجله وألح عليه ، لأننا نستبعد على الجاحظ مثل هذا التكرار .

وأرى أن صواب الكلمة (بزوة) من بزا عليه يبزو بزوا تطاول . وبزاه وأبزاه وأبزى به : قهره وقوى عليه .

وجاء فى صفحة ١٧١ : «وأنت لم تنفق الحرائب ، وتبذل المصون ، إلا وأنت راغب فى الذكر والشكر ، وإلا لتخزن الأجر ··· » وقال الشارحان : وأنت لم تنفق الخ ، فى النسخ (لو لم) ونعتقد أن لو مقحمة من النساخ كما هو ظاهر . وأنا أعتقد أن كلمة (لو) ضرورية . ويلوح لى أن السبب فى قول الشارحين إنها مقحمة من النساخ هو أنهما قرآ هذه الجملة مفصولة من جواب الشرط ، وهو قول الجاحظ فى أول الصفحة التالية : (فقد سرنا لقلة عدد خبزك الخ) .

وجاء فى صفحة ١٧٤ : « فاحسب أن البخل عليهم غالب ، وأن الضعف لهم شامل ، وأن سوء الظن يسرع إليهم خاصة ، ثم لا تداوى هذا الأمر بما لا مؤنة فيه ؟ »

وقال الشارحان : فاحسب أن الخ . أى هب البخل غالباً عليه الخ ، وقوله : (البخل) أى فكرة الحكم عليك بالبخل ويجوز أن تكون كلمة البخل محرفة عن الخجل .

وعندى أن كلمة البخل محرفة عن (التجنى) المذكورة فى السطر السابع من صفحة ١٧٣ ، وبها يستقيم المعنى لا بهذا التخليط ، وأرى أن كلمة (ثم) فى الجملة محرفة عن (فلم ؟) .

وجاء فى صفحة ١٧٧ : « قلت هذا ما لا شك فيه ، وقد علمت عندى بالصواب ، وأخذت لنفسك بالثقة ، إن وفيت بهذا القول » وأنا أظن أن (علمت) محرفة عن (عملت) وهى ومابعدها جواب الشرط الآتى فى قوله : إن وفيت بهذا القول ؛ لأنه لامحل لقوله علمت بعد قوله هذا ما لا شك فيه . وما أتى به فى الشرح سهو ظاهر

« له بقية »

قصـــــة الذرة

الأستاذ فوزى الشتوى

دوى اكتشاف آل كورى فى العـــالم أجمع خواص الراديوم العجيبة الغريبة ، وخلق مجالَى حديث وبحث واســع النطاق ؛ فاحتضنه الأطباء لعلاج الأمراض المستعصية مثل السرطان ، ولـكنه أوجد صداعا دائما لعلماء العلوم الطبيعية الذين يريدون تفسير ظواهره وخواصه وسر اشعاعاته وقوته البالغة .

أحسوا أن كل علومهم عن الطبيعة والمادة معلومات قليلة القيمة لا تزال فى مهـدها . فلم يعد أى عالم يستطيع الجهر بأنه يدرك شيئا عن سر المادة . فهل الذرة وحـدة صماء لا تنقسم أم هى عالم آخر غير العالم الذى أدركوه وفـكرة أخرى غير التفكير والمنطق الذى ساروا على هديه كل تلك السنين ؟

وكان المعروف فى أواخر القرن الماضى أن عناصر عالمنا تتألف من سبعين عنصرا — وقد زادت الآن إلى ٩٣ — مثل الأكسوجين والحديد والذهب وغيرها . فهل هذه العناصر هى الوحدات التى تتركب منها مواد الـكون ؟ أم أن الطبيعة تحتفظ بسر ما زال مجهولا ؟

كانت ظاهرة الإشعاع فى الواقع أمراً يستدعى كثيراً من العلم والتجربة لتفسير خفاياها . وأحس العالم بحاجته الماسة إلى تجارب عظيمة متشـعبة ليكشف نواحى الغموض التى تحيط بالأشعاع . فاندفع العلماء بكل نشاط فى هـذا السبيل تخدمهم المصادفة مرة وخدمتهم علومهم أخرى فتكللت أبحاثهم بالنجاح .

الذرة المعقدة

ولم يمض وقت طويل حتى انغمر العلماء فى أبحاث الذرة . فحتى تلك اللحظة كان العلماء يعتقدون أن الذرة أصغر الجسيمات فأثبتت أشعة إكس المجهولة ، والنشاط الأشعاعى أن الذرة بناء شديد التعقيد مؤلف من جسيمات أصغر . وكان أول رواد هـذا البحث السير تومسون أستاذ العلوم الطبيعية فى جامعة كمبردج بانجلترا . ولم يقتصر عمـــله على الأبحاث والنتائج التى وصل إليها بنفسه بل درب فريقا من الشبان ليواصلوا العمل وحدهم ، ويكتسبوا الشهرة الدولية . ومنهم الســير ارنست ردرفورد والبروفسور ولسون والبروفسور لنجفين الفرنسى .



شكل — ١ أول رواد الذرة السير توماس

بدأ تومسون تجاربه على أشعة إكس (المجهوله) ولـكنه احتاج أن يعود إلى تجارب كروكس وأنبوبته . وأنت تذكر أن سيالها الـكهربائى كان ينحرف بالمناطيس كما تذكر أن كروكس أطلق على الأشعة حالة رابعة للمادة سماها حالة الأشعاع . وقد أثبت تومسون أن دقائق هذه الأشعة أصغر من الذرة وسماها Corpuscle جسيمة ولـكن العلماء أطلقوا عليها فيما بعـــد إسم Electron الـكهرب أى وحدة الـكهرباء .

والمعروف أن الايدروجين هو أخف العناصر الـكيماوية ، وأن ذرته هى أخف الذرات ؛ وقد أدت تجارب تومسون إلى حقيقة غريبة محيرة ؛ فإنه أثبت أن وزن كهربها يساوى واحدا إلى ١٨٠٠ من وزن ذرة الإيدروجين . فـكان هذا الـكشف أول فتح فى مجاهل تركيب الذرة وبنائها . فم يتألف باقى تكوينها ؟

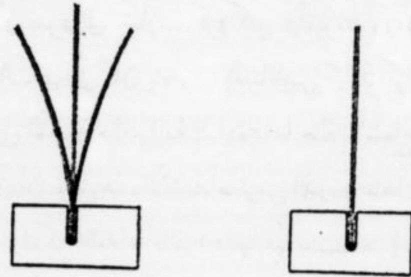
ومن الحقائق التى يسهل استنتاجها أن تلك الـكهارب سالبة الشحنة الـكهربائية لأنها منبعثة من مهبط كروكس السالب . وليس من شك أن الشحنة الـكهربائية السالبة تحتاج إلى شحنة موجبة تعادلها . فإن المواد فى حالتها الطبيعية الساكنة يجب أن تكون متعادلة الشحنات الـكهربائية ولهذا استولى الشك فترة على العلماء فى حقيقة كشفهم للكهارب السالبة . ولـكنهم لم

ييأسوا بل استمروا فى طريقهم حتى يثبت ما يلغى نظريتهم الأولى أو تستقر بكشف باقى تكوين الذرة .

ألف باء الذرة

ولم تمض فترة حتى وفق أرنست رذرفورد أحـــد تلاميذ تومسون ومساعديه إلى تفسير معقول . فأجرى مجموعة كبيرة من التجارب البارعة لتحليل الأشعة المنبعثة من عنصر الراديوم . ومنها أثبت أنها تتألف من ثلاثة أنواع سماها على حروف الهجاء اليونانية وأولها ألفا Alpha والثانية بيتا Betta والثالثة جاما Gamma .

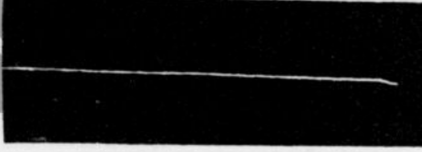
وكانت طريقة التحليل بسيطة ولكنها كانت من أهم الأسباب فى ذيوع اسم رذرفورد وأهلته فيما بعد لأن يحتل مركز أستاذه تومسون . وقد ذكرنا من قبل أن العلماء عرفوا ناحية واحدة من بناء الذرة وهى الكهارب السالبة التى يتحتم أن تتعادل بكهارب موجبة فأين هى هذه الكهارب الموجبة ؟



شكل — ٢ حلل ردز مورد شعاعات الراديوم، وترى إلى اليمين وهي مندفعة فى خطوط مستقيمة ، وإلى اليسار بعد مرورها من مجال مغناطيسى وقد أصبحت ثلاثة .

فلو أتيت بكتلة من رصاص بها جحر عميق ، ووضعت فى هذا الجحر قطعة راديوم فإن الأشعة تخرج من الجحر مستقيمة ولكنك لو مررتها فى مجال مغناطيسى فإنها تنقسم إلى ثلاث شعب تنحرف إحداها إلى اليمين، والثانية إلى اليسار، بينما يسير الثالثة فى خط مستقيم . ومن الطبيعى فى هذه الحالة أن ندرك أن الأشعتين اللتين تنافرتا مختلفتا الشحنة . وقد سميت الموجبة منهما بأشعة ألفا بينما سميت السالبة بأشعة بتا ، أما الأشعة المتعادلة فاطلقوا عليها اسم جاما .

وثبت أن أشعتى ألفا وبتا تتألفان من جسيمات صغيرة تحمل الشحنات الكهربائية ولكن أشعة جاما ليست مكهربة وهى عبارة عن إشعاعات ضوئية وإن اختلفت عن أضوائنا الكهربائية فى قصر موجتها .

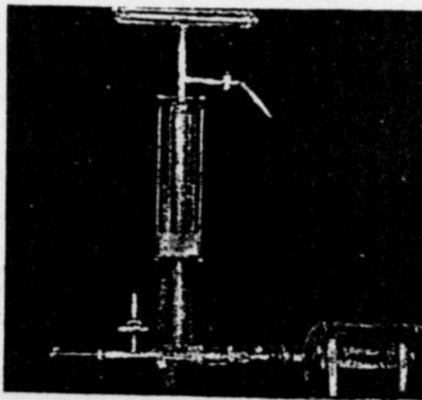


شكل — ٣ صورة أشعة منطلقة وقد انحرفت فى النهاية لاصطدامها منواة ذرة أخرى فى الجهاز الخاص .

وأثبت رذفورد أن أشعة جاما تشبه أشعة إكس فى موجتها ولكنها أقصر ، أما أشعة ألفا فقد بهرته كما بهرت العالم فقد وجدها ذات شحنة كهربائية موجبة . وكانت أثقل فى الوزن من أشعة بتتا السالبة كما أن سرعتها المتدرجة الزيادة Velocities كانت أقل منها ، وقد قاس رذفورد سرعة هذه الأشعة فوجدها تنطلق بسرعة عشرين ألف ميل فى الثانية .

حجر الفلاسفة يتحقق

واستولت الدهشة على رذرفورد حين حلل أشعة ألفا بالمرقب الطيفى Speltroscope فإنه وجدها تتحول إلى غاز هليوم . وبمعنى آخر إن ذرات الراديوم تفرز ذرات هليوم ، وكان الكشف غريبا . ولكن ماوليه كان أغرب فقد انتقل إلى التجارب على اليورانيوم فوجد أن استخلاص أشعة ألفا وبتا منه تحولانه بالتدريج إلى مادة أخف فى وزنها الذرى ثم تصبح راديوم فإذا والينا استخلاص الأشعتين منه تحول إلى معدن الرصاص .



شكل — ٤ فى هذا الجهاز يمكن تصوير الجسيمات وخط سيرها

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٠٢ – هكذا هي النفوس البشرية

قال أبو القاسم السلوى الفخّار : دخل علينا شيخنا الابلى يوما وأنا أعجن طين الفخارة ، فقال لى : ما علامة قبول هذه المادة أكل صورة ترد عليها ؟ فقلت أن تدفع عن نفسها ما هو من غير جنسها من حجر أو زبل أو غيره ، فأدركه وجد عظيم حتى إنه صاح وقام وقعد ، وبقى هُنيّات (١) مطرقا برأسه مفكراً ثم قال : هكذا هي النفوس البشرية .

٧٠٣ – قضيب البان الموصلي

فى (تاريخ ابن الوردى) : عزم قاضى الموصل أن يقول للسلطان فى إخراج قضيب البان من الموصل . قال : فرأيت قضيب البان مقبلا على هيئته المعروفة ، فمشى خطوة فاذا هو على هيئة كردى ... ثم مشى خطوة فاذا هو على هيئة بدوى ... ثم مشى خطوة فاذا هو على هيئة فقيه ... بصورة غير الصورة المتقدمة ، وقال لى : يا قاضى ، هذه أربع صور رأيتهن ، فمن هو قضيب البان منهن (١) حتى تقول للسلطان فى إخراجه ؟ ! فلم أتمالك أن أقبلت على يديه أقبلهما .

٧٠٤ – اكتف بالبلاغة ..

كتب عبد الله بن زياد الحارثى إلى المنصور رقعة بليغة يستميحه فيها فوقع عليها : إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا لرجل أبطراه ، وإن أمير المؤمنين مشفق عليك فاكتف بالبلاغة ..

٧٠٥ – بأى ذنب نتفت

كان بلال بن أبى بردة لا يجيز شهادة من ينتف لحيته أو يأكل الطين . قال ابن طباطبا فى بعض من كان ينتفها :

يا من يزيل خلة الرحمن عما خُلقت
هـل لك عذر عنـده إذا الوحـوش حشرت
فى لحيـة إن سئلت بـأى ذنب نتفت

٧٠٦ – اسم ممدود وجمعه مقصور

فى (بغية الوعاة) للسيوطى : هذه فائدة رأيت ألا أخلى منها هذا الكتاب : رأيت فى تاريخ حلب لابن العديم بخطه قال : رأيت فى جزء من أمالى ابن خالويه : سأل سيف الدولة بحضرته ذات ليلة : هل تعرفون اسما ممدودا وجمعه مقصور ؟ فقالوا : لا ، فقال لابن خالويه : ما تقول أنت ؟ قلت : أنا أعرف اسمين ، قال : ما هما ؟ قلت : لا أقول لك إلا بألف درهم لئلا تؤخذ بلا شكر ، وهما صحراء وصحارى وعذراء وعذارى . فلما كان بعد شهر أصبت

---

(١) هنيات : جمع هنية ، فى (النهاية) : أنه أقام هنية أى قليلا من الزمان ويقال هنيهة أيضاً . فى (المصباح) : مكثت هنيهة أى ساعة لطيفة .

(١) ابن الوردى : فى سنة (٥٧٠) توفى الشيخ قضيب البان الموصلي بالموصل . قال الشيخ على الفريثي : دخلت على قضيب البان ببيت له بالموصل فرأيته ملء البيت ، ثم عدت إليه فرأيته فى زاوية البيت على قدر العصفور فخرجت ثم عدت إليه فرأيته كحاله المعتاد ...

السبكي : من الكرامات الطور باطوار مختلفة وهذا الذى تسميه الصوفية بعالم المثال ، ويثبتون عالما متوسطا بين عالمي الأجسام والأرواح سموه عالم المثال وقالوا : هو ألطف من عالم الأجسام وأكثف من عالم الأرواح ، وبنوا عليه تجسد الأرواح وظهورها فى صور مختلفة من عالم المثال ، ومنه ما حكى عن (قضيب البان) انه اتهمه بعض من لم يره يصلى بترك الصلاة وشدد النكير عليه فتمثل له على الفور فى صور مختلفة وقال فى أى هذه الصور ما رأيتنى أصلى .

وبهذا الكشف تحقق حلم الأقدمين فى تحويل المعادن إلى بعضها البعض ، فقد كانوا يطمعون فى تحويل المعادن الخسيسة مثل الرصاص والحديد إلى ذهب وفضة من المعادن الثمينة . وقد حقق رذرفورد حلمهم ، ولكن بالعكس ، فاكتشف أن اليورانيوم والراديوم يتحولان إلى هليوم ورصاص .

وبهذا الكشف وضع رذرفورديد العالم على المفتاح الذى أتاح للعالم اختراع القنبلة الذرية ، والذى يرجى بعده استغلال الطاقة الذرية . ومن يدرى ، فمجال التكهن واسع الآفاق لم يعد قبله من نهاية ولا مستحيل !

فوزى الشتوى

حرفين[1] آخرين ذكرهما الجرمى فى كتاب التنبيه وهما : صلفاء وصلاق[2] (وهى الأرض الغليظة) وخبراء وخبارى (وهى أرض فيها ندوة). ثم بعد عشرين سنة وجدت حرفا خامسا ذكره ابن دريد فى الجمهرة وهو سبتاء[3] وسباتى (وهى الأرض الخشنة) .

٧٠٧ — ما رأيت رهنا مثله قط

تقدم رجل إلى بقال يسأله شيئا ، فامتنع ، فدنا منه فساره فدفعه إليه . فقيل له ما قال لك ؟ قال: رهننى طلاق امرأته (وذلك أنه حلف بالطلاق أنه يرده غدا) .

فقال بعضهم : ما رأيت رهنا مثله قط .

٧٠٨ — ولا قاض فأقضى ولا زوج فأرضى

قال أبو العباس الخضرى : كنت جالسا عند أبى بكر محمد ابن داود (الظاهرى صاحب كتاب الزهرة) فجاءته امرأة فقالت له : ما تقول فى رجل له زوجة لا هو ممسكها[4] ولا هو مطلقها ؟

فقال : اختلف فى ذلك أهل العلم، فقال قائلون : تؤمر بالصبر والاحتساب[5] ، ويبعث على التطلب والاكتساب .

وقال قائلون : يؤمر بالإنفاق ، وإلا يحمل على الطلاق .

فلم تفهم قوله وأعادت مسألته ، وقالت له : رجل له زوجة لا هو ممسكها ولا هو مطلقها .

فقال : يا هذه ، قد أجبتك عن مسألتك ، وأرشدتك إلى طلبتك ، ولست بسلطان فأمضى ، ولا قاض فأقضى ، ولا زوج فأرضى . انصرفى رحمك الله . فانصرفت المرأة ولم تفهم جوابه .

٧٠٩ — وأبناء اليهود

قال الصفدى : كان أبو البركات بن ملكا يهوديا وأسلم ، وكان كثيرا ما يلعن اليهود . قال مرة بحضور ابن التلميذ : لعن الله اليهود .

(١) الحرف : الكلمة .

(٢) فى القاموس : صلا فى بكسر الفاء .

(٣) السبتاء كالصحراء وقيل : أرض سبتاء لا شجر فيها .

(٤) لا ممسكها أى أنه لا يقدر على نفقتها .

(٥) احتسب بكذا أجرا عندالله: اعتده ينوى به وجه الله. والاحتساب فى الأعمال الصالحات وعند المكروهات هو البدار إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر (القاموس ، اللسان) .

فقال : نعم وأبناء اليهود .

فوجم أبو البركات لذلك وعرف أنه عناه .

٧١٠ — طبيب . . .

فى (شذرات الذهب) : قال ابن حجر : كان علاء الدين على بن نجم الدين — رئيس الأطباء بالديار المصرية — فاضلا مفتنا ، وكان ذا حدس صائب جدا ، يحفظ عنه المصريون أشياء كثيرة ، وكان له مال قدر خمسة آلاف دينار قد أفرده للقرض ، فكان يقرض من يحتاج من غير استفضال[1] بل ابتغاء الثواب. قال المقريزى : كان يصف الدواء للموسر بأربعين ألفا ، ويصف الدواء فى ذلك الداء بعينه للمعسر بفلس .

٧١١ — فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

قال الحسن بن وهب لرجل رآه يعبس عند الشراب: ما انصفتها، تضحك فى وجهك ، وتعبس فى وجهها !

إذا ذاقها وهى الحياة رأيته يعبّس تعبيس المقدم للقتل

وقد أحسن الشيخ صدر الدين حيث قال :

إذا أقطب وجهى حين تبسم لى فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

٧١٢ — السكر ، السكران

السكر ما زال معه العقل حتى لا يفرق بين السماء والأرض ، ولا بين الطول والعرض .

وقيل هو أن يجمع بين اضطراب الكلام فهما وإفهاما ، وبين اضطراب الحركة مشيا وقياما .

ويحكى أنه لما جلس أبو بكر محمد بن أبى داود الأصفهانى الظاهرى بعد أبيه يفتى استصغروه فدسوا إليه رجلا وقالوا له سله متى يكون الرجل سكران ؟ فسأله الرجل فقال : إذا عزبت عنه الهموم ، وباح بسره المكتوم . فعلم بهذا الجواب موضعه من العلم . قيل للامام أحمد بن حنبل بماذا يعلم الرجل أنه سكران ؟ فقال : إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره ، ونعله من نعل غيره.

(١) أخذ حقه واستفضل ألفا إذ أخذه فاضلا عن حقه (الأساس) فى (البدر الطالع) : لم يكن الطبيب محمد بن صالح الجيلانى الفارسى يعالج الفقراء احتسابا كنه بقراط فى الأوائل ، وابن زهر وصاحب الحاوى فى المتأخرين ، ويحتج بأن الموت خير للفقراء .

نجـــاة الربّان

بمناسبة افتتاح مسجد (القصاصين) الذى أنشأته وزارة الأوقاف تذكارا لنجاة صاحب الجلالة الملك .

للأستاذ كامل كيلانى

فاروقُ يا نورَ اليقين ويا منارَ العاملينْ
يا بَسْمَةَ الأيامِ والـ آمالِ والفـــوزِ المبين
يا باعثَ النَّهضاتِ ، يا وَحْىَ الهُداة المصْلِحينْ
يا غُرَّةَ الأجيـالِ مُشْـ رِقَةً على طولِ السِّنين
يا جَنَّةَ الوادى الخصيـ بِ وحارسَ الوادى الأمين
يا فَرْحَةَ الإقبـالِ والـ إسْعادِ للعانى الحزين
يا مَعْقِدَ الأمَلِ الكريمِ ، وَمَعْقِلَ الفضلِ الحصين
ومَلاذَ مَوْهُوبينَ تحْـ فِزُهم اشأو الخالدين
بكريمِ صُنْعِكَ مقتدينْ وبنور رأيك مُهْتدين
هَتفُوا بفاروقٍ وغَنَّوْا — حين غَنَّوْا — صادِقين
عَـــرَفُوكَ رائدَهُم وَأنْـ تَ لِكُلِّ توفيق ضَمين
ألطافُ بِرِّكَ جَمَّـــةٌ مَوْفُورَةٌ للعـــائذين
الجهلُ قـــد حارَبْتَهُ والفقرُ والداء الدَّفين
بحُســامِ رأيٍ حاسمٍ وقَنـاةِ عَزْمٍ لا تَلِين
تأسُــو بيُمناكَ العليلَ وتمسَحُ الدَّمْعَ الهَتُون
طَلْقَ المُحَيَّا ، نافِذَ اللَّمحاتِ ، وضَّـاحَ الجبين
نُوراً يُشِــعُّ سَعـــادةً فى قَلْبِ مَكْلُومٍ حزين
نجّاكَ يا فـــاروقُ ما يَسَّرْتَ مِنْ خفضٍ ولين
نجَّـــاكَ أمْنُ اللهِ ، يا أمنَ الضِّعافِ الخائفين
وحَباكَ باللُّطفِ اللطيفُ ، كما حَبَوْتَ القاصـدين
كَفَاكَ أمْسَكتَا بحَبـ لٍ من عِنايتِهِ متين
للـــبرِّ أنت نجَوتَ والـ إحْسانِ فى دنيا ودين
نجّاكَ بِرُّكَ بالضعيفِ ، وذاكَ أجْـــر المحسنين

وأناكَ غَوْثُ اللهِ ، يا غوثَ اليتـامَى المعْوِزين
وصَنائعُ المعـــروفِ تُنْـ جِى رَبَّها فى كلِّ حين
نجَت الـكِنَانَةُ والعُرو بَةُ إذْ نجا حامى العرين
اللهُ نجـــاهُ فنَجَّى رُكْنَ نهضتِنا الرَّكين
إنَّ السَّفينَ إذا نجا رُبَّانُهـا نجَتِ السَّفين

أبْدَعتَ فى التَّعْبير فنَّاً رائعـــاً لِلمُبْدِعين
أوْدَعْتَ شُكرَ اللهِ أنْـ لُوبَ الملوكِ الصالحين
أسلوبَ عِرْفانِ الجميلِ : جميـلِ رَبِّ العالَمين
ونَظَمْتَ فى مَغْناهُ بيْـ تاً عامراً بالمؤمنين
بيتاً على التقوى يؤَسَّـــسُ آيَةً للشاكرين
يَدْعُونَ للفـــاروق فيـــه دَعْوَةَ المتبتِّلين
فتُرَدِّدُ الدعـــواتِ أمْـ لاكُ السَّماء مؤمِّنين

وهـــم ...

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

لقد ثار بى — مُذْ أنْ طَفِئتِ — التوهُّمُ
وقرَّ بنفسى أنَّ قتْلِى مُحَـــتَّمُ
وأنَّكَ قـــد عُوجِلتِ قبلىَ رحمةً
من القَدَر الجارى ، ومثلُكِ يُرْحَمُ
لقد شاء أن يُعْفِيكِ من هول مصرعى
أُوافيـــكِ مَحْمُولاً يُضَرِّجُنى الدم
وبات يقينى أنَّ قتلىَ واقـــعٌ
وإنى له المستنظِرُ المتـــوسِّمُ
قضيتُ الليالى بعد موتك مُوجِساً
كما أوجس القتلَ الشريدُ المجرِّمُ
أعيش وهذا مصرعى مِلْءُ خاطرى
من الوهم مرفوعٌ لعينى مجسَّمُ



إلى الأستاذ محمود أبو رية :

فى الصفحة ٦٠٧ — ٦٠٨ من كتاب (عمر بن الخطاب) تأليف الأخوين : على وناجى الطنطاوى ، محاولة تحقيق قضائى فى مقتل عمر رضى الله عنه ، فيه إدانة لكعب الأحبار وبيان لشركائه ، فياحبذا لو اطلعت عليه وأتممت هذه المحاولة ، وأكملت التحقيق ، ومهّدت لـ (الحكم) .

(دمشق) ابن مصطفى

هما لعروة بن أذينة :

فى عدد الرسالة ٦٦٥ لاحظ فأثر الأديب ابراهيم الترزى نسبة البيتين . قالت :

تُرَوّعنى منــه على الوهم ميتةٌ
ممزّقةٌ شوهاء حمــــراء عندم
وتمتـــــدّ أيامى فأخطب وُدّه
وأركب مَتْنَ الليـل والليل أيْهَمُ
تدبّ بجسمى هِزّةُ الرَّوع والرضا
إذا خِلْتُ أنْ الهولَ آتٍ مُيَمِّمُ
يُسَكِّن نفسى أن تحقــق حَدْسُها
وتَذْكرُ ما أُغفِيتِ منــه فتَبسِم
وينجاب ليـلى لم يُفَرِّجْ بمقتَلى
ألا إنه الوهمُ الـكذوب المخيِّـم
فـكيف أُعزّى النفس عنك مُعَلّلاً
وكلٌّ تَعِـــلّاتى حديثٌ مُرَجّم

عبد الرحمن صدقى

(وأبثثتها وجدى فبحت به)
قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها
غطى هواك وما ألقى على بصرى

لعمر بن أبى ربيعة . والبيتان لعروة بن أذينة كما قال الأستاذ الألمع الطنطاوى فى (غزل الفقهاء) . فى الشعر والشعراء والأغانى ج ٢١ ساسى ، والأمالى للقالى ج ٢ ص ١١٠ طبع الدار وسمط اللآلى ج ١ ص ١٣٧ ، والتنبيه على أوهام القالى ص ٢٧ ، وأمالى المرتضى ج ٢ ص ٧٣ مقنع أى مقنع .

محمد الطنطاوى
مدرس بكلية اللغة العربية

ذخائر الأدب العربى فى العراق :

نوهت مجلة (الرسالة) الغراء بعددها (٦٦٣) فى حقل (البريد الأدبى) بأن اللجنة الثقافية للجامعة العربية بحثت فى جلستها الأخيرة مشروع إنشاء معهد لإحياء المخطوطات العربية الموجودة فى العالم ، وتصوير أقيمها وأفيدها ووضعها تحت تصرف العلماء والبحاثين والناشرين فى أطراف العالم ؛ لضمان الوصول إلى كنوز الفكر العربى وحفظ تراثه الموجود من الضياع والتشتت .

وقد تذكرت — لدى قراءة هذا النبأ — مئات المخطوطات العربية المكدسة فى العراق ، وبخاصة فى النجف وكربلا والحلة ، وفى بعض المكتبات الخاصة الشهيرة فى بغداد والكاظمية ، وفى مكتبات الجوامع ، وجميعها لا تزال مخطوطة لفحول علماء وأدباء العربية والتى تتناول مختلف المواضيع والأبحاث العلمية والأدبية والفلسفية ، وهذه المخطوطات لا تزال للآن ومنذ مئات السنين تعبث بها يد البلى بدون أن يقيض لها من يعيدها إلى الحياة ، ويعمم فائدتها على قراء اللغة العربية ، وذلك لعدم وجود الناشر والمطبعة أولا ، وللكسل المستولى على من يملك هذه الذخائر النفيسة ثانياً .

فحبذا لو توسطت اللجنة الثقافية فى الجامعة العربية لدى وزارة المعارف العراقية لجمع هذه المخطوطات النفيسة وإرسالها إليها لفحصها ومعرفة قيمتها الأدبيـة ، وتقدير فائدة تصويرها ونشرها ، ولا يكلف هذا العمل سوى تشكيل لجنة من بعض ذوى الاختصاص والمعرفة لجمع هذه الذخائر من أماكنها المختلفة فى العراق فتسدى بذلك خدمة جليلة لأدبنا العربى ، وتحيى فى الوقت نفسه هذه المخطوطات العربية وتنشر منها ما كان ذا فائدة وأهمية فى الوقت الحاضر .

(بغداد) مهدى القزاز

جامعة أدباء العروبة :

ألف فريق من رجال الأدب والفكر فى العالم العربى جمعية باسم « جامعة أدباء العروبة » تهدف إلى دعم الصلات الثقافية بين أبناء العروبة فى سائر أقطارها ، واستقلال الفكر العربى بخصائصه ومميزاته وتوحيد الأهداف والمثل العليا للجامعة العربية .

وقد تم تأليفها بالقاهرة على أن يكون لها فروع فى البلاد العربية .

وقد عقدت الجمعية العمومية جلستها الأولى فى مساء الأربعاء الماضى بمقر الجامعة (١٩٦ شارع محمد على) وتكونت هيئة المكتب من حضرة صاحب المعالى دسوقى أباظه باشا رئيساً ، وحضرات الأساتذة الدكتور محمد وصفى نائباً للرئيس، والدكتور إبراهيم ناجى وعادل الغضبان والدكتور فخر الدين السبكى ومحمد مصطفى حمام وكلاء ، وطه عبد الباقى سرور سكرتيراً عاما ، وجميلة العلايلى أمينة للصندوق ، وعباس حسان خضر ، وعلى توفيق حجاج وعبد الله شمس الدين ويس شاكر المهندس مراقبين . وتألفت الهيئة الاستشارية من الأساتذة الدكتور إسماعيل حسين وحسين منير وعبد العزيز الاسلامبولى وأحمد عبد المجيد الغزالى .

طه عبد الباقى سرور
السكرتير العام

تاريخ بناء جامع نور الدين فى الموصل :

اطلعت على ما كتبه الأستاذ الفاضل صلاح الدين المنجد فى العدد ٦٦٢ من هـذه المجلة (ص ٢٧٣) بشأن تاريخ جامع نور الدين الذى ورد مغلوطا فى مقالى المنشور فى مجلة سومر (ج ١ ، م ٢) فأقول إن التاريخ المذكور هو ٥٦٨ ، وقد وقع الغلط على يد صفاف الحروف .

ولم يكن هـذا الغلط الوحيد فقد وقع فى المقال المذكور أغلاط مطبعية جمة ، وكنت قد أرسلت جدولا فى تصحيحها إلى مديرية الآثار القديمة فى بغداد ، ورجوته أن يدرج فى العدد القادم من مجلة سومر .

أما الجامع النورى فقد هدم من أساسه ، وبوشر بإنشائه من جديد .

(الموصل) الدكتور داود الجلبى

قصص فرعونية :

٣ – قصة سينوحيت

لأديب مصري قديم

للأستاذ محمد خليفة التونسي

[ملخص ما نشر في العددين ٦٦٣ و ٦٦٦]

[أشرك ملك مصر أمنمحعت الأول قبل وفاته بعشر سنوات ، ابنه وولى عهده أمرتسن الأول فى حكم مصر ، وكان أمرتسن يقوم بقيادة الجيوش فى حملاته على البلاد الخارجية ، بينما يبقى أبوه في العاصمة لتدبير شئون مصر .

« فى إحدى حملات أمرتسن على ليبيا كان يرافقه بطل القصة سينوحيت الذى كان حافظ أختام الملك ونديمه ومستشاره والقيم على شئون الغرباء في مملكته ، وبينما الجيش عائد إلي العاصمة من الغرب جاء رسول من القصر إلى أمرتسن ينعى إليه أباه سراً ، وسمع سينوحيت بنعيه فقرر الفرار من الجيش ومصر جميعاً لأنه رأى فى بقائه فى مصر خطراً على حياته ، بعد موت أمنمحعت واستبداد أمرتسن بالأمر فيها ، فاختفى فى أحد الحقول حتى مر الجيش على مكمنه دون أن يراه أحد ، ثم سار إلى سنفرو ثم الجيزة ، ثم عبر النيل إلي الشرق على طوف وجده هناك حتى وصل الجبل الأحمر ، ثم سار إلى الشمال مجتازاً مسلحة عند عين شمس كانت تحمي مصر من غارات الأسيويين ، ثم انحدر فى وادى كيمور (طوميلات فى إقليم الشرقية) وفيه كاد يهلك ظمأ لولا أن عثر عليه رجال من الساتى (بدو آسيا) فعرفه أحدهم وأنقذوه وأضافوه أياما عندهم ، ثم رحل إلى أدوم فبقي فيها نحو ستة أشهر ، ثم دعاه أحد أمراء فلسطين إليه فلبى دعوته ، وهناك سأله الأمير عن سبب هربه فلم يجبه جوابا يطمئن إليه ، وحاول الأمير أن يعرف منه أحوال مصر ، وأ[illegible]ر ريبته فى قوتها بعد موت أمنمحعت وتولية أمرتسن ، ولكنه أجابه بأن مصر لم تضعف بل زادت قوة بتولية أمرتسن ووصفه له وصفاً يدل على بلاغة وإخلاص ، وكان وصفه جامعاً بين أبلغ الترغيب فى الملك والترهيب منه ، فأقطعه الأمير أرضاً وولاه ولاية يحكمها وزوجه كبرى بناته فأنجبت له كثيراً من الأبناء الذين صاروا رؤساء للعشائر فى الولاية التى يحكمها أبوهم من قبل الأمير ، وولاه الأمير قيادة جيشه فأبلى فى مكافحة أعدائه البدو وتأمين بلاده خير بلاء . ثم جرت بينه وبين أحد البدو مبارزة انتصر فيها على البدوى وقتله واستحوذ على أمواله ، وقد وقعت هذه المبارزة (١) فى آخر المدة التى أقامها هناك والتى تربو على عشرين سنة . وقد رأى بعدها أن موقفه دقيق حرج فى اغترابه ، فاستكثر من الأموال لتكون له عوناً عند البلاء ، كما أرسل إلى ملك مصر رسالة يلتمس فيها أن يأذن له بالعودة إليها بعد أن صار شيخاً ضعيفاً ، ويصف له كيف كان فى أول اغترابه بائساً وحيداً ثم كيف صار حاكما هو وأبناؤه والذين أنجبهم على إحدي ولايات فلسطين وعشائرها ... وهذه بقية الرسالة والقصة ...]

« أو لم يأن لى أن يصفح مولاى عن جريمة هربى ، فأعود إلى وطنى ، وأسترد مكانتى فى البلاط ، وأحظى بالعيشة الراضية فى تلك البقعة المباركة التى تركت فيها قلبى . إنه لا سعادة لى إلا بأن أرجع إلى تلك البقعة حيث ولدت ونشأت ، ثم أموت وأدفن هناك ، فما أسعد من يقضى نحبه فى بلد ولد ونشأ فيه ! اشد ما تحملت — يا مولاى — فى غربتى من آلام ! وطالما صبت نفسى إلى أن أرانى فى وطنى مرة أخرى لأنعم فى جنباته بالراحة والسلام ، وما أكثر ما قدمت من القرابين للآلهة علها تنظر آلامى وتحقق آمالى . حبذا لو تكرم فرعون مصر العظيم فشملنى بعطفه ، ومكننى من أنعم بإحسانه ، وأتقدم بولائى إلى ربة قصره ، وأقف على حالها وحال بنيها وبناتها . إذن لرد مولاى إلىّ بذلك شبابى الضائع ، فهأنذا أشعر بالشيخوخة تسعى إلىّ ، والخور ينسرب فى كيانى ، والكلال يرين على عينىّ ، والاضمحلال يدب فى رجلىّ ، والفتور يتغلغل فى عروقى ، والبطء ينتاب نبضات قلبى .

ويحى ! فإن المنية القاسية لتسعى إلىّ لتختطفنى ، وما أوحى ما تقذف بى إلى الهاوية الأبدية ، فهلا يتاح لى أن ألحق بسيدة القصر سلطانة العالمين ، فأجد راحة الموت على يديها » .

لم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى أتانى جواب الملك المعظم وقد حقق آمالى وما فوقها ، فقد عفا عنى وسمح لى بالعودة إلى وطنى ، وولاّنى ولاية من قبله فى الخارج ، كما أتحفنى بكثير من الإتاوات ، وأرفقها بتحية أولاده ، وهاهو ذا أمره الملكى

(١) هذه المبارزة تشبهها شبها قويا مبارزة وقعت فى فلسطين أيضا بين سيدنا داود وجبار من فلسطين يسمى جليات (فى القرآن الكريم جالوت) بعد أكثر من ألف سنة من سينوحيت ذكرها العهد القديم : الأنبياء : صموئيل الأول : الاصحاح ١٧ الفقر ٤ — ٥٤ والقرآن : سورة البقرة : الآيات ٢٤٩ — ٢٥١ .

الكريم : « من حورس بن رع صاحب التاجين ، وحاكم مصر العليا والسفلى ، وروح النسل ، ومانح الحياة ، والخالد على مر الدهور . الأمر الملكى العالى الموجه إلى الشريف سينوحيت لإعلامه بما رأى جلالة الملك فيما التمس منه .

هأنتذا قد فررت من الدلتا إلى أصقاع أجنبية ، وارتحلت من أيدوم إلى تنو ، وجست خلال بلاد شتى طوعا لما جال بخاطرك فتأمل ، ويحك ، ما أداك إليه طيشك !

لست أدرى ماذا حملك على هذه الهجرة ، وأنت لم تجترح جرما ، ولم تحتكم إلى مجلس الأشراف لتسمع حكمه فيك . إنها أوهامك الكاذبة التى دفعتك إلى تلك الهجرة .

ولقد كان ما كان من أمرك على ما علمنا وعلمت ، فلا تتحول عما أزمعت من الرجوع إلى وطنك بعد أن وضح لك المذهب السوىّ ، كما أن مولاتك الملكة لا تزال تتألق فى القصر على غاية من الرغد والعافية ، وقد نما أولادها وصاروا زينة القصر ، واتخذوا منازلهم فى القصر ، وقد ابتهجت الملكة وأولادها بنبأ مقدمك حين تُمِى إليهم ، وسيسعدهم أن يجزلوا لك الهبات ، وأن يرعوا حقوقك . ولتثق أنك ، عند عودتك إلى القصر الذى فيه نشأت ستكون حيث يليق بك ، فدع كل ما فى يديك ، وعد إلينا بنفسك ، حتى إذا بلغت مصر فاجعل وجهتك القصر المعظم فإنك ستكون فيه زعيما على أندادك مرة أخرى .

هأنتذا تشعر بالشيخوخة تدب إليك ، والضعف يخترم قواك وقد صار التفكير فى دفنك بعد موتك يقلق فكرك ، ويعذبك . لا تجزع فإنك ستعود إلى الوطن المقدس ، حتى إذا حان حينك زملوك بلفائف الكتان ، وصبوا عليك الزيت حنوطا ، ووضعوك فى نعش مُذهَب قد طلى رأسه بطلاء لازوردى ، وغطى بغطاء فى شكل السماء ، وعندما تشيع جنازتك ستجرها الثيران ، وبين يديها المرتلون يرددون أمامك أناشيدهم ، وإذا ما أنزلت فى قبرك — حيث يقبر أبناء الملك — رقصوا أمامك رقصة الدفن ، وقام النائحون يجأرون بصلواتهم ومراثيهم لتأبينك ، وتحت القرابين على روحك ، وشيد فوق قبرك هرم من الرخام الناصع .

هذا ما ستكون عليه شعائر دفنك فى وطنك بين أهلك ، ولن تموت كما تخشى فى أرض أجنبية فيلفك الأسيويون فى أديم شاة ، ثم يشيعونك وهم يدقون الأرض ، ويبكون على جثتك إلى أن يغيبوك فى لحدك وعليك أن تبادر إلينا بالرجوع » .

كنت مجتمعا برجال قبيلتى حين أتانى الجواب ، وما كدت أستوعبه حتى خررت على وجهى ، وعفرت بالتراب رأسى ، ولم أتمالك نفسى أن أقفز وأن أطوف بفسطاطى ، وأصيح قائلا : « عجبا لى ! كيف أجاب إلى ما طلبت ، وما أنا إلا تابع تمرد على سيده ، وأبق من وطنه مهاجرا إلى أقطار أجنبية . لشدّ ما أجد من غبطة بعد أن عفا مولاى عنى وأذن لى أن أرتد إلى وطنى آمنا على حياتى ، ولأقيم فى بلاطه عالى الشأن راضى المعيشة إلى أن يوافينى أجلى » .

ولم ألبث أن كتبت إلى مولاى هذا الكتاب ، قدمته بين يدى رحيلى إلى وطنى : « إننى خادمك سينوحيت ، أتقدم إلى جلالتك بخشوعى وولائى وتحياتى ، ملتمسا العفو عما جرته علىّ حماقتى حين أبقت من مصر ، وإنك لرب المغفرة أيها الإله النبيل المهيمن على العالمين ، وإنى لأتوسل إلى رع وحورس وهاتور وسائر الأرباب العظام أن تهبك الخلود ، وتلهمك الحكمة والسداد فى كل خطاك ، وتكفل لك الأمن والسلام ، وتغدق عليك نعمها ظاهرة وباطنة ، وتبسط سلطانك على الصحراء ، وتمده على كل ما تطلع عليه الشمس من السهول والحزون .

لقد أسبغت نعمك علىّ أيها الإله الجليل كما يسبغ رع نعمه على مريديه ، وقد اطلعت على ما حاك فى صدرى فشملتنى برحمتك وهديتنى من ضلال ، وآويتنى من اغتراب . وإنه ليحلو لى أن أعيد ما كتبته يا مولاى إلىّ من روائع حكمك وآيات بلاغتك ، وما كنت إلا خادما تافها لا يستحق شيئا من هذه النعم ولا بعض هذا الاهتمام ، لولا أنك — فى جلالك ورحمتك — كالإله المظيم حورس تظلل برعايتك جميع رعيتك .

ولقد ظللت لك — يا مولاى — التابع الأمين الوفىّ فى كل ما قلت وفعلت ، وإن أمراء هذه الجهات شهداء على ما أقول

وحسبك يامولاى أن كل السكان هنا ينظرون إلى جلالتك فى خضوع الكلاب الوفية ، ما تبدلت عواطفى نحوك ، وما كانت هجرتى إلا رؤيا حالم فى الشمال بأنه قد صار نجأة فى أبو (قريب أسوان شمالا) أو رؤيا حالم من جيرة الوادى فى الجنوب بأنه رحل إلى مستنقعات الشمال ، فأنا لم أجن ذنبا أخشى مغبّته ، ولم أدنس أذنى بالإصغاء إلى الأشرار ، ولم يلهج باسمى لسان فى مجامع القضاء ، وما فتئت فى غربتى أرفع ذكرك وأشيد بعظمتك ، وما كانت هجرتى من مصر نظاما مدبرا ؛ بل خاطرا فطيرا مرتجلا تلجلج فى صدرى فانطلقت قدماى انطلاقا ، لقد قدرت الآلهة على الهجرة ، ثم قدرت لى العودة ، وهأنذا أتزلف إلى جلالتك مطاطىء الرأس لعلك تعفو عنى ، وتتجاوز عن سيئاتى . ولا على الإنسان أن يعود إلى وطنه ، فما مقامى فى هذه الغربة كمقامى عندك فى القصر ، أيها الملك العظيم الذى نشر الإله رع رهبتك وجبروتك على كل البلاد ، فكل سكانها ينظرون إليك خشية وهيبة بقلوب مضطربة وعيون زائغة .

سأترك كل ما فى يدىّ هنا طوعا لأمرك الكريم لمن له الأمر بعدى ، غير أنى أطمع أن تأذن لرسولك إلىّ أن يختار ما يروق له هنا . وسأبقى مدينا لك وحدك بحياتى التى أنقذتها من العذاب ، وأدعو رع وحورس وهاتور ومنث — وأنت صفيها ومختارها — أن تصفيك الحياة الراضية الخالدة » .

وأقمت مهرجانا عاما فخما فى إقليم (ياع) ثم دفعت إلى أبنائى كل ما تحت يدى من أموال وأنعام ، وخلفنى ابنى الأكبر فى زعامة القبائل فاختص بكل مالى من الحدائق والبساتين والحقول والأنعام . وما فرغت من ذلك حتى وليت وجهى شطر الجنوب فى عصبة من رجال الساتى (البدو) كانت مهمتهم خفرتى فى الطريق طوال رحلتى إلى مصر ، ومضينا نغذّ السير حتى بلغنا طريق حورس قرب الفرع الشرقى للنيل حيث أقيم هناك حصن لدفع الغارات عن الحدود ، فاستقبلنا حاكم الإقليم بحفاوة ، وبعث رسولا إلى البلاط يخبر الملك بقدمنا ، وما هى إلا أيام قضيناها هناك فى طريق حورس حتى بعث الملك إلينا كبير المشرفين على مزارعه فى أسطول من السفن تحمل الإتاوات الملكية إلى العصبة التى تولت خفرتى فى أثناء الطريق من رجال الساتى ، فأذنت فيهم ، وسمت كلا منهم ما يستحق منها ، وبلغتهم تحيات الملك وشكره ورضاه ، فحملونى تحياتهم إليه وتقديرهم لنعمته ، وكروا إلى بلادهم راجعين .

أما أنا فقد تابعت رحلتى حتى بلغت ثتوى (العاصمة) وعندما تنفس الصبح وافانى رسل الملك بدعوتى إلى المثول بين يديه ، فسرت معهم حتى بلغنا القصر ، فصافحت أرضه ، وفى فنائه وجدت أولاد الملك متهيئين لاستقبالى ، ثم اقتادنى رجال الحاشية إلى حجرة الملك المذهبة الفاخرة ، وفيها وجدت جلالته مستويا على عرشه الفخم ، فسجدت بين يديه ، وعندئذ أحسست بالعمى يرين على عينى ؛ وبالإنحلال يشل أعضائى فيمنعها الحركة ، وشبه لى أن قلبى زال عن مكانه ، وكانت قد حالت بى الحال حتى لم يعرفنى جلالته ، فأشفق علىّ ، وأمر رجال الحاشية أن يقيمونى ، ويتحدث إلىّ برفق ولطف ، ليسرّى عنى ما ألمّ بى من الدهشة ، ويطلق لسانى مما عقله من الاستغراب ، فأحسست بالحياة تعود إلىّ بعد الموت ، وبالنطق يعود إلى لسانى بعد الحصر ، وبدأت أعى ما حولى وأتأهب لفهم ما يلقى إلىّ .

قال لى جلالته : « هأنتذا أخيرا فى القصر بعد أن جست خلال القفار ، وتمرّست بالأسفار النائية ، فقد مسّك الضر ، ونال منك الوهن ، وصرت شيخا ضعيفا حتى ليعسر تحنيط جثتك ، ماذا أنت ؟ وفيم وجومك ؟ أهو الخوف قد عقد لسانك وحصره عن الكلام ؟ » .

فاستجمعت قواى ، وتحاملت على نفسى ، وبادرت جلالته قائلا : « ومم الخوف يا مولاى ؟ إننى لم أسمع من جلالتك ما أخشاه ! إنما أنا إنسان ضعيف ، لا تؤيده قوة علوية تدفع عنه ما يوحى محضرك من رهبة فى قلبه ، وهأنذا أمامك ، وحياتى منك وإليك ، وقد وضعت حياتى كلها بين يديك » .

وما هى إلا لحظة حتى دخلت الملكة والأميرات ، وشاء جلالته أن يتبسط معى ، فقال مداعبا : « هذا سينوحيت قد أقبل كأنه أحد رجال العامو (بدو آسيا) ! » .

فتجاهلتنى الملكة والأميرات ، وهتفن معا : « ما هذا سينوحيت أيها الملك ! » .

فأجاب : « بل هو سينوحيت نفسه » .

ابتهجت الملكة والأميرات بمقدمي ، وبادرن إلى جناحهن في القصر ، وسرعان ما عدن وقد تقلدن القلائد ، وانتطقن المناطق ، وتهيأن بآلات الرقص ، وطفقن يرقصن وينشدن هذا النشيد :

جادك(١) الأربابُ بالخير العميم ... أيها الملك وأصفوك(٢) الخلودا
وأحاطوكَ بآياتِ النعيمْ ... وحبَوْا(٢) عهدكَ عزاً وسعودا
ورعا مَسراك أربابُ النجومْ ... أين أبحرت هبوطا وصُعودا
جامعَ التاجين في تاجٍ يقومْ ... حوله الثعبانُ وضّاء فريدَا
فوق رأسٍ لك جبارٍ حكيمْ ... لم يزل في كلِّ ما يمضي سديدا(٣)

* * *

قد أزلت البوسَ عن مصرَ فزالاَ ... وغدت أقدارُها في راحتيك
دانَ قطراها جنوبا وشمالاَ ... لك ، واستخذى(٤) أعاديها لديك
كل من فيها — إذا شاء سؤالا — ... لا يرى من ملجإ إلا إليك
حيث ضاق الناس بالعيش احتمالا ... لم يكن معتمدٌ إلا عليك
دمت للخائف والعاني ثُمالا(٥) ... تبذل النعمى وتُرجى من يديك

* * *

قد حباك الحكمَ والبأسَ الإلـه ... فأزل خوفك عن هذا المريبْ
ويحَ سينوحيتَ قد طال أذاه ... فمحياه من الخوف كئيب(٦)
فر من مصر بلا ذنب جناه ... وهو المولود فيها والربيبْ
خوفه بأسَك منها قد نفاه ... فانتفى والخوف يغري بالذنوبْ
فارددُ المجدَ إليه والحياه ... إنه فينا ومنا لقريبْ

وما انتهى الرقص والنشيد حتى قال جلالة الملك « ياسينوحيت لا تثريب عليك ، فلن يصيبك ما تكره ، ولن يحيق بك سوء ، وليهدأ قلبك ، ويفرخ روعك ، إنك منذ الآن من رجال حاشيتي بل صفيي من بين جميع النبلاء ، فانطلق إلى القصر الذي اختصصناك به ، ثم عد إلينا في البزة التي تليق بك » .

وأمر الملك رجاله أن يذهبوا بي إلى خزائنه لآخذ ما أشاء من نفائسها ، وخرجت مع الأميرات وأيديهن في يديّ ، حتى بلغنا الباب العظيم ، ثم حللت قصرا من قصور الأمراء أهداه إليّ الملك ، وقد حُملت إليّ فيه خيرات كثيرة من القصر الملكي الأبيض ، وجاءتني نفائس من الحلل الملكية والعطور التي يصطفيها الملك .

وقد وجدت قصري فخما وأثاثه فاخرا ، ورأيت له جنة ذات فواكه وأشجار ، وفيه كثير من الأتباع والخدم الذين أعدوا لخدمتي ، وما كدت أحل بقصري حتى انتزعوا ثيابي الحقيرة ، وألبسوني حلة بيضاء فاخرة من الكتان ، ورشوا عليّ من أجود عطور مصر وأطيبها ، بعد أن أزالوا لحيتي وقصوا شعري ونسقوه ثم قذفوا بثيابي القديمة إلى عرض الصحراء .

ونمت هناك على فرش وثيرة ، فتذكرت أيامي بالرمل وأهله وما آل إليه حالي من نعمة في هذا القصر الفخم ، بعد أن صرت في عداد النبلاء ، وعندئذ أحسست بالشباب يعود إليّ بكل مزاياه .

أقمت بقصري منعما ، وكان الطعام يحمل إليّ ثلاث مرات أو أربعا من القصر كل يوم ، وكانت الأسرة الملكية تغمرني بإتاواتها على الدوام ، ووهب لي الملك كل ما أمام قصري من الحقول والبساتين مما لا يهبه إلا لرئيس ديوانه .

ومع كل هذه النعم التي أضفاها الملك علي لم يغفل عن أن يفي بوعده الخاص بمدفني ، فقد أمر جلالته بأن يشاد لي هرم من الرخام الناصع ، فوضع تصميمه كبير المهندسين في القصر ، وشيده كبير البنائين فيه كأتقن وأجمل ما شيد في حياته ، وقد حفر قبري تحته في صخرة ، وبعد أن تم الهرم قام رئيس النقاشين نفسه بنقشه وزخرفته ، وهكذا حظيت بما لا يطمع في الحظوة به من كان مثلي تفاهة ورقة حال ؛ ولست أرجو إلا أن أقضي ما بقي من عمري مستمتعا بجوار مولاي بما أنا فيه من فضله وبره ، حتى أفارق الحياة ، فأنقل إلى مدفني .

محمد خليفة التونسي

(١) جادك : أمطرك .
(٢) أصفوك وحبوك : منحوك دون غيرك .
(٣) سديدا : على صواب .
(٤) استخذى : ذل وخضع .
(٥) ثمالا : ملجأ ومغيثا .
(٦) كئيب عابس .

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٦٨ — الاثنين ٢٢ أبريل ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 668

Lundi—22—4—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر المالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٦٨ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ — ٢٢ أبريل سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

يوم عظيم لسورية العظيمة !

وأى يوم أعظم من يوم الجلاء : جلاء المحتل عن أراضى الوطن ، وجلاء الذل عن نفوس الناس ؟ ولكل أمة جعل الله من نوره هذا اليوم ، يشرق فى أمسها إشراق العيد ، أو يمض فى غدها وميض الأمل . وهو أجلٌ من آجال الله إذا جاء لا يُؤخر! إنما يسبقه ليل طويل بالألم ، مظلم باليأس ، مرعد بالهول ، مطلول بالدم ، هـواديه خطوب وأعجازه ضحايا !

ولقد كان ليل سورية الباسلة من أطول هذه الليالى وأهولها ! كابدت فى أوائله مشانق جمال ، وفى أنصافه مدافع غورو ، وفى أواخره قواذف أليفا روجيه !

ثم خفقت أشباح الشهداء بيضاً على حواشيه ، ولمعت بروق الآمال تباعاً بين غواشيه ، فانصدع الظلام المكفهر ، واستبان الطريق المبهم ، واستطاع المجاهدون الجاهدون أن يسمعوا على مآذن (الأموى) : حى على الفلاح ، وأن يبصروا تباشير الفوز على غرة الصباح !

وفى الصباح المسفر حمدت سورية الحبيبة سُراها الطويل المرهق، فضمدت جروحها الدامية ، وكمّدت جفونها القريحة ، ثم ذهبت إلى (المزة) فركلت آخر جندى من جنود الاستعمار ورفعت فوق مطارها العلم ، ورجعت إلى (الغوطة) فحملت ورودها الجنيَّة إلى قبور الشهداء ، وعزفت أمامها النشيد . ثم خرجت فى زينتها وبهجتها تستقبل وفود الدول العربية التى جاءت تشاركها السرور فى يوم حريتها المشهود وعيد استقلالها المشترك . ثم أطلقت لنفسها المحتشمة عنان الفرح والمرح ، فصدحت شوارعها بالأهازيج ، وهتفت منازلها بالأغانى ، ودوّت مساجدها بالأدعية ، وفاض النور والحبور على دمشق وأخواتها ، فجلون عن أنفسهن فى يوم واحد ما ركمته المحن والأحداث فى قرون !

حيّاك الله يا سورية ! لولا ليلك الطويل الحالك ما أسفر لك هذا النهار الضاحك ! ولولا جهادك الصادق الصابر طيلة ربع قرن ما أتم عليك الله هذا النصر المؤزّر ! ولولا دماؤك المسفوحة على ثرى وطنك الغالى ما جنيت هذه الثمرة التى تتحلب لها الأفواه فى أكثر الدول ! ولكنك يا سورية خرجت من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ! خرجت من جهاد الطمع والعدوان فى غيرك ، إلى جهاد الهوى والأثرة فى نفسك ! والانتصار على العدو الخارجى سهل كالانتصار على الداء الظاهر ، ولكن الانتصار على العدو الداخلى صعب كالانتصار على الداء المضمر . والمجاهدون فى سبيل الوطن لا يبتغون عاجل الثواب ؛ فإذا سول لهم الشيطان أن يبتغوه وكلهم الله لأنفسهم فيخسرون ما ربحوا ، ويفسدون ما أصلحوا ، ويسلبهم الله مجد الجهاد فلا ينالون سعادة هنا ولا شهادة هناك !

ما أزهى نفوسنا بجلاء المحتل عنك يا سورية ! وما أبهج قلوبنا بكشف الضر عنك يا دمشق ! فهل آن لأكدار النيل أن تصفو يا بَرَدَى ، ولعار « التل الكبير » أن يُغسل يا مبسلون ؟ !

ابن عبد الملك

الأزهر في مفترق الطرق

كان للاقتراح الذى عرضناه على مشيخة الأزهر ووزارة المعارف لحل مشكلة الأزهر رجْع واحد فى مختلف البيئات هو المشايعة على الأصل فيه والاتفاق على الغاية منه . والأصل فيه توحيد التعليم الابتدائى والثانوى بين أبناء الأمة ؛ فلا يكون الفرق بين المتوجهين إلى الدين أو إلى اللغة ، إلا كالفرق بين المتوجهين إلى الحقوق أو إلى الطب . والغاية منه تجديد الأزهر ليساير الزمن ، وتنظيمه ليزامل الجامعة ، فيخرّج للعالم العربى كله رجالا للدين وعلومه أو للغة وفنونها يكون لهم ما للجامعيين من فضيلة المشاركة ومزية الإخصاء . إنما كان الاختلاف فى مدد الدراسة ، أو عدد الكليات ، أو حفظ القرآن من المناهج ، أو تصفية الحال القائمة ، وهو اختلاف فى الفروع لا فى الأصل ، وفى الوسائل لا فى الغاية . والذى يعنينا الآن أن يقبل القائمون على أمر الأزهر هذا الاقتراح . فإذا قبلوه أمكن المختصين والمفكرين يومئذ أن يديروا الرأى فيه فيفصلوا المجمل ويكملوا الناقص .

على أن أخوف ما أخافه على هذا الاقتراح أن يطول استئذانه على المكاتب الرسمية حتى يُنسَى ، أو تحول بعض الحوائل النفسية دون النظر فيه حتى يهمل . والشائع الذى يثبته الواقع أن الرأى أو الأمر إذا لم يدل عليه إلحاح الضرورة ، أو يدفع إليه ضغط الحوادث ، لا يخطره أحد بباله مهما كان أثره فى سياسة الدولة أو خطره على حياة الأمة . والأمر من قبل ومن بعد إنما يعنى شباب الأزهر ، فإذا تركوه رهن الطوارق أو جعلوه فى أيدى المقادير ، ظلوا كما كانوا : طلابا من غير علم ، أو علماء من غير عمل .

الأزهر يقف الآن فى مفترق الطرق ، ولا يذهب به إلى الأمام إلا طريق واحد ، فإذا ضله رجع إلى الوراء أو خبط فى مجاهل الأرض لا يصيب غرضاً ولا يبلغ غاية . والنتيجة الحتمية لهذه الحال أن ينتقل معنى الأزهر إلى الجامعة ويبقى لفظه المبارك حيث كان . ومن بوادر هذا الانتقال المعنوى انضمام دار العلوم إلى جامعة فؤاد الأول ؛ فإن معنى ذلك الانضمام سلب الاختصاص اللغوى من الأزهر . ولن يجدى على كلية اللغة العربية ما يعدونها اليوم من التسوية بينها وبين دار العلوم فى معهد التربية ؛ فإن دار العلوم ستستفيد من نفوذ الجامعة ونُظمها ما يوسعها ويعمقها حتى تستوعب شؤون العربية وآدابها استيعاباً لا يترك وراءه فضلة .

بقى الاختصاص الدينى للأزهر ، والكلام فى سلبه حديث قديم لا يزال يتردد على أفواه ذوى الرأى كلما فكروا فى توحيد القضاء الأهلى والشرعى والمختلط ؛ فهم يشيرون بأن تتعمق كلية الحقوق فى تدريس الشريعة ليستطيع المتخرجون فيها أن يكونوا قضاة أو محامين فى الدوائر التى ستنشأ للأحوال الشخصية فى كل محكمة أهلية ، شأنهم فى ذلك شأن زملائهم فى الدوائر المدنية والتجارية والجزائية .

أما أصول الدين فقد فكرت كلية الآداب — وأظنها لا تزال تفكر — فى أن تنشئ لها معهداً أو كلية تدرسها على المنهج الجامعى فى التقصى والاستيعاب والموازنة . فإذا أصبح تراث الأزهر نهباً مقسما بين كليات دار العلوم والحقوق والآداب ، وأضفت إلى ذلك أن التعليم الابتدائى والثانوى سيكون كله بالمجان — والمجانية ميزة الأزهر — شككت فى أن يتقدم بعد ذلك اليوم إلى المعاهد الدينية طالب يريد أن يتعلم ليعيش .

الأمر إذن جد ؛ وجده أخطر من أن يعالج بالتهوين أو التسكين أو المطل . وليس من الإخلاص للأزهر أن نقول إن علوم الدين والدنيا فيه ، وأن له من جلالة الأثر فى نفوس المسلمين ما يقيه ويكفيه ؛ فإن « المجاورة » بمعناها الموروث عهد قد انقضى ، والتعبد بدراسة الفقه للفقه تقليد قد مضى ؛ وانتقال القيادة العالمية اليوم إلى رجال العلم الخالص أمر يبعث على طول التفكير فى إعداد النشء لمجابهة الحياة بأنظمتها المتنوعة وأسلحتها الجديدة . والكلمة الآن للشباب من الأساتذة والطلاب ، فإلى هؤلاء وهؤلاء نسوق الحديث . والحزم الجدير بأهل الذكر أن ينضجوا الرأى فى هذا الاقتراح قبل أن يجاوزوا (منعرج اللوى) ، فإنى لأخشى ألا يتبينوا وجه الرشد فيه إلا بعد ذهاب الفرصة وزوال القدرة . وإن فيمن يفاخر بهم الأزهر من أمثال الأساتذة : شلتوت وعرفة والجبالى والغمراوى ودراز وأبى العيون والمراغى والمدنى والبهى والصعيدى ، مَن نربأ بهم أن يتركوا جامعتهم القديمة العظيمة فى مهب الأعاصير تزلزل أركانها وتهدد كيانها ، وقصارى ما يملكون لها دعاء لا يصنع معجزة ، أو بكاء لا يدفع مضرّة !

احمد حسن الزيات

بطون جائعة وأموال ضائعة

للأستاذ علي الطنطاوي

ولد لي في هذا الأسبوع مولود جديد ، فأهدى إلى أمه أكثر من عشرين علبة شكولاته ، من هذه العلب التي جدت في دمشق ، وصارت (مودة) الوقت ، كل علبة منها لعبة كبيرة بأشكال وألوان ، ما عرفناها قبل الآن ، منها ما هو على صورة طيارة بأجنحتها وذنبها ومحركاتها ودواليبها ، ومنها ما هو على شكل عربة بخيولها ولجمها وسائقها ، كل ذلك مصور مشكل دقيق الصنعة ؛ ومنها ما هو على هيئة سرير له فراش ووسادة من الحرير ، وفي كل منها قبضة من السكر والشيكولاته ، وهي ملفوفة بالورق الصقيل الشفاف ، معقود عليها شريط من خالص القز ، لا يقل ثمن إحداها عن عشرين ليرة سورية ... فلما ذهبنا نفتحها تقطع الشريط وتمزق الورق ... ثم تسلمها منا أولاد الدار ، وأبناء الضيوف ، لأنها لعب خلقت لهم لا للكبار ، فلم تكن إلا أيام حتى تكسرت في أيديهم ، وكيف لا تتكسر وهي مصنوعة من قطع الخشب الملون الملصق بعضه ببعض ، لا تحتمل صدمة ولا نقرة ؟ وعادت حطباً انتهى به الطريق إلى المدفأة ، فاحترقت أربعمائة ليرة كان يمكن أن يشترى بها من (خبز البلدية) عشرون ألف رغيف[1] ، ومن الثياب النسائية المستعملة (التي توزعها وزارة التموين) أربعمائة ثوب ، ويمكن أن يتزوج بها من الفقراء أربعة رجال ... هذا وأنا رجل معتزل الناس لا أديم مواصلتهم ، ولا أؤدي حقوقهم ، خارج على مواضعاتهم ، ثائر على عاداتهم ، لا أصنع إلا ما أجده نافعاً معقولا ، ولي من جرأة جناني ، ومضاء لساني عاصم من لومهم وتعنيفهم ، وهذا هو المولود الثالث لا الأول ، فكيف تكون الحال لو كنت من الأثرياء الذين يخالطون الناس ، ويقومون بحقوقهم ؟ وكيف لو كان المولود صبياً بكراً ؟

ففكروا كم ننفق من الأموال في أشياء لا يأتي منها خير ، وما في تركها ضرر ، ونحن نشكو الفقر والمرض والجهل ؟

أعرف رجلا تزوج فأهدى إليه يوم زفافه ، من أصدقائه وصديقاته وأقربائه وقريباته ، مائة وست عشرة باقة زهر ، ثمن أدناها خمس ليرات ، وقد يبلغ ثمن أعلاها العشرين ، فحار أولا أين يضعها ، ومن أين يأتي لها بالكؤوس والأواني ، ثم بدا له فجملها حول سرير العروسين ، فكان لها منظر رائع خلاب ، ثم مرت الأيام ففسدت وجفت فاستأجر رجلا يحملها ليلقيها في إحدى ... المزابل !

ألف ليرة تلقى على مزبلة ، ونصف الأمة يتضور جوعا ! !

وأعرف آخر من التجار أبى له سفهه وتبذيره وكفره بنعم الله إلا أن يوزع السكر على نحو خمسمائة مدعو لحضور عقد ولده في علب من الفضة في كل منها صحن من البلور ، لا أدرى من أين جاء بها فما في بلدنا منها ، قالوا ، إن ثمن الواحدة منها خمس عشرة ليرة ، فهذه سبعة آلاف وخمسمائة ليرة ، دون باقي المصروفات ، في الفرش والزينة والثياب ... وإن من نساء هؤلاء التجار الفجار الأشرار من تشترى المعطف الواحد بألف ليرة ، وإذا لم تصدقوا فاسألوا تجار الفرو !

والتبذير في أتراح هؤلاء الأغنياء لا يقل عنه في أفراحهم ، فلا تخرج جنازة أحدهم حتى يمشي معها رجال المولوية بقلانسهم التي تشبه علب اللبن ، وثيابهم التي تحكى إذا داروا المخاريط الناقصة التي وصفوها لنا في درس الهندسة أيام المدرسة ، ولا يمشون حتى يقبض شيخهم الرسم المقرر ، خمسمائة ليرة ... وأمام الجنازة الآس والحناء ، وبعدها حفلة (التنزيلة) ، ثم (الصباحية) و (المصرية) وللنساء فيها كسوة خاصة تشترى من أجلها ، فلا يصل الميت إلى القبر حتى ينفق عليه إن كان من الموسرين خمسة آلاف ليرة ، ما أنفق قرش واحد منها في طاعة الله !

وإن حول كل دار من هذه الدور التي تهدر فيها الأموال لمساكن فيها ناس مثلنا ، من بني آدم ، من إخواننا في الدين وفي الوطن ، وفي اللسان ، يشتهون عشر معشارها ، أو أقل منه ليشتروا به طعاماً يملأ بطون أولادهم ، وثياباً تستر أجسادهم ، وإن لهؤلاء الناس (لو عرف الأغنياء !) عيونا تنظر كعيوننا ،

(١) ذلك لأن البلدية في دمشق تبيع الخبز للفقراء ، كل كيلو بعشرة قروش ، فالطن منه بمائة ليرة فقط !

وقلوبا تتألم كقلوبنا ، ولهم بنون وبنات هم قطع أكبادهم ، وهم على هلهلة ثيابهم ووساخة أبدانهم أحبة إليهم أعزة عليهم كعزة أولادنا علينا ، وربما كانوا أزكى من أولادنا نفوساً وأطهر ، وأذكى عقولا وأمهر ، وكانوا أرضى لله وأنفع للوطن منا ، ولكن الفقر عطل قرائحهم ، وكفّ أيديهم ، وكبل أرجلهم .

إن هؤلاء وإن لم يكن فى أعراسهم باقات الزهر ، ولم يكن فى جنائزهم مولوية ولا آس ، ولم يعرفوا طريق المدارس والملاهى ، ولم يزهوا بغالى الثياب ، ولم يتمددوا على أرائك السيارات ، ولم يعرفوا المشيخة التى يأكلون بها الدنيا بالدين ، ولا الزعامة التى يجمعون بها المال بالوطنية ، إنهم هم عماد هذا الوطن ، وهم جمهرة أهله ، وهم يزرعون القمح ويقدمونه إلينا ثم يعيشون على الذرة والشعير ، وهم يبنون لنا القصور ثم يقيمون فى الأكواخ مع البقر والحمير ، وهم يصنعون بأيديهم الشيكولاتة التى لا يذوقونها ، ويحيكون الثياب التى لا يلبسونها ، وهم يسهرون فى الطرقات ليحرسونا ونحن نيام ، وهم يمشون إلى الميادين ليدافعوا عن أوطاننا ونحن آمنون ، وهم قد دفعوا ثمن الاستقلال مهجهم وأرواحهم ، ثم لم يأخذوا من خيراته شيئاً ...

إن هؤلاء هم ركن الوطن وعماده ، وهم أهله وقطانه ، فحرام علينا أن نتناساهم ونهملهم ! حرام أن تبقى هذه الأموال ضائعة ، وهذه البطون جائعة ! حرام فى دين الله ، وفى شرعة الانسانية ، وفى قانون الشرف ، فأين المصلحون ، فأين المصلحون ؟ أين رجال الجمعيات ؟ أين أرباب الأقلام ؟

لقد كنت أصفّح (أعداداً) عتيقة من مجلة الهلال ، فوجدت فى (عدد) منها أن فى بلاد السويد جمعية اسمها (جمعية أمناء الأزهار) عملها جمع الأموال التى يشترى بها أهل الميت وأصدقاؤه باقات الزهور التى تحمل مع الجنازة ثم توضع على القبر ، وإنفاقها فى بناء مساكن صحية للعمال والفقراء ، يسكنون فيها بأجر يسير ، وأنها أنشأت (إلى تاريخ ذلك الخبر) نحواً من ألف مسكن .

فلماذا لا يكون فينا رجال مثل رجال هذه الجمعية ، يأخذون المال من هنا ، فيضعونه هناك ، فيصلحون به أخلاق الأمة بانقاذها من داء التبذير والأثرة والمفاخرة بالباطل ، ويدفعون عن أغنيائها حسد فقرائها وبغضاءهم ، ويعودون عليها بالخير لها فى أجسادها وعقولها وصناعاتها وحضارتها إذ ينفقون هذا المال فيما هو أولى به من وجوه الاصلاح ؟

لماذا نأخذ عن الأوربيين السم وندع الترياق ؟

كم ينفق فى الشام ومصر والعراق وسائر بلدان هذا الشرق الإسلامى فى الزفاف وحفلاته ، والمآتم وملحقاته ... والأعياد والمواسم وأيام الولادة والختان ، فيما لا ينفع أحداً البتة ، ولا يعود عليه بعائدة ، ولا تناله منه فائدة ؟

حتام تهدر الأموال ويراق الذهب ، اتباعا لعادات قبيحة وتقليداً كتقليد القردة ، وجمهور هذا الشعب يشكو الفقر والمرض والجهل ؟

هل تذهب بشاشة العيد ويمحّى رواؤه ، لو اصطلح الناس فيه على تقديم السكر الملبّس الوطنى بدلا من الشيكولاتة وصرفوا فرق الأثمان فى بناء مدرسة أو مستشفى فى كل بلد ؟

هل يبطل أنس العرس ، وتضيع بهجته إذا لم يكن إلا باقتان من الزهر ؟

هل يكتب على العروسين الشقاء الدائم إذا وزعت الحلوى على المدعوّين فى قراطيس بدلا من العلب ؟

هل يحرم الميت التقى من نعيم الجنة ، ويضاعف على الشقى العذاب إذا لم يمش فى جنازته رجال الطريقة المولوية التى لا يقول بها عقل ولا نقل ، ولا يقرّها شرع ولا طبع ؟

فالى متى نضيع أموالا نحن اليوم أحوج إليها من كل يوم مضى لأننا فى عهد تجديد وبنيان ، ولأننا فى أول طريق الاستقلال؟

فيا أيها الأغنياء لا تغتروا فان النعم لا تدوم ، وإن بعد اليوم غداً ، وإن بعد الحياة موتاً ، وإن بعد الموت لحساباً عسيراً ، أمام رب الأرباب الذى خلقكم وخلق الفقراء من طينة واحدة ، لم يخلقهم من التراب ويخلقكم من الأسمنت المسلح ... ولم يميزكم عنهم إلا بمال أعاركموه ليكون محنة لكم وليطول عليه حسابكم .

ويا أيها المصلحون هذا باب من أوسع أبواب الاصلاح فلجوه بارك الله فيكم إن فعلتم ، وأيدكم .

ويارب منك أنت التوفيق ، فأعطِ المخلصين مقدرة ، وأعط القادرين إخلاصاً ، فاننا نشكو إليك شكاة عمر : ضعف التقى وفجور القوىّ !

(دمشق) **على الطنطاوى**

على هامش النقد :

همزات الشـــياطين

مجموعة أقاصيص : عبد الحميد جودة السحار

الأستاذ سيد قطب

كان هذا الكتاب — وهو حلقة من سلسلة لجنة النشر للجامعيين — مفاجأة كاملة لى . فأنا أعرف مؤلفه الشاب ، فأعرف أنه أديب مجتهد ؛ وقد قرأت له ما سمح وقتى المحدود بقراءته من كتبه الكثيرة التى يتجه بها غالباً إلى التاريخ الإسلامى ليعيد عرض وقائعه الجافة فى صورة قصصية يحافظ فيها على دقة التاريخ مع سهولة العرض وتشويقه ، وهو عمل نافع مشكور .

وقرأت له قصته الأولى عن : أحمس بطل الاستقلال ، وهى لا تبشر بشىء ! ثم قرأت — على وجه الخصوص — كتابه « فى الوظيفة » وأعجبنى فيه قدرته على التصوير السريع باللمسات الخاطفة ، وقلت عنه فى عدد « الرسالة » بتاريخ ٢٢ يناير ١٩٤٥ :

« إن صاحب هذه الصور الانتقادية موهوب فى فن التصوير السريع . ومهما أخذت عليه من عيوب فى عمله الفنى ، فإنك لن تخطئ الملامح التى يريدها ، والسحنة التى يبغيها ، وهذا وحده يكفى .

« إنه ذو عين لماحة ، تسجل الحركة الحسية ، كما تسجل الحركة النفسية . ثم تغلف اللمحة المرسومة بروح السخرية ، وتمزجها بعنصر الفكاهة ، حتى ليخيل إليك أنه ينظر إلى الدنيا كما ينظر إلى ملهاة كبيرة ؛ تأخذ عينه فيها لمحاتُ التناقض ، وتأخذ حسه فيها مواضع السخرية ، وتأخذ نفسه فيها مواطنُ الدعابة ... »

ولكن هذا كله شىء ، و« همزات الشياطين » شىء آخر ، ومع أنها موسومة بهذه السمة التى عبرت عنها فى تلك الفقرات ، إلا أن الشقة بينها وبين جميع أعمال المؤلف الشاب بعيدة ، فهى وثبة واسعة المدى ، لا بالقياس إلى جميع أعماله ، بل بالقياس إلى أقصى ما كان يتوقعه الناقد لهذه الأعمال !

وقبل أن أبعد فى طريق التعميم أخصص ما ذا أعنى بأنه وثبة واسعة المدى : تحتوى هذه المجموعة على اثنتى عشرة أقصوصة ، وقد صدرها المؤلف ببحث مختصر مفيد عن الرواية والأقصوصة يؤلف مع الفصل الذى احتوى عليه كتاب « فنون الأدب » عن القصة والمسرحية تأليف (هـ . ب تشارلتن) وتعريب الأستاذ زكى نجيب محمود . والفصل الذى كتبه الأستاذ محمود تيمور عن « فن القصص » ... كل ما تحويه المكتبة العربية تقريباً عن هذا الباب الضخم من أبواب الأدب : باب القصة !

من هذه المجموعة أقصوصة طويلة بعنوان « وسوسة الشيطان » تستغرق أكثر من ثلاثين صفحة ، وهى الأقصوصة الرئيسية فى المجموعة ... وهذه هى الأقصوصة الفذة البارعة فى المجموعة ، وفى أعمال المؤلف كلها منذ أن أخذ يكتب وينشر . أما بقية المجموعة فشىء عادى فيه الخطأ وفيه الصواب ، وبعضها تبدو فيه العجلة التى لا تغتفر لمن يملك أن يخرج مثل هذه الأقصوصة الرئيسية !

وهذه الأقصوصة هى التى فاجأتنى مفاجأة تامة ، جعلتنى أعاود النظر فى كل ما قرأته للمؤلف ، لعلنى أكون قد أخطأت فى تقديرى أول الأمر ، أو لعل بعض كتبه التى لم أكن قرأتها توحى بهذه الوثبة الواسعة !

ثم عدت بعد هذا كله مقتنعاً بأنها وثبة واسعة ، ومفاجأة كاملة ! وقادتنى هذه المفاجأة إلى أن أراجع كل ما تحويه مكتبتى من الأقاصيص المؤلفة باللغة العربية — وهى تكاد تشمل كل ما تحويه المكتبة العربية فى هذا الباب فوجدت هذه الأقصوصة تقف وحدها متفردة بين هذا الحشد من الأقاصيص .

وأردت أن أتابع الموازنة ، فعدت إلى ما تحويه مكتبتى من الأقاصيص المترجمة — وهى تكاد تشمل كذلك كل ما نقل إلى اللغة العربية — فوجدت هذه الأقصوصة تقف رافعة الرأس مع أعظم ما أعجبت به فى هذه المجموعة ... ترتفع على معظمه ، وتساوى أقله ، وتنحنى أمام عدد صغير جداً لا يبلغ عشر أقاصيص من حوالى المائتين !

تصور هذه الأقصوصة تجربة نفسية كاملة للخطيئة . وهى تمثل — مع استقلالها وأصالتها صراع كل « بافنوس » أمام

« تاييس » وكل « عبد الرحمن القس » أمام « سلاَّمة » ، بل صراع كل « آدم » أمام فتنة الفاكهة المحرمة . وهى تصور هذا الصراع باللمسة الهينة ، والإيماءة القصيرة ، واللفظة الموحية ، والحركة المعبرة ، وتلم فى الطريق بكل خلجة وكل خاطرة وكل تأثر وكل انفعال ، وتجمع بين السرعة المتحركة فى السياق ، والدقة الكاملة فى رسم الخلجات الخفية ، والوسوسات الخافتة ، وتصور « فلماً » كاملا للصراع النفسى فى موقف خاص !

وذلك كله دون حذلقة ، ودون إبراز للتحليل النفسى الذى يأخذ هيئة التفسير العلمى فيفسد الفن القصصى ، إلا فى موضعين عابرين ألم بهما إلماماً سريعاً لحسن الحظ ، فلم يفسدا السياق ، وإن غضا من قيمته الفنية قليلا .

والصعوبة التى تواجه ناقد القصة أنه لا يملك عرض الجمال الفنى فيها كما يريد ، فالتلخيص عبث وقتل لهذا الجمال ، فهو — على أحسن الأوضاع — يلخص الفكرة ، وما ذا تجدى الفكرة إذا لم يستطع تصوير طريقة العلاج ؟ وكل وصف لطريقة العلاج يعد تشويهاً بالقياس إلى حقيقة العمل الفنى فى السياق ! ولكننى بعدهذا كله ملزم أن أعرض على القارئ هذا التشويه :

صلاح شاب فى الثلاثين ، متدين ، واثق بنفسه وبإيمانه ، فقد وصل إلى هذه السن ولم يرتكب معصية قط — على الأقل حسبما يعتقد — فهو صاحب حق فى الجنة لا منازعة فيه ، ولأنه لم يعان من قبل أية تجربة نفسية ، فهو يقسو على الخطيئة والخطاة ، ولا تنفسح نفسه لأى عطف عليها أوعليهم ، ولا يحاول أن يستمع لأية معذرة من الظروف والملابسات والاضطرار .

وحين يسمع من الواعظ تحذيره من النفاق وتخويفه للناس من عذاب النار ، لا يحفل ولا يجفل ، فإنه ناج من النار ! وحين يقص على زوجته نبأ طرد عبدالتواب أفندى من عمله لأنه اختلس يعلق على هذه الجريمة بقسوة ، ولا يقبل من زوجه التماس أية معذرة لهذا السارق الأثيم ! وحينما تتقاعس زوجه عن صلاة الفجر لأن حلاوة النوم تقعد بها فى السرير ، يلح عليها حتى تقوم ، لأنه « يود أن يزحزحها عن النار ... » وحينما يعلم أن فتاة يتركها أهلها لتشتغل بالتدريس بعيدة عنهم ، يهم بأن يذهب إليهم ليوبخهم على هذا الاستهتار ! ويخرج صلاح لعمله بعد الصلاة وقراءة « الحزْب » وهو يحلم بالجنة التى دخلها فلم يجد «سميرة» زوجه ، ثم إذا هى تدخلها ! كراءة الخاطر!... يخرج حيث يعد له المؤلف ، أو تعد له الحياة ، الفتنة الأولى مع هذه المدرسة ذاتها :

« أغلق صلاح باب مسكنه خلفه ، وقبل أن يهم بالنزول فى الدرج ، فتح باب المسكن المواجه له ، وخرجت منه فتاة واسعة العينين ، ناهدة الصدر، نحيلة الخصر ، وما إن تلاقت عيناه بعينيها حتى غض من بصره ، وتأخرخطوات ليفسح لها الطريق ؛ فمرت من أمامه ، وملأت خياشيمه رائحة عبقة أنمشت نفسه ، ولكنه ظل مطأطئ البصر ، وهبطت الدرج قافزة ، ولم يقدر صلاح على أن يقمع شهوة التطلع طويلا ، فنظر من بين أهدابه المسبلة ، فوقع بصره على ثديين يترجرجان صاعدين هابطين ، فأغمض عينيه ، وتعوذ من الشيطان الرجيم ، وخفت وقع أقدامها وتلاشى، فوجد نفسه يهبط مسرعاً — وما كان لينزل إلا متمهلا وقوراً ، متخذاً سمة الكهول الموقرين — وسأل نفسه عمادفعه إلى الهبوط السريع، فرد ذلك إلى جو الربيع الذى أنمشه ، ودب فيه نشاط حبيب إلى النفس ، وبلغ الطريق فلمحها تغذ فى السير، وتصعد إلى الطوار خفيفة رشيقة ، وماتقطع فى الطريق خطوات، حتى تعود لتقفز إلى الطوار ثانية كأنها خيال يطير ، لايبغى المكوث على الأرض ولايطيق اللصوق بها . ووجد نفسه يغذ فى السير ، ولكن علام الإسراع ، وما هناك حاجة إلى الإسراع، فمازال فى الوقت متسع؟ وأحس همساً خفيفاً ينبعث من داخله يستفسر : ترى أنغذ فى السير لتلحق بها وتتطلع إليها ؟ وما همس هذا الهاجس فى نفسه حتى تفزع وجفل، وضيق من خطوه، وتعوذ وابتدأفى قراءة المعوذتين! »

ثم تتابع الحياة دورتها ، ويتابع المؤلف خطوات صلاح . وصراعه مع نفسه، ومغالطته لها ، وهواجسه وخطراته ، وتناقض أحاسيسه ، وإقدامه وإحجامه ، واقترابه فى كل إقدام وكل إحجام من الهزيمة والاستسلام ؛ فى أسلوب بارع فائق لا نستطيع مجاراته فيه ولا نملك تلخيصه ، حتى نلتقى بالبطل فى موقف الهزيمة الأول : «وانطلقا فى الطريق الهادئ الساكن الممتد على النيل ، وسارا صامتين كأنما استعارا صمتهما من صمت المكان ، واقتربت « بديعة » منه حتى التصق كتفها بكتفه ، واصطدمت يدها بيده أكثر من مرة ، واستقرت يدها فى يده أخيراً ، فراح يضغطها

ضغطاً خفيفاً ، فكان يحس بنشوة لذيذة تسرى فيه ، ما كان يحسها لو أن اليد التى كانت فى يده يد «سميرة» ، واستمر السكون مخيماً عليهما ، وكان سكوناً خارجياً ، ولم تكن نفساهما ساكنتين ، بل كانتا تعتلجان بشعور فوار ، فقد كان كل منهما يتمنى أن يضم صاحبه إلى صدره ليطفئ ناره !

« وبلغا مقعداً خشبياً ، فجلسا يحدقان فى النيل برهة ، ثم زحفت « بديعة » على المقعد بخفة حتى التصقت به ، فملأ عبيرها الشذىّ أنفه ، وحرك نفسه ، فتاق إلى أن يضمها إليه ، ويطوقها بذراعيه ، ويمطر وجهها قبلات ، ولكنه قمع شهوته ، وقاوم رغبته ، ورمى بنظره إلى النيل ، وجعل يرقب موجاته المتكسرة محاولا أن يتشاغل عن هواتف نفسه ، ولكن رغبته خنقته وسيطرت عليه ، فارتد بصره إليها ، وراح يتطلع إليها فى وله واشتهاء . . والتقت العيون ، فترجمت عما تخفى الصدور ، فمالت « بديعة » وأسندت ظهرها إلى صدره ، فخفق قلبه ، وارتفع نبضه ، وسرى الدم حاراً فى بدنه ، حتى أحس به يكاد يشوى وجهه ، وانبهرت أنفاسه قليلا ، وضاقت حدقتا عينيه قليلا ، واضطرب كثيراً ، وأحس شعرها الأسود السبط الجميل الذى تمنى يوم جلست أمامه فى السينما أن يمر بيده عليه ، يلمس خده ، فسرت رعدته فى جسمه ، وارتفعت يده دون أن يتكلف ذلك ، وراحت تمر على شعرها فى حنان ، فرفعت عينيها المتكسرتين إليه وهى مستلقية على صدره ، واستدارت قليلا كأنما استدارت للقبل ... ورنت إليه فى دلال ، وزمت شفتيها تدعوه فى خبث إلى اللثم والعناق ... فلم يستطع أن يقاوم تلك الفتنة المرتمية فى أحضانه ، ولا نداء العينين الواسعتين الساحرتين ، ولا الشفتين المزمومتين المرتجفتين قليلا ، المغريتين كثيراً ! »

وهكذا يمضى المؤلف بصلاح المسكين فى سياق مصور دقيق على هذا الطراز حتى يصل به إلى الدار : « وتذكر فى الطريق دعاء ما كان يجرى له ببال قبل اليوم ، ولم يتحرك به لسانه أبداً ، فأخذ يردده فى نفسه فى حرارة يحس نارها تصهر صدره ، ولأول مرة يحس جلال ذلك الدعاء ، واستمر يردده وهو يصعد الدرج : « اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ... اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى » !

« ودق الباب ففتحته زوجه ، فدخل وأغلقه خلفه ، ثم طوقها بذراعيه ، وراح يقبلها فى لهفة وهو يغمغم : « سميرة .. سميرة ؟ » كأنما كان فى سفر طويل عاد منه ، وخطر دائم يهدد حياته ، وأحس كأنه يود أن يفضى لها بكل شىء ، وأن يقص عليها قصة ضعفه ، ولكنه تريث ، وتخلصت منه فى رفق ، وسألته فى ارتياب : ما بك الليلة ؟ فقال : لا أدرى ، إنى إليك مشتاق كأنى لم أرك منذ سنين ! فقالت : أأعد العشاء ؟ فقال : انتظرى حتى أصلى العشاء !

« ودخل حجرته ، وأخذ يخلع ملابسه ، ولم ترحمه نفسه المهتاجة ، بل راحت تخزه ، فسمع صوتاً يهتف به من أغوار نفسه : « يا لك من منافق ! كيف سمحت لنفسك أن تضع شفتيك الآثمتين على شفتيها الطاهرتين ؟ وكيف رضيت أن تلف ذراعيك الملوثتين بخصرها ؟ وأن تلصق صدرك الخبيث بصدرها ؟ يا لعارك ! »

ثم يعتزم التوبة والتكفير بألا يلقى بديعة مرة أخرى . ويصر على ذلك إصراراً ونفسه تهتف به إليها هتافاً ، ويصمد فى الظاهر وهو يقرب من الخطيئة الكبرى ... ثم تقع هذه الخطيئة فى أشد لحظاته إصراراً على ألا يلمح « بديعة » أو يراها ! . ثم يصبح الصباح ! ... « واستمر ضميره يخزه وخزاً شديداً ، وهو يتلوى من العذاب ، وضاق صدره فترقرق الدمع فى عينيه فلم يستطع حبسه ، فجرى على خديه ، واستمر فى عذاب حتى ارتفع صوت المؤذن يؤذن بالفجر . فأحس كأنه نار تصب فى أذنيه . فوضع إصبعيه فى أذنيه ليصمهما عن سماع الأذان الذى يزيد من أشجانه ، ولكن صوت المؤذن كان يقرع سمعه فكأنه شواظ من نار سددت إلى قلبه فحرقته حرقا ، وارتفعت النار إلى صدره فأضنته ، وأحس «سميرة» تنهض من فراشها ، فأحس عرق الخجل يتصبب منه حتى يغمره ، واقتربت من سريره فود أن تبتلعه الأرض قبل أن تمسه ، ولكن يد « سميرة » لمست كتفه فى رفق ، وهمست فى حنان : — صلاح ... صلاح ... انهض قد أذن المؤذن ...

« فهم بأن يصيح فيها أن تبتعد عنه ، وألا تلمسه ، ولكن صوته انحبس ، ولم يجد مخرجا . فعادت تهزه وتهتف : — صلاح قم . الصلاة خير من النوم . واقتربت بوجهها من وجهه ، فلمحت

مقابلات بين أقوال جحا

وأقوال الشعراء والكتاب

للأستاذ كامل كيلانى

(بقية المنشور فى العدد ٦٦٦)

٥ — صغار الأشياء

يقول شيخنا المعرى :

العمل — وإن قل — يستكثر ، إذا اتصل ودام ، لو نطقت كل يوم لفظة سوء ، لاسودت صحيفتك فى رأس العام .

ولو كسبت كل يوم حسنة ، عُدِدْتَ — بعد زمن — من الأبرار .

إن اليوم ائتلف من الساع ، والشهر اجتمع من الأيام ، والسنة من الشهور ، والعمر يستكمل بالسنين .

الرجل مع الرجل عصبة ، والشعرة مع الشعرة ذؤابة (وهى الضفيرة المرسلة من الشعر) والحجر فوق الحجر جدار ، والنخلة إلى النخلة حائش (جماعة من النخل) .

ويقول بعض شعراء أوربة .

« قطرات المياه منها محيط وصغار الحصى تكوّن أرضاً
ودقيقاتنا تؤلف جيــلا بعد جيـــل فى إثره يتقفى
وقليـل الحنان والحب مما يجعل الأرض جنة الخلد خفضاً »

فكيف يعبر صاحبنا عن هذه المعانى بأسلوبه الجحوى الفاتن :

٦ — برميل العسل

يقول :

« كان والينا الجديد — فيما سمعت وسمع غيرى من الناس — مما ترامى إلينا من أخباره يحب العسل حباً شديداً ، ويؤثره على غيره من ألوان الحلوى ولذائذ الفاكهة جميعاً .

وقد احتشدنا لاستقباله وتأهبنا للاحتفاء بمقدمه بعد أن اجتمع رأينا على أن نهدى إليه برميلا كبيراً نملأه بأحب الطعام إليه وهو العسل .

وتعاهدنا على أن يسهم كل واحد منا فى تلك الهدية بأيسر نصيب . فيلتقى فى ذلك البرميل الكبير بمقدار فنجان صغير .

وخطر ببالى — حينئذ — خاطر عجيب فقد سوّلت لى نفسى أن أهرب من أداء هذا الواجب اليسير الذى لا يكلفنى شيئاً .

وقلت فى نفسى ، والنفس أمارة بالسوء :

إن مئات غيرى من الناس ، سيقومون بأداء هذا الواجب عنى . ولن تقدم هديتى شيئاً ولن تؤخر . فلو ملأت الفنجان ماء أو عسلا لما نقصت الهدية شيئاً ولا زادت ، ولما شعر أحد بتقصيرى .

ولكن شد مادهشت حين فتح الوالى برميل العسل أمامنا ، فوجده مملوءاً ماء كله . وليس فيه قطرة واحدة من العسل .

لعلكما أدركتما السر فى ذلك — يا ولدىّ — فإن تلك الفكرة الخاطئة التى مرت على بالى ودفعتنى إليها الأثرة والأنانية

دموعه تجرى على خده . فهمست فى فزع : — صلاح . مابك ؟ أتبكى ؟ ... قم يا حبيبى . قال : دعينى . قالت ما بك يا حبيبى ؟ قال : رأيت رؤيا مفزعة . رأيت نفسى أطرد من الجنة » .

ولا تنتهى الأقصوصة حتى يكون هذا الواثق فى نفسه وقوة إيمانه ، المستعز بمكانه فى الجنة ، القاسى على الضعف والخطيئة ... معذبا مولها ، لا تهب عليه نسائم الرحمة إلا من الإقرار بالضعف والخطيئة والرجوع إلى التواب الغفار عن طريق الخطأ والاستغفار !

« ونهض صلاح ليغتسل من إثمه ، وانطلق حزيناً كئيباً يحتقر نفسه ، ويعجب لضعفه ، وسمع صوتاً آتياً من أغوار نفسه كأنه همس ينبعث من مكان سحيق ، ولكنه بلغ أذنيه واضحاً قوياً ، وانساب فيها عذباً ندياً :

« كل ابن آدم خطّــاء . وخير الخطائين التوابون »

فتمتم والدموع تخضب وجهه : « اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك »

هذا عمل فنى رائع لا تصوره تلك المقتطفات بل تشوهه !

وإن المؤلف الشاب ليستطيع أن يلقى بكل أعماله إلى البحر ، ثم يقف بهذا العمل الفنى وحده . فإذا قدر له أن يخرج عشر أقاصيص فقط من هذا الطراز ، فليكن على ثقة أنه سيسلك فى سجل العظماء من رجال الفنون ! ولكن هذا عمل عسير !!!

سيد قطب

إلى إنفاذها قد مرت على بال كل واحد من أصحابي المثين الذين اجتمعوا لتكريم الوالي .

وهكذا كانت هديتنا إليه برميل ماء لا رميل عسل . وقد تركت الهدية في نفس الوالي بعد ذلك أسوأ الأثر ، وكانت سيرته معنا كما كانت سيرتنا معه من أقبح السير .

وكان هذا أبلغ درس وعيته في شبابي ، وأدركت مغزاه ، فلم أنسه طول حياتي .

٧ — دولاب الزمن

يتمثل بعض الشعراء ، فيما يتمثلون من أخيلتهم البارعة ؟ أن الزمن بحر ، ونحن راكبوه على سفائن — من أعمارنا — لا تلبث أن تحطمها الأمواج المصطخبة الثائرة . وفي هذا يقول شيخ المعرة :

« ركبنا على الأعمار والدهر لجة   فاصبرت للموج تلك المفائن »

ثم يتمثل شاعر آخر أن سفينة الحياة تخيل لرائيها أنها واقفة على حين يجرى بها الزمان ، وفي هذا يقول (مهيار الديلمي) :

وإنا لفي الدنيا كركب سفينة   نظن وقوفاً والزمان بنا يجرى »

ثم يتمنى شاعر ثالث لو استطاع أن يلقي بمراسي هذه السفينة في ذلكم البحر الزمني ، لتقف ولو يوما واحداً ، فيقول الشاعر المبدع « لامرتين » في قصيدته البحيرة وهو من المعاني التي افتن الشعراء فيها وأبدعوا في صوغها وتصويرها إبداعا :

« هكذا وأبدا ، نظل مدفوعين إلى سواحل جديدة من الحياة في ليل الأبدية المظلم ، لا نرجع ولا نعود . فهل يتاح لنا أن نلقي مراسي سفينتنا فوق أوقيانوس الزمن ؟ وهل يقر قرارنا يوما واحدا ؟ »

وقد أبدع البحترى — قبل لامرتين — في هذا المعنى أي إبداع حين قال :

« ليت أن الأيام قام علينا   من إذا ما مضى زمان يعيده »

ومن قبلهما التفت « امرؤ القيس » إلى طول الليل التفاتة فريدة ، فتمثله خياله المبدع الوثاب ، كأنه واقف لا يتحرك ، بعد أن شدت نجومه — إلى جبل يذبل — بأوثق الأسباب ، وأمتن الحبال لتمنع الليل عن الحركة وتعوقه عن الانتقال . فقال في معلقته الخالدة :

« فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل »

ثم جاء المعرى فمثل لنا العاشق الولهان يود لو استطاع أن يديم ظلام الليل فلا ينتهي ، ويتمنى لو يزيد في سواده سوادَ قلبه وسواد عينه ليطيله قليلا . فقال :

« يود أن ظلام الليل دام له   وزيد فيه سواد القلب والبصر »

وقال صَرَّدر :

« يا ليت عمر الفتى يُمَدُّ له   ما امتدَّ منه الرجاء والأمل »

وقال :

« فليت الفتى كالبدر جدد عمره   يعود هلالا كلما فنى الشهر »

ثم جاء « ابن الفارض » فقال :

« يا ليل طل ، يا نوم زل   يا صبح قف : لا تطلع »

ولو شئنا أن نتقصى ما قاله الشعراء في هذا الباب لامتد بنا نفس القول دون أن نبلغ من ذلكم مداه . ولكن حسبنا أن نشير إلى قول الشريف الرضى :

« يا ليلة كاد من تقاصرها   يعثر فيها العشاء بالسحر »

وقوله :

« ردوا عليَّ ليالي التي سلفت   لم أنسهن ولا بالعيش من قدم »

وقول مالك بن الريب :

« فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا »

وقول الشريف أيضاً :

« ولو قال لي الغادون ما أنت مشتهه
غداة جزعنا الرمل : قلت أعود »

يحسبنا هذا القدر على وجازته . وقديماً قالوا :

« حسبك من القلادة ما أحاط العنق » .

فلننتقل إلى الدعابة الجحوية لنرى كيف تعبر في سذاجة نادرة عن هذه الأعماق والدقائق المنوية ، التي صاغها المبدعون في دورة الفلك ودولاب الزمن :

يُسأل جحا وهو صغير :

« أيكما أكبر : أنت أم أخوك ؟ » .

فيقول :

« أخي يكبرني بعام واحد ، فاذا جاء العام القابل تساوينا في العمر » .

ويُسأل وهو كبير :

« كم سنك يا جحا ؟ » .

فيقول : « أربعون عاما ! » .

فيقول له بعض سامعيه :

« ألم تقل لنا ذلك منذ سبعة أعوام ؟ » .

فيجيب جحا فى غير تلعثم ولا ارتباك :

« وهل يغير الحرُّ كلامه ؟ » .

***

فأنت ترى فى القصة الأولى : تدفعه الرغبة الفكرة ، أو التفكير الراغب (Wishful thinkngi) إلى أن يتمثل : أن دولاب الزمن قد وقف بأخيه عاما ليدركه جحا .

فاذا كبر : دفعته الرغبة أن يتمثل قدرته على وقف دورة الفلك عند سن الأربعين لأنه لا يريد أن يتخطى هذه السن أبدا . وحسبه أن يعيش على هذه الأمنية ما دام فى تخيلها سعادته .

ورحم الله الشاعر الذى يقول :

« مُنى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا »

٨ — المرأة والسن

ومن بديع لفتاته حين رأى صديقاً له مكتئباً حزيناً ، فسأله عما يحزنه ، فقال :

« لقد نشب بين زوجى وأختها عراك عنيف لا أدرى كيف ينتهى ، وقد جئت لأستعين بك على فض ذلك النزاع بحكمتك وكياستك » .

فسأله جحا : « أتراهما تشاجرتا لاختلافهما على عمريهما ؟ »

فقال له : « كلا يا صاحبى لم يدر لهما هذا المعنى على بال » .

فقال جحا : « عد إلى بيتك مطمئناً فلن يطول شجارهما يا صاحبى » .

٩ — الإسراف والاعتدال

يقول الشاعر :

« يتمنى المرء فى الصيف الشتا   فإذا جاء الشتا أنكرهُ
ليس يَرضَى المرء حالا واحدا   قتل الإنسان ما أكفرهُ »

ويستمع صاحبنا جحا إلى رجل يشكو زمهرير الشتاء ويلعن برده القارس ، وينبرى للشاكى أحد المتحذلقين فيعنفه على شكواه ، ويقول له : « لقد كنت تشكو فى الصيف الماضى وقدة الحر ، وعنف القيظ ، فمالك تبرم بالشتاء إذا جاء ؟ »

فيعجز الشاكى وأصحابه عن الإجابة ، ويلتفت جحا التفاتة رائعة . فيقول :

« لقد طالما شكا الناس زمهرير الشتاء ، وقيظ الصيف ، فهل رأيت أحداً يشكو : اعتدال الربيع ؟ » .

وكأنما أوحى بهذه الإجابة البارعة إلى ابن الوردى قوله فى ذم الإسراف والغلو :

بين تبذير وبخلَ رتبة   وكلا هذين ، إن زاد قتل

١٠ — مناجاة النفس

ويقولون : إنهم سمعوا جحا يتحدث فى غرفته وليس معه أحد ، وكأنما يحدث شخصاً آخر ؛ فلما فتحوا باب الغرفة ليتعرفوا جلية الأمر وجدوه يحدث نفسه . فسألوه : « كيف تحدث نفسك يا جحا ؟ » .

فقال : « لقد برمت بغباء الناس وضيق عقولهم ، وعجزهم عن فهم الدقائق التى تقصر أفهامهم عن بلوغها . واشتقت إلى محادثة بارع فطن ذكى يفهمنى وأفهمه ، فلم أجد غير نفسى ، فرحت أناجيها وأفضى إليها بدخَلِتى » .

ألا تذكرنا هذه القصة بقول الشاعر الأندلسى المبدع « ابن حمديس » .

« سواى من يعتد من أنسه   ما نال من حظ ومن كأسه
وحق مثلى أن يرى خاليا   بنفسه يبحث عن نفسه »

***

وقد نسبت هذه القصة إلى الساحر المبدع « برنارد شو » ، كما نسبت إلى جحا من قبله . ولعلها من مختلقات الرواة ؛ فإذا صحت نسبتها إليه أيضاً فهى من توارد الخواطر ، وما أكثر ما تلتقى العقول الكبيرة كما التقت عقول جحا وبرنارد شو وابن خفاجة الأندلسى .

كامل كيلانى

الأدب فى سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٩ —



أشعاره فى هورتون :

وكانت قصيدة ملتن الثالثة فى هورتون هى الغنائية المسرحية أركادس ، وهى فى الواقع نبذة من غنائية مسرحية فهى لا تعدو مائتى سطر ، ويمكن أن نعدها قصيدة مدح لولا هذه الصورة المسرحية التى وضعها فيها الشاعر .

نظم ملتن هذه الغنائية الصغيرة سنة ١٦٣٣ تكريما لسيدة عظيمة علت بها السن هى كونتس سلسبرى ؛ وقد مثلها بين يديها أحفادها وهم أبناء إيرل بردجووتر وابنته ؛ ووضع ألحانها رجل من أشهر ملحنى العصر جميعا هو لو وكان صديقا حميما لملتن ، ما ذهب ملتن إلى لندن مرة إلا قضى عنده ساعات يستمتع بموسيقاه ، وكان ملتن يقدره حق قدره ويعجب بألحانه إعجابه هو بشعر صديقه الشاعر . وتبدأ المسرحية بأغنية صغيرة مدح الكونتس يتقدم بها منشدون بين يديها أحفادها من بنين وبنات فى ملابس ريفية ، ويبلغ ملتن فى هذه الأغنية أعلى درجات الإجادة والإمتاع؛ فثمة ألفاظ حلوة ولحن بديع ومعان جليلة تكافئ مقام السيدة التى يمتدحها . وبينما يتقدم المنشدون والمنشدات بين يدى السيدة يظهر جنى الغابة فيتجه نحوهم ويوجه إليهم الحديث ممتدحا السيدة فى شعر من النسق العالى بالغ الروعة والسحر ؛ ويختم الجنى حديثه بأغنيتين إحداهما موجهة إليهم ، والأخرى موجهة للقرويين والرعاة جميعا ، وفيهما يثنى الجنى على السيدة ويتغنى بمجدها وأنعمها .

***

وفى سنة ١٦٣٤ نظم ملتن قصيدته الرابعة فى هورتون فقد طلب لو إلى صديقه الشاعر نظم غنائية مسرحية أخرى لتكريم إيرل بردجووتر بمناسبة ولايته المنصب الرفيع الذى كان قد رقى إليه منذ ثلاث سنوات وهو منصب الرئيس اللورد لمجلس مقاطعة ويلز وذهابه ليقيم فى قلعة لادلو . ولقد أقيمت الحفلات للورد فى جهات كثيرة وبالغ عشيرته وأصدقاؤه فى تكريمه ، ومن هؤلاء لو الملحن النابغة ، وكان لو أستاذ الموسيقى لابنى اللورد وابنته ، ولم يقتصر على تلحين الأغانى فى هذه الغنائية المسرحية ، بل اشترك كذلك فى تمثيلها ...

وكانت أليس ابنة اللورد وهى فتاة ناهد فى نحو الخامسة عشرة من عمرها ، وأخواها وهما دونها فى العمر أهم الشخصيات فى تمثيل هذه الغنائية .

تخيل الشاعر سيدة تاهت فى مسالك الغابة وأحراجها وهى فى طريقها وأخويها إلى قلعة أبيها ، وظلت تبحث عبثا عن أخويها وظلا يبحثان عنها فى غير جدوى ، وتمثل لها كومس الجنى الشهوانى الساحر فى زى أحد القرويين ، وتظاهر أنه يهديها السبيل ، ثم إذا هو غوى مبين أخذ يحتال عليها ويراودها عن نفسها فاستعصمت ، ولكنه دأب فى غوايته حتى حضر أخواها فتغلبا على كومس وقبيله إلا أنهما ألفيا أختهما لا تستطيع التحرك بما صنع بها سحر كومس فأخذتهما الحيرة ، ولم يخرجها من ورطتها إلا سابرينا إحدى العذارى الخرافية التى أبطلت سحر كومس وهى من خلق ملتن ؛ وتنطلق الفتاة وأخواها بعد ذلك

إلى القلعة ، وكان يحمى الفتاة ويعصمها من الزلل من البداية حتى النهاية من عالم الأرواح روح ساهر عليها يتنكر فى زى أحد الرعاة ، وكان لهذا الروح فضل عظيم فى القضاء على كومسى ، وبعد انتصاره انطلق إلى عالمه الذى هبط منه .

هذا هو موضوع الغنائية ، ولقد تأثر ملتن فى بناء هذا الموضوع على هذه الصورة بما قر فى خاطره من قراءاته المتنوعة الواسعة ، فالشبه عظيم بين غنائيته فى بنائها وبين « قصة الزوجات العجائز » لبيل ، وملخص هذه القصة أن سيدة حملت من تسالى إلى برتن بسحر ساحر لعين يسمى ساكربنت تعلم من أمه ميرو وهى ساحرة شهيرة كيف يغير صور الناس ، وتبقى السيدة فى برتين مسحورة عن نفسها تنسى ذاتها كما تنسى أصدقاءها ، ويبحث عنها إخوتها فيرد عليهم صدى يتبعونه حتى يقعوا فى يد ساكربنت فيسحرهم ويسخرهم فى أداء أعمال حقيرة . وينجى السيدة حبيبها بعد ذلك وقد اطلع على سر ساكربنت على يد عفريت رجل فقير كان قد صاحبه . ويموت الساحر ولكن تبقى السيدة مسحورة ولن يفك السحر عنها حتى يحطم وعاء زجاجى له بيد أنثى لا هى عذراء ولا زوجة ولا أرملة ، وينطفىء بتحطيمه ضوء كان يلقيه ، وبعد لأى توجد الأنثى المطلوبة فيحطم الوعاء وينطفىء الضوء ، وتنطلق السيدة المسحورة وغيرها من فرائس الساحر ...

وثمة شبه كذلك بين غنائية ملتن ومسرحية جون فلتشر « الراعية الوفية » وهى مسرحية ريفية كتبها صاحبها سنة ١٦١٠ وأعاد نشرها سنة ١٦٣٤ وهى السنة التى كتب فيها ملتن غنائيته . ومن هذه المسرحية أخذ ملتن فكرة انتصار العفة فى النهاية كما أخذ فكرة الروح الحارس الذى يحمى العذراء . فى المسرحية سيدة كانت عفتها فى خطر لولا هذا الروح الحامى . وفى مسرحية فلتشر يبرز إله النهر فينجى العذراء كما تنجى سابرينا عذراء غنائية ملتن . ويستعمل فى كومسى نبات لشفاء الجروح كما يستعمل نبات غيره فى الراعية الوفية ، وفوق ذلك تنطوى غنائية ملتن على فقرات لها أشباه فى المعنى والفكرة فى مسرحية فلتشر .

أما شخصية كومسى الذى سميت باسمه الغنائية ، فهى من ابتكار ملتن فقد جعل لكومسى أبوين من الميثولوجيا ، فأما أبوه فهو باخوس إله الخمر ، وأما أمه فهى سيرس الساحرة التى كانت تحيل من يشرب سائلا لها إلى حيوان ، وعلى ذلك فقد جمع كومسى بين المرح والعربدة ورثهما عن أبيه ، وبين السحر ورثه عن أمه ، وامتاز كومسى عن أمه بأنه لا يحيل أشكال الناس إلى حيوانات فحسب ، ولكنه يغير عقولهم حسبما يشاء فيوحى إليهم ما فى نفسه من شهوة وفسوق .

وتمج غنائية ملتن بتلميحات مأخوذة كلها من ميثولوجيا الأغريق والرومان ، كما أن فيها ألفاظا وعبارات وصفات تشبه نظائرها فى شعر من سبقه من شعراء قومه ، وعلى الأخص سبنسر وشكسبير .

أما فلسفة ملتن فى الغنائية ، فمشتقة من فلسفة أفلاطون وآرائه فى الفضيلة . وقد تعمق ملتن دراسة هذه الفلسفة وأحبها حباً شديداً ، إذ صادفت هوى فى نفسه ، وقد كانت نفسه حريصة على العفة كوسيلة إلى السمو الروحى والبيانى .

ولكن على الرغم من هذا كله نجد الغنائية فى جملتها وعليها طابع ملتن ، فهى ملتنية الروح واللفظ والأسلوب والموسيقى والفلسفة ، وفيها سمات عبقريته وشواهد قوته ، بحيث لا يمكن ردها إلا إليه كما ترد آثار فحول الشعراء إليهم بمجرد سماعها ، ولو لم يذكر أول الأمر أنها لهم ، فنى أماراتها وخصائصها وروحها ما يشير إليهم إشارة تغنى عن ذكر الإسم ، وتلك ميزة يختص بها هؤلاء الفحول ، فالشاعر منهم أصدق أصالة وأبرز فنا من أن يضيع فى غيره ، وتلك الميزة هى مقياس فحولته ، إذ لولاها لكان كغيره من سائر الناس ، ومن هؤلاء الفحول الأفذاذ « ملتن » صاحب هذه الغنائية يومئذ وصاحب الآية الكبرى يوم على الفردوس المفقود ...

مثلت أليس ابنة اللورد السيدة التى ضلت فى الغابة ، ومثل أخواها دور الأخوين ، أما اللحن (لو) فقد أخذ دور الروح الحارس ، ومثل أحد الشبان دور كومسى ، كما مثلت إحدى الفتيات دور سابرينا ، وهؤلاء هم أشخاص الغنائية جميعاً ، فهى كما ترى نوع من المسرحيات القليلة الحوادث والأشخاص تعنى بالموسيقى والشعر وتقوم فيها الأرواح والأشباح إلى جانب الناس .

تبدأ الغنائية بمنظر يمثل غابة وحشية ، ثم يظهر على المسرح

أو يهبط عليه الروح الحارس ، فيتكلم فى شعر رقيق بليغ عن موطنه ورهطه فى عالم السماوات ، ويشير إلى دنيا الناس وما فيها من آثام بقوله : «هذه البقعة المظلمة التى يسميها الناس الأرض» وينعى على الناس حياتهم المضطربة وغفلتهم عما تهيئه لهم الفضيلة بعد ارتحالهم من عالم الفناء ، ولكنه يغتبط بأن بين الناس قلة يطمحون إلى وضع أيديهم على ذلك المفتاح الذهبى الذى يفتح لهم قصر الخلود ؛ ولهذه القلة مهبطه ومن أجلها رسالته ، ثم يشير إلى اللورد بأنه من أنصاف الآلهة الذين يحكمون فى الجزر مستمدين سلطانهم من نبتيون إله الماء ، ويمتدح خصاله ويتحدث عن ابنيه وبنته وعن مسيرهم فى الغابة ، وأنه أرسل من قبل جوف كبير الآلهة ليحميهم فى ظلمات الغابة ، ومم يحميهم ؟ هكذا يتساءل ليسترعى الأسماع ، ثم يقول : إنه سوف يقص ما لم يرد مثله فى شعر ولا فى قصص ، فى كوخ كان ذلك أو فى قصر . ثم يذكر فى إثر ذلك كومس ومولده وما ورثه عن أبيه وعن أمه ، وما هو فى مقدوره من السحر ، فيصور للأذهان صورة عجيبة حقاً ، ويشوقها إلى ما عسى أن يقع على يد كومس ، ولكن جوف يكف شره عمن يرعاهم من الناس ، ولذلك أرسل هذا الروح فى مثل لمحة النجم ليحمى هؤلاء الدلجين ، فليتنكر فى زى شخص يعرفونه ، وليكن هذا الشخص هو أستاذ الموسيقى ، وهنا يثنى الروح أعظم الثناء على فنه ووفائه ؛ ثم يرهف سمعه ويقول : إنه يسمع خطوات بغيضة تقترب ، فعليه أن يختفى ؛ وبهذه الوسيلة يعبر ملتن عما يريد أن يقول عن اللورد وعن صديقه الموسيقى على لسان ذلك الروح فى فيض من الشعر المرسل الرصين الرائع الذى يملك الأنفس عذوبة جرس وحلاوة معنى ، والخيال الساحر البارع الذى يذهل السامعين عن أنفسهم وعن عالمهم برهة .

ويظهر كومس فى المنظر الثانى وفى إحدى يديه عصاه السحرية وفى الأخرى زجاجته ، وفى إثره يمشى قبيله تمثل رؤوسهم أنماطاً من الوحوش ، ولكن أجسامهم آدمية ، ومنهم الذكور ومنهم الأناث ، ويلبسون جميعاً ملابس براقة ، ويقبلون فى زياط وجلبة يتواثبون ويتراقصون وفى أيديهم المشاعل ، وتسكن ضوضاؤهم بعد برهة ، ويتكلم كومس وقد سكتوا ، فيصف مولد الليل ، ويجرى الشاعر على لسانه وصفاً رائعاً لمغرب الشمس فى شعر مقفى جميل اللحن ، فالنجم الذى يوحى إلى الرعاة موعد العودة بقطعانهم يتخذ سمته فى السماء ، ومحفة النهار الذهبية تبرد فى ماء الأطلنطى ، والشمس على الأفق الغربى تطلق آخر شعاع لها صوب القبة قد تغشاها الظَّفَلْ ، ثم تهبط متخذة طريقها إلى غرفتها الشرقية فى الجهة الأخرى ...

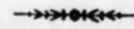
ويدعو كومس قبيله بعد هذا الوصف إلى اللعب واللهو تحت أستار الظلام ، ويصف ما عسى أن يجرى فى الليل من صور المرح ، ويشير إلى الناس وكيف يغطون فى نومهم ومعهم مواعظهم ونظراتهم وحكمهم فهم من الطين ؛ ولكن كومس وقبيله من النار فهم لذلك أكثر خفة وانطلاقا ، والليل كفيل أن يغطى لهوهم ولعبهم ، ومادام الصباح الذى يكشف نوره العيوب لا يزال بعيداً ، فهلم إلى اللهو والزياط والمجون ؛ ويدعو كومس أتباعه أن يمسك كل منهم بيد صاحبه ثم ليضربوا الأرض بأقدامهم راقصين ... ويأخذ هؤلاء فى رقصهم لاهين عابثين ، ولكن كومس لا يلبث أن يدعوهم إلى السكون ثم الاختفاء فانه يسمع أقداما قريبة وينبئه سحره أنها عذراء ضلت فى متاهات الغابة ، ويتحدث فرحا عما يعده لها من السحر ويصف كيف يحتال عليها وكيف يتنكر لها فى زى فلاح تأخر به سعيه من أجل عيشه عن العودة إلى كنه حتى هذه الساعة ، ثم يعلن إلى قبيله أنه سوف يسمع ماذا تقول العذراء .

وتتقدم السيدة فتظهر على المسرح ، وتحدث نفسها قائلة إنها سمعت لتوها جلبة وأصوات مرح وغناء ومزمارا كزامير الرعاة والفلاحين ، وتقول إنها توجس خيفة من عبث هؤلاء وتوقحهم ، ولكن ماذا عساها تصنع ، وإلى أى طريق فى متاهات الغابة تلوى وجهها عما تحذر ؛ وتذكر أخويها قائلة بأنهما تركاها لتستريح وقد بلغ بها الجهد وذهبا ليحضرا لها شيئاً يمسك صلبها من ثمار الغابة وماتظن أنهما قد ضلا ، وقد سرقهما الظلام منها . ثم تلتفت حولها وتقول إنها تظن أن هذا هو المكان الذى كان ينبعث منه الغناء والمرح ، ولكنها لا تجد إلا الظلام وحده ، وتهجس فى نفسها المخاوف فكأنها تسمع أصوات رجال يناودنها وترى أشباحا تهتف بها وتتخيل ألسنة هوائية تنطلق بأسماء رجال ، وهذه أشياء كفيلة بأن تلقى الخوف فى النفوس ولكنها لا تزعزع

فلسطينيات :

قصـــــة فتاة ...!

للأستاذ نجاتى صدقى



قيل لى إن فى الدار فتاة تحمل رسالة إلى ، وتود مقابلتى ... فتوجهت إليها ، فوجدت نفسى أمام فتاة فى العشرين من عمرها ، مكتنزة الجسم ، « مبتسمة » العينين ، وشعرها أسود كثيف ، ووجهها لايحمل المساحيق ، فهو بطبيعته ناصع البياض ، وخداها وردّيان يعلوها القليل من البُثر ، المعروف بين الناس بـ (حَبّ الصِّبا) ، وقد عصبت رأسها بمنديل حريرى ملوّن ، ولبست ثوبا قصيراً ، وكانت ساقاها عاريتين ، وتحتذى حذاء صيفياً .

دعوت الفتاة إلى غرفة ربة البيت ... وبعد أن تبادلنا التحية ناولتنى رسالة ففضضتها ، فكانت من صديق محام يقول فيها :

« أخى العزيز ...

... وحاملة هذه الرسالة هى الآنسة سلمى ليّان من مرجان الجليل ، وهى فتاة تحب الغناء ، وأعتقد أن لها صوتاً جيداً ، فهل لك أن تساعدها فى إبراز مواهبها ... ؟ خذ بيدها ، ولك عند الله الأجر والثواب » (...)

ودار بينى وبين الفتاة الحوار التالى :

— ألك أهل فى هذا البلد ؟

— كلا ... وهذا أول عهدى بالمدينة ... !

— وكيف تأتين بمفردك إلى مدينة ليس لك فيها أهل تلجئين إليهم ؟ ...

— سأعود اليوم إلى بلدى بعد أن آخذ ردك .

— غير أن ما تطمحين إليه لا يأتيك على وجه السرعة ، يجب أن تنتظرى بعض الوقت .

— سأنتظر إذا ما رأيت فى الأفق بارقة أمل ...

— وكيف تؤمنين معيشتك إلى أن تبلغى مأربك ؟ ...

— أقوم بأى عمل كان ... خادمة فى بيت ... أو ممرضة فى مستشفى .

— وأهلك ؟

وما يهمنى أهلى ! ... أريد أن أكون فنانة ... إن صوتاً يهمس فى أذنى دائماً : قومى أيتها الفتاة ، واطرقى أبواب الاستديوهات ، والاذاعات ، والفرق الموسيقية . إنك ستكونين مطربة كبيرة ، أو ممثلة بارعة ... مارمى الآن الفن فى هذا البلد الصغير ، ومتى بزغ نجمك فارحلى إلى مصر التى تقــدر المواهب والعبقريات ...

— وهل تحملين رسالة إلى أحد غيرى فى هذه المدينة ؟

— أجل أحمل رسالة إلى حميد افندى صَبّاره مدير ستوديو الزهرة للتمثيل السينمائى ...

— عجباً ... إننى أدرى بهذه المدينة ومؤسساتها الفنية ، ولكننى لم أسمع قط بأن فيها ستوديو للتمثيل السينمائى ! ...

— كيف لا ... وقد تلقيت من هذا الاستوديو لائحة التوظيف وطُلب منى تعبئتها ، ثم دُعيت للحضور إلى المدينة ، كى نشرع بالمفاوضة ... وإليك صورة من تلك اللائحة إن كنت تود الاطلاع عليها ...

عقلا يستمسك بالفضيلة ويمشى أينما اتجه فى حمى حارس قوىّ هو الضمير ، وتلوذ السيدة بالأيمان ذى العين البريئة وبالأمل ذى اليد البيضاء ، وبالعفة الملك ذى الجناحين الذهبيين الذى لا يقهر ، وتعوذ بهؤلاء أن يدرأوا الأذى عن حياتها وعن شرفها .

ثم تغنى العذراء أنشودة جميلة توجهها إلى إكو[1] تسألها عن أخويها قائلة « إيه يا إكو الحلوة يا أجمل عذراء ، أنت يا من تعيشين خافية فى قوقعتك الهوائية . يا من يطيب لك أغنية البلبل الحزينة يرفعها إليك متوجداً فى لياليه على ضفة ميندر[2] الخضراء وفى واديه الموشى بالبنفسج ؛ أيتها العذراء ألا تدليننى على اثنين جميلين أشبه ما يكونان بفتاك نرجس ؟ أو إذا كنت أخفيتهما فى كهف من كهوف الزهر فدليني عليهما يا ملكة الرَّجْع ويا ابنة قبة السماء ، ولئن فعلت لأدعون لك أن تبلغى السماوات فتكونى هناك الصدى الجميل الرشيق لكل ألحان الجنة » .

(يتبع) **الخفيف**

(١) إحدى عذارى الجبل فى الميثولوجيا الأغريقية أحبت شاباً جميلا اسمه نرجس أو قد ذابت توجداً عليه حتى لم تعد إلا صوتاً . ومن هـذا الاسم كلمة Echo الانجليزية ومعناها الصدى .

(٢) نهر فى آسيا الصغرى شهير بالتواءاته الكثيرة .

وقرأت فيها :

« حضرة الآنسة سلمى ليان المحترمة .

تحية وسلاما ،وبعد ، تلقينا كتابك الذى تطلبين فيه الانضمام إلى ستوديو الزهرة للتمثيل السينمائى ... ويسرنا أن نحيطك علماً بأن الهيئة الإدارية للستوديو نظرت فى طلبك ، ورأت قبل مفاوضتك أن تتلقى منك أجوبة على الأسئلة التالية : هل تحبين الرياضة ؟ ... أتركبين الخيل ؟ ... أتسوقين السيارة ؟ ... أتسبحين ؟ وأى نوع من الرقص تحسنين: الشرقى أم الغربى ؟ ... وهل أنت اجتماعية فى حياتك العامة ؟ ... أتعزفين على آلة ما ؟ ... أتحبين الغناء ؟ ... وإن كنت تغنين فهل صوتك من درجة سوبرانو أم آلتو ؟ ... وإلى أى ناحية من المطالعة تميلين ... الرواية — القصة — الشعر ؟ ...

نرجو إعادة هذه اللائحة بعد الإجابة على ما جاء فيها من أسئلة ، مرفقة بثلاث صور لك فى أوضاع مختلفة ، الأولى نصفية تتطلعين فيها بكامل وجهك ... والثانية تمثل جانب وجهك ... والثالثة تبين هيكلك بأجمعه ... ونأمل أن تأتى هذه الصور بعيدة عن التكلف ، ومشبعة بالروح الرياضية .

وتفضلى بقبول الخ ... إدارة ستوديو الزهرة للتمثيل السينمائى

ثم تابعت الفتاة حديثها قائلة : وذهبت فى ذلك اليوم إلى ستوديو الزهرة فوجدته غرفة صغيرة تحتوى على طاولة ، وتلفون وملفات ، وأربعة كراسى ، ومتكأ ، وصور لجميع ممثلى هوليود ، وكان حميد افندى منهمكا فى دراسة بعض الأوراق يدخن ويشرب القهوة ... ولما عرَّفته بنفسى ، ورأى أمارات الدهشة بادية على محياى اضطرب وقال : المعذرة أيتها الآنسة ، إننا نشغل هذه الغرفة مؤقتاً الآن إلى أن يتم بناء الستوديوهات ... نرجو ألا يزعجك ذلك ... فالفنانة يا آنستى لا تعير مثل هذه التوافه اهتماماً ... الأيام أمامنا ، وكل شىء مع الصبر جميل ... أتعرفين كيف بدأ ستوديو مصر عمله ؟ ... لقد كانت حالة مؤسسيه مثل حالتنا تماماً ، استأجروا فى بادىء الأمر غرفة فى شارع كلوت بك ، ثم نهضوا شيئاً فشيئاً إلى أن بلغوا درجة الكمال. تصورى أن الممثل السينمائى استهل حياته فى ستوديو مصر بعشرة جنيهات فى الشهر ، وهو يتقاضى اليوم خمسة عشر ألف جنيه لاشتراكه فى فيلم من الأفلام ... التضحية يا آنستى هى مفتاح النجاح والسعادة ...

هيَّا ضعى يدك فى أيدينا ، وقولى توكلت على الله . نحن عشاق فن مثلك ، ومبتدئون ، تشجعى واعملى معنا ... لا يحملى المال رائدك الآن . وثقى بأنه سيأتى عليك يوم تزفلين فيه بأثواب السعادة والهناء ، وسننشر صيتك فى كل أقطار العرب ، وسيصير لك معجبون ، وسترد لك الرسائل من كل حدب وصوب تحمل لك عبارات الثناء والإطراء ، والكل يطلب رسمك أو توقيعك ، وأنت لا تبخلين عليهم بذلك مطلقاً ... وإذا ما خرجت بسيارتك وقف الناس على جانبى الطريق يهتفون لك وأنت توزعين عليهم الابتسامات ذات اليمين وذات الشمال !

هيا يا فتاتى شمِّرى الردن عن ساعد الفن ! ... أما شروط الإتفاق فستكون مدار حديثنا هذا المساء على مائدة العشاء .

وتركت حمدى أفندى على أن أعود إليه ...

قلت لسلمى : أيتها الفتاة ، احذرى المدينة ، ولا تغرنك مظاهرها ، فهى أشبه بالمستنقع الذى تنمو على سطحه الحشائش الطرية الرقيقة ، وأزاهير الليْنوفر والأقحوان ، فيظنها الإنسان مرتعاً من مراتع أمنا الطبيعة ، فينطرح عليها طالباً متعة النفس وراحة الجسم ، فاذا بالأزاهير تغوص ، وبالحشائش تزول ، ويظهر مكانها حمأ أسود تنبعث منه رائحة المياه الآسنة ، وهيهات للانسان أن ينجو من براثنه ، فهو كلما حاول الافلات من الحمأ تشبث به وامتصه قليلا فقليلا حتى يختفى تماماً .

قالت الفتاة : إننى لا أفقه شيئاً مما تقول ، جئت المدينة لأكون ممثلة أو مطربة وأنت تحدثنى عن المستنقعات ! ... أتشك فى حسن صوتى . أأغنى لك (أيها الراقدون) أم (أضحى التنائى) !

قلت : ما هذا الذى تقولينه أيتها الفتاة ؟ ... نحن لم نعتد أن نرى فتياتنا يتركن بيوتهن ليطرقن دور الفن ، فالمطربة عندنا تكتشف صدفة أن صوتها جميل ... هلا أطلعتنى على حقيقة أمرك ؟ ... أفصحى القول ، واسردى علىَّ قصتك ...

ارتبكت سلمى ، وامتقع وجهها ، وطأطأت رأسها قليلا ، وروت لى مأساتها ، ومفاد هذه المأساة أن قلبها مال إلى شاب من شباب الحى لكن أهلها منعوها من الاتصال به ، وهددوها

نظرات فلسفية :

« الذات » . . . !

للأستاذ زكريا ابراهيم

أجل « الذات » ! صاحبة الجلالة « الذات » ! حولها تدور كل موضوعات الفلسفة ، ونحوها يتجه كل بحث إنسانى . هى المركز فى دائرة الوجود ، وهى المحور فى كرة الإنسان ! غفل عنها الفلاسفة حيناً ، ثم اهتدوا إليها ، فاهتدوا إلى نفوسهم ، ومنذ ذلك الحين أصبحت هى نقطة البدء ونقطة الانتهاء .

أىّ موضوع لم يتطرّقْ إليه شك المفكرين ، وأية حقيقة لم تَرْقَ إليها شُبهات الفلاسفة ؟ لقد امتدّوا بشكّهم إلى كل موضوع ، ونشروا شُبُهاتهم حول كل حقيقة ؛ أما «الذات» فقد بقيت دون متناول الشك ، وفوق كل شبهة ! أستغفر الله ، بل « ذاتى » هى وحدها التى لا سبيل لى إلى أن أشكّ فيها ، لأن بينى وبينك هوّة لا يمكن عبورها ! فكل منّا عالم مُغلق على ذاته ، وذاتك نفسها هى بالنسبة إلىّ « موضوع » كسائر الموضوعات الخارجية ! أما الوجود فلا علم لى به إلا عن طريق شعورى الخاص ؛ وهذا الشعور هو الحقيقة الوحيدة المباشرة التى يمكن أن تدركها « الذات » . فالذات هى كل شىء بالنسبة إلى صاحبها ، وكل حقيقة لا بدّ أن تكون موسومة بطابعها .

إننا لا نتلقى الحقائق التى نؤمن بها من الخارج ، بل نصنعها فى الأعماق الباطنة من نفوسنا . وكل حقيقة لا تنبثق من ثنايا النفس ، لا بد أن تكون زائفة مموّهة . فالحقيقة من شأنها دائما أن تكون « ذاتية » ؛ وحتى إذا لم تنبع الحقيقة من أبعد أغوار النفس ، فإنها لا بد أن تمرّ على « الرقيب » الذى يطبعها بالطابع الذاتى الخاص ! ولعلّ هذا هو المعنى الذى قصد إليه جيته حين قال : « إنّ ما ورثته عن آبائك وأجدادك ، لابدّ لك أن تحصّله بنفسك حتى يصبح مِلكا لك » . فالإنسان لا يفهم تماما إلا ما فكر فيه بنفسه ، وهو لا يؤمن إيمانا قوياً إلا بما هداه إليه عقله . أما ما قاله الآخرون ، أو ما رُوِىَ عن السابقين ،

بالضرب والقتل إن هى حاولت التحدث إليه ، ودعوها مرة لتقدم القهوة إلى ضيوف أبيها ، وإذا بالضيوف أطباء جاءوا ليفحصوها ، ولما تبين لأهلها أنها عذراء زوجوها من ابن عمها الذى تكرهه ، وكان عاجزاً فى حياته الجنسية ، والتحق بالجيش بعد شهر من زواجه ، فأحبت الفتاة أن تنفصل عنه ، وقدّمت شكواها إلى المحكمة الكنسية ، فحولت هذه أوراق القضية إلى روما ، وانقضت ثلاث سنوات والفتاة تنتظر النتيجة ، فكانت مقيدة بزوج لا تشعر بكيانه ، وكان أهلها يدفعونها إلى الخدمة فى البيوت لتعول نفسها ، وكانوا يهينونها ، ويسمعونها لاذع الكلام ، فضاقت ذرعاً بهذه الحياة ، وعقدت النية على أن تفر إلى المدينة لتمتهن التمثيل علّها تأخذ فيه دور المآسى ! ... ولتحترف الغناء علّها تبث فيه ما فى نفسها من لوعة وألم ! ...

استمعتُ إلى مأساة سلمى ، ثم أقنعتها بضرورة العودة إلى ذويها ... وبعد مضى سنة علمت أنها فرّت ثانية من بيت أبيها ، وأحبت شابا مسلما وسألته أن يتزوجها .

فقال لها — لكننى أريدا أن تمتنق الدين الإسلامى ؟

قالت — أسلمت ! ...

قال — ولا أريدك أن تكونى سافرة .

قالت — سأتشح بالسواد من أجلك ...

قال — ولا أريدك أن تخرجى من البيت .

قالت — لن أخرج من البيت إلا إلى مثواى الأخير ! ...

وأعلنت إسلامها فى الجريدة الرسمية ، وانزوت فى بيتها الجديد ... فقد مثّلت دورها ... وغنّت أغنيتها ، ولا ينغص عليها حياتها إلا أهلها الأولون الذين يحاولون عبثاً الوصول إليها فجاءها شقيقها مرة كبائع زيت ... وجاءها عمها كبائع أقمشة متجول ... وجاءتها شقيقتها كبائعة زهور ... وآخر من جاءها أبوها فكان يقرع باب الدار قرعا عنيفاً ويصرخ قائلا : سلمى سلمى ... أبشرى يا ابنتى ... أبشرى ... لقد جاءك الطلاق من روما ! ...

نجاتى صدقى

فهذا ما لا يمكن أن يفهمه المرء جيداً ، إلا إذا دلّته عليه نفسه ، وأثبته له عقله . فكل حقيقة مهما كان من انتشارها وسيادتها ، لا بد أن تهبط إلى الأغوار السحيقة التى تُصنع فيها الحقائق ، حتى تتلقى من « الذات » اعترافا بصحتها ، وإقراراً بصدقها . ولهذا فان كل إيمان لا بد أن يكون « فردياً » حتى يكون إيماناً حقيقياً ...

ولكن ، هل جاءت قيمة « الذات » من أنها صانعة « الحقيقة » فحسب ؟ كلا ، بل هى أيضاً خالقة « الشخصية » . ففى أبعد أغوار الذات ، تكمن قوى الفرد التى تحدّد شخصيته وتعيّن سلوكه فى الحياة . وهذه القوى الكامنة التى لا تظهر بوضوح فى «الطبقة السطحية» من الذات ، بل تنتشر فى المسارب الخفيّة منها ، مكوّنة وجودها الفرديّ الخاص بمعناه الحقيقى .

وكثيراً ما تكون هذه القوى الكامنة التى تكوّن جوهر الذات مجهولة لدينا ، فتجىء أفعالنا مفاجئة للآخرين . وقد نزعم أن إمكانياتنا قد استُوعبت واستُهلكت ، فاذا بنا نجد أن من الممكن أن ينبثق من أعماق نفوسنا شىء جديد . ولهذا فإن من الخطأ البالغ أن نحكم على نفوسنا بأنها ليست أهلا لهذا العمل أو ذاك ، لأن التجربة كثيراً ما تظهرنا على أن فى استطاعتنا أن نعمل ما كنا نعتقد أن ليس لنا عليه يدان !

وليست الحياة الفردية سوى تحقيق مستمر لكل القيم المتضمّنة على شكل قوى أو إمكانيّات فى ثنايا الذات . وتحويل القوة إلى فعل هو جوهر الحياة الإنسانية ومعناها الأوحد . وهذا التوتر الذى يوجد بين ما حُقّق ، وما لا بد أن يُحقّق ، هو القوة المحرّكة الأولى فى الحياة الإنسانية . فإذا حقق إنسان كل ما لديه من قوى مدخرة ، وإمكانيات كامنة فى أعماق نفسه بحيث لم تعد لديه قوة جديدة يمكن أن يحققها ، فلا بدّ أن تصل حياته إلى نهايتها ؛ لأن ذاته أقفرت ، وإقفار الذات معناه الموت .

ولكن ما دام المرء حياً ، فلن يكون فى وسع أحد أن يقول عنه ، ولن يكون فى وسعه هو أن يقول عن نفسه ، إنّ شيئاً جديداً لا يمكن أن يُنتظر منه ! فطالما كانت الذات حيّة خصبة ، كان لا بد لها أن تُزهر ! وقد تعرض للذات أحداث بسيطة ، فتكون مدعاة لظهور أمور جديدة ، أو إيقاظ أفكار كامنة ، أو تولد معان لم تكن منتظرة !

أجل ! إنها الذات ؛ والذات عالم يعجّ بالأفكار والمعانى ؛ ومن أعماق هذا العالم الصاخب تنبثق الأفكار العظيمة ، والمعانى الجليلة ! فهل من حرج على الفلاسفة إذا لخصوا رسالتهم فى عبارة موجزة ، فقالوا على لسان شيخهم سقراط : « أيها الإنسان : اعرف نفسك » ! ؟

إن « الذات » هى الحقيقة الأولى والأخيرة ، فليس بدعاً أن تؤكد الذات نفسها بكل قوة على لسان شوبنهور قائلة : « إن العالم من تصوّرى » وهل يقوم للعالم الخارجى وجود بدون الذات المفكرة ، التى تخلع عليه معنى من محندها ؟. إنها الذات وكفى !

زكريا إبراهيم
(مصر الجديدة)
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

طنجة والنظام الدولي

ضرورة تقريرو حدة مراكش واستقلالها في المؤتمر الدولي القادم

للأديب عبد المجيد بن جلون

تقع مدينة طنجة عند المدخل الغربي للبحر الأبيض المتوسط وهي مدينة جميلة خضعت لمؤثرات غريبة وحكم عليها موقعها الجغرافي بأن تنفرد عن أمها مراكش بالنظام الدولي .

ولسنا نريد أن نتحدث هنا عن النظم المطبقة فيها بقدر ما نريد أن نلفت النظر إلى ما لهذا النظام من أثر سيء في حياة المراكشيين الذين يقطنونها .

وأول ما يلاحظ هو أن المدينة أصبحت وكراً من أوكار الجاسوسية في العالم ، ففيها تلتقي أجناس مختلفة لا حصر لها ، تفد إليها من الشرق والغرب ، وبذلك تلتقي فيها الأخبار ويسهل إذاعتها والتقاطها ، ولكل من الشيوعية والفاشية والديمقراطية فيها عيون ساهرة أو أفواه ناطقة . وقد كان لوجود هذا المزيج البشري الغريب تأثير عميق على أحوال المدينة العامة ، فانتشرت المراقص والحانات وأمكنة المقامرة ونقل إليها هؤلاء الوافدون عليها — وهم من طبقات منحطة في الغالب — كل ما يوجد في العالم من موبقات .

ثم إن هؤلاء الوافدين عليها قد تجاهلوا أن هناك غيرهم في المدينة مع أن عدد المراكشيين ينيف على مئة ألف يشتط الأجانب في اغتصاب حقوقهم من الإدارة الدولية ، ولما كانت هذه الإدارة تتأثر بعوامل مغرضة ، ولما كان الفرنسيون والأسبانيون يخشون من أن يستفيد المراكشيون من الأنظمة الحرة التي يعمل الأجانب على استصدارها ، فقد استطاعوا أن يصلوا إلى غاياتهم بالتفريق بين التشريعات الخاصة بالأجانب والتشريعات الخاصة بالوطنيين ؛ وبذلك صدرت قوانين استثنائية لحق الأهالي منها ضرر بليغ .

صحيح أن جلالة ملك مراكش الممثل بواسطة مندوب هو السلطة التشريعية العليا للمدينة ، وأن كل ما يخصها يصدر بمراسيم ملكية ، ولكن كل هذا من الناحية الشكلية فقط ، أما الحقيقة الواقعة فهي أن حق الاعتراض الذي يتمتع به أعضاء مجلسها قد أفقد المراكشيين كل سلطان ؛ وبينما يدفع الأهالي الوطنيون ٩٠ ٪ من ضرائب المدينة ، إذا بالأجانب يتمتعون بالمدارس الخاصة والقوانين الاستثنائية والامتيازات المجحفة ، أي إن الأجانب يعيشون فيها على حساب المراكشيين .

ولما كانت لبعض الدول الممثلة في المجلس أغراض معينة تعمل على تحقيقها ، ولما كانت هذه الأغراض المعينة تتضارب في بعض الأحيان ، ولما كان النفوذ يتنقل بالدور بين الأعضاء تحت الرياسة الإسمية لمندوب جلالة الملك — فقد تعرضت المدينة ونظامها للخلل بسبب كثرة الإبرام والنقض وفوضى الأهواء والنزعات .

ثم بعد ذلك نجد أن المدينة كانت تتمتع قبل النظام الدولي بنهضة ثقافية واجتماعية قد تعرضت في حياتها للشلل بسبب استفحال أمر الأجانب فيها ؛ وهكذا تعطلت فيها مشروعات الإصلاح كما تعطلت فيها الصحف العربية وهي التي كانت يوما ما المهد الذي نشأت فيه الصحافة العربية المراكشية ، ويكفي أن نقول لكي نبرهن على مبلغ الضرر الذي ألحقه الأجانب بها ، أنه لم تصدر فيها صحيفة واحدة باللغة العربية منذ نشأ النظام الدولي فيها ، وأن الصحف تصدر فيها بعدة لغات أخرى ، ذلك أنه يوجد في القانون الذي صدر سنة ١٩٢٣ بند خطير يمنع الأهالي من القيام بأي نشاط سياسي مهما كان طابعه مراكشياً ، وهذا البند ينص على منعهم من مطالبة فرنسا وأسبانيا بإصلاح الموقف في مراكش تحت ستار « منع الدعاية للقضية المراكشية » أو « عدم القيام بأي نشاط ضد نظام الحماية في منطقتي مراكش الخاضعتين للحماية الفرنسية والأسبانية » .

* * *

ولعل الأجانب قد أدركوا مساوىء هذا النظام ، ولذلك قرروا إعادة النظر فيه بواسطة عقد مؤتمر في خلال الشهور القليلة القادمة ، وأملنا هو أن يدركوا هذه الحقائق التي سردناها ، فيعيدوا إلى مندوب جلالة الملك سلطته الحقيقية ، ويفكوا عن مئة ألف من المراكشيين القيود الثقيلة التي فرضها عليهم نظام

سنة ١٩٢٣ بحيث تكون الأغلبية الساحقة من المراكشيين بنسبة ١٠ إلى ١٠٠ بحجة أنهم يؤلفون هذه النسبة الضخمة . ونحن نعرف أن المؤتمر سوف يتألف من أعضاء دول الجزيرة كما نعرف أن مراكش إحدى هذه الدول ، ولذلك يجب ألا تمثل فيه فحسب ، بل يجب أن يكون صوتها مسموعا وأن يكون هذا الصوت صادراً عن الشعب المراكشي ذاته .

ونحن متأكدون من أن أي نظام دولي مهما كان لونه لن يحقق مصالح هذه المدينة ولا مصالح القطر كله ، ولذلك يجب أن ينظر المؤتمر في مسألة مراكش كلها لا في مسألة طنجة وحدها ، على اعتبار أن المدينة غير منفصلة عن أمها الكبرى ، فلأجل بحث مسألة طنجة يجب البحث في مسألة مراكش كما يرجع الباحث في الفروع إلى الأصول .

إن الداء الوبيل الذي لن يستقر معه نظام في أي شبر من الأقاليم المراكشية هو نظام الحماية ، نظام التقسيم والتبديد والفوضى ، ذلك أن الأساس الذي يقوم عليه نظام الحماية في مراكش أساس فاشل ، وهو أساس يعبر عن قصر في النظر شنيع ، وهذا الأساس هو تقسيم مراكش إلى عدة مناطق . فلو فرضنا أن الأخاء والحرية والمساواة والعدالة تحققت — ولو في الخيال — في كل منطقة من هذه المناطق ، فان ذلك لن يغني فتيلا في إرضاء المراكشي ، لأنه ممنوع من أن يمد يده لمصافحة أخيه ، ولأنه قد انتزع انتزاعا من أمه مراكش .

وإذن فليس هناك حل لهذه المشكلة المراكشية سوى إلغاء الحماية ، وإلغاء التقسيم ، وتقرير مبدأ جديد هو مبدأ الوحدة المراكشية ، ولا سبيل إلى تحقيق هذه الوحدة — من وجهة النظر العملية — إلا بالغاء الحماية وتقرير مبدأ الاستقلال ، ثم بعد ذلك يجتمع دول معاهدة الجزيرة الخضراء - ومنها مراكش - لتنظر في نظام جديد يحفظ كرامة المراكشيين ومصالح الأجانب في وقت واحد .

مبدأ الحماية والتقسيم مبدأ جائر تحمل المراكشيون بسببهما أفظع التضحيات ، ومبدأ الاستقلال والوحدة هو المبدأ الذي يجب أن يقوم عليه كل بحث يتعرض لأي جزء من أجزاء مراكش؛ وكل حل غير هذا بعيد عن أن يثبت الأمن والنظام ، أو يضمن الديمقراطية لشعب حارب في سبيل الديمقراطية عشر سنوات كاملة في حربين عالميتين !

الديمقراطية ! إنها النظام الذي ساهم المراكشيون في تدعيمه بأعز ما يملكون من دماء ، ومع ذلك ما يزالون إلى اليوم محرومين من التمتع بأبسط مزاياها .

عبد المجيد بن جلون

وادى الخلود . . .

[مهداة إلى وفد الجنوب]

للأستاذ سيد قطب

على ضِفاف الخلودْ ... وفى شِعاب الزمنْ
والدهرُ طفلٌ وليد ... قد كان هذا الوطن

يا فجرُ من ذا رآك ... تطوف تلك السماء
وليس حىٌّ سواك ... تُهدى إليه الضياء ؟

رأتك تلك الضِّفاف ... رأتك تلك الدُّهور
رأتك قبل المطاف ... وأنت طفلٌ غرير

وشبتَ والدهر شابْ ... وحنَّكتْكَ الحياه
والنيلُ بادى الشباب ... والزهرُ يقفو خطاه

ينساب مثل النغم ... فى عزف ناىٍ طروب
وكانسياب الحُلم ... تُضفِى عليه الغيوب

خريرُه صلواتْ ... مُعطَّراتُ النشيدْ
وموجُه أغنياتْ ... مرتِّلات القصيد

يا نيلُ كم من شِراع ... يا نيلُ كم من سفين
أسلمْتَها للوداع ... على مدارِ السنين !

يا نيلُ كم من جُموع ... ماجتْ بتلك الضفاف
يا نيلُ كم من زروع ... وذى وذى للقطاف !

وأنت صِنو الخلودْ ... وفى يديك الزِّمامْ
وكل عامٍ تعود ... مجدِّدَ الأيام

تجرى فتجرى الحياه ... ويُمرِع الشاطئانْ
ويستفيق الرُّعاه ... وتمرحُ القطعان

وينشط الزرزور ... فيجمعُ العيدان
وعشُّه معمور ... بفرخه الوسنان

أكاد خلفَ القرون ... أحسُّ رِكزَ الجموع
أراهمُ مُهطِعين ... فى موكب للربيع

قد شمَّروا للحصاد ... وخلَّفوا « أمشير »
فى فرحة الأولاد ... تسابقوا للبُكور

وموكب للرَّوَّاح ... فى كل يوم يَؤوبْ
يزفُّه الفلَّاح ... على مدار الغُروب

من الحقول المريعه ... إلى الحِمَى والديار
تضمُّ فيه الطبيعه ... عيالها الأبرار !

لُحونُه من صياح ... ومن رُغاء النَّعَمْ
ومن رجيع النُّباح ... ومن ثُغاء الغَنَم

على مدار القرون ... يسيرُ فيه الرُّعاه
كأنهم خالدون ... ما بُدِّلوا فى الحياه !

أحبُّ فيك الخلودْ ... يا أيها الوادى
أحب فيك الصمود ... للقاهر العادى

تصبُّ فيك الوفود ... وأنت يقظانُ ساهر
تصوغهم من جديد ... كأنما أنت ساحر !

يا مهبط الأسرار ... من الغيوب العميقة
يا موطن الأسحار ... من القرون السحيقة

يأوى إليك الزمان ... خوف البِلى والفناء
يأوى لحصن الأمان ... فيستمد البقاء !

ووجهُكَ الفتان ... بلونه الأسمر
يا طالما يزدان ... بزرعك الأخضر !

ترنو له عيناى ... فى فتنة العاشق !
يا أرض يا دنياى ... يا آية الخالق

يا أرض كم تحلمين ... بالزهر أحلام شاعر
رؤاك طولَ السنين ... يا أرض تلك الأزاهر

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧١٣ — إن ذا من العجب

أمر بالكرم إن عبرت به تأخذني نشوة من الطرب
أسكر بالأمس إن عزمت على الشرب غداً إن ذا من العجب

٧١٤ — ولكن أعلل قلباً عليلا

جحظة :

إذا ما ظمئت إلى ريقها جعلت المدامة منه بديلا
وأين المدامة من ريقها ولكن أعلل قلباً عليلا

٧١٥ — على ما يقال

قال شيخ الإسلام ابن دقيق العيد :

وأطيب شيء إذا ذقته رضاب الحبيب على ما يقال

٧١٦ — أبو نواس الناسك

من مجون أبي نؤاس أن الأمير لما نهاه عن الخمر وحبسه، فكلمه فيه الفضل بن الربيع وأخرجه كتب إليه :

أنت يابن الربيع علمتني الخيـ ـر وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلي وراجعني الحلـ ـم فأحدثت عفة وزهاده
لو تراني ذكرت بي الحسن البصـ ـرى في حال نسكه أو قتاده
التسابيح في ذراعيّ والمصـ ـحف في لبتي مكان القلاده
فإذا شئت أن ترى طرفة تعـ ـجب منها مليحة مستفاده
فادع بي لا عدمت تقويم مثلي فتأمل بعينك السجاده
لو رآها بعض المرائين يوماً لاشتراها يعدها للشهاده
أثر لاح للصلاة بوجهي توقن النفس أنه من عباده
ولقد طالما شقيت ولكن أدركتني على يديك السعاده

٧١٧ — يعبد الله على حرف

قال أبو عمرو الزاهد : دلك بعض الزهاد المرائين جبهته بثوم وعصبها ونام ليصبح بها أثر السجود، فانحرفت العصابة إلى صدغه، فأخذ الأثر هناك.

فقال له ابنه : ما هذا يا أبت ؟

قال : أصبح أبوك ممن يعبد الله على حرف .

٧١٨ — وبيانها سحر مقلتها

وصف أحمد بن أبي خالد جارية كاتبة فقال : كان خطها أشكال صورتها، ومدادها سواد شعرها، وقرطاسها أديم وجهها، وقلمها بعض أناملها، وبيانها سحر مقلتها .

٧١٩ — بنفسي المصيبة

قال المبرد : لما توفيت والدة إسمعيل بن إسحق القاضي ركبت إليه أعزيه وأتوجع له، فألفيت عنده الجلة من بني هاشم والفقهاء

وريحك المعروف يشَمُّه أنفي
في خاطري مألوف مميَّزُ العَرف

يا أرض هذا الصعيد مقدس في ضميري
سرى عليه الجدود وأخلدوا للقبور

يكاد فرط الحنين إليهمُ في شعوري
يردُّهم شاخصين إليَّ خلف الدهور !

يا أرضُ سرٌّ دفين مغيَّبٌ في ثراك
يردّنا مُوثَقين إليكِ أسرَى هواك

هذا الثرى المنثور في صفحة الوادي
عرفتُه في الضمير رفاتَ أجدادي !

يا أرضُ هذا النشيد من وحيك العبقريّ
فنوِّليه الخلود بسرِّك القدسيّ

والعدول ومستورى مدينة السلام ، ورأيت من ولهه ما أبداه ولم يقدر على ستره ، وكل يعزيه وقد كاد لا يسلو ، فلما رأيت ذلك منه ابتدأت بعد التسليم فأنشدته :

لعمرى لئن غال ريب الزما   ن فينا لقد غال نفسا حبيبه
ولكن علمى بما فى الثوا   ب عند المصيبة ينسى المصيبه

فتفهم كلامى واستحسنه ، ودعا بدواة وكتبه ورأيته بعد قد انبسط وجهه ، وزال عنه ما كان فيه من تلك الكآبة ، وشدة الجزع .

٧٢٠ — أنت الفداء لمن ابتدأ هذا فأحسن

قال عون بن محمد الكندى : كنا مع مخلد الموصلى فى مجلس وكان معنا عبد الله بن ربيعة الرقى ، فأنشد مخلد قصيدته التى يقول فيها :

كل شىء أقوى عليه ولكن   ليس لى بالفراق منك يدان

فجعل [1] يستحسنه ويردده ، فقال له عبد الله : أنت الفداء لمن ابتدأ هذا المعنى فأحسن فيه حيث يقول :

سلبتنى من السرور ثيابا   وكستنى من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا   فتحت لى إلى المنية بابا
عذبينى بكل شىء سوى الصد (م) فما ذقت كالصدود عذابا[2]

فضحك الموصلى ...

٧٢١ — خليا سبيل الصبا يخلص الى نسيمها

تزوج أبو الفرج بن الجوزى امرأة اسمها نسيم الصبا فأقام معها مدة ، ثم وقعت بينهما وحشة ففارقها فاشتد كلفه وزاد غرامه وراسلها فأبت عليه وطال بينهما الأمر . ثم حضرت مجلس وعظه يوما فلاحت منه نظرة فرآها وقد استترت بجاريتين ، فتنفس الصعداء وأنشد قول قيس بن الملوح (مجنون ليلى) :

أيا جبلى نعمان بالله خليا   سبيل الصبا يخلص إلى نسيمها

(١) أى مخلد، قائله .
(٢) العباس بن الأحنف .

أجد بردها أو تشف منى حزازة   على كبد لم يبق إلا صميمها

فاستحيت ثم ذهبت وقد داخلتها الرقة، فحكت لبعض النساء ذلك فمضت فأخبرته فراسلها فأجابت فتزوج بها .

٧٢٢ — الاقيشر والشرطى

فى (الأغانى) :

شرب المغيرة بن عبد الله الملقب بالأقيشر يوما فى بيت خمار فى الحيرة ، فجاء شرطى من شرط الأمير ليدخل عليه فغلق الباب دونه فناداه الشرطى : أسقنى نبيذا وأنت آمن .

فقال : والله ما آمنك . ولكن هذا ثقب فى الباب فاجلس عنده وأنا أسقيك منه . ثم وضع له أنبوبا من قصب فى الثقب ، وصب فيه نبيذا من داخل والشرطى يشرب من خارج الباب حتى سكر . فقال الأقيشر :

سأل الشرطى أن نسقيه   فسقيناه بأنبوب القصب
إنما نشرب من أموالنا   فسلوا الشرطى ما هذا الغضب

٧٢٣ — وقع بين موسى وفرعون شمرية

قال الاصمعى : سألت أعرابيا وقد خرج من الصلاة : ما قرأ الإمام ؟ قال : ما أدرى إلا أنه وقع بين موسى وفرعون شِمِرِّيَّة[1]

٧٢٤ — مصيبتان

كتب أحمد بن يوسف الكاتب لبعض إخوانه من الكتاب وقد ماتت له ببغا ، وقد كان له أخ يضعف :

أنت تبقى ونحن طرا فداكا   أحسن الله ذو الجلال عزاكا
فلقد جل خطب دهر أتانا   بمقادير أتلفت ببغاكا
عجبا للمنون كيف أتتها   وتخطت عبد الحميد أخاكا
كان عبد الحميد أصلح للمو   ت من الببغا وأولى بذاكا
شملتنا المصيبتان جميعا   فقدنا هذه ورؤية ذاكا

(١) شر خصومة شديدة ، فى الأساس : أجاءه الخوف إلى شر شمر أي خاف شرا فرده الخوف إلى شر منه ، وفى (اللسان والتاج): معنى شر شمر إذا كان شديدا يتشمر فيه عن الساعدين .

زوجتى . . . !

وفاء ورثاء

للدكتور أحمد زكى أبو شادى

سافر إلى نيويورك يوم الأحد الماضى الدكتور أحمد زكي أبو شادى ليقيم بها هو وأسرته ، وقد أرسل إلينا ليلة سفره هذه القصيدة ومعها كتاب يقول فيه :

« كان بودى أن أزورك مودعاً قبيل مبارحة وطنى الذى لم تسمح لى الظروف بخدمته كما أود ، ولكن أحوالى الخاصة لم تمكنى من مغادرة الأسكندرية لهذا القصد ، وسأبحر منها مع أولادى على الباخرة ڤلكانيا Vulcania يوم الأحد ١٤ أبريل وعلى فمى بيت المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون همو !

وكان بودى لو حملت رسالة توديعى طاقة باسمة لا هذه المرثية الحزينة لزوجتي ولكنها أغلى ما أملكه الآن وقد ارتسمت فيها ذكرياتى وعواطفى وأشجانى »

كتب الله للدكتور السلامة ، ومن عليه فى مهجره بطيب الاقامة .

ماذا تُفيدُكِ لوعتى وبكائى ؟ هذا فَناؤكِ مُؤْذِنٌ بفنائى !
أسديتِ عمركِ للحياة فاوفت ومضيتِ للأبرار والشُّهداء
لهفى عليكِ وقد أتيتُ مودِّعاً فبكيتُ فوق جبينكِ الوضاء
زاد الممات جماله وتناثرتْ منى الدموعُ عليكِ كالأنداء
كانت حُشاشتى المذابة حرقةً وبقيَّةَ المكنوز من نَعمائى
فترنحتْ بفجيعتى، وتضوَّعتْ بسريرتى ، وتلألأت بوفائى
ورَوَت مُحياً كان جنة نِعمتى وملاذ تفكيرى ووحى ذكائى
وطرحتِ آلام الحياة عزيزةً فبدوْتِ بين سماحةٍ وصفاء
وأُقبِّلُ الوجه الحبيب ، وطالما أودعتُ فيه صبابتى ورجائى
شملَ السلامُ هدوءه وتبدَّدت غِيرُ السنين، وزال بَرْحُ الداء
وأكادُ أنسى للممات خشوعه لما نسيتُ تجلدى ومضائى
كم كنتُ أُغْلقُ بالخيال توهماً وأرى الشفاء ولاتَ حين شفاء
ويغالطُ القدرَ العتىَّ تفاؤلى وأنا الخصيمُ لخِدْعة ورياء
آبَى اعترافاً بالممات ، كأننى لما بكيتُكِ قد أضِلُّ بُكائى
أو أن هذا الموت حق ثابت إلا على الأحبابِ والخلصاء
أو أن عيشى أن أراكِ بجانبى مهما هُزلتِ فلا يهدُّ بنانى

أعتاضُ باللمحات عن أغنيةٍ وعن الحديث العذب بالإيماء
وأعدُّ أنفاساً وهَبْتِ ،ذخيرتى وحفيفَ ألفاظٍ همسْتِ، رخائى
وأموِّهُ الألم الدفين وأتَّقى عِلماً به ، وأصدُّه بغبائى
وأكادُ أقسو فى مُجانبةٍ له أوَ ليس جسمكِ رمز كل نقاء ؟
متنزِّهاً عن كل ماشان الورى مترفعاً عن عِلةٍ وعناء
حتى صُدمتُ ، ولا كصدمةِ شاهق متحطمٍ بصخوره الصمَّاء
فجننتُ من حُزنى وعِفتُ حصانتى ودفنتُ كلَّ رجاحتى العمياء !

* * *

لهفى عليك زميلتى فى رحلتى وشريكتى فى الصفو والضراء
لم أرْض غيرى أن يسير مُشيِّعاً أو أن تُوزَّع حرقتى وعنائى
وكتمتُ نعيك، كم أضن بذكره وأحوطُه بنُهاى واستحيائى
لبَّيتُ رغبتك الزكيةَ دائماً ووعيتُها نبلاً ولطفَ حياء
وجعلت مأتمك الرهيبَ عواطفى وبخِلتُ بالتنويهِ والإفضاء
حتى تفجَّر بى الأنين مَلاحماً وجرى النظيمُ بأدمعى ودمائى
ما كنت أحسب أن يومك سابق أو أن أيامَ الحياةِ ورائى
كنا نُهيِّىء للرحيل متاعنا وننسِّقُ الآمالَ غيرَ بطاء
ونهيبُ بالدنيا لتشهدَ حظنا ونهشُّ للأيامِ والأنباء
ونردُّ عاديةَ الأنامِ تسامُحاً مستغفرَيْنِ لجاحدٍ ومرائى
متسابقين لنملأ الدنيا سَنًى بالحبِّ والإيثارِ والإيحاء
فاذا رحيلكِ للنوَى، ووداعنا للحظِّ ، والباقى الكليمُ ذَمائى
غدرت بى الدنيا ، كأنى لم أصُغْ فيها الثناء فما أفادَ ثنائى
ووهبتها ـ كرماً ـ عزيزَ مواهبى فجنتْ علىَّ شهامتى وعطائى
اليومَ أدركُ أىَّ عبءٍ فادحٍ عنى رفعتِ وما مدَى أعبائى
كم كنت أحلم بالهناءةِ والرِّضى لك فى نهاية عُمركِ المتنائى
فأودُّ من قلبى بقاءكِ بعد ما أفنَى وأحسبُ فى هواكِ بقائى
وأعدُّ عمركِ وحده عمرى وما أرضَى سِواكِ من الحياة جزائى
فتناثرَ الحلمُ الجميلُ وأقفرَتْ دنيایَ من حُلمٍ ومن أضواء
وبقيتُ وحدى لاعزاء أرومُه والذكرياتُ تزيدُ من بُرحائى
يا طالما ناجيتها فى نشوتى واليوم قد أصبحْنَ من أعدائى
ما نِعمتى فيها ؟ وأنتِ هى التى جعلتِ بصُحبتها الأسى نعمائى

يامن فُتِنتِ بكل ما هو رائعٌ ... وخلقتِ ألوانَ الجمالِ ازائى
ورسمتِ لى دنيا مُنوَّعة الشذى ... قدسيَّةَ الألحانِ والأصداء
وبثثتِ بى حبَّ الطبيعة فاغتدت ... أُمِّى ، أضعتِ عزاءها وعزائى
يامن غناؤكِ شدوُها وحنينها ... وصداهُ فى قلبى الشجى غنائى
لما سكتِّ تقاطرتْ عبراتها ... واستسلمتْ للَّوعةِ الخرساء
ومضى الرَّبيع مع الشتاء فلم أجد ... إلا مظاهر وحشة وخلاء
تبكيكِ أخلص من وفت لروائها ... وتصوفت بمروجها الغناء
ورأت بها الخير اللباب فما شكت ... منها وناجتها أرقَّ نجاء
وتناولت ألَقَ النجوم فأترعت ... منه دنانَ الحب للشعراء
كم ألهمتنى من عيونكِ صورة ... جمعت أحبَّ عواطفٍ ومرائى
وتبسُّمٌ تتبسَّمُ الدنيا له ... ويغيب عن معنى وعن خيلاء
ورشاقةٌ معسولةٌ ملحونةٌ ... كقصيدةٍ خلابةٍ عصماء
كم كنت أهتف بالنشيد ولم يكن ... إلا خطوط جمالك الوضاء
تجرى اليراعةُ فى يدى مزهوةً ... بتغزلى ، ويهزنى إملائى
مترنماً بالحبِّ بين ولائمٍ ... للزهر والأمواه والأضواء
وإخالُ فى دعةِ المروج جناننا ... وأشيم فى ألقِ الغديرِ سمائى
أيامَ كنا والشبيبةُ والهوى ... حلفاء فى أمنٍ من الغرماء
أيام كنا نستعيدُ ثراءنا ... قُبلا ، ونضحك من غنى وثراء
أيام كنا الحاكمين بأمرنا ... الساكنين منازلَ الجوزاء
أيام كنا ذاهلين عن الردَى ... نجرى ونمرح فى الربى الفيحاء
ونخوض موج البحر ملء دعابة ... متعانقين على هديرِ الماء
متحمسين كأنما خمرُ الصبا ... خمر الألوهةِ من أعزِّ سماء
متلمسين بكلِّ شىء لذةً ... ومطوعين المستحيل النائى
وإذا غضبنا عاد حبك غافراً ... وتعثرت شكواك عند ندائى
وفرحت بى فرح الحبيب بإلفه ... قد عادَ بعد مخاطرٍ هوجاء
عشنا السنين كأنها أنشودة ... علويةٌ جلَّت عن الضوضاء
متجددين ، وإذ فقدتك لم يكن ... فقدى لغير فتاتىَ الهيفاء
من رامها أهلُ الفنونِ نموذجاً ... للمبدعين ومن لها أهوائى
من صوتها الحلو الشجى سلافتى ... وحنانها العذب السخى دوائى
من لم تدع غير البشاشة وحدها ... تفشى خواطرها لنقدِ الرائى
من أشربت حب الدعابة سمحة ... واستضحكت لمصاعب الأشياء
من لم تَرَ الدنيا سوى تغريدة ... فأبتْ هواجسها أشدَّ إباء
من لم تردِّدْ غير آمالِ الصبا ... لتردَّنى لطلاقتى ورضائى
من عشت أفديها بكل جوارحى ... فإذا الفداء يهونُ وهى فدائى
من علمتنى أن أقدس واجبى ... مهما شقيت فأستطيب شقائى
من لم تودِّعْ فى السقام وفاءها ... للناس حين مضوْا بكلِّ وفاء
من لم تفارقها الشجاعةُ مرة ... حتى الممات ، شجاعة العظماء
فمضت وخلَّتنى وحيداً عابراً ... قفرَ الحياةِ أنوءُ بالأنواء
هيمان ، قربك وحده مستنقذى ... ظمآن ، ليس سواكِ رىَّ ظمائى
أقتاتُ بالحزنِ المبرِّح راضياً ... وأعافُ كلَّ ملاحةٍ وسناء
وأضعت فنى بعد موتك فى الأسى ... وكأنما صُوَرُ الجمال بلائى
من طالما ناجيتها متغزلا ... غرداً ، فمات بهاؤُها وبهائى
كانت لروحى منك أُنسَ مدامة ... ومجالَ أشواقٍ ونبعَ صفاء
ومثلتِ أنتِ بكلِّ ما أحببتهُ ... فالآنَ أينَ تهافتى ونجائى ؟
أين ابتسامتكِ الشذيةُ بالمنى ... والنورِ حين أهيمُ فى الظلماء ؟
أين ابتداعكِ للحديثِ تفنُّناً ... وتسلسلا يغنى عن الندماء ؟
أين اغتباطكِ بالمروءة والندى ... والعطف والغفران والإسداء ؟
قبرتْ كما غاب النهارُ أشعةً ... وكأنما أشلاؤُها أشلائى
وتركت فى دنيا القساوة والأذى ... متهالكا أمشى على الرمضاء !

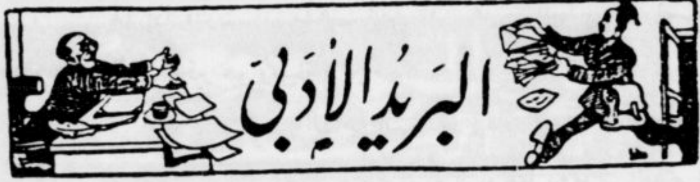
***

قالوا : تصبر ! إن حولك رفقة ... منها ، وحسبك صفوةُ الأبناء
ورثوا مكارم خلقها وسماتها ... إرثاً تُدلُّ به على الآباء !
ياليتهم عرفوا شمول عواطفى ... ووفاء وجدانى وصدْقَ ولائى
شيم شقيت بها وما عف الورى ... فآثارُهُمْ شممى وفرطُ إبائى
وبقيت أسخر من جراحى هازئاً ... بفواجع الآلامِ والأرزاء
مستلهماً من لم تدعنى مرة ... فى الحادثاتِ أضيقُ بالأحياء
فالآن بعد ذهابها ومصابها ... لم يغننى شممى ولا استعلائى !

***

تمضى الحوادثُ والسنونُ وتنقضى ... أُمَمٌ على أُممٍ صباحَ مساء
ويظَلُّ قلبى هيكلاً لكِ خالداً ... أبداً يرتِّل لوعتى ورثائى !

احمد زكى أبو شادى



رواية من المسرح العالي :

ليت الذين ينتصرون لعامية المسرح يشهدون رواية (تاج المرأة) في دار الأوبرا الملكية فيروا كيف تتسلسل العربية البليغة على أفواه الممثلين تسلسل الذهب ، وترن في أسماع المشاهدين رنين الفضة ، وتؤدى معاني الكاتب الفرنسي النابغ أداء صادقاً قوياً لا تضيع فيه لمحات النظر ، ولا لفتات الذهن ، ولا براعة الحوار ، ولا حلاوة النكتة .

لقد كان تمثيل هذه الرواية نصراً عظيما للغة العربية وللفرقة القومية في وقت واحد : كان نصرا للغة العربية لأنها استطاعت بدقة الترجمة وقوة التمثيل أن تبرهن لخصومها على أنها اللغة الطبيعية للمجتمع الحديث والمسرح المهذب . وهل تكون الطبيعية شيئاً آخر غير هذا الانسجام العجيب بين الحركات والكلمات ، وبين المواقف والعواطف ، وبين التمثيل والواقع ؟

كانت اللغة لسلاستها ومرونتها أداة جيدة التوصيل بين المؤلف والمترجم ، وبين المترجم والممثل ، وبين الممثل والجمهور ؛ فالممثلون مندمجون في أدوارهم لا يحسون نبواً في العبارة ولا حرجاً في الأداء ، والمشاهدون مأخوذون بسحر التمثيل وجاذبية الرواية لايشعرون بوجود مستقل عن هذا الوجود الذي خلقه في الفرنسية اسكندر دوماس ، وصوره في العربية الأستاذ كامل البهنساوي !

ثم كان نصراً للفرقة القومية لأنها أقامت الدليل العملي على أن في مقدورها أن تؤدي رسالة الفن على وجهها الصحيح إذا تهيأت لها الإدارة الرشيدة والتوجيه المصيب ، فقد كان الأداء خالياً من الشقشقة الخطابية ، والتمثيل بريئاً من البهلوانية المسرحية ، وهما البليتان اللتان باعدتا من قبل بين اللغة والطبع وبين المسرح والحياة .

فإلى المترجم الفاضل التهنئة الصادقة على جمال الترجمة وحسن الاختيار ، وللأستاذين والأستاذات : سراج منير ، وجورج أبيض ، وفاخر فاخر ، وإحسان شريف ، وأمينة رزق ، وروحية خالد ، الثناء الحق على روعة التمثيل وطبيعية الحوار .

إلى الأستاذ بن مصطفى

لم يكن ما نشرناه في « الرسالة » الغراء عن « كعب الأحبار » تفصيلا لتأريخه ، أو استيعاباً لترجمته ، وإنما هو — كما ذكرنا — طرف صغير من أمر هذا الكاهن قبسناه من فصل طويل كسرناه في كتابنا « حياة الحديث » — الذي لم يطبع بعد — على (الإسرائيليات في الحديث) ، وحشدنا فيه كل ما عثرنا عليه من أدلة وحجج لاستيفاء بحثنا وتأييده .

على أنه مما يسرنا أن نقرأ كتاب (عمر بن الخطاب) الذي ألفه الأستاذان علي وناجي الطنطاوي ، حتى إذا وجدنا فيه ما لم يكن في كتابنا ، زدناه على بحثنا ، وجعلنا هذا الكتاب من مصادرنا .

هذا ، وإني أشكر لك ما تفضلت به من لفت نظرنا إلى هذا الكتاب القيم .

(المنصورة) محمود أبو ريه

معرض الكتاب العربي الأول لسنة ١٩٤٦ :

تعتزم وزارة المعارف إقامة معرض يطلق عليه « معرض الكتاب العربي » لمدة أسبوع يبدأ من يوم الخميس ٣٠ مايو سنة ١٩٤٦ بالسراي الصغرى بالجزيرة . والغرض من إقامة هذا المعرض هو التعريف بالمسائل الآتية :

١ — تطور حركة التأليف من فجر النهضة الفكرية الحديثة حتى الوقت الحاضر

٢ — تطور حركة الطباعة منذ إنشاء مطبعة بولاق الأميرية

٣ — تطور الصحيفة اليومية الإخبارية والدوريات الأدبية منذ قيام الصحافة في مصر

٤ — تطور فكرة توضيح الكتب بالرسوم والصور

٥ — تطور الكتاب المدرسي من حيث موضوعه وطبعه .

٦ — تطور حركة التأليف للأطفال والشباب

٧ — نهضة التأليف والترجمة في عهد المغفور له الملك فؤاد

٨ — النهضة الفكرية في عهد صاحب الجلالة الملك فاروق .

هذا ، ويسر الوزارة أن يتفضل كل أديب بالمساهمة في إقامة هذا المعرض بما يستطيع تقديمه على سبيل الإعارة .

وقد كلفت الوزارة مندوبها الدكتور ابراهيم جمعة مدير قسم المتاحف والمعارض الثقافية بالاتصال بعزتكم فى هذا الشأن رجاء التكرم باعارتنا ما يمكن تقديمه فى موعد غايته يوم السبت ٢٧ أبريل سنة ١٩٤٦

(مراقب الثقافة العامة) (وكيل المعارف)

محمد عبد الواحد خلاف محمد شفيق غربال

« تاج المرأة » على مسرح دار الأوبرا الملكية

ما ألذ ساعة يقضيها الإنسان فى دار التمثيل يشاهد صورة حيــة من صور المجتمع ، ينقلها بوضعها الصحيح ، ووقائعها المحسوسة الملموسة ، ممثلون كأنهم أصحاب الصورة فى إبراز الشعور وفى أداء الأغراض التى رمى إليها المؤلف فى الابتداع، وفى تقسيم الفصول ، وفى التفنن فى التمهيد لكل حدث يقع ، ولكل كلمة تلمح إلى ما يليها ، والنكتة المضحكة وما يتبعها من لذعة مؤلمة ، وأين تقع العقدة وأين ومتى يحلها وفق ما هو مفروض لمثله الأعلى الذى تصوره فى ذهنه قبل خلق روايته .

ما أحلى تلك الساعة وما أشباهها لنفس تعلم جيداً أن التمثيل سيبقى أبد الدهر برغم مزاحمة السينما له ودفعها إياه بعنا كبها الجبارة من طريقها ، وأن بقاءه منوط بالحياة ذاتها، والاستمتاع بها نفسها، عن طريق المشاهدة والسمع ، بانتشار العلم بين جميع الأوساط ، وذيوع الثقافة الفنية ، والإحساس الواعى بفتنة الفن وسحره .

ما أحلاها ساعة يرى فيها نصير التمثيل أينما تلفت مقاعد دار الأوبرا ومقاصيرها وشرفاتها حافلة بأيقاظ الذهن والروح والشعور يطمئنون دعاة الأدب والفن على أن البلد بخير وعافية ، وأن نهضته صحيحة سليمة ، وأنهم يتلقفون صور الحياة ، ناطقة بالحيــاة ، حباً للحياة .

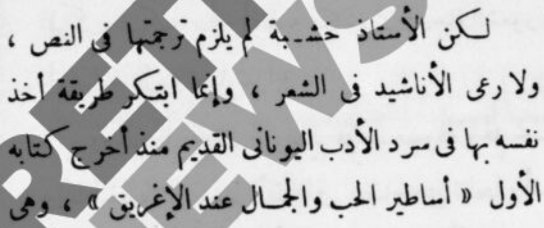
بل ما أحلى أن يرى جيدا ، ويدرك جيدا ، ويعمل جيــدا أولئك المشرفون على إبراز التمثيل إلى عالم الواقع ، أن من أقدس واجباتهم ، وأسمى غاياتهم إظهار ثقافة الأمة على حقيقتها ، والأخذ بيد هذه الأمة لتتوقل معها مدارج الصعود ، وأن هذا ميسور لها إذا قدرت أن مذهب الفن للفن هو رسالتها ، وأن كسب المال الوفير هو وسيلة لا غاية .

لقد نعمت بهذه الساعة السعيدة فى دار الأوبرا حيث كانت فرقة التمثيل تمثل رواية « تاج المرأة » لمؤلفها دوماس العظيم ، ومترجمها الأستاذ الفاضل كامل البهنساوى .

لقد نعمت فعــلا بساعة سعيدة ، كانت تتجاذبنى خلالها انفعالات شتى ، وأحاسيس متنوعة ، واضطرابات تميل بى تارة إلى كل جانب استجابة لعواصف الحياة وهى تعصف هوجاء دائما على غير قياس وبدون تدبر ، وقد نسقها فأبدع تنسيقها مؤلف عظيم موهوب فطر على انتزاع أسرار الحياة ليبسطها على المسرح ، وتارة تجذبنى جمل وألفاظ ، وإيماءات وإشارات وتنقلات ، وانخفاضات فى الصوت وارتفاعات ، ولين فى مخارج الكلمات أو شــدة ، وانفعالات واضحة فى قسمات الوجوه ، واللواحظ والابتسامات أتقنها الممثلون والممثلات أجود إتقان . ولم تصدم سمعى كلمة واحدة نابية ، أو جملة واحدة مخلخلة قلقة ، أو لفظة تدل على أن المترجم لم يؤد الأمانة حقها ، أو إلى ضعف فى التوفيق بين اللغتين الفرنسية والعربية ، أو التصرف والتهاون ولو قليلا فى مقاصد المؤلف، أوالتراخى فى إبراز روحه العظيمة على حقيقتها فى العظمة والجلال ، هكذا يكون الانسجام الحقيقى بين المؤلف والمترجم والممثل والمخرج ، فيمثلون روح الرواية الواحدة كل من ناحيته متساندين .

إنها لساعة تدفع بى بغير تحفظ إلى إسداء الشكر لهذه الفرقة التى أتحفتنا بتمثيل هذه الرواية فى هذا الفصل ، وكنت أود أن أطالبها المزيد من هذه الروايات الرفيعة ، لأنها على الأقل تنفع كتاب الرواية المسرحية منا فتفتح أمامهم آفاقاً لم يجرؤوا بعد على ولوجها ، فضلا عن أنها تعالج مشكلات اجتماعية لا تختلف عن مشكلاتنا الاجتماعية والخلقية والعائلية فى وسطنا الراقى والوسط ، ولكنى أوفر على نفسى مطالبة هذه الفرقة التى لا تريد أن تعترف بأن لها رسالة ثقافية ، وأن عليها واجبات نحو الأمة والحكومة .

حبيب الزحلاوي

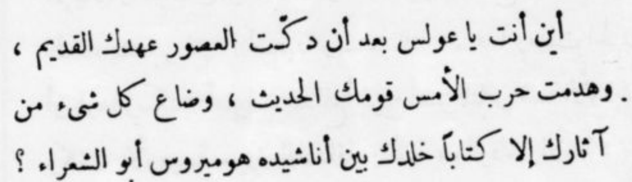


الكتب

الأوذيسة . . . !

بين هوميروس ودريني خشبة

للأستاذ زكى المحاسنى



أين أنت يا عولس بعد أن دكّت العصور عهدك القديم ، وهدمت حرب الأمس قومك الحديث ، وضاع كل شيء من آثارك إلا كتاباً خلدك بين أناشيده هوميروس أبو الشعراء ؟

هلمّ عولس من أطباق ثراك إن كان معروفاً ثراك ، وجيء حمى العربية تلق كتابك فيها منشوراً ، وذكرك بلسانها مسطوراً .

تلك هي « الأوذيسة » تنشر فى لغة العرب اليوم أول مرة ، ولئن سبق الأستاذ دريني خشبة فأخرج للناس « قصة طروادة » ، فإنما كانت « الإلياذة » معروفة لدى العرب المحدثين منذ نظم ملحمتها الكبرى سليمان البستانى بلغة الضاد .

ولئن لم يكن للأستاذ خشبة فى « قصة طروادة » سابقة التعريب ، فقد كانت له فيها طرافة الرواية ورقة البيان ، وقد كثر فيها صليل السلاح وعراك الحروب ، فدارت حوادثها فى البطولة والحماسة . أما « الأوذيسة » ، فأكسبت الأستاذ خشبة سابقة النقل إلى العربية منذ نظمها « هومير » باليونانية العتيقة ، وكانت سيرة الأخطار فى البحار ، وغرائب الحدثان فى الحب والوفاء .

وقد ذكر المؤرخون أن العرب فى العصر العباسى عرفوا « الإلياذة » وترجمها المرحوم « الرهاوى » أحد المقربين من الخليفة المهدى . أما « الأوذيسة » ، فلم أجد أحداً من المؤرخين وأهل الأدب القديم قد ذكر أن العرب ترجموها أو عرفوها ، فأكبر عندى ذلك أن أجدها اليوم بالعربية فى جملة آثار النهضة الثقافية التى تهب فى هذه الآونة على وادى النيل .

لكن الأستاذ خشبة لم يلزم ترجمتها فى النص ، ولا رعى الأناشيد فى الشعر ، وإنما ابتكر طريقة أخذ نفسه بها فى سرد الأدب اليونانى القديم منذ أخرج كتابه الأول « أساطير الحب والجمال عند الإغريق » ، وهى طريقة تنزع إلى الفن ومرانته أكثر مما تلم بالتاريخ وجوده .

إن حوادث « الأوذيسة » لنى وعى راويها الأديب الذى يجيء بها على أنماط قصصية آخذ بعضها بهامات بعض ، وهو بهذه الطريقة ذو سابقة أيضاً فى أخبار الأساطير .

يتجهم لهذا الفن القصصى ناس يؤثرون عليه ترجمته بالنص ، وقد يعسرون فيطلبون أن تكون الأوذيسة شعراً فى العربية على نمط ما فعل البستانى بالإلياذة ، لأن ذلك أبقى للأثر وأقرب تقليداً لأصله ، وإن مذهب هؤلاء النقاد فى نثر كان شعراً هو مذهبهم فى ماء كان خمراً .

لكن أمثال أولئك الناقدين إذا ألموا بهذه الأوذيسة وتركوا مذهبهم قليلا ، أنساهم أسلوب الأستاذ خشبة تلك الشروط ، فراحوا مغمورين بسحر من القول وبراعة فى الوصف ، فجاسوا بأنظارهم خلال الحدثان منذ انتهت الحرب الطروادية ، حتى عاد عولس إلى بلاده ، فإذا فرغوا من كل ذلك حصلوا على السيرة الثانية التى تركها هوميروس ميراثاً للآداب العالمية .

ضاع عولس فى اليم وتفرق شمل صحابه ، وأروع ما على اليم من أخطار تلك الجزيرة التى كان يملك عليها بوليفيم زعيم السيكلوب الإنسان الجبار . أما وصف بوليفيم ، فنسج أسطورة مغرقة فى الخيال . كان على هيئة إنسان ضخم كجذع شجرة السنديان عريض الألواح ، وكان طوالا جسيما ، يداه كغصنين ، ورأسه كصخرة كبيرة ، إنه ليستطيع أن يضع فى كفه إنساناً ، وأن يطبق أصابعه عليه . أما جبهته ، فصفحة مبسوطة فى بهرتها عين واحدة كفم البئر .

ومشى مهرولا ، فاهتزت الجزيرة التى أرسى عليها مركب عولس وصحابه ، وأحس عولس ورفاقه أن الكهف الذى أووا إليه يكاد يكون لهم مرقد المنية ، فها هو ذا بوليفيم مقبل نحوهم بقطيعه يهش عليه بشجرة لها فرعان ، كل فرع منهما كعمود

المركب الكبير . أما أغنامه فكانثيران مرسلة الشمور إلى الأرض لحومها غذاؤه ولبنها شرابه .

ودخل الكهف البوليفيم فوجد ضيوفه ، فلم يحسن لقاءهم ؛ وإنما أخذ باثنين منهم فألقاهما فى الفضاء حتى نطحا برأسيهما سقف الكهف ثم انحطا على الأرض هشيمين ، فأكلهما شيئاً على النار بغير سفّود ، وجلس يتلمّظ فسدّ باب الكهف بجسمه وأخذ يغط فى نوم عميق .

فريع عولس وصحبه وعرفوا موتهم عند انتباهته ، فاحتالوا له فى يومهم الثانى . فتقدم إليه عولس بكيده ودهائه وسكب فى فمه زق خمر معتّقة من دنانِ القسّ فوبوس إله آزماروس . فكرعها الوحش وسكر بنشوتين ، ثم نام . فهب عولس وجمعه إلى النار فأوقدوها وأشعلوا رأس ذلك الغصن الذى يهش به الوحش على غنمه ، وفقأوا عينه كما يطفىء الحداد عمود الحديد المشتعل بحوض من الماء .

وكان عولس حين تقدم إلى الوحش بخمره فسأله عن اسمه أجابه : إسمى أوتيس . ومعناها (لا أحد) . فلما أحس الجبار بهول النار صرخ صرخة دوّت فى الجزيرة حتى مادت . فريع الجبابرة وجاؤوا ركضاً يسألونه الخبر ، وكان الظلام مُطبقاً على الكهف وما حوله . فسألوه من آلمك أو قتلك . فقال وهو يجود بالنفس الأخير : لا أحد .

فانصرفوا وهم به هازئون .

***

تلك حوادث عولس وهى كثيرة منذ انصرف الآشيون إلى أمصارهم بعد أن فتحوا طروادة وخربوها . عاد ملكهم آغاممنون جريحاً إلى بلاده متحاملا على نفسه ، وارتمى البطل مينيلاس على شواطىء مصر ، وغرق آجاكس عند الصخور التى تتلاطم عليها أمواج البحر . أما عولس فقد كتب له أوفى نصيب من العذاب فظل السنين العديدة فى جزيرة كاليبسو أسيرا عند الجن ، أو مطروحا على ثبج البحر بمركبه القلق من جزيرة إلى جزيرة ، وكان ابنه تليماك يقطع الآفاق بالبحث عنه راكبا على عجلة مجنحة أعطاه إياها نسطور الساحر .

يقول « كروازى » فى كتابه عن الأدب اليونانى القديم :

(لئن كانت الإلياذة قصة السير إلى الغزوة ، أو الغزوة ذاتها ، فإن الأوذيسة إذن هى قصة العودة) .

وعلى مثال كروازى يحاول من يدرس الأوذيسة أن يؤرخها وينقدها ، ويبين وجوه الصحة والأصالة فيها ، ووجوه الوضع والاختلاق ، وكل ذلك لم يتعرض إليه الأستاذ دريني خشبه لأنه أسلف الكلام عليه مجملا فى مقدمة الإلياذة ، ولو فصل الكلام فيهما بعض الفصل فجعل لكل منهما مقدمة خاصة لكان ذلك به أجدى وبفنه أوفى .

وكأن المقادير قد سيرت قلم الأستاذ خشبه ، فقد أخرج الإلياذة والحرب فى دنيانا قائمة . وكانت الإلياذة تاريخ حرب مصبوغة بالدماء يشتجر فيها الحديد وتستعر النار . فلما وضعت الحرب أوزارها وسكنت أصوات المدافع أخرج أمس للناس قصة الأوذيسة وكانت الأوذيسة سيرة الصداقة والمحبة ، والوفاء والألفة ، بعد الشقاء والعذاب .

زكى المحاسنى

دار الكتب الأهلية بميدان إبراهيم باشا بمصر تليفون ٤٩٥٦١

تقدم القائمة الأولى ببعض مطبوعاتها

م

- ٤٠ مستقبل الثقافة فى مصر جزآن للدكتور طه حسين
- ٣٠ زهرة العمر للأستاذ توفيق الحكيم
- ٢٥ شجرة الحكم « « «
- ٢٥ سليمان الحكيم « « «
- ٢٠ بجماليون « « «
- ٢٠ راقصة المعبد « « «
- ٢٠ سلطان الظلام « « «
- ١٥ رصاصة فى القلب « « «
- ٢٠ أهل الكهف « « «
- ٢٠ شهر زاد « « «
- ٣٠ الأوذيسة للاستاذ دريني خشبة
- ٢٥ الالياذة « « «
- ٢٥ فلسفة الأخلاق فى الاسلام للاستاذ محمد يوسف موسى
- ٢٥ المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية « « «
- ٣٥ رسالة الهناء للمعرى شرح الأستاذ كامل كيلانى
- ٣٠ مغامراتي فى أوربا للاستاذ عبد المنعم حسن
- ٢٠ البعث للشاعر ابن محمود
- ٢٥ النساء خائنات للاستاذ عصام
- ٣٥ السيف والنار فى السودان لسلاطين باشا
- ٢٠ الزواج والمرأة للاستاذ أحمد حسين
- ٢٥ قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة للدكتور توفيق الطويل
- ٢٠ من والد إلى ولده للاستاذ أحمد حافظ عوض
- ٢٠ صور جديدة من الأدب العربى للاستاذ كامل كيلانى
- ١٥ حدث فى باريس للاستاذ أحمد عطية الله
- ١٥ هكذا أغنى للشاعر محمود حسن إسماعيل
- ٢٥ رحلات للاستاذ عبد الوهاب عزام
- ١٥ الاستمتاع للاستاذ سليم سعده
- ١٥ ساره للاستاذ العقاد
- ١٥ هتلر فى الميزان للاستاذ العقاد
- ٢٠ غانيات للصاوى
- ٢٠ العاصية للصاوى
- ١٥ النجاة لابن سينا
- ١٢ حديقة الحلويات للاستاذ عز الدين فراج
- ١٢ الفاكهة قيمتها الطبية والغذائية للاستاذ عز الدين فراج
- ١٤ التعاون للاستاذ أحمد لاشين
- ١٥ مصرع فرنسا للاستاذ محمد عبد الحميد
- ١٢ فى بيوت الناس للاستاذ سليمان نجيب بك
- ١٥ ديوان المحاسبة فى الميزان سعد الدين سلامة
- ١٥ الوجديات للعلامة محمد فريد وجدى

م

- ١٥ الحرب الحديثة للاستاذ رياض محمود
- ١٠ المنقذه للاستاذ محمود تيمور
- ١٠ ألف باء الكهرباء للاستاذ عبد العزيز محمد
- ٢٢ ألف باء التجارب الكهربائية للاستاذ عبد العزيز محمد
- ١٠ خلاصة فنون الحرب لمصطفى حلمى عزب
- ١٠ البكتريولوجيا الزراعية محمود مصطفى الدمياطى
- ٨ هنرى الثامن عبد الرحمن فهمى
- ٦ بولين أبو بكر المنفلوطى
- ٥ أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى لعبد العزيز جاويش
- ٧ كيف تنجح فى الحياة أبو الخضر منسى
- ٧ الدماء سعاد منسي
- ١٠ أشواق للشاعر محمود أبو الوفا
- ١٠ هاملت سامي الجريديني
- ١٠ خمسة فى سيارة سامى الجريديني
- ١٠ الرسائل الضائعة سامى الجريديني
- ١٥ منار الرشيد ابراهيم "سيد
- ١٨ الفنون الجيلة محمود فؤاد
- ٣٥ على إطلال المذهب المادى فريد وجدى
- ١٠ فن القراءة والالقاء مصطفى الدمياطى
- ٦ يوم مع قدماء المصريين محمد صابر
- ٢ التمرينات الرياضية محمود كامل
- ٣ الألعاب السويدية إبراهيم أبو جبل
- ٣ التمرينات الفرنسية فتحى عزمى
- ٨ الانفصال الشبكى دكتور عطا الله فهمي
- ٨٠ العين فى الصحة والمرض دكتور عطا الله فهمى
- ١٠ تاريخ الطيران على محجوب
- ٢٠ مسائل الشرق جزءآن أوجين يونغ
- ١٥ قصد الشارع من وضع الشريعة للشيخ محمد منير
- ٢٥ التصوير والحفر للاستاذ رياض شحاته
- ١٢٠ المنجد قاموس عربي آخر طبعه للاب لويس اليسوعى
- ٤٥ منجد الطلاب قاموس مدرسي عربي للاب لويس اليسوعي
- ٥ من أمير إلى سلطان مصطفى فاضل باشا
- ٦٠ مكتبة الحبيب للثقافة ٥ أجزاء مجلده لفريد بك رفاعى
- ٢٠٠ قاموس سعادة إنجليزى عربي مجلد ١٧٠٠ صفحة كبير
- ٢٥ روح الاشتراكية غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر
- ١٠ أدب الدنيا والدين الحصرى
- ٥٠ الخلق الكامل أول وثانى جاد المولى بك
- ٣٠ النزعات الاستقلالية فى العصر العباسى للاستاذ عبد الفتاح الدرنجاوى

يضاف ٢٥ ٪ مصاريف إرسال وكل طلب غير مصحوب بنصف القيمة لا يمكن إرساله . المراسلات : باسم رشدى خليل

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٦٩ — الاثنين ٢٩ أبريل ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 669

Lundi—29—4—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٦٩ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ — ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

يوم ولا كالأيام !

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان يوم الاثنين الماضى فى مصر يوم شم النسيم .

وشم النسيم فى مصر يوم ولا كالأيام أو عيد ولا كالأعياد .

لأن العالم كله لا يعرف يوما من أيام المواسم تلاقى فيه من المراسم والشعائر وتراث الأديان الباقية والبائدة ما تلاقى فى هذا اليوم .

ففيه من شعائر الأديان البائدة أنه يوافق عيد الحصاد أو عيد الربيع ، ويحتفل به الناس كما كانوا يحتفلون بعيد الخليقة قبل آلاف السنين .

وفيه من شعائر الدين الاسرائيلى أنه يوافق عيد الفصح ، أو عيد الخروج من مصر مع موسى الكليم .

وفيه من شعائر المسيحية أنه يأتى يوم اثنين ولا يأتى يوم أحد ، ليقترن بعيد القيامة ولا يختلط به فى احتفال واحد .

والغربيون يذكرون عيد القيامة بأسماء تدل على بعض هذه التواريخ من جوانب متعددة .

فاسم « ايستر » الذى يعرف به فى اللغة الانجليزية مأخوذ من استر أو اشتار ، أى عشتروت ربة الربيع .

واسم باك Paques الفرنسي وباسكا Pasqua الإيطالي مأخوذان من كلمة باسكا اليونانية Pascha وهى مصحفة من كلمة فسح العبرية وتكتب Pasah بالحروف اللاتينية ، وهى فى العبرية تقارب معنى فسح فى العربية بمعنى الافساح والتسريح ، إشارة إلى اقتران العيد بانطلاق الاسرائيليين من أسر فرعون .

فالربيع والفصح والقيامة وشم النسيم موسم واحد متفق الموعد مختلف المراجع والأصول .

ولكل شعيرة من شعائر هذا الموسم سبب جديد وسبب قديم ، أو تعليل يقول به مفسرو الأديان ، وتعليل يقول به التاريخ .

فالإسرائيليون كانوا يذبحون فيه الحملان ويأكلون فيه فطيرا غير مخمر ، ويقولون فى تعليل ذلك إن ملك النقمة الذى ضرب أبناء المصريين بالموت كان ينظر إلى الأبواب فإن رأى فيها أثر الدم من الضحية تركها ، وإن لم يره دخل البيت وأهلك أول أبنائه ، وهى علامة للتفرقة بين بيوت المصريين وبيوت الاسرائيليين .

ولما هب بنو إسرائيل للفرار من أرض مصر ، أعجلوا عن انتظار العجين حتى يختمر فأكلوا خبزهم فى ذلك اليوم فطيرا ، فهم يحيون تلك الذكرى بأكل الفطير فى مثل ذلك اليوم من كل عام .

أما مراجع التاريخ فتقول إن ذبح الحملان وأكل الفطير من أقدم شعائر الرعاة على سبيل القربان والاحتفال بالخير الجديد . فيتقربون إلى إله الزرع بذبح حمل مولود فى عامه ويأكلون الحب الجديد غير مخلوط بخميرة من محصول قديم . وقد شاع أكل الفطير فى المراسم الدينية تقربا إلى الآلهة بين أبناء الأديان التى

تعرف بأديان الأمومة ، ويراد بها الأديان التى يعبد فيها الإله وأمه معا ، ويقال عن أمه فى معتقداتهم إنها هى مصدر الخصب والولادة والنماء .

وقد كان المصريون الأقدمون يحتفلون بعيد الربيع فى موسم قريب من موسم الفصح أو موسم القيامة بعد ذلك ، وكانوا يرمزون فيه للخصب والولادة بأكل البيض لأن البيضة رمز كل ميلاد ، ويرمزون فيه للمحصول الجديد بما يأكلونه من البقل الأخضر والبصل الأخضر كما نفعل فى هذه الأيام .

فأخذ الإسرائيليون شيئا من مراسم هذا الموسم ، وجاء المسيحيون فزجوا بين عيد الربيع الذى تبعث فيه الأرض وعيد القيامة الذى يبعث فيه السيد المسيح ، واعتقد بعض شراحهم أن السيد المسيح حوكم وقضى عليه بالموت فى يوم احتفال اليهود بعيد الفصح وهو اليوم الرابع عشر من شهر نيسان ، وعدل فريق منهم عن هذا الموعد إلى الاحتفال بعيد القيامة فى يوم الأحد الأول بعد أول قمر كامل يلى موعد الاعتدال الربيعى ، أو موعد دخول الربيع .

ويأتى شم النسيم فى الاثنين التالى لعيد القيامة ، فهو يوم ولا كالأيام ، لأنه من أيام الطبيعة وأيام العقيدة وأيام التاريخ ، وفيه بيان ولا كل بيان لمبلغ الاتصال بين الأديان من قديم وحديث ، ولو تقصينا فروعه وشعابه فى تاريخ كل زمرة وشعائر كل نحلة لما وسعه سفر كبير .

ولم يكن هذا العيد معروفا باسم شم النسيم فى العصور التاريخية القديمة ، ولكنه سمى بذلك بعد شيوع اللغة العربية فى البلاد المصرية ، ولا يذكر على التحقق سبب هذه التسمية ولكننا قد نفهمه من مصطلحاتنا التى نجرى عليها اليوم فى الدلالة على معناه .

فالمصرى يسمى الرياضة فسحة أو شم هواء ، وليس أقرب من تحويل عيد « الفسحة » أو عيد الفدح إلى عيد شم الهواء أو شم النسيم ، ولا سيما فى الموسم الذى تستطاب فيه النسمات ، وتضيق فيه الصدور برياح الخماسين .

وقد شاع بين المصريين المحدثين أن « شم النسيم » يوم تختلس فيه النسمات فجرا ، وتباكر فيه الحدائق والبساتين قبل امتلاء الفضاء بأشعة النهار ، ومن لزم منهم المساكن ولم يخرج للنزهة فى ظلال الأشجار فالرأى عندهم فى الاستمتاع بطيب الهواء خلال ذلك اليوم أن يغلقوا عليهم النوافذ من الصباح ليحفظوا فى البيوت بقية من هواء الليل الرطيب قبل أن تلهبه حرارة الشمس بأنفاس الطريق .

وتذكرنا هذه المادة بطريفة من طرائف الزعيم الكبير سعد زغلول رحمه الله ، وقد تحدث إليه بعضهم عن حصافة « ذوى الرأى » فى البلاد ، وكان الموعد كموعد هذه الأيام .

قال رحمه الله : إنى محدثكم عن حصافة ذوى الرأى هؤلاء ، ولا أعفى نفسى مما يصيبهم فى هذه الأحدوثة ، فقد اتفقنا قبل يوم من أيام شم النسيم أن نقضيه فى دار صديق من أصدقائنا ، ونحن جماعة من ذوى الرأى كما تسمونهم سامحكم الله ، وكان فينا العالم والكاتب والفقيه والنطيق ومن يشار إليهم بالبنان فى كل معضلة من معضلات الزمان .

وتوقعنا حرارة الجو المعهودة فى موسم شم النسيم فاتفقنا على أن نتقيها بإغلاق النوافذ والأبواب منذ الصباح ، ثم أغلقناها كما اتفقنا وقضينا سويعات من بكرة النهار فى هواء رطيب محتمل ، ونحن نغبط أنفسنا على هذه الحيطة ونرثى لمن فاتهم أن ينعموا بهواء البيوت وخرجوا إلى القيظ فى الخلاء .

غير أن الحجرة ضاقت بأنفاس من فيها ، وزادهم ضيقا على ضيق كثرة المدخنين من نزلائها ، وجعلوا يقولون فيما بينهم إنه قدر أهون من قدر ، وأن احتمال الدخان خير من التلظى بنار الجو المحترق الذى قد يلفحنا بشواظه من وراء النوافذ والأبواب ، لو فتحت النوافذ والأبواب .

واختنقنا ضيقا ونحن على هذا الاعتقاد ، وتفصدنا عرقا ونحن على هذا الاعتقاد ، ومضى نصف النهار ونحن على هذا الاعتقاد .

ثم قدم إلينا قادم من أصدقائنا ففتحنا له الباب اضطرارا ؛ فأوشك أن يرجع أدراجه لحبسة الهواء فى داخل الدار .

أيام العروبة تبدأ فى سورية !

للدكتور عبد الوهاب بك عزام

سورية الكريمة العزيزة ، سورية الجميلة الجليلة ، سورية العربية الأبية ، سورية الشجاعة الجريئة المجاهدة الصابرة تغسل اليوم عنها العار ، وتستقبل الكرامة ، وتبسم للحرية بعد أن طال عبوسها للعبودية ، وتطوى صحيفة لعدوها سوداء لتنشر صحيفة لنفسها بيضاء ، وتختم جهاد المعتدين لتبدأ جهادا فى الحياة السعيدة المجيدة ، وتستأنف سيرتها العظيمة لتصل حاضرها الكريم ، وماضيها الخالد بمستقبلها الوضاء .

دمشق العتيقة الحديثة ، دمشق الماضية الحاضرة التى ثبتت للخطوب ثبات قاسيون، وابتسمت للمحن ابتسام مروجها وجنانها

دمشق مجتمع الأحداث قد زخرت ... فيها كما اندفقت فى البحر أنهار

دمشق قد استدار لها الزمان ، ورد عليها الدهر مجدها المنشود ، فهى اليوم ظافرة فرحة تأسو جراحها ، وتعد لمستقبل عدتها . قد انجلت عنها الغمرات كما ينجلى النقع عن البطل المرزأ يعصب جراحه ولواء النصر فى يده .

مرزأ بتلق الخطب منصلت ... تنشق عنه من الأهوال أجفان

ليت شعرى كيف الغوطة والربوة ودمّر والهامة اليوم ؟

أترى أشجارها تمايل طربا ، وأوراقها تصفق فرحا ! وكيف قاسيون ذو القمة الجرداء والسفح الأخضر .

نسر يرى اللُّوحُ منه هامةً عُطُلاً ... لكنه ذنب الطاووس جرار

كيف قاسيون اليوم ؟ أتراه شمخ برأسه عزة ، بعد أن رمى عنه آثار الذلة . وحلق على الرياض فرحا فى هذا النهار ، بعد أن وقع كئيبا فى ذلك الليل ؟

وكيف بَرَدى ذو الفروع السبعة ؟ أهو اليوم جذلان مطرد يصفق ماؤه بنسيم الحرية ، وتمحو جريته الظلال البغيضة التى تراءت على صفحته سنى الاستعباد ؟

قال متعجبا : ما بالكم تسجنون أنفسكم هذا السجن الثقيل فى هذا اليوم البديع ؟

قلنا : قدر أهون من قدر . أليست حبسة الهواء هنا أهون من نار الفضاء خارج الدار ؟

فضحك وهو يقول : أى نار فضاء ؟ إن الفضاء ليخفق بالنسيم الجميل ، وإنه كما يقولون ليشفى العليل .

وتقدم إلى النافذة ففتحها ، وتقدم غيره إلى نافذة غيرها ففتحها ، فإذا بالنسيم كما وصفه جميل يشفى العليل !

ونظر بعضنا إلى بعض متضاحكين ، وفاتنا ونحن خلاصة ذوى الرأى أن نجازف بالتجربة ، فنغنم نصف النهار ونستريح من كل ذلك العذاب .

وطرافة القصة كلها فيما ساقه فيها الزعيم الكبير من العبرة وأحاطه بها من التهكم والفكاهة ، ولكنه قد جار على نفسه هنا وجار على أصحابه بعض الجور لأخذهم بجانب الخطأ وحرمانهم جانب الانتفاع بحق « الرأفة » فى الحكم أو بحق الصواب . فلو اتفق أن الهواء كان على عادته من الحرارة والغبار فى تلك الآونة لما كان بقاؤهم وراء النوافذ المغلقة خلوا من الرأى السديد أو بعيدا كل البعد عن وجه الصواب .

***

ونحسب بعد هذا أن الخروج من شم النسيم بأضحوكة واحدة أو بمفارقة واحدة فريضة لا فكاك منها لتحية العيد الذى يسمى بعيد الربيع وعيد الشباب والحب والجمال . وهل يستحق الربيع اسمه إذا تنزهت فيه الدنيا عن الأضاحيك والمفارقات ؟

ربما كان من مفارقاته الخالدة أننا نحن المصريين احتفلنا به زمنا إذ كان الاحتفال به — بين ظهرانينا — احتفالا بالنجاة منا والخروج من بلادنا . وأننا قد وصلنا به ما تقدم من تاريخنا العريق كأنما كانت فترة بنى إسرائيل عارضا بين فصول الرواية الأبدية لا يدخل فى حساب المؤلف الخالد مؤلف التواريخ والأحقاب ، وقد كانت لتلك الفترة العارضة صفحة متجاوبة الأصداء ، لا يخفت دويها المتتابع مع الزمن فى مسامع بنى آدم وحواء .

عباس محمود العقاد

وليتنى أرى الآن جامع بنى أمية هل نطقت جوانبه تسبيحاً وتهليلا ، وهل تهم قبة النسر بالتحليق كما يحلق الطائر الوحشى قطع الشرك أو انفتح عنه المحبس ! ؟

وكيف أبطال تاريخنا فى المدينة وحولها ! كيف معاوية والوليد؟ وكيف نورالدين وصلاح الدين؟ وكيف الظاهر والعادل؟ وكيف أبطال الجلاد فى عصرنا الذين نازلوا الباطل المدجج عزلا فزلزلوه حتى هدموه ؟

وليت شعرى هل انبعث الأذان من قبر بلال فى مقبرة الباب الصغير إيذانا بالفجر من هذا المهد المبارك ؟

* * *

وحلب الشهباء ، مدينة سيف الدولة والمتنبى ، حلب التى أمدت الثغور بأبنائها قرونا ، ودفعت الروم عن الشام عصوراً ، كيف جذلها اليوم ، وأين متنبيها ينشد قصائد المجد ليرويها الدهر؟

وكيف قلعة حلب اليوم وقد لفظت المذلة ، واعتزت بما فيها من آثار المجاهدين الأولين . لقد دخلتها أول مرة قبل خمسة عشر عاما ورأيت جنود السنغال فيها يخطرون ، وينهون ويأمرون فأنشدت وفى النفس ما فيها من حسرات :

سادات كل أناس من نفوسهمُ
وسادة المسلمين الأعبد القزُمُ

فقد رفع اليوم عليها لواء الحرية ، ورحض عنها عار العبودية ، فحالت بناء جديداً ، ومرأى حميداً ، وكأن كل شىء فيها قد استحال! ليت شعرى هل نطقت فيها الآثار الصامتة ، وضحك على بابها الأسد الباكى (١) .

* * *

وليتنى اليوم فى حمص أقف فى روضتها كما وقفت من قبل ، أستمد من ضريح خالد بن الوليد كل معنى جليل ! ليتنى اليوم على قبر خالد أبشره أن الزمان قد استدار ، واستقلت الشام بأبنائها الأحرار ، فليصفق نهر العاصى طربا ، وليزهر الديماس فرحا فقد أقبل الربيع بربيع الحرية الناضر ، وعهدها الزاهر .

يادار هذا أوان السعد فاغتبطى لأعادك النحس بعد السعد يادار

وحَماة المجاهدة ، هل تبدل أنين نعيرها غناء ، واستحالت دموعها فى البساتين ماء ؟ ما أجمل غناء النواعير فى حماة اليوم ! قد مضى عهد البكاء ، فليدم اللهم هذا الغناء .

وكيف أبو الفداء فى قبره اليوم ؟ يا أبا الفداء لقد طال الهجود ، فقم وأضف إلى تاريخك هذا الفصل الجديد .

* * *

يا سوريّتنا الجميلة الحبيبة ! حيا الله فيك كل مدينة وقرية ، ونضر كل دارة وبقعة ، وحباك السعد مطّرداً مع الزمان ، دائماً مع السنين .

ورحم الله كل مجاهد أمدّك بحياته ، وسقى ترابك بدمه ، وثوى فى الأرض كلمة باقية فى سطور تاريخك الخالد .

ونضر الله وجوه المجاهدين الأحياء ، الذين صبروا وصابروا ، وبسموا للخطوب السود فى الظلام المكفهر حتى تبلج الصباح .

« فاوهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا »

وحيا الله هـذا الرئيس الأمين ، الطاهر القلب ، المبارك الناصية « شكرى » شكر الله مساعيه ، وحيّا أصحابه الكرام ، وحيا كل من شارك فى تحرير سورية بيده أو لسانه .

وبعد فياسوريتنا العزيزة ، قد رفع الزمان الأعباء عن كواهل الأعداء فوضعها على كواهل الأبناء ، فليحملوا أعباء الواجب ، وليؤدوا تكاليف المجد ، وليبنوا مستقبلهم بأيديهم لأبنائهم ، وليعلموا أن حاضر العرب يؤمّل فيهم ، وماضى العرب ينظر إليهم ، ومستقبل العرب ينتظرهم ، فليجمعوا القلوب والأيدى ، وليحسنوا البناء .

ألا إنه قد فتحت لهم صحائف فى التاريخ جديدة ، فليجيدوا الكتابة فى هذه الصحائف التى تخلّد كل شىء .

إنهم يبنون أجيالا ، ويكتبون تاريخاً ، فلينظروا كيف بناء الأجيال وكتابة التاريخ .

يا سورية الجميلة ! إن أبناءك اليوم قد رجعوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

عبد الوهاب عزام

(١) فى مدخل القلعة صورتان من الحجر لأسدين يقال إن أحدهما يضحك والآخر يبكى .

الأزهر فى مفترق الطرق

منذ أعوام ...

للأستاذ محمد محمد المدنى

حياك الله — ياصاحب الرسالة — وبياك ، ولا زلت موفقا راشداً تنافح عن الحق ، وتدعو إلى الخير ، وتهدى إلى الصواب . وجزاك الله خيراً عن «الأزهر» أنت وصاحب «العبقريات» عباس ، فلقد نوهتما به فى الناس ، وما كان خاملا ، ولكن بعض الذكر أنبه من بعض ، وأقررتما حقه فى حياة عزيزة كريمة ، يرفع بها لواء الإسلام ، ويذود عن حمى الدين ، وينشر ثقافة العرب ، ويحفظ التراث الغالى الذى لم يبق على ظهر الأرض من يستطيع أن يحفظه سواه !

ولا زالت « الرسالة » الغراء مشرق نور ، ومصدر علم وأدب ومنتدى رأى وحكمة ، ومحجة صلاح وسداد ...

***

أما بعد فإن الأزهر من حيث نظامه ، وأقسامه ، وخططه ، ومناهجه ، وقوانينه ، ولوائحه ؛ لا يكاد ينقصه شىء : جمع بين الحديث والقديم فى نظام رتيب رزين لا إفراط فيه ولا تفريط ، وقرر من الكتب والدراسات والأساليب ما هو أدنى إلى تحقيق غايته ، وتقريب رسالته مع احتفاظه بشخصيته التاريخية ، وطابعه القوى الإسلامى ، وقسّم مراحل التعليم فيه أقساما لا يستغنى لاحقها عن سابقها ، وأعد للدراسات العلى وللاخصاء كليات ثلاثاً ، له أن يزيد عليها كلما قضت بذلك حاجة العلم توسعا وإخصاء ، وفيه إلى ذلك « جماعة » ذات شأن وخطر ، كفل لها القانون حصانة ، وجعل لها مقاما محموداً ، ومنحها سلطاناً أى سلطان فى شئون العلم والدين ، وله مع هذا مجلة تحمل اسمه الرنان وذهبه الرنان أيضاً ! ، وللمجلة « مدير » عظيم ! ... و «مدد» من الكتاب كذلك عظيم ...

هكذا الأزهر فى نظامه وأقسامه ، وخططه ومناهجه ، وقوانينه ولوائحه ، وهو من هذه الناحية بخير والحمد لله ، وإن كان فى بعض التفصيل محتاجا إلى تهذيب أو تقويم .

وكان فضيلة الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ المراغى يعتقد — ويعتقد معه رجال دعوة الإصلاح — أن هذا النظام فى جملته هو خير النظم ، وأن الأزهر لا يحتاج إلى تعديله ، وإنما يحتاج إلى « تنفيذه » ، وليس الغرض تنفيذه شكلا ومظهراً ، ولكن جوهراً وروحاً ، وبأيد قوية حازمة ، وأعين بصيرة ، وقلوب مؤمنة ، وعقول على التدبير له والتفكير فى شأنه مقصورة ، فإن المظهر الذى لا روح له ، ولا حقيقة تؤيده ، يضر ولا ينفع ، ويؤخر ولا يقدم ، وإن التطبيق الصالح لنظام فيه بعض المزايا خير من التطبيق السىء لنظام من أرقى النظم .

كانت المعركة بين رجال الإصلاح وبين فضيلة الأستاذ الأكبر المراغى رحمه الله لا تعدو هذه الدائرة ، وكان لفضيلته ناحيتان : ناحية يرى بها رأى المصلحين ، ولا يجادلهم عليه ، ولا ينازعهم فيه ، بل كان يقرر فى عبارات صريحة جريئة أن نظام الأزهر لم ينفذ ، وأنه هو منذ تولى أمره لم يخط خطوة جادة فى سبيل تنفيذه على النحو الذى يطمئن إليه قلبه ويستريح إليه ضميره؛ وناحية كأنها تحول بينه وبين ما يريد ، وتغلبه على أمره ، ذلك بأنه كان رجلا خطيراً ، نزّاعا إلى غايات ، نظّاراً إلى جوانب ، يغار على نفسه ، ويعتز بشخصه ، ويحسب للسياسة حسابها ، فيلمحها ويتطلع إليها ، ويراقب تياراتها ، ويفيد منها ، ويحارب بها ، ويجرى فى كثير من أعماله وأحواله على أساليبها ، فلم يكن من السهل عليه مع هذا أن ينفذ ما شرع ، وأن يحقق ما رأى ، فكان قصاراه أن يصابر الداعين ، ويلاين المهاجين ، وينتحل المعاذير فى لباقة وحسن تخريج ، ويحيل على الزمن ، ويُرى أنه يتربص للظروف والمناسبات ، ولكن رجال الدعوة أعيوْا به وأعيابهم ، فانقلبوا عليه وانقلب عليهم ... فكانت ثورة الأزهر!

ولعل الأستاذ الزيات وقراءه الكرام لم ينسوا أن الرسالة الغراء كانت حاملة لواء تلك الدعوة . ولست أنسى أنها نشرت فى بعض أعدادها المذكرة الراغبية المشهورة فى إصلاح الأزهر ، ثم علقت عليها بهذه الكلمة الجامعة اللاذعة التى ضمنها الأستاذ الزيات خلاصة الدعوة وغايتها حيث يقول : « هذه المذكرة هى مقطع الصواب فى هذا الباب ، وما نظن أحداً ممن تحرى وجوه

الصلاح لهذه الجامعة الإسلامية العظمى قد بلغ من ذلك بعض ما بلغ الإمام (المراغى) فى هذه الكلمة ... فلم يبق عليه إلا أن ينفذ ما وضع ، ويطبق ما شرع .

« إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأى أن ترددا » [١]

وقد توالت النذر ، وتتابعت الصيحات ، على صفحات الرسالة ، وفى التقريرات المرفوعة ، وفى المحاضرات العلنية الجامعة ، وكان منها تلك المحاضرة التاريخية التى ألقاها رجل كبير مسئول، لرأيه وزن وتقدير فى الأزهر وفى غير الأزهر ، هو فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت عضو جماعة العلماء ووكيل كلية الشريعة « يومئذ » ، وقد عرض فيها لحالة الأزهر قديما وحديثا ، وبين مدى انتفاعه بقانون الإصلاح المبنى على المذكرة المراغية ثم قال موجها كلامه إلى إخوانه وأبنائه من الأزهريين :

« أيها الإخوان . أيها الأبناء . لا أحب أن أبرح مكانى هذا حتى أصارحكم بما يجب أن نحسب حسابه ، وأن نجعله نصب أعيننا من التفكير والعناية : إن الازهر حقيقة كان مقصراً فيما مضى ، ولكن الأمة لم تكن قد نهضت هذه النهضة ، ولم تكن قد مارست من الشئون ما تمارس اليوم ، فلم يكن الفرق بينها وبين الأزهر يومئذ ملحوظا ، أما اليوم فإن الأمة قد تنبهت وأصبحت تكلف أبناءها نشاطا فى خدمتها ، ودأبا على ترقية شئونها ، وإخلاصاً وتفانياً فى أداء واجباتها ، وهى ترقب عن كثب ماتعمله كل طائفة لتحل هذه الطائفة محلها من الإعتبار أو الإهمال .

« ولست أشك فى أن أبناء الأزهر اليوم قد وسعت الحياة مداركهم ، وملأت بالآمال نفوسهم ، وخلقت فيهم استعداداً حسناً للاضطلاع بأكبر المهام ، ومنافسة أعظم الجامعات ، وإنه لا ينقصهم سوى شىء من العناية الجادة الحازمة يتصل بهم ، فيربط بين قلوبهم ، ويكشف لهم عن وجهتهم ، وينظم جهودهم ويبرز أعمالهم ؛ وليس من الرأى أن نترك هذه النفوس المستعدة المتطلعة إلى المجد حائرة دون أن نهديها السبيل [٢] »

تلك صفحة من تاريخ الجهاد فى سبيل الأزهر ، وفى الرسالة صفحات وصفحات !

***

و ... أما بعد — مرة أخرى — فإن الأزهر كما تقول يا صاحب الرسالة فى مفترق الطرق ، وهو فى مفترق الطرق منذ ذلك العهد ، حين وضع نظامه الجديد ثم اكتفى فى تنفيذه بالعرض دون الجوهر ، وبالقشور دون اللباب ، وسيظل فى مفترق الطرق حتى يأذن الله له بنفحة من نفحات الجد والعزم والإقدام يُقصَد بها وجهُ الله فحسب ، ولا تلويها السياسة ولا الأغراض ولا المناصب ولا الدسائس عن غايتها . يومئذ يندفع الأزهر من مفترق الطرق سيراً إلى الأمام ، يسابق فيسبُق وإنه لسباق !

أما إذا طالت وقفته ، فإن ركب الحياة لا يستأنى له ، ولا يصبر عليه ، ويومئذ تكون التى نسأل الله ألا تكون !

وأحب أن أقول : إن عهد المغفور له الأستاذ الأكبر المراغى قد مضى بماله وما عليه ، واستأنف الأزهر عهداً جديداً وشيخاً جديداً ، فمن الخير أن نعتبر بما كان حتى لا نقع فى مثل أخطاء الماضى . من الخير أن نقدم مصلحة الأزهر جامعتنا المحبوبة على كل مصلحة ، وأن نسوسه بسياسة غايتها نجاحه هو لا النجاح على حسابه ؛ غايتها توجيهه توجيهاً علمياً إسلامياً نافعاً مثمراً صادقاً لا توجيهاً سياسياً ولا حزبياً ولا طائفياً ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب !

لقد انقضى هذا العام الدراسى فى الأزهر كما انقضت أعوام من قبله ، ولم نر إلا وجوها جديدة ، ومناصب جديدة ، وعلاوات ودرجات وترقيات ، أما ما وراء ذلك فإنى أكون مقتصداً جداً إذا قلت إن الحال هى الحال !

وقد يقال : إن الإدارة الجديدة لم يمض عليها بعد زمن نحاسب معه على ما قدمت أو أخرت ، ولكن هبوا الصبح لم يشرق فأين تباشيره ؟ أين ما يدل على نوايا الخير والإصلاح والنهوض ؟

كنت أتوقع أن يكون أول ما يهتم به فضيلة الأستاذ الأكبر الجديد ، أن يجمع كل ما كتب فى الصحف أو التقارير على عهد فضيلة الشيخ السابق ، وأن يضم ذلك إلى محاضر اللجان

(١) الرسالة المجلد الأول من السنة التاسعة ص ٦٩١

(٢) محاضرة (السياسة التوجيهية العلمية فى الأزهر) لفضيلة الشيخ محمود شلتوت — ص ١٤ . وقد ألقيت هذه المحاضرة بدار كلية الشريعة فى فبراير سنة ١٩٤٣ .

المتعددة التي ألفت لبحث أسباب الركود وعوامل الضعف ، وأن يراجع جميع المشروعات التي وضعت ثم طويت ، وأن يدرس جميع المشاكل التي تسبب القلق للدراسة في كل عام من مطالب للطلاب أو الأساتذة ، وأن يتصل بالمختصين في كل وزارة ليصون حقوق الأزهر التي في يديه ، ويسترجع حقوق الأزهر التي انتزعت منه .

كنت أتوقع أن يسأل عن البرنامج العملي الذي وضعته لنفسها « جماعة كبار العلماء » باقتراح من بعض أعضائها . لوضع تفسير للقرآن الكريم خال من الحشو والروايات الموضوعة والإسرائيليات ، ولبحث ما جد ويجد من المعاملات ، ولتنظيم الوعظ والإرشاد على طريقة مجدية ، ولكذا وكذا ... مما جاء في هذا البرنامج الذي وضع ثم أقر ثم أميت . فبأي ذنب قتل ؟

كنت أتوقع أن يسأل عن قسم تخصص المادة في الأزهر وما سبب توقفه ؟ وهل كانت ريحه تجري رخاء كما أراد القانون ؟

كنت أتوقع أن يسأل عن اللجان التي ألفت لترجمة المفيد من كتب الغرب العلمية تمهيدا لإخراجها والانتفاع بها .

كنت أتوقع أن يسأل عن حالة البعوث العلمية التي تفد إلى الأزهر من سائر البلاد الإسلامية شرقيها وغربيها ليعلم : أيقوم الأزهر بأداء أمانته في هذه الناحية ؟ وما مدى قيامه بها ؟

كنت أتوقع أن يقرأ مجلة الأزهر ، ثم يسأل عن مشروع إصلاحها وماذا فيه ؟ وفي أي درج من الأدراج هو الآن ؟ لينفض عن الغبار ، وينفى عنه القتار !

كنت أتوقع أن يسأل عن « مشروع بناء الجامعة الأزهرية » وبعض المعاهد الدينية تمهيداً لاستئناف العمل فيه ، وقد شرف فضيلته بعد انتهاء الحرب ، وفي ظلال الأمن والسلام .

كنت أتوقع ذلك كله ، وكنت أتوقع أكثر منه ، لأني أعرف أن الأستاذ الأكبر الجديد رجل أزهري من تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، يغار على الأزهر ، ويسره صلاحه ونجاحه ، وأنه قد ضم إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبية ، وتقلب في مناصب عدة ، وكنا نسمع عنه من أصدقائه المتصلين به أنه غير راض عما كان قبله من المطاولات والمراوغات .

كنت أتوقع ذلك كله ليسير الأزهر في عهده الجديد سيراً حثيثاً إلى الإمام ، فيتدارك ما فاته ، ويحقق ما أخذ على عاتقه تحقيقه ويثبت للناس بالأعمال لا بالأقوال أنهم في حاجة إليه ، وأن غيره لا يغني عنه .

ولكن شيئاً مما توقعته لم يكن ، أو أنا على الأقل لم أره ولم أعلم به ، وما أحسب الأمر من السر والكتمان ، بحيث يكون ولا أعلم أنه كان !

ومهما يكن من شيء فلا أحب أن نيأس ، وقد كنا سمعنا أن فضيلة الأستاذ الأكبر قال في أول خطبة له بعد أن تولى منصبه مخاطباً أبناء الأزهر : « أما والله لأدفعنكم بكلتا يديّ إلى الطريق ! » فإن كان موعد هذا الدفع لم يحن بعدُ فنرجو ألا يطول بنا الانتظار !

* * *

وأما بعد مرة ثالثة ، فإن لي في شأن اقتراح الأستاذ الكبير الزيات ، وما أتبعه به الأستاذ الكبير العقاد ، رأيا ، وليس المجال اليوم بذي سعة فأدلي به ، فإلى اللقاء — إن شاء الله — في حديث بعد هذا الحديث .

محمد محمد المدني

المدرس في كلية اللغة العربية

محاربة المرض والفقر والجهل :

إلى القرية ... ياشباب

للأستاذ علي الطنطاوي

لما كنت موظفا (فى بغداد) كنت أجلس كل عشية على سطح منزلنا فى (الأعظمية) أشرف على الحقول التى تمتد إلى غير ما حدّ ، أرقب الشمس وهى ترجع إلى خدرها ، والفلاحين وهم يؤوبون إلى منازلهم فى خط طويل متسلسل كأنه نهر جار، نهر يجرى منذ عصور مديدة لا يقف ولا ينقطع ولا يبلغ مصبّه ، يسوقون دوابهم التى أنهكها العمل ، وأضناها الكد ، كما أضنى أصحابها الشغل المتواصل فى الحقول ، الشغل السرمدىّ الذى يبدأ مع الفلاح حين تبدأ حياته ، ولا ينتهى حتى تنتهى ، يشتغلون وهم أطفال ، ويشتغلون وهم شباب ، ويشتغلون وهم شيوخ ، لا يستريحون ولا ينالون على تعبهم إلا لقمة من خبز الشعير ...

فيالروعة الواقع !

هؤلاء الذين يشتغلون هم ونساؤهم وأطفالهم ودوابهم ليقدموا للناس القمح لا يأكلون خبز القمح! هؤلاء الذين يرفعون عماد الدولة لا تدرى بهم الدولة ، ولا تهتم بهم ! هؤلاء الذين يملأون بالذهب صناديق السادة الكسالى يحتقرهم السادة ، ولا يدعون فى جيوبهم قرشاً يشترون به ثوبا نظيفا لطفلهم الذى يتبع طفل السيد ، كأنه الكلب الجائع يسأله قطعة من (العيش) الأبيض الذى يزرعه أبوه هو ، فلا يعطيه إلا الحجر الذى يرجمه به ، إنه يستنكف عن أن يمسه بيده الناعمة الرخصة البنان ...

كنت أرى ذلك فيذهب بى الفكر إلى عشرات من المشاهد رأيتها فى قرى الشام وفيما زرت من قرى مصر ...

يذهب بى الفكر إلى حوران يوم زرت رفيقاً لى كان معلماً فى إحدى قراها ، فرأيته يسكن عند الفلاح فى داره المبنيّة من الأحجار السود المكدسات ، بعضها فوق بعض ، لا يمسكها أسمنت ولا طين ، ولايدرى الساكن تحتها متى تهبط عليه فترديه قتيلا . وفى هذه الدار غرف متعددات ، فى الأولى البقر ، وفى الثانية الحمير ، وفى الثالثة الخرفان ، وفى الرابعة الفلاح وأسرته ، يعيشون كما تعيش تلك البهائم ... ولقد أمسكت بأنفى لما دخلت الغرفة ... لأن الرائحة كادت تقتلنى : رائحة الدواب التى تأتى من هناك ، ورائحة (الجلّة ...) التى يوقدونها فى وسط الغرفة ، فى حفرة حفروها فيها ، لأنهم لايملكون ثمن الحطب ولا الوقود ، ولكنى صبرت وولجت متوكلا على الله . ولما صافحنى الفلاح بيده المتشققة الخشنة شعرت كأنى ألمس مبرداً ، ولكنى صبرت (أيضا) لعلمى بأن هذه اليد الخشنة هى التى تقدم إلى الخبز الذى أعيش به ، والمال الذى آخذ منه راتبى ، وأشترى منه هذه الثياب التى أفتخر بها على الفلاح ، وأخشى أن يدنسها بيته . ثم رأيت أطفاله وأردت نفسى على مداعبتهم ، فإذا هم يحملون الأقذار على ثيابهم ، والذباب على أفواههم ، والقذى فى عيونهم ، والمرض فى أجسامهم ، وليس فى القرية طبيب ، وليس فيها دائرة صحة ، وليس عند الفلاح مال ، وليس عنده علم . إن السادة الذين أخذوا ماله وثمرة كدّه لم يعلموه ، ولم يعطوه أجرة الطبيب ... ثم جاء الفلاح بالأكل وأعقبه بالشاى ، وإنى أعفى القارئ من وصف هذا الأكل وهذا الشاى ... أخشى أن يصيبه الغثيان !

ويعود بى الفكر إلى حوران ، وقد زرت تلك القرية مرة ثانية ، وكان ذلك فى وقت الحصاد ، يوم حق للفلاح أن يتمتع بتعبه بعد سعى موسم كامل ، يوم نال مكافأته على هذا التعب الطويل ، والشغل المضنى ، فاذا الدائنون المرابون والجابى ، ينتظرون على باب المنزل . فلما رجع الفلاح إلى منزله هاشاً باشاً مبتسما ، يحمل المال الذى حصل عليه بجدّ يمينه وعرق جبينه ، اعترضوا طريقه قبل أن يصل إلى أولاده ، فأخذوا المال كله فلم يف بالذى يطلبونه وبقى عليه للحكومة أربع وثلاثون ليرة ...

يا للقانون ! يا لحق الخزينة ...

يا أيها الجابى شدّ ركابك ! يا أيها الجندى أعدّ سوطك وسلاحك ! يا أيها الناس أقيموا القيامة على هذا اللص الذى أكل أموال الدولة ...

حلّ البلاء بساحة الفلاح المسكين ، ونزل عليه جنود الدرك يقيمون حتى يؤدى المال ، يتشهون عليه المآكل ، ولا يرضون بغير الدجاج والخرفان ، وهم فى بيوتهم لا يأكلون إلا الزيتون

والجبن ، ويأخذون شعيره ليطعموه دوابهم ويضربون وجهه وظهره ... إنهم يطلبون بقية الضريبة ...

ولكن لم يبق عنده شيء .

إذن فلتتبع أمتعته .

ولم يجدوا عنده إلا الفراش القذر ، واللحاف الخلق ، والبساط المخرق ، والقدر الأسود ، فباعوها بالمزاد العلني وتركوه على الأرض .

ولما رجع الجباة كلهم إلى العاصمة ... وجمعوا ماملأ الخزانة تبسم ولي الأمر ، وقال لأعوانه :

— لقد اجتمع مال يكفي السنة كلها ، وإننا لا نستطيع أن نرد هاتيك الوسائط كلها والشفاعات ، فأعدوا مرسوما بإعفاء فلان بك من الضرائب المتراكمة عليه من سبع سنين ، وهي تسعة وعشرون ألف ليرة وسبعة وخمسون قرشاً ...

أعفوه ، ولكن تسعة عشر ألف فلاح صاروا ينامون على الأرض ، لم يبق لهم فراش !

* * *

كنت أذكر ذلك وأنا أنظر إلى خط الفلاحين الذين يعودون إلى دورهم ، وقد غاب أوله خلال الظلام ، فأفكر في هؤلاء الفلاحين إلى متى يمشون ؟ أما لمشاهم نهاية ؟ أما لطريقهم آخر ؟ أكتب عليهم أن يشاركوا البقر والحمير في عملهم وطعامهم وسكناهم ؟ أكان لزاما عليهم أن يعملوا أبداً ليستريح الـ (بك) أو (الباشا) ؟ ويجوعوا ليأكل ؟ ويفنوا جسومهم ونفوسهم ليأخذ هو الذهب فينفقه على موائد الخمور ومجالس الفجور ؟

أيبقى هؤلاء الناس جاهلين ، يعيشون بمعزل عن الحياة ، يترفع الشاب المتعلم عن الجلوس إليهم ومصافحتهم والسلام عليهم ، وإذا بعثوه ليكون معلماً لهم ، أو موظفاً فيهم ، أقام الأرض وأقعدها ولم يدع وسيلة للتخلص من هذا (النفي) إلا توسل بها ؟

إن الفلاحين في بلاد العرب ، هم جمهرة السكان ، هم حياة البلاد ، هم الشعب ، فإلى متى يبقون محرومين من العلم والصحة والنظافة والإنصاف والمدنية ؟

فكروا في هذا أيها الشباب ...

يا أيها الشباب الذين يعرفون القرية ومعيشتها وحالة أهلها ...

يا أيها الشباب الذين يحبون بلادهم ، ويريدون صلاحها ...

إن الشاب النافع هو الذي يخدم ويعمل ويدع أقواله ، أما صاحب الجعجعة والكلام الفارغ فلا ينفع أحداً ، إن ميدان القرية أحوج الميادين إلى همم الشباب ، وذكائهم ، ومعرفتهم ونشاطهم ، لا أريد أن يترك الطلاب مدارسهم ليزرعوا الأرض ، ويعيشوا في الحقل ، ولكن أريد أن يفكروا بمثل (مشروع إنعاش القرى) الذي قام به في صيف سنة ١٩٣٣ نفر من طلاب الكلية الأميركية في بيروت ، فانتخبوا من المتطوعين للعمل في القرية فريقاً بحثوا أسبوعا في (مؤتمر) عقدوه ، ودرسوا أحوال القرية اللبنانية ، وعرفوا داءها ، وفتشوا عن دوائها ، وكان يعاونهم بعض الأساتذة والخبراء الفنيين ، ثم ألفوا أربع بعثات وأرسلوها إلى القرى ، فدرست الحال عن كثب ، ورأت أن العمل في قرية واحدة يقيمون فيها الصيف كله أسهل وأنفع ، وأنه يجب على أعضاء البعثة أن يحملوا خياما يبيتون فيها ، وطعاماً لهم وشرابا ، ليخففوا عن الفلاح ولا يرزؤوه شيئاً ، وليروه لونا من الحياة جديداً ويحببوه إليه ، وكان من أهم أغراض أصحاب ذلك المشروع :

١ — الصحة ، فيكون في البعثة الصحية قسم للدرس والإحصاء والتعليم ، وقسم للتطبيب .

٢ — النظافة ، بتعليم الناس ومحاضرتهم ، وبالعمل على إصلاح مجاري الماء الطيب والخبيث ، وتنظيف الطرق وتجفيف البرك .

٣ — الزراعة ، بإرشاد الفلاح إلى طرقها الجديدة ، وآلاتها الحديثة ، وأصول مكافحة الحشرات والأمراض .

٤ — تعليم الأميين من الفلاحين ، والعمل على إنشاء المدارس لأولادهم .

* * *

إننا اليوم على أبواب العطلة الصيفية ، وسيبقى أكثر الطلاب في المدن ، يرتادون القهوات ، ويؤمون السينمات ، ولا ينفعون خلالها ولا ينتفعون . فهل يعمل فريق من الطلاب في كل بلد على (إنعاش القرى) على نحو ما ذكرنا ، فيكون لهم من ذلك صحة في أجسامهم ، وقوة في نفوسهم ، وخبرة ببلادهم ، وخدمة

نظرية الأجناس البشرية والكونت دى غو بينو

الأستاذ ماجد بهجت

جدير فى هذا الظرف الذى يمثل فيه زعماء النازية أمام محكمة نورمبرج الدولية ومن بينهم روزنبرج حامل لواء العقيدة الجنسية وزعيم حركتها ، أن نقدم إلى قراء العربية خلاصة عن نظرية الأجناس البشرية التى بشر بها الكونت دى غوبينو الفرنسى، ولا سيما وأن هذه النظرية شغلت الرأى العام طول الحرب وهى ما تزال موضع تفكير الناس واهتمامهم . على أنا حاولنا جهدنا الاختصار تاركين لأهل العلم والاختصاص الإفاضة والتطويل . وقد اقتصرنا على ماجاء فى أصل النظرية لدى الكونت دى غوبينو وتأثيرها فى حينه . هذا ولعلنا نعود إليها ثانية لنستكمل بحثها والتطور الذى طرأ عليها فى العهد النازى .

الكونت دى غوبينو :

فى يوم من أيام ١٤ يولية الذى دك فيه الباستيل وخرج الأحرار منه يعلنون حقوق الانسان ومبادئ الحرية والمساواة تمخضت امرأة حامل من الأسر الفرنسية النبيلة عن غلام هو الكونت « جوزيف ارتوردى غوبينـو » ، وقد اشتهرت هـذه الأسرة بعدائها للثورة الفرنسية ومبادئها فشب الطفل يوسف على المنوال نفسه ، شريفاً فيه نزعة الأرستقراطيين وعلى شفتيه نبرات الأمر ، محباً للمطالعة مشغوفاً بالسياحات ، أراد أبوه الضابط فى حرس شارل العاشر ملك فرنسا أن يجعل منه ضابطاً مثله فى السلك العسكرى فأدخله بعـد إعداده الاعداد الدراسى اللازم مدرسة سان سير الشهيرة ، لكنه لم يحظ برؤية ابنه متوشحاً الأوسمة يختال ببزته العسكرية إذ انتقل إلى دار الفناء، فانتقل ابنه إلى عهدة عمه الكونت تيبو يوسف دى غوبينو الذى اشتهر فى يوم ٩ بترميدور باطلاقه رصاص مسدسه مع بعض المتهوسين على يعاقبة المؤتمر الوطنى . أراد الكونت العم أن يستعمل سلطته فلايدع ابن أخيه يتصرف فى الأموال التى خلفها له أبوه على هواه فكان نزاع بينهما انتهى بأن استقل الكونت الشاب بثروته فسكن باريس وانكب انكبابا منقطع النظير على الدرس والقراءة ، فانه ليستمر عليها أياما طوالاحتى إذا شعر بحاجته إلى اللهو والراحة عمد إلى قطعه من الحجر ينحت فيها على شكل أقنوم أو تمثال جميل أو إلى يراعه يجبر على القرطاس ما تجيش به نفسه من المشاعر والأهواء ، وكأن كتاب مدام دى ستال عن سياحتها فى ألمانيا قد أثر فيه فيؤثر تلك البلاد برحلاته وتجواله ثم يتحول إليها ويلتحق بجامعة مدينة ينا ، وهناك يبدأ حبه للعنصر الجرمانى الأشقر حتى إذا عاد إلى بلاده انكب كعادته

لإخوانهم ، ومأثرة باقية عند الناس وعند الله ، ونجاة من ملل الصيف وحرّه ، ويكون لهم من هـذه الإقامة فى القرية تحت الخيام ، وهذا التعاون مع إخوانهم على هذا العمل الصالح سعادة تمر الأيام ويذهب الشباب ، ولا تمحى من النفس ذكراها ، ويكون ذلك هو الدواء الشافى لهذا الداء المثلث الذى استعصى على الأساة ، داء الفقر والجهل والضعف ... هل يقبل على ذلك شباب (الإخوان المسلمين) السباقين إلى كل خير ؟

وهل يعمل هؤلاء الشباب على إنشاء (أدب القرية) ؟ ذلك بأن يدعوا الكتاب والشعراء إلى وصف حياة القرية ، وأن يكتبوا فيها القصص ، والمباحث ، ويختلطوا بالفلاحين ، ويترجموا لنا آمالهم وآلامهم . وهذا اللون من ألوان الأدب موجود فى كل الألسنة واللغات إلا اللسان العربى ، فانه قليل فيه أو هو نادر ، وعلة ذلك احتقارنا الفلاح ، وإهمالنا شأنه ، ونسياننا أن الفلاحين ناس مثلنا ، يبذلون فى سبيلنا كل شىء دون أن تصل إليهم مكافأة ، أو ينالوا ربحاً ، أو يسمعوا شكراً؛ بل إنهم ليتمنون أن ينظر إليهم الـ (بك) كما ينظر إلى كلبه العزيز عليه ، الأثير لديه ...

فيالهؤلاء المساكين !

إن المروءة والشرف والواجب الوطنى ، والدين والإنسانية ، وكل مبدأ مقدس يدعوكم إلى مساعدة الفلاح ، ياأيها الشباب ...

فيا أيها الشباب : إلى القرية ... إلى القرية !

***

لا . لست اشتراكياً ، ولا شيوعياً ، ولكنى إنسان ، وإنى مسلم !

على الطنطاوى

على مطالعة كتب المشرقيات محاولا استخراج برهان لشيء يجول في خاطره ، أو غاص في كتب علمية مختلفة بيولوجية وفزيولوجية أو فلسفية وتاريخية يستنتج منها مادة لنظرية جديدة .

العوامل النفسية لدى الكونت دي غوبينو :

هي نظرية جديدة تتجاوب مع نفس هذا الشاب الارستقراطي الذي أتت الثورة على امتيازاته فزحزحتها ، وتتفق مع هذه النزعة الاستعمارية في الفتح والتوسع التي بلغت أشدها في القرن التاسع عشر أوحت إليه بها كل هذه العوامل المحيطة به ، فهو لا يرتضي أن يتساوى مع غيره لأنه أرفع منهم شأنا ، ولا يريد أن يكون وإياهم على صعيد واحد من حيث سلالة العرق وجريان الدم ، لكن مثل هذه الأوهام لا يمكن أن تنطلي على طبقات الشعوب الأوروبية ، لا سيما وأن مبادىء الثورة أعطتهم الدليل تلو الدليل على أن مسألة تأخر أناس وتقدم آخرين هو محض تهذيب وتثقيف أصاب منه واحد بسهم وحرم منه الآخر .

من هم إذاً ؟ هم هؤلاء الشرقيون الذين انحطت مدنيتهم في هذه العصور الحديثة وقلت وسائل دفاعهم ، مما جعلهم عرضة لأطماع سكان أوروبا الغربيين . وجد الكونت دي غوبينو ضالته فلم يبق عليه إلا أن يدعم رأيه بالبرهان ويؤيده بالمنطق العلمي .

يدخل الكونت السلك السياسي الخارجي وتظهر له كتابات أدبية عديدة، منها مأساة في خمسة فصول وقصص فروسية مختلفة، وإنها لتمضي خمس عشرة سنة يقيم في أثنائها تارة في برن عاصمة السويسريين ، وتارة في فرنكفورت من أعمال ألمانية حيث تجرى له مقابلة مع الوزير الألماني الشهير بسمرك ، ولكنه يظل في كل هذه المدة دائب العمل على البحث والتنقيب ، وفي حوالي سنة ١٨٥٣ يدفع بنظريته إلى النشر .

النظرية :

إن المخلوقات من حيوان ونبات وجماد تخضع لقانون طبيعي أزلي يتميز بعضها من بعض . فهناك فصيلة خير من فصيلة ، وعنصر خير من عنصر ، وبطون خير من بطون .

ففي الحيوان ترى الخيول العربية مثلا أفضل من غيرها .

وفي النبات ترى الورد الجوري له رائحة زكية هي أعبق وأشهى على الشم من غيرها .

وفي الجماد تجد للفولاذ متانة تفل الحديد . كذلك الإنسان — وهو عنصر من الحيوان — فإن لبعضهم تفوقا على آخرين ، وهذا الإنسان المتفوق « إنسان أعلى » Sur hommc ، وإنه ليكثر عدد المتفوقين في شعوب دون شعوب ، فبطبيعة الحال تكون هذه الشعوب التي كثر أفرادها المتفوقون ، شعوبا متفوقة « شعوباً عليا » Snrpeuples ، وما دام قانون الطبيعة يعطي الغلبة للسامي المتفوق فإن من الحق الطبيعي لهذه الشعوب المتميزة أن تكون لها السيطرة ، وأن تقبض بيدها على مقدرات العالم .

هذا وإن تطور تاريخ تطور الشعوب — كما تقول النظرية — هو تطور العرق ذاته ، ولقد كانت الأمم ذات البشرة البيضاء سباقة إلى المدنية والرقي ؛ بل إنه كتب لها دائما الظفر في جميع الميادين فدلت على علو كعبها وسمو محتدها . وهناك فوارق ذات بال في الجنس الأبيض نفسه ؛ فإنها ليست كلها سواسية ، فالرفعة والسمو منحصران في العناصر المتحدرة من أصل آري فقط ، لا سيما ما كان منها من هذه الكتلة المختارة أحفاد الجرمان والفرنك القدماء، وأن زعم الساميين القديم بأرجحيتهم وحصر مظاهر القوة والجمال والذكاء فيهم ، والعوامل التي تؤهلهم لأن يتحكموا بالعالم على هواهم ، هو مجرد بطلان وأوهام، فإن العنصر السامي أحط من أن يبلغ المستوى الذي فيه العنصر الآري فلا عبرة هنا لبياض بشرته .

تعتمد النظرية في إثبات دعواها على أربعة عوامل : روحية ، وعلمية ، وتاريخية ، وواقعية .

١ : إن القدرة العلوية شاءت أن تختار عنصرا متفوقا من بني الإنسان ، لتعهد إليه بالإدارة ، ولتكل إليه أمر القيادة في العالم .

٢ : إن العلم في ذاته فيه دافع إلى السيطرة والغلبة ، فإنه يسلح صاحبه وسائل ارتقائه وسموه .

٣ : إن التاريخ يحدثنا عن الأبطال وحدهم ، فهم السادة المطاعون القابضون على زمام الأمور .

٤ : إن الواقع يصف لنا حاجة الأمم الماسة إلى التوسع ، وبسط النفوذ نتيجة لزيادة الإنتاج وكثافة النسل .

وتنتهي النظرية بالدعوة إلى وجوب إنشاء امبراطورية واحدة تضم جميع هذه الشعوب التي كتب لها ابيضاض الجلدة وصفاء الدم فتهيمن على العالم وتسيره بإرادتها الجبارة .

وقع النظرية في فرنسا :

لم يؤبه للنظرية عند ما نشرت في فرنسا ، ولم تلق شيئا قليلا أو كثيرا من الاهتمام ، الأمر الذي أسقط في يد صاحبها ووقع في خيبة شديدة على عكس ما كان يؤمله ويرتجيه ، بل كانت منارا للهزء والضحك الشديدين، فكل ما قيل فيها أن الكونت دي غوبينو وهو من الاشراف أراد أن يثأر لأهل طبقته التي تدهورت عزتها هي والجاه الذي حملته دهرا طويلا ؛ بل إن الكتاب الذي أصدره الكونت نفسه فيما بعد عن قراءة الخطوط على أشكالها المختلفة أي قراءة ما يكتب بالعكس ، وبشكل عمودي أو مائل وغير ذلك كان له وقع أكبر من النظرية للبراعة التي أظهرها الكاتب في هذا المضمار لدى غواة هذا الفن .

وإذا أردنا أن ننصف النظرية لا نجد أنها أتت بشيء جديد فلم ينتظر الأنبياء وكبار المتشرعين أو القواد الفاتحون من الاسكندر المقدوني إلى يوليوس قيصر إلى شارلمان إلى نابليون أن يطمعوا في جمع العالم في امبراطورية تحت إمرة واحدة . ويظهر بطلان النظرية وفساد دعواها من تجريد الشعوب السامية عن كل سؤدد ومجد، وقد دلت هذه الشعوب في مختلف أدوار التاريخ على تقدمها ونجاحها . وليس أدل على ذلك من هذه المدنيات الباهرات التي سطع نورها من شواطيء النيل وما بين دجلة والفرات وفي رياض الشام وأنحاء العربية السعيدة في اليمن يوم كانت تلك النخبة المختارة من الجرمان والفرنك قبائل بربرية تعيش عيشة ابتدائية . ولقد كان يهون الأمر لو أن النظرية قدرت أن تبرهن على صفاء الدم وطهارة أي جنس من الأجناس البشرية عن الاختلاط بغيرها .

وقع النظرية في ألمانيا :

ظل الكونت دي غوبينو حياته مسافرا متنقلا من بلد إلى بلد ومن عاصمة إلى عاصمة ، يمثل بلاده كمعتمد أو سفير فلم يعتب عليه بلد أوروبي ، ناهيك عن أنه مكث حقبة من الزمن في طهران وعاش مدة في الريودي جانيرو ، ولقد كانت آخر هذه العواصم مدينة استوكهلم ، قام على أثرها بجولة في روسيا وأنحاء بلاد اليونان ، ثم عاد إلى فرنسا وأحيل على المعاش . ولا يخطر على بالنا أنه انقطع في كل هذه الحقبة عن الحياة الأدبية فهو ما فتيء مؤمنا بنظريته يمينا أعمى يجد فيها فتحا جديدا ، يتحدث عنها في كل مجلس يضمه ، الأمر الذي حدا بالأميرة غون بجشتيان أن تقول فيه : « هذا دون كيشوت حقيقي في قالب علماء الاجتماع ولباس رجال السياسة » .

لم يشأ القدر أن يترك الخيبة التي لحقت بالكونت تقتله من جراء الفشل الذي أصيبت به نظرية الأجناس البشرية ؛ فقد قدر له أن يجتمع في روما بالموسيقار الألماني الشهير ريشار فجنر ، فأغرم هذا بالنظرية وبصاحبها ووعده إذا قدم وإياه ألمانيا أن يعمل جهده على نشرها . وهكذا كان فاجتمع الصديقان في مدينة بايرون حيث احتفل أدباؤها بصاحب النظرية احتفالا باهرا وأظهروا استعدادهم لنشر آرائه ، وكان أول عمل قاموا به أن أسسوا من بينهم رابطة سموها باسمه ونشروا كتبه بالألمانية ، ومنذ ذلك الوقت اشتهر دي غوبينو في الأوساط العلمية والسياسية ، إذ أن النظرية جاءتهم في وقت كانوا فيه على وشك انتهائهم من تحقيق الوحدة الجرمانية يفكرون بتأسيس امبراطورية مترامية الأطراف ، فاتخذها رجال غليوم الثاني وسيلة لدفع الشعب على غزو المستعمرات ونشر العلم الألماني في الآفاق البعيدة حيث تقول النظرية بأن السيادة للغالب المتفوق ، وليس جديرا بالغلبة والتفوق غير الآريين ، والعنصر الجرماني أسمى عنصر آري .

ولقد لعبت النظرية دورا مهما في عالم الأدب والسياسة ، فتغنى بها الكاتب الألماني الشهير فريدريك نيتشه وأوحت إليه بعض آرائه عن السبرمان ، ومنها انبعثت فكرة المدى الجرماني Pan germinisme قبل حرب سنة ١٩١٤ ، وكانت للوطنية الاشتراكية بمثابة الحجر الأساسي ، ولها التأثير الأول في تجريد الأقلية اليهودية عن الجنسية الألمانية واعتبارهم عرقا رديئا منبوذا لا يجوز الاتصال به ، ولا ندري ما ستخلقه في المستقبل .

عامل انتشار النظرية في ألمانيا :

لا شك في أن الشعوب الشمالية هي أرقى الشعوب المتمدنة على الإطلاق . ولقد ولد فيهم هذا التفوق كثيرا من المنجهية والعزة بأنفسهم، بل ويخامرهم في بعض الأحايين احتقار لغيرهم من الشعوب التي لم تبلغ شأوهم في العصر الحديث . وما من أحد زار لندن عاصمة الانكليز المعروفين بأنفتهم إلا قرأ على بعض الأندية ومحلات اللهو العامة هذه العبارة « الشعوب الملونة غير مرغوب

فيها » وقد شاهدت بنفسي في برلين شريطاً سينمائياً تظهر فيه فتاة أوروبية شقراء تنشأ وتترعرع عند جماعة من أهل سيبريا النائية فتحب فتى جميلاً من بينهم وتتأهب وإياه للاحتفال بالعرس، ولكن المصادفة تجعلها تلتقي بفتى أوروبي أقل جمالاً من عريسها المنتظر الذي أحبته من كل جوارحها، وبالرغم من ذلك كله تشعر بإحساس يدفع بها إلى الأوروبي عندما يفضي إليها بإعجابه بها، وإيثاره إياها فتلحق به غير لاوية على شيء تحت تأثير هذه القوة الكامنة فيها التي جذبتها نحو جنسها طائعة أو كارهة. فإذا كان بعض هؤلاء الشماليين كأهل سكنديناوة مثلاً لم تظهر غطرستهم، فلأنهم مكتفون بأرضهم لا يطمعون في سواها. كذلك الشعب الألماني فإنه شعب راق شمالي أولع بنظرية الأجناس البشرية لأنه كما ذكرنا يطمح إلى إنشاء امبراطورية واسعة تليق به كأكبر أمة في أوروبا، فوجد فيها باعثاً يدفعه إلى تحقيق مآربه وصدى لما يصبو إليه في الفتح والتوسع. أما الإنكليز والفرنسيس فإنهم ليسوا بحاجة إليها فقد أسسوا امبراطوريتهم منذ عهد بعيد، واستولوا على ما استطاعوا الاستيلاء عليه. وخلاصة القول أن هذا الشعور بالتكبر والخيلاء أحس به كل غالب مسيطر إلا أنه لم يأخذ شكلاً علمياً في قالب نظرية إلا على يد الكونت دي غوبينو.

الوطنية ونظرية الأجناس البشرية:

يخيل إلى البعض لأول وهلة أنه ضرب من الخرق أن يقال إنه كان وما زال لنظرية الأجناس البشرية تأثير فعال في إيقاظ الروح القومي وتأجيج الشعلة الوطنية في العالم، لعلمهم أن الوطنية هي الشعور بواجب كل شعب من الشعوب نحو أرضه ولغته وتاريخه. ونحن لا نذهب غير هذا المذهب في تعريف الوطنية؛ إنما نريد أن نقول إن ظهور نظرية الجنس جعل كل شعب يفكر في أمره، ويمعن النظر في مصيره لعاملين اثنين: الأول دعوة النظرية إلى ضم الأمم الجرمانية في إمبراطورية واحدة. والثاني زعم النظرية بوجوب وضع العالم أجمع في قبضة هذه الكتلة الجرمانية المختارة، فلا يخفى أن العامل الأول يفقد الشعوب التي من أصل جرماني استقلالها، والعامل الثاني يضع الشعوب الأخرى تحت نير الاستعمار

يضاف إلى ذلك أن كل شعب غره الشنآن القومي الذي تطنب به النظرية، وإذا كان الكونت دي غوبينو يحصره في الجرمان وحدهم فإن الأقوام الأخرى فسرته على هواها، وفيما ورثته من تقاليدها وأيامها ترى الرفعة فيها والتفوق في قومها.

كل هذه الأمور أيقظت الروح القومي، فأخذت الشعوب تقوي في أفرادها فكرة الوطن والتعلق به، ولم تفت الإشارة إلى ذلك العالم الفرنسي هنري ديسون فأتى في كتابه عن الإسلام بما ملخصه « رأينا في العالم إثر نشر الكونت دي غوبينو نظريته عن الأجناس البشرية تحولاً غريباً، فقد تمسكت أكثر الأمم بأهداب القومية تمسكاً شديداً، وادعت باتصالها الوثيق بعرقها الأصلي في حين أن الحقيقة تكذب ذلك، فلم تسلم أمة من الامتزاج والاختلاط حتى لنتمكن من القول إنه ليس في هذا العالم من جنس صاف سليم. وقد شملت هذه الموجة القومية إبان الحرب العالمية المنصرمة أمم الشرق المسلمة؛ فبينما كانت تدعو إلى الجامعة الإسلامية تحولت إلى السعي وراء جامعة عربية. وهكذا الأمر في تركيا وفارس؛ فقد تركت زعامتها الإسلامية في سبيل المثل الأعلى التركي، واهتمت الثانية بشؤونها الخاصة. وهكذا الحال في وادي النيل، فقد رأى سكانه أنفسهم مصريين قبل أن يكونوا مسلمين. ولعل أقوى ما بقي عليه الشعور الإسلامي في أقصى الشرق المسلم في وزيرستان والهند وفي أقصى المغرب المسلم في طرابلس الغرب وتونس وما وراءهما ».

يغلب على ظن الناس أن النظام القومي خير نظام يعيشون فيه، ولكن الواقع وبخاصة في هذه الأيام الأخيرة يرينا العداوات تجرهم إلى التقتيل والتقطيع كأن مدنيتهم لم تقدهم في غير التفنن في شحذ الشحناء واختراع المهلكات. ما ذا كان يضير هذه الشعوب أن تعيش متآخية مجتمعة لا غالب ولا مغلوب، ولا آكل ولا مأكول؟ ... غير أن العلماء يجدون بأن النظام القومي هو مرحلة لا بد منها يمر فيها الناس قبل أن يجمعوا شملهم في إنسانية واحدة. وإنا نتمنى من صميم الفؤاد أن يمر العالم بهذه المرحلة فلا يقضي عليه الجشع والأثرة وحب الاستيلاء، ولنا في التاريخ أكبر العبر، وقد جاء في القرآن الكريم « ولا تنازعوا فتفشلوا ».

ماجد بهجت

الأدب في سير أعلامه :

ملـــتن ...

للأستاذ محمود الخفيف

- ١٠ -



تابع لمسرحية كومس الغنائية :

وما إن تتم العذراء أغنيتها حتى يبدو كومَس ، وقد طرب لهذه الأغنية وعجب كيف ينبعث مثل هذا اللحن من صدر أحد بنى الفناء ، وما يذكر أنه سمع لحنا مثله حتى ولا ذلك الذى كانت تغنيه أمه مع عذارى البحر فتسحر الملاحين به عن أنفسهم ، وتغرق سفنهم ؛ ويتقدم الساحر من الفتاة فيسألها من تكون فما يمكن أن يكون مثلها ممن ينتمون إلى هذه الغابة إلا أن تكون هى إلهتها ، فهى تقيم فيها مع بان إله الرعاة أو سلفان إله الغاب ، وترد الفتاة عليه وقد تمثل لها راعياً عليه سيماء الورع والهدوء قائلة إنها ماغنت فخورة بلحنها ، إنما تستميل (إكو) علها ترد عليها من تحبنها . ويسألها الراعى ماذا أضلها ، فتجيب بأنه الظلام وهذه المتاهات الملتفة الأوراق ؛ فيستنبئها أكان تركها بسبب عدم الوفاء أم بسبب الجفاء ؟ فتقول إنمــا كان ذلك ليبحثا فى الوادى عن نبع سائغ برود . ويعجب الراعى كيف يتركانها على ضعفها ، وليس معها من يحميها ، فتجيب أنهما أزمما أن يعودا على عجل ؛ ويقول ربما كان العائق الظلام ، فتجيب بقولها ما أسهل الحدس عليها وهى فيما هى فيه من تعس ؛ ويسألها الراعى أيكون فقدهما أهم عندها مما هى فيه من حاجة إلى معين ، فتنبئه أنهما أخواها ، ويستفهمها أوصافهما ، فــما تجيبه حتى يقول إنه رأى اثنين كما وصفت عند تل قريب ، وأنه أكبرهما أن يكونا من بنى الإنسان وحسبهما من تلك الخلائق السماوية التى تعيش فى ألوان قوس الغمام وتلعب فوق السحب المشتبك بعضها ببعض ، وقد أخذه خوف منهما فصلى إذ مر بهما ، فان كان هذان من تبحث عنهما فان رحلة أشبه بالارتحال إلى السموات تصل بها إليهما .

وتسأله الفتاة عن أقرب السبل إلى ذلك فيقول إنه يقع صوب الغرب من أجمة أشار إليها ؛ وتبدى الفتاة خوفها وقلة حيلتها ، فأن التنقل فى الغابة فيما يرسله النجم من ضوء قليل أمر يشق على أمهر هداة السبيل . ويعرض الراعى عليها أن يهديها أو أن يسير بها إلى كوخ متواضع ولكنه أمين ؛ وتقبل الفتاة ما يعرض قائلة إن الرفق الذى يبديه إنما يوجد فى الأكواخ المسقوفة بتلك الأخشاب المسودة بالدخان أكثر مما يوجد فى الأبهاء المزدانة من قصور الأمراء ؛ ثم تتجه إلى السماء مستعيذة ، وتسترد بصرها ملتفتة إلى الراعى قائلة : دونك أيها الراعى فاهدنى السبيل ...

ويظهر على المسرح بعد ذلك الأخوان فيناجى أكبرهما القمر والنجوم مستعيذاً بنورها ، أو متلهفاً إن لم تجبه الكواكب إلى بصيص من الضوء ينبعث من كوخ . ويقول الآخر إنه يرهف سمعه عله يصيب صوت قطيع ينبعث من حظيرة أو زمارة راع أوصياح ديك بعد ساعات الليل ؛ ثم يعلن أسفه على أخته العذراء الضعيفة ويتساءل ترى أين أنت يا أختاه ! ربما كنت مستلقية على ضفة باردة رطبة أومسندة جسمك الواهن من الحزن والخوف إلى جذع خشن ، وقد نال منك الجوع والحر . ويعود أكبر الأخوين فيدعو أخاه إلى الهدوء والصبر ، ويقول له إنه لا يخلق بالمرء أن يقدر السوء وأن يستعجل بالشر ، وأنه لايظن أن الخطر أحدق بأخته فمثلها من لا يزلزل هدوءها الظلام والسكون لأنها معتصمة بالفضيلة . ويسترسل الأخ الأكبر فى امتداح العزلة ، ويذكر كيف تريش الحكمة فيها جناحيها بالتأمل ، ويقول إن

من يحمل بين جنبيه نفساً مضيئة يستمتع بالنور وإن كان فى قاع الظلمة ، وإن من ينطوى على نفس مظلمة وأفكار سوء فانه يكون فى مثل حلكة الليل ، وإن مشى فى شمس الظهيرة فهو من نفسه فى جب . ويلوح أن ملتن يشير هنا على لسان المتكلم إلى عزلته هو فى هورتون وطلبه الحكمة والمعرفة لتستضئ بهما نفسه .

ويرد أصغر الأخوين بقوله إن الزاهد لا يمسه فى عزلته أحد ولا يطمع فى توافهه أحد ، ولا يريد رأسه الأشيب أحد بسوء ، ولكن أحرى بالجمال وهو أشبه بشجرة التفاح الذهبى أن يقوم على حراسته تنين . وكيف يطمئن قلبك على عذراء لا حول لها تخبط فى ظلام الغابة ؟ إنك إذن كمن يلقى بكنز بخيل لدى باب أحد اللصوص ثم يطمئن على سلامته . وما أخشى على أختنا من الظلام والوحشة وإنما أخشى مما يجرانه عليها من اعتداء وقاح تطمعه وحدتها .

ويعود أكبرهما فيذكر لأخيه أنه لا يتكلم عن سلامة أختهما كلام الواثق ، ولكنه إن وجد نفسه بين الخوف والأمل فانه يفضل أن يميل إلى الأمل . ثم يقول إن أخته ليست كما يتصور أخوه لا حول لها قط ، فان لديها قوة خفية لا يتذكرها أخوه ، ويسأله أخوه متعجباً ما تلك القوة إلا إذا كان يقصد قوة الله ، فيجيب إنه يقصد قوة الله إلى جانب قوة أخرى وهبها الله إياها فصارت قوتها هى ، ويعنى بها العفة . ثم يستطرد قائلا العفة يا أخى العفة ، ويقرر أن من تتدرع بها لا تخاف شيئاً ولن يستطيع أن يلطخ طهرها أحد . ويسأل أخاه أيؤمن بهذا الذى يقول ؟ فان كان لا يؤمن به فانه يعيد على سمعه ما ذكره الأقدمون من الأغريق عن قوة العفة ؛ ويذكره بقصة ديانا آلهة القمر والصيد وقوسها وسهامها وعفتها التى هابها الآلهة والملوك .

ثم يذكر مينرفا آلهة الحكمة ، وما كانت مينرفا تحول إلى مثل الحجارة الباردة إلا بنظراتها الناطقة بقوة العفة ، ويسترسل فى قوله فيذكر أن النفس إذا اعتنقت العفة فى إخلاص، أحيطت بألف من الملائكة يدرأون عنها كل ما هو بسبب من الذنب والخطيئة ، ويصلونها بالسماء فتسمع ما لا تسمع غيرها من الآذان . وفى هذا الموضع من الغنائية يطنب « ملتن » على لسان أحد الأخوين فى بيان فضل العفة كما امتدح من قبل العزلة وطلب الحكمة .

ويطرق سمع الأخوين صوت فينصتان ويقدران أنه إما أن يكون صوت ضال مثلهما أو صوت لص يدعو منسره؛ ويسأل الله أصغرهما لأختهما السلامة والنجاة ، ويتأهب أكبرهما للدفاع ، ويستنجد السماء له ولأخيه ...

ويظهر عقب ذلك الروح الحارس فى زى أحد الرعاة فيظنه الأخوان راعياً يعرفانه من رعاة أبيهما ، ويسألانه ما خطبه ، وهل فقد من غنمه شيئاً ، فهو يبحث عنه ، ويجيبهما أن الأمر أخطر مما يظنان ، ثم يسأل عن أختهما فينبآنه أنهما تركاها قليلا وعادا فلم يجداها ، فيطلعهما على مخاوفه وهواجسه ، فيسألانه أن يفصح فيقص عليهما ما علمه عن كومس وقبيله وما برع فيه من السحر، ويصف ما يبعثون فى الغابة من جلبة وضوضاء ، ثم يقول : قد سمعت أغنية حلوة يرتفع بها صوت رقيق ملؤه الخشوع يسرى فوق متن الهواء كما تسرى نفحات العطر المقطر ، صوت بات الصمت ذاته حياله كالمأخوذ عن نفسه ، حتى لقد ود لو أنكر ذاتيته وذهب إلى غير عودة إذا كان صوت كهذا يحل محله ... وأرهفت أذنى أستمع فتبينت أنه صوت سيدتى أختكما الحبيبة ، فضيت لتوى صوب الصوت ولكنى ألفيت ذلك الساحر اللعين قد أدركها قبل أن أصل وظهر لها فى لباس قروى وهى تسأله عن اثنين تاها فى ظلمات الغابة ؛ فاستخلصت أنها تسأل عنكما فخففت أبحث فى الغابة حتى لقيتكما هنا ، ولست أعلم ما ذا كان من أمر الفتاة بعد ذلك .

ويجزع أصغر الأخوين مشفقا على أخته ؛ أما أكبرهما فيظل على يقينه وثقته فى الفضيلة والاعتصام بها ، فقد تهاجم الفضيلة ولكنها لا تغلب ، وتباغتها القوة الظالمة ولكنها لا تزعزعها ؛ وأن ما يريده السوء من خطر جسيم يصبح إذا امتحنت به الفضيلة أعظم دواعى الفخر . ولا بد من أن يرتد الشر فينطوى على نفسه فهو من نفسه ينبت ثم إنه يأكل نفسه . ويعلن الفتى عزمه على مقاتلة ذلك الساحر حتى يرد ما اقتنص وهو صاغر أو يجره من ذوائبه إلى ميتة كريهة فيذهب لعيناً كما لعنت حياته ؛ ولكن الروح الحارس أو الراعى يرد عليه بأن شجاعته هذه وإن كان يكبرها لن تجدى عنه شيئاً فذلك الساحر قادر على أن يشل بسحره مفاصله ويتلف كل عضلة فى جسمه ؛ ويتعجب الفتى

ويسأله كيف تجرؤ إذن على أن يدنو من الساحر كما فعل ؟ فيظهره الراعي على سر ، وذلك أن صبياً من الرعاة دله على نبات يكشف السحر ويأمن به من غوائل السحرة ويفرح بذلك الإخوان ، ويعتزمان لقاء الساحر وكسر زجاجته وقهره .

ويتغير المنظر على المسرح ، فإذا بجانب من قصر عظيم يتبدى للأعين وقد صفت فيه الموائد المغطاة بالأقمشة الموشاة ، وزخر بأنماط الزينة وترقرق فيه لحن موسيقى هادئ . وتجلس العذراء على كرسي مسحور ، ويظهر كومس وقبيله فيمد إليها يده بكأس ، فتأخذها ولكنها تضعها جانباً وتهم بالوقوف ، فيأمرها الساحر أن تجلس ، فانه إن هزعصاه أحالها إلى تمثال من المرمر أو صنع بها كما صنع أبولو[1] بدافني ؛ وترد العذراء عليه مغضبة بقولها لا تفخر أيها الأحمق، إنك إن استطعت أن تسيطر بسحرك على جسمي فلن تنال من حرية عقلي بكل ما أوتيت من السحر .

ويترفق الساحر في قوله ، ويحاول إغراءها بأن تشرب من كأسه ، وألا تغضب ، وأن تنفي عن نفسها الهم، ففي ذلك القصر لا يعرف الحزن؛ وهذا الشراب الذي تحتويه الكأس يملأ النفس حبوراً وقوة وشبابا . ولن يبلغ مبلغه في هذا السبيل ذلك الشراب الذي أعطته في مصر زوجة ثون لهيلينا[2] ابنة جوف ؛ وما أحوج العذراء إليه كما يحتاج كل امرئ إلى ما ينعشه بعد النصب ويريحه بعد العناء ، وقد مسها التعب والجوع ، وهذا الشراب يدرأ عنها ذلك جميعاً ، وتصيح به الفتاة : إنه لن يفعل أيها الكذوب الخائن ، وإنه لن يرد إلى لسانك ما نفيته عنه بكذبك من الصدق والأمانة . أهذا هو الكوخ الأمين الذي حدثتني عنه ؟ وماهذه الأشباح المنكرة التي أرى ؟ هذه الشياطين القبيحة الرؤوس ! يا رحمة الله احرسيني ... اذهب عني بسحرك أيها الساحر البغيض ، لو كان ماتقدمه لي كأساً من شراب جونو[3] الذي تشرب به إذ تطعم على مائدتها ما تناولته من يدك الخائنة ؛ إنه لن يعطى الطيبات من الأشياء إلا الطيبون ، ولن تسيغ الخبيث نفس عاقلة تضبطها الحكمة .

ويعلن كومس عجبه من حماقة بني الإنسان وتصديقهم كلام الفلاسفة في القناعة والزهد ؛ ولم تخرج الطبيعة إذن كنوزها وثمارها وزينتها إن لم يك ذلك لتدخل بها السرور على الأنفس التطلعة إلى كل معجب جميل ، وما غناء الحرير والذهب الذي يعبده الناس جميعاً وغيرهما من الجواهر ؟ إن الإنسان إذا قنع بالتافه من الطعام والشراب والخشن من الثياب لم يعرف أنعم الله ولم يشكره ؛ وأين تذهب تلك الأنعم إذا تراكت بعضها فوق بعض لزهد الناس فيها ؟ ويهيب الساحر بالعذراء ألا تخدع نفسها بتلك الكلمة الجوفاء ألا وهي العفاف ؛ فان الجمال لا يكتنز وإنما يجب أن تتناوله الأيدي ؛ وإذا تصرمت الأيام ذوى كما تذوى الوردة في عودها . والجمال فخار الطبيعة ، ولذلك يجب أن يعلن في القصور والولائم وعظيم الحفلات حيث يتدبر الناس في عجيب صنعه ؛ ويختم الساحر كلامه بأن يدعو الفتاة إلى التفكر فيما يقول فهي في زمن الشباب ...

وترد عليه العذراء قائلة : ما تصورت من قبل أن تنفرج شفتاي بالكلام في جو كريه كهذا الجو ، ولكن ما الحيلة وهذا الساحر يدلس على الرأي ويظن أنه قادر على أن يسحر فكري كما سحر عيني فيأتي بكلام زائف يلبسه لباس العقل ؛ وإني لأكره أن تتمكن الرذيلة من أن تدلي بحججها ولا يكون للفضيلة لسان يصد تبجحها . أيها المخادع لا تتهم الطبيعة البريئة كما لو كانت تريد أن تبث في قلوب بنيها الزهو والخيلاء بما تفيض عليهم من كنوزها . إنها ما تخرج خيراتها إلا للطيبين الذين يعيشون وفق قوانينها الحكيمة ، ويسيرون حسب ما يقتضيه الاعتدال . ولئن أتيح لكل رجل ممن أضنتهم الفاقة قدر بسيط لائق به مما جملته الأبهة والترف ركاما بعضها فوق بعض في أيد قليلة ، فإن أنعم الطبيعة بذلك توزع في عدالة ، وعندئذ فلا تتلف في خزائنها ، وعلى ذلك يكون شكر المتفضل النعم قد أدته كل نفس . ألا إن النهم لا يتجه إلى السماء ومن حوله ما تمتلئ به مائدته الفخمة ، ولكنه يضيف إلى نهمه كفرانه بالنعمة ؛ ذلك

---

(١) أحب أبولو إله الشعر والموسيقى هذه العذراء وتبعها فلما لم تمل إليه أحالها إلى شجرة من شجرة الغار .

(٢) جاء في الأوذيسة أن هيلينا ابنة زيوس (جوف) وزوجة مينالوس الأسبرطي وصفت لزائري زوجها هذا الشراب الذي يملأ النفس مرحا وفتوة وكانت أعطتها إياه في مصر بوليدامنا زوجة ثون .

(٣) جونو زوجة جوبتر أوزيوس كبير الآلهة وملكة السماء .

عن الفرنسية :

يوسف الثانى والضابط (*)

للأستاذ عبد العزيز الكردانى

خرج الإمبراطور يوسف الثانى — عصر يوم — يرتاض بالقرب من مدينة ڤيينا — قصبة النمسا — فى عربة مقفلة ذات مقعدين كان يقودها بنفسه .

وكان الامبراطور يرتدى لباساً عادياً بسيطاً ، وفى صحبته رجل من حاشيته متجرد من زيه الرسمى .

فلما استهل الإمبراطور الإدلاج فى طريق المدينة بغته وابل من هطل غزير ... ورأى — على مسافة قريبة منه — رجلا يصطنع الزى العسكرى من رتبة الملازم الثانى يشير إليه علامة الاستيقاف . وكان بينا من اتجاه الرجل أنه يتخذ الطريق إلى المدينة ... كالإمبراطور تماما ؛ فجذب الإمبراطور مقود الخيل ، وتريث ينتظر مقدم الضابط !

قال الضابط :

— هل يتفضل سيدى بمنحى المقعد الخالى إلى جواره . أظن سيدى لن يضيق بهذا الطلب كثيرا ! وأكون شاكراً لسيدى تجنيبه الثوب الذى أرتديه اليوم — لأول مرة — معابثة ماء المطر !

فقال الإمبراطور فى بشاشة :

— لا عليك ! ق ثوبك وهيا معى ! من أين أنت قافل ؟

فأجاب الضابط :

— آه ! لقد كنت فى زيارة واحد من أصدقائى ... يشتغل حارس صيد وقد بالغ فى إكرامى . . . وقدم إلى وجبة مختارة !

— وما هذا الذى قدم إليك ؟

— خمن . !

(*) كان جوزيف الثانى (Joseph II) امبراطورا على ألمانيا من (١٧٦٥) إلى (١٧٩٠) .

الكفران الدنىء الغبى فيمتلىء ويخوض فى حق طاعمه . أأزيدك من قولى أم كفاك ما قلت ؟ إنه لا يسعنى إلا أن أقول شيئا أرد به على ذلك الذى يجرؤ أن يسلح لسانه البذىء بكلمات حقيرة يوجهها ضد تلك القوة المتشحة بأشعة الشمس، قوة العفة ، ولكن ما غناء ذلك ؟ إنك لا أذن لك ولا قلب حتى تفهم ذلك الرأى السامى وذلك السر العلوى اللذين ينبغى النطق بهما ليتكشف لك المبدأ الخطير العاقل ألا وهو مبدأ العفاف ، ومثلك من لا يستحق أن يعرف من السعادة أكثر مما هو فيه ، فاهنأ بلباقتك الحبيبة إليك وفصاحتك المرحة التى مرنت على لجاجها الخادع . وإنك لأصغر عندى من أن ترى نفسك وقد لزمتك الحجة . ولئن تكلمت فإن ما لهذه القضية الطاهرة من أحقية فى الكلام لا تقاوم جدير أن يشعل جوانب نفسى حماسة بحيث يتحرك بالعطف على كل أصم من الجماد وتهتز الأرض الجافية فإذا بصرح سحرك الذى امتد عاليا صوب السماء ينقض كومات فوق رأسك الزائف .

ويحدث كومس نفسه قائلا : إن لكلامها لوقعا ، وإنى لأحس أن كلماتها إنما تمليها عليها قوة عليا ، ومع أننى لست من بنى الفناء ، فإن رعشة باردة تهز كيانى كله كما بعث جوف الرعد إذ غضب فألقى بأبيه ساتورن فى العالم السفلى ، وكما تثير السلاسل المهتزة من رعد فى آذان ملاحى ساتورن ، ومع ذلك فيجب على أن أتغافل عما أحس وأعود إلى محاولتى معها وأنا أكثر مما كنت قوة ، ثم يتجه إلى العذراء قائلا حسبك هذا فإنه مما تلغون به فى الحديث عن الخلق ، وإنه ليخالف قوانيننا وقواعدنا ، ولست أطيق منه أكثر مما فعلت ، وما هو إلا مظهر نفس غاضبة ، ولكن هذه الكأس تشفى ذلك كله سريعا . إن رشفة واحدة منها تغرق النفس المكتئبة فى فيض من السرور تقصر دونه مباهج الأحلام فارجعى إلى صوابك واشربى ...

ويندفع أخواها وقد شهر كل منهما سيفه ، ويضرب أحدهما زجاجة فيلقيها من يده فتتحطم فوق الأرض ، ويهم أتباعه بالمقاومة ولكن الأخوين يدفعانهم بسيفيهما ، وعندئذ يدخل الروح الحارس ...

(يتبع) الخفيف

— حسن ... أيكون قدم إليك الثريد الفاخر مع نبيذ الشعير ؟ !

— آه ! حسن ! لقد قدم خيراً من هذا !

— ... طبقاً من الـكوكروت (Choucroute)[1].

— أفضل من هذا !

— ماذا ؟ ! لسان العجل !

— ... أطيب من هذا أيضا !

— أوه ... صدقنى ... لقد أفرغت كل جعبتى ، ولا إخالنى مستطيعاً — بعد — أن أذهب فى التخمين إلى أبعد من هذا !

— ... لقد قدم إلى أيها السيد ديكا بريا ... ديكا قنص فى حقول صيد جلالة الملك !

— أو لا توجد أراض أكثر جودة من أراضى جلالته ؟

— هذا أمر مفروغ منه يا سيدى !

***

وخيم الصمت برهة ؛ وكانا قد قاربا المدينة وقطعا الطريق إلى نهايته. ولـكن المطر ظل على تدفقه وانهماره ؛ فاستوضح الإمبراطور رفيقه أى حى يقطن ؟ ولـكن الضابط أبدى رغبته فى النزول متأدبا .

— سيدى ... هذا إفراط منك فى الأريحية ، أخشى أن أكون قد ...

فقطع عليه الامبراطور :

— لا ... لا تقل هذا ، دلنى على متجهك ؟

فلم يسع الضابط إلا أن يعين مسكنه ، ثم بدا له أن يتم تعرفه بالرجل الذى أفاض عليه من كرمه وظرفه . فتوجه إلى الإمبراطور مستفسراً أى مهنة يشغل ؟ ولـكن يوسف الثانى قال متخابثا :

— حسن ... أظن أنها الآن نوبتك فى الحدس والتخمين!

— ربما كان سيدى من رجال الجيش ؟

— تماما ...

— سيدى من رتبة « الملازم الأول » .

— آه ! تقول : ملازم أول ؟ ! أوه ... لا ! أرفع من هذا .

— إذن فسيدى من رتبة « اليوزباشى » ؟

— أعلى من هذا أيضا !

— أيكون سيدى من رتبة « الاميرالاى » ؟ !

— يمكن تخطئة هذا الحدس أيضا .

— كيف ؟ ! ماذا يكون سيدى إذن ! أيكون (مارشالا)

— لا ... مازلت بعد مجانباً التوفيق !

— آه ! يا إلهى ! ! إنه الإمبراطور ! !

فقـال الإمبراطور وهو يفك عرى معطفه ليظهر أوسمة الشرف التى تزين صدره :

— هو كذلك . !

وفقد الضابط اتزانه ، وأرتج عليه حين أراد أن يلتمس المعاذير ؛ ولـكنه استطاع — بعد لأى — أن يفصح للامبراطور ضارعاً عن رغبته فى الإذن له بالنزول من العربة ؛ فأجاب يوسف الثانى متلطفا :

— ليس الآن ! إننى لن أفارقك إلا عند ما تقف العربة ببابك ! ...

وهنالك أذن له فى النزول .

عبد العزيز الكرداني

[1] مأكول يصنع بورق (الـكرنب) بفتح فضم أو بضم ففتح .

في كتاب البخلاء

طبعة وزارة المعارف

لأستاذ عظيم

— ٣ —

الجزء الثاني

جاء فى صفحة ٧ : « قال : فهو ذا المجوس يرتعون البصرة وبغداد وفارس والأهواز والدنيا كلها بنمال سندية » . وقال الشارحان (يرتعون البصرة) أى يجوبون هذه البلاد ويطوفون بها ... ولكن رتع لازم فضمنه هنا معنى جاب أو قطع فعداه . وأقول : إنها يرقعون أو يترقعون ؛ يقال : رقع الأرض برجليه ، ضربها . ويقال : ترقع البلاد ، تكسب فيها فى الخصب .

وجاء فى صفحة ١٣ :« بقيت مخفقا معدما ، وفقيرا مبلَطا » (بفتح اللام) . وأرى أن الأرجح أن تكون مبلِطا بكسر اللام لتزاوج مخفقا ومعدما . وأبلط الرجل بالبناء للفاعل أو المفعول من معانيها افتقر وصار لاصقا بالأرض أو بالبلاط .

وجاء فى صفحة ٢٧ :« وكان على ثقة أنه سيأتى عليه فى الشتاء، مع صحته وبُدنه ، وفى شك من استبقائه فى الصيف » . وفسر الشارحان : (استبقائه) بالاستبقاء منه . وأرى الأولى أن تكون الكلمة محرفة عن (استيفائه) ؛ لأن الشك إنما يكون فى قدرته على استيفاء أكل الرأس لا على استبقاء بعضه . وهذا يتلاءم مع اللفظ بدون تقدير كلة (منه) .

وجاء فى صفحة ٣٠ : « وكيف صنع فيلويه فيما بينك وبينه ؟ قالت : كان يُجرى على فى كل أضحى درهما ! فقالت : وقد قطعه أيضا » ؛ والصواب : وقالت أو ثم قالت .

وجاء فى صفحة ٣١ :« وحتى ربما استخرج عليه أنه لابن ، جلاد الدم » . وقال الشارحان : (جلاد الدم) قاتل كما يفهم من المقال وإن كان المعنى اللفظى لايؤدى ذلك إلا بشىء من التجوز . وأرى أنها (حلال الدم) وهى عبارة مفهومة لا تدعو للتجوز .

وجاء فى صفحة ٣٤ :« وبعد ، وكيف تشتهى الطعام اليوم» وأظن الواو زائدة أو هى فاء .

وجاء فى صفحة ٥٢ : « وإذا مد أحدكم يده إلى الماء فاستسق » . والواو قبل إذا زائدة قطعا كما فى عيون الأخبار لأنها مبدأ كلام صاحب البيت الذى يطلب إلى الضيوف سماعه .

وجاء فى صفحة ٥٤ : « قلت له فلم لا يتخذ موضع (مدار) من بعض (دقاق) أرضه فيذرّى لكم الأرز ؟ ثم يكون الخيار فى يده ، إن أراد أن يعجل عليكم الطعام أطعمكم الفرد ، أو إن أحب أن يتأنى ليطعمكم الجوهرى » . وقال الشارحان : إن العبارة غير مستقيمة فى جميع النسخ ، ثم تكلفا فى تفسير الفرد والجوهرى تكلفا ظاهرا . وأرى أن عبارة الجاحظ محرفة ، ولعل أصلها : (فلم لا يتخذ موضع مُذَرّ فى بعض رقاق أرضه فيذرى الخ وكلة (الفرد) أصلها العرض ، والجوهرى أصلها الجوهر . ويكون المراد : فقلت له : لماذا لا يعمد إلى بعض عماله فيكون هو المذرى لأرزه ، وتكون التذرية على أرض رقاق أى لينة متربة . وما نتج من التذرية سيكون بالطبع أرزا ، ثم عصفا ، فعبر عن الأرز بالجوهر ، وعن العصف والكسارة بالعرض . فإن كان الضيوف مستعجلين صنع لهم العرض خبزا ، وإن انتظروا صنعه لهم من الجوهر . وهذه الفكرة الخبيثة قد استعاذ المخاطب بالله منها خشية أن يحتذيها ذلك المضيف البخيل .

وجاء فى صفحة ٨٠ : « فتذاكروا الزيت وفضل ما بينه وبين السمن ، وفضل مابين الأنفاق وزيت الماء» ولعل (الانفاق) محرفة عن (الأنفاط) وهى الأنواع المختلفة من النفط وهو الزيت الحجرى . ولعل مراده بزيت الماء زيوت الأزهار التى تستقر بالأنبيق ، فكأنهم فاضلوا بين السمن وزيت الطعام ، وجرهم هذا إلى الكلام فى أنواع الزيوت الأخرى ، من معدنية ومائية .

وجاء فى صفحة ٩٥ : « ولقد وهب لرجل ألف بعير ، فلما رآها تزدحم فى الموادى قال: أشهد أنك نبى » وقد فسر الشارحان الموادى تفسيرا غير مفهوم ، والأقرب أن تكون (المرادى) جمع مرداء ، وهى الأرض الفضاء لا نبت فيها ، والإزدحام فيها مفهوم بلا عناء .

وجاء فى صفحة ١٧٢ : « ولأن الحوائج تنقضُ » والصواب تُقتضى . وجاء فى الصفحة نفسها قوله : «قلت له فإذا أتيت رجلا فى أمر لم تتقدم فيه بمسألة ، كيف يكون جوابه لك ؟ » وصواب (أتيت) أنّبت ؛ لأن هذا البخيل قال لسائله إنه مستعد لا للاعطاء بل لتأنيب من يشاء أن يؤنبه هذا البخيل لمصلحته ، سواء أكان من يقع عليه التأنيب هو من يسأل هذا البخيل غداً ردّ جميله بإعطائه الغير مقابل هذا الجميل ، أم كان من يقع عليه التأنيب شخصا آخر . فلما سمع السائل من البخيل هذا القول دهش ولم يفهم كيف يستطيع هذا البخيل أو غيره أن يؤنب إنسانا على أمر لم يسبق أن كلمه فيه ذلك الإنسان . وقد دفعه هذا الدهش إلى الاستفهام من البخيل عن هذا التأنيب الغير المسبوق عما يقتضيه وعما يكون جواب المؤنب . واستفهامه عن جواب المؤنب ليس استفهاما حقيقياً بل لفت نظر إلى ما يكون حتما وعادة من دفع هذا المؤنب إلى مقابلته بكل شر .

وجاء فى صفحة ١٩٥ : « وقال الأفوه الأودى :

تهنا لثعلبة ابن قيس جفنةٌ يأوى اليها فى الشتاء الجوَّع
ومذانب لا تستعار وخيمة سوداء عيب نسيجها لا يُرقع
وكأنما فيها المذانب حَلْقَةٌ ودم الدلاء على دلوج يُنزع

وقال الشارحان فى تفسير البيت الأخير : « يقول كأن المغارف (المذانب) وقد أحاطت بحافة هذه الجفنة حلقة لاستدارتها حولها ، وكأن ما يغرفه منها الآكلون لعظمه وثقله ماء دلاء يرفعه النازعون بمشقة . وأقول : إن هذا التفسير متكلف ملتبس ، وأظهر مبهماته عبارة (ماء دلاء) ، فإن المذكور فى البيت دم دلاء ، ولا ندرى كيف يجعل الدم ماء . والأصح أن كلمة (حلقة) فى البيت محرفة عن (خلفة) ، وكلمتى (ودم) مصحفتان عن كل كلمة واحدة هى (وذم) والوذم جمع وذمة وهى الرباط من جلد أوليف مثلا يشد بها طرفا خشبة الدلو إلى عروتيه . وإذن يكون معنى البيت بعد التصحيح : كأن تلك المذانب (للمغارف) إذ تراها متعاقبة يخلف بعضها بعضا على النشل من القدر تحسبها أخشاب دلاء انفصلت وانتزعت على أربطتها من عروتى تلك الدلاء أثناء الدلوج من البئر إلى الحوض . هذا ما يخيل إلى أنه الأصل وأنه المراد . ويؤكده عندى أن المغرفة هى ساق متصلة بكتلة مقورة من الخشب وهيئتها كهيئة الدلو إذا انفصلت ، وفى أحد طرفيها الوذمة التى هى أوسع قطراً منها . والتصحيح والتفسير على هذا الوجه يقتضيان جعل (ينزع) بالتاء بدل الياء . وبعد أن كتبت هذه الملاحظة اتفق أن زارنى الأستاذ الشيخ علام نصار وكيل محكمة مصر الشرعية فلما قرأها قال : إنه لا يتصور كيف تكون المغارف كخشب الدلاء المنزوعة من عرواتها عند الدلوج من البئر إلى الحوض . وفى ذات مساء قال لى فى التليفون : إنه راجع هذه الأبيات فى ديوان الأفوه الأودى فوجدها كما صححتها .

ولكن هناك تحريفا آخر فى كلمة (دلوج) فإنها بالديوان (قليب) وأن (تهنا) فى البيت الأول أصلها (فينا) وأن (خيمة) و (نسيجها) و (ترقع) فى البيت الثانى أصلها (جفنة) و (نشيجها) و (ترفع) . وقد أرسل إلى كتاب الطرائف الأدبية وفيه هذه التصحيحات بصفحة ١٩ فشكرته على فضله ، وطلبت إلى حضرة مراقب المجمع إعادة الكتاب إليه . ومن رأيى أن (فينا) لا بد أن تكون هى الصحيحة دون (تهنا) ، وأما (جفنة) بدل (خيمة) فى البيت الثانى فمحل نظر؛ وأن (نشيجها) لا بد أن يكون أصلها (نشيشها) . وهذا التصحيح قد يجعلنى أعدل عن تصوير حالة المذانب عند الدلوج وأن أقول إنه يستعمل (الوذم) فى معنى رشاء البئر . أى أن استخراج ما فى القدر بواسطة هذه المذانب يصور دلاء تنزع من القليب برشائها وهى صورة جيدة لا بأس بها .

وجاء فى صفحة ٢٠٧ : « وقال الأعشى:

الشرف العَود فأكنافه ما بين حمران فينصوب

ومن رأيى أنها العود بالضم لا بالفتح ، وهو كناية عن ارتفاع قامته ماديا أو ارتفاع هامته معنويا ، والثانى هو المقصود طبعا .

وجاء فى صفحة ٢٢٠ :

ونار كسجر العَود يرفع ضوءها مع الليل هبات الرياح الصوارد

والصحيح أنها كسحر العَوْد ، أى حمراء كرئة البعير . ولو جاز أن يكون الأصل كما هنا لكان الكلام تافهاً ؛ لأن النار دائماً هى سجر العيدان ضؤل خشبها أو جزل .

حنـــين . . .

للشاعر مصطفى على عبد الرحمن

أنيرى لى الدنيا وهاتى الذى ينسى   فيا طالما لجّ اشتياقى إلى أمسى
أنا التائه العانى أنا المدلج الذى   يسيرُ على شك ويخبط فى يأس
أريد من الدنيا رضاءك لحظة   أُعيد بها أنسى وأحيى مدى حسى
وأخشى على نفسى من الموت قبلما   تقيمين أعلام البشائر فى نفسى

* * *

ذكرت لياليـنـا الحبيبات مُبعداً
عن الدار لا صفوى لدى ولا كأسى
أبيتُ على هم وأصحو على أسى   ألا شدَّ ما أصحو عليه وما أُمسى
وأمشى وراء الوهم والوهمُ قاتلٌ   فلا شاطئ يدنو ولا زورق يرسى
فيا ضلة الفكر المعذب ما ونت   تكيلُ له الأيام تعساً على تعس

* * *

هنا ملعب فيه انتشينا مع الصبا   وكأن لنا منه مراح وسامرُ
هنا فى ضياء العمر كان لقاؤنا   بعيدين عما تتقيه النواظر
هنا كانت الدنيا ونشوة سحرها   وطوفان نور من سنا الحب غامر
به سبحت أحلامنا كل مسبح   وغنت لنا آمالنا والبشائر

* * *

بكيت على يومى يمرُّ ولا أرى   له فى شعاب النفس رجعاً لأنغامى
بكيت على أحباب قلبى تفرقوا   وخلفت وحدى فى مجاهل إظلامى
بكيت على الآمال تذوى على المنى   على بسمة كانت على ثغرى الدامى
أما عودة للأمس فى ظل نشوة   أحطمُ فى أنوارها كيد آلامى

* * *

أيا شاطئ الإلهام كيف تمزقت   أمانىَّ فى تلك الرحاب النواضر
وأصباحنا ما بال أصباحنا مضت   وخلّفن لى ظلم العشايا البواسر
فؤادى ألا تحنو على قلبىَ الذى   أتاك لهيفاً مستثار الخواطر
أرى بسمة تعلو محياك نورها   كأنك من أحلامنا جد ساخر

* * *

ويا أيها الحلم البهيج الذى انطوى   أتلقاك منى النفسُ والعين ثانيا
فأسبح فى أنوارك البيض لحظة   وأمرح فى أجوائك الزهر هانيا
وتنسى بك الهمَّ الدفين حشاشة   على الألم اللذاع تقضى اللياليا
حشاشة قلب بات لهفان صاديا   ينادى فلا يلقى المجيب المواسيا

* * *

يحن إليك القلب لهفان مثلما
يحن جديب القفر للسلسل العذب
أهيم بدنيا الناس وهى جديبة   وإن حاط بى أهلى ورافقنى صحبى
ذنوبى هوى فى ثورة الجن صاخب   يناديك قلبى لا رأيت جوى قلبى
فهل آن إسعادى وهل آن أن أرى
من العطف ما يحيى البشائر فى جدبى

إلى سعادة الأمين العام لجامعة الدول العربية :

كن حامل النـــار

للأستاذ حسن أحمد باكثير

« جاء فى تصريح رسمى لعبد الرحمن عزام باشا أن جامعة الدول العربية تطالب بجلاء الجيوش الأجنبية عن شمال أفريقيا كما تطالب بجلائها عن سوريا ولبنان ومصر، فقابلت صحف فرنسا هذا التصريح بعاصفة من الاحتجاجات وكتبت ترد عليه بعناوين ضخمة قائلة : لا ياباشا ! ! وفى اعتقادى أن الجامعة ينبغى أن تعجل بإنشاء جيش عربى ضخم يتولى عنها الرد على أمثال هذا التحدى الفرنسى الوقح » .

ياحامل النور فى يمناه مؤتلقاً !   ما نفع نورك إن لم يُمس نيرانا ؟
ما نفع نورك فى دنيا تسود بها   شرائع كفرت بالنور كفرانا ؟
النور ينفع فى دنيا مطهرة   وليس ينفع فى دنيا كدنيانا
دنيا يسود بها من حاز فى يده   ناراً ولو كان رب النار شيطانا
أما رأيت فرنسا غير عابئة   بحق قومك طغيانا وعدوانا ؟
أما سمعت نواياهـــا يردّدها   فى مجلس الأمن بيدو نحو لبنانا ؟
أما شهدت صنوفا من جرائمها   فى المغرب الملتظى روحا وجثمانا ؟
ماذا أجابت فرنسا حين قلت لها :   « العالم العربى استيقظ الآنا



معرض القاهرة
السادس والعشرون
للتصوير والنحت
للأستاذ نصرى عطا الله سوس

نحب أن نمهد لحديثنا عن هذا المعرض[1] بذكر بعض الأصول والبديهيات التى اهتدينا بهديها حين كتبنا هذا المقال ، والتى كثيرا ما يؤدى الجهل بها أو التشكك فيها إلى الخطأ فى الحكم والتقدير ، ومن ثم فوات المقصود من إنتاج الفن أو مشاهدته :

البديهية الأولى — والأخيرة ! — هى أن الفن هو التعبير الموفق عن العاطفة الصادقة ، فالمصور يلجأ إلى التصوير للتعبير عن عاطفة جاشت بها نفسه وامتلأ بها قلبه ، وهذه العاطفة تختلف عن عواطفنا اليومية العادية بقوتها ، ووضوحها وكمالها ، وفى الفن لا نرى الأشياء بعين الحاجة أو المنفعة ؛ بل نراها لمجرد رؤيتها ونتأملها لغاية التأمل ، وهذه النظرة للأشياء تتسم بدقة الإدراك ونقاء الأثر الذى تحدثه فى نفس الفنان ، وبالتالى فى نفس المشاهد .

وخاصية فن التصوير هى التعبير عن عاطفة أو إحساس تلقيناه عن طريق العين ، وأثارته فينا الخصائص الشكلية للأشياء والمعانى ، ولذا لا يمكن التعبير عنه إلا بالأشكال والألوان . ولو أمكن التعبير عنه بوسيلة أخرى ، كاللغة مثلا ، لبطلت الحاجة إلى فن التصوير وانتفى وجوده .

وليست الغاية من الفن محاكاة الطبيعة أو النقل الأمين عنها كما يظن الكثيرون ، فالفن لا يعطينا صورة من الأشياء بل من جوهر الأشياء ، وحقيقتها الكاملة بما فيها من إمكانيات مستترة وقيم عليا . ويختلف نصيب الأعمال الفنية من العظمة والجودة باختلاف نصيبها من القوة التعبيرية التى تقوم على قوة الحافز العاطفى ومتانة وصدق الأداء ، وقوة الأثر وخلود الذكر من نصيب الأعمال الفنية التى تعالج العواطف الإنسانية العنصرية والأصيلة ، والتى تطرد فى الناس على اختلاف البيئات والزمان ، والتى تعالج الحقائق الباقية والقوانين الكونية والمثل الإنسانية العليا ، على أن يتسم الاداء بالقوة والكمال والبساطة ، ويعبر عن دقة الفهم ولطف الإحساس .

***

المستوى العام للمعرض أعلى منه فى السنوات القليلة الماضية ، وهناك عدد لا بأس به من المصورين ينفرد كل منهم بطابع مستقل ، وشخصية متميزة وعالم خاص ، وأعمالهم الفنية مرآة صافية لعواطف وإحساسات ، كثيرا ما تحول مشاغل حياتنا اليومية دون تمهدها والتمتع بها . ورسالة الفن أولا وأخيرا هى أن يتمم نواحى النقص فى حياتنا النفسية والروحية ، وأن يمهد لنا سبيل استنهاض هذه العواطف والإحساسات ، وأن يعاونها على ارتياد آفاق جديدة ، حتى يعاودها شبابها وعمقها وحيويتها ،

(١) بالسراى الصغرى للجمعية الزراعية الملكية . أبريل ١٩٤٦ .

وأمة الضاد تأبى أن يظل به   جيش غريب يريها الذل ألوانا»
ماذا أجابت ؟ لقد قالت مزمجرة   صخابة : (لا) بصوت ظل رنانا
صوت تؤيده نار ولو تركت   تأييده لانقضى وارتد دخانا
ياحامل النور ! خل النور ناحية   إن لم تحله لظى تورى حنايانا
كن حامل النار وارفعها مؤججة   الهب بها كل قلب ذل أو هانا
وانسحق بها كل ضعف فى عزائمنا   وامحق بها كل وهن فى سجايانا
وابعث سخائمنا وانشر حفائظنا   واملأ جوانحنا حقدا وأضغانا
أحرق بها كل جبار يهددنا   والذع بها كل طاغ قال بهتانا
وابلغ بها كل ناء من مقاصدنا   واحلل بها كل صعب من قضايانا
يا صاحب الحق ليس الحق منتصراً
إن لم يجد من جيوش الحق أعوانا
كون لحقك جيشا غير ذى خور   إن كنت تبغى له عزاً وسلطانا
الحق شرعتنا والحق غايتنا   والضعف علتنا والضعف بلوانا
والجيش عدتنا والجيش عزتنا   والجيش سطوتنا والجيش منجانا

كما أن هناك عددا كبيرا من الصور التى ينقصها النضوج والإتقان. وقديما قيل إن الذوق لا يعلل ، وكثيرا ما اتخذ هذا القول ذريعة للتسامح والتهاون والاستهتار ، وحسبنا هذه الإشارة ، وفيما يلى عرض سريع لمآثر المعرض :

عرض محمود سعيد بك لوحتين لا تمثلان خير إنتاجه . ومكانة سعيد بك معروفة ، ولكنه لا يحاول أن ينوع أو يرتاد آفاقا جديدة . وصوره هذا العام ليست إلا نسخا أخرى من موضوعاته التى ألفناها .

وقدم الأستاذ مصطفى درباله دراسة رائعة (للبوظة) فى عدة لوحات وفق فى معظمها توفيقا نادرا إلى التعبير الصادق المتقن عن روح (البوظة) وطابع شخصيات روادها ونفسياتهم .

وفى صور الأستاذ زوريان أشود طلاقة وحرية فى التعبير الجيد عن الخصائص الكمية للأشياء . وله صورة وجهية (صوره نورا) نعتبرها أنموذجا كاملا لما يجب أن يكون عليه هذا الفن ، ففيها يمتزج المعنى والمبنى وتأتلف كل عناصر الفن ، وفضلا عن أنه وفق إلى التعبير عن روح صاحبة هذه الصورة ، منعكسة على سماتها وملامحها ، فالصورة ذات مميزات بارزة إذا نظرت كشىء قائم بذاته .

وعرض الأستاذ نعيم جاب الله ثلاث لوحات قيمة تدل على حيوية كبيرة : فالطبيعة التى تبدو للعيون هامدة خامدة تتجلى فى صوره نشطة نشاطا عارما ، مليئة بالقوة والحياة . ونحن نشهد لهذا المصور الشاب بعمق الشعور ودقة الذوق المتمثلين فى حسن اختياره للألوان ، ونشهد له بإحساسه القوى بالنور المصرى الصافى ، وهو إحساس نفسى لا بصرى فقط — ورسالة الفن تتلقاها العين ولكن تؤديها النفس — وصوره تذكرنى بقول الشاعر كيتس : « الألحان المسموعة حلوة ، ولكن غير المسموعة أحلى » لأن فيها ألحانا غير مسموعة ، وهى بذلك تؤدى رسالة الفن التى تقصر عن أدائها الألفاظ .

وقد قلت عن « الآنسة إحسان خليل » لامين خليا فى مجلة الرسالة : « إن هذه الفتاة فنانة حتى أطراف أناملها . والذى يتأمل المناظر الطبيعية التى رسمتها يحس أنها تتناول الفرشة بقلبها الرقيق لا بأصابع يديها » . وصورها هذا العام تعبر بجلاء عن شاعريتها وروحها الصوفية الرقيقة ، ففيها صلاة وعبادة للطبيعة ، وفيها نفاذ إلى روح المنظر ، وفيها موسيقى تراها العين ويحسها القلب ، كما أنها توحى بالسلام والاطمئنان اللذين نحسهما عند ما نخرج من أسر النفس ، ونرتفع عن مستواها لنندمج فى الكون الكبير .

والأستاذ عز الدين حموده رسام أنيق ودقيق فى اختيار موضوعاته : (مدام سول ، فى أحلام الترف ، شرقية) وهو موفق فى الأداء ، وصوره جياشة بالمعانى النفسية . ولعل حسن اختياره لموضوعات صوره ، وكلها صور سيدات ، هو سر توفيقه . غير أنى أحس أنه غير موفق كثيرا فى « فى أحلام الترف » ويبدو هذا بجلاء عندما نقارن هذه الصورة بصورة سعيد بك : «زبيده» ففى الأخيرة تكاد كل ذرة تعبر عن « أحلام اللحم » كما أن المشاهد يحس على الأثر أن للصورة روحا ، وهذا لا يتوفر فى صورة حموده .

والأستاذ منير شريف موفق جدا فى التعبير عن إحساسه بمناظر البحر ، وهو يؤدى إحساسه هذا فى بساطة وخلو من التعقيد ودون لجوء إلى التزويق والمحسنات . وسر نجاحه أن الأداء عنده طريق ممهد سهل للوصول إلى عاطفته ومشاركته فيها .

وتطغى الروح الأكاديمية على معروضات جماعة الدعاية الفنية (وقوامها الأساتذة حبيب جورجى ، شفيق رزق ، نجيب أسعد ، الآنسة صوفى جرجس) ولكنهم ينسجون على منوال واحد فى التعبير . ومن الصعب جدا تمييز أعمال أى منهم من أعمال بقية الجماعة ، وجانب الصنعة عندهم يطغى على جانب الإحساس وإن كانت الصنعة نفسها لا تمتاز بالقوة أو المهارة . وتنطبق هذه الأقوال على مدرسى الفن فى المدارس والمعاهد ومنهم الأساتذة عبد العزيز درويش ، وسند بسطا ، وكامل مصطفى محمد (ونشهد له بالنجاح فى صوره الوجهية : الآنسة كوليت ، جارتى) وصدقى الجباخنجى ورمزى السيد مصطفى إلى حد ما . فهل نستنتج من هذا أن ممارسة الفن كمهنة يقتل الموهبة ويذهب بحيويتها ؟ ؟

وللأستاذ يوسف كامل صور وجهية لا بأس بها (نصرى . عبد القدوس) . والأستاذ طويل ريمى يقتصد جدا فى الأداء فينجح إذا كان الإقتصاد اقتصارا على التعبير عن الخصائص الجوهرية مثل



معرض القاهرة

السادس والعشرون

للتصوير والنحت

للأستاذ نصرى عطا الله سوس

نحب أن نمهد لحديثنا عن هذا المعرض[1] بذكر بعض الأصول والبديهيات التي اهتدينا بهديها حين كتبنا هذا المقال ، والتي كثيرا ما يؤدى الجهل بها أو التشكك فيها إلى الخطأ في الحكم والتقدير ، ومن ثم فوات المقصود من إنتاج الفن أو مشاهدته : البديهية الأولى — والأخيرة ! — هي أن الفن هو التعبير الموفق عن العاطفة الصادقة ، فالمصور يلجأ إلى التصوير للتعبير عن عاطفة جاشت بها نفسه وامتلأ بها قلبه ، وهذه العاطفة تختلف عن عواطفنا اليومية العادية بقوتها ، ووضوحها وكمالها ، وفي الفن لا نرى الأشياء بعين الحاجة أو المنفعة ؛ بل نراها لمجرد رؤيتها ونتأملها لغاية التأمل ، وهذه النظرة للأشياء تتسم بدقة الإدراك ونقاء الأثر الذى تحدثه في نفس الفنان ، وبالتالى في نفس المشاهد .

(١) بالسراى الصغرى للجمعية الزراعية الملكية . أبريل ١٩٤٦ .

وأمة الضاد تأبى أن يظل به — جيش غريب يريها الذل ألوانا»
ماذا أجابت ؟ لقد قالت مزمجرة — صخابة : (لا) بصوت ظل رنانا
صوت تؤيده نار ولو تركت — تأييده لانقضى وارتد دخانا
ياحامل النور ! خل النور ناحية — إن لم تحله لظى تورى حنايانا
كن حامل النار وارفعها مؤججة — الهب بها كل قلب ذل أو هانا
واسحق بها كل ضعف في عزائمنا — وامحق بها كل وهن في سجايانا
وابعث سخائمنا وانشر حفائظنا — واملأ جوانحنا حقدا وأضغانا
أحرق بها كل جبار يهددنا — والذع بها كل طاغ قال بهتانا
وابلغ بها كل ناء من مقاصدنا — واحلل بها كل صعب من قضايانا
يا صاحب الحق ليس الحق منتصراً
إن لم يجد من جيوش الحق أعوانا
كوّن لحقك جيشا غير ذى خور — إن كنت تبغى له عزاً وسلطانا
الحق شرعتنا والحق غايتنا — والضعف علتنا والضعف بلوانا
والجيش عدتنا والجيش عزتنا — والجيش سطوتنا والجيش منجانا

وخاصية فن التصوير هي التعبير عن عاطفة أو إحساس تلقيناه عن طريق العين ، وأثارته فينا الخصائص الشكلية للأشياء والمعانى ، ولذا لا يمكن التعبير عنه إلا بالأشكال والألوان . ولو أمكن التعبير عنه بوسيلة أخرى ، كاللغة مثلا ، لبطلت الحاجة إلى فن التصوير وانتفى وجوده .

وليست الغاية من الفن محاكاة الطبيعة أو النقل الأمين عنها كما يظن الكثيرون ، فالفن لا يعطينا صورة من الأشياء بل من جوهر الأشياء ، وحقيقتها الكاملة بما فيها من إمكانيات مستسرة وقيم عليا . ويختلف نصيب الأعمال الفنية من العظمة والجودة باختلاف نصيبها من القوة التعبيرية التي تقوم على قوة الحافز العاطفى ومتانة وصدق الأداء ، وقوة الأثر وخلود الذكر من نصيب الأعمال الفنية التي تعالج العواطف الإنسانية العنصرية والأصيلة ، والتي تطرد في الناس على اختلاف البيئات والزمان ، والتي تعالج الحقائق الباقية والقوانين الكونية والمثل الإنسانية العليا ، على أن يتسم الاداء بالقوة والكمال والبساطة ، ويعبر عن دقة الفهم ولطف الإحساس .

***

المستوى العام للمعرض أعلى منه في السنوات القليلة الماضية ، وهناك عدد لا بأس به من المصورين ينفرد كل منهم بطابع مستقل ، وشخصية متميزة وعالم خاص ، وأعمالهم الفنية مرآة صافية لعواطف وإحساسات ، كثيرا ما تحول مشاغل حياتنا اليومية دون تمهدها والتمتع بها . ورسالة الفن أولا وأخيراهى أن يتمم نواحى النقص في حياتنا النفسية والروحية ، وأن يمهد لنا سبيل استنهاض هذه العواطف والإحساسات ، وأن يعاونها على ارتياد آفاق جديدة ، حتى يعاودها شبابها وعمقها وحيويتها ،

كما أن هناك عددا كبيرا من الصور التي ينقصها النضوج والإتقان. وقديما قيل إن الذوق لا يعلل ، وكثيرا ما اتخذ هذا القول ذريعة للتسامح والتهاون والاستهتار ، وحسبنا هذه الإشارة ، وفيما يلى عرض سريع لمآثر المعرض :

عرض محمود سعيد بك لوحتين لا تمثلان خير إنتاجه . ومكانة سعيد بك معروفة ، ولكنه لا يحاول أن ينوع أو يرتاد آفاقا جديدة . وصوره هذا العام ليست إلا نسخا أخرى من موضوعاته التي ألفناها .

وقدم الأستاذ مصطفى درباله دراسة رائعة (للبوظة) فى عدة لوحات وفق فى معظمها توفيقا نادرا إلى التعبير الصادق المتقن عن روح (البوظة) وطابع شخصيات روادها ونفسياتهم .

وفى صور الأستاذ زوربان أشود طلاقة وحرية فى التعبير الجيد عن الخصائص السكنية للأشياء . وله صورة وجهية (صوره نورا) نعتبرها أنموذجا كاملا لما يجب أن يكون عليه هذا الفن ، ففيها يمتزج المعنى والمبنى وتأتلف كل عناصر الفن ، وفضلا عن أنه وفق إلى التعبير عن روح صاحبة هذه الصورة ، منعكسة على سماتها وملامحها ، فالصورة ذات مميزات بارزة إذا نظرت كشىء قائم بذاته .

وعرض الأستاذ نعيم جاب الله ثلاث لوحات قيمة تدل على حيوية كبيرة : فالطبيعة التي تبدو للعيون هامدة خامدة تتجلى فى صوره نشطة نشاطا عارما ، مليئة بالقوة والحياة . ونحن نشهد لهذا المصور الشاب بعمق الشعور ودقة الذوق الممثلين فى حسن اختياره للألوان ، ونشهد له بإحساسه القوى بالنور المصرى الصافى ، وهو إحساس نفسى لا بصرى فقط — ورسالة الفن تتلقاها العين ولكن تؤديها النفس — وصوره تذكرنى بقول الشاعر كيتس : « الألحان المسموعة حلوة ، ولكن غير المسموعة أحلى » لأن فيها ألحانا غير مسموعة ، وهى بذلك تؤدى رسالة الفن التي تقصر عن أدائها الألفاظ .

وقد قلت عن « الآنسة إحسان خليل » لدامين خليا فى مجلة الرسالة : « إن هذه الفتاة فنانة حتى أطراف أناملها . والذى يتأمل المناظر الطبيعية التي رسمتها يحس أنها تتناول الفرشة بقلبها الرقيق لا بأصابع يديها » . وصورها هذا العام تعبر بجلاء عن شاعريتها وروحها الصوفية الرقيقة ، ففيها صلاة وعبادة للطبيعة ، وفيها نفاذ إلى روح المنظر ، وفيها موسيقى تراها العين ويحسها القلب ، كما أنها توحى بالسلام والاطمئنان اللذين نحسهما عند ما نخرج من أسر النفس ، ونرتفع عن مستواها لنندمج فى الكون الكبير .

والأستاذ عز الدين حموده رسام أنيق ودقيق فى اختيار موضوعاته : (مدام سول ، فى أحلام الترف ، شرقية) وهو موفق فى الأداء ، وصوره جياشة بالمعانى النفسية . ولعل حسن اختياره لموضوعات صوره ، وكلها صور سيدات ، هو سر توفيقه . غير أنى أحس أنه غير موفق كثيرا فى « فى أحلام الترف » ويبدو هذا بجلاء عندما نقارن هذه الصورة بصورة سعيد بك : «زبيده» ففى الأخيرة تكاد كل ذرة تعبر عن « أحلام اللحم » كما أن المشاهد يحس على الأثر أن للصورة روحا ، وهذا لا يتوفر فى صورة حموده .

والأستاذ منير شريف موفق جدا فى التعبير عن إحساسه بمناظر البحر ، وهو يؤدى إحساسه هذا فى بساطة وخلو من التعقيد ودون لجوء إلى التزويق والمحسنات . وسر نجاحه أن الأداء عنده طريق ممهد سهل للوصول إلى عاطفته ومشاركته فيها .

وتطغى الروح الأكاديمية على معروضات جماعة الدعاية الفنية (وقوامها الأساتذة حبيب جورجى ، شفيق رزق ، نجيب أسعد ، الآنسة صوفى جرجس) ولكنهم ينسجون على منوال واحد فى التعبير . ومن الصعب جدا تمييز أعمال أى منهم من أعمال بقية الجماعة ، وجانب الصنعة عندهم يطغى على جانب الإحساس وإن كانت الصنعة نفسها لا تمتاز بالقوة أو المهارة . وتنطبق هذه الأقوال على مدرسى الفن فى المدارس والمعاهد ومنهم الأساتذة عبد العزيز درويش ، وسند بسطا ، وكامل مصطفى محمد (ونشهد له بالنجاح فى صوره الوجهية : الآنسة كوليت ، جارتى) وصدقى الجباخنجى ورمزى السيد مصطفى إلى حد ما . فهل نستنتج من هذا أن ممارسة الفن كمهنة يقتل الموهبة ويذهب بحيويتها ؟ ؟

وللأستاذ يوسف كامل صور وجهية لا بأس بها (نصرى . عبد القدوس) . والأستاذ طوبل ريمى يقتصد جدا فى الأداء فينجح إذا كان الإقتصاد اقتصارا على التعبير عن الخصائص الجوهرية مثل



فى مقالين :

أرسل الينا الأستاذ الشيخ محمود أحمد الغمراوى شيخ معهدى دسوق والزقازيق سابقا مقالا بهذا العنوان يناقش فيه ما كتبناه وكتبه الأستاذ العقاد فى موضوع الأزهر . وقد جاءنا المقال بعد طبع الملازم الأولى من « الرسالة » فاضطررنا أن نرجئه إلى العدد المقبل .

... ولا تقولن ذاك هناك :

فى الرسالة الغراء (٦٦٦) فى المقالة البليغة ذات العنوان (أين الأقلام) لصاحب الفضيلة العالم الأديب الأستاذ (الشيخ على الطنطاوى) الدمشقى — هذا القول :

« أين تلك الأقلام تفضح أكبر خدعة سربت الينا ، وترد أفظع كذبة جازت علينا ، وهى دعواهم أن من الخير أن نأخذ المدنية الغربية بكل ما فيها ، وأن كل ما جاء من أوربة فهو خير ورشاد ، وكل ما بقى لنا من الشرق فهو شر وفساد .

وهذا من أقبح ما خلفه فينا الاستعمار .

فأين تلك الأقلام تدل الناس على مزايانا لنحتفظ بها ، وشرور الغرب لنتجنبها ، ونقيم لهم الميزان العادل ، ونحكم فيهم الحكم السديد ، فنرتفع عن أن نكون قردة مقلدين ، ونرجع عقلاء مميزين ، يعرفون ما يأخذون وما يدعون » .

وقد ذكرنى كلام القاضى الفاضل بشىء سمعته فى خطبة خطيب فى بيروت سنة (١٣٤٣هـ) فرأيت روايته فى الرسالة الكريمة ، وهو يظاهر مذهب الشيخ .

سمعت ذلك الخطيب منذ ثلاث وعشرين سنة يقول :

« ... فقد اعتقدت[1] العربية المُعْقَد لبنها وكثرت ،

(١) اعتقد فلان عقدة إذا اشترى ضيعة أو اتخذ مالامن عقار وغيره

(شيخ يقرأ) ولا ينجح إذا انقلب الاقتصاد إلى قصور فى التعبير مثل (فناء العزبة) .

وقد خطا الأستاذ أحمد شاكر خطوة موفقة فى صوره الوجهية (المصور : مدام نجاتى بك) وبقى أن يعمل للوصول إلى المستوى نفسه فى المناظر الطبيعية . وينطبق القول نفسه على الأستاذ عزت إبراهيم .

وفى المعرض أكثر من صورة تمثل الأمومة ، وأحسنها وأقواها صورة الأستاذ إدوار رزق الله ، وما من ناقد يستطيع أن ينكر على الآنسة مرجريت نخلة قدرتها التعبيرية ، ولكن النهج الذى تؤثره فى الأداء يغلب عليه طابع « الكاريكاتور » . وأعتقد أن الأستاذ جمال الدين سجينى رساما أكثر منه مثالا .

وتمتاز صور الآنسة جينان جاكلين ، بشىء من الشاعرية والعاطفة الشابة ، وإحساس بالنور يبدو على أتمه وأقواه فى (فى الجزيرة) ؛ ولكن الأداء يخونها أحيانا . وتدل معروضات الآنستين بثينه أحمد وعائشة عبدالعال على روح فنية لم يكتمل نضجها بعد ، ولكنها سليمة ، كما أن الآنسه تحية وهبه لم تبذل كل ما كان يمكنها أن تبذله من مجهود .

ومما يلفت النظر أن خصائص الروح المصرية ممثلة تمثيلا ملحوظا فى التماثيل المعروضة هذا العام . ويكفى أن نذكر تمثال (العمدة) للأستاذ عبد الحميد حمدى وهو يمثل الطيبة والسذاجة التى تكاد تصل إلى حد البلاهة ، و (رأس شيخ) له أيضا ، و (عامل) للأستاذ ميشيل جرجس ، وهو يمثل الطيبة والخشونة وقوة الاحتمال . ومن أبرز المثالين هذا العام الأستاذ ناتان أبسخيرون ، وحسبه تمثاله الرائع « أحلام » . وللأستاذ حلمى يوسف تمثال جيد للمرحوم أحمد ماهر باشا .

وقد عرضت الآنسة عايده عبد الكريم — وهى ما تزال طالبة — عدة تماثيل تمتاز بالحيوية والنضوج . وما من شك فى أن هذه الفتاة ينتظرها مستقبل باهر فى فن النحت؛ فهى واسعة الأفق، قديرة على التنويع ، خبيرة بالعواطف النفسية وتجيد التعبير عنها .

والمعرض فى مجموعه جدير بالدراسة والتأمل ، وفيه فرصة متاحة للجميع للمتعة الذوقية الرفيعة .

نصرى عطا الله سوسى

واحتشدت لهم فى تأثيل خير المال وورثت . فما أجنَّ من ضيع هذا الميراث وما ألأمه ! وإذا استجديت (ياهذا) غيرك بعد فقدان ثروتك لا يجديك ، وإذا انتميت إلى غير جدك وأبيك لا يعليك ذلك لكن يوطيك . وهل يسوغ لعاقل أن ينسى نفسه (ونفسه كريمة لديه يوم الذكر) ويجحد صنيعة أهله وقد أحسنوا اليه فيغدو مثلا مضروبا فى السفه واللؤم والكفر ؟ ومن يجنح إلى الخسران وفى يده الربح ، ومن يقبل الخذلان وقد ماشاه النجح؟ ومن يستحب على الوجود العدم ، وأن تضمحل أمته فى الأمم ؟

فيا أيها العربى ، إنك عربى ولا يراك سواك إلا عربياً ، وإن شئت أن تأبق إباق العبد من بيت عربيتك وتسل ثيابها ، وتصرم أسبابها ، فلن يعطيك الغرب ذلك ، ولن يضعك وأن أبيت إلا هنالك ، وهو إما يلقاك عربيا قميا ، وإما يلقاك عربياً قويا ، فيحتقرك ضعيفاً صغيراً ، ويوقرك عظيما كبيراً ، ويتعبدك ذليلا ، ويؤاخيك جليلا ، فالبس البس جلد القوة ، وجد كما جد الغربى ، واستعد عما استعد ، واعلم علمه ، واخبر فنه ، وابل نظامه ، وحقق (ياهذا) تحقيقه ، واسلك فى الكون طريقه — وقبيح الشرق قبيح الغرب . فلا تجهل ولا تُقبح[1] ولا تقولن ذاك هناك ، فثمة داء ، وهناك دواء . فيا عليل اطلب هذا ودع السم — وجود عيشك تجويده ، واتقن صنعك إتقانه ؛ فلن يفلح بعد اليوم إلا التِّقْن[2] واقتصد فى دنياك اقتصاده ، وجد إما وفر مالك جوده ، وأخلص أخلص فى كل عمل قلدته إخلاصه .

وذر السخفاء البله من العظاميين وانبذ عبيد الجهل ، والزم العصاميين وخالص أهل الفضل ، فليس من يهدم دعائم عربيتك كمن يشيد ، ولا الأحمق الأفين كالرجل الحازم الرشيد ، وما جاهل أمر مثل عالمه ... »

السهمى

إنها مشكلة التعليم كله لا الأزهر وحده !

نحن فى حاجة إلى المصلح المثقف الذى يتفرغ إلى دراسة المشاكل الاجتماعية دراسة فهم وخبرة ورغبة ، قبل أن يخرج الينا وفى يده مشروعات مرتجلة . ونحن فى حاجة إلى الكاتب الذى يحسن التوجيه ويجيد الكشف عن خفايا الأدواء ويصدق فى وصف الدواء .

حياتنا ... كلها ارتجال ... وما ينفع الارتجال فى إصلاح حياتنا الاجتماعية وملاك الأمر فيها — كما يقول الأستاذ الكبير الزيات — « الدرس والروية والمشورة والعزمة والنفاذ ، على أن يكون كل رأى فى وجهه ، وكل عمل فى وقته ، وكل أمر فى أهله ... »

أجل لقد صدق الإستاذ الزيات فى وصفه أسباب فشل وسائل الإصلاح فى مصر ... ولقد صدق أيضا وبلغ الغاية فى مقاله عن مشكلة الأزهر ...

فقد كان فى مقاله ذاك باحثا يسير فى هدى عقيدة ، ويمضى فى ظل معرفة ، ويقرر فى ثقة الدارس الواعى المتبصر ...

قرأت المقال فأثار فى نفسى خواطر شتى كلها تدور حول أصول التعليم ووسائل التربية فى مصر ... أحببت أن أسارع فأعرض بعضها عرضاً سريعاً .

رأيت أن اتجاهات التعليم فى مصر اتجاهات تنكبت سبيل الصواب وبعدت عن مقتضيات الأحوال فلم تساير طبيعة الواقع ، ولم تتساوق مع واقع الظروف ... كلها ارتجال فى ارتجال .. أو لنكن أكثر صراحة فنقول إنها برامج فرضتها ظروف أطل من بين ثناياها شبح المستعمر على رغبته تارة من بعيد تلميحا ، وتارة أخرى من قريب تصريحاً ...

وما ظنك ببرامج جاءت أصولها على هذه الحال وفى هذه الظروف ... ولغرض معروف ؟ إنها تهدف أول ما تهدف إلى تقييد العقلية الفتية المصرية بقيود الاستعمار ... ولقد أثرت حقاً وكان تأثيرها الإيجابى مركزاً فى قهر روح الابتكار فى الشبيبة المصرية ، وقتل روح الاختراع والتجديد ... بفرض نظام مدرسى عقيم لا يعمل على اكتشاف مواهب الطفل صغيراً ، ولا يهدف إلى توجيه رغبة الشاب يافعاً .

نظام مقسم تقسيما عقيما ... خدعنا بما فيه من مقاييس للسن

(١) أقبح الفتى : جاء بفعل قبيح .

(٢) فلان تقن من الأتقان : موصوف بالاتقان أي حاذق في عمله .

فليست المسألة مسألة تقسيم مراحل تعليمية أولية وابتدائية ... وثانوية وعالية .

المشكلة مشكلة تقسيم الوسائل التربوية ...

والمشكلة مشكلة مسايرة هذه الوسائل التربوية للظروف الاجتماعية والمادية والثقافية والنفسية .

والمشكلة مشكلة التطبيق السليم لهذه الوسائل السليمة .

فهل أدرك رجالنا هذه الحقائق ؟ هل عملوا على تلافى الأخطاء ؟

الواقع أنهم تركوا الأمور تسير سيراً مرتجلا كما ارتجلت من قبل البرامج ؛ ففى كل عام نظام جديد يهدم نظاما قديما ... وحتى هذا الجديد لا يلبث طويلا ، وقبل أن ينتج أثراً يمكن الحكم به على صلاحيته يقذف به فى أغوار النسيان ليحتل مكانه غيره ...

قد يقال إننا أخذنا عن الغرب طرائق التربية ... نعم أخذنا ولكن كان تقليدنا فى الشكل لا فى الجوهر ... غيرنا البرامج بيد أننا لم نحسن التطبيق ... ولم نستطع أن نفهم أن المدرسة توجيه وإرشاد وخلق وإصلاح ...

فالإعداد فاسد، لأنه يمهد السبيل لنيل شهادة النجاح فى المدرسة فحسب ، ولكنه لا يسلح الطالب بما يضمن له أسباب النجاح فى خضم الحياة ... فالمدرسة المصرية تعنى كل العناية بالامتحان وتغفل عن خلق روح الاجتماع والكفاح فى الحياة .

والمدرس المصرى يأمر ويبطش ليطاع، على حين أن المدرس الأوربى يوجه ويشجع ويعطف ليطاع عن حب متبادل ... وشتان بين طاعة أنت مجبر عليها ومحبة أنت راغب فيها ...

إن إعداد المدرس فى مصر إعداد مرتجل . والأمل لم يزل معقوداً على معهد التربية ودار العلوم والآداب والأزهر ... ولكن على شريطة أن تأخذ وزارة المعارف بما اقترحه الأستاذ الكبير صاحب الرسالة .

اسكندرية — آنسة عواطف بيومى

الفيلسوف جحا :

على أثر المحاضرة التى ألقاها الأستاذ كامل كيلانى عن جحا وتاريخه وفلسفته ارتجل الأستاذ محمود غنيم هذه الأبيات :

إنى حسبتُ « جحا » مجانة ماجن
فإذا به رجل جليلُ الشانِ
هو فيلسوف قام ينشر ذكره — بين البرية فيلسوف ثان
ما زال يطريه ويعلى شأنهُ — متحدثاً عنه بكل لسان
حتى حسبتُ « جحا » رشيداً ثانياً
أو من أقارب « كاملٍ كيلانى »

وارتجل كذلك الأستاذ حليم دموس هذه الأبيات :

يا حارس الفصحى وناشرَ ما انطوى
من تالدٍ منها ومن مستطرفِ
ألّفتَ بين فكاهةٍ ونباهةٍ — وكشفتَ عن ذهن نقى مرهف
وجعلت هزل (جحا) دروساً للحجى
فإذا الحقائق تنجلى فى أحرفِ
وعصرت منها للعصور وأهلها
كأساً من الأدب الرفيع الألطف
فوقفتُ فى الوادى أمامك خاشعاً — وعرفتُ أنىَ جاهل لم أعرفِ
فاهنأ بحكمتك التى دوّنتها — لتنير من سبل الهداية ما خفى

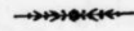
والبيت الأخير لسعادة أحمد حلمى باشا مدير بنك الأمة العربية



الغلاف ذو الأختام الحمر

للكاتب الفرنسي موريس ليبلانه

بقلم الدكتور محمد غلاب



في مساء اليوم الخامس والعشرين بعد وفاة « جاكيلين » أنس زوجها « جيوم » من نفسه الشجاعة على دخول غرفة تلك التي أحبها حبا شديد العمق خصب السعادة.

وكان يريد أن يتنسم على الأخص عطر الماضي بقراءة تلك الرسائل التي كتبها هو إليها في الأوقات التي كانت الحياة فيها ترغمهما على مفارقات قاسية. وكانت « جاكيلين » تحفظ كل رسائلها في علبة من الأبنوس المطعم بالصدف لا يفارقها مفتاحها أبدا. فلما فتح هذه العلبة ألفى بها عدة حزم من الرسائل مربوطة بأشرطة مختلفة الألوان، ووجد على كل حزمة علامة تميزها من غيرها وتعين عصرها، فعلى إحداها مثلا كتبت « جيوم في الجزائر » وعلى الثانية « جيوم في الجيش » وهكذا، وكانت تحت هذه الحزم كراسة معروفة تماما لجيوم، وهي نوع من اليوميات التي كانت « جاكيلين » تقيد فيها إحساساتهما المشترك، ومسراتهما وأحزانهما.

غير أن جيوم حين أخرج هذه الكراسة زحزح قطعة من القطيفة كانت تغطي قاع العلبة، فلما رفع هذه القطعة دهش كل الدهش إذ ألفى تحتها غلافا أصفر مختوما بخمسة أختام حمر وكأنه يحتوي على كية من الأوراق.

فلما نظر إلى هذا الغلاف عرف خط زوجته وقرأ عليه هذه الجملة: « يسلم بعد موتي إلى صديقتي هاريت ديسيز ».

لم يتردد جيوم ثانية في فتحه، فمع أنه حميد الأخلاق إلى حد بعيد، وبرغم أنه طول حياة جاكيلين لم يفتح قط رسالة موجهة إليها فإنه بحركة فجائية وبدون تردد، وبدافع غريزة تغلبت فيه على كل شيء قد فض الأختام ومزق الغلاف.

إنها رسائل، ورسائل رجل.

تناول إحداها بيد مرتعشة.

إنها تبتدىء بهذه الكلمة: « عزيزتي المعبودة ... ».

أدار الصفحة ونظر إلى الإمضاء فألفاه: « رفائيل ».

وفي الحال فهم كل شيء، فقد كان « رفائيل دورميفال » أثناء الشهور الأخيرة التي سبقت مرض « جاكيلين » يتردد على منزلهم، بل طالما دخل جيوم فألفى هذا الرجل جالسا بالقرب من زوجته، فالآن قد أدرك معنى صمتهما الذي كان يسببه لهما حضوره المضايق.

وفي هذه اللحظة كانت الساعة تدق الحادية عشرة مساء، فنهض وغادر الحجرة وتناول قبعته ومعطفه وخرج إلى الطريق، فاستقل سيارة أجرة إلى نادي شارع كابوسين فصعد إليه فألفى هناك عدة مناضد مشغولة بلاعبي الورق، وفي نهاية إحدى القاعات الكبيرة كان عدد من الأشخاص يلعبون « البوكر » فوقع نظره بينهم على رفائيل دورميفال، فاقترب جيوم من المنضدة وألقى عليها بضع قطع من الذهب ليشترك في اللعب. وبعد دقائق رأى الحاضرون بدهشة فائقة أنه بدون مبرر، أو بمبرر تافه قد أخذ يسب دورميفال بأفظع الأساليب، وفي النهاية تبادلا البطاقات واتفقا على تعيين شهود المبارزة.

وبعد ذلك عاد جيوم إلى منزله فتناول صورتي جاكيلين الفوتوغرافيتين اللتين كانتا تزينان موقد غرفته وألقى بهما في النار. ثم دخل حجرة الاستقبال فخلع صورتها الزيتية ومزقها وألقى بها في النار كذلك قطعة إثر قطعة، وعلى أثر هذا نام نوما هادئا بعض الشيء، وحينما استيقظ في اليوم التالي ألفى نفسه سا كنا لأنه كان يخيل إليه أنه قتل تلك الميتة مرة ثانية ما دام قد قتلها في نفسه نهائيا وإلى الأبد، وأن ذكريات الخيانة المرعبة لن تتسلط عليه أبدا، وأن كائنا واحدا يمكن أن يذكره بهذه الخيانة وهو رفائيل دورميفال، وهذا الكائن سيموت ولن يبقى بعد ذلك شيء من الماضي.

وفي الساعة العاشرة اجتمع الشهود، وفي الرابعة حدثت

المبارزة ، وعندما ألفى جيوم نفسه تجاه خصمه أحس كأن الغيظ منه والحقد عليه يقفزان به ، وإذ ذاك فقط تألم وعرف بحق وبهيئة عميقة أن الحياة لن تكون ممكنة بالنسبة إليه مادام هذا الرجل يحيا .

هاجه مرتين بعنف بالغ أشده حتى اضطر الشهود إلى التفريق بينهما ، وفى المهاجة الثالثة ألقى بنفسه عليه واخترق جسمه بضربة من سيفه فهوى وأسلم الروح لساعته .

وبعد أن فارق جيوم شاهديه أخذ يتنزه فى الغابة ساعة ، ولم تكن أية فكرة تهيجه إذ ذاك ، غاية ما فى الأمر أنه كان يحس بأن عقله كثيف مظلم مختلط لا تستطيع الفكرة أن تصدر عنه ، بل لم يعد يعرف هل لا يزال يتألم ؟ وهل شفى غليل حقده من خصمه ؟ وفى ساعة العشاء ألفى نفسه من جديد فى منزله ، وعلى أثر ذلك أنبأه خادمه بأن سيدة تنتظره فى حجرة الاستقبال منذ ساعة على الأقل ، فاتجه إليها فألفاها « هانريت ديسيز » تلك الصديقة المخلصة وكاتمة السر التى أوصت « جاكيلين » بتسليم رسائلها الغرامية إليها والتى لم يكن جيوم قد رآها منذ وفاة زوجته لأنها كانت قد سافرت فى اليوم التالى ، فتبادلا معاً بضع كلمات أعلنت إليه هانريت فيها أنها تصل الساعة مباشرة من الجنوب ، وأنها نالت الحكم بالطلاق ضد زوجها ، وأنها معتزمة الزواج على أثر مضى العدة . فقال بغير اكتراث :— آه .

وفى الحال سألته فى نبرة مرتبكة قائلة :

ألم تجد بين أوراق جاكيلين حزمة لى ... غلافا مختوما ؟

فنظر جيوم إلى تلك الشابة نظرة شزراء وكاد يوبخها على تآمرها مع زوجته الراحلة ، ولكن ما الفائدة فى ذلك ؟

أجابها على سؤالها بقوله :

— نعم وجدت غلافا باسمك

— وإذاً ، فأين هو ؟

— قد أحرقته

فظهرت الكآبة على وجهها وقالت :

— كيف ! أحرقته ! كيف ! لكن لم يكن ذلك من حقك

— لم يكن ذلك من حق !

— لا ، فهذه الرسائل كانت ملكى ، وجاكيلين كانت تحفظها ، لتؤدى لى بذلك خدمة ، ولكن كان من المفهوم أن أستعيدها فى يوم أو فى آخر ... ولما رأت أن جيوم لا يظهر عليه أنه فاهم استمرت تقول فى دهشة :

— آه ! ألم تقل لك جاكيلين ؟ مسكينة جاكيلين ! أنا لم أطلب منها كتمان السر إلى هذا الحد ولا سيما ما يتعلق بك

فقال فى رعدة وفزع : — ماذا ؟ ماذا ؟

— نعم لما كنت منتظرة الطلاق فقد كنت أخشى أن تكتشف هذه الرسائل عندى ، وكنت أحتفظ بها إلى حد يمنعنى من إبادتها ! وقد كانت جاكيلين وحدها هى التى تستطيع أن تحفظها لى ما دامت تعرف سر حياتى .

— أى سر ؟ . تمتم جيوم بهذا السؤال فأجابته قائلة :

— آه ! أنت لا تعرف ، فأنا أحب أحد الناس ... هو أحد أصدقائك ، وكان يتردد كثيرا على منزلك ...

فتمالك جيوم قواه وسألها قائلا :

— أهو رفائيل دور ميفال ؟ .

فأجابته الشابة وفى قلبها ذلك الاسترواح الذى يشعر به المحب حينما يذكر اسم محبوبه قائلة :

— نعم ، نعم هو رفائيل . يجب أن نتزوج ، وسأراه بعد قليل.

نطقت بهذه الكلمات وهى واقفة تستعد للخروج ، وكان وجهها جميلا سعيدا يتلألأ بكل ما لديها من سرور وكانت عيناها تبتسمان ، وكانتا مبللتين قليلا كأن الهناء قد ألانهما .

ففأفأ وتمتم قائلا : — أنت ذاهبة ... أنت ذاهبة ...

— نعم أنا ذاهبة إلى منزله ... إنه لا يتوقع مجيئى إلا غدا . أية مفاجأة ! لهذا كنت أسر لو حصلت على رسائله لأننا كنا نعتزم أن نقرأها معاً على أثر نيلنا حريتنا .

اسمى ... اسمى ...

كان جيوم إذ ذاك يشعر أنه صار مجنونا ، إذ فهم أن شيئا هائلا وفظيعا قد وقع ، شيئا سيترك له ذكرى أكثر إرعابا وتعذيبا من موت زوجته نفسها ، وكان يود أن يهيىء هذه السيدة لوقع ذلك النبأ المؤلم ، ولكنه لم يكن يعرف ماذا يقول فقد رفضت شفتاه النطق بتلك الكلمات المروعة ، وجعل ينظر إليها مضطربا كما ينظر الإنسان إلى أولئك الذين أصيبوا بكوارث تتجاوز القوى البشرية . وبدون أن ينبس بكلمة ، وبدون أية إشارة ، وفى رعشة الخوف والغم والقلق تركها تخرج .

محمد غلاب

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧٠ — الاثنين ٦ مايو ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 670

Lundi—6—5—1946

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٧٠ «القاهرة في يوم الإثنين ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ — ٦ مايو سنة ١٩٤٦» السنة الرابعة عشرة

إصلاح الأزهر بين دعاته وأُباته

تقرأ بعد هذه الكلمة مقالا للأستاذ محمود الغمراوى صور فيه المخاوف التي تساور بعض علماء الأزهر من عواقب الاقتراح الذي اقترحته الرسالة في عدد مضى على مشيخة الأزهر ووزارة المعارف لحل مشكلة الأزهر. صور الأستاذ الفاضل ما توهم من تلك المخاوف تصويرا يروعك منه حفاظ المؤمن وإشفاق الناصح؛ ولكن الألوان والظلال التي اختارها لصورته جعلتها أدخل في باب الخطابة منها في باب المنطق! من تلك الظلال «هذه السهام التي تسدَّد إلى الأزهر، وهذه الأسنة التي تُشرَع على القرآن». ومن تلك الألوان هذا «الفرض الذي يقتل الأزهريون بأيديهم لغتهم ودينهم» وهذا التهويل عليهم «بالبلاء الوافد والخطب الراصد والموت الحاصد». والأستاذ أعلم الناس بأن المستعمرين أنفسهم لم يبلغوا من الجحود بآيات الله أن سول الشيطان لهم بعض ذلك، بَله الذين يؤمنون بأن العالم لا يسعد إلا بالدين، وأن الدين لا يجدَّد إلا بالأزهر، وأن الأزهر متى استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل في أصوله. ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحي وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هي وهو، فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره.

على أن الأستاذ الغمراوى قصر جهده في مقاله على عرض اقتراح الرسالة في صورة الهولة ليُفزّع بها المخلصين لدينهم ولغتهم فلم يشر بتعديل فيه ولا بتبديل منه، كأنه يرضى للأزهر أن يظل كما هو يملك الكلام، ويجتر الماضي، ويقتات الفتات، ويبطل الاجتهاد، ويعطل العقل، ويصم أذنيه عن أصوات العالم وحركات الفلك!

ولكن الأستاذ من صدور العلماء المعروفين بطول الباع في علوم الدين، وسعة الاطلاع على فنون اللغة؛ فلا بد أن يعلم أن ميزة الإسلام التي تفرد بها هي مسايرته للتطور ومطاولته للزمن؛ فإذا حصرناه في زمان محدود، أو قصرناه على نظام معين، سلبناه هذه الميزة، وفصلناه عن دنيا الناس؛ فهو إذن من المصلحين المحافظين الذين يجددون بقدَر، ولا يتقدمون إلا في أناة وحذر، لأنه يرى الحال داعية إلى الإصلاح، ولكنه يطلب من الأستاذ العقاد ومنى أن نراجع الرأى فيما كتبناه لعلنا نجد «لونا آخر من العلاج يكون فيه للأزهر الشفاء والعافية».

ذلك هم المجددون المحافظون، وأما غيرهم ممن يعارضون الاقتراح فطائفتان: طائفة السلفيين المتزمتين، وهؤلاء قد وقفوا عند حدود النقل، فلا يرون لفهم أن يبتكر، ولا لعقل أن يعترض، ولا لمصلح أن يجدد، لأن التجديد بدعة، وكل بدعة على إطلاقها ضلالة. وطائفة الأحرار المستقلين، وهؤلاء يعارضون الاقتراح لا لأنهم يناهضون الإصلاح، وإنما يخشون أن يفلت زمام الأزهر من أيديهم

فتصبح قيادته لوزارة المعارف . ويخيل إلى أن المعارضين الأفاضل على اختلافهم فى أسباب المعارضة لو قرأوا الاقتراح على عادة الأزهريين من التفلية والتحليل لما وجدوا فيه مبعثا للخوف ولا مثاراً للشك . وبحسبنا أن نوضح ما أشكل من جوانب الرأى لنصبح جميعا متفقين على الأسس التى يجب أن يقوم عليها بناء الأزهر القديم الجديد .

***

يرى الأستاذ الغمراوى والذين يذهبون مذهبه أن الاقتراح « يجبُّ نصف الأزهر ويدق رأسه » :

١ — لأن إلغاء التعليم الابتدائى من المعاهد الدينية يستتبع إلغاء حفظ القرآن ، إذ كان حفظه كله أو نصفه شرطا فى قبول الطالب ، وإلغاء هذا الشرط ينقص الإعداد الدينى تلك السنوات الست التى كان يقضيها الصبى فى حفظ القرآن .

٢ — ولأن تحويل المعاهد الدينية إلى مدارس ثانوية تساير منهاج وزارة المعارف فى الثقافة العامة ، وتنفرد فى سنى التوجيه بعلومها الخاصة ، يحرم الأزهر ست سنوات أخرى كان يقضيها الطالب فى دراسة اللغة والدين بأقسامه الابتدائية والثانوية .

٣ — ولأن المواد المدنية على نهجها المعروف فى برامج الوزارة ستطغى على المواد الدينية ، فيقل المحصول الدينى واللغوى لدى الطلاب ، وتضعف الملكة الأزهرية الخاصة لفهم الدرس والكتاب .

٤ — ولأن الاعتماد على حملة الشهادة الابتدائية العامة فى تغذية أقسام الأزهر الثانوية يعرضها للهزال بانصراف التلاميذ عنها إلى المدارس الثانوية الأخرى اتباعاً لأهواء العصر المادية .

وسترى بعد إيضاح ما انبهم أن هذه الأسباب منتفية عن معنى الاقتراح فى أصله ، وما أراب من استراب إلا إجمال فكرته وإيجاز شكله

***

١ — لا يستتبع إلغاء التعليم الابتدائى من المعاهد الدينية إلغاء حفظ القرآن واستقطاع ست سنوات من زمن الإعداد الدينى واللغوى ، لأن المعاهد الدينية الابتدائية إنما تستقبل داخليها وهم فى سن الثانية عشرة ، وهى السن التى ينتهى فيها الصبى من الدراسة الابتدائية العامة دون أن يأخذ من زمن الدراسة الأزهرية وقتاً كثر أو قل ، وإنما تكون مداركه وملكاته قد تهيأت لحفظ القرآن فى مدى السنوات الثانوية الخمس أو الست عن رغبة وفهم . ومن الذى يمنع مشيخة الأزهر أن تجعل حفظ القرآن فرضاً على كل طالب فى كل سنة من سنى الدراسة فى المدارس الثانوية الأزهرية وأمرها فى يديها ، وإعدادها منها وإليها ؟

٢ — إن المعاهد الدينية التى نقترح جعلها مدارس ثانوية بالمعنى الرسمى المعروف ستظل بالطبع تابعة للأزهر خاضعة لإدارته ، فله إذا شاء أن يزيدها سنة أو أكثر ، وأن يبدأ الدراسة الدينية واللغوية من سنتها الأولى ، على شرط أن يحافظ على مواد الثقافة العامة المقررة فى برنامج الوزارة من لغات وآداب وعلوم ورياضة ، وأن يتقدم طلابها المنتهون إلى امتحان التوجيهية العام ، ليكون لهم ما لسائر إخوانهم من ميزة الشهادة الرسمية ، ولتفتح لهم أبواب الوظائف التى أجملناها فى الاقتراح لحاملى الشهادة الثانوية . وإذن تكون مدة الدراسة الدينية واللغوية اثنتى عشرة سنة لا ستاً كما ظن الأستاذ .

٣ — لا خوف من طغيان المواد المدنية على المواد الدينية فى الدرس والتحصيل ما دام الوقت متسعاً ، والأستاذ كفؤاً ، والكتاب مهذباً ، والمنهاج مستقيما ، وتوزيع المواد دقيقاً ، والإدارة حازمة ، والمراقبة يقظى ؛ فإن الوقت إذا أحسن استخدامه اتسع ضيقه ، والكتاب إذا حُذف فضوله قصر طوله .

٤ — من المحال أن ينصرف التلاميذ عن المدارس الثانوية الأزهرية ؛ لأن الاقتراح يقصر وظائف تدريس الدين واللغة والأدب فى جميع مدارس الدولة والأمة على الأزهر ، فإذا أضيف إلى ذلك وظائف التحرير والترجمة ومهنتا الصحافة والتمثيل ، كان الراغب فى ممارسة أمر من هـذه الأمور محتوماً عليه أن يدخل الأزهر لأنه لا يستطيع بلوغه إلا عن طريقه .

وجملة الأمر أن الاقتراح يرمى إلى تجديد الأزهر وتوحيد التعليم على الوجه الذى يحفظ للأزهر طابعه وللأمة وحدتها . فإذا تجاذب الباحثون أطراف الرأى فى حدود هذين الغرضين ، استبان الطريق ، واتحدت الوجهة ، وتلاقوا جميعاً عند الغاية المقصودة لا محالة !

احمد حسن الزيات

فى مقالين :

هل حاسم لمشكلة الأزهر ، ومستقبل الجامعة الأزهرية

للأستاذ محمود أحمد الغمراوى

شيخ معهد دسوق والزقازيق سابقا

...أما بعد ، فقد قرأت ما كتبتم فى العدد رقم ٦٦٦ من مجلة « الرسالة » إلى مشيخة الأزهر ووزارة المعارف من حل حاسم لمشكلة الأزهر ، وما كتبه حضرة الأستاذ عباس محمود العقاد فى العدد رقم ٦٦٧ عن مستقبل الجامعة الأزهرية ، فوجدتكم ترميان إلى غرض واحد يستوقف النظر ويدعو إلى التأمل .

وقبل التحدث أقدم بين يدى الحديث إلى حضرتى الأستاذين شكرا خالصا لعنايتهما بأمر الأزهر وبحث أدوائه ودوائه فى وقت شغل فيه المنسوبون إلى الأزهر بالتافه من شئونهم ، غير مكترثين لما يكتنف الأزهر من خطر ، ولا ناظرين إلى ما يهدد وجودهم ووجوده من بلاء وافد ، وخطب راصد ، وموت حاصد .

وإن فى عناية الأستاذين الكبيرين بالبحث فى مستقبل الأزهر وحل مشكلته ، قياما بحق تتقاضاه من كل ذى شعور كريم مكانة الأزهر التاريخية ، وقيامه بحفظ الشريعة واللغة العربية زهاء ألف عام، فاستحقت مصر بذلك تقدير الأمم الإسلامية وأن تكون زعيمة الأمة العربية . وفى هذه العناية من جانب الأستاذ الزيات خاصة وفاء واعتراف بما للأزهر من صلة وثيقة بفنه البارع وأدبه الرفيع ، وبما يدين به قلمه العربى الفصيح من بلاغة وحسن إلهام امتاز بهما على الأقلام ؛ فى قنة الأزهر نبتت شجرته ، ومن ماء مزنه ارتوت نبعته ، ومن عودها كانت قصبته. وإذا كان رجل الفن من أغير الناس على فنه ، وأحرصهم على خلود مدرسته ، فأكبر ظنى أن الأستاذ الزيات حين تقدم إلى مشيخة الأزهر ووزارة المعارف بما تقدم به من علاج رأى أن فيه حلا حاسما لمشكلة الأزهر ، كان ثائرا من أجل الأزهر لا عليه ، وغاضبا مما يجرى فيه من الأحداث وحواليه ، وإلا فما أظن طبيبا يتقدم لطب مريضه بدواء قاتل يرديه ، ولا أحسب ابنا بارا يريش سهمه لثقفه ويرميه فيصميه . ومن أجل ذلك يطمع الأزهر أن يراجع الأستاذان الرأى فيما كتباه عن مستقبله وحل مشكله ، فقد يجدان لونا آخر من العلاج يكون فيه للأزهر الشفاء والعافية فيوافيان به القراء إن شاء الله .

***

اتفقت كلمة الأستاذين على أن غاية الأزهر أن يفقه الناس فى الدين وفيما تفرع من أصوله من شتى العلوم ؛ وأن سبيله إلى هذه الغاية أن يعلم اللغة وما اتصل بآدابها من مختلف الفنون . فالدين واللغة هما علة وجوده ، وجوهر علمه ، وثمرة عمله ؛ وأنه لهذا ولكونه أقدم جامعة فى العالم بأسره تكون الأمة ذات الشأن الأول فيه حقيقة بأن تحافظ عليه وتستديم بقاءه وازدهاره .

واستشرف القارىء ، وأذن لما يرد بعد هذا القول لعله يسمع رأيا نافعا ، أو يرى علاجا ناجعا ، يطب الأزهر فيشفى داءه ، ويرجع إليه العافية ويكفل بقاءه ، حتى يرى الأزهر قد تشامخ بناؤه ، وعمر فناؤه ، وصفت سماؤه ، وطاب وِرده وماؤه ، وحىّ أمله وقوى رجاؤه ، وازدحمت بالوافدين عليه لطلب العلم أرجاؤه ، وتجاوبت بالعلم فى جوانبه أصداؤه .

ولكننا لم نجد بعد البيان الذى مهداه ، والقول الذى قدماه ، سوى سهام تصوب ، وسنان تحرّب ، وقد شمر الراميان عن ساعديهما ، وكشفا عن ساقيهما ينتضلان ، والأزهر بينهما كدريئة تتنائل إليها السهام ، تارة من عن اليمين ومرة من الأمام ، مسددين إليه الرماية ، يرميان جاهدين إلى غاية !

أما الغاية فهى :

١ — أن يلغى التعليم الابتدائى من جميع المعاهد الدينية ليلقى بمقاليده إلى وزارة المعارف تُلزمه وتقسمه وتعممه على الوجه الذى تراه ، وذلك بدء الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة .

٢ — أن تجعل المعاهد الدينية فى القاهرة وفى الأقاليم مدارس ثانوية يدخلها حاملو الشهادة الابتدائية العامة وتعلم فيها اللغات والرياضيات والآداب والعلوم على منهج وزارة المعارف . وفى أول

السنة الثالثة منها يتجه طلابها اتجاهين على حسب مرادهم واستعدادهم : إما اتجاها إلى الدين وعلومه ، وإما اتجاها إلى اللغة وفنونها ...

٣ — أن يقتصر فى التعليم الجامعى فى الأزهر على كليتين اثنتين : كلية أصول الدين وتندمج فيها كلية الشريعة ، وكلية اللغة وتندمج فيها كلية اللغة العربية ودار العلوم وقسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعتى فؤاد وفاروق ، ويشترك الكليتان فى الدراسة العميقة للغتين العربية والافرنجية ، كما تنفرد كلية الدين بتاريخ الأديان السماوية والأرضية ...

ويقول الأستاذ العقاد : إنه لا يرى من جانبه ما يخالف فيه الأستاذ الزيات قبل الدخول فى التفصيلات التى تعرض عند البحث فى تقسيم الكليات ، وفى مدة التعليم التى يحتاج إليها الطالب الجامعى فى كل منها .

والمهم عنده أن ينتهى التقسيم إلى نظام واحد فى التعليم فلا يبقى للثنائية أثر بين كليات الجامعة الأزهرية وغيرها من الجامعات ، ولا يحسب الفرق بينها جميعا إلا كما يحسب الفرق الآن بين كلية الطب وكلية الزراعة أو كلية الآداب .. ؟

فالهدف الذى يرميان نحوه ، وبيت القصيد عندهما هو تحقيق الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة ، أو كما يقول الأستاذ العقاد : ألا يبقى للثنائية أثر بين كليات الجامعة الأزهرية وغيرها من الجامعات ؛ وتوحيد الثقافة أو إبطال الثنائية فى التعليم لا يتم فى رأيهما إلا إذا ألغى نظام التعليم فى المعاهد الابتدائية التابعة للازهر وحولت المعاهد الثانوية إلى مدارس ثانوية كنظام وزارة المعارف على النحو الذى رسمه قلم الأستاذ . فاذا رضى الأزهر أن يترك ست سنوات وهى نصف المدة المقررة لتأهيل الطالب لنيل الشهادة العالية (إذا ساعده الحظ ولم يرسب فى أثناء الطلب مرتين أو ثلاثا) وإذا تجاوز أيضا عن ست سنوات أخرى يقضيها الراغب فى دخول المعاهد الدينية فى حفظ القرآن الكريم وتبع ذلك أن يتجاوز عن اشتراط حفظ القرآن فى قبول الطالب بالمعاهد الأزهرية ، لأن القرآن لم تبق له أهمية ، ولم يعد ذا صلة بالعقيدة الإسلامية والأحكام الشرعية ؛ إذا تجاوز الأزهر عن هذا طوعا أو كرها ، ورضى أن يجب نصفه وتدق رأسه ، كان الأزهر جديرا بالحياة حريا بالبقاء : فيحتفظ بقديمه ؟! ويشارك فى جديد الناس ، ويساهم فى شركة المدنية . وحينئذ يصير الطالب الأزهرى جديرا بأن يكون عالما حقا ، وأن تفتح له أبواب السماء فيجد مكانه من وظائف الحكومة كما يجد الطبيب والمهندس والضابط أمكنتهم فى كل ديوان يحتاج إليهم !

يقولون لا تبعد وهم يدفنونه ولا بُعْدَ إلا ما توارى الصفائح

أما إذا ظل الأزهر على تعصبه كما هى عادته ، وأبى له جموده أن يتنازل عن وجوده ، فإنه يكون غير صالح للبقاء وليس أهلا للحياة ؛ لأنه غير قادر على مسايرة الزمن فيجب أن يسلب اختصاصه ويعطى تراثه لمن هو أقدر منه على مسايرة الزمن والمشى مع القافلة ، فيكون تراث الأزهر نهباً مقسما بين كلية الحقوق ودار العلوم وكلية الآداب : تستقل الحقوق بالشريعة ، وتحمل دار العلوم لواء اللغة ، وتضطلع كلية الآداب بدراسة أصول الدين : تدرسها على المنهج الجامعى فى التقصى والاستيعاب والموازنة .

وإذا حرك أزهرى ساكناً أو نبس ببنت شفة قيل له : صه ! لست هناك : لست فى العير ولا فى النفير ، إنما أنت شخص متبطل ، تنتمى إلى طائفة معاشية ، يربط بعضها ببعض تحصيل المعاش ؛ أوحاجتها هى إلى المعاش ؛ فلا هى لنفسها ولا لله ولا للوطن .

لقد جربناك وجربنا أزهرك فلم نجد عندكم غناء ، ودعونا الأزهر للسير فى ركب الحياة فلم يستجب للداعين نداء ، وقال بهير قطع . وسألته الأمة أن يمدها بشيوخ الدين والعربية فعجز ولم يستطع ، حتى اضطر أولو الأمر بسبب عجزه ، إلى طرحه ونبذه ؛ وأنشئوا دار العلوم لتخرج لهم أئمة فى علم اللغات ، وابتنوا مدرسة القضاء لتصنع لهم أئمة قادرين على تشريع ما يوافق الهوى والرغبات . فها نحن أولاء ندعوكم أيها الحمقى الجامدون والغلاة المتمردون لتختاروا إحدى خصلتين لكم فى كلتيهما هدى وقصد وفلاح ورشد . وليستا كخصلتى الضبع إذ خيرت الثعلب بين أن تقتله أو تعزقه ؛ ولكنها خيرة فيها صلة للرحم ورعاية لذمامه وهى أقرب للعدل والتقوى ؟ أعرض عليكم لآخر مرة أن تختاروا واحدة من اثنتين : إما أن تقتلوا أنفسكم وتقبروا لقتكم

وتتخلوا عن دينكم وتتركوا من زمن دراستكم للغة والدين ست سنوات تقضونها فى دراسة اللغة والدين بالأقسام الابتدائية والثانوية بالمعاهد الدينية وذلك شىء يسير لايتجاوز نصف الزمن المقدر للدراسة فى الأزهر وفى المعاهد لنيل شهادة العالمية .

ثم لاتتشبثوا باشتراط حفظ القرآن فيمن تحدثه نفسه بالدراسة فيما يسمى كليات الأزهر فقد علمتم مما قدمناه لكم أن حفظ القرآن لم تبق له أهمية ، ولم يعد ذا صلة بالعقيدة الإسلامية والأحكام الشرعية ، فسوف نكتفى ونستغنى عن كل ذلك بما دوّن فى الكتب الأخلاقية والقوانين المدنية .

فان لم تختاروا هذه ولم تطب نفوسكم بأن تتركوا جودكم وتقبروا بأيديكم لغتكم ودينكم ، فإنكم تكونون قد اخترتم الخصلة الثانية : وهى أن نقتلكم بأيدينا ، فنقطع الصلة بينكم وبين الأمة ، ونعلن البراءة منكم فى العالمين ، كما تبرأ الهنود من المنبوذين ، وحينئذ ترون العذاب ، وتنقطع بكم الأسباب ، وتغلق فى وجوهكم السبل والأبواب .

هذه هى النذر التى رآها الأستاذ الزيات ظاهرة فى الأفق ، رآها بما جعل الله له من نور يمشى به ، ويسعى بين يديه وبيمينه ، فأنذر الأزهريين (وهم قومه وعشيرته) أنذرهم ما يرصدهم فى الأفق من المصائب ، وحذرهم ماترتقبهم وينتظرهم من وخيم العواقب ؛ ونصح فأبلغ وأخلص فى النصح ، فجزاه الله من أخ وفى ، ومؤمن صادق أبى . ولقد أعذر إذ أنذر ، فعسى ألا نمارى نحن الأزهريين بالنذر .

أما الخطتان اللتان عرضهما للاختيار ، فإنهما كما بينت ليس فيهما حظ لمختار . وعسى أن يكون الله مدخراً خيراً منهما للأزهر عنده .

يحيى رفات العظام بالية والحق يا مال غير ما تصف

ولعله يرى بما أوتى من نور سبيلا لا حبا يصل منه الأزهر إلى النجاة والحياة .

وقد وددت لو أن فى الوقت سعة لأبين أن الأزهر قد أدى للأمة ما طلبته منه : فهو الذى أعطى الأمة دار العلوم فى خير عهودها إثماراً وإنتاجا حيث كانت تخرج أمثال حفنى ناصف وعبد العزيز جاويش . وهو الذى قامت على كواهل رجاله وعقول علمائه وعلومهم مدرسة القضاء . وهو الذى خرج للأمة بل للعالم الإسلامى عظماء العلماء والمفكرين أمثال المرحومين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأبى خطوة والطويل والبحيرى والشربينى وغيرهم ممن لايتسع الوقت الضيق لذكر أسمائهم . وإنه لم يضق ذرعا بما أدخل فيه من علوم نافعة فقد أوسع لها صدره حتى صار لايستطيع أن يتنفس بالمقدار الذى يحفظ كيانه وحياته التى تمكنه من أداء مهمته التى ينتمونها فى صدر مقالكم . ولعل الأزهر قد قصر فى حق نفسه من هذه الناحية .

وددت لو أن فى الوقت متسعاً للافاضة فى هذا ؛ غير أن حرصى على أن تدرك هذه الكلمة فى عدد الرسالة القادم هو الذى يحملنى على أن أختم الحديث بإهدائك أكرم التحيات والسلام عليك ورحمة الله .

محمود أحمد الغمراوى

شيخ معهد دسوق والزقازيق سابقاً

يوم الجــلاء ...!

للأستاذ علي الطنطاوي

«. . ماظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار »

— ١ —

ماذا فى دمشق ؟ فنى كل ميدان فيها عرس ، وفى كل حىّ فرح ، وفى كل شارع مهرجان ! ما هذه الزحمة ؟ ماهذه الوفود ؟ الطرقات كلها مترعات بالناس ما فيها موطئ قدم ، وحيثما سرت تر قباباً من الزهر وستائر من الحرير ، وعلى دمشق سماء من صغار الأعلام ومصابيح الكهرباء ، قد انتظمتها حبال فدارت بها ، ثم انعقدت على أشكال العقود والتيجان ، فكانت منظراً عجباً ، إذا رأيتها فى الليل حسبت السماء قد ركبت فيها ، فسطعت كواكبها ولألأت نجومها ، وإذا أبصرتها فى النهار ظننت الربيع قد عاد مرة ثانية ، فكان كل شارع روضة فتانة ، ضرب فيها موعد حب ، وكل بناء عريشة ورد وفلّ وياسمين ... وأغلى الطنافس مبسوطات على الجدران ، وأحلى الصور معلّقات على الطنافس ، والسيوف المذهبة والتحف الغالية ... مايضنّ الناس بقيّم ولا يبخلون بثمين .

والرايات : السورية والمصرية والعربية السعودية والعراقية واليمانية والأردنية ... أستغفر الله العظيم ، بل هى راية واحدة اتحدت حقيقتها وتعددت ألوانها ، لأمة واحدة اختلفت أزياؤها وتناءت أوطانها ، فألفت بينها قبلتها وأدناها قرآنها . أمة آخى الله بين أفرادها من فوق سبع سماوات ، فأراد الظالمون تفريقها بخشبات ينصبونها على الطرقات ، يسمونها حـدوداً ، خسأ الظالمون ... وخابوا ... إن بناء تقيمه الله لاتهدمه خشبة نخرة ولا خرقة مرقعة !

لقد أوقد الليلة فى دمشق خمسمائة ألف مصباح ، ونشر فيها ألف ألف علم ، عدّت عداً ، ورفع فيها مائة قبة من النور يعدو تحت إحداها الفارس من سعتها ، ووضع فى أرجائها مائة مذيع مصوّت ، يخرج منه النداء والهتاف والخطاب فيسمع فى أقصى الغوطة ويردد صداه الجلمود من قاسيون ، ومشت فيها خمسة آلاف (عراضة)[١] وموكب ، وأقيمت ألف (دبكة[٢]) ، ففى كل مكان ازدحام ، وعلى كل ثغر ابتسام ، وفى كل قلب فرحة ، وكل الناس مبتهج مسرور ، الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ، والهتاف متصل ما ينقطع ، والنشيد دائب ما يسكت ، والخطب والمحاضرات والزغاريد[٣] والأغانى ، من المصوّتات[٤] والراداد[٥] والحاكيات[٦] والأفواه ، والطبول تقرع ، والمدافع ترعد ، والطيارات تركض فى السماء ، والسيارات تزحف على الأرض ، والصواريخ تنفجر فى الجو فتتساقط منها الأنوار أمطاراً ، والجيش يحمل مشاعله ينشد ويزمّر ، يشارك الأمة فى أفراحها ، وما عهدنا (هذا) الجيش يشاركنا فى فرح ولا ترح! ما عهدناه إلا عونا للغاصب علينا ، ضاحكا فى مآتمنا عابساً فى أفراحنا ... يدور بالمشاعل فى شوارع دمشق ، يذكّر بالجيش الإسلامى لما حمل القرآن مشعل النور الهادى فأضاء به الأرض وهدى أهلها . وعلى كل جبل من جبال دمشق نيران ضخمة أضرموها ، كما أضرمت من قبل نيران (الفتح) على جبال مكة ، إيذانا بتطهير الكعبة وتهديم الأصنام ، و(إجلاء) الشرك عن البيت الحرام .

وفى كل دقيقة يفـد على دمشق وفد جديد : مواكب وعراضات من كل بلد وقرية وناحية ، قد لبسوا أحسن ثيابهم وجاءوا يعرضون أمتع فنونهم ، وأعجب ألعابهم ، ويهتفون أجمل هتافاتهم ، فكأنه عيد الأولمب عند اليونان : فمن صراع إلى دبكة إلى قفز إلى لعب بالسيف والترس ، إلى عدو بالخيل ، إلى تمثيل وغناء ...

وهيا كل ضخمة ، أعـدها الشباب ، فوضعت على ظهور السيارات ، على أشكال القلاع والمدافع والمدرعات ، وشىء يمثل أيام العذاب ، ومراحل الجهاد من ميسلون إلى الجلاء — فالعين رائية كل لون وشكل ، والأذن سامعة كل نغمة ولحن ، وفى

(١) موكب شعبي يتقدمه قوال يقول فيردد الناس مقاله .
(٢) رقص قروى له أغان خاصة وأبرع الناس فيه أهل لبنان .
(٣) هتاف النساء .
(٤) أردنا بها مكبرات الصوت .
(٥) جمع راد وهو الراديو لأنه يرد الصوت الذى خرج من المذياع.
(٦) أى الفونوغرافات .

كل فؤاد هزة طرب ، وعلى كل لسان صيغة حمد وكلمة ابتهاج ، والليل يتصرم وما تخلو الساحات ، ولا يفتر النشاط ، ولا يسكت الضجيج ، وما يفكر أحد بمنام ، فكأنما قد جنّ البلد .

* * *

فماذا فى دمشق ؟ أى يوم هذا من أيامها ، عظمت أيام دمشق وكرمت وجلت ؟

ألا إنه يوم الفرحة الكبرى ، إنه اليوم الذى كان يتمنى كل شامى أن يراه ، ولا يبالى إذا رآه أن يموت من بعده . إنها الغاية التى سرنا إليها خمساً وعشرين سنة وتسعة أشهر ، نطأ الحراب ، ونخوض اللهب ، ونسبح فى الدم ، ونتخطى الجثث ، ونتنشق البارود .

إنها الأمنية الكبرى التى كان يتمناها كل سورى ، وكل عربى وكل مسلم .

إنه يوم الجلاء .

لقد جُنت دمشق وحُقّ لها أن تجن ، فقد عاد الحبيب بعد طول الفراق ، وآب المسافر بعد ما امتد الغياب ، وعانقت الأم وحيدها بعد ما ظنت أن لا لقاء ، وخرج الفرنسيون وزال الانتداب !

* * *

إنه يوم الجلاء ...

فيا أيها الذين عادوا من ميسلون بقلوب كسيرة ، ونظروا إلى موكب الناصب بعيون دامعة ، وحملوا الظلم بأعصاب صابرة ، وشاهدوا جبروت المحتل وطغيانه ووحشيته ، والعرش الذى أقاموه على دماء قلوبهم وعزائم سواعدهم هوى ، والبلاد التى برأها الله واحدة قسمت فجعلت دولا ... والوطنى المخلص نفى أوسجن ، أوحكم عليه بالموت شنقاً ، والخائن الملعون قدأعطى الرتب والذهب ...

ويا أيها الذين خرجوا على الظلم ، وعرضوا أرواحهم للموت ، على شعفات الصخر ، من جبال اللاذقية إلى جبل الدروز ، وعلى السهول الفيح ، من أعالى حلب إلى أدانى حمص ، وعلى ثرى الجنات من أرض الغوطة ، لم يخشوا فرنسا إذ كانت تخشاها الدول ، ويرهب بأسها الأقوياء ...

ويا أيها الذين نشأوا[١] فى عهد الانتداب ، فرأوا فى كل مدرسة مستشاراً فرنسياً هو الآمر الناهى والمدير[١] تمثال ، وفى كل وزارة مستشاراً هو الفاعل التارك ... والوزير صنم ، وفى كل قضاء مستشاراً هو الحاكم وهو المنفذ وهو الأمير ، وفى وسط المدن مراكز للعدو ، وعلى الجبال قلاعاً له قد وجهت مدافعها إلى البلد لتضرب أبناءه إذا طالبوا بحق أو أبوا ظلماً ، لا إلى الفضاء لتردّ عنه الأعداء ، وفى كل طريق جنداً من الفرنسيين والمغاربة المسلمين ... والسنغاليين والشركس والأرمن و ... الدمشقيين الخائنين ، يلوّحون بأسلحتهم فى وجوه أهل البلد ، ويرمونهم بالشرر (فى السلم) من نظراتهم ، وبالنار (فى الثورات) من بنادقهم ...

ويا أيها الشهداء الذين قضوا بنيران العدو الباغى ، فى سبيل الله ثم فى سبيل الحرية ، وهل تسمع أرواحكم دعائى ياأيها الشهداء ؟

ويا معشر العرب فى قاص من الأرض ودان .

إنا نحمد الله إليكم ، تبارك اسمه ، وجل جلاله ، فقد أكمل نعمته ، وأتمّ منّته ، وأخرج الفرنسيين من الشام كله ، فلم يُبق منهم أحداً .

اذهبوا الآن إلى (المزّة) وادخلوا القلعة ، وأمّوا الثكنة الحميدية ، فانه لايمنعكم حارس سنغالى وجهه يقطع الرزق، ولا يردكم ضابط فرنسى ، ولا تحجزكم سِلْك ذات أشواك ... وسيروا فى طريق الصالحية فادخلوا قصر (المفوض السامى) الذى كان يتنزل منه وحى الضلال على قلوب الخونة المارقين من طلاب الحكم وعشاق الكراسى ، فيكونون لربه عبيداً أذلّة ، وعلى أبناء بلدهم فراعنة مستكبرين ، ولجوا قصر (المندوب) الذى كان ينصبّ منه (أمس) الموت الزؤام على من يدنو من حماه ، واسرحوا وامرحوا حيث شئتم ، فالبلاد بلادكم ، لا فرنسى ، ولا إنكليزى ، ولا طليانى ولا روسى ، ولا أشقر ولا أسود ...

ألا لا مفوض (سامى ...) اليوم ، ولا مندوب !

لقد ذهبوا جميعاً ، وما تركوا من جنات زرعوها ولا عيون ، ما تركوا إلا بيوتاً كانت عامرة فجعلها حكمهم خرائب ، وجناناً صيّروها مقابر ، وضمائر نفرٍ منا كانت نقية فدنسوها ... ذهبوا وما أورثونا خيراً قط .

* * *

هـذا قصر المفوض السامى الذى كان بالأمس يزعم أنه إله

---

(١) كذلك يكتبها الناس والقاعدة فيها (نشؤوا) فمتى نتخلص من هذه الفوضى ؟

(١) واسمه فى مصر الناظر .

الأرض ، تعالى الله ما من إله غيره ، وكان كلما نزت برأسه نزوة من حماقة جعلها قانونا ، وحمل الناس عليها بسنان البندقية وفم المدفع ، قوانين ينقض بعضها بعضاً ، ويلغى أواخرها الأوالى ، ولا يحصيها عالم ولا جاهل : (إن المفوض ، بناء ، وبناء ... يقرر تعديل الجملة الثانية من الفقرة الأخيرة من المادة ١٨ من القرار ١١٠٥ ل.ر) فلا يعرف جنى ولا إنسى ، ماهذه الفقرة ، ولاماهذه المادة ، ولا ما هذا القرار ... لقد ذهب وأورثنا عشرة آلاف قرار مثل هذا ! ذلك هو التشريع الفرنسى الذى يحسبه القردة المقلدون ، أفضل من شرع ربنا ، لأن عليه (الطابع الأوربى) !

هذا هو قصر المفوض الذى سرقه من فيصل ، فيافيصل ، يا أيها الملك ! ارفع رأسك مرة واحدة وانظر ... إنها لم تطل المدة ... إن اللص قد طرد ، وإن الباغى قد دارت عليه الدوائر ، فما دافعت عنه جنوده ، ولا حمته حصونه ، ولا أغنت عنه مدافعه وطياراته . لقد جرب فينا أسباب الموت كلها فما صنعت شيئاً . لم تحرقنا ناره ، ولم يقتلنا حديده ، لأننا أمة لا (يمكن أن) تموت ! وأحرقته هو نار حماستنا ، وقتله حديد عزائمنا ، فولى عنا باللعنة ، كما دخل علينا باللعنة !

* * *

اليوم يوم الجلاء .

اليوم يبكى رجال (منا) كانوا يأكلون الطيبات ، وينامون على ريش النعام ، من بيع ضمائرهم للأجنبى ، على حين كان الناس ينامون على التراب ، ويأكلون الخبز اليابس .

اليوم يبكى رجال حملتهم الخيانة فوضعتهم على مقاعد العز فى أبهاء الحكومة فصاروا من كبار الموظفين .

اليوم يبكى رجال كانت لهم فى سجلات (الاستخبارات) أسماء ، فصاروا اليوم أيتاما كالأجراء فى المزبلة بعدما مات الكلب .

ولكن الشعب كله يضحك اليوم ، وتضحك معه الدنيا .

اليوم يضحك البلد بالزينات والأعلام ، ويضحك الليل بالأضواء والمشاعل ، وتضحك المنائر بالتكبير ، وتضحك النواقيس بالرنين ، وتضحك الأرض والسماء !

اليوم يرى الشاميون الفرحة الكبرى التى تنقش ذكراها على قلوب الأطفال والشباب فلا تمحى أبداً ، وتكون لقلوب الكهول والشيوخ شبابا جديداً ، كما كانت الفجيعة فى ميسلون شيخوخة مبكرة لهذه القلوب التى شابت من الهول قبل الأوان !

* * *

لقد نامت دمشق البارحة ملء جفونها من بعد ما صرمت تسعة آلاف وثلاثمائة وسبعاً وتسعين ليلة[1] وهى تنام مفزعة الفؤاد ، مقسمة اللب ، تخشى أن تصيبها من الفرنسيين بادرة طيش ، أو نوبة لؤم ، تذهب بدار عامرة : أو تضيع حقاً ظاهراً ، أو تريق دماً بريئاً ؛ وأغفت تحلم بالمجد والحرية ، وقد مرت عليها تلك الآلاف من الليالى ، لا تحلم فيها إلا بتهاويل الظلم والموت والخراب ، وتأنس بطيوف الأحبة من جند العرب فى مصر والعراق والحجاز ونجد ، وقد زهت بهم دمشق أن قدموها ضيوفا كراماً بل إخواناً وأصحاب البلد ، وقد كانت تروعها كلما نامت أشباح الأبالسة تتراءى فى صور جند من الشقر أو السمر أو السود الفرنسيين والمغاربة[2] والسنغاليين ، وأمنت الأم على ولدها أن تتخطفه الشراكسة زبانية (كوله) فتلقيه فى سجن عميق ، أو منفى سحيق ، أو تذيقه النكال والتعذيب ، لوشاية كاذبة ، أو تهمة باطلة ، أو طمعاً بفدية أومال ، واطمأن السكان على منازلهم أن تدمرها فى هدأة الليل قنابل الطغاة أو تحرقها نارهم أو تسرقها أيديهم ! لقد نامت دمشق البارحة وهى تودع عهد الانتداب ، عهد الجهاد والعذاب ، لتستقبل عهد الحرية ، عهد البناء . ونهضت دمشق تسبق الفجر الطالع تؤم الشوارع التى يعرض فيها جيش العروبة ، فما طلعت الشمس وفى النوافذ والشرفات وعلى ظهور البنى والعمارات ، فى شارع فاروق وفؤاد والجامعة السورية والسنجقدار ، وميدان المرجة وضفاف النهر ، وفوق قباب التكية السليمانية ، وعلى أشجار المسالك ، وفى كل مكان يشرف على الطريق ، ما طلعت الشمس وفى ذلك كله شبر واحد خالٍ من رجل إنسان قد قام لينظر ويتطلع ، وأجر المقعد الواحد بعشر ليرات ، ومكان الوقوف بليرتين . فكان هذا المنظر أحد الأعاجيب .

ونصب الفسطاط ، واجتمعت تحته الأقطار العربية كلها ، جاءت وفود ملوكها وأمرائها من القاهرة والرياض وبغداد وبيروت وعمان ، وصنعاء ، والقدس ، يهنئونها فى عيدها ،

---

(١) من يوم الاحتلال ٢٥ تموز يوليوسنة ١٩٢٠ إلى يوم الجلاء ١٧ نيسان (إبريل) ١٩٤٦ .

(٢) المغاربة من أكرم إخواننا علينا ، ولكن منهم ومنا خوارج علينا ، ضربوا بسيف عدونا وإنا لنلعن خوارجهم كما نلعن خوارجنا

بعد الجلاء عن سورية :

سحر الجـــــلاء !

للأستاذ سيد قطب

[مهداة إلى الأستاذ توفيق الحكيم]

فى العدد الماضى من جريدة « أخبار اليوم » وصف صحفى بعنوان «رأيت يوم الجلاء فى سوريا» بقلم الأستاذتوفيق الحكيم صدرته الجريدة بهذه المقدمة :

« رأت أخبار اليوم بمناسبة الجلاء عن سورياأن توفدالأستاذ توفيق الحكيم لشهود عيد الجلاء ، وكذلك أوفدت مصورها الخاص ليسجل حفلات الجلاء ... وفيما يلى ننشر أولى رسائل الأستاذ توفيق الحكيم »

وقد بدأ الأستاذ توفيق وصفه الصحفى يقول :

« أولئك الذين عرفوا أو سمعوا بذلك الكسلان الجالس طول يومه على إفريز مقهى لا يصنع شيئا ولا يعنى بأحد ولا يهتم لأمر ، قد دهشوا ولم يصدقوا أعينهم عند ما أبصروه ينزل من طائرة حربية محلقة فى جو دمشق ، وخلفها سرب من طائرات القتال المصرية .

« ما هذا الشعور الذى حرك الساكن ، ونشط الهامد ، وأحيا الجماد ؟ إنه الفرح بالجلاء الأجنبى عن أرض شقيقة لنا عربية ، والجلاء عن سوريا ليس إلا مطلع ذلك الفجر الجميل فى ليل الشرق الطويل ... الخ الخ »

***

قرأت هذا فلم أدهش ولم أكذب عينى لأن توفيق الحكيم قد طار مندوبا لأخبار اليوم مع مصورها الخاص ليسجلا حفلات الجلاء عن سورية !

فما فى هذا شىء يدعو إلى الدهش أوالعجب ،فهى «واحدة» من « وحايد » الأستاذ توفيق « كصينية البطاطس » و « عدو المرأة » . و « البيريه » على الرأس و « حمار الحكيم » ...

ويشار كونها فى أفراحها ، ويقبسون أول شعاعة من شمس الحرية التى أشرقت على العرب بعد ليل طويل ، وكان مشرقها دمشق .

قفوا لحظة على هذا الفسطاط فانها ستقف عليه الأجيال ، إنه سيقدسه التاريخ ، إنه سيكون لنا كما كانت حطين للجدود .

إنها ساعة حاسمة فى تاريخ العالم ، فقد تحرك فيها الفلك ، وانقلبت فى تقويم البشر ورقة جديدة . إن الأيام ما زالت سجالا بين الشرق والغرب ، والدنيا بينهما نُوَباً : قام الشرق يحمل منار الحضارة وسيف الظفر بأيدى المصريين والبابليين والحيثيين والفينيقيين ، ثم انتقلا إلى الغربيين إلى اليونان والرومانيين ، ثم عادا إلى الشرق الذى أيقظه محمد ، إلى المسلمين ، ثم آبا إلى الغرب لما ترك الشرقيون هدى محمد ، وهاهما يتحركان الآن ، ليعودا إلى الشرق ...

وعز الشرق أوله دمشق[1] ...

***

لقد ضاع حلمك ياغورو، وتبدد ، وخابت أمانيك يادى غول، وحقق الله الأمنية التى كان يجيش بها صدر يوسف العظمة ، شهيد ميسلون ، وسيحقق أمانىّ سعد ورشيد وعبد الكريم وعمر المختار وعبد القادر وجناح فى الهند ، ولم لا ؟ وأهل سورية التى نعمت بالجلاء لا يزيدون إلا قليلا عن سكان القاهرة اليوم ، والعرب كلهم بدولهم وحكوماتهم ... أقلّ من مسلمى الهند !

فتيهى يا دمشق واعتزى ، فقد كنت عاصمة العرب فى أول الدهر ، حين أنشىء فيك الملك الضخم ، وأقيمت الدولة العظمى ورسا عرش عبد شمس على ثراك ، فطالت فروعه النجم ، وأظلت المشرق والمغرب ، وطلع على الدنيا مجداً ورخاء وأمنا . وعدت اليوم عاصمة العرب حين كنت أول بلد عربى خلص لأهله بعد الاحتلال ، فلا يشاركهم فيه جيش حليف ولا منتدب ولا وصى ولا محتل ...

يا دمشق لقد عادت أيام معاوية وعبد الملك والوليد ، لقد اتصل التاريخ الذى كان انقطع منذ قرون !

(لها بقية) على الطنطاوى

(١) شوقى

وأخيراً « قطط الحكيم » التى ظهر فى مجلة الاثنين يحملها بين يديه ، كآخر رفيق بعد الحمار الذى أوفده فى مهمة خاصة ! !

لم يدهشنى إذن أن يطير الأستاذ توفيق ليسجل حفلات الجلاء فى سورية مع مصور أخبار اليوم ... إنما الذى أدهشنى حقاً هو ذلك الانقلاب فى رأى الأستاذ توفيق وشعوره إزاء قضايا الشرق العربى والاستعمار الفرنسى . وهو انقلاب يجب تسجيله ، لأن تسجيله مفيد .

حينما كانت الأزمات على أشدها بين أمم الشرق العربى وفرنسا ... حينما كان بعض الكتاب يحملون على فرنسا حملات نارية لأنها تستخدم الوسائل البربرية فى قمع الشعور الوطنى فى نفوس العرب ... حينما كانت دماء بعضهم تغلى لأنه لا يطيق أن تتحكم هذه البربرية فى مصير العرب فى سورية ولبنان وفى الشمال الإفريقى ...

فى هذه الأوقات كان للأستاذ توفيق الحكيم رأى آخر ، أشار إليه الأستاذ « عبد المنعم خلاف » إشارة صريحة على صفحات الرسالة بعد مشادة عنيفة بينه وبين الأستاذ توفيق فى جلسة من جلسات لجنة التأليف والترجمة والنشر وأشرت إليه من بعيد فى مقالة لى بالرسالة بعنوان : « هذه هى فرنسا » !

ولقد كان الأستاذ توفيق يثور وينفعل ، لأن فرنسا فى خطر، ولأن فرنسا ذخيرة إنسانية فداؤها كل شىء . ومن كل شىء هذا الشرق العربى الجاهل المجنون !

لقد أدهشنى ولاشك ذلك الانقلاب. ولكنه أفرحنى أيضا ، فهذا « سحر الجلاء » وسره العميق ! هذا هو النور الذى يكشف الغشاوات الوقتية التى تحجب النور حتى عن العيون الفطنة اللماحة مثل عينى الأستاذ توفيق الحكيم !

« وهبطنا مطار المزة ، فوجدنا فى الانتظار دولة سعد الله الجابرى رئيس الوزراء . فما كاد يرانى حتى ابتدرنى قائلا :

— وأين حمارك ؟

فقلت على الفور :

— أوفدته ليشيع المحتل الراحل بما يناسب المقام !

وكدت أتابع الحوار فأنوب عن دولة سعد الله الجابرى لأقول:

— ولكن المحتل الراحل هو « فرنسا » يا أستاذ توفيق !

إلا أننى ذكرت « سحر الجلاء » سحر الاستقلال ذلك الذى يكشف الغشاوات الوقتية التى تحجب النور حتى عن العيون الفطنة اللماحة مثل عينى الأستاذ توفيق الحكيم .

* * *

كم فى مصر من المخدوعين بفرنسا ! وكم فيها من المخدوعين ببريطانيا ! وكم فيها من المخدوعين بأمريكا! وكم فيها من المخدوعين بالعالم الغربى على وجه العموم !

هؤلاء جميعا أدعوهم لمراجعة الوصف الطلى الذى قدمه الأستاذ توفيق الحكيم عن يوم الجلاء فى سورية ، بعد الانقلاب العظيم

كم هم كثيرون ... أولئك الذين حجب الاحتلال الطويل لبلادهم ذلك النور عن عيونهم ، فتركهم لا يتطلعون إلا إلى وهج الغرب المستعمر الذى يعشى الأعصاب والعيون .

وكم نحن فى حاجة إلى « سحر الجلاء » ليجلو الغشاوة عن هذه العيون ، فتبصر النور القريب . النور الذى يشع من داخل نفوسهم هم ، وهم به لا يشعرون !

إننى فرح بهذا الانقلاب فى شعور الأستاذ توفيق الحكيم، فليعذرنى إذا أنا تجاوزت معه أسلوبى المعهود !

* * *

وبعد فما أحرى هذا الانقلاب أن يزيد كلمة « الجلاء » فى أنفسنا إعزازاً ، وأن يزيدنا عليها إصراراً . فهذا الجلاء فى سورية هو الذى سحر أحد عشاق فرنسا المعجبين المتحمسين ، فجعله يرسل حماره ليشيع المحتل الراحل بما يناسب المقام !

وليس هو بالمكسب اليسير أن يسترد الشرق رجلا فنانا من طراز الأستاذ توفيق الحكيم، يطير ليحضر حفلات الجلاء فى سورية، فهذا وحده كسب يغرينا بطلب الجلاء العاجل عن الشرق كله . ولعل الأستاذ توفيق وإخوانه من عشاق فرنسا ، لاينسون سحر الجلاء إذا نحن طلبناه للشمال الإفريقى أيضا . ولعله يومئذ يرسل حماره ليشيع المحتل الراحل بما يناسب المقام .

سيد قطب

أوراق مبعثرة :

من ظلال الهوى ...

للأستاذ صلاح الدين المنجد

ماذا تريدين مني ، في هذه العشية الصافية ؟
لمَ تنظرين إلى بعينيك المجرمتين ، هذه النظرات الفاتنة ؟
لمَ ترسلين من شفتيك ، الرفافتين بالخطايا ، بسمات آسرة ؟
أتحاولين إغرائي مرة أخرى ؟
لقد أوى قلبي ، كعصفور جريح ، إلى عشه وأغمض عينيه .
فدعيه ينعم بالهدوء ...
وابتعدي عني ... أنت يا خائنة .

* * *

نشواي ، يا أفعى من أفاعي الجحيم .
اسمعي ... لن آسف على ما مضى .
لقد ذبت في هواك الخادع ،
وقدمت إليك روحي صافية كالدرة ، نقية كالندى .
فلما آنست مني الحب والعطف ،
وشع في عيني الوله واللطف ،
تلونت تلون الحرباء ، يا نشوى ، وأعرضت عني لاهية جذلى . فانثنيت على قلبي ، أبكي هواي ، وأذيب في دمي أساي .
فلم عدت هذه العشية يانشوى تؤرثين أشجاني ، وتهيجين أحزاني ؟
لقد مللتك فدعيني .
دعيني ، ويلك ، يا خائنة !

* * *

نشواي يا نشوى .
أيامك المواضي ، حلم شهي ، رف وانمحى .
وهمسك الحلو في أذني ، في عشيات الربيع ، ضاع ونأى .
وزهرك المنضور ، المخضل بالعطور ، جف وذوى .
لا تقربي شفتيك اللاهبتين من فمي .
ابتعدي ، فأنفاسك تهيجني ...
حولي نظراتك عني ، فالشهوة فيها تفور ، والنار في جسمك تثور .
أتبكين ... ؟
عودي ، ودعيني ، أنت يا خائنة .

* * *

كانت بسماتك زهرات فردوس موهوم ، في رحيقها سم مختوم ؛
وغمزات عينيك ، كن شظايا من جحيم ملعون .
وكانت شفتاك ترعشان بين شفتي ، كورق الورد الندي ، في نسمات الربيع .
وكنت أرويك الهوى حلوا .
فاصفرت البسمات يا نشوى ، وضاعت غمزات .
وتلوت الأفعى وقالت لا أريد ، لا أريد .
فلم عدت تهيجين أشجاني يا نشوى ، وتثيرين أحزاني .
فجراحي ندية وقلبي متعب ، ودمي يسيل .
فابتعدي عني ، ابتعدي ، أنت ياخائنة .

* * *

لكن تعالي يا نشوى تعالي ...
لا تخفك نظراتي وزفراتي .
لمَ تدبرين وكنت مقبلة ، وترعشين وكنت هادئة ؟
أأدعك قبل أن أنتقم ...
أين دمائي التي أهرقتها ، وقلبي الذي ضل ؟
سأمتص دماءك ، فهي دمائي .
وسأمزقك ألف قطعة وقطعة .
شد ما أبغضك ...!
اقتربي ، ولا تعودي ، أنت يا خائنة ...

* * *

آه ! ما أضعفني ...
لا تخافي ، فأنا كاذب فيما أقول ...
اقتربي ، فأنت قرة العين ، وهواي المرتجى .
اقتربي ، ولا تعودي ، أنت يا فاتنة ...

(القاهرة) **صلاح الدين المنجد**

جامعة فاروق الأول — كلية الآداب

نشر ضمن إعلان ٥٢٠٨ بالعدد ٦٦٩ فقرة رقم ٢ — يدخل هذه المسابقة من تخرج في كلية الآداب بجامعة فاروق أو بجامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٣ والصواب بعد سنة ١٩٣٣ .

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والجمال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١١ —



تمة الكلام عن مسرحية كومس :

ويهرب كومس وقبيله ، ويحسب الأخوان أنهما غلباه على أمره ، ولكن الروح الحارس يلقى إليهما أن أختهما لا تزال مقيدة بسحر كومس لا تستطيع حراكا كأنها التمثال الحجرى ، فكان عليهما أن يختطفا عصاه ، فانه لا يبطل سحره إلا إذا قرىء ما على العصا قراءة عكسية تبتدىء من النهاية . على أن الروح يخبرهما بأن لديه حيلة فليس لهما أن ييتئسا ، أما حيلته فهى أنه سيستنجد بسابرينيا عذراء نهر السفرن ؛ ويصف لهما سابرينيا ومستقرها بين عذارى الماء ، وكيف أتيح لها أن تكون من نبات الخلود ، ويذكر ما فى طاقتها من عون لطالبى العون حتى إن الرعاة لينشدون لها الأغانى ويلقون فى النهر زهرات من كل لون تحية لها ، وهى تحب أن تنجد العذارى مثلها إذا كن فى مثل ما كانت فيه من ضيق وشدة ، وأعظم ما ينهض بها إلى النجدة الغناء ، ولذلك فإنه يستحثها بأغنية ، ثم يهتف منشدا متوسلا إلى سابرينيا بكل عزيز عندها من الآلهة والآلاهات فلا يكاد يخلو سطر من نشيده من اسم من أسماء هؤلاء .

وتظهر سابرينيا وحولها بعض عذارى الماء ، فتغنى أغنية قصيرة تصف فيها من أين أتت وكيف أقبلت سريعة خفيفة حتى إنها لتطأ الزهر فلا تنحنى سوقه ، وتعلن إلى الراعى أنها رهن طلبه ، ويشير الراعى إلى الفتاة المسحورة ويؤكد عذرتها ويذكر ما عانت من السحر ، وتجيب سابرينيا أنه ليس أحب إليها من أن تأخذ بيد العفة المضطهدة ، وتتجه إلى الفتاة وتلقى على صدرها نقطا من سائل معها وعلى شفتيها وطرف إصبعها فتبطل سحر كومس . وما تكاد تنطلق حتى تنهض الفتاة كأن لم يكن بها شىء . ويبتهج الروح الحارس أو الراعى فيثنى على سابرينيا ويدعو لها من قلبه بكل جميل ، وينبىء الفتاة أنه سيصحبها إلى قصر أبيها حيث يلتقى المهنئون من الأصدقاء ، ويطرب الرعاة والقرويون ، وسيضاعف حضورها طربهم ، ويزيد الحاضرين جميعا فرحا على فرح .

ويتغير المنظر على المسرح ، فتمثل مدينة لادلو وقلعة الرئيس اللورد ، ويتقدم على المسرح رهط من الراقصات القرويات وفى إثرهن الراعى ومعه الأخوان وأختهما ، ويخاطب الراعى القرويات ويسألهن فى أغنية قصيرة أن يذهبن ، ويتمنى لهن عودة إلى سرور كهذا السرور ، ثم يقدم الأخت وأخويها إلى أبيها فى أغنية أخرى مثنيا على شباب الفتيين ، وعلى عفة الفتاة ، وانتصار الجميع على الحماقة والنزق .

ويختم الراعى المسرحية بأغنية طويلة ، فيذكر إلى أين يذهب بعد أن أتم عمله ، ويصف مواطن الحبور والجمال التى ينطلق إليها وصفا يعيد إلى الذهن قصيدة الأليجرو ، وما تفيض به من صور المرح وتلميحات الميثولوجيا .

ويعلن الراعى أن من يريد أن يلحق به من بنى الفناء فسبيله الفضيلة ، فالفضيلة وحدها هى التى تعلم النفس كيف تسمو وكيف تنطلق ، ولئن مس الفضيلة الضعف فلها من السماء عون .

***

تلك هي خلاصة الغنائية المسرحية ، وهي تتضمن كثيراً من آراء ملتن وفلسفته ، فكل شخصية في الغنائية تعبر عما يريد ملتن من معان ، وتصف في الواقع ناحية أو موقفاً من مواقف حياته ، فالعذراء تستمسك بالعفة كما استمسك هو بها ، وتواجه الإغراء الشديد وتقاومه كما واجه وقاوم ، وأكبر الأخوين يمتدح الفضيلة ويدافع عنها ويؤمن بها كما يفعل ملتن وكما يحس ، وكومس نفسه نراه في وصف الطبيعة وصلتها بالنفس عن طريق ما تحدثه مشاهدها ومسراتها من أثر في الحواس يعبر عن جانب من إحساس الشاعر الشاب ، وأصغر الأخوين يفصح بكلامه عن وساوس الشك التي تطوف أحياناً بنفس ملتن على الرغم من استعفافه وزهده وعزلته والتي يتغلب عليها بالصبر وقوة العزيمة فيحس لذة النصر .

أما عن فلسفته في الغنائية ، فأساسها الصراع بين العفة تمثلها العذراء ، والشهوة يمثلها كومس ، ومهما يكن من إغراء الشهوات وتحايلها فإن الغلبة للفضيلة ؛ ولن تعدم الفضيلة عوناً من الله ، ويتجلى هذا العون في الروح الحارس الذي دل الأخوين على طريق الخلاص

ولملتن نظرة في الطبيعة وصلة النفس بها ، فهو لا يحرم طيباتها وزينتها ، ولكنه كذلك لا يذهب في الاستمتاع بها مذهب كومس ، فيجعل الأمر فيها أمر لذة وفجور واغتنام ونهب في غير مبالاة كما تفعل البهيمة . وعنده أن تأخذ النفس من طيبات الحياة كما تقضى الحكمة ، ومقومات الحكمة عنده الاعتدال والقناعة والعفة ، وعلاقة المرء بالحياة والطبيعة على هذه الصورة طريق من طرق السمو الروحي بالنفس الإنسانية إلى معارج الكمال ومسالك الهداية

وينم كلام كومس في امتداح الطبيعة عن نزوع نفس ملتن إلى الطبيعة وجمالها وقوة إحساسه بمباهجها وزينتها ؛ ويتضح هذا الميل القوي في ذلك المعنى البديع الذي نطق به كومس ، ألا وهو قوله : إن الإنسان بزهده في جمال الحياة ومتعها لا يؤدي حق الشكر للمنعم ولا حق الثناء عليه . وما يخاف ملتن إلا شيئاً واحداً هو الفتنة ، ولكن إذا اعتصمت النفس بالفضيلة تمتعت بأنعم الله ونجت من الزلل ، فالطبيعة مما أنعم الله به علينا ، وأنعم الله خير كلها ، والغرائز والميول الطبيعية كذلك خير واتباعها تنفيذ لمشيئة الخالق ، وهو لذلك يحب الطبيعة من ناحيتين : أولاهما : ما تظهره من جمالها الذي يبهج النفوس ؛ وثانيهما : ما تخرجه من كنوز خيراتها وما تبثه في الكون من نماء وتجديد واتساع وكل أولئك من مقومات الحياة

وكذلك ينم كلام أكبر الأخوين عن الفضيلة كما ينم كلام العذراء عن العفة والعذرية ، عن ميل كان في نفس ملتن أثناء مقامه في هورتون ، فقد كان يميل إلى البقاء عزباً حتى يتفرغ لرسالته ، وأراد أن يستعفف حتى لا يزل ، فتولدت في نفسه فكرة ، وهي أن الشهوة أصل الفسوق كله والفجور والرجس ؛ وعلى ذلك فلا بد من تغليب العقل على العاطفة ، أو الروح على الجسد ، وهذا الصراع بين العفة أو الطهر وبين الشهوة يتضمن بالضرورة قيام وساوس الشهوة في نفسه ، شأنه في ذلك شأن كل فتى مثله ، ومرد الشهوة إلى العاطفة ، ومرد الرغبة في قهرها إلى الحكمة ، وما دام أنه يحس العاطفة في نفسه إحساساً قوياً ، وأنها أمر طبيعي ، فهي إذاً لم تخرج في مظاهرها أو نتائجها عما تقضى به الحكمة كانت أمراً مشروعاً لا نكران له ، ومن ذلك نشأت في رأسه فكرة سوف تظهر في كثير من آثاره ، وهي العمل على وجود التوافق والانسجام بين القلب والعقل

وثمة شيء آخر نستخلصه من الغنائية ، وهو صفة شائعة في بقية شعره في هورتون ، ونعني بها روحه الإنسانية وتتضح في شدة إحساسه وصدق استجابته لمعاني الحياة ، وشعوره بكل ما يشعر به القلب الإنساني من دواعي الفرح أو الحزن أو الراحة أو الألم ، وكل ما يهجس في النفوس من رغبات وينهض بها من مطامح ؛ وفي هذا كله أبلغ دليل على أن ملتن لم يكن الشاعر المتزمت كما عسى أن يفهم من تمسكه بالفضيلة ، كما فيه خير مصداق لقول القائل : « إن ملتن كان خاتمة الأليزابيثيين »

ليسيداس :

كانت ليسيداس آخر قصيدة نظمها الشاعر في هورتون ، وكانت في رثاء صديق له هو إدوارد كنج أحد زملائه في كمبردج وكان شاعراً له قدره ، وقد غرق هذا الصديق سنة ١٦٣٧ أثناء رحلته من شستر إلى أرلندة ، وأعد أصحابه في كمبردج عدداً

من المراثى انتظمها كتاب صغير ، وكان من بينها مرثية ملتن !

بدأ ملتن مرثيته بإشارة إلى بعض الأزهار التى يوحى ذكرها الشعر قائلا إنه يعود إليها ليقتطفها مبتسرة لم تتفتح ، وهو يرمى بذلك إلى أنه يعود مرة ثانية إلى الشعر قبل أن يتم استعداده كما يجب ، فإن حادثاً جللا يعز عليه معه أن يظل صامتاً ، وذلك هو موت ليسيداس ، وكان ليسيداس اسماً اصطلاحياً على أى راع من الرعاة ، وقد شبه ملتن صديقه بالراعى تلميحاً إلى الشعر الغنائى ونشأته على ألسنة الرعاة ...

ويتساءل الشاعر : منذا الذى لا يغنى لليسيداس وهو الذى عرف كيف يغنى وكيف يطرب ؟ فلا أقل إذاً من أغنية دامعة على هذا الراحل العزيز !

ثم يستحث ملتن ربات الشعر اللائى يقمن فى سفح الأولب عند البئر المقدسة ، حيث موطن (جوف) ويسألهن العون ، فقد كان ليسيداس قرينه ، كانا راعيين معاً على تل واحد يطعمان غنمهما ويسقيانها من نبع واحد ويأويان بها إلى ظل واحد ويغنيان لها بزمارة واحدة ... ويستطرد فى وصف حياتهما معاً وما يحيط بهما من مظاهر الجمال والاستمتاع على صورة أشبه بما جاء فى قصيدته الأليجرو ، وهو إنما يقصد حياة الشعر وجمال دنياه !

وينتقل بعد ذلك انتقالة حزينة بذكر ما حدث من موت ليسيداس فيذكرنا بقصيدته البنسروزو ؛ فسوف يقع نبأ فقده فى أنفس الرعاة أو الشعراء كما تقع الحشرات والصقيع على الزهر والحشائش النضرة .

ثم يسأل الشاعر عذارى الماء أين كن حين أطبقت اللجة على ليسيداس الذى أحببن ؟ ولكن ما ذا يجدى هذا الحلم وما عسى أن يصنعن لو أنهن كن حاضرات ...

ويتساءل الشاعر بعد ذلك فى فقرة حزينة تعد من أبلغ ما كتب عن جدوى الشعر ومعاناة قرضه إذا كان مصير الشاعر إلى مثل هذا الفناء المباغت ؛ أليس أجدى على المرء أن يرتع ويلعب ؟ إن الصيت والرغبة فى المجد هما اللذان يحفزان الأنفس النبيلة فتحتقر اللعب وتقبل على المتاعب ، ولكن القدر المباغت يذهب بهذا كله . وإنما يشير ملتن فى هذه الفقرة إلى ما يخشى على نفسه كما يشير إلى ما حدث لصاحبه ، ثم يستدرك قائلا إن أبولو يرد عليه مذكراً إياه أن المرء يفنى ولكن المجد والصيت لا يلحق بهما الفناء ، وكأنه بذلك يعزى نفسه ...

ويعتذر الشاعر عن نبتيون إله البحر بفقرة جميلة رائعة الخيال ويبرئه من إغراق ليسيداس ويعود باللائمة على الحظ العاثر ، ثم يلمح إلى جامعة كمبردج ويذكر مبلغ حزنها على ابنها الذى فقدته .

ويبتعد الشاعر عن جو المرثية الذى جعله كله ريفياً فيحشر فى آلهة الأغريق التى يلمح إليها « لود » كبير الأساقفة يومئذ ويشتد فى الحملة عليه وعلى شيعته ويرميهم بالجهل ، ويأتى فى حملته عليهم بجملة قوية فيصفهم بأنهم « تلك الأفواه العمياء » ويقصد بالأفواه النهم والجشع والإقبال على الدنيا ، والابتعاد عن الحياة الروحية . وأما العمى فهو عمى بصائرهم وموت أرواحهم . وتفسر هذه الحملة على لود فى هذا المقام بأن صاحبه إدوارد كنج كان يكره كبير الأساقفة وشيعته كما كان يكرهه ملتن لجمودهم واستبدادهم ، وطالما قرأ ملتن وصديقه كنج الفلسفة معاً وعلوم الدين فكأنما يكره الشاعر إذ يرثى صديقه أن يموت ذلك الصديق ويعيش لود وأتباعه .

ويعود ملتن إلى جوه القروى ، جو الرعاة والشعر ، فينادى الوديان والشطآن أن ترسل زهرها من كل لون وفى مآقيه دموع الندى ليوضع هذا الزهر حيث يوسد ليسيداس .

ويدعو الشاعر الرعاة أن يمسكوا عن البكاء فما مات ليسيداس وإن طواه اليم ، فهو كالشمس كوكب النهار ، تغرق فى ماء المحيط ، ثم ما هى إلا ساعات وترفع جبهتها الوضاءة من اليم فيكون الاصباح ، وسيرفع ليسيداس جبهته فى عالم النعيم الدائم ؛ حيث يتلقاه القديسون والصالحون ، وهو منذ اليوم جنى الماء يتلمس الخير عنده كل من يرد الشط .

وتعد هذه المرثية من أجمل المراثى فى اللغة الانجليزية إن لم تكن أجملها وأعظمها جميعاً . وهى فى غير تحفظ أجمل مرثية فى صديق فى تاريخ تلك اللغة . أما من حيث قوة الشعر فيها فقد بلغ ملتن هنا ما لم يبلغه فى غيرها من السمو والقوة ، حتى لتعد نموذجاً لشعره إذ يكتمل ، وللشعر الانجليزى فى أرفع درجاته ، ولروح الشعر على الاطلاق فى أية لغة وفى أية مناسبة ، إذ يكون له من السحر والروعة ما يكون للأثر الفنى الخالد المعجز .

* * *

هذه القصائد الخمس هى كل ما نظم ملتن أثناء مقامه فى هورتون ، وهى كما أسلفنا القول كفيلة أن تحل ملتن بين الصفوة من شعراء الغناء ، كما أنها كفيلة وحدها لو لم يكن له

غيرها أن تجعل منه شاعراً فذاً مرموق المكانة ، بيد أنها على الرغم من ذلك لم تخل كما قلنا من هفوات .

تزدحم قصيدتاه الاليجر والبنسروزو بتلميحاته الميثولوجية ازدحاماً يكاد يحس معه المرء أن شعر ملتن هنا غلبت فيه الصنعة على الفن ، وأنه يميل إلى إظهار معرفته بالأغريقية واللاتينية أكثر مما يعنى بفنه . وكذلك تعد عليه فى هاتين القصيدتين هفوات عند وصفه الطبيعة تدل على أنه أحيانا ينقل عما يقرأ أكثر مما ينقل عما يرى ، فهو يشير مثلا إلى زهرات فى زمان غير زمانها ويجعل لها لونا غير لونها ، كما أنه يصف أوراق شجرة من الأشجار بما هو بعيد عن طبيعتها . ويؤخذ عليه فى قصيدة الأليجرو أنه أغفل أمر الحب كصورة من صور المرح ، وإغفال صورة كهذه تعد من أقوى صوره أمر معيب وبخاصة إذا كان مرده إلى مبالغة ملتن فى الحرص على العفة ، فلا يصح أن يتعمد شاعر إهمال هذه الناحية الإنسانية القوية تشيعاً منه لنزعة من نزعات الفكر ، فان ذلك لا يتفق مع صدق الفن وصراحته .

أما مسرحيته الغنائية كومس فاننا وإن صرفنا النظر عن ضعف بنائها كمسرحية غنائية نجدها لا تخلو من مآخذ ، وأهمها هذه الطريقة الوعظية التى لجأ إليها ملتن ، أوهذه النزعة التعليمية التى جعلته يطنب فى إرسال آرائه على ألسنة المتحدثين فى المسرحية بصورة كادت تبعث على الملل فى كثير من المواقف . وحسبك أن يتناقش الإخوان فى مائة وستين سطراً فيما إذا كانت الفضيلة تعصم أختهما من الخطر ، وأن يطيل الروح الحارس حبل الكلام فيستنفد وحده مائة وسبعين سطراً قبل أن تتخذ أية خطوة لإنقاذها ، مما يبعد المسرحية عن روح المسرح وما تتطلبه من حركة وفعل ، ومما يجعل المرء يحس أن مواقفها متكلفة لمجرد التعبير عن أفكار الشاعر . ويأتى بعد ذلك عيب آخر وهو مبالغة أكبر الأخوين فى ثقته بالفضيلة ، الأمر الذى يضعف فى النفس اللهفة على الفتاة وقد تاهت فى ظلمات الغابة . ومثل ذلك العيب إغراء كومس الفتاة ، فان إغراءه لم يزد على كونه بعض الآراء الفلسفية الجامدة مع إشارة إلى سحر ذلك الشراب ، ولو أنه كان حواراً قصيراً يعرض فيه جوانب الرأى لكان أوقع فى النفس وأدنى إلى روح الدراما ، وأبلغ فى الاغراء وفى امتحان عفتها من ذلك الكلام الشبيه بلغة المدارس أو أسلوب المقالات . والحق أن الغنائية كلها مواقف وأشخاصا إن هى إلا وسيلة أراد بها ملتن أن يعبر عن أفكاره ، فلو أننا قارنا بينها وبين الدراما المسرحية لرأينا كأنما ظهر الملقن على المسرح فى هذه الغنائية ، وأخذ يلقن كل شخصية ما تقول ...

أما من حيث فلسفته الغنائية ، فقد خلط ملتن بين العفة وبين العذرة ، والعفة إذا انتهت إلى الزواج أمكن الجمع بين مباهج الحياة وجمال الطبيعة والحكمة المطلوبة ، ولكن أن تظل الفتاة عذراء أبدا أو يظل الفتى عزبا أبدا دون أن يقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم يحاول مع هذا الزهد الصارم أو هذا الحرمان أن يأخذ بقسط من جمال الحياة وثمرات الطبيعة فهذا ما يصعب تصوره . ومرد هذا الاضطراب إلى تذبذب الشاعر بين الطبيعة وفرط حبه إياها حبا تجلى فيما قاله على لسان كومس وبين حرصه على قواعد الخلق التى التزمها منذ صغره ، والتى هى أقرب الأشياء إلى طبيعة البيوريتانية التى كان يميل إليها . ولعل تمسكه يومئذ بأن يظل عزبا ليتفرغ لرسالته مع شغف نفسه بالجمال وإحساسه بالحياة كان له أثره فى هذا التناقض الذى أضعف فلسفته .

وكذلك يؤخذ على ملتن أنه لم يرنا كيف تكون العفة سبيلا إلى قوة خفية سماوية ، فهذه مسألة ظلت مبهمة ، ولهذا ضعف وقعها فى النفس .

ومما يلفت النظر فى الغنائية أن كومس فى محاولته إغراء الفتاة قد سخر من العفة فى ذاتها وعدها كلمة جوفاء ، كما أنه أغراها بالطبيعة ومفاتنها وطيباتها ، فلما أرادت أن ترد كان ردها موجها إلى محاجته فى الطبيعة ، أما ما سخر به فلم ترد عليه إلا بامتداح العفة فحسب ، كقولها إنها القوة المتشحة بأشعة الشمس ، وكان أولى بها أن تبين أثر العفة فى تطهير النفوس لتستبين قوتها ، ولقد بدا ملتن هنا فى أضعف مواقفه فى الغنائية ، حتى لكأنه لا يدرى ماذا يقول .

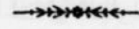
هذه هى المآخذ التى توجه إلى شعر ملتن فى هورتون ، ومهما يقل فيها ، فهى أقل من أن تذهب بشىء من قيمة هذا الشعر الذى بلغ الذروة الفنية ، والذى قل أن يقع المرء على نظيره فى اللغة الانجليزية كلها روعة أداء ، وعذوبة موسيقى ، وإشراق لفظ ، وسمو معنى ، مما يجعله مزيجا فذا من جمال العصر الأليزابيثى ومن ثقافة ملتن ، مزيجا طبعه بطابع الفحولة ، حتى بات بين ما أنتجت الدنيا من شعر فى قديمها وحديثها وله مقام معلوم .

(يتبع) الخفيف

القضايا الكبرى فى الإسلام

قضية زيد وزينب

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى



قضية زيد بن حارثة وزينب بنت جحش من أكبر القضايا الإسلامية ، وتمتاز بما كان فيها من تنحى القاضى الذى رفعت إليه أوّلا عن الحكم فيها ، لأنه رأى أن له فيها شأناً ، فلا يصح أن يحكم فيها وله شأن بها ، وذلك أصل معروف من أصول القضاء وقد عمل به النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه القضية وإن لم يكن محل ريبة ، ليضع ذلك التشريع فى القضاء الإسلامى ، ويأخذ به القضاة فى التنحى عن نظر القضايا التى يكون لهم فيها شأن .

ويرى الذين كتبوا فى هذه القضية أنها تبتدىء من النزاع الذى حدث بين زيد وزينب بعد زواجهما ، وإنى أرى أنها تبتدىء من ذلك الزواج نفسه ، وأن ذلك الزواج لم يكن إلا تمهيداً لهذه القضية التى لم يكن أمرها مقتصراً على زيد وزينب ، وإنما كانت وسيلة لإبطال عادة ظالمة من أكبر عادات العرب فى جاهليتهم ، بل من أكبر عادات الأمم القديمة من عرب وغيرهم . وقد اختيرت هذه القضية لإبطال هذه العادة ، واختير أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم هو البادىء بإبطالها فى أمر نفسه ، لأن ذلك هو شأن كل مشرّع ، ولأنه كان لتلك العادة سلطان على النفوس ، فلا يهوّن من أمرها إلا أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم هو البادىء بإبطالها .

كان العرب فى الجاهلية يلحقون بعض الأجانب بأولادهم ، ويعطون الدعىّ جميع حقوق الولد فى الإرث وحرمة النسب وغيرهما ، كما كانوا يخلعون أبناءهم من نسبهم لسبب من الأسباب فيأتى الرجل منهم بابنه إلى الموسم ويقول : ألا إنى قد خلعت ابنى هذا ، فإن جَرّ لم أضمن ، وإن جر عليه لم أطلب ، فلا يؤخذ بجرائره .

وكان زيد بن حارثة من بنى كلب ، وأمه سعدى بنت ثعلبة من بنى مَعْن بن طَىّ ، فزارت قومها ومعها زيد ابنها ، فأغارت خيل من بنى القَيْن على قومها ، فاحتملوا زيداً وهو غلام يفقه ، فأتوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خوَيلد ، فلما تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم وهبته له ، وقد مكث عنده حتى حج ناس من كلب فرأوه فعرفهم وعرفوه ، ولما رجعوا إلى قومهم أعلموا أباه حارثة بموضعه ، فخرج هو وأخوه كعب بفدائه فقدما مكة ، ثم أتيا النبى صلى الله عليه وسلم وهو لم يبعث بعد ، فقالا له : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرَم الله ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئناك فى ولدنا عندك ، فامنن علينا ، وأحسن فى فدائه ، فإنا سنرفع لك . قال : وما ذاك ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال : أو غير ذلك ؟ ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء . ثم دعاه فقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ، هذا أبى ، وهذا عمى . فقال له : فأنا من قد علمت ، وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما . فقال : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكان الأب والعم . فقالا له : ويحك يازيد ، أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك . فقال لهما : قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً : فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحِجْر فقال : اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما ، ثم انصرفا إلى قومهما .

فصار زيد يُدعى زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام ، فكان من أسبق الناس إسلاما ، ثم هاجر إلى المدينة ، وقد زوجه النبى صلى الله عليه وسلم مولاته أم أيمن ، فولدت له ابنه أسامة . فلما كانت السنة الخامسة من الهجرة أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يبطل عادة التَّبنى ، لأنه لا يصح أن يكون الولد ولداً بقول تنطق به أفواهنا ، وإنما الولد قطعة من أبيه ، فهو أبوه بذلك أراد أو لم يرد ، وهذه هى الحقيقة والفطرة وما عداها كذب وغش ، وليس للرجل أن يكون له حق إرث أقربائه ، ثم يأتى بأجنبى عنهم فيجعله ولداً له ، ويؤثره بإرثه دونهم ، فذلك ظلم من أكبر الظلم ، وقطيعة لا ترضاها شريعة من الشرائع العادلة .

فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يختار له زوجا ليعقبه عليها ويبطل بالفعل قبل القول تلك العادة الظالمة ، ولهذا خالف ما فعله

معه فى الزواج الأول حين اختار له مولاته أم أيمن ، فكان نسبها قريباً من نسبه ، لأن قرب منزلة الزوجين فى النسب له أثره فى الألفة بينهما ، وفى عدم تعالى أحدهما على الآخر ، فتطيب بذلك عشرتهما ، وتستقر به رابطة الزوجية .

ولكنه فى الزواج الثانى كان يعلم أن مآله إليه ، فلم يختر فيه لزيد بل اختار لنفسه ، ليقضى الله ما أراده من إبطال عادة التبنى ولا يكون عليه حرج فى زواج من لا يريدها إذا أرادها لنفسه أولا ، ولهذا اختار لزيد هذه المرة زوجا من أعلى قريش نسباً ، وهى زينب بنت جحش الأسدية ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت بيضاء جميلة ذات خلق ، ومن أتم نساء قريش ، فلما خطبها النبى صلى الله عليه وسلم رضيت وظنت أنه يخطبها لنفسه ، فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت ذلك وقالت : أنا ابنة عمتك يارسول الله ، فلا أرضاه لنفسى . وكذلك أبى أخوها عبد الله بن جحش ، فأنزل الله فى شأنهما الآية (٣٦) من سورة الأحزاب (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) فلما سمعت ذلك زينب وأخوها رضيا وسلما . وجعلت زينب أمرها بيد النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنكحها زيداً ليقضى الله ما أراده من زواجه بها .

وما كان الله ليزوج زينب زيداً على غير رغبتها لتكون زوجا دائمة له ، وهو قد شرع فيما شرع استئمار النساء فى النكاح ، حتى يكون النكاح عن رغبتهن ، ويكون عشرة طيبة راضية لانزاع فيها ولا خلاف ، بل محبة وإخلاص وتعاون على المعيشة ، وذرية صالحة متآلفة بتآلف الأب والأم .

فلما دخل زيد على زينب لم يمكنها أن تتغلب على ما تشعر به من رفعة نسبها على نسبه ، ولم يمكنها أن تحبه كما تحب الزوج بعلها ، لأن الحب ميل فطرى من صنع الله تعالى ، وليس من صنع الإنسان ولاغيره من الخلق ، فلم تحسن عشرتهما ، ولم يهنآ بذلك الزواج كما يهنأ غيرهما ، فكانت تتعالى على زيد بنسبها ، وكان زيد لايطيق ذلك ولا يحتمله ، لأنه لم يكن أرادها لنفسه عن حب لها حتى يحتمل ذلك منها ، وإنما كان شأنهما واحداً فى ذلك الزواج . أريد لها أن تتزوج به فرضيت تنفيذاً لأمر الله ، وأريد له أن يتزوج بها فرضى تنفيذاً لأمره أيضاً .

فكان زيد يشتكيها إلى النبى صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة ، فيأمره باحتمالها والصبر عليها ، فيصبر زيد ويحتمل تنفيذاً لأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى ضاق بها ونفد صبره ، ولم ير بدًّا من طلاقها ، فذهب إلى النبى صلى الله وسلم يشكوها إليه وأخبره هذه المرة بأنه يريد طلاقها ، فأمره أيضاً باحتمالها والصبر عليها ، وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك .

كل هذا والنبى صلى الله عليه وسلم لايقضى له بفراقها . ولو كانت قضية غير هذه القضية لقضى فيها بالفراق ، وأراح الزوجين من هذا الشقاء الذى ينافى شريعة الزواج ، ويخالف حكمته المذكورة فى قوله تعالى فى الآية (١٨٩) من سورة الأعراف : (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أن له صلة قوية بقضية زينب ، وأن الله لم يرد أن يزوج زيدا زينب على غير رغبتها إلا ليطلقها فيتزوجها بعده ، ويبطل بذلك بنوته له بالفعل قبل أن يبطلها بالقول ، فأمسك عن الحكم فيها بما كان يجب أن يحكم به فى نظيرها ، ليضرب بذلك مثلا للقضاة بعده ، فيمسكوا عن الحكم فى كل قضية يكون لهم صلة بها . وقد كان للنبى صلى الله عليه وسلم أعداء من اليهود والمنافقين ، فخشى أن يطعنوا عليه بالباطل ، وأن يقولوا إنه تزوج امرأة ابنه ، وخشى على زيد أن يقوم بنفسه شىء إذا تزوجها بعده .

ولم يكن بعد ذلك إلا أن يتولى الله الحكم فيها ، حتى لا يكون لأحد كلام فى حكمه ، فأنزل فى الحكم بطلاقها وزواجها من النبى صلى الله عليه وسلم قوله فى الآية (٣٧) من سورة الأحزاب : (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا كها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا) وكانت زينب تفتخر بذلك على أمهات المؤمنين فتقول : زوجكن آباؤكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سموات .

عبد المتعال الصعيدى

الجـــذام

للدكتور أصلى محمد باهى

لمحة تاريخية :

إن من أخبث الأمراض التى منى بها الإنسان فى هذه الدنيا هو « الجذام » أو « الأسد »؛ ويرجع تاريخ نشأته إلى العصور الخالية . وقد حاول بعض علماء أوربا أن يثبتوا أن مصر من عهد الفراعنة كانت مهد هذا الداء الوبيل مستشهدين على ذلك بما وجد من نقوش وتماثيل فى هياكل لأناس لابد أن يكونوا قد أصيبوا بهذا المرض وهم على قيد الحياة ، وخلدوا إما لسمو مكانتهم أو لأغراض أخرى وخلدت معهم أمراضهم لا عن تعمد بل عن براعة فى فن النحت فى ذلك العصر الغابر . إلا إن هناك فريقا آخر يقيم الحجة ، ويؤكد أن الصين والهند وبطاح آسيا هى منبته الأصلى ، وهو إنما جاء إلى مصر عن طريق العدوى بالتنقل والاختلاط . وأخيرا جمع الفريقان رأيهما فى صعيد واحد وقالوا سواء أكانت مصر منبعه أم أن آسيا منبته ، فلا امراء فيه أنه انتقل إلى أوربا من مصر فى القرون الأخيرة قبل الميلاد ، وقد ذكره الشاعر الفيلسوف : « تيتوس لوكريتيوس كاروس » . (عاش من سنة ٩٩ إلى سنة ٥٥ ق . م) فى شعره . ووصفه الطبيب الرومانى « سلزوس » (عاش من سنة ٩٣ ق . م إلى سنة ٧ ب . م) وصفا دقيقا بيناً مما لا يدع شكا فى أنه مرض الجذام بعينه . وقد نعت فى ذلك الوقت بداء « التفيل الاغريقى » وأثبت العالم الألمانى « فون برجمان » أن هذا المرض انتشر فى إسبانيا ومهول لومبارديا بشمالى إيطاليا وألمانيا وفرنسا فى القرن الثانى بعد الميلاد . وجاء بعده زميله العالم الباتولوجى « فرشو » وذكر فى مصنفاته أن أوربا أنشأت مئات الملاجىء للمجذومين فى مختلف أنحائها وذلك فى القرن السابع بعد الميلاد . وذلك يدحض الرأى الذى كان شائعا قبلا ، وهو أن الجذام لم يغز أوربا إلا عقب الحروب الصليبية أى حوالى القرن العاشر للميلاد ، ويقول الداحضون لهذا الرأى إن هذا المرض جاء إلى أوربا قبل فجر المسيحية ، إلا أنه ازداد انتشارا عقب الحروب الصليبية .

وما جاء القرن الثانى عشر حتى شمل الجذام انجلترا والدانيمارك والبلاد الاسكندنافية وسائر أرجاء أوربا ، ثم استمر فى الانتشار والازدياد حتى القرن الرابع عشر إذ بلغ إذ ذاك أوج ازدهاره ، فلما أفاقت أوربا من غفوتها وأدركت خطره ، ومن ثم أخذت فى مكافحته ، ابتدأ فى الهبوط والزوال إلى أن جاء القرن السابع عشر فاختفى من بعض الأقطار تماما ، وهى تلك التى ضربت بسهم وافر فى المدنية ، وبقى منه النزر اليسير فى تلك التى لم ترتق بها سبل الكفاح بعد إلى القدر المطلوب .

جوهره :

الجذام مرض مكروبى ، أى أنه لا ينشأ إلا بالعدوى بجرثومته . وقد تكون العدوى عن طريق الاختلاط أو بالوراثة ، أى أن يولد الطفل من أبوين مجذومين . ومكروب الجذام يشبه كثيرا مكروب السل ، وهو صغير جدا . ولا نقصد أنه صغير لعيننا المجردة؛ بل نقصد إنه صغير جدا بالنسبة لأنواع أخرى من المكروبات . ولأجل أن نعطى القارىء فكرة تقريبية عن حجم هذا المكروب نقول إنه إذا وضع من المكروب ألف واحد وضعا طوليا بحيث يكون رأس الواحد بعد نهاية الآخر ، وفى خط مستقيم على نمط عربات قطار السكة الحديد كان طول هذا الخط أربعة ملليمترات فقط . أما إذا وضعت الألف منه وضعا عرضيا أى كصف من الجند كان سمكها ٠٫٣ من الملليمتر ، ومن ذلك يمكن للقارىء أن يصور لنفسه طول المكروب الواحد وعرضه .

ويعزى اكتشاف مكروب الجذام ، إلى العالم النرويجى « أرماور هانزن » فى عام ١٨٧٣ ، وأما الذى درس حياته بالتفصيل ، ووضع الأسس الحديثة لدراسته البكتريولوجية ، فهو العالم الألمانى « نايسر » وذلك فى سنة ١٨٧٩ ، ومدة تفريخ المرض ، أى الوقت الذى ينقضى من وقت دخول جرثومته فى الجسم حتى تظهر أعراضه عليه ، هى من ٣ إلى ٥ سنوات وقد تصل فى بعض الحالات إلى ١٠ سنوات .

أعراضه :

هناك نوعان يتميز بهما المرض فى نشأته ونموه ونهايته ، وهذا يتوقف على الطريق الذى يسلكه المكروب بعد دخوله فى الجسم، فمنه ما يلازم أعصاب الجسم ويسيرمعها أينما سارت ، ومنه ما يحاول النفاذ إلى الجسم عن طريق الأقنية اللمفاوية . وأهم أعراضه أورام تظهرعلى جسم المريض فى مواضع مختلفة على شكل عقد متفاوتة فى الحجم تثبت فى مكانها ؛ وتتجمد وتنمو بمرورالوقت ، وقد تتقيح وتخرج منها إفرازات صديدية. وأكثر ما تظهر هذه الأورام فى الأطارف والوجه ، وقد تنتشر على طول الحاجبين والأنف والشفتين والخدين بحيث يتشوه الوجه ، ويكتسب طابع وجه الأسد ، ولذا سمى الجذام أيضا بمرض « الأسد » أو « التأسد » .

وكثيرا ما تنتشر العقد الجذامية على طول أصابع اليدين والقدمين ، فإذا ما أصابها التقيح أعقب ذلك عادة تنخر فى عظام الأصابع فتسقط من نهايتها ، وقد تتكرر هذه العملية إذا سار المرض من تلقاء نفسه فى هذا الاتجاه ، فلا يلبث المريض أن يفقد أصابع يديه أو قدميه . وقد يجىء الوقت الذى لا ترى من يديه إلا الكفين بعد أن فقدتا أصابعهما العشر كذلك يكون الحال بالقدمين .

وبعد أن ينال المرض غايته من أجزاء الجسم الخارجية يحول طريقه إلى الأعضاء الداخلية فيصيب الكبد والطحال والكليتين والأعضاء التناسلية وهلم جرا كلا بدوره ، ويحدث فيها من التشوهات ما شاءله ، ويأكل خلاياها الحية ويترك مكانها أوراما خبيثة ملآى بملايين الملايين من مكروبه تزحف بمرور الوقت إلى ما يجاورها من أجزاء الجسم السليمة أو تبعث برهط منها عن طريق الدورة اللمفاوية إلى أجزاء أخرى من الجسم بعيدة عنها ، وتلك تنشىء مستعمرة لها فى هذا الجزء الذى حلت به ، وهكذا دواليك إلى أن يقضى المريض نحبه . وعلى ذلك فريض الجذام شخص حكم عليه بالموت البطىء ، لا بل هو شخص تعس حكم القدر عليه أن يرى جسمه يتساقط أجزاء ويأكله المكروب حيا كما تأكل الديدان رمة بالية . هذه صورة مصغرة لأعراض هذا المرض الوبيل ، فى بدئه ونهايته .

ولدراسة هذا المرض ومكافحته أجرى العلماء تجارب عدة على أنواع مختلفة من الحيوان ، فحقنوا الفيران والماعز والقرود بمكروب الجذام ، وفى كثير من الحالات ظهرت أعراض المرض عليها بعد ردح من الزمن . وقد وفق « آرننج » للحصول على إجازة من السلطات المختصة بجزيرة « هاواى » لعمل تجارب على قاتل يدعى « كينو » حكم عليه بالإعدام ، وقد خفف هذا الحكم إلى السجن المؤبد لكى يحقنه « آرننج » بمكروب المرض ، وبعد حقنه بعامين تقريبا ظهرت عليه أعراض الجذام المعروفة ، وابتدأ جسم هذا الرجل الذى كان يتدفق قوة وبطشا يتهدم شيئا فشيئا . وبعد سنتين أخريين كان « كينو » فى أثنائهما يكافح المرض بقوة جسمه ، قرر طبيب السجن إحالته إلى مستعمرة المجذومين « بمولكاى » بجزيرة « هاواى » حيث قضى المريض نحبه متأثرا من وطأة المرض .

مدى انتشاره فى الأمم المختلفة :

سبق أن ذكرنا أن الجذام بعد أن كافحته أوربا تضاءل وقل عدده حتى يمكن أن يقال إنه قارب الزوال من تلك القارة ، وإذا تبسطنا فى القول قلنا إنه تركز الآن فى النرويج وروسيا وإسبانيا والبرتغال والبلقان وجزيرة ايسلنده . ومهما يكن مجموع ما هو موجود منه اليوم فى أوربا بالنسبة لعدد سكانها فأنه لا يعد شيئا مذكورا فى عالم الوبائيات ، ولا سيما بعد أن تتاح لنا فيما بعد فرصة للمقارنة بينه وبين ماهو موجود فى بقاع أخرى من الكرة الأرضية . ويقدر الإخصائيون ما هو موجود الآن منه فى أوربا بنحو ٥٠٠٠ حالة ، وإذا علمنا أن عدد سكان الصين يعادل تقريبا عدد سكان القارة الأوربية اعترانا الدهش أو بالأحرى الذهول حينما يقال لنا إن بالصين ما يزيد عن مليون مجذوم ، وهذا يوضح لنا مرة أخرى مبلغ تأثير المدينة فى مكافحة المرض والقضاء عليه وكذلك استتبابه وتغلغله فى تلك الأقطار التى لا تزال تغط فى سبات عميق من التواكل والخمول . أليس من المزعج لا بل من المؤلم أيضا أن يكون المرض منتشرا فى الصين بنسبة تعادل ٢٠٠ ضعف قوة انتشاره فى أوربا ... ! ! ؟

ويوجد فى الهند نحو ٣٠٠٫٠٠٠ مجذوم وفى مصر نحو ١٠٫٠٠٠ مصاب بهذا المرض ، وأكثر بقاع الأرض إصابة به هى « كولومبيا » فى أمريكا الوسطى وجزيرة « مدغشقر » بالمحيط الهندى ، وهذه الجزيرة هى التى تحمل الرقم القياسى لهذا المرض . وليس أدل على ذلك من أن بتلك الجزيرة التى يزيد سكانها عن المليون نحو ٨٠٠٠ مريض بالجذام أو ما يعادل أضعاف قوة انتشاره فى الصين وعشرة أضعاف قوة انتشاره بمصر. ولا داعى لأن نقارنه بقلة انتشاره فى أوربا إذ ربما نصاب بدوار بالرأس أو ذهول .

كيف كافحته أوربا حتى قضت عليه :

لا مشاحة فى أن الحضارة فى العصور المختلفة هى التى تكيف حياة الفرد ؛ بل حياة الأمة ، والأمم التى تأخذ بأسبابها تطبعها بطابعها الخاص فتهديها إلى ما يجب عليها عمله فى أمر من الأمور أو فى مشكلة اجتماعية خاصة ، وتنهاها عما لا يتفق وروح تلك الحضارة . وقوة تفكير الفرد مستمدة من ينبوع حضارته . وهذا مرض الجذام خير دليل على ما للمدنية من قوة فعالة للقضاء على الخبيث من الأمراض ، وإسعاد الشعوب بإرشادها إلى ما يحميها مما يهدد كيانها أو ينغص عليها حياتها .

إن أول ما فعله الأوربيون فى القرون الوسطى حينما انتشر المرض بين ظهرانيهم ، ورأوا من ضحاياه الكثيرين فى الشوارع والطرقات يسيرون هنا وهناك ، أن اشمأزوا من رؤيتهم ، وتأففوا من لمسهم وتجنبوا الاختلاط بهم أو التعامل معهم ، وهذا هو العزل الفطرى ، عزل السليقة والأيحاء ، وهو فى تاريخ الطب الحجر الأول فى نظام العزل الذى نعرفه اليوم « بالعزل أو الحجر الصحى » . أزعجتهم فى بادىء الأمر تلك التشويهات الخطيرة التى أحدثها المرض بأجسام ضحاياه ، وبالرغم من أن جوهره وأسبابه كانت مجهولة لهم تماما إذ لم يكونوا يعلمون من علم المكروبات شيئا ، إلا أنهم رأوا بالرغم من ذلك كله ضرورة إسكانهم فى بيوت خاصة بهم ومنعزلة عن الأصحاء من أبناء جلدتهم ، وقد اختيرت لهم فى أغلب الأحيان بيوت واقعة خارج المدن لضمان عدم اختلاطهم بباقى السكان .

ولما كان عدد المجذومين فى ذلك العهد كبيرا ، وإيواؤهم ثم إطعامهم لا تقوى الحكومات على القيام به منفردة ، انبرى أغنياؤهم إلى مد حكوماتهم بالإعانة والتبرع والإحسان ، وصرح للمجذومين فوق ذلك أن يجوبوا الطرقات للاستجداء ليساهموا هم أيضا إلى حد ما فى سد نفقاتهم ، إلا أنه فرض عليهم فى نفس الوقت أن يرتدوا لباسا خاصا ، ويضعوا فوق رءوسهم غطاء معينا ليراهم الجمهور من بعيد ويتميزهم . وإذا غفل عابر سبيل عن أن يرى مجذوما مقبلا عليه كان محتما على المجذوم أن يرفع رداء نصفيا يغطيه حتى الذراعين بضع مرات متوالية فى الهواء مؤديا حركة تشبه طائرا يرفرف بجناحيه حتى يسترعى نظر من هو مقبل عليه ليحذره ، ولا يصطدم به ، والويل ثم الويل للمجذوم إذا هو غفل عن ذلك فإنه كان يعاقب إذا ذاك عقابا صارما .

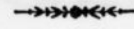
أصلى محمد باهى

في كتاب :

«معالم تاريخ العصور الوسطى»

للسنة الثانية الثانوية طبعة سنة ١٩٤٥

للأستاذ محمد الطنطاوي



كتاب قيم طوى شتيت المعاني في وجيز العبارات ، تلبية لداعي الوقت الدراسي الذي تتناهبه مختلفات العلوم . وجل هذا الاختصار الأنيق الرعاية الدقيقة في رواية المعاني من حوادث وغيرها ، وكذلك ينبغي أن توضع كتب الوزارة ، فإنها المصادر الفريدة لمعلومات النشء العالقة بعقولهم ، الخالدة في صحائف أذهانهم يثلون اليها عندما يتسع أفق تفكيرهم كأساس يعتمدون عليه في تنمية معارفهم .

طالعت قراءة نصف كتاب (المعالم) الأول ، فعنت لي ملاحظات فيما قرأت أبتغي بعرضها تلافيها في الطبعة المقبلة خدمة للعلم والتاريخ .

جاء في ص١٣ :(ولم يكن لبني هاشم منافسون سوى بني أمية وهم أحفاد عبد الدار أحد إخوة قصي)

والجملة الثانية تفيد أمرين : الأول أن بني أمية أحفاد عبد الدار ، والثاني أن عبد الدار أحد إخوة قصي .

وأقول إن كلا الأمرين لا ينطبق على الواقع . فإن كتب الأنساب تروي أن قصياً نسل عبد الدار وعبد مناف وغيرهما ، وأن عبد مناف نجل عبد شمس وهاشما وغيرهما ، وأن عبد شمس أعقب أمية وإخوته .

ومن ذا يتضح أن بني أمية حفدة عبد مناف كبني هاشم ، وأن عبد الدار أحد أبناء قصي . فصحة الجملة (وهم أحفاد عبد مناف بن قصي) والجملة حينئذ يستبين منها أن بينهما رحما ماسة وذلك هو الهدف الذي ترمي إليه .

وجاء في ص١٨ في الغزوات :(وقد اشترك النبي صلى الله عليه وسلم في تسع منها)

والظاهر من هذا الكلام أنه صلى الله عليه وسلم لم يشترك في باقي الغزوات .

وأقول إن المعروف أن الغزوة ما خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم سواء أوقع فيها قتال أم لا ، وأن القتال كان في تسع منها فقط . فالنبي صلى الله عليه وسلم اشترك في الغزوات كلها ، وبالتالي قاتل مع المسلمين في التسع . فالصواب في الجملة (وقد قاتل النبي صلى الله عليه وسلم في تسع منها) كما في سيرة ابن هشام وغيرها

وجاء في ص ١٨ أيضا : (ونالوا أول انتصار لهم في السنة الأولى بعد الهجرة في غزوة بدر ... وقد أحسن المسلمون معاملة الأسرى) ...

تقتضي الجملة الأولى أن غزوة بدر الكبرى كانت في السنة الأولى بعد الهجرة .

وأقول إن كتب المغازي والسير اتفقت على أن تلك الغزاة وقعت في السنة الثانية . وبها اعتز المسلمون وأوهن كيد الكافرين .

وجاء في ص ١٨ و ١٩ : (ولما نكث بنو قريظة عهدهم ... فقاتلوهم وقتلوا منهم خلقا كثيراً ... فأخذ النبي بعد هذا يقلب وجهه في السماء ... فأمر أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام)

يفيد القارىء لهذا الكلام من الجملتين الأخيرتين أن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة بعد غزوة بني قريظة التي كانت في السنة الخامسة من الهجرة .

وأقول إن كتب المغازي والسير وأسباب النزول مطبقة على أن تحويل القبلة لم يتأخر حتى هذا الحين بل كان قبيل غزوة بدر الكبرى التي كانت في السنة الثانية بعد الهجرة .

وجاء في ص ٤٩ لمناسبة قتل الحسين رضي الله عنه : (ومن علي زين العابدين بن الحسين تناسلت ذرية النبي صلى الله عليه وسلم)

إن هذه الجملة بوساطة تقديم المعمول تشعر بقصر التناسل من الذرية الشريفة على سيدنا علي زين العابدين .

وأقول إن التناسل قد استمر في ذريتي السبطين (الحسن والحسين) معا إلى عهدنا والأعلام منهما مشهورة فالصواب حذف الجملة أو تقديم الفعل .

وجاء في ص ٦٦ : (منافسة العلويين لخلفاء بني العباس ... ومن ذلك دولة الأدارسة بالمغرب والدولة الفاطمية ... ودولة بني بويه وهي من غلاة الشيعة) .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٢٥ — فلما وردا على لم أعقل ما عملت

في (الأغاني) : اصطحب شيخ مع شباب في سفينة في الفرات، ومعهم مغنية، فلما صاروا في بعض الطريق قالوا للشيخ معنا جارية لبعضنا وهي مغنية فأحببنا أن نسمع غناءها فهبناك، فإن أذنت لنا فعلنا، قال: أنا أصعد إلى ظلال السفينة فاصنعوا أنتم ما شئتم، فصعد، وأخذت الجارية عودها فغنت:

حتى إذا الصبح بدا ضوءه وغابت الجوزاء والمرزم(١)

(١) الجوزاء : برج في السماء سميت لأنها معترضة في جوز السماء (التاج) وفي (اللسان) : والجوزاء نجم، وفي نثار الأزهار: الناس يجمعون على أن البروج اثنا عشر برجاً، وتسميها كل أمة بلغتها ويتفقون في المعنى على معاني لغة العرب (المرزمان) نجمان من نجوم المطر، وقد يفرد. (اللسان) وفي الصحاح: مرزما الشعريين نجمان أحدهما في الشعري، والآخر في الذراع.

أقبلت — والوطء خفي — كما ينساب من مكمنه الأرقم

فطرب الشيخ وصاح، ثم رمى بنفسه بثيابه في الفرات وجعل يغوص ويطفو ويقول: (أنا الأرقم، أنا الأرقم) فألقوا أنفسهم خلفه، فبعد لأي ما استخرجوه، فقالوا له: ما أصابك؟ فقال: دب شيء من قدمي إلى رأسي كدبيب النمل، ونزل في رأسي مثله فلما وردا على قلبي لم أعقل ما عملت.

٧٢٦ — وفي بيته مثل الغزال المربب

قال المبرد: اتهم سعد بن مصعب بن الزبير بامرأة في ليلة مناحة أو عرس، وكانت تحته ابنة حمزة بن عبد الله بن الزبير، فقال الأحوص (وكان بالمدينة رجل يقال له سعد النار):

ليس بسعد النار من تذكرونه ولكن سعد النار سعد بن مصعب(١)

ألم تر أن القوم ليلة جمعهم بغوه فألفوه لدى شر مركب

فما يبتغي بالشر لا در دره وفي بيته مثل الغزال المربب

٧٢٧ — ثم لم يرجع إليكم

قال الجاحظ: قال رجل من فقهاء المدينة: من عندنا خرج العلم. فقال ابن شبرمة: نعم ثم لم يرجع إليكم.

٧٢٨ — أصبت

في كتاب الأم للشافعي: أخبرنا عبد المجيد عن ابن جريج قال: أخبرنا عطاء. قال سمعت عبيدالله بن عمير يقول: اجتمعت جماعة فيما حول مكة، فحانت الصلاة، فتقدم رجل من آل أبي السائب أعجمي اللسان، فأخره المسور بن مخرمة وقدم غيره. فبلغ عمر بن الخطاب، فلم يعرفه بشيء حتى جاء المدينة، فلما جاء المدينة عرّفه بذلك، فقال المسور: أنظرني يا أمير المؤمنين، إن الرجل كان أعجمي اللسان، وكان في الحج فخشيتُ أن يسمع بعضُ الحجاج قراءته فيأخذ بعجمته. فقال: هنالك ذهبت بها؟ فقلت: نعم. فقال: أصبت

(١) في البيت خرم وهو سقوط حركة من أول بيت الشعر.

أقول يحسن حذف (وهي) بعد بني بويه لتكون جملة مستقلة ليس فيها عطف دولة بني بويه على ما قبلها لئلا يوهم العطف أنها علوية نسباً كالأدارسة والفاطمية.

وجاء في ص ٨٢ عن والي مصر عبد العزيز بن مروان (ويظن أن أول الدنانير العربية ضربت في عهده)

أقول هذا الظن غير منسجم مع ما سلف في الكتاب نفسه من اليقين عن الخليفة عبد الملك بن مروان، ففيه ص٥١ (وضرب نقوداً خاصة للعرب بعد أن كانوا يتعاملون بنقود الرومان والفرس فضرب في عهده الدينار وهو نصف جنيه بالتقريب) — وهذا ما ينبغي التعويل عليه من أقوال مذكورة في النقود الإسلامية للمقريزي و (الكامل) لابن الأثير، ليس منها من أضاف الضرب إلى عبد العزيز. نعم ورد في النجوم الزاهرة أنه أشار على الخليفة بذلك لكن لا تصل الإشارة إلى حد النسبة إليه.

محمد الطنطاوي
المدرس في كلية اللغة العربية

٧٢٩ — وتأخذ الواحد من أمه

يا موت ، ما أجفاك من نازل ! تنزل بالمـرء على رغمه
تستلب العذراء من خدرها وتأخذ الواحـد من أمه

٧٣٠ — فاقرأ عليهم سورة المائدة

دعى ابن حجاج إلى دعوة مع جماعة فتأخر عنهم الطعام ، فقال لصاحب الدعوة :

يا ذاهباً فى داره آيبـا من غير ما معنى ولا فائده
قد جن أضيافك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المـائده !

٧٣١ — لا كان دهر يولى على بنى الناس مثلك

قال أبو الفداء : غضب أرغون شاه على فرس له قيمة فضربه حتى سقط، ثم قام فضربه حتى سقط ، وهكذا مرات حتى عجز عن القيام ، فبكى الحاضرون على هذا الفرس فقيل فيه :

عقرت طرفك حتى أظهرت للناس عقلك
لا كان دهر يولى على بنى الناس مثلك

٧٣٢ — كلام بكلام

مر رجل بآخر يأكل فسلم عليه فقال : هلم ، فهم الرجل أن يقعد معه ، فقال الآكل : رفقاً ، أما عرفت هذا ما هو ؟

فقال : ما هو ؟

قال : على أن أقول هلم ، وعليك أن تقول هنيأ حتى يكون كلاما بكلام . فقام الرجل .

فقال : قد أعفيتك من التسليم ومن تكليف الرد

فقال : قد أعفيت نفسى إذاً من هلم

٧٣٢ — وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

نظر شيخ من الأعراب إلى امرأته تتصنع وهى عجوز فقال :

عجوز ترجّى أن تكون فَتيّة
وقد لَحِب الجنبان واحدودب الظهر(١)

(١) لحب فلان إذا نحل (الأساس) لحب الجنان بالبناء لما لم يسم فاعله — قل لحمهما ، وقد لحب مثل عرق (المبرد) لحب اللحم عن العظم : قشره (اللسان) .

٣٧ ٢٦

تدس إلى العطار سلعة بيتها
وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر(١)؟
وما غرنى إلاّ خضاب بكفها وكحل بعينيها وأثوابها الصفر
وجاؤوا بها قبل المحاق بليلة فكان محاقاً كله ذلك الشهر(٢)

٧٣٣ — ونطقهم عندها بهمس

قال أبو مروان عامر بن غصن :

يا فتية خيرة فدتهم من حادثات الزمان نفسى
شربهم الخمر فى بكور ونطقهم عندها بهمس
أما ترون الشتاء يلقى فى الأرض بسطاً من الدمقس
مقطب عابس ينادى : يوم سرور ويوم أنس

(١) سلعة بيتها : يريد السويق والدقيق وما أشبه ذلك ، وكل عرض فالعرب تقول له سلعة (المبرد) العرض — بفتح ثم سكون — غير النقد .

(٢) المحاق — مثلثة — هنا : آخر الشهر إذا أمحق الهلال فلم ير (اللسان) كله : للشهر .

الرباط الأسود

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

قد غــبرَ العامُ وما يحمدُ
وحــلَّ عامٌ مثلُه أربدُ
دنياىَ مِن بَعدكِ يا زوجتى
آنسُ منها قـبرُكِ الموصَد
وكلُّ أيــامىَ مشئــومةٌ
ولو طغى اللهوُ بها والدَّد[(1)]
نِضْـو أسىً ، فى عُنُقى ربْطةٌ
سوداءُ كابٍ لونُهـا أكمد[(2)]
يرنو إليها صـاحبى مُنكِراً
وقد تولّى العــامُ أو أزيد
يسألنى من رحمــةٍ لحظُـهُ
أمــا أَنَى نخلَعها الموعد[(3)]
يالَوْعـَتا من خاطرٍ مزعجٍ
يهتـاجُ أشجانى ويستوقدُ
يرُوع نفسى ، وكأنى بــه
يروع مَن تحت الثرى ترقـد
كأننى أجحد عهــدَ الهوى
وعهـدُنا الوثوقُ لا يُجحَد
يامهجتى قــرِّى ، ويا روحَـها
قرِّى ، فما الحبلُ لنا معْـقَد
لمّا نَزَلْ رِعرِشَيْن نمشى معاً
تشابكتْ مِنّى ومنــك اليد
أُسرى وتَنسرين على بَرْزَخٍ
يتصــل اليومُ به والغــدُ
يربط روحَينا برغم الردى
هذا الرباطُ الثـاكلُ الأسود

---

(١) الدد : اللعب .
(٢) النضو : المهزول .
(٣) أنى : مثل آن .

أمل الفـــلاح

[القصيـدة الفائزة بالجائزة الأولى ،
فى مسابقة الشعر الريفية هذا العام]

للأديب حسن جاد حسن

الله للفـــلاح فى بؤسه — وصرخة الآمال فى نفسه
يبخسه الدهر ، وأوطانُه — عون مع الدهر على بخسه
وما سرى فى أفقه كوكبٌ — إلا وغض الطرف من نحسه
مضنى يقصّ الدهر عن كدحه — وتسمر الأيام فى بأسه
على محيّاه سطور الضنى — قد خطَّها المقدور فى طرسه
مذ دُحِّسن الصفحة يطوى بها — دفائنَ الأسرار عن تعسه
تحسّ ذل البؤس فى صوته — وتدرك التبريح فى جرسه
الفقر والجهــل وأسقامه — معاولٌ تهدم فى أُسِّه
يبيتُ صفر اليد من عُدمه — والذهب الأبريز من غرسه
وقوتُه ما خلَّفت أرضـه — من حنظل الزرع ، ومن يبسه
يعيش بين البهم فى كونه — كأنه لم يك من إنســه
من أسكن الترفَ فردوسه — يسكن فى المعّم من رمسه
ومن كسا الوادى حرير المنى — مرقع الأطمار من لبسه
فكم شواه القيظ فى جمره — وكم طواه البرد فى قرسه
جنديّه المجهول فى كدحه — ورمزه الصادق فى قُدسه
مَن كلما مسَّ الثرى كفُّه — أحاله تبراً ندىً مَسِّه
عَىٌّ فصيح الشكو فى عِيِّه — يبثـه لله فى همسه
قد خطّها شكوى على أرضه — ذاك اليراع الحرُّ من فأسه
هـل للمنى الجرحى بأحشائه — هزة عطفٍ من بنى جنسه ؟
فكفكفوا المسفوح من غربه — وبدّدوا المربدَّ من يأسه
طِبُّوا لعاصى الداء فى جسمه — واشفوا عضال الجهل فى نفسه
واسقوه عذب الماء ، لا آسناً — يرنق « المكروب » من كأسه
وكافحوها فيــه أميّةً — تنفث روح الشر من رجسه
تضاعفِ الصحة من عزمه — ويرهف التعليم من حسّه
لا تحرموه من جنى غرسه — واحموا الجنى الغالىَ من وكسه



رأى معالى العشماوى باشا فى رواية تاج المرأة :

نشرنا فى العدد ٦٦٦ من « الرسالة » رأينا ورأى الاستاذ الزحلاوى فى رواية (تاج المرأة) التى نقلها إلى العربية الأستاذ كامل بك البهنساوى ، ويسرنا أن ننشر اليوم رأى صاحب المعالى وزير المعارف فى كتاب أرسله إلى المترجم الفاضل هذا نصه :

عزيزى الأستاذ كامل البهنساوى بك

تلقيت كتابك ، وإنى ليسرنى أن أعبرلك عن إعجابى برواية (تاج المرأة) التى ترجمتها للمسرح المصرى ومثلتها على مسرح الأوبرا «الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى» . ويعنينى بصفة خاصة أن أعبر لك — فوق إعجابى بالموضوع والتمثيل — عن إعجابى بلغة الترجمة التى أعدها لونا من الأدب الرفيع يهنأ عليه من استطاع أن يقدمه للمسرح المصرى العربى وأن يلفته إلى هذا الفن الرفيع .

ولقد كان قيام « الفرقة القومية » أول قيامها فى العهد الذى كانت تتبع فيه وزارة المعارف وكنت وكيلا لها — لكى تحقق هذه الناحية وتعنى بها دون نظر إلى الربح أو الخسارة أو توازن الميزانية . فالأمر أمر نشر ثقافة فنية عالية لا ينبغى النظر فيه إلى مقدار ما يكلف الدولة من نفقات . وقد قدمت الفرقة طائفة مختارة من هذا الأدب الراقى متأثرة بالفكرة التى أوحت بانشائها. ولعل من الخير أن تبقى هـــذه الخطة ترسمها « الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى » .

وإنى أوافقك على ضرورة التقدم إلى زميلى وزير الشئون الاجتماعية بالسعى لتحتفظ الفرقة برسالتها الأولى فى خدمة المسرح المصرى العربى خدمة تقوم على أساس من الفن الرفيع والأدب العالى . وتفضل بقبول تحيات المخلص

محمد العشماوى

واستبدلوا من كوخه جنة ... من رافه العيش وفردوسه
هـــذى أمانيه ، نواعيرُه ... أشجتْ بها الشادوف فى مَيْسه
يلهو الحمى الناعم فى خيرها ... عن مأتم الفلاح فى عُرسه
خلّوه والسلم رفيف المنى ... يستقبل الآمال من شمسه
إن تُسعدوه اليوم فى ظله ... ينس مرير العيش من أمسه
أو تُنهضوه تنهضوا بالحمى ... وترفعوا المخفوض من رأسه

حسن جاد حسن

بقلم الأستاذية بكلية اللغة العربية

نوادر المخطوطات العربية فى المكتبة التيمورية :

فى المكتبة التيمورية التى ضمت إلى دار الكتب المصرية من عشر سنوات حوالى عشرين ألف مجلد من أقيم المؤلفات بينها بضع مئات من الكتب المخطوطة النادرة فى مختلف علوم اللغة والدين والفقه والأدب وسواها ، ولمناسبة ظروف الحرب نقلت هذه الكتب كلها من المكتبة العامة إلى المغارات فى المعادى لحفظها فيها ، وقد بدئ أخيراً باعادتها جميعاً إلى موضعها فى دار الكتب .

وقد تقرر تكليف القسم الأدبى بالدار بمراجعة المخطوطات النادرة فى المكتبة التيمورية لاختيار ماينبغى نشره وطبعه منها ، وبين هذه المؤلفات الخطية نحو ٥٠٠ بأيدى بعض جلة العلماء لتكون خاصة بمكتباتهم ، و٣٠٠بأيدى المؤلفين أنفسهم ، و٤٠٠ ليست مؤرخة ، و ٣٠٠ بها تواريخ كتابتها وهى منذ القرن الهجرى السادس وما بعده .

وقد ندب للقيام بهذا العمل الأستاذ أحمد لطفى السيد ، والأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى من محررى القسم الأدبى .

١ — نص ثالث

كنت قد أشرت فى جوابى للأديب الذى عقب على مقالتى (من غزل الفقهاء) بشأن بيتى عروة بن أذينة ، إلى نصين معتبرين: نص الأغانى للاصبهانى (الجزء ٢١) ونص البكرى فى شرح الأمالى لأبى على القالى (١ : ١٣٧) ، على أن البيتين لعروة لا لعمر بن أبى ربيعة وإن ذكرا فى ديوانه الذى جمع فى عصر متأخر ، وأخذهما من هناك (فيما يظهر) الأستاذ العقاد . وقد أرانى اليوم الطالب النابغة السيد عصام العطار من طلاب المعهد العربى فى دمشق نصاً ثالثاً أورده شاكراً له مثنياً عليه .

جاء فى الجزء الأول من زهر الآداب للحصرى (ص ١٥١) :

« وكان عروة بن أذينة على زهده وورعه ، وكثرة علمه وفهمه ، رقيق الغزل كثيره (إلى أن قال) ومرت به سكينة



طفـــل من القرية

تأليف الأستاذ سيد قطب

للأستاذ وديع فلسطين

وهذا صوت آخر من القرية يردده الأستاذ القدير سيد قطب فيدعو فى أسلوبه التهكمى الخاص إلى تدارك الريف المصرى بعناية أولى الأمر ، لأن الجهالة لا تزال تخيم على عقول قطّانه ، والفقر ما فتئ يحرمهم قوتهم ، والداء ما برح ينهش أبدانهم فى غير رحمة ولا إشفاق ، والخرافات تتناقلها الألسن والأجيال فتصير لها صفة الحقيقة الماثلة الثابتة .

هى ذكريات وعاها الأستاذ سيد منذ كان صبياً يعيش فى القرية ويتعلم فيها ويخضع لقوانين الفطرة التى لم تكن المدنية قد تغلغلت إليها بعد . ذكريات شاء أن يدونها فى كتابه الجديد « طفل من القرية » يبسط فيه أحوال طلاب الكتاتيب والمدارس الأولية ومدرسيهم وأهليهم وبيوتهم وعاداتهم ووسائل تربيتهم وتطبيبهم .

فهو يحدثك عن الأولياء والمشايخ الذين يقدسهم الريفيون وينسبون إليهم أداء أعمال يعجز عنها الطب ويحار فيها نطس المطببين . فإذا مرض طفل أمكن شفاؤه بحمله على الرقاد ليلة إلى جانب رجل مجذوب مخلول العقل ! وإذا عالج « تمورجى » عليلا وشفاه ، جعلوا منه طبيباً نابه الذكر يؤخذ برأيه وإن كان خطلا ، وتنفذ مشورته وإن كان فيها القضاء العاجل على السقيم ! وإذا باع رجلا جانباً من أرضه ليوسع على نفسه قليلا فى معيشته ويرد عنه الضائقات ، حزنت زوجه وانتحبت وبكت بئس المصير ! وإذا هجر ابن القرية إلى المدينة طلباً فى المزيد من العلم ، وما

بنت الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فقالت له : أنت الذى تزعم أنك غير عاشق ، وأنت تقول :

قالت وأبثثها سرّى (الخ) البيتين .

والله ما خرج هذا من قلب سليم قط » .

ولو تتبعت المصادر لوجدت نصوصاً أخرى كثيرة ، ولكن المسألة أهون من أن يبذل فيها هذا الجهد .

٢ — جواب

على ما نشر فى بريد « الرسالة » (٦٦٦) :

جوّز أبو حنيفة وحده ولاية المرأة القضاء فى المدنيات دون الجنائيات ومنعها سائر الفقهاء ، ولم يعرف التاريخ امرأة واحدة وليت القضاء .

أو ما كفى المرأة أن تكون (نائبة) الرجل ووكيلته فى الدار ، حتى تكون (نائبة) الأمة فى البرلمان و (نائبة) العدل فى المحكمة ؟

إنه ما بعد هذه (النائبات) إلا أن تكون هى (القاضية) !

على الطنطاوى

القاضى

جامعة أدباء العروبة :

اجتمع مجلس إدارة جامعة أدباء العروبة فى دار الدكتور محمد وصفى نائب رئيس الجامعة طائفة من رجال البيان والأدب وتدارسوا فيما بينهم وسائل النهوض بالأدب ليؤدى رسالته كاملة فى تحقيق الوحدة العربية والحرية والكرامة لشعوبها . وتكلم حضرات الأساتذة صاحب المعالى دسوقى أباظة باشا ، والدكتور وصفى ، والدكتور اسماعيل حسين ، وطه عبد الباقى سرور ، وعبد العزيز الاسلامبولى ، ومحمد عبد المنعم إبراهيم المحامى ، ومحمد عبد الوارث الصوفى ، وعبد الله شمس الدين ، وخالد الجرنوسى ، وعبد الحميد الاسلامبولى ، ومحمد مصطفى حمام . ثم قرر الحاضرون إقامة مهرجان لأدب الربيع فى النصف الأول من شهر مايو المقبل ، وترجو الجامعة من حضرات الشعراء والأدباء الذين يريدون المساهمة فى هذا المهرجان الاتصال بالسكرتارية ١٩٦ شارع محمد على تليفون ٤٧٣٥٠ .

إلى قراء الرسالة فى سورية ولبنان :

نرجو أن تطلبوا من شركة فرج الله ماينقصكم من أعداد الرسالة ولا سيما الأعداد التى تأخرت عنكم أثناء الإضراب فى فلسطين .

الزواج والمـــرأة

للأستاذ أحمد حسين

لفضيلة الأستاذ محمود أبو العيون

أهدى إلى الكاتب الألمعي الأستاذ أحمد حسين كتابه « الزواج والمرأة » ولقد قرأته بإمعان وتأمل فرأيته قد عرض لمسألة المرأة من نواح كثيرة كانت موضع جدل ونقاش عنيف بين كتاب الاجتماع في العصر الحديث - عرض لنظرية الداعين إلى محاربة الغريزة الجنسية وتعطيل عملها في الحياة ولنظرية الدعوة إلى الإباحة الجنسية إطلاقا وخطرها على الأمن والسلام ... وعرض بإسهاب للدولة والأسرة ، وأن الأسرة أوفق للمجتمع الصحيح ولنظرية التسوية بين الرجل والمرأة في الوظيفة ، ولمسألة الزواج والأمومة ، هل فيهما غض من شأن المرأة ، ثم عرض للمرأة وحقوقها في الإسلام ، وللبحث في السفور والحجاب وللشروط اللازمة لنجاح الحياة الزوجية

وفى الحق إن عرض الأستاذ لتلك النظريات والبحوث كان عرضاً شيقاً بديعاً وفى أسلوب رائع حكيم وأدب رفيع ومنطق سليم ؛ ومما بهرنى وأخذ فى نفسى ما أثبته بالأدلة من الكتاب والسنة من حقوق المرأة فى الإسلام مما لم يتوفر مثله للمرأة الغربية التى تحررت من القيود والأوضاع .

بقى أنه عرض فى ختام كتابه لمسألة تعدد الزوجات والطلاق فى الإسلام ، ووددت لو كان قلم الأستاذ قد بلغ نهاية الشوط مجلياً ، ولكنه للأسف حاول ربط آيتى العدل فى النكاح : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ، ليصل من ذلك إلى ما قصد إليه ، وهو وجوب الاكتفاء بزوجة واحدة ، وأن القرآن ذهب فى رأيه إلى حد كاد يلغى معه هذا الحق « تعدد الزوجات » أصلا ، ولكن الربط الذى فهمه وقرره غير صحيح ، فإن معنى العدل فى الآية الأولى كما فسره فقهاء المذاهب جميعاً العدل فى النفقة وفى المبيت، والعدل فى الآية الثانية قصد به العدل المطلق ، وهو يشمل المحبة والميل ، وهذا ليس فى استطاعة الإنسان مما لا يصح التكليف به ، ولهذا أتبع الله ذلك بقوله : « فلا تميلوا كل الميل » ، فقال صلى الله عليه وسلم ما معناه : « اللهم إنى قد عدلت فيما أملك فاغفر لى فيما تملك وما لا أملك » ، أى العدل فى المحبة ، وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يحب بعض نسائه أكثر من البعض الآخر، وقد مرض مرة فكان يحمل من بيت إلى بيت استيفاء للعدل فى المبيت بين أزواجه ، فاستأذن نساءه فى أن يتمرض فى بيت عائشة فأذن له .

فالعدل فى الآيتين ليس واحداً ، والتوفيق بينهما ما قلناه ، كما هو ظاهر واضح ، وللأستاذ العظيم رأى فى تعدد الزوجات غلا فيه عن أكثر القائلين بتقييده فهو يرى منع التعدد إطلاقا ولأى سبب من الأسباب ، وغيره يرى منع التعدد لعاجز عن الإنفاق على أكثر من واحدة فحسب .

يستتبع ذلك من جاه مؤات ومستقبل مضمون ، ودعته عائلته بالزفرات الحارة ، وسكبت على فراقه العبرات مدرارة ! وإذا أمّت القرية بعثة طبية تتقصى حالات البلهارسيا والانكلستوما وديدان الاسكارس ومدى تفشيها فى القرية ، كان الإهمال ديدنها وأداء المهمة بغيتها ، ولا جرم إذا كانت جميع المعلومات التى حصّلتها فى بحوثها غير دقيقة ! وإذا لعبت الجرذان ليلا فى كومة تبن على جانب طريق ، شاع أن الجن والعفاريت يقطنون هذا المنعرَج ، وأن السير فيه خطر لا تؤمن مغبته ! وإذا اقتنى رجل كتاباً فى السحر وفك العقد ، سعت إليه النسوة متخفيات ، واستعرنه ليقرأنه فى خلوة بمنأى عن الأنظار !

هذا بعض ما عكف الأستاذ قطب على الإسهاب فى وصفه وتصويره فى كتاب « طفل من القرية » فى سلاسة وبساطة مصحوبتين بتهكم وازدراء . وهو لا يكتم ألماً ممضاً دفيناً بين جوانحه على تلك الحالة الفاشية فى القرى المصرية ، ولا يخفى رغبة مشبعة بالأمل فى إصلاح تلك الأحوال المؤسية المؤسفة .

ولئن كانت بعض المدارس الأدبية الحديثة تبشر بدعوة جديدة قوامها أن يسخِّر الأدباء أقلامهم — ولو قليلا — فى خدمة المجتمع والدفاع عن قضاياه ، فإن كتاب الأستاذ سيد قطب يعد مساهمة طيبة منه فى هذه الحركة المباركة وتأييداً لهذا الاتجاه المحمود .

محمد عبده

لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق

للأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد

شيخ الأزهر الحالى شخصية لها جهادها الحافل فى خدمة الفلسفة ، والأدب ، والتاريخ ، والدين . ولها تأثيرها القوى فى هذا الإزدهار العلمى المتوثب ، وفى تقديمه اليوم لشخصية — محمد عبده — من معانى الوفاء ، والتقدير ما يعد مأثرة من مآثره المديدة فى ميدان الوفاء ، ومن أولى بالإحتفاء بأنجب أبناء الأزهر من الأزهر ، وشيخ الأزهر ، وهو المكان الذى غذاه - الإمام - بعلمه ، وتعهده بجهاده ؛ حتى صار متجه فكره ، وهدف إصلاحه ومسرح نشاطه ...

لقد أقدم شيخ الأزهر على دراسة شخصية الإمام دراسة علمية ترتكز على إبراز نت العوامل المختلفة التى لها أثرها الفعال القوى فى تكوين شخصيته ، وصقل رأيه وقوة منطقه ، وتزويده بتلك الخصائص التى كان لها فى مجرى سياسة أمته ، وعقليتها ، ودينها أقوى المؤثرات ، وشخصية الإمام لها أكثر من جانب ، فعلى من يأخذ فى تصويرها أن يسرح طرفه فى كل تلك النواحى ويعمل عقله حتى يتهدى له الإلمام بها ؛ فكان لها مجالها فى الثورة العرابية ، ولها رأيها فى المبادىء الوطنية ، ومذاهب الإصلاح ، وفى ميدان التدريس والصحافة . وهذا النضج العلمى الذى يطالعك فى كل ما يتناوله ، وصلته بالأفغانى ، وكفاحه فى الأزهر ونشأته ، كل هذا يتطلب من يجلوه ، ويكشف عنه بدراسة الأسباب التى انتهت إلى المسببات ، أو المقدمات التى أنتجت هذه النتائج ، وليس هذا بالركب الذلول ؛ بل هو مزلة الأقدام ومضلة الأفهام ، فتحليل الظواهر الفكرية والخلقية ، والرجوع بها إلى مصادرها الأولى ؛ دونه كل مشقة وعسر . ولقد وفق الأستاذ الأكبر فى إعطائنا تلك الصورة على تعدد جوانبها ، واختلاف نواحيها ، على أتم ما تكون جلاء ، وأوفى ما تكون دقة ودراسة وتمحيصا ، فعرفنا الإمام فى نشأته ودراسته ، وفى الأزهر ، ومع الأفغانى ، ودعوته إلى الإصلاح ، والتقينا به فى ميدان التدريس والصحافة ، وتبينا مبادئه الوطنية ، ومنهجه فى الإصلاح ، وموقفه من الثورة العرابية .

ورأينا فى تعدد الزوجات معروف وهو الإباحة المطلقة وفى تقييده شر مستطير ... بعض هذا الشر يمس الأخلاق والآداب وبعضه يمس ناحية الاجتماع ، والكلام فى ذلك كثير لا تحتمله هذه العجالة العابرة .

أما الطلاق فله فيه رأى ، وهو اشتراطه أن يقع فى ساحة القضاء ... فهو بهذا الشرط قيد حقاً ثابتاً منحه الشارع الحكيم للانسان وأعطاه الحرية الكاملة أن يطلق حينما يشاء — واستحب أن يتقدم ذلك بعث حكم من أهل الزوج وحكم من أهل الزوجة « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » ولكن الأستاذ على أى حال كان أيسر من غيره ممن رأى تقييد الطلاق بقيود لم تكن مشروعة فى كتاب الله ولا سنة رسوله فهم يدينون من طلق بغير إذن القاضى ويرون تغريمه وحبسه بل والحكم عليه بالتعويض لمطلقته .

ولقد كتبنا فى هذا الموضوع ووفيناه حقه وأدرك جمهور المسلمين ماينجم عن تعدد الزوجات وعن تقييد الطلاق من الشرور مما يهدد نظام المجتمع ويفسد قدسية الأخلاق .

وبعد فاننا نثنى الثناء الجم على الأستاذ الجليل أحمد حسين لجهوده المشكورة التى بذلها فى هذه البحوث القيّمة ونظرياته السليمة ، وندعو الله سبحانه وتعالى أن يكثر من أمثاله العاملين المجاهدين .

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧١ – الاثنين ١٣ مايو ١٩٤٦ – السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

وزارة المالية

إعلان

تنفيذاً للقانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٤٦ بالترخيص لوزير المالية بإصدار قرض بمبلغ ٣٠ مليون جنيه لمدة سبع سنوات وبفائدة سعرها ٢ ١/٤ ٪ لتمويل القطن الذى تشتريه الحكومة ، قررت وزارة المالية قبول طلبات الاكتتاب فى هذا القرض ، وقد اعتمد الاكتتاب فى ٢٠ مليون جنيه منه ، والباقى وقدره ١٠ مليون جنيه معروض للاكتتاب العام .

يبدأ الاكتتاب بالبنك الأهلى المصرى بالقاهرة والاسكندرية فى أثناء ساعات العمل بالبنك المذكور من يوم الاثنين ٢٠ مايو سنة ١٩٤٦ وللحكومة أن تقفل باب الاكتتاب فى أى وقت تشاء بعد هذا التاريخ .

تقدم طلبات الاكتتاب بعشرين جنيها أو بمضاعفات العشرين جنيها

يدفع المكتتب مع الطلب ٢٠٪ من قيمة السندات المطلوب الاكتتاب بها ، أما الباقى فيجب دفعه ، بعد التخصيص ، فى ميعاد لا يتجاوز ٣١ مايو سنة ١٩٤٦

تدفع فائدة القرض بواقع ٢ ١/٤ ٪ سنويا كل ستة شهور بواقع نصف الفائدة السنوية فى أول يونيو وأول ديسمبر من كل سنة على أن تدفع فوائد الستة الشهور الأولى فى أول ديسمبر سنة ١٩٤٦ عن نصف سنة بالكامل

رأس مال القرض وفائدته معفيان من كل ضريبة مباشرة أو غير مباشرة حالية أو مستقبلة فيما عدا رسم الايلولة على التركات .

وتكفل سداد القرض وفوائده موارد الخزانة العامة وبوجه خاص ثمن بيع ما تشتريه الحكومة من أقطان .

مدة القرض سبع سنوات غير أنه يجوز لوزارة المالية فى أى وقت تشاء ابتداء من أول يونيو سنة ١٩٤٨ أن تقوم بسداد القرض بالقيمة الاسمية أو أن تستهلكه استهلاكا جزئيا بالقيمة الاسمية بطريق الاقتراع بجلسة علنية .

سندات القرض لحاملها وتصدر بالفئات الآتية) ٢٠ جنيها و ١٠٠ جنيه و ٥٠٠ جنيه و ١٠٠٠ جنيه .

وسيعطى للمكتتبين شهادات موقتة يمكن التعامل بها فى بورصتى الأوراق المالية بالقاهرة والاسكندرية .

ويمكن الحصول على نسخ من البيان ونماذج طلبات الاكتتاب من البنك الأهلى ومن البنوك الأخرى بالقاهرة والاسكندرية وكذا من سماسرة بورصتى الأوراق المالية .

(٥٣٠٦)

14 me Année No. 671

Lundi—13—5—1946

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

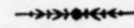
بدل الاشتراك عن سنة
ــــــ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــدد ٦٧١ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ — ١٣ مايو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

من الدعوة الهنــــدية

للأستاذ عباس محمود العقاد



أتلقى منذ كتبت بالرسالة مقالى عن الإسلام والنظام العالمى الجديد كتبا ورسائل مطبوعة وغير مطبوعة ، يتكلم المطبوع منها عن القاديانى والجماعات التى تناصره أو تنفصل عنه ، وتفسر الرسائل الأخرى بعض ما يؤخذ على الدعوة القاديانية أو تنحى على هذه الدعوة باللائمة وتحاسبها على التفرقة بين المسلمين وإحداث البدع فى عقائد الإسلام .

ومن أعجب هذه الرسائل رسالة مؤيدة للقاديانى من زاوية الحصنى بدمشق طبعت فى أعلاها الشهادتان والبسملة ، وأن الدين عند الله الإسلام ، ثم هذه العبارة : « نحمده ونصلى على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود ، وقال كاتبها : « إن أحمد عليه السلام ادعى النبوة حقا ، وليس فى ادعاء النبوة مخالفة للاسلام أو لدين من الأديان كما تقولون ، وإن المسيحية تنكر مجىء أحد بعد المسيح عليه السلام سوى رجوعه إليها بالرغم من وجود ذكر النبى بعد المسيح فى أول إصحاح من إنجيل يوحنا . وأما القرآن المجيد فآياته بينات واضحات فى بقاء الوحى وبقاء النبوة غير التشريعية ، ولا يوجد غير آية واحدة تخالف حسب تفسير الشيوخ الآيات الكثيرة المفسرة بعضها لبعض وهى قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . ولم يتفق المفسرون على معنى لفظ خاتم النبيين بمعنى آخرهم زمنا ، وهم لو اتفقوا لنجم عن اتفاقهم تكذيب للقول بمجىء المسيح عليه السلام . فإن لفظ خاتم النبيين لا يفيد انقطاع النبوة بل على العكس يفيد ضرورة عرض كل دعوى من دعاوى النبوة على خاتم النبيين أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم ليختم ويصدق على صحتها سواء أكانت تلك الدعوى قبله أم بعده ... » إلى آخر ما قال فى هذا المعنى .

على أن البريد قد حمل إلينا رسائل أخرى تنفى عن القاديانى أنه ادعى النبوة بمعنى من معانيها المعروفة فى الأديان الكتابية ، ومن تلك الرسائل رسالة مطبوعة فى لاهور أذاعتها « الجماعة الأحمدية لإشاعة الإسلام » وذكرت فى صدر البيان عن هذه الجماعة أن مقاصدها هى خدمة الإسلام وتوحيد المسلمين والدفاع عن الدين ونشر الدعوة إليه ، وأن أعمالها لخدمة هذه المقاصد هى تأليف بعوث للتبشير فى أنحاء العالم وتدريب المبشرين على هذا العمل ، وترجمة القرآن الكريم إلى لغات مختلفة ، واستخدام الإذاعة فى تعميم الآداب الإسلامية . ثم شفعت ذلك بتلخيص عقائدها وهى :

١ — إننا نعتقد باختتام النبوات بمحمد ، كما قال مؤسس الجماعة : إنه لا نبى من الأولين أو الآخرين يعقب نبينا المعظم ، وإن الذى ينكر ختام النبوات يعتبر خارجا عن حظيرة الإسلام وليست له عقيدة فيه .

٢ – وإننا نؤمن بأن القرآن الكريم كتاب الله الكامل والآخر ، وإنه باق لم ينسخ منه جزء إلى آخر الزمان .

٣ – إننا نحسب من المسلمين كل من يشهد بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله كائناً ما كان المذهب الإسلامى الذى ينتمى إليه .

٤ – وإننا نعد حضرة مرزا غلام أحمد القاديانى مؤسس الحركة الأحمدية مجدد القرن الرابع عشر ، ونثبت أنه ما ادعى النبوة قط كما قال بكلامه : إننى لا أدعى النبوة ... وكل ما أدعيه أننى محدَّث، وأن معنى المحدث هو الذى يسمع كلام الله ... كلا. ما أنا مدع للنبوة وما مدعى النبوة عندى إلا خارج على الدين ، وإنما يكذب علىّ الذين يحسبوننى من أولئك المدعين » .

وأما كان الصدق فيما يقال عن دعوى النبوة هذه من إثباتها أو إنكارها ومن قبولها أو رفضها فإن الصدق الذى لا نشك فيه هو أن أتباع القاديانى يخسرون بادعاء النبوة له ولا يكسبون، وأن حركة التجديد فى الإسلام يقوم بها الداعون إليها دون حاجة منهم إلى أمثال هذه الدعاوى التى تفض الأنصار وتفرق المتفقين ، ولا تستميل إليها أحداً من المؤمنين بالأديان فى المشرق أو المغرب ، إن لم تجمعهم كلهم على محاربتها وتكفير المبشرين بعقائدها .

ونعود فنقول إننا قرأنا شيئاً من الكتب التى ألفها المجددون المسلمون فى الهند ممن لا يقولون بنبوة القاديانى ولا يقولون بأنه هو المسيح الموعود أو مهدى آخر الزمان ، فلم نر فى أقوالهم ما يمس عقائد الإسلام وإن كانت لهم تفسيرات وتخريجات لا يقرها جميع الفقهاء ، وشأنهم فى التفسير والتخريج شأن الفرق الإسلامية التى تجتهد فى الدين ولا تنقض أصلاً من أصوله ، فهى فى حظيرة الإسلام لا تضيق بها حرية البحث التى كفلتها للباحثين هذه الديانة السمحة فى مختلف العصور والأقطار .

ومما تتميز به هذه الجماعات المجددة أمران :

« أحدهما » فرط النشاط فى التبشير بالدعوة المحمدية وترجمة الكتب النافعة فى هذا المسعى إلى اللغة الانجليزية على الخصوص مع المثابرة على نشرها وترويجها فى أمريكا وأوربة والجزر البريطانية ، وإسناد هذا العمل إلى فئة من الشبان المثقفين المستعدين لدفع الاعتراض العقلى أو النقلى بالمعقولات التى يفهمها الغربيون ، أو بالنصوص التى يتوسع أولئك الشبان فى تفسيرها على نحو كفيل بالإصغاء والاقناع . وقد يتصرفون فى تفسيراتهم كما قدمنا ولكنهم يقتربون بها من عقول المتعلمين والمتعلمات هناك فلا يعرضون عنهم كما يعرضون عن الجامدين المتحجرين فى فهم الكلمات والحروف .

والأمر الآخر طرائفهم العجيبة فى تطبيق النصوص القرآنية على الأحوال الزمانية ، لأنهم يعلمون أن أحوال الزمان لا تخرج على مدلول تلك النصوص إذا اهتدى ذوو البصيرة إلى فهمها وحسن تطبيقها ، وما دام القرآن كتاباً باقياً لا يختص به عصر دون عصر ولا قبيل دون قبيل ، فهو يحتوى فى مضامينه كل ما يشغل المؤمنين به فى العصور الحديثة كما احتوى فى مضامينه كل ما شغل المؤمنين به منذ نزوله فى عصر النبى عليه السلام .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة من طرائف هذه التطبيقات العصرية التى ينشرونها باللغة الانجليزية ، وهو رسالة عنوانها : « تسليم أوربة وأمريكا » أى تحويلهم إلى عقيدة الاسلام Islamization of Europe and America لمؤلفها السيد محمد على مترجم القرآن إلى الانجليزية ومؤلف الرسالة التى لخصناها عن نظام العالم الجديد .

فالسيد محمد على يستشهد فى صدر هذه الرسالة بكلمة للكاتب المشهور برنارد شو فى « الزواج » يتنبأ فيها بأن الامبراطورية البريطانية كلها ستدين بديانة إسلامية منقحة قبل نهاية القرن العشرين » .

ويقول السيد محمد على إن هذه النبوءة قديمة فى القرآن والتوراة ، ولكن الذين يقرأون الكتب السماوية لا يفطنون لمعانيها ولا يفسرونها على وفاق مدلولها . فان ظهور المهدى أو المسيح بين المسلمين مقرون بظهور المسيخ الدجال ، وسيادة بعض الأمم التى سميت يأجوج ومأجوج !

والقرآن الكريم يقول عن يأجوج ومأجوج إنهم سينطلقون فى اليوم الموعود « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا » وأنهم كانوا محبوسين محجوزين « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » .

قال السيد محمد على : وقد ذكرتهم التوراة فى سفر حزقيال

حيث جاء فيه : « يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض مأجوج رئيس روش ما شك وتنبأ عليه وقل : هكذا قال السيد الرب . ها أنذا عليك يأجوج رئيس روش ما شك وتوبال ، وأرجعك وأضع شكائم فى فكيك وأخرجك أنت وكل جيشك خيلا وفرسانا كلهم لابسين أفخر لباس ، جماعة عظيمة مع أتراس ومجانّ كلهم ممسكين السيوف : فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجن وخوذة ، وجومر وكل جيوشه وبيت توجرمه من أقاصى الشمال مع كل جيشه شعوبا كثيرين معك » .

أو حيث جاء فيه : « ها أنذا عليك يأجوج رئيس روش ما شك وتوبال ، وأردك وأقودك وأصعدك من أقاصى الشمال .

فهل يدرى القارىء من هم يأجوج ومأجوج هؤلاء فى رأى السيد محمد على ورأى القاديانى من قبله ؟

إنهم هم الروس والإنجليز ، أو السلاف والتيوتون فى الشمال ؛ ومصداق ذلك أن الماشك قريبة من الموسكو ، وأن الروش قريبة من الروس ، وأن ميشك وتوبال نهران فى روسيا تنسب إليهما موسكو وتوبلسك العاصمتان المعروفتان الآن ، وأن الروس والانجليز معا قد جمعوا شعوب الأرض للتغالب على ملك الدنيا ، وسينقلب بعضهم على بعض ويموج بعضهم فى بعض ، قبل أن يجمعهم داعى السماء إلى كلمة الحق والسلام .

وهذا مثل من أمثلة التفسيرات والتطبيقات التى قلنا إنهم يترخصون فيها ويعتدون بها إلى حوادث الزمان الحاضر وما يليه ، ويعتقدون أنها وما سيعقبها من الحوادث العالمية مكنونة فى آيات الكتب السماوية تنتظر من يفتح الله عليه بفهمها وإدراك مغازيها فيتولى تبصير الأمم بما أنذرتهم به السماء وما ساقته إليهم من البشائر ، وهم لا يفقهون .

أما الفتح أو الإلهام فقد جاء فى كتاب من تأليف ميرزا أحمد القاديانى نفسه عنوانه « تعاليم الإسلام » وموضوعه حل المشكلات الدينية من وجهة النظر الإسلامية . وفيه أن العقل والتعليم مصدران من مصادر المعرفة الإلهية ولكنهما فى مرتبة دون مرتبة الإلهام ، وأن الإلهام درجات تبدأ بالحدس الصادق وتنتهى « بعين اليقين » وهو أعلى مراتب الملهمين ، وأنه من الخطأ أن نخلط بين الإلهام الفنى والإلهام الدينى ، لأن الإلهام الفنى قد يكون فى الشر كما يكون فى الخير . وقد يقال إن اللص وهو يحاول سرقة السكان سنحت له خاطرة ملهمة لتيسير السرقة ، ثم تيسير الهرب من الحراس ، وليس هذا من الإلهام الربانى فى شىء ، وإنما يكون إلهام الله فى سبيل الحقائق العليا والكشف عن الأسرار الروحية والنفاذ إلى لباب الخلق وبواطن الحكمة الإلهية ، وهذه منزلة يرتقى إليها طلاب الوصول إلى الله ومنهم ميرزا أحمد القاديانى فى رأيه وآراء مريديه .

وبعد فإن الأمر الجدير بالعناية من حركة هؤلاء الدعاة أنهم يذيعون محاسن الإسلام ويجتهدون فى نشره وتفسير الاعتراضات الغربية التى تتجه إليه ، وفى هذه الحركة نفع مشكور ، وإن لم تبلغ مرماها المقصود من « تسليم الأوربيين والأمريكيين » لأنها تزيل الشبهات ، وتدحض الأكاذيب ، وتقرب بين الشعوب ، وترفع المسلمين فى أنظار الأمم التى كانت تظن بهم الظنون .

أما التفسيرات التى ذكرنا آنفا مثلا من أمثلتها فلا ضير فيها ما دامت تصون الإيمان ولا تفسد العقل بما يناقض التفكير المستقيم . ونعود فنقول إن الغيورين على الدعوات المجددة على اختلافها يخسرون بالغلو فى تعظيم أئمتهم ، ويكسبون لعقائدهم ولأولئك الأئمة كما وقفوا على حد الاعتدال .

عباس محمود العقاد

غرضان أساسيان

للأستاذ محمد محمد المدنى

غرضان أساسيان يجب أن يرمى إليهما كل من تهمه حالة الأمة الثقافية ، ويغار على مستقبل الدين والشريعة واللغة العربية ؛ ولا أعتقد — مهما تعددت الآراء ، وتقارعت الحجج أن أحدا ينازع فيهما على الحقيقة ، أو يغض النظر عما تجنيه الأمة من إصابتهما .

هذان الغرضان هما :

١ — توحيد الثقافة العامة بين أبناء البلاد .

٢ — الاحتفاظ بما تفردت به مصر — بفضل الأزهر — من تخريج طائفة من العلماء بعضها يبرز فى الدين ، وبعضها يبرز فى الشريعة ، وبعضها يبرز فى اللغة العربية .

والأول من هذين الغرضين أمر طبيعى بالنسبة للأمم ، ذلك بأن الأمة السعيدة الهانئة المثمرة القديرة على أن تؤدى رسالتها فى الحياة ، هى الأمة المتقاربة ثقافة ، المنسجمة عقولا ، المتفاهمة أفرادا ، المتوحدة النظرة إلى نواحى الحياة . ولا تجد أمة تفرقت بها الأسباب فى الدين أو اللغة أو الأفكار أو الآمال أو الآلام أو الغايات إلا كانت أمة مقضيا عليها بالقصور والضعف والخمول والتقطع والانحطاط والذل .

والثانى من هذين الغرضين أمر عظيم قد ندبت له العناية الإلهية مصر من بين سائر الأمم ، وجعلته من أسباب زعامتها على العالم العربى ، وكان لها ذكرا فى الأولين ، وسيبقى لها — إن شاء الله — لسان صدق فى الآخرين .

على هذا الأساس يجب أن يدور الكلام ، وبهذا الميزان يجب أن توزن الآراء ، فالنظام الذى يستطيع معه الأزهر أن يحقق هذين الغرضين ، هو النظام الحسن المقبول ، وأى نظام يظلم أحدهما أو كليهما يجدر بنا أن ننظر إليه فى احتياط وحذر .

والأستاذان الكبيران : الزيات والعقاد ، يقرران هذا ، فهما حين يدعوان إلى توحيد الثقافة العامة لا يغضان النظر عن رسالة الأزهر ، ولا عن حاجة الأمة الإسلامية لهذه الرسالة .

فالأستاذ الزيات يقول : « إن العالم لا يسعد إلا بالدين ، وإن الدين لا يجدد إلا بالأزهر ، وإن الأزهر متى استكمل أداة التعليم ، وساير حاجة العصر ، نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة ، تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل فى أصوله . ذلك لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحى وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هى وهو ، فيكون من هذا التفاعل ما يريد الله به تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره » .

والأستاذ العقاد يقول : « الجامعة الأزهرية معهد يراد به البقاء ، ما فى ذلك ريب عند أحد من المصريين ، لأنها مرجع العلوم الدينية والثقافة العربية ، وهى عدا هذا أقدم جامعة فى العالم بأسره ، فالأمة التى تملكها ثمينة أن تحافظ عليها ، وتستديم بقاءها وازدهارها » .

ويقول حين يعرض لمدارس الفكرية الإسلامية ومحصولها العظيم : « إن هذا المحصول لايعقل أن يستوفيه طلاب جامعة من جامعات الدنيا غير الجامعة الأزهرية ... وإنه أمانة لا بد لها من حفيظ بين أمم الحضارة الإنسانية ؛ فمن عساه يكون أولى بحفظ هذه الأمانة من معاهد الأزهر وعلمائه ؟ ومن أين لهذه المذاهب وهذه الدراسات من يفهمها ويصبر على تمحيصها واستخلاص زبدتها فى غير مصر والبلاد العربية ... وليس فى غير المعاهد الأزهرية مكان لاستيفاء هذه الواجبات والأعمال » .

ففيم إذن الخلاف ، وقد اتفقنا على القاعدة والأساس ؟

١ — لقد أظهرت التجارب أن الدين والشريعة الإسلامية واللغة العربية لا يمكن دراستها دراسة عالية لها حظ من التبرز والتفوق ، ما لم يسبق ذلك إعداد خاص وتكوين معين يستطيع معهما الطالب أن يخوض هذا المجال . ومن تلك التجارب التى أصبحت معروفة مشهورة مسلما بها أن طلاب دار العلوم وطلاب قسم اللغة العربية بكلية الآداب إنما يفلح منهم ويتقدم فى طريقه بخطى ثابتة ، أولئك الذين درسوا دراسة أزهرية حتى نالوا الشهادة الثانوية ، أما الذين درسوا على نظام التجهيزية أو الذين حصلوا على الشهادة الثانوية الحكومية فإنهم يلاقون الأمرين فى دراستهم للغة العربية ، ويحملون منها ويحمل منهم عبأ ثقيلا يود كلاهما لو استطاع أن يتخفف منه . وقل مثل ذلك فى طلاب كلية الحقوق فإنهم لا يزالون يعتبرون دروس الشريعة الإسلامية أشق الدروس لا فرق فى ذلك بين من لم يحصلوا على الليسانس ومن حصلوا عليها والتحقوا بقسم الدكتوراه ، وما ذلك إلا لأنهم لم يتمرسوا بما يتمرس به الطلاب الأزهريون فى دراستهم الابتدائية والثانوية

ولم يعودوا البحث والفهم الاستقلالى وتلقى كتب الشريعة كما عود الأزهريون .

على أن الطالب الأزهرى نفسه إذا لم يكن قد أتقن دراسته الابتدائية والثانوية ، وكون بها عقله تكوين فهم واستقلال ، فإنه يعانى فى الكليات ويعنى ، وقد لا يتمكن من الاستمرار فى هذه الدراسات العلى .

٢ — والمدارس الثانوية التابعة لوزارة المعارف مكتظة بالبرامج فى كل ناحية إلا فى النواحى التى تعد للدراسة الأزهرية العليا . والتعليم الثانوى مع ذلك موضع شكوى عامة لضعفه ، فإن جميع كليات الجامعة تشكو من هذا الضعف « الذى تبدو آثاره فى المعلومات العامة واللغات العربية والأجنبية » وتشكو من « أن الطلبة لا تتحقق فيهم الصفات المطلوبة للدراسة العالية من حيث روح التعقل وقوة الملاحظة والاعتماد على النفس وحب البحث ، حتى إنهم يضطرون أساتذتهم إلى إملاء الدروس عليهم إملاء مما يعوق سير الدراسة العالية فى صورتها الكاملة »

بذلك تشهد تقارير وزارة المعارف نفسها ، ومنها نقلت مانقلت من النصوص؛ فإذا أردنا أن نقوى هذا الطالب فى دراسته الثانوية ليكون قادراً على الدراسة فى الكليات الأزهرية فماذا نصنع معه ؟ والمفروض أن هذا الطالب لم يدرس على الطريقة الأزهرية فيما تلقى من التعليم الابتدائى ، وأنه لم يربعد علوم الأزهر ولم يألف أساليبه فى البحث والدرس . أنضيف إليه أعباء أخرى فوق أعبائه التى ينوء بها كاهله ؟ أنكلفه بدراسة النحو والصرف والبلاغة والفقه والتوحيد والمنطق والعروض وما إليها من العلوم التى لا بد من حصول الطالب الأزهرى على قسط وافر منها يحيط به إحاطة فهم وتدبر ، ويهضمه عن تعقل وتصرف ؟ وهل يؤدى ذلك إلا إلى ضياعه من الناحيتين ، واشتداد ضعفه ؟

وهبنا ألزمناه درس هذه العلوم الأزهرية إلى جانب منهاجه الحكومى ، أفندرسها له بمقدار ما كان فى التعليم الابتدائى الأزهرى فنتزل بالمستوى الثانوى إلى المستوى الابتدائى ؟ أم بمقدار المنهاج الثانوى فكيف يطيقه ؟

٣ — ومن حق القراء علينا أن نذكر لهم هنا منهاج المعاهد الأزهرية الابتدائية ليعلموا : أتغنى عنها المدارس الابتدائية الحكومية فنلغيها من الأزهر ؟ أم هى معاهد واجبة البقاء لأنها تحقق الغرضين : توحيد الثقافة العامة ، والتمهيد للدراسة الأزهرية الثانوية والعالية .

قد يظن بعض الناس أن الطالب الأزهرى الابتدائى إنما يدرس بعض الأحكام الفقهية ، وبعض العقائد الدينية ، وبعض كتب اللغة العربية ، وأنه إنما يتاقى إلى جانب ذلك تجويد القرآن وطرفا من سيرة الرسول والصحابة ، أما ما وراء ذلك من مواد الثقافة العامة فهو منها محروم ، ولذلك نسمع النداء بوجوب توحيد الثقافة العامة كأن الأزهر يعيش فى صومعة ، ولا يشارك فى دنيا الناس ! كلا أيها القراء : إن الأزهر فى معاهده الابتدائية يدرس على منهاج جامع شامل لايذكر بجانبه منهاج المدارس الابتدائية ؛ وبين يدى الآن هذا المنهاج الأزهرى ، ولو استطعت لنقلت لكم صورة منه ، ولكنى أقربه إليكم تقريبا :

مواد الدراسة بالقسم الابتدائى على وجه الإجمال هى : الفقه بمذاهبه الأربعة . التوحيد ، السيرة النبوية وسيرة كبار الصحابة . تجويد القرآن الكريم ، الإنشاء ، النحو . الصرف . الإملاء . المطالعة والمحفوظات . التاريخ . الجغرافيا . الحساب . الهندسة . الجبر . تدبير الصحة . الرسم . الخط .

ففى الفقه يقرأ كتابان أحدهما صغير فى السنة الأولى ، والآخر أكبر منه فى السنوات التى تليها ، وفى النحو تقرأ كتب أربعة : الأجرومية وشرحها ، والأزهرية ، وشرح القطر ، وشذور الذهب ؛ وفى الصرف يقرأ كتاب متوسط فى سنتين ، والتوحيد يقرأ فى ثلاث سنوات ، وفى التاريخ تدرس كل الموضوعات التى يدرسها تلاميذ المدارس الابتدائية من تاريخ مصر القديم والحديث بتوسع ؛ وتزيد المعاهد سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وكبار الصحابة ، والحساب فى المعاهد أوسع جداً من الحساب فى المدارس ، وقل ذلك عن الهندسة والجغرافيا وتدبير الصحة ... الخ .

فماذا بقى على الطالب الأزهرى فى المعاهد الابتدائية من مواد الثقافة العامة حتى ينادى المنادون بضرورة استكماله ؟ لم يبق إلا اللغة الأجنبية ، ولسنا نجد مانعا من إدخالها فى المعاهد الدينية ، بل نحن نرى ذلك واجبا فليخفف عن الطالب الأزهرى كتابان من كتب النحو الأربعة مثلا ، ليعطى بدلهما لغة أجنبية فى سنتيه الثالثة والرابعة كما يعطى تلاميذ المدارس ، وحينئذ تكون معاهد الأزهر الابتدائية قد أعطت الأمة طلابا يشاركون فى ثقافتها العامة

ويمتازون بعلوم الشريعة والدين واللغة على طريقتهم الخاصة التى لا غنى لهم فى أقسامهم الثانوية ولا فى دراساتهم العالية عنها .

فإذا قيل : إن هذا المنهاج المزدوج ثقيل على الطالب فإننا نقول : إن طالب الأزهرليس كتلميذ المدرسة الابتدائية ؛ فالأول يلتحق بمعهده بين الثانية عشرة والسادسة عشرة بينما يلتحق الثانى بين الثامنة والعاشرة ، فهذا الفرق فى السن يجعل الطالب ناضجا قادرا على تحصيل ما يكلف تحصيله من هذه العلوم فى سهولة ويسر ، ولذلك مزية أخرى هى أن طالب الأزهر يستطيع فى الفترة الأولى من حياته وقبل انتسابه إلى معهده أن يتفرغ لحفظ القرآن الكريم الذى هو شرط أساسى لقبوله ، والذى هو أمر ضرورى لطالب الدين والشريعة واللغة : يقوم لسانه ، ويصلح لهجته ، ويضبط لغته ، ويكون مرجعه الملازم له فى العقائد والآداب والأحكام ، بل يكون له طول حياته كنزاً لا يفنى ، ومعيناً لا ينضب .

وقد دلت التجارب على أن من لم يحفظ القرآن الكريم فى أول حياته وعهد صباه المبكر ، فلن يستطيع حفظه بعد ذلك . وليس من الممكن أن يستكمل التلميذ فى المدرسة الابتدائية علومه ولغته الأجنبية ثم يكلف فى أثناء دراسته الثانوية أن يحفظ القرآن .

هذا ، وفى المعاهد الدينية بعد ذلك معنى لا ينبغى أن ننساه : ذلك هو تربية الطالب تربية دينية يستمدها من هذه المصادر التى يعتمد عليها فى دراسته من كتاب وسنة وعقائد وأخلاق وأحكام تشريعية وكتب تغلب عليها الروح الإسلامية ، وتغرس فى نفسه حب الدين واحترام الشريعة وتقديسها ، فيشب على ذلك ويشيب عليه ، وبذلك نكون قد أوجدنا طائفة من مثقفينا تتحمس للدين والخلق الإسلامى الكريم ، وتغار على علومنا وآدابنا القومية فى وسط هذه التيارات المضطربة الجامحة التى تهدد كياننا ، وتكاد تقطع الصلة بيننا وبين ماضينا المجيد . وقد أدرك هذا المعنى غيرنا من رجال الأديان الأخرى ، فهم يبكرون بإعداد رجل الدين منذ نعومة أظفاره ليضمنوا له التحمس الدينى والانفعال الروحى على صورة تصاحبه طول حياته ، لأنها تكون قد ارتسمت فى نفسه ، وصادفت منه قلباً خالياً فتمكنت كما يقولون . فأين لنا مثل ذلك إذا اعتمدنا على تلميذ المدرسة الابتدائية ، وهو لا يعرف من دينه إلا معارف سطحية لا تسمن ولا تغنى من جوع ؟

٤ — أما الدراسة الثانوية فى الأزهر ، فقد كانت عدلت مناهجها يوماً ما لتكون مشابهة تمام المشابهة لمناهج المدارس الثانوية بزيادة العلوم الدينية واللغوية والعقلية ؛ فلما طبق هذا النظام بدأ وجه الخطأ فيه سافراً ، فقد طغت علوم المدارس على العلوم الأزهرية ، وعلى روح التفكير والاستقلال فى البحث المقصود بثها فى نفوس الطلاب ، وحينئذ لم يجد الأزهر بداً من إلغاء ذلك النظام وإحلال النظام الحالى مكانه ، وهو نظام لم يقطع الصلة بين الطالب الأزهرى وبين مواد الدراسة الثانوية المدرسية قطعاً ، ولكنه زحزح هذه المواد عن مركز الصدارة ليفسح لعلوم الدين والشريعة واللغة والعلوم العقلية مجالا لا تجده فى غير هذه المعاهد ، وهذا من غير شك تصرف حكيم ، على أن يضاف إلى برامجه أيضاً دراسة اللغة الأجنبية كما فى المدارس الثانوية .

هذا هو رأيى الذى وعدت به فى مقالى السابق ، وأعتقد أنى قربت به من شقة الخلاف ، بل لعلى أزلت أسباب الخلاف ، وما كان الأستاذ الزيات ، وهو الذى يعيب على الأزهر الضعف ، وتعطيل العقل ، وإبطال الاجتهاد ، ويرجو بالأزهر تجديد الدين ، ونهضة الشرق عن طريق ثقافته المشتقة من مصدر الوحى وقانون الطبيعة ؛ ما كان ليرضى أن يُبتر الأزهر هذه البترة النكراء ، أو أن يجادل فى الحق بعد ما تبين ؛ وذلك أيضاً ما أعتقده فى الأستاذ الكبير العقاد الذى يتحدث عن العقلية الأزهرية حديث الاعتراف والإعجاب ، وما كانت العقلية الأزهرية لتفوز بهذا الاعتراف وهذا الإعجاب لو نشئت فى المدارس الابتدائية .

أما بعد ، فإن الأزهر — كما قلت فى مقالى السابق — لا يحتاج إلى تعديل جوهرى فى نظامه الحاضر ، وإنما يحتاج إلى « تنفيذه » معنى وروحاً بأيد قوية حازمة ، وأعين بصيرة ، وقلوب مؤمنة ، وعقول على التدبير له والتفكير فى شأنه مقصورة ... وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ...

محمد محمد المدنى

(الرسالة) : يوافقنا صديقنا الأستاذ المدنى على الغرضين المفهومين من اقتراح الرسالة وهما : « تجديد الأزهر وتوحيد التعليم على الوجه الذى يحفظ للأزهر طابعه وللأمة وحدتها » ولكنه يخالفنا فى التطبيق . وأرى أن المناقشة فى تطبيق المبدأ قبل إقراره عناء لا يجدى ، وبناء لا يقوم .

يوم الجـــلاء ....!

للأستاذ على الطنطاوى

— ٢ —

فى عمر الإنسان ساعات هى العمر ، تفنى الليالى وتنقضى الأعمار وتخلد هذه الساعات ذكرى فى قلوب البنين . وفى تاريخ الأمم أيام هى التاريخ ، تمرّ السنون مُتَحدِّرَةً فى دَرَك الماضى ، منزعة إلى هوّة النسيان ، وتبقى هذه الأيام جديدة لا تبلى ، دانية لا تنأى ، مشرقة لا تغيب ... وللإنسانية أيام هى ركن الإنسانية ، لولاها ما قام لها بنيان ، ولا ثبت لها وجود ... أيام قد عمت بركاتها ، وشملت خيراتها البشر جميعاً ... أيام هى ينابيع الخير والحق والعدل فى بيداء الزمان ، وهى المفخرة لأمة أرادت الفخار ، وما أكثر هذه الأيام الغرّ فى تاريخنا ! تلك الأيام التى أفضلنا فيها على العالم كله ، وسمونا به إلى ذرى الحضارة : يوم الهجرة ، وبَدْر ، والقادسية ، واليرموك ، ونهاوند ، وأيام قتيبة وابن القاسم فى المشرق ، وعقبة وطارق فى المغرب ، ومحمد الفاتح فى الشمال ، ويوم عين جالوت ، وحطين ، واليوم الأغرّ الذى أعاد لنا يوم حطين ، وكان فجر اليوم الجديد للعرب بل للمسلمين أجمعين : (يوم الجلاء) !

إنه يوم مُـعْلَم فى موكب الزمان ، إنه شَعَارَةٌ من شعائر المجد يقف عليها الفلك كلما دار دورته وقفةً فيها خشوع وفيها فرح وفيها إجلال . إننا قد ابتهجنا بالجلاء ، وهتفنا له ورقصنا وصفقنا ، وملأنا منازل العربية أنساً به وفرحا ، ولكنا لم نعرف قدر يوم الجلاء ، إنما يعرفه من سيأتى بعدنا ، يعرفه غداً من ينعم بظلّ هذه الشجرة التى نبتت اليوم . هنالك وقد امتدت فروعها ونمت حتى ظلّلت بلاد العربية والإسلام ، يقول أبناؤنا : ياما أكرم ذلك القضيب الطرىّ الذى صار الجذع الضخم لهذه الدوحة الباسقة ! وهنالك يبلغ من خطر هذا اليوم أنه سيمجد الجيل الجديد شيوخاً قد لا تكون لهم مزية إلا أنهم رأوا هذا اليوم بعيونهم ، وعاشوا فيه حقيقة لا بالخيال . وسيجلس هؤلاء الشيوخ فى صدور المحافل يحدثون الناس عن الذى رأوه ، ويصفون كيف بدت تباشير الفجر المبارك ، ليوم العروبة الجديد ، وسيكون لكل حركة تحركناها اليوم وكل كلمة قلناها ، معنى كبير لا نتصوره نحن الآن ! سيصير هذا اليوم بتفصيلات وقائعه ودقائق أحداثه ملكا للتاريخ الذى يقدس كل ما يدخل حماه ، ويومئذ يُعرف (يوم الجلاء) !

* * *

وقد زعم العداة أننا فرحنا هذا الفرح لأننا أُعطينا ما لم نكن نحلم به ، كالفقير المسكين إذ يطلب فلساً فيمنح ديناراً ، كلا ! إننا لم نأخذ إلا الأقل من حقنا . إن الجلاء ليس عجباً ، وإنما كان العجب العجاب أن يكون فى ديار الإسلام احتلال . العجب أن لا نحكم نحن الأرض ونحن خلقنا من أصلاب من حكموها ، وورثنا القرآن الذى به دانت لهم الأرض !

ولكنا فرحنا لأن الله جعلنا نقرأ هذا التاريخ الماجد العظيم قبل أن يكتب ، وأن ندرك أول الاقبال كما شهدنا آخر الادبار ، فنحن المخضرمون ... وإذا كان نور التوحيد قد سطع من الحجاز فكانت المدينة عاصمة الراشدين ، ثم مشى إلى دمشق فصارت عاصمة الأمويين ، فكذلك كان مطلع شمس الحرية ، بدت من الحجاز والجزيرة فكانت أول قُطر لنا خلا من أجنبى ، ثم امتدت أنوارها إلى دمشق ... وهى تمشى الآن إلى القاهرة وإلى بغداد ، ثم تسلك طريق الأندلس ، الفردوس الاسلامى المفقود الذى سيعود ، والطريق الآخر الذى يصل إلى الـ (باكستان) ديار الأطهار (١) ، فلا يبقى فى ظلال المآذن كافر يحكم بغير ما أنزل الله !

وزعموا أن هذا الجلاء قد أتى عفواً بلا تعب ، وأننا لم نرجف عليه بخيل ولا ركاب ، ولولا أنها جاءت به مصلحة الانجليز ما جاء ! وكذب هؤلاء الزاعمون ولؤموا ...

كذبوا والله ... أو فليخبرونى : أجاهدت أمة على ضعفها وقلة عددها ، وعلى كثرة عدوّها وقوته مثلما جاهدنا ؟ إن فى

---

(١) وتلك ترجمة الكلمة ، والباكستان أمنية كل مسلم فى الهند ، يقودهم إلى تحقيقها مولاى محمد على جناح لا يشذ عنها إلا أبو الكلام أزاد وقليل من المسلمين معه .

مصر العزيزة سبعة عشر مليونا ، وفى أندونسية سبعين ، وفى الهند مائة ، ونحن لا نعدّ كلنا بدونا وحضرنا ، رجالنا ونساؤنا ، أكثر من ثلاثة ملايين ، وقد ابتلينا بفرنسا ذات الطيش والحمق والملايين المائة والعُدَد والآفات .. فسلوا الفرنسيين : هل أرَحْناهم يوماً واحداً من ميسلون إلى يوم الجلاء ؟ أما ثرنا على فرنسا وكسرنا جيوشها فى خمس مواقع ؟ سلوا الجنرال ميشو القائد الذى حارب الألمان عند المارن: أما أباد حملته مجاهدون منا ، لم يتعلموا فى مدرسة حربية ولا درسوا فنون القتال ، وغنمنا عتادها كله فلم يعد من الحملة بعد معركة المزرعة إلا مائتان وخمسون جندياً فقط ! سلوا الغوطة عن معارك الزور وعما صنع حسن الخراط ؟ سلوا النَبْك وجبالها ، وحماة وسهولها ، وجنرالات الفرنسيين عن بطولة قوادنا الأبطال ، فوزى القاوقجى ، وسعيد العاص ، والبطل المفرد سلطان الأطرش ، وعشرات وعشرات إن لم أعدهم اليوم ، فما يجهلهم أحد !

أما ضرب الفرنسيون دمشق أقدم مدن الأرض العامرة بالقنابل مرتين ، فى عشرين سنة ؟ أما أحرقوا حىّ الميدان وهو ثلث دمشق ودمّروه فلم ينهض من كبوته إلى اليوم ؟ أما أضرموا النار فى جرمانا والمليحة وزبدين وداريا ودير بحدل والهيجانية والغزلانية وتلّ مسكن ودير سلمان وقرى أخرى لا يحصيها من كثرتها العدّ ؟

بل سلوا شوارع دمشق ودروبها وساحاتها ، عن إضراباتها ومعاركها ومظاهراتها ؟ أما لبثت فى مطلع سنة ١٩٣٦ خمسين يوما مضربة لا تجد فيها حانوتا واحداً مفتوحاً ، مقفرة أسواقها كأنها موسكو حين دخلها نابليون ، فتعطلت تجارة التاجر ، وصناعة الصانع ، وعاش هذا الشعب على الخبز القفار ، وطوى ليله من لم يجد الخبز ، ثم لم يرتفع صوت واحد بشكوى ، ولم يفكر رجل أو امرأة أو طفل بتذمر أو ضجر ، بل كانوا جميعاً من العالم إلى الجاهل ، ومن الكبير إلى الصغير ، راضين مبتهجين ، يمشون ورؤوسهم مرفوعة ، وجباههم عالية ، ولم نسمع أن (دكانا) من هذه الدكاكين قد مس أو تعدى عليه أحد ، ولم يسمع أن لصاً قد مدّ يده خلال هذه الأيام إلى مال ، وقد كانت الأسواق كلها مطفأة الأنوار ليس عليها حارس ولا خفير ، فهل قرأ أحد أو سمع أن بلداً فى أوربة أو أميركة أو المريخ يسير فيه اللصوص جياعاً ولا يمدون أيديهم إلى المال المعروض حرمة لأيام الجهاد الوطنى ؟ ولقد بقى الأولاد فى المعسكر العام فى المسجد (الأموى) أياماً طوالا يرقبون وينظرون ، فإذا فتح تاجر محله ذهبوا فأغلقوه ... ففتح (حلوانى) مشهور ، فذهب بعض الأولاد فحملوا بضاعته ، صدور (البقلاوة والنمورة والكنافة) إلى المسجد ، وتشاوروا بينهم ماذا يفعلون بها ؟ فقال قائل منهم : نأكلها عقاباً له ! : اخرس ويلك ، هل نحن لصوص ؟ ثم أرجعوها إليه بعد دقائق وما فيهم إلا جائع ! !

فهل قرأتم أو سمعتم أن صبيان باريز ولندن ونيويورك فعلوا مثله ؟

وقد عمد الفرنسيون آخر أيام الإضراب إلى فتح المخازن قسراً ، فكان أصحابها يدعونها مفتوحة ولا يقتربون منها ، وفيها أموالهم التى تعدل أرواحهم

و (التبرعات) ؟ ألم يكن الناس يعطونها من غير أن يطلبها منهم أحد ؟ ألم يكونوا يتسابقون إلى دفعها ؟ ألم يرفض كثير من الناس أخذ (الاعانات) ويقولوا : اعطوها غيرنا ممن هم أحوج إليها منا ، نحن نجد طعاماً هذا النهار !

لقد وقع هذا وشاهدته أنا مراراً ، فأىّ وطنية أعظم من هذه الوطنية ؟ وأى اتحاد أوثق من هذا الاتحاد الذى تصبح فيه المدينة كلها أسرة واحدة ؟

والبطولة والجهاد ؟ ألم يفعل الشاميون الأفاعيل ؟ ألم يهجموا على النار والحديد ، ويقاوموا بالحجارة أروع وأبشع ما وصلت إليه حضارة الغرب من ضروب التقتيل والإهلاك والتدمير ؟ ألم يفتح الأطفال صدورهم للرصاص ؟ ألم يصمد الفتية العزل للجيش اللجب لا يزولون حتى يزول عن مكانه هذا الجبل ، ثم يصدمونه صدمة الند للند ، ثم لا ينجلى الغبار إلا عن حق يظفر أو شهيد بقتل ، أو جريح بؤسر ؟ ألم تلبث دمشق مدة الانتداب

وهى فى حرب ساحتها شوارعها وميادينها ، لا تكاد تختفى منها الخنادق والأسلاك والرشاشات والدبابات حتى تعود فتظهر مرة أخرى ، ولا تهدأ النار فى ركن من أركانها حتى يندلع لسان النار فى ركن آخر ، ودمشق ثابتة على جهادها ؟

ألم يشيّع الأمهات أبناءهن إلى المقبرة ضاحكات هاتفات ؟ ألم يجاهد الطفل الصغير ، والمرأة العجوز ، والشيخ الفانى ؟ ألم تمتلئ السجون بالأبرياء ، ألم تضق المقابر بالشهداء ؟

فهل تكلم تاريخ هؤلاء الفرنسيين فى آذانهم ؟ هل عرفوا لهذا الشعب حقاً ، هل قدروا له تضحيته ، هل رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم حينما كانت تجوز بهم مواكب شهدائه ؟ هل خشعت قلوبهم حينما رأوا مسيل دمائه ؟ لا . إنهم نسوا تلك الدعوى الكاذبة ، دعواهم أن أجدادهم هم الذين أعلنوا حقوق الإنسان ، وأنهم غسلوا بدمائهم صفحة الاستعباد والاستبداد ، ونسوا ما كتبه روسو وفولتير ومنتسكيو ، وما قاله ميرابو وسييس ولافاييت ، وما كان يكذب به الفرنسيون (أيام ثورتهم تلك) على الشعوب ، إذ يعلنون أنهم نصراء المظلومين !

إنى ماخططت هذه الكلمات لأؤرخ فيها جهاد الشام ، فإنها تؤلف فيه الأسفار الضخام ، ويخلد حديثه على طول المدى ، وما ذكرت نبأ إضراب الخمسين ، لأنقصى أخباره ، وأجمع حوادثه ، وإنما أردت أن أرد كذبة ما زلنا نسمعها حتى من الأصدقاء ...

وما عظمة جهادنا فى هذا الإضراب الشامل وحده ؛ ولا فى المظاهرات الدامية ، ولا فى القتال والنضال ؛ بل العظمة فى هذه التربية الوطنية العجيبة التى أثبت الشعب العربى فى الشام أنه بلغ فيها غاية الغايات ، فكان فى اتحاده واجتماعه على الفكرة الواحدة وتحمله الجوع والألم فى سبيلها ، وإقدامه على الموت من أجلها ، مثلا للشعوب القوية الحرة . وما ظنك بشعب فقير يدع فيه التاجر مخزنه ، والعامل مصنعه ، والطالب مدرسته ، ثم يؤلفون جميعاً صفاً واحداً ، فينتزع حقه من أفواه البنادق ، ومنافذ الدبابات ويسجل جهاده على ثرى وطنه بمداد دمه ؟

وما ظنك بشعب تودع فيه المرأة ولدها ، ثم تدفعه إلى الشوارع ليجاهد ويناضل ، ثم ينعى إليها ، ثم يحمل إلى دارها ميتاً ، فتغسله بيدها ، وتخرج فى جنازته تهتف وتزغرد ، ودموعها تسيل على خديها ، وتدع المرأة أولادها بلا عشاء لتدفع المال للفقراء من أبناء الوطن ...

أيقال لهذا الشعب إن استرد حريته ، وجلا عن أرضه عدوه : لقد جاءك الجلاء عفواً وبلا تعب ؟

كلا . إنها ما جاهدت أمة مثل جهادنا ، ولا حملت مثل ما حملنا . إنا قد رأينا الموت ، وألفنا الفقر ، واعتدنا الجوع ، وأصبحت مدينتنا بلاقع ، وأهلها مفجوعين ، ونساؤها ثاكلات ، أفيكثر علينا أن ننعم بالجلاء ؟ وهل أخذناه بعد ذلك منحة من الانكليز ؟

كلا ثم كلا ، إنا أخذنا حقنا بعون الله ثم بعزائمنا ، ولو والله عاد فاستلبه منا أهل الأرض مجتمعين لقارعناهم عليه ونازلناهم حتى نستعيده كاملاً أو نموت دونه . وليس فى الدنيا أقوى ممن يريد الموت ، لأن الذى يريد الموت لا تخيفه وسائله ولا آلاته !

* * *

أستغفر الله ! اللهم إنا نبرأ إليك من أن نعتمد على أنفسنا ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك ، اللهم لك الحمد وبك التوفيق ، ولا اعتماد إلا عليك .

اللهم لك الحمد على أن أحييتنا حتى رأينا هذا اليوم العظيم ، وشهدنا جيشنا يعرضه زعيمنا تحت علمنا ... فإن هذه الفرحة تطغى على تلك الآلام ...

على أننا لم نعرض هذا الجيش الصغير الذى رباه الفرنسيون ، وأعانهم على حرب هذا الوطن ، ثم جاءنا تائباً فقبلنا من كرمنا توبته ، واستغفر نا فغفر نا له حوبته ، بل عرضنا الفصيلة الأولى من جيش العروبة ، فرفرفت أعلامها فوق الصفوف ، واجتمع فيها جنودها من أقطارها كلها[1] ... هذه بقية جيش الماضى الذى خفقت له تحت كل نجم راية ، وسما له فى كل ربع علم ،

(١) إلا المغرب فك الله إساره .

وكتب له فى كل معركة ظفر ، وهذه نواة جيش المستقبل الذى سيعيد بعون الله تلك الأمجاد .

لقد طالما رأيناه يعرض علينا هذا الجيش ، يعرضه سادة الأمس كما يعرض المعلم الظالم عصاه على التلاميذ ، والطاغية الجبار سيفه . يقولون لنا : انظروا إلى قوة فرنسا ... واحذروا أن تفتحوا باسم الحرية أفواهكم ... وإلا نزلت هذه السيوف على أعناقكم ، وضربت هذه المدافع دوركم ، وكان هؤلاء الجند الذين هم أبناؤكم عونا عليكم ... فجاء رئيسنا يعرضه اليوم ، ليقول : انظروا إلى جيشكم الذى يذبّ عنكم ، ويحمى حريتكم ، إنه لكم !

فلا تلوموا دمشق إن مشت كلها من قبل مطلع شمس يوم الجلاء لتشهد هذا العرض . إنه عرض مبارك ، التقى فيه أول مرة الإخوان الذين كانوا يتعارفون على السماع لا يعرف الأخ منهم أخاه ، فمشى فيه الجندى المصرى إلى جانب العراقى ، والنجدى إلى جنب اللبنانى ، والأردنى مع اليمانى ، مشوا جميعاً فى طريق واحدة على قدم واحدة إلى غاية واحدة .

اسمعوا ، فهذه هى المدافع ترعد وتدوّى وتزلزل الجوّ رجّة واهتزازاً ! انظروا فهذه هى الطائرات تحوّم وتحمحم ، وتعلو وتنحط ، وتجئ وتذهب ، ولكن لا تفزعوا ، فانها لن تؤذيكم ، إنها ليست مدافع الفرنسيين التى تدمر ، ولا هى طائراتهم التى تصبّ الحمم ! لقد ذهب الفرنسيون ولن يعودوا . إنها مدافعنا نحن ، لقد صارت لنا ياقوم مدافع ... إنها طياراتنا ، لقد صار للعرب طيارات ، إنها أول مرة نسمع فيها المدافع تنطق بارادتنا وأيدينا ، ونرى الطيارات تعلونا فلا ترمينا بالقنابل التى فيها الموت بل بالقراطيس التى فيها السكر ، تسقط فى مظلات صغيرة هدية من مصر ومن العراق ، وبشرى بأن أيامنا الآتية ستكون حلوة كالسكر .

فيا أيها الإخوان المصريون والعراقيون : شكراً شكراً . ويا إخواننا جميعاً لكم الشكر .

أنتم أفضتم على هذا العيد بهاءه . أنتم ألبستموه رونقه . أنتم جعلتموه أعظم وأجلّ ، حين جعلتموه (يوم العروبة) كلها ، لا يوم سورية وحدها ، وبكم بعد الله قوينا على حمل أثقال الجهاد ، وأعباء الظلم ، حتى منّ الله علينا فظفرنا ، وعليكم أنتم ستقف عزائمنا وأموالنا وسواعدنا ، وفيكم سنبذل مهجنا وأرواحنا ، حتى يمنّ الله على أقطار العربية كلها بالحرية كما منّ بها علينا ، بالحرية النقية التى لا تعكرها حماية ولا وصاية ولا انتداب ، إننا لن نلقى السلاح وفى الدنيا بلد إسلامى يحتله أجنبى !

وأنت يا علمنا ... اخفق مطمئناً ، فقد عدت إلى مكانك ، ولن تنزل منه أبداً . لن يغلبك عليه علم غاصب آخر ولو ظاهرته عفاريت الجن ومَرَدَة الشياطين وجاء معه بعشرة قنابل ذرّية ، لن يأخذه منك أبداً ونحن أحياء ، إلا علم (الوحدة العربية) أولاً ثم علم (الخلافة الإسلامية) ثانياً إذ يبقى فيه عالياً خفاقاً إلى يوم القيامة .

(دمشق) **على الطنطاوى**

بين الشرق والغرب

قمــــر مصر . . .
فى سماء باريس

للأستاذ راشد رستم

صديقى ...

لقد عدتَ يا صديقى إلى مصر بعد أن أكملتَ فى الغرب دراساتك ، وها أنت ذا اليوم من آحاد الوطن الذين بهم يستبشر ، ومنهم الخير ينتظر .

ولقد أديتُ لك ما طلبت منى - فزودت لك بما شئت من النظرات ، ومررت على ماسألتنى أن أمر عليـه من المشاهد ، وجستُ خلال ديار أردتَ منى أن أذكرك فيها ، كما أنى وصلت لك ماانقطع برحيلك مع من كان بينك وبينهم مودة ...

ولعل فيما تمت لك به من الرغبات مايخفف عنى ما أنت فيـه الآن ، كما تقول ، من « وحشة المكان وغرابة السكان » ...

... أليس غريباً حقاً أن يعود الوطن مكاناً للوحشة وأن يصير أهله موضعاً للغرابة ! .

***

لا تحزن يا صديقى على عودتك من هنا « هـكذا سريعاً » كما تقول ، مع أنك مكثت فينا خمس سنوات كاملات ! وأنك خلفتنا هنا بعدك « نستمتع بحياة الغرب الهنيـة طويلا ، ونرشف من بحرها الطامى كثيراً وكثيراً » ...

تأكد يقينا أنك السابق فى رحلتك ، وأنك الفائز فى عودتك ، أما نحن فسنحتمل الغربة زماناً آخر ، إلى أن نلحق بك لنجتمع كما كنا نجتمع ، ونلتقى مثل تلاقينا ، ونلهو ونعمل كما كنا نلهو ونعمل ، ولا تحسبن للفوارق التى بيننا وبينك الآن حسابا ، فقد يستمتع المرء بالقليل كثيراً ، ويلهو بالـكثير قليلا ...

أتظن يا صديقى أنه فى الإمكان أن يبقى هنا كل من يجىء إلى هنا ؟ أم أن له أن يبقى ليكون عليه أن يعود ! ...

إن الأوطان تنتظر أبناءها ...

« وهذه مصر أم الدنيا ، ولعـل الذين يقولون عنها ذلك هم الذين لم يروا غيرها . أو لعلهم هم الذين جاءوها من بلاد أقل منها » على رسلك يا أخى ... ما هكذا يقال عن الأوطان ...

وما لنا وهذا التحليل بل هذا التعلل ! . لماذا فكرت فيه ؟ ولمـا ذا يخطر على بالك وقد عشت فى بلاد كلها وطنية وحماسة للوطن ! أليس بلاد كل إنسان هى « أم الدنيا » عنده ؟

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام

إن مصر هى مصر ، وهى أم الدنيا ، وهى مما ليس منه بد ، رضيت بذلك يا صديقى أم حملت به تحميلا ...

وها أنا ذا أترك هذا الأمر قليلا . . فقد سرح منى الفكر أمام هـــذه الخاطرات الخطرات . . وما جئتنا به من النزعات الغربيات ، بل النزوات الغربيات ...

وقد لاحت منى نظرة إلى النافذة نحو العلاء فى السماء . وقد سكن الليل إلا من دوىّ المدينة العظيمة الساهرة ، فإذا قمر باريس يطل خلال الستائر الشفافة ، ساخراً من ضوء مصباحى الصغير ، ضاحكا مما أنا فيه من تفكير ، وما جئت به أنت يا صديقى من تعبير ...

إن هذا القمر يذكرنى بأصفى سماء يسبح فيها قمر . . يذكرنى « بأقمار » فى مصر كثيرة . فى شمالها وصعيدها ، فى غيطانها وعند غدرانها ، فى الريف والحضر ، عند السواقى وتحت الشجر ، على رمال الصحراء ، عند سفح الهرم . بين المعمور وبين المهجور ، فى البحر وفى النهر ، فى الليل وبعض النهار ، وحيداً وغير وحيد ، ثم قمراً فى آخر الليل عالقاً بذيل الظلام ، محتفياً بموكب الفجر ، مختفياً أمام ذات الخدر وقد أزاحت عن وجهها الحجاب ...

هذا القمر المصرى لا أنساه وصوت المزمار البلدى الشجى آخر الليل عند سفح الهرم ، والأربعون قرناً تشاطرنا الحظ والإيناس ...

هذا القمر لا أنساه مع نغمات الغاب ، فى جلسة الحصير بالريف ، وقد نام أهل القرى فى غسق الليل من قسوة النهار ، إلا قليـلا منهم الساهر السامع ، يستمتع وينتعش بنغمات الصبا والبياتى على صوت هذا الغاب . والهمّ به قد غاب ، وتلك المواويل

الحرّ وفيها أجناس الناس أجناس ، وفيها غرام أهل الغرام موكول إلى من هو رابض بين الضلوع ، وإلى ماهو صاعد مع الأنفاس …

هذا القمر الساحر لا أنساه وهو ينظر إلينا صامتاً ونحن فى البيداء . . فيزيد التيه تيها ، ويجعل من الحقيقة خيالا ومن العقل خبالا ، ومن الرمال حبالا . . . ومن النفس حالا وحالا – هنالك فى العراء ، وسط رهبة السكون المخيف يزداد المجهول فى علمنا مجهولا …

هذا القمر الباسم لا أنساه فى بيتنا الكبير العتيق ذى الحركة المدوية نهاراً ، والسكوت المهيب ظلاماً ، وقد أطل القمر علىّ صغيراً كما يطل الليلة على كبيراً . وكانت مربيتى العجوز ، وقد احتوتنا رهبة الجدران العالية والغرف الواسعة ، تقول لى : اطفىء المصباح ياولدى . فهذا القمر ما أحلاه ، وهذا السناء ما أبهاه، ثم تتولانا وحشة الليل فتأخذنا سنة من النوم، ثم نصحو فإذا القمر قد تحرك فى بروج السماء قليـــلا … فتقول العجوز : سبحان الخلاق ! …

وها أنا ذا اليوم هنا فى باريس أطفىء الليلة هذا المصباح كما أطفأت أخاه من قبل ، فى تلك الليالى الخوالى ، وهذا هو القمر لايزال ما أحلاه ، وهذا هو الضياء لايزال ماأبهاه …

وأنت يا قمر باريس ! هل أنت قمر ذاك الزمان ، وقمر ذلك البيت الكبير العتيق ، وقمر مربيتى العجوز ! أم زادتك هـذه السنون الثلاثون تحويلا وتحويراً ، كما زودتنى الليالى والأيام تحميلا وتعذيراً …

هنا لك كنت تسمع أيها القمر حديثاً ساذجا ، بين صغير وعجوز ، كلاهما مغرم بالقمر المنير وبما يغرى الوجه المنير فى خيال هادىء ولطف جميل .

هنا لك كان يسمع الصغير أحاديث العجوز ، وهى تناجى القمر تسأله عن كل شىء وتطلب منه كل شىء ، تدعوه أن يحمل لها فى رهبة الليل وجلال الصمت سؤلها عند ربها « فالق الحب والنوى ، وفاطر السموات العلا » تسأله أن يحمل سلامها إلى أهلها فرداً فرداً ، وأن يعود إليها فى غدها لتراه فى غدها …

ثم تقول وكأنها قد أدت صلاتها – نم يا ولدى . نم وادع ربك يستجب لك ، وأنت ياقمر مُسّيت خيراً وفى حفظ الله … »
ثم تقرأ الفاتحة وتنام إلى الصباح …

نعم إن وجه هذا القمر يذكرنى الليلة تلك الأحاديث وذاك النغم وذلك الجو السحرى البرىء ، فيثير منى فى هذا الغرب وفى هذه السن تفكيراً .. قد يكون عن تلك السذاجة تكفيراً …

وإن المرء لينعم بالخيال كما يشقى بالذكرى ، على أنه لا يدرى أكان خيراً له أن تقف به الليالى أم أنها به تجرى …

وها هو ذا القمر يختفى وراء السحب وإلا فستخفيه منازل باريس . . فأين مهلك الفسيح يا مصر . . حيث يمتد البصر فيذهب فيه مع النهاية إلى اللانهاية …

أين النخيل يا مصر لكى يختفى هذا القمر خلالها كما يختفى وجه الحسناء خلال أصابع الحسناء …
يا صديق …

هذا القمر أول ماعرفناه كنا فى مصر ، وحقا إن لمصر قمرها كما أن لها غير القمر

أما أن يكون لمصر كل ما لغيرها ، فتلك أمنية يرجوها الجميع لها ، ولكن أين الشرق من الغرب ، وأين مابينهما من خيالات الحقيقة ، وحقائق الخيال …

فاجعل الأمر سهلا ، ولا تحملنا مالاطاقة لنا به ، ولا تجعل مصراً من الغرب وهى فى الشرق ، بل اجعل لمصر فى الشرق ما لمثلها فى الغرب .

اجعل من مصر أعظم ما يمكن أن يكون من مصر ، وستجدن منها إذن كل ما تطمع من حياة ذقتها غربا وتريدها شرقا …

راشد رستم

الســيد جحا

الحالم اليقظان

للأستاذ كامل كيلاني

١ — مزيج الأضداد

يقول ابن زيدون :

« ياهل أنى من ظن بى ، فظنونه

شتى ترجح بينها الأضــداد »

وما أكثر ماتترجح الأضداد فى الحياة ، فيصعب تمييزها وتشتبه على الألمى البارع ، حتى ليصرخُ شاعرنا « أبو العلاء » متبرما بعجز الإنسان عن تعرف الصادق من الكاذب ، والجاد من الهازل والغافل من المتغافل ، والهادى من الهاذى فيقول :

« يكفى عناء من الدنيا ومنقصة

ألا يبين لك الهادى من الهاذى »

وقلما رأينا خلة محمودة ، أو ميزة فريدة مشهودة ، إلا رأينا ضدها من الخلال ، شديد القرب والشبه بها ، وثيق الاتصال .

وكثيراً ماتشتبه على أذكى الباحثين سمات العبقرية بالجنون ، والشجاعة بالتهور ، والاقتصاد بالبخل ، والإبداع بالسخف ، والتسامح بالعجز ، والتغابى بالغباء ، والتباله بالبله .

وقديماً قال ابن المقفع :

« وما من خلة هى فى الغنى مدح إلا وهى فى الفقر ذم »

وقال الشاعر :

« وسورة علم لم تسدد فأصبحت

وما يتمارى أنها سورة الجهـل »

٢ — قصة الحكم الثانى

وما أكثر ما تجلو لنا ملابسات القول وبواعثه مايقلب المعنى الذى يتبادر إلينا رأساً على عقب .

وكيف تحكم على إنسان يسمع بهزيمة جيشه فلا يتحرك ، وينادى خادمه ليأتيه بالعطر يتطيب به قبل أن يقتحم عليه الثوار قصره ويقتلوه .

لا شك فى أنها غفلة بلغت المدى .

أو شجاعة لاتعبأ بالردى .

فإذا تجلت لنا ظروف القصة ، وعلمنا أن صاحب القصة هو الحكم الثانى الذى وهب حياته لتشجيع العلم والعلماء . وعلمنا كيف تألب عليه الحساد وحرضوا عليه سواد العامة ، بعد أن اتهموه بالمروق من الدين ، فاقتحموا عليه قصره بعد أن هزموا حرسه ، وكادوا يفتكون به فلم يجد وسيلة يعبر بها عن احتقاره لخصومه وتساميه إلا أن ينادى خادمه قائلا :

« علىّ بالغالية يا غلام »

وهنا تشتد دهشة الخادم فيقول :

« عجباً أهذا وقتُ الغالية يا أمير المؤمنين ؟ »

فيجيبه الحكم الثانى ساخراً :

« ويلك بم يـُعرف رأسى من رؤوس العامة إذا قطع ، إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ »

رأينا حينئذ فى هـذا الرد الساخر ، أبلغَ تحقير لخصومه ، وأفتكَ إزراء بأعدئه الثائرين المتوثبين للايقاع به .

٣ — بين الأمين وكوثر

ولعل قريباً من هذا الباب قول الأمين لمن بلغه نبأ اندحار جيشه : « ويلك ، لقـد اصطاد كوثر سمكتين وأنا لم أصطد إلا سمكة واحدة » وقريب من هذا قول الساخر الذى سئل عما يطلب قبل أن يصلب بلحظات يسيرة :

« لا أطلب غير الماء »

فلما سئل : « ألا تفضل الجعة ؟ »

أجاب : « كلا فقـد أخبرنى الطبيب أنها تسبب لشاربها مرض الزلال » .

٤ — كيسان النحوى

من بدائع الجاحظ وطريف دعاباته ، ذلكم التندر الكاريكاتورى البارع الذى رسم به أعجب نموذج للذاهل الحالم وألصقه بكيسان النحوى فنعته : « بأنه يسمع غير مايقال له ، ويكتب غير ماسمع ، ويقرأ غير ما كتب ، ويفهم غير ماقرأ » .

وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال :

« تقول له : زيد ، فيكتب خالداً

ويقرؤه عمراً ، ويفهمه بكرا »

وهى غفلة يكاد يتسم بها كل مفكر عميق ، إذا حصر ذهنه فى فكرة بعينها .

٥ — غفلة نيوتن

ولعل أكثر كم يعرف قصة نيوتن الذى هدته دقة الملاحظة إلى تعرف الجاذبية ، وكيف أراد أن يلقى بيضة فى الماء الغالى ويمسك بساعته عشر دقائق حتى تنضج وكيف نظر – بعد قليل – فرأى أنه يمسك البيضة فى يده ، أما الساعة فقد ألقى بها فى الماء مترقباً نضجها وشيها .

٦ — بين وزيرين

ولعل بعضكم يذكر قصة الوزيرين العباسيين حين التقى مركباهما فى نهر دجلة ، فأراد أحدهما أن يلقى إلى صاحبه بتفاحة ، وما كاد يهم بذلك حتى شعر بحاجة مفاجئة إلى البصق فى النهر .

فما ذا صنع ؟

ألقى بالتفاحة فى النهر ، وبصق فى وجه صاحبه .

وحاول أن يعتذر عن سوء فعله فقال : «غلطنا» فأجابه الآخر : « ثلطنا » (أى : لحقنا العار ولطخنا) .

٧ — ضلال المتسرعين

وإنما لجأنا إلى هذه المقدمات لننبه إلى أن كثيراً من الطرائف والدعابات الجحوية قد حملت على غير محملها وفهمت على غير وجهها فتوهم بعض المتسرعين من سامعيها أو قارئيها أن صاحبها أبلهُ أو مخبول .

وما هو – على الحقيقة – بأبله ولا مخبول ، ولكنه ساحر يتلعب بالعقول .

ومن هنا وجب على الباحث أن يجلوَ الظروف والبيئة ، ويوضحَ الملابسات ، حتى يأمن الناقد من الحيف والجور ، وينجو من التسرع والخطأ فيما يرتجله من أحكام بعيدة فى الغالب عن الصواب .

٨ — سفينة السلام

وكيف نحكم إذا سمعنا أن رجلا رأى مركبه تعصف به العواصف ، وتشتد فتتقاذفه الأمواج الثائرة ، ولا يلبث أن تتمزق أشرعته ، فينهمك ملاحوه فى إصلاحها . فيصيح بهم هذا الرجل :

علام تتكبدون عناء الصعود إلى أعلى السفينة ؟ إنها لا تهتز من أعلى بل من أسفل . فما بالكم لا تربطون أسفلها بقاع البحر حتى تأمنوا اهتزازها ؟ .

لا شك فى أننا نحسبه معتوها إذا لم ننظر إليه على ضوء ما أسلفناه . ومن يدرى ؟ فلعلنا إذا رأينا مايصنعه قادة العالم لإنقاذ سفينة السلام التى تتقاذفها الأنواء وتمزق العواصف أشرعتها ، ورأينا كيف تشغلهم أسافل الأمور عن أعاليها ، فيقترحون ربط السفينة من أسفل ، بدلا من العناية بإصلاح أشرعتها العليا . عذرنا جحا فيما رآه .

٩ — جواب الحانق

ونحن إذا سمعنا أن رجلا كان يملأ جرته من النهر ، فأفلتت الجرة من يده ، فجلس يترقب خروجها من الماء ، حكمنا عليه بالبله ، كما حكم بعض الناس على صاحبنا جحا .

ولكننا حين نتمثله وهو محنق مغتاظ لسقوط الجرة وضياعها وإنه لفى دهشته وحيرته وهو مسترسل فى غيظه وغضبته ، وإذا بثقيل يقطع عليه تفكيره ويزعجه بسؤاله :

« عم تبحث يا أستاذ ؟ »

فلا يرى متنفساً لغيظه فى غير التهكم والسخرية بذلكم الفضولى فيقول :

« لقد أفلتت الجرة من يدى إلى قاع النهر فجلست أرقب عودتها إلى ، ومتى عادت أمسكت بها من أذنها وفمها حتى لا تعاود السقوط مرة أخرى .

(البقية فى العدد القادم) كامل كيلانى

التاريخ فى سير أعلامه :

ملـــتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

- ١٢ -



رحلة إلى ايطاليا :

قضى ملتن نحو ستة أعوام فى هورتون بين كتبه وأوراقه ، وهى فى الحق عزلة طويلة ما كان ليطيقها لولا عزم مصمم ورغبة قوية فى الاستزادة من المعرفة والتأهب لعظيمة فى دنيا الشعر .

بيد أن القلق أخذ يساوره والسأم يهجس على قلبه فى نهاية العام الخامس من مقامه فى القرية أى سنة ١٦٣٧ قبيل نظمه مرثيته الرائعة ليسيداس ، تتبين ذلك مما كتبه إلى صاحبه ديوداتى فى سبتمبر من تلك السنة ، وكان ديوداتى قد صار يومئذ طبيبا تشغله مهنته فعتب عليه ملتن عتبا عنيفا أن لم يف بوعده فى زيارته وكانت لهجة الكتاب غاضبة شاكية تنم عن حال من الضجر والسأم من طول مصاحبة الكتب والابتعاد عن الدنيا إلى هذا المضطرب الضيق المحدود فى القرية .

والحق إن هذه العزلة وإن أجدت على الشاعر كثيرا من الثقافة والاطلاع لم تخل من بعض الآثار السيئة ، فقد زادت من ذهابه بنفسه واعتداده برأيه ووثوقه من ارتفاع مستواه عن غيره ، وإلى ذلك يعزى إلى حد ما صرامته فى الجدل فيما كتب بعد وتعاليه على مخالفيه فى الرأى وعنفه فى الخصومة ، وغياب ما عرفه خلانه فى مجالسته من عذوبة روحه ورقة حاشيته وطلاوة حديثه .

وكانت قد ماتت أمه فى أبريل من هذه السنة ، وبموتها ازداد قلقه وازداد ميله إلى الرحيل عن هورتون ، وأصبح يحس أن مقامه فيها قد أشرف على النهاية ، فقد كان يجد فى ابتسامة أمه له وحدبها عليه وثقتها فى مستقبله وفرحها بطموحه عزاء له وبهجة لروحه فى هذه العزلة القاسية ، أما أبوه فقد جاوز السبعين وهجر ألحانه وقراءاته ، ورغبت نفسه عن الحديث فى الأدب والفن إلا قليلا ، ولهذا لم يعد ابنه يجد عنده ما كان يجده من قبل من بشاشة وإقبال إذ كان يفضى إليه بآماله ويحدثه عما يقع عليه فى مطالعاته من رأى سديد أو تعبير بليغ أو نادرة حلوة .

ورد عليه ديوداتى يتمنى له راحة البال وهدوء الحال ، ويسأله عما هو فيه . وكتب إليه ملتن كتابا لم يك فيه ما كان فى سابقه من الضجر ، وما ذلك إلا لأنه قد عقد العزم على أن يرحل . وكان يفكر أول الأمر فى الإقامة فى أحد فنادق لندن ، وفى هذا الكتاب أجاب ملتن إذ يرد على تساؤل صديقه بتلك العبارة التى أسلفنا الإشارة إليها ألا وهى تهيؤه لعمل يسلكه فى الخالدين .

وصح عزمه فى ربيع سنة ١٦٣٨ على الرحيل إلى إيطاليا لتكون رحلته فيها متعة لنفسه وثقافة لعقله ، فما إن تزال الثقافة هى حافزة إلى كل ما يعمل من عمل ، كأنما يضن بوقته أن يكون فيه قسط للراحة أو للمتعة الخالصة .

ولم يبخل الموثق الشيخ على ابنه بالمال اللازم له ولخادم يتبعه فأمده بثلثمائة وخمسين من الجنيهات وكانت تساوى يومئذ نحو ألف مما نتداوله اليوم ، وحمد ملتن لأبيه سخاءه ، وكان يتوجس خيفة منه حين هم بطلب ذلك المال ، وكان حريا أن يخاف ، فهو قد بلغ الثلاثين من عمره ولما يزل فى رأى أبيه عاطلا لم ينهض بعمل مما كان يحبه له ، وكأنما لم يكفه ذلك فجاء يطلب من أبيه مالا ليستمتع بالرحيل إلى إيطاليا !

والحق إنها يد للموثق الشيخ تضاف إلى سالف أياديه على ابنه ، ولم ينس الابن أنه تركه لما كان فيه من الشعر ، إذ آنس منه وهو بعد غلام أنه يحب أن يجعل من نفسه هوميروس آخر

وكان أبوه يحب أن يكون منه كلفن ثان ، ولم ينس أنه قبل ولو على كره انصرافه عن الوظيفة مدنية كانت أو دينية ، وأنه وافق على مقامه فى هورتون ليتفرغ للدرس والاطلاع وهو خريج الجامعة ؛ لم ينس الشاعر الشاب شيئا من هذا ولذلك فهو مغتبط بسماحة أبيه ونور بصيرته ، ومرد ذلك فيما يرى الشاعر إلى ما تذوقه أبوه من نعمة الثقافة ، وما فتح عليه عينيه من نور المعرفة .

وكانت إيطاليا يومئذ منتجع خواطر الرجال والشباب من كل أمة على اختلاف ثقافاتهم وميولهم ، فكانت تجتذبهم إليها اجتذابا ، وكان لا يحس المرء بكامل ثقافته إلا إذا زار معالمها أو معالم النهضة فى أنحائها ، وكان بها لكل عقل متعة ، يجد فيها ضالته رجل الفن ومحب البحث فى الآثار القديمة والعاكف على دراسة التاريخ والمولع بالمعمار ، والمفتتن بمشاهد الطبيعة والمشتغل بالفلسفة والعلم ، ولا عجب ففى إيطاليا ازدهرت الحضارة الرومانية ، وفيها أشرقت شمس النهضة الأوروبية ومنها انبعثت أشعتها ، وهى مهد أوفيد وفرجيل ، وموطن دانتى وبترارك وتاسو ورفائيل وميكائيل أنجلو وجاليليو ، وكانت فى النصف الأول من القرن السابع عشر حين رحل إليها ملتن كسوق انفضت إلا قليلا ، فلا يزال بها من سحر النهضة وجمال مواكبها بقية .

وكان أمرا طبيعيا أن ينجذب ملتن إلى إيطاليا وهو ابن النهضة بدراسته وروحه وفنه ، وما يزال يتجه بخياله وعقله إلى الربيع الأليزابيثى الراحل وكان موكبا من مواكب النهضة وإن له فى مشاهد إيطاليا وفى لقاء شعرائها ورجال الفن والذوق فيها وإن كانوا ظلالا لمن مضى من الأفذاذ ، لمتعة يطرب لها قلبه ، وتأنس بها روحه .

وكان لملتن أكثر من عدة إلى إيطاليا ، فإلى جانب ما أمده به أبوه من مال ، كان له باللغة الإيطالية علم كاف ، وبتاريخ إيطاليا معرفة وثيقة ، كما أنه حصل على كتب توصية به من بعض ذوى الحيثية ، وكان من بين تلك الكتب كتاب من سيرهنرى وتون وقد قضى سير هنرى سنين من عمره فى إيطاليا ، وله فيها أصدقاء من ذوى المكانة

ونصح سير هنرى لملتن فيما نصح له به أن يتجنب المناقشات الدينية ، وأن يكون حريصاً فى هذا ما وسعه الحرص ؛ وكان سير هنرى خبيراً بما عسى أن يجلب على المرء المتاعب فى إيطاليا ، كما أنه كان يلمس من تحمس ملتن لرأيه ومن شدة كراهته لبابوية روما وقساوستها ما جعله يكرر له النصح فى إلحاح وشدة

وصل ملتن إلى باريس فى أبريل أو مايو سنة ١٦٣٨ ، وهناك لقيه السفير الإنجليزى بالترحاب والحفاوة وقدمه إلى جروشيس وكان جروشيس يعيش منذ بضع سنين فى كنف ملك فرنسا لويس الثالث عشر ، وكان رجلا مشهور المقام فى الأدب والفلسفة والسياسة والبحث الدينى ، وكان قد حكم عليه فى بلاده بالسجن مدى الحياة بسبب آرائه الدينية التى خالف بها مذهب كلفن فى القضاء المحتوم ، وفر بمساعى زوجته إلى فرنسا ، حيث طاب له المقام ، وأظهر جروشيس الحفاوة بملتن وأبدله المودة وأثنى عليه ، وذكر له ما سمعه عن نباهة شأنه فى الشعر

وفى يوليو بلغ ملتن فلورنسه عن طريق نيس وجنوة ، وأقام الشاعر فى فلورنسة شهرين ، وقد أحب ملتن فلورنسة وأهلها حباً قوياً ، وكانت تمتاز يومئذ بجماعاتها الأدبية ، وكان بها من تلك الجماعات ست شهيرة ، وكانوا يسمونها الأكاديميات ، وشتان بينها وبين الأكاديميات الحديثة ذات القوانين المحددة والأصول المرعية فى البحث والدرس ، وإنما كانت هذه منتديات يلتقى فيها ذوو الثقافة فيتناقشون فيما يعرض لهم من المسائل فى جلسات ترفع فيها من بينهم الكلفة وتزداد الألفة ؛ وقد تنقل ملتن بين هذه الجماعات وكان يقابل فيها جميعاً بالحفاوة والمودة ، وأصغى ملتن وتكلم فى تلك المنتديات ، وكان هو ومضيفوه ينتقلون من حديث إلى حديث حيثما تتشعب طرق الكلام ، فتناولوا الأدب والعلم والفلسفة والرقابة على المطبوعات والسياسة والدين ؛ وتكلم ملتن عن عقيدته الدينية كما تعرض لعقيدتهم ، وأصغوا إليه فى دماثة وهدوء ، ووافقوه على كثير مما يقول ، بل إنهم ذهبوا إلى أكثر من ذلك فشكوا إليه وقد وثقوا منه ما يعانون من استبداد الكنيسة وطغيانها ، الأمر الذى يمقتونه أشد المقت ؛ وقد جاء فيما كتبه ملتن عن تلك الزيارة سنة ١٦٤٤ قوله : « جلست بين المثقفين من رجالهم ، وقد عدونى سعيداً أن ولدت فى انجلترة بلد الحرية الفلسفية كما تصورها يومئذ ، فى حين أنهم لم يترك لهم شىء إلا أن يئن المثقفون منهم مما يلاقونه من عنت وشدة ، وإلى ذلك يعزى ما أحاط بأولى الألمعية من الإيطاليين من ظلمة ، وإليه يعزى أنه لم يكتب طوال هذه السنين الكثيرة فى إيطاليا إلا الملق والادعاء ! »

وكان مما اعتاده أعضاء هذه الأندية أن يلقى كل واحد منهم ما يبرهن به على ذكائه وسعة اطلاعه ، واستمع ملتن إلى كثير مما

ألتى أمامه بالإيطالية ، وجاء دوره فتلا فى إحدى هذه الجماعات عن ظهر الغيب بعض قصائده اللاتينية التى نظمها فى أول شبابه ، وبعض قصائد أخرى نادرة وقع عليها أثناء مطالعاته ، كما أنه ألقى عليهم بعض ما نظم بالإيطالية ، وقد طربوا كثيراً لهذه القصائد الأخيرة وبالغوا فى امتداحها ، وعبروا عن شعورهم نحو صاحبها بمدائح لاتينية ذكر ملتن أنها « مما يضن به الإيطاليون على من يقطنون فى هذا الجانب من الألب » .

وبلغ من فرط سروره بهذه المدائح أنه اعتزم أن تكون معظم أشعاره فى المستقبل باللاتينية ليذيع صيته فى القارة ، ولكنه ما لبث أن ترك هذه الفكرة بعد أن عاد إلى وطنه ؛ على أنه لم ينس تلك المدائح التى اختصه بها أهل فلورنسة فنشرها فى مقدمة ما نشر من أشعاره اللاتينية سنة ١٦٤٥ ، ولعله أراد بنشرها أن يطلع الحاقدين عليه من بنى وطنه على ما لقيه من ثناء وحفاوة بين الإيطاليين ، فقد أثنى الإيطاليون فيها على ذكائه وعلمه وحذقه اللغات ، وجماله وفصاحته وما يتصف به من فضائل ، وطول باعه فى الفلك والفلسفة والتاريخ وبالغ أحدهم وهو السنيور فرانسيني فراح يؤكد لملتن فى قصيدته أنه ما من سر مهما بلغ من عمقه تخبئه الطبيعة فى السماء أو فى الأرض إلا وهو على علم وثيق به ، وأنه قد بلغ حد الكمال الفضيلة وأن ألحانه الحلوة ترفعه إلى السماء .

واتخذ ملتن طريقه إلى روما فقضى فيها شهرين ؛ وهناك طاف بأبنيتها وآثارها القديمة وتعرف إلى كثير من ذوى النباهة والمكانة ، وقوبل بالحفاوة فيها كما قوبل فى فلورنسة ، وإن كانت حماسة أهل روما لم تصل إلى مدى حماسة أهل فلورنسة ، ولم يتبع ملتن فى روما ما نصح له به سيرهنرى ، فأخذ يتكلم فى حماسة وصراحة عن مذهبه البروتستنتى ورأيه فى الإصلاح الدينى ، ولعل ذلك هو السبب فى فتور حماسة أهل روما نحوه ، بل إن بعضهم انصرف عن الحفاوة به حينما نما إليهم ما يقول فى الدين ، وما كان ملتن بالرجل الذى يستطيع أن يخفى فى نفسه رأيا يؤمن بصوابه ، وما كان ليخاف عنتاً أو أذى فى سبيل عقيدته ، ومن أبرز خلاله منذ صغره الجهر بما يعتقد لأنه يرى أن الكتمان نوع من المذلة إذا كان الباعث عليه الخوف . وهكذا أخذ فى مدينة البابا نفسه يتكلم فى طلاقة وجرأة لا يهمه كيف يقع كلامه فى نفوس سامعيه ، ولا يخيفه أقل خوف ما عسى أن يكون من موقف السلطات حياله ؛ أشار إلى ذلك فيما كتب فقال « لم يكن من دأبى أن أثير المناقشات الدينية فيما أغشاه من الجماعات ، ولكنى كنت إذا سئلت عن عقيدتى لا أخفى شيئاً مهما يكن ما أتعرض له من ألم ... لم أخف عن أى سائل يسألنى أى مذهب أعتنق مهما كان هذا السائل ؛ وكنت إذا هاجم أى شخص فى مدينة البابا العقيدة الأصلية لا أتردد فى الدفاع عنها بكل طلاقة »

وتعرف ملتن إلى رجل ألمانى الجنس هو لشتنيس ، وكان يقوم على شؤون مكتبة الفاتيكان ، وكانت له مكانة عظيمة فى نفوس الكثيرين من عظماء القساوسة ، وقد أراد أن يظهر للشاعر الإنجليزى عرفانه لجميل أهل انجلترا معه حين كان يطلب العلم فى اكسفورد وقد قدمه هذا الألمانى إلى الكاردينال العظيم فرنسسكو باربرينى ، وكان الكاردينال يومئذ هو كل شىء فى روما ، وأقيم للشاعر حفل موسيقى فى قصر باربرينى وهناك استمع ملتن إلى المغنية الشهيرة ليونارة بارونى فأعجب بها إعجابا شديدا عبر عنه فى قصائد ثلاثة لاتينية قصيرة أهداها إلى المغنية العظيمة .

ولو كان رجل آخر مكان ملتن لأثرت فيه أمثال هذه الحفاوات وبخاصة ما جاء منها من قبل رجال الدين ، ولتخفف من صراحته وحدته فى الكلام عن عقيدته الدينية وركن إليهم شيئا قليلا ، ولكنه لم يدع لمثل هذه الأمور سبيلا إلى التأثير فى رأيه فلم يتحول عنه قيد شعرة الأمر الذى جعل البعض يصدون عنه بعد إقبال ، وجعل الجزويت ينكرون أقواله ومسلكه إنكاراً شديداً .

ولم تك تلك القصائد الثلاث كل ما أوحته إيطاليا إلى ملتن ، فبين قصائده اللاتينية خمس غيرها وجهها الشاعر إلى سيدة إيطالية لم يذكر اسمها سحرته « بسمو حركتها وبحاجبها الأسود الذى يلقى فى النفوس الحب » .

وتوجه ملتن بعد ذلك إلى نابلى ، وهناك زار رجلا كان لزيارته إياه أجمل وقع فى نفسه وذلك هو مانسو العظيم ماركيز فيلا ، وكان مانسو فى الثامنة والسبعين من عمره ، ومرد عظمته إلى أنه كان راعى الأدب والفن مدة جيلين ، آوى فى أولهما الشاعر تاسو وفى ثانيهما مارينى ؟ وها هو ذا يلقى شاعراً ثالثاً سوف يكون أعظم خطراً فى تاريخ الأدب العالمى من ذينك الشاعرين ، وقد رحب به مانسو واستطاع على الرغم من شيخوخته أن يطوف به على الأماكن التى وصفها حين كتب حياة تاسو ، وأحب ملتن هذا الشيخ فامتدحه بقصيدة جميلة ذكر فيها أنه يود لو كان له راع مثل مانسو راعى

الشعراء ؟ ليعنى بدفنه إذ يموت ، ويقيم له تمثالا من المرمر يتوج الغار هامته . وقد أشار ملتن فى هذه القصيدة إلى مايعتزم فى دنيا الشعر كما أثنى على موطنه إنجلترة وعلى مكانتها فى الشعر والأدب ؛ وأهـدى إليه مانسو كأسين منقوشتين وعبارة جاء فيها « لو أن دينك كان مثل عقلك وهيـكلك ورشاقتك ووجهك ومزاجك ما كنت بريتانيا فقط بل كان مقامك بين الملائـكة » .

واعتذر إليه مانسو لأنه لا يستطيع بسبب عقيدته الدينيـة أن يظهرله من الحفاوة به مايستحق مخافة الرقباء فى المدينة ، وعاد ملتن إلى روما فلبث فيها شهرين آخرين ثم ذهب مرة ثانية إلى فلورنسة ، وفى هذه المرة استطاع أن يزور العالم العـظيم جاليليو وكان نزيل السجن فى المرة الأولى ؛ بسبب آرائه فى الفلك ومخالفته بها رأى الـكنيسة ، وزاره ملتن فى بيته على مقربة فلورنسه بعد أن حصل على إذن من السلطات ، وكم تأثر الشاعر لمرأى هذا العالم الشيخ قد كف بصره وأحيط بالرقابة الشديدة وبدا محطم الهيكل شديد الضعف ، على أنه كان لايزال محتفظا بقواه العقلية ،

ولو اطلع ملتن على الغيب ساعتئذ لرأى لنفسه صورة شبيهة بصورة جاليليو فى ضعفه وفقد بصره ومعاناته الآلام من أجل عقيدته ...

وسافر ملتن بعد ذلك إلى البندقية ومنها أرسـل إلى وطنه ما اشترى من كتب ومخطوطات وكان بينها صندوقان لـكتب الموسيقى ، ومن البندقيه اتجه إلى جنيف ليعود منها إلى موطنه ، وكان يجب أن تطول رحلته أكثر من هذا ، ولـكن ما تراى إليه من أنباء وطنـــه جعله يؤثر العودة ، عبر عن ذلك فى قوله « رأيت أن ما يلحق بى الشين أن أرتحل طلباً للمتعة فى الخارج بينما يعانى بنو وطنى الآلام من أجل الحرية فى بلادى » .

هذه هى رحلة ملتن إلى إيطاليا ولسنا نجد لما شهده من المدن والآثار صوراً فى شعره اللهم إلا ماوصف به روما فى الفردوس المستعاد ، وهى صورة ليست بذات أهمية كان يستطيع مثلها لولم يسافر ؛ كذلك لم يظهر لملتن أثر لاستمتاع بلهو الحياة ، بل إنه أشهد الله وهو فى جنيف فى طريقه إلى موطنه أنه لم يأت شيئا فى رحلته تخجل منه الفضيلة .

(يتبع) **الخفيف**

نظرات فى أدب المتأخرين

للأستاذ عباس حسان خضر

الأدب والحرفة:

منذ احتاج الأديب إلى استكمال عدته من الدراسة والثقافة اضطر إلى استدبار وجوه المكاسب، ونحى عنه الصوارف، وراح يمتص رحيق الآداب ليخرجه للناس أدباً مصفى. واتخذ كثير من الأدباء بعض آدابهم بضاعة نافقة فى سوق المدائح، فطافوا بها على القصور، وانتجعوا الغنى؛ وقد جعل ابن الرومى مكافأة الأديب حقاً لازماً إذ قال:

إن امرأ رفض المكاسب واغتدى ... يتعلم الآداب حتى أحكما
فكسا وحلى كل أروع ماجد ... من حر ما حاك القريض ونظما
ثقة برعى الأكرمين حقوقه ... لأحق ملتمس بألا يحرما

فاجتمع لأولئك المال وإحكام الآداب، على أننا لم نعدم من عزف عن ذلك المورد، وعكف على منهل الأدب، ينهل منه ويعل، ويفيض على خاطره، فيرسله غزلا وتشبيباً أو حكمة وفلسفة

وكثيراً ما حاق البلاء بالمشتغلين بالأدب لما شغلهم عن تدبير أمرهم ودفع ما نزل بهم، حتى عدت «حرفة الأدب» مجلبة للبؤسى وشؤماً على من أدركته، قال يعقوب الخزيمى:

ما ازددت فى أدبى حرفاً أسر به ... إلا تزيدت حرفاً تحته شوم

وقرنها شاعر آخر بإجادة الخط، فشكا من اصطلاحهما عليه:

لما أجدت حروف الخط حرفنى ... عن كل حظ وجاءت حرفة الأدب
أقوت منازل مالى حين وطنها ... مخيماً سفط الأقلام والكتب

ولقد وصل ماجرته حرفة الأدب إلى قصر الخليفة الشاعر ابن المعتز حين قتله المقتدر، وزعم أنه مات حتف أنفه، فقال على بن محمد ابن بسام:

لله درك من ميت بمضيعة ... ناهيك فى العلم والآداب والحسب
ما فيه لو ولا ليت فينقصه ... وإنما أدركته حرفة الأدب

قال مؤرخو الأدب: ولما ولى الأمور أولياء من الأعاجم لايقيمون للشعر وزناً أهملوا الشعراء، فانصرف هؤلاء إلى الحرف والصناعات، فكان منهم الجزار والحمامى والقصار، وكثر قولهم فى الأشياء التافهة كالسبحة والمخدة والمروحة؛ وعدوا ذلك نزولا بالأدب عن درجاته وحطاً له فى دركاته. وقد رأيت أن هذا ليس صحيحاً كله، ولئن صح أن الشعر فقد شيئاً بعده عن ظل الممدوحين الوارف — لقد كسب به أشياء، أولها أن هؤلاء الشعراء — وقد عدموا الممدوحين المغدقين من الملوك والأمراء — وجدوا بديلا أجل منهم وأعود عليهم باللذة الروحية، وهو سيد الخلق، فهشت له نفوسهم، وجعلوا ينشدون المدائح النبوية، وازدهر هذا الفن فى قصائد لا تتأخر قيد أنملة عن قصائد الفحول من المتقدمين، وحسبك بردة البوصيرى التى أولها:

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وقد كان من الشعراء ذوى الصناعات المعيشية من أجاد وافتن فى القول كأبى الحسين الجزار؛ وإلى جانب إجادتهم فى أغراض الشعر المختلفة برزت صناعاتهم فى أشعارهم، واستخدموا مصطلحاتها فى معانيهم، فأحسنوا وظرفوا، قال الجزار:

لا تلمنى مولاى فى سوء فعلى ... عند ما قد رأيتنى قصابا
كيف لا أرتضى الجزارة ما عشت ... قديماً وأترك الآدابا؟
وبها صارت الكلاب ترجينى ... وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكتب إليه النصير الحمامى:

ومذ لزمت الحمام صرت به ... خلا يدارى من لا يداريه
أعرف حر الأسى وبارده ... وآخذ الماء من مجاريه

فكتب إليه الجزار:

حسن التأنى مما يعين على ... رزق الفتى والعقول تختلف
والعبد قد صار فى جزارته ... يعرف من أين تؤكل الكتف

على أنه لايقدم الأدب ولا يؤخره — من حيث القيمة الذاتية — أن يكون الأدباء من ذوى الحرف أو من أهل الرياسات

وصف الأشياء التافهة:

رأيت مما عابه مؤرخو الأدب على الشعراء المتأخرين وصفهم للأشياء التافهة. ولست أدرى كيف يعدهذا تخلفاً فى مضمار الشعر؟! كأن مقياس الإجادة فى الوصف عندهم أن يكون الموصوف جليلا، فمن يصف الفيل مثلا أشعر ممن يصف العصفور، لمجرد أن العصفور صغير والفيل كبير؛ وواصف جبال (الهملايا) — على هذا القياس — أشعر شعراء العالم ولا جدال ...!

والمبل لأم عنترة القائل:

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غرداً كفعل الشارب المترنم

هزجاً يحك ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذم

لأنه يصف الذباب فيشبهه فى مرحه بالشارب المترنم ، ويمثله وهو يحك ذراعه بذراعه بمقطوع اليد مكباً على الزناد ليقدحه ، وما الذباب ؟ وما الأجذم المكب ؟ أوَ ليسا تافهين حقيرين ؟ ! وما إعجاب النقاد ومنهم الجاحظ بهذا التصوير ؟ !

ويا ويح امرئ القيس ! ألم يجد غير قلوب الطير المتناثرة ، والحشف البالى ، فيبنى لها بيتاً فخماً كهذا :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالى

والعجب العجاب أن يكون العائبون مؤرخى الأدب المحدثين وهم يعلمون أن كل شىء يصلح موضوعا للأدب ما دام موضع حس الأديب وانفعال نفسه ، ولا يهم بعد ذلك أن يكون هذا الشىء جبلا أو نملة . ثم لننظر ما قال شعراؤنا المتأخرون فى أشيائهم التافهة ، قال شهاب الدين الحلبى فى سبحة :

وسبحة مسودة لونهـــا   يحكى سواد القلب والناظر
كأننى عنــــد اشتغالى بها   أعـــد أيامك يا هاجرى

وقال محمد بن سوار بن إسرائيل فى مروحة :

ومحبوبة فى القيظ لم تخل من يد   وفى القر تجفوها أكف الحبائب
إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقا   أتت بالهوا الممدود من كل جانب

وقال ابن نباتة فى دواة فولاذ :

دواة لها جنس الحديد وبأسه   وزادت عليه فى الندى فهى أبهر
وكمل معناها يراعك منشئاً   ففولاذها فى الحالتين بجوهر

على أنك ترى هؤلاء الشعراء لم يتصدوا لوصف هذه الأشياء باستقصاء أجزائها وصفا مقصودا لذاته ، وإنما استثاروا بها خواطرهم فأتت بهذه المعانى الشعرية الجميلة ، فجاء قولهم متحركا نابضا بالحياة ، لاعيب فيه إلا أنه ليس مقولا فى رضوى وثهلان !

البديع :

يكاد ينعقد الإجماع على استهجان ما امتلأ به أدب المتأخرين من ألوان البديع ، فهم يأخذونه جملة واحدة بأن العناية مبذولة فيه إلى الزخارف البديعية والتحسينات اللفظية ، مرتبين على ذلك انتقاصه وتهجينه وتنفير المتعلمين منه ، ولعلهم يبتغون من وراء ذلك صرف الناشئين عن التكلف إلى الاسترسال . ولكنى أقرر أولا أن ثمة فرقا بين الصنعة والتكلف ، فالصنعة لا بد منها فى كل عمل فني يقترب من الكمال ، يزاولها الفنان فتكون من تمام جمال الفن . ولقد كان زهير يأخذ شعره بالصنعة إذ كان يعاود حولياته بالتنقيح والتثقيف ؛ وتعاقب بعده شعراء تناولوا أشعارهم بالتصنيع والتحسين كالحطيئة وبشار ، حتى كان مسلم ابن الوليد وأبو تمام وابن المعتز فالتفتوا إلى المحسنات اللفظية والمعنوية وحسن موقعها فى الكلام ، فاتخذوها فى صناعتهم الشعرية قصداً ، وكثيراً ما كانت تواتى أسلافهم عفواً ومن فيض الخاطر ، وازدانت بها آيات الكتاب وأحاديث الرسول . أما شعراؤنا المتأخرون فقد زادوا فيها وأكثروا منها حتى صارت ركنا من أركان الأدب ، وأصبحت غرض كل أديب ، وقد ترامى بها الحال حتى جاوزت الألفاظ إلى الأشخاص فى البيتين الظريفين الآتيين :

وقالوا يا قبيح الوجه تهوى   مليحاً دونه السمر الرشاق
فقلت : وهل أنا إلا أديب   فكيف يفوتنى هذا الطباق !

ولا ينبغى أن يغض التكلف المرذول من قدر البديع المحكم الصنع ، وما البديع إلا مادة زينة كالذهب والأزهار ، يختلف المزيَّن بها باختلاف الصياغة والتنسيق ، وهنا الحد بين الصنعة والتكلف .

وكيف نُحمل على التخلى عن الصنعة فى الآثار الأدبية ؟ أليس اختيار الألفاظ وإحكام النسج وترتيب الأفكار والمعانى صناعة ؟ ولو تخلينا عنها لما استقام للشعر وزن ولا اطردت له قافية .

ويقولون: إن المتأخرين كانوا يصنِّعون فى أدبهم ليموِّهوا فقره فى المعانى . ولو أنهم حقا شعروا بشىء من ذلك لعملوا على تلافيه ، والشعور بالنقص مبدأ الكمال ، كما يقال . ولا يصح الخلط بين أدب عصر المماليك وبين أدب العصور السابقة ، فإن الأول كان حقاً فقيراً فى المعانى والأفكار ، بل كان فقيراً فى الصنعة نفسها ، وكان متكلفاً غير مقبول ، وما عنه نتحدث .

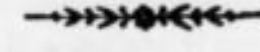
وبعد فقد قصدت إلى نفض الغبار عن محاسن فى أدب المتأخرين عدت عليه مساوئ ، ولعلى بهذا قضيت بعض حق لزمنى من التمتع بقراءة بعض هذا الأدب زمناً لقيت فيه العنت من نبش قبور المخطوطات بدار الكتب المصرية ، وإلى القائمين على إحياء الآثار الأدبية يساق الحديث .

عباس حسان خضر

كتب قرأتها :

فى غربال ميخائيل نعيمة

للأستاذ حبيب الزحلاوى



كتاب يساير الجيل بعد الجيل ، يمضى قدُماً مع الفكر فى تطوره ، والعقل فى تدبره ، والقلب فى يقظته . تقرأ فيه صورة التوثب فى شبابك ، وسورة الترصّن فى كهولتك ، وآية التوطد والاستقرار فى شيخوختك . تلمح فيه الدقيق من رسوم الحياة مجسمة فى سطور تعبر كل كلمة وجملة وعبارة فيها عن معنى جديد من معانى الحياة دائمة التجدد . إنما هو كتاب خالد ، قد يصلح على كر السنين ، لزمنك ، ولمن يأتى بعد زمنك

هذا الكتاب هو « الغربال » ومؤلفه هو الأستاذ ميخائيل نعيمة ...

من خلائق مؤلف كتاب « الغربال » صفاء فى الذهن ، كما يقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، واستقامة فى النقد ، وغيرة على الإصلاح ، وفهم لوظيفة الأدب ، وقبس من فلسفة ، ولذعة من التهكم » .

لم يغال الأستاذ العقاد فى وصف مزايا المؤلف الأدبية ، ولم يفتعل له من الخلائق ما ليس فيه .

إن نظرة فاحصة تُلقى على فصول الكتاب تكفى لأقامة البرهان وإنهاض الدليل ، على أن الأستاذ العقاد لم يداهن مؤلف « الغربال » ولم يرائه كما رائى وعالق أكثر أدباء هذا العصر خصوصاً من يدّعون أنهم من النقاد المتجردين عن الأهواء والأغراض . كما أنها تشير بوضوح إلى اتجاهات المؤلف ، وإلى الهدف الذى صوّب إليه سهامه ، والغاية التى رمى إليها ، وأنه كان لا محيص ألبتة لصاحب نفس كبيرة مثله ، يعرف الحب والتمرد ، والحرية ، عن صرخة مدوية يصرخها فى وقت كثر فيه لغط الرجعيين المتحجرين من الكتّاب المحافظين فى مستهل هذا القرن

واشتد نقيق الضفادع ، أعنى الكتاب الذين أخذوا يهرفون بالتجديد العصرى ، والحديث المبتكر .

صدر كتاب « الغربال » إثر صدور « الديوان » لمؤلفيه الأستاذين عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازنى ، وانفجرت فوهة بركان « الديوان » تقذف الحمم عقب صدور «منهل الوراد فى علم الانتقاد» لمؤلفه المرحوم قسطاكى بك الحمصى ، لذلك رأيت أن أقول كلمة عابرة فى الكتابين الأخيرين توصلا إلى تعريف الكتاب الأول ، ولأقرر أيضاً أن فن النقد الأدبى سلك إلينا المسلك الطبيعى فى تدرجه وتطوره .

لم يكن الأدب العربى يعرف أن للنقد قواعد بأصول تعرف به مزايا هذا الفن ومدارسه وأساليبه وتقسيماته . وقد عرفنا ، نحن أبناء هذا الجيل أن المرحوم قسطاكى الحمصى نقل لنا ما كتبه جهابذة فن النقد عند الفرنسيين أمثال سنت بوف ، ورينان ، وتين ، وفرديناند برونتير ، وأميل فاجيه ، وأدلف بريسون ، وجول لوميتر . فكان رحمه الله مُشعل المصباح الأول فى جادّة هذا الفن فى مستهل القرن العشرين ، أى فى عام ١٩٠٧ .

أما كتاب الديوان فقد كان معولا فى قبضة رجلين قويين أهويا به على ثلاثة من « أصنام الأدب » كنا نحسبهم آلهة فى ثياب شعراء ؛ وقد حدث ذلك فى عام ١٩٢١ .

أما كتاب « الغربال » فقد صدر فى عام ١٩٢٣ يحمل فى طياته جواهر القواعد التى نقلها قسطاكى الحمصى عن الفرنسيين ، ولباب فنون النقد التى أخذها هو عن كبار النقاد من الروس والأمريكان والإنجليز ، ولم يتحرج من انتزاع المعول من قبضتى العقاد والمازنى وهزّه فى وجوه شعراء وكتاب ، فأرعبتهم هزة المعول تلك أكثر مما أوجعتهم ضربات العقاد والمازنى ، ثم أخذ يعرفنا بالكاتب والشاعر والناقد ، يوضح لنا معالمهم ، ويعدد خصائصهم ، ويشرح مزاياهم ، فقال فى الكاتب :

« ... إنما الكاتب قلب يخبر ، وعقل يفكر ، وقلم يسطر ، فحيث لا شعور فلا فكر ، وحيث لا فكر فلا بيان ، وحيث لا بيان فلا أدب .

« الشعر والفكر والبيان ، ثلاثة لا يكون رجل كاتباً إلا إذا توفرت له أكثر من توفرها لسواد إخوانه فى البشرية ، ولولا تفاوت الناس بعمق الشعور واتساعه ، وحدّة الفكر واندفاعه ، وجمال البيان وجلائه ، لكان كل من عرف القراءة والكتابة كاتبا ...

« على سطح هذه الأرض قلوب عديدة ، غير أن أكثرها تتدفق الحياة من حوله ومن فوقه ، فتنحدر عنه انحدار الموجة عن الصخرة . إن أمثال هذه القلوب لا تخبر ، وإن خبرت ، فعن تخمة فى البطن ، أو تكمش ، أو عن وجع فى الرأس .

« وعلى الأرض عقول كثيرة ، وأكثرها تتناوله الأشياء ولا يتناولها ، وتغربله ولا يغربلها ، فأمثال هذه العقول لا تفكر بل تدور مع الليل والنهار ، بقوة العادة والاستمرار .

« وعلى الأرض قناطير من الأقلام ، ولكن منها ما يقول له العقل والقلب اكتب « نعم » فيكتب « لا » ، إن مثل هذا القلم لا يسطر ، وإن سطر خروفاً سوداء على أوراق بيضاء لاعلاقة لها بين عقل الكاتب وقلبه .

« ومن نكد البشرية — وقد يكون من حسن حظها — أن أمثال ما ذكرت من العقول والقلوب والأقلام ، هى القاعدة السائدة فيها ، وما اختلف عنها فشذوذ ، وكل شاذ نادر ، لذلك ندر وجود الكتاب والشعراء وأبناء الفن .

« للناقدين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء ، والمقابلة بين الواحد والآخر ، وتفضيل هذا على ذاك ، أو ذاك على ذلك ، وقد يكون فى مقابلتهم وتفاضيلهم نفع لهم ولقارئيهم ، أما أنا فإن عثرت على كاتب له قلب يخبر ، وعقل يفكر ، وقلم يسطر ، شكرت ربى ألف مرة ومرة ، وتركت للقارىء المقارنة بينه وبين سواه ، ومحاسبته بالخطأ والصواب ، والحلال والحرام ، والنفع والضرر ، فتقديرك الكاتب منوط بما تقرأ من نفسك وعنها ، فى سطوره وبين سطوره ، لا بما يقرؤه سواك ، فرب كتاب أطالعه فألفيه ترديد أصداء بعيدة ، هى أصداء أفكار وعواطف خبرتها ونبذتها من زمان ، ويطالعه سواى فيرى فى كل سطر من سطوره فكراً جديداً وعاطفة جميلة والعكس بالعكس .

« لذلك لست أرى جزيل نفع فى المقارنة بين الكتاب والشعراء ، ومتى أنست من كاتب قلبا يحس ، وفكراً يقابل ويستنتج ، وقلماً يصور بإخلاص ، قست إذ ذاك مقدرته الكتابية ، لا بعدد ما يضمن سطوره من « الحقائق الراهنات » و « المعجزات البينات » وغريب المفردات ، بل ما يثيره فىّ من العواطف والأفكار ، وبما يوجه إليه بصرى من ظواهر الأمور وبواطنها حتى إنى لأوثر كاتباً يخالفنى فى كل رأى أراه ، على كاتب ينطق بأفكارى وعواطفى ، فقد يروقنى من الثانى جلاء فى الإفصاح ليس لى ، وتلك منّة صغيرة ، ولكن منة الأول علىّ أكبر وأوفر ، لأنه يكشف لعينى عوالم كانت خفية عنها ، ويفسح لفكرى وعاطفتى مجالا ما كان لهما ، فيدفعنى بذلك إلى تصفية حسابى مع نفسى ، وإلى تقويم بضاعتى الروحية ، ولولا ذاك لما عرفت أنى من أبناء هذه الحياة ... »

فى الناس من يعتقد أن لا فائدة ألبتة للنقد الأدبى ما دامت أقيسته قائمة على الذوق الذاتى ، وفيهم من يقول إن فى مكنة كل كاتب التصدى للنقد ، فيتجنى إذا طاب له التجنى ، ويتعسف إذا حفزته نزوة إلى العسف ، وإنه فى الواقع لا يجنى من النقد سوى عداوة الناس ، وخصومة الأصدقاء . فإلى هؤلاء وأضرابهم أقول : ما أكثر ما يقال فى الناقد من حق ومن باطل ، وما أحوج الناقد إلى الجرأة والصبر على مخالفة الناس، لا لأنه أعرف ببواعث نفسه على النقد من سواه ، وأبصر فى تسديد سهامه إلى أهدافها ، وأكثر نخوة على الحياة الأدبية من كل الناس، بل لأنه غيور على الأدب مخلص للحياة الأدبية ، بيد أن مؤلف«الغربال» يقول ... :

« ... إن مهنة الناقد الغربلة ، لكنها ليست غربلة الناس ، بل غربلة ما يدونه قسم من الناس من أفكار وشعور وميول ... وظيفة الناقد حك فكره بفكر المؤلف ، واستجهار عاطفته ، وتنقية قمحه عن زوانه واحساكه .

(البقية فى العدد القادم)

حبيب الزحلاوى

بناة العلم في الحجاز الحديث :

السيد أحمد الفيض آبادى

للأستاذ عبد القدوس الأنصارى

« فصل مستل من الجزء الأول من سلسلة « بناة العلم فى الحجاز الحديث » . وهو الكتاب الذى يمثل مبادىء اليقظة العلمية الحديثة لمهد العروبة والاسلام ، فى العصر الحديث ، بأسلوب يجمع بين متعة الفن القصصى وعمق البحث العلمى ، لمؤلفه الأستاذ عبد القدوس الأنصارى صاحب مجلة « المنهل » بمكة ورئيس تحريرها. والكتاب تحت الطبع .

عهد جديد :

كان الفتى قد بلغ الخامسة عشرة من عمره . وكانت الأحلام المعسولة تتراقص أمامه كما تتراقص مياه الغدير الصافى للظمآن فى الفيافى الجرداء . وكانت الحياة فى نظره رؤى وأحلاماً فيها الكثير من الغموض والاظلام . وقد كسبته الحوادث والأحداث الجسام التى مرت عليه قطعانها وهو ناعم الأظفار ، مرونة محدودة ودقة نظر غير بعيدة الأهداف فى الحياة والأحياء ... وكان الفتى خجولا منطويا على نفسه محباً للعزلة أنى وجد إليها سبيلا .

وكان لا يبتسم لشيء بقدر ما يبتسم للدرس والكتاب ، وما يستتبعانه من حفظ ومطالعة وتكرار .

وكأن انطوائيته فتحت له آفاق الدأب على تحصيل ما يرسم له من علوم . فكانت متعته وهجيراه أن يتخيل نفسه وقد بز الأقران ، وصار علماً فى العلم والأدب العربى يشار إليه بالبنان .

وكانت لديه مع ذلك نفس مكبوتة نزاعة إلى الإلمام بهذه الفنون العصرية التى بدأت تستهويه نغماتها القادمة من آفاق مصر والشام ؛ كما استهوت نغمات « سلامة » ابن أبى عمار المشهور بالقس لعبادته وتقواه . ولكنه فى حالته الراهنة ، وهو الطالب بالمسجد النبوى ، لا يكاد يشعر بوجود أية فجوة ينسل من خلالها إلى ذلك الروض الذى يتخيله أنيقا كل الأناقة ، والذى يحن إلى الاستظلال بافيائه كل الحنين .

وفيما هو كذلك وإذا به فى أمسية من أماسى الربيع الساجية أمام شخصية بعيدة الصيت هى شخصية السيد أحمد الفيض آبادى التى اشتهرت بالنبل وسمو الأخلاق ، وقد تسربت إلى الفتى إشاعات بأن هذه الشخصية مزمعة أن تفتتح معهداً لتعليم الناشئة ما يصلح مستقبلهم فى معاشهم وفى معادهم . فيتقدم بالفتى أستاذه ومربيه إلى هذه الشخصية ، ويجرى بينهما حوار لا يتذكر الفتى الآن أكان قصيراً أم طويلا ، ولكنه يتذكر على كل حال أنه كان حواراً ممتعاً رصعت حواشيه بالبسمات وحسن التفاهم ، وتبودلت خلاله عبارات المجاملة والتقدير . وكان الفتى طيلة جلوسه بين يدى الشيخين المتحاورين يحدق النظر بملء عينيه وبقلبه أيضا إلى هذا الرجل الذى بدأ يستشعر له الحب والتقدير برغم بساطة مظهره وتواضعه . وسرعان ما علم الفتى من أستاذه عقب افتراق الرجلين أنهما — فى تلك الجلسة الرزينة الهادئة - قد وضعا تصميم الاتفاق على دخول أستاذ الفتى فى المدرسة الجديدة الناشئة رئيسا للمدرسين بها ، كما علم أنه قد فتح له باب عهد جديد بما تقرر من أن سيكون ضمن طلاب هذا المعهد فى عهده الأول .

ومن الحق أن نقول : إن قلب الفتى قد امتلأ غبطة بهذا النبأ السار الذى يحمل فى طياته تحولا جديدا فى مجرى حياته بما سيفتح له من أجواء معرفة أوسع مدى من المعرفة التى هو بسبيلها .

وبقدر اغتباط الفتى بهذه الناحية كان اغتباطه أيضا لما أدركه — عقب دخوله المدرسة — من أن المدير قد قرر صرف مكافآت شهرية للطالبين بقدر جدهم وتفوقهم ... ولم لا يغتبط الفتى بهذه الإعانة التى ستمهد له قسطا وافراً من حياة الاستقلال الذاتى ، وتساعده على التفرغ لتحصيل العلم ؟ ... فهو وإن يك مكفى الشؤون لدى مربيه الذى هو خاله وابن عمه وأستاذه ، إلا أنه مع ذلك كان يشعر من زمن الطفولة الغضة أنه يتيم ، ومن دأب اليتيم أن يشعر بأنه فى حاجة رتيبة إلى المعونة المادية الوافرة ضمانا لتحسين حاله فى المستقبل الغامض المجهول .

وقد ازداد جد الفتى وتضاعف اقباله على التحصيل ، وواصل ليله بنهاره ، ولم يرض مطلقا إبان دراسته إلا أن يكون الأول فى كل الاختبارات ، وآثر النصب على الراحة ، وأعرض بالكلية — وما كان من قبل مقبلا — عن ألوان اللهو والمتع التى كانت تستهوى اقرانه الآخرين .



ثورة سنة ١٩١٩

[للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك]

منذ سبع وعشرين سنة زلزلت أرض مصر بثورة انفجرفيها غضبها مما نزل بها ، وجاش فيها تيار وطنيتها بعد أن عب عبابه ثم اندفع ذياداً عن كرامتها ؛ وقد كان هذا الحادث العظيم من مفاخر مصر التي تبقى على وجه الدهر صفحة مجيدة يزدهي بها كتاب جهادها .

ولقد كان كل مصري يود لو ينهض لتأريخ هذه الثورة عالم ثبت يحصي كل ما ذهب فيها من ضحايا وخسائر ، ويسجل ما عانته البلاد في سبيلها من مشقات وشدائد ، عادل نزيه يتولى درسها وتحليل أحداثها بروح الحق والإنصاف ، فلا يستميله هوى ، ولا يلوى به أرب .

وظلت هذه الأمنية تعتلج في صدور أبناء مصر هذا الزمن الطويل ، حتى ظهر في هذه الأيام كتاب قيم في جزءين كبيرين يؤرخ هذه الثورة الشاملة من قلم رجل أجمعت الأمة على صدق وطنيته وسعة إدراكه وعظيم جهاده ، ذلك هو الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك الذي توفر منذ عشرين سنة على دراسة الحركة القومية من فجر انبعاثها في العصر الحديث ، وأخرج في تأريخها تسعة مجلدات غير هذا الكتاب الذي بين أيدينا اليوم ، جعلها سلسلة متصلة الحلقات تؤرخ كل حلقة منها فترة من هذه الحركة أصدق تأريخ وأوفاه ، حتى لقد أصبحت هذه المجلدات النفيسة أوثق الأسانيد وأصحها لتاريخ مصر الحديث

قال مؤرخنا الجليل في كتابه الحديث: « إنه عرض وتأريخ لثورة سنة ١٩١٩ أعرضها وأؤرخها كما أرخت الثورة العرابية من قبل ، فهما ثورتان متعاقبتان في تاريخ مصر الحديث تتشابهان في الأغراض والمقاصد ، وإن كانت الثانية تفضل الأولى في النتائج »

ولما كانت هذه الثورة قد شبت عقب الحرب العالمية الأولى ، فقد مهد المؤلف بصدر صالح من القول فيما كانت عليه مصر أثناء هذه الحرب من سنة (١٩١٤ — ١٩١٩) وما أصابها في هذه

وكان الفتى مغتبطا بهذا المعهد الجديد أيما اغتباط ، وقد شعر المدير بما يحمله قلبه من حرص واجتهاد ، فما قصر في إغداق المساعدات عليه ، وحباه بمختلف الرفد والمعونة ، وصار يعهد إليه ، فوق ذلك ، ببعض المهام زيادة في تنشيطه ورفعاً لمستواه الفكري في ميدان الأعمال الإدارية والاجتماعية .

وقد ظل على ذلك المنوال حتى إذا أكمل مقررات الدراسة العالية دخل فحصا طويلا مرهقا ، ويخرج منه وقد نال أرقام الدرجة الأولى في أغلب العلوم والفنون ، وبذلك أخذ الشهادة العالية في طليعة من أخذها .

وكم كان اغتباط المدير بنجاح الفتى ونجاح زميله معه ، هذا النجاح الباهر المرموق ، وكان الفتيان الزميلان يمثلان وحدهما « الفوج الأول » من متخرجي هذا المعهد ... وفي أيام الاختبار الذي تخرج منه الفتى لوح المدير له بأنه سيعينه عقب نجاحه مدرسا معيدا بالمدرسة غير أن ضرورات اجتماعية دعت الفتى إلى أن يقبل وظيفة كتابية بديوان إمارة المدينة المنورة ، وقد أحس يومئذ بشيء من وخز الضمير تجاه مديره الذي طالما عطف عليه فذهب إلى داره مبكرا ليقدم إليه جميل العذر ، فالعذر مقبول عند كرام الناس ، وانه ليصالحه إذ يسأله في تأثر :

— أحق أنك وظفت في الديوان ؟ ! ...

— أجل يا مولاي ، ولقد قضت بذلك ضرورات اجتماعية ، وسأخدم المعهد الذي له علىّ فضل وافر ، وأنا خارج عنه ، أكثر مما أخدمه وأنا فيه .

وكانت هذه الجمل التي خرجت من قلب الفتى يتهدج بها صوته في نبرات الصدق والإخلاص والوفاء بلسما لتأثر المدير الوقور ، فهتف قائلا :

— سنرى ما يكون من البر بوعدك الذي اقتطعته على نفسك .

وتلا ذلك صمت أدرك الفتى منه أن المياه قد عادت إلى مجاريها أو كادت ، فيستأذن منصرفا إلى تأملاته في الحياة والأحياء ، ماذا كان أمره من قبل وإلى ماذا صار ؟ وإلى ماذا سيؤول هذا الأمر ؟ ولكنه لم ينس قط لا في تلك اللحظة الدقيقة العابرة ، ولا فيما تلاها من لحظات وساعات وشهور وسنين ، واجب البر بوعده الذي اقتطعه على نفسه يومئذ لتلك الشخصية النبيلة الممتازة .

عبد القدوس الأنصاري



يوميات جينيفييف

للكاتب الفرنسي مارسيل بريفو

بقلم الدكتور محمد غلاب

١ — الأسوداد :

٢٠ مايو

لماذا أنا مهتاجة ومحزونة ؟ لماذا قلبي مفعم باسوداد بشع كما كانت تقول الأم « ملكة (١) الملائكة » في ذلك الوقت السعيد الذي لم أكن مشغولة فيه إلا بشواغل فتيات الدير ، والذي لم أكن فيه متزوجة، ولا ... ماذا كنت سأكتب؟ إن كل سروري اليوم ينحصر في أني أم . كل سروري اليوم هو عزيزي الذي يبلغ من العمر تسعة عشر شهراً ، إنه هو « رينيهي » الصغير .

إن الأم « ملكة الملائكة » كانت قد وضعت هذا الاسم أي (الاسوداد) لتنعت به الأشياء المتموجة الثقيلة المظلمة التي تضغط على القلب دون أن يعرف أحد م جاءت ، ولا ما هي ، ولكنها كانت أيضاً قد ابتدعت برنامجاً لمحاربة هذا الاسوداد وهو أن يعتزل الإنسان الناس ويأوي منفرداً إلى غرفته ، وفي يده قلم وورقة بيضاء ، وأن ينظر بعناية في أعماق نفسه ، فبفضل إدمان هذا الامتحان يصل الإنسان دائماً إلى اكتشاف ذلك الاسوداد مختبئاً في زاوية من زوايا قلبه . ومعنى هذا أن جميع الأسباب الغامضة التي عنها ينشأ الحزن ستنتهي بأن تتكشف يوما ما ، إذ كنا نلح

(١) هو إسم لمديرة الدير الذي تربت فيه السيدة «جينفييف» بين مثيلاتها من بنات الأشراف .

الفترة من فرض الحماية البريطانية ، وإعلان الأحكام العرفية ، والرقابة الصحفية ، ووقف الجمعية التشريعية ، واضطهاد الحركة الوطنية ، وتشتيت شمل رجال الحزب الوطني الذين كانوا يقومون وحدهم حينئذ بهذه الحركة ، وذلك بالاعتقال والنفي ، وعدَّد ما استولت عليه السلطة الإنجليزية من مؤن ورجال ودواب وما إلى ذلك مما يطول القول فيه . وفي الفصل الثاني استقصى كل الأسباب التي بعثت على الثورة من سياسية واقتصادية واجتماعية ، ورجع بها إلى سنين خلت . وبعد أن فصل القول في ذلك تفصيلا قال : إن تأليف الوفد المصري قد جاء معجلا لظهور هذه الثورة ، ذلك بأن أعضاءه لما لم يذعنوا للانذار البريطاني الذي يقضي بألا يجعلوا الحماية موضع مفاوضة ، وألا يعرقلوا تأليف وزارة تخلف وزارة رشدي باشا ألقي القبض عليهم واعتقلوا « فكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى التي أشعلت نار الثورة » .

ثم مضى بعد ذلك يتحدث عن هذه الثورة التي شملت البلاد جميعاً مدنها وقراها ، وعمت أهلها أفرادها وجماعاتها ، وأسند حديثه بإحصاء دقيق لكل ما حاق بالبلاد من الفظائع التي اتخذها الإنجليز لقمعها ، وشرح المحاكمات التي قضت بالقتل على المئين ممن اشتركوا فيها . ثم أنشأ يتكلم عن لجنة ملنر وما قوبلت به من إعراض الأمة عنها ومقاطعتها إياها ، ثم اضطرارها إلى مفاوضة الوفد المصري الذي كانت تتجاهله ولا تعترف به ، وأفاض في القول عن مراحل هذه المفاوضة واستشارة الأمة في المشروع الذي انتهت إليه ، ثم ما جرى بعد ذلك فيها إلى أن انتهى أمرها.

وعقد الفصل الأخير للكلام عما أدت إليه هذه الثورة وهل نجحت ؟ وفيم كان نجاحها ؟ وهو فصل ممتع يمتد بنا نفس القول لو عرضنا لتلخيص ما اشتمل عليه من تحليل عميق واستنباط سديد . ثم ختم الكتاب بوثائق قيمة منها عهود الإنجليز باحترام استقلال مصر ووعودها بالجلاء ، وقد بلغت ستين عهداً ووعداً ، ومنها معاهدة الآستانة المؤرخة ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ .

هذا عرض موجز ألممنا فيه بأطراف مما جاء في كتاب « ثورة سنة ١٩١٩ » . ولو كان الأمر لنا لأشبعنا القول في كل فصوله القيمة ، ولكن صفحات الرسالة الغراء تحول الآن بيننا وبين ما نريد . ولعلنا — بهذه الكلمة الصغيرة — نكون قد أدينا بعض ما يجب علينا من تنويه وتقدير لمؤرخ العصر الحديث الذي قضى من عمره المبارك ما قضى في خدمة بلاده عملا وتأليفاً ، وكان من أقطاب هذه الثورة ، وممن وقع عليهم من المحتلين قبل شبوبها عنت الجور والإرهاق وظلم السجن والاعتقال . سدد الله خطاه ، ووفقه في كل ما يتولاه

محمود أبو ريه

الإنسان سبباً من هذه الأسباب يقيده فى تلك الورقة بقدر ما يتيسر له من إيضاح ونظام ؛ فإذا ما تمت كتابة هذه النقط وجب على ذلك المحزون أن يتأمل فيها جميعها فى شىء من التفصيل . ولقد كنا نفعل ذلك كلما ألم بنا الحزن ، وكنا نجتهد دائما فى أن نجد الدواء لكل اسوداد ، وإلا فقد كنا نوطن النفس على الاحتمال ، وكانت هذه العملية دائما تنجح فى إعادة الهدوء والتفاؤل إلى النفوس .

واحر قلباه ! إنى بقدر ما أخطو فى الحياة المستقلة التى يدعونها بالحياة الزوجية ألمح أن هذه الحياة عابثة ومليئة بالضعف والبؤس ، وليس لهذا من سبب إلا أننى لم أعد أتمسك بتلك الالتزامات الحكيمة التى تلقيتها فى الدير ، ولو أن مثيلاتى من السيدات (الأريستقراطيات) استطعن أن ينقلن تلك النصائح النفيسة إلى حياتهن الاجتماعية والزوجية لخلقن من أنفسهن نساء قويات .

ولكن الوقت لم يضع لمن أراد أن يعمل خيراً كما يقول المثل . فلنحاول تجربة دواء الأم « ما كة الملائكة » ولأطبقه على حالتى الخاصة .

أنا « جينيفييف أوليفيه » تلميـــذة الدير سابقاً ، و« الكونتيس دى بواستيل » اليوم والتى تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما وقد مضى على زواجها ثلاثة أعوام ، وهى متمتعة الآن بحب طفل تعبده ، وبزوج خبيث وفاتن تعبده أيضاً مع الأسف الشديد .

ها هى ذى الورقة البيضاء أمامى ، وها أنذى أمسك بقلمى وأجلس إلى مكتبى .

إن الطفل الآن نائم ، وإن مربيته الانجليزية بجانبه ، وإن « راءول » زوجى فى النادى (فى الساعة الثالثة بعد الظهر وفى يوم الأحد ... ! وعلى كل حال فلنصدق ذلك مؤقتا) ولكن الذى لا شك فيه هو أنه لن يعكر على صفوى أحد قبل مضى ساعتين ، فلنبتدىء :

أنواع الاسوداد التى فى نفسى الآن :

(ا) إن هذا اليوم هو يوم الأحد ، وهو عندى يوم حزين ولا سيما فى الساعات التى تفصل بين الغداء والعشاء ، وفوق ذلك فإن الطقس حار جداً ، وأنا حينما تشتد الحرارة أحس كأنى لا أحيا فى الوجود .

(ب) إن بشفة طفلى دملا صغيراً ؛ وعلى العموم إن هذا الطفل يقلقنى منذ أسبوع لأننى ألاحظ أنه ممتقع قليلا ، ودرجة الحرارة عنده تتخطى الحد الطبيعى ، ومربيته تقول : إنه لا ينام نوما هادئاً .

(ج) إن « وايت فيرن » لم يفلح فى صنع ملابس السفر التى كان يخيطها لى بالرغم من محاولاته المتكررة ، وبعد عشر تجارب بعثها اليوم إلى قبل أن أستيقظ من نومى ، ولا شك أنه فعل ذلك متعمداً لكى لا أجربها فألاحظ أخطاءها الجديدة وأعيدها مع العامل . وإننى فى هذه الملابس مرعبة ومضحكة ، فعندما ألبسها أظهر كأننى أمثل دور سائق العربة فى إحدى روايات « البولفار الهزلية » . ولا ريب أن هذا أمر سخيف لأن رحيلى إلى « تالوار » سيؤجل .

(د) وأخيراً ؛ إن الاسوداد الحقيقى الذى يملأ نفسى ، والذى هو جدير بأن يعد كنتيجة للتفكير الطويل هو أننى غيورة ، وغيورة بصورة مزعجة . ولكنها ليست غيرة غبية حمقاء بلا مبرر إلا التلذذ بعذابى وعذاب زوجى . كلا بل إن لدى أسباباً قوية ومبررات قيمة لهذه الغيرة .

فقبل كل شىء لم يعد « راءول » يحبنى ، ومع ذلك فلو أنى مت لسبب له موتى حزناً . غير أنى أعتقد أن عاطفته نحوى تقف عند هذا الحد ، إذ أن من الواضح أنى أضايقه ، وأنه يتمنى أن يكون حيث لا أكون (أنا أجرح قلبى بيدى عند ما أكتب هذه الكلمات ، ولكن الطريقة محددة ، وهى أن من أراد أن يكتنه الاسوداد الذى فى نفسه ، فعليه أن يكون صريحاً ومخلصاً إلى حد القسوة) . من فظائع الأمور ألا تروق المرأة زوجها ، ولكن ليس هذا كل شىء ، فراءول يروقه شىء آخر فى الخارج

أوه ! أنا لا أدرى بالضبط من هى تلك التى سلبتنيه ، ولا أدرى كذلك إلى أى حد انتزع منى ... آه لو كنت أدرى ! غير أن الذى لا شك فيه هو أنه مستلب الآن منى ! إن شكوكى تتردد بين آنسة وسيدة شابة ! آنسة ؟ هل يمكن أن تدعى واحدة من هذا النوع « بآنسة » ؟ تلك الكلمة نفسها التى كانت تطلق علينا ونحن فى الدير ، تطلق علينا نحن الطاهرات البريئات الحبيبات المحفوظات من كل دنس ! أما تلك الفتاة فهى الآنسة «لوس دى جيفيرنى» ، وهى واحدة من هاتيك الشابات

الباريسيات اللواتى أفرطن فى الحياة الاجتماعية إلى حد الابتذال ، واللواتى نقلن إلينا العادات الأمريكية بعد أن جردنها من الكرامة واحترام الذات ، لأن الأمريكيات - وإن بدا عليهن المجون والخلاعة — يعرفن كيف يدافعن عن أنفسهن عند الإحساس بالخطر ! إن الآنسة « لوس دى جيفيرنى » تخرج للنزهة فى المركبة وحدها ، وأحياناً يصادفها بعض الناس فى معرض رسام مع شاب يشرح لها اللوحات ، وما دامت مركبة والدتها الفخمة تنتظرها على باب المعرض ، فهذا يكفيها كشهادة بحسن سلوكها. وفى المرقص تختار راقصاً على ذوقها ، وبعد الرقص تختلى وإياه فى زاوية بعيدة عن أعين النظارة ثم تحتفظ به طول السهرة. وفى حفلة أسرة « أفرزاك » أمس الأول كان زوجى هو الذى وقع عليه الاختيار... ومع ذلك فقد كان هذا الزوج دهشاً حينما اعترتنى النوبة العصبية فى المركبة ونحن عائدان إلى المنزل .

وكما أن الآنسة « دى جيفرنى » توجد كسحابة فى أفق حياتى كذلك تلوح من خلال هذا الأفق سحابة أخرى ، وهى « مدام ديلافو » زوجة الرسام ، وهى سمانة صغيرة ، شقراء بيضاء مشربة بحمرة كأنها وردة . إنها جميلة ، بل قد تخطت حد الجمال

لماذا نستقبل فى طبقتنا أشخاصاً ليسوا منا فى شىء كديلافو وزوجته وأمثالها الذين كانوا قبل أن نرفعهم إلى صفنا يتناولون طعامهم فى حوانيت الجبن والزبدة ، ويرقصون فى المراقص العامة ، ويعملون كصناع فى معارض الرسامين . من أين جاء هذا الرجل بزوجته هذه ؟ يخيل إلى أنه طالما اتخذها نموذجاً لصوره زمناً طويلا قبل أن يتزوج بها ، وأن حياتهما معاً سبقت عهد زواجهما بوقت غير قصير . غير أنهما قد استُقبلا فى عالمنا الأريستقراطى ، لأن الزوج موهوب وحاضر النكتة ، وقد أصبح ثريا ، ولأن الزوجة جميلة إلى حد أنها تستطيع — بلمسة أو بإيماءة — أن تسحر الرجال فتحولهم إلى حيوانات . إنها أغرت زوجى وليس هذا بغريب ، فكل النساء يحاولن إغراءه . أيها الإله ! لقد كنت أتمنى أن يكون زوجى أقل فتنة منه الآن ، ولو كان كذلك لكان حبى إياه مساويا لحبى الحاضر ، ولكانت محاولة سلبه منى أقل مما أعانيه الآن .

ظلت إذاً مدام دى لافو نحو خمسة عشر يوما تحاول إغراء زوجى كما تفعل معه النساء الأخريات ، وقد كان « راءول » أثناء هذه الأيام يظهر عليه الافتتان والسرور ، ولكنهما لم يلبثا أن غيرا خطتهما فلم يعودا يتحدثان مما كان القطيعة قد تمت بينهما ؛ أما أنا فحين رأيت هذه القطيعة الظاهرية كنت أشبه شىء بالحيوان غباوة وبلادة ، وأخذت أحس بالسرور وأقول فى نفسى : أية سعادة ! إنهما لم يتحابا قط ، وإننى كنت مخدوعة فى هذه الريبة .

غير أن والدتى التى كانت دائما بعيدة النظر وكانت هى التى تنبئنى قبل كل إنسان بما يفعل راءول معى من شر ، وتفهمنى متى ينبغى أن أغضب ، قالت لى : احترسى ، إنهما لم يعودا يتضاحكان أمام الناس كما كانا يفعلان قبل الآن ، ومعنى هذا أنهما يستعيضان عن ذلك فى مكان آخر فراقبى زوجك .

وعلى أثر هذه النصيحة ألقيت على والدتى هذا السؤال :

— إذاً فليس هذا الإغراء متجهاً إلى الآنسة جيفيرنى ... ؟

— واحترسى أيضاً من جيفيرنى .

ونتيجة هذا كله أننى أتألم ألماً مزعجا !

هذه هى مجموعة الإسوداد التى تحتل نفسى ، وإننى لا ألمح غيرها ، فالأمر يتعلق الآن بمناقشة هذه النقط وبمحوها إذا كان ذلك مستطاعا . وسوف لا أقف طويلا عند النقطة الأولى ، فيوم الأحد وحرارة الطقس ، هاتان ظاهرتان يمكن إسنادهما إلى القدر ، والتخلص منهما سهل . فأما الحرارة فإنى أستطيع أن أتقيها بالأمر بإغلاق النوافذ المعرضة للشمس ، وأما بقية نهار الأحد فإنى أستطيع أن أقضيها فى الكنيسة بالاستماع إلى الأناشيد الدينية ، وفى هذا خير شاغل للوقت ومنس للضجر .

أما النقطة الثانية أو الاسوداد الثانى وهو توعك الطفل فإن الدكتور « أرنو » أعلن أنه لا يوجد لديه ما يخيف ، ومع ذلك فلما كان وباء الجدرى منتشراً فى المدينة فقد اعتزمت أن أكتب إلى الدكتور ... « روبان » الذى لى فيه كبير الثقة لأرجوه أن يجىء غداً لفحصه .

أما الإسوداد الثالث — وهو الملابس التى فسدت — فسأتخلص منها بردها إلى « وايت فيرن » وسأنبئه بأننى لن أحتفظ بها ، وإننى مستعدة لقبول الشروع فى غيرها ، وفى مدى خمسة أيام ستكون الأخرى قد أعدت ، وبناء على ذلك فلن يتأخر سفرى إلى تالوار مطلقا . وبعد هذا كله لم يبق إلا الإسوداد الأساسى ، وهو : زوجى أو « راءولى » الخبيث .

أيتها الأم الخيرة « ملكة الملائكة » ألهميني في هذا الموقف أن أكون زوجة متعقلة ومتدينة . أنت تفهمين تماما أنني لا أستطيع أن أقبل بسرور أن أكون مهجورة من أجل امرأة كمدام ديلافو أو فتاة كالآنسة « جيفيرني » ولا سيما أني لا أجد في نفسي ما أستحق عليه التأنيب ، إذ أنني أحب « راءول » ولا أفكر إلا فيه ، وفوق ذلك فأنا لست دميمة ، بل إني أؤكد لك أيتها الأم أن كثيرا من الشبان قد حاولوا إغرائي منذ اندمجت في المجتمع فلم يفلح واحد منهم في ذلك مطلقا ، فهل من العدالة أنه بقدر ما يحس أنني ملكه يمعن في ألا يكترث بي ؟ . وهل ينبغي إذاً ألا أشعره بحناني نحوه ، وأن ألهب غيرته على نحو ما هو مألوف في المهازل التمثيلية ؟ كم هذا يقززني ! كلا ، كلا . أنا لن أقف نفسي — ولو في الظاهر — موقف المرأة الساقطة ، لكي أجتذب حب زوجي . غاية ما في الأمر أنا أعتقد أن من الحكمة أن أراقب قلبي وأن أفهم « راءول » حزني ، ولكن لا بوساطة الدموع ، بل عن طريق السكوت وتجنب مظاهر المودة . ولا ريب أن هذا سيكلفني كثيرا ، وسيكون شاقا على نفسي ، ومع ذلك فهو الذي ينبغي عمله . سأعامل زوجي منذ اليوم بفتور وبخضوع فحسب . والآن ، ماذا أستطيع أن أعمل ضد عدوتي المدودتين : الآنسة « دي جيفيرني » و « مدام ديلافو » ؟ . أنا لا أريد أن أمثل معهما رواية عامة طبعا ، وفوق ذلك ، فإن « راءول » — على الرغم من صلته الشائكة بهاتين المخلوقتين — لا يزال زوجا مهذبا ، لا يؤخذ عليه شيء في كل ما يتصل بي . ولو أنني أردت أن أمثل منظرا عاما من هذه الرواية لما مكنني من فرصة تمثيله . وإذاً ، فلم يبق لي إلا أن احتمل ؛ ولكن كلا ، فأنا لا أستطيع ذلك الاحتمال لأني لست بطلة إلى الحد الذي أقبل معه أن يخدعني زوجي . ولست أحسب أن الإله يكافئني ذلك ، فإن لي الحق في أمانة زوجي ، فإذا لم تتحقق لي هذه الأمانة فإنني أفضل أن أحيا وحيدة مع طفلي العزيز الذي قد يعزيني عما أقاسيه .

ها أنذي قد صممت على أن أعرف الحقيقة ، فإذا كانت شديدة القسوة فإنني سأرجو من والدتي أن تصحبني وطفلي إلى ممتلكاتنا في الريف لنعيش معاً هناك ، ولكن كيف أعرف هذه الحقيقة ؟

لقد تسلمت منذ أيام كتابا واردا باسمي ففضضته أمام زوجي ولم أكن أعرف ماذا يحتويه فإذا به آت من مكتب البوليس الخاص يعرض علي أن يراقب زوجي إذا أردت ذلك ليرى أله صلة خفية بإحدى السيدات أم لا ؟ وبعد أن قرأت هذه الرسالة ناولت زوجي إياها فألقى عليها نظرة متقززة ، ثم دعكها وقذف بها إلى الأرض ؛ ولقد كان مخطئا في هذا الغضب ، لأني لن ألجأ أبدا إلى مثل هذه الطريقة ؛ ولكني سأراقبه بنفسي كما يراقب القائد الجندي المتهم بأن نفسه تحدثه بالتفريط في واجبه العسكري . نعم إنه ليس لديه ما يخشاه مني من حيث فض رسائله أو تفتيش أدراج مكتبه ، ولكن ما دام للمرأة أن تتبع زوجها في أي مكان ، وما دام ليس للرجل أن يذهب إلى أي موضع دون أن يصطحب زوجته فليحذر هذه النتيجة ، إذ قد يذهب يوما من الأيام ملبيا أحد مواعيده ، سعيدا بإحدى تلك المسرات الرديئة التي أقرؤها في عينيه أو في صوته ، أو في حركاته ، فإذا وصل إلى مكان هذا الموعد الفاني هناك ووقف أمامي وجها لوجه .

ها هي ذي نهاية تفكيري ، وهي لم تعزني ، ولكنها هدأتني قليلا ، وسأغادر اللحظة مكتبي لأنظر هنيهة من نافذة غرفتي المطلة على الطنف ، لأنني أريد أن أتنسم هواء المساء الرطيب ؛ فلقد فكرت طويلا والآن قد احتجبت الشمس خلف أشجار الكافور التي تنتصب في حديقة المنزل كأنها سور عظيم . وعندما تختفي الشمس من الحديقة يسود جوها هواء فاتر لذيذ . إن الطقس الآن بديع ، وإن هذه الحديقة وذلك المنزل من النوادر التي يحسد عليها في وسط باريس . كم لدي من الأسباب الظاهرة ما يجعلني أتذوق الحياة وأسعد بها : أسرة عطوفة ، وزوج رشيق ، وطفل محبوب ، وفوق ذلك فجميع رغباتي محققة . آه ! لو أن العينين الزرقاوين (١) والعينين السوداوين لم تكن موجودة لكنت أعبد الحياة !

أنا لست شريرة ، ولكن لو أنني كنت أستطيع أن أطفئ نور هذه الأعين الأربع بهدوء دون أن أولم صاحبتيها ، ودون أن أحزن الذين يحبونهما ، وأقصد طبعا الذين لهم الحق في حبهما لفعلت !

(يتبع) **محمد غلاب**

(١) تقصد بذلك أعين عشيقتي زوجها .

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧٢ — الاثنين ٢٠ مايو ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

صفحة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 672

Lundi—20—5—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ٦٧٢ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ — ٢٠ مايو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

آفة الشرق هذا الغرب !

يخيل إلىّ من هول ما أسمع وأرى أن هذا الغرب قد مُسخ حوتاً من حيتان الأساطير له رءوس أربعة قد فغر أفواهها جميعاً على الساحلين الأفريقى والأسيوى ، يريد أن يطبق فكوكها على العالم العربى بأسره ، وإنما عوّق هذه الحلاقيم عن الازدراد هذا الخلاف الصاخب بين تلك الرءوس على الاقتسام كيف يكون، وعلى الالتقام متى يبدأ ! وإذا تصورت أفواج السمك حين يسوقها التيار إلى شبكة الحوت فتجزع وتضطرب ؛ تصورت أمم الشرق الصغيرة وقد روعها هذا الوحش الهائل وهى وادعة فى ظلال دينها ، قانعة بحلال الرزق من أرضها ، فتنظر إليه نظر المقضى عليه ، تستنجد بالعهود فلا تنجَد ، وتستغيث بالمواثيق فلا تغاث ، وترى بين منخرَى الحوت تشرشل جالساً وقد انقلب سيجاره الفخم بين شفتيه مدفعاً ضخما يقذف بالحمم السود على أرض (العلمين) وعلى ظهرها وبفضلها كتب الله له المجد ولشعبه السلامة !

تشرشل هذا الذى وقف ذات يوم على الساحل البريطانى يستقبل الهزيمة الساحقة الماحقة من دنكرك وقلبه واجف ودمعه واكف ، يضرع إلى الله أن يثبت قدميه المعجوزين المتخاذلتين أمام الإعصار النازى الجارف ليعيد نعمة الحرية إلى الناس ، ويقيم ميزان العدالة فى الأرض ؛ فلما تمت له المعجزة ، وقتل هتلرَ كما قتلت البعوضة النمرود ، قام اليوم يدعو أمريكا إلى شركة أخوية بين الناطقين باللغة الانجليزية تصوب أسهمها المراشة إلى كل دولة تطلب المساواة ، وإلى كل أمة تريد التحرر ، لأن الذى ورث ملكوت هتلر وسلطانه ، يجب أن يرث كذلك عنصريته وطغيانه !

تشرشل هذا الذى كان كلما لكمه هتلر بجُمْع يده الحديدية لكمة الموت، خر فاقد القوة والوعى كالثور المنزوف، فيدركه المرحوم روزفلت ، فيجلسه ويسنده ، ويمسح الدم عن وجهه ، وينفض التراب عن جسمه ، ثم ينضحه بالماء حتى يفيق . فإذا أفاق قام مترنحاً إلى الكنيسة يصلى، أو إلى المذياع يستغيث، أو إلى مجلس العموم يبكى ، أو إلى البيت الأبيض يستجدى ، أو إلى المحيط الأطلسى يستوحى السماء رسالة العدالة الاجتماعية فتنزل عليه ألواحها المزيفة من سجّيل ؛ هذا الرجل الذى نجا لأن عمره طويل ، وانتصر لأن جهده قليل ، يتبجح اليوم بالعصبية والامبراطورية والدومنيون ، ويألم أشد الألم لأن وزارة العمال قررت إجلاء الجنود الانجليزية عن مصر بعد أربع وستين عاماً جثمت فيها على صدرها المكروب ، فلا تنسم إلا كما ينسم المحتضر، ولا تتحرك إلا كما يتحرك المبهوظ ؛ والمستر تشرشل يعلم كما يعلم كل الناس لماذا دخلوها ، وكيف احتلوها ، وكم سجلت مضابط برلمانهم العتيق وعود أسلافه بالجلاء عن بلد لم يملكوه بالفتح ولا بالإرث ولا بالهبة ، وإنما فرضوا لأنفسهم عليه (حق ارتفاق) بالمرور ، ثم جعلوا احتلاله واجباً لحماية هذا (الحق) ! ثم اختلفت الأسماء على هذا الاحتلال ، من الاستعمار المقنّع ، إلى الحماية السافرة ، إلى الاستقلال الصورى ، إلى الصـداقة الجبرية ؛ ولكن المسمى

ظل فى جميع هذه الحالات واحدا ، وهو الوزير الذى يأمر فى (دوننج ستريت) ، والسفير الذى ينفذ فى (قصر الدبارة) ، والأسطول الذى يهدد فى (مالطة) ! !

حتى غيرت هذه الحرب الدنيا ، فتغيرت عقول الناس ، وتبدلت وسائل النقل ، واختلفت أسلحة القتال ، وتغلبت مبادئ الاشتراكية ، وتأصلت فكرة الحرية ، واستحيا بنو آدم أن يظلوا على شريعة الوحوش يحكّمون الأظفار والأنياب فيما يشجر بينهم من خلاف ؛ فاتخذوا (ميثاقا) للأمم ، وألفوا مجلساً للأمن ، وأقاموا محكمة للعدل ، وطمعوا أن يقيموا العالم الجديد على هذه القواعد ؛ ولكن تشرشل وسائر المحافظين لم يكونوا جادين يوم نادوا مع ترومان واستالين بهذه المبادئ ، لأنهم مطمئنون إلى براءتهم فى مماطلة الموت كلما طلع عليهم بمنجله الرهيب ! ومن يدرى ؟ لعل الموت الذرّى فى زيارته القادمة لا يقبل من المخادعين بعد ذلك مطلا ولا ختلا ولا فدية !

لقد كان الشعب الانجليزى بعيد النظر سديد الرأى حين دهور تشرشل وإيدن وأعوانهما عن كراسى الحكم فى صبيحة يوم النصر ؛ فإن من انتصر بالسيف لا يصالح إلا بالسيف ، ومن عشش الاستعمار فى رأسه وفرّخ فى نفسه لا يستطيع أن يؤمن بالديمقراطية والحرية إيماناً يحمله على أن يحبهما فى نفسه وفى غيره ، ويرجوهما لصديقه ولعدوه !

***

على أن عذر تشرشل فى موقفه من مصر ومن غيرها ناهض ؛ فإن الرجل ربيب العسكرية والاستعمار منذ درج ؛ ولكنك تكلف العقل شططا إذا حاولت أن تجد بعض العذر لموقف ترومان الرجل الشعبى من فلسطين ! ! لقد دس أنفه فى هذه القضية دساً ، لأن المقادير شاءت أن يكون له فى قضايا العالم رأى ! فهل فغمت أنفه رائحة العدل فيها ، أم سطع فى خيشومه عبير الذهب الصهيونى وهو يفيد فى الانتخابات والدعايات ، وينفع فى الحروب والملمات؟ وماذا يضر إذا نافس الأمريكانُ الإنجليز فى إرضاء اليهود على حساب العرب ما دام الأمر لا يكلفهم إلا إيفاد (لجنة) تبحث وتحقق ، ثم إرسال (حملة) تنفذ وتطبق ؟ أما فلسطين فحسبها من العيوب والذنوب أنها شرقية ، وأنها عربية ، وأنها مسلمة ، فلم لا تكون مشاعاً بين أهل الديانات الثلاث ، ثم تُقتطع إقطاعاً ليهود القارات الخمس ؟ ولا تسل بعد ذلك عن حرية الشعوب وحرمة الأوطان وقدسية الحقوق ، فإن ذلك كلام كان يقرر ويكرر وسيف هتلر مُصلت على الأعناق ، وكابوس النازية جاثم على الصدور !

***

واستالين ، ما شأنه والوصاية على طرابلس ؟ هل كان يظن أن انجلترا تترك مفتاح (كرارها) فى يد القط ؟ إنها ترضى إذا حيل بينها وبينها أن تعود إلى إيطاليا ، لأن إيطاليا ريح لا تثير الغبار ، وحصى لا يعوق السائر ! فإذا سألت هؤلاء الذين يحكمون ويقسمون: لماذا تردون المسلوب إلى سالبه ، ولا تردونه إلى صاحبه؟ أجابوك جواب المستعمر الخبير : إنا إذا أعدنا طرابلس إلى أهلها خرجت برقة من قبضة بريطانيا ، وأفلتت تونس والجزائر ومراكش من ربقة فرنسا . وجعلها فى وصاية الجامعة العربية لا يختلف عن استقلالها فى الخطر الذى يهدد الجامعة الغربية ؛ لأن الشرق ما دام سوقاً للاستعمار ظلت سلعه المباركة موضع المقايضة والمعاوضة ! فإذا حررت رقاب العبيد ، وأغلقت سوق الرق ، انقلب المستعمرون إلى ديارهم خاسرين يقتل بعضهم بعضاً من الخوف ، ويأكل بعضهم بعضاً من الجوع ! والرد الذى تقتنع به عقلية الغرب ، إنما هو مجابهة العدوان بالعدوان ، ومواجهة القوة بالقوة . وليست الإشارة هنا إلى العدوان والقوة من القول الجزاف ؛ فإن قوتنا الفكرية متى ذهب عنها مركب النقص الذى اعتراها من طول ما ضامها المستبد وسامها الدخيل ، استطعنا أن نقول صادقين لأى أمة من أمم الأرض : لقد اجتمع رجالنا برجالكم فى مؤتمر الميثاق وفى مجلس الأمن ، فهل وجدتم فى عباقرة أوربا وجهابذة أمريكا من يفوق عبد الحميد بدوى ، أو محمود حسن ، أو حافظ عفيفى مثلا ، فى رسوخ القدم فى القانون ، وأصالة الرأى فى المشورة ، ومتانة الحجة فى الجدل ، ومقطع الصواب فى الحكم؟ وأما القوة المادية ، فالعدد وفر ، والإيمان صدق ، والرأى جميع ، والعروة وثيقة . فإذا أعوزتنا الوسائل تبرع بها من يترقب هذه الفرصة ليكيد ، ويستعجل هذا اليوم ليستفيد !

احمد حسن الزيات

٢ - فى مقالين :

هل حاسم لمشكلة الأزهر ، ومستقبل الجامعة الأزهرية

للأستاذ محمود أحمد الغمراوى

شيخ معهد دسوق والزقازيق سابقا

بينت فى كلمتى السابقة فى العدد ٦٧٠ من مجلة الرسالة ما ينجم من اقتراح حضرة الأستاذ مدير المجلة الذى تقدم فيه إلى مشيخة الأزهر ووزارة المعارف بالغاء التعليم الابتدائى من جميع المعاهد الدينية ، وإلغاء سنتين من مدة التعليم بالمعاهد الثانوية لأزهرية ، وإحلال اللغات الأجنبية وعلوم الرياضة والكيمياء والطبيعة محل علوم اللغة العربية ، ومحل علوم التفسير والحديث والفقه والتوحيد التى يدرسها الطالب الأزهرى فى مدة التعليم بالقسم الابتدائى ، وفى السنتين المطلوب إلغاؤهما من القسم الثانوى .

وقلت إن هذه السنوات الست المطلوب إسقاطها من زمن تعليم العلوم الدينية والعربية فى المعاهد الدينية تعدل نصف المدة التى كانت — إلى زمن بعيد — تؤهل الطالب لنيل شهادة العالمية وألمت إلى ما يكون لهذا الحل المقترح من أثر سيء فى حياة اللغة العربية : إذ تهن قواها ، ويقف نموها ، ويضعف نتاجها ، ويضؤل محصولها ، وتفسد حاسة الذوق اللغوى فى أهلها . ذلك إلى ما يستتبعه الاقتراح من تضييع حصص الدين المقررة فى ست سنين وإلغاء حفظ القرآن ، وفقد حفاظه ، فتغلق أبوابه فى وجوه المسلمين ، ويحجب نوره عن قلوب المؤمنين وتنطمس معالم هدايته فلا ترى للمستهدين ، وتستخفى عن الناس حجة الله على العالمين .

ولقد طلبت من الأستاذين الفاضلين أن يعيدا النظر فيما ارتأياه ويراجعا الرأى فيما اقترحاه ، لعلهما يجدان لونا آخر من العلاج يكون فيه للأزهر صلاح ورشد ، ونجاة وقصد ، فيوافيا القراء به . بيد أن ما طلعت به الرسالة علينا العدد ٦٧٠ تحت عنوان (إصلاح الأزهر بين دعاته وأبانه) جاء ترجيعا لما ارتآه الأستاذ أولا ، محاولا فيه أن يوضح ما ظن أنه أشكل من جوانب رأيه على من سماهم معارضين للاقتراح ؛ وأباة للاصلاح ، مستعينا بسحر فنه ، يبغى منه أن يرسم له تلك الحقائق الملموسة ، والآثار الثابتة المحسوسة ، والنتائج البينة اللازمة للاقتراح ، والتى لا يخطىء فى إدراكها حدس ، ولا ترتاب فى وجودها نفس ، إلا من يرتاب فى وجود الظلام بعد مغيب الشمس — فيصور لك هذه الحقائق ظلا حائلا ، وخيالا مائلا ، ووهما باطلا !

فهذه السنوات الست التى يراد اقتطاعها من المدة المقدرة للتعليم فى المعاهد الدينية ليست نصف اثنتى عشرة سنة كانت قبل كافية لنيل الطالب المجد شهادة العالمية ! وليس لها أثر يذكر فى إعداد الطالب وتزويده بزاد نافع من الشريعة ومن علوم اللغة العربية ؟ ومن ذا يقول إن الستة نصف الإثنى عشر ؟ !

وكيف يزعم زاعم أن هذا الحل الحاسم الذى ارتضاه الأستاذ العقاد يستلزم إلغاء حفظ القرآن ، أو يسلب الطالب الذى يريد أن يلحق بالماهد ست سنوات أخرى كان يقضيها فى حفظ القرآن استعداداً لقبوله بالمعاهد — كيف؟ وهذا الحل الحاسم يعطى الطالب فرصة واسعة يستطيع أن يحفظ فيها القرآن ، وأن يحفظ غير القرآن من المتون التى لا بد من حفظها لتحصيل ما لا بد منه من المسائل الدينية واللغوية ؟

ألم يأذن له هذا الحل بثلاث سنين كاملة من خمس السنين التى للقسم الذى كان يدعى أمس « القسم الثانوى » ؟

أو ليس فى هذه السنوات الثلاث وفاء بما يلزم له من الوقت لدراسة مواد الثقافة المقررة على أمثاله فى الشعب التوجيهية بمدارس وزارة المعارف حتى يتم للأمة بهذه الدراسة الحصول على حجر الفلاسفة ، فتقبض بكلتا يديها على حقيقة الحقائق ، ووحدة الوحدات ؛ وحدة الثقافة !

أو ليس فى هذه السنوات الثلاث بعد متسع لتحصيل الطالب ما تشتد حاجته إليه من علوم اللغة ، وقواعد الدين وفروع الشريعة ليصير أهلا للدراسة العالية فى كليات الأزهر ، وسيكون أهلا للاجتهاد (حتى لا يظل الأزهر كما هو يملك الكلام ، ويجتر الماضى ، ويقتات الفتات ، ويبطل الاجتهاد ، ويعطل العقل ، ويصم أذنيه عن أصوات العالم وحركات الفلك !)

ثم إن لم يكن فى هذه الثلاث السنين بلاغ إلى الزاد ، الذى

يوصله إلى مرتبة الاجتهاد ؛ ولم يجد الطالب فيها بديلا من الست السنوات التي سلبها ، وكان يحفظ فيها القرآن قبل التحاقه بالأزهر ومعاهده — فهل تظن أن النظام المقترح يكلفه طائلا أو يجشمه أمراً هائلا ؛ أو أنه يعدل به عن قصد السبيل ويسلك به طريقا جائرا ، يظل فيه عمره حائرا ، يهيم فى أودية الضلال ، ويخبط بين شعب الخيال ، لا يجد دليلا ، ولا يهتدى سبيلا ؟ ... كلا !

أليس للأزهر الحق فى أن يزيد فى زمن الدراسة بالقسم الثانوى منه سنة أو سنتين أو ما شاء أن يزيد من سنين يرى فى زيادتها فائدة الطالب ، ونجاح التعليم ، وتقدم العلم طبقا لمقتضيات التطور العلمى والاجتماعى فى هذا العصر الجديد .

ثم هو بعد أن بلغ الحلم ، وحصُف عقله ، مستطيع فى يسر أن يحفظ القرآن وهو بحال : يحفظ ما يفهم ، ويفهم ما يحفظ .

وهل على الأزهر من بأس فى أن يقبل هذا الوضع الجديد الذى يمليه منطق الحوادث ، وتقتضيه طبيعة الزمن فيضاف إلى رجليه القديمتين اللتين كان يمشى بهما رجلان أخريان من أرجل الثقافة الموجودة بمصانع وزارة المعارف ليساعد التطور ، ويجارى الزمن . وبذلك تتحقق للأمة وحدتها المفقودة ، وتنتفع بميزة الإسلام : مرونته ، ومسايرته للتطور ، ومطاولته للزمان ، وذلك من مزاياه المعدودة . ثم لماذا يخاف الأزهر من طغيان المواد المدنية على المواد الدينية فى الدرس والتحصيل ما دام الوقت متسعا ؛ والأستاذ كفءاً ؛ والكتاب مهذباً ؛ والمنهاج مستقيما ؛ وتوزيع المواد دقيقاً ؛ والإدارة حازمة ؛ والمراقبة يقظى .

وأقول إن هذا الذى يذكره الأستاذ حق ولكن :

كيف السبيل إلى سعاد ودونها ... قلل الجبال ودونهن حتوف
والرجل حافية ومالى مركب ... والكف صفر والطريق مخوف ؟

وهل توافرت هذه الشروط السبعة فى مدارس وزارة المعارف وهى أقوى فى النظام وحسن الإدارة ويقظة المراقبة ؟

لا ريب فى أن الأستاذ الزيات يرمى بما كتب إلى غرض جليل ، يحمله على الدعوة إليه قصد شريف ، ووجدان نبيل . فأما الغرض الذى يرمى اليه فهو إصلاح الأزهر ليتحقق بهذا الإصلاح أمران عظيمان : وحدة الأمة بتوحيد الثقافة ، وإنشاء جيل من العلماء القادرين على الاجتهاد ، لتجد الأمة فى علمهم المثقف ما يحل مشكلاتها الاجتماعية والعائلية ، بما فى الشريعة من سماح وما فى الدين من يسر . فإصلاح الأزهر هو الوسيلة إلى تحقيق هذين الغرضين الجليلين ؛ وما اقترحه مدير الرسالة ، وآزره عليه الأستاذ العقاد ، هو سبيل الإصلاح المنشود .

١ — وحدة الثقافة :

يرى الأستاذان الجليلان أن وحدة الثقافة ؛ أو وحدة الأمة بتوحيد التعليم — كما جاء فى تعبيرهم تتم وتتحقق إذا درست العلوم والآداب فى الأزهر على النحو الذى تدرس عليه وبالمقدار الذى تدرس به فى المدارس الابتدائية والثانوية التابعة لوزارة المعارف .

فأما وحدة الثقافة فإن الأزهر منذ خمسين سنة — على عهد المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده — قد أفسح صدره لما يسمونه اليوم علوم الثقافة : فأدخل فيه علم الحساب والجبر ومبادىء الهندسة وعلم الجغرافيا ، والتاريخ ، والميقات ، والهيئة ؛ وعلى الرغم من أن تعلمها كان على سبيل الاختيار فإن الطلاب قد أقبلوا عليها راغبين حتى كادت تعم جميع الطلبة ، ولعل الأستاذ الزيات كان ممن استوفوا حظهم منها ، ثم أنشأ المغفور له الخديو عباس الثانى معهد الإسكندرية ، واختار شيخا له القاضى العادل والمربى الكبير المغفور له الشيخ محمد شاكر فنهض بالمعهد نهوضا فائقا ، وجعل تعلم هذه العلوم إجباريا ؛ فازدهر معهد الإسكندرية بهذه العلوم إلى جانب علوم الدين واللغة أيما ازدهار . وتطور نظام التعليم فى الأزهر : فمنذ سنة ١٩١١ صار تعلم هذه العلوم واجباً على جميع الطلاب . ثم توجهت عناية الملك العظيم المغفور له الملك فؤاد طيب الله ثراه ، حيث وجه عنايته — أغدق الله عليه سحائب رحمته — إلى تنظيم الأزهر وإصلاحه إصلاحا شاملا يعم ناحيتيه العلمية والمادية : فبسط يديه بالعطاء الجزل ، وزيد فى ميزانية الأزهر زيادة عظيمة ، وأنشىء نظام الكليات وأقسام التخصص ، وعدلت مناهج التعليم تعديلا يلائم الوضع الجديد ، وزيد فيها دراسة علوم الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة وتوسع فى مقرر الهندسة ، وزيد فى مناهج الكليات وأقسام التخصص ما يناسب كلا منها من علوم التربية والفلسفة والتاريخ والاجتماع وأصول القوانين حتى

اللغات الأجنبية . وقد كان هذا النظام كفيلا بأن يرقى بالأزهر ويوجد منه علماء إخصائيين لو أنه وجد من يرعاه وينفذه .

ولقد اضطر الأزهر أن يقبل طائعا أو كارها أن يعدل النظام الأساسى للتعليم فيه تعديلا هدّ من قوته وأوهن من علمه وأضعف من قوة الطالب الأزهرى فى العلوم الدينية ونقص فى حظه منها . فقد كان الطالب الأزهرى لا يستحق أن يمنح شهادة العالمية حتى يؤدى امتحانا فى علوم الأصول والفقه والبلاغة والتفسير والحديث والتوحيد والمنطق ... ؛ وحتى يجوز هذا الامتحان مجليا ! واليوم تدرس هذه العلوم موزعة مجاميع فى شعب ثلاث ! قبل الأزهر أن تشعب رأسه إلى ثلاث شعب حرصا على تثقيف طلابه ليظل باب الأمل فى الحياة العملية مفتوحا أمامهم – ثم يدهشك أن تسمع ذلك الصوت البغيض ينبعث من أبواق السوء فى وزارة المعارف يصك سمع الزمان بكلمة (توحيد تخريج المعلم) (وحدة الثقافة) (الطالب الأزهرى تنقصه الثقافة) (الأزهر فى حاجة إلى الإصلاح) فماذا يبغون من تلك الصيحة ؟ وماذا يخفون فى هذا النعير ؟

إن كانوا يزعمون أن الغرض هو توحيد الثقافة وصولا إلى وحدة الأمة ، فالأمر مشكل . فإنا نجد الوزارة ترعى عدة مدارس فى ظلال نظم متعددة ، وتدير عدة مجاميع من المدارس مختلفة الغاية منوعة الأساليب ، متفاوتة الرتب والإعداد ؛ فهناك التعليم الأولى ، والألزامى ، والتعليم الابتدائى والثانوى والعالى ؛ والتعليم الصناعى ، والتعليم الزراعى ، ومنه التعليم المتوسط والتعليم العالى ، والتعليم العالى أنواع كثيرة فى كليات الآداب ، والحقوق ، والطب والهندسة ، والزراعة ، ومعهد التربية وكلية العلوم .

وإعداد الطالب لنوع من هـذه غير إعداده لغيره من سائر الأنواع : فإعداد الطالب فى التعليم الأولى والإلزامى غير إعداده فى التعليم الابتدائى والثانوى . وثقافة هذا غير ثقافة ذاك ؛ وثقافة طلاب المدارس الصناعية والزراعية المتوسطة ليست كثقافة طلاب المدارس العالية ولا هى كثقافة طلاب المدارس الثانوية ، ومناهج التعليم فى كل من هذه الأصناف والأنواع غير مناهج الصنف الآخر منها ضرورة السير بالطالب منذ الخطوة الأولى من عمره التعليمى فى الطريق الذى هو مستعد لسلوكه فى الحياة وإعداده لما هو مستعد له . وهؤلاء الجماهير من الطلاب الذين هم عناصر الحياة فى جسم الأمة هم جمهرة الأمة وأعضاؤها العاملون .

فإذا كانت وحدة الأمة متوقفة على وحدة الثقافة ؛ وكانت وحدة الثقافة مستحيلة الوجود مع تعدد هذه النظم وتنوع طريقة الاعداد وتفاوت مراتب الثقافة فى هـذه المدارس التى تعلم أبناء الأمة وتعدهم للحياة – فمتى وكيف تتحقق وحدة الأمة ؟ ولماذا لا يكون اختلاف هذه الجماهير فى التنشئة والتثقيف ، والتكوين الصناعى ، والاعداد للحياة الاجتماعية – مؤثراً فى وحدة الأمة ؛ ثم يكون تعليم اللغة والدين فى الأزهر (ولو أخذ الطالب حظه من الثقافة) خطراً على حياة الأمة ؛ هادماً لوحدتها .

لقد كان معروفا – وأظن أن الناس ما برحوا يعرفون – أن وحدة الأمة تتحقق بثلاثة أشياء : وحدة الجنس ، ووحدة اللغة ووحدة الدين ، وأظن أن الأزهر قام بحراسة هذه الوحدات الثلاث أو باثنين منها على الأقل مدة ألف سنة ، وبذلك تكون الأمة مدينة له بحفظ وحدتها على الرغم مما تداولها من تسلط الأجانب عليها وعملهم على تفكيك عراها بما كان جديراً أن يمزق وحدتها ، ويبدد شملها ، فاليوم ينعق الدخلاء بأن الأزهر خطر على الأمة مفرق لوحدتها ! ؟

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

محمود أحمد الغمراوي

شيخ معهد دسوق والزقازيق سابقا

(الرسالة) : يمنعنا من العودة إلى مناقشة الأستاذ الفاضل هذا الأسلوب التهكمى الذى يتراءى التعريض من خلاله ، وهذا الالحاح فى مسائل تتصل بالزمن والمنهاج بعد أن تركنا ذلك للتطبيق وهو من اختصاص الأزهر وحده ، ثم هذه المقدمات التى سيكررها الأستاذ على أن تقول : ليس فى الامكان أبدع مما كان ! فإن تفنيدها يدعو إلى الكلام فى أشياء ليس من البر أن نهتك عنها ستار الماضى لنعرضها إلى سخرية الحاضر . على أن ذلك لن يمنعنا من نشر ما بقى من كلام الأستاذ .

بمناسبة « يوم الجلاء »

إبراهيم بك هنانو قال لي ... !

للأستاذ علي الطنطاوى

هذا إنذار أستحلف كل قارئ من قراء الرسالة فى الشام أن يحدث به وينشره ثم يحفظه ... فانه سيجئ يوم تضطره أحداثه أن يعود إليه فيقول : « ياليته قد نفعنا هذا الإنذار ، ياليتنا ... ويومئذ لا تنفع شيئاً « ليت » ... إنها لا ترد ما ذهب ، ولا ترجع ما فات !

وهذا إعذار إلى الله ، ثم إلى كتاب التاريخ ، لئلا يقولوا إنها لم ترتفع فى دمشق صيحة إنكار لهذا المنكر ، ولم يعلُ فيها صوت ناطق بحق ... وإن كتابها وأدباءها حضروا مولد سنّة من « ألمَنَن » سنن إبليس ، فلم يقتلوها وليدة ضعيفة ، وتركوها تكبر وتنمو حتى صارت طاعوناً جارفاً ، حتى غدت ناراً آكلة ، حتى استحالت داهية دهياء أيسر ما فيها الخسف والمسخ والهلاك ... ونعوذ بالله من تذكير لا ينفع وإنذار لا يفيد !

وبعد فقد حدثنى صديق لى فقال :

كنت أمس فى مجلس ، وكنا نتحدث فيما كان « يوم العرض » من « مناظر الكشّافات ... ومنظر الأسيرة ... والعروس » حديثَ إنكار وأسف لما كان ، ونعجب كيف جاز على رجال هذا المهد الوطنى ، وهم فيما نرى أهل الشهامة والمروءة والنيرة على الأعراض ، وكان فى المجلس الزعيم الجليل عضو مجلس النواب : إبراهيم بك هنانو ، فرأيته يُعرض عن هذا الحديث ويَصرف عنه ، وانقاد له الحاضرون فضربوا فى أحاديث أخرى ... فلما انفضّ المجلس خرجت معه ، فعاد إلى يوم العرض وخبره ، واختصّنى بهذا الحديث وأذن لى أن أنشره ...

قال رعاه الله : إنك لتعجب كيف تمّ هذا الخزى ، وكيف مرّ على رجال هذا المعهد الوطنى فلم ينتبهوا له ، وأنا أخبرك بسرّ ما تعجب منه وقعت عليه مصادفة ... وذلك أنى ذهبت قبل العرض بأيام فى حاجة لى إلى منزل « فلان » الفرنسى ، ومنزله فى الميدان الذى يتقاطع فيه الشارعان الكبيران : شارع يوسف العظمة ، وشارع كلية الهندسة ، فوجدت المنزل كأنه خال ، والمتاع مرصوص مربوط ، فعلَ المتهيئ للسفر ، وكان النور يسطع من شق باب غرفته ، فهممت أن أدخل عليه ، فسمعت كلاماً وحديثاً ، فانتحيت ناحية أنتظر تمام الحديث ، إذ ليس من الأدب أن أدخل على متحدثَين ، فسقط إلىّ كلام لا يستطيع المرء أن يغلق أذنيه عن مثله ، ولم يكن استراق السمع من عادتى ، غير أنى وقفت ، وقد أدركت أن « فلاناً » هذا ، يتحدث مع « رجل ... » أعرفه من أذناب القوم ومن أعوانهم ، وممن رفعوا إلى المناصب العالية ، وكانا يتشاكيان الفراق ، ويتحدثان وكأنما يتباكيان . ورب كلمات يقطر منها الدمع ! ورب حروف هى قلوب تتفطر ! ويتذكران الأيام الماضية ، وكيف دارت الأيام ، وكان من حديث صاحبنا الشامى الذى سمعته مترجماً إلى لغة القلم ولسان الأدب ، قوله :

— لئن كتب عليكم أن تذهبوا ، فانكم ستعودون عاجلاً ، ثم لا تذهبون أبداً . على أنى سأنتقم لكم ، وسأعدّ وحدى العدة لعودتكم . سأصنع فى ليالٍ ما لم تصنعوه أنتم فى ربع قرن وتسعة أشهر ... سأريكم قوتى . وليست القوة أن تسوق على عدوك العسكر اللجب والمدافع والدبابات تضرب بها قلعته ، ولكن القوة أن تأتيه باسماً مصافحاً فتحتال عليه حتى يفتح لك قلعته بيده ، فاذا أنت قد امتلكتها بلا حرب ولا ضرب . إنى سأدسّ لهم دسيسة فى عيد الجلاء . لا أصبر والله حتى ينتهى العيد . إنها فرصة إن لم أغتنمها لم أكد أجد مثلها وأنا أعْرَفُ بأهل بلدى ، وإن لم يكن دينهم من دينى : إنهم لا يؤتون بالقوة ولا تنفع فيهم ، وقد جربتم ورأيتم ، فما قتلتم منهم مبغضاً لكم إلّا وُلد عشرة هم أبغض منه لكم ، وما هدمتم داراً من دورهم إلا هدمتم معها ركناً من « انتدابكم » عليهم ، ولا أشعلتم النار

فى حىّ لهم إلا كانت هـذه النار حماسة فى قلوبهم عليـكم ونار ثورة تتعبكم . ولا يؤخذون بالشبه تلقى عليهم فى دينهم ، ولا بالثقافة التى تحمل الإلحاد والـكفر تحت عناوين العلم والفنّ ، وما جئتموهم بكتاب هو فى زعمكم هدم لدينهم إلا أثرتم عليكم مشايخهم وجمعياتهم ، فهبّـوا يدافعون ، فاذا أنتم قد قوّيتم بعملـكم إيمانهم فى صدورهم . وما يُنالون بالقوانين التى تبطل قرآنهم ، وقد علمتم حينما جربتم أن تأتوهم بالظهير البربرى مهذبا ملطفاً لابساً ثوب « قانون الطوائف » ماذا جرى عليـكم حتى أبطلتموه بأيديكم ، ولا بالأموال التى تشرون بها ضمائر زعمائهم وقادتهم : لأن من هذه الضمائر ما هو كالوقف (عندهم) لا يباع ولا يشرى ولا يوهب ، ولا بأرهاب الزعماء وحبسهم ، وهذا هو الرجل الذى ضربه سنة ١٩٣٦ رجالـكم بعصيّهم صار هو رئيس الجمهورية التى تخرجون غداً منها ...

فقال له « فلان » الفرنسى :

— ومن أين تأتيهم أنت ؟ وهل تقدر على ماعجزت عنه فرنسا؟

— قال : نعم . ولو كنتم قد سمعتم منى ماعجزتم . إنى آتيهم من الباب الذى لا يستطيع أن يراه أحد مفتوحاً إلّا ولجه . إنى أحاربهم بغرائزهم فأجعلهم يهدمون بيوتهم بأيديهم ، وأثير عليهم نساءهم وأثيرهم على نسائهم ، وألقى الضعف والخلف فيهم ، فأفسد عليهم رجولتهم ، وأخرّب أُسَرَهم ، وأجعل جيشهم أخشابا قد شغلت كل خشبة بهواها ولذتها . إنى آتيهم من باب « الغريزة الجنسية » الذى لم تدخل منه أمة إلا دخلت جهنم التى تحرقها ولا تخرج منها من بعدُ أبداً ...

— قال الفرنسى: أما أدخلناهم نحن من هذا الباب ؟ أما قلنا لهمَ ، إن تمريض أجسام الشباب والشابات صحة لهم وقوة ، فأبوا وقالوا ، كلا ، إنه تعريض (بالصاد) ؟ أما قلنا لهم ، إن هـذا الحجاب همجية ووحشية ، وإن التقدم والمدنية بالسفور ؟ أما أنشأنا لذلك جميعات من النساء ؟ أما فتحت هذه الجمعيات مدارس؟ أماصنعت هذه المدارس أكثر مماصنعت الفرنسيسكان ؟ إننا لم نصل بعد ذلك كله إلى شىء !

— قال الآخر : إن الصبر عند الصدمة الأولى ، فاذا استطعت أن أضرب ضربة واحدة ضمنت النجاح ، وإنى سآتيهم من طريق الوطنية ، سأقول : إنه يوم عيد الوطن ، عيد الجلاء ، عيد الرجال والنساء ...

* * *

قال إبراهيم بك :

ثم دخل داخل فتنحيت عن مكانى ، فلم أسمع شيئاً بعد ذلك . فلما حضرت العرض ، ورأيت الذى كان ، عرفت من أين جاء البلاء . على أن هـذا الرجل وأشباهه لم يصنعوا ما صنعوا حباً بفرنسا ولا إخلاصاً لها . إن قلوبهم أضيق من أن تتسع لإخلاص حتى ولو لفرنسا ... ولـكن حباً بأنفسهم ، وحرصاً على لذتهم ، إنهم يكادون يُجنّون ، إذ يجدون دمشق لا تزال نساؤها مستترات متحجبات ، ولا يفتأون يسّاءلون أن كيف السبيل إلى هتك هذا الحجاب ؟ لماذا لا نـكون كفرنسا حيث لا تستر عورة ، ولا يحجب جمال ، ولا يمنع من لذة طالبها ؟ لقد احتجوا بالصحة وأن الحجاب ضعف ومرض ، فـكذّبهم كون المتحجبات أصح أجساماً وأقوى وأبعد عن المرض ، وأن من السافرات مصابات بالزهرى والسيلان وبالتمدن ، وأن الحجاب رجعية وتوحش ، فلم يصدقهم أحد ، فجاءوا هذه المرة فأخذونا على حين غرة وغفلة ، وأفادهم أن كان الناس فى الفرحة الـكبرى ، فى عيد الجلاء ، فقالوا للناس : إنه يوم الفرح ، فلتشارك المدارس فيه الأمة ، ليظهر الطلاب والطالبات سرورهم ، ويعلنوا عاطفتهم ثم ذهبوا فأعدوا هذه (المناظر) التى كانت يوم العرض ، كبقعة النجس فى ثوب العروس الأبيض ...

ألا من كان يظن أن مثل هذا يكون فى دمشق ولا تزلزل الأرض زلزالها ؟ من كان يظن أن الآباء ينسون نخوتهم ؟ وهؤلاء النفر من رجال المعارف ، وهم الأمناء على الطالبات يضيعون أمانتهم ، ويحولون العرض عن وجهته ؟ فبعد أن كان للعزة الوطنيـة وللمجد وللنبل ، صار للشهوة واللذة والغريزة الجنسية ! لقد جعلته هذه المشاهد (مرقصاً) ! ... كل ذلك

تقليداً للأجنبي الذي نحتفل اليوم بجلائه عنا ، الأجنبي الذي هزم في الحرب ووطئته نعال أعدائه ، وقد كان له جيش لجب يزيد ألف ضعف عن هذا الجيش الذي نعرضه ، وقد كان له خط ماجينو ، وأمة تعد أربعين مليوناً ، ومستعمرات ... فلم يغن عنه جيشه ولاحصونه ولاعدده لما أضاع الأخلاق وفرط بالعفاف .

لا ، لا تقولوا : « إنه يوم العيد يجوز فيه ما لا يجوز في غيره » فان المرأة التي تسقط يوم العيد ، كالتي تزل يوم المأتم ، والناس يزدرون المرأة (الساقطة) من غير أن يسألوا متى كان سقوطها !

ألا من كان له قلب فليتفطر اليوم أسفاً على الحياء .

من كانت له عين فلتبك اليوم دماً على الأخلاق .

من كان له عقل فليفكر بعقله ، فما بالفجور يكون عزُّ الوطن ، وضمان الاستقلال ، ولكن بالأخلاق تحفظ الأمجاد وتسمو الأوطان .

فاذا كنتم تحسبون أن إطلاق الغرائز من قيد الدين والخلق ، والعورات من أسر الحجاب والستر ، من ضرورات التقدم ولوازم الحضارة ، وتركتم كل إنسان وشهوته وهواه ، فانكم لا تحمدون مغبة ما تفعلون ، وأنكم ستندمون (ولات ساعة مَنْدم) إذا ادلهمت المصائب غداً ، وتتالت الأحداث ، وتلفتُّم تفتشون عن حماة الوطن ، وذادة الحمى ، فلم تجدوا إلا شباباً رخواً ضعيفاً ، لا يصلح إلا للرقص والغناء والحب ...

فالله الله ، والأمةَ والمستقبل ... إننا خرجنا من هذا الجهاد بعزائم تزيح الراسيات ، وهمم تحمل الجبال ، فلا تضيعوا هذه العزائم ، لا تذهبوا هذه الهمم ، ولا تناموا عن حماية استقلالكم فمن نام عن غنمه أكلتها الذئاب .

إن هذا الجلاء نعمة من نعم الله ، فتلقوها بالشكر والطاعة ، واحفظوها بالجد والأخلاق ، فبالشكر تدوم النعم ، وبالأخلاص تبقى الأمم ، وبالمعاصي تبيد وتهلك ، إن أجدادنا كانوا يحتفلون بالنصر بحمد الله وطاعته فيقودهم الاحتفال إلى نصر جديد ، وكذلك تفعل الأمم الحية اليوم . أما سمعتم بحفلات تتويج ملك الانكليز ، لقد كان نصفها في الكنيسة ، فلماذا لا يكون احتفالنا بالجلاء إلا اختلاطا وتكشفا وغناء ورقصاً واستهتارا ،

كأننا لم ينزل علينا كتاب ، ولم يبعث فينا نبيّ ، ولم يكمل لنا دين ؟

إني أخاف والله أن يكون الأجنبي قد أجلى جيوشه عنا ، وترك فينا قنابل تنفجر كل يوم ، فتدمر علينا أخلاقنا ، وأوطاننا ، واستقلالنا . إن كل عورة مكشوفة ، وفسوق ظاهر ، قنبلة أشد فتكاً من قنابل البارود ، ولا يخفى ضررها إلا على أحمق !

يا أيها الناس !

لقد جلت جيوش العدو عن أرضكم ، فأجلوا عن بيوتكم عاداتهم ، وعن رؤوسكم شبهاتهم ، وعن مدارسكم مناهجهم ، وعن شوارعكم حاناتهم ومراقصهم ، وعن محاكمكم قوانينهم ، وعن أجسام بناتكم وأولادكم ثيابهم الكاشفة الفاضحة وأزياءهم .

وذلك هو الجلاء الحق ، وذلك هو العيد الأكبر .

هذا ما قاله لصديق ، الزعيم إبراهيم بك هنانو عضو مجلس النواب السوري ، أنقله بنصه ، والعهدة على هذا الصديق .

علي الطنطاوي

حول قضية فلسطين :

الكلمة اليوم للعرب

فماذا هم صانعون ؟

للأستاذ سيد قطب

نحن — الأمم العربية — نستأهل كل ما يجرى علينا ، ما دمنا نختار لأنفسنا دائما موقف الانتظار ، ولا نخطو خطوة إيجابية واحدة ؛ بل ندع ذلك لخصومنا وننتظر دائما ماذا يصنعون !

ومصيبتنا الكبرى أن فينا من « العقلاء » أكثر مما ينبغى ، وهؤلاء « العقلاء » هم الذين يشيرون علينا دائما أن نتريث و « نتعقل » ونسلك الطرق « السلمية » حتى لا نخسر عطف العالم المتمدين ، أى العالم الأوربى والغربى على العموم !

فماذا جنينا اليوم من الانتظار بعد الانتظار ؟

جنينا أن ظلت قضية العرب فى فلسطين تتأخر ولا تتقدم يوما بعد يوم ، حتى انكفأت أخيرا فى هوة « لجنة التحقيق » ! ومع ذلك فالعقلاء لا يزالون إلى اليوم ينصحون لنا بالهدوء والتريث حتى نعرف ماذا سيصنع خصومنا . وخصومنا فى هذه المرة هم الإنجليز والأمريكيون ! ونحن الذين تطوعنا بأن نضمهم إلى صفوف أعدائنا اليهود ، بعد تقرير لجنة التحقيق !

ولنرجع بذا كرتنا قليلا إلى الوراء .

فى وقت من الأوقات كانت فلسطين العربية ثائرة فائرة . فأسرع الانجليز يدعون الأمم العربية — ولم تكن الجامعة العربية قد أنشئت بعد — إلى مؤتمر فى لندن وهم يحاولون ترضية العرب الثائرين . وفى هذا الوقت أو بعده بقليل ، صدر الكتاب الأبيض الذى يضع حدا لهجرة اليهود ، ويحظر بيع الأراضى ، ويعد باستقلال فلسطين ...

ولم يرض العرب عن هذا الكتاب الأبيض . ولكن « العقلاء » أشاروا عليهم بالتزام الهدوء ، حتى لا يفقدوا « عطف العالم المتمدين » ! وانخدع العرب بكلام « العقلاء » فأخلدوا إلى الهدوء !

ثم جاء دور اليهود الإرهابيين ، فجعلوا يخاطبون الإنجليز باللغة الوحيدة التى يفهمها الإنجليز . ولحسن حظهم لم يكن فيهم « عقلاء » ، فراحوا ينفذون خطتهم فى دأب وإصرار .

ووقف عقلاؤنا يبسمون فى دهاء ويقولون : « دعوهم فى حماقتهم فإنهم يفقدون عطف العالم المتمدين . وسينقلب الشعور الإنجليزى ضدهم بسبب أعمالهم الإرهابية وجرائمهم المنكرة » !

وكانت هذه سذاجة هى والغفلة سواء !

وفهم الإنجليز اللغة الوحيدة التى يفهمونها . وانتهزوا فرصة ضغط الولايات المتحدة فى مصلحة اليهود ، وأعلنوا إلغاء الكتاب الأبيض وتأليف لجنة للتحقيق ، والسماح بالهجرة بعد انتهاء أجلها المحدود !

وتحرك العرب . ولكن « العقلاء » قالوا لهم : « كونوا عقلاء أيها العرب ، وانتظروا قرار لجنة التحقيق ، ولا تقوموا بأية حركة الآن لئلا تفقدوا عطف العالم المتمدين ، ودعوا اليهود الحمقى يرتكبون حماقاتهم ليفقدوا هذا العطف دونكم بما يرتكبون كل يوم من الإرهاب فى فلسطين وغير فلسطين » !

وسكت العرب ، وصدر قرار لجنة التحقيق !

فيا أيها العرب ماذا أنتم اليوم صانعون ؟

يقول لكم « العقلاء » : انتظروا حتى تروا ماذا يصنع الإنجليز . فرئيس وزرائهم يقول : إنه لا ينفذ التقرير إلا إذا ضمن مساعدة الولايات المتحدة العسكرية والمالية . وما دام الإتفاق لم يتم بين انجلترا والولايات المتحدة على هذه المساعدة فنحن منتظرون !

أيها العقلاء ... ... :

إنكم مغفلون ... !

إن موقف الانتظار البليد فى كل مرة هو الذى جعل قضية فلسطين تتقهقر دائما ولا تتقدم ، منذ أن سمع العرب نصائحكم الغالية ، وحرصوا على عطف العالم المتمدين ، ووثقوا معكم بالضمير الأوربى ، أو الضمير الغربى على العموم .

السيد جحا

الحالم اليقظان

للاستاذ كامل كيلاني

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

١٠ — فى عيادة الطبيب

ومن بدائع ماروى عنه فى هذا الباب ، أعنى باب الغفلة والنسيان ماحدث الرواة عنه حين رأى المرض يبرح بزوجته فتسأله فى إلحاح أن يستدعى لها الطبيب . فلا يكاد يخرج من البيت حتى تسرع زوجه إلى منافذه فتطل عليه ، مبشرة بشفائها مما ألم بها من ألم .

ويستولى على صاحبنا الذهول بعد قليل فينسى أن زوجه لم تعد بحاجة إلى استدعاء الطبيب ، وتسوقه قدماه ـ وهو هائم فى سيره ـ على عادة الكثيرين من المفكرين ذوى اليقظة الحالمة فإذا به فى عيادة الطبيب :

« ماذا جاء بك ؟ »

فلا يكاد يهم باستدعائه حتى يذكر مانسى . فيتباله ـ على عادته ـ ولا يجد فى غير التغابى مخرجا له من مأزقه ، فيقول :

«لقد مرضت زوجى ، واشتد بها الألم فأمرتنى باستدعائك ، وما كدت أخرج من البيت حتى أطلت زوجى من النافذة وبشرتنى بشفائها ، ثم ختمت حديثها طالبة ألا أستدعيك . وقد جئت إليك لأخبرك بذلك حتى لا تكبد نفسك عناء الحضور .

١١ — غفوة أديب

وقريب من هذا ماحدث لأديب يعرفه القارىء . فقد استأذنه كاتبه ذات مساء فى إجازة ، ليستدعى الطبيب لأمه المريضة .

وعرف الأديب أن الكاتب الخبيث يخلق سببا موهوما ليمكنه من الذهاب إلى دار السيمى فى تلكم الليلة ، وأنه ينتحل مرض أمه جاريا فى ذلك على مألوف عادته فى انتحال الأعذار .

وشاءت المصادفة أن يلمح الأديب ـ بعد قليل من الزمن ـ وهو فى طريقه لإنجاز بعض عمله ، جماعة من الشبان يتوسطهم كاتبه أمام دار السيمى . فأسرع الأديب إلى كاتبه ، ليؤنبه على كذبته ، ويقول له :

أيها العقلاء !

إن الضمير الغربى كله ضمير متعفن . فالمغفلون وحدهم هم الذين يثقون بهذا الضمير ، ويعلقون على يقظته حقوقهم القومية !

واللغة الوحيدة التى يفهمها هذا العالم المتمدين ، هى اللغة التى يخاطبهم بها اليهود : القوة والمال ، والإقلاق المستمر الذى لا يدع أعصابهم مستريحة ، ولا يدع تدجيلهم الدولى مستورا ، وكلما هاجت أعصابهم وانكشف موقفهم زاد ضميرهم يقظة وتحركت فى نفوسهم عواطف الرحمة والإشفاق على هؤلاء المقلقين الثائرين !

أيها العقلاء !

ليس أمامنا تجربة واحدة تثبت أن الضمير الغربى قد تحرك مرة واحدة لقضية إنسانية بريئة يتبع أصحابها نصائح « العقلاء » فيدعون الضمير الغربى هادئا يغط فى نومه العميق .

لابد من ضجة وجلبة لإيقاظ هذا الضمير النائم ، واليهود اليوم يدركون هذه الحقيقة ؛ ولذلك هم ناجحون !

أيها العقلاء !

مجرم فى حق أمته ، وفى حق العرب أجمعين ، كل من يدعو أمته أو يدعو العرب إلى الثقة بهذا الضمير المزعوم .

* * *

وبعد ، فالكلمة الآن للعرب ، لا لمستر أتلى ، ولا للرئيس ترومان ، ولا للجنة التحقيق !

فإما أن يخاطبوا الضمير الغربى باللغة الوحيدة التى يفهمها ، والتى يحذقها اليهود ، فيلبهم الضمير الغربى فى كل مكان .

وإما أن يخاطبوا هذا الضمير بلغة « العقلاء » وينتظروا حتى تنطبق الحلقة ، ويتم الإتفاق بين أتلى وترومان ...

وحينئذ لا يلومن إلا أنفسهم ، وإنهم لملومون .

سيد قطب

« أين السيمى أيها الغبى من الطبيب الذى ذهبت تستدعيه لأمك ؟ »

وما كاد يتم قوله : أين السيمى أيها الغبى ؟ » حتى تبين تسرعه وخطأه ، فقد أدرك أنه يحدث شخصاً قريب الشبه بكاتبه .

ودهش الجميع لهذه المفاجأة ، فلم ير الأديب له مخرجا من هذا المأزق فى غير الأسلوب الجحوى ، فقال للفتى متباهلا :

« أما السيمى ، فهى أمامك ! وأما أنت فلست بغبى » .

قلت : لكم إن صاحب هذه القصة هو أديب يعرفه الكثيرون منكم لا لشىء إلا لأنه ماثل أمامكم الآن يحاضركم فى غفلة جحا الذكى الحالم اليقظان .

١٢ — سرعة الخاطر

وهذه الغفلة كثيراً ما تعرض للانسان إذا استغرق فى التفكير ، فتذهله عما حوله ، فيأتى بأعجب المتناقضات . وثمة يتبين بحرج الموقف فإذا لم تسعفه إجابة حاضرة ، أو لفتة ساخرة ، تنقذه من الحرج وتخلصه من المأزق الذى انزلق فيه ، أصبح سخرية الساخرين وهدف الهازئين ، وضحكة العابثين .

وعلى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم حقيقة أمره ، وبعده عما يرى من غفلة وتناقض واضطراب ، ورحم الله المعرىّ القائل :

فيالك من يقظة كأنى بها حالم

١٣ — ريشة المصور

وكما أن المصور لا يستطيع أن تُظهِرَ لك ريشتُه ما ينفرد به العملاق من ضخامة إلا إذا وضع إلى جانبه رجلا آخر أو نخلة أو شجرة أو شيئاً تقيس إليه طول العملاق ، لا يستطيع الكاتب أن تُظهِرَ لك يراعتُه مدى التناقض والشذوذ مثلا إلا إذا وَضَع بِجوارها شيئاً آخر ، يوضح لك مقدارها ، ويجلو لك مسافتهما .

ومن هنا غلبت البرودة والغثاثة على جمهرةِ النكت التى تروى عن أفذاذ المتهكمين متى انقطعتْ عن ملابساتها ودواعيها .

ومن هنا نعرف لماذا استهجن الناس كثيراً مما نشر من دعابات جحا وإجاباته بعد أن رويت منفصلة عن بواعثها ودواعيها .

ولا عجب فى ذلكم فإن المصور — كما أسلفت القول — إذا حاول أن يرسم عملاقا ضخما لم يرسم رجلا يملأ فراغ الصفحة كلها . لأنه لن يشعرك بهذا أنه يصور عملاقا . على حين يستطيع فى نصف الصفحة أو ربعها — كما تعلمون — أن يدخل فى روعك هذا الشعور إذا رسم بالقياس إليه شيئاً آخر تعرفه ليتبين لك نسبة ضخامته .

والشىء لا يعرف مقداره إلا إذا قيس إلى ضده

١٤ — تاجر الأيام

ونحن إذا سمعنا أن جحا يسأله سائل :

« فى أى يوم نحن من أيام الشهور ؟ » .

فيجيبه : « لست أتجر فى الأيام والشهور » . خيل إلينا أنها نكتة بائخة . ولكننا متى عرفنا أن السائل ثقيل الظل ، وأن جحا لا يريد أن يجيبه بل يتوخى تصغيره ، ويتعمد تحقيره ، أدركنا أنه إنما يقصد إلى هذا الجواب قصداً ، ليشعره بثقلِهِ وسماجته ، ويتخلص فى الوقت نفسه من إجابته .

وليس أفتك بالثقلاء من أمثال هذا الرد .

١٥ — القمر والنجوم

وقريب منه قولُه لثقيل آخر ، حين سأله :

« أين يذهب القمر القديم ، بعد أن يحل مكانَهُ القمرُ الجديد ؟ » .

فقد أجابه على هذا السؤال البائخ مستهزئاً :

« ألا تعرف ما يُصنع به ؟ إنه يقطع — بعد ذلك — نجوماً تُنثَرُ فى السماء » .

١٦ — الأقمار والبروق

ويعترضه فى طريقه مخبول أحمق بادى الغفلة وهو يسير على هضبة مشرفة على بعض الوديان فيقول له المخبول :

« انظر أمامك فى هذا الوادى ، وخبرنى ماذا ترى ؟ » .

فيقول له جحا واجماً :

« أرى جثثا ملقاة على أرض الوادى ! » .

فيسأله المخبول :

« أتعرف قاتلَهم ؟ إنه الماثل أمامك » .

فيشتد ارتباك صاحبنا جحا فيماجله قائلا

« أتعرف لماذا فتكت بهم ؟ لقد عجزوا عن إجابتى عن سؤال واحد حيرنى . فإذا أجبتنى عنه كتبت لك السلامة » .

فيسأله جحا عن ذلك السؤال العويص . فيقول :

« لقد حيرنى أن أعرف لماذا يبدو القمر أولَ الشهر هلالا صغيراً ثم لا يزال يكبَر حتى يستدير ويَتِمّ نورُه ، ثم يعود فيصغر شيئاً فشيئاً حتى يختفى ويطلُعُ غيره . فماذا يصنع بالقمر القديم ؟ » .

فيبتسم له جحا متلطفا ويهوّن عليه الأمر قائلا :

« تباً لأولئك الأغبياء . أما كان فيهم من يُفضى إليك بالنبإ اليقين ؟ ألم يعرفوا أن الأقمار القديمة بعد أن تغيب عنا تظل مختبئة ، حتى إذا جاء فصل الشتاء ، تألفت منها البروق التى تلمع فى السحب والغيوم » .

وهنا يَنْثَلِج صدر المخبول فيقبلُ يدى الفيلسوف العظيم قائلا : شكراً لك أيها السيد الجليل فما خطر لى — والله — ذلك الرأى على بال ! » .

١٧ — تغابي الأكياس

وكم نرى — أيها السادة — فى كل عصر ومصر ، حمقى يسألون أمثال هذا السؤال ، وأكياساً من قادة الفكر يتغابَوْن فلا يجدون مندوحة عن الإجابة بأمثال هذا الجواب ليتخلصوا من أذية المجانين وينجو بأنفسهم من كيدهم سالمين .

ثم يأتى بعض الباحثين فيحملون إجابتهم الساخرة مَحْمِلَ الجِدّ . ويتهمونهم بالغفلة والجنون ، ناسين أن لكل مقام مقالا .

١٨ — فضل التغابي

ولقد أجمع الناس — أو كادوا — على فضل التغابى فى كل عصر كما تعلمون ، وأفاض المبدعون وافتنوا فى تصوره ما شاء لهم خيالهم وافتنانهم .

فقال « زهير بن أبى سُلمى » فى معلقته الرائعة :

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسِم »

ثم تلاه معاوية فقال : « السَّرْوُ التغافل » .

ثم جاء عمر بن أبى ربيعة . فقال :

« تبا لهن بالعرفان لما رأيننى وقلن: امرؤ باغ أضل وأوضعا »

ثم تلاه المتنبى فقال :

« ليس الغبى بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى »

وأعقبه شيخ المعرة فقال :

« . . . . وتبا له ، فإن دهرك أبله »

« قوم سوء ، فالشبل منهم يغول
الليث فرسا والليث يأكل شبله »

بعد أن قال :

« ولما تعامى الدهر وهو أبو الورى
عن الرشد فى أنحائه ومقاصده
تعاميت حتى قيل : إنى أخو عمى
ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده »

***

ومن أبرع ما عرفته فى هذا الباب الذى استفاض فيه قول الشعراء والكتاب ذلكم المثل التركى الذى يقول :

« عظموا أقداركم بالتغافل » .

ويقابله قول ابن زيدون :

« إن السيادة — بالإغضاء — لابسة
بهاءها ، وجمال الحسن فى الخفر »

وقريب منه قول بعض الأفذاذ من القُدامى المبدعين :

« اقبل معاذير من يأتيك معتذراً إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أجلك من أرضاك ظاهره
وقد أطاعك من يعصيك مستترا »

كامل كيلانى

إبليس والفـــن

للأستاذ صلاح الدين المنجد

لا تظهر صورة الشيطان فى العصور الأولى من تاريخ الكنيسة ، وينبغى أن نبدأ من القرن السادس ، لنرى التخيلات الأولى ، للشيطان .

وأقدم هـذه التمثيلات توجد الآن فى مخطوط قديم عن أعمال القديس غريغوار دنيزيانز g. de Nizianze محفوظ فى المكتبة الوطنية بباريس .

فهذا المخطوط الذى يرجع عهده إلى القرن التاسع ، يتضمن صوراً أقدم من هذا التاريخ بثلاثة قرون . فإحدى الصور ، تمثل محاولة الشيطان فتنة أيوب ، وفيها يظهر أيوب فى قصره يفكر والشيطان بالقرب منه ، حاملا فى يده حقة طيب ، تتأرج منها الروائح العطرة المسكرة ، وكأنه يسخر من الحكيم ويهزأ به .

ولا يظهر الشيطان فى هذه الصورة مخيفاً ، بل ما يزال الملك المطرود ، المتكبر ، وهو هنا ذو جناحين طويلين منتشرين ، وله وراء رأسه إكليل من النور ، تذكر بأصله . ثم هو عارى الجسم حول خصره زنار من السيور ، وليس فى مخايله ما هو يعيد عن خلقة الإنسان ، ولكن يديه ورجليه المعقوفة الأظافر ، تميزه ميزة خاصة .

وفى هذه المخطوطة ، صور أخرى للشيطان وكلها متماثلة . والظاهر أن الفن الاغريقى ، والفن البيزنطى ، لم يشاءا أن يشوها شكل الشيطان . والفنانون الشرقيون فى بيزنطية كانوا ذوى شغف بالجمال ، فلم يهتموا بتصوير هذا الشيطان ، قرينا بالشر ، المخيف المنظر والمخبر .

ولم يقل رجال الدين فى الكنيسة قط ، إنهم رأوا مثلا الشيطان يوما ، بشكل شاب غرانق جميل ، أو بشكل فتاة حسناء كاعب ، ذات وجه ناضر . ولذلك كانوا يصورون الشيطان بالقبح ، ويلونونه باللون المظلم القاتم ، كالأسود أو لون البنفسج ، فهذا مسلك الليل الشرير .

وانتقلت هذه الصورة من بيزنطية إلى الغرب ، فاتخذ الشيطان صورة البطل المغلوب المنهزم ، أو صورة الملك المطرود ، الذى ما زال يحفظ سمات الملائكة وصفاتهم .

ولم يلبث أن تبدلت هذه الصورة ، فعندما أراد نحاتو الكنائس الرومانية أن يصوروا الشيطان ، ملاك الشر مثلوه بصورة أخرى .

وهناك أسباب عدة بعثت على هذا التبديل ، الأول هو رغبة الكنيسة نفسها ، إذ لا ينبغى أن ننسى أن الشيطان شىء خطر ، فهو الخبيث ، الذى لاهم له غير الإغواء والفتنة ، ولا بد إذن من منحه صفات مخيفة راعبة ، كى تنقش هذه الصورة الرهيبة فى قلوب المؤمنين ، فتحفظهم من إغوائه ، وتبعدهم من فتنته .

ولا يجهل من جهة ثانية ، أن أكثر المشاهد المنحوتة فى الكنائس قد استوحيت من الصور أو من القصص الدينية الممثلة فى أفنية الكنائس . فى هذه الأقاصيص يظهر الشيطان محاطا بقناع منحط مزر . فمن هذا الازراء والانحطاط ، استوحى الفنانون تصورهم للشيطان .

وسبب آخر ، هو أن الكنيسة كانت تتعمد أن يستخلص الرائى من صورة الشيطان عبرة وعظة ؛ فكانت تجبر النحاتين أن يجعلوا الفرق شاسعاً بين الملك والشيطان ، مع المحافظة على روح التصاوير البيزنطية .

وفى القرن الثانى عشر ، كان الشيطان يصور فى أغلب الأحايين كما يلى : شكل إنسانى ، ذو جسم وفخذين وذراعين . ولكنه تارة ضئيل الجسم كأنه القزم ، وتارة بالعكس ، عبل القد مستطيل القامة كأنه العملاق . وسواء أكان قزما أم عملاقا ، فقد كانوا يجعلونه ذا هامة ضخمة ، وعينين جاحظتين واسعتين ، وأنف أفطس ، وفم غريب الخلقة لا يشبه فم الآدميين ، قريب إلى فم الكلب ، وأسنان ضخام مخيفات ، وشعور منفوشة ، قائمة كأنها ألسنة اللهب . وقد اصطلح الفنانون على إلصاق هذه الشعور فى رسومهم لكل من له صلة بالشيطان ، وخاصة بالنساء .

أما هامة الشيطان فتستدعى الرنو والعجب لضخامتها . وأما جسمه فهو نحيف ، والبشرة ذابلة جف ماؤها ، ورجلاه وذراعاه عظام لا تكسوها لحم ، وتنتهى بأظافر معقوفة جارحة . وعلى

هذا الشكل صور الشيطان ، فى مواساك Moissac ، أوتين فزيلاى .Autun Vézélay

ويذهب مال E. Mâle الذى نقتبس منه هذه المعلومات إلى أن الرهبان هم الذين كانوا يختلقون هذه الصورة .

وقد ساعدت القصص الدينية ، وما فى الإنجيل خاصة ، على تمثيل الشيطان ، فصوروه تصاوير مختلفات ، تمثله مطرودا من الجنة كاسفا حزينا ، أو جالساً فى الجحيم على عرش فى وسط النار رجلاه على منصة ، تدور حدقتا عينيه المخيفتين ، أوساعيا فى إغواء المؤمنين المخلصين .

وفى القرن الثالث عشر ، تظهر أكثر الصور التى كانت فى القرن الذى قبله . على أن شكل الشيطان نفسه قد اختلف اختلافا محسوسا ؛ لأن تخيلات الرهبان وأوهامهم صورته على شكل قزم قبيح فى منتهى القبح ، ولكنه أقل إرهابا . أما ملامحه فعادت كملامح الإنسان ، هى قبيحة بلا شك ؛ ولكنها أقل تشويها من الماضى . وتبدل مفهوم الشيطان ، فهو لا يخيف كما كان يخيف من قبل ؛ ولا شك أنه أضخم من الماضى أيضا ؛ فلا ترى — إذا رأيت صورته — عظاما تخيف ، فوقها جلد نحيف ؛ ولكنه كان أملأ جسما . وقد يلاحظ أن بعض الصور ، كانت تلصق به بعض الملامح الحيوانية ، كأن يجعل له رأس قطة كبير ، أو كأنه القطة الكبيرة ، كما فى نوتردام دُ بارى .

على أنه يلاحظ أمر ، هو أنه كلما كان الفن يبتعد عن الدين كانت أشكال الشيطان تجنح عن إثارة الرعب . فى القرن الخامس عشر كان يخيل للرائى أن الشيطان مخلوق مضحك . وكان يحافظ ، فى أكثر المشاهد التى يصوّر بها ، على الملامح الإنسانية ؛ أعنى أنه كان له دائماً رأس وجسم وذراعان ونخذان .

وبالعكس عصر النهضة فى فقد الشيطان هذه الصفة الآدمية . فنحن نلاحظ أنه بعد منتصف القرن الخامس عشر ، والقرن السادس عشر ، قد طرأ تبديل كبير على ملك الشر .

فلقد فهم رجال النهضة خطأ ما يرمز إليه الشيطان . ولا بد من التنويه بأن فكرة الشيطان لم تعرف فى الديانات اليونانية والرومانية . فى الديانة اليونانية كان للشياطين شأن قليل . فهى أرواح لا أثر لها ، تذهب وتجىء أحايين بين الآلهة والأبطال . ووجودها فى الديانة الرومانية أكثر غموضا أيضا . ولا بد من أن نذكر أن الآلهة فى أثينا وروما كانت فى آن معا ، أرواح خير وشر ، تضر من تشاء ، وتنفع من تشاء على هواها . أما فكرة وجود ملك للشر يقابل ملك الخير التى كانت توجد لدى الفينيقيين والفرس والهند فلم تعرفها اليونان والرومان .

فليس من الغريب إذن إذا كان فن عصر النهضة تحت التأثير اليونانى الرومانى قد أهمل بعض الإهمال تصاوير الشيطان التقليدية الموروثة ، واستعيض عنها بتصوير آخر . فقد أصبح الشيطان يرمز رمزاً كبيرا إلى القبح الشديد ، وهذا سر انقلابه حيوانا ، له ملامح الحيوانات كلها ؛ كالثور الوحشى ، والخنزير والدب وغيرها . وتعددت الشياطين ، فكثرت صورها أيضا . ولم يبق كما كان من قبل ، صورة واحدة لشيطان واحد .

وفى عصر النهضة ، من جهة أخرى ، ظهرت موضوعات أخرى طريفة تمثل الشيطان ، مثال ذلك أن صوروا الموت يخاطب الشيطان ، لأن الموت كان قد بدىء بتصويره منذ القرن الخامس عشر بإيحاء من الكنيسة أيضا كى تخيف المؤمنين مما يعقبه من جحيم ونعيم وعذاب . وفى كتاب L, Art Moriendi لفيرارد Verard ، وهو مزوق مصور ، تظهر صور كثيرة للشياطين ، كلها ذات ملامح فى أغلب الأحايين حيوانية ؛ فقد جعل لها أذناب وقرون وحوافر وغير ذلك .

ويلاحظ أن الشيطان قد أصبح حيوانا عند فنانى وادى الرين Valleé de Rhin أشباه ستيفان ومارتان وبعدهم عند البير دورر ومن جاراهم . ثم يلاحظ كلما تقدمنا فى القرن السادس عشر ، قلة تصوير الشيطان لأن « مجمع ترانت » عندما منع تصوير الشخوص المخيفة ونحتها ضرب الأقاصيص الدينية وشخوصها ضربة قاضية ، فقل تصويره .

حتى إذا أقبل القرن التاسع عشر ، ظهرت صورة جديدة للشيطان ، فقد أثر ظهور فوست لغوته ، وانتشارها الواسع فى ذلك ، ودفع الفنانين إلى تصوير هذا الشيطان الرجيم ؛ فصوروه كما يلى :

ملك مطرود من رحمة الله ، ترافقه فترة شقاء من قبح ؛ والجناحان طويلان ينتشران حول الجسم المشوه . ووجهه يمثل صورة جانية مسنونة مضطربة ، وقد تدثر بدثار . وهكذا صوره دلا كروا فى فوست سنة ١٨٢٨ . وبقيت هذه الصورة شائعة بين الناس ؛ وهى التى يلجأ إليها اليوم فى تمثيل الشيطان .

(دمشق) صلاح الدين المنجد

التاريخ فى سير أعلامه :

مِلْتُن . . .

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والجمال . . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٣ —



بين الطغيان والحرية :

لم يقف ملتن بمعزل عن حوادث العصر الذى عاش فيه ، السياسية منها والدينية ، فدخل فى غمارها ورمى بنفسه فى بركانها وأصابه ما أصابه من نارها ، وكاد يحيط بعنقه حبل المشنقة . وما كان لنفس مثل نفسه تعشق الحرية وقد فطرت عليها أن تهاب الضرر أو الموت فتنكل عن الوقوف فى وجه الطغيان ، وهذا ركن من أهم أركان شخصيته كرجل وكشاعر . لهذا كان لا بد من فصل يجلو حوادث ذلك العصر لننظر بعده على أى صورة كانت صلته بتلك الحوادث وإلى أى مدى أثرت فيه وأثر فيها .

انتهى بموت إليزابث عام ١٦٠٣ حكم أسرة تيودور ، وبدأ حكم أسرة ستيوارت فى شخص جيمس الأول ، وقد ولد ملتن بعد خمس سنوات من اعتلاء هذا الملك عرش انجلترة ، وظل جيمس يحكم حتى وفاته سنة ١٦٢٥ وهى السنة التى التحق فيها ملتن بالجامعة ، وخلف جيمس على العرش ابنه شارل الأول ، وظل شارل يقود سفينة الملك وسط الأنواء الشديدة التى أنتجت بريح عاتية هى الثورة أو الحرب الأهلية ، واختتمت هذه الثورة بإعدام شارل بتهمة الخيانة سنة ١٦٤٩ ، أى بعد عشر سنوات من عودة ملتن من إيطاليا . وحكم البلاد بعد شارل القائد الحربى للثورة أوليفر كرمويل أحد كبراء البيوريتانز وسمى حامى الجمهورية ، وظل يحكمها حتى وفاته سنة ١٦٥٨ . وخلفه ابنه فحكم البلاد سنة واحدة ، ثم عزل لضعفه وأعيدت الملكية فى شخص شارل الثانى سنة ١٦٦٠ .

وكانت تلك السنوات السبع والخمسون مليئة بالأحداث ، وهى من أهم السنوات لا فى تاريخ انجلترة فحسب ؛ بل فى تاريخ الحكم النيابى والحرية فى العالم كله ، إذ كانت صراعا متصلا بين الطغيان تمثله الملكية وبين الحرية يمثلها البرلمان ؛ وكان هذا الصراع حول مسألتين : المسألة السياسية والمسألة الدينية .

ظهرت المسألة السياسية فى صورة نظرية أول الأمر ، وذلك حينما أعلن جيمس الأول تمسكه بالحق الإلهى للملوك ، أو نظرية التفويض من قبل الله . وقد أنكر البرلمان عليه هذا الزعم كما أنكره طالبو الحرية من غير رجال البرلمان . ثم اتخذت المسألة وضعا عمليا حين وقع الخلاف بين الملك والبرلمان على أمور معينة ، إذ حاول كل أن يبرر مسلكه حسبما يذهب إليه من رأى فى التمسك بنظرية التفويض الإلهى أو فى إنكارها والتمسك بالحقوق التى اكتسبها الشعب منذ منتصف القرن الثالث عشر .

كان يقصد بالحق الإلهى للملوك فى القرن السادس عشر معنى خاصا ، وذلك أن الدولة سواء أكان يرأسها ملك أم أمير لها حق البقاء ، وافقت الكنيسة على ذلك أو لم توافق ، وكان ذلك المعنى مما قصدت به البروتستنتية إلى الفصل بين سلطان الكنيسة وسلطان الدولة رغبة فى إضعاف الكنيسة .

ولكن الملوك فسروا هذه العبارة تفسيرا جديدا فى القرن السابع عشر ، فقالوا إن هناك حقا خاصا بأشخاص الملوك ، فهم خلفاء آدم فى الأرض ، وقد أعلن الله فى كتابه إقراره سلطة

الملوك المطلقة فلا يجوز أن تلاقى تلك السلطة أية مقاومة أو تدخل فى شؤونها .

وكان جيمس الأول يحكم اسكتلندة باسم جيمس السادس وآل إليه عرش انجلترة بالوراثة فاتحد فى شخصه حكم المملكتين، وقد قتل الملك لصا وهو فى طريقه إلى انجلترة بغير أن يحاكمه نخرج بفعلته هذه على حق اكتسبه الفرد فى انجلترة منذ لائحة العهد الأعظم التى ظفر بها الإنجليز سنة ١٢١٥ ، والتى جاء فيها صراحة أنه لا يجوز حبس أى إنسان أو نفيه أو مصادرة أملاكه أو إعدامه إلا بعد محاكمة تكفل له فيها وسائل الدفاع عن نفسه .

وتمسك جيمس منذ هبط إنجلترة بالحق الإلهى للملوك ، وتحدى البرلمان هذا الحق ، وكان من محاسن الأقدار أن لم يقف النزاع عند وضعه النظرى بل تعدى ذلك إلى مواقف راح البرلمان فيها يبرر مسلكه أو يؤيد حقه على ضوء السوابق والحقوق المكتسبة ، وملابسات الحال ، ومقتضيات الظروف من النصفة والعدالة .

وكان البرلمان فى عهد أسرة تيودور قد خضع للحكم المطلق فعلا ، ومردّ ذلك إلى أن ملوك تلك الأسرة لم يتمسكوا فى حكمهم بالنظريات ؛ بل كانوا يعملون على كسب مودة أعضاء البرلمان وضمان تأييدهم إياهم ليكون الأمر فى ظاهره للبرلمان وفى حقيقته لهم . هذا إلى أنهم كانوا أحيانا يتزحزحون عن مواقفهم خطوات إذا لاحت نذر الشر ، أو يحاولون بالكلمة الطيبة أن يكسبوا قلوب النواب ، نجد خير مثال لذلك فى موقف نبيل وقفته إليزابث فى أواخر حكمها سنة ١٦٠١ حين لمحت اتجاه الرأى العام فى معارضة البرلمان لقانون من القوانين، فقالت للنواب: « ولو أن الله رفعنى مكانا عليا فإن ما أعده فى الواقع مجد تاجى هو أنى أحكمكم مستندة إلى محبتكم ، وهذا ما يجعلنى أشعر بالسعادة لأنى ملكة شعب شكور ، أكثر مما أشعر بها لأن الله جعلنى ملكة فحسب » .

وكانت البلاد فى عهد تلك الأسرة تخشى الحرب الأهلية بين فرعى بيت الملك كما كانت تخشى الغزو من الخارج ، وعلى الأخص من جانب أسبانيا الكاثوليكية . هذا إلى أنه كان للناس منصرف عن السياسة وأمورها إلى النهضة العلمية الأدبية وحركة الكشف الجغرافى والإستعمار وراء البحار ، فخمدت جذوة السياسة حتى كادت تتحول إلى رماد .

وكانت تقتضى الحكمة وبعد النظر مسالمة رجال البرلمان بعد زوال الخطر الداخلى وابتعاد شبح الغزو الخارجى إثر تحطيم الأرمادا أسطول أسبانيا العظيم ، ولكن جيمس الأول أخذ فى ظروف كهذه يعلن تمسكه بنظريته ، فنفخ بذلك فى الرماد حتى توهج ، ثم إذا به يشتعل فى عهد خلفه اشتعالا

وكان جيمس غداة ولايته عرش انجلترة فى السابعة والثلاثين من عمره ، وكان ملكا مثقفاً على شىء غير قليل من اللباقة ، وفى نفسه قدر من روح الفكاهة ، ولكن لم يكن يحسن وزن الأمور لتمسكه بالجانب النظرى منها ، كما أنه لم يحسن كيف يحيط شخصه بما يجب للملوك من وقار وهيبة ، بل لقد اجتمعت فيه كل الصفات التى يجب ألا تنسب واحدة منها إلى ملك ، وقد قال عنه هنرى الرابع ملك فرنسا : « إنه أعلم مغفل فى العالم المسيحى ! »

اجتمع أول برلمان فى عهد جيمس سنة ١٦٠٤ ، فكان أول خلاف بينه وبين الملك أن تدخل الملك فى الانتخاب ، فقد حذر الناخبين أن ينتخبوا المتطرفين فى الآراء الدينية والمحرومين من حماية القانون ، ولكن إحدى الجهات انتخبت واحداً من هؤلاء فأبطل انتخابه بأمر الملك توطئة لانتخاب غيره . وثار البرلمان وتمسك بأنه صاحب الحق فى النظر فى هذا الأمر ، وأذعن الملك مكرهاً وتأكد بهذا الإذعان حق البرلمان فى القيام على أمر الانتخاب!

وأعقب ذلك حادثة أخرى ، وتلك هى حبس أحد أعضاء البرلمان لعدم دفعه ما عليه من دين ، وإذ ذاك أعلن النواب أنه لا يجوز القبض على عضو من الأعضاء إلا بتهمة الخيانة أو تعريض السلم العام للخطر. ولكن الملك أصر على موقفه ولم يعبأ برأى النواب!

وفى نفس السنة أظهر جيمس عطفه على الكاثوليك وأراد أن يغير بعض القوانين الضارة بهم ، فعارض البرلمان ، وكانت ميول أعضائه بيوريتانية ، ولعله إنما أراد بالمعارضة أن يقف فى وجه الملك أكثر مما أراد أن يكيد للكاثوليك ... وأمرها الملك فى نفسه ...

على أن أكبر خلاف وقع بين الملك والبرلمان كان على مسألة الضرائب ، وذلك سنة ١٦٠٨ حين أراد الملك أن يفرض من تلقاء نفسه ضريبة إضافية على التجارة ، فعارض البرلمان معارضة شديدة ، لأن هذا العمل يقوض حقاً هو أهم حقوقه من أساسه ، ولكن الملك تمادى فى عناده ، وامتنع أحد التجار عن الدفع وقدم إلى المحاكمة ، وكان الملك يومئذ يخيف القضاة بعزلهم من مناصبهم

على الرغم مما نص عليه العهد الأعظم من منع تدخل الملك فى سير العدالة ، وحكم القضاة على التاجر ؛ ولكن صوت البرلمان فى الاحتجاج لم يخفت بهذا الحكم وإن لم يجده ذلك شيئاً ، وما لبث أن تخلص منه الملك فى غير عناء !

وفى سنة ١٦١٤ اشتدت بالملك الحاجة إلى المال بسبب إسرافه وإسراف حاشيته ومن اصطفاهم ، فجعلهم من المقربين إليه أولى الحظوة عنده ، فدعا الملك برلماناً جديداً ليعينه على الخروج من الأزمة ، وحرص أتباعه على أن يأتى موالياً للملك ، ولذلك أطلق الناس عليهم اسم المتعهدين استهزاء بهم ؛ ولكن البرلمان ما كاد يجتمع حتى أظهر المعارضة للملك والمقربين إليه ، وأنكر سياسة الملك الخارجية ، فقد كان يريد جيمس مسالمة أسبانيا ومصالحتها ، وكانت انجلترة تكره ذلك أشد الكره !

وغاظ الملك أن يكون هذا البرلمان أشد من سالفه عناداً ، فأسرع إلى حله بعد شهرين من اجتماعه ، ولما يتخذ قراراً واحداً ، ولذلك أطلق عليه اسم « البرلمان العقيم » !

وحكم الملك ست سنوات من غير برلمان ، يعمل بمشورة خلصائه حيناً ، ويتبع هواه حيناً ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، لا يسأل عما يفعل ولا يفكر فى عاقبة أمره .

وفى سنة ١٦٢١ دعا جيمس برلمانا جديداً ، وكانت الحاجة إلى المال هى التى تجعله يدعو البرلمانات ليعتمد على معونة النواب فى فرض ما يطلب من الضرائب ، وقد تذرع فى هذه السنة برغبته فى نصرة البروتستنتية وذلك بمساعدة صهره البروتستنتى فردريك حاكم البلاتينات فى ألمانيا ضد النمسا وأسبانيا ؛ وتحمس البروتستنت فى انجلترة لمعاونة زملائهم فى القارة ، ولكن ما كان أشد غضبهم أن رأوا الملك يحجم بعد تحمس ،دون أن يستخذى لما حل بصهره أو يأبه بتألم الشعب لما نال البروتستنت من هزيمة فى القارة ، وإذ ذاك عاد البرلمان إلى مناوأة الملك فى المسائل الداخلية ، فطالب بمحاكمة بعض وزرائه وأصفيائه على ما نسب اليهم من تهم أهمها الأثراء بغير حق عن طريق الاحتكار ، وكان ثمة عرف قديم أهمل منذ سنة ١٤٥٠ يتيح للنواب حق الاتهام على أن تكون المحاكمة أمام اللوردات ، وأحيا النواب هذا العرف فغضب الملك غضباً شديداً ليحمى وزراءه وأصفياءه ، وأعلن كلمة جريئة اهتزت لها البلاد هزة الغضب والألم وهى قوله « إن امتيازات النواب واللوردات ليست حقا لهم كما يظنون وإنما هى منحة من الملك ، وإن عمل النواب ينبغى ألا يتعدى الأمور المحلية كالمناقشة فيما يطلب من المال والإعراب عن آراء ناخبيهم ، أما أمور الدولة العليا فى السياسة والدين فمن اختصاص الملك وحده ... » ورد البرلمان بصيحة بالغة الجرأة فقال « إن كافة ما لدى البرلمان من الحريات والامتيازات والأمور المتصلة بالانتخاب وبسير العدالة ، إنما هى حقوق قديمة مؤكدة تثبت بمجرد الميلاد لكل فرد فى انجلترة ويتوارثها الأجيال ، وكل ما هنالك من مسائل خطيرة ملحة تتصل بالملك والدولة والدفاع عن المملكة وعن كنيسة انجلترة ووضع القوانين والمحافظة عليها والعمل على إزالة أسباب الشكوى فى الداخل ، إنما هى من صميم ما يختص به البرلمان ويدير فيه المناقشات ويتبادل أعضاؤه فيه المشورة . »

وساء وقع هذا بالضرورة فى نفس الملك المتجبر فأخذته العزة بالإثم وحل البرلمان ولم يجتمع إلا سنة ومزق بيديه هذا القرار من مضبطة المجلس وألقى ببعض أعضائه فى غيابة السجن ، وظل يحكم مستبداً بالأمر حتى سنة ١٦٢٤ حين جمع عزمه وأراد أن يعلن الحرب على أسبانيا ، وشعر بحاجته إلى المال ، وإذ ذاك دعا برلمانا جديداً لم يكن أقل من سابقيه معارضة للملك المستبد وظل قائما حتى مات الملك سنة ١٦٢٥ .

ومن عجيب أمر جيمس أنه كان أقل الطغاة خطراً لضعف شخصيته ، ولكنه كان مع ذلك أكثرهم استفزازا للنفوس بتهوره وبكلامه . والحق أنه أساء إلى الإنجليز بما قال أكثر مما أساء إليهم بما فعل ؛ كأنما كان مولعاً بأن يستعجل الثورة فى البلاد ، وكأنما كانت رسالته إشعال نار هذه الثورة ؛ فما كان بمستطيع أن يحمل الناس على احترامه بناحية من نواحى القوة والعظمة كما عسى أن يفعل الطغاة إذا أرادوا أن يفطوا طغيانهم لأنه لم يكن على شىء من هذا ؛ ولا كان بقادر على أن يقف فى طريق الحرية الثائرة معترضا لها ليصدها عن وجهها . ورأى الإنجليز أنفسهم لأول مرة فى تاريخهم تلقاء ملك يشعرون باحتقاره ، ويسخرون من ضعفه وإن تظاهر بالقوة فما كان ما يزعمه لنفسه من قوة إلا الحماقة فى أسخف صورها ...

أما عن المسألة الدينية فى عهده فلم يك جيمس فيها أقل حمقاً ولا أخف طغياناً إن لم يكن أقبح عناداً وأبغض استبداداً .

(يتبع)

الخفيف

كتب قرأتها :

فى غربال ميخائيل نعيمة

للاستاذ حبيب الزحلاوى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

ويقول : « لكل ناقد موازينه ومقاييسه ، وهذه الموازين والمقاييس ليست مسجلة لا فى السماء ولا على الأرض ، ولا قوة تدعمها وتظهرها قيّمة صادقة سوى قوة الناقد نفسه ، وقوة الناقد هى فيما يبطن به سطوره من الإخلاص فى النية ، والمحبة للمهنة ، والغيرة على موضوعه ، ودقة الذوق ، ورقة الشعور ، وتيقظ الفكر ، وما أوتيه بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله لعقل القارىء وقلبه ...

« لا يكون الناقد ناقداً إذا تجرد من خلة « قوة التمييز الفطرية » تلك القوة التى تبتدع لنفسها مقاييس وأوزاناً ولا تبتدعها المقاييس والأوزان ، فالناقد الذى ينقد« حسب القواعد» التى وضعها سواه لا ينفع نفسه ولا منقوده ولا الأدب بشىء .

« ... نحن فى حاجة إلى الناقدين لأن أذواق السواد الأعظم منا مشوهة بخرافات رضعناها من ثدى أمسنا ، وترهات اقتبلناها من كف يومنا ، فالناقد الذى يقدر أن ينتشلنا من خرافات أمسنا وترهات يومنا ، والذى يضع لنا اليوم محجة لندركها فى الغد ، هو الرائد الذى سنتبعه والحادى الذى سنسير على حدوه .

ويقول : « إذا لم يكن للناقد من فضل سوى رد الأمور إلى مصادرها ، وتسميتها بأسمائها لكفاه ذلك ثواباً . إلا أن فضل الناقد لا ينحصر فى التمحيص والتثمين والترتيب ، فهو مبدع ومولّد ومرشد ، مثلما هو ممحّص ومثمّن ومرتب .

« هو مبدع عند ما يرفع النقاب فى أثر ينقده عن جوهر لم يهتد إليه أحد ، حتى صاحب الأثر نفسه .

هو مولد ، لأنه فيما ينقد ليس فى الواقع إلا كاشفاً نفسه .

وهو مرشد ، لأنه كثيراً ما يردمغروراً إلى صوابه ؛ أويهدى شاعراً ضالا إلى سبيله .

« رب ناقد لم ينظم فى حياته بيتاً ، ولا عرف ما فى النظم من مشقة الأوزان والقوافى ؛ ولا فى لذة الفوز بها ؛ غير أن ذلك لا يعوقه عن إدراك ما فى الإفصاح عن عوامل النفس من لذة روحانية ، ولا يعميه عن تموجات الألوان فى الرسوم الكلامية ، ولا يصمّه عن رنة الألحان فى مقاطع الألفاظ والعبارات .

والناقد فى إمكانه الدخول إلى مستودع روح الشاعر ، وتفقد مخبئاته إلى أن تتولد فيه حالة نفسية كالتى تمخضت فى الشاعر بتلك القصيدة ؛ فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكأن القصيدة من وضعه .

« إن حظ الناقدين من دهرهم قليل ، فهم لا يُرضون فريقاً من الناس إلا بإغضاب فريق آخر ، غير أن القوى بينهم — والقوى من أخلص النية — لا يحفل بمن يرضى وبمن يغضب ، لأنه يخدم غاية أكبر من رضاء الناس وسخطهم ، ويتمم وظيفة هى من أهم وظائف الحياة ... » ويضيف الأستاذ العقاد على هذا التعريف الشامل للناقد فيقول : « عمل الناقد تصحيح كثير من مقاييس الأدب ، وإن من يصحح مقياساً للأدب فقد يصحح مقياساً للحياة » .

* * *

« ... كلنا يتكلم عن الشعر ؛ بعضنا يؤلهه ، والآخر يمشقه والثالث يقرضه ، والرابع يقتات ويتنفس به ، هذا يشحذ ذا كرته بالمعلقات والموشحات والخاليات واللاميات ، يرددها فى وحدته ويتلوها على مسمع أصحابه ، وذاك يكتب القصيدة بعد القصيدة يستعد لأن ينشر درر أفكاره فى « ديوان » ... فلا بدع فنحن من سلالة قوم هم ، إذا مات منهم شاعر قام شاعر ... نحفل بالشعر لأنه لغة النفس وترجمان عواطفنا وأفكارنا ... » والشاعر هو نبى وفيلسوف وموسيقى وكاهن .

نبى : لأنه يرى بعينه الروحية مالا يراه كل البشر .

ومصور : لأنه يقدر أن يسكب ما يراه ويسمعه فى قوالب جميلة من صور الكلام .

وموسيقى : لأنه يسمع أصواتاً متوازنة حيث لا نسمع نحن سوى هدير وجعجعة .

وكاهن : لأنه يخدم إلهاً هو الحقيقة والجمال .

... إن روح الشاعر تسمع دقات أنباض الحياة ، وقلبه يردد صداها ، ولسانه يتكلم « بفضلة قلبه » .

« ليس الشاعر من يخلق عواطف ويولد أفكاراً ، إنما الشاعر

من يمد أصابع وحيه إلى أغشية قلوبكم وأفكاركم ، فيرفع جانباً منها ، ويحول كل أبصاركم إلى ما انطوى تحتها فتبصرون هناك عواطف وتعثرون على أفكار ... هي أفكاركم ... ثم يترككم وإياها تستجلون ألوانها ، وتتفحصون معانيها ... عندها تستفيق أنفسنا إذا شعرت برعشة الحياة فى داخلها ، لأن الحياة فينا لا خارجا عنا ، وما التأثيرات التى تحدثها فينا الطبيعة أو الحياة الخارجية إلا منبه لما كمن فى داخلنا من العواطف والأفكار »

« الشاعر ترجمان النفس والشعر لغتها ... خيال الشاعر حقيقته ... الشاعر الذى يستحق أن يكون شاعراً لا يكتب ولا يصف إلا ماتراه عينه الروحية ، ويختمر به قلبه حتى يصبح حقيقة راهنة فى حياته ولو كانت عينه المادية قاصرة عن رؤيته .

... بين شعرائنا المعاصرين الذين فى شعرهم مدى ، أى قوى التفكير والعاطفة والبيان ، شاعر أقل ما يقال فيه إن لشاعريته وجهاً يميزها عن كل شاعرية ، ولألحانه رنة تعرف بها بين سائر الألحان ، وفى كل ما ينظمه نكهة تختلف عن كل نكهة . وبعبارة أخرى ، إن فى شعره شخصية لا تندغم فى شخصية أحد من الشعراء ...

* * *

ماهو الشعر ؟ هو نسمة الحياة . والذى أعنيه بنسمة الحياة ، ليس إلا انعكاس بعض مافى داخلى من عوامل الوجود فى الكلام المنظوم . والشعر الذى ينزل بفكرى إلى أغوار تحتها أغوار ، ويعلو به إلى سماوات تلوح من ورائها سماوات ، ويفتتح لخيالى آفاقا خلفها آفاق ، ويفسح لعاطفتى مدى يجرها إلى أمداء ، هو الشعر الذى تستأنس به روحى ، وتتفتح له براعم الحياة فى داخلى . ولابد للشعر من عاطفة وخيال يجعل من الشعر والموسيقى توأمين

ما هى الغاية من الشعر ؟ قوم يقولون إن غاية الشعر محصورة فيه ولا يجب أن تتعداه « الفن لأجل الفن » وآخرون يقولون إن الشعر يجب أن يكون خادما لحاجات الإنسانية ، وإنه زخرفة لا ثمن لها إذا قصر عن هذه المهمة . ولهذين المذهبين تاريخ طويل ... إنما نكتفى أن نقول إن الشاعر لا يجب أن يكون عبد زمانه ورهين إرادة قومه . ولكننا نعتقد أن الشاعر لا يجب أن يطبق عينيه ويصم أذنيه عن حاجات الحياة وينظم ما توحيه إليه نفسه فقط ، سواء كان لخير العالم أو لوبله ، وما دام الشاعر يستمد غذاء لقريحته من الحياة ، فهو لا يقدر إلا أن يعكس أشعة تلك الحياة فى أشعاره ... لذلك يقال إن الشاعر ابن زمانه .

يطول بى القول إذا أشرت إشارات عابرة ، أو وقفت هنيهة عند كل ما يستوجب الوقوف حياله من مواضيع هذا الكتاب الذى لا تبلى جدته ، ولا تنصل ألوانه . ويكفى أن أشير إلى موضوعات لامناص للأديب من قراءتها وإملاء الذهن منها ، كموضوع « محور الأدب » و « الرواية التمثيلية العربية » و « المقاييس الأدبية » و « الحباحب » و « نقيق الضفادع » و « الزحافات والملل » فكلها موضوعات تشخص الأدواء ، وتداوى العلل ، وتهول بالمبضع والمشرط على الضعفاء من الشعراء والكتاب .

من أوجه خصائص الأستاذ الكبير ميخائيل نعيمة أنه لم يكن فى « غرباله » الخالد موضوعياً بحتاً ولا ذاتياً بحتاً ، ولا متشرعا يسن السنن ويقنن القوانين ، بل كان « معلما » وقف فوق المنبر وقد أخذته الغيرة على الأدب ، وثارت نخوته ، نخوة الخائف على نهضة العصر أن تلوث فى باكورة انبعاثها ، فراح يصرخ صرخات الصدق والإخلاص ، ويشرح مؤلفات الأدباء والشعراء المعاصرين ، على طريقة المثال لا الحصر ، ولم يكن « مقلدا قط » بل كان « نعيميا » أى نسيج وحده فى القوة والتمييز والابتداع والخلق والرفق والشفقة ، وما كان قط مموهاً أو ممالقا ، لأن المموه المالق ليس بأديب ولا بمخلص للأدب ، ولو كان من كبار الكتاب والشعراء والمؤلفين .

حبيب الزحلاوى

هذا العالم المتغير :

الصم يسمعون بعيونهم

للاستاذ فوزى الشتوى

قد لا تمر فترة قصيرة حتى يسمع الصم بعيونهم ، أو بطريق آخر سيقرأون بعيونهم ما تنطقه شفتاك ، وليس من الضرورى أن يروك ، بل تستطيع أن تحدثهم بالتليفون فيقرأوا صوتك بذات الطريقة التى تقرأ بها هذه الكلمات

وقد يبدو لك هذا الحديث غريباً ، فتعال معى إلى أحد المعاهد الأمريكية لنرى رجلا ولد أصم ، ومع ذلك يتحدث بالتليفون إلى أحد معارفه عن طريق جهاز حديث يحول الحديث إلى مركبات . وكان الأصم يرقب لوحة صغيرة تترجم عليها الأصوات إلى صور أمواج ظاهرة تتباين باختلاف مقاطع الحروف والألفاظ فيعرف هو معناها ويجيب عنها بصوته كأى إنسان عادى

فالصوت — كما تعرف — يبدو فى لغة الطبيعة أمواجاً ، وهى نفس النظرية التى تنقل إليك الأصوات فى المذياع وفى آلة التليفون ، ولكنه بدل أن ينعكس ويرد إلى أصوات تسمع يسجل فى الموجات المرئية كما هى فى الطبيعة بالاستعانة بصمام يشابه الصمامات المستخدمة فى المذياع المصور (التليفزيون)

وهذا الجهاز الجديد فى حجم الآلة الكاتبة الجديدة ، وعلى لوحته يرى الأصم أمواج صوت محدثه كما يرى أمواج صوته هو، فيصحح أخطاءها إن حدثت ، فإنك تعرف أن الأصم غالباً مايكون أخرس أيضاً ، ولا سيما إن كان الصمم قد أصابه وهو صغير فلم يتعلم مخارج الحروف ولا طرق النطق . فتعليم اللغة وإتقانها عادة نحصل عليها بالتقليد ، كما أن القراءة والكتابة عادة أيضاً نحصل عليها بالمران ، وما هو معروف بطريقة الخطأ والصواب

فالطفل فى مهده يسمع أباه وأمه وجيرانه يتحدثون ويحاول تقليدهم ، فمرة يصيب ومرات يخطىء ، ويستفيد من خطئه كما يستفيد من صوابه ، لأنه ينحو إلى تصحيح أخطائه فى النطق كما يطمئن إلى نطقه المضبوط ، وبالتكرار يتعوده ويصبح جزء منه ومن ثم تختلف اللهجات كما تختلف اللغات .

فإن كان الطفل أصم فهو لا يسمع ، ومن ثم لا يقلد ، أو بطريق آخر يصعب عليه أن يتعلم الحديث فنطلق عليه لقب أخرس ؛ ولكن البلاد التى تعنى بتوفير الرفاهية لأكبر عدد ممكن من شعبها تسعى لتذليل هذه العقبة ، ومن ثم ظهرت فى أمريكا مدارس لتعليم الأطفال قراءة الشفاه ، فإذا لعبت شفتاك أمام عيونهم عرفوا ما تقول وأجابوك فلا تكاد تحس بأنهم صم .

ورسم الكلمات أيضاً شىء اصطلاحى تواضع عليه أبناء اللغة الواحدة ، فالعربى يرسم الفتحة الطويلة شرطة عمودية نعبر عنها بالألف، ويختلف عنه الانجليزى أو الصينى وإن كان الجميع يتفقون تقريباً فى نطقها . والطبيعة لا تعرف ما تواضع عليه الناس ولها كتابتها الخاصة التى تصور بها مخارج الألفاظ ورسم الحروف .

وكانت كتابة الطبيعة للالفاظ معروفة . ولكنها كانت كثيرة التفاصيل يعز على الناس التفريق بينها وفهمها فهما دقيقاً حتى تيسر أخيراً تبسيطها باستخدام مرشحات تبرز المقاطع الواضحة ، فمن سياق المعنى تعرف ما أقصد بكلمة (كتب) إن كانت كَتَبَ أم كُتُبٌ إلى غير ذلك من الألفاظ .

ولهذا التبسيط ميزته إذ هو يزيل اختلاف اللهجات ، فأجريت تجربة على ستة أفراد — ثلاثة رجال وثلاث سيدات — ولكل منهم لهجة تخالف لهجة الآخرين ونطق كل منهم بكلمة واحدة فكان شكل الموجة الصوتية واحداً فى الحالات الست برغم اختلافهم فى نطقها وحدتها ووضوح النبرات أو اندماجها .

وتكتب الطبيعة المخارج الصوتية بطريقة تخالف الطرق الإنسانية وتبذها فى التعقيد ، فبعض الألفاظ تظهر كثلاثة خطوط أفقية فى أعلى اللوحة وخط فى أسفلها وبعضها يبدو كالقارب أو مثل الثعبان مما يتطلب مراناً لا يقل عن المران الذى يتطلبه تعليم وسائلنا فى كتابة اللغات البشرية .

وقد قدر تعليم الصم قراءة الكتابة الصوتية بقدرتهم على تعليم لغة حركات الشفاه ، فوجد أن الأولى أصعب ولكن مواصلة المران لبعض أفراد فريق التجارب الأول أن يتلقى الإشارات التليفونية كأى إنسان عادى .

ومنذ فترة قصيرة أجريت تجربة هذا الجهاز أمام فريق من

رجال الصحافة وكان المتحدثان رجل اسمه بلوم وامرأة اسمها جرين ولدا أصمين ، خاطبته السيدة بقولها : « أهلا وسهلا يامستر بلوم ... وكيف حالك » . فأجابها على الفور « إننى بخير يا آنسة جرين أشكرك » واستمر الحديث بينهما مدة تناولا فيها عدة موضوعات وهما متفاهمان كل التفاهم .

ولا تزال هذه الطريقة فى تيسير الحياة للصم فى مرحلة التجارب وإن كانت الخطوات التى خطتها واسعة يسرت كثيراً من العقبات ؛ ولكن القائمين بأمرها يعتقدون أنها ستكون من خير الوسائل لتعليم الأطفال الصم وستخفف كثيراً من العناء الذى يلاقيه من يدربونهم على الحديث ويلقنونهم العلوم .

وهم يسجلون جميع المراحل التى تتناول صقل الجهاز وتبسيطه كما يسجلون مراحل تعليم الأفراد أيضاً ويقارنونه بشتى وسائل التعليم ليعرفوا أخطاءها فينقحوها ، وبواسطة هذا الجهاز تيسر إصلاح النطق الفاسد فى بعض الصم وإتقانه مما يبعث على الأمل فى تعليم الصم فى فترة أقصر .

ويتعلم الطفل الأصم فى سنته الأولى نطق ستة ألفاظ فقط ، فإذا بلغ سنته الثالثة فى المدرسة تعلم نطق ٥٠ كلمة ، بينما الطفل العادى يتعلم فى ذات الفترة ٣٠٠٠ كلمة وهو فرق كبير سيخفف منه ولا ريب رؤية الأطفال تصور موجات ألفاظهم الصوتية ومقارنتها بصور الألفاظ الصحيحة .

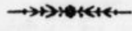
وأهمية هذا الجهاز الكبرى فى سهولة تعليم الأطفال أن ولدوا صما فنادراً ما يتاح للطفل الحصول على أى جانب من التعليم فيظل جاهلا طول حياته ويتعذر عليه أن يجيد صناعة يكتسب بها رزقه فضلا عن إحساسه بالنقص وتكون مركبه فى نفسه مما يقصيه عن المجتمع . وأعرف شابا بلغ العشرين من عمره ولكنه يهرب من أى إنسان يحاول الاتصال به فقد كون لنفسه بما رآه فى صغره فكرة جعلته سيىء الظن بالمجتمع وأناسه .

ومن أكبر المشاكل التى يعانيها والده كيف يوفر له الحياة وسبل العيش فى الحال وفى المستقبل ؛ فالأب يعول همه وهو حى وبعد أن يموت ، ولم يدرك وسيلة يمهد بها لمستقبل هذا الابن الذى لا يحسن عملا وليس فى وسعه الانخراط فى مهنة .

(البقية على صفحة ٥٦٢)

فكرة وصورة . . . !

للاستاذ عبد المجيد بن جلون



هذا خيالك قد برح ... نسى المحبة وانتزح
وهجرت أحلامى فلا ... طيف يزور ولا شبح
فكأن قلبى من كؤو ... س هواك يوماً ما اصطبح
وكأن روحى فى سما ... ئك يا فتاتى ما سبح
وكأن روض غرامنا ... بشذى الأزاهر ما نفح
وكأن بلبل حبنا ... بين الجوانح ما صدح
لم يبق بعدك يا فتا ... تى اليوم حزن أو ترح

* * *

ألفيت فيك مشاعرى ... ووجدت فيك مثالها
إذ كنت صورة فكرتى ... فهويت فيك جمالها
فالصورة الحسناء منـ ... ـك أنا اكتشفت خلالها
والفكرة الحسناء منى ... صرت أنت خيالها
لكن عبثت بحسنها ... فعزمت عنك زوالها
إذ خنت رونقها الجميـ ... ـل وقدسها وكمالها
فسلبت حسنك فكرتى ... وبهاءها وجلالها

* * *

فإذا أتاك حنين شعـ ... ـرى فى النسيم السائر
وذكرت ماضى بهجتى ... أيام حبى الغابر
وذكرت عهدك فى الدجى ... ذكر الحزين الساهر
فأنا أناجى فكرة ... لا صورة فى خاطرى
فالصورة الحسناء فانيـ ... ـة كأمس الدابر
والفكرة الغراء خا ... لدة خلود الشاعر
كانت وسوف تظل مل ... ء خواطرى ومشاعرى

عبد المجيد بن جلون



حول كتاب (الزواج والمرأة):

إلى الأستاذ الكبير الشيخ محمود أبو العيون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وبعد، فقد طالعت ملاحظاتكم القيمة على كتابي (الزواج والمرأة). وأبادر فأشكركم على كلماتكم الرقيقة التي تفضلتم فوجهتموها إليّ ثناء على مجهودي في الكتاب، ولقد تقبلت هذه العبارات على أنها وجهت إلي على سبيل المجاملة والتشجيع.

بقي أنكم أشرتم في رسالتكم أنكم كنتم تودون أن أبلغ نهاية الشوط مجلياً، فلا أغلو في الدعوة إلى منع تعدد الزوجات منعاً باتاً لأي سبب من الأسباب، ولاحظتم عليّ أنني أخطأت في فهم آيات القرآن، فربطت بين آيتي العدل في النكاح «وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» لأصل من ذلك إلى حد كاد يلغي معه هذا الحق أصلا

وأبادر فأقول إنني ما نازعت أبداً في حق المسلم في الزواج بأكثر من واحدة بمقتضى الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح، ولقد قلت في بدء الفصل الخاص بتعدد الزوجات ما يأتي بالحرف الواحد: «لا جدال في أنه من حق المسلم بموجب نصوص القرآن وسنة الرسول والصحابة ما جرى عليه إجماع المسلمين في فترة من الزمان أن يتزوج أكثر من واحدة، وأن يتزوج اثنتين وثلاثاً وأربعاً»

وهذه العبارة صريحة وقاطعة، فلا تحتمل شكا ولا تأويلا في أنني أعترف للمسلم في حقه في الزواج بأكثر من واحدة بمقتضى الكتاب والسنة، ولكنني بعد ذلك رحت أبحث الكتاب من الناحية العملية في وقتنا الحاضر، وأن التعدد في بلادنا قد أوجد مفاسد كثيرة وعمل على تفكيك روابط الأسرة إلى درجة أصبحت تهدد المجتمع المصري ما جعل الإمام المصلح الشيخ محمد عبده يدعو إلى منع تعدد الزوجات عملا بالقاعدة الشرعية «لا ضرر ولا ضرار».

وإذن فقد ناقشت الموضوع، لا من حيث الشريعة، ولكن من حيث الضرورات الاجتماعية في وقتنا الحاضر، واستندت فيما دعوت إليه إلى روح التشريع الإسلامي التي تهدف في هذا الأمر إلى التضييق، وتعتبر كل تقليد فيه فضيلة بحيث يمكن القول بأن تحديد الزواج بواحدة من أهم الأغراض التي تقرها الشريعة الإسلامية وتستحبها.

وقد سقت على ذلك الأدلة القاطعة التي تظهر روح الشريعة الإسلامية ورغبتها في الحد من هذا الحق واستعماله. وقد أشرت في آخر البحث إلى إمكان إعادة النظر في قانون تحديد الزواج والعودة إلى إباحة التعدد متى حتمت ذلك الضرورات الاجتماعية، فقلت بالحرف الواحد: «فإذا تخيلنا ما يشيرون إليه دائماً من

(بقية المنشور على صفحة ٥٦١)

ومثل هذا الأشكال موجود في كثير من بيوتنا المصرية وغير المصرية ولا ندري كيف نحله ولكن تهذيب هذا الجهاز ووضعه في متناول الناس سيتيح فرصة تعليم الأبناء الصم؛ فهم حين يحسنون الكلام يحسنون القراءة أيضاً، وعندئذ تتفتح أمامهم أبواب الفنون والعمل فيعرفون ما يقوله المدرس أو صاحب العمل

وقد تيسر بوسائل أخرى مكافحة الصمم فخرج من أبنائه المهندسون والأدباء وأصحاب حرف شتى وهم يمتازون دائما بدقتهم وحذرهم مما يعد نتيجة طبيعية لعلتهم.

ولم يزل هذا الجهاز في مرحلة التجارب. وفي الولايات المتحدة الأمريكية وحدها مائة ألف طفل مصابين بالصمم الكامل وعن طريقه يرجو الإخصائيون تخفيف متاعبهم وجعلهم أعضاء عاملين في مجتمعهم.

ومن البديهي أن الاستعانة بمثل هذا الجهاز ستوفر على كثير من الصم وتتيح لهم حياة أفضل حتى لا يكاد الإنسان يشعر بعلتهم، كما أنهم هم سيشعرون بأن العالم أقل غبنا لهم وأكثر ابتساما، ففي وسعهم بواسطته رؤية التمثيل والسينما وإدارة الأعمال بغير وسيط.

فوزي الشتوي

حدوث نقص فى عدد الرجال خطير ، بحيث يصبح عددهم نصف عدد النساء ، فإنه من الممكن فى مثل هذه الحالة الشاذة أن يعاد النظر فى قانون حظر الزواج بأكثر من واحدة ... فليس هناك ما يمنع تطور القوانين الاجتماعية بحسب الظروف والأحوال ، وهذه هى روح الشريعة الإسلامية »

وظاهر من ذلك أننى لست ممن ينكرون حق المسلم فى الزواج بأكثر من واحدة بمقتضى الشريعة الإسلامية ، وإننى لست ممن يغالون فى منع التعدد لأى سبب من الأسباب ، وكل ما هنالك أننى أرى فى ظروف مصر الحاضرة ما يجعل حظر التزوج بأكثر من واحدة من الأمور المرغوب فيها لإصلاح المجتمع وتثبيت دعائم الأسرة المصرية .

أما فى موضوع الطلاق ، فإننى على رأيى من أنه يجب أن يتم فى حضرة القاضى على أن يكون القاضى ملزماً بالحكم به بعد أن يعجز عن التوفيق بين الزوجين . لقد كان القدامى يعرفون قيمة الكلمة ، أما اليوم وقد انحلت الأخلاق ، فقد أصبح من الواجب ألا نجعل انحلال الأسرة وقفاً على كلمة يقولها شخص ما فى حالة غضب أو نزق ، وأحسب أن الشريعة الإسلامية التى تقرر أن أبغض الحلال عند الله الطلاق ، لا تأبى بحال من الأحوال أن يكون الطلاق على يد القاضى

وأنتهز هذه الفرصة لأقدم لفضيلتكم وافر شكرى وتقديرى ، وتفضلوا بقبول عظيم احترامى .

أحمد حسين

أمل الفلاح :

نشرت مجلة « الرسالة » فى عددها ٦٧٠ هذه القصيدة التى نالت الجائزة الأولى فى مسابقة الشعر البريطانية ، وهى قصيدة جيدة ترفع من قدر ناظمها ، وتشهد بعدالة المحكمين فى المسابقة وفهمهم للشعر ، غير أنه عن لى فيها مأخذان جديران بالملاحظة : الأولى فى قوله :

وما سرى فى أفقه كوكب إلا وغض الطرف من نحسه

فإن إقحام الواو بعد إلا لا تجيزه العربية ، لأن جمهرة العلماء مجمعون على أنه إذا أتى بعد إلا فعل ماض امتنعت الواو من الدخول عليه ، ويشهد لهم قول الله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) ، وقوله : (وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون) ، وقد حكموا بالشذوذ على قول الشاعر :

نعم امرءاً هرم لم تعر نائبة إلا وكان لمرتاع بها وزرا

والأخرى فى قوله :

واسقوه عذب الماء لا آسنا رنق (المكروب) من كأسه

فإنهم نصوا على أن (لا) إذا وقعت بين الصفة والموصوف وجب تكرارها قال ابن هشام فى كتابه (مغنى اللبيب) ص ٣٤٦ ج ٢ مانصه :(وكذلك يجب تكرارها إذا دخلت على مفرد خبراً أو صفة أو حال لا نحو زيد لا شاعر ولا كاتب ، ونحو جاء زيد لا ضاحكا ولا باكياً ، ونحو إنها بقرة لا فارض ولا بكر . وظل من يحموم لا بارد ولا كريم . وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية) .

ومهما يكن من شىء ، فإن مثل هذا لايغض من جمال هذه القصيدة وروعتها .

على جلال الدين شاهين

الملك :

قال لى صديق أمريكى وفد على مصر فى غضون هذه الحرب: « إن الملك قد أصبح على يد مليككم الشاب فناً جميلا ، فقد جمع بين القدوة والمثال »

ذكرت هذه العبارة يقولها رجل تذكى الغربة فى نفسه كوامن التطلع وأنا أكاد أفرغ من دراسة ديوان الشاعر المصرى محمود حسن إسماعيل « الملك »

وما نستطيع أن نضع هذا الديوان مع دواوين شعراء المديح، وهى فى العربية أكثر من الكثير ، فلم تتغن شاعرية محمود فى جلالة الفاروق لأنه « ملك » ، ولكنها تغنت بها لأنه « الملك » أى « القدوة والمثال » ، وأغلب الظن أنه فطن إلى هذا ساعة هدته فطرته إلى عنوان ديوانه ...

وما نستطيع كذلك أن نسلك هذا الشاعر المصرى وهو يسجل آيات المصرى الأول مع شعراء المناسبات ، وهو إنما كان المصرى الشاعر الذى استطاع أن يقول ما يريد أن يقوله كل مصرى فلا يستطيع !

ألم يخفق قلبك وقلبى لهذا الملك يصعد إلى أسوان ويجوس بين مصريين أضناهم المرض والإهمال فواساهم ونبه إلى العناية بهم وبأمثالهم ؟

ألم يخفق قلبك وقلبى لهذا الملك ينزل كالغيث فى الصحراء على الأعراب البائسين فى مضارب خيامهم يسعد فقيرهم ويبرى سقيمهم

ويحيى فيهم كيان الأسرة ، وهو يمنح الهبات للراغبين فى الزواج؟

ألم يخفق قلبك وقلبى لهذا الملك يلتفت إلى هؤلاء الذين أدمى الحفاء أقدامهم ، فكانت نداء بالعدالة الاجتماعية وبقظة الشعور الإنسانى بهؤلاء المكدودين العاملين ؟

ألم يخفق قلبك وقلبى لهـذا الملك يمد جناحه على الناقهين لا تستطيع المصحات إيواءهم فيعدمون الغذاء والمأوى ؟

ألم يخفق قلبك وقلبى لهذا الملك يكرم النوابغ من شباب المتعلمين ، فيدعوهم إلى قصره ويحفزهم على إذكاء شعلة العلم النافع والعمل الصالح ؟

ألم يخفق قلبك وقلبى لهذا الملك يوم تداعت الحدود القديمة وتهيأت الوطنية العربية للنهوض ، فكان أول من حمل لواءها وجاهد فى سبيل تحريرها ، فرأينا أرزة لبنان تغرس على ضفة وادى النيل وتحت شرفة الفاروق ؟

فإذا لم تتحرك شاعرية المصرى العربى محمود حسن إسماعيل بآيات المصرى العربى الأول ، ففيم تتحرك إذن وبمن تشيد ؟ ؟ !

ويقول بعض الأدباء الذين يغلب النقد على فطرتهم : ما لهذا الشاعر يكثر من ذكر النبت من زهر وثمر ، والأرض من نجاد ووديان ، والماء من نبع وغدير ؟

بل ماله يسرف فى ذكر الخمر وكئوسها وأكوابها ؟ وماله يسرف فى ذكر النيل والهرم ؟

حسب أولئك وهؤلاء أن يعلموا أن هذه الوحدات التعبيرية لم تقصد لذاتها ، وإنما قصدت للدلالة على وطن أو حالة نفس ، فهى رموز مشهورة ودلالات معروفة ، وإليك مثالا واحداً : القصيدة التى عنوانها «فاروق» ، فقد أورد فيها كثيراً من هذه الرموز ووضعها فى مواضعها الدالة عليها ، ولا على الشاعر إذا وقع على الرمز المشهور ، وقد تجلت عبقريته فى تأليف الصور وجمع الأحاسيس وعرض المعانى ، وفى ذلك تتفاوت عبقريات الشعراء ، بل وفيه تتفاوت آثار الشاعر الواحد بتفاوت موضوعه وانفعاله.

ومن الإنصاف أن نقول : إن شاعرنا كان شاعر الأمة المصرية العربية بهذا الديوان ، وإن هذا الديوان ليس من دواوين المديح ، كما يظن الأغرار ، وإنما هو من دواوين الوطنية الصادقة

عبد الحميد يونس

عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

العرب فى أندونيسيا وموقفهم من القضية الأندونيسية :

يقطن بلاد أندونيسيا عدد كبير من العرب نزحوا إليها منذ عهد بعيد من جنوبى جزيرة العرب ، وقامت بينهم وبين أهل تلك البلاد علاقة وثيقة تقوم على أساس الأخوة الإسلامية الوطيدة ، ووقفوا إلى جانب إخوانهم الأندونيسيين تجاه أحداث الزمن خيرها وشرها .

إن رسالة العروبة والإسلام رسالة واحدة هى رسالة المساواة والعدالة والحرية والمثل العليا للانسانية ، فلما قامت أندونيسيا تناضل عن سيادتها واستقلالها وقف العرب هناك إلى جانب إخوانهم الأندونيسيين فى هـذا النضال ، وهم الآن فى الجيش الأندونيسى يخوضون معهم غمار المعارك تحت علم واحد ، وفى سبيل غاية واحدة ، كما أكد لنا ذلك أعضاء الوفد الأندونيسى عند اجتماعنا بهم فى القاهرة قبل سفرهم إلى هولندا . ولا غرو فإن الهدف الذى تجاهد أندونيسيا فى سبيله هو هدف كل عربى وكل مسلم أينما كان على وجه الأرض ، بل هو هدف كل إنسان يؤمن بالحرية الإنسانية الحقة .

وقد سبق للعرب فى أندونيسيا فى مؤتمرهم الذى عقد بمدينة « سولو » بجاوة فى شهر مارس ١٩٤٦ أن وجهوا إلى سعادة الأمين العام للجامعة العربية ، وإلى الدول العربية نداء طلبوا فيه تأييد أندونيسيا والاعتراف بجمهوريتها .

ونحن نكرر هنا هذا النداء إلى جميع الدول العربية ، فإنها أحرى من يبادر إلى تأييد أندونيسيا والاعتراف بحكومتها الجمهورية

عرب أندونيسيا بمصر



يوميات جينفييف

للكاتب الفرنسي مارسيل بريفو

عضو المجمع اللغوي الفرنسي

بقلم الدكتور محمد غلاب

٢ – المواسي :

٢٦ مايو

ها أنذى منفردة هذا المساء أيضاً شأنى فى كثير من أمسية هذا العام ، فأين راءول الآن ياترى ؟

لم أسأله هذا السؤال ، لأنى تعبت من كثرة الكذب المستمر السهل على لسانه ، ومن تشابه الجواب دائما ، وهو « إنى ذاهب إلى النادى ، بيد أنه ينبغى أن أكون مخلصة ، ففى هـذا اليوم وضع نفسه تحت تصرفى وعرض علىّ أن أصحبه إلى منزل أحد أصدقائنا حيث تمثل رواية « الضابط » الهزلية ، ولكنى علمت ان الآنسة « دى جيفيرنى » ستمثل فى هذه الرواية دور « الساذجة المصرية » وهذا النبأ سلبنى كل رغبة فى مشاهدتها . أما راءول ، فهو لا ريب ذاهب اليها ، وكذلك مدام ديلافو من غير شك . وفى هذه اللحظة هو بجانب إحداهما ، وهو يلقى على صدريهما تلك النظرة التى هى مزيج من إعجاب وسخرية ، والتى يلقيها دائما على النساء اللواتى يشتهيهن ولا يحترمهن ، أما أنا ففى الوقت الذى كان يحبنى فيه لم يكن يلقى علىّ مثل هذه النظرات الساخرة ، ومع ذلك فلا ينبغى أن أفكر فى شىء من هذا ، إذ لدىّ ما يعزينى وينسينى كل شىء ، وهو طفلى العزيز ، ولقد أذنت لمربيته الليلة فى أن تتنزه ، وإذاً ، فأنا التى سألاحظه فى سريره .

إن رينيه نائم الآن على ظهره ، وهو يضغط شفتيه ، ويزقزق من حين إلى آخر كالعصفور الصغير ، فيجب ألا نوقظه ، لأنه إذا استيقظ من نومه الأول لا يغفو إلا حين يجىء موعد نومه الثانى إذ أنه ينام بنظام وفى أوقات معينة.

إن مربيته تقول لى إن الناظرين إليه فى الحديقة العامة يقدرون له أكثر من سنه ، ولعلها تقول ذلك لتسرنى ، لأننى أتمنى أن يكون أطول الأطفال وأقواهم وأجلهم وأذكاهم من غير استثناء ، إذ هـذه كبرياء الأم وأنانيتها ، وهى كبرياء مباحة وأنانية مشروعة فيما أعتقد .

ما ألذ لغة رينيه المكسرة على مسمعى ! ولقد تقدمت صحته قليلا منـذ بضعة أيام ، ومع ذلك فالطبيب يجىء ليعوده فى كل صباح . واليوم لم أستطع أن أحصـــل منه على جواب صريح يطمئننى على صحته كما كنت أرجو . وكلما أفكر فى ضعف صحة هذا المخلوق المعبود وأتخيل أن حمى خبيثة تستطيع أن تختطفه منى فى بضع ساعات ، أصير على أتم استعداد للجنون ، وعلى أثر هذا الخيال أنتصب واقفة وأجرى إلى مهده دون أن أشعر ، ولا أطمئن إلا حين أرى تنفساته تحرك الغطاء بنظام ، أو أرى فمه الحالم يلوك فى هدوء لغة النوم . وفى أثناء هذا كله ، وحين أكون ساهرة بالقرب من سرير طفلى يكون راءول مشغولا بالحصول على وعد من مدام ديلافو ، أو بمحاولة الاختلاء بالآنسة جيفيرنى لأن الأمر انتهى بى إلى أن أومن بأن هذه المنازلات لم تعد بريئة طاهرة ، فتجاربى الشخصية من ناحية ، وآراء والدتى من ناحية أخرى قد أزالت من نفسى تلك السذاجة التى كانت تغشيها إلى عهد قريب . لقد كانت والدتى تقول لى دائما : « إذا لاطف زوجك سيدة ، فكونى على يقين من أن الفرق بين المنازلة والخيانة هو منحصر فى غيبة الإمكان المادى ، فإذا تيسر هـذا الإمكان زال ذلك الفرق » . آه من المنازلة ! تلك الكلمة المرعبة المنافقة التى تخفى تحتها كثيراً من المزعجات التى كلما أسمعها تنطق أمامى أرتاع كما لو أنى أسمع إحدى الكلمات الوقحة الجارحة .

لكى أمضى الساعات التى سأقضيها ساهرة إلى جانب سرير الطفل ، دخلت حجرة تدخين زوجي التى يستقبل فيها أصدقاءه

الأخصاء ، لأتصيد منها بضع صحف أو مجلات أتلهى بها ، فوجدت « الفيجارو » و « جيـــل بلاس » و « الجولوا » و « الكلمة الحرة » فجمعتها ، لأتصفحها . غير أن راءول — لتفريطه فى النظام وإفراطه فى حسن النية — كان قد ترك حلقة مفاتيحه معلقة فى درج المكتب ، ولكن هل فتنتنى هذه الفرصة فخطر لى أن أتعقبه ؟ حقا إنى لا أعتقد ذلك ، بل إن الذى استولى علىّ فى هذه اللحظة هو حب الفرار من هـذه الفتنة فنجوت بنفسى نقية اليدين وعدت إلى حجرتى . وفى الحال دعوت الخادم جوزيف وهو أخلص الخدم إلى زوجى ، لأنه فى خدمته منذ أن كان صبياً ، وهو لهذا كان يعادينى ، فلما جاء أمرته أن يأتينى بالصحف فأتى بها ونزع المفاتيح ، وهذا هو الذى كنت أقصده لأنجو من هذه الفتنة الأخلاقية .

فلنقرأ الصحف لنتسلى بها إن بعض هذه الصحف تضايقنى لأنها جدية جافة ، أما البعض الآخر الذى يستعذبه شباننا من الإخوة والأزواج فهو ما لا أتذوقه ولا أفهمه . وهناك عدد من الصحف تؤلمنى مطالعته لأننى أرى فيه تشويه الأخلاق أو جرح الفضيلة . ومن هذا النوع الأخير هذه الصحيفة التى يقول عنها راءول إنها تُعْنَى بأخبار النوادى والحفلات ، وأنباء النساء الماجنات . وفى الواقع أنها كذلك حيث أرى الآن فيها هذا العنوان « الرجل الذى قتل كلبه بعد موت زوجته » . ولاشك أنى لا أفهم هـذا النوع الشائك من الأخبار ولا أستحسنه . وهناك نبأ آخر فى هذه الصحيفة يحدثنا أنه قد لُمِحَتْ أمس فى غابة بولونيا الآنسة « إيرماديكلوزبيه » و« مارجريت ديبورجونى » و « ميس شامبانى » . ولست أدرى أى شخص يعنيه هذا النبأ الذى استنفد إثنى عشر سطراً ؟ لا ريب أنه يعنى عشاق هاتيك النساء ولا بد أن يكونوا كثيرين حتى تكترث هذه الصحيفة بإرضائهم . فأما السياسة فسنتخطاها ، ولننظر حالا فى الحوادث المختلفة . ها هو ذا نبأ عنوانه « سيدة غيورة تطلق المسدس على زوجها » . مسكينات تلك الزوجات ! إنهن فى جميع الطبقات من أعلاها إلى أدناها هن المهجورات ، ولكن كيف يستطعن التصميم على قتل من أحببن ؟ !

والآن نلق نظرة على رسائل القراء التى يتخاطبون بها عن طريق الصحيفة ففيها شىء من التسلية ، لأنها تحوى طائفة كبيرة من المآسى والمهازل .

وبينما أنا أقرأ فى هذه الرسائل ، إذ رأيت الدنيا تضطرب فى عينى فجأة ، وأحسست كأن قلبى يتشرب كل ما فى جسمى من دم ، وسقطت الصحيفة من يدى ، ومال جسمى على المقعد بعد أن فقد توازنه الطبيعى . وظللت كذلك ساعة من الزمن ، فلما عدت إلى نفسى تناولت الصحيفة من جديد وحدقت فى نفس السطر الذى قلبت كيانى مطالعته ، وهو يشتمل على ما يلى : « ر . — سرور ! غداً مساء (السبت) . إنى نجحت فى أن أتخلص من هذا الريف المزعج ، وسأكون فى العش المختار فى الساعة العاشرة مساء ، ولكن لا تجئ إلا إذا كنت قد صممت على أن تكون عاقلا « الأمضاء » سوز » .

لماذا اقتنعت فى الحال ولأول وهلة أن حرف الراء رمز لراؤول زوجى ، وأن سوز هى سوزان ديلافو ؟ فأما التعقل المنطق فليس فيه ما يؤيدنى فى هـذا اليقين ، إذ لا أعرف أن مدام ديلافو غائبة عن باريس ، بل إننى قلت لراؤول محاولة المزاح قليلا : إنك سترى فى حفلة الليلة سوزان الجميلة ، فابتسم ابتسامة لم تلبث أن اختفت خلف لحيته السوداء ، ولم يحاول الدفاع عن نفسه .

فهل كان يجهل غيابها أو كان يسخر منى ؟ لا أدرى ، ولكن الذى أنا واثقة منه هو أن هذه الرسالة الصغيرة موجهة إلى راؤول من مدام ديلافو ، وأنى موقنة بهذا إيقانا لا يقبل الجدل وعن طريق خفى . إنى أعيد قراءة تلك السطور المرعبة كلمة كلمة ؛ وإن كل عبارة من عباراتها تبدو لى كأنها كائن حى . بالله ! إنها مبدوءة بهـذه اللفظة الماجنة : « سرور » حقاً إنه لسرور لها حينما تنفلت من زوجها معتذرة إليه لا أدرى بأى كذب ، لتلقى بنفسها بين أحضان أدنأ الجرائم وأشنعها ... سأكون فى العش المختار ... ! . إننى محتفظة بمواطفى ، ومع ذلك فلم أستطع أن أمنع نفسى من البكاء . « العش المختار ! » إذاً ، إن ما كنت أخشاه منذ زمن لحق ، وإنه لحق أيضاً أن

الرجل الذى منحته نفسى بوساطة الزواج يستمتع بحب فى باريس، وفى منزل آخر غير الذى أعيش فيه أنا وطفلى . غير أن الجملة الأخيرة من هذه الرسالة وهى : « لا تجئ إلا إذا صممت على أن تكون عاقلا » . هذه الجملة — على ما بها من رفع الكلفة المقزز — تركت فى نفسى شيئاً من الأمل ، إذ لو أنها تحبه لما قالت له هذه الكلمة . ها هى ذى حاضنة الطفل قد عادت من دار التمثيل ، فلنرسلها إلى غرفتها لتنام ، أما أنا فسأقضى الليلة هنا إلى جانب مهد ابنى ، ولعل وجودى بجانبه يحول بينى وبين اليأس ، وأما راؤول فلا أستطيع أن أراه اليوم مطلقاً . أوه يا عزيزى المواسى الصغير !

٣ — القلق :

٢٧ مايو

مبدأ حزين ليوم حزين ، فالسماء تمطر ، والمطر الحزين يتفق مع ما أنا فيه الآن من حزن وألم . وكل شىء يثقل كاهلى وجميع العوامل السيئة قد تكاتفت على إيهامى ، إذ أن الطفل قد أمضى ليلة سيئة وكان فى نهايتها شديد الهياج ، مرتفع الحرارة وإن كانت حالته قد تحسنت قليلا فى هذا الصباح . وأنا أنتظر الدكتور « روبان » بفارغ الصبر . أليس ذلك كثيراً على يا إلهى ؟ أو ليس فوق طاقتى أن ترسل إلى هذه المحن الأخرى على أثر الأولى ؟ لأنى الآن لم أعد أشك فى صحة ما ظننته ، إذ قد سألت راءول فى هذا الصباح بعد أن حاولت أن أكون هادئة فقلت : هل مدام ديلافو كانت أمس فى تلك الحفلة ؟ فتردد لحظة قبل أن يجيبنى ثم قال : « لا أظن ذلك ، لا ، إنها لم تكن هناك يقينا » .

ولكنى ألححت قائلة : « هل كانت غادرت باريس ؟ » فلما سمع هذا السؤال ظهرت على وجهه حركة جزع ثم قال فى غضب : — لا أدرى يا صديقتى العزيزة ! وهل أنا حارس مدام ديلافو ؟ ومع هذا فإنى أتوسل إليك ألا تحدثينى عن هذه الإنسانة التى تبغضينها ولا أدرى لماذا ، لاسيما وأنها تحرص دائما على أن تكون فى حضرتك غاية فى الكمال .

فى هذه اللحظة أحسست بألوان من الحقد تتجمع فى نفسى حتى منعتنى من أن أجيب على عبارته الأخيرة ؛ بل إنى لم أرد أن أنبئه بقلقى على الطفل ، فليكن ما يكون ، وليعبث كما يشاء ، ولينغمس فى اللهو خارج المنزل ، فأنا أريد أن أحمل مفردة عبء قلقى ، والطفل لم يعد ابنه فسأتولى وحدى شؤونه .

كانت الساعة العاشرة صباحا حينما دخل الخادم إلى غرفتى وأنا غارقة فى هذه الهموم ومعها علبة مليئة ببعض المشتريات ، ونبأتنى أن عاملا من أحد المتاجر الكبيرة التى نعاملها قد حملها إلى المنزل وكلفها إيصالها إلى ، ثم قالت الخادم : إن العامل منتظر خارج الباب ، لأنه ليس متأكدا أن هذه العلبة مرسلة إلى سيدتى ، فتناولتها فإذا عليها هذا العنوان : « مدام دى بواستيل » رقم ١٣ شارع فيزيليه .

هذا هو اسمى ، ولكننى أنا أسكن « فوبورسان أونوريه » لا شارع فيزيليه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن اسمى فى هذا المتجر « الكونتيس دى بواستيل » نبين أن فى الأمر شيئا أو أن هناك خطأ ، فدعوت العامل وقلت له :

— إننى لم أوص بشىء من متجركم ، فاحمل هذا وانصرف لأنى لا أدرى ما هو .

— يا سيدتى : نحن شككنا كذلك ، وظننا أن هناك خطأ ، لأن عنوان سيدتى عندنا ، بيد أن سيدى الكونت هو الذى جاء بنفسه فأوصى بهذا الطلب وأعطانا هذا العنوان؛ ولكن بما أنى ذهبت إلى شارع فيزيليه فلم أجد أحدا فى المنزل الذى عينه لنا ... وفى هذه اللحظة امتقع لونى ، فأدرك العامل أنه اقترف غلطة كبرى ، فصمت فجأة ، لأنه فهم كل شىء ، فتحاملت على نفسى وقلت له : حسن ما تقول ، ولكن احمل هذا فإنه ليس لى . قلت ذلك للعامل وانزويت فى غرفتى واستسلمت إلى البكاء .

وهكذا بعثت المصادفة إلى بسر زوجى ، فأنا كنت أعرف أن مدام ديلافو قد حددت هذا المساء لاجتماعها به . والآن أعرف كذلك أين مكان هذا الاجتماع ، إذ أن راؤول قد بلغ به الاستخفاف إلى حد أنه لم يحاول إخفاء اسمه فى هذا المنزل الذى اختاره للخيانة الزوجية . ولا ريب أن شريكته فى الجريمة تدعى فى ذلك المنزل بالكونتيس دى بواستيل ، فماذا يجب على أن أعمل ؟ أليس من واجبى أن أحول بين زوجى وبين الإجرام ؟

نعم قد كنت فيما مضى أمتعض من أن أقوم بتحقيق هذه الخيانة وأن أتعقب الجناة ، ولكن ما الذى يمنعنى الآن من أن أنذره ومن أن أجاهد ضد هذه المرأة ، لأصرفه عنها ؟

إننى أستطيع حين يعود راؤول للغداء أن أقول له : إنى عرفت كل شيء ، وأن أشرح له المصادفة التى أنبأتنى بالرغم منى. أجل سأشرح له ذلك ، ولكنه سينكر ، فقد تعلم الكذب بمعاشرته تلك المخلوقة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فأنا أصبحت لا أحسن المناقشة معه ، ولهذا أخشى أن تنتهى المسألة بمشهد عام . وعلى أثر ذلك سيخرج من المنزل جاذبا الباب وراءه بقوة كما هى عادته ، ثم يذهب ليتعشى فى النادى ويتجه بعد ذلك إلى شارع فيزيليه ، ليلتقى بعشيقته . فمن الخير إذاً ، ألا أقول له شيئا وأن أسبقه إلى ذلك المنزل فأقفه أمام الأمر الواقع بين زوجته وعشيقته ، وإذ ذاك لا يستطيع أن ينكر ، وله فى تلك الساعة أن يختار بينى وبينها . ولكن ما أفظع الانتظار فى الطريق وما أشنع تلك المقابلة وإن كانت هى الواجب !

الساعة الثانية بعد الظهر من اليوم نفسه :

— لقد جاء الطبيب ولم يطمئنى على صحة الطفل فحالته سيئة ودرجة حرارته مرتفعة وهو يبكى ويرتعد ، وكلما ألمس أى عضو من أعضائه الصغيرة أجده يتصبب عرقا . ولقد سألت الطبيب قائلة : هل هو فى خطر ؟ قل لى الحقيقة ، إننى أريد أن أعرف .

فهز رأسه وظهرت عليه علائم الشك ثم قال :

— خطر ... يا إلهى ... أنا لا أدرى ... فى هذه اللحظة هو محموم ، وهذا كل شيء ، والحمى يمكن أن تذهب كما جاءت . فسألته قائلة :

— وإذا لم تذهب ؟

— أوه ! إذا لم تذهب ، فإنها ستتطور إلى مرض من أمراض الأطفال مثل الحصبة أو الحبوب القرمزية .

— إنى آمل على الأقل أن لا يكون الجدرى .

الجدرى ! هذا هو الذى يروعنى ، إذ قد قرأت فى الصحف هذا الصباح أن ذلك الوباء قد بدأ يقل ، ولكن لا يزال له ضحايا . فهل الإله الذى سلب من تلك الأمهات المسكينات نعمة سرورهن وهى أطفالهن ، سيعافينى أنا من هذه الكارثة ؟

إن الطبيب لا يعرف ماذا يقول ، ولهذا ينطق بمثل الكلمات التى أنطق بها لأسلى بها نفسى ، وهى : أن الطفل فى صحة حسنة ، وأن مرضه إلى الآن ليس خطرا ، ولكن من المؤسف أن كل ما يقال لى لا يطمئننى .

اليوم لم نكد نتحادث على مائدة الغداء ، ومع ذلك فقد لاحظت على راؤول اتجاها حسنا ينعطف به نحو الاستسماح وكأنه كان يقوم بمجهود ، لأغفر له سوء المزاج الذى ظهر منه فى هذا الصباح أو الخيانة التى ينتويها فى هذا المساء ، وقد سألنى قائلا :

— هل الطفل أحسن حالا ؟

فأجبت قائلة :

— لا ، بل بالعكس ، إن ليلته كانت سيئة ، وإننى لقلقة .

قلت هذا والدموع تطفر من عينى غضبا بقدر ما كانت تطفر حزنا . فلما رأى هذا نهض واقفاً وأراد أن يقبلنى ، وإذ ذاك تذكرت تلك المرأة التى يلمس خديها وشفتيها أيضا ، فابتعدت سريعاً مدفوعة بغريزتى ولم يلمس منى إلا شعرى ، فعاد إلى مقعده ولاحظت عليه فى هذه اللحظة أن لونه صار شديد الامتقاع ، وتملكه الانفعال حتى كسر قاعدة كوبته ، ثم ظللنا ساكتين إلى أن انتهى الغداء . وعلى أثر ذلك ، وفى نفس اللحظة التى أخذ يشعل فيها لفافته صعدت إلى حجرة الطفل .

كن رؤوفا بى يا إلهى وساعدنى وامنحنى الثقة والشجاعة اللتين تمنح المرأة المتدينة إياهما فى وسط ما تبتليها به من أحزان ، فأنا أشعر فى قرارة نفسى أن قوتى لا تكفى لمقاومة هجوم كل هذه القلقات ، وأنا أعلن ضعفى وانهزامى أمام هاتين المحنتين ! يا إلهى اعف عنى ، فأنا لا أعرف إلا شيئا واحد وهو أنى أسألك أن تنجينى منهما كلتيهما ، فليس عندى من الشجاعة ما يجعلنى أحتمل أن يسلب منى راءول وربنيه ، وإننى أفضل أن تصعقنى أنا ، لأنى عديمة النفع فى هذه الدنيا ، ولأن أقدم اليك حياتى عن طيب خاطر خير من أن أقدم أمانة زوجى أو صحة طفلى .

(يتبع) محمد غلاب

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧٣ – الاثنين ٢٧ مايو ١٩٤٦ – السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

وزارة الأوقاف

جلسة الخميس ٦ يونية سنة ١٩٤٦ لبيع العقارات الآتية

نوع العين	المساحة بالمتر	الموقع	الثمن الأساسى	جهات الجلسة
٤ ط فى خربة	١٣٤٢ بالكامل	١٠ و ٢٣ خان أبو طاقية بالجمالية	٦٧١	تفتيش أول بمصر
٦ ط فى دكان	٨ «	٤ حارة الصاغة «	١٤٠	« « «
دكان	١١	½ بشارع العشماوى بالموسكى	٣٠٠	« ثان «
دكانان	١٥	٢ألف و٢ب بدرب المقدم «	٩٠٠	« « «
دكان	٧	١ ألف « « «	٣٠٠	« « «
قهوة ودكان	٨٧	٧ شارع الدشطوطى باب الشعرية	٥٨٥	« « «
١٧½ ط بعربخانة	٩٤ «	٣ عطفة التبنى بسكة المناصرة	٢٣٨	« « «
أرض	٤٨	٤ تبع ٢٢ ب شارع القادرية	١٢٠	« ثالث «
«	٣٥	٢٢ ألف « «	٨٠	« « «
«	٩٥	٦ « «	٣٠٠	« « «
«	٨٥	٢٤ « «	٤٠٠	« « «
«	١٥٦	١٨٤ شارع بدر الدين الوفائى	٢٢٣	« « «
دكانان	٦	ناصية شارع الصليبة وحارة العسل	١٠٠	« « «
منزلان	١٥٦	٦و٨ حارة التبان بعابدين	٧٠٠٠	« سادس
منزل ومضيفة	٦٣٤	حوض أم الحصا بالصالحية فاقوس	١٥٩	منطقة فاقوس

14 me Année No. 673

Lundi—27—5—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ـــــ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٧٣ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٥ — ٢٧ مايو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الله وما بعد الحرب !

للأستاذ عباس محمود العقاد

سئلت فى أواخر الحرب عن الموضوعات الأدبية التى ستكثر الكتابة فيها بعد عودة السلام ، فقلت : إنها هى الموضوعات الروحية والموضوعات الجنسية .

وسبب الإكثار من الكتابة فى كلا الموضوعين واحد وهو الحيرة وقلق النفوس والرغبة فى السلوى والاستقرار .

فالذين فقدوا الأعزاء يحبون أن يشعروا بعالم الأرواح ليشعروا « بوجود » أولئك الأعزاء وأنهم غير مفقودين .

والذين يئسوا من حكمة البشر يحبون أن يركنوا إلى حكمة الله ، لأنهم لا يستريحون إلى اليأس من الأرض واليأس من السماء .

والذين غلبتهم الأحزان والآلام يحبون أن يغلبوها بقوة الإيمان ، وأن يقابلوا شيئا من الخوف بشىء من الاطمئنان .

قلوب تشعر بالهم والقلق وتحب أن تشعر بالسلوى والاستقرار ، ولهذا يكثر البحث عن الأرواح والكتابة فى مباحث الأرواح

ولكن القلق الإنسانى قد يلتمس السكينة من طريق غير هذه الطريق .

فالأجسام المستثارة تطلب الراحة فيما يلهيها وما يلذها ، وتهيىء لها الأسباب فى مجال اللهو واللذة أن الحرب تركت مئات الألوف من الفتيات بغير أزواج وبغير عائلين ، وأنها تركت ألوف الألوف من الدنانير فى أيدى العاطلين أو أشباه العاطلين ، وأنها علمت الناس أن يحفلوا بساعتهم ولا يحفلوا بما بعدها ، وأن يستمتعوا بالحياة لأنهم على نذير فى كل لحظة بفقد الحياة .

لهذا يكثر الإقبال على موضوع الجسد كما يكثر الإقبال على موضوع الروح ، ولهذا توقعنا أن تنجلى الحرب عن إقبال عظيم على متاع هذه الدنيا وإقبال مثله على متاع السماء .

وانتهت الحرب فرأينا أول الشواهد على شيوع الدعوة الدينية من قبل العالم الاسلامى فى الهند خاصة ، وسرنا أن يتيقظ المسلمون فى هذا المجال مع الايقاظ ، فإن النوم فى هذا العصر يضيع على صاحبه الحقيقة ويضيع عليه الاحلام .

وجعلنا كلما قلبنا مجلة من المجلات السيارة فى الغرب رأينا فيها دليلا على هذه اليقظة الروحية وهذا الشوق العريق فى النفس البشرية إلى عالم غير عالم الحس والعيان .

ومن أمثلة هذه اليقظة تحفز العالم البروتستانتى فى الولايات المتحدة لاستعادة سلطان الكنيسة على اتباعها وإدخال التعليم الدينى فى جميع المدارس العصرية . فإن رؤساء الكنيسة هناك يستميرون عنوان ويلكى « للعالم الواحد » لينشروا الدعوة إلى « عالم واحد فى ظل العقيدة الدينية » ويودون لو هيأت الحرب ومنازعاتها فرصة للسلام بين الأديان أو فرصة لاتفاق الناس فى عالم الروح .

قال خطيب منهم فى المجمع البروتستانتى بمدينة نيويورك :
« إن الدين خليق أن يكون أكبر القوى الموحدة بين الأسرة البشرية . فهى تعرف به قوة إلهية واحدة وقانونا أخلاقيا واحدا وأسرة واحدة من بنى الانسان . ولكنه على نقيض ذلك كان عاملا من أكبر عوامل التفريق والتمزيق بين كل قبيل ، ومهد القدر لذلك الايرلندى الساذج الذى أحزنه طول الخصام بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية فقال : ليت الله يجعلنا كلنا ملاحدة ننكر وجود الله أصلا لنعيش معا بعد ذلك كما ينبغى أن يعيش المسيحيون ... فى سلام ! »

وقال هذا الخطيب هارى ايدسون فوسديك — إنه لا يعنى بالوحدة الدينية أن المسيحية مثلا تعلم أتباعها ما يتعلمه البوذيون من دياناتهم أو من البيئة البوذية ، ولكنه يلاحظ أن الذين سعدوا بعشرة أناس من البوذيين أو المسلمين المهذبين يحسون شيئا من القرابة بين المؤمنين بهذه العقائد الدينية ، ويرجون صادق الرجاء أن تتيح لهم هذه القرابة سبيل التعاون على بلوغ الغاية المشتركة التى ننشدها أجمعين .

وعند الخطيب أن الخلافات الدينية قد نشأ أكثرها من الجدل العقيم ، ويضرب لذلك مثلا رواه عن لويد جورج السياسى البريطانى المشهور بفكاهاته الجدية وفكاهاته الهزلية على السواء . قال إنه كان يسوق سيارته فى بلاد الغال الشمالية ومعه صديق يتحدث إليه فى شؤون الديانة ، فقال السياسى الكبير : « إن الكنيسة التى أتبعها تتمزق الآن بنزاع عنيف على مسألة التعميد ، فطائفة منها تقول إن العماد إنما يحصل باسم الأب ، وطائفة أخرى تنكر هذا وتقول : بل يحصل العماد إلى إسم الأب ولا يحصل بحرف الباء . وإننى لا أكتمك أننى تابع لاحدى هاتين الطائفتين وأننى شديد الغيرة عليها وعلى استعداد لموت من أجلها . ولكننى نسيت أى الطائفتين هى التى أتبعها ... طائفة « أى » أو طائفة الباء !

وما رواه لويد جورج من باب الفكاهة هو الحاصل جدا وفعلا فى جميع الديانات الكبرى . فإن الشيع التى تتفرق فيها إنما تختلف أحيانا على شىء أيسر من الاختلاف بين حرفى الجر الصغيرين ، ولكنه اختلاف يكفى كل طائفة من طوائفها لتكفير الطائفة الأخرى وإرسالها مع المنة إلى قرارة الجحيم !

وإذا جاز هذا فى عصر الجدل فإنه لغريب جد الغرابة فى عصر المشاهدات والأعمال . فقد كان « البرهان الجدلى » أساس المعرفة كلها سواء فى العلوم أو فى العقائد والأخلاق . فأما وقد أصبح لهذا « البرهان الجدلى » شركاء لا يقبلون منه استبداده المطلق فقد آن لحروف الجر وما شابه حروف الجر أن تقنع بمكانها فى الأجرومية ، أو أن تستغنى عما يسفك حولها من المداد عما كان يسفك حولها من الأرواح .

وقد أشار الخطيب الأمريكى بحل لهذه المعضلة لا يبشر بالخير الكثير ، لأنه يرجع بالخلافات التى من هذا القبيل إلى إباحة التفسير الدينى لمن يشاء من قراء الكتب المقدسة ، فكلما اتفق خمسة أو ستة على تفسير جديد لكلمة من كلمات الانجيل خرجوا من كنيستهم وأنشأوا لهم كنيسة جديدة تنتمى إلى رئيس جديد ، حتى عدت هذه الكنائس المتشعبة بالعشرات وصح فيها قول لويد جورج إنهم يختلفون ثم ينسون سبب الخلاف .

وإذ كان هذا هو الداء فالعلاج الذى يومىء إليه الخطيب أن يناط التفسير بالقادرين عليه ولا يستباح لكل مستبيح من العامة وأشباه العامة ، فينحصر الخلاف إذن فى أضيق الحدود .

ولكنه علاج غير جديد فى الديانات ، فقد كان « حق التفسير المحصور » علة الانشقاق ومبعث الهجوم على حرية التفسير .

وإنما العلاج الجديد الذى يرجى أن يفيد فيما نعتقد هو توسيع حق التفسير حتى لا يكون فيه حرج على أحد ولا يوجب من فريق أن يعادى الفريق الآخر كلما عارضه فى تفسيره . فتوسيع الأفق هو خير علاج لضيق الحظيرة ، وقلة الصبر على فوارق الكلمات والحروف ، وإقامة الدين على الأسس العامة هو العاصم للدين من تفتيت العقائد فى الزوايا والسراديب . فليشمل الدين جميع المختلفين إذن ماداموا متفقين على الإيمان بقواعد الحق والخير والصلاح ، وليذهب عصر الجدل الكلامى ليخلفه عصر الوحدة الواقعية التى تقوم على اتفاق المعقول فى النظر إلى حقائق الوجود .

وقد أحسن الخطيب الأمريكى فى كلامه عن الفصل بين

الدولة والكنيسة لأنه يقول إن الفصل بينهما قاعدة أساسية فى حكومة الأمة الأمريكية ، ولكنه ينتقده إذا فهم القوم من معناه أن تعليم الأديان محرم فى المدارس وأن تعليم الإلحاد فيها مباح ومطلوب .

ففى الوقت الذى تدرس فيه كتب « فرويد » ويتعلم منها الناشىء أن الديانات وهم من أوهام العقل الباطن وحيلة من حيل الغريزة الجنسية ، ينبغى أن يتفتح عقله لسماع كلام غير هذا الكلام عن دعاة الروح وسير القديسين والأنبياء ، وينبغى أن يتوازن تفكيره بين وجهات النظر حتى لا يصبح التحيز إلى جانب الإلحاد آفة عقلية شرا على رأس الناشىء من التعصب الدينى الذميم ، ومن ضيق العقل فى ناحية الإيمان والتسليم .

وهذا كله صحيح لا يختلف فيه المنصفون . فهما يكن من شأن الدين فهو تراث إنسانى عريق الأصول شديد السلطان على العقول ، فليس فى وسع أحد أن ينساه أو يتناساه فى دور التنشئة والتعليم . وليس من العقل نفسه أن يستخف بقوة كهذه القوة كأنها قد خرجت خروج الأبد من ميدان الحياة الإنسانية فإن الذى يريد أن يخرجها خروج الأبد لم يثبت هو نفسه على قدمين بضع سنين ! ! وقد رأينا المبشرين بالفلسفة المادية فى روسيا الشيوعية يحنون الرؤس أمام هذه القوة ويفسحون لها الطريق مكرهين ، فإذا كانت فى هذه التجربة عبرة « عقلية » أو « علمية » فعبرتها العقلية والعلمية أن قوة الدين حقيقة راسخة لا يستأصلها كل من يريد ، وهو لا يدرى ما يريد .

***

وفى مجلة إمريكية — هى مجلة هارپر المشهورة — بحث آخر عن الموضوعين : موضوع التقاليد الدينية وموضوع الغريزة الجنسية ، يقول فيه الكاتب — جون مكبارتلاند — إن معيشة الشعب الأمريكى فى الأجيال الثلاثة الأخيرة قد تغيرت إلى مدى بعيد ، ولكن العقائد الدينية والقواعد الأخلاقية لم تصاحب هذا التغيير إلى أقصى مداه ولا إلى بعض مداه . فنحن الأمريكيين اليوم نحب النهود والأفخاذ لأننا نشاهدها كلما فتحنا صحيفة أو ذهبنا إلى الصور المتحركة أو نظرنا إلى غلاف رواية ، ولكننا نستعيذ منها فى « البيئات المحترمة » كأنها رجس من عمل الشيطان ، فما مصير هذه « الثنائية » الكاذبة فى المعيشة والأخلاق ؟

مصيرها تدل عليه وثائق الزواج والطلاق . فقد أحصيت نسبة الطلاق فى أربعمائة ألف وخمسين ألف زواج فإذا هى تربى على تسع وتسعين فى المائة ... فهلا تكفى هذه النسبة لإعادة الحجر على الموضوعات الجنسية أو عندك أيها القارىء — كما يسأل الكاتب الأمريكى — علاج جديد ؟

ونقول : بل العلاج الجديد غير بعيد .

فالعلاج الجديد فى عالم الروح ، ولكنه الروح الرشيد الذى لا ينكر الجسد كما أنكره الأقدمون ، وفى هذا الميدان متسع لدعاة الإسلام « الراشدين » الذين يوسمون الآفاق ولا يضيقون الخناق ، لأن الإسلام دين يعرف للجسد حقه ولا يناقض بينها وبين حقوق الروح .

عباس محمود العقاد

٣- فى مقالين :

هل حاسم لمشكلة الأزهر ، ومستقبل الجامعة الأزهرية

للاستاذ محمود أحمد الغمراوى

معذرة أيها الأستاذ الكريم ، وعتبا !

لم أقصد — شهد الله — أن أهمز أو ألمز ، أو أرمى بعبارة ، أو أومىء بإشارة ، إلى ناحية الرسالة ، أو مكان رئيسها العزيز الكريم . وما كنت يوما بذى وجهين ، ولا أنا ممن يتكلمون بلسانين ، وأرجو أن يكون الله يعلم ذلك منى ولم يكن للرسالة عندى ، وليس لصاحبها الجليل فى نفسى ، إلا التقدير والاحترام ؛ وإلا ما عنيت من أنه ابن الأزهر البار ، البارع الفن ، المعتدل الرأى ، الذى يعده الأزهر فيمن يعدهم من مفاخره ، ويعتز بهم جنودا يدفع بهم عن كونه فى مستقبله وحاضره ! ؟

إنما كان من سوء حظى وسوء حظ الأزهر أن جرى قلم الأستاذ الفاضل برأى لم يسبق للأزهر أن سمعه فيما سمع من دعاوى تقام عليه ، وتهم توجه إليه ، وسهام تصوب عليه . وآخر ما كان يجرى على ألسنة أولئك الذين يرون الأزهر قذى فى الأعين وشجى فى الحلاقيم : أن الأزهر تنقصه الثقافة ، وتعوزه اللباقة والحصافة : وأنه لا بد من توحيد تخريج المعلم ، ليصقل خريج الأزهر بصقال العصر الحديث . هذا أشد ما كانت تلوكه ألسنة المتجنين على الأزهر أو ترمى به نبال الجانين عليه : سمعناه غير مرة فيما شهدناه من مجالس اجتمعت فيها لجان ألفت لبحث ما كان يسمى بمشكلة تخريج المعلم ؛ على أننا لم نسمع من أحد ممن جلسنا معهم من أعضاء هذه اللجان وتحاورنا معهم : لم نسمع من أحد من هؤلاء ، وهم من كبار رجال المعارف المسئولين ، وعظمائهم المعدودين ، لم نسمع كلمة منهم تومىء إلى مثل ما جاء فى الرسالة من أنه يجب تعديل نظام التعليم فى الأزهر تعديلا يقتطع ست سنين من مدة التعليم فيه لتحقق وحدة الثقافة التى تتوقف عليها وحدة الأمة .

فهل يلام الأزهر إذا جزع لسماع هذه الكلمة وإذا رآها مكتوبة فى إحدى صفحات الرسالة بقلم مديرها المفضال ؟

يا لهول الموقف ! نظام الأزهر القائم يأبى وحدة الثقافة ولا يرضاها ، ووحدة الثقافه تتوقف عليها وحدة الأمة !

أليس معنى ذلك أن نظام الأزهر القائم خطر على وحدة الأمة لأنه يأبى ولا يرتضى الثقافة التى تتوقف عليها وحدة الأمة ؟ وهل هذا إلا إلقاء الأزهر فى فوهة المدفع ؟ ومن ذا يستطيع أن يكون حجر عثرة فى سبيل وحدة الأمة ؟

وهل الأزهر : أرضه ، وسماؤه ، وبناؤه ، ورجاله ، وأبناؤه إلا فداة الوطن والعرش ، وبناة وحدة الأمة : يفدون الوطن والعرش بحياتهم وأرواحهم ، ويشيدون بناء وحدة الأمة بعقولهم وجسومهم ، ودمائهم !

أجل ، إنه كان من سوء حظى ومن سوء حظ الأزهر أن تسطر هذه الكلمة بقلم الأستاذ الزيات ، وأن تقرأها أعين الناس على صفحات الرسالة . فإذا كان فيما كتبت ما رأى الأستاذ فيه تعريضا ، فإن ذلك موجه إلى الرأى وحده ؛ وليس موجها إلى رائيه أو حاكيه ، فإنى لا أرتاب فى حسن نيته ، ثم أعود إلى الموضوع .

٢ — إنشاء جيل قادر على الاجتهاد والتجديد :

إنشاء جيل من العلماء العاملين القادرين على الاجتهاد والكشف عن حكم الدين ويسره ، وسماحة الشريعة فيما تضمنته من الأحكام هو أمنية كل مؤمن ونشدة كل مسلم يود أن تكون الأمة الإسلامية حيثما توجد جماعاتها عزيزة فى أوطانها ، سعيدة فى حياتها ، تستمد القوة والعزة من اعتصامها بالدين ، وتجد طمأنينتها وسعادتها فى ظل شريعته الوارف الظليل ، وتدفع الظمأ بما تستنبطه من ينابيع هذه الشريعة العذبة الموارد الغزيرة الفيضان . ولقد كان الأزهر من أهم المدارس الدينية التى يرجى أن تسعف الأمة بحاجتها من أولئك العلماء المبرزين ، وقد أخرج للأمة كثيرا من كبار رجال العلم فى مختلف العصور ممن يشار إليهم بالبنان من الفقهاء وحفاظ الحديث ، وعلماء اللغة ، ورجال القضاء ممن أوفوا بطلبة الأمة إلى هذا المعهد الأخير على قدر زمانهم .

أما الاجتهاد فى الدين فليس من حق الناس فى هذا الزمان

أن يتطلعوا إليه ، أو يتـكلموا فيه وهم لا يعنون بشئون دينهم ، عنايتهم بنظافة أحذيتهم ؛ وقد جعلوا من سفائن البحر مراكب ليقطعوا بها المهامه والفلوات ، وأعدوا من النوق والأبعرة سفنا يشقون بهـا عباب بحر الظلمات . ثم هم لا يريدونه دينا يرقى بالإنسانية إلى ذروتها العليا ، ويسمو بآخذيه إلى أعلى منازل العزة والقوة والمجد ، فلا يرضى أن ينزلوا منها فى المنازل الدنيا ! .

ولـكنهم يريدون أن يتخذوا لهم دينا على غرار ما كان يتخذ بعض العرب معبوديهم فى أزمنة الجاهلية ؟

يريدون أن يستخدموا لهم دينا من الحلوى ، إن طاب لهم أكلوه وإذا لم يوافق شهواتهم تركوه !

يريدونه ديناً يحطب فى حبال رغباتهم ؛ ويفرِّى ما شره من شهواتهم ؛ ويطعمهم الخبيث من لذاتهم ، فهم فى غيهم يعمهون ، وما الله بغافل عما يعملون .

***

ثم أعود إلى ما كنت فيه من الحديث عن الأزهر الذى قد وضع فى مفترق الطرق . فاذا كانت مهمته وغايته هى — كما قال الأستاذ الزيات بحق — أن يفقه الناس فى الدين وفيما تفرع من أصوله من شتى العلوم ، وأن يعلم اللغة وما اتصل بآدابها من مختلف الفنون — فالأمر بين ؛ والطريق غير مشتبه ؟ فلتترك له نظمه وأقسامه الابتدائية والثانوية تعد الطلاب لدراساته العالية فى الـكليات الأزهرية مع تعديل قليل فى وضع المواد التى تدرس فى هذه الـكليات وليحمل الطلاب على احترام النظام ودراسة المقررات . وبقاء الأقسام الابتدائية والثانوية على نظامها الحالى الذى يعد الطلاب للدراسة فى الـكليات الأزهرية هو الوسيلة الوحيدة التى تمـكن الأزهر من أداء مهمته وتحقيق غايته ، كما أن نظام الدراسة فى المدارس الابتدائية والثانوية يعد طلاب هـذه المدارس للدراسة فى كليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها كما هو واضح من نظم الدراسة ومناهجها فى هذه المدارس. ومحاولة جعل النظام الدراسى فى معاهد الأزهر الابتدائية والثانوية على غرار نظام المدارس الابتدائية والثانوية التى لوزارة المعارف سيجعل من الخرافة التاريخية التى تروى للأطفال فى قصة الغراب والقطا قصة واقعية نرجو أن لا تمثل فى الأزهر .

إن الأزهر لا تزال فيه بقية من الذماء ، وصبابة فى الإناء ، هى هذه البقية الصالحة من الغراس النافع الذى امتدت بالإحسان به إلى الدين وإلى الوطن الإسلامى العام يد الملك العظيم المغفور له الملك فؤاد ، طيب الله ثراه ، وخلد بأعماله الصالحة الباقية ذكراه، وجعل الجنة مأواه .

فهذا الغرس الصالح الذى غرسته يد فؤاد المباركة ، وهذه الصبابة النافعة الباقية من بركات يده وسيبه الجزل جديران بأن ينالا حظهما من عطف شبله العظيم ، ورعاية نجله الملك الهمام جلالة الملك فاروق ، أيد الله عرشه وأدام ملـكه محروسا بعناية الله ، ليؤتى هذا الغراس العزيز أكله ، ويثمر هذا الزرع المبارك بفضل من عطف جلالته ثمره ، فإن العهد بجلالة الفاروق (حفظه الله) الحفاظ بما تركت يد والده من غراس — وكل غراس له صالح ، وتعهده بما يكفل له النماء والبقاء .

وهذا النظام الإصلاحى الباقى فى الأزهر شبحه لم تكلأه عين ساهرة ، بل شغلت الشواغل الخارجة عنه تلك الأيدى الماهرة . ثم انه لم يوضع عفوا ، ولم يجعل لهوا ؛ ولـكنه ألفت له اللجان ، وتصالحت فيه الحجان ، ورفعت له البنود ، وتزاهت فيه البرود . فمن الحيف عليه ، والتخون لواضعيه أن يوأد وهو وليد ، أو يشوه خلقه وهو غصن جديد .

والأمل معقود بعطف جلالة الملك المعظم فى الإبقاء عليه حتى يشتد هذا الفطيم وينهض قائما على ساقيه ، ويعدو فى ميدان الحياة سباقا على قدميه . وهـذا ما نرتقبه للأزهر بهمة شيخه الجديد حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق وفقه الله وأعانه وحقق على يديه الآمال .

وأختم كلمى كما بدأته باسداء أكرم التحيات إلى الأستاذ الزيات مدير « الرسالة » ممجداً فيه حرية الرأى ، ورحابة الصدر ، وبراعة الفن ، وبلاغة القلم . والسلام .

محمود أحمد الغمراوي

المفتش بالأزهر

وشيخ معهد دسوق والزقازيق سابقاً

شيخ في مرقص !

للأستاذ على الطنطاوى

— ١ —

كنت أصلى أمس فى مسجد العباس ، فلما قضيت الصلاة وتلفتُ للسلام لمحت (فلانا) فكذبت بصرى وعدت إليه أتثبّته فاذا هو بلحمه ودمه ، وإذا هو يصلى صلاة خاشع لله متبتل أواب ، وكان آخر عهدى به أنه ركب فى طريق الغواية رأسه ، وأقدم إقدام الفرس الشّموس ، نخبّ فى الضلال ووضع ، وأغار وأنجد ، ثم انتهى به الخبط إلى الهاوية ، فوقع (على أم رأسه) فى اشتهاء راقصة مشهورة ، وحسب هذا الاشتهاء حبا كالذى قرأ وصفه فى الروايات فصنع مثلما يصنع المجنّون : نسى عقله ودينه ، وجاد بقلبه وماله ، وعرفت منه الفاجرة هذه الحماقة ، فاستنزفت دم (جيبه) وماء قلبه ، ثم لم توصله إلى إربه ولم تمتعه بحبّه ... وكان له ضمير يناديه فأعرض عن نداء ضميره ، وكان له إخوان ينصحونه فسدّ أذنيه عن نصح إخوانه ، فلما يئسوا منه ومن صلاحه انصرفوا عنه وتركوه لنفسه وللراقصة ولإبليس ، ثم للمرض والفقر وجهنم !

... فلما رأيته فى المسجد عجبت وانتظرته حتى فرغ ، فأقبلت فسلمت عليه وسألته ، فقال : إن حديثى عجَب ، وإنى لا أحب أن أتحدث به فى بيت الله فتعال معى إلى بيتى تسمع حديثى ...

***

وحدثنى فقال :

إن الفضل علىّ فيما رأيت من توبتى لله ثم للشيخ صلاح الدين أحسن الله إليه ، فلقد هدانى الله به وهدى أقواما بعد إذ كانوا ضالّين . ولقد عرفت رجالا شجعانا أولى عزم وإقدام ، وسمعت أخبار العلماء الذين واجهوا الملوك بما يكرهون ، وأحاديث أهل الجراءة والصدْع بالحق ؛ ولا والله ما سمعت ولا عرفت بأجرأ من هذا الشيخ ، ولا أثبت منه جَنانا ...

قلت : إذْ صنع ماذا ؟

قال : إذ وعظ فى المرقص ! أما سمعت الحكاية ؟ لقد استفاض خبرها وتناقلته الصحف ، وكان حديث السّوامر أياما طوالاً ... وذلك أنه نظر فرأى طلاب العلم لا يزالون ينقصون ، ورأى الناس ينصرفون عن المساجد فلا يحضرها إلا الكهول والعجّز ، وما يحتاج هؤلاء الوعظ إنما يحتاجه الشباب . وسأل أين الشباب ؟ فأجلّوه عن أن يخبروه ، ثم قالوا : إن الشباب فى السينمات والمراقص ونوادى القمار ... قال : وما السينمات والمراقص ؟ لم يكن الشيخ يدرى ما هى ، ولم يكن يعرف من الدنيا إلا مسجده وداره ، ولا يسمع إلا حديث العلم ، وقال المصنف ، وذكر الشارح وعقّب عليه المحشّى ...

قالوا : إن المراقص أبهاء واسعة تمتلىء بالناس وفى صدرها منصات عالية لها سُتر ترتفع وتنسدل ، يقوم عليها نسوة عاريات إلا من خِرَق لا تكاد تستر من أجسادهن شيئاً ، يقفزن ويلعبن ويحركن أيديهن وأرجلهنّ ...

قال : حسبكم ، حسبكم ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! نساء يلعبن أمام أعين الرجال الأجانب ؟! ما ظننت أن مثل هذا يكون فى دار الإسلام ، قوموا بنا إلى المرقص !

قالوا : إلى المرقص يا مولانا ؟ !

قال : نعم . نتّقى مثل لعنة داود وعيسى بن مريم ، ونغيّر هذا المنكر بألسنتنا إذ قد قعدت بالحكام رقّة دينهم عن أن يغيّروه بأيديهم .

قالوا : يامولانا ، إنهم يسخرون منا ويؤذوننا ، ولا يصغون لقالنا .

قال : ما نحن بأفضل من الأنبياء ، وما نفوسنا بأكرم علينا من نفوسهم . ولقد سُخر منهم وأوذوا فى سبيل الله فما ضعفوا ولا استكانوا ، وإنما علينا البلاغ والهدى هدى الله .

قالوا : إن المدارس قد ابتدعوا فيها هذه الأيام بدعة جديدة من أخزى البدع وأرضاها لإبليس ، وهى أن تبرز البنات سافرات حاسرات فيلعبن أمام الرجال ، فلنبدأ بالمدارس قبل المراقص فانهم سيقتلون فيها الأخلاق ، باسم الرياضة والصحة والفنّ !

قال الشيخ : بل نبدأ بالمراقص إن شاء الله .

فلما رأوا منه الجدّ والاصرار ، قالوا : أمهلنا يا مولانا حتى نعدّ لك مكاناً فيه تحفظ منه الناس .

وذهبوا إلى (مرقص أبي نواس) فسألوا صاحبه أن يؤجرهم المسرح ربع ساعة ما بين الفصلين ، ليجيء الشيخ فيعظ فيه الناس . فنظر الرجل فيهم لعلَّه يبصر تحت معاطفهم المسروقة ثياب المستشفى التي فرّوا بها من (القصير[1]) وابتعد عنهم خشية أن تعاود أحدهم جنَّته فيثب على عنقه فيخنقه أو يشج رأسه بحديدة يخفيها في كمّه ، ودعا أعواناً له لينقذوه من هؤلاء المجانين الذين يريدون أن يجيئوا بشيخهم ليعظ الناس على مسرح التياترو ... ولكن القوم قطعوا عليه ما هو فيه وجرّوه من رسَنه[2] فانقاد ذليلا طيّعاً ، حتى عرضوا عليه في هذا ال (الربع من الساعة) نصف ما يكسبه في الليلة كلها ، وقبل منهم وشيَّعهم إلى الباب ، ولكنه لم ينس أن يقبض المبلغ منهم قبل أن يغلقه دونهم .

وفرح الرجل بهذا الإعلان الجديد عن مرقصه ، وأمّل أن يغلب به (مرقص مطيع بن أياس) الذي يقوم إلى جنبه يزاحمه ويقاسمه قصّاده ، وانتظر أن (يمثل) الشيخ (مهزلة) تكون (رواية الموسم) ، وذهب فطبع (إعلانات) ضخمة عن (المفاجأة المدهشة) التي ستروع الناس ، وجاء الناس يرون هذه المفاجأة وما يقع في وهم أبعدهم خيالاً ، إلا إنها راقصة جديدة ، أو إنها رقصة مبتكرة ، وماذا يكون في المرقص إلا الرقص ؟!

وكنت تلك الليلة هناك ، ورقصت (فلانة) رقصة عبقرية مُبْدَعة عرضت فيها من فنونها وفتونها عجباً ما رأى الراؤون مثله ، وَجَنَّنَتْ الحاضرين حتى مايدرون من الفتنة مايصنعون، وحتى دَميت الأكفّ من التصفيح والتصفيق ، وبحّت الحناجر من الهتاف والصراخ ، وأرخى الستار على الراقصة وهي أحبّ إلى كل واحد منهم من زوجه وولده ، وما واحد منهم إلا ويبذل في ساعة منها ماله وشرفه ودينه ، وجعلوا ينادون باسمها ، يريدون أن يمتعوا أبصارهم برؤيتها كرّة أخرى ، فلما تمادى غيابها أقبلوا يرددون اسمها في إلحاح واتصال ، ويقرعون الأرض بأقدامهم فعل الصبيان ، وروّاد الملاهي . لهم عقول كعقول الصبيان ، فارتفع الستار ونظروا ...

نظروا فاذا هم يرون مكان ذلك الجسم الحبيب المشتهى ، وذلك العُرْي المغري الفتان ، شيخاً جالساً بعمامته ولحيته وجبته ، شيخاً حقيقياً لا تمثالا مكسوّاً ثياب المشايخ ، ولا شيخاً مزوّراً من شيوخ (التمثيل) !

وبدأ الشيخ درسه بحمد الله والصلاة على رسول الله ؛ وربطت الدهشة ألسنة الحاضرين لحظة ، فكانت سكتة شاملة ، ثم صحوا فجأة ، فكان الانفجار ...

* * *

إن كل محاولة لوصف هذا الانفجار إنما هي إفساد وتشويه لصورته في نفس السامع ، وإنك تعرف هؤلاء الناس وإن فيهم كل ماجن خبيث ، وجبار فاجر ، وفيهم السكران وفيهم الحشاش، وقد جاءهم هذا الشيخ في الساعة التي اكتملت فيها نشوتهم ، وطَمَتْ (براح الراقصة) سكرتهم ، ليتلو عليهم حديث التقى والصلاح من فوق منصة المرقص ، وليقول لهم دعوا هذه المرأة فانها رجس ، وغضوا عنها أبصاركم فانها عورة ، وانصرفوا عن هذه البقعة فانها دار دنس وإثم ، وقد طلع عليهم وهم يرتقبون طلعة الغادة العارية المِغناج ... فتصور ما ذا يكون منهم !

لقد صفَّروا له وسخروا ، ورموه بكل قبيح في القول ، وسألوه أن يتجرد فيرقص لهم ويريهم غُنجه ، وعرضوا عليه كؤوس الخمر مترعة ، وهو ماضٍ في كلامه كأنما هؤلاء ذباب يحوم حوله من بعيد ، بل إن الرجل ليحفل بالذباب وهو لم يحفلهم ولم يبال بهم . وتعب الشّاغبون وملّ الساخرون ، وكان في القوم من يعرف الشيخ ، فصاحوا بهم أن اسكتوا ويلكم نسمع ما يقول ، وكانت سكتة أخرى ، وهي كل ما كان يتمنى الشيخ فتمكن فيها من آذانهم ونفذ إلى قلوبهم ، فأصغوا ثم اطمأنوا ، ثم خشعوا ، ثم انقادوا إليه وتعلقوا به ، وحلّ من قلوبهم محل (تلك) ، ولكن حبَّهم إياها كان حباً سفلياً ، وهذا حبّ طاهر مقدس ... فلما انتهى كلامه ، وقام ليخرج ، قاموا معه وخرجوا وراءه ، وتركوا المرقص لصاحبه وللشيطان ... ولازمته أنا من ذلك اليوم كما لازمه كثير ممن كان هناك ...

قلت : ألم تحفظ شيئاً من كلامه ؟

---

(١) القصير ظاهر بليدة دوما على بعد « ١٤ » كيلو من دمشق وفيه مستشفى الأمراض العقلية .

(٢) الرسن : الزمام من عامي الشام الفصيح .

الإنسان ، هذا المجهول . .

الدوافع البيولوجية وأثرها (*)

للأستاذ فؤاد عوض واصف

كانت ظاهرة التقليد التى قال بها العلامة تارد فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، هى التفسير الوحيد عند علماء الاجتماع للحياة الاجتماعية ؛ فظهور فرد قوى أو قائد شجاع أو مشروع كبير فى مجتمع ما يمكن من خلق عرف جديد ينتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم . ذلك لأن النــاس على دين ملوكهم وحكامهم وقادتهم ، يقلدون تقليداً أعشى كل ما يبتدعه رعاتهم (١) ، ولقد ملك تارد بتفسيره هــذا عقول العلماء ردحاً كبيراً من الزمن إلى أن ظهر العلامة الأمريكى الأشهر ماكدوجل ، فطلع علينا بتفسير جديد هو على خلاف فيه مع نظرية تارد ، وقد عرفت نظرية تارد بنظرية الدوافع . ولئن كانت معرفتنا بالدوافع قديمة قدم أرسطو ، فإن الاهتمام بها لم يبلغ الحد العظيم الذى بلغته بعد أبحاث ماكدوجل . فقد كشف لنا ماكدوجل فى أبحاثه عن أثر الدوافع البيولوجية فى الإنسان وأسرارها العظيمة ونتائجها العديدة ، حتى لقد رد الحياة الاجتماعية كلها إلى هذه الدوافع البيولوجية الكامنة فى الإنسان ، ومن هنا كان أن عرف بأبى علم النفس الاجتماعى .

وقد كان من أثر أبحاث ماكدوجل فى الدوافع أن ظهرت فى معامل علم النفس مقاييس لقياس الحوافز والدوافع بطريقة دقيقة كل الدقة حتى لقد مكنتنا من معرفة درجات القوة والضعف فى الدوافع العضوية الداخلية معرفة يسرت لنا تفسير أنواع الانحرافات النفسية والجنسية والاجتماعية أيضاً ؛ فالسلوك الإنسانى يرد فى النهاية إلى الدوافع الداخلية ، كما هو الحال مثلا فى سن البلوغ ، إذ يشاهد أن تولد الميل الجنسى ناتج عن دافع عضوى ، وهــذا الميل الجنسى يقترن بتغيرات فى الهيئة والسلوك ، فيميل البالغ إلى الحياة الخيالية كما هو معروف فى الحب الصبيانى .

ويمكن تعريف الدافع العضوى بقولنا « هو كل حافز يدفع إلى فعل يتحول بالتحليل إلى حالة تنبيه ، تثير الفرد وتدفعه إلى سلوك ما عن طريق مجموعات خاصة من العقد العصبية !!

ومن أهم الدوافع الداخلية ، إفرازات الغدد الصماء التى تثير النزعات والميول والرغبات ، وتحمل الشخص أن يقــوم بحركة وأن يسعى نحو تحقيق الميل وإشباعه بطريقة أشبه بأن تكون آلية جبرية .

ولكل دافع من الدوافع العضوية الداخلية استجابات خاصة به تختلف من دافع إلى آخر ، فلدافع الجوع والعطش استجابات تختلف عن استجابات الدافع الجنسى مثلا .

والدافع الجنسى من أمثلة الدوافع الكيميائية التى تتمثل فى إفرازات غدد خاصـــة موجودة فى الإنسان . وكل أنواع الاستجابات والسلوك الجنسى هو نتيجة ترد فى النهاية إفراز الغدد التناسلية . فقــد أثبتت التجارب العــديدة أن عملية استئصال الإفراز الجنسى من الخصيتين Testes أو المبيض Ovaries يقضى على الميل الجنسى ، فى حين أن تجديد هذا الإفراز يعيد الميل الجنسى إلى حالته الطبيعية ؛ فكأن الاختلاف بين الذكر والأنثى فى

(*) شرح نظرية التقليد فى بحثنا فى الرسالة عدد ٦٢٣

قال : هيهات ! إنه تكلم بكلام علوى ، كنا نحس به ينصب فى القلوب انصباباً فتنتشى به وتتسامى إليه ، وما زال يقول وهى ترتفع حتى خلصت من هذه الحمأة الدنسة التى كانت غارقة فيها ، إلى الفضاء الأرحب وإلى الجو الطهور . إنه لم يتكلم كما أتكلم أنا وأنت ، ولا كما كان (هو) يتكلم ، فقد سمعته قبل ذلك اليوم ، فما سمعت منه مثل هذا ، وإنى لأظن أن ملكاً نطق بلسانه فمن هنالك خرج الكلام نورانياً سماوياً .

قلت : مثل ماذا ؟

قال : أنا رجل عامى ، فاذا أعدته عليك لم آت به من ذهنى الكليل إلا أرضياً منطفئاً ، كالشهاب المنير إذا رونه الأرض لم يكن على لسانها إلا صخرة باردة جامدة ... أفتحب أن أرد عليك ما حفظت منه من ذهنى أنا لا من ذهنه ، وبلسانى لا بلسانه ؟

قلت : نعم .

قال : إن مما حفظت منه قوله ...

(البقية تأتى) علي الطنطاوي

السلوك الجنسى يرد إلى اختلاف الغدد فحسب ؛ والرجل والمرأة لا يختلفان فى تكوينهما ، وما السمات المميزة لكل منهما إلا أثر بل استجابة لإفراز معين تفرزه غدة تناسلية تختلف فى الذكر عنها فى الأنثى . وإنه لمن السهل علينا الآن أن نجعل من الدجاجة ديكا ، ومن الديك دجاجة تقريباً ، وذلك بعملية استئصال غددى فتتحول الدجاجة إلى ديك وتفقد كل سماتها الأولى وتصبح ذات عرف يأخذ فى النمو ، وينقلب سلوكها ولا يمكن تمييزها فى النهاية من ديك آخر . وكذلك الحال إذا أردنا أن نجعل من الديك دجاجة فما علينا إلا استئصال الخصيتين فيفقد الديك عرفه ويتسم بكل سمات الدجاجة وسلوكها .

ولا يقتصر تأثير الدافع العضوى على الهيئة والتكوين الفسيولوجى فقط ، بل أيضاً فى اتجاه السلوك والأخلاق ؛ ويمكن أن نوضح هذا جيداً بحالة بعض الأفراد الذين يتأخرون فى بلوغهم Prematureg ؛ نجد الواحد منهم فى سن العشرين مثلا وكل مظاهر الرجولة معدومة فيه لا فى المظاهر الفسيولوجية فحسب ، بل أيضاً فى السمات الخلقية ، ففيه نجد حياء الأنثى وخوفها ومرونتها وما إلى ذلك . فإذا عولج هذا الشخص المتأخر فى بلوغه بواسطة خلاصة الخصيتين Drcbic supstances لا يلبث بعد مدة يطول زمنها أو يقصر ، حسب حدة الحالة ، أو يصبح وقد ظهرت عليه سمات مختلفة عن ذى قبل ، فيرتفع صوته ويتضاعف نشاطه ويزول الخجل منه والخوف وما إلى ذلك من مظاهر الأنوثة الأخلاقية ، ويتولد فيه الميل الجنسى . ومن هنا يظهر لنا ، أن سمات الرجولة والأنوثة سواء كان ذلك من الناحية الفسيولوجية أو الخلقية إنما يرد فى النهاية إلى الدافع الكيميائى وهو إفراز الغدد التناسلية .

والآن إذا أردنا أن نحصى الدوافع فى الإنسان بسائر أنواعها فإننا سنجدها من الكثرة بحيث يصعب معها العد والحد ؛ فإن دافعاً كدافع الجوع العضوى قد يبدو بسيطا مع أنه مركب من عدة دوافع : فالحاجة إلى الأكل ، تتضمن الحاجة إلى مواح ونشويات ودهنيات الخ ، ودافع العطش ليس هو الحاجة إلى الماء فحسب ؛ لأننا إذا أعطينا عاملا مجهدا فى يوم قائظ ماء ساخنا ليرتوى ، فإنه بذلك لن يرضى دافع العطش ، لأن الحاجة هنا تتضمن غير الماء ، درجة خاصة من الحرارة وغيرها . ومن هذا يبدو أن دافعاً واحداً كدافع الجوع أو العطش يتضمن فى ذاته عدة دوافع . من أجل ذلك فإن إحصاء عاماً للدوافع كما أراده ديكارت وهوبز يعد ضربا من المستحيل ، إذ أن الحاجات تتعدد ، وبالتالى تتعدد الدوافع المولدة لهذه الحاجات . وعمل الدوافع فى الإنسان يقترن بتغيرات كيميائية وعضوية فى جميع أنحاء الجسم حتى فى البشرة . ويظهر ذلك بوضوح فى حالة الحب مثلا الذى هو إرضاء للدافع الجنسى . وتعمل الدوافع على أن تلائم بين الإنسان والطبيعة ، فقد يبدو أن لون البشرة السوداء عند زنوج المناطق الاستوائية ناتج فى الأصل عن تأثير حرارة الشمس المحرقة ، مع أنها نتيجة لأفعال منعكسة قامت بها خلايا البشرة لإرضاء دافع الحاجة إلى درجة حرارة مناسبة للجسم ؛ فليست الحرارة هى التى تحرق البشرة ، لكونها حرارة ، بل هى تقوم فقط مقام الباعث لاستجابات ناتجة عن دوافع وحاجات ، أعنى فى هذه الحالة أن هنالك دافعا فى الإنسان قد اقتضى تغيرات فسيولوجية حتى يتم التوافق بين الإنسان فى نزوعه إلى الحياة وبين الطبيعة الخارجة عنه .

ونريد هنا أن نلفت النظر إلى أنه فى كثير من الأحوال يكون المنبه الخارجى هو المحرك للدافع إذا كان فى حالة كمون . فإذا كنت فى وقت ما جائعاً وكان دافع الجوع فى كمون لانشغالى بأفكار وخواطر ، فإن الساعات تمر بدون أن يتعدى الدافع العضوى حدود الشعور ؛ فإذا فرضت أن رائحة شهية لطعام قد وصلتنى وشغلت شعورى برهة من الزمن ، كان هذا المنبه كافياً لتحويل الحاجة إلى الطعام من حالة الكمون إلى حالة النشاط أى إلى رغبة ، وكذلك الحال فيما يختص بالدوافع الأخرى .

وقد سبق أن ذكرنا أن إحصاء عاماً للدوافع ضرب من المستحيل ولكن يمكن أن نقسم الدوافع إلى أنواع أربعة :

١ — دوافع عضوية : كدافع الجوع والعطش الخ ...

٢ — دوافع كيميائية : كالدافع الجنسى ودافع التعب . هو عبارة عن بعض السموم تكونت فى دم الإنسان فأوجدت فيه حالة التعب . والذى يثبت لنا أن التعب ومظاهره ليس نتيجة مباشرة لمجهودات عضلية التجربة التى قام بها عالم نفسانى كبير . وتتلخص فى أنه حقن كلبا لم يقم بأية عملية إجهادية بدم كلب

ظل طوال اليوم يرافق سيده فى الصيد ، فكانت النتيجة أن ظهرت فى الكلب السليم كل مظاهر التعب والإنهاك الموجودة فى الكلب المتعب . فكأن التعب ومظاهره نتيجة لعامل كيميائى موجود فى الدم وهو سموم أشبه ما تكون بالسموم المعروفة ، ومن هذا يبدو أن التعب ومظاهره استجابة لدافع كيميائى موجود فى الدم .

٣ — دوافع نشاط « Activity Drives » وتكون ذات استجابات مناسبة تتلاءم مع ما يحيط بالإنسان من ظروف .

٤ — دوافع الجمال : مثل أن تظهر فى استجابة الطفل الصغير لما يحيطه من ألوان وموسيقى ذات مقاطع ، تجذبه إلى أن يسلك سلوكا معينا ، هو استجابة ساذجة لما يحيط به من جمال . كذلك الحال فى البالغين لقد ركب فينا دافع للجمال ، لعله الروح تنزع إلى الجمال وتستجيب له كما ينزع الأليف إلى أليفه ويستجيب له . وفى السجون الحديثة يعالج المجرم بسماع الموسيقى وبإحاطته بألوان من الجمال تستجيب لها نفسه فيبعث بعثا ويعود إنسانا .

لقد ذكرنا من الدوافع ما هو عضوى وكيميائى ونشاطى وجمالى ؛ بقى نوع خامس من الدوافع يستجيب للمؤثرات الفجائية العنيفة كالخوف والغضب والبغض والعار . وتسمى هذه المجموعة من الدوافع بالإنفعال Motion .

والدراسات العلمية الكثيرة فى مجال علم النفس المقارن ، حققت لنا وجود ظاهرة الإنفعال عند الكثير من الحيوانات ، مع ملاحظة خاصة ، وهى أن الإنسان كثيراً ما يخضع انفعالاته ويوجهها توجيهاً خاصاً ، فى حين أن الحيوان ينفعل فلا يكاد يملك أسباب التوجيه أو اخفاء انفعالاته .

وقد قامت مشكلة كبيرة فى علم النفس خاصة بالإنفعال وتتلخص فى هذا السؤال : هل انفعل أولا ثم اضطرب أم اضطرب أولا ثم انفعل ؟ والرأى الصحيح عند وليم جيمس هو أن الإنسان يضطرب أولا ثم ينفعل ، أعنى أن الإنفعال فى ذاته هو نتيجة لاضطرابات عضوية وكيميائية فى جسم الإنسان . ففى حالة الخوف مثلا ، تحدث فى داخل الجسم افرازات عضوية معينة ، تكون نتيجتها ظهور سمات الخوف على الإنسان . وبكلمة مختصرة ، الإنفعال فى أساسه فسيولوجى قبل أن يكون نفسانيا .

وهنالك ثلاثة أنواع من الانفعالات الأولية فى الإنسان وهى الخوف والغضب والحب . والظواهر المختلفة التى تبدو على الإنسان نتيجة لهذه الانفعالات نتيجة لإفرازات معينة فى الغدد الصماء بتأثير الجهاز العصبى .

أما انفعال الخوف فينتج شعوراً زديئا ؛ فبالإضافة إلى ما يثيره من الاضطراب فى بعض أجهزة الجسم كما يكون الحال فى سرعة دقات القلب والتنفس السريع ، بالإضافة إلى ذلك يكون للخوف طابع خاص يظهر فى امتقاع الوجه واضطراب المفاصل والأطراف وقفوف شعر الرأس ... الخ ... وللغضب مظاهره الخاصة كذلك وهى فى جملتها أقل عنفاً من مظاهر الخوف ، وفى حين تكون نتيجة الخوف تقهقرا تكون نتيجة الغضب تقدما واندفاعا . أما الحب فهو أحد الانفعالات الأولية التى تحدث شعوراً طيبا محببا . والذين جعلوا للحب مركزاً خاصا فى القلب لم يبتعدوا كثيرا عن الحقيقة . فانفعال الحب فى الواقع يتركز أثره فى جهة ما فوق القلب نتيجة لتأثر الدورة الدموية بباعث الحب وما يثيره فى الدورة من نشاط . وللحب طابعه الخاص ، يظهر فى ابتسامة الفم وإشراق الوجه ، ولعل أروع صورة ساذجة لطابع الحب الجميل ، تظهر فى محيا الطفل الصغير وهو يرنو إلى أمه .

* * *

هذه المعرفة الخاصة بالدوافع ، قادتنا إليها دراستنا للحيوانات العليا وللطفل وللانسان البدائى .

وإن دراستنا للانسان البدائى الساذج ، تجعلنا نقف أمام صورة كائن يمضى أغلب وقته فى الأكل والشرب مبتعدا عن الأصوات المزعجة والحرارة اللافحة ، يجرى ويقفز، يصيح وينصت ويتأمل ويشاهد أنه مدفوع إلى النشاط بما يبعثه الكون المحيط به ؛ قد يجد لذة فى أن يداعب كلبه أوفى أن يقفز على شجرة ، كل هذه الاستجابات تتولد من الكون الفسيح وما يبعثه من مؤثرات ومنبهات . وإنه لمن الانصاف أن نقرر ما ذكره ثورنديك من أن قائمة الدوافع التى قال بها ديكارت وهوبز لا تصور الحقيقة ، فإن الدوافع فى الانسان والحيوان من الكثرة بحيث تختلط بعضها ببعض ، وإن حيل الحيوان وحتى

أبسطها فى السعى لرزقه ، تجعلنا نقرر بأن احصاء عاما للدوافع ضرب من المستحيل .

***

هذه هى الدوافع ، وهذا موضوعها . والانسان فى سعيه إلى رزقه وفى سعيه إلى الحياة ، إنما يستجيب إلى الدوافع التى ركبت فيه تركيبا . ولو شئنا التطرف لقلنا مع ميرفى Murphy ونيوكمب Neucomb ، إن الانسان ليس شيئا آخر غير الدوافع التى ركبت فيه وجاءته عن طريق الوراثة ، ومن هنا يكون الانسان فى هيئته وجنسه وسلوكه الأخلاق ، مدفوعاً بدوافع داخلية لا قبل له بردها . فالحب تبعاً لهذا ليس إلا استجابة لإفراز الغدد الصماء ، والاجرام فى بعض الأفراد ليس إلا استجابة طبيعية لتكوين الجرم الجسمانى الذى أتاه عن طريق الوراثة . إن الدوافع الداخلية فى الانسان هى التفسير الوحيد لحياته الجسمية والأخلاقية . ومن هنا لا يكون الانسان مخيرا بل مسيرا ولا يكون للتربية مجال كبير أو صغير فى توجيهه وتهذيبه .

وهكذا يذهب ميرفى ونيوكمب ومعهما جمهرة من العلماء ، ويقولون بنوع من القدرية Fatalism فى تقرير الكائن الحى ، إن كان سيولد إنساناً أم فأراً أم عصفوراً ، إن كان سيولد بمنقار أو بشفتين ، بأربع أرجل أم برجلين . فاختلاف الكائنات الحية عندهم نتيجة لاختلاف الدوافع التى وهبت للكائن الحى قضاء وقدراً . وكذلك الحال عندهم فى اختلاف الأفراد بعضهم عن بعض ، فليس هذا إلا نتيجة لاختلاف الدوافع فحسب . ولئن زعم الناس بمرونة الإنسان وقبوله للتشكل والإصلاح ، فلينظروا إلى هذا الاختلاف البين بين الأفراد بعضهم وبعض فى نموذج كل مجتمع . أجل إن هذا الاختلاف لمثير ، ومجموعة من الكلاب الصغيرة يمكن أن ترمز إليه كما ترمز إليه مجموعة من الأطفال فى معهد خاص .

ليست هنالك إذن مرونة فى الإنسان أو قابلية للتشكل فى نظر تلك الفئة من العلماء ، فالإنسان يستجيب للمؤثرات المحيطة به كما يستجيب لها الحيوان .

وكذلك يذهب أيضاً العلامة لمبروزو Lombrozo أستاذ القانون الجنائى فى جامعة روما ؛ فهو يرى أن الجريمة فرع من القضاء والقدر لا دخل لحرية الإنسان فيه ؛ فالمجرم يولد مجرماً بالطبيعة Ciminel par naturc وإنه لمن التعسف أن يعاقب المجرم عن شىء لايملك فيه اختياراً أو مشيئة . وليس فى الإمكان إصلاح مجرم ولد هكذا ولا تجدى فيه التربية أوالتوجيه الحسن .

وقد خصص لمبروزو لشرح نظريته كتابين شهيرين هما : كتاب الرجل المجرم L' homme criminel ، والمرأة المجرمة La fcmme criminel ، فاللص عند لمبروزو ذو تكوين خاص فى هيئته وكذلك سائر المجرمين ، وما الجريمة إلا استجابة لتكوينهم العضوى الناقص الذى جاءهم عن طريق الوراثة . وكثير من اتجاهات علم النفس الجنائى إلى يومنا هذا تستلهم موضوعاتها من بحوث لمبروزو .

ولكن البحوث التى قام بها علماء الأحياء منذ ربع قرن فى موضوع الوراثة وكذلك علماء السلوك الإنسانى ، وخاصة فى دراساتهم لأنواع الشذوذ والانحرافات ، أدت إلى الإقلال من حتمية الوراثة ، وأثبتت مرونة الإنسان وقابليته للتشكل والاصلاح ، فسلوك الإنسان قابل للتغير والتحسن ، ويتوقف نجاح التربية إلى حد كبير على إحكام طرقها وإتقان أساليبها .

ليس الإنسان إذن أسير وراثة أو تكوين عضوى خاص كما كان شائعاً من قبل ، بل إنه يملك إلى حد كبير أسباب التغير والإصلاح . لا يوجد هنالك ما يسمى طبيعة مجرمة فى النفس الإنسانية ؛ بل على العكس من ذلك ، إن طبيعة النفس الانسانية كما يقول كانت خير وكل الخير ، وإنما هنالك نفوس مريضة تدافع عن توازنها الاجتماعى ، فتضل فى المعترك عن الطريق السوى .

إن للدوافع فى الإنسان كما سبق وذكرنا شأنا كبيرا ، ولكنها فى الإنسان غيرها فى الحيوان . لا ، بل إن الحيوان نفسه قابل للترويض وللائتلاف ، فكم يكون الحال فى الإنسان وفيه من نور الله قبس ! أوليس فيما وصل إليه علم التربية والنفس أكبر الدليل على مرونة الإنسان وعلى كونه يختلف اختلافا بينا عن سائر الكائنات بما وهبه الله من عقل يفكر ويتذكر ؟ إذا فللدوافع فى الإنسان شأن كبير ولكنه أقل من أن يجعل الإنسان مسيرا لا مخيرا .

فؤاد عوض واصف

ليسانسيه فى العلوم الفلسفية

الشرق كما يراه الغرب:

الصــين الجديدة

للاستاذ أحمد أبو زيد

إن أول ما يتبادر إلى ذهن الإنسان حين يذكر اسم الصين هو ذلك الجمود الذى ران عليها طويلا دون بقية أمم العالم، حتى صارت بذلك رمزا على التأخر والتخلف والمحافظة على القديم وعلى كل ما هو ثابت راسخ لا يكاد يتحرك ولا يتغير ولا يتطور. ولقد كان للصين فى يوم ما حضارة تعتبر من أقدم وأرقى الحضارات التى عرفها الإنسان، ولكن الصين اليوم تأتى فى ذيل الأمم المتحضرة المتمدينة.

ومع أن الناس جميعا يعرفون عن الصين ذلك، إلا أنهم لا يكادون يعرفون عنها شيئا صحيحا عدا ذلك؛ وقد ساعد على هذا الجهل بالصين وبحياتها وبعادات أهلها بعدها النائى وشبه العزلة التى تعيش فيها، وبعد الشيء قد يكون سببا كافيا للجهل به. ولكن الصين مع ذلك كتب عنها الشيء الكثير، ولكن كثيرا مما كتب بعيد كل البعد عن الحقيقة ...

إن معظم الذين يكتبون عن الشرق من الأوربيين قليلا ما يتوخون الحقيقة والواقع، وكثيرا ما يصدرون فيما يكتبون عن بعض أهواء وشهوات فى نفوسهم يريدون إرضاءها ويظهرون الشرق على غير ما هو عليه، بل وحتى إذا كانوا منزهين عن تلك الأهواء والشهوات فقليلا ما تكون كتاباتهم صادرة عن الفهم العميق الصحيح لما يرون أمامهم؛ لذلك قلما نجد كتابا يتناول مسائل الشرق وحياته بدقة وصدق وفهم على الرغم من كثرة ما كتب عن الشرق وحياته.

ومن تلك الكتب الدقيقة القليلة كتاب عن الصين ظهر تحت عنوان: « الصينيون The Chinese »، وكتبته سيدة تدعى وينفريد جالبريث winifred Galbraith أمضت فترة طويلة من حياتها بالصين؛ فقد نزحت إلى هناك من إنجلترا بعيد الحرب الكبرى الماضية واشتغلت بالتعليم فى مدارس الصين، ولا تزال تعيش هناك حتى الآن، أو على الأقل حين أصدرت كتابها فى عام ١٩٤٢. ولا شك أن طول الفترة التى أمضتها فى الصين، وطبيعة العمل الذى زاولته هناك، قد أتاحا لها فرصا طيبة للوقوف على خصائص الحياة الصينية وأسرارها قلما تتاح للكثيرين. وعلى ذلك نستطيع أن نقول مطمئنين آمنين إن ذلك الكتاب صدر عن فهم عميق للصين وطبيعتها وشئونها المختلفة، كما نستطيع — من قراءته — أن نلمس بوضوح النزاهة والدقة والتجرد عن الغرض التى لازمت المؤلفة فى كتابته ... والكتاب على لطافة حجمه يتناول كثيرا من المسائل، فيعرض لتاريخ الحضارة الصينية كما يتناول آداب الصين وفنونها وقيم الحياة اليومية فيها ونظم الحكم بها وغير ذلك من المسائل. ولم تنس المؤلفة زيادة على ذلك أن تبين لنا ما يختلج فى صدور أهل الصين من آمال وأمان فى المستقبل وما يرجون لبلادهم من حياة جديدة زاهرة تغاير ماضيهم وحاضرهم، وإن لم تقطع الصلة بهما تماما.

ولا تشك المؤلفة فى أن الصين الجامدة الخامدة أخذت تفيق من سباتها العميق الطويل من أوائل هذا القرن، وأن قيام الحرب الصينية اليابانية قد ساعد على هذه اليقظة، بل ولعلها تكون المسئولة الأولى عنها، فأخذت تنفض عن نفسها ذلك الخمول الذى ضرب عليها، أو الذى ضربته بنفسها على نفسها، وتتجه نحو حياة أخرى، وتنتحل أساليب جديدة سواء فى الصناعة أو الفكر أو السياسة تختلف أشد الاختلاف عن تلك الأساليب العتيقة البالية. ولكن ينبغى مع ذلك ألا نغفل عن حقيقة واضحة جلية، وهى أن ذلك التطور لا يتم فى الصين إلا ببطء شديد وبصعوبة شديدة بحيث لا يكاد الإنسان يدرك لأول وهلة أن هناك حياة جديدة أخذت تدب فى أوصالها الميتة؛ ذلك لأن حياة الصين لا تقوم فى الواقع على مجرد بعض قوانين وضعية أو قواعد يرسمها من بيدهم مقاليد الحكم ويأخذون الناس بتنفيذها، إنما تقوم حياة الصين على قيم أساسية عامة

متغلغلة فى أعماق النفوس تستمد منها قوتها وسطوتها ، بحيث لو انعدمت كل سلطة فى الصين ولم تصبح ثمت أى هيئة حاكمة فيها لظلت الصين مع ذلك قائمة على ما هى عليه ، ولاستمرت تلك القيم الأساسية تعمل عملها فى حياة الناس والبلد وتحفظ عليهم طابعهم التقليدى القديم الذى يتعارض مع كل ما هو جديد .

ولا ريب فى أن الأمة التى تريد أن ترقى وأن تصل إلى غاية بعيدة من الكمال والرفعة لن يتسنى لها ذلك ما لم تسر أولا تحت قيادة موحدة تخضع كلها لها ، وما لم تختف منها العوامل الانفصالية والنزعات الشخصية التى من شأنها تمزيق الدولة أقساما وشيعا . وقد كانت الصين فى معظم تاريخها دولة واسعة ممزقة منقسمة إلى مقاطعات وحكومات متفرقة تستقل كل منها عن الأخرى تماما ، ولم يكن الرجل الصينى العادى يعرف من وطنه إلا حدود قريته أو مدينته أو على الأكثر المقاطعة التى ولد ونشأ وتربى فيها ، ولم يكن يعرف أنه فرد فى وطن أوسع وأعظم من ذلك كله ، وأن وراء تلك الحدود الضيقة التى نشأ فيها ملايين أخرى من الناس ينتمون جميعا إلى نفس الوطن الذى ينتمى إليه ؛ ولذا كان الرجل من الشمال إذا اجتمع برجل من الجنوب لا يعرف إلا أنه من الشمال وأن صاحبه من الجنوب دون أن يحس الصلة الوثقى التى تربط بينهما . وقد ساعد على ذلك أن الصينى مغلق على نفسه ، ولا يحب الهجرة ولا السفر ولا الانتقال كمعظم الشرقيين ، فهو يفضل الاستكانة والالتصاق بالبقعة التى وجد نفسه فيها . وقد نشأ عن ذلك تعدد كبير فى اللهجات المحلية واختلاف عظيم بينها بحيث إن الرجل من إحدى المقاطعات لا يكاد يفهم اللهجة التى يتكلم بها غيره من مقاطعة أخرى . وكان ذلك كله عاملا على ظهور الحركات الانفصالية وخاصة فى أطراف الصين البعيدة . ومن هنا كان كثير من الكتاب يظنون أن الصين لا يمكن أن تعيش كدولة موحدة ما لم تخضع للحكم الأجنبى . وقد يكون لهؤلاء الكتاب العذر كل العذر فيما يذهبون إليه ، إلا أن السيدة جالبريت ترى أن ذلك كله أخذ يزول شيئا فشيئا ، وأخذ الشعور القومى يزداد بين الناس وخاصة بعد الغزو اليابانى ؛ فقد شعر الصينيون جميعا أن أرضا عزيزة عليهم أخذ العدو يغتصبها منهم ، فقاموا جميعا يشتركون فى الدفاع عنها ضد الغاصبين . وهكذا اختفت كل النزعات الانفصالية أمام الخطر المشترك ، وأخذ الصينيون يحسون أنهم أبناء وطن واحد وأرض واحدة . وقد ساعد على ذلك حركات الهجرة من المناطق المحتلة أو المعرضة للغزو إلى الداخل ، فقد عمل ذلك على تقريب اللهجات المتباينة ، وأصبحنا نجد على ما تقول المؤلفة : « فى غرب الصين ما لا يقل عن أربعة عشر صنفاً من الناس نزحوا من مناطق ومقاطعات مختلفة يعيشون جميعاً عيشة واحدة ، ويأكلون طعاماً واحداً ، وينشدون أغانى وأهازيج واحدة انتشرت فى أرجاء الصين جميعاً ، وذلك ما لم يكن له وجود من قبل » . ومع أن الوحدة فى العادات لم تتبلور تماماً حتى الآن ، ومع أن الاختلاف بين تقاليد كل فريق لا يزال اختلافاً قوياً صارخاً ، إلا أن جالبريت ترى أن كل ذلك يسير فى طريق الاندماج شيئاً فشيئاً ولكن بقوة ، بحيث لا يتأخر اليوم الذى تصطبغ فيه الصين من أقصاها إلى أقصاها بصبغة واحدة من العادات والتقاليد .

وقد أخذت الصين تتجه منذ بداية هذا القرن على الخصوص نحو الحضارة الأوربية ، واعتنقت الكثير من مظاهرها المادية ، ولكن تلك المظاهر المادية لم تصل فى الواقع إلا إلى الطبقات العليا فقط من السكان فى المدن الكبرى وفى الأطراف الخارجية ، ولم تفلح فى التغلغل قليلا ولا كثيراً إلى داخل الصين ذاتها ، أو إلى طبقات الشعب الفقيرة من سكان الريف ومن الفلاحين والعمال ، وهم يمثلون الغالبية العظمى من السكان . وقد كان لذلك — ولا ريب — أسوأ الأثر فى المجتمع الصينى ، إذ ساعد على توسيع الهوة التى تفصل بين مختلف الطبقات ، كما ساعد بالتالى على إضعاف قوة التماسك الاجتماعى فى الصين . ولكن الحرب الصينية اليابانية قللت أيضاً من ذلك الأثر حتى كادت تمحوه ؛ فقد أصبح من العسير — نتيجة للحرب — على المنتجات الأوربية أن تصل إلى الصين ؛ والقليل النادر الذى يصل إلى هناك يباع بأسعار خيالية لا تصدق ولا يكاد يقوى على شرائها إلا فئة قليلة

جداً من الناس ؛ وكانت نتيجة ذلك كله أن أخذ الناس ينصرفون عن ذلك النوع من الحياة المادية المترفة التي قبسوها عن أوربا ، ويعتاضون عنها تدريجياً بالإنتاج المحلي البدائي ؛ وبذلك عاد أهل الصين جميعاً إلى أساليب حياتهم القديمة ، واشتد تبعاً لذلك التقارب بين مختلف الطبقات عما كان عليه . وقد يبدو ذلك الرجوع إلى القديم نكسة أصابت الصين في تطورها ورقيها ، ولكن السيدة المؤلفة ترى عكس ذلك ، فهي تعتقد أن الرقي الحقيقي هو في تماسك الشعب وتقارب طبقاته قبل كل شيء ، ثم رقيه كله معاً مرة واحدة .

***

وفي الصين الآن اتجاه قوي يرمي إلى الأخذ بنظم الحكم الديمقراطي ؛ ولكن هذا النظام لم يتحقق بعد ، ولا ينتظر أن يتحقق كاملا في الوقت الحاضر على الأقل ، كما أن من الصعب على الإنسان أن يتكهن بطبيعته في صورته الأخيرة ، وإن كانت كل الدلائل تدل على أنه لن يكون نظاماً نيابياً ديمقراطياً بالمعنى الذي يفهمه الأوربيون . ويقف دون تحقيق النظام الديمقراطي الأوربي اتساع مساحة الصين وترامي أطرافها بشكل غير معهود في بقية الديمقراطيات الأخرى . ولاشك في أن من أصعب الأمور على شعب حديث عهد بالنظم النيابية أن يحقق ذلك النظم تحقيقاً كاملا في دولة في مثل حجم الصين . وقد حاول الدكتور صن أن يؤلف مجلساً نيابياً للصين ، ولكن ذلك المجلس لم يقدر له الاجتماع قط ، ولكنه حين يتم تأليفه ، فسوف يكون مكوناً من ١٦٨١ من النواب ، منهم ٣٩٥ نائباً تعينهم الدولة . ويبدو أن الانتخابات في الصين لن تكون من درجة واحدة كما هو الحال في الديمقراطيات الأوربية ، بل سوف يجتمع رؤساء كل مائة أسرة معاً وينتخبون من ينوب عنهم ، وبذلك سوف يكون نظام الحكم في الصين مزيجاً من الديمقراطية والبطريركية التي تسود الصين الآن . ومن الدلائل التي تبشر بقيام الحكم النيابي في الصين وجود مجلس الشعب السياسي هناك Teohlc's Political Council ، وهو يتألف من مائتي عضو من الرجال والنساء ، وكلهم معينون . وهم يمثلون كثيرا من مدارس الفكر والمهن والأعمال المختلفة ؛ وقد أبدى المجلس براعة كبيرة في مناقشة وبحث أمهات المسائل التي عرضت عليه ، ولكن يقلل من أهميته أنه لا يعد مسئولا أمام الشعب .

وهناك عامل آخر تظن السيدة جالبريت أنه سيكون له شأن كبير في تطور الديمقراطية في الصين ، وهو سعة انتشار الشيوعية هناك ووجود حزب شيوعي قوي يضم كثيراً من الأفراد من أصحاب الثقافة العليا ومن أكابر المفكرين الصينيين . وقد أمضى معظم أعضاء الحزب الشيوعي أعواماً طويلة في خدمة الجيش الأحمر الروسي ، كما أنفقوا جهوداً كبيرة في تعليم الفلاحين وإصلاح حالهم ؛ وقد ساعدهم ذلك على تعرف ظروف حياة الطبقات العاملة هناك ، كما أصبحت لهم خبرة واسعة بوسائل الإصلاح التي يمكن أن تجدي عليهم . بيد أن الحكومة المركزية في الصين لا تعترف بالشيوعية ولا تقر طرقها ، بل إنها تناصبها العداء صراحة ، ولا يزال الصراع سجالا بين الحكومتين إلى الآن .

(البقية في العدد القادم) **أحمد البوزيد**

التاريخ فى سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والجمال . . .]

للاستاذ محمود الخفيف

— ١٤ —

بين الطغيان والحرية :

تربى جيمس فى اسكتلندة تربية بروتستنتية إلا أن هواه كان مع الكاثوليك ، ولم يك ذلك بدافع العقيدة فما كان يعبأ مثله بعقيدة ، وإنما كان بدافع الرغبة فى الاستناد إلى الكنيسة كدعامة من دعائم الاستبداد .

وكان البيوريتانز قد تزايد عددهم فى البلاد حتى أصبحوا قوة عظيمة ، وكان هؤلاء خارجون على كنيسة انجلترة لأنها كاثوليكية العقيدة وإن كانت رياستها لملك انجلترة منذ فصلها هنرى الثامن عن رياسة روما .

وقد كان هؤلاء البيوريتانز عند نشأتهم كما رأينا فريقاً من قساوسة الكنيسة الانجليزية ولكنهم فى الواقع أصبحوا يعدون من البروتستانت فى ميولهم ومبادئهم ورغبتهم فى الاصلاح وإن أطلق عليهم اسم خاص بهم ؛ وطمع كل من الكاثوليك المتشيعين لروما والبيوريتانز أن ينالوا عطف جيمس . أما طمع الكاثوليك فلأنه ابن مارى الكاثوليكية ملكة اسكتلندة ، وأما طمع البيوريتانز فلأنه تربى تربية بروتستنتية فى اسكتلندة وفق الكنيسة البرسبتيرية[1] ، ولكنهم جميعاً ما لبثوا إلا قليلا حتى رأوه يميل إلى نظام كنيسة الدولة كما نشأت فى عهد هنرى الثامن وتوطدت فى عهد اليزابث .

واجتمع سنة ١٦٠٤ مؤتمر من قساوسة الكنيسة وممثلى البيوريتانز بغية التفاهم على حل ، ولكن ثلثمائة من البيوريتانز آثروا اعتزال مناصبهم على الاعتراف بكتاب الصلاة الذى تقره كنيسة الدولة . وأعلن جيمس كلمته الشهيرة يومئذ التى أفصح بها عن رغبته فى التمسك بالنظام الأسقفى فى رياسة الكنيسة وفروعها وهى قوله : « إن لم يوجد القس فلن يوجد الملك » ؛ وتهدد البيوريتانز بطردهم من المملكة إن لم يذعنوا له .

وكان أعضاء البرلمان يميلون إلى البيوريتانية فاشتد غضب أشياع روما عليهم ، كما أنهم غضبوا على الملك لتمسكه بنظام كنيسة الدولة فدبروا مؤامرتهم الشهيرة بمؤامرة البارود لنسف البرلمان والملك جميعاً ، ولكن مؤامرتهم أحبطت إذ نما خبرها إلى الحكومة ، وأزيل البارود والفتائل من تحت البناء ولاقى المؤتمرون نكال الملك جزاء بما أجرموا ، وحاق بهم سوء ما مكروا فنسف مابقى لديهم من البارود عدداً منهم ، وأصبح أشياع روما موضع سخط الناس جميعاً وكراهتهم وظل الناس زمنا طويلا لايعلمون بحادثة منكرة إلا ردوها إليهم ، وظل السذج من العامة ينسبون كل شر يقع مهما كانت صورته إليهم ، ولا يزال بعض القرويين حتى اليوم يحرقون تمثالا رمزياً للبابا فى ذكرى هذا الحادث من كل عام .

وعظم ميل الناس إلى البيوريتانية بقدر ما اشتد سخطهم على الكاثوليك ، ولكن القساوسة على الرغم من ذلك يوحون إلى الملك اضطهاد البيوريتانز والعطف على الكاثوليك من أتباع الكنيسة الانجليزية ، والتمسك بالنظام الأسقفى ، وأصبح هؤلاء القساوسة فى نظر البيوريتانز وأنصار الحرية الفكرية جميعاً رمز التعصب الأحمق والاستبداد الغبى ، لا يدرون أهم أم الملك أحق منهم بالمقت والازدراء ؛ وكان كلما اشتد سخط الشعب على الأساقفة ازداد عطف الملك عليهم وحباهم بالمودة والرعاية وبالغ فى التمكين لهم فى سلطتهم وتنفيذ ما يشيرون به بكيد بذلك لمخالفيه ويشرح صدور مؤيديه .

وتناصر على الملك وحزبه البرلمان والبيوريتانز ، وما زالت هاتان القوتان تعملان على مناوأته فى ثبات ويقين حتى أدركه الموت سنة ١٦٢٥ ، وخلف لابنه شارل الأول العرش والثورة معاً ، ولسوف تكون البيوريتانية فى عهده أشد خطراً عليه من النزاع الدستورى بينه وبين البرلمان .

واستوى على عرش انجلترة شارل الأول ، وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان شارل على الضد من أبيه فى خلقه فلم يعرف التبذل واللهو ، بل كان ملكا من جميع أقطاره يملأ النفوس هيبة باحتشامه ووقاره ، ولم يك ضعيف العزيمة ولا خواراً ولا أرعن الكلم ولا ثرثاراً ؛ بيد أنه لم يتوافر له من الثقافة بقدر

---

(١) كانت هذه الكنيسة تسير وفق نظام كلفن فلا تجعل الرياسة الدينية فيها أو فى فروعها لرجال الدين وحدهم ، بل يختار الناس من غير القساوسة عدداً يشارك هؤلاء فى إدارة شؤونها .

ما توافر لأبيه منها . وكان البرلمان قد مرن على أساليب المعارضة والمقاومة فى عهد جيمس ، فلم يك أمام شارل إلا طريقا واحدا هو مسالمته ، ولكنه تنكب هذا الطريق ، وبالغ فى إعنات البرلمان وأسرف فى تمسكه بالحق الإلهى المزعوم ، وأصبحت سياسته تنحصر فى مقاومة الرأى العام حتى مل الناس ، وأصبحوا لا يحفلون رضاه أو غضبه .

لم يكد يجتمع أول برلمان فى السنة الأولى من حكمه حتى دب الخلاف بينه وبينه ، وذلك أن البرلمان لم يمنحه المال إلا بقدر حتى يظل محتاجا إليه فلا يحله ، كما أن البرلمان لم يعتمد له ضريبة التجارة إلا لسنة وكانت للملك طول حياته ، وكانت الحرب قائمة بينه وبين أسبانيا فكانت حاجة الملك إلى المال شديدة ، وأمدت انجلترة فرنسا ببعض سفنها لتقذف بها أسبانيا ولكن فرنسا قذفت بها البروتستنت فى أرضها حيث تحصنوا فى ميناء لاروشل فغضب البرلمان وما زال ينتقد سياسة الملك حتى ضاق به الملك فحله .

ولكنه دعا برلمانا جديدا فى السنة التالية أى سنة ١٦٢٦ فاشترط هذا البرلمان أن يزيل الملك أسباب ما يشكو الناس منه وإذ ذاك يجيبه فى سخاء إلى ما يطلب من المال . واتهم البرلمان لورد بكنجهام توطئة لمحاكمته أمام اللوردات ، وكان أقرب المقربين إلى شارل ، وكان بكنجهام هوفلير أحد أصفياء أبيه جيمس من قبله ، وكان يعتقد الناس أنه هو الذى يوحى إلى الملك الطغيان ويدفعه إلى محاربة البرلمان ، واستشاط الملك غضبا وأمر بالمحرضين على ذلك فألقى بهم فى السجن ، وامتنع البرلمان عن العمل حتى يطلق الملك سراحهم ، وأعلن ألا تجبى ضريبة التجارة إلا بموافقة البرلمان ، وأذعن الملك فأطلق المحرضين ، ولكن البرلمان عاد إلى اتهام بكنجهام فلم يطق الملك صبرا ، وتخلص منه بحله .

وعمد الملك إلى فرض قرض جبرى لمواجهة الحرب وأخذ فى جمه بالقوة ، وكان يرسل إلى السجن من يرفض أن يدفع ، وكان ممن دخل السجن بسبب الامتناع جون همبدن أحد زعماء البرلمان وقد أصر على امتناعه معلنا فى صراحة وجرأة أن الملك لا يملك فرض مثل هذا القرض ، وزاد على ذلك قوله « إن العهد الأعظم ينبغى أن يقر أمرتين كل سنة فى وجه من يخرجون عليه » .

واشتدت الضائقة بالملك ، فقد ساقته حماقته إلى خلاف بينه وبين فرنسا وانقلب الخلاف إلى حرب وما تزال الحرب بينه وبين أسبانيا قائمة ؛ وأرسل شارل حملة بحرية لمساعدة البروتستنت الفرنسيين (الهيوجونون) فى لاروشل ، وكانت قيادتها لبكنجهام وباءت بالفشل ، فازداد الناس سخطا عليه وعلى الملك ، وراح الملك يجمع القرض الجبرى بكل ما فى وسعه من عنف حتى لقد ألقى بنحو ثمانين من العلية فى السجن ممن حذوا حذو همبدن ، أما العامة فكان الجلد جزاء من يمتنع أو الحشد فى صفوف الجيش أو فى سفن الأسطول ، ولم يغن عن الملك بطشه فقل المال فى يديه وأيقن أن لا بد من دعوة برلمان ومهد السبيل لذلك بإطلاق من سجن ، كما أنه طمع أن يكتسب بذلك مودة الشعب

واجتمع البرلمان الثالث سنة ١٦٢٨ فافترض حاجة الملك إلى عونه وعاد إلى اتهام بكنجهام ، وتحرج الأمر بينه وبين الملك . ثم أعد النواب ملتمسا سموه ملتمس الحقوق ، وأعلنوا استعدادهم لإجابة الملك إلى بغيته من المال إذا أجابهم إلى ذلك الملتمس ، ووافق الملك فأجابوه إلى ما أراد ، ونص الملتمس على أنه لا يحق للملك فرض ضريبة إلا بموافقة البرلمان ، وألا يسجن أى شخص إلا وفق القانون ، وألا يجعل الجند عالة على الناس ، وألا يلجأ إلى الأحكام العسكرية بدل القانون العام ، وهذا الملتمس مستمد فى روحه من العهد الأعظم ، ويعد بعده الوثيقة الثانية لحقوق الإنجليز وحرياتهم .

على أن أشد ما استاء منه الناس هو مسلك الملك يومئذ فى سياسته الدينية . أظهر شارل من أول الأمر ميله إلى نظام الكنيسة الإنجليزية ، ومع أنه لم يك كاثوليكيا وفق مذهب روما فإنه كان يكره البيوريتانز كرها شديداً ويخاف من تزايد عددهم ويشك فى دعوتهم الإصلاحية ويراها ضربا من التطرف لا مبرر له ويميل بالرجوع بالدين إلى مظهره الكاثوليكى القديم .

وحدث أثناء إجازة البرلمان أن قرب الملك إليه أحد رجال الدين وهو وليام لود ورقاه أسقفا للندن ، وأخذ يعمل بما يشير عليه به ، وكان لود من أشد أعداء البيوريتانز ، وكان هؤلاء يمقتونه أشد المقت لتعصبه لنظام الكنيسة الإنجليزية وليله الفطرى إلى الاستبداد بالرأى والقسوة فى معاملة خصومه ولضيق تفكيره وفظاظته وغلظ قلبه ، فلما قربه الملك إليه ، عد البيوريتانز عمل الملك نذيرا لهم فأجمعوا أمرهم بينهم على مقاومته ومعاندة لود وممالأة البرلمان عليهما ، وأصبح البيوريتانز من أكبر المتحمسين فى طلب الحرية السياسية ، فهى فضلا عن كونها من مبادىء مذهبهم تعد فى رأيهم الآن طريق الخلاص من وليم لود أسقف لندن خصمهم العنيد .

نظرات فى الأدب :

الأدب والمجـــتمع

كان من نتائج شيوع المذاهب الاشتراكية ، أن بدأ كثير من الـكتاب — ولا سيما دعاة تلك المذاهب — يتجهون فى كتاباتهم اتجاهاً جمياً ؛ ويحاولون أن يعالجوا كل ما يمس المجتمع من قريب أو من بعيد ؛ ويجهدون — قدر الطاقة — فى وسم كل إنتاج لهم بالميسم الاجتماعى .

ولا شك أن هذا الاتجاه إلى معالجة شئون المجتمع ، والنظر إليها هذه النظرة الفاحصة المحصة لما يحمد أثره فى النهوض بالشعوب والرقى بالأمم .

ولا شك فى أنه أيضاً اتجاه طبيعى إلى حد كبير ؛ وهو — فى ذاته — معقول ومجد ، لأنه يتفق وغلبة النزعة الاشتراكية على بلاد العالم جمعاء ... حتى الديموقراطية منها .

ولـكن كل هـذا — وإن كنا نقره ونعترف به — لا يبرر — بأى حال — وجوب اتجاه الأدب — بوصفه فناً من الفنون الجميلة — إلى المجتمع ... والمجتمع فحسب : يعالج شئونه ، ويجاهد أن يحل قضاياه ، ويتلمس أن يتعرف علله الظاهرة منها والباطنة ؛ ثم هو لا يتجه من بعد ذلك إلى غير هذا ؛ فهو من المجتمع : ابنه البكر ووليده المشمول برعايته — وإليه ؛ ولا ينبغى أن يبتعد عنه ويروح يغوص فى لجج التيارات الفردية والنزعات الإنسانية التى تلغى قيود الزمنية والمكانية .

... هذا بعينه — هو ما يذهب إليه دعاة الأدب للمجتمع ... ذلك النفر الغالى فى إنكار الذات إلى حد غير متقبل عقلا وبداهة

لقد ظن أولئك الدعاة أن الأديب يحيد عن رسالته الروحية حين لا يصرف كل جهوده فى توجيه المجتمع وحل قضاياه ؛ وارتأوا

وقتل بكنجهام بيد مغتال لأمر لا يتصل بالسياسة فتنفس الناس الصعداء ، وخفف عنهم ذلك مروق ونتورث شيئا قليلا ودأب الملك فى جمع ضريبة التجارة ، وعاد الجند يفرضون على الناس لأطعامهم وإيوائهم أينما انتقلوا ، ونظر النواب فإذا ملتمس الحقوق لم يبق فيه من الحقوق شىء .

فلما اجتمع البرلمان سنة ١٦٢٩ كانت قلوب أعضائه مليئة بالسخط على الملك الذى نقض عهده ، وأخذ البرلمان يدعو إليه بعض المسؤولين ليستجوبهم عما عدهم مخطئين فيه مما يتصل بجباية ضريبة التجارة فكان عمله هذا تحديا لإرادة الملك .

وأعد بعض النواب مقترحا فحواه أن جباية هذه الضريبة عمل غير قانونى فليس على الناس أن يدفعوها ، وصاح فيهم رئيس المجلس أن الملك قد أمره ألا يكون موضع مناقشة ، ونظر الرئيس فكأنما انقلب المجلس بركانا يلفظ الحمم ، وصعب عليه أن يتبين ما هز أرجاء القاعة من عبارات صاخبة فمن احتجاج على تدخل الملك فى إدارة الجلسة ومن هتاف بوجوب الأصرار على المقترح ، ومن صيحات موجهة إلى الرئيس أن ينزل عن كرسيه إلى غير ذلك من مظاهر الغضب والسخط ، وذهب بعض النواب فأغلقوا باب القاعة وجاءوا بمفتاحها فوضعوه على المنصة وأنزل عضوان الرئيس عن كرسيه بالقوة وبعض اللوردات وكبار الوظفين يطرقون الباب فى غير جدوى إلى أن قرىء المقترح ووافق عليه النواب فى حماسة عظيمة ، ومما جاء فيه قول النواب « إن من يحدث تغييراً فى الدين أو من يفرض ضريبة جديدة أو يدفعها بغير موافقة البرلمان فهو عدو للمملكة » .

ولما نما ذلك إلى الملك لم يسعه إلا حل البرلمان فحله فى اليوم الذى تحدد لاجتماعه بعد هذه الجلسة المشهودة ، وأمر الملك فقبض على بعض أعضائه وأرسلوا إلى السجن ، وكان فى مقدمتهم سير جون إليوت صديق همبدن وصاحب المقترح ، وبعد مضى بعض الوقت تاب الأعضاء مما فعلوا فخلى سبيلهم إلا اليوت فقد ظل على إصراره. وساءت فى السجن حالته ومشى السقم فى بدنه فما زاده ذلك إلا عناداً وإصراراً. واقترب منه الموت بعد بضع سنين فما أخافه شبح الموت ولا أوهن له اصطباراً ولاقى النائب الشجاع حتفه بين جدران السجن فكان أحد شهداء الحرية ، وكان من السهل أن يشترى حياته بأذعانه لمن سجنه ولكنه آثر ميتة البطل ؛ ولم يتورع الملك عن أن يكيد له وهو بعد رفات فمنع أهله من أن يدفنوا جثته خارج السجن فوسد حيث استشهد ، ودفن حيث أبت روحه أن تدفن .

(يتبع) **الخفيف**

أن فى انتهاجه المنحى الفردى — الذى يحصر حدود الكلام فيما يعتلج فى النفس ويدور حولها ويتعلق بها ويرتد إليها — انحرافاً يستدل منه على أنه لا يعانى المجتمع ويجرى وراء الأوهام والتعلات !

وهذا قول من شأنه أن يضيق من حدود مجالات الأدب الفسيحة ، حتى يضيق الأدب به ويضيق بأصحابه على خلاف ما يتوهمون !

إن الأدب — أسوة بغيره من الفنون — تعبير[1]... تعبير بكل ما نريد بهذه الكلمة من تبيان معانى « الإفصاح والإبانة والتجلية » . وفن هذا شأنه وهذه طبيعته ، لا يمكن أن نقسره على أن يكون صدى لمجتمع بعينه أو بيئة بعينها . وكل ما ينبغى أن نطالبه به وننشده فيه ، هو أن يكون صادقاً مبيناً صادراً عن نفس تحس فتتأثر ثم تؤثر .

والكاتب حين يصدر فى إنتاجه عن حس صادق مستوفز للمؤثرات والحوافز ، وملكة مواتية ذلول تموج فيها تيارات الإلهام الدافق المتفجر — لا يمكن أن يكون « مسئولا » بعد ذلك ، عما إذا كان قد تناول شئون المجتمع أم طوى كشحاً عنها ... لا يمكن أن يكون « مسئولا » فى « عرف » آلهة الفن وحواريه وملائكته ... وشياطينه أيضاً ! ولا علينا بعد ذلك أن يكون « مسئولا » أمام المجتمع أو أمام الساسة المهرجين !

أجل ... حسب الأديب الفنان أنه عبر ... فى صدق وإخلاص يكون لهما فى القلب رنين ... حسبه هذا ، وكفى به رصيداً — أى رصيد — يضم إلى تراث الإنسانية الرفيع !

وتعبير هذا شأنه من الصدق وتحرى نفحات الإلهام هو — من غير شك — لذو أثر فى السمو بالإنسانية عامة — أياً كان لونه واتجاهه . ولا يعنينا — بعد ذلك — أن يكون إحساس هذا الأثر جلياً ظاهراً للعيان ، صادراً عن مجاوبة مجتمع بعينه ، أم خفياً ينسرب إلى التراث الإنسانى فى خفة العصفور الدقيق الرشيق ... بل إنى لأراه أطيب وأوقع فى النفس ، وأقوى على تحمل البقاء فى رصيد الإنسانية ، حال خفائه وانسرابه إليه فى خفة العصفور الدقيق الرشيق!

وإنى لأسمع الكثيرين يتساءلون حين يصادفون نتاجاً أدبياً ، يتناول وقائع خاصة أو أحداثاً شخصية فردية بحتا ، بحيث لا تمس أحوال المجتمع فى كثير أو قليل ... إنى لأسمعهم يتساءلون فى أسى وحيرة : « ... وما جدوى هذا الإنتاج للمجتمع ؟ ! »

... وما أحراهم أن يديروا هذه الأسئلة التالية فى عقولهم — وفى قلوبهم أيضاً ! — ليجدوا المخلص من أساهم وحيرتهم اللذين لا مبرر لهما ... فى نظرى :

أليس هذا الإنتاج « إنسانياً » على كل حال ؟ أليس المجتمع — فى ذاته — ليس إلا مجموعة أفراد ؟ ... ومهما تمايزت المجتمعات واختلفت الشعوب وتباينت النحل والأجناس ، ألا توحد بينها جميعاً رابطة الإنسانية العليا ؟ ! ... ثم ... أليس فى حكم البداهة المقررة أن النفس الإنسانية — مهما تعددت فى شكولها الظاهرية ، وبالنسبة إلى الزمنية والمكانية — واحدة فى جوهرها وفى صميم فطرتها الأصيلة ؟ !

... ولا ينبغى أن يخشى أولئك الاجتماعيون — الذين يريدون أن يستأثروا بهذا الوصف وحدهم ... لست أدرى لماذا ؟ ! — لا ينبغى أن يخشوا أن ينحرف الأديب — إذا لم يقيد إنتاجه بالغرض الاجتماعى والهدف النفعى — إلى قضايا الشر يؤيدها ويمجدها ويحث على إثارتها ... فيهود بذلك المجتمع ويصبح حرباً عليه ، حين كان يؤمل فيه — لو أنه توجه فى تياره — أن يكون عوناً له ونوراً به يستضىء ... لا ينبغى أن يخشى أولئك الاجتماعيون ، شيئاً من ذلك على الإطلاق ، لأننا لا نعرف الفنان إلا خيراً ، ولا نعرف الفن إلا خيراً صرفاً كله ؛ لأنه لا يجوز فى الذهن — والفنون بالبداهة أسمى كنوز الإنسانية ، وأغلى ما تعتز به من تراث — أن تكون نفس الفنان مركبة على حب الشر والنزوع إليه . وما هذا الأدب الشرير الذى منه يتوجسون وعلى مجتمعهم منه يشفقون ، إلا غطاء ظاهرى نسجه المجتمع اللعين ، وظاهره فى ذلك القدر فطمر على ينابيع الخير الثرة فى النفس الفنانة الشفيفة

... لا خوف على الإنسانية من شر ظاهرى زائف ، يفضحه الخير المتأصل فى النفس — ونعنى بها هنا نفس الفنان — تأصل الخصب فى الأرض الطيبة السمحة !

(مصر الجديدة) **عبد العزيز الكرداني**

(١) راجع فى هذا المعنى — متوسعاً فيه — مقالا نفيساً ماتعاً ، للكاتب الكبير الأستاذ العقاد عنوانه « أسئلة وأجوبة » — ع (٥٩٩) من الرسالة .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٣٤ — جاء الزمان إلى منها تائباً

دخل عبد الله بن عبد الواحد على الملك العادل بن المنصور (من ملوك الأندلس والمغرب) فقال له العادل كيف حالك ؟ فأنشده :

حال متى علم ابن منصور بها   جاء الزمان إلى منها تائباً

فاستحسن ذلك منه وولاه أفريقية .

وهذا البيت للمتنبي وإنما تمثل به لموافقة اسم منصور فيه لاسم والد العادل لحسن التمثيل به .

٧٣٥ — تسأل عنها أخاك إبليس

في (العقد) كان ابن سيرين إذا سئل عن مسألة ، فيها أغلوطة[1] ، قال للسائل : أمسِكْها حتى تسأل عنها أخاك إبليس .

٧٣٦ — يبكي الغمام وتضحك الأزهار

قال ابن ظافر : اجتمع الوزير أبو بكر بن القبطرنة والأديب أبوالعباس بن صارة الأندلسيان في يوم جلا ذهبَ برقه ، وأذاب ورِق ودقه ، والأرض قد ضحكت لتعبيس السماء ، واهتزت وربت عند نزول الماء . فقال ابن القبطرنة :

هذي البسيطة كاعب أبرادها   حلل الربيع وحليها النوار

فقال ابن صارة :

وكأن هذا الجو فيها عاشق   قد شفه التعذيب والاضرار

ثم قال :

وإذا شكا فالبرق قلب خافق   وإذا بكى فدموعه الأمطار

فقال ابن القبطرنة :

من أجل ذلة ذا وعزة هذه   يبكي الغمام وتضحك الأزهار

(١) الأغلوطة : ما يغالط به من المسائل العالم ليستزل ويستسقط رأيه « التاج » أنهاك عن الأغاليط ، وأربأ بك عن التخاليط ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأغلوطات « الأساس » .

٧٣٧ — أتاك مني بما لا تشتهي القدر

كان أبو الهذيل العلاف المعتزلي يبغض العباس بن الأحنف ويلعنه لقوله :

إذا أردت سلواً كان ناصركم   قلبي وما أنا من قلبي بمنتصر

فأكثروا أو أقلوا من إساءتكم   فكل ذلك محمول على القدر

فكان أبو الهذيل يلعنه لهذا ويقول : يعقد الكفر والفجور في شعره .

فقال العباس بن الأحنف :

يامن يكذب أخبار الرسول لقد   أخطأت في كل ما تأتي وماتذر

كذبت بالقدر الجاري عليك فقد   أتاك مني بما لا تشتهي القدر

٧٣٨ — لم لم يروحه كما أغداه ؟

في (الموشح) قال الصولي : قال الأصمعي : أنشدتُ الرشيد أبياتَ النابغة الجعدي من قصيدته الطويلة :

فتى تمّ فيه ما يسرّ صديقه   على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا

فتى كملت أعراقُهُ غيرَ أنه   جوادٌ فلا يُبقي من المال باقيا

أشمُّ[1] طويل الساعدين ، شمردلٌ   إذا لم يرح للمجد أصبح غاديا

فقال الرشيد : ويله ! ولِمَ لمْ يروحْه في المجد كما أغداه ؟ ألا قال : إذا راح للمعروف أصبح غاديا .

فقلت : أنت والله (يا أمير المؤمنين) في هذا أعلم منه في الشعر .

٧٣٩ — سؤال الحوائج عند الطعام

في (شذرات الذهب) : كان أبو العباس — أول خلفاء العباسيين — إذا حضر طعامه أبسطَ الناس وجهاً ، فكان إبراهيم بن مخرمة الكندي إذا أراد أن يسأله حاجة أخرها إلى أن يحضر طعامه ، ثم يسأله . فقال له يوما : يا إبراهيم ، ما دعاك إلى أن تشغلني عن طعامي بحوائجك ؟

قال : يدعوني إلى ذلك التماس النجح لمن أسأله له .

فقال أبو العباس : إنك لحقيق بالسؤدد لحسن هذه الفطنة .

(١) الشمم في الأنف ارتفاع القصبة وحسنها واستواء أعلاها ، وانتصاب الأرنبة . وإذا وصف الشاعر فقال أشم فإنما يعني سيداً ذا أنفة « اللسان » .

في « اللسان » الشمردل : الفتى السريع القوي الفتي الحسن الخلق . قال المساور بن هند :

إذا قلت : عودوا ، عاد كل شمردل   أشم من الفتيان جزل مواهبه

٧٤٠ — مصيبة ...

يهودى بلا مال وأعمى ماله صوت

٧٤١ — من أدب السلف الصالح

فى (الآداب الشرعية والمنح المرعية) :

ابن عقيل فى الفنون : مما وجدتُه فى أدب أحمدَ[١] أنه كان مستنداً وذُكِرَ عنده ابن طهمان ، فزال ظهرَه عن الاستناد وقال : لا ينبغى أنْ يجرى ذكرُ الصالحين ونحنُ مستندون .

قال ابن عقيل : فأخذتُ من هذا حسنَ الأدب فيما يفعله الناسُ عند إمام العصر من النهوض لسَماع توقيعاته .

٧٤٢ — إن اللئام إذا ما سافروا ضجروا

كانت العرب تقول : (السَّفَر ميزانُ القوم) كأنه يزنهم بأوزانهم ويُفصح عن مقاديرهم فى الكرم واللؤم . قال المطوى :

أكرِمْ رفيقك حتى ينقضى السفر
إن الذى أنت موليه سينتشر
ولا تكن كلئام أظهروا ضجرا
إن اللئام إذا ما سافروا ضجروا

٧٤٣ — ويكون جرحك جبارا

فى (نفح الطيب) كان ابن الصابونى الأندلسى فى مجلس أحد الفضلاء بأشبيلية فقدم فيما قدم خيار ، فجعل أحد الأدباء يقشرها بسكين ، فخطف ابن الصابونى السكين من يده . فألح عليه فى استرجاعها . فقال له ابن الصابونى كف عنى وإلا جرحتك بها .

فقال له صاحب المنزل : اكفف عنه لئلا يجرحك ويكون جرحك جبارا[١] ...

٧٤٤ — الاعرابى وفن العروض

فى (محاضرات الراغب) : دخل إعرابى مسجد البصرة فانتهى إلى حلقة علم يتذا كرون الأشعار والأخبار وهو يستطيب كلامهم ثم أخذوا فى العروض فلما سمع المفاعيل والفعول ورد عليه ما لم يعرفه فظن أنهم يأتمرون به فقام مسرعاً وخرج وقال :

قد كان أخذهمُ فى الشعر يعجبنى
حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاماً لست أعرفه
كأنه زجل الغربان والبوم[٢]
ولَّيت منفلتاً والله يعصمنى
من التقحم فى تلك الجرائيم[٣]

(١) الامام أحمد بن حنبل .

(١) فى الحديث : جرح العجماء جبار ، الجبار الهدر والعجماء لدابة « النهاية » قال الأزهرى : إن البهيمة العجماء تنفلت فتتلف شيئا هدرن فهو وكذلك المعد إذا انهار على أحد فدمه جبار أى هدر (المصباح) .

(٢) زجل : صوت

(٣) فى تلك الجرائيم : فى تلك الأماكن غير المستوية فى (النهاية) : فى حديث ابن الزبير لما أراد هدم الكعبة وبناءها كانت فى المسجد جرائيم أى أماكن مرتفعة عن الأرض متجمعة من تراب أو طين .

شهـــادة ...!

للدكتور إبراهيم ناجى

[أقولها بين يدى صديقى الشاعر الوجدانى الأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالى تحية معطرة بشذى «زهر الربيع»]

وفينانةٍ ريّـانةٍ بجمالها ... بتول ، كأملاك السماء كَعاب
رآها أخ بالحسن والسّحر عارف ... عليم بشُهدٍ فى الحياةِ وصاب
بهاصورشتى من الحسن، لم تدرْ ... ببال ، ولا جالت له بحساب
بدت سافرات تنهب القلب والحجى
ولو كان هذا الحسن خلف نقاب !
إذاً لتحدّى صولةً كل حائل ... وشق إلى الأنوار كل حجاب
فيالك من حسن قوى وإن يكن ... كفجر وديع فى الضّياء مذاب
رآها ... فصاح القلب فى الصدر هاتفاً :
ألا ليتنى أدركتها بشـبابى ... !

هى ... (*)

للاستاذ أحمد عبد المجيد الغزالى

[أرفع تلك الورقة المخضلة بهذه الأبيات وكأنها زهرة منداة من «زهر الربيع»]

أطلّت على دنياىَ فجرَ شبابى ... فعشت بقلب فى الضّياء مذاب
بيا كره منها السنا كلما سرت ... فتشرق آمالى به ورغابى
حبتنىَ من نور الجمال ونوره ... ضياء ظلامى وازدهار يَبابى
عرفتُ بها سرَّ الجمال محجّبا ... وأدركتُه سرًّا بغير حجاب
فلا أنا فى الحالين أرضى ضلالتى ... ولا أنا أرضى جانب المحراب
محيّرةٌ فى القرب والبعد يستوى ... شرابى من كاساتها وسرابى
حنانَيْك أودت بى قُطيعتكِ التى
مضت ... والتلاق قد أضاع صوابى
ولست بشاك ما أعانيه من ردًى ... لغير التى منها أكابد ما بى !

(*) من ديوان — زهر الربيع — يظهر فى هذا الربيع .

عيد الجـلاء ... !

للاستاذ أنور العطار

دمشق ترفل فى أفواف وادينا ... غنّى لها (بردَى) هيمان مفتونا
السلسل العذب يُهدى (النيربينْ) هوى ... كالروض يَعبقُ أوراداً ونسْرينا
و(قاسيون) انتشت بالنور هامته ... كأنه قبس الأنوار من (سينا)
وضجت الغوطة المنضور جانبها ... بيوم (جلّقَ) واهتزت أرانينا
يوم أغرٌّ على الأيام مؤتلقٌ ... مُشهّرٌ ما زال الدهر ميمونا
يا صفحة قد كتبناها بأيدينا ... بالدمع والدم قد زينتْ أفانينا
ويا جهاد الألى اعتز الجهاد بهم ... أرضيتم اليعرُبيين الأبيّينا
نزّهتمُ الشام من باغ يعيثُ بها ... وصُنتم مهدها مهد النبيّينا
ملأتمُ ساحها عزاً وتكرمة ... فكان حاضرُنا رمزاً لماضينا
أتت على الشام أعوام مُروّعة ... كأنما هى أجيالٌ تعنّينا
جرَّ المغيرُ علينا نقمة عَظُمت ... فكانت الدار نهب الأجنبيّينا
فهبَّ من مهدوا يوم الخلاص لنا ... يصارعون الرزايا غيرَ وانينا
فكان إقدامُهم بعثاً لهامدنا ... وحافزاً يحفز الشُّعث المساكينا
مشوا إلى الهول يرتادون جاحمه ... يستعذبون المنايا غير خاشينا
كأنهم أرجُ الفردوس تنفحه ... رياض جلّقَ فوّاحاً تحاسينا
تباركَ الدم قد أهرقتموه فِداً ... وقدّستْ أنفسٌ سالتْ قرابينا
لم تلهكم مُتعُ الدنيا وزينتها ... أن تبعثوها على الباغى براكينا
ولم يُخفكم أذى العادى وصولته ... أن تدعنوا أو تقرّوا الذّل عانينا
ولا ارتضيتم مِهاد العيش لينة ... والحرُّ لا يعرف الإذعان والهُونا
الخالدون وما الدنيا وبهجتها ... إلا سنا الخالدينَ العبقريينا
عاشوا جمال الدُّنا حتى إذا نزلت ... بهم مناياهم ظلّوا عناوينا
كأنما يبدأون العمرَ ثانية ... حتى إذا ما تواروا أشرقوا فينا
يا حفنة من ثرى الأجداد طيبة ... تكاد من طيبها تندى روابينا
هبت فكانت ربيعاً فى حواضرنا ... وبهجة وائتلاقاً فى بوادينا
يلفُّها الحبُّ مختالاً بها فرحاً ... كأنها الشام قد رفّتْ بساتينا
نبنها فرحة الأحفاد قد نهضوا ... وأثّلوا الملك تدعيما وتمكينا
بشّوا الرسالة فى أوج العلى ومشوا ... للمجد والعزة القعساء سامينا

طافوا بقبر صلاح الدين واستلموا   فمل المطيفين بالبيت المناجينا
شادوا كما شادتِ الأجدادُ فى وطنٍ
صُنْعَ الأُباةِ الحماةِ العَبْشَميّينا
المالكين وعزُّ الملكِ يلحظهم   والمالئين فجاجَ الأرض تمدينا
الناهجينَ إلى العلياء منهجها   والألمعيين إتقاناً وتحسينا
حيوا الأوطانهم حتى إذا رقدوا   تفرّدوا بجلال الذّكر باقينا
لم يطمئنوا إلى الأيام خادعة   والدهر مازال حرب المطمئنينا
مَن مبلغ راقداً فى الرمل متشحاً   بُرد الشهادة مغموراً رياحينا
الجوهرَ المحضَ تاهت (ميسلون) به
كأنه البدر فى داجى ليالينـا
والصادق العزم لو لاقى بعزمته   صم الجنادل رد الصخر موهونا
من آثر الموت أن يحيا إلى زمن   يذوق فيه الردى صاباً وغسلينا
تدرَّع العزم لا يلوى به أمل   ولقّن الصبرَ فى الهيجاء تنقينا
أنّ الوفيينَ قد صحّتْ عزائمُهم
فزحزحوا عن حِمى العُرب المغيرينا
وشيّدوا المجد بالهامات طائحة   ولله آثر والعلياء بانونا
تلكم دماؤهم ضجت مزغردةً   وتلكم يا بنى قومى أضاحينا
وأنت يا عيدَهم بوركتَ من أمل   حلو على الدهر نحييه فيُحيينا
فى (ميسلون) طريف من مفاخرنا
وفى حماهـا رفيف من أمانينا
وفى تضاعيف سوح الشام أمثلةٌ   من الفداء تُناجينا فتُصْبينا
وعداً علىَّ وقد أصغى الزمان لنا   لأنظمنّ بها أحلى أغانينا
يا وحدة العرب لوحى فى أباطحنا   وأشرقى كالدرارى فى مغانينا
وأنت يا نفحة الضاد التى سكرت   بها النفوس وما تنفك تغرينا
لأنت زاد الألى ازدان الوجود بهم
وأنت أنت السّنا فى الخطب يهدينا
إذا ضللنا ولم ترشد محجتنا   لذنا بوحدتنا الكبرى تؤاخينا
وإن ضعفنا وأوهى الضعف عقدتنا
كانت لنا داعماً فى الضعف يعلينا
وإن حننا إلى الأطيار صادحة   شدت لنا اللغة الفصحى تناغينا
يافرحة الملتقى أذكيتنى طرباً
وهجت أحلى المنى فى أرض « جيرونا »
تركت قلبى مغموراً بنشوته   سكران تصبيه أفراح النجيينا
يا طول شوقى إلى الألاف قد رجعوا
ولم يكن طيفهم يوماً يصادينا
غنى لهم خاطرى فرحان مبتهجاً   لحن اشتياق بسيل الدمع مخزونا
تساءل النفس فى شوق وفى لهف   من أنت يامن أذاع الوجد مكنونا
أأنت ذياك الطيف الذى خفقت   له الضلوع وغناه المغنونا
أم أنت دنيا من الأحلام طيبة   كمسك نشراً وأنفاس الربا لينا
أم حقق اللهُ وعداً فاتناً لهجت   به النفوس ونصراً كان مضمونا
أأنت طيف سرى فى العين ناعمة   أم أنت حققت للعُرب الأظانينا
فصحتُ من طربٍ والزهوُ يَملكنى :
« أضحى التدانى بديلا من تنائينا »
ماذا على القلب إن هاجت هوائجه   فراح ينشد أشعار (ابن زيدونا)
ياجيرة العُرب صان الله عقدكم   وزادهُ الحب توثيقاً وتمكينا
حللتُم الوطن المزهوَّ جانبه   من بعد ما نهلتْ منه أعادينا
وبعد داء عياء لا كفاء له   جمّ المواجع يُشجينا ويُبكينا
الغاشم المرُّ ولّى عن أباطحنا   وانهار كالسيل سكباً من صياصينا
قد حطّه وهو فى عليائه قدَر   يردى المغير ويطوى المستبدّينا
فقل له زاجراً نهلان من سخر   لاعدت يامن صحبت الرأى مأفونا
ولا أظلّتك دنيا الناس تملؤها   غمّاً طويلاً وويلاتٍ أفانينا
أثرتَ للحق تُعليه وتُعظمه   أم كان ذلك تضليلا وتلوينا
غررت ناساً فقالوا ثورة عجب   قد صاغها الحق حينا والعلى حينا
يعيش فيها الحجا جذلان مغتبطاً   ويستنير برأى الألمعيينا
ثم انجلت فإذا طغيان مختبل   جم المخازى فما زينت ولا زينا
تفيض بالفتنة الكبرى جوانبها   وتملأ الأرض تفكيكاً وتوهينا
يايوم (جلق) ضم العرب فائتلفوا   فما ترى بيننا غير المحبينا
الهائمين تلاقوا بعد ما افترقوا   وعاهدوا الله أن يحيوا وفيينا
تمازجوا فى إخاء رائع عجب   فمل الأخلاء فى الدنيا الصافينا
(نجد) الهوى و (الحجاز) السمح قد سربا
فى (جلق) وانثنت (بغداد) تطرينا
وأشرقت (مصر) باللألاء باهرة   وبالحياة وبالأرواح تفدينا
ومر (لبنان) فى خلاب صورته   كأنه الشعر ترتيلا وتلحينا
(عمان) طافت تهز النفس روعتها   ورفت الشام فى وشى (اليمانينا)



في مقالة للأستاذ العقاد :

روى العلامة الأستاذ الشيخ المحترم عباس محمود العقاد في مقالته : (من الدعوة الهندية) في الرسالة الغراء ٦٧١ : « وكل ما أدعيه أنني محدث » وقد ضبطت هذه اللفظة الأخيرة بكسر الدال وتشديدها — ولا ريب في أن ذلك تطبيع — ومقصود القائل ، هو المحدث بفتح الدال وتشديدها . قال ابن الأثير في النهاية .

« قد كان في الأمم محدَّثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر ابن الخطاب . جاء في الحديث تفسيره أنهم الملهَمون ، والملهم هو الذي يلقى في نفسه الشيء فيخبر به حدسا وفراسة ، وهو نوع يختص به الله (عز وجل) من يشاء من عباده الذين اصطفى مثل عمر ، كأنهم حدثوا بشيء فقالوه » .

والمروَّع — بفتح الواو وتشديدها — مثل المحدث . جاء في لسان العرب :

« وفي الحديث المرفوع أن في كل أمة محدَّثين ومروَّعين فإن يكن في هذه الأمة منهم أحد فهو عمر . المروع الذي ألقي في روعه[1] الصواب والصدق وكذلك المحدث كأنه حدث بالحق الغائب فنطق به » .

وقد رأى الشيخ المحترم أن (التسليم) هو للكلمة الفرنجية Islamization قائسا إياها — كما أوفق — على التهويد والتنصير والتمجيس . روى البخاري :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ... » .

وفعل ذلك المصدر (سلم يسلم) ولهذا في العربية معان كثيرة ليس الحرف المختار للفرنجية منها ، وإذا لم نسلم بما قال الأستاذ العقاد فماذا نقول ؟ ...

السهمي

إلى الأستاذ أحمد حسين :

خذ — يا أخا العرب — غير مأمور هذا الخبر الطلاق إن لم تكن قد رويته في كتابك (الزواج والمرأة) وهو حجة لك وفيه قضاء عدل :

« ... عن عكرمة في رجل قال لغلامه : إن لم أجلدك مئة سوط فامرأتي طالق . قال : لا يجلد غلامه ، ولا تطلق امرأته ؛ هذه من خطوات الشيطان . ذكره (ابن داود في تفسيره) في لا تتبعوا خطوات الشيطان » .

فلا طلاق إلا أمام القاضي من بعد فحص وبحث ، وتذكير وتحذير ، ونصح طويل ، ولوم جميل . و « آخر الدواء الكي » .

هذا الذي يرضي النبي محمدا .

مسلم

الجامعة العربية تنشئ معهداً للفقه الإسلامي :

من المشروعات التي ستعرض على اللجنة القانونية لجامعة الدول العربية في شهر يوليو القادم إنشاء معهد للفقه الإسلامي تدرس فيه المذاهب الفقهية الإسلامية المختلفة ، ومقارنة بعضها ببعض ، ثم مقارنتها جميعا بالقوانين الغربية الكبرى . والغرض من إنشاء هذا المعهد تهيئة جو مناسب لدراسة الفقه الإسلامي دراسة علمية حديثة تسير بهذا الفقه المعظم في طريق التطور الذي اختطه السلف الصالح من الفقهاء المتقدمين ، حتى إذا تهيأت

(١) الروع بالضم القلب والعقل ووقع ذلك في روعي أي في نفسي وخلدي وبالي ، والروع — بالفتح — الفزع وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما : إذا شمط الانسان في عارضيه فذلك الروع كأنه أراد الانذار بالموت . (اللسان) .

لكنما العين ما زالت مؤرقة ... تبكي الأحبة في دنيا (فلسطينا)
تهيب بالعرب في علياء عزتهم ... أن ينقذوا اليعربيين المصابينا
العرب في (المغرب) الأقصى تناجينا
والعرب في (المغرب الأدنى) تنادينا
لهفي عليهم وقد ضاق الفضاء بهم ... ماذا من الغاشم العادي يلاقونا
ما زالت الأرض تندى من دمائهم ... وما تزال عواديهم عوادينا
العرب في ثورة للمجد شاملة ... علياء وطدها الصيد المحامونا
حراس وحدتنا الكبرى ومن سفكوا
أرواحهم في سبيل العرب فادينا
ومن أشاحوا عن الدنيا ومن تخذوا
هوى العروبة فيما بينهم دينا
هذا هو المجد خطته أناملهم ... وخلدته على الدنيا قوافينا
كأنما هو مسك من دمائهم ... قد استطار دموعاً من مآقينا

الأسباب أمكن أن يكون الفقه الإسلامى ركنا من الأركان التى تقوم عليها دراسة القانون المدنى فى العالم ؛ وأمكن فى الوقت ذاته أن يكون هذا الفقه مادة خصبة تستمد منها التشريعات الحديثة فى دول الجامعة العربية . فهل تستطيع كلية الشريعة فى الجامعة الأزهرية أن تضطلع بهذا المشروع الخطير الذى تقتضيه حال التطور الدائم فى الأقطار العربية والإسلامية ؟ إحدى اثنتين : إما أنها تستطيع ، لأنها وحدها وريثة الفقهاء الأربعة ، وإذن يكون إنشاء هذا المعهد من الفضول الذى يأخذ ولا يعطى ، ويعدد ولا يوحد ، ويزيد ولا يفيد . وإما أنها لا تستطيع ، لأن الذين ينهضون بهذا العبء يجب أن يكونوا فقهاء من طراز عبد العزيز فهمى ، وعبد الحميد بدوى ، وعبد الرزاق السنهورى ، وإذن يكون رأى الأستاذ محمود الغمراوى محتاجا إلى التعديل ، حتى لا يتبدد تراث هذا المعهد الإسلامى الجليل .

التربية الدينية فى المدارس :

أرسل صاحب المعالى الأستاذ محمد العشماوى باشا وزير المعارف إلى سعادة الأستاذ وكيل الوزارة الكتاب الآتى نصه :

« يهمنى العناية بالتربية الدينية بالمدارس على اختلاف أنواعها ودرجاتها بالثقافة حسب مستوى التعليم ، وأن يعنى بجانب تعليم العبادات وتفهم روحها ومراميها بإحاطة الطلبة والطالبات علما بمبادىء الدين الإسلامى فى إصلاح النفوس والأجسام وتنظيم المجتمع وتنظيم العلاقات بين الأفراد والأمم على أساس من العدل والإستقامة والأمانة ، وتعريف الطلبة بأبطال الإسلام تعريفا يقوى فيهم روح التقدير للمثل العليا ويحفزهم إلى القدوة الحسنة .

وإنى أرجو أن تعرض على اقتراحا بتشكيل لجنة لهذا الغرض ، يكون من المستحسن تشكيلها من الشيخ محمود شلتوت والشيخ حسن البنا وعميدى اللغة العربية بالوزارة لتقترح الخطة ، والمنهج ، والكتب المحققة لهذا الغرض حسب مراحل التعليم بعد بحث الوضع الحالى لدراسة الدين والثقافة الإسلامية ، ويعرض مشروع قرار وزارى بذلك على وجه السرعة بعد الاتصال بحضرات الأعضاء من خارج الوزارة للاتفاق معهم على المساهمة فى هذه المهمة .

الجوائز الملكية للعلوم والآداب والقانون :

أوشكت اللجنة الوزارية التى يرأسها صاحب المعالى وزير المعارف أن تفرغ من وضع قواعد النظام الخاص بتوزيع جوائز صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الأول .

ومما استقر الرأى عليه فى ذلك أن يكون توزيع الجوائز الثلاث التى باسم المغفور له الملك فؤاد الأول فى ٢٧ إبريل من كل سنة تخليداً لذكرى وفاته ، وهى ثلاثة آلاف جنيه ، كل جائزة قيمتها ألف جنيه .

ويكون توزيع الجوائز الثلاث التى باسم صاحب الجلالة الملك فاروق الأول وهى على نفس النظام فى يوم ذكرى عيد جلوسه السعيد . وهذه الجوائز توزع :

١ — لأحسن عمل أو إنتاج فى العلوم .
٢ — لأحسن عمل أو إنتاج فى الآداب .
٣ — لأحسن عمل أو إنتاج فى القانون .

وقد سمعنا أن معالى وزير المعارف قد اقترح على اللجنة أن تخصص الوزارة من عندها جوائز أخرى لتشجيع العلوم والفنون فتقرر الأخذ بهذا المبدأ .

من شهادة الفرنج للإسلام :

تلقى (مستر لايس) المفتش السابق للمدارس الانجليزية بمصر دروساً فى اللغة العربية على أستاذنا العلامة اللغوى الشيخ عبد القادر المبارك عضو المجمع العلمى بدمشق ، وقرأ القرآن على أستاذنا العلامة المفسر الشيخ عبد الله العلمى . وقد سمعه الأستاذ المبارك يقول :

لسان العرب وتاريخ الإسلام يغنيان عن كل لسان وكل تاريخ ، وما من حسنة فى بلاد الفرنج إلا وأصلها من بلاد الإسلام ، وما من سيئة فى بلاد الإسلام إلا وأصلها من بلاد الفرنج .

فوزى محمد القبانى

فى الفقه المقارن :

أظهرت مكتبة الآداب بالجماميز الطبعة الرابعة لكتاب الميراث فى الشريعة الإسلامية والشرائع السماوية والوضعية ، بعد أن أضاف إليه مؤلفه الأستاذ عبد المتعال الصعيدى المدرس بكلية اللغة العربية كثيرا من الزيادات والتنقيحات ، فجاء فى ١٥٢ صفحة من القطع المتوسط ، وقد درس فيه الميراث فى الشريعة الإسلامية بتفصيل ، وبين فيه طريق حساب الإرث بالقواعد

الحسابية الحديثة بعد بيانه بالقواعد القديمة ، وذكر فيه جدول المواريث مع تحقيق الخلاف فى واضمه .

ثم بين فيه بعد هذا المواريث عند قدماء المصريين ، وعند الأمم الشرقية القديمة ، وعند العرب فى الجاهلية ، وعند الأمة اليهودية ، وعندقدماء اليونان وعندقدماء الرومان ، وهذه هى أشهر الشرائع القديمة .

ثم بين فيه بعد هذا الأصول الحديثة للمواريث الوضعية ، والميراث فى القانون الفرنسى ، والميراث عند الاشتراكيين ، واكتفى بذكر الميراث فى القانون الفرنسى عن ذكر الميراث فى غيره من القوانين الحديثة ؛ لأن هذه القوانين مستمدة من القانون الفرنسى ، ولا تختلف عنه إلا قليلا .

ثم ذكر فيه بعد هذا الموازنات بين الميراث فى الشريعة الإسلامية والمواريث فى هذه الشرائع ، فانفتح بذلك باب جديد ظهر فيه أسرار عظيمة فى الميراث الإسلامى ، أظهرتها تلك الموازنات بينه وبين غيره بعد خفائها ، وبينت أن ما جاء به الإسلام فى الميراث يوافق الأصول الحديثة الصحيحة للمواريث أكثر من المواريث الحديثة والقديمة ، وأنه يكفل مراعاة ميل المورثين ، والعدل بين الورثة ، والمحافظة على الجيل الجديد ، أكثر من المواريث التى وضعت لها هذه الأصول .

وتلك أسرار جديدة لم تكن لتظهر فى المواريث الإسلامية لو اقتصر فى دراستها على الطريقة القديمة ، لأنها تظهر فيها أحكاما تعبدية لا يفقه لها حكمة إلا اختيار الشارع لها ، وإيثاره لها على غيرها ، كما جاءت صلاة الصبح ركعتين ، وصلاة الظهر أربع ركعات ، إلى غير هذا من الأحكام التعبدية .

وما أحوجنا فى هذا العصر إلى دراسة أبواب الفقه الإسلامى كلها على هذه الطريقة الجديدة ، ليعرف فضلها بالموازنة بينها وبين غيرها من الشرائع ، وتظهر فيها أسرار جديدة تجذب الناس إليها ، وتحملهم على تقديرها وإنصافها .

إقتراح :

كانت الرسالة تختم كل مجلد بفهرسين : فهرس لأعلام الكتاب وفهرس للموضوعات ، ثم ضيقت الحرب صفحاتها ، فتركت الأول واكتفت بالثانى .

والرسالة سجل الأدب الحديث لا يكاد يستغنى عن الرجوع إليه متأدب ناشىء أو ناقد أديب . ولقد احتجت اليوم إلى النظر فى مقالة أعرف موضوعها واسم صاحبها ولكنى لا أعرف عنوانها بالضبط لأعود إليه فى فهرس الموضوعات ، فاضطررت للتفتيش عنها ساعتين كاملتين ، ولو كان للاعلام فهرس لوجدتها فى خمس دقائق .

فأنا اقترح على الرسالة أن تصل ما كان انقطع وتنظم فهرسا واحداً لأعلام الكتاب عن سنى الحرب كلها يكون مكملا للفهارس السابقة فتعظم فائدته ويجزل شكر القراء عليه . وأحسبه يكلف تعباً كثيراً ولا يأخذ من صفحات الرسالة أكثر من ست صفحات أو سبع ، أو يتطوع أحد القراء بتنظيم هذا الفهرس وتقديمه للرسالة لتنشره باسمه وتكون عهدته عليه .

(دمشق) **(أحد القراء)**

مهرجانات جامعة أدباء العروبة فى الأقطار الشقيقة :

اعتزمت جامعة أدباء العروبة أن تقيم مهرجانات أدبية فى القدس ودمشق وبيروت تحقيقا لغرضها الأسمى ، وهو وحدة الفكر العربى والنهوض بالأدب ليحمل رسالة الاصلاح والبعث والتوجيه . وسيسافر أعضاء الجامعة برياسة معالى إبراهيم دسوقى أباظه باشا إلى الأقطار العربية فى الأسبوع الأول من شهر يوليه القادم ، وقد تبرع الأستاذ محمد عبد المنعم إبراهيم عضو الجامعة بسياراته لتقل حضرات المدعوين كما ستنزل الجامعة فى ضيافته خلال هذه الرحلة .

وقد تألفت لجنة لاعداد هذه المهرجانات من حضرات الأساتذة الدكتور محمد وصفى ، ومحمد عبد المنعم إبراهيم ، وطه عبد الباقى سرور ، وجميلة العلايلى ، ومحمد عبد الوارث الصوفى ، وعبد الله شمس الدين .

والجامعة تدعو أدباء العالم العربى للمساهمة فى هذه الأسواق الأدبية الكبرى نظما ونثرا ، وترسل الكلمات إلى سكرتيرية الجامعة ١٩٦ شارع محمد على بالقاهرة .

طه عبد الباقي سرور
السكرتير العام



يوميات جينفييف

للكاتب الفرنسى مارسيل بريفو

عضو المجمع اللغوى الفرنسى

بقلم الدكتور محمد غلاب

٤ – حسن الختام :

يونيو فى مدينة تانوار .

إن كل ما يحوطنى الآن مفعم بالهدو، والسلام والعظمة والجلال والابتسام ، وحول منزلنا الصغير النائم تحت أشعة الشمس تبدو الجبال زرقاء وبيضاء . وقبالة هـذا المنزل توجد البحيرة العظيمة بلونها الفضى ، وباريس الآن بعيدة .

نعم باريس بعيدة وكذلك الماضى بعيد ، وتلك الساعات القاسية التى احتملتها والتى كنت أتصور أنها ستقضى على حياتى ، كل ذلك قد انتهى كما انتهى الماضى البعيد ، والحياة الآن ستستأنف متحدة مضيئة . ولقد كان هذا التغيير فجائياً بدرجة لا أكاد أصدقها .

يا عجبا ! إن آخر سطر فى مذكراتى الماضية كان غاية فى اليأس والقنوط ، وهو : « لأن أقدم حياتى خير من أن أقدم أمانة زوجى أو صحة ولدى » .

لقد كنت أكتب هذه المذكرة فى حجرة الطفل المريض وبجانب سريره ، وكانت الحاضنة تقرأ فى تلك اللحظة نبأ قدوم الطبيب فى الساعة الخامسة ، وكنت أنتظر حضوره فى جزع شديد ، ولو أنى كنت عارفة قراره مقدماً ، وهو قوله : لاجديد ، فلننتظر . وفى الواقع لم يكن هنالك جديد ، إذ أن جسم الطفل كان غارقاً فى العرق ، وهويئن فى سريره فى وسط نوم مضطرب .

وعند الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم دخل خادم زوجى

ولقد كنت أكره لونه الذى هو مزيج من : صفرة وزرقة ورمادية ، وعينيه اللتين لا يمكن كشف ما وراءهما ، وفمه ذا الشفتين اللتين لا تكادان تريان من كثرة انقباضهما ، فسألته قائلة :

— ما ذا تريد يا جوزيف ؟

— إن سيدى الكونت يسأل سيدتى أصحة سيدى الفيكونت أحسن الآن ؟

— إن سيدك إذاً لم يخرج .

— لا يا سيدتى ، إن سيدى ظل من بعد الغداء إلى الآن فى مكتبه ، وهو يرجو من سيدتى أن تنبئه حينما يحضر الطبيب .

— حسن يا جوزيف ، ستنزل الحاضنة لتنبئ سيدك عند ما يحضر الطبيب .

لم يكن زوجى إذاً قد خرج ، لأنه كان قلقاً على صحة الطفل وكان يريد أن يحضر زيارة الطبيب ، فهل كان أحد يصدق ذلك ؟ لقد زاد هذا الاهتمام الفجائى بصحة الطفل من غضبى حتى أحسست فى تلك الساعة أن الحقد يتضاعف فى نفسى إلى درجة أنى لم أعد أحتمل حنانه عليه وقلت فى نفسى : ليتركنى وحدى مع هـذا الصغير العزيز المريض ، وليذهب إلى تلك المخلوقة . ولا ريب أن كبرياء الألم هى التى خلقت عندى هذه العاطفة ، لأنه كان ألماً مبرحاً .

وبعد الساعة الخامسة بقليل حضر الطبيب ، ولما نبأت الحاضنة الكونت صعد فوراً ، وكان فى هذه اللحظة يختلف كثيراً عن طبيعته المفعمة بقوة الإرادة والشجاعة إلى حد أننى أحسست بالشفقة عليه ، لأنه كان متألما من ذلك العراك الذى كان يحتل نفسه فى تلك الساعة بين هذا الخلق الكريم الحقيقى الذى حببه إلى الناس جميعاً ، وبين ذاك الهوى الوضيع الذى كانت نفسه تلح عليه فى إطاعته .

« لا جديد فلننتظر » . هذه الكلمة التى تنبأت بها قالها الطبيب بحروفها وهو يضع على الوسادة رأس الطفل بعد أن فحص جسمه .

أعاد الطبيب كلمة « فلننتظر » وأضاف إليها قوله : يجب أن تستعدوا لكل شىء ، فالأزمة بدأت تتطور ، وسيظهر فى هذا

المساء حدث جديد ، ولولا أن فى الأمر شيئاً سيظهر لما استمرت الحمى على هـذا النحو ، فهل عندكم طبيب ماهر فى هذا الحى ليلاحظ الطفل فى حالة حدوث ما لا ينتظر ؟ .

— نعم . يوجد طبيب ماهر فى ميدان « بوفو » وهو : الدكتور « جيل » .

— إنه لشاب ذكى ، وإنى أعرفه وسأكتب إليه كلمة ، لأوصيه بكم ، فإذا ما حدث أى شىء جديد فادعوه على عجل فى أية ساعة كانت .

— انصرف الطبيب وبقيت مع راءول وحدنا فى الحجرة ، فتصنعت أنى لا أنتبه إلى وجوده ، إذ كنت أسير فى الغرفة جيئة وذهاباً دون أن ألتفت إليه أو أحادثه ، وأخيراً قال بلهجة غير طبيعية :

— « إننى سأتعشى الليلة فى المنزل ياجينيڤييڤ »

وحينما كان ينطق بهذه الكلمة كنت أقرأ فى نفسه كأنما أقرأ فى كتاب مفتوح أمامى هذه الأفكار الآتية : « إنه لردىء من جانبى أن أترك جينيڤييڤ المسكينة وحدها فى مثل هذا القلق فلنتوسط فى الأمر ، ولنمنحها مرافقتنا إياها فى العشاء ، تلك المرافقة التى ستجن بها سروراً ، وبهذا أكون قد أديت واجبى ثم أذهب بعد ذلك إلى شارع « فيزبليه » .

وفى الواقع أنه لو كان قد عرض علىّ هذا العرض قبل ذلك اليوم بليلة واحدة لقفزت فرحا وطرت سروراً ، ولـكن اليقين الذى احتل عقلى اليوم من جهة ، والقلق المضنى على صحة الطفل من جهة أخرى قد غيرانى تماما فأجبته فى فتور قائلة :

— تعشّ هنا إذا أردت ياصـديقى ، أما أنا فلن أنزل إلى حجرة المائدة لا سيما وأننى لا أرغب فى الأكل .

وعلى أثر سماعه هذا الجواب حل اليقين من نفسه محل الشك وآمن بأنى لا بد أن أكون قد عرفت شيئاً ، فامتقع وجهه ورأيت فى عينيه أنه يتردد فى أن يعترف لى بكل شىء وأن يطلب منى الصفح والتصافى ، ولـكن تأثير الرغبة السيئة لم يلبث أن غلبه على أمره فاكتفى بأن يقول لى فى لهجة فاترة : « حسن ! اعملى ما تريدين » وقد كنت إذ ذاك منحنية على الطفل ، فلم يجرؤ على الاقتراب منه ، ثم تردد قليلا ، وأخيراً خرج . وعلى أثر ذلك طفقت الساعات الطويلة تسير فى بطء ، وأنا جالسة إلى جانب سرير المريض الذى يئن فى نومه ، وفى كل دقيقة أنحنى عليه وأنظر إلى جسمه الذى أخذ يزداد حرارة وحمرة ، ولـكن لم يظهر على جلده شىء من الحبوب . وفجأة هدأت الحمى وأخذ المريض فى التحسن واستيقظ وطلب لعبه ، فأفهمته ألا يكشف ذراعيه وصدره فأذعن ونام فى هدوء مطمئن ، فلما رأيت ذلك سررت واستسلمت إلى النعاس ، فأخذتنى سنة من النوم لم تطل ، إذ لم ألبث أن استيقظت على أثر حركة خفيفة أحسست بها ، فلما تبينتها وجدت زوجى منحنياً على سرير الطفل يحدق إليه بعناية وكان مرتديا ملابس الخروج ، غير أنه قد ارتدى فوق هذه الملابس « جاكتة » منزلية ، وكانت الساعة إذ ذاك التاسعة والثلث فقلت فى نفسى : إنه سيخرج ، وبعد نصف ساعة سيكون بين ذراعى تلك المرأة . وفى الحال خطرت لى فكرة انتظاره فى ذلك المنزل كما كنت قد قررت آنفاً ، ولـكن هذه الفكرة لم تبق فى رأسى إلا لحظة قصيرة ، إذ وجدتنى أقول فى نفسى : « كلا ، كلا ، إن مكانى ليس هناك ، بل هو هنا » .

وفى الحال قدمت بإخلاص إلى إلهى ضحية كبريائى وعاطفتى كزوجة محبة لينجى لى هذا الطفل .

وفجأة هتف راؤول قائلا :

— « جينيڤييڤ جينيڤييڤ ! »

فنهضت واقفة لأنى أيقنت أن هذا الإيقاظ له علاقة بصحة الطفل ، وفى ثانية واحدة انمحى من نفسى كل الحقد الذى كنت أحمله له ثم قلت :

— ماذا ؟ ما الذى حدث ؟

— أنظرى

قال هذا وأشار إلى نقط كحبات العدس قد أخذت تنتشر فى وجه الطفل وذراعيه ، ولونها أحمر باهت ، فصحت فى جنون قائلة :

يا إلهى يا إلهى ما هذا ؟ إنى أرجو على الأقل ألا يكون الجدرى قل لى يا راؤول . وفى هـذه اللحظة تناولت يده وضغطت عليها ناسية كل شىء .

— امكثى هنا يا جينيڤييڤ فسأذهب لإحضار الطبيب ثم خرج . وفى الوقت الذى فصل بين خروجه وعودته كنت أنا والحاضنة تائهتين نذهب ونجىء فى الحجرة تارة ، وننحنى من النافذة لنسمع ضجيج المركبة تارة أخرى . ولقد كنت أدعو ربى وأتوسل إليه وأجدد النذر القديم وهو أن أحتمل فى سرور

خيانة زوجي كزوجة خاضعة تحرس فى أمانة منزل الخائن .

وفى النهاية عاد السكونت بصحبه الطبيب فأخذ يفحص الطفل وكنا فى هذه اللحظة : أناوراءول ننتظر حكمه مرتعدين كطفلين يسيران فى الظلام ، وكان كل منا يعتمد على ذراع الآخر رهبة وخوراً . ومضت على هذا خمس دقائق كاملة قبل أن يفوه الطبيب بكلمة ، وأخيراً قال :

— أنا أظن أنه ليس فى الأمر خطر ، أظن ولست متأكداً ، لأن المرض لم يتحدد بعد .

— فقلت فى تمتمة مضطربة :

— ولكن على كل حال هل هو الجدرى .

— لا ، يقينا إن هذا ليس هو الجدرى .

كان الطبيب يقول هذه الكلمة ببساطة وهو لا يدرى أنه قد ردّ بها إلىّ التنفس والحياة . وعلى أثر ذلك سقطت بين ذراعى راءول فاقدة القوى وإن كنت قد أحسست أن ثقة خفية بزوال الخطر قد احتلت نفسى دفعة واحدة وشعرت بالرضى والسعادة ، فطفرت من عينى دموع غزيرة لا أدرى أهى دموع رد الفعل أم دموع السرور ، ثم انتابتنى على أثر ذلك أزمة عصبية لم أفق منها إلا حين لاح نور الصباح . وحينئذ وجدت راءول جالساً عند وسادتى فلم أشأ أن أضيع الوقت فى سؤاله عن سبب جلوسه بجانبى ، وإنما هتفت به قائلة : ورينيه كيف هو ؟ .

-- إنه الآن أحسن حالا ، وإن مرضه لخفيف وبسيط ، وإن الحبوب الآن بادية على وجهه بهيئة تجعله دميا فى هذه اللحظة فقط ، ولكن الخطر قد زال ، والحاضنة والخادمة — ساهرتان عليه . وأنت كيف صحتك ؟

— أنا صحتى جيدة جداً .

وإذ ذاك أردت أن أنهض فخانتنى قوتى وسقطت على الوسادة فقال راءول وهو يقبض على يدى .

— مسكينة يا صديقتى .

وبعد ذلك ساد بيننا صمت كنت أثناءه أقول فى نفسى : من حيث أن راءول هنا فهو إما أن يكون قد عاد من شارع فيزيليه وإما أنه لم يذهب ثم سألته قائلة :

— فى أية ساعة عدت يا راءول ؟

— إنى عدت مع الطبيب ، وإنى بجانبك منذ أن نمت إلى الآن .

قال هذا وقرب وجهه من وجهى فتمتمت قائلة :

— ثم ماذا إذاً ؟

وإذ ذاك فهم كل شيء ، فأجابنى بصوت خافت : إذاً ... أنا أحبك وحدك وينبغى أن تصفحى عنى ، وهذا هو كل شيء

وعلى أثر ذلك تبادلنا قبلة لم نذق مثلها منذ عهد خطبتنا !

مضت على هذا الموقف ثلاثة أسابيع جعلت صحة الطفل إبانها تتحسن باطراد حتى استطعنا أن نسافر به إلى « تالوار » . وهانحن أولاء بمنزلنا سعداء شأننا فى صيف كل عام . ولقد أطلعنى راءول على برقية وردت إليه من هذه المرأة فى صباح تلك الليلة المزعجة ، وقد جاء فيها ما يلى : « لقد انتظرت أمس ساعتين كاملتين فى هاتيك الغرفة الدميمة ، وإننى لا أحب الأشخاص السيئى التربية فعم مساء يا سيدى » .

ويبدو أن هذا الـ « عم مساء » كان معناه الوداع الأخير . أما الآنسة جيفيرنى فهى ستتزوج .

إن الطفل قد برىء تماما ، وإنه لجميل كما كان ولم يبق فى وجهه أى أثر للحبوب ، وإن الدكتور روبان قد قال لى : إنه سيكون شابا فاتنا له من أسيرات حبه مثل ما لأبيه .

فأجبته قائلة :

— مثل أبيه ! إنى أسأل الله أن تكون أسيراته فى الغرام أقل عددا من أسيرات أبيه .

محمد غلاب



سكك حـــديد الحكومة المصرية

خط مصر - الاسكندرية

يتشرف مدير العام بإعلان الجمهور أنه ابتداء من أول يونية سنة **١٩٤٦** ولحين صدور إعلان آخر سيسير « قطار فاخر » سريع (درجة أولى وبولمان) بين القاهرة والاسكندرية ويقف بمحطتى طنطا وسيدى جابر كالمبين بعد :

١ — يغادر قطار **٩٩٣** القاهرة فى الساعة ٣٠ ٨ ويصل إلى الاسكندرية فى الساعة ٣٠ ١١

٢ — يغادر قطار **٩٩٢** الاسكندرية فى الساعة ٠٠ ٨ ويصل إلى القاهرة فى الساعة ٠٠ ١١

وذلك وفقاً للمواعيد الآتية : —

المحطات		٩٩٣	المحطات		٩٩٢
مصر	قيام	٣٠ ٨	الاسكندرية	قيام	٠٠ ٨
طنطا	وصول	٤١ ٩	سيدي جابر	«	١٠ ٨
	قيام	٤٤ ٩	طنطا	وصول	٤٦ ٩
سيدى جابر	«	٢٢ ١١		قيام	٤٩ ٩
الاسكندرية	وصول	٣٠ ١١	مصر	وصول	٠٠ ١١

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧٤ – الاثنين ٣ يونيه ١٩٤٦ – السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

وزارة الأوقاف

إعــلان

تعلن وزارة الأوقاف شهر مزاد تأجير أطيان زراعية بالوجهين القبلى والبحرى مساحتها ٥١٣١٧ فداناً على جملة صفقات بجلسات علنية بمراكز التفاتيش فى المواعيد المحددة لكل تفتيش ويعلن عنها بلوحة الإعلانات بالوزارة والتفاتيش — وقررت ما يأتى :

١ — أن تكون مدة التأجير سنتين فى جميع التفاتيش عدا الصفقات التى تزرع قصباً فتكون مدة التأجير فيها لثلاث سنوات .

٢ — أن تعتمد الوزارة فى أول جلسة نتيجة التزايد إذا كان العطاء بأجر المثل المعتمد أو بأكثر منه .

٣ — أن يكون التأمين النقدى موازياً ٥٠٪ من إيجار سنة ما لم يكن بالأطيان مخازن للوزارة فإن وجدت فيكون التأمين ٣٠٪ فقط على أن يدفع منه ٢٠٪ وقت العطاء ويكمل فى مدى أسبوع من تاريخ إخطاره بقبول عطائه بصفة مبدئية .

٤ — ترد التأمينات النقدية لأربابها فى آخر الجلسة متى كانت عطاءاتهم غير مقبولة ما لم يوجد مانع من ردها .

٥ — ويمكن الاطلاع على الشروط وقوائم المزاد بالوزارة والتفاتيش — وعلى من يرغب فى الدخول فى مزاد استئجار أى صفقة أن يعاينها قبل الجلسة ويطلع على جميع البيانات الخاصة بها ويعتبر دخوله فى المزاد إقراراً منه بالمعاينة والاطلاع على البيانات .

٦ — مستحقو الأوقاف الأهلية المشهورة أطيان تابعة لأوقافهم مدعوون لحضور جلسات التزايد المعلن عن مواعيدها بالتفاتيش مع الرجاء بالعمل من جانبهم على زيادة عدد الراغبين فى التأجير .

إذا لم يكن التأمين نقداً كما تقدم يكتفى بتقديم أحد التأمينات الآتية قبل الدخول فى المزاد :

١ — خطاب ضمان من بنك معتمد بقيمة إيجار سنة ويراعى فى خطاب الضمان أن تكون مدة الكفالة بحيث تنتهى بعد مضى ستة أشهر من آخر يوم محدد لانتهاء مدة العقد .

٢ — أوراق مالية مقبولة لدى الحكومة المصرية لا تقل قيمتها عن إيجار سنة حسب تقرير الوزارة .

٣ — أن يقدم للتفتيش قبل الجلسة المحددة للتزايد بأسبوعين على الأقل ضمان بتأمين عقارى مصدق عليه من قلم المساحة المحلى توازى قيمته إيجار سنة مصحوباً بجميع مستندات الملكية وشهادات تصرفات من المحكمة المختلطة لمدة عشر سنوات سابقة لتاريخ الجلسة أو إيصال دال على سداد رسوم طلبها مصحوباً بقيمة ١٠٪ من عطائه نقداً ولن يقبل أى تزايد ما لم يقدم صاحبه تأميناً طبقاً للشروط المبينة بهذا الإعلان .

14 me Année No. 674

Lundi—3—6—1946

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــدد ٦٧٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ٣ رجب سنة ١٣٦٥ — ٣ يونية سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

وعينا القومى ينضــــج

مثال فى سورية ومثال فى شرقى الأردن

يخطئ من يقيس تقدم أمة أو تأخرها بما يشاهد من حال السابقين منها أو المتخلفين عنها ؛ فإن من سبق إنما سبق بإعجازه ، ومن تخلف إنما تخلف بعجزه ؛ والإعجاز والعجز من الشذوذ الذى لا يسبب حكماً ولا يبنى قاعدة . إنما يصح القياس بحال الكتلة التى ظلت متماثلة فى اللون والكثافة والحركة بعد أن انفصلت منها قطعة إلى الأمام ، وانخزلت عنها قطع إلى الوراء ؛ لأن هذه الكتلة تمثل القدر المشترك من الشعور والإدراك والوعى والقلق والطموح والاندفاع ؛ فرأيها هو الرأى العام ، وأمرها هو الدستور الحاكم ، ووحيها هو السياسة القومية ، وغضبها هو الثورة الوطنية ، ورضاها هو السلام الدائم . والحكم على الأمة العربية — لمن يحلو له أن يحكم — يجب أن يكون ، بناء على هذا القياس أو الأساس ، قائماً على حركات كتلتها العجيبة التى ما فتئت منذ مؤتمر فرساى تتقارب وتنضام وتتماسك وتتحد على الرغم من الأسباب المفككة والعوامل المهلكة التى ابتُليت بها من سفه الأحزاب السياسية فى الداخل ، وطمع الدول الاستعمارية فى الخارج .

كانت هذه الكتلة الممزقة فاقدة الوعى حين أراد محمد علي إحياء الامبراطورية العربية ؛ وكانت فاقدة الوعى حين ثار أحمد عرابى على العناصر الأجنبية ؛ وكانت فاقدة الوعى حين دعا مصطفى كامل إلى الفكرة الوطنية ؛ ولكن وعيها القومى أخذ يتنبه حين زلزلت الأرضَ قنابل الحرب العالمية الأولى ، فثارت الجزيرة وسورية والعراق على استعباد الأتراك ، وتمردت مصر على احتلال الإنجليز ، واستجابت الأمة العربية جمعاء لدعاء الحرية هنا وهناك ، وسارت وراء قادتها بخطى الواثق المطمئن ، فأضلوها السبيل ، وأوردوها السراب ؛ ولكنها استفادت من كلال السير ووعوثة الطريق وسعار الظمأ ، بصراً فى الوعى ، وقوة فى الموازنة ، وصدقاً فى التمييز ، وصحة فى الحكم ؛ فلم تكد الحرب العالمية الثانية تنطفئ حتى كانت أمام زعمائها تلهمهم فيقولون ، وتأمرهم فيفعلون ، وتوجههم فيتجهون. ومتى عرفت الأمة نفسها ، وأحست نقصها ، وتبينت قصدها ، أبت على ولاة أمرها أن يدلسوا عليها الرأى ، ويموهوا لها الباطل ، ويقنعوها بما دون الحق . وفيما يجرى الآن فى مصر وفى غيرها من الحوادث ، ويذيع فى المجالس والصحف من الأحاديث ، شواهد صادقة على اتساع الوعى القوى فى نفوس المصريين والعرب تثب فى عين المنكر إذا وازن بين ما كانوا عليه وبين ما صاروا إليه . كان الساسة الذين احترفوا الوصاية عليهم يفاوضون فى أمورهم ، ويعاهدون على مصيرهم ، دون أن يحفلوا لهم برأى ، أو يرجعوا إليهم بخيرة ، وإن زعموا أنهم استشاروهم فأشاروا ، وخيروهم فاختاروا ! وهم اليوم يفاوضون تلك المفاوضة ،

ويراجعون تلك المعاهدة ، ولـكن الأمة هى التى وضعت المبادئ ، وحددت المطالب ، وأملت الخطط ، وقدرت العواقب ؛ فليس لمفاوض أن يقوّلها ما لم تقل ، ولا لحاكم أن يريدها على ما لم ترد !

وهل نسيتَ يوم الجلاء فى سورية ؟ وكيف تنساه أذن الحى ولا تزال أناشيده وزغاريده تدوّى فى سمع الزمان ؟! جلت جنود الاستعمار عن أرض سورية العزيزة ، فاهتز العالم العربى اهتزاز الغبطة ، واعتز اعتزاز النصر؛ وشعر كل فرد من أفراده ، فى مختلف بلاده ، أن فريقا من أهله تحرر من القيد ، وأن جزءا من وطنه تطهر من المغير ؛ وأقبلت وفود الدول العربية تشارك دمشق فى الاحتفال بإقامة العرش الأموى بعد أن خرت قوائمه وابتُذل حماه ؛ وقال العراق لمصر : ذلك يا أخـاه هو الجلاء الذى يكشف الضر ، والاستقلال الذى يرضى الحر ، فمتى يكون لنا ولسائر أقطار العروبة مصير كهذا المصير ويوم كهذا اليوم ؟!

ذلك مثال من أمثلة الوعى القومى العربى تجلى فى هذا الحادث الخطير صريحا غير مشوب ، وصحيحا غير مزيف ، فاذا وازنت بين موقف العرب من استقلال سورية ، وموقفهم من استقلال شرق الأردن ، فلن يخامرك بعد ذلك شك فى أن الأمة العربية الكريمة إنما تُصدر عن وعى بصير ، وتنقل عن شعور صادق .

فاوضت انجلترا شرق الأردن مفاوضة الند للند ، ثم منحته الاستقلال التام ، وعقدت بينها وبينه معاهدة الشرف والفخار ، ثم رفعته من الإمارة إلى المملكة ، واحتفل إخواننا الأردنيون بمبايعة أميرهم العظيم عبد الله بن الحسين ملـكا عليهم ، فزاد ملوك العرب ملـكا ، وزادت ممالك العروبة مملـكة . وكان هذا النبأ العظيم عن هذا النصر الأعظم جديراً بأن يزلزل النفوس من الفرح ، ويبح الحناجر من الهتاف ، ويدمى الأكف من التصفيق ، ويحشد جيوش العرب فى ميادين عمان ، ويدعو شعراء العرب إلى منابر عمان ، ولـكن هذا النبأ العظيم سرى به البرق ، وتموج به الأثير ، وكأنما ضرب الله على الآذان فلم تسمعه ، وختم على القلوب فلم تنفتح له ! واحتفلت عمان وحـدها بيومها التاريخى المجيد احتفالا رسميا لا روعة له ولا بهجة فيه . ذلك لأن العرب الذين لا ينفكّون يسخرون من احتقلال[1] مصر ، ويهزأون باستقلال العراق ، قد سئموا هذه المظاهر الـكاذبة ، وأنـكروا هذه الألفاظ الفارغة ، وكبر عليهم أن يشاطروا انجلترا السرور باقتلاذ قطعة من الوطن العربى لا يزيد عدد سكانها على خُمس سكان القاهرة ، لتجعلها وكرا للاستعمار يثب منه متى شاء علينا أو على من حوالينا من الأمم المطمئنة الوادعة .

أليس الوعى القومى هو الذى جعل العرب يميزون بين استقلال سورية واستقلال شرق الأردن ؟ أليس الوعى القومى هو الذى جعل لانجلترا من جامعة الدول العربية ، ما جعل الله لآل فرعون من موسى بن عمران ؟ آووه وتبنّـوه ليـكون ظهيرا للـكفر ، ونصيراً للظلم ، ووزيراً للاستبداد ، فـكان لهم نذيراً من الله ، وداعياً إلى الحق ، وبشيراً بالحرية ؟

أليس الوعى القومى الذى وُلد صاحب الجلالة الفاروق فى صحوته ، ثم ترعرع وشب وملك فى ضحوته ، هو الذى ألهمه أن يوطد أساس الجامعة العربية باجتماع الملـكين فى رضوى ، وأن يوثق الوحدة العربية بمؤتمر الملوك والرؤساء فى إنشاص ؟

بلى ، هو الوعى القومى الذى تيقظ واستبصر فى نفوس العرب من ملوكها ورؤسائها ، إلى سوقتها ودهمائها . ولن تجد مصداقا له ولا دليلا عليه أبلغ من هذا القلق الذى يساور كل نفس ، وهذا الامتعاض الذى يرتسم على كل وجه ، وهذا الانتقاد الذى يجرى على كل لسان . كل امرئ يريد التغيير ، وينشد الـكمال ، ويطلب الأحسن . وكل امرىء يحاول أن يفرق بين رجل ورجل ، ويميز بين عمل وعمل ، ويوازن بين مبدأ ومبدأ .

بلى ، هو الوعى القومى الذى يذكّر العرب اليوم أنهم خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتسارع إلى الخير ، وتتعاون على البر ، وتتناصر فى الشدة ، وتأبى إلا أن تتبوأ مكانها الأول من قيادة الإنسانية . ذلك الوعى القومى هو ضمان النهضة العربية من الانتكاس والردة ، وأمان السياسة العربية من الغش والخديعة ، ووقاء الوحدة العربية من الشتات والفرقة . فمن حاول بعد اليوم أن يقود الأمة العربية قيادة القطيع ليَذبح ، أو يسومها سياسة الخيل ليَركب ، نبتْ فى يديه كما ينبو المارد فى يد الرجل إذا انطلق من حبسه ، وامتنعت عليه كما يمتنع الثور على الطفل متى شعر بنفسه .

أحمد حسن الزيات

(١) كلمة نحتها الأستاذ وحيد الأيوبى من كلمتى: احتلال واستقلال .

شيخ في مرقص!

للاستاذ علي الطنطاوي

— ٢ —

[إلى كل شاب تريده نفسه على الإثم ، وبدفعه دينه إلى العفاف ، وتسهل له دنياه طريق الفجور ، وتوعر عليه سبيل الزواج . .]

قال : لما كانت تلك الهدأة ، وسمعنا صوت الشيخ الوقور الخاشع يطلّ علينا من فُرجة الضجيج ، كما يطلّ شعاع البدر من خلال السحاب الداكن في الليلة الداجية ، تبيّناه يدعو الله ، لا كما يدعوه خطباء الجمعة على المنبر ، ذلك الدعاء الرسمي الذي يستحضرون به هيبة الناس أن يمسكوا عليهم لحنة أو حبسة ، وهيبة الحكام أن يبلغهم عنهم أنهم نسوا ذكرهم أو قصروا في تعظيمهم أكثر مما يستحضرون في نفوسهم هيبة الله ، بل دعاء مسلم يعلم أنه يخاطب رب الأرباب ، فلا يعلق أمله إلا به ، ولا يرجو غيره ولا يرهب سواه . وأشهد أن الله قد فتح لدعائه أبواب السماء ، وأنه قد استجاب له لأننا وجدنا أثر الإجابة في رقة قلوبنا ، وما عهدناها ترق ولا تلين ، وفي انصباب دموعنا رغمنا ، وبكائنا على نفوسنا ، وكان إذ يقول (يا ألله) نحس أن قلبه قد خرج من صدره بهذه (الهاء) التي تمشي في الجو مبللة بدموع الخشية ، فتنعش القلوب وتحييها ...

ثم قال الشيخ : لا تقولوا إنه مرقص ، فما المرقص لمن يدعو الله خاشعاً صادقاً وهو يبكي على خطيئته إلا مسجد مبارك ، وما المسجد لمن يدعو بلسانه وقلبه معلق بالشهوات وفكره باحث عن سبل الموبقات إلا ملهى ، وما كان الله لينظر إلى صوركم وأزيائكم وهندسة عماراتكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم . وكم في الأسواق والقهوات والسينمات من وليّ لله كتب له باخلاصه حسن الخاتمة ! وكم في التكايا والزوايا من وليّ للشيطان يرائي بالدين ليأكل الدنيا !

ثم تكلم عن الدنيا كلاماً عجيباً ، وساق أحاديث لم أحفظها ، وأخباراً من أخبار الصالحين ، فلبت والله قلوبنا ، والله مقلب القلوب ، فعظمت في عيوننا ما كنا نحقره قبل ساعة واحدة ، وحقرت ما كنا نبالغ في تعظيمه ، وأرتنا هذه الدنيا صغيرة ، حتى لكأنما هي حقاً جناح بعوضة !

ثم أخذ في الكلام عن (الشهوة الجنسية) ، فحفظت من كلامه شيئاً من هنا وشيئاً من هناك ، لا أستطيع أن آتي به على نَسَق ، فأنا أقدم فيه وأؤخر ، وربما أخللت بمعنى أو أخطأت في لفظ ، فلا تأخذه هو بخلل أو خطأ مني !

وكان مما قال :

إن الله ركّب هذه الشهوة في الإنسان ، وجعل لها سراً عجباً من العجب ، وسرّها أنك إذا وضعتها في موضعها ، واتقيت الله فيها ، سكنت واستقرت ، وربحت مع السكينة والاستقرار الصحة في الدنيا والجنة في الآخرة ، وإذا أنت أطلقتها ولم تقيدها بقيد الشرع والخلق ، لم تزل هائشة هائجة كالنار كلما زدتها حطباً زادت للحطب طلباً ، ثم إنك معها كالذي يطلب الماء من السراب لا يزال في عناء وظمأ ، وكلما اشتد طلبه زاد عطشه ونصبه ، والسراب عنه بعيد !

يرى الفاسق المرأة ، فيملأ منها بصره ، فيتبعها قلبه ، فلا يزال يتخيل فيها المفاتن ، ويتوهم في وصالها الملاذ ، حتى يعتقد أن لذائذ الدنيا كلها ومسراتها قد اجتمعت في لقائها ، وأن آلامها كلها في بعدها ، ويجعلها مطلبه من دنياه ، ويجنّ بها جنوناً ... فإن هو استطاع الوصول إليها ، وجد اللذة بها (نصف دقيقة) من الزمان ... ووجد أنه لم يشبع منها ، ولم ينل من وصالها ما كان يصوّر له وهمه ... فيعود إلى التفكير فيها ... وإلى تخيل اللذة بلقائها ... ويتوهم أنه سيحظى هذه المرة بما فاته المرة الأولى ... فإذا عاد إليها عادت إليه خيبة الأمل . ولا يزال هذا دأبه معها حتى يملّها وييأس من أن يجد عندها لذته الموهومة فيتعلق بسواها .. ولو أنه قارب ألف امرأة ، ثم رأى واحدة أخرى ، لعلقها وظن أن طلبته عندها ... فلا يشبع أبداً ... ولا يستريح !

وما هي لذة الوصال ؟ إنها ليست في هذا التقارب الجسمي ، كلا ... إنما هي في اتصال القلوب . وإن عباس بن الأحنف هو

عندى أدق شعراء الدنيا إحساساً بالمرأة ، وأعظمهم بالحب معرفة ، وأحسنهم لجوع العاطفة تصويراً حين يقول :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدانى ؟ !
وألثم فاها كى تزول حرارتى (١) فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يلتقيان

وما يعانقها على الحقيقة فقط ، ولكن على المجاز ، فما يروى ظمأ نفسه إلى الحب ذلك (العناق) ، وأنه يتمنى أن لو قطعها عضاً ، وأن لو أفناها فيه ، حتى عادا شخصاً واحداً .. . وذلك ما لا يكون!

لا ... ما فى إطلاق الشهوة من راحة ولا شبع ، وإن نساء الأرض كلهن لا يُرضينها ، وامرأة واحدة بالحلال ترضيها وتشبعها . وهب أن رجلا وسعته أحواله وأمواله أن يمد يده حيث شاء ... أفتسعه صحته ؟ هل يحمل جسمه أثقال هواه ؟ إنه لا بد أن تجىء ساعة يعجز فيها ويرتد مريضاً وانياً يشتهى (الشىء) ولا يقدر عليه ، ويقعد بالحرمان ، فلماذا لا يرتد عن الإثم صحيح الدين والجسم والشرف ؟ أليس ذلك خيراً له من أن يجمع على نفسه الحرمان والمرض وجهنم ؟ !

وإن من بديع صنع الله أنه لم يخلق امرأة تشبه فى جمالها الأخرى ، فالنساء مختلفات ، ولكن طعم المتعة بهن واحد لا يختلف ، وما فرق ما بين هذه الراقصة وبين امرأتك إلا أن الأولى تأتيك على جوعك بالرغيف قد لفته بمنديل الحرير ، ووضعت المنديل فى شملة ، وألقت الشملة فى صندوق من الفضة المذهبة ، وجعلت حول الصندوق الورق الشفاف ، فأنت كلما رفعت حجاباً من هذه الحجب اشتد جوعك ، وشوّقك إلى ما وراءها.. فإذا بلغت الرغيف حسبته قد قطف من قمح الجنة ، ثم طحنته الملائكة ، ثم عجنته بأيديهن الحور العين ... وتلك تأتيك بالمائدة الحافلة مكشوفة ظاهرة ... وأنت لا تأكل المنديل ولا الشملة ولا الصندوق ، إنما تأكل الرغيف ، وأنت لا تريد هذه الثياب ولا هذه الأنوار ... إنما تريد المرأة ، ولعل امرأتك أبهى منها وأجمل !

وهب أن هذه أطرى جسماً ، وأحلى وجهاً ، وأقدر على الفتنة ، فمن قال لكم إن الجمال هو هذا ؟ إن الجمال هو الإخلاص . إنك ترى أمك جميلة فى عينك ، حبيبة إلى قلبك ، ولعل فى وجهها من تجاعيد الكبر أودية وجبال ... ولعل فمها كالمغارة الخالية ... ولعل يديها كمخالب الطير ، وترى المرأة التى خانتك وغدرت بك قبيحة بغيضة ، وإن كانت فى عين الرائى أجمل النساء ... !

***

إنكم تفتشون عن السعادة ، ولكنكم لا تعرفون طريقها ، ولا تفكرون بعقولكم فيها . لماذا تسعد أيها التاجر الذى يملك الآلاف إذا ربحت ألفاً آخر ؟ لأنك كنت تطلب هذا الألف وتشتهيه ، فجاء يسد مطلبك ، ويوافق شهوتك ، فمن هنا كانت سعادتك به ، ومن هنا ألمك لفقده ، على حين أن التلميذ الذى لا يبلغ أقصى أمله أن يمتلك عشرين قرشاً لا يألم إن لم يربح هذا الألف ، بل هو لا يفكر فيه ، أفليس التلميذ ذو العشرين قرشاً أغنى بها منك يا ذا الآلاف الآلاف ؟ !

والموسر الغنى الذى يملك عشر عمارات يألم إن عرضت للبيع عمارة أخرى ولم يقدر على شرائها ، على حين أن الموظف الصغير الذى يسكن غرفة بالأجرة لا يجد هذا الألم ، وينام ملء جفونه فى الليلة التى يتقلب فيها الموسر من الأرق أسفاً على العمارة التى أضاعها ، أفليس الموظف بغرفته المأجورة أغنى منك يا صاحب العمارات بعماراتك ؟ !

والفاسق الذى قارب مائة غانية وراقصة يألم إذا جاءت راقصة جديدة فلم يحظ بقربها ، ويبيت الليل مسهداً من أجلها ، ويبذل حر ماله وماء وجهه فى سبيلها ، وينغص عيشه من بُعدها ، على حين أن التقى الذى لم ير فى عمره إلا امرأته ، لا يأبه لها ولا يدرى بها ، أفليس هذا التقى أسعد بامرأته الواحدة منك يا ذا الخليلات ويا زير الراقصات ؟ !

إن الحياة النفسية كدفتر التاجر ، ليست العبرة بضخامة أرقامه ، ولكن بالباقى بعد الجمع والطرح ، فالذى يملك مليوناً ويطلب منه مليون ، مثل الذى لا يملك شيئاً ولا يطلب منه شىء ، والذى نال من دنياه كل لذة ... وهيهات ! مثل (الدرويش) السائح فى البرية الذى لا يطلب إلا لقمة يسد بها جوعه وجرعة

(١) كذلك أحفظها — وأجد بالذوق أن جملة (كى تزول حرارتى) لم يقلها ابن الأحنف وإنما قال شيئاً آخر بدله الرواة

يبل بها جوفه ، وأرضاً يلقى عليها جنبه ، ومعه رغيفه وركوته ، وله أرض الله الواسعة ... إن هذا هو أسعد السعداء ، لا لأنه نال من الدنيا كل شيء ، بل لأنه حقرها عن أن يطلب منها شيئاً . فمن قنع أسعده الأقل الأقل ، ومن طمع لم يسعده شيء مهما جل ، لأن النفس تطمح إلى اللذة ، فإن وصلت إليها ، أبطلت الألفة اللذة فتطلب غيرها ... إنك أيها الفقير تسعد لو ركبت يوماً سيارة الغنى ، ولكن الغنى ذا السيارة لا يحس هذه السعادة بها . إنها عنده كالترام عندك ، بل ربما كان الترام أمتع لك ، بل ربما اشتهى هو أن يركب الترام ، كما يشتهى المترف صاحب المائدة الملوكية أكلة فول على التراب !

إن الله (جلَّت ودقَّت حكمته) لم يجعل السعادة فى مال ولا نشب ولا متعة ، ولكنه جعلها صلة خفية بين الأشياء وصاحبها ، فلا تأخذوا الأمور على ظواهرها ، فإن المريض الزَّمِن لو حمل من الألم ما تظنه أنت حامله ما عاش ، والغنى لو نال من اللذة ما تحسب أنه نائله ما وسعته الدنيا ، ولكن العادة تبطل اللذة والألم ، وتهوّن السجن على السجين ، والحرب على المحارب ، وتجعل الخليفة الذى كان فى قصره عشرة آلاف غادة من جميلات الأرض حشرن إليه حشراً ، مثل الذى فى بيته امرأة واحدة !

إنما اللذة التى لا تفنى ولا تنقص لذة القلب ، لذة التأمل ، لذة المتعبد فى هدأة الليل ، والمناجى ربه فى الأسحار ... ومن هنا قالت طائفة الصوفية : « لو ذاق الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف » ... إى والله وبالمدافع والرشاشات !

ذلك هو النعيم المقيم ، ولكن ذلك شيء لا يفسر ولا يعرف:

لا يعرف العشق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

إنها تمر على المتعبد ساعات فى كل لحظة منها لذة تفضل لذة (الوصال) كما تفضل الشمس الشمعة ، والبحر الساقية ، ومن ذاقها عرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « حبِّب إلىَّ من دنيا كم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ليس معناه أن نبينا مولع بالنساء — كما فهم دوابّ المستشرقين — ولكن سر المعنى فى قرن الطيب والنساء ، وهما من لذات كل نفس بشرية ، ثم فى رفعها عنهما ، للدلالة على أن الصلاة لذة ومتعة ولكنها أسمى وأعلى ...

إن مردّ ما تجدون من غرام الشهوة وشدتها إلى أمرين : حب الغلبة ، والتطلع إلى المجهول . يسمع أحدكم أن فلاناً من الفساق قد صنع كذا من الآثام ، فيتصور ما نال بأعه من اللذائذ ، فيمتد أمله إلى تذوّق مثله لعلّ فيه لذة جديدة ، وتأبى عليه غريزة المكافحة والتغلب أن يبقى محروماً مما نال فلان هذا ... ولو هو فكر ، لعلم أنما اشترى فلان لنفسه الحرمان من لذة أنقى وأبقى هى لذة الآخرة ، ولسكت عنه الإغراء وذهب الألم ، وما يألم لفقد المعصية إلا من جعلها أكبر همه ، وترك لنفسه الحبل على الغارب ، فأطلَقَت الجوارحَ كلها فى شهوتها : فالعين تنظر العورات ، والأذن تسمع أحاديث الموبقات ، والذهن يحفظ هذه الصور والذكريات ، والخيال يوشّيها ويزيّنها بالمبالغات ... فلا ينتبه الشاب إلا والسمّ قد مشى فى جسده من تلك النظرة ، وإذا هو قد نسى الدين والخلق ومطالب الوطن ، ولم يبق له فى الدنيا عمل إلا ابتغاء الوسائل إلى لذته تلك ، فهى فى فكره يقظان ، وفى أحلامه نائماً ، وعلى لسانه متحدثاً ، وهى دينه إن كان متديناً ، ودرسه إن كان طالباً أو معلماً ، وشغله إن كان موظفاً ... ولذلك أمر الله بغض البصر ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لك الأولى وعليك الثانية » ! ووصفت النظرة بأنها سهم صائب من سهام إبليس :

كل المصائب مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

* * *

يا أيها الناس ، لقد عشتم من عمركم سنين ، وعصيتم الله وأطعتموه ، فانظروا الآن ما ذا بقى من ذلك فى أيديكم ؟ أين لذة المعصية ؟ لقد ولت وخلَّفت سواداً فى صحائفكم ! أين تعب الطاعة ؟ لقد ذهب وترك حسنات كتبت لكم ! أفما تتمنون الآن لو أنكم ما عصيتم الله قط ؟ ! بل تخيلوا أنكم فى ساعة الموت ... هل من الموت بد ؟ ! فما ذا تنفع من يعالج سكرات الموت كل لذة كان قد نالها بجنب تلك الآلام ؟ ! ثم تصوروا موقفكم بين يدى جبار السموات والأرض ، وقد ذلَّ الأعزة بالإثم ، وسيق المتكبرون إلى العرض على الله حفاة عراة ، ونادى المنادى من جانب العرش : لمن الملك اليوم ؟ ! وأجاب المجيب : لله الواحد القهار ! ! وكان الامتحان الأعظم ، ونودى

« مرآة نفسى »

ديوان للدكتور عبد الرحمن بدوى

للأســـتاذ سيد قطب

١ — من نشيد البعث الوطنى

ثورةٌ !

ثورةٌ !

ثورةٌ ! أماه شبت من بعيد انظريها ! إنها البعث الجديد

هبَّ وادى النيل شعباً واحدا

طارحا نيراً ثقيـــلا راقدا

يطلب اســتقلال مصر خالدا

هبَّ يحيى مجد فرعون القديم ينشر الآمال والنور العظيم

من مصب النيل حتى خطعرض الاستواء

ومن القلزم حتى معممان الصحراء

صلصل الناقوس ! هيايا شباب هيىء المركب واخر فى العباب

فى نضـال مســـتحر

وبقلب ... مستقـــر

وبعـــزم مســـتمر

صـــارع الأنواء حتى تبلغا شاطىء المجد العظيم المبتغى

من مصب النيل حتى خط عرض الاستواء

ومن القلزم حتى معممان الصحراء

ودّعى أماه ليثـا كاسراً واطلبى لى العود حراً ظافرا

واذ كرى — إن جاء نعيي من منادى

أننى قد مت من أجـــل بلادى

ميتة الأبطال فى سوح الجهـــاد

فابشرى ، أماه ، حقا فالمنون فى سبيل الأرض حظ الخالدين

من مصب النيل حتى خط عرض الاستواء

ومن القلزم حتى معممان الصحراء

٢ — من تحية العلم

رفرفت فى الجو طيات العلم فانهضوا حيوه عنوان البلاد

رمزنا ! فى طيه مجد الوطن وثناياه أسارير البدن

وسجل الفخر فى كر الزمن ولعرش المجد والعليا عماد

إنه الروح لأبدان الأمم

من صميم القلب نهديك السلاما ودواماً ما به تعـلو مقاما

بأسماء الناجحين ... ففتحت لهم أبواب الجنـة ... وبأسماء (الراسبين) ... ففضحوا على رؤوس الخلائق ، وقذفوا فى النار فرسبوا فيها ... ! أين يومئذ تلك اللذائذ ؟ ! أين متعة العين بهذه الراقصة ؟ ! أين لذة الجوارح بوصالها ؟ ! أين جمالها وفتنتها والصديد يسيل منها ؟ ! !

يا ناس ! ! إن لهذا الـكون إلهاً . إن فى الـكون عدلا . إن من زَنى زُنى به ولو بجدار داره(١) ، أفمـا لـكم بنات ؟ ! أما لـكم أخوات ؟ ! ... فعفوا تعف نساؤكم(٢) ، إنـكم لا تدرون ما ذا يكون فى غد ، ولعل ابنة أحدكم تقوم هذا المقام ، فأشفقوا على هذه المسكينة ، فإن لها أباً وأماً .. إنها ما جاءت من جذع شجرة ! !

قال صديقى : لمـا بلغ الشيخ من كلامه هذا المبلغ ، سالت دموعنا رحمة للراقصة ، وإشفاقاً عليها ، وصرنا ننظر إليها كما ينظر أحدنا إلى ابنته يسعى ليسترها ويحميها ، بعد أن كنا لا ننظر إليها إلا لنقطف زهرتها ونذويها ... ولقد وفق الله بعد ذلك ، فأخرجنا المسكينة من هذه الحمأة ، وزوجناها برجل صالح ، فهى الآن ربة بيت وأم أولاد ! !

قال : حتى صاحب المرقص صار يتردد على الشيخ ، وأحسبه سيغلق مرقصه اليوم أو غداً ، ويجد لنفسه عملا شريفاً ! !

هذه هى قصة الشيخ فى المرقص ! فيا ليت كل مرقص يدخله (شيخ) ! ويا ليت (شيخاً) يدخل وزارة المعارف ! !

(دمشق) **على الطنطاوى**

---

(١) حديث . (٢) حديث .

نعملن عن طيب نفس ، وإذاما رمت من أجلك إشمال الجهاد

فلك الأنفس تفدى يا علم

٣ — من ملحمة دنشواي

وموسيقاك « يوتربا » أعدّى « وملبومين » فيضي بالمآسى

أعيدا هذه المأساة لفظاً وقد كانت عيانا للأناسى

ففي الذكرى انغاظ وانتباه وزلزلة تلاعب بالرواسى

بريشكما سويا صوراها بصبغ الزهر : ثالوث وآس

ولون البدر يعلوه شحوب لما يرنوه من حزن الأناسى

أقرية « دنشواى » تسام هذا أفردوس الطهارة قد تضام ؟

أينبوع الفضائل والأمانى يلوث ماءه العذب القتام ؟

وأيم الله كدت أطير شكا من الدنيا وما يبلو الأنام

فأضحى زورقى فى اليم يسرى شريداً قد تحير لا ينام

تجاذبه الرياح من النواصى ومن أقصى زوابعها يسام

٤ — من نشيد الشهداء

لا تثنوا ، لا تمنوا ، لا تضنوا

بالجهاد للبلاد

نعم الاستشهاد

كل هم ، كل غم ، كل دم

لا يراق بانطلاق

يفسد الجهاد

الضريحْ ، يستريح ، والجريح

إن رواه من دماه

كان نعم الدار

والضريح ، لا يريح ، ألطريح

إن سكنا واستكنا

صار ويل النار

***

القداسة ... بالحماسة ، والنجاسة

بالسكون والركون

بئس الاستسلام

***

كل فيض بعد غيض ، كل روض

بعد حزن بعد مزن

فاركوا الأحلام

***

يا شباب الذئاب بالغلاب

والفداء والدماء

تترك الأوطان

***

الجلاء لابفاء بالرجاء

بل بقهر ثم نصر

ثابت الأركان

٥ — من رؤيا ملاك

ياملاكى ! طار بالروح إلى ملكوت الرب منطاد الخيال

فرأت فيما تخطى زحلا منظراً قد فاض تيها بالجلال

***

يتجلى فى الفراغ اللانهائى جمع أجرام تغنى وتدور

ترسل الألحان من سحر الغناء فيسود السحر فى كل الأثير

***

كل جرم خلف جرم يتغنى كفراش حول مصباح يحوم

أو زنابير تجاه السقف تغنى فى حديث مستفيض وتهيم

٦ — مناجاة

سألت لبى : إلام حبى فقال قلبى : مدى البقاء

بذلت جهدى ، فصنت عهدى وعشت وحدى على الشقاء

***

حطمت روحى ، وهجت لوحى فلا تبوحى ، بذا الغرام

جلوت شوقا ، وكان برقا أكان حقا ، فما المرام

***

سألت سمى ، منال لوعى فكان دمعى ، لك الجواب

رميت نفسى ، بقاع يأسى فصرت أرمى ، على تباب

***

طغى سقامى ، على كلامى وما ملامى ، سوى ابتهال

« مرآة نفسى »

ديوان للدكتور عبد الرحمن بدوى

للأســتاذ سيد قطب

١ — من نشيد البعث الوطنى

ثورةٌ !
ثورةٌ !
ثورةٌ ! أماه شبت من بعيد   انظريها ! إنها البعث الجديد
هبّ وادى النيل شعباً واحدا
طارحا نيراً ثقيــلا راقدا
يطلب اســتقلال مصر خالدا
هبّ يحيى مجد فرعون القديم   ينشر الآمال والنور العظيم
من مصب النيل حتى   خط عرض الاستواء
ومن القلزم حتى   مممان الصحراء

صلصل الناقوس ! هيا ياشباب   هيىء المركب وامخر فى العباب
فى نضــال   مســتحر
وبقلب ...   مستقــر
وبعــزم   مســتمر
صــارع الأنواء حتى تبلغا   شاطىء المجد العظيم المبتغى
من مصب النيل حتى   خط عرض الاستواء
ومن القلزم حتى   مممان الصحراء

ودّعى أماه ليثـا كاسراً   واطلبى لى العود حراً ظافرا
واذ كرى — إن جاء نعيى من منادى
أننى قد مت من أجــل بلادى
ميتة الأبطال فى سوح الجهــاد
فابشرى ، أماه ، حقا فالمنون   فى سبيل الأرض حظ الخالدين
من مصب النيل حتى   خط عرض الاستواء
ومن القلزم حتى   مممان الصحراء

٢ — من تحية العلم

رفرفت فى الجو طيات العلم   فانهضوا حيوه عنوان البلاد
رمزنا ! فى طيه مجد الوطن   وثناياه أسارير البدن
وسجل الفخر فى كر الزمن   ولعرش المجد والعليا عماد
إنه الروح لأبدان الأمم
من صميم القلب نهديك السلاما   ودواماً ما به تعلو مقاما

بأسماء الناجحين ... ففتحت لهم أبواب الجنــة ... وبأسماء (الراسبين) ... ففضحوا على رؤوس الخلائق ، وقذفوا فى النار فرسبوا فيها ... ! أين يومئذ تلك اللذائذ ؟ ! أين متعة العين بهذه الراقصة ؟ ! أين لذة الجوارح بوصالها ؟ ! أين جمالها وفتنتها والصديد يسيل منها ؟ ! !

يا ناس ! ! إن لهذا الـكون إلهاً . إن فى الـكون عدلا . إن من زَنى زُنى به ولو بجدار داره[1] ، أفمـا لـكم بنات ؟ ! أما لـكم أخوات ؟ ! ... فعفوا تعف نساؤ كم[2] ، إنـكم لا تدرون ما ذا يكون فى غد ، ولعل ابنة أحد كم تقوم هذا المقام ، فأشفقوا على هذه المسكينة ، فإن لها أباً وأماً .. إنها ما جاءت من جذع شجرة ! !

قال صديقى : لمـا بلغ الشيخ من كلامه هذا المبلغ ، سالت دموعنا رحمة للراقصة ، وإشفاقاً عليها ، وصرنا ننظر إليها كما ينظر أحدنا إلى ابنته يسمى ليسترها ويحميها ، بعد أن كنا لا ننظر إليها إلا لنقطف زهرتها وندويها ... ولقد وفق الله بعد ذلك ، فأخرجنا المسكينة من هذه الحمأة ، وزوجناها برجل صالح ، فهى الآن ربة بيت وأم أولاد ! !

قال : حتى صاحب المرقص صار يتردد على الشيخ ، وأحسبه سيغلق مرقصه اليوم أو غداً ، ويجد لنفسه عملا شريفاً ! !

هذه هى قصة الشيخ فى المرقص ! فيا ليت كل مرقص يدخله (شيخ) ! ويا ليت (شيخاً) يدخل وزارة المعارف ! !

(دمشق)   **على الطنطاوى**

---

(١) حديث .   (٢) حديث.

نعملن عن طيب نفس ، وإذاما رمت من أجلك إشمال الجهاد
فلك الأنفس تفدى ياعلم

٣ — من ملحمة دنشواى

وموسيقاك « يوتربا » أعدّى « وملبومين » فيضى بالمآسى
أعيدا هذه المأساة لفظاً وقد كانت عيانا للأناسى
ففى الذكرى اتعاظ وانتباه وزلزلة تلاعب بالرواسى
بريشكما سويا صوراها بصبغ الزهر : ثالوث وآس
ولون البدر يعلوه شحوب لما يرنوه من حزن الأناسى

أقرية « دنشواى » تسام هذا أفردوس الطهارة قد تضام ؟
أينبوع الفضائل والأمانى يلوث ماءه العذب القتام ؟
وأيم الله كدت أطير شكا من الدنيا وما يبلو الأنام
فأضحى زورقى فى اليم يسرى شريداً قد تحير لا ينام
تجاذبه الرياح من النواصى ومن أقصى زوابعها يسام

٤ — من نشيد الشهداء

لا تثنوا ، لا تمنوا ، لا تضنوا
بالجهاد للبلاد
نعم الاستشهاد
كل هم ، كل غم ، كل دم
لا يراق بانطلاق
يفسد الجهاد
الضريح ، يستريح ، والجريح
إن رواه من دماه
كان نعم الدار
والضريح ، لا يريح ، الطريح
إن سكنا واستكنا
صار ويل النار

***

القداسة ... بالحماسة ، والنجاسة
بالسكون والركون
بئس الاستسلام

***

كل فيض بعد غيض ، كل روض
بعد حزن بعد مزن
فاتركوا الأحلام

***

يا شباب الذئاب بالغلاب
والفداء والدماء
تترك الأوطان

***

الجلاء لايفاء بالرجاء
بل بقهر ثم نصر
ثابت الأركان

٥ — من رؤيا ملاك

ياملاكى ! طار بالروح إلى ملكوت الرب منطاد الخيال
فرأت فيما تخطى زحلا منظراً قد فاض تيها بالجلال

***

يتجلى فى الفراغ اللا نهائى جمع أجرام تغنى وتدور
ترسل الألحان من سحر الغناء فيسود السحر فى كل الأثير

***

كل جرم خلف جرم يتغنى كفراش حول مصباح يحوم
أو زنابير تجاه السقف تفنى فى حديث مستفيض وتهيم

٦ — مناجاة

سألت لبى : إلام حبى فقال قلبى : مدى البقاء
بذلت جهدى ، فصنت عهدى وعشت وحدى على الشقاء

***

حطمت روحى ، وهجت لوحى فلا تبوحى ، بذا الغرام
جلوت شوقا ، وكان برقا أكان حقا ، فما المرام

***

سألت سمعى ، منال لوعى فكان دمعى ، لك الجواب
رميت نفسى ، بقاع يأسى فصرت أرسى ، على تباب

***

طغى سقامى ، على كلامى وما ملامى ، سوى ابتهال

غدوت معنى ، أشاع لحنا وحل مبنى ، من الخيال

☆☆☆

هفا حنينا ، فرد حينا فصار دينا ، له الصلاة
فأنت ربى ، سكنت قلبى بفضل حبى ، مدى الحياة

***

أقسم بالله العظيم ، أن هذا الذى مر بك — أيها القارىء — هو من عمل الدكتور عبد الرحمن بدوى ، نشره بتوقيعه فى كتاب مطبوع بمطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٦ تحت عنوان مرآة نفسى ديوان شعر . تأليف عبد الرحمن بدوى » وأننى لم أكن كاذبا ولا مدعيا ولا مزوراً ، ولم أدس شيئا على « الشاعر » لم يثبته فى ديوانه ؛ وأننى لم أقصد إلى « القذف فى حقه » ولا « التشهير به » بنسبة هذا الكلام إليه !!!

ولقد هممت أن أثبت هذه النصوص « بالزنكوغراف » لتكون شاهدى إذا خطر للنيابة العامة أن تقدمنى إلى المحاكمة بتهمة « القذف » فى حق الدكتور بدوى . وتعريفها : « نسبة أشياء إلى شخص بحيث لو صحت لأوجبت احتقاره بين أهل وطنه » !

ولست أتعمد الإساءة إلى هذا الشاب الذى نشر هذا الكلام بل الحق أننى قد أكون شديد الإعجاب — إلى حد الدهش — بجرأته الخارقة !

إنه مدهش !

مدهش أن ترتفع جرأته النادرة إلى حد أن يواجه الناس بهذا الكلام ، وينشره فى ديوان ، ثم لا يقدمه إليهم فى تواضع ويدع لهم أن يقبلوه أو يرفضوه ، بل يطلع عليهم به فى ادعاء عريض ويقدمه إليهم بإعلانات غريبة عن العبقرية والآفاق الجديدة التى لم تخطر لهم ببال !

كل هذه الفهاهة فى التفكير والتعبير ؛ وكل هذه الركة فى النظم والأداء ؛ وكل هذه الأخطاء اللغوية ... وكل هذه البراءة من الحساسية الموسيقية والذوق التعبيرى ؛ وكل هذه التفاهة الصبيانية فى الحس والتصور ... وكل هذا الإعياء حتى فى النظم اللفظى ...

كل هذا ... وينشر سنة ١٩٤٦ لا سنة ١٨٢٠ أيام كانت هذه لغة « الوقائع المصرية » ولغة جماعة من الأرمن المستعربين !

إنها جرأة تستحق الإعجاب بكل تأكيد !

ولفت نظرى فى القصيدة الأخيرة « مناجاة » أنه يقول عنها « وهذا ضرب جديد من النظم . وفيه كل بيت مقسم ثلاثة أقسام مقفاة بقافية واحدة »

لفت نظرى هذا ؛ لأن هذا الضرب قديم يعرفه كل من قرأ شعراً قديماً ... ثم لقد نظم منه « الغول » الذى نعرفه جميعا فى « حواديت » العجائز .

فالدكتور عبد الرحمن بدوى يقول :

طنى سقامى ، على كلامى وما ملامى ، سوى ابتهال .

والغول يقول :

لولاش سلامك ، سبق كلامك لكلت لحمك ، قبل عظامك !

مع فارق صغير فى ترتيب القاطع بين « شعر » الدكتور بدوى و « شعر » الغول !

ولقد كنت أقرأ بعض ما ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوى من الشعر الغربى فأحس هذه الفهاهة وهذه الركة ، فأقول : لعله اضطراب فهمه للنصوص وعدم قدرته على التعبير عنها تبعا لهذا الاضطراب ...

فلما قرأت « مرآة نفسه » عرفت السبب وتبينت العلة . ورثيت للمساكين الذين مروا بهذه المرآة حين ترجم لهم هذا الشاب العجيب !

ولقد علمت أن سائلا سأل ناشر هذه الكتب : من الذى يقرأ كتب الدكتور بدوى ؟ فكان جوابه : إنها تقرأ فى العراق ... !

وإننى لأسأل بدورى : ترى هذا الديوان كذلك قد طبع للعراق ... ؟

ومعذرة لإخواننا العراقيين . فناقل الكفر ليس بكافر ... وفى وسعهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد هذا الاتهام !

***

وبعد فمعذرة للقراء ! إنهم لم يعهدونى أكتب بهذه اللهجة عن أحد ولا عن عمل أدبى كذلك .

ولكننى هنا لا أكتب نقداً ، ولم أقصد إلى شىء من ذلك

العصبية المعهدية

للأستاذ عبد الحميد يونس

في هذا الوقت الذي تلغى فيه الحدود الجغرافية نفسها على عتوها وجبروتها ، وتتقارب الجماعات البشرية التي طال اصطراعها حتى أصبح التاريخ الإنساني كله عبارة عن سرد متصل لمشاهد حروبها وأهوال أيامها ؛ بل وفي هذا الوقت الذي تغلب فيه الدعوة إلى العدالة الاجتماعية سائر الدعوات فتعمل على محو الفروق بين الطبقات ، أو على التقريب فيما بينها على الأقل ؛ أقول في هذا الوقت تقوى في مصر عصبية خطيرة تخلق طبقات جديدة وتنشر الإحن والأحقاد في نفوس الأفراد والجماعات

ومن عجب أن هذه العصبية تفرق أولا وقبل كل شيء بين المتعلمين وغير المتعلمين على الرغم من أن المصادفة وحدها جعلت المتعلم متعلماً والجاهل جاهلا ، وكان الأحجى أن يتقارب الإثنان ويأخذ الفاقد من الواجد ، ولا أقول يعطى الواجد الفاقد

وفرقت هذه العصبية كذلك بين المتعلمين أنفسهم ، فجعلتهم طبقات ، واخترعت لهذه التفرقة مراحل وأقساماً ، فهؤلاء هم أهل الطبقة الأولى ، وهؤلاء أهل الطبقة الثانية ، وأولئك أهل الطبقة الثالثة ... وهكذا

ولم تكتف هذه العصبية الوبيلة بذلك ، بل راحت تفرق الطبقة الواحدة شيعاً وأحزاباً لا تتعاون فيما بينها ، لأن الأحقاد والإحن هي أساس وجودها والباعث على بقائها واطراد نموها .

تُرى ما هذه العصبية الحمقاء التي صورتها بهذه الصورة المنكرة ؟ هذه العصبية هي التي سميتها « العصبية المعهدية » ، ولطالما نبهت إليها وحذرت منها ، فلم يأبه للتنبيه والتحذير أحد ، لأن الكل متهم بها ، منتفع من وجودها ، وعامل على إذكائها.

* * *

هذه « العصبية المعهدية » هي السر فيما تسمعه كل يوم من أن طائفة بعينها ، أو قسما بعينه يريد أن يسوى بينه وبين طائفة أخرى وقسم آخر في بعض المزايا والحقوق ؛ أو أن أبناء معهد بعينه ينكرون على أبناء معهد آخر ما يضطلعون به من جهد وما يقومون به من عمل ، وكأنما العلم بضاعة يحتكرها أولئك دون هؤلاء ، والقوامون على مرافق هذه الأمة يساعدون أحياناً ، عامدين أو غير عامدين ، على تقوية هذه العصبية بتفضيل طائفة من المتعلمين على غيرها ، أو معهد من معاهد التعليم على غيره ، وفيهم من تأخذه عنجهية هذه العصبية إلى أبعد مدى ، فيحتكر العلم أو التعليم لأبناء طائفته أو معهده

ولعل من المضحكات أو المبكيات ما روى من أن مصلحة من مصالح الحكومة أرادت أن تتحرى العدالة في اختيار موظفيها لتبرأ من المحسوبية المتفشية في الدواوين وغير الدواوين ، فعقدت امتحان مسابقة تختبر به كفايات المتقدمين ومقدار صلاحيتهم للأعمال التي ستناط بهم وتوكل إليهم ، ولم يكن العمل يتطلب تخصصاً ضيقاً ، وتقدم إلى هذا الامتحان جمع من معاهد شتى ، وانقضت أيام وأعلنت النتيجة ، فإذا الأول من معهد ، والثاني والثالث والرابع من معهد آخر ، فاختار مدير المصلحة الثلاثة دون الأول ، لأنهم من المعهد الذي تخرج فيه ، فهم لذلك دون غيره أصلح للعمل معه !

ولا تظنن أن هذا المثال الفريد في بابه ، فكثير مثله يجرى كل يوم في كل مصلحة وفي كل عمل ، يُختار المتعلم من هذا المعهد دون سواه ، لأن رؤساءه منه ، أو لأنه ينتمي إلى طائفة قد أصبحت طبقة يجب أن يعمل حسابها ولا يستغضب أبناؤها ،

ولم أكن لأملك أن أكتب بأسلوب الناقد الجاد ... إن مجرد الحديث في لغة الجد والنقد عن مثل هذه « المساخر » لهو احتقار للشعر والأدب والنقد ، واحتقار للصحيفة التي أكتب فيها ، وللناس الذين أكتب لهم .

هذه « عملية » لا يجوز أن تمر . فهي استهتار يتجاوز حدود الجرأة ، ولا بد أن يوضع حد لهذه « المساخر » بأية طريقة وإذا كان القانون لا يملك — مع الأسف — أن يعاقب على مثل هذا الاستهتار فيجب أن يرد الناس عن أنفسهم هذا الاحتقار . فما يجرؤ إنسان على نشر مثل هذا الكلام بمثل هذا الادعاء إلا أن يحتقر نفسه أو يحتقر القراء .

سيد قطب

ولسنا نبالغ فى تجسيم هذه العصبية المعهدية وبيان أثرها مبالغة المتعصبين المعهديين فى امتداح أنفسهم وطوائفهم ومعاهدهم ، والحط من قدر الآخرين وطوائفهم ومعاهدهم ، وذكر العنت الذى يقع عليهم دون سائر الناس

ألم يبلغك الخلاف الذى قام بين خريجى المعلمين العليا ومعهد التربية ، والانتصاف لهؤلاء مرة ، ولأولئك أخرى ، لأن مقاليد الأمور كانت فى يد هؤلاء مرة وأولئك مرة أخرى ؟ !

ألم يبلغك الخلاف الذى قام قبل ذلك بين هؤلاء المعلمين وبين الجامعيين والذى لا نزال له آثاره حتى اليوم ؟

ألم يبلغك الخلاف الذى قام بين بعض الجامعيين وأبناء دار العلوم ، وما له من أثر وبيل إلى يومنا هذا ؟ !

ألم تقرأ عن هذه الحرب الشعواء بين أبناء الأزهر وأبناء دار العلوم ، والتى اتخذت لنفسها صوراً وأشكالا لم يكن الشعب المصرى يألفها من قبل ؟

اختر لنفسك أى مدرسة من مدارس هذا القطر من الأسكندرية إلى أسوان للبنين كانت أو للبنات ، واختبر حالة المعلمين والمعلمات ، فسيأخذك الدهش من كل جانب لأنك ترى هؤلاء الذين يعيشون للعلم وللتعليم أحزاباً متنافرة ، لا لشىء إلا لأن كل فريق من معهد ، وقد أدت سياسة الارتجال وأنصاف الحلول والإصلاح المؤقت واسترضاء الطوائف إلى أن يتخرج المعلمون فى المدرسة الواحدة من أكثر من خمس معاهد لا يدعو التخصص وحده إلى هذا التفريق فيما بينها ، فأنت واجد مدرسى اللغة العربية المتخرجين فى الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب ، وأنت واجد فى المدرسة نفسها أبناء معهد التربية العالى والابتدائى معاً ، إلى جانب خريجى المعلمين العليا ، وهم جميعاً يدرسون مجموعة واحدة من المواد . وكذلك الحال فى مدارس البنات ، فخريجات السنية والمعاهد الإضافية إلى جانب الجامعيات وخريجات معهد التربية الابتدائى ، وهكذا ... ولكل فريق من هؤلاء رؤساء يذكون فى عصبيته ويساعدونه فى وجوده وارتقائه

* * *

وأفرخت هذه العصبية عصبيات أخرى من نوعها وإن كانت أصغر وأقل شأناً ، فإن المعهد الواحد قد ألزمه قانون تقسيم العمل والتخصص إلى أن يفرق طلابه على الأقسام ونشأت « عصبيات قسمية » ، إذا صح هـذا التعبير ، ورأينا هؤلاء الطلاب إذا تخرجوا ، ألفوا ما يشبه النقابات تضم أبناء قسمهم ، بل ورأينا أنه إذا ابتسم الحظ لواحد منهم وجعله من أصحاب الحل والعقد فى ناحية من النواحى ، ضاقت نفسه بأبناء غير قسمه ، وإن كانوا من معهده ، ورأينا أكثر من ذلك أن رجال العلم والتعليم فى هذا المعهد أو ذاك ، قد يضطرهم قانون التعاون إلى أن يجتمع بعضهم وهم من أقسام شتى للقيام بعمل علمى أو اختبار طالبات أوطلاب فينتصر كل إلى قسمه وأبنائه ، وإن كان ذلك يحيف على العدالة الواجبة فى كل شىء وفى العلم ومعاهده بنوع خاص

نعم ، إن هذه الهيئات والجماعات قد تكون لها وظيفة نقابية فتدافع عن مصالح أبناء المهنة الواحدة ، وتحافظ لهم على حقوقهم ، وتستغل الفرد لمصلحة الجماعة كلها ، وتجند الجماعة لمصلحة الفرد من أبنائها ؛ ولكن مارأيك فى أن المهنة الواحدة تتوزعها نقابات مختلفة ، وتتنازعها اتحادات شتى ، تتسمى كل واحدة منها باسم « معهد » ، أو حتى قسم من معهد ، فأنت تجد اتحاد خريجى الجامعة ، وتجد اتحاد خريجى كلية الآداب ، بل واتحاد خريجى قسم اللغة الإنجليزية ، بل إن جماعة المعهد الواحد تنقسم بدورها إلى شعب ، من ذلك أن لخريجى دار العلوم أكثر من ناد واحد فى مدينة القاهرة وحدها

* * *

وهـذه العصبيات تؤرق الحكام وتضنيهم ، وقد أزعجت الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وأزعجت وزير المعارف ، وأزعجت وزير المالية ووزير الداخلية وسائر الوزراء ، واضطرت أولى الأمر إلى إقفال هـذا المعهد أو ذاك أمداً ليس بالقليل ، والتلويح بالوعود لهؤلاء ، والنذر لأولئك ، فيرضى قوم ويغضب آخرون ، وتبقى العصبية المعهدية على حالها تنخر فى عظام هذا المجتمع الناشئ المتطلع وتفسد ما بين المتعلمين ، وكان الأحجى بهم وبرؤسائهم أن يجتمعوا على مكافحة الفقر والجهل والمرض ، وهم الذين أدبتهم الأمة للاضطلاع بهذه المهمة ، لا لأن يحارب بعضهم بعضاً

والعلاج الوحيد لهذه العصبية المنكودة هو أن نأخذ الداء

من أساسه ونجتثه من جذوره ، فنوحد بين سبل التعليم العام أولا ، فلا تكون هناك مدارس أولية وأخرى ابتدائية تؤدى هـذه وتلك إلى غيرها بنظام الحلقات المتداخلة فى التعليم الذى يدرج عليه نظامنا الواهن السقيم ، وأن نتوحد فرصة هذا التعليم العـام المشترك لجميع المصريين ، فلا يستطيعه الواجدون دون الفاقدين ، ولا أبناء الحضر دون أبناء الريف ، ولا المسلمون دون النصارى كما هو الشأن فى بعض معاهدنا المتسمة بسمة القرون الوسطى إلى اليوم

أما التعليم العالى وما فيه من تخصص واستعداد مهنى فيجب أن يكون فى كليات جامعة واحدة ، لا فى معاهد مستقلة برأسها ، والمتخرجون فى هذه الكليات يجب أن يكونوا فى نظر الدولة سواء ، فلا ينظر رجال البوليس فى شىء من الحسد إلى رجال الجيش ، ولا يطلب المهندسون المساواة بالقضاة ، والمدرسون المساواة بأولئك وهؤلاء ، وتختفى هذه الشكايات التى تملأ أعمدة الصحف ، وتبرأ النفوس من الحقد والجشع ، ولا نسمع أن طبيباً أهان وكيل نيابة ، أو أن طلبة الأزهر تماسكوا مع طلبة دار العلوم

عبد الحميد يونس

عضو لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية

شـــعراؤنا المؤرخون

كيف نرتب دواوينهم ونقرؤها

للاستاذ محمود عزت عرفة

قد يستسيغ قارئ الأدب منا أن يطالع شعر ابن أبى ربيعة مثلا فى غير ما ترتيب ولا تبويب — كما هو الشأن فى ديوانه المطبوع — فلا يفرق بين أوائل شعره وأواخره ؛ ولا يتدرج فى المطالعة من شعر صباه وشبابه ، إلى شعر رجولته واكتهاله ، ثم إلى شعره وهو يدب هوناً إلى الثمانين ...

قد نستسيغ ذلك لأن ابن أبى ربيعة وأمثاله من الشعراء العاطفيين لا يصدرون فى أقوالهم إلا عن بواعث نفسية وموحيات خاصة ، لا ترتبط عند القارئ ، ولا عند الشاعر فى أكثر الأحايين ، بزمان محدد أو مكان معلوم .

ولكن الشأن يختلف فى ذلك كثيراً مع شعرائنا الاجتماعيين من أمثال المتنبى والنوامى والبحترى وأبى تمام والشريف ومهيار والسرى وصردر ؛ أولئك الذين سجلوا فى شعرهم صوراً كاملة من أحداث عصورهم ، وجروا فى حلبة التاريخ أشواطاً تختلف طولا وقصراً باختلاف سنى أعمارهم . فارتبط شعرهم بحوادث تاريخية مشهورة ، محدود زمانها ومكانها ؛ وتجلت من أجل ذلك أهمية الترتيب والتبويب فى مطالعة إنتاجهم ، ترتيباً وتبويباً ليس منهما فى شىء مراعاة أبجدية القوافى ، ولا الاكتفاء بملاحظة أغراض الشعر المختلفة ، كما هو الشأن فى معظم الدواوين المطبوعة اليوم ، وفى أصولها المخطوطة من قديم .

ولنضرب هنا المثل بشاعر كالبحترى ؛ فهو قد ولد فى أوائل عهد المأمون ، وتوفى — عام ٢٨٤ هـ — فى خلافة المعتضد . وبذا يكون قد عاصر عشرة من خلفاء بنى العباس اتصل بستة منهم اتصالا وثيقاً ، هم على ترتيب عهودهم : المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ؛ وله فى كل منهم مدائح أو أهاج[1] تكشف عن مدى اتصاله بالحياة السياسية على عهده وانغماسه فى تيار الحوادث الجارف خلال هذه الحقبة الطويلة الهامة من حكم العباسيين . وإذا نحن نظرنا إلى هؤلاء الأعلام الستة كنجوم لوامع نيرات فى أفق ديوانه تحدد لنا أهم اتجاهاته ، كان لنا أن نتخذ من سائر الأعلام المنبثة فيه نجوماً أو كواكب أقل التماعاً تملأ بها الفجوات الفسيحة فيما بين ذلك ؛ فنخرج من شعر البحترى بصورة تاريخية مشرقة المعالم واضحة التعابير ، لحمتها حقائق التاريخ وسداها الفن الرفيع والأدب المعجب ...

ذلك أننا نجد إلى جانب ما قاله فى أولئك الخلفاء قصائد ومقطعات أخرى تبلغ المئات عدداً من مدائح وأهاج ومعاتبات ومراث ومداعبات ، ومن سائر ما يدور بين المتعاصرين — كلها تتعلق بشخصيات تاريخية هامة من الوزراء والقواد والولاة والسراة والأدباء والأعيان وغيرهم ؛ وأكثرها يسجل معالم واضحة دقيقة لأمر خطيرة الذكر على هذا العهد من أمثال آل طاهر وآل

(١) راجع مقالتينا : « شاعر ومنجم » و « التابعون فى أوطانهم — حديث عن البحترى » فى العددين ٥٤٠ و ٦١٠ من مجلة الرسالة ، بتاريخى ١٣-١٢-١٩٤٣ و ١٢-٣-١٩٤٥ م

الدبر وآل حميد ، وآل مخلد ومهل ووهب وخاقان ونيبخت وبسطام ... وغير هؤلاء

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن أبي تمام الذى مدح المأمون والمعتصم والواثق من الخلفاء — وتوفى قبل الأخير بعامين — ثم التمت فى ثنايا ديوانه الحافل بالأعلام ، أسماء آل دواد ووهب ومهل ورجاء وحميد ومزيد الشيبانى وطوق التغلبى ويوسف الطائى ... الخ بل يمكن أن نقول ذلك عن كل شاعر اجتماعى من أمثال من أشرنا إليهم ، فترتيب شعر هؤلاء وفق أبجدية القوافى أو أغراض الشعر كما هو متبع إلى اليوم ، تشويه لعرض إنتاجهم ليس بعده تشويه ، وإعراض عن ناحية هامة كان ينبغى أن تتجه إليها العناية منذ بعيد ، تلك هى الناحية الاجتماعية التاريخية من هذه النفائس الخالدة .

وإن عذر القدماء لواضح فى لزوم هذه الطريقة الفجة فى جمع الدواوين ، إذ كان الأمر فى ذلك موكولا إلى جماعة الرواة منهم والحافظين ، والغاية منه حفظ هذه الكنوز من الضياع ، ثم مساعدة المتأدبين والأدباء على اقتناء مجموعات شعرية وافية تسهل مراجعتها واستخراج البيت منها أو الأبيات بأيسر المجهود ، لتذوق ما فيها من شاعرية ، أو لدراستها دراسة لغوية لا تخرج عن دائرة النحو والبلاغة والعروض وما إليها . أما هذه الناحية التاريخية التى نشير إليها فلم تكن مما يخطر للقوم على بال ؛ وإنما هى غرض يتجدد ويزداد شعورنا بالحاجة إليه كلما تطاول الزمن على هذه القصائد فاكتسبت صفة السجلات التاريخية الوثيقة .

وإن تحقيق هذا الغرض ليقتضينا أن نرتب كل ديوان ترتيباً تاريخياً نراعى فيه تسلسل الحوادث المختلفة التى يسجلها الشاعر ، وتاريخ حياة كل من الأشخاص الذين يتحدث عنهم[1] . وليس يطعن فى صدق هذا التاريخ الأدبى أو ينتقص من قدره ما قد يتجه إلى الشعراء عامة من الريبة فى صحة أحكامهم لأنهم كمؤرخين معاصرين للحوادث التى يوردونها ، يمتازون من الخبرة وسعة الاطلاع بما لا يتأتى لغيرهم ممن سجلوا هذه الحوادث بعد انطواء أزمانها . وأى وصف لخيانة الأفشين للمعتصم أصدق عبارة مما سجله أبو تمام فى قصيدته : الحق أبلج والسيوف عوار ؟ .. بل أى تسجيل لحوادث فتح عمورية أبلغ أثراً فى النفس مما نقرؤه فى بائيته : السيف أصدق أنباء من الكتب ؟

والأمثلة على ذلك كثيرة نومىء إلى بعضها فيما يلى :

١ — رحلت عن الربع المحيل فمودى : لأبى العتاهية فى عقد الرشيد العهد لأبنائه الثلاثة فى ذى الحجة عام ١٨٦ هـ

٢ — شغلان من عذل ومن تفنيد : للبحترى فى عقد المتوكل البيعة لأبنائه المنتصر والمعتز والمؤيد فى ذى الحجة عام ٢٣٥ هـ

٣ — قل للسحاب إذا حدته الشمأل : للبحترى فى وفود الروم على المتوكل ، ومفاداته الأسرى (فى شوال عام ٢٤٦ هـ)

٤ — ذاد عن مقلتى لذيذ المنام : لابن الرومى فى إيقاع صاحب الزنج بأهل البصرة أيام المعتمد (شوال ٢٥٧ هـ)

٥ — عواذل ذات الخال فى حواسد : للمتنبى فى حروب خرشنة على عهد سيف الدولة عام ٣٤٠ هـ .

٦ — فتوحك ردت بهجة الملك سرمدا : للسرى الرفاء فى الغرض السابق .

٧ — فتح أعز به الإسلام صاحبه : للسرى الرفاء فى هزيمة الدمستق وبناء قلعة الحدث عام ٣٤٣ هـ .

٨ — على قدر أهل العزم تأتى العزائم : للمتنبى فى الغرض السابق

* * *

وينبغى بعد ألا يفوتنا النص على أن هؤلاء الشعراء كانوا من حزب الخلافة فى أكثر أمرهم ، فلهجتهم هى الرسمية ، ووجهة نظرهم هى الوجهة العامة الغالبة . وكتب التاريخ التى ننحنى أمام صدقها لا ينظر أكثرها إلى الحوادث السائرة إلا من هذه الزاوية . فهؤلاء الشعراء فى تسجيلهم لحوادث التاريخ العامة لم يكونوا إلا لساناً ينطق برأى الهيئة الحاكمة ، ولا يخالف كثيرا — إن لم يمثل تماماً — رأى الهيئة المحكومة من عامة الشعوب الإسلامية. هذا ، ولم تكن الأطماع التى تعتلج فى نفوسهم ، والتى يحتمل معها الشك فى صدق أحكامهم ، بالأطماع الجريئة بعيدة الغور التى قد تتشوه بها الحقائق ويختل معها ميزان الأحكام . فهم مع

(١) قليل جداً من دواوين الشعر العربى ما رتب على هذا الوضع ، ولعل ديوان المتنبى يعد صورة مبتسرة من ذلك وفى كتاب ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام للدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنبى « رتب ديوانه بنفسه وقرأه الناس عليه ، وأملى شرحاً لبعض أبياته ، وناقشه فيه من أخذوا عنه » انظر ص ١٧ من ذكرى أبى الطيب .

انجذابهم فى تيار السياسة لم يكونوا من رجالها بالمعنى المفهوم، وإنما هم أهل فن وأدب: مطلبهم العيش الرغيد وأمنيتهم الحياة السهلة الوادعة؛ يفتنهم جمال الحق، ويعجبهم الانضواء تحت لوائه والقيام بنصرته. وإنهم لأقل الناس انحرافا، وأقلهم تبعاً لذلك تشويها للحقائق بزيادة فيها أو نقصان.

وكبار المؤرخين أنفسهم يتجه إليهم من النقد شىء كثير، ويؤخذ عليهم من المآخذ ما يكفى أقله لأن يودى بقدر مؤلفاتهم التى نعتمد عليها الاعتماد كله، ونستنبط منها حقائق التاريخ — فيما نزعم — جلية ناصعة.

جاء فى «ضحى الإسلام» عند الحديث عن مؤرخى العصر العباسى الأول[1]:

«قد يكون فى عمل هؤلاء المؤرخين بعض مآخذ كتلوين التاريخ ببعض العقائد أحيانا، وكبنائهم التاريخ حول الخلفاء لا حول الشعوب، وإهمالهم كثيرا من وصف النواحى الاجتماعية وغلبة النزعة الدينية فيما يعرضون له من أحداث، وضعف النقد وإيجازه وسذاجته ... الخ».

ونقول إنه لن يكون نصيب الشعراء من أمثال هذه المآخذ أكثر من نصيب المؤرخين، مع ما ينبغى الاعتراف به دائماً من وفرة حظ الأولين من الصراحة وصدق التعبير، وقلة تعلق أكثرهم بالماديات تعلقاً يدفعهم إلى اعتساف سبيل التحيز أو التحيف.

على أنه ينبغى لنا أن ندرك الفرق بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين؛ فلا نجشم الشعراء طريقاً غير طريقهم ... وإنهم لأصحاب الإغراق والإسراف والمبالغة والتهويل ... تلك الهالات المونقة التى تزين جبين الشعر، والتى لا يصعب على المتفرس أن يتعرف إلى وجه الحقيقة من ورائها. ثم هم بعد ذلك يتفردون بالإبداع فى تصوير نفوس الأفراد والجماعات والتعمق فى تحليل الشخصيات التاريخية التى يعاصرونها إلى الحد الذى لا يتأتى لكثير من المؤرخين. ورب أبيات قصيرة يصف بها الشاعر حالة من حالات خليفة أو أمير فى مجلس سمر أو ساحة قنص أو محفل مناظرة أو مقام مشاورة — تكشف لنا من خلجات هذه النفسية التاريخية ونوازعها ما يعلل الكثير من الأحداث الهامة التى يكتفى المؤرخون بسردها، ثم هم يتخبطون فى مجاهل الغيب إن تطاولوا إلى ما فوق ذلك بتعليل بواعثها.

ولتحديد موقف الشعراء من المؤرخين، وبيان مدى الاعتماد على الشعر كمصدر من مصادر التاريخ نورد ما ذكره الدكتور طه حسين بك فى كتابه «مع المتنبى»، وهو يتحدث عن وصف الشاعر لحروب سيف الدولة، قال[1]: «قد يقال إن المتنبى أغرق وأسرف، وعظم من أمر هذه المواقع أكثر مما ينبغى، وأضاف إليها من الخطر أكثر مما تستحق، وأعرض عن تصوير الهزيمة، ولم يعن إلا بتصوير الانتصار. ولكن يجب أن نتفق، فلم يكن المتنبى مؤرخاً ولا محققاً، وإنما كان شاعراً، وشاعراً ليس غير. أستغفر الله، بل كان شاعراً يشترك فى الجهاد، يذوق لذته ويشقى بآلامه. فالذين يطالبون هذا الشاعر بالتاريخ وتصوير الحق كما وقع يسرفون عليه، ويسرفون على أنفسهم، ويسرفون على الشعر نفسه. وأين كانت تقع حرب طروادة التى وصفت الإلياذة طوراً من أطوارها من هذه الحروب التى شهدها المتنبى ووصفها تسعة أعوام كاملة. أفيعاب شعراء الإلياذة بأنهم لم يصفوا التاريخ كما كان، أم يحمد من هؤلاء الشعراء أنهم صوروا نفوس الجماعات والأفراد التى اشتركت فى هذه الحرب أبدع تصوير وأروعه؟».

ثم يعتذر صاحب كتاب مع المتنبى عن تهويل الشاعر فى وصف وقائع سيف الدولة فيقول: «كلا إنه لا يتجاوز الحق، ولا يفسد التاريخ بالقياس إلى الذين لا يحسنون استنباط التاريخ من الشعر، ولا يفرقون بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين» هـ.

* * *

وإذا كنا قد أطلنا الحديث عن الناحية التاريخية من الشعر، فحسبنا أن نجتزىء بالإشارة العابرة إلى ناحية أخرى تتعلق بعلم الجغرافيا. وخير من الإطناب فى هذا المقام أن ننقل للقارىء فقرة موجزة من كتاب «امرىء القيس» للدكتور محمد صبرى حيث يقول[2]: «قد جرى امرؤ القيس فى معظم قصائده، وتبعه فى ذلك جميع شعراء العرب من جاهليين وإسلاميين، على سنة تحديد الأماكن وذكرها، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لولا هذه السنة

---

(١) ضحى الاسلام للأستاذ أحمد بك أمين جـ ٢ صـ ٣٥٩.

(١) مع المتنبى صـ ٢٢٣.

(٢) الشوامخ: امرؤ القيس صفحة ٣٧.

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٥ —

بين الطغيان والحرية :

واستبد شارل بالأمر أحد عشر عاما لقي أثناءها الإنجليز ماشاء له طغيانه من ضروب العسف والإذلال ، وكان وليم لود[1] الذي رقي عام ١٦٣٣ إلى منصب كبير الأساقفة مشيره في الشؤون الدينية ولورد استرافورد مشيره في الشؤون السياسية .

(١) حمل ملتن على لود حملة شديدة في قصيدته ليسيداس أثناء مقامه في هورتون .

وامتحنت الحرية امتحانا طال ليله واشتد بالناس هوله ، وسلط لود على البيوريتانز من أنواع الاضطهاد وأساليب العسف ما شاء له سلطانه وما أملاه غيظه وغلظه فكانت تكوى جباههم وصفحة وجوههم بالحديد المحمى أو تقطع أطراف آذانهم أو أنوفهم وليس لهم منجاة من هذا العذاب إلا أن يطرحوا عقيدتهم ؛ ولكنهم كانوا يعدون آذانهم وجباههم ووجوههم وأنوفهم جماعات إلى من يكويها أو يتحيفها دون أن يذل لهم إباء أو تهن لهم عقيدة ، وكانوا كلما أمعن لود في تعذيبهم ازدادوا تمسكا بمذهبهم وازداد مذهبهم رسوخا وانتشاراً كالشجرة كلما امتدت إليها الأيدي بالتقليم تغلغلت في الثرى جذورها وامتدت في الجو فروعها .

ولم يقتصر التعذيب على عامة البيوريتانز ، فامتد إلى الخاصة وشمل كل من كتب شيئا ضد الملك أو الأساقفة ، وكان يعين الملك في طغيانه محكمتان : إحداهما هي محكمة غرفة النجم ، والأخرى محكمة عليا أنشأتها إليزابث أول الأمر للحكم على من يخالف قرار توحيد العبادة ؛ وكان من الضحايا العديدين لهاتين المحكمتين أحد كبار رجال الدين فضرب وحبس ووضع في الأصفاد وقطعت أذناه لأنه كتب ينتقد لود وأساقفته ؛ وأحد رجال القانون لأنه

التي منها الشاعر لضاعت نصف جغرافية بلاد العرب ، إذ من المعلوم أن معجم ياقوت ومعجم البكري كان الشعر مرجعهما الأول لوصف بلدان كثيرة . على أنهما لم يستوعبا كل شيء ولا تزال العناية بدراسة شعراء كالمتنبي والبحتري وأبي تمام مثلا من شأنها أن تساعد على تصحيح أسماء بلدان كانت معروفة في العصر العباسي ، ولكنها وردت مغلوطة في تواريخ الطبري ، وابن الأثير » هـ .

* * *

وبعد ، فهاتان ناحيتان هامتان من الشعر طالت غفلة النقاد عنهما قرونا . ويبدو أن أول خطوة عملية ينبغي لنا اتباعها هي أن نضيف إلى كل (ديوان تاريخي) بعد ترتيب قصائده ملحقاً بتراجم أشهر الأعلام التي ورد ذكرها فيه ، ثم معجما لأهم البلدان التي نوه فيه بذكرها ...

وكيفما كان أمر شعرائنا أو القول فيهم ، فإن من اليسير أن نستقرى ما خالف الصواب من شعرهم ، ثم نلقي على ظلمته ضوءاً من حقائق التاريخ الثابتة بعد أن ندرج كل قصيدة في موضعها من مجموعتها حتى تتصل بما قبلها وبما بعدها من شعر ، اتصالا قويا وثيقا تبتهج له نفوس طلاب الحقائق ، وتكتسب به الدواوين حرارة وحيوية يبدو معهما كل شاعر إنسانا حيا ، لا شبحا باهت الظل متخيل الوجود . بل تكتسب المعاني والحوادث المسرودة نفسها قوة لم تكن لها من قبل ، وتنطبع في الأذهان بهيئة لا يدرك تناسقها وروعة جمالها إلا من تهيأ له — في مرة أو أكثر — أن يمارس هذا الترتيب بين القصائد ، فيرى كيف تنطق الحقيقة الجافة بلسان الخيال الرطيب ، ويشهد كيف يتواطأ التاريخ الدقيق والأدب الرقيق معاً على غزو العقول بسحر جمالها ؛ وكيف يتجليان في مرايا العقول كالفرقدين ، تنزلا من أفق واحد ، ليشرقا على دنيا واحدة .

محمود عزت عرفة

كتب كتابا يعيب فيه على من احترف التمثيل من الأوانس والسيدات مسلكهن فظُنّ أنه يعرض بالملكة فيما كتب ولم يك جزاؤه أخف من سالفه ؛ ومن هذين المثلين ندرك مبلغ ما حل بالناس من ألوان العذاب .

ولما كانت المشكلة المالية هي التي تضطر الملك إلى الاستعانة بنواب البلاد ، فقد أشار سترافورد على الملك باتباع سياســـة الاقتصاد ليطرد استغناؤه عن البرلمان ، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها ، فتحسنت الحالة المالية إلى حد ما وخيل إلى سترافورد أن ليس للبرلمان رجعة .

ولـكن الملك وازن بين دخله ومنصرفه فلم تسره الموازنة ووجد نفسه لا يزال في حاجة إلى زيادة الدخل وإلا اشتدت به الضائقة ثانية ، فسلك سنة ١٦٣٤ مسلكا كان أبعد ما سلك عن الصواب ، وذلك أنه عمد إلى فرض ضريبة مباشرة ، وكانت تسمى ضريبة السفن ، وهي ضريبة قديمة كان من حق الملك وفق الدستور أن يفرضها على الموانى إذا تعرضت المملكة لخطر الحرب فتقدم الموانى سفنا أو ما لا يقوم مقامها ؛ ونظر الإنجليز هذه المرة فإذا بالملك يفرض هذه الضريبة وليس ثمة من خطر يتهدد المملـكة ولـكن الملك احتج بأنه يبتغى بها مطاردة ما يتهدد التجارة من القراصنة ؛ وتمادى الملك فخرج على القانون والعرف وفرض هذه الضريبة لا على الموانى فحسب بل وعلى داخلية البلاد ، ثم استمر يفرضها عاما بعد عام وكان الأصل فيها ألا تفرض إلا حين الخطر

ويأبى القدر إلا أن يرتطم الملك وكبير أساقفته في ورطة كانت هي القاضية عليهما ، فقد شاء لود أن يدخل في اسكتلندة النظام الأسقفي على الرغم من تمسك الاسكتلنديين بنظام الـكنيسة البرسبتيرية ، وأعد لود كتابا للصلاة على نمط كتاب الصلاة في انجلترة ، وأراد أن يحمل الاسكتلنديين على اتباعه في كنائسهم ، فثار الناس هناك وأعلنوا سنة ١٦٣٨ في مجلس عام رفض النظام الأسقفي وطردوا الأساقفة الذين أرسلهم شارل إليهم فـكان هذا تحديا صريحا لمشيئة الملك ؛ وأصبحت المسألة في الواقع تتصل بحق شارل في حكم اسكتلندة أكثر مما تتصل بالنزاع الديني ، وبات الموقف بالغ الخطورة ، فإذا استطاع الاسكتلنديون أن يعصوا الملك فما ذا عسى أن يكون وقع هذا في انجلترة

ولجأ الملك إلى الحرب وتأهب الاسكتلنديون للقتال وتلاقى الجيشان فأحس الملك ضعفه فهادن الاسكتلنديين وهادنوه وسكنت ريح الحرب إلى حين .

وأحس الملك بضرورة دعوته برلمانا فدعا ذلك البرلمان في ربيع سنة ١٦٤٠ وعرف باسم البرلمان القصير لأنه لم يلبث أن أنكر على الملك فرض ضريبة السفن ، ولما ساومه الملك وعرض أن يتنازل عن ضريبة السفن نظير أن يمنحه البرلمان مبلغا معينا رأى البرلمان أن قبوله هذا العرض يتضمن الاعتراف بحق الملك في فرض تلك الضريبة فأبى إلا أن يكون تنازل الملك عنها بغير قيد وضاق الملك بالبرلمان فحله في نفس العام .

ولـكن الاسكتلنديين عبروا نهر التويد في الصيف زاحفين على انجلترة ، ودعا الملك مجلسا من الأعيان فأشار هـذا المجلس بوجوب الاستناد إلى برلمان ، ولم يجد الملك بدا من الإذعان فدعا برلمانا جديداً في نفس السنة وعرف هذا البرلمان بالبرلمان الطويل ، وظهر في هذا البرلمان زعماء أشداء كان من أشهرهم بم وهمبدن واليفر كرومول ...

ووجد البرلمان الفرصة سانحة ليصفى حسابه فوجه إلى لود واسترافورد تهمة الخيانة العظمى للشعب الإنجليزي وأطلق السجناء من أنصار الحرية ، وأزال من الـكنائس كل ما يدلها بروما من مظاهر وصور وتماثيل ، واحتاط البرلمان للمستقبل فأصـدر قراراً يقضى بأنه لا يجوز أن ينقضى أكثر من ثلاث سنوات بغير أن يدعى برلمان ، وقدم سترافورد إلى المحـكمة ، ووضع تحت الحراسة كيلا يهرب ، وكان لا بد من موافقة الملك حتى تقام الحراسة فوافق الملك مع أنه وعد سترافورد أن يدافع عنه وأدين سترافورد وأعدم وتنفس أنصار الحرية الصعداء ، وبالغ البرلمان في الحيطة فأصدر قرارا فحواه ألا يجوز حل البرلمان إلا بموافقة أغلبية أعضائه ؛ وقضى البرلمان بحل محكمة غرفة النجم والمحـكمة العليا المختصة بالشؤون الدينية

وخيل لأنصار الحرية أنه لم تعد تعترضهم عقبات ، ولـكنهم ما لبثوا أن أحسوا روحا رجعية في مقاعد البرلمان نفسه ، وذلك

بسبب مغالاة البيوريتانز ضد النظام الأسقفى ، فقد قدم هؤلاء مقترحا إلى البرلمان يقضى بإزالة هذا النظام كله وسمى مقترحهم باسم مقترح الأصل والفرع ، ولكن بعض النواب كانوا يميلون إلى النظام الأسقفى فعارضوا هذا المقترح وانضم إلى هؤلاء نواب آخرون أشفقوا من تطرف البرلمان فى استلاب سلطة الملك ورأوا أن الملك قد أذعن أكثر مما يجب أن يذعن وتوجسوا خيفة من عواقب هذا التطرف كأنما يلمح لهم شبح الفوضى .

وأخافت هذه الرجعية بم وزملاءه ، فأقدم بم على عمل خطير وهو ما سمى الإعلان الأعظم وهو عريضة قدمت إلى البرلمان وفيها جميع ما ارتكب الملك وأعوانه من أخطاء فى السياسة والدين منذ بداية عهده وطلب إلى البرلمان أن يقرر صحة ما جاء فيها ، وبعد مناقشة عنيفة فى جلسة طويلة استمرت الليل كله وافق البرلمان عليها بأغلبية تسعة أعضاء فحسب فأظهرت هذه العريضة عدد أنصار الملك فى البرلمان وتبين أنه عدد لا يستهان به .

وتزايدت مخاوف بم وأنصاره ، وكان الملك قد ذهب إلى اسكتلندة على أثر وفاق عقده البرلمان بين انجلترة والجيش الثائر فى اسكتلندة ، فلما عاد شارل إلى انجلترة استقبل فى لندن بحفاوة عظيمة ....

وكأنما أغرته تلك الرجعية فى مقاعد البرلمان وهذه الحماسة التى لقيه بها أهل لندن بأن يضرب ضربة ، فخطا خطوة جريئة ود كثير من أنصاره أنفسهم لو أنه لم يخطها ، وذلك أنه وجه فى سنة ١٦٤٢ إلى خمسة من أعضاء البرلمان على رأسهم بم تهمة الخيانة العظمى ، وبعد يومين ذهب إلى البرلمان بنفسه على رأس قوة من حرسه وقفت عند بابه شاكية السلاح وطرق شارل الباب ودخل القاعة ليقبض على الأعضاء الخمسة ، ونهض النواب وقوفا وحسروا القبعات عن رؤوسهم ، واتجه الملك إلى منصة الرئيس فخر أمامه على ركبتيه وساد الصمت فلا يسمع إلا همس ، ودار الملك بعينيه يطلب الأعضاء فلم يتبين فى الصفوف منهم أحدا فقد نما إليهم ما اعتزمه الملك قبل حضوره بدقائق ففروا فسأل عنهم الرئيس فأنكر معرفته متى حضروا ومتى انصرفوا ، ونظر الملك إليه نظرة شديدة ثم خرج هادىء الخطى يعلن إلى حرسه أن قد « طارت الطيور الخمسة » .

***

وتسامعت لندن بما كان من أمر الملك فهبت المدينة التى لقيته بحفاوتها منذ قليل تدافع عن النواب ، واشتدت حماسة الناس ، وصمموا على أن يعود الأعضاء إلى مجلسهم فى مظاهرة كبرى وأعدت الزينات فى الشوارع وعلى صفحة النهر فى القوارب ، وكان لا بد أن تمر المظاهرة بقصر الملك فلم يطق الملك أن تقع عيناه عليها أو تسمع أذناه ضجيجها فترك المدينة .

وأخذ البرلمان يعد العدة للدفاع عن كيانه ، وأعد الملك عدته ليسحق بها البرلمان ومن يظاهره من الناس ، واندلعت نيران الحرب الأهلية التى انتهت بهزيمة شارل بعد أن دارت رحاها أكثر من أربع سنوات

(يتبع) الخفيف

حرفة الأدب

للأستاذ عباس حسان خضر

ألمتُ فى مقال « نظرات فى أدب المتأخرين » المنشور فى عدد مضى من « الرسالة »[1] بحرفة الأدب إلماماً وجيزاً . وقد رأيت أن أجيل القلم فى نواح من هذا الموضوع أوجزت القول فى بعضها بالمقال السابق ، ثم رأيت أنها تحتاج إلى شىء من البسط ، والنواحى الأخرى جال بها الفكر بعد .

قلت فى ذلك المقال : « وكثيرا ما حاق البلاء بالمشتغلين بالأدب لما شغلهم عن تدبير أمرهم ودفع ما نزل بهم ، حتى عدت حرفة الأدب مجلبة للبؤس وشؤما على من أدركته » .

فقد سارت كلة « أدركته حرفة الأدب » مسير المثل ، تقال فى كل أديب يناله شر ، وعند كل حالة يُمنى فيها بالخيبة والإخفاق . وكل أمر يقترن بالمحن والرزايا معدود فى المشئمات ، مرمى بجرائره دون نظر إلى الملابسات ؛ فالأديب إنسان له حاسة سادسة إلى حواسه الخمس ، هى طبيعته الفنية التى تستعمل الحواس الأخرى فى إحساسها بنواحى الحياة إحساساً ينفرد به الأديب كما ينفرد ببيان لا يتأتى لغيره من سائر الناس ، وهو بفنه هذا مشغول ، مستهلك جل قواه ، مصروف عن مقومات حياته وضرورات عيشه ، فإذا مسه ضر عُدّ أدبه شؤما وقيل : « أدركته حرفة الأدب » .

فلست أرى الشؤم من واقع الأمور ، وإنما هو حالة نفسية تنشأ عن اقتناع بأن المتشاؤم منه يجلب الشر والأذى ، ومن مقتضيات هذه الحالة تهيب المتطير منه والإعراض عنه أو الإقبال عليه مع الكره وتوقع الشر ، وكأن المتطير يستدعى بذلك ما يخشاه ، وكأنه يهيىء نفسه ليكون مهبطا له ؛ فتستجيب له النوائب وتنزل بساحته الكوارث وقد أعد لها .

ولست أرى بأسا على من ينحى عنه خاطر التشاؤم ولايدع له إلى نفسه سبيلا ؛ وقد اقتنع بذلك ابن الرومى (وهو رأس المتشائمين والقائل : الفأل لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدثان) لما أنشده أحد الشعراء وقد علم أنه يتطير :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه ... بتفريق ما بينى وبين الحبائب
رجعت على نفسى فوطنتها على ... ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها ... فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه ... وكن حذرا من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطرح ... تطير دار أو تفاؤل صاحب

راقت هذه الأبيات ابن الرومى ، وتأثر بها ، فحلف ألا يتطير أبدا « من هذا ولا من ذاك » وأومأ إلى جاره الأعور ، وكان يتشاءم منه . فقال له أحد الحاضرين : « وهذا الخاطر من التطير » فهو وإن كان اقتنع رأيه بفساد مذهب التطير فقد غلبته طبيعته فأخطرت له التطير وهو يحلف ألا يتطير !

على أننى أعود من هذا لأشاطرك ما لا بد أنه يجول بذهنك وهو أن الأدب لم يكن دائما قرينا للبؤس والحرمان ، وليس كل أديب كيعقوب الخزيمى القائل :

ما ازددت فى أدبى حرفاً أسر به ... إلا تزيدت حرفاً تحته شوم

ويخطر لك هذا لأنك تعلم أن الأدب نفع ورفع كثيرين ، فأنالهم المال ، وأبلغهم المناصب . وقد اختلفت حظوظ الأدباء من حيث انتفاعهم بأدبهم أو (إدراك الحرفة إياهم) باختلاف أسباب ، بعضها من ذات أنفسهم ، وبعضها خارج عن ذواتهم؛ فالنوع الأول كاباء الأديب واستنكافه أن يسلك مسلكا يراه غير لائق ، وليس فى المجتمع الذى يعيش فيه غيره من طرق الانتفاع بالأدب ، على حين لا يتحرج أديب آخر من ذلك ؛ أو أن يكون الأديب واسع الحيلة أو ضيقها ، أو حسن التدبير أو سيئه . والنوع الثانى من تلك الأسباب كظروف الزمان والمكان ، فهذه دولة يشجع رجالها الأدباء ، على مختلف بواعث التشجيع ، وبمختلف وسائله ؛ وتلك أخرى يحتجن أصحابها البر عن الأدباء ، أيّاً كانت أسباب هذا الاحتجان . وقد لا يكون الأديب بحاجة إلى الانتفاع بأدبه ، لأن له من تراثه أو كسبه من طرق أخرى ما يغنيه عن ذلك ، فيتنقل بين زهر الآداب ، ويغرد على أفنانها لا لشىء إلا ليرضى حاجة نفسه ، ويمكن (حاسته السادسة) من القيام بوظيفتها .

(1) العدد ٦٧١ الصادر فى ١٣ ــ ٥ ــ ١٩٤٦

وبالطبع كانت تروج كلمة « أدركته حرفة الأدب » كلما توافرت معوِّقات الاكتساب ، وأنت تراها قد قلت فى عصرنا هذا ، فإن التأليف والصحافة قد أصبحا سوقا نافقة للكتاب وخاصة المعروفين منهم لدى جمهور القراء ، وقد ربح بعضهم فى السنوات الأخيرة ما يعد من جملة أسباب « التضخم النقدى » ومما يؤسف له أن هذا الربح الوفير قد أغرى الكثيرين بكثرة الإنتاج التى لا تتم إلا باللهوجة والسلق ، ولا سيما سلق البقول التى تجمع من حقول الأسفار ، فتصنف المؤلفات كما تصنف (شربة الخضار) كأن الأذواق الأدبية قد اعتلت ، فهم يصنعون لها هذا اللون من الحساء ... !

وقد عمد مديرو بعض المجلات الشعبية إلى بعض الكبار من الكتاب يستكتبونهم بأجور مغرية ، ومفهوم أن أصحاب هذه المجلات يقصدون ترويجها أو ازدياد رواجها بأسماء المشهورين من الأدباء ، ولكن بعض هؤلاء الكتاب الفحول أسفوا فى كتاباتهم لأنهم قصدوا إلى الدنو من ذهن القارىء العادى ، وطلبوا طرائف الموضوعات فلم يوفقوا ، وتكلفوا الظرف ومسايرة روح تلك المجلات ؛ وذلك ليس فى طبعهم ، فجاء إنتاجهم فى هذا المضمار بائخاً لا غناء فيه .

وأن تدرك حرفة الأدب هؤلاء ، وأولئك خير من إفساد السوق الأدبية بردىء المنتجات ، وإفساد السوق الاقتصادية بتضخم النقد واستمرار الغلاء .

وإن من حق الكتاب الناضجين — بلا شك — أن يستثمروا فنهم ويجنوا ثمرته ، ولذلك أثره فى حفز الهمم وشحذ القرائح ، ولكن من حق الأدب ومن حق « مستهلكيه » إجادة الإنتاج وألا يزاول الكاتب من أنواع الكتابة إلا ما يحسنه ، وإذا كانت المصانع المشهورة تحرص على جودة مصنوعاتها لأنها تحمل أسماءها ، أفلا يجدر بهؤلاء الكتاب المشهورين أن يتعهدوا أسماءهم بالجلاء والصقل ؟

أما الشعراء فلم يعد لهم سبيل لائق بكرامة الأدب فى العصر الحديث إلى الاكتساب من فنهم ، وكم كان ظريفاً ذلك الشاعر — وهو من أساتذة اللغة العربية — الذى قال : إننى أتكسب بالشعر ولكن لا بشعرى أنا وإنما بألفية ابن مالك !

ومن أدركتهم حرفة الأدب فى عصرنا أفراد معروفون بالانتحال ، ينشئون المقال أو الخطبة أو القصيدة أو الكتاب ، وينحلونه من لم تدركهم الحرفة لقاء قروش أو جنيهات معدودات فيتسلق هؤلاء المجدودون أولئك الحرفاء ، لأنهم لا سيقان لهم فى الأدب يقومون عليها . وهؤلاء وأولئك يرتكبون التدليس والتزوير فى الأدب ، حتى ليصح أن يقال إن الأدب أدركته حرفتهم ! فنكبته بهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

ونخلص من كل ذلك إلى ما قررناه وهو أن الأدب لم يكن دائما مجلبة للشقاء والحرمان ، بل كثيرا ما كان سببا إلى النعمة والرفاهة ، فلا يصح أن نقرنه بالشؤم ، لأنه يتخلف عنه ، وما بالذات لا يتخلف ، كما يقول الفلاسفة .

على أن فن الأدب نفسه متعة ؛ فإن لم يصل به صاحبه إلى الأعراض الأخرى فحسبه إمتاع فنه والحياة الرفيعة التى يضطرب فيها بفكره وصفاء روحه ، والله المستعان .

عباس حسان خضر

الشرق كما يراه الغرب :

الصـــين الجديدة

للاستاذ أحمد أبو زيد

(تتمة ما نشر في العدد الماضى)

ليست الديمقراطية مجرد نظام صورى من نظم الحكم تفرضه الدولة على رعاياها وتنتحله لسياسة أمورهم ؛ بل الديمقراطية شيء أبعد من ذلك ، إذ أنها تعتمد فى أصلها على مزاج الشعب ذاته وعلى طبيعته وعلى مدى استعداده لتلقى ذلك النظام وقبوله ؛ أو بقول آخر يتوقف نجاح الديمقراطية على مدى رغبة الشعب وميله إلى الاتحاد والتعاون والتضامن فيما بينهم ، وعلى مقدار قابليته لتأليف الجماعات التعاونية المختلفة ؛ فحيث يكون الناس أقدر على التضامن والتعاون فيما بينهم بروح سمحة يكون الأمل فى قيام الديمقراطية كبيرا . ومن هنا تنتقل السيدة جالبريت إلى دراسة الحركات التعاونية فى الصين لترى مدى نجاحها ... وهى تعتقد أن الصينيين يميلون بطبعهم إلى التعاون والتآزر ؛ فقد ظهرت منذ أقدم العصور أنواع شتى من الزمر والهيئات والجمعيات التى تقوم فى أساسها على التعاون مثل جماعات العائلات (ويتألف كل منها من مائة عائلة) وغيرها . فالهيئات التعاونية نشأت إذن فى الصين منذ أمد بعيد واتخذت صورا مختلفة وأغراضا متفاوتة أشد التفاوت . وقد قامت الحكومة الصينية فى عام ١٩٣٥ بإحصاء عام لحركات التعاون فزادت الجمعيات هناك على مائة ألف جمعية تعاونية ، ولا تزال الحكومة المركزية تولى حركة التعاون جانبا كبيرا من اهتمامها .

وقد خطت الحركة التعاونية فى الصين خطوة جبارة منذ عام ١٩٣٨ ، بعد ظهور جمعيات التعاون الصينية للصناعة : Chinese Industrial Coperativs وما لاقته من نجاح واسع سريع . وقد انبثقت فكرة هذه التعاونيات فى أذهان بعض الصينيين ممن لهم سابق خبرة بالتعاون لأول مرة فى أغسطس من عام ١٩٣٨ ، إذ أدركوا أنه لا مندوحة لهم — أمام التوغل اليابانى — عن إعادة تنظيم موارد الصين واستخدام كل القوى فيها حتى يمكن تعويض ما فقدته البلاد من المراكز الصناعية الرئيسية التى دمرتها الحرب . وبدأت تلك الجماعة من الخبراء عملها بتقسيم الصين إلى مناطق ثلاث ؛ فالمنطقة الأولى أزالوا منها كل وسائل الانتاج وجميع المصانع حتى لا تقع فى أيدى الأعداء ، وخصصوا المنطقة الثانية لقيام بعض الصناعات الخفيفة التى يمكن نقلها بسهولة وسرعة إذا حدث ما يستدعى ذلك . أما المنطقة الثالثة — وهى فى وسط الصين حيث تكون بعيدة عن متناول الأعداء — فقد تركزت فيها كل الثروة الصناعية لإنتاج ضروريات الحرب . وقد نتج عن ذلك التنظيم الجديد لمواجهة حاجات الحرب وأخطارها أن انضم كثير من المصانع بعضها لبعض واندمجت معا وبذلك أمكن إيجاد تعاونيات لصنع الملابس الصوفية والزجاج ودبغ الجلود وتكرير السكر والطباعة وغير ذلك . ولما كانت الصين تنقصها الأيدى العاملة وخاصة بسبب الحرب التى تستنفد معظم العمال المدربين فإن الصناعة الآن تعود على المهاجرين المدنيين وعلى الجنود الجرحى ؛ ولا شك أن هؤلاء تنقصهم الخبرة والدربة ولذلك بنيت مدارس تعاونية لتمرينهم على العمل ، كما أنشئت لهم وحدات علاجية تعاونية ؛ بل وأفضل من ذلك إنشاء مدارس تعاونية لتعليم أطفالهم على نفقة أصحاب المصانع . وهكذا تنتهى الكاتبة إلى أن هذه الحركة التى أظهرتها ضرورة مواجهة أخطار الحرب قد عادت على الصين بخير عميم ، وهى ترى أن هذه الحركة سوف تؤدى فى نهاية الأمر — إن لم تتدخل الحكومة فيها وإن لم تدب الخلافات ويستبد الطمع مرة أخرى بأصحاب المصانع — إلى نوع من الاشتراكية الصحيحة الصالحة .

ولكن مهما يكن من أمر التقدم الصناعى فى الصين ومستقبله ، فإن مشكلة الصين الأساسية لا تزال — ولن تزال — تنحصر فى الميدان الزراعى . فالصين بلد زراعى قبل كل شيء ، وسوف تظل هكذا أبدا ، والصينيون أنفسهم يعرفون ذلك ، ولذا ظهرت حركة جديدة قوية هى بمثابة رد فعل لانصراف الناس إلى الاشتغال بصناعة الحرب ، وهى تدعو إلى العودة إلى الأرض التى تقوم فيها حياة الصين كلها . والحكومة ذاتها

لا تألو جهدا فى العمل على تحسين حال الزراعة وحال الفلاح ؛ وهى تنفق فى ذلك عن سخاء حتى فى أيام الحرب ؛ وترجو أن يعود عليها ذلك بالخير . وقد أنشأت الحكومة مدارس زراعية تجريبية ومحطات للبحث — بلغ عددها الآن خمسا وعشرين مدرسة ومحطة — وكل غرضها هو إقامة التجارب لتحسين إنتاج الأرز والقمح والشعير وحفظها من الأوبئة والآفات . كذلك تعمل الحكومة — عن طريق الجمعيات التعاونية الزراعية — على تحسين حال الفلاح ورفع مستوى المعيشة فى القرى على العموم .

ولكن كل تلك الجهود لم تأت حتى الآن بالثمرات المنشودة ... ولعل ذلك يرجع أولا وأخيرا إلى طبيعة الفلاح نفسه ؛ فالفلاح الصينى - كأى فلاح آخر — محافظ بطبعه على القديم وعلى الوسائل التى اعتادها وورثها عن آبائه ، فليس من الأمور السهلة الميسرة إقناع الفلاح بأن ينبذ وسائله العتيقة وأن يأخذ بتلك الوسائل والآلات الحديثة التى تحاول الجمعيات التعاونية ومدارس التدريب نشرها بين الفلاحين ؛ وإن كان ذلك لا يمنع من أنه سوف يجىء اليوم — قرب أو بعد — الذى تحل فيه تلك الوسائل الحديثة محل الوسائل القديمة التى ترجع لأربعة آلاف عام مضت .

***

ولكن لا يمكن للصين ولا غيرها من الأمم أن تجنى ثمار ما تقوم به من الإصلاحات المختلفة وأن تصل إلى ما تبغيه لنفسها من حياة سعيدة راقية ما دام شعبها يرسف فى أغلال الجهل ، فكل حركة يراد بها الإصلاح ، وكل تحسين يدخله المصلحون على أى مظهر من مظاهر الحياة سوف يكون عبثا ، ولن يتأصل فى الدولة ما لم يتعلم الشعب أولا ؛ فمحاربة الجهل والقضاء عليه ونشر التعليم بين الناس هو أول ما ينبغى للدولة أن تأخذ نفسها به إن أرادت لنفسها رقيا . ولقد شعرت الصين بما يتهددها من جراء الجهل الفاشى بين الناس ، فاتخذت وسائل كثيرة شتى للقضاء عليه ، وقد أفلح بعض تلك الوسائل والبعض الآخر لم يفد شيئا مذكورا . ولا شك أن القضاء على الجهل فى بلد واسع كثير السكان كالصين يعتبر من أشق المهام ؛ ولكن الدولة بذلت مع ذلك الكثير من الجهد والمال لتحقيق تلك الغاية . ومن أشيع الوسائل المتبعة فى الصين لذلك تنظيم سلسلة من الدروس القصيرة فى المدن تجبر الدولة الناس على الاستماع إليها ؛ إلا أن هذه الدروس القصيرة تنتهى سريعا ، وهى وإن كانت تعلم الناس بعض العلم وبعض القراءة إلا أن الكاتبة تشك فى أن لها قيمة جدية لأن ما يتعلمه الإنسان سريعا دون أن يبذل فيه جهدا كبيرا ينساه سريعا أيضا ...

وفى الصين مشروع ضخم الآن يرمى إلى إنشاء مدرسة واحدة لكل جماعة تتألف من مائة عائلة ، وذلك فى بحر خمس سنوات ؛ وسوف تقوم تلك المدارس بتعليم الصغار والكبار على السواء — ما بين الخامسة عشرة والخامسة والأربعين — القراءة والكتابة . والأمل أن يفلح هذا المشروع فى القضاء على الجهل تماما فى الصين .

ولكن من ناحية أخرى نجد فى غرب الصين حركة فكرية ناهضة تتمشى معها ثورة صناعية قوية يقوم بهما الشباب المتعلم المثقف . وتشبه السيدة المؤلفة هذه الحركة الناشئة بحركة النهضة الأوربية (الرينسانس) وقد كان الدافع الأول عليها هو الحرب اليابانية أيضا ؛ فقد اضطرت الجامعات من جراء الغزو اليابانى للصين أن تتقهقر من أماكنها فى المدن الكبرى إلى المدن الصغيرة فى غرب الصين تاركة وراءها كل آلاتها الفنية ومعامل الأبحاث التى كان الطلبة يتمرنون فيها ، ومكتباتها الزاخرة بالكتب ، وعلى ذلك كان يتعين على الطلبة أن يعتمدوا فى حياتهم العلمية الجديدة على مجهوداتهم الخاصة ، وقد أحدث ذلك بلا ريب انقلابا هائلا فى طرق التعليم الجامعى ومناهجه ومادته أيضا ، وبدلا من أن يدرس الطلبة تلك المعلومات التى كانوا يقرأون عنها فى الكتب الأوربية ، وبدلا من أن يقوموا بتجاربهم العلمية فى معاملهم المدرسية الصغيرة نزلوا إلى ميدان الحياة والواقع وذهبوا للعمل والدراسة فى المصانع والمعامل والحقول ، وبذلك أصبحت المناهج أقرب إلى الواقع وترمى إلى أهداف ونتائج واقعية . ولا ريب أن الصين سوف تفيد كثيرا من جراء هذه النزعة الواقعية العملية فى التعليم ، وسوف يساعدها ذلك إلى حد كبير على حل مشكلاتها .

إن الصين تبذل الآن بغير شك مجهودات جبارة فى سبيل

تصحيح كتاب «البخلاء»

للدكتور داود الجلبي

قرأت باهتمام فى هذه المجلة فى أعدادها (٦٦٧ — ٦٦٩) المقالة التى عنى فيها (أستاذ عظيم) بنقد كتاب البخلاء للجاحظ طبعة وزارة المعارف بمصر . وسبب اهتمامى أنى حاولت قبلا تصحيح الكتاب المذكور المطبوع فى دمشق سنة ١٣٥٧ هـ باعتناء علماء من أبناء الشام ، ونشرت تصحيحى فى مجلة المجمع العلمى العربى بعنوان : (تصحيح أغلاط كتاب البخلاء) فى الجزء الأول والثانى المزدوج ، وفى أربعة أجزاء مزدوجة أخرى تليه من المجلد العشرين مع تصحيح واستدراك فى الجزء الاول والثانى المزدوج من المجلد الحادى والعشرين . فأردت أن أرى هل تنازل الأستاذ العظيم إلى مطالعة تصحيحى ، وما الذى جاء فى تصحيحى موافقاً لتصحيحه ، وما الذى خالفه . وبعد المطالعة ظهر لى أن الأستاذ لم يعلم بوجود تصحيحى ، ووجدته عظيما حقا فى انتقاده وآرائه الصائبة ، وعددت نفسى سعيداً لاتفاق التصحيحين فى الغالب . ولست فى صدد تعداد ما جاء موافقاً ، وما جاء مبايناً أتركه لحكم من أراد الاطلاع والتتبع .

ولكن لا بد من ذكر بضع فقرات وردت فى كلام الأستاذ العظيم تحتمل النظر فيها ، فأقول :

جاء فى الرسالة فى عددها الـ ٦٦٩ ص ٤٧٥ كلمتا (الفرد) و (الجوهرى) وقال الأستاذ : إن الفرد أصلها (العرض) والجوهرى أصلها (الجوهر) . أما أنا فقد كنت صححت الفرد بالـ (قصَرة) سقطت منها الصاد وحرفت وهى ما يبقى فى المنخل بعد الانتخال . وصححت الجوهرى بالـ (حوارى) وهو لب الدقيق الأبيض الخالص . وتصحيحى هذا ينطبق على القصة دون الالتجاء إلى المجاز أو الاستعارة أو التشبيه .

وفى الصفحة عينها استنكر الأستاذ كلمة انفاق ، وأراد تصحيحها بأنفاط جمع نفط ، ولكن الكلام كان على الزيت والسمن ، أى على الأدهان المأكولة ، والنفط ليس منها . أراد الجاحظ بالانفاق زيت الإنفاق ، وهو الزيت المعتصر من الزيتون الفج ، ويسمى بالزيت الركابى أيضا . جاء فى التاج فى مادة (فوق) : الانفاق وهو الغض من الزيت . وجاء فيه فى مستدرك مادة (نفق) : وزيت أنفاق : غض . وجاء فى مادة (ركب) : ويقال زيت ركابى لأنه يحمل من الشام على ظهور

فى سبيل الاتجاه نحو مثال جديد ونحو حياة جديدة ، ومع أن السيدة جالبريت تعترف بأن الصين قد أفلحت فى تحقيق جانب كبير مما رسمته لنفسها إلا أنها مع ذلك تحتاط ولا تبالغ فى قيمة الإصلاحات التى تمت بالفعل حتى الآن . وهى ترى أن كثيرا من الوسائل والطرق التى تتبعها الصين وسائل عقيمة وطرق غير مجدية . يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الأعمال التى أنجزت بالفعل وقعت فى أيدى الأعداء فخربوها ، كما أن سكان المقاطعات الصينية التى وقعت تحت سطوة اليابانيين قد تدهوروا ورجعوا إلى حالة من الانحطاط لا تبشر بخير ؛ وذلك بتأثير ذل العبودية التى فرضها المنتصرون عليهم من ناحية ، وبتأثير الأفيون والمخدرات الفتاكة التى كان اليابانيون يوزعونها عليهم بسخاء من ناحية أخرى . فقيام الحرب اليابانية ولو أنه كان أهم الدوافع التى دفعت الصين إلى التقدم وإلى التطلع إلى حياة أفضل من حياتهم التى حيوها آلاف السنين إلا أن الحرب كانت هى أيضا العقبة الكؤود فى سبيل استكمال تلك الحياة والوصول إليها ... ولقد انتصرت الصين أخيرا على غزاتها ، ولكنها وقعت فى حرب أهلية لا يعرف بالضبط مدى تأثيرها وإن كان لا شك فى أن عاقبتها تكون وخيمة . ثم إن مستقبل الصين ليس فى يدها وحدها ، فهو لذلك لا يزال متقلقلا غير ثابت تتقاذفه كثير من التيارات ، ولكن الصين فى أحلك ساعاتها كانت تتمسك بأهداب الأمل وكانت تؤمن بنفسها وبمستقبلها ، ودفعها ذلك الإيمان إلى العمل وإلى الإصلاح وهى مشغولة بالحرب . ولعل ذلك الإيمان الراسخ يساعدها مرة أخرى على التغلب على ما تلاقيه فى طريقها من صعاب . لقد قال كونفشيوس حكيم الصين « إن شعبا يعيش بلا إيمان لا يمكن أن يعيش » .

أحمد أبو زيد

الإبل . اهـ . وقال ابن سينا فى الجزء الأول من القانون فى مادة (زيتون) : وقد يعتصر من الزيتون الفج الزيت ، وقد يعتصر من الزيتون المدرك . وزيت الانفاق هو المعتصر من الفج . اهـ . وقال داود الانطاكى فى الجزء الأول من كتابه تذكرة أولى الألباب : (زيت) هو الدهن المعتصر من الزيتون ، فإن أخذ أول ما خضب بالسواد ودق ناعماً وكب على الماء الحار ومرس حتى يخرج فوق الماء فهو المغسول ؛ ويسمى زيت أنفاق . وإن عصر بعد نضج الثمرة وطبخ بالنار بعد طحنه وعصره بمعاصير الزيت فهو الزيت العذب . اهـ . وفى بحر الجواهر لمحمد بن يوسف الطبيب الهروى (طبعة الهند على الحجر) : والزيت قد يعصر من الزيتون المدرك ، وزيت الانفاق هو المعتصر من الفج ، وإنما سمى به لأنه يتخذ للنفقة ، ويقال له الركابى أيضا لأنه كان يحمل على الركاب أى الإبل من الشام إلى العراق ، كذا قال بعض الفضلاء . وقال مولانا نفيس : نقل أبو ريحان فى الصيدنة عن ماسرجويه أن كل ثمر يكون غضاً نضيراً يقول له أهل الروم انفاقين ، والانفاق مشتق منه . اهـ . أقول إن قول ماسرجويه هو الصحيح ، فإن الكلمة معربة من Omphax اليونانية ، ويريدون به كل ثمر فج ، ومنه الحصرم . وجاء فى لاروس الكبير أن Omphacine مشتقة من امفاكس المذكورة وجاء فى قاموس ليتره الطبى ، فى مادة Huile قوله :

Huile omphacine, huile amére tirée des olives encore vertes وترجمته : زيت الانفاق زيت معتصر من الزيتون الذى لا يزال غضاً . اهـ .

أما زيت الماء ، فالمفهوم أنه المعتصر من الزيتون المدرك ، سمى به فى مقابلة الركابى ، لأنه كان يجلب إلى البصرة بالسفن نهراً .

وأما الأبيات الواردة فى ص ٤٧٦ من الرسالة وهى :

تهنا لثعلبة ابن قيس جفنة   يأوى إليها فى الشتاء الجوّع
ومذانب لا تستعار وخيمة   سوداء عيب نسيجها لا يرقع
فكأنما فيها المذانب حلقة   ودم الدلاء على دلوج يترع

فكنت قد صححت (ودم) بـ (وذم) . وأرى الآن أن الأبيات تحتاج إلى تصحيحات أخرى كى يظهر لها معنى مقبول ؛ ففى البيت الأول تستبدل (فينا) بـ (تهنا) و (خيمة) (بجفنة) وفى الثانى تستبدل (جونة) (بخيمة) و (سخامها) (بنسيجها) و (لا يرفع) بـ (لا يرقع) ، وفى الثالث (تترع) (بيترع) ، و (ولوج) جمع ولاج وهو الولادى (بدلوج) ذلك أن الإنسان يبرد فى الشتاء فيحتاج إلى كن يقيه البرد وبخاصة إذا كان جائعا ، وهذا الكن فى البادية هو الخيمة لا الجفنة . قال الافوه الأودى هذه الأبيات مفاخراً . ولكن كيف يفخر الإنسان بخيمة سوداء لا ترقع خروقها . الصحيح أنها جونة . وأراد بالجونة القدر السوداء الظاهر ، لأنهم يفخرون بها لكونها دليلا على كثرة الطبخ بها . قال أحدهم يفخر بسواد قدره فى جملة أبيات :

بقدر كأن الليل سحمة قدرها   ترى الفيل فيها طاميا لم يقطّع

أراد بالفيل الجمل الضخم . وبعد هذه التصحيحات تكون الأبيات هكذا :

فينا لثعلبة ابن قيس خيمة   يأوى اليها فى الشتاء الجوّع
ومذانب لا تستعار وجونة   سوداء عيب سخامها لا يرفع
وكأنما فيها المذانب حلقة   وذم الدلاء على ولوج تترع

عبر عن سخام القدر بالعيب ، وهذا مدح فى معرض الذم ، كقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

وأما تصحيح الأستاذ العظيم كلمة العود بالفتح بالعُود بالضم فى البيت : المشرف العود فاكنافه ... الخ ، وقوله هو كناية عن ارتفاع قامته ماديا أو ارتفاع هامته معنويا ، فلا أدرى قامة من ، وهامة من قصد ، فى حين أن لا ذكر لرجل هناك . يجب تصحيح البيت هكذا : للشرف عوض المشرف ، واللام الأولى فى للشرف مفتوحة وهى للتأكيد ؛ والفرد عوض العود ؛ وجمران عوض حمران ، (كما فى طبعة دمشق) فالشرف هو الجبل ، والفرد وجمران وينصوب (جمعه يناصيب) أسماء جبال فى البادية ذكرها ياقوت فى معجم البلدان . والشاعر يقول فى امرأة بدوية أنه إذا وجدت منماً وضيقاً من زيد بن أيوب (ولعله كان حضريا) يكون خيراً لها أن تعود إلى منازلها التى ألفتها عند الجبال المذكورة . . .

ولقد أصاب الأستاذ بتصحيحه كلمة (كسجر) بـ (كسحر) فى البيت ، ونار كسجر العود ... الخ . كما أتى بآراء صائبة يشكر عليها فى مقالته .

(الموصل)   **الدكتور داود الجلبى**

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٤٦ — والمقصود حتفي

أنا ما بين عدوين هما قلبي وطرفي
ينظر الطرف ، ويهوى القلب والمقصود حتفي

٧٤٧ — عمك أبو سماك الأسدي

في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) :

قال جد كناسة : أتيت امرأة من بني أود لتكحلني من رمد كان أصابني فكحلتني ثم قالت : اضطجع قليلا حتى يدور الدواء في عينيك ، فاضطجعت ثم تمثلت بقول الشاعر :

امخترمي ريب المنون ولم أزر طبيب بني أود على النأي زينبا

فضحكت ثم قالت : أتدري فيمن قيل هذا الشعر ؟

قلت : لا .

قالت : فيّ (والله) قيل . وأنا زينب التي عناها وأنا طبيبة بني أود أفتدري من الشاعر :

قلت : لا .

قالت : عمك أبو سماك الأسدي .

٧٤٨ — والدهر لجة ماء

قال أبو القاسم خلف بن فرج السميسر :

الناس مثل حباب والدهر لجة ماء[1]
فعالم في طفو وعالم في انطفاء[2]

٧٤٩ — فشق أثوابه من الطرب

قال ابن دحية في المطرب : اجتاز الوزير أبو بلال يوما وبيده مجلد من صحيح مسلم بقصر بعض الملوك الأكابر وهو ينظر من بعض مناظره ومجلسه بخواص ندمائه حال ، وصوت المثاني والمثالث عال . فقال : أطلعوا لناهذا الفقيه ؛ فلما مثل بين يديه أمر بمناولته الكأس فتقبض متأففا والسلطان يستغرب ضحكا بما هجم عليه ، ويد الساقي ممدودة إليه . واتفق أن انشقت من ذاتها الزجاجة فظهر من السلطان التطير من ذلك فأنشد الفقيه مرتجلا :

ومجلس بالسرور مشتمل لم يخل فيه الزجاج من أدب
سرى باعطافه برنحه فشق أثوابه من الطرب

فسر السلطان وسرى عنه ، واستحسن من الفقيه ما بدا منه وأمر له بجائزة سنية .

٧٥٠ — علم أو أدب أو فائدة

نقش مأمون بن آدم على باب داره هذين البيتين :

إن كنت صاحب علم أو أخا أدب أو فيك فائدة فانزل ولا ترم[1]
وإن تكن صورة لا فيك فائدة ولا مؤانسة فارحل ولا تقم

٧٥١ — ويغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس

في صبح الأعشى : اعلم أن اللحن قد فشا في الناس والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالاعراب عيبا ، والنطق بالكلام الفصيح عيا والذي يقتضيه حال الزمان والجري على منهاج الناس أن يحافظ على الاعراب في القرآن الكريم والأحاديث النبوية وفي الشعر والكلام المسجوع وما يدون من الكلام ويكتب من المراسلات ونحوها ؛ ويغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس الدائر على ألسنتهم مما يتداولونه بينهم ، ويتحاورون به في مخاطبتهم ، وعلى ذلك جرت سنة الناس في الكلام منذ فسدت الألسنة .

٧٥٢ — فوجده كما قال

قال أبو الحسن المدائني : أصبح عبد الملك يوما في غداة باردة فتمثل قول الأخطل :

إذا اصطبح الفتى عنها ثلاثا بغير الماء حاول أن يطولا

---

(١) حباب الماء نفاخاته وفقاقيعه التي تطفو كأنها القوارير ، وهي اليماليل (التاج) .

(٢) طفا الشيء فوق الماء طفوا وطوا عام وعلا .

(١) رام يريم : برح ، لا رمت لا برحت وهو دعاء بالاقامة أي لا زلت مقيما

مشى قرشية لا شك فيهـا وأرخى من مآزره الفضولا

ثم قال كأنى أنظر إليه الساعة بحلل الازار مستقبل الشمس فى حانوت من حوانيت دمشق ثم بعث رجلا يطلبه فوجده كما قال .

٧٥٣ — يا سدرة الوادى

قال أبو السعادات بن الشجرى :

هذى السدرة والغدير الطافح فاحفظ فؤادك إننى لك ناصح
يا سدرة الوادى الذى إن ضله الساري هداه نشره المتفاوح
هل عائد قبل الممات لمغرم عيش تقضى فى ظلالك صالح
ولقد مررنا بالعقيق وشاقنا فيه مراتع للمها ومسارح
ظللنا به نبكى فكم من مضمر وجدا أذاع هواه دمع سافح
يا صاحبى تأملا حييتما وسقى دياركما الملث الرائح
أدمى بدت لعيوننا أم ربرب أم خرد ، أكفالهن رواجح
كيف ارتجاع القلب من أسر الهوى
ومن الشقاوة أن يراض القارح

٧٥٤ — قل فى اهلاكه

قال رجل : كنا فى أملاك فلان .

فقال حكيم : لا تقل فى املاكه ، قل فى اهلاكه .

٧٥٥ — غنيمة

إذا كان الزمان زمان سوء فيوم صالح منه غنيمة

٧٥٦ — عمود الجمال ورداؤه وبرنسه

قالت امرأة لخالد بن صفوان : إنك لجميل يا أبا صفوان .

قال : وكيف تقولين هذا وما فى عمود الجمال ولا رداؤه ولا برنسه .

فقيل له ما عمود الجمال ؟

قال : الطول ولست بطويل ، ورداؤه البياض ولست بأبيض ، وبرنسه سواد الشعر وأنا أشمط ، ولكن قولى إنك لمليح ظريف .

٧٥٧ — وويل جيراننا كلهم

ذكر الخرائطى عن بعض العلويين قال :

بينما أنا عند الحسن بن هانىء وهو ينشد :

ويلى على سود العيون النهد الضمر البطون
الناطقات عن الضمير لنا بألسنة العيون

فوقف عليه اعرابى ومعه ابن فقال : أعد على فأعاد عليه .

فقال : يا ابن أخى ويلك أنت وحدك من هذا ؟ ويلى أنا وأنت وويل ابنى هذا ، وويل هذه الجماعة ، وويل جيراننا كلهم !

٧٥٨ — كيف كنت وكيف كانا

نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب ، وهو مخمور فقال له :

عيناك قد حكتا مبيتك كيف كنت وكيف كانا
ولرب عين قد أرتك مبيت صاحبها عيانا

٧٥٩ — هذه بضاعتنا ردت إلينا

قال ابن حجة : كان قاضى القضاة علاء الدين بن أبى البقاء قد عزل من وظيفة قضاء القضاة بدمشق المحروسة فعاد إلى وظيفته وألبس التشريف من قلعة دمشق وحضر إلى الجامع الأموى على العادة (ومعه أخوه بدر الدين قاضى القضاة بالديار المصرية) ، فاستفتح الشيخ معين الدين الضرير المقرىء وقرأ : « قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا » الخ الآية فحصل بالجامع الأموى ترنم صفق له النسر بجناحيه

٧٦٠ — السكون الباكى

فى (لوعة الشاكى) :

كل من فى الوجود يشكو فراقا من حبيب أو لوعة من غرام
فصليل الرعود أنة حزن وانسكاب الغيوث دمع الغمام
تتعرى الغصون من حلل الزهر فتبكى عليه ورق الحمام
وعيون النوار خوف المنايا فى رباها لم تكتحل بمنام
وإذا مال للغرور قضيب ضحك الزهر منه فى الأكمام

من وحي المرأة :

وســـواس . . . !

للاستاذ عبد الرحمن صدقي

يعاودني الوسواسُ ، ياطولَ وسواسي
إذا جدَّ ذِكرٌ للدواء وللآسي
يساورني الوســواسُ أني مقصِّرٌ
ولولاه لم تُمسي رهينـــةَ أرماس
عـذابيَ نطسٌ في الأُساة جهلته
كأنَّ الأُولى آسوكِ ليسوا بأنطاس
وثَمَّ دواءٌ مُحْدَثٌ كنتُ أرتجي
عجائبه لو أمهل الزمنُ القاسي
أُجرِّد من نفسي لنفسي مُخاصما
وحبُّكِ في النفسَين كالجبل الراسي
فيا هول حربٍ كالجبال صِدامُها
تداعى لها ركني ، وشاب لها راسي
وما ذاك إلا أن حبَّكِ فوق ما
بذلتُ وما استقضيته سائرَ الناس
ولو أنه صحَّتْ لعُمْرِك وُصْـــلةٌ
وَصَلْتُكِ من عمري وجُدْتُ بأنفاسي

محنة مضـــاعفة : . . . !

ربي ! أراني شـــقيًّا مشرَّداً في فضـــاكْ
أكاد من فرط يأسي أشكو إليك قضاك
يُطيف بالنفس شـكٌّ كالنـــارِ نارِ غضاك
عدمتُ بالأمس زوجي فلا عدمتُ رضـــاك

عبد الرحمن صدقي

زهر الربيع . . . ! (*)

للاستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي

يا طيورَ الرَّوض غنينا النشيدا وانثري فوق الرُّبى زهر الربيع
واهتِـفي باللحن ريان جديدا واسبحي في ذلك الأفق الوسيع

***

أيقظي الفجرَ نديًّا باسما يتهادى من وراء الأفق
رسل النـور عليه حالمـا ويحييه بصبح ألِق

***

رددي في الروضِ ألحانَ الصباح وانهَلي الألحان من زهر الربيع
واسكبيها بين أنفاس الأقاحي قبلةً تمسح أنداء الدموع

***

داعب الظلُّ شعاعَ الجدولِ وعلى شطَّيه قام السامرُ
ها هنا دنيا الهـوى والغزل صفَّق الموج ، وهام الشاعر

***

إيه يا « زهر الربيع » الباكر يا متاع القلب ، يا أنس الأماني
جدِّدِ العمرَ لهـذا الطائرِ ، يملأ الروضَ بأصداء الأغاني

***

كانت اللُّقيا حنانًا وحنينا وطبيباً بين دائي ودوائي
يشهد الرَّعشة والداء الدفينا يا طبيبي ، أترى آن شفائي ؟

***

هاهنا الدَّاءُ وفي « زهر الربيع » لي آسٍ من جراحي وذُنوبي
ما له ينْسى أنيني ودُموعي ويُولِّي هارباً غير مجيبْ

***

علَّهُ آتٍ ، فحسْبي ألمُ صحَّ في لُقياه عندي أملُ
طابَ يا « زهر الربيع » الحلم وعلى خديك يحلو القُبَل

***

فاسقنيها في ربيع الزمن خمرة من ريِّها العذبِ أُوامي
علَّني أنسى شتاء المحَن وتندَّى الفرحة الكبرى هُيامي

أحمد عبد المجيد الغزالي

(*) من ديوان « زهر الربيع » يظهر في هذا الربيع



الرسالة وإصلاح الأزهر :

علمنا من لدُن عليم مسئول أن اقتراح « الرسالة » لحل مشكلة الأزهر قد وقع من الجهات الرسمية موقع التقدير والنظر . والنية معقودة على أن يسير الإصلاح الجديد فى طريق هذا المقترح حتى تتبوأ الجامعة الأزهرية مكانتها بين الجامعات الحديثة فتؤدى رسالتها الدينية والأدبية على النحو الذى يقتضيه تطور العالم وتقدم العلم .

كفل المال وبالمال :

فى الجزء الأخير من (مجلة المجمع العلمى العربى الغراء) مقالة عنوانها : (التنبيه والتوجيه) خطأ فيها الأديب اللغوى الفاضل الدكتور مصطفى جواد عبارة كانت قد وردت فى مجلة المجمع وهى « ولنا ما يكفل إعادة النظر[1] » قال :

« ويكفل من الكفالة يتعدى بالباء لا بنفسه . وفى أساس البلاغة (وهو كفيل بنفسه وبماله ؛ وكفل عنه لغريمه بالمال وتكفل به) . فالصواب ما يكفل بإعادة النظر ، أما للانسان فيقال يكفله » .

كلام الأساس على العين والراس ، وكتاب جار الله هو فى الحقيقة فى المجاز ، وهو مصنف عبقرى منقطع القرين قد حدث على وضعه ووضع الكشاف عقيدة الرجل تؤيدها العربية — وللعقائد فوائد — فالكتابان من حسنات خصومنا المعتزلة ، ولكن الامام الزمخشرى لم يقل إنه أودع أساسه كل لفظة وتركيب . ورأينا الضعيف فيه أن جميع ما يحتويه هو حجة ، بيد أنه لا يستضعف أو يغلط ما خلا منه ، ورواه غيره من أئمة اللغة .

فى (لسان العرب) : « كفل المال وبالمال ضمنه » . وكلام اللسان — كما يلوح صحيح .

« السهمى »

(١) لم ينشر من المقالة إلا تخطئة هذه العبارة وقالت المجلة : (ينبعـ

الأعرابى وفهم العروض :

فى العدد الأخير من « الرسالة » روى الأستاذ الكبير النشاشيبى عن محاضرات الراغب ثلاثة أبيات منسوبة إلى أعرابى فى فن العروض . ولكن الزبيدى فى طبقاته قال ما خلاصته :

إن أبا مسلم مؤدب عبد الملك بن مروان كان قد نظر فى النحو فأعجبه ، بيد أنه لم يحسن التصريف فأنكره . وقد جلس معاذ الهراء يوماً يتكلم فى الصرف ، فسمع منه أبو مسلم كلاماً لم يعرفه ، فقام عن أصحاب النحو وقال :

قد كان أخذهم فى النحو يعجبنى ... حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاماً لست أفهمه ... كأنه زجل الغربان والبوم
تركت نحوهم والله يعصمنى ... من التقحم فى تلك الجرائيم !

والرواية تختلف عما فى المحاضرات قليلا . وقد أجاب أبا مسلم معاذ بقوله :

عالجتها أمرد حتى إذا ... شبت ولم تحسن أبا جادها
سميت من يعرفها جاهلا ... يصدرها من بعد إيرادها
سهل منها كل مستصعب ... طود علا القرن من أطوادها

وبعد ، فما رأى الأستاذ الكبير ، أى العلمين أجدر بهذه الأبيات : الصرف أم العروض ؟ !

(كلية اللغة العربية) أحمد ابراهيم الغرباوى

الأدب والمجتمع :

عرض الأستاذ الفاضل الكردانى فى مقاله « الأدب والمجتمع » لموضوع الفن لذات الفن ، والفن لخدمة المجتمع الذى كان نقطة نقاش بين الأستاذين أحمد بك أمين وتوفيق الحكيم على صفحات « الرسالة » منذ زمن .

ولكن نظرته كانت جديدة حينما ربط بين الأدب وبين النزعة الاشتراكية التى وجهت أكثر الكتاب إلى الوجهة الاجتماعية وصرفتهم عن الفن لذاته . وبذلك يكون الأستاذ الفاضل قد أضاف إلى موضوع الفن الرفيع شيئاً جديداً يشكر له ، ولفت الأنظار إلى السبب الرئيسى أو المباشر الذى حول الكتاب إلى الناحية الاجتماعية .

ثم يقول فى كلامه عن الإنتاج الأدبى وعلاقته بالأفراد :

« أليس المجتمع سوى مجموعة أفراد ؟ » ولكنى أقول له : إن علم الاجتماع ينظر إلى المجتمع على أنه وحدة لا تنقسم ، وجميع عناصره أو أعضائه لا يمكن أن توصف أو تفسر تفسيراً علمياً إلا إذا نظر إليها ككل واحد لا ينقسم . وعلى ذلك فليس من الضرورى إذا تناول الأديب وقائع خاصة أو أحداثاً شخصية فردية أن يكون ممثلا للجماعة ، بل إنه لم يزد فى هذه الحال على أن يكون ممثلا لنفسه ولنفسه فقط .

على أنى أسلك فى تفسير الأدب الرفيع مسلكا آخر غير الذى سلكه الأستاذ فأقول : إن الأدب ، سواء وصف أحداث المجتمع أو تناول أهواء الفرد ، هو أدب له قيمته . ولا يغض من شأنه ، أو ينقص من قيمته ، إلا عجزه عن التصوير الدقيق والتأثير البليغ .

ويقول الأستاذ فى آخر المقال تقريباً : « لا نعرف الفنان إلا خيراً ، ولا نعرف الفن إلا خيراً صرفاً كله » . وأكرر ما قلته أولا أن الأدب لا يكون غثاً إلا إذا جاء تصويره فاتراً ، وتأثيره على النفس واهناً . والشر فى الأدب لا يقلل من قيمته ، بل قد يكون من دواعى رفعته . ونضرب مثلا على ذلك أبا نواس فى الأدب العربى ، وبودلير فى الأدب الغربى؛ فهذا صوَّر فى شعره شهواته الجارفة وخمره وغزله بالمذكر ، وذلك أتى من ضروب تصوير اللذة البهيمية مارفعه إلى الذروة فى الفن . وكلاهما لم يخرج عن الشر فى صوره الأدبية فى الغالب .

جبريل حزام

قبور بعض آل البيت :

كتب الأستاذ أحمد أبو زيد مقالا قيما عنوانه « الموالد المصرية » فى العدد ٦٣٢ من « الرسالة » الغراء جاء فيه :

« وتعتبر القاهرة أسعد مدن مصر ، بل أسعد مدن العالم الإسلامى أجمع نظراً لكثرة ما تضمه من رفات الأشراف والأولياء من نسل النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهم . فالقاهرة فى ذلك لا يضارعها حتى مكة نفسها ، ففيها رأس الحسين ، ورأس ابنه زين العابدين ، ورفات فاطمة ، وسكينة ابنتى الحسين أيضاً الخ»

وهذا القول مخالف للواقع ، لأن الإمام زين العابدين قضى فى المدينة سنة أربع وتسعين أو خمس وتسعين أو تسع وتسعين على مختلف الروايات ، ودفن بالبقيع فى القبر الذى فيه عمه الحسن قال السيد محسن الأمين فى كتابه « المجالس السنية » :

« ... يقال إنه مات مسموماً ، سمه الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وقال الكفعمى : سمه هشام بن عبد الملك فى ملك أخيه الوليد ، فلما توفى غسله ولده الإمام محمد الباقر ، وأعانته على غسله أم ولده ، وحنطه وكفنه وصلى عليه ودفنه . قال سعيد بن المسيب : وشهد جنازته البر والفاجر، وأثنى عليه الصالح والطالح ، وانهال الناس يتبعونه حتى لم يبق أحد ودفن فى البقيع بالمدينة الخ ج ٥ ص ٢٧١ »

أما سكينة بنت الحسين ، فإنها توفيت بالمدينة ودفنت فيها عام سبعة عشر ومائة ، وقد جزم بهذا القول أكثر المؤرخين كابن خلكان فى وفيات الأعيان ، وأبى الفرج الأصبهانى فى الأغانى ، والمازندرانى فى كتاب « معالى السبطين » ، وندر من قال إنها دفنت فى مصر . وقد جاء فى كتاب « السيدة سكينة » لمؤلفه الأستاذ عبد الرزاق الموسوى ما يؤيد هذا القول :

« ... ولادتها بالمدينة ووفاتها فيها يوم الخميس لخمس خلون من ربيع الأول سنة سبع عشرة ومائة ، وقيل توفيت بمكة فى طريق العمرة ، كما قيل رجعت إلى الشام وقبرها هنالك . وينص الشعرانى فى لواقح الأنوار أنها توفيت بمراغة من أرض مصر ، وقبرها بالقرب من السيدة نفيسة ، وحيث أن أكثر المؤرخين نصوا على أنها بالمدينة ، فهو بالصحة أجدر . ص ٦ »

فاضل خلف النيلجى

« تغريدات الصباح » :

[ديوان شعر للاستاذ الأسمر]

هذا الديوان يمثل المدرسة الأدبية المحافظة تمثيلا قوياً ، إذ لا تروعك معانيه وأخيلته بقدر ما تأخذ بمجامع قلبك رصانة أسلوبه ، وروعة بيانه . وهذا لا يطامن من قدر الشاعر ، ولا ينتقص من جلاله ؛ لأن الأستاذ الأسمر قد وفى لبيئته واستجاب لطبعه ، فهو ربيب البيئة الأزهرية ، ترى أثرها فى متانة أسلوبه ، وإشراق ديباجته ، ومحافاته التحليق فى أجواء ينفر منها الخلق ، ويألم منها الضمير . أما معانيه فليست من الطراز الذى يتملك القلوب ، ويستحوذ على الشاعر، ولكنها من النوع الذى نعجب به العجب الذى غلك معه الزمام ، إلا أن فنه الأدائى — كما قلنا — يبلغ مبلغ الجلال والجمال والروعة فى كثير من المواطن

محمد عبد الحليم أبو زيد

مكتبة الأطفال :

الأستاذ كامل كيلانى ، صاحب فكرة ، أقسم بالله جهد أيمانه ليوفين فيها على الغاية مهما أدمت يديه ورجليه أشواك الزمان ، وليس هذا فرضاً أفترضه ، أو كلاما ألقيه على عواهنه . فأديبنا ما زال يدأب على خدمة هذه الفكرة ، متجاهلا كل العقبات والمتاعب ، فكرة إنشاء مكتبة الطفل فى الأدب العربى — الذى خلا منها فى جميع العهود — ابتدعها الأستاذ كامل كيلانى بقلمه الذى يشبه « البطاريات » الكاشفة عن مواقع الأهداف فى غلس الظلام ؛ فأدبنا العربى تجاهل الطفل ، والفتى اليافع ، بل والشاب الناشىء ، ولم يفتح عينيه إلا على الرجل الناضج ، ومن يستطيع أن يقفز إلى أعلى السلم متخطياً درجاته الأولى دفعة واحدة ؟!

ها هى ذى الدرجات الأولى فى سلم الأدب العربى يضعها الأستاذ كامل كيلانى ببراعة المهندس ، وحكمة البناء ، وذوق الفنان ، الذى يتحدث عن عمله فيقول : « أخذت فى إظهار مكتبة الأطفال التى أمضيت فى تأليف أجزائها عدة أعوام ، وجعلت منها مجموعات يقرؤها الطفل على مراحل مرسومة ، كل مرحلة تناسب سنا معلومة ، دفعاً للحرج ، وتمشيا مع سنة الترقى من درج إلى درج ؛ فهو يقطع هذه المراحل فى المطالعة والدرس ، مستريح البال ، مطمئن النفس ، لوضوح مقاصدها ، وسهولة مآخذها ومواردها ، لا يجد فيما يطالع منها إلا ما يناسب مزاجه ويوائمه ، ولا يصادف فيما يقرأ إلا ما يوافق طبعه ويلائمه[1] »

وكان من أثر هذا المجهود الفذ أن ظفر صاحبه بثناء الأمراء المثقفين ، والوزراء المتأدبين ، وحملة الأقلام فى الشرق ، اعترافا منهم بتبريزه وفذاذته ؛ فها هو ذا الأمير سيف الأسلام عبد الله ولى عهد اليمن يوجه إليه خطابا كريما يفيض بالتقدير ويختمه بقوله : « وسنقتنى منها ومن مكتبة الكيلانى للأطفال — كية يستفيد بها الأولاد فى اليمن »

وها هو ذا سعادة الأستاذ نجيب الهلالى باشا يوجه إليه رسالة من نيانه الرائع فيقول : « ضالة الجيل ، ومنطق العرب الأصيل رجال فى مرح الأطفال ، وأطفال فى هدى الرجال ، جد فى لعب ، وجوهر من الصدق فى عرض من الكذب ... » ثم يقول سعادته : « وإن طفلا تتعهده هذه الكتب ، وينشئه هذا الأدب لهو خليق أن يمضى فى البلاغة قدما ، حتى يطلع فى سمائها نجما ، ولقد جئت فى ذلك بدلائل الإعجاز ، وسموت فيما دبجته يراعتك من أطناب وإيجاز » .

بين يدى الآن مجموعة من مكتبة كيلانى للأطفال فهذه قصة : « أصدقاء الربيع » وقصة : « زهرة البرسيم » وقصة : « فى الاصطبل » وقصة : «جبارة الغابة» وقصة : «أسرة السناجيب» وكلها قصص علمية للأطفال قصص تقوم على أساس علمى من حيوات الحيوان والنبات ، فهذه ظاهرة علمية من حياة حيوان أو عمر نبات ، ولكنك ترشفها من بيان كيلانى أفكوهة أو موقفا مسرحيا يبتز منك الإعجاب والاهتزاز . ولأديبنا كيلانى قدرة عجيبة على مزج الحقائق بالأساطير مما يجعل لنفسك متنفسا حينما تنتقل من فىء إلى فىء ، ومن ضوء إلى ضوء . وليس هذا عجباً ممن مارس الطبائع فى شتى الصور حينما تصدى للكشف عنها فى قصص ممتع شهى كهذا الذى بأيدينا الآن .

ورجاؤنا أن يتناول أديبنا الكبير فى قصصه الآتية — إن شاء الله — ناحية التاريخ الإسلامى بما هو أهل من العناية ، ويظهر ما فيها من كنوز ؛ فإن العالم الإسلامى الذى يقرأ ويتعلم اللغة العربية من كتب الكيلانى مشوق إلى هذا النوع من القصص بأسلوب الكامل .

وهبى اسماعيل حقى
عضو البعثة الألبانية بالأزهر

(١) ص ١٠ من كتابه « حديقة أبى العلاء »

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧٥ — الاثنين ١٠ يونيه ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

صفحة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me année No. 675

Lundi—10-6-1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومدير ها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٦٧٥ «القاهرة في يوم الإثنين ١٠ رجب سنة ١٣٦٥ — ١٠ يونية سنة ١٩٤٦» السنة الرابعة عشرة

مصادفات فى الطريق

للأستاذ عباس محمود العقاد

نعم هى مصادفات فى الطريق

ولكنه طريق التاريخ لا طريق المدنية ، أو طريق الزمان دونَ طريق المكان ، وقد يحدث فى هذه الطريق ما يحدث فى كل طريق من المصادفات والمناقضات ، فيعيش الناس فى حى واحد ولا يلتقون ، ويلتقون وهم يعيشون فى أحياء لا يجمعها مكان

أيذكر القارىء كيف يتفق له أن يقضى السنين ولا باقى فى خلالها وجهاً من الوجوه التى تعود النظر اليها ، ثم تعرض له فترة من الزمن فإذا هو يستقبل ذلك الوجه أمامه حيث سار على غير موعد وعلى غير انتظار ؟

ذلك ما حدث لى فى طريق التاريخ مع « عمر الخيام » خلال الأيام الماضيات ، فما فتحت كتابا إلا أطل منه « الخيام » بصفحة من صفحات وجهه أو جانب من جوانب نفسه ، على تمدد الموضوعات وتباعد المناسبات . إذ كان من تلك الكتب ما أفتحه للمراجعة العاجلة فى مسألة من مسائل التصوف أو مسائل السياسة أو مسائل الفلسفة أو مسائل الأدب وما إليه . وكنت مشغولا بالشيخ الرئيس ابن سينا فما تعمدت لقاء الشيخ مرة إلا خرج لى الخيام فى بعض الطريق كأنهم يقيمون من عالم الأرواح فى عالم واحد ، أو كأنهم يحضرون معاً بدعوة واحدة على خلاف الآداب المصرية فى استجابة الدعوات .

تحدث العروضى السمرقندى فى « مقالاته الأربع » عن الفيلسوف ابن سينا وعن الفلكى عمر الخيام ، فروى عن كليهما الأعاجيب ، وكلاهما قد عاش زمناً فى إقليم واحد وإن تلاحقا بالزمان ...

وراجعت بعض الأقوال فى تناسخ الأرواح فرأيت أناساً ممن يدينون بهذا المذهب العجيب يعممون التناسخ ولا يقصرونه على الحيوان والإنسان ؛ فانتقال الروح من رجل إلى امرأة أو من رجل إلى رجل نسخ ، وانتقالها من إنسان إلى حيوان مسخ ، وانتقالها من إنسان إلى نبات فسخ ، وانتقالها من إنسان إلى جماد رسخ ... وما من انتقال منها كما رأيت إلا وهو على قافية الخاء ، دون غيرها من حروف ألف باء ، وهو حرف لا يوجد فى معظم اللغات الأوربية ولغات الأمم على الإجمال . فكيف تسعفهم القافية يا ترى فى تلك الأمم إذا احتاجوا إلى التقسيم والترتيب فى أطوار هذا الانتقال العجيب ؟ وما بال أصحاب التناسخ يا ترى قد فكروا فى انتقال روح الإنسان ولم يفكروا فى انتقال الروح من الجماد إلى النبات أو من النبات إلى الحيوان ؟

إنهم لم يفكروا فى ذلك ولكن فكر فيه على نحو غير هذا النحو جماعة من شعراء « التطور » القديم ومنهم جلال الدين الرومى الشاعر الفارسى المشهور . فعنده كما يقول : « إن الإنسان

فى بداية أمره قد ظهر فى عالم الجماد ، ثم ترقى من هذا العالم إلى عالم النبات ، ثم عاش هنالك شجرة من الشجر أو عشبة من العشب لا يذكر شيئاً مما كان فيه من تلك الحال المختلفة بين المعادن والحجارة الصماء ، وصعد من طبقة النبات إلى طبقة الحيوان فلم يبق فى ذاكرته أثر للطبقة التى كان فيها إلا ذلك الشوق الذى يميل به إلى الأوراق والأشجار ولا سيما فى إبان الربيع وازدهار الرياض ، كأنه الطفل الذى يهتدى إلى صدر أمه من حيث لا يدرى سر هذه الهداية ... وشاء الله بعد ذلك أن يرفعه من زمرة الحيوان الأعجم إلى صورة الإنسان حتى بلغ ما نعلمه من القوة والعقل والمعرفة ، وما به من ذكر فى هذه الحال لعيشته الأولى ، وإنه ليترك فى مصيره الأبدى ، هذه العيشة التى هو فيها ... »

فهذا انتقال من الرسخ إلى الفسخ إلى المسخ إلى النسخ على انعكاس فى ترتيب التناسخ الذى يقول به التناسخيون ولا يقول به الصوفية المتطورون ! ...

والعجيب أن صاحبنا الخيام قد سلك بين هذه الزمرة وهذه الزمرة بشهادة أناس من الزمرتين ؛ فقيل فيه إنه من المؤمنين بالتناسخ كما قيل فيه إنه من المؤمنين بارتقاء الأرواح فى معراج الكمال إلى قدس الأقداس

زعموا أن الحكيم كان يتمشى مع مريديه عند مدرسة الحكمة والعلوم بمدينة نيسابور ، وكانوا يرمون بعض جدرانها وينقلون إليها اللبن والحجارة على ظهور الحمير . فأبى حمار منها أن يدخل دار المدرسة أى إباء ، وحاروا فى دفعه إلى الدار وهو مصر على الوقوف دون ذلك أشد الإصرار ، فلما رأى الحكيم ذلك منه تبسم ومال على أذنه يهمس بأبيات يقول فيها : أى هذا الذى ضل وعاد اليوم إلى مكانه وهو أضل سبيلا ! ... إن أظافرك قد تجمعت فصارت حافراً ، ولحيتك قد استدارت إلى موضع الذنب ، فانتقلت من الأمام إلى الوراء ... »

قالوا : فما سمع الحمار هذه الأبيات حتى عدل عن إبائه وأسلس قياده ودخل إلى الدار . وسأل التلاميذ أستاذهم عن سر ذلك الأباء وسر هذه الطاعة فقال : إن الحمار كان أستاذاً بهذه المدرسة فأبى أن يدخلها وهو دابة تحمل اللبن والحجارة وقد كان يدخلها وهو أستاذ يحمل الأسفار ... فلما عرف أننا عرفناه كان له بعض الأنس بهذه المعرفة فأطاع

والحمير والله مساكين مظاليم

إنما الحمير حقاً أولئك الذين تناولوا هذه القصة فشكوا فيها تارة وأثبتوها تارة أخرى ليتهموا الرجل بمذهب تناسخ الأرواح .

وتحضرنى هنا قصة الصحيفة الإنجليزية التى أعلنت عن معرض للحمير يقام فى حديقة هايد بارك بعد أيام ، وكان موعد المعرض الزعوم موافقاً لليوم الأول من شهر إبريل ، ولم يفطن له قراء الخبر إلا ساعة أصبحوا فى الحديقة ولم يروا هنالك حميراً ... فعلموا أنهم هم الحمير !

وما نخال الخيام إلا قد غلبه عفريت السخر فى تلك اللحظة فسخر بنفسه وسخر بمريديه ، وقال لهم إنهم كلهم يدخلون الدار ويحملون الأسفار !!

***

وشاءت المصادفات أن يصل البريد الأمريكى فى هذه الآونة وفيه طوفان من كتب الجيب التى طبعت قبل ذلك فى مختلف الأحجام بمختلف الأثمان

ومنها رباعيات الخيام

وهى على صغر الطبعة قد جمعت الصيغ المتعددة التى نقحها مترجم الرباعيات وأعاد تنقيحها فى كل طبعة جديدة من طبعاتها الكثيرة ...

ولا جرم يحتفل الأمريكيون بالرباعيات وهم يعيشون اليوم على مذهب الخيام ، ويخرجون لميادين الحرب قائداً يسمى «عمر» تيمناً بسيرة الشاعر الفيلسوف !

فقلت : الخيام . الخيام . الخيام .

أفى كل مكان يسنح لنا طيف الخيام فى هذه الأيام ؟

وفتحت الصفحة على رباعية يقول فيها : « إن الكرم قد أنبتت عرقاً يلتف به كل كيانى ... فدع الصوفى يسخر ما يشاء ، فإننى أسبك من معدنى الخسيس مفتاحاً يفتح الباب الذى يطرقه ولا يجاب . »

وقلبت صفحة أخرى فرأيته يقول : « هذه الكرمة التى أنبتها الله ، من ذا الذى يعاف عصيرها ؟ وهذه المناقيد إن كانت شبكة من الشباك فمن ذا الذى وضعها هناك ؟ »

وفى صفحة أخرى يقول : « إلى الكون دخلت كالماء الدافق ولا أدرى لماذا . ومن الكون خرجت كالهواء الخافق ، فهل أدرى لماذا ؟ ... »

ومهما تقلب من صفحة فى الرباعيات فما تخليك هنا أو هناك من بعض هذا المعنى أو بعض ذاك

قلت والله لقد ظلموك يا صاح بالتصوف كما ظلموك بتناسخ الأرواح . وصدق مترجمك فتزجرالد وهو أدرى بترجمة نفسك وشعرك من أولئك الرواة والمؤرخين . فما كانت خمرتك بالخمرة الإلهية ، وما كانت عبارتك بالإشارات الخفية ، ولكنك كما قال المترجم الأمين كنت تنظم الشعر فى ماء العناقيد ، وكان نظمك فى معناه أكثر من شرابك إياه ... وذلك فصل المقال فيما بين قولك وعملك من الانصال

***

وأعجب العجب أننى فتحت مجموعة من الرسائل الفلسفية لابن سينا وغيره فظهر لى الخيام بين دفتى تلك الرسائل يسألونه عن سر الوجود كله وهو حائر فى سر وجوده لا يعلم لماذا أقبل كالماء وانصرف كالهواء

سأله القاضى الإمام أبو نصر النسوى تلميذ ابن سينا « عن حكمة الخالق فى خلق العالم خصوصا الإنسان وتكليف الناس بالعبادات . »

فحاول الشيخ أن يروغ كعادته ولم يجد مهرب أمان ، ولاعذرا مقبولا للزوغان . وكيف يجهل ما يسألونه عنه وهو عندهم وعند أبناء زمنه جميعاً حجة الحق ، فيلسوف العالم ، نصرة الدين ، سيد حكماء المشرق والمغرب ، نادرة الزمان ؟ ...

على أن الرجل قد أجاب بما ليس بعدوه جواب ، فرجع إلى سبب الأسباب وهو واجب الوجود : ما من سبب إلا وله سبب إلا واجب الوجود فلا سبب لوجوده ولا لصفاته ... وإلا لزم التسلسل بالأسباب إلى غير انتهاء ، وهو فى عقل الإنسان مستحيل ...

والوجود فيض الجود الإلهى . فلماذا جاد بالوجود على المخلوقات ... ؟

الجواب أنه جاد لأنه جواد ، ولا تعليل لصفاته كما لا تعليل لذاته . لأن التعليل يرجع بنا إلى سبب وراء واجب الوجود ، ولا سبب هناك

ثم قال : « فإن قال قائل لم خلق المتضادات المتمانعة فى الوجود ؟ فيكون الجواب عنه أن الإمساك عن الخير الكثير من جهة لزوم شر قليل هو شر كثير ، والحكمة الكلية الحقة والجود الكلى الحق أعطيا جميع الموجودات كمالها الذاتى لها من غير أن يبخس حظ واحد منها . إلا أنها بحسب القرب والبعد متفاوتة فى الشرف ... لا لبخل من جهة الحق عز وجل ، بل لاقتضاء الحكمة السرمدية ذلك »

أجل هكذا يقول الخيام

ولو سمعه قراؤه المفتونون برباعياته من فتيان أمريكا وأوربة وفتياتها – لما صدقوا أن صاحبهم يسأل عن هذا ، ولا صدقوا إن سئل عنه أنه يجيب بغير الكلمة التى تلخص جميع الرباعيات .

من يدرى ؟! من يدرى أيها الناس ؟

والناس قد حيروه حقاً بين زاعم أنه ينكر الروح وزاعم أنه يثبتها للانسان والحيوان فى الحياة وبعد الممات ، وزاعم أنه يعلم سر الوجود كأنه من أصفياء مبدع الوجود .

وأخشى ما أخشاه أننى صرفت الحكيم الظريف بهذا المقال فلا ألقاه كما كنت ألقاه فى كل منعطف طريق من مكامن التاريخ ... !

عباس محمود العقاد

من صميم الحياة :

طبق الأصـــل ...

[يا أيها الآباء : إن الذي لا يعتبر بغيره ، يصير هو عبرة للناس]

للأستاذ على الطنطاوى

إن الحياة تؤلف قصصاً ، يعجز أبرع أهل الفن عن توهم مثلها ؛ ولـكن الحياة لا تذيع (مؤلفاتها) ولا تعلن عنها ، فتبقى (مخطوطة) مخبوءة لا يصل إليها ولا يقرؤها إلا رجل حديد البصر ، طويل اليد ، ذو جلد على البحث وصبر على التنقيب ، ولست ذلك الرجل ، ولا أنا من عشاق المخطوطات ورواد الباحث[١] ، ولـكن الأيام ألقت هذه القصة فى طريقى ؛ فوجدتها (مطوية) فى سجلات محكمة من المحاكم ، مقطعة الأوصال ، مفرقة الأجزاء ، فألصقت أوصالها ، وجمعت أجزاءها و (نشرتها) فى الرسالة ، ومالى فيها إلا الرواية !

* * *

بدأت هذه القصة فى مخفر للشرطة فى مدينة (كذا) فى ظهيرة يوم وهج تصبب من أيام تموز[٢] تسعر فيها الجو ، وأقفرت الشوارع من السالـكين إلا سالـكا بسيارة تطوى له الأرض ، أو عربة تخب به خيولها يقطر العرق من صدورها وأعرافها ، أو صاحب حاجة مفلساً يخوض الهاجرة ماشيا فى قضائها ، أو موظفا مسكينا انصرف إلى منزله لا يجد إذا كان أمينا أجرة سيارة ولا عربة ولا حمار لو أنها كانت تؤجر الحمير الآن ، كما كانت تؤجر من زمان ...

وكان فى المخفر أربعة من الشرطة قد نزعوا أرديتهم ، وحلوا مناطقهم ، واستلقوا على مقاعدهم فى كسل وارتخاء ، واستسلم كل لأفـكاره وهمومه ، أو انطلق سادراً فى أودية الأحلام ؛ فذو العيال منهم يفـكر فى هم البيت ومشا كل النفقات ، والخبيث يكد ذهنه يفتش عن شىء برانى[١] وما أهون الوصول إليه فى هذه الأيام التى فشت فيها الرشوات والبراطيل[٢] حين غلت الأشياء كلها ولـكن رخصت الضمائر ، وسعرت الحكومة الأشياء كلها وتركت الذمم ، والعزب التقى يدارى من شهوته مثل لذع النار تؤرثها مشاهد الطريق ، ويحبسها خوف الله والعار ، إن كان قد بقى فى (العشق ...) اليوم من عار .

والماجن يتعلل بذكريات ليلة فاجرة ويتلمظها[٣] ويلتذ بالتفـكير فى فجور جديد ... وكانوا سكوتا لا تسمع منهم إلا أغنية الصمت التى ليس لهـا آخر ، يقطعها بين الفترة والفترة سؤال مختصر يلقيه أحدهم بصوت خافت تتعثر كلماته وهى سائرة فى الفضاء من الضجر والملل ، يجيب عليه الآخر بهزة من رأسه أو بكلمة مفردة يمضغها بين أسنانه ويبتلع الحرف الأخير منها ، يعود السكون كما كان !

ويفتح الباب .

ويرفع الشرطيون الأربعة رؤوسهم ينظرون من هذا المتطفل الثقيل الذى دخل عليهم فى هذه الساعة ، وكل واحد منهم يتمنى أن يكفيه غيره مشقة صرفه والتخلص منه ، ولم يكن فيهم من ينشط لعمل ولا لحديث ؛ ولـكنهم لا يرون القـادم حتى يطير الخمول من نفوسهم ، ويدب النشـاط فى أجسامهم ، وينسى ذو العيال هم البيت ، وطالب الرشوة لذة المال ، وينسى (العاشق) المحروم فتـاة أحلامه ، وتتعلق أبصارهم بالقادم وكأن الدهشة قد ثبتتها فى محاجرها فهى لا تتحرك ولا تطرف ، ثم ينظر كل فى ثيابه فيصلح منها ما يستطيع ، ويمد يده إلى قميصه فيحكم زيقه[٤] وإلى ردائه فيرتديه ، ويقف مستعداً كأنمـا قد فاجأه المدير العام ، ويتم ذلك كله فى لحظات !

ولم يكن القادم المدير العام بل تلك الفتاة الجميلة المتكبرة التى كانت تمر بهم كل يوم شامخة الأنف تنظر دوما إلى الأمام ،

---

(١) بحث فتش ، والمباحث فى الأصل المكان المجهول .

(٢) تموز هو الاسم العربى لشهر يوليو ، ولا يعرف بغيره فى الشام كله والعراق ؛ أما الحجاز ونجد فأشهرهم قرية وتواريخهم هجرية .

(١) شىء برانى من العامى الفصيح . وفى الخبر من أصلح جوانيه أصلح الله برانيه ، انظر القاموس .

(٢) البرطيل : الرشوة فصيحة وبرطله رشوته فتبرطل ، فهى من العامى الفصيح

(٣) وعامة الشام يقولون تلمض .

(٤) زيق القميص من العامى الفصيح .

لا تتنازل أن تلقى عليهم نظرة واحدة ... وكانت تترك وراءها كلما مرت عبقاً من الروعة والسحر ، فقد كان جمالها من الجمال الشرس الأخاذ الذى يروع الناظر إليه ويشدهه حتى يتركه وكأنما قد أصابه دوار حلو وخدر لذيذ ...

فإذا ابتعدت وصحوا من سكرة جمالها ، عادوا إلى الحديث عنها فأنفقوا فيه نهارهم . ولقد تسقطوا أخبارها فلم يسمعوا عنها ما يريب ، برغم هذه الثياب (الفظيعة) التى كانت تخرج بها ، ثياب أزهى من زهر الربيع ، وأرق من دين الراقصات ، وأقصر من عمر الحب ! غشاء من الحرير إلى ما فوق الركبتين ، يبرز ما تحتهما ويصور ما فوقهما ، والذراعان باديتان والشعر يتموج على الكتفين خصلا تزرى بخر المسجد وخالص الحرير .

ووقفت الفتاة تصوب فيهم نظرات متعالية ثم قالت عابسة زاوية ما بين عينيها ، ضامة شفتين كزر الورد على فم لا يتسع للكلمات ، لا يصلح إلا للقبل :

— إن أمام باب المخفر شاب وقح لا يزال يلاحقنى كلما مشيت فى الطريق ، فأرجو سؤاله عما يريده منى !

وعرفوا الذى يريده منها ، وكانوا فى قرارات نفوسهم يريدون مثله ، وكانوا قوماً همجاً (١) متأخرين ذوى عقول قديمة رجعية . لا يفهمون من تكشف البنات إلا (ذلك) المعنى العتيق جداً ... لا يعلمون أن الدنيا تقدمت ، وأن البنت تتكشف على الساحل للسباحة ، وفى المدرسة للرياضة ، وفى الطريق وفى الترام للصحة وحدها فقط ... لا غير ...

ولكنهم أسرعوا مع ذلك إلى الباب ليقبضوا على هذا (الوقح) الذى تطاول إلى سماء الجمال ، فأراد أن يدنس الكوكب الذى تستنير به قلوبهم ، ولا يجرؤون على التأميل فيه والتفكير فى الوصول إليه ، وكل منهم يود أن يسبق إلى اتخاذ اليد عند الآنسة الفتانة المتكبرة ذات الثياب (الفظيعة) ! وجاءوا به .

***

وكان شابا مخنثا خليعاً ، تحس إذا نظرت إليه أن رجولته كورقة النقد المزورة لها لونها ونقشها ، ولكن ليس لها قيمتها ، ولا تشترى لصاحبها إلا مكانا فى السجن ، كما أن رجولة هذا الشاب لا تكسبه إلا موضعاً فى جهنم ... وكان الشرطيون الأربعة يحفون به بقاماتهم المديدة ، وأجسامهم التى تتفجر بالقوة ، كما تحف أربعة سنانير بفأر هزيل ، ينظرون إليه بازدراء واحتقار ، أهذا هو المخلوق الذى يطمع فى هذه الآنسة ويطمح إلى أن يكون (رجلها) من دون الرجال ؟ !

وزجروه وأوعدوه ، ولكنه لم يزدجر ولم يخف ، ولبث ينظر إلى الفتاة بعيون ثعلب ، ويبتسم ابتسامة قرد مهذب ، فلم يكن من أحد الشرطيين إلا أن لطمه (بيد ما وقف عليها طبيب) لطمة تركت على وجهه من آثار الأصابع خطوطا يكاد ينبثق منها الدم ، وترنح ومال ، ولكنه تصبر واستند على نضد ، وقال لها :

— أيرضيك هذا يا آنسة ؟ أتحبين أن أفضح السر ؟

فانتفضت وقالت :

— أى سر أيها الكلب ؟ أيها السادة : أرجوكم وضع حد لهذه المهزلة !

فكروا عليه بالضرب واستاقوه إلى (القفص) ، فلما ابتعد عن الفتاة ، قال لهم :

— أنا أحذركم . إنكم تعتدون على بغير (موجب قانونى). إن هذه البنت برغم ما تظهره من التسامى ... إنها عشيقتى ، وأنا أعرف كل بقعة فى جسمها ، وآية ذلك أن فى مكان كذا منها علامة كذا ، وقد قبضت منى ليلة أمس إذ باتت عندى إلى الصباح ، ثلاثين ليرة ذهبية .

***

ابتعد الشرطيون فتشاوروا فرأوا أن يدعوا أباها ، وكان تاجراً كبيرا وثريا من أثرياء الحرب الذين أصابوا فيها غنى فاحشاً جعلهم ينتقلون نقلة واحدة إلى منازل (الأكابر ...) ، فتركوا حياة الفقر ، ولكنهم تركوا معها حياة العفاف والستر ، وقلدوا الأكابر فى مناعمهم ، ولكنهم قلدوهم أيضا فى رذائلهم . وأكثر ما تعيش الرذيلة راسبة فى القعر أو طافية على الوجه ، فلا تراها إلا فى أسفل السلم الاجتماعى أو فى أعلاه ، أما الأوساط فهم الأخيار وهم الصالحون ...

واستبقوا الفتاة والشاب فى المخفر ريثما يحضر الأب .

(١) من العامى الفصيح .

ووقفت السيارة الفخمة بالباب ، ودخل أخو البنت جاء به الرسول إذ لم يجد والدها ، فما أبصر أخته في المخفر وأبصر معها هـذا الشاب المخنث زاغ بصره وحدثه قلبه بالشر ، فانتحى به الشرطي ناحية ونفض إليه خلاصة القصة ، فلم يتمالك أن جرّ أخته فأدخلها غرفة خالية عند الباب ، ووراها وهي متعجبة تبصر ولا تفهم ، وتحسّ منه الغضب ولا تعرف السبب ، ومدّ يده مسرعا فرفع ثوبها الرقيق القصير قبل أن تنتبه له أو تدرى ما هو صانع . فلما رأى العلامة ، أحسّ أن دماغه قد غلى فجأة كما يغلى المـاء في إبريق الشاى ، وثار كما يثور المرجل ثم شعر أنه قد (تبخر[1]) من رأسه وأنه انقلب مجنونا ... ودارت به الأرض وتداخلت المرئيات ونسى هذا (التجدد) الذى استحبه ودعا إليه وارتضاه لأخته وزوجته كما ارتضاه أبوه ... ونسى أنهم هم الذين اشتروا للبنت هذه الثياب ، وهم ألبسوها إياها بعد الملاءة السوداء والنقاب الصفيق ، وهم أرسلوها إلى المدرسة (الحديثة) التى أنشأتها الجمعية النسائية ... وهم تركوها تقرأ على الشباب وتجالس الأغراب ، وهم بعثوا بها وحدها تقيس الطرقات وتجاور في السينمات ... وأحسّ بالجرح في قلبـه ، وانصبت نقمته على الفتاة وحدها ، فبصق عليها ولعنها ، ثم رفع يده فصك هذا الوجه الجميل صكة طنت فى آذان الشرطيين فأحسوا حرّها على وجوههم وحزتها فى قلوبهم ، إذ قد فهموا منها أن قصة هذا (المخنث) صحيحة ، وأن الفتاة التى حسبوها بطهرها وكبرها وسحرها أمنع من نجم السماء ، قد بذلت أعزّ شىء عليها لهذا ... المخلوق !

وأقبل الأخ فأعطى الشاب ثلاثين ليرة ذهبية من غير أن يلقى عليه نظرة أو يقول له كلة ، ثم استاق أخته وخرج ، ولم يبصروا منها إلا قفاها ، ولـكنهم أبصروها مطأطئة الرأس ، قد ذهبت عنها تلك الـكبرياء وبطل ذلك السحر ، أو أن إيمانهم بزلها خيل إليهم ما زعموا أنه رأوه ...

ومضت السيارة بالأخت وأخيها .

* * *

تركها فى مقعد السيارة كأنما هى عِدل ملقى ، وقاد السيارة إلى الضيعة المنعزلة حيث كان أبوه ، فأسرع إليه فساره وأعلمه بالأمر ، فسرعان ما امحى طلاء (التمدن) الـكاذب عن هذا التاجر الذى أعطاه الله مالا ولم يعطه عقلا ولا دينا شأن أكثر أغنياء الحرب . وسرعان ما عاد ذلك العربى الذى كان يئد البنات خوف العار ، والذى تحوى لغته كلة لا يمـكن أن تترجم لأنه ليس فى لغات النـاس ما يقابلها ويحمل معانيها هى كلة : العرض ، وكذلك يبين إذا جد الجد ، وكانت النتيجة الضرورية لهذه المقدمات (التى هى التـكشف والانطلاق والاستهتار) ... أننا لا نزال كعرب الجاهلية فى غيرتنا ، وأن هذا التجديد تمويه ، وقديما قال المثل الأوربى : حك جلد الروسى يظهر لك التترى !

ثم عاد فجاء بالبنت ؛ فلما رأت أباها ، انفجرت عواطفها التى كبتتها المفاجأة الظالمة التى فاجأها بها أخوها وأجهشت وألقت بنفسها بين ذراعيه ، وقالت : أبى ! وحسبت أنهـا بلغت الحمى الآمن . وإذا بالأب يدفعها فتسقط ، ثم يركلها بقدمه ويقول :

— أنا لست أباك أيتها العاهرة ، لعنة الله عليك !

فتجحظ عيناها دهشة ، ثم تثور مرة واحدة ، وتصرخ :

— مالـكم ؟ هل جننتم ؟ إذا كانوا قد حكوا لـكم شيئا ، أو وشوا وشاية فاسألونى وتحققوا ، فإن ...

فيقول الأب :

— أولك عين تحدق ، ولسان يناقش يا ملعونة ؟ قولى : ما هى صلتك به ؟ قولى الحق وإلا ذبحتك كما تذبح النعجة ...

— من هو الذى تعنيه ؟ إنى لا أفهم !

فيقول الأخ :

— لا تفهمين يا فاجرة ؟ الـكلب الذى دفعت له ثلاثين ليرة بدلا عن التى قبضتها ثمن بكارتك وعرضك وشرفك ...

— أنت والله مجنون ، أى ثلاثين ليرة ؟ وما دخل عرضى وشرفى ، وأنا لم أكله فى عمرى ، ولم أعرفه .. والله والله إن ...

— لا تذكرى اسم الله بلسانك الدنس .

ويهجم عليها فيشدها من شعرها ، ويخرج بها ... إعلانا لختام المحاكمة ، وثبوت الجرم !

* * *

ارتقب الشرطيون أياماً فلم يروا البنت تمرّ بهم ، وطفقت

(١) كذلك يستعمل الناس كلة (تبخر) ولم أجدها بهذا المعنى فى القاموس وما بين يدى الآن غيره .

أمها تسأل عنها فى المنزل ، ومعمها يسأل عنها من المدرسة ، فيقولون للأم : هى فى رحلة مدرسية . ويقولون للمعلم : هى فى سفرة عائلية . وكاد الشرطيون ينسونها ، وتضيع صورتها فى مشاهد الحياة وهمومها ، وفرغت كأس الحديث عنها فلم يبق لهم ما يتساقونه ، فعادوا إلى صمتهم وتكاسلهم واستلقائهم على كراسيهم ... ولكن الشرطى (العاشق) الذى رآها تشبه فتاة أحلامه لم ينسها ... فكان كلما انتهى عمله فى المخفر يلقى بزته العسكرية ويلبس ثيابه المدنية ، ويتعقب ذلك (الشاب) يحصى عليه حركاته وسكناته ، ليضبطه (متلبسا بجرمه) ويمسكه معها فلا يراه إلا منفرداً ... حتى كاد ييأس منه وينصرف عن ملاحقته لولا هذه المصادفة :

وجده مع فتية من لداته عند حلاق ، فدخل فقعد كأنه ينتظر دوره ليحلق ، فسمع منه حديثا خافتا ورأى على وجهه ابتسامة ظفر ، ثم أبصره يخرج لهم من جيبه الذهب ليروه ، فخفق قلبه وعلم أن الحديث عنها ، فتلطف ودنا وأصغى فسمعه يقول :

— « لا والله إنى لم أ كلمها فى عمرى ، ولم أمسس جلدها ولا أعرف اسمها ، ولكنها كانت بنتا جميلة فى السابعة عشرة ، وتلبس هذه الثياب القصيرة التى يهب عليها النسيم ، فيحركها فتكشف كل ما تحتها ، فألحقها عن بعد لأمتع البصر بما يبدو من خفايا حسنها . وكانت يوما على درج المدرسة ، وكنت واقفا تحت الدرج بحيث لا ترانى ، فانحنت لتصلح حذاءها انحناءة كشفت نصفها الأسفل كله ، وكانت تلبس (كالسونا) من الحرير الشفاف يوضع من صغره فى علبة كبريت ، ويصغر عن منديل ، فأبصرت هذه العلامة ... » .

وعاد الشرطى إلى رفاقه بالنبأ ، فوجدوا شيئا يعملونه .

***

أحضروا الشاب ومن كان معه ، وحققوا واستنبطوا وهددوا فلم يسمع إلا الإقرار ، ولم يسمعهم إلا الشهادة ، وكتب الضبط بالحادث ودعى الأخ الذى دفع المال .

فلما حضر وسمع الحديث شحب لونه حتى كأنه قد نزف دمه كله ، وانقلب وجهه فصار كوجوه الموتى ، ودنا من الشاب وهو يرتجف كمن مسته قشعريرة ، وقال له بصوت رهيب مخيف لا يشبه أصوات البشر :

— ألا تعرفها ؟ ألم يكن بينك وبينها شىء ؟

قال الشاب فزعاً :

— لا والله ، لا والله ، ما كلمتها فى عمرى ولا مسستها ، وهذه ليراتك ...

— قال : ليراتى يا ابن الكلاب ، بعد ما ذبحت البنت البريئة ؟

وانقلبت عيناه فى أم رأسه ، وصار مثل الوحش الهائج ، وتلفت حوله فوجد قضيب حديد يتخذونه مزلاجا ... فتناوله ونزل على الشاب ضرباً به على رأسه ، وهم جميعا يحاولون إمساكه فلا يقدرون عليه ، حتى سقط الشاب ميتاً عند قدميه وسط بركة من الدم ، فداس على عنقه وبصق عليه ، ثم ارتخت يداه بالقضيب ، وقال :

— أسلم نفسى ! أنا ذبحت أختى وقتلت هذا الشاب !

وارتمى على المقعد ينتظر حكم المحكمة عليه فى الدنيا ، وحكم الله عليه وعلى المحكمة فى الآخرة ...

(دمشق) **على الطنطاوى**

من خواطر جحا (الحالم اليقظان) :

قصة الساحر والتاجر

[مهداة إلى أعلام السياسة وأساطين الاقتصاد]

للأستاذ كامل كيلاني

ننقل القصة التالية عن المقدمة النفيسة التى افتتح بها « أبو الغصن جحا » خواطره التى أهداها إلى ولديه « جحْوان » و« جُحَيَّة » . وقد ضمها مخطوط جحوىٌّ نفيس ، لعله مكتوب بخط أحد معاصريه أو بخط ابن أخيه : أبى السَّبَهْلَل : « طارق بن بهْلَكل بن ثابت » .

وسيرى قارئ القصة كيف استطاع الساحر أن يحول الدنانير الذهبية ذات الرنين الفاتن والبريق الخلاب ، — منذ مائتين وألف من السنين — ورقا عاديا لا قيمة له ولا خطر ، قبل أن يهتدى إلى ذلك أعلام السياسة وأساطين الاقتصاد فى هذا العصر ، الذين استطاعوا — بفنون سحرهم — أن يحولوا الملايين من أموال حلفائهم ورقاً لا نفع فيه ولا غناء ، ولا قدرة له على البيع ولا الشراء . كما استطاعوا من قبل — بفنون حقدهم — أن يحولوا ثروة العالم صواعق ومهلكات تدمر الدنيا بمن فيها ، وتنسف المدن بساكنيها ، وتحيل الجبال الشم أودية ووهادا ، والأحياء — من الحيوان والإنسان — فحما ورمادا .

قال « أبو الغصن عبد الله دجين بن الثابت » الملقب بجحا :

« كنت فى زمن الطفولة الباكر حين وقعت حوادث هذه القصة لأبى عُوَيْفِ بن جعفر ، وكان تاجراً أميناً معروفاً بين الناس بالورع والتقوى ، موصوفاً بالبر والإحسان ، وهو من جيراننا الأقربين ، وكان جزاراً ناجحاً فى تجارته ، فلم يلبث أن ذاع صيته ، واستفاضت الأحاديث الحسنة عما يسديه إلى الفقراء والمعوزين من فنون البر سِرًّا وعلانية .

وذا صباح وَفَد عليه شيخ وقور مَهيبُ الطلعة رائع السَّمْت يدعى « أبا تميم بن زهير » قد جلل المشيب رأسه ولحيته ، وتألق وجهه بشراً ونوراً ، حتى ليحسب مَن يراه — أول وَهْلَة — أنه من أولياء الله الصالحين .

ولم يكد يحييه حتى خفَّ إليه التاجر مُرَحِّباً بمقدَمه ، متبركا بلثم يده ، يسأله أن يأمر فيطاع .

فهمس الشيخ « أبو تميم » فى أذن التاجر يخبره عما اجتمع عليه أمره من بذل فى سبيل الله . فقد اعتزم أن يشترى منه كل صباح لحم خروف بدينار ليفرقه على طائفة من المحتاجين . ثم أعطاه — من فوره — ديناراً لامعاً مشرق الجدة . وانتهزها التاجر فرصة للتبرك بنقود هذا الشيخ الصالح ، فاعتزم أن يدّخر ديناره حتى ينتهى العام ، فيشترى بها ما يحتاج إليه من ماشية وأغنام ، فأسقط الدينار من ثقب فى أعلى درج خفى . وجرى كلاهما على عادته : يشترى الشيخ كل يوم خروفاً بدينار ، ويضعه الجزار فى صندوقه ، حتى إذا أشرف العام على نهايته ، فتح التاجر درج النقود المدّخرة ، فهاله ما رأى ، وفزّعه أن يجد أوراقاً صُفْراً مستديرة — بعدد أيام السنة — مكان الدنانير الصفر الجديدة التى أخذها من الشيخ .

وسرعان ما تبين التاجر جلية الأمر ، وعرف حقيقة الشيخ وأدرك أنه مدلس كبير وساحر خطير ، فتربص به وهو يكاد يتميز من الغيظ ، حتى إذا أقبل « أبو تميم » اندفع إليه الجزار صاخباً لاعناً مشهراً بسوء فعلته .

وثمة عرف الساحر أن أمره افتضح ، وسرّه وضح . فهمس فى أذن التاجر مستعطفاً يرجوه أن يخفض من صوته حتى لا يسيء إلى سمعته ، واعداً إياه بمكافأة سنية عاجلة إذا صفح عن زلته ، وتجاوز عن إساءته . فلم يزد الجزار إلا تمادياً فى صياحه وتشهيره ، ووعيده ونكيره . وأقبل الناس يحاولون أن يهدئوا من ثورته الجامحة وهو آخذ بتلابيب خصمه ، ممعن فى هياجه ، متماد فى لجاجه ، حتى إذا يئس الشيخ من صفح التاجر قال له منذراً متوعداً بصوت ثائر ، مجلجل فى أجواز الفضاء كأنه الرعد القاصف :

« لقد صبرت عليك طويلا ، فلم تزد إلا تماديا وإصرارا ، فاعلم أن لكل شيء آخرا ، وأن للحلم حدًّا لا سبيل إلى تجاوزه . وإنى منذرك — على ملأ من الحاضرين — أننى معلن ما خَفِيَ من أمرك ، ومذيعٌ ما بطن من سرك ، إذا لم تكف عن هذيانك وخرافاتك ، وتقلع عن إساءاتك وتُرَّهاتِك » فاشتد غيظ التاجر على الساحر وقال له فى تهكم الساخر :

« وأىُّ تهمة يستطيع مثلك أن يعزوها إلىَّ ؟ » .

فأجابه الساحر فى جرأة سافرة ، ووقاحة فاجرة ، وقد جمع كيده وسحره ، وحشد مكره وغدره :

« أستطيع أن أعلن لهم حقيقتك وأُفضى إليهم بما تقترفه من فنون الاجرام وكبائر الآثام ، فأدلهم على ما تخفيه فى الصندوق من رءوس الآدميين الذين تذبحهم كل يوم لتبيع الناس لحومهم بعد أن تخفى رءوسهم » .

ولم يكد الساحر يتم فريتـه حتى أسرع الناس إلى دكان الجزار فرأوا مصداق ما افتراه الساحر بعد أن خيل لهم سحره أن لحوم الخراف المعلقة لحوم بشرية ، والرؤوس التى فى الصندوق رؤوس آدمية . ولم يتمالكوا من فرط غيظهم أن ينهالوا على التاجر سباً وشتماً وضرباً ولكماً ، حتى إذا أغمى عليه رآها الساحر فرصة سانحة للهرب ، فتسلل إلى بيتـه ناجياً بعد أن أفلحت مكيدته ونجحت دسيسته .

وذاعت قصة التاجر ، فأقبل القاضى عليه ، بعد أن زال سحر الساحر ، فلم ير إلا خرافاً معلقة لحومها على باب الدكان . فلما فتح الصندوق لم ير إلا رؤوسها . ولما أفاق التاجر عرف القاضى منه تفصيل ما حدث . فأدرك — حينئذ — براءته من تلك التهمة النكراء ، والخزية الشنعاء ، بعد أن هدم شرفه ولوثت سمعته .

ولم يلبث أن ذاع صيت هذا التاجر بين الناس ، بعد أن رأوا من المظاهر الكاذبة ما أقنعهم بأن الشيخ جان أثيم ، وشيطان رجيم ، وإن دلّ مخبره على أنه محسن رحيم وملك كريم .

* * *

مات هذا التاجر المحسن اليوم - بعد أن مرَّ على قصته ربع قرن — وكان مُشيِّعُوهُ إلى قبره يذكرونها متعجبين لما أصابه من كيد الساحرِ الأفاك . أما أنا فقد وَعَيْتُ قصته منذ طفولتى ، فلم أقع فى مثل هـذه الورطة مع أحد من الأشرار — وما أكثر ما لقيت منهم — فقد وجدت فى التغابى مهرباً من الاشتباك معهم فى صراع قلَّ أن ينتهى بخير .

وقد آثرْتُ أن يتهمنى الأغرار بالغفلة على أن أزج بنفسى فى مُحْرِجات لا أدرى كيف أخرج منها .

وطالما ذكرت ما دار بين عمرو بن العاص ومعاوية من حوار معجب حين قال أولهما للثانى مفاخراً بلباقته وسرعة خاطره : ما دخلت مأزقاً قط إلا عرفت كيف أخرج منه » وكيف أجابه معاوية بقولته الحكيمة : « أما أنا فما دخلت مأزقاً قط » .

وقد وعيت قصة الساحر وحكمة « معاوية » ، منذ عرفت الحياة ، فانتفعت بهما أيما انتفاع .

* * *

أذكر على سبيل المثال أننى كنت أمشى — ذات يوم — فى الفلاة ، فأحسست وقْعَ خطوات تقترب منى ، فأرهفت أذنى — دون أن ألتفت إلى الوراء — فسمعت همساً أدركت منه : أن لصين يأتمران بسرقتى . وليس معى شىء يسرق غير الحمار . فلم ألتفت إليهما خشية أن يصيبنى منهما بمكروه ، وتشاغلت بمحادثة نفسى تارة وبالغناء تارة أخرى ، حتى أهيىء لهما الفرصة لسرقة الحمار . وشعرت أن أحد اللصين يفك مقود حمارى ، ثم يضعه فى عنقه ويسلم الحمار إلى صاحبه .

فتغاضيت ومشيت — على عادتى — متباهلاً حتى دانيت المدينة ، واقتربت من العمران . فالتفت إلى الخلف ، وإذا باللص الخبيث مكان حمارى الطيب القلب ، والمقود فى عنقه ، وهو يمشى خلفى .

فتظاهرت بالحيرة والدهش ، وسألته متباهلاً لأهيىء له الجواب :

« من أنت ؟ وأين حمارى ؟ وكيف حللت مكانه ؟ » .

فأجابنى متخابثاً : « إن قصتى أيها السيد الكريم ، لا نكاد تصدق لغرابتها ، فأنا آدمى مثلك ، ولكنى غلوت فى الإساءة إلى أمى — فيما مضى من الزمان — فلما نفد صبرها ، واشتد غيظها علىَّ ، ابتهلت إلى الله داعية أن يمسخنى حماراً فاستجاب الله دعاءها .

فخرجت من البيت هائماً فى الطريق ، فلقينى بعض الأشرار ، فأسرع بى إلى السوق وباعنى لك . ومازلت أخدمك — فى أمانة وإخلاص — إلى اليوم ، ولعلى بذلك قد كفرت عما أسلفته لأمى من إساءة .

وقد رأيتنى الآن أسترد آدميتى ، فمشيت خلفك مطرقاً مفكراً فيما لقيت من عجائب الحياة . وأغلب الظن أن أمى قد عاودها رضاها عنى ، فراحت تستغفر الله لى حتى استجاب دعاءها

مرة أخرى ، خلعت عنى ثوب الحمارية ، واستردت من فورى ثوب الآدمية .

ترى كيف أجيب هذا الألعبان ؟

تمثلت فى الحال قصة الساحر والتاجر ، فلم أجد لى مندوحة عن التظاهر بتصديق هذا الكيذبان الماكر . فقلت له متبالها :

« حسبك ما لقيت من عقاب إلهى ، فهل تعاهدنى على أن تتحرى مرضاة أمك ، وأن تبذل فى هذا السبيل قصارى جهدك »

فعاهدنى اللص على ذلك ، وهو يحسبنى — لغباوته - أكبر مغفل لقيه فى حياته .

* * *

ثم لقيت حمارى بعد أيام يبيعه اللصان ، ولم أكد أدانيه حتى اختنق أولهما الذى لقيته منذ أيام ، وأسلم الحمار إلى شريكه ليتم بيعه .

فدنوت من الحمار ثم تظاهرت بأننى أسر فى أذنه حديثا موجزا .

فاشتدت دهشة الناس مما رأوا . ودفعهم الفضول إلى سؤالى عما همست به فى أذن الحمار . فقصصت عليهم قصتى بمسمع من اللص ، ثم ختمتها قائلا :

وهأنذا أجد صاحبى قد خالف عهده ، وأغضب أمه مرة أخرى ، فلم يلبث أن عاودته حماريته وزايلته آدميته . فلم أتمالك أن أسررت فى أذنه معاتباً :

« لقد حذرتك — يا صاحبى — هذه العاقبة ، فلم تسمع . فلا تلومن إلا نفسك » . ولم يكد الحاضرون يستمعون إلى هذه القصة حتى استغربوا (أى : أغرقوا فى الضحك) .

وشعر اللص الأفاك بالحرج ، فتسلل هارباً وترك لى حمارى ، فعدت به إلى دارى ، وقضيت يومى راضياً محبوراً ، قرير العين مسروراً .

* * *

وسرق بعض الأشرار مقود حمارى ، فبحثت عنه طويلا فلم أجده . وبعد أيام رأيته معلقاً فى رأس حمار أكبر من حمارى . فلم أكد أقترب منه حتى رأيت صاحب الحمار — وكان شريراً فاتكا معروفا — ينظر إلىّ شزراً .

فتذكرت قصة الساحر والتاجر ، وقلت متظاهراً بأننى أحدث نفسى : « ياللعجب العاجب ! هذا رأس حمارى ، ولكن ما بال جسمه قد تغير » .

فكاد اللص يستلقى على قفاه من شدة الضحك ، وتجاوز لى عن المقود طائعاً مختاراً .

* * *

واستيقظت قبيل الفجر ذات ليلة على صوت لص ، فصبرت عليه حتى سرق كل ما فى البيت من متاع ، وتسللت فى أثره مقتفياً خطواته — وهو لا يرانى — حتى بلغ داره . فلم يكد يرانى حتى تملكه الدهش والحيرة . فنظر إلىّ يسألنى : كيف جئت إلى هنا ؟

فقلت له مداعباً : « جئت لأعرف الدار الجديدة التى انتقلت إليها » .

فاستظرف إجابتى ، واستحسن دعابتى ، ورد إلىّ أثاث بيتى ولم ينلنى منه أذى بعد ذلك اليوم .

* * *

وشعرت ذات ليلة بلص يقتحم دارى فاستولى علىّ الخوف ، وأسرعت إلى خزانة صغيرة فاختبأت فيها بين ثنايا الفرش ، وكنت أعلم أن الدار خالية والحمد لله مما يسرق . وقد بحث اللص طويلا فلم يظفر من بحثه بطائل . وهم بالخروج ، ولكن خاطراً دفعه إلى فتح الخزانة ، فلما رآنى صاح فىّ غاضباً :

« مالى أراك مختبئاً ؟ » فلجأت إلى الدعابة قائلا : « لقد أخجلنى أنك لم تظفر بما يستحق السرقة فى دارى فاختبأت فى هذه الخزانة ولم أجرؤ على مواجهتك » .

فضحك اللص مما سمع وكفانى شره وأذاه .

* * *

وشعرت بلص من الأشرار يسرق متاع دارى ذات ليلة ، فتشجعت وقلت له مداعباً :

« ما أضيعَ بحثك أيها السيد الكريم ! إنك تحاول عبثاً أن تعثر فى ظلام الليل الحالك على شىء تسرقه من دارى . ولقد حاولت ذلك من قبلك فى رائعة النهار ، فلم أر شيئاً فى الدار » .

ألا ليت الناس يذكرون دائماً قولة صديقى الألمعى الحكيم عبد الله بن المقفع : « إن الماء يبلغ — مع ليونته — ما لا تبلغ النار مع شدتها »

عبد الله حيا

وفق الأصل : كامل كيلانى

جلالة الفـــاروق

ولويس الرابع عشر

للدكتور محمد غلاب

الآن ، وبعد أن تكسرت على صخرة أحداث المفاوضات موجة التأثر التى أثارها فى النفوس التجاء ملك إيطاليا المتجرد من عرشه إلى مصر ، فإننا نستطيع أن نرسم فى إيجاز تلك العاطفة التى أحسسنا بها عند ما طالعنا فى الصحف وصف تلك الحفاوة الملكية الرائعة التى استقبل بها عاهل أرض الكنانة ذلك الملك المبعد عن بلاده . ولقد كانت فى طليعة تلك الأحاسيس التى شعرنا بها حين قرأنا هـذا النبأ عاطفة النشوة الناجمة عن الإحساس بأن مصر قد بدأت تسترد عزتها الدائرة ، وتستعيد عظمتها الغابرة ، وأن أشعة هذا الأمل العذب قد أخذت تتمثل فى استعداد وادى النيل لإيواء الملوك اللاجئين والأمراء المبعدين ، ولم لا ؟ ألم يكن من أبرز مفاخر فرنسا إلى هذه السنين الأخيرة أنها قبلة اللاجئين ، وغاية المهاجرين ، ولا سيما الملوك والأمراء الذين لأمر ما تعذر عليهم الثواء فى بلادهم . ولا جرم أن فى هذه الخاصية من خصائص الدول معنى من أبهى معانى الرفعة والسمو ، لأنه يلطف آلام فريق من أولئك التعساء ، ويحيى الأمل فى نفوس فريق آخر منهم ، ويشعر فريقاً ثالثاً بأن الإنسانية لم تتحول كلها إلى وحوش ضارية ، لأن الإكرام العملى والحفاوة الواقعية يتركان فى النفوس من محمود الأثر ما تعجز عن تأديته العبارات المعسولة التى لا تكلف المتفيهقين بها كثيراً ولا قليلا . ونحن إذا نظرنا إلى هذه الظاهرة نظرة عميقة ألفينا أن الفضل الأول فيها عائد بالذات إلى حضرة صاحب الجلالة مليكنا المفدى الذى عرف كيف يكشف أسرار عظمة للدولة ، ثم يطبعها بطابع خاص تتحقق فيه الدقة والرقة والمثالية إلى جانب ثماره الأساسية ، وهى المجد والفخار والخلود . وكيف لا تكون هذه السماحة النادرة ، وتلك البشاشة النبيلة ، وذلك الإكرام الكامل من الأمور المثالية فى هـذا العصر الذى كادت الإنسانية فيه — مع الأسف الشديد — تفقد كل معالمها ، والذى أصبح فيه الشغل الشاغل لأكثر الدول هو التفكير فى وسائل ونتائج الاستيلاء على حقوق الغير واغتصاب ممتلكاتهم الشرعية تارة فى مجون واضح وصفاقة بغيضة ، وأخرى تحت ستار الدفاع عنهم أو تحسين حالاتهم الاجتماعية .

وفوق ذلك ، فإن هذه الحادثة قد أعادت إلى مخيلتى ذكريات تلك المحامد النبيلة التى انفرد بها الشرق ، وهى البشاشة التقليدية والسخاء الموروث وإكرام الضيف دون أية علة أخرى غير الالتذاذ النفسانى بتحقيق العمل المجيد وما إلى ذلك من العواطف العالية التى أوشكت واقعية عصرنا الحاضر أن تسحب عليها أذيال النسيان .

أسند بعض الكتاب ذلك المظهر الملكى الجليل الذى استقبل به مليكنا ضيفه اللاجىء الأخير إلى فضيلة عرفان الجميل من جانب جلالته نحو أسرة سافوا ، وتلك بلا ريب عاطفة جليلة جديرة بأن تدفع النفوس الملكية أكثر من غيرها إلى رد خير الصنيع إلى أهله ، ولكن أليس تعليل أولئك الكتاب هذا المظهر الفاتن بتلك العاطفة وحدها يخفى كثيراً من جوانبه الأخرى الخلابة وعناصره الجوهرية التى نحن على يقين من أنها قامت بدور أساسى فى تصرف جلالة مولانا الملك وبواعثه ؟ ومن هذه العناصر الأولية التى غفل عنها أولئك الكتاب تلك الدوافع التى فطرت عليها النفوس النبيلة والطباع الكريمة ، والتى لا تزال تنعش ذوى المحاتد العريقة وتدفعهم إلى القيام بالأفعال الخليقة بالخلود فى ذاكرة التاريخ تتخذ منها الكافة نبراسها فى دياجير الحياة ، وتجد فيها الخاصة دروسا فى العظمة ، والتى تنشىء لدى الشعوب ملكة تذوق المجد المجرد من النفعية ، وهل يحسب أولئك الذين طغت عليهم روح الواقعية أنه من الممكن أن تستغنى الإنسانية عن هذه الأحاسيس السامية ، وأن تكتفى بتلك المدنية المادية مهما بلغت أعلى آواج السطوع والإخصاب ؟

نحن لا نحسب أن الإنسانية مقصورة على هذه الروح الواقعية منحصرة فى هذه الدائرة العملية الضيقة ، وإلا فما هو سر جاذبية تلك الصور التاريخية الساحرة التى فتن جمالها القلوب ، وخلب سحرها النفوس ، والتى قدمت إلى أهل الحياة العملية فريقا آخر

من البشرية ضحوا براحتهم وهدوئهم ، بل بحياتهم أحيانا فى سبيل الشهامة والمروءة المثاليتين . وهكذا لم أطالع فى الصحف نبأ تلك الحفاوة الرائعة المؤثرة التى قام بها جلالة مليكنا المفدى نحو ملك عريق مهاجر من وطنه حتى أحسست بذكريات تنبثق من غياهب التاريخ وتنقذف إلى ذاكرتى ، وسرعان ما أحسست بتوثق وجه الشبه بين تلك الأحداث التى طوت العصور ممثليها ولم تقو على محوها من سجل الزمن ، وبين ذلك الحادث الكريم الرفيع . ولقد كان فى طليعة هذه الذكريات الخالدة حفاوة لويس الرابع عشر ملك فرنسا العظيم بجاك الثانى ملك انجلترا حين قلب له الدهر ظهر المجن .

ومجمل ذلك أنه لم تكد سنة ١٦٨٨ تشرف على الانتهاء حتى كانت الثورة الانجليزية الثانية قد بلغت أقصى حدودها وأعلن الثوار — فى مقدمة ما عابوه على مليكهم جاك استوارت — أنه كاثوليكى ، وأن الأمة بروتستانتية ، فلا ينبغى أن يجلس على عرشها من اختلف دينه مع دينها ، ثم دعوا للتملك عليهم الأمير الهولاندى جيوم الثالث . وعلى أثر نزول هذه الكارثة بالأسرة المالكة ، كان ذلك الملك المنكوب بين عاملين متعارضين : أحدهما يدفعه إلى الالتجاء إلى فرنسا والاحتماء بعاهلها الأعظم والعيش فى كنفه المنيع ، وهو عامل الصلة الأسرية التى كانت تربطه بالبيت المالك فيها . والعامل الآخر هو ذلك العداء الذى كان مستحكما بين دولتيهما فى ذلك الحين ، إذ أن شارل الثانى والد هذا الملك التعس كان قد أعلن الحرب على فرنسا فى سنة ١٦٧٨ أى قبل هذه الصدمة بنحو عشرة أعوام . وأكثر من هذا أن شارل الثانى نفسه كان يحنق على فرنسا حنقا خاصا ويحسدها على أسطولها ، وأنه سجل هذا الشعور الانجليزى التقليدى البغيض الذى يجرى فى نفوس أفراد هذا الشعب جريان الدماء فى أوردتهم وصوره فى هذه العبارات التالية :

« إن كبرى العقبات التى تعترض سبيل الحلف الفرنسى هى تلك العناية العظمى التى يبذلها الفرنسيون الآن لينشئوا لهم كيانا تجاريا ، وليكونوا قوة بحرية تفرض إرادتها ، إذ أن كل خطوة تخطوها فرنسا فى هذه السبيل ، تخلد الحسد بين هاتين الدولتين » .

بيد أن ذلك الملك السيىء الحظ بعد أن وازن بين الحالتين رجح الالتجاء إلى فرنسا لثقته بنبل مليكها وكرم خلقه ، وسمو طبعه . وفى أواخر ديسمبر سنة ١٦٨٨ نجحت ملكة انجلترا وولدها ولى العهد فى اجتياز المانش إلى كاليه بفضل تلك المحاولة الجريئة التى قام بها أحد النبلاء الفرنسيين ، وهو دوق دى لوزان مدفوعا إلى ذلك بالشهامة البريئة التى تتغلغل فى فطرته النقية من العلل النفعية . ولما كان الملك قد وعدها أن يلحق بها فى كاليه فقد انتظرته هناك بعض الوقت ، ولكن لويس الرابع عشر لم يلبث أن بعث إليها بموكب فخم يحف بها إلى باريس لتنتظر رفيق حياتها فى العاصمة مكرمة معززة . وفى اليوم السادس من يناير سنة ١٦٨٩ وصلت الملكة وولدها إلى ضواحى باريس ، فلم يكن من ملك فرنسا — وهو ذلك الملك الأريستوقراطى النزعة — إلا أن انتقل ترافقه حاشيته لاستقبالها ، وعند ما لمح المركبة الملكية ترجل واتجه إليها ، فعانق ولى العهد فى حنان أبوى ثم هرول إلى الملكة ، وبعد أن حياها تحية رقيقة مفعمة بالاحترام والاكبار ، أصعدها إلى مركبته وأجلسها إلى يمينه كما تقتضى أرقى مراتب الذوق واللياقة . ولما وصلوا إلى العاصمة وضع ذلك الملك الكريم تحت تصرف ضيوفه قصر سان جيرمان ، وهو ثانى قصر فى الدولة بعد قصر فرساى ، ثم بذل كل ما فى وسعه لإسعادهما وللحيلولة بينهما وبين الشعور بغيبة أدنى الكمالات . وفى أثناء رحلة الملكة إلى باريس ظفر زوجها بعد عناء شديد بنعمة الوصول إلى الساحل الفرنسى .

وفى اليوم السابع من يناير وصل بدوره إلى ضاحية سان جيرمان حيث كان لويس الرابع عشر فى انتظاره . وعند ما أعلن قدومه أسرع لاستقباله وتعانقا عناقا مؤثرا أحس أثناءه ملك انجلترا بالحقيقة المرة وقدر منزلته الراهنة تجاه أعظم ملوك الدنيا فى عصره ، فانحنى حتى ركبتى لويس الرابع عشر ، ولكن هذا الأخير تأثر كثيرا وأبى أن يعامله إلا معاملة الند للند ، وبعد أن تسارا مليا اقتاده إلى حيث تقيم قرينته وولده ثم ودعه قائلا له : « هذا هو منزلك تستقبلنى فيه كما أستقبلك فى فيرساى » . ولم يكتف ذلك الملك الجليل بهذه البشاشة الفائقة ، وإنما خصص الأيام التى تلت يوم قدوم ضيفه الكبير للاحتفالات بمقدمه

الطـــاقة الذرية

لم يكن إنطلاق الطاقة الذرية بالشكل الذى تبين حديثاً للعالم وليد فكرة تخيلها العلماء وأخرجوها من حيز الفكر إلى حيز العمل فى وقتنا الحاضر . بل نتيجة لسلاسل طويلة من التفكير الطويل والبحث المتواصل .

الإستنتاجات والبحوث الأولية :

منذ ٢٥٠٠ سنة مضت، عارض ديمقراطيس وهو أعظم فلاسفة اليونان القول بأن المادة قابلة للتجزئة من غير حد . وقرر وجود الجزء الذى لا يتجزأ ، أو الجوهر الذى يقف عنده التجزؤ وتحلل إليه الأجسام . وكان يرى أن الجزء الذى لا يتجزأ (أى الذرات) صغير لا تدركه الحواس . وهو فى حركة دائمة وباق لا يدركه الفناء . وقد تطورت تلك الأفكار على يدى ليوراطيس ووضعت فى المنظومة المشهورة المسماة « فى طبيعة الأشياء ».

وقد اعترف الإنسان بداهة منذ أن بدأ فى التفكير والتعليل والوصول إلى شرح العمليات الطبيعية فى احتمال صحة النظريتين اللتين تنص إحداها على « الإستمرار » والأخرى على « عدم الإستمرار » ، فحبذ ديمقراطيس نظرية عدم الإستمرار ، بينما حبذ « أفلاطون » وتلاميذه نظرية الإستمرار ، أى النظرية التى تنص على أن الطبيعة مركبة من سائل شامل . أو بتعبير آخر (انشغال الفراغ بالهيولى) وكل من هاتين النظريتين صحيحة من الناحية الفلسفية . على أن هناك اختلافاً ظاهراً بينهما إذا ما وضعا تحت البحث التجريبى العلمى . ولما كانت العبودية مسلماً بها فى الحياة الإجتماعية فى ذلك العصر اعتبرت الفلسفة الفكرية من مكملات الحياة الأرستقراطية ، بينما العمل اليدوى مهين لكل من يزاوله . ونرى من هذا أن فلاسفة ذلك العصر كانوا يعتبرون للعمليات اليدوية ، أو بعبارة أخرى البحث التجريبى العلمى أحط طريقة للوصول إلى حقيقة الأشياء . ولما كانت الفلسفة الأفلاطونية معترفاً بها فى الفترة الأخيرة قبل ميلاد المسيح وكانت آراؤه وتعاليمه تمثل التفكير السائد فى ذلك العصر أخذت نظرية الإستمرار مكانتها وسادت ، وكانت هى النظرية المعترف بها لمدة ٢٠٠٠ سنة تقريباً .

نشوء العلم الحديث :

وفى أواخر العصر الأوسط نشأت حركة فكرية جديدة بظهور جيل جديد من الفلاسفة الطبيعيين . وربما كان السبب فى هذه النهضة ارتقاء منزلة العامل اليدوى مثل البناء والرسام والمهندس والطبيب من ناحية ، والتفكير فى الفلسفة الرومانية واليونانية على أساس جديد ، وذلك بظهور عصر الإصلاح ، أو النهضة العلمية من ناحية أخرى . وقد ظهرت النظرية الذرية للمادة من جديد واستخدمها « فرانسيس باكون » كقاعدة لنظريته فى الحرارة ؛ واستخدمها أيضاً روبرت بويل لتفسير ماهية التغيير الكيميائى . وباستخدامها كذلك تمكن نيوتن من الوصول إلى قانون بويل وكان فى هذا أول من توصل إلى تعبير رياضى لنظرية طبيعية . غير أن الفخر يرجع «لجون دالتون» الكيميائى

والحفاوة بشخصيته ، وليس ذلك كل شىء ، بل إنه أمر أن يعامل ذلك الملك المخلوع فى البلاط الفرنسى معاملة ملك على عرشه.

وما أبهى ما تحدثنا به مادام دى سيفينييه فى تعليقها على هذه الحادثة إذ تقول : « إن الملك قد سلك بإزاء جلالتى ملكى الإنجليز مسلكا إلهيا بحتا ، أفليس من أوصاف ذى القدرة والجلال إعانة ملك طريد لفظته بلاده ، وغدر به أصدقاؤه وهجره أنصاره ؟ لا شك أن نفسية الملك العالية قد راقها أن تقوم بهذا الدور العظيم » .

وهكذا بقى جاك الثانى فى ضيافة ملك فرنسا عزيزا محترما حتى فارق الحياة فى سنة ١٧٠٢ .

وأخيرا ألست ترى معنا أن وجه الشبه بين هذين الملكين : فاروق الأول ولويس الرابع عشر قوى متين إلى حد يلفت النظر ويسترعى الانتباه .

محمد غلاب

الإنجليزى الشهير فى وضع تلك النظرية فى شكلها الحالى . فكانت هى الحجر الأساسى الذى بنى عليه علم الكيمياء الحديث . وكانت تلك النظرية أيضاً بمثابة الهام لكل باحث كيميائى حديث .

ولما قارب القرن التاسع عشر على الإنتهاء كانت نظرية دالتون للدقيقة فى أنها النهاية القصوى لكل مادة كيميائية دقيقة لا تتغير ولا يمكن نفوذها يتميز بها كل عنصر عن الآخر، نظرية مقبولة اعترف بها كل علماء العالم تقريباً كأساس لطبيعة الأشياء .

المواد الرديومية . أو المواد ذات الفعل الرديومى :

ظهر كشفان خطيران فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر : الأول هو الكشف عن المواد الرديومية فى عام ١٨٩٦ ، والثانى الكشف عن الأليكترون فى عام ١٨٩٧ . لما كان الهدروچين هو أخف العناصر وزناً ظن العلماء أن ذرة الهيدرچين هى أصغر الدقيقات الممكن الحصول عليها ، والألكترون دقيقة وزنها ١ على ٢٠٠٠ من وزن ذرة الهيدروچين . وعلاوة على ذلك يمكن الحصول على الألكترونات من أى نوع من الذرة . ويمكن القول من هذا أن الذرات لا بد أن تكون ذات تركيب وأنها قادرة على التغيير . وقد أمكن إثبات هذه النتيجة بعد دراسة ماهية المواد الرديومية دراسة شاملة . وقد كان « أندرو بكرل » هو أول من كشف عن المواد الرديومية فى عام ١٨٩٦ إذ لاحظ أن أحد العناصر « اليورانيوم » ينبعث منه إشعاعات دائمة تخترق المادة وتؤثر على الألواح الفوتوغرافية وتنتج فى الوقت نفسه على ما يظهر مقداراً من الحرارة لا ينفد . وقد تابع « بيير وماري كورى » بحوث بكرل وكشفا عن مادة الرديوم . وهى مادة رديومية أقوى بكثير فى تأثيرها من اليورانيوم .

وقد ظهر فى هذا الوقت عالم نيوزيلاندى اسمه « أرنست رثرفورد » وهو من أعظم علماء هذا العصر شهرة وأعلام مكانة . كان رثرفورد يبحث فى أشعة إكس والألكترونات تحت إشراف العالم البريطانى المشهور « السير چوزيف تومسون » فى كبردج . ولما علم رثرفورد بالكشف عن المواد الرديومية وخواصها تاقت نفسه فى الحال للبحث فيها وعلى تركيز قواه الفكرية ومعلوماته التجريبية فى بيان ماهيتها . وقد عين رثرفورد فيما بعد أستاذاً لعلم الطبيعة بجامعة مونتريال بكندا . وفى بضع سنوات تمكن من وضع الخواص الأساسية للمواد الرديومية . وقد اقترح رثرفورد وزميله « سودى » فى عام ١٩٠٢ أن الأصل فى الفعل الرديومى هو « الإستحالة » الذاتية للذرات . وقد بينا أيضاً أن الذات تستحيل على ما يظهر حسب قوانين المصادفة . وكانت هذه النظرية الخطيرة هى الثالثة من النظريات التى وضعت للكشف عن ماهية المواد الرديومية ، ويتبين من هذا أن قوانين المصادفة على ما يظهر هى فى الواقع أساس كل العوامل الطبيعية . وهذه نتيجة خطيرة يعد حدوثها مثالا جديداً من أمثلة الإستحالة .

الطاقة :

جاء الكشف الذى نص على أن فى داخل الذرة مقداراً هائلا من الطاقة فى وقت كانت فيه النظريات التى وضعت فى تفسير الطاقة قد تطورت تطوراً خطيراً أمكن بها تفسير ماهية الطاقة فى العناصر الرديومية . ولم يضع الباحثون قبل القرن التاسع عشر نظرية يمكن بها تفسير طبيعة الطاقة تفسيراً ظاهراً مبنياً على التجارب . ولما تطورت الآلة البخارية تقدم « چيمس وات » بالتعبير السائد وهو « قوة الحصان » . وبعد أن بحث العلماء فى آلات الحرارة تبين أن هناك تعادلا صحيحاً مضبوطاً بين مقدار الشغل الذى تعمله الآلة ومقدار الطاقة التى توضع فيها . وقد وضع «ماير وچول » فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا برهاناً قاطعاً بينا به أن الطاقة على اختلاف أنواعها سواء كانت ميكانيكية أو كهربائية أو طبيعية أو كيماوية أو حرارية كلها متعادلة يمكن تحويل كل منها إلى الأخرى . ثم أمكن فى الوقت نفسه الحصول على تعبير رياضى دقيق لمقدار الطاقة الممكن الحصول عليها من قطعة من الفحم وذلك بوضعها تحت ظروف خاصة . ثم وجد العالم الألمانى الطبيعى « ماكس پلانك » فى عام ١٩٠٠ أنه من المستحيل تفسير توزيع الطاقة فى الأشعة الملونة المختلفة فى الضوء

المنبعث من مصدر ساخن مثل الشمس بدون الفرض أولا بأن الطاقة قد انبعثت فى شكل حزم صغيرة ذات حجم محدود . ويظهر من هذا إذن أن الطاقة لا بد أن تبقى فى شكل ذرى .

وضع «إينشتين» فى عام ١٩٠٥ نظريته المعروفة فى « تبادل الانتساب» لشرح الحقيقة الغريبة التى تنص على أن سرعة الضوء ثابتة فى المادة بقطع النظر عما إذا كان منبع الضوء متحركا أو غير متحرك . وتخالف هذه النظرية النظريات القديمة المألوفة للمسافة والزمن مخالفة تامة ، بل تؤدى إلى نظرية جديدة تبين فيها المسافة والزمن كاملين مختلفين لنفس الأساس الواحد . ولما تبع هذا البحث الكشف عن العلاقة العضوية بين المسافة والزمن، بين إينشتين أن هناك علاقات مماثلة بين الخواص الأخرى المميزة للمادة كانت تعتبر حتى هذا الوقت كأنها خواص مميزة ظاهرة لا يرتبط بعضها مع بعض . وقد بين إينشتين أيضاً أن كلا من الكتلة والطاقة قابلة للتغيير والتبديل، وأنهما خاصتان من أساس واحد . ويمكن الاستدلال من هـذا أن المادة هى عبارة عن طاقة متجمعة .

ولم يمض من الوقت غير القليل حتى تنبه العلماء إلى أن هذه النظرية يمكن بها شرح أصل تلك الكميات الهائلة من الطاقة التى تنبعث من الشمس والنجوم شرحاً وافياً كاملا . فقد أشرقت الشمس من ملايين السنين ، وهى مستمرة فى الاشراق ولم تنقص طاقتها إلا بكمية ضئيلة جداً .

نشوء علم طبيعة النواة :

كان المعروف إذن فى أوائل القرن العشرين أن كل الذرات تحتوى على جوهر مشترك وهو الالكترون ، وأنه يمكن تحويل ذرات العنصر إلى ذرات لعنصر آخر ، وأن هذا التحويل يلازمه انطلاق الطاقة .

وقد تابع رذرفورد بحوثه ، وتصور فى مخيلته فكرة جريئة جداً نصت على استخدام تفكيك الذرات للبحث عن تركيبها ، أو بعبارة أخرى البحث فى الدقيقات المنبعثة من الذرة للكشف عن ماهية موضوعها أو أصلها فى الذرة . وأعقب ذلك أن أجرى سلسلة من التجارب تعد من أمهر التجارب العلمية وأدقها . وضع من نتائجها نظرية النواة للذرة فى عام ١٩١١ . وقد بين رذرفورد أن ظاهرة التشعيث وسلوك الدقيقات المندفعة بانفجار الذرات تدل على أن الذرة تتركب من نواة صغيرة جداً تكاد تحتوى على الكتلة الكلية للذرة . ويحوط النواة الكترونات عدة موزعة حول النواة على أبعاد شاسعة نسبياً ، وعلى هذا تعتبر الذرة وكأنها شىء فارغ فسيح جداً ، وأن الكتلة الذرية الكلية للذرة تقريباً مركزة فى دقيقة فى وسطها (أى فى النواة) وأن النواة مشحونة بشحنة كهربائية موجبة ، وأن هذه الشحنة الموجبة توازن تماماً الشحنة السالبة التى تحملها الدقيقات الأخرى (أى الالكترونات) الموجودة فى الأجزاء الخارجية من الذرة ، وقد ظهر أيضاً أن الذرة إذا استحالت نشأ هـذا عن تفكك النواة نفسها ، وليس نتيجة لفقد بعض الالكترونات الخارجية الموجودة فى الفراغ حول النواة ، أى أن المقدار الهائل من الطاقة المنبعث من المواد الرديومية يتأتى من داخل النواة .

التشعيث الصناعى :

ولما كانت المواد الرديومية مثل اليورانيوم والراديوم تتفكك باستمرار بالمصادفة كان من الجائز الفرض إمكان تفكيكها صناعياً ، وقد بدأ رذرفورد فى تحقيق هذا .

حضر فى هذا الوقت من كوبنهاجن أخصائى هولندى فى علم الطبيعة حديث السن اسمه « نيل بور » للبحث مع رذرفورد فى مدينة منشستر ، وقد كان أن وضع بور قبل مقدمه تفسيرات للكثير من الخواص المعروفة للذرات ، أساسها أنموذج رذرفورد للذرة والنظرية الكمية للطاقة التى وضعها ماكس بلانك . وقد أمكن باستخدام « النظرية الكمية للذرة » التى وضعها بور تفسير عدد كبير من الحقائق الطبيعية فى التحليل الطيفى تفسيراً صحيحاً شاملا ، وكذلك تفسير وجود « جدول مندليف » للعناصر .

استمر رذرفورد إبان سنى الحرب (١٩١٤ – ١٩١٨) فى محاولة شطر الذرة وتجزئتها صناعياً ، وتوصل إلى أول نتيجة أثبت بها نجاحه قبل انتهاء الحرب ، وبعد انتهاء الحرب مباشرة فى عام ١٩١٩ توصل وهو فى كمبردج إلى برهان قطعى فى إمكان شطر ذرات الهيدروجين والالومينيوم ، وقد توصل إلى ذلك بتصادم تلك الذرات بدقيقات مندفعة من مواد ردومية .

وقد كان من الطبيعى البحث فى إمكان استخدام تلك الطريقة فى شطر الذرة بطرق ميكانيكية ، وقد تحقق هذا بتصميم زميله المهندس الكهربائى « كوك كروفت » لجهاز استخدم فيه ذرات الهيدروجين التى حصل عليها صناعياً فى تفريغ كهربائى ، والتى زيدت سرعتها زيادة كبيرة باستخدام مجال كهربائى لتحطيم ذرات عنصر متوازن آخر وهو عنصر « الليثيوم » . وقد وجد أن ذرات هذا العنصر تتحطم ، وأن الطاقة المنبعثة هائلة جداً بالنسبة إلى تفاعل صغير جداً مثل تحطيم نواة واحدة ، ولما كانت التفاعلات النووية قليلة فى نفس الوقت كانت كمية الطاقة المنبعثة نتيجة للتفاعل صغيرة جداً بالنسبة لمقدار الطاقة الكلى وهناك ثلاثة عوامل ساعدت على الوصول إلى هذه النتيجة وهى : أن الدقيقات المصادمة شحنت بشحنة موجبة التكهرب ، أى مثل شحنة النواة المطلوب التصادم معها ، وإن الدقيقات ذات الطاقة العالية جداً هى التى تتحمل التنافر الناتج ، وإن حجم النواة صغير جداً جداً بالنسبة إلى حجم الذرة ؛ وأخيراً إن التفاعل لا يتولد ذاتياً .

النيوترون :

وفى الوقت الذى كان كوك كروفت يجرى فيه بحوثه كان زميله « چيمس شادويك » يبحث فى الطرق التى يمكن بها شرح النقط الدقيقة المرتبطة بشطر الذرات صناعياً ، وذلك باستخدام مواد ردومية طبيعية . ففى الفترة الأولى من عام ١٩٣٢ عقب بحوث أجراها « بوذ ، بيكر ، چوليو » بين شادويك وجود دقيقة أخرى . شحنتها الكهربائية متعادلة . لها نفس الكتلة فى النواة كذرة الهيدروجين ، ولكنها تختلف عن تلك النواة وذلك فى أن ليس لها أى شحنة كهربائية . فكان من المنتظر حينئذ أن يكون لتلك الدقيقة الجديدة التى سميت « بالنيوترون » قوة اختراق (أى نفوذ) هائلة . فاذا تصادم النيوترون بذرة ما لا ينجذب نحو الالكترونات السالبة التكهرب التى تحوط الذرة ، كما أنه لا يتنافر مع نواة تلك الذرة الموجبة التكهرب . أو بعبارة أخرى يكون من السهل نسبياً للنيوترون أن يؤثر على الذرة التى يتصادم معها فيحدث تحطيمها . وخلاصة القول أن العلم قد كشف عن طريقة جديدة قوية جداً لتحطيم نواة الذرة ، بل كشف عن طريقتين لتحطيم هذه النواة فى بحر أسابيع قليلة

عن النشرة العلمية الانجليزية

البقية فى العدد القادم

كتب قرأتها :

الأدب الشعبي اللبناني

للأســـتاذ حبيب الزحلاوى

يطيب للنفس فى بعض الأحايين أن تنضو ما عليها من أردية مستعارة لتنعم بساعة من وجودها النقى الأول ، كما يحلو للذهن أن ينحى عنه شواغله وينفلت من قيوده ليغتبط برهة من هدوء تعود به إلى عهد البراءة الخالصة يوم كان خلياً من متاعب الحياة.

ألم نلتفت مرة إلى أنفسنا وقد لقيناها تعود من سبحات لا هى يقظات واعية ولا هى هجعات غافية تجد فى غضونها الراحة والهناءة ؟

ألم تر رجلا من ذوى العقـول الراجحة والاتزان الصحيح يطمئن إلى صحبة من هو دونه بمراحل استجماما لذهنه وترفيهاً عن نفسه ؟

أليس الأدب الشعبي عوداً على بدء الفطرة للتعبير عن المشاعر والغرائز بلغة البداهة الساذجة ؟

لعلى بهذه المقدمة أستطيع أن أغرى القارىء بعودة ذهنية إلى خميلة من خمائل الطبيعة الفطرية نـكشف بها عن ناحية من جمال أدب شعبى لشاعر لبنانى من زحلة يدعى أميل مبارك قصر أغانيه على الضيعة .

للضيعة اللبنانية طابع خاص يختلف عن طوابع القرى فى أغلب الأقطار والأمصار ، كما أن للريف اللبنانى ميزة تميزه من بقية الأرياف ، فلا غرو إذا خصه شاعر بأغانيه ووقف على وصفه ديوانه « أغانى الضيعة »

يمتاز الأدب الشعبي اللبنانى بخلال طبيعية ومزايا اجتماعية ، وأوصاف محلية قل أن تتوافر لأدب شرقى سواه .

يمتاز بالحنين وإثارة الوجدان ، لأن أكثر من نصف أهالى لبنان يعيشون فى مهاجرهم النائية عن الوطن ، ولأن هاتيك المهاجر لم تقو ولن تقوى على أقلمة اللبنانيين ومزجهم بها فى الروح والشعور والخلق .

ويمتاز أيضاً بالبقاء لسهولة حفظه وعذوبته فى الإنشـــاد الجماعى ، واشتراك المرأة فى تذوقه ، وبجمعه بين الوجدان والعاطفة ولطابعه الدال على كيانه اللبنانى الفريد ، وعلى الحرص على إبراز هذا الـكيان فى المهجر .

ويمتاز أخيراً بالنقاء من شوائب اللهجات والتعبيرات المجاورة للحدود اللبنانية ، بمحافظته على المفردات العامية والاصطلاحات التى تتقارب قليلا ، ولا تتباعد كثيراً بين قرية وقرية سـواء أكانت فى الجنوب أم فى الشمال ، بصوره المنقولة نقلا حسياً عن جمال طبيعي من صنع المجهول لجبال وأودية وينابيع وغدران وأشجار وأثمار وأطيار ندر وجود ما يضارعها فى فتنتها الساحرة وجمالها الأخاذ فى أنحاء هذه الـكرة الأرضية ، وفى رسم عادات أهل الضيعة ، وطبائعهم وسذاجتهم وبساطتهم فى حياتهم القريبة من البدائية .

مشتاق أرجعْ للضيعه … مشـتاق كتير
إنعمشـقلى بشى تينه … وصـيد عصافير
عنت عَ بالى الضـيعة … وياما مشـتاق
عِنِّى السـلة بكوعى … وحوِّش جرجير

قد يجد غير اللبنانى بعض الصعوبة فى فهم الـكلمات لارتباطها بحروف أو لاندغامها فى حروف أخرى ، ولـكن بيسير من إعمال الفـكر تدنو المعانى من الافهام ، لأن الـكلمات ليست بدخيلة على اللغة ولا هى ببعيدة عن أصول آدابها .

نحن نرى أن البيت الأول واضح كل الوضوح لـكل قارىء أما البيت الثانى فقد استعمل الشاعر كلمة « تعمشق » بمعنى « تسلق » وفى البيت الثالث كلمة « عَ بالى » المحذوفة منها بعض الحروف بمعنى « على بالى » .

مشتاق ارجع عالضيعه … شـوفْ رفاق
واسرحْ بمروجا الُخضرة … وجـو النـاق(١)
واسمع دجاجات ستى … عمبتقـــاق
ورافق جدى وبقراتو … واحمِّلوا النـير

يجب أن نلاحظ أن أكثر أهالى لبنان يلفظون القاف بصحيح مخارجها ، بعكس الـكثيرين من أهالى مصر والشام يلفظونها همزة ، أما أهالى حلب فيلفظونها « آف » مفخمة .

كِنِتْ صغير ، وصرت كبير … برمت قطار المسـكونى(٢)
غنى عشت ، وعشت فقير … وشـفت كتير بزمانى

(١) أى النقى. (٢) أى جبت أقطار الدنيا .

وما عا بالى بيعن غـير البيت الربانى

بهذه الكلمات الموجزة البسيطة يعبر الشاعر عن خلجات صدر كل لبنانى كان فى الأصل صغيراً يوم ترك قريته فى طلب الرزق، ثم صار كبيراً وقد جاب أقطار الأرض، وعاش فقيراً ثم غنياً، ورأى الكثير من دهره، ولم يبق ثمة من شىء يخطر بباله سوى البيت الذى نشأ فيه، ودرج منه، ليعود إليه، ولو يدب إليه دبيباً.

محْلا[1] الضيعه والزقات   والراعى وصوت العنزات
ومحلا خرير الشلالات   تحت سلاح السنديانى[2]
يا هل ترى برْجع بعد   بَسْكن بيت الربانى؟

***

محلا الضيعة محـلاها   محـلا مناخا وهواها
كيف ما بدّى أهواها   بلاّ الهجـر كفانى
راجع يا بيتى مشـتاق   بَهْواك وأنت بتهوانى

***

يقام حتى هذه الساعة، أسواق للأدب الشعبى تعقد حلقاتها فى الساحات العمومية، يؤمها الناس من الجنسين من كل حدب وصوب يستمعون مباراة الزجالين ويشتركون معهم فى المزيج والإنشاد. وتمتاز هذه الاجتماعات العامة بميزة الارتجال التى لا أحمدها كثيراً لاضطرار مرتجليها إلى الارتكان على الذكاء وحده دون الروية والتبصر. وقد حدثونا عن إحدى هذه الحلقات وقد حضرها الدكتور طه حسين بك فقال الزجال مرتجلا

وحياتك يا طه حسين   مِنّى عاوز التّنتين
عين الواحـدة تكفينى   خد لك عين وخلى عين

أما الزجال أميل مبارك صاحب ديوان «أغانى الضيعة» فهو نسيج وحده، لا يحتذى سواه من الزجالين، بل ينظم القصيدة فى شهر أو فى شهور، وما يزال بها نحتا وصقلا، تارة فى تنحية الكلمات الذاهبة فى الأدب مذهب المثل، وتارة فى استبعاد الكلمات العامية التى صارت شبه منسية أو هى فى حكم المندثرة الحوشية، حتى يبلغ الغاية من الرضى عنها. ويكفيه أن ينشدها مرة واحدة حتى تتلقفها الآذان، وتتداولها ألسنة الناس إنشاداً، وينقلها البريد إلى كل صوب يأوى إليه لبنانى فى بقاع الأرض

اشتقت لزقزقة العصفور   ولريحة عــوا بلادى
بدى أرجع لمّ زهور   عن حفة نهر الوادى

***

ربينا سنين وربينا شهور   بالوادى بين الصـخور
ربينا وكان يجى العصفور   يشاركنا عَ الزوادى

كم لمشاركة العصفور على الزاد من سحر روحى جذاب قد لا يستعذبه سوى أليف الضيعة والمرهف الحس!

***

لا يشغل الغزل حيزاً واسعاً فى ديوان «أغانى الضيعة» المتواضع، فكأن الحنين إلى المكان ألهى ناظمه عن السكان، وكأن حرصه على ذكر الدالية بعناقيدها، والتينة بما على فروعها من أعشاش، والعليق المتشابك عند الغدير، وتشوقه إلى قطف «كبوشه» أى عناقيده المزة الطعم، والصفصافة المنحنية الأغصان، والالتفاتات الكثيرة إلى ما جل ودق فى طبيعة أشياء وأشخاص الضيعة من جرود وسهول وجبال إلى البقرة والعنزة والدجاجة، أنساه عنصر الحياة الأول، عنصر المرأة، وهى سر الغريزة الحقيقى، لا نسياناً كلياً، ولكنه توسل به توسلا عرضياً فجاء وكأنه يستغنى بالتلميح عن التصريح.

لما شافتنى تنهدت بدون حكى   وغرغرت بالدمع قصدا تشتكى
واحمر ورد خدودها وبكيت خجل
ومن غصّتى ما قدرت قلها شـو بكى

لنلاحظ أن النظرة هى التى عطلت لغة الكلام، وأن الخجل هو الذى أحنى الرأس، وأن الغصة اشتركت مع النظرة فى تعطيل اللسان لخفقى القلب.

ضميت[1] واقف وهى كمان وقفت معى
رحنـا ما قلنا رْجاع ولا ارجعى
وتنينا بها الوقت كنا بلا وعى
عرفنا شو حكيو قلوبنا من التكتكى

فهذه الصورة على ما فيها من بساطة التصوير الرائع لاضطرابات النفس وخلجات الوجدان ونبضات الغرائز تماثل الصورة التالية وهى أكثر إمعاناً فى سذاجتها وأدق فى براءتها.

(١) أى ما أحلا. (٢) أى ما أحلى

(١) ضميت وتنيت: بمعنى بقيت

قديش [(١)] كنا نروح ع دْروب الهوا   وكبوش [(٢)] نشنا محبى [(٣)] نقطف سوى

وكل ما حكينا ينقـزنا الهوى   قديش كنا نخاف لمح خيالنا

قديش كنا نروح نلعب بالحقول   ونفرفط الزعرور ونفز الجلول

وقديش كان بـيك لبى يقول   بعدو ولدْ لا تضربو كرما لنا

كم من مرة ذهبنا إلى الحقول وتخطينا الحواجز لنفرط الزعرور ؟ وكم كان يقول أبوك لأبى دع ولدك إكراماً لى ولا تضربه لأنه لم يدرك بعد .

لناظم ديوان « أغانى الضيعة » ميول بينة إلى تسجيل كل ما يحيط بحياة القرية اللبنانية من ظواهر جوية وتغييرات مردها إلى تبدل فصول السنة وهى جد مضبوطة فى ربوعه يعرفها قطانه باليوم الواحد يعدون لها العدة ، ويرى طوالع الشتاء فى فصل الخريف ...

تجمعوا النحلات ورجعوا للقفير   ... ...

والشمس ردوا حبالها ، وناص القمر

والمى شحت ما بقى لهـــا خرير

ردت أشعة الشمس وقل ضوء القمر ، وشحت المياه وقلت ، وعاد النحل إلى قفاره لأن البرية تتعرى فى الخريف .

ويستقبل الشتاء بابتسامة المتأهب :

محلا الشـــتا ومحلا البرد   لو عندك مونى [(٤)] تكفاك

وندف الثلـــج وطق الشرد   والقعـــدة حدّ الشـــباك

ومحلا الهوا بقلب الغـــاب   ومحلا الـكبوة [(٥)] حد النار

والرعد وطـــرق المزراب

وهو يتشوق إلى نسيم الصيف من خلال زهور الحقل فى فصل الربيع .

رجع عالعش العصـفور   عا لحقلة طار الفرفور

المرجة فرشت أرضا زهور   تانيّم قـــر نيسان

***

وبتشوف الندى بنيسان   عامدى السهل وطولو

بتحسـب فوق الريحـان   الدنيـا مشتـابى لولو

على مدى السهل ، ترى الندى فوق الريحان فى شهر نيسان كأنه اللؤلؤ أمطرته السماء .

***

يعلم الشاعر مبارك أن عدد القاطنين جبال لبنان اليوم يساوى عدد المهاجرين المتناثرين فى أميركا الجنوبية والشمالية وفى المستعمرات البريطانية وسواها ، ويعلم أيضا أن لا سبيل ألبتة إلى عودتهم إلى قراهم إلا بالتحبيب والتشويق والتذكير ، ولم يتوسل بالموازنة بين مدن يسكنونها وهى عامرة ، وبين مساقط رؤوسهم وهى شبه مقفرة ، ولا بالمقارنة بين عواصم نزلوا بها وبين مباءات طفولتهم ومعقد ذكرياتهم ، بل ابتـكر طريقة حوار وسؤال بين لبنانى مقيم وبين لبنانى مهاجر :

بتسألنى شـو فى عندك   بالضيعة ، تنـك مهم [(١)]

عندى أحسن ما عندك   عندى بَسْـطْ وعندك هم

***

عنـــدى البيت الربانى   والمعبور ودروب الكرم

وعندى قدحة وصـوّانه   والضبوه وتنتات الغرم

عندى البيت الذى ربيت فيه ، وعندى الطريق الموصل إلى كروم العنب والتين ، وعندى أيضا عدة التدخين عامرة بالتبغ وقداحة الشرارة .

فى عندى القعده بكّير   تحت صنـوبر ضيعتنا

وترويقه قـرّه وجـرجير   بتسوى العيشه وغربتنا

عندى أن الجلوس فى الصبح الباكر تحت ظلال الصنوبر وتناول طعام الفطور من الجرجير والقرة وهى من فصيلة الجرجير إلا أنها حريفة يساوى حياة بأكلها نقضيها فى الاغتراب .

ياما عبينـا السـلة   تين أسود من تينتنا

ياما لعبنـا عالتـــله   نحنا وبنـــات جارتنا

كم ملأنا السلة من التين ، وكم لعبنا على الربوة مع البنات

ويعود أيضا فينطق اللبنانى المهاجر فيصور خلجات صدره وأمنيات نفسه ويقول :

بعد بيفتح درب البحر   ولبنان بشوفلو صـوره

نخمين برجع للرزقات   ويعيش عيشه مستوره

---

(١) قديش بمعنى كم الاستفهامية أى قدر أى شىء
(٢) الـكبوش هى عناقيد معلق
(٣) نشنا محبى أى بقر عنها كالحبوب
(٤) أى مؤونة الشتاء
(٥) الـكبوة : النوم المتقطع المتهدم

(١) أى أنت رجل ذو أهمية

٨ – الزندقة
فى عهد المهدى العباسى

أصولها الفارسية

للأستاذ محمد خليفة التونسى

[بقية الكلام فى مذهب زرادشت وكتابه : التنوية : مرقيون وابن ديصان]

روى الراغب الأصفهانى أن « زرادشت شرع زواج الأمهات[١] » كما روى القلقشندى أن المجوس « يستبيحون فروج المحارم من البنات والأمهات ، ويرون جواز الجمع بين الأختين[٢] » كما روى الجاحظ فى أخباره فى الحمق أن ابن عوانة الكلبى قال : « استعمل معاوية رجلا من كلب فذكر يوما المجوس وعنده الناس ، فقال : لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم! والله لو أعطيت مائة ألف درهم مانكحت أمى ! فبلغ ذلك معاوية

(١) محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٢٤١ .
(٢) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥

وبرجع بفنى فراقيات عاعنات الناعوره

ترى يسهل ركوب البحر فأعود أرى لبنان مرة ثانية ؟ ترى أعود إلى بيتى وكرمى اكتفى بالعيش الهنىء ؟ أترانى أعود أخيراً إلى ضيعتى أسمع صرير الساقية فأتخذ منه لحنا للغناء والتذكر بالأحباب المفارقين وطنهم ؟

هيهات ! ! تلك أمانى تختلج فى فؤاد المهاجر ، ولكن مغالبة الحياة ، وزحمة العمل ، والتقيد بروابط الزواج والنسل تهدىء حركة تلك الخلجات ، وتخفف من اضطراباتها . أما وما برحت أبواب الهجرة مفتوحة للبنانيين ، وما دامت المدينة اللبنانية تجذب أبناء الضياع إلى حواضرها لتلقفهم من جديد إلى ميادين رحبة فى طلب الرزق ، فإن الزجال اللبنانى سيجد المعين الغزير الذى يبعث فيه روح الحنين والشوق فينشد القصائد الحية كما أنشدها أميل مبارك فى « أغانى الضيعة » .

حبيب الزحلاوى

فقال : قاتله الله ! أترونه لو زاده على مئة ألف فعل ! فعزله[١] » وقال اليعقوبى عند كلامه فى الفرس : إنها « تنكح الأمهات والبنات ، وتذهب إلى أنها صلة لهن وبر بهن وتقرب إلى الله فيهن[٢] » ، وينسب عبد القاهر البغدادى إلى المجوس هذه الأنواع وغيرها من الزواج كزواج بنات البنات وبنات البنين[٣] وقد ظلت ضروب الزواج هذه شائعة بين المجوس وغيرهم من الطوائف الأخرى حتى بعد فتح المسلمين فارس وظل المسلمون يعيبونهم بها ، وينكرونها عليهم ، وليس من همنا هنا أن نبين رأينا فى هذه الأنواع بل نرجئه إلى الكلام فى أثرها عند الزنادقة، وحسبنا أن نبين أن العرب قد عرفوا فى جاهليتهم بعض هذه الأنواع وكانوا يستبيحونها ولا ينكرونها حتى جاء الإسلام فأنكرها عليهم وعلى غيرهم[٤] وحدد من يحل للانسان أن يتزوجهن ومن يحرم عليه الزواج منهن .

عرف العرب فى الجاهلية زواج الأم كما حكى عنهم المؤرخ اليونانى استرابو ، وعرفوا زواج امرأة الأب فقد تزوج الصحابى الجليل عمرو بن معد يكرب الزبيدى امرأة أبيه فى الجاهلية ، ولم يكن راضياً عنها[٥] كما تزوجت باهلة أم القبيلة المعروفة بهذا الإسم[٦] زوجها معناً أبا قبيلة باهلة ثم تزوجت بعده ابنه ، بل عرف العرب من ضروب الزواج ما يسمى نكاح الضمد وهو — كما جاء فى السيرة الحلبية — أن يجتمع جماعة دون العشرة ويتزوجوا امرأة واحدة[٧] ولذلك كله أسبابه الاجتماعية مما

(١) البيان والتبيين (طبعة السندوبى الثانية) ج ٢ ص ٢٠٤ .
(٢) تاريخ اليعقوبى (طبعة ليدن سنة ١٨٨٣) ج ١ ص ١٩٩ .
(٣) الفرق بين الفرق ص ١١ ، ١٨ ، ٧٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥ ومواضع أخر .
(٤) سورة النساء : الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .
(٥) يتبين ذلك من البيت الآتى المنسوب إليه .
فلولا إخوتى وبنى منها ملأت لها بذى شطب يمينى
(٦) انظر ما كتب فى مادة باهلة فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٧) روى كثير من المؤرخين فى سيرة الصحابى الجليل عمرو بن العاص أن أمه كانت زوجا للعاص وغيره فى وقت واحد ، وقد ادعى كثير منهم عمرا بعد ولادتها إياه ليكون ولده ، ولكن أمه ألحقته بالعاص دونهم لأنه — كما قالت حين سئلت — كان ينفق على بناتها لا لسبب آخر ، وقد بقى عمرو يعير بذلك حتى بعد إسلامه وممن عيره بذلك للصحابة الأجلاء عثمان وعمار بن ياسر والحسن عليهم رضوان الله .

لا يمنينا هنا الخوض فيه ، ويكفى أن نبين أنه من التعنت واللغو النظر إلى أنواع الزواج التى كانت تجرى عند المجوس بالعين التى ننظر إليها بها لو أنها وقعت الآن ، فقد تحولت أسبابها الاجتماعية ، وصرنا الآن ننكرها ونعدها فاحشة ومقتاً ، ونرجح أن زرادشت لا يسأل وحده عن هذه الأنواع من الزواج ، فهو كما نرجح لم يشرعها ، وكل ما عمل أن أقرّها فبقيت سارية بين المجوس ، وكان لها أثرها عند الزنادقة قبل عهد المهدى العباسى وأثناءه وبعده ، فقد زاولها بعض الزنادقة فى عهـده على ما سنبينه إن شاء الله .

وقال الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » ما نصه : « ومما أخبر به زرادشت فى زندوستا ، قال : سيظهر فى آخر الزمان رجل اسمه أشيزريكا ومعناها الرجل العالم بالدين والعدل ، ثم يظهر فى زمانه بلَيباره فيوقع الآفة فى أمره وملكه عشرين سنة ، ثم يظهر بعد ذلك أشيزريكا على أهل العالم ويحيى العدل ويميت الجور ، ويرد السنن المغيرة إلى أوضاعها الأولى ، وينقاد له الملوك وتتيسر له الأمور ، وينصر الدين الحق ويحصل فى زمانه الأمن والدعة وسكون الفتن وزوال المحن » .

ونحن لا نعدم ملامح أشيزريكا هذه فى كل المنقذين كما تصورتهم الفرق الفارسية والإسلامية[1] التى آمنت بهـــم وانتظرتهم ، وهذه الملامح تتضح لنا فى المهدى الذى آمن به الشيعة العلويون على اختلاف طوائفهم ولا يزال باقياً فيهم حتى الآن وهو ركن من أركان مذهبهم ، كما تتضح ملامحه فى المهدى الذى اخترعه العباسيون وآمنوا به ، ونحن نرجح — وسنبين الأسباب — أن أبا جعفر المنصور إنما سمى ابنه محمدا — المهدى حين رأى الشيعة العلويين ينادون بالمهدى منهم ، واخترع أولئك وهؤلاء الأحاديث فى المهدى ليشدوا بها أزرهم ، كما اخترع الأمويون منقذاً سموه السفيانى يعيد إليهم مجدهم وكان ذلك فى أول عهد الأمويين حين وقع الخلاف بين أفراد البيت الأموى فنهد لهم شياطين الشيعة فلم يكذبوا بالسفيانى بل صدقوا به . غير أنهم نحلوا النبى عليه السلام من الأحاديث ما يدل على أن السفيانى بعد ظهوره وذيوع أمره وسلطانه وجوره فى الناس سيأتى له المهدى من آل البيت فيقتله ويملأ الأرض عدلا وأمنا كما ملأها السفيانى جوراً وخوفاً فأسندوا بذلك إلى السفيانى مهمة بليباره الفارسى وإلى مهديهم مهمة أشيزريكا ، وفى ذلك ما فيه من الإشارة إلى قيام الدولة العباسية بعد الأموية ، وللزنادقة مهديوهم المنتظرون كلما ساءت الأحوال واحتاج الأمر إلى مخلص ، فمنهم مانى ومزدك وأبو مسلم الخراسانى والمقنع صاحب الزنادقة المبيضة وعبد القهار صاحب المحمرة فى عهد المهدى العباسى ، ومنهم بعـده بابك الخرمى صاحب الفتنة التى وقفت الخلافة عاجزة عن إطفائها نحو عشرين سنة ... وقد كان لفكرة المنقذ أثر كبير فى الزنادقة ، وإن كان هذا الأثر فيما نرجح يرجع أكثر ما يرجع إلى إيحائه فى النفوس كلما تعقدت الأمور الاجتماعية واحتاج الحال إلى منقذ . فأثر هذا الإيحاء أكثر من أثر الاطلاع على ما كتب زرادشت وغيره .

قدمنا أن زرادشت خلف مذهباً وكتابا .

فأما المذهب فقد تحدثنا بما يهمنا منه فيما سبق بقدر مايسع المقام ، وقد اتضح لنا من بيان ما بينا منه أن زرادشت كان فيلسوفاً ومصلحاً ومشرعاً ولم يكن نبياً ولا متنبئاً ولا صاحب دين كما نفهم من معنى الدين بالرغم من أن مذهبه يحتوى على بعض الشعائر والآراء التى تحسب من الدين ، فليس المقصود بتلك الآراء فى الكون إلا أن تكون أساساً للآراء الفلسفية والتشريعات الإصلاحية التى هى عماد المذهب وأهم ما فيه ، كما أن تلك الشعائر القليلة لم يقصد بها التعبد المحض بل الرياضة النفسية ومثلها فى ذلك مثل نظيرتها فى الفلسفة البوذية والبرهمية فى الهند والكنفشيوسية فى الصين ، بدليل تفضيل زرادشت العمل فى الحياة على الصلاة والصوم والأدعية والقرابين ، فعنده أن من يصلح الأرض ويبذر فيها الحب ويرويها أفضل ممن يقرب ألف

---

(١) المصادر التى يمكن الرجوع لتحقيق هذا الأمر كثيرة جدا والمهديون ومن على شاكلتهم من المسلمين والفرس كثير ، وخاصة من الشيعة العلوية وسيرهم مشتتة فى كتب التاريخ وكتب الملل والنحل : كتواريخ الطبرى ، وابن خلدون ، واليعقوبى ، وابن الأثير ، والمسعودى ، وابن خلكان . وتاريخ بغداد لأبى بكر البغدادى ، والتنبيه والأشراف للمسعودى ومعجم البلدان لياقوت ، وكتاب الملل والنحل للشهرستانى ، والفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، والفهرست لابن النديم ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى ، وأمالى المرتضى ، والأخبار الطوال للدينورى والفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ، وتاريخ مختصر الدول للملطى ، ودوائر المعارف العامة .

قربان ومن يصلى عشرة آلاف صلاة وممن يدعو عشرة آلاف دعاء ، بل إنه حرم الصوم لأنه يضعف الإنسان .

وأما الكتاب الذى جاء به زرادشت فهـو أفستا Avesta ويظهر أن هـذا الكتاب كان يحتوى على آراء غامضة رفيعة لا قبل للعقول العادية حينذاك بفهمها وقبولها بدليل عجز الكثير منهم عن ذلك مما جعلهم يحيطونه بكثير من الخرافات ، وبدليل ماأدى إليه غموضه عند الكثير من اضطرار زرادشت إلى شرحه بكتاب يسمى « زندافستا Zand-avesta » ثم إلى شرحه الشرح بكتاب سماه « بازند » ثم إلى شرح علمائهم هذا الشرح بكتاب سموه يازده ، وبدليل ثالث هو منع كيستاسب تعليمه العامة[١] ، وقد قدمنا الكلام فى هـذا التحريم وسداد رأى كيستاسب فيه ، ولم يكن لزرادشت فى هذا الكتاب إلا فضل تقييد ما ارتضى هو وحكماء الفرس من آراء بعد الاستطلاع والمشاورة كما قدمنا فى بيان مذهبه ، ومن أجل ذلك نحن فى غنى عن الخلاف الذى أشار الشهرستانى والمسعودى والقلقشندى فيما إذا كان هذا الكتاب من تصنيف زرادشت أم هو وحى نزل عليه من السماء[٢] ، وقد كان لهذا الكتاب أثره فى نشأة الزندقة واشتقاق لفظها نرجئ بيانه إلى موضعه من هذا البحث حيث الكلام فى المانوية لأنه بهم أمس ولبيان مذهبهم ألزم ، ونشير هنا إلى أن كيستاسب الملك صان هـذا الكتاب فى هيكل باصطخر ووكل به الهرابذة بعد كتابته بالذهب على جلود البقر[٣] ومن أجل ذلك سمى ذلك المكان « دزنبشت » أى حصن الكتاب و « كوه نبشت » أى جبل الكتاب[٤] ، وهناك بناء فخم على هيئة برج ما يزال إلى اليوم يعرف بكعبة زرادشت فى أطلال مدينة اصطخر عاصمة الفرس أيام الدولة الساسانية وهى بالقرب من مدينة برسبوليس عاصمتهم أيام الدولة الكيانية[١] .

سادت الزرادشتية البلاد الفارسية ودان بها الملوك والعامة منذ ظهر زرادشت ، فقد بذل كيستاسف جهداً جباراً لحمل الناس عليها وتعرض من أجلها لثورة من أحد عماله وفقد فيها ابنه وكادت تدك ملكه لولا أن أسعفه الحظ بموت غريمه[٢] ، وقد بذل الملوك بعده جهدهم حتى استأثرت الزرادشتية بفارس وبقيت متسلطة عليها حتى كانت موقعة أربل بين الإسكندر الأكبر ودارا الثالث سنة ٣٣١ ق . م وانهزم دارا فضاع استقلال فارس وانهارت الوحدة الفارسية ، وعم الاضطراب البلاد طوال حكم ملوك الطوائف الذين حكموا البلاد متفرقين أكثر من خمسة قرون ونصف قرن بدأت عقب هزيمة دارا آخر ملوك الكيانية سنة ٣٣١ ق . م وانتهت بقيام أردشير بن بابك بن ساسان أول ملوك الساسانية سنة ٢٢٦ م وران عليها طول تلك المدة الانحلال العقلى والخلقى والسياسى ، وكان لذلك كله أثره فى ضعف الزرادشتية ، ويقال إن الإسكندر أحرق كثيراً من كتب الفرس العلمية وفيها جزء كبير من كتاب زرادشت[٣] وأحرق وهدم كثيراً من الآثار الفارسية المكتوبة على الخشب والمبانى ونقل كثيراً منها إلى مصر وبلاد اليونان وكان قد أمر بترجمة بعض ما وجد من كتب فلما ترجمه أحرق أصوله ، فلما قام أردشير ابن بابك سنة ٢٢٦ م ووَحد البلاد الفارسية وحاول ما استطاع أن يجمع ماتفرق من هذه الذخائر وبعث فى طلبها الرسل إلى الهند والصين ومصر وبلاد الروم ، وجعلها أساس النهضة العلمية فى فارس ، كما جمع ما استطاع من كتب الزرادشتية واعتنقها وعمل بها فأرجع لها بعض سلطانها الذى فقدته أثناء ملوك الطوائف[٤] .

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ١١٠ ، والتنبيه والاشراف له ص ٩٠ والعبر لابن خلدون ج ٢ (القسم الأول) ص ١٦١ ، وابن الأثير ج ١ ص ١٠١ ، ودائرة معارف البستانى م ٩ ص ١٩٧ ، ٢٠٧ ، ٢٦٩ ، وصبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) من المبالغة والاغراق فى الضلال والتضليل ما رواه عبد القاهر البغدادى لرجل إسمه أبو القاسم الدمشقى من فرقة تسمى البهشمية (نسبة إلى أبى هاشم المعتزلى) وهى من فرق المعتزلة الخارجة عن الاسلام ، فقد زعم أن الحروف التى فى القرآن هى الحروف التى فى كتاب زردشت المجوسى بأعيانها لا على أنها مثلها » (الفرق بين الفرق ص ١٨٥) .

(٣) المصادر المذكورة فى الهامش ص ١١ .

(٤) ما كتبه الأستاذ سترك M. Setrck فى مادة اصطخر (دائرة المعارف الاسلامية) .

(١) المصدر السابق .

(٢) الأخبار الطوال ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) المصادر المذكورة فى الهامش .

(٤) الفهرست لابن النديم ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، نقلا عن كتاب النهمطان لأبى سهل بن نوبخت (طبع المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ) وتاريخ إيران للاستاذ شاهين مكاريوس ص ٢٩٣ (طبع المقتطف سنة ١٨٩٨ م) .

كان ضياع جزء من كتاب زرادشت إبان الفتح المقدونى مما أوهن الزرادشتية أيام ملوك الطوائف وهيأ لقوم الإنبيان بآراء ومذاهب جديدة لم يأت بها زرادشت وحكماؤه ، كما هيأ الفرصة لإحياء كثير من الخرافات والعقائد القديمة التى هى أدنى إلى عقول العامة من الصفوة التى اختارتها الزرادشتية ، لكن ذلك لم يمحها ويستأصلها ، فقد بقيت حية فى فارس أثناء حكم ملوك الطوائف على ضعف واستحياء ، فلما جاء بنو ساسان أنهضوها وشدوا سلطانها وجعلوها دينهم الرسمى ، وظلت قائمة حتى بعد فتح المسلمين فارس ، وكانت قد تسللت فى الجاهلية إلى البلاد العربية ودانت بها بعض قبائلها النازلة على حدود فارس ، وآمن بها بعض الصحابة قبل إسلامهم [1]، وكان يدين بها كثير من الفرس فى العصر الإسلامى عن رضا من المسلمين عند ماسنوا بهم سنة أهل الكتاب كما بينا فى مقال سابق [2] فتركوهم عليها واكتفوا منهم بالجزية ، وكان مما أيدها أن فرض المسلمون الجزية على من أسلم ومن بقى على عقيدته على السواء فى أكثر سنى الحكم الأموى والعباسى ، وقد اصطنع المسلمون كثيراً من أهلها فى الأعمال التى يجهلها الحكام المسلمون كأعمال الدواوين ، بل كان لأهلها ضلع فى انتصار العباسيين على الأمويين ، ودارت بينهم وبين المسلمين مجادلات فى المهدين معاً ، وتبادلوا فى ذلك كتب الجدل ، وكانت لهم أياد على كثير من العلوم المحدثة فى الإسلام إلى وقت متأخر ، ويقول الأستاذ لينجورث Longworth Dames :
« إن القصص التى يستطاع إرجاعها إلى أفستا بقيت معروفة فى زرنكة [3] حتى زمن الفردوسى سنة ١٠٠٠ م [4] » وكان لهذه القصص فضل على الفردوسى إذ كانت بعض مادته فى تأليف الشاهنامه ، وقد انتشرت الزرادشتية حتى فيما وراء بلاد فارس كالصغد وبلاد الترك قديماً فيما وراء النهر فى العصر الإسلامى فقد امتدت إلى هذه البلاد فى القرن التاسع الميلادى [5] ، وكانت فى الهند فى القرن الرابع عشر الميلادى وأهلها يسمون هناك الإكنواطرية [1] ، بل لقد نشرها هؤلاء الهنود وإخوانهم من الفرس فيما حول باكو فى القرن الثامن عشر [2] ، وهم لا يزالون إلى الآن بالهند ويسمون الفرسيين ، وكان أولهم قد هاجروا إليها من فارس عند ما فتحها المسلمون [3] ولم يضعف شأن الزرادشتية — إلى ما قدمنا — إلا مرقيون وابن ديصان ومانى .

محمد خليفة التونسى

(١) الأعلاق النفيسة لابن رسته ص ٢١٧ ، والمعارف لابن قتيبة ٢٩ .
(٢) الرسالة : العدد ٦٥٢ ص ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ .
(٣ ، ٤) زرنكة الأسم القديم لاقليم سجستان (مادة أفغانستان فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٥) انظر ما كتبه الأستاذ بارتولد Barthold فى مادة باكو فى دائرة المعارف الاسلامية .

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ١٠٣ ، وجاء فى هامش الصفحة أن المترجم الألمانى لكتاب الملل والنحل للشهرستانى أفاد أن الاكنواطرية مأخوذة من أجنيهترا وهى نار المقدسة التى تتأجج إكراماً للاله أجنى .
(٢) ما كتبه الأستاذ بارتولد فى مادة باكو فى دائرة المعارف الاسلامية
(٣) المصدر السابق ، وكتاب « تاريخ إيران » للأستاذ شاهين مكاريوس ص ٢٢٣ .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٦١ — فإن شهدت عليه بالمعصية فاشهد له بالطاعة

الفصول والغايات لأبي العلاء المعري :

اعلم — أيها المسكين — أن الأيام شهود لك وعليك ، فإن تمالأت على تزكيتك فأنت السعيد ، وإن توافقت على تكفيرك فأنت حامل العبء الثقيل ، وإن جرح بعضها شهادة بعض فإن الله كريم . أيها اليوم الحاضر ، إن أمس ذهب وأنت أقرب الأيام إليه ، وقد حمل عني كتابا يشتمل على الغفلة والتفريط ، فدراكه دراك ، إن فاتك فأنا أحد الهالكين . وإن عجزت أن تلحقه فإن الغد أعجز منك . وكيف تدركه وغداتك لا ترى ضحاك ، وأصيلك لا يتفق مع الهجير ، والله على الممتنعات مقيت . فناد في أثره علّه بإذن الله يسمع دعاء الداعين ، فإن أجابك فقل : إن البائس فلانا يسألك أن تلقى الصحيفة من يدك . ولو نطق لحلف لا أستطيع ، أنا أمين عالم الدفين ، ولو فعلت لرهبت من المعصية كما تخاف ، ولكن أنا وأنت عند الله كفرسي رهان ، فإذا شهدت عليه بالمعصية فاشهد له بالطاعة[1] .

٧٦٢ — لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم

كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري :

قد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا . فما خاطب به أهل مكة قوله سبحانه (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب[1]) وقوله تعالى : (إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) وقوله تعالى : (أو ألقى السمع وهو شهيد) في أشباه لهذا كثيرة . وقلما تجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة لبعد فهمهم ، وتأخر معرفتهم .

٧٦٣ — إن أعاد كلام نفسه سلمت له ما قال

كان أبو بكر الباقلاني (العالم المتكلم المشهور) كثير التطويل في المناظرة مشهورا بذلك عند الجماعة ، وجرى يوما بينه وبين أبي سعيد الهاروني مناظرة ، فأكثر القاضي أبو بكر الكلام ووسع العبارة وزاد في الإسهاب ثم التفت إلى الحاضرين وقال : اشهدوا علي ، إنه إن أعاد ما قلت لا غير لم أطالبه بالجواب . فقال الهاروني : اشهدوا علي ، إنه إن أعاد كلام نفسه ، سلمت له ما قال .

٧٦٤ — الحياء ، الخجل ، الوقاحة

(الذريعة) للراغب : الحياء انقباض النفس عن القبائح ، وهو من خصائص الإنسان . والخجل حيرة النفس لفرط الحياء ، ويحمد في النساء والصبيان ، ويذم باتفاق من الرجال . والوقاحة مذمومة بكل إنسان إذ هي انسلاخ من الإنسانية ، وحقيقتها لجاج النفس في تعاطي القبيح ، واشتقاقها من حافر وقاح أي صلب ، وبهذه المناسبة قال الشاعر :

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة ... فأقد منها حافرا للأشهب[2]

٧٦٥ — اسم غازي

(وفيات الأعيان) :

كان أبو الفتح غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ملكا مهيبا عالي الهمة حسن التدبير والسياسة .

---

(١) ما أرق عبارات المعري في (الفصول والغايات) وما أسهلها ! لله در كلامه !

(١) يراجع قول الأديب الكبير الأستاذ سيد قطب في هذه الآية في كتابه البارع (التصوير الفني في القرآن) ص ١٩٣ .

(٢) ومما قيل :

لا يعمل المبرد في وجهه ... بل وجهه يعمل في المبرد

يحكى عن سرعة إدراكه أشياء حسنة ، منها أنه جلس يوما لعرض العسكر وديوان الجيش بين يديه ، وكان كلما حضر أحد من الأجناد سأله الديوان عن اسمه ليتزلوه حتى حضر واحد فسأله عن اسمه فقبل الأرض ، فلم يفطن أحد من أرباب الديوان لما أراد ، فعادوا إلى سؤاله فقال الملك : اسمه غازى ، وكان كذلك ؛ وتأدب الجندى أن يذكر اسمه لما كان موافقا لاسم السلطان ، وعرف هو مقصوده .

٧٦٦ — وجه المليح أطل من شباك

قال القاضى محيى الدين بن قرناص :

وحديقة غنـاء ينتظم الندى ... بفروعها كالدر فى الأسلاك

والبدر فى خلل الغصون كأنه ... وجه المليح أطل من شباك

٧٦٧ — ليس هذا من سؤال القضاة

فى (نفح الطيب) :

خرج أبو حازم القاضى من داره إلى المسجد يريد الصلاة ، وإذا بسكران يمشى فى الشارع فقال الناس : سكران سكران !

فوقف القاضى وقال هاتوه فأدنوه منه .

فقال له القاضى : من ربك ؟ (يريد امتحانه)

فقال له السكران : ليس هذا من سؤال القضاة (أصلحك الله) إنه من سؤال منكر ونكير .

فغلب القاضى الضحك وقال : خلوا سبيله .

٧٦٨ — عواد المرضى

عاد رجل مريضا فقال له ما تشتكى ؟ قال : وجع الخاصرة . قال والله كانت علة أبى فمات منها ، فعليك بالوصية يا أخى . فدعا المريض ولده وقال يا بنى أوصيك بهذا لا تدعه يدخل على بعد هذه .

***

عاد رجل مريضا فلما خرج قال لأهله لا تفعلوا فى هذا كما فعلتم فى الآخر ، مات وما أعلمتمونى .

***

عاد بعضهم مريضا فلما خرج قال لأهله : أحسن الله عزاءكم ! فقالوا إنه لم يمت ، قال : قد عرفت ، ولكنى شيخ كبير لا أستطيع النهوض فى كل وقت ، وأخاف أن يموت فأعجز عن المجىء لأعزيكم به .

***

دخل قوم على مريض فأطالوا . ثم قالوا : أوصنا . فقال : أوصيكم ألا تطيلوا الجلوس عند المريض إذا عدتموه .

رثاء نسيب عريضة

هكذا حدث . . . !

للدكتور أحمد زكى أبو شادى

(ألقى فى الحفلة التذكارية للشاعر الكبير المرحوم نسيب عريضة لمناسبة صدور ديوانه اليتيم « الأرواح الحائرة » ومرور أربعين يوماً على وناه . وقد أقامت الحفلة لجنة أدباء الجالية السورية « والرابطة القلمية » فى نزل تاورز فى بروكلن بمدينة نيويورك مساء الأربعاء ١٥ مايوسنة ١٩٤٦ ، وكانت الحفلة برعاية سعادة الدكتور قسطنطين زريق القائم بأعمال المفوضية السورية فى وشنطن)

ما كان عمرك موهوباً لإنسان ولا لإحساس هذا العالم الفانى
ولا لأرض وأوطان حننت لها فالعبقرية لم تخلق لأوطان
والشاعرية لم تُقصَر منازلها على الحياة ولو من رسم فنان
بل كان عمرك آيات هتفت بها ولم تفسر بإنجيل وقرآن
ولم تكيف بأوصاف ننمقها ولم تقدر بمقياس وميزان
ولم تخصص، فحتى أنت كنت بها فى نشوة بين مشدوه وحيران
ملء الزمان تُناجينا وتُسعدنا وتحمل النور ميراثاً لأزمان
وتبعث الوحى فينا وهو ينقلنا إلى عوالمَ من حسن وإحسان
تُشام بالروح أطيافاً وأخيلة علوية ، وجناناً دون جنّان
أكُنَّ من صنعك الفتان أم نشأت
عن معجزات سمت عن خَلق إنسان؟
لعل فى مقبل الأجيال عارفها
إن فات تعريفُها روحى ووجدانى !

* * *

ياشاعر الهمسات الساميات بنا المبدعات لنا قدسىَّ ألحان
كأنها صلوات لا حدود لها يغنى الوجود بها من قلبك الحانى
جم التواضع ، جم العلم ، يسعده أن لا يميز فى مدح وشكران
وليس يبخس إلا نفسه أدباً كأن أخلاقه أخلاق ديان
وليس يعرف غير الحب منقبة
ويحسب الزهو من أوزار شيطان
يحنو على الشعب فى البلوى ويسعفه
ويستثير شعور الغافل الوانى
ويرفض الضّيم حتى لوأتى ملك به ، وكان رسالات لأديان
ياحامل العبء فى إيقاظ أمته حملت عبئين بل رزأين فى آن
ما بز آثارَك الغراء مبتدع ولا بنى فوق ما أعليته بانى !

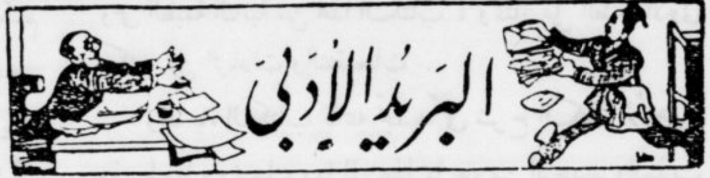
* * *

تركتُ مصر وقلبى ذائب حرَقاً وجئت أطفىء لوعاتى ونيرانى
وكنت جانبت أطياف الربيع بها
وقلت حسبى بسكم جنات (لبنان)
ومذ وفدت رأيت الربع مكتئباً كأن أحزانه من لون أحزانى
فلا الجمال قرير فى مباهجه ولا النسيب على روض وأفنان
كأن (آذار) عاداه وباعده وما رأت عينه أفراح (نيسان)
ما للبشاشة قد ماتت بنضرته وللأزاهر ماهشّت لبستانى؟
وللجداول قد غصَّت بحسرتنا كأنها لم تكن راحاً لريحان
وللنسيم قتيلاً بعد عاصفة وللسحائب فى رعد وإدجان
وللطيور التى كانت مغردة تنقر العشب فى يأس وإذعان
وللنواطح لم يشمخن فى نظرى وللروائع قد خيّبن حسبانى ؟
شاهت جميعاً بعينى بعد ماحرمت لقاء من عشت أهواه ويهوانى

* * *

جعلت قلبك قرباناً وتقدمة للناس، والآن ماحبى وقربانى ؟
وما رثائىَ مَن آثاره عَمم وكل بيت له كنز لديوان ؟
غنيتَ عن كل صيت من عوالمنا وعن بكاء وتمجيد وعرفان
وعشت فينا غريباً ، فلتعد ألَقاً لموطن الأصل أو للموطن الثانى
فأنت وحدك تدرى الآن ما عجزت
عنه مواكب أذهان وأذهان
وحسبنا ذكريات منك عاطرة وموحيات بأنغام وألوان
وخالدات من الإيمان ناصعة تهدى العزاء وتسمى كل إيمان
من مات موت شهيد لم يمت أبداً وقد تُبدل أبدان بأبدان
ومن تكن نفسه شعراً وفلسفة وبسمة من أغاريد وأوزان
يأبى الإسار وإن وافى مجاملة
من الشموس ، ويأبى العالم الفانى !

(نيويورك) **أحمد زكى أبو شادى**



في العروض والقوافي :

كان هذا الضعيف نبه في مقالاته (في العقد) و (في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) في (الرسالة الغراء) على التشديد في القوافي المشددة ووجوب تركه والاكتفاء بالسكون حتى لا يختل الوزن . وقد وجدت في (المخصص) — ج ١٣ ص ١٨٤ — وأنا أراجعه هذا الخبر الطريف :

« قال ابن الأعرابي : نزل بعض العرب بامرأة منهم ، فأحسنت ضيافته ، فقال : ما رأيت أم بيت أحسن ثغرا منك ، وراودها على القبل ، فزبنته ، فقال :

تقول أم عامر بالغمز : قِلْ
فان تَقِل فعندنا ماء وظلْ
وإن أبيت فالطريق معتدلْ
أما الذي سألتنا فلا يحلْ »

فرأيت محقق الكتاب العلامة اللغوي الكبير الشيخ محمد محمود الشنقيطي — رحمه الله — قد ضبط (ظل ، يحل) بالتشديد مع السكون كما ضبط مثل ذلك كثير من المتقدمين . وربما حملت مكانة العلامة الشنقيطي محقق الكتب القديمة وناشرها على المضي على الخطأ ، والحق هو ما أعلنته في تلك المقالات . ولم أزل منذ دهر طويل أفتش عن نص لإمام من المتقدمين يؤيد انتقادي . فلقيت (الضالة المنشودة) عند أبي العلاء المعري ، ولا كلام لعالم من بعد قول الشيخ « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه وباللغة والعروض من الخليل » كما روى ابن القارح في رسالته .

قال أبو العلاء في كتابه (عبث الوليد) ص ١٨٠ :

« ومن التي أولها (قالت الشيب بدا قلت أجل) كان على القوافي المشددة مثل (الأقل والأشل) تشديد ، وذلك عندهم خطأ لأن التخفيف لازم . وكان بعض أهل العلم يعاب بأنه توجد بخطه قول لبيد :

يلمس الأحلاس في منزله بيديه كاليهودي المصل

مشدد اللام في (المصل) وحكي أن عثمان بن جني كان يرى في مثل هذه الأشياء أن يكون التشديد من تحت الحرف . والأجود أن يعلم الناظر أن التشديد لا يجوز في مثل هذه المواضع » .

محمد إسعاف النشاشيبي

من مزايا الرسالة :

من مزايا الرسالة ، وبحمد الله ما أكثر مزاياها ، أن حولها نفراً من كرام الكاتبين وحذاق الناقدين ، قريبة دارهم ، حديدة أبصارهم ، لا يدعون غلطة تمر حتى يصححوها ؛ فاذا بدت لعين عاجز مثلي غلطة ، وبعث تصحيحاً لها ، وجدهم سبقوه إلى ذكرها ، فيضيع تعبه ويذهب هباء .

ولقد سُبقت في هذه الفترة مرات : بعثت أستدرك على أستاذنا النشاشيبي أنه لم يذكر وجه الصواب في تفسير بيتي حسان ، فاذا بالاستاذ محمد الطنطاوي (وبارك الله في طنطا بلدنا وبلده) يسبق حفظه الله إلى الاستدراك . وبعثت بالجواب بشأن بيتي عروة فسبقني بلديّنا الفاضل السباق إلى الجواب عني (جزاه الله خيراً) . وأرسلت كلمة في المحدث فسبقني إلى بيانها الأديب الكبير (القاريْ) (السهمي) النشاشيبي (المسلم) ؛ وكثرة الأسماء دليل على شرف المسمى . ولكن السهمي لم يصحح تفسير الأستاذ الكبير العقاد لكلمة المحدث ؛ فقد ذكر (أن المحدث الذي يسمع كلام الله) مع أن الذي قالوه في المحدث أنه الملهم ، أنظر (البخاري ٤ : ١٤٩ ومسلم ٧ : ١٤٥ ومسند أحمد ٢ : ٣٣٩)

أما ما كتبه أستاذنا بتوقيع (مسلم) بشأن الطلاق ، وقوله إن (هذا الذي يرضى النبي محمداً) فان الكلام في رده طويل ، وليس يرضى محمداً ولا رب محمد إلا قول استنبط من محكم الكتاب ، أومن صحيح السنة ، وجاء الاستنباط فيه من (أصوله) واقترن بدليله .

علي الطنطاوي

تصويب

(حتى) في السطر التاسع من العمود الأول من الصفحة ٥٧٥ . هي (حين) وفي المقالة الثانية من مقالات يوم الجلاء تطبيعات كثيرة بعثت بتصويبها .

« فكرة الشر » واقترانها بسلوك لفنانه :

إلى أخي الأستاذ جبريل خزام :

تناولت — بالنقد — بعض ما جاء في مقالي « الأدب والمجتمع » وأودُّ أن ألفتَ نظرك إلى « فكرة الشر » واقترانها بمظاهر سلوك

الفنان فى بعض الأحيان ، فأقول : إنه لا ينبغى أن نحكّم « النظرة المادية » فى هذا الموضوع الخطير ، فيكون الشخص — بناء على هذه النظرة — شرّيراً ... كلما ارتكب فعلا يدل — فى ذاته — على قيام فكرة الشر عنده ؛ بل يتعين علينا أن نحاول استكناه « النوايا » و « البواعث » الدافعة إلى ارتكاب الفعل ، فإذا دل البحث عن سوء نية الفاعل ، ألصقنا به تهمة الشر بناء على ذلك . وهذه هى « النظرة الشخصية » التى نبّه إليها دُعاة المدرسة الإيطالية وعلى رأسهم الفقيه لمبروزو ، والذين كان لهم فضل توجيه نظر الباحثين إلى وجوب تقدير العقوبة على أساس من دراسة دوافع السلوك وبواعث الأعمال والعوامل الاجتماعية المحيطة المؤثرة ..

والنفس الفنانة كثيراً ما يستحثها توفّر الحس فيها وتمدّد شعورها بجوانب الحياة المختلفة — علويها وسفليها — إلى التورط فى الشر والانكباب عليه ... ولا يكون هذا السلوك إلا دلالة قاطعة على ما تلاقيه هذه النفس العاثرة الجدّ — التى تنطوى على الخير المحض — من عسف وإعنات من جانب المجتمع والقائمين على رعايته . وبالتالى يروحُ الرجلُ — المتميز بأى ضرب من ضروب الامتياز — يُغرق همومه ويعالج إخفاقه فى الحياة بالتهالك على المتعات الحسية واستياف اللذات الرخيصة . وما هذا السلوك من جانبه — فى واقع الأمر — إلا برهان قوى على قوة الحيوية فى نفسه وتمدد طاقاته وعدم ارتضائه الاستكانة إلى الظلم ومذلة الهوان!

ولا أظن أحداً يتشكك فى حُسْن طوية « النُّواسىّ » ونقاوة سريرته ورحابة آفاقه ؛ وإن فيما أورده المعنيّون بالبحث فى طبيعة نفسه ، ما يُستَشْعَرُ منه تشبث هذا الفنان الممتاز بعاصم الكبرياء وقوة شعوره بذاته .

ولعل فيما أثبته الأستاذ الفاضل عبد الرحمن صدقى عن « بودلير » فى كتابه « الشاعر الرجيم » مايؤكد ماذهبنا إليه فى إمكان رد أغلب سيئات الفنان وحماقاته إلى ظروف الأسرة وقساوة المجتمع !

عبد العزيز الكرداني

تجديد علم المنطق للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

قامت مكتبة الآداب بدرب الجماميز بطبع كتاب تجديد علم المنطق فى شرح الخبيصى على التهذيب فى « مطبعة الرسالة » وهى الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، وتمتاز على الطبعة الأولى بكثير من الزيادات والتنقيحات .

وقد جاء الكتاب كاسمه تجديداً فى شرح الكتب الأزهرية وفى طبعها وترتيبها ، وما إلى هذا مما جاء من التجديد والتهذيب فيه ، بعد أن مضت عليها أزمان تطبع فيها أقبح طبع ، وتظهر فى أقبح ترتيب ، وتتجافى عما حدث فى علومها من تجديد ، فتتغير الدنيا ولا تتغير ، وينقلب العلم من حال إلى حال وهى باقية على حالها ، ويسير إلى الأمام بخطى واسعة وهى واقفة فى مكانها ، وتقف تبعاً لها عقول الطلاب ، وتتأثر بجمودها وسوء ترتيبها وقبح طبعها ، لأن عقل الطالب يتأثر بالكتاب فى أسلوب بحثه ، وفى طريقة ترتيبه ، وفى هيئته وشكله .

وقد بدأه مؤلفه الأستاذ عبد المتعال الصعيدى بمقدمة بين فيها ماوصل إليه المنطق عند علماء اليونان ، وعند علماء العرب ، وعند علماء أوربا ، وبين فيها كيف يجرى المنطق فى اللغة العربية ، وقد وضعه علماء اليونان على أساليب اللغة اليونانية ، وهذا إشكال قد أثاره الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وتأثر به رجال الأدب والشعر الذين أنكروا أسلوب المنطق اليونانى ، كأبى عبادة البحترى من الشعراء ، وكابن الأثير من علماء الأدب ، فحل المؤلف هذا الإشكال فى مقدمته أحسن حل ، وأنصف المنطق اليونانى من الذين أزروا به من رجال الشعر والأدب .

ثم عنى الأستاذ بعد هذا بالموازنة بين المنطق القديم والمنطق الحديث ، فذكر عقب شرح كل فصل من فصول هذا الكتاب ما وصل إليه المنطق الحديث فيه ، ووازن بين المنطقين فى كل فصل من هذه الفصول ، فأحدث بهذا تجديداً له قيمته فى شرح الكتب الأزهرية ، وجمع فى كتابه بين المنطق القديم والحديث ، ليكون الطالب على بينة منهما ، وهى طريقة أجدى على الطلاب من قصرهم على دراسة المنطق القديم ، أو على دراسة المنطق الحديث ، وتكاد الجامعة الأزهرية تمتاز بها على سائر الجامعات .

وما أحوج الكتب الأزهرية كلها إلى مثل هذه الطريقة فى الشرح والتجديد ، وفى حسن الطبع والترتيب ، لتلائم حال هذا العصر ، وتجذب إليها نفوس الطلاب ، فيقبلوا على دراستها وتتأثر عقولهم بما تجده فيها من التجديد والترتيب ، وتتهيأ بهذا إلى تجديد أتم ، وتستعد إلى إصلاح أكمل ، ومن سار على الدرب وصل .

سكك حـــديد الحكومة المصرية

خط الصحراء الغربية

يتشرف المدير العام بإعلان الجمهور أنه إبتداء من أول يونية سنة ١٩٤٦ يسير قطار الركاب رقم ٢٦٦ (الذى يغادر الأسكندرية فى الساعة ٤٥ ١١ إلى مرسى مطروح) ورقم ٢٦٥ (الذى يغادر مرسى مطروح فى الساعة ٣٠ ٦ إلى الأسكندرية) يومياً بدلا من ثلاث مرات فى الأسبوع فى مواعيدهما الحالية .

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧٦ — الاثنين ١٧ يونية ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

وزارة المعارف العمومية

الجامعة الشعبية .

تنظم إدارة الجامعة الشعبية دراسة فنية خاصة تهيىء الطلبة المنتظمين فيها للعمل فى وحدات ثقافية متنقلة تهدف نحو نشر الثقافة الضرورية بين أبناء الريف .

وعدد الطلبة أو الطالبات المحدد لحضور هذه الدراسات هو ٦٠ طالباً ينتظمون فى الدراسة لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر فى الصيف تبدأ من منتصف يوليو القادم علماً بأن انتظام الطلبة فى سلك الدراسة لا يقيد الجامعة بضرورة توظيفهم وسيعقد بالإضافة إلى الاختبار الشخصى الإبتدائى اختبار فى نهاية الدراسة لاختيار من تثبت صلاحيتهم لشغل المراكز المطلوبة على أن تطبق على من يقع عليهم الاختيار للتوظف القواعد المالية التى تسمح بها ميزانية الجامعة الشعبية .

هذا والطلبة الذين يمكنهم الانتظام فى هذه الدراسات هم :

أولا — خريجو كليات جامعتى فؤاد الأول وفاروق الأول والجامعة الأزهرية والمعاهد العالية الأخرى .

ثانياً — خريجو مدرسة الخدمة الاجتماعية أو من يثبتون أنهم أتموا دراسات إجتماعية منتظمة .

ثالثاً — طالبات للعمل كزائرات صحيات أو اجتماعيات على ألا يقل مؤهلات الطالبة عن شهادة الدراسة الثانوية « القسم العام » أو ما يكون فى مستواها من خريجات المعاهد المتوسطة .

تقدم الطلبات لإدارة الجامعة الشعبية — بريد البرلمان — فى ميعاد غايته آخر يونيو سنة ١٩٤٦ . ٥٤٨٧

إسم الفرع	محل انعقاد الجلسة	تاريخ الجلسة
تفتيش المنتزه	المنتزه	٢٠/٧/١٩٤٦
منطقة رشيد	رشيد	٢٢ منه
تفتيش البحيرة	دمنهور	٢٤ منه
« الخزان	«	٢٧ منه
« دسوق	دسوق	٢٩ منه
منطقة دمياط	دمياط	٢٠ منه
تفتيش المنصورة	المنصورة	٢٢ منه
« شاوة	المنصورة	٢٤ منه
« قلين	قلين	٢٧ منه
« طنطا	طنطا	٢٠ منه
« القرشيه	القرشية	٢٢ منه
« النشاوى	القرشية	٢٤ منه
« الشرقية	الزقازيق	٢٧ منه
« القليوبية	بنها	٢٠ منه
« الجيزة	الدق	٢٢ منه
تفتهش القبة	القبة	٢٤ منه

إسم الفرع	محل انعقاد الجلسة	تاريخ الجلسة
« المحلة	دمرو	٢٧ منه
« بنى سويف	بنى سويف	٢٠ منه
« الفيوم	الفيوم	٢٢ منه
« ببا	ببا	٢٤ منه
« مغاغة	مغاغة	٢٧ منه
« المنيا	المنيا	٢٠ منه
« أسيوط	أسيوط	٢٢ منه
منطقة طهطا	طهطا	٢٤ منه
منطقة سوهاج	سوهاج	٢٧منه
تفتيش قنا	قنا	٢٩ منه

تعلن وزارة الأوقاف إنها حددت مواعيد لجلسات تأجير أطيانها إبتداء من سنة ١٩٤٧ الزراعية الموضح بالكشف عاليه فعلى من يرغب فى استئجار أى صفقة أن يتصل بالتفتيش المختص لمعاينتها والحضور بالجلسة المحددة لها .

٦٠ — ١ — ٢

14 me Année No. 676
Lundi—17—6—1946

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر المالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٧٦ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٧ رجب سنة ١٣٦٥ — ١٧ يونية سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

من مخلفــات الحرب

هـــذا الطبلاوى أفندى ! !

تخلص الإنجليز والأمريكيون من أوزار الحرب التى انقطع منها النفع ، فباعوا كل ما تركت من شىء حتى القنابل المحشوة ! وأقصوا كل ما خلفت من شخص حتى تشرشل الجبار ! ونحن فى مصر لا نزال نعانى من مخلفات هذه الحرب وجرائرها ما يرمض الجوانح ويقض المضاجع .

لا أريد بمخلفات الحرب هؤلاء الجنود الغرباء الذين يملأون الدور ويزحمون الشوارع ، ولا هذه الضرائب الاستثنائية التى تقصم الظهور وتقوض المصانع ، إنما أريد بها أثرياء الحرب الذين يُفحِشون أسعار الخبز واللحم والفاكهة على الفقراء فى العواصم ، ويرفعون أجور القصور و (العشش) و (الكابينات) على الأغنياء فى المصايف ، ويخفضون مستوى الخير والحق والجمال والذوق والفضيلة فى جميع الأماكن ! أكثر هؤلاء طغام رُبُّوا فى أحجار الفاقة ، ودرجوا فى أكواخ البؤس ، وأعوزتهم التربية الدينية التى تجمّل الفقر بالزهد ، والثقافةُ المدنية التى تلطف الشقاء بالأمل ، فشبوا على غرائزهم الأصيلة ، يحتالون عند العجز احتيال الذئاب ، ويفترسون عند القدرة افتراس الأسود ، وهم بين أحوال العجز والقدرة يكابدون آلام الشوق المليح المحرق إلى المال فى يد الغنى وفى بيوت التجار ، وإلى اللحم فى جسد المرأة وفى حانوت الجزار ، ويحاولون ما استطاعوا أن يطفئوا هـذا السُّعار القاتل بالسرقة والقمار والتدليس والاحتيال والغش ، فلم يزدهم هذا الرى إلا ظمأ ، ولا هذه المتعة إلا حسرة !

فلما أوقد المستعمرون نيران الحرب الأخيرة فى بقاع الدنيا فأكلت شباب الأمم ، وأهلكت ثمار الأرض ، ونقصت نتاج الناس ، قُيِّدت المعاملات ، وحُدِّدت الأرزاق ، فوجد هؤلاء الشرهون الجياع أن الانطلاق من هذه القيود إلى الحرام المشتهى والثراء المرجوّ ، أسهل على نفوسهم من تكلف العفاف وإضاعة الفرصة ، فاحتكروا السلع ، وأغلوا الأسعار ، وطففوا الكيل ، وأخسروا الميزان ، وأقاموا فى ظلمات الطرق وفى كهوف الأرض سوقاً سوداء يستغلون فيها عُرى الفقير وجوعه ليسلبوه ما يجمع فى يديه من ثمن عرقه ودمه . وظلت الحرب بضروراتها وشواذها تركم على أجسادهم اللحم والشحم ، وتكدس فى خزائنهم الأوراق والأرزاق ، حتى أصبحوا فى المجتمع المصرى طبقة متميزة لها طابعها الخاص ، وسمتها الفرد ، وهندامها العجيب ، وحياتها التى أصبحت للتصوير الهازل والصحافة الفكهة مدداً لا ينقطع ومنبعاً لا ينضب !

أسخطنى على هذه الطبقة الجديدة قصة سمعتها عن أحد أعيانها البارزين سأقصها عليك . وليست هذه القصة أول القصص ولا آخرها ، فإن أغنياء الحرب ينفجرون كل يوم من فرط السمن والانتفاخ ، فيكون لهم من الشظايا والضحايا ما لهذه القنابل التى لا نزال نسمع انفجارها فى الطرق أو فى الملاهى !

استزارنى يوم الأحد الماضى صديقى الأستاذ (ج) فى دارته[1] الجميلة بالدقى ، فزرته فى وقت الشاى ، وكانت الشرفة التى اختارها لجلوسنا تنظر إلى دارةٍ تقابل دارته ، إلا أنها أوسع وأرفع وأفخم ، ولكن أنماط الناس الذين يدخلونها أو يخرجون منها أو يحفون بها لا تأتلف مع جمالها ولا ترتفع إلى مستواها . دع هذا الصياح الذى يتفجر فيها ، والزياط الذى ينبعث منها ، فربما كان أصحاب الدارة غائبين والخدم ينفسون عن حريتهم المكظومة بهذا الهرج. فسألت صديقى من باب الكلام الذى يُقصد به تحريك اللسان قطعا للصمت أو فتحا للحديث :

لمن هذه الدارة الفخمة ؟

فابتسم صديقى وقال وهو يشير إلى امرأة تجلس وحدها على مقعد من مقاعد حديقته :

لهذه المرأة !

ونظرت إلى المرأة التى أشار إليها فوجدت جسما كالخيال دقيق الشبح معروق العظام تستره ملاءة لفّ من الطراز الذى كانت تلبسه الخادمات قبل أن يصبحن (أرتستات) حرب ! فقلت لصديقى وأنا أبتسم كما يبتسم : ما ذا تعنى ؟ فقال : إنما عنيت ما قلت ، وهو أن تلك الدارة لهذه المرأة ، وهى مع ذلك لا تجد اللباس ولا تملك القوت ، ولا يمر أسبوع دون أن تزورنى مرة أو مرتين لألتمس لهـا من جانب هذا الثراء الضخم فضلة من الرزق تمسك الرمق وتديم العفة ، ولكن ! !

فقلت له والتعجب يترقرق فى عينى ووجهى: لم أفهم ما تريد فماذا تعنى ؟

فقال بلهجة الجد : أعنى أن هذه المرأة زوجة صاحب الدارة ، وهو فلان الغنى الذى يسميه النـاس (الطبلاوى افندى) لأن بطنه المنتفخ المتسع المستدير يجعله أشبه بضارب الطبل العظيم حين يحمله على صدره . كان هذا الرجل فقيرا غير شريف ، ووضيعا غير متواضع ، تزوج وهو فى تلك الحال من هذه المسكينة فولدت له خمس بنات وثلاثة بنين أكبرهم كما تقول لا يبلغ الرابعة عشرة ، وكانت تعيش معه هى وأولادها على الكفاف ، تساعده فى حدود ما تستطيع بالعمل والتدبير والتقتير والقناعة ، وتحتمل سرفه ونزقه بالصبر والإغضاء والنصيحة ، حتى أدركته (نعمة) الحرب فى سنتها الثالثة ، فوصلت حباله بحبال المتعهدين لجيوش الحلفاء بالمواد الغذائية فشاركهم فى الجمع والتوريد ، وانفرد عنهم بالمصانعة والمهاواة ، حتى استطاع بجرأته بعد قليل أن يدخل على رؤساء العمل الانجليز من الباب الخلفى ، فعاملهم بالغش ، وشاركهم فى الربح ، واستمان بهم على إخراج المحظور من السكر والرز ، وإدخال الممنوع من الحشيش والأفيون ؛ فتساقطت على رأسه وقفاه رزم البنك نوت تساقط البرَد الغليظ ، حتى اجتمع له فى نهاية الحرب ربع مليون جنيه!

ومنذ رحلت جيوش الحلفاء خلع الطبلاوى رداء العمل ، وحشر نفسه فى صفوف المترفين والعِلية ، فلفّف جسمه بالحرير ، وختّم أصابعه بالماس ، وعدّد الألوان الفاقعة فى بذلته وحذائه ؛ ثم خلى جسمه النهوم يضخم ويسترخى وينبعج جانباه ، وترك شاربه الخشن يغلظ وينتفش ويطول سِبالاه ؛ ثم اقتنى الضياع والعقار ، واشترى الرُّلْـزرايزَ والباكار . وكان يطلب الأغلى من كل صنف ، والأعلى من كل شىء . ولا أشك فى أنه هو الذى تحدث الظرفاء عنه بأنه استشار الطبيب فأشار عليه بڤيتامين بيه (B) ، فقال له : ولم لا تشير بڤيتامين باشا ؟ وأنه طلب إلى رسام أن يرسمه فسأله : أتريد الصورة بالزيت؟ فقال له : كلا ، بل أريدها بالسمن . وأن طبيب الأسنان أراد أن يصنع لأحد أضراسه المنخورة غلافاً من الذهب ، فطلب إليه أن يصنعه من الماس ! ثم سكن هذه الدارة وألقى زمامه فى يد الغاوين من رواد اللهو وسماسرة الفجور ، فجعلوا له من كل غرفة ماخوراً ، ومن كل ردهة مرقصا ، ومن كل بهو حانة .

وأعجب ما فى الأمر كله أن صورة بيته القديم كصورة ماضيه المظلم قد امحت من ذاكرته ، فلم يعد يذكر عنوان بيته ولا سكانه ولا جيرانه ، كأنه لم يستقبل الحياة ولم يبصر الدنيا إلا سنة ١٩٤٥! وها هى ذى امرأته على الحال التى ترى ، تأتى كلما دفعتها الحاجة لتتوسل بى وبغيرى إلى هذا الوغد ليرمى إليها من وراء السُّور من فضلات الفوانى وفُتات الموائد ما يمسك الحياة عليها وعلى أولاده ، وإن لم ينقص فلن يزيد .

فهل كنت تظن قبل هذا الحديث أن فى خلق الله أمثال هذا الرجل ؟ فقلت له : والله يا صديقى لو كان المحدّث غيرك لاتهمته بالتزويق والتزوير ، ولما صدقت أن يكون فى بنى الإنسان هذا الخنزير !

احمد حسن الزيات

(١) الدارة : خير ما وضع من الألفاظ للڤلا (villa) .

في النحو :

لا غير

أبو العلاء المعري

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

يقول الشيخ أبو العلاء المعري في كتابه (عبث الوليد) في هذا البيت لأبي عبادة البحتري :

« أناب به بسطامه ومحمد   تمام علا يعيي الملوك حلولها[1]

كان في النسخة : (أناب به) وهي كلمة نافرة في هذا الموضع ولو أنها (أثاب) لكانت أشبه . وفي النسخة (القمام) مرفوعة وإنما يجوز ذلك إذا جعلت بدلا من (بسطام ومحمد) والمعنى يصح على ذلك إلا أنه بعيد . والأحسن أن يكون (أبنَّ) في موضع (أناب) أي أقام ولزم . (تمام علا) ينصب بوقوع الابنان عليها وقد أساء في قوله : (تمام) لأن المعروف تم إلا أن زيادة الألف هاهنا جائزة تشبه بقلال وقباب . وفي بعض النسخ (أناف) وهو أشبه بمذهبه ، وينصب حينئذ تمام لا غير »

فيكتب الأستاذ الأديب محمد عبد الله المدني المعلق على الكتاب هذه التعليقة على (لا غير) في قول الشيخ (ص ١٩٠) :

« غير اسم ملازم للإضافة في المعنى ويجوز أن يقطع عنها لفظا إن فهم المعنى وتقدمت عليها كلة ليس وقولهم لا غير لحن : المغني لابن هشام . اهـ » .

وهذا قول الإمام جمال الدين بن هشام في (غير) أرويه بتمامه — وإن طال — إذ قد يميل قارىء إلى الوقوف عليه :

« غير : اسم ملازم للاضافة في المعنى ، ويجوز أن يقطع عنها لفظا إن فهم المعنى وتقدمت عليها كلة ليس ، وقولهم : (لا غير) لحن . ويقال : قبضت عشرة ليس غيرها برفع غير على حذف الخبر أي مقبوضا ، وبنصبها على إضمار الإسم أي ليس المقبوض غيرها .

وليس غير ، بالفتح من غير تنوين على إضمار الاسم أيضا ، وحذف المضاف إليه لفظا ، ونية ثبوته كقراءة بعضهم : (لله الأمر من قبلِ ومن بعدِ) بالكسر من غير تنوين أي من قبل الغلب ومن بعده .

وليس غير ، بالضم من غير تنوين ، فقال المبرد والمتأخرون إنها ضمة بناء لا إعراب وإن غير شبهت بالغايات كقبل وبعد ، فعلى هذا يحتمل أن يكون اسما وأن يكون خبرا . وقال الأخفش ضمة إعراب لا بناء لأنه ليس باسم زمان كقبل وبعد ولا مكان كفوق وتحت ، وإنما هو بمنزلة كل وبعض ، وعلى هذا فهو الاسم ، وحذف الخبر ، وقال ابن خروف : يحتمل الوجهين .

وليس غيرا بالفتح والتنوين ، وليس غير بالضم والتنوين ، وعليهما فالحركة إعرابية لأن التنوين إما للتمكين فلا يلحق إلا المعربات وإما للتعويض فكأن المضاف إليه مذكور ، ولا تتعرف غير بالإضافة لشدة إبهامها » .

فعند الأستاذ المدني — وتلكم تعليقته — أن الشيخ قد لحن ، وسنده هو ابن هشام . وقد فتشت طويلا عن اللحن في عبارة المعري فلم أجده ، ولن أجده أبدا . وإن خيل أنه قد جاء من إعمال (لا) عمل (ليس) فالملحن نفسه يسطر في (المغني) هذه الأسطر :

« الثاني — من أوجه لا — أن تكون عاملة عمل ليس كقوله :

من صد عن نيرانها   فأنا ابن قيس لا براح[1]

وإنما لم يقدروها مهملة والرفع بالابتداء لأنها حينئذ واجبة التكرار ، وفيه نظر لجواز تركه في الشعر ، و(لا) هذه تخالف ليس من ثلاث جهات (إحداها) أن عملها قليل حتى ادعى أنه ليس بموجود . (الثانية) أن ذكر خبرها قليل حتى إن الزجاج لم يظفر به ، فادعى أنها تعمل في الاسم خاصة وأن خبرها مرفوع ، ويرده قوله :

تعز فلا شيء على الأرض باقيا   ولا وزر مما قضى الله واقيا

وأما قوله :

نصرتك إذ لا صاحب غير خاذل   فبوئت حصنا بالكماة حصينا[2]

(١) قلت : البيت من قصيدة ، صدر مطلعها : (هواها على أن الصدود سبيلها) ولم ترد هذه القصيدة في الديوان المطبوع .

(١) قلت : البيت للحماسي سعد بن مالك ، وهو من أبيات الكتاب والمفصل ، قال الشنتمري : استشهد به على إجراء لا مجرى ليس في بعض اللغات كما أجريت ما مجراها في لغة أهل الحجاز فتقديره لا براح لي على معنى ليس لي براح .

(٢) قلت : البيت من شواهد ابن عقيل في إعمال لا عمل ليس .

فلا دليل فيه كما توهم بعضهم لاحتمال أن يكون الخبر محذوفا وغير استثناء . الثالثة أنها لا تعمل إلا فى النكرات خلافا لابن جنى وابن الشجرى ، وعلى ظاهر قولهما جاء قول النابغة :

وحلت سواد القلب لا أنا باغيا سواها ولا عن حبها متراخيا

وعليه بنى المتنبى قوله :

إذا الجود لم يرزق خلاصا من الأذى
فلا الحمد مكسوبا ولا المال باقيا[1] »

فهذه (لا) تعمل — إذن — عمل (ليس) — ودع قولهم إن عملها قليل فالقلة لا تمنع العمل . وما عدها أحد خطأ أو لحنا — وقد زاد العرب الباء فى خبرها لتأكيد النفى — كما يقول ابن يعيش[2] — كما زادوها فى خبر أختها أو قريبتها فقال قائلهم :

فكن لى شفيعا يوم لا ذو قرابة بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

و (لا وليس) تتناوبان ، قال اللسان :

« قد تجى ليس بمعنى لا ولا بمعنى ليس ، ومن ذلك قول لبيد : (إنما يجزى الفتى ليس الجمل[3]) أراد لا الجمل . وسئل سيدنا رسول الله عن العزل[4] عن النساء فقال : لا عليكم أن لا تفعلوا فإنما هو القدر[5] ، معناه ليس عليكم أن لا تفعلوا يعنى العزل كأنه أراد ليس عليكم الإمساك عنه من جهة التحريم وإنما هو القدر ، إن قدر الله أن يكون ولد كان » .

وهل (ليس) أصلها — كما قالوا — إلا (لا) ضمت إليها (أيس) ثم كان ما أراده الله تعالى وعمله الانتخاب الطبيعى La Sélection Nalurelle فى اللغة عمله فى كل شىء ، وهل أنت — يا فتى — من قبل أنت ، هل دريت كيف كنت ؟ قال التاج :

« أصلها — يعنى ليس — (لا أيس) طرحت الهمزة

(١) قال العكبرى : شبه لا بليس فصب الخبرين كتشبيه ابن قيس فى بيت الكتاب : من فر ... ولم يقل فى الاسمين المعرفتين شيئا .

(٢) شرح المفصل جـ ١ صـ ١٠٩ .

(٣) قلت : ضبطت (يجزى) في هذا الجزء من اللسان (جـ ٢٠ صـ ٣٥٨ وفى جـ ٨ صـ ٩٦) بالبناء لما لم يسم فاعله وهى بالبناء لما سمى فاعله ، وجاءت (يجزى والجمل) بالراء والحاء فى جـ ٨ ، والقول من أمثالهم قال الميدانى فى شرحه : يريد لا الجمل ، يضرب فى المكافأة أى إنما يجزيك من فيه إنسانيه لا من فيه بهيمية .

(٤) عزل الماء عن النساء حذر الحمل .

(٥) فى رواية : لا عليكم أن لا تفعلوا ذلك . فانها ما من نسمة كتب الله أن تخرج إلا وهى خارجة .

وألزقت اللام بالياء ، وهو قول الخليل والفراء ، قال الأخير : والدليل على ذلك قولهم أى العرب : ائتنى به من حيث أيس وليس ، أى من حيث هو ولا هو ، وكذلك قولهم جىء به من أيس وليس أو معناه من حيث لا وجد ، أو أيس أى موجود ولا أيس أى لا موجود فخففوا ... »

وقد استعمل للشيخ (لاغير) فى كتابه العجيب العبقرى (الفصول والغايات) وفى كتابه المدهش (رسالة الملائكة) كما استعملها فى (العبث) فقال فى شرح جملة فى الأول ص ٣٣٩ :

« والعرف الرائحة الطيبة وغيرها ، والريا الرائحة الطيبة لا غير » .

وقال فى الثانى ص ٧٠ :

« ... ومعيشة عند (سعيد بن مسعدة) مفعُلة لا غير ، وهى عند الخليل وسيبويه مفعِلة ولا يمتنع أن تكون مفعلة[1] » .

واستعمل (لا غير) أئمة قبل المعرى وبعده . وهذه جريدة قصيرة فى استعمالهم إياها :

الكتاب لسيبويه (ج ٢ ص ٣١٧) :

« ويكون الاسم على إنفعل فى الوصف لا غير » .

تهذيب إصلاح المنطق (ج ١ ص ١٨١) ، والتهذيب لابن السكيت والإصلاح للتبريزى :

« بقية الإثلِب والأثلَب أى الحجارة والتراب ، قال أبو يوسف : أشك فى الإثلب والأثلب وأحسبه إفعل وأفعل . الحوفى : هى أفعل لا غير[2] ، لأن الهمزة إذا كانت أولا يقضى عليها بالزيادة إلا أن يقوم دليل بأنها من الأصل » .

الفصيح لأبى العباس ثعلب (ص ٣١) :

« جلا القوم عن منازلهم جلاء وأجلوا أيضا ، وأجلوا عن قتيل لا غير إجلاء[3] » .

وفيه فى (ص ٨١) :

(١) لم نجد الشيخ محمود حسن زناتى الذى ضبط كتاب (الفصول والغايات) وفسر غريبه ونشره ، والأستاذ محمد سليم الجندى الذى عني بتحقيق (رسالة الملائكة) وشرحها وضبطها ومعارضتها قد نقدا أو علقا ومثلهما لم يغب عنهما ما يقول ابن هشام وغير ابن هشام .

(٢) فى النهاية : الولد للفراش وللعاهر الاثلب الاثلب : بكسر الهمزة واللام وفتحهما والفتح أكثر : الحجر ، وهمزته زائدة

(٣) إذا تفرقوا عنه بعد إحداقهم به (التلويح لمحمد الهروى) .

« ولد المولود لِتَمام وتَمام ، وليل التمام مكسور لا غير[١] » .

الكامل للمبرد (ج ٦ ص ٥٤ رغبة الآمل من كتاب الكامل) :

« قال وجل لعمر بن عبد العزيز يرثيه :

قدغيب الدافنون اللحد إذ دفنوا بدير سِمعان قسطاس الموازين

من لم يكن همه عينا يفجرها ولا النخيل ولا ركض البراذين

أقول لما أتاني ثم مهلكه لا يبعدنّ قوام الملك والدين

يقال هذا قوم الأمر وملاكه لا غير[٢] ، وتقول فلان حسن القوام مفتوح تريد بذلك الشطاط ، لا يكون إلا ذاك » .

الفائق للزمخشري (ج ١ ص ١٢٦) :

« النبي صلى الله عليه وسلم قال حريث : رأيته دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء حرقانية قد أرخى طرفها على كتفيه : هي التي على لون ما أحرقته النار كأنها منسوبة بزيادة الألف والنون إلى الحرق ، يقال : الحَرَق بالنار والحرق معا والحرق[٣] من الدق محرك لا غير » .

المخصص لابن سيده (ج ٣ ص ٥٠) :

« وقالوا : جزاك الله خيرا والرحم بالنصب والرفع ، وجزاه الله شرا والقطيعة بالنصب لا غير » .

شرح المفضليات لأبي محمد الانباري (ض ٥٦٥) :

« أنكرته حين توسمته والحرب غول ذات أوجاع

قال عامر : أنكرته شككت فيه ، يقال : أنكرت الرجل إذا كنت من معرفته في شك ونكرته إذا لم تعرفه ، قال الله عز وجل : نكرهم وأوجس منهم خيفة . قال أبو عبيدة يقال أنكرته ونكرته بمعنى واحد وكذلك استنكرته ، وانشد بيت الأعشى :

وأنكرتني وما كان الذى نكرت

مني الحوادث إلا الشيب والصلعا

أي إنما أنكرت شيبي وصلعي لا غير ، فأما كرمي وطبيعتي فلم أتغير عنهما » .

لسان العرب لابن منظور (ج ٤ ص ٣٤٦) :

« قال الجوهري : وأما قولهم : قدك بمعنى حسبك فهو اسم تقول : قدي وقدني أيضا بالنون على غير قياس لأن هذه النون إنما تزاد في الأفعال وقاية لها مثل ضربني وشتمني . قال ابن بري : وهم الجوهري في قوله : إن النون في قدني زيدت على غير قياس وجعل نون الوقاية مخصوصة بالفعل لا غير . وليس كذلك ، وإنما تزاد وقاية لحركة أو سكون في فعل أو حرف كقولك في من وعن إذا أضفتهما إلى نفسك مني وعني فزدت نون الوقاية لتبقى نون من وعن على سكونها ، وكذلك في قد وقط تقول قدني وقطني فتزيد نون الوقاية لتبقى الدال والطاء على سكونهما . وكذلك زادوها في ليت فقالوا : ليتني لتبقى حركة التاء على حالها ، وكذلك قالوا في ضرب ضربني لتبقى حركة الباء على فتحها . وكذلك قالوا في اضرب اضربني أيضا أدخلوا نون الوقاية عليه لتبقى الباء على سكونها » .

وفيه في ج ٦ ص ٢٧٩ :

« العَمر والعُمْر والعُمُر : الحياة ، يقال : قد طال عمره وعمره ، لغتان فصيحتان ، فإذا أقسموا فقالوا : لعمرك فتحوا لا غير ، والجمع أعمار ، وسمي الرجل عمرا تفاؤلا أن يبقى[١] » .

فهل يرى السيد محمد عبد الله المدني أن شيخنا أبا العلاء وهؤلاء الأئمة المتقدمين كلهم أجمعين كانوا من اللاحنين ؟ ...

محمد إسعاف النشاشيبي

---

(١) في اللسان : ليل التمام بالكسر لا غير أطول ما يكون من ليالي الشتاء . وفي التاج : تمام الشيء ماتم به بالفتح لا غير ، وليل التمام ككتاب وفي النهاية : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم ليلة التمام هي ليلة أربع عشرة من الشهور لأن القمر يتم فيها نوره ، تفتح تاؤه وتكسر ، وقيل : ليل التمام بالكسر أطول ليلة في السنة وفي الأساس : أحيا ليل التمام والتمام وهو أطول ليلة في السنة .

(٢) لصاحب رغبة الآمل سيد على المرصفي (رحمه الله) تعليقات كثيرة على أقوال في الكلام ، ولم يقل هنا شيئا بل استعمل (لا غير) أيضا فقال في شرحه « يريد بالكسر فيهما لا غير ، وعن الزجاج قد يفتح قوام الأمر ، وعن أهل اللغة يقال ملاك الأمر بكسر الميم وفتحها وكلاهما نظام الأمر وما يعتمد عليه . الشطاط : حسن القوام وطوله أو اعتداله . وجاءت (لا غير) في الكامل في الرغبة ج ٥ ص ٩٨ .

(٣) اللسان : الحرق احتراق يصيب الثوب من دق القصار ، ابن الأعرابي : النقب في الثوب من دق القصار جعله مثل الحرق الذي هو لهب النار .

---

(١) وردت (لا غير) في السفر الثاني (شروح سقط الزند) الذي حققته (لجنة إحياء آثار أبي العلاء المعري) والشارحون هم التبريزي والبطليوسي والخوارزمي ورجال اللجنة هم : مصطفى السقا ، عبدالرحيم محمود ، وعبد السلام هارون ، إبراهيم الأبياري ، حامد عبد المجيد . والتسمية كافية ، أسماؤهم فيها غنى عن وصفهم .

مجـــانين . . . !

للأستاذ على الطنطاوى

[تعليق على ما كتبه الصديق النبيل الأستاذ كمل السكيلانى فى العدد ٦٧١ من الرسالة عن « نيوتن والوزير العباسى » مع تحيتى وأشواقى إليه . . .] « على »

إذا رأيتم رجلا يمشى فى الطريق منفوشَ الشعر ، شارد النظر ، قد لبس معطفه على القفا ، ومشى على غير هدى ... قلتم إنه (مجنون) ... وقد يكون (مجنوناً) ، ولكنه قد يكون فيلسوفاً ... أو شاعراً ... أو رياضياً ... !

وإذا سمعتم أن رجلا لا يفرق بين السراويل والقميص ، ولا بين الجمعة والخميس ، قلتم إنه « مجنون » ... ولكن (أناتول فرانس) ، والعهدة على الراوى (جان جاك بروسّون) دعى إلى وليمة يوم الأحد ، فذهب يوم السبت ولبث ينتظر متعجباً من تأخر الغداء ، ولبثتْ ربّة الدار تنظر متعجبة من هذه الزيارة المفاجئة ، ثم لم يرض أن يصدق أنه يوم السبت ... فهل كان (أناتول) نابغة قومه فى البلاغة وباقعة العصر مجنوناً ؟ !

وإذا شاهدتم رجلا يعتزل فى كوخ ، أو ينفرد فى غار ، لا يقبل على الدنيا ، ولا يكلم الناس قلتم إنه (مجنون) ، ولكن (الغزالى) عاف الدنيا وقد اجتمعت له ، والمجد وقد أقبل عليه ، والرياسة وقد أتته منقادة تسعى إليه ، وحبس نفسه فى أصل منارة الجامع الأموى فى دمشق ، فهل كان (الغزالى) حجة الإسلام وعلم الأعلام مجنوناً ؟ !

وإذا بلغكم أن إنساناً نسى اسمه قلتم إنه (مجنون) ، ولكن (الجاحظ) نسى كنيته وطفق يسأل عنها حتى جاءه ابن حلال بالبشارة بلقياها ، فقال له : أنت أبو عثمان ؟ فهل كان (الجاحظ) عبقرى الأدب ، ولسان العرب مجنوناً ؟ .

* * *

ونيوتن ... وقد كانت فى داره قطة ، كلما أغلق عليه بابه ، وقعد إلى كتبه ومباحثه ، أقبلت تُخرمش الباب وتخشخش بأظفارها فتشغله عن عمله حتى يقوم فيفتح لها ، فلما طال عليه الأمر كدّ ذهنه ، وأطال بحثه ، فاهتدى إلى المَخلص ... ففتح فى أسفل الباب فتحة تمرّ منها فاستراح بذلك من شرها... ثم ولد لها ثلاث قطَيْطات ففتح لكل واحدة منها فتحة ... لم يستطع هذا العقل الكبير الذى وسع قانون الجاذبية أن يتسع لحقيقة صغيرة : هى أن الفتحة الواحدة تكفى القطة الأم وأولادها !

وآمبير ... وقد كانت تعرض له مسائل فى الطريق ، فلا يجد قلماً لها وورقاً ، فحمل معه حوّاراً (١) ، فكلما عرضت له مسألة ، ورأى جداراً أسود ، وقف فخط عليه ، فرأى مرة عربة سوداء واقفة ، فجعل يكتب عليها أرقامه ورموزه ، واستغرق فيها ، حتى سارت العربة ، فجعل يعدو خلفها وحَوّاره بيده ، وهو لا يدرى ما يصنع !

وهنرى بوانكاريه ... وقد دعا قوماً إلى وليمة فى داره ، وضرب لها الساعة السابعة موعداً ، فلما حل الموعد وجاء القوم ، كان مشغولا ... فدعوْهُ فلم يسمع ، وألحوا عليه فلم ينتبه ، وكانوا يعرفون شذوذه ، فأكلوا وانصرفوا ... وقام بعد ساعتين فأمّ غرفة المائدة ، فرأى الصحون الفارغة والملاعق المستعملة وبقايا الطعام ، فجعل يفكر : هل أكل أم هو لم يأكل ؟ ثم غلب على ظنه أنه أكل فعاد إلى عمله !

وأمر الله أفندى .. العالم التركى المشهور صاحب المَعْلَمة التركية (٢) ، وقد كان يركب البحر كل يوم ما بين داره فى (اسكدار) وعمله فى (اسطامبول) ، فركب يوماً وكان إلى جنبه موظف كبير فى السفارة البريطانية ، وكان فى جيبه فستق حلبى ، وكان (أمر الله أفندى) مشغول الفكر ، فجال بيده وهو لا يشعر ، فسقطت فى جيب البريطانى ووقعت على الفستق فأخرج منه فأكل ، وظنّ الرجل أنه مزاح ، فسكت ، ولكن الشيخ عاد وأوغل فى الأكل حتى كاد يستنفد الفستق كله ، وكان الفُلْك مزدحماً ما فيه مفر للبريطانى من هذه الورطة ، فأحبّ أن يتلطف بالشيخ حتى يكف ، فسأله : كيف وجدت الفستق؟ قال : « عال ! » وعاد إلى تفكيره وأكله ؛ فقال له : ولكن ليس فى جوار الدار مثله أشتريه للأولاد ، وإذا دخلت عليهم من

---

(١) الحوار : الطباشير لابأس بعربيتها لأن التحوير هو التبييض .

(٢) أى دائرة المعارف ، وبالتهم سموها (معلماً) على وزن (معجم) .

غير فستق بكوا ... قال الشيخ : « تجيب » ! وعاد إلى الأكل والتفكير ، فقال له : أفلا تتكرم بإبقاء شيء لهم ؟ قال : « بلى ، بكل امتنان » ، وأخرج طائفة من الفستق فدفعها إلى الإنكليزي وأكل الباقي !

وقد وُلِّي وزارة المعارف وأعطى سيارة ، فكان كلما بلغت به السيارة المنزل ، وفتح له السائق الباب ، أخرج كيسه وسأله : كم تريد ؟ فيقول له : يا سيدى هذه السيارة لمعاليك ، فيتذكر ويقول : طيب !

وقد سألته امرأة مرة ، وكان يمشى أمام داره : أين دار وزير المعارف يا سيدى ؟ فقال لها : ومن هو وزير المعارف الآن؟

وصديقنا اللغوى العراقى عبد المسيح وزير[1] ... وقد دخل مرة غرفة غير غرفته فى وزارة الدفاع ، وكان (طاب ذكره) من كبار موظفيها ، فرأى أثاثها على خلاف ما كان يعهد ، فغضب ودعا الفرّاش ، وقال له : حوِّلْ هـذه المنضدة ، انقل هذا الهاتف[2] ، اعمل كذا ، افعل ذاك ... فلما استوت له كما يريد ، نظر فقال : أهذه غرفتى ؟ ! قال : لا ياسيدى ، فانتقل إلى غرفته!

وكنا نزوره أنا وأنور ، فدعا لنا مرة بشاى وتدفق بالحديث ، وهو يشرب كأسه ، فلما فرغت ، وضعها وتناول كأس الأستاذ العطار فشربها ، ثم تَلَّثَ بكأسى ، فلما جاء الفراش يأخذ الكؤوس ، قال : سألتكم بالله ، هل تريدون كأساً أخرى ؟ !

وشيخ الشـام ومربى الجيل الشيخ طاهر الجزائرى ، وقد حدثنى الشيخ قاسم القاسمى أنهم احتالوا عليه حتى اشتروا له جبة جديدة وألبسوه إياها ، وذهبوا به إلى دمّر فجلسوا حول البركة العظيمة فى منزل الأمير عمر ، وكان فى المجلس الشيخ عبد الرزاق البيطار ، والشيخ جمال الدين القاسمى ، وجلّة العلماء ، فما كان من الشـيخ طاهر إلا أن قام فنزع الجبة ، وجعل يغمسها فى البركة ، ثم يدلكها بالتراب ، ثم يغمسها ، ثم علقها على غصن حتى جفت وتكرّشت فلبسها وقال : الآن استرحت ، إن الجبة الجديدة تشغل فكر صاحبها ، أما العتيقة فإنه لا يبالى بها فينصرف إلى تفكيره ...

(١) وخبرت أنه وضع كتاباً فى ذهول العلماء ولم أره ، وأشكر أحد تلاميذى فى العراق إذا تكرم فأهداه إلى

(٢) لا يعرف التلفون فى الشام إلا بالهاتف .

وصديقنا الكبير سامى بك العظم مفتش العدلية العام ، وقد حدثنى من ثمه أنه دعا (فلاناً) وكان رئيساً للوزراء إلى الغداء فى داره فى أقصى المهاجرين ، فلما كان اليوم الموعود جاء الرئيس بسيارته إلى باب المنزل ، فنزل منها وصرف السائق لئلا يطول عليه الانتظار ، واجتاز الحديقة الممتدة ، وصعد الدرج العالى ، وقرع الباب ، فلم يرد أحد عليه ، فعاد إلى البلد ماشياً فى شمس الهاجرة من آب[1] . أما سامى بك ، فقد نسى الموعد ، ولم يكن فى الدار أحد ، لأن أسرته فى القاهرة ، فذهب فتغدى فى المطعم!

وصديقنا الأديب العالم الراوية عز الدين التنوخى ، وقد دعا للبحث فى إعداد مهرجان المتنبى من سنين جمهرة من أدباء البلد إلى المجمع العلمى يوم كان سكرتيره ، فلما جاؤوا وجدوا المجمع مغلق الباب ، فذهب بعضهم إلى دار الأستاذ يسأل عنه خشية أن يكون به مرض ، وإذا هو يشتغل بتحقيق كتاب أبى الطيب اللغوى ، وإذا هو يحدثهم عن الكتاب ، أما حكاية الدعوة ، فقد نسيها من أساسها !

***

أفكان هؤلاء ، وفيهم كل عبقرى عَـلَم ، وكل نابغـة إمام ... أ كانوا كلهم مجانين ؟

أما فى رأى الناس ، فَنَـعَمْ !

ذلك لأن القافلة تمشى ، فمن سايرها عدّه أهلها عاقلا ، ومن تقدم عنها يسلك طريقاً جديداً قد يكون أقرب وآمن ، عدّوه مجنوناً ، كمن تأخر عنها ليتيه فى مجاهل الصحراء !

لـكن ذاك جنون العبقرية ، وهذا جنون المارستان !

إن العبقرى شغل بالعلم فكره كله ، فلم يبق منه شىء لفهم الحياة ، فصار عند أهلها مجنوناً !

وبين جنون العبقرية وجنون المارستان نوع ثالث ، ألا وهو جنون الغرام :

وكل الناس مجنون ولـكن   على قدر الهوى اختلف الجنون

والهوى ... يا ويح الهوى ، ما أكثر شعابه ، وما أضلّ أوديته ؟ !

الهوى ... ومنذا الذى لم يته فى واد من أوديته ، ولم يسلك شعباً من شعابه ؟

(١) أغستوس

إنّ من لم يهوَ الغيد الحسان ، هَـوِىَ الرياض والجنان ، أو الأصفر الرنان ، ومن لم تفتنه العيون التي في طرفها حور ، فتنته الشهرة واستهواه الجاه ... كل الناس مجنون ، ولـكن أخطر المجانين : مجانين الهوى !

* * *

وهل فى الدنيا أشد جنوناً ممن ينكر الحياة ويعرض عنها ، لا يريد أن يبصر وجهها ، ويراها سوداء فى عينيه لا تنيرها الشمس ولا يضوِّئها القمر ، كل ذلك لأن (امرأة) لم تمنحه قبلة ... يا حفيظ ! اللهم إنا نسألك السلامة !

أما عرفتم مجنون « ليلى » ؟ هذا الذى زهد فى المجد والرفاهية والعلم والمال والجنة ... واجتوى حياة البشر ، وهام مع الوحش فى البرية ، وملأ أيامه حسرة وكآبة وغماً ، لأن ... لأن الله خلق عينى ليلى سوداوين فتانتين ، وجعل أنفها رقيقاً دقيقاً ، وبرأ فمها أحمر كالوردة ، حلواً كالسكر ، صغيراً لا يعرف إلا لغة القبل ...

نعم ، إنه جُنّ لأن الله لم يخلق ليلى هذه قبيحة شوهاء !

لقد كان يعيش قبل أن يعرف ليلى كما كان يعيش سائر أبناء آدم ، وكانت حياته كاملة سعيدة من غير ليلى ، فاشتهى يوماً أن يدنو من امرأة كما يشتهى كل رجل ، فقادته المصادفة إلى ليلى ، فأرادها ... فلم يصل إليها فجُنّ ... ولو كان عاقلا لرأى فى كل امرأة فى الدنيا غناء من ليلى ... إن مثَـله مثل رجل أراد أن يدخل بيتاً له مئة باب ، فطرق باباً منها وعالجه ، فلم يفتح له ، فوقف يبكى وينتحب ، شوقاً إلى الدخول ، ويضرب الجدار برأسه ، والأبواب التسعة والتسعون مفتحة أمامه !

وإن لـكل رجل (ليلى) :

كل يغنى على ليـــلاه متخذاً ليلى من الناس أو ليلى من الخشب

فإن فاتته ليلى الناس أجزأت عنها ليلى الخشب ، فما بال قيس ؟ أو لم يخلق الله فى النساء جميلة إلا ليلاه ؟ أو ليست المصادفة هى التى ألقتها بين يديه ، ولو كان رأى سعدى أو سلمى ، لـكان مجنون سلمى أو سعدى ؟

* * *

وهذا مجنون آخر هو ستيفن مجنون ماجدولين :

ولقـد عرفته مذ نقله إلى الشرق إمام الـكاتبين المنفلوطى رحمة الله على روحه ، ثم رأيت وجهه الفرنسى الأصيل فى يوم كنت فيه أنا أيضاً مجنوناً يفكر بأعصابه لا بدماغه ، ويرى الدنيا كلها خلوة من خلوات الحب ، والحياة قصة من قصص الغرام ، والوجود كله وجه فتاة فتانة ... وقاتل الله الصبا وحماقات الصبا ... عرفته يومئذ فرأيته (بجنونى) بطلا من أبطال الحب ، وشهيداً من شهداء العاطفة ، ولـكنى عدت إليه اليوم ، وقد عقلت ، أو كدت ، فإذا هو ... أعوذ بالله !

يقول المجانين : إن الحب يطهر النفوس ويزكيها ، ويوسع آفاقها وينميها ، ويسمو بها ويعليها ، فتعالوا اسمعوا حديث هذا المحب الفرنسى ما صنع به الغرام :

هجر أباه وتبرأ منه ، وأنـكر حق أبوته ... ثم ذهب أخوه إلى المعركة وخاف أن يسقط عن سرجه ، فبعث إليه يسأله ثمن سرج جديد ، فلم يرد عليه ، لأنه يحتاج إلى المال لينفقه فيما هو أهم ، يريد أن يستأجر به مقعداً فى المرقص يرى منه وجه ليلاه ، أى ماجدولينته ، فسقط أخوه عن سرجه ، ومات فى المعركة ...

ثم فارق أباه وبقى فى العراء ، فأحسن إليـه واحد من أقربائه ، وأعطاه ما يبتغى من المال ، فـكانت مكافأته إياه على إحسانه أن سرق ماله ، ودفع فى صدره ، فعجل موته ...

فعل ذلك كله من أجل امرأة ، أضاع كل شىء ليجدها ، ولـكنها أعرضت عنه ، ومالت إلى غيره ... إلى صـديقه الذى قاسمه خبزه ، وشاركه فراشه ، صـديقه الذى سلبه سريره من تحته ، فباعه لينفق ثمنه على مآربه وهواه ، وهذا المجنون المغفل لا يحس ولا يدرى ، لأن الحب أعماه وأصمه . وهلْ رأيتم محباً له بصر ؟ أعرضتْ عنه ، ولها الحق فى الإعراض ... هل تتزوج مجنوناً ؟ إن الزواج إذا بنى على هذا الجنون الذى يسميه أصحابه « حباً » ، صار البيت من بعده مستشفى مجاذيب ، ومارستاناً من المارستانات ! !

تزوجت بغيره ، فذهب ينتزعها من زوجها الشرعى ، ويرى أنه أحق بها ، لأن اسمه واسمها منقوشان على شجرة زيزفون ...

ما شاء الله كان ! إنك تستطيع أن تأخذ المرأة من بين ذراعى زوجها ، لأنك حفرت اسمها مع اسمك على شجرة ... اسمعوا يا عقلاء (وأين العقلاء) شريعة المجانين ... اسمعوا منطق الحب !

هذا هو الحب الفرنسي : تفريط بحق الأسرة ، واستهانة بواجبات الشرف والدين ، واستئثار قاتل يمحو من الحياة أسمى فضائلها ، لهذه اللذة التي ينالها ، ويفقر النفس العامرة بالإيمان والفضيلة والمجد ، ولا يبقى فيها إلا صورة الحبيب ، يراه العاشق في الأفق إذا نظر إليه والشمس واقفة للوداع ، وفي السماء إذا تأمل فيها ونجومها تتوقد في هدأة الليل ، وفي صفحة الماء والروض البهيج ، وفي كل كتاب يقرؤه ، ومشهد يراه :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل

فيا رحمتا لهؤلاء المجانين ! إنهم عُمْي لا يبصرون من الدنيا إلا وجه امرأة واحدة ... صُمٌّ لا يسمعون إلا صوتها ... بُلْه لا يشتغلون إلا بها ... مجرمون لا يبالون بكل رذيلة إذا أوصلتهم إليها ... أذلّاء لأنهم فقدوا الرجولة والكرامة ، وغدا المثل الأعلى لهم أن يطيعوا هذه الرعناء الطائشة ... لأن لها عيناً بلون السماء وزرقة البحر ...

هذا هو الحب يا أيها الشباب الصغار !

***

كل عاشق هو (ستيفن) ، ولو تناءت الديار ، وتباعدت الأزمان ، فاقرأوا سيرة ستيفن تقرأوا سيرة كل عاشق ...

لقد ارتضى أن يخسر كل شيء ليربح ماجدولين ، فلما خسرها لم يبق له شيء ... لقد غدا مجنوناً ... وهل يمكن أن يكون محب عاقلا ؟ ها هو ذا يحرق الورقة المالية التي لا يملك غيرها ... ليقرأ على ضيائها رسالة الشيطانة ... أعني الحبيبة ، ويبقى من بعدها طاوياً يتضور جوعاً ، لا يدري أن أحلام الحب وحماقاته لا تملأ المعدة الفارغة . وأن الرغيف الواحد أثمن عند الجائع من كل ما في الأرض من لَيْلَيَات وماجدولينات ... لقد غدا تائهاً يدور في السبل والطرقات ... وينام حيث يدركه النام ...

لقد صيّره الحب موجوداً كالمعدوم ... صار عضواً من الأمة أشلّ لا ينفع ولا يضر ، بل إنه يضر ولا ينفع ! !

لقد سدّ في وجهه طرقَ المجد ، وحجب عن باصرتيه نور الشمس ، فلم يبق فيه فائدة لنفسه ولا للناس ، بل لقد صار هُزْأة وغدا مَسْخَرة ... وكذلك يكون العاشقون !

وينال هذا المجنون خمسة عشر ألفاً يستطيع أن يصنع بها الجلائل ، ويرفع بها لنفسه ولأمته مجداً ... فما ذا صنع بها ؟ دفعها إلى عابر سبيل لا يعرفه ... فما أكرم هؤلاء العشاق الذين يمنحون ثروتهم كلها إلى من لا يعرفون ، ويضن الواحد منهم على أخيه بثمن سرج لفرسه ، ويتركه يموت في المعركة ... !

ثم يأتيه المال الوفير ، فينفقه في أتفه الأمور وأحط الرذائل ، يستأجر مقاصير المسرح كلها ، ويرى الرواية وحده ... لما ذا ؟ ليغيظ المرأة التي أحبها فتزوجت بغيره ، لأنها تريد أن يكون زوجها رجلا مثل الرجال ، لا امرأة لها شاربان ولحية ولا عقل لها ، ثم يترقى ستيفن في فضائل الحب ، فينتهي إلى الغصب والنهب من حانة ... ويعلن جنونه ليهدم به الحياة البشرية ، فيزعم أن الحب أقدس الواجبات ، والزواج شر الرذائل ، ثم تختم هذه الحياة النبيلة ... السامية ... بجريمة القتل !

هذا هو مجنون ماجدولين ، وذاك مجنون ليلى ... أما سائر المجانين ، فهم بقية العاشقين !

***

فإذا كان في الدنيا جنون عبقرية ، وجنون مارستان ، فإن جنون الهوى هو جنون الإجرام ، لا سيما إذا كان هوى على الطريقة الفرنسية ...

فيا أيها الشباب الصغار ! إذا لم يكن بدٌّ من الجنون ، فلنجنّ بالمعالي والمكارم والعلم والفن ، أو لنسكن المارستان ...

أما المرأة ، فصدقوني إذا قلت لكم : إنها لا تستحق أن يُجنّ بها أحد ! !

(دمشق) علي الطنطاوي

على هامش النقد :

« دفاع عن البلاغة »

تأليف الأستاذ الزيات

للأستاذ سيد قطب

— ١ —

شغلتنى الشواغل عن قراءة هذا الكتاب عند ظهوره ، اعتمادا على أننى قرأت معظم فصوله منشورة فى « الرسالة » ... فلما عدت إليه فى هذه الأيام ، وأنا أستعرض كتب النقد الحديث فى المكتبة العربية عامة ، وجدت أننى كنت مخطئا فى اعتمادى على ما قرأته فصولا فى الرسالة . فقراءة هذه الفصول شىء ، وقراءة كتاب كامل فى موضوع معين شىء آخر . ووجدت أن القضية التى يعرضها الكتاب جديرة بأن تطول حولها الشروح والتعليقات ، والمناقشات ، فى هذا الأوان بالذات .

فللمرة الأولى بعد كتابَىْ « عبد القاهر » فى القرن الرابع الهجرى ، تعرض قضية البلاغة على بساط البحث فى هذا المحيط الشامل ، وتناقش بوصفها وحدة فى بحث مستقل ، لا فى صدد دراسة لكاتب أو كتاب (١) .

ونحن قد نخالف الأستاذ فى الكثير من قضايا هذا الكتاب كما نوافقه على أسس معينة لهذا البحث . ولكن هذا كله شىء آخر لا يمس القيمة الذاتية للكتاب فى المكتبة العربية بوصفه أول علاج شامل لقضية البلاغة بعد كتابى عبد القاهر . لا يقف فيه مؤلفه عند الأدب العربى وحده ، بل يسترشد كذلك بالنقاد الفرنسيين ، وبتطور المذاهب الأدبية هناك ، كما يسترشد بالنقاد العرب ، وتطور الأساليب فى العصر الحديث .

وعنوان الكتاب قد يدل على موضوعه دلالة كافية « دفاع عن البلاغة » والأستاذ الزيات أولى الكتاب المعاصرين بالدفاع عن البلاغة . فهو صاحب « مذهب التنسيق التعبيرى » كما وضعت له عنوانه فى كتابى القادم : « المذاهب الفنية المعاصرة » . ذلك المذهب المتفرع عن المنفلوطى ، صاحب « مذهب الابتداع التعبيرى » . والذى يجعل للتعبير وتنسيقه أهمية كبرى فى الفن بل الذى يجعل الفن هو أساس هذا « التنسيق التعبيرى » .

***

نحن نتفق مع الأستاذ فى أساس القضية ، وهو أن العمل الفنى فى الأدب لا يوصف بالجودة إلا أن يتهيأ للفكرة الجيدة ، أو الإحساس الجيد ، أسلوبا جيدا ، وعبارة جيدة . وأن التعبير ليس نافلة فى العمل الفنى فى الأدب ، وأنه لا يفسد ويرك ويتعقد ثم تبقى لهذا العمل قيمته الفنية .

« فالفكرة والصورة فى الأسلوب كل لا يتجزأ ، ووحدة لا تتعدد . وليس أدل على اتحادهما من أنك إذا غيرت فى الصورة تغيرت الفكرة ، وإذا غيرت فى الفكرة تغيرت الصورة . فقولك : أعنيك ، غير قولك : إياك أعنى . وقولك : كل ذلك لم يكن ، غير قولك : لم يكن كل ذلك . وقولك : ما شاعر إلا فلان ، غير قولك : ما فلان إلا شاعر . فترتيب الألفاظ فى النطق لا يكون إلا بترتيب المعانى فى الذهن ... ص ٦٠

« من ذلك نرى أن الأسلوب خلق مستمر : خلق الألفاظ بواسطة المعانى ، وخلق المعانى بواسطة الألفاظ . ومن ذلك أن الأسلوب ليس هو المعنى وحده ، ولا اللفظ وحده ، وإنما هو مركب فنى من عناصر مختلفة ، يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه . تلك العناصر هى الأفكار والصور والعواطف ثم الألفاظ المركبة ، والمحسنات المختلفة . والمراد بالصورة إبراز المعنى العقلى أو الحسى فى صورة محسة . وبالعاطفة تحريك النفس لتميل إلى المعنى المعبر عنه أو لتنفر منه » . ص ٦٢

أوافق الأستاذ على هذا الأساس الذى عبرت عنه على طريقتى فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » والذى سبقنا إليه الإمام عبد القاهر فعبر عنه على طريقته فى كتابه « دلائل الإعجاز » .

ولقد قررت هذه الحقيقة هناك بهذه الفقرات :

« وبعض الناس حين ينظر فى هذه الموضوعات (موضوعات القرآن) ويرى ما فيها من دقة وعظمة ، وصلاحية ومرونة ،

(١) يقال : إن هذه القضية عرضت فى كلية الآداب بالجمعة المصرية وأنا لا أدري كيف عرضت هناك ولا فى أى محيط عرضت . وأحسب أن الناس كذلك لا يدرون شيئا عن هذه المحاولة الموضعية .

وإحاطة وشمول ، يحسبها ميزة القرآن الكبرى ، ويحسب أن طريقة التعبير القرآنية تابعة لها ، وأن الإعجاز كله كامن فيها ، كما أن بعضهم يفرق بين المعانى وطريقة الأداء ، ويتحدث عن إعجاز القرآن فى كل منهما على انفراد .

« أما نحن فنريد أن نقول : إن الطريقة التى اتبعها القرآن فى التعبير ، هى التى أبرزت هذه الأغراض والموضوعات ، فهى كفاء هذه الأغراض والموضوعات .

« ولا يردنا هذا إلى تلك المباحث العقيمة حول اللفظ والمعنى وقد استغرقت من النقاد العرب ما استغرقت منذ أثارها الجاحظ فزعم أن المعانى ملقاة على قارعة الطريق ، ثم تابعه فى البحث ابن قتيبة وقدامة وأبو هلال العسكرى وغيرهم مخالفين ومؤيدين . وإنا لنحسب أن « عبد القاهر » قد وصل فيها إلى رأى حاسم حين انتهى إلى أن اللفظ وحده لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو لفظ ، إنما من حيث دلالته يدور البحث فيه ؛ وأن المعنى وحده لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو خاطر فى الضمير ، إنما من حيث أنه ممثل فى لفظ يدور البحث فيه . وأن المعنى مقيد فى تحديده بالنظم الذى يؤدى به ، فلا يمكن أن يختلف النظمان ثم يتحد المعنى تمام الإتحاد .

« لم يصغ « عبد القاهر » القضية هذه الصياغة المختصرة ، فنحن نترجم عنه ، وإلا فقد استغرق فيها كتابا لا نستطيع نقله هنا ، ولكن له فضله العظيم فى تقرير هذه القضية ، ولو خطا خطوة واحدة فى التعبير الحاسم عنها لبلغ الذروة فى النقد الفنى . فنحن نقول عنه : إن طريقة الأداء حاسمة فى تصوير المعنى ، وإنه حينما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد ، اختلفت صورتا هذا المعنى فى النفس والذهن . وبذلك تربط المعانى وطرق الأداء ربطا لا يجوز الحديث بعده عن المعانى والألفاظ كل على انفراد ، فلن يبرز المعنى الواحد إلا فى صورة واحدة ؛ فإذا تغيرت الصورة تغير المعنى بمقدارها . وقد لا يتأثر المعنى العام فى ذاته ، ولكن صورته فى النفس والذهن تتغير . وهى المعول عليها فى الفن — إذ التعبير فى الفن للتأثير — فإذا اختلف الأثر الناشىء عنه فالمعنى المنقول مختلف بلا مراء » . ص ١٩٠

ويرتب الأستاذ الزيات على هذه الحقيقة نتائجها الطبيعية التى رتبها عليها بعض النقاد فى الشرق والغرب ، ولكن فى شىء من الحماسة قد يجاوز القصد . قال فى ص ٦٦

« وقد غالى علماؤنا البيانيون ، فزعموا أن المعانى شائعة مبذولة لا يملكها المبتكر ولا السابق ، وإنما يملكها من يحسن التعبير عنها ، فمن أخذ معنى بلفظه كان سارقا ، ومن أخذه ببعض لفظه كان له سالخا ، ومن أخذه فكساه لفظا أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه[1] .

« على أن هذا الرأى الجرىء لم يكن من رأى العرب وحدهم وإنما يراه معهم (بوفون) وأشياعه من كتاب الفرنج ؛ فقد قرر فى خطبته عن « الأسلوب » التى ألقاها يوم دخل الأكاديمية الفرنسية : إن الأفكار والحوادث والمكتشفات شركة بين الناس ، ولكن الأسلوب من الرجل نفسه .

« نعم قال (بوفون) : إن الأسلوب من الرجل نفسه ، ولم يقل : إن الأسلوب هو الرجل ، كما شاع ذلك على الألسنة . ولم يرد بما قال ، إن الأسلوب ينم عن خلق الكاتب ، ويكشف عن طبعه كما فهم أكثر الناس ؛ وإنما أراد أن الأسلوب ، ويعنى به النظام والحركة المودعين فى الأفكار ، هو طابع الكاتب وإمضاؤه على الفكرة ؛ ومعنى ذلك أن الأفكار تكون قبل أن يفرغها الفنان فى قالبه الخاص ، من الأملاك العامة ؛ فإذا عرف كيف يصوغها على الصورة اللازمة اللائقة تصبح ملكا خالصا له ، تسير فى الناس موسومة بوسمه ، وتعيش فى الحياة مقرونة باسمه ، فالأسلوب وحده هو الذى يملك الأفكار وإن كانت لغيرك . ألا ترى أن أثر الأخلاق فى بقاء الأمم وفنائها معنى من المعانى المأثورة المطروقة ، فلما أجاد شوقى سبك اللفظ عليه فى بيته المشهور :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

أصبح بهذه الصيغة من حسناته المعدودة ، وأبياته المروية ! »

ونحن — على اتفاقنا مع الأستاذ فى المبدأ السابق — نختلف معه هنا كما نختلف مع الجاحظ صاحب نظرية المعانى الملقاة على قارعة الطريق .

فإن كون العمل الفنى يتألف من المعنى والصورة ، بحيث

(١) الصناعتين ص ١٤٦ .

لا يمكن الفصل بينهما . لا يقتضى أن تكون الصورة وحدها هى العمل الفنى الذى يثبت ملكيته لمن يجيده ، ولا يقتضى كذلك أن تكون جودة الصياغة كفيلة برفع المعنى إلى مرتبة الجودة ، كما جاء فى بحث الأستاذ فى مكان آخر حيث يقول فى ص ٧٣ :

« إذا حلى فى صدرك بعد ذلك أن تذهب إلى ما ذهبت إليه من أن تجويد الأسلوب يتضمن تجويد الفكرة ويضمن خلودها فدعك من أولئك الذين عادوا الكمال الفنى بطبائعهم .. الخ »

أو حيث يقول فى ص ٢٦ :

« وليس أدل على أن الشأن الأول فى البلاغة إنما هو لرونق اللفظ وبراعة التركيب ، من أن المعنى المبذول أو المرذول أو التافه قد يتسم بالجمال ، ويظفر بالخلود ، إذا جاد سبكه وحسن معرضه . ولا بأس أن أقدم إليك مثلا من آلاف الأمثلة ، بلغ معناه الغاية فى السوقية والفحش ، ومع ذلك تحب أن تسمعه وتحفظه وتعيده لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تطلع دونها أكثر الأقلام .

« قال أبو العيناء الأعمى لابن ثوابة : بلغنى ما خاطبت به أبا الصقر ، وما منعه من استقصاء الجواب إلا أنه لم ير عرضا فيمضغه ، ولا مجدا فيهدمه .

« فقال له ابن ثوابة : ما أنت والكلام يا مكدى[1] ؟

« فقال أبو العيناء : لا ينكر على ابن ثمانين سنة ، قد ذهب بصره ، وجفاه سلطانه ، أن يعوّل على إخوانه ، ثم رماه بمعنى فاحش مكشوف . فقال ابن ثوابه :

« الساعة آمر أحد غلمانى بك .

فقال أبو العيناء :

« أيهما ؟ ألذى إذا خلوت ركب ، أم الذى إذا ركبت خلا ؟ »

فانظر فى هذه الجملة الأخيرة ترة رمى ابن ثوابة فى نفسه وفى زوجه ، وهما معنيان سوقيان يترددان كل ساعة على ألسنة السيابين من أوشاب العامة . وإنك مع ذلك تقف من هذه الجملة موقف المشدوه المعجب ، تحركها لسانك ، وتعمل فيها فكرك ، وتعرضها على مقاييس البلاغة وشروطها ، فتطول على كل قياس وتزيد على كل شرط » .

(١) المكدى : من يسأل الناس .

إلى أن يقول فى ص ٢٨ :

« وأنت ترى أن الصياغة وحدها هى التى سمت بهذه المعانى الخسيسة إلى أفق البلاغة فتداولتها الألسن ، وتناقلتها الكتب . وليس حال المعنى فى ذلك حال اللفظ ، فإن اللفظ فى ذاته كالموسيقى يخلب الأذن ، ويلذ الشعور وإن لم يترجم . أما المعنى فكالكهرباء ، إذا لم يكن لفظه جيد التوصيل ، انقطع تياره ، فلا يعرب ولا يطرب . اقرأ قول القائل :

لما أطعناكم فى سخط خالقنا لاشك سلّ علينا سيف نقمته

« ثم وازن معناه الشريف ونسجه السخيف ، بما رويت لك من كلام أبى العيناء ، فلا يسعك إلا أن تقول كما أقول :

« إن القَذر يوضع فى آنية الذهب فيقبل ويحمل ، وإن المسك يوضع فى تافجة الطين فيرفض ويهمل »

ونريد نحن أن نقف عند الحقيقة الأولى التى اتفقت فيها مع الأستاذ كل الاتفاق ، فتجاوزها قد يوقع فى الزلل

والسبيل الأقوم فى هذا المجال أن نقول :

إن العمل الفنى لا يكون بالفكرة الجيدة المبتكرة وحدها ، ولا بالإحساس الصادق الجميل وحده ، إنما يتم بالصورة الجميلة التى يبرز فيها المعنى والإحساس

أما الصورة وحدها ، فلا تستطيع أن تخلق فناً إنسانياً خالداً إذا خلا من الإحساس الجميل الصادق ، ومن الفكرة العميقة المبتكرة ، ومن التصور الفذ الخاص ، هذه العناصر التى يجب أن يحسب لها حسابها فى كل فن يراد له السمو أو الخلود

وأقصى ما تصل إليه الصياغة أن ترفع المعنى أو الإحساس فى صورة عنه فى صورة أخرى ، ولكنها لا ترفع بذاتها عملا فنياً على عمل فنى آخر ، إذا ارتفعت فى الأول مع سفول معانيه ، وانخفضت فى الثانى مع ارتفاع قيمته

إنها تصلح مقياساً حين تتحد الفكرة أو المعنى العام ثم تختلف الصورة ، ولكنها لا تصلح للقياس الدقيق حين يكون هناك فكرتان أو معنيان يختلفان فى قيمتهما الإنسانية والشعورية

وهذه كلمة أبى العيناء ، إنها ستبقى — على براعة صياغتها — مجرد نكتة لاذعة ، لا تتسامى إلى الآفاق الشعورية فى الفن العالى ، وكذلك سيبقى بيت « شوقى » حكمة مكرورة شائعة ، ولكنها

لا تسلك فى مستوى الحكمة النابعة من طبع ذى خصوصية وامتياز . أما البيت الذى استشهد به الأستاذ على ما تصنعه الركة بالمعنى العالى ، فهو صالح كذلك للاستشهاد به على سوقية التفكير، إذ لا خصوصية ولا ارتفاع عن تفكير العوامّ

والخصوصية فى الأحاسيس والمشاعر والأفكار شىء ثابت ، وله قيمته التى لا تنكر ، وهى مناط الأصالة فى الفن ، وكل ما نريده هو القول بأن هذه الخصوصية لا تبدو كاملة إلا فى صورة جيدة الصياغة ، وفى أصالة أسلوب وتعبير تكافئ أصالة الشعور والتفكير ، وإلا بقيت مطموسة ناقصة لا تبدو فى جلالها الكامل، ولا ترق إلى الآفاق العالية فى الفنون

وقد تحدث الأستاذ عن الأصالة والخصوصية فى الأسلوب حديثاً فى غاية الجودة والصحة حين قال فى ص ٨٢ :

« يراد بالأصالة فى الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين من خصوصية اللفظ وطرافة العبارة ، وتلك هى الصفة الجوهرية للأسلوب البليغ ، والسمة المميزة للكاتب الحق . وملاك الأصالة ألا تكتب كما يكتب الناس ، ملاكها أن تكون أصيلا فى نظرتك وكلمتك وفكرتك وصورتك ولهجتك ، فلا تستعمل لفظاً عاماً ، ولا تعبيراً محفوظاً ، ولا استعارة مشاعة . ولعلك قرأت فيما قرأت كلاماً يرضى اللغويين ويعجب النحاة ، ولكنه مضطرب الدلالة ، مختلط الألوان ، تفه المذاق ، لا تستقله روح ، ولا تمثله صورة . ذلك هو الأسلوب الذى صدر عن الذاكرة ، ولم يصدر عن الذهن ، ونقل عن الناس ولم ينقل عن النفس ، وعبر بالجمل لا بالكلمات ، وأبان بالتقريب لا بالدقة ، وصور بالسوقى المبتذل لا بالأصيل المبتكر »

وكان من حق الأصالة فى الشعور والتفكير أن تنال من الأستاذ ما نالته الأصالة فى الأسلوب والتعبير، فالمعانى والأحاسيس ليست شائعة ملقاة على جانب الطريق ، وإلا فأين تذهب الطبائع الأصيلة الممتازة التى ترى الدنيا والأشياء بعين خاصة ، فإذا هى تعيش فى كون خاص بها من صنع أحاسيسها وتفكيرها ؟

تلك فلتة من فلتات الحماسة للبلاغة من صاحب « دفاع عن البلاغة » يرد بها الغلوّ فى إنكار قيمة التعبير ، فيجعل المزيّة كلها للتعبير

على أن الأستاذ يعود فيضع الأمر فى نصابه إلى حد كبير فى ص ٧٨ حين يقول :

« خلص لنا من مَخْض هذه الأحاديث أن الأسلوب الفنى يتكون من الصورة والفكرة ، كما يتكون الماء القراح من الهدروجين والأكسيجين . وكما استحال فى فن الطبيعة أن يتكون الماء من أحد عنصريه ، فقد استحال فى فن الإنسان أن يتكون الأسلوب من أحد جزأيه . ولا أقصد وجه الشبه بين الأسلوب والماء على أن تركب هذا وذاك من عنصرين ضربة لازب ؛ إنما أمدُّ الشَّبه إلى أن نسبة الصورة إلى الفكرة فى الأسلوب يجب أن تكون كنسبة الهيدروجين إلى الأكسيجين فى الماء ! وإذن لا يعد من الأساليب الفنية تلك المعانى الحكيمة التى تعرض فى معرض بشع من الركاكة والغثاثة والتعقيد والخطأ ، ولا تلك الصور المموهة التى تنتفخ انتفاخ الفقاقيع، وتبرق بريق الشرر ، ثم لا يكون من ورائها غير فراغ وظلمة »

ففى هذا التقرير قصد ودقة تعود بنا إلى الحقيقة الأولى التى اتفقنا عليها ، وتحسب لكل من الفكرة والصورة حسابها الصحيح

للكلام بقية

سيد قطب

الأدب فى سير أعلامه :

ملــتن

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والجمال ...]

للاستاذ محمود الخفيف

— ١٦ —

بعد أوبتر من إيطاليا :

آب ملتن إلى وطنه بعد أن غاب عنه سنة وثلاثة أشهر ! وكانت الحرب بين انجلترة واسكتلندة فى أولى مراحلها ؛ وكانت السياسة الداخلية دائبة فى عصفها لا تكاد تجنح إلى السكون حتى تهب ريحها عاتية من كل جانب .

وكان يتوقع منه بادى الرأى وقد آثر العودة إلى بلاده على المضى فى رحلته حياء منه ، كما ذكر ، أن يستمتع بالرحيل والأحرار فى وطنه يعانون ضروب البلاء ، أن يلقى بنفسه فى غمار السياسة أنفة منه وحفاظا ودفاعا عن الحرية التى يعشقها والتى ركب فى فطرته الميل إلى نصرتها ؛ ولكنه ركن إلى الدرس ولاذ بالعزلة كما كان يفعل قبل رحيله .

وقد ملأ الحزن جوانب نفسه على صديقه ديوداتى ، وآلمه ألا يجد مكانه من يستطيع أن يفضى إليه بأنباء رحلته ، ويظهره على ما لقى أثناءها من حفاوة وما اكتسب من حسن السمعة وذهاب الصيت .

والتمس العزاء لنفسه فى مرثية كتبها فأدى بها حق الوفاء لصديقه . وقد اختار لها اللغة اللاتينية كما اختار لها الجو القروى وصور الرعاة وحياتهم ، والذين يعرفون اللاتينية ممن كتبوا حياة ملتن على اتفاق أنها من حيث الفن فى ذاته لا تنزل عن مستوى مرثيته ليسيداس ؛ وأنها من حيث العاطفة أعمق وأصدق من أختها لأن صلة ديوداتى بملتن كانت أوثق من صلة كينج به ، فقد كان ديوداتى قرينه منذ صغره وأقرب خلانه إلى قلبه وأشدهم محبة له ؛ وأخذ ملتن يذكر له فى مرثيته ما كان يحب لولا أن طواه الموت أن يلقيه على سمعه ؛ وجعل ملتن من نفسه ومن صاحبه راعيين كما فعل فى ليسيداس ، وأثنى على خلال صاحبه ولا سيما وفاءه وذكاءه ومرحه وتألم أن كان بعيداً عن وطنه فى غير ضرورة ملجئة فلم ير نهاية صديقه . وأشار ملتن فى هذه المدينة إلى أنه سوف يجد العزاء فى الشعر فيكتب إلياذة عن تاريخ قومه وأساطيرهم جاعلا الملك أرثر وفرسانه أبطال ملحمته متخذاً اللغة الإنجليزية أداته ؛ ولكن هذه الملحمة التى وعد بها ظلت مجرد وعد فقد صرفته عنها شواغل السياسة والدين كما صرفته عن الشعر جميعاً اللهم إلا بضع مقطوعات قصيرة زهاء عشرين عاما ...

وكما أطلق ملتن على ادوارد كنج اسم ليسيداس أطلق هنا على ديوداتى اسم دامون ؛ وكان دامون من مشاهير الفلاسفة ورجال الموسيقى بأثينا ، وكان صديقا وأستاذاً لبركليس؛ وقيل إنه كان كذلك أستاذاً لسقراط ، وكان مضرب المثل فى الوفاء ، فقد اقترف أحد أصحابه جريمة كان قصاصها القتل ، وعول ملك سيراكوز على قتله فاستأذنه أن ينصرف ليقوم على بعض شؤون أسرته ثم يعود لينفذ فيه القصاص . وتقدم دامون فرضى أن يكون رهينة عند الملك ليقتله بدل صاحبه إن لم يعد فى موعده ؛ وحل الموعد وهم الملك بقتل دامون فجاء صاحبه معجلا فأنقذه ؛ وأثر وفاء الرجلين فى نفس الملك فعدل عن قصاصه وطلب إليهما أن يكون ثالثهما فى هذه الصحبة الوثيقة (١) .

ونجد فى اختيار ملتن هذا الإسم لصاحبه شاهداً من شواهد فنه ، فهو يلمح كما ذكرنا من قبل إلى المعنى الواسع بالكلمة الواحدة ...

واختتم ملتن مرثيته بإشارته إلى موت صاحبه ولم يتزوج ، فذكر الحب وقال إن من حق الشباب أن يحب ، وأن الذى يذوق طعم الحب وقد تقدمت به السن يذوق طعم الحسرة مضاعفا ؛ ثم يبشر صاحبه بأنه سيلاقى فى الجنة خير العوض عما فاته فى الدنيا فسيستمتع بزواج خالد فى عرس بهيج من أعراس الفردوس .

ويجد بعض الكتاب فى ذكره الحب وأنه من حق الشباب وفى تألمه على موت صاحبه ولم يتزوج تلميحا منه إلى حالته هو ،

(١) (الرسالة) : هذه القصة هى بعينها قصة حنظلة وشريك بن عمرو والنعمان ؛ راجع (الميدانى) فى شرح المثل : إن غداً لناظره قريب .

وإن خفى هـذا التلميح ، ويقولون إن ملتن كان يفـكر يومئذ فى الزواج وإنه قد مل أن يعيش أعزب .

على أنه يعود إلى القراءة فى إقبال لا يقل عن سالف إقباله عليها أثناء مقامه فى هورتون ؛ وقد اتخذ له بعد أوبته من إيطاليا مسكنا فى لندن فلم يعد إلى القرية . ورضى أبوه الشيخ أن يمده بما يطلب من المال وإن كان لا يزال يعجب ويتألم ألا يتخذ ابنه عملا إلا مالا يبرح يردده من تثقيف نفسه ليكون أهلا لما يستشرف له فى دنيا الأدب ؛ وراض الرجل نفسه على سماع هذا وعلى الجود بما يطلب ابنه من المال . والحق أن ابنه لم يطلب منه كثيراً فما كانت به حاجة إلى متع الحياة ولذاذاتها مما يتطلب مالا كثيراً وحسبه من المـال ما يشترى به قوته وما يلزم له من الـكتب وما يدفع منه أجر مسكنه ...

وضاق المسكن الجديد بكتبه ما اقتناه منها فى هورتون وما اشتراه من إيطاليا ، فاتخذ له مسكنا أوسع منه فى أطراف المدينة. وهناك عكف على القراءة والدرس تاركا الشؤون العامة إلى « عناية الله أولا ثم إلى من وكل إليهم الناس القيام على هذه الشؤون » .

وأشرف ملتن فى مسكنه الجديد على تعليم ابنى أختـه وقد قبلها ليقيما عنـده بعد موت أبيهما وزواج أمهما من غيره ، وما لبث أن ضم إليهما عددا من أبناء أصحابه الأقربين ، وأقبل على تعليمهم جميعا فى حماسة ولذة لا تقل عن شغفه بالقراءة والدرس. ولقد عجب دكتور جونسون من عمله هذا وسخر منه فأشار إليه بقوله : « إنه ينظر بشىء من الفـكاهة إلى ذلك الرجـل الذى يبادر بالعودة إلى وطنه لأن قومه يكافحون فى سبيل الحرية ، ولـكنه لا يلبث وقد بلغ ميدان العمل أن يدع وطنيته تتبخر فى مدرسة يفتحها فى بيته » .

وأقبل ملتن على تعليم هؤلاء الصبية وعلى القراءة فلا يدع ساعة من نهاره إلا ملأها بعمل حتى أيام الآحاد لم يدع فيهـا كتبه وأوراقه إلا ريثما يؤدى واجب الدين . ونتبين مما كتبه أحد ابنى أخته فيما بعد عن حياته وأخيه فى بيت خالهما أنه كان يأخـذهما بالجد فى غير هوادة ومن كان معهما من أبناء أصحابه ، ولـكنا لا نتبين فيما كتب أن ملتن قد اهتدى إلى طريقة خاصة فى التعليم أو أنه جرى على أسلوب اقتنع بسلامته وفائدته ، فكل ما ذكره ابن أخته لم يعد الـكم ؛ فهو يباهى بأنهم قرأوا كثيرا وتعلموا كثيرا ...

بهذا الدأب وبهذه العزيمة أقبل ملتن على العمل بعد عودته من إيطاليا . على أن ابن أخته يذكر من أنباء تلك الأيام أن خاله كان ينصرف عن العمل كل ثلاثة أسابيع أو كل شهر مرة فيقضى يوما بين نفر من صحابته يستمتعون بالمرح واللهو البرىء .

وماذا كان يقرأ ملتن بعد أوبته من إيطاليا ؟ إنه اليوم شديد الولوع بالتـاريخ وعلى الأخص تاريخ قومه ، وإن الملحمة التى داعبت خياله فى إيطاليا عن تاريخ قومه أو الآرثريادة ليعاوده حلمها اليوم ويلح عليه . ولقد أشار إليها كما ذكرنا فى مرثيته عن صديقه ديوداتى ؛ كما أنه أثبت كثيرا مما يتصل بها فى كشكوله الذى اتخذه منذ إقامته فى هورتون ليـكتب فيه كل ما يعن له من الآراء والملاحظات ...

وأثبت ملتن فى تلك الـكراسة من الإشارات ما يدل على دراسة شؤون السياسة ، كالمعضلة المالية والضرائب والملـكية والجمهورية وحرية الرأى وحرية النشر والقوانين والاستبداد ، وغيرهما مما يتصل بأحوال عصره .

ولن نزال بقرأوبتدبر ، ولن نزال يعتقد أنه لم يفرغ بعد من أهبته لما يجب أن ينهض له من عمل فى دنيا الشعر ، نجد دليلا على ذلك فى قوله إنه يساير « ذلك التلقين الباطنى الذى يزداد يوما بعد يوم فيوحى إلى أنه بالجد والدراسة المقصودة وهو ما أعده حظى فى هذه الحياة مضافا إلى ذلك ميل فطرى قوى ، قد يتأتى لى أن أترك أثرا كتبته لمن يأتى بعدى من الأجيال فلا يدعونه إلى النسيان » .

وما عسى أن يكون ذلك الأثر ومتى ينهض له ؟ لعل الشاعر لم يكن أكثر بينة من أمره فيما يتصل بموضوع ذلك الأثر الخالد منه فيما يتصل بتاريخ البدء فيه ، فأن كراسته تنطوى على نحو مائة موضوع غير الآرثريادة وكثرتها تتصل بالدين ومسائله من عهد آدم وحواء والخروج من الجنة وما إلى ذلك مما يدل بكثرته وتنوعه على حيرة الشاعر بين ما يأخذ وما يدع ... كذلك حار ملتن بين الصور التى يختار واحدة منهـا لموضوعه ، أيتخذ له الملحمة على نحو ما فعل هوميروس ودانتى ، أم يتخذ له الدراما ؛ أم يترك هذه وتلك إلى سلسلة من الأناشيد مثل أناشيد بندار ،

فلكل من هذه الصور مميزاته ومحاسنه ، ولعل مرد حيرته فى اختيار الصورة إلى أنه لم يحدد الموضوع ، إذ أن الموضوع فى الواقع هو الذى يعين الصورة التى يؤدى فيها .

ومهما يكن من أمر هذه الحيرة فقد قدر على الشاعر أن يدع قيثارته جانبا نحو عشرين سنة لم يكن له فيها أداة إلا النثر اللهم إلا مقطوعات قليلة نفس بها عن صدره فى بعض المناسبات .

***

اجتمع البرلمان الطويل فى نوفبر سنة ١٦٤٠ ، وقدم إليه مقترح الأصل والفرع ، ذلك المقترح الذى شمر له البيوريتانز ، وأرادوا به القضاء على النظام الأسقفى ، وتصدى لأصحاب هذا المقترح فريق من المؤيدين للنظام الأسقفى ومن المشفقين من التطرف فى الدين والسياسة الذين آثروا الوقوف إلى جانب الملك ودب الخلاف على هذا النحو بين أعضاء البرلمان .

وانتقل الخلاف إلى خارج البرلمان فانقسم الناس فريقين : أنصار البيوريتانز ، وأشياع الملك وكبير الأساقفة

وظهر الجانب السياسى من تفكير البيوريتانز يومئذ فى وضوح ، وأخذوا يشيعون آراءهم فى الناس ؛ فالناس جميعاً أمام الله سواء ، ولا يكون الخوف إلا من الله وحده ، والعدالة الاجتماعية وإقرار الحق فى كل أمرهما دعامتا المجتمع الأساسيتان إلى غير ذلك من الآراء الحرة التى تناهض الاستبداد والطغيان .

أما فى الدين ، فلم يبرح البيوريتانز يعلنون مقتهم لكنيسة روما وللنظام الأسقفى وازدراءهم لها ، وما برحوا كذلك ينسبون إلى القساوسة أنهم هم الذين يوحون إلى الملك طغيانه وعلى الأخص كبيرهم وليم لود ، وراحوا يذيعون أن لا حاجة بالناس إلى أخذ الدين عن القساوسة ، فلكل امرئ الحرية أن يتفقه فى دينه مستعيناً بكلام الله ، وإذاً فلم لا يستغنى الناس عن الأساقفة ولم يعد لهم ما سلف من خطر ؟

وتمسك لود وحزبه بوجوب طاعة الملك ، وأعلنوا أن لا غنى للدولة عن النظام الأسقفى ، وأن الكنيسة هى دعامة الملك والمجتمع . فإذا قضى عليها شاعت الفوضى فى كل شىء . وكان يعمل لود على العودة شيئاً فشيئاً إلى كنيسة روما فى روحها ونظامها ومظهرها ، وكان يحارب مبدأ كامن فى القدر المحتوم ، ويعضد المبدأ القائل بالاختيار ، ويضطهد من يدعو إلى الاعتماد على الأنجيل وحده بغير رجوع إلى القس ، وأمعن لود فى الكيد للبيوريتانز ، واستعان بسلطة الدولة فأذاقهم سوء العذاب !

على أن فريقاً من المعتدلين وقفوا بين هؤلاء وهؤلاء وإن كانوا قلة . ويرى هؤلاء المعتدلون أن المرء حر فيما يفكر فيه ، أو فيما يأتى من عمل ما دام يطيع الملك والقس . وكان ملتن أقرب إلى هؤلاء المعتدلين منه إلى متطرفى البيوريتانز ؛ فقد كان يرفض عقيدة القدر المحتوم ويؤمن بحرية الاختيار ، كما كان يحب التسامح ويدعو إليه . وخالف البيوريتانز فى تزمتهم ومبالغتهم فى الزهد والتقشف . وعنده أن المرء إذا وفى واجب الدين حقه ، واستمسك بالفضيلة فلا تحرم عليه زينة الله التى أخرج لعباده . وللناس أن يستمتعوا أيام الآحاد بما يشيع البهجة والمرح فى نفوسهم بدل أن يحشروا حشرا إلى الكنائس ويحملوا على البقاء فيها طويلا ...

ولكن ملتن أنكر بكل ما فى نفسه من حب للحرية على القساوسة تعصبهم واستبدادهم . وألقى بقيثارته من يده على رغمه وخرج من عزلته ليبدأ ضد القساوسة كفاحا ثائرا عنيفا تجلى فيه كل ما فى طبعه من إنكار ومقت للتعصب ، وكل ما فى روحه من تمرد على الاستبداد وميل إلى نصرة الحرية .

(يتبع) **الخفيف**

التطورات السياسية

في الشرق الأقصى

للاستاذ محمد جنيدى

تمخضت الحرب العالمية الثانية فى الشرق الأقصى عن ظهور الجمهورية فى جزائر الهند الشرقية المعروفة فى القاموس السياسى الحديث باسم « indonesia » ولكى يدرك القارىء مدى مدلول استعمال هذه الكلمة — حديثا وقديما — نقدم له تعريفاً أولياً عن الوضع الطبيعى والسياسى للجزائر الأندونيسية ، كما ذكره علماء التاريخ والجغرافيا .

الوضع الطبيعى :

قرر علماء التاريخ والجغرافيا أن الشعوب الأسيوية المنتشرة فى جزر المحيط الهادى والمحيط الهندى ، وفى شواطئهما الطويلة تفرعت من أصل واحد ، هو الأصل الأندونيسى ، الذى وجد فى هذه الجزائر قبل ميلاد المسيح عليه السلام بخمسة آلاف سنة ! وبنوا تقريرهم على الحقائق الثابتة للصفات واللغات والسمات التى تنسجم عليها هذه الشعوب فى حياتها الحاضرة فعرفوا بلدانها بكلمة جامعة تحوى الأصل والفرع ، وتربط أقصاها بأدناها ، هذه الكلمة الجامعة هى « indonesia » وهى كلمتان ركبتا تركيباً مزجياً ، الكلمة الأولى « indos » بمعنى الهند والثانية « Nesos » بمعنى الجزائر فى اللغة اليونانية . وتشمل أندونيسيا الجزر والبلدان الواقعة فى شرق وجنوب آسيا ، وهى :

١ — جزر الفلبين . ٢ — تايلاند (سيام) . ٣ — أنام (الهند الصينية) . ٤ — بورما . ٥ — ملايا . ٦ — جزائر الهند الشرقية — جاوا ، سومطرة ، بورنيو — سيليبيس .

وأشهر حاصلاتها الزراعية : الأرز ، قصب السكر ، السمسم البن ، الشاى ، الدخان ، القطن ، البردى ، النارجيل ، الكينا ، المطاط ، الكاكاو ، النيلة ، الأناناس ، الفوفل ، القات ، الفلفل .

وأكثر معادنها المستخرجة : الذهب ، الفضة ، الفحم الحجرى ، النفط ، القصدير ، الألمنيوم ، الحديد .

وأشهر حيواناتها : الجاموس ، البقر ، الخيل ، الغنم .

أما جوها فمعتدل : إذ تهب عليها الرياح من المحيطين ، والأمطار تتساقط عليها دواماً ، حتى جعلتها زمردة خضراء فى الشرق الأقصى ! ...

الوضع السياسى :

لما بدأ الاستعمار الغربي للشرق فى القرن السابع عشر ، شرعت حكومات إسبانيا والبرتغال وهولندا وانكلترا فى الفتح الاقتصادى للشرق الأقصى ، فأنشأت شركات تجارية تنقل المحصولات الزراعية الأندونيسية من الشرق إلى الغرب ، عن طريق الشرق الأوسط ورأس الرجاء الصالح . وكانت التوابل الأندونيسية أهم الصادرات من الشرق الأقصى لأوروبا . ولما تمكنت الشركات الأوروبية من السيطرة على الحياة الاقتصادية للشرق الأقصى ، اندفعت حكوماتها إلى ميدان السياسة الاستعمارية وفرضت سيادتها على البلدان الأندونيسية ، بعد قتال ومعارك عنيفة ؛ فى هذا الظرف كانت فى أندونيسيا حكومة إسلامية مركزها مدينة ديمك « Demak » بجزيرة جاوة ، وحكومات أخرى فى سومطرة وبورنيو وملايا والجزر الأخرى .

فالدولة الأسبانية استعمرت الفيلبين التى تبلغ مساحتها ١١٤٫٠٠٠ ميل مربع ، والدولة الفرنسية استعمرت (أنام) التى تبلغ مساحتها ٢٨١٫٠٠٠ ميل مربع . وانكلترا استعمرت (بورما وملايا) اللتين تبلغ مساحتهما ٢٦٢٫٠٠٠ ميل مربع لبورما ، ٣٦٠٠٠ ميل مربع لملايا . وجاوة وسومطرة وبورنيو استعمرتها هولندا ، وتبلغ مساحتها ٧٣١٫٠٠٠ ميل مربع . أما تايلاند فقد حافظت على استقلالها .

وتطلق كلمة « أندونيسيا » فى العصر الحديث على المستعمرات الهولندية سابقا التى أشهرها الجزائر الآتية :

جاوة ، سومطرة ، بورنيو ، سيليبس ، غينيا الجديدة ، جزائر الملوك ، بالى ، مادورا ، بنكا ، بليتون ، سمباوا ، تيمور ، فلوريس ، وتبلغ مساحتها ٧٣١ ألف ميل مربع ، وعدد سكانها

٧٥ مليون نسمة .

فى هذه الجزائر ظهرت الجمهورية الحديثة ، التى هى أول حكومة جمهورية فى الشرق الأقصى . وسنتابع الآن البحث عن التطورات السياسية التى حدثت فى أندونيسيا منذ فجر القرن العشرين حتى عام ١٩٤٥ ، ليقف القارىء العربى على أهم الحركات الاستقلالية التى قام بها الشعب الأندونيسى ، خــلال خمسة وأربعين عاما .

لقد تأثر الشعب الأندونيسى بنتائج الحرب اليابانية الروسية فى عام ١٩٠٤ ، وزاد تأثره قوة الدعاية اليابانية الشهيرة ، بدعوة الشرق إلى ضم صفوفه للقضاء على الاستعمار الغربى . فـكان انفجار القنبلة الأولى « الشرق للشرقيين » التى حفزت الشعوب الشرقية لمقاومة الاستعمار الغربى بهدر فى المحيط الشرقى فيرتجف الغرب له ، ويزيد فى تقوية مركزه . وفى ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ نهضت أندونيسيا الـكبرى « indonesia Raya » نهضة قوية مركزة على أسس علمية حديثة . فقد أنشأ طلبة كلية الطب برئاسة الدكتور وحيدن بمدينة جاكرتا جمعية Boedl Oetomo أو النزعة الفاضلة للمقاصد الآتية :

١ — السعى لاستقلال أندونيسيا السياسى .

٢ — العمل لنشر الثقافة العالية .

٣ — العمل لإصلاح الحالة الاقتصادية

وفى شهر أكتوبر عام ١٩٠٨ عقدت الجمعية أول مؤتمراتها . فبلغ عدد أعضائها ١٠ر٠٠٠ عضو ، وهذا رقم يدل على قبول الشعب لمقاصد الجمعية .

كان أكثر المنتسبين للجمعية طلبة المدارس والـكليات العالية وأبناء الأسر الراقية ، وانتشرت فروعها فى أنحاء أندونيسيا . تسعى لتحقيق مقاصد الجمعية ، وأشهر من قاموا بالدعاية للجمعية الدكتور شومو الذى أصبح فى عام ١٩٣٦ زعيما لحزب أندونيسيا الـكبرى « Parindra » وشـكرى أمينوتو الذى أصبح فى عام ١٩١٢ زعيما لحزب « الرابطة الاسلامية » . وتعتبر جمعية « بودى أوتومو » الحجر الأساسى للأحزاب الوطنية ، والدعامة الأولى فى صرح النهضة الأندونيسية الحديثة .

استطاعت جمعية بودى أوتومو إثارة الروح القومية ، وإشعال نار الحماسة فى نفوس الأندونيسيين . فأصبحت أندونيسيا أتونا يتقد ، وفى ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٢ ظهر فى المسرح السياسى — الهولندى الأندونيسى — حزب سياسى له سلطته الدينية وقوته القومية ، هو حزب « Sjarekat Islam » برئاسة شـكرى أمينوتو لتنفيذ الخطط الآتية :

١ — العمل لتحرير أندونيسيا السياسى التام .

٢ — الدفاع عن الإسلام .

٣ — توسيع نطـاق التعليم ، وإصـلاح الحالة الزراعية والاقتصادية .

وفى عام ١٩١٦ بلغ عدد أعضائه ثلاثة ملايين عضو . أما فروعه فمنتشرة فى المدن والقرى ، وللحزب أقسام عليا رئيسية هى : التشريع ، والقضاء ، والتنفيذ . وأقسام أخرى للشباب والرجال والمرأة والفتاة ، والتعليم ، والمالية ، والصحافة ، والنشر والرياضة ، والاقتصاد ، ودائرة كبيرة للتحكيم .

وأبرز أعضاء الحزب : مستر أغوس سالم ، وهو وكيل الحزب ، كان قنصلا للمفوضية الهولندية بمكة قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ، ثم استقال واشتغل بالسياسة فى حزب الرابطة الإسلامية . وفى عام ١٩٢٣ مثل نقابات العمال الأندونيسيين بجنيف . وفى العهد الحاضر يتولى منصب وكالة وزارة الخارجية للجمهورية الأندونيسية . وفى عام ١٩٢١ انتخب عضوا فى المجلس النيابى « Volksraad » فى دورته الثانية عن حزبه .

وفى ٦ سبتمبر ١٩١٢ أنشأ الدكتور دويزديكر والدكتور شفتو ماعون كسومو والبروفيسور كى هاجر ديوانتارا حزب « insoelanda » أو الحزب الأندولندى ، قابلا أعضاءه من الهولنديين ما داموا ولدوا فى أندونيسيا . والحزب يسعى لاستقلال أندونيسيا . وفى عام ١٩١٣ نفت الحـكومة الهولندية زعماء الحزب إلى الجزر الأندونيسية البعيدة عن المجتمعات المتحركة الحية . ثم فى عام ١٩١٤ نقلتهم جميعا إلى هولندا مراعاة لمركزهم الاجتماعى لدى الشعب . وبهذا العمل ، قضت السلطة الهولندية على الحزب .

وفى مايو عام ١٩١٤ أسس المستر سنفليت الهولندى الحزب الاشتراكى الديموقراطى مع بعض زملائه الهولنديين ممن تشبعوا

الشـــيوعية الخُرَّمية

للأستاذ عباس حسان خضر

الخُرَّمية نسبة إلى خُرَّم بمعنى الفرح ، وأصحابها يحللون كل ما يريدون ويشتهون ، فيسمون مذهبهم مذهب الفرح . وقد أخطر لى الكلام على هؤلاء الخرميين الشيوعيين الذين قاموا بأذربيجان منذ أحد عشر قرناً — تلك الحوادث الجارية فى ذلك الإقليم من شمال إيران المتاخم لروسيا . ولك أن تلاحظ صلاح تلك البيئة لنمو الأفكار الشيوعية ، فقد نشأت بها مذاهبها متجهة من الجنوب إلى الشمال : كانت المزدكية القديمة فى بلاد فارس ، ثم كانت الخرمية (موضوعنا) فى شمال فارس ولعل الفكرة قد تابعت سيرها إلى الشمال حيث استقرت فى روسيا فى عصرنا الحاضر شيوعية مغربلة منخولة ، نقى التنظيم الحديث منها كثيراً من العناصر الفوضوية القديمة ، حتى أصبحت نظاما من نظم الحياة فى هذا العصر ، له مبادئه وفلسفاته ، وله أنصاره ومعارضوه .

قامت الشيوعية الخرمية بتلك الأصقاع فى عهد المأمون ، واستطار شرها وعظم خطبها ، وهب إعصارها على الحضارة الإسلامية فى إبان ازدهارها ، فحشدت لها الدولة العباسية قواتها وظلت تكافحها عشرين سنة ، حتى أخمدت أنفاسها .

كانت الخرميةُ الميلادَ الثانى للشيوعية فى تلك البلاد ، بعد مزدك الذى ظهر فى عهد قباذ ملك الفرس ، فدعا إلى المشاركة فى كل شىء ، بحيث لا يُمْنَع أحد مما يشتهى ، كما دعا إلى ترك المنازعات والخصومات والحروب . ومال قباذ إلى هذا المذهب ، فلما ملك بعده ابنه أنوشروان قتل مزدك ، وقضى على الشيوعية الأولى . أما الخرميون فقد زادوا على المزدكية القديمة القتل والغصب والحروب ، وكانوا — إلى تلك الإباحية — يدينون بالتناسخ ، أى حلول الأرواح فى أجساد أخرى غير التى فارقتها ، وقد ادعى زعيمهم بابك الخرَّمىّ أنه إلهٌ ، حلت به روح كبيرهم الأول جاويدان

كان بابك فى حياته الأولى راعياً صغيراً فى قرية بأذربيجان ، وقد زعمت أمه أنها نظرت إليه وهو نائم فرأت تحت كل شعرة من رأسه وصدره دما ، فلما انتبه من نومه اختفى هذا الدم ، فقالت

التى حملها المستر سنفليت من أوروبا . وهى الأفكار الاشتراكية الحديثة ، ولخشية السلطة الهولندية من انتشار الروح الشيوعية فى المجتمع الأندونيسى حلت الحزب الاشتراكى الديموقراطى ، وأرجعت إلى هولندا بعض زعمائه . أما سنفليت فمكث فى أندونيسيا .

ومبادىء الحزب الاشتراكى الديموقراطى ، القضاء على الرأسمالية الدولية ، وإنشاء قوة شعبية اشتراكية ، تمكن لأندونيسيا التحرر من الاستعمار الهولندى الذى يؤيده الأمبريالية العالمية .

وفى سبتمبر عام ١٩١٤ أنشأ بعض الزعماء الأندونيسيين حزب « Pasoendan » أشهرهم رادين أوتو اسكندر ديناتا . وكان الحزب يرمى إلى إيجاد رابطة شعبية مكونة من كبار الموظفين والتجار والصحفيين والأسر الراقية ، لتقود الشعب إلى ميدان الجهاد لتحرير أندونيسيا من السيطرة الهولندية . وفى عام ١٩١٧ ظهر فى جزيرة سومطرة حزب « Sjarekatsumatra » أو « رابطة سومطرة » قاصداً إلى توحيد الجبهات الشعبية فى جزيرة سومطرة للعمل متحدا فى حقل الميدان السياسى لمقاومة الاستعمار.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى قدمت الأحزاب السياسية الوطنية مذكرة إلى الحكومة الهولندية بانشاء حكومة أندونيسية وبرلمان ، فوعدت السلطة الهولندية الأحزاب السياسية بانشاء مجلس نيابى بعد أن تضع الحرب أوزارها . وفى ١٨ مايو ١٩١٨ افتتح المجلس النيابى « Volksraad » جلسته الأولى ، فجاء مخيبا لآمال الوطنيين ، إذ كانوا يرمون إلى إنشاء برلمان وحكومة وطنية . وانتخب أعضاؤه من الأندونيسيين وعددهم ثلاثون عضوا ، ومن الهولنديين وعددهم خمسة وعشرون عضوا ، ومن الشرقيين خمسة أعضاء . ودل هذا الانتخاب على أن هذا المجلس ليس مجلساً نيابيا أندونيسيا ؛ بل هو مجلس هولندى ، فما نسبة ثلاثين عضوا من سبعين مليون نسمة ؟ ! .. إنها نسبة تتضاءل جدا أمام هذه الأرقام الهائلة !

(البقية فى العدد القادم)

محمد جنبدي

إنه سيكون لابني نبأ جليل ..

اتصل بابك بجاويدان ملك الخرمية ، فقربه إليه ، لما رأى من فطنته وخبثه وشهامته . فلما مات جاويدان استدعت امرأته بابك وقالت له : إنك جلد شهم ، وقد مات ولم أرفع بذلك صوتي إلى أحد من أصحابه ، فتهيأ لغد ...

فلما أصبحت تجمع إليها جيشُ جاويدان ، فقالوا : لِمَ لمْ يدعنا ويوصي إلينا ؟

قالت : ما منعه من ذلك إلا أنكم كنتم متفرقين في منازلكم من القرى ، وأنه إن بعث إليكم وجمعكم انتشر خبره ، فلا يأمن عليكم شِرَّةَ العرب ، فعهد إليَّ بما أؤديه إليكم .

قال لي : إني أريد أن أموت في هـذه الليلة ، وإن روحي تخرج من بدني ، وتدخل في بدن بابك ، وتشترك مع روحه ؛ وإنه سيبلغ بكم أمراً لم يبلغه أحـد ، وإنه يملك الأرض ويقتل الجبابرة ، ويرد المزدكية ، ويعز به ذليلكم ، ويرتفع وضيعكم .

فآمن القوم ببابك ، وتزوجته امرأةُ جاويدان . ومن غريب ما جرى في الاحتفال بهذا الزواج أنهم أتوا ببقرة ، فقتلوها ، وسلخوها ، وبسطوا جلدها ، وجعلوا فوقه طستاً مملوءاً خمرا ، ووضعوا خبزا حوالي الطست ، فكان كل رجل يأتي يأخذ لقمة ويغمسها في الخمر ويأكلها ويقول : آمنت بك يا روح بابك ، كما آمنت بروح جاويدان .

أخذ بابك ومن معه يعيثون في الأرض فسادا ، وينشرون مذهبهم الإباحي . وبلغ المأمون خبره سنة ٢٠١ هـ الموافقة لسنة ٨١٦م ، فاهتم بأمره ، وعزم على مطاردته ، والقضاء على مذهبه ، وتعاليمه الضارة بنظم الحياة والاجتماع ، والمضادة لتعاليم الإسلام ، والمنذرة لأركان الحضارة الإسلامية بالتصدع والانهيار . فوجه المأمون إلى بابك أربعة من قواده في أربع حملات متعاقبة ، فلم يستطيعوا التغلب عليه ، لمكانه الحصين ، وقوته الكبيرة ، وشدة تأثيره في قلوب جمهوره . وأدركت المأمون منيته قبل أن يتمكن من القضـاء على الخرمية الإباحية ، فكان من وصيته لأخيه المعتصم أن كتب له : « والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة ، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة ، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل لذلك عمل مقدم النية فيه ، راجيا ثواب الله عليه » .

وفي أول عهد المعتصم استفحل أمر الخرمية في أذربيجان ، ودخل فيه خلق كثير من أهل الجبال وهمذان وأصبهان وغيرها ؛ ولكن المعتصم شمر عن ساعد الجد ، وبذل جهده في الخلاص من هذا الشر ، فاختار لحرب الخرمية قائداً من كبار قواده ، هو المعروف بالأفشين ، وسيره إليهم في سنة ٢٢٠ هـ على رأس جيش منظم ، فدبر الأفشين أمر القتال ، وأحكم تدبيره ، ووزع قواده على الحصون والمعاقل لحراسة القوافل والسابلة ، وأطلق عيونه وجواسيسه حتى يعرف خطوات الثائر وحركاته . واستمر يحاربه سنتين ، حتى انتصر عليه في سنة ٢٢٢ هـ الموافقة لسنة ٨٣٧ م .

وفر بابك متنكرا حتى نزل مكانا بأرمينية ، فعرف خبره سهل بن سنباط أحد بطارقة أرمينية ، فذهب إليه ، وسلم عليه بالملك ، وقال له : قم أيهـا الملك إلى قصرك الذي فيه وليك ، حيث تكون في أمان من عدوك . فسار معه إلى قصره ، ورفع سهل مجلسه وعظمه ، وقدمت المائدة ، وجلس يأكل معه ، فاستشعر بابك جبروته غافلا عما يدبر له فقال لسهل : أمثلك يأكل معي ؟ فقام سهل وقال : أخطأت أيها الملك ، وأنت أحق من احتمل عبده . ودخل حداد كان سهل أرسل في طلبه ، فقال لبابك : مد رجلك أيها الملك . والتفت إلى الحداد قائلا : أوثقه بالحديد . فقال له بابك : أغدرا يا سهل ؟ قال سهل : يا ابن الخبيثة ، إنما أنت راعي غنم وبقر ، ما أنت والتدبير للملك ونظم السياسات ؟ وسلمه إلى الأفشين ، فأرسله إلى الخليفة بسامرا ، فأمر بقتله وصلبه .

وكان يوم دخول الجيش ببابك مدينة سامرا يوما مشهودا ، خرج فيه الخليفة ، ومعه أشراف الدولة ، فاستقبلوا الأفشين استقبالا باهرا ، وكان فرح المعتصم عظيما ، حتى إنه كان يرسل إلى قائده الباسل في صبيحة كل يوم حلة شرف ومعها الهدايا الثمينة .

وجلس الأفشين للشعراء ، يستمع إلى أشعارهم في الثناء عليه إذ أراح الناس من شر ثائر روع البلاد والعباد عشرين عاما ، قتل فيها مائتين وخمسة وخمسين ألف إنسان ، وأسر ثلاثة آلاف وثلثمائة رجل وسبعة آلاف وستمائة امرأة ، وقد ظلوا في أسره حتى أنقذهم الأفشين .

عباس حسان خضر

الطـــاقة الذرية

وكيف صارت سلاحا حربيا

(بقية ما نشر في العدد الماضى)

الفعل الرديومي الصناعى :

بين « جوليو » فى العام التالى . أى عام ١٩٣٣ . إن من الممكن صناعياً تحويل عدد كثير من الذرات إلى ذرات ذات فعل ردیومى . أى أصبح فى الإمكان صناعة مواد كثيرة ذات فعل ردیومی بأية كمية مطلوبة . وفى عام ١٩٣٤ كشف العالم الإيطالى « فيرمى » وزملاؤه بروما ، أنه عند تصادم أثقل العناصر المعروفة وزناً أى اليورانيوم بالإلكترونات ، أعطى اليورانيوم ذرات معروفة ؛ وذلك طبقاً لإحكام إحلال الفعل الرديومى . وتدل هـذه النتائج على ما يظهر أن من الممكن الحصول فى العمل على ذرات أعلى فى عددها الذرى من الذرات الموجودة فى الطبيعة . وقد دلت الدراسات والتجارب التى أجريت بعد ذلك على أن عدد العناصر « عبر — اليورانيوم » (trans — uranium) المتكونة كثير شاذ ، على أن البحوث الكيميائية الدقيقة التى أجريت فى نفس الوقت للتعرف عن نوع الذرة الناشئة بذرات تلك العناصر التالية لليورانيوم مباشرة فى العدد الذرى أو الوزن قد فشلت .

انقسام اليورانيوم إنقساماً ذاتياً :

وفى يناير من عام ١٩٣٩ كشف العلم أيضاً عن نتيجة فى غاية الخطورة . فقد أيد « أوتو كاهن » وزميله « ستراسمان » ببرلين الحقيقة الثابتة التى نصت على أن ذرات اليورانيوم يمكن شطرها مع إطلاق كمية هائلة من الطاقة . وقد توصلا بجانب هذا إلى كشف آخر فى غاية الأهمية ، وهو الذى نص على أن أحد مركبات « عبر اليورانيوم » . هو عبارة عن نظير (isotope) العنصر « باريوم » الذى فى عدده الذرى وكتلته لا يختلف اختلافاً تاماً عن نصف العدد الذرى وكتلة اليورانيوم . وقد كان أن فطن العلماء عقب هذا مباشرة أنه ينشأ عند استحالة اليورانيوم تفاعل نووى يختلف اختلافا تاماً عن أى تفاعل درس حتى هذا الوقت ، بمعنى أن ذرة اليورانيوم وهى ذرة كبيرة جداً ، لا بد وأن نفرض بأنها قد انقسمت إلى قطعتين ، وأن هاتين القطعتين تحتويان على درتين عاديتين وزنهما متوسط . ولما أضيف وزن هاتين الذرتين كل منهما إلى الآخر وجد أن الوزن الكلى أقل بمقدار محسوس عن وزن ذرة اليورانيوم ، وأن النقص فى الوزن قد ظهر فى شكل طاقة منبعثة ، وأن هذا التأثير أقوى عشرين مرة من أى تأثير من نوعه كشف عنه العلم من قبل . وفى الحال بدأ الباحثون فى الكثير من بلدان العالم فى إجراء بحوث دقيقة شاملة لمعرفة ماهية انقسام ذرة اليورانيوم انقساماً ذاتياً .

وفى بحر شهور قليلة توصل « جوليو » وزملاؤه بباريس إلى الكشف عن أدلة بينوا بها أن ذرة اليورانيوم عند انقسامها إلى ذرتين ينطلق منها فى الوقت نفسه عدة نيوترونات — من المؤكد أكثر من اثنين — أى أصبح من الممكن إذن الوصول إلى سلسلة من التفاعلات مبنية فى شكل متوالية هندسية . فلنفرض أن فى متناولك كتلة من اليورانيوم أطلق فيها نيوترون واحد . النتيجة أنه يصحب استحالة ذرة واحدة من اليورانيوم انطلاق ٢ نيوترون على الأقل ؛ وأن ال ٢ نيوترون يسببان استحالة ذرتين أخريين من ذرات اليورانيوم ، وينتج من هذا انطلاق ٤ نيوترون على الأقل . وتستمر العملية على هذا المنوال حتى تحدث استحالة عامة فى الكتلة . وقد كان من الواضح الجلى أنه من الممكن باستخدام عملية كهذه الوصول إلى منبع هائل من الطاقة .

وفى ربيع عام ١٩٣٩ وقت أن كان الأستاذ « نيل بور » يزور أمريكا ، وضع مع الأستاذ « هويلر » بجامعة برنستاون بمقاطعة نيوجرسى نظرية فى عملية الإنقسام الذاتى . وعلى أساس هذه النظرية تكهن العلماء أن من بين نظائر اليورانيوم الثلاثه المعروفة ب « نم ٢٣٨ ، نم ٢٣٥ ، نم ٢٣٤ » (« نم » هو الرمز الكيميائى لليورانيوم باللغة العربية) إن من المتوقع أن النظير الشائع (نم ٢٣٨) ينقسم انقساماً ذاتياً فى حالة ما إذا كانت النيوترونات المنطلقة ذات طاقة عالية فقط . وأن (نم ٢٣٥) النادر الوجود لا ينقسم انقساماً ذاتياً إلا إذا كانت طاقة النيوترونات ، أو بعبارة أخرى سرعة النيوترونات ، المنطلقة بطيئة جداً . وقد تأيدت تلك التكهنات فى مارس من عام ١٩٤٠ . بتجارب اجراها « نير » (بجامعة مينيسوتا) ، بود ، دانينج :

جروس بجامعة « كولومبيا بنيويورك » وقد نصت تجاربهم على استخدام عينة من اليورانيوم زيدت فيها كمية (نم ٢٣٥) عن الكمية العادية بواسطة « الأسبكتروغراف الكتلى » الذى اخترعه « نير » .

وعند تصادم اليورانيوم بنيوترونات ذات طاقة معينة معتدلة. تكون نظير له عدد ذرى يساوى ٩٤ . وقد تكهن العلم أيضاً على أساس نظرية « بور — وهويلر » أن هذا النظير — الذى أطلق عليه اسم « بلوتونيوم » وعبرعنه بالرمز الكيميائى (Pu٢٣٩) يمكن انقسامه انقساماً ذاتياً بنفس السهولة التى ينقسم بها « نم ٢٣٥ » .

انطلاق الطاقة الذرية :

كان الكشف عن انقسام اليورانيوم انقساماً ذاتياً بمثابة قوة دافعة حركت أذهان كل المهتمين بالبحث فى هذا الفرع من العلم. فبدأ فى الحال الأستاذ « جوليو » وزملاؤه بباريس والأستاذ « فيرمى » وبعض علماء الطبيعة الذرية الآخرين فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والسير جورج تومسون وزملاؤه فى لندن ، فى إجراء التجارب بقصد الوصول إلى طاقة ذرية منبعثة يمكن ضبطها .

وقد دلت التجارب التى توصل إليها العلماء فى لندن ، والتى أيدها زملاء الأستاذ جوليو بعد وصولهم إلى انجلترا بتجارب كانوا قد أجروها مستقلين قبل هذا بباريس ، على أن الأمل كبير فى استخدام الطاقة الذرية كمنبع للقوة . ولما كانت النتائج فى هذا الوقت ليس لها أهمية حربية منتظرة أبطلت البحوث فى هذا الموضوع فى لندن .

وفى الشطر الأول من عام ١٩٤٠ اقترح على الحكومة كل من الأستاذ شادويك والدكتور « فريش » والأستاذ « بيرلس » كل على حدة أنه من الممكن الحصول على فرقعة هائلة على جانب كبير من الخطورة إذا استبدل النظير النادر « نم ٢٣٥ » باليورانيوم العادى . وعليه ألفت الحكومة لجنة من العلماء المختصين تحت رئاسة السير جورج تومسون ، وبدأت عملها أولا فى جمع كل المعلومات العلمية التى ظهرت فى هذا الموضوع وقد تطور البحث الذى كان قد بدأ فى ليفربول تحت إشراف السير جيمس شادويك بتعيين الدكاترة فريش وروتبلات مساعدين له . ولما أخذت البحوث تترى ظهرت هناك مسائل أخرى لها علاقة بهذا الموضوع . وعليه ساهم معمل « كافنديش » المشهور بكمبردج بنصيبه فى هذا البحث الخطير تحت إشراف الدكاترة « فيذر ، برتشر » وقد أجريت التجارب فى فصل « نم ٢٣٥ » فى معمل كلارندون تحت أشراف الدكتور « سيمون » يعاونه فى البحث من الناحية الكيميائية الأستاذ « هوارث » . وقد أجريت البحوث أيضاً فى الكلية الامبراطورية للعلوم والفنون بلندن . وقد أجرى البحوث من الناحية النظرية الأستاذ « بيرلس » يعاونه الدكتور « فوش » وغيرهما من العلماء . وذلك بجمع المعلومات التجريبية من مختلف المعامل . وقدوضعت اللجنة فى ١٥ يولية سنة ١٩٤١ تقريراً أثبتت فيه إمكان تحضير سلاح حربى له قوة تخريبية لا مثيل لها ، أى استخدام الطاقة الذرية كسلاح حربى :

وقد تطور البحث فى هذا الموضوع فى نفس الوقت فى الولايات المتحدة الأمريكية . ولما اقترح المرحوم الرئيس روزفلت فى عام ١٩٤١ تبادل المعلومات والنتائج بين الباحثين البريطانيين والباحثين الأمريكيين وافق المستر تشرشل على هذا الاقتراح . وعليه قدم فريق من العلماء الأمريكيين إلى انجلترا لمعرفة مقدار تطور البحث فى بريطانيا . وفى فبراير من عام ١٩٤٢ رحل فريق من العلماء البريطانيين إلى أمريكا . واستمر العمل بعد ذلك فى انجلترا وأمريكا فى جو يشوبه التعاون التام بين البلدين . أما فى انجلترا فقد زيد فى عدد العلماء الباحثين؛ وانضمت جامعتا برستول ومانشستر ، ووضع لكل منهما برنامج بمسائل للبحث فيها . ولما اشتدت الغارات الجوية على بريطانيا أصبح من الضرورى نقل الكثير من المجهود البريطانى إلى أمريكا . وفى أواخر عام ١٩٤٣ رحل العدد الكبير من الفريق البريطانى إلى أمريكا للعمل مع زملائهم هناك . وقد كان من تأثير هذا النقل أن وقع معظم الحمل على عاتق الولايات المتحدة الأمريكية . وقد تم استخراج المواد

الخام اللازمة من كندا . واشتغل العلماء الأمريكيون والكنديون والبريطانيون جنباً إلى جنب فى جو يشوبه التعاون التام والإخلاص لغرض واحد . والعالم أجمع يعرف الآن نتيجة تلك الجهود الموفقة وهو فوز لا نظير له فى التاريخ . فوز فى تطبيق المعلومات الجديدة لتركيب الذرات ونواتها . وقد اشترك علماء الكثير من الدول فى الوصول إلى هذه النتيجة الباهرة التى لا مثيل لها فى تاريخ العلوم . ولكن الفخر كل الفخر يرجع بلا شك لرثرفورد الذى عاجلته المنية منذ بضع سنوات قبل تطبيق هذا الفرع الجديد من العلم تطبيقاً ناجحاً ، والذى ساهم فيه رثرفورد بنصيب وافر .

المستقبل :

قد رأينا كيف استخدمت الطاقة الذرية كسلاح حربى فى غاية الخطورة. بيد أنه من الممكن استخدامها فى الوقت نفسه فى الكثير من النواحى لسعادة المجتمع بنجاح تام وفائدة لا مثيل لها فمن الممكن مثلا استخدام المفرقعات الذرية لتحويل الاصقاع . ومن الممكن أيضاً استخدامها للحصول على حفرة هائلة فى الحجم وخنادق فى الأرض وتحويلها إلى بحيرات وأقنية أو مصارف . وبهذا يصبح فى الإمكان إنشاء بحيرات فى وسط الصحراوات . أى يمكن تحويل أردأ بقاع الأرض إلى واحات وأراض خصبة . ومن الجائز أيضاً توليد كميات هائلة دائمة من الحرارة فى المناطق القطبية الثلجية وبهذا يمكن تحويل القطب الشمالى مثلا إلى منطقة للراحة والاستجمام .

ومن المنتظر فى القريب العاجل تطبيق منبع الطاقة الجديدة لتحريك السفن والقاطرات . أو على الأقل يمكن استخدام الطاقة الذرية للوصول إلى قوة بدون الدخان والقذر المألوف .

وستنتج معامل الطاقة الذرية كميات هائلة من مستخرجات المواد الرديومية يمكن توزيعها على الجامعات لإجراء بحوث أخرى شاملة ، وعلى المستشفيات للبحث واستخدامها فى الأغراض الطبية المديدة . وقد أمكن الآن إنتاج عناصر جديدة بكميات محسوسة . فإذا ما تصادمت النيوترونات بسرعة محدودة مع نظير اليورانيوم الأكثر ثقلا ، كتلته ٢٣٨ وحدة ، وقعت سلسلة من التحويلات ، يتغير فيها اليورانيوم أولا إلى « نبتيونيوم » ثم إلى « بلوتينيوم » ولكل من هذين العنصرين اللذين ليس لهما وجود فى الطبيعة خواصه الكيميائية الفريدة . فالنبتيونيوم ذو فعل ردبوى يتحول نصف وزنه إلى بلوتنيوم فى فترة أكثر من يومين بقليل . ولما كان البلوتينيوم يتبع نظرية الانقسام الذاتى أصبح من الممكن استخدامه فى انبعاث الطاقة الذرية .

فالعلم إذن قد كشف عن عناصر جديدة من المادة فى الوقت الذى كشف العلماء فيه عن قوة فتاكة . فما ذا عسى أن يكون مأربه الجديد ؟ هل البحث عن تطورات جديدة فى الحياة ؟

عن النشرة العلمية الانجليزية

هتـــاف ...!

للاستاذ أحمد عبد المجيد الغزالى

هاتف ، عله الذى أتمنى   من وراء الغيوب ، روحاً وفنا
عشقت روحه الزكية روحى   فمتى تلتقى العيون ؟ وأينا ؟
هو فى خاطرى رؤًى ؛ وبقلبى   حـلمٌ راعه زماناً فجنا
هو ظلٌّ نديتُه بدُموعى   وتفيأته سـلاماً وأمنا
هو نورٌ هدى يقينى ، ونارٌ   صليتْها شكوكُ قلبى المعنَّى
هو فى الزهر والفراش تراءى   لخيالى ، وفى الشعاع استكنّا

* * *

عله الهاتفُ المسرُّ لى الشو   قَ ملحاً ، فكنتُ كلى أُذنا
أسمع الصوت فى «المسرة» حلواً   عبقرياً ، يهتزُّ نايا ولحنا
يرقص الكونُ كله من حوالىَّ   فأفنى فى الكون طيراً وغصنا
شارداً فى عوالم الوهم ، هل آ   ن لهذا الطريد أن يطمئنا ؟

* * *

إيه يا هاتف « المسرة » أشرق   إن لى مقـلة بليلك وسنى
آن أن يشرق الصباح عليها   لترى الكون بين عينيك كونا

رباعيـــات عثمان

للاستاذ عثمان حلمى

يا أخى إن قرأت هذا الكتابا   بعد أن صرت فى التراب ترابا
لا ترع وابتسم فسخرك بالدنـ   ـيا صواب إذا ضللت الصوابا
وتذكر أنى حكيتك فى الأر   ض غروراً وبهجة وعذابا
صورة منك كان قلبى وقبلى   من حكانى كهلا بها وشبابا

* * *

لا جديد بالليل أو بالنهار   وقديم ما جدَّ فى الأخبار
فوليد فى مهـده وفقيد   صرعته مخالب الأقدار
والليالى هى الليالى كما كا   نت قديما سلالة التكرار
قمرٌ جدَّ فى المسير وشمسٌ   لاحقتها النجوم فى التيار

* * *

فالعجيبُ العجيبُ غيرُ عجيبِ   ومريبُ الأمورِ غيرُ مريب
والذى أنت فيه صورة ما فا   تَ ولون القديم لونُ القشيب
فابتسمْ ما استطعتَ واسخر إذا اسطعـ   ـت بما جدَّ من جديد الخطوب
إنَّ جدَّ الحياة أخلق بالسخـ   ـر وأجدى لا بالأسى والنحيبِ

* * *

كلُّ ما أنتَ مبصرٌ لك يُغرى   لو تأملت بابتسامة سخرِ
ليت شعرى أىُّ النفوس وإن جـ   ـلَّ خلا من ضعفٍ به ليت شعرى
وزوايا النفوس فيها كثير   من خفايا غرورها المستقرّ
فابتسم يا أخى إذا جدَّ أمرٌ   ساخراً إن فطنتَ من كلّ أمر

* * *

ضـائع ما أفاده كلُّ حىّ   من جميل محبب وردىّ
ما أفاد الذكىُّ فى الكدح إلاّ   ما أفادت فى الكدح نفس الغبىّ
تَعبٌ غيرُ مثمر فوق ثرى الأر   ض تساوى سعيدُها بالشقىّ
وعناء لا ينقضى يتساوى   جاحدٌ فى عنائه بالتقىّ

* * *

أىُّ جهدٍ جازاهُ أىُّ رجاء   فوق هذا الثرى وتحت السماء
إن تساوت مصائر الناس يوما   بمصير البهيمة الخرساء
من تراب إلى تراب ومن محـ   ـض فناء حق لمحض فناء
يتلاقى المجهول فيه وذى الحكـ   ـمة والأقوياء بالضعفاء

* * *

فعلامَ الأسى على غير مجدٍ   بين ماضٍ ومقبلٍ مستجدّ
واقعٌ ما أُعدَّ فى الغيب لا تسـ   ـطيع نفسٌ تبديل حتم المعدّ
ومحالٌ عليكَ ردُّ الذى فا   تَ محالٌ إرجاء ساعةِ فقد
عاجز أنتَ يا أخى عجزَ أهل الأ   رض عن ردّ فائتٍ مسترد

* * *

كلُّ غادٍ أو رائحٍ غيرُ غادِ   يتولى بغصةٍ فى الفؤاد
والذى لم يرَ الحياة وإن كا   ن جماداً أسعدْ به من جماد
ساعة الموت لو تأملت فى السا   عات خيرٌ من ساعةِ الميلاد

منتهى هذه الحياة فسادٌ مبتدٍ فى نشوئه من فساد

* * *

هـذه سنة الحياة ولولا جهلنا لم نقم على الأرض نسلا
راحـة جهلنا الحقيقة بالخلـ ق فزدنا بالحق والخلق جهلا
فمن الجهل راحـة ورضـاء ورضاء النفوس بالعجز أولى
إنّ عقل الإنسان لم يك يوماً بخفايا الوجود للفهم أهلا

* * *

إن عجزى عن فهم أسرار روحى ثم بخلى بالنفس بخل الشحيح
من مُلِحٍّ من الغرائز فيها تتجلى قناعتى وطموحى
فى حياة منها الصحيح تساوى فى احتكام النهى بغير الصحيح
لم يدع لى من مطلب فى وجودى غير سعيى وراء كل مريح

* * *

ولقد جزتُ من حياتى عُمرا ذقت فيه الحياة خيراً وشرا
وبلوت الأمور فى هذه الأيـ ـام فيما عرفتُ طياً ونشرا
كلما زدت بالمقادير خبرا زادت النفسُ بالمقادير سُخرا
وانتهى بى المطاف أنى رأيت الـ ـيأس فى الناس راحة لى كبرى

* * *

بين يأسى أحيا وبين رجائى لا أبالى بشقوةٍ أو هنـاء
لا أبالى أسـارَ زيدٌ أمامى دون حقٍّ أو سار زيد ورائى
علمتنى الأشياء كيف أرى الشىء بعين لم تُعنَ بالأشـياء
وسواء لو تغرب الشمسُ فى المشـ ـرق أو لا تنير جوف السماء

* * *

لا أبالى إن مر ركب الوزير بى بين التهليل والتـكبير
أو هوى صاعق على الأرض لا يخشـ ـى فؤادى ماذا يكون مصيرى
وضميرى أرحتـه وكفانى أننى لم يثر علىَّ ضميرى
لى وحدى تقدير من هو أولى باهتمامى فى الخلق أو تقديرى

* * *

كل كسبى من التجارب أنى عشت فى الأرض عيشة المطمئن
وكفانى من كل ما أتمنى أننى لا أطيلُ فيه التمنى
إن تجنّى علىّ من يتجنى دون حق بسمتُ للمتجنى
وكفانى أن نلت منه بسخرى ضعفَ ما نال بالحماقة منى

* * *

أنا فى موكب الحياة أسير فى زحامٍ على الرغام يمورُ
موكبٌ دائبُ المسير فما يعـ ـروه كلٌّ أو يعتريه فتور
صاخبٌ فى غروره لم يفارقـ ـه طوال الزمان هذا الغرور
لا يبالى بمن تخلف أو يعـ ـنى بمن كَلّ أو دهاه قصور

* * *

ولقد حار فى وجودىَ فكرى وتبرمتُ فاستعنتُ بصبرى
وأخذت الحياة باليسر حتى لم يضق بالحياة والناس صدرى
لا أرى أن أكون غِراً ولا أر ضى لنفسى فى الناس تفكير غرٍّ
كيفما كانت الأمـورُ فإنى لم تفارقنىَ ابتسامة سخرى

* * *

فوجودى ما لى يد فى وجودى لا ولا فى النحوس أو فى السعود
غفر الله للجـدود فما أر غب فى أن أُعيد حمق الجدود
لا أرى الأرض بعد ما ملأ النا س فضـاها تواقة لمزيد
خلنى خلـنى فنفسىَ أولى باهتمامى من كلٍّ وجهٍ جديد

* * *

ما كفى ما أحاطنى من قيود فأزيد القيـود فى التعقيد
علم الله ما يخبئـه الغيـ ـب لنفس السعيد والمجدود
هكذا تسخرُ الطبيعةُ بالخلـ ـق وتغرى نفوسهم بالخلود
ويصيب العمى القلوب فما تبـ ـصر ما فى الثرى وما فى اللحود

* * *

جاء من جاء فى الوجود ومرّا نكيال على الثرى ما استقرا
ضاقت الأرض بالجميع فألفوا جوفها للجميع أوسع صدرا
أكلتهم من بعـد ما أكلوها فاسـأل الأرض فهى بالناس أدرى
ما لها أنبتت من الرّم أثمـ ـاراً طعاماً للآكلين وبذرا

* * *

ربَّ تفاحةٍ كخد صقيـل نبتت من صميم خدٍّ صقيل
مضغتها الأضراس ثم طواها فى ظلام الأحشاء جوفٌ ثقيل
والليالى بالهمس تضحك من كـ ـلٍّ قبيح وكلِّ زاهٍ جميـل
كالرحى ما تنى عن الطحن أو تسـ ـكن فى سعيها سكون ملول

(الاسكندرية) عماد حلمى



توفيق الحكيم وقواعد الفن :

لا يزال فى كتابنا الناهين من يكتب بالسليقة فلا يكلف نفسه عناء الرجوع إلى معاجم اللغة ، أو النظر فى قواعد الاعراب ، أو البحث فى أصول الكتابة . وقد ساعدهم على الإخلاد إلى هذا الكسل الأدبى إغضاء النقد وغفلة القراء . وعاقبة هذا الكسل وخيمة على الفن فى ذاته ، وعلى الفنان فى مستقبله .

ومن أقرب الأمثلة على الخروج عن قواعد الفن الأولية أن صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم قد سمح لجاره أن يتدخل فى فنه ، فنشر فى عدد السبت الماضى من (أخبار اليوم) أقصوصة جعل عنوانها (وكانت الدنيا) ، ومن حول هذا العنوان كتب بخط ظاهر : قصة العدد خيالية . ثم بدأها بقوله :

« لماذا تمرد إبليس ؟ قصة ذلك مدونة جاءت بها الكتب السماوية ولا سبيل إلى الشك فيما روت ؛ ولكن خيال الروائى يجنح أحيانا إلى اختلاق صور أخرى للحادث الواحد ، ولا بأس من عرض إحدى هذه الصور على سبيل التفكهة لا الاعتقاد » .

ثم نقل عن (أبى الفداء) كلاما فى إبليس ، ثم قال بعد ذلك : « وتبدأ قصتنا هذه المخترعة بعد أن تم خلق آدم ... الخ » .

فهل يجوز للقصصى أو الروائى أن يفضح سر فنه للناس فيقول لهم أول مايقول : إن هذا الحادث الذى ستقرأونه أو ستسمعونه أو ستشاهدونه اختلاق محض و كذب صريح؟ وهل يسمح لنفسه كاذب أو فياش من عامة الناس أن يبدأ حديثه الذى احتشد له وافتن فيه بأنه تلفيق أو إغراب أو مبالغة ؟ إن المحدث متى اعترف بكذب حديثه أول الأمر جرده من اللذة والفائدة فلا يهتم له السامع أو القارئ مهما كان موضوعه طليا وعرضه فنيا ؛ ولذلك شرطوا فى القصة أو الرواية الصدق أو قابلية الصدق (La Vraisemblance) وأوجبوا على القصاص أو الروائى أن يستعين على تمثيل الحقيقة بالخداع الشعرى أو المسرحى L' illusion poétique ou théâtrale محافظة على التأثير والتشويق ، وحرصا على التوفيق بين الفن والحقيقة . ويظهر أن الذى دفع الأستاذ الحكيم إلى هذه المخالفة الفنية ، مخالفة الأقصوصة للنصوص الدينية ، ولكنه كان حقيقاً بأن يحتال بفنه على أن يمكن القارىء من فهم ذلك بنفسه ، أو بأن يختار من الموضوعات ما يستطيع التوفيق فيه بين فنه واعتقاده .

هيج أوهاج لا أهاج :

جاء فى (رسالة لم تنشر للجاحظ[1]) الجزء الأخير فى مجلة (الكاتب المصرى) الغراء :

« وأهاج المتبلد » .

واليقين كل اليقين أن هذا من تحريف الناسخين ، فبعيد بل محال أن يقول أبو عثمان (أهاج) وإنما يقول (هيج أوهاج) « وهاجه غيره يتعدى ويلزم » .

السهمى

جامعة هارفرد تهتم بالشرق العربى :

تبدى حكومة الولايات المتحدة اهتماما شديدا بالشرق الأدنى والأوسط كما يستدل عليه من خطاب الرئيس ترومان الأخير فى شيكاغو فى احتفال « يوم الجيش » . وقد رددت صدى هذا الاهتمام الصحف والمجلات والراديو والأندية السياسية وغيرها من المعاهد التى تهتم بشؤون الشرق .

ومن أدلة هذا الاهتمام أن جامعة هارفرد — كبرى جامعات أميركا - عقدت مؤتمرا للبحث فى شؤون الشرق الأدنى والأوسط برعاية دائرة الدروس الحكومية لتلك الجامعة ، وذلك فى اليومين الثالث عشر والرابع عشر من شهر نيسان — ابريل — وقد كان بين المشتركين فى البحث بهذا المؤتمر الأستاذ جيمس لاندس — عميد مدرسة الشريعة فى جامعة هارفرد والمستشار الاقتصادى لحكومة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط أثناء الحرب الأخيرة — والأستاذ كارل فريد ريخ أحد أساتذة الجامعة المذكورة — والأستاذ وليم رابارد — أحد أساتذة جامعة جنيفا ورئيس لجنة الوصايات سابقا فى جمعية الأمم المنحلة .

(١) نشرها الأستاذ طه الحاجرى .

وقد طلب القائمون بالمؤتمر من معهد الشؤون العربية الأميركية إرسال ممثل عنه للاشتراك فى أبحاث المؤتمر، فلبى المعهد الطلب وندب عنه الدكتور خليل طوطح الذى اشترك فى جميع أبحاث المؤتمر وخطب مظهرا أهمية معرفة الشرق العربى عن كثب، وبالاختبار لا بالمطالعة، ومن الوثائق الرسمية فقط. ولفت الأستاذ طوطح أنظار المحاضرين إلى أهمية البعث العربى الأدبى والسياسى والاجتماعى الذى شمل جميع أقطار الشرق العربى، ولا يزال من أهم عوامل تقدمه فى جميع مرافق الحياة ومظاهرها. وأشار بوجه خاص إلى التقدم فى طبقات الشعب المتوسطة وبين الفلاحين والعمال. فقال إن كلمة « أفندى » لا تعنى طبقة خاصة من الناس تمتاز بشىء عن غيرها، واستشهد على ذلك بنفسه، وبالعصامى المعروف السيد عبد الحميد شومان. فقال أنا أدعى أفندى مع أننى ابن فلاح وكذلك السيد شومان الذى هاجر إلى الولايات المتحدة وأحرز ثروة لا بأس بها فى شارع واشنطون — نيويورك — قبل أن عاد إلى فلسطين وأسس مصرفا عربيا فى القدس له فروع مختلفة فى مدن فلسطينية عديدة، وفى غير فلسطين من الأقطار العربية المجاورة.

يوم ولا كالأيام!

هكذا كان عنوان إحدى المقالات الرائعة فى الرسالة. وفى تركيب هذا العنوان ما يؤدى لغة إلى عكس ما قصد إليه الأستاذ الكاتب؛ إذ أن المعنى الحقيقى لهذا التركيب: إنه يوم لم يبلغ أن يكون فى أوصافه شبيها بالأيام، والأستاذ إنما يريد أنه يوم لم تبلغ الأيام أن تكون فى أوصافه مثله. وقد شاع هذا النوع من الخطأ فى كلام كثير من الكتاب فيقولون مثلا: شاب ولا كالشباب، فيضعون منه من حيث لم يريدوا إلا اطراءه. وأما الأمثال المشهورة: مرعى ولا كالسعدان، فتى ولا كمالك، ماء ولا كصداء، فهى تضرب للشىء الذى فيه فضل وغيره أفضل منه كما يقول أبو الحسن الأخفش فى تعليقه على الكامل للمبرد.

عبد الغنى الدقر

مدرس الأدب العربى فى معهد العلوم الشرعية فى دمشق

كتاب أنساب الخيل:

قد أتمت دار الكتب المصرية طبع كتاب انساب الخيل لابن الكلبى، وهو معروض للبيع يوميا وثمن النسخة للجمهور ٢٥٠ مليما، ولباعة الكتب ٢٠٠ مليم، ولمن يشترى عشر نسخ فأكثر

خطأ أم عمد؟

رويت فى مقالتى فى العدد (٦٧٤) من الرسالة، أبيات: أعانقها والنفس بعد مشوقة الخ... ونسبتها لابن الرومى، فلما جاءت المقالة منشورة وجدت اسم العباس ابن الأحنف مكان اسم ابن الرومى، فإذا كان خطأ فأرجو تصحيحه وإن كان عمداً فأرجو بيان دليله.

(دمشق) **علي الطنطاوى**

(الرسالة): الأبيات لابن الرومى والتغيير قد حدث خطأ.

فى الكتب

عبد الله فكرى:

[تأليف الأستاذ محمد عبد الغنى حسن]

هذه ولا ريب نهضة مباركة أن يقوم شبابنا المثقف بتعريف الجيل الحديث بأعلام القرن الماضى، حتى تتم حلقات التاريخ، ويعتمد الحاضر على دعائم وثيقة من الزمن. وحياة الأمم تقاس برجالها وتاريخها وماضيها.

وليس الأستاذ محمد عبد الغنى حسن غريباً عن قراء العربية، فهم يعرفونه أديباً شاعراً كاتباً. وقد أحسن الكتابة عن عبد الله باشا فكرى، لأنه كان أديباً وكاتباً وشاعراً كذلك. فهذه المماثلة بين صاحب الترجمة وبين المؤلف هى فى نظرنا السر فى ظهور هذا الكتاب فى هذه القوة وهذا الإشراق.

بيّن المؤلف نشأته ومولده، وتعليمه فى الكتّاب، ودراسته فى الأزهر، وصور حياة الأزهر فى ذلك الوقت أحسن تصوير، ولقد كانت حياة العلم فى الأزهر فى القرن الماضى أفضل منها فى العصر الحاضر بعد أن تقيد الطلبة بالمناهج، وتقيد الأساتذة بطائفة من الحصص. لقد كانت الحرية الواسعة التى يلقاها الأساتذة والطلاب فى الأزهر القديم سر نجاحه ومصدر بروز بعض المتخرجين فيه. لقد كانوا يطلبون العلم للعلم وهو أفضل الغايات. تقلب عبدالله فكرى فى وظائف الحكومة حتى بلغ نظارة المعارف وهو مثال الموظف الأمين على وظيفته، الناظر فى مصلحة الشعب، المخلص لعمله، فليتدبر من يقرأ هذا الكتاب من الموظفين فى الحكومة ما ذا تكون نتيجة الإخلاص للوطن

ولم تمنعه الوظيفة الحكومية على ما فيها من أعباء ثقال، وعلى الأخص فى ذلك العهد العصيب من الناحية السياسية، الذى

ظهرت فيه حركة عرابى وانتهت بالاحتلال ، لم تمنعه هذه الأمور كلها من التأليف وقرض الشعر .

وبعد ، فهذه دراسة جدية بذل فيها المؤلف جهداً واضحاً ، ورجع إلى نحو ثلاثين مرجعاً أثبتها فى صدر الكتاب مما يدل على التحقيق وسعة الاطلاع .

ونرجو أن يستمر الأستاذ عبد الغنى حسن على هذا النمط ، فيترجم لنا عن بعض الشخصيات الأخرى من أعلام الجيل الماضى ، ليكون ذلك نبراساً يهتدى به شبان هذا الجيل .

أحمد فؤاد الأهوانى

ليلة النهر :

[للاستاذ على أحمد باكثير]

لا عجب ومصر بلاد يجرى فيها نهر النيل ، فيهب الحياة لقطانها وحيوانها وزرعها ، أن يتغنى المرء بفضل ذلك المنهل الخصيب على كل مرفق من مرافق الحياة . ولكن الأستاذ على أحمد باكثير — وهو الأديب المطبوع — يرى أن لهذا النهر وحياً آخر أسمى من الماديات ، فهو بالحب يوحى ، وناره يزكى ، ويلهم للشاعر أغاريده فتصدح بها نفسه دون وعى .

« ليلة النهر » قصة حب رعته الطفولة البريئة الباكرة ، ونماه الشباب الطموح الوثاب ، وألهبت أدواره ليلة أمضاها العاشق مع معشوقته فى زورق حمله النيل الرؤوم كما تحمل الأم رضيعها ، فتفجرت من العاشق عاطفته فإذا بها شعر وجدانى رقيق يصاحبه نغم موسيقى رائع ، وإذا بالأيام تقبل على الشاب فيصبح من أعلام الشعراء والموسيقيين والمطربين وهنا تنهض التقاليد فى وجهه ، فلا يستطيع الظفر بمحبوبته والزواج منها لأن خالها القيم على شؤونها ، رأى أن يعقد عليها لشاب متعطل مفتون ليس له من مؤهلات سوى أنه نجل أحد الأثرياء من حملة الألقاب .

وتزداد الدنيا على الفنان إقبالا ، فيصيب من المال والنجاح والشهرة ما لم يسبقه إليه مفتن سواه ، لأنه ينظم الشعر جيدا ، ويكسوه رداء غير فضفاض من الموسيقى ذات النغم الخالد ، ثم ينشده بصوت يشيع الطرب فى النفوس ، ويدفع السأم عن القلوب ، ولا يسع المرء إزاءه إلا أن يستزيده ويقبل على الإصغاء إليه .

وتمعن الدنيا فى التنكر لذلك الشاب العاطل زوج الفتاة ، فتكبل بالحديد يداه ، ويزج به بين غياهب السجون لإثم اقترفه ويخلف وراءه زوجة وطفلا يعانيان من نكد الدنيا أمره .

ولكن الأيام بالأحداث حبالى ، فإن الشاعر الموسيقار ، وإن سخت عليه المقادير بالمال والجاه ، لم تسخ عليه بغذاء قلبه ؛ وإن واتته الشهرة والمجد ، لم تواته عاطفة الحب بأكلها ، فأمسى ظامئاً يتلهف على رى نفسه فلا يستطيع ، وسرعان ما تذبل زهرة العمر وتنزل المنية به وهو فى شرخ الشباب وأوج المجد ، فينعاه الناعى من المذياع الذى طالما تردد صوته منه فأطرب وأشجى ، وتستمع إليه محبوبته التى فرقت الأيام بينهما ، فينزل عليها النبأ نزول الصاعقة ، وتصبح فى اليوم التالى نزيلة صومعة من صوامع مستشفى الأمراض العقلية .

هذا موجز قصة « ليلة النهر » التى وضعها الأستاذ باكثير ، وصاغ لها قصائد ثلاثاً من جيد الشعر ، ولم يقنع المؤلف بسرد أحداث تتكرر فى روايات أخر ، بل رأى أن يضيف إلى ذلك عنصراً جديداً يمكن تسميته « عنصر الخفاء » ، ذلك لأنه جعل الشاعر بطل الرواية يتصل — فى هيام روحه — بروح شاعر مات بعد ما حرقت جميع أشعاره ، فأخذ يملى عليه ما ضاعت آثاره من شعره . فالشاعر العاشق فى الواقع ليس سوى راوية لشعر غيره ، ورجع لصداه ، يقبل الشعر عليه من غير جهد فيسجله وتتوارد إليه عند تسجيله النغمات الموسيقية الملائمة ، فتكتمل لها ناحيتان تضاف إليهما ناحية الغناء فيتم الثالوث الفنى المطلوب .

وهذه الرواية ضرب من ضروب الحب العذرى العفيف الذى يحرص الأستاذ على أحمد باكثير على أن لا يتجاوزه فى ما يكتب من روايات كروايتى « سلامة القس » و« وا إسلاماه » اللتين أصدرهما من قبل وعلى الرغم من أن المؤلف « خلق » فى رواية « ليلة النهر » رجلا من رجال الفن وأدار أحداثها حول بطولته ، أبى أن يسمح لهذا البطل بالاستهتار والتبذل واحتساء الخمر ، والاقبال على مشهيات الحياة . وقد يحسب البعض أن فى هذا « الاعتدال » الذى اتصف به بطل الرواية تكلفاً وخروجا على المألوف ، ولكن الناقد المنصف لا يسعه إلا أن يحمد للمؤلف هذا الاتجاه . والمؤلف بعد ذلك وقبله ، خلاق يخلق أبطال روايته كما يشتهى ، ويجيد الخلق متى أخرج لنا شيئا جديدا ليس لنا به من قبل عهد .

وبعد ، إنها قصة جيدة متماسكة الجوانب تقف بين أترابها شامخة مرفوعة الرأس .

وديع فلسطين

وزارة الأوقاف

إعــلان

تعلن وزارة الأوقاف شهر مزاد تأجير أطيان زراعية بالوجهين القبلى والبحرى مساحتها ٥١٣١٧ فداناً على جملة صفقات بجلسات علنية بمراكز التفاتيش فى المواعيد المحددة لكل تفتيش ويعلن عنها بلوحة الإعلانات بالوزارة والتفاتيش — وقررت ما يأتى :

١ — أن تكون مدة التأجير سنتين فى جميع التفاتيش عدا الصفقات التى تزرع قصباً فتكون مدة التأجير فيها لثلاث سنوات .

٢ — أن تعتمد الوزارة فى أول جلسة نتيجة التزايد إذا كان العطاء بأجر المثل المعتمد أو بأكثر منه .

٣ — أن يكون التأمين النقدى موازياً ٥٠٪ من إيجار سنة ما لم يكن بالأطيان مخازن للوزارة فإن وجدت فيكون التأمين ٣٠٪ فقط على أن يدفع منه ٢٠٪ وقت العطاء ويكمل فى مدى أسبوع من تاريخ إخطاره بقبول عطائه بصفة مبدئية .

٤ — ترد التأمينات النقدية لأربابها فى آخر الجلسة متى كانت عطاءاتهم غير مقبولة ما لم يوجد مانع من ردها .

٥ — ويمكن الاطلاع على الشروط وقوائم المزاد بالوزارة والتفاتيش — وعلى من يرغب فى الدخول فى مزاد استئجار أى صفقة أن يعاينها قبل الجلسة ويطلع على جميع البيانات الخاصة بها ويعتبر دخوله فى المزاد إقراراً منه بالمعاينة والاطلاع على البيانات .

٦ — مستحقو الأوقاف الأهلية المشهورة أطيان تابعة لأوقافهم مدعوون لحضور جلسات التزايد المعلن عن مواعيدها بالتفاتيش مع الرجاء بالعمل من جانبهم على زيادة عدد الراغبين فى التأجير .

إذا لم يكن التأمين نقداً كما تقدم يكتفى بتقديم أحد التأمينات الآتية قبل الدخول فى المزاد :

١ — خطاب ضمان من بنك معتمد بقيمة إيجار سنة ويراعى فى خطاب الضمان أن تكون مدة الكفالة بحيث تنتهى بعد مضى ستة أشهر من آخر يوم محدد لانتهاء مدة العقد .

٢ — أوراق مالية مقبولة لدى الحكومة المصرية لا تقل قيمتها عن إيجار سنة حسب تقرير الوزارة .

٣ — أن يقدم للتفتيش قبل الجلسة المحددة للتزايد بأسبوعين على الأقل ضمان بتأمين عقارى مصدق عليه من قلم المساحة المحلى توازى قيمته إيجار سنة مصحوباً بجميع مستندات الملكية وشهادات تصرفات من المحكمة المختلطة لمدة عشر سنوات سابقة لتاريخ الجلسة أو إيصال دال على سداد رسوم طلبها مصحوباً بقيمة ١٠٪ من عطائه نقداً ولن يقبل أى تزايد ما لم يقدم صاحبه تأميناً طبقاً للشروط المبينة بهذا الإعلان .

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧٧ — الاثنين ٢٠ يونيه ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون



14 me Année No. 677

Lundi—24—6—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ـــــ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

السنة الرابعة عشرة « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٤ رجب سنة ١٣٦٥ — ٢٤ يونية سنة ١٩٤٦ » العدد ٦٧٧

أصول الكلمات

للاستاذ عباس محمود العقاد

قرأت فى « الثقافة » الغراء مقالا للكاتب الفاضل الأستاذ محمد فريد أبى حديد بعنوان « القواص المذهب » قال فيه :

« وكانت وظيفة القواص بسيطة جدا تتلخص فى أن يقف ذلك الموظف على باب سيده الباشا الكبير ، أو الحاكم الجليل لا بسا ملابسه الزاهية الموشاة بالقصب الذهبى اللامع . ويحرص على أن يربى شواربه حتى تصير مثل الحبال الطويلة ، ثم يبرمها برما شديدا ويشدها بالأدهان حتى تصير مجدولة ترفع طرفيها كالحراب ، فيصبح منظره بهذا مهيبا يقع فى النفوس موقع الرهبة ؛ وصارت هذه الشوارب موضع تفاخر القواصين » .

وقد التزم الأستاذ أبو حديد كتابة الكلمة فى الافراد والجمع بالصاد كما رأيت ، ولعله لاحظ فى ذلك لهجتها التى كانت تلفظ بها وحروفها التى كانت تكتب بها فى عهد الدواوين التركية ، لأن وظيفة « القواص » كما وصفها الأستاذ هى الوظيفة التى عرفت بين المصريين وغيرهم من الأمم التى شملتها دولة الخلافة العثمانية فى أواخر أيامها . فلم يكن « للقواص » عمل غير الوقوف على الأبواب ولم تزل الكلمة تقترن بأصحاب هذا العمل من الترك والأرنؤود والشراكسة حتى حسبت من كلمات اللغة التركية ، وكتبها بعضهم فى أوربة كما كان ينطقها الترك كفاس Kavasse .

ولكن الكلمة على التحقيق عربية من بقايا الدولة العباسية ، لأن القواسين كانوا طائفة من طوائف الجند يحملون الأقواس كما كان السيافون يحملون الأسياف ، والنبالون يحملون النبال ، والرماحون يحملون الرماح . ولم يكن عمل القواس فى أول عهده مقصورا على الوقوف بالأبواب والإذن لطلاب المثول بين أيدى الأمراء والرؤساء ، ولكنه كان يتقدم الأمير فى موكبه أو يخرج بين يديه كلما خرج للصيد أو فى محافل العرض العسكرى ليحمل له القوس التى يصيد بها أو يستخدمها فى الرماية ؛ لأن الأمير كان يتقلد سيفه ولا يعهد فى حمله إلى غيره كما يفعل بالأقواس والرماح .

وكان قادة الجند فى أواخر عهد الدولة العباسية من الترك والديلم فاحتفظوا بمراسم الامارة حتى قامت الدولة العثمانية ونقلت عن خلفاء المسلمين وأمرائهم من قبلها بعض مراسم الامارة والحجابة ، ومنها مشية القواس بين يدى الأمير ووقفته على بابه وقيامه قواسا بغير قوس بعد أن أغنى عنه حامل البندقية والطبنجة ، بل بعد أن أصبح القواس نفسه يحمل الطبنجة فى حزامه ، ولا يعرف ما القوس وما الرماية بالسهام .

وهكذا تعيش الكلمات أحيانا ، وتفنى الدول والامارات وما اقترن بها من المعالم والأشياء .

على أن الرجوع بالكلمات إلى أصولها يمضى بنا بعيدا فى مجاهل النقل والاستعارة . فإننا نذكر القواس والرماح والسياف ونعلم أن السياف حامل السيف ، وأن السيف كلمة عربية قديمة

من ساف ماله أى هلك كما قال ابن دريد . ولـكن بعض الأدباء ينكرون على ابن دريد هذا الاعتساف فى رد الـكلمة إلى ساف يسيف ويقولون إنها يونانية الأصل من سيفوس « Xifos » التى حذف منها العرب آخرها كما يفعلون بكثير من أواخر الـكلمات وأن العرب أخذوا كلمة الحربة من العبرانيين ، وهى عندهم من حرب بمعنى الحرب أو الحراب .

قلت : لاضير على العرب أن تنقص من لغتهم كلمة بمعنى السيف فقد تغنيهم عنها مئات الـكلمات ، ولا ضير أن يفقدوا « خربة » واحدة فمندهم الصحراء بل الصحارى التى لا يقدر عليها أحد غير أبناء يعرب وقحطان .

إلا أن الـكلمة التى لا يفرط فيها العرب ولو كان لهم فى أصل معناها ألوف الـكلمات هى كلمة « العقل » التى ظن الأب أنستاس الـكرملى أنها متحولة من اللاتينية فقال فى مجلته لغة العرب : « ... ذكر صاحب تاج العروس سبب تسمية العقل بهذا الإسم وسر اشتقاقه أو أصل اشتقاقه من مادة عقل فقال ما هذا حرفه : واشتقاقه من العقل وهو المنع لمنعه صاحبه ممـا لا يليق ، أو من المعقل وهو الملجأ لالتجاء صاحبه إليه ، كذا فى التحرير لابن الهمام. وقال بعض أهل الاشتقاق : العقل أصل معناه المنع ومنه العقال للبعير سمى به لأنه يمنع عما لا يليق . قال :

قد عقلنا والعقل أى وثاق   وصبرنا والصبر مر المذاق

وقد راجعنا كتبا كثيرة فى هذا المعنى فرأينا أصحابها لا يخرجون عن القول بأحد هذه الآراء . ونحن لا نرى هذا الرأى ، والذى عندنا أن أصل معنى العقل هو العين لأنه عين النفس وباصرتها . ثم مات المعنى المادى وبقى المعنى المجازى ، يشهد على ذلك أن اللاتين يسمون العيون والعقل باسم واحد ، وهو عقل Oculi ... » .

كذلك قال الأب أنستاس . وقد عقب عليه الأستاذ روكسى ابن زائد العزيزى معلم العربية بكلية تراسانته بالقدس فى مجلة الأديب البيروتية فقال : « فلو قلنا إن العرب قالوا : عين القلب . ثم نحتوا من الـكلمتين كلمة واحدة — عقل — لما أبعدنا عن الصواب . ولو سايرنا ما ذهبتم إليه وقلنا إن العقل من عق لـكان مقبولا ، لأن العقة هى البرقة المستطيلة فى السماء ، وهل العقل إلا وميض النفس وعين القلب ؟ » .

ثم راح يقول : « ويقال عق بالسهم إذا رمى به نحو السماء وذلك السهم العقيقة ... قال الجوهرى :

عقوا بسهم ثم قالوا صالحوا   ياليتنى فى القوم إذ مسحوا اللحى

وذلك السهم يسمى العقيقة وهو سهم الاعتذار ، وكانوا يفعلونه فى الجاهلية ، فإن رجع السهم ملطخا بالدم لم يرضوا إلا بالقود ؛ وإن رجع نقيا مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية » .

قلنا : والعقل براء من كل هذه الفروض والتخمينات فى حرفه ومعناه ؛ إذ ينبغى قبل أن نفرض النقل من اللاتينية أن نفرض استخدام الـكلمة فى لغتها الأصلية بهذا المعنى ، ونفرض خلو اللغة العربية مما يقابلها ، ونفرض الوسيلة التى تم بها النقل من طريق السماع أو الـكتابة ، ونستبعد — عقلا — أن ينشأ معنى العقل من معنى العقال ، وهو غير بعيد ... بل هو أقرب شىء إلى ذهن العربى الذى يوازن أبدا بين حالتى الانطلاق وحالة الاعتقـال ، ويتحدث عن كبح الشهوات و كظم الغيظ ، ويستعير الحجر فى مادة أخرى من الحجر وهو المنع والتقييد . وصدق المتنبى حيث قال :

وبعض العقــــل عقال

والحجر كما لا يخفى هو العقل ، والحجر كذلك هو المنع ، كما فى عقل وعقل بلا اختلاف .

فلماذا نرجع إلى العقل المنحوت من عين القلب أو نرجع إلى العقل المأخوذ من الـكلمة اللاتينية وهى لم تطلق على هذا المعنى قط فى أصلها الأصيل ؟ ولماذا نأبى أن يكون الرجل العاقل هو الرجل الذى يملك زمام نفسه ، فلا يندفع مع الأهواء والشهوات ؟ وأى شىء أقرب شبها للعقل الزاجر عن الأهواء والشهوات من عقال البعير ، ولجام الفرس ، وكل كابح عن كل اندفاع ؟

عرضنا لهذا التخريج فى بعض المجالس فقال أديب : إذن هذا الـكرمى مأخوذ من شير Chair الانجليزية .

وقال آخر : لا بل هو مأخوذ من كر ومن رسا ، لأن الإنسان يرمى على الـكرسى بعد الـكر والتعب .

وقال آخر : بل هو مأخوذ من جلس ، ثم صحفت الجيم كافا واللام راء ، وهو قريب فى مذهب التصحيف .

مقالات فى كلـــات

[إلى الأستاذ سيد قطب]

للأستاذ على الطنطاوى

ذكرتنى غضبتك للشعر والبيان فى « الرسالة » ٦٧٤ بأن فى مكتبتى دواوين (شعرية ...) هى أولى إذا اطلعت عليها أن تكتب عنها ، ففتشت عنها حتى وجدتها فاذا هى ثلاثة دواوين متشابهات فى الحجم والقطع ، وفى الوضع والطبع ، كأنها قد صدرت عن ناشر واحد مع أن كلا منها قد ظهر فى بلد — وكلا من أصحابها يدين بدين من الأديان الثلاثة .

أولها : ديوان (الصيدح) لخليل جرجس خليل ، طبع فى مطبعة جرجس حنين بالمنيا فى مصر سنة ١٩٣٩ ، وهو جيد الورق أنيق الطبع فى مائة صفحة وقد أهـــداه (الشاعر) لروح الرافعى ! !

والثانى : ديوان (حنين النـديم) لعبد الله نديم مويال بكالوريوس علوم وهو من فلسطين ، طبع فى مطبعة صادر فى بيروت سنة ١٩٣٦ على ورق صقيل مشكول الشكل الـكامل ، وهذا الشكل وحده أعجوبة الأعاجيب ، وهو فى مائة صفحة ، وقد أهداه لوالده (المرحوم الدكتور شمعون بك مويال كلى الاحترام) ، وهذا هو نص الاهداء :

لذكرى والدى أهدى شماراً | لصدق الوحى فى رفق الشعور
إليك الاحترامَ المُجْزِ وداً | حليف اللانهايات البحـور
ولىّ الفـكر والمبدا وحسّ | لطيف خالد إهـدا السطور

والثالث : ديوان (القلوب المنقطمة) لحسن محمود الحلبى ، طبع فى مطبعة الاستقلال العربى فى دمشق ١٩٣٨ وهو فى مائة صفحة (أيضاً) وفى أوله صورة الشاعر فى وضع سينمائى ...

رمتنى الليالى فى القبور ذليلا | وسار شبابى فى الحياة ذبولا
خلقت من الأحزان شخصاً مهدداً | وبين جموع النـاس دمت هزيلا
فليت أقول الشعر دون تلوّع | يسود فيبدو الشعر حزناطويلا
ولـكن أرى فى مقلتى دمع ناحب | يسيل فيعطى الشعر لونا جميلا

وإذا نزلت يا سيدى بهذا الأسلوب دركة أخرى ، وجعلت الوضوع كله فى وصف بنات (المحل العمومى) وما يكون منهن وصفاً سافراً مفصلاً ، جاء معك ديوان (قالت لى السمراء) لـ (نزار قبانى) الذى صدر فى دمشق منذ سنتين ، وإذا زدت لغة هـذا الديوان لمنة على لمنتها ، وأسلوبه عمى على عماه ، وموضوعه فجوراً على فجوره ، جاء معك كتاب (فى قصور دمشق) الذى أصدره فى دمشق من نحو عشر سنين ، موظف صغير فى دائرة الصحة عامى يدعى (محمد النجار) .

هذا كله عندنا فماذا نقول نحن يا أستاذ ؟ !

النثر والشعر فى المدارس :

كنت كلما درّست الأدب العربى أعجب لما أجد من انصراف الطلاب عن نثره إلى شعره ، على حين أنهم أميل إلى النثر فى الأدب الفرنسى منهم إلى الشعر ، ففكرت فرأيت أن السبب فى ذلك المناهج .

والذى تقرر المناهج تدريسه من النثر العربى فى مصر والشام والعراق لا يخرج فى جملته عن رسائل ميّتة لا روح فيها ، أو فقرات جامدة مسجّعة أو غير مسجّعة ليس فيهـا وصف يهز القلب ، أو معنى يوقظ الفكر ، حتى إن مايختار لمثل الجاحظ

وقال غيرهم : بل هو مأخوذ من الـكراسة ، لأن الإنسان يجلس إذا أراد الـكتابة فيها .

وطال التصحيف والجناس على هذا القيـاس فلم يبلغ أحد منهم فى هزله مبلغ الجادين فى رد العقل إلى عين القلب أو إلى كلمة قديمة فى لغة اللاتين .

فحذار حذار من مراجعة الأصول بغير أصول ، وخير لنا أن نقنع بالفروع إذا كان الرجوع إلى الأصـل ينقطع بنا فى هذه التاهة بغير دليل .

ونحن فى أمان حين نقنع الآن بالرجوع من الصاد إلى السين فى اسم القواس . فلم يبق لهذه الوظيفة ما يخاف فى اسم ولا فى مسمى بحمد الله .

عباس محمود العقاد

وهو فى رأيى أحد الخمسة الذين انتهت إليهم إمامة النثر العربى (الجاحظ وأبى حيان التوحيدى والغزالى وابن خلدون ومحي الدين بن عربى) هو من المملّ المضجر كوصف الكتاب وصفاً هو مجموعة جمل مستقلة تشبه حِكَم أكثم بن صيفى ليس بينها ارتباط ، ولا يفسدها التقديم فيها ولا التأخير ، ويصعب استظهارها وحفظها ، مع أن للجاحظ المعجب المطرب ، والمبهج المرقص من القصص والأوصاف ، فكان من ذلك أن رغب الطلاب عن أدبنا وكرهوه ، وآثروا عليه الأدب الفرنسى ، لأنهم وجدوه أقرب إلى قلوبهم ، وأدنى إلى أفكارهم .

ودواء هذا الداء أن يخرج واضعو المناهج من هذه الزاوية التى حبسوا أنفسهم والطلاب فيها ، إلى فضاء الأدب ورحبه ، ويدعوا الصاحب والقاضى الفاضل ، وهذه الرسائل الباردة ، وهذا الأدب الميت الذى لا روح فيه ولا جمال ، ولا يصح أن يكون مثالا يحتذى ، ودليلا يتبع ، ولا يجوز أن يعرض على الطالب إلا على أنه لون من ألوان الكتابة ، فيدرسه دراسة المؤرخ له ، لا دراسة المتأدب به ، ويفتشوا بين العلماء والصوفية والمؤرخين عن ذوى الملكات البيانية ، فيجدوا فيهم من لا يعد معه أدب الصاحب وعبد الرحيم البيسانى إلا لعب أطفال .

أذكر على سبيل المثال (ابن الجوزى) فى كتابه صيد الخاطر وموضوعه ظاهر من اسمه ، وهو خواطر كانت له فيدونها فى هذا الكتاب ، وليس فى هذا الكتاب بلاغة الجاحظ وابن قتيبة ، ولا صناعة ابن العميد ، ولا فحولة الجرجانى ، ولكن فيه شيئاً ليس مثله عند أولئك جميعاً ، هو هذه السهولة وهذه السلاسة ، وهذا الصدق فى تصوير الخواطر ، وهذا الإلمام بالمسائل النفسية والاجتماعية والدينية ، وما فيه من وثبات ذهنية عجيبة ، وما يقوم به من تحبيب الأدب إلى الطلاب ، وهذا الكتاب لو نشر اليوم على أنه لبعض الكتاب العصريين ، لقامت له الصحف الأدبية وقعدت ، وهللت له وكبرت ، وأحلّته الذروة والسنام .

وأذكر (ابن السماك) هذا الرجل الذى تدل الفقرات القليلة التى رويت له على أنه أحد أفراد الدنيا فى بلاغة القول ، وصفاء الأسلوب ، وعلو التفكير ، ولم يفكر مع ذلك أحد فى استقراء أخباره ، وتتبع آثاره ، و (ابن حزم) فى (طوق الحمامة) و (ابن القيم) فى (روضة المحبين) وابن داود الظاهرى ، والبطرى والغزالى ، وابن عربى ، وأبى حيان ، والشافعى ، وأمم لو أحب واضعو المناهج العناية بآدابهم ، لوجدوا شيئاً ينسيهم وينسى الطلاب الصاحب بن عباد وأضرابه .

الكتب المدرسية والكتب الأدبية :

زرت من سنين أحد (الناشرين) فى دمشق ، وكان عنده صديقى الأستاذ التنوخى ، ومعه كتاب (المثنى) لأبى الطيب اللغوى الإمام العَلَم قريع ابن خالويه ، وزميله فى بلاط سيف الدولة . وقد وقع على النسخة الوحيدة منه التى ليس لها فى الأرض ثانية ، بدليل أنها ليست فى خزانة من الخزائن العامة فى الشرق ولا فى الغرب ، وأنه أعلن فى مجلة المجمع العلمى العربى السؤال عنها فلم يكن عند أحد علم بها . والنسخة صحيحة مقابلة بالأصل (أى بنسخة المؤلف) عليها تعليقات بخطوط كبار العلماء كابن الشحنة وغيره ، فاشتغل بنسخها وتصحيحها ومعارضتها بكتب اللغة أمداً طويلا ... فرأيته يعرض عليه طبعها بشرط واحد : هو أنه لا يشترط شرطاً ... ولا يريد مالا ولا يبتغى على تعبه أجراً . وعند الناشر (معلم) يعرض عليه كتاباً فى القراءة والمطالعة كل عمله فيه أنه نسخ من كتب الأدب قصصاً وأحاديث كتبها فى أوراق ثم جمعها فخاطها فجملها باذن الله كتاب مطالعة للصفوف الثانوية ، وهذا المؤلف يأبى إلا أن يكون أربعون فى المائة من النسخ المطبوعة ثمن (تعبه ...) !

وقد مرّت الآن سنوات على هذه المقابلة طبع فيها هذا الناشر مائة كتاب مدرسى ، وكتاب المثنى لا يزال مخطوطاً فى دار أبى قيس .

أدباء المجالس :

من الأدباء من كنت أقرأ له فلا أبتغى بلاغة ولا لَسَناً ولا بياناً إلا وجدت عنده فوق ما أبتغى ، فأتخيل شخصه وأتوهمه على أوفى ما يكون عليه المتفوه اللسن ، ثم ألقاه فألقى الرجل الساكت الصموت ، الذى لا يكاد يتكلم حتى تكون أنت الذى يسأله ويدفعه إلى الكلام ، وإذا تكلم أخفى صوته ، ولطف

حروفه ، حتى لا يسمع منه ولا يفهم عنه ... ومن الأدباء من ألقاه فى مجلس فأجد المحاضر الفياض الذى ينتقل من نكتة إلى نكتة ، ومن قصة إلى أبيات من الشعر ، فيبتدع لها المناسبات ، ويلقيها بصوت قوىّ ، ويتكئ على الحروف ، ويعظّم مخارجها ، فأ كبره وأعظمه وأسأله أن يكتب مقالة ، أو ينشئ فصلا ، فيفرّ منه فراراً ، ويسوف ويعتذر ... فاذا أحرج وكتب جاء بشىء هو أشبه (بسفرة السحّر) فيها من كل طعام لقمة ، ولكن الحلومع الحامض ، والحارمع البارد ، وكل طعام مع طعام .

وقد تتبعت أحوال هؤلاء ، فوجدت أكثرهم على غير علم ولا اختصاص ، ولا يطالع بجدّ ، ولا يبحث بإمعان ، ولا تدع له (المجالس) وقتاً لدرس ولا بحث ، وإنما يحفظ الرجل منهم طائفة من الأخبار الأدبية والنوادر فيحملها معه أياما يعرضها فى كل مجلس ، ويعيدها بعينها ، حتى ترثّ وتبلى وتصبح كالثوب الخلَق ، فيعمد إلى غيرها فيصنع به مثلما صنع بها ، ولا يدرك الناس الفرق بينه وبين الأديب المبدع الباحث ، فيطلقون على الاثنين اسم الأديب ... فمتى يميّز الناس بين الأديب الحق ، وبين (أديب المجالس) ؟

مجمع الشريعة الإسلامية :

أخبرونى أن عالما فى دمشق يفتى الناس بأن الورق السورى (البنكنوت) لا تجب فيه الزكاة لأنه ليس بذهب ولا فضة ، ويقول بأن هذا هو الحكم فى المذهب الشافعى مع أن النقد فى سورية كله من هذا الورق ، وأن الفضة فقدت خلال الحرب ، وأن التعامل بالذهب ممنوع ، فتكون فتوى هذا العالم الفقيه ... إنما هى فتوى بمنع الزكاة ، وهذه الفتوى على فسادها وضلالها وأنه لا يقول بها مذهب شافعى ولا مالكى ولا يقول بها مسلم عاقل ، وأن هذا الشيخ الفاضل الذى ينكر أن يكون الورق السورى مالاً يقبض فى آخر الشهر راتبه ورقاً سورياً ، ويشترى به خبزه وجبّته ، ويقاتل إن منع عنه ... إنها على هذا كله قد وجدت من يأخذ بها ليتخلص من الزكاة ومن يردّ عليها وخبرونى أن عالماً آخر أفتى بسقوط فريضة الحج فى هذه الأيام ... ونسب الفتوى إلى مذهب الشافعية ، ورحم الله الشافعى كم ينسب إليه .

وخبرونى بأن المناقشات قائمة بشأن الربا ، وهل تعد المعاملات المصرفية منه أو لا تعدّ ؟ ! وبشأن رؤية الهلال وكيف يثبت دخول الشهر ، وبشأن التوسل ، وكرامات الأولياء ، وبشأن الطلاق ... إلى غير ذلك من المشاكل الفقهية التى تحتاج إلى مرجع يرجع إليه فيها .

وكنت قد سمعت من الأستاذ القاضى العالم الشيخ فرج السنهورى لما زرت مصر أن الملك فؤاداً رحمه الله ، كان عازماً على إنشاء مجمع للشريعة على نحو مجمع اللغة العربية ، يكون من عمله ردّ الشبهات ، وحل المشكلات ، والافتاء ، ووضع مشروعات القوانين ، فلماذا لا يلتمس علماء مصر من جلالة الفاروق حفظه الله أن يأمر بإنشائه فيضم هذه المنقبة إلى مناقبه الكثيرة ، فيرضى بذلك ربه ، ويحقق رغبة أبيه ، ويجدد للمسلمين دينهم ، ويسنّ سنة فى الاصلاح يكون له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وينقذنا من هذه المناقشات ، وهذه المجادلات ، وهذه الجرأة على الإفتاء ؟

(دمشق) **على الطنطاوى**

ســعيد ... !

للأستاذ صلاح الدين المنجد

[أيها الأغنياء المجرمون .. إن هذا الفقير السعيد ، لأشرف منكم جميعاً .. !]

كان الضباب ينحدر ببطء من حدور الجبال نحو القرية الهاجعة فى أحضان الظلام ، وكان الهواء يعصف ويزأر ، يهب من حقول الذرة تارة يحمل الزوابع والتوابع ، ويهبط من الجبال الملأى بالزعرور ، يحمل الجن والعفاريت ، كأنه يريد أن ينقض على هذه القرية فينسفها نسفاً .

وكانت الطرقات قفراً ، لا تلمح على ظهرها أحداً ، فقد دفع الهواء العاصف أهل القرية أن يختبئوا فى دورهم تاركين المصاطب التى تحلقوا فوقها ، يستمعون إلى أحاديث الحصاد ، ويتحدثون عما لديهم من الآمال والأشغال .

وساد الظلام فى كل مكان ... وعبث الهواء بمصباح القرية المعلق أمام الجامع فأطفأه وألقى به فى الأرض . وانتشر فوق القرية رعب وكآبة ، ونام القرويون ... حتى الحارس (أبو شنب) فقد ترك عصاه الغليظة أمام باب الجامع ، وأغفى وراء الباب .

وفجأة ظهر فى طرف القرية ، من إحدى العلالى ، نور ضعيف ثم أخذ يشتد ويقوى حتى نارت العلية ... وظهر رجل يقترب من نافذتها .

ولو أن الحارس كان مستيقظا لأسرع إلى العلية يستطلع أمر هذا النور ، ويسأل صاحبها إطفاءه ، لئلا يستدل العدو على القرية فيهاجمها بجنده ، ويصب عليها نار مدافعه .

ووقف الرجل فى النافذة ، فنظر حوله ، ثم أخذ يخطو فى العلية خطوات غير متزنة ، ثم عاد إلى النافذة ينظر ... كأنه يترقب أمراً ، أو يستطلع سراً ، ثم انفتل إلى المصباح ، فأضعف نوره ، وعاد إلى النافذة يتمتم بصوت ضعيف كأنه يخشى أن يسمعه أحد :

— لقد سخر منى ، عيرنى بالفقر والعجز ، لم يخجل من شيبى وضعفى ... لقد تخطيت الستين ... أكُتب علىّ أن أكون عبداً له ، أتعب ليستريح ، وأجوع ليشبع ، وألبس المِزَق ليرفل بالحرير ... ها أنذا لا أملك شيئاً ، وأولادى الصغار قضوا ثلاث ليال لا يأكلون ، بل لا يجدون اللقمة الواحدة . أمّهم تعللهم بى ، وأنا مختبىء أمام باب الدار ، أسمع أصواتهم ويرن فى أذنى بكاؤهم ، فيتفطر قلبى ، وينهمل دمعى . إنهم قطع منى فكيف أتركهم يجوعون ... إنهم أولادى ، فكيف أدعهم يبكون ... ليقولوا إنى سارق وإنى مجنون .. وليسوقونى إلى السجن ، فهم كفرة لا يرحمون ، ولأطعم أولادى . فلعلهم يشبعون . إن الدراهم عندى ، ولن أرجعها . ولكن ، ما أدرى ! ما الذى يعيث فى صدرى ، وبين أضلعى ؟ إنه يضنينى ويقلقنى ... ما أشد هذه الليلة علىّ ... ! إنها لأثقل من هذه الجبال وأثقل من السماء . ماذا أفعل يارب ؟ إن عفريتاً يحطم منى . كأن فى يده معولا فهو به يضربنى . إنى لأسمع همساته فى كل دقيقة ، بل فى كل طرفة ترنّ فى أذنىّ وتطنّ « هات الدراهم ، هات الدراهم » لكن لا ، ليس فى العلية أحد ، أجنى يكلمنى ؟ ماذا أصابنى ؟ »

ورفع الشيخ يده إلى جبينه يمسح العرق عنه ، ثم حول بصره إلى الغرفة فنفضها ، عله يجد فيها الذى يقلقه . ولكنه لم يجد أحداً . فخطر على باله أن ينام . لقد حاول النوم من قبل ففر منه النوم . أما الآن ، فلعل النوم يشفق عليه ، وينقذه من هذا العفريت الذى يطن فى أذنيه . فاضطجع على كيس من القش اتخذه فراشا . فقرأ وتعوذ ، ودمدم وهمهم ، وسرد ما حفظه عن شيخ القرية يوم الجمعة ، مما يذهب الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس . وتقلب فى فراشه ذات اليمين وذات الشمال . وحاول أن ينسى الدراهم ، بل تمنى لو كان أصم ، فلا يسمع هذا الهمس الناعم ، ولكن صورة الدراهم كانت تملأ عينيه ، وهمس العفريت كان يرن فى أذنيه .

وجفا فراشه ، وقد تحطم جسمه . وأخذ يطوف حول العلية ، مطرق الرأس ، حانى الظهر . كيف الخلاص مما يسمع ؟ إن هذا الهمس : « هات الدراهم » يكاد يقتله ، وماذا فعل ؟ ألأنه سرق ؟ وقلبه ماذا أصابه ؟ إنه يكاد يتمزق فى صدره . ونادى : « ألا دعنى أيها العفريت دعنى ... اخرج من صدرى ، ابتعد عنى . آه لو كنت شاباً ... دعنى فأنا شيخ محطم أكاد أموت .

دعنى، فما أخذت الدراهم لنفسى، ولا لزوجتى، ولكن لأولادى. انظرهم كيف يبسوا من الهزال، وسقموا من الجوع! أيبقون بلا رغيف ثلاثة أيام وفى صناديق جارى الدنانير؟ أيموت صغارى من الجوع، ولى عند (البيك) — ألا لعنة الله على (البيك) — أجرة ثلاثة شهور؟ لقد طردنى، أيها العفريت، ولم ينقدنى أجرها. فطفقت أشكو، فلم يصغ أحد إلى. لقد قالوا إنى كاذب، لأنى فقير ضعيف. وإنه صادق لأنه سيد القرية الغنى فدعنى. فلم أعد أطيق. اذهب إليه، فهو مجرم كبير. اذهب إليه، وارقب غشه ودسه ... فإنى فقير. اخرج أنت يا قلبى معه لأستريح. لقد طلبت بنيتى قرشاً فقلت لها غداً، وسألنى بنى ثوباً، فقلت له غداً. وبت أخجل أن أراهما. أفلا أسرق يارب، ويا عفريت، ويا قلب، لأطعمهم وأفرحهم، وأدخل على قلوبهم السرور؟ ».

ولكن العفريت، كان أصم. فها هوذا قلبه يخفق ويضرب ضربات كأنها القنابل. مسكين لم يصغ إليه أحد، لا العفريت ولا قلبه ...

وضاق الشيخ بنفسه ذرعاً. أيقتل نفسه؟ لقد فكر فى ذلك، ولكنه انصرف عن هذه الفكرة سريعاً، وفضل أن يفر من القرية. ثم رأى أنه لا يطيق فراق أولاده، وقد رُزقهم وهو شيخ قد بلغ الخمسين. وفجأة التمعت عيناه. لقد فكر فى الله. لم لا يصلى ركعتين، ويخلص لله النية، ثم يدعوه بدعاء تعلمه؟ لقد سمع هذا الدعاء من شيخ القرية، وحفظه عنه، ورسخ فى ذهنه أن هذا الدعاء، وفيه توسل بالأولياء والصالحين، سريع الإجابة، عظيم التأثير. إذن فليدع الله. وسرعان ما قفز الشيخ فشمر عن ساعديه، ليتوضأ، وها هوذا قد توضأ، وتوجه إلى القبلة، يصلى، فلما فرغ من صلاته رفع يديه، والدنيا سكون وأخذ يدعو. وفرغ من دعائه، وانتظر قليلا، ولكن المعول ما يزال يهدم بين ضلوعه، والعفريت ما يزال يهمس فى أذنه، والانقباض يغمر نفسه، والكآبة تشع حوله.

وجهد أن ينام مرة ثالثة، وأغفى إغفاءة قصيرة، وما لبث أن هب من فراشه، وقد عزم على أمر.

لقد ارتدى معطفه الممزق، ودلف برفق، بخطوات وئيدة نحو الصندوق الخشبى الصغير، لئلا تستيقظ زوجته وأولاده. ودس يده الراجفة فى جيبه، فأخرج مفتاحاً صغيراً، فتح به الصندوق بهدوء.

لبث الشيخ لحظة مشدوهاً، وعيناه عالقتان بالصندوق تلمعان. ثم غاص بيده فيه، فأخذ صرة صغيرة بيد راعشة، وقلب راجف، وانتفض كالهر فهرول نحو الباب، تاركا الحوائج مبعثرة، والصندوق مفتوحاً.

سار الشيخ مثقل الرأس، يحمل همه على كتفيه. يسرع الخطو تارة، ويبطىء أخرى. وكان الهواء الثائر قد هدأ عصفه وخف زئيره، فلا تسمع سوى أنات النسيم الرقيقة يبثها فوق ورق الزعرور ... وكانت السماء موشاة بغيوم متناثرات هنا وهناك. وقد ظهر القمر شاحباً يترنح بين الغيوم، كأنه ثمل أو سكران ... وكانت القرية مغمورة بكآبة نشرها عليها ضوء القمر الشاحب. وكان الشيخ يمشى وهو ساهم يترنح. ولم ينس أن يبتعد عن مخفر الحارس لئلا يقبض عليه. لقد تمثل فى خاطره كيف ساقوه إلى الحاكم لأنه سرق دراهم جاره الغنى، وكيف أقسم أنه لم يسرق، لئلا يفتضح وقد شاب رأسه. وذكر ما أصابه منذ انفتل راجعاً إلى داره يحمل لأولاده لقيمات. وكان يخيل إليه، وهو يمشى، أن تلك الأنات التى ترسلها النسمات معناها « الدراهم ... » أما تلك الأشجار المنتصبة فى الفضاء فهى أشباح، أو أناس يترصدونه ليقبضوا عليه جزاء يمينه الغموس التى حلفها اليوم. وخامره خوف شديد لا عهد له به من قبل. فكان يقشعر بدنه كلما ظهرت أمامه شجرة من وراء المنعرج، أو من يمين الطريق، كأنها الشبح. فإذا ما تبينها تنفس الصعداء وأحس كأن ماء حاراً صب فوقه، فيرفضُّ جسمه عرقاً. ثم يعاود سيره بجد، ويتلفت من حين إلى حين يمنة ويسرة، ينظر أيتبعه أحد، ثم يحدق أمامه ليطمئن إلى طريقه الطويلة. وينظر إلى الأحجار المبعثرة على جنبات الطريق، التى تبدو كأنها جماجم الموتى، تلمع، وهى صلعاء، تحت ضوء القمر.

وخرج الشيخ من القرية وابتعد عنها، وبلغ داراً كبيرة منعزلة قامت على رابية. وطرق سمعه أصوات عربدة تصدر من الدار فتقدم من نافذة الدار. فرأى النور يتدفق منها، فسامل

نفسه ، لم ينهره الحارس إذا رأى النور فى عليته ، ويسمح للحاكم أن ينير غرفته ؟ ثم حدق فى ثقب من النافذة ، فرأى مائدة حفلت باللحوم والأطعمة والأشربة . ورأى الحاكم ، وقائد الجند يكرعون الشراب كرعاً ، ويلتهمون اللحم التهاماً ، فارتد بصره ، وذرف دمعة ، وصعد حسرة .

وتعالت أصوات المعربدين . لقد حار فى أمره ، إنه هنا قائد الجند الفظ الغليظ ، ذو العصا الضخمة ... ولئن طرق الباب ، فإنه ليخاف عصاه ، وهو يخشى أن ينهره الحاكم ، أو يسلمه للجند . إنه الحاكم ، لا يخيفه أحد ، ولا يحفل بإنسان .

وهجمت على رأسه فكر سود كالخفافيش ، فذهل . ونبهه همس ناعم . وخفق قلبه . وهم أن يعود . فارتجف ، واصطكت ركبتاه خوفاً من العفريت الذى يرافقه ، والذى سيلقاه فى غرفته ، والذى سيؤنبه على السرقة ، ويلحف عليه برد الدراهم ، ففضل أن يضربه القائد ألف ضربة ، وأن ينهره الحاكم ألف مرة ، على وخزات العفريت ، ولسعات الضمير .

وتقدم من الباب ، ومد يده المرتجفة ، فدقه دقات ضعيفة ، وقلبه يخفق .

لم يسمع الشيخ جواباً ، فلقد كانت عربدات السامرين تحول دون سماع دقات الباب ؛ فأعاد طرق الباب مثنى وثلاث ، وفجأة هدأت الأصوات ، وسمع صوت ينادى فيشق سكون الليل :

— مين ؟

فتلعثم الشيخ ... وعاد الصوت يسأل :

— مين ... ؟

فنادى الشيخ :

— أنا ... أنا .

— من أنت ؟ ..

واقترب الصوت ...

— إنها جريمة ، لا بد ... أوف ! فى النهار شغل ، وفى الليل شغل ... وفتح الباب ، وظهر الحاكم ، ومن ورائه القائد .

وأخذ الحاكم يحدق فى الشيخ ، ولقد حسبه خادمه أحمد :

— أحمد ... شو ، فى جناية ... مين مقتول ... مين ...

وقال القائد وهو يتلعثم :

— قبضتم على القاتل ... هو فى السجن طبعاً ... هرب ؟ ... لا ... لا ...

وارتبك الشيخ وقال :

— لا ... أنا الشيخ جاسم :

وحدق فيه الحاكم وقال :

— جاسم ؟

— نعم ، جاسم ، الذى أخذ الدراهم ...

ومسح الحاكم عينيه بكفيه وقال :

— معك دراهم المقتول ؟ كيف أخذتها ... اقبضوا عليه ...

وردد القائد :

— هيا ... اقبضوا عليه ...

واضطرب الشيخ . والتفت حوله ... ولكن لم يتقدم أحد ليقبض عليه ...

وعاد الشيخ يقول :

— أنا الذى أقسمت اليوم يميناً ، إنها يمين كاذبة . أنا الذى سرقت الدراهم ... لقد جئتك بها ، والعفريت يتبعنى ، يضرب فى قلبى . خذها ... ياسيدى ... أفضل أن أجوع ، ولا أتعذب خذها ... لا أريدها !

ورمى الشيخ بالصرة ، وانفتل يهرول ...

وقهقه القائد ، وهو يقول :

— رزق جديد ... هو لا يأخذها ؟ هه ... نحن نأخذها ... هات ، هات ...

***

وابتعد الشيخ عن الدار . فنظر إلى الأرض ، وإلى السماء ، ونظر أمامه وخلفه ، وعن يمينه وعن شماله . إنه لا يسمع الآن شيئاً . قلبه لا يخفق كذى قبل ، وكأن جبالا رفعت عن كتفيه وأحس بالنسيم اللطيف يدغدغ رئتيه ... ورأى القمر كألطف ما يكون . لقد تغير كل شىء ، وها هو ذا يبتسم ، رغماً منه لقد أحس بالفرح ، فانطلق يسرع فى مشيه وهو يتمتم :

— آه ... لقد استرحت ... الآن أنا سعيد ... !

(دمشق) **صلاح الدين المنجد**

على هامش النقد :

« دفاع عن البلاغة »

تأليف الأستاذ الزيات

الأستاذ سيد قطب

— ٢ —

يبلغ الأستاذ الزيات فصل الخطاب حين يتحدث عن « الذوق » فيقول فى ص ٣٣ :

« ولكل لغة من اللغات المتمدنة عبقرية تستكن فى طرق الأداء ، وتنوّع الصور ، وتلاؤم الألفاظ . وهذه العبقرية لا تدرك إلا بالذوق . والذوق لا يُعلّم ، وإنما يكتسب بمخالطة الصفوة المختارة من رجال الأدب ، ومطالعة الروائع العالمية لعباقرة الفن . واطلاع الكاتب على الأمثلة الرفيعة من البيان الخالد يرهف ذوقه ، ويوسع أفقه ، ويريه كيف تؤدى المعانى الدقيقة ، وتحيا الكلمات الميتة »

ولكى لا يقع اللبس فى ما يعنيه الأستاذ بالكلمات الميتة ، نقتبس فقرات له فى ص ٨٢ توضح هذا المعنى ولها فى ذاتها قيمة فى بيان قضية البلاغة :

« وفى اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع وخَلق ؛ لأن الكلمة ميتة ما دامت فى المعجم ؛ فإذا وصلها الفنان الخالق بأخواتها فى التركيب ، ووضعها فى موضعها الطبيعى من الجملة ، دبت فيها الحياة ، وسرت فيها الحرارة ، وظهر عليها اللون ، وتهيأ لها البروز . والكلمة فى الجملة كالقطعة فى الآلة ، إذا وُضعت فى موضعها على الصورة اللازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة وإلا ظلت جامدة. وللكلمات أرواح كما قال (موباسان). وأكثر القراء ، وإن شئت فقل أكثر الكتاب ، لا يطلبون منها غير المعانى . فإذا استطعت أن تجد الكلمة التى لا غنى عنها ، ولا عوض منها ، ثم وضعتها فى الموضع الذى أعد لها ، وهندس عليها ، ونفخت فيها الروح التى تعيد لها الحياة ، وترسل عليها الضوء ، ضمنت الدقة والقوة والصدق والطبيعية والوضوح ، وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف ووضع الجملة فى موضع الكلمة وذلك فى الجهاد الفنى فوز غير قليل »

وهذا كلام جيد ، فلقد آن الأوان لأن نقدر قيمة الكلمة فى تلوين الصورة الفنية ، فهى أشبه شىء باللون المعين فى الصورة ، وكما تتبين مهارة المصور فى اختيار الألوان وتنسيقها لتحدث التأثير اللازم فى جو الصورة العام ، فكذلك اختيار الكلمات وتنسيقها لتشع ظلالها الخاصة ، وليتألف من هذه الظلال مجتمعة صورة منسقة .

هذا الاختيار والتنسيق لا يتم كله عن طريق الوعى ، فهناك الذوق الخفى ، الذى تربى شيئاً فشيئاً ، وأساسه موهبة لدنية ، ولكن المرانة هى التى تبرز هذه الوهبة ، وتلوّنها ، وتجعلها فى النهاية عاملا من عوامل الخلق والاختيار .

ولقد غالت المدرسة العقلية فى تقدير قيمة المعانى وإهمال قيمة اللفظ المصور ، اكتفاء باللفظ الدال . والمسألة هى تعريف هذا اللفظ الدالّ فى الفن . فنحن قد نرتضى هذا الوصف للفظ ؛ ولكن على معنى أوسع مما تريده المدرسة العقلية فى الفن . إن اللفظ لا يكون دالا فى الفن بمجرد أدائه للمعنى اللغوى أو الذهنى فذلك يصلح فى العلم وربما فى الفلسفة . ولكنه لا يكفى فى الفن ، فالصورة — لا المعنى — هى المقصودة فى الفن . واللفظ والعبارة يكونان دالّين فى الفن حين يؤديان المعنى الذهنى ، ويخلعان بجواره ظلالا معينة تتسق مع هذا المعنى ، ويحدثان فى الوقت ذاته إيقاعا معيناً يتسق مع الظلال والمعانى ... ومن مجموع هذه الخواص تتكون دلالة اللفظ أو العبارة فى النص الفنى ، كما تتكون الصورة الفنية المعبرة عن فكرة فنية .

وفى هذا المجال يتفاضل الأدباء ، وذلك مع عدم إهمال القيم الذاتية لخصائص الشعور ، وطبيعة التفكير . هذه القيم التى لا تبدو على حقيقتها إلا عند ما يعبر عنها فى صورة جيدة كما أسلفنا الحديث .

***

« لكل لغة عبقرية تستكن فى طرق الأداء ، وتنوع الصور ، وتلاؤم الألفاظ »

ويرى الأستاذ الزيات أن عبقرية اللغة العربية من حيث طريقة الأداء تستكن فى الإيجاز . وعبقريتها من حيث تلاؤم الألفاظ تستكن فى السجع والازدواج .

وهذه ملاحظة صادقة فى تسجيل خصائص المأثور من البيان

العربى . ولكن الدعوة إلى الوقوف عندها فى أساليبنا المصرية هى التى نفترق فيها عن الأستاذ .

فلننظر فيما يقول فى هذين الأصلين الكبيرين .

« إذا كانت الوجازة أصلا فى بلاغات اللغات ، فإنها فى بلاغة العربية أصل وروح وطبع . وأول الفروق بين اللغات السامية واللغات الآرية أن الأولى إجمالية ، والأخرى تفصيلية . يظهر ذلك فى مثل قولك « قُتِلَ الإنسان ! » فإن الفعل فى هذه الجملة يدل بصيغته الملفوظة وقرينته الملحوظة على المعنى والزمن والدعاء والتعجب وحذف الفاعل . وهى معان لا تستطيع أن تعبر عنها فى لغة أوربية إلا بأربع كلمات أو خمس . وطبيعة اللغات الإجمالية الاعتماد على التركيز والاقتصار على الجوهر ، والتعبير بالكلمة الجامعة ، والاكتفاء باللمحة الدالة . كما أن طبيعة اللغات التفصيلية العناية بالدقائق ، والإحاطة بالفروع ، والاهتمام بالملابسات ، والاستطراد إلى المناسبات ، والميل إلى الشرح . ولم تعرف العربية التفصيل والتطويل والمط إلا بعد اتصالها بالآرية فى العراق والأندلس . ولا أقصد من وراء ذلك إلى تفضيل لغة على لغة ، أو ترجيح أسلوب على أسلوب ؛ فإن الاختلاف اختلاف جنسية وعقلية ومزاج . والتفصيل إذا سلم من اللغو كان كالإجمال إذا برىء من الإخلال . وكلاهما حسن فى موقعه ، بليغ فى بابه . وقد يكون التفصيل من الإيجاز إذا قدر لفظه على معناه »

وإلى هنا فالكلام جيد دقيق ، لأنه يكتفى بتقرير حالة واقعة فى اعتدال وقصد . وإن كان فى هذا التعميم ما يستحق بعض الاستدراك . فالميل إلى الإجمال أو التفصيل قد لا يكون مزاج أمة ولا لغة ، بل مزاج فرد أو جماعة فى كل لغة . ولكن هذا الكلام مقبول فى حدود السمات العامة للغات .

ثم يقول :

« اختصر فى صفة واحدة صفات البلاغة فى أساليب القرآن والحديث وأشعار الجاهليين وخطب الأمويين وكتب العباسيين فلن تكون هذه الصفة غير الإيجاز »

« وكان أمراء النثر العربى من أمثال جعفر بن يحيى ، وسهل ابن هرون يتوخون جانب القصد ، ويؤثرون طريق الإيجاز . حتى قال جعفر للكتاب : « إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » . والتوقيعات ما يعلقه الخليفة أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم إليه من الكتب فى شكوى حال أو طلب نوال . وهى تجرى مجرى الأمثال فى الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة »

وهذا كلام جيد حين يراد به تسجيل حالة واقعة — ما عدا الكلام عن إيجاز القرآن فلنا فيه رأى آخر سنبديه — أما حين يراد اتخاذه مثالا فلا

ان طبيعة الموضوعات التى عالجها النثر العربى المأثور ، وأهمها الحكم والأمثال ، والتوقيعات ، والرسائل ، هى التى اقتضت هذا الإيجاز ، وكان سائغا فيها . ولكنه فى الشعر بدا عيبا فى كثير من الأحيان . فمعظم الشعر العربى يعمد إلى بلورة المعنى وإرساله كالقذيفة ، وقلما يعنى بتصوير الحالات النفسية ووصفها وبسط التجارب الشعورية التى تُمتِع الحس بتتبعها . إنه يخاطب الذهن غالبا بالمعنى الذهنى الأخير الذى لا يتمتع به إلا الذهن وحده . وفى هذا تتفوق طريقة الأداء فى غير الشعر العربى : فى الشعر الأوربى والهندى والفارسى . ولقد كتبت عدة فصول عن « طريقة الأداء فى الشعر » وعن « الصور والظلال فى الشعر » وكلها تبرز تقصير طريقة الأداء فى الشعر العربى عن نظائرها فى الشعر العالمى . والعيب كله راجع إلى بلورة المعانى ، واقتضاب التفصيلات ، أى إلى هذا الايجاز الذى قد يفلح فى شعر الحكم ولكنه يخفق فى تصوير الحالات النفسية ، والخطرات الشعورية كل الإخفاق . كما يخفق فى القصة التى تقتضى مزيداً من « العناية بالدقائق ، والإحاطة بالفروع ، والاهتمام بالملابسات » تلك الخصائص التى ذكر الأستاذ الزيات أنها من خصائص اللغات التفصيلية ...

وقد نقل الأستاذ كلاما لابن الأثير فى ص٩٤ ، له دلالته فى موضوعنا : قال ابن الأثير .

« جلس إلىّ فى بعض الأيام جماعة من الإخوان ، وأخذوا فى مفاوضة الأحاديث ، وانساق ذلك إلى ذكر غرائب الوقائع التى تقع فى العالم ، فذكر كل من الجماعة شيئا . فقال شخص منهم : « إنى كنت بالجزيرة العمرية ، فى زمن الملك فلان ، وكنت إذ ذاك صبيا صغيراً ، فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان فى الحارة الفلانية ، وصعدنا إلى سطح طاحون لبنى فلان ، وأخذنا نلعب على السطح ، فوقع صبى منا إلى أرض الطاحون ، فوطئه بغل من بغال الطاحون ، فخفنا أن يكون آذاه ؛ فأسرعنا النزول إليه ، فوجدناه قد وطئه البغل فختنه ختانة صحيحة حسنة ، لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيراً منها » .

فقال له شخص من الحاضرين : والله إن هذا عىّ فاحش ،

وتطويل كثير لا حاجة إليه . فإنك بصدد أن تذكر أنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح طاحون ، فوقع صبى منكم إلى أرضها ، فوطئه بغل من بغالها نختنه ولم يؤذه . ولا فرق بين أن تكون هذه الواقعة فى بلد نعرفه أو فى بلد لا نعرفه . ولو كانت بأقصى المغرب ، لم يكن ذلك قدحاً فى غرابتها . وأما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية فى الحارة الفلانية فى طاحون بنى فلان فإن مثال هذا كله تطويل لا حاجة إليه والمعنى المقصود يفهم بدونه »

وتعليق ابن الأثير على لسان « شخص من الحاضرين » هو نموذج من فهم العقلية العربية التقليدية للفن . فالمعنى هو المقصود ، المعنى فى أوجز لفظ وأخصره ، مجرداً عن ظلاله وملابساته وظروفه . المعنى المركز فى « برشامة » !

ونحن لا نتردد فى إيثار طريقة صاحب الطاحونة ! — من الناحية القصصية — لأنه يصور الجو والملابسات ، ويطيل التشويق ، ويتضمن المفاجأة فى النهاية وهو على تفاهة حكايته « صاحب فن » فى روايتها ، يهيىء له أن يصبح قصاصا ! ! أما صاحبه الآخر الذى رد عليه فرجل عجول ، وهو قد يكون أشد عروبة ، ولكنه ليس أحسن فنا !

أما القرآن فلم يتبع خطة واحدة . لقد استخدم الإيجاز والإطناب كلاً فى موضعه ، وحسب الغرض النفسى الذى يتوخاه

وقد جاء فى فصل « التناسق الفنى فى القرآن » من كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » ما يأتى :

« بعض المشاهد يمر سريعا خاطفا ، يكاد يخطف البصر من سرعته ، ويكاد الخيال نفسه لا يلاحقه . وبعض المشاهد يطول ويطول حتى ليخيل للمرء فى بعض الأحيان أنه لن يزول . وبعض هذه المشاهد الطويلة حافل بالحركة ، وبعضها شاخص لا يريم . وكل أولئك يتم تحقيقا لغرض خاص فى المشهد ، يتسق مع الغرض العام للقرآن ويتم به التناسق فى الإخراج أبدع التمام »

ثم ضربت أمثلة متعددة للقصر الخاطف ، وأمثلة متعددة للطول المقصود فى عرض المواقف . ويحسن أن أختار هنا مثالين من تلك الأمثلة الكثيرة:

« ١ — يريد أن يصوّر للناس قصر هذه الحياة الدنيا التى تلهيهم عن الآخرة ، فيخرج القصر فى هذه الصورة :

« واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا ، كماءٍ أنزلناهُ من السماء ، فاختلطَ بِهِ نباتُ الأرْضِ ، فأصبحَ هشيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ » .

« وانتهى شريط الحياة كله فى هذه الجمل القصار ، وفى هذه المشاهد الثلاثة المتتابعة : « ماء أنزلناه من السماء » ف « اختلط به نبات الأرض » ف « أصبح هشيما تذروه الرياح » .

« ألا ما أقصرها حياة !

« ٢ — ويريد أن يبصر الناس بنعمة من نعم الله عليهم ، فيعرض عليهم هذه الصورة نفسها : صورة نزول الماء من السماء وإنبات الزرع به ، وصيرورته حطاما ... ولكن فى تطويل وتريث وتفصيل ، لأن التذكير بالنعمة يقتضى التريث والتفصيل

فالقسم الأول من الصورة وهو نزول الماء من السماء يعرض هكذا:

« اللهُ الذى يُرسلُ الرياحَ ، فتُثيرُ سَحاباً ، فيبسُطه فى السَّماء كيفَ يشاء ، ويجعله كِسَفاً ، فترَى الودقَ يَخرُجُ مِنْ خلاله ، فإذا أصابَ به من يشاء من عباده إذا هُم يَستبشرونَ »

والقسم الثانى بعد وصول الماء إلى الأرض يعرض هكذا :

« ألمْ تَرَ أنّ الله أنزل من السَّماءِ ماءً ، فَسَلَكَهُ يَنابيعَ فى الأرضِ ، ثمّ يُخرِجُ بهِ زَرْعاً مختلفاً ألوانُه ، ثمّ يَهيجُ فتَراهُ مُصفَرّاً ، ثمّ يَجعلهُ حُطاماً »

فالرياح تثور ، فتثير السحب فى السماء ، فيتراكم السحاب ، فيخرج منه المطر ، فينزل المطر من السماء ، فيستبشر به عباد الله فإذا نزل إلى الأرض ، فلا يختلط بالأرض ولا بنبات الأرض — كما حدث هناك — إنما يسلك ينابيع . « ثم » — فى تراخ — يخرج به زرعا . « ثم » — مرة أخرى — يهيج فتراه مصفراً — وفى الوقت مهلة لتراه — « ثم » مرة ثالثة يجعله حطاما . « يجعله ! » وهناك « أصبح هشيما » كأنما يصير هكذا من نفسه بلا حاجة إلى مصير !

وفى مشاهد القيامة مثل هذا الإطناب وذلك الإيجاز ، وفى المواقف القصصية . وفى كل موضع يقتضى التفصيل أو الإجمال ، فالقرآن فى هذا خارج على مأثور النثر العربى . متميز بخصائصه الفنية فى كل موقف وفى كل حال .

***

فلننظر فى السمة الثانية من سمات اللغة العربية فى تلاؤم الألفاظ . وهى السجع والازدواج . والازدواج بشكل خاص :

« فالازدواج على إطلاقه ، والسجع على تقييده ، يؤلفان الموسيقية فى الأسلوب البليغ ، منذ كان للعرب ذوق ، وللعربية أدب . فليست الحال فيهما هى الحال فى سائر الأنواع البديعية التى نشأت فى الحضارة ونمت بالترف ، وسمجت بالفضول . وفسدت بالتكلف . فالذين ينكرون على من يحسنون التأليف بين الأصوات ، والمزاوجة بين الكلمات ، والمجانسة بين الفواصل ، إنما ينكرون جمال البلاغة وجيل البلغاء فى دهر العروبة كله . وإذا أقررناهم على أن ذوق العصر لا يسيغ ذلك البديع الذى أولع به كتاب العصر الخامس ، ومن خلف من بعدهم ، فذلك لأننا لا نقحم فى ذلك البديع تلك الأنواعَ التى تحسب فى عناصر الأسلوب ، وتنسب إلى خصائص اللغة ، كصحة المقابلة ، وحسن التقسيم ، وائتلاف اللفظ مع المعنى ، واتفاق الفقرة والفقرة فى الوزن ، أو اتحاد الفاصلة والفاصلة فى الروى .

« وأقطع الحجج على أن الازدواج والسجع من لوازم الأسلوب العربى أن القرآن ، وهو « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، قد تجوّز فى بعض الألفاظ والصيغ محافظة عليهما »

ونحن لا نجادل الأستاذ فى أن السجع والازدواج أساسان من أسس النثر العربى المأثور — وندع الحديث عن القرآن إلى موضعه — ولا نجادله فى أن فيهما جمالا حين يحسن استخدامهما ولكن هذا لا يعنى أنهما مفروضان ضربة لازب على الأساليب العصرية .

وقبل كل شىء نود أن نقرر فى صراحة : أنه إذا كان فى اللغة العربية شعر يبلغ نهاية الجودة وقمة الفن — فى بعض الأحيان — فإنه ليس فى اللغة العربية نثر يتسم بهذه السمة ! إن الأسلوب النثرى المأثور فى اللغة العربية أسلوب متخلف متصنع تنقصه الطلاقة والحيوية والاندفاع . ولم يبلغ النثر العربى يوما ما بلغه على أيدى كتاب العصر الحاضر الذين أطلقوه من قيوده البطيئة فى التعبير والتنغيم على السواء .

وهذه حقيقة تنفعنا ، فإنه إذا جاز أن نتجه إلى الشعر العربى المأثور(١) للمحاكاة والانتفاع ، فلا يجوز أن نتجه إلى النثر العربى المأثور إلا لتكوين الذوق اللغوى ، لا المحاكاة الفنية .

وإيقاع السجع والازدواج — على تفاوت بينهما — هو إيقاع « التقاسيم » الشرقية فى الموسيقى ، فيه الاتزان المتوازى أو المتقابل . ولكن تنقصه التموجات العريضة العميقة ، وتنقصه الرفرفة الخفيفة والاندفاعات الطليقة . وهو على أية حال ليس إلا لوناً واحداً من ألوان الإيقاع لا يصلح لجميع الأحوال . والتناسق الحقيقى هو اتفاق صورة الكلام وإيقاعه مع طبيعة الشعور الذى انبعث عنه والجو النفسى الذى يصوره . وهو بهذا الوضع جزء من دلالة العبارة كالمعنى الذهنى سواء . والسجع والازدواج لا ينفسحان عن جميع الصور النفسية .

ثم نصل إلى الحديث عن القرآن .

وأنا الذى ألفت كتابا كاملا عن « التصوير الفنى فى القرآن » وأبرزت سمة « الإيقاع الموسيقى » فى هذا التصوير ، لا أتردد فى الجهر بأن القرآن لم يستخدم السجع والازدواج فى كافة أغراضه بل استخدمهما فى المواضع الخطابية التأثيرية . وفى هذه المواضع وأمثالها دون سائر الأغراض يحسن السجع والازدواج .

فإذا خطر لنا أن نتأثر أسلوب القرآن ، فلنعرف مواضع كل طريقة من طرق الأداء فيه . ولنفرق بين السمات المطردة فيه ، والسمات الخاصة بموضع دون موضع .

فطريقة التعبير بالتصوير سمة مطردة . أما الإيقاع فى السجع والازدواج فسمة موضعية .

ومن هنا يأتى الخطأ لجماعة ممن يعن لهم تقليد أسلوب القرآن فى العصر الحديث . فهم لا يقلدونه فى طريقة التعبير بالتصوير . ولكن فى طريقة تركيب الجمل ، وتنسيق العبارات ... ولقد دعوت مرة إلى التأثر بطريقة الأداء القرآنية ، وعنيت بها الصور والظلال وتجانس الصور والإيقاع . ولكننى لم أعن تركيب الجمل على النسق القرآنى فى كل المواضع والموضوعات . وهناك أساليبه الطليقة التى استخدمها للشرح والتقرير ، والأساليب التأثيرية التى استخدمها فى مواضع خاصة تصلح لهذه المواضع ، ولا تطرد فى كل المواقف .

وهذا مفصل القول فى هذا الموضوع الدقيق .

(للبحث بقية)

سيد قطب

(١) أنا أستخدم كلمة مأثور مقابل « كلاسيك » وأرى أنها تدل على كامل معناها بشطريه : الجودة والاتباع بخلاف كلمة تقليدى . أو اتباعى فانها تغفل شطر المعنى . وهو سبب تقليده واتباعه .

المفتى المهــاجر

للاستاذ توفيق محمد الشاوى

« فلسطين ! وما فلسطين ؟

هى الوطن ، إذا كان الوطن أن نعيش فيه سادة أحراراً .

وهى الدين ، إذا كان الدين أن نذود عنه أعزة كراماً .

وهى الأمل ، إذا كان الأمل هو كل مايملك النفس ويحركها .

وهى الحلم ، إذا كان الحلم هو كل ما يشغل القلب ويجذبه مهما كانت حجب الزمان والمكان

فلسطين ! هى ذلك التاريخ الحافل الذى حفظته الدنيا ، فلن يمحى بعد ذلك !

هى ذلك المجد الخالد الذى صنعه الآباء ، فلن يحيا بدونه الأبناء!

هى ذلك التراث المجيد الذى يملكنا ونملكه ، هو لنا الماضى، ونحن له المستقبل !

نعم ! وهى هى التى دعتنى إلى الفراق حين فُرِضَ الفراق ، وتدعونى إلى اللقاء حينما يجب اللقاء ... »

لعل هذه هى الخواطر التى شغلت دائماً هذه النفس الهادئة القوية ، وملأت هذا القلب الطاهر العميق ، وإنك لتستطيع أن تقرأها واضحة ناطقة فى هذا الوجه الباسم المطمئن ، وهاتين العينين الصافيتين الهادئتين ، عينى الفتى مفتى فلسطين الكبير !

إنك لتراها واضحة لأنها تصدر عن فكرة قوية هادئة ، تعبر عن إيمان صادق عميق ، وثقة ثابتة لا تتزعزع ، تلك هى العقيدة الإسلامية الخالدة التى تمثلت فى تاريخنا الحافل ، ولا يمكن أن يجحدها جاحد ، وخاصة إذا تمثلت فى رجل عظيم !

فكرة تكسب الرجل قوته وعظمته التى عجزت أمامها « السياسة » الإنجليزية الماكرة ، وأفلست حيالها كل المكايد الاستعمارية الخادعة ... أخرجته من فلسطين إلى لبنان ، ومن لبنان إلى العراق ، ثم منها إلى إيران ، ومن إيران إلى تركيا فأوربا ، وها هى أوربا قد قلبت رأساً على عقب ، وهو هو ، تطورت الأحداث ، وهو ثابت لم يتزعزع بإيمانه القوى الثابت ، وفكرته التى خرج بها من بلاده ، والتى يجمعها هذه الكلمة التى لا تبرح خاطره ولا تغادر قلبه « فلسطين » !

« من أجلها استوى عنده الشرق والغرب والقرب والبعد ! ومن أجلها خرج عن المال والولد ، وطابت له الهجرة ، ولكن إلى حين ! من أجلها دار هذه الدورة التاريخية من الشرق إلى الغرب ، مخترقاً قلب هذه القارة الطاغية الجبارة « أوربا » فى سبيل تلك الغاية الواحدة « فلسطين » !

وإنه ليقيم فى باريس ، فى ضيافة فرنسا ، فى تلك الفيلا الهادئة المنعزلة قرب « السين » ، فهلا يستريح ؟ كلا ! وأى نجم فى السماء يستريح ؟ كلها تدور كما دار هو صابراً ثابتاً ، من برج إلى برج ، فى هدوء وإشراق ، لا تقف فى منتصف الطريق ، لا بد من أن تتم الدورة ، لا بد من « العودة » إلى هذه النقطة التى بدأ منها ، والتى اتجه إليها دائماً بروحه وقلبه ، والتى يعيش من أجلها ... فلسطين أنشودته الخالدة :

فلسطين يا فلسطين أنت لى دنيا ودين !

الإنجليز يطاردون، واليهود يترصدون،والفرنسيون مترددون مراقبون ، ولكنه هادئ باسم ، لأنه مؤمن ولأنه واثق : مؤمن بالحق، وواثق بالله... مؤمن بأنه يجب أن يعود ، وواثق بأنه سيعود!

وما ذا يكلفه ذلك ؟ إنه لايملك شيئاً إلاروحه ، وهى رخيصة فى سبيل غايته ، لقد عرضها على الموت فى كل آن ، منذ أن بدأ جهاده فى سبيل الحق وهو يبحث عن الموت ويطلبه فى سبيل بلاده وعقيدته ، ولكن الموت عنيد لا يطلب من يطلبه ... فليجاهد حتى الموت !

وكيف يعود ؟ لا بد من إذن الحكومة الفرنسية ، ورضاء الحكومة الإنجليزيةوطلب الحكومات العربية،ولابد من إجراءات دبلوماسية تطول ، وعقبات سياسية لا سبيل إلى تذليلها الآن !

كلا ! دعوا كل هذا ، واقرأوا هذا الوجه الهادئ الواثق ، هناك ابتسامة عريضة تكاد ترسم قوساً تحت هذا الأنف العربى الأشم ، إنه سيعود ، إنه لايفصله عن غايته إلامثل هذا القوس ، الطريق من باريس إلى الشام لن يكلفه أكثر من هذه الابتسامة المؤمنة الهادئة ، ما دام أنه يجب أن يعود ، فلا بد أن يعود ، ولا يمكن أن يبقى تحت رحمة السياسة والدبلوماسية ، وخير له أن يخاطر ليعرض روحه على الموت مرة أخرى فى سبيل غايته ، فإنه سيبلغ بلا شك إحدى الحسنيين ! دين آبائه وأجداده من قبل ! فليعمد مخاطراً مجازفاً كما خرج مخاطراً مجازفاً ، سواء رضيت انجلترا أو لم ترض ، وسواء أذنت فرنسا أو لم تأذن ... لا بد من العودة ... لا بد منها ... فلسطين ... الشام ... وقد كان !

توفيق محمد الشاوى
مدرس بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

التطورات السياسية
فى الشرق الأقصى

للأستاذ محمد جنيدى

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

يتولى الحكم فى أندونيسيا نائب عن الملكة وهلمينا يدعى باسم الحاكم العام، يساعده مجلس مكون من رؤساء المصالح الكبيرة، المالية، والحربية، والبحرية، والعدلية والاقتصادية وهم هولنديون، طبعاً! . ويسمى هذا المجلس « Raad Indie » المجلس الهندى، ويساعده أيضا المجلس النيابى .

وفى يناير ١٩٢٠ أنشأ بعض رجالات جزيرة « Madoera » حزب « شركت مادورا » عاملا لتقوية الحركات التحريرية فى هذه الجزيرة . وفى ٨ مايو ١٩٢٠ تأسست جمعية سياسية فى جزيرة « سيليبيس » باسم « شركة أمبون » لا تخرج غايتها عن غايات الأحزاب الوطنية التى ظهرت قبلها .

وخلال عام ١٩١٩ حدثت عدة اضرابات فى المرافق العامة إظهاراً للشعور المكبوت من سياسة الحكومة الهولندية فى إدارتها أمور البلاد بطرق دلت على الاستغلال والاستعباد للشعب، وأشهر حوادث الاعتصاب: الاعتصاب الذى قام به موظفو وعمال الترام بين مدينة « سمارانج شريبون » ثم موظفو وعمال ترام سومطرة الغربية، ثم موظفو وعمال مطبعة سورابايا الأميرية، ثم إضراب نقابات الخياطين الوطنيين، ثم الإضراب النهائى الكبير فى مصانع السكر العائدة للامبريالية الغربية، فشلت حركاتها أياماً .

فى عام ١٩١٧ حاول الدكتور سمون والمستر تان ملاكا والمستر عالمين نشر المبادىء الاشتراكية الحديثة فى حزب الرابطة الإسلامية . فهؤلاء الثلاثة كانوا أعضاء فى فرع حزب الرابطة الإسلامية بمدينة « سمارانج » وقد تلقوا مبادىء الاشتراكية من المستر سنفليت الهولندى مؤسس الحزب الاشتراكى الديمقراطى فوقف لهم زعماء الرابطة موقفا رائعا، صدوا المبادىء الشيوعية من الولوج فى المجتمع الإسلامى بأندونيسيا، وبعد مجادلات فى الصحف وفى الأندية . انفصل اشتراكيو « شركة اسلام » منه وأنشأوا حزباً سياسياً باسم « شركة اسلام ميرة » أو « الرابطة الإسلامية الحمراء » بزعامة الدكتور سمون . وأما « شركة إسلام » الأصلية فقد زيدت فى اسمها كلمة واحدة، وأصبحت تدعى باسم « الرابطة الإسلامية البيضاء » برئاسة شكرى أمينوتو .

ثم أبدل زعماء الرابطة الإسلامية الحمراء اسم حزبهم إلى « شركة رعيت » أو « حزب الأمة » وانتشرت فروعه فى القرى والمدن وكانت الروح المعادية للامبريالية تكتسح المجتمع الأندونيسى وتهز دعائم الحكم الهولندى . وفى ٢٣ مايو ١٩٢٠ ظهر حزب الأمة بمظهر جديد، فقد بدل اسمه إلى « الحزب الشيوعى الأندونيسى » « Partai Kommonis Indonesia » المرموز إليه بحرف « P. K. I. » ويعد هذا الحزب أكبر الأحزاب الأندونيسية المتطرفة، ومبادئه العمل الإيجابى لإزالة الاستعمار الهولندى من أندونيسيا .

وفى عام ١٩٢٢ سافر الدكتور سمون إلى أوروبا ومنها إلى موسكو للاتصال بمركز قيادة الحزب الشيوعى الروسى واطلع على نظمه وبرامجه ومؤسساته، ثم عاد إلى أندونيسيا . ومنذ ظهور الحزب الشيوعى فى المسرح السياسى اشتعلت أندونيسيا ناراً، فالمبادىء الشيوعية تنتشر فى القرى والمدن، والأفكار الحرة تهدم معاقل الاستعمار .

من شهر نوفمبر ١٩٢٦ إلى يناير ١٩٢٧ اندلعت نار الثورة الشيوعية الكبرى فى أندونيسيا، أشعلها الحزب الشيوعى الأندونيسى، فكافحتها السلطة الهولندية كفاحاً عظيما استعملت خلاله المدافع الرشاشة والدبابات والسيارات المصفحة . أما الأندونيسيون فكانت أسلحتهم المسدسات والقنابل اليدوية ! . واستطاعت الحكومة الهولندية إخمادها لقواتها الكثيفة التى قذفتها إلى ميدان الثورة . وبعد انجلاء الموقف سجنت السلطة الهولندية « ٤٥٠٠ » أندونيسى شيوعى، ونفت أيضاً إلى غينيا الجديدة « ١٣٠٨ » شيوعيين !

فى ٤ يوليو ١٩٢٧ أنشأ الدكتور سوركانو « اتحاد الشعب الأندونيسى » وساعده فى إنشائه المستر سرتونو، والمستر إسحق

والمستر بودترات ، والمستر سوجدى ، والدكتور شفتو ماعون كسومو . وفى ديسمبر ١٩٢٨ عقد الحزب مؤتمره الأول بمدينة سورابايا ، وقررت الهيئة الرئيسية للحزب إبدال إسم الحزب . فسمى « الحزب الوطنى الأندونيسى » برئاسة الدكتور سوكارنو فأنشأ هيئات عسكرية من الشباب سميت بفرقة الهجوم . وفى هذا الظرف كان الشعب الأندونيسى يترقب مصير الحكم الهولندى فى أندونيسيا ، حيث أن الحزب الوطنى كان أقوى حزب سياسى فى أندونيسيا ، سياسته رفع السيادة الأجنبية عن أندونيسيا . وفى نهاية عام ١٩٢٩ داهمت جنود الحكومة الهولندية دار الحزب الوطنى بمدينة « باندونج » فجمعت أوراقه ومستنداته ، ثم داهمت أيضاً فرقة من الجنود الهولنديين « ٥٠ » مدينة فى أندونيسيا فيها فروع الحزب ، وقبضت على « ٣٠٠ » عضو من أبرز أعضاء الحزب . أما رئيس الحزب فقد سيق إلى السجن ليلا والأسباب التى دعت الحكومة الهولندية إلى إجراء هذا العمل شعورها بثورة يشعل نارها الحزب الوطنى فى غرة عام ١٩٣٠ لما رأت منه من الأعمال الثورية منذ ظهوره فى الميدان السياسى . وبعد محاكمات طويلة قررت السلطة الهولندية سجن الدكتور سوكارنو أربع سنوات ، وسجن كل من المستر غاتوت والمستر ماسكون والمستر سوفريا والمستر سنفيه مدداً مختلفة . أما الدكتور سوركارنو فقد قضى عامين مسجونا فى سجن « سوكا مسكين » بسورابايا ، وأنقص عامان من مدة سجنه بأمر من الحاكم العام وأما الأعضاء الآخرون فقد أعفوا مدة سجنهم .

فى ٣١ ديسمبر ١٩٣١ خرج الدكتور سوكارنو من السجن فوجد أتباعه قد انقسموا إلى قسمين : قسم برئاسة المستر سرتونو وقسم آخر برئاسة الدكتور محمد حتى . فانضم إلى « الحزب الأندونيسى » أو « Partindo » بزعامة المستر سرتونو . ثم فى عام ١٩٣٢ أسند إليه رئاسة الحزب ، وبدأ عمله السياسى كما كان وفى ٥ مارس ١٩٣٣ قبض عليه ثم نفى إلى جزيرة فلورس . وفى عام ١٩٣٦ أعيد إلى مدينة « بنكولين » بجزيرة سومطرة ، ثم عهدت إليه الجمعية المحمدية الأشراف على أقسامها الثقافية بفرعها بهذه المدينة .

أما الدكتور محمد حتى فقد أنشأ بمساعدة الدكتور شهرير « حزب التربية الأندونيسية » وكانت مبادئه تحرير أندونيسيا من الاستعمار الهولندى . وفى ٢٥ فبراير ١٩٣٤ ضربت السلطة الهولندية بيد من حديد على هذا الحزب . فنفت رئيسه الدكتور محمد حتى إلى جزيرة « بندانيرا » والدكتور شهرير إلى غينيا الجديدة ، وهكذا تضرب الأميريالية الغربية الحركات الشرقية التحريرية .

وفى ديسمبر ١٢٩٧ تألفت هيئة سياسية باسم : « اتفاق الهيئات السياسية القومية الأندونيسية » أو « Permoepatan Perkoempoelan Poliek Kebangsaan Indonesia » ، الرموز إليه بالحروف الأولى « P. P. P. K. I. » لاتخاذ مناهج سياسية مستقيمة لمقاومتها الاستعمار الهولندى ، وتولى رئاستها المستر محمد حسنى تمرين من حزب « أندونيسيا الكبرى » ، وتكونت هذه الهيئة من حزب « بودى أوتومو » وحزب « الرابطة الإسلامية » وحزب « قوم بتاوى » و « سومطرة بوند » وأدت هذه الهيئة خدمات سياسية فى صالح الشعب .

فى ١٦ أكتوبر ١٩٣٠ أبدل الدكتور ستومو « نادى التعليم » إلى حزب سياسى باسم « اتحاد الشعب » للتكاتف مع الأحزاب السياسية فى كفاح الاستعمار . وفى ٢٩ أبريل ١٩٣١ أنشأ الدكتور أمير شرف الدين حزب النهضة الأندونيسية « Garindo » للعمل لتحرير أندونيسيا من الاستعمار الغربى . وقد استطاع الدكتور أمين الدين بجهوده العظيمة إيجاد حالة سياسية للشعب أوضحت له أن أعماله وجهاده ستثمران بعد سنوات قليلة ، ومنذ نشأت الجمهورية فى أندونيسيا تولى الدكتور شرف الدين وزارة الأخبار ثم عين إلى وزارة الداخلية ، ثم عين إلى وزارة الدفاع ، ولا يزال يشرف عليها للآن .

وفى ١٤ سبتمبر ١٩٣٠ أنشأ المستر محمد يمين « حزب الشعب الأندونيسى » ، وكانت سياسة حزبه ترمى إلى الاستقلال التام لأندونيسيا أو البقاء تحت الاستعمار ! أما إنشاء حكومة ذاتية أو غيرها من أنواع الحكومات فليس من الحكمة الرشيدة ، والسياسة المستقيمة ! ويتولى اليوم المستر محمد يمين منصب حاكم جاوا الغربية .

وفى ٢٤ ديسمبر ١٩٣٥ أدغم الدكتور ستومو حزب

ديودى أوتومو ، وحزب اتحاد الشعب ، وحزب دشركت سومترا ، وأخرج منها حزباً سياسياً كبيراً هو «حزب أندونيسيا الكبرى»

اتبع الحزب سياسة معتدلة تجاه السلطة الهولندية ، وكان عمله الأول متجهاً نحو الحيـاة الاقتصادية والحياة الثقافية . فؤسساته الاقتصادية :

١ — البنك الوطنى الأندونيسى . وله فروع كثيرة فى أهم المدن الأندونيسية ويؤدى الأعمال التجارية .

٢ — شركة الملاحة الوطنية .

٣ — المعهد الزراعى . ومؤسساته الثقافية : ١ — معهد التربية الأندونيسى ٢ — دور للأيتـام ٣ — مدارس ثانوية ٤ — مدارس شعبية عامة ٥ — هيئة للأيتـام ٦ — دور للأطفال لحمايتهم من داء — G. M. I. إدارة للصحافة والنشر.

فى ديسمبر ١٩٣٦ أسس بعض الزعمـاء الأندونيسيين « الحزب الإسلامى الأندونيسى » لعمل خطة سياسية إسلامية يسير عليها الشعب الأندونيسى المسلم فى جهاده فى سبيل استقلاله وتولى رئاسة الحزب « رادين ويووهو » العضو بالمجلس النيابى . وساعده فى إدارته الدكتور سوكيمان ، والمستر كسمات والدكتور سوكاردى . وقد جعل الحزب مبادئه مستمدة من القرآن والحديث مع مراعاة سير التطورات السياسية فى الشرق والغرب . وأعطى لرئيس الحزب التصرف المطلق حتى لقبته الصحافة الوطنية بلقب «دكتاتور» ولهذا الحزب وزير فى الحكومة الأندونيسية الحديثة هو الدكتور محمد ناصر ويشغل وزارة الاستعلامات ، وكان قبل نشوب الحرب الأخيرة رئيساً لفرع الحزب بمدينة سورابايا .

فى ٢١ مايو ١٩٣٩ أنشأ المستر أبيكوسنو زعيم حزب « شركت إسلام أندونيسيا » والمستر محمد حسنى تمرين وكيل حزب « فرندرا » والمستر أمير شرف الدين زعيم حزب النهضة الأندونيسية . أنشأ هؤلاء رابطة سياسية باسم « Gaboengan Politlek Indonesia » والقصد السامى لها توحيد الأحزاب السياسية الوطنية للعمل متحدة فى سبيل تحرير أندونيسيا من السلطة الغربية ، والأحزاب التى اشتركت فى هـذه الرابطة السياسية هى :

١ — حزب أندونيسيا الكبرى .

٢ — حزب النهضة .

٣ — حزب الرابطة الإسلامية .

٤ — حزب الإتحاد الميناهاسى .

٥ — حزب فاسوندان .

٦ — الحزب الإسلامى .

وأول عمل قامت به هذه الرابطة مطالبة السلطة الهولندية بانشاء برلمان . وقامت الرابطة بدعاية واسعـة النطاق لمشروع البرلمان فى الدوائر الأندونيسية والهيئات الهولندية . وفى ٢٣ — ٢٥ ديسمبر ١٩٣٩ أقامت الرابطة مؤتمرا قومياً باسم « المؤتمر القومى الأندونيسى » بمدينة جاكرتا لبحث ما وصل إليه زعماء الرابطة من أعمـال مشروع البرلمان . واشتركت الجمعيات الأندونيسية فى هذا المؤتمر إعلانا لتضامنها وشعورها نحو الرابطة ، وبعد انعقاد المؤتمر قدمت الرابطة مذكرة إلى المجلس النيابى بطلب إنشاء برلمان للبلاد ، أوضحت فيها مستوى ما وصل إليه الشعب من الثقافة والتربية السياسية ، ثم أحال المجلس النيابى مذكرة الرابطة إلى البرلمان الهولندى بلاهاى ، فأغمضت هولندا عينيها وتجاهلت الحالة فى أندونيسيا .

هذه خلاصـة تاريخية للتطورات السياسية والحركات الاستقلالية فى أندونيسيا . فلعل القارىء تمكن من تصوير حقيقة الشعب الأندونيسى ، والتكهن بمستقبله بعد أن أعلن استقلاله بين أصوات المدافع وهدير الطائرات ، ثم خطى خطوات موفقة بين الأشلاء والدماء ! ...

محمد جنيدى

في خطبة للنشاشيبي :

كتاب أحمد شاكر الكرمي

كان وعد في «الرسالة» في المقالة (الفيلسوف أمين الريحاني) — رحمة الله عليه — أن ينشر كتاب النابغ الناقد مازنيّ الشام وعقّاده، المأسوف على آدابه وشبابه الأستاذ (أحمد شاكر الكرمي) صاحب صحيفة (الميزان) .

و (كتاب أحمد) هو في خطبة للنشاشيبي اسمها (كلمة موجزة في سير العلم وسيرتنا معه) قالها منذ أربع وثلاثين سنة في الحرب الكبرى الأولى ، في كلية صلاح الدين الأيوبي ، في بيت المقدس .

وهذا هو الكتاب :

سيدي الأديب الجليل :

وصلتني «كلمتك الوجيزة» فكنت أتمثلك وأنا أتلو سطورها ، مدرهاً من فحول الجاهلية قهر تصاريف الأيام ، وحظى بنعمة الخلود ، وقام يقرع مسمع الدهر بآيات العلم والعرفان في عصر العلم والنور .

إني مدين لرسالتك بنشوة السرور التي خامرت قلبي في زمن لا يبعث كل ما فيه إلا على الحزن والأسى ، فقد أطربني حقاً وجود أديب بين ظهرانينا يجلو أسرار العلم الحديث ومعجزاته في هذه الحلة العربية القشيبة في زمن استعجم فيه أبناء الضاد ، وكادوا يضيعون آخر الذخائر وأثمن النفائس التي ورثهم إياها أسلافهم الأبرار .

وإني لأرجو أن تدفعك غيرتك على هذه اللغة المجيدة التي قلّ أنصارها إلى الإكثار من هذه الآثار التي تعتز بها دولة الأدب، وتهتز لها أعطاف البلاغة . والسلام عليك من أخ مخلص يجلّ منزلتك ، ويكبر أدبك وبيانك .

دمشق الشام في ١٨ آذار ١٩٢٢ أحمد شاكر الكرمي

وهذه شذرة من الخطبة التي شرّفها وأعلى قدر منشيها اسم النبي محمد فيها(١) .

« ثمّ أتى على العالم من بعد ما اجتلى من الحكمة الاغريقية والعلم الأغريقيّ الذي اجتلاه حين من الدهر كرّبت تضمحلّ فيه آثارُ هذه الحكمة . وتنطفىء من سمائها أنوارُ دراريّ طالما هدت السارين ، وأرشدت الضالين . (وبينما العسر إذ دارت مياسير) وبينا العالم يرتقب هاديه وقد تطاولَ ليلُ ضلاله وحيرته صاح صائحٌ في فلاة لم تعتدِ الناسُ أن تسمع فيها للخير دعاء . فأرهفَ لاستماع ما يقول الصوتُ أذنه : فإذا هو يوقظ الهاجد في عماه ، وينبه الغافل من كراه ، وينادي إلى الحق وصراط مستقيم . وذلك الصائح هو سيدنا وزعيمنا وإمامنا ومُصلحنا . وقرة أعيننا ، ومهوى أفئدتنا ؛ شرَفُ العرب بل المشارقة بل قطين الأرض قاطبة . موحّدُ أهواء أهل (الجزيرة) المتشتتة . والمؤلف بين قلوبهم المتفرقة ، ونازع ما في صدورهم من غلّ . والكادح الجاهد في إعزاز مكانهم وإعلاء كلمتهم ، وتمليكهم الدنيا . مهدّم عروش الطغاة والجبابرة من الأكاسرة والقياصرة . محرّر الشرق من الغرب . مخرج هرقل من سوريَة . وطارد كل طاريء أوربيّ من كل قطر أسيوي أو إفريقيّ ذو الخلق العظيم والكتاب الكريم . شائد الوحدة العربية وصفوة النوع الانسانيّ ، وأكبر معاني الكونْ (محمد بن عبد الله) فتبدّلت الأرض في ذلك الوقت غير الأرض ، وارتدت من الخير بجلباب كانت قد نضته ، ورحّبت وأهّلت بما قلّته من الحكمة واجتوته ، وغدا آباؤنا إلى طلل العلم الدارس والمدنية الطامسة . فشادوا في مكانه صرحاً لها مُمَرّداً » .

ذلكم ما أملى عليّ ، فكتبته ، ورويته . ولم يزد مملي الكلام وكاتبه حرفاً .

السهمي

---

(١) يقول النشاشيبي في مقدمة الخطبة التي سماها (كلمة أمام الكلمة) : وما حسن هذه الكلمة إلا أنها تجملت بذكر النبي ، وتزينت بالتنويه بالمصلح العربي ، فجملت وحسنت ، وصبحت وملحت ، وما هي بالصبيحة ولا المليحة .

الشاعران المتشابهان (*)

الشابى (التونسى) والتجانى (السودانى)

للأستاذ أبى القاسم محمد بدرى

الشابى :

انحدر أبو القاسم الشابى من أسرة عريقة ذات مجد ودين ، قبيلته الشابية ، وبلدته توزر عاصمة الواحات التونسية . شدا طرفا من علوم الشريعة الإسلامية كالفقه والتوحيد والأصول ، وأخذ نصيباً من الثقافة العربية كالنحو والصرف والبيان والأدب . درس ذلك على الأساليب العتيقة ، من متن وشرح وحاشية . وفاز بشهادة « التطويع » فى جامع الزيتونة ثم التحق بمدرسة الحقوق ، وحصل على إجازة الحقوق . ثم أصيب بداء الصدر الذى صده عن إتمام دراسته ؛ فانقطع عن العلم والتفت إلى معالجة المرض العضال الذى ظل معه يغاديه ويراوحه ، حتى اخترم حياته فى ربيع شبابه .

التجانى :

أما التجانى يوسف بشير فهو شاب ينتمى إلى أسرة من كرائم الأسر السودانية سليلة أعرق القبائل العربية . تلقى تعليمه فى المعهد العلمى بأم درمان . فاستقى من نبعه الصافى علماً واسعاً وأدباً رائعاً ، وأعانه ذوق مرهف وذكاء وقاد على فهم الحقائق العلمية ، وتمييز الدقائق البيانية والاشتغال بها مع العلوم الدينية فى زمن سادت معهده فيه أساليب التعليم العتيقة التى لم تعن بفن الأدب عنايتها بعلوم الدين . وأصيب أيضاً بداء الصدر العضال الذى غالبه حقبة من الزمن ، ثم صرعه المرض وهو فى سن باكرة نضج فيها إنتاجه ، وبلغ ذروة الإتقان وموضع الافتتان . ووافاه الأجل المحتوم وهو ناضر الصبا ريان الشباب فى مقتبل حياته الأدبية ، ومفتتح عبقريته الشعرية ؛ وأمته وأسرته أحوج ما تكونان إليه ، لأعواز العوض عنه وعظم الفجيعة فيه .

وجه الشبه فى حياتهما :

نشآ فى بيئة دينية محافظة ونهلا من فيض الثقافة العربية الإسلامية العربية ، ثم تأثرا بالأدب الغربى فى قراءة الكتب المترجمة لأن كليهما لم يدرس لغة أجنبية وقد اتفق أن نظرتهما للحياة كانت متقاربة التقارب كله ؛ وليس هذا يحدث إلا فى النادر القليل . رغب كلاهما عن الحياة العابثة الماجنة ، ونزعا نزعة التصوف والزهد وسخطا على عيشهما ، وتبرما بقومهما ، وتشاءما من حياتهما تشاؤماً ، مبعثه حب الإصلاح وانتقاد ما يريان من أحوال وأعمال . وأودعا كل ذلك فى شعر رائع زاخر يجيش ثورة واضطراما على التقاليد ، ويفيض ناقماً على المنازعات والحزبيات ، ثم يتدفق عذوبة ويتفجر إخلاصاً وحماسة فى معالجة المشكلات وتقوية الأواصر والصلات بين المواطنين المخلصين وأبناء العروبة الغر الميامين .

وتشابها أيضاً فى العلة فقد اصطلح عليهما داء الصدر الذى عاق نموهما الجسمى وتقدمهما العقلى فى العمل والتفكير ؛ فماتا فى عنفوان الشباب عند ما تفتقت زهرتاها عن أكمامهما عبقتين فواحتين بأريج النضج والاكتمال ، وشذى الإنتاج والإبداع .

ومن غريب مصادفة القدر أن فقدهما حدث فى زمنين متقاربين . مات الفقيدان طيب الله ثراهما وأخلد ذكراهما — بعد أن اقتطفا من متاع الحياة خمسة وعشرين ربيعاً لم ينعما فيها بأطايب العيش ولذائذ الحياة ، ولم يستكملا فيها مراحل تطورهما فى النظم والتصوير ، وابتكار النماذج العالية الخالدة فى الأدب الشرقى والشعر العربى المستقى من الفن الغربى والمذهب الواقعى .

التشابه فى طريق النظم والتعبير :

من الواضح أن الشعر عمل فنى يقوم على أشياء لا على شىء واحد . فلا بد له من الصورة الفنية والموسيقى الجميلة والخيال البارع . ومعلوم أن المقصود بالمشابهة فى النظم والتصوير هو الشبه بينهما فى لغة الشعر .

فما هى لغة الشعر إذن ؟ هى أداة يستخدمها الشاعر فى فنه قوامها الألفاظ والكلمات التى لا تخرج كثيراً عما يتحدث به

(*) عاش أبو القاسم الشابى من عام ١٩٠٩ إلى ١٩٣٤ م ؛ وعاش التيجانى يوسف بشير من سنة ١٩١٢ إلى ١٩٣٧ م

الناس ويكتبونه ويتخاطبون به . وبهذه الأداة المألوفة يستطيع الشاعر أن يخرج فناً يفوق جميع الفنون .

وبما أن الشعر الصحيح ينبعث دائماً من إحساس قوى ممتاز ، فالشاعر ملزم حينئذ أن يتخذ للتعبير عنه لغة خاصة متجانسة مع هذا الإحساس . فليس المعنى وحده هو الذى يؤثر فى النفوس ؛ بل إن الألفاظ — التى هى منه بمثابة الجسد من الروح لها تأثيرها الخاص . فى الشعر الرصين ينبغى للفظ :

أولا : أن يتجانس مع المعنى فيكون رقيقاً فى مواضع الرقة ، قوياً عنيفاً فى مواضع العنف والقوة .

ثانياً : أن يكون اللفظ على قدر المعنى ، فلا يكون هناك حشو ولا زيادة ، ولا قصور فى الدلالة على المعنى .

إذا أنعمنا النظر فى شعر هذين الشاعرين نجد المشابهة قوية أخاذة ذات سحر وجلال ينفذان إلى شغاف القلوب ويؤثران فى طوايا النفوس . قال الشابى يصف الجنة الضائعة : —

كم من عهود عذبة فى عدوة الوادى النضير
كانت أرق من النسيم ومن أغاريد الطيور
وألذ من سحر الصبا فى بسمة الطفل الغرير
أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل وسحر شاطئه النير
ووداعة العصفور بين جداول الماء النمير

ففى الأبيات المتقدمات يسكب الشاعر ذوب نفسه وعصارة فكره ؛ وهو يتشوف إلى العهود العذبة التى قضاها فى الوادى النضير ؛ ويتحسر على ضياعها ، لأنها كانت تسمو على كل لذة من لذائذ الوجود وتفوق كل متاع من متع الحياة . ألم يقل إنها أرق من النسيم ومن أغاريد الطيور ، وألذ وأمتع للنفس من سحر الصبا وبسمة الطفل الغرير . وهل يوجد فى الوجود شىء يعدل هاتين اللذتين فى العذوبة والطهارة والوداعة والجمال .

ألا تسمع إلى رنين جرس العبارات وحلاوة الألفاظ والتعبيرات فى الكلمات التالية . — سحر الصبا — بسمة الطفل — طهارة الموج — وداعة العصفور . إن الألفاظ فيها تجانس للمعنى وفيها رقة تسيل على القرطاس وتتفجر عن أنبل عاطفة وإحساس . ثم إن اللفظ على قدر المعنى فلا حشو ولا زيادة مع اقتدار فيه على تأدية المعنى أداء بليغاً مؤثراً .

ولنستمع إلى صاحبه التجانى يوسف بشير يناجى النيل فى وقفة له شاعرية سمت بروحه إلى أعلى عليين حيث فاضت على السامعين من نبعها الصافى هذه الأبيات الخالدات فى قصيدته « فى محراب النيل » . —

أنت يانيل ياسليل الفراديس نبيل موفق فى مسابك
ملء أوفاضك الجلال فرحى بالجلال المفيض من أنسابك
حضنتك الأملاك فى جنة الخلد ورفت على وضىء عبابك
وأمدت عليك أجنحة خضراً وأصفت ثيابها رحابك

إلى أن قال واصفاً مسير المياه .

يتوثبن فى الضفاف خفافاً ثم يركضن فى ممر شعابك
عجب أنت صاعداً بعراقيك لعمرى أو هابطاً فى انصبابك

اختار الشاعر النابغة أحسن الألفاظ وقعاً فى النفس وإثارة للعواطف ، مما يناسب المعنى الذى تصدى لتوضيحيه وبيانه . ألا تسمع إلى هذه الكلمات — نبيل موفق فى مسابك ، ثم المفيض من أنسابك — ثم إلى يتوثبن — ثم إلى كلمتى خفافاً «ويركضن» . إنها ألفاظ تدعو إلى الفكر كل المعانى الجميلة التى تدانيه أو تمت إليه بسبب . فكلمة يتوثبن ترسم للذهن فى أوضح صورة منظر الماء المنساب فوق الضفاف فى سرعة وقوة حيث يغمر سطح الأرض ويفيض على روابيها العالية ، ثم ينحسر عنها جاريا إلى المنخفضات والوديان ، وهذا يتمثل فى عبارة « يركضن فى ممر شعابك » فى قوة ووضوح . وكلمة أجنحة خضراً تدعو إلى ذهن السامع كل المعانى الجميلة التى تلابسها ، فيستعرض الذهن منظر الخضرة اليانعة والظل الوارف ، والطير الصادح ، وكل ما هو جميل مؤثر .

تصوير المرئيات والمناظر الطبيعية :

يقل فى شعر هذين المفلقين وصف المرئيات — أو بعبارة أخرى رسم الصور لما يريان من الأشياء . بينما يزخر شعرهما بنفثات الصدور وخلجات النفوس ، ومظاهر تأثيرهما بالأحداث والنكبات ، واستهجانهما للتقاليد والعادات وتصويرهما الحقائق التى امتزج بها الخيال ولونتها العاطفة . ولكل هذه الموضوعات أثر فى نفسيهما الثائرتين ، حيث يشتد الألم البالغ ويطغى الهيجان الفوار ويغلى الدم الحار ، فتنطلق من الشفاه ، همسة محزونة أو صرخة مدوية أو نفثة قوية تذهب فى الناس مثلا سائراً وقولا مأثوراً أبقى على الزمن من الزمن .

افتتن شاعرنا التجانى بمنظر الطبيعة الساحرة لما رأى جزيرة (توتى) تستيقظ فى غلس الليل الثائر وتستقبل الصبح السافر كأنها روضة مفتنة حفها النيل واحتواها البر ففاح شذى زهورها وشدت على الأغصان طيورها ، فطرب الشاعر وسكر ، وعبر عن هذا الإحساس بلغة خيالها قوى ونغمها شجى ، ومعانيها ساحرة . استمع إليه يقول : —

يادرة حفها النيل واحتواها البر
صحا الدجى وتنشاك فى الأسرة فجر
كم ذا تمازج فن على يديك وسحر
يخور ثور وتثغو شاة وتنهق حمر
والبهم تمرح والزرع مونق مخضر

إلى أن قال : —

وذاب فى الرمل أمواج فى الترائب تبر
هذا شراع مكر ، وذا شراع مفر
يطوى وينشر والريح من هناك تسر
وزورق يتهادى وزورق يستحر
يرسى ويقلع والشاطىء هادىء مستقر
ورب قنواء للعصم والأنوق مقر
أوفى على النيل فرعمها وأشرف جزر

أتريد بعد هذا البيان بياناً يصور فيه الشاعر العبقرى منظر الطبيعة الساحرة ويعطى صورة كاملة العناصر موصولة الأواصر تنتقل فيها من خاطر إلى خاطر حتى تستوعب كل المعانى التى تكمل بها الصورة للناظر فى أبيات هى السحر الساحر . ولقد أبدع التجانى أيما إبداع فى رسم صورته ؛ وفاق فيها المصور الماهر الذى يعمل فى دائرة ضيقة حينما يرسم على لوحته حالة من حالات النفس أو صورة من صور الحس . على حين أن دائرة التجانى أرحب وأوسع ، لأنه يستكمل تصوير منظره فى أبيات متعددة إن عجز عن تعبيرها فى بيت أو بيتين .

ولنستمع الآن إلى قصيدة مشابهة من قصائد الشابى التى يصور فيها صورة واضحة لما يحس من أشعة الوجود وألوان الطبيعة وعبر الحياة . يقول مخاطباً الحياة التى يريدها لشعبه فى قصيدته (إرادة الحياة) : —

وقال لى الغاب فى رقة محببة مثل خفق الوتر
يحل الشتاء : شتاء الضياء ، شتاء الثلوج ، شتاء المطر
فينطفىء السحر : سحر العيون ، وسحر الثمار ، وسحر الزهر
وتهوى الغصون وأوراقها وأزهارها عن جمال نضر
وتلهو بها الريح فى كل واد ويدفنها السيل أنى عبر

لقد نقلك الشاعر الساحر إلى جو عبق زاهر فيه تحب الحياة ويحلو المتاع ويطيب النعيم . كيف يكون ذلك وهو يصف ذبولها ونحولها ؟ إنه يعطيك صور الحياة الممتعة بعرض صورها القاتمة وبضدها تتميز الأشياء . ويصور لك ما يغشاه من ظلام الشتاء ، وانطفاء السحر والرواء ، حينما تذوى الثمار وتذبل الأزهار ، ويغيب النوار ، وتسقط أوراق الأشجار التى تلعب بها النكباء فى زمهرير الشتاء ، ويدفنها السيل الدافق فى أغوار المهاد والوهاد .

هذه صورة جميلة عبر بها الشاعر عن إحساسات قوية وتأثرات عميقة رسمها باستخدام ألفاظ منتقاة مرتبة فى أعذب ألحان ، وأجمل موسيقى ، وأقوى أشجان .

(البقية فى العدد القادم)

ابو القاسم محمد بدرى
مدرس بالمدرسة الثانوية بأم درمان (السودان)

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٧ —

حربه على القساوسة :

اعتزل ملتن الشعر إلى حين لعله ظنه قريباً ، فلم يدر بخلده أن هجران أحب شيء إلى نفسه سوف يمتد عشرين عاماً . والحق أن اعتزال ملتن الشعر والأدب على ما كان من فرط تحمسه له وانكبابه على الأخذ بأسبابه ، أمر يحمل المرء على العجب الشديد بادئ الرأي ، ولكن دواعي العجب لا تلبث أن تزول إذا عدنا إلى خلق ملتن ونزعات وجدانه

خلق ملتن محارباً يحب النضال ويعشق بفطرته الحرية ، فلن يستطيع أن يغمض العين عما يرى من خلل أو فساد ، ولن يستطيع أن يظل جامداً تلقاء ما يراه ظلماً أو استبداداً بالرأي في غير حق ولو كان في ذلك هلاكه ؛ كذلك رأيناه وهو بعد طالب بالجامعة ، وكذلك رأيناه وهو يفصح عن عقيدته الدينية في إيطاليا ، وكذلك نراه اليوم إذ يوقد نار الحرب على القساوسة

وخلق ملتن ديناً تقياً مخلصاً لعقيدته توافاً إلى الإصلاح ، لذلك ركن إلى البيوريتانز في كثير مما ذهبوا إليه ، وإن خالفهم في إسرافهم في التزمت ومغالاتهم في النفور من الفنون ومن طيبات الحياة

وكانت روح البيوريتانية يومئذ ، أو ما يهجس في نفوس أشياعها من الرغبات هو إصلاح الكنيسة كما أصلحت الكنائس في القارة وتقرير مبدأ الحرية الفكرية والسياسية ، وقد استقرت هذه الرغبة في نفس ملتن وآمن بها إيماناً قوياً

واعتقد ملتن كما اعتقد جمهرة البيوريتانز أن القساوسة في أنجلترة بتعصبهم لنظام الكنيسة وبمظاهرتهم الملك في عناده وطغيانه هم العقبة الكؤود في سبيل الإصلاح وفي سبيل الحرية ؛ لذلك أيقن طالبو الإصلاح أن لا أمل لهم في عمل مجد إلا أن يقضوا أولا على الأساقفة وسلطانهم ، ولهذا أقدم ملتن فيمن أقدموا لمحاربة الأسقفية ؛ ولهذا اعتزل الأرثيادا أو الفردوس المفقود ، أو سواها مما كان يملأ خياله من الشعر ، وآثر أن يجيب داعي الله بالدفاع عن دين الله

بيد أنه على الرغم من حماسته إذ يقدم على مناضلة القساوسة كان يحس في أعماق نفسه عظم تضحيته بهجرانه الشعر ، فلقد انقطع له منذ حداثته ، وتوفر على الاستعداد والدرس ، وامتلأت نفسه طموحاً إلى شيء يسلكه في الخالدين ؛ وكان هذا الطموح عزاء قلبه وبهجة نفسه وأنس روحه في عزلته القاسية ، وفي دراسته الطويلة الشاقة !

ولكن لم يك من هذا الهجران بد ، فلم يك يسعه في مثل ذلك الوقت كما قال أن يقف بمعزل « وكنيسة الله تحت أقدام من يهينها من أعدائها » ، ولم يك لينجو من عذاب ضميره لو لم يحمل ما اكتسب من ثقافة ومعرفة وقفاً على الدفاع عنها ، وفي رأيه أنه إذا لزم الصمت ، فإن الله يؤاخذه بصمته ، فلن يغفر الله له أن يقبل الفراغ والقدرة على الدرس ، وقد تهيآ له بعرق قوم آخرين ، ولا ينفقهما إلا في أن يزين بهما موضوعات هي من زخرف الحياة وغرورها ، ولكن « إذا كانت قضية الله ، وحقت إجابة داعي الله بنصرة كنيسته ، فإن الله سميع إليك إذ تطلق صوتك ... فإن بقيت أبكم كالدابة ، حق عليك منذ ذلك الوقت ما تصير إليه من إثم بصمتك الذي يشبه صمت البهائم ! »

ولئن كان همه أن يكتب موضوعاً يكسب به الفخر ، فليس هذا وقته والجيل كله يشترك في صراع من أجل الحرية تتلظى ناره ، أو يشهد على الأقل ذلك الصراع ، وينتظر الناس وأنفاسهم عالقة ما ذا يكون من أمر هذه المعركة ، أو كما قال ملتن : « إنه لمن الحمق أن تلقي بشيء كتبته جاهداً في نسق عال إلى قوم هم عنه ساهون ، إذ يقطع إصغاءهم إليه ما يزخر به عصرهم من ضجيج وصخب » . أضف إلى ذلك أنه لم يكن يعتقد أنه أخذ أهبته لذلك الشيء بعد ، فإنه يشير إلى ذلك حتى بعد بدء الحرب على القساوسة بنحو عام قائلا : « إني لم أستكمل بعد في عقلي دائرة دراساتي الشخصية » !

لذلك يدع قيثارته إلى أجل لعله يكون قريباً يوم يرى وطنه على حد تعبيره : « وقد خلص نفسه من ذلك الطغيان الذى لم يكن مثل هـذا الزمن أوانه ، ذلك الطغيان المستند إلى مقام كبار القساوسة ، والذى لا يرجى لأى فكر حر أو ذكاء ألمعى أن ينمو ما دام له تجسسه واستبداده »

وثمت دافع آخر لا يقل خطراً عن هاتيك الدوافع يسوق ملتن إلى تلك الحرب ، وذلك هو عظيم ثقته فى نفسه وفى الشعب الإنجليزى ، فهو منذ صغره — كما رأينا — يعتقد أنه كفؤ لعظائم الأمور ، فما نهض لأمر — مهما كان خطره — إلا بلغ منه ما يريد ؛ واليوم يخالجه شعور أن نفسه تنطوى على قوة كامنة فيها إن هى أثيرت كانت ذات أثر عظيم فى مستقبل الكنيسة وفى مستقبل وطنه . والحق أن وراء طموح ملتن نحو العظمة الأدبية طموحاً آخر نحو العظمة فى ذاتها فى أية صورة من صورها ، فلا ضير أن تواتيه فى صورة الدفاع عن الحرية أو عن الكنيسة ، أما ثقته فى الشعب الإنجليزى فكان مردها إلى أنه يرى بنى قومه الشعب الذى اصطفاه الله على العالمين ، وأنه تجلى لخلقه من الإنجليز أول ما تجلى ، وأنهم سوف يقيمون على هذه الأرض مملكة الله التى ترى رأى العين

ومع شدة حماسته لما هو مقبل عليه نراه ينطق قبيل دخوله المعركة بما يشعرنا بتردده وإشفاقه ، نجد شاهداً على ذلك فى قوله بعد أن أشار إلى ما كان فيه من استغراق فى الأدب والشعر : « ما أقل ما يحفزنى من ميل إلى أن أقطع ما أنا بسبيله من مثل هاتيك الآمال ، وأن أترك عزلة هادئة ممتعة تكتنفها تأملات سارة وثيقة لأقلع بسفينتى فى بحر مضطرب تملأه الضوضاء والجدل الصاخب » . وهو فضلا عن ذلك يحس أنه ترك ما يحسن إلى ما لا يحسن مما يزيده شعوراً بتضحيته ، وأنه نسى نفسه وما كان يتحرق إليه من مجد أدبى ليجيب داعى الله ، نجد ذلك فى قوله: «ما كنت لأختار لنفسى أن أنهج هذا النهج من الكتابة ، وأنا على علم بأنى هنا دون حقيقتى ، فقد أعدتنى قوة طبيعية صادقة لعمل آخر ؛ ولذلك فإنى فى هذا المتجه الجديد أحس كأنما أستعمل يدى اليسرى »

ولكنه يسلم إلى الله أمره ، فإن الهدى هدى الله ، انظر إلى قوله : « إذا جاء أمر الله بأن نشرع البوق وأن ننفخ فيه نفخة شاكية صاخبة ، فلن يدخل فى إرادة الإنسان بعد ذلك ما ذا يقول ولا ماذا يخفى فى نفسه » . وكن يؤمن ملتن بأن الله سينيبه على فعله وسيهبه القوة والإقدام ، ويعد له فى حياته ليكون بوق النصر كما كان بوق المعركة ، ولقد ظل أثناء المعركة يفكر فيما هو عائد إليه بعد أن تنتهى الحرب .

والحق أن ملتن قد أفاد من المعركة ما لم يخطر بباله عند دخولها ، ففى أثناء تلك المعركة الطويلة تكونت فى نفسه ملحمته الكبرى الفردوس المفقود ، فكانت كملحمة دانتى عملا ليس قوامه الفصاحة والخيال والمقدرة الفنية فحسب ، بل أضيف إلى ذلك تجربة الحياة ومعاناة خصوماتها والوقوف من كثب على عوامل الشر والخير فى النفس البشرية وفى المجتمع ، وتذوق طعم الأمل مرة والخيبة مرة ، والنفاذ إلى أعماق العواطف والانفعالات ثم معرفة كيف يكون اليأس القاتم بعد الأمل الباسم ، فلا عجب أن يتغنى الشاعر بعد ذلك بالفردوس المفقود ، وقد شهد فقدان بنى وطنه ما كان يرجوه لهم ويرجو معه المصلحون من حياة فى الدين والسياسة على هذه الأرض كحياة الفردوس .

وفى هذه المعركة تهيأت فى نفسه الملحمة فلم يبق إلا أن يغنيها وأن يلبسها لباس الشعر ؛ والحق أن المعركة أجدت عليه أكثر مما أجدت قراءاته ودراساته ، إذ استطاع أن يضيف خبرة الحياة إلى هبة الفن وأن يترك لهذه الدنيا أثراً فذاً من هاتيك الآثار الخوالد التى يغنيها كل عصر وتأنس إليها كل بيئة .

ومن الخطأ أن نعد دخول ملتن تلك المعركة انتصاراً منه لأصدقائه البيوريتانز فحسب فإن حبه الحرية وميله إلى نصرتها أبداً هو الشعور الحقيقى الذى دفع به إلى الحرب ، وكانت غايته التى يصبو إليها أن يعيش الناس طلقاء فى أفكارهم وأعمالهم بعد أن يذهب سلطان القساوسة القائم على التعصب والاستبداد بالرأى والاضطهاد ، وكان ملتن بحميته وثورة نفسه يمثل فى الواقع روح العصر ، ففى العصر كله ثورة على الطغيان فى أى صورة من صوره وما كانت البيوريتانية يومئذ فلسفة دينية فحسب ، وإنما كانت فلسفة دينية ووثبة سياسية معاً .

ومهما يكن ما صدر عنه من عبارات تشعرنا بتردده وإشفاقه فإنه أقبل فى حماسة عظيمة وشجاعة فذة بعد أن ابتدأ النضال ورأى نفسه فى غمار المعركة ، وإنما كان ما خيل إليه أنه تردد

أسفاً منه على هجرانه الشعر والتهيؤ له …

وكيف بدأت المعركة ؟ لم يكن ملتن البادئ بها وإنما بدأت في البرلمان الطويل سنة ١٦٤٠ إذ تقدم البيوريتانز من النواب بمقترح الأصل والفرع فعندئذ نشر أحد القساوسة وكان يدعى هول كتيباً سماه « الاعلان المتواضع » ورد فيه على ما سماه بم وزملاؤه الاعلان الأعظم كما رد على مقترح الأصل والفرع ؛ وأجاب خمسة من البيوريتانز سموا أنفسهم سمكتمنس يدحضون فيه ماذهب إليه هول ؛ وكان توماس ينج أستاذ ملتن القديم أحد أفراد هذه الجماعة ، ولذلك ظن أن ملتن اشترك في وضع هذا الكتيب ؛ ثم توالت الكتيبات كالسهام من جانب البيوريتانز ومن جانب خصومهم . وشد ملتن قوسه فيمن شد وأطلق أول سهم من سهامه سنة ١٦٤١ في صورة كتيب له هو أول كتيباته جعل له عنوانا طويلا هو « حول الاصلاح الديني فيما يتصل بنظام الكنيسة في انجلترة والأسباب التي عاقته حتى اليوم » .

كان هذا الكتيب الأول أقل كتيبات ملتن صرامة في القول وعرامة في الخصومة ، وإن كان ليبعد كل البعد عن أن يوصف بالهدوء إلا أن يقاس إلى ماسيأتي بعده ، وحسب القارئ أن يقع على خاتمته التي يدعو الله فيها أن يجعل العار خاتمة حياة القسيسين على هذه الأرض ، وأن يلقي بهم في الدرك الأسفل من النار ليخلدوا فيها وليكونوا في مواطئ غيرهم من أصحاب الجحيم ، وفي صفحات الكتيب غير هذا من صارم القول وقاذع الوصف ما يدل على غل الخصومة واحتدام السخيمة .

أتى ملتن في كتيبه هذا بموجز لتاريخ الكنيسة منذ القدم فلم تعجبه في قديمها ولا في حديثها ، وما قساوستها الحديثون إلا مقلدون يسيرون على نهج أسلافهم في مظاهر الصوم والصلاة والتظاهر بالزهد ، وما كان أسلافهم إلا ضالين غاوين ، فالقسيسون أنفسهم خطأ في ذاتهم ؛ وهؤلاء الحديثون منهم ليسوا قسيسين في شيء ، ثم يشير إلى النهضة الاصلاحية في انجلترة ويذكر كيف تعثرت ووقفت بسبب تعصب القساوسة والملوك واستبدادهم بآرائهم ، ويذكر الناس بهؤلاء الأحرار الذين هاجروا بعقيدتهم عن أوطانهم الحبيبة والذين « لم يكن لهم عاصم من غضب القساوسة إلا المحيط الفسيح وصحارى أمريكا الوحشية » ، والرأي عنده أن يقضى على الأسقفية فتذهب إلى غير عودة وتحل البرسبتيرية محلها ؛ ولئن تم ذلك أصبحت انجلترة « مدينة الله » وانتشرت الحياة الطيبة في أنحائها طولا وعرضاً ، فان هؤلاء القساوسة منذ حلوا بكنتربرى قبل اليوم بنحو اثنى عشر قرناً وهم في جملتهم لم يكونوا في انجلترة لأرواحنا وأسفاه إلا سلسلة من أئمة الهداية العميان الجهلاء ، ولأموالنا وتجارتنا إلا عصبة متلفة من اللصوص ولدولتنا وحكومتنا إلا هيدرا[1] الأساءة والعدوان » .

ويتضمن هذا الكتيب ناحية من نواحي ملتن الدينية وهي ما تصوره عن ذات الله سبحانه ، فعنده أن الله لايحد ولايوصف بصورة معينة ولاتدركه الأبصار ، ولايفوته هنا أن يتهم الكنيسة بأنها تحاول تحديد ذات الله وتصويره وذلك في رأيه أصل الخرافات جميعاً ، يقول عن رجال الكنيسة « كما لو استطاعوا أن يجعلوا الله ينتمي إلى الأرض وأن يكون له مثل جسدنا ، وذلك لأنهم لم يستطيعوا أن ينتموا إلى السماء ولا إلى عالم الروح » .

وجاء في هذا الكتيب رأيه لأول مرة عن الشعب الانجليزي ، فهو الشعب الذي اصطفاه الله على العالمين ، وخليق بهذا الشعب أن يبرهن على أنه جدير بهذا الاصطفاء ، ويعلن ملتن رضاءه عن النظام الدستوري الانجليزي في ذاته بل إنه ليغلو في امتداحه كل الغلو فيقول : « ليس فيما سلف من الحكومات المدنية نظام كنظام حكومتنا الانجليزية ، لا عند الاسبرطيين ولا عند أهل روما … حيث تجد أعظم الناس نبلا وأكثرهم جداً وأبعدهم نظراً ولهم بمحض إرادة الناس واختيارهم تحت سيادة ملك حر لا قيم عليه الكلمة العليا والرأي الفاصل في أعظم المسائل » .

وينتهي الكتيب بابتهال إلى الله طويل حار ملؤه العاطفة الصادقة أن يخلص كنيسته من هؤلاء القسيسين وأن ينزل عليهم لعناته ، ثم يتنبأ بنبوءة فحواها أن فجراً بهيجاً يوشك أن يهل نوره على انجلترة ، ولن يعدم ذلك الفجر طائره الصداح ، فلسوف يتمنى من بين هؤلاء القديسين الذين ينافحون عن دين الله شاعر يأتي بلحن علوي جديد يشكر به أنعم الله ويسجل نصر الله في مملكة تنعم بنعمة الحرية وقد تخلصت من القساوسة وجدت شاعرها المختار …

(يتبع)

الخفيف

(١) التنين الخرافي ذو الرؤوس المتعددة كلما قطعت رؤوسه نبتت ثانية .

رباعيات عثمان

للاستاذ عثمان حامى

هكذا كانت الحيـاةُ فزنها   كيف كانت وخذ نصيبك منها
لا تزنها إلا بعقلك إن شئـ   ـتَ خلاصاً من بطشها لا تزنها
إن ميزانها بمقيـاس إحسا   سك أدعى لأن يصدَّكَ عنها
وحرامٌ عليك إن شئتَ ما فيـ   ـها فإن الذكىَّ من لم يشنها

* * *

إن فيها لمن أراد خبالا   وجمالاً لمن أراد جمـالا
لونُها لونُ ما بنفسكَ من حا   لٍ إذا حُلت ما بعينك حالا
وكذا تسمعُ النفوسُ صداها   فترى الحق فى الحياة ضلالا
إنما العقلُ للبصيرِ هو المر   جعُ والمستبدُّ من يتغـالى

* * *

طالما جئتَ رغم أنفك فيها   يا ابنها كنْ كواحدٍ من بنيها
كن حكيما وخذ نصيبك منها   حسنـاً ما أصبته أو كريها
لا تـكن جامداً إذا شئتَ أن تحـ   ـيا ولا مسرفا بها أو سفيها
وإذا لم تشأ فدونك نفسٌ   ما عزيزٌ عليـكَ ما يُرديها

* * *

علِّم النفس أن يكون رضاها   بالذى كان واقتصد فى مناها
وقليلٌ من التجاهل والصبـ   ـر أمانٌ من بطشها وأذاها
أنت ماجئت فى حياتك كى تصـ   ـلح ما فى الحياة من أخطاها
لا ولا جئت كى تضيع من العمـ   ـر كثيراً فى همها وشقاها

* * *

إن يوماً مضى بغير سرورٍ   ليس من عمرك السريع القصير
وقليلٌ من التجهّم والحز   ن كثير فما ترى فى الـكثير
ومن الحمق والجهالة بالخلـ   ـق إذا عشتَ عيشةَ المصدور
فاتخذ من جوانب الجدِّ للهز   ل مجالاً يمحو جدّ الأمورِ

* * *

لك عمرٌ مهما بلغتَ قصير   طالَ فيه الأسى وقلَّ السرورُ
فتعلم كيف انتها بك للعمـ   ـر فإنّ الذى مضى لا يحورُ
والليالى لهـا جناحان بالأعمـ   ـار فى غفلة النفوسِ تطيرُ
يرجع الليلُ والنهارُ وما يرْ   جعُ يوماً ما غيبته القبورُ

* * *

واتخذْ من تجارب الغابرينا   لك عوناً حتى تذوق اليقينا
وأضف عِلمَ من مضوا لتجاربـ   ـبك واحذر من أن تموت حزينا
والذى مرّ فى حياتك لا تأ   سف عليه أو ما عسى أن يكونا
خلِّ دنياك كيف شاءت وصلها   ماجناً إن أوسعتك مجونا

* * *

وتبسّمْ للسعدِ والاقبـالِ   وتبسم فى خيبـة الآمالِ
وتنقّل كما تشـاء الليالى   غير آس من أىّ حالٍ لحالِ
إن عمراً ختامه الموت جهلٌ   إن تقضّى فى الهمّ والبلبال
وعزيزٌ علىَّ أن تَردَ المو   ت حزيناً فى زمرة الجهّال

* * *

ما ارتوتْ بالبـكاء مهجةُ باك   لا ولا أثمرت شكايةُ شاكِ
إن موج الحياة يحمل فى مدّ   ه وفى جزره صنوفَ الهلاكِ
وتمر الأجيالُ والناسُ صرعى   دمٌ وسدتْ بغير حراك
سخر الدهر بالجميع وساوى   بين دم الفجار والنساك

* * *

فى اكتمال الشباب نقص المشيب   وانتهاء الشروق بدء الغروبِ
ومصير الشيب ألعن ما فيـ   ـه خمودُ القوى وموت القلوب
ضجعة الموت لا تنغّصُ بالذعـ   ـر ولا بالجوى ولا بالنحيب
فتأمل فليس فى الأرض أو فى الـ   ـخلق ما يستحق شقّ الجيوب

* * *

لم أجد فيما مضى من حياتى   لى عذراً فى الهمّ أو فى الشكاة
ولقد عشت ما ندمت على ما   فاتنى أو جزعتُ من أى آت
طىُّ قلبى ابتسامة ما توارتْ   عن فمى للصحاب أو للعداة
وكلامى فى كل لفظ لمن يفـ   ـطن ماضٍ من الصوارم عاتِ

* * *

عادلٌ من يصرف الأياما   وغبىٌّ من اشتكى أو لاما
وصميمُ الحياةِ لهو ونهو   فمن العدل أن نمرَّ كراما
ما الذى نرتجيه فى أمرنا الوا   قع إن كان فى القضاء لزاما
لا يذم الزمان والنـاس إلا   من تغابى عن فهمهم أو تعامى

* * *

لا تلم مسرفاً على الإسراف   لا أرى لومه من الإنصاف
لا تلمه وإن تمـادى ومهما   بلغت نفسه من الاتلاف
بيد الدهر للخليفة ميزا   ن دقيقٌ وعدله غير خاف
إن هوت كِفةٌ فمعناه شالتْ   كِفَّةٌ دون أيما إجحاف

* * *

لا تلمنى إذن فلستُ أبالى   رغم ضعفى ورغم طول اعتلالى
إن جسمى الذى تضعضع وانهـ   ار جديرٌ بسوء هذا المآل
قد تقاضى الزمان منى أثمـ   ان ضلالى على مرور الليالى
ومن العدل أن أرى العدل فيما   نال منى جزاء هذا الضلال

* * *

قد نهبتُ الشباب فى العمر نهبا   ورأيتُ الإسرافَ فى اللهو كسبا
وجرى بى الهوى فما بتُّ إلاَّ   بفؤادٍ دوَّى هياماً وحبّا
ورأيتُ الأيام تجرين خبّا   فجرت بى من خلفها النفس خبّا
ولو اسطاع فوق ذلك جسمى   أو فـؤادى زيادة ما تأبى

* * *

هذه سنتى وحسبك نصحى   فأرحنى من كل ذمٍ ومدح
ليس بالذم إن ذممتَ أو المد   ح إذا مامدحت خسرى وربحى
إنما شئتُ أن أصور ما أحـ   سست بالنفس من شعورٍ ملحٍّ
فى حيـاة أمضيتها وكفانى   وكفاها إثباتُ جدِّى ومزحى

* * *

وقصارى رأيى وغاية قصدى   وانتهائى من بعد أخذٍ ورد
أن تمر الأيام باليسر لا بالـ   عسر حتى بلوغ يوم التردِّى
لا نحيبٌ ولا تحدٍ ولا لو   مٌ لفردٍ ولا عتابٌ لفرد
طالما اسطعت بابتسامة سخر   أن تحدَّ الأمورَ فى خير حدٍّ

* * *

لا أذم الحيـاة بعد الشيبِ   طالما جزتها بقلب طروبِ
إنّ للشمسِ فى الضحى من جلال الـ   حسن فى العين ما لها فى الغروب
ونصيب الشباب فى العيش لا يفـ   ضل فى حسنه نصيب الشيب
كل يوم له مذاقٌ ولونٌ   ماله فى صفاته من ضريب

* * *

لا تلمنى وانظر إلى تـكوينى   فظنونى من كنهه ويقينى
والتمس يا أخى لى العذر فى رأ   يى وفى كل شارد من ظنونى
عن شمالى هادٍ وعنها مُضلٌ   ولنفسى سواهما عن يمينى
خفى يضـلنى وخفىٌّ   لست أدرى مراده يهدينى

* * *

ومحيط الإنسان أكبر جان   هو أو رحمة على الإنسان
ومن الجو والوراثة والأصـ   حاب جان ومن صروف الزمان
ومن العـلم والجهالة والأهـ   ل ومن كل ما ترى العينان
ليس للمرء من يد فى هدى النفـ   س ولا فى الضلال والخسران

عماد حلمى

إلى أدباء البلاد العربية

. . . لم نبق إلا هذه الوسيلة !

إن لدىَّ بحثين معطلَيْن عن « شعراء الشباب » وعن « القصة الحديثة » لأننى لا أستطيع الحصول على أعمال المعاصرين من الشعراء والقصاص فى البلاد العربية . ولا أحب أن أقصر بحثى على أعمال الأدباء المصريين .

فرجائى إلى كل شاعر وكل قصاص فى البلاد العربية ، أن يتفضل فيرسل إلىَّ بأعماله فى هذين البابين محوّلا بثمنها على البريد .

(حلوان)   **سيد قطب**



إلى أدباء العراق :

حمل البريد إلى « الرسالة » وإليّ عدداً من الرسائل الواردة من العراق ، تتراوح لهجاتها بين الحملة العنيفة ، والعتاب الرقيق على مافهم الإخوان هناك من اتهامي لهم بأنهم من قراء الدكتور عبد الرحمن بدوي !

فمن أمثلة الحملات العنيفة رسالة من الأديب « صلاح الدين بيات — كلية الحقوق ببغداد » يقول فيها :

« ... قرأت في العدد ٦٧٤ من مجلتكم ما أدهشني بل وأغضبني حقاً . حتى كدت من فرط غضبي وحنقي أن أمزق المجلة وألعن كاتب السطور ...

« فقد كتب (سيد قطب) أن « كتب الدكتور بدوي تقرأ في العراق ! » وقد زعم بأن سائلا قد سأل « من الذي يقرأ كتب الدكتور بدوي ؟ ... » فكان الجواب ما أوردت »

ثم يقول في نفس الرسالة :

« معذرة ياسيدي . لايذهبن بك الظن إلى هذا الحد — وإن بعض الظن إثم — فالعراق ليس بمثل هذه الدرجة من البلادة والغباوة بحيث يقرأون عبث صبيانكم وسفاسفهم » .

إلى أن يقول :

« وثق أيها الأستاذ أن كثيراً من كتبكم التي تقرأ تنقد . بل أحيانا — أقول لك بصراحة — إنها تستسخف ، ويوصم بعض كتابكم بالمتاجرين في الأدب !

« أكتب هنا وأنا منفعل أشد الانفعال من كلمتكم الجارحة إذ لا يفتأ بعض كتاب مصر العزيزة من جرح شعور العراقيين في كل فرصة سانحة ، ولا أدري سبب ذلك ... » .

ومن أمثلة العتاب الغاضب ما جاء في رسالة للأديب « عبد الله نيازي » :

« مما حزّ في قلبي أني قرأت في عدد « الرسالة » ٦٧٤ للأستاذ سيد قطب رأيا في العراق والعراقيين يخالف الواقع . حيث أن حضرته ألصق بالعراقيين تهمة قلة الذوق الأدبي ، وعدم التفهم لما يقرأونه ، بتصريحه أن كتب عبد الرحمن بدوي لا تقرأ إلا في العراق . مع أني أؤكد بأن بدوي المشار إليه ليس إلا نكرة في العراق .

« وحسبي أن أقول للأستاذ سيد قطب ما يلي :

« هل زرت العراق أيها الأستاذ وشاهدت بنفسك جمهور العراقيين يتهافتون على شراء كتب عبد الرحمن بدوي ، أم إن القضية لا تعدو السماع ؟ ... فإذا كانت الأخيرة ، فليس من اللياقة والكياسة أن تتهم شعباً ناضجاً بتهمة هو بريء منها » .

ومن أمثلة العتاب الرقيق ما جاء في رسالة « قارئ » حيث يقول :

« — لولا أنني أعرفك من كتاباتك . ومن بعض إخواني العراقيين الذين زاروا مصر وتحدثوا إليك ، وعرفوا روحك بإزاء أدب الشقيقات العربية وأدبائها ... لولا هذا لاتهمتك بالتعصب الشديد ضد العراق . ولولا ذلك لما اتهمته في ذوقه مثل هذا الاتهام الجارح ... فمن قال لك ياسيدي إن كتب دكتوركم عبد الرحمن بدوي تجد قراء كثيرين عندنا . وهل خفت أن تتهمكم أنتم — المصريين — في ذوقكم بمناسبة هذا الديوان ، فرأيت أن تلقي التهمة على العراقيين ... ؟ !

« ... على كل حال . هذه مغفورة لك . لما أعلمه ويعلمه الكثيرون عنكم هنا من عدم التعصب ، وعنايتكم بآثار أدباء العربية في جميع البلدان الشقيقة ... والسلام » .

وأكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة للدلالة على تلك الحساسية الشديدة في نفوس إخواننا العراقيين . ولكنني في الحقيقة أميل إلى أن ألتمس لهم العذر في أعنف حملاتهم عليّ وعلى « الرسالة » . إن التهمة ثقيلة ، وجارحة . ومن حقهم أن يتبرأوا منها ! ! !

ولكن أسلوبي كان واضحاً مفهوماً ، في أنني لست صاحبها . وقد جاء في كلمتي بالحرف الواحد :

« ومعذرة لإخواننا العراقيين . فناقل الكفر ليس بكافر . وفي وسعهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد هذا الاتهام » .

فكيف جاز لأحد منهم أن يفهم أنني أنا الذي ألقي عليهم هذه التهمة لولا أن سورة غضب جامحة ، وحساسية كذلك شديدة لم تدع لهم أن يتبينوا مرامي قولي ، وأن يدركوا كذلك وجه النكتة ، وأسلوب التهكم المقصود ؟ !

أغلب الظن أن جماعة صغيرة من متحمسى الشباب هناك هم الذين ألهبهم الغضب ، فأنساهم النظر فى مدلول ما كتبت . وأن الآخرين – وهم الكثرة – من القراء والأدباء فى العراق ، فهموا وجه القول ، فلم يجدوا فيه طعناً للذوق العراق ، ولا منقصة ولا اتهاماً !

ولقد لمحت فى بعض الرسائل الثائرة روحاً من التعصب المحلى الضيق ، فلم أرد أن أقتطف هنا مايدل عليها ، فلعلها سورة غضب وقتى ، ثم يعودون فيرون أن مصر والصحافة المصرية حفية بكل أدب عربى . وأننى أنا بالذات نوهت بمعظم ما وقع لى من هذا الأدب كالأدب المصرى سواء . أما «الرسالة» بخاصة فلا يمكن أن تتهم بإغفال أدباء البلاد العربية وعلى صفحاتها تجرى أقلامهم ، وقد تكون هى أول من يعرفهم حتى إلى مواطنيهم . على أن هناك ماينفى التعصب جملة : أليس الكتاب الذى يلقى هذا النقد كتاب شاب مصرى ؟ !

ولقد شكوت مرة من صعوبة حصولنا على مطبوعاتهم . وعندى بحث عن شعراء الشباب وبحث عن القصة الحديثة . أؤجلهما فترة بعد فترة لأننى لم أستطع إلى اليوم الحصول على إنتاج البلاد العربية فيهما ، ولم أرد الاكتفاء بالأدب المصرى . فهل بعد هذا نتهم مصر بالتعصب ؟

سيد قطب

كفل به وكفله أيضاً :

سعادة الأستاذ الكبير السيد أحمد حسن الزيات – أطال الله بقاءه –

قرأت – سيدى – كلمة طيبة فى الرسالة(1) لعالم فاضل من بنى مسهم ، تتبع فيها ما كنت نشرته فى مجلة المجمع العلمى العربى من وجوب أن يقال « كفل به » إذا أريد « تحمل به » لا كفله ، واستشهد على صحة « كفله » بما ورد فى لسان العرب خاصا بذلك وهو « كفل المال وبالمال ضمنه » وذكر أموراً أخرى تدل على نفس عطر فى العربية ونفس كريمة ، وأود أن أذكر لحضرته أنى اطلعت على ما فى اللسان وعلى ما فى غيره فقد جاء فى المصباح المنير « وحكى ابن القطاع كفلته وكفلت به وعنه إذا تحملت به » وقد توفى ابن القطاع سنة « ٥١٥ هـ » فهو من المتأخرين ؛ وإنى لم أنقل قول الزمخشرى – وهو معاصر لابن القطاع – لكون أساسه مستوعباً لكل لفظة وتركيب – كما ظن العالم الفاضل حفظه الله – بل كان ذلك من قبيل التمهيد لدعواى .

فأنا أقول محتجاً لدعواى تلك : إن العرب ميزت بين « كفله وكفل به » فلكل منهما معنى والمساواة بينهما تورث اللبس ، وإن أخوف ما خافته العرب على لغتها هو الالتباس ، فلذلك استعانوا بحروف الجر كل الاستعانة – كما هو بين للعالم الفاضل الناقد – ولو كان أمر « كفله وكفل به » من باب الحذف والايصال الذى هو من خصائص هذه اللغة الكريمة لكان تنبيهى تشديداً وتحجراً تأباهما طبيعتها السهلة السمحة ، وإنما هو أمر ذو بال ، وإدخال الباء على المكفول به لازم ، وكذلك الحال فيما أشبهه ، فقد قالت العرب « تحمله » فلما أرادوا به « كفل به » قالوا « تحمل به » وقالوا « قبله » فلما أرادوا به ذلك المعنى قالوا « قبل به » وقالوا « زعمه » ثم قالوا « زعم به » أى كفل به .

ولم يبق بينى وبين من أجاز « كفله » إلا كلام العرب وهو الحكم الفيصل ، فقد جاء فى كتاب نهج البلاغة فى أثناء وصف الحيوان « فهذا غراب وهذا عقاب وهذا حمام وهذا نعام ، دعا كل طائر باسمه وكفل برزقه » وجاء فى وصف النملة منه « تجمع فى حرها لبردها وفى وردها لصدرها ، مكفول برزقها مرزوقة بوفقها » وورد فى كلام الأخطل للشعبى فى حضرة عبد الملك ابن مروان « من يكفل بك ؟ قلت أمير المؤمنين » وفى الأغانى من يتكفل بك ؟ (1) » فالباء لازمة فى كليهما .

وقال المبرد فى أخبار الخوارج « وطالب الكفلاء بمن كفلوا به فكل من جاء بصاحبه أطلقه وقتل الخارجى ومن لم يأت بمن كفل به منهم قتله » وقال الطبرى « فلم يزل يحيى ابن عمر محبوساً إلى أن كفل به فأطلق »

وقد تعقبت هذا اللفظ وحرف جره خمس عشرة سنة فلم أجد من خالف فيه وجهه الصحيح إلا ابن الساعاتى الشاعر المتوفى سنة ٦٠٤ هـ بقوله :

(1) الجزء ٦٢٤ ص ٦٢٢

(1) شرح نهج البلاغة مج ١ ص ٤٥٤ و مج ٣ ص ١٩٩ و مج ٤ ص ٥٠١ والكامل ج ٣ ص ١٥٤ من طبعة الأزهرى وتاريخ الطبرى سنة ٢٥٠ ص ٨٧ من طبعة مصر والأغانى ج ١١ ص ٢٥ من طبعة دار الكتب وديوان ابن الساعاتى ج ١ ص ٧٤

كفل الدمع رى سفحيك والدمـ ـع ملء بعد النوى بالكفالة

وهو شاعر متأخر مضطر كسائر الشعراء . فمن يأتنى بعبارة لعربى فصيح استعمل فيها « كفله » بمعنى « كفل به » فقد عارض الحجة بالحجة وحقق صحة ما ورد فى اللسان وفى غيره وألزمنى الرجوع عن قولى .

هذا وإنى شاكر للعالم الجليل الفاضل ما أتحفر به من كمال الأدب والغيرة على لغة العرب ، أيده الله تعالى .

(بغـداد) **الدكتور مصطفى جواد**

حول ترجمة « المقامر » لدستويفسكي

قرأت فى عدد مايو من مجلة المقتطف نقداً لقصة « المقامر » التى نقلتها إلى العربية ونشرتها دار الكاتب المصرى . ولقد كان أسلوب الكاتب فى نقده جديراً بأن يصرفنى عن الرد عليه ، لولا أن هناك أموراً أريد أن أقررها لمن يعنون بالأدب الروسى من قراء العربية .

لقد تناول الناقد ترجمة كونستانس جارنت الانجليزية ، وترجمة ألمانية لم يذكر اسم صاحبها ، وظل يداول بينهما أشهراً حتى حصل على اختلاف يسير بينهما وبين ترجمتى ، فصاغه فى أسلوب القدح والنبز ، وظن أنه قد هدم القصة والمترجم . والحق أنه كان (هجاء) بارعاً ، فعادى بين المترجم والناشر ، وكاد يوقع بينهما المؤلف .

هل يعنى الأستاذ الناقد أن ترجمة المقامر ليست ترجمة مطابقة ، وإنما هى ترجمة مقاربة ؟ ومن ذا الذى يدعى أن ترجمة كتاب روسى عن الفرنسية أو الانجليزية ترجمة مطابقة ؟ إننى ياسيدى الناقد لا أقدس الأوربيين كما تقدسهم ؛ فقد نقلت عن ترجمتين ، كما راجعت أنت ترجمتين : أما أولاهما فترجمة هوجارث الانجليزية ، وأما الثانية فترجمة البرين كامنسكى الفرنسية . وقد لقيت من الجهد فى التقريب بين الترجمتين مايعرفه الناقد إن عنى نفسه بمثل هذا العمل . لن تكون تراجمنا عن الأدباء الروس تراجم مطابقة حتى ننقل عن الروسية ، وهذا عمل لن نعتمد فيه على جيل قادم بل سوف ننهض نحن به . فكثير أن ندعى لأنفسنا العلم بالأدب الروسى ونحن نقلب بين أيدينا تراجم إنجليزية وفرنسية وألمانية .

وبعد ... فقد شاء الأستاذ الناقد أن يرمينى بركاكة الأسلوب ، واستشهد بسبع عبارات عدها أخطاء لغوية ، ويكفينى أن أمثل لهذه « الأخطاء اللغوية » التى عثر عليها الأستاذ بعبارتين اثنتين .

فقد كتبت « نظر إلى باستعلاء » فعدها الأستاذ خطأ ، ونص على أن صوابها « متعالياً ، أو فى عنجهية » ، وكتبت « تسمع احتجاجى » فعدها الأستاذ خطأ أيضاً ، ونص على أن صوابها « تأذن إلى استنكارى » ... أما « الأخطاء » الباقية فقد نتجادل فى صحتها إلى آخر الدهر ، لأن مرجعها رغبتى فى التوسع ، معتمداً على التضمين أوحذف الخافض أوغيرهما من قواعد اللغة ، حتى يسهل الأسلوب ويلين ، ويطوع لأكثر ما فى الأصل من معانٍ ، ومن ظلال معان . أما الأستاذ الناقد فيؤثر التنوق والإغراب ، ويتفاصح بتخطئة الصحيح المقبول ، ويعد من لا يتنوق ولا يتفاصح مثله ركيك الأسلوب .

على أن مثار دهشتى أن الأستاذ وهو المتشدد فى اللغة ، قد أرداه تنوقه فاستعمل كلمتين لا وجه لهما ، ولا فائدة فى الدلالة على معنى خاص ، فقال فى أول مقاله « أبهظته خيانة الزوجة » وليس فى العربية إلا « بهظَهُ » وليس فى أبهظ معنى زائد . وقال فى آخره « عدا المعرب على عبارات المؤلف بالمسخ والتشويه والتقطيع والتقطيع — ياسيدى — كأخيه الإبهاظ ، لم تذكره كتب اللغة .

هذا ما بدا لى فى مقال الأستاذ ، كتبته لأبين منهجى فى ترجمة هذا الأدب . وأعرض عن لغو كثير .

شكرى محمد عياد

إلى الأستاذ على الطنطاوى :

قلت فى كلمتك من مزايا « الرسالة » المنشورة فى بريد العدد ٦٧٥ « ولكن السهمى لم يصحح تفسير الأستاذ الكبير العقاد لكلمة المحدَّث فقد ذكر أن (المحدَّث الذى يسمع كلام الله) مع أن الذى قالوه فى المحدث أنه الملهم » .

ولو أعاد الأستاذ الطنطاوى قراءة ما كتبه الأستاذ السهمى لوجده قد صحح الكلمة وتفسيرها بما نقله عن كتاب النهاية لابن الأثير .

(منصف)

تصويب :

فى مقال « دفاع عن البلاغة » فى العدد الماضى وقعت أغلاط منها غلطتان لا بد من تصويبهما فى هاتين الفقرتين :

١ — العمل الفنى فى الأدب لا يوصف بالجودة إلا أن يهيأ للفكرة الجيدة ... أسلوب جيد » وقد كتبت (أسلوبا جيداً) !

٢ — « لأنه بلغ من سر الصناعة غاية تطلع دونها أكثر الأقلام » وقد كتبت (تطلع) !

سكك حـــــديد الحكومة المصرية

عرض الاعلانات بالمحطات

لقد وجهت المصلحة كل عنايتها إلى المحطات فأقامت بها لوحات خشبية أعدت خصيصاً لعرض الإعلانات فضلا عن أنها تبذل مجهوداً صادقاً من وقت لآخر فى تجميل تلك المحطات حتى أصبح الإعلان فيها من أحسن وسائل الدعاية التى تنشدها كل من يرمى إلى التوسع فى أعماله وكل تاجر يسعى إلى رواج تجارته .

وتتقاضى المصلحة جنيهين مصريين عن المتر المربع فى السنة وهى قيمة زهيدة تكاد لا تذكر بجانب أهمية الإعلان الذى يتصفحه آلاف المسافرين فى اليوم الواحد .

ولزيادة الاستعلام اتصلوا — بقسم النشر والاعلانات

بالإدارة العامة — بمحطة مصر

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧٨ — الاثنين ١ يوليو ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

وزارة الأوقاف

إعلان

تعلن وزارة الأوقاف شهر مزاد تأجير أطيان زراعية بالوجهين القبلى والبحرى مساحتها ٥١٣١٧ فداناً على جملة صفقات بجلسات علنية بمراكز التفاتيش فى المواعيد المحددة لكل تفتيش ويعلن عنها بلوحة الإعلانات بالوزارة والتفاتيش — وقررت ما يأتى :

١ — أن تكون مدة التأجير سنتين فى جميع التفاتيش عدا الصفقات التى تزرع قصباً فتكون مدة التأجير فيها لثلاث سنوات .

٢ — أن تعتمد الوزارة فى أول جلسة نتيجة التزايد إذا كان العطاء بأجر المثل المعتمد أو بأكثر منه .

٣ — أن يكون التأمين النقدى موازياً ٥٠٪ من إيجار سنة ما لم يكن بالأطيان مخازن للوزارة فإن وجدت فيكون التأمين ٣٠٪ فقط على أن يدفع منه ٢٠٪ وقت العطاء ويكمل فى مدى أسبوع من تاريخ إخطاره بقبول عطائه بصفة مبدئية .

٤ — ترد التأمينات النقدية لأربابها فى آخر الجلسة متى كانت عطاءاتهم غير مقبولة ما لم يوجد مانع من ردها .

٥ — ويمكن الاطلاع على الشروط وقوائم المزاد بالوزارة والتفاتيش — وعلى من يرغب فى الدخول فى مزاد استئجار أى صفقة أن يعاينها قبل الجلسة ويطلع على جميع البيانات الخاصة بها ويعتبر دخوله فى المزاد إقراراً منه بالمعاينة والاطلاع على البيانات .

٦ — مستحقو الأوقاف الأهلية المشهورة أطيان تابعة لأوقافهم مدعوون لحضور جلسات التزايد المعلن عن مواعيدها بالتفاتيش مع الرجاء بالعمل من جانبهم على زيادة عدد الراغبين فى التأجير .

إذا لم يكن التأمين نقداً كما تقدم يكتفى بتقديم أحد التأمينات الآتية قبل الدخول فى المزاد :

١ — خطاب ضمان من بنك معتمد بقيمة إيجار سنة ويراعى فى خطاب الضمان أن تكون مدة الكفالة بحيث تنتهى بعد مضى ستة أشهر من آخر يوم محدد لانتهاء مدة العقد .

٢ — أوراق مالية مقبولة لدى الحكومة المصرية لا تقل قيمتها عن إيجار سنة حسب تقرير الوزارة .

٣ — أن يقدم للتفتيش قبل الجلسة المحددة للتزايد بأسبوعين على الأقل ضمان بتأمين عقارى مصدق عليه من قلم المساحة المحلى توازى قيمته إيجار سنة مصحوباً بجميع مستندات الملكية وشهادات تصرفات من المحكمة المختلطة لمدة عشر سنوات سابقة لتاريخ الجلسة أو إيصال دال على سداد رسوم طلبها مصحوباً بقيمة ١٠٪ من عطائه نقداً ولن يقبل أى تزايد ما لم يقدم صاحبه تأميناً طبقاً للشروط المبينة بهذا الإعلان ٣٦

وزارة الأوقاف

تعيد الوزارة شهر مقاولة أعمال كسح خزانات ومجارير المساجد والمحلات التابعة لها على اختلاف أنواعها (ما عدا الجهات التى تقوم المجالس البلدية والمحلية والقروية بأعمال الكسح فيها) عن سنة ٤٦ / ١٩٤٧ المالية بالمناطق الآتية : —

١ — المنطقة الرابعة وتشمل تفاتيش طنطا والنشاوى والقرشية .

٢ — المنطقة الخامسة وتشمل تفتيش القليوبية والمنوفية والشرقية .

٣ — المنطقة السادسة وتشمل تفاتيش المنصورة وشاوة والمحلة وتقبل العطاءات بقسم المخازن والمشتريات لغاية ظهر يوم الإثنين الموافق ٨ يولية سنة ١٩٤٦ وذلك على مقتضى الشروط الموجودة بالوزارة والتى يمكن الحصول عليها من خزانتها نظير مائة مليم .

وتقدم العطاءات على النموذج المعد لذلك بالشروط نفسها داخل مظاريف مختومة بالشمع الأحمر ويجب أن يصحب العطاء التأمين الابتدائى المقرر والمنوه عنه بالشروط وكل عطاء يقدم تلغرافياً أو يقدم بدون تأمين لا يلتفت إليه .

وعلى مقدمى العطاءات ملاحظة وضع فئة عطاءاتهم على أساس وضع فئة لكل منطقة على حدة من المناطق والوزارة لا تقبل شروط عدم التجزئة لأن كل منطقة من المناطق وحدة قائمة بذاتها . ٧٢

14 me Année No. 678

Lundi—1—7—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــدد ٦٧٨ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢ شعبان سنة ١٣٦٥ — ١ يوليو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

من صميم الحياة :

اليتيــمان . . . !

للأستاذ على الطنطاوى

أحسّ (ماجد) أنه لم يفهم شيئاً مما يقرأ ، وأن عينيه تبصران الحروف وتريان الكَلِم ولكن عقله لا يدرك معناها . إنه لايفكر فى الدَّرس ، إنما يفكر فى هذه المجرمة وماجرَّت عليه من نكد ، وكيف نغّصت حياته وحياة أخته المسكينة وجعلتها جحيما متسعراً . ونظر فى (المفكرة)[1] فاذا بينه وبين الامتحان أسبوع واحد ، ولابدَّ له من القراءة والاستعداد ، فكيف يقرأ وكيف يستعد ؟ وأنّى له الهدوء والاستقرار فى هذا البيت وهذه المرأة تطارده وتؤذيه ولا تدعه يستريح لحظة ، وإذا هى كفت عنه انصرفت إلى أخته تصبّ عليها ويلاتها ؟ ... هل يرضى لنفسه أن يرسب فى أولى سنة من سنى الثانوية وقد كان (فى الابتدائى) المجلّى دائماً بين رفاقه ، والأول فى صفه[2] ؟.

وإنه لفى تفكيره وإذا به يسمع صوت العاصفة ... وإن العاصفة لتمرّ بالحقل مرة فى الشهر فتكسر الأغصان ، وتقصف الفروع ، ثم تجىء الأمطار فتروى الأرض ثم تطلع الشمس ، فتنمى الغصن الذى انكسر وتنبت معه غصناً جديداً ، وعاصفة الدار تهب كل ساعة ، فتكسر قلبه وقلب أخته الطفلة ذات السنوات الست ، ثم لا تجبر هذا الكسر أبداً ... فكأن عاصفة الحقل أرحم وأرق قلباً وأكثر (إنسانية) من هذه المرأة التى يرونها جميلة حلوة تسبى القلوب ... وما هى إلا الحية فى لينها ونقشها ، وفى سمّها ومكرها . لقد سمع سبها وشتمها وصوت يدها ، شَلّت يدها ، وهى تقع على وجه الطفلة البريئة ، فلم يستطع القعود ، ولم يكن يقدر أن يقوم لحمايتها خوفاً من أبيه ، هذا الرجل الذى حالف امرأته الجديدة وعاونها على حرب هذه المسكينة وتجريعها غصص الحياة قبل أن تدرى ما الحياة ... فوقف ينظر من الشباك فرأى أخته مستندة إلى الجدار تبكى منكسرة حزينة ، وكانت مصفرة الوجه بالية الثوب ، وإلى جانبها أختها الصغرى ، طافحة الوجه صحة ، بارقة العينين ظفراً وتنلبا ، مزهوّة بثيابها الغالية ... فشعر بقلبه يثب إلى عينيه ويسيل دموعاً ؛ ما ذنب هذه الطفلة حتى تسام هذا العذاب ؟ أما كانت فرحة أبيها وزينة حياته ؟ أما كانت أعزّ إنسان عليه ؟ فمالها الآن صارت ذليلة بغيضة ، لا تسمع فى هذا البيت إلا السب والانتهار ، أما التدليل فلأختها ، التى تصغر عنها سنتين ، والطُّرَف لها ، وهى البنت المفردة ، على حين قد صارت هى خادمة فى بيت أبيها ، بل هى شرّ من الخادم ، فالخادم قد تلقى أناساً لهم قلوب ، وفى

(١) وتسمى فى مصر (النتيجة) واصطلاحنا أصح
(٢) ويسمى فى مصر (الفصل) .

قلوبهم دين فيعاملونها كأولادهم، وأبوها هو لم يبق فى صدره قلب ليكون فى قلبه شرف يدفعه أن يعامل ابنته ، إبنة صلبه ، معاملة الخادم المدلّلة . لقد كتب الله على هذه الطفلة أن تكون يتيمة الأبوين ، إذ ماتت أمها فلم يبق لها أم ، ومات ضمير أبيها فلم يبق لها أب !

وسمع صوت خالته[1] تناديها : تعالى وِلِكْ يا خنزيرة[2] !

وكان هذا هو اسمها عندها : (الخنزيرة) لم تكن تناديها إلا به ، فاذا جاء أبوها المساء فهى البنت : تعالى يا بنت ، روحى يابنت ! أما أختها فهى الحبيبة : فين انت ياحبيبتى ؟ تعالى ياعينى !

وعاد الصوت يزجر فى الدار : ألا تسمعين أختك تبكى ؟ أنظرى الذى تريده فهاتيه لها ! ألا تجاوبين ؟ هل أنت خرساء ؟ قولى : ماذا تريد ؟

فأجابت المسكينة بصوت خائف : إنها تريد الشكولاتة ...

— ولماذا بقيت واقفة مثل الدّبة ! إذهبى فأعطيها ما تريد !

فوقفت المسكينة ، ولم تدر كيف تبيّن لها أن القطعة الباقية هى لها . لقد اشترى أبوها البارحة كفًّا من الشكولاتة ، أعطاه لابنته الصغيرة فأكلته وأختها تنظر إليها ، فتضايقت من نظراتها فرمت إليها بقطعة منه ، كما يرمى الإنسان باللقمة للهرّة التى تحدق فيه وهو يأكل ، وأخذت المسكينة القطعة فرحة ، ولم تجرؤ أن تأكلها على اشتهائها إياها ، فخبأتها ، وجعلت تذهب إليها كل ساعة فتراها وتطمئن عليها ، وغلبتها شهوتها مرة فقضمت منها قضمة بطرف أسنانها ، فرأتها أختها المدللة فبكت طالبة الشكولاتة ...

— وِلِكْ يا ملعونة فين الشكولاتة ؟

فسكتت ... ولكن الصغرى قالت : هناك يا ماما عندها ، أخذتها الملعونة منى !

واستاقت المرأة ابنتها وابنة زوجها ، كما يساق المتهم إلى التحقيق ، فلما ضُبطت (متلبسة بالجرم المشهود) ورأت خالتها الشكولاتة معها حلّ بها البلاء الأعظم !

— يا سارقة يا ملعونة ، هكذا علمتك أمك ... تسرقين ما ليس لك ؟

وكان ماجد يحتمل كل شىء ، إلا الاساءة إلى ذكرى أمه ، فما سمعها تذكرها ، لم يتمالك نفسه أن صاح بها :

— أنا لا أسمح لك أن تتكلمى عن أمى .

فتشمرت له واستعدت ... وكانت تتعمد إذلاله وإيذاءه دائما ، فكان يحتمل صامتاً لا يبدو عليه أنه يحفلها أو يأبه لها . فكان ذلك يغيظها منه ، وتتمنى أن تجد سبيلا إلى شفاء غيظها منه ، وها هى ذى قد وجدتها ...

— لا تسمح لى ؟ أرجوك يا سعادة البك اسمح لى أنا فى عرضك ... آه : ألا يكفى أنى أتعب وأنصب لأقدم لك طعامك وأقوم على خدمتك ، وأنت لا تنفع لشىء إلا الكتابة فى هذا الدفتر الأسود . لقد ضاع تعبى معك أيها اللئيم ، ولكن ليس بعجيب أنت ابن أمك ...

— قلت لك كفّى عن ذكر أمى ، وإلا أسكتّك .

واقترب منها ، فصرخت الخبيثة وولولت وأسمعت الجيران ... تريد أن تضربنى ؟ آه يا خاين ، يا منكر الجميل ، ولى ... يا ناس ، يا عالم ، الحقونى يا اخواتى ...

وجمعت الجيران ، وتسلل ماجد إلى غرفته أى إلى الزاوية التى سمّوها غرفة ، وخصوه بها لتتخلص سيدة الدار من رؤيته دائماً فى وجهها !

* * *

ودخل الأب المساء وكان عابساً على عادته باسراً لا يبتسم فى فى وجوه أولاده ، لئلا يجترئوا عليه فتسوء تربيتهم وتفسد أخلاقهم، ولم يكن كذلك من قبل ولكنه استنّ لنفسه هذه السنّة من يوم حضرت إلى الدار هذه الأفعى وصبّت سمّها فى جسمه ، ووضعت فى ذهنه أن ماجداً وأخته ولدان مدللان فاسدان لا يصلحهما إلا الشدة والقسوة ...

وكانت الخبيثة إذا دنا موعد رواحه إلى الدار ، تخلع ثيابها وتلبس ثياباً جديدة ، كما تخلع عنها ذلك الوجه الشيطانى وتلبس وجهاً فيه سمات الطهر والطفولة ، صنعه لها مكرها وخبثها ، ولا تنسى أن تنظف البنتين وتلبسهما ثياباً متشابهة كيلا يحسّ الأب بأنها تفضل ابنتها على ابنته ! ...

دخل فاستقبلته استقبال المحبّة الجيلة ، والشوقة المخلصة ، ولكنها وضعت فى وجهها لوناً من الألم البرىء تبدو معه كأنها

(١) امرأة الأب تدعى في الشام خالة .

(٢) ولك كلمة شامية محرفة عن ويلك تردد دائما .

المظلومة المسكينة ، ولحقته إلى مخدع تساعده على إبدال حلته وهناك روت له القصة مكذوبة مشوّهة فملأت صدره غضباً وحنقاً على أولاده ، فخرج وهو لا يبصر ما أمامه ، ودعا بالبنت فجاءت خائفة تمشي مشية المسوق إلى الموت ، ووقفت أمامه كأنها الحمل المهزول بين يدى النمر . فقعد على كرسي عال ، كأنه قوس المحكمة وَوَقَفَها أمامه ، كالمتهم الذى قامت الأدلة على إجرامه ، وأفهمها قبح السرقة ، وعنفها وزجرها ... وهو ينظر إلى ولده ماجد شزراً ، وكانت نظراته متوعدة منذرة بالشرّ ، ولم يسع ماجداً السكوت وهو يسمع اتهام أخته بالسرقة وهى بريئة منها ، فأقبل على أبيه يريد أن يشرح له الأمر ، فتعجل بذلك الشر على نفسه انفجر البركان وزلزلت الدار زلزالا ، وأرعد فيها صوت الأب المغضب المهتاج :

— تريد أن تضرب خالتك ياقليل الحياء ، يا معدوم التربية ، يا ملعون ؟ حسبت أنك لو بلغت الرابعة عشرة قد صرت رجلا ؟ وهل يضرب الرجل خالته ؟ إننى أكسر يدك يا شقى !

— والله يابابا مو صحيح ...

— ووقاحة أيضاً ؟ أمابقى عندك أدب أبداً ؟ أتكذب خالتك؟

— أنا لا أكذبها ، ولكنها تقول لك أشياء ليست صحيحة .

عند ذلك وثب الأب وانحط بقوته وغلظته وما اترعت به نفسه من مكرها زوجته ، انحط على الغلام وأقبل يضربه ضرب مجنون ذاهب الرشد ، ولم يشف غيظ نفسه ضربُه فأخذ دفتره الأسود الذى أودعه دروسه كلها ، فمزقه تمزيقاً ... ثم تركه هو وأخته بلا عشاء عقوبة لهما وزجراً ...

* * *

تعشى الزوجان وابنتهما ، وأويا إلى مخدعهما ، والغلام جاثم مكانه ينظر إلى قطع الدفتر الذى أفنى فيه لياليه ، وعاف لأجله طعامه ومنامه ، والذى وضع فيه نور عينيه ، وربيع عمره ، وبنى عليه أمله ومستقبله ... ثم قام يجمع قطعه كما تجمع الأم أشلاء ولدها الذى طوّحت به قنبلة ... فإذا هى آلاف لا سبيل إلى جمعها ، ولا تعود دفتراً يقرأ فيه إلا إذا عادت هذه الأشلاء بشراً سوياً يتكلم ويمشى ... فأيقن أنه قد رسب فى الامتحان ، وقد أضاع سنته ، وكبر عليه الأمر ، ولم تعد أعصابه تحتمل هذا الظلم ، وأحسّ كأن الدنيا تدور به وزاغ بصره ، وجعلت أيامه تكرّ راجعة أمام عينيه كما يكرّ فلم السينما ...

رأى ذلك الوجه الحبيب ، وجه أمه ، وابتسامتها التى كانت تنسيه آلام الدنيا ، وصدرها الذى كان يفزع إليه من خطوب الدهر ، رآها فى صحتها وشبابها ، ورأى البيت وما فيه إلا السلم والهدوء والحبّ ، ورأى أباه أباً حقيقياً تفيض روح الأبوة من عينيه الحانيتين ، ويديه الممتلئتين أبداً بالطُّرَف واللُّطف ، ولسانه الرطب بكل جميل من القول محبَّب من الكلام ...

ويكرّ الفلم ويرى أمه مريضة فلا يهتم بمرضها ، ويحسبه مرضاً عارضاً ... ثم يرى الدار والاضطراب ظاهر فيها ، والحزن بادٍ على وجوه أهلها ، ويسمع البكاء والنحيب ، ويجدهم يتمدون به ، ويخفون النبأ عنه ، ولكنه يفهم منهم أن أمه قد ماتت . ماتت ؟ إنها كلمة تمرّ عليه مراً هيناً لا يأبه لها ، وكان قد سمع بالموت ، وقرأ عنه فى الكتب ، ولكنه لم يره من قريب ولم يدخل داره ، ولم يذقه فى حبيب ولا نسيب ، غير أن الأيام سرعان ما علمته ما هو الموت حين صحا صبيحة الغد على بكاء أخته الحلوة المحبّبة إلى أمها ، والتى كانت محببة تلك الأيام إلى أبيها ، ففتح عينيه فلم يجد أمه إلى جانبها لترضعها وتضمها إلى صدرها ، واشتد بكاء البنت ، وطفق الولد ينادى : ماما ... ثم جفا فراشه وقام يبحث عنها ، فوجد أباه وجما من قريباته ، يبكون هم أيضاً ... فسألهم ؛ أين أمه ؟ فلم يجيبوه . وحين أراد الغدوّ على المدرسة ، فناداها فلم تأت لتعدّ له حقيبته وتلبسه ثيابه ولم تقف لوداعه وراء الباب تقبله وتوصيه ألا يخاصم أحداً وألا يلعب فى الأزقة ، ثم إذا ابتعد عادت تناديه لتكرر تقبيله وتوصيته ، وحين عاد من المدرسة فوجد امرأة غريبة ترضع أخته ... لماذا ترضعها امرأة غريبة ؟ وأين ماما ؟ !

ويكر الفلم ، ويرى أباه رفيقاً به حانياً عليه يحاول أن يكون له ولاخته أماً وأباً ، ولكن هذا الأب تبدل من ذلك اليوم المشؤوم وراى ذلك اليوم المشؤوم ، يوم قال له أبوه : ستأتيك يا ماجد أم جديدة ... أم جديدة ؟ هذا شىء لم يسمع به ، إنه يعرف كيف تجىء أخت جديدة ، إن أمه تلدها من بطنها ، أما هذه الأم فمن أين تولد ؟ وانتظر وجاءت الأم الجديدة ، وكانت حلوة ، ثيابها جميلة ، وخدودها بلون الشفق ، وشفاهها حمر ، ليست كشفاه الناس . وعجب من لون شفاهها ، ولكنه لم يحببها

ولم يمل إليها ، وكانت فى أيامها الأولى رقيقة لطيفة ، كالغرسة الصغيرة ، فلما مرت الأيام واستقرت فى الأرض ومدّت فيها جذورها ، صارت قاسية يابسة كجذع الدوحة ، وإن كانت تخدع الرائين بورقها الطرىّ وزهرها الجميل ... ولما ولدت هذه البنت انقلبت شيطانة على صورة أفعى مختبئة فى جلد امرأة جميلة . والعياذ بالله من المرأة الجميلة إذا كانت فى حقيقتها شيطانة على صورة أفعى !

وانطمست صور الماضى الحبيب ، واضمحل الفلم ، ولم يبق منه إلا هذه الصورة البشعة المقيتة ، ورآها تكبر وتعظم حتى أحاطت به وملأت حياته ، وحجبت عنه ضياء الذكرى ونور الأمل ...

وسمع قهقهة فانتفض وأحس كأن رنينها طلقات (مترليوز) قد سقط رصاصُه فى فؤاده ، وكانت قهقهةَ هذه المرأة التى أخذت مكان أمه يتخللها صليل ضحك أبيه ... وأنصت فاذا هو يسمع بكاء خافتاً حزيناً مستمراً ، فتذكر أخته التى نسيها ، وذكره جوعه بأن المسكينة قد باتت بلا عشاء ، ولعلها قد بقيت بلا غداء أيضاً ، فان هذه المجرمة تشغلها النهار كله بخدمتها وخدمة ابنتها ، وتقفل دونها غرفة الطعام ، فلا تعطيها إلا كسرة من الخبز ، وتذهب فتطعم ابنتها خفية ، فاذا جاء الأب العشية ، ولبست أمامه وجهها البرئ ... شكت إليه مرض البنت وضعفها :

— مسكينة هذه البنت ، إنها لاتتغذى ... انظر إلى جسمها ، ألا تريها لطبيب ؟... ولكن ماذا يصنع لها الطبيب ، إنها عنيدة سيئة الخلق ... أدعوها للطعام فلا تأكل ، وعنادها سيقضى على صحتها ...

فينا ديها أبوها ويقول لها :

— ولك يا بنت ما هذا العناد ؟ كلى وإلا كسرت رأسك !

فتتقدم لتأكل ، فترى المرأة ... تنظر إليها من وراء أبيها نظرة الوعيد ، وترى وجهها قد انقلب حتى صار كوجه الضبع فتخاف وترتد ...

فتقول المرأة لزوجها : ألم أقل لك ، إنها عنيدة تحتاج إلى تربية ؟

فيهز رأسه ، ويكتفى من تربيتها بضربها على وجهها ، وشدّ أذنها ، وطردها من الغرفة ، ويكون ذلك عشاءها كل عشية !

تذكر ماجد أخته فقام إليها فرفعها وضمها إلى صدره .

— مالك ؟ لماذا تبكين ؟ إسكتى يا حبيبتى ؟

— جوعانة !

جوعانة ؟ من أين يأتيها بالطعام ؟ وقام يفتش ... فأسعده الحظ فوجد باب غرفة الطعام مفتوحاً ، وعهده به يقفل دائماً ، ووجد على المائدة بقايا العشاء ، فحملها إليها فكأنها فرحة بها مقبلة عليها ، كأنها لم تكن من قبل الابنة المدللة المحبوبة ، التى لا يرد لها ، لو طلبت ، طلب ، ولا يخيب لها رجاء . وآلمه أن يراها تفرح إذا أكلت بقايا أختها وأبيها يسرقها لها سرقة من غرفة الطعام ، وعادت صور الماضى فتدفقت على نفسه وطغت عليها ورجعت صورة أمه فتمثلت له ، وسمعها تناديه ... لقد تجسم هذا الخيال الذى كان يراه دائماً ماثلا فى نفسه ، حتى ردَّه إلى الماضى وأنساه حاضره ... ولم يعد يرى فى أخته البنت اليتيمة المظلومة ؛ وإنما يراها الطفلة المحبوبة التى تجد أماً تعطف عليها ، وتحبها ...

ونسى دفتره الممزق ، ومستقبله الضائع ، وحياته المرَّة ، وطفق يصغى إلى نداء الماضى فى أذنيه ... إلى صوت أمه ...

— قومى ياحبيبتى ، ألا تسمعين صوت أمك ، تعالى نروح عند ماما !

فأجفلت البنت وارتاعت ، لأنها لم تكن تعرف لها أماً إلا هذه المرأة المجرمة ... وخافت منها وأبت أن تذهب إليها . لقد كان من جناية هذه المرأة أنها شوَّهت فى نفس الطفلة أجمل صورة عرفها الإنسان : صورة الأم !

— تعالى نروح عند ماما الحلوة : أمك ... إنها هناك فى محل جميل : فى الجنة ... ألا تسمعين صوتها ؟

وحملها بين يديه ، وفتح الباب ، ومضى بها ... يحدوه هذا الصوت الذى يرنُّ فى أذنيه حلواً عذباً ؛ إلى المكان الذى فيه أمه !

* * *

وقرأ الناس فى الجرائد ضحى الغد أن العسس وجدوا فى المقبرة طفلة هزيلة فى السادسة من عمرها ، وولداً فى الرابعة عشرة ، وقد حُملا إلى المستشفى ، لأن البنت مشرفة على الموت ، قد نال منها الجوع والبرد والفزع ، ولا يمكن أن تنجو إلا بأعجوبة من أعاجيب القدر ، أما الغلام فهو على أبواب الجنون ، فهو لا يفتأ يذكر الامتحان ، والدفتر الأسود ، وأمه التى تناديه ... والمرأة التى تشبه الأفعى !

(دمشق) علي الطنطاوي

ناثان الحكيم

للدكتور جواد علي

ناثان تاجر يهودي وهبه الله مالا غزيراً لما كثر أبناء جنسه ، ووهبه عقلا كان خير دليل له في الخروج من مآزق الأمور ، وفطنة كانت سلاحا فتا كا يستعمله في التغلب على خصومه .

وكان هذا اليهودي الذي يعيش في أرض فلسطين في عهد السلطان صلاح الدين عيشة ناعمة يحسد عليها . وكان يرابي فيقرض الأمراء والسلاطين . وكان السلطان الأيوبي العظيم قد اقترض منه مبلغاً عظيما من المال ، لقاء فائض فاحش . وأراد السلطان كما تصوره الرواية الامتناع عن الدفع ومصادرة أموال اليهودي بطريقة لا يتمكن فيها هذا المرابي من الدفاع عن نفسه ومن إقامة الدعوى عليه .

فطلب منه ذات يوم أن يجيب عن موضوع طالما اهتم به وشغل باله به هو قضية الأديان ، وأي تلك الأديان أفضل ! وما هو الدين الحق من بين هذه الأديان . وكانت غاية السلطان من هذا السؤال هو إيقاع اليهودي في الفخ حتى إذا ما أجاب جواباً يناقض عقيدته وفضل ديانته على ديانة المسلمين أوقع به عقاباً صارما وجزاه جزاء كبيراً فيصادر أمواله ، ويصبح عندئذ في حل من الدفع .

أدرك ناثان ما كان يقصد السلطان من هذا السؤال ، فالتفت إليه وطلب منه أن يقص عليه قصة من القصص المعروفة هي قصة والد شفيق كان له ثلاثة أولاد يحبهم حباً جما ولا يميز بينهم أبداً ؛ وكان له خاتم ثمين ورثه عن أجداده ويريد المحافظة عليه بحيث يبقى في الأسرة ، فلا يخرج منها . ولما كان لا يريد التفريق بين أبنائه ولا التمييز فيما بين هؤلاء الثلاثة في الدرجة حار فيما يصنع، أيعطى الخاتم للابن البكر فيزعج بذلك الأخوين ويعكر بينهما صفو الأخوة وهو حريص جداً على أن تبقى رابطتها قوية فيما بين أبنائه ، أو يعطيه لشخص آخر من الأسرة ، وفي هذا العمل مخالفة لوصية الآباء ؟

وكان الرجل ذكياً ، تمكن بذكائه من إيجاد حل أرضى به أولاده الثلاثة . ذهب إلى صائغ قدير كلفه بأن يصنع له خاتمين يشبهان هذا الخاتم تماماً بحيث لا يمكن التفريق بينهما وبين الخاتم الأصلي . وقد صنع الصائغ ما طلب منه وأجاد الصنعة حتى صعب على الصائغ نفسه تمييز الخواتم الثلاثة .

ولما توفى ذلك الوالد الشفيق تسلم كل واحد من أولاده الثلاثة خاتما . وبعد مضى أمد ادعى كل واحد منهم بأن خاتمه هو الخاتم الحقيقي، خاتم الأسرة . وقد حاول كل واحد منهم البرهنة على أن ما قاله هو الصحيح .

فلما سمع صلاح الدين بهذه القصة استحسنها ، وامتدح ذكاء «ناثان» وقربه إليه ، وغدا منذ ذلك الحين من أقرب الناس إليه ، وهي قصة تمثل وجهة نظرة الإنسانيين الذين نظروا إلى الأديان بنظرة التسامح نوعاً ما . أما القصة نفسها ، فقد كانت معروفة في أوربا ، وقد أخذها هذا الأديب « لسنك » ، وسبكها في قالب « دراما » شعرية ، تمثل آراء الشاعر ومشاعره أحسن تمثيل . حتى لقد قال الفيلسوف الألماني « شليكل » « إن هذه الدراما تمثل نفسية لسنك فمن عرفها عرف لسنك كل المعرفة[١] » .

في سنة ١٧٥٢ للميلاد كان شاعرنا صاحب القصة في مدينة « ويتنبرك » « wittenberg » . وكان قد تفرغ لكتابة رسائله « Briefen » وفصول « الإنقاذ » « Rettung » بعد أن حنكته التجارب ، وبعد أن تخرج من مدرسة « فولتير » تلك التي أنشأها هذا الأديب الفرنسي العظيم في قلب العاصمة البروسية وفي قصرها . تعلم على هذا الأديب شيئاً كثيراً ودرس عليه أصول النقد الأدبي التي عرف بها تلك الأصول التي أثارت في نفس صاحبنا الميل لدراسة الآداب الغربية ولا سيما آداب الشعب الإيطالي سليل الرومان ، وآداب الشعوب الشرقية ، ولا سيما الأدب العربي وتاريخ المسلمين[٢] .

وكان مما قرأه (لسنك) من آداب الايطاليين بعض مؤلفات الفيلسوف الايطالي « كاردانوس هيرونيموس » « Gardanus Hieronymus » « ١٥٠١ — ١٥٧٦ » وكان هذا الفيلسوف

(١) راجع Robertson. Nathan the wise, London. 1901. P. 1.
(٢) The Encyclopaedia Britannica-vol 13 14 ed P. 967.

الإيطالى الـكاثوليـكى حر النزعة بالنسبة إلى رجال وقته ، واسع التفكير ، يعتنق مذهباً يعارض مذهبه ، هو مذهب « وحدة الوجود » يرى أن كل ما فى الطبيعة حى يجرى فيه ماء الحياة حتى المادة الجامدة لا تخلو من الحياة . وأن الخالق فى الكون جميعه والكون جميعه فى الخالق بحيث لا نستطيع الفصل بين الاثنين . هذه هى الحقيقة ، حقيقة الله فى الكون ، إلا أن قليلا من الناس من يدرك هذه الحقيقة ، وقليل من الناس من يحاول الإدراك وفهم الحقائق[١] .

كانت فى آرائه هذه جرأة بالطبع بالنسبة إلى العالم الذى عاش فيه ، جرأة خلقت له مئات من المشاكل والمصاعب فيما بعد . وكان يرى بالإضافة إلى كل هذا بأن الأديان واحدة لها أهداف واحدة هى النظم الأخلاقية وضبط حياة الإنسان ، فيجب أن تستخدم هذه النظم فى خدمة الغرض الذى من أجله نشأت ، وللمحافظة على الوحدة ، ولذلك حذر من الخوض فى المواضيع الدينية والمشاكل الدينية باللغة المحلية ، لأن هذا الجدل يدعو إلى تبلبل رأى الأمة وتفرق صفوفها . أما فيما عدا الجدل من عقيدة فيصح لكل مواطن أن يعتنق ما يشاء من العقائد ، وله أن يدين بأى دين[٢] .

وبهذه الفكرة كتب الفيلسوف الإيطالى أفكاره فى : « De Subtilitate » تلك المحاورة « ديالوك » « Dialog »[٣] الفلسفية التى ينبرى فيها رجال يمثلون أربعة أديان للدفاع عن عقائدهم ودياناتهم التى يعتنقونها ، الديانة اليونانية الرومانية ، والديانة اليهودية ، والديانة المسيحية ، ثم الديانة الإسلامية . وقد حدث فى هذه المحاورة كل محام بما كان يعتقده أصحاب ذلك الدين . فتحدث على لسان الوثنى ، وتحدث على لسان اليهودى ، وتحدث على لسان المسيحى ، وتحدث على لسان المسلم ، وذكر دليل كل واحد منهم . وهذه محاورة جريئة بالطبع ، أوقعت المؤلف فى مزالق الكلام ، وهوجم على محاورته هذه هجوماً عنيفا اتهم

(١) راجع عنه قاموس الفلسفة لشميد مادة « كاردانوس » وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى الانكليزية واللغات الأخرى

(٢) راجع Schmidt. P. 92.

(٣) محاورة وقد كانت فنا من فنون الأدب عند اليونان راجع Hiryel. The Dialog 2, vol. 1895.

بأنه قصر فى دفاعه عن عقيدة المسيحيين ، وأنه أظهر المحامى المسيحى بمظهر المحامى الضعيف الذى لا يملك حججاً قوية لإفحام خصمه ، وقد كان فى ذلك متعمدا لا محالة[١] .

تأثر (لسنك) بآراء هذا الفيلسوف . وانبرى على الرغم من تفاوت عهده عنه للدفاع عن آرائه فدافع عنه فى « Vindicate » دفاعا أوقعه فى مثل ما وقع فيه ذلك الكاتب المفكر . ذكر بأن الفيلسوف لم يكن مقصراً فيما كتبه ولم يكن متعمداً إضعاف دليل المسيحيين . وكل ما فعله هو أنه صاغ دليل النصارى على لسانه . ولم يتمكن النصارى من إبراز أدلة أقوى من تلك الأدلة ، ولم يتمكن المسيحيون من إيراد حجج أقوى من تلك الحجج التى دونها كاردانوس[٢] فأضاف بهذا القول دليلا جديداً على تلك الأدلة التى كان يذكرها الناس فى إثبات مروق (لسنك) وزوغانه عن جادة الحق .

ولم تكن دراسة الفلسفة فى ذلك العهد من الدراسات التى يرتاح لها رجال الدين ، وكان لسنك وهو فى مكتبة « ولفنبتل » « wolfenbiittel » يقرأ كتب الفلسفة بنهم ويقبل عليها فى ساعات فراغه كل الإقبال . ولم يكتف بالمطالعة بل صار يخرج كتب الفلسفة إلى الأسواق ويشوق الناس إلى دراستها ، وكانت أحب فلسفة إليه هى فلسفة « رايمارس » « Reimarus » (١٦٩٤ ١٧٦٨ م)[٣] . وهذا الفيلسوف هو على رأس الفلاسفة الذين عرفوا باسم « Popularphilosophi » . وقد شاعت فلسفتهم فى القرن الثامن عشر على الأخص . وكانت تحاول تبسيط مبادىء فلسفتها وتقريبها من أذهان الناس للحصول على أكبر عدد ممكن من الأتباع[٤] . وكان هذا الفيلسوف من أولئك الفلاسفة الذين اعترفوا بوجود إله هو أساس هذا العالم وسببه . غير أنه كان كأكثر الفلاسفة « التوضيحيين » ينكر خوارق العادات ولا يؤمن بالمعجزات ، ويجحد تدخل الله فى شؤون العالم وفى شؤون الأفراد وكل ما فى الكون من مخلوقات . وكان يدعو

(١) Roberstson P. 10.

(٢) Robertson Jntroduction

(٣) Robertson Intro . وقد أخرج لسنك بعض مؤلفاته Schmidt, P. 546. Straus 1862.

(٤) راجع Schmidt. P, 500

إلى « الديانة الطبيعية العقلية » ويهاجم أسفار التوراة والأناجيل وينتقدها انتقاداً مراً ، لذلك تعرض بالطبع إلى حملات رجال الدين عليه وإلى نقد قوى مرير ( ) .

تعرض لسنك إلى نقد رجال الدين ، إلى نقد « كوتزة » « Goetze » على الأخص فكانت بينهما مهاترات علمية تدخل فيها أناس من عشاق الجدل الفلسفي الديني ، وقد تمكن « كوتزة » هذا من إثارة مجالس الأقاليم على لسنك ، فأصدرت تلك المجالس أمراً إلى دوائر الرقابة تطلب فيه ألا يسمح للسنك بنشر أي شيء إلا بإذن من الحكومة ، فكان في هذا القرار توفيق لرجال الدين .

وكان (لسنك) قد اطلع على آراء فيلسوف إيطالي آخر هو « بوكاجيو » « Boccoccio » (١٣١٣ — ١٣٧٥ م) الكاتب الإيطالي الفيلسوف .

وقد وجه هذا العبقري كزميليه دانتي « Dante » (١٢٦٥ ١٣٢١ م) و « بتركا » « Petrarka » أنظار قومه نحو مثل جديدة ، نحو المثل الإنسانية التي تدعو إلى التسامح في مقابل تعصب الكنيسة وتمسكها بآرائها الدينية . وقد حث قومه على دراسة الشعر واللغة والفلسفة ، وقد مهد هو وزملاؤه بذلك الطريق لما سمي فيما بعد باسم : « عصر النهضة والأحياء » « Renaissance » [٢] .

واتصل لسنك عن طريق الترجمة بهؤلاء فقرأ ديكامرون Decamaron لبوكاجيو ، وكان هذا الأثر الأدبي المهم قد ترجم إلى الألمانية في القرن الخامس عشر للميلاد وطبع في « أوكسبرك سنة ١٤٨٩ للميلاد » . ومنه استل صاحبنا مادة « ناثان الحكيم » . أخذ من « دكامرون » عناصر القصة الأولى ، وأضاف إليها بعض العناصر الجديدة التي كانت شائعة عند الأوربيين في ذلك الوقت . ولعل بوكاجيو نفسه كان قد أخذ قصصه من القصص الأوربية القديمة التي كانت شائعة قبل ذلك العهد في أسبانيا حيث عاشت الأديان الثلاثة كان الناس يتحدثون عن ملك متسامح حكيم وعن قصة الخاتم ، وفي أوربا تحدث الناس عن السلطان صلاح الدين وعن تسامحه بالنسبة للمسيحيين واليهود .

وقد تطورت هذه القصة وأمثالها بمرور الزمن فنصت فيما بعد على أن الخاتم الحقيقي كان يعرف من بين الخواتم الأخرى بما كان يظهر منه من الأعمال الخارقة والمعجزات . وكان هذا دليلاً على أنه هو الأصل وهو خاتم المسيحيين [١] . كما تطورت صورة ناثان إلى أن جعل لسنك صورة هذا الشخص تنطبق على صورة صديقه الفيلسوف اليهودي « موسى مندلسن Moses Mendelssohn » (١٧٢٩ — ١٧٨٦م) والكاتب الذي عاش في مدينة برلين . وكان بشخصية فذة معروفة في أوساط تلك المدينة حتى تمكن بفضل منزلته من تخفيف جدة البروسيين بالنسبة لليهود [٢] .

وقد ساعد « مندلسن » صاحبنا كثيراً وسعى عند تاجر من تجار مدينة « هامبرك » حتى أقرضه مالا طبع به بعض كتبه . وتأثر بكثير من آراء مندلسن ؛ فأخذ بأفكاره بالنسبة إلى الفلسفة اللاهوتية والأديان ولا شك في أن لتلك القصص الدينية التي كان يسمعها من « موسى مندلسن » دخلا في صقل عقلية لسنك وفي قصة « ناثان الحكيم » .

واستعان لسنك بعنصر آخر هو التاريخ الشرقي ذاته .

وكانت أوربا في هذا العهد ولا سيما فرنسا قد تذوقت الأدب الشرقي وأقبلت عليه ، وصار الأدباء يبحثون بين ثنايا القصص الشرقي لينسجوا منه نسيجاً جديداً . وكان فولتير الذي تعرف عليه لسنك في برلين ، والذي اتصل به اتصالا وثيقاً ، في طليعة هؤلاء الكتاب الذين استعانوا بالخيال الشرقي وبتاريخ الشرق . ولفولتير هذا مسرحية زيير « Zaire » [٣] وكانت هذه المسرحية قد اكتسبت شهرة واسعة ومثلت في برلين ، وكان لسنك بالطبع ممن حضر التمثيل ودرس الرواية وله « دراما محمد Mahamet » .

تأثر لسنك في « ناثان الحكيم » بقصة « Zaire » كثيرا

---

(١) Scharer Article Lessing

(٢) Vorlander History of Philossphy P, 205.

---

(١) Robertson. P, 30

(٢) The Encyc'opaedia Britauica Art Lessing.

(٣) راجع معجم لاروس مادة « Zaire »

Robertson Nathan London 1912 Uviversity Cembridge,

حتى إننا لنجد أوجه التشابه ظاهرة فى كثير من المواضع ، كما تأثر بآراء فولتير وبأفكاره السياسية ، حتى أماكن النقد تكاد تكون واحدة . وقد استعار منه حتى المصطلحات التى كان قد تخصص بها فترجمها إلى الألمانية .

صور « صلاح الدين الأيوبى » فى هذه الرواية وفى الروايات الأوربية الأخرى بصورة الملك الفيلسوف ، بصورة فيلسوف حديث يحمل آراء القرن الثامن عشر ويبشر بها بين الناس . فيدعو إلى « المذهب الإنسانى » الذى استولى على أفئدة الناس فى ذلك الوقت . ويحث الناس على اتباع الفلسفة التى كان يدعو إليها لسنك وأمثاله . فهو ملك شرقى وفيلسوف غربى فى آن واحد (١) .

ولم يكن لسنك من المستشرقين كما أنه لم يكن من المؤرخين ، ومعلوماته التاريخية عن الشرق معلومات عامة مأخوذة من هنا ومن هناك . أخذ حياة صلاح الدين من كتاب « تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا » للأب دى مارين « Abbé Marin » الذى طبع سنة ١٧٥٨ م . كما أخذ معلوماته عن تاريخ الخلفاء من كتاب « تاريخ العرب فى أيام الخلفاء » للأب « دى ماربنى » « Abbé demarigny » وقد طبع هذا الكتاب بالفرنسية عام ١٧٥٠ للميلاد واستفاد من كتاب « التاريخ العام » « Universal History » الذى طبع بمدينة لندن عام ١٧٥٩ (١) .

وحاول لسنك الرجوع إلى المصادر الأولى ، إلا أننا نشك فى قدرة هذا الشاعر على ذلك لأنه لم يكن يعرف العربية ، على أنه كان يستعين بالكتب المترجمة عن العربية . مثل ترجمات « Abbertus schulteus » وترجمة جلان (١٧٠٤ — ١٧٠٨) لألف ليلة وليلة (٢) والترجمات الأخرى ، وكان يستعين بالمستشرقين أنفسهم أمثال المستشرق ريسكى « Reiske » الشهير . ومع ذلك فإن قصة « ناثان الحكيم » لا تمثل التاريخ كما تمثل الأفكار الإنسانية والمبادىء الفلسفية التى تمثل نفسية هذا الفيلسوف .

(بغداد) جواد على

(١) Robertson . Introduction . P. 20

(١) Lessing . Entwurf . Robertson . Intro

(٢) نفس المصدر .

على هامش النقد :

« دفاع عن البلاغة »

تأليف الأستاذ الزيات

للأستاذ سيد قطب

(تتمة)

هل هناك مذهب جديد ؟

كان هذا هو السؤال الذى جعل الجواب عليه هو الفصل الأخير من الكتاب ، وناقش فيه من يدعون إلى العامية ، ومن يدعون إلى الرمزية . والعامية ليس من الضرورى أن تكون عامية اللفظ ، فهى عامية التعبير وعامية التفكير . وقد لا تكون الألفاظ عامية ، ثم تكون طريقة الأداء عامية ، كما تكون كذلك طريقة التفكير

وفى سياق بحث الموقف الحالى للأساليب العربية شرح تطورات أساليب النثر العربى شرحا مختصراً وافياً دقيقاً ، ولخص مذاهبه تلخيصا جيلا مفيداً ، ورتب على هذا التطور نتائجه المنطقية ترتيبا بارعا وصادقا فى الوقت ذاته .

وفى اعتقادى أن هذا الفصل هو أبرع فصول الكتاب وأدقها وأصدقها . وهو كذلك بحث جديد فى المكتبة العربية ، لم يلخص من قبل مثل هذا التلخيص .

وأحب أن أشرك القارىء معى فى تقدير قيمة هذا الفصل الجيد من فصول الكتاب .

جاء فى ص ١٢٥ :

« ... إن المذهب الكتابى أو الشعرى إما أن يكون مرحلة تطور لمذهب يتقدم به مبتدعوه ، وإما أن يكون رد فعل لمذهب يغلو فيه متبعوه . فأسلوب عبد الحميد بن يحيى إنما كان الطور الأول للاسلوب العربى الضيق الموجز ، دعت إليه مقتضيات المجتمع الجديد من تشعب أطراف الدولة ، وبدو ثمار الحضارة ، ودنو العربية من الفارسية . وأسلوب ابن المقفع الذى ظهر فى فجر الحضارة العربية كان طوره الثانى ، دعا إليه اتساع الخلافة ، وتنوع الثقافة ، وشدة اختلاط العرب بالفرس . ثم كان طوره الثالث أسلوب الجاحظ الذى اقتضاه نقل العلوم الأجنبية ، وازدهار المدنية العباسية ، وانتشار المقالات الإسلامية ، وتعقد الحالة الاجتماعية ، وتولد المعانى الحضرية ، واقتباس الآراء الفلسفية . ثم أترف المسلمون ، وتقلبوا فى أعطاف النعمة ، وتأنقوا فى مظاهر العيش ، فظهر طوره الرابع فى أسلوب ابن العميد المنمق المسجوع .

وإلى هنا كان التطور فى النثر الفنى تطورا طرديا يسير من الضيق إلى السعة ، ومن الجزالة إلى الرقة ، ومن الترسل المتوازن إلى الصنعة المطبوعة . فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله بدت على الكتابة أعراض الفساد والوهن ، فكثرت المعانى المزيفة ، وانتشرت الصنعة المتكلفة ؛ وكان من ذلك مذهب القاضى الفاضل وهو الطور الخامس من أطوار الأسلوب العربى ، غلا فيه أصحابه حتى أفسدوا الفكرة بالتفاهة والمبالغة ، وشوهوا الصورة بالزخرف الكاذب والسجع المجتلب . ومن هنا كان رد الفعل بظهور طريقة ابن خلدون ، إذ رغب عن السجع ، وزهد فى البديع ، وسار باللفظ وراء المعنى . وقد صرح بذلك فى كلامه عن كتابته لأبى سالم أحد ملوك الأندلس قال :

« وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ، بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع ، لضعف انتحالها وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عند من هم من أهل هذه الصناعة »

« وآثر النابغون من خريجى المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة ، الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية ، لجريانها مع الطبع ، وملاءمتها لروح العصر ، ومشابهتها لأساليب الغرب ، فظهرت مهذبة عذبة فيما كتب قاسم أمين ، وفتحى زغلول ، ولطفى السيد ، ومن جرى مجراهم . وانفرد بالأسلوب البديعى رجال دار العلوم ومن يمت بسبب إلى الأزهر ، من أمثال الشيخ حمزة فتح الله ، وتوفيق البكرى ، وحفنى ناصف ، ومن حذا حذوهم . وبدت على أسلوب هؤلاء مظاهر التكلف ، فأسرفوا فى المحاكاة ، وأوغلوا فى الصنعة ، وتشددوا فى القياس ، وتعصبوا فى استعمال اللغة . كما بدت على أسلوب أولئك مظاهر التطرف ، فتجوزوا فى القواعد ، وتسامحوا فى اللغة ، واستخفوا

بجمال الصياغة ، وهبطوا إلى مستوى العامية . وفى ذلك الوقت نشأت على أقلام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكتين طريقة ثالثة فيها الفكرة والطرافة والحركة والتنوع ، ولكن فيها الركاكة والتساهل والدخيل والعجمة . فكان من رد الفعل الذى لا بد منه لهؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعا . تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربى الخالص مكمّل النقص بما فاته من صور البيان ، لانقطاع أهله عن مسايرة التمدن الفكرى الحديث. استبانت هذه الطريقة فى نثر المنفلوطى ، كما استبانت فى شعر البارودى . ثم نهجها الكتاب الموهوبون المطبوعون فتميزت بالرقة والدقة والسلامة والرصانة والقصد . ثم نبغت طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد ، فبلغوا بالنثر الفنى منزلة لم يبلغها فى عصر من عصوره . فالأسلوب الذى كتب به المنفلوطى والبشرى والرافعى ، ويكتب به العقاد وطه حسين والمازنى ، هو ثمرة التطور الحديث فى الأدب والعلم والفن والحضارة . وهو وإن اختلف بين الكتاب فى القوة والضعف ، والعمق والضحولة ، والدقة والتجوز ، والتركز والانتشار ، يشترك فى الصفات الجوهرية للغة وهى الصحة والنقاء والمرونة ، وفى الخصائص الأصيلة للبلاغة وهى الأصالة والوجازة والتلاؤم ... ... »

لقد استطردت فى الاقتباس من هذا الفصل القيم ، لأننى معجب بتصوير هذا التطور والتسلسل فى ذلك الحيز الضيق عثل هذه النصاعة ؛ ولأننى أريد أن أدعو وزارة المعارف للانتفاع بهذا الفصل خاصة — إن لم يكن بالكتاب كله — فى مدارسها ومعاهدها بدل تلك الفصول القاصرة البائسة التى يدرسها طلاب المدارس الثانوية !!

***

والآن وقد استعرضت وناقشت الأسس العامة فى كتاب « دفاع عن البلاغة » يعن لى أن أناقش بعض الموضوعات الفرعية التى جاءت هنا وهناك فى الكتاب

يناقش المؤلف رأيا لأميل زولا فى البلاغة ، واستعراض هذه المناقشة مفيد فى بيان رأى المؤلف وزيادة إيضاحه .

قال إميل زولا :

« ليس من مطلق الحق — وإن عارض بوفون وبوالو وشاتوبريان وفلوبير — أن الكاتب يكفيه أن يعنى كل العناية بأسلوبه ليشق له فى الأدب طريقا يبقى على الأبد . إن الشكل عرضة للتغير والزوال بسرعة . ولا بد للعمل الكتابى قبل كل شىء أن يكون حيا ؛ ولا يمكن أن يكون حيا إلا إذا كان حقا . والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية »

ثم يقول بعد ذلك :

« وهل نستطيع أن نتبين الكمال الفنى فى أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرؤهما مترجمين ؟ »

ويعلق الأستاذ الزيات على هذا الرأى فيقول :

« وهذا القول ظاهر البطلان ، لأن المخلوقات الحية التى يلدها ذهن الكاتب ، لا يتسنى لها البقاء على توالى الأعقاب والأحقاب إلا بالأسلوب كما قال شاتوبريان »

« أما قوله : « وهل نستطيع أن نتبين الكمال الفنى فى أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرؤهما مترجمين ؟ » فرماه أن روائع اليونان والرومان لم تخلد على الدهر إلا بمعانيها المتكررة ووقائعها المشوقة ، وعواطفها الصادقة ، وشخوصها الحية ،بدليل أننا نقرؤها اليوم بمعانيها لا بمبانيها ، وبفكرها لا بصورها . فلو كان خلودها منوطا بدقة الصياغة وجودة الصناعة لما عاشت بالترجمة . ثم يترتب على ذلك خطأ القول باتحاد الصور والأفكار فى الأسلوب ، لأننا حين نقرأ الإلياذة مثلا فى الفرنسية أو فى العربية لا نقرأ منها عين الموضوع .

« والحق الذى تؤيده الدلائل أن جمال الأسلوب وحده هو الذى ضمن الخلود لهذه الروائع ؛ فإن الثابت بالسند المتصل والخبر المتواتر أنها كانت آية عصرها فى البلاغة ، ولولا ذلك ما روتها الرواة ولا ترجمتها التراجم »

ونحن نرى أن إميل زولا كان على كثير من الحق وهو يقول : « والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية » وليس هذا القول « ظاهر البطلان » كما يرى الأستاذ الزيات ؛ كما أن تعليق الأستاذ بعد هذا صحيح ، ولا تتناقض صحته مع صحة رأى زولا فى شىء . فالمخلوقات الحية التى يلدها ذهن الكاتب لا يتسنى لها البقاء إلا بالأسلوب »

ولكنها يجب أن تكون « حية » ليحتفظ الأسلوب لها بالحياة وإلا عجز عن منحها الحياة !

وكذلك نحتاج إلى شيء من التحفظ فى تعليق الأستاذ على خلود روائع هوميروس وفرجيل ؛ فليس الأسلوب «وحده» هو الذى ضمن لها الخلود ، فلا بد من عنصر آخر حى مع الأسلوب ، كما اتفقنا من قبل ، الأستاذ وأنا ، على هـذا الأصل الكبير (فى أول مقال)

ويستطرد الأستاذ فى تعليقه فيقرر فى شأن الترجمة رأيا صحيحا نرجو أن ينتفع به من يتصدون لترجمة روائع الأدب العالمى ! ذلك حين يقول فى ص ٧٢ :

« والترجمة الصحيحة لا تنقل أفكار الكاتب أو الشاعر وحدها عن الأصـل ؛ إنما تنقل مع ذلك إشراق روحه ، وسمو إلهامه ، ولطف شعوره ، ونمط تفكيره ، وخصائص أسلوبه . فلو أن ترجمانا ضعيف العربية من تراجم المحاكم حدثته نفسه أن يعرض لإحـدى روائع شكسبير فنقلها نقلا لفظيا بأسلوبه الذى يترجم به عروض الأحوال ، أو أصـول الأحكام ، فهل تقول إذا استطعت أن تقرأ ما كتب إنك قرأت شكسبير ؟ أم ترى أنك قرأت ألفاظا كالعظام المعروقة المبعثرة ، لا تمثل من أى حيوان معنى من معانيه ، ولا صورة من صوره ؟ ... الخ »

وهذا دستور جيد للترجمة . وأشهد أنى أقرأ فى هذه الأيام مترجمات لا أدرى إن كانت على رأى البحترى ، إن كان صنع إنس لجن ، أم صنع جن لإنس ! فلعل من يتصدون للترجمة ينتفعون بهذا الدستور القويم !

* * *

وأخيراً نقف أمام لفتة طيبة تقرن فحولة الفن بفحولة الأمة عامة وفحولة البطل منها خاصة ؛ وهى لفتة صادقة ولكننا لا نثبتها هنا لمجرد الصدق ، بل للتوجيه أيضا :

جاء فى ص ١٢٢ :

« وازن بين عصر وعصر فى الأدب ، أو بين أديب وأديب فى الأسلوب ، تر الفرق بينهما إذا حللته لا يخرج عن قوة الرجولة فى هذا وضعفها فى ذاك . فعصر الجاهلية عند العرب واليونان ، وعصر الفتوح عند المسلمين والرومان ، وعهد الفروسية عند الفرنسيين والطليان ، كانت أزهى عصور البلاغة ، لأن الرجولة كانت فيها بفضل النزاع والصراع فى سبيل الحياة والغلبة والمجد والمرأة أشد ما تكون تماما واضطراما وقوة . فلما قتل الترف الرجولة ، وأذل العجز النفوس ، زهقت روح الفن ، وذهبت بلاغة الأسلوب ، وأصبح أدب الأديب سخفا وزيفا وثرثرة »

وجاء فى ص ١٢٣ :

« إن الأدب البليغ كامن فى البطل على أى صورة كان . فهو إن أنتجه برّز فيه ، وإن لم ينتجه شجع عليه . لذلك ازدهر الأدب فى ظلال أغسطس وبركليس والرشيد وسيف الدولة . وما دام كبراؤنا لم يخلقهم الله من الأبطال ولا من عباقرة الرجال ، فهيهات أن ينتجوا الأدب أو يفهموه أو يحبوه أو يعضدوه أو يقدموا أهله . وسيظل هذا النور الضئيل من الأدب القوى الحر محصوراً فى ظلام العمى والجهل ، حتى تقوى الأمة فينتشر ، وينبغ فيها القادة فيزدهر . وسيعيش رجاله القلال المخلصـون معتكفين فى المكاتب اعتكاف النساك فى الصوامع ، يتلونه على بصر الطبيعة ، وينشدونه على سمع الزمن ، حتى تقوى دولة الحق والجمال ، فيجلسوا فى الصدر ويمشوا فى المقدمة »

إن الذى يقرره الأستاذ عن الصلة بين فحولة الأدب وفحولة الأمة أو الفرد صحيح ؛ ولكنى لا أوافقه فى تشاؤمه من العصر لأنه لم يوجد فيه بعدُ أغسطس وبركليس والرشيد وسيف الدولة. إن الأدب لم يعد اليوم فى حاجة إلى أمير يرعاه أو كبير يشجعه . لقد انتهى عهد الأمراء والكبراء . والعصر عصر الشـعوب والأفراد . والأمة العربية الناهضـة اليوم بمجموعها عوض عن أمراء الإقطاع فى عهد سيف الدولة . فللأدب العالى أن يزهو اليوم مستقلا بنفسه ، وللأدباء اليوم أن يسيروا فى الأرض غير معتمدين على ذراع أمير أو كبير .

وما نظرت يوما إلى الأديب فى نفسى وإلى أى أمير أو وزير أو كبير إلا وجدتنى أكبر وأشد قوة ، وإلا وجدت هذا الأمير أو الوزير أو الكبير فى حاجة إلى رعايتى قبل أن أكون فى حاجة إلى رعايته ! وهذه هى الدعوة التى يحسن أن نهتف بها للأدب والأدباء ليترفع بعض من لا يترفع منهم ، عن الزلفى للأمراء والوزراء والكبراء !(1)

سيد قطب

(1) فصل من كتاب (كتب وشخصيات) يصدر قريبا

الأدب في سير أعلام :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للاستاذ محمود الخفيف

— ١٨ —

حرب على القساوسة :

وأردف ملتن هذا الكتيب بكتيب ثان في يوليو سنة ١٦٤١ رد به على (أشر) أحد كبار الأساقفة، وكان كتيبه الثاني صغيراً، وقد عد رده على هذا الأسقف جرأة عظيمة ومبالغة منه في الثقة بنفسه ؛ وذلك أن أشر كان من أوسع الأساقفة أفقاً في تاريخ الكنيسة ومسائلها ؛ قضى نحو ثمانية عشر عاماً من عمره في هذه الدراسة حتى أصبح من أفذاذ طائفته . وقد جادله ملتن جدالا عنيفاً، ولجأ إلى المنطق في مجادلته . ومن أمثلة ذلك قوله « ترجع الأسقفية إما إلى أصل إنساني أو إلى أصل إلهي، فان كانت الأولى جاز القضاء أو الإبقاء عليها حسبما توحي المصلحة ، وإن كانت الثانية وجب أن يقوم الدليل على ذلك من الكتاب المقدس ، فانه إن لم يقم هـذا الدليل فلن يكون لأي تأكيد إنساني لها أية قيمة يعول عليها » ، وبعد أن يعجز ملتن خصمه بمطالبته بهذا الدليل يستعرض ما اعتمد عليه من المراجع فيسفهها ويسخر منها في لغة هي أقرب إلى السباب منها إلى النقد ، ولن يخشى ملتن أن يسجل في كتيبه احتقاره لآباء الكنيسة القدامى وزرايته عليهم وعلى كل من يخالفه سواهم فيما يذهب إليه مهما يكن من خطره أو سلطانه ....

ولم يلبث أن أعقب في السنة نفسها كتيبه الثاني بثالث ، وذلك أن (هول) رد على جماعة سمكتنسي بكتيب جديد يدافع به عن كتيبه الذي سماه الإعلان المتواضع . فانبرى له ملتن وراح يسخر منه ما وسعته السخرية ، وجرى في ذلك على طريقة عجيبة ، فهو يورد رأياً من آراء هول ويسوقه مساق التحدي في صيغة سؤال أو اعتراض ثم يجيب عليه متهكماً ساخراً حتى لا يتورع أن يرد على أحد الاعتراضات بضحكات يثبت صورتها هكذا ... ها! ها! ها! على نحو ما يفعل الطلاب إذ يتجادلون في أمر من الأمور .

ولم يستطع ملتن أن يملك زمام قلمه إذ كان يرد على أحد المتحمسين من الفئة التي يبغضها ويحاربها في عنف بالغ ، لذلك جاء من عبارات الهجاء والفحش بما نعجب كيف يصدر مثله ممن كان له مثل ثقافته وأدبه ونفسه الشاعرة وحسه المرهف ، وتلك في الحق عجيبة من عجائب عقله وخلقه ...

وفي مستهل سنة ١٦٤٢ نشر ملتن كتيباً رابعاً ، وجمع في هذا الكتيب كل ما واتته به ثقافته ودراسته من المعرفة وكل ما جادت به قريحته من الآراء ، وساقها جميعاً حربا على خصومه القساوسة ، وكان في هذا الكتيب أكثر عناية بالشرح والاقناع منه بالسخرية والاقذاع ، لذلك جاء خلواً من الحشو بريئاً من هجر القول وإن لم تكن لهجته فيه أقل حماسة منها في سالفيه ، ولهذا الكتيب الرابع أهمية من ناحية أخرى ، وذلك أن ملتن أبان فيه بعض آرائه في الدين والسياسة .

ففي الدين أعلن تمسكه بالبرسبيتيرية وأنها خير نظام لإدارة الكنيسة ، فلا يصح أن يترك لهؤلاء القساوسة الإشراف على الكنيسة فيرتفع بعضهم فوق بعض درجات ، ويتخذوا من مناصبهم الدينية سلاحاً للعدوان والطغيان والجشع ، وإنما يجب أن يكون المشرفون على إدارتها قوم يرضى عنهم الناس ويختارون بمشيئتهم ويكونون في مناصبهم سواء ، وهو في ذلك إنما يشير باتباع نظام كلفن في حماسة وإخلاص .

وذكر أحد القساوسة في هذه المعركة أن آدم هو أول قس ، فكان مما رد به ملتن على ذلك قوله : إنه إزاء ما يراه من شدة ولوعهم بالقديم في الدفاع عن قضيتهم يوافقهم فيما يزعمونه ، بل إنه يذهب في القدم إلى أبعد مما ذهبوا ؛ فاذا كان آدم في البشر هو أول قس ، فقد كان إبليس من قبل آدم هو في الملائكة القس الأول . ويخرج ملتن من ذلك بنتيجة وهي أن القساوسة في أصلهم ينتمون إلى الشيطان ، فحسبنا من بغض هذا النظام أنه من عمل الشيطان .

ويؤمن ملتن بعقيدة الثالوث على الرغم من فكرته السامية التي تجلت في إنكاره تصور الله وتحديده ويصلي مستغيثاً بهذا الثالوث كـكل من يؤمن بهذه العقيدة في أصلها ،

ويميل ملتن إلى الاعتدال والتسامح فى معاملة أهل المذاهب الأخرى من غير البيوريتانز ، فوجود هؤلاء المخالفين أمر طبيعى لأن هؤلاء يعدون قبل الإصلاح الجديد كالآلام الشديدة التى تسبق كل وضع ؛ وما من شىء يتغير من حال إلى حال فى عالم المادة إلا بعراكه مع العناصر الأخرى المضادة له ، وفى المصنوعات لا بد من ذهاب بعض المادة فى التسوية والتهذيب ، وما من تمثال من المرمر يقام أو من صرح يبنى إلا إذا أزيل كذلك شىء مما علق به .

ولا يسع ملتن إلا الموافقة على عقوبة الطرد من الكنيسة ولكن على ألا يستعمل هذا الحق إلا بمنتهى الحذر وبعد التحرى الدقيق وطول الأناة والوثوق من أن المذنب يستحق تلك العقوبة .

ولا يزال ملتن فى كتيبه هذا موالياً للملكية ، وغاية مايسمى إليه أن يتخلص الملك وأن تتخلص انجلترة من طغيان القساوسة . وفى رأيه أن القساوسة هم الذين يوحون إلى الملك الطغيان والاستبداد ، لأنهم بتعصبهم وحرصهم على مناصبهم ومغانمهم يكرهون كل رأى حر ، ومتى لمحوا رأياً حراً رأوا فيه نذر الفتنة وخوفوا الناس من عواقبه وأشفقوا على النظام والهدوء من الفوضى المزعومة ، هذا إلى دسائسهم وسوء مكرهم وافترائهم الكذب على من يخشونه من الناس ؛ وإنه ليرى فيهم بذلك وبغيره أصلح أداة للطغيان . ولقد اعتادت الكنيسة أن تتخذ من الكتاب المقدس سلاحا تشهره فى وجه الحرية ، ووسيلة إلى الجشع الذى لا يشبع والطموح الذى لا يقف عند حد .

وجاء فى كتيبه هذا فيما جاء من آرائه طعن شديد على الجامعات ؛ فما إن يزال ملتن حانقاً على الجامعة وأسلوب التعليم بها بعد أن تركها بعشر سنوات ؛ وجاء رأيه عن الجامعات عرضاً فهو يعجب كيف أن أناساً علم من أمرهم أنهم أهل ثقافة وعلم يدافعون عن الكنيسة بكتاباتهم ؛ ورد ذلك إلى أنهم اكتسبوا ما يسمونه علماً فى الجامعات ، فقد قصدوا إليها يبتغون المعرفة الصحيحة ، ولكنهم لم يجدوا هناك إلا ألوانا من السفسطة وضروباً من تعاليم القساوسة سدت بها حلوقهم فعاقت دخول الفلسفة الصحيحة ، كما خنق أصواتهم إلى الأبد ما امتلأت به حناجرهم من لغو ميتافزيقى ...

وفى سنة ١٦٤٢ نشر القس هول وابنه كتيباً عنيف اللهجة قاسى العبارات وجها فيه إلى ملتن مطاعن شديدة تناولت فيما تناولت شخصه ومسلكه إبان طلبه العلم بالجامعة ، وكأنما أرادا أن يحارباه بسلاح من أسلحته لكى يذيقاه مرارة المطاعن الشخصية. والحق أنهما أوجعاه وملآ قلبه بكتيبهما هذا غيظاً شديداً وحنقا ولاسيما أنهما افتريا عليه ماليس من خلقه ونسبا إليه ما هو نقيض ما عرف عنه من استقامة وطهر وعفة حرص عليها أشد الحرص سراً وعلانية حتى باتت من أبرز صفاته وأخصها ...

اتهمه هول وابنه أنه لسوء مسلكه فى الجامعة قد لفظته كما تلفظ الحلوق القىء ، فذهب إلى منعزل على مقربة من لندن حيث كان يقضى نهاره فى الفسوق والفجور وليله فى أماكن ومواخير الفساد ، وحيث راح يغازل أرملة غنية بغية الزواج بها .

ورد ملتن بكتيب كان خامس هاتيك الكتيبات فذكر أنه ما كان ليعبأ بما يقولان لولا أنه لصلته بجماعة سمكتمنسى ولإخلاصه لواجبه فى القضية التى هو بصددها يحرص على أن يطهر اسمه مما حاولا أن يلصقاه به ، ومهد بهذا لحديث طويل عن نفسه يعد تاريخاً لحياته حتى ذلك الوقت ...

نفى عن نفسه أن الجامعة لفظته ، فها هو ذا يحمل شهادة من أكبر شهاداتها ، ولقد كان هناك كما يعرف أهلها جميعاً موضع التوقير والمحبة ، وكان يقضى أصباحه فى قراءة أعظم المؤلفين وفى تقوية بدنه بالرياضة ، أما أمساؤه فلم يعرف فيها فجوراً ولا لهواً اللهم إلا ما كان يشاهده من تمثيل مسرحيات الكلية فى كمبردج إن كان يعد هذا من الفجور .

ويشير ملتن إلى عزلته بعد أن ترك الكلية وإلى دراساته التى أخذ نفسه بها فى غير رفق ، هنالك حيث قرأ فيمن قرأ أفلاطون وندّه زينوفون قراءة درس وتمحيص و « حيث أعنى إذا تكلمت عما علمته من الحكمة والحب الجانب الحق منهما ، ذلك الجانب الذى ليس غير الفضيلة كأسه الساحرة التى يطاف بها على من يستحقونها فحسب . أما الذين لا يستحقونها فتطوف عليهم شيطانة تزلت باسم الحب وأهانته بكأس مزاجها شراب مسكر ثقيل ؛ وتعلمت كيف تبدأ فى النفس وكيف تنتهى فيها أولى غايات الحب وأهمها فتلد توأميها السميدين : العلم والفضيلة .

ويعد ملتن قارئيه أنه سوف يتكلم عن الحب الصحيح أكثر مما تكلم وذلك « فى وقت هادئ لا شتائم فيه ، لا فى هذه الجلبة القائمة إذ ينبح الخصوم بالباب كما تعلمون » .

ويعود إلى حيث العفة فيقول : « إن من يحب ألا يخلق

دونه الأمل فى أن يكتب مايعظم وقعه فى النفس فعليه أن يكون هو نفسه قصيدة صحيحة ، أعنى مزيجاً من أجمل الأشياء وأشرفها بهذه الفكرة يصحبها جمال فى طبيعتى وكبرياء شريفة فى نفسى ونظرة منى سامية إلى ذاتى سواء فيما سلف من حياتى وفيما استقبل منها ؛ بهذا كله لا أزال أعلو على ذلك التدهور العقلى الذى لا بد أن ينحط إلى أسفل منه من تقر نفسه الفسوق والفحشاء » .

ويقول إنه قد تعلم كمسيحى أن فقدان العفة فى الرجل وهو أكمل الزوجين جنساً وهو صورة الله ومجده ، أكثر عيباً منه فى المرأة التى هى مجد الرجل فحسب ؛ وأن فى الجنة ألحاناً قدسية لن يفهمها إلا من لم يدنس بالنساء بدنه . وتطرق من هذا إلى قوله إنه ككل عاقل يفضل أن يتزوج بعذراء فقيرة على أن يتزوج بأرملة غنية .

وينتقل ملتن بعد الدفاع إلى الهجوم ، فيعود إلى التنديد بالأساقفة وجمود عواطفهم وتعصبهم وجهلهم وحماقاتهم على نحو لا يسهل معه أن نقول أيهما كان أقذع لفظاً وأفحش هجواً : ملتن أم خصمه هول .

بهذا الكتيب الخامس تنتهى الحرب بين ملتن والقساوسة ، وهى جانب من جوانب دفاعه عن الحرية ، وهو هنا إنما يدافع عنها أمام التعصب الفكرى الذى هو من أشد أعدائها خطراً عليها .

ولا بد من نظرة إجمالية فى هذه الكتيبات الخمسة بعد أن بينا موضوع كل كتيب منها والدافع الذى حمل ملتن على كتابته .

يخطئ من ينظر إلى هذه الكتيبات على أنها عمل أدبى ، فما كانت فى الواقع إلا حرباً قوامها الحماسة والعنف ، لا يعنى صاحبها إلا أن يصيب فيصمى ، أو يضرب فيهزم ، وشتان بين هذا وبين العمل الأدبى الذى يقيمه صاحبه على أساس من الفن وتكون قوامه فكرة إيجابية فيبنى كما يهدم ويتبين ما يأخذ مما يدع ، ويتفنن فى إبداع الصورة وفى اختيار اللفظ وإحكام النسج لكى يجمع بين وضوح الفكرة وجمال الأداء .

لهذا كان يجمع ملتن فى كتيباته هذه بين السمو والإسفاف والبلاغة والركاكة والجودة والغثاثة ، والحجة الناصعة والشتائم المقذعة ، والفلسفة الرصينة والتفاهة المشينة ، والغرض النبيل والطعن الشخصى الوبيل ، لا يعنيه إلا أن يؤلم ويوجع ويشفى سخيمة صدره ، وأن يكون من وراء كتيباته أثر عميق فى أذهان الناس ونفوسهم وضجيج شديد يتجاوب العصر صداه . ولقد نجح فيما أراد نجاحاً كبيراً فهز نفوس قومه هزاً قوياً وزلزل القساوسة زلزالا شديداً .

وكان أسلوب ملتن فى الجملة أسلوب الشاعر العظيم إذا كتب على غير أصالة منه فى النثر ، لذلك كان يأتى بكثير من الصور والأخيلة الشعرية فى مجازاته وتشبيهاته واستعاراته ويستغرق فى المحسنات اللفظية ما وسعه الاستغراق ، كما كان يعمد إلى الميثولوجيا أحيانا فيخيل إليك من بعض فقراته أنك تلقاء شعر لا ينقصه إلا الوزن والقافية ، على أنك تقع بين الفينة والفينة على صفحات له يشرف بها على الغاية من بلاغة العبارة وإشراق اللفظ ومتانة السياق وبراعة الاتزان بين الجمل والاتساق .

أما آراؤه التى أوردها فيها وإن لم يقصد إلى ذلك فترينا أنه كان حتى ذلك الوقت مؤمنا بعقيدة الثالوث فى أصالتها وإن كان برسبتيرياً من حيث إدارة الكنيسة ، بيوريتانياً من حيث المذهب مع شىء غير قليل من الاعتدال ، ملكياً من حيث السياسة ، كما ترينا أن أقوى عواطفه يومئذ كانت عاطفة الدفاع عن الحرية وشدة محبته إياها ...

على أن حبه الشديد للحرية سينتهى به فيما سنرى من تطور فكره إلى انطلاقه من تلك الآراء جميعاً ، فينفر من عقيدة الثالوث ومن مثيلاتها من العقائد لأنها تستند إلى العقل ولا تتفق مع ما يحب من حرية الفكر ، وينفر من البرسبتيرية لأنها نظام جامد لا تسلم له أن يعيش ويفكر كما يرى ، وينفر من الملكية لأنها سوف تقيم الدليل فى السنوات المقبلة على تمسكها بالاستبداد وكراهتها روح الحرية .

ولقد كانت هذه الكتيبات آخر ما كتب وقلبه عامر بالأمن ونفسه متطلعة إلى النصر ، فلسوف تنهار الآمال واحداً بعد واحد ؛ فيتزوج بعذراء فيجد الصدمة الأولى لآرائه وكبريائه فى هذا الزواج ويكون من أشد ما يعكر عليه مستقبل حياته ؛ وتظهر له البرسبتيرية وليست أقل تعصباً وحماقة من الأسقفية ؛ ويلتفت باحثاً عن الحرية فلا تنزل من السماء كما أمل واستبشر لتجعل من انجلترة مدينة الله على الأرض ، ويقلب الشاعر كفيه فى حسرة ويبتئس قلبه الكبير وتتكدر روحه العظيمة فيفقد الثقة فى الأرض ومن عليها ويتجه ببصره صوب السماء ، ويلتمس فى التغنى بألحان فردوسه العزاء .

(يتبع) الخفيف

الشاعران المتشابهان

الشابي (التونسي) والتجاني (السوداني)

للأستاذ أبي القاسم محمد بدري

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

تصوير الأحداث الوطنية :

الشاعران اشتركا في البواعث التي تستفز الإنسان إلى المنطق بشعر متفق في المعنى والغرض لما بينهما من التشابه في كثير من نواحي الحياة كما قدمنا ، فكلاهما عاش حياه مليئة بالأهوال ، زاخرة بالكفاح والنضال . وبرم كل منهما بما يجرى بين أهله وقومه ، مستهجناً حياة شعب يعاني متاعب الاستعباد وآلام الاستبداد . ولقد بذل كل منهما جهده في تصوير أحوال شعبيهما حفزاً للشعور ، واستفزازاً للنفوس المكلومة لتصحو من غفوتها ، وتهب من رقدتها ، وتنهض وتركض حتى تلحق بركب الأمم المسرع العجلان الذي لا يعين العاجز ولا ينتظر المتخلف الكسلان . إنهما أجادا وأفادا ، كأحسن ما يطلب ذلك من شاعرين عظيمين أديا رسالتيهما في البلاغ والبيان أداء كاملا واضحاً في مبناه ، قوياً في معناه ، مؤثراً بألفاظه وموسيقاه ، قال الشابي مخاطباً شعبه .

ليت لى قوة العواطف ياشعبي فألقى إليك ثورة نفسى
ليت لى قوة الأعاصير لكن أنت حى يقضى الحياة برمس
أنت روح غبية تكره النور وتقضى الدهور في ليل حدس
أنت لاتدرك الحقائق إن طافت حواليك دون حس وحس

إلى أن قال : —

في صباح الحياة ضمخت أكوا بى وأترعتها بخمرة نفسى
ثم قدمتها إليك فأهرقت رحيق ودست يا شعب كأسى
فتألمت ثم أسكت آلا مى وكفكفت من شعورى وحسى
ثم نضدت من أزاهير قلبى باقة لم يمسها أى إنس
ثم قدمتها إليك فمزقت ورودى ودستها أى دوس
ثم ألبستنى من الحزن ثوباً وبشوك الصخور توجت رأسى

ثم قال لما يئس من الإصلاح وبرم بالحياة وحينما ذهبت صيحته أدارج الرياح ولم يسمع قومه الأنين والنواح : —

هأنا ذاهب إلى الغاب يا شعـ ـبى لأقضى الحياة وحدى بيأسى
هأنا ذاهب إلى الغاب علّى في صميم الغابات أدفن نفسى
ثم أنساك ما استطعت فما أنـ ـت بأهل لخمرتى ولكأسى

ولكن هيهات أن ينساه وهو قد ترعرع فوق أرضه ونشأ تحت سماه . إنه يحثه للنهوض ويدفعه للعمل السريع بعد سكب روح الأمل البديع فيه ، وذلك يتضح في خطابه الطير الذى يدرى معنى الحياة ، ويعرف أن طيب عيشها لا يتاح لمن سلبت حريته ، ومات حسه وبلد شعوره ، وانطفأت جذوة آماله ، وغاض معين أحلامه .

سوف أتلو على الطيور أناشـ ـيدى وأفضى لها بأحزان نفسى
فهى تدرى معنى الحياة وتدرى أن مجد النفوس يقظة حس

ويتبين لك عند إنعام النظر أنه لم ييأس من الإصلاح بل كان يستبعد زمنه ؛ لأن شعبه لم يبلغ سن النضج ولم يقف على سوقه ينافح ويكافح ليرد حريته المسلوبة فيحظى بكمال استقلاله ، ويرغم غيره من الأمم على احترامه وإجلاله . وفي القول التالى يؤنب بنى قومه لما استخفوا بقوله ، وأشاحوا معرضين عن سماع صوته .

أيها الشعب أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل ينسى
أنت في الكون قوة لم تسسها فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها ظلمات العصور من أمس أمس
والشقى الشقى من كان مثلى في حساسيتى ورقة نفسى
هكذا قال شاعر ناول الشعـ ـب رحيق الحياة في خير كأس
فأشاحوا عنها ومروا غضابا واستخفوا به وقالوا بيأس
« قد أضاع الحياة في ملعب الجن فيا بؤسه أصيب بمس »
« طالما حدث الشياطين في الوا دى وغنى مع الرياح بجرس »

ويشبه التجاني الشابي في رقة الإحساس ودقة الشاعر . فهو نفس مرهفة مضطرمة ، وقلب خفاق بلواعج الحب لوطنه ، والإخلاص لقومه ، يثور لأحزانه ويتألم لآلامه وأشجانه . وقلب التجاني هو قلب الشاعر الصادق الذى يعد بمثابة أداة تصوير واعية تلتقط ما يتساقط عليها من ألوان الحوادث ومشاكل الوجود ، ومسرات الحياة وحسراتها . عبرت نفس التجاني الثائرة عما يجيش في قرارتها بهذه الأبيات الشاكية الصارخة في قصيدة مطلعها (ثورة) فقال .

من لهذا الأنام يحميه عنى   قلمى صارمى وطرسى مجنى
هو فنى إذا اكتهلت وما زا   ل على ريِّق الحداثة فنى
نهلت من دمى الحوادث واستر   وى يراعى مما يدفِّع دنى

إلى أن يقول : —

وطنى فى الصبا الدمى والتماثيـ   ل ونفسى ومن أحب وخدنى
هـذه يا أبى تصاوير ما تبـ   رح دنياى أو تزايل كونى
يصنع الغاب مزهرى، ويشيد الر   مل عرشى ، ويبعث اللهو أمنى
تلك عرسى وإنها صنع نفسى   بيدى صغتها وذيالك ابنى
هى دنيا الصبىّ لا جنة الشيـ   خ تفيض النعيم من كل لون

ثم يخاطب وطنه فيقول : —

قف بنا نملأ البـلاد حماساً   ونقوض من ركنها المرجحن
هى للنـازحين مورد جود   وهى للآهلين مبعث ضن
يستدر الأجانب الخير منها   والثراء العريض فى غير من
أبطرتهم بلادنا فتعـالى   ابن أثينا «واستكبر» الأرمنى

ثم يختمها بهذا البيت الرائع الذى يدل على صدق الوطنية وقوة الشعور بكرامة القومية . —

يابلادى أخلصتك الخير واستصـ   فيت ودى إليك من كل مين

ماذا ترى فى هذا الشعر الرصين والنفثة القوية المنبعثة من فؤاد مجروح وصدر معذب بالحرقة والأنين ؟ يتألم ويرسل صوته داويا كالريح ، مجلجلا كالرعد ، نافذاً كالسهم فى قلوب المواطنين ونفوس الشباب العاملين .

صور الحب والجمال :

ليس فى الوجود إنسان دقيق الشاعر مرهف الإحساس لا يخفق قلبه للحب العذرى الطاهر ، ولا يفتتن بمنظر الجمال الساحر الجذاب ، ويتعلق بالحسن فى جميع مظاهره المادية والمعنوية .

وما دامت النفس البشرية تشعر بهذه العاطفة الجامحة فأنها تجد فى الشعر خير معبر ناطق لما يلابسها من متباين الحس ومختلف الشعور ؛ وأصدق محدث ينطق بما توحى به بيئة كل شاعر ومحيطه الذى نشأ فيه ، وبما يؤثر عليه فى حياته من متنوع الحوادث ومتعدد الخطوب .

لقد خفق قلب الشابى بالحب حينما خاطب محبوبه بهذه الأبيات فى قصيدة عنوانها (أيتها الحالمة بين العواطف) .

أنت كالزهرة الجميلة فى الغا   ب ولكن ما بين شوك ودود
فافهمى الناس إنما الناس خلق   مفسد فى الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليـ   ل غريباً فى أهل هذا الوجود
ودعيهم يحيون فى ظلمة الإثـ   م وعيشى فى طهرك المحمود
كالملاك البرىء ، كالوردة البيـ   ضاء ، كالموج فى الخضم البعيد
كأغانى الطيور ، كالشفق السا   حر، كالكوكب البعيد السعيد

أودع الشابى فى الأبيات المتقدمة فنه وروحه وفكره . فهو حسن فى الصياغة والتخييل ، وبارع فى التشبيه والتمثيل ، ومن أكثر الشعراء ولوعاً على المعنى الطريف والفكرة العميقة .

فهل لنظيره التجانى شعر يشبهه فى روعة المعنى ودقة المبنى .
إن التجانى وايم الحق وحيد عصره ونسيج دهره فى الإبداع فى شعر الحب والجمال . وإليك قصيدة تمثل أصدق تمثيل فنه الرائع، وفكره البارع ، وخياله العميق ، وتعبيره الدقيق . اسمعه يقول وهو المحب الواله المفتون :

جمال وقلوب

وعبدناك يا جمـال وصغنا   لك أنفاسنا هياماً وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجّر   نا ينابيعها لعينيك قربى
وسمونا بكل ما فيك من ضعـ   ف جميل حتى استفاض وأربى
وحبـوناك ما يزيدك يا لفـ   ظ وضوحاً، وأنت تفتأ صعبا

إلى أن قال :

من تُرى وزع الفاتن يا حسـ   نُ ومن ذا أوحى لنا أن نحبا
من ترى علم القلوب هوى الحسـ   ن وقال اعبدى من السحر ربا
من ترى ألهم الجمال وقد أعطـ   اه من جبرة الحوادث عضبا
أن يبث الهوى مفاتن فى جفـ   ن بليغ وأن يجود ويأبى
من ترى وثق العرى بين مسحو   رين اسما هما جمالا وقلبا
إنه صانع القلـوب التى تنـ   صب فى قالب المحاسن صبا

تصوير الحالات النفسية :

إذا عرفنا أن فى مكنة الشاعر العبقرى أن يُنطق الشخوص عن نفثات صدورهم ، وصيحات قلوبهم ، وحسرات نفوسهم

فى تعبير قوى ونغم سحرى ، ومعنى علوى ، ينتقل به التأثير إلى نفوس السامعين فتتحرك عواطف القارئين بوحى الصورة المحسة فى الوصف الشعرى ؛ فان فى استطاعته من غير ما مشقة أو نصب أن يصور خلجات نفسه ، ونبضات قلبه ، وإحساس روحه ، صوراً شعرية ، هى فيض العاطفة المنفعلة ، ووحى الوجدان الصادق الذى عرف حقائق الوجود فى نفسه معرفة الواقع الملموس ، لا المتخيل المحسوس .

للشابى قصائد كثيرة يصور فيها مطالب حسه ، وشجون نفسه ، تصويراً عذباً صادقاً تحس فيه حرارة الأيمان ، وصدق العواطف الباكية الناحبة . قال أبياتاً فى قصيدته (فى ظل وادى الموت) :

نحن نمشى وحولنا هاته الأكـ ... وان تمشى ؛ لكن لأية غايه ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمـ ... ـس ، وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو آية الكون للمو ... ت ، ولكن ماذا ختام الروايه؟

إلى أن قال :

قد رتعنا مع الحياة طويلا ... وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالى حفاة ... فى شعاب الزمان حتى وعينا
وأكلنا التراب حتى مللنا ... وشربنا الدموع حتى روينا

وفى قصيدة أخرى عنوانها (الأبد الصغير) يقول :

يا قلب إنك كون مدهش عجب ... إن تسأل الناس عن آفاته وجموا
كأنك الأبد المجهول قد عجزت ... عنك النهى واكفهرت حولك الظلم
يا قلب كم من مسرات وأخيلة ... ولذة يتحامى ظلها الألم
غنت بفجرك صوتاً حالماً مرحا ... نشوان ثم توارت وانقضى النغم

ثم يعدد ما انتابه من آلام وأحزان عقبت ما كان فيه من مسرات ولذائذ فيقول :

كم قد رأى ليلك الأشباح هائمة ... مذعورة تتهاوى حولها الرجم
ورفرف الألم الداى بأجنحة ... من اللهيب وأن الحزن والندم
تمضى الحياة بماضيها وحاضرها ... وتذهب الشمس والشطآن والقمم
وأنت أنت الخضم الرحب لا فرح ... يبقى على سطحك الطاغى ولا ألم

ثم يصور أحلامه التى نسجها فتلاشت ، وأكاليل نخاره وزينته التى أفنتها العواصف ، وآمانيه النضرة بمباهج الفردوس ومتع الجنان ، حيث اختفت وزالت . كل ذلك يعطيك فكرة عن نفسه التى برمت بالحياة لزوال ما فيها من نعيم أو جحيم ، لأنها تستقر بعد الحياة الفانية فى دنيا الخلود شابة نضرة مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم . كأنها لم تعرف السار البهيج والقاتم الحزين من صور الحدثان وظروف الزمان . إنه يقول هذا المعنى فى هاته الأبيات :

يا قلب كم ذا تمليت الحياة وكم ... راقصتها فرحا ما مسك السأم
وكم توشحت من ليل ومن شفق ... ومن صباح توشى ذيله السدم
وكم نسجت من الأحلام أردية ... قد مزقتها الليالى وهى تبتسم
وكم ضفرت أكاليلا موردة ... طارت بها زعازع تدوى وتحتدم
وكم رسمت رسوما لا تشابهها ... هذى العوالم والأحلام والنظم
كأنها ظلل الفردوس حافلة ... بالحور ثم تلاشت واختفى الحلم
تبلو الحياة فتبليها وتخلعها ... وتستجد حياة ما لها قدم
وأنت أنت شباب خالد نضر ... مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم

إن التجانى لا يقل عن الشابى مقدرة فى صوغ الانفعالات الوجدانية والحالات النفسية فى صورة تخيل لقارئها أنه يناجى نفسه ويحاور ضميره ، لا أنه يقرأ قطعة ممتازة لشاعر ممتاز .

نقدم لك منها هذه القصيدة العصماء فى روحها ومعناها ، وفيما تحمل من أسى وشجى ومن دموع وآلام . هى قطعة تفجرت من نفس ممزقة ونفثة من صدر مصدور عانى تنكر الصديق ، وجفاء الناس ، وقسوة المرض ، وتكالب المصاعب والمصائب . يقول هذا الشاعر وهو على فراش الموت مخاطبا صديقه « أنيس » :

أرأيت الصديق يأكله الدا ... ء ويشوى عظامه الحراق
مارد هده السقام ولكن ... صبره الجم للضنى دفاق
جف من عوده الندى فتعرى ... وتنفت من حوله الأوراق
وذوى قلبه النضير وقد كا ... ن له فى زمانه تخفاق
وأنا اليوم لا حراك كأن قد شد ... فى مكمن القوى أوثاق
بت أستنشق الهواء اقتسارا ... نفس ضيق وصدر نطاق
وحنايا معروفة وعيون ... غائرات ورجفة ومحاق
لى رجاء فى رحمة الله لما ... وسعت فى الحياة ما لا يطاق

أبو القاسم محمد بدرى
مدرس بالمدرسة الثانوية بأم درمان (السودان)

ظَرْف الفقهاء

[مهداة إلى الأستاذ على الطنطاوى]

للأستاذ على العمَّاري

تحدث الأستاذ على الطنطاوى فى مقالين سابقين نشرهما فى مجلة الرسالة عن غزل الفقهاء : وقد أوحى بهما إليه جدل كان بينه وبين أحد المتزمتين الذين ينكرون على العالم أن يطرب ويهتز، ويرون أن من واجب العالم أن يترفع عن الشعر وعبثه . وقد أفاض الأستاذ الطنطاوى — كعادته — فذكر كثيراً من شعر الفقهاء فى الغزل، ونشر صحائف طيبة من حيوات هؤلاء العلماء الفضلاء .

وقد رأيت أن لهؤلاء ناحية جديرة بأن يتأملها مثل هذا الرجل الذى يحرم طيبات الفكر على العلماء !

تلك هى ناحية « الظرف » . فقد كان كثير من الفقهاء على جلالة أقدارهم، وسمو منازلهم، يهتزون للشعر، وتأخذهم الأريحية عند سماعه ؛ وربما صدرت عنهم أشعار فكهة رائعة .

ولعل خير ما نهديه لمثل هذا الرجل هذه القصة :

كان القاسم بن سلام رحمه الله إمام أهل عصره فى كل فن من العلم ، وكانوا يعدونه أعلم من ابن حنبل والشافعى مع دين وورع ، وقد جاءه رجل فسأله عن الرباب فقال هو الذى يتدلى دون السحاب ، وأنشد لعبد الرحمن بن حسان :

كأن الرباب دوين السحاب   نعام تعلق بالأرجل

فقال الرجل لم أرد هذا فقال : الرباب اسم امرأة وأنشد :

إن الذى قسم الملاحة بيننا   وكسا وجوه الغانيات جمالا
وهب الملاحة للرباب وزادها   فى الوجه من بعد الملاحة خالا

فقال لم أرد هذا أيضاً ، فقال لعلك أردت قول الشاعر :

ربابة ربة البيت   تصب الخل فى الزيت

فقال هذا أردت . قال له القاسم من أين أنت ؟ قال من البصرة قال كم أعطيت للملاح ؟ قال : أربعة دراهم . قال : اذهب استرجع منه ما أعطيته وقل له : لم تحمل شيئاً فعلام تأخذ الأجرة(١) ؟ !

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٥٩ طبعه دار المأمون

فهذا كلام له وزنه فى تقدير الرجل ؛ وهو جدير بأن نوجهه إلى كل رجل ينكر قيمة الشعر ، ويتنقص محاسنه .

وإن المتصفح لتراجم العلماء ليرى فيها نفحات أدبية ، ولطائف شعرية ، تروع وتعجب ، ولا يمكن لمثلى فى هذا المقام أن يستقصى ، وإنما هى نماذج أنشرها وفيها غناء .

كان أبو حازم الأعرج من فضلاء التابعين ، وله فى الزهد والورع أخبار وأحاديث ، وقد خرج يوما يرمى الجمار فإذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها وألهتهم بجمالها ، فقال لها : يا هذه ، إنك بمشعر حرام وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم فاتقى الله واستترى ، فإن الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) فقالت : إنى من اللائى قيل فيهن :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها   وألقت على المتنين برداً مهلهلا
من اللاء لم يحججن يبغين حسبة   ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة أن لا يعذبها الله بالنار . فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمنون ، فبلغ ذلك الشعبى فقال : ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم ! ! أما والله لو كان من قرى العراق لقال اغربى عليك لعنة الله(١)

وهكذا تأخذ الأريحية هذا العابد المتزهد فيكون مثلا فى رقة العاطفة وتقدير الجمال ؛ فهو لم ينسك نسكا أعجميا ، ولا جفا طبعه وغلظ حسه فيغمض عينيه ويسد أذنيه دون هذه البدائع .

وربما بلغ الشعر ببعض الفقهاء إلى أكثر مما نتخيله ، ولكنها سجاحة النفس ، وقوة تأثير الشعر فيها ، قال أصحاب القاضى محمد بن عيسى الأندلسى : ركبنا لبعض الأمر فى موكب حافل من وجوه الناس إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض الأزقة سكران يتمايل؛ فلما رأى القاضى هابه وأراد الانصراف، فخانته رجلاه واستند إلى الحائط وأطرق . فلما قرب القاضى منه رفع رأسه وانشأ يقول :

ألا أيها القاضى الذى عم فضله   فأضحى به فى العالمين فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة   فلم أر فيه للشراب حدودا
فإن شئت أن تجلدفدونك منكبا   صبوراً على ريب الزمان جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة   تروح بها فى العالمين فريدا
وإن أنت تختار الحديد فإن لى   لسانا على مر الزمان حديدا

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٢١٠ (المطبعة الرحمانية)

فلما سمع القاضى شعره وميز أدبه أعرض عنه وترك الإنكار عليه ومضى لشأنه[١]

وقد ذكر صاحب نفح الطيب طرفة أخرى لهذا القاضى الذى عم فضله قال : خرج القاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى إلى حضور جنازة ، وكان لرجل من إخوانه منزل يقرب من مقبرة قريش فعزم عليه فى الميل إليه فنزل وأحضر له طعاما وغنت له جارية

طابت بطيب لثاتك الأقداح ... وزها بحمرة وجهك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه ... نمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها ... فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتبها القاضى طربا على ظهر يده . قال الراوى : فلقد رأيته يكبر على الجنازة والأبيات على ظهر يده[٢]

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد حدث الأصمعى قال أنشدت محمد بن عمران قاضى المدينة وكان أعقل من رأيته :

يا أيها السائل عن منزلى ... نزلت فى الخان على نفسى
يغدو على الخبز من خابز ... لا يقبل الرهن ولا ينسى
آكل من كيسى ومن كسرتى ... حتى لقد أوجعنى ضرسى

فقال : اكتب لى هذه الأبيات ، فقلت أصلحك الله هذا لا يشبه مثلك وإنما يروى مثل هـذا الأحداث قال : اكتبها فالأشراف تعجبهم الملح[٣].

على أن أجمل ما فى هذا الباب هذه القصيدة الفكهة الرائعة التى نظمها قاضى الجماعة بغرناطة ، وكان على جانب عظيم من الفقه والدين ، وقد صرفها فى أغراض كثيرة من الدعابة والظرف فجاءت تحفة رائعة زاد فى روعتها وزنها وقافيتها ، ذكرها المقرى فقال : ومن مجون الأندلسيين هذه القصيدة المنسوبة لسيدى أبى عبد الله بن الأزرق وأثبتها كاملة فى كتابه النفح وهى ستة وتسعون بيتا ابتدأها القاضى فقال :

عِمْ باتصال الزمن ... ولا تبال بمَن

ثم شبب فيها فأحسن إلى أن قال :

لا أم لى لا أم لى ... إن لم أرد شجنى
وأخلعنّ فى المجـ ... ـون والتصابى رسنى

(١) مطمح الأنفس
(٢) ج ٢ ص ٩٦٨
(٣) زهر الآداب ج ١ ص ٢٠١

وأخذ ينصح صاحبه باتباع نهجه ، والسير على سنته ، وإلا فهو أحمق مائق .

وإن تسفه نظرى ... ومذهـبى وديدنى
فالصفع تستوجبه ... نعم ونتف الذقن

وجرى ملء عنانه يمزح ويمجن حتى التفت إلى الماضى فبكى عليه وتحسر على أيامه ولياليه .

أفدى صديقا كان لى ... بنفسـه يسعدنى
فتارة أنصحـه ... وتارة ينصحـنى
وتارة ألمنـه ... وتارة يلمـننى
وربما أصفعـه ... وربما يصـفعنى
دهر تولى وانقضى ... عنى كطيف الوسن
يا ليت هـذا كله ... فيما مضى لم يكن

وقد يجد ويقوى ويأتى بالمعنى الفحل ، واللفظ المتين .

كأننى ولست أد ... رى الآن ما كأننى
والله ما التشبيه عنـ ... ـد شاعر بهين

ثم أخذ فى تعداد الأطعمة التى يشتهيها بشعر سافر لا مواربة فيه ولا التواء .

هـل للثريد عودة ... إلى قد شـوقنى
تغوص فيـه أنملى ... غوص الأكول المحسن

وبعد أن أفاض فى هذا إفاضة مليحة أخذ يخاطب صاحبه :

إيه خليـلى هذه ... مطاعـم لكننى
أعجب من ريقك إذ ... يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شبعا ... فذكرها أشـبعنى
وإن تكن جوعان يا ... صاح فكل بالإذن
فليس عنـد شاعر ... غير كلام الألسن
يصور الأشياء وهى ... أبداً لم تكن
فقوله يريك ما ... ليس يرى بالممكن[١]

وأظن أننا بعد هذه النماذج فى حل بأن نسوق إلى هؤلاء الذين يحرمون علينا طيبات القرائح ، وثمرات الأدب ، هذا الذى روى عن شيخ من شيوخ قريش وسادتها ، فقد سئل أبو السائب المخزومى : أترى أحدا لا يشتهى النسيب ؟ فقال : أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

علي العماري
المدرس بالأزهر

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٨٣٤ .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٦٩ — يارب ... !

نظر ابن السبابة إلى مبارك التركي على دابة فرفع رأسه إلى السماء وقال : يارب ، هذا حمار ، وله دابة ، وأنا إنسان ، وليس لي حمار ...

٧٧٠ — لما رضينا ولغضبنا

في الأغاني : أنشد المهدي قول المؤمل :

قتلتِ شاعر هذا الحي من مضر والله يعلم ما ترضى بذا مضر

فضحك وقال : لو علمنا أنها فعلت لما رضينا ولغضبنا وأنكرنا .

٧٧١ — وفي جهنم ماء

قال محمد بن مسروق البغدادي : خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان وكنت أغني بهذا البيت :

بطور سيناء كرْم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمعت قائلا يقول :

وفي جهنم ماء ما تجرعه خلق فأبقى له في الجوف أمعاء

فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة .

٧٧٢ — وإن تركته أخذ في الترهات

ذكر أعرابي رجلا بسوء الأدب فقال : إن حدثته سبقك إلى ذلك الحديث ، وإن تركته أخذ في الترهات .

٧٧٣ — قد صحح مذهبكم

قال محمد بن هلال الصابي : خرج قوم من الديلم إلى اقطاعهم فظفروا باللص المعروف بالعراقي فحملوه إلى الوزير المهلبي فتقدم باحضار أحمد بن محمد القزويني الكاتب وكان ينظر في شرطة بغداد فقال له المهلبي : هذا اللص العيار العراقي الذي عجزتم عن أخذه خذه واكتب خطك بتسلمه .

فقال السمع والطاعة إلى ما يأمر به الوزير ، ولكنك تقول ثلاثة وهذا واحد فكيف أكتب خطي بتسلم ثلاثة .

فقال : يا هذا. هذا العدد صفة لهذا الواحد ، فكتب يقول: أحمد بن محمد القزويني الكاتب : تسلمت من حضرة الوزير اللص العيار العراقي ثلاثة وهم واحد رجل ، وكتب بخطه في التاريخ . فضحك الوزير وقال لنصراني هناك : قد صحح القزويني مذهبكم في تسلم هذا اللص .

٧٧٤ — أسأل الله أن يديم لنا بقاءك

روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار :

أمر عبد الله بن الزبير لأبي الجهم العدوي بألف درهم فدعا له وشكر فقال : بلغني أن معاوية أمر لك بمئة ألف درهم فسخطتها وقد شكرتني .

فقال أبو الجهم : بأبي أنت ! أسأل الله أن يديم لنا بقاءك فاني أخاف إن فقدناك أن يمسخ الناس قردة وخنازير ، كان ذلك من معاوية قليلا وهذا منك كثير ، فأطرق عبد الله ولم ينطق .

٧٧٥ — طلبناه في النهار فما وجدناه

دخل اللصوص على أبي بكر الدباني يطلبون شيئا فرآهم يدورون في البيت .

فقال : يا فتيان ، هذا الذي تطلبونه في الليل قد طلبناه في النهار فما وجدناه .

٧٧٦ — قد سحرتني

الخصائص لابن جني : الأخبار في التلطف بعذوبة الألفاظ إلى قضاء الحوائج أكثر من يؤتى عليها ، ألا ترى إلى قول بعضهم وقد سأل آخر حاجة .

فقال المسئول : إن عليّ يمينا ألا أفعل هذا .

فقال له السائل : إن كنت (أيدك الله) لم تحلف يمينا قط على أمر فرأيت غيره خيرا منه فكفرت عنها له وأمضيته ، فما

أحب أن أحنثك[1] ، وإن كان ذلك قد كان منك فلا تجعلني أدون الرجلين عندك .

فقال له : قد سحرتني . وقضى حاجته .

٧٧٧ — جيش بأبي

ضرب الحجاج البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان فكانت المرأة تجيء إلى ابنها وقد جرد فتضمه إليها وتقول : (بأبي) جزعا عليه ، فسمى ذلك الجيش « جيش بأبي » وأحضر ابن عبدل لجرد فوجد أعرج فأعفى فقال فى ذلك :

لعمري لقد جردتني فوجدتني   كثير العيوب سيء المتجرد
فاعفيتني لما رأيت زمانتي   ووفقت مني للقضاء المسدد

٧٧٨ — لما التقينا مات الكلام

أبو محجن حبيب بن عمرو الثقفي :

لما رأينا خيـــلا محجلة   وقوم بني فى جحفل لجب
طرنا إليهم بكل سلهبة   وكل صافى الأديم كالذهب
وكل عضب ، فى متنه أثر   ومشرفى كالملح ذى شطب
لما التقينا مات الكلام ودار (م) الموت دور الرحى على القطب
إن حملوا لم نرم مواضعنا   وإن حملنا جثوا على الركب

٧٧٩ — فأين الحس

قال دهمان الفلال : مررت ببشار يوما وهو جالس على بابه وحده وليس معه خلق ، وبيده مخصرة يلعب بها ، وقدامه طبق فيه تفاح وأترج . فلما رأيته وليس عنده أحد تاقت نفسي إلى أن أسرق ما بين يديه ، فجئت قليلا قليلا وهو كاف حتى مددت يدي لأتناول منه فرفع القضيب فضرب به يدي ضربة كاد يكسرها .

فقلت : قطع الله يدك أنت الآن أعمى ؟

فقال : يا أحمق ، فأين الحس ؟

٧٨٠ — فهم لذلك مستأهلون

محاضرات الراغب :

قال ابن سيرين : مكتوب فى كتاب سوء الأدب : إذا أتيت منزل قوم فلم ترض بما يأكلون ، وسألتهم ما لا يجدون ، وكلفتهم ما لا يطيقون ، وأسمعتهم ما يكرهون ، فإن لم يخرجوك فهم لذلك مستأهلون .

٧٨١ — ما بقى له شىء

الفهرست لابن النديم : سعيد بن حميد كاتب شاعر ، مترسل ، عذب الألفاظ مقدم فى صناعته ، جيد التناول للسرقة ، كثير الإغارة . قال أحمد بن أبى طاهر : لو قيل لكلام سعيد وشعره : ارجع إلى أهلك ما بقى له شىء .

الجرجاني :

لو نفضت أشعاره نفضة   لا نتشرت تطلب أصحابها[1]

٧٨٢ — أنت أسد فاطلب لنفسك لبوة

قال الفضل بن محمد الضبي : حدثنا بعض أصحابنا أن جارية لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ذات ظرف وجمال مرت برجل من بني سعد — وكان شجاعا فارسا — فلما رآها قال : طوبى لمن كان له امرأة مثلك ، ثم انه أتبعها رسولا يسألها ألها زوج ؟ ويذكره لها ؟

فقالت للرسول : ما حرفته ؟

فأبلغه الرسول قولها . فقال : إرجع إليها فقل لها :

وسائلة ما حرفتي قلت حرفتي   مقارعة الأبطال فى كل شارق
إذا عرضت لي الخيل يوما رأيتني   أمام رعيل الخيل أحمى حقائقي
وأصبر نفسي حين لا حر صابر   على ألم البيض الرقاق البوارق

فأنشدها الرسول ما قال . فقالت : ارجع إليه وقل له : أنت أسد فاطلب لنفسك لبوة فلست من نسائك .

٧٨٣ — عقلنا حين ليس لنا فضول

جعفر العبدي :

وكان المال يأتينا فكنا   نبذره وليس لنـــا عقول
فلما أن تولى المال عنا   عقلنا حين ليس لنا فضول

---

(١) حنثه : جعله حانثا ، وحنث فى يمينه يحنث حنثا : لم يف بموجبها (المصباح)

(١) ومما قيل في (شاعر) من دفتر .
وأبو الدفاتر لا يزال يجيئنا   بقصيدة قد قالها من دفتر

من الأدب الغربي :

في مقـــبرة ريفية ...!

لتوماس جراي بتصرف

للاستاذ محمد رجب البيومي

الظلام الرهيب يطغى على الكو   ن كجيش يسد عرض الفضاء
حام فوق القبور يُرخي سدولاً   حجبتها فما تلوح لرائي
حيث أصحابها يتيهون في النو   م سكارى كشاربي الصهباء
سئموا ظلمة القبور فحلّت   ظلمة الليل فوقها كالوباء
لا يرون الضياء يبدو مع الشمـ   ـس وضيئاً كطلعة الحسناء
لا ولا البدر حين يشرق في الأ   فق على الكون نائباً عن ذُكاء
يوقظ الديك كل غافٍ على الأر   ض وهمْ مثل الصخرة الصمّاء
لا حنين الناعورة الحلو يشجيهـ   ـم وإن هزّ مسمع الجوزاء
لا نسيمُ المراوح العذبُ غادٍ   حين يحمى الهجير في الرمضاء
لا ولا الموقد الدفيء يسرّي   عنهمو ما جناه برد الشتاء
كل هذا قد شاهدوه عيانا   حين كانوا في عالم الأحياء

هذه الأرض منذ عهد قريب   لم تكن غير بقعة جرداء
فمشى القوم بالمحاريث والفأ   س يشقّونها بكل اعتناء
يبذرون النبات فيها جنيناً   ثم يعطونه شهي الغذاء
فإذا الأرض بعد وقت يسير   تتراءى كجنةٍ فيحاء
ويحها لم تصُن جميلاً فألقتْ   أهلها في قرارة الظلماء
ثم عادت فبدّدتهمْ جميعاً   لم يكن عندها أقل الوفاء

ربّ شيخ قضى الحياة مع الر   يف إلى أن مضى على الحدباء
كان جمّ الذكاء لكن أتى الحقـ   ـلُ على ما في رأسه من ذكاء
آه لو كان قد تعلّم حتى   يرفع العلم قدره في السماء
علّه مثل شكسبير نبوغاً   أو كلتون سيد الشعراء

فهو كالدرة الثمينة ضاعتْ   في القرار السحيق تحت الماء
أو كزهر نما بعيداً عن النا   س فولّى عبيره في الهواء
قتل الحظ كيف حارب ذا العقـ   ـل وأرخى العنان للأغبياء

ها هو المضجع الوثير مهيّأ   للذي يستريح بعد العناء
هو كالواحة الخصيبة يسعى   نحوها من يضيق بالصحراء
حلّ فيه جماعة ما استفادوا   من لذيذ الحياة غير العناء
لا الوسام الأنيق يسطع في الصـ   ـدر جميلا كبسمة العذراء
لا النياشين ضاحكاتٌ عليهم   كأزاهير روضةٍ غنّاء
رُبّ ذي رُتبةٍ أحالته وحشاً   مجرماً لا يمل سفك الدماء
كان من قبلها ملاكا وديعاً   فغدا مثل حيّة رقطاء

خبّروني ماذا يلوح لعيني   فوق تلك المقابر الخرساء
كل قبر عليه لوحٌ عريض   مُثقلٌ بالنعوت والأسماء
ينظر الزائر المحبّ إليـه   ثم يبكي على الحبيب النائي
كم ثكول أتتْ تزور ضريحاً   قد ثوى فيه صفوة الأبناء
وصديق يصيح أين صديق   كيف أرنو لوجهه الوضّاء
يقرأ اللوحَ ما على اللوح إلا   جمراتٌ تشب في الأحشاء

ليت شعري ماذا سيكتب عني   حين أغفو في باطن الغبراء
سيقولون عاشق ضيّع العمر   وراء الطبيعـة الحسناء
يجتلي حسنها الأنيق طروباً   حيث تبدو في بهجةٍ ورواء
في ابتسام الصباح إذ يتجلى   في احمرار الأصيل عند المساء
في شطوط البحار والماء ساج   في المروج الفسيحة الخضراء
تخذ الكون مسرحاً يتسلّى   فيه عمّا به من الأدواء
لا ينال القوت الضروريّ إلا   بشقاء ما بعدَهُ من شقاء
قطع العمر في الحياة فقيراً   مثل باقي أفرادها الفقراء
يبذل الدمع للمساكين حتى   لم تمدْ في عينيه قطرة ماء
لم تُنله الحياة غير صديق   كان في ليلها كبدر السماء
كان ريحانة الفؤاد ولكن   ويلتا! قد مضى لدار البقاء

محمد رجب البيومي

رباعيـــات عثمان ... !

للأستاذ عثمان حلمى

آذنتْ آيةُ الدجى بالزوال   وسرى كالمنى نسيم الشمال
حاملاً للحياة نفحاً من العطـ   ـر وروحاً جديدة الآمال
مُعلناً فى براءة آية الفجـ   ـر كما فى براءة الأطفال
وكأن النجوم حيرى وقد أد   ركن فى صمتهن قربَ المآل

وبدا الصبح ساكناً فى ظلال   من جلال عجيبة الأشكال
رافعاً رأسه المضيئة فى الكو   ن على كل مستقرٍ وعال
ساحباً ذيله على النجم حتى   لم يدعْ منه غير مثل الذبال
فتوارى من السموات نجمٌ   سار فى إثره من النجم تال

وتجلت على الربى والمروج   لمحات من الصفاء البهيج
فعلى جانب السماء من الشر   ق شبيهٌ بالنار ذات الأجيج
ذات لون مُورّد أرجـوا   نيّ وروحٍ فى الشم ذات أريج
هتفتْ بالرجاء همساً بذات الـ   صدْع لما هفت بذات البروج

ورنا حاجب من الشمس ساج   صامتٍ فى لهيبه الوهّاج
فتراءى لكل عين على الأفـ   ـق منيراً كشعلة من سراج
واستحالت لآلئ الطلّ فى الدو   ح إلى محض سائل رجراج
وسرتْ موجة من النور يتلو   ها سواها من هذه الأمواج

صورة إثر صــورة تتوالى   شهد الطير حسنها أشكالا
فتغنى ما شاء للصبح إكبا   راً وغنّى لنــوره إجلالا
وأفاق الإنسان من موته الأصـــغر واستقبل الحياة نضالا
فمضى فى طلابه الرزق يسعى   وتمادى ضجيجه وتعــالى

وبدا فى الحياة يوم جديدُ   صارمٌ وجهه الجديد المجيدُ
كلما عجّ فى الوجود على الصمــتِ على الصمت عجّ فيه الوجود
وتجلى النهارُ واستعلت الشمس   وكدُّ الشقىُّ والمجــدودُ
ومن الغيب خلفه وهو يجرى   كيفما كانت الحياةُ شهودُ

ومضى فى الزمان هذا النهار   وتوالت بما جنى الأخبارُ
وطوى الغيب صفحة فى سجل   سطرته بكفّها الأقـدار
ولـكم أضمرت سواها من الما   ضى ومرّت فـما لها آثار

هكذا فات ذلك اليومُ فى العمـــر وفاتتْ بمثله الأعمـارُ

ماترى الشمس بعد طول الغروب   كيف مالت هزيلة للمغيب
وهى تهوى بين السحاب إلى البحـ   ـر وتخطو إليه خطو الهيوب
وكأنى بها على الدهر ملَّتْ   سعيَها بين جيئة وذهوب
صورة لو فطنتَ تأخذ بالألـ   ـباب من حسنها العجيب المهيب

صـورة تلك تمقتها السماء   كم تغنى بحسنها الشعراء
فلقد تبعث السرور وقد يهـ   ـتاج منها لدى الشجىّ البكاء
والتقى البحر بالسماء مع الشمـــس ولكن هيهات هذا اللقاء
خدعة فى العيون أم ضلت الأبـ   ـصار أم قـد أصابها إعياء

هاهى الشمس مسّت الأفق مساً   وارتقى قرصُها من البحر رمسا
فهوى فيه صامتاً وانتهى الأمـــر فما تستبين فى الكون جرسا
غير همس فى الأذن لم تدر معنا   ه وخافٍ فى النفس يهمس همسا
ربمـا مال بالنفوس إلى اليأ   س وإن لم تصب من العمر يأسا

ها هى السحب بين بيض وحمر   رابضات وبين دُكن وصُفر
لوَّنتها كما تشـاء يد الغيـ   ـب ولم تستعن بدهن وحبر
فتوالت شتى المناظر حتى   لم تقع مقلة على مستقر
يا لها من يد أجدت لعمرى   ما أجادته بين طى ونشر

فوداعاً أيا رفاق شبـابى   ووداعى الأخيـر يا أحبابى
ربما دارت الليـالى علينا   فالتقينا من بعد طول اغتراب
إنما نلتقى شخوصاً سوى أشـ   ـخاصنا من بعد هذا الغياب
بدلتنا يد الزمان سوانا   إن قضت بعد غيبة بالإياب

لم هذا التغيير والتبـديل   وإلام التحوير والتحـويل
فجسوم على المـدى وعقول   ونفوس على الليـالى تحول
كل حب إلى زوال وإن جد   لعمرى وكل حسن يزول
ما يجا الميت الجماد ولا الحـ   ـى ولا سـالم ولا معـلول

لم لا نلتقى لغــير فراق   ربما ساقنا لغــير تلاق
ما لنا من يد على البعد والقر   ب وكل الأمور محض اتفاق
لم هذا والعمر يوم إذا ما   طال بين الغروب والإشراق
طال منى على الحياة سؤالى   لم لا نلتقى لغــير فراق

عثمان حلمى



معهد الفقه الإسلامي للجامعة العربية :

قدم الأستاذ عبد الرزاق السنهوري باشا رئيس اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية مذكرة للأمانة العامة للجامعة يقترح فيها إنشاء معهد للفقه الإسلامي تنفيذاً للرغبة التي أبداها مؤتمر الجمعية المصرية للقانون الدولي .

وقد صدرت المذكرة بمقدمة عن الغاية من إنشاء المعهد أشارت إلى مكانة الفقه الإسلامي بين النظم القانونية العالمية ، وأنه لا يقل في قوة السبك ، وحسن الصياغة ، وسمو المنطق ، ودقة التحليل عن الفقه الروماني أو الانجليزي ، وهو فوق ذلك التراث القانوني للشرق العربي . ثم أشارت إلى حركة الاجتهاد وإلى إقفال بابه والحكمة منه ، وقالت إنه كان على الفقه بعد ذلك أن يستكمل حظه من الاستقرار بعد أن استوفى نصيبه من التطور ولكن هذه الحال لم تبق إلا إلى حين إذ لم يلبث الزمن أن دار دورته وتابع السير إلى الأمام . هذا والفقه الإسلامي واقف والعالم يمشي ، ثم انفرجت مسافة الخلف بين الفقه والحاجات المتجددة حتى أصبح من العسير على الأمم العربيـة في العصر الحاضر أن تستبقي الفقه مادة تستق منها قوانينها الحديثة وقد أخذت هذه الأمم تهجر الفقه الاسلامي فعلا ولجأت إلى القوانين الغربية المتطورة التي تماشي مدنية العصر .

ومن هنا نشأت أزمة الفقه الإسلامي منذ أول القرن التاسع عشر وهي أزمة تحتاج إلى علاج طويل حتى يعود إلى الفقه الاسلامي مجده الأول بشرط أن تبدأ من الآن في إيجاد بيئة تعاد فيها دراسة هـذا الفقه الجليل وتتحقق هذه البيئة بانشاء معهد للفقه الاسلامي .

أما الوسائل التي يتذرع بهـا المعهد لتحقيق الغرض منه فيقترح أن تكون بانشاء المعاهد الآتية :

أولا — معهد تدريس يمنح الشهادات والدبلومات الجامعة يلتحق به الحاصلون على ليسانس الحقوق من إحدى الجامعات العربية .

ثانياً — معهد لتكوين الباحثين في الفقه الاسلامي على الأسلوب الاسلامي العلمي الحديث ويكون بتخصيص جوائز دراسية للنابغين من الطلبة المتخرجين في المعهد الأول .

ثالثاً — معهد للبحوث الفقهية العالية يضع فيه الأساتذة مؤلفات حديثة ويرتبون الكتب القديمة ترتيباً علمياً .

رابعاً — معهد لنشر المخطوطات من كتب الفقه التي لم تنشر لليوم .

خامساً — معهد يضم مكتبة جامعة في الفقه الإسلامي تشتمل على المؤلفات الفقهية القديمة والحديثة .

وينبغي أن يلحق هذا المعهد كله بإحدى جامعات الدول العربية حتى يتسنى له منح الشهادات والدبلومات ، وأفضل هذه الجامعات في الوقت الحاضر هي جامعة فؤاد الأول لاسيما وأن كلية الحقوق بها قد نظمت دراسة في الفقه الإسلامي .

ويقترح أيضاً أن يكون للمعهد عندما يستكمل نموه ستة كراسي : اثنان للفقه الإسلامي واثنان للقانون المقارن وكرسي لتاريخ الفقه الإسلامي وكرسي لأصول الفقه .

هي للجاحظ وليست للعسكري :

نقل حجة العرب النشاشيبي في (نقله) البليغة الحكيمة بالعدد ٦٧٥ من مجلة « الرسالة » الغراء عن كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري هذه العبارة :

« قد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والاعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي (والحذف) وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً(١) » .

وهذا القول ليس من كلام العسكري وإنما هو من إنشاء الجاحظ وأسلوبه ، وقد أورده في الجزء الأول من كتاب الحيوان ص ٤٦ (طبعة الساسي) ثم نقله العسكري من غير أن يعزوه إلى صاحبه كعادته في كثير مما نقل في كتابه .

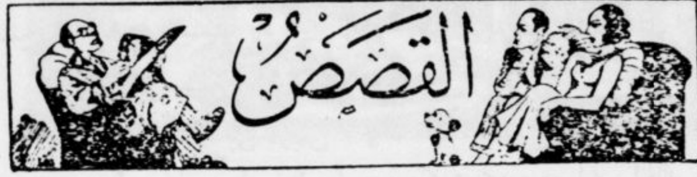
وإنصافاً لأبي عثمان — الذي كان أول من نبه على هذا المعنى — رأينا أن نصحح ماجاء بكتاب الصناعتين ، وأن يكون ذلك على صفحات « الرسالة » الغراء .

محمود أبو ريه

إصلاح :

في الكلمة (كتاب أحمد شاكر الكرمي) الرسالة ٦٧٧ ص ٦٩٧ س ٨ : « قالها منذ أربع وثلاثين سنة » صوابها : « قالها منذ إحدى وثلاثين سنة »

(١) كلام الجاحظ : أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام



كلوديت ...!

للأستاذ نجاتي صدقي

كان يلذ لسعيد وهو فى باريس أن يتنزه فى كل عصر على الرصيف المحاذى لنهر السين بالقرب من نوتردام دى بارى ، وكانت رفوف الكتب القديمة المعروضة للبيع على حائط النهر الجنوبى تجذبه إليها ، وتأخذه بروائعها التاريخية والأثرية والفنية .

ووقف مرة عند أحد تلك الرفوف يقرأ عناوين كتبها ، وكان غواة الكتب القديمة ، والرسوم التاريخية يقفون إلى جانبه أيضاً ، يتصفحون المجلدات وينعمون النظر فى الصور الهزلية والفنية ، فان راق لهم شىء ابتاعوه وإلا انتقلوا إلى رفوف أخرى يبحثون وينقبون .

وبينما كان سعيد مستغرقاً فيما هو به ، إذا بمجموعة من الكتب تنهار إلى جانبه وتتبعثر ، ويعقبها صوت نسوى يتمتم متأسفاً ، فالتفت إلى يسراه ، فوجد فتاة فرنسية ترفع الكتب عن الأرض وتعيدها إلى مكانها ، وكان الواجب يدعوه إلى مساعدتها ، فراح يجمع ما بعثرته ، وكانت هى تشكره مبتسمة ، وكان هو يجيبها مبتسما بان لا شىء يستحق الذكر ...

وبعد أن أعادا الكتب إلى مكانها ، لمح الشاب أن الفتاة أبقت بيدها كتابا قرأ على غلافه « العقد الاجتماعى » لجان جاك روسو .

فقال لها بلهجة لا تخلو من الاستغراب : عفواً أيتها الآنسة أهذا هو الكتاب الذى كنت عنه تبحثين ؟

قالت : أجل ...

قال : أيهمك مثل هذه المواضيع ؟

قالت : تهمنى جداً ...

قال : ولكن الموضوع شائك ... ويخيل إلىّ أن الفتيات لا جلد لهن على مطالعة الكتب المرهقة للدماغ .

قالت : هذا خطأ شائع ... نحن فى فرنسا نطالع كل شىء ، نطالع كل ما يطالعه الرجل ... ونفعل كل ما يفعله ، ولا ينقصنا إلا حرية الانتخابات .

وإذ رأى سعيد أن الفتاة مثالية جريئة متوثبة انتظر حتى ابتاعت الكتاب وهمت بالذهاب فاقترب منها ، وقال بصوت خافت :

— ألدى الآنسة أى مانع للتعرف إلى شاب شرقى ؟

فأطرقت الفتاة قليلا ، ثم رفعت رأسها وحملقت فى وجهه وقالت :

— إذا كان هذا التعارف يرضيك ، فليكن ، إسمى كلوديت رانجون تلميذة فى المدرسة الطبية ...

قال : ولى الشرف بأن أقدم لك نفسى : أنا سعيد اللبّان ... من الشرق ... وأقطن باريس مؤقتاً ...

وسارا معا بمحاذاة نهر السين إلى أن عبرا الجسر المؤدى إلى اللوفر ومنه إلى حديقة التويللرى ، فتجولا فى دروبها بين الزهور والرياحين وكانا يتنقلان فى حديثهما من موضوع إلى آخر ، إلى أن قالت الفتاة فى معرض كلامها عن جان جاك روسو ونظرياته التى أودعها فى « العقد الاجتماعى » .

— أجل ... يجب أن نعود إلى أمنا الطبيعة ... ألا تكفى خيرات الأرض لإعاشة الناس ؟ ... وما الأفضل للمرء : أأن يعيش فى جو خانق من دخان المصانع والمعامل ، أم أن ينشىء بيته فى الغابات الواسعة ، ويستنشق الهواء الطلق ، ويشرب المياه العذبة ، وينام وينهض على تغريد الطيور ؟

قال : أتعنين بذلك إقامة مخيمات ؟

قالت : كلا إننى أعنى إعادة تنظيم معيشة الناس طبقاً لحياتهم الفطرية الأولى ، ولكن على مستوى عال من العلم والثقافة ...

ثم أخذت تقنعه بأن الإنسان جبل من طينة طيبة ، غير أنه فى مراحل تطوره خرج عن اتجاهه الطبيعى وأساء التصرف بما منحته إياه الطبيعة من خيرات وغدا مخلوقاً شاذاً أنانياً جائراً ، وخلصت إلى القول بأن البشرية لن تجد الراحة والطمأنينة إلا بوضع عقد اجتماعى يكفل للناس حقوقهم .

أخذ المساء يسدل ستاره على باريس وبدأت العاصمة الفرنسية تبدو رويداً رويداً بلباس السهرة المحلى بالألوان الزاهية ، وكانت الأرض تلفظ جماعات من الناس عائدين إلى بيوتهم ، وتبتلع غيرهم ممن يسكنون الضواحى ... ولما بلغا فى مسيرهما محطة مترو (الأوبرا) قالت له كلوديت : إلى هنا ينتهى بنا المطاف ... استودعك الله ...

قال : عفواً ... لقد شوقتنى بحديثك عن حياة الغابات ،

أفلا تعرفين غابة بالقرب من باريس تكون بمثابة نموذج صغير للمكان الطبيعي الذي تودين المعيشة فيه ؟ ...

قهقهت كلوديت وقالت :

– بلى ... أعرف غابة (كلامار) ...

قال : هل لنا أن نتنزه فيها يوم الأحد ؟

فهبطت الفتاة درج المترو وقالت (انتظرني يوم الأحد الساعة العاشرة صباحا عند مدخل محطة (مونبارناس) ومنها سنذهب إلى (كلامار) فالى اللقاء ! ...

***

أى شعور غريب يستولى على المرء إذا ما ولج الغابة ؟... طرق سعيد وكلوديت غابة (كلامار) فكانت الأشجار الباسقة تحجب عنهما نور الشمس ، ما خلا خيوط لها ألوان قوس قزح تسربت من خلال الأغصان ، وأنارت الدغل التي سقطت عليهما وساعدتهما على اجتياز دروب الغابة المعوجة وشعاب مسالكها الضيقة ... وكانت الغربان تنعق هنا وهناك وهدير المياه يصل إلى مسامعهما ، فيحمل لها الهواء فى طياته رذاذها المنعش، وكان حفيف الشجر يبدو لهما كما لو أن رتلا من السيدات يسرن بالقرب منهما وهن يجررن أذيال أثوابهن ... ما هذا الجو الساحر الذى يكتنف سعيداً ؟ وماهو هذا الدغل الرائع الذى سلبه عقله ؟

وبعد أن استراحا قليلا على الحشائش الأبدية الاخضرار ، بادرت كلوديت سعيداً قائلة : (كيف تشعر الآن ؟ ألا تفضل المقام فى هذا المكان على أى نزل فى الحى الثامن من أحياء باريس ؟

لم يحر الفتى جواباً وإنما استغرق فى تأملاته ، وكان يحس بوجل لا يدرى سببه ، فالأشجار المحيطة به ، واحتجاب النور عنه إلا ثلاثة خيوط ملونة اخترقت الدغل الذى هو فيه ، ونعيق الغربان فوق رأسه ، ورطوبة المكان الذى يحف به ، وحفيف الأغصان الذى يهدهد مسمعيه ، كان لهذه العوامل كلها أثرها فى نفسه ، فتذكر الجنة ، وتذكر آدم وحواء ، فالتفت إلى كلوديت فوجدها قد أسندت رأسها إلى الشجرة وعلى ثغرها ابتسامة الرضى ..

انقضى النهار ، وحل المساء ، فأقفرت الغابة من المتنزهين وركنت الطيور إلى أوكارها ، وأرخى الليل سدوله ، فلم ير الفتى والفتاة من النور إلا ما كان يشع من أعينهما ، ولم يسمعا من الأصوات إلا ما كانا يصدرانه من نفثات ، ولم يجدا شيئاً يدرءان به عن نفسيهما برد الليل إلا ما كان يجرى فى عروقهما من دم متدفق مشبع بحرارة الشباب ...

ثم عادا إلى باريس ، وقد تأبط سعيد ذراع كلوديت ، وأسندت هى رأسها إلى رأسه ، وكانت تحدثه عن الحب الخالد ، وارتباط القلوب الأزلى ، وكان هو يؤكد لها ذلك أيضاً ، ويشكر المصادفات التى أدت إلى تعارفهما والجمع بينهما .

ولما أخذا مكانيهما فى القطار ، قال لها الفتى على حين غرة : لقد نسيت منهجك فى الغابة ...

قالت : وأى منهج تعنى ؟

قال : كتاب (العقد الاجتماعى) .

قالت : شىء تافه ... وإنى لأرى يا حبيبى الآن أن أقر لك بحقيقة الأمر ... إننى لست من أتباع روسو ولا غيره ... رأيتك تقف عند بائع الكتب القديمة فرأيت فى ملامح وجهك بأنك من أهل الشرق الذين تكتنف نفوسهم الغموض والأسرار ... فهذا الشعر الأسود وهاتان العينان البراقتان ، وهذان الحاجبان المقطبان ، وهذا الأنف القوقاسى ، وهذه الذقن المعوجة ، وهاتان الشفتان المنفرجتان ... وهاتان الوجنتان البارزتان ... كل هذا ما حدا بى لكى أتحرش بك ... أما كتاب روسو فقد وقع فى يدى مصادفة وكان من حسن حظى أننى عرفت عنه شيئاً ... والآن دعنا من هذه القصة فانك لى أفضل من كل العقائد ... أنت لى إلى الأبد . انس هذا الحادث ... لقد نسيت أنا أهلى من أجل الحب ! ...

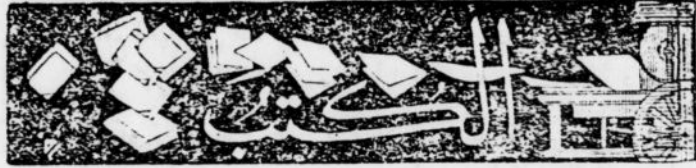
وبلغا باريس وافترقا على أن تزور كلوديت سعيداً فى فندقه فى مساء اليوم التالى .

لم يدر سعيد ما الذى حدث له فى تلك الليلة ، فقد كان قلقاً وكانت نفسه مضطربة ، وكان فى حيرة من عبث هذه الفتاة الباريسية بالمبادىء والعقائد . وما إن طلع النهار حتى رحل من الفندق إلى غيره ... وقال لصاحبه (قل لمن يسأل عنى بأننى عدت إلى الشرق) ...

وبعد مرور شهر على هذا الحادث ، مر سعيد برفوف الكتب القائمة على ضفة السين بالقرب من جسر سان ميشيل فشاهد منظراً مروعاً ...

شاهد شاباً شرقياً يساعد كلوديت فى جمع كتب تناثرت على الأرض ! ...

نجاتى صدقى



سقطت فى الانتخابات...

تأليف الأستاذ حنفى محمود جمعه

بقلم الأستاذ صديق شيبوب

لا أدرى ، أأواسى الأستاذ حنفى محمود جمعه لفشله فى الانتخابات أم أهنئه لأجله . أما المؤاساة فللجهد الذى بذله ولم يثمر ، وللمال الذى أنفقه ولم يفد ، وللآمال التى عقدها حينا فتبددت . وأما التهنئة فلأنه خرج من المعركة الانتخابية التى خاض غمارها فى أواخر سنة ١٩٤٤ بكتابه الناجح « سقطت فى الانتخابات[١] » ولولا فشله فى تلك الانتخابات لما كتبه ، فلعله كان يتحرج من كشف النقاب عن دخائلها ، وعما يجرى فيها من أمور مخالفة للقانون ، وعن الوسائل التى يتذرع بها المرشحون للفوز ، وعن الوسطاء من المرتزقة الذين ينتهزون الفرصة ليبتزوا مال المرشح . وعن الناخبين من الجهال الذين يتقاضون ثمن أصواتهم ، وعن رؤساء النقابات ومشايخ الحارات الذين يقدمون عددا معينا من الناخبين ... إلى غير ذلك مما تجده مفصلا فى الكتاب .

وقد عرف الأستاذ حنفى محمود جمعه كيف ينسق الحوادث وكيف يرويها حينا فى سذاجة مقصودة ، وكيف يحللها أحيانا فى تفكير صحيح مستقيم ، وكيف يستخلص طورا العظات البالغة من تقلباتها ، وكيف يترك طورا للقارىء أن يتولى بنفسه استخلاص تلك العظات .

والحق أن الكتاب ملىء بالدروس القيمة التى يجب أن نتدبرها لأنه يعالج ناحية هامة من حياتنا القومية ، ويقدم صورة ملموسة للانتخابات التى تجرى بين ظهرانينا ، ويصف العوامل المحلية التى تؤثر فيها . ولا شك أن العوامل التى تؤثر فى الانتخابات متعددة الوجوه متبدلة الأنواع ، تختلف باختلاف البيئات والبلدان والشعوب .

ويكفى أن نعرف أنها عند جميع الأمم تكلف مبالغ باهظة من المال لنقدر تلك العوامل الكثيرة ، فالاعلانات والحفلات والرحلات وما إليها من أنواع الدعايات التى تستدعى نفقات طائلة لا يستطيع أن يتكبدها جميع الناس أو جميع الأحزاب .

فإذا تجاوزنا هذه العوامل المادية إلى العوامل الأدبية والاجتماعية اضطرنا الحديث إلى التنويه بصفات المرشح التى تجعله محبوبا من ناخبيه مرغوبا فيه ، وإلى الإشارة إلى نفوذه فى الدائرة التى يتقدم فيها وعصبيته وجاهه ... كل هذا يحملنا على التقرير بأن الانتخابات التى تبدو حرة لأول وهلة أى أنها حرة من تداخل السلطات الحاكمة وفرض نظرياتها وأغراضها على الناخبين تظل خاضعة لمؤثرات خارجية واسعة النطاق ، ولعوامل مختلفة يصعب تحديدها ويجعلنا نعنى فى بعض الأحيان بالتفاوت بين النائب وبين المهمة القومية التى يضطلع بها ...

فإذا عدنا إلى العوامل المحلية ، وجدنا أن بمصر قلما يقبل العقلاء على الانتخاب لسبب ذكره المؤلف ، ولا شك أن الوعى القومى يزداد انتباها بنسبة زيادة المتعلمين وأخذهم أنفسهم بالواجب الذى يمليه عليهم هذا الوعى بأن يتقدموا لصناديق الانتخاب ، وأن يفهموا أن ذلك فرض قومى لا مناص لمواطن حرى بهذا الإسم من تأديته .

ولا أريد أن أطيل الحديث فى هذا الباب مما يوحيه كتاب الأستاذ حنفى محمود جمعه ، ولكنى أردت أن أشير إلى العيوب التى تعترض الانتخابات لتداركها واصلاحها .

فإذا عدنا إلى ما فى الكتاب وجدنا أن الصورة التى يجلوها للحوادث كاملة فى مجموعها طيبة التناسق بين أجزائها حتى ليصح أن نقول إن كتاب « سقطت فى الانتخابات » قصة من أجمل القصص لا تنقصها قوة البناء وجودة الربط بين الأجزاء ومتانة التأليف . وهو أيضا قصة من قصص المغامرات فيها الأخذ والرد والكر والفر ، والصراحة والحيلة ..وفيها تحليل لشخصيات عديدة ممن لقيهم المؤلف ، وممن عرضوا عليه خدماتهم ، وممن

(١) طبع مطبعة السفير ، ويقع فى ١٨٤ من القطع المتوسط ، وثمنه عشرون قرشا .

قصد إليهم ، وكل هؤلاء من طبقة الشعب ، القليل منهم من انصاف المتعلمين وأغلبهم من الجهال ، وفيهم المخلص والماكر والمحتاج ، وفيهم ثرى الحرب الجاهل ، وفيهم النفعى المتقلب ، وفيهم الزعيم الذى يحتاج لمالأة السلطات المحلية لتدعيم نفوذه ، وفيهم « الفتوة » الذى يبغى الشغب للشغب ، ويدع شجاعته وبأسه فى خدمة من يدفع ثمنهما .

وفى الكتاب صور شتى للتفكير الشعبى الساذج وهو أحيانا تفكير سليم . فهذا أستاذ بمدرسة أهلية يعلم تلاميذه الهتاف بحياة المرشح الذى يؤيده ، لأن من عادة الصغار أن يرددوا فى منازلهم الأناشيد والهتافات التى تعلموها بالمدرسة ، وهكذا يؤثرون على آبائهم وذوى قرابتهم . وكذلك يطوف صبية يوم الانتخابات هاتفين لأحد المرشحين ليؤثروا فى الناخبين الأميين الذاهبين إلى الانتخاب فيؤدوا صوتهم للاسم الذى تردد بآذانهم وعلق بأذهانهم فى آخر لحظة ، وتسير حوادث القصة فى لين وهوادة ، فمن تفكير فى الترشيح ، إلى دفع تأمينه ، إلى خوض المعركة الانتخابية ، وهى معركة كلامية فى الخطب التى تلقى ، وفكرية فى تدبير وسائل الدعاية ، ومادية من حيث إنفاق المال وبذله عن سعة ، وواقعية من حيث تحدى المزاحمين وإثارة الشعب عليهم وعلى أنصارهم ... إلى غير ذلك مما كان يثور الأستاذ حنفى عليه فى دخيلة نفسه ، لأنه محام ومن رجال القانون الذى يأبون إلا ما يسيغه ، ولكنه كان يضطر مرغما إلى الخروج عليه تحت تأثير أنصاره وردا لحملات منافسيه . ولعله كان يكثر من إلقاء الخطب لأنه قدير عليها بحكم مهنته ، وقد شاء أن يتحدى مزاحميه فى هذا المضمار ، فنشر فى الصحف يدعوهم إلى النزال فيه (تعالوا اخطبوا إذا قدرتم واعرضوا معى صحائفكم وما أنتم بقادرين) ولكنه ظهر بعد ذلك أن الأصفر الرنان فى تعبير القدماء ، وأوراق النقد المتداولة بلغة هذا الزمان ، أبلغ حجة وأجلى بيانا من بلاغة المنطق وفصاحة اللسان .

وفى كتاب «سقطت فى الانتخابات» غير هذا وذاك من صور سكندرية شعبية بحتة استطاع المؤلف أن يبرزها فى الإطار الخليق بها .

هذه العناصر التى عددناها تجعل من كتاب « سقطت فى الانتخابات » قصة كاملة كما قلنا ، قصة مغامرات واقعية لأنها مستمدة من صميم الحياة ، وقد عاش المؤلف حوادثها ، وعاش أمثالها غيره من زملائه الذين رشحوا أنفسهم فى الانتخابات . وفى واقع الحياة من المغامرات ما لا يصل إليه خيال القاص البارع .

كان يتراوح فى ذهنى وأنا أطالع هذا الكتاب ذكرى الجهاد الأدبى الذى حمل رايته بالاسكندرية نفر من الشباب فى أوائل عهد « جماعة نشر الثقافة » أى منذ أكثر من اثنتى عشر سنة أو يزيد . وقد تخلف البعض بعد ذلك منصرفين إلى أعمالهم واستمر البعض الآخر بحكم المهنة ، وعرف غير هذين الفريقين كيف يوفق بين عمله وبين الاشتغال بالأدب . وكان ولا يزال من هذا الفريق الأخير الأستاذ حنفى محمود جمعه ، فهو المحامى الذى تقدر مواهبه دائر القضاء وتظهر مهارته فى جلسات المحاكم وهو كذلك الأديب المتمكن الذى كانت له جولات موفقة فى الأقصوصة ، والذى كانت له مكانته بين زملائه من أعضاء تلك الجماعة . ويعرف أخصاؤه أنه ظل مخلصا للأدب ، وفيا لأصدقائه الأدباء ، ولا أدل على ذلك من كتابه : « سقطت فى الانتخابات » ، الذى تجلى فيه روح الأديب ، وإحساسه ودقة ملاحظته ، وصدق حكمه على الناس ، والحوادث . وإذا كان من السهل على الإنسان أن يلاحظ الحوادث فى دقة وانتباه إذا شاهدها عن كثب مشاهدة الرائى المستقل عنها فانه من أصعب الصعاب أن يحسن الملاحظة ، وأن يخلص فى الحكم على الحوادث إذا خاض غمارها بنفسه ، وكان من أشخاصها أوأبطالها كما يقولون . وفى هذه الحال قلما يستقيم صدق الاحساس ودقة الملاحظة إلا للأديب الذى تعود ذلك أى الذى تعود أن يتجرد من نفسه ، ويتخلص من شعوره وأنانيته .

وهذا ما فعله الأستاذ حنفى محمود جمعة فى كتابه « سقطت فى الانتخابات » فهو يروى ما له وما عليه ، ويتندر من نفسه ومن غيره وهو نوع من الفكاهة المستملحة التى يسميها الانجليز (هيومر) ويسير فى سرد الحوادث متنقلا فى كثير من اللباقة ، بين السذاجة والطرافة والبراعة ، وبعد: ألم أكن صادقاًفى حيرتى بين مواساة الصديق الأستاذ حنفى محمود جمعة لفشله فى الانتخابات وبين تهنئته لهذا الفشل وقد أفاد الأدب بكتابه الطريف ، ونبه إلى نقص فى الحياة الاجتماعية والقومية .

أما مواهبه الأدبية ، وبراعته الفنية ، واطراد أسلوبه وسلاسته ، فانها مزايا ظاهرة يتبينها كل مطالع كتاب « سقطت فى الانتخابات » وهو كتاب قيم جدير بالتقدير والثناء .

صدقى شيبوب

إعلان

مجلس مديرية قنا يعلن فى مناقصة عامة توريد :

١ — أدوات مدرسية وخامات أشغال الأطفال .

٢ — ملابس وبطاطين لأطفال مؤسستى تربية البنين .

٣ — أدوات وخامات الأحذية والنسيج والقش والطباعة والموسيقى لمؤسستى تربية البنين .

والقوائم والشروط الخاصة بذلك ترسل لمن يطلبها من إدارة المجلس نظير دفع مبلغ مائة مليم ثمناً للقائمة الواحدة من القوائم الثلاث على أن يقدم الطلب على ورقة مدموغة من فئة ٣٠ مليماً ولا تقبل طوابع البريد وقد تحدد يوم الثلاثاء ٩ يولية ١٩٤٦ آخر ميعاد لقبول العطاءات وظهر يوم الأربعاء ١٠ منه لفتح المظاريف ٥٥٤٩

إسم الفرع	محل انعقاد الجلسة	تاريخ الجلسة
تفتيش المنتزه	المنتزه	٢٠ / ٧ / ١٩٤٦
منطقة رشيد	رشيد	٢٣ منه
تفتيش البحيرة	دمنهور	٢٤ منه
» الخزان	«	٢٧ منه
» دسوق	دسوق	٢٩ منه
منطقة دمياط	دمياط	٢٠ منه
تفتيش المنصورة	المنصورة	٢٢ منه
» شاوة	المنصورة	٢٤ منه
» قلين	قلين	٢٧ منه
» طنطا	طنطا	٢٠ منه
» القرشية	القرشية	٢٢ منه
» المنشاوى	القرشية	٢٤ منه
» الشرقية	الزقازيق	٢٧ منه
» القليوبية	بنها	٢٠ منه
» الجيزة	الدقى	٢٢ منه
» القبة	القبة	٢٤ منه
تفتيش المحلة	دمرو	٢٧ منه
» بنى سويف	بنى سويف	٢٠ منه
» الفيوم	الفيوم	٢٢ منه
» ببا	ببا	٢٤ منه
» مغاغة	مغاغة	٢٧ منه
» المنيا	المنيا	٢٠ منه
» أسيوط	أسيوط	٢٢ منه
منطقة طهطا	طهطا	٢٤ منه
منطقة سوهاج	سوهاج	٢٧ منه
تفتيش قنا	قنا	٢٩ منه

تعلن وزارة الأوقاف أنها حددت مواعيد الجلسات تأجير أطيانها إبتداء من سنة ١٩٤٧ الزراعية الموضح بالكشف عاليه فعلى من يرغب فى استئجار أى صفقة أن يتصل بالتفتيش المختص لمعاينتها والحضور بالجلسة المحددة لها .

سكك حديد الحكومة المصرية

تسيير قطار إكسبريس بين القاهرة ودمياط (رأس البر)

يتشرف المدير العام باعلان الجمهور أنه ابتداء من ٢٤ يونية سنة ١٩٤٦ ولحين صدور إعلان آخر يسير قطار إكسبريس (درجة أولى وثانية وثالثة وعربة بولمان) بين القاهرة ودمياط يغادر القاهر فى الساعة ٠٠ ٨ ويصل إلى دمياط فى الساعة ٥٠ ١١ ويعود من دمياط فى الساعة ١٥ ١٧ ويصل إلى القاهرة فى الساعة ٠٥ ٢١

وذلك وفقاً للمواعيد الآتية : —

المحطات		٩٣٩ إكسبريس درجة ١ و ٢ و ٣ وعربة بولمان	المحطات		٩٤٠ إكسبريس درجة ١ و ٢ و ٣ وعربة بولمان
مصر	قيام	٠٠ ٨	دمياط	قيام	١٥ ١٧
بنها	وصول	٤٠ ٨	المنصورة	وصول	١٨ ١٨
	قيام	٤٥ ٨		قيام	٢٧ ١٨
الزقازيق	وصول	١٧ ٩	الزقازيق	وصول	٤٠ ١٩
	قيام	٢٢ ٩		قيام	٤٦ ١٩
المنصورة	وصول	٣٣ ١٠	بنها	وصول	١٩ ٢٠
	قيام	٤٥ ١٠		قيام	٢٥ ٢٠
دمياط	وصول	٥٠ ١١	مصر	وصول	٠٥ ٢١

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٧٩ – الاثنين ٨ يوليو ١٩٤٦ – السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

٢٧٠٣

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

وزارة الأوقاف

تشهر وزارة الأوقاف بيع العقارات الآتية بجلسة السبت ٢٠ يوليو سنة ١٩٤٦

نوع العين	المساحة بالمتر	الموقع	الثمن الأساسى جنيه	جهات الجلسات
أرضه	٢٩٤	١٤ شارع الحسينية بالجمالية	٨٨٣	تفتيش أول بمصر
٩ ط فى دكان	٦ بالكامل	٤ ألف شارع التمبكشية بالجمالية	٧٥ للحصة	»
٣ حواصل	١١٥	٣١ تبع ٩٥ شارع المعز لدين الله بالجمالية	١٧٣	»
أرض	٨٦	درب سعيد بشارع القاصد ببنى سويف	٥٠	تفتيش بنى سويف
	جلسة	يوم الأحد ٢١ يوليو سنة ١٩٤٦		
عقار	٧٩٦	تبع ٤ شارع الرويعى	٣٠٦٦٨	تفتيش ثان بمصر
»	٧٢١	»	٣٠٤٩٠	»
»	١٢٠١	٣و٣ ألف و٣ب شارع الرويعى	٢٩٧١٩	»
منزل	١٠٤	١٣ درب السماكين بباب الشعرية	٧٢٨	»
دكانان	١٢	تبع ١ عطفة البعاص بشارع البنهاوى	٢٠٠	»
مكتب	٣٧	شارع العادلى ببندر أسيوط	١٤٧	تفتيش أسيوط

(٧٧)

14 me Année No. 679

Lundi—8—7—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٧٩ « القاهرة فى يوم الإثنين ٩ شعبان سنة ١٣٦٥ — ٨ يوليو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

بين الالهام والحكمة !

للأستاذ عباس محمود العقاد

نقلنا عن الجماعة الإسلامية فى لاهور أنهم يعدون حضرة مرزا غلام أحمد القاديانى مجدد القرن الرابع عشر ، ويثبتون أنه ما ادعى النبوة قط كما قال بكلامه : « إننى لا أدعى النبوة . وكل ما أدعيه أننى محدث ، وأن معنى المحدث هو الذى يسمع كلام الله . كلا . ما أنا مدع للنبوة ، وما مدعى النبوة عندى إلا خارج على الدين ، وإنما يكذب على الذين يحسبوننى من أولئك المدعين » .

وقد شاءت المطبعة أن تضبط « المحدث » بكسر الدال ، ولا أدرى كيف وقع ذلك ؛ لأن الكلمة التى تليها تفسرها وتمنع أن تكون على صيغة اسم الفاعل ، إذ كان الذى يسمع كلام الله هو المحدَث بصيغة اسم المفعول . وإنما المحدث بكسر الدال هو الذى يتكلم وليس هو الذى يسمع الكلام .

ولهذا أصاب الأستاذ « السهمى » حين ردها إلى التطبيع ، وأشار إلى تفسير المحدث فقال : « جاء فى الحديث تفسيره أنهم هم الملهمون ، والملهم هو الذى يلقى فى نفسه الشىء فيخبر به حدسا وفراسة ، وهو نوع يختص به الله من عباده الذين اصطفى مثل عمر ، كأنهم حُدثوا بشىء فقالوه ... » .

ولكن المسألة كبرت بعد ذلك ، لأن المراد أن يكون هناك خطأ ينسب إلى العقاد على ما يظهر . فكتب الأستاذ الطنطاوى يقول إن السهمى لم يصحح الخطأ فى تفسير العقاد ... فقد ذكر أن المحدث هو الذى يسمع كلام الله . مع أن الذى قالوه فى المحدث أنه الملهم ... » .

ثم كبرت مرة أخرى فقال كاتب بتوقيع منصف يخاطب الأستاذ الطنطاوى : « لو أعاد الأستاذ الطنطاوى قراءة ما كتبه السهمى لوجده قد صحح الكلمة وتفسيرها بما نقله عن كتاب النهاية لابن الأثير ... » .

فعجبت لهذا التصحيح فى غير موضع للتصحيح .

وعجبت لتسمية هذا التصحيح تصحيحا لتفسيرى أنا ، مع أننى أروى عن القاديانى فيما أقول .

فتصحيح التفسير كلمتان اثنتان ليس فيهما حرف واحد صحيح ؛ لأنه لا تفسير لى أولا فى تلك الكلمة المنقولة ، ولأنه لا تصحيح هناك ولا موجب للتصحيح على وجه من الوجوه .

ولماذا يخطىء الذى يقول إن المحدث بفتح الدال هو الذى يسمع كلام الله ؟

إن المحدث لغة هو الذى تتحدث إليه ، وليس هذا هو المعنى المقصود بالكلمة فى الحديث المنسوب إلى النبى عليه السلام ، إذ لو كان هذا هو المعنى المقصود بها لكان كل إنسان من خلق الله محدثا بغير استثناء . ولم يكن ذلك شأن عمر بن الخطاب وحده أو شأن أمثاله من الملهمين . فما من أحد إلا وقد تحدث إليه أحد فهو محدث بهذا المعنى « اللغوى » الذى لا تمييز فيه .

فالمحدث المقصود إذن هو الذى يستمع حديثا من غير الناس أو يستمع حديثا من عالم الغيب . وكل حديث من عالم الغيب فهو إما حديث من وحى الله وملائكته أو حديث من وحى إبليس وشياطينه . ولا تحتمل الكلمة معنى غير هذين المعنيين ، بل لا تحتمل إلا معنى واحدا حين يكون الموصوف رجلا من القديسين وطلاب القداسة ، وهو الاستماع إلى وحى الله ، أو تلقى الإلهام من الله ، ولا فرق بين القول بهذا أو القول بذاك .

فأين هو التصحيح إذن فى التفسير كائنا من كان صاحب الكلام المفسر ؟

ولماذا قال النبى عليه السلام « محدث » ولم يقل « ملهم » إذا كان من الخطأ أن نقول إن المحدث هو الذى يتلقى الحديث من عالم الغيب !

على أننى لم أنس الإلهام فى المقال نفسه لأننى ختمته بتلخيص كلام القاديانى حيث يقول : « إن الإلهام درجات تبدأ بالحدس الصادق وتنتهى بعين اليقين وهو أعلى مراتب الملهمين ، وإنه من الخطأ أن نخلط بين الإلهام الفنى والإلهام الدينى ، لأن الإلهام الفنى قد يكون فى الشر كما يكون فى الخير ، وقد يقال إن اللص وهو يحاول سرقة المكان سنحت له خاطرة ملهمة لتيسير السرقة ثم لتيسير الهرب من الحراس ، وليس هذا من الإلهام الربانى فى شىء ، وإنما يكون إلهام الله فى سبيل الحقائق العليا والكشف عن الأسرار الروحية ، والنفاذ إلى لباب الخلق وبواطن الحكمة الإلهية ، وهذه منزلة يرتقى إليها طلاب الوصول إلى الله ، ومنهم ميرزا أحمد القاديانى فى رأيه وآراء مريديه ؟ » .

فإذا كانت مادة « حدث » لا تقبل تفسيرا فى المصطلح المقصود غير سماع الحديث من عالم الغيب ، وكان الإلهام من المعانى التى ذكرناها فى هذا السياق ، فأين موضع التصحيح ، وأين موضع التنبيه مرة بعد مرة إلى التصحيح ؟ وهل حصل أولم يحصل ولا يزال فى حاجة إلى تحصيل ؟

إن « المحدث » بفتح الدال لا تحتمل معنى واحدا حين يوصف بها الرجل الصالح غير سماع الحديث من وحى الله ، وإنما الإلهام هو تفسير لهذا التحديث وليس هو بالتصحيح ، فليس الإلهام إلا أن تتلقى إشارة من الله أو من عالم الغيب ، ومتى كانت المادة مادة « الحديث » فالإشارة المقصودة هى الحديث أو ما فيه معنى الحديث ، وإلا لكانت التخطئة لاستخدام الكلمة فى هذا الوضع وليست للتفسير والتوضيح .

* * *

ومن طرائف هذه التصحيحات « تصحيحة » أخرى وقفنا عليها فى رسالة عن « عبد الله فكرى » للأستاذ محمد عبد الغنى حسن وصلت إلى منذ أسابيع .

فنحن نعتقد أن عبد الله فكرى باشا رحمه الله كان من أنبغ كتاب الدواوين فى عصره ، وقد كتبنا عن هذه المدرسة فى مقالاتنا عن شعراء القرن التاسع عشر ، فقلنا إن أشياع تلك المدرسة كانوا فى تلك الفترة كثيرين ثم قلنا : « إن الذين بلغوا منهم جهارة الشأن قليلون ونريد جهارة الشأن فى المنصب كما نريدها فى الأدب ، فإن قليلا من الديوانيين من ضارع عبد الله باشا فكرى فى صحة اللغة ، وبراعة التركيب ، وسلامة الفهم والتفكير » .

أما الشعر فرأينا فى الرجل أنه لم يكن من كبار الشعراء و « أن قصائده فى الحكمة هى ألصق بوصايا المتأخرين ونصائحهم منها بالحكم المطبوعة التى كانت تتخلل قصائد الشعراء عفوا فى أدب الجاهلية والمخضرمة وفحول القرن الثالث والقرن الرابع . فهى بكلام المعلمين أشبه منها بكلام الشعراء ، وبوصايا الآباء المحنكين أشبه منها بالخبرة المطبوعة التى تعبر عنها قرائح أهل الفنون ، ومن ذلك قصيدته الرائية التى يقول فيها :

إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر ... وقم للمعالى والعوالى وشمر

ثم قلنا : « فهذه وأشباهها نصائح معلم وليست وحى شاعر ، ولا نعرف بين كبار الشعراء فى العالم كله واحدا صرف إليها شعره وجعلها من أغراض فنه » .

وهذا كلام فى رأى الأستاذ عبد الغنى يحتاج إلى تصحيح لأنه لم يفهمه ولم يحاول فهمه ، بل حاول تصحيحه ليكون من المصححين ولا يكون من الفاهمين .

فهو « أولا » يسأل مستهولا : « ما دخل كبار الشعراء فى العالم كله فى ميدان هو بشعراء العربية أشبه ؟! » ثم يقول « لقد نظم كثير من شعراء العربية مثل هذه القصيدة الفكرية فى

عصور مختلفة لما حط ذلك من شاعريتهم . ولقد أوردت أبياتا من قصيدة ابن سعيد المغربى تزكية لقضية أرى من الحق أن أدافع عنها . فإذا احتج محتج بأن المغربى من شعراء العصور المتأخرة نسبيا ، فإن الجواب عندنا حاضر عتيد ، وهو أن بشار ابن برد من شعراء القرن الثانى ترك لنا أبياتا فى المواعظ والحكم فيها كثير من وحى الشاعر »

وهو « ثانيا » يقول ليصحح لا ليفهم « إن الحكمة سواء لبست ثوب النصيحة والموعظة أو ثوب الحكمة المطبوعة ليس من الضرورى أن تكون وحيا شعريا . ولقد فرق النقاد قديما بين الشاعر والحكيم حتى قالوا إن المتنبى وأبا تمام حكيمان والشاعر البحترى . فالمقابلة بين نصائح المعلم ووحى الشاعر هى مقابلة فى غير موضعها ولا بابها . وقد يكون المعترض على حق لو أنه قابل بين نصائح المعلم وحكمة الحكيم »

هكذا قلنا مصحَّحين بفتح الحاء .

وهكذا قال السيد عبد الغنى مصححين بكسر الحاء .

ويؤخذ من هذا وذاك بالبداهة أن التصحيح أيسر من الفهم الصحيح بكثير ، وأن السيد عبد الغنى يفضل « أن يصحح » على « أن يفهم » ولا جناح عليه فى تفضيلاته وتصحيحاته ، لأن الإنسان معذور فى هذه الدنيا إذا هو عدل عن جانب العناء إلى جانب الرخاء .

ومن ثم وجب عليه أن يصحح بكسر الحاء ووجب علينا أن نصحح بفتح الحاء لأنه لا شأن لكبار الشعراء فى الدنيا بتحقيق الملكة الشعرية وتمحيص الآداب العربية ؛ فإن كبار الشعراء شىء ، والآداب العربية شىء آخر لا يتصل به ، ولا يستدل به عليه .

ووجب عليه أن يصحح بكسر الحاء ، ووجب علينا أن نصحح بفتح الحاء إذا أنكرنا على أحد أن يكون شاعرا مطبوعا فى أغراض الحكمة ، بعد أن قال بشار بن برد فى تلك الأغراض ما قال :

ووجب عليه أن يصحح بكسر الحاء ، ووجب علينا أن نصحح بفتح الحاء إذا قلنا إن الملكة الشعرية غير المنظومات الحكمية ولم نقل إن التعليم غير حكمة الحكيم .

وقياسا على ذلك قد أصبحنا مصححين ناجحين ، فنقول وعلى الله القبول : إن أشعر الشعراء طرا وأحكم الحكماء شعرا هو السيد أبو الفتح على بن محمد البستى حيث قال :

زيادة المرء فى دنياه نقصان   وربحه غير محض الخير فقدان

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسان

أقبل على النفس واستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وحيث قال :

الدهر خداعة خلوب   وصفوه بالقذى مشوب

وأكثر الناس فاعتزلهم   قوالب ما لها قلوب

فلا تغرنك الليالى   وبرقها الخلب الكذوب

ففى قفا أمنها كروب   وفى حشا سلمها حروب

وإنه كان ينثر فى الحكمة كما ينظم فلا تعوزه القافية ولا التحسين وإن أعوزته التفاعيل والموازين . ومن ذلك أنه قال : « حد العفاف الرضى بالكفاف » وأنه قال : « من سعادة جدك وقوفك عند حدك » وأنه قال : « المنية تضحك من الأمنية » وأنه قال : « من أصلح فاسده أرغم حاسده » وأنه قال : « إذا بقى ما فاتك فلا تأس على ما فاتك » . فلا جرم كان أشعر الشعراء وأحكم الحكماء ، وحق له أن يقول فى شمم وإباء وعزة وخيلاء :

يقولون ذكر المرء يحيا بنسله   وليس له ذكر إذا لم يكن نسل

فقلت لهم نسلى بدائع حكمتى   فإن فاتنا نسل فإنا بها نسلو

نعم وأصبحنا مصححين ناجحين غير فاهمين ولا متفهمين ، لأننا رجعنا إلى الفوائد الفكرية ، فوجدنا فيها هذه النصائح الحكمية : « وينبغى للولد أن لا يدخل المحل الذى تكون أمه واضعة فيه المأكولات مثل العسل والسمن والفاكهة وغير ذلك إلا بإذنها ، ولا يمد يده لشىء يرفعه من مكانه إلا بعلمها ، فإنه يتعب والدته المشفقة اللينة القلب عندما تطلب ذلك الشىء ولا تجده . فليحذر غاية الحذر من كل ما يؤدى إلى تعبها وتغير قلبها »

فلما رجعنا إلى الفوائد الفكرية ووجدنا فيها هذه النصائح الحكمية ، قلنا هى ملكة شعرية لا تعوزها غير الأوزان العروضية لأنها تنظم فى اللغة العربية ، ولا تنظم بالافرنجية فى اللغات الأجنبية ، وكله عند العرب صابون ، كما يقول المصححون الذين يصححون ولا يفهمون ، بل كل قول مليح ، إذا عجز الإنسان عن الفهم وقدر على التصحيح .

عباس محمود العقاد

من صميم الحياة :

وحى الشيطان ... !

للأستاذ على الطنطاوى

[على أرباب الأقلام أن يوقظوا النيام وليس عليهم أن يحيوا الموتى . .] على

وهذه (أيضاً) قصة من قصص الحياة ، (ألفتها) و (مثلتها) على مسرحها ، وهى قصة واقعة أعرف زمانها ومكانها وأشخاصها ، ولكنى لن أصف شيئاً من ذلك ولا أشير إليه ، لأنى لا أريد أن أسوء أحداً ولا أن أعرّض به ، إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت ، وما فى التعريض بالناس نفع للقراء ولا لى وما أكتب تاريخاً إنما أسرد قصة ...

***

وقعت هذه القصة فى بلد من بلدان هذا الشرق العربى الذى يقف اليوم حائراً فى مَجْمع الطرق ، لا يدرى أين يسلك ولا إلى أين يتّجه ، والذى يعيش عيشة تحكى الثوب المرقّع ، فيها شىء من الجاهلية وشىء من العصور الاسلامية الأولى ، وشىء من عصر الانحطاط ، وشىء من فرنسا ومن انكلترا ومن روسيا ولكنه لا يكاد يأخذ من كل (شىء) إلا أسوأ ما فيه .

وكان مما أخذ أهل ذلك البلد عن أمريكا ، أنهم عملوا من بناتهم فى المدارس مثل المجندات فيها ، وما جندت أمريكا المجندات فى هذه الحرب إلا (للترفيه ...) عن الجنود ، فممّن نريد أن (نرفه ...) نحن ؟ !

وانتشرت هذه البدعة فى مدارس البنات حتى بلغت هذه المدرسة ، وأراد القائمون عليها إعداد هذا اللباس العسكرى للطالبات ، ولم يكن بدّ من الاستعانة بخياط فبحثوا حتى وجدوا خياطاً أخبروهم أنه رجل أمين صاحب خلق متين ، وجاءوا به ليقيس أجساد الطالبات ، وجعلوا يدخلونهنّ عليه واحدة بعد واحدة ، وهو ماضٍ فى عمله ، يغضّ من بصره إلا عما لا بدّ من رؤيته ، ويترفق فى جسّه ومسّه ، إبقاء على طيب الذكر ، وحرصاً على صناعته ، ولعنة الله عليها من صناعة ، أن يخيط الرجل ثياب النساء ، ولعن كل من يرضى بها . ولبث كذلك حتى دخلت هذه الفتاة ، وكانت بنت ست عشرة كاعبا غِرّة مكلثمة[1] بيضاء ذات غضاضة وبضاضة وخَفَر ، من رآها رأى ملامح طفلة حلوة فتانة بطهرها وجمالها ، فى وجه خَوْد عذراء ، على جسم راقصة مِفَنّة ، فى ثياب عروس ... فلما رآها وقام للقياس ... ومدّ يده إليها أحسّ بقلبه يجب وجبانا منكراً ، وبأنفاسه تتلاحق حتى كاد يدركه البُهر ، ولم يكن قد أصابه ذلك من قبل ، وقد (طالما) رأى فتيات أجمل منها وأبهى وقمن أمامه بالغلائل ومسّهن وقاسهنّ ، فما صنعن به مثل هذا ، وما كان تقياً ولا عفيفاً ، ولا يمتهن هذه المهنة رجل ويخيط للنساء ويبقى عفيفاً ، ولا تمشى إليه لتخيط عنده عفيفة ولا شريفة ولكنه لم يكن مشهوراً بالفجور ، ولم يكن ماجناً مستهتراً فمن هنا عدّه أهل هذه الأيام ... أميناً صاحب خلق متين !

وأحسّ بالفتور فى أعصابه ، ولكنه تماسك وتحامل على نفسه حتى أتمّ القياس ، وتكلم فعجب فى نفسه أن وجد صوته يتهدج ويخرج مبحوحاً مخنوقا ، وما عهده كذلك ... وخاف أن يفتضح فاستأذن فى الانصراف ، وخرج وفى نفسه عواطف متضاربة : فهو يرجو العودة إليها ويريد الفرار منها ، وهو قد سعد بلقائها ولكنه يتمنى أن لم يكن عرفها . ولما وصل إلى دكانه لم يستطع أن يبقى فيه ، وأحسّ كأنه قد افتقد شيئاً ، وأنه يحيا فى فراغ مخيف ، وكان له ، (وتلك من لعنات هذه الصناعة) عاملات وكان يأنس بهن ويلهو ، فأعرض اليوم عنهن ولم ينظر إليهن ، ووجد تراخياً فى بدنه وشيئاً مثل الدوار فى رأسه ، فترك الدكان وذهب إلى أقرب قهوة إليه ، فألقى بنفسه على كرسىّ فيها وأغمض عينيه وراح يحلم يقظان ، ولم يكن يتخيل الفتاة بلحمها ودمها وجوارحها ، وإنما كان يرى لها صورة غامضة عجيبة فيها كل ما كان يحلم به من ألوان السعادة

(١) من العامى الفصيح ، والعامة تقولها بالتاء بدل الثاء على عادة الشاميين .

وصور الجمال ، ولم يكن يفكر فى (وصالها) إنما كان فى فكره التقديس لها والرغبة فيها والخوف منها والغيرة عليها من عيون الرجال بل من عين الشمس التى تراها !

وهذا هو الحب العذرى ، من النظرة الأولى ، وإن أنكره العلماء ، وأقاموا الأدلة على إبطاله . لقد عشقها وهو لا يعرف اسمها ، ولا دارها ، ولا مطمع له فى الوصول إليها .

* * *

ومرّت الأيام ولا أصف لك كيف مرّت عليه ، وعاد إلى المدرسة ومعه الثياب ليجرّبها على صاحباتها ، ودخلت البنات عليه ، وخلعن أمامه ولبسن ، وتحركن وحركن ... وتكلمن وسمعن ... ولكنه لم يسمع ولم يَرَه ، وكان ينظر إليهن كما ينظر النائم إلى خيالات تجوز به وهو غارق فى لجج السكرى ، وكان فكره معلقاً بتلك وحدها ، وكان يتمنى لرغبته فيها أن تمرّ الدقائق مسرعة حتى يراها ، ويرجو لخوفه منها أن يبطىء الزمان حتى يتهيأ للقائها ... وكان كلما دخلت واحدة اضطرب وخفق قلبه يحسبها هى ... حتى جاءت ...

وكان لطول ما فكر فيها وخلع عليها خياله من سمات الجمال وأحاطها به من التقديس والاكبار ، لايراها فتاة جميلة كالفتيات بل ملكا هبط من سمائه ، أو حوراء من حور الجنان نزلت إلى الأرض ، وكان يقدس كل شعرة منها ، وكان يخشى أن يمسّ طرف ثوبها ، لأنها كانت عنده كالزهرة التى يذبلها اللمس ، فكان يخاف عليها ويرعاها من بعيد ، ويحسّ الرغبة بأن يمرّغ وجهه بتراب قدميها ، وأن يقبل حذاءها ... حماقة من حماقات العشاق ...

ولم تكن البنت قد سفرت من قبل ، أو خالطت الرجال ، فهى لا تزال مستحيية ، فتهيبت أن تجرب الثوب ووقفت ... فأعانها المدرس وأنزل بيده جواربها ، وخلع عنها ثوبها ، وبقيت بـ (الشّلحة)[1] ، فلما أبصرها الخياط كذلك ، ورأى المدرس وهو يعينها على نزع الثوب عنها ، اهتز كأنما مشى فيه تيار كهربائى ، واجتمع فى قلبه دمه كله ، نخفق حتى كاد يخرج

من صدره ، وشحب وجهه حتى صار بلون قشرة الليمون ، ثم دارت به الدنيا ، ولم يعد يشعر بشىء ...

لقد أغمى عليه فحملوه إلى دكانه ، ولم يعد إلى المدرسة أبداً .

* * *

وهام الرجل بها ، وزهد فى كل امرأة من أجلها ، ولم يبق له فى الحياة مطمح سواها ، فرحمه جماعة من جيرانه ، وذهبوا يخطبونها له من أبيها ، وأخذوه معهم ، فلما عرف ما جاؤوا له ، أباه عليهم وردّهم ، فخرج الشاب وقد ضاقت به الدنيا ، ولم يجد سبيلا يسلكه إلا سبيل الفجور ... فأوغل فيه ، وسخر ماله وشبابه لافساد الفتيات ، فأفسد منهن العشرات ، وهنّ يتهاوين عليه كما تتهاوى الفراشات فى النار . ومرّت الأيام ، وسمع أن البنت قد خطبت ، وعقد العقد ، وزفّت إلى بعلها .

هنالك أيس الرجل فانقلب شيطانا ، واستحال ذلك الحب فى نفسه بغضاً ، وكذلك يكون البغض الشديد من علامات الحب الشديد ، وأقسم ليدمرن حياتها وحياة أهلها ، ولو دفع ثمن ذلك ماله كله وحياته ، واستوحى الشيطان الأكبر ، ورفاق السوء ...

وهبط عليه (وحى الشيطان) !

فاستعان بمن يعرف من الفتيات من رفيقات البنت ، وأغراهنّ بالمال وبالمتع أن يأتينه بها إلى داره مرة واحدة ، وحلف لهن بالأيمان المؤكدة أنه لا يمسّ جسدها .

واحتلن عليها وزعمن لها أن رفيقة لهن مريضة فهن يحببن أن يزرنها معها ، ورضيت وضربت لهن موعداً ، فأخبرن به الرجل فأعد عدة الانتقام .

* * *

ولما وصلن إلى الدار تأخرن عنها حتى صارت من داخل ، ثم رجعن وأغلق هو الباب دونهن وبقيت وحدها ، ونظرت فاذا الدار خالية ففزعت وركضت نحو الباب ، فاعترضها الرجل وأخرج مسدساً ضخما ، وهددها بأنه قاتلها به إن لم تخلع ثيابها كلها ، وحلف لها إنها إن فعلت لا يمسها بيده ، ولا يدنو منها ، ويدعها تمضى بسلام ، ونظرت الفتاة فاذا هو على صورة الوحش

(١) عامية يقابلها فى الفصيح المجول أو الاتب .

الهائج ، أو الشيطان الغضبان ، فارتاعت وجعلت ترجع حتى التصقت بالجدار ، وهو يسلط عليها بريق عينيه وفوهة مسدسه ، فلم تجد مناصاً من الامتثال .

فألقت خمارها عن رأسها ، ثم نزعت معطفها بيد ترتجف من الرعب ، ووقفت ، فاستحثها ، فانفجرت تبكى وتنشج ، وتتوسل إليه :

— أرجوك ، أنا فى عرضك ، أبوس رجليك ... ارحمنى استرنى ، ماذا عملت لك ، إنى امرأة شريفة ولى زوج ...

فزأر فى وجهها :

— بَسّ !

وأوهمها أنه سيطلق المسدس ، ثم رماه وراءه واستلّ سكينا طويلة أدناها منها حتى وجدت حدّها على عنقها ، وقال :

— اخلعى !

نخلعت الثوب ، فقال :

— اخلعى كل شىء !

فعادت إلى توسلها وبكائها ، وعاد إلى قسوته وتهديده .

فرمت (الشلحة) ، والقميص ، وبقيت بذلك (السكاسون) الذى يشبه خرقة بين رجليها ، وصُدْرة الثديين ، فصرخ بها حتى نزعتها ، ووقفت أمامه كما ولدت أمها ...

ومرت لحظة ، ثم أعرض عنها ، وقال لها : البسى واذهبى . وصدق وعده فلم يمسسها .

فلما خرجت رفع ستارة ، وقال للمصور :

— هل أخذت الصورة ؟

— قال : نعم ، أخذت لها ثلاث صور !

* * *

خرجت وما تصدق أنها نجت ، فلما بلغت دارها سقطت مريضة ... وكانت هذه الواقعة كابوسا على صدرها ، ما تفارقها ذكراها ، فى يقظتها ولا فى كراها ، وهجرت رفيقاتها جميعاً رفيقات السوء ، واتخذت لها ملاءة ساترة ... ولكنها أخطأت فلم تنبىء بما جرى لها زوجها ، ولم تصدقه خبرها .

ثم كان الفصل الأخير من الرواية :

وصل الخبيث حبله بحبل الزوج ، وتزلف إليه حتى جمعته به سهرة ، فأحضر معه طائفة من أصحابه الفساق ، وكان قد بيّت معهم أمراً ، فلما احتدم الحديث وحميت السهرة ، وزالت الكلفة وجاءت الالفة ، أدار الخبيث الحديث حتى وجهه وجهة الحب والغرام ، وانطلق يقص قصة لفقها ، فلما انتهى منها ، أخرج الصورة وقال :

— وهذه صورة صاحبتى فيها ، انظروا إلى جسمها وجمالها !

ودفعها إليهم فتناقلتها الأيدى ، وكلما رآها واحد من أصحابه قال :

— وأنا أعرف هذه الفتاة ومعى صورة أخرى لها .

حتى وصلت إلى يد الزوج ، فنظر فيها ، فأحسّ كأن لطمة انحطت على وجهه ، فأظلمت منها عيناه ولم يعد يبصر ما حوله .

لقد كانت صورة زوجته !

ودمّر بيتان ، وعوقب بريئان ، ونجا المجرم الأول بلا عقاب ، وهو القرد الذى جاءنا تقليده بهذه البدعة المخزية ، بنظام (الرشدات) !

على الطنطاوى

مما لم ينشر للرافعي :

أمن عصر العقل إلى عصر القلب ؟ أم من عصر العقل إلى عصر المعدة ؟

مشكلة الفقر والغنى بين العلم والقانون والايمان

للمرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

يزعمون أننا فى عصر العلم ، وفى دهر القانون ، ويريدون أن يسلبوا الناس إيمانهم ، كأن الإيمان هو مشكلة الإنسانية ؛ مع أنه لا حل لمشكلاتها إلا به . إن مسألة الغنى والفقر ، وما كان من بابهما لايحلها العلم ولا القانون إذ هى من مواد القضاء والقدر فى إنشاء الآلام والأحزان وأضدادها التى تقابلها ، وما كان فوق الإنسانية من السماء قوة لا تحد ، وتحت الإنسانية من القبر هوة لا تسد ، فلا نظام إلا على تصريف النفس أمراً ونهياً ، وتأويل الحياة معنى وغاية ، فان لم يكن الشأن فى ذلك مقرراً فى الغريزة على جهة الإيمان ، فلن يكون العلم والقانون على ظاهر النفس إلا ثورة بما فى باطنها ، ولن يبرح الناس على ذلك بعضهم من بعض كالهارب منه وهو مضطر إليه ، أو كالمضطر إليه وهو هارب منه ، وكلٌّ من كلٍّ فى معنى من معانى النفس لا إنسانية فيه

ما زاد العلماء على أن خلقوا فى ساعدَى الحياة هذه العضلة البخارية ، وذلك العصب الكهربائى . فمن لم يستطع أن يتوق ضربة الحياة المدنيـة بعدة من قوة ، وعتاد من مال ، طاحت به فدكته دكّ الخسف ، ووضعته من الناس موضع الحبة من الرحى الدائرة . فما بينه وبين أن يهار موضع يستمسك عليه ، وإنمـا هذا الوضع هو إيمـان المؤمن إذ يعطف على الضعفاء أو يُسعِدُ أو يَبَرُّ بما كتب عليه أن يرق لهم من ذات نفسه ويتحنى ويتوجع .

ومتى كان العلم والدين يقومان جميعاً على تنظيم الطبيعة فى مادتها وإنسانيتها لم تجر الإنسانية إلا على بقاء الأصلح فى الجهتين ، فاذا تخلى بها العـلم وحده فلن تجرى أبداً إلا على ناموس بقاء الأصلح فى ظاهرها لإيجاد الأفسد فى باطنها .

لن يصلح الإنسان للحياة الطيبة — ما دام بهذا التركيب الذى لن يتغير — إلا إذا وازن بين بيئته التى هو يوجهها وبين طباعه التى توجهه ، فقيد أشياء فى قيودها ، وأطلق أشياء من قيودها ، وجمع فى مقبوآ نفسه حداً بحرية وديناً بعلم . بيدَ أن طغيان العلم فى هذه المدنية قد مرد على طباع[1] الإنسان وشمائله فى كل موضع من الحياة لا تكافئه فيه قوة الدين فاذا هو يزين الشهوات ، وإذا الشهوات تطوع المغامرة ، وإذا المغامرة تجلب المنازعة ، وإذا المنازعة تدفع إلى الحرص ، وإذا الحرص يتصرف بالحيلة ، وإذا الحيلة تهلك التقوى ، وكان فى تقوى الإنسان إيمانه ، وكان فى إيمانه رحمته ، وكان فى رحمته الأثير الإنسانى الذى تعيش فيه الروح . وعلى ذلك يقع فى الإنسان من النقص بمقدار ما يزيد له العلم ، فاذا هو منحدر إلى السقوط مقبل على المحق راجع إلى الحيوانية بأكثر مما يحتمل تركيبه منها .

أو لا يرى الناس أن تفوق أمة على أمة لم يعد فى هذه المدنية إلا معنى من معانى القدرة على أكلها ... ؟

ومضى العلم على شأنه ذاك حتى جعل الإنسان آلة من آلاته التى عمر بها الدنيا فأصبح من لا إيمان له يتعسف خسائسه[2] لايدرى أين يؤم منها وأين يقف، فلا يتسفل بقوة إنسان ولا بضراوة وحش ، ولكن بقوة آلة من الآلات الكبرى ودقتها وسرعتها وإتقانها ... حتى لا رذيلة من رذائل هذه المدنية إلا هى مفتنة فى تركيب على نسق الأمور المخترعـة ، وكأن الآلات العمياء مازادت إنسانها شيئاً إلا أن قالت له كن أعمى، وكأن المدنية الملحدة ما عدت أن جعلت لوحشية تعمل أعمالها الفظيعة بتأنق وتمدن

نسى الناس الإيمـان أو انسلخوا منه ، فاذا أيديهم تموج بأسباب الفضائل[3] تحكمها ولا تضبطها ، وما كان الإيمان الصحيح إلا التقوى[4] ، ولا كانت هذه التقوى إلا عملا من أعمال الإرادة غايته إيجاد الغرائز العليا فى الإنسان بالأسلوب الذى لا تخلق الغرائز العملية فى النفس إلا به ، وعلى النحو الذى

(١) أى مرن عليها واستمر وبلغ بها الغاية التى تخرجها من جلة ما عليه الطبع الانسانى الكريم .

(٢) يتخبط فيها على غير هدى .

(٣) ماجت اليد بالشىء إذا اضطربت به كأن أيديهم لا تضبط أسباب الفضائل من ضعفها عنها

(٤) الاسلام كله فى كلمة التقوى كما بيناه مفصلا فى كتابنا إعجاز القرآن) فانظره . وكلمة التقوى من معجزات هذا الدين . ولقد قال (هكسلى) قسيم دارون الشهير : « إن الدين هو إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة » وكل هذا من قول أستاذ القرن التاسع عشر . وكل ما سبقه به الفلاسفة والحكماء ، وكل ما جاء وما سيجىء هو من معانى (التقوى) فى الإسلام لا تضيق الكلمة عن شىء منه .

لا تصلح فى الحياة إلا عليه. أظهر آثار الإيمان تحديد الغايات الإنسانية وتنسيقها والملاءمة بينها ، فإن إطلاق الغاية لـكل إنسان على شأنه وسبيله كيف درّت معيشته[1] وكيف دارت أهواؤه يجعل طرق الناس متداخلة متعادية فيقطع بعضها على بعض ويقوم سبيل فى وجه سبيل ، فلا تحل عقدة إلا من حيث تُقرض أختها ، ولا يتخلص خيط من خيوط اللذات الملتبسة المتشابكة إلا قاطعاً متقطعاً معاً . وأنت إذا بحثت عن الوحدة التى تحاول ضم الإنسانية المتنافرة وردها إلى مرجع واحد لم تجدها فى غير إيمان المؤمنين ، فهو أبداً يقابل فى كل نفس ما تطغى به الحياة على أهلها ، ولا عمل له إلا أن يحذف الزيادات الضارة بالإنسان من بيئته ، وبالبيئة من إنسانها ، وهو بهذا حائل فى كل مجتمع بين أن تنقلب أسباب السمو العقلى فتعود من أسباب الدناءة والخسة .

وإنما محل الإيمان من أهله فوق محل الحكومة ممن تحكمهم ؛ فهو الأمر والنهى بلغة الدم والعصب ، وهذه الغايات التى تتألف من أجلها الحكومات كأمْن الناس ونظامهم وسعادتهم هى أنفسها محكومة بمسائل تأتى من ورائها فى طبائع الناس وعاداتهم ومعايشهم ومصالحهم ، فإن لم تكن فى النفوس من الدين أصول تأمر وتحكم ، وفى الطباع من اليقين أصول تستجيب وتخضع ، رجعت الحكومة فى الناس أداة مسلطة لا تغنى كبير غناء فى الخير والشر . إذ يحتاج الخير أبداً إلى قوتها تحميه ، ويحتال الشر أبداً على قوتها تستنقذه ، ومتى لم يكن الخير إلا بالقوة فاحتياجه إليها شر ، ومتى لم يكفّ الشر عن القوة فاحتيالها عليها شر مثله ، فاذا تضعضعت من الأديان هذه الدعائم الراسية ، وفرَط من الانسانية هذا القارط الذى ليس فى الأرض كِفاء منه — لم تجد حسنة فى حكومة من الحكومات إلا معها من طبيعتها سيئة ، ولم تجد سيئة إلا هى سيئتان ، فلن تكون الحياة حينئذ إلا تعقيداً أشد التعقيد من طغيان القادرين عليها بالمال والغنى ، ومن حقد العاجزين عنها بالفقر والحاجة .

والغنى القادر على متع الحياة ولذاتها هو دائماً فى فلسفة العاجز قادر بلا قدرة ، كما أن الفقير الضعيف هو دائماً عند نفسه عاجز بلا عجز ، ولا أدل على ذلك من تعبيرهم عن معناه بالكلمة التى تشبه أن تكون هى أيضاً معنى بلا معنى ... وهى الحظ . فلا بد للناس من الحدود التى تبنى بين كل ضدين من أحوال الإنسانية جداراً يعطف نفساً على نفس بالرحمة ، ويرد قوة عن قوة بالصبر ، ويكف عادية عن عادية بالتقوى ، ويحقق عوامل التوازن بين أسباب الاضطراب فى الجماعات المتصادمة ليقُرّ كلّ مضطرب فى حيز إن لم يمسكه فيثبت فيه لم يفلته فيعدو على سواه . فاذا عملت المدنية على هدم هذه الحدود ، وتركت قوة الإيجاب فى طبيعة الحياة بغير قوة قلبية سليمة من الإيمان فى طبيعة النفس ، كشفت للانسان عيوبه ببلاغة من تعبير شهواته فزادتها رسوخاً فيه كما تقول للص : إنك لتسرق وستصبح غنياً تمر يدك فى الذهب تنفق وتستمع على ماتشتهى . فما رأيك قلت له لا تكن لصا وتعفف ، بل قلت له كن غنيا واستمتع . ويومئذ يغبر البؤس ويقشعر الفقر كما نرى لعهدنا فى الأمم التى فشا الإلحاد فيها ، فليس من بعد إلا أن يتحول الفقر عن صورته البيضاء فى سكب الدمع إلى صورته الحمراء فى سفك الدم ، وكان سؤالا فيعود اغتصابا وكان الأسفل فيرجع الأعلى ، وكان يفرضه الحق فإذا هو الحق نفسه . والله لـكأن المسكين فى هذه المدنية هو الجزء اللئيم الذى طرده الغنى من نفسه وتبرأ منه وأمات ما بينه وبينه ، فإذا هما اعترضا فى مذهب من مذاهب الحياة ، نفر الغنى كأنما يرى قبره يدنو منه ، وأطبق عليه البائس بمعانى النقمة واللعنة يقول له ما أنا إلا لؤمك أنت .

إن من الشجر شجرة تنبت فى القفر تعتصر ماءها من بين رمل وحجر ، وتمتص غذاءها من لؤم الجدب ، فاذا حان أن يزهر عودها شوك فلا يكون فى عقده ونبره[1] إلا شوك ، فإذا ازدرعوها فى الخصب وخضلها الماء[2] ، وساغت لها الطبيعة ، ثم حان أن يزهر عودها ملسه كرم الأرض[3] ؛ فإذا فى موضع كل شوكة زهرة كأنها كلمة الحمد . وكذلك مثل الفقير بين الملحد والمؤمن

ترى أيخرج الإنسان فى هذه المدنية من عصر العقل إلى عصر القلب ، أم هو منحدر من عصر عقله إلى عصر معدته ؟

وكان على هذه الأرض أغنياء مؤمنون فيهم من كرم الحس شبه الفقر ، ومساكين مؤمنون لهم من كرم الصبر شبه الغنى ، فهل تنقلب المدنية من الغنى المحض والفقر المحض إلى مادة تخلق اللحم الحى وأخرى لا تخلق له إلا الظفر الحى ...؟

وكان اختراع الإنسان فى المادة الجامدة ، أفتراه يجىء يوم على الناس يكون أعظم اختراع فيه للانسان الأخير أن يعيد إلى الأرض إنسانها الأول الكريم ؟

مصطفى صادق الرافعى

---

(١) كناية عما تتفق به أسباب العيش وتجتمع وتزكو .

(١) النبر النتوء الذى فى العود . (٢) بله الماء .
(٣) نعمته وأدمجته وأزالت نتوءه .

مســـكين . . . !

للاستاذ صلاح الدين المنجد

جلس بسام على صخرة مشرفة على طريق القرية الضيق ، يلهو بقذف الحصى ، ويرنو إلى الأضواء الراعشة ، وهى تخفق فى السهل البعيد . وكان الناس قد آووا إلى دورهم ، مذ طفلت الشمس للمغيب . فتلك كانت عادتهم فى هذا المصيف المتوارى فى ثنايا الجبال . وكانت الطرقات قفراً ، والليل هادئاً ، والقمر يقطع السماء بدلال واطمئنان ، تحف به النجوم باسمات ، يتنادين ويتغامزن ، كأنهن حسناوات يتبعنه فى لجة البحر ...

وطرق سمعه صوت ناعم رخيم نبهه ، فأرهف أذنيه ، وحدق بعينيه ، ثم قفز من الصخرة ، يتلفت يمنة ويسرة . فلمح فى طريق تخرج من سفح الجبل ، فتترامى على صدره ، وتغيب فى قمته ، شبحين ينحدران وسط الظلام ؛ فى مشيتهما ميسان وفتور . وقد استند رأس برأس برفق ، واشتبك ذراع بذراع بعنف ، وغرقا فى تمتمات وغماغم ، شغلتهما عما يحيط بهما ، من طبيعة وسنى ، وقمر ضاحك ، ونسيم رطب ، ونجوم ساطعات .

وتقدم الشبحان يميسان . فخفق قلب بسام ، وظن أنه حبيب يغازل فتاته فى هذا الليل الوسنان . فخطر على قلبه أن يعبث بهما فيقلد عواء الكلاب ليرعبهما ، ولقد هم ... لولا أن حدق ثم حملق ، ثم بلع ريقه ، وخفق قلبه ، وذهل ... لقد لمح ، تحت ضوء القمر ، حسناءه ، زهرة الياسمين ، التى فتنته ذات يوم ، فى قاعة الدرس ، إنه يوم مسحور ... أبصر به جمال الحياة يشع فى عينين زرقاوين كالبحر ، وشعر أشقر مجدل كسنابل القمح ، وفم رقيق كأنه الجرح يقطر الدم ، وينفح العطر ... فراح هيمان بها ، لا يصحو من حبه ولا يفيق .

وفار الدم فى عروقه ، ورمى بحصوات كانت فى يده . وساءل نفسه عما تفعله الآن ، وقد انتشر الليـل ؟ ترى أهى تحب فتى غيره ؟ وكيف تحب ، وهى له وحده ؟ . وهم أن يهجم على هذا الذى معها فيهشم عظامه ، ويسحقه . فاقترب مغيظاً ... ولـكنه ما لبث أن تبين أن الذى معها فتاة ، وليس فتى . فشعر بتيار بارد يجرى فى عروقه ، وتصبب العرق من جبينه ... وبهت ...

وضحك ، بعد برهة ، من نفسه كالمجنون . وعاد إلى الوراء خطوات ، فاختفى وراء صخرة ضخمة ... وحدثته نفسه أن ينتهز الفرصة فيكلمها . فهذه فرصة لن يجد مثلها . الجو صفو ، والحب شديد ، والرقباء بعيدون .

وهو ما انفك ، مذ عرفها فى المدرسة ، يحاول الكلام معها ويود التقرب منها ، فلا يستطيع . فكان يكتم هواه ويتجلد . وربما زور فى نفسه جملا حلوة ، وكلمات ناعمات ، آملا أن تتصل بينهما المودة ، فيحدثها بها ... ولـكنه كان يفشل دائماً فيما كان يحاوله . فقد كان أستاذه القصـير يقلقه ، وكان رفيقه الشيخ المتعصب للدين يزعجه . فهؤلاء أوانس يحرم على الشبان كلامهن ، أو النظر إليهن .

وشعت فكرة التحدث إلى حسنائه ، فى نفسه كالشمس . وشعر بقوة تدب فى جسمه . وأخذ قلبه يخفق ... ورفع رأسه ليرى الشبحين ... وهم أن يوقفهما ، فقد اقتربا منه . وظن أنها ستفرح بلقياه ... فلقد كان يخيل إليه أنها تحبه ، ودلائله على هذا لا تعد . كم مرة عمد إلى كتب الأدب ، فاستفتى صفحاتها ، فكانت تغريه . كم مرة فتح دواوين الشعراء ، ليعلم (حظه منها) فكانت الأشعار تبشره . حتى لو كانت القصائد على غير مايشتهى . إنه كان يقنع نفسه أن الشاعر كان يقصد غير ما قال ... وكم مرة نظرت إليه نظرة ، قد تـكون عابرة ، فقضى الليالى يفسر النظرة ويقول لنفسه : إنها لتحبنى ... فكيف لا تفرح الآن ، إذا رأته أمامها ... إنها لا تفرح فقط ، بل ستلقى بنفسها عليه ، وستقول له خذنى ... فهأنذى بين يديك ... !

وتقدمت زهرة الياسمين ، فتبين من معها . إنها رفيقتها بنفسجة فسر . ترى من يجامل منهما ؟ وكيف يغازل زهرة الياسمين ؟ ألا تغار هذه البنفسجة ؟ وقال : اوف ، هذه مشكلة جديدة ... إن زهرته قد تنكره أمام صاحبتها ، وقد تسمعه قارس الكلام ... ولـكن كيف يقدم لها ما زور فى نفسه من كلمات غزلات ، وقد صنعها لها وحدها ؟

ومر الشبحان ، فتقلص بسام ، واختبأ ، وحبس أنفاسه . ثم عاد فرفع رأسه ، لقد ضاعت الفرصة . مرت ولم يكلمها

لا بد من التحدث معها . ولـكنه لم يفـكر قط فى رفيقتها هذى ولم يحسب لها حسـاباً ... وخطا خطوات ... واتجه نحوها . فسمع هامساً يهمس فى أذنه : « أنت شاعر ... وأديب ... ! » فرفع ، بلا شعور ، رأسه ، ونفخ صدره . وامتلأ زهواً . وردد بنفسه : « نعم ... أديب ، لى من سعة المعارف ، فى الشعر ، ما يسهل لى كل عسير . ثم أنا شاعر ... وشعرى رقية للحسان وسحر ... سأحدثها . فإذا أعوزنى الأمر ، نثرت ما حشوت به رأسى ، من أشعار ، كالزهر » .

واندفع ... تاركا عن يمينه صخرته التى كان يجلس إليها ، ثم مشى بحذر نخلف وراءه الطريق الوعرة التى تقوده إلى بستان القرويات الثلاث اللواتى أبغضن الرجال ، فتبادلن ، كما زعموا الحب . ثم عرج فجأة ، فإذا هو وراء الفتاتين ، على بعد أمتار ... لقد أدركهما .

ولـكن كيف يبدأ الحديث ؟ هذه مشكلة ثانية ... وأخذ يتذكر ، وقد اطمأن أنه وراءهما ، ما كان زوره فى نفسه . لقد نسى بعض ما زور ... إن فيه : « أرأيت إلى الوردة التى عشقها البلبل ، يازهرتى ، فطاف فى الدنيا يجمع لها اللآلئ ويزينها بها ، ويغنيها فى الصباح والمساء من الغناء ما يبهجها . إنك لأجمل منها عند ما تبسمين ... » ولـكنه تلعثم ... ترى أتليق هذه الكلمات ؟. إنها خيالات شاعر يغازل بها الورق ، لا الحسان ... ! ثم ، أتفهم عنه ما يقول . كان يعتقد أن المرأة ليست جديرة بهذا ولـكنه كان يجد نفسه مسوقاً نحوها مفتوناً بها ... !

وحاول أن يذكر جملة أخرى ... « أنت يا زهرتى ، بين أنشودة وبنفسجة ، كالشمس تبدو رفافة بين غمامتين تضحك للدنيا وتغمزها بالنور ... » فأعجب بما قال وزهى . ولـكنه فطن أن أنشودة غائبة ، وأن فى الليل القمر . وإذن ماذا يقول ؟ وتنبه . لقد كادتا تصلان إلى السفح . وهاهو ذا طريق القرية يبدو ، بلهاهى ذى دارحسنائه ، تلمع سقوفها الحمر ، تحت ضياء القمر ، إنها قريب ، فى رأس الطريق . ونادى من أعماق نفسه : « يا رب ... يا رب ! » وقبض على أصابعه ، وضغط على أسنانه وفار الدم فى وجهه . كيف يحدثها ؟ كيف يبدأ الحديث ؟ وبم يحدثها ؟ وتأفف . ولعن هذه الدراسة الطويلة التى قطع شبابه بها ، ثم هو يجبن عن التحدث إلى فتاة ، بنه بارد بليد . ولم يجد شفاء لنفسه غير سباب أرسله إلى أستاذه ورفيقه .

وشعت فى رأسه فكرة فتمسك بها كأنه يخاف أن تفر . بعد أسابيع سيرسل ، وترسل ، للتدريس ، تم جمعهما المهنة . فلماذا لا يتخذ ذلك سبيلا إلى التحدث . ولقد كان يغيظه أن يراها تناجى رفيقتها وهو قريب منهـا ولا تناجيه . يا ويحهما . كأنهما عاشق وحبيب .

وبلغ السفح ، وهو يمشى على رود . ويئس وفكر فى الرجوع ، وانثالت على رأسه فكر جديدة : « هيا ، لأتعثر عمداً فأتدحرج أمامهما ... عندئذ تقفان ... وعندئذ أحدثها ... » وهم وتشجع ولـكنه جبن . لقد خاف أن يتبعثر شعره الذى صففه ورجّله .

وخشى أن تضحكا منه وتهزءا به ، فأجفل ، ووقف ، والفتاتان مسرعتان .

ورآهما وقد بلغتا طريق القرية تهرولان فجمد بصره . وشعر كأن فى عنقه حبلا يشـد به نحوهما . فهرول هو أيضاً بلا وعى ، وأخذ وهو يهرول يلوم نفسه ويشجعها ويدفعها أن تحييهما ، فالتحية مفتاح الحديث . وأسرع فى العدو وقد خاف أن يفوته إدراكهما . لقد بلغتا القصر ... هذا القصر الذى زينت جدرانه بالياسمين ، وتدلى فوقه زهر أحمر يسمونه « الزهر الفرحان » . وأسرع ... وجهد نفسه ... وفى عينيه نار ، وفى قلبه نار ... آه ! ليت الطريق تطوى ... وليت قلبه لا يخفق ... ليستطيع إدراكهما ...

وبلغ القصر ، وهو يلهث . فتشجع ، وابتسم . وفى اللحظة التى فتح فيها فاه ليقول بصوت راعش :

— مساء الخير يا آنسة ... مساء الخير ...

كان باب القصر ينغلق ... وزهرة الياسمين ، تغيب ...

وأغمض عينيه ، وشحب وجهه ، وأطرق برأسه . ثم مضى وفى عينيه دمعه .

وردد النسيم الهائم فى تلك الليلة تحيته اليائسة ، وتهامس الزهر المارش ... « إنه مسكين ... إنه مسكين ! » .

صلاح الدين المنجد

شكسبير العاشق

للأستاذ يوسف روشا

كان جون شكسبير ، والد الشاعر ، فلاحا . ويقول بعض الرواة إنه كان جزاراً . وليس ببعيد أن يكون الرجل قد اتخذ هاتين الحرفتين فى آن واحد ، فقد كان جم النشاط سريع الانسجام لا يحجم عن المغامرة فيما يعرض له من الشئون ، فتحسنت حاله بسرعة إذ نراه فى سنة ١٥٥٦ — ولم يمض على وفادته على « ستراتفورد » سوى خمس سنوات — قد ابتاع دارين أنيقتين وانتخب نائباً عن هذه البلدة ، ثم قام بعد هذا بقليل بأكبر صفقة فى حياته وذلك بزواجه من « مارى أردن » ابنة المزارع الغنى ، فاستقامت حاله وارتفع فى مدة وجيزة من مزارع بسيط إلى مصاف أعيان البلدة .

ولد وليم شكسبير فى سنة ١٥٦٤ ولا يزال اليوم الذى ولد فيه موضوع أخذ ورد ، فمنهم من يقول إنه ٢٢ أبريل ، ومنهم من يزعم أنه ٢٣ أبريل ، فليس فى هذا ما يهم ، إنما الذى يعنينا أنه ولد فى ١٥٦٤ وكان الصبى الأول والطفل الثالث لجون ومارى شكسبير .

لم يرسل جون ابنه وليم إلى المدرسة إلا عند بلوغه السابعة من عمره . وليس من شك فى أن وليم ، وما عرف عنه من توقد فى الذهن ونفاذ فى البصيرة ، كان قد التهم بسهولة ويسر كل ما تلقاه فى مدرسته ، وليس هذا الذى تلقاه مما يغنى ، ذلك أنه لم يكن يتعدى النحو وشيئاً قليلا جداً من اليونانية واللاتينية اللتين لم يتقدم فيهما تقدما ملموساً ، حتى أن « بن جونسن » ، وقد كان معاصراً للشاعر ، قال عنه مرة إن معرفة شكسبير باللاتينية قليلة وأقل منها معرفته باليونانية .

على أن حال الأب المالية أخذت فى التدهور حتى اضطر آخر الأمر إلى إخراج كافة أبنائه من المدرسة .

لا نعرف شيئاً عما كان يفعله الشاعر من الثالثة عشرة إلى الثامنة عشرة من عمره ، وأغلب الظن أنه كان يساعد أباه فى مهنته كجزار ، إلا أن سوء الحظ لازم جون شكسبير ، فأخذ ينحدر رويداً رويداً إلى هاوية الإفلاس والفقر المدقع ، فساءت أخلاق وليم وانضم إلى جماعة من الأشرار يسرقون الغزلان من حدائق الأغنياء !

ولكن اقتحام الحدائق واختطاف الغزلان لا يعدلان شيئاً بجانب ما كان يقوم به وليم شكسبير من غزواته الغرامية ، فقد وجه سهامه ، وهو لا يزال فى الثامنة عشرة من عمره إلى فؤاد « آن هاثوى » ابنة فلاح ، فصادها !

كان وليم مشبوب العاطفة ، زير نساء ، كما تدل عليه أشعاره وخاصة قصيدته « فينوس وأدونيس » . ومن المؤكد أنه لم يكن يقصد من مغازلة « آن » سوى العبث وإشباع الشهوة ، ذلك أنه لم يكن يحبها ، كما تبين فيما بعد ، ولكن المسألة تطورت وأرغم آخر الأمر على أن يتزوجها .

كانت « آن » تكبره بثمانى سنوات ، وبعد ستة أشهر من زواجها وضعت له صبية أسماها « سوزان » ولا ريب أن هذا هو السبب الذى من أجله أرغم وليم على الزواج .

على أن هذا الزواج كان نكبة على الشاعر ونعمة على الأدب الانكليزى خاصة والأدب العالمى عامة .

ذلك أنه لو لم يتزوج « آن » هذه لما نزح إلى لندن ولما عرف تلك الفتاة ذات الشعر الناعم والحاجبين الأسودين التى جرعته الصاب والعلقم ، والتى من أجلها أخذ يخرج تلك الروائع الخالدات ، ينفث فيها سمه ، وينفس بها عن كربه .

لقد كان وليم ، كما أسلفنا ، زير نساء ، لا يكف عن رمى شباكه هنا وهناك لاصطياد الكواعب ، وكانت « آن » زوجته شديدة الغيرة ، شكسة الطبع ، فكان الخلاف بينهما يتسع والحالة تزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

إن غلمته العارمة ورعونته الهوجاء هما اللتان ورطتاه وقيدتاه بهذه الأنشوطة فلا مناص له الآن إلا أن يقطع الحبل . لقد كان عليه أن يختار أحد أمرين ، إما أن يكون مخلصاً لطبيعته وفنه ، وإما أن يذعن لعرف المجتمع وواجبه ؛ فاختار الأول وفر إلى لندن ، ولقد عاد هذا الاختيار على العالم بأكبر فائدة .

ولقد حاول الشاعر أن يعتذر عن هذه الزلة بهذا البيت :

« الحب طفل غرير ليس يدرى ما الضمير »

لا نريد أن نقف طويلا لنتبع خطوات شكسبير فى لندن مخافة أن يطول بنا الكلام فيلهينا عما نحن بصدده . يقول الرواة إن أول عمل قام به الشاعر عند هبوطه على لندن هو إمساك الجياد عند أبواب المسرح مقابل جُعل ، ثم تدرج قليلا قليلا إلى أن أصبح ممثلا ومؤلفاً للمسرح .

يذهب « فرانك هارس » ، الناقد الانكليزى الشهير إلى أن حياة شكسبير فى لندن حتى سنة ١٥٩٧ – السنة التى تعرف فيها إلى « مارى فتون » – كانت سعيدة إلى حد ما على الرغم من هذه السحابة القاتمة المتغلغلة فى نفسه . لقد كان ، وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره أعظم شاعر ومؤلف للمسرح أنجبه التاريخ ، وكانت أواصر الصداقة تربطه مع « الايرل أوف ساوثمتن » واللورد هربرت « بمبروك » ، وهما شابان ارستقراطيان عريقان فى المجد ، وهذان قرباه إلى القصر .

ومن طريف ما يذكر أن الملكة « اليزابيث » شاهدت مرة رواية « الملك هنرى الرابع » فأعجبت « بفلستاف » ، تلك الشخصية الجذابة المرحة ، فأوعزت إلى شكسبير رغبتها فى أن ترى « فولستاف » عاشقاً قد تيمه الحب . فنزولا على رغبتها أخرج شكسبير فى مدة لاتتجاوز الأسبوع مسرحيته «زوجات وندسور المرحات » فكان نصيبها الفشل ، ذلك لأن الفن العالى لا يخضع للمؤثرات الخارجية ولا يصدر إلا من منبع واحد هو وحى الفنان !

والآن مَن هذه السيدة « مارى فتون » التى سيطرت على فؤاد الشاعر وأضرمت فيه نار الحب ؟ إنها وصيفة الملكة «اليزابيث» ، فى التاسعة عشرة من عمرها ومن عائلة عريقة فى المجد . لقد وصفها شكسبير بأنها امرأة لا كالنساء ، فارعة القوام ، شاحبة اللون ، عيناها وحاجباها سوداوان ، غجرية الطبع ، متغطرسة ، متمردة ، خليعة ، من أرومة عريقة فى المجد وصاحبة مركز رفيع .

هذه هى المرأة التى جن بها الشاعر ، فما هى صفات شكسبير ومؤهلاته حينذاك ؟

لقد كان فى الرابعة والثلاثين من عمره ، ضعيف البنية ، محطم الأعصاب ، خجولا ، فقيراً ، شاعراً . ولكن أغلبية الشعب فى ذلك العصر ، عصر البطولة الجسمية ، لم تكن تحفل بالشعر والشعراء ، وكانت تفضل مصارعة الديكة على أية تحفة فى الفن والأدب .

لذلك لم يجد شكسبير من نفسه الشجاعة لبث هواه اللاعج لحبيبته بنفسه ، فرجا صديقه « اللورد هربرت » أن يقوم عنه بهذه المهمة فقبل ، ولكن « مارى فتون » تشبثت باللورد الشاب الوسيم وبادلها هو أيضاً الحب وخلفا الشاعر يندب الصداقة والوفاء .

على أن شكسبير لم تخمد جذوته بل زاد وجده ضراما على مر الأيام ، فما انفك يصب جام غضبه على العاشقين فى مسرحياته وقصائده ، يصرح حيناً ويلمح أحياناً . ففى مسرحيته « جعجعة ولا طِحْن » يذكر الحادثة بصورة جلية على لسان « كلوديو » ناصحاً للعشاق ومحذراً لهم من الوقوع فيما وقع هو فيه إذ يقول : « حقاً إن الأمير يبثها غرامه ويستهويها لنفسه . إن دعائم الصداقة تكون ثابتة متينة فى كل شىء ما عدا أمور الحب ؛ فنصيحتى للمحبين ألا يتخذوا وسيطاً بينهم وبين من يحبون ، بل ليبثوا غرامهم بأنفسهم ، ذلك لأن الجمال نوع من السحر لا تلبث الأمانة أن تذوب أمامه وتتلاشى » .

ولقد تشتد بالشاعر الأزمة ويضيق « بمارى » ذرعه فيرعد ويزبد مهدداً إياها بأنه سيهجوها أقذع الهجاء وأقساه ؛ ولكن فاته أن امرأة « كمارى فتون » ، التى كانت تلد نغلا بعد نغل دون ما حياء أو خجل ، لا يهمها ما يكتب عنها بعد ما ذاع أمرها بين الملأ ، وأغلب الظن أنها كانت تقابل التهديد بشىء غير قليل من السخرية والاستخفاف .

إذا أردت أن تعرف رأى شكسبير فى « مارى فتون » هذه فما عليك إلا أن تقرأ مسرحيته «أنطونيو وكليوباترة» فما «أنطونيو» سوى « شكسبير » وما « كليوباتره » سوى « مارى فتون » وإليك البيان .

« أنطونيو » : إن مكرها لا يكاد يتصوره عقل إنسان .

« أنوبربس » : مهلا سيدى لا تقل هذا . إن عواطفها لمن أنبل العواطف وإن حبها لصاف نقى لا تشوبه أية شائبة

الأدب فى سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ١٩ —

الزواج والصدمة الأولى :

لم يكن زواج هذا الشاعر الفيلسوف أمراً من أمور حياته الشخصية فحسب ، يتدبر قصته من يريد أن يستكمل فهم شخصيته ويحيط به من جميع أقطاره ، ليقف منها على ما هو بسبب من خلقه أو عاطفته ، وإنما كان هذا الزواج وما وقع له فيه إلى جانب ذلك حادثاً أثر فى تفكيره وفلسفته ، فعمد إلى توضيح فكره فى كتيبات جديدة جرت عليه مخالفة من دافع عنهم من البرسبتيريتز إياه ، وأدت به إلى مخاصمتهم ومحاربتهم ؛ ثم استقر أثر ذلك الزواج فى نفسه حتى كان ناحية من نواحي فلسفته فى قصيدته الكبرى فيما بعد ...

فى أواخر ربيع سنة ١٦٤٢ ، ذهب ملتن إلى الريف فى غير غرض معلوم اللهم إلا ما ظن أصحابه من طلبه الاستجمام ، وقضى ملتن زهاء شهر فى قرية فورست هل ، وتقع على نحو خمسة أميال من اكسفورد ، وهى المقاطعة التى نبتت فيها أرومته فقد كان جده لأبيه أحد الموظفين فى الغابات الملكية هناك .

ونزل ملتن ضيفاً على ريتشارد پوول ، وكانت بين أسرة پوول وأسرة ملتن صلة معرفة ومودة .

وعاد ملتن إلى لندن فما كان أعظم دهشة أصحابه إذ رأوه يأتى ومعه مارى پوول زوجا له ، وكانت فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، وكان هو يومئذ يتشرف على الخامسة والثلاثين ؛ ولطالما رأوه عزوفا عن الزواج منصرفا عنه إلى كتبه وشعره ، يسرف أحيانا خياله الشاعر ويغلو فى وصف العفة حتى ليجعلها فى أن يعيش الإنسان أعزب أبدا !

وجاء مع العروس سيدات وفتيات من أهلها فأقمن فى بيت ملتن أياما نعمن فيها بما أقامه من زينات ومباهج وأفراح أحاط بها هذا العرس حفاوة منه بعروسه ، وشوقا منه إلى المسرة وقد تحمل سأم العيش وقسوته زمنا طويلا فى حرب القساوسة ومكابدة الدرس ومعاناة التعليم .

وانصرف أهل العروس وتركنها فى كنف زوجها الشاعر الفذ والفيلسوف الرموق المكانة ، ولكنها ما لبثت أن لحقت بهن ولم يكد ينتهى شهر العسل ، الأمر الذى دهش له أصحابه أكثر مما دهشوا لزواجه المفاجىء .

وكانت العروس قد أرسلت إلى أمها تسألها أن تكتب إليها لتحضر إلى بيت أبيها لتقضى هناك بقية الصيف ، وما كان أبواها ليجيباها إلى ما طلبت ولم يكد يمضى عليها شهر فى بيت بعلها ، لولا أنهما ظنا أن وراء طلبها سراً حملها عليه ؛ وكان ملتن يجهل ذلك السر فوافق على رحيلها لأنه أيقن أن لا شىء أجدر من

« أنطونيو » : لكم وددت أنى لم أرها قط .

« أنوبربس » : ولكن تكون فى تلك الحالة يا سيدى قد فاتتك قطعة من الفن مدهشة ؛ وتصبح رحلتك بدونها جافة عقيمة

بهذه الأسطر الوجيزة عبر لنا شكسبير عن رأيه فى « مارى فتون ». إنها شر لابد منه

ثم يصيح على لسان «انطونيو» والحسرة تكاد تمزق أحشاءه « إلى أين قادتنى مصر ؟ »

إلى الهاوية ولا ريب .

كان ذلك فى ١٦٠٨ وكان قد مضى على تعرفه « بمارى فتون » إحدى عشرة سنة ، ذاق فى أثنائها الأمرين ، فانطوى على نفسه ، وأخذ يخرج تلك المآسى الرائعة ، حتى وهن جسمه ، وانهدت أعصابه ، ونال منه الإعياء فانسحب إلى «ستراتفورد» ، مسقط رأسه ، ليقضى ما تبقى من حياته القصيرة تحت عناية ابنته ورعايتها .

(بغداد) يوسف روشا

نصيحة أمها بأن يصلح شأنها ويبث فى قلبها شعور الواجب نحو زوجها ؛ فرحلت عنه عذراء كما جاءته عذراء ...

وحل الموعد الذى حددته لعودتها ولكنها لم تعد ، فكتب إليها ملتن فلم تجبه ، فأرسل إليها رسولا بكتاب منه فأصرت على صمتها وأهانت الرسول ، فوقع فى وهمه أنها لن تعود أبداً ، وابتأست نفسه بما فعلت وامتلأ منها قلبه غيظا وحنقا

وحار أصحابه فى أمرها كما حار من كتبوا حياته من بعد إلى أى شىء يردون مسلكها ! أكان ذلك منها لأن زوجها بيوريتانى من أنصار البرلمان فى حين كان أبوها من أتباع الملك وأنصاره وقد اشتعلت نار الحرب بين الجانبين ؟ أم كان ذلك لأنها كانت من قبل فى موطن يعج بالحياة والأنس حيث كان يغشى جند الملك بيت أبيها بين الفينة والفينة فتقع عيناها هناك على وجوه جديدة وتسمع أنباء جديدة ، فانتقلت منه إلى بيت شاعر عاكف على كتبه وأوراقه تشيع فى أنحائه الوحشة ويسود السكون ولا تسمع فيه من الأصوات إلا بكاء من يضربهم ملتن من طلابه ؟ أم نال من كبريائها أن أباها كان مديناً لأسرة ملتن بمبلغ من المال عجز عن أدائه ، فإن دخله من أرضه ومن مال زوجته لم يكف نفقات عيشه إلا بجهد نظراً لكثرة عياله ولما كان يهبط داره من الجند وغيرهم من أنصار الملك ؟ أم خيل إليها أنها وهى ابنة سبعة عشر عاما لم تحس بين يدى زوجها وقد كان عمره ضعف عمرها ما كانت تحس به لو أنها كانت بين يدى شاب فى مثل سنها ؟ أم أن ما بينها وبين زوجها من تفاوت عظيم فى الثقافة ومن اختلاف فى النظر إلى الحياة نتيجة لهذا التفاوت قد جعلاها تخجل من نفسها وتحس ضآلة شخصيتها إلى جانبه وتشعر أنها غير حقيقة بأن تدخل على نفسه من السرور ما يطمع فيه رجل من زوجته ؟

كل أولئك فى الواقع كان خليقا أن يلحق الفشل بهذا الزواج . أما أهل العروس فقد عولوا على ألا يردوا هذا الفشل إلا إلى الخلاف فى السياسة والدين بينهم وبين ملتن البيوريتانى البرسبتيرى الذى يميل إلى جانب الرؤوس المستديرة كما كان يسمى جند البرلمان بينما هم ينحازون إلى جانب الفرسان كما كان يسمى جند الملك فى هذه الحرب الأهلية الدائرة الرحى

على أنهم يحسون بينهم وبين أنفسهم أن ذلك لا يكفى وحده للمباعدة بين الزوج وبين عروسه على صورة لا تكون إلا لنفور أحدهما من الآخر نفوراً لا تجدى معه حيلة ، ولا تفسره إلا تلك الأسباب التى ذكرناها مجتمعة ، فقد انقضى شهر العسل ولم يقض منها وطرا ، وكان النفور من جانب العروس لأن الزوج ظل يدعوها بكتب متلاحقة لتعود إليه فلم يجد منها إلا إعراضاً وإصراراً ... ...

وحق اللوم على ملتن فهو الذى اختارها زوجة له ، وكان جديراً أن يتدبر ما بينها وبين أبيها من فوارق وما بينه وبينها من تفاوت ؛ على أن عين الحب عمياء كما يقول شكسبير ، وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما يقول أبو الطيب ، وقد كان ملتن كما رأينا فى سالف مواقفه سريع التأثر بسحر المرأة يتهافت على ما يصوره له خياله الشاعر من الجمال تهافت الفراشة على الضوء ، فقد أحب كما علمنا من أمره وهو فى صدر شبابه فتاة وقعت عليها عيناه لأول نظرة فى زحمة لندن ولم يرها بعد ذلك أبداً ، حتى لقد عول على الهرب من لندن مخافة أن تصيده سهام كيوبيد . ولقد تعرض لهذه السهام فى إيطاليا كما رأينا ، وما زال يتحاماها وهو الحريص على عفته حتى وقعت عيناه على هذه الفتاة الريفية وكانت تهجس أحاديث الزواج فى نفسه كما تبين فى رثائه صديقه ديوداتى ، فأقبل على الفتاة وقطع أمره فى غير روية ، فما به خوف اليوم من كيوبيد والمسألة مسألة زواج — وهكذا تصيده السهام ويملك قلبه الحب

واختلف مؤرخو حياة الشاعر فى هذه الفتاة أكانت جميلة ساحرة أم كان حظها من الجمال بحيث لا يصل إلى حد الفتنة ؟ فمنهم من يؤكد سحر جمالها ، وحجته أنها لو لم تك كذلك ما بلغت من نفس الشاعر بمثل هذه السرعة وهو الذى لا تخطىء الجمال عيناه . ومنهم من يؤيد الرأى الآخر وحجته أنه لم ترد فيما ذكر الشاعر عنها إشارة إلى سحرها ، وما افتتن ملتن منها إلا بما رآه من وداعتها وخفرها ونضرة الريف فى محياها وجسدها ، والشاعر خليق أن يضيف بخياله إلى محاسنها جمالا فترى عيناه فيها ما لا يرى غيره من الناس . على أن هؤلاء وهؤلاء لا يتجاوز

كلامهم الاستنتاج فلم يقع أحد منهم على دليل لما يقول ؛ ومهما يكن من شيء فإن عين الحب عمياء، وعين الرضا عن كل عيب كليلة ، ولقــد كان ملتن نلقاء فتاة قروية فى السابعة عشرة إلا تـكن فارهة الجمال فقد كانت فى روعة الشباب ، وقد جمع للزواج عزمه ، فما أسهل أن تريه عيناه فيها من معانى الجمال والطهر والعفة فى بيت أبيها الريفى ما يتغلب فى خياله الشاعر على كل عقبة ... ...

ولقد أقض الألم مضجعه لهذا الفشل وقد كان يطمع أن يسكن إليها ويجد بين يديها مودة ورحمة ، كما ملأ الحنق نفسه لما أصاب كبرياءه برفضها العودة إليه وإهانتها رسـوله ، وقد كان يظن أن نصيحة أمها وحزم أبيها سيعودان بها إلى الصواب ... ...

ولا ريب أن ملتن كان يستشعر فى نفسه الخجل والندم كما استشعر الألم ، وذلك أن اختياره مارى پوول متأثراً بمظهرها على هذه الصـورة العاجلة إن هو إلا اندفاع العاطفة فى فورة من فوراتها ، وإلا فماذا دفعه إلى هذا الاختيار ولم يك يعرف مارى پوول من قبل حتى يظن أنه أنس فيها من الصـفات ما يهتم به شاعر مثله كالذكاء والثقافة وبراعة الحـديث وما يتصل بها ؛ وكان خليقاً وهو الذى طالما افتخر بامتلاكه زمام نفسه وطالما اعتقد أنه قادر على كبح جماح عاطفته أبدا ، أن يندم ويألم فقد سيطرت عليه عاطفته ، وتغلب الجسد فى نزوعه الشديد نحو رغبة له انقدت ، وليته حقق بالزواج تلك الرغبة ؛ فلئن تزوج فما هو بمتزوج إذا صح هذا التعبير ، ثم إنه أخذ يطفىء فى نفسه جذوة جسده ووقدة عاطفته مستعينا بالصبر والصوم ؛ ولقد أثر انقياده لعاطفته على هذا النحو على ما كان فيه من كبرياء أثرا عميقا فى حياته وفكره سوف يظهر فى فلسفته وفنه .

ومما زاده غما وألما أنه كان بعد أن هجرته زوجه لا يستطيع بالضرورة أن يتزوج غيرها ، وهذا فى ذاته قيد ، وإن نفسه لتنفر من كل قيد وتستعصى على كل قيد ؛ وهل كان يستطيع أن يحمل نفسه على قبول هذا القيد لأن الدين أو لأن الكنيسة يحول بينه وبين الطلاق إلا وفق شروط معينة ؟ ومتى خضع إلا لما يهديه إليه فـكره ، وقد نزع إليه وجدانه وتعلق به إيمانه ؟ وإذا كان هو نصير الحرية الذى دافع عنها أمام تعصب القساوسة فـكيف يتخاذل عن نصرتها الآن ؟ ألا يستطيع أن يدع الجانب الشخصى من فشله فى زواجه فلا يتعرض له ثم يخلق من الحادثة فى ذاتها موضوعا عاما ؛ فيـكتب دفاعا عن الحرية فى ناحية من نواحيها وأعنى بها الناحية الشخصية ؟ بلى إنه لقادر على ذلك وإنه لفاعله ، وإنه لنصير الحرية الشخصية اليوم .

ويمـكننا أن نتصور حالته النفسية فى هذا الموقف ، فهذا رجل ذو كبرياء وأنفة ، طالما افتخر بتغلبه على شهوات نفسه ، وقد عاش حتى الخامسة والثلاثين من عمره عيشة الطهر والعفة مستعينا بعزمه المصمم على قهر وساوس الشباب ؛ يسمو فى طهره على الناس ليـكون أهلا لرسالته التى يستشرف لها ، ويقبل على دراساته ليتهيأ لما يتطلع إليه ، ثم إذا به يجد نفسه ، وقد ارتطم فى ورطة بسبب انقياده لعاطفته بعد طول امتناع ، ولئن كان ما وقع فيه لم يعد كونه أمرا مشروعا هو الزواج ، إلا أن فشله فى اختيار زوجته كان نتيجة تسلط عاطفته على عقله أو تغلب جسده على روحه ، وإن ذلك ليشعره بينه وبين نفسه أنه لم يعد إنساناً كسائر الناس ؛ ولـكم نال ذلك من كبريائه وأدخل الغم على نفسه ، فضلا عن أن ما انتهى إليه إنما هو حد من حريته .

على أن كبرياءه تأبى عليه إلا أن يلتمس مخرجا لنفسه فما يطيق أن يذعن ، ويجد ذلك المخرج فى تقريره أن العاطفة فى ذاتها من الأمور المشروعة التى وضعها الله فى الإنسان ، وما لم تنطو على جريمة فلن يضير المرء أن تقوده إلى خطأ ؛ ويستنـكف أن يشير إلى مسألته الشخصية ، فيعمد إلى فلسفة عامة فى الزواج والطلاق ينفس بها عن نفسه ويرأب بها ما تصدع من كبره ، فإذا كانت العاطفة أمرا مشروعا فوجب أن تـكون العلاقة بين الزوجين على أساسها ، فيـكون الزواج اتفاق عاطفتين أو التقاء روحين ، فإن كانت العلاقة على غير هذا الأساس ، وكانت مجرد التقاء جسدين ، أو كانت العاطفة من ناحية لا تقابلها مثلها فى الناحية الأخرى بطل الزواج ووجب الطلاق ؛ وهو إنما يبتـكر بذلك سببا للطلاق لم يتجه إليه أحد قبله ، ومرده إلى المنطق لا إلى

شريعة سماوية أو قانون بشرى ؛ على أن كلامه هذا فى الوقت نفسه ينطوى على تأنيب منه وزجر لنفسه ، وإلا فهل فكر قبل اختياره مارى هل كانت عاطفتها تجاوب عاطفته ، أم كان الأمر أمر افتتان بها لم يتمالك عنده نفسه ؟ وإذا فهو الملوم وحده .

ولكنه يقدر وقوع الخطأ ، فقد يخدع الإنسان فيمن يخطبها لتكون زوجه ، ويحس أنها تبادله عاطفة بعاطفة ؛ فإذا وقع الخطأ فعلا فما السبيل إلى تجنب ما يجره ذلك الخطأ من عواقب هى شر منه ؟ لا سبيل فى رأيه غير الطلاق ، وإلا فكيف يتباعد الزوجان ولا يستطيع كلاهما أن يتزوج غير الآخر ؟

بهذه الآراء البالغة الجرأة والخطر فى أمر له أهميته وخطورته فى المجتمع قذف ملتن الناس فى كتيب نشره فى أغسطس سنة ١٦٤٣ وسماه « قانون الطلاق ونظامه » ، ولم يك غافلا عما كانت مثل هاتيك الآراء خليقة أن تثيره من سخط وغضب ودهشة تشبه الجزع فى الأوساط جميعاً ، ذلك أنه كان يدرك أنه كان طلعة فى تناول الموضوع على هذا النحو ، ولكنه كما يقول الانجليز أحرق القوارب كلها من ورائه وليس يبالى أيبلغ ما يريد أم يهلك دونه .

ويزخر هذا الكتيب بحماسة شاعر عظيم تدفعه للكلام روح قوية نبيلة وألم يملأ جوانحه لما لحق كبرياءه ، وغضب عاصف كما هاج البحر ثائر كما تأججت النار ، ولذلك تقع فيه على مظاهر الحماسة قوية رائعة ، فيرسم الشاعر طائفة من المثل العليا للحياة الزوجية ، ويصور الألم والخيبة التى تعقب الزواج الفاشل ، ويبدع إذ يستند إلى المنطق والعقل فى براهينه ، وإذ يسوق الأدلة التى تؤيد رأيه من الانجيل ، وإذ ينقض ما ينهض فيه حجة عليه ، ويبلغ ذروة الإقناع والفصاحة إذ يدعو إلى تحرير العقل من حرفية القانون ، وهو فى ذلك كله يصل من البلاغة إلى ما لم يصل إليه فى كل ما كتب قبله ، والحق أنك تجد فى هذا الكتيب ملتن الرجل وملتن الفيلسوف وملتن الشاعر على خير ما يكون من حالاته فى ذلك جميعاً وإن كان النثر وسيلته وأداته .

وكان يعتقد ملتن أنه خرج من الشر الذى لحقه بخير يسوقه للناس جميعاً ، فهو يخيل إليه أن ماانتهى إليه من رأى فى الطلاق إنما هو خلاص للبشر من قيد بغيض ظالم يوبق أرواحهم ويريهم مثل حياة الجحيم فى هذه الدنيا ، وذلك هو معيشة الزوجين معاً على رغمهما لأنهما ارتبطا برباط الزواج .

وكانت تخف عنه آلام نفسه كما ذكر أنه إنما يكتب ما يكتب ليخفف عن الناس آلامهم ، فلا ضير أن يتحمل الألم ما دام الناس سيفيدون مما حاق به من سوء المصير ، على أنه أنفة منه وتكبراً حريص على ألا يشير بشىء إلى مسألته الشخصية .

(يتبع) **الخفيف**

بمناسبة عيد العمال اليوم :

واجبات الانسان . . .

للزعيم الايطالى يوسف مزينى

بقلم الأستاذ عامر عبد الوهاب

نشر مزينى هذا المقال عام ١٨٦٠ موجهاً كلامه إلى الطبقة العاملة فى إيطاليا قال : أود أن أتحدث إليكم عن واجباتكم ، وأود أن أتحدث إليكم كما يوحى إلى قلبى عن أقدس ما نعرف من الأشياء : عن الله سبحانه تعالى ، وعن الإنسانية والوطن والأسرة . اصغوا إلىّ إصغاء محبة ، كما سأتحدث إليكم حديث مودة . إن كلماتى لهى كلمات اليقين الذى صهرته السنون الطوال التى قضيتها فى كد ونظر ودرس . واعلموا أنى أبذل قصارى جهدى فى تأدية الواجبات التى سأشرحها لكم وسأستمر فى تأديتها إلى آخر رمق من حياتى . قد أخطئ ولكن قلبى متشبع بالحق . قد أخدع نفسى ولكنى لن أخدعكم ، لذلك أرجو أن تستمعوا إلىّ كأخ ، ولكم أن تحكموا بحرية فيما بينكم إن كنت أتكلم بلسان الحق . واهجرونى إذا ما شعرتم أنى أنطق عن الهوى ، ولكن اتبعونى وسيروا على نهج خطتى إذا ما تبين لكم أنى رسول صدق مبين . إن الخطأ بلية تستحق الإشفاق ، ولكن إذا عرف الإنسان الحق ولم يهتد بهديه فى أعماله ، فذلك جرم تستنكره السموات والأرض !

لماذا أتحدث إليكم عن واجباتكم قبل أن أتحدث إليكم عن حقوقكم ؟ لماذا وأنتم تعيشون فى مجتمع يبغى كله الإجحاف بكم طوعاً أو كرهاً ، وفيه يحرم عليكم دواماً أن تمارسوا الحقوق التى تخص الإنسان ، والذى كتب فيه أن يكون البؤس نصيبكم ، وما يعرف بالسعادة من حظ غيركم من الطبقات ؟ لماذا أخاطبكم عن التضحية لا عن الغلبة ، أخاطبكم عن الفضيلة والتهذيب الخلقى والتربية لا عن الرفاهة المادية ؟ هذه مسألة لا بد لى أن أشرحها قبل أن أتابع حديثى ، لأنه هنا يتبين الفارق الحاسم بين نظريتنا وبين النظريات الأخرى التى تشيع الآن فى أوربا . هذا فضلا عن أنها مسألة يضطرم بها العقل المتبرم ، عقل العامل المتألم !

« نحن فقراء، مستعبدون أشقياء ، فتحدث إلينا عن أحوال أنعم من حالنا ، وكذلك تحدث إلينا عن الحرية والسعادة . نبئنا إن كان مقضياً علينا أن نذوق البلاء إلى الأبد ، أو أننا سنترفه بدورنا . توجه بحديث الواجب إلى سادتنا ، إلى الطبقات المتحكمة فينا والتى تعاملنا معاملة الآلات ، والتى تحتكر لنفسها الخيرات التى هى حق للجميع . تحدث إلينا عن الحقوق وعن الوسائل التى تؤيد هذه الحقوق ، كما تحدث إلينا عن قوتنا . انتظر حتى نظفر بمكانة يعترف بها ، وحينئذ يجمل بك أن تخاطبنا عن الواجبات والتضحية »

هذا ما يقوله كثير من رجالنا العاملين وهم يتابعون الأساتذة والهيئات التى تساير ميولهم . هم ينسون شيئاً واحداً فقط ، ذلك أن النظرية التى يثيرونها قد دان بها الناس منذ خمسين عاماً دون إحداث أى أثر من الاصلاح المادى فى حالة الشعب العامل .

إن كل ما حدث فى الخمسين عاماً الماضية فى سبيل الخير والفلاح ضد الحكومات المطلقة والأرستقراطية الوراثية ، إنما حدث باسم حقوق الإنسان ، باسم الحرية كوسيلة ، وباسم الصالح العام كغاية الوجود ، فكل أحداث الثورة الفرنسية ، بل وجميع الثورات التى تبعتها وقلدتها كانت نتائج (إعلان حقوق الانسان). وإن جميع مؤلفات الفلاسفة الذين مهدوا لها كانت تقوم على نظرية الحرية وعلى قاعدة تعريف كل فرد ما له من الحقوق . إن جميع المدارس (المذاهب) الثورية نادت بأن الانسان قد خلق للسعادة ، وبأن له الحق فى أن يسعى لها بكل ما يملك من الوسائل ، وأن لا حق لغيره فى أن يصده عن هذا المسعى ، كما أن له الحق فى أن يزيل كل ما يصادف من العوائق فى هذا الطريق . ولقد زالت العوائق وتحققت الحرية ودامت سنين فى بلاد كثيرة ولا تزال كائنة فى البعض ، فهل تحسنت حال الشعب ؟ وهل حققت الملايين التى تعيش بكدحها اليومى أتفه نصيب من الهناءة التى رجوها والتى وعدوا بها ؟

كلا ، فحالة الشعب لم تتحسن، بل لقد زادت ولا تزال تزيد سوءاً فى كل بلد تقريباً ، وعلى الأخص هنا (فى إيطاليا) ، حيث أسجل أسعار حاجيات المعيشة التى أخذت فى الارتفاع ، وأجور الطبقة العاملة التى هبطت فى كثير من فروع الصناعة ، بينما

السكان آخذون فى الازدياد .

ولقد اشتدت حال العمال زعزعة واضطراباً فى كل بلد تقريباً كما ازدادت أزمات العمل التى قضت بالعطل والخمول على آلاف من العمال ، وإن الزيادة السنوية فى تعداد المهاجرين من قطر إلى قطر ، ومن أوربا إلى النواحى الأخرى من العالم ، والزيادة المستمرة فى عدد الجمعيات الخيرية ، والزيادة فى مخصصات الفقراء ومساعدات المعوزين، كل أولئك كاف فى إثبات ما نقول، والشاهدان الأخيران يدلان كذلك على أن العناية العامة آخذة فى التيقظ لآلام الشعب ، ولكن عجزهم عن تخفيف هذه الآلام إلى أى حد محسوس يدل على استمرار مروع فى شيوع الفاقة بين الطبقات التى يجهدون فى معاونتها

ومع ذلك فالواقع أنه حدث فى الخمسين عاماً المنصرمة أن زادت ينابيع الثروة العامة ، وكثرت خيرات الحياة ، وتضاعف الإنتاج ، واشتد نشاط التجارة ، واتسعت دائرتها وسط الأزمات المتلاحقة التى لا مفر منها إذا انعدم النظام . كما أن المواصلات أصبحت مأمونة وسريعة فى كل مكان تقريباً ، وهبطت أسعار السلع بسبب انخفاض أجور النقل . ومن جهة أخرى ، فنحن نرى الآن كيف أن فكرة الحقوق المتأصلة فى الطبيعة الإنسانية أضحت مقبولة على العموم

نعم مقبولة ، ولكن لفظاً وخداعاً ، حتى عند أولئك الذين يسعون فى اجتنابها فعلا . فلماذا لم تتحسن حال الشعب ؟ ولماذا نرى استهلاك المنتجات بدلا من أن يكون مقسطاً على السواء بين جميع أعضاء المجتمع الأوربى نراه محصوراً فى أيدى فئة قليلة تكوّن أرستقراطية جديدة ؟ ولماذا نرى الانتعاش الذى أصاب التجارة والصناعة لم يؤد إلى يسر الأكثرية ، بل إلى ترف الأقلية ؟

إن الجواب يتضح لأولئك الذين يمعنون النظر قليلا فى الأشياء . فالناس نتاج التربية . وهم فى سلوكهم يصدرون عن مبدأ التربية الذى طبعوا عليه ؛ فالرجال الذين ألهبوا نيران الثورات حتى اليوم إنما أثاروها بوحى فكرة حقوق الفرد . وها قد حققت هذه الثورات أمنية الحرية : الحرية الشخصية ، وحرية التعليم ، وحرية الاعتقاد ، وحرية التجارة ؛ بل الحرية فى كل شىء ولكل إنسان ولكن ما فائدة إعلان الحقوق لمن لا يملك وسيلة لاستخدامها ؟ وماذا تعنى حرية التعليم لأولئك الذين لا يجدون وقتا أو واسطة للانتفاع بها ؟ أو حرية التجارة لمن لا يملك شيئا يتاجر به ، لا رأس المال ولا النسيئة (الائتمان) ؟ بل لقد حدث فى جميع البلاد التى أعلنت فيها هذه المبادىء أن المجتمع كان يتكون من فئة تمتلك الأرض وتحوز النسيئة ورأس المال ومن جماهير غفيرة لا تملك غير أيديها ، وكان عليها أن تزاول الأعمال اللازمة للطبقة السالفة على أية شرائط حتى يتسنى لها أن تعيش كما كان عليها أن تصرف اليوم كله فى الكدح الآلى المطرد الممل . فهل كانت الحرية بالنسبة لهؤلاء الذين قضى عليهم أن يكافحوا الجوع سوى خدعة غادرة وسخرية لاذعة ؟ أما لو كان القصد من الحرية شيئا خلاف ذلك ، لكان إذن يتعين على الطبقات المترفة أن توافق على تقليل ساعات العمل وزيادة الأجر وتعمل على نشر التعليم المجانى المماثل للجماهير ، كما تسعى فى جعل أدوات العمل فى متناول الجميع ، وأن تقدم مكافآت مالية للعمال الذين تثبت كفايتهم ونبل غايتهم .

ولكن لماذا يتعين عليهم أن يقوموا بذلك ؟ ألم تكن الرفاهية الغرض الأسمى من الحياة ؟ ألم تكن الخيرات المادية مرغوبة قبل كل شىء آخر ؟ لماذا ينتقصون من حظهم هم لأجل نفع غيرهم ؟ أليس على كل إنسان أن يساعد نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وإذا ما كفل المجتمع حرية استخدام الحقوق الإنسانية لكل من توفرت فيه القدرة على ذلك ؛ فيكون حينئذ قد أدى كل ما يطلب منه . أما إذا كان هناك أى فرد يعجز بحكم ظروفه القهرية عن استخدام أى حق من هذه الحقوق ، فما عليه إلا أن ينسى حساب نفسه ولا يلوم سواه .

لقد كان من الطبيعى أن يصرحوا بذلك ، وفعلا فقد صرحوا به . وهذا الاتجاه العقلى الذى ساد الطبقات المميزة بالثراء والذى تحكم فى نظرها إلى الفقراء سرعان ما أصبح الوجهة التى انتهجها كل فرد نحو الآخر . فعنى كل إنسان بحقوقه هو وبترقية حاله دون السعى فى إعانة غيره . وإذا اصطدمت حقوقه بحقوق سواه حينئذ تكون حرب ، لا حرب الدماء ؛ بل حرب الذهب والخداع . حرب أدنى شهامة ورجولة من الأخرى ، ولكنها

تمدلها فى الدمار ، ويالها من حرب وحشية لا يألو فيها من وفرت وسائله ، وبزت قوته فى سحق الضعيف أو الأخرق سحقا لا هوادة فيه . وفى حومة هذا القتال المستعر أشربت قلوب الناس الأنانية ، والشره فى استلاب خيرات الحياة لذواتها دون غيرها . وهكذا كانت حرية الإعتقاد معولا يهدم صرح الإيمان كما كانت حرية التعليم سببا فى بث الفوضى الخلقية .

أليس من شأن الناس إذا فقدوا رابطة مشتركة ، وانعدمت من بينهم وحدة العقيدة الدينية ، ووحدة الغرض ، وصارت الهناءة بغيتهم الفريدة ؛ أليس من شأنهم حينئذ أن يسعى كل منهم فى سبيله الخاص دون النظر فيما إذا كان فى ذلك عدوان على إخوانه. إخوانه إسما وأعدائه فعلا ؟ هذه هى الحال التى صرنا إليها اليوم بفضل (نظرية الحقوق) .

يقينا إن الحقوق كائنة ؛ ولكن حيث تصطدم حقوق فرد بحقوق آخر ، كيف نستطيع أن نأمل التوفيق والتسوية بينها من غير الاستناد إلى شيء أسمى من جميع الحقوق ؟ وحيث تتعارض حقوق فرد أو أفراد كثيرين وحقوق الوطن فإلى أية محكمة ندعى ؟ إذا كان الحق فى الرفاهية فى أقصى حدودها يتقسط كل شخص حى فمنذا يفض النزاع بين العامل وصاحب العمل؟وإذا كان الحق فى الحياة هوأول وأقدس حق لكل إنسان ، فمنذا يطلب تضحية هذه الحياة لمنفعة بقية الناس ؟ أستطلبونها باسم الوطن أم باسم المجتمع أم باسم فريق من إخوانكم ؟ ما الوطن فى نظر من أتحدث عنهم سوى البقعة التى نضمن فيها حقوقنا الذاتية كل الضمان . وما المجتمع سوى مجموعة من الناس الذين اتفقوا على استخدام قوة الكل لتأييد حقوق كل فرد ؟

وهل بعد أن علمت الفرد مدة خمسين عاماً أن المجتمع إنما يقوم على غرض تأمينه على ممارسة حقوقه ، هل بعد ذلك تطلب إليه أن يضحى بها جيماً فى سبيل المجتمع وأن يستسلم إذا دعت الضرورة إلى الكدح المتواصل أو السجن أو النفى باسم إصلاح المجتمع ؟ وهل بعد أن بشرته فى كل مكان بأن غرض الحياة هو الخير والهناءة، هل بعد ذلك تأمن أن ينصرف عن هذا الخير بل وعن الحياة نفسها ليحرر وطنه من الأجنبى أو أن يجهد فى إسعاد طبقة لا تربطه بها صلة ؟ و كيف بعد أن تحدثت إليه أعواماً عن الفوائد والمصالح المادية تستطيع أن تحرم عليه وقد ألفى الثروة والجاه فى متناول يديه أن يمد تيئنك اليدين ليأخذ حظه منهما حتى ولو كان فى ذلك ضرر لإخوانه ؟

أيها العمال الإيطاليون . ليس ذلك من خواطر فكرى المجردة عن حقائق الواقع بل هو تاريخ عصرنا نحن . ذلك التاريخ الذى تسيل على صفحاته دماء الشعب . سلوا جميع الرجال الذين حولوا ثورة سنة ١٨٣٠ إلى مجرد تغيير طائفة من الأشخاص بأخرى . بل وإن شئتم مثالا فإنهم اتخذوا من جثث إخوانكم الفرنسيين الذين راحوا ضحية قتال (الثلاثة أيام) مدارج يرتقون عليها إلى عرش العظمة والسلطان . إن جميع مبادئهم إلى ما قبل عام ١٨٣٠ كانت تقوم على تلك النظرية العتيقة نظرية حقوق الإنسان لا على عقيدة الإيمان بواجباته . إنكم تدعونهم اليوم خونة مارقين ، ولكنهم فى الحقيقة لم يكونوا إلا مصدقين لنظريتهم مستمسكين بها . فجاهدوا أخلص الجهاد ضد حكومة شارل العاشر لأن تلك الحكومة كانت شديدة العداء للطبقات التى نشأوا منها حتى انتهكت حقوقهم وبالغت فى حرمانهم منها ، وحاربوا باسم الرفاهية التى لم ينعموا منها بالقدر الذى ظنوا أنه يجب أن ينعموا به . فعذب البعض بسبب حرية الفكر . ووجد آخرون من ذوى العقول الجبارة أنهم منسيون مبعدون من الوظائف التى يشغلها ناس دونهم كفاية . ثم زادتهم مظالم الشعب حرقة وغضبا ، فشرعوا يكتبون فى جراة وإيمان عن الحقوق التى تلزم لكل إنسان . بيد أنهم لما أمنوا على حقوقهم السياسية والفكرية ، وانفتح أمامهم سبيل الوظائف ، وتحققت لهم الرفاهية التى سعوا من أجلها حينئذ نسوا الشعب . نسوا أن الملايين التى تقل عنهم ثقافة وطموحا . كانت تجاهد لتقرر حقوقا أخرى ، وتحقق هناءة من نوع آخر ، وأخلدوا إلى الطمأنينة ، ولم يعودوا يهتمون بأحد غير أنفسهم . لماذا تدعونهم خونة . أليس الأجدر أن تدعوا نظريتهم نظرية غادرة ؟

(البقية فى العدد القادم) **عامر عبد الوهاب**

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٨٤ — النبي والفيلسوف

الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي :

إن أبا سليمان (المنطقي السجستاني — محمد بن بهرام — يقول : ... صاحب الشريعة مبعوث ، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه ، وأحدهما مخصوص بالوحي ، والآخر مخصوص ببحثه ، والأول مكفيٌّ ، والثاني كادح ، وهذا يقول : أُمرت وعُلِّمت ، وقيل لي ، وما أقول شيئاً من تلقاء نفسي . وهذا يقول : رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت ، وهذا يقول نور العقل أهتدى به ، وهذا يقول : معي نور خالق العقل أمشي بضيائه . وهذا يقول : قال الله وقال الملك ، وهذا يقول : قال أفلاطن وسقراط .

٧٨٥ — لقد جئتم شيئاً إدا !

رسالة الغفران لأبي العلاء :

حكى لي عن بعض ملوك الهند وكان شابا حسنا أنه جدر فنظر إلى وجهه في المرآة وقد تغير فأحرق نفسه ، وقال : أريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هـذه . وحدثني قوم من الفقهاء ما هم في الحكاية بكاذبين ولا في أسباب النحل جاذبين أنهم كانوا في بلاد محمود وكان معه جماعة من الهنـد قد وثق بصفائهم ، يفيض عليهم الأعطية لوفائهم ، ويكونون أقرب الجند إليه إذا حل أو إذا ارتحل وأن رجلا منهم سافر في جيش جهزه ، فجاءه خبره أنه قد هلك بموت أو قتل فجمعت امرأته لها حطباً كثيراً ، وأوقدت ناراً عظيمة ، واقتحمتها والناس ينظرون ، وكان ذلك الخبر باطلا ، فلما قدم الزوج أوقد له ناراً جاحمة ليحرق نفسه حتى يلحق بصاحبته ، فاجتمع خلق كثير للنظر إليه وأن أصحابه من الهند كانوا يجيئون إليه فيوصونه بأشياء إلى أمواتهم هذا إلى أبيه وهذا إلى أخيه ، وجاءه إنسان منهم بوردة وقال : أعط هـذه فلاناً يعني ميتاً له ، وقذف نفسه في تلك النار . وحدَّث من شاهد إحراقهم نفوسهم أنهم إذا لذعتهم النار أرادوا الخروج فيدفعهم من حضر إليها بالعصي والخشب . فلا إله إلا الله ، لقد جئتم شيئاً إدّا ! ! !

٧٨٦ — فضح الموت الدنيا

في (شرح النهج) لابن أبي الحديد : قيل لخالد بن صفوان : من أبلغ الناس ؟

قال : الحسن [1] لقوله : فضح الموت الدنيا !

٧٨٧ — وبقيت الدنيا

وقف بأبي العيناء رجل من العامة فأحس به فقال من هذا ؟

قال : رجل من بني آدم .

قال : مرحبـاً بك . أطال الله بقاءك ، وبقيت في الدنيا ما ظننت هذا النسل إلا قد انقطع .

٧٨٨ — إياك أن تلقى الله كذاباً بخيلا

في (كتاب المنظوم والمنثور) لأحمد بن أبي طاهر : قال بعض الأعراب مررت يوم عرفة ببيت ، بطُنُبه [2] كبش مربوط ، فسمعت رجلا في البيت يقول : وا سوءتي من ضيفنا هذا ! أتانا وما عندنا ما نقربه إليه . فقالت له امرأته : أبافلان ، إياك أن تلقى [3] الله كذابا بخيلا ! أوَليست هذه شاتك مربوطة بفنائك ؟

(١) في (الوفيات) : قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي . فقيل له : فأيهما كان أفصح ؟ قال : الحسن .

(٢) الطنب : حبل الخباء ، البيت .

(٣) إياك أن تلقى الخ : من أن تلقى كما في شرح الكافية وابن عقيل وفي (كتاب سيبويه) : لا يجوز أن تقول إياك زيدا وكذلك أن تفعل إذا أردت إياك والفعل فاذا قلت إياك أن تفعل تريد إياك أعظ مخافة أن تفعل أو من أجل أن تفعل جاز ، وإذا قلت : إياك الأسد تريد من الأسد لم يجز كما جاز في أن ، إلا أنهم زعموا أن ابن إسحق أجاز هذا البيت في شعر :

إياك إياك المـراء فانه   إلى الشر دعاء وللشر جالب

كأنه قال : إتق المراء . قال الشنتمري : إسقاط حرف العطف ضرورة والمعروف في الكلام إياك والمراء وإياك والأسد ولا يجوز إياك الأسد ، وفي (البردة وشرحها) كلام في ذلك .

قال : هذه نسيكتي غداً .

قالت : وأيّ نسيكة أعظم أجراً ، وأحسن ذخراً من ذبحك إياها لضيفك .

٧٨٩ — بالتوهم ...

في (الأغاني) : كان كثير (الشاعر) كيسانياً يرى الرجعة ، وكان يزعم أن الأرواح تتناسخ ويحتج بقول الله تعالى (في أي صورة ما شاء ركبك) ويقول : ألا ترى أنه حوله من صورة في صورة . ولما قال — وهو يعني محمد بن الحنفية — :

هو المهدي خبرناه كعب أخو الأحبار في الحقب الخوالي

قيل له : ألقيت كعباً ؟ قال : لا . قيل : فلم قلت : خبرناه كعب ؟ قال : بالتوهم ...

٧٩٠ — فكان الخسوف حداداً على فقده

قال بعض المؤرخين : مما يدل على ظرف محمد بن أحمد الحداد الوادي آشي[1] أنه فقد سكناً[2] عزيزاً عليه ، واحتاج الحال إلى تكلف سلوة ، فلما حضر الندماء وكان قد رصد خسوف القمر فلما حقّق أنه قد ابتدأ أخذ العود وغنى :

شقيقك غيّب في لحده وتُشرق يا بدر ، من بعده
فهلا خسفت فكان الخسوفُ حداداً لبستَ على فَقْدِه[3]

وجعل يردد الشعر ، ويخاطب البدر ، فلم يتم ذلك حتى اعتراه الخسوف ، فعظم من الحاضرين التعجب .

٧٩١ — إنها شهادة يا فتح ...

قال صاحب الحدائق : إن الفتح بن خاقان ذكر الوزير ابن الصائغ الفيلسوف في قلائد العقيان[4] فقال فيه : (هو رمد جفن الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، يعتقد أن الزمان دور ، وأن الإنسان نبات له نور ، حمامه تمامه ، واختطافه اقتطافه) فبلغ ذلك ابن الصائغ فمر يوما على الفتح بن خاقان وهو جالس في جماعة فسلم على القوم وضرب على كتف الفتح وقال : (إنها شهادة يا فتح) ومضى ولم يدر أحد ما قال للفتح . فتغير لونه ، فقيل له : ما قال لك ؟ فقال : إني وصفته — كما تعلمون — في (قلائد العقيان) فما بلغت بذلك عُشر ما بلغ مني بهذه الكلمة ، فإنه أشار إلى قول المتنبي :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

٧٩٢ — صارف الهم

ابن المفارق :

لا يصرف الهم إلا شدو محسنة أو منظر حسن تهواه أو قدح

٧٩٣ — ما وجد بريداً غيرك

جاء رجل إلى وهب فقال : إن فلانا شتمك .
فقال : أما وجد الشيطان بريداً غيرك .

قال رجل لحكيم : عابك فلان بكذا .
فقال : لقيتني لِقِحتكَ بما لم يلقني به لحيائه .

٧٩٤ — من في مسيلمة ...

صلى أعرابي بقوم فقرأ :

أفلح من هينم في صلاته
وأخرج الواجب من زكاته
وأطعم المسكين من مخلاته

فضحك القوم فالتفت إليهم وقال :
أشهد أني أخذته مِن فِي مسيلمة .

٧٩٥ — سوى أن يرى الروحان يمتزجان

ابن الرومي :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاها كي تموت حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذي بي من الهوى ليشفيه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يُرى الروحان يمتزجان

---

(١) نسبة إلى وادي آش . في (النفح) من أعمال غرناطة وادي آش ويقال وادي الأشات وهي مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين والأزهار وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر .

(٢) سكنت إلى فلان : استأنست به وفلان سكني من الناس (الأساس) والسكن كل ما سكنت إليه واطمأننت به من أهل وغيره (اللسان) .

(٣) خسف القمر : ذهب ضوؤه ، وخسف بالبنا على ما لم يسم فاعله .

(٤) لما عزم الفتح على تصنيف (قلائده) فاوض ملوك الأندلس ووزراءها وأعيانها من أجل الأدب ، وسألهم إنفاذ شيء من أقوالهم ، « وكانوا يعرفون شره وثلبه » فجاءته الأقوال والأموال .. ولم يحفل ابن الصائغ به . فسطر في (القلائد) ما سطر .

رباعيـات عثمان . . .

للأستاذ عثمان حلمى

كنتُ يوماً أسى على غير قصد أتملى حسنَ المدينة وحدى
ليس لى غايةٌ ولا كنتُ أسعى لمكان يممته أو لوعد
خالىَ النفس من تكاليف نفسى لا أرى أن أسومها أىَّ جهد
غير سخرى بمن أراه من النا س لمن يستحق سخرى ونقدى

فإذا بى أمام بنيان دارٍ طمستْ زهوَها يدُ الأقدارِ
كتبَ الليلُ والنهارُ عليها أسطراً لا تروق فى الأنظار
أمسها غيرُ يومها وبعيدٌ بين محض الصفاء والأكدار
فلقد أيقظتْ دفائن نفسى وأثارتْ مرارة التذكار

هى كانت بالأمس لى مهد درسى وبعيدٌ ما بين يومى وأمسى
وبعيدٌ بين الطفولة فى الخلـ ـق وبين المشيب فى كل نفس
وبعيدٌ بين الأزاهر والشو ك بعيد فى كل ذوق وحسٍّ
وبعيد بين النضارة والقبـ ـح وبين المنى وبين التأسى

كلُّ شىء فوق الثرى للفناء من ضروب الجماد والأحياء
لا حفيظ من الليالى إذا جدَّ ت ولا فى بقائها من بقاء
بيديها معاولُ الهدم أيا نَ وأنَّى اغتدتْ يدُ البنَّاء
ساخرات بالهمس فى كل حال من غرور الضحوك والبكَّاء

ههنا ههنا قضيتُ قليلا من حياتى ضحكتُ فيها طويلا
ما عرفتُ الهمومَ فيه ولا كنـ ـتُ أرى فى طفولتى مستحيلا
مشرق الوجه كالصباح جميل الـ ـنفس لا أستحب إلا الجميلا
بين لهوى البرىء والدرس لا أد رك للهمّ فى الحياة سبيلا

نوِّرى يا نضارةَ الأطفال فجمالُ الحياة فى الأطفال
واسخرى بالوقار والجدّ والآ لام سخراً وبالأسى والملال
فترة أنتِ فى الزمان إذا مرَّ تْ سريعاً رجوعها فى المحال
فإذا عدت فى الخيال وفى الذكـ ـرى كفانى الرضى بهذا الخيال

هاهى الساحة التى كنتُ أجرى بينها خلف صاحبٍ لىَ يجرى
لم تزل تعبث الطفولة فيها عبثاً لم يشبْ بلؤم ومكر
ههنا ضاحك وها هوَ لاهٍ طافح النفس من صفاء وبشر
وهنا لاعبٌ وها هو غرٌّ لم تنر وجهه ابتسامةُ ثغر

هذه صورةٌ أعادتْ لذهنى كلَّ ما مرَّ فى الطفولة منّى
فتأملتُ كيف تجرى حياة الـ ـناس جرياً ما بين وهْنٍ ووهن
يرجع الشيخ مثلما كان طفلا شادخ النفس فى الهدى والتأنى
وتظل الأيام فى نشوة الدهـ ـر على نغمة الفناء تغنّى

أيها الطفل لا يسؤْك خطابى
وامض إن عشت فى سبيل الشباب
حفنة أنتَ من صميم التراب جُبلتْ من متاعبٍ وعذاب
فتقبَّل فيها وجودَك واجعـ ـلك حصناً منها منيع الجناب
وليكن فى كيان جسمك قلب وادعٌ طاهرٌ كماء السحاب

سوف تدرى مرارةَ الحرمان وتُعانى قساوة الإنسان
وتُعانى من التجارب ما عا نيتُ منها وما لبثتُ أعانى
كلما دارتْ الليالى تعلمـ ـت جديداً من مستجدِّ الزمان
وتعلمت كيف يسخر بالحـ ـق دعاة الضلال والبهتان

ستُعانى تضارب الأهواء من ضروب الصحاب والأعداء
وتغيم الشكوك فى جو إيما نك سوداً تحكى غيوم السماء
وترى عينُك الكريه وكم تسـ ـمع ما لا يروق فى الأنباء
مقبلٌ أنت فى الصباح بما أمَّـ ـلت فيه ومدبرٌ فى المساء

سوف تطوى بالرغم عنك الشبابا ذاهباً حيث لا ترجِّى إيابا
حيث يأتيك منذرٌ من بياض الشـ
ـيب يطوى عن مقلتيك الحجابا
بعد جمٍّ من الصعاب وقد آ منتَ أن الحياة كانت صعابا
وتلفت لم تجـد غير نفس قدَّمتْ عنك للزمان حسابا

ستلاقى من الأسى ما تلاقى ثم تمضى والهم فى الأرض باق

وترى الحكمة انجلت فى اختلاف الـ ناس أو فى تفاوت الأرزاق
وهنا لا ترع من العيش إن جا هدت يوماً وعدت بالإخفاق
لك أن لا تنام فى طلب الرز ق ولو ذقت فيه مر المذاق

لهف نفسى على النضارة لهنى وعلى القوة استحالت لضعف
وعلى الطلعة المليحة والقد وما يظهر الشباب ويُخفى
بُدل الحسن فيك بالرغم عن أنفـ ـك قبحاً شهدته رغم أنفى
فتأمل إن عشت وجهك فى المر آة وابسم واقذف بها أى قذف

ضحكت منك يا أخى المرآة وتجلت فى مقلتيك السمات
فالتجاعيد فى جبينك والجفـ نين فيها إذا فطنت عظات
والسطور التى كتبن على الخد ين عما كابدته منبئات
فتبسم فهكذا تسخر الأيـ ـام منا وتستبد الحياة

لست أنأى فى الأرض من أن تمسا
لا ولا أنت أرهف الناس حسا
هذه قسوة الحياة بلونا ها وقد أنذرت بما هو أقسى
غامض ما نراه فيها ويزدا د غموضاً ما لا نراه وأنسا
عجز الخلق عن معالجة الغيـ ـب وقد أوسعوه ظناً وحدسا

مصبح فى سلامة ثم أمسى
ليس يدرى تحت الثرى كيف أمسى؟
حيرة ما لها لدى العقل أفق واضح أو لها لدى الرشد مرمى
كيف مات الشباب فى أول العمـ ـر وعس الشيوخ فى العمر عسا
قصة هذه الحياة فمن شـ ـاء تأسى أو شاء لا يتأسى

همس الموت فى صميمك همسا دون علم وسوف يعطيك درسا
فتأمل رفاق عمرك لما
ركسوا فى الثرى على الموت ركسا
كلما مات واحد مات جزء منك وازددت فى وجودك وكسا
قطع منك فى التراب توارت دسها الموت فى ثرى الأرض دسا

فالذى كان للمجالس أنسا صار للترب والجنادل أنسا
والذى كان للجمال مثالا نكس الدهر حسنه فيه نكسا
والذى كان أجهر الناس صوتاً صار لا يستطيع فى القول نبسا
والذى كان للرفاق حبيباً ما استطاعوا له على القرب لمسا

كل ما فى الحياة هذا خداع ظل يشرى فى سوقها ويباع
وتظل العيون تفتن بالمظـ ـهر فيها وتختل الأسماع
زخرف يستر الحقائق بالبا طل فيها ومحض مين يشاع
ما بدا الشر مظلم الوجه إلا ستر المظلم الكئيب خداع

كم حياة باسم الحياة تضاع ضيعتها الأغراض والأطماع
ما استطاعت رذيلة أينما كا نت ظهوراً أو ساغها الإجماع
فاستعارت من الفضيلة ثوباً نمقته براعة وابتداع
رب عات سلاحه أينما يبـ ـطش حلم وحكمة واتضاع

عثمان حلمى



فى معرض الكتاب العربى :

زرت معرض الكتاب العربى الذى أعدته وزارة المعارف ، فكانت زيارة ممتعة ، لأنى حصلت فى ساعة ونصف ساعة ما لم أ كن لأستطيع أن أحصله فى عشر سنوات لو أنى عكفت على متابعة تاريخ الكتاب العربى والصحافة العربية

وطفت بأقسامه المتباينة ، فلحظت كيف تطورت الطباعة وتقدمت . كانت الكتب فى عهد محمد على تطبع على ورق عريض ذى هامش واسع ، يحيط بالكتابة إطار مزخرف أو عادى . أما اليوم ، فقلَّ من يُعنى من المؤلفين والناشرين باتباع هذا النظام العتيق !

وشهدت خلاصة تفكير المصريين من أيام محمد على إلى يومنا هذا معروضة عرضاً شهياً فى مكان واحد ، فحسبت نفسى فى بستان يانع حوى ما دنا من قطوف الثقافة وثمارها

وتأملت كتاباً عنوانه « الأدلة القطعية على عدم دوران الكرة الأرضية » صدر فى عهد عباس الأول — إن لم تخنى الذاكرة — فأغرقت فى الضحك ، لأن ما كان يعدُّه المؤلف إذ ذاك «أدلة قطعية» أصبحنا نعده اليوم «حججاً واهية بالية» !

ورأيت كتاباً آخر عنوانه « وفيات الأعيان » ، فضحكت كذلك لأن مؤلفه لم يجد ما يكتب عنه إلا أن يسرد تواريخ وفيات الأعيان ! كأن الدنيا وما فيها لا تهمه ، وكأن الإصلاح الاجتماعى لا حاجة لنا إليه ، وكأن الكتَّاب فرغوا من الكتابة فى جميع الموضوعات ، ولم يبق سوى الكتابة عن وفيات الأعيان !

وشاهدت الكتب الأولى للأساتذة : محمد حسين هيكل باشا ، وطه حسين بك ، وأحمد أمين بك ، وأحمد حسن الزيات ، وتوفيق الحكيم ، وسواهم ممن تصدروا الحركة الثقافية المصرية ، فكانت كتباً طريفة

وقرأت فى مجلة كان يصدرها الأستاذ سلامة موسى فى عام ١٩١٤ — وقد نسيت اسمها — أن الدكتور طه حسين تشرف بمقابلة الخديو قبل سفره إلى فرنسا للدراسة ، فسأله الخديو عما ينوى التخصص فيه فأجاب : فى الأدب وتاريخه . وعاد الخديو يسأله : لماذا لا يتخصص فى الفلسفة ؟ فقال الدكتور طه : إن الفلسفة أفسدت الدكتور منصور فهمى (باشا فيما بعد) ! وطبعت المجلة إلى جانب هذه الدعابة صورة للدكتور طه فى زيه الأزهرى

ورأيت مجلة كان يصدرها « أحمد أفندى لطفى السيد » ، ويشترك فى تحريرها « اسماعيل أفندى صدقى » و « عبد العزيز فهمى أفندى » ! !

غير أنى لاحظت أن المعرض كاد يكون قفراً من الكتب العربية التى طبعت فى البلدان الشقيقة . فلا يشاهد المرء فيه — إلا عرضاً — كتباً لمؤلفين سوريين ولبنانيين وعراقيين وحجازيين وأردنيين وفلسطينيين ، وكان يجدر بوزارة المعارف — ولا سيما المنظمين منها لهذا المعرض — أن تدعو البلدان العربية الشقيقة إلى الاشتراك فى هذه الحركة الثقافية المحمودة . والكتاب عادة خير ما يعرف الناس عن الشعوب الأخرى . وأحسب أن هذه الملاحظة جديرة بعناية وزارة المعارف وسائر الوزارات التى تزمع أن تنظم معارض مماثلة ، فقد أصبح الشرق العربى فى وحدة ينبغى العمل على تعزيزها وتنميتها

وليت وزارة المعارف تعنى بأن تنشئ متحفاً للنهضة الثقافية فى العالم العربى كمتحف فؤاد الصحى ، أو الزراعى ، أو متحف البريد ، أو متحف الآثار ، ليستطيع المتشوقون إلى الوقوف على النهضة الثقافية وقوفاً عابراً الإفادة من زيارته . والمعروف أن دار الكتب لا يتيسر للمرء فيها أن يلقى نظرة عابرة على ما احتوته خزائنها من مؤلفات ، كما يستطيع رواد المتاحف الأخرى .

وديع فلسطين

نص المحكم فى الفعل (كفل) :

رأيت بمناسبة ما دار من البحث حول « كفل المال وكفل به » فى الرسالة الغراء أن أطلع على نص كتاب المحكم ، وهو المعجم المشهور للامام ابن سيده فى إحدى مخطوطات دار الكتب المصرية ، فإذا هو يقول فى الجزء الثامن (فى مادة الكاف

واللام والفاء) : « ... وكفل المال وبالمال : ضمنه ، وكفل بالرجل يكفُل كفْلا وكفولا وكفالة ، وكفِل وتكفَّل به كله ضمنه ، وأكفله إياه وكفله ضمَّنه »

(ع . م)

(دار الكتب المصرية)

في رباعيات الأستاذ عثمان :

فى العدد ٦٧٧ من أعداد الرسالة الغراء اطلعت على « رباعيات عثمان » للأستاذ الشاعر عثمان حلمى ، وعنّ لى فيها ما يأتى :

يقول الأستاذ الشاعر :

خلّ دنياك كيف شاءت وصلها   ما جنا إن أوسعتك مجونا

والمشاهد أن الشطر الثانى بصورته السابقة مكسور ، فقد أسقط الشاعر سبباً خفيفاً من التفعيلة الأولى فى الشطر الثانى

وفى بيته :

إن موج الحياة يحمل فى مدّ   ه وفى جزره صنوف الهلاك

نراه أضاف سبباً خفيفاً فى أول الشطر الثانى منه ...

وكذلك فى قوله :

لم أجد فيما مضى من حياتى   لىَ عذراً فى الهم أو فى الشكاة

نجد نقصاً فى الشطر الأول بسبب خفيف ... والصحيح أن يقول :

لم أجد فيما (قد) مضى من حياتى   ... ...

وفى البيت :

ونصيب الشباب فى العيش لايفـ   ـضل فى حسنه نصيب الشيب

خطأ مطبعى فى كلمة (الشيب) وأصلها (المشيب)

كل ما سبق من الهنات الهينات مغفور ، ولكن نعتب على الشاعر قوله :

لا تلمنى وانظر إلى تكوينى   فظنونى من كنهه ويقينى

حيث أتى (بالتشعيث) فى العروض ، وهو آخر الشطر الأول ، مع علمه بأن التشعيث لا يدخل إلا فى الضرب ، وإن كان من العلل غير اللازمة

وجواز دخول التشعيث ما جاء فى قوله :

ومحيط الإنسان أكبر جان   هو أو رحمة على الإنسان

حيث وقع فى الضرب وهو آخر الشطر الثانى من البيت

وبعد ، فالقصيدة لا يغض من قيمتها ما سبق التابيه إليه ، فالجوهر جوهر حيثما كان !

وفى الختام أهدى السلام لناظم الرباعيات ... مع التقدير .

(الزيتون)   عدنان أسعد

إلى الأستاذ على الطنطاوى :

أضع بين يدى الأستاذ هذا التعليق على كلمته التى عرض فيها لديوان « الصيدح » :

١ — ذكر الأستاذ الكبير ديوانى فى معرض النقد ، ولم يذكر وجه النقد أو أسبابه .

٢ — عرض لهذا الديوان بعد مرور ثمانى سنوات من صدوره ، أى بعد أن أصبح المؤلف نفسه غير راض عنه ، لأنه من شعر الصبا ، فقد وضع الشعر منذ أحد عشر عاما ، حين كان المؤلف فى التاسعة عشرة طالباً يؤدى امتحان « البكالوريا » .

٣ — وبرغم هذا فإن الدوائر الأدبية تقبلته قبولا حسناً . وإنى أتحدى الأستاذ أن يقتبس من شعر الديوان ما لا يدل على صدق التعبير ، أو لا يصدر مثله عن شعور أو لا يتفق مع القاعدة .

٤ — إن النقد لا يسوءنى ، وحبذا لو بصرنى ناقد بالخطأ فأتجنبه ، أما التجنى من غير دليل ، فإنى أعده تحاملا من غير مبرر؛ وأنا أعرف أن الأستاذ ليس بشاعر ، ومع أن هذا لا يمنع من تمكنه من النقد ، إلا أنى أحسب أنه لو كان يقول الشعر لتذوق حلاوته فى هذا الديوان .

٥ — إن لى أسوة فى غيرى من الشعراء المبرزين ، لأتعزى ، فقد طلع على الناس الأستاذ على محمود طه ، والدكتور إبراهيم ناجى بديوانيهما سنة ١٩٣٣ ، فسلط عليهما النقاد ألسنة حداداً ، وقال الدكتور طه حسين لأحدهما فى ختام نقده : لا أكتمك يا سيدى الدكتور أنك لست على شىء ! وقال الأستاذ سيد قطب : نظرت فى الكتاب الأول فإذا هو تافه كله أغلاط ، لا يستحق أن ينظر فيه ؛ كانت حملة شديدة لم ينقذهما منها أو ينصفهما فيها إلا أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات . حتى دارت الأيام فإذا الشاعران ملء الأسماع والقلوب ، لا يقولان إلا المعجب المطرب .

والسلام على الأستاذ الطنطاوى « الكاتب » الحصيف المتمكن الذى أجله .

(القاهرة)   خليل جرجس خليل



إيــلو . . . !

للأسـتاذ عبد الحق فاضل

... إيلو ، أو إيلا ، أو إيلى ، أو إيلين ، أو ما تشاء من أسماء التحبب والتدليل . ولـكن « اليزا » هو اسمها الصحيح الذى سماها به أبواها وعمداها به فى الكنيسة .

جميلة فى غاية الجمال . وذكية جداً ، ولبقة جداً .

لها عينان براقتان ، وفم صغير رقيق الشفتين يلذ لك أن تتابع بعينك تثنيهما وتلويهما حين تتحدث اليك ، وأن تراقب بأذنك تكسر الألفاظ عليهما فى عذوبة ورشاقة ودلال ... بارعة فى تصريف الأحاديث بلباقة نادرة وظرف أخاذ . وهى إذا تحدثت اليك عبرت لك عن مرادها بكل جوارحها — بعذوبة صوتها ، وإشارات يديها ، وحركات رأسها ، وتثنى جسمها الغض ولحاظ عينيها اللامعتين . فجسمها كله يتكلم وكله يبتسم ، حتى ليخيل اليك أن ثوبها وزينتها أيضاً وسيلة عندها من وسائل التعبير ! فأنت لهذا مضطر إلى الإصغاء اليها بكل جوارحك أيضاً ، والافتتان بمحاسنها بكل قلبك وعقلك جميعاً .

لعوب طروب لها مراح العصفور ونشاطه ، وودود ظريفة تحملك على الإعجاب بها والهيام بكل وسيلة . فهى لذلك معتدة بنفسها ، تعرف قيمة جمالها وسحرها ، وهى لذلك أيضاً تعنى بأناقة ثوبها وزينتها ما وسعتها العناية .

لم أرها ! ... ولـكن أمها هى التى حدثتنى عنها وسردت على قصة مأساتها المحزنة وفاجعة موتها قبل أن تتم الخامسة من عمرها غماً وكمداً ... فهى طفلة صغيرة كما ترى ! ولـكن ذلك لم يمنعها أن تكون غاية فى الجمال ؛ ولا أن تكون ذكية جداً ولبقة جداً ولا أن تكون زينة البيت وريحانته ، ومتعة الأهل والأصدقاء والزائرين ، ولا أن تكون مدركة لذلك كله شاعرة بقيمتها ، ومكانتها فى كل قلب ، معتدة بنفسها مزهوة بجمالها ، معنية ما وسعتها العناية بأن تكون خليقة بكل هذا الإعجاب وكل هذا التقدير ، طامعة فى المزيد . فقد كانت أبداً تخلق حول نفسها جواً صافياً من المرح والسرور ، ولا تطيق أن ترى عابساً أو حزيناً أو شخصاً منصرفاً عنها إلا بذلت جهدها لإخراجه من صمته وإدخال السرور على قلبه ولفت نظره إليها . فما يلبث ، مهما كان مهموماً أو بليداً ، أن يجاريها ما استطاع وييسر ما وسعه السرور ويضحك ما واتاه الضحك ، ويتخفف من همومه ولو إلى حين .

على أنها لم تكن تدرك أنها طفلة ! فكانت تحاكى الكبار وتقلدهم فيما يصدر عنهم من قول أو فعل أو إشارة . ومن بوادر ذلك مساعدة أمها فى أعمال البيت والقيام على مراقبة نظافته والعناية بشؤونه ! ومن ذلك أيضاً أنها ما كانت تبخل على أحد بالنصيحة وإمداده بالرأى الصائب فى رفق العقلاء المجربين وتوددهم ودمائتهم .

وكان يشق عليها أن يوجه اليها انتقاد ، فيحمر وجهها ثم تحتال على الاعتذار فتحسن الاحتيال ، وتشفع عذرها بابتسامة خجول ، وتعد بألا تعود .

ولعل سر هذه الفتنة التى اختصت بها إيلو أو إيلا أو إيلين هو هذا التعقل والتوقر المكتسبان بتقليد الكبار ومحاكاتهم وهى بعد فى بكور هذه الطفولة البريئة الجميلة ، المحبوبة بطبيعتها . فكان المزاج من الطفولة والنضوج ، وفيه هذا التوافق المصنوع والتناقض المطبوع ، سحراً خالباً غالباً تنفتح له القلوب بلا مقاومة ولا عناء .

كان حديث أمها فى بدئه عادياً طبيعياً تتخلله الابتسامات ، ثم أخذ صوتها يكتئب ويرتعش ؛ ثم شرعت تروح عن نفسها بالتنهد والتحسر بين حين وحين كلما اقترب الحديث من آخره ، وكانت تزيدنى رغبة فى الانصات اليها هذه اللكنة الأرمنية الحلوة التى لم تقو على مغالبتها عشرون سنة أقامتها فى بغداد بين زوج عراقى وجيرة عراقيين .

قالت :

« ... فلما بلغت إيلو عامها الرابع رزقت غلاماً كان شؤماً

على نفسه وشؤماً على أخته وعلينا . فقد مات بعد موت ايلو بأسبوعين ، بعد أن قضى عليها وأفسد صفو حياتنا . وكان أول عهدها به أنها رأت كتلة صارخة من اللحم تضطرب فى المهد ، فدنت منه فى حذر وأنعمت نظرها فيه ، وإذا طفل لم تره من قبل وصراخ لم تألفه فى البيت . فرابها أمره وأوجست منه خيفة ، والتفتت إلى تقول :

ماما ... ما هذا ؟ ! فقلت لها : إنه أخوك وديع . فقالت : أخى ! ولم يصيح هكذا ؟ إنى لا أحبه !

إنها لا تحبه ... كلمة سبقت منها كأنما ألهمتها إلهاماً قبل أن تعرف خطرها أو تدرك سببها أو تعلم ما سيكون لها فى حياتها وموتها من شأن . وقد زادتها الأيام بغضاً له كلما رأت أن له عندنا أهمية أو قيمة ، أو وجدتنا نكترث له أو نعنى بشؤونه . فهى يشق عليها أن تجدنا نصرف عنها ولو جزءاً من عنايتنا ورعايتنا إلى أخيها وديع أو أى مخلوق سواه ، وهى تفهم من ذلك أننا نزدريها ونراها غير خليقة بالاستئثار بكل حبنا وعنايتنا .

وعبثاً كنا نحاول — أبوها وأنا — إقناعها بأن لها المنزلة الأولى وأنها وحدها الأثيرة عندنا ، وإننا لا نحفل وديعاً إلا رأفة به ، وإننا سنتخلص منه يوماً ما ونريحها ونريح أنفسنا منه . وكنا نتظاهر معها باحتقاره ونجاريها فى تعداد عيوبه ومثالبه . وكنت أتحاشى أنا إرضاعه أو مداعبته أمامها ، ولكنها كانت تراقبنى فترانى أحياناً متلبسة بتقبيله أو ملاعبته فتعاتبنى بنظرة أبية وتنصرف ، كأنها تقول : إنكم تخدعوننى !

قالت لى يوماً : ماما ... ما ذا تصنعون بهذه الخليقة الحقيرة ؟ إنه مجنون يبكى ويصرخ بلا سبب ! وقذر جداً . يحدث فى ثيابه وفراشه ونفسى تشمئز منه ! وليست فيه فائدة لنا . انى أحسن منه ، وعاقلة ونظيفة ! فلماذا لا تلقونه فى الطريق ؟ ...

فقلت لها : لا يا بنيتى ، إنه صغير مسكين ، ومريض . ولهذا ترينه يبكى .

فقالت : لا يا ماما . إنه يكذب ! إنه لايبكى بل يصرخ فقط ، ولا تسيل من عينه دمعة واحدة ! فلو ألقيته فى الطريق للكلاب لاسترحت منه ، فإنه يتعبك كثيراً وأخاف عليك أن تمرضى !

فأجبتها لو ألقيناه فى الطريق يا ايلو لحق علينا غضب المسيح فلنشفق عليه إكراماً للمسيح حتى يشفى من علته — فنتركه وشأنه . ما قولك فى هذا يا ايلو ؟

فقالت : ولماذا يغضب المسيح ... أتراه يحب المجانين والقذرين ... ؟

فقلت : لا ، ولكنه يحب الضعفاء والمرضى ، ويوصينا بالعناية بهم والعطف على بؤسهم .

فقالت مغضبة : لماذا يا ماما لا يحب المسيح الأصحاء النظاف والعقلاء ، ويؤثر عليهم الذين فراشهم منتن مثل وديع الكلب ؟ أليس المسيح جميلا وطيباً كما تقولون . إنى أبغضه !

ورأت بعد ذلك أن الجدال والمنطق وحدها لا يعودان عليها بفائدة ، فراحت تبرهن لنا ولمن يتصل بها وبنا عملياً على أنها كفء لكل تقدير وإكبار ، وأنها وحدها الجديرة بكل الإعجاب والاهتمام . فصارت تستيقظ مبكرة مع العصافير ، وتلقى نظرة شاملة على البيت وتشرع بانتقاده وتصف فساد نظامه بخطاب موجز ، ثم تأخذ بترتيبه على رأيها ووضع كل شىء فى محله . وتغسل أوانى الشاى وتنصب المائدة قبل أن أشرع أنا بإعداد الشاى نفسه . ثم تأخذ بالمكنسة لتنظف الدار ! وتجشم نفسها من المشقة والنصب ما لا قبل لطفولتها به ، فأمنعها سدى وترفض أحياناً حتى أن أساعدها . وأنا أعلم فيم تشق على نفسها كل هذه المشقة وفيم تتكلف كل هذا العناء ، فتنفطر مرارتى من الحزن ...

ثم تعمد إلى نفسها فتفيها حظها من التزيين والتجميل ، وترتدى أنظف ثيابها وأجملها فى عينيها ، وتجلس إلى المرآة تصفف شعرها وتمشطه حتى ترضى عن نفسها . فإذا جاءنا زائر خفت وبشت فى وجهه ، وقد لحظت أنها ضعفت ثقتها بنا فصرفت عنايتها إلى الزائرين ... تسعى بين أيديهم وتسائلهم إن كانوا عطاشاً لتأتيهم بالماء ، وتقدم اليهم السكر لعل الشاى أقل سكراً مما يشتهون ، وما تفتأ تتودد اليهم وتعرض عليهم محاسنها وتباسطهم وتغنى لهم وتستميلهم بمرحها ورشاقتها وفكاهاتها حتى يأخذوها فى الأحضان ويوسعوها ضماً وتقبيلا ، ويؤدوا لها حقها من المديح والإعجاب . فتتنهد وتنفض اليهم جملة حالها ... وتتكشف سريرتها فإذا كل هذا اللعب والمراح أشبه برقص الطائر الذبيح ...

تأخذ بانتقاد عدوها وديع ، وتنتقص أمامهم منه . وأصل عيوبه ومخازيه عندها أنه بكاء وقذر . وتشكو إليهم ظلامتها وبثها ، وتشكو إليهم أننا مع كل هذا نحبه وندلله ولا نضن

عليه بالعطف والإيثار . فتحكمهم بيننا وتطلب إليهم أن ينصفوها منا . فإذا حكموا لها ، وهم دائماً يفعلون ذلك ، نظرت إليّ في عتب ورجاء . وإذا أكدتُ لها أننا لا نباليه ولا نقيم له وزناً أطرقت في يأس وهزت رأسها الصغير كأنها لا تريد أن تقول لي في صراحة : إنك تكذبين يا ماما !

ولكنها مع كل ما تضمره لوديع من بغض وموجدة لم تحاول يوماً أن تؤذيه أو تمسه بسوء ، فقد كنت أرقبها إذا اختلت به مخافة أن تمتد إليه يدها البريئة بشر ، غير أنها لم تفعل من ذلك شيئاً ، وإنما كانت تكتفي بأن تحدجه بنظرات ساخطة حزينة ثم تنصرف عنه .

وكانت لنا جارة صديقة لم تُرزق ولداً ، اسمها ماري ، تصلنا بها قرابة بعيدة ومودة وثيقة . وكانت مشغوفة بحب إليزا حتى ماتكاد تنقطع عن زيارتنا وقضاء شطر من نهارها عندنا قرب حبيبتها إيلين كما كان يحلو لها أن تسميها ، فقالت لها مرة :

أنظري يا أختي ماري ! إنهم لا يزالون يحبون هذا النجس وديعاً ، وقد رأيت ماما تقبله أمس ! وهي تسهر الليالي عليه وتخف إليه كلما بكى لترضعه وتهز أرجوحته المنتنة ! أنا أكنس البيت كل يوم وأطوي ثياب بابا وأعين ماما ... ونظيفة وجميلة ! وهذا المجنون وديع الذي لا يكف عن الصياح قذر ... ورأسه صلعاء !

فلاطفتها ماري وأكدت لها أنها واهمة ، وأننا نحبها ونؤثرها ولا نقيس بها إنساناً . فقالت : لا يا أختي ، إنهم يخدعونني ويكذبون عليّ ... لو كنت مكانهم لأطعمته الكلاب أو أعطيته الشحاذين القذرين مثله .

فقالت لها ماري : اطمئني يا أختي إيلين . سنخلصك منه قريباً ، إنه قبيح بكاء لا خير فيه .

وأسرّت إلى ماري بعد ذلك أنها ستأخذ وديعاً عندها طيلة نهار الغد . ثم تزعم لإيلين أن كلب ماري ، وكان لها كلب عظيم الخلقة ، قد افترسه وأراحها منه لترى ما عساها تصنع أو تقول . وأخذته في اليوم التالي خلسة إلى دارها ، فدهشت إيلو ذلك النهار أنها لم تر وديعاً ولم تسمع له نامة . ومضت إلى فراشه مرات عدة فلم تجده . فراحت تطوف البيت وتتحرى الغرف صامتة متلصصة لترى ماذا حل به فلم تفز بطائل . فإذا فرغت من التفتيش عادت إليّ تدور حولي وتطيل النظر في وجهي لعلها تقرأ في أساريره ما يجلو لها الخبر اليقين ... فلما ضاقت ذرعاً بالصمت والكتمان ، سألتني :

— ماما ... أين وديع ؟ فقلت لها :

— وديع القذر ؟ ماذا تريدين منه يا إيلا ؟ ... فقالت :

— أين هو ؟ إنه ليس في البيت ! فأجبتها :

— مسكين ! لقد أكله كلب ماري .

— صحيح يا ماما ؟ هل أكله كله ؟ !

— نعم . التهمه عن آخره !

فتورد خداها وبرقت عيناها ، وصاحت :

— فلأُقبلنك إذن ! وألقت نفسها في حضني تغمر وجهي بقبلاتها ، وأخذت تضمني بشدة غريبة وهي تدس رأسها في صدري كأنما تريد أن تدخله في أضلاعي . فسالت دموعي على هذه الصغيرة المعذبة اللعوب . وخشيت وخامة العاقبة متى اطلعت على جلية الأمر ، فلم أك أقدر أن يصيبها كل هذا الفرح الجنوني البريء .

ثم تركتني وهرعت إلى الأرجوحة لتأخذ منها الفراش ، وبذلت جهداً عنيفاً حتى أخرجته فأمسكت من أحد أطرافه كأنما تحاذر أن تتنجس يدها منه ، وراحت تجره وراءها في صحن الدار . وصادف دخول أبيها في تلك اللحظة فأخذها بين ذراعيه وسألها ما تصنعين يا إيلي ؟ فقالت له :

— بابا ، لست تدري ! إن كلب ماري قد أكل وديعاً كله ، ولم يترك منه ذرة واحدة ! فلنرم فراشه في الطريق ، وأرجوحته أيضاً وثيابه . كلها قذرة ووديئة .

وما كادت تفلت من بين يديه وتأخذ بالفراش من جديد حتى دخلت علينا ماري وعلى ذراعها وديع وهي تقول :

— إنه بكّاء مزعج حقاً تخلصوني منه !

ولا تسل عما أصاب إيلو . فقد بهتت ووجمت ، واصفر وجهها ، وأفلت طرف الفراش من يدها . ولم تعد تقوى على الوقوف فقعدت من فورها على الأرض مستندة إلى الجدار . ثم انتبذت ناحية منزوية من تلك الغرفة (وأشارت بيدها إلى الغرفة التي عنتها) في ذلك الركن . وطفقت تبكي بكاء متصلا أبكانا نحن الكبار ، إذ لم يستطع كل بغضها لوديع أن يسيل لها دمعة من قبل ، ولم تعودنا يوما وهي الطروب اللعوب أن نراها تبكي أو تشكو من شيء ، فقد كانت أبداً كما قلت لك لاعبة ضاحكة

السن نشيطة خفيفة الظل والحركة — تكظم الغيظ وتدارى أحزان قلبها الغض باللعب والمزاح . ولكنها شعرت هذه المرة أنها أهينت فى صميم كبريائها . وقد قالت لنا ونحن نحاول عبثاً أن نسترضيها ونمنيها الوعود : إنكم لم تعودوا تحبون إيلو ... تزدرونها وتضحكون عليها .

وظلت تبكى بلا انقطاع رغم ما بذلنا من جهود ، وظل جسدها يضطرب ويهتز بين أيدينا من الانتحاب والشهيق كالسعفة تعبث بها ريح هوجاء .

ولم تذق عشاء تلك الليلة ، ولا أحسبها نامت فقد كانت تتململ فى فراشها تململ السليم ، فاذا ناديتها أودنوت منها أغمضت جفنيها وتناومت ... ولم تنهض على عادتها باكرة فى الصباح ، ولم أشأ أن أوقظها حتى علا النهار ، فقامت متثاقلة مسترخية محمرة العينين منتفخة الأجفان من السهر والبكاء ، ولم تعن بالبيت أو تُلق بالا إلى نظامه أونظافته ، ولاجفلت زينتها ، أومرآتها ، ولا غيرت ثوباً أو مشطت شعراً ، ولا رحبت بزائر ولا صديق . وخلا المنزل من لعبها وقفزها وأوحش مذ ذلك اليوم . وكان كل ما تفعله أن تقابلنى وتجلس أمامى فى المطبخ أو فى الصحن أو فى الغرفة ، خافضة الرأس ساكنة الأطراف مغرقة فى الوجوم والتفكير مستسلمة إلى الحزن الصامت واليأس الأليم . وأخذ جسمها يذوى ويذوب كالشمعة المحترقة يوماً بعد يوم ، وغاضت ابتساماتها وخبا ضوؤها وخفت صوتها . فراعنا الأمر وتحيرنا ماذا نفعل . ولم يكن فى عزمنا أن نتخلى عن وديع أو نعهد به إلى مرضع أو مربية فقد كان أثيراً عندنا حقاً إذ لم يكن لنا ولد ذكر سواه ، ولم يكن بيدنا مالا ننفق منه على المربيات والحواضن لو أردنا ذلك . وحار فى أمرها الطبيب وكثر ما تناولته من الأدوية والعقاقير صابرة طيعة لا تتمرد ولا تقاوم ، وقد ذقت مرة دواء كانت تشربه فوجدته مراً حاداً كريهاً تعافه النفس ؛ وعجبت كيف كانت تشربه فى طوعية واستسلام فأرقته وأعفيتها من شربه ، كأنها تنازلت عن إرادتها إذ لم تعد تنتفع بها ، أو رفضتها ورمت بها فى وجهنا . فلم تبد رغبة فى شىء أو تتذمر من أمر . حتى أن مارى اقترحت عليها مرة أن تأخذها عندها لتعتنى بها وتقوم على راحتها وتسليتها وتتبناها فقالت نعم . فسألتها أنا هل ترغبين حقاً أن تمضى مع مارى إلى دارها ؟ فقالت نعم . فقلت أم تؤثرين البقاء عندنا ؟ فلم ترد على أن قالت نعم ! فنظر بعضنا فى وجوه بعض قانطين حائرين .

ولبثت عند مارى أياماً لم تزد حالها فيها إلا سوءا على سوء ، فلم نجد بداً من استرجاعها . وشرع أبوها يطوف بها المتنزهات ويقتنى لها الملاهى والألاعيب والحلوى أصنافاً وضروباً ، ولا يألو جهداً فى تسليتها والترويح عنها ، فى غير جدوى .

ومالى أطيل عليك وأثقل على نفسى ونفسك ... إن ذكرى أيامها الأخيرة لتحز فى فؤادى كالمدية الكليل ، وتشب فى ضلوعى مثل النار ... وجدناها ذات صباح جثة هامدة فى فراشها شاخصة إلى الأرجوحة ببصرها كما يشخص القتيل ببصره إلى القاتل ... » .

واختنق صوتها بالبكاء وانهمرت من عينيها الدموع . فلم أتمالك أن أخرج منديلى وأجفف به عينى الدامعتين .

هذه هى قصة إيلو أو إيلا أو إيلين أو ما تشاء ... كما سمعتها من أمها . لقد كانت ذات نفس كبيرة وحس دقيق رهيف ، جاوزت حد الطفولة فى الشعور بالعظمة والكبرياء ... غيوراً يهمها أن تكون ملحوظة أبداً معنياً بها لا ينازعها فى ذلك منازع ولا يزاحمها على منزلتها عند أبويها إنسان . فماتت شهيدة بطلة بعد أن ناضلت وجاهدت ، وأبلت أحسن البلاء ؛ وحيدة لامعين لها ولانصير ، شجاعة صابرة لايعروها ضعف ولاجزع ، ولاينال من بشاشتها أو يخرجها عن سجيتها خور ولا قنوط ... حتى خذلها الأهل وعز النصير ، فأيقنت بالفشل وأدركت أن جهودها ضائعة لا محالة ، وأنهم لم ينصفوها ويقدروها قدرها على حال . فألقت سلاحها وانسحبت من الميدان فى إباء وحسرة وسكون ، وأسلمت قلبها الغض إلى الأحزان ، وفوضت أمرها إلى الله . وهكذا انتحرت تلك الكرامة البريئة المؤذاة !

ومع أنى لم أرها ... ثم مع أنى قد مضى على سماعى نبأ مأساتها عام أو يزيد ، فانى ما زلت تعودنى ذكراها من آن لآن فأحزن عليها حزنى على القريب والحبيب . لكأننى رأيتها وعرفتها ولاعبتها وأحببتها كل الحب وكلفت بها أيما كلف ، ثم ... كأننى فقدتها الساعة

سكك حديد الحكومة المصرية

خط مصر الأسكندرية

يتشرف المدير العام بإعلان الجمهور أنه يسير الآن قطاران فاخران سريعان (درجة أولى وبولمان) بين القاهرة والأسكندرية فى المواعيد الآتية : —

		٩٩٣	٩٩١
مصر	قيام	٨ر٣٠	١٧ر٣٠
طنطا	قيام	٩ر٤٤	١٨ر٤٤
سيدى جابر	قيام	١١ر٢٢	٢٠ر٢٢
الأسكندرية	وصول	١١ر٣٠	٢٠ر٣٠

		٩٩٢	٩٩٠
الأسكندرية	قيام	٨ر٠٠	١٧ر٠٠
سيدى جابر	قيام	٨ر١٠	١٧ر١٠
طنطا	قيام	٩ر٤٩	١٨ر٤٩
مصر	وصول	١١ر٠٠	٢٠ر٠٠

(طبعت بمطبعة الرسالة شارع السلطان حسين — عابدين)

العدد ٦٨١ — الاثنين ٢٢ يوليو ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

٢٧٠٧

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 681

Lundi—22—7—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨١ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٣ شعبان سنة ١٣٦٥ — ٢٢ يوليو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

حقوق المناقشة

للأستاذ عباس محمود العقاد

للمناقشة حقوق .

ولا يرعى للمناقشة حقها من يناقش طالب المعرفة والانصاف كما يناقش طالب الحزازة والادعاء ، أو يناقش المفيد المستفيد كما يناقش المفترى الذى يضيع على القراء أوقاتهم فى شفاء ضغن ومرضاة غرور .

فلا بد من تفرقة بين المناقشتين .

ومن حق الكاتب على نفسه ألا يخاطب المخلص المهذب الذى يصدق النية فى سؤاله والرد عليه ، كما يخاطب إنسانا يغمطه حقه وينحله ما لم يقله ويسىء فهم ما قاله ويتعالى عليه بالباطل وهو منه فى مرتبة دون مرتبة التلميذ من الأستاذ .

ومن حق القراء على الكاتب ألا يسوى أمامهم بين من يخدمهم فى طلب الحقيقة ، ومن يخدم نفسه فى شهوة مريضة لا تعنيهم ولا تعنى الأدب والثقافة .

ومن حق الأخلاق على من يرعاها أن يكشف هذه الأمور ويعطيها ما هو واجب لها من التنبيه والتعقيب .

ونرجو أن يكون فيما تقدم جواب للسائل الأديب الذى يسألنا عن « يوم نعمنا ويوم بؤسنا » كما سماها وهو يشير إلى أسلوبنا فى الإجابة على أناس بالرفق واللين ، والإجابة على أناس آخرين بالشدة والتقريع . ونقول له إننا لو فعلنا غير ذلك لكنا مخطئين ، لأن الناس لا يسألون جميعا بنية واحدة ولا لغرض واحد ، وينبغى أن يكون الجواب على حسب اختلاف الأغراض والنيات ونرجو أن تكون فيما يلى أمثلة من المناقشات التى تنجم عن سوء الفهم أو سوء النية أو عنهما معا فلا تجاب إلا كما ينبغى أن تجاب .

***

من الحقائق الأدبية التى لا تحتاج إلى عناء كبير فى تفصيلها أن نظم الحكم الشائعة والأمثال المتواترة يتيسر لكل من يقدر على النظم أو على وزن التفاعيل ، ولا يدل حتما على ملكة شعرية ولا على حكمة فطرية ، وأن ورود بعض الحكم فى أشعار الفحول المطبوعين لا يثبت لنا أن كل قائل ينظمها هو شاعر مطبوع يضارع أولئك الفحول المطبوعين .

هذه من البدائه التى لا تحتاج إلى عناء .

وقد أشرنا إليها فى كتابنا عن شعراء مصر وبيئاتهم وقلنا فى سياق الكلام على عبد الله فكرى باشا : « إننا لا نعرف بين كبار الشعراء فى العالم كله واحدا صرف إليها شعره وجعلها من أغراض فنه » .

وهذا أيضا صحيح ، لأن كبار الشعراء فى العالم معروفون ، وليس نظم الحكم والأمثال من الأغراض التى تتعذر على من دونهم من الشعراء بكثير .

وعلى مكان هذه الحقيقة من البداهة لا مانع عندنا أن يجهلها بعض الناس ، وأن يتشككوا فى عمومها وشمولها ، ولكن المانع عندنا أن يُعتبر تقريرنا لها « جريمة تهويل » واقحام للدعاوى فى غير موضعها ... كأننا نزج بأسماء كبار الشعراء فى مقام لا يدعونا إليه إلا المباهاة بذكرهم ، والظهور بهذه المباهاة !

وهذا الذى صنعه السيد عبد الغنى حسن حين سأل مستهولا : ما دخل كبار الشعراء فى العالم كله فى ميدان هو بشعراء العربية أشبه ؟ » .

فان هذا الاستهوال نفسه لهو غاية ما يمكن من الادعاء مع جهل الصواب وقلة الرغبة فى الفهم الصحيح .

فلو أن السيد عبد الغنى كلف عقله عناء الفهم قبل أن يستكثر علينا هذه العبارة لفهم أننا لم نذكر فيها كلمة واحدة يتأتى حذفها بغير اخلال بالمعنى المقصود .

فتحقيق الملكة الشعرية لا يكون بالرجوع إلى صغار الشعراء ولا أوساط الشعراء ، ثم هو لا يكون بالرجوع إلى كبارهم فى قطر واحد ، لأن التقاليد الموضعية قد تولع بعض الشعراء فى قطر من الأقطار بأسلوب لا يرتضيه كل شاعر كبير . ولا سبيل إلى التحقق من الملكة المطبوعة إلا إذا عرضناها على « كبار الشعراء فى العالم كله » وعرفنا حظها منهم أو حظهم منها ، فنعرف هل هى عرض فى شعرهم أو هى أصل صميم .

فللشعراء الكبار فى العالم كله دخل فى هذه المسألة ولم نقحمهم نحن ثمة لغير مناسبة ولا دلالة . وإذا كان السيد عبد الغنى يفهم أننا نتكلم فيما لا نعلم حين نتكلم عن كبار الشعراء فى العالم كله فليس له علينا حق الحمد والتسبيح ، ولا حق الاطراء والمديح!

***

وأغرب من السيد عبد الغنى حسن فى تصحيحاته وتهويلاته سيد آخر من بيروت يدعى « عمر فروخ » ... ولعله من أصحاب العلم والأدب بالرخص « الأمريكانية » أو « الفرنسيوية » التى ابتلى بها الشرق العربى فى الزمن الأخير .

وصلت إلينا لهذا الفروخ رسالة عن ابن الرومى يقول فى مقدمتها : « قال سليمان البستانى : وكأنى بابن الرومى وفيه لمحة من كنيته إلى جرثومة أصله أو عرفانه ، كانت تحمله على تحدى هوميروس فى كثير من أساليبه ومعانيه وتشبيهاته . وقرأ عباس محمود العقاد هذا فبنى عليه فصلا تاما من كتابه ابن الرومى ٢٦٣ — ٣٠٢ وبعض فصل ... »

ثم تناول هذا الفروخ قلمه الأحمر وتفضل بتوزيع الدرجات والتوبيخات فقال : « لقد غفل البستانيان والعقاد عن طبيعة الاجتماع وفاتهما كثير من حقائق التاريخ وأسس الأدب . ان الوراثة العرقية أو وراثة الدم تؤثر فى الاستعداد العام أو فى الذكاء الفطرى وفى الصفات الجسمانية ، ولكنها لا تؤثر فى اتجاه التفكير ولا فى الانتاج الأدبى . ثم ان ابن الرومى نشأ فى بيئة عربية يجهل اللغة اليونانية وكذلك أبوه ، ولم يكن من سبيل لاتصاله بالأدب اليونانى القديم أو المتأخر ، وأن عبقرية ابن الرومى لم تتكون إلا كما تتكون كل عبقرية غيرها من عوامل فى البيئة وعناصر الشخصية ... »

ثم رفع هذا الغر مقرعة المعلم على رؤوسنا وراح يهزها ويقول « إن بعض المتأدبين عندنا تأخذهم حمية الانشاء فيندفعون فى كتابة خيالية ، من غير تحقيق أو اهتمام بما كتبه العلماء والباحثون ... »

فهل علم القارىء إذن ماذا نحن وماذا هذا الفروخ المجهول ؟

هذا الفروخ المجهول معلمنا نحن المتأدبين ، وحذار أن تخطىء فتزعمنا من الأدباء ! ! وهو يتربع الديوانية ويتبختر الفطحلية ، ويعجب لهؤلاء التلاميذ الذين يسودون الصفحات بالانشاء ، ولا يفقهون ما قاله العلماء ، ولا يعرضون عليه كتبهم ليوزع عليها الحمراء والخضراء ، من درجات التصحيح والاملاء .

وما الذى اخطأنا فيه نحن المتأدبين ، فأدبنا هذا الفروخ على هذا الخطأ المبين ؟

أخطأنا لأنه افترى علينا ، ولأن الذى قلناه نقيض ما نسبه إلينا . والعجيب أنه يذكر الصفحات ، وهذا الذى قلناه فى تلك الصفحات :

قلنا : « ربما كان القول بأن ابن الرومى رجل حساس متوفز الأعصاب ملتّى المزاج نشأ فى حضارة زاهية فأجابته وأجابها ، وأخذت منه وأخذ منها ... أقل فى العجب من تفسير عبقريته بأنها عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثة عن آبائه اليونان .

إذ من هم آباؤه اليونان ؟ لا ندرى أهم من اغريق الجزر ، أم من اغريق البلاد المعروفة باسم اليونان ، أم من اغريق آسيا الصغرى التى كانت تدور الحرب فيها وحولها بين المسلمين ودولة الروم . ومن الصعب الذى يحتاج إلى التفسير أن نقول إن هؤلاء الاغريق جميعا سليقة واحدة وأمة واحدة وعنصر واحد ينحدر منه الرجل وينتقل إلى بيئة أخرى وينجب الأبناء فى بيئته الجديدة فيجتمع فيهم كل ما تفرق من خصائص العبقرية الفنية التى تسمى الآن بالعبقرية اليونانية . ثم نحن لا نعلم أن الاغريق فى قديم عهدهم كانوا عنصرا واحدا ينتمى إلى سلالة واحدة ، لأن امتزاج الأنساب بينهم وبين الأسيويين ثابت لا شك فيه ، واقتباسهم من عقائد الأسيويين وفنونهم ولغاتهم ثابت كذلك أقطع ثبوت ... ولا يمكن أن نجزم برأى فى وراثة الفطرة الفنية ولا سيما الفطرة فى الشعب كله حتى لو عرفنا الأصل الذى تحدر منه ابن الرومى بين أصول اليونان الكثيرة . فقد كان فى بلاد اليونان نفسها ألوف من أبناء الشعب اليونانى المحاطين بالبيئة اليونانية فى جميع ظواهرها وبواطنها ، فلم ينبغ منهم فى عصر ابن الرومى شاعر مثله ولا نبغ منهم فى العصور السابقة التى أزهرت فيها آدابهم وفنونهم شاعر من طرازه فى جميع خصائصه وملكاته . فلو أننا نقلنا ابن الرومى من الأدب العربى إلى الأدب اليونانى لكان فذا فى أدبهم كما كان فذا فى أدبنا ... ولو أننا بحثنا مزية أصيلة فى الفطرة اليونانية تنتقل مع الدم وتسرى فى خلال التكوين لأعيانا أولا أن نحصر هذه الفطرة ، ثم أعيانا بعد ذلك أن نحصر هذه المزية . فنحن لا نفسر عبقرية الشاعر حين نسميها بالعبقرية اليونانية ، ولكننا نصفها فى كلمات موجزة وصفا يقربها إلى الأذهان ، ويطبعها بهذا الطابع المعروف عند المطلعين على الآداب ... »

فالعبقرية اليونانية التى نطلقها على ابن الرومى هى إذن صفة أدبية فنية لم نجزم بوقعها من الوراثة العرقية ، ولا أهملنا الإشارة إلى هذه الوراثة لأنها مما لا يجوز إهماله ، فكيف قوّلنا الفروخ ذلك الكلام فى تلك الصفحات وهذا ما قلناه فى تلك الصفحات؟ هذا ما قلناه فى كتاب قرأه الألوف ولم نقله فى كلمة شفوية أو مقال غير معروف ، وهكذا افترى علينا ذلك الفروخ بما شئت لاسمه من تقديم أو تأخير فى الحروف . فما ذا يقال لمثل هذا ؟ أيناقش مناقشة الأكفاء ؟ أيخاطب خطاب العلماء والفضلاء ؟ كلا ، بل ذلك خليق أن ينخع نخعا من تلك الجلسة الفطحلية وتلك الحبوة الديوانية ، ثم تنزع من يده العصا التى يهزها هز المعلم على رؤوس معلميه ليحس بها فوق رأسه ويقال له بحق : إن العقاد يا هذا ليتواضع غاية التواضع حين يسمح لأساتذتك أن يجلسوا بين يديه جلسة التلميذ المستفيد . فتأدب أيها المسكين ، لأنك لا من الأدباء ولا من المتأدبين .

* * *

ومخلوق آخر يسمى المشنوق ، يشكو المجاعة ولا طعام لمخنوق! ويتحدث عن « المجاعة الأدبية فى مجلة الأديب ... وهو حديث لا يقال فى مجلة ، ولا يقال فى السوق ...

قال : « وإذا بعباس محمود العقاد يترك ابن الرومى ونشه والعبقريات ليكتب فى كل موضوع . كخادمة المنزل التى تصلح لجميع الغرف ... »

فالعقاد ملوم إذا كتب فى موضوع واحد ، والعقاد ملوم إذا كتب فى أكثر من موضوع ، والعقاد مكذوب عليه لأنه لا يزال يكتب عن أبى الشهداء ، وعن باكون وعن أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، وعن هذه الشجرة ، وعن غير هذا وذاك ، ولكن ينبغى أن يلام والسلام ، وأن يطلب منه إطعام من لا يقبل الطعام ، وأن يفك الحبال عن الحلوق والأقدام ، ليأ كل المشنوق ويمشى من يعجز عن القيام .

لا يا عبد الله ... ما هكذا تكون الأشباه .

ليس العقاد خادمة ، فى كل غرفة حائمة ، بل هو سيد فى نعمة دائمة ، له فى كل غرفة مائدة ، وعلى كل مائدة حلوق طاعمة ... ولكنه لا يفتح حلوق المشانيق ، لأنها حلوق صائمة ، ليس لها فى القائمة حساب ولا لها فى الحساب قائمة .

وهكذا يكتب لهؤلاء ... فعلى من اللائمة ؟ ...

عباس محمود العقاد

من لغو الصيف :

إلى الأسكندرية ...

للأستاذ سيد قطب

إلى الاسكندرية ...

لا بد من تغيير الهواء فى هذا العام ... فها هى ذى أعصابى تعلن الثورة ، وتعلنها وتعلنها ، ثم تمل من هذا الإعلان فتضرب إضرابا تاما وتنام ! ... وهاهوذا الطبيب والطبيب والطبيب ، لا يجدون فى جعبتهم — بعد أن أتناول نصف ما فى صيدلية حلوان من الأدوية حقنا وجرعا وبلعا — إلا أن يقولوا : غير الهواء !

لا بد من تغيير الهواء فى هذا العام ... فقد انقضت سبع سنوات عجاف ولم أغادر فيها حلوان شتاء ولا صيفا إلا أياما فى الصعيد — فى مطلع الصيف — « للتفتيش » ! التفتيش لحساب وزارة المعارف (ولا أدرى متى تغير هذا العنوان ، ومتى تغير — تبعا لهذا — وظيفته فتجعلها مثلا « التوجيه » اسما ومعنى) . لم يكن تفتيشا فى الواقع . لقد كان نفيا !

كانت الحرب ، وكانت الأحكام العرفية ، وقال الوزير : لابد أن يفصل هذا الموظف أو ينفى من الأرض أو يشرد فيها . فقد أبلغتنى إدارة الأمن العام عنه أشياء !

إدارة الأمن العام ؟ أى إدارة الأمن العام ! ... وأبلغتنى أنه يعمل لحساب المعارضة ... ثم إن « دوسيهه » ليس نظيفا . فيه إنذاران على كتابته فى الصحف مقالات سياسية وهو موظف !

موظف . أى عبد . لا رأى له فى قضية بلده ، ولو لم يكن لهذا الرأى صفة الحزبية !

وأبلغت أننى منفى من الأرض . وقررت أن أستقيل ! وأباها الرجل الأريحى الدكتور طه حسين . وقال : لن تصنعها وأنا هنا فى الوزارة !

قلت : ولكننى لن أخضع لأهواء الوزراء . واجهونى بما يقال عنى ، ثم اصنعوا ما تشاءون . وسأصنع كذلك ما أشاء !

قال : وإذا استقلت فماذا تصنع وأنا أعرف أعباءك الثقال ؟

قلت : أصنع ما يهيأ لى ، فلست من عجزة الديوان !

قال : لن تستطيع أن تصنع شيئا فى هذه الأيام . فالأحكام العرفية تملك أن تنقلك إلى أى مكان ، وأن تلزمك الإقامة فى هذا المكان ، حتى لو استقلت من الحكومة ! فخير لك أن تقيم فيه موظفا ، ولا تقيم فيه منفيا !

قلت : معذرة يا سيدى الدكتور ؛ فإنى أفضل أن أقيم هناك منفيا ! ثم ... ثم ... إننى سأكون بطلا فى عهد الوزارة القادمة ! (ولم لا ؟ ألم تتدهور البطولة عندنا حتى صارت تكتسب بالنقل إلى جهة نائية فى عهد من العهود ، أو بالتخلف عن درجة استثنائية كالزملاء !) .

وقال الرجل :

— أتنفى لى أنك أتيت ما نسب إليك ؟

— قلت : وهل أدرى ما ينسب إلى ؟

— قال : أشياء ، جلست فى باراللواء ، وقلتها لبعض الجالسين والأصدقاء عن بعض الوزراء ! ومعارضات سرية للعهد الحاضر تنفيذا لخطة حزبية معينة

— قلت : لقد اعتدت أن أنشر آرائى ، وأن أوقعها بامضائى . فليس من عادتى أن أثرثر فى المجالس بشىء ! أو أن أعمل فى الخفاء !

— قال : وأنت عندى مصدق . فدع لى الأمر . وسأحدث أزمة من أجلك لو اقتضى الحال ! .

ووفق الرجل بين أريحيته الكريمة وتشدد الوزير . فكلفنى أن أقوم بمهمة تفتيشية فى الصعيد لمدة شهرين اثنين ، أختار فيها من الجهات والمدارس ما أشاء ، وأكتب له تقريراً شاملا عن دراسة اللغة العربية فى المدارس على اختلافها ، وأفصل اقتراحاتى فى إصلاح هذه الدراسة بصفة عامة !

ووجدت فى ذات المهمة ما يغرى ، وفى أريحية الرجل ما يخجل ... فنفذت التكليف .

نفذته متناسيا — بل ناسيا — تلك المهزلة ، مهزلة الاتهام . لقد أخطأ الوزير . أخطأ . فلم أعد أجد فى حزب من هذه الأحزاب ما يستحق عناء الحماسة له والعمل من أجله . كلهم سواء

أولئك الرجال ! رجال الجيـل الماضى . للجميع عقلية واحدة لا تصلح لهذا الجيل -- عقلية أنصاف الحلول   كلهم نشأوا وفى قرارة نفوسهم أن انجلترا دولة لا تقهر ؛ وأن الفقر مرض مستوطن ... وكلهم يؤمن — إن كانت قد بقيت لأحد منهم طاقة الإيمان بشىء — أن الله خلق الدنيا فى ستة أيام !

هؤلاء جميعا لم يعودوا يصلحون لقيادة الجيل . أعصاب منهوكة . وقلوب خاوية من الإيمان الحار بشعبهم وأمتهم . كلهم يستحقون « المعاش » ، كلهم سواء ، لا يستحقون من الجيل الجديد الحماس !

* * *

إلى الاسكندرية ...

فقد انقضت سبع سنوات عجاف لم أغادر فيها حلوان شتاء ولا صيفا ، إلا لهذا « التفتيش » ! ولم أبصر فيها وجه البحر يسفر ، ولم أستمع فيها إلى صوته يجيش ... وكيف ؟ ولم أكن « غنى حرب ! » بل موظفا وصاحب قلم ؟ ! موظفا فى وزارة المعارف . لا فى وزارة التموين ، ولا فى وزارة التجارة ، ولا حتى فى الأشغال أو المواصلات ! . وصاحب قلم للأدب أو السياسة القومية ؛ لا للدعاية الانجليزية والأمريكية   ولا للسياسة الحزبية فأنى لى بوجه البحر فى تلك السنوات العجاف ؟ !

وهبنى كنت أجد المال الذى أجارى به أغنياء الحرب ومأجورى الدعاية أو الحزبية ، فما يحملنى على أن أكون من أهداف طيارات المحور ، ولست ضابطا ولا جنديا فى الجيش المصرى الذى احتمل ضحاياه فى أثناء الحرب ، دون أن يفوز بشرف الحرب !

لقد كان موقف الساسة المصريين حرجا حقا !

فهم لا يعلنون الحرب على المحور — ولهم العـذر — فلم يعلنونها ؟ ليقاوموا احتلالا متوقعا ، وهم فى احتلال واقع ؟ ! لينصروا الديمقراطية ، والديمقراطية تفعل بهم الأفاعيل ؟ ... أم لا يعلنون الحرب ، ومصر تحتمل ويلاتها بلا مقابل ، وتهدد فى النهاية بأنها إذا لم تعلن الحرب فستحرم من مؤتمر الصلح . (ثم تعلنها وتحرم من مؤتمر الصلح أيضا !) .

أم لا تعلن الحرب ، ولا تساهم فيها ؟ ... هناك معاهدة الشرف والاستقلال ، وهناك الشيخوخة الروحية ، وهى أشد « شرفاً » من معاهدة الشرف والاستقلال ! ! !

إنهم رجال الجيل الماضى ! أولئك الذين لا يعرفون متى يحسن اللاعب أن ينسحب من الميدان !

* * *

إلى الاسكندرية ...

فقد انقضت سبع سنوات عجاف لم أغادر فيها حلوان شتاء ولا صيفاً إلا لذلك « التفتيش » السياسى العجيب !

ولكن ما هذا ؟

أهذه محطة القاهرة ؟ أم ذلك يوم الحشر الأكبر ؟ ما بال الناس هكذا يتدافعون بالمناكب ، ولا يعرف حميم حميما ؟ أهذا قطار ؟ أم حمام الثلاثاء ! وإن كنت لا أعرف حمام الثلاثاء . ولعل الدكتور زكى مبارك يعرفه فله قصيدة عن ليلة الثلاثاء . لا بد أنها كتبت هناك !

فلنزاحم ، على شدة ما أكره الزحام !

الحمد لله ! لقد وجدت مكانا ... مكانا للحقيبة فى « طرقة » العربة . فى الممر ... وهل ذلك شىء هين ؟ إن السعيد من يجد لحقيبته مكانا فى هذا الممر . إنه بعد أن يهدأ القطار ويروق ، وينزل المودعون الذين يكظون الفراغ كظاً ، يستطيع أن يتخذ من حقيبته مقعداً ، بينما الآخرون يقفون طول الطريق خفافا أو ثقالا يحملون بعض متاعهم ، ما لم يريحوه على أقدام المسافرين ! ! !

وجلست بعد فترة ووقف الآخرون . وسار القطار ... وفى الزحام الشديد وقعت عيناى على سيدة شابة جميلة واقفة تحمل شيئاً ، شيئاً أثمن من كل ما يحمل المسافرون ... تحمل جنيناً !

وبمقدار ما يثير فى نفسى منظر الشابة الحامل من الأسى ، يثير فى نفسى كذلك الاحترام والإشفاق .

فأما الأسى ، فعلى ذلك الجمال الضائع . كما تخيلت هذه الشابة فى رشاقتها الفاتنة ، ثم فى هذه الكظة التى عيّر بها ابن الرومى — سامحه الله — إحدى المغنيات ! إنه أسى يكمد نفسى ويؤذيها بقدر ما ترتفع فى هذه الشابة درجة الجمال !

وأما الاحترام والإشفاق فلهذه التضحية النبيلة التى تبذلها

الفتاة للحياة — أرادت أم لم ترد . وشعرت أم لم تشعر — التضحية بالجمال — أعز شيء في هـذه الحياة — وبالراحة ، وبالذاتية كلها في النهاية التضحية إلى حد الفناء !

أقول وقعت عيناى على هـذه السيدة الشابة الجميلة تحمل كنزها وكنز الحياة في حرص وإشفاق . وتحركت في نفسى كل هذه المعانى ، فوقفت متنازلا عن مقعدى الخاص — على ما برجلى من ألم وما بأعصابى من تعب — لهذه السيدة المضحية ... فجلست شاكرة .

وفجأة همس في أذنى أحد الواقفين: خسارة ! إنها لا تستحق، إنها من بنات صهيون !

وتفرست في ملامحها فرجحت رأى الزميل — الزميل في الوقوف — وكدت أنا الآخر أندم على ما صنعت لولا نظرة إلى الحمل الثمين !

قلت :

ليت الصهيونيين يعلمون ما ذا يفعلون ! إنهم بموقفهم الإجرامى في قضية فلسطين يكادون يجردون نفوسنا حتى من العطف الإنسانى ، والروح الآدمى على أبناء صهيون ، وبناته الملاعين !

ماذا يكسب أولئك الصهيونيون من عداء العرب ؟ العرب الذين عطفوا عليهم وآووهم — على مدى التاريخ — والعالم كله يسومهم سوء النكال ؟ !

ماذا يكسب أولئك الصهيونيون من خطتهم الحمقاء التى تثير عليهم سبعين مليونا من العرب ، ومائة مليون على الأقل من المسلمين الآخرين في مشارق الأرض ومغاربها ، دون أن تكسبهم صداقة حقيقية من أحد في هذا الكوكب الأرضى — ولا في كواكب السماء — ! فهـذه أمريكا التى تشترى أصواتهم الانتخابية ونفوذهم المالى بتصريحات جوفاء ، لا ترضى بأن تبيح لهم الهجرة إلى بلادها الواسعة الغنية ، بدل هذه التصريحات الجوفاء . وهذه انجلترا التى تحميهم بالمدافع والدبابات لا تشارك في تخفيف محنتهم بإيوائهم في مستعمراتها الواسعة !

لقد كان لهم من صدور العرب الكرام حضن رفيق رحيم في عهود التشريد المديدة ، ففقدوا بحماقتهم في النهاية هـذا الحضن الرفيق الرحيم !

هذا كل ما جنوه من سياستهم الأثيمة الحمقاء .

***

إلى الاسكندرية ...

وها هى ذى مشارفها تبدو . الركاب يتحركون . يتحركون — ولا مؤاخذة — حركة بغلة الشاعر القاهرى الظريف — البهاء زهير — أو بغلة صديقه على الأصح :

لك يا صديق بغـلة ليست تساوى خردلة
تمشى فتحسبها العيو ن على الطريق مشكلة
تهتز وهى مكانها فكأنما هى زلزلة
وتخـال مدبرة إذا ما أقبلت مستعجلة
مقدار خطوتها الطويـلة . حين تسرع : أنملة
أشبهتها بل أشبهـتك كأن بينكما صلة !

***

إلى الاسكندرية ...

فقد أوصيت زميلا كصديق البهاء زهير ! أن يختار لى منزلا هادئاً فاختاره — حفظه الله — على هواه .

أما قصة ذلك المنزل ... فإلى حديث آخر من « لغو الصيف » الذى اخترته في هـذا الأوان بعداً بنفسى وبالقراء عن معارك النقد الحامية ، وعن مضايقة عباد الله المؤلفين ، وكفى الله المؤمنين القتال ! ! !

سيد قطب

من التاريخ الإسلامي :

قضية سمرقند

للأستاذ علي الطنطاوي

(تتمة مانشر في العدد الماضي)

مضى السمرقندي نحو دار الخليفة يتعثر في مشيته ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، تتقد نار الحماسة في نفسه فيخطو ، ثم تعصف بها رياح الشك فيقف ، وكان يطربه الخيال إلى ملوك بلده ، فيتصور تلك الحجب على القصور ، وأولئك الحجاب على الأبواب ، والسيوف المصلتة والرماح المشرعة ، ثم يبصر هذه الدار ... وهذا الذي قالوا إنه أمير المؤمنين ، فيزداد به الشك ... إنه يعرف السلطان الذي يحكم بالبطش ، والرعية التي تطيع بالخوف ، أما سلطان العدل وطاعة الحب ، فشيء لم يعرفه في بلده !

واستقر في نفسه أن الرجل يسخر به ، فعدا وراءه حتى لحقه وقال له :

— ناشدتك الله أيها الرجل ، هل هذه الدار هي دار أمير المؤمنين ؟

— قال : نعم والله إنها لهي داره ... هذه دار الرجل الذي أورثته سيوف قومه تيجان الملوك الأربعة : كسرى وقيصر وفرعون وخاقان ، فكانت هامته أرفع من أن يبلغها تاج منها ، فما سمت إليها إلا (العمامة) تاج العرب ... هذه دار الرجل الذي جبيت إليه ثمرات الأرض ، فكال الذهب كيلا ، وأعطاه لمستحقه باليدين ، ومنح الفقراء الجوهر ، وقسم في المحتاجين الدرر ، وبقي هو وأسرته بغير شيء ... لأن نفسه أكبر من أن يملأها كل ما في الدنيا من ذهب وجوهر ، إنها أكبر من الدنيا ، فلذلك حقرتها وطمحت إلى ما هو أعظم منها : إلى الجنة ! !

وما هجر الحياة ومناعمها ليأوي إلى غار في جبل فيعتزل الناس ، أو إلى مسجد فيناجي الله ، إذن لزاد العباد واحداً ، ولما كان في ذلك حديث يروى ، ولا عجب يؤثر ، ولكنه زهد في الدنيا وهو رجل الدنيا وواجدها ، وإليه أمرها ، وبيده بعد القدر صلاحها وفسادها ، فهو في اللجة ولا يبتل ، وهو (في اللهب ولا يحترق[1]) ، هو زاهد ولكن في رأسه عقل حكيم ، وفي صدره قلب بطل ، وفي فيه لسان أديب ، فهو يدير بعقله هذا الملك الواسع ، بقضائه وماليته وداخليته وخارجيته ، وسلمه وحربه ، وهو القائد وهو المفتي وهو المعلم ... أداره أحسن إدارة وأقومها ، فاستقر الأمن ، ونامت الثورات ، وقعد القائمون بالمعارضة ، وسكت الناقمون على بني أمية ، وتصافى الشيعي والخارجي ، والمضري واليماني ، والأسود والأحمر[2] ، واصطحب في البرية الذئب والحمل[3] ... وهو يواجه بقلبه أحداث الدهر ، فترتد عنه الأحداث ارتداد الموج عن صخر الشاطئ ، وهو يصوغ ببيانه الحكمة العليا أدباً خالداً ...

سمع غداة بويع بالخلافة مكرهاً ، هدة ارتجت منها الأرض ، وكان منصرفاً من دفن أمير المؤمنين سليمان فقال : ما هذا ؟ قالوا : مراكب الخلافة قربت إليك لتركبها ، بالسروج المحلاة بالذهب ، المرصعة بالجوهر ، فقال : مالي ومالها ؟ نحوها عني وقربوا لي بغلتي ، وأمر بها أن تباع ويدخل ثمنها بيت مال المسلمين ، فقربت إليه بغلته فركبها ، وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقال له : تنح عني ، مالي ومالك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين .

ومشى بين الناس ، راكبا على بغلته ، بلا موكب ولا حربة ولا راية ولا طبل . الرجل الذي يحكم الأندلس ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والحجاز ونجداً واليمن وسورية وفلسطين والأردن ولبنان والعراق والعجم وأرمينية والأفغان وبخارى والسند وسمرقند ... مشى ومشى الناس بين يديه حتى دخل المسجد ، فقام على المنبر ، فقال :

أيها الناس : إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلب له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت بيعتي من أعناقكم ، فاختاروا لأنفسكم .

فصاح الناس صيحة واحدة : إننا اخترناك ورضينا بك .

---

(١) هذه الجملة من مأثورات الرافعي رحمه الله .
(٢) كناية عن العرب والعجم (من كناياتهم) .
(٣) أنظر سيرة عمر لابن الجوزي وسيرته لابن عبد الحكم .

ومشى إلى الخضراء ، وما الخضراء ؟ جنة الأرض التى حشر إليها كل ما فى الأرض من كنوز وطرف ، القصر الذى أزرت عظمته بالخورنق والسدير وغمدان والايوان ، فأمر بستورها فأنزلت ، وبسطها ونمارقها فطويت ، وبطرفها وكنوزها فحملت ، وأمر ببيع ذلك كله ووضع ثمنه فى بيت المال ، وأمّ داره هذه .

فقال الناس : إنه رجل صالح ، ولكن الملك له أهل . إن الملك لا يقيمه إلا قوىّ أمين ابن دنيا ...

ظنوه أمّ داره يقبع فيها يسبّح ويهلل ، فإذا به يُجدّ قلمه ويُمدّ قراطيسه ويكتب من فوره بيده ، إلى أقاليم الأرض ، منشوراً فيه الدستور الذى لا يقوم إلا به الملك ، وينفذ الكتب من ساعته . فعلموا أن خليفتهم زاهد فى الدنيا ، ولكنه ابنها وأبوها ...

فعل ذلك كله من الصباح إلى الضحى ، ثم ذهب يقيل ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أى بنىّ أقيل . قال : تقيل ولا تردّ المظالم ؟ قال : أى بنى إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان ، وإنى إذا صليت الظهر رددت المظالم . قال : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ فترك مقيله ، وخرج فبعث مناديه ينادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فانى منصفه من نفسى ومن آل بيتى ومن الناس أجمعين ... ولقد والله فعل أكثر مما قال !

نعم يا أيها الغريب ، هذه دار أمير المؤمنين ، فلا يغررك صغرها وضيقها ، وعطل أبوابها من الزخرف وجدرانها ، وأنه لا حاجب عليها ولا جند ببابها ، فان هذه الدار أكرم من كل قصر حملته على ظهرها هذه الأرض[1] ، فامش إليها ولا تخف !

***

فعاد السمرقندى ، فلما دنا من الدار سمع ضجة ورأى ولدين قد شجّ أحدهما الآخر شجة منكرة ، ورأى الخليفة يخرج بنفسه فيأخذ الولدين ؛ فيراه ، فيسأله ، فيقول : إنى متظلم يا أمير المؤمنين فيقول له : مكانك حتى أعود إليك . ويدخل بالغلامين ويسمع السمرقندى صوت امرأة تصرخ ، « ابنى » فيعلم أنها أم الولد الشجوج ، وتدخل الدار مُرَنّثة . فترى الولد الآخر ، فتقول ابنى.

(١) الدار هى المدرسة السمياطية اليوم وقد قرروا هدمها !!

ويسمع القصة فيعلم أن ابن أمير المؤمنين قد خرج يلعب مع الغلمان فشجه ابن هذه المرأة . وتقول المرأة : ارحموه ، إنه يتيم فقير . ويرق قلب السمرقندى ويشفق على هذه المرأة أن تضرب عنق ابنها أمامها ، وهو طفل لا ذنب له ولا يسأل عن فعلته ، وإذا بأمير المؤمنين يقول لها : أما له من عطاء ؟ فتقول : لا . فيقول : سنكتبه فى الذرية

وتخرج المرأة شاكرة داعية ، ويسمع السمرقندى فاطمة بنت عبد الملك تقول مغضبة : فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى فيقول الخليفة : إنكم أفزعتموه[1]

وخرج الخليفة فدعاه ، فسأله عن حاله ، فشكا إليه قتيبة ، وأنه دخل سمرقند غدراً من غير دعوة إلى الإسلام ولا منابذة ولا إعلان

فقال الخليفة : والله ما أمرنا نبينا بالظلم ولا أجازه لنا ، وأن الله أوجب علينا العدل فى المسلمين وغير المسلمين ، يا غلام ... قلماً وقرطاساً !

فجاءه الغلام بورقة قدر إصبعين ، فكتب عليها أسطراً وختمها وقال له : خذها إلى عامل البلد !

***

ورجع يطوى هذه الشقة مرة ثانية ، وكلما وصل إلى بلد دخل المسجد فوقف فى الصف كتفه إلى كتف أخ له فى الإسلام ، ووجهته وجهتُه ، وفى قلبه إيمانه ، وعلى لسانه تسبيحاته وتكبيراته .. أحس أنه عضو فى هذه الجمعية الكبرى ، وأدرك عظمة هذا الدين وحلاوته ، إذ يؤم المصلين واحد منهم فلا قساوسة ولا كهان ، ويصلون فى كل أرض فلا معابد ولا تماثيل ، ويقفون جميعاً صفاً واحداً فلا كبير ولا صغير ، ولا مأمور ولا أمير ، وشعر بعظم هذه الدائرة التى تطيف من حول الكعبة تمر على السهل والحزن ، والعامر والغامر ، والمدينة والقرية ، يقوم فيها عباد لله ، هم رهبان فى الليل وجنّ فى النهار ، خاشعة قلوبهم وأبصارهم وجوارحهم ، يقفون أمام رب العالمين ، فلا يبالون الدنيا كلها بلذائذها وآلامها وخيرها وشرها !

(١) سيرة عمر لابن الجوزى طبع محب الدين الخطيب سنة ١٣٣١ ص ١٧٦ .

ولم تثقل عليه هذه المرة سمة دنيا الإسلام لأنها دنياه ، ولم يجد لهذه السفرة مشقة ولا تعباً ، لأنه كان كلما انقضت الصلاة وجد فى المسجد (فى كل بلد يمر عليه) من يسأله عن حاله ، فإذا علم أنه غريب أنزله داره ، وقدم له قراه ، ومنحه عونه ، فكان يقابل بين مجيئه كافراً وبين عودته مسلماً ، وكيف كان يشعر بطول الشقة ، وبعد الطريق ، وألم الغربة ، فصار يتقلب فى النعيم ، ويحمل على أكف الإخوان ، فيدرك سر المسجد وجمال هذا الدين!

* * *

ووصل إلى المعبد ، ولكنها لم ترعه هـذه المرة تماثيله ولا مصابيحه ، ولم يمتلئ قلبه فرقاً من أسراره وخفاياه ، فقد أضاء له الإسلام ظلمة الحياة فرأى حقائقها من أوهامها ، وعلم أن هذه الأصنام التى نحتوها بأيديهم وسموها آلهة ، لا تنفع ولا تضر ، ولا تمنع عن نفسها ضربة الفأس ولا لهب النار ، ولـكنه كتم إسلامه ، وقرع الباب قرعة السر ، ففتح له ورآه الـكهنة بعد أن حسبوا أنهم لن يروه أبداً ، ووصف لهم ما رأى ، فـكادت أعينهم تخرج من محاجرهم دهشة ... وأيقنوا أن قد جاءهم الفرج ، وأمروه فحمل الـكتاب مختوماً إلى العامل ، فإذا فيه أمر الخليفة بأن ينصب قاض يحتكم إليه كهنة سمرقند وقتيبة ، فما قضى به نفذ قضاؤه !

وأطاع العامل ونصب لهم قاضياً جُميع بن حاضر الباجى ، وعين موعد المحاكمة

* * *

ولما عاد فأخبر الـكاهن الأكبر ، أظلم وجهه بعد إشراقه ، كما تربّدُ فى سماء النهار الصحو السحب السود ، وخبا ضياء الأمل الذى بدا له فحسبه فجراً صادقاً فإذا هو برق خلّب .. وأيقن أن هذه المحاكمة فصل جديد من كتاب غدر المسلمين ...

... وجاء اليوم الموعود ، واحتشد أهل سمرقند من كل قاص منها ودان ، وجاء الـكهنة الذين كانوا محتجبين لا يراهم من أحد ، وجاء القائد الفاتح قتيبة ، وكانت المحـكمة فى المسـجد فقعدوا ينتظرون القاضى

ولم يكن الـكهنة يأملون فى شىء ... وفيم يأملون ؟ فى أن يحكم لهم القاضى المسلم بطرد المسلمين من سمرقند ؟ يحكم لهم هم المغلوبين على أمرهم ، المخالفين للقاضى فى دينه ، الذين لم يبق لهم حول ولا طول ؟ وعلى من يحكم ؟ على القائد المظفر الفاتح الذى لم يطأ أرض المشرق قائد أعظم منه ، ولا أكثر ظفراً ، ولا أعظم فتحاً ، اسكندر العرب : قتيبة !

كانت القلوب تخفق ارتقاباً لأعجب محاكمة سمعت بها أذنا التاريخ ، وكانت الأبصار شاخصة إلى باب المسجد الذى يدخل منه القاضى الفرد الذى وضعت فى عنقه أعظم أمانة وضعت فى عنق قاض ، والذى ألقى بين حجرى الرحى ، فها هنا مصلحة أمته ، وسيادة دولته ، والبلد العظيم الذى خفقت فوقه راية الإسلام وامتلـكه أهله ، وهناك الحق والشرف . وإنها لمزلة أقدام القضاة وإنها لمحنة الضمائر ...

وكان صاحبنا السمرقندى يقرأ الشك والارتياب فى وجوه أهل بلده وفى أوجه الـكهنة ، كما يقرأ المرء فى صحيفة منشورة أمامه . أما هو ، وأما المسلمون فلم يكونوا يشـكون ، ولم تـكن تداخلهم ريبة فى أن الحق والشرف فوق مصلحة الوطن ، وما الوطن ؟ إن وطن المسلم دينه فحيثما صاح المؤذن : الله أكبر ، فثمة وطنه ... وأن جهاده للحق ، فإن جاء الحق زهق معه كل باطل ولو كان فيه نفع الأمة ، وكان فيه الغنم الأكبر .

ونظروا فإذا رجل له هيئة الأعراب ، هزيل ضئيل الجسم شاحب اللون ، قد لاث على رأسه عمامة له ، ووراءه غلام ، فجاء حتى قعد على الأرض محتبياً ، وقام غلامه على رأسه . أهذا هو الرجل الذى أتى ليحكم على قتيبة العظيم وعلى أميره وعلى مصلحة دولته ؟ أهذا هو قاضى المسلمين ؟ وانطفأت آخر شعاعة من الأمل فى نفوس الـكهنة . ونادى الغلام ، باسم قتيبة بن مسلم ، هكذا بلا إمارة ولا لقب ، فجاء حتى جلس بين يديه ، ونادى باسم كبير الـكهنة فأجلسه إلى جانبه .

وابتدأت المحاكمة ...

* * *

وتكلم القاضى فإذا صوته يخرج خافتا ضعيفا فقال للكاهن :

— ما تقول ؟

— قال : إن القائد المبجل قتيبة بن مسلم قد دخل بلدنا غدراً من غير منابذة ولا دعوة إلى الإسلام :

— قال القاضى لقتيبة : ما تقول ؟

— قال : أصلح الله القاضى ، إن للحرب خدعة ، وهذا بلد

عظيم قد أنقذه الله بنا من الكفر ، وأورثه المسلمين .

— قال : أدعوت أهله إلى الإسلام ، ثم إلى الجزية ، ثم إلى القتال ؟

— قال : لا .

— قال : إنك قد أقررت ، وأن الله ما نصر هذه الأمة إلا باتباع الدين واجتناب الغدر . وإنا والله ما خرجنا من بيوتنا إلا جهادا فى سبيل الله . ما خرجنا لنملك الأرض ولا لنعلو فيها بغير الحق . حكمت بأن يخرج المسلمون من البلد ، ويردوه إلى أهله ، ثم يدعوهم وينابذوهم ويعلنوا الحرب عليهم (١) .

ورأى الكهنة وأهل سمرقند وسمعوا ، ولكنهم كذبوا عيونهم وآذانهم وظنوا أنهم فى حلم ، ولبثوا شاخصين ، حتى أن أكثرهم لم يلحظ أن المحاكمة قد انتهت وأن القاضى والقائد قد انصرفا ، وجعل صاحبنا السمرقندى المسلم ينظر فى وجه الكاهن الأكبر ، فيحس أن نور الحق قد أشرق على قلبه الذى رققته العزلة والتأمل ، وكان الكاهن ينظر إلى عالمه الذى طالما أحبه وآثره فيراه عالما ضيقا مقفراً ، وينظر إلى دنيا الإسلام فإذا هى خصبة واسعة مزهرة بالخير والعدل والجمال ، وما عالمه ؟ فجوة معتمة وسط الصخر الأصم لا يبلغها شعاع الشمس ولا ضياء القمر ولا زهر الربيع ولا جمال المجد ولا جلال الإيمان ...

وسطع النور فى قلبه فرأى أن ديانته كهذا المعبد ، فأين هذا المعبد من معبد الإسلام ، وهو الأرض الطهور التى تمتد حتى تصل إلى بلاد ما سمع بها ... أين ضيقه من سعتها ، أين ظلمته من نورها ، أين سقفه الواطى من سمائها العالية ... ؟ إنه ألحد فى دينه وخرج من المعبد وقد حرم عليه الخروج منه فلن يعود إليه أبداً . أيعود الجنين إلى بطن أمه بعدما رأى بياض النهار ورحب السكون ؟ أيعبد مرة ثانية تلك الآلهة ذوات الوجه البشع المخيف بعد ما عرف رب الأرباب وخالق كل شىء ...

لا . لقد ماتت ديانة المعبد ومرت أيامها ، فهل لما مر مآب ، هل يعود أمس الغابر ؟

وإنه لفى تفكيره ، وإذا الجو يموج بصليل الأبواق ويرتجف من أرعاد الطبول ، ونظر فإذا الرايات تلوح على حواشى الأفق القريب فسأل : ما هذا ؟ قالوا : لقد نفذ الحكم وانسحب الجيش .

هذا الجيش الذى لم يقف فى وجهه شىء من مدينة يثرب إلى سمرقند ، والذى اكتسح جيوش كسرى وقيصر وخاقان ردته كلمة من شيخ هزيل خافت الصوت ، ليس معه إلا غلام بعد محاكمة لم تستمر إلا دقائق ، ولكنه سينذر وسيعود إلى القتال ، أفتقوى سمرقند على ما عجزت عنه الممالك كلها ؟ أترد صخور هذا المعبد سيل الحق الدافق ، وتأكل ظلمته نور الإسلام ؟

لا . لقد قضى الله أن يمحو الفجر سدفة الليل . لقد أطل على العالم يوم جديد ، فلن نتوارى من نور هذا اليوم فى ظلمة المعبد .

وأقبل يسأل أصحابه : ماذا تقولون ؟

فيقول السمرقندى المسلم : أما أنا فلقد شهدت أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فيقول الكاهن : وأنا أشهد .

وتتزلزل سمرقند بالتكبير ... ويعود الجيش المسلم إلى البلد المسلم ، لم يبق حاكم ولا محكوم ، صار الجميع إخواناً فى الله !

على الطنطاوى

(١) كذلك ، لا كما صنعت لجنة التحقيق التى اختاروا رجالها من أكابر قضاة انكلترا وأميركا ، وائتمنوها على شرف القضاء السكسونى الذى كان الجهلة منا يضربون بعدله الأمثال ، وبعثوها تدور البلاد ، تسأل كل رائح وغاد ، هل فلسطين حق لأصحابها الذين يسكنونها ، أم هى حق لجماعة اللصوص الذين جاؤوا يسرقون البيوت من أصحابها ، فدارت حتى دير بها ، وصعدت إلى السماء وتزلت إلى الأرض ، وبحثت وتقبت فظهر لها أن الحق مع اللص ، فحكمت بطرد صاحب الدار منها ليدخلها اللص ويقيم فيها !

شريعة الكمال والخلود

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

تمهيد :

فكرت اللجنة القانونية والثقافية بالجامعة العربية فى عدة مشروعات ثقافية وقانونية ، يعود نفعها الجم وخيرها العظيم على الأمم العربية والإسلامية ، بل إن هذا الخير يتجاوز هذه الأمم إلى سائر أمم العالم ، ومنها أمم أوربة التى ضربت بسهم وافر فى العلوم الإنسانية والمدنية والثقافة القانونية .

وكان من خير تلك المشروعات وأسدها وأعظمها نفعاً وأبعدها أثراً ما أشارت به من إنشاء معهد للفقه الإسلامى يكون تابعاً للجامعة العربية به إحياء تالد مجده ، وبعث الدفين من كنوزه الثمينة وجواهره النفيسة ، وفيه ينشأ الباحثون وتغرس فيهم ملكة الفقه والتشريع ، والبحث والتحليل ، فيخرجون علماء نافعين ، وفقهاء باحثين ، يجمعون وينظمون ويحسنون العرض والتبويب ، ثم لا يلبثون أن يكونوا رجال ترجيح واجتهاد ، وبذلك يحيون عهد سلافهم الأولين وأئمتهم المجتهدين .

فكرة — لعمر الحق — ما أجلّ خطرها ، وما أعظم أثرها ، ثلجت لها نفوس المؤمنين ، وبهجت بها أفئدة المصلحين — قوّى الله رجال الجامعة وأمدهم بروح منه ، حتى يحققوا هذه الأمنية ، فتنتصر الشريعة الإسلامية ، وتتبوأ مكانها الرفيع بين شرائع الأمم الأخرى .

وإنهم بذلك العمل الجليل لجديرون

وقد رأيت — بهذه المناسبة — أن أبين — فيما يأتى — كال هذه الشريعة وخلودها ، وأن أدفع ما وجه إليها من شبهات :

وفاء الشريعة الإسلامية بحاجات الأمم فى كل عصر :

الشريعة الإسلامية أعدل الشرائع وأحكمها وأقواها أركاناً وأرسخها دعائم ، وأبقاها على تناسخ القرون والأحقاب ، فهى باقية ما بقيت الحياة الدنيا ، لا مبدل لها من دون الله ولا ناسخ ، وهى يسر ورحمة ، وحكمة ونعمة

أساسها رعاية المصالح ودرء المفاسد ، وغايتها إسعاد البشر فى معاشهم ومعادهم . ولا غرو فهى قبس من نور هداية الله ، ومشتقة من سَنَا وحيه ، ووذيلة[1] مجلوة انعكست فيها سمات الرسالة وإرشاد النبوة ، ثم هى إلى ذلك مضمار لتصاول قرائح المجتهدين من العلماء ، وميدان لذوى الأفكار الحرة المخلصة لله وللحق ، استهدوا بهديه ، وسعوا وفى يدهم مصباح هدايته ، فعرفوا من كتاب الله وسنة رسوله وجوه المصالح العامة والحكم التشريعية السامية ، وقواعد التشريع وأصوله العادلة ، وبها حكموا على الحادثات الجزئية والمسائل الفرعية ، فاستقام لهم من ذلك كله تشريع قيم ، واستوى منه قانون سماوى ، سداه جلب المصالح ، ولحمته درء المفاسد — انتظم جميع ما يحتاج إليه الأفراد والأمم من عبادات ومعاملات ، وأحكام مدنية وتجارية ، وشئون جنائية ، وأحكام سياسية واجتماعية : فقد نظم علاقة العبد بربه ، وحدد علاقة الفرد بأسرته ومجتمعه ، وبين علاقة المجتمع بالفرد ، ووضع أساس النظم والعلاقات بين الأمم بعضها وبعض

ورائده فى ذلك كله تحقيق العدل والمساواة بين الناس كافة ، لا فرق بين عربى وعجمى ، ولا بين أسود وأبيض ، ولا بين ملك وسوقة ، ولا بين ضعيف وقوى ، لا مقصد له إلا إقرار الحق والمعدلة — ألا ترى إلى قوله جل شأنه : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن[2] قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »

وورد فى النهاية فى غريب الحديث : « لا قُدِّست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها » أى لا طهرت . ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« القسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا[3] »

---

(١) الوذيلة — المرآة

(٢) شنآن — بغض .

(٣) الطرق الحكمية ص ٢١٦

وفسر الميزان بالعدل فى قوله تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » ، وفى قوله : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ».

هذا هو دستور التشريع الإسلامى . العدل مبدؤه وغايته ، والحق قوامه وشرعته — سنّ ذلك سيد الخليقة ومصلح البشر خاتم الأنبياء والمرسلين ، ثم سار على سنته خلفاؤه الراشدون ، فقد جاء فى كتاب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : وآسِ بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا ييأس الضعيف من عدلك ، ولا يطمع الشريف فى حيفك [1] » .

فليت شعرى — إذا كانت شريعة الإسلام قد بلغت المدى فى الحرص على العدالة والمساواة ، ووصلت الغاية فى الاستمساك بالحق والاعتصام بحبله المتين ، ولها من الأصول الراقية والقواعد السليمة والمبادىء السامية ما يعتمد عليه فى وضع الأحكام عند عدم النص — ما الذى حدا الولاة على [2] تنكب أحكامها ، والحكام أن يبحثوا عن قانون غير قانونها حتى يجروا فى عصور مختلفة ، وفى عصرنا هذا على مخالفة الشرع ؟ !

زعموا أن لهم فى ذلك حجتين — نقول ذلك فرضاً وتوسعا وإلا فهما فى الحقيقة وهمان أو شبهتان داحضتان :

حجتهم أو شبهتهم الأولى :

توهموا أن الشريعة ناقصة لا تقوم بمصالح الناس ولا بسياسة الأمم وحاجاتها ، ولا تساير تطور الزمان ، ولا تفى بمختلف الأحوال وما جدّ من ضروب المعاملات — فطوّعت لهم أنفسهم تعدى حدود الله ومخالفته فى كثير من أحكامه وأوامره ، وهو خطأ عظيم وضلال مبين ، فإن الله تعالى أوجب على الحكام القيام بالقسط فى كل شىء مع التزام ما بينه من كليات الشريعة وأصولها ومبادئها — فحكمه كما يقول ابن القيم دائر مع الحق ، والحق دائر مع حكمه أين كان ، وبأى دليل صحيح كان . فأى تشريع يقر العدل ويجرى مع الحق هو من الشريعة غير خارج عن نطاقها .

على أن سعة أصول الشريعة الإسلامية وتعددها ، وسمو قواعدها ، ورجوع علمائها إلى الإجماع والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والاستصحاب وسد الذرائع عند الاجتهاد واستنباط الأحكام ، ثم بحوث المجتهدين فى الفقه الإسلامى وتوسعهم فى البحث ، وما أمرنا به من الاجتهاد عند عدم النص ، ومن ترك التقليد — كل أولئك يهدم هذه الشبهة من أساسها ، فلا يكون هناك نقص فى الشريعة ، وإنما النقص فينا وراجع إلينا — معشر القادرين على الاجتهاد — لأننا فرطنا فى أداء هذا الواجب .

وإن فى الشريعة الإسلامية من بحوث المجتهدين السالفين فى المسائل الدينية والجنائية والمعاملات ما يدحض هذه الشبهة .

فمن ذلك أنهم أجازوا الحبس فى التهم والضرب فيها — غير أنهم قسموا المدعى عليه فى دعوى الجناية والأفعال المحرمة كدعوى القتل وقطع الطريق والسرقة ثلاثة أقسام : فإن المتهم إما أن يكون بريئاً ليس من أهل تلك التهمة ، أو فاجراً من أهلها ، أو مجهول الحال .

فإن كان بريئاً لقرائن شاهدة لم تجز عقوبته اتفاقاً . وإن كان مجهول الحال لا يعرف ببر ولا فجور — فهذا يحبس حتى تنكشف حاله عند عامة علماء الإسلام .

وإن كان معروفاً بالفجور فحبسه أولى من حبس المجهول ، ويسوغ ضرب هذا النوع من المتهمين عند كثير من العلماء ، وقيل لا يضرب المتهم [1] .

أضف إلى ذلك ما حفلت به كتب الفقه من تعدد آراء الفقهاء واختلافهم فى المسائل الاجتهادية حتى فى العبادات ، مما يدل على خصب الشريعة الإسلامية وتقبلها لاختلاف الرأى فيما يصح فيه الاجتهاد .

فهل الشريعة الحرة التى فيها رُغْب وسعة ، والتى تجود بمثل هذه الآراء ، ويترعرع فى أحضانها وفى ظل مبادئها وقواعدها وأصولها أئمة الاجتهاد وأعلام الفقه والتشريع — ترمى بالنقص ، وهى تصلح أن تكون مرجعاً للحكام يأخذون منها ما يناسب الأحوال فى كل عصر ومكان ! !

ومما يُدحض أيضاً شبهة نقص الشريعة اتساع باب التعزير والعقوبات فيها : فإن المعاصى ثلاثة أنواع : نوع فيه حد ولا كفارة

(١) مفتاح السنة ص ١٣٠ — نقله عن سنن الدارقطنى .
(٢) فى الأساس : حدوته على كذا بعثته .

(١) راجع فى ذلك الطرق الحكمية لابن القيم .

الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن . . .

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للاستاذ محمود الخفيف

— ٢٠ —

الزواج والصدمة الأولى :

وفى فبراير سنة ١٦٤٤ أعاد ملتن طبع الكتيب ورتبه . فقد عاب الناس طبعته الأولى ، وقدم ملتن لطبعته الثانية بمقدمة فزع فيها إلى البرلمان أن يؤيد آراءه فيصدر بها قانونا مدنياً للطلاق ، وإلى مجمع البرسبتيرز أن ينظر فيما يقول نظرة العطف فيسدى إلى المسيحية صنيعاً يبقى على الدهر ... ولا يفوته إذ يلجأ إلى البرلمان أن يشير إلى رسالة انجلترة فى هذا العالم ، فلئن اعتنقت انجلترة ما يذهب إليه من رأى ذاع هذا الرأى حتى يملأ الدنيا ، ويهيب بالنواب قائلا بعد أن يسرد الأمثلة على سبق انجلترة فى العلم والدين « لا تدعوا إنجلترة تنسى سوابقها فى تعليم الأمم كيف تعيش » ، ولا يفوته كذلك أن يلجأ إلى الاسبتيريز أن يمتدح ما اجتمع فى مجلسهم من تقوى وعلم وحصافة .

كانت الفكرة الأساسية فى كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » هى أن الزواج والحب يجب أن يكون أساسهما التوافق والانسجام العقلى والروحى بين المرأة والرجل ؛ فاذا لم يتحقق هذا التوافق فى الشعور والفكر بطل الزواج ، وكان الطلاق من حق الرجل متى طلبه .

وللدفاع عن هذه الفكرة الموجزة بسط ملتن القول فنظر فى الزواج قديماً وحديثاً ، واستعرض آراء الأقدمين ، وآراء آباء الكنيسة الأولين ، وراجع ما جاء فى الإنجيل ليأتى بما يؤيد رأيه ، ثم عمد إلى المنطق بعد الدليل النقلى فدافع عن رأيه فى قوة وإيمان ، وأتى بطائفة من الآراء استقر بعضها فى نفسه

فيه كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف ؛ ونوع فيه كفارة ولا حد فيه كالقربان فى الإحرام وفى نهار رمضان ؛ ونوع لا كفارة فيه ولا حد كالنظر إلى الأجنبية واليمين الغموس عند الإمامين أبى حنيفة وأحمد .

فالنوع الأول لا تعزير فيه لوجوب الحد ، وفى الثانى قولان للفقهاء — أما الثالث ففيه التعزير وجوبا عند الأكثرين ، وجوازاً عند الشافعى .

والتعزير يختلف باختلاف الجرائم ، وبحسب حال المذنب نفسه ، ولذلك قد يكون بالتوبيخ والزجر بالكلام ، ومنه ما يكون بالحبس أو بالضرب أو بالنفى عن الوطن ، وقد يكون بالقتل . وللفقهاء أقوال أربعة فى صفة التعزير وقدره ، وقد بسطنا القول فى ذلك فى العدد ٦٤٨ من الرسالة . ومن هذه الأقوال أن التعزير موكول إلى اجتهاد ولى الأمر يقدره وَفْق المصلحة وعلى حسب الجريمة .

وبعد فماذا ترى فيما سقته لك من النصوص والمذاهب والآراء الفقهية فى العقوبات التى تدخل فى باب التعزير ، وفى غير العقوبات من الأحكام الاجتهادية الأخرى ؟

ولا ريب أن كل منصف يحكم بكمال الشريعة وسعتها ، وأنه لا عذر لمن يترك شريعة الإسلام إلى غيرها من القوانين .

وبطلت بذلك دعوى الجاهلين أو الخراصين وهى أن الشريعة لا تستطيع أن تمد الحاكمين فى العصر الحاضر — وبخاصة فى القانون الجنائى — بالأحكام الصالحة ، فإن للمشرعين المحدثين مجالا أى مجال فى الرجوع إلى آراء أئمة الإسلام واختيار الصالح لنا منها ، أو فى استنباط أحكام جديدة فيما يدخل فى باب التعزير على أن نحافظ على أصول شريعتنا ونراعى مقاصدها ونتزل على الحكم من نصوصها ، وبذلك تستطيع الأقطار الإسلامية أن تضع قانونها الجنائى أو أى قانون آخر على أساس من الشرع قويم .

(للبحث بقية) حسن أحمد الخطيب

حتى ظهر كجانب من فلسفته فى قصيدته الكبرى فيما بعد .

اشتدت ثورة ملتن على الجسد وفتنته وما فى سيطرته من شر وضلال ؛ ولكنه أكد أن قهره فى استطاعة أولى العزم من العقلاء الذين يغلبون الحكمة على العاطفة ، وما يسلم ملتن بغلبة الجسد أبداً وتسلطه على العقل والحكمة وهو الذى تسلط جسده مرة فى فورة من فوراته على حكمته الوثيقة وعزمه الطويل ، وإنما يعبر بهذا الإنكار عن ثورته الكامنة فى نفسه على الجسد وقد بقى هذا المعنى فى حسه حتى كان حديث غواية آدم فى « الفردوس المفقود » وما كان لسحر المرأة من أثر فى هذه الغواية .

وساق ملتن هذا المعنى إلى معنى آخر ، وذلك أن الشر هو أن تتغلب العاطفة على العقل وأن يُضلَّ الوجدان البصيرة ، أما العاطفة فى ذاتها والوجدان فى ذاته فلا ضير منهما ، ولا يحق اعتراض سبيلهما إلا أن يطغيا على الحكمة ؛ فان لم يفعلا فليتخذا مجراهما طليقين ... ، وما كانت قصة هبوط آدم من الجنة إلا قصة تسلط العاطفة على العقل .

ويطبق ملتن ذلك على الزواج فيقول إنه إذا لم يتم التوافق العاطفى بين الزوجين ، فان الاتصال الجسدى ضرب من انحطاط البهيمية حتى مع الزواج ؛ وعلى ذلك فان الاحساس بفقدان الميل بين الزوجين أو بالقصور العقلى من أحدهما تلقاء الآخر ، أو بتنافر العقلين ، تلك العلل التى يكون مردها إلى أسباب فى طبيعة النفس لا يمكن تغييرها ، إنما هى مبررات للطلاق أوجه من الجود وأحق ، فالطلاق أمر يرد من حيث مشروعيته إلى ضمير الانسان ، ولا وجه عنده لأن يخضع الانسان لعبودية قانون الكنيسة الذى يجعل الإثم المادى أعظم من الإثم العقلى والروحى وأشد خطراً ...

ولا يسع من يقرأ هذا الكتيب إلا العطف على الشاعر إذ يعبر عن مقدار ما يحيق بالنفس من عذاب إذا منى المرء بالفشل فى زواجه ولم يتح له ما يتطلع إليه من وراء الزواج من « حديث طيب ملؤه السرور بين الرجل والمرأة يريحه وينعش نفسه بعد ما ذاقه من مساوىء العزلة » وما أشد ألمه وأقسى خيبته « إذا كان نصيبه زوجة خرساء لا روح لها فانه يظل أكثر عزلة من ذى قبل ، ويبقى فى تحرق وشوق أشد على طاقة المرء من التحرق الجسدى وأدعى منه إلى التفكير فيه والاهتمام به » ، ويصف الشاعر هذا التحرق وصفاً شعرياً بقوله « أن الماء الغزير لن يطفئه لا ولا الفيض يغرقه » ، وفى التطلع إلى مثل تلك السعادة الزوجية وإلى مثل ذلك الحب الصحيح « يقضى المرء أيام شبابه وليس فيها ما يلام عليه » ، ويجهل بذلك كثيراً مما كان خليقاً أن يرشده متى شاء أن يختار زوجة فيدع هذه ويأخذ تلك عن بينة كما يفعل عند الزواج من قضوا صدر شبابهم فيما لا يخلو من اللوم ثم إذا به يجد نفسه « مقيداً قيداً وثيقاً إلى من لا تجاوب بينها وبينه ولا توائم بين طبعها وطبعه ، أو كما يحدث غالباً إلى صورة من الطين تطلع من قبل ليكون شريكها فى اجتماع حلو ملؤه الفرح ، ويجد فى النهاية أن قيده لا انعتاق منه ؛ ومثل هذا حتى لو كان أقوى مسيحى فانه لامناص على أهبة أن ييأس من الفضيلة ويقنط من رحمة الله ، وهذا بلا ريب سبب ذلك الفشل ، وذلك اليأس الحزين الذى نراه فى طائفة كثيرة ممن يتزوجون » ،

ويصور ملتن بخيال الشاعر مقدار ما يكون بين زوجين فى مثل تلك الحالة من خلاف بقوله : « حين تتنافر أفكارهما وروحاهما وتتباعدان كلاهما عن الآخر كبعد ما بين الجنة والجحيم » .

ويتساءل ملتن كيف يتسنى الاختلاط الجسدى الوثيق بين زوجين يكره أحدهما الآخر كرهاً شديداً فعالا ، ويود لو يعتزله اعتزالا ثم هو يعيش معه أبداً ؟ » ؛ وينزه ملتن الله عن أن يكون ذلك قصده من الزواج فيقول : « هل فتح الله لنا ذلك الباب الذى يكون منه الخطر والمباغتة ، باب الزواج ليغلقه من دوننا كما يغلق باب الموت فلا تراجع ولا أوبة ؟ » ، ويعود إلى تصوير ما يؤول إليه مثل ذلك الزواج الفاشل فيقول « لا بد أن يفضى ما لم تقع معجزة من معجزات الصبر فى كلا الجانبين ، لا إلى ألم مرير ، وحنق شديد فحسب ، وهما مما يوبق الأذعان لله ، بل إلى استهتار يائس فاجر ، إذ يجد المرء نفسه فى غير ذنب من جانبه قد جرته نوبة من الخداع إلى فخ من نخاخ الشقاء » .

وماذا عسى أن يصنع من منى بمثل هذا الجد العاثر ؟... أيتسلل إلى سرير جاره كما يتبع عادة فى مثل هذه الخيبة ؟ أم

يدع حياته النافعة تذهب هباء فيما لا يجدى ؟ كلا ؛ إن الأقرب إلى الرجولة أن يقضى على شقائه بالطلاق ، فانه إن بقى على ما هو عليه ولم يستطع أن يحسب جلب على نفسه جديداً من الضر ، ولذلك فان من يعمل على فصم تلك العروة إنما هو ذلك الذى يعلى قدر الحياة الزوجية ولا يقبل أن يشينها .

ويرى من يقرأ كتيبه هذا أن الناحية العاطفية أقوى فيه من ناحية المنطق ، ومرد ذلك إلى أن الشاعر إنما يصف ما عانى من ألم نتيجة لما رزئ به من خيبة ، فهو يتحدث حديث الخبير ، كما أن حديثه هو إلى الشكوى أقرب منه إلى الدرس وفى ذلك سحره وقوته .

ولئن أبت عليه كبرياؤه أن يشير إلى ذلك ، فان من يقرأ عبارانه وليس يعلم قضية زواجه خليق أن يحس تلقاء ما تزخر به من حياة وحرارة أنها متنفس نفس متألمة ، وشكاة قلب معذب . وكذلك ينم عنه فى كتيبه هذا تلمسه العلل لمثل ما وقع فيه من خطأ ، فكل امرئ عرضة لأن تخدعه المظاهر فتجره إلى ما لا يحب « وإن أكثر الناس عقلا وأقواهم تمكناً من أزمة نفوسهم هم أقل الناس تجربة فى مثل هذه الأمور وأجدرهم ألا يعرفوا أن ما تقع عليه أعينهم فى عذراء من صمت خجول إنما يخفى وراءه ذلك الجمود وذلك الكسل الطبيعى الذى لا يصلح قط لحوار » وتكاد تلخص هذه العبارة قصة زواج ملتن بمارى بوول فانه كما ذكرنا لم يك يعرفها من قبل ورأى فى صمتها وقد مال إليها عذراء فحسب ...

ومما يتعلل به ملتن من طرف خفى إشارته إلى عقيدة القدر المحتوم فهو يؤمن بها اليوم وإن أنكرها غداً ؛ فلن يفر المرء مما قدر عليه وينطبق ذلك الزواج بالضرورة كما ينطبق على غيره .

ويجد ملتن فى هذه القضية فرصة لتجديد طعنه على القساوسة فيقول إن ما يدعيه البابا ورجال الدين من اختصاص فى أمور الزواج إنما يقوم على الاغتصاب ، فان الزواج والطلاق من اختصاص رب الأسرة كما قضى بذلك الله ، وكما تقضى طبيعة الأشياء وكما ارتضى المسيح ، ولكن بابوات روما اغتصبوا ذلك الاختصاص « وقد رأوا ما يصيبون من مغانم ومن سلطة تفوق سلطة الأمراء أنفسهم من وراء قضائهم فى هذه الأمور وإبرامها »

وينتهي ملتن إلى قاعدة سوف تنمو فى ذهنه ويتسع مداها فى فكره ومؤداها أن لا قانون يتقيد به الرجل الحكيم .

ويبين ملتن مبلغ ما يسديه المشرعون من خير إلى الانسانية إذا أخذوا بآرائه فى الطلاق . فيقول : « إنهم بذلك يرفعون كثيرين ممن لاحول لهم من المسيحيين من أعماق الأسى والحزن حيث لا قبل لهم قط بأداء أية خدمة لله ولا لأحد من عباده ، ويخلصون كثيرين من نفوذ الطوائف المظلمة المضطربة ، وينقذون كثيرين من الاباحية البهيمية الجامحة وكثيرين من الشقاء المؤيس ويعيدون الانسان إلى كرامته الصحيحة وإلى حقه الطبيعى ؛ ويعودون بالزواج من وضعه الحالى كفخ من الفخاخ ومسألة من مسائل الحظ يأتى منها الخطر إلى حالته المرجوة إذ يكون المرفأ الأمين والملجأ الاجتماعى السعيد .

وفى يوليو سنة ١٦٤٤ نشر ملتن مقالا مطولا جعل عنوانه « رأى مارتن بوسر فى الطلاق » ؛ وورد بهذا المقال على مخالفى آرائه التى تضمنها كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » ؛ وقد أخذ هذا الكتيب يثير عليه سخط البرسبتيريتز حتى أنهم شددوا عليه النكير فى كنائسهم ، ووضع مجمع وستنستر إسم كتيبه فى قائمة الكتب التى لا يصح أن تقرأ واعتبر مؤلفه من الخوارج أو « المستقلين » ؛ وطلبوا إلى نقابة الطابعين أن ينظروا فى أمره ليلقى جزاء طبعه كتيبه بغير تصريح مخالفاً بذلك قانون الطبع ؛ ولكن التجاءهم إلى قانون الطبع ورغبتهم فى مصادرة كتيبه لم يجدهم شيئاً فقد أوشكت أن تقع مقاليد السلطة فى إنجلترة فى يد كرومويل وأحس الناس أن فجر الحرية يوشك أن يهل على البلاد نوره .

وستتسع مسافة الخلف بينه وبين البرسبتيريتز فيكون هذا الخلف هو الصدمة الثانية لنفسه بعد الصدمة الأولى وهى فشله فى زواجه ؛ ويرى بعض المؤرخين أن غضب البرسبتيريتز عليه ، ونعتهم إياه بنعوت سوف نذكرها فى حينها كان آلم وقعاً فى نفسه من هجران زوجته إياه ...

(يتبع) **الخفيف**

تأثير الأدب العـــربي في الأدب الأوربي

للاستاذ عبد القادر على الجاعوني

المقدمة :

فى هذا العصر الذى تجتاح فيه مدنية الغرب الأقطار العربية فتنقل إليها علومها وآدابها ، يحسن بنا أن نلق نظرة إلى الوراء ، لنرى كيفية تمثيل الآداب العربية لهذا الدور نفسه فى عصور مضت ، وكيف أن احتكاك العرب بالغربيين كان له أثر ظاهر فى آدابهم .

ومن البديهى أن يكون التأثير ضئيلا فى منطقة الآداب ، وأن يكون بارزاً ملموساً فى منطقة العلوم ، لأن الأمم تتعصب لآدابها وتأنف أن تدخل فيها عناصر أجنبية من تلقاء نفسها .

ولهـذا رأينا العرب تهافتوا على العلوم الفارسية واليونانية وغيرها ، أما آدابهم فظلت محافظة على صبغتها العربية وقلما تأثرت بآداب هاتين الأمتين .

ولقد مثل الغرب نفس الدور ، فقد تهافت على نقل العلوم التى اشتغل بها العرب إبان نهضتهم العلمية ، ووقف مكتوفا أمام الآداب العربية إما مستغرباً أو مترفعاً إزاء الآداب الشرقية التى برزت أمامه بأثواب لم تألفها عينه من قبـل ، وليس من المعقول أن يكون ذلك التأثير قد حصل دفعة واحدة بل إنه اتخذ سبيلا تدريجياً حمل بين طياته كثيراً من العناصر الفنية ، وشيئاً من الأفـكار الشرقية ، وبدعاً من الظلال الشعرية ، وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر .

تاريخ هذا التأثير فى القرون الوسطى :

(من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر)

لـما حلت اللغات الوطنية « Vernacular » محل اللغـة اللاتينية ، وشاع استعمالها بدلا منها ، ظهر فى فرنسا نوع جديد من الشعر يدل على وجهـة اجتماعية جديدة ، وكان هذا الشعر شديد الشبه بنوع ظهر فى الأندلس العربية ، ولهـذا شاعت النظرية القائلة بأن شعراء جنوبى فرنسا — بروفانس — تأثروا بالأدب الأندلسى .

وهذا الشعر الجديد الذى ظهر فى فرنسا ، قد صوَّر الحب — كما صوره الغزل الغربى — بشـكل جديد ، مثير للشعور ، غنىّ بالصور الخيالية ، مفعم برقة الاستعطاف وشدة التيتم الذى يقرب حد العبادة .

ومن المرجح أن هذه الطريقة فى الغزل لم يكن منشؤها العادات الاجتماعية فى ذلك العصر ؛ لأن المرأة كانت منحطة ، ولأن الفروسية تأبى أن تفرض على رجالها هذا النوع من التصنع العاطفى لمنافاته للروح الحربية ومخالفته مُثُل الكمال التى فرضتها الكنيسه فى تلك العصور .

وبقيت هذه النظرية قائمة حتى القرن التاسع عشر عند ما قام النقاد يطلبون وثائق خطية عليها وعندما أخفقوا فى إيجادها تحولوا إلى الطرف الآخر وقالوا بنفيها .

أما الأبحاث الحديثة فقد بينت لنا أن الشعراء المغنين تروبادور « troubadours » فى فرنسا قد أخذوا من الأندلس أساليب الغزل الجديدة .

قال الأستاذ « جب » « Gibb » فى تراث الاسـلام « The Lsgacy of islam » فى القرن الحادى عشر بلغ الشعر ثم ازدهاره بعد أن مرت عليه قرون طويلة يتابع فيها نموه ، والغزل لا زال أكثر أنواعه شيوعا يفتتحون به كثيراً من قصائدهم . هذه كانت طريقة الجاهليين تبعها الشعراء فى عصور التمدن الإسلامى . إذ ذاك كثر الشعر الغنائى وصقلته المدنية ، وزادته أناقة ورقة مصطنعة ، وأصبح الغزل فى أقصى حالاته نوعاً من التصوف . وفى وسط هذا التهوس ظهر الشعراء المذريون ونظريتهم الأفلاطونية التى وجدت فى الأندلس مرتعاً خصباً ، وأشهر من دان بهـا ابن حزم صاحب « طوق الحمامة » الذى عدها من وسائل تزكية النفس .

هذه الروح الرومانطيقية المغالية هى التى انتقلت إلى منشدى القرون الوسطى وشعراء الغرب الغنائيين وولدت فيما بعد الشعر الخيالى . أما كيفية انتقالها فيقول الباحثون إن ذلك جرى بواسطة الزجل أو الشعر العامى الذى استنبطه عرب الأندلس ، وأدخلوا فيه شيئاً من روح الشعر الغربى وأسلوبه ، فنسج على منواله الأسبانيون ، وأصبح هذا الزجل الشعبى حلقة الاتصال بين الشعر الغربى وشعر أوربا الجنوبية . لقد عثروا مؤخراً على

مجموعة أشعار أسبانية من نوع « الفيلانسيكو » وهو الشعر العامى الذى لا يختلف عن الزجل العربى ، والمجموعة لابن قزمان الذى عاش فى أوائل القرن الثانى عشر . وكل ما فى شعره يدل على أصل عربى إلا اختلافاً قليلا فى طريقة الوزن الذى يعتمد على الحركات لا على المقاطع كالشعر الانكليزى .

وأخيراً كل القرائن تجتمع لتظهر أن هـذا الغزل الجديد بروحه وطريقته كان مصدره الغزل العربى فى الأندلس ، ولايخفى أن الغزل شاع فى الشعر العربى من أقدم عصوره .

فى صقلية وإيطاليا :

ولم ينحصر تأثير الشعر الأندلسى فى فرنسا فحسب ، بل تعداها إلى إيطالياوصقلية ، ولقى الشعر العربى مشجعاً من الملوك والأمراء النرمنديين فقد استعمل الشعراء الإيطاليون أوزانه لنظم أشعارهم إلا أن « بترارك Petrareh » لم يرق له هذا الأدب الدخيل فثار عليه وعلى العرب فى كتاباته .

ومن النواحى التى أثر فيها الأدب العربى : ناحية القصص والأمثال فقد ثبت مؤخراً لدى الباحثين أن كثيراً من القصص والأمثال فى ألمانيا وفرنسا ترجع إلى أصول عربية ، وكما انتقلت الألفاظ على ألسنة السوّاح والتجار ، والمحاربون من الصليبيين كذلك تنوقلت القصص والحكايات والأمثال إلى آدابهم ، ويرجح أن أبو كاشيو « Boccaccio » قد نقل حكاياته الشرقية من مصادر شفهية .

ومن البديهى أن الأدب العربى ملىء بالأمثال والقصص ذات المغزى الأخلاقى والأدبى الذى تسرّب بعضه — فيما أعلم — من مصادر هندية أوفارسية أويونانية ، ولقد صادفت هذه الأمثال قبولا مرضياً عند الغربيين فنقلها اليهود استحسانا إلى الآداب الغربية ، من ذلك كتاب السندباد المتحدر من أصل هندى ؛ ثم مجموعة حكم وأمثال ، وأقوال فلسفية ترجمت إلى الأسبانيـة واللاتينية أو غيرهما . وهذان الكتابان كان لهما أثراً خاص فى النثر الأسبانى الذى اعتمد على النثر العربى فى أول عهده وكانت الترجمة الأولى لكتاب (كليلة ودمنة) فى أوربا من العربية إلى الأسبانية . أما فى باقى اللغات فقد نقل عن ترجمة لاتينية قام بها أحد اليهود ثم انتشرت فى الأقطار الأوربية .

وأخيراً وصلت بعد تغيير وتحوير إلى اللغة الفرنسية تحت اسم جديد أمثال « بيدبا » المنقولة رأساً عن الفارسية وكانت أحد المصادر التى استقصى منها لافونتين الشهير أمثاله الموضوعة على ألسنة البهائم .

وعرف الأسبان فن المقامات عند العرب فنسجوا على منوالها فى بعض رواياتهم ، وفى جملة ما وضعوه كتاب يدعى « الفارس سيفار » يروى سلسلة مغامرات مقتبسة من أصول عربية .

ولا نزال نرقب الباحثين فى إثبات ما لرسالة الغفران من التأثير فى الآداب الغربية ، إذ المظنون أنها كانت أحد العناصر التى أدخلها « دانتى » فى تأليفه رواية « الكوميديا الآلهية » .

***

ثم كان عصر الانبعاث ، وهو عصر إحياء الآداب اليونانية القديمة والانصراف عما سواها ، ولم يلبث الناس أن سئموا الأنظمة البيانية وجنحوا إلى الخيال والألوان . ففى سنة ١٧٠٤ ترجمت روايات ألف ليلة وليلة » إلى الفرنسية وكان هذا نتيجة للأسفار ، وبدء الاستعمار فى الشرق ونتيجة انجذاب الغربيين بسحر الشرق الذى ما زال يستهويهم بغرائبه وأسراره وألوانه الزاهية قال مارتان فى كتابه : « الشرق فى الأدب الفرنسى » إن دراسة الشرق فى أوربا ابتـدأت فى القرن السابع عشر ، وتكوّنت ونمت فى القرن الثامن عشر الذى يعد بحق عصر الأدب الشرقى فى أوربا . هـذا القرن الذى كثر فيه البحث العلمى الجاف ، وكثرت فيه الويلات والانقلابات فكان أهله متعطشين إلى الخيال ، ولذا كثرفيه التأليف فى موضوعات شرقية وامتلأت الروايات بأبطال شرقيين ، فوضع « راسين » مثلا روايتـه بايزيد ثم ظهرت روايات « ڤولتير » التمثيلية الشرقية والرسائل الفارسية لمونتسكيو وفى انكلترا ظهرت «رؤيا مرزا» و « راسلاس » .

على أن هذه التآليف المقلّدة كانت على جانب من الضعف والركاكة ، ولهذا يهملها تاريخ الأدب العربى لأنها شوهت قسما

من صفحاته . وكان لحركة الاستشراق التي بدأت في فرنسا صدى في أوربا ، وكانت ألمانيا أسبق الجميع إلى اقتباس بعض مظاهر الأدب الشرقي . وقام كثيرون من شعراء ألمانيا « الرومانطيقيين » يستوحون الخيال الهندي والفارسي وكان قائد الحركة هردر « Herder » وبعد « lehlegel » ، «Hammer» وكان « جوته » أول من اعتمد الأسلوب الخيالي الشرقي لأنهم أرادوا أن يتعزوا بالخيال عن الحقائق المؤلمة . على أن تآليفهم الأدبية لم تكن ذات قيمة تذكر لأن التقليد غلب عليها ، إلا أنها أدّت للأدب خدمة جليّ إذ فتحت للأدباء باباً جديداً ما يزال يلجه الكثيرون .

أما في فرنسا ، فقد كتب « فكتور هوجو » قصائده المعروفة « بالمشرقيات » « Les Oientales » وصدرها بهذه الجملة « في عهد لويس الرابع عشر كان جميع الناس « هلينيين » أي طلاب الثقافة اليونانية ؛ أما اليوم فجميعهم مستشرقون أي طلاب الثقافة الشرقية » ، لكنه مع شغفه بالثقافة الشرقية لم تبلغ معرفته بها الحد الذي وصل إليه الكتاب الألمان أمثال غوتي وسواه .

وفي انجلترا نرى نفس هذه الحركة التي تهتم بالسطحيات ، ولا تتغلغل إلى جوهر الأشياء ؛ فهناك قام سكوت يسعى لإبراز رواياته الشرقية بحلة شرقية . واقتدى به غيره من الروائيين كما فعل بيرون قبل ذلك ، ونجح في تحبيب الشرق إلى الغربيين ، وتبعه في ذلك مور في روايته « Galla Rookh »

ففي هذه الأحوال جميعها أخطأ أدباء الأدب الغربي فهم الأدب الشرقي ، واستعملوه للتزيين والتلوين أي أخذوا منه القشور وأنكروا الحقائق المنطوية تحتها ، وأعرضوا عن الميراث المعنوي الذي قدمه الشرق للعالم . ومع هذا فالقرن التاسع عشر لم يعدم كاتباً يبين لنا الصلة الجوهرية بين الشرق والغرب في شخص فتزجرلد « ftitzogerald » فنقل « رباعيات عمر الخيام » إلى الانكليزية ، وقد أبدع في نقلها حتى قيل إنها إنكليزية بقدر ماهي فارسية .

الخلاصة :

هناك ثلاثة أدوار ظهر فيها تأثير الأدب الإسلامي في الغرب وجاء بنتائج متماثلة إن لم تكن متعادلة . أولها في العصور الوسطى، ثم بعد مرور عصر الانبعاث في القرن الثامن عشر ، ثم في القرن التاسع عشر ، وكان التأثير على أشده في القرون الوسطى عندما اقتبس الغرب عن الشرق بعض العناصر الفنية التي دخلت في تكوين أدبه . أما بعد سيادة الأدب اليوناني فلم يأت الاحتكار إلا بنتائج ضئيلة ، وكانت المنتجات الأوربية الشرقية أشبه شيء بنوادر أو تحف غريبة تثير الفضول ولا تتعدى التقليد . هذا في القرن الثامن عشر ، أما في القرن التاسع عشر فقد ظهر في ألمانيا حركة مثمرة لم تدم طويلا . وفي سائر أوربا كان الناس في القرن الماضي ينظرون شزراً إلى كل ماهو أجنبي . وقد أسكرهم التبجح بالسيادة العالمية . أما في القرن الحالي فقد أخذوا يغيرون وجهة نظرهم ، ويشعرون أن دائرتهم مهما اتسعت فهي أضيق من أن تشغل العالم بأسره ، وتأكدوا بأن هناك خارج منطقتهم كنوزاً يجب أن تكتشف .

(القدس) **عبد القادر علي الجاعوني**
بكالوريوس في العلوم

« فلسطينيات » :

العابث ... !

للأستاذ نجاتي صدقي

من يجتز ميدان المغربى بتل أبيب ، وهو يشبه فى الظاهر ميدان سنت ميشيل بباريس ، يمر فى طرفه الأيسر مقهى صغيرا ، جميل الهندسة ، حسن الترتيب . فاخر الأثاث ، يؤمه عادة أهل الفن والأدب من يهود تل أبيب ، كما يتردد إليه عدد لا يستهان به من المهاجرين والمهاجرات ، يتعارف بعضهم إلى بعض ويتبادلون الآراء ويحتسون الجعة على أنغام الموسيقى المهدهدة .

ولا يجوز قط اعتبار هذا المقهى مكاناً لترفه اليهود فقط ، فمن رواده الدائمين أيضاً بطل قصتنا هذه «عزيز» ، وهو شاب تجاوز الثلاثين ، فلم يدع بابا فى الحياة إلا طرقه ، ولم يترك حرفة فى المجتمع إلا مارسها ، وهو فى طبعه محب للمغامرات له شذوذه ، كما أنه يتذوق الأدب ، ويبدى آراء جريئة فى السيكولوجى ، ويجيد الإنكليزية ، ويتكلم العبرية قليلا ...

وفى إحدى الأمسيات جاء « عزيز » المقهى وبصحبته صديق مزارع من شمال فلسطين ، أنعم الله عليه بالثراء وسعة العيش ، وحرمه العلم وسعة المدارك ، وجلسا إلى مائدة ، وكانت ملامحهما تدلان على أنهما من مهاجرى بلغاريا أو رومانيا ، فلم يكترث بهما أحد ، فى حين أنهما كانا يبديان اهتماماً زائداً بجلاس المقهى ، ويخصان الغانيات الفاتنات من بنات يهوذا بنظرات كلها عطف وشوق ...

وإذ كانا يتناولان الكأس الرابعة من الوسكى فى جو اختلطت فيه ضجة الحاضرين بلحن (الفولغا) لحا من خلال الدخان الكثيف امرأة ممشوقة القد ، شقراء الشعر ، زرقاء العينين ، ترتدى معطفاً قوزاقياً ، تلج المقهى وهى تتهادى فى مشيتها . فما إن وقفت عند بنك الساقى حتى انتصب « عزيز » واقفاً ، وتقدم نحوها بأدب مخمور وقال :

— أتأذن لى مولاتى بكلمة ؟

— تفضل ...

— مولاتى ، لا ريب فى أنك من أهل القوزاق ... إنى لأرى تموجات نهر الفولغا تتلاق مع تموجات شعرك الذهبى ، أنت لحن الفولغا الحى ... أنت أنشودة نظمتها الحياة ...

ارتبكت المرأة لهذا الأطراء المفاجىء وأجابته مبتسمة — أأنت شاعر ؟

قال — كلا ، لست شاعرا ، ولكنى أعبد الفن ... أنا عربى أومن بأن ليس للفن والجمال حدود عنصرية أو إقليمية .. فبيهوفن معبود العالم بأسره ، وروفائيل سيد الرسامين ، وآينشتين يعترف بفضله كل مخلوق ... و ...

وإذا برجل مديد القامة عريض المنكبين يقطع على « عزيز » خياله ، ويتطلع فى وجهه مبتسما ...

قالت المرأة للشاب — هذا زوجى ...

وقالت لزوجها — إنه فنان عربى ... ظن أننى قوزاقية ولم يدر بخلده أنى من كوينسبرج ...

قال الزوج — يسرنا جداً أن نتعرف إلى شاب عربى . لقد قضينا عشر سنوات فى تل أبيب لم نزر خلالها مدينة يافا قط .. نحن نسمع عنكم ولا نراكم ... والواقع أننا نوهم أنفسنا فى هذه المدينة بأننا لم نخرج من أوروبا قط ، فتراناننشىء بيوتاً غربية الطراز ، ونعيش فى المقاهى ... أى إننا لا نكون فى بيوتنا إلا وقت تناول الطعام والنوم ... وإذا ما مللنا المقاهى تجولنا فى الشوارع أو ذهبنا إلى دور السينما والموسيقى ... ونحن على الجملة نشعر فى حياتنا خارج منازلنا كما لو أننا فى منازلنا ... فنساؤنا يسرن فى الشوارع وهن يرتدين عباءة البيت أو السراويل الفضفاضة ، أو لباس البحر ... أجل هكذا نعيش ، أما يافا فأقسم لك بأن كثيراً منا لا يعرف بالضبط أتقع هى فى جنوب تل أبيب أم فى شمالها ... أرجو المعذرة على هذه الغباوة التى هى أشبه بحلم لذيذ ...

وبعد لحظات كان الأربعة يجلسون حول مائدة واحدة ، وقدم «عزيز» زميله إلى الزوج وزوجه بوصفه كاتباً مفكراً يعنى بتصوير الحياة أكثر من عنايته بهندامه ...

وتوالت الأنخاب ، وأظهر الثرى القروى كرمه الحاتمى ، فذهلت السيدة البروسية ، وارتاح زوجها لهذا التعارف السعيد ...

ودارت بينهم أحاديث منوعة تخللتها النكات الموفقة والتافهة ، وافترقوا على أن يكون اللقاء فى اليوم التالى ، فى بيت «عزيز» بيافا لتناول الغداء …

***

— أهلا وسهلا أدون ايسبرجر . أهلا بالسيدة « القوزاقية » هه .. هه .. أعرفكما بقرينتى .. وهذا زميلى بالأمس . وهؤلاء أصدقائى .. وقدمت السيدة أيسبرجر باقة زهور لقرينة صاحب الدعوة وتناولوا أكلا عربياً صرفاً ؛ فسر الضيفان لهذا الحادث الخطير فى حياتهما الفلسطينية ، وانصرفا وهما يلهجان بالثناء العاطر على « عزيز » وكرمه ولطفه ..

وفى اليوم التالى ردت الزيارة إلى تل أبيب ، وكانت زهور وغداء ، وملاطفات وعدم فهم متبادل لما يقصد من هذه الصداقة … ثم كان وداع على أن يكون اللقاء فى المستقبل فى المقهى الذى حدث فيه التعارف …

ولما حل مساء اليوم التالى لهذه الزيارة أحس « عزيز » أن شيئا يقلقه ، ويشغل فكره ، ويثير أعصابه ، فأسرع إلى حانة ماوطلب من العرق أولا وثانيا وثالثا فخيل له أنه يسمع لحن الفولغا ؛ وتراءت له السيدة « القوزاقية » كما أرادها أن تكون ، فلم يقو على الاصطبار حتى يحين اللقاء (فى المستقبل) .. فعقد النية على المجازفة مهما كانت العواقب . . وإذ كانت ميزانيته لا تسمح له بالإسراف توجه إلى زميله المزارع الثرى وسأله — أأنت مستعد للبذل فى سبيل ربة الجمال ؟

قال — ومن هى ؟

قال — السيدة ايسبرجر …

قال — كل ما أملك فداء لها .. وإنى للجمال لعابد …

وفى الساعة الحادية عشرة من الليل كان عزيز وزميله يترنحان ثملين فى شوارع تل أبيب ، فقادتهما أقدامهما إلى دار ايسبرجر ثم صعدا إلى الطابق الثانى ووقفا أمام باب الشقة .. تردد « عزيز » فى الضغط على الزر الكهربائى ، فالعاطفة تحثه على الضغط ، والفكر المكبوت بالخمر يوحى إليه خيبة الأمل .. وأخيراً مد أصبعه نحو الزر وضغطه ، فمرت ثوان دون جواب ، فأعاد الضغط وإذا بنور يشع فى الداخل وبخطوات تقترب من الباب مسرعة ثم فتح الباب وياله من منظر : السيدة ايسبرجر بلباس النوم ، وشعرها مسدول على كتفيها ، وقفت أمام الزائرين الليليين مشدوهة ، وقد عانقت نفسها بذراعيها من الخجل والبرد معاً …

فبادرها « عزيز » قائلا — (شالوم … مدام ! …) .

لقد توقعت السيدة ايسبرجر أن يكون الطارق فى تلك الساعة المتأخرة أى مخلوق من أهلها ومعارفها لكنها لم تتوقع قط أن يكون هذا الطارق « عزيز » وزميله … والواقع أنها ذعرت لمرآهما ، وانعقد لسانها فى فمها فراحت تحدق فيهما النظر محاولة استجلاء ما فى نفسيهما ، فأجاباها بنظرات حائرة شاردة … وقد تدلت شفتاهما السفليان قليلا . . ولما استعادت المرأة رباطة جأشها ، دفعت الباب فى وجه الزائرين غير المنتظرين ، وصرخت …

هرول «عزيز» وزميله إلى الشارع ووقفا عند مصباح كهربائى يلهثان ثم خاطب المزارع عزيزاً بقوله - أتضللنى أيضاً ؟ أين ربة الجمال ؟ أعد لى خمسة جنيهات أنفقتهما عليك هذه الليلة .

فأجابه « عزيز » ما الذى تعنيه بقولك هذا ؟ إننى دعوتك إلى زيارة أدبية فنية فقط … وجل قصدى من هذه الزيارة إفهامك ماهية الجمال من حيث هو فن إيحائى ! …

قال المزارع — ماذا ؟ … ماذا … ؟

قال - الجمال يا عزيزى على نوعين : مجرد ، وفنى … فالمجرد هو الجمال اللائكى البلورى ، وأما الفنى فهو جمال تقاطيع الوجه الدالة على ماهية النفس …

قال — دعنا من الهذر ، إننى لم أنفق ما أنفقته هذه الليلة لأسمع منك هذه الثرثرة . لن أبرح هذا المكان حتى تأتينى بربة الجمال

قال - صه … لاترفع صوتك وإلا فضحتنا ، وأساء القوم الظن فينا … وحاول المزارع المطالبة بحقوقه … لكن « عزيز » استوقف سيارة ، ودفعه إلى داخلها ، وقال للسائق : إلى يافا . . أسرع … .

قص على « عزيز » قصته هذه وقال :

بودى أن أذهب مرة أخرى إلى السيدة ايسبرجر لأبين لها حسن نيتى من تلك الزيارة الليلية فما رأيك … ؟

نجاتى صدقى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٨٠٥ — أصدق مع الله في جميع احوالك

الفتوحات المكية : أخبرني الثقة عندي عن الشيخ أبي الربيع الكفيف المالقي كان بمصر يخدمه أبو عبد الله القرشي . فدخل عليه الشيخ وسمعه يقول في دعائه : اللهم يارب ، لا تفضح لنا سريرة ، فصاح فيه الشيخ وقال له : الله يفضحك على رؤوس الأشهاد يا أبا عبد الله ، ولا شيء تظهر لله بأمر وللناس بخلافه ، أصدق مع الله (عز وجل) في جميع أحوالك ، ولا تضمر خلاف ما تظهر …

٨٠٦ — طفيلي

دعا رجل قوماً فجاءوا وأتبعهم طفيلي ، ففطن به الداعي فأراد أن يعلمه أنه فطن به فقال : ما أدري لمن أشكر منكم : لكم إذ أجبتم دعوتي أم لهذا الذي تجشم من غير دعوة .

٨٠٧ — فإن ترد الزيادة هات قلباً

أبو الفوارس سعد بن محمد :

تشربش أو تقمّص أو تقبّا ... فلن تزداد عندي قطّ حُبّا[١]
تملّك بعضُ حبك كلَّ قلبي ... فإن تردِ الزيادةَ هاتِ قَلبا

(١) تشربش : لبس ثوباً ذا شرابيش أي أهداب . في التاج : الشربش كجعفر هدب الثوب جمعه شرابيش مولد وقد ذكره ابن دحية استطراداً في تفسير حديث (تقبي) القباء كسحاب لبسه في (التاج) : « القباء من ملابس الأعاجم في الأغلب ، وقيل عربي من قبوت الشيء إذا ضممت عليه أصابعك سمي به لانضمام أطرافه » وتقبا في البيت مبني على حذف آخره والألف للاطلاق . (قط) فيها لغات وفتح القاف وتشديد الطاء مضمومة أفصحها . وهي للنفي في الماضي كما في الدرة والمغني والقاموس وقد جاءت في الاثبات كما في البخاري « أكثر ما كنا قط » وفي غير الماضي كما في الكشاف « لا يبقي لأحد قط » وللمازني الغرناطي :

تكتب العلم وتلقي في سفط ... ثم لا تحفظ ، لا تفلح قط

٨٠٨ — وما أقدر أن أتكلم بالفارسية

قال ابن جني في كتاب النوادر الممتعة : بينا أبو علقمة النحوي يسير على بغلة إذ نظر إلى عبدين أحدهما حبشي والآخر صقلبي ، فإذا الحبشي قد ضرب بالصقلبي الأرض ، وأدخل ركبته في بطنه ، وأصابعه في عينيه ، وعض أذنيه وضربه بعصا كانت معه فشجه ، وأسال دمه . فجعل الصقلبي يستغيث فلا يغاث ، فقال لأبي علقمة : إشهد لي . فقال قدمه إلى الأمير حتى أشهد لك ، فمضيا إلى الأمير ، فقال الصقلبي : إن هذا ضربني وشجني واعتدى عليَّ ، فجحد الحبشي ، فقال الصقلبي : هذا يشهد لي ، فنزل أبو علقمة عن بغلته وجلس بين يدي الأمير ، فقال له الأمير عم تشهد يا أبا علقمة ؟

فقال : أصلح الله الأمير بينما أنا أسير على كوردني[١] هذا إذ مررت بهذين العبدين فرأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع[٢] فحطأه[٣] على فدفد[٤] ثم ضغطه برضفته[٥] في أحشائه حتى ظننت أنه تدمج[٦] جوفه وجعل يلج بشناتره[٧] في جحمتيه[٨] يكاد يفقؤها ، وقبض على صارتيه[٩] بمبرمه وكاد يجذها جذاً ، ثم علاه بمنسأة[١٠] كانت معه فعفجه[١١] بها . وهذا أثر الجريال[١٢] عليه بيِّنا ، وأنت أمير عادل .

فقال الأمير : والله ما أفهم مما قلت شيئاً .

فقال أبو علقمة : قد فهمناك إن فهمت ، وعلمناك إن علمت ، وأديت إليك ما علمت ، وما أقدر أن أتكلم بالفارسية …

فجعل الأمير يجهد أن يكشف الكلام فلا يفعل حتى ضاق

(١) الكوردن : البغل ، البرذون الرومي
(٢) الأبقع : الأبرص ، من فيه بياض وسواد
(٣) حطأه : صرعه .
(٤) الفدفد : الغليظ من الأرض
(٥) رضفتاه ركبتاه
(٦) مراده شق بطنه
(٧) شناتره : أصابعه .
(٨) الجحمتان : العينان . لغة يمانية .
(٩) الصنارتان : الأذنان بلغة حمير .
(١٠) المنسأة : العصا .
(١١) عفجه : ضربه .
(١٢) الجريال الأحمر : فالاستعارة للدم .

صدره ، فقال للصقلبي : أعطني خنجراً . فأعطاه وهو يظن أنه يريد أن يستقيد له من الحبشي ، فكشف الأمير رأسه وقال للصقلبي : شجني خمساً وأعفني من شهادة هذا .

٨٠٩ — هذا مقال من لا يموت حتف أنفه

قال أبو خالد الخزاعي الأسلمي : قلت لدعبل [1] : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ، ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك شريد طريد هارب خائف . فلو كففت عن هذا ، وصرفت هذا الشر عن نفسك . فقال : ويحك إني تأملت ماتقول فوجدت أكثر الناس لا يُنتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يُبالى بالشاعر — وإن كان مجيداً — إذا لم يُخف شره . ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك فى تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم . وليس كل من شرّفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة — ولم يكن ذلك فيه — انتفع بقولك ، فاذا رآك قد أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك على نفسه ، وخاف من مثل ماجرى على الآخر . ويحك يا أبا خالد إن الهجاء المقرع آخذ بطبع الشاعر من المديح المفرع [2] .

فضحكت من قوله وقلت : هذا (والله) مقال من لايموت حتف أنفه [3] .

٨١٠ — تكتب برجليها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة :

فى سنة (٥٧٦) قدمت امرأة إلى القاهرة عديمة اليدين ، وكانت تكتب برجليها كتابة حسنة ، فحصل لها القبول التام .

(١) قال دعبل : كنت جالسا مع بعض أصحابنا ذات يوم فلما قت سأل رجل لم يعرفني أصحابنا عنى فقالوا : هـذا دعبل ، فقال : قولوا فى جليسكم خيراً كأنه ظن اللقب شتما فى (اللسان) : الدعبل الناقة الشديدة وقيل الشارف : (المسنة الهرمة)

(٢) المفرع : العالى الطويل .

(٣) أحمد بن أبى كامل : كان دعبل ينشدني كثيراً هجاء قاله فأقول له : فيمن هـذا ؟ فيقول : ما استحقه أحد بعينه بعد ، وليس له صاحب فاذا وجد (غضب) على رجل جعل ذلك الشعر فيه ، وذكر اسمه . قال محمد بن الأشعث : سمعت دعبل يقول ما كانت لأحد قط عندى منة إلا تمنيت موته .

٨١١ — كأن عليه من حدق نطاقا

أنشد المتنبي سيف الدولة قصيدة قافية ، وكان السرى الرفاء حاضراً وأول القصيدة :

أيدرى الربع أى دم أراقا وأى قلوب هذا الركب شاقا

فلما قال :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

فقال السرى : هذا والله ممنى ما قدر عليه المتقدمون . ثم إنه حم فى الحال حسداً وحمل إلى منزله ومات بعد ثلاثة أيام .

٨١٢ — نار المتنبي

أنشد بعضهم بيتاً من الشعر . فقال : هذا البيت لو طرح فى نار المتنبي لأطفأها ، إشارة إلى قوله :

ففى فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردُها

٨١٣ — أقوى جند لأبليس

فى (محاضرات الراغب) لما ضُربت الدراهم والدنانير صرخ إبليس صرخة ، وجمع أصحابه فقال : قد وجدتُ ما استغيث به عنكم فى تضليل الناس ؛ فالأبُ يقتل ابنه ، والابنُ يقتل أباه بسببه .

٨١٤ — لينفق ذو سعة من سعته

إسحق بن عمار : سألت ابن عباس عن الرجل الموسر المتجمل يتخذ الثياب الكثيرة والجباب والطيالسة والقُمُص يصون بعضها ببعض ويتجمل بها ، أيكون مسرفا ؟

فقال : إن الله يقول : « لِينفقْ ذو سعة من سعته » .

٨١٥ — المال ...

الكلم الروحانية فى الحكم اليونانية :

قال فورس (ملهى الاسكندر) للاسكندر : إذا سألت الحكماء عن شىء فسلني .

فقال له : ما الذى ينتفع به الرجل عند الكبر ؟

قال : المال .

فأعجب الاسكندر .

الحسرة الأولى ...

Le premier Regret

لشاعر الحب لامرتين

[قال لامرتين : « في أحد أيام سنة ١٨٣٠ ، بينما كنت داخلا كنيسة في باريز ، إذ بصرت هناك بتابوت فتاة انطفأ سراج حياتها ولم تزل صبية ، قد حمل على الأيدي وأسدلت عليه ملاءة بيضاء ، فذكرني هذا التابوت بموت غرازيلا graziella وهاجت الذكرى شجني ، فطفقت أبكي وأنشج نشيجاً محزناً ، ... ثم عدت إلى غرفتي ونشرت بين يدي مذكراتي عن تلك الحادثة ، ونفست هذه المقطوعة — التي ستقرؤها الآن — وكتبتها في دفتري ، والقلب واجف ، والدمع واكف، وسميتها الحسرة الأولى Le premier Regret : وها هي ذي] :

هناك على سِيف المحيط المصطفق ،

حيث يقذف بحر « سورانت » بأمواجه الزرقاء ،

فتتكسر تحت قدمي شجرة البرتقال ،

وثَمّ صخرة صغيرة ، ضيقة الحجم ، متساوية الطول والعرض كانت قريبة من الطريق اللاحب ، تحت الصباح العَبق بشذى الأزهار فكانت للغريب الهائم منتدىً ومزاراً .

وأزهار الخيريّ الباسمة قد سترت تحت أغصانها اسماً منقوشاً على هذه الصخرة ، نعم ! قد سترت اسماً لم يردده الصدى قط فلم يك معروفاً عند أحد ! ولكن المسافر الذي أنهكه السير ، يجلس هناك أحياناً ليستريح ، ثم يزيح الحشائش عن الصخرة ، فيقرؤ عمرها وتاريخ وفاتها ، ويقول وعيناه تشرقان بالدمع أسفاً وحزناً :

لقد عاشت ست عشرة عاماً ! ولعمري إنها سِنٌّ مبكّرة إلى الموت ، »

ولكن ! ليت شعري ! لِمَ أحمل نفسي على استذكار تلك الذكريات الغابرة ؟

فلندع الهواء يخف ، والنسيم يرف ، والموج يصطخب ، وتعالى هنا ، أيتها الخواطر المضطربة ، والعواطف الملتهبة !

عودي إليّ قليلاً ، لعلي أرغب في التأمل والعزاء ، ولا أجهش في الحزن والبكاء !

إن القارئ ليقول : «لم تعش وا أسفاه إلا ستة عشر عاماً» !

— أجل ! لقد عاشت كذلك ! ولكن هذا العمر القليل ، لم يسطع قط فوق جبين أزهى من جبينها ، ولم تتأمل قط عين — حبيبة إلى كميها — إذ تنظر إلى سناء الشاطئ الملتهب ، وجلال الخضم المضطرب !

لقد أبصرتها أنا كذلك ، حتى أن وجداني قد طبع شخصها الحي في نفسي ، تلك النفس التي تحتفظ بكل شيء ، فلا تموت صورة فيها ولا تمحى

نعم لم تزل حية في نفسي ! فكأن عينيها الساجيتين ترمقان عيني بنظراتهما ، وكأننا كنا سوية نُلقي بأحاديثنا الأولى في اليم ، وشعرها المفودن الفاحم يستسلم إلى أنفاس النسيم ويسترسل معها ، فتداعبه تارة ، وتستخف به أخرى ،

ثم يلقي هذا الحجاب الهائم ظله الكثيف ، على وجهها اللطيف . وإذ كانت ترهف أذنيها ، لتسمع أنشودة الصياد الذي يتخبط في ظلام الليل ،

ولتنصت إلى أنفاس النسيم العبقة ، حيث تنثر نضارتها وزهوها ،

ولقد أرتني القمر المبتهج وهو يصعد في السماء ، كأنه زهرة جميلة في الليل . ترقب نجمها الجميل ؛ وإلى الزبد الفضيّ المتلألئ كنا ننظر سوية ، فتلتفت إليّ ، وبحنان تقول :

« أخبرني ، لماذا أرى كل شيء يضيء في هذا الفضاء ، فينشمشع في نفسي يمثل هذا السناء ؟

إن هذه الحقول اللازوردية ، وقد مُلئت بالنيران المتوهجة ، وإن هذه الرمال الذهبية ، وقد تكسرت فوقها أواذيّ المحيط ، وإن هذه الجبال الشماء ، إذ تضارع بعلياتها أذن الجوزاء ، وهذه الخلجان المكللة بتلك الغابات الصماء ، وهذه الأضواء التي تنبعث من ضفة الدأماء ، وتلك الأنغام التي تقذف بها الأمواج ، إن كل ذلك لا يثير نفسي ، ولا يهيج حسي ، بلذة مبهمة ، أو سرور لا عهد لي بمثله !

ليت شعري ! كيف لا أحلم بمثل هذا اليوم ، وكيف لا أبتهج

بهذه المناظر؟ هل صعد إلى قلبي ذلك الكوكبُ الدريّ، فأنار ظلامه، وبدّد أوهامه؟

وأنت أيها القمر اللألاء، سلْ الليالي الحلوة الطلماء،

وقل لها: هل تضارع ليالي بلادكِ — إن غبتُ عنك — هذه الليالي في البهاء؟»

— وإذ ترمق بنظرتها الوديعة أمها الرؤوم، حيث كانت على كثب منا. ثم تنطرح على نفسها من السقم، وتلقي بجبينها فوق ركبتيْ أمها، فيعقد الكرى الهنيء أهدابَ عيونها الوُطف.

ولكن، ليت شعري؟ كيف أحمل نفسي على استذكار هذي الذكريات الغابرة؟

فلندع الهواء يخف، والنسيم يرف، والموج يصطخب،

وتعالى هنا، أيتها الخواطر المضطربة، والأفكار الملتهبة!

عودي إليّ قليلا، لعلي أرغب في التأمل والعزاء، ولا أجهش في الحزن والبكاء!

لله ما أصفى أديم عينها الساجية! وما أحلى حمرة شفتها المفترّة!

ولشد ما ترد عينها نظري خاسئاً وهو حسير!

إن بحيرة «نيمى Némi» لجميلة المنظر، لا تستخف بأديمها نسمة، ولا تعبث بسطها تأمة، ولكنها رائقة السطح، لازوردية الماء، تشبه بزرقتها أديم السماء!

كنت تستطيع أن ترى أفكارها السامية، من خلال نفسها الحالمة، قبل أن تتعرف إلى شخصها،

لجفناها الفاتران، لم يغمضا قط على عينيها الوديعتين، فيحجبا عنا نظراتها البريئة، وجبينها المشرق، ولم تغضنه تباريح الهموم، ولم تضغطه آلام أو شجون، فالكل يطفر مرحاً في نفسها وحسبها:

أما هذه الابتسامة العذبة الفتية، فلقد ماتت على فمها البارد.

وكانت من قبل تغمر شفتيها المفترتين،

كأنها قوس قزح، صافي اللون، مبشر بيوم صحو جميل!

إن من القسامة البارعة، والجهارة الرائعة، أن يكون هذا الوجه الفاتن مرئياً من كل عين، لا يحجبه ظل، ولا تخفيه ظلمة.

فلقد كان هذا القناع اللطيف ساطعاً، لا تمر بسمائه سحابة.

مضيئاً في كل نفس، حبيباً إلى كل قلب!

وخطاها الحائرة المترددة، كانت تسترسل هائمة أو تعدو راكضة، كأنها موج مستبد، هدهده النهار واستخف به،

وصوتها الرنان العذب، كان صدى صافياً ورجيعاً نقياً لنفسها الوليدة، وطالما كان موسيقى حلوة لتلك النفس التي يغني فيها كل شيء،

فيشرح الصدر، ويبهج النفس، حتى يصعد إلى طبقات الأثير حيث يذوب ويتلاشى.

ولكن ليت شعري! لم أحمل نفسي على استذكار هذي الذكريات الغابرة؟ فلندع الهواء يخف، والنسيم يرف، والموج يصطخب،

وتعالى هنا أيتها الخواطر المضطربة، والعواطف الملتهبة!

عودي إلى قليلا. لعلي أرغب في التأمل والعزاء، ولا أجهش في الحزن والبكاء!

كما ينطبع نور الصباح على العين، كذلك انطبعت صورتي في قلبها؛

ولكنها لم ترن بعينها أبداً ذاك اليوم.

وفي الساعة التي أحبت فيها، رأت العالم كله فيضاً من الحب والحماسة! ولقد امتزجت معها في حياتها الخاصة، وتطلعت من نفسها إلى ذلك الذي استفزه الطرب، فأخذ يمر أمام عينيها، وإلى تلك السعادة الزائلة، والأمل المقيم في السموات العُلى!

لم تفكر قط في مرور الزمن، أو ضياع الوقت،

فساعة واحدة كانت تشتف وجودها، وتضيق بها ذرعاً،

وحياتها قبل أن يجمعني الدهر بها، لا تحتاج إلى ذكرى.

إن مساء أحد تلك الأيام الجميلة كان حظي من الدنيا ونصيبي من الحياة!

لشد ما كانت تركن إلى الطبيعة الضاحكة، إذ تبسم إلينا، وتفترّ عن ثغرها الضحوك أمام ناظرنا،

ولشدّ ما كانت تسكن إلى الصلاة الهادئة، والدعاء البريء، وما أكثر ما كانت تأخذ طريقها إلى المذبح المقدس، حيث تنثر فوقه الأزهار الفواحة بالأرج، وقلبها يطير فرحاً، عكس ما يكون باكياً متقبضاً؛ إذ تجتذبني لألحق بها إلى هيكلها، فأقفو أثرها، كأنني غلام وضيع، أو طفل مطيع، وصوتها الخافت يناديني ويقول:

« لنصل معاً يا أخى ، فإننى لا أفهم للصلاة معنى بدونك !
ولا أستطيع أن أحبك إذا لم تكن حاضراً بقربى ! »

ولـكن ليت شعرى ؟ لم أحمل نفسى على استذكار تلك الذكريات الغابرة . فلندع الهواء يجف .. الخ !

هلا نظرتم يا صحابى إلى الماء النمير ، يتدفق فى حوضه . كأنه ينبوع لا يفور؟ هلا أبصرتموه وقد عقد نطاقاً مستديراً ، كما تفعل البحيرة بشاطئها الضيق الصغير ؟ هلا نظرتم إلى زرقته الصافية ، وهو فى ذمة الهواء السارى وفى كنف الشعاع الملتهب ، الذى جفف ماءه ، وأضوى معينه ؟ وإذ ذاك يقذف الأوز بنفسه فى جوفه ، ليعوم فوق أديمه الرجراج ، وهو يغمس عنقه بين ثناياه المتموجة ؛ فيزين تلك المرآة السائلة ، دون أن يكدرها ، أو يمسها بسوء ويهدهد نفسه وسط الماء ، الذى يعكس النجوم المتألقة فى كبد السماء .

ثم يضرب الماء المصطفق بجناحيه المبللتين ، ليأخذ سمته ، مسفاً نحو نبع آخر ، فيمحو بطيرانه صفحة السماء المنعكسة ، فى جوف الماء الصقيل ؛ وتسقط منه ريشة ، تكدر صفاءه ، وتنزع عنه رواءه ، كأن نسراً كاسراً ، وهو عدو جنسه الألد ، قد بعثر رفاته الممزقة ، ورمى بها إلى كل موجة ، فذهبت بها أباديد ،

وإذا باللازورد الساطع ، للبحيرة المرحة ، يغدو موجة قاتمة ، تصعد فوقها الرمال الميثاء ! وأنا شبيه بذلك الطائر يا صحابى !

ولقد ذوى كل ما فى نفسها ، عندما بعدتُ عنها وشطّ بىَ النوى ، نخبا ذلك الشعاع المضيء فى نفسها ، وصعدت جذوتها الهامدة الأخيرة سريعةً نحو السماء ، كيما تعود أبدا بعد ذلك !

لم يكن فى أملها ولا فى مرجوّها أن تنتظر ثانية أملا بعدها ، ولم تكن لتذوى املـها بالريب ، أو لتطغىَ على ألمها بالحياة

لقد تجرعت كأسَ الألم دهاقاً ففرق قلبها بأول دمعة حرّى سقطت من عينها !

ما أشبهها بذلك العصفور الصغير ! إنهما ليتفقان فى الدعة والهناء ، وإن قلّ عنها ذاك فى الحسن والبهاء !

أتراه عند المساء وقد غشى جناحه عنقه لينام نوماً هادئاً لذيذاً ؟
وكذلك هى : فقد رقدت مثله ، يغشاها يأس قاتل ، وضنى مبرّح ،

إلا إن رقادها كان مبكراً . فلم يكن لليلها صباح ، ولا لنومها يقظة !

ولـكن ليت شعرى ؟ لم أحمل نفسى ... الخ ...

خمسة عشر عاماً قضتها تحت التراب ، وما رثى مصيرها أحد ، ولا بكت ملجأها عين ،

فسرعان ما غشى النسيان - وهو ثانى كفن الموتى - تلك الطريق التى تؤدى بنا إلى شاطئ الحياة ؛

لم يزر أحد وا أسفاه هذه الصخرة التى طمسها الدهر ودرسها ، لم يفتكر بها أحد ، ولم يندبها باكٍ ! إلا مخيلتى فقد قضت لبانتها من حق الذكرى وحق الدعاء !

إذا ما قضيت موجة أيامى الأخيرة ، فأحسست بدنو أجلى ، رأيتنى أستذكر فى قلبى جميع من فقدهم فسيهم ، ثم أرسل عينى نحو تلك الأطلال الخاشعة والآثار الدارسة ، فأذرف الدمع ، وأسكب العبرات ، حزناً على تلك النجوم النيرة ، التى خبا ضوؤها المشتعل ، وانطفأ سراج حياتها من سمائى المتعذرة !

ولقد كانت هى أول الشهب الآفلة ، من نهار بهى جميل ؛ فضوؤها اللألاء لا يزال ينير ظلام قلبى ، ويُضرم ما بقى جذوة حبى !

ولـكن ليت شعرى ؟ لم أحمل نفسى .... .. الخ ....

كلُّ حظها من الحياة شجيرةٌ شائكةٌ ذات خضرةٍ باهتة خطمتها رياح البحر الشديدة ، وهشمتها أشعة الشمس المحرقة . ورغم هذا بقيت ضاربة بجذورها تحت تلك الصخرة ، دون أن تخلع عليها ظلها ، كأنها حسرة مضنية ، تأصلت جذورها فى القلب . وغبار الثرى كسا أوراقها طبقة بيضاء ، فاستلقت على الأرض ، وانعطفت أفنانها ، فجذمتها أسنان الماعز الحادة .

ثم تتفتح زهرة ناصعة فى فصل الربيع ، كأنها رضاب الثلج ، فتفخر هذه الشجيرة يوماً أو بعض يومين ،

ولا تلبث الريح بعد ذاك أن تطوقها ، وتنثر ورقها ، قبل أن ينتشر عرفها الشذىّ ؛ وعصفورٌ صغير ، شجى اللحن ، حزين النفس ، يقع على غصن الشجيرة المنعطف فيغرد تغريداً شجياً ، هو إلى الحزن والبكاء ، أقرب منه إلى الترجيع والغناء ! —

القصص

عـــزاء . . . !

للأستاذ لبيب السعيد

قطع الشك اليقين . إن سكوت أبيه هو سكوت الموت . لقد مات ككل الذين ماتوا من الأهل والجيران والمعارف ، وإلا فما هذا الصراخ فى البيت ، ولم النحيب ، ولم احتشاد هؤلاء الأقارب والقريبات وقد أقبلوا بقطع من الليل على غير عادة ؛ ولأية مناسبة يقيم الفراشون سرادقا ، وفيم قول الناس : تجلد .. البقية فى حياتك ! بل — وما أشد وما أعظم كيف يتحدث إليه شيوخ الأسرة كالمستشيرين فى أمور فاجعة : الكفن والمغسلين والمقبرة والمقرئين .. ، وكيف طلعت صحف النهار حاشرة اسم أبيه فى زمرة الموتى ، وكيف ترد عليه البرقيات بالعزاء من شتى الجهات ؟

الأمر إذن لا ريب فيه . وأخواته إذ تنفرد كل منهن الآن فى حجرة باكية ولهى ، إنما يبكين أباهن الذى انتاشه الموت منهن فجأة ، والذى يدركن على غرارة صباهن أنهن بعده أصبحن ولا رجاء لهن ولا جناح يرف عليهن أصبحن بذل اليتيمات . وإخوته وهم لم يتخطوا بعد سن اليفاعة إذ يلبسون الأربطة السوداء ويذيلون الدموع فى حزن أخرس تارة وحزن ثائر تارة ، و يسيرون مترنحين يتحاملون على أنفسهم ، إنما يقع لهم هذا لأن الدهر الضرار بت آمالهم ورابهم فى أبيهم . وأمه إذ تذرع البيت ذاهلة حيرى مولهة إنما تفعل لأن مصابها فيمن هو مَن هولها ولبناتها وبنيها ، سلبها سكينتها وهد أعصابها هدا .

وانفجر « فؤاد » يبكى ، لقد كان عليه — فيما يحس — أن يبكى لأمه وأخواته وإخوته ، وأن يحزن ويخاف لا بقلب واحد ولكن بثمانية قلوب .

وسار خلف نعش أبيه فياض الشؤون يعض على شفتيه كالمتصبر ، أو يفتحهما عن ابتسامة هستيرية مزعجة ، ويسكت فترة لينطق بكلمات مضطربة فترة أخرى .

وأوقفوه فى الليل عند باب السرادق يتلقى العزاء مع كبار الأسرة ، فكان يتلقى ألفاظ المواساة بوجوم صامت أليم . كانت هذه الألفاظ لا تكاد تفتق سمعه ، كانت تسبح لديه ، وكان أقواها وأفصحها أعجز من أن يشفى داءه الثائر أو يداوى جرحه الفائر . وانفض المعزون وانفض « فؤاد » إلى نفسه ...

ما أعظم فجيعته ! أبوه مات ، وكان على أبيه أن يموت ماجداً كما مات من لم يكدحوا فى الحياة قدر كدحه حتى ممن عرفهم فؤاد فيما اجتاز من شبابه . ولكن ، وا ذلاه ! إن الحياة لم تمكن أباه من شىء ، لقد أفقدته التجارة ثروته ، ولم يدع له الجهاد فى سبيل الرزق فرصة فسيحة للجهاد فى سبيل غرض كبير ... لقد مات بعد طول النصب وفرط اللغوب ولكنه لم يورث بنيه رفعة ولا ثروة ولا مجدا ... تركهم بقلوب كسيرة ، ومثله كان جديراً بما بذل من ذات نفسه أن يترك بنيه فى مقام كريم ونعمة .

هذه أفجع شعب المصيبة ! هكذا قال فؤاد لنفسه .

وجاء شيخ الحارة ، ومعه معاون المجلس الحسبى ، يحصيان تركة الميت ...

إيه أيتها الزهرة ، التى طالما أذوتها الحياة ،

رددى القول معى : « ألا توجد هناك أرض ، نعود فيها إلى الحياة ثانية ، فتزدهر فيها أنفسنا ونعيش فيها عيش السعداء الناعمين ؟

هيا اصعدى إذن ! إصعدى أيتها الروح الذاوية ، وتذكرى مضىّ الساعات الخالية . إن ذكرياتك المحزنة لتساعدنى أن أنفث زفرة الحزن الباقية !

إذهبى معها ، أيتها النفس حيث تذهب وتمضى ! ودعينى لوحدى أيتها الأفكار المضطربة

لقد طفح قلبى بالذكرى

فدعينى أنوح وأبكى

أديب لحمى

(حماه : سوريا)

ياخجلتنا ! إن التركة ليست إلا حطام ثروة . كل شيء أودى به الحرص على شيء واحد نشأ « فؤاد » فرأى أباه يردد لفظه ويتغنى بمعانيه : الشرف .

وأحس فؤاد بتمه ويتم أخوته أقوى ما يكون الاحساس ، وتبدت له المصيبة فادحة مروعة ، فبيتهم اليوم بيت أرملة وصبيان وصبيات لا مال لهم ، فهم حريون ألا ينجحوا فى الحياة لأنهم فقدوا عصبها . وهم بعد لا يملكون الاسم الضخم الذى يوارون فيه فقرهم ، أو الجاه البعيد الذى يعتصمون به من العالم الساخر .

وريع فؤاد ، ورخصت عبراته ، فهى مبذولة كلما رأى إخوته وأمه ، وكلما رأى الأقارب أو الأباعد ، وكلما رأى أحباءه ، وكلما رأى أعداءه ، وكلما رأى غنيا أو ماجدا ، وكلما رأى فقيرا أو مغموراً ، وكلما سمع عن المباهج أو عن الأحزان .

وشعر أنه ما دام كبير إخوته فقد أصبح أباً لهم بعد أبيهم ، وعليه أن يضمن لهم دوام الدعة ، وأحس أن بينه وبينهم فرقا كبيراً فى السن . إن الأربعة والعشرين عاما التى سلخها طفرت فجأة فصارت ستة وخمسين كم كانت سن أبيه .

وجاءت ليلة الجمعة الأولى ، فأضاء فناء البيت والمناظر ، وقعد يستقبل المواسين من ذوى قرباه ومن خاصة أبيه ، والحزن ينهشه نهشا ، والجزع على مستقبله ومستقبل إخوته وأخواته الذى مازال فى ضمير الغيب يهفو بقلبه .

واستمع فى غير اكتراث كعادته إلى كلام المواسين ، وغلبه البكاء كعادته أيضا فانخرط فيه …

وجاء رجل لا عهد لفؤاد به تحف به شمائل الطيبة وينم مظهره عن يسار ؛ جاء يسأل : أليس هذا هو بيت المرحوم الشيخ حامد أبو ابراهيم ؟

— بلى هو ، تفضل …

ودخل ، وهو يهتف بالجالسين : عظم الله أجركم !

وشرب القهوة ، ثم اتجه بوجهه إلى فؤاد الذى كان إلى جواره وسأله : أنت كبير إخوانك يا بنى !

— نعم .

أجمل الله عزاءكم ياحبيبى ، ورعاكم الله الكريم ! لقد قرأت نعى أبيكم العظيم فى الجريدة ، فآثرت الحضور بنفسى لقضاء حق التعزية .

ودهش فؤاد للنعت الكبير الذى يضفيه الرجل على أبيه ، فمتى كان مثل أبيه عظيما وهو الرجل الذى مات ولم يخلف ثروة تدفع الخجل على الأقل أمام رجال المجلس الحسبى ؟ إن العظيم فى المجتمع هو الذى يورّث ذريته بيوتا وطينا وغلات وجواميس وحميرا ، ولكن أباه أفنى كل شيء قبل سفرته البعيدة . لقد مات وماله ما يخلد ذكره أو حتى ما يكفل ذكر اسمه يوما ، ولقد ترك من خلفه ذرية ضعافاً يخاف عليهم …

ووضع الرجل يده على كتف فؤاد ، واتجه به إلى منظرة ليس فيها زحمة ، وحدثه : إسمع يابنى ، إن مصابكم كبير حقاً . لقد عرفت أباك لأول مرة منذ عشرين عاما . والظن أنك لا تعرف ذلك . كان أبوك وقتئذ عنوان التاجر الناجح ولو أنه كان محدود رأس المال . وجئت إليه أشترى صفقة أرز ، ولم يكن معى غير مئتى جنيه آملت أن أدفعها له عربونا عن الصفقة على أن أبيعها حالا فأتمكن من أداء حقها والانتفاع بربحها . وتضمنت الشروط أن أدفع باقى الثمن فى عشرة أيام وإلا صار العربون حقا له . وإذا تحسنت الأسعار فله أن يعتبر البيع باطلا . ذلك يابنى كان ومازال العرف التجارى السائد .

وخطر لى فجأة السفر إلى الاسكندرية لبيع الصفقة الكبيرة ففجأنى حادث اصطدام أدخلنى المستشفى شهراً لم يدر خلاله أحد من أهلى أو معارفى شيئا عنى . وكنت لاقيت الحادث فى أجل مستأخر فسلمت .

وغادرت المستشفى إلى بلدى ، فكيف كانت السوق وقتئذ ؟ لقد عرفت والحسرة تقطع فؤادى أن السعر ارتفع إلى نحو الضعف فقدرت فى شأن الصفقة ما لابد من تقديره ، وأيست من العربون ، ودخلت بيتى مهموماً محزوناً . ولم أكد أطمئن زوجتى على حالى ، حتى قدمت إلى برقية بتوقيع أبيك نصها : « نقدر أنك تأخرت لسبب قاهر ، فاطمئن . البضاعة لك » ولم أصدق ما قرأت ، وتخالجنى الريب ، أتكون خدعة من أحد عرف بالأمر ؟ أتكون سخرية من سمسار شامت ؟ أتكون . .

أتكون .. ؟ وقدمت على أبيك فى متجره توا ، ومعى مصوغات امرأتى وبناتى ، ووجه الأمل يبيض فى وجهى حيناً ويسود حيناً فاذا بأبيك يستقبلنى مبتسما كأن لم يكن تأخير ، وكأن لم تكن شروط لصالحه .

وعرضت عليه — وكرمه الرائع يبهرنى — أن يشاركنى ربح الصفقة ، فرد فى شـدة كريمة : هذا لن يكون !! وكانت هذه الصفقة بالذات بدء تقدمى فى الحياة .

وأخرج الرجل من حافظته رقعة كاد البلى يتلفها ، وأطلع عليها « فؤاداً » . فأمعن فؤاد النظر إليها فى استغراب بالغ . إنها من أبيه حقا ، وإن عليها لخاتم مصلحة البرق فى المدينة من حوالى عشرين عاما حقا. واستطرد الرجل قائلا : هذه يابنى شهادة العظمة فى أبيك . وإنى لأحتفظ بها تقديراً لمأثرته ، بل تبركا بمروءته .

وربت الرجل كتف فؤاد وهو يقول : كفكف دموعك يابنى ، هذه قصة أبيك ، ألا ترضى بها عزاء !

ورفع فؤاد رأسه الخافض، وابتسم فى رضى وازدهاء ، وكأنه أمسك بزمام مستقبله ومستقبل ذويه ، وكأنما أضاءت له الظلمات، وكأنما شاهد عناية الله تشجعه وتحف إخوته وتكلؤهم جميعاً .

وختم القرئون السهرة ، فنهض المعزون وفيهم الرجل ، وخف فؤاد إلى الباب يشكر لهم مواساتهم ، وما انصرفوا حتى صعد إلى أمه وإخوته وأخواته ، يقفز إليهم السلم قفزا غير خاش دموع أمه التى كانت تحز قلبه ، ولا وجل من إجهاش أخواته الذى كان يهدم له انهداما ، صعد غير متعثر ولا مضطرب ونادى :

يا أولادى ! — هكذا ينادى فؤاد الآن أسرته — جاءنا العزاء ! ها كم قصة أبيكم ، لكم من روحه قدوة ووحى وإمام وأسمعهم القصة ...

ونظر بعضهم إلى بعض فى زهو ... وكأنما امتلأوا قوة ، وكأنما انبثق الأمل فى نفوسهم انبثاقا ، كأنما انتشر عليهم رواق الأمان فجأة . وعلت وجوههم ابتسامات حلوة ، وترقرقت فى المآقى الدموع : دموع الفرح لا دموع الأحزان .

لبيب السعيد

العدد ٦٨٢ – الاثنين ٢٩ يوليو ١٩٤٦ – السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

٢٧٠٩

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 268

Lundi—29—7—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٢ «القاهرة فى يوم الإثنين أول رمضان سنة ١٣٦٥ — ٢٩ يوليو سنة ١٩٤٦» السنة الرابعة عشرة

النقد عنـــــد العرب

وأسباب ضعفهم فيه

— ٢ —

فأنت ترى أن الموازنة التى قام بها الآمدى إنما كانت بين أبيات مفردة اختارها من مطالع أبى تمام فى الوقوف على الديّار ونحوه [1]، واختار ما يقابلها من مطالع البحترى، ثم علق على هذه الأبيات تعليقاً موجزاً لا يتصل بموضوع القصيدة ولا وحدتها ولا غرضها ولا سياقها، كأنها لم تكن عضواً فى جسم ولا جزءاً من كل؛ ولذلك تفرغ من الكتاب وأنت لا تدرى أى الشاعرين أفضل. وهذا النحو الذى نحاه الآمدى فى الموازنة والحكم هو الغالب على رجال الأدب فى تلك العهود. فكثيراً ما تجدهم يقولون: فلان أوصف الشعراء للقوس، أو أنعتهم للخيل، أو أمدحهم للناس، لأنه قال بيتاً واحداً فى وصف قوس أو نعت فرس أو مدح ملك. ولم أقف على موازنة بين قطعتين كبيرتين من قصيدتين إلا فى كتاب (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر) لضياء الدين نصر بن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٧ فقد وازن بين قصيدتين فى وصف الأسد للبحترى والمتنبى، وبين قصيدتين فى الرثاء لأبى تمام والمتنبى، وإن لم تكن الموازنة تامة من كل وجه ...

ومن الظواهر التى تسترعى نظر الباحث أن اللغويين والبيانيين قد أغفلوا نقد المنثور إلا ما اتصل بالقرآن الكريم والحديث الشريف. وقد ظهر أثر هذا الإغفال واضحاً فى كتاب نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر فإنه بكتب البيان والبديع أشبه. ولعله لو وجد ما يحتذيه فى هذا الباب من كلام الأدباء لما بان عجزه ووضح قصوره. وما ذكره ابن الأثير فى كتاب المثل السائر إنما دار على الرسائل المسجوعة دون غيرها من أنواع النثر.

فما سبب قصور العرب عن النقد البيانى، وما علة هذا النقص الذى استتبع نقصاً مثله فى تاريخ الأدب؟

سبب ذلك أن أسبق الأدباء إلى النقد هم اللغويون والنحاة. كانوا هم قضاة الشعر فى أواخر القرن الثانى وفى القرن الثالث، إليهم يحتكم الشعراء، وعنهم يأخذ الملوك والأمراء، حتى قال الخليل بن أحمد: «إنما أنتم معشر الشعراء تبع لى، وأنا سُكان السفينة إن قرظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم». وغرض هؤلاء اللغويين والنحاة من النظر فى الشعر إنما كان جمع الشواهد على غريب الألفاظ وصحة القواعد، وتسجيل معانى الشعر ومَن ابتكرها ومن سرقها. فكلما كانت القصيدة أحفل بالشواهد وأجمع للغريب كانت أجود، وكلما كانت المعانى أرسخ فى القدم وآصل فى الابتكار كانت أفضل. ومن ذلك كان أغلب النظر مقصوراً على الأبيات المفردة الشاهدة على صحة الكلمة، أو سلامة القاعدة، دون نظر إلى علاقتها بالقصيدة. وكان الرأى مجمعاً على تقديم الشعر الغريب على المأنوس، وتفضيل الشاعر القديم على

(١) ذلك فى الجزء المطبوع وقد علمنا أن للكتاب بقية قيمة لم تطبع

المحدَث . وقد أغرقوا فى إيثار الجاهلى على الإسلامى من غير ميزة إلا الأقدمية ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه أحداً » . وكان شعراء القرن الثانى ينكرون ولا بد على أقطاب اللغة والأدب هذا التحكم ويسألونهم الإنصاف ، فقد روى صاحب الأغانى أن حماداً الأرقط قال : « لقينا ابن مناذر بمكة ، فأنشدنى قصيدته : كل حى لاقى الحِمام فَمودِ ... ثم قال لى : اقرأ أبا عبيدة السلام وقل له : يقول لك ابن مناذر : اتق الله واحكم بين شعرى وشعر عدى بن زيد ، ولا تقل ذلك جاهلى وهذا إسلامى ، وذاك قديم وهذا محدث ، فتحكم بين العصرين ، ولكن احكم بين الشعرين ، ودع العصبية »!

وأخذ هذا الإنكار ينتشر ويشتد كلما ورفت ظلال الحضارة فصقلت الألسنَ وأرهفت الأذواق ، حتى هب جماعة من بلغاء الكتاب فى أوائل القرن الثالث ينقضون أحكام اللغويين والنحاة ويبنون الأحكام الأدبية على قواعد أقرب إلى التسوية والموضوعية ؛ فقد قال الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ، ومحمد بن الزيات » . وقال أيضاً : « رأيت أناساً يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا فى رواية غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفى أى زمان كان » . وقال عبد القاهر فى دلائل الإعجاز : « روى أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر سأل البحترى عن مسلم وأبى نواس أيهما أشعر ؟ فقال أبو نواس . فقال : إن أبا العباس ثعلباً لا يوافق على هذا فقال : ليس هذا من شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، إنما يعلم ذلك من دُفع فى سلك طريق الشعر ومضايقه وانتهى إلى ضروراته »

ثم سلك ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هذا المسلك فقال فى كتاب الشعراء : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار إليه ، سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل بين الفريقين وأعطيت كلاً حظه ووفرت عليه حقه ؛ فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله . ولم يقصر الله العلم بالشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ؛ وكان عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم . وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا ، كالخزيمى والعتابى والحسن بن هانىء وأشباههم . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه وأثنينا عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه »

وأخذ مذهب التسوية بين القدامى والمحدثين يذيع على الأفواه ويُروى فى الكتب ، حتى شاع الترف والسرف والظرف فى حياة الناس فتفننوا فى أساليب العيش ، وتأنقوا فى أفانين الكلام ، واستحدث العراقيون ألوان البديع ، وأخذ البيانيون ينقبون عن أنواعه فى عبقريات المولدين ، كما كان اللغويون والنحاة ينقبون عن شواهد اللغة والنحو فى كلام الجاهليين والمخضرمين ، فبان شأوهم على المتقدمين فى هذا المضمار ، وأخذت سوقهم تنفق ، وكفتهم ترجح ، حتى ظهر فى العلماء من يتعصب لهم ويتعزز بهم . وأشهر هؤلاء ابن الأثير ، فقد ناضل عنهم فى مواضع متفرقة من كتابه المثل السائر ، ومن ذلك قوله . « ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل واللطيف ، فمتى وُجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل . ولقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس ، وأبى عبادة البحترى ، وأبى الطيب المتنبى ؛ وهؤلاء الشعراء هم لاتُ الشعر وعُزّاه ومَناته ، الذين ظهر على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد ضمت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء » وقال فى موضع آخر : « إن فى الشعراء المتأخرين مَن فاق المتقدمين . والذى أدانى إليه نظر

من صميم الحياة :

قصـــة أب . . . !

للاستاذ على الطنطاوى

[مهداة إلى أخى الأستاذ عبد المنعم خلاف الذى لا يزال يؤمن بالانسان ... !] « على »

دخل علىَّ أمس ، بعد ما انصرف كتاب المحكمة ، ولبست معطفى لأخرج ، رجل كبير يسحب رجليه سحباً لا يستطيع أن يمشى من الضعف والكبر . فسلم ، ووقف مستنداً إلى المكتب وقال :

إنى داخل على الله ثم عليك(1) ، أريد أن تسمع قصتى ، وتحكم لى على من ظلمنى .

قلت : تفضل ، قُلْ أسمع .

قال : على أن تأذن لى أن أقعد ، فوالله ما أطيق الوقوف .

قلت : أقعد ، وهل منعك أحد من أن تقعد ؟ أقعد يا أخى ، فان الحكومة ما وضعت فى دواوينها هذه الكراسى وهذه الأرائك الفخمة إلا ليستريح عليها أمثالك من المراجعين الذين لا يستطيمون الوقوف ، ما وضعتها لتجمل من الديوان (قهوة) يؤمّها (البطالون ...) الفارغون ، ليشتغل الموظف بحديثهم عن أصحاب المعاملات ... ويضاحكهم ويساقيهم الشاى والمرطبات ، والناس قيام ينتظرون لفْتَة أو نظرة من الـ (بك) !

لا . اسنا نريدها (فارسية) كسروية فى المحكمة الشرعية ، فاقعد مستريحاً فانه كرسى الدولة ، ليس كرسىّ أبى ولا جدى ، وقل ما تريد ...

* * *

قال : أحب أن أقص القصة من أولها ، فأرجو أن يسعنى صبرك ، ولا يضق بى صدرك ، وأنا رجل لا أحسن الكلام من أيام شبابى ، فكيف بى الآن وقد بلغت هذه السنّ ، ونزلت علىَّ المصائب ، وركبتنى الأمراض ... ولكنى أحسن الصدق ولا أقول إلا حقاً ...

كنت فى شبابى رجلا مستوراً أغدو من بيتى فى حارة (كذا) على دكانى التى أبيع فيه الفجل والباذنجان والعنب ،

(1) تعبير عامى لا بأس به ، وقد أبقينا على مثلها فى حديث الرجل

الاجتهاد دون التقليد ، أن جريراً والفرزدق والأخطل أشعر ممن تقدم من شعراء الجاهلية ، وبينهم وبين أولئك فرق بعيد . وإذا استُفتيت قلت إن أبا تمام والبحترى والمتنبى أشعر من الثلاثة المذكورين ، وليس عندى أشعر منهم فى الجاهلية ولا فى الإسلام ... وإذا أنصف الناظر وترك التحامل ثم ترك التقليد عرف أن حرف الميم وحرف اللام من شعر أبى الطيب المتنبى قد ضمنا من الجيد النادر ما لم يتضمنه شعر أحد الفحول من شعراء العرب » .

مما تقدم نستخلص أن علماء اللغة والنحو والبيان لم ينظروا إلى القصيدة باعتبارها كُلاً تتساوق أجزاؤه إلى غرض واحد ، وإنما نظروا إلى ما تشتمل عليه أبياتها من غريب الكلم أو أصيل التراكيب أو محسنات اللفظ ، وجعلوا ذلك سبب التفضيل وعلة الاختيار وأساس الحكم . وقلّ منهم من فطن إلى وحدة . القصيدة كالحصرى القيروانى حين أشار إلى ذلك فى زهر الآداب وروى عن الحاتمى قوله : « مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفّى معالمه . وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون فى مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شواهد النقصان ، ويقف منهم على محجة الاحسان ، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها من جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم » ؛ ولكنهم لم يبسطوا هذا الرأى ولم يطبقوه فيما عالجوه من النقد والموازنة .

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

وما يكون من خُضر الموسم وثمراته ، فأربح قروشاً معدودات أشترى بها خبزى ولحمى ، وآخذ ما فضل عندى من الخُضر فيطبخه (أهل البيت[1]) ونأكله وننام حامدين ربنا على نعمائه ، لا نحمل هماً ولا نفكر فى غد ، ولا صلة لنا بالناس ولا بالحكومة ، ولا نطالب أحداً بشىء ولا يطلب منا شيئاً . ولم أكن متعلماً ولا قعدت فى مدرسة ، ولكنى كنت أعرف كيف أصلى فرضى ، وأحسب دراهمى ... ولقد عشت هذا العمر كله ولم أغش ولم أسرق ولم أربح إلا الربح الحلال ، وما كان ينغّص حياتى إلا أنه ليس لى ولد ، فجربنا الوسائل وسألنا القابلات ولم يكن فى حارتنا طبيب ولم نحتجْ إليه . فقد كان لنا فى طبّ (حُسُو العطار) وزُهوراته وحشائشه ما يغنينا عن الطبيب والصيدلى . وإذا احتجنا إلى خلع ضرس فعندنا الحلاق ، أما أمراض النساء فردّ أمرها إلى القابلة ، ورحم الله أم عبد النافع قابلة الحارة ، فقد لبثت أربعين سنة تولد الحاملات ولم تكن تقرأ ولا تكتب .

أقول إنا سألنا القابلات والعجائز فوصفن لنا الوصفات فاتخذناها ، وقصدنا المشايخ فكتبوا لنا التمائم فعلقناها ، فلم نستفد شيئاً ؛ فلم يبق إلا أن ننظر أول جمعة فى رجب لنقصد (جامع الحنابلة)[2] ، فلما جاءت بعثت (أهل البيت) فقرعت حلقة الباب وطلبت حاجتها فنالت طلبها[3] ... وحملت ...

وصرت أقوم عنها بالثقيل من أعمال المنزل لأريحها خشية أن تسقط حملها وأكرمها وأدللها . وصرنا نعد الأيام والساعات حتى كانت ليلة المخاض فسهرت الليل كله أرقب الوليد ، فلما ابتلج الفجر سمعت الضجة وقالت (أم عبد النافع) : البشارة يا أبا ابراهيم ! جاء الصبى .

ولم أكن أملك إلا ريالا مجيدياً واحداً فدفعته إليها .

وقلّبنا الصبى فى فرش الدلال ، إن ضحك ضحكت لنا الحياة ، وإن بكى تزلزلت لبكائه الدار ، وإن مرض اسودت أيامنا وتنغص عيشنا . وكلما نما أسبوعاً كان لنا عيد ، وكلما نطق بكلمة جدت لنا فرحة ، وصار إن طلب شيئاً بذلنا فى إجابة مطلبه الروح ...

وبلغ سن المدرسة ، فقالت أمه : إن الولد قد كبر فماذا نصنع به ؟

قلت : آخذه إلى دكانى فيتسلى ويتعلم الصنعة .

قالت : أيكون خضرياً ؟

قلت : ولم لا ؟ أيترفع عن مهنة أبيه ؟

قالت : لا والله العظيم ! لابد أن ندخله المدرسة مثل عصمه ابن جارنا سموحى بك . أريد أن يصير (مأموراً) فى الحكومة فيلبس (البدلة) والطربوش مثل الأفندية ...

وأصرت إصراراً عجيباً ، فسايرتها ، وأدخلته المدرسة ، وصرت أقطع عن فمى وأقدم له ثمن كتبه . فكان الأول فى صفه ، فأحبه معلموه وقدروه وقدموه ...

ونجح فى الامتحان ، ونال الشهادة الابتدائية . فقلت لها : يا امرأة ! لقد نال ابراهيم الشهادة ، فحسبنا ذلك وحسبه وليدخل الدكان .

قالت يوه ! ويلى على الدكان ... أضيع مستقبله ودراسته ؟ ! لا بد من إدخاله المدرسة الثانوية .

قلت : يا امرأة ، من علمك هذه الكلمات ؟ ما مستقبله ودراسته ؟ أيترفع عن مهنة أبيه وجده ؟ قالت : أما سمعت جارتنا أم عصمة كيف تريد أن تحافظ على مستقبل ابنها ودراسته ؟ قلت : يا امرأة . اتركى البكوات ... نحن جماعة عوام مستورون بالبركة ، فما لنا وتقليد من ليسوا أمثالنا ؟

فولولت وصاحت : ودخل الولد الثانوية ، وازدادت التكاليف فكنت أقدمها راضياً ... ونال البكالوريا .

قلت : وهل بقى شىء ؟

قال الولد : نعم يا بابا . أريد أن أذهب إلى أوربا

قلت : أوربا ؟ وما أوربا هذه ؟ !

قال : إلى باريز ...

قلت : أعوذ بالله ! تذهب إلى بلاد الكفار ؟ والله العظيم إن هذا لا يكون !

وأصر وأصررت وناصرته أمه ، فلما رأتنى لا ألين ، باعت سوارى عرسها وأقراطها ، وذلك كل ما لها من حلى اتخذتها عدة على الدهر ، ودفعت ثمنها إليه فسافر على الرغم منى !

وغضبت عليه وقاطعته مدة ، فلم أرد على كتبه ، ثم رق قلبى وأنت تعلم ما قلب الوالد ؟ وصرت أكاتبه وأسأله عما يريد ... فكان يطلب دائماً . .

(١) كذلك يكنى الشاميون عن الزوجة إلى اليوم على عادة العرب من كراهية التصريح بذكرها .

(٢) فى الصالحية على سفح جبل قاسيون وكان يسمى دير الحنابلة وكان قائماً قبل أن يبنى آل قدامة حى الصالحية من نحو ثمانمئة سنة .

(٣) خرافة دمشقية وثنية كان أستاذنا الشيخ بهجة البيطار يشدد الحملة عليها كل سنة .

ارسل لى عشرين ليرة ... ارسل لى ثلاثين ... فكنت أبقى أنا وأمه ليالى بطولها على الخبز القفار وأرسل إليه ما يطلب !

وكان رفاقه يجيئون فى الصيف وهو لا يجيء معهم ، فأدعوه فيعتذر بكثرة الدروس ، وأنه لا يحب أن يقطع وقته بالأسفار !

ثم ارتقى فصار يطلب مئة ليرة . . وزاد به الأمر آخر مرة فطلب ثلاثمئة !

تصور يا سيدى ما ثلاثمئة ليرة بالنسبة لخضرى تجارته كلها لايساوى ثمنها عشرين ليرة ، وربحه فى اليوم دون الليرة الواحدة ؟ ويا ليته كان يصل إليها فى تلك الأيام التى رخصت فيها الأسعار ، وقل العمل ، وفشت البطالة ، ثم إنه إذا مرض أو اعتل علة ، بات هو وزوجته على الطوى ... فكتبت إليه بعجزى ونصحته ألا يحاول تقليد رفاقه ، فإن أهلهم موسرون ونحن فقراء فكان جوابه برقية مستعجلة بطلب المال حالا !

وإنك لتعجب يا سيدى إذا قلت لك إنى لم أتلق برقية قبلها فى عمرى . فلما قرع موزع البريد البـاب ودفعها إلى ، وأخذ إبهام يدى فطبع بها فى دفتره ، انخرطت كبدى من الخوف ، وحسبتها دعوة من المحكمة ، وتوسلت إليه وبكيت ، فضحك اللعون منى وانصرف عنى ، وبتنا بشر ليلة ما ندرى ماذا نصنع ، ولا نعرف القراءة فنقرأ ما فى هذه الورقة الصفراء ، حتى أصبح الله بالصباح ولم يغمض لنا جفن ، وخرجت لصلاة الغداة فدفعتها لجارنا عبده أفندى فقرأها وأخبرنى الخبر ، ونصحنى أن أرسل المبلغ ، فلعل الولد فى ورطة وهو محتاج إليه !

فبعت دارى بنصف ثمنها ، أتسمع يا سـيدى ؟ بعت الدار بمئتى ليرة ، وهى كل ما أملك فى هذه الدنيا ، واستدنت الباقى من مراب يهودى دلونى عليه ربا تسعة قروش عن كل ليرة فى الشهر ، أى أن المئة تصير فى آخر السنة مئتين وثمانية ! وبعثت بذلك إليه وخبرته أنى قد أفلست !

وانقطعت عنى كتبه بعد ذلك ثلاث سنوات ، ولم يجب على السيل من الرسائل التى بعثت بها إليه ! !

ومر على سفره سبع سنين كوامل لم أر وجهه فيها ، وبقيت بلا دار ، ولاحقنى المرابى بالدين ، فعجزت عن قضائه ، فأقام على الدعوى ، وناصرته الحكومة على لأنه أبرز أوراقاً لم أدر ما هى فسألونى : أأنت وضعت بصمة اصبعك فى هذه الأوراق ؟

قلت : نعم . فحكموا على بأن أعطيه مايريد وإلا فالحبس . وحُبست يا سيدى . نعم حبست وبقيت (المرأة) وليس لها إلا الله ، فاشتغلت غسّـالة للناس ، وخادمةً فى البيوت ، وشربت كأس الذل حتى الثمالة

ولـما خرجت من السجن قال لى رجل من جيراننا : أرأيت ولدك ؟ قلت : ولدى ؟ ! بشّرك الله بالخير . أين هو ؟ قال : ألا تدرى يا رجل أم أنت تتجاهل ؟ هو موظف كبير فى الحكومة ويسكن مع زوجته الفرنسية داراً فخمة فى الحىّ الجديد

وحملت نفسى وأخذت أمه وذهبنا إليه ، وما لنا أمنيّة فى العيش إلا أن نعانقه كما كنا نعانقه صغيراً ، ونضمه إلى صدورنا ونشبع قلوبنا منه بعد هذا الغياب الطويل . فلما قرعنا الباب ، فتحت الخادمة ، فلما رأتنا اشمأزت من هيئتنا ، وقالت : ماذا تريدون ؟ قلنا : نريد ابراهيم . قالت : إن البك لا يقابل الغرباء فى داره ، إذهبا إلى الديوان . قلت : غرباء يا قليلة الأدب ؟ أنا أبوه . وهذه أمه.

وسمع ضجتنا فخرج ، وقال : ما هذا ؟ وخرجت وراءه امرأة فرنسية جميلة

فلما رأته أمه بكت وقالت : ابراهيم حبيبى ؟ ومدّت يديها وهمّت بالقاء نفسها عليه ، فتخلى عنها ونفض مامسته من ثوبه وقال لزوجته كلمة بالفرنساوى ، سألنا بعد عن معناها فعلمنا أن معناها (مجانين) !

ودخل وأمر الخادم أن تطردنا ... فطردتنا يا سـيدى من دار ولدنا !

وما زلت أتبعه حتى علقت به مرة فهددنى بالقتل إذا ذكرت لأحد أنى أبوه وقال لى : ماذا تريد أيها الرجل ؟ دراهم ؟ أنا أعمل لك راتباً بشرط ألا تزورنى ولا تقول إنك أبى ! !

ورفضت ياسيدى الراتب وعدت أستجدى الناس ، وعادت أمه تغسل وتخدم حتى عجزنا وأقعدنا الكبر والمرض فجئت أشكو إليك فـاذا نصنع ؟

فقلت للرجل : خبرنى أولا مااسم ابنك هذا وما هى وظيفته ؟

فنظر إلىّ عاتباً وقال : أتحب أن يقتلنى ؟ !

قلت : إن الحكم لا يكون إلا بعد دعوى ، والدعوى لا تكون إلا بذكر إسمه .

قال : إذن أشكو شكاتى لله .

وقام يجرّ رجله يائساً ... حتى خرج ولم يعد !

على الطنطاوى

شريعة الكمال والخلود . . .

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

بينا فى مقالنا السابق كمال الشريعة الإسلامية وسعة مباحثها وعدالة أحكامها ، ونفينا عنها الشبهة الأولى التى وجهت إليها ، وهى قصورها ، وأثبتنا وفاءها بحاجات الأمم ومطالبها فى كل عصر بما فيها من نصوص محكمة ، وقواعد سامية ، وأصول على وجه الدهر قائمة

وفى هذا المقال ننظر فى الشبهة الثانية ، وهى أن العقوبات التى قدرتها الشريعة فى الحدود قاسية ، بل أسرف بعض الغالين فقال : إنها وحشية لا تتفق مع روح المدنية : فقد حكمت برجم الزانى إذا كان محصناً ، وبجلد غير المحصن مائة جلدة ، وقضت بقطع يد السارق ، وبجلد شارب الخمر والقاذف ثمانين جلدة .

ولدحض هذه الحجة وإزاحة تلك الشبهة نقول : إن جميع الشرائع والقوانين السماوية والوضعية ترمى فى غايتها إلى المحافظة على الضرورات الخمس : النفس والعقل والمال والنسل والدين ، إذ يترتب على التفريط فيها والاعتداء عليها التنازع والتظالم وسفك الدماء وفقد الأمن فى الأنفس والأموال والأعراض ، وانتشار المفاسد والشرور

ولكن القوانين الوضعية — وبخاصة القوانين الأوربية — تجانفت عن المحجة ، وحادت عن الجادة ، وتنكبت الصراط السوى ، فلم تستطع المحافظة عليها بما يقطع دابر الفساد ، وذلك لأنها لم تحرم الزنا إلا فى حالات معينة ، وأباحته عند الرضا فى أكثر الحالات محتجة بالمحافظة على الحرية الشخصية ، فكانت عاقبة ذلك كثرة اللقطاء الذين حرموا تربية الآباء وشفقتهم ، وانتشار الأمراض السرية التى تفتك بالصحة فتكا ذريعاً ، والإحجام عن الزواج الذى ترتب عليه بقاء كثير من النساء فى حالة من المسكنة والبؤس والتعس والشقاء . وفى الحالة المعينة التى حرمت فيها الزنا لم تفرض إلا أيسر العقوبات ، فظلت الحال على ما هى عليه من انتشار البغاء وتمكن الشر والفساد

أما الاحتجاج بالحرية الشخصية فمردود ، فإن من القواعد المسلم بها أن للانسان مطلق الحرية الشخصية إلا فيما يعود بالضرر على نفسه أو على غيره . وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة أن الزنا ضار بالزانيين صحيا وأدبيا ، ثم يتعدى الضرر منهما إلى غيرهما من أسرتيهما ، وهو تدنسهما بفضيحة الجناية على الأعراض ، وهى عند من لم تمسخ طبائعهم لا تقل ضررا عن التعدى على الأنفس بالقتل ، ولهذا ترى الأفراد فى الأمم حتى اليوم — خصوصا فى الأمم الشرقية ومنها مصر — يحفزهم دافع الشرف إلى الانتقام لأعراضهم ، وبذلك كثرت جرائم القتل من أجل الزنا.

كذلك أباحت هذه القوانين الغربية تعاطى المسكرات بحجة الحرية الشخصية ، وما دروا أن هذه الحرية قاتلة بشهادة الأطباء الذين قرروا ضررها وإيذاءها للجسم وتأثيرها فى الكبد .

هذا إلى إضاعتها للمال فى غير مصلحة ولا فائدة محققة ، وجنايتها على العقل ، وذلك شر عظيم قد يؤدى إلى مفسدة كبرى ؛ فقد يقتل السكر ، وقد يهجر زوجه وولده ويخرب بيته ، وقد يجنى حتى على عرضه . وليس أدل على ذلك مما قرأناه فى الصحف أن رجلا مدمنا هجرته زوجه لذلك ، فسطا فى غيبة عقله وضياع رشده على عرض ابنته الصغيرة ، ثم تعدى أيضا على عرض ابنه الذى لم يتجاوز إحدى عشرة سنة .

هاتان جريمتان متأصلتان فى نفوس البشر لأنهما صادرتان عن جبلة تزين للناس حب الشهوات . وقد رأيت أنهما مصدران لكثير من الشرور والآثام والمفاسد التى تنخر عظام الأمم ، وتدع المجتمع سقيما بالأوصاب والعلل الاجتماعية ، مهدداً بالانحلال والفناء .

أفترى مع هذا أن عقوبة الحبس أو التغريم زاجرة أو رادعة أو متكافئة مع الآثار السيئة والعواقب الوبيلة التى أسلفنا ذكرها ؟ لا شىء من ذلك يكون رادعا ، أو يكون من شأنه اجتثاث هذه الجرائم فلم يبق إلا أن تكون العقوبة بدنية لأنها أنفذ فى النفس أثرا ، وأشد وقعا ، وأبلغ فى زجر الجانين وردع غيرهم وأدنى إلى إصلاح النفوس وتطهير القلوب .

بقيت السرقة والقانون الأوربى يعاقب عليها كما تعاقب الشريعة الإسلامية ، غير أن العقوبة فى القانون الأول بغير القطع كالحبس ، وفى الشريعة الإسلامية بقطع اليد .

وحكم الشريعة أولى بالاتباع وأحق بالمراعاة وأجدر بالتقدير فإن السارق يأخذ خفية ويعتدى على صاحب المال فى غفلته ، فهو جبان فى اعتدائه ، نذل فى خديعته ، يستلب منه أعز شىء لديه بعد حياته وعرضه ، وقد يرتكب جريمة القتل مع السرقة ، بل كثيرا ما تقع هذه الجريمة كوسيلة يتذرع بها الى إتمام سرقته أو للفرار من تبعاتها ، فيقتل من غير تفريق ولا تمييز ، حتى الطفل فى مهاده ، والشيخ الهِمّ فى فراشه .

فإذا كانت عقوبة السارق . وهو الذى يهدد المجتمع بأمضى الأسلحة وأخبثها — هى الحبس ، فهل ينزجر بها ويرتدع ؟ ! وهل تؤثر فيمن تحدثهم أنفسهم بارتكاب هذه الجريمة ؟ ، وهل يتحقق بذلك الأمن على النفوس والأموال ؟ ! كلا ، ولهذا نرى السرقات لا تقل ولا تنقطع ، بل نراها تكثر فى مضاعفة وازدياد لأن العقوبة غير زاجرة ، ومن ثم نرى اللصوص فى هذا العصر الذى يزعم قادته أن قطع اليد لا يتفق مع روح المدنية — ينظمون أنفسهم ، ويكونون عصائب قوية مسلحة كأنها حكومة داخل حكومة ، لا يبالون الأموال ولا الأرواح ، كما نشاهد ذلك فى الولايات المتحدة وغيرها .

ولو كانت العقوبة بدنية فى مثل هذه الجرائم المهددة للأمن المثيرة للشر والفساد ، القاضية على راحة المجتمع وطمأنينته لا نحسم الشر من أصله ، ولقلت هذه الجرائم ، ولسلم المجتمع من رجزها وتطهر من رجسها — كما نشاهد آثار ذلك اليوم فى البلاد الحجازية فى عهد حكومتها السعودية ، وقد كانت من قبل مسلوبة الأمن لا يطمئن فيها مقيم ولا ظاعن على نفسه ولا على ماله .

وقد جاء فى تقرير بعثة الشرف المصرية الموفدة إلى الحجاز فى سنة ١٣٥٥ — الهجرية ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن تنفيذ حدود الله تعالى كفيل باستتباب الأمن وراحة البلاد ، وقاطع لدابر الفساد ، وأن تنفيذ أحكام شريعته يفضى إلى خير العواقب ، ويؤتى أطيب الثمرات — قالت البعثة فى هذا التقرير :

« لا يفوتنا أن نذكر مع الإعجاب حالة الأمن فى تلك البلاد — تعنى بلاد الحجاز — فإن الأمن هناك مستتب موطد الأركان فى كل مكان ، وبخاصة فى الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة وإلى عرفات وإلى المدينة المنورة ، مع كثرة القبائل الضاربة فى جوانبها ، وقد كانت من قبل مصدرا للسلب والاعتداء على حجاج بيت الله ، وفرض الضرائب غير المشروعة عليهم . ويرجع الفضل فى ذلك كله إلى يقظة رجال الحكومة العربية السعودية وضربهم على أيدى العابثين بأشد العقوبات كقطع يد السارق ، وقطع أيدى وأرجل قطاع الطريق من خلاف . ومما يدعو إلى تمام الرضا والإعجاب أن تنفيذ العقوبة مرة واحدة كاف غالبا فى عدم تكرار وقوع الجريمة التى تستوجبها » .

ذلك والشرع الإسلامى الحكيم لم يحدد العقوبات إلا فى أمهات الجرائم وكبائر المعاصى ، وهى التى يضطرب لها حبل الجماعات وتشقى بها الأمم ، وهى فى خمسة مواطن :

١ — فى الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، وهم قطاع الطريق .

٢ — والذين يقتلون النفس بغير حق

٣ — والذين يرمون المحصنات الغافلات

٤ — والزانية والزانى

٥ — والسارق والسارقة .

وما عدا ذلك من الجرائم لم يحدد العقوبات فيها ، بل ترك للحكام وأهل الرأى من العلماء والمجتهدين أمرها ليلاحظوا ملابسات الجريمة وحالة المجرم ، وما يناسب البيئة ويتفق مع أحوال الأمة فى مختلف عصورها ، وذلك ما أسلفنا شرحه فى مبحث التعزير .

وكان من حكمة الله — جل شأنه — ورحمته بالناس أنه بين لهم العقوبات فى المواطن الخمسة السابقة ، إذ لو وكل إلى عقولهم استنباطها — وهى جد خطيرة — لذهبت بهم الآراء كل مذهب ولعظم الاختلاف واشتد الخطب ، فكفاهم أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين مئونة ذلك ، وتولى بعلمه وحكمته ورحمته تقديرها ، ورتب على كل جناية ما يناسبها من العقوبة ويليق بها من النكال

على أنه لم يفت الشارع أن العقوبات فى الحدود بدنية ، وأن بعضها — لعظم الجرم — شديد كما فى الزنا ، وأن الخطأ إذا تبين بعد تنفيذها جسيم ، ولذلك احتاط لها عند إثبات أسبابها وتحقيق ما يوجبها ، ومن ذلك درء الحدود بالشبهات حتى صار قاعدة من قواعد الفقه الإسلامى ، والأصل فى تقريرها ما أخرجه الترمذى والحاكم من حديث عائشة : « أدرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ، فإن وجدتم للمسلم مخرجا فخلوا سبيله ، فإن الإمام

أن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة » ، وروى عنه صلى الله عيه وسلم : « ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعاً » :

بذلك البيان الذى ورد فى هذا البحث يقتنع كل منصف بأن العقوبات التى قدرها الشارع فى الحدود قد دعت إليها الحكمة واقتضتها مصلحة الأفراد وسعادة الجماعات وسلامة الأمم ، وبهذه الأحكام التى بينا لك وجوه المصلحة والنفع فيها تجلت لك حكمة الشرع الإسلامى فيما شرعه من الحدود ، ووضح لك أنها — دون سواها — هى التى تتقرر بها المصالح وتندفع بها الآثام والمفاسد . وبذلك ثبت كمال هذه الشريعة وسعتها وعدالة أحكامها ، وأنها بما قامت عليه من أصول وقواعد ، وبما تغذى به من الأحكام الاجتهادية — صالحة على الدوام لكل أمة فى أى عصر ، تفى بحاجتها ومطالبها وتساير ما يطرأ عليها من مختلف التطور والأحوال .

حسن أحمد الخطيب

راجع القياس في الشرع الاسلامي لابن تيمية و بن القيم ص ١٥٠ من الطبعة السلفية

تاريخ جحا . . .

للأستاذ كامل كيلانى

١ — **خرافة وجحوان :**

منذ خمسة عشر قرناً ، تنقص بضعة عقود — أعنى تنقص عشرات قليلة من السنين — ولد « خرافة » ذلكم القاص العربى المخضرم البارع ، الذى عاش فى العصرين : الجاهلى والإسلامى .

وقد عاصر « خرافة » — فيمن عاصر — جحوان الصحابى : جد « أبى الغصن عبد الله دجين بن ثابت » الملقب بجحا : شيخ الفكاهة الشرقية الباسمة الساحرة ، ورمز الدعابة الفلسفية المرحة الساخرة .

وقد كان « خرافة » — فيما يقول عارفوه — طرافاً وصافاً ، بارع المقال ، رائع الخيال ، يروى للناس عجائب من أخبار العفاريت والجن وطرائفهم وملحهم ، ويقص عليهم من ذلكم غرائب معجبة يزعم لمعاصريه أنها حدثت له .

٢ — **حديث خرافة :**

كان « خرافة » فيما يقول المفضل الضبى فى أمثاله — معاصراً للنبى ، وقد حدثه ببعض أحاديثه فأعجب بها ، كان يحدث الناس أحاديث طريفة شائقة ، منها الحديث التالى :

خرج « خرافة » — ذات ليلة — فلقى ثلاثة من الجن فسبوه (أى : أسروه) فقال أحدهم : « نعفو عنه » وقال الثانى : « نقتله » ، وقال الثالث : نستعبده (أى : نجعله عبداً لنا) . »

فبينما هم يتشاورون — فى أمره — إذ ورد عليهم رجل ، فقال « السلام عليكم » فقالوا « وعليك السلام » قال « وما أنتم ؟ » قالوا : « نفر (أى : جماعة) من الجن أسرنا هذا الرجل ، فنحن نأتمر فى أمره »

فقال : « إن حدثتكم حديثاً عجيباً أتشركوننى فيه ؟ » قالوا : « نعم » قال :

« إنى كنت ذا نعمة ، فزالت وركبنى دين ، فخرجت هارباً ، فأصابنى عطش شديد ، فسرت إلى بئر ، فنزلت لأشرب ، فصاح بى صائح من البئر ، فخرجت منها ولم أشرب .

فغلبنى العطش فعدت ، فصاح بى ، ثم عدت الثالثة فشربت ولم ألتفت إليه فقال : اللهم إن كان رجلا فحوله امرأة ، وإن كانت امرأة فحولها رجلا . »

فإذا أنا امرأة .

فأتيت مدينة فتزوجنى رجل ، فولدت منه ولدين ، ثم عدت إلى بلدى فمررت بالبئر التى شربت منها ، فصاح بى — كما صاح فى الأول — فشربت ولم ألتفت إليه . فدعا — كالأول فعدت رجلا كما كنت .

ثم عدت إلى بلدى فتزوجت امرأة فولدت منها ولدين . فلى اثنان من ظهرى واثنان من بطنى .

فقالوا له : « إن هذا لعجيب ، أنت شريكنا . »

* * *

فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم ثور يطير (أى : يسرع فى سيره) ، فلما جاوزهم ، إذا رجل — بيده خشبة — وهو يحفز فى أثره (أى : يجرى خلفه) ، فوقف وسلم ، فردوا عليه مثل ردهم على صاحبهم :

فقال : إن حدثتكم بحديث أعجب من هذا أتشركوننى فيه ؟ »

قالوا : « نعم »

قال : « كان لى عم ، وكان موسراً ، وكانت له ابنة جميلة ، وكنا سبعة إخوة . وكان لعمى عجل يربيه ، فانفلت .

فقال : « أيكم يرده لى ، فابنتى له . »

فأخذت خشبتى هذه واتزرت ثم حفزت فى أثره — وأنا غلام — فلا أنا ألحقه ، ولا هو يكل . »

فقالوا : إن هذا لعجيب . فأنت شريكنا »

***

فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم رجل على فرس أنثى ، وخلفه غلام على فرس ذكر . فسلم — كما سلم صاحباه — فردوا عليه كردهم على صاحبيه . فسألهم فأخبروه الخبر .

فقال : إن حدثتكم بحديث أغرب من هذا أتشركوننى فيه ؟ » فقالوا : « نعم » وهنا تحدثنا الأسطورة أن الرجل أخبرهم أن الفرس الأنثى هو أمة ، وأن الفرس الآخر هو عبد من الأشرار ، وأنهما ائتمرا به ليسحراه ، فيصفو لهما الجو .

ثم قال للفرس الأنثى التى تحته : « أكذلك ؟ »

فقالت — برأسها — « نعم » .

وأشار إلى الفرس الذكر الذى تحت غلامه : « أهكذا »

فقال — برأسه — : « نعم »

قال : « فوجهت بغلامى هذا الراكب — ذات يوم — فى بعض حاجاتى ، فحبسته أمى عندها . فأغفى . فرأى فى منامه كأنها صاحت صيحة ، فإذا هى بجرذ قد خرج .

فقالت : « إسجد » فسجد

ثم قالت : « إكرب (أى : اقلب الأرض للحرث) . » فكرب .

ثم قالت : « إدرس » فدرس .

ثم دعت برحى فطحنت قدح سويق — (والسويق كما تعلمون : هو الناعم من دقيق الحنطة والشعير) . فأتت به الغلام ، وقالت له : ائت به مولاك فأتانى به .

فاحتلت عليهما حتى سقيتهما القدح ، فإذا هى فرس أنثى ، وإذا هو فرس ذكر قال « أكذلك ؟ »

قالت الفرس الأنثى — برأسها — : « نعم »

وقال الفرس الذكر — برأسه — : « نعم »

فقالوا : « إن هذا أعجب شىء سمعناه ، أنت شريكنا . »

فأجمع رأيهم فاعتقوا « خرافة » .

٣ — **بعد موت خرافة :**

وهكذا أصبح كل حديث طريف تسترعى الأسماع غرابته ، وتبهج النفوس براعته ، ينسب إلى « خرافة » حتى يومنا هذا ، وأصبحت كلمة « خرافة » مرادفة لكل حديث خيالى لا حقيقة له . وكاد ينسى الناس أن « خرافة » علم على شخص بعينه ، عرف الناس وعرفوه ، وألفهم وألفوه .

***

ثم مضى القرن الأول ، ومضى معه « خرافة » ومعاصروه ، وانطوى بانطوائه بارع حدث (أى : حسن الحديث) ، لم تبق لنا — من روائعه المستفيضة — إلا سطور ، كأنما بقيت على الدهر ، وغالبت أحداثه ، لتشعرنا بجة ارما منى به تاريخ القصص العربى من خسارة ، بفقدان أمثال هذه الكنوز الفكرية التى لا تعوض .

٤ — **جحا العربى :**

ثم جاء القرن الثانى ، ومعه هدية من أنفس الهدايا الفنية التى يعتز بها عالم الفكاهة والمرح ، فكان من مولوديه شيخ السخرية العربية ، وإمام الفكاهة الشرقية : « أبو الغصن عبد الله دجين بن ثابت » الملقب بجحا .

وقد نشأ السيد جحا فى « الكوفة » ورأى — فيمن رآه — من أفذاذ معاصريه « أبا مسلم الخراسانى »

وكانت أم « جحا » تخدم أم سليم بنت ملحان : والدة مالك بن أنس : راوية الحديث المعروف .

***

وقد لقى السيد جحا من التقدير والإعجاب فى القرن الثانى من الهجرة مثل ما لقى سابقه « خرافة » من قبل . ولم يقل شأنه عن صاحبه : تقديراً وإعجاباً ، ونباهة ذكر ، وبعد صيت .

وأعجب الناس بأسلوبه السهل الممتنع فى فهم الحياة كما أعجبوا

بما سمعوا به من طرائف وملح .

واشتد به إعجابهم فخلعوا لقبه كما خلعوا لقب سابقه « خرافة » من قبل — على كل عجيب من القول وطريف من الحديث .

وأصبح للقصص الجحوى خصائصه وميزاته ، كما أصبح للقصص الخرافى من قبله — بدائعه وخيالاته .

٥ — الفن الجحوى :

واشتد إعجاب بعض الناس به فأطلقه على ولده ، وافتن آخرون فأضافوا إلى طرائفه كثيراً من مخترعاتهم وفنون مبتدعاتهم ، وهكذا صنعوا بألف ليلة التى أضافوا إليها جمهرة من طرائفه كما أضافوا إليه جمهرة من قصصها ، حتى تعذر التمييز بين الأصول الجحوية ، والمحاكاة المروية . ولا سيما بعد أن اختلطت بفكاهات «أبى العيناء» و « الشعبى » و « أبى دلامة » و « أشعب » و « الغاضرى » و « أبى العنبس » و « البهلول » و « الجماز » و « الحمدونى » ومن إليهم من أعلام الدعابة العربية ، ثم زاد عليها المتزيدون جمهرة من فكاهات الحمقى والمغفلين والطفيليين من أمثال « هبنقة » (١) و « فند » (٢) وطفيل (٣) وأضرابهم .

فتجمعت أشتاتهم فى واحد إلا يكنهم أمة فيكاد

* * *

وهكذا أسند الناس إلى جحا كل طريف من الملح وعجيب ، فكاد يصبح — كما أصبح خرافة — علماً على فن بعينه من فنون القول بعد أن كان علماً على شخص بعينه من أفذاذ الناس .

٦ — جحا التركى :

فلما جاء القرن الثامن الهجرى حمل معه — فيمن حمل — علماً آخر من أعلام الفكاهة الشرقية وإماماً من أئمة الدعابة التركية هو « الأستاذ نصر الدين »

ولد فى إحدى بلاد الأناضول ، وكانت « سيورى حيصار » مسقط رأسه . ومات فى « آق شهر » ومعناها : البلد الأبيض .

وقد عاش فى عهد السلطان « أورخان » وعمر — فيما يقولون — ستين عاماً أو قريباً .

٧ — الباطشان :

ولقى « نصر الدين » — فيمن لقى — الباطش السفاح « تيمورلنك » كما لقى « أبو الغصن جحا » — فى عصره — الباطش السفاح : « أبا مسلم الخرسانى »

وهكذا عاش كلاهما فى عصر مضطرب ، وعاصر كلاهما — فيمن عاصر — قائداً سفاكاً ، متعطشاً للدماء ، باطشاً بالأقوياء والضعفاء .

٨ — الجحوان :

وذاع أمر الأستاذ « نصر الدين » ، وراجت دعاباته ، ولقى من الحظ مثلما لقى صاحباه : « خرافة » و « جحا » من قبل .

ولما كان لقب أستاذ بالتركية هو لفظ « خوجة » ، حوله النقلة إلى جحا لتقارب اللفظين وتشابه الرجلين ، وقد كدنا نقول : تطابق الشخصيتين .

وما لبث الأستاذ « نصر الدين » أن استأثر — بعد موته — بلقب جحا وكاد يستأثر بكل طرائفه وملحه فلا يبقى له منها شيئاً جل أو حقر .

* * *

وأعلنت بعض المجلات مكافأة لمن يبعث إليها بطريفة مروية عن الأستاذ « نصر الدين » أو « نصر الدين خوجة » أو جحا التركى . فراح الناس ينقبون ويغيرون على نفائس الملح حتى نسبوا إليه جمهرة من الطرائف العربية وغيرها ، فلم ينج من غاراتهم : كتاب كايلة ودمنة فى الشرق ، ولا قصص « بوكاتشو » فى الغرب .

ثم ما لبثت الأمم أن تنازعت كثيراً من القصص الجحوى نصاً ومزيداً وناقصاً ووافياً ، وأميناً ومحرفاً ، ومبتدعاً ومشوهاً ، وأسندته كل أمة إلى جحاها .

كامل كيلانى

(١) لقب ذى الودعات يزيد بن ثروان ، وكان مضرب المثل فى الحمق.

(٢) الفند : الجبل ، وقد سمى به صاحبنا لثقاله فى الحاجات . ومن قول على بن أبى طالب للأشتر النخعى : « لو كان جبلا لكان فنداً ، لا يرتقيه الحافر ، ولا يوفى عليه الطائر »

(٣) رجل كوفى كان يأتى الولائم والأعراس من غير أن يدعى إليها.

القوة والحيـــاة . . .

للأستاذ محمد عاطف البرقوقي

قوة الفرد :

القوة مصدر من مصادر سعادة الإنسان ، ومظهر من مظاهر العز والحياة ، إن اكتسبها شخص زاد نشاطه ، وكثر إنتاجه ، وصارت في يده سلاحاً يشق به لنفسه سبل النجاح ، وهو سبيل وايم الحق صعبة التمهيد ، بعيدة المدى ، يحتاج تمهيدها إلى جهد شاق متواصل ، يعجز عن الاستمرار فيه الضعفاء ، ويصل إلى نهايته الأقوياء . والشخص القوى تجده عريض المنكبين ، بارز الصدر مفتول الذراعين ، يترقرق فى وجهه دم الصحة والفتوة ، أقدر من غيره على تحمل المشاق ، وأقوى من سواه فى التغلب على الصعاب . وقد قيل بحق « الحياة جهاد ، والبقاء فيها للأصلح »

فلا غرو إذا كانت القوة موضع التبجيل منذ أقدم العصور ، وحديثاً ينظم المباريات لنيل بطولة القوة ، فهـذا بطل فى رفع الأثقال ، وذاك بطل فى العدْو . ويكرم البطل لأنه عنوان الفخر لأمته ، ولا غرو فإن الأمة هى مجموعة أفرادها ، فإن كان أفراد الأمة أقوياء بلغت الأمة ذروة المجد والفخار .

قوة الأمة :

والقوة إن اكتسبتها أمة أصبحت مهيبة الجانب ، آمنة العواقب ، لايقدم على الاعتداء عليها معتد ، ولا يغير عليها مغير ، وقد قيل « الحق مع القوة » وهو المبدأ الذى يتسلط على عقلية الدول فى الحروب ، ويدفعها إلى الحركة والعدوان ، ويحفزها للكر والفر والطيران ، ويمنعها من الإحجام ويحرضها على الإقدام، فتنتظم الجيوش البرية ، تقطع الفيافى والقفار ، وتتحرك الأساطيل البحرية ، تطهر البحار والأنهار ، وتطير الطائرات الجوية ، تغير على المدن والأمصار ، فتستعر الحرب ويشب ضرامها ، ويشتد القتال وتندلع النيران ويعتد لهيبها ، والغلبة عندئذ للأقوى ، والنصر فى النهاية لمن فاقت قوته ، والهزيمة لمن انكسرت شوكته ، وحتى فى وقت السلم تنادى بعض الدول بنزع السلاح وتطالب بالعدالة والإنسانية والمساواة ، وهى مبادئ إن عمل بها انتفت الشكايات وبطلت الحروب ، ولـكنها غرائز الإنسان المبنية على الأثرة ، والمؤسسة على حب النفس ، والمطبوعة على الظلم حتى لقد قيل :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعـــلة لا يظلم

ولذلك تلجأ بعض الدول إلى التسلح والتقوية وقت السلم ، اعتقاداً منها بأن « التسلح أفضى للحرب » وأن «القوى لا يحترم إلا القوى » فهى إن رغبت فى القتال والعدوان ، فإنما تتسلح وتتقوى حتى لا يطمع فيها ظالم ، ولا تسوّل له نفسه الأثيمة الاعتداء عليها ، فسلامة الدول مبنية على قوتها ، سواء أكانت فى وقت السلم أم فى وقت الحرب .

قوة الآلات :

وطموح الإنسان لايقف عند حد ، وقد وجد أن قوته العضلية لا تكفى للحصول على النجاح ، فلجأ إلى العلم يستنبط منه مصادر جديدة للقوة ، وها هو ذا يستعمل الروافع والبـكرات منذ عهد اليونان ، ويبذل بها قوة صغيرة لتحريك أو رفع ثقل كبير ، فإنه إذا استطاع رفع أى ثقل بقوته العضلية ، فإنه يستطيع أن يرفع عشرات بل مئات بل آلافاً مثلها بالروافع والبكرات والآلات ، حتى لقد قال أرشميدس العالم الطبيعى الأغريقى مرة « أعطونى مكاناً أقف فيه وأنا أحرك الدنيا » ، وقد عرض على مليكه هيرون ملك سرقوسة أساس الفكرة وجعله يحرك سفينة محملة ثقيلة بقوة صغيرة ، فسر منه الملك وقربه إليه .

ومنذ عهد أرشميدس والمخترعات تتقدم فى مختلف النواحى ، ومنها الناحية التى تزيد قوة الإنسان .

فى البناية الحديثة تستعمل آلات لرفع الأثقال التى يعجز الإنسان عن رفعها بقوته ، وهذه الآلة يسميها الناس (الونش) ، ترفع كتلة ثقيلة جداً من الحديد وتتركها تهوى من علٍ إلى الأرض فتدكها دكا ، وبتكرار هذه العملية يمكن إعداد الأساس المتين للبناء ، وتستعمل هذه الآلة أيضاً لنقل الحجارة والأتربة من مكان إلى آخر ، وفى البواخر المعدة لحمل الأثقال والسيارات

تستعمل هذه الآلة لرفع السيارات الثقيلة من الأرض ، وتتحرك بها حتى تقف فى المكان المعد فى الباخرة لوضع السيارة فيه ، وعندئذ نرى السيارة تتدلى حتى تستقر فى مكانها المناسب ، وكل هذا دون جهد كبير من الإنسان .

وهناك آلات أخرى اخترعها الإنسان على أساس علمى آخر ، منها الجهاز المسمى بالمكبس المائى الذى يستعمل لكبس الأقطان ، واستخراج الزيوت من البذور ، وقد صنعت هذه الآلة بعد ما ثبتت قاعدة انتقال الضغط فى السوائل ، وذلك فى سنة ١٦٥٣ حيث استنبطها العالم والأديب والفيلسوف الفرنسى « بليز باسكال » ، واستغلها العلماء من بعده فى صنع كثير من الآلات منها المكبس المائى ، وهذا مثال من أمثلة عدة تدل على البحوث النظرية التى يمكن تطبيقها فى نواح عملية فى الحياة .

المصعد الكهربائى :

ومن الآلات أيضاً ما هو مبنى على أساس القوة الكهربية ، منها المصعد الكهربى ، فقد وجد الإنسان أن التعب يدركه عند ما يصعد فى سلم مرتفع ، إذ أنه يصعد مضاداً لقوة جاذبية الأرض ، وهى قوة يصل تأثيرها إلى القمر ، ولكنه عقل الإنسان القوى الذى يتغلب بعلمه وتفكيره على كل صعوبة تعترضه إذ لجأ فى هذه الحالة إلى عمل المصعد الكهربى ، الذى يتحرك بالقوة الكهربية التى سخرها الإنسان لمنفعته ، فصار الإنسان بفضل المصعد يصعد إلى أعلى الطبقات فى العمارات المرتفعة وناطحات السحاب الشاهقة ، كل هذا وهو جالس فى مقعده دون مشقة أو تعب ، وما عليه إلا أن يضغط على « الزر » الدال على رقم الطبقة التى يريدها ، فيتحرك المصعد ، ويقف عند تلك الطبقة ، كأن له عقلا يدرك به ، أو بصيرة نفاذة تهديه سواء السبيل ، وبحركة خفيفة أخرى يؤمر المصعد بالنزول فيطيع ، ولا يعصى أمراً مهما تكررت الأوامر والطلبات ، ولا يبدى ملالا أو كلالا ، ولو اشتغل آناء الليل وأطراف النهار ، فهو أطوع بل وأقدر من أى خادم أمين .

عصر الآلات :

وبالعلم أيضاً أصبح الإنسان يقطع أطول المسافات دون أن يلحقه تعب أو نصب ، سواء أكان هذا السفر فى الجو أم فى البحر أم فى البر ، على متون الطائرات التى تشق عنان السماء ، والبواخر التى تمخر عباب الماء ، والسيارات والقطر التى تنهب الأرض نهبا ، وبذلك سخر العقل البشرى للانسان آلات كثيرة فى مختلف النواحى والأغراض ، فهذه آلات مبنية على الروافع والبكرات وهى ما تسمى الآلات الميكانيكية ، وتلك آلات مبنية على قوة البخار ، وهى ما تسمى الآلات البخارية ، وأخرى مبنية على قوة الكهرباء ، وهى الآلات الكهربية المستعملة فى رفع الأثقال والنقل والحركة والتدفئة والإضاءة وغيرها ، وهناك آلات مبنية لا على أساس واحد بل على أساسين أو أكثر ، فمثلا قوة الريح وقوة الماء يمكن استخدامهما لتوليد الحركة أو لتوليد الكهرباء ، ففى هولندا تستعمل الطواحين الهوائية ، وفى الفيوم يستخدم سقوط الماء لتوليد الكهرباء للمدينة لشتى الأغراض ، وهكذا نجد العلم قد سخر للانسان قوى عظيمة لخدمته ، وتنوعت الآلات فى عصرنا حتى لقد بلغ بالعلم أن صنع آلات حاسبة وثانية كاتبة ، وثالثة ناطقة ، حقاً إننا نعيش فى عصر آلات .

(البقية فى العدد القادم)

محمد عاطف البرقوقى
ناظر المدرسة التوفيقية

البـــلاغة وعلم النفس

للأستاذ علي العماري

لعل علوم البلاغة أقل علوم العربية نصيباً من جهود الباحثين المعاصرين ،ولعلها كذلك أحوج هذه العلوم إلى التجديد والتهذيب ولـكننا نستطيع أن نقول — فى غير غض من عمل أحد — : إن الأبحاث التى طالعنا بها هذا العصر فى هذه العلوم دون ما كنا نأمل من علمائه الأعلام

ولقد شاع فى رسائل المعاصرين النعى على علماء البلاغة ، ورميهم بالجهل والتقصير أحياناً ، وهذه طريق لا تؤدى إلى الغاية. ولو أنهم إذ هدموا بنوا لـكان الأمل قويا فى أن نظفر بشىء . ومن حق أسلافنا علينا أن نذود عنهم ، وندفع مايلحق بهم من ظلم وجحود .

قرأت رسالة صغيرة للأستاذ الشيخ (أمين الخولى) المدرس بجامعة فؤاد الأول عنوانها (البلاغة وعلم النفس) . تحدث فيها عن صلة قديمة بين الأبحاث البلاغية ومظاهر النفس الإنسانية ، ولـكنه نعى على الأسلاف أنهم لم يربطوا بينهما على أن علم النفس علم من العلوم (مع أنه كان من معارفهم) ورأى أن هذا الربط فى الدرس وفى غير الدرس ضرورى ، بل هو ضرورى لفهم إعجاز القرآن وتفسيره حيث يقول (فالنظر الصائب إليه — يعنى القرآن — والفهم الصحيح له ،أو بعبارة أكثر صراحة تفسيره لا يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية ، فليس يصح أن تعلل عبارة من عباراته ،أو يحتج للفظ فى آية من آياته ، أويستشهد لأسلوب من أساليبه إلا بموقعه كله فى النفس ، وبما كشف العلم عن هذا الموقع ، وما سبر من أغواره فبالأمور النفسية لا غير (كذا) يعلل إيجازه وأطنابه ، وتوكيده وإشارته ، وإجماله وتفصيله ، وتـكراره وإطالته ، وتقسيمه وتفصيله ، وترتيبه ومناسباته ، وماقام من تعليل هذه الأشياء وغيرها (كذا أيضاً) على ذلك الأصـل فهو الدقيق المنضبط، وما جاوز ذلك فهو الادعاء والتمحل أو هوأشبه شىء به)

ونحن إذا طرحنا جانبا مناقضة الأستاذ لنفسه بين محاولته تعليـل إعجاز القرآن ، وبين إصراره على أن خير الآراء فى الإعجاز هو رأى السكاكى وجملته أن الإعجاز لا يعلل . إذا طرحنا هذا وجدنا الأستاذ انساق وراء الفكرة التى سيطرت على قلمه ، ولـكننا مع ذلك ننتظر حتى نرى مبلغ صـدق هذا من الأبحاث التى وعد بها الـكاتب وقد مر عليه دهر ولم يطالبنا بها وإن كنا نجزم بأن دعواه أن كل تعليل لأسلوب القرآن لا يقوم على أساس نفسى ادعاء وتمحل نجزم بأن هذه مبالغة لا تمت إلى الصواب بصلة .

ونترك هذه الدعاوى وأمثالها إلى حين يؤيدها بأمثلة لنرد على هذين المثالين الوحيدين اللذين اعتمد عليهما فى رسالته ، وادعى فيهما أن القدامى وقفوا عند تعليلات جافة ركيكة ، ولم ينظروا فيهما إلى الأمر النفسى قط . وسنرى أن ما وصمهم به ليس صحيحا ، وأن ما ذكر أنه وصل إليه هو هو الذى ذكره علماؤنا الأجلاء، قال : (نحن نقرأ مثلا فى بيان ميزه الأسـلوب المعروف عندهم باسم تأكيد المدح بما يشبه الذم قولهم : إن سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدعوى الشىء ببينة ، ويفسرون ذلك بأن القائل علق نقيض المدعى وهو إثبات شىء من العيب بالمحال، والمعلق بالمحال محال ، فعدم العيب محقق . كما نقرأ لهم وجهاً آخر لميزة هذا الأسلوب هو : أن الأصل فى مطلق الاستثناء الاتصال فذكر أداته قبل ذكر المستثنى منه يوهم إخراج شىء مما قبلها فإذا ما أوليت الأداة صفة مدح وتحوّل الاستثناء من الاتصال إلى الانقطاع جاء التأكيد لما فيه من المدح على المدح والأشعار بأنه لم يجد صفة ذم يستثنيها

ولعل السر النفسى لذلك فيما يظهر هو مافى هذا الأسلوب من معنى المباغتة والمفاجأة التى تكسبه طرافة وتثير حوله تنبهاً »

والذى نلاحظه هنا أمور : —

(١) أن التعليل الأول أحد تعليلات لهم ويمكن إرجاعه إلى أمر نفسى ، بل هو فى الحقيقة من أخص أمور النفس ، فهو فكر مرتب ، ومنطق محكم ، وليس شيئا ما رده به من أنه يترتب عليه أن«عبارة التوثيقات المؤكدة ولغة الإشهادات المسهبة هى الفصحى وأظن أن الفرق بين الاثنين واضح ، والمغالطة بينهما أوضح

(٢) أن المفاجأة التي تمدح بأنه وصل إليها إنما مأتاها انقطاع الاستثناء، وذلك أن النفس حين تسمع أول الكلام تنتظر أن أن يجيء آخره أليفا لأوله ويستقر فيها اطمئنان لذلك فإذا انقطع الاستثناء، فوجئت بما لا تتوقعه.

(٣) أنهم ذكروا لهذا علة نفسية؛ قال في المطول بعد أن ذكر التعليلين السابقين «مع ما فيه من الخلابة وتأخيذ للقلوب» وفي هذه الكلمة الأخيرة (تأخيذ للقلوب) كل الرد على الباحث الفاضل المجدد!!

أما المثال الثاني فحيث يقول «ومن ذلك مثلا أنا نسمعهم يقولون أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ... الخ ثم لا يعللون شيئاً من ذلك كله إلا بالفكرة السابقة من تأكيد المدح بما يشبه الذم من قولهم. أنه كدعوى الشيء ببينة». ولعلنا نقف طويلا متعجبين من جراءة أستاذ في الجامعة، ورئيس طائفة تدعى التجديد في علوم البلاغة، حين نعلم أن صاحب الصناعتين عقد فصلا للموازنة بين الحقيقة والمجاز ذكر فيه أكثر من أربعين مثلا وعلل لكل مثال بعلة، وليس تأكيد المدح بما يشبه الذم واحداً من هذه العلل، وأنه في أول الفصل علل تعليلا عاما بأمر نفسي فقال لا وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في النفس نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة» فكيف يسوغ بعد هذا لأستاذ أمين في العلم أن يطرح هذا كله ليقول إن علماءنا لم يعرفوا تعليلا نفسيا واحداً؟ وهل يرى أن الباحث لا يكون بارعا معلاما إلا إذا ادعى أن الأوائل لم يتنبهوا لما وصل إليه؟

ولعلي أقضي على كل ادعاء إذا ذكرت كلمتين اثنتين تشهدان بأن علماء البلاغة لم يقتصروا على تعليلات ركيكة جافة، وإنما وصلوا في بعض الأحايين إلى اللباب المنتخب

(١) كتب ناشر كتاب أسرار البلاغة في مقدمته قال: «ينبغي لقارىء هذا الكتاب وصنوه دلائل الإعجاز أن يتأمل حق التأمل ما انفرد به الإمام عبد القاهر من جعله علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع — من قبيل العلوم الطبيعية كعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الفلسفة العقلية — لا بمجرد مواصفات واصطلاحات — فإنه يقيم الدلائل، ويسوق الحجج على كون البليغ من الكلام باشتماله على التشبيه والتمثيل والمجاز العقلي أو اللغوي من قواعد البيان، أو بمراعاة نكت المعاني في التعريف والتنكير والحصر والتأكيد والفصل والوصل وغير ذلك إنما كان بليغاً لأمور حقيقية في عقول الناس وشعورهم وتأثير الكلام في أنفسهم»

وهذا كلام صريح في أن علماءنا تنبهوا لهذا الذي أراد الأستاذ أن ينبهنا إليه، بل جعلوه أصلا تؤلف على ضوئه الكتب

(٢) قال الشيخ عبد القاهر يعلل بأمر نفسي هذا الأمر الذي ادعى الأستاذ أنهم لم يذكروا له تعليلا نفسيا «وإن أردت اعتبار ذلك — يعني تأثير التمثيل في النفس — في الفن الذي هو أكرم وأشرف (يقصد فن الوعظ) فقارن بين أن تقول: إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره. وتقتصر عليه وبين أن تذكر المثل على ما جاء في الخبر من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه ... الخ

« فأما القول في العلة والسبب، ولم كان لتمثيل هذا التأثير وبيان جهته ومأتاه وما الذي أوجبه واقتضاه فغيرها »

« وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل، ويشرف ويكرم، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأنه العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا «ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين» فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة. وضرب آخر وهو ما يوجبه تقدم الإلف كما قيل ما الحب إلا للحبيب الأول.

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع، ثم من جهة النظر والروية، فهو إذن أمس بها رحما،

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للاستاذ محمود الخفيف

— ٢١ —

الزواج والصدمة الأولى :

ونشر ملتن في مارس سنة ١٦٤٥ كتيباً آخر بعنوان « بترا كوردون » ، وفيه تعرض للفقرات الأربع الشهيرة المتصلة بالطلاق في الأنجيل ، وراح يفسرها أو يؤولها حسبما يذهب إليه من رأى في الطلاق ، وقد تعسف في ذلك ولقي عسراً شديداً ، فني نفسه من الآراء مايخالف كثيراً مما ذهب إليه مفسرو الإنجيل الأقدمون ومن أخذ أخذهم من المحدثين ، وهو في الوقت نفسه يريد أن يستند إلى الإنجيل ويتخذ منه سلاحه .

ويجمع هذا الكتيب كما يجمع سالفه « قانون الطلاق ونظامه بين العبارات المنطقية الجافة العسيرة ، وبين الفقرات العاطفية البليغة التي يصل فيها ملتن إلى ذروة الجمال الفني في النثر حتى ليجعل ناقداً فذاً مثل مكولى يقرر أنه يصل من البلاغة في كثير من نثره هذا إلى ما لا يتقاصر عن مستوى شعره في أعلى نسق له . والحق أنه ملك ناصية البيان ، إذ عاد يصور في هذا الكتيب حال الزوجين منياً بالفشل في زواجهما . تجد ذلك في مثل هذا القول: « إنهما يعيشان كما لو كانا ميتين ، أو كما لو كان بينهما عداء قاتل ، وهما بعد في قفص معاً » ؛ وفي مثل قوله : « إن العقل الذى لايوافق عقولنا أبداً ، والذى هو دائماً على نقيض ما نذهب إليه ، إنما يسلمنا إلى حالة هي أسوأ من العزلة في أشد وحشتها » ؛ وفي عبارة كهذه : « هذا الحارس المخيف القائم على الباب لا يلبث وقد جر الرجال وأعقل من في الرجال ، وانتظمهم بخداعه القاهر في سلك الزواج الفاشل ، أن يغلق أبواب الجب عليهم ، فلا رجعة منه كما لا رجعة من القبر » . وفي مثل هذه الفقرة إذ يقول : « تعلق بزوجة ، ولكن على أن تكون زوجة ، لا أن تكون عدماً أو عدواً أو هاجرة تعتزلك ، أيمكن أن يبلغ قانون من البعد عن العقل كأن يدعوك لتتعلق بالكارثة والدمار والفناء ؟ »

وكما عرض ملتن طائفة من آرائه الفلسفية في كتيبه السابق، نراه يعرض هنا كثيراً من تلك الآراء ، وبعضها تكرار لما سلف والبعض جديد ، ومن أهمها رأيه في المرأة ، وفي فكرة الزواج الأولى كما أرادها الله ، وفي مبلغ قدرة القانون على منع الإثم ، وفي نصوص الكتاب المقدس كمرجع يتقيد الباحث به .

أما عن المرأة ، فقد كان البيوريتانز كما كان أتباع كلفن في أوربا يرون فيها مخلوقاً دون الرجل في كل شيء ، وأن الرجل هو سبب ما خلق الله من خلق ، وما خلقت المرأة إلا معيناً له ، فهوأنبل منها وأكرم؛ وكانت منزلة المرأة سامية في عهد الفروسية ، إذ كان من أشهر ما يتحلى به الفارس احترام المرأة والأخذ بيدها وإفساح مكان الصدارة لها في كل اجتماع ، ومخاطبتها بألقاب

وأقوى لديها ذمما ، وأقدم لها صحبة ، وآكد عندها حرمة ، وإذا نقلتها في الشيء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة في القلب ، إلى مايدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حد الضرورة فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم ، وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ، فأنت إذن مع الشاعر وغير الشاعر إذا وقع المعنى في نفسك غير ممثل ثم مثله كمن يخبر عن شيء من وراءه حجاب ثم يكشف عنه الحجاب ويقال : هاهو ذا فأبصره تجده على ما وصفت »

وبعد فنحن لايكفينا من معاصرينا أن يثلبوا الأقدمين وينوهوا بقصورهم وتقصيرهم ، ولكننا نريد أن يخرجوا لنا قواعد جديدة على الوضع الذى يريدون؛ وحينئذ نقول إنهم استدركوا على سابقيهم وأفادوا علوم البلاغة ، أما أن نسمع ونقرأ أن البلاغة معقدة ، وأن النحو قاصر ، وأنه كان يجب أن يدرك الأقدمون صلة البلاغة بعلم النفس ، وصلتها بالفلسفة ثم لا نسمع ولا نقرأ غير هذا فلا . وما أحسن قول الشاعر :

تقولون أخطأنا فهاتوا صوابكم وكونوا بناة قبل أن تهدموا الصرحا

علي العماري

المدرس بمعهد القاهرة

التبجيل ، وإظهار كل ما يشعرها بالعزة ورفعة الشأن ، وكانت تقاس من لباقة الفارس وفروسيته بقدر ما يتفق له من النجاح فى هذا كله ؛ ولكن البيوريتانز كرهوا الفروسية ، لأنها فى رأيهم من صنع البابوية ومن مخلفات الكاثوليكية ، وكرهوا كل ما كان منها بسبب ، ومن ذلك مكانة المرأة فى تقاليدها ، ولم يقتصر ما كان بين أصحاب الرؤوس المستديرة وبين الفرسان من خلاف على عداء الأولين للملك ، وولاء الآخرين له ، وتنابذ الفريقين لما يتصل بالدين من سبب ، وإنما كان الخلاف كذلك شديداً بسبب نظرة كل منهم إلى الحياة الاجتماعية ، وعلى الأخص مركز المرأة ، فقد ظل الفرسان الكاثوليك على ولائهم للمرأة والسمو بمكانتها ، بينما عمل البيوريتانز على العودة بها إلى ما قبل عهد الفروسية ، والنظر إليها كمخلوقة تخضع للرجل وليس لها إلا أن تعينه فيما يقوم عليه من شؤون الأسرة ، وأن توفر له أسباب الراحة ، وتكون له متعة ، وله دونها الرأى والقوامة …

وحار ملتن بين المذهبين ، وتنازع عقله ووجدانه ، فلئن كان بيوريتانى المذهب يكره الكاثوليكية والقساوسة كرهاً شديداً ، فهو كذلك الشاعر الحر النظرة الواسع الأفق ، الذى عشقت روحه الحياة فى ربيع العصر الأليزابيثى ، أو هو آخر الأليزابيثيين كما أحب أن يسميه بعض النقاد ، وما يستطيع أن ينظر إلى المرأة تلك النظرة الجافة المعبرة عن التزمت وضيق الأفق!

وهدته حيرته بعد طول النظر إلى أن يوفق بين منطق عقله ومنزع وجدانه ، فجعل للرجل المكان الأول فى الأسرة والمجتمع ، ووضع المرأة فى موضع دون موضعه ، ولكنه لم يقصر وظيفة المرأة على عونه والعمل على راحته ؛ وإنما جعل العلاقة بينهما علاقة مشاركة عقلية روحية قوامها المشاكلة بين العاطفتين مما يوثق أواصر المودة ويمكن أسباب السعادة بين الزوجين ، ولقد جعل مثل هذه العلاقة كما رأينا أساس الزواج ، وإلا كان الطلاق أمراً مقضياً …

ويرى ملتن أن الغرض الأول من الزواج حاجة الرجل إلى صلته بالمرأة صلة جسدية وعقلية وخلقية ، فما يبلغا كمال إنسانيتهما إلا بهذه الصلة ، وما يتم أحدهما إلا بالآخر ، وما يكتمل بأس الزوجين إلا متصلين ، ولن يزال الرجل فى عزلة موحشة مهما يحط به من الناس حتى يتزوج .

ويرجع إلى آدم فيفسر وصف الله سبحانه إياه بالوحدة فى الإنجيل بحاجة إلى المرأة ، أو إلى الزوجة على الأصح ، يقول فى ذلك : « يراد بقول الله « وحده » هنا أنه وحده بغير امرأة ، وإلا فإن « آدم » كان يحظى بجوار الله ذاته ، وكان يحيط به من الملائكة رهط يكلمهم ويكلمونه ، والخلائق جميعاً تبهج نفسه بما تجد وما تلهو ، والله قادر على أن يخلق له مما خلقه منه ألف صاحب ، وألف آدم له إخوة يصحبونه ، ومع ذلك كله دعاه الله حتى وهبه حواء وحيداً »

وإذا كان الرجل لايستغنى عن المرأة ، ولا المرأة تستغنى عن الرجل ، فلا رباط يربط بينهما إلا الحب ، أى لا زواج إلا على أساس المحبة والمودة : « فالحب فى ناحية إن لم يجد ما يشاكله فى الناحية الأخرى ، ووجد نفسه يذهب أدراج الرياح ، إذ أنه لامحالة ذاهب فى مثل تلك الحالة ، قد تبقى بعده الصلة الجسدية ، ولكنها لن تكون صلة مقدسة ولا طاهرة ولا مشاكلة لرباط الزواج ، إذ هى فى خير حالاتها بعد ذلك لن تعدو أن تكون عملا حيوانياً بحتاً ، بل إنها أرذل فى الحق وأحط مما يرى من ترفق أخرس بين قطعان الدواب والأغنام ، ذلك أن الروح هى قوام الأعمال الأعمال الإنسانية ، وليس للجسم فى ذلك أثر يذكر »

ويرى ملتن أن مرد الفسق والشهوة الحيوانية إلى فقدان الحب والتعاطف وقصر العلاقة بين الرجل والمرأة على الجسد ونزعاته ، فإذا كانت العلاقة روحية قوامها الحب ، فلا فجور ولا فسوق فى الحب ؛ ولذلك فالمثل الأعلى عنده لحياة الزوجين هو فى تلك الأيام التى عاشها آدم وحواء قبل هبوطهما من الجنة ، فقد توشجت روحاهما وجسدهما ، فلا محل لإثم ولا داعى لطلاق ، فإنه متى وجد الحب فلا مكان لشهوة ، كما أنه إذا سيطرت الحكمة ، فلا داعى لقانون …

ويتشكك ملتن فى مقدرة القانون على أن يمنع الشر منعاً تاماً ، فما لم يسد العقل فلا فائدة ترجى من القانون . وإنما يضيق القانون نطاق الشر نوعاً ما ويخفف ضراوته .

وتعظم جرأة ملتن إذ يتعرض للكتاب المقدس ، وإلى أى مدى يؤخذ بأحكامه ، فعنده أنه يجب ألا نأخذ بحرفية ما جاء

فيه ، لأنه كثيراً ما أول حسب مقتضيات الظروف والأزمان ، وتطرق إلى نصوصه الفساد : وكان لا بد أن يذهب ملتن هذا المذهب ، وإلا فكيف كان يتخلص من قول كهذا ينسبه الإنجيل للمسيح : « إن من يقطع الصلة بينه وبين زوجته لسبب غير الخيانة ثم يتزوج غيرها ، فإنما يقترف خطيئة الزنا »

ويختتم ملتن كتيبه هذا خاتمة شاكية صاخبة ، فقد ساءه لقاء أهل عصره إياه ، وعلى الأخص البرسبتيريتز ، وهم من البيوريتانز الذين طالما وصل حبالهم بحباله ، وعلق فى الإصلاح عليهم كثيراً من آماله ...

ونشر ملتن فى نفس الشهر الذى نشر فيه كتيبه السالف كتيباً آخر سماه « كولاستيريون » وقد جعله للهجوم ، أو على الأصح لمدافعة تهجم بمثله ، واتخذ شعاره فيه قوله : « أجب الأحمق بما يشاكل حماقته ، وإلا صدق أنه حكيم فيما يتخيل من خيال »

وعاد ملتن إلى سهامه ، وإنها ليريشها الحنق واليأس من عقلية مخالفيه ، فرمى أحدهم بأنه من غير المتعلمين ، وأنه أقل من أن يعرف الإغريقية أو العبرية ، وأنه خنزير لم يقرأ شيئاً من الفلسفة ، وأنه جاء بآرائه عن الغاية من الزواج من حظيرة خنازير ، وأنه أحمق ماجن يحاول أن يحملنا على الضحك بلغوه ، وأنه حمار بلغ أقصى حماريته ، فما يبالى بشىء ... إلى غير ذلك مما لا يقل عنه سوءاً أو هجراً ... !

ولم يخرج ملتن من وراء صيحاته هذه بطائل ، فلا أجابه البرلمان إلى ما طلب ، ولا تركه البرسبتيريتز يدعو دعوته دون أن يعنتوه ويخرجوه من زمرتهم ، وهكذا بقى موضوع طلاقه مارى بوول رغبة فحسب ، لم تجد سنداً من قانون ولا عرف ؛ ولقد هدد ملتن بالخروج على القانون فى كتيبه « تترا كوردون » بقوله : « إذا لم يتح لى القانون ما أريد ، فعلى القانون — كما يقضى العقل — أن يتحمل وزر ما يترتب على رفضه من عواقب ! »

وكان ملتن يتردد على سيدة تدعى « مرجريت لى » ، وكان يجد بين يديها مثل ما كان يتوق إليه من حديث عذب ومن ذكاء ولباقة لم تعرف زوجه شيئاً منها ، ولكنها كانت متزوجة ، وكان زوجها هو « كابتن هوبسون » أحد أصدقائه من أنصار البرلمان ، فهل حاول ملتن أن ينشئ علاقة روحية قوامها المحبة والمودة بينه وبين هذه المرأة ؟ ولكن ما غايته من مثل هذه العلاقة وهو لا يستطيع بالضرورة أن يتزوجها طالما أنها زوج لغيره ؟ لقد ظلت صلته بهذه السيدة مبهمة الغرض ، ولقد اختصها بمقطوعة من تلك المقطوعات الشعرية التى كان ينظمها الفينة بعد الفينة ، والتى كانت على قلتها وصغرها قصاراه يومئذ من الشعر ؛ وجعل عنوان هذه المقطوعة وهى الخامسة بين مقطوعاته والثانية منذ هجر الشعر « إلى السيدة مرجريت لى » ؛ وليس فيها ما ينم عن شىء فى علاقته بهذه السيدة ، وإنما اقتصر الشاعر على امتداح أبيها والثناء على صفاتها ، ذاكراً أن ما عرف عن أبيها من الشرف والنزاهة والإباء ورثته ابنته ، فهو واضح جلى فى خلقها !

ويتحدث ابن أخته فلبس فيما ذكر من أبناء حياته أنه تحبب إلى سيدة أخرى ، ورغب فى أن يتزوجها ، متحدياً بذلك القانون — كما توعد من قبل ويقول « فيلبس » إنها كانت فى أول شبابها ، فكانت رائعة الجمال ، حلوة الحديث ، على قدر من الذكاء عظيم ؛ ولكنها لم تجرؤ أن تتحدى الناس كما حاول ملتن أن يصنع ، وما كانت لتقبل أن تضع نفسها حيث لا تكون زوجة لا فى عرف الناس ولا فى قانون الكنيسة ، وإنما فى شرع ملتن وحده ؛ ولعل هذه السيدة كما يظن المؤرخون هى موضوع مقطوعته الرابعة التى جعل عنوانها « إلى سيدة صغيرة فضلى » ، وقد أثنى فيها على طهر هذه العذراء وعفتها ونبل شمائلها ورجاحة عقلها ، وليس يعرف عن هذه العذراء ، وقد كان يطلق إذ ذاك لقب السيدة على العذارى ، إلا أنها كانت ابنة شخص يدعى الدكتور ديفز ، كما أنه لم يعلم عن علاقة ملتن بها أكثر مما ذكره ابن أخته !

على أن صلته بالسيدة مرجريت لى وصلته بهذه المجهولة الإسم قد انقطعت كلتاهما باذعان مارى على غير توقع من أحد وقبولها العودة إلى زوجها !

وتمت عودة مارى على صورة أشبه بالقصة ، ولكنا قبل أن نأتى بهذه القصة على سردها نحب أن نتبين سبب عودتها ، وقد غابت عن زوجها منذ هجرته نحو عامين !

وما ذا عسى أن يكون ذلك السبب ؟ أهو كما يقرر ابن أخته

قلق أهلها وقلقها مما نما إليهم من نبأ اعتزامه الزواج بغيرها ؟ أم هو أفول نجم الملك بعد هزيمة جيشه في معركة نسبي سنة ١٦٤٥ على يد المستقلين من أنصار كرمول مما يهيئ لرجل مثل ملتن نفوذاً وجاهاً بحيث تطلب الحماية عنده ؟ أم يرجع ذلك إلى عسر آل پوول وقد أشرف على العدم مالهم ؟ ذلك كله كان خليقاً أن يجنح بأهل مارى إلى طلب الصلح !

ولم يعدم آل پوول أصدقاء يوطئون السبيل لهذا الصلح ، ولا عدم ملتن كذلك أصحاباً أسفوا لما آل إليه حاله وأخذتهم به رأفة شديدة !

وكانت ثمة قصة طريفة ، فقد أحضر بعض الصحاب من الجانبين مارى إلى منزل لأحدهم تعود ملتن أن يغشاه ، وخبأوها فى حجرة ، حتى قدم فدخل حجرة مجاورة ، ولم يلبث إلا قليلا حتى دخلت عليه زوجته فألقت نفسها على قدميه باكية تسأله الصفح والمغفرة ، وهو لا يكاد يصدق عينيه من الدهشة ولايدرى من فرط حيرته ما ذا يقول .. !

وتوسلت إليه مارى متهمة أمها بما حدث ، ملقية كل تبعة عليها ، وكانت تتكلم كما لو تكلمت طفلة تبرئ نفسها مما نسب إليها ، والدموع تتسائل من عينيها على خدها قد ألهبتهما حمرة الخجل ، وفى جسدها كله رجفة شديدة رق لها قلب الشاعر ؛ ولبث برهة ينظر إلى زوجته تستغفره وتتوب إليه فى ضراعة ومسكنة ، كما لو كانت تكفر عن خطيئة ، وفى وجهها سذاجة لا أثر للتكلف فيها ، فهى لم تزل من عمرها بعد فى التاسعة عشرة ...

وأبت عليه أريحيته إلا أن يصفح عنها وعن أهلها ، فما تميل نفس كنفسه إلى التشفى من قوم حطمهم الدهر من عل ، وأذلتهم الأيام بعد عزة كما تأبى على الفارس فروسيته أن يضرب خصما له هوى أو كبا به فرسه ؛ ولم يقتصر على الصفح كرمه ونبل عاطفته ، بل لقد آوى آل پوول فى بيته جميعاً ومن بينهم أم زوجته التى ألقت بنتها على كاهلها كل تبعة ؛ وأسدى إليهم بذلك صنيعاً لاينسى ، فقد سقطت فورست هلى فى يد أنصار البرلمان ، وطورد أنصار الملك ومنهم آل پوول فضلا عما حاق بهؤلاء من فاقة شديدة .. !

ولم يكن صفحه دليلا على نبله فحسب ، بل إن فيه شاهداً كذلك على شجاعته الأدبية ، فقد كان خليقاً أن يسخر منه الناس بعد أن أذاع فيهم من آرائه ما أذاع ، وبعد أن ادعى إنقاذ البشر جميعاً بما كتب ، وبعد أن اتبعه فريق من المعجبين به المتحمسين له ، ولـكنه وقد تعود ألا يبالى بشىء فى سبيل مايؤمن أنه الحق صفح عن زوجته غير عابئ بما عسى أن يقول الناس !

ولقد ترك لقاء زوجته إياه على هذه الصورة أثراً عميقاً فى نفسه ، فلا تكاد تقع عين القارئ على المنظر الآتى من مناظر « الفردوس المفقود » ، وقد كتبه ملتن بعد ذلك بعشرين عاماً ، حتى يحس قوة الشبه بين الصورتين . قال ملتن يصف لقاء بين آدم وحواء : «وجاءت حواء ودموعها لا تنى تتساقط ، وشعرها تشعث كله ، فألقت نفسها متضرعة على قدميه واحتضنتهما سائلة إياه الصلح ؛ وظل هيكلها الساجى لا حراك به ، حتى أحدث أثره فى نفس آدم ذلك الصلح ولده الاعتراف والندم ؛ وسرعان ما رق قلبه لها ، إذ ألفى بهجة حياته التى لا بهجة له بعد طول الوحدة غيرها عند قدميه فى حزنها مذعنة خاضعة » !

واستأجر ملتن منزلا كبيراً غير الذى كان يعيش فيه ، يتسع لمن لا يزال يعلم من تلاميذه ولزوجته وأسرتها ؛ وقنع الشاعر بحظه ، وعاشر زوجه ، لا كما طالما تاقت نفسه إليه من مثل ولـكن كما شاء له القدر ؛ وفى يوليو سنة ١٦٤٦ صارت مارى أماً وصار ملتن أباً .. !

(يتبع) **الخفيف**

مشروع مكافحة الأمية على ضوء علم الاجتماع

للأستاذ فؤاد عوض واصف

فى العدد ٥٨٦ من « الرسالة » الغراء كتب الدكتور محمد مندور مقالا تحت عنوان « مكافحة الشكلية » . أراد فيه أن يرد على بحث لنا فى مشروع مكافحة الأمية درسناه من وجهة النظر العلمية البحتة ، ونشرته جريدة المقطم فى العدد ١٧٢٥٤ ولم أشأ يومها أن أتولى الرد بنفسى على ما كتب الدكتور مندور مكتفياً فى ذلك بما كتبه زملاء أفاضل ، هذا فضلا عن حرصى الشديد على أن لا يخرج الموضوع من مجاله العلمى إلى المجال السياسى . ولئن كان مشروع مكافحة الأمية كما وضعته وزارة الشئون الاجتماعية ، قد حظى بموافقة الغالبية الكبرى من الكتاب ، فإن معارضتنا له لم تخرج عن كونها دراسة علمية منزهة للمشروع ، كما ذكرت جريدة الجورنال ديجيبت فى عددها الصادر بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٤ بعنوان « مكافحة الأمية ، هل تأتى بثمارها ؟ »[1] .

ولقد طلب إلىّ الكثيرون ، وقد توليت بمفردى معارضة مشروع مكافحة الأمية بصورته الحالية ، أن أعود إلى الكتابة فى هذا الموضوع الخطير ، ولا سيما وأن الاهتمام به الآن كبير .

يتلخص ما ذهبت إليه فى بحثى ، فى هذا السؤال « هل التعليم سبيل إلى الحضارة ، أم أن الحضارة سبيل إلى التعليم ؟ » .

هل المدرسة هى التى تتقدم بالمجتمع وتلبسه ثوب الحضارة الحديثة ، أم أن المدرسة ظاهرة من ظواهر الحضارة ، ووسيلة مبتدعة من وسائلها تتأصل بواسطتها جذورها وتمتد فروعها ؟

إن دراسة التاريخ ، وهو معمل علم الاجتماع ، تدلنا على أن المدرسة فى تاريخ الحضارات تأتى متأخرة بعد أن تكون الأذهان قد تهيأت لها ، وبعد أن تكون الشعوب قد نالت من المدنية حظاً : لم تكن المدرسة فى يوم من الأيام وسيلة من وسائل التحول الحضارى فى شعب متأخر ، ولم يكن قبس العلم فى عصر من العصور نوراً هاديا لشعب لم ينل حظاً من الحضارة والمدنية . وهذه فرنسا أم المدنيات كما يقال فى العصر الحديث ، هل كان مونتسكيو وڤولتير وجان جاك روسو هم الذين خلقوا الثورة الفرنسية — ثورة الحضارة الحديثة — بتعاليمهم ومبادئهم ؟ . إن هذه التعاليم والمبادئ لم تكن فى الواقع إلا تفسيراً لمعان كامنة فى الشعب الفرنسى الثائر . لم تكن الثورة الفرنسية لتولد ولا كان للتعاليم الحديثة من يرجع صداها ، إذا لم يكن الشعب الفرنسى قد تنبه بعد إلى معانى الحق وارتقى وعيه الجمعى .

ولكن لماذا نذهب بعيداً ، وأمامنا التاريخ المصرى الحافل؟ عند ما أراد ساكن الجنان محمد على أن ينشئ المدارس ويعد المتعلمين ، هل تراه قد صادف فى عصره نجاحاً ملحوظاً ، وهو الذى ابتدع فى وسائل الترغيب للتعليم ما ابتدع ، فكان يدفع للتلميذ راتباً شهرياً ويتكفل بكل نفقاته ؟ ... لقد كان هرب التلاميذ من المدرسة هروب الرجال من الجندية . وأما الآن وقد بلغ الوعى الجمعى فى المدنية المصرية ما بلغ ، فإن الشكوى لترتفع طالبة زيادة المدارس ، فلا تفرض المدرسة فرضاً « وإنما ترجى رجاء » .

وذلك هو الوضع الحقيقى للمشكلة . ليست المدرسة هى التى تتقدم بالمجتمع وإنما المدرسة ظاهرة من ظواهر المجتمع المتقدم

وما هو المجتمع المتقدم ؟ ... إنه ذلك المجتمع الذى يهيئ بنفسه وسائل نموه الحضارى ، هو ذلك المجتمع الذى إذا فتحت فيه مدرسة لم تكن فرضاً عليه بل تكون تحقيقاً لرغباته وطلباته ، وإذا نودى فيه بالإصلاح ، لم يكن نداء أجوف بلا صدى ، بل يكون فيه المنادى لسان من ينادى ...

وليس الفلاح المصرى أمياً لأنه محروم من مدرسة ومن مدرسين ، أولأنه يعوزه القانون الشديد ليخرجه من حيز الجهالة ، بل هو أمى لأنه لم يبلغ بعد فى حضارته الدرجة التى يكون فيها عقله مهيأ لقبول العلم . واليوم الذى يبلغ فيه الفلاح المصرى هذه

(١) La lutte contre l'analphabetisme portera-t-elle ses fruits

الدرجة لن يعوزه قانون يمهد أو سلطة تهدد ، بل يندفع إلى طلب العلم من تلقاء نفسه .

أما والفلاح المصرى لم يبلغ بعد الدرجة التى يكون فيها عقله مهيأ للعلم بدليل إخفاق التعليم الالزامى الإخفاق الذريع على رغم ما يكلفه من مئات الألوف من الجنيهات ، فإن القانون سيخفق والمدرسة ستغلق وتلك الأمانى العراض لن تتحقق .

إن الأمية فى الفلاح المصرى ظاهرة طبيعية تتحول مع التحول الطبيعى للفلاح ، وتظهر أو تنمحى تبعاً لما يبلغه الفلاح من الارتقاء فى سلم الحضارة . وليس فى الإمكان أن يقضى قانون وضعى على قانون طبيعى . وليس فى الإمكان أن يقضى قانون مكافحة الأمية الوضعى على قانون الأمية الطبيعى الملازم لحالة الفلاح الحضارية .

إن رسالتنا هى أن نبلغ بفلاحنا ذروة الرقى ، وأن نجعل بين القرية والمدنية تكاملا من حيث درجة الحضارة ، ولن يكون هذا بفتح المدارس وإعداد المدرسين بل بالاتجاه إلى الفلاح نفسه ، فإن المدرسة ظاهرة من ظواهر ارتقائه فحسب .

علينا أن نبذر بذور الحضارة فى الفلاح المصرى ، بأن نعجل من قوانين نموه الطبيعية . إن للمجتمعات فى نموها قوانين ليس فى طاقة الفرد أن يثيرها ، وإنما فى طاقته أن يتدبرها ويعجل من مراحلها ، فهى أشبه شىء بقوانين نمو الأفراد ، ليس فى طاقة أحد أن يثب بالطفل إلى مرحلة الرجولة دون أن يمر بأدواره الطبيعية . والذين ظنوا أن فى قدرة الفرد أن يخلق ويبدع فى المجتمع مخطئون ، فإن دور الفرد أو دور المصلح فى الحياة الاجتماعية دور ثانوى لا يعدو أن يكون تدبراً وتوجيهاً .

كل ما علينا إذاً هو أن ندرس الفلاح وأن نتدبر قوانين نموه ثم ندفع به إلى الأمام فى طريقه الطبيعى .

والواقع أن الفلاح المصرى يتقدم ببطء ، إذا قارناه بأمثاله فى هم أوربا وذلك يرجع إلى عاملين :

١ — العامل الاقتصادى .

٢ — العامل التكوينى .

والواقع أن العامل الاقتصادى فى رأينا نتيجة للعامل التكوينى ، لأننا نميل إلى القول بأن الحياة الاقتصادية من خلق الانسان ، وليس كما يقول كارل مارك أن الإنسان من خلق الحياة الاقتصادية فى تطوره الحضارى .

لقد اصطلح علماء الاجتماع على تقسيم عقليات المجتمعات إلى نوعين : النوع الأول يعرف بالعقلية السحرية ، والنوع الثانى يعرف بالعقلية الوضعية ؛ والنوع الأول من العقليات سمة الشعوب المتأخرة ، والنوع الثانى سمة الشعوب المتحضرة . ولا بد لكل مجتمع من أن يمر أولا بالمرحلة السحرية وأدوارها ، ثم ينتهى إلى المرحلة الوضعية .

أما المرحلة السحرية فى المجتمعات فتتميز بتفشى المعتقدات الشعبية وعدم التميز الواضح بين سبب ومسبب حتى تكاد الظواهر كلها تختلط وتنسب إلى قوى غامضة ومجهولة . والارتباط المنطقى يكاد أن يكون معدوماً فى عقول الناس فى هذه المرحلة ، فالمرض يرجع إلى قوة غامضة قد تكون الزار فى أغلب الأحايين وما إلى ذلك مما يدل على تفكك الرابطة المنطقية فى العقول ، أما المرحلة الوضعية فعكس ذلك تماماً …

وواضح من هذا أن الفلاح المصرى لا يزال فى المرحلة السحرية ، وعلينا إذا أردنا له تقدماً أن نعجل مرحلة الانتقال من الحالة السحرية إلى الحالة الوضعية .

ذلك هو العامل التكوينى ، فعلينا إذاً أن نعمل على أن يبلغ فلاحنا المرحلة الوضعية بكل ما أوتينا من مجهود ، فذلك هو السبيل المنشود …

ودراسة التاريخ تدلنا على أنه حينما وجدت الآلة انبثقت الحضارة ، ذلك لأن للآلة أثرها فى عقلية من يمارسها ، إنها تطبع العقل بالطابع الوضعى ، طابع القانون الذى يربط بين سبب ومسبب … فالآلة تدور ، ولكنها تدور وفق نظام متماسك لا يلبس أن يتكيف به عقل من يمارسها ، ومن هنا لا تكون رسالة الآلة رسالة إنتاج بقدر ما هى رسالة عقليات وحضارات .

تدور الآلة ، فلا يلبث التفكير الفلك أن يتماسك ، ذلك لأن من طبيعة الانسان أن يدرك بالفكر ما يعمل باليد والآلة تقتضى نظاماً وقانوناً يلمسه عامل الآلة باليد ويشاهده بالعين فلا

يلبث طويلا حتى يدركه بالفكر ، ويصبح القانون والنظام من طبيعة تفكيره ؛ لقد سبق الانسان العامل (Homo Faber) الانسان المفكر (Homo Sapiens) فى أدوار التاريخ كلها ، وما الصيغ والرموز التى يصطنعها الفكر فى الواقع إلا تجريدات لوقائع ملموسة باليد ومشاهدة بالعين .

نحن إذاً ننشد العقلية الوضعية كخطوة أولى من خطوات الإصلاح ، وليس من سبيل إلى تحقيق هذا غير الآلة . ولسنا نعنى بذلك أوضاع الصناعات الضخمة والآلات العظيمة مما قد لا يتيسر لنا الآن ، وإنما نعنى من الآلة صغرت أو كبرت كمعنى النظام والترابط والقانون . وإن فى قدرة الصناعات الزراعية البسيطة تحقيق ما نرجوه ، وهذه الدانمارك ، تلك البلاد الصغيرة لقد حققت حضارة عظيمة تعد من أرقى الحضارات الأوربية على أساس هذه الصناعات الزراعية البسيطة .

كأن مشروع مكافحة الأمية مصيره الاخفاق لأن الأرض لم تعد ولم تعبَّد بعد . وإنما السبيل إلى تحقيق هذا المشروع هو إيجاد العقلية الوضعية ، عقلية الحضارة والمدنية التى تلتمس سبل التقدم فى مجال العلم .

والذى يدلنا دلالة قاطعة على أن الصناعات تهيء العقل الجمعى لطلب العلم والاستزادة منه ذلك الاحصاء الذى يدلنا على أنه فى سنة ١٥٠٠ م لم يكن أكثر من ١٠ ٪ من شعوب أوربا الغربية حاصلين على قدر من الثقافة . وفى سنة ١٧٠٠ م ارتفعت النسبة قليلا حتى إذا جاءت سنة ١٨٠٠ م ، وظهرت المنتجات الصناعية فى أوربا بلغت نسبة المتعلمين نحو ٧٥ ٪ ؛ أى أنه فى أقل من قرن واحد ارتفعت النسبة بمقدار ٦٥ ٪ [١] .

وبمقابلة بعض البلدان الصناعية بغير الصناعية يتضح مقام نصيب الصناعة فى تهيئة الشعب لقبول التعليم نتيجة للعقلية الوضعية .

ففى كل من المملكة المتحدة (بريطانيا) وألمانيا واليابان لا يوجد غير ١ ٪ لا يعرفون القراءة والكتابة . وفى أمريكا ٦ ٪ وفرنسا ٨ ٪ وبلجيكا ٩ ٪ وجميعها من البلدان الصناعية .

(١) Lhanging culture and ehanging governments : H . Rugg

أما فى البلدان التى لم تتقدم فيها الصناعة فالأمر يختلف عن ذلك . ففى أسبانيا ٥٤ ٪ وفى الهند ٩٠ ٪ [١] الخ .

من كل ما تقدم نستطيع أن نستخلص ما يلى :

١ — أن الحضارة تولد قبل أن يولد التعليم وما التعليم فى الواقع إلا أداة للحضارة تستغلها لاطراد نموها وسموها .

٢ — من أكبر العوامل التى تلد الحضارة نشر الصناعة وظهور المنتجات الصناعية لما يستتبع ذلك من تكييف عقلية الشعب بالقالب الوضعى الحضارى .

٣ — الظواهر الاجتماعية وفيها ظاهرة الأمية لا يمكن القضاء عليها بقانون لأن لها مراحلها الخاصة وعواملها الخاصة .

ليس إذاً لب المشكلة فى أمية الفلاح ، وإنما فى حالة الفلاح العقلية ونصيبها من قبول العلم .

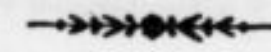
فؤاد عوضه واصف

ليسانسيه فى العلوم الفلسفية

(١) Ibid

القمر ...!

للأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالي

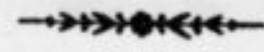


قلبان في نورك الهيمان يا قمرُ هاما، وبينهما الأشواق تستعرُ
يسترجعان الليالي بعد ما غبرتْ وقد تولى الندامى، وانطوى السمر
وهوَّم الصمت إلا خفق أجنحةٍ من الشعاع هي الأطياف والذكَر
وعطّلَ النايُ بعد الصدح واحتبست فيه الأغاني ... فلا شادٍ ولا وتر
وأغفتِ الطيرُ في أعشاشها، وصحا من حولها نسمٌ يندى به الزهَر
وأرهف الليل للقلبين مِسمَعَه قلبٌ قريرٌ، وقلبٌ كاد ينفطر
يشكو الجراح لعل النور يُبرئُها فلن يُضمِّدها إلاكَ يا قمر

قلبي الذي بات يصلى منك جمرته وقد حبتْهُ بلذع دونه سقر
قلبي فراشتك الحمقاء قد جهلتْ بأنها في سناك الحلو تنتحر
ترود في نورك الرقراق مصرعها والحبُّ أقتلُ ما يرمى به القدر
قلبي تُخادِعه أنوارُك انبثقتْ ذكرى تموج مع الماضي وتنحدر
يسري مع النور سَبْحاً في جداوله حتى يكفكف من أضوائك السَّحَر
صديانُ والنورُ يُروي فيه غُلته فليس ينقعها نبع ولا نهر
هيمان... والنورُ في واديك يا قمرُ كخفق الحلم لا يُبقي ولا يذر
وقصَّ من سور النجوى ملاحمها لعل تجدي لديها هذه السوَر
أقضي الليالي أناتٍ مرددةً والشاهدان عليَّ النجم والسهر
على الأماني التي ولت براجعةٍ مع الربيع فيزهو روضي النضر
وأصطفي مجلسي في العشب أعمرُه وقد تقادم فيه العهدُ والأثر
أقتاتُ زهر الربيع البكر مؤتلقاً بالنور حتى يكاد النور يُعتصر
أسقاه خمراً صفتْ في كرمها وزهتْ دُرِّيَّةَ الكأسِ يخشى لمحها البصر
يا طالما بتُّ أحسوها فإن فرغت كأسي ففي عينها خمرٌ هي الحوَر
يا ليلة النور في السفح الظليل هنا هل ترجعين بما قد كنتُ أدخر
وما ادخرت سوى لقيا ضننت بها هنا، وكاد يحن الرمل والحجر
فإن سمحتِ بها نِلنا أمانينا فليس ثَمَّ سواها منكِ ننتظر

فلسطين!

للأستاذ كمال النجمي



علت صيحة كالرعد دوّى هزيمُها تحامى صداها واتقاهُ غريمُها
ألمَّت بأسماع الطغاة فزُلزِلت وحزَّ قلوبَ المؤمنين أليمها
هفت من فلسطينٍ إلينا فنبهت نياماً قلاها كهفُها ورقيمها
وسالت لها منا حقود قديمة على الغاصب الباغي يجيش كظيمها
لقد جحد الباغي فلسطين حقَّها وأسرف في جور عليها ظلومها
لها الله من مهضومة غِيل أمنها وحال عذاباً خفضُها ونعيمها
تقاعس عنها حين ضيمتْ وليُّها وأسلمها للحادثات حميمها
وكان لها في العُرب لولا جمودهم حسام إذا ما اهتز ربعَ خصيمها
بني يعرب تدعو فهلا أجبتمُ سليبة حق أنحنتها كلومها
أبوتكم ترنو لكم من قبورها وتدعوكمُ أنجادها وقرومها
همُ جاهدوا في الله حتى توطدت ديارهمُ أمناً وقرت نجومها
مضوا في الدنا شرقاً فأسلم فرسُها وساروا بها غرباً فسلم رومها
لهم ذكريات يعبق المسك إن سرت ويذهبُ بالألباب سكراً شميمها
فسيروا على هَدْي الجدود فإنهم سمواتُ حقٍّ لا تغيب نجومها
دعتكم فلسطين وقد ضاق سجنها وزاد أساها قيدها وشكيمها
وحلت بها من وعد بلفور ظلمة من الليل يُعمي المبصرين بهيمها
مرابعها الفيح الضواحك أصبحت يهيج الشجونَ الكامنات وجومها
حدائقها نهب الذبول زهورها وأشجارها نهب الرياح هشيمها
تبكّي الغصونَ الذاويات طيورُها ويرثي الورودَ العاطرات نسيمُها
فأضحت وقد كانت مناظر جنة تهيج دموعَ الأوفياء رسومها

لغات الكتابة...

عظمتها في رصانتها ووقعها الموسيقى

للأستاذ نصيف سركيس

ترهف الآذان لكل صوت شجي ، وتنجذب العواطف شطر النغم الموسيقى ، وتخضع القلوب مأسورة لألحان الجرس التوقيعي .

وهكذا الطبيعة في جمالها ورونقها ، في صخبها وسكونها ، في عبوسها وضحكها ، في إشراقها وحلكتها ، في تنيراتها البديعة الفاجئة إنما تبعث في النفس الحب والهيام وتشع في الروح الفتوة والكمال .

الطبيعة برعدها القاصف ما هي إلا نذير خطر يهلع له قلوب البعض وتقشعر له أبدان الآخرين .

والطبيعة في تغاريد طيورها وحفيف أشجارها ما هي إلا وحي عطوف يستمد الشاعر منها إلهامه ، ويعب الكاتب منها لخيلائه ويراعه .

فإذا كان الكاتب ملهما ، وله من الحواس النشطة ما يحمل إلى خبايا اللب من الداخل كل صورة لطيفة وطابع جميل فهو يعيش في نماء هـذه الحياة يعبر إذا ما كتب عما يخالج نفسه ، ويجول في فؤاده من تلك المناظر الطبيعية الخلابة ، وأما إذا كان لا يعبأ بما يحوط به من أجواء ولا يحاول أن يستلهم من الطبيعة مادة لقلمه فهو جاف الشعور فاتر الاحساس مبتور القول والخيال .

فالطبيعة تنشد الموسيقى ، وأنغامها تهتز لها الأجواء وتترنح لها دوحات الأشجار وترقص لها الطيور . والإنسان بفطرته تستهويه هذه الأنغام ، وتملك عليه ناصية رشده ، وزمام عواطفه فإذا قرأ رسالة منسقة ، منسجمة في مقاطعها ونبراتها ، تاه في خيلائها ، وأخذ ينشط في تلاوتها وحذقها . وقد لا يهدأ روعه وتخمد ثورة جشعه في بعض الأحايين إلا إذا أعاد قراءة هذا المقال مرة ومرتين . فإذا مابلغ قصده من قراءاته المتكررة يكون عقله الباطن قد اصطفى ما راق لذوقه وعذب لنفسه . فلا يشعر بعد ذلك وهو في خلوته و كتاباته إلا مكرراً لبعض ما استساغه ، وقويت ذاكرته على استخلاصه .

كل ذلك وهو في نشوة من الفرح والارتياح ، وكل ذلك وهو على يقين بأن قبس ذلك النور الذي أشرق على خيلائه وذاكرته إنما هو راجع إلى ذلك الأسلوب الموسيقى العذب .

فللاتساق والجرس وقع في النفس عظيم ، وللجرس في توقيعه وأنغامه ما يجذب لب القارئ ويستهويه . وإذا ماتم ذلك توطدت لنا الدعائم الأولى ، والتي نعمل على أساسها في إيثار كاتب على آخر .

هذا ويدلنا علم النفس على أننا نذكر دائماً كل حسن وجميل وأنه يعلق بذاكرتنا كل نغم لطيف بخلاف الأقوال المبتذلة التي تلوكها الألسنة بين حين وحين ، فإنه كثيراً ما يعاف القارئ تلاوتها وتأنف النفس توفير أسباب النشاط لاستيعابها وصونها .

فإن غلب على القارئ الأمر ، وأجبر على النظر إلى مقال من هذا الطراز إنما يخرج منه وقد ألفى نفسه يرغى ويزبد لما لحقه من النكد وسوء الطالع لتصديع النفس بقراءة كلمات مرصوصة نابية ، لا تنم على حسن ذوق أو فصاحة بيان

هذا ولا يحتاج الكاتب إلى استهداء العبارات السلسة ذات الجرس الموسيقى واستنداثها فهي تأتي مع السليقة والمران ، تأتي

بنى يعرب حان التأهب فاشحذوا ... عزائمكم حتى يصح سقيمها
وكونوا كما كان الألى أنجبوكم ... نفوساً كباراً واسمات همومها
إذا اتسع الهم العظيم حملنه ... وقمن به حتى تضيق جسومها
فلسطين باب البيت روع أمنها ... وديس وأنتم تنظرون حريمها
فلا توجلوا من موتة ليس بعدها ... سوى جنة فيحاء طاب نعيمها
ولا تطلبوا بالقول حقاً مضيعاً ... فبالسيف يسمو للعلى من يرومها
لقد سفرت إنكلترا وحليفها ... بأوجه مسين كالجليد أديمها
وخلفهم الشذاذ من كل بقعة ... نفت لؤمهم حتى استراح كريمها
سنقسو ذياداً عن حقوق بلادنا ... وننشدها حتى يرد هضيمها
ليعلم جزار الشعوب بأننا ... ضراغم غاب لا تلذ لحومها

مع القراءة لفحول الكتاب ونوابغ الشعراء ، وهى بهذا تأتى محمولة على الطبع غير متكلفة .

وهذا ولاشك يعد أعلى درجات الكلام . فإذا تهيأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته كلها على هذه الشريطة فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم يستعبد كرائمها ويستولد عقائمها .

والألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر . فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ولطافة ، وما مثال الكاتب الذى لا يشعر بوقع أنغام العبارات الشجية فى أعماق قلبه وبجرسها الموسيقى فى صميم فؤاده إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة ، وبين صورة فتاة هيفاء فاتنة الجمال ذات وجه مشرب بالحمرة ، وخد أسيل وطرف كحيل ، وثغر فاتن ، وقد مياس .

فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه . فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوى بين الألفاظ المجوجة العادية والألفاظ المنتقاة الموسيقية ، ولا فرق بين النظر والسمع فى هذا المقام . فإن هذا حاسة وهذا حاسة ، وقياس حاسة على حاسة مناسب .

يقول « أبر كرومبى » ولا بد للأديب أن يعرف كيف يجمع فى فنه كل ما احتوته الألفاظ من قوة التعبير والتصوير ، وكل ما من شأنه أن يساعد على التوصيل بحيث يستثير الخيال ، ويصرفه كيفما شاء . ويجب أن تكون الألفاظ قوية التعبير لكى تستطيع الإبانة عن تجارب المؤلف المراد توصيلها وتفهيمها ، كذلك يجب أن تكون الألفاظ صالحة لأن تحكى تلك التجارب وتصورها بصور واضحة .

أما التشبث بأهداب الألف والدوران ، والقول بأن السهل الممتنع هو أسمى أنواع الكتابة ؛ هو فى ظاهره قول فصل لا يعتوره لبس أو إبهام . ولكن هل كل مبتذل ... سهل ممتنع وهل كل أسلوب دارج أقرب إلى لغة التخاطب منه إلى لغة الكتابة هو بيت القصيد ؟

نعم إن الجمال سهل معجب ، ولكنه سهل على من ؟ ! وبعد ماذا ؟ ! على الذين يقدرونه ويحبونه ، وبعد الخبرة والممارسة والتذوق والتهذيب ، فليس معنى السهولة فى جمال الفنون أنه رخيص مباح لكل من يرمقه بجانب عينه ، ولا أنه غنى عن التأمل والتفكير . ولكن معناه أنه سهل سائغ لمن يستعد له استعداده ، ويبذل فيه ثمنه . وكذلك الثمرة الشهية سهلة سائغة لمن يشتريها ويغرسها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها تمطر من السماء وتطرح على التراب أو تنمو كما ينمو نبات السحر .

ولو كان الغرض من اشتراط السهولة فى الجمال أن يكون سهلا على كل من يطلبه وبلا تفاوت فى الدرجات والمواهب لما كان فى الكتابات رسالة واحدة جميلة ، أو حقيقة بأن توصف بالجمال ، فإن كتابات شكسبير سهلة على بعض القراء ، ولكنها من الألغاز والمعميات على أناس آخرين ، وإن هؤلاء الآخرين قد يطيب لهم أساليب بيرون ، ولكنه إذ اقرئ على من دونهم من الفطنة والشعور عابوه واستثقلوه أو كابدوا فى فهمه الصعوبة التى تنفى صفة الجمال ، وهكذا إلى أن تهبط إلى طبقة تستصعب شعر هؤلاء جميعاً ، ولا تجد السهولة الجميلة إلا فى الأزجال الغثة والأناشيد الوضيعة ، وما فى منزلتها من الأساليب المبتذلة الركيكة. فإذا جعلنا السهولة ميزاناً لنا فى الفنون ، واتخذنا الشيوع عنواناً على السهول ، فقد نتمادى فى ذلك حتى يصبح لثغ الأطفال فى عرفنا نماذج البلاغة العليا ، ثم تنحدر البلاغة سفلا حتى تنتهى إلى فحول الشعراء وأئمة الكتاب والفصحاء .

فلا صحة إذاً فيمن يقول بأننا نعمل على تقديس القديم واستساغة ألفاظ العهد الغابر ذات الجرس الموسيقى ، والذى لا يتمشى مع روح العصر ومستلزماته ، فما هذا إلا محض افتراء وقدح معيب توصم به لغة البلاد الراقية النفيسة . فالكتابات المبتذلة العادية والتى أحمل عليها حملتى الشعواء لا يمكن أن تجد دفاعاً عنها فى هذا المضمار بعد أن بينت تفاوت الأذهان والعقليات فى الحكم على ما يدعى من الكتابات بأنها سهلة فصيحة أو سهلة ممتنعة

وهكذا فالكلام يحسن بعذوبته وجزالته ورصانته مع سلاسته ونصاعته . وإذا اشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف ، وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب

فقبله ولم يرده ، وعلى السمع المعيب فاستوعبه ولم يمجه . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسى البشع . وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقه وينفر عما يضاده ويخالفه ، والفهم يأنس من الـكلام رقيقه وعذبه ، وينقبض عن الوخم ويتأخر عن الجافى الغليظ ولا يقبل الـكلام المبتذل

وليس هذا هو الشأن فى إيراد المعانى . ولـكن المعانى يعرفها الجاهل والعالم والـكاتب الحصيف ذا الخيال الرائع والـكاتب الناحل من كل ذوق وبراعة . وإنما الشأن هو فى جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بذلك .

ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة والـكنايات الرايقة ما عملت لإفهام المعانى فقط وإنما يدل حسن الـكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وغريب مبانيه على فضل كاتبه وفهم منشيه .

وقد قال عبد الـكريم الموصلى فى كتابه « المثل السائر » :

« إن خواطر الناس وإن كانت متفاوتة فى الجودة والرداءة فإن بعضها لا يكون عاليا على بعض أو منحطا عنه إلا بشىء يسير وكثيرا ما تتساوى القرائح والأفـكار فى الأتيان بالمعانى حتى ان بعض الناس قد يأتى بمعنى موضوع بلفظ ثم يأتى الآخر بعده بذلك المعنى واللفظ بعينهما من غير علم منه بما جاء به الأول » .

لا شك أن حسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا فإذا كان المعنى سبياً ورصف الـكلام ردياً لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ورصف الـكلام جيدا كان أحسن وقعا وأطيب مستمعا . فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الألفاظ فى مواضعها ويحلى جيدها برنين الجرس الموسيقى وما يحمله ذلك من وقع جميل إلى حبات القلوب .

لا بأس بعد هذا من أن أكرر القول بأن لـكل مقام مقالا وليست وظيفة الـكلمات فى الأدب كوظيفتها فى العلوم . هى فى الثانية وسيلة لتفهم الأسرار العلمية فهى شىء كمالى بالنسبة للفـكرة ولـكنها فى الأولى جزء لا يتجزء من النص الأدبى . فالأدب يستعمل اللغة استعمالا كاملا ويستغل كل قيمتها من جمال وتأثير ومعنى ، ولا يستطيع أن يسقط الألفاظ من حسابه كما يفعل العلم أحيانا ، واللفظ فى الأدب لا يكون مجرد تصوير للفـكرة وتأدية للمعنى، فأن الرنين الذى يصحب العبارة أو الفقرة يساعد على الابتداع ويخلق فى ذهن المستمع جوا لا تقل قيمته الفنية عن إفادة المعنى .

فإذا أحطنا علما بمزايا تلك اللغة الرصينة ، وأيقنا أن زمامها مسلس لنا ، فنعدوا بها ونـكبحها كيفما شئنا وكلما دعت الحال إلى ذلك . وإذا سلمنا بوقعها فى النفس وإيثار العاطفة الإنسانية لها دون غيرها فلا يكون بدعا بعد ذلك إذا ما وقفنا بها قدما وجعلنا منها نورا للهدى وينبوعا للـكمال ، فهى التى لا يفتر لها إشعاع ولا ينضب لها معين .

نصيف سركيس



... وكفى !

كان فى تركيا رجل ماجن سكير ما يكاد يفيق ، اسمه بكرى مصطفى فضاقت به سبل العيش مرة حتى ما يجد ثمن الكأس من الخمر . ففتقت له الحيلة أن أطال لحيته وكبر عمامته ، وذهب إلى الأناضول فسعى حتى جعلوه إماما للمسجد وواعظا للقرية ...

وكان يسير يوما فرأى جنازة ، فأمر بها فوقفت ، وأنزل النعش ، فانحنى عليه كأنه يساره ثم قال : ارفعوها وامشوا ، فسأله بعض خواصه ، ماذا قال لها ، فقال :

— قلت للميت ، إن سألوك فى الآخرة عن أحوال الدنيا ، فلا تطل الحديث ، قل لهم صار الإمام بكرى مصطفى . وكفى !

***

ونحن إن سئلنا ما حال الأدب اليوم ، نقول :

إنه صار بين كتاب الرسالة ، نعم الرسالة ، من يمر فى معرض الكتب على (وفيات الأعيان) فيضحك عليه كما ضحك على كتاب (الأدلة القطعية على عدم دوران الكرة الأرضية) مغرقاً فى الضحك (لأن مؤلفه) ولم يدر (حضرته ...) من مؤلفه (لم يجد ما يكتب عنه إلا أن يسرد وفيات الأعيان ، كأن الدنيا وما فيها لا تهمه ، وكأن الاصلاح الاجتماعى لا حاجة بنا إليه ...)

وإذا لبثنا على هذا (التقدم) فسيجيء فى معرض الكتب الآتى من يمر على (الأغانى لأبى الفرج فيقول : ما لهذا المؤلف لم يجد ما يكتب عنه إلا جمع أغانى الاسطوانات ، وطقاطيق الراقصات ... كأن الدنيا ... وكأن الاصلاح ...

ويضحك أيضا ...

ويبكى من هذا الضحك العلم والأدب والفن ؟

على الطنطاوى

طيزناباذ فى نقل الأديب :

ذكر المحقق العلامة محمد إسعاف النشاشيبى فى نقله المتعة فى العدد ٦٧٨ من الرسالة الزاهرة أن محمداً بن مسروق البغدادى قال : خرجت ليلة فى أيام جهالتى وأنا نشوان وكنت أغنى هذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به
إلا تعجبت ممن يشرب الماء

أقول إن هذا الخبر ينسب لأبى نواس فقد جاء فى الصفحة ٢٠٢ ، ٢٠٣ من أخبار أبى نواس لابن منظور « قال بعضهم صار إلى الحسن بن هانىء فى ليلة من الليالى وهو مرعوب فنزع ما كان عليه من الثياب وأخذ قميصاً وسراويل وأراد أمراً يأتى ، ثم تطهر ولبسها وما زال يصلى باقى ليلته إلى الصبح ، ثم أصبح صائماً فسألته عن السبب فى ذلك فقال : كنت منصرفاً من بعض المواخير ، فاجتزت من مقبرة فبينا أنا ماش فيها إذ أنشدت قول ذى الرمة :

بطيزناباذ كرم ما مررت به
إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فأجابنى مجيب من المقبرة أسمع صوته ولا أرى شخصه :

وفى جهنم ماء ما تجرعه
حلق فأبقى له فى الجوف أمعاء

وفى رواية الأستاذ النشاشيبى تصحيف ذهب بروعة البيتين وأفسد معناهما ، إذ قال « بطور سيناء » والصحيح بطيزناباذ[1] وقال فى البيت الثانى « خلق » والصحيح حلق .

هذا هو الصواب على رأينا فنرجو من الأستاذ أن يتحقق من ذلك .

وقد وجدت الأستاذ يهمز اسم أبى نواس كلما ذكر اسمه ، والصحيح أن اسمه لا يهمز فما هى علته فى ذلك .

(بغداد) **شكرى محمود أحمد**

توحيد القوانين فى البلاد العربية :

من أنباء دمشق أن اللجنة القانونية التى اجتمعت فى بلودان ثلاثة أيام برياسة الأستاذ عبد الرزاق السنهورى باشا ، قد وافقت على القرارات التالية :

(١) طيزناباذ : موضع بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق على جادة الحاج ، وكان من أنزه المواضع محفوفاً بالكرم والشجر والحانات والمعاصر : وكان أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة.

« مسالك الأبصار »



« كتب وشخصيات »

تأليف الأستاذ سيد قطب

للأستاذ أحمد فؤاد الأهواني

قال لى : الأستاذ سيد قطب سأهدى إليك كتابى الأخير « كتب وشخصيات » على أن تستبق قراءته إلى ما بعد عودتك إلى القاهرة ، فلا ينبغى أن يشغلك عن الاستمتاع بهواء البحر القراءة والاطلاع . غير أنى خالفته فى نصيحته ، فقرأته وهو يزيد على ثلثمائة وخمسين صفحة

ولم تكن هذه الصحبة شاقة أو مملة ، إذ أن فصول الكتاب منوعة حتى كأنك تنتقل من بستان إلى بستان أو من زهر إلى زهر. وليس غريباً أن نشبه الأدب بالأزاهير . فهو حقاً زهر الفكر .

تحدث عن وظيفة النقد وأصوله ، ثم انتقل إلى عالم الشعر ووقف عند العقاد الشاعر ، ثم رحل إلى عالم القصة والرواية فطرق أبواب القصاص والروائيين ، وحلل طرائقهم ، ونفذ إلى صفحات نفوسهم. طه حسين. توفيق الحكيم، المازنى، عزيز أباظة ، خليل هنداوى ، نجيب محفوظ ، عادل كامل ، محمود تيمور ، يحى حقى ، السحار . ثم طاف بالنفس والعالم فتحدث عن البيادر لميخائيل نعيمة ، وأومن بالإنسان لخلاف ، وسندباد عصرى لحسين فوزى ، والعناصر النفسية فى سياسة العرب لشفيق جبرى .

وانتقل بعد ذلك إلى البحوث والدراسات ، فكتب عن عبد القادر حمزة وأنطون الجميل والزيات وعلى أدهم ، واختتم الكتاب بالكلام عن التراجم والتاريخ موازناً بين العقاد وهيكل وطه ، وبين المازنى وعبد الرحمن صدقى وعبد الحليم عباس ، وبين كرد على وطه الراوى .

فأنت ترى أن العنوان موافق لمضمون الكتاب : استعراض لكثير من الكتب ، وتحليل لشخصيات أصحابها .

والكتاب ظل لصاحبه ، وفيض لنفسه ، وهل يوجد كتاب بغير كاتب ؟ . وفى الحق إن شخصية الكاتب هى مفتاح الكتاب ، وفهمها يبعث فى أوصاله الحياة ، والذين يتحدث عنهم الأستاذ

---

١ — وضع تشريع تجارى برى موحد فى نصوصه أو على الأقل فى مبادئه العامة ، والشروع فوراً فى توحيد أحكام الوثائق التجارية فى البلدان العربية

٢ — وضع مشروع قانون موحد للتجارة البرية والبحرية

٣ — إنشاء معهد للفقه الإسلامى ملحق بجامعة فؤاد الأول له كيان مستقل وميزانية خاصة ومجلس إدارة خاص يعمل على تخريج الباحثين فى الفقه الإسلامى وإصدار مجلة دورية

٤ — توحيد المصطلحات القانونية بين دول الجامعة والبدء بمصطلحات قانون العقوبات واصول المحاكمات القانونية والتجارية .

٥ — وضع قانون موحد لمكافحة المخدرات

وقد وافقت الهيئة العامة للجنة على مشروع القانون الموحد الخاص بحماية حقوق المؤلفين وستعرضه على الجامعة العربية لإبداء ملاحظاتها عليه .

فى أصول الكلمات :

قرأت ماجاد به قلم كاتبنا الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد تحت عنوان « أصول الكلمات » افتتاحية للعدد الـ ٦٧٧ من « الرسالة » الشهيرة فتوقفت عند قوله : « كذلك قال الأب أنستاس ، وقد عقب عليه الأستاذ روكسى بن زائد العُزيزى معلم العربية بكلية تراسانته بالقدس فى مجلة الأديب البروتية فقال : « فلو قلنا إن العرب قالوا » عين القلب ثم نحتوا من الكلمتين كلمة واحدة — عقل — لما أبعدنا عن الصواب. ولوسايرناما ذهبتم إليه وقلنا إن العقل من عق لكان مقبولا لأن العقه هى البرقة المستطيلة فى السماء ، وهل العقل إلا وميض النفس وعين القلب »؟

والذى أريد أن أقوله : إن الأستاذ الكبير خلط بين ردى على الأب مرمرجى الدوضيكى ، وتنبيهى إياه على تحريفه لأقوال الأب أنستاس مارى الكرملى المثبتة فى مجلة لغة العرب ، وأقوال الأب الكرملى نفسه .

روكسى بن زائد العزيزى

سيد قطب من الأحياء ، نعرفهم بأشخاصهم ونراهم ونتحدث إليهم ، ونسمع عنهم ، وأكبر الظن أنهم جميعاً من أصدقاء الأستاذ سيد قطب ، أو على الأقل اتصل ببعضهم صلة شخصية ، تيسر له النفاذ منهم إلى الأعماق . ودراسته لأشخاصهم أسبق من دراسته لكتبهم ، فكان الأولى أن يحمل العنوان « شخصيات وكتب » لولا رنين الإيقاع .

وكتاب الأستاذ سيد قطب محقق الفائدة ، لأنه يعرض رأيه فى صدق وقوة ونفاذ . والأصح أن أقول إنه يعرض شعوره وإحساسه بدلا من رأيه ، لأن مسائل الأدب ، شعراً كانت أم قصصاً أم دراسات تحليلية ، إنما تدرك بالذوق والشعور لا بالمنطق والعقل ، ولو أن الفصل التام بين العقل والعاطفة مستحيل .

وهنا قد يختلف القارىء مع الأستاذ سيد قطب فى أحكامه ، فيرجح كاتباً على كاتب ، أو يعجب بشاعر دون شاعر . وقد تتفق مع المؤلف فى إعجابه ولكنك تجهل سبب الإعجاب ، فيقدم لك العلة والميزان . ومن الواضح أن سيد قطب يعجب بالأستاذ عباس العقاد ويقدمه على غيره من الكتاب فى ميدان الشعر وميدان النثر على السواء . وسوف تعرف علة هذا الإعجاب عند ما تقرأ الكتاب .

وللأستاذ العقاد شعر جيد تذوقته عندما عرض بعضه سيد قطب . وتسألنى لماذا لم تتذوق هذا الشعر من قبل ، فأقول إننى أرهب الشعر ، ولا أقدم على قراءته . ولقد يزيد عجبك إذا عرفت أننى كنت أقرض الشعر وأنا صبى صغير فى الحادية عشرة من عمرى ، حين كنت بالسنة الأولى بالمدارس الثانوية ، ثم غفر الله لمدرسى اللغة العربية الذين قتلوا فى نفسى هذه الموهبة ، بل صرفونى حتى عن قراءته بما كانوا يختارونه لنا من شعر سقيم لا يحسنون الدخول إليه والاحتفال به . وأذكر أن الأستاذ الزيات ذهب هذا المذهب فى كتابه « دفاع عن البلاغة » فأرجع بُعْدَ الناشئين عن الكتابة البليغة إلى المعلمين . ومن الإنصاف أن أذكر طه حسين بالخير فى هذه المناسبة فقد حضرت عليه درساً فى الأدب العربى بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ كان يشرح فيه معلقة النابغة الذبيانى ، فكان المدرس الوحيد الذى دفعنى إلى تغيير رأيى فى الشعر العربى . ولكن عاماً واحداً لم يكن كافياً لتخلص لى ملكة ذوق الشعر ، فظللت حتى الآن منصرفاً عنه لا أحفظ إلا الأبيات القليلة ، ولا أستطيع الانقطاع إلى قصيدة بتمامها .

فمن الخير لشبابنا أن يقرأوا كتب النقد لتبصرهم بالجيد من الأدب الحديث حتى يسيروا على هدى وبصيرة فلا يضلو الطريق

وليس فى نقد الأستاذ سيد قطب للأدباء والشعراء والكتاب الذين تعرض لهم عنف أو قسوة أو اعتداء . بل على العكس من ذلك ، تحليل هادئ ، وتقدير صحيح ، وميزان أقرب إلى الاعتدال فيه تشجيع ورفق . وهذه هى وظيفة النقد ، لا ينبغى أن يقسو الناقد حتى يتهم بالتحيز والهوى ، أو يسرف فى التحية ويغمض العين عن المساوئ والعيوب وكذلك لا يجب أن يغضب الكاتب إذا انتقدت آثاره ، لأنها أصبحت ملك الجمهور ، بل نقدها دليل على أنها شىء مذكور .

وهنا أحب أن أخالف الأستاذ سيد قطب فى بعض أحكامه . ولن يكون هذا الخلاف فى ميدان الشعر بطبيعة الحال لأنى أجهله .

أخالفه مثلا فى تقديره لقصة قنديل أم هاشم من قلم يحى حقى ، ليست القصة تحت يدى الآن ، وقد قرأتها حين ظهورها فى سلسلة اقرأ ، وأذكر أنها لم تعجبنى ، ولا أزال أذكر الأسباب : منها أن الموضوع مطروق ، ومع ذلك فليس هذا سببا لضعف القصة إذا أحسن صاحبها تصويرها ، وقدم إليك السياق فى جمال وإبداع يعوضك عن عمق الفكرة وأصالة الموضوع . والأفكار الخالدة هى تلك التى تكشف عن النواحى الإنسانية العامة الصالحة للحياة فى كل زمان وفى كل بيئة . وليس فى قنديل أم هاشم ذلك التحليل العميق للنفس البشرية ، حتى إذا نقلت القصة إلى لغة أجنبية نالت الإعجاب . ويبدو أن صداقة الأستاذ سيد قطب للمؤلف هى التى دفعته إلى تشجيعه ، ومن آيات هذه الصداقة أنه يقول عنه . أوه ! يحى حقى ! أين كانت كل هذه هذه الغيبة الطويلة ؟ وفيم هذا الاختفاء العجيب .

نرجو أن يعود يحى حقى إلى الميدان ، فالقصاص عندنا قليلون .

ونرجو أن يتابع الأستاذ سيد قطب نقداته فهو حقا من خيرة النقاد فى مصر .

أحمد فؤاد الأهوانى

العدد ٦٨٣ — الاثنين ٦ أغسطس ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

٢٧٠١١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

مجلس مديرية بنى سويف

إعلان

يطرح مجلس مديرية بنى سويف فى المناقصة العامة توريد ما يأتى :

أولا — الخامات والعدد اللازمة للأقسام الصناعية بمؤسستى الأيتام (نسج الكليم والسجاد — الخيزران وأدوات النظافة — الطباعه — الجلود — الموسيقى)

ثانياً — الأثاث وأدوات الشرب والنظافة وخامات أشغال الأبرة اللازمة للمعاهد .

ثالثاً — الكتب والأدوات الدراسية والكتابية اللازمة لأدارة المجلس ومعاهده .

رابعاً — الأقمشة والبياضات وملابس الأطفال بمؤسستى الأيتام .

فمن يرغب فى دخول هذه المناقصة يقدم طلباً على ورقة تمغة فئة ثلاثين مليما لترسل له القوائم

التى يطلبها نظير ١٥٠ مليما عن القائمة الأولى و١٠٠ مليما عن كل قائمة من القوائم الثلاث الاخرى ويرسل العطاء داخل غلاف مختوم بالشمع الأحمر ومعه تأمين ٢ ٪ برسم رئيس المجلس وآخر ميعاد لتقديم العطاءات (ظهر يوم الأربعاء ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٦) .

٥٧٧٨

القرآن ينبوع العلوم والعرفان

تأليف

علي فكري

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

هذا الكتاب تحفة قيمة مستخلصة من كتاب الله الكريم ولعلها الأولى من نوعها فقد جمعت من الآيات القرآنية ما ورد فى العلوم العصرية من طب وصحة وحيوان ونبات ومعدن وطبقات أرضية مع تفسيرها تفسيراً موجزاً .

وقد ظهر الجزء الأول من هذا الكتاب شاملا للعلوم المذكورة ويقع فى ٤٠٦ صفحة مطبوعا طبعاً حسناً على ورق جيد — ثمن النسخة ٣٠ صاغ عدا البريد .

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر — تليفون ٥٠٨٥٦

14 me Année No. 683

Lundi—6—8—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٣ « القاهرة فى يوم الإثنين ٧ رمضان سنة ١٣٦٥ — ٦ أغسطس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

مراجعة ديمقراطية

للأستاذ عباس محمود العقاد

معرفة الحاضر على ضوء الماضى كمعرفة الماضى على ضوء الحاضر: كلاهما وسيلة من وسائل المعرفة الصحيحة بعد المقابلة بين الحالات المختلفة

ومنذ أيام رجعنا إلى وثائق الحركة الدستورية والحركة الاستقلالية على عهد الاحتلال ، لأنهما مدار القضية المصرية ، وهى الآن فى دور الفصل والتقرير . فوقفنا على نبذ من طرائف التاريخ القريب تدلنا على ما نحن فيه وما كنا فيه ، وتحتاج إلى بعض التوضيح من طريق التعقيب

كان لورد كرومر يتكلم عن المطالب الوطنية فى تقريره عن سنة ١٩٠٦ فقال عن مطالب الحزب الوطنى : « ... فهمت أنه يطلب إنشاء مجلس شبيه بمجلس النواب البريطانى . ولا أدرى هل كان يطلب حصر السلطة كلها فى مجلس واحد ، أو إنشاء مجلس ثان بمثابة مجلس الشيوخ فى فرنسا ، أو مجلس الأعيان فى انجلترا ، ولا أدرى كذلك هل كان يقصد أن ذلك المجلس النيابى المصرى يسن القوانين لسكان القطر المصرى كلهم بلا فرق ولا تمييز ، أو يسنها لرعايا الحكومة المحلية وحدهم دون غيرهم ...

فلعلى لا أخطئ إذا قلت إن ذلك الحزب يطلب أولا أن تكون الوزارة مسئولة لذلك المجلس ، وأن يتوقف وجودها على بقاء أكثريته معها ، وثانياً أن تكون للمجلس السيطرة التامة على مالية البلاد كما هى الحال فى المجالس التى ينتخب أعضاؤها فى بلاد الإنجليز وفى غيرها من البلدان الأوربية »

ثم قال : « فلو قبل طلبه الأول لأفضى إلى الفوضى بلا مبالغة ، لأنه يثير الدسائس على اختلاف أنواعها ، ويعيد القوة إلى الرشوة التى كانت ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، ولا تزال إلى يومنا هذا تموت موتاً بطيئاً جداً ، ولا يبعد أنه يعيد أسوأ مساوئ الحكومة الشخصية تحت ستار المجالس الحرة الشورية . ولو قبل طلبه الثانى وتولى المجلس مراقبة المالية ، لأفضى ذلك بالأمة إلى الإفلاس لا محالة ... »

هكذا كان لورد كرومر يقول قبل أربعين سنة فى إبان سيطرة الاحتلال

ومهما يكن الظن بالباعث له على هذا الرأى سواء اعتقده أو غلبت عليه المصلحة السياسية فيه ، فقد كانت الرقابة البرلمانية هى الشرط الذى اشترط الإنجليز عند ما سلموا ببعض الحقوق الوطنية فى سنة ١٩٢٢ ، أى بعد تقرير كرومر بخمس عشرة سنة. فلم يتشاءموا بالحياة النيابية المصرية يومئذ كما تشاءموا بها قبل تلك الفترة ، ولم يجهلوا ما فيها من الضمان أياً كان غرضهم المقصود من ذلك الضمان

ومضت بضع وعشرون سنة على حياة نيابية متقطعة ، فلم يفض الأمر إلى الإفلاس فى ثروة الحكومة أو ثروة الأمة ، بل زادت موارد الحكومة ثلاثة أضعاف ، ونشأت للأمة موارد صناعية وتجارية لم تكن معروفة عند كتابة ذلك التقرير

وعزل لورد كرومر بعد كتابة هذا التقرير بأقل من عام واحد ، فخلفه سير الدون غورست ، وكتب عن الانتخابات المصرية التى حدثت فى أول عهده فقال : « تمت الانتخابات لمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية فى آخر السنة الماضية . ولما كانت الميول قد اتجهت مؤخراً إلى إدخال شكل من أشكال الحكم النيابى إلى هذه البلاد ، فيحسن بى أن أروى بالتمام ما يحدث فى هذه الانتخابات »

وبعد أن أوجز القول عن قانون الانتخاب قال : « فى القاهرة ١٣٤٠٠٠ بالغ مصرى ، ولكن المقيدة أسماؤهم فى السجلات منهم ٣٤٠٠٠ ، وقد بلغ عدد الذين اقترعوا من بين هؤلاء ٥٠٠ فقط ، أى ٤ر١ فى المائة من الذين قيدوا أسماءهم فى السجلات ، و ١ر١ من مجموع الذين لهم حق الاقتراع . وكان عدد المندوبين الذين اقترعوا فى الانتخاب الثانى ١٢ فقط بدلا من ١٣ على عدد دوائر القاهرة لأن الانتخاب لم يتم فى إحدى الدوائر إذ لم يترشح أحد للانتخاب » .

ومضى فى إحصاءات كهذا الإحصاء للدلالة على قلة إقبال الشعب على الانتخاب ثم قال : « ولكن الحال تتبدل متى دخل الانتخاب فى طوره الثانى واجتمع المندوبون لانتخاب أعضاء مجلس المديرية أو الجمعية العمومية أو مجلس الشورى حسبما تدعو الحال ؛ فان الاهتمام يشتد اشتداداً عظيما وينصرف هم المرشحين إلى اكتساب أصوات الناخبين ، وقل أن يتخلف أحد من المندوبين عن الحضور » .

ثم قال : « فالأحوال التى تتم الانتخابات العمومية المصرية فيها تؤيد رأى الذين يرون أن هذه البلاد لا تزال بعيدة جداً عن بلوغ المنزلة التى يستطاع فيها إنشاء شىء من المجالس النيابية الحقيقية ، وقد يتيسر تشكيل مظاهر حكومة كهذه ، وإنما يستحيل ضمان تمثيل آراء أكثرية الأمة تمثيلا صحيحاً فتكون النتيجة الوقوع فى أيدى السياسيين الذين لا يهمهم سوى مصلحتهم فيسهل عليهم العبث بالنظام حتى يطابق أغراضهم » .

ثم ختم هذا البحث بالكلمة التى تستحق الوقوف لديها كثيراً لأنها هى النتيجة المستخلصة من جميع هذه المقدمات إذ يقول : « لست أريد أن يحمل كلامى على رغبتى فى الحط من فائدة هذين المجلسين فى شكلهما الحالى أو المعارضة فى ترقيتهما تدريجياً على نسبة قيامهما بتأدية ما نيط بهما بالحكمة والعقل . فان الاقتراحات التى يقترحها هذان المجلسان كانت تقع موقع الاعتبار لدى الحكومة دائماً ، وقد تيسر فى السنوات الأخيرة قبول كثير من اقتراحاتهما مما يدل على أنهما سالكان السبيل القويم ... » .

فالسير الدون غورست لم يكن مقصراً فى تصور عيوب الانتخاب ، ولا كان عظيم الرغبة فى الشهادة لمجلس الشورى أو الجمعية العمومية ، ولكنه اعترف بالحقيقة التى هى خلاصة البحث فى هذا الموضوع ، وهى أن الهيئات النيابية تأتى بالفائدة التى لا يستغنى عنها أيا كان نظام الانتخاب ومبلغ العناية بإعطاء الأصوات بين الناخبين .

ونحن نعلم من التجربة أن نظام الانتخاب ذو شأن فى الحياة النيابية ، ولكننا لا نبالغ فى شأنه حتى نحسب أنه يغير تمثيل الأمة فى مجالسها الدستورية .

فالطبقة التى يتألف منها مجلس النواب المصرى هى هى بعينها كلما جرى الانتخاب على اختلاف القوانين من الدرجة الواحدة إلى الدرجتين ومن المندوبين الثلاثينيين إلى المندوبين الخمسينيين ، وهى هى بعينها بالغاً ما بلغ عدد الناخبين فى المواصم والأقاليم ؛ لأن ألف ناخب يمثلون العناصر المصرية كما يمثلهم عشرة آلاف أو أكثر من عشرة آلاف ، إذ كان الاختلاف مقصوراً على العدد فلا يتجاوز ذلك إلى الاختلاف فى تركيب البنية الاجتماعية أو تعدد المصالح الطائفية . فمائة ساكن من سكان المدن يمثلون آراء الشعب ويؤلفون عناصره كما يمثلهم أو يؤلف عناصرهم ألف أو ألفان ، ومن أجل هذا لا يصح أن يقال إن قلة الناخبين تخرج للبلد مجلساً لا يمثل أكثرية الأمة كما قال السير الدون غورست فى تقريره . فان الألف تكرار « عددى » للمائة لا يترتب عليه تغيير فى حقيقة المصالح ولا فى حقيقة التكوين

الاجتماعى ولا فى حقيقة التربية السياسية . فلا سبيل إلى تمثيل أصدق من هذا التمثيل بزيادة العدد أو تعديل بعض الشروط .

أما إذا تبدل تكوين العناصر الاجتماعية فى الأمة فيومئذ لا يغنى الألف عن عشرة الآلاف ، ويومئـذ يتحرك العشرة الآلاف جميعاً لإعطاء أصواتهم لأن مصالحهم لا تمثلها مصالح ألف منهم أو ألفين ، ويومئذ يتعلق الأمر بالبواعث النفسية التى تحفز الناخب إلى الاهتمام بإعطاء صوته لمن يرضاه ، ولا يتعلق الأمر بالنصوص الحرفية أو بالـكمية العددية ، لأن النصوص الحرفية لا تخلق الاهتمام ، ولا تخلق المصـالح التى تبعث فى النفوس ذلك الاهتمام .

نعم إن القوانين تحتاج إلى التعديل بين الحين والحين لرفع بعض القيود وتوسيع بعض الحقوق ، وليس هذا الذى ننفيه وننكره لأنه بديهى واضح لا يقبل النفى والانـكار ، ولـكننا نريد أن نقول إن شأن النصوص والـكميات العددية دون ذلك الشأن الضخم الذى يبالغ فيه بعض المعقبين على إحصاءات الانتخابات ؛ لأن تغيير النصوص كما رأينا لم يغير « تركيبة » المجلس النيابى فى مصر لا من حيث الطبقة ولا من حيث الـكفاءة ولا من حيث المزايا الاجتماعية أو الخلقية ، ولأن عدد الناخبين يغنى فيه ألف كما يغنى فيه عشرة آلاف ، إذا كان هؤلاء جميعاً على تشابه فى العناصر الاجتماعية والمصالح الطائفية ، فيصح التمثيل القوى بالعدد القليل كما يصح بالعدد الـكثير .

* * *

تلك هى عبرة المقابلة بين نظم النيابة فى العهد الحاضر ونظم النيابة فى عهد الاحتلال .

أما حركة الاستقلال فقد كان لورد كرومر حريصاً على تقرير الواقع فى وصفها حين قال : « ... إذا قلنا إن الحركة الوطنية المصرية الحالية ليست إلا حركة نحو الجامعة الاسلامية لم يطابق قولنا الواقع من كل وجه » ولعله لم يخالف الواقع كثيراً حين وصف تلك الحركة فى أيامه فقال إنها مصبوغة صبغاً شديداً بصبغة الجامعة الاسلامية » ثم عاد فقال : « وإنى على الرغم من جميع الظواهر لا أزال غير مقتنع بأن الميل إلى الجامعة الإسلامية متأصل كثيراً فى الهيئة الاجتماعية المصرية . بل إنى واثق أنه لو كان المصريون يعتقدون إمكان إخراج الآراء المتعلقة بتلك الجامعة من القوة إلى الفعل لانقلب الرأى العام عليها انقلاباً عظيما سريعاً ... » .

هذه التفرقة بين حركة الاستقلال وحركة الجامعة الاسلامية هى نظرة مشكورة من سياسى انجليزى لا يرضيه إعلان الحقيقة فى هذا الموضوع على التخصيص ، ولـكننا على يقين أن الجيل الذى انقضى بعد كتابة التقرير الـكرومرى قد فصل فى هذه المسألة فصلا لا يجوز اللبس فيه . لأنه قد أبرز حب الاستقلال الوطنى بمعزل عن العصبية الدينية . فلا يقال إن المصرى يقبل الحـكم الأجنبى من أبناء هذا الدين ويرفضه من أبناء ذلك الدين وإنمـا يطلب الاستقلال لأنه يؤمن بأن مصر للمصريين ، أيا كانت عقائد هؤلاء المصريين .

عباس محمود العقاد

إعلان

تعلن مشيخة الجامع الأزهر بالقاهرة أنها تنوى إيفاد بعوث علمية إلى البلاد الغربية للتخصص فى إحـدى اللغتين الانجليزية أو الفرنسـية ، ورتبت لذلك امتحان مسابقة بين الحاصلين على الشهادة العالية فى مستوى الثقافة العامة فى التعليم الثانوى الحـكومى .

وسيعقد هذا الإمتحان فى ٢١ ، ٢٣ سبتمبر ١٩٤٦ فى معهد القاهرة . وآخر ميعاد لقبول الطلبات على الإستمـارة الخـاصة هو ٧ سبتمبر ١٩٤٦ . وتطلب البيانات والإستمارة من مكتب البحوث والثقافة الإسلامية بإدارة الجامع الأزهر وإليه توجه الطلبات .

وسيعلن فيما بعد عن بعوث التخصص فى غير ذلك من المواد التى يحتاج الأزهر إلى التخصصين فيها .

٥٧٣٨

من التاريخ الإسلامي :

حكاية الهميـــان . !

للأستاذ على الطنطاوى

[كتبت بطلب من (محطة الشرق الأدنى) لتذاع أول رمضان سنة ١٣٦٥]

كان أذان الفجر يصعد من مآذن الحرم فى مكة فى أول يوم من رمضان سنة أربعين ومئتين للهجرة ، فيهبط على تلك الذرى المباركات من قُعَيْقِعَان وأبى قبيس ، فينساب مع نسيم السَّحَر رخياً ناعشاً ، يسحب ذيوله على تلك الصخور التى كانت محطة بريد السماء ، ومنزل الوحى ، ومنبع رحمة الله للعالمين ، حتى يمسح ستور الكعبة ، فيتنزل على من فى الحَرَم تنَزُّل النفحات الالهية على قلوب عباد الله المخلَصين ...

وكانت صفوف المؤمنين قائمة للصلاة تدور بالكعبة من جهاتها كلها ، صفوفٌ فى الحرم ترى الكعبة وتنعم بالقرب منها ، وصفوف لا تراها ولكنها تتوجه إليها ، وتبصرها بقلوبها ، تقوم وراء الجبال الشمّ والبحار ، فى المدن والقرى ، والصحارى والسهول ، والأودية والقمم ، فى القصور والأكواخ ، والسجون والمغائر ، فى القفار المشتعلة حَراً ، والبطاح المغطاة بالثلج . تتسلسل وتتعاقب لا تنقطع ما امتدت الأرض وكان فيها مسلمون .

* * *

وأمَّ أهل مكة الحرم ، ولم يبق فى داره إلا شيخ فى السادسة والثمانين ، وإنِ معظم ما عليه إلا قميص مشدود بحبل ، وقاموا للصلاة ما يستطيعون الوقوف مما حشوا به بطونهم من طيبات الطعام ، من كل حلو وحامض ، وحار وبارد ، وسائل وجامد ، ووقف يصلى وما يستطيع القيام من الجوع ، فقد أمسك للصوم بلا سحور ، ونام ليلته البارحة بلا عشاء ، وأمضى أمسه من قبلها بلا غداء ... فلما قضى صلاته قعد فى محرابه منكسراً حزيناً ، وما كان يفكر فى نفسه فلقد طال عهده بالفقر حتى ألفه ، وهوّن إيمانه عليه الدنيا حتى نسى نعيمها وازدراها ، ولكنه كان يفكر فى هـذه البطون الجائعة من حوله ، وهو كاسبها ومُميلها ، وهذه المناكب العارية ... ولو كان فى مكانه رجل آخر قاسى الذى قاساه ، ورأى الأغنياء يبذرون المال تبذيراً ، ويضيعون الألوف فى الباطل على حين يحتاج هو إلى الدانق فلا يجده ... لثار على الدنيا ، وذمَّ الزمن ، وحقد على الناس ، ولكنه كان رجلا مؤمناً موقناً أن الله هو الذى قسم الأرزاق فأعطى — لحكمة يعرفها — ومنع ، وأن الناس لا يملكون عطاء ولا منعاً ، وأن ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك ، رفعت الأقلام وجفّت الصحف .

فقال : إهْ . الحمد لله على كل حال !

وقام فنزع القميص ، ونادى : يا لُبابَة . فجاءت امرأة ملتحفة بخرقة قذرة ، فدفع إليها بالقميص وأخذ الخرقة فالتفّ بها ... فقالت المرأة : يا أبا غياث ، هذا ثالث يوم لم نذق فيه طعاماً ، وهذا يوم صيام وحرّ ... فإذا صبرتَ وصبرتُ أنا فإن البنات والعجوز لا يقدرن على الصبر ، وقد هدّهُنّ الجوع ، فاستعن بالله ، واخرج فالتمس لنا شيئاً فلعلّ الله يفتح عليك بدوانق أو كُسَيْرات ندّخرها لفطورنا .

قال : أفعل إن شاء الله .

* * *

وانتظر حتى علت الشمس وكان الضحى ، فخرج يجول فى أزقة مكة وطرقها ، وكان الناس قد انصرفوا إلى دورهم ليقيلوا فلم يلقَ فى تطوافه أحداً . واشتد الحرّ ، وتخاذلت ساقاه ، وزاغ بصره ، وأحسَّ بجوفه يلتهب التهاباً من العطش ، وكان قد صار فى أسفل مكة فألقى بنفسه فى ظل جدار . وكان من أكبر أمانيه أن يدركه الأجل فيموت مؤمناً ، فيتخلص من هذا الشقاء وينال سعادة الأبد . وجعل ينكت التراب بيده ، وهو سادر فى أمانيه ، فلمس يدَه شىء مستطيل ليّن ، فسحبها ونظر فإذا هو بذنب حيَّة مختبئة خلال التراب ، فتعوذ بالله ، ثم عاودته رغبته فى الموت ، وتمنى لو تلدغه فتريحه ، ثم ذكر أنه لا ينبغى للمؤمن أن يطلب الموت ، وإنما ينبغى له أن يقول : اللهم أحْيِنى ما كانت الحياة خيراً لى ، وأمتنى إن كان الموت خيراً لى . فقالها واستغفر الله . وعاد يرقب الحية فإذا هى ساكنة ، فعجب منها

ولمسها برجله فلم تتحرك فبحث عنها وحفر ، فاذا الذى رآه حِزام وليس بحيَّة ، فشدَّه فجاء فى يده (هِمْيان) فيه الذهب ، عرفه من رنينه وثقله ، فأحسَّ كأن جوعه وعطشه قد ذهبا ، وكأن القوَّة قد صبَّت فى أعصابه ، والشباب قد عاد إليه ... وتصور أنه سيحمل إلى نسائه الشبع والدعة والراحة ، ويملأ أيديهن مما كنَّ يتخيّلنه ولا يعرفْنَه من نعيم الحياة ورغد العيش ، وجعل يفكر فيما يشتريه لهنّ ، وكيف يتلقين هذه النعمة التى ساقها الله إليهن حتى كاد يُخالِط فى عقله . ثم تنبه فى نفسه دينه ، وعلا صوت أمانته يقول له : إن هذا المال ليس لك . إنما هى لُقَـطة لا بدَّ لك من التعريف بها سنةً فإذا لم تجد صاحبها حلَّت لك . وتصوَّر السنة وطولها وهو الذى يبحث عن عشاء يومه ... وهل يبقى حياً سنةً أخرى ؟ وهل تبقى أسرته فى الحياة ؟ وماذا ينفعه أن يكون الذهب له بعد ما مات من الجوع . ومات معه من يرثه ؟ ... وأحسَّ كأن قواه قد خارت ، وودَّ لو أعاد الهميان إلى مكانه ، ولم يكن قد ابتلى بهذه البلية ... ولـكنه كان رجلا فقيهاً يعلم أن اللقطة إن مُسَّت فلا بد من التعريف بها ، وإن هو أرجعها إلى مكانها وفقدت كان المسئول عند الله عنها ، أما إذا لم يمَسَّها فلا شىء عليه منها ...

وجعلت الأفكار تصطدم فى رأسه وتتراكض وتصطرع حتى شعر أن عظم صدغيه سيتكسر من قرع الأفكار المتراكضة فى رأسه ، وطفق يسمع صوتاً يهتف به أن : خذها فهى رزق ساقه الله إليك . ادفع بها الموت عن بناتك اللاتى أطاف بهنَّ الموت . أشبع بها هذه الأكباد الغرثى . اكسُ هذه الأجساد العارية ، ثم إذا أيسرتَ رددتها إلى صاحبها ، أو دفعتها إليه ناقصة دنانير لن يضرَّه على غناه نقصها . ثم يسمع هاتف دينه يقول له : اصبر يا رجل ولا تخن امانتك ، ولا تعصِ ربَّك .

وعقد العزم على الصبر ، واستعان بالله ، وذهب إلى داره يخبِّئُ الهميان حتى يجيء صاحبه ... أو يحكم الله فيه ..

* * *

ودخل الدار متلصصاً ، فرأته امرأته فقالت :

ما جاء بك يا أبا غياث ؟

قال : لا شىء . وأحب أن يكتمها خبر الهميان ، وما كان يكتمها من قبل أمرا .

قالت : بلى والله ؛ إنَّ معك شيئاً ، فما هو ؟

تخاف أن تراه فيُستطار لبّها ... فقص عليها القصة ، وكانت امرأة تقيَّة ديّنة ، ولـكنها أضعف منه إرادة ، وأوهن عزماً ، فقالت :

افتحه . وخذ منه دنانير اشتر لنا بها شيئاً ، فإننا مضطرون والمضطر يأكل الميتة ...

قال : لا والله ، ولئن مسستهِ أو خبرتِ خبره أحداً فأنت طالق .

وتركها مغيظةً محنقةً وخرج يبحث عن صاحبه ، لعله يأخذ منه شيئاً حلالا يدفع به الضرَّ عن عياله .

* * *

ومشى إلى الحرم ، وكان فيه شاب طبرى طالب علم .

قال الشاب الطبرى : (فرأيت خراسانياً ينادى ، معاشر الحاج من وجد هميانا فيه ألف دينار فردَّه علىَّ ، أضعف الله له الثواب . فقام إليه شيخ من أهل مكة كبير من موالى جعفر ابن محمد ، فقال : يا خراسانى ، بلدنا فقير أهله ، شديد حاله ، أيامه معدودة ، ومواسمه منتظرة ، ولعله يقع فى يد رجل مؤمن يرغب فيما تبذله له حلالا ، فيأخذه ويردّه عليك . قال الخراسانى : يابا . وكم يريد ؟ قال : العُشر ، مئة دينار . قال : يابا . لا نفعل ولـكن نحيله على الله تعالى . وافترقا) .

قال الطبرى : (فوقع لى أن الشيخ هو الواجد للهميان فاتبعته ، فكان كما ظننت ، فنزل إلى دار مسْفلة زريّة الباب والمدخل ، فسمعته يقول : يا لبابة ! قالت : لبيك أبا غياث . قال : وجدت صاحب الهميان ينادى عليه مطلقاً . فقلت له : قيده بأن تجعل لواجده شيئاً ، فقال : كم ؟ قلت : عُشره . قال لا نفعل ، والـكنا نحيله على الله عز وجل ، فأيْشْ نعمل ؟ لا بد لى من ردّه . فقالت له : نقاسى الفقر معك منذ خمسين سنة ، ولك أربع بنات وأختان وأنا وأمى وأنت تاسع القوم) . يا أبا غياث إن الله أكرم من أن يعاقب رجلا يحيى هذه الأنفس ، إنك لم تسرقه ولم تغصبه ، ولـكن الله هو الذى وضعه

بين يديك ، فلا ترفض نعمة أنعم الله بها عليك ، إن الله يسألك عن هؤلاء النسوة …

وتصور الشيخ بناته جائعات عاريات ، والعجوز المسكينة أم لبابة وقد جفّ جلدها على عظمها فصارت كأنها الخطبة الجوفاء تتردد فيها الانفاس ، ففاضت نفسه رقة عليهن فسال دمعه على شيبته ، ورأت المرأة ذلك فازداد طمعها فيه … ثم رأته يعبس وتبدو عليه الصرامة … لقد ودّ لو استعان بشيء من هذه الدنانير … ولكنه ذكر أنه صبر خمسين سنة فما كان ليضيع ذلك كله فى لذة يوم ، وذكر أنه على شفير القبر وأنه سيلقى الله فما كان ليلقاه خائناً أمانته ، أما عياله فلهم الله ، والله أرأف بهم وأشفق عليهم ، وشدّ من عزمه ، وصاح بها :

(لست أفعل ، ولا أحرق حشاشتى بعد ست وثمانين سنة) .

قال الطبرى : (ثم سكت وسكتت المرأة . وانصرفت أنا) .

* * *

وأذّن المغرب ، وقعد الشيخ ونساؤه على كُسَيرات وتمرات التقطها لهم … وقعد الناس من حولهم على الموائد الحافلات بشهى الطعام ، تفوح من بيوتهم روائح الشواء والحلواء يأكلونها ويستمتعون بها ، وينسون أن رمضان شهر الإنسانية والإيثار ، وأن الله ما فرض علينا الصيام للجوع والعطش والعذاب … ولكن ليذكرنا هذا الجوع الاختيارى الموقوت أن فى الدنيا من يجوع جوعاً إجبارياً لا حدّ له ينتهى عنده ، وليكون لنا من أعصابنا وجوارحنا مذكر بالاحسان . فمن يقعد إلى مائدته الحافلة بالطعام ، وجاره يتلوى من الجوع ، لا يفكر فيه ولا يشاركه طعامه فما صام ولا عرف الصيام ، وإن جاع نهاره كله وعطش …

إن العادة تضعف الحسّ ، وإن إلفَ النعم يذهب لذتها ، فأوجب الله الصيام علينا لنذوق مرارة الفقر فنعرف حلاوة الوجدان ، ولنشتهى فى النهار اللقمة من الخبز الطرىّ ، والجرعة من الماء البارد ، فنعلم أن هذه اللقمة الطرية وهذه الجرعة الباردة نعمة من النعم فلا ندع الإحسان مهما كان قليلا ، ولا نزهد فى صدقة نقدر عليها . ولقد كان لابراهيم الحربى رغيف كل يوم ليس له سواه ، فكان يترك منه كل يوم لقمة حتى إذا كان يوم الجمعة أكل هذه اللقم وتصدق بالرغيف …

كان الشيخ يفكر فى هذا ، فيألم لما صارت إليه حال المسلمين ، ثم يذكر أن الله هو ملهم الخير ، ومصرّف الأرزاق ، فيحمده حمد رجل مؤمن راضٍ … وأمضى ليلته الرابعة بلا طعام ، لأنه ترك التمرات والكسيرات للعجوز والبنات يتبلغن بها …

* * *

قال الطبرى : « فلما كان من الغد سمعت الخراسانى يقول : معاشر الحاج ووفد الله من حاضر وباد ، من وجد هميانا فيه ألف دينار وردّه أضعف الله له الثواب . فقام الشيخ إليه ، فقال : يا خراسانى قد قلت لك بالأمس ونصحتك ، وبلدنا والله فقير قليل الزرع والضرع ، وقد قلت لك أن تدفع إلى واجده مائة دينار فلعله يقع فى يد رجل مؤمن يخاف الله عز وجل ، فامتنعت . فاجعل له عشرة دنانير منها فيرده عليك ويكون له فى العشرة ستر وصيانة .

فقال له الخراسانى : يابا . لا نفعل ولكن نحيله على الله عز وجل . ثم افترقا .

فلما كان اليوم الذى بعده سمعت الخراسانى ينادى ذلك النداء بعينه ، فقام إليه الشيخ . فقال ، يا خراسانى : قلت لك أول أمس العشر منه ، وقلت لك أمس عشر العشر عشرة دنانير فلم تقبل ، فأعطه ديناراً واحداً عشر عشر العشر ، يشترى بنصف دينار قربة يسقى عليها المقيمين بمكة بالأجرة وبالنصف الآخر شاة يتخذها لعياله .

قال : يابا . لا نفعل ولكن نحيله على الله عز وجل .

فرأى الشيخ أن لا حيلة له فيه ، وانقطع آخر خيط من حبال آماله ، وتوهم حالة بناته وأختيه وزوجته وأمها … وأن هذا الخراسانى منعهم ديناراً واحداً من ألف يدفعون به الجوع والعرى والموت الكامن وراءهما ، ورأى الألف كلها بيده فحدثته نفسه بأن يمسكها ، أو يدفعها إليه ناقصة ديناراً ، ولكنه ذكر الله والحساب فاستعاذ بالله من هذا الخاطر ، وهل يشترى الشقاء الدائم باللذة العاجلة ، وهو يعلم أن لذات الدنيا كلها لا تنسى كربة واحدة من كرب يوم الحشر ، وشقاءها كله تذهبه نفحة

واحدة من نفحات الجنة ؟ لا والله ، ولقد روى فى الحديث أن « من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه » ، فترك له الهميان ، وقال للخراساني :

تعال خذ هميانك ...

فقال له : امش بين يدى ...

قال الطبرى : « فمشيا وتبعتهما ، حتى بلغا الدار . فدخل الشيخ فما لبث أن خرج ، وقال : ادخل ياخراساني ، فدخل ودخلت ، فنبش الشيخ تحت درجة له فأخرج الهميان أسود من خرق غلاظ ، وقال : هـذا هميانك ؟ فنظر إليه ، وقال : هذا هميانى .

ثم حلّ رأسه من شدّ وثيق ثم صب المال فى حجره وقلّبه مراراً ، ثم قال : هذه دنانيرنا » .

وكانت لبابة والبنات ينظرن من شق البـاب إلى الذهب الذى نسين لونه وشكله ، وحسبنه قد فقد من الأرض ، كما ينظر الجائع إلى قدور المطعم ... يتمنى لقمة منها يشد بها صلبه ...

« وأعاد الرجل الذهب إلى الهميان وشدّه . ووضعه على كتفه وقلب خلقاته فوقه وخرج » . ولم ينظر فى وجه الشيخ ، ولم يلق فى أذنه كلمة شكر ... وأحست لبابة كأنه قد اختطف وحيدها ، وكأن شعبة انخلعت من قلبها ، فطارت وراءه ، وشُده البنات ، ولبثن مفتوحات الأشداق ، دهشة وذهولا ... فلما ابتعد وأيسن منه سقطن على وجوههن من الجوع والضعف واليأس ...

وسمع الشيخ حركة ، فنظر فاذا الخراساني قد رجع ... فرفع إليه رأسه ينظر ماذا يريد ، وكان أولى به أن يعرض عنه ، وأن يبغضه ، وقد منعه ديناراً واحداً يحيي لو جاد به عليه هذه الأنفس المشرفة على الموت ، ولـكن الشيخ كان رجلا سمحاً لايتسع قلبه لبغضاء ، فقام إليه وسأله عما رجع به ، فقال الخراساني:

« يا شيخ ، مات أبى وترك ثلاثة آلاف دينار ، فقال ، أخرج ثلثها ففرّقه فى أحقّ الناس عندك له ، وبع رحلى واجعله نفقة لحجك ، ففعلت ذلك ، وأخرجت ثلثها ألف دينار ، وشددته فى هذا الهميان ، وما رأيت منذ خرجت من خراسان إلى الآن رجلا أحق به منك ، فخذه بارك الله لك فيه .

ووضعه وولى » .

قال الطبرى : « وكنت قد ذهبت فما راعنى إلا الشيخ يسرع خلفى يدعونى ، فرجعت إليه فقال لى : لقد رأيتك تتبعنا من أول يوم ، وعلمت أنك عرفت خبرنا ، وقد سمعت أحمد بن يونس اليربوعى يقول : سمعت مالـكا يقول : سمعت نافعاً يقول : عن عبد الله بن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعمر ولعلى رضى الله عنهما : إذا أتاكم الله بهدية بلا مسألة ولا استشراف نفس فاقبلاها ، ولا تردّاها فترداها على الله ؛ فهى هدية من الله والهدية لمن حضر . فسر معى .

فسرت معه . فقال لى : إنك لمبارك ، وما رأيت هذا المال قط ، ولا أمّلته قط ، أترى هذا القميص ؟ إنى والله لأقوم سحراً فأصلى الغداة فيه ، ثم أنزعه فتصلى فيـه زوجتى وأمها وبناتى وأختاى واحدة بعد واحدة ، ثم ألبسه وأمضى أكتسب إلى ما بين الظهر والعصر ، ثم أعود بما فتح الله به علىّ من اقط وتمر وكسيرات كمك فنتداول الصلاة فيه ...

حتى إذا وصلنا إلى الدار نادى : يا لبابة يا كيتنه يا فلانة وفلانة ، حتى جئن جميعاً فأقعدهن عن يمينه ، وأقعدنى عن شماله ؛ وحلّ الهميان وقال : ابسطوا حجوركم ، فبسطت حجرى ، وما كان لواحدة منهن قميص له حجر تبسطه فمددن أيديهن ، وأقبل يعد ديناراً ديناراً ، حتى إذا بلغ العاشر قال ، وهذا لك ، حتى فرغ الهميان فنال كل واحدة منهن مائة دينار ، ونالنى مائة »

* * *

ولما أذن المغرب ، وحف نساء الشيخ بمائدة كوائد الناس ، عليها الطيبات من الطعام ، قال لامرأته :

أرأيت يا لبابة ؟ يا لبابة إن الله لا يضيع أجر الصابرين ، إن الله هو أرحم الراحمين يا لبابة ، لقد منعنا أنفسنا ديناراً حراماً ، فجاءنا الله بألف حلال . وأكل الشيخ لقيمات ، ثم قام ليخرج ، فقالت له امرأته :

إلى أين يا أبا غياث ؟

قال : أفتش ، فلعل فى الناس فقيراً صائماً ، لا يجد ما يفطر عليه ، فنشركه فى طعامنا ..

من لغو الصيف :

صراصيــــر . . . . !

للأستاذ سيد قطب

— ٢ —

... لقيني صاحبي ذاك — أو صاحب البها زهير — على محطة بسيدى جابر ، متهلل الوجه ، منطلق الأسارير ... قال : لقد وجدت لك داراً هادئة توافق أمثالك الشعراء !

قلت : خير وبركة ، وشكرت وانطلقت إلى الدار

ولـكن ما ذا ؟

يا لعنة الله ! أهذه هي الدار التي توافق الشعراء ؟ أهذا هو الشعر عندك يا صديق البها زهير ؟ يا رحمة للشعر والشعراء !

أيها القارئ :

أرأيت السراديب والـكهوف ؟ أم هل سمعت عن السراديب والـكهوف ؟ تلك هي الدار التي فهم صاحبنا أنها توافق أمزجة الشعراء !

تلك جناية بعض المتصعلـكة على الشعر ، فلقد مرت فترة كان الشعر فيها هو البؤس ، أو هو التباؤس ، ولم يكن الناس يصدقون أن فلاناً شاعر إلا إذا بدا في مزق مهلهلة ، منتكث الشعر ، يضم تحت إبطه « رزمة » من ورق الصحف القديمة ، ويحشو جيوبه الممزقة بخرق من الورق الخلق ، وقطع من علب السجائر وما إليها ، دوّن فيها شعره ، ولا بد أن يقول للناس : إنه جائع ، وإنه « خرمان » سجاير و « كيوفاً » أخرى ... وإلا فما هو بشاعر !

ووجد هؤلاء بعض من يعطف عليهم ، إما تظرفاً وتباهياً بالعطف على الشعراء ، وإما رحمة حقيقية لهذه الحال البائسة !

وكان هؤلاء البائسون ، أو المتبائسون ، يعيشون في جحور أو يقولون : إنهم يعيشون في جحور ، ويصفون « صراصيرها » وفيرانها وعنا كبها في كلام يهتز له بعض الناس — ولو لم يكن فيه شيء من الفن — لمجرد التظرف والتفكه ، ومن هنا اختار لي صاحب البها زهير ، تلك الدار ... !

* * *

الصراصير ...

ولـكن ... أهذه صراصير ؟ !

إنني أعرف الصراصير جيداً ... أعرفها في حلوان ! فقد شاء السَّفه الذي يستحق الحجر من القضاء الشرعي ، أن تهمل هذه الضاحية الجميـلة الفريدة بين بلاد العالم كله — كما يقول العارفون — بهوائها وتربها ومياهها وارتفاعها ، حتى تصبح أكواماً من الأتربة ، ومجاري من القاذورات ، تسبح فيها وتعيش شتى الهوام والحشرات !

ومن هنا كانت صراصير حلوان ، تلك التي كتبت في شأنها على صفحات الصحف مرات ...

وقيل لي : اسكت فلا فائدة من الـكتابة ، فرنين الـكلمات غير رنين الجنيهات ، ومنطق العبارات غير منطق « الشيكات » . وهناك شركات أجنبية يهمها ألا تقوم لحلوان قائمة ، ومنطقها هو منطق الشيكات ، فأين يذهب منطقك أنت ، ولو كان هو منطق الحق والعدل والحياء ؟ !

ذيل القصة :

قال الشيخ الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري[1] :

« وقد نفعني الله بهذه الدنانير فتقوّتُ بها ، وكتبت العلم سنين ، وعدت إلى مكة بعد ست عشرة سنة فوجدت البنات ملـكات تحت ملوك ، وعلمت أن الشيخ توفي بعد ما فارقته بشهور ، فـكنت أنزل على أزواجهن وأولادهن فأروي لهن القصة ، ويكرمونني غاية الاكرام .

وسألت عنهم بعد ذلك بأربعين سنة فعلمت أنه لم يبق منهم أحد ، رحمة الله عليهم جميعاً » .

علي الطنطاوي

---

(١) وجدت هذه القصة مخطوطة في مجموع من مجموعات المـكتبة العربية في دمشق مروية عن الطبري بالسند المتصل وقد وضعت عبارة الأصل بين قوسين كبيرين

وسكتُّ من يومها وتركت أمر حلوان لله ، وليقظة الضمير العام ، حين يستيقظ ذلك الضمير العام !

المهم أننى فى حلوان تعرفت على جميع «عائلات الصراصير» وصنوفها وأشكالها ، ولم أجد من بينها نظيراً ولا شبيهاً لصراصير تلك الدار التى اختارها لى صاحبى ، أو صاحب البها زهير !

وما هذا أنت الذى تبص وتتوارى فى ثقب الجدار ؟ إنك لست بصرصار ... وإلا فأين خبرتى بكل صنوف الصراصير فى حلوان ؟

أوه . . خيبة الله عليك ! هذا أنت « صرصار » عجوز ، فقد لونه الذهبى ، وفقد أحد شاربيه أيضاً ، وتقلص ظهره وانكمش وتضاءل ، حتى بدا فى هيئة الخنفساء ! تعال هنا ... يا لعنة الله عليك ! أو هكذا تغشنى فيك ، وتعبث بمعارفى كلها فى عالم الصراصير ؟ !

***

لا يا عم ! لا يا صاحب البها زهير ، لا ويفتح الله ، ان أقيم فى دار الصراصير هذه ، أو فى دار الشعراء !

وكلها « فركة كعب » بين الصراصير وبعض الشعراء ، لا أولئك الشعراء البائسين أو المتبائسين الذين تحدثت عنهم فى الفقرة السابقة ، ولكن هؤلاء الشعراء الذين كثروا فى هذه الأيام ، شعراء الحفلات والمناسبات والسهرات والرحلات !

يا لعنة الله !

لقد كنا استرحنا فترة من « شعراء المناسبات » ، ففى عام ١٩٣٢ أخرجت كتيباً صغيراً اسمه « مهمة الشاعر فى الحياة وشعراء الجيل الحاضر » ، وحملت فيه حملة شعواء على شعراء المناسبات ، أولئك الذين قلت عنهم : إنهم كخدم الفنادق يستقبلون كل قادم ويودعون كل راحل بنفس الابتسامة ، ويعدون أيام العظماء والمشهورين ليعدوا لهم — مقدماً — قصائد الرثاء ! إنهم يأكلون على كل مائدة كالقطط الضالة ! أستغفر الله ، بل كالصراصير !

لقد تطوروا أخيراً مع الزمن ، فلم يعودوا يقولون فقط فى « مناسبات » التكريم والرثاء ، بل امتد رشاشهم .. فأصاب القمر وفصول السماء ! ... صراصير ! !

***

واخترت داراً أخرى غير دار الشعراء ! والدور فى الأسكندرية كثير فى هذا العام . إن « أغنياء الحرب » لم يزحموها عاماً . فالكثيرون قد ذهبوا إلى أوربا ولبنان ، وأغنياء الحرب الذين أعنيهم ليسوا هم الذين أغنتهم هذه الحرب وحدها ، فغيرهم كثير فى تاريخ هذا الشعب قد اغتنوا فى حروب ، حروب طويلة ، لا بين الدول ، ولكن بينهم وبين الشعب المصرى المنكوب !

حروب الجشع والطمع ، والغدر والخيانة ، وحروب التسفل والتبذل ، ولو سن قانون : من أين لك هذا ؟ لتكشفت أشياء وأشياء !

كثيرون من هؤلاء يسمون « الطبقة الأرستقراطية » ووسائل إثراء الكثيرين منهم — على مدى التاريخ — مما يندى له الجبين ، بعضهم دفع أعراضاً ، وبعضهم دفع خدمات لا يقوم بها الشرفاء . . ثم صاروا فيما بعد « أرستقراط » !

كثيرون من هؤلاء لم يزحموا الأسكندرية فى هذا العام ، لأنهم فى أوربا أو لبنان ، وقليلون منهم فى الأسكندرية ، ولهم حديث خاص فى « لغو الصيف » فلندعهم الآن !

***

واسترحت فى الدار الجديدة شيئاً ، وأخذت سمتى إلى الشاطئ ... هذا هو البحر ، إننى أعرفه هذه هى الحياة المرحة القوية تدب فى أوصالى . هذا هو صدرى المقوس ينشد لاستقبال هوائه الجذل ، هذه هى نفسى المنقبضة تتفتح لاستجلاء المنظر البهيج ، هذه هى أعصابى المكدودة تستروح وتنشط وتحيا ... وعرائس البحر ... ؟

ويحى ! إننى لا أرى هنا عرائس ولا حتى شياطين .

إن العرائس والجنيات ، لأطياف هائمة طليقة ، خالصة من الضرورات والقيود . ولكنى أحس هنا ثقل الضرورات وصلصلة القيود . هنا أجساد تشدها الغريزة ؛ هنا لحم . لحم فقط يكاد يتجرد من الروح . لحم قذر رخيص .

هنا صراصير !

محال أن تقنعني أن هذه التي تتخلع مع زميلاتها ، وهي تقطع « البلاج » ذهاباً وإياباً بلباس البحر « المايوه » وكل ما فيها جسد يتخلج بالغريزة الهابطة ... وأن هذا الفتى الذي يتدسس بالنظرة الخائنة إلى مواضع الضرورة في هذه الأجساد المتخلجة ، بينما يلق بنظره متباهياً على مواضع الحيوانية في جسده « بالمايوه » ... محال أن تقنعني أن هؤلاء أو هؤلاء ، عرائس بحر ، أو — حتى « شياطين »

إن الشيطان لأنظف وأرشق وأخف ، وأكثر انطلاقاً من القيود ! هنا لحم . لحم فقط . لحم رخيص !

رخيص . فكثير من هذه الأجساد العارية يفقد حتى قيمة اللحم العزيز . لست أشك الآن في أن الملابس من صنع حواء . فهذا التستر وهذا الخفاء هما مبعث الفتنة والأشواق — حتى الجسدية — وحين يتجرد الجسد نفسه يموت !

ولكن المرأة في هذا الجيل تفقد حتى فطنة الغريزة وسلامتها . إنها الشهوة المريضة . شهوة الحيوان الضال الهزيل ، لا الحيوان الفاره الأصيل !

* * *

وبين يوم وليلة قدمني أصدقاء إلى كثيرات ، وقدمتني صديقات إلى كثيرين !

الإباحية ! التي لا تخجل ولا تستحي ولا تغار !

هنا الصداقات السريعة : يبدأ التعارف ضحىً . ويتم كل شيء في المساء . وفي الصباح التالي يتفرق الجميع ؛ وتتبدد الصداقات ، كأن لم يكن هنا لك شيء . ويبحث الجميع عن شيء جديد !

سعار ... !

وفي المساء جلست أتناول طعامي . وعلى المائدة المقابلة جلس أربعة شخوص : إنهم لا يحوجون أحداً للتسمع . فالأصوات جهورية ، والضحكات رنانة .

هذه سيدة شابة ، خاتم الرباط المقدس في يدها اليسرى . وهذه فتاة خاتم الرباط المقدس في يدها اليمنى ... وما هذان ؟ ليسا زوجاً ولا خطيباً ، فأصابعهما خلو من كل قيد !

وزجاجات البيرة ... والضحكات والغمزات ...

ويحي !

إن الرجلين ليطأطئان رأسيهما خجلا ، لنكتة خارجة ترسلها السيدة ، وتتضاحك لها الآنسة ... نكتة في الصميم !

ولقيت سيدة بعد لحظات فلم أتمالك أن أقص عليها ما شهدت . سيدة من أسرة . لها زوج ولها عائلة وقالت تعلق على الحادث :

يا سيدي نحن في المصيف ! إن أسخف سيدة هي التي تستصحب زوجها في مصيفها ، ماذا تأخذ ؟ وماذا يستفيد ؟ يجب أن يذهب إلى مصيف وتذهب إلى مصيف ، لتكون هنالك قيمة للتصييف !

فلسفة المغامرة ! ومنطق الجموح !

* * *

ربّاه ! أتكون هذه هي مصر وأنا لا أدري ؟ إنني رجل متخلف . لست — مع الأسف — من « التقدميين » في هذا الجيل !

ولكن لا . إن مصر لشيء آخر . وإلا لانهارت إلى الحضيض . مصر لا تزال أمة . ولن تقوم أمة على هذا الأساس المنهار :

إنما هي حفنة من الرقعاء الذين لا أعراض لهم ، ظلوا يهتفون للمرأة بهذا النشيد : وأوتي بعضهم أقلاما وصحفا ، فلكي يرتعوا في كلأ مباح ومن أجل هذا الغرض الصغير ، حاولوا إتلاف أمة ، وإضاعة شعب . ولكن لم يستسلم لهم إلا عدد محدود ! عدد يطفو على سطح المجتمع كما تطفو الجيف فيتمتعن بنشر أسمائهن ونشر صورهن ... أما الحرائر فهن هناك في البيوت ، لا تقع عليهن أنظار هؤلاء الرقعاء ، ولا عدساتهم المصورة . ولا تلوك الألسنة أسماءهن في هذا الجيل !

* * *

وأحسست أني أختنق داخل الجدران ، فخرجت . خرجت إلى البحر والليل .. لا أحد هنا على « البلاج » ...

أيها البحر ... إنك هنا الشيء الوحيد النظيف ! .

سيد قطب

تاريخ جحـــا ...

للأستاذ كامل كيلانى

— ٢ —

٩ — شخوص مجحوبة

وكما أسند القصصى الجحوى إلى جحا التركى ، ممثلا فى الأستاذ نصر الدين ، أسند مثله — أو قريب -- إلى جحا الألمانى ممثلا فى :

« تِل' أو'بلن شبيجل »

أعنى « تل » الملقب بـ « مرآة البومة » و « جحا » اليونانى ممثلا فى « ديوجين » « Diogéne »

و « جحا » الفرنسى يمثله السادة : « دى كراك » مرة « M M de crac »و« دى لاباليس » « de la Palisse » مرة ثانية و « ميشيل موران » « Michel Morin » مرة ثالثة وفى مرسيليا نرى « مسيو بونوس » « M Bonosse » و « كالينو » « Calino » و « ماريوس » « Marius » وفى باريس «دوق دى سان سيمون» «duc de saint simon» وما إلى هذه الشخصيات الجحوية المتخيلة الفاتنة التى تشيع فى أرجاء فرنسا وغيرها روح الدعابة البريئة والتهكم الساذج .

كما أسند إلى جحا الفارسى ممثلا فى « طلحة » ، وجحا الهندى ممثلا فى الشيخ تشللى ، وجحا الأرمنى ممثلا فى أرتين . وجحا الانجليزى يمثله فى انجلترة « سمبل سيمون » « Simple Simon » .

وقد ذاعت فى بريطانيا أسماء طائفة من القديسين ، افتن الظرفاء والمتظرفون فى إسناد طرائف من الدعابة إليهم ، ونحلوهم ما شاء لهم الخيال الخصب من فنون الفكاهات الحلوة المحببة ، والنكات البريئة المستعذبة . فاشتهر فى إيرلندة « بات » وهو — كما يرى القارىء — ترخيم لاسم القديس « باتريك » « Saint Patric » ، وقد كاد يصبح لقبا على كل إيرلندى فى معرض الدعابة والتنادر ، والتمثيل للسذاجة وطيبة القلب .

واشتهر فى اسكتلندة « داود » « Saint David » وكاد يصبح علما على كل اسكتلندى ، وافتن المتخيلون فى إسناد كل ما خطر ببالهم من نوادر البخل والتقتير .

واشتهر « اندراوس » « Saint Andreus » كذلك فى جنوب انجلترة ، فى بلاد الغال (الويلز) ، كما اشتهر جورج « Saint jeorge » فى انجلترة .

وقد أصبحوا — على توالى الزمن — أعلاما للفكاهة والمرح فى بلادهم ، ثم ذاعت بدائعهم فى العـالم ، فأشاعت فى أرجائه ألوانا مشرقة من البهجة والسرور .

* * *

وليست شخصية « دون كيشـوت » إلا لونا مبتدعاً جديداً لشخصية جحا كما يتخيلها الأسبان .

وقلما تخلو أمة من مثال قريب أو بعيد لهذه الشخصية المرحة الطريفـة ، وقد طوّع القصاصون كثيراً من الطرائف والرموز الجحوية ، وفصّلوا منهـا أنماطاً فكرية ألبسوها عرائس أفكارهم وآرائهم .

ولم تلبث الصورة الجحوية على مدى الأزمان واختلاف الأمم التى تناقلتها أن تشكلت بألوان العصور والأمم التى قبستها . كما يتشكل الماء بلون الإناء الذى يستودع فيه .

١٠ — قبراه :

إن البحث ليطول إذا لم نوجزه إيجازاً حتى ليضيق الوقت الفسيح بتفصيل قليل من كثير ممـا عرضنا له .

وبحسبنا أن نقرر الآن فى هذه الإلمامة الخاطفة أن جحا التركى كاد يكون نسخة مكررة من جحا العربى ، وإن ضاع قبر الثانى فلم يعرف له مكان كما ضاع الـكثير من آثاره فلم يهتد إليه . وبقى قبر الأول مزاراً يحج إليه فى مقبرة « آق شهر » .

١١ — من آراء الناس :

وقد غلا بعض النـاس ، فكاد يلحق الجحيين كليهما

بالأولياء والأطهار والقديسين الأبرار .

وغلا آخرون ، فكادوا يتمثلون كليهما آية من آيات الغفلة والبله ، ومثلا من أمثلة الغباء والحماقة ، وتمثلهما آخرون نموذجا للخداع والتلبيس ورمزاً للغش والتدليس .

١٢ — مذهب « أبى الغصن » :

ومهما يكن من أمر ، فقد كان كلا الجحيين ذكياً بارعاً ، راجح العقل ، محدَّثا (أى : ملهماً صادق الفراسة) ، يتغابى فى غير غباء ، ويتباله فى غير بله ، ويمكر فى غير خبث ، ليخلص من كيد الكائدين ، وينجو من بطش المعتدين .

ورحم الله شوقى بك القائل :

« إذا الفتنة اضطرمت فى البلاد ورمت النجاة ، فكن إمّعه »

(والإمعة كما تعلمون ، هو الذى يقول لكل إنسان أنا معك)

وإليكم شعار الأول أعنى شعار : « أبى الغصن عبد الله دجين بن ثابت » المعروف بجحا العربى ، وهو يلخص رأيه فى الحياة أبدع تلخيص :

« مذهبى فى الحياة صبر جميل هل ينجّى من البلاء عويل
لم أضق بالحياة ذرعاً ، وعندى بسمات للخطب وهو جليل
لا أرى فى الوجود إلا جمالا كل ما فى الوجود حسن أصيل
أضمر الصفح والمحبة للنا س ، إذا ما أساء باغٍ جهول
الأمانىّ عذبة أسعدتنى فحياتى بهن حُلْمٌ جميل
وحماقات من أرى أضحكتنى وتمنَّى بها غضوب ملول
إنما يغلب الزمان صبور واسع الصدر باسم بهلول
لا يهاب الخطوب إن دهمته سوف يتلو الأحزان أنس طويل
كل خطب إذا صبرت تولَّى ، وتجلى ، وكل حال تحول »

١٣ — مذهب نصر الدين :

وهو بهذا يلتقى مع فلسفة الأستاذ نصر الدين خوجة أو جحا التركى كما يسمونه ، الذى اتخذ شعاره فى الحياة قوله :

« مذهبنا أن نتسلى بالحياه
بما نلاقى من سرور وأذاه
فالكون محبوب بهيج ما حواه
وما نرى إلا جميلا ما نراه »

١٤ — تشابه المذهبين :

على أن كلا الجحيين كان كما يقول فيلسوف المعرة :

« إذا سألوا عن مذهبى فهو بين وهل أنا ، إلا مثل غيرى أبله
خلقت من الدنيا ، وعشت كأهلها أجدُّ كما جدُّوا ، وألهو كما لهوا »

فقد أحسن المعرى التعبير عنهما ، بهذين البيتين ، وإن كان يفصله زهاء قرنين من الزمان بعد مولد أولهما وثلاثة قرون قبل مولد الآخر منهما . وكأنما ألهما المعرى قوله :

« إن جدَّ عالمك الأرضى فى نبإٍ يغشاهم ، فتمثل جدَّهم لعبا »

وقوله :

« تَرَجَّ — بلطف القول — ردَّ مخالف
إليك ، فكم طِرْفٍ يسكّن بالنقْر »

١٥ — تشابه الرجلين :

لقد تشابه الجحيان — كما أسلفت لحضراتكم — كما تشابه الموز أو البرتقال فى رأى بعض الشعراء حين قال :

« ... ... فالفم ملآن به فارغ
سيان قلنا : مطعم طيب فيه ، وإلا مشرب سائغ »

تشابه الرجلان وامتزجت آثارهما ، بعضُهما ببعض ، كما امتزجت — بعد ذلكم وقبله — بالكثير من آثار غيرهما من الشخصيات الجحوية وما إليها . وما أضيف عليها مما تخيله المتخيلون ، وانتحله المنتحلون ، حتى أصبحت كلمة « جحا » الآن كافية للتعبير عن كل جحا ، فى كل عصر ، وفى كل أمة ، كما أصبحت كلمة « خرافة » أيضاً كافية للتعبير عن كل حديث خيالى لا حقيقة له : قديماً كان أو حديثاً ، رائعاً أم سخيفاً ، عربياً أم أعجمياً ، شرقياً أم غربياً ، وقد أصبح الرمز الجحوى — على توالى الأجيال — أشبه بالرمز الجبرى ، فإن « س » تارة تساوى مليوناً من الجنيهات ، وتارة تساوى عشر تفاحات ، وثالثة ست دجاجات ، ورابعة صفراً .

وقد ألف « كارليل » — فيما يعلمه الكثيرون منكم — كتاب الأبطال ، فتحدث عن البطل فى صورة نبى ، والبطل فى صورة زعيم ، والبطل فى صورة قائد ، والبطل فى صورة شاعر وهكذا .

وسيرى المتتبع لتاريخ جحا وما نسب إليه من أخبار كيف سلك المتحدثون عنه مثل هذا المنهج ، أو قريب :

فمثلوا لنا جحا فى صورة فيلسوف ، وجحا فى صورة أبله ، وجحا فى صورة قاض ، وجحا فى صورة متقاض ، وجحا فى صورة سارق ، وجحا فى صورة مسروق ، وجحا فى صورة ذكى وجحا فى صورة غبى ، وجحا فى صورة فقير ، وجحا فى صورة غنى ، وهكذا .

وقد أصبحت كلمة « جحا » كافية فى التعبير عن هذا كله — كما ترون — فلا غرو إذا اجتزأنا بها فى الحديث اقتصاداً للوقت ، واختصاراً للبحث فى التفاصيل المسهبة ، والشروح المستفيضة التى عرضنا لها فى غير هذا المقام .

كامل كيلانى

صور من العصر العباسى :

الخلفاء العباسيون والهدايا

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

درج الناس فى العصر العباسى على تقديم الهدايا للخلفاء ، ونلاحظ أن هذه الهدايا كانت تقدم فى النيروز والمهرجان ، وفى الفصد ، وفى العودة من الحج ، هذا عدا الهدايا التى كانت تحملها الرسل الواردة على الخليفة من الولاة والأمراء ، أو من ملوك الروم

أما الهدايا فى النيروز والمهرجان ، فعادة فارسية أخذها العرب عن الفرس منذ فجر العصر الإسلامى . ويقول الجاحظ إنها كانت معروفة زمن معاوية ، وظلت كذلك طول عهد الأمويين ، حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأبطلها . فلما دالت دولة الأمويين ، وقامت دولة العباسيين ، عادت هذه العادة إلى الناس ، وصارت فرضاً عليهم نحو الملوك

ويبين الجاحظ العلة فى تقديم الهدايا فى النيروز والمهرجان فيقول : « وإن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والعلة فى ذلك أنهما فصلا السنة ، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز إيذان بدخول فصل الحر »

« ومن حق الملك أن تهدى إليه الخاصة والعامة ، والسنة فى ذلك عندهم أن يهدى الرجل ما يحب من ملكه إذا كان فى الطبقة العالية ، فإن كان يحب المسك أهدى مسكا لا غيره ، وإن كان يحب العنبر أهدى عنبراً ، وإن كان صاحب بزة ولبسة أهدى كسوة وثياباً ، وإن كان من الشجعان والفرسان ، فالسنة أن يهدى ذهباً أو فضة ، وإن كان من عمال الملك ، وكانت عليه متأخرات أو بقايا للسنة الماضية جمعها وجعلها فى بدر حرير صينى وشريحات فضة وخيوط ابريسم ... ثم وجهها . وكان يهدى الشاعر الشعر ، والخطيب الخطبة ، والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضروات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثرنه . ويجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها ، أن تهديها إليه بأكمل حلاتها ، وأفضل زينتها ، وأحسن هيأتها . فإذا فعلت ذلك ، فمن حقها على الملك أن يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها فى الكرامة[1] » .

وعاد الجاحظ فى المحاسن والأضداد ففصل ما أجمل . قال : وجعلوا شعارهم : كل يهدى على قدره . فكان القواد يهدون النشاب والأعمدة المصمتة من الذهب والفضة . والكتاب والوزراء والخاصة من قراباتهم جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر ، وجامات الفضة الملوحة بالذهب . والعظماء والأشراف يهدون البزاة والعقبان والصقور والشواهين والفهود . وربما أهدى الرجل الشريف سوطاً . وكانت الحكماء يهدون الحكمة والشعراء الشعر ، وأصحاب الجوهر الجوهر ، وأصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهرى النادر . والظراف قرب الحرير الصينى مملوءة ماء ورد . والمقاتلة القسى والرماح والنشاب . وكانت نسوة الملك تهدى إحداهن الجارية الناهدة والوصيفة الرائعة ، والأخرى الدرة النفيسة والجوهرة الثمينة ، وفص خاتم ، ومالطف وخف . وأصحاب البز الثوب المرتفع من الخز والديباج وغير ذلك

(١) انظر التاج ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

والصيارفة نقر الذهب مملوءة بالفضة ، وجامات الفضة مملوءة دنانير[١] .

وكان للهدايا كاتب خاص ، يكتب اسم كل مهد ، وجائزة كل من يجيز الملك على هديته ليودع ديوان النيروز[٢] مهما كان شأن الهدية ، صغرت أم كبرت ، كثرت أم قلت . فإذا أهدى أحدهم الملك هدية ، ثم لم يخرج له من الملك صلة ، عند نائبة تنوبه ، أو حق يلزمه ، فعليه أن يأتى ديوان الملك ويذكر بنفسه[٣] .

ويذهب آدم متز إلى أن المهرجان كان يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان[٤] ، ولا وجه لتمييز المهرجان من النيروز وقد رأيت أن الجاحظ جعلهما سواء ، وذكر هدايا المهرجان ، وهدايا النيروز[٥] . وقد كان النيروز عيداً قومياً ، يحفلون به حفلهم بعيد الفطر ، ويتبارون فيه بالقصائد والهدايا[٦] .

* * *

ولنر الآن أنموذجات من هذه الهدايا ، فى ضروبها وأصنافها .

فقد أهدى المنصور الوصائف من الرجال . حدث الفضل بن الربيع عن أبيه قال : كنت فى خمسين وصيفاً أهدوا للمنصور ، ففرقنا فى خدمته[٧] .

وأهدت جارية إلى المهدى تفاحة ، فأعجب بهذه الهدية وقال :

تفاحـــة من عند تفاحة جاءت فماذا صنعت بالفؤاد

والله ما أدرى أأبصرتها يقظان أم أبصرتها فى الرقاد[٨] ؟

ولما عشق أبو العتاهية عتبة ، جعل هديته إلى المهدى وسيلة لوصالها . فقد ذكر المبرد أن أبا العتاهية استأذن فى أن يطلق له أن يهدى إلى أمير المؤمنين فى النيروز والمهرجان . فأهدى له فى أحدهما برنية ضخمة فيها ثوب ناعم وطيب ، قد كتب على حواشيه :

(١) المحاسن والأضداد ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩

(٣) التاج ص ١٤٩ .

(٤) الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٥) المحاسن والأضداد ص ١٨١ .

(٦) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٠٢ .

(٧) الأغانى ج ٦ ص ٨٢ .

(٨) عيون الأخبار ج ٣ ص ٣٩ .

نفسى بشىء من الدنيا معلقة الله ، والقائم المهدى يكفيها

إنى لأيأس منها ثم يطمعنى فيها احتقارك للدنيا وما فيها[١]

وحدث ابراهيم بن المهدى قال : كنت عند الرشيد ، فأهديت له أطباق ومعها رقعة . فلما قرأها استفزه الطرب . فقلت : يا أمير المؤمنين ما الذى أطربك ؟ قال : هذه هدية عبد الملك بن صالح . ثم نبذ إلى الرقعة فإذا فيها : « دخلت يا أمير المؤمنين بستاناً أفادنيه كرمك ، وعمرته بنعمتك ، وقد أينعت ثماره وفاكهته . فأخذت من كل شىء ، وصيرته فى أطباق القضبان ، ووجهته لأمير المؤمنين ليصل إلى من بركة دعائه ، مثلما وصل إلى من بركة عطائه[٢] ». قلت وما فى هذا ما يقتضى هذا السرور . قال ألا ترى إلى ظرفه كيف قال القضبان ، فكنى به عن الخيزران إذ كان يجرى به اسم أمنا .

ثم كشف المنديل فإذا بعضها فوق بعض ، فى أحدها فستق وفى الآخر بندق إلى غير ذلك من الفاكهة[٣] .

وأهدى أحمد بن يوسف للمأمون مرة ثوب وشى[٤] . وأهدى إليه مرة ثانية طبق جذع عليه ميل من ذهب فيه اسمه منقوش . وكتب إليه : «هذا يوم جرت فيه العادة ، بإلطاف العبيد السادة ، وقد أرسلت إلى أمير المؤمنين طبق جذع فيه ميل[٥] » .

وأهدى عبد الله بن طاهر له فرساً ، وكتب إليه : « قد بعثت إلى أمير المؤمنين بفرس يلحق الأرانب فى الصعداء ، ويجاوز الظباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحدور جرى الماء[٦] » .

وهدية الخيل كانت معروفة من قبل . فقد أهدى الحجاج إلى عبد الملك فرساً[٧] ، وأهدى عمرو بن العاص إلى معاوية ثلاثين فرساً من سوابق خيل مصر[٨] .

ولما أفضت الخلافة إلى المتوكل أهدى إليه الناس على أقدارهم

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٦

(٢) مطالع البدور ج ٢ ص ١٣٦ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٠

(٤) وفيات ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٥) زهر الآداب ج ٢ ص ١٠٠

(٦) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٠ .

(٧) المصدر السابق ص ١٩ .

(٨) المصدر السابق ص ٢١ .

المخـــدرات ...!

بين الأدباء والعلماء

للدكتور فضل أبو بكر

سأتناول من هذه المواد الغريبة أهمها وأكثرها استعمالا ، وأعنى بذلك الأفيون والحشيش . وسميت بالمخدرات لأن من أخص مميزاتها تخدير الآلام الجسمية والنفسية . كذلك يسمونها « المذهلات » Stupifiants لما تسببه من ذهول « وسطل » ، وهو الإسم الذى تعرف به فى علم الأدوية والمقاقير

هى قديمة كالأزل عرفها الإنسان منذ أقدم العصور ، وقد ذكر هوميروس نبات الأفيون فى إلياذته . كذلك أبو قراط إله الطب عن قدماء الإغريق كان يستعملها فى العلاج لبعض الأمراض مثل الهستريا التى كان يظن من مسبباتها عند النساء نزول الرحم والأمعاء، وهبوطهما من المكان الخاص بهما فى البطن . وقد حذا حذوه فى استعمال الأفيون — بقصد العلاج — بعض أطباء الإغريق والرومان ، وذكر من الأخيرين « أندروماكلوس » Andromaclus طبيب نيرون الخاص كان يستعمله مع بعض المقاقير كمخدر وكنوع من الترياق . كذلك أطباء العرب وصيادلتهم مثل ابن البيطار الذى فند تعاليم جالينوس والذى يدين له علم الأدوية والمقاقير بالشئ الكثير . أما ابن سينا ومن انتمى إلى مدرسته من الفلاسفة والعلماء ، فقد استعملوه بكثرة فى الأدوية والعلاج .

أما فى القرون الوسطى فقد قل نسبيا استخدام الأفيون فى العلاج . واستمر الحال كذلك إلى أواخر القرن السابع عشر فقد هيئ له أن يبعث من جديد على يد الطبيب المعروف « سيدنهام » « Sydenham » إذ خلط منقوع الأفيون — المنقوع فى الكحول — بالزعفران والقرفة والقرنفل وركب منها خليطاً مشهوراً باسمه ولا نزال نستعمل ليومنا هذا ضد بعض حالات

وأهدى إليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف . وفى الهدية جارية يقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم . وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس . فحسن موقعها من المتوكل ، وحلت من قلبه محلا جليلا[1] .

وبعث الحسن بن وهب إلى المتوكل بجام من ذهب فيه ألفا مثقال من عنبر[2] .

وأهدى إليه خالد المهلبى فى يوم نيروز ثوب وشى منسوجا بالذهب ومشمة عنبر عليها فصوص جوهر مشبك بالذهب ، ودرعاً مضاعفة ، وثوباً بغدادياً فأعجبه حسنه ، ثم دعا به فلبسه . وقال : يا مهلبى إنما لبسته لأسرك به ، فقال يا أمير المؤمنين : لو كنت سوقة لوجب على الفتيان تعلم الفتوة منك ، فكيف وأنت سيد الناس[3] ؟

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٥ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ١٨ .

(٣) المصدر السابق ص ١٨١

وذكروا أنه كان للمتوكل جارية اسمها شجرة الدر . وكان يميل إليها ميلا كبيراً ويفضلها على سائر حظاياه . فلما كان يوم المهرجان أهدى إليه حظاياه هدايا نفيسة واحتفلن فى ذلك ، فجاءت شجرة الدر بعشرين غزالا تربية ، على كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك والعنبر والغالية وأصناف الطيب ، ومع كل غزال وصيفة بمنطقة ذهب وفى يدها قضيب ذهب فى رأسه جوهرة فقال المتوكل لحظاياه ، وقد سر بالهدية ، ما فيكن من تحسن مثل هذا وتقدر عليه . فحسدنها وعملن على قتلها بشئ سقينه لها فماتت[1] .

وإلى جانب هذه الألوان من الهدايا كانوا يهدون الطين . قال الثعالبى : وكانوا يهدون طين نيسابور ، وهو طين الأكل لا يوجد مثله فى الأرض ، يحمل إلى أدانى البلاد وأقاصيها ، ويتحف به الملوك ، وربما بيع الرطل منه بدينار[2] .

(له بقية)

صلاح الدين المنجد

(١) مطالع البدور ج ٢ ص ١٣٦ .

(٢) ثمار القلوب ص ٤٢٨ .

الإسهال وآلام البطن . وقد قال فى ذلك الطبيب سيد نهام إنه لولا الأفيون لصار الطب ناقصا أجدع .

أما الحشيش فقد عرف كذلك منذ آباد وأجيال سحيقة : فالهنود والصينيون كانوا يتعاطونه منذ أقدم العصور . وقد أدخله إلى بلاد الغرب بعض قبائل البدو والرحل الذين كانوا يقطنون شمال أسيا والجزء الواقع فى الشمال الشرقى من أوربا . وقد روى « هيرودوت » المؤرخ أن تلك القبائل كانت تغلى بذور فاكهة الأفيون فى الماء، وتستنشق البخار المتصاعد ثم تحتسى فى نشوة عجيبة منقوع هذه البذور .

وأول من عنى بدراسة الحشيش من الوجهة العلمية هما الطبيب الألمانى « مارشال » والطبيب الفرنسى « مورو دى تور » الذى كان مديراً لمستشفى الأمراض العقلية والعصبية فى باريس والذى كتب فى سنة ١٨٤٥ مؤلفاً نفيساً سماه « الحشيش والجنون » يصف فيه خواص الحشيش وأثرها فى الجهاز العصبى ، وقد تعاطى هذه المادة وجرب أثرها فى نفسه . وقد قيل فى المثل « سل المجرب ولا تسل الطبيب » فقد كان مجرباً وكان طبيباً فلا غرابة أن كان مؤلفه مصدراً موثوقاً به فى هذا الصدد .

الأدباء والمخدرات :

كان بعض الأدباء يتعاطى هذه المواد ووجدوا فيها إلهاماً وإيحاء ووصفوا مفعولها وصفاً رائعاً يشوبه الخيال وما يمليه من مبالغات تنافى بعض الشيء صرامة العلم ودقة العلماء . ومن هؤلاء الأدباء الأديب والشاعر الفرنسى « شارل بودلير » الذى عاش إلى سنة ١٨٦٧ وهو من أعظم شعراء الغرب وأشبههم من حيث الرقة والظرف والمجون بأبى نواس؛ فقد ورد فى بعض مؤلفاته — واسمه « الفردوس الاصطناعى » — وصف الحشيش؛ فتأمله إذ يقول: « إن فى الإنسان رغبة مستأصلة لإدراك المثل العليا والوصول إلى الحقيقة ؛ لذلك يحاول ما أمكنه أن يخلص الروح ويطلقها من سجنها المادى العائق لها عن الوصول لهذه الأهداف . كذلك السعادة هى الضالة المنشودة لبنى الإنسان؛ وبما أنها ليست فى متناول الجميع فهو يحاول ما أمكن أن يتوهمها ويصطنعها : فقدح من مدام وشهقة من تبغ ومضغة من عشب (الحشيش) بهذا فقط تجد الروح تخلصت وتبدلت » .

أما الكاتب الفرنسى المشهور « تيوفيل جوتييه » الذى عاش إلى سنة ١٨٤٣ فقد ألف كتاباً سماه « نادى الحشاشين » يصف فيه مفعول الحشيش وأثره فى نفسه فيقول: « ما هى إلا بضع دقائق حتى استولى على جسمى التخدير، وخيل إلىّ أن جسدى قد ذاب وانحلت مادته وصار شفافاً ، فأبصرت قطعة الحشيش التى مضغتها تنزل هابطة فى أحشائى كأنها زمردة تشع منها الملايين من أجسام ذرية لامعة ؛ وتراءى لى أن هدب عينى يطول ويمتد إلى اللانهاية ثم يطوى كأنه أسلاك رفيعة من الذهب ويلتف حول عجلات صغيرة من العاج تدور حول نفسها بسرعة مدهشة ، وقد اكتنفتنى نهيرات من لجين تكدست على شواطئها أكوام من الحجارة الكريمة من مختلف الأشكال والألوان . وبعد فترة قصيرة تبددت عنى هذه الأحلام ، وعدت إلى صوابى من غير ما خمول أوصداع كما يعقب عادة شرب الخمر . وقد هالنى كثيراً ما رأيت . وما كادت تمضى نحو نصف ساعة حتى عاودتنى النشوة وتهت فى ملكوت الحشيش . غير أن أحلامى فى هذه المرة كانت أشد غرابة وأكثر تعقيداً . فقد أحاطت بى هالة من نور يأخذ وميضه بالأبصار ، وتطير حول هذه الهالة ملايين من الفراش لها أجنحة ذات ألوان مختلفة تسر الناظرين ، وسمعت لأول مرة صوت الألوان المختلفة . فهنالك صوت أصفر وأزرق وأخضر وأحمر؛ وهذه الأصوات اللونية تصل موجاتها إلى أذنى فى وضوح تام . كذلك رأيت أكثر من خمسمائة ساعة دقاقة تنبئ عن الوقت بدقات أشبه بأهازيج العود والمزمار وقد ذابت نفسى فى اللانهاية ، وخيل إلى أن هذا الحلم إنما دام نحو ثلثمائة عام ، وإن كان من المستحيل تقدير الزمن على وجه التحقيق إذ كانت المناظر تتتابع وتتنوع بسرعة ، وما إن عدت إلى رشدى حتى رأيت أن هذا الحلم لم يدم أكثر من ربع ساعة » .

ومن أدباء الانجليز أذكر « توماس دى كنسى » وكان يعنى كثيراً بدراسة « الكلاسيك » من الأدب الأغريقى والرومانى القديم ، وقد ألف كتاباً بعنوان « اعترافات مدمن فى الأفيون » فتأمل حين يناجى المدمن مخدره العزيز :

« أيها الأفيون أنت الحق والحقيقة ! أنت حياة المحتضر

ومال المعوز وسعادة الشقى والخالق من الشجى خلياً ! أنت ملهم البيان ! أنت الذى تذكر المجرم والقاتل أيام الطفولة الغريرة حيث لا جريمة ولا جريرة ! أنت الذى تشيد فى غسق الظلام قصوراً وبنياناً أكثر سحراً من بنيان بابل وطيبة » .

كذلك الشاعر الانجليزى « كولردج » وقد كان ممن يتعاطونه من وقت لآخر بقصد التنبيه ونشاط القريحة ، وقد كتب قصيدته « كبلاخان » بعد أن تعاطى ماتيسر من الافيون وهى تعد من أرق أنواع الشعر وأرقاه معنى .

أما أثر هذه المواد من الوجهة الطبية والفسيولوجية فهاكها باختصار كما يلى :

١ – تخدر الأعصاب ، ولذا كان لها تفوق كبير فى تسكين الآلام الناشئة من الأمراض . كذلك من خواصها التنويم ، ولكنه نوع خاص من النوم يمتاز بانحلال عام وتراخ فى العضلات تتخلله أحلام هنيئة ومتنوعة . أما من الوجهة النفسية فهى تساعد على حضور البديهة وسرعة الخاطر ، ويلى ذلك شىء من التهيج واضطراب الأفكار يطرأ تدريجياً وحسب كمية المخدر . أما أثره على الجزء الخاص بالتحرك من الجهاز العصبى فهو أقل بكثير من أثره على الجزء الموكل بالحس والشعور .

٢ – تنقص جميع الافرازات الخاصة بالجهاز الهضمى فيعيق الهضم ويعطله كما يقل من حدة الشهية ، ويساعد على الإمساك . كذلك له مفعول سىء على الكبد الذى يعد أهم عضو لمكافحة السموم الطارئة على الجسم من الداخل ومن الخارج .

٣ – تساعد المخدرات على التنفس لذلك تستعمل فى بعض أمراض الصدر والقلب التى تسبب حصراً وضيقاً فى التنفس مثل الربو والنزلات الشعبية والأزمات القلبية والرئوية .

٤ – تنقص المخدرات من كمية البول لأنها – كما أسلفنا – تقل من جميع الافرازات ما عدا الافراز العرقى فهى على النقيض تكثره وتنشطه . أما الجهاز التناسلى فقد تسبب تهيجاً جنسياً ، ولكن إلى حين وفى بادىء الأمر فقط ، ولكن هذا التهيج وتلك الاثارة يعقبها خمول وضعف فى الرغبة الجنسية .

هذه نبذة موجزة عن بعض المخدرات عالجت موضوعها باختصار من الوجهة التاريخية والأدبية والعلمية .

فضل أبو بكر

القوة فى نظر العـــلم

للأستاذ محمد عاطف البرقوقى

العلماء والقوة :

نشأ الإنسان فى الحياة ووجد أنه فى كل شئونه يحتاج إلى القوة ، ففى إعداد طعامه كان يخرج إلى الصحارى والغابات ليصطاد فريسته ، فكان مضطرا إلى حملها بنفسه ليعود بها إلى داره ، وفى هـذا لا تنجح إلا القوة العضلية ، وفى البناء كان قدماء المصريين يشيدون الأهرام والمعابد والقبور ، وكانوا يستخدمون الإنسان فى حمل أثقل الأحجار ونقل التماثيل من مكان إلى آخر ، ومن ذلك أنهم استخدموا عشرة آلاف رجل لتشييد الهرم الأكبر ، يستبدلون كل ثلاثة أشهر ولمدة عشرين عاما ، وذلك رغم استخدام الروافع والعربات والسفن .

وإذا ما تلفت الإنسان حوله وجد مظاهر القوة بادية ، فقوة الريح تعصف بالأشجار فتكسرها ، والماء الجارى يجرف المبانى فيهدمها ، والأجسام تسقط نحو الأرض بفعل قوة ، وهى قوة الجاذبية الأرضية ، والمد والجزر أثران من آثار القوة ، والكواكب السيارة تدور وتتحرك نتيجة قوة ، فلفت ذلك نظر العلماء ، فاهتموا بدراسة القوة وآثارها ، منهم العالم الايطالى غاليليو الذى اهتم بدراسة حركة الأجسام الساقطة تحت تأثير جاذبية الأرض وتبعه العالم الانجليزى سير اسحق نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧) الذى وضع القوانين التى تربط بين القوة والحركة والقوة والكتلة ، ودرس حركة الكواكب السيارة فهو يعتبر بحق واضع أساس علم الميكانيكا وعلم الفلك ، وتبعه علماء كثيرون درسوا القوى الناتجة من الهواء والماء والبخار والكهربا.

القوة والحركة :

ومهما اختلف مصدر القوة فإن هناك علاقة كبيرة بين القوة والحركة ، فأينما وجهت النظر إلى قوة من القوى وجدتها يصحبها حركة من الحركات ، فالسيارة تبقى ساكنة ما لم تستخدم القوة الناتجة من احتراق بخار البنزين ، والقاطرة لا تتحرك إلا بقوة البخار ، وكلما زادت القوة زادت الحركة ، وعندما توقف القوة فعندئذ تقل الحركة إلى أن تنعدم ، وانعدام الحركة فى الواقع ناتج من قوة هى قوة الاحتكاك بين العجلات والأرض ، فالقوة تحرك الجسم الساكن أو تعدم حركة الجسم المتحرك . وقد وضع العالم الانجليزى نيوتن ثلاثة قوانين فى علم « الميكانيكا » تسمى قوانين نيوتن فى الحركة ، أولها : « أن الجسم يبقى ساكنا أو متحركا بسرعة منتظمة فى خط مستقيم مالم تؤثر عليه قوة » ، فالجسم الساكن لا يتحرك إلا بتأثير قوة ، فاذا قربت مغناطيسا من إبرة من الصلب أو الحديد ساكنة تحركت بتأثير القوة المغنطيسية. وإذا شاهدنا جسما متحركا بغير سرعة منتظمة حكمنا على أن هناك قوة تحركه ، وهكذا استنبط العلماء قوة جاذبية الأرض بملاحظة سقوط الأجسام نحو مركزها

قوة الاحتكاك :

ونلاحظ أنه إذا رمينا كرة من الزجاج ناعمة على أرضية ملساء فإنها تستمر بسرعتها المنتظمة فى خط مستقيم ، وحسب قانون نيوتن إذا لم تؤثر عليها قوة فإنها يجب أن تستمر إلى ما لا نهاية كما يقول العلماء ، ولكن من الناحية العملية تقل سرعتها تدريجياً حتى تصل فى النهاية إلى السكون ، وذلك لأنه توجد قوة تغير من حالتها هذه إلى السكون ، وهذه القوة هى التى نسميها قوة الاحتكاك بين أى جسمين ، وهى صغيرة بين جسمين ناعمى الملمس وتزداد كلما زادت خشونة الجسمين وكتلة الجسم المتحرك ، فإذا رميت كرة ثقيلة من الحديد على أرضية خشنة وقفت حركتها بسرعة قوة الاحتكاك بينها وبين الأرض . وفى الواقع أن قوة الاحتكاك هذه تسبب ضياع نسبة لا يستهان بها من الطاقة للتغلب عليها سواء أكانت فى حركة القطارات أم السيارات أم فى إدارة الآلات

القوة الطاردة أو القوة والدوران :

الجسم المتحرك يميل إلى الحركة فى خط مستقيم ، فكثيراً

ما نلاحظ أن السيارة المتحركة بسرعة كبيرة إذا ما فوجىء سائقها بجزء منحن من الطريق فإنه على الرغم من عمل مجهود كبير لإدارة عجلة قيادة السيارة فإنها تعصى سائقها وتسير فى خط مستقيم ، فيؤدى ذلك إلى ملاقاة حتفها ... إما بالغرق إن كان الطريق بجوار ترعة وإما الاصطدام وإما بالخروج عن الطريق على أية حال ، وكل ذلك لميلها للسير فى خط مستقيم ، وإذا ربط ثقل فى طرف خيط وحرك الخيط باليد ليدور الثقل فى مسار دائرى حول اليد ، فإن الثقل لا يسقط نحو الأرض بتأثير جاذبية الأرض له بل يدور بفعل قوة مركزية ، وإذا قطع الخيط فإن الثقل عندئذ يتحرك فى خط مستقيم من حيث أوقف تأثير هذه القوة المركزية

وإذا كان الثقل عبارة عن « كوز » به ماء وأدير الكوز بالماء فإن الماء لا يسقط وذلك لأنه توجد قوة مركزية طاردة أى تحاول أن تطرد الماء نحو الخارج فيعوق قاع الإناء ، ذلك وفى الصناعات يستخدمون هذه القوة فى نواح شتى ، ففى محال غسيل الملابس ، يضعون الملابس المبللة بالماء فى إناء كبير يدور ، فبدورانه تؤثر فيه قوة طاردة تطرد الماء من ثقوبه إلى الخارج فتعصر الملابس بطريقة سريعة ، وفى محال الألبان الكبيرة يستخرجون القشدة من اللبن وهو طازج بأن يضعوا اللبن الحليب فى إناء ويدار بسرعة فتنفصل القشدة عن اللبن بتأثير القوة الطاردة .

وراكب الدراجة عند دورانه يجب عليه أن يميل بجسمه إلى داخل الدوران حتى لا تدفعه القوة الطاردة إلى الخارج فيقع ، ويخشى أثر هذه القوة فى القاطرات والطائرات ، فالقاطرات عند دورانها يجب أن يكون القضيب الخارجى أعلى من القضيب الداخلى حتى تميل القاطرة عند دورانها إلى الداخل ، وهناك قانون يبين مقدار زيادة ارتفاع القضيب الخارجى عن الداخلى ، ويصل هذا إلى نحو عشرة سنتمترات .

وفى الطيران كثيراً ما يصاب السائق بدوخة إذا اضطر إلى إدارة طائرته بسرعة كبيرة تصل الآن إلى نحو ٤٠٠ ميل فى الساعة ، وتزول الدوخة بعد أن تعود الطائرة إلى سيرها فى خط مستقيم ، وذلك لأن دمه يسير فى جسمه بقوة ضربات قلبه ، فعند الدوران يميل دمه إلى السير فى نفس الخط المستقيم الأصلى ، فبذلك ينحرف دمه إلى جانب من جسمه ورأسه فيشعر بالدوخة .

القوة المعنوية :

هذا من ناحية القوة المادية ، أو القوة التى لها أثر مادى من حركة أو سكون ، واستكمالا للبحث نشير أيضاً إلى القوة المعنوية ، وأرى أن القوة على العموم — سواء أكانت مادية أم معنوية — يصحبها دائماً حركة ، فكما أن القوة المادية تغير من سكون الجسم أو حركته المنتظمة ، فكذلك القوة المعنوية تكسب الإنسان اعتزازا بنفسه عند الإقدام ، وتهب له الثقة التامة عند العمل ، وذلك بقدر اعتزاز الشخص القوى العضلات بجسمه ، وثقته فى النجاح بقوته إلا أن القوة المادية تظهرها قوة الجسد ، والقوة المعنوية كامنة فى الروح والنفس ، وكما أن القوة المادية تنمّى وتزاد سواء أكانت للفرد أم للجماعة ، فكذلك القوة المعنوية فإنه يمكن أن تعزز وتقوى للفرد أو للأمة أيضاً ، فالطفل إذا شجع عند الإتقان ، وأغضى عنه عند هفوته ، علت نفسه ، وقويت عزيمته ، والرجل ما هو إلا طفل كبير ، من ناحية على الأقل ... ، والأمة ما هى إلا مجموعة أفراد تربطهم روابط خاصة ، ولذلك يلجأون فى الحروب إلى الرقابة على الصحافة والإذاعة ، وذلك للعمل على رفع القوة المعنوية للأمة وجيشها .

ولا بد لمن يهمهم رفع القوة المعنوية لفرد أو أمة من استخدام علم النفس الفردى والاجتماعى ، وعندئذ تجد الأمة ذات القوة المعنوية العالية لا تتزعزع منها الثقة ، ولا تضعف منها العزيمة ، بل تسير قدما فيما أرادت ، واثقة من فوزها فى النهاية ، متأكدة من الوصول إلى هدفها وإدراك الغاية والثقة — وهى وليدة القوة المعنوية — لها نصف العمل ، والنصف الآخر للقوة المادية ، وهب لنا الله من لدنه القوة المادية والقوة المعنوية ، وهدانا إلى سواء السبيل .

محمد عاطف البرقوقى
ناظر المدرسة التوفيقية

من عيون الأدب الغربي :

حديقة أبيقور لأناتول فرانس

بقلم الأستاذ بولس سلامة

تمهيد :

كان أناتول فرانس كاتباً شديد الشك ، شديد السخرية ، متشائماً هدَّاماً . ولا غرابة فقد أنجبته فرنسا التي أنجبت من قبله فولتير إمام الشاكين في زمانه وفي كل زمان .

وأناتول فرانس كفولتير يتخذ السخرية طريقاً لإصلاح المجتمع والمعتقدات والناس . ويشترك معه في هذه الصفة الكاتب الانكليزي (شو) إلا أن (شو) يكتب بأسلوب العلماء وأناتول فرانس يكتب بقلم أسلست له اللغة وطاوعه البيان فجاءت كتاباته آية من آيات الأدب الرفيع . وفي حديقة أبيقور يتجلى شك أناتول فرانس وتهكمه وتشاؤمه ويتجلى فنه الرائع وأسلوبه الشيق البديع وقد اقتطفنا لك من هذه الحديقة باقة صغيرة إن أعجبك رواؤها وشذاها فادخل الحديقة وشاهد وتأمل ...

الهناء والشقاء :

كنت أقرأ كتاباً لشاعر فيلسوف تخيل فيه جيلاً من الناس خلت قلوبهم من الهم والسرور والعناء .

ورجعت من هذه الحياة المثلى التي تخيلها الشاعر الفيلسوف إلى عالمنا هذا حيث يكافح الإنسان ويشقى ويتألم ويحلم فعجبت كيف يضطرب قلب الإنسان حنيناً إلى مشاركة هؤلاء في كفاحهم وشقائهم وآلامهم وأحلامهم . ففي هذه الحالة — وفيها وحدها — يجد الإنسان نبعاً من الغبطة لا ينضب

ولقد قنعت بعد قراءته بنصيبي المتواضع في هذه الأرض ورضيت عن نفسي وإخواني الذين يشاركونني هذا النصيب المتواضع الصغير . بل اقتنعت بأننا في شقائنا أنبل من هاته الخلائق التي يرسمها هؤلاء الفلاسفة الحالمون بلا ألم ولا شقاء .

إننا إذا اقتطعنا الألم والعواطف والأهواء من حياة الناس اقتطعنا معها الشعر والفن وكل شيء جميل . وكيف يشعر الشعراء في عالم لا ألم فيه ولا حرمان ولا شقاء ؟ إنهم يغمضون عيونهم ويصمون آذانهم عن أعاجيب الفن والشعر التي تجعل من هذه الأرض المتواضعة سماء لا تطاولها سماء .

إن بيتاً واحداً من الشعر الرفيع ليفعل في النفس ما لا تفعله هذه المخترعات الحديثة وهذا العلم الحديث .

وأي عالم نتخيله وقد امتلأ بالمهندسين والعلماء بلا شعر ولا حب ولا أهواء . وكيف يشعر ويحب ويغني القانع الراضي القرير؟ إنما الحب نبت لا يزكو إلا بالدموع والبكاء .

إنه لمن الخير أن نتمنى الألم وأن نرضى بنصيبنا من هذا العيش الذي يتداول فيه الخير والشر والعسر واليسر كما يتداول الليل والنهار .

الغباء :

الغباء شرط لازم — لا أقول للسعادة — بل للحياة . فلو عرفنا كل شيء لما استطعنا أن نعيش ساعة واحدة .

إن هذه الأشياء التي يحلو بها العيش أو يطاق إنما تقوم في الواقع على الوهم والغباء .

الشيوخ :

عندما يشيخ المرء يزداد تمسكاً بآرائه ؛ ولذلك يعمد سكان جزيرة فيجي إلى قتل الشيوخ ، وبهذا ييسرون تقدم الإنسانية . ونحن نفعل النقيض بتأسيس الأكاديمية .

الكتب :

قالت لي فتاة صغيرة — وفي قولها حكمة غابت عن كثير من الحكماء — إننا نجد في الكتب ما لا نجده في عالم الواقع من أشياء مضت وانطوت فلا تعود ، أو أشياء متوقعة نتخيلها ولا ندركها على التحديد . فهي صورة قاتمة واهمة . وإني أرى أن من الخير ألا يقرأ الكتب الصغار . ففي الحياة أشياء كثيرة

حكم المفكرين الغربيين على « محمــــد »

للاستاذ عبد المنعم ماجد

لاح محمد كنجم شارق فى دياجى العصور الوسطى فاختط طريقاً جديداً لعالم جديد ودين جديد ، يعمل على فك قيود العقل من عبودية التقاليد والوهم ومن التعصب الدينى والجنسى . على أن شمس الفكر وإن كانت قد سطعت فى أحضان الشرق فقد ظلت محجوبة بحلكة هذه العصور فى الغرب فلم يستطع مفكرو العصور الوسطى فى أوربا أن يخرجوا من هذا النطاق المضطرم بنزعات التعصب الدينى ليلتمسوا نور الحقائق المجردة عن الهوى ولينطلقوا بالأفكار حرة غير مقيدة ، ولذا لم يكن مستغرباً أن يلاقى محمد الطعن السافر فى ذلك الزمن ، وألا يرتفع صوت واحد بعيداً عن التشويش والتعصب ، فطعن فى شخصيته واتهم بالتلفيق والشعوذة ، واستهجنت رسالته ووصمت بالكفر والانتحال . فنرى دانتى كأحد المفكرين البارزين الذين هيأ لهم القدر أن تكون حركة النقلة إلى عصر النهضة على أيديهم يقسو فى حكمه على محمد فيضعه فى الطبقة الثامنة فى الجحيم مع المشعوذين الذين كتب عليهم الخلود أبداً فى نار جهنم ، وجريمته فى رأيه أنه مدع دعا إلى تخليص العقيدة من كل شرك — ولم تكن المسيحية آنذاك يمكن أن تتصوره بأية حال . والواقع أن رأى دانتى فى محمد معبر عن خلال العصر الذى عاش فيه — فهو نفسه أى دانتى عاش فى أواخر العصور الوسطى حيث كانت روح التعصب ما زالت تسود العقول ، وحتى الآن ما زال محمد خصما فى نظر بعض الأوساط الأوربية المفكرة ينظر إليه على أنه النبى الكاذب الذى ادعى بهتاناً أنه نبى الله .

أما فى القرن الثامن عشر ، وهو الذى أطلق عليه الباحثون القرن المضىء — فقد كان عصر تطور فكرى واجتماعى عميق فبدأ فلاسفة هذا القرن ينظرون بنية خالصة إلى أصحاب الحركات الدينية الغير مسيحية ، ويقدرون خلالهم الطيبة محاولين جادين أن يهدموا نعرة التعصب التى كانت تشل حرية التفكير فضلا عن أنهم لم يجدوا بأساً فى تلمس الحقائق التى لاضرر فى الكشف عنها على سلامة المسيحية ، وكانت هذه المرونة فى التفكير مفيدة للاسلام فرأينا من يكتب عن محمد ورسالة محمد بنزاهة وإنصاف وإن وجدنا فى نفس هذا القرن المضىء أولى العلات وأصحاب المآرب الذين لم يتورعوا عن قرع الحقيقة والطعن بقسوة على نبى الاسلام بطريقة اعتبرها بعض المفكرين الغربيين أنفسهم خطرة على سيادة العقل وحرية الفكر . فسالى وبولينفيي وسافارى أمثلة لبعض البحاث الذين عملوا على إظهار بعض الحقائق فى أثناء دراستهم لشخصية الرسول . فالأول يترجم القرآن فى سنة ١٧٣٤ ، ويبرز لنا محمداً كرجل مثالى ظهر فى الانسانية المليا . وقبله بولينفيي يؤلف كتاباً عن محمد يحاول فيه أن يبرهن بقوة على أفضلية الدين الاسلامى على غيره من الأديان ، ويبرز لنا شخصيته كمشرع حصيف مستنير جاء بدين صحيح جعله هداية للعالمين ليحل محل المسيحية واليهودية وهما الديانتان اللتان كانتا قد تقوضت مبادئهما وملأتهما الريبة . أما سارى فيترجم القرآن فى سنة ١٧٨٢ ، ويضع محمداً بين الرجال القلائل الذين ظهروا على سطح الأرض ونفحتهم الطبيعة قدرة خارقة ليغيروا أحوال الناس والعصر وليقودوهم إلى النعماء والرخاء . فسيرة محمد فى رأيه تذهل الباحث وتدفعه إلى الإيمان بكمال العقيدة التى توصل إليها

أحق باهتمامهم : البحيرات والأشجار والأنهار والحدائق والبحار والسفين فى الماء والنجوم فى السماء . وإنى لأشاركها هذا الرأى فإننا نملك ساعة من العمر لنحياها ، فلما ذا نقضيها فى البحث عن أشياء كثيرة لا يضيرنا أن نجهلها ما دمنا لا نعرف عنها كل شيء . إننا نعيش كثيراً فى عالم الكتب وقليلاً فى عالم الطبيعة ، ونحن فى ذلك أشبه بذلك الكاتب الذى ظل يدرس كاتباً يونانياً قديماً بينما كان بركان فيزوف يقذف النار ويحرق خمس مدن عامرات

(الخرطوم سودان) بولس سلامه

والتي ساعدته الظروف فيها . ففي أثناء رحلاته شاهد ببصيرة يقظة انقسام المسيحية وعجرفة اليهودية ؛ فأراد أن يكون دينه للجميع ، وأن يكون فيه يسر وانسجام مع الفطرة والعقل . وبالرغم من أنه ولد وثنياً فقد دعا إلى تخليص العقيدة من كل شك ، وتجريد الله من كل مادة . وعبادة إله واحد له الأمر من قبل ومن بعد . ولكي يستميل إليه القلوب ويقنع الناس بصحة مبادئه ويضمن لها التأييد ، أحاط نفسه بالحماية الإلهية ، وادعى أنه رسول الله . فعلى المفكرين المستنيرين أن ينصفوا محمداً لا كرسول بل كأحد هؤلاء الرجال النوادر الذين أثروا في الحياة تأثيراً ظاهراً لا زال باقياً حتى الآن .

هذا الحكم الرفيق على محمد المقدر لعبقريته قوبل بتيار آخر عنيف ساد بين بعض المفكرين في نفس هذا القرن المضيء ووصل إلى حد التشويه والمثالب . فنرى فولتير يغضب على محمد في مأساته التي نشرها في سنة ١٧٤٢ ؛ ففي المقدمة يهاجم مباشرة آراء سالي وبولينڤيي وهما اللذان دافعا عنه ، وعلى أية حال فإن حكم ڤلتير القاسي على الرسول خففه في مقالته التي كتبها عن الأخلاق L'essal sur Jcs Moeurs فاعترف فيها ببعض مواهبه وإن رأى أنه لم يأت بشيء جديد سوى ادعائه النبوة . وقد راج رأى ڤولتير وقتاً فنرى ديدرو يستفيض في طعنه على محمد بينما نرى كارلايل في محاضرته عن الأبطال في ٨ مارس سنة ١٨٤٠ يحمل على الذين يشنعون على نبي الإسلام فيرمونه بالكذب والانتحال ، ويرى أن مثل هذا التفكير البعيد جداً عن جادة الصواب خطر على سيادة العقل بل مخجل المسيحيين أنفسهم . — فهناك مائة وثمانون مليوناً من الأنفس يدينون بالإسلام ويؤمنون بمحمد كرسول من عند الله ، ويتخذون سنته مرشداً لهم في الحياة — ويتساءل قائلا : هل من المعقول أن هؤلاء جميعاً ينساقون وراء مشعوذ دجال ؟ وهل بلغت الشعوذة من القوة والسيطرة ما يجعل لها هذا السلطان على هذه العقول ؟ الواقع أن هذا التخبط راجع إلى اضطراب العصر — ثم — هو يرى أن محمداً كان مخلصاً بحق لدعوته فقد نظر إلى العالم نظرة كلها حياة ففنى في حب الإله ، وربط ما بين الأبدية وما بين عالمنا . فلو كان محمد نبياً أو شاعراً فهو في كلتا الحالتين رجل غير عادي .

هذه الالتفاتة الطيبة في معالجة شخصية محمد وتلك الروية والرغبة في الوصول إلى حقائق مجردة عن التعصب ازدهرت في عصرنا الحاضر فاعتبره الكثيرون في مقدمة المصلحين الذين بذروا بذرة صالحة في حقل الحضارة والمدنية ، ولكنهم أي هؤلاء العلماء اختلفوا في الحكم عليه بل لم يستطع بعضهم الوصول إلى رأي ثابت . ولعل أوضح هؤلاء المستشرقين الذين دافعوا عن محمد واهتموا بدراسة سيرته تور أندراي Tor Andrae الألماني الذي يعتقد في نبوة محمد ويستفيض بحماس في تقدير رسالته التي تعتمد في أصولها على البساطة والفطرة ، وهو يتساءل في آخر كتابه عن محمد قائلا : هل يمكننا مع هذا أن نتوصل بحق إلى تفهم شخصية محمد على وجهها الصحيح ...

الواقع أن علماء الغرب مازالوا متحيرين في حكمهم النهائي على محمد

عبد المنعم ماجد
عضو بعثة التاريخ الاسلامي لجامعة فؤاد

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٨١٦ — الرضى عن الله والغنى عن الناس

الكامل للمبرد :

كان عبد الله بن يزيد أبو خالد من عقلاء الرجال . قال له عبد الملك يوماً : ما مالك ؟

فقال : شيئان لا عيلة على معهما : الرضى عن الله ، والغنى عن الناس . فلما نهض من بين يديه قيل له : هلا خبرت بمقدار مالك .

فقال : لم يعد أن يكون قليلا فيحقرني أو كثيراً فيحسدني .

٨١٧ — ولو على الحجارة

قال زياد في رجل ولي تحصيب جامع البصرة : آثر الأمارة ولو على الحجارة .

٨١٨ — مظلوم

لم يخلق الله مسجوناً تسائله ... ما بال سجنك إلا قال : مظلوم

٨١٩ — وأحمد فيه معرفة ووزن

حكى أنه كان بالعراق رجلان أحدهما اسمه عمرو والآخر اسمه أحمد فعزل عمرو عن عمله وولي أحمد مكانه بسبب مال وزنه فقال بعض الشعراء في ذلك :

أيا عمر ، استعد لغير هذا ... فأحمد في الولاية مطمئن
وكل منكما كفء كريم ... ومنع الصرف فيه كما يظن
فيصدق فيك معرفة وعدل ... وأحمد فيه معرفة ووزن

٨٢٠ — يعوقني أبوك عنه ...

تاريخ ابن عساكر .

لما ولي مروان بن الحكم في عمله الأول دخل عليه حويطب فتحدث عنده . فقال له مروان : ما سنك ؟ فأخبره . فقال له كبرت أيها الشيخ وتأخر إسلامك حتى سبقك الأحداث .

فقال له : الله المستعان ، لقد هممت بالإسلام غير مرة ، كل ذلك يعوقني أبوك عنه وينهاني ويقول : تضيع شرفك ودين آبائك لدين محدث وتصير تابعاً .

فأسكت (والله) مروان وندم على ما كان قال له :

٨٢١ — وكل بصاحبه يسخر

ألم تر أني أزور الوزير ... فأمدحه ثم أستغفر
فأثني عليه ويثني علي ... وكل بصاحبه يسخر

٨٢٢ — المتنبي وكافور

حكى عن المتنبي أنه قال : كنت إذا دخلت على كافور وأنشدته يضحك إلي ويبش في وجهي إلى أن أنشدته :

ولما صار ود الناس خباً ... جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمي أنه بعض الأنام

فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا ؛ فعجبت من فطنته وذكائه .

٨٢٣ — قد كدت تسبين فؤاد الحاكم

قدم رجل امرأة حسنة النقيبة إلى القاضي فقال : يعمد أحدكم إلى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسيء إليها . ففطن الرجل بحال القاضي . فعمد إلى نقابها فأسفره ، فرأى القاضي وجهاً وحشاً فحكم القاضي عليها وقال قومي لعنك الله ! كلام مظلوم ووجه ظالم فقال زوجها :

قومي إلى رحلك أم حاتم
قد كدت تسبين فؤاد الحاكم
بنطق مظلوم ووجه ظالم

٨٢٤ — وليس لي عباءة ...

لقي رجل صاحباً له فقال له : إني أحبك . فقال : كذبت لو كنت صادقا ما كان لفرسك برقع وليس لي عباءة .

٨٢٥ — ولكن لترى

نظر بعضهم إلى جارية حسناء خرجت يوم عيد فى النظارة فقال : هذه لم تخرج لتَرى ولكن لتُرى .

٨٢٦ — كما أطرب على حسن الغناء

فى ديوان المعانى :

روى عن محمد الأمين أنه قال : إنى لأطرب على حسن الشعر كما أطرب على حسن الغناء .

٨٢٧ — لماذا أكلت طعام السفل

قال ابن فارس : أنشدنى الأستاذ أبو على محمد بن أحمد بن الفضل لرجل بشيراز يعرف بالهمذانى وهو اليوم حى يرزق ، وقد عاب بعض كتابها على حضوره طعاماً مرض منه :

وقيت الردى وصروف العلل ولا عرفت قدماك الزلل
شكى المرض المجد لما مرضت فلما نهضت سليما أبل
لك الذنب لا عتب إلا عليك لماذا أكلت طعام السفل

٨٢٨ — بيت المتنبى العظيم

أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى :

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

معنى معقول لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته ، وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت الأحكام الشرعية والسنن النبوية ، وبه استقام لأهل الدين دينهم ، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويغرهم إذ كان موضوع الجبلة على أن لا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين ، والغواة المعاندين الذين لايعوزهم الحكمة فتردعهم ، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصح ويمنعهم ، ولا يحسون بنقائص الغى والضلال ، وما فى الجور والظلم من الضعة والخبال ، فيجدوا لذلك مسّ ألم يحبسهم على الأمر ، ويقف بهم عند الزجر ، بل كانوا كالبهائم والسباع لا يوجعهم إلا ما يخرق الأبشار من حد الحديد وسطو البأس الشديد . فلو لم تطبع لأمثالهم السيوف ، ولم تطلق فيهم الحتوف لما استقام دين ولا دنيا ، ولا نال أهل الشرف ما نالوه من الرتب العليا . فلا يطيب الشرب من منهل لم تعف عنه الأقذاء ، ولا تقر الروح فى بدن لم تدفع عنه الأدواء .

٨٢٩ — إجازة كلا إجازة

الكشاف للزمخشرى :

(إن شجرة الزقوم طعام الأثيم)وهوالفاجر الكثير الآثام . وعن أبى الدرداء أنه كان يقرئ رجلا فكان يقول : طعام اليتيم ، فقال : قل : طعام الفاجر يا هذا . وبهذا يستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها ، ومنه أجاز أبوحنيفة القراءة بالفارسية على شريطة وهى أن يؤدى القارئ المعانى على كمالها من غير أن يخرم منها حرفا ، قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة لأن فى كلام العرب خصوصاً فى القرآن الذى هومعجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعانى والأغراض ما لا يستقل بأدائه لسان من فارسية وغيرها . وما كان أبو حنيفة (رحمه الله) يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر . وروى على بن الجعد عن أبى يوسف عن أبى حنيفة مثل قول صاحبيه فى إنكار القراءة بالفارسية .

٨٣٠ — الغنيمة الباردة

الفائق للزمخشرى : الغنيمة الباردة هى التى تجىء عفواً من غير أن يصطلى دونها بنار الحرب ويباشر حر القتال . وقيل : الثابتة الحاصلة ، من برد لى عليه حق . وقيل الهنيئة الطيبة من العيش البارد . والأصل فى وقوع البرد عبارة عن الطيب والهناءة إن الهواء والماء لما كان طيبهما ببردهما خصوصاً فى بلاد تهامة والحجاز[1] قيل : هواء بارد وماء بارد على سبيل الاستطابة ، ثم كثر حتى قيل : عيش بارد وغنيمة باردة ، وبرد أمرنا .

٨٣١ — فانظر إلى من يقودها

إذا شئت أن تقتاس أمر قبيلة وأحلامها فانظر إلى من يقودها

(١) البيئة الطبيعية توضح أشياء كثيرة فى اللغة وفى غير اللغة .

٨٣٢ — ... إلى أن تستوفي أجرتك

الأمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي :

حدثنا ابن سيف الراوية قال : رأيت جحظة (البرمكي) قد دعا بناء ليبني له حائطا ، فحضر ، فلما أمسى اقتضى البناء الأجرة ، فتماكسا وذلك أن الرجل طلب عشرين درهما ، فقال جحظة : إنما عملت يا هذا نصف يوم وتطلب عشرين درهما ! قال : أنت لا تدري أني قد بنيت لك حائطا ليبقى مئة سنة . فبينما هما كذلك وجب الحائط وسقط ، فقال جحظة : هذا عملك الحسن ؟ قال : فأردت أن يبقى ألف سنة ؟ قال : لا ، ولكن كان يبقى إلى أن تستوفي أجرتك ...

٨٣٣ — الكمثرى :

المعرب لموهوب الجواليقي : قال الأصمعي : من الفارسي المعرب (الكمثرى) يقال : كُمَّثْرَاة وكمثرى منون مشدد ، ولم يعرف التخفيف . قال أبو حاتم : وقد يزعمون أنه لا يجوز غير التخفيف ، فأنكر ذلك الأصمعي وأنشد :

أكمثرى يزيد الحلق ضيقا أحب إليك أم تين نضيج

قال : الأصمعي : حدثني عقيلي قال : قيل لابن ميادة (الكمثرى) فلم يعرفه لأنه أعرابي ، ثم فكر وقال : مالهم — قاتلهم الله — يقولون الأُكْمُ أثرى .

ليست — والله — بأثرى ولا كرامة . والأكم المرتفعات من الأرض .

٨٣٤ — يا يزيد بن مزيد

ابن خلكان : رأيت في بعض المجاميع حكاية عن بعضهم أنه قال : كنت مع يزيد بن مزيد (1) فاذا صائح في الليل (يا يزيد ابن مزيد) فقال : علي بهذا الصائح ، فلما جيء به ، قال : ماحملك على أن ناديت بهذا الإسم ؟ فقال : نفقت دابتي ، ونفدت نفقتي وسمعت قول الشاعر :

إذا قيل من للمجد والجود والندى
فناد بصوت يا يزيد بن مزيد

فلما سمع يزيد مقالته هش له ، وقال له : أتعرف يزيد بن مزيد ؟ قال : لا والله ، قال : أنا هو ، وأمر له بفرس أبلق كان معجبا به وبمئة دينار .

(1) الشيباني ابن أخي معن بن زائدة :

عينان ...

للدكتور إبراهيم ناجي

طوى السنين وشق الغيب والظلما ... برق تألق في عينيك وابتسما
يا ساري البرق من نجمين يومض لي ... ماذا تخبيء لي الأقدار خلفهما
أجئت بي عتبات الخلد ؟ أم شركا ... مددت لي من خداع الوهم أم حلما
كأنني ناظر بحرا وعاصفة ... وزورقا بالغد المجهول مرتطما
حملتني لسماء قد سربت لها ... بالروح والفكر لم أنقل لها قدما
شفت سديما ورقت في غلائلها ... فكدت أبصر فيها اللوح والقلما
رأيت قلبين خط الغيب حبهما ... وكاتبا ببنان النور قد رسما
وسحر عينيك إني مقسم بهما ... لا تسألي القلب عن إخلاصه قسما
واها لعينيك كالنبع الجميل صفا ... وسال مؤتلق الأمواج منسجما
ما أنتما ؟ إنما كأس وإن عذبت ... فيها الحمام ولا عذر لمن سلما
لما رمى الحب قلبينا إلى قدر ... له المشيئة لم نسأل لمن ولما
في ساعة تجمع الآباد ، حاضرها ... وما يجيء ، وما قد مر منصرما
قد أودعت في فؤاد اثنين كل هوى ... في الأرض سارت به أخبارها قدما
كلاهما ناظر في عين صاحبه ... موجا من الحب والأشواق ملتطما
وساحة بتعلات الهوى احتربت ... فيها صراع وفيها للعناق ظما
يا للغديرين في عينيك إذ لمعا ... بالشوق يومض خلف الماء مضطرما
وللنقيضين في كأسين قد جمعا ... فالراويان هما والظامئان هما
بأي قوس ، وسهم صائب ويد ... هواك يا أيها الطاغي الجميل رمى
يرمى ويبرىء في آن وأعجبه ... أن الذي في يديه البرء ما علما
وكيف يبرئني من لست أسأله ... برءا وأوثر فيه السهد والسقما
لو أن في الموت أسبابا تقربني ... إلى رضاك لهان الموت مقتحما
إن الليالي التي في العمر منك خلت ... مرت يبابا وكانت كلها عقما
تلفت القلب مكروبا لها حسرا ... وعض من أسف إبهامه ندما



حول (كتب وشخصيات) :

لم يسمع الأستاذ أحمد فؤاد الأهواني نصيحتي ، فيؤجل قراءة كتابي الجديد حتى يعود من مصيفه ، وهو المسئول إذن عن إضاعة وقت المصيف في القراءة . فكتاب البحر الخالد وصفحاته المتجددة خير بلا شك من جميع « الكتب » ومن جميع « الشخصيات » !

هل أشكره لأنه كلف نفسه ذلك العناء ، وضيع على نفسه ما هو خير ؟ أم أشكر للروح الطيبة التي تناول بها كتابي !

فلأبق ذلك كله الآن ، لأنبه إلى فقرة جاءت في ثنايا كلماته الودود :

« ليس في « قنديل أم هاشم » ذلك التحليل العميق للنفس البشرية ، حتى إذا نقلت القصة إلى لغة أجنبية نالت الإعجاب . ويبدو أن صداقة الأستاذ سيد قطب للمؤلف هي التي دفعته إلى تشجيعه . ومن آيات هذه الصداقة أنه يقول : أوه ! يحيى حقي ! أين كانت كل هذه الغيبة الطويلة ؟ فيم هذا الاختفاء العجيب »

بيننا اختلاف لا شك فيه على تقدير أقصوصة « قنديل أم هاشم » ولكن الأستاذ يذكر أنه قرأها منذ أمد بعيد . وأنا قد قرأتها وقرأتها . فلعله يرجع إذن مرة أخرى إليها فقد يعدل رأيه .

وهناك حقيقة يجب أن أذكرها هنا . إنني لا أعرف يحيى حقي . لم ألقه مرة واحدة في حياتي ، وأنا أود أن أراه لأعنفه أقسى التعنيف على سكوته . إنني صديق لقنديل أم هاشم لا ليحيى حقي !

ولست أقرر هذه الحقيقة لأهرب بها من تبعة ثنائي عليه . فلو كان صديقي ما تغير حكمي . وفي من كتبت عنهم أصدقاء ومعارف ، وآخرون لا أعرفهم ، ولم ألقهم في حياتي . وكلهم كتبت عنهم بروح واحدة ، لأن النقد الفني يجب أن يكون موكلا بالعمل الفني .

وحتى العقاد نفسه وصلتي بشخصه معروفة ، وصلتي بأدبه أوثق مرات من صلتي بشخصه — ولو فهم الكثيرون غير هذا — كتبت عنه في كل مرة بالعقيدة الفنية التي اعتقدها . وقد يبدو فيما كتبته أخيراً عن « العقاد الشاعر » في « كتب وشخصيات » أنني أختلف معه في بعض الأحيان ، على تعريف الشعر وتذوقه ، وعلى النظر إلى العاطفة وأطوارها .

ولكنه اختلاف الرأي والإحساس ، الذي لا بد أن يقع بين شخصية وشخصية ، متى تبلورت الشخصيتان ، وظهرت معالمهما كاملة ، ولو كانتا شخصيتي التلميذ والأستاذ .

أقرر هذه الحقيقة لأنها تنفعنا في عالم النقد ، كما تنفعنا في عالم الأخلاق . وللأستاذ الأهواني شكري مرة أخرى ، أن أتاح لي فرصة هذه الكلمات .

سيد قطب



فقه القرآن والسنة

القصاص

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت

للأستاذ محمد محمد العزازى

من فترة بعيدة فى تاريخ المسلمين ، وكل ما يؤلف فى الفقه الإسلامى لا يعدو أن يكون شرحاً أو جمعاً أو تلخيصاً لا تبدو عليه مسحة من الاجتهاد ، أو حتى من الفهم المستقل ، وكان لهذا أثره السيء من رمى المسلمين بالجمود ، ومن قصور التشريعات الحديثة ، ومن خفاء محاسن الشريعة الإسلامية على المسلمين أنفسهم . قال الشيخ شلتوت متحدثاً عن « جفوة المسلمين للفقه فى العصر الأخير » :

« ولقد مضى هذا الزمن ، وصار الفقه الإسلامى صناعة علمية مجردة عن المعانى النفسية والقلبية ، بل صار الفقه فى كثير من نواحى الحياة العملية صفحات تاريخية لا تمت إلى الواقع بأدنى سبب ، وانحاز الناس جميعاً فى تعاملهم وأحكامهم إلى أحكام أخرى يسيرون عليها فى حياتهم ، ويضبطون بها شئونهم غير ذاكرين ما عندهم من فقه ساير أرقى الحضارات التى مرت بالعالم الإسلامى »

وقد نحا أستاذنا الكبير فى كتابه هذا منحى جديداً ينمش — بحق — آمال المسلمين فى الرجوع إلى فقههم وفى تفهم مقاصده واتجاهاته . وقد كتب كتابه هذا بعقلية المجتهد ، وأقر كثيراً من الموضوعات بما أوتيه من استعداد خاص فى هذه الناحية لم يتيسر لغيره من علماء المسلمين من زمن بعيد

وللشيخ شلتوت مدرسة خاصة تكونت من تلاميذه فى الأزهر ، ومن تلاميذه فى كلية الحقوق . وإنا لنرجو أن يكون لهذه المدرسة شأنها فى العصر الحديث فى إنهاض الفقه الإسلامى وعرضه على الناس عرضاً صحيحاً سائغاً مقبولا

... وكتاب الشيخ موضوعه « القصاص » ، وقد مهد لموضوعه بفصول ممتعة فى هذه المفردات : « الفقه ، القرآن ، السنة » مبيناً معانى هذه الكلمات ، وما طرأ عليها على ضوء تاريخ التشريع فى العصور الإسلامية ، وقد دفع الشيخ دفعاً قوياً رائعاً شبهة القائلين : « إن الشريعة الإسلامية جاءت عن طريق الشرائع القديمة ، ولم يكن للعرب قانون معروف ، حتى تكون تمديلا له وتنظيما لأحكامه » . وبين أن القرآن جاء وللعرب عادات ومعاملات وعرف ، وأنه (أقر كثيراً مما درجوا عليه فى هذه الشئون ، وهذب فيها وعدل وألغى وبدل ، وليس ذلك مما يضير القرآن فى تشريعه واستقلاله ، فما كان الإسلام إلا دينا يراد به تدبير مصالح العباد وتحقيق العدالة وحفظ الحقوق ، ولم يأت ليهدم كل ما كان عليه الناس ليؤسس على أنقاضه بناء جديداً لا صلة له بفطرة البشر وما تقتضيه سنن الاجتماع) . وقد تتبع الشيخ فى هذا الفصل كثيراً مما كان عند العرب وكثيراً من التشريع القرآنى فى دقة وإبداع . وقال فى نهايته : « وهذا بحث جدير بالاستيعاب والتتبع ، إذ به يتبين مقدار الصلة بين التشريع الإسلامى ، وبين ما كان معروفاً عند العرب وقت نزول القرآن » وللشيخ قدرة على التتبع تظهر للقارئ فى كل فصول الكتاب .

وقد ذكر الشيخ عن القرآن أنه لم يكن فى أكثر أحكامه مفصلا : « ولكنه يؤثر الإجمال ويكتفى فى أغلب الشأن بالإشارة إلى مقاصد التشريع وقواعده الكلية ، ثم يترك للمجتهدين فرصة الفهم والاستنباط »

وكان هذا شأن القرآن فى الأمور التى تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة ، وهذا هو سر الخلود فى الشريعة الإسلامية وصلاحها لكل زمان ومكان ، واتساعها لكل ما يجد من المقتضيات والأحوال . أما فى الأمور التى لا تتغير ، فإنه يفصلها سمواً بها عن مواطن الخلاف والجدل ، ولأنه يريدها مستمرة على الوضع الذى حدده لابتنائها على أسباب لا تختلف . وقد تحدث الشيخ حديثاً رائعاً عن أسباب الاختلاف بين العلماء فى الفقه الإسلامى . ومما أعجبنى ما تحدث به عن إثبات نسب أسامة بن زيد بقول

القائف : « هــذه الأقدام بعضها من بعض » . وإن العلماء قد اختلفوا فى هذا فاستدل بعضهم باستبشار الرسول لما سمع هذا الكلام على إقراره ، وأنه دليل على ثبوت النسب ، وقد رجح المؤلف رأى القائلين بذلك . والذى أعجبنى فى هذه المسألة قول المؤلف :«وقد كان هذا أصلا عظيما فى الأخذ برأى الطب الشرعى فى الحوادث التى يعتبر القانون نظرها لتبين جهة الحق فيها من اختصاصه ، ويمكن أن نلج من هذا الباب إلى الاعتماد فى القضاء والحكم على الوسائل الجديدة التى لم يعرفها الفقهاء من قبل كتحليل الدم وكآثار الأيدى والأقدام ، وغير ذلك مما يعرفه علماء التحقيقات الجنائية وأهل الخبرة » ثم تكلم عن الحكم بالقرائن ، وضرب لذلك أمثلة ختمها بقوله : « بهــذا يتبين أن الأخذ بالقرائن فى الأحكام ليس من مبتكرات القوانين الحديثة ، وإنما هو شريعة إسلامية جاء بها كتاب الله وقررته السنة ودرج عليه حكام المسلمين وقضاتهم فى جميع العصور ، وإن رمى الشريعة بالقصور أو الجمود فى طرق الحكم ناشئ إما عن الجهل أو عن سوء النية » وإن كل ما أورده المحدثون من تقسيم للقرائن موجود بذاته فى كتب الفقه الإسلامى . ثم انتقل الشيخ بعد ذلك إلى الحديث عن القصاص ، وسبيله فى هذا أن يشرح الآيات والأحاديث الواردة فى هذا الموضوع مبيناً مقاصده ومفصلا أحكامه .

ومما يروع القارئ فى هذا الباب قدرة الشيخ على التطبيق واستقلاله فى الفهم ووصله الفقه الإسلامى بالحياة الحديثة ، وقد مهد لموضوعه بالكلام عن العقوبات فى الشريعة ، وقسم العقوبة إلى منصوص عليها ، وإلى تفويضية يرجع تحديدها إلى الحاكم ، وبين أن العقوبة التفويضية مجال واسع يتسع لكل ما يجد فى الحياة ، وبعد هذا البيان قال : « ولا يرتاب منصف بعد هذا فى أن هذه العقوبة أساس قوى ومصدر عظيم لأدق قانون جنائى تبنى أحكامه على قيمة الجريمة وظروفها المتصلة بالجانى والمجنى عليه ومكان الجريمة وزمانها فى كل ما يراه الحاكم اعتداء على حقوق الأفراد أو الجماعات ، بل فى كل ما يراه ضاراً بالمصلحة واستقرار النظام »

ومما أبدع الشيخ فيه وأمتع حديثه عن حق العفو ، وإن الشريعة الإسلامية قصرته على ولى الدم ، ولم تجعله فى يد الحاكم ليكون هذا أدعى إلى اطمئنان النفوس وطهارتها من الأحقاد والأضغان وأمن المحظور والفتنة .

وقد بلغ الشيخ غاية التوفيق فيما كتبه عن الشروع فى القتل ، وعن معنى التحريم فى قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » . وعن آلة القتل وعن القصاص فيما دون النفس إلى غير ذلك من الموضوعات التى لا بد للقارئ من الرجوع إليها فى الكتاب نفسه

وإذا كان لى رجاء أتقدم به إلى أستاذنا الكبير ، فهو أن يقدم لنا « المعاملات » فى الفقه الإسلامى على النمط الذى قدم لنا به موضوع « القصاص » ، وأن يبين لنا موقف الشريعة الإسلامية من كل ما جد من المعاملات فى العصر الحديث ، لأن هذا موضوع يشغل بال كل مسلم

هدانا الله وهداه لخير الإسلام والمسلمين

(أبو حماد) **محمد محمد العزازى**

المدرس بالأزهر

العدد ٦٨٤ — الاثنين ١٣ أغسطس ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

الفهرس

صفحة

٢٧٠١٣

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

بادر باقتناء نسختك

قبــــل نفادها

من كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

يطلب من « دار الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً عدا البريد

الأستاذ سيد قطب

يقدم كتابه الجديد :

كتب وشخصيات

يطلب من « دار الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد

إعلان

عن قبول دفعة من الطلبة الجدد للكلية الحربية الملكية

تعلن إدارة الكلية الحربية الملكية أنه ستكون بها محال خالية للطلبة من حملة شهادة الدراسة الثانوية القسم الخاص (التوجيهية) فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

وشروط الالتحاق تطلب من الكلية الحربية الملكية بكوبرى القبة إبتداء من يوم السبت الموافق ١٠ / ٨ / ١٩٤٦ من الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة الثانية عشر ظهراً فى أيام العمل .

ويمكن الاطلاع عليها باعداد الوقائع المصرية التى ستصدر فى الأيام ١٢ و ١٩ و ٢٦ أغسطس و ٢ و ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٦ .

وسيقفل باب الطلبات فى يوم الخميس الموافق ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٦ وسيعرض الناجحون فى الكشف الطبى على كشف الهيئة يومى الأربعاء ١٨ سبتمبر ١٩٤٦ والخميس ١٩ منه . ٥٨٠٠

جامعة فؤاد الأول

إدارة السجلات والامتحانات

إعلان

شروط القبول للطلبة المستجدين للعام الدراسى ٤٦ / ١٩٤٧ فى كليات الجامعة المختلفة نشرت فى عدد الوقائع المصرية رقم ٧٥ فى ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٦ . ٥٨٠٨

14 me Année No. 684

Lundi—13—8—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات

يتفق عليها مع الادارة

العــدد ٦٨٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٤ رمضان سنة ١٣٦٥ — ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

النقد عند العرب

وأسباب ضعفهم فيه

— ٣ —

أما الأسباب التى دفعتهم إلى سلوك هذا النهج فى نقد الشعر ، فمن السهل تلخيصها فى خمسة أمور لا يصعب عليك استنتاجها مما تقدم :

الأمر الأول ما ذكرناه من أن علماء اللغة والنحو لم يروا الفضل فى الشعر إلا فيما يمكن الاحتجاج به ، وحسبهم من ذلك البيت والبيتان .

الأمر الثانى — وهو من قبيل الأول — أن علماء البيان والبديع ، ومنهم أكثر النقاد ، كانوا يكتفون بالشطر أو البيت أو البيتين شاهداً على صورة من صور البيان ، أو نوع من أنواع البديع .

الأمر الثالث أن القصيدة العربية بطبيعتها مجموعة من مقطوعات تتفق فى الوزن والقافية ، وتختلف فى المعنى والغرض . فإذا أخرجت مقطوعة ما من قصيدة وأدخلتها فى أخرى تكون من بحرها ورويها لا تحس نقصاً فى الأولى ولا كمالا فى الأخرى .

الأمر الرابع أن الشعراء ألزموا أنفسهم أن يكون كل بيت من أبيات القصيدة مستقلا بمعناه عن غيره ، وجعلوا من عيوب الشعر (التضمين) وهو أن تتعلق قافية البيت بما بعده على وجه لا يستقل بالإفادة . وربما مدحوا الاستقلال بين شطرى البيت ؛ فقد روى الجاحظ فى البيان عن عمرو بن العلاء أن ثلاثة من الرواة اجتمعوا فقال لهم قائل : أى نصف بيت شعر أحكم وأوجز ؟ فقال أحدهم : قول حميد بن ثور : وحسبك داء أن تصح وتسلما . وقال الثانى : بل قول أبى خراش الهذلى :

توكل بالأدنى وإن جلّ ما يمضى .

وقال الثالث : بل قول أبى ذؤيب : وإذا تُرَد إلى قليل تقنع . فقالوا إنه لا يستغنى بنفسه ، لأن السامع لا يفهم معناه حتى يسمع النصف الأول ، والصواب أن يقال قوله :

والدهر ليس بمعتب من يجزع

وكان من أثر استقلال البيت بمعناه أن كثر التقديم والتأخير فى أبيات القصيدة حتى لا تجد قصيدة جاهلية يتفق راويان على ترتيب أبياتها .

والأمر الخامس أن الغلبة كانت للرأى القائل بأن الشعر إنما يكون أثره وبلاغه بما فيه من تغير الأوضاع وصور المجاز وأنواع البديع ، حتى أن ابن رشد الحفيد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ قال فى تلخيص كتاب الشعر لأرسطاليس ما نصه : « والقول (الشعرى) إنما يكون مختلفاً أى مغيَّراً عن القول الحقيق من حيث توضع فيه الأسماء متوافقة فى الموازنة والمقدار ، وبالأسماء الغريبة ، وبغير ذلك من أنواع التغيير . وقد يستدل على أن القول الشعرى هو المغير أنه إذا غير القول الحقيق سمى شعراً أو قولا شعريا ووجد له فعل الشعر . مثال ذلك قول القائل :

ولما قضينا من مِنى كل حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنما صار شعراً لأنه استعمل : أخذنا بأطراف الأحاديث الخ . بدل قوله تحدثنا ومشينا .

وكذلك قوله : بعيدة مهوى القُرط ، إنما صار شعراً لأنه استعمل هذا القول بدل قوله : طويلة العنق . وكذلك قول الآخر :

يادارُ أين ظباؤك اللُّعس قد كان لى فى إنسها أُنس

إنما صار شعراً لأنه أقام الدار مقام الناطق بمخاطبتها ، وأبدل لفظ النساء بالظباء ، وأتى بموافقة الإنس والأنس فى اللفظ . وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة وجدتها بهذه الحال . وما عدا هذه التغيرات فليس فيه من معنى الشعرية إلا الوزن فقط ، والتغيرات تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتشبيه وبالجملة بإخراج القول غير مخرج العادة ، مثل القلب والحذف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب ، ومن السلب إلى الإيجاب ، وبالجملة من المقابل إلى المقابل » .

وما دام الشعر مبنياً على هذه الصور والأشكال ، فلا يكون النظر فيه إلا من جهة البيان والبديع ، وذلك يقتضى النظر فى بعض الأبيات وفى بعض أنواع الكلام .

***

لهذه الأمور الخمسة انحصر النقد البيانى عند العرب فى جزء واحد من النقد بمعناه العام عند الفرنج ، وضاقت علوم البلاغة عندهم هذا الضيق الفاحش ، فلم تعالج غير أبيات وفِقَر من الكلام المنظوم والنثر المسجوع ، وأغفلت القصيدة باعتبارها وحدة لا تتفرق ، والكتابَ باعتباره كلا لا يتجزأ ، ولم تحفل ما أُلّف بالنثر المرسل من الكتب والقصص . وجر ذلك إلى أن الشعراء والكتاب أوغلوا فى البديع وتفننوا فى الزخرف ، وأهملوا فن القصص فتركوه لأدباء الشعب ، ولم يعنوا منه إلا بالمقامات لأنها مظهر الصنعة ومحك القدرة ، فحرموا بذلك الأدب العربى فناً كانوا هم بسليقتهم أقدر الناس على التوفر له والافتتان فيه .

ومن ذلك يتضح أن فهم الأقدمين الخاطئ لحقيقة الفن الشعرى والكتابى جر إلى حصر النقد البيانى فى الصور والأشكال ، وهذا الحصر نفسه قد وجه الشعراء والكتاب إلى الاحتفال باللفظ دون المعنى ، وبالصورة قبل الفكرة ، ففات أكثرهم أن روعة الكلام لا تكون بالرونق والأناقة والصنعة وحدها ، وإنما تكون مع ذلك بقوة التعبير عما تكنه الضمائر وتحسه المشاعر ، وبدقة التصوير لمختلف الطبائع والعواطف والأخلاق والشهوات والصفات حتى نرى صور أصحابها الحقيقيين أو المتخيَّلين تتحرك وتفعل وتقول على مقتضى الغرائز الثابتة والفطر الأصيلة ؛ وبكشف الغطاء عن طبيعة الشخص بكلمة تجرى على لسانه ، أو حركة تحدث عن يده ، فتكون تلك الكلمة أو الحركة كومضة البرق فى الظلام تنير الأفق بغتة ؛ وببراعةِ الوصف لمناظر الطبيعة وظواهر الكون حتى نحس فيها الحياة والحركة وندرك ما بينها وبين النفس وانفعالاتها من اتصال وعلاقة ؛ وبشدة التأثير فى الأفئدة حتى تستيقظ فيها رواقد الأهواء والعواطف ، فتطرب النفس أو تغضب ، وتفرح أو تحزن ، وترضى أو تسخط ، وتحب أو تبغض .

لو أن نوابغ الكتاب والشعراء فطنوا أو نبهوا إلى ذلك لكان من همّ الناقد أن ينظر فوق ما ينظر فى الألفاظ والصور إلى تنسيق المعانى وترتيب الأفكار فى جملة القصيدة أو الخطبة أو المقالة أو القصة ، أو الكلام على العموم سواء أكان شعراً أم كان نثراً ؛ لأن سلامة الجزء المنفصل ، أو بلاغة البيت المنفرد ، لا تدل حتماً على سلامة الكل أو على بلاغة القصيدة .

كذلك كان ينبغى للناقد أن ينظر فى الموضوع الذى عالجه الفنان ليرى أبلغ القصد فيما صور ، وأصاب الشاكلة فيما رأى ، وقارب الحقيقة فيما تخيل . وهل استطاع أن يبعث الحياة الطبيعية الحقيقية فى الأشخاص الذين توهمهم ورسمهم . وهل قدر على أن يحرك فى قلوبنا أهواء ساكنة ، وينشئ فى نفوسنا عواطف جديدة ، بما أوحاه أو استدعاه أو رواه من الأمانى والذكريات والحوادث ؟

كذلك كان من عمل الناقد البيانى أن يحلل ما ينشأ فى نفس القارئ لروائع الكتاب والشعراء من العواطف ، وأن يبين كيف يستطيع الكاتب أو الشاعر أن ينشئ هذه العواطف أو يوحيها . ومن ثمّ كانت المقالات النقدية عند الفرنج عملاً فنياً قائماً بذاته يبوئ أصحابه مقاعد النبوغ والخلود .

وإذا تدبرت وظيفة الناقد من بعض ما ذكرته تبينت لك العلاقة بين النقد وعلم النفس ، فإن موضوعه تحليل الأحاسيس والعواطف ، والبحث عن طبيعة الجمال وما يصدر عنه من الانفعالات والأهواء ،

ولذلك لم يصبح النقد عن الفرنج فناً مستقلا له قواعده ومذاهبه إلا فى القرن التاسع عشر بعد أن ارتقى علم النفس وانتشر وازدهر. ومنذ ذلك الحين تابع رقيه حتى بلغ أوجه وأدرك تمامه، فأثر فى فنون الأدب أبلغ التأثير، وعدل فى بعض أنواعها كل التعديل

فإذا أضفت إلى الأمور الخمسة التى تقدمت، هذا الأمر السادس وهو جهل القدماء بعلم النفس كما كان يجهله غيرهم، اجتمعت لديك الأسباب التى أدت إلى ضعف النقد عند العرب، والنتائج التى أحدثت هذا النقص البادى فى تاريخ الأدب

احمد حسن الزيات

عود إلى حديث الانسانية!

[إلى أخى الأستاذ على الطنطاوى]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كل ظاهرة من ظواهر الحيـاة الاجتماعية الفاسدة الشديدة الفساد الآن تحمل كثيرين على عدم الثقة بالإنسان وسوء الاعتقاد فيه، فليست قصتك التى أهديتها إلى فى العدد الماضى يا أخى شيئا مذكورا بجوار القصص التى تمثلها الجرائم السياسية الكبرى التى يعرضها شيوخ السياسة على مسرح الأرض، ولا بجوار المخزاة الدامية المجرمة التى تمثلها الصهيونية، وتنصرها الولايات المتحدة الأمريكية! — تلك التى كانت أمل العالم فطواها الشيطان فى جناحه الأسود فيما طوى من آمال السلام والخير — وتغضى عنها الامبراطورية البريطانية إغضاء الذليل الضعيف، وهى التى خرجت منصورة من حرب كادت تودى بها، أعلنتها، وكان من أسباب إعلانها لها الانتصار لليهودية المضطهدة على يد النازية!

أجل، ليست المسألة فى الحكم على الإنسانية بأنها للخير أو للبوار مسألة قسوة فرد أو جريمة شخص، فإن فساد الأفراد وبخاصة فى عصور الانحطاط، يكون من الكثرة بحيث لا يحصيه العادّ ولكن هل معنى ذلك أن نستسلم للواقع السئ ونحطم عقائدنا فى الخير والصلاح ونلقى سلاح كفاحنا لها؟

وقد كانت صيحتى « أومن بالإنسان » فى إبان الحرب الأخيرة ردا لهجوم عنيف على قلبى من موجات التشاؤم والسخط والتبرم من ذلك المجتمع الإنسانى الذى اشتعل بالحقد والقسوة والكفر بالقيم العليا للحياة الإنسانية فدمر كل شىء وكفر بكل شىء لأنه فارغ الفؤاد من العقائد السامية فى الإنسان وفى الله خالق هذا الإنسان ومكرمه!

وكانت الفكرة التى تسلسل الحديث بها فى هذا الموضوع إنما هى فرار بنفسى وعقائدها السامية فى حياتى الشخصية وحياة النوع الذى أنتسب إليه.

وعندما يطم طوفان الفساد لا تجد النفس عاصما منه إلا باللجوء إلى صخرة الإيمان بتلك القيم العليا التى تعمر الوجود، ولا تطمئن النفس إلى الحياة إلا إذا ظلت لهذه القيم قداستها وهيبتها. فاذا رأيت المدن والمعابد والشيوخ والأطفال والعجزة والمعاهد، وكل ما قامت عليه الحضارة الإنسانية من القداسات والحرمات تدكه يد الحرب المجنونة الفاجرة، فلى العذر أن ألتمس لنفسى ولمن شاء من الناس أفقا أرى فيه تأويل هذه الظواهر الفاسدة والجرائم المنكرة كى أوفق بين عقائدى الدينية فى إرادة الله بالناس الخير مهما بدا هذا الخير ملفوفا بالشر، وبين سير الحياة بالأحياء ... وإلا فقد عرضت نفسى لما تعرض له بعض من كتب إلى منذ حين يقول إن الحياة الإنسانية لغير غاية، وإن الله — تعالى — قد فاتت عليه الغاية من خلق هذا النوع فقد خلقهم لعبادته، فلم يعبده منهم إلا الأقل!

على أن كل ما ضاعف فى الناس فعل الشر وسلبهم الاعتقاد فى الخير هو ذلك اليأس من الخير، وذلك الاعتقاد بأن الشر هو الغالب على الطبع البشرى، وذيوع هذا الاعتقاد فى هؤلاء المحاربين العصريين، هو الذى جعلهم يحاربون بروح التدمير وعدم الإبقاء على شىء، وما دامت الحياة للشر فليخبطوا فيه خبط عشواء على نحو بيت المعرى:

وبصير الأقوام مثلى أعمى فهلمو فى حندس نتصادمْ!

أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن نؤمن بأن هذا النوع الإنسانى يمكن الإقلال من شره، وإقامة حياته على مثل الدولة الإسلامية الأولى، أو على مثل دول سكان الشمال من أوروبا الحالية، وعندئذ نجد فى أنفسنا العزائم على الجهاد والصبر والكفاح فى هذا السبيل حتى نصل أو نقارب بحسب الطاقة وبحسب قوانين الدنيا ... وعندئذ يستمر سير الحضارة والإصلاح مطردا ويظل

الخير له دولة فى الحياة كما أن للشر دولة ، ولا ضير على المعتقد أن يبقى من الشر بقايا ما دام الخير هو القانون الحبيب تنفس تلوذ به وتعتصم بعواصمه عند المواقف الفاصلة ... وإما أن نكفر بهذا النوع ونهدر قيمه الخلقية ، ونفقد آمالنا فى أنه مخلوق لغايات كريمة ، ولا نستمع لوصايا الأديان القويمة بالبر وحسن الخلق والدعوة للخير والغضب على الشر ، وعندئذ فلنخلع قناع المدنية عن وجوهنا وجوه الذئاب والخنازير والنمور ، ولنفضح كل مواضعات النفاق الاجتماعى ، ولنعلن بصراحة أن وصايا الأديان أخاديع أو أغلوطات عظيمة من عبقريات التاريخ الكاذب المدلس ، وأن الإنسانية يجب أن تتخذ لها فلسفات فردية لكل فرد فى الأمة ، ولكل أمة فى الأمم يرعى فيها الفرد مصلحته الخاصة ، والأمة مصلحتها الذاتية ، وتسعى كل أمة أن تكون أربى من غيرها ، لأنه لا رحم ولا نسب بينها وبين غيرها ، وإنما هى قطعان وحيوانات بشرية تسعى « لتعيش » فى أضيق حيز ، وهو حيز « الذاتية » .

وأليست هذه الحياة التى وصفنا على هذا الفرض هى الحياة التى تحياها الأمم وتشقى بها كل أمة وتدمر كل حضارة ؟! فإذا أردنا أن نفر منها ، فلماذا لا نؤمن بفلسفة تناقضها وتحاربها ؟! وهل هذه الفلسفة إلا أن « نؤمن بالإنسانية الواحدة » . وأنها مخلوقة لغايات عليا ليست هذا النزاع على الذهب الأصفر والذهب الأسود والفحم الأسود والفحم الأبيض » وإنما هى البحث عن كلمات الله فى الطبيعة بحث طالب « العلم » لا طالب « الفائدة » المادية وحدها ؟ .

وأليست هذه الغاية لو تحققت جديرة بأن تشعر الناس جميعا أنهم نوع واحد غريب الوضع فى هذا الكون ! لأنه وحده يفتح أبواب الطبيعة بابا فبابا ، ويتدرج فى تسخير قواها درجة درجة حتى وضع يده فى منابعها ، وحطم أسوار « الذرة » التى هى وحدة بناء الكون المادى .

ذلك هو « الوضع الأصيل » للانسانية الذى يجب أن يرصدها منه الراصدون ليعلموا أى كائن هذا الإنسان الذى يحملونه فى أجسادهم ويبادلونه ماصح وما فسد من شأنه وشئونهم !

أما أن يرصده راصد فى « ولد عاق » ، أو « وحش الاسكندرية » أو « سفاح باريس » الأخير أو غير أولئك من الثمرات الإنسانية المعطوبة الملوثة التى سقطت وتلوثت لضعف روابطها بفروع الشجرة الإنسانية ، ثم نحكم عليه كله لذلك ، فتلك نظرة سطحية جزئية لا تليق بمن يجعل عقله ميزان حكم على الكون ومرآة رصد لأعاجيبه التى لا تنفد فى حرب الخير والشر ، وعراك الصلاح والفساد ، وصراع الموت والحياة ، وقذف الحق على الباطل !

وإنى أسأل أخى الطنطاوى : لماذا يفقد ثقته وإيمانه بالإنسانية لأجل مثل من العقوق يقابله أمثال من البر بالآباء ؟ هل جميع الأبناء مثل هذا الابن العاق ؟ ولماذا تألم قلبك من هذا المثل الشرير ؟ أليس لأن قلبك ينكره ؟ إذاً ففى قلوب الناس نوع خير ينكر الشر ويضرب به مثلا ، وبكتبه قصة يشنع بها ويسمع بصاحبها ، ويجد فى قلوب الناس صدى لألم قلبه ، لأن « البر لا يبلى » . وما دام فى الإنسانية خير وشر فلم نيأس منها ونزرى بقضيتها ؟ لماذا نحرق الحقل كله لنتخلص من الزوان ؟ !

إن الأولى بنا أن نعتقد أن الإنسانية كحقل من النبات ، الأصل فيه أن ينبت أكثره نباتا حسنا ، ويؤتى أكله وثمره إذا تعهدناه بالسقى والرعاية والحراسة من الآفات والحشرات التى تعطبه وتفسده وتجعل أكثره ينبت نباتا سيئا . ولا بد أن يكون فيه المعوج بالطبيعة ولكنه لا يكون الأكثر فى العادة .

ولن يفقد الزارع أمله من الزرع إذا ما خانه حظه فى موسم من المواسم فييأس ويقول : إن هذا النوع من الزرع ملعون ! ولن أزرعه ، إلا إذا كان أحمق .

ونحن الذين نعلم أن كل مولود يولد على الفطرة ثم تلحقه عوامل التربية والبيئة فيتكيف بها ينبغى لنا أن نتربص ونتوجه بكل جهود الإصلاح إلى قلوب الطفولة منطقة النمو الإنسانى ، ونجتهد أن تنبت نباتا طيبا وعلى الله الباقى !

ذلك حديث أذكر به صديقى بقضية الإنسانية والإيمان بها ، وآثار ذلك وضده من النواحى العملية والاجتماعية .

غير أن للقضية وضعا آخر من الناحية الفلسفية قد لخصته فى تلك العبارة التى لا شك رآها الصديق فى كتابى عن القضية وهى :

« أومن بالإنسان لأومن بالكون ورب الكون ؟ فلن يؤمن الفرد الإنسانى بهما إن لم يؤمن بنوعه ؛ لأن عقل الإنسان هو المنظار الذى ندركهما به ، فإن أهدرنا قيمة الإنسان أهدرنا

عقله ، فلا يبقى ما ندرك به كوننا وربنا ! ! ويعيش أكثرنا كما يعيشون الآن ، تضطرب بهم مجهولات الكون ومعلوماته كغرقى طافين على أكف الأمواج ، لا يعقلون شيئا ولا يؤمنون بالكون والنفس ولا بربهما ، وإنما يعيشون فى ذهول وبلبلة وشك ، ثم يمضون إلى ظلمات القبور » .

تلك هى القضية وهى أشبه « بمعادلة رياضية » وهى عندى القضية الفكرية الأولى فى الدين والعلم والفلسفة .

فهل ترانى أخطأت ؟

عبد المنعم خلاف

تاريخ جحا ...

جحا التركي

للأستاذ كامل كيلاني

— ٣ —

الأستاذ نصر الدين

ولد الأستاذ نصر الدين — كما أسلفنا — فى « سيورى حصار » إحدى بلاد الأناضول ، ومات فى « آق شهر » (البلد الأبيض) ونشأ فلاحا ذكيا يؤثر أن يحطب بيده ويعيش من كد يمينه .

وكان سخى اليد كريم النفس لا يقصر فى واجب ضيف ولا يرد عائذا قصد إلى داره من الغرباء والفقراء .

***

فإذا حذفنا أسماء البلدان فما ندرى : أى الجحوين به ذلكم الوصف أكثر التصاقا ، وعلى أيهما كان أكثر انطباقا ، ولكن من يدرى ؟ فإن قدرة الله تخلق من الشبيه أربعين ، كما تخلق من الشخوص الجحوية أربعين .

كان الأستاذ نصر الدين — فيما يقول مؤرخوه — أمة وحده : كان فيما يتمثله بعض مؤرخى الأتراك فيلسوفاً حكيما يمزج الفكاهة بالجد ، ويعرف كيف يخاطب الناس على قدر عقولهم ، وكان آية من آيات الذكاء وخفة الروح .

وكثيرا ما تخللت نصائحه طرائف عالية من الدعابات الحلوة والنكات المستعذبة واللطائف المستملحة ، ولم يكن كما يتخيله العامة مهرجا ولا متبذلا ولا أبله ولا مخبولا ، ولا — كما توهموه — عاجزا عن التفريق بين الخير والشر .

وكيف يكون ذلك وقد شهد علماء الأناضول : أنه كان لهم فى العلم إماما يقتدى به ويهتدى ، وعالما ثبتا ، وقطبا من أقطاب الحكمة والفلسفة .

قالوا :

ولا أدل على ذلك من ذيوع ترجمته وانتشار أخباره وطرائفه المبدعة فى بلاد الدنيا كلها ، عصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل حتى وصلت إلى أيدينا متجددة الروعة دون أن تبلى جدتها ، أو تخلق ديباجتها .

وكان يحلو له السياحة والتجوال مشيا على قدميه . ولم يعرف عنه ميل إلى التزلف ، ولا نزوع إلى الخبث ، ولم تؤثر دعابته ونكاته فى مكانته الرفيعة بين معاصريه ، ولم تقلل من احترام الأهلين له ، ومحبتهم إياه .

إلى هنا ينتهى الوصف الذى يصدق على الجحوين : الشيخ أبى الغصين دجين بن ثابت ، والأستاذ نصر الدين أفندى . ثم ينفرد ثانيهما بما يأتى :

كان تاريخه الحربى والسياسى — فيما يقولون — حافلا بجلائل الأعمال . وقد ختم بسفارة رسمية سياسية فى بلاد الكرد (كردستان) فنجح فيها أيما نجاح .

***

ويدل ما بقى فى أيدينا من آثاره على أنه لقى من صروب الامتحان ، وتعرض لأزمات كثيرة لقيها بثبات وثقة خليقين بأمثاله من كبار النفوس .

ومازال يعلو فى المناصب ويسفل ، ويلقى من أسباب السخط والرضى — تبعاً لتقلب الأهواء — ما يلقاه أمثاله من الأحرار الصابرين .

وقد ولى القضاء فى آق شهر (البلد الأبيض) وملحقاتها . وكان يخطب فى « سيورى حصار » . وقد عرف عنه أنه كان

جريئاً لا يتهيب أن يدعو الأمراء والولاة والحكام إلى طاعة الله والتمسك بأهداب الدين ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وكان يؤم الناس فى ولايات « أنقرة » و « بورصة » و « قونيه » وما إليها من البلدان وأقرأ ابن السلطان كتاب الهداية ووقفه على دقائقه وجلا له غوامضه .

ولن يؤخذ هذا الرجل الصالح بما فرط منه من زلات فى جن نشاطه ومستهل فتوته . فقد أقلع عنها وتم له النسك بعد اكتمال عقله ورجواته وقد ختم حياته بالوعظ وتدريس علوم الدين .

وقد أهلته شجاعته وحكمته ودعابته ، وما تحلى به من مواهب وميزات باهرة ، وما حباه الله به من قدرة على اكتناه دقائق الفن والنفاذ إلى مغالق العلم ، وما ذاع بين معاصريه من شهرة مستفيضة بين علماء زمنه وحكماء عصره ، إلى الظفر بأسمى المناصب ، وأتاحت له المثول فى حضرة « تيمورلنك » والاتصال به . ومكنت له تلك الأسباب مجتمعة من النجاح فيما هدف له من تلطيف جوره وكف أذاه عن الناس وتخليصهم من كثير من مظالمه .

قالوا : وساعدته على ذلك بديهة حاضرة وكياسة نادرة ، ونكتة مستعذبة ودعابة محببة .

وإن مرتاد الأناضول ليدهشه ما يراه من اعتقاد الناس فيه ؛ فهو عند الأهلين : من أولياء الله المقربين . وهم يؤمنون بأن زيارة قبره تجلب البركة والخير العميم على زائريه . فإذا شك إنسان فى شىء من هذا أصابه أذى أو مكروه جزاء جحوده ونكرانه .

وللأهلين فى ذلكم الباب طرائف كثيرة ، منها :

« أن مركبة مرت أمام قبره ، وعليها هودج معمد (أعنى : ذا أعمدة) . وكان يستقل الهودج أسرة فيها شاب لايدين بالخرافات . فلم يشأ أن يجرى على عادة الأهلين الذين تفرض عليهم التقاليد أن يترجلوا قبل أن يبلغوا قبره ، وأن يقرأوا الفاتحة أمامه باسمين وإلا عرضوا أنفسهم لمساءة وشيكة ، وربما حلت بهم كارثة عاجلة لا قبل لهم بها ، ولا حيلة لهم فى دفعها .

قالوا : وأصر الشاب على أن يستهين بهذا التقليد الصالح الذى جرت به العادة هناك . فماذا حدث ؟

لم يكد الهودج يسير خطوات قليلة حتى اصطدم فيما يزعمون بفرع شجرة ممدود ، فجفلت الخيل وقذفت بأفراد الأسرة على الأرض ، وتمزقت سجوف الهودج ورفارفه .

فلا غرو إذا ثبت اعتقاد الأهلين فى بركة الشيخ وقال قائلهم مباهياً :

منذا الذى يجرؤ على احتقار شيخنا ، أو الاستخفاف به ، بعد اليوم ؟

وقد علق على هذه القصة بعض أفاضل الباحثين من الترك ، فقال :

« ولا ضير من أمثال هذا الاعتقاد ، فإن الاستنجاد بروحانية الأخيار أفضل وأجدى مما يرتكبه المنكرون الجاحدون من شرور وحماقات .

قالوا إن عالماً متفقهاً فى دينه ، سأل زوجته : لماذا لم تكنس البيت؟ فقالت له «ذهبت إلى أمى اليوم ، ولم أعد إلا ساعة الغروب» فقال: « لقد مرت ساعتان على ذلك فمابالك لم تكنسيه؟» فصاحت فيه متعجبة : كيف تقول هذا ؟ ألا تعلم أن الكنس يحرم متى جن الليل ؟ » فضرب الرجل كفا على كف وقال من أين لك هذا العلم أيتها البلهاء ؟ أتحبين أن تعلميني ما أدرسه للناس كل يوم فى المسجد من شئون الحرام والحلال ؟ » فقالت له : « لا شأن لى بعلمك ، فكذلك أخبرتنى أمى وجدتى ، وعمتى وخالتى ، وأختى وجارتى ، وعلى ذلك الرأى أجمع كل من عرفت »

فلما اشتدت اللجاجة بينهما قالت له الزوجة متبرمة : «اكنس أنت إذا شئت ما دمت لا ترى فى ذلك حرجا »

فأمسك الشيخ بالمكنسة وراح يكنس هازئاً برأى صاحبته متحدياً إياها بين لحظة وأخرى . ولم يكد ينتهى من ذلكم حتى لدغته عقرب فصاح مغوثاً يقول :

« لعله علم وترك »

لعلنا نتعلم من هذه القصة ما يجب على كل رجل من الأذعان لرأى المرأة — ولو كان باطلا وطاعته طاعة عمياء .

ومن عادة الأهلين السذج فى « آق شهر » أن ينظموا الأشعار فى أعراسهم بعد أن يذهبوا إلى قبر الأستاذ نصر الدين ، ثم يوجهوا الدعوة إليه ، وهذا نصها :

«أحضر شيوخك ، وأحضر من تحب من أصفيائك العلماء» .

وليس يجرؤ أحد منهم على مخالفة هذا التقليد : وعندهم :

أن الحياة الزوجية لن تزدهر بين العروسين ، ولن يبارکها الله إذا غفلوا عن تنفيذ هذا التقليد .

ولا يقتصر المحتفلون على ذلكم . بل يدعون حارس قبره ليكسب حفلتهم بهجة وحبورا بما يقصه عليهم من ملحه وطرائفه

حفيد نصر الدين

ومن طريف ما يروى أن بعض حفدته قدم إلى الآستانة مع أسرته ، فى عهد السلطان مراد الثالث ، فى القرن العاشر الهجرى (٩٨٢ إلى ١٠٠٣ هـ) ، ملتمساً من وزارة الأوقاف أن تقرر له إعانة شهرية يسيرة من المال تمكنه من شراء ما يتبلغ به من القوت . ولم يجد حفيد نصر الدين شيئاً يربط إليه دابته . ثم لم يلبث أن لمحت عيناه طبلا كبيراً أمام باب الوزارة ، يستخدمونه لتنظيم المواعيد ، وتوقيت الحضور والانصراف ، وما إلى ذلك مما تستخدم فيه الأجراس عادة . فشد صاحبنا دابته إلى ذلكم الطبل بعد أن ضاقت به الحيل فى الاهتداء إلى غيره .

وكان فى ساحة الوزارة — جمهرة من البغال التى تعدها الدولة — كل عام — للذهاب بما تحمله من مال ورجال إلى الحج . ولم تكد الدابة تستقر حتى ركلت الطبل برجلها — تعمدا أو اتفاقاً — فأحدثت ضجة وضوضاء . فأجفلت البغال وهربت من الذعر . وشاع الهرج والمرج . وانزعج ولاة الأمر ، وبحثوا عن مصدر الصخب ثم ما لبثوا أن اهتدوا إلى أن حفيد نصر الدين هو مصدر الضجة كلها .

وقد كانت تلكم الحادثة وحدها كافية للتعريف بنفسه ، فأغنتهم عن التثبت من بنوته ، بعد أن رأوا فى تصرفه ما يدل على أصالته ، وصحة نسبته .

تحقيقـــات

١ — قبر نصر الدين :

ولا بأس من وقفة قصيرة نستعرض فيها ما انتهى إليه بعض الباحثين فى تاريخ الأستاذ نصر الدين إذ يقول :

« ونحن بما انتهت إليه تحقيقاتنا العلمية فى بلاد الأناضول وقعنا على كتاب : « السياحة إلى قونية » الذى أهداه إلينا أحد الأفاضل إخواننا (ضيا بك) .

وباطلاعنا على هذه السياحة وجدنا أن المرحوم قبرا فى مقبرة « آق شهر » مكتوبا على شاهده هذه الجملة :

هذه التربة . المرحوم المغفور له المحتاج إلى رحمة ربه الغفور نصر الدين أفندى روحنا (إلى روحه) فاتحة ٣٨٦ .

٢ — تاريخ وفاته :

ثم يقول :

وقد استثار هذا التاريخ دهشتنا لأن نصر الدين لم يمت فى ذلك التاريخ ، واستدللنا على أنه محرف ، وأن الأرقام قد كتبت معكوسة ، وصحتها ٦٨٣ . وقد تبينت صحة ذلك التاريخ من التحقيق المحلى الذى قمت به لأن المرحوم من رجال السلطان أورخان . وقد حكمنا من الشواهد والملابسات أن ما وصلنا إليه من نتيجة هو الصواب لا ذلك الذى كتبوه على شاهدة قبره خطأ . وقد تبين لنا من ذلك الخطأ فى التاريخ المثبت على القبر ومن كتابة أرقامه أنها مقلوبة .

ومن عجائب الاتفاق وغرائب الأستاذ أن يقلب تاريخ وفاته على قبره أيضا ، وكأنما تعمد كاتبه أن يقلبه ليدل على أن النكتة لا تفارق صاحبنا حيا وميتا .

إلى أن يقول :

« وقد انتهت تحقيقاتنا إلى أنه كان — رحمه الله — قد ظهر تقريبا فى عهد السلطان أورخان ، وامتدت حياته إلى عصر السلطان « بيلدرم بايزيد » أى « الصاعقة بايزيد » .

ومعنى هذا أنه عاش فى أوائل القرن السابع . وأنه عاش ستين عاما أو يزيد ، إلى أن توفى سنة ٦٨٣ هـ كما يدل على ذلك لوح القبر الذى دفن فيه » .

وقد قبست جريدة صدى الأجراس (جينفر اقلى تاتار) الكلمة التالية من كتاب تاريخ النكات (لطائف نويس) وقد ألفه فى جزءين عن لطائف نصر الدين ، قالت :

كان الأستاذ من رجال المرحوم السلطان بيلدرم بايزيد .

٣ — صحبة تيمور لنك :

فإذا عن لنا أن نترفق فى مناقشة أقوال هذا المحقق ، ونتفهم ما انتهت إليه تحقيقاته العلمية ، تعذر علينا أن نجاريه فيما انتهى إليه .

فإذا افترضنا أن التاريخ مقـلوب — كما ذهب إلى ذلك صاحبنا وتابعه فى رأيه كل من أظفرنا الحظ بقراءة بحوثهم، فـكيف نعلل ما حدثنا به ذلـكم الباحث نفسه وما حدثنا به جمهور المؤرخين من صحبته للباطش السفاح الطاغية تيمور لنك.

كيف نعلل ذلـكم، وقد ولد « تيمور لنك » بمدينة « كيش » — فيما تعلمون فى القرن الثامن، إذا صح أن « نصر الدين » مات فى القرن السابع.

إذا صح أن تيمورلنك ولد عام ٧٣٧ هـ فيما يقول التاريخ وأن نصر الدين مات عام ٦٨٣ هـ فـكيف التقيا ؟ وكيف ونصر الدين لم يدرك مولد الطاغية، بله انتصاره على بايزيد الصاعقة الذى تم له — فيما تعلمون وأعلم — عام ٨٠٥ هـ ١٤٠٢ م بل كيف لقى « أورخان » وهو لم يل الإمارة إلا عام ٧٢٦ هـ، أى بعد وفاة « نصر الدين » بثلاثة وأربعين عاما.

لقد مات « أورخان » عام ٧٦١ هـ، ثم خلفه ابنه مراد الأول (من ٧٦١ - ٧٩٢ هـ) ثم خلفه بايزيد الأول (٧٩٢ — ٨٠٢ هـ) وانتهى أمره فى عام ٨٠٥ هـ.

كيف نعلل ذلـكم كله وأخباره مستفيضة مع بايزيد وتيمورلنك !

قالوا : إن جحا بطل محاضراتنا، سمع فقيها يتلو الآية هكذا « فخر عليهم السقف من تحتهم » فانتفض جحا غاضبا، وصرخ فيه متعجبا. « إذا فاتك النص يا هذا فلا يفوتنك الذوق ! كيف استقام فى ذهنك أن يسقط عليهم السقف من تحت ؟ قل من فوقهم لا أبالك ؟

إحدى اثنتين أيها السادة :

إما أن نأخذ بالتاريخ المقلوب، كما أخذ ذلـكم المحقق، فننكر صلة نصر الدين ببايزيد بله تيمور لنك !

وإما أن نأخذ برواية من يثبتون لنا مؤكدين أنه صحب بايزيد كما صحب تيمورلنك من بعده، فننكر صحة التاريخ المـكتوب على القبر طردا وعكسا، ونسقط رأى أولئـكم المحققين أثباتا كانوا أم غير أثبات.

فإن كان لا بد من التشبث بالأرقام الثلاثة التى يتألف منها التاريخ المثبت على جدثه وهى ٣٦٨، فليس لنا مندوحة عن نقل رقم الثمانية من الطرف الأيمن إلى الطرف الأيسر، أعنى : من رقم الآحاد إلى رقم المئات فتصبح حينئذ ٨٣٦ هـ. وهذا التاريخ — على أى حال — فى حدود الممكنات، إذا استحال علينا الأخذ بالتاريخين السالفين طردا وعكسا. فإذا ابينا إلا الاسترسال فى تحوير الأرقام وتقليبها على كل وجوهها لم يبق أمامنا إلا تحوير واحد، هو آخر ما يتبقى لمن يحلو له أن يتشبث بها، لم يبق إلا تاريخ ٨٦٣ هـ، وهو كما ترون : أبعد احتمالا من سابقه، وإن لم يكن ممعنا فى الاستحالة إمعان التاريخ المثبت على القبر مثبتا ومقلوبا، هذا إذا تسمحنا فى عمره بأنه لم يعش إلا ستين عاما أو قريبا كما يقول القائلون.

فلو أنه عاش مائة عام مثلا لما استحال على الباحث أن يأخذ بهذا التاريخ. على أن خير الأمور الوسط، والاعتدال، كما يقولون، هو : الحسنة بين السيئتين.

من بدائع ما يروى من الطرف فى هذا الباب أن متحدثا ممن وهبهم الله — إلى نعمة الغباء والغفلة — عجمة اللسان، قال : « خسن وخسين بنات معاوية بن عفان ».

فصاح فيه أحد السامعين متعجبا :

قل لى بأى خطأ فى هذه الجملة القصيرة أبدأ تصويبه :

فأول الأشياء هما : « حسن » و « حسين » وليسا « خسنا » ولا « خسينا » :

والثانى أنهما ليسا من النساء، بل من الرجال.

والثالث أنهما ليسا جمعاً بل مثنى.

والرابع أنهما ولدان لا بنتان ولا بنات.

والخامس أن أباهما على بن أبى طالب لا معاوية.

والسادس أن معاوية بن أبى سفيان لا ابن عفان.

والسابع أن ابن عفان هو عثمان لا معاوية »

وما أكثر ما يتمثل الباحث فى تاريخ جحا، هذه الطرفة الرائعة كلما عرض لمناقشة الكثير من أقوال من تصدوا للحديث عنه، فى أكثر المناسبات، على اختلاف اللغات.

كامل كيلانى

من وحي الصوم :

رمضان عند الأدباء ..

للأستاذ محمد رجب البيومي

يتمتع شهر رمضان المبارك بمنزلة طيبة فى نفوس الكثرة الغالبة من المسلمين ، فأنت تراه ضيفاً محبوباً يُستقبل حين قدومه بشتى مظاهر المحبة والابتهاج ، ويُودّع حين رحيله بدموع الحسرة والالتياع . وإذا كنا نسمع فى أخبار الماضين من رجال السلف الصالح رضى الله عنهم أنهم كانوا يعزون أنفسهم فى الليالى الأخيرة من رمضان ، فإننا لا نزال نرى بأعيننا الفسقة والعصاة من المؤمنين يجترحون السيئات ويقترفون الموبقات ، حتى إذا وجدوا أنفسهم فى حرم رمضان ضجت ألسنتهم بالتهليل والتكبير ، وارتعدت فرائصهم من خشية الله ، ولزموا حلقات الدروس فى المساجد يستنشقون روائح الجنة من نسمات هذا الشهر المبارك !

ولكن فريقاً من الأدباء — عفا الله عنهم — قد أخذوا يغازلون شهر الصيام مغازلة شكا منها إلى ربه ، ثم تحولت المغازلة على ممر الأيام إلى عداء مستحكم ، فبعد أن كان الشاعر لا يزيد على قوله :

نُبئتُ أن فتاة جئت أخطبها
عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول

أو قوله :

أتأمرنى بالصوم لا درّ درها   وفى القبر صوم يا أميم طويل

بعد أن كان لا يزيد على ذلك وجدنا الأمر قد استحال فجأة إلى هجو لاذع ، وسب مبرح ، لا نظن إلا أن الله عز وجل سينتقم للظالم فيه من المظلوم يوم يقوم الناس لرب العالمين

وأول من أعلن هذه الحرب الظالمة — فيما نعلم — هو هذا الأعرابى القدْم الذى روى ابن قتيبة فى عيون الأخبار قصته فيقول :

« قدم أعرابى على ابن عم له بالحضر ، فأدركه شهر رمضان ، فقيل له : يا أبا عمرو ، لقد أتاك شهر رمضان ! قال : وما شهر رمضان ؟ قالوا : الإمساك عن الطعام ! قال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا : بل بالنهار ؛ قال : أفيرضون بدلا من الشهر ؟ قالوا : لا ؛ قال : فإن لم أصم فعلوا ما ذا ؟ قالوا : تُضرب وتُحبس ... فصام أياماً فلم يصبر ، فارتحل عنهم إلى غيرهم وجعل ينشد :

يقول بنو عمى وقد زرتُ مصرهم   تهيأ أبا عمروٍ لشهر صيام
فقلت لهم هاتوا جرابى ومزودى   سلام عليكم فاذهبوا بسلام
فبادرت أرضا ليس فيها مسيطرٌ   علىَّ ولا منّاع أكل طعام »

كانت هذه القصة بذرة سيئة تولدت منها تلك الحملة الطائشة التى شنها الأدباء على رمضان . ومهما يكن من شىء ، فقد حركت ما سكن فى النفوس ، وأطلقتْ ما حبس فى الصدور ، فخرج الأدب بصفقة رابحة كان ضحيتها رمضان المسكين ! ولعل عزاءه فى ذلك قول الله عز وجل : « والشعراء يتبعهم الغاوون » !

على أن كثيراً من الأدباء كانوا أقدر على ضبط ألسنتهم من إخوانهم الذين تورطوا فى معاداة هذا الشهر العظيم ، فنحن نقرأ فى تاريخ البحترى مثلا أنه كان ضائق الصدر برمضان ، متبرم النفس بطوله ، ونتلمس ذلك فى شعره ، فلا نجد إلا متفرقات يسيرة لا تطفئ أواما ، ولا تبل غليلا ، كأن يقول :

فتروّ من شعبان إن وراءه   شهراً سيمنعك الرحيق السلسلا

ثم يكرر هذا المعنى مرة وثانية وثالثة ، فإذا هاج صبره بعد مرور سبعة وعشرين من عمر رمضان لم يزد على أن يطلب من الله عز وجل أن يجعل الشهر كله ليلا حتى لا يجد النهار الذى يصوم فيه عن الطعام والشراب ، وفى ذلك يقول :

قد مضت سبعة وعشر وعشر   ما نذوق اللذات إلا لماما
ما على الليل لو أقام علينا   أو يرانا من الصيام صياما

أما ابن الرومى ، فقد أطلق العنان لقريحته الوقادة ، وانهال على رمضان بسياطه المحرقة حتى مزق جلده ، وشوه أديمه ، وتعليل ذلك واضح يسير ، فالبحترى على رغم ما له من جاه عريض لدى الخلفاء والرؤساء كان نكساً رعديداً يقول الهجاء ، فيقبض يده على قلبه ويُرسل وراء شعره العيون والأرصاد يتجسسون لدى المهجوّ ، ويخبرونه بموقع هجائه من نفسه ، فإن لم يُلق له بالا حمد الله على السلامة . وإن كانت الأخرى أخذ يتزلف ويتوسل ويُحبّر النابغيات الطويلة فى الاعتذار ، وحسبك أن تعلم أنه حين قال فى قصيدته القافية

ولم أر كالدنيا حليلة صاحب محب متى تحسن بعينيه تطلق
تراها عيانا وهي صنعة واحد فتحسبها صنعى حكيم وأخرق

حين قال ذلك شنع عليه أحد العامة بأنه ثنوى ، فخاف على نفسه وقال لابنه أبي الغوث : قم بنا نخرج من بغداد خروجاً نأمن على أنفسنا فيه ، ثم خرج ولم يعد ، فشخص نفسيته ضعيفة خائرة كالبحترى لا يجد الشجاعة الكافية التي يذم بها رمضان على رءوس الأشهاد . ولا كذلك ابن الرومى ، فقد كان جسور القلب حاد اللسان يسوق الهجاء فى الوزراء وذوى الشأن فى الدولة ، ثم يتزايد ويتسع فيه دون مبالاة أو اكتراث مما أدى إلى حتفه فى النهاية ، فمات ولم يستمتع بخاطره ، ولم ينزح ركية فكره — كما قال الصولى — فإذا كان هذا شأنه ، فغير كثير عليه أن يسلط لسانه على رمضان معبراً عما يختلج فى نفسه أصدق تعبير . والحق أن هذه ميزة ابن الرومى يصدر عن طبعه وينقل عن خاطره مهما جلب عليه ذلك من الشرور والويلات ، والجنون فنون

بدأ ابن الرومى حملته بتأدب ملموس ، فلم يشأ أن يهجم بادئ ذى بدء بما هجم به أخيراً من الذم والقدح ، بل اكتفى بإعلان تبرمه بطوله الممتد ، وود لو مر كالسحاب ، وكان جميعه كيوم أو بعض يوم ، وقصارى حيلته أن يدعو عليه ، وأن يرحب بأيام الفطر اللذيذة فيقول :

إذا بركت فى صوم لقوم دعوت لهم بتطويل العذاب
وما التبريك فى شهر طويل يطاول يومه يوم الحساب
فليت الشهر فيه كان يوماً ومر نهاره مر السحاب
فلا أهلا بمانع كل خير وأهلا بالطعام وبالشراب

ويظهر أن ابن الرومى قد وجد أبياته صادفت رواجاً محموداً لدى من يشاركونه عواطفه وميوله — وكثير ما هم — فهجم على شهر الصيام مرة أخرى ولكن بلسان أحد ، ولهجة أعنف ، وقسوة أشد ، فود بجدع الأنف لو انتهى قبل أن يبدأ ، وأعلن أن بركة هذا الشهر فى طوله لا فى خيره ، وزاد بأن تنازل عن الأجر الذى أعده الله له جزاء صومه ؛ فهو يقول :

شهر الصيام مبارك لكما جعلت لنا بركاته فى طوله
من كان يألفه فليت خروجه منى — بجدع الأنف — قبل دخوله

إنى ليعجبنى تمام هلاله وأسر بعد تمامه بنحوله
لا أستثيب على قبول صيامه حسبى تصرمه ثواب قبوله

وجائز جداً أن يكون ابن الرومى قد عانى صوم رمضان فى أوقات تلفحها حرارة الصيف كما نعانيه فى أوقاتنا هذه ، فهو لا يكتفى بما قدمنا بل يعيد الهجوم ثالثة ورابعة ، غير تارك بعده مجالا لقائل ، وليت شعرى ماذا ننتظر منه بعد أن يقول

شهر الصيام وإن عظمت حرمته
شهر طويل ثقيل الظل والحركه
أذمه غير وقت فيه أحمده منذ العشاء إلى أن تصدح الديكه
وكيف أحمد أوقاتا مذممة بين الدءوب وبين الجوع مشتركه
يا صدق من قال أيام مباركة
إن كان يعنى عن اسم الطول بالبركه
شهر كأن وقوعى فيه من قلقى
وسوء حالى وقوع الحوت فى الشبكه
لو كان مولى وكنا كالعبيد له لكان مولى بخيلاً سيء الملكه
قد كاد لولا دفاع الله يسلمنا إلى الردى ويؤدينا إلى الهلكه

على أن من التناقض الظاهر أن نرى ابن الرومى فى موضع آخر من ديوانه يهنئ أحد الرءوساء بشهر الصيام فينحى باللائمة على المستهترين به ، وما درى أنه بشعره هذا قد فتح الباب لمن جاء بعده ، ومهما يكن من شيء فقد ظهرت خفة روحه ظهورا أكسبه ملاحة وظرفا عند من يقدرون الأدب لذاته فهو على نقيض أبى العتاهية المسكين ، فقد أوقعه حبه رمضان وتعظيمه إياه فى مأزق مضحك ، قال ابن رشيق فى الجزء الثانى من العمدة « لما مات المهدى قام أبو العتاهية يرثيه على ملأ من الناس فقال

« مات الخليفة أيها الثقلان »

فرفع الحاضرون رءوسهم ، وفتحوا أعينهم وقالوا : نعاه إلى الإنس والجن ثم أدركه اللين والفترة فقال :

« فكأننى أفطرت فى رمضان » .

يريد أنى بمجاهرتى بهذا القول كأنما جاهرت بالإفطار نهارا فى رمضان وهذا معنى جيد غريب فى لفظ ردئ غير معرب عما فى النفس » ونحن نخالف صاحب العمدة فيما ذهب إليه من جودة هذا المعنى ولو كان كما قال ما قابله الجمهور بالسخرية والاستهزاء .

وإذا كانت كتب الأدب تروى عن أبى نواس أنه قد حج حجا غير مبرور حين جد فى طلب « جنان » فلم يظفر بطائل ، ثم علم أخيرا أنها ذهبت إلى مكة فسار وراءها متظاهرا بالخشوع والنسك وفى ذلك يقول :

ولما أن عييت وضاق صدرى   بمطلبها ومطلبها عسـيـر
حججت وقلت قد حجت جنان   فيجمعنى وإياها المسـير

إذا كانت كتب الأدب تروى ذلك ، فإنها تروى عن ابن الراوندى أنه قد صام صوماً غير مبرور — لو صح هذا التعبير — وذلك أنه كان سمينا بطينا ، فقالت له إحدى صواحبه : إن وراءك شهراً ثقيلا فصمه ليذهب عنك هذا السمن فأطاعها تلبية لرغبتها لا امتثالا لأمر ربه ، وهو يعلن هذا على العامة والخاصة فيقول فى تبجح وعناد .

وقائلة وقد جلست جوارى   سمنت وكنت قبلئذ نحيفا
وراءك فى غدٍ شهر ثقيـل   فصمه لكى تكون فتى نحيفا
لوجهك لا لوجه الله صومى   ولو أنى لقيت به الحتوفا

وغير غريب من ابن الراوندى أن يقول ذلك فقد كان خبيث العقيدة سيء الطوية ، يعترض على كل شىء حتى على ربه فيعجب من مجرى الرزق فى أسلوب وقح ، ويهاجم الأديان فى تمرد سافل فكيف تستكثر عليه ما قاله فى رمضان ؟ إننا نستكثر ذلك على رئيس فاضل كابن العميد مثلا فقد كان جليل الخطر فى عصره ، مطاع الكلمة فى دولته ، ثاقب العقل ، وضيء التفكير ، ومع ذلك فقد تورط فيما تورط فيه غيره حين هاجم هذا الشهر مهاجمة نكتفى بأن ننقل منها هذه الفقرات « أسأل الله أن يقرب على الفلك دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويزيل بركة الطول عن ساعاته ويرد على غرة شوال ، فهى أسنى الغرر عندى وأقرها لعينى ، ويطلع بدره ، ويسمعنى النعى لشهر رمضان ، ويعرض على هلاله أخفى من السحر ، وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بنى عامر » إلى آخر ما جاء فى الجزء الثانى من زهر الآداب .

وكيفما كان الحال فقد فتح ابن العميد بذلك على رمضان ثغرة واسعة ، جعلته يستمع هجاءه شعراً ونثراً بعد أن كان يأمن على نفسه من ناحية النثر ويجىء بديع الزمان الهمذانى بعد ابن العميد وهو كما نعلم مولع بتقليده ، مقتف أثره ، فلا يفوته أن يهجو رمضانَ ، فيكتب إلى أحد رؤسائه قائلا « خصك الله بتقصير أيامه ، فهو وإن عظمت بركته ، ثقيلة حركته ، وإن جل قدره ، بعيد قعره ، فإن حسن وجهه فسوف يقبح قفاه ، وما أحسنه فى القذال وأشبه إدباره بالإقبال ، جعل الله قدومه سبب ترحاله ، وبدره فداء هلاله ، وأمد فلكه تحريكا ، بتقضى مدته وشيكا ، وأظهر هلاله نحيفا ، لنزف إلى اللذات زفيفا » ونحن لا نستنكر ذلك من الهمذانى كما استنكرناه من ابن العميد ، فقد كان بديع الزمان طويل اللسان ، حاد القذف ، متطاولا على غيره جاحداً حقوق أولى العلم والفضل ، فكيف يعترف بشهر رمضان وقد فتح له ابن العميد الباب على مصراعيه فقال ما قال !

وإذا كنا نستثقل الآن صوم رمضان فى وقدة القيظ وحرارة الصيف فقد وجدنا ابن عون الكاتب يستثقله فى فصل الربيع إذ يرى أنه زمان البهجة ، وأوان المتعة واللذاذة ، فلا ينبغى أن يكدر بالصوم وفى ذلك يقول

جاءنا الصوم فى الربيع فهلا اخـ   ـتار ربعاً من سائر الأرباع
وكأن الربيع فى الصوم عقد   فوق نحر غطاه فضل قناع

وإذن فالصوم عنده فى الربيع قناع أسدل على نحر مضيء فمنع إشراقه وحجب التمتع برؤيته

أما القاضى الفاضل — وهو من المولعين أيضاً بمحاكاة ابن العميد — فقد نظم قصيدة خمرية طويلة جرى فيها مع اللذات إلى أبعد شوط وقد حرص على أن يهاجم فى مبدئها شهر رمضان — تقليداً لأستاذه — فقال

قضى نحبه الشهر بعد المطال   وأطلق من قيد فتر الهلال
وروض كاتب جنبى اليمين   وأتعب كاتب جنبى الشمال
فدع ضيقه مثل شد الإسار   إلى فرجة مثل حل العقال

وهو بذلك قد وجه نظر أمير الشعراء رحمه الله إلى هذا المعنى بذاته فقال ولكن فى أسلوب أروع ونسج أحكم

رمضان ولى هاتها ياساقى   مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على الافها   وأقله فى طاعة الخـلاق

صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والهدايا

للاستاذ صلاح الدين المنجد

— ٢ —

أما هدايا الفصد ، فلا تخرج عما ذكرت من قبل ، فكانوا يهدون الجوارى والصوانى والأقداح والجامات البلور والشمامات والعنبر والمسك .

فقد فصد الرشيد فأهدى إليه اليزيدى جام بلور ، وشمامات غالية ، وكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، تفاءلت بالشرب بالجام بجمام النفس ودوام الأنس ، والغالية للغلو فى السرور والازدياد من الحبور [١] » .

وافتصد المأمون مرة فأهدى إليه ابراهيم بن المهدى جارية معها عود ، ورقعة فيها :

عفوت وكان العفو منك سجية كما كان معقوداً بعفرقك الملك [٢]

وفى مرة ثانية ، أهدت إليه (رباح) اترجة عنبر ، مكتوب عليها بماء الذهب بيتين من الشعر أعجب بهما ، فكافأهما بمال كثير [٣] .

وافتصد المعتصم فأهدت إليه (شمائل) صينية عقيق عليها قدح ، أسبل عليهما منديل مطيب ، مكتوب عليه بالعنبر ، أبيات شعر رقيق ، فلما قرأه أمر باحضار اسحق بن ابراهيم ، وأمره أن يجعل له لحناً ، وأمر مسروراً باخراجها من وراء الستارة ، ثم لم يزل يردد هذه الأبيات حتى أحكمتها شمائل وغنت فكأن سقط الدر يتناثر من فيها وأمر لإسحق بمال وللجارية بخمس وصائف وخمسة آلاف دينار [٤] .

وافتصد ابراهيم بن المهدى ، فأهدى إليه اسحق بن ابراهيم الموصلى صوتاً من غنائه ، وأرسل غلامه فغناه به [٥] .

وربما طلب الخليفة من خاصته أن يهدوه ، كما فعل المتوكل . فقد افتصد ، فقال لخاصته وندمائه اهدوا إلى يوم فصدى . فاحتفل كل واحد منهم فى هديته .

وأهدى إليه الفتح بن خاقان جارية لم ير الراؤون مثلها حسناً وظرفاً وكمالا . فدخلت ومعها جام ذهب فى نهاية الحسن ، ودن بلور لم ير مثله فيه شراب يتجاوز الصفات ، ورقعة فيها تهنئة بالشفاء فاستظرف المتوكل ذلك واستحسنه [٦] .

ولعل ألطف هدية أهديت فى يوم فصد ، هى هدية أبى دلف فقد افتصد عبد الله بن طاهر ، فجمع أبو دلف ما أصاب فى

بالأمس قد كنا سجيني طاعة واليوم منّ العيد بالإطلاق

ولا أدرى كيف وقع شوقى فى هذا وهو الذى باهى بنسكه وتبتله حين قال

وأشهد ما آذيت نفساً ولم أضر ولم أبغ فى جهرى وفى خطراتى
ولابت إلا كابن مريم مشفقاً على حسدى مستغفراً لعداتى

وعلى كل فإن هذه الحملة الظالمة التى قام بها الأدباء على رمضان لم تستطع أن تزحزح مكانته — ولو قليلا — فى النفوس ، بل زادتها رسوخاً وثباتا ، وخرج الجانين من المعركة يجرون أذيال الخيبة والهزيمة ، وكل امرىء بما كسب رهين

***

وبعد فما أردت بهذا العرض الموجز أن أزيد على رمضان ، فيعلم الله أنى أول الناس تفانيا فى محبته وإجلاله ، ولكنى قصدت الترفيه عن القراء فى وقت اندلعت فيه ألسنة الهجير فأحرقت الأفئدة وألهبت الجلود ، ومن يدرى لعل هؤلاء الأدباء يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فرب متظاهر بالصوم والعبادة وبين جنبيه قلب مدنس بالمعاصى مثقل بالآثام ، ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها

خليلى ، قُطَّاع الفيافى إلى الحمى كثير ، وإن الواصلين قليل

محمد رجب البيومى

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .
(٢) المحاسن والأضداد ص ٨١ .
(٣) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .
(٤) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .
(٥) الأغانى ج ٥ ص ٦٦ .
(٦) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ١٨١ .

السوق من الورد وأرسله هدية له[١] ، وقد أوردت هذا الخبر لظرفه ، رغم أن ابن طاهر ليس من الخلفاء .

* * *

أما هدايا العمال و لولاة والملوك فكثيرة . فكان كل وال يتفنن بإرسال الهدايا للخليفة ابتغاء مرضاته . فقد وجه يعقوب ابن الليث صاحب خراسان إلى المعتمد هدية من جملتها عشر بزاة منها باز أبلق لم ير مثله ، ومائة مهر ، وعشرون صندوقاً على عشرة بغال ، فيها طرائف الصين وغرائبه ، ومائة عود من مسك ، ومائة من عود هندى ، وأربعة آلاف درهم[٢] .

ولما قدم ابن الجصاص من مصر على المتضد ، مرسلا من خمارويه ، كان معه هدايا من العين عشرين حملا على بغال . وعشرة من الخدم ، وصندوقان فيهما طرائف . وعشرون رجلا على عشرين نجيباً بالسروج المحلاة ، ومعهم جرار فضة ، وعليهم أقبية ديباج وسبع عشرة دابة بسروج ولجم ، منها خمسة بذهب والباقى بفضة ، وزرافة[٣] .

وقد يرسل إلى الخليفة كل غريب . ففى سنة ٢٩٩ وردت من مصر هدايا منها كما ذكر الصولى تيس له ضرع يحلب اللبن .

ووردت رسل أحمد بن اسماعيل بهدايا منها مذبة مرصعة بفاخر الجوهر ، وتاج من ذهب مرصع بجوهر له قيمة كبيرة . ومناطق ذهب مرصعة ، وربعة ذهب مرصعة[٤] .

ووردت هدايا ابن أبى الساج أربعمائة دابة ، وثمانون ألف دينار ، وفرش أرمنى لم ير مثله فى بساط طوله سبعون ذراعاً فى عرض ستين ذراعا ، عمل فى عشر سنين[٥] .

وفى سنة ٣٠٥ ، زمن المقتدر ، ورد على السلطان هدايا جليلة من أحمد بن هلال صاحب عمان . وفيها أنواع الطيب ، ورماح ، وطرائف من طرائف البحر ، وطائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفصح من الببغاء ، وظباء سود[٦] .

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .
(٢) مطالع البدور ج ٢ ص ١٣٠ .
(٣) المنتظم ج ٥ ص ١٣٨ .
(٤) ، (٥) المصدر السابق ج ٦ ص ١١٠ .
(٦) المنتظم ج ٦ ص ١٤٥

وفى سنة ٣١٠ هـ وصلت هدية ابن المادرائى الحسين بن أحمد من مصر ، وهى بغلة ومعها فلو ، وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه أنفه[١] .

* * *

وكان ملوك الروم والفرنجة يهدون إلى الخلفاء العباسيين الهدايا العظام تودداً وتحبباً . فقد أهدى ملك الروم إلى المأمون مائتى رطل مسك ، ومائتى جلد سمور . فقال المأمون : ضاعفوها ليعلم عز الإسلام[٢] .

وأهدت ملكة الفرنجة إلى المكتفى بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً ، وخمسين رمحاً ، وخمسين فرساً ، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب ، وعشرين خادماً صقلبياً حسناً ، وعشرة كلاب كبار لا تطيقها السباع ، وستة بازات وسبعة صقور ، ومضرب حرير[٣] .

وفى سنة ٣٢٦ هـ ورد كتاب من ملك الروم إلى الراضى . وكانت الكتابة بالرومية بالذهب ، والترجمة بالعربية بالفضة ، بطلب الهدنة . وفيه : « لما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب ، واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء ، حمدنا الله تعالى ... وقد وجهنا شيئاً من الألطاف ، وهى أقداح وجرار من فضة وذهب وجوهر ، وقضبان فضة ، وستور ، وثياب سقلاطون ، ونسيج ومناديل وأشياء كثيرة فاخرة » .

فكتب إليهم الجواب بقبول الهدية ، والاذن فى الفداء ، وهدنة سنة[٤] .

* * *

فهذه ألوان من الهدايا ، وتبيان لهذه العادة الاجتماعية التى كان لها شأن فى العصر العباسى ، الحافل بالعجائب والغرائب .

صلاح الدين المنجد

(١) المصدر السابق ص ١٦٧
(٢) أخبار الخلفاء ص ١٢٩
(٣) مطالع البدور ج ٢ ص ٢٩٣ .
(٤) المنتظم ج ٦ ص ٢٩٣ .

هل من جديد فى الأزهر ؟

للأستاذ الأب قنــواتى

إن المؤرخ الذى يحاول أن يتتبع مراحل التطور الفكرى فى مصر فى أيامنا هذه يضطر — بلا جدال — إلى الإقرار بأن حياتنا العقلية تتمخض تمخضاً عنيفاً ، وأن روح التقدم الحقيقى الذى يأبى أن يضرب عرض الحائط بما فى تراثنا الثقافى من قيم خالدة — أخذ يتسرب رويداً رويداً إلى مختلف أوساطنا العلمية.

ولطالما كانت تخامرنى هذه الفكرة أثناء إقامتى فى الخارج ، ولطالما تحدثت عنها — فى باريس ، وفى فاس ، وفى تونس — مع الذين يهتمون بمستقبل الثقافة العليا فى البلاد العربية ؛ فكنا نتساءل — مع شيء من اللهف — عن مدى انتشار هذه الثقافة ، وقوة تغلغلها فى الأذهان : هل تظل شيئاً سطحياً شكلياً ، أم تخوض فى صميم التعليم فتكيف العقلية ؟ ولئن كان هذا التطور يبدو بكل وضوح فيما يخص الجامعة المصرية ، لما هى عليه — منذ نشأتها — من انسجام مع الروح الحديث ؛ فالأمر كان لا يخلو من الغموض فيما يتعلق بالأزهر ، وهو المعهد العتيق الذى تركزت فيه منذ قرون برامج كادت — بموجب موضوعها — تتنزه عما يتطور ويفنى .

ولذا كنت مشغوفاً كل الشغف عند ما رجعت إلى الديار المصرية — وأنا منكب على دراسة فلسفة القرون الوسطى مسيحية كانت أو إسلامية — أن أتصل بمن يوقفنى على تطور التعليم فى المعاهد الدينية فى هذه المادة ؛ وخصوصاً فى الأزهر الحالى وموقفه من الأبحاث المقارنة التى تسنى لى أن أتبين خطورتها أثناء دراستى فى المعاهد الدينية فى أوربا ، ولذا لبّيتُ — بكل ترحاب — دعوة أحد أصدقائى الأزهريين إلى حضور المناقشة العلمية لنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ فى التوحيد والفلسفة التى كانت إقامتها مزمعة يوم الأحد ٢٦ مايو سنة ١٩٤٦ فى مدرج كلية أصول الدين فى القاهرة ، ولقد شكرت صديقى أيما شكر لهذه الفرصة التى هيأها لى ، فسمح لى أن أجد بطريقة عملية إيجابية جواباً لما كنت أوجهه لنفسى من سؤال ، وهذا ليس فقط من جهة الموضوع الذى نوقش فيه « تخريج كتاب الملل والنحل للشهرستانى » ؛ بل أيضاً من جهة الجو الروحى الذى ساد هذه المناقشة ، ومن جهة انسجام العناصر المختلفة التى توفرت فيه : فهناك سعادة الدكتور منصور فهمى باشا — مدير جامعة فاروق الأول سابقاً ، وكاتم سر مجمع فؤاد الأول للغة العربية — رأس اللجنة ، وهو ممن طالما ناشدوا روح التعاون الثقافى والتآزر العلمى ، وهناك الدكتور محمود الخضيرى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول سابقاً ، ووكيل البحوث والثقافة الإسلامية للأستاذ الأكبر شيخ الأزهر ، وهو من أبناء الجامعة المصرية الذين تخصصوا فى فرنسا وطافوا فى ألمانيا وأسبانيا ، وهناك الدكتور محمد غلاب خريج الأزهر وفرنسا ، وهناك الدكتور محمود حسب الله خريج الأزهر وانجلترا ، وهناك الدكتور محمد البهى خريج الأزهر وألمانيا — وثلاثتهم من أساتذة الفلسفة بالجامعة الأزهرية — أليس تكوين هذه اللجنة هو وحده رمزاً لما ينشده الأزهر ، ورمزاً لرغبته الأكيدة فى الأخذ من المناهج الحديثة بما يلائم رسالته العلمية ؟ .. ومما زاد هذا الرمز بلاغة تنوع النظارة الذين تسارعوا إلى حضور المناقشة

نعم ، إنه كان من الطبيعى أن نرى هناك أساتذة من الأزهر وطلبة أزهريين ، فالبيت بيتهم ، والمناقش من إخوانهم ، ولكن أليس من الغريب السار أن نجد بينهم أربعة قساوسة رهبان من يسوعيين ودومينكيين ، أحدهم مستشرق أمريكى والآخرون شرقيون ، بل مصريون ممن يعرفون الأستاذ المناقش جد المعرفة ؟ وأليس أعجب من هذا أن نشاهد بين الحاضرين آنسات فى المكان الخاص الذى خصص لهن فى أعلى المدرج ؟

وما وافت الساعة الخامسة حتى افتتح سعادة الرئيس الجلسة بكلمة استغرقت نصف ساعة ، وهو يتكلم بحماسة رزينة هادئة واعتقاد عميق يعطى أحيانا لعباراته نبرة قوية تجعلها تنفذ نفوذاً إلى الأذهان والقلوب : بدأ بالثناء على فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، الذى عاقه عن الحضور انعقاد المجلس الأعلى للأزهر ، وعلى فضيلة الأستاذ الكبير وكيل الأزهر ، وعلى فضيلة شيخ الكلية ، وكرر الشكر لكل من ساهم فى العمل على اتساع دائرة الاتصال العلمى بين الأزهر والعلماء المدنيين والجامعيين ، خصوصا فضيلة الأستاذ الأكبر الذى تخصص فى الفلسفة بجانب تعمقه فى النواحى الدينية المختلفة ، والذى أفادت منه الجامعة المصرية حينا من الدهر ، ثم أبدى سعادة الرئيس أمله فى أن الأزهر سينال اهتمام فضيلة الأستاذ الأكبر من الناحية الفلسفية ، وأن نوابغ الأزهريين سيكوّنون — مع أستاذهم الأكبر — جوا سانحا للدراسات

الفلسفية بحيث يستطيع الأزهر أن يؤثر – حتى من الجهة الفلسفية نفسها – على الجامعات الأخرى، مادام الأزهر يطبق الأنماط العلمية فى المناقشة والمثابرة فى طلب الحق الذى هو ضالة المؤمنين ...

ثم وجه سعادة الرئيس كلمة لطلاب البحث العلمى والحقيقة العلمية ، ناصحا إليهم بالجد والاجتهاد واتساع الآفاق والصبر والأمانة العلمية ، حتى يصلوا إلى ذلك الموقف الذى وقف فيه زميلهم – صاحب الرسالة – ذلك الموقف الذى يدل على حب البحث العلمى والتفانى فيه ، والذى يفتح الأبواب أمام منهومى العلم الذين لا يشبعون . وتمنى سعادته للأزهريين مستقبلا باهرا ما داموا يوسعون ميادين بحوثهم وآفاق ثقافتهم ، بحيث يلتقى بهم ويتبادل الفائدة معهم من لم يسعدهم الحظ ، ومن لم تتح لهم الظروف أن يتثقفوا بثقافة الأزهر .

ثم قرر سعادته : « أننا فى عصر تعاون وتفاهم وتقارب بين الفلسفات ، بل وبين الأديان نفسها ، وأن هذا التواصل والتعاون هما اللذان يسيران بالإنسانية إلى وحدتها المنشودة وغايتها المرجوة ، وآية ذلك ما نشاهد الليلة من جو مشبع بروح التسامح والنهوض الفكرى » . وأشار سعادة الرئيس إلى أن هذه أول مرة يرى أو يسمع فيها أن فى الأزهر غربيين وقساوسة ورهبانا : « وهذا يذكرنا بروح التسامح الذى كان الأزهر مُتَّسِماً به ، والذى كان صدر الأزهر دائما مُنْفَسِحاً له » . وأن هذه أول مرة أيضا سمع فيها سعادته أو رأى آنسات يحضرن مجالس العلم فى الأزهر وتخصص لهن أماكن فيه . » وهذا يدل على درجة عالية فى النضوج الفكرى والمستوى العلمى المفروض طلبه على كل مسلم ومسلمة ، ويبين فى وضوح أن الأزهر أخذ يقدر ماهو مطلوب منه بإزاء المسلمات بجانب ماهو مطلوب منه بإزاء المسلمين ، وأن هذا كله جو مبشر يدعو إلى التفاؤل بمستقبل الأزهر ، الذى كان قد انعزل مدة طويلة حتى عن العلماء المدنيين » .

ثم قال سعادته : « أما وقد لبى الأزهر حاجة العصر ، وساير روح الزمن ، فساهم فى الوحدة العالمية ، واتصل بالعلوم التى تكونت فى ميادين أخرى بروح التسامح الدينى ، والتآزر الفلسفى ، والتآخى العلمى ، فأنه سيصل – قريبا – قديمه بحديثه ، ويصبح منبع ثروة كبيرة فى التوجيهات الفكرية والعلمية والدينية للعالم كله ، وهذا مأمول ، وهو فى رعاية شيخ درس الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية وأفاد مما فيهما من خير مذكور . ونصيحتى العامة لكل شخص : أن يعمل للخير الذى وضعه الله فى فطرة الإنسان السلمية ، تلك الفطرة التى تتمثل فى الأديان جميعا : خيرا ، ومحبة ، وإخاء ، وعدلا ... حتى يكون هناك التفاهم الفكرى والتفاهم الروحى ، وحتى تسير الإنسانية إلى خير ما خلقت له . » (١)

ولعمرى ! لم أكن لأنتظر فى هذه القاعة هذا الوضوح فى رسم الهدف ، وهذه العزيمة فى السعى وراء تحقيقها ، فهاهى الروح الجديدة التى كنت أتساءل عما إذا كانت وصلت إلى الأزهر ، وهاهو الزرع المبارك الذى بدأ ينبت بإذن ربه ، فالمناقشة التى تلت هذه الكلمة جاءت بمثابة تطبيق للمبادئ التى وضحها سعادة الرئيس ، فالأستاذ صاحب الرسالة – وهو واقف رابط الجأش أمام المجلدات الأربعة لرسالته – أخذ يشرح موضوع رسالته ، ثم يجيب بهدوء عن الأسئلة التى وجهها إليه بالتوالى أعضاء اللجنة ؛ وهى أسئلة دقيقة تنفذ إلى لب الموضوع وتحاول تارة نقد منهج البحث ، وتستفسر طورا بعض نتائج الرسالة ؛ حوار بديع علمى رزين ، أعاد إلى ذاكرتى تلك الرسالات التى تناقش فى أوربا ؛ ولكن هنا مع شىء من « الظَّرف » المصرى الذى لم يقلل شيئا من جد المناقشة ؛ بل يكسبها روحا شرقية خاصة لم أجدها فى الخارج .

وفى تمام الساعة الثامنة والنصف – أعنى بعد مناقشة استغرقت ساعتين – رفعت الجلسة ، وخرجت اللجنة للمداولة ، ولما رجعت إلى قاعة المناقشة نطق سعادة الرئيس بالحكم قائلا : « بعد أن تناقش أعضاء اللجنة فيما استبانوه من حسن الاستعداد الفلسفى ، واتساع الآفاق ، والمجهود القيم فى التأليف ، والمثابرة على العلم ، ومراعاة الخلق العلمى ، وتلقى النقد بصدر رحيب يدل على محبة الحق ... قررت اللجنة فوز فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن فتح الله بدران بشهادة العالمية مع لقب أستاذ من درجة ممتاز فى التوحيد والفلسفة » . فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف ...

ورجعت إلى « الدير » والذهن مملوء بتفاصيل هذه الحفلة الثقافية العليا ؛ فحدثتنى نفسى أن أسطر هذه الأسطر ؛ لعلها تساهم – لا من جهة الرأى الشخصى ؛ بل من جهة الواقع المحسوس – أقول : لعلها تساهم فى إيضاح مشكلة الأزهر التى عولجت مرارا على صفحات مجلة الرسالة الغراء .

الأب قنواتي

---

(١) عرضنا هذه الأقوال على سعادته فأقرها .

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والجبال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٢ —

البرسبيتيريز والصدمة الثانية :

قلت قيمة المرأة في نظر ملتن ، وانحط مستوى الطبيعة البشرية عما قدر لها من قبل في خياله وفكره ، وساءه أن يعرض معاصروه عن آرائه في الطلاق ، وما جاهد جهاده إلا لخيرهم ؛ وآلمه وكدره أن يخاصمه بعض الناس وأن يناصبوه العداء ؛ وجاءت مخالفة البرسبتيريز إياه بعد ذلك ، فكانت هي الطامة الكبرى .

قدر ملتن أن سوف ينظر إليه أهل عصره لما أذاع فيهم من رأي في الطلاق نظرتهم إلى مصلح عظيم ، وكان يرى في تطلع ذلك العصر إلى الإصلاح وشدة ميله إلى تغيير كل شيء وعلى الأخص في السياسة والدين حافزاً يحفزه ويزيده استبشاراً وأملاً ، كما كان يدفعه إلى الجد ويوحي إلى نفسه أنه يعمل عمل أفذاذ المصلحين ، شدة ثقته في نفسه وكثرة الذهاب بها ويقينه من تمكنه وضلاعته واتساع أفقه ، وما يرى من إكبار أصحابه إياه ؛ ومن كان هذا شأنه كان خليقاً أن يستشعر مرارة الخيبة مضاعفة وأن يبلغ من نفسه الألم مبلغاً عظيماً إذا لقيه الناس لا بجفائه وإعراضهم عنه فحسب ، بل بمدافعة آرائه كذلك ومجاهرته بالسوء من القول ؛ وكان كذلك خليقاً أن يغضب وأن يرد عمل أهل عصره إلى الغباء والجهل والجمود ، وإنه ليوقن أن ما بينهم وبينه من فرق في الثقافة والمعرفة كمثل ما بين الظلمات والنور .

ولقد أفصح عن مبلغ ما كان يضطرم في نفسه من حنق على قومه ، وعن مبلغ ازدرائه إياهم وسخره منهم في مقطوعتين نظمهما سنة ١٦٤٥ ؛ ففي الأولى راح يتهكم ويسخر من جهل خصومه قائلاً إن كتاباً اسمه « تترا كوردون » أذيع في الناس من وقت قريب فبلغ من جهل بعضهم أنهم نظروا حيارى إلى عنوانه قائلين ما هذه الكلمة التي اتخذت له عنواناً ، وقرأ بعضهم فأخطأ النطق وعجز عن الهجاء ؛ ثم يعجب الشاعر من هؤلاء ويستعرض بعض أسماء ألفوها ويتساءل قائلاً : لم يكون عنوان كتابه أعسر منها في أفواه هؤلاء السادة ، وقد ألفت أفواههم العسير الجافي من الكلم ، ثم يذكر أول أستاذ للغة الأغريقية في كمبردج في القرن السادس عشر ، ومعلم الملك ادوارد السادس وهو سير جون تشيك ، فيناجي روحه قائلاً : « إيه يا روح سير جون تشيك ! إن عصرك لم ينفر من المعرفة إذ كنت تعلم كمبردج وتعلم الملك الأغريقية كما ينفر من العلم عصرنا الذي نعيش فيه » .

وفي المقطوعة الثانية كان ملتن أشد حنقاً وأوجع هجواً منه في سابقتها وحسبك منه قوله : « إنما جهدت أن أحمل أهل هذا العصر على أن يتخلصوا من قيودهم ، وذلك بالرجوع إلى قواعد الحرية القديمة المعروفة[1] . وبينما أعمل عملي إذ أحاطت بي جوقة من البوم والحمير والقردة والكلاب ، ففعلوا بي كما فعل أولئك القرويون الذين أحيلوا إلى ضفادع[2] جزاء بما أجرموا إذ هوشوا على نسل لاتونا التوأمين[3] اللذين صار لهما بعد ذلك ملك الشمس والقمر ؛ وذلك الذي نالني إنما هو كل ما يناله الرجل من جزاء إذ يلقي باللآلىء إلى فصائل من العجماوات تجهد في غبائها المجرد من كل حس في طلب الحرية ، حتى إذا جاءها الحق الذي يكسبها الحرية ثارت ضده وتألبت عليه ؛ وهؤلاء إنما يعنون الفوضى إذ يهتفون بالحرية ؛ فإن من يعشق الحرية ينبغي أولاً أن يكون خيراً عاقلاً ؛ وإنا لنستطيع أن نرى إلى أي مدى يبعد هؤلاء عن الهدف

---

(١) يقصد ملتن ما جاء في التوراة من قوانين عن الطلاق ، وما أخذت به الكنيسة المسيحية في أيامها الأولى

(٢) جاء في الميثولوجيا أن جونو أرغم لاتونا عشيقة جوبيتر على الفرار فظلت تبحث لنفسها عن مأوى ، فبينما كانت تشرب من بحيرة في ليشيا إذ بصر بها بعض القرويين فآذوها وأهانوها وعكروا الماء بأيديهم وأرجلهم فعاقبهم جوبيتر بأن أحالهم إلى ضفادع .

(٣) ولدت لاتونا بعد ذلك أبولو إله الشمس وديانا إلهة القمر ؛ ولم يفرق ملتن هنا بين لاتونا ونسلها .

على الرغم مما ينفق من مال وما يبذل من دم[1] .

ولئن بلغ به الحنق هذا المبلغ على أهل عصره بوجه عام ، فقد كان حنقه على البرسبتيريتز أشد من ذلك درجات ، وكان أسفه لما كان من موقفهم حياله أعظم وأقوى ، فن أوهى الأمور وأقبحها أن تأتى الخيبة من حيث يلتمس الرجاء ، وأن تقع البلوى على يد من يطلب عنده العزاء ...

آلم ملتن وزاده غما على غم أن يعلم أن البرسبتيريتز على منصاتهم وفى كتاباتهم يصفونه بالطيش ، ويقررون أنه يذيع مبادىء إباحية ، وأنه بما نشر إنما يمثل الألحاد والفسوق عن أمر الله أتم تمثيل ؛ ولكن روحه القوية لم تهن وإن أصابها الحزن ، ونفسه الأبية لم تذل وإن اجتمعت عليه المحن ، وأقبل يهاجم البرسبتيريتز كما هاجم القساوسة من قبل ، يأبى إلا أن يدافع أبدا عن الحرية فى أى صورة من صورها ، والمجال اليوم مجال حرية الرأى فما أحراه أن يناصر حرية الرأى .

اعتزم ملتن أن يعيد النظر فيما كان يرى من رأى فى الإصلاح الدينى ، وأحس فى نفسه الميل إلى مقاومة تشدد البيوريتانز وتزمتهم فيما يتصل بالدين وحياة المجتمع ، ذلك التزمت الذى بلغ منتهاه عند جماعة البرسبتيريتز ، والذى جعل ملتن يؤمن اليوم إن هؤلاء ليسوا أقل تعصبا ولا جمودا من القساوسة ، وليسوا أوسع منهم أفقا ولا أخف حمقا .

ولم يكن غضب البرسبتيريتز على ملتن بسبب ما جاء به من آراء حول الطلاق فحسب ، وإنما أغضبهم كذلك جرأته فى الدعوة إلى الاعتماد على العقل فى تفسير الأنجيل ، وعدم التقيد بأقوال من سبق من رجال الكنيسة فى تفسيره وتأويله ما لم يتمش ذلك مع المعقول ويوافق طبائع الأشياء .

فالمعركة اليوم إذا معركة الرأى وحريته ، والعقل وكرامته ، وشخصية الفرد وكيانها ، وحسب ملتن من الفخر أن يكون فى ذلك طلعة بين أهل عصره كما كان طلعة فى حربه على القساوسة وفى آرائه حول الطلاق ...

وحدث بين جماعات البيوريتانز خلاف سنة ١٦٤٣ جعل لخروج ملتن على البرسبتيريتز صدى أشد وأبعد مما كان يقدر له لو لم يقع هذا الخلاف ، وبيان ذلك أن مجمعاً من البيوريتانز انعقد فى وستنمستر فى تلك السنة للنظر فى النظام الذى تخضع له الكنيسة فى انجلترة ، أى طريقة إدارتها ، وقد قضى هذا المجمع بإحلال البرسبتيرية محل الأسقفية نهائياً ، وتغيير كتاب الصلاة المتبع ، ووافق البرلمان على ذلك ، وكانت أغلبية أعضائه يومئذ من البيوريتانز المؤيدين للبرسبتيرية ، ولكن جماعة من المستقلين خالفوا أعضاء مجمع وستمنستر فى بعض الأمور إذ أحسوا فيها تزمتا وشدة وطالبوا بشىء من الاعتدال ، ونشر خمسة منهم كتابا يحتكمون فيه لا إلى البرلمان وحده بل الرأى العام فى المملكة كلها ؛ فلما خرج ملتن على البرسبتيريتز سنة ١٦٤٤ ، وأخذ يطعن فيهم وهو الذى عرف بانتصاره للحرية أيد ذلك قضية المستقلين ، وأحاط البرسبتيريتز بشبهة التعصب ومجافاة حرية الرأى .

وقد بدأ الخلاف بين ملتن والبرسبتيريتز كما قدمنا فى أواخر سنة ١٦٤٤ وذلك بعد أن ذاع كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » وبعد أن نشر مقاله الذى جعل عنوانه « رأى مارتن بوسر فى الطلاق » ، فقد طالبوا بمصادرة كتيبه لأنه طبعه بغير تصريح مخالفنا بذلك قانون الطبع الذى هو من صنع أيديهم والذى أرادوا به حماية نظامهم الكنسى ، فرأى ملتن إذ ذاك أن أصدقاءه يعملون على خنق الحرية كما يعمل الأساقفة ، ومن ثم دب بينه وبينهم الخلاف؛ وهل يظل صامتا حيال صيحتهم؟ ذلك ما لا تطبقه نفسه وما لا تتطامن له كبرياؤه ؛ وذلك ما لا يتفق مع حبه للحرية حبا درج معه منذ نشأته ، وإذا فلا بد من رد ولا بد من صيحة يكربها عليهم ويدفع بها عن الحرية ؛ ولكن البحث فى الطلاق يملك عليه وقته وفكره فليدعه إلى حين ، وليجعل همه إلى كتيب يناصر به حرية الرأى ، ويهاجم فيه الرقابة على هذه الحرية هجوما عنيفا .

ويفرغ ملتن من كتيبه هذا وينشره فى نوفمبر سنة ١٦٤٤ أى قبل نشر كتيبه « ترا كوردون » بنحو أربعة أشهر ويعرف هذا الكتيب باسم « اريوباجيتيكا » ، وفيه يحتكم إلى البرلمان وإلى كل ذى رأى حر .

وبلغ من جرأة ملتن وكبرياء نفسه وتحمسه للحرية أنه نشر هذا الكتيب كذلك بغير إذن ، فكان عمله هذا تحديا للبرسبتيريتز من ناحيتين ، فهو يهمل قانون الطبع الذى وضعوه وقرروه ، وهو فى الوقت نفسه ينكر بكتيبه هذا الرقابة على الكتب كما تتمثل فى ذلك القانون ويراها قيدا بغيضا لحرية الرأى فمنده أنه يجب القضاء على هذه الرقابة « حتى لا يكون الحكم على ما يجوز طبعه وما لا يجوز لفئة قليلة أكثرهم لا يعدون فى

(١) يشير ملتن إلى الحرب الأهلية الدائرة الرحى يومئذ .

العلماء إذ أن كفايتهم عادية شائعة » .

وكان الكتيب فى صورة خطبة مكتوبة موجهة إلى البرلمان وقد جعل ملتن شعاره عبارة مقتبسة من كلام يوربيد أثبتها بنصها الأغريقى ؛ وهو بعد خطبة فليس فيه درس وفق منهج معين أو تمحيص لما يعرض له من آراء ، أو تقص للأفكار التى يؤيد بها رأيا أو يخالف رأيا ؛ ولكنه على الرغم من ذلك أو لعله بسبب ذلك كان من أحسن ما نشر ملتن من هاتيك الكتيبات ، فهو فيض نفس نبيلة حرة ، تفهق صفحاته بكلام من خير ما كتب فى الحرية فصاحة لفظ وبلاغة عبارة ورقة شعور ونبل حس وشجاعة رأى وحرية قول ...

وكان الأمل والحماسة ملء كتيبه هذا ، فلئن خاب أمله فى البرسبتيريز فليسوا هم كل شىء ، بل إنهم وقد نصبوا أنفسهم أعداء للحرية لم يعد لهم من الأمر شىء ، وإن انجلترة لتتجه نحو أمل جديد تراه فى شخص كرومول وهو زعيم المستقلين وجنده الظفر كما تنبىء حوادث الحرب ، وإن المستقلين جميعا وطلاب الحرية ليلتفون حوله ، فهو فى غده أمل انجلترة ونصير الحرية وبطلها ؛ ذلك ما كان يتحدث به ملتن إلى نفسه وذلك ما بث فى كتيبه الرجاء.

وزاد الأمل تمكنا من نفسه أنه وقد استعدى عليه الرقباء فى البرلمان لم يمسسه شىء مما أرادوا به من سوء ، إذ لم يرض مجلس اللوردات أن يشايع البرسبتيريز فيما يذهبون إليه من رغبة فى التضييق على حرية النشر ؛ واغتبط ملتن أيما اغتباط وارتاح أيما ارتياح إلى هذه المعاملة التى زادته ثقة فى نفسه ، ويقينا من علو مكانته فى قومه .

ويحس المرء لذة قوية إذ يقرأ هذا الكتيب ، فليس فيه مثل ما فى كتيباته التى أرسلها على القساوسة من غل الخصومة وعنف الهجاء ، وإنما يسوده الهدوء وحسن السياق ؛ وهو فضلا عن ذلك قريب إلى العقليات الحديثة بما حواه من أفكار حول حرية الرأى وحرية النشر ، وحسبك منه بعض ما كتبه ملتن عن قيمة الكتب مثل قوله : « إن من يقتل كتابا طيبا كمن يقتل رجلا ؛ بل إن من يقتل رجلا إنما يقتل مخلوقا عاقلا ، فى حين أن من يقضى على كتاب قيم فقد قتل العقل نفسه ؛ وإن كثيرا من الناس يعيشون عالة على هذه الأرض ، أما الكتاب الجيد فهو دم الحياة الغالى ، دم كاتبه ، ذلك الروح العبقرى ، وقد حنط ذلك الدم واختزن ككنز ثمين ليبقى ذخر الحياة بعد حياة » .

ويقع المرء فيه على كثير من العبارات المتينة الجميلة جمعت بين الأيجاز والشمول كقوله : « يظل الأحمق أحمق أوتى كتابا جيدا أو لم يؤت كتابا قط » . وكقوله : « يجد المطهرون كل شىء مطهرا ، وليس ذلك فى طعامهم وشرابهم فحسب ، ولكن فى كل صنوف المعرفة الطيب منها والخبيث فلا يمكن أن تفسد المعرفة كما لا يمكن تبعا لذلك أن يفسد الكتب ما دامت الإرادة والضمير لا يتطرق إليهما الفساد » .

ويأتى ملتن بطائفة من الآراء تنم عما كان يجول فى خاطره بعد القطيعة بينه وبين البرسبتيريز ، فهو ينكر اليوم عقيدة القدر المحتوم التى اعتنقها البيوريتانز عن كلفن ويأخذ بعقيدة الإرادة الحرة التى نادى بها أرمينيتس ويصف هذا الأخير بقوله « أرمينيس الواضح البين » وينفر ملتن من تزمت البيوريتانز وتشددهم فى كل شىء ، وبعد أن كان من قبل وهو الشاعر الذى يعشق الجمال ويحس الحياة إحساساً قوياً فى حيرة بين ما تقتضيه الطبيعية وما تقوم به الروح ، تراه اليوم يعلن أن فى وسع المرء أن يجمع بين الإثنين فى غير حرج ، وقد كان ما تقوم به الروح عنده قبل ذلك فى المحل الأول ، تجد ذلك واضحا فى قوله « لماذا خلق الله العواطف وبثها فينا ، ولماذا خلق مسرات الحياة وأحاطنا بها ، وليس معنى ذلك أنه يبيح الاستمتاع بزينة الله التى أخرج لعباده فى غير قيد ، ولكنه يريد ألا يتشدد فيرى فى كل زينة وفى كل متعة ما يوبق الروح كما يفعل الغالون من البرسبتيريز ، ولقد باتوا عنده كالقساوسة حماقة وضيق عقل وسوء تعصب كما يتضح فى قوله إذ يشير إلى خنقهم حرية الرأى « إنما تخرج أفانين القساوسة براعمها من جديد » .

ويعد ملتن فى الواقع بعد اختلافه مع البرسبتيريز من المستقلين ، بل لقد كان أكثر من مستقل ، فسوف لا يؤيد بعد اليوم نظاما كنسيا ما أو يأخذ برأى من الآراء لا يتحول عنه أولا يقلب النظر فيه ؛ أو يغشى كنيسة من الكنائس غشيانا رتيبا ، وإنما تسيطر عليه روح دينية توحى إليه تقواه وطهره . وإن كان مستقل الرأى لا يقبل شيئا لا يطمئن إليه عقله ولا يتقيد بمذهب معين ؛ على أنه وإن لم يتقيد بمذهب لا ينسى كراهته للقساوسة من أشياع روما والكاثوليكية بوجه عام ، كما لا ينسى غضبه على البرسبتيريز ولا اتهامه إياهم بأنهم أعداء الحرية ، وأنهم لذلك كالقساوسة عقبة فى سبيل الإصلاح الحق ، وأنهم يبالغون فى تزمتهم وتشددهم مبالغة تفضى حتما إلى النفور من مذهبهم .

(يتبع) **الخفيف**

حول الاتباعية والابتداعية

Classicism a d Romanticism

توطئة لدراسة الأقصوصة والقصة والرواية

للأستاذ فخرى قسطندى

هذا مبحث جديد قديم ، بكر مطروق ، كثر فيه القول ، وطال حوله الجدل ، وبرغم ذلك لم تنل منه الأيام ، فلم تعصف بطلاوته ولم تذهب بطرافته . كان بالأمس ولا يزال إلى اليوم مثارا لخصومة عنيفة ، ومدارا لأخذ ورد شديدين بين دعاة الكلاسيكية وأنصار الرومانتيكية ، دون الوصول إلى رأى جازم أو قرار حاسم أو نتيجة قاطعة . ومن طريف ما يروى أن نقطة الرومانتيكية كانت مبعث خيبة مريرة ، وذهول عميق لقارئين من قراء إحدى المجلات الأدبية التى تصدر فى باريس .

ذلك أن الفريد دى موسيه طلع عليهما فى ١٨٣٦ بكتابه : Lettres de Dupuis et Cotonet الذى فصل فيه القول عن الرومانتيكية تفصيلا ، وأفاض فيه إفاضة ؛ وألمع إلى معان لم تدر لهما بخلد أو تختلج لهما فى عقل . فما كانت الرومانتيكية عندهما حتى ذلك العهد سوى نزعة أدبية تطبق على المسرحية ولا تطبق على غيرها من سائر ألوان الأدب . فشكسبير على سبيل المثال رومانتيكى ، لأنه خرج فى مسرحياته على الوحدات الثلاث التى استنها رجال الأدب الأقدمون من نقاد الاغريق واللاتين ، وهى وحدات العمل والمكان والزمان فلم يتقيد بها أو يأبه لها . فشخوصه تطوف أبدا فى الأقطار ، ما يقر لها قرار ، تحل بروما ثم تلم بلندرة ثم تكر راجعة من حيث أتت ، وذلك كله فى ظرف وجيز ، ووقت قليل لا يتعدى ربع الساعة أو يتخطاها بحال من الأحوال .

وما كان لهما أن يتلقيا الصدمة الشديدة الوطأة بثبات روع أو هدوء بال ، وقد تبينا لأول مرة أن هناك حكايات Novels وقصائد odes ومقطوعات شعرية poems رومانتيكية ، كما أن هناك حكايات وقصائد ومقطوعات شعرية كلاسيكية .

وكان مما قالاه فى هذا الصدد « لم يكن فى مقدورنا حين تلقينا هذا النبأ أن نغمض العين طوال الليل « quand nous reçumes " cette nouvelle, nous ne pumes fermer l'oeil de le nuit "

هذا طرف مما وقع لبعض القراء من الخلط والاضطراب فى أمر هاتين اللفظتين ، وهو ليس بنادر الوقوع أو بعيد التصديق . فهاتان اللفظتان تضيقان بلا مراء بالمعانى المحدودة والمفهومات المعروفة . وفى إمكاننا أن نسوق الدليل بعد الدليل نؤيد به ما ذهبنا إليه ؛ فالأدلة كثيرة والشواهد متنوعة . ومن قبيل ذلك ما يؤثر عن العلامة ج . ج . روبرتسن J O. Robertson أحد نقاد الأدب الانجليزى المعاصرين . ففى ١٩٢٣ أصدر سفرا قيما يتسم بسمة العلم وغزارة المادة أطلق عليه دراسات فى أصول النظرية الرومانتيكية فى القرن الثامن عشر فى إنجلترا Studies in the genesis of Romantic Theory in the Cnte th le انتهى فيه إلى القول بأن الرومانتيكية فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر لم تكن من نتاج الأدباء الانجليز أو ابتكارهم بل هى مستمدة منقولة بجميع خصائصها وكافة سماتها عن لفيف صغير من النقاد الإيطاليين مغمورى الاسم . وفى السنة ذاتها ظهر كتاب فى بولونيا ، للنـــاقد الكبير جيسب كوفانن giuseppe coffanin نادى فيه بأن نفس هذا اللفيف من النقاد الإيطاليين قد توارث الروح الكلاسيكية السائدة فى عصر النهضة فى إيطاليا .

ولم يكن النزاع بين الكلاسيكية والرومانتيكية فى مبدأ الأمر سوى نزاع بين من ينتصرون للقديم ، وبين من يتعصبون للجديد فى الأدب ، ثم ما لبث أن استفحل الشقاق واتسع الخلاف واتسم بطابع الغلو والاسراف . فلم يرض أنصار الكلاسيكية بالقديم على قدمه ، لأن بالقديم شيئا من شذوذ ، وليس من سبيل إلى كلاسيكية قويمة ، يحل فيها الشذوذ والاضطراب ، محل الانسجام والائتلاف .

ولفظة رومانتيكى ابتداع لغوى حديث ، ولكن ما توحى به فى الذهن من معان معروف مشهور ، حتى قبل أن تخرج هذه اللفظة إلى حيز الوجود بعهد طويل . والنعت « رومانتيكى » أبعد فى القدم من الاسم « رومانتيكية » . وقد استعمل أول

ما استعمل فى انجلترا بعد الفتح النورماندى فى العصور الوسطى التى اشتهرت بانتشار القصص الشعبية الفرنسية French romances وحظ الخيال المفرط والتأليف الخصيب فى هـذه القصص أرفع شأناً من حظ الوقائع المعقولة والحقائق المجردة . ذلك لأن هذه القصص تروى ضروبا من البطولة خارقة ، وتحكى صنوفا من المغامرات فذة ، وتتغنى بأشكال من البسالة والاقدام نادرة المثال؛ ومن ثم اشتقت لفظة رومانتيـكى دلالتها من كل ما هو خارق فذ بعيد عن حيـاة الواقع . واستعملها الـكتاب فى هذا المعنى أو فيما يمت لهذا المعنى بصلة قريبة وثيقة . ولنضرب مثلا بما جاء فى سنة ١٦٥٤ فى مفـكرة ايفلين Evelyn أحد رجال البلاط الانجليزى المغرمين بمراقبة التطورات التاريخية وتسجيل الأحداث الشاذة المعاصرة لعهده « يوجد بالجانب الآخر من جبل الألب المهول هذا قصر رومانتيـكى للغاية » . كذلك كتب ساموبل بيبس Samuel Pepys أحد الثقات فى تاريخ إنجلترا فى القرن السـابع عشر وصفا موجزا فى ١١ من مارس سنة ١٦٦٧ ، للدسائس السياسية التى كان يحيك أطرافها ملك فرنسا وقال فى الختام « هذه الأمور رومانتيـكية قلبا وقالبا على وجه التقريب ، غير أنها حقيقية فقد أفضى إلى سير هـ . تشوملى Sir H. Cho lmly بأن الملك نفسه رواها له بالأمس » .

وإن دل هذا على شىء فلا يدل إلا على ثبات لفظة رومانتيكى على المعنى الذى أسلفنا فيه القـول ، وانصافها بكل ما هو ناء قصى عن العرف والتقاليد أو ثائر عصى على المألوف والمعقول . وقد استعمل توماس سبرات Thomas Sprat هـذه اللفظة فى كتابه : « تاريخ جمعية الأبحاث العـــلمية الملـكية » ، The History of the Royal Society للمقابلة بين منهج البحث العلمى البحت ، وبين منحى التخيلات وما يشوبها من إغراق لا غناء فيه ، قال : وسوف يكون هذا المنهج رد لأذهاننا من التضخم الرومانتيـكى Romontic Swelliuq ، لأنه يكشف لها عن الأشياء فى صورها المألوفة . وفى مثل جرمها تماما « وفى موضع آخر يقرر سبرات أن ما أصاب العلم من الغمز واللمز كان على يدى خصومه من المتحذلقين المتفلسفين الذين يرون أن العلم يصبغ الناس بصبغة رومانتيـكية ، ويدفعهم إلى تصور الأشياء على صورة أكثر كما لا مما تحتمله الأشياء ذاتها . »

ثم أقبل القرن الثامن عشر وبسطت عليه فلسفتها هوبز Hobbes ولوك hocke ظلا لها الوارفة ، ووجد العلم التجريبى مرتعاً خصيباً وأحرز نصراً مبينا ، فازداد الرأى القائل ، بأنه فى الامكان تفسير العالم على ضـوء العقل دون الالتجوء إلى ما هو خارق أو الولوج إلى ما هو غامض ، قوة وبقينا . ومصداق هذا الرأى ما جاء على لسان هرد Hurd « إن نور العقل قد أشرق منذ عهد قريب ، وهو يوشك أن يسيطر على أطياف الخيال الجسيمة . » هذه الأطياف التى كانت تنزل فى القلوب منزل اليقين بمالها من قوة اقتناع وشدة تأثير ، ثم ما لبثت أن أودت بها عجلة الزمان ويد الحدثان هى التى أجمع النقاد على نعتها بالرومانتيكية .

وقد سبق أن ألمنا إلى ما للرومانتيكية من صلة بالعصور الوسطى ، والآن يحق لنا أن نتساءل لماذا لم يرض هينى Heine عن هذه الصلة من حيث هى صلة لا أكثر ولا أقل ، حين يزعم أن لفظتى رومانتيكى romantic وميديفال medieval مترادفتان متكافئتان فى المعنى والجواب على ذلك هو ما جاء على لسانه « ما هى المدرسة الرومانتيكية فى ألمانيا ؟ إنها لم تكن ثمة شىء آخر غير بعث شعر العصور الوسطى من مرقده ، ذلك الشعر الذى تجلى فى المقطوعات الشعرية والرسوم الزيتية والتماثيل ، وفى ألوان الفن وصور الحياة السائدة فى تلك الأوقات » ومثل هذا القول لا يطابق الأدب الانجليزى مطابقة تامة ، فالأدب الإنجليزى أوسع من أن تحده مثل هذه الحدود والقيود . والذى يجدر ذكره هنا فى صدد التعقيب على هينى هو أن القصة وسائر فنون الأدب فى العصور الوسطى مدينة لذلك الخيال المفرط الخصيب الذى اشتهرت به العصور الوسطى ، والذى ينبىء عن عقلية وليدة رضيعة من أظهر مظاهرها وأخص خصائصها بناء عوالم من الأحلام والأوهام . ولما كانت العصور الوسطى فى انجلترا مقرونة بتدمير الأديرة وتخريبها بعد تولى أسرة تيودر مقاليد الحكم ، فمن البديهى أن ينصرف اهتمام الأدباء فى القرن الثامن عشر الذى بعثت فيه العصور الوسطى من جديد إلى الأنقاض والإطلال .

(للبحث بقية)

فخرى قسطندى
مدرس بالمدارس الثانوية

في ركب الوحدة العربية :

الأدب في فلسطين ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

طلب إلى أن أتحدث في فلسطين عن مصر ، وإن فلسطين لعزيزة على كل نفس ، حبيبة إلى كل قلب ، جديرة أن تذكر لدى كل بادرة ، ويستهل بها عند كل حديث .

ألست إذا ذكرت ذلك البلد الطيب — أينما كنت في بلاد الله ، في أوطان العروبة والإسلام — تحولت إليك الوجوه وتطاولت نحوك الأعناق ، وتطلعت لما تبديه القلوب والأبصار ؟ !

فيالله ما أعجب !! إن في ذلك الاسم لسراً من الأسرار ، بل إن فيه لسحراً من السحر ! !

أجل . إن فلسطين لتلك ، وإن الحديث عنها لذو شجون . إنها البلد القدس ، إنها بلد الوحي والنبوة ، إنها القبلة الأولى في الإسلام . فلا عجب أن تتشوق إليها كل نفس ، ويهفو لدى ذكرها كل فؤاد ... وإن مسالك الحديث عن فلسطين لكثيرة ، بل إنها لأوفر من أن يحيط بها حصر ، أو يطيف بها إلمام . فعلى أن أسلك سبيلا ينتهى إلى غاية ، فأتحدث عن حياة الأدب هناك .

وحياة الأدب في فلسطين حديثة العهد قريبة الأمد . فلو ذهبنا مع التاريخ غير بعيد ، لألفيناها خلواً من الأدب جملة ، عدا نتف من هنا وهناك ، كانت تبدو على أقلام الفقهاء ، ورجال الدواوين ؛ لا يصح أن تسمى أدباً ، كما لا يصح أن تعتبر مظهراً من مظاهر الأدب على أية حال .

وحين نتوغل في تاريخها . نجد أنها لم تنجب — على تطاول العصور — غير آحاد من الأفذاذ الذين كانوا يلتمعون بين حين وآخر ، وفيهم الكاتب والشاعر والمؤرخ . ومن هؤلاء : عبد الرحيم البيساني (القاضي الفاضل) ، وصلاح الدين الصفدي (صاحب التآليف الكثيرة) ، ومجير الدين الحنبلي (صاحب الأنس الجليل في أعيان القدس والخليل) . وآخرون غيرهم ، ندر أن تعاصر منهم اثنان ، فتركا أثراً بارزاً من آثار الأدب الخالد ، وذلك إذا اعتبرنا فلسطين في حدودها التي تنحصر خلالها اليوم .

ولعل السبب أنها بلد مقدس ، فيه المسجد الأقصى حيث الصخرة المشرفة ، وفيه الحرم الإبراهيمي والأنبياء من أبنائه . ولذا كان هم من أعرض عن الدنيا وزخرفها ، أن يشد إليها الرحال ، ليقيم فيها منصرفاً إلى الله وطلب رضوانه ، مقبلا على تفهم كتابه وسنة نبيه .

ومن هنا نبغ في فلسطين من أئمة الفقه ورجال السنة ، من بقيت آثارهم وفتاواهم — إلى اليوم — شاهدة على مبلغهم من هذا العلم ، وتبحرهم فيه . ومن هؤلاء : شيخ الإسلام خير الدين الرملي (صاحب الفتاوى الخيرية) والشيخ محمد الخليلي (صاحب الفتاوى الخليلية) ، والشيخ سعد الدين الديري الخالدي (صاحب السهام الخارقة في الرد على الزنادقة) ، والشيخ منيب هاشم الجعفري النابلسي (صاحب الفتاوى الشهيرة) . وحسب فلسطين فخراً أن تنجب على رأس هؤلاء : الإمام الجليل (أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الغزي) الذي طبق ذكره الخافقين ، وانتشر مذهبه في بعيد الآفاق .

« أضف إلى ذلك افتقارها إلى مفاتن الطبيعة وجمالها الفطري ، وخلوها من اتساع الحضارة وارتقاء العمران . فلا أنهار تسلكها قوارب المتنزهين و طلاب المتعة ، وتنتشر على ضفافها الحدائق والمتنزهات ومواطن اللهو ، ولا مدن كبيرة واسعة الأرجاء ، مزدهرة الحضارة ، كثيرة الأرباض ملتفة الرياض والغياض . كما هو الحال في القاهرة ودمشق وبغداد والمدينة وغرناطة وسواها[1] » .

ومن هنا نتبين أن فلسطين حديثة عهد بنهضتها الأدبية ، حتى أنه ما يزال معظم هؤلاء المؤسسين لهم أحياء يرزقون . ونرجو الله أن يمد في آجالهم حتى يؤدوا رسالاتهم على أتم الوجوه وأكملها .

ولعل الكثيرين من إخواننا في مصر (وغير مصر) يجهلون أن في فلسطين نهضة ثقافية وحياة أدبية ، ولا عجب

(١) هـذا رأى يراه أستاذنا الكبير أحمد سامي الخالدي (عميد الكلية العربية في القدس) . وليس لنا فيه غير صوغ الكلم .

فاننا نكاد نعيش فى معزل عن العالم العربى ، لقلة وسائل النشر عندنا . فلا مجلات شهرية تضاهى (المقتطف) و (الهلال) ، ولا مجلات أسبوعية تماثل (الرسـالة) أو (الثقافة) . اللهم إلا مجلة واحدة ، كان يصدرها قلم المطبوعات (شهرية) ، إبان الحرب الأخيرة ، واسمها (المنتدى) . وكان معظم ما ينشر فيها بأقلام مشاهير الكتاب من مصريين وسوريين ، وبعض الفلسطينيين ، ولذا لا تعتبر صورة صادقة عن الأدب الفلسطينى الخالص [1] .

كما أنه ليست هنالك دار للنشر تضاهى (دار الكتب) أو (دار الهلال) ، خلا دار حديثة ناشئة ، قام على تأسيسها جماعة فى (يافا) ، وهى تصدر سلسلة شهرية من كتيب صغير ، على غرار سلسلة (اقرأ) فى مصر إلا أن هذا الكتيب ينقص كثيراً فى حجمه عن كتيب (اقرأ) ، بالرغم من أنه يساويه بالثمن ، وقد صدر من هذه السلسلة إلى الآن خمسة أعداد على ما أذكر .

إذن ماذا يصنع الأديب الفلسطينى ليعرفه الناس ويعرفوا آثاره الأدبية ؟ إن أمامه واحداً من السبل التالية ، وليس له عنه منتدح :

فاما أن يطبع كتابه أو ديوان شعره من خاص ماله ، ويعرضه فى الأسواق (مجازفة) ويرتقب حظه ، ولا يقدم على هذا فى الغالب إلا الموسرون من الأدباء . وهؤلاء كثيراً ما يصادفهم النجاح .

وإما أن يهتبل فرصة ملائمة ، تسوقها مناسبة من المناسبات . ويبادر فيحتجن إلى نفسه هذا المجال المحدود الذى تمده الصحف اليومية لذلك ، (وعندنا منها صحيفتان هما الدفاع وفلسطين [2]) ، فيملأ ذلك المجال بشعره أو بنثره الذى أعده لتلك المناسبة .

وإما أن يترقب ميقاته فى (محطة الأذاعة الفلسطينية) ، ليحاضر الناس من وراء المذياع بشيء من أدبه . وهذه المحطة تعد فى برامجها أحاديث أدبية ، يقدمها فى الغالب أديب فلسطينى أو أديبة فلسطينية .

وقد يتجنب الأديب هذه السبل جميعاً فينظم أو يؤلف لنفسه ، (وكثيراً ما يأتى بروائع مدهشة) . فيبقى بعيداً عن الناس ، لا يدرى خبره إلا خاصة إخوانه وصفوة خلانه ، وسأقدم بعض هؤلاء الأدباء ، وأستشهد ببعض أقوالهم مصدقة لما وصفت .

هذا ما يفعله الأديب فى فلسطين ليتعرف إلى الناس ويقدم إليهم إنتاجه ، وليس كل أديب عندنا يشأى إلى نشر أدبه فى الأقطار المجاورة ، بل قليل ما أولئك .

وهأنذا أقدم بعض هؤلاء الأدباء الذين استطاعوا أن ينشئوا النهضة الأدبية فى هذا القطر ، وبالرغم من ضيق ذلك الأفق الذى يحوط بالأديب كما أسلفت ، وأذكر فى طليعتهم بعض من تقدم بهم الزمن . فظهروا فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر وتركوا آثاراً قيمة بين مخطوط ومطبوع ومنهم :

الأستاذ يوسف باشا الخالدى : وقد عاش هذا الأديب حياته بين العلم والسياسة ، فكان والياً ثم مبعوثاً فى البرلمان التركى ، فرئيساً لبلدية القدس ، كما كان مدرساً فى فلسطين ، ثم أستاذاً للعربية وآدابها فى جامعة (فينا) ، وهنالك ألف كتباً عدة ، بعضها مخطوط وبعضها مطبوع . ومنها كتاب كان الأول من نوعه ، استنبط فيه قواعد اللغة الكردية ، وأسماه (التحفة الحميدية فى اللغة الكردية) ، ومنها كتاب آخر اسمه (أنا) وهو مجموعة مذكرات وآراء ومعالجات شتى . كما شرح ديوان لبيد وجمع متفرقه وطبعه فى (فينا) . وله عدا ذلك أبحاث شتى ومحاضرات عدة ، وقد أقام فى الآستانة سوقاً أدبياً أسماه (عكاظ) ، وآزره فيه بعض معاصريه من الأدباء .

والأستاذ بندلى صليبا الجوزى : وكان هذا الأديب القدسى أستاذاً للعربية واللغات السامية فى جامعة (قازان) فى روسيا . ثم فى جامعة (باكو) . وله مؤلفات عدة أهمها : (الحركات الفكرية فى الإسلام) و (الأمومة عند العرب) و (أمراء غسان) . وجميعها مطبوع . والكتاب الأخير منها يكاد يكون تاريخاً للمسيحية العربية فى بلاد الشام ، ولعله استهدف ذلك فى تأليفه .

ومن أبرز ما يمتاز به هذا الأديب صبره البالغ حد العجب ، وجلده المفرط على البحث الدقيق ، والتحرى فى تحقيق ما اشكل وانبهم .

---

(١) عادت هذه المجلة أخيراً تصدر أسبوعية وتسلك مسلكا جديداً كما صدر أيضاً عدد من المجلات مؤخراً . سأتناولها جميعاً بالوصف ، حين يستوجب الحديث ذلك .

(٢) صدر أخيراً صحيفتان جديدتان ماتزالان فى طريق الاستكمال .

والأستاذ روحى الخالدى : وقد تنقل هذا الأديب فى دراسته الأولى بين الآستانة وأوربة ، وكانت له محاضرات فى جامعة (السوربون) ثم أقيم محاضراً فى (جمعية نشر اللغات الأجنبية) بباريس . وكان عضواً فى مؤتمر المستشرقين ، ثم قنصلا تركياً فى (بوردو) بفرنسا .

ومن تصانيفه القيمة : (العالم الاسلامى) و (علم الأدب عند الأفرنج والعرب) و (الانقلاب العثمانى) و (رحلة الأندلس) و (المسألة الشرقية) . وجميعها مطبوع . ومن كتبه المخطوطة : (علم الألسنة) و (تاريخ الصهيونية) وهما فى المكتبة الخالدية فى القدس .

ثم الشيخ يوسف النبهانى : وهو أديب فقيه شاعر . نزح من قريته (اجزم) قرب حيفا إلى بيروت ، وهناك التمع واشتهر وكان راسخ العقيدة شديد التعصب فى دينه ، وتبدو آثار تعصبه هذه فى معظم ما صاغه من شعر وأبدعه من نثر .

وله مدائح نبوية كثيرة ، تكاد تكون معظم شعره . وكانت تربطه بالأمير شكيب أرسلان صداقة وثيقة العرى ، تتجلى بما كانا يتبادلانه من شعر ونثر . كما كانت تربطه بالأستاذ فارس الشدياق أواصر إلفة ومودة ، حملته على أن يرثيه حين موته بقصيدة رائعة قال فيها :

كم من مشاكل أعيتنى فأوضحها
وقال هاك فكاد الطفل يحكيها

وله قصائد (أيضاً) غاية فى متانة السبك واختيار الألفاظ ، إلا أنها قيلت فى هجاء الأئمة الثلاثة المصلحين ، (جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا) وهم أعلام الهدى والفضل كما تعلم ! !

ويمدح الشيخ الصيادى بقصيدة يقول فيها :

ويممت دار الملك أحسب أنها إلى اليوم لم تبرح إلى المجد سلما
فألفيت فيها أمة عربية يرى الترك منها أمة الزنج أكرما

وللنبهانى كتب كثيرة ، أذكرمنها كتابه (الأنوار المحمدية[1]).

(له تكملة) محمد سليم الرشدان

(ماجستير فى الآدب واللغات السامية)

---

(١) الأستاذ (إسعاف النشاشيبي) أديب العربية الأكبر معجب بهذا الشيخ إعجاباً يفوق الوصف . ويقول — حفظه الله — : إنه لو نشأ فى غير بيئته لكان (على عبقريته) من أنداد شوقى وحافظ

ويلتا لو علموا . . . !

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

من كتاب العمر ، من سفر السنين
صفحات عنـــد أخرى ينطوين
ما روى مرقومها غير الأسى ما حوى مسطورها غير الأنين
عـبراتى فى حواشيها جرت وجراحى قطرت فوق المتون
يا لعمـــر رنقت منهلَه بَغَتاتُ الدهر والدهر خؤون
جزتها تسعاً وعشرين فهل غير كأس الشجو عاطتنى السنون
مرست لى الصاب فى شهد الصبى ومن الأفراح عاضتنى شجون

* * *

ويقولون : تحدى واقعاً قيد الروح بأغلال العذاب
وانعمى بالعمر ، ما العمر سوى غفوة العين على حلم كِذَاب
يتصدى تارة جهم الرؤى وهو طوراً ذو خيالات عِذاب
هو ذا الواقع ، حلم عابر فاغنميه كلما لذ وطاب
وإذا يسرى وجيماً راعباً فتحديه بأفراح الشـباب
وابسمى ، فالزهر رفاف الندى وانعمى فالغصن ريان الأهاب

* * *

ويقولون : اصدحى وانطلقى من إسار الحزن، من قيد الفكر
حسْب ألحانك ما أرسلته من شجا فيها ودمع منهمر
أبــكاء والتياعاً وأسى والصبى فرحة أيام العمُر
والصبى طير طروب روحه غرد ما راح ، شاد ما بكر
خاطف عما قليل ظـله إذ يوافيه الخريف المنتظر
حين لا النوار نمام الشذى لا ، ولا الروض أنيق مزدهر

* * *

ويلتا لو علموا كيف هوى ذلك الطير دراكا من سماه
الدياجى طبقت آفاقـــه والرياح الهوج طاحت بقواه
من رآه قلقاً فى وكره لاثباً ، يوشك يرديه صداه
إن هفا يبغى انطلاقاً كسرت من جناحيه أعاصير الحياه
أو شدا قام الشجا معترضاً آخـذاً منه بأوتار اللهاه
.. ..
كيف يشدو ؟ كيف يهفو وعلى ريشه يجرى نجيع من دماه



حول (لاغير) :

نشرت (الرسالة) الغراء فى عددها ٦٧٦ رداً ضافياً للاستاذ الجليل النشاشيبى انتقد فيه تعليقة الأستاذ الدنى على (لاغير) الواردة فى (عبث الوليد) ومما جاء فى هذا الرد قوله : (وإن خيل أنه جاء من أعمال (لا) عمل (ليس) ، فاللحن نفسه يسطر) الخ ...

وهنا مع تقديرى للاستاذ الجليل وإعجابى بنقله وتحقيقه أرى أن فى رده هذا ما يحتاج إلى التعليق فأستأذن حضرته فى إبداء الملاحظة الآتية :

يرى لفيف من النحاة كالسيرافى وابن هشام أن كلة (غير) لا تقطع عن الإضافة لفظاً إلا إذا تقدمتها (ليس) ، وفى غير هذه الحالة لا يرون القطع لعدم سماعه عن العرب ومن ثم لحنوا من يقول : (لاغير) لتجاوزه بالقطع مورد السماع قال السيرافى : الحذف إنما يستعمل إذا كانت (غير) بعد (ليس) ، وإذا كان مكانها غيرها من ألفاظ الجحد لم يجز الحذف ولا يتجاوز بذلك مورد السماع) .

وقال ابن هشام : (ولا يجوز حذف ما أضيفت إليه (غير) إلا بعد (ليس) فقط كما مثلنا وما يقع فى عبارات العلماء من قولهم : (لاغير) فلم تتكلم به العرب) .

وقال الأشمونى فى تنبيهات الإضافة : « الثانى قالت طائفة كثيرة لا يجوز الحذف بعد غير (ليس) من ألفاظ الجحد فلا يقال قبضت عشرة (لا غير) » .

وبهذا يتضح جلياً أن اللحن لم يجىء فى نظر هؤلاء اللحنين من أعمال (لا) عمل (ليس) كما ظن الأستاذ الجليل حفظه الله وإنما أتى من مجاوزة مورد السماع فى القطع كما مر آنفاً ومن هنا كانت إطالة الأستاذ فى الاستدلال على جواز أعمال (لا) عمل (ليس) جهاد فى غير عدو ، وكان على الأستاذ وقد جنح إلى تخطئة هؤلاء اللحنين كما جنح إليها كثير من المحققين أمثال ابن مالك وصاحب القاموس وغيرهما أن يقابل الدليل بالدليل ، ويثبت سماع القطع مع (لا) عن العرب الذين يستشهد بكلامهم فى هذا الموضوع كما فعل ابن مالك فى شرح التسهيل حيث أثبته فى قول الشاعر :

جواباً به تنجو اعتمد فورينا لعن عمل أسلفت لا غير تسأل

ولكن الأستاذ رعاه الله أغفل هذه الناحية وا كتفى بعرض (جريدة) من استعمال المؤلفين (ومنهم المعرى موضع النزاع) وهو يعلم جيداً أنها ليست بالحجة القاطعة فى محاججة المانعين ، وأنها إن أقنعت أمثالى من المقلدين فلم تقنع أمثال السيرافى وابن هشام من زعماء النحو المجتهدين ، فياحبذا لو أن الأستاذ أعاد الكرة ، واستظهر دواوين العرب ورسائلهم فربما يعثر فيها على شواهد أخرى تؤيد الشاهد ابن مالك الآنف الذكر الذى وصفه الدمامين بأنه شاهد غريب وما ذلك على همته العالية (وهو ابن بجدتها) بعزيز ، والسلام عليه ورحمة الله .

(طرابلس الغرب) **عبد الرحمن الفلهود**

١ — بيان :

نقلت ست جرائد فى مصر والعالم العربى ، مقالتى الثالثة عن (يوم الجلاء) المنشورة فى الرسالة ، وعلق أكثرها عليها تعليقا لم أجد معه بداً من أن أبين (للحقيقة والتاريخ) أن الزعيم السورى إبراهيم بك هنانو قد توفى من عشر سنين .

٢ — ثناء بالحق :

أهدى إلى من القاهرة العددان الأخيران من مجلة (شباب محمد) فوجدت فيهما من صدق اللهجة ، والصدع من الحق ، وإصابة المحز ، ووصف حقيقة الداء ، ما جعلنى أقول :

هذا ما أراده المصلحون فأخطأوه ، وحاموا حوله فلم يبلغوه .

فللقائمين على هذه المجلة — وإن كنت لا أعرف أحداً منهم — شكرى وإكبارى ، وأسأل الله أن تكون أفعالهم كأقوالهم ، وأن يكثر فى مصر من أمثالهم .

٣ — خطأ تاريخي :

في (قضية سمرقند) لعلي الطنطاوي (الرسالة ٦٨١) خطأ تاريخي ، والصواب فيه أن قتيبة بن مسلم لم يدرك أيام عمر بن عبد العزيز ، وأن العامل على سمرقند في تلك الأيام هو سليمان بن أبي السري .

نبهت على ذلك قبل أن ينبه عليه غيري .

علي الطنطاوي

الموسيقى والغناء الشعبي :

يظن بعضهم أن الغناء الشعبي نوع من الموسيقى السهلة يستطيع أن يدخل في مضمارها كل من أوتى حظاً قليلا من المعلومات الفنية ، وهم في هذا لا محالة خاطئون ، فإن الموسيقى الشعبي مضطر إلى مراعاة أمور كثيرة في فنه قد لا يلتزم فيها غيره منها دراسة نفسية الشعب والتزام حدود الأخلاق فيما ينتج من فنه فوق ما يحتاج إليه من قدرة في التصوير وثقافة علمية وموهبة فنية . ثم هو يمتاز بعد ذلك بصفاء النفس وشعور خال من التعقيد الذي يفسد سذاجة الطبيعة ، وبهذا تتحقق الغاية من فنه ، وهي الارتفاع بنفسية الشعب وترقية أخلاقه وتهذيب مشاعره . .

فالموسيقى إذن أداة من أدوات التهذيب لا تقل في أثرها عن فن الكاتب وأساليب المصلح ، فهي أسهل مدخلا إلى النفس ، إذ لا يبذل المستمع ما يبذله من جهد في الاستمتاع بسائر الفنون الأخرى التي تتطلب منه جهداً عقلياً ، بل هي تنفذ مباشرة إلى النفس دون وساطة العقل

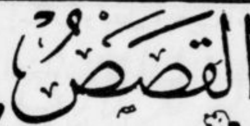
من الفنانين الذين قد اجتمعت لهم تلك الخصائص الفنان العظيم المرحوم الشيخ سيد درويش ، تلك العبقرية النادرة التي هي من أعظم مصادر فخرنا ، والتي لا نفتأ نحس بالعظمة ونشعر بالعزة كلما ذكرناها . . .

ولكن كم يزداد أسفنا حينما ننظر الآن إلى موسيقانا الشعبية وما أصابها من إسفاف وتبذل ، حيث أننا نطلق الآن عليها هذا الإسم من باب التجاوز لا من باب الحقيقة ، فما هي إلا مظهر من مظاهر العبث والانحلال الخلقي يتمثل في فئة من الشباب قد عجزت عن تحصيل عيشها من طريق مشروع ، فانطلقت تملأ الجو بما من الله به عليها من هذا (الفن) الذي نخشى أن يؤدي بنا يوماً إلى العار المطلق والسقوط الشنيع .. !

هذا ، علاوة على ما شاع في الأغاني من عبارات لا يقصد منها إلا استفزاز الغريزة واستثارة الشهوات بأقبح أساليب التعبير وأحط ضروب الكلام ! !

فهل يمكن أن نأمل لهذا الحال صلاحاً ؟ إننا نهيب بولاة الأمور أن لا يتركوا الأمور تجري على هذا الحال المشين ، وأن يضعوا حداً لهذا الشر الشائع والفساد المنتشر . . . فلعله إذا صحت الموازين ، واستقامت الأحكام أن تجني البلاد ثمار عباقرتها المغمورين وأفذاذها الخاملين ! !

عبد الحليم أحمد عبد العال
معهد فؤاد الأول للموسيقى العربية



قصة من الأدب الروسي الرفيع :

الملاك ...

للكاتب الروسي الكبير لوى تولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

[ولد تولستوى — فيلسوف روسيا العظيم — فى ٢٨ أغسطس سنة ١٠٢٨ من عائلة عريقة « أرستقراطية » وكان شغوفاً بالعلم ، مكباً على الأدب محباً للحكمة . . . فلما رأى ذلك البؤس الذى يحيط بالفلاحين . . وشاهد تلك التعاسة التى تكتنف العمال ... انبثق في فؤاده نور الحق ، وتفجرت فى قلبه عيون الرحمة والعطف ، فعقد فى نفسه ألا يهدئ باله حتى يقوم على إسعادهم ، ولا يسكن فؤاده حتى يعمل على خيرهم . وظل — طيلة حياته - يكافح فى سبيلهم ، فعاش في أملاكه يزرعها ويقسم ما تغله بين الفلاحين ، ثم لم يلبث أن تخلى عنها ووزعها بينهم . . . واتهم — آخر أيامه — بالإلحاد . . فاختني ردحاً من ا من .

ويعد « تولستوي » القطب الأول والكاتب الأكبر فى روسيا . . . وتعد كتبه « الأناجيل الأولي » للثورة الشفية ، التى بذر بذورها . . . غير أنه لم ير الغرس وهو يستوى على ساقه ، فيهز الروسيا ويهز العالم أجمع . . . فقد قضى فى ٢١ نوفبر سنة ١٩١٠ .

وما زالت كتبه — وقد شاعت فى أرجاء العالم — تظفر بكل إعجاب وإجلال . ومنها « البعث » و « القيامه » و « الحرب والسلام » و « أين المخرج » . . .

وهذه القصة — التى نبسطها اليوم على صفحات « الرسالة » الغراء — من أروع الأمثلة على ما كان يفيض به تولستوى من الحس العميق والوصف الدقيق لحياة عائلة من تلك الطبقة التى كرس حياته لرفعتها ونصرتها . .

وقد دعتنا الضرورة إلى تحوير العنوان التى عرفت به هذه القصة وهو « what Men Live By » أى « بماذا يعيش الناس » ؟]

« م . جميل »

كان الاسكاف « سيمُون » يعيش مع زوجته ، وأبنائه فى شظف من العيش يسكنون كوخاً صغيراً مغبراً ، بأجر من المال يؤدونه لصاحبه الفلاح ... وكان « سيمون » يكسب رزقه من عمله فى جهد وجحد ، وينفق كل ما تمسكه أنامله من دراهم على إطعام عائلته ، وما أندر الخبز فى ذلك الحين!

وكان للرجل وزوجته مدرعة من صوف يرتديها كل منهما حيناً فى الشتاء ، حتى رثّت وبليت ، وقد تقضى عام وهو عازم على شراء مدرعة أخرى ، فما أن أقبل الشتاء ، حتى أمكنه أن يقتصد بعضاً من المال : ثلاث « روبلات » مخبأة فى صندوق لزوجته ، وخمس « روبلات » وعشرين « كوبك » يدين بها بعضاً من زبائنه !

وتهيأ ذات يوم ليؤم القرية ، فارتدى « مَطرف » زوجته على قيصه ، ثم لبس ثيابه الأخرى فوق ذلك ، ووضع الثلاث « روبلات » فى جيبه ، واقتطع لنفسه عصاً يتوكأ عليها ، واتخذ سبيله إلى القرية بعد أن أفطر ...

وفى طريقه راح يحدث نفسه : « سوف أحصل على الخمس « روبلات » وأضيفهما إلى الثلاث « روبلات » فيصير ما معى كافياً لشراء مقدار من الصوف لمدرعة الشتاء ! »

ولما بلغ القرية بعد لأى طرق باب أحد الفلاحين فلم يجده بالدار ، ووعدته زوجة الفلاح أن النقود سوف تصله فى الأسبوع القادم ! وطرق « سيمون » باب فلاح آخر ، فأقسم له هذا أن يديه صفر من المال ، وسيدفع له كل ما معه « عشرين كوبك » قيمة إصلاح حذاء قام سيمون برتقه !

فحاول « سيمون » أن يشترى « صوف المدرعة » بما معه ، وبقرض يؤديه بعد حين ، فرفض البائع قائلا فى صوت ساخر : « إيتنى بالمال ، وسوف يكون لك ما توده من الصوف ، فإنا نعلم كيف يحصل المرء على دينه ! »

فأحس سيمون بالخور يسرى فى جسده ، والقنوط يتسرب إلى فؤاده ، فقام إلى حانه حيث نهل كأساً من الخمر بعشرين « كوبك » ، وقفل راجعاً إلى داره !

كان للخمر أثرها فى سيمون ، فسرى الدفء فى عروقه ، وزادت من قوته ونشاطه . فراح يفكر : « إنى أحس بجوانحى تختلج دفئاً وحرارة ، مع أنى لست مرتدياً مدرعة من الصوف ، لقد تناولت قطرة من الخمر فكان لها أثر النار تسرى حرارتها فى

عروقى ، فلست بحاجة لمدرعة من الصوف أقى بها جسدى زمهرير الشتاء ! ! »

ليت زوجتى ترتشف قليلا من الخمر . فتحس ما أحس ! ! صه ... ويلك ... أتود أيها الرجل أن تقضى عليك زوجتك إن خبرتها أنك تناولت بعضاً من الخمر ... إنها سوف تحطم الآنية على رأسك الفاضل ..! ياله من سائل عجيب يدفع النشوة إلى الروح والحرارة إلى الجسم !! . لست أبالى شيئاً ... ولكن زوجتى سوف تكتئب ويؤلمها أنى عدت دون صوف المدرعة !. ليس على من جناح !! ... فقد طلبت حقى فأنكره واحد . وأعطانى الآخر عشرين « كوب » ... هه ... وماذا أنا فاعل بها .؟! لست أدرى غير أن أشرب بها ... إن الواحد من هؤلاء يملك الأرض والدور والحيوان ... ثم يبخل على بحقى حقى الذى أعمل سحابة يومى وجنحاً من ليلى كى أظفر به ... فإذا ما انتهيت أنكروه على يا للعار . إن الواحد منهم لينعم بالدقيق والطعام أما أنا فأنفق ثلاث « روبلات » كل أسبوع للخبز وحده ... فإذا ما عدت إلى الدار وجدت الخبز قد أُكل فأبيت على الطوى ! . وهل أملك غير ذلك ؟ ! ومن أين آتى بالنقود ؟ ! أمن « هؤلاء » الناس الذين لا يقيمون عن الطعام إلا وقد أصيبوا باللاظة .!! »

كانت تلك الأفكار والخواطر تضطرب بين جوانحه . حين أدرك — فى سيره — الكنيسة فى منعطف الطريق . فرأى جسداً كالثلج فى نصاعته !. فراح ينعم النظر دون أن يتحققه أيكون ثوراً !. لا ليس شبيهاً بالثور .! إن له رأساً يشبه رأس الإنسان ! بيد أنه ناصع البياض ! ... »

واقترب منه حتى أمكنه أن يجتلى الأمر ! . وكم كانت دهشته حين أدرك أنه إنسان عار ... يجلس إزاء الكنيسة فى سكون يدفع الرهبة إلى القلب .. فطار فؤاده هلعاً ، وتلبسه الخوف فزعا : « لا بد أن أحدا قد قتله .. وخلفه هنا .. سوف أمسك علىّ فضولى أو أصاب بأذى ... »

وانطلق فى سبيله ولكنه التفت إلى ماوراءه فرأى الرجل الجالس ينظر إليه ... فراع ذلك سيمون وزاد من جزعه . « أأعود إليه أم أنطلق ؟! إن أنا عدت إليه فسوف يحدث مالا يرضينى . بل يجلب الضر إلى نفسى فما وجد ثمت إلا لسوء .. ولعله يثب على ويخنقنى . وحينئذ لا تنفعك رحمتك ولا تشفع لك شفقتك ... وماذا أنا فاعل بإنسان عار ؟! لست بمستطيع أن أخلع عليه ما لا أملكه . دعه فللسماء شأن معه ! » وأسرع سيمون فى خطاه لا يلوى على شىء . بيد أن ضميره أخذ يؤنبه . فتوقفت خطاه . وأخذ يهس فى حيرة ويهمهم فى وجل : « ماذا أنت فاعل يا سيمون ؟ ! هب أن الرجل يلفظ آخر نفسه ! . ألا تتق الله فى فرارك منه ورغبتك عن عونه ! ! أأنت فى وفر من المال حتى تخشى أن تسرق ؟! ياللعار ياسيمون . ! » فانقلب آيباً إلى الرجل ونفسه مضطربة وقلبه يخفق ...

* * *

دنا سيمون من الرجل الغريب ، وراح يجيل الطرف فيه .. فرآه شاباً على جمال وحسن ! وليس على جسده أثر لجرح أو شج وقد جلس ثم معتمداً ظهره إلى جدار الكنيسة لا يرفع طرفه إلى سيمون من الوهن والضعف . فلما أحس بسيمون رفع رأسه إليه ، وألقى إليه بنظرة . كانت كافية لأن تستدر كل ما يختلج بين جوانح سيمون من عطف ورفق وحب . فخلع حذاءه . وألقى عن نفسه رداءه . وقال فى صوت خفيض فيه حنان وفيه رأفة : « ليس ثمت مجال للحديث !! . هيا إرتد هذا الثوب .» وأمسك سيمون بمنكبى الرجل ، وأعانه على النهوض ...

فلما نظر إليه — حينما انتصبت قامته — ألفاه ... مديد العود ... جميل الوجه ... فألقى على كتفيه رداءه وأعانه على لبسه وهم « سيمون » يخلع قبعته ليضعها على رأس الغريب . فأحس برأسه يقشعر من البرد فقال فى نفسه : « إنى أصلع ! . أما هو فله غدائر معقوصة فلا خوف عليه ! . بل يحسن أن ألبسه حذائى ... » فأقر قبعته على « صلعته » وأجلس الرجل . وجعل حذاءه فى قدميه ... وهو يقول فى جرس طيب عطوف « هيا . أيها الصديق . استشعر الدفاء ودع باقى الأمور تجرى وفق مرادها أنى قدرتك أن تسير ؟! »

فنهض الرجل ونظر فى امتنان إلى سيمون دون أن ينبس ببنت شفه فقال سيمون : « لماذا لا تتكلم ؟! إن البرد لقارص فلا بد من العودة إلى المنزل توكأ على عصاى وإلا أحسست بوهن وخوار . فاعتمد على ساعدى ... »

وخطا الرجل فى تعب وجهد . وفى خلال السير رفع سيمون صوته قائلا :

« من أين أنت ؟! . »

— « لست من هذه البقاع! »

« كذلك حدست . فإنى أعرف القوم هنا .! ولكن كيف قدر لك أن تصير هكذا جوار الكنيسة !؟ »

« لست أدرى ! »

— أساء أحد معاملتك ؟!

— لم يتعرض لى أحد بسوء ؟ لقد عاقبنى الله ...

دون ريب ... هذا هو حكم الله . سوف تجد عيشاً ومأوى أينما ذهبت ! فأين تروم ! »

— لست أدرى ! . »

فتولى سيمون الدهش . فما كان الرجل صاحب سوء أو خبث وتجلى من لهجته أنه خالص القلب . ولكنه لا يعلم عنه شيئاً . « من يدرى ما سوف يحدث !! » والتفت إلى صاحبه وقال : « حسنا ! . تعال إلى دارى على الرحب والسعة .! »

هبت الريح عاتية ، فياضة بالصقيع . فسرت القشعريرة فى جسد سيمون بعد أن أفاق من نشوة الخمر وذهبت عنه حرارته فأخذ يدثر نفسه برداء زوجته بعد أن خلع رداءه ... وراح يتحدث إلى نفسه : —

« والآن ، وقد ذهبت الخمر ، أعوزنا صوف المدرعة ، لقد انطلقت اليوم كى أعود بالصوف ، فما عدت بالصوف ولا بردائى أنا ، وفوق ذلك أتيت معى برجل عار ! سوف تستاء « مترونا » من ذلك ! »

وحينما جالت بفكره « مترونا » زوجته أحس بالانقباض والألم يتغلل فى جوانحه ، بيد أنه عندما ذكر صديقه الغريب ونظرته إليه فى امتنان وحمد رقص قلبه بهجة ومراحاً ..

* * *

نهضت « مترونا » زوجة سيمون ... ذلك اليوم بعبء واجبها المنزلى خير نهوض وانتهت من عملها مبكرة ... قطعت الأخشاب .. وحملت الماء ... وأطعمت الصغار ... وتناولت هى وجبتها ... وجلست ترقب أوبة زوجها ... وراحت تسائل نفسها: « أيكفى الخبز ... أم عليها أن تعمل بعضاً منه الآن ... لو أن « سيمون » تناول طعامه فى المدينة ... ولم يكن فى حاجة للخبز فى العشاء ... فسوف يمتد أجل الخبز يوماً آخراً ... لست بقادرة اليوم على أن أصنع خبزاً ... وسوف أدبر كل شىء حتى يكفينا إلى يوم الجمعة القادم ... » .. ووضعت مترونا قطعة الخبز الباقية فى مكان حرز ... وجلست ترتق ثياب زوجها ... وفى غضون ذلك راحت تفكر كيف يشترى زوجها صوف المدرعة كى تقيهما برد الشتاء ...

« آه ... لو أن البائع لا يخدعه ... أن زوجى لغرّ ... ! سهل على من يقوده ... إنه لا يخدع أحداً ... ولكن الطفل يستطيع أن يعبث به ... ثمانى روبلات مقدار كاف لشراء أجود الأصواف وأمتنها ... ! كم كنا نرتعد برداً ونرتجف من الصقيع فى الشتاء الماضى ... وما كنت أستطيع أن أهبط النهر أو أذهب إلى مكان آخر ولكن لقد بكر سيمون فى الذهاب ! ! وما عاد إلى الآن ... آمل أنه لم يذهب إلى الحانة ! ! .

ما كادت « مترونا » تردد هذه الخواطر فى ذهنها ... حتى طرقت أذنها أصوات وأحست أن بعضهم دلف إلى الدار فقامت تجتلى الأمر ... فأبصرت رجليه : سيمون زوجها ، وشخصاً آخراً . عارى الرأس ينتعل حذاء زوجها !! لم تره من قبل ! . »

وحينما لاحظت أن زوجها تفوح منه رائحة الخمر ... وليس عليه رداءه ... ولا يمسك بيده حزمة من الصوف ... أخذ مرجل غضبها يفور ...

وأفسحت لهما حتى دلفا أمامها ، ثم تبعتهما ... ووقع بصرها على ذلك الرجل الغريب وقد لبس رداء زوجها ... فلما دخلا الغرفة وقف الرجل الغريب لا يتحرك ولا يرفع بصره إليها ... فقالت فى نفسها « لعل السكر أخرسه وذهب بعقله ... »

وعبست بوجهها وقطبت جبينها ... ووقفت جوار «التنور» ترقب ما سوف يعملان ... !

وخلع « سيمون » قبعته ... وجلس على أحد المقاعد ... وكأن الحال يجرى على ما يرام .

— « هيا مترونا ! ! إن كان العشاء معداً ؟! فأتينا به . ! »

فزمجرت « مترونا » كاللبؤة الغاضبة ... ولم تتحرك من مكانها

جوار التنور — فرأى سيمون بوادر الشر تلوح فى وجه زوجته ··· فأراد أن يهدىء من روعها ويظهر أنه لم ير شيئاً ··· وقدم لصاحبه كرسياً وقال له فى مرح « إجلس ودعنا نصيب شيئاً من الطعام ··· ! هيا « مترونا » أما أعددت لنا شيئاً ؟ ! »

كانت نفس مترونا تلتهب غضباً وتغلى حنقاً فانفجرت قائلة :

— « بلى ··· لقد أعددت الطعام ··· ولكن ليس لكما ··· ! يخيل إلى أنك أنفقت نقودك فى الشراب ··· لقد ذهبت كى تحضر صوف المدرعة ·· فما عدت إلا ومعك شريد عارٍ عربيد ··· ليس لدى طعام للسكارى ··· ! »

— « كفى مترونا ··· أمسكى عليك لسانك ··· ! يحسن بك أن تسألى أى إنسان هذا ؟ »

— بل يحسن بك أن تخبرنى ما ذا فعلت بالنقود ؟ ! »

فأخرج « سيمون » الثلاث « روبلات » من جيبه وقال :

« ها هى ذى النقود ·· لم يؤد « تريفنوف » ما عليه ·· ! ووعدت زوجته بأنه سوف يدفع ·· » فلم يهدئ هذا من غضب مترونا ··· فهو لم يحضر الصوف ··· بل أنه ألبس واحدا عارياً ثوبه وأتى به إلى بيته ··· فاختطفت النقود من يده لتضعها فى مكان أمين وقالت لزوجها ··· « ليس عندى طعام ··· وما بمقدورنا أن نطعم كل سكير عارٍ فى العالم ··· ! »

— قلت كفى مترونا خير لك أن تسمى أى إنسان هذا — ! »

— « أمن الحكمة أن أنصت إلى سكير ؟ ! لقد كنت أعرض عن الزواج بك لهذا ·· ! »

***

حاول سيمون أن يخبر زوجته أنه لم يشرب إلا بالعشرين « كوبك » ··· وحاول أن يبصّرها بالحالة التى وجد عليها صاحبه الغريب ··· بيد أن مترونا كانت تنطق بسرعة هائلة ··· وتذكره بأشياء مضت منذ عشرين عاماً ··· وراحت تتحدث وتتحدث ، وأخيراً أمسكت بسيمون وراحت تصيح :

« أعطنى ثوبى ··· أنه الوحيد الذى أملكه ··· ! وقد أعرته لك كى تحضر صوف المدرعة ··· ناولنيه أيها الكلب الأجرب ··· وليعبث بك الشيطان ! ! . »

فأخذ سيمون يخلعه ··· ثم ناوله إياها ··· فألقته على رأسها وهمت بالخروج إلا أنها توقفت ··· ! وقد جال فى نفسها أن تعرف سر ذلك الرجل الغريب فقالت لسيمون:

لو أنه رجل مهذب لما أعجزه أن يستر نفسه بثوب يشتريه ! أيمكنك أن تخبرنى أين عثرت « عليه » ؟ ! »

— هذا ما كنت على وشك أن أخبِّرك إياه ··· حينما أدركت الكنيسة وأنا فى سبيل العودة — أبصرته جالساً عارياً يكاد أن يتجمد من البرد والصقيع ، فقد بعثنى الله إليه قبل أن يقضى عليه الجوع والعرى ، فما ذا كان على أن أفعله سوى أن أخلع ثوبى وألبسه إياه وآتى به معى ؟ فما كان له من مأوى ! ! ما الذى يدرينا كم كان يلاقى من العذاب الشديد ؟ لا تغضبى يا مترونا ، إن هذا ذنب غير مغتفر ، واذكرى أننا سوف نموت جميعاً يوما ما ! »

وارتفعت ألفاظ الغضب إلى شفتى « مترونا » ، ولكنها ما لبثت أن ماتت قبل أن تلفظها ، فقد نظرت إلى الرجل الغريب وهو جالس فى سكون ووداعة على مقعده ، يداه معقودتان على فخذيه ، ورأسه ساقط على صدره ، وعيناه مغمضتان ، وجبينه مقطب ، كأن الألم ينهش فؤاده فينعكس على صفحة وجهه !

فصمتت « مترونا » على مضض ··· وقال سيمون فى صوت شاع فيه الرجاء والأمل : ألا تحبين الله يامترونا ؟ ! . »

***

فما سمعت « مترونا » هذه الكلمات ، وألقت طرفها ثانية إلى « الصاحب الغريب » حتى فاض قلبها إيماناً ··· وراحت الرحمة تدب فى نفسها ··· وأخذ الحنان والعطف يهز فؤادها ··· !

فذهبت إلى « التنور » وأتت بالطعام ··· ووضعت قدحاً على المائدة وصبت فيه بعض الشراب الساخن ثم أحضرت قطعة الخبز من مخبئها ومعها سكينان وملعقتان ··· وقالت فى صوت يفيض عطفاً . تفضل فتناول بعض الطعام ··· !

وأدنى سيمون المائدة من صاحبه . وفتت الخبز ووضعه فى المرق وراحا يأكلان .. وجلست مترونا فى جانب من المائدة ! ترقب الضيف فى نظرات فاحصة . فزاد عطفها عليه ورأفتها به . وحينئذ أشرق وجه « الغريب » وأضاء . فكأنه البدر يرفل فى هالة بالسماء . . ورفع عينيه النجلاوين إلى « مترونا » ونظر إليها نظرة وديعة . وافتر ثغره عن ابتسامة حلوة عذبة ···

(يتبع) **مصطفى جميل مرسى**

العدد ٦٨٥ — الاثنين ١٩ أغسطس ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

صفحة

٢٧٥١٥

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

وزارة الأوقاف

تشهر الوزارة بيع العقارات الآتية بجلسة السبت ٣١ / ٨ / ١٩٤٦

نوع العقار	المساحة بالمتر	الموقع	الثمن الأساسى بالجنيه	جهات الجلسات
دكان	١٥	١٥ حارة الخليج المرخم بالموسكى	٩٠	تفتيش ثانى بمصر
أرض	٥٢٦	شارع الخليج والظاهر	٧٨٨٧	« « «
منزل	١٩	١٦ عطفة الجزارين بالسيدة نفيسة	٤١	« ثالث بمصر
«	٩١	٥ عطفة الجاويش بباب الوزير	١٣٧	« خامس بمصر
«	١٧٩	١٢٦ شارع الملكة فريدة بالسويس		منطقة السويس
وكالة	٢٧٧	شارع جمال الدين بالمنزلة	٢٥٠٠	منطقة دكرنس
٧ دكاكين	٣٨٦	« « « «	٤٠٠٠	« «
دكان	٨٤	شارع البحر الصغير بالمنزلة	٩٠٠	« «
أرض فضاء	١٤١	حارة الجيزاوى بزفتى	٧١	« زفتى
وابور طحين	١٣٥٠	بندر إسنا	٢٢٨٥	« إسنا
أرض تقسيم ١٣	٩٢٨ ذراعاً	شارع قصر رأس التين بالأسكندرية	٢٤١٤	إدارة الأسكندرية

جلسة الأحد ٢٥ أغسطس ١٩٤٦ لبيع العقارات الآتية

نوع العقار	المساحة بالمتر	الموقع	الثمن الأساسى بالجنيه	جهات الجلسات
منزل	٣٠	شربين	٩١	منطقة شربين

إعـــلان

تقبل العطاءات بإدارة المخازن والمشتريات بوزارة الزراعة بالدقى لغاية ظهر يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٦ عن أعمال الصيانة والترميمات لعام ٤٦ / ١٩٤٧ بتفتيشى سدس وملوى .

وثمن القائمة جنيه واحد بخلاف ٣٠ مليما أجرة البريد .

٥٨٣٨

14 me Année No. 685

Lundi—19—8—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٦٨٥ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٢ رمضان سنة ١٣٦٥ — ١٩ أغسطس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

معجزة تولد وتموت . . . !

للأستاذ عباس محمود العقاد

تسامع الناس في العالم العربي بقصة « الانسان الغزالي » الذي وجده الصيادون في بادية الشام منذ أسابيع .

ولا نعيد القصة ، ولكننا نسجل الأعاجيب التي انطوت عليها لو صحت روايتها الأولى :

وهي أن ذلك الانسان الغزالي — وهو طفل في الثانية عشرة — كان يسبق السيارات ويعدو مع الغزلان بسرعة ثمانين ألف متر في الساعة ، ونزل بعضهم بهذه السرعة إلى خمسين ألفاً وهي ليست بالشيء القليل ؛ لأنها خمسة أضعاف السرعة التي يستطيعها العدّاء الرياضي بعد المرانة العلمية والاجتهاد الطويل .

والأعجوبة الأخرى أن هذا الطفل قد تبنته ظبية في البادية وتمهدته بالرضاع والحضانة حتى نما وكبر وأصبح يهيم معها في البادية كما يتبع الخشف أمه في أسراب الفلاة .

وتمت الأعجوبة بوصف شفتي الطفل ووصف قدميه . فان بعضهم أبى إلا أن يجعلها « حيوانية » في كل شيء . فالشفتان مشقوقتان لا تتكلمان ولكن تبغمان ... والقدمان ظلفان أو أشبه الأقدام بالأظلاف .

وأسرع الناس إلى التصديق ، وأسرع المعقبون إلى الاضافة والتعليق ، وأوشكت أسطورة الأسبوع أو الأسبوعين أن تفوق في الغرابة أساطير المئات والألوف من السنين .

ولا عجب فيما قيل من أن الطفل كان يأكل الحشائش والأعشاب ويستطيبها ، وأنه ظل في المستشفى الذي نقل إليه معرضاً عن الطعام الذي يأكله الآدميون . فان الآدميين يأكلون ألواناً من العشب والخضر في الحاضرة ويكتفون بها عند الضرورة وقد يستطيبونها ويكتفون بها لغير ضرورة .

ولكن العجب كل العجب في تلك السرعة المزعومة ، وفي تبني الحيوان للطفل الانساني بغير إرشاد وتدريب . فقد يحدث هذا برياضة الحيوان عليه زمناً يطول أو يقصر ، ولكنه لا يحدث في البادية من حيوان بين قطيع يظل وحده متكفلا بالرضاع بين سائر إخوته . فأما إذا كان القطيع كله مشتركا في الرضاعة على التناوب فذلك أعجب ما يروى من ضروب الكفالة الحيوانية بالاجماع .

وتساءل المعنيون بالرياضة عندنا عن السر في تلك السرعة وهم بين مصدق ومكذب ، فقال بعضهم : لعلها غريزة الجماعة الحيوانية تسري بعدوى الملازمة من الحيوان إلى الانسان !

وقال غيره : لعل السر في الحشائش والأعشاب التي قصر عليها الغلام غذاءه . فهي على ما يظهر أصلح لمرونة المفاصل والعضلات من اللحوم والأغذية المطبوخة التي يأكلها الرياضيون !

والواقع أن اللحوم لا تعوق آكلها عن العدو لأن كلب الصيد من أسبق الأحياء عدواً وأصبرها على الجري الطويل ،

ولأن العرب كلن فيهم عداءون لعلهم لم يأكلوا شيئاً غير اللحوم والألبان ، وإن أكلوا الحبوب والخضر فنى النـدرة بين الحين والحين .

ونعرف فى أعلى السودان قبائل قد اشتهر أبناؤها بعبور الصحراء ، أو — المتمور — كما اشتهروا بالجلد على الجرى والركوب وهم يأكلون اللحوم ويعافون كل « مُلاح » أو كل خضر مطبوخ معالج بالملح على الطريقة السودانية . ومن كلام شاعرهم يفتخر :

« ولا نشرب المدام نسكر ولا ناكل الملاح لاخضر »

وفيما بيننا أمثلة غير قليلة على السباقين من آكلى اللحوم أو الذين لا يصومون عنها على الأقل لغرض من هذه الأغراض .

فليس فى الظنون والأوهام — فضلا عن الحقائق والمعلومات — تفسير صالح لتلك الأعجوبة المزعومة أو تلك المعجزة التى شاء الله أن تصاب « بالسرعة » فى الزوال ، وهى سرعة لا تؤذن بالجدال

فبينما الناس فى هذا التساؤل إذا بمندوب المصور فى بيروت يزور الصبى فى مستشفى « ابن سينا » الذى نزل فيه بدمشق فلا يلاحظ عليه شيئاً من الشذوذ ، وقد ابتسم الصبى له وأظهر له قدميه فلم تكن بهما خشونة مستغربة ؛ بل كانت لهـا نعومة كنعومة أقدام الأطفال . وعلم المندوب من الطبيب « أن الصبى مر بالدور العادى فى طفولته ، وأن أمه أرضعته حتى فطمته ، وأن قصة رضاع الغزالة وهم وخرافة » .

وقد فسر مدير الصحة العامة بدمشق هذه الحادثة بأن الصبى قد تاه فى الصحراء ، وربمـا تعلق بسيارة وصلت به إلى الموضع الذى وجد فيه ، أو ربمـا خرج فى صحبة بعض البدو ثم ضل الطريق ، ولا يستدل منه على حقيقة الأمر لأن المسكين مصاب ببكم قديم ... ولعله ينطق بعد العلاج .

وهكذا ماتت الخرافة فى سرعة جديرة بموضوعها لائقـة بشأنها ، فتلقى الناس موتها بالأسف والخيبة لأنه حرمهم أعجوبة طريفة ، وهم لا يشبعون من الأعاجيب حتى فى عصر الأعاجيب ، وأخصها السرعة التى يصح فيها قول أبى العلاء :

ولمـا لم يسابقهن شىء من الحيوان سابقن الظلالا

فهم يودون لو تنقلب الدنيا كلها أعاجيب على شريطة أن تحفظ فيها « معجباتها » ، ولا تصبح كعجائب المتنبى التى كثرت حتى لا عجائب فيها . وليتهم يجربون هـذا الانقلاب أسبوعاً واحداً ليعلموا أن الوقائع والمألوفات لها « قيمة » حقيقة بالعرفان فلا يتبطروا عليها !

والظريف حقاً فى قصة هذا الصبى أننا رأينا له صورتين . فاذا هو أشبه إنسان بملامح غزال ؛ سواء فى دقة الجوارح أو فى تركيب الجمجمة أو النظرة الجفلة والوجه المسنون . فلو ظهرت خرافته فى عصر من العصور الوسطى لـكانت هـذه الصورة مصداقا لـكل إشاعة من إشاعات الخرافة المختلفة ، فيقول من شاء إن ابن الرضاع ينقل الشبه من الحيوان إلى الانسان ، ويقول من شاء إنه مولود غزالة بخارقة من الخوارق ، ويكون حظه من التصديق والإعجاب أتم وأعظم من حظ القائل بانتقال الملامح مع الرضاع ، بل يحق له حينئذ أن يشهر سيف التكفير على من ينكر هذه الخارقة ويشك فى إمكانها ، لأنه يستكثر تلك الخوارق على قدرة الله .

ومن خصائص هذه الحالة فى عصرنا أن تقع فى أيدى الأطباء الذين يعرفونها ويفسرونها وقد يوفقون لعلاجها ، ولـكنها لو تقدمت فى الزمن لـكان أكبر الظن أن تقع فى أيدى المشعوذين الذين يستغلونها ويبالغون فيها ويجدون من إشاعات الناس التى يتطوعون بها ما يزيدها ويساعد على ترويجها ... فهذا الطفل إذن قديس مبارك قد أعده الله للولاية فى البرية وحرمه النطق ليكتم أسرار الغيب ولا يبوح بها إلا بترجمان على حسب الوحى والتقدير ، وهذا البغام هو اللغة التى يفسرها الحواريون المحيطون به ولا يقدر غيرهم على تفسيرها ، وهذه الظبية — ويحضرونها يومئذ فى صحبته ! — هى أم القديس التى خصت من بين الحيوان بهذا الشرف العظيم ، ويباع شعرها بل بعرها للبركة « كأنه حب فلفل ... » أو يزيد .

وينقضى عمر الطفل وتنطوى بعده الأيام ، فاذا هو صاحب ضريح ، وإذا بالحواريين يتوارثون الأسرار ويترجمون عنه من وراء الصفائح والأحجار ، وربمـا بيعت ذرية الظبية بعدها — إن سمح لها مقامها القدسى بالزواج — فتغالى الناس فى أثمانها وتفاخروا باقتنائها فى المدائن والأمصار .

بعد عشرين ســـنة ...

للأســـتاذ على الطنطاوى

قلنا : قف بنا لحظة يا قطب . لقد هلكنا من التعب

قال القطب : امشوا . .

وضغط على (الميم) ومدّ (الشين) مدّةً ساخر بنا ، وأوسع خطاه فصمتنا وتبعناه مرغمين

وعدنا نمشى فى هذه البرية الواسعة ، وقد انتصف الليل وغاب القمر ، واحتوانا الظلام بسكونه الموحش وسواده المطبق ... وثقل علينا هذا الصمت ، فقال القطب : غنّوا ...

وحاولنا أن نغنى كما كنا نغنى فى أول الليل ، ولكن التعب والوحشة والنَّعس ، كل أولئك كان يحبس أصواتنا ويمسك ألسنتنا ، فخرج الصوت ضعيفاً متقطعاً ثم هبط حتى اختفى ، ورجعنا إلى الصمت ...

وتجسّمت وحشتنا ، حتى كانت الجبال البعيدة تظهر لنا فى ظلام الليل كأنها أشباح الرعب ، والأشجار أمثال العفاريت الشواخص ، والسواقى التى كنا نمرّ عليها كان ماؤها يبدو لنا أسودَ يملأ خريرُه القلوب رهبة ... وكذلك أحال الظلام كل ما هو جميل فى الوجود بشعاً مرعباً ..

ولاح لنا من بعيد ضوء يتراقص على حاشية الأفق ، فقال القطب:

— هذه هى (التكية) !

فسرّىَ عنا ، وتجددت قوانا ، وعلمنا أنا قد بلغنا آخر المرحلة ، ودنا المنزل

وكان ذلك سنة ١٩٢٥ . وكانت إحدى رحلاتنا مع (القطب)

وكنا نقوم بهذه الرحلات قبل أن يعرف فينا نظام الكشفية وقبل أن يدخل بلدنا ، نقطع فيها ما لا تقطعه كشافة على وجه الأرض ، نسير خمسين كيلا[1] فى اليوم نُصعِّد فى الجبال ، أو نتسلق الصخر ، نخوض ظلام الليل وحرّ الهاجرة ، نحمل أثقالنا على ظهورنا ، نتعرض للوحوش واللصوص والمخاطر ، حتى لم تبق بقعة حول دمشق قريبة أو بعيدة إلا بلغناها ، ولا قرية إلا دخلناها ، ولا عين إلا وردناها ، وكان قائدنا (القطب) ، وليس (القطب) اسمه ، ولكنه لقب لقبناه به أخذاً من الخرافة الصوفية المشهورة[2] ... واسمه الشيخ حسين ، وهو خطاط وإمام مسجد ومعلم صبيان متقشف زاهد يقبل من الدنيا كلّ ما جاءته به ، فيأ كل راضياً ما يجد ، ويلبس ما يلق ، ويعرف ربعَ أهل دمشق ويعرفه نصفُهم . ومن مزاياه أنه أقدر الناس على السير ، حتى إنه ليستطيع أن يقطع عمره كله بالمشى ...

... وكان قد خرج بنا فجرَ هذا اليوم من دمشق إلى الرَّبوة فدُمَّر ، فالهامة ، فالجديدة ، فبَسِّيمة ، فالفيجة — أسماء رياض من عرفها من قراء الرسالة علم أن الله لم يخلق فى الأرض أجمل منها ، ومن لم يعرفها فيحفظها فى ذاكرته ، فلعل الله يكتب له السعادة يوماً بزيارة دمشق فيسأل عنها حتى يراها

فلما بلغنا الفيجة وهى على عشرين كيلا من دمشق ، وفيها العين العظيمة التى تسق دمشق ماء عذباً صفّاه الله ونقّاه ، فلم تُصفّه آلة ولا مِصفاة ، أقمنا فيها إلى المساء ، فلما أذّن المغرب صليناه وسرنا على اسم الله ، فررنا على دير قانون وسوق وادى بردى وتلك القرى ، نسلك قرارة الوادى العميق تارة ، ونركب الجبل تارة أخرى ، وكنا أقوياء فى أول الطريق ، نسير بجد ونشاط ، وكان القمر الوليد يضوّئ لنا الطريق ، فلما مضت ثلاث ساعات من الليل غاب القمر ، وعمّ الظلام ، ونال منا التعب ، فما قاربنا التكية حتى كدنا نسقط إعياء ...

(١) الكيل على وزن الميل معرب (كيلومتر) .

(٢) وأشهر من تكلم فيها ونشرها الشعرانى

ومما لا ريب فيه أن ذلك الضريح الذى حيل بينه وبين الظهور لن يقل فى قداسته ولا فى استحقاقه للزيارة والتبرك وقضاء الحاجات عن ألف ضريح تمتلىء بها الآن مدائن مصر والشام والعراق وسائر بلاد الاسلام ، بل لن يقل عن ألوف الأضرحة التى يتجر بها الدجالون على اختلاف الأديان .

فالحمد لله ! لقد نجا الشرق الاسلامى من معجزة بغير معجزة ، وسلمت بلادنا العامرة بالقديسين من قديس جديد .

عباس محمود العقاد

وشدَّ قربُ التكية أعصابنا ، فغنينا أغنيةوطنية معروفة ، فلم نسمع إلا صوت المتراليوز

فقال القطب : خاف منا الكلاب ، غنوا يا أولاد !

وكانت الثورة السورية قائمة ، وهؤلاء (الكلاب ...) إنما هم الفرنسيون ولهم مركز قوى فى التكية لحماية معامل شركة الكهرباء والترام ، وكانوا يقتلون فى تلك الأيام البرئ وهو فى داره ، فكيف بمن يقدم عليهم وسط الليل منشداً الأناشيد الوطنية؟

واستمرصوت الرشاشات ونحن مستمرون فى إنشادنا وسيرنا فرحين بهذه التسلية الجديدة التى أنقذتنا من مَلال الطريق . وأشهد أن الفرنسيين مجانين ، ولكنهم عقلوا هذه المرة ، لأنهم وجدوا من هو أكثر جنوناً منهم ، وهو نحن ... فوقفوا الضرب ، وأقبل علينا واحد منهم ، فأنار مصباحه ونظر إلينا...

وكان ركبنا مؤلفاً من القطب ، والشيخ شريف ... وهو مدير مدرسة أهلية ، وسلطان الشاى الأخضر فى دمشق ، ومؤلف أناشيد ، وهو أسرع الناس غضباً وأسرعهم رضا ، يشتعل كالبنزين وينطقُ كالبرق ، والشيخ طه ... وهو معلم ولكنه كان ضابطاً فى الجيش قبل أن يكون معلماً ، وأنا ، وسبعة من تلاميذ الشيخ شريف ...

لقد كنا كـ (ركب النيرى) !

فلما رآنا ورأى هذه الهيئات العجيبة ، وهذه الأحمال التى كنا نحملها والتى يعجز عن حملها ثلاثة بغال . رأى قوماً ليسوا من الثوار ولا من أهل القتال ، فما ذا يكون هؤلاء ، وما ذا يدفعهم إلى السير فى هذه البرية نصف الليل ؟

وسألنا — وكنا نعرف من الفرنسية كلمات — فتكلمنا بها ، وكنا نكرر كلمة (بروموناد) أى نزهة ... فلم يشك الرجل أننا مجانين ، وأدخلنا المخفر وجاء بترجمان فكلمنا ، فلما عرف قصتنا كاد يقضى عجباً ، وسمح لنا بالمسير ...

قال القطب : إلى أين نسير ؟ إننا نريد أن ننام هنا !

قال الضابط : هذه منطقة عسكرية . ممنوع !

قال : إذن أعطونا طعاماً ، وقطرة لعينى فإن بها رمداً ، وعلبة كبريت . فأعطوه ما يريد

فلما خرجنا ، قال القطب :

— أرأيتم كيف غزوناهم وأخذنا طعامهم ؟ آه . لو كان معنا سلاح لذبحنا الكلاب ... والآن . لم يبق إلا أن نمشى إلى (بلودان)[1]

وكانت بلودان فى رأس جبل لا نستطيع تسلقه فى أقل من ساعتين ، وبيننا وبين الجبل مسيرة ساعة ، والإعياء والنعس بالغان منا ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ...

ولما بلغنا بلودان كان السحر قد اقترب ، ولم يكن يحسن أن نقرع باب أحد من الفلاحين فى تلك الساعة ، فقصدنا المسجد وجرب القطب مفاتيحه فى الباب فانفتح لنا ، فاستلقينا من التعب على الأرض ، ووضع كلٌّ رجليه تلقاء رِجْلَى الآخر ، والتففنا ببسط الجامع ونمنا ...

ولما جاء المؤذن لأذان الفجر ، فتح الباب ودخل يتعوَّذ ، وأوقد عود كبريت ، ونظر فرأى ما هاله ، وما قفَّ له شعره ، رأى جِنًّا نائمين كل جِنّى طوله خمسة أمتار وله رأسان رأس من هنا ورأس من هناك ، ووقف المسكين مكانه وقد ألصقه الرعب به فما يملك أن يريم ، وجاء بعد قليل رجل آخر فقال له :

— ما لك لا تؤذن يا أبا عبده ؟

قال : أ... أ... أ...

وأشار إلينا وعقد الخوف لسانه ، فنظر الآخر فشُده ..

وأحسسنا نحن فقمنا ، وعرف القوم القطب ، فأقبلوا عليه يعاتبونه على ما صنع بهم ...

ونهضنا كما ينهض الجمل نشط من عقال ، وقد وجدنا لهذه النومة القصيرة على الحصير القاسى بعد التعب الشديد ما لا نجده لنوم ليلة كاملة فى البلد على السرير ، ووقفنا للصلاة ، وكان قد اجتمع فيها أهل البلد كلهم لا يتخلف عن الصلاة أحد ، وما أهل البلد ؟ إنهم بشيوخهم وكهولهم وشبانهم لا يَعْدون الأربعين ...

فلما سلمنا أخذوا يتسابقون إلى دعوتنا ، فقال القطب :

— القاعدة !

وكانت القاعدة أنه لا يستضيف أحداً ولا يدخل داراً ، ولا يرزأ أحداً شيئاً ، وإنما يقصد المنازهَ والعيون ، وكانوا يعرفون

(١) بلودان على (٥٠) كيلا من دمشق وهي مصيفها وفيها كانت اجتماعات الجامعة العربية

هذه القاعدة فتركوه ، فذهب بنا إلى (عين أبي زاد) ...

ومررنا على القرية فإذا هي قرية صغيرة خاملة فقيرة ، أهلوها على الفطرة النقية ، لا يعرفون الحسد ولا الغش ولا السرقة ، ولم يسمعوا بالقمار ولا بالخمر ، وليس فيهم من يقرب الزنا أو يفكر فيه . والقرية تطلّ على منظر من أعجب مناظر الدنيا ، فهي على رأس جبل تقوم في أسفله (الزَّبداني) ، وهي القصبة ، وفيها دار الحكومة والقائمقام والقاضي وقائد الدرك ، وأمامها سهل الزبداني كله إلى منبع (بردى) ، وعن يمينها وادي (سِرْغايا) ، وعن شمالها بُقَّيْنُ ومضايا ، ومن أمامها مدخل وادي بردى ... وفيها المياه العذبة ، والعيون الصافية ، وفيها العنب والتين والتفاح الذي لا نظير له ، ولكنها منقطعة عن الدنيا لا يكاد يصعد إليها أحد ، لعلوّها وضيق الطريق وصعوبته ، وقلة الدواب ، وكان وجهَ القرية الشيخُ سليمان الرنكوسي وهو رجل ذو مزايا ومناقب ، فمن مناقبه أنه إمام المسجد ، وخطيب الجمعة ، ومعلم الأولاد ، وكاتب الرسائل والعرائض ، وبائع القماش ، ومصلح بوابير الكاز ، ومقسم المواريث ، ومسجل عقود البيع ، وقاضي البلد ... فكأن أهل القرية أسرة واحدة نقية فاضلة ، والشيخ سليمان هو ربها !

وبلغنا العين ، ونصبنا الخيمة التي كنا نحمل أجزاءها مفككة ، وأوقدنا النار ونصبنا القِدْر ، وفتحنا الحقائب فأخرجنا اللحم والخُضَر ، فطبخنا وأكلنا وشربنا الشاي الأخضر ، ثم جلسنا أمام العين جلسة لو تعبنا أضعاف ذلك التعب لكانت مستحقة له ، معوضة عنه ...

ورأيت الفلاحين يتوافدون على القطب : هذا يأتيه بعشر تفاحات ، وهذا يهدي إليه قبضة من التين اليابس أو الزبيب ، وهذا يحمل إليه كأساً من اللبن ، فكان يقبل منهم ويثيبهم عليه ، سكاكر ملونة ، أو قُضامة على السكر ، أو لوح صابون ، ورأيت من يأتيه بشيء يأخذ عوضه ثم يقعد لا يذهب ، فلما تكامل عددهم أخرج الشيخ كتاباً من خرجه ، وجعل يقرأ عليهم ويعظهم ، فتسيل دموعهم من خشية الله ...

ومرت السنون على هذه الرحلة حتى نيّفت على العشرين ، وقطعتني الحياة وهمومها ، وأسفاري وعملي في غير ديار الشام ، عن هذه الرحلات ، وباعدت ما بيني وبين (بلُودان) فلم أرها بعد تلك الزورة ...

... حتى إذا كان هذا الربيع المنصرم ، لقيت (القطب) ، فقال لي : أتذكر تلك الرحلة ؟

قلت : نعم ، أذكرها ولا أنساها

قال : هل لك في مثلها ؟

قلت : قد تغيرت الدنيا ياقطب ، ولم أعد أستطيع أن أمشي ، إن الناس يعرفونني ...

قال : امْشي ...

وشدَّ (الميم) ومدّ (الشين) فأذكرني ليلة التكية ، فشاقتني الذكرى فقبلت ما عرض عليّ ...

... ولبسنا مثل ثيابنا تلك ، وجمعنا من بقي من أصحابنا ، ومشينا ، فإذا الطرق التي كانت كأنها من جمالها معارُ الفردوس ومسالك الجنان ، والتي كنا نسير فيها فلا نلقى إلا فلاحين يكرموننا ويحترموننا ، صارت شوارع واسعة لا تنقطع السيارات فيها ساعة ، وكلما مرت بنا سيارة أبطأت في سيرها ونظر من فيها إلينا ، كما ينظرون إلى (عجائب المخلوقات) ، ثم ولت عنا ، ونحن نسمع منها ضحكات النساء الخليعات علينا ، وضحكات شبابٍ هم مثل النساء ، وقذفتْ في وجوهنا غبارها ودخانها ، وما ذنبنا إلا أننا نمشي على أقدامنا في حرّ الشمس ... حتى أن الكشافين كانوا يمرون بنا في سياراتهم ويضحكون هم أيضاً علينا

ورأينا مرة فرقة كشفية تسير بجانب سيارتها الفارغة مشية عسكرية موزونة كشية حرس هتلر الخاص تماماً : شمال — يمين . واحد — اثنين . وهم ينشدون :

لا نهاب الزمن إن سقانا المحن
في سبيل الوطن ... ...

فداست السيارة على مسمار ، فانفجرت عجلتها ، وكان لها مثل صوت البارود ، فقطع إخواننا النشيد ، وطاروا على وجوههم فلم تمر ثوانٍ معدودات ، حتى صار أشدهم حماسة على بعد خمسين متراً من (مكان الخطر) ، هؤلاء الذين كانوا يمشون كشية حرس هتلر الخاص ولا يهابون الزمان ...

فقلت : يا قطب ، أتذكر ليلتنا تلك والرشاشات ؟ ... ألم أقل لك : لقد تغيرت الدنيا ؟ !

ووجدنا الأماكن التي كنا نستريح فيها ، والتي كانت من طهرها كأنها معابد الجمال في الأرض ، صارت قهوات وخمارات

ما فيها لأمثالنا مكان ، فكنا نبيت على الصخر ، وعلى ظهور الجبال ، حتى بلغنا (بلودان) ، فمسحنا أعيننا وحسبنا أننا في حلم ... أهذه بلودان ؟ هذه المدينة العامرة ، ذات الشوارع والقصور ؟ أهؤلاء الشباب الذين يمشون متبخترين بأكمامهم القصيرة ، وشعرهم المرجل المدهن المعطر ، ووجوههم المصقولة ، أهؤلاء هم رجال بلودان ؟ وهؤلاء النساء الكاسيات العاريات ، المائلات المميلات ، أهن نساء بلودان ؟ !

وصارت ثيابنا وهيئتنا شُهرة[1] لنا ، وصرنا ضحكة القوم ، ولم نجد مكاناً نحط فيه ، فسألنا فدلونا على الفندق

وجئنا الفندق الذي شادته الحكومة بأموال هذه الأمة المسلمة ، لننزل فيه بالأجرة لا صدقة ولا إحساناً ، وكان الفندق الضخم كأنه شعلة واحدة من النور ، وكان فيه تلك الليلة فرقة راقصة بولونية ... ولعلها يهودية ... وقد فتحت قاعات القمار لكل داخل ، وصفّت كؤوس الخمر لكل شارب ، وازّينت الغانيات لكل طالب ، وانتشر اللصوص والنشالون وهم في ثمين الحلل وغالي الثياب ، وعبث الوزراء في السهرة عبث الصبيان ، ورقص القضاة مع المجرمين ، وعكف المعلمون على موائد القمار ، وأسلم كلٌّ زوجته لمن يراقصها ليضم أخرى بين ذراعيه ، وتربع إبليس على المسرح يضحك فرحاً ... !

ولما جئنا ندخل الفندق بثيابنا الوطنية ، ثياب الأمة التي بنى بأموالها هذا الفندق ، منعونا وأخرجونا !

فوقفنا ، وجعلنا نفتش كأنما أضعنا شيئاً نفيساً ... وهل شيء أنفس مما أضعنا ؟

لقد أضعنا المسجد والصلاة والأمانة والطهر والقوة حين أضعنا تلك القرية الحقيرة ... لقد كانت جاهلة ولكنها كانت فاضلة ، وكانت فقيرة ولكنها كانت شريفة ، وكانت بعيدة عن الحضارة ولكنها كانت بعيدة أيضاً عن رذائلها ! !

وأحسست بدمعة سقطت على خدي ، فأخذت بيد (القطب) وصعّدنا في الجبل ، نريد أن نهرب من هذه الدنيا ، التي ليست دنيانا ... لقد كانت لنا من عشرين سنة دنيا ، وكان لنا فيها أصدقاء ، فاتت وماتوا .... !

(١) الشهر بالضم ظهور الشيء في شنعة .

أنا والمصحح :

إذا أنا تركت الكتابة يوماً ، وكسرت هذا القلم ، فليطلب القراء ثأره عند مصححي المجلات ، فهم قاتلوه ، بما يدخلون على آثاره من تصحيفات وتحريفات وتبديلات ، وبما يقوّلون صاحبه أشياء لم يقلها ، وقد رأيت العجب من المصححين ، ولكن أمر مصحح الرسالة أعجب ، فهو يصلح حتى أقول لا يفسد أبداً ، ويفسد حتى أقول لا يصلح أبداً ، فكأنه ملك الحيرة في يومي بؤسه ونعيمه ، وهذا يوم بؤس له ، ملأ العددين الأخيرين من الرسالة تطبيعات ، وأعجب من هذا أنه يدخل الغلط على مقالاتي فأبعث بالتصويب فلا ينشر .

هذا ، وستمر هذه الكلمة على المصحح الكريم ، فليتكرم بإبقائها على ما هي عليه ، فإذا أبقاها وقرأها القراء فليعلموا أنه رجل أمين منصف ، وإني أشكره على أمانته وإنصافه . وأرجو أن لا يدرك أن هذا المدح رشوة له لينشر هذه الكلمة .

تصويب :

في مقالة (قضية سمرقند) في العدد ٦٨١

أخطاء	في العمود	من الصفحة	سطر	صوابها
بطربه	١	٧٩٩	٧	يطير به
المصرى	٢	٧٩٩	٨	المضرى
وأن	١	٨٠٠	١٣	وإن
دخل	١	٨٠٠	٢٠	ودخل
للحرب	٢	٨٠١	٣١	الحرب
أرعاد	٢	٨٠٢	٤	إرعاد

وفي مقالة (قصة أب) في العدد ٦٨٢

الخطأ	عمود	سطر	صفحة	الصواب
يضق	٢	١٢	٨٢٣	يضيق
فيه	٢	١٧	٨٢٣	فيها
ابتلح	١	٢٣	٨٢٤	انبلح
وصاحت :	٢	٢١	٨٢٤	وصاحت .
لله	٢	٣٢	٨٢٥	إلى الله

(دمشق) علي الطنطاوي

٣ — من لغو الصيف

ســـوق الرقيق

للأستاذ سيد قطب

هذا الحشد من العرايا فوق « البلاج » إنه يذكرني بسوق الرقيق . لم أر هذه السوق ، ولكنني قرأت عنها ، ورسمت لها في نفسي صورة . . إنها لو تجسمت ما كانت إلا هذا الحشد من العرايا فوق « البلاج » !

إنني أسمع هنا صلصلة القيود ووسوسة الأغلال وسوط النخاس ! لا ألمح هنا طلاقة الروح ، ولا حتى فراهة الجسد ! لا ألمح الحرية التي ترفرف بلا سدود ولا قيود !

يخيل إليّ في أحيان كثيرة أن هنالك « نخّاساً » هو الذي يعرض هذه الأجساد للشراء . أكاد ألمحه مختبئاً خلف هذه الأجساد الرخيصة التي تتحرك وفيها ثقلة القيد ، وتترنح فتوسوس الأغلال !

ويحي !

مالي لا ألمح الفرح في هذه الوجوه الضاحكة ، ولا أحس السعادة في هذه الملامح المرحة ؟

ليس هنا فرح ولا سعادة ، فالفرح نورانية وإشراق ، والسعادة شفافية واطمئنان ... هنا عربدة تخفي وراءها ضجراً ، ومرحٌ يستتر في الجوانح الضيق !

هؤلاء قوم ضاق عالمهم « الباطن » ، فانطلقوا يذرعون الأرض بحثاً عن عالم « الظاهر » ، ومن فقد نفسه فهيهات يجد في « الخارج » شيئاً يطمئن إليه ، ويستشعر به السعادة والهدوء! مساكين ! ! !

* * *

ولكن أهذه محنة رواد « البلاج » وحدهم في هذه الأيام ؟

كلا ! إنما هي محنة هذه الإنسانية التي غفلت عن نفسها لتسمع صوت الآلات ، محنة هذه الحضارة المادية الواردة من أوربا ، والتي فتنت الناس عن أنفسهم بما أبدعته من وهج وبريق وضجيج !

كم أمقت هذه الحضارة الأوربية وأحتقرها ، وأرثي للانسانية التي خدعت بها ، فأوردتها التهلكة ... بريق وضجيج ، ومتاع حسي غليظ . وفي هذه الضجة تختنق الروح ، ويخفت الضمير ، وتنطلق الغرائز والحواس ، سكرانة معربدة تهيجها الأنوار الحمراء ، كالديكة والثيران في بلاد الأسبان !

حينما كان للانسانية « باطن » تستجليه ، وتستشرف فيه النور المشرق الشفيف ، وتستروح فيه الأشواق الخالدة ، والآفاق البعيدة ... كانت هادئة مطمئنة مستقرة ، لأنها في الأعماق هنالك غنية بما تجد ، مستغرقة في ذلك العالم الفسيح ...

فلما طفت على السطح بفضل هذه الحضارة المادية البائسة ، ظلت تقفز وتقفز ، فلا تستقر أبداً وظلت في قلق دائم ، وهياج مستمر . تبحث في كل يوم عن جديد ، وتزهد بعد يوم في هذا الجديد .

إنها اللعنة التي يعدها « معجزة » بعض المفتونين بالبريق . ما قيمة آلات واختراعات وكشوف لا تحقق للنفس سعادتها ، ولا تهب للضمير اطمئنانه ، ولا تستمتع فيها الإنسانية حتى بالراحة من الضجر والقلق والعربدة والضيق ؟

* * *

ولقيني بائع الكتب في أحد مقاهي المدينة ... فشكا إلي كساد سوق الكتب في هذه الأيام ! وقلت أعزيه عن خسارته أو أسليه :

— أو تحسب الناس هنا جاءوا ليقرأوا كتبا ؟ إنهم يستروحون ويستجمون ويستعيدون نشاطهم المفقود !

فما كان أسرعه بالجواب .. إنه فيلسوف :

— وهل هذه السهرات الحمراء الصاخبة التي يغرقون فيها مما يريح الأعصاب يا سيدي الأستاذ ؟!

وحرت كيف أجيبه . وجمجمت بالكلمات المخنوقة ، في الوقت الذي كان هو يتابع حديثه بعد هذا الاستفهام :

— الكتب يا سيدي الأستاذ تباع الآن في الحي الحسيني . هنالك تجد الإقبال على جميع أنواع الكتب القيمة حتى في هذا الصيف الشديد ...

إذن ما يزال في هذه الأمة خير . هذا الخير هنالك في الحي الحسيني حيث يعيش الفقراء من الناس ، وحيث يعيش

الأزهريون . هنالك حيث يخفت قليلا صوت الحضارة المادية الجوفاء ، وحيث يحيا جزء من الماضى .

ولـكن إلى كم يا ترى يعيش هذا الخير قبل أن يختنق ؟ ليخيل إلى أن الأزهر فى هذه السنوات « يتجدد » على طريقة « الغراب » . فهلا اتقى الله فيه أولئـك « المجددون » فحفظوا له قدمه البعيد فى عهد الاجتهاد ، وصانوه عن ذلك « التجديد » أو ذلك « التقليد » ؟!

الـكتب ..

وهل يصبر هذا الجيل الضجر القلق المعربد الصاخب ... على الـكتاب ؟ ولـماذا يقرأ الـكتاب الجادّ ، ولديه تلك المجلات الرخيصة والأفلام الداعرة تملق غرائزه ، وتنادى أحقر ما فيه ؛ وتنشر له صور العرايا على البلاج ، وتحدثه بالدعارة عن القلب الإنسانى وما فيه ؟

أقول القلب الإنسانى ! وهل تعرف هذه الصحف والأفلام القذرة ومحرروها وممثلوها الرقعاء ، شيئاً عن القلب الإنسانى ؟ ولـكنهم يسودون صفحات فى كل أسبوع وينشرون أفلاماً فى كل شهر عن هذا القلب الذى يزعمون !

آه . لو سوط الجلاد !

هنالك فى « نجد » يجلدون الشعراء الذين يقولون الغزل . وهنا فى مصر يصفقون لمن يدلون الفتيات والفتيان على طرق الدعارة ويدربونهم على المجون الرقيع ...

شىء من التسامح هناك . وشىء من الحزم هنا ... يرحمك الله يا محمد بن عبد الوهاب ، ورعاك الله يا عبد العزيز آل سعود ! يوم وليلة فقط من هذا فى مصر ، ليجلد أولئك الرقعاء فى محطة الإذاعة وفى « ستوديهات السينما » وفى جميع المجلات المصرية ، الإعداد لا يتجاوز أصابع اليـد الواحدة ، يشرف عليه بعض الشرفاء ذوى الأعراض وهم قليلون ! !

ولـكنهم مسا كين .

لقمة العيش وشهوة الجسد ... هذا كل عالمهم فى الوجود ! هم وقراؤهم ومستمعوهم ومشاهدوهم من ذلك الطراز ... ليس هنالك أفق مجهول ، ولا هدف مكنون .

ليس هنالك عالم فى الضمير يعيشون فيه بعض الوقت ، ثم يخرجون منه ليروا هـذا العالم الظاهر بعين المستطلع ، وحس المتذوق ، وشعور الغنى بالرصيد المذخور !

نهم بالمتاع وسعار ، المتاع الحسى الغليظ ، المتاع المتاح فى هذا العالم المادى ... لو كان لهم روح تستشرف آفاقا وأنوارا أخرى لا قتصدوا فى هذا المتاع الحسى الغليظ !

ولولا جريمتهم فى نشر الدعارة بين الشعب كله ، لاستحقوا الرثاء ولـكنهم ينشرون فى صحافتهم وأفلامهم وأغانيهم ما يعاقب بوليس الآداب على بعضه فى المواخير ، ويسمون بعد ذلك كله صحفيين أو مطربين ناجحين !

* * *

ويحى ! لماذا استطردت هذا الاستطراد ؟ إنما أتحدث عن « سوق الرقيق » !

والملطعة ؟

هذا هو الإسم الذى اختاره بعضهم بحـق للقسم من « الـكورنيش » بين « بلاج سيدى بشر رقم ١ » و « بلاج سيدى بشر رقم ٢ »

فحينما ينقضى النهار ، يخرج رواد « البلاج » منه ، ويصطف بعضهم فى المساء على سور « الـكورنيش » بينما يجول بعضهم الآخر ذهابا وإيابا .

يستعرض هؤلاء أولئك ، ويستعرض أولئك هؤلاء !

هؤلاء هن جوارى سوق الرقيق ... هؤلاء هن معروضات تجول فيهن الأنظار ، وتحملق فيهن العيون ، وتتدسس الخطرات المريضة إلى أجسادهن الرخيصة فى رقاعة وفضول .

هذه هى الضحكات الرخوة المائعة ؛ وهذه هى الحركات الرقيعة الماجنة ... ضحكات الجوارى ، لا تدل على فرح عميق ولا حتى على مرح أصيل . إنما هى ضحـكات الرقيق لاجتلاب « الزبون » ! ضحكات يحاسب عليها النخاس أو يثيب !

من ذا ينقذ كن أيتها الجوارى المسكينات من سوق الرقيق ؟ من ذا يرد كن إلى البيوت الـكريمة المصونة ، ويرد إليـكن كرامتكن المهدرة ، التى سلبت منكن باسم « المودرنزم » فى هذه الأيام السود ؟

كان الرجال يتشهون نظرة من بعيد ، ويتشوقون إلى زواج كريم نظيف . فصرتن اليوم سلعة معروضة على الأنظار ، سلعة فى سوق الرقيق !

ونسيت أن أقول : إن تسعة أعشار هذا الهوان ، إنما تبعثه الرغبة فى أن تجد هذه الجوارى أزواجا !

أزواج فى الطريق ... وفى « البلاج » !

لن تجدن هنا يا آنساتى أزواجا . إنما تجدن تجار أعراض ، وشراة أجساد ...

ولن تكون إلا النخاسة ياعزيزاتى الأوانس: فى هذه السوق... سوق الرقيق !

سيد قطب

الشريعة الإسلامية

ومبادىء التشريع الحديث

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

إن كل قانون فى العصر الحاضر يدعى واضعوه كفالته للعدالة ، وتحقيقه لسعادة الأفراد والأمم ، وأنه جاء وفق ما تقضى به عوامل التقدم والارتقاء — لا يمكن أن يعدو فى أغراضه المقاصد الآتية :

١ — تحقيق العدالة والمساواة بين الأفراد والجماعات .

٢ — جلب المصالح ودرء المفاسد .

٣ — قيامه بمطالب الامة وحاجاتها ، ومواءمته لميولها وفطرتها والعصر الذى يطبق فيه .

٤ — مرونته ويسره وسهولة تطبيقه .

وأنت إذا نظرت بعين التدبر والحكمة — بعد تقصى قواعد الشريعة الإسلامية وأصولها ، والبحث فيما خلفه المجتهدون الإسلاميون من أحكام الفروع اللائقة لعصورهم — لم ترتب أقل ارتياب فى تحقيق الشريعة الإسلامية هذه المقاصد ، وأنها وصلت فى سموها وعدالتها وسماحتها إلى أبعد غاية .

وما ظهر نقصه من أحكام بعض الفروع فى المعاملات وغيرها ليس بعيب راجع إلى شريعة الإسلام ، وإنما هو راجع إلى المسلمين الذين لم يقم علماؤهم بما يجب عليهم من الاجتهاد فى كل عصر حتى تجىء أحكام الفروع والوقائع الاجتهادية ملائمة للأمة ، ولما جد من الأحداث والشئون .

كذلك ما قيل : إن الحدود فى الشريعة قاسية لا تتفق مع روح التشريع الحديث قد فندناه ودحضناه بالبرهان وبما دلت عليه التجربة والوقائع والمشاهدات ، وذلك فيما كتبناه بالعددين ٦٨١ ، ٦٨٢ من الرسالة فى مقال « شريعة الكمال والخلود » .

أما الشرائع الحديثة فهى — وإن اشتملت على مبادىء نقر بسمو كثير منها ، ونعترف بدقة وضعها ، وعلى أحكام يراد بها تحقيق العدالة ، وإجراءات نظامية دقيقة — لم تستطع أن تقضى على كثير من الشرور والآثام التى تنخر عظام الأمم ، وتنشر فيها كثيراً من الأمراض الاجتماعية والخلقية :

فقد أحلت الربا فى أكثر حالاته ، وهو الذى يوغر صدور بعض طبقات الأمة على بعض ، وينتزع الشفقة والرحمة من القلوب ، ويدع طوائف الأمة متحاربة متباغضة .

وأباحت شرب المسكرات ، وهى جناية على المال والعقل والأهل والذرية .

وليس فيها ما يقى الأعراض من الجناية عليها : فامتهنت الكرامات وكثر اللقطاء، وشاع فى الأرض الفساد ، كذلك خلت من الزواجر التى تحول بين المجتمع وبين مفاسد الميسر والقمار .

وقد يحتجون لإباحة بعض هذه المنكرات باحترام الحرية الشخصية ، وما دروا أن هذه الحرية قررها الإسلام على ألا يساء استعمالها ، وألا يكون فيها ضرر على الأفراد أو المجتمع « وهذا هو شأن الحرية الصحيحة الجديرة بالرعاية والتقدير » .

ومما لا شك فيه أن هذه الجرائم التى أشرنا إليها مفاسدها لا تقتصر على مقترفيها ، بل تشملهم ورهطهم ، وقد تتعداهم إلى المجتمع والأمة .

من أجل هذا حظرت شريعة الإسلام تلك المناكير ، وأعدت كل أمة تأخذ بأحكامها لحياة اجتماعية يسودها التقدم والنهوض ، وتنتفى فيها ذرائع الفساد وأسبابه ، وتتوافر فيها العزة والكرامة والمنعة ، وتلك هى الحياة الخليقة بخير أمة أخرجت للناس .

حسن أحمد الخطيب

صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والتجسس

للاستاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

شُغف الخلفاء العباسيون بالتجسس ومالوا إليه . وقد كان لابد لهم من تسقّط الأخبار والحفول بها لئلا ينسبوا إلى الضعف والغفلة أو يجترئ عليهم الأعداء والأخصام . فإن من أخلاق الملك اليقظ السعيد على قول الجاحظ : البحث عن سرائر خاصته وعامته ، وإذكاء العيون عليهم ، والبحث عن كل خفي دفين (١) .

وبغداد ، وما كان فيها من أخلاط المخلوقات وأنماط الناس ، وما انتشر فيها من آراء سياسية وعصبية ، وما ظهر فيها من ميول شعوبية وعلوية وهاشمية كل هذا دفع الخلفاء إلى التجسس ولمّ الأخبار ليحفظوا ملكهم ويكونوا على بينة مما يجرى .

وقد ذكروا أن الرسول عليه السلام ، كان ، ليقظته يرسل الجواسيس والعيون يتحسسون أخبار أعدائه المشركين . ولم يكن عصر النبي عليه الصلوات ، كالعصر العباسيّ ، ولا كان المجتمع إذ ذاك ، كالمجتمع يومئذ . فليس من الغريب أن يشغف العباسيون بالتجسس ، فهو ضرورة من ضرورات المُلك .

كان التجسس يجرى على طريقتين : ظاهرة وخفية . أما التجسس علانية فكان يقوم به أصحاب الأخبار والبريد . وكانوا منتشرين في كل مكان ، وكان عليهم أن يعرفوا حال عمال الخراج والضياع ، وأن يتتبعوا ذلك تتبعاً شافياً ، ويستشفوه استشفافاً بليغاً ، وأن ينهوه على حقه وصدقه . وأن يعرفوا حال عمارة البلاد ، وما هي عليه من الكمال والاختلال ، وما يجرى في أمور الرعية فيما يُعاملون به من الانصاف والجور ، والرفق والعنف ، فيكتبوا به مشروحاً . وأن يعرفوا ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم ، وأن يعرفوا حال دار الضرب وما يُضرب فيها من العين والوَرِق ، وما يلزمه الورّدون من الكاف والمؤن . وفي كل ما ينهونه . ينبغي أن يكونوا صادقين واثقين مما يُنهون . فإذا ورد كل ذلك على الحضرة سُلّم إلى صاحب ديوان الانشاء ليحمله إلى حيث يطلع عليه الخليفة ويأمر بما يرى ، ثم يكتب للآفاق بما ينبغي (١) .

فهؤلاء كانوا جواسيس رسميين ، أما الجواسيس الذين لا يظهرون أنفسهم ، ولا يعرفهم أحد ، فكانوا أنواعاً منوّعة ، تفنن الخلفاء في استخدامهم . وكان فيهم « الطفل والمرأة والمحتاج والزّمِن وابن السبيل ... » (٢) .

وأول من عُني بالتجسس الخفيّ من الخلفاء : أبو جعفر المنصور « فقد كان يشترى رقيقاً من الرقيق ، ثم يُعطى الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، فيهيمون ، أو يَرِدون الماء كالمارين وكالضالين فيتجسسون ... » (٣) .

ويحدثنا الطبرى أن أبا جعفر أتى مرّة بأحد جنده فقال له : « اخف شخصك واستر أمرك وائتنى في يوم كذا في وقت كذا. فأتاه ، فقال له إن بنى عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيداً لملكنا واغتيالا له ، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا يُكاتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم والطاف من ألطاف بلادهم . فاخرُج بكُسيّ وألطاف وعينٍ حتى تأتيهم متنكراً بكتاب عن أهل هذه القرية ، ثم تسبر ناحيتهم . فان كانوا قد نزعوا عن رأيهم فأحببْ والله بهم وأقرب . وإن كانوا على رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر . فاشخَصْ حتى تلقى عبد الله بن حسين متقشفاً متخشماً ، فإن جهلك وهو فاعل ، فاصبر وعاوده . فان عاد فاصبر حتى يأنس بك ، وتلين لك ناحيته ، فان ظهر لك ما في قلبه فاعجل عليّ ... » فشخص الرجل حتى قدم على عبد الله فلقيه بالكتاب فأنكره ، ونهره . وقال ما أعرف هؤلاء القوم . فلم يزل ينصرف ويعود حتى قبل كتابه وألطافه ، وأنس به . فسأله الجواب . فقال : أما الكتاب فإنى لا أكتب لأحد ، ولكن أنت كتابي إليهم ، فأقرئهم السلام ، وأخبرْهم أن ابنيّ

(١) التاج في أخلاق الملوك ص ١٦٧ .

(١) كتاب الخراج لقدامة (دى غوية . ص٢٨ — ٣٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥
(٢) كتاب بغداد لطيفور .
(٣) الطبرى حوادث سنة ١٤٤ .

خار جان لوقت كذا وكذا فعاد الجاسوس إلى أبي جعفر وأخبره[١].

وحدّث صاحب عذاب أبي جعفر قال: دعاني أبو جعفر ذات يوم، وإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لهـا بأنواع العذاب، وهو يقول لها: ويلك أصْدقيني، فوالله ما أُريد إلا الإلفة، ولئن صدقتِني لأصِلَنَّ الرحم، ولأتابعن البرّ إليه. وإذا هو يسائلها عن محمد بن عبد الله، وهي تقول: ما أعرف مكانه. ودعا بالدهق وأمر به فوُضِع عليها. فلما كادت نفسُها أن تتلف قال: أمسكوا عنها، وكره ما رأى. وقال لأصحاب العذاب: ما دواء مثلها إذا صار إلى مثل حالها؟ قالوا: الطيب تشمه، والماء البارد يصبّ على وجهها، وتسقى السويق. فأمر لها بذلك، وعالج بعضه بيده، حتى أفاقت، وأعاد عليها المسألة، فأبت إلا الجحود. فقال لها: أتعرفين فلانة الحجّامة؟ فاسود وجهها وتغيّرت. فقالت نعم يا أمير المؤمنين، تلك في بني سُليم. قال: صدقت، هي والله أمَتي، ابتعتها بمالي، ورزق يجرى عليها في كل شهر أمرتها أن تدخل منازلكم، وتحجمكم، وتعرف أخباركم. أوَتعرفين فلاناً البقّال؟ قالت نعم، هو في بني فلان. قال: هو والله مضاربي بخمسة دنانير أمرته أن يبتاع بها كل ما يحتاج إليه من البيوع. فأخبرَني أن أمة لكم في يوم كذا من شهر كذا، صلاة المغرب؛ جاءت تسأله حناء وورقاً، فقال لها: ماتصنعين بها؟ فقالت: كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع، وهو يدخل الليلة، فأردنا هذا لتتخذ منه النساء مايحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب.

(قال): فأسقط في يدها، وأذعنت بكل ما أراد[٢].

وهذه القصة والتي قبلها تبينان لنا كيف سخّر أبو جعفر أحد جنده، وأمته، وبقالا مضارباً له، للتجسس وجمع الأخبار

ولعلك تعلم حبه تتبع الأسرار مما سأقصه عليك. قالوا: إن أبا جعفر قال ذات يوم لأصحابه: ما أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لايكون أعف منهم، وهم أركان الدولة، ولا يصلح المُلك إلا بهم. أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القويّ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية. ثم عض المنصور على إصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول في كل مرة: آه، آه! قيل ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة[١].

* * *

وكان الرشيد من أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته، وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً[٢]. وكان يتسقط أخبار الهادى قبل أن يصبح هو خليفة؛ فقد كان مسرور الكبير في خدمة المهدى، وكان الرشيد حفياً به محسناً إليه. فلما انتقل أمر الخلافة إلى الهادى قال له الرشيد: أخي قويّ الشراسة، وأنا أخاف إيقاعه بي، وجمعَ الناس على بيعة ابنه بعده. وأنا على غاية الثقة بك فاعدل إليه، وكن له عيناً عليه» فتقدم مسرور عند الهادى حتى تولى ستر بيت خلوته فكان يُنهى إلى الرشيد كل كلمةٍ من كلامه، وفعلٍ ...[٣]

وكتب الأدب والتاريخ مترعة بأخبار تتبعه أسرار رعيته حتى كان ذلك يدفعه إلى إخفاء شخصه، والطواف مع جعفر ابن يحيى في الأسواق وبين الأحياء، ليتسقط الأخبار، ويعرف مايدور بين الناس من الأحاديث ويستطلع مالا يصل إليه خبره[٤].

ولم يقنع بأسرار رعيته، بل وكل عيوناً على ولديه. فكان مسرور الخادم رقيب المأمون، وكان جبرائيل بن بختيشوع رقيب الأمين[٥].

* * *

وعلى نحو هذا كان المأمون في أيامه. ذكر أبو الفرج أنه لما تولى الخلافة وأتى بغداد، كان يتجسس على إبراهيم بن المهدى فألزمه رجلا ينقل إليه كل مايسمعه من لفظه جداً أو هزلا[٦].

ويسوق الجاحظ دليلا على تتبع المأمون أسرار رعيته رسالته إلى إسحق بن إبراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام،

(١) الطبرى حوادث سنة ١٤٤

(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ١٦٠ (طبعة أوروبية).

(١) التمدن الاسلامى ج ١ ص ٢٢١.

(٢) التاج ص ١٧٠.

(٣) المكافأة وحسن العقبى (تحقيق محمود محمد شاكر) ص ٦٣.

(٤) الأغانى مثلا ج ٦ ص ١٣٢.

(٥) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٨٣.

(٦) الأغانى ج ٢٠ ص ٨٢.

التى خبّر فيها عن عيب واحد واحد ، وعن حالته وأموره التى خفيت ، أو أكثرها ، عن القريب والبعيد[(١)] .

وقد ذكر صاحب محاضرات الأوائل أنه كان للمأمون ألف عجوز وسبعماية ، يتفقد بهن أحوال الناس من الأشقياء ومن يحبه ويبغضه ، ومن يفسد حُرَم المسلمين . وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن وأنه كان يدور ليلا ونهاراً مستتراً .

وقد يكون هذا الخبر صحيحاً فيما يتعلق بإرسال العجائز ، أما عددهن وأنه كان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه أخبارهن ففيه مبالغة .

وكان المأمون يُعنى بمعرفة أحوال عُمَّاله . فكان يفحص عنهم ، وعن دفين أسرار حكامه فحصاً شافياً ؛ فلا يخفى عليه ما يفيد كل امرىء وما ينفق ، وكان من نأى عنه كمن دنا منه فى بحثه وتنقيره ، وكان يتتبع أحوال القضاة والولاة والجند[(٢)] . فذكروا أنه سأل يوماً جماعة : من أنبل من تعلمون نبلا وأعفهم عفة ؟ فذكر كلٌ من يراه . فقال : لا ، ذاك عبد الله بن طاهر دخل مصر كالعروس الكاملة : فيها خراجها ، وبها أموالها جمة ثم خرج عنها ، فلو شاء أن يخرج عنها بعشرة آلاف دينار لفعل ؛ وقد كان لى عليه عين ترعاه ، فكتب إلىَّ أنه عُرضت عليه أموال لو عُرضت علىّ لشرهت إليها نفسى ، ولقد خرج عن ذلك البلد وهو بالصفة التى قدمه فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس[(٣)] .

وحدّث بشر بن الوليد قال : كنتُ عند المأمون ، فقال : ولينا رجلا قضاء الأُبُلّة ، وأجرينا عليه فى الشهر ألف درهم ، وما له صناعة ولا تجارة ولا مال قبل ولا بيتاً ابتناه ، وولينا رجلا آخر قضاء دمشق وأجرينا عليه ألف درهم أشار به علىّ محمد بن سماعة ، فأقام بها أربعة عشر شهراً فوجهنا من يتتبع أمواله فى السر والعلانية ، ويتعرف حاله ، فأخبر أنه وجد ماظهر من ماله فى هذا المقدار من دابة وغلام وجارية وفرش وأثاث قيمته ثلاثة آلاف دينار . وولينا رجلا أشار به فلان نهاوند فأقام بها أربعة وعشرين شهراً ، فوجهنا من يتتبع أمواله ، فأخبرنا أن فى منزله خدماً وخصياناً بقيمة ألف وخمسمائة دينار سوى نتاج قد اتخذه[(١)] .

وحدّث إبراهيم بن السندى أنه جالس المأمون ومعه إبراهيم ابن المهدى فطفق المأمون يحدّث عن أهل عسكره ، حتى والله لو أن رجلا أقام فى رحل كل رجل من الجند حولا ، لما زاد على معرفته لشدة تنقيره وتتبعه أخبار الناس[(٢)] .

فهذه الحوادث التى سردناها ، تدل على حبه التجسس ، ودسّ الناس ليتسقطوا له الأخبار ، ويطلعوه على ما يشاء .

(له بقية) صلاح الدين المنجد

(١) التاج : ص ١٧٠ .
(٢) المحاسن والمساوىء ص ١٦٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(١) المحاسن والمساوىء ص ١٦٣ .
(٢) تاريخ بغداد لطيفور ص ١٠٠

من وحى المأساة الفلسطينية :

نكبة العرب فى الأندلس

للأستاذ محمود عزت عرفة

انقضى أربعمائة وأربع وخمسين سنة على حادث سقوط حصن غرناطة آخر معاقل العرب بالأندلس فى أيدى الأسبانيين ، وقد تم ذلك سنة ١٤٩٢ م ؛ فكان خليقاً بنا ومأساة فلسطين تُمثَّل أن نعالج بإيجاز أسباب تلك المأساة الفاجعة ، ونتلمس عللها بين حوادث التاريخ ، ونقف عندها وقفة نخرج منها بعبر وعظات نافعات ، هى الغاية العليا من كل دراسة والمقصد الأسمى من كل تحقيق وتمحيص .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن جحافل العرب حملت معها من أول يوم وطئت فيه أرض الأندلس جرثومة هذا الداء الذى أنهكها واستصفى قواها ، وأدال دولتها بعد ثمانية قرون من الزمان . فقد اجتاح موسى بن نصير أرض الأندلس عام ٧١١ م حتى بلغ أطرافها الشمالية ؛ وعهد إلى قائده طارق بفتح مدائن (جيليقية) فى الشمال الغربى ، بينما اجتاز هو سدّ جبال البرانس الشامخ وانحدر إلى سهول فرنسا ، معتزماً أن يدلف إلى القسطنطينية من طريق الغرب ! !

حلمٌ كان حرياً أن يتحقق لو لم يستيقظ موسى من نشوته على دعوة الوليد بن عبد الملك الذى أهاب به أن يكف عن إيغاله فى الغزو وينكفىء بعسكره معافى إلى أسبانيا ... وما كان له إلا أن يسمع فيطيع . على أنه انصرف وقتذاك إلى المسيحيين المتحصنين بأقصى الشمال الغربى من شبه الجزيرة تحت إمرة زعيمهم (بلايو) ؛ وكان بسبيل أن يقلم أظفارهم ويقى البلاد شر مكايدهم وفتنهم التى ذرّ قرنُها بعد حين ؛ لولا أن هتف به داعى الخليفة مرة أخرى أن يؤوب إليه وطارقا ؛ فتركا زمام الأمور فى يد عبد العزيز بن موسى وسارا إلى المشرق .

وقد نكب موسى بعد قليل على يد سليمان بن عبد الملك ، واغتيل ابنه عبد العزيز فى شوارع إشبيلية بتدبير منه ، ولم يكن مصير طارق بأفضل من هذا . ففقدت الأندلس بموت أولئك كل من كان يفكر فى إتمام الفتح على خير وجوهه ، وأتيحت لفلول المنهزمين فرصة الحياة بعد أن أشفوا على الدمار ، وتهيأ لهم أن يجمعوا كيدهم وينتظموا صفوفاً حتى أصبح موطنهم جيليقية مصدر القلاقل ومهب الرياح العاتية التى اجتاحت ملك العرب فيما بعد ، ودكت بنيانهم من القواعد ...

ولم يكن ولاة بنى أمية فى ضعفهم ليزيدوا الحالة إلا سوءا ، فقد احتدمت الخصومة على عهدهم بين العرب والبربر ، وبين العرب وأنفسهم من يمانيين ومضريين ؛ وكان فى تسلُّم عبد الرحمن الداخل زمام الحكم انتصار لفريق من هؤلاء دون فريق (١) . وإذا كانت سطوة الحكم الأموى فى الأندلس قد قضت على عوامل هذا الخذلان والتفرق ، فإن ما وقر بسببه فى النفوس من حزازات كان كفيلا بتهديد وحدة العرب وتآلفهم ، مهيباً بكثير منهم إلى الثورات الجامحة والفتن المبيرة ، مما ظهرت عواقبه الوخيمة فى أخريات أيامهم .

***

بسط العرب ظلال السلام على الجزيرة ، ورفعوا لواء العدل والمساواة فى أرجائها ؛ فارتضى سيرتهم كل من عاشرهم من الأسبانيين واتصلت أسبابه بأسبابهم . ولكن بقيت هذه الأطراف المستعصية تجيش قلوب أهلها بكراهيتهم والحقد عليهم وإعمال المكيدة لهم ، حتى بين جدران قصورهم ، وتحت قباب معابدهم !

فقد ذكروا أنه وُجد على جانب أحد أعمدة المسجد الجامع بقرطبة صورة تمثل المسيح مصلوباً ، كان قد رسمها أحد المسيحيين ممن نافقوا بإظهار الإسلام وعاشوا بين ظهرانى العرب يكيدون لهم ويمالئون عليهم . ولما دخل الأسبانيون قرطبة وكشفوا عن موضع هذه الصورة رسموا أمامها على الجدار المقابل لها وجهاً يمثل هذا المسيحى الذى خطها — فيما زعموا — بأظافر يده (٢) .

---

(١) انضم إلى عبد الرحمن الداخل أنصار بنى أمية من أهل الشام ، وجند كثير من اليمانيين والبربر ممن كانوا يسخطون على الوالى العباسى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى انحازت إليه قبائل المضريين عامة . وبانهزام هذا الأخير اجتمعت السلطة إلى عبد الرحمن الذى أسس ملك بنى أمية بالأندلس عام ٧٥٥ م .

(٢) انظر رحلة الأندلس للمرحوم محمد لبيب البتنونى ص ٥١

فكم يا ترى عدد من كانوا يعيشون بين المسلمين من أمثال هؤلاء ؟ وما مبلغ بلائهم فى تقريب هذه النهاية الفاجعة التى آل إليها أمر العرب بالأندلس ؟ ...

لسنا نستطيع أن ننكر العلاقة بين هذه الحالة وبين سياسة التسامح الدينى التى جرى عليها المسلمون فى هذه البلاد بين قوم عشيت عيونهم عن أضواء حضارتهم ، واسودت قلوبهم بظلام الحفيظة والاضطغان عليهم ...

ونعنى بهؤلاء القوم أولئك الذين اعتصبوا ضد العرب لغير ما سبب ظاهر ؛ دون من تبطنوهم من المسيحيين وقاسموهم العيش فى دعة وسلام ، فارتشفوا رحيق آدابهم وجنوا ثمار علمهم وحضارتهم ؛ وتبوأوا — إلى جانبهم — سنى المناصب ورفيع الدرجات مما هيأتهم له مواهبهم وعبقريتهم .

• • •

أساء قوم من المسلمين فهم هذا التسامح الدينى الذى أمروا به وانتُدِبوا إليه ، وأعمتهم بوارق الحياة ورغائب العيش عن تعرُّف حدوده ، وتبيُّن أغراضه ومراميه ؛ وشوهت شهوات الدنيا لديهم من صورته الجميلة المشرقة ؛ ونكّبت به ضلالاتُ النفوس عن طريق الحق ومناهجه المستقيم .

فلم يكن عجيباً بعد ذلك أن نرى عمّاً[1] للحكم بن هشام ينهض إلى عاصمة إكس لاشابل عاصمة شارلمان فيستجدى محالفته فى خنوع ، ويلتمس منه المعونة على إسقاط ابن أخيه القائم بالأمر ، وكان ذلك عام ٧٩٧ م أى قبل مرور قرن واحد على دخول العرب الأندلس . ولم يكن عجيباً أيضاً أن نرى المستعين حفيد الناصر (١٠٠٩ م) يرسل رسله إلى بلاط سانكو أمير قشتالة ليعينه ضد منافسه المهدى وهو من أحفاد الناصر أيضاً ؛ فيجد رسل المهدى قد سبقوه إلى طلب هذه المعونة من الأمير ... والأمير يمايل بين الرجلين ويعرضهما على مرآة مطامعه ؛ ثم ينتهى إلى رفض معونة المهدى والإقبال على نصرة المستعين ... إلى أمثلة من مثل ذلك كثيرة نحيل فيها إلى مظانها من مصادر التاريخ .

ولقد أحسن ملوك أسبانيا استغلال هذه الفرص السوانح ، فزادوا نار الفتن بين المسلمين استعاراً ، وأذاقوا بعضهم بأس بعض ؛ وراحوا يقتصون من أطراف بلادهم ويفرضون الجزية على المستضعفين منهم ، استغراقاً لثروتهم ، وغلا لأيديهم عن كل ما يمهد لهم سبيل القوة . وأخيراً أعلنوا ضد الجميع حرباً صليبية لا هوادة فيها .. فى وقت كان المسلمون فيه قد فقدوا صفاتهم الأولى من التخشّن وسمو المبدأ ، والتحمس للدفاع ، وشدة الرغبة فى الجهاد . فكان تخاذلهم عن صيانة ملكهم عظيما ، وتهافت ملوكهم المتنابذين على استرضاء ملوك النصارى المتربصين بهم بالغاً غايته . حتى لقد كان من مخزيات ما حدث فى أواخر القرن الحادى عشر أن اكتسح الملك الفونس السادس أقاليم الأندلس إلى أن بلغ جبل طارق ثم احتل طليطلة عام ١٠٨٥ م ، فبادر ملوك الطوائف بتقديم فروض التهنئة إليه ! وأسبغوا عليه أو قبلوا أن يسبغ على نفسه لقب « ملك المسيحيين والمسلمين » !!

وما نشك فى أن هذا الفتور الذى أصاب نفسية العرب يرجع — فيما يرجع إليه من أسباب — إلى كثرة عناصر المولدين والهجناء فى أوساطهم ، منذ درجوا على خطة التزوُّج من الأسبانيات أو التسرِّى بهن . ولقد كانت هذه الخطة ظاهرة النفع فى عصور الدولة الأولى ، بما أجرت فى عروق العرب من دماء جديدة ، وبما نشَّأتْ من جيل متميز فى مواهبه جامع لمحاسن العنصرين فى أخلاقه وتفكيره وجميع مقوماته . ولكن استحال كل هذا إلى مضرات بالغة فى العصور المتأخرة ، إذ تقلصت روح العصبية التى اشتدت حاجة العرب إليها حين كانت جحافل الأسبانيين تزحزحهم عن بلادهم حصناً بعد حصن ، وفشتْ روح الاستهانة بوازع الدين ، ولم يعد ثمة أثر لطموح المسلمين الأوائل ، وشدة تحمسهم لرفع لواء عقيدتهم ، بل حلت الأثرة والأطماع الشخصية محل كل هذا ، واستخذت أقيال العرب وشموها لسيطرة ملوك الأسبان الذين هيمنوا بقوة نفوذهم على شئون شبه الجزيرة من أطرافها .

ويكفى أن نذكر أن أبا عبد الله محمداً آخر ملوك بنى الأحمر

(١) ثار على الحكم بن هشام عماه : سليمان وعبدالله ابنا عبد الرحمن الداخل وسافر عبد الله إلى مقر شارلمان يستنجده ، فأمد الثائرين بجيش يقوده ابنه لويس حاكم أكويتين ؛ ولكن انتصر الحكم على الجميع ، فاسترد من الأفرنج ما احتلوه من المواقع ، وقتل سليمان فى إحدى المعارك ، وقبل الصلح الذى عرضه عبد الله ، وأجرى عليه راتباً يغنيه . وقد جرت كل هذه الحوادث بين عامى ٧٩٢ م ، ٨٠٢ م .

كيف هدي والد ولده ؟

للاستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندى

كان لوزير هندى مسلم ابن يتعلم فى جامعة كيمبردج فى انجلترا ولم يكن يلم بتعليم الدين الإسلامى إلماماً تاماً وإن كان أبوه متضلعاً فى العلوم القديمة الإسلامية والحديثة الغربية والتصوف .

فانتهز المبشرون الفرصة وأرادوا تنصيره ووجهوا إليه أسئلة كثيرة ضد الإسلام كما هو ديدنهم فى مثل تلك الأحوال لينالوا من منزلة الإسلام فى قلبه ويقربوه إلى النصرانية . فتجاذبته الظنون وتخالجت فى صدره من دينه الشكوك فوقع فى خيرة وارتباك فكتب إلى أبيه يسأله ويستشيره فى الأمر فرد عليه أبوه رداً أنقذ به ابنه الشاب من كيد المبشرين ومكرهم وهورد فصيح اللهجة ، قوى الحجة ، ملزم المحجة ، يدل على عقل أصيل ولب رصين قال : أريد أن أشرح لك لماذا اعتبر الإسلام أحسن الأديان بأسرها ؛ فلاحظ أننى لم أقل إن الأديان الأخرى رديئة بل إن الإسلام أحسنها ؛ وذلك لأنها لا توافق الأفكار الحديثة العلمية كما يوافقها الإسلام . فإذا قلت فى وصف دين من الأديان إنه « حسن » أو « الأحسن » فأريد به المدى الذى إليه يبلغ ذلك الدين فى حث الإنسان بواسطة عقائده وتعاليمه على الجد فى طلب الفلاح لنفسه . كذلك إذا ذكرت هنا كلمة «علم» فأريد به العلم المرتب للاشياء المعلومة أو القابلة للعلم .

إن العلم يحسر اللثام عن الأشياء التى هى ضرورية أو مطلوبة لفلاح الإنسان والفنون عموماً تدله على الطريق الذى به يحوز تلك الأشياء أو يصنعها والحكومات تجعل أو ينبغى لها أن تجعل له التحقيقات العلمية والتقدم فى الفنون يسيرة الملتمس دانية القطوف . وأما الدين فينبغى أن يحرك الإنسان ويحرضه على الإستفادة من العلوم والفنون العصرية استفادة تامة . وقد يخطر ببالك أنه ما دامت الحكومة قائمة بواجبها والعلوم تترعرع والفنون تتقدم فلا حاجة هناك للدين . فأقول إنك لو أخذت

والذى تم على يده تسليم غرناطة وإسدال الستار الأخير على مأساة الإسلام فى الأندلس ، كان ابناً لأمير غرناطة السابق أبى الحسن على بن سعد بن الأحمر من محظيته الاسبانية إيزابلا التى عرفت بين العرب باسم « ثريا » أو « الزهرة » . وكان أبو عبد الله هذا أثيراً لدى أبيه بفضل حظوة أمه المسيحية ؛ وبسبب ذلك انشق أخواه محمد ويوسف على أبيهما ، وكان كلاهما ابناً له من « عائشة » زوجته الثانية العربية المسلمة .

ولقد كان اختصام أبى عبد الله فيما بعد مع عمه أبى عبد الله الزغل[1] ، السبب المباشر فى سقوط غرناطة وانثلال عرش آخر حكومة إسلامية فى البلاد ...

لقد كانت النية التى عقدها ملوك الأسبان على طرد العرب صريحة ، وكان مصير المسلمين أمام هذا الزحف الجارف واضحاً ومحتوما ؛ ولم تكن نجدات المرابطين والموحدين التى تحركت من أفريقية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر لتؤثر إلا فى تعويق حلول المأساة التى كان الجميع يشهدونها بعين الخيال ، ويرون أنفسهم مسوقين إليها دون أن يستطيعوا لها دفعا . حتى لقد كان لسان الدين بن الخطيب وزير الغنى بالله محمد بن يوسف ابن الأحمر يوصى أولاده بعدم التوسع فى شراء العقار بالأندلس ؛ ويصرح لهم بأن هذه البلاد أصبحت للمسلمين دار غربة !

وأعجب من هذا فى الدلالة على توقع المسلمين لمصيرهم المحتوم ، ما قاله بعض شعرائهم إذ ذاك ... وكأنما كان يوحى إليه :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه كيف الحياة مع الحيات فى سفط ؟

غفر الله لهؤلاء الأجداد الكرام زلاتهم ، وجعلنا ممن يتعظون بمحنتهم ، وألهمنا حسن التذكر لتاريخهم وسيرتهم . « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

محمود عزت عرفه

(١) أسر أبو عبد الله محمد فى بعض وقائعه مع الأسبان ، ولما صار الملك بعد أبيه إلى عمه أبى عبد الله الزغل أطلقوا سراحه لمناوأته ، فاستولى بمعونتهم على غرناطة وأخرج عمه إلى وادى آش . ولم يلبث الزغل أن تنازل عن بقية ممتلكاته إلى فردناند لقاء مبلغ من المال وانتقل إلى فاس فنقم عليه سلطانها وسجنه وعذبه حتى مات . أما أبو عبد الله محمد فبقي يدافع جيوش المسيحيين عن غرناطة حتى لم يبق من تسليمها بد ، فهاجر إلى المغرب حزينا كاسف البال واستوطن مدينة فاس وبها مات عام ١٥٣٨ م

حصاناً إلى النهر فهو لا يشرب منـه ما لم يكن ظمآن ، فإنه إن عطش يشرب من تلقاء نفسه فإن لم يعطش فلا منظر الماء الصافى ، ولا سهولة الوصول إليه ، ولا ترغيبك إياه ، ولا ضربكه بالسوط يحمله على الشرب . كذلك العلم يقدر أن يريك الماء أو أى شىء آخر مفيد ، والفنون تستطيع أن تدلك على طرق حيازته ، والحكومة يمكن أن تكافئك بالجوائز أو تهددك بالعقاب ؛ ولكنك لا تشرب ما دمت لست بظمآن ، أو بعبارة أخرى إنك لن تستفيد من الأشياء المقدمة إليك أو الموضوعة تحت تصرفك إذا لم يكن فى داخل نفسك ما يدفعك لذلك . فهذا العطش ، هذا الدافع الباطنى الذى هو فى الحقيقة قوة محركة للانسان من ثمرة الدين وخليقته .

إن فائدة الدين العظمى هى الطموح الذى يوجده ويربيه فى الإنسان أن يعيش سعيداً صالحاً [1] . صحيح أن الداعى للسلوك الحسن لكثير من الناس هو خوف العقاب أو أمل الثواب سواء أكان عاجلا أم آجلا . وإن بعض الأديان ومنها الإسلام تقدم صورتين لامعتين للجنة وجهنم المعدتين للصالحين والطالحين بعد الموت ، ولكن عند الطباع العالية ذوات القوى القوية لا قيمة لتلك الدواعى [2] فإنها مثل صوت السوط أو إراءة العشب للحصان الذى لا يجرى . فهى ليست مؤثرة أثراً ثابتاً مثل الداعى الروحانى العالى الذى يخلقه الدين الحق فى الإنسان للحياة الصالحة . إننى لا أقدر أن أشرح لك هذه النقطة أكثر من ذلك بغير الخروج عن الموضوع والدخول فى المباحث الفلسفية الدقيقة . لذلك يكفى أن أقول لك إن الداعى الدينى الروحانى خير من جميع الدواعى الأخرى للسير الحسن والحياة الصالحة . فإنه يعترف بروحانية الإنسان ويساعدها للاستيلاء على حيوانيته . قال الشاعر الفارسى :

آدمى زاده طرفه معجونى است
از فرشته سرشته وإز حيوان
كر كندميل اين شودكم ازين
ور كند قصد آن شود به آزان

وترجمته :

« إن الإنسان مركب غريب
قد ركب بالملكية والحيوانية
فإذا مال إلى الحيوانية اتضعت رتبته عنها
وإذا قصد الملكية ارتفعت منزلته عنها »

إنه الدين الحق الذى يمكن الإنسان من أن يفوق الملائكة فى الصلاح والتقوى وهو ما بينه السر أوليفرلودج أيضاً فى كتابه « جوهر الدين حليف العلم » فاقرأه .

ثم هناك فائدة أخرى للدين وهى أنك كثيراً ما تتوخى القيام بأعمال جمة ، ولكن لا تقدر على أن تقوم بجميعها وذلك إما أنك عدلت عن قصدك أو حال أحد دون قيامك بها . فما يهم الاجتماع ونفسك من رغباتك الجمة التى تفوق أعمالك هو أن تكون حسنة مثل أعمالك . ولا تقدر القوانين ولا التقاليد الاجتماعية على ضبطها ضبطاً صحيحاً لأنهما يختصان بالمظاهر الخارجية أى للأعمال الصادرة عن رغباتك ، وعواطفك ، وميولك الباطنية . فما يقدر على ذلك إلا الدين الحق مثل الإسلام الذى يحاسب على الرغبات التى تتحول إلى الأعمال حساباً كبيراً ، ويسعى فى قتل الرغبات السيئة فى مهدها أى قبل أن تتحول إلى الأعمال .

وعلى هذا فكل دين يقدر على أن يخلق فى الإنسان أحسن الدواعى للسير الحسن ، ويسعى فى إبادة الرغبات السيئة بكيفية مؤثرة فعالة لا بد من أن يوافق الأفكار الحسنة المعترف بها فى العصر عند العلم والفن . وذلك الدين عندى هو الإسلام [1] .

وأما موافقة الإسلام للافكار العصرية فيكفى أن أمثل لك مثالا واحداً فإن المجال والوقت لا يسمحان لأكثر من ذلك وهو أن الإسلام ادعى فى أول آية من السورة الفاتحة التى تحفظها أن هناك عوالم أخرى غير هذا العالم بقوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » ولا تزال هناك بعض الأديان تدعى أن لا وجود لعالم آخر غير عالمنا هذا ، ولكن العلم فى العصر الحاضر يدحض مثل تلك الدعاوى ويثبت وجود عوالم أخرى غير هذا العالم كما ذهب إليه

---

(١) أنا لا أعلم ديناً لم يأمر لعمل الخير واجتناب الشر كما لا أعتبر ذلك الدين ديناً الذى لم يأمر لعيشة سعيدة وحياة مرضية .

(٢) وهو ما فى مذهب الصوفية فإن الصوفى الخالص لا يبتغى بأعماله شيئاً غير الله .

(١) لأنه يخلق أحسن الدواعى للاستيلاء على زيغ الطبع الانسانى الذى منه اشتكى القديس بولس حيث قال : إن الخير الذى أنا أريد لا أعمله والشر الذى أنا لا أريد أعمله .

« فلسطينيات » :

الضحية ...

للأستاذ نجاتي صدقي

رأيت مرة صديقاً يسير كئيبا حزينا ، فسألته الخبر ، فلم يجب بأكثر من كلة .

— « وقعت » ... واختفى ...

فلم أفقه ما هية النكبة التي حلت به ، وعزوت ذلك لدين لم يتمكن من سداده ، أو لخلاف وقع له مع زوجته ، أو لمشكلة طرأت له في وظيفته ...

ثم غاب عن ناظرى أسبوعين كاملين ، إلى أن رأيته يوما يجلس في مقهى من مقاهى « يافا » وأمارات البشر والحبور تبدو على قسمات وجهه .

— قلت له : لا بد أن يكون قد حدث لك حادث ، تحاول إخفاءه عنى ، رأيتك مرة تسير كئيبا ثم اختفيت أسبوعين ثم ظهرت ثانيا مسرورا ، فما هي قصتك ؟

قال : أفقت مرة من نومى وأنا أحس بألم لا يطاق في ذراعى اليمنى ، وكانت أعصاب يدى متوترة ، وكنت أجد صعوبة شديدة في قبض أصابعى ، فحاولت أن أنزع لباس النوم ، فلم أستطع ، وأمسكت فنجان القهوة فسقط على الأرض ... ثم أردت أن أكتب شيئاً فلم تطعنى أناملى ، ثم جاءنى ولدى وطلب منى أن أبرى له قلمه ، فلم يفعل السكين في القلم ... فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم وهرعت إلى الطبيب .

فلما رويت له ما حدث لى ، اهتم بالأمر وقال :

— المسألة في غاية التعقيد ... وأود قبل فحص جسمك أن أفحصك بالأسئلة التى ستنير لى سر مرضك ...

فسألنى عن اسمى ، وعن اسم أبى وأمى ، وأين قضيت أيام طفولتى ، وأين نشأت وترعرعت ، وأى المدن سكنت ، وهل سبق أن أصبت بأمراض ، وما هى أنواعها ... وهل أعرف شيئاً عن أمراض بارزة في عائلتنا ... وهل قمت بأعمال جسدية يوما ما ، ثم ما هى طبيعة عملى الآن ، وهل أكثر من الكتابة أو المطالعة ... وهل أميل إلى التفكير العميق أو السطحى ، وأخيراً كيف أقضى ساعات الفراغ ، أأقضيها في الدعابات ... أم في التأملات ...

ثم فحص جسمى ، فجس نبضى وحملق في عينى ، وأنعم النظر في حلقى ، وقاس كتفى ، واستمع إلى رئتى ، ونقر على ظهرى وبطنى ، وسألنى أن أتأوه ... ثم طرق ركبتى بعصا طرقاً خفيفاً فردتا عليه بحركات عنيفة ... ثم قال :

— كفى الآن ... اجلس .

فجلست أجمع ثيابى ، وجلس وهو يضع تقريره الطبى ، وبعد دقائق قال لى :

اسمع يا بنى ... أنت مصاب بمرض عصبى عضال لم أر له مثيلا في حياتى . وأصارحك القول بأننى لن أنصحك باستعمال أى دواء قبل تصوير ذراعك بأشعة رنتجن .

— قلت ولكن كيف تشخص هذا المرض على وجه التقريب ؟

— قال يغلب على ظنى أنه « أوستيو ميليتوس » يتصل إما « بالبرا مليجيوس » أو « بالهيمبليجيوس » ! ...

الإسلام ، ويقدم لنا الدلائل لليقين على أن كل نجمة تتلألأ فوق رؤوسنا في القبة الزرقاء حين يرخى الليل رواقه ويسبل ستره عالم معمور مثل عالمنا .

إن للدراية والخبرة عند الإسلام مصدرين : العلم والإلهام . فالأول يعبر عن جد الإنسان لمعرفة طرق الحق المستقيمة . والثانى يمثل نعمة الله بكشف سبله السوية للانسان . فالفرق بين المصدرين فيما أرى مثل الفرق بين التجربة والوجدان ، أو بين الأفكار المكتسبة والأفكار الغريزية . وهو ما يعتبره فلاسفة العصر الحاضر أيضاً مثل سبنسر وبرجسون أنه فرق في الكم لا في النوع . والله يلهم كل فرد في كل لحظة من حياته ؛ بيد أنه يتوقف على الأكثر على الروحانية أو المقدرة الروحانية الناشئة عن مدى معرفته لله ولسبله السوية ، وتلك المقدرة يرث الإنسان شيئاً منها عن آبائه وأجداده ويكسب شيئاً آخر بالإيمان والإخلاص وبالأعمال الصالحة والسير الحسن .

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

ثم أخذ لى صورة بأشعة رنتجن ... وسألنى أن أعود إليه فى اليوم التالى ... فخرجت من لدن الطبيب وقد أظلمت الدنيا فى عينى ، فكان الناس يعبرون بى وكأنهم أطياف . ومرت بالقرب منى سيارة مسرعة ، فمن لى أن أحتك بها ! ... ثم اجتزت هضبة تطل على البحر ، فرأيت أمواجه تقهقه وتتحدانى ! ... لكننى تغلبت على مظاهر الضعف ، ولم أقنط من رحمة الله .

ولما عدت إلى الطبيب مرة أخرى ، أظهر لى الصورة ، وراح يشرح لى تفاصيلها بالقرب من النافذة ... فقال :

انظر ... هذه جمجمتك ... وهذه أسنانك ... باستثناء المخلوع منها طبعاً ... وهذه رقبتك ... أنظر كيف يميل عمودك الفقرى إلى اليمين قليلا .. أما هذه الريشة فوقفها غير طبيعى ، وأظن أنها هى التى تضغط على مجموعة أعصاب كتفك الأيمن وتسبب لك الآلام ... وعلى كل فهذا رأيى الخاص ... ولما كان الطبيب عادة لا يرتاح إلى رأى واحد فى القضايا الطبية المعقدة ، فأننى سأرسلك الآن إلى طبيب إخصائى فى الأعصاب ، ثم تجرى لك مشاورة طبية فوق العادة ...

وتركت عيادته وأنا فى حالة يرثى لها ، وأسرعت إلى الأخصائى فى أمراض الأعصاب الذى أرشدنى إليه الطبيب ، واسمه الدكتور رودلف روبنشتاين ، خريج معهد فينا الطبى فجلست إليه وكان يسألنى سؤالا فى الطب وعشرة أسئلة فى السياسة الفلسطينية ! ... ثم بدأ الفحص بعد أن ظهرت أمامه كما خلقنى ربى ، ووخزنى بابرة فى أطراف أصابعى ... ثم مر بالإبرة أيضا على ظهرى ، ثم ربط جهازاً على ذراعى وضغط عليه ثم قال لى :

— تمدد على ظهرك ، وارفع يديك إلى العلاء ، فابسط أصابعك ... ثم أمسك بيدى وقال :

— دعنا نتجاذب بشدة ...

ثم أخذ يطرق جسمى بمطرقة خشبية صغيرة ، وكان ذلك خاتمة الفحص .

فقال لى وهو يقبض الجنيهات الخمسة :

أنت تشكو من انحطاط فى مجموعة أعصابك ... وأقترح عليك أن تستريح شهراً كاملا فى « كاليه » فى منطقة البحر الميت .

وعدت إلى البيت ، وأنا أفكر فى هذه المصيبة التى حلت بى ، فكنت أردد أقوال الطبيبين ، وأنعم النظر فى صورة رنتجن ، وأطالع التقارير الطبية ، وأحاول إدراك كنه محتوياتها اللاتينية مستعينا بالقاموس الطبى ... إلى أن أضحيت أسير هواجس ، فانكمشت على نفسى واعتزلت الناس ، وعولت على ألا أعود إلى طبيبى الأول ، وألا أسافر إلى « كاليه » ... وفى إحدى الأمسيات خاطبت نفسى قائلا — لم لا تجرب حظك فى الدواء البلدى ؟ ... فنهضت للتو وقصدت جارتنا (أم حسين) وهى عجوز معروفة بوصفاتها البلدية وعرضت عليها ذراعى فامسكت به وتفحصته وقالت : أنت تشكو من قرصة هواء ! ...

قلت : وكيف ذلك ؟

قالت : لا تبحث فيما لا يعنيك ... وعليك أن تعمل حسب ما أوصيك به — خذ خمسة جرامات من المسحوق الفارسى ، ومثلها من بذور البطم ، وعشرة جرامات من الزنجبيل ، ومثلها من الهند شعيرية ، ومثلها من روح الزرنيخ ، واسحقها كلها معا ، ثم اطبخها بالزيت ، واصنع منها لزقات ...

قلت ومن أين آتى بهذه العقاقير ؟

قالت — اطمئن فانا أجلبها من البلاد البعيدة بواسطة الحجاج ... ولك أن تثق بخبرتى ومهارتى ... والآن هات جنيهاً على الحساب ...

وبعد أن قضيت أسبوعين وأنا فى هذه الرحلة الشاقة بين الطب والوصفات البلدية ، ذهبت إلى صديق صيدلى ، ورويت له حكايتى فى جميع أدوارها ، فضحك وقال — لا تجزع ... يبدو لى أن مناخ البحر لا يلائمك ، وهذه رطوبة أحدثت فى ذراعك التهاباً ... إليك هذا المعجون وادلك به ذراعك دلكا خفيفا ثم لفه بالصوف على ثلاث ليال متواليات ، وعلى الله الشفاء .

قلت — وما ثمنه ؟

فاجاب فى شىء من التردد والخجل معاً :

— « شلن » واحد فقط ! ...

نجاتى صدقى

الشعر كصورة للجمال

للأستاذ نظمى خليل

أظن أن كثيراً من الناس الذين يقرأون الشعر يتساءلون ألا يوجد فى الشعر شىء آخر غير الموسيقى والصور . ما هذا الجمال الذى نسعى وراءه ؟ ما رسالة الشعراء للعالم ؟ ما معنى القصيدة ؟ وربما زاد بعضهم فقال : ماذا يعلمنا الشعر ؟ .

فإذا اصطلح الناس على أن الصور الشعرية يجب أن تدرس من أجل لذة الاستيعاب نكون قد وصلنا إلى غايتنا ونترك هذه الأسئلة تجيب عن نفسها .

ولكن هذا القانون السقيم ، قانون الاختبار الذى ظهر فى القرن التاسع عشر وهو المنفعة قد انحرف بالمثل العليا فى الشعر وألزمه أن يؤدى لنا نتائج خاصة وآثارا ملموسة يمكن للمستوعب إدراكها وتفهمها .

فى الشعر الجيد كثير من الجمال الذى نجده فى سائر الفنون السامية ، ولكنه جمال خفى غامض لا يمكن أن يعرض أو يشرح ، فلا تكاد الألفاظ تأخذنا إلى ذلك الجو السحرى البعيد حتى نشعر أن وراء النظم نوعا من ضوء الأحلام ليس موجوداً ولكنه سائر أبداً . يولد فينا إحساسات بأشياء غامضة لا يمكن أن يعبر عنها بالكلمات نفسها بل قد لا يحسها الشاعر نفسه.

ولكنا وإن كنا لا نستطيع الإفصاح عنها لا نرتاب فى وجودها . فهى حقيقة موجودة كالحياة عينها .

أما أولئك الذين يعجزون عن الإحساس بهذه الكآبة الغامضة أو السرور الخفى الذى ينبعث من الموسيقى اللطيفة فقد تكون مشاغل الحياة قد صرفتهم عن ذلك فبلد إحساسهم وبرد قلبهم ، وصاروا يدلجون فى الحياة وهم أبعد الناس عن الإحساس بها . فاليهودى أو رجل المال مثلا لا يشعر بها لأنها ليست شيئا يباع فى الأسواق .

هذه الأشعار التى نحس ببهجتها الغامضة نعرفها بأنها شعر إلا أن النقد لا يستطيع أن يحللها أو يصورها فى تعبيرات موسيقية أو صور . ولكن القلب يعرف أنها شعر لأنه شعر بها .

هذا هو الاختبار الأخير للشعر ؛ وهذه هى وظيفة الفنان لا يعنيه أمر العقل فى قليل أو كثير لأنه لا يقدر موضوعات ولكن صورا تبعث فينا إحساسات خاصة ولكنها لا تحمل معنى يمكن أن يعبر عنه أو يشرح حسب القوانين العقلية .

فإذا فكر القارئ فى الموسيقى بدلا من الشعر لا يصعب عليه فهم هذا . ولكن من سوء الحظ أننا فصلنا الشعر من سائر الفنون وكدنا ننسى أن الموسيقى هى ابنة (أبولو) وليست ابنة (منيرفا) .

فالسؤال الآن : ما ذا يعلمنا الشعر لا يلقى إلا فى مجتمع قد جعل الاختبار والعقل فوق كل شىء وغاية كل شىء .

الشعر لا يعلم ولكنه يلهم . فأولئك الذين يريدون أن يعلموا يجب أن يكون منطقهم واضحاً سليما ؛ ولكن جوهر الشعر الأصيل هو ما لا يمكن أن يفهم أو يعبرعنه بحجج العقل والمنطق .

فالشاعر ليس مدرساً ولكنه رسول وكلامه غامض .

قال شيلى : « الشاعر كالبلبل الذى يجلس فى الظلام ويصدح ليبدد وحشة وحدته بأنغامه الشجية ، والمستمعون إليه كأولئك الذين سحروا بنغم موسيقار متوافق ، فيحسون أنهم قد اهتزوا وطربوا ولكنهم لا يدركون متى ولماذا ؟ » .

أما الخطأ الشائع وهو أن تعاليم القصيدة يمكن أن تأخذ شكل القوانين والأصول فراجع إلى تلك التجربة الأسيفة المحزنة وهى شرح الشعر بالنثر أى نثره ، ولكن الشعر لا يمكن أن ينثر كما لا يمكن أن يترجم دون أن يفقد حياته .

أجل قد يأتى لنا المترجم بقصيدة جديدة لا تقل عن الأولى جمالا وروعة كما حدث فى ترجمة بوب للالياذة وفتز جرالد لرباعيات الخيام ، ولكن يجب أن نعترف أن هذه ليست شرحاً ولا ترجمة بل هى خلق جديد .

كل ما أخذ على النقد الردئ هو أنه يعنى بالموضوع بدلا من الشكل .

وقد عاب « مثيو أرنولد » « دكتور جونسون » لحكمه

الخاطئ على « ليسيداس » (مرثية ملتن لصديقه كنج) « إن أكبر غلطاته هو ظنه أنه ما من أحد يجد سروراً أو لذة في قراءة ليسيداس لأن معنى هذه القصيدة ليس حقيقياً وفكرتها قديمة » وقد وقع متيو أرنولد في نفس الخطأ عندما أعلن حربه على شيلي في قوله : « يعوزه شيء هام في الشعر لا يمكن أن يشفى منه وهو المادة » .

نريد أن نتحرر من هذا النوع من النقد مادام الشعر كغيره من الفنون الرفيعة غرضه المتعة والسرور العام .

فالشعراء يريدون أن يخلقوا ليشعروا لا ليفكروا . والنقد وهو المساعد الوحيد للخلق يجب أن يقوم بحثه لا ليجعلهم يفهمون التعاليم والقواعد ولكن ليريهم الفن ويتركهم يتمتعون به ويقفون على ما فيه من فائدة لأرواحهم لا لعقولهم .

ولقد شرح الألمان شكسبير فحللوا آراءه الدينية ونزعاته الفلسفية وتعاليمه الدينية والأخلاقية ومبادئه السياسية ، وجعلوا منه وحشاً مخيفاً فقالوا إن حلم « ليلة في منتصف الصيف حفلة حقيقية » .

ومن المحتمل أيضاً أن أغانيه صدرت عن تجربة عملية فقد قال دكتور جنسون وهو قول خاطئ من أساسه « إن شكسبير كان يعنى بأن يَسُرّ أكثر من أن يُعلّم ، وأنه كان يكتب بعيداً عن أي غرض أخلاقي » كذلك قال أمرسن « لقد أراد أن يعطينا صوراً وكان جديراً به أن يقدم لنا تعاليم » .

لم يكن أحد من الانجليز يفطن إلى هذا الاختبار حتى جاء به أرنولد من ألمانيا فقال « إن رسائل شيلي ستبقى بعد أشعاره الغنائية » .

ونجد كثيرين يكرهون كيتس ولا سيما جمهور الطلبة لعجزهم عن فهم أو شرح معانيه . فالجمال أو الخير الذي ننشده في الشعر هو الخير الذي فهمه كيتس وعبر عنه بقوله « أوه . لا تتعب وراء المعرفة فليس لدي شيء ؛ ومع ذلك فإن أغنيتي تأتي وطنية بحرارتها . لا تبحث وراء المعرفة فليس لدي شيء ، ولكن المساء يصغي » .

دعنا نحاول أن ننقذ الشعر من أيدي الممتحنين الذين يعرضون على تلاميذهم شرحه وتفهم معانيه حتى تكون لنا دراسة واحدة للسرور والجمال الخالص .

إن رسالة الفن سر شخصي ليست محدودة المعنى .

فالقصيدة أو الصورة لها معنى خاص لكل فرد . وكل الشروح ليست إلا ظلالا لحقيقة واحدة ، فمعنى الخلق الفني الجميل موجود في روحه مستقر في روح صانعه .

فإخبارك الطفل بما تريد معرفته شيء جميل ، ولكن عدم إخبارك إياه قد يكون أجمل وأفضل ؛ فقد حدث أن كان طفل جالسا مع أمه يستمع فقال : « أمي . إني أظن أني أفهم إذا سكت هذا عن الشرح » .

قد يكون هذا قانونا بلا استثناء ، أي أن تبطل الشروح ما دامت لا تزيد في المتعة والسرور بالكشف عن الجمال الفني .

فالطفل يستطيع أن يتبين الجمال في أغاني شوقي مثلا دون أن يعرف شيئاً عن شوقي ؛ فإن أساس المتعة هو الموسيقى ، فمن السخرية أن نحاول أن نلقي على الأطفال شروحاً عن حياة الشاعر قبل أن يتعلموا كيف يحبون الشاعر ويحبون شعره .

كيف يلذ للطفل أن يعرف أن حافظ ابراهيم ولد في القاهرة ثم تعلم الجندية ثم ذهب إلى السودان ... قبل أن يقرأ أو يسمع أشعاره . أقول يسمع إذ ليس من الضروري أن يقرأ الطفل الشعر ليقف على جماله . فقد يسمع القصيدة وهو يجهل معانيها بل يجهل ألفاظها جهلا تاما . ومع ذلك تراه يطرب ويحزن تبعا لموسيقاها :

ولقد قرأت مرة أن أحد الأساتذة الإنجليز جمع حوله بضعة أطفال ثم أخذ ينشد لهم شيئا من شعر هوميروس الحماسي باللغة الإغريقية فما لبث أن رأى الأطفال يهتزون ويطربون وينسجمون فسألهم عن معنى القصيدة فقالوا إنها وصف لمعركة ؛ ثم قرأ عليهم قصيدة أخرى فظهر عليهم الوجوم والحزن فلما سألهم عما فهموا قالوا إنها رثاء لقتيل .

فإذا كان هذا مبلغ تأثير الموسيقى في الطفل الذي يجهل اللغة تماماً فأحرى بمدرسينا أن يتركوا أطفالهم يتمتعون بجمال الموسيقى وأن يفهموهم الشعر كصورة للمتعة والجمال .

نظمي خليل

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٨٣٥ – لذاك إذا دعاه لا يجاب

أمالي القالي : سمع الاصمعي رجلا يدعو ربه ويقول في دعائه : يا ذو الجلال والاكرام ، فقال له الاصمعي : ما اسمك ؟ قال : ليث . فقال الاصمعي :

ينـاجي ربه باللحن ليث لذاك إذا دعاه لا يجاب

٨٣٦ – يشهد السمع أنها عواده

رب ورقاء في الدياجي تنادى إلفها في غصونها المياده
فتثير الهوى بلحن عجيب يشهد السمع أنها عواده
كلما رجّعت توجعت حزنا فكأنا في وجدنا نتباده[1]

٨٣٧ – إخوة فيه للشفار الكليله

البحتري :

إن تجرب بني الزمان تجدهم إخوة فيه للشفار الكليله
والفتى كادح لفعلة دهر يرتضيها أو عيشة مملوله
خائف آمل لصرف الليالي والليالي مخوفة مأموله
راح أهل الآداب فيها قليلا وحظوظ الأقسام فيها قليله
فعليك الرضى بما رضيته لك هذي المطالب المجهوله
لن تنال المزوى عنك بتدبير ولن تصعد السماء بحيله

٨٣٨ – كانت حمتي فقذفتها

في (الموشح) لأبي عبيد الله المرزباني :

دخل العجاج على الوليد بن عبد الملك فأنشده :

كم قد حسرنا من علاة عنس[2]

فصار إلى قوله :

بين ابن مروان قريع الأنس[1]
وابنـة عباس قريع عبس

فقال له الوليد : ما صنعت شيئا ، أنشدني غير هذا فأنشده :

أمسى الغواني معرضات صددا[2]
وقد أراني للغـواني مصيدا
مـلاوة كأن فوق جلدا[3]

فقال : مصيدا وجلدا ، لم تصنع شيئا ، أفرغت مدحك في عمر بن عبيد الله بن معمر إذ قلت :

حول ابن غراء حصان ، إن وتر[4]
فات ، وإن طالب بالوغم اقتدر[5]
إذا الكرام ابتدروا الباع بدر[6]

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لكل شاعر حمة[7] ، وكانت هذه الأرجوزة حمتي فقذفتها .

قلت : يقصد العجاج بحمته ما يقال له في الفرنجي : chéf d'oeuvre وقد قال بعض الفرنج :

un chéf d'oeuvre n'esthpas faitvil est né

وأرجوزة العجاج[8] هذه (٤٥٩) بيتا ، مطلعها :

« قد جبر الدين الإله فجبر[9] »

---

(١) نتباده : نتجارى

(٢) (حسره) ساقه حتى أعياه كأحسره (العلاة) المرتفعة في السير لا ترى أبداً إلا أمام الركاب (العنس) الناقة الصابة .

---

(١) (قريع القوم) : سيدهم .

(٢) صددا : ناحية .

(٣) (ملاوة) – مثلثة – مدة من الدهر (الجلد) أن يموت ولد الناقة فتمنع درها فيؤخذ فصيل فيحشى تبناً وهو البو ، فيوضع بين يديها فتنكره بعينها ، وترأمه بقلبها فتدر (المرزباني)

(٤) وترت الرجل قتلت حميمه فأفردته (الأساس) كل من أدركته بمكروه فقد وترته .

(٥) (الوغم) : الثأر .

(٦) (الباع) : الشرف ، الكرام ، في الأساس : من المجاز لفلان سابقة وباع .

(٧) حمة الشيء – بضم الحاء وتشديد الميم – شدته ومعظمه من الحم الحرارة ومن حمة السنان وهي حدته . والحمة – بالضم والتخفيف – فوعة السم أي حرارته وفورته وحمة البرد شدته وفي رواية : « إن لكل شاعر غربا ، وإن غربي ذهب في ابن معمر » والغرب الحدة والنشاط ، غرب الفرس واللسان حدتهما .

(٨) في (مجموع أشعار العرب) المطبوع في أوربة سنة ١٩٠٢ م « اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن الورد البروسي » .

(٩) جبرت الشيء فجبر هو ، لازم متعد .

٨٣٩ — أفضل نعيم أهل الجنة

في (ميزان الاعتدال) للذهبي :

... عن أبي الدرداء قال : كان رسول الله يذكر الناس ، فجاء أعرابي فقال : هل في الجنة سماع ؟ .

قال : يا أعرابي ، إن في الجنة نهرا جمل فيه الابكار ... يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها ، وذلك أفضل نعيم أهل الجنة .

فسئل أبو الدرداء : بم يغنين ؟ قال : بالتسبيح إن شاء الله .

٨٤٠ — يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

أحمد بن أبي بكر الكاتب :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرىء نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك عن بغض لها غير أنه يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

٨٤١ — التقليد

في (الحيوان) للجاحظ :

داء المنشأ والتقليد داء لا يحسن علاجه جالينوس ولا غيره من الأطباء ... وتعظيم الكبراء ، وتقليد الأسلاف وألف دين الآباء والإنس بما لا يعرفون غيره يحتاج إلى علاج شديد ، والكلام في هذا يطول .

إرشاد الأريب لياقوت :

قال الشيبزي للماوردي : أيها الشيخ اتبع ولا تبتدع .

فقال : بل أجتهد ولا أقلد .

٨٤٢ — وسواس الرجل محدث وسواس الرجل

قال أبو الجوزاء : طلقت امرأتي في نفسي وأنا في المسجد ثم انصرفت إلى منزلي ، فقالت لي امرأتي : أطلقتني يا أبا الجوزاء ؟

قلت : من أين لك هذا ؟

قالت : خبرتني جارتي الأنصارية .

قلت : ومن خبرها بذلك ؟

قالت : ذكرت أن زوجها خبرها بذلك .

فغدوت على ابن عباس فقصصت عليه القصة فقال : علمت أن وسواس الرجل محدث وسواس الرجل ، فمن هنا يفشو السر .

٨٤٣ — اغترب تتجدد

أبو تمام :

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

٨٤٤ — كذاك الضر بين الضرتين

أمالي القالي :

قيل لأعرابي : من لم يتزوج امرأتين لم يذق حلاوة العيش ، فتزوج امرأتين ثم ندم فأنشأ يقول :

تزوجت اثنتين لفرط جهلي بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت أصير بينهما خروفا أنعم بين أكرم نعجتين
فصرت كنعجة تضحي وتمسي تداول بين أخبث ذئبتين
رضا هذي يهيج سخط هذي فما أعرى من احدى السخطتين
وألقى في المعيشة كل ضر كذاك الضر بين الضرتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى عتاب دائم في الليلتين !

٨٤٥ — عظيم

سد الطريق على الزما ن وقام في وجه الخطوب

٨٤٦ — بطولة جحا

في (أساس البلاغة) للزمخشري :

قيل لجحا : على من تخالتك ؟

قال : على أمي واخياتي ...

يضرب في من قوته على الضعيف .

٨٤٧ — الجديد والقديم

محمد بن نصر الأوسي :

وإن كان عندي للجديد لذاذة فلست بناس حرمة لقديم

٢ — من الأدب الغربى :

مسلة تتحدث (*)

للأستاذ محمد رجب البيومى

[فى الأدب الفرنسى خاصة روائع خالدة عن مصر؛ وهذه قصيدة عصماء لتيو فيل جوتييه نظمها على لسان مسلة مصرية قائمة بميدان الكونكورد بباريس ونحن ننقلها بتصرف يقتضيه الذوق العربى] .

تحت صوب الحيا وذوب الجليد ... أقفُ الآن فى ٱلتياعٍ شديد
زأر الجوّ فوق رأسى كطاغٍ ... مستبد بكل من فى الوجود
تصرخ الريح بين كفّيه رعباً ... وتصيح الرعودُ تلو الرعود
ويمر السحاب تحت حماه ... كأسير مكبّل بالقيود
تمسّ الجوّ ! صار ثلجاً ببار ... يس وقد كان جمرة فى الصعيد
حيث كانت أختى ترفّه عنى ... بحديث كخمرة العنقود (٢)
إذ يميس النخيل فى سندس العشـ ... ـب كخود تجرّ وشى البرود
إذ يهبّ النسيم فى كلّ فجر ... ناشراً فى الربوع عطر الورود
وذكاء الوضيئة الوجه تعطو ... فوق هام الرُّبا بخطو وئيد
يا لأوقاتها ! تولّتْ وكانت ... مشعلَ النور فى الليالى السود
كخيال سرى ، وحُلم توارى ... كسرابٍ يلوح فوق البيد

إيه رمسيس قد تحطمَ صرحٌ ... أبدىٌّ أقمتَه للخلود ... !
المسلاّت – يالحزنك – كانت ... فى ربوع الحمى كبُرج مشيد
طالما قد حميتَها بحصونٍ ... من رماح وجحفل من أسود
فمشى الدهر نحوها وهو ليث ... صنع الله قلبــه من حديد
فاذا جيشك العظيم يولى ... وجهه فى استكانة الرعديد
كيف هذا ؟ حقيقةٌ أم خيال ... ياسماء ارجفى ! ويا أرض ميدى

قد تربّعتُ فوق لحد رهيبٍ ... كان للأبرياء شرّ اللحود (٣)

وقف العدلُ فى نواحيه يبكى ... بدموعٍ تحزّ فى الجلمود
كم قتيل بدون ذنب جناه ... وشهيد مضى وراء شهيد
والمنايا تطيع أمر (لويس) ... كل يوم تقول : هل من مزيد (١)
وأخيراً أتت عليـه فحزّتْ ... من قفاه العريض حبل الوريد
قُتل الموت ! كم أذلّ عزيزاً ... كان ذا سطوة وبأسٍ عتيد

انظر « السين » حائر الموج يعلو ... فى اصطخاب كالهائج العربيد
يتهادى وفيم هذا التهادى ؟ ... وهو مرُّ المذاق رنْق الورود
ليس كالنيل حين تصقله الشمـ ... ـس فيبدو كاللؤلؤ المنضود
ماس بين المروج مؤتلق الوجـ ... ـه كتاجٍ على الرُّبا معقود
جمل الأرض روضةً يتغنى ... فوقها كل صادحٍ غرِّيد
من رسولى إليه فى مصر يُهد ... به تحيات قلبــىَ المعمودِ
كل شىء له بريدٌ ولكن ... آه للنيـل ! ماله من بريد

كنت فى مصر — وا حنينى إليها —
ذات مجــد يذيب قلب الحسود
يفِد الناس خاشعين لمحرا ... بى وكلٌّ يهم لى بالسجود
وأنا اليوم قطعةٌ من صخور ... وقفتْ فى الطريق مثل العمود
الرعاعُ الطغام حولى سكارى ... كقطيع مشرّدٍ فى البيد
يفعلون الخنا بوجه من الصخر ... وقاحٍ لا يستحى من وجودى
كم بغىّ تسير خلف زنيم ... يشترى طهرها بحلو الوعود
يقطع الوقت فى التذاذٍ أثيم ... بين نهدِ اللمى وورد الخدود
(غاب بولُنْيَا) مذبح شهوىّ ... كم هوتْ فيه كل حسناء رُودِ
أين منهُ مصرُ التى قد تعالى ... كل صوتٍ بطهرها المحمود
قد جعلتِ العفاف يامصر تاجاً ... يتجلى على رءوس الغيد

أين منّى حمى رعٍ وأمونٍ ... هل سيبدو لناظرى من جديد
وعويل الكهّان فى غسق الليـ ... ـل كثكلى على ضريح فقيد
والتماثيل فى المعابد يجثـو ... عندها كل سيّدٍ ومسود
والنواقيس صادحات كطير ... ساحر اللحن بارع الترديد
والقبور الضخام كالهرم العالى ... سطورٌ خُطتْ بسِفر الخلود
ما بباريس مثلها وهى كنز ... ذهــبىٌّ يضم كل فريد
أنت يا مصر منيةُ المتمنى ... دُمتِ فى نعمةٍ وعيشٍ رغيد

---

(١) من ديوان « ألحان غريبة » تحت الطبع .
(٢) أختى تريد مسلة الأقصر .
(٣) فأقيمت المسلة فى مكان مقصلة لويس السادس عشر .

(١) لويس السادس عشر



قصة من الأدب الروسي الرفيع :

« الملاك ... »

للفيلسوف الروسي الكبير لوي تولستوي

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

— ٢ —

ولم يكادا يفرغان من الطعام ، ويقومان عن المائدة ... حتى أقبلت « مترونا » على « الضيف الغريب » ... تسائله :

— « من أي البلاد أنت ؟ ! » فأجابها في صوت شاعت فيه الوداعة « لست من هذه البقاع ! ... »

فقالت دهشت « ولكن . ما الذي رمى بك إلى الطريق ؟ »

— « لست أدرى . ! . »

— « أتعرض أحد لك بسوء ؟ ! . »

— « كلا ! ... لقد عاقبني الله تعالى ! ... »

— « أما كنت ملقى على قارعة الطريق ؟! ... »

— « بلى عريانا ومثلجاً ، وقد لمحنى زوجك الكريم « سيمون » فأدركته الرحمة فخلع ما عليه ، وألبسني إياه ، وأحضرني هنا ... فأطعمتني من جوع ، وآويتني من برد ... وأشفقت على من التشريد والموت ... فجزاك الله خيرا » .

فنهضت « مترونا » وأحضرت له بعضاً من ثياب زوجها القديمة ... وأعدت له مناماً على كثب من التنور يقضي فيه ليلته

باتت « مترونا » في مضجعها تتقلب فلم يزر جفنيها الكرى وما فتئت ذكرى « الغريب » تراود مخيلتها ...

بدا لها كيف أتى على نصيبهم الأخير من الخبز ... فلم يدع لهم شيئا إلى الغد ... فأحست بالحزن يساور نفسها .. والألم يتغلغل في قلبها ... بيد أن تلك البسمة التي رفعها إليها « الضيف الغريب » جالت في صفحة فكرها وجلبت السكينة إلى نفسها وقالت تحدث زوجها في خفوت ، وقد كادت أن تأخذه سنة من النوم : —

« سيمون! ... » فأجابها في توجس وضيق : « ماذا ؟! »

— « لقد أتينا على آخر ما عندنا من الخبز ... ولست أدرى ما الذي نفعله غداً ! ! ليتني أستعير بعضاً من جارتنا « مارثا ! ... »

— « إذا امتد بنا الأجل إلى الغد ... فسوف نرزق من حيث لا ندرى ! ... »

فلبثت المرأة برهة لا تنبس ... ثم قالت في رقة « يخيل إلى أنه رجل طيب كريم ، ولكن ما الذي يحمله على الصمت فلا يكشف لنا جلية أمره ؟!. »

— « أحسب أن لديه علة تمنعه ! . »

— « سيمون ! . »

— « نعم !. »

— « ما بالنا نعطى ! وليس ثمت من يتفضل علينا بعطاء »

فحار سيمون جواباً ... ثم لم يلبث أن قال لها : — « دعينا من هذا الحديث ! ... » وانقلب على جانبه ... وراح يغرى بعينيه النوم بعد أن جفاه . !

* * *

وفي الغداة ... أفاق « سيمون » من نومه ، وكانت الأطفال تعيث في البيت صياحاً ولهواً ، وانطلقت زوجته لتسأل جارتها بعضاً من الخبز ... أما الغريب فكان يجلس على مقعده — في ثياب سيمون الخلقة — يرمى طرفه إلى السماء — وفي عينيه توسل ورجاء ، وقد عاد إلى وجهه بهاؤه وضياؤه عن البارحة ...

فقال « سيمون » في طلاقة ومرح : « هه ! ... أيها الصديق ... إن السغب يدعو الإنسان إلى السعى وراء القوت ، والعرى يضطره إلى طلب الملبس ... فعليه أن يعمل ويكد ... فما الذي تعرفه من المهن ؟!. »

— « لست أدرى شيئاً ! . »

فقال سيمون في صوت ملىء بالدهش .

— « إن كان للانسان رغبة في التعلم فسيتعلم ؟! »

— « وإن لفي نفسى رغبة إلى ذلك . ! »

- « ما ذا تدعى ؟ ! ... »

— « ميشيل ... »

— « حسناً يا ميشيل ... إن لم تكن فى نفسك ترغبة إلى أن تحدثنا عن نفسك ، فهذا من شئونك ... غير أنه يجب أن تتكسب رزقك ، فإن عملت بما سأشير عليك به .! فسوف تجد عندى طعاماً طيباً ، ومأوى حسناً ... »

— « جزيت خيراً ... وإنى لمطيع لما تقول ! ... »

— « إن ذلك غاية فى البساطة ... فانظر إلى . » ثم أمسك « سيمون » بخيط ، ولفه حول إبهامه وراح يجدله فى براعة ... فراقبه « ميشيل » ثم أخذ قطعة من الخيط وثناها على إبهامه وانفك يجدلها كما فعل سيمون وفى براعته وإجادته ، وعلمه سيمون كيف يشمع الخيط ويقطع الجلد ثم يخيطه ... فبرع « ميشيل » فى كل ذلك ... حتى أصبح ماهر البنان كأنه مارس تلك الحرفة طيلة حياته ...

كان لا يبرح يعمل ويعمل دون توقف ، ولا يطعم غير القليل ، حتى إذا ما انتهى من عمله ، جلس صامتاً يحدق فى سماء الغرفة وفى عينيه ذلك الرجاء وذلك التوسل ... ولم يكن يخرج إلى الطريق ، بل يظل حبيس الدار ، رهين العمل ، لا ينطق إلا بكلمات قلائل يضطر إليها ... وما ضحك يوماً ، وما ارتفع لسانه بفكاهة ... ولم ترتسم على وجهه ابتسامة أبداً ، إلا تلك التى أضاءت على جبينه يوم أن قدمت إليه « مترونا » العشاء ... !

* * *

وتتابعت الأيام وتعاقبت الشهور ... وميشيل يعيش ويعمل جهده مع « سيمون » ... وجرى إسمه على كل لسان ، وطبقت شهرته كل مكان ... حتى طفق الناس يأتونه من كل صوب وفج يعاملونه ... حتى ازدهر حاله . وزال عنه بؤس الحياة وعسرها .

كان « سيمون » وميشيل يعملان ذات يوم حينما جلجلت بباب دارهم الأجراس فأسرع كل منهما إلى النافذة ، يستجلى الأمر ... فأبصرا بعربة « زلاقة على الثلج » يجرها ثلاثة من الجياد المطهمة الصافنة ... تقف بباب الدار ، وخف تابع إلى بابها ففتحه ... فظهر منه سيد جليل مهيب — عليه جبة من الفرو الثمين — ووقف بباب الكوخ ، فسارعت « مترونا » إليه تفتحه على مصراعيه ، وترحب بمقدم الضيف الجليل فطأطأ الرجل رأسه عند ولوجه الباب ... فلما انتصبت قامته الممشوقة كاد أن يمس رأسه سقف الغرفة فنهض سيمون وانحنى إجلالا للضيف وقد سرى إلى نفسه الدهش ... فما رأى مثل هذا الرجل فى عظمته ورفاهيته فقد كان سيمون هزيلا نحيفا ، وميشيل صدعا رفيعاً ... كما أن « مترونا » كانت ضاوية الجسد ، جافة العود ...

أما هذا السيد ، فيخيل لمن يراه أنه من عالم آخر وجنات مكتظة مليئة ... ووجه مطهم شاعت فيه الحمرة الوردية ، وجسد زهم كالفيل فى هيئته وبدانته ، وعنق أقمد كعنق الثور وما أن جلس على المقعد حتى قال « من منكم صاحب العمل ؟! » فدنا منه سيمون وقال فى صوت أضحل من الرهبة « أنا يا صاحب السعادة !! »

فصاح السيد بتابعه « هيا ... أحضر الجلد ... يا « فدكا » فلما أحضره ، ووضعه على المائدة ... قال السيد مشير إليه : — « أنظر أيها « الأسكاف » أترى هذا الجلد ؟ . »

— « أجل يا صاحب السعادة ... إنه أثمن جلد رأيته فى حياتى ! . »

— « أبمقدورك أن تصنع لى حذاء منه ؟! »

— « أجل يا صاحب السعادة ! .

— « أتستطيع !؟ حسناً ... فلا يغب عن بالك لمن سوف تصنع هذا الجلد الثمين ... استمع ... ينبغى أن تجعل لى منه حذاء أحتذيه عاماً كاملا ... لا يبلى ولا يخلق . أفهمت إن لم يكن بمقدورك هذا ، فصارحنى ... فإنى أود حذاء أحتذيه عاما بأكمله ... وإنى لأحذرك الآن وإلا فسوف يكون مستقرك السجن وإذا لم يبل فى مدى عام ... فسوف أمنحك عشر روبلات نظير ذلك ... »

فارتعدت فرائص « سيمون » وعجز عن الكلام ... والتفت إلى « ميشيل » ووكزه قائلا فى همس وحسيس « أنأخذ هذا العمل على عاتقنا ؟ ! » فأومأ « ميشيل » برأسه موافقاً ... فانفرجت أسارير « سيمون » وسرى عنه همه وجزعه ... وراح يقيس قدم السيد ... يتعرف عسيها ويقدر أخمصها ... ويسجل ذلك على وريقة تعنيه على صنع الحذاء ... فلما انتهى من ذلك

قال له السيد وهو يجول طرفه فى أرجاء الكوخ .

— « لا تجعلها تضيق بقدمى ! . » ... فلما وقع طرفه على « ميشيل » قال فى تساؤل :

— « من هذا ؟ ! »

— « إنه عامل عندى ... وسوف يتشرف بخياطة حذاءك »

فتحدث السيد الجليل إلى ميشيل قائلا « أنت يا ذا ... لا يغيب عن بالك أنى أود حذاء مريحاً ... يمكث عندى سنة ... هه ... سنة بأكلها !. »

***

نظر « سيمون » إلى « ميشيل » ... وكان هذا يحدق فى ركن من الغرفة فوق السيد ... وقد شرد خياله عما هم فيه ... وكان يحدق ... ويحدق ، وعلى غرة ارتسمت على ثغره تلك الابتسامة العذبة ، وأشرق وجهه وأضاء ... فزمجر السيد قائلا :

— « فيم تحملق أيها الأبله ؟! خير لك أن تنظر إلى ما يدر عليك رزقك ! . »

فقال سيمون « سيعد لك الحذاء يا صاحب السعادة ... فى الحال ... » فنهض السيد وهم بالخروج والغضب يحمر فى عينيه ، واستقر فى عربته فانطلقت تجلجل أجراسها ... فلما اختفت فى منعطف الطريق ... قال سيمون — وما زال الدهش يسيطر على نفسه — « هذا مثال لإنسان جبار ... لا يقتله المرؤ ولو بمطرقه ... وأحسب الموت يتخوف من جبروته ... فلا يمس له جسداً !. » ثم حدث ميشيل قائلا :

« حسناً لقد أخذنا على عاتقنا أن نصنع حذاء له ... ولكن ينبغى ألا يكون ذلك سبباً فى متاعب جديدة .. إن الجلد لثمين وإن صاحبه لجاد فى طبعه ... فيجب ألا نخطئ معه هيا ... يا ميشيل ، إن عينيك أدق من عينى ، ويديك أبرع من يدى ، فهاك الجلد ، فقطعه حسب المقياس ... وسوف أخيطه أنا ! . »

فبسط « ميشيل الجلد على القطع ثم طواه طية واحدة ... وراح يقطعه بالأزميل ...

كانت « مترونا » ترقبه فى عجب ودهش ... فقد طالما رأت كيف تحذى النعال وأدركت أن « ميشيل » لا يقطع الجلد على طريقة الأحذية ... بل لشئ آخر لا تعرفه هى ، فقالت فى نفسها « لعلى لا أعرف شيئاً عن صناعة الأحذية للسادة والأشراف ! . وأحسب أن ميشيل يعرف المزيد عنها ... سوف لا أتطفل عليه ! . »

فلما فرغ ميشيل من القطع ... أمسك بخيط واحد وراح يخيط الجلد — كأنه من الخفاف — لا بخيطين كما تخيط الأحذية فعاد الدهش إلى « مترونا » من جديد ... غير أنها أمسكت عن تدخلها ...

ومكث ميشيل يعمل حتى وافت الظهيرة ... وقام سيمون يلقى نظره إلى ما أتمه ميشيل ... فلم يلبث أن راعه ذلك وقال فى أحيح وعجب : « آه ! . كيف تفعل هذا يا ميشيل ؟ ! لقد لبثت معى سنة بأكلها — لم تأت أثناءها بخطأ قط فكيف تقع فى هذه الغلطة التى ستوردنا مورد الهلاك ! . لقد قال إلينا السيد أنه يود حذاءاً . وها أنت قد جعلت له من جلده الثمين خفاً ... سوف يثير حنقه علينا وما فى قدرتنا أن نأتى له بجلد مثله ... لقد حطمت حياتى يا ميشيل ! . »

فا وفيما هو يملك ألفاظاً من التوبيخ والعتاب ... حتى سمعوا طرقاً على الباب وأبصروا من النافذة رجلا يترجل عن جواده ويربطه فى حلقة الباب ... ففتحت له « مترونا » ... وكان ذلك الرجل هو التابع الذى صحب « السيد الجليل » فى الصباح ... فقال لهم : « لقد بعثت بى سيدتى فى أمر الحذاء ! . »

فقال سيمون فى جذع :

— « ما ذا عن الحذاء ؟! »

« إن سيدى ليس فى حاجة إليه !. فقد مات . ! »

— « هه ! . أحقاً هذا ؟ ! »

— « أجل ... لقد دهمه الموت وهو فى مركبته ! . فلما بلغنا المنزل ... جاء الخدم يعاونونه ... فقد حرجت جثته على الأرض كالكيس الممتلئ ... وقد بعثت بى سيدتى لأقول لكم إن السيد الذى أنا كم هذا الصباح ليس بحاجة إلى الحذاء ... بل ينبغى أن تعجلوا بعمل خف لجثته ... كى أحمله إليها الآن . »

فقام ميشيل ... وضم بقايا الجلد إلى الخف بعد أن مسحه بمئزرته وسلمه إلى الخادم الذى انطلق به قائلا : « وداعاً أيها السادة ! ... »

***

كرت السنون ... وها هو ذا ميشيل يعيش عامه السادس

مع سيمون وعائلته لم يتحول عما درج عليه ... ولم يتغير شيء من طبعه ... لا يخرج أبداً من الدار ... ولا يتحدث إلا بمقدار ولم يرتسم الابتسامة على شفتيه إلا مرتين لا تثلثهما أخرى ...

واحدة حينما تفضلت عليه « مترونا » بالطعام ... والثانية حينما كان يحدق فى ركن من الغرفة فوق « السيد الجليل » وكان سيمون على وفاق مع عامله . ولم يسأله يوماً من أين أتى بل كان فى خشية من أن يرحل ميشيل عنه ...

وبينما هم جميعاً فى الدار ذات يوم ... وكانت « مترونا » تضع إناء على النار ، والصغار يمرحون فى لهو وعبث ، وسيمون جالس يخيط حذاء فى يده ... أما ميشيل فكان مستغرقاً فى عمله على كثب من النافذة ...

ووضع أحد الأطفال يده على كتف ميشيل . ونظر من النافذة وصاح قائلا :

« أنظر ... ياعم ميشيل ، هناك سيدة معها بنات صغيرات يظهر أنها تريد دارنا إن واحدة من البنات تعرج فى سيرها ! » فألقى ميشيل بما معه وسارع ينظر من النافذة إلى الطريق ...

فتعجب سيمون ، فما رأى « ميشيل » يوماً ينظر إلى الطريق فى هذه اللهفة ... فدعا ذلك سيمون إلى أن ينظر هو أيضاً كى يستبين ذلك الشيء الذى أثار ميشيل . فرأى سيدة حسنة الهندام تتجه حقاً إليهم وتقود طفلتين عليهما أردية من الصوف وشمائل من الفرو ... يعجز المرؤ عن أن يميز إحداهما عن الأخرى إلا تلك التى يعترى ساقها اليسرى شيء من العرج .

وولجت السيدة بطفلتيها الغرفة ... وقالت فى صوت رقيق

— « سعدتم صباحاً ... أيها القوم الطيبون ؟ . »

فقال « سيمون » :

— « سعدتى صباحاً ... سيدتى الفاضلة .. ماذا فى مقدورنا أن نعمله لك ؟ ! »

فجلست السيدة على مقعد ... وقد التصقت بها الطفلتان فى خوف ممن فى الكوخ .

— « أود ... حذاءين من الجلد لهاتين الطفلتين ، للربيع ! ... »

— « إننا لم نصنع من قبل مثل هذه الأحذية الصغيرة ... غير أننا قادرون على ذلك ... إن مساعدى « ميشيل » أستاذ صناع فى هذا ! . »

وألقى سيمون بنظرة إلى ميشيل ... ليرى أثر الإطراء والثناء عليه ... فوجد هذا جالساً يحدق فى الطفلتين الصغيرتين فانتاب سيمون العجب وتولاه الدهش ... حقاً كانت الطفلتان جميلتين لهما وجنات وردية وشعر معقوص وعيون نجل ... ترتدى كلتاهما ثياباً فاخرة من الصوف والفراء ... بيد أن سيمون لم يفطن إلى سر تحديق ميشيل إليهما كأنه يعرفهما من قبل !

كان فى حيرة من أمره ... فانطلق يحدث السيدة ويقدر الثمن معها ... وبعد مساومة وإقرار ... هم أن يأخذ مقياسهما فقالت السيدة وهى ترفع قدماً للبنت العرجاء « إن هذه القدم عرجاء فاعمل لها حذاء على حدة ... أما القدم الأخرى وقدمى الطفلة الثانية ... فهى صحيحة متشابهة وحجمها واحد ... إنهما توأمتان ... » .

فسجل سيمون ما قاسه على وريقة صفراء ... وقال يحدث السيدة :—

— « ما الذى حدث لها ؟! فأصابها بهذا العرج ... إنها تبدو جميلة ... أو ولدت هكذا ؟ ! »

— « كلا ... فلقد حصرت أمها قدمها فالتوى ... »

فتعجبت « مترونا » وتساءلت من تكون هذه السيدة ؟ ! ومن تكون هاتان الطفلتان ... فقالت فى صوت شاع فيه ما يجول فى نفسها من دهش .

— « ألست أمها إذن ؟ ! »

— « كلا ... يا سيدتى الفاضلة ... لست أمها ، ولست إحدى قريباتهما ... لقد تبنيتهما ... »

فزاد عجب « مترونا » وهى تقول :

— « ليستا طفلتيك ... وتحبينهما هذا الحب ؟! »

— « ليس لى حيلة فى ذلك ؟! أطعمهما وأربيهما ... ولقد رزقنى الله ولداً ولكننى احتسبته ... وما كنت أحسبه مثل حبى هاتين الطفلتين ! .

وطفرت من عينها دمعة حارة ... تألقت فى مقلتها ... ثم لم تلبث أن انحدرت على وجنتها ... فسحتها فى هدوء وحزن فقالت مترونا فى أسف وتأثر : —

— « معذرة ... ما كنت أحسب أن هذا يجلب إلى نفسك الحزن والألم ... ولكن من هى أم هاتين الطفلتين ؟ . »

« البقية فى العدد القادم »

مصطفى جميل مرسى



كتب من مراكش :

موقف الأمة المغربية

من الحماية الفرنسية

للاستاذ عبد الكريم غلاب

عادت حركة التأليف إلى نشاطها بعد انتهاء الحرب ، وقد حمل إلينا البريد أخيراً عدة كتب سنقدم بعضها إلى قراء الرسالة .

والكتاب الذى نقدمه اليوم إلى القراء هو « موقف الأمة المغربية من الحماية الفرنسية » وقد جمعت هذا الكتاب وأصدرته جريدة « الوحدة المغربية » التى تصدر فى تطوان . والكتاب مؤلف من عدة أبحاث نشر بعضها من قبل فى جريدة الوحدة المغربية ومجلة « السلام » وقد اشترك فى كتابة هذه الأبحاث الأستاذان : محمد المكى الناصرى ، ومحمد حسن الوزانى . كما يشتمل الكتاب على تقرير هام أرسله المرشال ليوطى حينما كان مقيما عاما فى مراكش إلى حكومته سنة ١٩٢٠ يشرح فيه وجهة نظره فى نظام الحماية ، وكيف يجب أن يطبق فى مراكش .

وموضوع هذا الكتاب ، كما يظهر من عنوانه تاريخى سياسى يصور فترة من تاريخ مراكش الحديث ، وهى الفترة التى وقعت فيها هذه البلاد تحت الحماية الفرنسية . ويبدأ الكتاب بشرح المؤامرات الدولية التى كانت تحاك ضد مراكش قبل سنة ١٩١٢ ، ويعنى خاصة بالميثاق الذى عقد بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ ، وبمقتضاه تنازلت انجلترا لفرنسا عن (حقها) فى مراكش فى مقابل تنازل فرنسا لانجلترا عن (حقها) فى مصر . كما يشرح لنا الكتاب الظروف التى أملت المعاهدة التى عقدت بين فرنسا وألمانيا سنة ١٩١١ ، وفيها صرحت ألمانيا بأنها لا تعرقل مساعى فرنسا فى السيطرة على مراكش . وإلى جانب ذلك قامت فرنسا بمساع أخرى على حدود البلاد سمتها هى — بمنطقها — اضطرابات داخلية وبما أنها مسؤولة عن حفظ النظام فى مراكش المستقلة ، فالمصلحة تقتضى أن تزحف على مدينتى وجدة وفاس عاصمة مراكش لتحافظ فيهما على الأمن . كان ذلك سنة ١٩١١ ، وما كادت تحل سنة ١٩١٢ حتى تردد فى أنحاء العالم أن فرنسا تعد مشروع معاهدة بينها وبين مراكش . ثم رددت جوانب القصر الملكى فى فاس أن سفير فرنسا مسيو (رينو) يتردد على جلالة السلطان مولاى عبد الحفيظ ، وأنه يعرض عليه مشروع معاهدة الحماية ، وأن جلالته قد وقع تحت ضغط ديبلوماسى وعسكرى وتحت تهديدات السفير الفرنسى ، ومع ذلك فهو يمانع بل يعلن للسفير أنه سيتنازل عن العرش إذا هو أجبره على إمضاء المعاهدة . ويشرق يوم ٣٠ مارس فإذا بفرنسا تعلن أن جلالته قد وقع عقد الحماية ، وأنه بمقتضاها قد أباح للجنود الفرنسيين أن يحتلوا مراكش كلها حتى يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم كاملا فى تنفيذ الاصلاحات التى نص عليها فى المعاهدة . وتمر بضعة شهور فإذا بجلالة السلطان يعلن لأمته أنه لم يستطع أن يؤدى واجبه فى المحافظة على استقلال البلاد التى أقسم اليمين عند توليته على المحافظة عليه ، وأنه لذلك يتنازل عن العرش ويترك الأمر للأمة لتختار من يخلفه على عرش أجداده .

وهنا تنتهى مأساة فرض معاهدة الحماية لتبتدىء مأساة تنفيذ هذه المعاهدة . وتجند فرنسا جيشا من الموظفين الاستعماريين الفرنسيين وعلى رأسهم المرشال ليوطى ليقوموا بحكم مراكش حكما مباشرا ، وليسلبوا الحكومة المراكشية كل ما أبقت لها المعاهدة من سلطة فيديروا شئون البلاد ويتركوا هيئة الحكومة فى سبات عميق ، بعد ما كانت هيئة حكومية منظمة تنظيما ديمقراطيا تشرف على إدارة مراكش وتسير بالبلاد نحو التقدم المادى والمعنوى تحت رياسة جلالة السلطان . ويبدأ الفرنسيون فى تنظيم حركة استعمارية ، فيكونون داخل مراكش مجالس استشارية للفرنسيين يرأسها المقيم العام . ويقوم هؤلاء الفرنسيون بوضع برامج الإدارة والإصلاح فى مراكش وينفذونها هم بأنفسهم وبذلك يكون الفرنسيون مصدر السلطة التشريعية والتنفيذية .

وهكذا يحكمون مراكش دون أن يشركوا أهل البلاد الشرعيين فى أى عمل يتصل بالتشريع أو الإدارة وبذلك يكونون حكومة دكتاتورية باسم الحماية .

هذه السلطة التى اغتصبها الفرنسيون هى التى مكنتهم من حكم البلاد حكما استعماريا متطرفا يقوم على سلب الأراضى من الفلاحين المراكشيين بدعوى المصلحة العامة ، وإعطائها الفرنسيين الذين يهاجرون من بلادهم ليضعوا لأمتهم نقطة ارتكاز فى الأرض الجديدة (مراكش) .

تلك صورة مختصرة لأبحاث الكتاب التى اشترك فيها كل من الأستاذين المكى والوزانى ، وقد اعتمد الكاتبان فى عرضهما لسياسة الحماية الفرنسية على كتب وتصريحات لكبار الفرنسيين الذين درسوا موضوع الحماية درسا قانونيا وواقعيا . وبذلك اشتمل الكتاب على نصوص كثيرة — تنشر لأول مرة فى اللغة العربية تؤيد وجهة النظر المراكشية فى اعتداء الحماية على وضعية البلاد التى اعترف بها فى معاهدة الجزيرة سنة ١٩٠٦ وهى الاستقلال التام . كما اعتمد الكاتبان على هذه النصوص فى بيان أن معاهدة الحماية مخالفة للقانون الدولى ، وللمعاهدات التى عقدت بين الدولة المراكشية المستقلة والدول الأجنبية التى منها فرنسا . وقد بينا أيضا — معتمدين على هذه النصوص — أن تطبيق معاهدة الحماية كان مخالفا لنصوص المعاهدة نفسها ، بل للحماية كما يعرفها القانون الدولى . وفى الكتاب كذلك نصوص قيمة فى تحليل معاهدة الحماية ، وبيان ما تشتمل عليه من غموض وتناقض ومغالطات .

غير أن إعجابنا بالكتاب لا يمنعنا من أن نلاحظ عليه بعض اللاحظات نلخصها فى النقط الآتية :

١ — من الخلاصة التى عرضتها فى هذه الكلمة نلاحظ أن العنوان لا يطابق موضوع الكتاب . فلن تجد فيه شرحا لمراحل الجهاد المراكشى ضد الحماية الفرنسية . وإذا استثنينا الصفحات القليلة التى كتبت عن موقف السلطان عبد الحفيظ من الحماية الفرنسية ، فلا نجد ذكرا لموقف الأمة المراكشية من هذه الحماية .

٢ — فى الكتاب نصوص كثيرة وخاصة فى بحث الأستاذ الوزانى ؛ ولكن الكاتب لم يستطع أن يستفيد من هذه النصوص القيمة ، بل حشدها حشدا كان يكتفى به أحيانا عن التعليق أو الاستنتاج .

٣ — وفى الكتاب خلط غريب يذهب بقيمته العلمية ، فالظاهرة العامة الواضحة فى الكتاب هى عدم التنظيم ، ووضع الكتاب فى وضعه الحالى لم يكن مستندا إلى منطق ، ولا إلى ترتيب تاريخى . ولعل هذا هو ما جعل الموضوع الواحد يتكرر فى الكتاب عدة مرات ، وجعل الكاتب يتناول موضوعا واحدا فى صفحات متفرقة تفصل بينها مباحث أخرى ، كما نرى فى « تحليل معاهدة الحماية » فقد تناوله الكاتب فى الصفحات ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٤ .

٤ — ويتصل بهذه الملاحظة عدم ذكر المراجع فى كثير من أبحاث الكتاب وخاصة عند دراسة الموضوعات المهمة كنظم الدولة المراكشية قبل الحماية ، وخلع السلطان عبد العزيز لتفريطه فى حقوق الأمة ، وتولية السلطان عبد الحفيظ بعد أن أقسم اليمين على احترام شروط البيعة . كما يتصل بذلك أيضا كثرة العناوين التى هى أجدر بالتهريج الصحفى منها بكتاب علمى ، وركاكة الأسلوب الذى ترجمت به النصوص الفرنسية .

٥ — ولعل أخطر ملاحظة هى أن الكتاب لم يتعرض لموقف اسبانيا مطلقا . مع أن المعروف أن مراكش تقع تحت النفوذين الفرنسى والأسبانى . وأن اسبانيا شريكة لفرنسا بموافقتها على معاهدة الحماية ، واحتلالها الجزء الشمالى من مراكش بمقتضى هذه المعاهدة نفسها . والذين يعرفون الموقف السياسى للأستاذ المكى يدركون سبب هذا النقص الخطير فى الكتاب .

٦ — وفى الكتاب نزعة حزبية ظاهرة ، فقد نشر سنة ١٩٤٦ ، وفى يناير سنة ١٩٤٤ وقعت أخطر حركة سياسية وطنية فى مراكش ضد الحماية الفرنسية ؛ فقد اتحدت جميع الأحزاب والهيئات الوطنية فى منطقة النفوذ الفرنسى تحت اسم جديد هو (حزب الاستقلال) ووضع الحزب وثيقة طالب فيها باستقلال مراكش وإنهاء عهد الحماية . وبذلك وضعت مراكش أول حجر فى صرح الاستقلال ومرت البلاد بأخطر تجربة فى تاريخها الحديث . ومع ذلك لم يتحدث الكتاب عن هذا الدور من « موقف الأمة المغربية من الحماية الفرنسية » إلا فى سطر أو سطرين . وتلك ظاهرة غريبة تمليها حزبية عمياء كنت أرجو أن يبرأ منها كتاب ينشر عن القضية المراكشية .

عبد الكريم غلاب

[طبعت بدار الرسالة بشارع السلطان حسين - عابدين]

العدد ٦٨٦ - الاثنين ٢٦ أغسطس ١٩٤٦ - السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

٢٧٠١٧

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

جامعة فؤاد الأول

إدارة السجلات والامتحانات

إعـــلان

تقبل كلية الطب الجديدة بالعباسية مائة طالب بالقسم الاعدادى للطب البشرى بنفس الشروط المقررة لكلية الطب بجامعة فؤاد الأول والسابق الإعلان عنها بالوقائع المصرية رقم ٧٥ بتاريخ ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٦ .

وتقدم الطلبات إلى عميد كلية الطب بالقصر العينى على دفعتين الأولى فى موعد نهايته ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٦ والدفعة الثانية فى موعد غايته ظهر اليوم الرابع لإعلان نتيجة امتحان شهادة الدراسة الثانوية (الدور الثانى) .

وسيكون الكشف الطبى على المرشحين فى يوم ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٦ . ٥٨٥٦

14 me Année No. 686

Lundi—26—8—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٦٨٦ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٩ رمضان سنة ١٣٦٥ — ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

مما زيد على كتابنا (فى أصول الأدب) :

الجاذبية فى القصص

الجاذبية هى الشوق الذى يبعث اللذة ويثير الاهتمام ويحرك الانتباه ويربط السامع أو القارئ بموضوع القصة أو الرواية . ومبعث هذا الشوق اختيار الموضوع المفيد أو الطريف ، واصطناع الأسلوب الخالب والصور البراقة والنوادر الممتعة والحوار القصير السديد . وأثر هذه الجاذبية إما أن ينال الذهن أو المخيلة أو الوجدان.

فجاذبية الذهن أن يكون القصص مبعثاً للنور ومصدراً للمعرفة وداعياً إلى التفكير ، كالجاذبية التى تحسها وأنت تقرأ تاسيت أو ابن خلدون . ومثل هذه الجاذبية تكفى فى القصص التاريخى دون القصص الشعرى ، لأن الأول أساسه التعليم والإقناع ، والثانى أساسه التأثير والإمتاع .

وجاذبية المخيلة تكون بتصوير مناظر الطبيعة للنفس وجلاء ألوانها للعيون ، بالوصف الصادق والأسلوب القوى ؛ ولكن هذه الجاذبية إذا لم تقترن بأخرى لا تلبث أن تبوخ وتضعف ، فإن النفس لا تعلق إلا بما ينيرها أو يثيرها ، فإذا لم تهتز للقصص فلا أقل من أن تستفيد منه

أما جاذبية الوجدان ، فأن يحرك القصص فى نفسك عوامل الألم أو اللذة ، ويثير فى حسك عواطف الحنان والقلق والدهش والهول والعزاء ، ويذيقك لذة الشعور بأنك حساس ؛ وهذه أمتع اللذائذ جميعاً . لذلك كانت جاذبية الوجدان أقوى من أختيها ، فهى تغنى عنهما وهما لا تغنيان عنها . ولو تأملت فى هذه الأحاديث (الحواديت) التى سايرت الإنسانية من جيل إلى جيل ، وتذكرت فعلها الساحر فى قلبك وأنت صغير ، وجال ذكراها فى نفسك وأنت كبير ، لعلمت أن سر حياتها وقوتها ولذتها هو أن جاذبيتها من هذا النوع .

وأحسن القصص وأجوده ما اشتمل على أنواع الجاذبية الثلاثة . وشرط الجاذبية أن تتدرج فى أجزاء الموضوع فتبدأ ضعيفة ثم تنمو كلما نما العمل وتعقد الحادث حتى تنتهى مع الحل وقد استراح السامع ونقع نفسه . ومن ثم كان حقاً على الكاتب ألا يبوح فى البداية بما سيحدث فى النهاية ، وإلا أخطأه التوفيق وفاته التشويق وأعوزته الجاذبية . وإذا عرفت أن قوام الجاذبية فى القصص هو حسن تدرجها فيه ودقة توزعها فى مناحيه ناسب أن نعرض هنا إلى عناصره فنقول :

عناصر القصص الأساسية ثلاثة : العرض ، والتعقيد ، والحل :

فالعرض يقوم بإعداد ذهن القارئ أو السامع إلى موضوع القصة أو الرواية أو الملحمة ، فيصف مكان الحادث وزمانه ،

ويعرّف الأشخاص وأخلاقهم ، ويذكر الحوادث التي سبقت القصة إذا كان هناك داع إلى ذلك . وقد يطول أو يقصر على حسب الموضوع ، ولكن أخص صفاته أن يكون سريعاً إلى الغرض بريئاً من المقدمات ، واضح المنهج ، سالماً من الحشو والتكلف ، داخلا في الموضوع ، خارجاً منه خروج الزهرة من الساق كما قال شيشرون . أما طريقته فتختلف باختلاف الحادث والظروف : فطوراً يلقى الكاتب بالقارئ في الموضـوع دفعة واحدة ، ثم يسوق الحوادث الأولى ببراعة ودقة ؛ وطوراً يبتدئ منفجراً بعاطفة مكظومة منذ طويل ؛ وقد يبتدئ بحكمة بليغة ، أو مثل سائر ، أو رسم طبوغرافي مشـوق ، أو وصف تاريخي ممتع . والعبقرية الخالقة لا تُرسم لها الطرق ولا توضع لها القيود .

* * *

والتعقيد هو جسم القصـة ، أو الموضع الذي تشتد عنده الجاذبية ، وتشتبك الحادثة ، وتمتزج الوقائع والأشـــخاص والظروف ، حتى يُشكل على القارئ الأمر ويعمى عليه الخبر فلا يعرف منه مخرجاً ولا يدري له نتيجة . فخاصته كما رأيت تقوية الجاذبية وتنميتها ؛ ولا يتسنى ذلك للكاتب إلا إذا أسدل على النهاية حجاباً شفافاً ، ووقف القارئ بين الرجاء والخوف ، وجانب التطويل الذي يعوق سير العمل ، واحتفظ للنهاية بسرور المفاجأة أو دهشة الفجيعة

* * *

والحل هو الجزء الأخير الذي يبرد فيه الشوق وتحل العقدة وتظهر النتيجة . ولا بد أن يكون كل ما سبقه مهيئاً له وصائراً إليه ، دون أن يعلنه أو يدل عليه . فإن القارئ إذا حزره قل شوقه إليه وانقطع اهتمامه به . والشرط الأساسي لإجادة الحل ألا تزيد عليه ، لأن السامع إذا علم ما كان يجهله ، وأدرك ما كان يشغله ، قرت نفسه وخمد نشاطه ، فلا يريد أن يعلم شيئاً

ومن أحسن المثل على دقة التعقيد وبراعة الحل قطعة من كتاب «الشهداء» لشاتوبريان سيد كتاب فرنسا يصف بها مقتل الشهيد « أودور» ، وقد حمل نفسه على أن يتجرع الغصة الأخيرة من عذابه الأليم دون أن يرتد عن دينه ، ولا أن يتزحزح عن يقينه ، حتى نمى إليه أن امرأته (سيمودوسيه) على وشك أن يحكم عليها القضاء بالعيش في مواخير الفجور إذا هو لم يقدم القربان إلى الآلهة . كان حبه لزوجه فوق حبه لحياته ، فهل يكون حبه لربه فوق حبه لزوجه ؟ ذلك ما لا ندريه

« أغمى على أودور . وأسرع الناس إليه ، والتف الجند من حوله ، واستولوا على الكتاب ، وطلب الشعب أن يُقرأ عليهم . فقرأه أحد النواب بصوت جهير . وظل الأساقفة سكوتاً والهين ، والمجلس يعج بالضجيج والحركة . عاد أودور إلى رشده ، فرأى الجند بين يديه يصيحون به : « هلم يا رفيقنا ، قرب القربان ، وهذه أعلامنا تقوم مقام الهيكل » ، ثم قدموا إليه قدحاً مملوءاً بالنبيذ ليريقه[1] . فثارت في قلب أودور عواصف الفتنة ، وتجاذبت رأيه عوامل الوساوس : كيف تصير «سيمودوسيه » إلى مواخير الفسق ؟ وكيف تصبح بين ذراعي « هيروقليس[2] » ؟ نفج الشهيد صـدره ، وانكسرت آلة عذابه ، فسال دمه غزيراً ، فضج الشعب وجثا إشـفاقاً عليه ورحمة له ، وأخذ يهيب به مع الجنود : « قرب القربان ! قرب القربان ! » هنالك قال أودور بصوت خافت متهافت : أين الأعلام ؟ فقرع الجنود تروسهم علامة الفلج والظفر ، وبادروا إلى أعلامهم فحملوها إليه . فنهض أودور يسنده حارس ، وتقدم حتى وقف أمام البنود ؛ وقد خشعت الأصوات وشمل السكون ، ثم تناول القدح فستر الأساقفة رءوسهم بفضل مسوحهم ، وصاح القساوسة صيحة الجزع . ولكن أودور رمى بالقدح ، وألقى بالأعلام ، والتفت إلى الشهداء وقال : أشهد أني مسيحي ! ! »

فأنت ترى أن جاذبية قوية استولت عليك وأنت تقرأ هذه القطعة ؛ لأن عزم أودور ظل مجهولا حتى نهاية الأمر . فلما طلب الأعلام بصوت خافت وقع في نفسك بعض ما وقع في نفوس الشهداء والقسيسين من الضـيق والحزن . حتى إذا أهاب به القساوسة إلى الواجب وألقى بالقدح وقال : « أشهد أني مسيحي » تفرّجتَ من الهم وتنفّستَ تنفس الراحة !

احمد حسن الزيات

---

(١) كان من عادة القدماء أن يريقوا الخمر قبل تقديم قربان .

(٢) أحد القضاة الرومانيين في عهد دقليانوس .

أنـــا والإذاعة ...

للأستاذ على الطنطاوى

[أذيعت من محطة إذاعة دمشق يوم الاربعاء ١٥ – ٨ – ١٩٤٦].

أيها السادة :

إنى أشكو إليكم القائمين على هذه المحطة ، فقد ظلمونى وظلموكم معى . جاؤوا بى لأحدثكم ، فحسبت أنى سأدخل نادياً فيه ناس أراهم ، فأخاطبهم على قدر عقولهم ، فإن كانوا علماء كلمتهم كلام العلماء ، وإن كانوا من العامة خاطبتهم خطاب العامة ، فإذا هم يصعدون بى درجاً بعد درج حتى إذا كلّت رجلاى من الصعود ، وهممتُ بالرجوع ، قالوا : قد وصلنا ، فنظرت فإذا نحن فى أعلى طبقة من (عمارة البرق والبريد) ، فتلفتُّ أنظر أين النادى الذى سأخطب فيه ؟ فما عهدت نادياً يبنى على رأس مئذنة ! وأين الناس ؟

وإذا هم يدخلوننى من دهليز إلى دهليز ، حتى انتهيت إلى زاوية مظلمة ، فأشاروا إلى باب ، وقالوا : (هُسْ) ، إياك أن تتكلم ، أو تعطس ، أو تسعل ، أو تخبط برجلك ، أو تدق بيدك ، أو تُخَشْخِشْ[1] بأوراقك ...!

فقلت : فكيف إذن أتحدث ؟ أتريدون أن يكون حديثى إيماء وإشارة من غير كلام على لغة الخرسان ؟

قالوا : لا ، ولكن إذا جاء دورك تكلمت

وفتح الباب ، ودخلنا إلى غرفة صغيرة كأنها الصندوق المغلق ، لا شباك ولا باب ولا نافذة ولا كوّة ولا شقّ لدخول الهواء ، ورأيت فيها مكتباً ما عليه إلا علبة قائمة على عمود من الحديد ووراءها مرآة ، وقد وقف أمامها شاب يصوّت أصواتاً بعضها يخرج من حلقه وبعضها من صدره وبعضها من بطنه ، ويتخلّع ويتلوّى مع النغمات ، وقد يأتى بكلمات يلقيها إلقاء بلا نغم ، ووراءه رفاق له يضربون بأعوادهم ويزمّرون ، فأجهدت ذهنى خمس دقائق كاملات لأعرف ما ذا يصنع هذا الرجل : أيغنى أم يخطب ، أم هو مصروع معتوه يخلّط ، أم يتكلم بلسان أهل مالطة ، فلم أهتد إلى حقيقته ، ثم سكت ، وتقدم من العلبة أحد موظفى المحطة فقال : لقد انتهت الحفلة الموسيقية ...

فقلت : إذن هى حفلة موسيقية ؟ !

سبحان القادر على كل شىء !

وأقبل الموظف علىّ ، فأشار بيده إلى حيث كان يقف الشاب صاحب الأصوات المخنثة ، فقلت : ما ذا ؟ أأعمل أنا أيضاً حفلة موسيقية ؟

قالوا : هسْ ! هسْ !

وأدار مفتاحاً كمفتاح الكهرباء ، وجعل يكلمنى بلسانه بعد أن كان يتكلم بيديه . وقال : تفضل يا أستاذ ، اقعد وتكلم !

قلت : أتكلم مع من ؟ أين الناس ؟ أين المستمعون ؟ !

قال : تكلم هنا ... وأشار إلى العلبة

قلت فى نفسى : أعوذ بالله من شر هذه الغرفة ! لقد حسبتها سجناً مغلقاً ، فإذا هى مارستان ! أأكلم علبة ؟ أمجنون أنا ؟ ونظرت فى المرآة فوجدت صورتى متغيرة .. أهذا أنا ؟ وأنعمت النظر ، فإذا الذى حسبته مرآةً لوحُ زجاج بيننا وبين الغرفة الأخرى ، فنحن نرى من فيها ، ولكن لا نسمع أصواتهم ، فاجتمعت علىّ هذه الليلة المتناقضات : هنا أشخاص أراهم ولا أسمع أصواتهم ، وهنالك صندوق تخرج منه أصوات أسمعها ولا أرى أهلها ، وبحثت عن مهرب فلم أجد ، وفتشت عن نصير فلم ألقَه ، وما حولى إلا شباب جدد ، وموسيقيون معهم أعوادهم ، وأنا الشيخ ... الوحيد ... فى هذه العصبة ، بعمامتى و ... وكدت أقول ، ولحيتى ، ثم ذكرت أنى تركت اللحية عند الحلاق ... !

فاستسلمت للمقادير ، وقعدت ، والعرق يسيل على عنق ووجهى ، وشرعت أكلم العُلبة كالمجانين ، خوفاً من أن يحل بى هذه الليلة ما هو أعظم !

نعم . لقد ظلمت ، أيها السادة ، وظلمتم معى ، لأن أكثركم يؤثر (عتابا) بلدية ، أو (قوّادية) نقدية ، أو أغنية شاكية باكية ، ميّتة مميتة ، لا شرقية ولا غربية . من أغانى عبدالوهاب

(١) من العامي الفصيح

على كل ما فى الدنيا من محاضرات ، ولكنكم تستطيعون أن تديروا مفتاح الرادّ ، فتتخلصوا منى ومن محاضرتى ، وتبعثوا إلىّ بما يوحيه إليكم نبلكم وكرمكم من الشتائم واللعنات التى لا أسمع منها شيئاً ، ولكن المصيبة علىّ أنا ، لقد حُبست فى مارستان ، لا أخرج منه حتى أكلم علبة من حديد ربع ساعة لا تنقص ثانية ولا تزيد !

فلنستعن بالله ، ولنتحدث ...

ولكن خبرونى أولا : هل تسمعون كلامى حقيقة ؟ !

أما أنا فلا أصدق أنكم تسمعون منى ، وكيف يسمع من هو فى المهاجرين وحمص وحلب والقاهرة وطهران ما لا يسمعه هـذا الأخ الجالس أمامى وراء الزجاج ، والذى يبدو عليه أنه لا يدرى ما ذا أقول ، فلا يبتسم ، ولا يعبس ، ولا يفتح عينيه ، ولا يرفع حاجبيه ، ولا يصنع شيئاً يدل على أنه سامع ، وهذا من نعم الله علىّ ، فلو سمعنى أتكلم عنه لما نجوت منه بسلام !

فإذا كنتم تسمعون (يا سادة) كلامى ، فأشيروا إلىّ ، أو صفقوا ، أو قربوا أفواهكم من (الرادّ) وصيحوا — إنى انتظرت فلم أسمع صيحتكم ، فلم يبق إلا أن أصنع كما صنع زميلنا المحترم (جحا) ، حين أذّن ونزل من المنارة يعدو ، قالوا : إلى أين يا جحا ؟ قال : أريد أن ألحق صوتى فأنظر إلى أين وصل ؟

ولنفرض أنكم سامعون ، فبمَ أحدثكم ؟ ومن لى بالحديث الذى يرضيكم جميعاً : العالم منكم وغير العالم ، والرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، وأى معلم يستطيع أن يلقى درساً واحداً يفهمه تلميذ المدرسة الأولية وطالب الجامعة ومن بينهما ويرضون عنه ويعجبون به .

لقد فكرت طويلا ، وحشدت قوى نفسى كلها ، وما تعلمت من علم وما حفظت من مسائل ، لآتيكم بحديث يدهشكم حتى تقولوا : ما شاء الله كان ! ما هذه المحاضرة ؟ شىء عظيم جداً ، ولكنى لم أستقر على موضوع ...

قلت : الدنيا الآن فى رمضان ، وخير الأحاديث حديث الدين ، وما أسهل الكلام فى الدين فى هذه الأيام وما أيسر أن يجعل المرء نفسه مجتهداً ، وأن يرى الرأى المخالف لأبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد بن حنبل والليث بن سعد والأوزاعى ، وكل مجتهدى الأرض فيتمسك به ويخطّئ المخالفين له : من كان منهم ومن سيكون إلى يوم القيامة . ولم لا ؟ إنه رجل وهم رجال ، والساعاتى والنجار والموسيقى رجال أيضاً ، فلما ذا لا يكونون أئمة مجتهدين ، ما دام العلم بالعربية نحوها وصرفها وبلاغتها ، والفقه أصوله وفروعه ، والتفسير والحديث ليس شرطاً فى الاجتهاد؟

وما دامت الحكومة تمنع غير الطبيب أن يكتب صفة دواء ، وغير المهندس أن يرسم مصور بناء ، وتدع من شاء يتكلم فى الدين والأدب بما شاء ؟ وما دام كل ما يحتاجه الرجل فى هذه الأيام ليكون واعظاً مرشداً يقتدى به ويستمع لقوله ، وتقبل يده ويُتمسحُ بذيله ، أن يعرّض لحيته ، ويكوّر عمته ، ويوسع جبته ، ويطوّل سُبحته ، ويتكلم كلاماً تقبله العامة ، ولو خرّف وخلّط وضلّل ، وأكل الدنيا بالدين ، واستغل غفلة الغافلين ، لا يسأله سائل عما يفعل أو يقول !

لا ... لن أتكلم فى الدين ، فالكلام فيه شديد الخطر ، فأنا أخشى أن أقول الحق فأغضب الناس ، أو أقول الباطل فأسخط الله . ثم إنى طلبت الليلة مرضاة السامعين ، وأكثر السامعين لجهلهم بالدين ، ولطول ما رأوا من أدعياء العلم فيه ، منصرفون عنه زاهدون فى حديثه ، حتى الأتقياء الصالحون منهم ، الذين يتمسكون فى رمضان بدينهم ، فيقضون نصف النهار فى (الأموى) نائمين يشخرون وينخرون[1] أو متحلقين حلقاً يمزحون فى الجامع ويضحكون ويكذبون ويغتابون !

فلنتكلم فى الأدب ، فالأدب أسلم عاقبةً ، وأوسع حريةً ، وهو هيّن علىّ وعلى غيرى ، وقد صار الأدب الآن كوصل ليلى كلٌّ يدّعيه ، وكل من يستطيع أن يكتب كلاماً فى ورقة ، ويجد صفافاً يصفُّ له حروفه ، وصاحب جريدة ينشره ، فهو كاتب بليغ ، وكل من يأتى بلفظ موزون أو شبه موزون فهو شاعر مُفلق ، وكل من يحفظ خبراً عن أبى تمام والمتنبى ، أو هوغو ولامارتين ، أو شكسبير وملتون[2] ، فهو أديب أريب ، وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أو بباطل فهو ناقد محقق ، ومن عجز عن أن يفكر كما يفكر أبناء آدم عليه السلام ، ويتكلم كما

(١) من العامى الفصيح .

(٢) لأن المودة تحولت بعد الجلاء من باريس إلى لندن

صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والتجسس

للاستاذ صلاح الدين المنجد

— ٢ —

وثمة خليفة آخر أولع ببث العيون ، وتسقط الأخبار ، حتى على وزرائه وخاصته ، وهو المعتضد . وقد أورد التنوخي قصة تدل على مبلغ شغف هذا الخليفة بالتجسس ، ومهارة المتجسسين في ذلك العصر . فقد كان القاسم وزيره يحب الشرب واللعب ، ويخاف أن يتصل بالخليفة خبره فيستنقصه وينسبه إلى الصبوة والتهتك والتشاغل في اللذات عن الأعمال . وكان لا يشرب إلا على أخفى وأستر ما يكون . فخلا يوماً مع جوارٍ مغنيات ، والبسن من ثيابهن المصبّغات ، وأحضر فواكه كثيرة وشرب ولعب من نصف النهار إلى نصف الليلة الأخرى ، ونام بقية الليلة ، وبكر إلى المعتضد للخدمة على رسمه ، فما أنكر شيئاً . وبكر في اليوم الثاني ، فحين وقعت عين المعتضد عليه قال له : يا قاسم ، ما كان عليك لو دعوتنا إلى خلوتك وألبستنا معك من ثيابك المصبّغات ؟ فقبّل الأرض وروى عن الصدق ، وأظهر الشكر على هذا التبسط ، وخرج وقد كاد يتلف غماً لوقوف المعتضد على هذا القدر من أمره ، وكيف لا تخفى عليه موافقه . فجاء إلى داره كئيباً ، وكان له في داره صاحب خبر يقال له خالد يرفع له أمورها ، فأحضره وعرّفه بما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : إن بحثتَ لي عمن أخرج هذا الخبر زدتُ في رزقك وأجزتك كذا ! وإن لم تعرفه نفيتُك إلى عُمان ، وحلف له على الأمرين . فخرج صاحب خبره من حضرته متحيراً كئيباً لا يدرى ما يعمل ، وأخذ يفكر ويحتال ويجتهد . قال صاحب الخبر : فلما كان من الغد بكرتُ إلى دار القاسم زيادة تبكير على ما جرى به رسمي لفرط سهرى وقلقي تلك الليلة ومحبتي للبحث ، فجئتُ ولم يُفتح باب دار القاسم بعد . فجلست . فإذا رجل يزحف في ثياب المكدين ومعه مخلاة كما يكون مع المكدين . فلما جاء

يتكلمون ، ففكر تفكيراً غير آدمي ، وتكلم كلاماً ليس بإنساني ، فهو شاعر رمزي ، وإن في الرمزية متسعاً لجميع الأغبياء والأدعياء . . وإذا شكا القراء أنهم لا يفهمون هذا الأدب الرمزي ، فالقراء جاهلون رجعيون جامدون !

لا — يا سادة — إن الأدب امتُهن وابتُذل ، فلن أتكلم في الأدب !

أفأتكلم في السياسة ؟ إن السياسة في بلدنا أن ينتقد الرجل قوانين الحكومة ، ويتكلم في رجالها ، ويتهم كل أمين يكرهه بالسرقة ، ويصف كل سارق يحبه بالأمانة ، ويكون له رأى في الملك عبد الله ، وابن السعود ، واتلي ، ومولوتوف ، وترومان ، ويرسم أحسن الخطط لمحاربة الغلاء ، وتنظيم ملاكات الموظفين ، وحل مشكلة فلسطين ، وإدارة ألمانيا المحتلة ، ويقترح وجوه الإصلاح للجامعة العربية ، وهيئة الأمم المتحدة ، ولو كان تاجراً أمياً ، أو سائق ترام ، أو شيخ ضيعة ، يضع بصمة إبهامه مكان التوقيع على دفاتر الانتخابات !

لا . . . لن أتكلم في السياسة ، أفأتحدث إليكم في الفلسفة ؟ لقد اشتغلت بها حيناً ، وأنا أستطيع أن أتفلسف متى أردت ، ولا يكلفني ذلك إلا أن أقول ما لا أفهمه أنا ولا القراء ، وأن أنظر كل ما تواضع عليه الناس من أفكار وعادات ، فأقيم لهم أدلة غامضة لا تدرك ، على أنه خطأ وأن الصواب هو عكسه !

وبعد — يا أيها السادة — فاعلموا أن وقت حديثي قد انتهى ، وأني قد خدعت القائمين على المحطة ، فأطعتهم وكلمت العلبة ربع ساعة ، وقبضت الأجرة ، ولم أقل شيئاً . وكذلك يكون الرجل الناجح في هذه الأيام ، يأخذ الأجرة من غير عمل ، ولنا في ساداتنا العلماء الأعلام مدرسي دائرة الفتوى قدوة غير حسنة . . .

هذا ، وأنا لا أدرى هل يدفعون لي أجرة ، أم أنهم سيكتفون بشكرى الجزيل . . . فإذا أعطونا شيئاً ربحناه ، وإلا فحسبنا أننا لم نعطهم شيئاً نندم عليه !

ولا تعجبوا — يا سادة — فكل الناس تاجر يعرض بضاعته ، ونحن معشر الأدباء بضاعتنا الكلام ، وكل كلام له ثمن ، فهاتوا كثيراً تسمعوا جيداً ، وإلا فالبضاعة كلها من هذا النوع !

(دمشق) **على الطنطاوى**

إلى الباب جاس حتى فُتح ، فسابقنى إلى الدخول ، فأولع به البوابون وقالوا : أى شىء خبرك يا فلان ؟ وصفعوه فمازحهم وطايبهم وشتمهم وشتموه ، وجلس فى الدهليز فقال : الوزير يركب اليوم ؟ قالوا : نعم ... الساعة يركب . قال : وأى وقت نام البارحة ؟ قالوا : وقتَ كذا . فلما رأيتُه يسألُ عن هذا خمّنتُ أنه صاحب خبر ، فأصغيتُ إليه ، ولم أرهم يحفلون بأمره . وهو لم يدع بواباً ممن وصل إلى الوزير وممن لم يصل إلا سأله عنه ، وكان يبدأه بأحاديث أُخر على سبيل الفضول ، ثم زحف فدخل إلى جنب أصحاب الستور ، فأخذ معهم فى مثل ذلك ، وأخذوا معه فى مثله . ثم زحف فدخل إلى دار العامة . فقلتُ لأصحاب الستور : من هذا ؟ قالوا : رجل زَمِنٌ فقير أبله طيب النفس ، يدخل الدار ، ويتطايب ، فيَهب له الغلمان والمتصرفون . فتبعتُه إلى أن دخل المطبخ فسأل عما أكل الوزير ، ومنْ كان معه على المائدة ، وفى أى شىء أفاضوا ، والطباخ وغلمان صاحب المائدة كل واحد يخبره بشىء ، ثم خرج يزحف حتى دخل حجرة الشراب ، فلم يزل يبحث عن كل شىء ، ثم خرج إلى خزانة الكسوة ، فكانت حالته وصورته هذه . ثم جاء إلى مجلس الكتاب فى الديوان ، فأقبل يسمع ما يجرى ، ويسأل الصبى بعد الصبى ، والحدث بعد الحدث ، عن الشىء بعد الشىء ، ويخلط الجد بالمزاح والتطايب بكلامه والأخبار تنجرّ إليه ، وتتساقط عليه ، والقطع تجيئه وهو يملأ تلك المخلاة ، فلما فرغ من هذا أقبل راجعاً . فلما بلغ الباب تبعتُه ، فرجع حتى جاء إلى موضع من الخلد فدخل إليه ، فوقفت أنتظره ، فإذا هو بعد ساعة قد خرج بثياب حِسانٍ ماشياً ... فتبعتُه حتى جاء إلى دارٍ قرب دار الخادم الموكل بحفظ دار ابن طاهر فدخلها ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه دار فلان الهاشمى ، رجل متجمّل . فرصدته إلى وقت المغرب ، فجاء خادم من دار ابن طاهر فدق الباب ، فكلمه من خوخة له ، فصاح به ، ورمى إليه برقعة لطيفة ، فأخذها الخادم وانصرف . فبكرت من سحر إلى الدار التى فى الخلد ، ومعى غلمان ، فإذا أنا بالرجل قد جاء بزيه الذى دخل به داره ، فكبستُه فى الموضع ، فإذا هو قد نزع تلك الثياب ولبس ثياب المكدين التى رأيتها عليه أولا ، فحملته وغطيت وجهه وكتمتُ أمره حتى أدخلته دار القاسم ودخلتُ إليه وقصصتُ عليه الخبر .

فاستدعاه وقال : لتصدقنّى عن أمرك أو لا ترى ضوء الدنيا ولا تخرج من هذه الحجرة . قال : تؤمننى ؟ قال : أنت آمن . فنهض وقال :

« أنا فلان بن فلان الهاشمى ، رجل متجمّل ، وأنا أتخبّر عليك للمعتضد منذ كذا ... ويُجرى علىّ المعتضد خمسين ديناراً فى الشهر ، أخرج كل يوم بالزى الذى لا ينكره جيرانى ، فأدخل داراً فى الخلد بيدى منها بيت بأجرة ، فيظن أهلها أنى منهم ، ولا ينكروننى لزيى ، فأخرج هناك بهذه الثياب وأتزامن من الموضع ، وألبس لحية فوق لحيتى مخالفة للونى ، حتى لا يعرفنى من يلقانى فى الطريق ، وأمشى زحفاً إلى دارك ، فأعمل جميع ما عرفت ، وأقتنى أخبارك من غلمانك ، وهم لا يعرفون غرضى ، ويُخرجون لى بالاسترسال ما لو بُذل لهم فيه من الأموال الكثير لم يُظهروه ، ثم أخرج إلى موضع من الخلد فأغيّر ثيابى ، وأعطى ما اجتمع معى فى المخلاة للمكدين ، وألبس ثيابى الحسان ، وأعود إلى منزلى ، فإذا كان المساء جاءنى خادم من خدم ابن طاهر مندوب لهذا ، فأرمى إليه برقعة فيها خبر ذلك اليوم ولا أفتح له باباً ، فإذا كان آخر الشهر جاءنى فأعطيته الرقعة ويعطينى الجائزة ... ! »

قال صاحب الخبر : فحبسه القاسم أياماً فحسبه أهله أنه مات ، فأقاموا عليه المأتم ، فدخل القاسم على المعتضد فقال له : ابراهيم الهاشمى الترامى ، بحياتى أطلقه وأحسِن إليه .. وأنتَ آمن من بعدها من أن أنصب عليك صاحب خبر

فتركه القاسم ، وانقطعت أخباره عن المعتضد[1]

فهذه قصة رائعة طريفة تدلك على مبلغ حب المعتضد تسقط الأخبار ، ومبلغ مهارة أهل ذلك العصر فى الحيلة والبراعة فى التجسس ، وهى قصة لا تحتاج إلى تعليق ، فما قرأت فى بابها فى كتبنا القديمة أشوق منها ولا أحلى

ومن هذه القصة ، ومن الأخبار التى سردتها لك فى العدد الماضى — من قبل — ترى ما كان للتجسس من شأن عند الخلفاء العباسيين . أما عناية الوزراء بالتجسس وتحسس الأخبار ، فسأبينه فى مقال آت

جديدًا (لبنان) **صلاح الدين المنجد**

(١) أنظر الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٩٢ وما بعدها

إلى المجمع اللغوى :

الأسماك فى الشواطئ الحضرمية

للأستاذ على عبود العلوى

تمهيد :

لا شك أن وجود الأسماك بكثرة فى الشواطئ الحضرمية هو الحافز الأعظم لبعض مفكرى الحضارمة فى السعى وراء تأسيس شركة تجارية بمهجر الحضارمة (جاوة) من غايتها استغلال الثروة الوطنية وتنميتها بإنشاء مصنع لحفظ الأسماك فى العلب وتصديرها فيما بعد إلى الخارج .

ولا غرو أن يهتم بالسفر إلى ميناء حضرموت (المكلا) رئيس الشركة السيد على بن شهاب لدرس ما يقتضيه المشروع ورفع تقرير لأعضاء الشركة . غير أن المشروع أخفق فى مسعاه ولا أعرف بالضبط ما هى الأسباب الموجبة لذلك .

وتاريخ هذه الخطوة التفكيرية الأولى يرجع إلى أثناء الحرب الماضية حرب (١٩١٤ م) على ما أذكر[١] .

ولئن أخفق هذا المشروع فإنه لم يقض على الفكرة أصلا . وغاية ما فى الأمر أنها تنبعث مرة وتختفت أخرى . حتى دبّ إلى النفوس خبر انعقاد مؤتمر الإصلاح الحضرمى المنعقد بسنغافورا فى سنة ١٣٤٦ — ١٩٢٧ فانبعثت الفكرة مرة أخرى ، ولكن فى صورة واسعة النطاق . إذ وافق المؤتمر على تأسيس شركة تجارية حضرمية برأس مال كبير من غايتها استغلال الثروة الوطنية ، ورشح لهذا القرار لجنة تتألف من أغنياء الحضارمة وسراتهم برئاسة الثرى الشهير السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف . غير أن مقررات المؤتمر قضى عليها بجرة قلم ولم تكن هى من نصيب بحثنا لنوليها مزيداً من البحث والتعليل والتدليل .

ودليل آخر أضيفه إلى ما سبق أن أشرت إليه فقد حدثت بعد عودتى إلى الوطن من الكنانة فى ١٩٤٢/٨/٢١ من رحلتى التى استنفدت من العمر زهاء خمس عشرة سنة أن عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى معتزم إنشاء حوض كبير لتربية الأسماك والاستفادة منها علمياً .

فمتى يتحف عظمة السلطان شعبه الحضرمى بهذه المكرمة الجليلة التى لم تكن هى إحدى مكارمه ؟ فعسى أن يكون ذلك قريباً .

معجم للأسماك :

واغتنمت فرصة وجودى فى (المُكلاَّ) للتعرف إلى أبناء الثغر الحضرمى ، وقد لقيت منهم تأهيلا كبيراً ، وممن تحدثت معه عن وضع معجم للأسماك الأستاذ عبد الله الناخبى فهش للفكرة — وقال : إن نفس هذه الفكرة قد سبق أن أوحى بها إليه عظمة السلطان صالح القعيطى ، ومن أجل ذلك فإنه دائب فى البحث ، وأنه قد كتب مذكرة عن الأسماك تضم زهاء مائتين وخمسين اسماً .

ولا أزال أرجو من الأستاذ الناخبى أن يجد فى البحث لكى يتحف العالم العربى بثمرات أبحاثه .

غير أنى أخشى أن تقعد بالأستاذ الناخبى أعماله المدرسية وشواغله اليومية . فقد اتضح لى أنه طيلة المدة التى قضيتها فى حضرموت وهى سنة وثلاثة أشهر لم يقدر له أن يواصل البحث الذى سبق أن حدثنى عنه بشىء يذكر .

وقبل أن نتجه إلى الغاية المقصودة يجدر بنا الإشارة إلى أن للسيد الشاعر عبد الرحمن بن محمد بن شهاب الدين العلوى المتوفى فى حدود سنة ١٢٧٠ هـ قصيدة طويلة ضمنها أسماء الأسماك الموجودة بالشط الحضرمى ، ولم تقع هذه القصيدة تحت نظرى وإنما حدثت عنها وهى مشهورة بحضرموت وموجودة منها نسخ فى مهجر الحضارمة . جاوة ، ولن تخلو منها مكاتب حضرموت ، ولا شك أنها من محفوظات خزانة حفيده السيد الجليل عبد الرحمن بن عبد الله بن شهاب فى (الغناء ترم) .

فهل يتحفنا بها «الرسالة» الغراء أحد أدباء القطر الحضرمى ؟

ومما وقع تحت نظرى له وأنا فى سن المراهقة قصيدته المشهورة التى وصف فيها المرأة وخصَّها بالمفاضلة ما بين البيض والسمر والخضر والسود .

(١) فى جريدة الاقبال التى كانت تصدر (بسربايا) جاوة — إشارة إلى هذا الخبر وهى لا تحضرنى الآن .

فياهل ترى وصف لنا الصهب والزرق إلى غيرذلك ؟ لا أدرى فذلك عهد طال به العهد ولم يبق عالقاً ببالى منه شىء .

ومن قصائده المشهورة فى المفاضلة قصيدته التى خصها بالنخل ويقال إنه ذكر فيها زهاء مائتين وخمسين اسماً من أسماء النخيل الموجودة بحضرموت .

ومما علق بذاكرتى منها قوله يصف نوعا من النخل يسمى باليتيمة :
وعَادْ تمر اليتيْمة ، يُعجبَكْ خُزْعُهْ وصَنْيمهْ تَقْدُوُمْ لأهْلِ التّفخّار . التخميس (ماشىء كما التمرُ فى الدار) .

(الألفاظ : عادْ . بمعنى بَقِى . والخزعُ من التمر ما أخرج نواه . الصّنْيمْ : هو ما أخرج نواه أيضاً ، وهُرِسَ بالأرجل كما هو معروف فى حضرموتْ . أهل التفخارْ : هم الضيوف الذين يفدون على بيوت الكرم ممن يفخر بهم)

وأكثر أشعار هذا السيد (حُمَيْنِيَّة) أى أنه لم يلتزم فيها قواعد الإعراب ولها عروضها الخاصة لأنها تتابع الأنغام .

وهذا السيد هو والد الشاعر الكبير شيخ النهضة الحضرمية أبو بكر بن شهاب (راجع « الرسالة » الغراء عدد ٤٢٣ صفحة ١٠٠٧) ومؤلفنا عنه (الشهاب العلوى) .

وأخيراً أتاحت لى الفرص التعرف على أسماء جانب من الأسماك ، وذلك بفضل الرحلة الشاقة التى دفعت ثمنها بالمخاطرة الروحية .

إذ أقلتنى من ميناء حضرموت (المكلاّ) إلى (جدة) ساعية شراعية . حقاً إن هذه الرحلة شاقة مضنية ولكنها تذكرنا بآثار آبائنا الصِّيد الذين كانوا يخترقون البحار بمراكبهم الشراعية ، وكانت لهم السيادة البحرية إذ ذاك .

وكانت بواخرهم تقلع من موانى حضرموت إلى أقاصى الشرق الاقصى ، ولهم فى هذا الميدان تاريخ عظيم القدر مشهور بمكانته المظيمة ، ولهم مع البرتغال مواقف مشهورة ليس هذا موضع الحديث عنها .

وكان علماؤهم لا يدعون الأوقات تمر عليهم سدى فكانوا يحصلون العلم وهم فى أثناء سفرهم الذى يمتد بهم إلى أكثر من ستة أشهر إلى أن يصلوا إلى الموانى الشرقية بجزر الملايو وجاوة .

وفوق هذا فقد كانوا يقضون على السآمة التى تعقب مثل هذه الرحلات الشاقة بما يتفرغون له من دروس علمية أثناء سيرهم واستنساخ بعض الكتب العلمية التى هم فى حاجة إليها .

وعسى أن تتاح لى الفرصة فأوافى « الرسالة » الغراء ببحث خاص ذا صلة بالموضوع ، ومن كان متعجلا فليراجع ما ورد بهامش مقال لنا نشر فى عدد ٢٣٤ من مجلة الرابطة العربية تحت عنوان : خصائص الشعر فى عصر ابن شهاب أو يبل غلته بمراجعة تاريخ دخول الإسلام إلى (الفلبين) وهو من تأليف الدكتور نجيب صليب اللبنانى المتوفى سنة ١٩٣٥ ، وهو مطبوع فى اللغة الانجليزية طبع (مينلا) سنة ١٩٠٥ م

لقد كانت المدة التى قضيناها فى البحر من حين أبحرنا من (المكلا) بعد ظهر يوم الأحد فى ١٩٤٣/١١/٧ إلى أن أرست بنا السفينة فى ميناء (جدة) فى ١٩٤٣/١١/٢٥ هى الكفيلة بأن تتيح لى ما لم يكن فى الحسبان .

وكانت الدواعى التى تجعلنى أهتم بالبحث فى التعرف على أبناء اليم كثيرة ، ولو لم يكن منها إلا المتعة الغذائية التى يتحفنا بها اليم فى صباح كل يوم ومسائه لكانت هى وحدها كافية فضلا عن الناحية العلمية التى يجدر بنا أن نشارك فيها بحسب المستطاع .

لفتت نظرى هذه الأحياء العظيمة التى نشاهدها فى البحر فى كل آن ، وهى تمشى زرافات ووحدانا ، والتى منها ما يتحدى سفينتنا فى مجراها . فكاشفت ربان السفينة الحضرمية والبحارة وزملاؤهم أن لى شغفاً بالتعرف على هذه الأسماك مما شاهدنا وما لم نشاهد . فما كان منهم إلا أن أمدونى بهذه المعلومات التى أدونها « للرسالة » الغراء ، ولهم علىّ فضل التنويه والشكر .

ولم يحجم أبناء البحر — أستغفر الله — بل أخدانه عن الحديث إلا ريثما أدون ما يفوه به المتصدى للحديث ، وكنت أدقق فى ضبط الألفاظ غاية التدقيق حتى إذا ما أشكل علىّ لفظ استعدته مرة أخرى . هذا ما كان من جانبى ؛ أما ما كان من جانبهم فانهم كانوا مرهفين أسماعهم لمحدثى . فإذا ما قدم أو أخر نبهوه إلى غلطه فى الحال .

فكانت لدى متعة روحية طيلة الساعتين التى قضيتهما فى اليوم مع الأسماك .

(يتبع)

علي عبود العلوي

وردة اليـــازجى

للأستاذ يوسف يعقوب مسكونى

— ١ —

نحن جديرون بأن نعنى بمآثر الشاعرات العربيات من بنات قومنا فى القديم والحديث. فبهذه العناية نؤدى بعض ما لهن من الحق علينا فى مضمار الشعر واللغة، وضربهن بسهم وافر فى إظهار شعورهن نحو لغتهن وبنات أمتهن، ومنهن الحديثات ممن تتبعن خطط سابقاتهن فنسجن نسيجاً يليق بنا أن نطلع القراء على ما يتيسر إيراده فى هذه العجالة فنحفظ لهن ذكراً باقياً حافزاً لغيرهن من النساء أن يسلكن هذا المسلك الظريف الطريف فيكن أوتاراً موسيقية لأبناء الجيل وبناته. وهذه الشاعرة وردة بنت الشيخ ناصيف اليازجى من شاعرات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كان أكثر شعرها رثاء وذلك للنكبات التى حلت بهذه الشاعرة المسكينة فانهالت عليها كالسهام لأنها نكبت بكل إخوتها وأختها وأبيها وابنها وابنتها وزوجها. فبكتهم بكاء الخنساء على إخوتها وأولادها، وحذت حذوها فى نسق الرثاء وذكرتها مراراً فى قصائدها المملوءة من النواح، وهذا ديوانها «حديقـة الورد» طافحاً بالمراثى والمآتم والدموع المسكوبة على من فقدتهن من أفراد أسرتها الأعلام، وغيرهم من الأفاضل الكرام.

***

أما سيرتها: فقد ولدت فى كفرشيحا فى لبنان فى العشرين من شهر يناير من سنة ١٨٣٨م (١٢٥٣هـ) ثم انتقل والدها إلى بيروت وأدخلها مدرسة البنات للمرسلين الأمريكيين. ولما بلغت الثانية عشرة لقنها والدها أصول الصرف والنحو والبيان والعروض فنبغت فيها، ورآها والدها مطبوعة على الشعر فرشحها له فنظمت عدة قصائد وهى لم تناهز الرابعة عشرة. ثم أخذت تكثر من النظم والرثاء والمديح وغيرها، وقد أجادت فى الرثاء كما قلنا لما منيت به أسرتها من المصائب الفاجعة. وقد اقترنت بفرنسيس شمعون سنة ١٨٦٦م وصرفت أكبر قسم من حياتها فى مصر فى مدينة الاسكندرية، وتوفيت فيها فى الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٤م (١٣٤٢هـ)، وتعرف بأنها أول امرأة نبغت فى الأدب العربى فى القرن التاسع عشر، وتظهر كتاباتها مقدرة عظيمة فى طريقة التركيب على نمط والدها، ومحتويات أشعارها قصائد تنطق بظروف ذات علاقة متينة بتاريخ عائلة اليازجى. ولها مع أديبات عصرها فى سوريا ومصر وبغداد مساجلات ومراسلات تنم عن لطف وبراعة فى التعبير، ونشرت عدة من المقالات بعضها فى مجلة الضياء تناولت فيها قضية المرأة الشرقية وغيرها، وغلب على نظمها مسحة الشعر اليازجى فى السهولة والرقة، وقد عمرت طويلا. وممن كتب عنها من الغربيين المستشرق بروكلمن (Brockelnan GAL11495) وأما الشرقيون فكثيرون[1] نخص بالذكر منهم الأب لويس شيخو اليسوعى (ملاحظات شيخو: التاريخ ص ٤١٥ — ١٦ ونفس الفهرست ص ٢١٣ العدد ٨٢٩) ومحاضرات الآنسة مى (مريم زيادة وقد خصصتها بها وقد طبعت فى القاهرة فى مطبعة البلاغ المحتوية على اثنتين وستين صفحة مع الرسم). أما ديوانها «حديقة الورد» فقد طبع مرتين فى بيروت سنة ١٨٦٧م، سنة ١٨٨١م وفى القاهرة للمرة الثالثة سنة ١٩١٣م (١٣٣٢هـ) وزيد على طبعته الأخيرة كثير من القصائد النادرة لهـا. وأما شعرها فينقسم قسمين: الرثاء والمديح، ولنبدأ الآن بالمديح. فمن ذلك أن قالت فى جواب أبيات وردت عليها من وردة بنت المعلم نيقولا الترك الشاعر فى مطلع ديوانها:

يا وردة الترك إنى وردة العرب فبيننا قد وجدنا أقرب النسب
أعطاك والدك الفن الذى اشتهرت
ألطافه بين أهل العلم والأدب

وقالت فى جواب رسالة إلى الست كاتبة بنت مومى بسترس وفى هذا تورية لطيفة لأن اليازجى بالتركية يعنى الكاتب:

---

(١) معجم المطبوعات ليوسف اليان سركيس ص ١٩٣٩ — ٤٠ مادة يازجى، قاموس تراجم الأعلام لخير الدين الزركلى ج ٣ ص ١١٣٤ فتاة الشرق، مجلة الآثار المجلد الثانى. بلاغة النساء لفتحية محمد. تاريخ الصحافة لفيليب دى طرازى، مجلة سيدات والرجال السنة الخامسة أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام لعمر رضا كحالة ج ٣ ص ١٦٠٠ — ١٦٠٤ ط دمشق، المعلمة الاسلامية المجلد الرابع ص ١٢٣٦ مادة يازجى المقتطف المجلد الرابع والستون ج ٢ ص ٢٣٩.

بيني وبينك في الأسامي نسبة لا في المعاني أنت فوق مراتبي
سميت كاتبة بكل لياقة وأنا كما تبغين بنت الـكاتب

وقالت وقد عادت صديقة لها من سفر :

زار الحبيب فزار أجفاني الـكرى ودنا سرور كان عن قلبي سرى
لا تنكروا إن غاب عني مرة
شيم الـكواكب أن تغيب فتظهرا

ثم تقول :

أهلا بمن أخذ القلوب وديعة وأعادها معه تخوض الأبحرا[1]

وقالت في رسالة إلى صديقة لها وقد كانت في سفر :

مني السلام على الذي هجر الحمى فجرت دموعي كالسحائب عندما
الشوق زاد من البعاد تحسراً والنوم صار على العيون محرما

ثم هي تقول فيها :

يا راحلا أضحى فؤادي عنده وبقيت من وجدي أراعي الأنجما

وكذلك قالت :

مني السلام إلى من سار في السحر وبدّل العين بعد النوم بالسهر[2]

وقالت وقد بعثت بها إلى إحدى صواحبها وقد كانت في سفر :

رحل الحبيب وحسن صبري قد رحل
فـــتى يعود إلى منازله الأوّل
وتفيء أرض أظلمت من بعده وتقر عيني باللقا قبل الأجل

ثم تقول :

قد قل صـــبري للبعاد تحسراً
والجسم من أجل الفراق قد انتحل
يا غائباً والقلب سار بإثره شوق مقيم في فؤادي كالجبل
يا بدر غبت اليوم عنا راحـــلا
والبدر ليس يغيب شهراً إن أفل[3]

وقالت في الأميرة تاج الشهابية :

تحية من مشوق زائد القُلل تهدى إلى تاج مجد من ذوي الدول

ثم تقول :

إلى التي صار قلبي اليوم مسكنها كأنها الشمس حلت منزل الحمل
جميلة الخلق تحكي البدر طلعتها جليلة الخلق في قول وفي عمل

وكذلك تقول :

يا من بها زهت الأيام قائلة :
لا تحسبوا أن كل الفضـل للرجل

وقالت تمدح ميخائيل المدوّر :

نخل اليمامة يفدى نخلة ظهرت
في أرض بيروت منهـا الظل والثمر

ثم قالت وقد زار أباها الأمير أمين أرسلان :

تدفق في منازلنـا السرور مساء حين شرفها الأمير
أضاءت بهجة كالصبح لما تجـــلى فوقها القمر المنير
فكادت ترقص الأكباد تيها بمـا نالته أو كادت تطير

وكذلك قالت جواباً لصديق أبيها محمد عاقل افندي السا كن في الاسكندرية :

زارت بجنح الدجى والليل معتكر
فقالت الدار ها قـد أشرق السحر
خود تميس بقدٍّ كالقناة بدا إذا رأته غصون البان تنكسر
قدٌّ يقدُّ قلوب العاشقين إذا ماا هتزّ يوما ترى الأكباد تنفطر
خطت لأهل الهوى سطراً بوجنتها
إياكم النـــار لا يؤذيكم الشرر

ثم هي تقول :

أهدى إلى بيوتاً كل قافية منهن تخجل منها الأنجم الزهر

وهي تقول أيضاً :

سحبان مصر ويا ركن البلاغة من
به القـوافي غدت تزهو وتفتخر

وقالت تجيب أحد الفضلاء عن أبيات بعث بها إليها من بغداد :

منّ الكريم بها عليّ رسالة تفدى بكل وصيفة ووصيف

وفيها تقول :

أهديتني مدحاً به أغرقتني في بحر فضل لم يكن بخفيف

وكذلك قالت جواباً لأحـد الأفاضل عن أبيات أرسلها لوالدها من بغداد :

---

(١) ديوان حديقة الورد ص ٣ من الطبعة الأخيرة .
(٢) نفس المصدر ص ٤ .
(٣) كذلك ص ٥ .

خود من العرب وافت تنجلى تيهاً
كالشمس تشرق فينا من أعاليها

إلى أن تقول :

اللوذعى الذى الزوراء مسكنه   وصيته سار فى أقصى ضواحيها
حيا الحيا أربع الزورا وأهليها   وجادها الغيث هتاناً يواليها
فى أرضها منبع العلم الذى غمرت   مياهه وارتوت منه أهاليها
أهدى إلى بيوتاً كل قافيــة   منهن تسكر لا بالخمر قاريها

ولها فى لبنان ذكريات ولوعات حيث تقول فيه :

يا ربى لبنان حياك الحيا   وسقى تربك هتان الغمام
يا ربوع الأنس يا دار الصفا   يا جنان الخلد يا أهنا مقام

ثم انظرها تقول :

وخرير الماء فى تلك الربى   كحنين من محب مستهام
بسط الزهر علـى أرجائه   بين ورد وبهـار وخزام
وترى الأطيار فى تلك الربى   بين شحرور وباز ويمام

وفى تهنئتها للأميرة نازلى هانم بعودتها من أوربا تقول :

أهلا بذات العلى والمجد والحسب   سليلة العلوى الماجد النجب
شمس بدت من سماء الغرب مشرقة
فغار ما فى سماء الشرق من شهب
فرع كريم أتى من دوحة سقيت
أعراقها بمياه الفضل لا السحب

وقالت تتذكر أيام الصبا :

يا زمان الصبا عليك السلام   يا ربيعاً تزهو به الأيام
فيك تحلو الحياة يا زهرة الـ   ـعمر وتنمو العقول والأجسام
لهف نفسى على أويقات أنس   قد تقضت كأنها أحلام
حيث كان الزمان طلق المحيا   وعيون الأكدار عنا نيام[1]

وقالت تمدح شكرى الخورى والسوريين فى أميركا الذين اشتركوا فى إقامة تمثال لأخيها إبراهيم .

يامن يقصر عن شكرى له قلمى   لما أتى من جميل الفضل والكرم
الفاضل الشهم شكر الله من لهجت
بشكره السن الأيام والهمم

(١) ديوان حديقة الورد ص ٦٥ .

ذكرت قومى إلى ما ترتأيه لهم   صنعاً جميلا وبرهاناً لودهم
لهم علينا اليد البيضاء ما بقيت   فينا حياة توالى ذكر فضلهم
يا سادة جمعتهم نسبة الوطن الـ   ـمحبوب جمع الثريا غير منفصم
جددتم شخص من نهفو لرؤيته   كأنما هب مبعوثاً من الرحم
فلو تمكن من نطق لصافح لكم   شكراً ودبجه بالدر والحكم
وما مديحى لكم حبر على ورق
بل خط فى لوح صدرى شكركم بدمى[1]

إلى هنا نكتفى من قولها نظما فى المديح ، وأما الرثاء فقد أبدعت فيه كل الابداع وأجادت فيه كل الاجادة . فهى التى بكت فى رثائها وأبكت من سمعها أو قرأها فى هذه القصائد الحزنة التى نأتى ههنا بالميسور إيراده فقالت ترثى البطريرك مكسيموس مظلوم حين توفى بالاسكندرية سنة ١٨٥٥ :

يا حاسباً دنياك دار قرار   أقصر عناك فتلك أخبث دار
لا تستقر بها النفوس ولا ترى   قلباً بلا غم ولا أكدار
دنيا غرور كلما طال المدى   طال الغرور بمكرها الغرار

ثم هى تقول :

لله يومــك فى الأنام فانه   أبقى لنا حزنا مدى الأدهار

وقالت ترثى المرحوم مارون نقاش المتوفى سنة ١٨٥٥ م :

الموت للناس كالجزار للغنم   فليس يترك من طفل ولاهرم
كأس يدور علينا ساقياً أبداً   وليس يترك إنسانا من الأمم

ثم تقول :

ذابت لفرقتــه الأكباد والتهبت
أجفاننا من دموع ضرجت بدم

وقالت أيضاً ترثى المرحوم غالى بميث الأمريكي :

ذابت بجمرة فقدك الأجسام   يا فاضلا غدرت به الأيام

ثم تقول :

قد مرت عن وادى الدموع مودعاً
هل يرتجى بعد الوداع سلام

(يتبع)   **يوسف يعقوب مسكوني**

(١) كذلك ص ٨٥ ، ٨٦ .

الأدب في سير أعلام :

ملْتُن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٣ —

البرسبتيريتز والصدمة الثانية :

ويضرب ملتن لقومه مثلا لما يقع من الضر إذا اختنقت حرية الرأى فيستعيد ذكرياته عن رحلته فى إيطاليا ويذكر كيف عده المثقفون هناك سعيداً بمولده فى انجلترة موطن الفلسفة الحرة إذ كانوا يظهرونه على تألمهم وحسرتهم لما تعانى المعرفة عندهم من تعسف وإعنات وقيد ؛ ويقول ملتن إن ما يعانيه طلاب المعرفة هناك من قيود هو سبب ما اكتنف مجد أولى الذكاء من الإيطاليين من ضباب ، وإلى تلك القيود يعزى مَلَقُ الإيطاليين وإدعاءاتهم وهما خلتان بارزتان فى أكثر ما يكتبون ...

ويشير ملتن فى فقرة قوية بالغة الأثر فى النفوس إلى ضحية من ضحايا الحرية وذلك هو جليليو الذى جاهد طويلا ليكشف عن الأبصار ما حجب عنها النور من غشاوة ، ويزيح عن القلوب ما طمس عليها من خرافة وجهل ، فكان جزاؤه السجن والمهانة وقد تحطم هيكله الذى آده العبء كما آدته السنون وذهب بصره فأحاطت به الظلمة وهو الذى طالما صبر على أذى قومه وصابرهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

ولن يزال ملتن عظيم الثقة فى انجلترة ، يقدرها حق قدرها ويراها خير أمة منذ قام العالم ، فهى أمة ذكية بصيرة حازمة ، ذات روح وثابة سريعة إلى ما تريد ، لن تتخاذل عن أقصى ما تصل إليه المقدرة البشرية ، عريقة فى المعرفة على اختلاف فروعها حتى ليمكن القول إن مدرسة فيثاغورس والحكمة الفارسية القديمة إنما استمدتا بدايتهما من انجلترة ؛ ولها فى الدين وما هو من بابه من المعرفة ، باع طويلة وقدم راسخة ، فلولا ما كان من مقاومة بعض القساوسة لوكليف (١) ونظرتهم إليه كصاحب بدعة وداعية شقاق لما سمع أحد عن لوثر أوكلفن نفسيهما ، ولن تزال انجلترة مبعث كل دعوة إلى الإصلاح ومنار كل نهضة تقوم فى القارة ، وسيبقى لها فخر إصلاح جيرانها غير منتقص ذلك الفخر أبداً ... وقد تأذن الله لكنيستها بعصر جديد عظيم سوف تصلح فيه الإصلاح نفسه ، وكان أن تجلى الله لعباده وبدأ كما هو شأنه بالإنجليز منهم ...

ولئن عظم أمله فى انجلترة وما يرجى فيها من خير ، فإنه يوجس خيفة من التنكر للحرية كما فعل البرسبتيريتز ، ولذلك فإنه يراهم شراً أى شر ، فما يحجب نور هذا الأمل عن البلاد إلا عنادهم واجتراؤهم على فعل ما كرهوه من قبل مما فعل القساوسة .

ويغلظ ملتن لهم القول ويعنف عليهم كما صنع بالقساوسة فيرميهم بالنفاق والجشع، فما يتأتى الإخلاص لقوم يكرهون الحرية ويعترضون لها وما عبادته إلا حرفة احترفوها وتجارة يخشون كسادها ثم يتنبأ فى آخر كتيبه بأن سوف يلقى الباطشون من يبطش بهم ، ولعله بذلك يستخرج من مجرى الحوادث السياسية أن المستعلين سوف يعملون على سحق سلطة البرسبتيريتز بعد أن يفرغوا من محاربة الملك ولقد جاءت الحوادث بعد ذلك محققة ما لمح به .

وكرهت رجعة البرسبتيريتز كما يزعم إليه كل القائمين على شؤون الدين ، ولا عبرة بالمذهب ، وقر فى نفسه أن حرية الفكر والرأى مستحيلة ما دام هؤلاء قوامون على الناس ، وعنده أن تعصب القساوسة إنما يظهر فى صور وأشكال جديدة ؛ وما دام الأمر كذلك فلا إصلاح يرتجى ؛ إذ كيف يتحقق الإصلاح بغير الوصول إلى الحق ، ولا سبيل إلى الحق إلا الحرية ويريد بها تحرير العقل من الجهالات والضلالات ليفكر طليقاً ويتدبر فيما جاء به المسيح غير مقيد بقيد مهما كان نوعه أو كان مبلغه من الشدة أو

(١) مصلح دينى من القساوسة فى القرن الرابع عشر حارب العيوب القائمة حوله وترجم العهد الجديد .

الضعف ؛ وإذاً فالفكر الحر والرأى الحر هما سبيلا الإصلاح الحق ولا سبيل غيرهما .

لقد جاء المسيح بالهدى والحق إلى هذه الدنيا ، وذلك مبين في الإنجيل ، ولكن الناس بعيدون عما بين لهم من الهدى لأنهم أخذوا أخطاء المفسرين على أنها الحق المقدس وفى ذلك أبلغ الضرر ؛ ولا مخرج لهم إلا أن يناقشوا المسائل التى يحيط بها الشك مناقشة لا قيد فيها حتى يهتدوا إلى الصواب ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك إلا أن تتاح لهم الحرية ، فكأن الذين يخنقون الحرية إنما يحولون بين الناس وبين ما آتاهم المسيح من الهدى وأى إثم هو أكبر من هذا الإثم ؛ وكيف يطمع المصاحون فى الإصلاح إلا أن يكفوا أيدى هؤلاء البرسبتيريز الذين يصدونهم عن سبيله ويزعمون أنهم هم المصلحون ...

بهذا المنطق القوى أزعج ملتن البرسبتيريز ، فنثل هذا الكلام يكون أشد وقعاً وأعظم أثراً من الهجاء مهما أقذع ، ولذلك كانت هذه الحرب أقوى من حربه على القساوسة وإن بدت أقل منها ضجيجاً لأن سلاحه فيها كان أمضى ولأنه يقاتل فى سبيل مبدأ تميل إليه بطبعها النفوس ...

تلك هى خلاصة الأيروپاچيتيكا ؛ ويزعم بعض النقاد وأحسبهم على حق فيما يزعمون أنه لو لم يكن ملتن صاحب الفردوس المفقود وصاحب كومس والفردوس المستعاد وغيرها من الشعر لذهبت كتاباته النثرية مع الزمن إلا هذا الكتيب الذى جعله للدفاع عن مبدأ من أجل المبادىء فى حياة بنى الدنيا منذ أقدم عصورها ألا وهو حرية العقل لا فى تفكيره فحسب فإن ذلك طوع كل فرد ذكى بل فى إعلان ما يرى من رأى .

ويحبب هذا الكتيب إلى النفوس فضلا عما يدافع عنه من مبدأ فيه ، ما ساقه ملتن من أمثلة وما لجأ إليه من الإشارات والتلميحات كما يفعل فى شعره ، وكان التاريخ هنا هو الكنز الذى استخرج منه أصدافه ولآلئه ، وحسبك أن يلمح إلى سقراط واستشهاده وإلى جليليو وما لاقى من كوارث وإلى أفلاطون وبيكون وإرزس وسبنسر الذى وصفه بقوله « شاعرنا الحكيم الوقور » ، وأضرابهم ممن اهتدوا بنور العقل فى ظلمات الجهل فكانوا على طريق الإنسانية مصابيح تنطوى القرون ونورهم أبلج وكلما اشتدت الظلمة ازدادوا ظهوراً كـكواكب السماء ونوراً ...

وحسبك أن يشير إلى أثينا وأن يمتدح فيها النشاط العقلى وأن يشيد بما كان يعلم آباء المسيحة الأولون من علوم الأقدمين ؛ إلى كثير من أمثال ذلك مما يسوقه براهين على فضل العقل ، فنى العقل وحده الخلاص من نير الجهل مع شرف القصد والإخلاص فى استجلاء الحق لا فى الخضوع لكل منقول والتسليم به فى غير تدبر فيه ...

وهو فيما يسوقه من هذه الأمثلة إنما يعرض بالبرسبتيريز الذين أنكروا منه ما اهتدى إليه بعقله فى أمر الطلاق والذين هالهم منه تأويل ما أول من عبارات الإنجيل لتتمشى مع ما ذهب إليه من رأى أو الذين رموه بالفسوق لأنه طلب تحكيم الضمير والاستعانة بالعقل فيما يلتبس فيه الأمر من أحكام الإنجيل ولا يتفق فى ظاهره مع طبائع الأشياء .

والحق أن ملتن خليق بأن يثير إعجاب الناس جيلا بعد جيل ، فقد كان لشخصه من الجلال ولروحه من القوة ولنفسه من العزة ما لا يتوفر مثله إلا للأفذاذ القليلين على فترات من الزمن ؛ ولا نجد فيما تحدث عنه المؤرخون خيراً من حديث مكولى عن خلقه فلنأت به على سرده . قال مكولى « وبقى بعد ذلك أن نتحدث عن المعين الذى استمد منه خلق ملتن العام عظمته وروعته الخاصة به ، فلئن كان قد أتعب نفسه ليقضى على ملك حانث[1] أو سلطة كهنوتية ظالمة ، فإنما فعل ذلك مشتركا مع غيره من الناس .

ولكن مجد المعركة التى خاض غمارها من أجل ذلك الضرب من الحرية الذى هو أعظم ضروبها قيمة ، وإن كان أقلها حظاً يومئذ من إدراك الناس ، وأعنى به حرية العقل البشرى كان بأجمعه مجده وحده ...

لقد رفع الألوف من معاصريه وعشرات الألوف منهم أصواتهم ساخطين على ضرائب السفن وعلى محكمة غرفة النجم ، ولكن لم يفطن إلا قليل منهم إلى ما يعد شره أعظم من ذلك هولا ألا وهو الرق العقلى والخلقى ، ولا إلى ما عسى أن يعود من

---

(١) سيأتى بيان ذلك عند الكلام على الجانب السياسى من حياته .

خير على الإنسانية من وراء حرية النشر ، ومن وراء الحكم الشخصي على الأشياء يجري به الرأي غير مقيد بقيد ؛ هذه هي الأغراض التي رأى ملتن أنها بحق أعظم الأغراض خطراً ، وكان تواقاً إلى أن يرى الناس يفكرون لأنفسهم كما أنهم يشرعون الضرائب لأنفسهم ، وأن يتحرروا من سلطان الهوى ، كما قد تحرروا من سلطان «شارل» ، وكان يعلم أن الذين اعتلوا صنوف الإصلاح هذه ونفوسهم تنطوي على أحسن المقاصد ، وقنعوا بإسقاط الملك وإلقاء المليكين الطاغين في السجن ، إنما سلكوا مسلك الأخوين الغافلين في قصيدته اللذين ألهاهما فرط حرصهما على تفريق الساحر وقبيله فأهملا وسائل تحرير أسيره ، لقد فكروا في هزيمته فقط في حين كان ينبغي أن يفكرا في حل ما عقد من طلاسم السحر : « لقد أخطأنا ، فإنه كان ينبغي أن نختطفا عصاه وتشدا وثاقه ، وذلك أننا وقد فاتنا أن نقلب العصا رأساً إلى عقب ونقرأ في اتجاه عكسي كلمات الساحر ذات القوة التي تفكك الأوصال ، لن نستطيع أن نطلق سراح هذه السيدة التي تجلس هنا مغلولة بأغلال شديدة ، فهي في مكانها ثابتة لا تتحرك »[١]

وكان العمل على أن تقلب العصا ، وأن تقرأ كلمات السحر في عكس اتجاهها ، وأن تفكك القيود التي تشد الشعب الأبله إلى مقعد السحر ، كل أولئك كان ما يسعى إليه ملتن من غرض نبيل ، وإلى هذا الغرض وجه مسلكه فيما يتصل بالناس كله ، فمن أجله انضم إلى البرسبتيريين ومن أجله اعتزلهم ، ولقد خاض معركتهم المحفوفة بالمخاطر ، ولكنه نأى بجانبه عنهم مشمئزاً ساعة انتصارهم الوقح ، ورأى أنهم كانوا كمن هزموهم لحرية الرأي أعداء ، ومن ثم فقد انضم إلى المستقلين ودعا كرمول[٢] أن يحطم ما نسب إلى الدين من غل وأن يخلص الضمير الحر من مخالب الذئب البرسبتيري ؛ وهاجم ملتن وهذا الغرض النبيل نصب عينيه قانون الطبع والرقابة في مقال رفيع الطراز[٣] يجدر بكل سياسي أن يلبسه كشعار فوق يده وكذؤابة بين عينيه ؛ وكانت لا توجه هجماته بوجه عام إلى المساوئ الخاصة بقدر ما كانت توجه إلى تلك الأخطاء المتأصلة التي تكاد تبنى على أسسها جميع الأخطاء ألا وهي العبارة الخانعة لذوي المكانة من الناس ، والخوف الذي هو ليس من العقل في شيء من كل تجديد .

ولكي يزلزل أسس هذه النوازع المذلة زلزالاً أشد وأوفى بالغرض ، كان يختار ملتن لنفسه دائماً مما يبذل من الخدمات الأدبية أدعاها إلى الشجاعة والجرأة ولم يكن يأتي قط في المؤخرة بعد أن تنقص الأيدي من الجهود الخارجية وتنفذ الجنود من الثغرة ، وإنما كان يدفع بنفسه المقدمة إلى ما تتخاذل دونه الآمال .

ففي بداية ما حدث من أوجه التغيير ، أخذ يكتب بكل ما في وسعه من نشاط وفصاحة لا يجاريه أحد فيهما منددا بالقساوسة ، فلما بدا له أن آراءه قد تم لها الغلبة تجاوزها إلى موضوعات أخرى ، وترك القساوسة إلى طائفة كبيرة العدد من الكتاب أسرعت بعده إلى التهجم على تلك الفئة التي تهوى ...

وليس ثمة من عمل أشد خطراً من الاضطلاع بحمل مشعل الحقيقة إلى المجاهل الموبوءة التي لم يضيء فيها نور قط ولكن ملتن كان يختار لنفسه دائماً أن يقتحم ذلك الضباب الصاخب ، وكان يسره ذلك الاختيار كما كان يسره أن يركب الأخطار في ذلك الاكتشاف الذي يبعث الرعب ؛ ويجب على أشد الناس إنكاراً لآرائه أن يحيطوا بالتوقير ما لاقاه في سبيل استمساكه بها من عنت وشدة ، ولقد ترك لغيره في الجملة العمل على شرح الجوانب المقبولة من عقيدته الدينية والسياسية والدفاع عنها ؛ أما هو فقد جعل من نصيبه أن يؤيد العقائد التي رأى جمهور مواطنيه أنها آثمة والتي سخروا منها لأنهم زعموا أنها متناقضة ، فقد ذاد عن حق إباحة الطلاق وأيد إعدام الملك وهاجم نظام التعليم السائد في أيامه[١] وإن عمل الخير الذي يشع النور ليشبه في آلهة الخرافة عمل إله الضوء والخصب »

والحق أن الدفاع عن الحرية كان هدفه في معظم ما كتب ، فقد دافع عن الحرية الدينية بحربه على القساوسة وعن حرية النشر

(١) راجع غنائية كومس وهذه العبارة من كلام الروح الحارس للأخوين .

(٢) سيأتي بيان ذلك عند الكلام على مقطوعته الشعرية التي وجهها إلى كرمول سنة ١٦٥٢ .

(٣) يقصد به مقال الأيروباجيتيكا .

(١) انظر الفصل التالي

بحملته على الرقابة ، وعن حرية الضمير بالطعن على البرسبتيريتز وعن حرية الأسرة بأنكار ما ينطوى عليه قانون الزواج من استبداد أو عن الحرية المدنية كما سنفصله فى حينه بإعلانه السخط على طغيان التاج …

ولكن بعض النقاد يردون ذلك إلى دوافع شخصية محاولين بذلك أن يبخسوه أعماله ، فيقولون إنه هاجم القساوسة لأنهم أبعدوه عن الكنيسة ، ويدافع عن حق إباحة الطلاق لما صادف فى زواجه من خيبة ، ويغضب على البرسبتيريتز وينعتهم بضيق العقل لأنهم لم يقروه على ما ذهب إليه فى أمر الطلاق ويدعو إلى حرية النشر لأنهم أرادوا أن يخنقوا كتبه …

وليس فى وسعنا أن ننكر تلك الدوافع الشخصية التى يشير إليها هؤلاء النقاد ، فإن شدة شعور ملتن بذاته من أبرز مقومات شخصيته منذ نشأته وأكثر تصرفاته إنما تتم بدافع من ذلك الشعور ، ما فى ذلك ريب ، ولكنا لا نفهم كيف ينتقص ذلك من قدره وكيف يعد عليه ولا يعد له ؟

هذا رجل يرى حياته وحياة غيره بالضرورة محفوفة بقيود من القانون والعرف ، فيأبى على القيد ويثور لا يريد أن يهدأ حتى يقضى على ما استرقّ الناس من عاداتهم ومما جرى به العرف بينهم ومما وضعت القوانين من الأغلال فى أعناقهم ، فماذا يدل عليه ذلك إن لم يدل على شخصية قوية ونفس أبية وضمير حر ؟

وهل جاهد ما جاهد فى غير عدو ؟ ألم يكن على حق فيما أنكر من عيوب عصره ؟ إن كانت تلك العيوب قائمة حقاً فلا يمكن أن يقال إن أهواءه ومطالب نفسه هى التى سيطرت على فكره ؛ فلا يبق إلا أن دوافع شخصية حركته وهذا إنما يدل على أنه أحس قبل أن يحس غيره بضرورة الإصلاح ، وأن الوضع الاجتماعى فى كماله المنشود إنما يقاس مبلغ كماله بمقدار ما فيه مما يشا كل كمال نفسه وتلك غاية تتخاذل دونها الغايات .

وهل كان يستطيع أن يغمض العين غير مساوىء عصره لو لم تحركه دوافع شخصية إلى استنكارها ؟ ذلك ما لا يستطيع أحد أن يقوله ، ولا هو مما يجوز فى عقل عاقل إلا على أوزاع الناس والهمج منهم ، ولقد كان ذلك الشاعر القوى الروح العظيم الثقافة مطبوعا على حب الحرية وعلى الجهر بما يؤمن أنه الحق ، ومن أجل ذلك كانت نفسه ثورة متصلة الحلقات منذ أن عصى أباه وهو صغير إذ أراد أن يسلكه فى سلك الدين بإلحاقه بالكنيسة وأبى إلا أن يهب للشعر نفسه ، ومنذ أن كان يتأبى على قيود عرفية فى الجامعة وينكر على الجامدين فيها جمودهم ، إلى أن جاهر الإيطاليين بمخالفته إياهم فى فطرتهم الدينية على الرغم مما حذّر به وليسوا قومه ، إلى أن آذن القساوسة فى وطنه بحرب منه ، كل أولئك لأن نفسه تأبى إقرار الباطل ولا ترضى بغير الحق …

ولا يسع كل منصف إلا القول بأن ما يشير إليه بعض الناس من دوافع شخصية إنما هو دليل على سلامة عنصره ونبل نفسه وسمو روحه .

(يتبع) **الخفيف**

من بواكير الطرائف :

سبط ابن التعاويذي

للأستاذ أحمد عثمان عبد المجيد

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله ، وينسب إلى ابن التعاويذى جده لأمه لأنه نشأ فى كنفه وحياطته ، وكان جده هذا زاهداً تقيا ومحدثاً صالحاً .

وقد ورث أبو الفتح عن جده الرغبة فى الدرس والتعلق بأسباب الثقافة ، فأقبل على النظر فى كتب اللغة والأدب ، يسعده طبع أصيل ، وتمده ملكة مرهفة ، حتى عرف بالبراعة فى الكتابة والحسابة ، وجلى فى ميدان الشعر ، فجمع فيه بين جزالة اللفظ وعذوبته ، ورقة المعنى ودقته . وفيه يقول ابن خلكان : إنه لم يكن قبله بمئتى سنة من يضاهيه . وكأنما خاف أن يتهم بالمبالغة والتزيد فأردف حكمه بقوله : ولا يؤاخذنى من يقف على هذا الفصل ، فإن ذلك يختلف بميل الطباع ، ولله در القائل : وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وقد تأثر أبو الفتح فى نثره طريقة ابن العميد القائمة على العناية بالتصنيع والتزيين ، وصرف الجهد إلى تكلف وجوه البديع

ولقد فتن كتاب الدواوين جميعاً بهذه الطريقة منذ أنهجها لهم أستاذهم ابن العميد ، وأغرقوا من بعده فى تصيد المحسنات ، فجنوا على المعنى ، وتحيفوا الفكرة رغبة فى تجويد الصورة وتجميلها فخرجوا على الناس حينا بنثر مرقش ليس وراءه كبير معنى ولا جليل غرض ، وحينا بنثر كز منقبض لا يفصح عن مراد ولا يهدى إلى قصد ، إذ جنى البديع عليه فأغمضه وأزال وضوحه وأوقع قارئه فى عمايه . وحسبك أن ترسل طرفك فى كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى للعماد الأصفهانى صديق سبط ابن التعاويذى لترى الغرابة والاستبهام والكزازة .

وقد أورد العماد فى كتابه خريدة القصر وجريدة العصر طائفة من الرسائل التى تلقاها من ابن التعاويذى ، وفيها يتحرى الطريقة البديعية ، ويلتزم نهجها

ولقد ولى الكتابة بديوان الإقطاع ببغداد لبراعته فى الحسابة والإنشاء ، وانقطع إلى آل الرفيل ، وكان ولاؤه فيهم ، يمدحهم ويستمنحهم ، وكانوا سادة ذوى نفوذ وسلطان ، وقد ولى الوزارة منهم عضد الدين أبو الفرج للخليفة المستضئ . وفيه يقول الفخرى : كان من أفاضل الناس وأعيانهم ، نهض بأعباء الوزارة نهوضاً مرضيا ، وتلطف بالأمور تلطفاً لم يكن فى حساب الناس وبيته بيت مشهور بالرياسة .

ويبدو أن ابن التعاويذى قد أنفق جل عمره مع آل الرفيل يحمد لهم إقبالهم على بره وإنعاشه . فإن أحس منهم إغفالا له واطراحا لما ألزمهم من حقه جاهر بلومهم والإنكار عليهم . وفيهم يقول :

قضيت شطر العمر فى مدحكم ظنا بكم أنكم أهله
وعدت أفنيه هجاء لكم فضاع فيكم عُمُرى كله

وهذا قول قاس ، يدل على أن شعراء المدح والاستمناح ما كان يردعهم عن التدلى إلى المجاهرة بالهجاء سالف معروف ، ولا سابق مبرة . وأنهم إن أعطوا منهم رضوا ، وإن لم يعطوا إذا هم يسخطون .

ولعل نهم ابن التعاويذى بالمال كان يدفعه إلى مدح غيرهم ، ولعلهم نقموا منه ذلك وأنكروه عليه لأنه إن دل على شىء فإنما يدل على أن صنائعهم إليه لا تنهض بحاجاته ، ولا تفى برغائبه . فقال يعتذر مسجلا فى صراحة أنه كخماص الطير تجتذبه الجدوى كما يقنصها الحب ، وهو بهذا يستفيد من قول المتقدم :

يسقط الطير حيث ينتثر الحب (م) وتغشى منازل الكرماء

قال :

وما زلت فى آل الرفيل بمعزل عن الجور مبذولا لى الخصب
فإن أقترف ذنبا بمدح سواهم فإن خماص الطير يقنصها الحب
وإن عاد لى عطف الوزير محمد
فقد أكثب النائى ، ولان لى الصعب
وزير إذا اعتل الزمان فرأيه يهناء به تطلى خلائقه الجرب

ولقد دفعته صلته بآل الرفيل إلى أن يناصب الوزير ابن البلدى العداء ، وأن يهجوه حين عزل أرباب الدواوين واشتد عليهم بالمصادرة والعقاب . وكان بين عضد الدين الرفيلى وابن البلدى

جفاء ما فتىء يتفاقم حتى حمل عضد الدين على أن يدبر لقتل الوزير وتم له ذلك، ووثب من بعده على الوزارة. وفى ابن البلدى يقول ابن التعاويذى:

يا قاصدا بغداد، حد عن بلدة   للجور فيها زخرة وعباب
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد   سدت على الراجى بها الأبواب
بادت وأهلوها معا، فبيوتهم   ببقاء مولانا الوزير خراب

وفيه يقول أيضاً: —

يا رب أشكو إليك ضرا   أنت على كشفه قدير
أليس صرنا إلى زمان   فيه أبو جعفر وزير؟

وما زال ابن التعاويذى قائما بالعمل فى ديوان الأقطاع حتى ذهب بصره، فاعتزله وله فى عماه أشعار كثيرة رثى بها عينيه ويندب الشباب ورونقه، فيستدر بها الإشفاق، ويستدعى أبلغ العطف وأعمقه. ومنها:

لقد رمتنى — رميت بالأذى —   بنكبة قاصمة الظهر
وأوترت فى مقلة، فلما   علمتها باتت على وتر
جوهرة كنت ضنينا بها   نفيسة القيمة والقدر
إن أنا لم أبك عليها دما   فضلا عن الدمع، فما عذرى؟
مالى لا أبكى على فقدها   بكاء خنساء على صخر؟

وأنت تتمثل فى هذه الأبيات حر اللوعة، ولذع الفاجعة فى الاعتراض بقوله رميت بالأذى، وفى الكناية عما كرثه بقوله قاصمة الظهر، وفى مغالاته بمقلته فلم تكن لتنام على وتر، وفى إنكاره أن يكون له عذر إن يبكها دما، ومنها:

فها أنا كالقبورى كسر منزلى   سواء صباحى عنده ومسائى
يرق ويبكى حاسدى لى رحمة   وبعداً لها من رقة وبكاء

وقد جاء فى عبارة ابن خلكان نعته إياه بالعمق فى معانيه.

وإليك أمثلة من براعته فى التوليد: قال فى الشيخوخة:

من شبه العمر بالكأس يرسو   قذاه، ويرسب فى أسفله
فإنى رأيت القذى طافيا   على صفحة الكأس من أوله

وقال فيها أيضا:

وعلو السن قد كسر (م) بالشيب   نشاطى
كيف سموه علوا   وهو أخذ فى انحطاط؟

وقال:

ولم أكره بياض الشيب إلا   لأن العيب يظهر فى النهار

***

ولما عمى التمس أن يقيد ماله من راتب بالديوان بأسماء أولاده ثقة منه بأن يجد فى ذراهم برا به ما امتدت له الحياة، وتعجيلا لسوق النفع إليهم، ورفعا لأسباب التباغض من بينهم. فلما تم النقل والتقييد كتب قصيدة ورفعها إلى الخليفة الناصر يلتمس فيها تجديد راتب له مدة حياته لما جر به من عقوق أولاده. وقد أبدع فيها تصوير عقوقهم، واحتجانهم الراتب من دونه، وإهمالهم أمره، وكان الناصر من أفاضل الخلفاء، بصيرا بليغا، متوقد الذكاء والفطنة، غير مدافع عن فضيلة علم، ولا نادرة فهم، يفاوض العلماء مفاوضة خبير، فلما وقف عليها ملكت نفسه لعذوبتها ورقتها، وما يثيره موضوعها من إشفاق ومرحمة، وما افتتحها به من مدح جميل، فأنعم عليه براتب جديد ومطلعها:

خليفة الله انت بالدين والدنيا (م)، وأمر الإسلام مضطلع

ومضى يمدح الخليفة بانتهاجه نهج أعلام الهدى، وما أفاضه على الناس من عدل وخير، وما أزاله من أسباب الخلاف والبدع، ثم قال:

أرضى قد أجدبت، وليس لمن   أجدب يوما سواك منتجع
ولى عيال، لا در درهم   قد أكلوا دهرهم، وما شبعوا
إذا رأونى ذا ثروة جلسوا   حولى، ومالوا إلى واجتمعوا
وطالما قطعوا حبالى إع (م) راضا إذا لم تكن معى قطع
يعشون حولى شتى كأنهم   عقارب، كلما سموا لسعوا

ثم قال:

لهم حلوق تفضى إلى معد   تحمل فى الأكل فوق ما تسع
من كل رحب المعاء، أجوف نا (م) رى الحشا لا يمسه شبع
لا يحسن المضغ فهو يطرح فى   فيه بلا كلفة ويبتلع
ولى حديث يلهى ويعجب من   يوسع لى خلقه فيستمع
نقلت رسمى جهلا إلى ولد   لست بهم ما حييت أنتفع
نظرت فى نفعهم وما أنا فى اجـ   ـتلاب نفع الأولاد مبتدع
وقلت هذا بعدى يكون لكم   فما أطاعوا أمرى ولا سمعوا
واختلسوه منى، فما تركوا   عينى عليه، ولا يدى تقع

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٨٤٨ — الفقير والغني

أبو بكر الخوارزمي :

إن الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفك الرقبة من كل رق ، لا يلزمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات ، ولا يستبطئه إخوانه ، ولا تطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر في الفطر صدقته ، ولا في النحر أضحيته[1] ، ولا في شهر رمضان مائدته ، ولا في الربيع باكورته ، ولا في الخريف فاكهته ، ولا في وقت الجباية خراجه وعشره ، فانما هو مسجد يحمل إليه ، ولا يحمل عليه ، وعلوى يؤخذ بيديه ، ولا يؤخذ من يديه ، يتجنبه الشرطي بالنهار ، ويتوقاه العسس بالليل وفي الأسحار ، فهو إما غانم أو سالم . والغني إنما هو كالغنم غنيمة كل يد سالبة ، وصيد كل نفس طالبة ، وطبق موضوع على شارعة النوائب ، ومنصوب على مدرجة المطالب ، تطمع فيه الاخوان ، ويأخذ منه السلطان ، ويتطرق إليه الحدثان ، ويتحيف ماله النقصان …

(١) الاضحيه : ضم الهمز في الأكثر وكسرها إتباعا لكسرة الحاء (المصباح) .

٨٤٩ — العقل

شرح (أدب الكتاب) لموهوب الجواليقي :

… عن محمد بن المرزبان عن شيخ له قال : قال الاصمعي : كانت العرب تقول : من كانت فيه خصلة أحمد من عقله فبالحرى أن تكون سبب هلاكه .

فحفظت الحديث ، فحدثت به المدائني ، فقال : هذا حديث حسن ، وعندي آخر يشبهه ، كانت العرب تقول : من لم يكن عقله من أكل ما فيه ، كان هلاكه من أيسر ما فيه .

ثم قال :

فاستأنفوا لي ربما أعود على ضنك معاشي به فيتسع
وإن زعمتم أني أتيت بها خديعة فالكريم ينخدع
ولا تطيلوا معى ، فلست ولو دفعتموني بالراح أندفع
وحلفوني ألا تعود يدى ترفع في نقله ولا تضع

يقول ابن خلكان : فما ألطف ما توصل به إلى بلوغ مقصوده بهذه الأبيات التي لو مرت بالجماد لاستمالته وعطفته .

وبعد فان في هذه القصيدة الطريفة ائتلافا واضحا ، ورقة وانسجاما ، وتصويراً بارعا للعقوق يهز النفس ألما وحزنا ، ويعزق القلب أسى وحسرة . وإن الدنيا لحافلة في تصرفها بالناس بأشباه هذا الحادث .

فإن قيل إن الشاعر قد نحل أبناءه هذا العقوق ليملك من نفس الخليفة ، ويضمن انخداعه ، والكريم ينخدع ، فيرجع براتب آخر — قلت : لقد جلا عن قدرته على التمويه ، وبرع مع تعود الاعتقاد عن مناصرته ، وشعور الشاعر بأنه يترجم عن اعتقاد من أقوى أسباب إجادته وإتقانه .

وقد أذكرني موقف أبناء ابن التعاويذي منه بما قرأته عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان من أبر الناس بأمه فقد قيل له : إنك لشديد البر بأمك ، فلم لا تأكل معها من صحفة واحدة ؟ قال : أخاف أن تسبق يدى إلى ما سبقت إليه عينها فأكون قد عققتها . فأين هذا البر من ذاك العقوق ؟

رحم الله آل البيت ، فما كانوا في الناس إلا أقباساً ساطعة من نور النبي الأعظم .

وفي الشاعر يقول ياقوت : وكل شعره غرر ، وديوانه كبير جمعه بنفسه قبل أن يضر ، وما حدث من شعره بعد العمى سماه الزيادات . وولد سنة ٥١٩ ، وتوفى في بغداد سنة ٥٨٣ هـ وقد طبع الديوان بمصر في مفتتح هذا القرن بعناية الأستاذ مرجليوث ، ولكنه اليوم عزيز لا يكاد يكون في دكاكين الوراقين

أحمد عثمان عبد المجيد

فحفظت الحديثين ، فحدثت بهما أحمد بن يوسف فقال : هذان حديثان حسنان ، وعندى آخر يشبههما : كانت العرب تقول : من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان سريعا إلى حتفه .

فحفظت الأحاديث ، فحدثت بها أبا داف فقال : هذه أحاديث حسان ، وعندى حديث أحسن منها غير أنه لا يشبهها ، كانت العرب تقول : كل شىء إذا كثر رخص إلا العقل فإنه إذا كثر غلا .

فحفظت الأحاديث فحدثت بها الحسين بن على السكوكبى فقال : كان الحسن يقول : ما تم دين رجل حتى يتم عقله .

وبعد ، فقد قال ابن السماك : من لم يتحرز من عقله بعقله هلك من قبل عقله .

٨٥٠ — العاقل يعلو على همه وحزنه

إرشاد الأريب : قال أبو حيان :

كان يختلف إلى مجلس أبى سعيد (السيرافى) على بن المستنير ، وكان أبو سعيد يعرف له تقدمه على كثير من أصحابه ، وكان يرجع إلى وطأة خلق ، وحسن عشرة ، وحلاوة كلام ، وفقر مدقع ومعيشة ضيقة وكثرة عيال ومؤنة مع نشاط القلب ، وثبات النفس ، وطلاقة الوجه ، وكثرة المرح . وقرأ يوما على أبى سعيد ديوان الرقش ، وأخذ خطه بذلك ، وعجل الانصراف من عنده ، فقال أبو سعيد : أين عزمت ؟ قال : أذهب لأصلح أمر العيال . فدعا له بالرزق والسعة . فلما انصرف قلنا له : هذا الرجل مع ما هو فيه لا يعرف الحزن فى وجهه ، ولا يشتد همه ، ويقدر على دفعه . فالتفت بعضهم فقال : أيها الشيخ ، وراءه حال يخفيها عنا ، ويطويها منا[1] .

قال (أبو سعيد) :

ما أظن الأمر على ذلك ، لكن الرجل عاقل ، والعاقل يعلو على همه وحزنه فيقهرهما بعقله وعلمه ، والجاهل يشتد همه وحزنه ، ويرى ذلك فى وجهه ، ولا يقدر على دفعه لجهله .

فاستحسنا ذلك وأثبتناه .

(١) قالوا : خنى عليه وطواه عنه فالتعديتان مولدتان .

٨٥١ — أوادم

فى (اللزوميات) :

وما آدم فى مذهب العقل واحدا ولكنه عند القياس أوادم

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم

فى (روح المعانى) تفسير الألوسى :

ذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية فى الفصل الخامس عشر أن الله خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم ، بين كل آدم وآدم ألف سنة ، وأن الدنيا بقيت خرابا بعدهم خمسين ألف سنة ، ثم عمرت خمسين ألف سنة ، ثم خلق آدم .

وروى ابن بابويه فى كتاب التوحيد عن الصادق : لعلك ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم ، بلى والله لقد خلق ألف ألف آدم ، أنتم فى آخر أولئك الآدميين .

فى (مفاتيح الغيب) تفسير الرازى :

نقل فى كتب الشيعة عن محمد بن على الباقر عليه السلام أنه قال : قد انقضى قبل آدم الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر .

فى (الفتوحات المكية) لابن عربى :

لقد أرانى فيما يرى النائم وأنا طائف بالكعبة مع قوم من الناس لا أعرفهم بوجوههم ، فأنشدنى بيتين ثبت على البيت الواحد ، ومضى عنى الآخر ، فكان الذى ثبت على من ذلك :

لقد طفنا كما طفتم سنينا بهذا البيت طرا أجمعينا

فتعجبت من ذلك . فقال لى واحد منهم وتسمى لى باسم لا أعرف ذلك الاسم قال لى : أنا من أجدادك ، قلت له كم لك مذمت ؟ قال : بضع وأربعون ألف سنة[1] . فقلت له : فما لآدم هذا القدر من السنين . فقال لى : عن أى آدم تقول ؟ عن هذا الأقرب إليك أو عن غيره . فتذكرت حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله خلق مئة ألف آدم[2] . فقلت قد يكون ذلك الجد الذى نسبنى إليه من أولئك .

(١) الألف مذكر ، فى التاج : يذكر البضع مع المؤنث ويؤنث مع المذكر يقال بضعة وعشرون رجلا وبضع وعشرون امرأة ولا يعكس وفى المصباح : يستوى فيه المذكر والمؤنث فيقال بضع رجال وبضع نسوة .

(٢) نحن فى (نقل الأديب) لا فى (الاسلام الصحيح) وإنها لطرائف أرويها لا حقائق أوحيها أى أكتبها

٨٥٢ – الحوائج بين امامين

فى (المخصص) لابن سيده :

قال محمد بن يزيد[١] : (أما قولهم فى حاجة حوائج فليس من كلام العرب على كثرته على ألسن المولدين ، ولا قياس له) وهو فى هذا القول متبع الاصمعى لأن الاصمعى قال : خرجت الحوائج عن القياس فردها ، وقد غلطا معا ، على أن الاصمعى رجع عن هذا القول فيما حكى عنه ابن أخيه والرياشى ، وذكرا أنه قال : هى جمع حائجة . وقال أبو عمرو : فى نفسى منه حاجة وحائجة وحوجاء والجمع حاجات وحوائج وحاج وحوج وأنشد :

صديق مدام ما يفرق بيننا حوائج من إلفاج مال ولا بخل[٢]

وأنشد أبو عبيدة للشماخ :

تقطع بيننا الحاجات إلا حوائج يعتسفن مدى الجرى[٣]

وأنشد غيره فى نحو منه :

يا رب رب القلاص النواعج مستعجلات بذوى الحوائج

ولو تشاغل أبو العباس بملح الأشعار ونتف الأخبار وما يعرفه من النحو كان خيرا له من القطع على كلام العرب ، وأن يقول : ليس هذا من كلامهم . فلهذا رجال غيره ، وياليتهم يسلمون أيضا[٤] .

٨٥٣ – أن أمالت على عطفا وجيدا

الطغرائى :

خبروها أنى مرضت فقالت أضنى طارفا شكا أم تليدا[٥]

وأشاروا بأن تعود وسادى فأبت – وهى تشتهى – أن تعودا

وأتتنى فى خيفة وهى تشكو ألم الوجد والمزار البعيدا[٦]

(١) المبرد وقد ورد قوله فى (كامله) فى شرح بيت الراعى .

(٢) ألفج الرجل أفلس

(٣) الجرى : الرسول .

(٤) يقول الحريرى فى الدرة : ويقولون فى جمع حاجة حوائج فيوهمون فيه كما وهم بعض المحدثين فى قوله :

إذا ما دخلت الدار يوماً ورفعت ستورك لى فانظر بما أنا خارج
فسيان بيت العنكبوت وجوسق رفيع إذا لم تقض فيه الحوائج

الجوسق : القصر والحوائج كما قال ابن سيده .

(٥) رواها الصفدي فى شرح اللامية ثم قال : هذه الأبيات يرشفها السمع مداما ، ويفضلها السامع على العقود نظاماً ، ويظن الناظر ألفاتها غصوناً والهمزات عليها حماما .

(٦) الرواية (فى خيفة) وربما كانت فى (خفية) بكسر الخاء وضمها.

ورأتنى كذا فلم تتمالك أن أمالت على عطفا وجيدا

٨٥٤ – أعمى ، ومفلوج ، وأقطع

اجتمع على شراب فى بعض الحانات أعمى ومفلوج وأقطع[١]

فقيل للأعمى : غن ، فغنى :

إنى رأيت عشية النفر حورا نفين عزيمة الصبر[٢]

فقيل : ويلك كيف رأيت وأنت أعمى؟ وقيل للمفلوج : غن فقال :

إذا اشتد شوقى وهاج الألم عدوت على بابكم فى الظلم

فقيل : مفلوج يعدو ! لا تكذب . وقيل للأقطع : هات غن ، فقال :

شبكت كفى على رأسى وقلت له ياراهب الدير هل مرت بك الإبل

فقالوا : أنت أكذبنا وأجودنا غناء ...

٨٥٥ – وما يفيدنى إذا حزنت ؟

إرشاد الأريب : عبدالوهاب بن غالب عن الشريف أبى العلاء ابن التقى قال : قدم إلى واسط فى بعض الأعوام عسكر الأعاجم ، فنهبوا قطعة من البلد ، ونهبوا دكان الشيخ أبى على بن مختار ، ونزلوا بداره ، قال الشريف فدخلت معه إليهم نستعطفهم أن يردوا عليه بعض ما أخذوه منه ، فلم نر لذلك وجهاً ، وخرجنا وهو يقول :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

ثم التفت إلى فقال : ما العامل فى الظرف فى هذا البيت[١]؟

فقلت له : ياسيدى ، ماشغلك ما أنت فيه عن النحو والنظر فيه ؟

فقال : يا بنى ، وما يفيدنى إذا حزنت ؟ ..

(١) الأقطع : المقطوع اليد والجمع قطع وقطعان مثل أسود وسودان (اللسان)

(٢) النفر : التفرق . فى المصباح : نفر الحاج من منى دفعوا ، وللحاج نفران فالأول هو اليوم الثانى من أيام التشريق ، والنفر الثانى هو اليوم الثالث منها . وأيام التشريق ثلاثة وهى بعد يوم النحر ، قيل سميت بذلك لأن لحوم الأضاحى تشرق فيها أى تقدد فى الشرقة وهي الشمس ، وقيل تشريقها تقطيعها وتشريحها

(٣) فى شرح العكبري : ما بين العذيب مفعول تذكرت ، ومجر بدل منه بدل اشتمال ، ويجوز أن يكون ظرفا للتذكر . وفى الشرح الذى رجع فيه البرقوقي إلى الواحدى وغيره : مابين لك أن تجعله ظرفا لتذكرت ومجر بدل اشتمال كأنه قال مجر عوالينا فيه ، ولك أن تجعل ما زائدة وبين العذيب ظرفا لمجر .

والبيت مطلع سيفية يقول فيها أبو الطيب :

وما الحسن فى وجه الفتى شرفا له إذا لم يكن فى فعله والخلائق
وما بلد الانسان غير الموافق ولا أهله الا دنون غير الأصادق
وجائزة دعوى المحبة والهوى وإن كان لا يخفى كلام المنافق

حول كتب الوفيات :

عود على بدء (*)

للأستاذ أحمد الشرباصي

كنت قد نبهت أخي الأديب الأستاذ وديع فلسطين على صفحات مجلة « الرسالة » الغراء إلى أن كتاب « وفيات الأعيان » ليس كما يظن ويقول — كتاباً مقصوراً على ذكر وفيات المشهورين من الرجال ، بل هو كتاب تاريخ جامع ، فيه أخبار وأشعار ، وحوادث وقصص ؛ ولما نشرت هذه الكلمة لقيني أخي الأستاذ علي محمد حسن المدرس بالأزهر الشريف فحادثني عن هذه الكلمة ، ثم ذكر لي أنه سمع بأن هناك كتاباً اسمه « وفيات الأعيان » غير كتاب ابن خلكان ، وقد اقتصر صاحبه على ذكر وفيات من عرف من الرجال ، وأن هذا الكتاب موجود بدار الكتب المصرية بالقاهرة ... !

شغلني هذا الموضوع ، فعجلت بالذهاب إلى الدار ، وأخذت أراجع فهارس كتبها المخطوطة والمطبوعة لأستنبئها عما فيها من كتب تسمى بالإسم المذكور أو تقاربه ؛ فوجدت فيها كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، وهو أشهر من أن يعرّف ؛ ووجدت فيها كتاب « فوات الوفيات » لمحمد بن شاكر بن أحمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ؛ وهو كتاب متوسط ، يقع في مجلدين ، مطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق ، في عهد الخديوي إسماعيل باشا سنة ١٢٨٣ هـ ؛ وأنتهز هذه الفرصة لأقول إن هذه الطبعة مملوءة بالتحريفات والتصحيفات والأخطاء المطبعية مما تقذى منه العين ، ويضج له المطالع ، على الرغم من أن الطابع أحصى في أول كل مجلد منهما جانباً كبيراً جداً من الأخطاء والغلطات المهمات ، وترك الباقي لفطنة القارئ الأديب اللبيب كما يقول ... ! (١)

وكتاب الوفيات للكتبي يعتبر كتذييل أو تتميم لوفيات ابن خلكان ؛ وقد أوجز المؤلف عمله في كتابه ، ومجهوده في مؤلفه في المقدمة الطويلة التي قال فيها بعد البسملة والحمدلة والصلاة على الرسول والآل :

« وبعد ، فإن علم التاريخ مرآة الزمان لمن تدبر ، ومشكاة أنوار يطلع بها على تجارب الأمم من أمعن النظر وتفكر ، وكنت ممن أكثر لكتبه المطالعة ، واستجلى من فوائده المراجعة ، فلما وقفت على كتاب (وفيات الأعيان) لقاضي القضاة ابن خلكان قدس الله روحه — وجدته من أحسنها وضعاً ، لما اشتمل عليه من الفوائد الغزيرة ، والمحاسن الكثيرة ، غير أنه لم يذكر أحداً من الخلفاء ، ورأيته قد أخل بتراجم فضلاء زمانه ، وجماعة ممن تقدم على أوانه ، ولم أعلم أذلك ذهول عنهم ، أم لم يقع له ترجمة أحد منهم ، فأحببت أن أجمع كتاباً يتضمن ذكر من لم يذكره من الأئمة الخلفاء ، والسادة الفضلاء ، وأذيل من وفاته إلى الآن ، فاستخرت الله تعالى ، فانشرح لذلك صدري وتوكلت عليه وفوضت إليه أمري ، وسميته بـ « فوات الوفيات » ؛ والله تعالى المسئول أن يوفق في القول والعمل . وأن يتجاوز عن هفوات الخطأ والزلل » .

ثم أخذت أقلب بين يدي صفحات « الفوات » فإذا أنا أقع في نهايته على نص مهم لمصححه الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني ، إذ أن هذا النص قد تحدث عن كثير من الكتب التي ألفت في الوفيات كتذييل لكتب سابقة أو تعليق على مؤلفات متقدمة ، وقد كفاني هذا النص مئونة البحث والتنقيب عما تحدث عنه من كتب ؛ قال :

« واعلم أن الوفيات قد اشتمل على ٨٤٦ ترجمة ، وذيل عليه عبد الباقي المخزومي المكي المتوفى سنة ٨٤٣ ؛ كما تقدم في هذا الكتاب ؛ بنحو ثلاثين ترجمة ؛ وكذا ذيل حسن بن أيبك المتوفى بالتاريخ المذكور ؛ وذيل عليه عبد الباقي الشيخ زين الدين عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ ؛ وأما هذا الفوات فإنه اشتمل على ٥٧٢ ترجمة ، منها نحو ست تراجم أو سبعة مذكورة في الوفيات فليست من الفوات كما يعرفه من استقصى فهارس الكتابين ؛ وأما كتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي الذي انتهى فيه إلى آخره سنة ٧٦٠ قبل وفاته بأربع سنين فإني كنت أتوهم أنه ذيل آخر للوفيات غير موجود بمصر ، حتى كتبت ذلك ببعض الهوامش بناء على هذا التوهم ، إلى أن رأيت

(*) انظر العدد ٦٨١ .

(١) الأمن طبعة حديثة مصححة لذلك الكتاب الجليل ؟ .

فى كشف الظنون أنه كتاب حافل جمع فيه تراجم الأعيان ونجباء الزمان ، ممن وقع عليه اختياره ، فلم يغادر أحداً من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعمال والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والأولياء والصلحاء والنحاة والأدباء والشعراء والأطباء والحكماء وأصحاب الملل والنحل والبدع والآراء وأعيان كل فن ممن اشتهر أو أتقن إلا ذكره ؛ إلى أن قال فى (الكشف) : فازداد النفع به للمحدث والأديب » ! .

وظاهر من عبارة الشيخ نصر الهوريني أن هذه الكتب التى ذكرها ليست مقصورة على ذكر « وفيات » فقط ؛ أما فيما يتعلق بكتاب الصفدى فواضح بعد ما عرفناه من حديث كشف الظنون عنه ؛ وأما فيما يتعلق بالكتب الباقية فلأنها تذييل لوفيات الأعيان ، فتكون على طريقته : وقد عرفنا من قبل طريقة ابن خلكان فى الترجمة والتاريخ .

فلنواصل البحث إذن فى فهارس الدار ، علنا نجد ذلك الكتاب الذى سمع به ذلك الزميل ... ! هأنذا أجد أخيراً كتاباً اسمه « الوفيات » لمن يسمى تقى الدين محمد بن هجرس بن رافع المولود سنة ٧٠٤ هـ ؛ فلعله الكتاب المنشود ، ولعلى أفوز بعد طول العناء بالمقصود ...

طلبت الكتاب للاطلاع عليه فى قاعة المطالعة بالدار (وهو مخطوط) فلم أوفق لتحقيق ذلك ، لأن المشرفين على دار الكتب فى هذا الميدان لا يحسنون معاملة المطالعين ، فتارة يقال لى : وضح الجزء المطلوب ! . وتارة يقال لى : إن الكتاب لدى حضرات موظفى الدار ! . وتارة يقال لى إن الكتاب فى الخارج ... ! وأخيراً قيل لى بعد أن استعنت بموظف فى الدار : إنه موجود فى المنارة ... !

فلم أجد أمامى إلا أن أعود إلى الفهرس المفصل المطبوع ، على أجد فيه تلخيصاً لطريقة الكتاب ؛ وفعلا وجدت هذا التلخيص ، وقد جاء فيه ، تحت عنوان : « الوفيات » برقم (١٢٦م) ما يلى :

« تأليف تقى الدين محمد بن هجرس بن رافع ، المولود فى شهر ذى القعدة سنة ٧٠٤ هـ ، المتوفى فى اليوم الثانى عشر من شهر جمادى الأولى ، وقيل فى اليوم الرابع عشر من جمادى الآخرة من السنة المتقدمة (؟) [١] بدمشق ؛ وهو ذيل على تاريخ الحافظ أبى محمد القاسم بن محمد بن يوسف الملقب علم الدين البرزالى الشافعى الدمشقى المولود فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٦٥ هـ فى العشر الأخيرة من ذى القعدة ، أو فى اليوم الرابع من شهر ذى الحجة سنة ٧٣٩ هـ حينما كان محرماً بالحج ... انتهى البرزالى فى تاريخه إلى آخر سنة ٧٣٦ هـ وابتدأ المؤلف ذيله من سنة ٧٣٧ وانتهى فيه إلى سنة ٧٧٣هـ ، وفى آخره ترجمة الفيروزابادى وترجمة تمربغا ، نقلا عن المورد الصافى ، لابن تغرى بردى ؛ نسخة من مجلد ، مخطوطة ، بقلم معتاد ، منقولة من خط الحافظ الشهير بابن ناصر الدين ، وقوبلت عليه » ... !

إذن ليس هذا الكتاب أيضاً مقصوراً على ذكر الوفيات ، بل فيه تراجم وتواريخ ؛ وقد وقفت فهارس الدار التى بين يدى عند هذ الحد ، فأين إذن ذلك الكتاب الذى سمع به ذلك الصديق ، والذى يؤكد وجوده ويقول إنه لم يذكر فيه إلا وفيات الأعيان من الرجال ؟ ... « وفوق كل ذى علم عليم » ؛ ولذلك رأيت أن أكتب هذه الكلمة على صفحات الرسالة الغراء علّه يوجد بين قرائها من يعرف شيئا عن هذا الكتاب المنشود ، فينبئنا بخبره ، ويقص علينا طرفاً من أمره ، والحقيقة بنت البحث .

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

---

(١) هكذا فى الأصل ، ولم تسبق سنة الوفاة ، وإنما السابقة سنة الميلاد ، ولعله سهو .

صفحة مطوية من الأناشيد القومية :

أذكروا ...

للأستاذ عبد الرحمن صدقى

يا بنى النيل وأحفاد الأُولى
أطلعوا الفجر على الكون القديمْ
رفعوا الأهرام رمزاً للعُلا والبرايا فى كهوفٍ وهشيم

***

أذكروا أن ترى هذا البلدْ من تجاليد الجدود العُظَماء
لا تطأْها أرجل العادى الألَدّ وبكم أبناءهم بعضُ الدّماء
تُربُها التبرُ المصفّى المنتقد
لا الذى يقتنى الشحاحُ الأدنياء
فامنعوا كنزكم أن يُبذلا أو فعيشوا عمركم عيش عديم
لن تروا فى الأرض عنه بدلا مالكم كنزٌ سوى هذا الأديم

***

أذكروا أنّ عليكم واجباً لِبنينا فى بطون العُصُر
فاحفظوا هذا التراث الواصبا فهو حقُّ الوارثِ المنتظَر
نتقاضى الإرثَ عصراً ذاهباً فلنصنْه للعصور الأُخر
سنؤديه إليهم أكملا لم يغيّره زمانٌ أو خصيم
لحِمى مصرَ تحاماه البِلى وبنوها خيرُ من يحمى الحريم

***

أذكروا حاضركم كيف يُقام ليس يُغنينا تليدُ القدماء
ما التماثيل المهيبات الجسام وأبو الهول رهينُ الصحراء!
ما المسلاتُ على باب الرِّجام والنواويسُ وفيها الموماء!
ما عظيمٌ فى التواريخ خلا فى ثنايا حاضرٍ غيرِ عظيم
فاجعلوا عهد العلا متّصلا كاتساق الدُّرِّ فى العِقدِ النظيم

***

أذكروا مهما بلغتم سؤددا أنكم لم تبلُغوا أوْجَ الكمال
أبعِدوا فوقَ المنالِ المقصِدا فبنو الشمسِ لهم أقصى المنال
كم عبدنا قرصَها المتّقِدا فاتقدنا فى جهادٍ و نضال
نبتنى الهيكل يتلو الهيكلا خالداً فى ساحة الرمل مقيم
وسيبقى موطن الشمس إلى يوم لا يبقى لها قرصٌ ضريم

***

أذكروا أن التفانى والغِلابْ فى سبيل المثلِ الأعلى البعيد
نفثا فيكم وأنتم من تراب شُعلةً غراء من معنى الخلود
شعلة تجلو عن الحق الحجاب
وتصفّى النفس من رجسِ الوجود
فاضرِموا فى النفس هذى الشُعلا
أضرِموها تكفلوا الفوزَ العميم
مثلما أُضرِمت النارُ على مذبح الربِّ بمحراب كريم

***

أذكروا ذلك وامضوا قُدُما لا نكن وجهتنا غيرَ الأمام
تزدهينا دقّةُ القلبِ كما يُقرَعُ الطبلُ لجرّارٍ لُهام
فنسيغُ الموت صوناً للحِمى
ونذيلُ العمرَ سعياً واعتِزام
فبحقٍ نحن أحفادُ الأُلى
أطلعوا الفجر على الكونِ القديم
رفعوا الأهرامَ رمزاً للعُلا لا يدانى شأوه غير النجوم



وفاة الكاتب الانجليزي ه . ج ويلز :

توفى بعد ظهر اليوم الثالث عشر من أغسطس الكاتب الانجليزى الألمعى ه . ج ويلز عن ٧٩ عاما قضاها فى خدمة الفكر البشرى يفكر للقادة ويكتب للناس ويعمل للأدب ، ويكشف لركب الخليقة مجاهل الطريق ومعامى المستقبل ؛ حتى أضاف للثروة الأدبية العالمية محصولا من الانتاج الممتاز فى السياسة والتاريخ والقصص يتسم بالبحث العميق والنظر البعيد والألمعية الصادقة . نشأ ويلز نشأة متواضعة وكان بعد أن ترك المدرسة صبياً بتاجر أقمشة ثم مساعد الصيدلى ثم وكيلا لاحدى المدارس الأهلية . وكان من أوفر كتاب عصره إنتاجاً وأذيعهم شهرة وأكثرهم قراء حتى بيع من كتابه (معالم التاريخ) مليون ونصف مليون نسخة . وقد انتابه فى سنينه الأخيرة مرض الديابيطس واعتراه ضرب من الهم على مصير العالم ومستقبل السلام . وقد تنبأ بالقنبلة الذرية فى كتابه الذى أصدره فى عام ١٩١٤ بعنوان (العالم صار حراً) ، وقد عاش حتى رآها تخرب المدن وتهدد الحضارة . وفى بعض أعداد الرسالة من هذه السنة فصل عن أدبه يفيدك أن ترجع إليه .

معجم ألفاظ القرآن الكريم :

ألفت لجنة من بعض أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية لوضع معجم لألفاظ القرآن الكريم مفسرة تفسيراً يجمع بين الدقة والوضوح ، واللجنة مؤلفة من فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر والدكتور حسين هيكل باشا وعلى الجارم بك والشيخ محمد الخضر حسين والشيخ ابراهيم حمروش . وقد اختار هؤلاء الأعضاء مساعدين لهم من بين المشتغلين باللغة والأدب من أساتذة الجامعة ودار العلوم والأزهر ، ومحررى المجمع .

مطبوعات المجمع اللغوي :

وافقت الجهات المختصة على صرف كميات من الورق لمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، وسيشرع المجمع فى طبع مجلته ومجموعات محاضره التى تعطلت عن الظهور منذ عام ١٩٣٩ .

ومما يذكر أن المجمع لم يصدر من مجلته إلا أربعة أجزاء ولم يصدر من محاضر مؤتمراته إلا أربع دورات مع أنه أتم الآن اثنتى عشرة دورة .

وقد أعد المجمع فعلا الجزء الخامس من المجلة وينتظر أن يصدر فى أول السنة المقبلة .

علم الاجتماع الديني :

« قل ما شئت من خير فى الأدب العربى الحديث ، وسمه كيف شئت . فهو أدب عالى ، وهو أدب حىّ . وإنك لتجد فيه شعراً غزير المادة وخيالا خصباً فى عنفه ولطفه ، وإنك لتجد فيه قصصاً جذابة صادقة الاحساس جميلة التصوير .

« ولك أن تطلق على ثقافتنا ما يروقك من النعوت . ولك أن تحلى جيدها بما يعجبك من جميل الألقاب . فإنك لتقرأ فيها من الانتقاد دقيقه وتصيب من الفن جليله .

« لك ما تشاء ، ولكن ، ناشدتك المولى ، لا تنعت أدبنا الفكرىّ ولا ثقافتنا بالعلمية . لأنك لا تجد فى أدبنا تفكيراً بحتاً ولا فى ثقافتنا علماً صرفاً . ولست بهاضم لحقوقهما إذا قلت أن أضعف ما فيهما التفكير وأقوى ما فيهما الخيال » .

بهذا التصوير قدّم الأديب السورىّ الأستاذ يوسف باسيل شلحت كتابه « علم الاجتماع الدينى » ويتحدث فيه عن أكثر الأديان بدائية عند الجلف المتخلفين من قطان استراليا والقبائل المتأخرة فى بقاع العالم . وهى مقدمة أحسب أن فيها تجنياً كبيراً على الأدب العربى وليس أدلّ على ذلك من أن المؤلف ذيّل كتابه بقائمة مراجع عربية للأساتذة الدكتور هيكل باشا ونقولا الحداد وجرجى زيدان والريحانى وسواهم ممن كتبوا كتباً علمية نفيسة ، فضلا عن أنه أشار فى مستهل كتابه إلى مؤلفىْ الدكتور

على عبد الواحد وافى فى علم الاجتماع وهما كتابان خيّران ، وإلى باقى مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية .

وكتب الأستاذ شلحت توطئة عن علم الاجتماع انتقل إثرها إلى البحث عن تعريف « للديانة » فلم يضع لنا تعريفاً شاملا ، بل أشار إشارات عابرة إلى تعريفات وضعهـا بعض فلاسفة الفرنسيين والألمانيين ومعظمها سطحى . وهناك تعريف للديانة لم يشر إليه الأستاذ شلحت وقد أورده الأستاذ رايت W.K. wright فى كتابه « فلسفة الأديان » وهو : « إن الدين محاولة لاحراز القيم الاجتماعية المعترف بها وصيانتها عن طريق أداء أفعال معينة يُقصد بها الاستعانة بوسيط معين يختلف عن الذات الشخصية للفرد ، وعن جميع الكائنات البشرية ، مع الشعور بالاعتماد على هذا الوسيط » .

وأعتقد أن هذا التعريف أشمل ما وُضع ، لأنه يستطيع أن يحتضن معظم الأديان المعروفة ، فطرية وحضرية . ولا ريب فى أن التواضع على تعريف معين أمر غير يسير ، وقد أصاب الأستاذ سيلرز Sellers عند ما قال : « إن معظم الأشياء الفائقة القيمة يصعب تعريفها على حدٍ سواء » .

وكتاب « علم الاجتماع الدينى » من الروّاد فى هذا الباب ، ويكاد يكون أشمل كتاب صادفنى باللغة العربية فى علم فلسفة الأديان . غير أن المؤلف لم يُشر إلى الديانات البدائية سوى إشارة خاطفة ، وقصر معظم كلامه على الحديث عن « الطوتمية[1] » .

وكنا نودّ أن يفيض فى البحث فى الأديان الأخرى المميّزة عن شؤون الحياة « كالتودا » و« الباجاندا » و « الفيـدا » و « المانا » لأن الاشارة الخاطفة إلى بعضها لا تكفى فى مثل هذا البحث .

وختم الأستاذ شلحت كتابه بفصل رائع عن مستقبل الديانات قال فيه « إن الديانة لن تظل على ما كانت عليه فى الأعصر الأولى تقيّد حركة الأفراد وتمنع عنهم سبل التفكير الحرّ . فان التطور الدينىّ يحملنا على الاعتقاد أن العقول متجهة إلى التخفيف من نير رجال الدين عن رقاب العباد وإلى التقليل من هول الدين فى أعين الناس » . ولست أذهب إلى الاتفاق معه على هذا الرأى

(1) Totemisme . وأوثر أن تكتب « الطوطمية » وحبذا لو قرأ المؤلف مقالا فى المقتطف فى عدد فبراير ١٩٤٦ ء « الأديان البدائية »

ولكنى أرى أن الانسان متى أقلع عن الاثم لأنه إثم لا لأن الدين يحضه على ذلك ؛ وإذا فعل الخير لأنه يرى أنه خير لا لأن الدين يحثه على ذلك ، أصبح الانسان فى حالة دينية سامية ، لأنه بتصرفه ذلك يجعل الدين جزءاً من حياته اليومية ، شائعاً فى جنبات روحه حتى ليمحى الفصل بين روح المرء ودينه . أما التظاهر بالتدين والتباهى بالقداسة وممارسة الفرائض الدينية بطرق آلية ، فهذا امتهان للدين أكثر منه إكراماً له .

وديع فلسطين

تصويب :

جاء فى مقال (شريعة الكمال والخلود) المنشور بالعددين ٦٨١ ، ٦٨٢ من « الرسالة » بعض الأخطاء المطبعية نصححها فيما يلى :

الوذيلة = المرأة	وصحتها : الوذيلة المرآة
توهموا	وصحتها : توهمهم
ولا ريب	وصحتها : لا ريب
ولدحض هذه الحجة	وصحتها : ولادحاض



قصة من الأدب الروسى الرفيع :

الملاك ...

للفيلسوف الروسى الكبير لوى تولستوى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

— ٣ —

طفقت المرأة تحدثهم بقصة هاتين الطفلتين ... وقد شاع الحزن فى صوتها ، وارتسم الألم على جبينها فقالت : » إنها لقصة فاجعة ... ! لقد قضى أبوهما يوم الثلاثاء ، ولحقت به أمهما يوم الجمعة بعد أن وضعتهما ... وكنت أنا وزوجى نعيش ككل الفلاحين فى بساطة عيش ودقة حال ، وكانت دارنا مجاورة لدارهم. لقد مات أبوهما وكان يقطع الأخشاب فى الغابة تحت جذع شجرة هوت عليه من حالق ، فـهمته وفاضت روحه قبل أن يبلغوا به الدار

وبعد ثلاثة أيام . وضعت زوجته هذين التوأمتين — ولم يكن لها من ناصر أو معين فوضعتهما وحيدة ... ولقيت منيتها وحيدة ... ! وفى اليوم التالى توجهت إليها ، أنظر ما آلت إليه حالها ... فما كدت أتخطى الكوخ ، حتى وجدتها متيبسة الجسد وقد علت وجهها صفرة الموت ... وتدحرج جسدها فوق هذه الطفلة ، فأصاب ساقها العرج ... !

وجاء القوم من القرية — وكلهم حزن ، يأكل قلبه الألم — فكفنوها فى خال وحملوها إلى المقبرة ، ودفنوها جوار زوجها ... لقد كانت الطيبة تملأ نفوسهم والعطف يفيض من قلوبهم ... ! ولكن هاتين الطفلتين أصبحتا ومالهما من ولى أو كفيل ... وكنت حينئذ المرأة الوحيدة فى القرية التى عندها طفل لم يتجاوز أسبوعه التاسع ... فضممتها إلى صدرى ... وعدت بهما إلى كوخى . فلما اجتمع الفلاحون راحوا يفكرون ويطيلون التفكير فى أمرهما ، وأخيراً ، قالوا لى : عليك العناية بهما الآن ياماري ... وسوف ندبر أمرهما فيما بعد ... ! »

فأخذت على عاتقى أن أرضع هذه الطفلة الصحيحة ، وأدع العرجاء ... فما كنت أحسب أنها ستعيش . ولكنى تساءلت : بأى ذنب تعانى هذه الطفلة ألم الجوع ؟ ! فما لبثت الرحمة أن فاضت بين جوانحى ... فرحت أرضعهما مع طفلى ... وقد كنت لبانة يتفجر اللبن من ثديى فى فيض لا ينقطع ، وكان الله يأتينى برزق هاتين الطفلتين ... فترعرعتا على حين توفى الله طفلى الوحيد ، قبل أن يبلغ السنتين ... وقد أقبلت علينا الدنيا بعد انصرافها عنا ... فزاد حبى لهما وحنانى عليهما ...

أفعلمتم الآن سبب ذلك الحب ؟ ! إنهما سعادتى فى هذه الحياة ، وأملى فى هذه الدنيا ... ! » وضمت « السيدة » الطفلة العرجاء إلى صدرها بإحدى يديها ، بينما ارتفعت يدها الأخرى لتمسح دمعة حارة تحدرت على خدها فتنهدت « مترونا » ... وقالت فى صوت عميق وجرس ندى : « صدق من قال » يعيش المرؤ بغير والديه ! ولكن لا يعيش بغير الله ... ! »

وران الصمت عليهم ... ! وفجأة انبثق فى الكوخ نور باهر كأنه وميض البرق فى ظلمات الشتاء ... وشع الضوء من ذلك الركن الذى يجلس فيه « ميشيل » ... فالتقت عنده أبصارهم . وهو على كرسيه يحدق فى سماء الغرفة . وقد افتر ثغره من ابتسامه حلوه ... أشرقت فى وجهه وأضاءت على جبينه ...

فلما تهيأت المرأة للذهاب . حيتهم ... وأمسكت بطفلتيها . ومضت بهما ... فنهض « ميشيل » من جلسته ... ووضع ما كان بيده وخلع عنه مئزره ... ثم انحنى لسيمون وزوجته « مترونا » وقال فى صوت شكور « وداعاً ... أيها السادة ... لقد عفى الله عنى ... ! وغفر لى ذنبى ... »

وراح ميشيل يتألق فى ضياء تنبعث من هالة حوله ... فانحنى سيمون وقال فى صوت ملؤه العجب « لقد حدست إنك لست بشر ياميشيل ... ولن أثقل عليك بتساؤلى ... ولكن آمل أن تخبرنى : لماذا تألق وجهك حينما عثرت عليك فى الطريق عريان جائعاً ؟ ! ولماذا ابتسمت إلى زوجتى تلك الابتسامة الوضيئة حينما قدمت إليك الطعام ؟ ! وحينما دخل ذلك « السيد الجليل » كوخنا ،

لتصنع له حذاء. إفتر ثغرك عن بسمة مثيلة بها ؟ . وأخيراً حينما أتت هذه السيدة مع هاتين الطفلتين تألق وجهك بابتسامة ثالثة فى جلال وبهاء ...

نشدتك الله ياميشيل أن تطلعنى على سر ذلك الإشراق ، وعلة هذه الابتسامات الثلاث ؟ ! ! » ...

قال ميشيل فى صوت هادئ رخيم « لقد انبثق الضوء عنى وأشرق النور منى لأن الله يعاقبنى ... بيد أنه عز وجل غفر لى ذنبى أخيراً ! ... والسر فى تلك الابتسامات الثلاث أن الله أرسلنى كى أتعلم ثلاث حقائق ... وقد تعلمتها ... !

لقد تعلمت واحدة حينما فاضت الرحمة من قلب زوجتك ... فكانت الابتسامة الأولى ! !

وتعلمت الثانية حينما سمعت ذلك « السيد » يتحدث عن حذاءه ، فكانت الابتسامة الثانية ! !

وتعلمت الثالثة عندما رأيت هاتين الطفلتين ... فكانت الابتسامة الثالثة . ! »

فقال سيمون فى دهش ورجاء « خبرنى لماذا عاقبك الله يا ميشيل ؟ ! وما هذه الحقائق الثلاث ؟ ! »

فأجاب ميشيل فى صوته الهادئ الرخيم « لقد عاقبنى الله لأنى عصيت له أمراً ... لقد كنت ... ملاكا أسبح فى ملكوته الأعظم ... فأنزلنى ذات يوم إلى الأرض لأقبض روح امرأة من خلقه ... فأبصرتها راقدة على سريرها وحيدة — وقد وضعت توأمين ! — فلما أحست دنوى منها ، أدركت أنى رسول الله إلى روحها ... فقالت وقد كادت أن تحبس صوتها الدموع :

« أيها الملاك ... لقد مات زوجى منذ أيام وما لى من أخت أو عمة أو ولية ترعى طفلتى ... فلا تقبض روحى ! ودعنى أرضعهما وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت ! ! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم ! . »

فأصغيت إلى حديثها الرقيق الرفيق ... ووضعت إحدى الطفلتين على صدرها والأخرى على ذراعها ... وانثنيت آيبا إلى الله تعالى فى السماء ... وقلت فى خشوع « إنى عاجز عن أن أقبض روح هذه الأم ... لقد قتل زوجها تحت جذع شجرة منذ أيام ... وولدت لها اليوم توأمتان ... وتوسلت إلى ألا أسل روحها قائلة « دعنى أرضعهما وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت ! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم . ! »

« فعدت ويدى عاطلة من روحها ! . » فسمعت الصوت العلوى يردد الأمر الجليل « إذهب ... فاقبضها ولا تكن عودتك إلى السماء قبل أن تتعلم حقائق ثلاث » :

« ما الذى فطر عليه الإنسان ؟ ! »

« ما الذى حرم منه الإنسان ؟ ! »

« ما الذى يعيش به الإنسان ؟ ! »

فعدت طائراً إلى الأرض — وأنا أرتعد فرقاً من غضب الله وأنتفض جزعاً من عقابه . فقبضت الروح ... وسقطت الطفلتان من على صدرها ، ومال جسدها على جانبها ، فحطم ساق إحدى الطفلتين فالتوت ... وهممت بأن أصعد إلى السماء أحمل الروح إليها . ولكن الريح أثقلتنى وأخذت أجنحتى تتضاءل وتنسل من ظهرى ... فصعدت « الروح » وحدها إلى الله ... بينما سقطت أنا على الأرض فى جانب من الطريق ! . »

ففغر سيمون فاه ... ونظرت « مترونا » فى بلاهة يشوبها الدهش ... لقد أدركا الآن من كان يضمه دارهم ويعيش بينهم ويأكل من طعامهم .. فترقرقت الدموع فى عيونهما ... وراحا يبكيان فى نشيج ومزيج من الرهبة والمرح . والإجلال والفرح وانطلق الملاك يقول : « لم أكن أعرف حاجات البشر من جوع وعرى حتى صرت بشراً مثلهم ... كنت وحيداً ... يهرؤنى القر ، وانضور من الجوع ... ولا أدرى ما الذى أفعله فى هذا العالم وامتد طرفى ... فلمحت كنيسة على مرماه .. فتوجهت إليها عسانى أجد ثمت موئلا ... بيد أنها كانت مغلقة ... فتوجهت إلى ما وراءها ... حيث قعدت اتوقى بها الريح الصرصر التى تسفح الوجه ، وتصك الجسد ... !

فلما غشى المساء عيون الكون ... رأيت إنساناً يقبل وحيداً على ... وبينه وبين نفسه حديث ... ولأول مرة رأيت وجه الإنسان ... ذلك الوجه المخيف الميت فأشحت عنه برأسى ... وطرق سمعى ذلك الحديث أو تلك الخواطر التى كانت تضطرب بينه وبين نفسه ... وتنعكس على شفتيه فيرتفع بها صوته ... كان يتساءل كيف أنه يقى جسده لفحة البرد وقشعريرة الشتاء ، ويغذى زوجته وصغاره بماله اليسير ...

فرمت أفكر « هذا إنسان يدبر ملبساً له فى الشتاء ... وطعاماً لعائلة ... فكيف يقدم لى يد المساعدة ؟ ! » فلما لمحنى اضطرب فرقاً وجزعاً ومر بى فى الجانب الآخر من الطريق ...

فتداركنى اليأس ، لولا أنى أبصرته ينقلب راجعاً إلى ... فرفعت إليه بصرى فلم أعرفه ... لقد كان يرتسم الموت على جبينه ... أما الآن فسوف يعيش ... لقد عرفت فى شخصه وجود الله عز وجل . ! ألبسنى ثوباً عليه ، وأخذنى معه إلى داره حيث وجدت من هى أقسى قلباً وأشد كلاماً ، لقد شاع فى صوتها الموت ، وأبصرت من حولها الهلاك ... كانت تود لو ألقت بى إلى قارعة الطريق ... ولو أنها فعلت ذلك لكان الموت من نصيبها . !

فلما بدأ الرجل يحدثها عن الله عز وجل ، لان قلبها ومال إلى فؤادها ... فأحضرت لى الطعام ، ونظرت إلى وجهى فى عطف وشفقة ... فعرفت فى شخصها وجود الله ...

فتذكرت أولى الحقائق الثلاث التى أمرنى الله بأن أعلمها « ما الذى فطر عليه الإنسان ؟ ! . »

فأدركت أن الذى فطر عليه الإنسان هو « الحب » ! ! وقد تولتنى البهجة حينما علمت أن الله أوحى إلى بالدرس الأول ... فافتر ثغرى عن الابتسامة الأولى ... ولكن بقى على أن أتعلم الحقيقتين الأخريين : « ما الذى حرم منه الإنسان ؟ ! » و « ما الذى يعيش به الإنسان ؟ ! »

« مضى عام وأنا أعيش بينكم ... فلما أتى ذلك السيد الجليل يأمرنا بصنع حذاء له على ألا يبلى أو يخلق قبل أن تنقضى سنة على ذلك ... نظرت إليه ... وعلى حين غره لمحت فوق رأسه رفيق « ملاك الموت » ولم يره أحد سواى ... ولكنى عرفته ، وأدركت أن الشمس لن تغيب عن الأفق إلا وقد غابت روح ذلك الرجل عن جسده ... فتعجبت ... إن هذا الرجل يعد العدة لعام بأكمله ... ولا يحسب أن قضاءه قد حم ... وأن المساء لن يأتى عليه إلا وجثته مسجاة هامدة ... »

فتذكرت الحقيقة الثانية ، فكأن الله يوحى إلى أن نعلم « ما الذى حرم منه الإنسان ؟ » فابتسمت للمرة الثانية ...

ومكثت أنتظر أن يوحى إلى الله بالحقيقة الثالثة « ما الذى يعيش به الإنسان ؟ ! »

وفى العام السادس . جاءت امرأة ومعها توأمتان صغيرتان فعرفت الطفلتين وعرفت أن الله قد قيض لهما من كان أحن عليهما من أمهما ... فعاشتا وترعرعتا . !

ولما سمعت ما قصته علينا من كفلتهما رحت أفكر مستغرقاً « لقد توسلت إلى الأم أن أدعها حية حتى ترعى الطفلتين ... الضعيفتين ... واعتقدت أنها على حق حينما قالت « إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم ... » بيد أن امرأة غريبة عنهما كفلتهما حتى نمتا وشبتا ... وأدركت مبلغ ذلك الحب الذى يختلج بين جوانح تلك الظئر الحاضنة ... فرأيت فى شخصها وجود الله ... وتعلمت الحقيقة الثالثة وهى « ما الذى يعيش به الإنسان ؟ ! » ... إنه « الحب » ... وعلمت أن الله أوحى إلى بالدرس الأخير ... وأنه عفى عما تقدم من ذنبى ومن عصيان أمره على غير بصيره ... فكانت الابتسامة الثالثة !! . »

أضحى « الملاك » وهو عار مما عليه ... يشع من جسده نور قوى يبهر الأبصار ... وراح صوته يخفت وينخفض حتى صار ، وكأنه لا يأتى من فيه ... بل يأتى ... من السماء ... !

« لقد علمت أن البشر لا يعيشون بالحرص على حياتهم ... بل بالحب المغروس فى قلوبهم وهل نفع حرص الأم على بنتيها ؟ ! لا بل كان حب الظئر لها ! ! .

ولقد عشت — عند ما كنت إنساناً — لا بالحرص على حياتى ... بل بالحب الذى يختلج بين جوانح عابر سبيل ... وبالرحمة والعطف الذى انبثق فى فؤاده هو وزوجته على ...

إن الحب شىء فطر عليه الإنسان وغرس فى قلبه ... وعليه يعيش وبه يحيا فى هذه الدنيا ... ! وكنت احسب أن الله وهب الحياة للبشر ، ومنحه الأمل فى أن يعيش ... بيد أنى الآن علمت أشياء أخرى ... ! علمت أن الله لم يخلقه كى يعيش وحيداً فريداً . بل خلقه ألوفاً ساعياً للارتباط بغيره ... عرفت أن المرأ مع تخيله أنه يعيش بالحرص على حياته ... فهو يعيش فى الحقيقة بالحب ... لأن من كان الحب يملأ قلبه ... ففيه نفحة من الله ... فالله عز وجل هو الحب ... والحب هو الله !! ... »

ثم ارتفع صوت « الملاك » فى جرس ندى يردد أنشودة ملائكية يحمد فيها الله ويثنى على آلائه ! ! فكان الكوخ والأشجار والطيور تتراقص وتهتز وكأنها تسبح بآيات الله ... وانحسر سقف الكوخ حيث ارتفع عمود من النور يربط السماء بالأرض ... نخر « سيمون » وزوجته وأطفاله وقد ملكت نفوسهم الرهبه والخشوع ، وملأت قلوبهم الخشية والإجلال ! .

ونبت « للملاك » جناحان على كتفيه ... حيث راح يسبح بهما مصعداً إلى السماء ... !

فلما أفاق « سيمون » ... وراح يقلب طرفه فيما حوله ... رأى الكوخ وقد أصبح كما كان ... وليس فيه سوى زوجته « مترونا » وأطفاله الصغار ...

مصطفى جميل مرسى



العدد ٦٨٧ — الاثنين ٢ سبتمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

٢٧٠١٩

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 687

Lundi—2—9—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٧ « القاهرة فى يوم الإثنين ٦ شوال سنة ١٣٦٥ — ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

٤ — من لغو الصيف

هؤلاء الأرستقراط ... !

للاستاذ سيد قطب

قلت : أذهب إلى « بلاج سيدى بشر رقم ٢ ، ورقم ٣ » أرى هؤلاء « الاستقراط » الذين خصتهم الدولة بشواطىء خاصة ، لا تطؤها أقدام الشعب إلا لقاء جعل معلوم !

وأديت هذا الجعل ، وحملت فى يدى « تذكرة الدخول » بارزة ، فأنا رجل من الشعب . وما آمن أن يعترضنى شرطى أو حارس ، وأنا أسير فى الأرض المحرمة ، التى لا يجوز أن تطأها أقدام الشعب إلا بترخيص !

وسرت بحذر واحتراس ، أتوجس خيفة من كل خطوة — على رغم أنى أحمل الترخيص بالمرور — فأنا هنا فى وسط «الاستقراط » وأنا رجل من الشعب . وتعليمات الدولة المسطرة على المداخل توقع الرعب فى القلوب : « ممنوع دخول هذا البلاج لغير أصحاب الكابينات إلا ... الخ » ، وذكرنى هذا بتعليمات أخرى فى بعض الحدائق والأماكن : « ممنوع دخول الكلاب إلا ... الخ » .

ورأيت الدولة قد اختارت أجمل مناظر الشاطىء على الاطلاق لتخص بها هؤلاء السادة المحظوظين . فبلاجا سيدى بشر رقم ٢ ورقم ٣ يلخصان جميع مناظر « الكورنيش » . مناظر الشواطىء الصخرية ، والشواطىء الرملية ، والشواطىء الصناعية ، والموج الصاخب ، والموج الهادىء ، والموج العميق .

وهل أقل من أن تجمع الدولة لهؤلاء السادة أجمل المناظر وأبهجها ملخصة فى الشاطىء المحرم ، الذى لا يجوز أن تطأه أقدام الشعب إلا بترخيص ؟ !

وسرت ترمقنى أنظار السادة كما ترمق العبيد ... من هذا الدخيل الواغل ؟ إنه رجل من الشعب . يا لهذا الشعب الطفيلى الذى لا ينى يعكر صفو السادة بهذا التطفل الغريب ... ولكنى أحمل الترخيص !!!

وانتبهت بعد هنيهة ، واستمدت رباطة جأشى ، وتقويت بهذا الترخيص الذى تحمله يدى ، فدسسته فى جيب قميصى ، وحرصت — مع هذا — على إبقائه ظاهراً ؟ !

لا بد أن يكون هؤلاء السادة يستحقون هذا التدليل . لا بد أنهم يترفعون بمستواهم وأخلاقهم عن العامة . لا بد أنهم «أرستقراط» فى نفوسهم ، قبل أن يكونوا أرستقراطا بجيوبهم ، وإلا فهل تقدم الدولة على عزلهم هكذا عن الشعب — فى نفس الوقت الذى تحارب فيه انعزال الطبقات — إلا لسبب معلوم !

ولكنى لا ألمح هنا امتيازاً خلقياً ولا نفسياً . إنهم — والشهادة لله — أوقح وأجرأ وأشد تبذلا من عامة الشعب فى « بلاجات » الشعب ، التى يمرح فيها بلا جعل ولا ترخيص !

شىء واحد يفرق هؤلاء السادة عن الشعب ... أنهم

لا يتكلمون لغة هـذا الشعب . اللغة العربية أو المصرية هنا غريبة ... ولقد سمعت الفرنسية والتركية والرومية ... ولـكنى لم أسمع العربيـة المصرية إلا من الخدم وحراس الشاطئ ...

والمصريون هنا غرباء . عرفت منهم على ماهر ، ومكرم عبيد ، وإبراهيم عبد الهادى ، وعبد المنصف محمود ... وحفنة قليلة ممن تحمل وجوههم الطابع المصرى ... أما الأغلبية فمن ذوى الوجوه الحمر أو الوجوه البيض ...

مستعمرون !!! وليس الانجليز وحدهم هم المستعمرين !!!

هؤلاء هم الذين قادوا الشعب إلى الهاوية ... انحلت أخلاقهم ، لأنهم لا رصيد لهم من خلق ولا دين . ولا رصيد لهم كذلك من عراقة ولا تقاليد .

وكلمة «أرستقراط» التى تطلق عليهم لا تحمل من معناها العالمى شيئاً . ليس فى مصر طبقة أرستقراط كطبقة اللوردات المحافظين فى انجلترا مثلا ... فأعرق أسرة من هؤلاء لا يزيد تاريخها فى الغنى على مائة عام ...

جاء محمد على الـكبير والشعب المصرى فقير . والأثرياء هم المماليك ومن يلوذون بالمماليك ... وجعل محمد على زمام الأطيان كلها فى يده ، فلم يبق ثرى لا فى الشعب ولا فى المماليك ... ثم أخذت الثروات تتسرب إلى أيدى طبقات خاصة على مدى السنين فى هذا الحيز القصير .

وفاز بنصيب الأسد على توالى الأجيال : أبناء الجوارى ، والمعاتيق ، والذين خدموا الاحتلال — والذين عرفوا كيف يدورون مع الريح . والقلة القليلة فى العصور المتأخرة هى التى كسبت ثروتها بالجهد وعرق الجبين .

تلك هى قصة الثراء فى مصر مختصرة . كلهم محدثو نعمة ، لم تتأصل فيهم تقاليد «الارستقراط» المعروفة فى بلاد العالم . ومن هنا لم يكن لهم رصيد من العراقة ... ووجدوا فى أيديهم النقود .

هؤلاء هم الذين يقودون الشعب اجتماعياً — مع الأسف الشديد ... هؤلاء هم الذين انحلوا فانحل معهم الشعب . ومن هنا جاءت كارثة الجيل ...

تفاهة ...

هذه الـكلمة المفردة تلخص طابع الجيل ...

لا يعيب الفتاة العصرية شىء كما يعيبها الجهل بماركات السيارات وأسماء الممثلين والممثلات ، والمطربين والمطربات وعناوين الأفلام والروايات ، وشىء آخر أهم : ألعاب القمار ، الـكونكان والبوكر والبكاراه ... لا يعيبها أن تجهل الجمال فى الطبيعة ، والجمال فى الفن ، والخبرة بالأسرة والعالم ...

والفتى كالفتاة ... أحاديثه أحاديثها . وطراوته طراوتها . وهى أنثى وهو يتأنث . لأن « أولاد الذوات » هكذا أطرياء لدن مخانيث! لقد شهدتهم هنا وفى كل مكان . الحركة الطرية ، والملابس الطرية ، والإيماءة الطرية . إنهم لا يكادون يتماسكون . ونفوسهم من الداخل كأجسامهم لا تماسك فيها ولا قوام لها كالهلاميات التى لم تتماسك بعد فى عالم التـكوين ...

وهؤلاء هم الذين يقلدهم الشعب المسكين ! !

وجيل تافه ...

ليس هناك عالم نفسى يعيش فيه بعض الوقت . فلا شىء إلا هذه الظواهر ، ولا شىء فى هذا العالم الظاهر إلا أتفه ما فيه ...

« شيكو كو » المنولوجست معبود الجمهور و « أنور وجدى » ممثله المرموق ... ومن فى مستواهما من المطربين والمطربات ... هذا وحده يكفى لليأس من ذوق هذا الجيل ، ومن نفسيته وشخصيته لا أذن تحسـن السماع ، ولا ذوق يفطن للفنون ... « كله عندهم صابون » والمهم أن يكون أكثر ميوعة ، وأشد رقاعة وكل جديد هو خير من القديم !

حضر « أنور وجدى » و « ليلى مراد » إلى « البلاج » فتزاحمت عليهما الجماهير ، حتى ضاقت أنفاسهما بالجماهير . ويبلغنى أن « عبد الوهاب » يضيق فى الحفلات الخاصة بالبنات اللواتى يترامين عليه فى مجون رقيع ... ذباب ... ذباب وصراصير ! ...

وجيل حائر ...

شهدت شابا وشابة زوجين ، يخرجان من البحر بلباس البحر ويجلسان على الـكازينو كذلك يتناولان الشاى والمرطبات ويدور الحديث بينهما وبين معارف لهما . فتذكر الشابة أن زوجها لا يلبس خاتم الزواج لأنه من الذهب ، والتختم بالذهب حرام فى الدين ! أى والله ، هكذا ... حرام! حرام أن يتختم بالذهب أما العرى القذر هكذا على الـكازينو ، فذلك متاع بالبحر لا شىء فيه .

ذلك مظهر من مظاهر التفكك النفسى ، كالجهاز المفكك ، كل جزء فيه يشتغل على هواه ، بلا ضابط ، ولا اتصال .

وعرفت سيدة تصلى وتصوم ... ثم ... تخرج من البحر بالمايوه ، وتجلس على الرمال بالمايوه حيث تتدسس النظرات المريضة إلى كل موضع فى هذا الجسد المـكشوف . فأما حين

تقف للصلاة فتفيض عليها من الجلباب والخمار ... إنها تتحجب هنا فقط ، تتحجب على الله ! ! !

وذكرنى هـذا بتلك المرأة ، التى عادت من الحج ، لتحيى حفلة راقصة تدور فيها الـكؤوس ويكون بعدها ما يكون ، احتفالا بهذا الحج المبرور ...

إنها من أولئك « الارستقراط » اللواتى يقلدهن الجيل ! والمجلات الداعرة ... إنها تنشر صور هؤلاء الارستقراط فى مباذلهم ، وتقول عن نسائهم المتبذلات إنهن شرفن مصر ! وتقلدهن بنات الشعب المسكين.

وهنا فى « بلاج الشعب » فى سيدى بشر رقم ١ شاهدت مصوراً لإحدى هذه المجلات الداعرة ، يلتقط صورة لفتاة من بنات الشعب « بالمايوه » . وكلفها أن تضطجع ضجعة خاصة فأطاعت . ويبدو أن شيئاً من حياء الأنوثة ، أو حياء الإنسانية كان لا يزال يراودها فضمت فخذيها ... ولم يعجبه المنظر فقرب منها وقرب ، ولمس بيده ركبتيها لتفتح ما ضمت . فلما ترددت قليلا ... قال : « الله ! إنت فلاحة وإلا إيه » ؟

وانحلت المعقدة : فمن هى التى تريد أن تكون فلاحة ؛ وهل تستحى إلا الفلاحة ؟ والفلاحون ليسوا « أرستقراط » بشهادة الجميع !!!

و « تانت » و « انكل » و « دادى » ...

ميوعة أولاد الذوات ورقاعتهم المهينة ، المهينة لأنها لا تعتز بقومية ولا لغة ، المهينة لأنهـا تحتقر نفسها حـين تلجأ إلى اصطلاحات الآخرين ... هذه الميوعة مع الأسف أخذت طريقها إلى الشعب .

والمسألة أعمق من أنها مجرد ألفاظ . المسألة هى الشعور بالنفس أو عدم الشعور .المسألة أن لى كرامة فى نفسى ولغتى وبلدى أم ليست لى هذه الـكرامة. وأولاد الذوات لا كرامة لهم لأنهم لا نفوس لهم ولا وطن ولا عراقة ... فما بال الشعب يتزلق إلى التميع المهين ؟

يابحر . إنك لتغضب . وإنك لتزمجر . وإنك لتجرف فى ساعات غضبك وزمجرتك كل خبث فى جوفك ، فتقذف به إلى الشاطىء ... اعكس مرة أيها البحر ، فاجرف إلى جوفك قذر الشاطىء بكل ما فيه !

سيد قطب

كلمة صريحة لله وللوطن :

دفاع عن الفضيلة ...

[تأييداً لمقالات الأستاذ سيد قطب]

(لأحد الـكتاب)

هال بعض المصلحين منذ سنتين ما رأوا من فشوّ التبرج والاختلاط فى دمشق البلد العربى المسلم ، فقاموا يدافعون عن الفضيلة المغلوبة ويردّون الرذيلة الغالبة ، وانقاد إليهم الناس ، لأن الـكثرة الـكاثرة من أهل دمشق لا تزال متمسكة بدينها ، ولا تزال نساؤها فى الحجاب الساتر ، ومشت الأمور فى طريقها ، وكادت تصل إلى غايتها ، ودعاة الفجور ينظرون ويتحرقون ... لولا أن رفعت الغيرة على الأخلاق الإسلامية والسلائق العربية بعض العامة إلى الدخول على النساء فى السينما وإخراجهن منها وترويعهن ، وإلى التجوال فى البلد ونصح كل متبرّجة ووعظها وزجرها ... وقد أنـكر العلماء وعقلاء البلد ذلك عليهم فـكفوا عنه وأقلعوا ، ولـكن دعاة الفجور لم يرضهم أن تنتصر دمشق للفضيلة وأن تهدم عليهم عملهم على رفع الحجاب وإباحة الاختلاط ، فاستغلوا عمل هؤلاء العوام وأعلنوا إنكاره وكبّروه وبالغوا فى روايته ، وذهبوا يقيمون الدنيا ويُبرقون البرقيات ويُرعدون بالخطب ، وما أهون الأبراق والأرعاد ، وما أسهل إثارة الشبان الفاسقين على الستر والحجاب ، باسم (الحرية الشخصية) التى تمتع عيونهم بما وراء الحجاب من جمال ، وتُنيلهم ما بعد حدود الفضيلة من لذائذ .. !

أيخرجون النساء من السينما ؟ أيعرضون بالنصح المتبرجات الـكاشفات ؟ ياللحدث الأكبر ، ياللعدوان على الحرية الشخصية التى ضمنها الدستور ! أليست المرأة حرة ولو خرجت عارية ؟ أليس الناس أحراراً ولو فسقوا وفجروا ؟ أليس كل امرىء حراً ولو نقب مكانه فى السفينة فأدخل إليها الماء فأغرقها وأهلها ؟ !

كذلك فهم الحرية هؤلاء الجاهلون ... أو كذلك أراد لهم هواهم ، وشاءت لهم رغباتهم الجنسية وميولهم النفسية أن يفهموها ،

ودفعوا الصحفيين فلبثوا أياماً طوالا لا كلام لهم إلا فى الدفاع عن (الحرية ...) ، وهاجوا بمض النواب ، فجرب كل واحد منهم أن يتعلم الخطابة فى تقديسها ، ثم عمدوا إلى فئة من خطباء المساجد حاموا عن الفضيلة ، فساقوهم إلى المحاكم سوق المجرمين ، وأدخلوهم السجون ، وجرعوهم كؤوس المهانة ، حتى صار من يذكر السفور بسوء ، أو يدعو إلى الفضيلة والستر كمن يدعو إلى الخيانة العظمى ، وصار النساء إذا رأين شيخاً فى الطريق شتَمْنَه وسخرن منه ، وتوارى أنصار الفضيلة من وجه هذه العاصفة الفاجرة الهوجاء ، وهم جمهرة أهل الشام وعلماؤهم وأفاضلهم وعقلاؤهم ، وحسب أولئك أن الظفر قد تم لهم ، وأن أهل الدين قد انكسروا كسرة لا تجبر ، فكشفوا القناع وانطلقوا يسرحون وحدهم فى الساحة ويمرحون ... وكانت النتيجة أن انْحَطَمَ السدّ فطغى سيل الرذيلة وعم ، وامتد فى هاتين السنتين أضعاف ما امتد أيام حكم الفرنسيين الذين هم أفسق الناس ، وهذه حقيقة نثبتها بأسف وخجل ... وكانت النتيجة أن ازدادت جرائم التعدى على العفاف واستفحلت حتى رأت المحاكم من يعتدى على عفاف بنته وأخته ، ومن يفجُر بطفل رضيع ، وماذا يصنع هذا الوحش الذى أثارت (الحرية الشخصية) غرائزه فلم يجد إلا البنت والأخت أو الطفل الرضيع ؟ وكانت النتيجة أن دمشق التى تستر بالملاءة البنت من سنها العاشرة شهدت يوم الجلاء ، بنات فى السادسة عشرة وما فوقها يمشين فى العرض بادية أفخاذهن ، ترتج نهودهن فى صدورهن ، تكاد تأكلهن النظرات الفاسقة ... وشهدت بنتاً جميلة زينت بأبهى الحلل ، وألبست لباس عروس ، وركبت السيارة وسط الشباب — قالوا : إنها رمز الوحدة العربية ... ولم يدر الذين رمزوا هذا الرمز أن العروبة إنما هى فى تقديس الأعراض لا فى امتهانها ، ومشى الموكب أمام الناس وفيهم والد هذه البنت لا يستحيى ولا يخجل ، وأخرى قالوا أنها رمز سورية الأسيرة قد فكت قيودها ... وأمثال هذا الهذيان الذى لا معنى له إلا استغلال العيد الوطنى فى هدم أركان الفضيلة وتمزيق حجابها ... وأخذت صور هذا كله فنشرت فى الجرائد وعرضت فى السينمات ، ثم ازدادت جرأة الناس على نقض عرى الأخلاق حتى رأينا صور ممثلينا السياسيين مع نسائهم على (بلاج) الأسكندرية منشورة فى إحدى مجلات مصر التى لا تدع فرصة فيها تشهير بنا وفضح لنقائصنا إلا استغلتها ، ثم ازدادت الجرأة حتى صارت مجلات دمشق تنشر صور العرايا فيشتريها الشباب لهذه الصور ، لأنه ليس فيها ما تُشترى له ، ثم امتد الشر حتى رأينا وزارة المعارف تعمل من الطالبات كشافات يمشين فى الطرق بمثل لباس المجندات فى الجيش الأميركى بعد أن كانت دمشق لا تحتمل أن ترى الكشافين الشباب بلباس يرتفع عن الركبتين ، وحتى رأيناها تقيم معرضاً لأدوات تحضير الدروس التى صنعها المعلمون ، فتترك مدارس البنين كلها ، ومنها الثانوية المركزية ببنائها الضخم وأبهائها ، وهى أصلح مكان للمعارض ، وهى التى أقيم فيها معرض دمشق الكبير سنة ١٩٣٦ ، وتختار مدرسة بنات فى طريق الصالحية ، ثم يفتتح المعرض مدير معارف دمشق ... بدعوة الرجال لمشاهدة فرقة من الكشافات يغنين على المسرح ويأتين بحركات رياضية تبدى للأعين الفاسقة المفتحة أكثر ما يخفى عادة من أجساد فتيات نواهد ... قد انتقين عمداً أو مصادفة من جميلات الطالبات ، ثم امتد الشرحتى رأينا محافظ دمشق يفتتح نادياً يكون من قانونه أن العضو يجىء مع زوجته أو ابنته (غير المتزوجة ...) ، وحتى شهدنا النفر الشيوعيين العزاب المستهترين الساكنين فى القهاوى الخبيثة والخمارات ، أصحاب (تلك) البرقية الوقحة المعروفة يسلمون أمر المعارف ، ويسلطون على الشبان والشابات ، فيبتدعون لهم نظام المرشدات (وإنه لنظام الضالات المضلات) والاختلاط فى الحفلات ، فبعد أن كانت مدارس البنات لا يدخلها معلم ولا فراش إلا إن كان شيخاً كبيراً ، صار معلموها من الشباب العذاب المتأنقين الحاسرين أصحاب الشعور المرجّلة والوجوه المحفوفة ، وصارت تقيم حفلات للرجال يمثل فيها البنات ويرقصن بالثياب القصيرة (الرقص الرياضى ...) ، ويدبكن الدبكة الوطنية ، ثم يخترعون شرّ اختراع ، وهو هذه الرحلات المدرسية التى يشترك فيها الجنسان ، وها هو ذا إعلان قرأته فى جريدة دمشقية تصدرها جمعية إسلامية عن رحلة إلى استامبول يشترك فيها الطلاب والطالبات والمعلمون والمعلمات إلى استامبول — يا أيها الناس — لا إلى بيروت ... وكان من البلاء أن هذه الجريدة نشرته ونسيت

أن تعلق عليه ، وتبين حكم الله في هذه الرحلات ، وحكم العقل والأخلاق ... ثم ينقلون دار المعلمات من مكانها القديم المستور إلى (فيلا)[1] جديدة في شارع محدث في ظاهر البلد ، مكشوفة من كل جهاتها ، لها طنف وشرفات دائرة بها ، وسرر الطالبات تظهر من الطريق ، فإذا نهضن من النوم رآهن (من تحت) من يمشي في الشارع بثياب المنام ، ثم يدفعون خريجات دور المعلمات فيعملن حفلة خيرية ، فلا يجدن لها مكاناً في دمشق إلا مرقص العباسية ، ويطبعن في البطاقة أنه سيغني فيها (فلان) من فسقة المغنين ، وترقص (فلانة) الراقصة المحترفة رقصاً بلدياً !

ثم ... ثم ماذا ؟ الله وحده الذي يعلم ماذا يكون أيضاً ، وإلى أين يبلغ بنا المسير ...

وقد نزلت هذه الضربات على وجه الفضيلة متلاحقة متتابعة لا تصحو من واحدة حتى تحس بالأخرى ، وهم يريدون منا مع ذلك أن نسكت وألا نقول شيئاً ، لئلا نشوه (زعموا) جمال المعهد الوطني

كلا . إن المعهد الوطني هو الذي تنتصر فيه الفضيلة ويسود الحق ويحفظ العفاف ... كلا ، ولا كرامة ، إنها أعراض بناتنا وأخواتنا ، ولو غير الأعراض لهاودناكم عليها ، ولكن لا هوادة في العرض !

إنها حياة هذه الأمة : لا تحيا أمة بلا أخلاق ، أفئن قامت فئة من العامة بما لا نرضى عنه ، وانتهكت حرمة هذا الحرم الأقدس : السينما ، وتجاوزت على حريات الفاضلات المطهرات : النساء المتبرجات نسكت كلنا عن نصرة الفضيلة إلى يوم القيامة ؟

إن من الأمور ما يتفق عليه أبناء الملل كلها ، وما يلتقي فيه أتباع الأديان جميعاً كما يلتقي سالكو شوارع مختلفة في ساحة من الساحات ، ومن ذلك الدعوة إلى العفاف ، إنها دعوة لا بد منها ، فإذا لم تريدوها عن الجمعية الغراء والمشايخ ، فلتكن عن طريق البطرك أو الحاخام أو الوثني الملحد ، المهم أن يجهر بها جاهر ونحن معه مؤيدون له ومحاربون لمن يحاربه ، ونحن نريد الجوهر لا المظهر

ثم ما هذه الحرية التي طبلتم لها وزمرتم ، وهولتم وعظمتم ، وجعلتم الاعتداء عليها كفراً بدين الحضارة والديمقراطية ، أهي حرية المرأة أن تكشف ما تريد من جسمها متى أرادت وأين شاءت ؟ أهي حرية ناظر المدرسة في أن يحول مدرسته إلى مرقص؟ أهي حرية الفسوق والعصيان ؟

أهذه هي الحرية المقدسة ؟

إنكم — أيها السادة — بين أمرين : إما أنكم تقولون ما لا تفهمون ، وإما أنكم تسترون بهذه الأسماء الحلوة أغراض نفوسكم ورغبات أجسادكم ؟ وإلا فخبروني أي أمة في الدنيا تصنع هذا الصنيع :

العرب ؟ إن العرب أغير الناس على الأعراض ، وإن كلمة العرض في لسانهم لا يقابلها كلمة في ألسنة الأمم تترجم بها !

المسلمون ؟ إن الإسلام أمر بغض البصر وستر العورة ، ولعن الناظر إليها والمنظور !

الفرنسيون ؟ إن الفرنسيين يكشفون أفخاذ الشباب في الملعب فعلام تكشفونها أنتم في سوق الحميدية وهو للبيع والشراء ، وفيه الرجال والنساء وهو كالموسكي في مصر والشورجة في بغداد ، ما كان قط ملعباً ولا ميدان كرة ، وإن الفرنسيين ينشئون بيوتاً للهو واللذة وبيوتاً للعلم ، وأنتم جعلتم بيوت العلم بيوت لذة ولهو ، وإن الفرنسيين كانوا يسترون سيقان الجند ، فلما استلمتم أنتم الجيش كشفتم عن أفخاذهم ...

الروس ؟ إن الروس فصلوا بين الجنسين في المدارس لما رأوا بالتجربة أن الاختلاط لا يأتي بخير ، وأنتم تسعون الآن بكل طريق لجمع الجنسين في المدارس

العفاريت ؟ الجن ؟ فمن إذن ؟ أنكون نحن بدعاً في الأمم نأخذ من كل واحدة شر ما عندها ، ونريد أن نبدأ حياتنا الاستقلالية بهذا الخليط من الشرور مركباً تركيباً مزجياً كحضرموت ... إنه والله طريق الموت الحاضر لا طريق الحياة !

لا . لم أرد أن أنحو في هذا الحديث نحو الخطابيات ، ولم أنشئه لأخاطب به العواطف وحدها ، ولكن نحوت فيه نحو التدليل والتعليل ، وقررت حقائق بأدلتها ، وأنا أدعو إلى مناظرتي فيه كل مخالف في رأسه عقل ، وفي يده قلم ، وفي فيه لسان ...

ولم أوجهه للمسلم وحده ، بل لكل من قال أنا عربي ، لا أخص مسلماً ولا مسيحياً ، لأن من صفات العربي التي تقوم عليها عروبته الشهامة والغيرة على الأعراض ، ومن ادعى العربية ولم تكن له على العرض غيرة ، ولم يغضب لحرمه فهو كذاب دعي ليس بعربي

(١) الفيلا : عند الأمير شكيب المغني وعند الأستاذ الزيات الـ

وسيقول ناس من القراء : هذا رجل معروف بالدعوة إلى الرجعية فلا تسمعوا له أنه يريد أن يعود بنا إلى الوراء ، ونحن نريد أن نتقدم

وهذا كلام لا يناقش ولا يرد عليه ، إنما يناقش كلام مؤيد بحجة ، إنما يدفع اعتراض قائم على منطق ، إنما يقرع الدليل بالدليل ، فهل فى هذا الكلام حجة أو منطق أو دليل ؟

إنهم حفظوا كلمات فهم يرددونها لا يحاولون فهم معناها ، يقولون : رجعية ... وما الرجعية ؟ هى الرجوع إلى الماضى ، أى إلى أخلاقه وعاداته ، فما يمكن أن يرجع إلى زمان مضى ، فهل الرجوع إلى مثل أخلاق المسلمين الأولين نفع أو ضرر ؟ وهل يكون الداعى إلى تلك الأخلاق مصلحاً أو مفسداً ؟

هذه هى الرجعية !

هى رجوع إلى الدين ، أفترجع فرنسا إلى دينها ، أى إلى كاثوليكيتها ، ويظفر الحزب الدينى فيها بأكثر مقاعد المجلس النيابى ، فلا ينكر عليها أحد ، ولا يتهمها بالتأخر ، ولا يصمها بالجمود ، ونطلب نحن العودة إلى ديننا الحق ، فيقول السفهاء : أنا متأخرون جامدون ؟ !

لا . هذا كثير ! هذا كفر بالمنطق ، وتعطيل للفكر ، وإلحاد فى الدنية ... هذا شىء نستحى من الأمم أن يكون فينا من يقوله !

ونحن إذ ننتقد شيئاً نبين أضراره ، فبينوا أنتم منافعه ، حتى إذا وجدنا المنافع أكثر أخذنا به ، ولو حملنا معه شيئاً من الضرر ، ونحن نعلم أنه ليس فى الدنيا خير محض ولا شر محض ، وإن الخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما ، فلذلك حرما

فتعالوا نتناظر !

إنه لا بد فى كل مناظرة من مبادئ يتفق عليها الطرفان ليعودا إليها ، ويرتكزا عليها ، وما المنطق إلا رد الفروع إلى هذه الأصول ، فإذا كان المتناظران مختلفين فى كل شىء ، يرى هذا أن العفاف نافع فيقول الآخر بل هو ضار ، ويدعى هذا أن اتباع الدين واجب فينكر الآخر هذه الدعوى ، ويرى هذا العمل على منع الفجور ، ويرى ذاك العمل على نشره ... فلا يمكن أن يكون بينهما كلام !

فلنتفق أولا على الأصول :

هل العفاف وقصر الاتصال الجنسي على المشروع منه خير أم شر؟

هل قيام المرأة على تربية أولادها بنفسها وإخلاصها لزوجها وبيتها خير أم شر ؟

هل مراقبة الله وخوفه وتمسك كل امرىء بفضائل دينه خير أم شر ؟

هذه ثلاث مسائل أطلب الجواب عليها .

وأنه ليكون غروراً منى وازدراء للخصوم وللقراء ، إذا افترضت أنهم يرون هذه الأمور شراً ، وحاولت إقامة البراهين على أنها خير وأتعبت نفسى والقراء فى إثبات هذا الأمر الذى أظنه ثابتاً عند العقلاء جميعاً ، وإنى أؤجل هذا الاثبات إلى حين الحاجة إليه وأبنى المناظرة على هذه الأسس الثلاثة :

فتفضلوا قولوا ، هل هذا الذى نحن فيه يحفظ علينا عفافنا أم هو يضيعه علينا ؟ هل يعمر بيوتنا أم يقوضها على رؤوسنا ؟ هل يرضى ربنا أم يسخطه علينا ؟ هل يجعلنا أمة قوية أم هو يذهب بقوتنا ؟

وإذا سلمنا جدلا بأن من الخير مشاركة الطالبات الطلاب فى أفراح الجلاء ، فهل يشترط فى هذه المشاركة أن يكشفن سيقانهن وأفخاذهن ، وأن ينتخب لها الجميلات منهن لا النابغات ولا المجدات ولو كن قبيحات . وإذا لبسن الجوارب الساترة والثياب الطويلة أيبطل رواء العيد وتذهب بهجته ؟ أم أنتم تريدون النظر إلى أفخاذهن بحجة المشاركة فى أعياد الجلاء ؟

وإذا حسن أن نقوى بالرياضة أجساد الطالبات ، فهل يشترط فى هذه التقوية أن يختلطن بالرجال ؟ وإذا لزم نقل دار المعلمات إلى دار صحية فهل يشترط أن تكون مكشوفة من جهاتها الأربع ، وأن تكون (المحلات العمومية) أستر منها ؟

لا والله ، أحلفها يميناً غموساً وأضعها فى عنقى ... إنكم لا تريدون الصحة ولا الرياضة ولا المشاركة بالعيد إنما تريدون التلذذ بمرأى بناتنا باسم العيد والرياضة والصحة ، إنكم لصوص أعراض . ولكن ليس الحق عليكم ، الحق علينا نحن آباء الطالبات والطلاب ، فنحن عميان لا نبصر خرسان لا ننطق ، حمير لا نغار وإذا استمرت هذه الحال فليس أمامنا إلا اللعنة التى نزلت على بنى إسرائيل ، على لسان داود وعيسى بن مريم .

اللهم لقد بلغت ، اللهم لقد أنكرت المنكر .

اللهم لا تنزل علينا لعنتك ، ولا تحلل بنا غضبك .

(دمشق) **أحد الكتاب**

علوم البلاغة فى الجامعة

للأستاذ علي العماري

يحلو لبعض المعاصرين أن يسموا أنفسهم مجددين ، كل فيما يزاول من علم أو فن ، ولعل هذا الادعاء عارض نفسي يعرض لكثيرين فى كل عصر ولا سيما من يغرمون بالشهرة ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

وتجديد هؤلاء عجب من العجب ، فما هو إلا أن تعن فكرة فى رأس أحدهم حتى يطير بها ، ويكاد يجن فرحاً وغروراً ، ولو عرف قدر نفسه وتأنى قليلا لأدرك أغاخيل له ، وليس هو التجديد ، ولكنه قصور الفهم ، وضلال العقل ، وعمل الغرور ، وربما اكتفى أحدهم بدرس كتاب أو كتابين فى المادة التى يريد أن يجدد فيها . ثم بعد ذلك يشهد العالم على أن العلماء قصروا ، وأنهم لم يفهموا ، ولو أمعن الفهم ، ولو وسع دائرة اطلاعه لقد كان وجد فى كتب القوم مايرد نزغته ، ويطفئ شهوته .

وقد منيت علوم البلاغة فى هذا العصر بدعاة التجديد ، وهى فى شديد الحاجة إلى من يجد أخلاقها ، ولكنها لاتظفر إلا بالدعاوى العريضة الكاذبة ، ونستطيع أن نقول إن التجديد فيها وقف بعد الأمام الجليل الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، وإن مابذل بعد ذلك ليس إلا محاولات بسيطة إن لمست بعض النواحى فى هذا الفن فأنها لم تخلص إلى اللباب ، وإن فى (دفاع عن البلاغة) للأستاذ الزيات ، وفى (مذكرات فى علوم البلاغة) لفضيلة الشيخ سليمان نوار ، وفى (التصوير الفنى فى القرآن) للأستاذ سيد قطب أقول إن فى هذه الكتب لوثبات تبشر بخير ، وهى بعد جديرة بالتقدير .

ويمكن أن ننظر فى محصول هذا العصر البلاغى ، فنجد بعض العلماء قنع بأن يجمع الأشتات ، ويؤلف المتفرقات ، ثم يدعى أنه فى البلاغة ألف ، وبعضهم يعمد إلى الورق الصقيل ، والطبع الأنيق ، ليقول إنه فى البلاغة جدد ، ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين يفترون على العلم ويكذبون على القدامى ، ويكثرون من ثلبهم وتنقصهم ليقال إنهم وحدهم الذين عرفوا وقد جهل الناس ، ووصلوا وقد تخاذل العلماء .

يهدمون ولا يبنون ، ولو أنهم هدموا متبصرين فاهمين لكان فيهم أمل ، ولكنهم يضربون معاولهم وهم مغمضو الجفون .

بين يدى الآن مذكرات فى علم المعانى أملاها الأستاذ الشيخ (أمين الخولى) على طلبته فى الجامعة المصرية ، وفيها كثير مما يستحق أن يناقش ، ولكنى رأيت أن يشركنى القارئ فى هذا الأسلوب الذى يدرس به هؤلاء الأعلام ! ! .

وإنما يعنينى هذا الأمر لأن البلاغة فن من الفنون قبل أن تكون علما من العلوم ، وما دامت فنا فهى تتطلب ما تتطلبه الفنون من حسن العرض وجمال التنسيق وخلق الذوق الأدبى فى المتعلمين ، ولهذا كانت حاجتها إلى الأكثار من النماذج العربية الصحيحة الفصيحة . ومن العرض المتأنق الجميل الحاجة القصوى ، ولكن ما ذا نقول حين نرى أستاذ البلاغة فى الجامعة المصرية يعرض هذا الفن ، كما يعرض واعظ العامة موعظته فى أسلوب عامى ركيك ، ولنقتصر الآن على عرضه لثلاث آيات من كتاب الله الكريم :

١ — (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) يشرحها الأستاذ هكذا « وبعبارة أخرى يريد الله أن يقول : هو محمد ده يطلع إيه ؟ محمد هذا والرسل من قبله مجرد (سماة بوسته) هو مرسال زى المراسيل اللى قبله ... بيجى ويروح ويموت وينقتل ... الخ فاذا حصل شىء من هذا يبقى خلاص انقطع ما بينكم وبين الله ؟ هو ينفعهم لا على نكوصهم عن محمد ، بل لنكوصهم من أجل موت محمد . ولذا يقول : أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ... الخ ... انتهى بنصه وفصه ! !

صدقنى — أيها القارئ — أن هذه عباراته . فهل هذا هو التجديد ؟ هذا كلام يمكن أن نتصور صدوره من واعظ يلقى عظته على جماعة من (البرابرة) فيضطر إلى أن ينحدر هذا

الانحدار ، على أنى واثق من أن مثل هـذا الواعظ يعف لسانه وذوقه عن هذا الهذيان !

ولـكن ما الحيلة والرجل من كبار المجددين فى علوم البلاغة ، أليس التجديد هو مخالفة الأقدمين ؟ أليس التجديد هو البساطة والحذلقة ، وما المانع من أن يلقى على طلبة الجامعة أن محمداً وعيسى وموسى وإبراهيم وجميع الرسل ليسو إلا « سعاة بوسته » ؟ وهل فى ألسنة البلاغيين أصدق وأبسط وأحسن من هذا التعبير الجميل الظريف الخفيف ؟ !

٢ — قال الله تعالى « وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير » . وقال الشيخ نفعنا الله به وبعلمه آمين : « انت مش حتسمع اللى فى القبور . والحقيقة أنه هو مش قدام أموات ، وإنما قدام ناس ألواح وبهايم ، والقرآن بيقول له : إنك حريص قوى على هدايتهم ، والأحسن انك ماتحرصش كثير على هذه الهداية . قال له ذلك لأنه شاف إنه كاد لفرط عنايته بأن يهتـدى هؤلاء القوم أن يخرج عن حده فينسى أن مهمته هى مجرد التبليغ . هو عمال يحرق فى دمه مع الناس دول ، ووفاؤه لمهمته هو الذى يحمله على الإسراف فى الإلحاح ويهز فى هذه الألواح ، ويحاول أن يبعث فيهم نفحة من الهداية بأى ثمن . فقال له الله : يا أخى انت حارق نفسك ليه ... انت مانتش حاجة أبداً إلا نذير تنذر من يُنْذَر ، وتخوف من يخاف ، وتعلم من يتعلم ، وتنبه من يتنبه ، ودول أموات ... فالأحسن لك انك تريح نفسك » .

والله ماأدرى ماذا أقول ؟ وإنى لخائف أن أقابل هذا الـكلام بما هو به جدير فيستثقل القراء ويستبردون كلماتى . ولو أن فى الجامعة قوما يحاسبون المدرس لاتهموا هذا الأستاذ بتهم أقلها إفساد ذوق التلاميذ .

على أن شرحه بعد ركاكته وتهافته — ليس موافقاً كل الموافقة لـما تنطق به الآية ، وإدراك ذلك سهل ميسور .

٣ — وقال عز وجل « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » . ويقول الشيخ : «الحوار فى هذه الآيات بين عيسى وبين الله حوار خيالى محض صور وقوعه بعد أن انتقل عيسى من هذا العالم الذى نحن فيه بدليل « فلما توفيتنى » وكأن الله يقول لهم « أنتم بتقولوا عيسى ده إله ، وإنه هو الذى أمركم أنكم تعبدوه ... نجيبه ؟ نسحبه ونسأله ؟ ثم صور بعد ذلك أنه لو قام وبعث إلى الحياة لدار بينه وبين الله هذا الحوار : الناس الباردين دول ... هل أنت قلت لهم ياعيسى إنك إله ؟ قول لهم ؟ قل لهم يا أخى » !

بمثل هذه الأساليب البارعة الفاتنة يلقى مدرس البلاغة فى جامعة فؤاد الأول ، وسيد المجددين كما يدعى ... يلقى دروسه !

ومن الانصاف أن نذكر أن الأستاذ الفاضل أدرك أخيراً ما فى هذه الأساليب من ضعف وسخافة ، فأشار على تلاميذه أن يمروا بالقلم على بعضها ، ولـكنه بعد قلم خفيف إن مر على دفاترهم ، فلن يمر على أفكارهم وأذهانهم ...

على العمارى
مدرس البلاغة بمعهد القاهرة

في التربية الحربية :

التاريخ والقومية ...

للأستاذ إبراهيم على طرخان

في الواقع يصعب تحديد معنى كلمة «تاريخ» ، بل فهمها على الوجه الصحيح ، فليس هناك تعريف نهائي مطلق ، لسبب واحد فقط : وهو أن مجرد إدراك التاريخ على حقيقته جزء من التاريخ ؛ لذا كان التعريف خاضعاً لقانون التطور ، ومن هنا كان لكل عصر ، بل لكل أمة تعريف خاص ، أطلق على ضوء فلسفة العصر وأهداف الأمة ومثلها العليا .

وليست مهمة المدرس في ابتداع تعريف جديد ، أو حتى التسليم بتعاريف أخرى — إن كان للتعاريف أهمية في المراحل الأولى من التعليم — ما لم يحللها ويتفهمها ويقتنع بها فيما بينه وبين نفسه أولا ؛ غير أن الأجدر به أن يوجه همته ونشاطه نحو تفسير ما غمض في حياتنا المعاصرة ، وذلك على ضوء التاريخ ، فالاتجاه الحديث في تعليم التاريخ يقتضي هذا النهج لأمرين :

١ — إن الحاضر هو منبع الأسئلة ومثير الاستفهامات ومحك التفكير ، بل هو مغر كل الأغراء للاطفال فضلا عن الكبار ، وهو معقد كل التعقيد .

٢ — هنالك ماض لا يزال حياً في حاضرنا يؤثر فيه ولم تنقطع صلته به ، كمظاهر الحضارة والتقاليد وغيرها ، ويعتبر الحاضر امتداداً له .

لهذا كان الحاضر متشعب النواحي مختلف الاتجاهات ، وهي سنة كل مجتمع في بنائه وقيامه على الاختلاف لا على التشابه ، ولفهمه على أصوله لا بد من التاريخ ، ولدى الأطفال استعداد فطري تاريخي[1] . هذا يوضح أن من الممكن فهم التاريخ على حقيقته ؛ يقول الدكتور Barker : «قد يجعلنا التاريخ متفرجين على الحاضر وما هذا الوجود المعاصر إلا حلقة من حلقات ماضينا التاريخي ، فالتاريخ إذن هو إدراك النفس الشاعرة لكنها في مظهرها الحديث »[1] ؛ وما الإنسان المعاصر نفسه إلا إحدى مظاهر أو نتيجة ذلك الماضي البعيد : وحينما يستطيع الإنسان تفسير حياته بالتاريخ ، أمكننا أن نقول : إن الإحساس التاريخي قد تكون لديه ونما فيه .[2]

وإذا نحن تصورنا التاريخ على أنه مادة أو كتل من المعلومات Bodies of Knowledge ، كنا مخطئين ، فما هذا الاعتبار ، بمعنى آخر ، ما تقسيم المعرفة الإنسانية إلى مواد إلا تقسيما مصطنعاً لا مقابل له في عالم الحقيقة والواقع[3] ، إذن علينا التحلل من هذا الاعتبار إلى حد كبير ، بل من دكتاتورية الكتاب المقرر ، فليس هو الفيصل في معرفة التاريخ أو آخر معرفة له ؛ وربما — إن كان صالحاً — اعتبر مجرد مقدمة وتمهيد لدراسة التاريخ على حقيقته[4] .

قد يميل البعض إلى اعتبار التاريخ رواية تمثيلية ، منقطعة كل الانقطاع عن حياتنا الحاضرة ، بدعوى أنه يمت إلى عالم آخر غير عالمنا . هو عالم الأموات ، وقد مات بموتهم ، فلا أهمية حقيقية في النبش عن أحوالهم ، ولا بأس من إيراد دعوى من هذا القبيل قال بها أحد علماء العصور الوسطى بصدد حديثه عن المؤرخين : «وهم على شفا جرف هار ، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس »[5] ويشترط بعد ذلك شروطا في المؤرخ لا محل لها هنا ، والزعم بأنه قد مات بموتهم والحديث فيهم أو عنهم إنما من باب القصص ليس غير لا يتمشى مع المنطق ولا الحقيقة ، تلك الحقيقة التي تطالعنا كل يوم في كل مظهر من مظاهر حياتنا المعاصرة : في المباني ، في الزى ، في المواصلات ، في التقدم ، في القنبلة الذرية في غيرها ... ؛ كل هذا إنتاج تسلسل طويل ، وكل مرحلة لابد لها من بداية ، وما دامت الحياة كائنة ، فلم تدن النهاية بعد ؛ هذا يوضح لنا ارتباط الماضي بالحاضر ووجوده فيه وامتداد هذا كله إلى المستقبل . وربما أراد البعض بالتاريخ في هذا المعنى الروائي أو الدرامي ، أننا متفرجون ، وهذا خطأ إن وقف المعلم والتلميذ

---

(١) ينظر بحث الدكتور القوصي : «سيكلوجية المواد الاجتماعية» بكتاب : مؤتمر تدريس المواد الاجتماعية ص ٢١ — ٣٧

(١) T clarke : Foundations of Teaching History, Ch2, PP 34 etc

(٢) المصدر السابق ص ١٥١ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٤) Bourne H . E . The Teaching of history and Civics In the Elementary and Secondary Schools, PP. 51 etc

(٥) السبكي (تاج الدين بن عبد الوهاب) : «معيد النعم ومبيد النقم» ص ٩٤ .

موقف المتفرج ، فالمهمة الحقيقية للمعلم : إلى أى حد يشعر التلميذ أنه ممثل وليس متفرجاً ؟ ! كثير من الشخصيات تبدو فى مخيلته ، قد لا تختلف عنه إلا فى الشكل أو العرض لا الجوهر ؛ فأى نصيب أو سهم يكون له فيما يقومون به ؟ فيم يختلفون عنه كما قال قيصر أو الثورة الفرنسية ؟ ؟ إنه يترك مسرح درس التاريخ ، وتغرب شخصيات الرواية عن خاطره ، ومن ثم يتجه فى طريق ، بينما اتجهت الدراما الإنسانية العامة إلى نحو آخر .

وقد غالى دعاة هذه الناحية إلى حد تفضيل بعض الروايات المشهورة على التاريخ ودراسته من حيث الأثر وما تتركه فى النفس ومثلوا بروايات « شكسبير » نحو : Hamlet و macbeth والرد واضح ، فإذا أعتقد المشاهد أو الدارس ، أن ما يرى أو ما يقرأ أو ما يسمع قد وقع فعلا وشمل أناسا مثله لا يختلفون عنه كثيراً ربما كان هذا أبعد فى تأثيره وأعمق فى إيحائه [(١)] ويستوى فى هذا الكبار والصغار إلى حد ما ، والواقع ليس التلميذ الصغير مستعدا لإدراك حقيقة التاريخ كشىء يشمله مباشرة ، كمجرى أو أسلوب عام للحياة ، هو نفسه عليه أن يأخذ بنصيب فى هذا الأسلوب : إن إعلاء أو استمرارا أو تعديلا ، لأنه يبدأ حياته حيث انتهى أسلافه ؛ وإذا حاولنا النقص والهدم لاحتجنا إلى القرون الطويلة التى قضاها أسلافنا فى التطور فى مختلف فروع الحياة ، حتى وصلوا إلى المرحلة التى نحن عليها ، والتراث الذى خلفوه لنا ... [(٢)]

على هذا كان تدريس التاريخ بل فهمه على الوجه الصحيح غير ممكن إلا للراشدين . ففهمه يحتاج إلى خبرة ، وخبرة الطفل لا تزال قاصرة ، والخبرة أساس فى تكوين « فلسفة الشخص » أو نظرته إلى الحياة ، وهذه الفلسفة أشعر حقيقة أنها تنقصنا نحن الكبار ، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لمعظم الراشدين فكيف تكون بالنسبة للطفل ! ؟

ومع كل هذا لا بد من تدريس معلومات للطفل فى مراحله الأولى تحت عنوان « تاريخ » . ما هى هذه المعلومات ؟ وكيف تدرس ! مبحث آخر

المهم الآن ، هو أن التسليم بهذه الحقيقة يزيل من أمامنا الكثير من فوضى المهد القديم والطرق التقليدية التى من أبرز خصائصها فى رأى فيلسوف التربية الحديثة « ديوى » ثلاث :

١ — الالقاء المطلق أو الإيجابية المطلقة من جانب المدرس .

٢ — الاستماع المطلق أو السلبية المطلقة من جانب التلميذ وعدم احترام فاعليته وذا تيته .

٣ — صب المعلومات دون نظر إلى قيمتها فى نظر التلميذ [(١)]

فيحفظ التلميذ شيئا من الأحداث والألفاظ ، لا دلالة لها فى نفسه بالمرة ، ثم نعتقد بعد هذا خطأ أننا نعرف تاريخا أو نعلم تاريخاً ، لا لشىء إلا لأننا قرأنا وحفظنا الكتاب المقرر ، وأساس هذه الفوضى وهذا الإفلاس فى النتائج من (حيث تكوين المصرى المثقف المتعلم) المستفيد من التاريخ الحقيق ، هو الخلط بين التاريخ وكتاب التاريخ ، وهذا خلط طبيعى فى مثل هذا الموضوع ، ومما يزيد فى صعوبة تدريس التاريخ الحقيق للطفل عدم إمكان تطبيق الطريقة العلمية أو التجريب فى تدريس التاريخ ولا أسمى استخلاص الحقائق من الوثائق طريقة علمية لتدريس التاريخ ، فهذا عمل المؤرخ المختص ووفق شروط كثيرة جداً ودقيقة لا تتأتى للمتعلم الناشىء — إن أردنا إخراج مؤرخين — ويمكن تلخيص هذه الشروط فيما يندرج تحت هذين الأساسين :

١ — معيار الصدق والحيدة العلمية التى يجب أن نتأكد منها مقدما بالنسبة لمؤلف الوثيقة .

٢ الدقة والوضوح الذى يجب توفره فى الوثيقة [(٢)] .

هل يمكن أن ألخص ما سبق فى أن التاريخ هو طريقة للحياة ، هو مجرى الحياة المتدفق ، هو مدى شعور المعاصر الدارس بنصيبه فى هذا المجرى . وما ينبغى عليه كمصرى يعيش فى القرن العشرين؟ بمعنى آخر : إن إجابة السؤال الأول تعطينا فلسفة التاريخ . » [(٣)]

ما الذى نعنيه من تدريس التاريخ ؟ هذا مبحث المقال القادم إن شاء الله .

إبراهيم على طرخان

---

(١) F . C . , B 28

(٢) الدكتور حسن عثمان (منهج البحث التاريخى) مقالات نشرها بمجلة الرسالة تحت عنوان « كيف يكتب التاريخ » صيف سنة ١٩٤١م

---

(١) Dewey : School and Society : Ch. 2.: The school and the life of the child PP 31—56

(٢) Keatinge: Studies in the teaching of History Ch 2 : The Scientific method in teaching Hist. and school problems P.P.29—32.

ينظر أيضاً : الدكتور زياده : صناعة التاريخ فى مقالات بمجلة الثقافة

(٣) ينظر بحث : شفيق غربال بك : « التاريخ والمدرسة » فى كتاب (مؤتمر تدريس المواد الاجتماعية) (ص ٦١ — ٦٥)

من عيون الأدب الغربي :

رحلات تشيلد هارولد لبيرون

للأستاذ بولس سلامة

— ٢ —

تمهيد :

استيقظ بيرون ذات صباح فاذا هو شاعر مشهور . كان ذلك غداة نشره المقطوعتين الأوليين من ديوانه « رحلات تشيلد هارولد » وفى هذه الأشعار وصف بيرون رحلته الأولى فى أوربا حيث طاف بأسبانيا وروما واليونان فوصف المدائن البالية ورثى الدنيات الخالية وحنّ وأنّ وبكى واستبكى ، ولم يكن فى كل ما كتب إلا واصفاً وناعياً نفسه المحطمة المنكوبة التى لم تحب الناس ولم يحبها الناس . نبذهم ونبذوه فراح يلتمس فى وحدة البحر وحطام الدنيات البائدة عزاء لنفسه المحطمة الوحيدة . وفى المقطوعات التالية ترى وتسمع بيرون يودع بلاده ويرثى مجد اليونان ويصف البحر الواسع العميق .

الوداع :

وداعاً وداعاً يا شط بلادى ؛ أيها الشط المتوارى وراء خضاره . بين ولولة الرياح وعجيج الأمواج . وأنت أيتها الشمس المائلة للغروب لك كما للوطن أقول وداعاً .

* * *

ولكن سوف يتنفس الفجر ، وتشرق الشمس من جديد على التلال والوهاد إلا أرض بلادى ؛ فقد غبيت فلا تعود . قصرى أقفرت عرصاته ، وموقدى خبت فيه النار ، واعشوشب المسكن من حوله . أما كلبى فظل وحيداً ينبح عند الباب .

* * *

والآن غدوت وحيداً فى العالم ؛ فوق هذا الخضم الواسع العميق ، ولكن فيم حنينى إلى الناس ، وليس فى الناس من حان على، حتى كلبى سوف يطعمه الغريب. فاذا ماعدت نبحنى كالغريب. أيها السفين الأمين : شق طريقك فى اليم كما تشائين ، والقِ مرساتك فى أى أرض . فلست أبالى وقد هجرت وطنى أى أرض تقصدين ، وأنت أيتها الأمواج المتلاطمة مرحى مرحى فان غبت عن ناظرى . فلتتبعن الصحارى والوهاد . وداعاً وداعاً يا أرض المهاد .

البحر :

أيها العباب الواسع العميق . تشق آلاف الأساطيل مياهك بلا نهاية ، والإنسان الذى يملأ الأرض ضجيجاً وذعراً يقف على شطك حاسراً ذليلا . فان تجاوز الشط ابتلعته أمواجك ، وغاب فى قرارك بلا قبر ولا أكفان ولا مشيعين واحتواه نسيان عميق .

* * *

على سواحلك قامت الامبراطوريات ثم عفت ، وازدهرت المدنيات ثم اختفت . أين أشور ويونان وروما . داعبت أمواجك شطآنها وهى حرة تحكم . ولا تزال تداعبها وهى مستعبدة تُحكَم . والزمن الذى يغير كل شىء لم يغيرك ، ولم تملُ جبينك الغضون . فأنت الآن كما كنت فى فجر الخليقة فتى القلب غض الإهاب .

بلاد اليونان :

يا بلاد يونان الجميلة : أيها الأثر الباقى لمجدٍ خلا . نبيلة أنت فى شقائك . خالدة أنتِ فى فنائك ؛ من يقود أبناءك المشردين ؛ الذين طال مكوثهم فى الأغلال . أين أولئك الأمجاد الذين وقفوا والموت فى مضيق ترمبوليه . وقفوا كالسد أمام القاهر العادى . ليتهم يعودون إليك الآن . فينفخون فيك من بطولتهم الخالدة ، وينقلون أبناءك للحياة . أيها الراسفون فى الأغلال : ليتكم تعلمون ، إن الذين يتطلعون إلى الحرب عليهم أن يحطموا أغلالهم بأيديهم ، وأن يعتمدوا فى كسرها على سواعدهم لا على سواعد الآخرين فرنسيساً كانوا أو مسكوف . دعوا عنكم هذه الأوهام . فقد يعاونكم هؤلاء على توهين خصمكم ، ولكن حريتكم فى يدكم . يا أشباح الذل كافحوا عدوكم وانتصروا . أى بلاد يونان تغيرت السادة وبقيت شقية ، وزالت عنك السيادة ولم تزل فى كأس الذل بقية .

(الخرطوم — سودان) **بولس سلامة**

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٤ —

أربع سنوات بغير حرب :

نشر ملتن كما أسلفنا كتيبيه الأخيرين في دفاعه عن حق إباحة الطلاق بعد كتيبه الذي ناضل فيه عن حرية الرأي ، ثم سكت منذ شهر مارس سنة ١٦٤٥ ، فلم يكتب مجادلا أو مخاصماً إلا ما ندر من الشعر حتى سنة ١٦٤٩ ، فكانت هذه السنوات الأربع فترة سكون أعقبها وثبة قوية في ميدان آخر هو ميدان السياسة

وقبل أن ننظر فيما كان من أمره في هذه السنوات الأربع نشير إلى مقال أثبت فيه رأيه في التعليم ، وقد نشره قبل ذلك ببضعة أشهر ، أي في صيف سنة ١٦٤٤

كتب ملتن هذا المقال الذي لا يزيد عن ثمان صفحات بإيحاء صديق له يدعى « صمويل هارتلب » ، وهو ينتمي في أصله إلى دنزج ، وقد أقام في لندن منذ سنة ١٦٢٨ ، وكان مهتماً بفلسفة التعليم وتجديد أسلوبه على نحو قريب مما دعا إليه بيكون في انجلترة وكومنيس في أوربا من قبل ...

وينصب رأي ملتن على التلاميذ من سن الثانية عشرة إلى الحادية والعشرين ، وتلمح في المقال على صغره خصائص أسلوبه ونوازع وجدانه ، ففيه مثلما يحسه المرء في كتيباته من السمو بالغرض في كل ما ينهض له ، وفيه النظرات الحرة التي لا تتقيد بقيد ، والتي تنفر من كل متواضع متعارف ، وفيه كذلك الاعتزاز بالرأي والتحمس له والاستناد إلى مصادره هو وإنكار ما عداها !

وعنده أن التلاميذ في هذه السن يجب أن يفرغوا في وقت قصير من قواعد اللاتينية والإغريقية ، وأن يطالعوا بعد ذلك بعض الكتب الإغريقية السهلة ؛ ويجب أن يتخلل هذه الفترة من دراستهم محاضرات تذكي في أنفسهم حب العلم والفضيلة ، ومتى اكتمل شعورهم بأداء الواجب « صعَّدوا في سفح المعرفة غير معجلين ولا وانين » ؛ وعليهم أن يتقنوا دراسة الكتب الإغريقية واللاتينية في كل فروع العلم ، ولتخصص ساعة للسان العبري ، ولكيلا يسأموا ينبغي أن يعلموا المصارعة والملاكمة وأضرابهما من فنون الرياضة ، وأن يقلدوا بعض المارك ليفهموا أساليب القتال ، وأن يسمعوا الموسيقى لتنعشهم وتهذب نفوسهم ...

وواضح من منهاجه هذا أنه يقيس على نفسه فيقترح هذا العبء الثقيل للتلاميذ ، لأنه نهض بما هو أثقل منه في غير عناء ، وكأنما تأبى عليه شدة ذهابه بنفسه إلا أن يجعل من كل ما يعمل وما يرى من رأي مثالا ينبغي أن يحتذيه الغير... وهو في منهاجه كذلك يخرج على البيوريتانز ، إذ يوجب تعلم الاغريقية واللاتينية وشتى فنون المعرفة ...

وألقى ملتن قلمه منذ أوائل سنة ١٦٤٥ ، وظل يترقب في هدوء أنباء الحرب الأهلية التي مالت معركة نسبي بكفتها نحو أعداء الملك في يونيو من تلك السنة ، وكانت آثار الجهد بادية عليه لفرط ما جادل وناضل منذ أن ألقى بقيثارته على رغمه وشرع قلمه في سنة ١٦٤١ ليبدأ حربه على القساوسة ، ولكنه استشعر بعض العزاء في عودة زوجته إليه بعد معركة نسبي بقليل ...

وكان منزله الجديد في حي باربيكان الذي استأجره بعد عودة زوجته يكاد على سعته يضيق بمن فيه ، لذلك كانت المعيشة فيه ينقصها الراحة والهدوء ، الأمر الذي ضاق به صدره أحياناً ، ففيه لا يزال يتلقى العلم على ملتن عدد من أبناء أصحابه لا تخفت أصواتهم في أكثر ساعات النهار ، وفيه يقيم ابنا أخته ، ويقيم معه كذلك في منزله أبوه وهو اليوم شيخ كبير ، كما حضر ليقيم معه مستر پوول وزوجته ونفر من أسرتهما سنة ١٦٤٦ بعد أن سقطت أكسفورد وفورست هل في يد أنصار البرلمان . وجاء ليميش

أخوه كرستوفر على مقربة منـه ، وكان لا ينفك يضايق ملتن بعسره وبمشكلاته القضائية التي جاءت في وقت واحد مع مثيلاتها من مشكلات آل بوول ...

ولم يعدم الأدب نصيراً في تلك السنين العاصفة ، وكان هذا النصير هو ناشر يدعى موزلي على جانب ملحوظ من الثقافة ، وكان مما نشره موزلي في خريف سنة ١٦٤٥ كتاب كتب على غلافه : « قصائد مستر جون ملتن الانجليزية واللاتينية ، نظمها في أوقات متفرقة »

وكان هـذا الكتاب ينتظم شعر ملتن كله من أول عهده بالقريض حتى ذلك اليوم ؛ وفي الصفحة الأولى أثبت ملتن عبارة مقتبسة من فرجيل مؤداها أن للشعر هواه ومتجهه لا للكتيبات ، وأنه لا يحب أن يعرف بشيء إلا بالشعر ، وأثبت كذلك في تصدير ديوانه ما تسنى لشعره من تقريظ الأجانب إياه وثنائهم على صاحبه!

ولا ريب أن خصومه من المتزمتين قد وقعوا كما صورت لهم عقولهم ونوازعهم على أكثر من غميزة في هذا الشعر الذي يزخر بصور الجمال والفتنة وخرافات الاغريق والرومان ، وفي تلك الأغنيات التي لحنها على أوتاره الملحن (لو) الذي ينتمي إلى حزب الملك ، وأنهم لذلك تغامزوا فيما بينهم ونعتوا باللاتينية أو مايقرب منها ذلك الشاعر، وسخروا من ذلك الذي طالب بإباحة الطلاق، وثار على الرقابة وخاصم البرسبتيرز ، فمايطلب في رأيهم إلا الأباحية وإن زعم أنه يدافع عن الحرية ...

ولـكن كثيراً من المثقفين تقبلوه بقبول حسن ، وأشربوا في قلوبهم محبته ، ومن هؤلاء صديق له مرموق المكانة في الأدب والثقافة هو الدكتور روس الذي كتب إليه يسأله نسخة ثانية من كتابه ، فأرسلها إليه الشاعر مشفوعة بمقطوعة يثني فيها على هذا الصديق ويتواضع على غير عادته إذ يشير إلى مبلغه من الشعر في صدر شبابه ، ويحن إلى تلك الأيام التي أقبل فيها على النظم أول ما أقبل حين كان حدثا لا تكاد تبلغ الأرض قدماه إذ يكتب ، ويأسف إذ يرى اليوم ربات الشعر تروعها الحرب القائمة وتطيرها ...

والحق أن للمرء عذره بادىء الرأى إذ أحس التناقض بين أن يكون ملتن بيوريتانياً ، وأن ينطق لسانه بهـذا الشعر ، ويفيض قلبه بهذا الاحساس الغامر بالحياة ومسراتها ولذاذاتها وكل جميل فيها ، ولـكنه لا يكاد يتذكر مولده بين ربيع الأليزابيثين وصيف البيوريتانز حتى يدرك ما ذكرناه عنه من قبل أنه كالطائر المتخلف الذي يغني في هجير الصيف ألحان الربيع .

ولقد أشار مكولي إلى هـذه الناحية من حياة ملتن فجاء بوصف بديع يحملنا لفرط قوته على أن نثبته هنا غير منقوص . قال بعد أن تحدث عن الملكيين والبيوريتانز « لم يك ملتن منتمياً بمعنى الانتماء الحق إلى طائفة مما ذكرنا ، فلم يك بيوريتانيا ولا من ذوي التفكير المطلق من قيود الدين ولا ملكياً ، فقد اجتمعت في أخلاقه وائتلفت من صفات كل طائفة أكثرها نبلا ، فمن البرلمان والبلاط ، ومن مجتمع المنشقين على الكنيسة والفناء القوطي للكتدرائية[1] ، ومن حلقات البيوريتانز الكئيبة الموحشة كالقبور ومباهج عيد الميلاد عند ذوي الجود من الفرسان ، من كل أولئك انتقت طبيعته واجتذبت لنفسها كل ما كان عظيما صالحا بينما نبذت كل ما من شأنه أن يشوه تلك العناصر الخلقيـة من الخلال السافلة البغيضة ... فعاش كالبيوريتانز عيشة من يحس أبداً أنه تحت عين الباري الأعلى[2] ، وكان مثلهم لا ينقطع تفكيره في المهيمن العـدل؛ وفي الجزاء السرمدي ؛ ومن ثم فقد أخذ عنهم احتقارهم للملل الظاهرية ، وقوة بأسهم وطمأنينتهم وعزمهم الذي لا يلين ؛ ولـكن أعظم الناس شكا في الدين وأكثرهم استهزاء به لم يكن أكثر منه انطلاقا من عدوى أوهامهم الجامحة ، ومن عاداتهم الوحشية ورطاناتهم المضحكة ، وازدرائهم العلوم ومعاداتهم متع الحياة ؛ ولئن كان يكره الطغيان أشد الكره فانه كان على الرغم من ذلك يتصف بتلك الصفات الغالية القيمة التي يتحلى بها من يكتسبها ، والتي كادت تكون وقفا على أنصار الطاغية[3] فلم يك في الناس من هو أكثر منه إحساساً بقيمة الأدب ، ولا أرق

(١) يقصد مكولي البروتستنت ومن تفرع منهم من الطوائف ، والكاثوليك

(٢) هذه العبارة مقتبسة من مقطوعة ملتن التي جعل عنوانها « عند ما بلغت سن الثالثة والعشرين ».

(٣) يقصد الفرسان أنصار الملك

منه استساغة لكل متعة مهذبة ، ولا أكثر منه شبهاً بسجايا الفروسية فيما يتصل بالشرف والحب ، ولو أنه كان ديموقراطياً فى آرائه إلا أن أذواقه وصلاته كانت أكثر مشاكلة للملكية والارستقراطية ؛ ولقد كانت تحيط به كافة المؤثرات التى أضلت ذوى الأناقة والشجاعة من الفرسان ، ولكنه لم يك عبداً لتلك المؤثرات بل كان سيدها المسيطر فكان كبطل[1] هوميروس الذى استمتع بلذاذات السحر جميعاً ولكنه لم يعتقله السحر ، فقد أصغى إلى أنشودة « السبرينز » ولكنه اتخذ سبيله فى البحر بقربهن فلم تمسسه منهن غواية تجنح به إلى شاطئهن المخوف . وشرب من كأس سَيْرِس[2] ولكنه كان يستحوذ على ترياق أكيد يبطل أثر حلاوتها الساحرة ، وكذلك كان ملتن ، فلم يك ما تملك خياله من الأوهام ليوهن من قوة حكمه على الأشياء فكان له من رجل السياسة فى شخصه دريئة تدرأ عنه ما يسحر الشاعر فيه من أسباب الروعة والجلال والخيال ؛ ويدرك مانعنيه بقولنا هذا كل من يتبين مبلغ ما هنالك من تضاد بين ما أفصح عنه من عواطفه فيما كتبه من مقالات عن القساوسة وبين تلك الأبيات الرصينة الجميلة عن العمارة الكنسية والموسيقى الكنسية فى قصيدته البسبروزو التى نشرت حوالى ذلك الوقت الذى نشرت فيه المقالات[3] ، وتلك من المتناقضات التى تسمو بأخلاقه فى نظرنا أكثر من كل شىء غيرها لأنها ترينا كم ضحى ملتن من أذواقه وإحساساته الخاصة لينجز ما يعتقد أنه واجبه نحو الانسانية ؛ وإن كفاحه لهو بعينه كفاح عطيل النبيل ، ذلك الذى يرق قلبه ولكن يده ثابتة ، والذى لم يأت عملا قط عن كراهة بل فعل ما فعله كله بدافع الشرف فهو يقبل خادعته الحسناء قبل أن يهلكها » .

ويخيل إلينا أنه وقد رأى شعره فى كتاب يلقاه منشوراً يتداوله الناس قد عاود نفسه الحنين إلى النظم ، وتمنى لو ترك ضجيج الحرب وأنبائها وعاد إلى محراب الفن ، ومن ثم كانت مقطوعته عن الساحرة التى نظمها سنة ١٦٤٥ والتى جعل عنوانها « إلى صديقى هنرى لو » ؛ وكان لو هو الذى لحن له بعض أغانى أركادس وكومسى كما أسلفنا ومثل دور الروح الحارس فى الغنائية الثانية وبين الشاعر والملحن من صدر شبابهما محبة ومودة توثقت عراها ولو أن لو كان ملكياً ، ولكن فنه كان أعز على صاحبه من أن يتجافاه بسبب الاختلاف المذهبى بينهما مهما اشتد كما أنه كان لشخصه عند ملتن مكانة لا تدانيها لأحد غيره مكانة . وفى هذه المقطوعة يرفع ملتن قدر لو ويعزو إليه فضل تهذيب الموسيقى فى قومه . ذلك الفضل الذى لن تنساه العصور القبلة ، كما أنها لن تنسى عظيم صيته ، ويقول لصاحبه فى ختامها « لقد مجدت الشعر ، وعلى الشعر أن يحلق كيما يمجدك ... ولسوف يأذن دانتى للصيت أن يرفعك مكانا أعلى من مكان مغنيه كازلا الذى لاطفه كيما يغنى له إذ لقيه فى المطهر فى غبش أرق من غبش الجحيم »

ولكن الشاعر لا يكاد يلمس بكفه هذه الأوتار الهادئة الساحرة التى طال به عهد هجرانه إياها وعاوده الحنين إليها حتى يدعها إلى أوتار صاخبة ترن رنيناً مزعجاً مثل ضوضاء المعركة ، فقد مس أذنيه طنين هو بقية سخط البرسبتيرينز على آرائه فى الطلاق ، فنظم سنة ١٦٤٦ مقطوعة عاوده فيها عنفه وصرامة هجائه ونشرها تحت هذا العنوان « إلى مستكرهى الضمائر الجدد فى عهد البرلمان الطويل » وفيها يرمى البرسبتيريز بتهم قاسية . فيقول إنهم وإن كانوا قضوا فى الواقع على سلطة القساوسة فانهم لم يفعلوا ذلك إلا ليُكرهوهم بعبادتهم ضمائر الناس التى حررها المسيح ، وأنهم لم يكونوا خيراً من القساوسة الذين قوضوا سلطانهم لا بدافع النقمة على آثامهم بل بدافع حسدهم إياهم على تلك الآثام ، ثم يتوعدهم الشاعر بكشف الستار عن ألاعيبهم

---

(١) يقصد مكولى « أوليس » بطل الأودسة فقد مر فى سفينته بالساحل الذى كانت تغنى عنده جنيات البحر الثلاثة المعروفات باسم « السيرنز » والتى كانت أغانيهن تغوى البحارة فتهلكهم ، وقد قاوم سحرهن بأن ربط نفسه إلى شراع السفينة وسد بالعشب أذ أن البحارة .

(٢) ساحرة كانت تحيل بكأسها الرجال إلى دواب أو طيور ولكن أوليس وقد مر بجزيرتها وشرب من كأسها كان معه عشب أبطل به سحرها .

(٣) فرغ ملتن من حربه على القساوسة سنة ١٦٤٢ ونشرت قصائد سنة ١٦٤٥ فلعل مكولي يقصد ماجاء من طعن على القساوسة بوجه عام فيما تضمنته كتاباته عن البرسبتيريز سنة ١٦٤٤ أما تلك الأبيات فقد عبر بها ملتن عما تبعثه رؤية العمارة الكنسية وسماع الأرغن من روعة الدين وجلاله فى نفسه وكان يصف كنيسة قديمة كاثوليكية

ومكرهم ويستعدى عليهم البرلمان ، ويذكر أسماء بعض رجالهم فيسخر منهم ويتجاهلهم ، ويختم مقطوعته بتلاعب لفظى يفهم منه أن البرسبيتر ما هو إلا قسيس كتب اسمه غير مختصر .

وبعد هذه المقطوعة آثر ملتن أن ينفض يديه من الخصومات ولعله سئم طول القتال ، أو لعل ذلك لأنه فى الواقع لم يجد ما يثيره ويسخطه ، أو لعله يئس من بنى قومه جميعاً ورآهم لا يستحقون منه ما يلقى من أجلهم من عنت الخصومات وغل الحزازات .

ولكنه وقد ركن إلى الراحة لم يظفر بها فى بيته فقد ازدادت فى البيت دواعى متاعبه وضيقه ، فأضيف إلى ما فيه من جلبة صراخ بنتين ولدا له تباعا فى سنتى ١٦٤٦ وما بعدها ، ومازال جيرانه وأنسباؤه يضايقونه بمشكلاتهم وأحاديثهم التافهة التى يتجرعها ولا يسيغها ، ولقد شكا من هؤلاء الناس فيما كتبه إلى صديق له بإيطاليا سنة ١٦٤٧ يصف حاله فقال : « هؤلاء الذين لا يربطنى بهم إلا مجرد الجوار يحضرون لمجالستى كل يوم فيضجروننى بل يكادون من فرط ما أحس به من ثقلهم يدفعون بى إلى الموت » .

وفى سنة ١٦٤٧ مات حموه مستر پوول ، ولم يمض غير قليل حتى مات أبوه فحزن الشاعر عليه حزناً عميقاً ، فقد كان يجله ويذكر دائماً ما له عليه من فضل ، وترك له أبوه مالا تحسنت به حاله ، فصرف تلاميذه لأنه استغنى عما كان يناله منهم من أجر نظير تعليمهم ، ولأنه كانت تغمز على قلبه الرغبة فى أن يعود إلى قيثارته ، واستأجر ملتن منزلاجديداً أكثر سعة وأحسن موقعاً ، وأمل أن يجد فيه ما ينشده من هدوء .

ولكن شيئاً جديداً يقلقه ويخيفه وتتكدر له جوانب نفسه ، وذلك أنه يوقن من تضاؤل بصره ، ولقد بدأ ذلك الإحساس فى نفسه منذ مستهل سنة ١٦٤٥ ، فظنه يومئذ وهماً من الوهم ، ولكنه اليوم تلقاء حقيقة راهنة ، فإنه إذا قرأ فى الصباح تألمت عيناه وأحس بظلمة تغشى الجانب الأيسر من عينه ، حتى لتحجب عنه ما يكون فى هذا الجانب من أشياء ... فإذا أضيفت هذه الظلمة إلى ما يكتنفه من ظلمة اليأس مما ابتغى من إصلاح أمكننا أن نتبين مبلغ ما كان يعانيه يومئذ من عذاب ...

فكر ملتن أن يعود إلى الشعر ، ولكن الفجر الذى بشر به فى نهاية كتيبه الأول سنة ١٦٤١ ، والذى لمح إلى طائره الصداح لم ينبثق نوره بعد ، بل لقد ازدادت حلكة الغسق من جراء هذا الاختلاف الشديد فى الدين والسياسة الذى فرق الناس شيعاً وأحزاباً وطوائف متباغية متعاندة ، ومن جراء هذه الحرب المستعرة التى تزلزل المملكة ، وهيهات أن يتغنى شاعر فى ليل كهذا الليل ...

واتجه ملتن إلى التاريخ ، فأخذ يكتب كتاباً فى تاريخ قومه ، ويتبين المرء من مقارنته بين الأقدمين منهم الأنجاد الأذكياء وبين المحدثين الأدعياء الأغبياء مبلغ ما كان فى نفسه يومئذ من سخط وازدراء لأهل عصره ، ومبلغ ما ساوره من هم وسأم من هؤلاء الذين طالما امتدحهم فأطنب فى مدحهم وتوقع على أيديهم كثيراً من الخير !

(يتبع)

الخفيف

مظاهر العبقـــرية في الحضارة الاسلامية

للاستاذ خليل جمعة الطوال

— ١ —

لقد امتدت عداوة المناوئين للاسلام إلى حد النيـل من حضـارته والطعن فى مدنيته وانتقاص أمره وكل ما من شأنه أن يتصل به ؛ وليس أهون على المتحامل من أن يطعن وينال بغير روية ولا تدبر ، ذلك لأن سبيلهما جد ميسورة ، ومؤنة امتهانهما أيسر ، ومن المؤسف حقاً أن تبلغ العداوة للاسلام بالأوروبيين حد الإجحاف بالحق ، والجناية على العلم والتاريخ ؛ ولئن جاز لرجال السياسة أن ينساقوا لتيار أهوائهم وأن يبنوا أحكامهم على قاعدة أغراضهم ومصالح قومياتهم ، فما أحسب هذه السبيل مشروعة فى كتابة البحوث العلمية ؛ ذلك لأن العلم لا يدخل ألبتة فى حساب الأهواء والقوميات ، بل هو أمر مقدس فوق جميع هذه الاعتبارات يزكو بالنزاهة ، ويزهو بالأمانة له ، وهو فوق ذلك ملك مشاع بين جميع الأمم ؛ لا فضل لهذه على تلك فيه إلا بمقدار ما أسدت له من الخدمات ، وأودعت فى كنوزه من الاكتشافات والإختراعات .

وإنه لمن الجناية الـكبرى على العلم ، أن تقوم فى طبقة العلماء فئة لم تحرر بعد من قيود التنازع ، وأغـلال الأهواء ؛ ولا عرفت قط قيمة النزاهة العلمية والأمانة التاريخية ؛ فتحاول جهدها باسم العلم أن تبخس الإسلام فضله على المدنية ، وأن تطمس من سجل الحضارة صفحة مشرقة تشهد بجلالها وروعتها جميع تواريخهم وأدوات حضارتهم ؛ فمن هذه الأحكام الجائرة التى يبرأ منها الإنصاف ويمجها العلم وتلفظها الحقيقة ، ما جاء عن «أنتويه سرفيه» إذ يقول : « لم يكن الإسلام شعلة ، بل مطفأة نشأ من قلب متوحش ، لأمة متوحشة ، فـكان ولا يزال عاجزا عن أن يساير الزمن ويجارى التمدن ، ولقد أثبت فى كل بقعة ارتفعت فيها أعلامه أنه وقف صخرة ناشزة فى سبيل التقدم ، وأنه خنق نشوء المجتمع الإنسانى ، [1] » وفى كتب المغرضين الشىء الـكثير من هذه الحملات الطائشة والأحكام الغثة الجائرة التى لا يدعمها دليل ولا تدمغها حجة .

لم يقف « سرفيه » عند هذا الحد من التحامل بل راح يقول أيضاً « وإن المدنية الإسلامية أقل من أن يعتنى بدراستها إذ هى تقليد مشوه لمدنيتى اليونان والرومان سقط العرب على مادتها فى الـكتب السريانية فاقتبسوها دون أن يعرضوا لها بما يستحق الذكر من النقد ، لأن العربى قد أثبت أن لا قابلية له على استقصاء البحث بصورة جدية ، وأن لا قدرة له ألبتة على إبداع شىء من عنده ، ولم يتقن العرب من العلوم إلا التى لا تحتاج إلى عناء فى التفـكير ، أو مشقة فى البحث ، وكانت سبيلها جد سهلة وميسورة كالتاريخ والجغرافيا وما إليهما الخ .. » وأمثال « سرفيه » فى التشيع والتغرض كثيرون ، وتكاد رفوف المـكاتب تنوء بتحمل مثل هذه البحوث الـسخيفة والحملات الطائشة ، ومن المؤلم حقاً أن نسكت عنها ، وننام عليها كأنها حقائق واقعة لا غبار عليها .

على أن تهاوننا فى دراسة حضارتنا ونشر فضائلها وعرض روائعها للعيان ، لأشد إجحافاً بحقها ، وضررا لها من حملات الأعداء عليها وطعنهم بها ، فاللص لا يقتحم غير البيت المهجور ومن واجب صاحب البيت أن يعمل على صيانة بيته ، وأن يقيه شر العدو . وإننا سنتقدم فى هذا البحث الموجز بإماطة اللثام عن مواطن العبقرية فى حضارتنا ، ثم نأخذ بتفنيد مطاعن الطاعنين فيها بالطريقة الهادئة التى رسمناها لأنفسنا منذ أن اضطلعنا بعبء دحض مفتريات الخصوم وحملات المتحاملين .

انحلال الحضارة الغربية قبيل الاسلام :

تسرب الضعف والوهن إلى قلب الامبراطورية الرومانية العظيمة رويداً رويداً ، وما كاد يتم القرن الخامس للميلاد حتى لفظت هذه الامبراطورية الواسعة أنفاسها ، وأصبحت رقعتها نهبا مباحاً للقبائل البربرية التى كانت تحيط بها ، وتناجزها القتال ، وتشن الغارة عليها بين الفينة والأخرى ، وهكذا أصبحت قبائل القوط والوندال ، والـكلت والهون ، والمغول ، والسكسونيين تتصرف بشؤون أعظم

(١) الاسلام وتقنية العلم — لأنتويه سرفيه .

أمبرطورية عرفها التاريخ ، وكانت هذه القبائل فى الدرك الأسفل من الثقافة ، لاحظ لها قط من أسباب المدنية والعمران ، فقوضت بهمجيتها سرادق تلك الحضارة الرومانية العريقة ، وأصبحت معالمها نسياً منسياً ، واجتازت أوروبا هبة من الزمن كانت تتخبط فيها فى دياجير الانحطاط على غير هدى ، فساد الجهل ، وانتشرت الفوضى ومنيت العقول بالعقم والجدب ، وشل التفكير شلا مريعاً ، ولئن كانت المسيحية إذ ذاك فى عهد انتشارها وازدهارها ، وفى شباب قوتها بحيث استطاعت أن تصمد أمام هذه القبائل المتبربرة المتوحشة ، إلا أن نكبة المدنية بها لم تكن أهون من نكبتها بتلك الشراذم المنحطة ، ذلك لأنها كانت تخشى على عقائدها وتعاليمها من أن تتسرب إليها مشارط الحرية الفكرية فتفسدها ، ولذلك بادرت إلى تقييد الأفكار ، وحجر العقول ، حتى لا تكاد تبض بقطرة من العلم ، وكانت تعاقب على كل نظرية جديدة تصدر عن غير رجال الدين ، ويعلن هؤلاء استنكارهم لها آناً بالموت حرقا وشنقاً ، وحيناً بالتنكيل سجناً وجلداً ... (١)

وكان من نتيجة هذا الحجر على الأفكار وهذا الجهل المطبق أن عم البلاء ، وانتشرت الأوباء ، وأخذ الطاعون يحصد النفوس حصداً ذريعاً .

قال أرديكوس فيتالس أحد مؤرخى القساوسة : « ... عم بلاء المرضى فمضى بأهل بيوت كثيرة ، كما أن الجوع قد أفنى المرضى ؛ فلما أن خربت النيران الأرض ، خرج الأكثرون هائمين على وجوههم ، فلما رأوا أن الأبرشيات قد طمست معالمها ودرست آثارها ، فروا من الكنائس الخاوية هربا إلى حيث لا يعلمون (٢) ...

وقيل : « وقد بلغ من سوء الحالة إذ ذاك أن كان الناس يتكالبون على أكل لحم الميتة وإن أنتنت ، ينبشونها من تحت التراب ، ويطلبونها من على المزابل ... لا يسألون عما تسببه من الأذى وتحمله من الموت ، وكانوا يستشفون من أمراضهم ببول البهائم وبالتمائم والتعاويذ والتعزيم » ... (٣)

وقيل أيضاً : « وكان الطباشير يطلب من الأرض ويمزج بالدقيق ، ليصنع خبزاً ، لقد اصفرت وجوههم وانحطت قواهم حتى لقد عجزوا عن أن يجروا أنفسهم من فوق الأرض جراً وهيئت حفر ليسحب إليها المحتفرون ويلقون فى جوفها . وكانت هذه المصائب تلابسها مصائب أكبر ، وكوارث أعظم . فان الذئاب وقد أنسوا على جوانب الطرق كثيراً من الجثث ملكتها الشجاعة وأغوامم ضعف الناس فراحوا بها جون الأحياء ، أما مواد الطعام فقد خص بها الأقوياء ليظلوا قادرين على العمل لعل الحقول تزرع ولا تبور ... (١)

وظلت أوروبا تائهة فى ظلام الجهالة : إلى ما بعد القرن العاشر ، تغص بالغابات المخيفة التى تقطنها جماعات الوحوش ، وأسراب الطيور الكاسرة « وتنبعث (٢) من المستنقعات الكثيرة فى أرباض المدن روائح قتالة . تجتاح الناس وتحصدهم ، وكانت البيوت فى باريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب ، ولم يكن فيها منافذ ولا غرف مونقة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض ، ولم يكونوا يعرفون النظافة ، ويطرحون أحشاء الحيوانات وخثى البهائم وأقذار المطابخ فى ساحات بيوتهم فتتصاعد منها روائح مؤذية ، وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال ، وبعض الحيوانات الداجنة ، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف القذر يقوم مقام الوسادة ، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح ، قال درابر : وكان من أثر ذلك أن عمت الجهالة بين الناس ، وساورتهم الأوهام ، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة ، ومات الطب ، وانتشرت أحابيل الدجالين ، وكلما دهم البلاد مرض هرع رجال الدين إلى الصلاة ، وأغفلوا أمر النظافة كرها لها ، وكانت الأوبئة تفتك بهم فتكاً ذريعاً .

وإلى جانب هذا الفقر والانحطاط فقد انتشرت الفوضى ، واضطرب حبل الأمن ، وسادت اللصوصية ، وكثيراً ما كان

(١) Gibbon : the Rise and Fall of the Roman Empire

(٢) مجد العرب والاسلام : بحث لاسماعيل مظهر

(٣) المجلة : الأسيوية : تصدرها جماعة المستشرقين

(١) الرسالة : عدد ٢٤٧

(٢) : التاريخ العام : للافيس ورمبو . و (الحضارة العربية) ج ١ — لكرد على .

يخطف السائر وينهب وهو ذاهب إلى بيته أو عمله ولو كان فى رائعة النهار .

تلكم هى مدنية أوروبا قبل العصر الحاضر ، وتلكم هى حالة الشعوب الغربية يوم كان الإسلام هو المدرسة الوحيدة التى تهذب فيها الفكر الإنسانى ، وانبثقت منها أنوار الحضارة والمدنية .

جاء النبى صلى الله عليه وسلم ، والغرب لا يرى النور إلا من سم[١] الخياط ، وأما الجزيرة العربية فلم تكن بأحسن منه حالاً إذ كانت فى جاهلية جهلاء ، يفترس القوى فيها الضعيف ، ويعبد الناس مظاهر الطبيعة ، ويقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويئدون بناتهم بلا رحمة ، وما إن أظهر الله دينه على سائر الأديان حتى أخذ ينشر فى الناس روح العلم والمدنية « تعلموا العلم فإن تعلمه لله حسنة : ودراسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلبه عبادة وتعليمه صدقة وبذله لأهله[٢] قربة ، وبعد أن لم يكن فى الجزيرة سوى بضعة عشر رجلا يحسنون القراءة والكتابة ، فقد أصبحت فيما بعد مثابة العلم[٣] وموئل المدنية ، ومورد الحضارة .

لقد كان العلم أول ما فرضه النبى على المؤمنين بعد نبذ الشرك ، وقد حثهم على طلبه ولو فى الصين ، وأمر به الله فى كتابه العزيز « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ومما يؤثر عن النبى فى ذلك قوله « مداد العلماء أزكى من دم الشهداء » وبلغ من حبه للعلم وحثه على طلبه أن قال « أنا مدينة العلم وعلى بابها » . [٤]

مبدأ الحضارة الإسلامية :

لقد أعلن الله رسالته ، فأقبل الناس يدينون بها أفواجاً أفواجاً ، ثم مات النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس فى الجزيرة بأسرها إلا توحيد فلج الشرك ، وإيمان زعزع الأصنام ، فتوجه خلفاؤه الصالحون من بعده برسالته صوب بقية أقطار العالم الأخرى ، ينشرونها بين شعوبها المتفككة ، فيتسابق الناس للاحتماء بها هرباً من عسف تلك الدول الغاشمة التى كانت ترزح لسلطانها ، وتئن تحت نيرها ، وما هى إلا عشرات من السنين إلا وشريعة ذلك اليتيم المسكين هى الشريعة السائدة فى الكون والمسيطرة على العالم ، وإلا صوت التهليل والتكبير قد أخذ يدوى فى أرجاء إسبانيا من على سطوح الكنائس التى كانت فيما مضى مركزاً للمرضى ، وبؤرة للأوباء ، وكان أول ما فرضه المسلمون على العالم إلى جانب ديانتهم هى لغتهم العربية ، التى بها لا بغيرها نزلت رسالة الله على نبيه ، فقد أملوها على جميع الأمم التى رضخت لسلطانهم ، وخضعت لدولتهم ، وقد بلغ من سعة امتدادها ، وسرعة انتشارها[١] أن أصبحت بين العالم فى مكان اللغة اللاتينية القديمة ، أى لغة العلم الوحيدة ، ولسان المتعلمين ، وبلغ من تفوقها أيضاً أن صارت هى الواسطة الوحيدة لكل من أراد أن يلمّ بنواحى الثقافتين اليونانية والرومانية ، أو يطلع على أحدث العلوم والآراء العصرية .

العربية لغة عالمية :

جاء فى تاريخ اللغات السامية لرينان : « ليس فى تاريخ العالم ما هو أدعى إلى التعجب من سرعة انتشار اللغة العربية ، فقد كانت فى بدء أمرها لغة خاملة الذكر ، فاذا بها تظهر فجأة على مسرح الحضارة والمدنية وارثة للغة اللاتينية القديمة ، وإذا بها لغة فى غاية السلاسة والغنى ، كاملة بحيث لم تعرف منذ ذلك العهد أى تغيير أو تعديل . وقد ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ، فليس لها طفولة : ولا هرم . ولست أعلم هل وقع مثل ذلك لأية لغة أخرى فى العالم دون أن تجتاز قبل ذلك أدواراً مختلفة ، فإن العربية ولا شك قد عمت أكبر أجزاء المعمورة ، ولم ينازعها فى مكانتها من حيث كونها لغة عامة عالمية إلا لغتان : اللاتينية واليونانية . ومع ذلك فقد تطرقت إلى أقطار نائية ولم تصل إليها هاتان اللغتان قط »

وجاء فى خطط الشام لمحمد كرد على[٢] « بذت العربية فى الإسلام اللغة الفارسية والسريانية فى العراق وفارس ، والرومية ، والسريانية فى الشام ، والقبطية والرومية فى مصر ، واللاتينية فى شمال أفريقيا ، ولم يمض سبعون سنة حتى أصبحت العربية اللغة العامة فى هذه الأقطار ...

(يتبع) **خليل جمعة الطوال**

(١) دوزى : تاريخ المسلمين فى أسبانيا .
(٢) Sayed Ameer Ali The Spirit of ISLAM
(٣) : الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على .
(٤) الجامع الكبير

(١) : العلوم والعمران فى الأعصر الوسطى : لجورج سارطون .
(٢) خطط الشام ج ١ ، الاسلام والحضارة العربية .

فى الأدب الإنجليزى :

شكسبير والمعاصرون [*]

للأستـاذ جريس القسوس

كان ظهور شكسبير فى عالم الشعر وائتلاق نجمه فى الأوساط الأدبية وهو الرجل غير المثقف من معجزات ذلك العصر بل كل العصور بالحقيقة ، فقد كان يتنازع الشهرة الأدبية وزعامة الشعر فريقان ، الأول مكون من رجل واحد هو كريستوفر مارلو [١] (Marlowe) الشاعر النابغة الفحل ، والثانى يتزعمه توماس ناش [٢] (Nash) وأغلب أعضائه من الشخصيات العلمية الجامعية ، فناش وصحبه تخرجوا فى جامعة كمبردج وغيرها من كبريات الجامعات فى انجلترا .

وبالرغم من اشتداد التنافس والتناحر بين هذين الفريقين فقد كان من المسلم به أن مارلو هو الزعيم الأدبى والشاعر العبقرى غير مدافع .

لكن الخطر كل الخطر داهم هذه الشخصيات العلمية الجامعية بظهور ممثل من عامة الناس لم يكن له شأن من قبل أو خطر ، أخذ فى تأليف المسرحيات على شتى أنواعها ، والتجديد فيها وإعدادها لفرقة تشمبرلن التمثيلية بمظهر ملائم ذوق الناس الأدبى .

وقد سبق أن نشر شكسبير من قبل قصيدتين مذيلتين باسمه الصريح ، فلفت إليه الأنظار ، وجعل الأدباء يرمقونه بروح الدهشة والقلق والإشفاق . كان ذلك فى ٣ سبتمبر ١٥٩٢ حين وافى الأجل الأديب المعروف روبرت جرين [٤] (Robert Greene) تاركا مقالا مخطوطاً ، فتولى هنرى تشتل (Henry Chettle) نشره فى الثامن من ديسمبر من تلك السنة ، وفيه تعريض بهذا الشاعر

(*) من كتاب عهد شكسبير لم يظهر بعد
(١) يحمل شهادة (م . ع .) من جامعة كمبردج (١٥٦٤ — ١٥٩٣) .
(٣) (١٥٦٧ — ١٦٠١)
(٤) ١٥٦٠ — ١٥٩٢ .

الطارى، الحديث الشأن كما سترى . بيد أن تشتل عاد فنشر اعتذاراً من شكسبير وثناء عليه لدماثة خلقه وأمانته واستقامته ، وكذلك لسمو فنه الأدبى . وفى ختام مقاله يخاطب جرين ثلاثة من المؤلفين المسرحيين هم مارلو وتوماس لودج [١] وجورج پيل [٢] ناصحاً إياهم أن ينصرفوا إلى غير مسائل التأليف . وفيه ترد العبارة المشهورة التى تشير إلى ظهور شكسبير « ذلك الغراب المحدث ، المتزين ريشنا ، الذى بمجرد قوله : (قلب النمر المكتسى بجلد الممثل) يعتقد أنه يجيد نظم الشعر المرسل (Blank Verse) كأحسن الشعراء . هذا الشخص الذى (يحذق حرفاً عديدة) [٣] ، وهو عند ظنه (الشيكسين) (Shakescene) الأوحد فى بلده . »

ومن الجلى الواضح أن جرين بذكره (لقلب النمر المكتسى جلد الممثل) إنما يشير إلى وصف شكسبير (لقلب النمر الملتف بجلد المرأة) الوارد فى الجزء الثالث من مسرحية هنرى السادس [٤] التى كانت تعرف قبلاً (بمأساة ريتشارد أوف يورك) ثم فى لفظة (شيك سين)(Shakescene) إشارة واضحة إلى اسم شكسبير ، ذلك لما بين الكلمتين من تشابه لفظى ظاهر . أو قد يكون المقصود بذلك ، ومعنى (شيك سين) : (يحرك المنظر ، أو يغير المشهد) ، غمزُ الشاعر من طرف خفى ونقده بأسلوب رقيق هادى، لرجوعه إلى النسخة الأولى من (هنرى السادس) وهى من تأليف جرين وصحبه ، وإخراجه نسخة جديدة من تلك الأصلية القديمة .

ومن قول جرين هذا نخرج بثلاث حقائق راهنة : —

الأولى : إن شكسبير كان ممثلاً وكاتباً مسرحياً بعيد الصيت ، فلا عجب أن ملأ نفوس الأدباء المعاصرين بالحسد والحقد والضغينة والمقت الشديد .

الثانية : ظهور مسرحية (هنرى السادس) بأجزائها الثلاثة والتى ربما مسها شكسبير بقلمه كما يتبين من نشرها فى المجموعة الأولى لمسرحياته (١٦٢٣) .

والثالثة ، إن شكسبير كان فى بعض الأحيان بل أغلبها

(١) ١٥٥٨ — ١٦٢٥ ؟
(٢) ١٥٥٨ — ١٥٩٧ ؟
(٣) Johannes Factotum
(٤) الفصل الأول المشهد الرابع سطر (١٣٧)

يسطو على بعض القصص فى مسرحيات غيره من الأدباء، وينهبها فى وضح النهار نهباً . ويتضح هذا من قول جرين (النمر المكتسى بجلد الممثل) ، ومن (الريش الذى استعاره منا الغراب الأسحم ليتزين به) .

أما المسرحيات التى أثارت دهشة جرين وحسده وجزعه معاً فلا يبعد أن تكون (هنرى السادس) التى راجعها الشاعر على كل حال وترك فيها أثراً ظاهراً . فقد لفتت إليها نظر جرين وأقرانه لما فيها من ازدحام الحوادث المتنوعة بشكل لم يعهد من قبل ؛ وكذلك (تيطس أندرونيكس) التى يعتقدون أن شكسبير لم ينفرد بتأليفها بل اشترك فى مراجعتها وتصحيحها ؛ وهى مأساة رائعة إذا قيست بمآسى مارلو وتوماس كد[١] Thomas Kyd التى كانت تعد من أعظم وأنفس ما شاهده ذلك العصر . وبتأثير ليلى[٢] (Lyly) طرق شكسبير باباً جديداً فى فن الدراما هو الملهاة (Comedy) المفعم بالمحسنات اللفظية والكناية والاستعارة ، فقد كان يحبذ هذا اللون من أساليب الكتابة الناشئون فى الأدب ،وهو أبرز ما يتمثل فى جهد (الحب الضائع) (Love's Labour's Lost)

هذه هى المسرحيات التى ألفها شكسبير قبل وفاة جرين ، فاسترعت انتباهه ، وحولت إليه أنظار الأدباء والناس جميعاً . وبعد وفاة جرين بسنة يأفل نجم مارلو فى سماء الأدب ، ثم يقضى كد (Kyd) نحبه سنة ١٥٥٩ ، ويعرض لودج (Lodge) عن الأدب وينصرف إلى ممارسة الطب ، ويخرج ليلى من القصر ، وينغمس بيل (Peele) فى الملذات وينقطع عن الإنتاج الأدبى ، ويتحول ناش إلى أدب الهجاء والقصة وهذا لا خطر منه . حتى إذا ما جاء عام ١٥٩٨ لم يشهد فى حلبة الأدب المسرحى على الأخص من ينافس شكسبير أو يجاريه .

ومن المحال أن تذكر لأديب ما فى ذلك العصر مأساة أو ملهاة كان لها ما لأدب شكسبير الدرامى من قيمة أو وزن . فلا عجب أن ترى أستاذاً جامعياً كبيراً كتوماس ميرز[٣] (Thomas Meres) يضع شكسبير فى مصاف المسرحيين العالميين الذين نبغوا فى بابى الملهاة والمأساة . فقد وضع ميرز كتاباً اسمه (بلادس تاميا)[١] (استعرض فيه المجهود الأدبى منذ تشوسر[٢] حتى عصر اليزابث ، وتناول بالدرس والبحث نحو مئة وخمسة وعشرين أديباً من أدباء الإنجليز ، مقارناً بين كل واحد منهم وبين من يرى أنه يشبهه من أدباء العصر الاتباعى القديم ، أو أدباء الطليان فى عصر الرينسانس . وفى هذا الكتاب يشير إلى شكسبير مطرياً شاعريته الفذة ، كما تجلت له فى قصيدتى (فينس وأدونيس) (ولوكريس) ويرى أنه ليس دون أوفيد[٣] الشاعر الرومانى العظيم مؤلف (التامور فيسس)[٤] أوبلوتس[٥] شاعر الملهاة عند الرومان ، وسنيكا[٦] الفيلسوف الرومانى الذى برع فى تأليف المأساة . فيقول ميرز إن شكسبير لا يقل عن هؤلاء جميعهم فى مسرحياته (كوميديا الأخطاء ، وجهد الحب الضائع وسيدا فيرونا ، وحلم ليلة فى منتصف الصيف ، وتاجر البندقية ، ورتشارد الثانى والثالث ، وهنرى الرابع ، والملك جون ، وروميو وجوليت ، وتيطس أندرونيكس) .

ولهذا القول ولتعداد هذه المسرحيات قيمة مزدوجة ، الأولى وهى مجرد ذكرها وعزوها لشكسبير دون غيره ، وفى هذا رد على الذين يعزون نظمها إلى غيره ، وفيه دلالة على أنه ألفها قبل أن يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، والثانية تألق نجم شكسبير فى سماء الأدب وازدهار شهرته الأدبية فى برهة وجيزة ازدهاراً لفت إليه الأبصار .

ولم يقف الأمر عند إشفاق الأدباء ، وقلقهم وجزعهم ، أو ثناء البعض الآخر عليه وإعجابهم به ؛ فقد وردت إشارات عدة فى الأدب المعاصر تشيد بذكر هذا الأديب (ذى اللسان

(١) (١٥٥٧ — ١٥٩٠ ؟) .
(٢) (١٥٥٤ — ١٦٠٦) .
(٣) (١٥٦٥ — ١٦٤٧) .

(١) Palladis Tamia
(٢) (١٣٤٠ — ١٤٠٠) .
(٣) ovid (٤٣ ق م — ١٨ م)
(٤) Metamorphoses مكونة من كلمتين من أصل يونانى معناها (تبدل الأشياء) .
(٥) Plautus (٢٥٤ — ١٨٤ ق م) .
(٦) Seneca (؟ — ٦٥ ق م) .

وردة اليـــازجى

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

— ٢ —

وقالت ترثى الأمير أمين أرسلان المتوفى سنة ١٢٧٥ هـ :

كأس المنية دائر بين الورى   يسقى الكبير ولا يفوت الأصغرا
ما هـــذه الدنيا بدار إقامة
إلا كطيف الحلم فى سنة الكرى
كل على هذا الطريق مسافر   لا بد منـه مقدماً ومؤخرا

وكذلك تقول :

هـــذا الذى بالأمس كان مكانه
شم القصور فكيف يرضى بالثرى

ثم أيضاً تقول بما فيه الجناس :

سار السرور عن السرير لفقده   وعن السرائر والأسرة قد سرى
هذا هو السيف الصقيل أصابه   سيف من القدر الذى قد قدرا
تبكى البلاغة والبراعـــة والحجى
والعزم فى الخطب الشديد إذا اعترى
لو تعلم الشمس المنيرة فقده   كسفت أو البدر المنير تحيرا
أو كان للحجر الأصم محاجر   أجرى عليه من المدامع أنهرا

وكذلك فهى تقول :

يا ركن لبنان المظيم عليك قد   كادت ربى لبنان أن تتفطرا

إلى أن قالت :

إن كنت غبت عن العيون فلم يزل
لك رسم شخص فى القلوب مصورا

ثم تقول أيضاً :

لو كان يظهر سحاب ضريحه   إلا على صفحاته لم يمطرا

وكذلك تقول خاتمة :

ناداه رب العرش من كرسيه   ها نحن أعطينا الأمين الكوثرا

وقالت ترثى ولداً نبيهاً :

زوّد النعش قبل شد الرحال   إن هذى الحياة طيف خيال

المبسول) (والعِرق الذى يفيض شهداً) (والخلق السمح والبال الرخى) .

ولقد كان له فى نفس بن جونسون[1] صديقه الأدنى وثانى الشعراء والمؤلفين المسرحيين بعده منزلة وطيدة راسخة الأثر ، برغم أنه كان يغمزه أحياناً ويأخذ عليه ما يبدو فى أدبه من نقص فى الثقافة والعلم . فإنك لا ريب ذاكر تلك القصيدة العصماء التى قد لا يعلو عليها شىء فى الرثاء ، وقد نظمها بعد وفاة شكسبير ، وصدر بها المجموعة الأولى من مسرحيات شكسبير ، وفيها يؤبن الشاعر ويطنب فى مدحه ، فيصفه (بأوزة آفون الحلوة)[2] (وبأنه روح العصر ، ونخر المسرح وجذله وسروره) ، ثم يضعه فوق تشوسر وسبنسر[3] وبيمونت[4] بل يجعله وحده (تمثالا فريداً لا ضريح له) .

ثم يصف كيف غشى نجم شكسبير بنوره المتألق الساطع وأخفى ضياء تلك الكواكب الزاهرة فى عالم الأدب كارلو وكد وليلى وغيرهم من فطاحل الأدباء . وفى هذه القصيدة : نفثة من هاتيك النفثات الفريدة الصادقة التى يلفظها أحيانا العقل والقلب معاً فتقارب بقوتها وسحرها وروعتها أخلد النبوات . (فهو يرى لبريطانيا أن تسر وتغتبط إذ أنجبت هذا الإبن العظيم الذى سوف تبايعه وتطيعه وتخلص له جميع المسارح فى أوروبا ؛ وأن شكسبير لم يكن لعصر واحد ، وإنما للزمان بأكمله ، ولا أظنك بحاجة لشرح وبسط ما حققت الأيام من هذه النبوة الرائعة ، فقد أصبح شكسبير منهلا للأدب عذبا ، ومنبعاً لا يغيض ماؤه وأضحى نجمه يشع فى سماء الأدب إشعاعا ، ويتلألأ بالنور الزاهر الدائم ، فيهتدى به الشعراء فى انجلترا وفى معظم أقطار العالم أيضاً .

شرق الأردن   **جريس قسوس**

---

(١) (Ben jonson)
(٢) Sweet Swan of Avon
(٣) Spenser شاعر انجليزى كبير معاصر لشكسبير
(٤) Beamont معاصر لشكسبير أيضا

وحياة الدنيا طريق يؤدى نحو دار البقاء ذات الجلال

وتقول :

يا هلالا قد احتوى نور بدر كيف لو تم نورك المتلالى
إن يكن قد خلا سريرك يوماً منك فالقلب ليس منك بخال

وقالت ترثى الأمير سعيد الشهابى :

ترى من غاب عنا هل يعود لعمرك إنه أمــل بعيــد
فراق الحى محدود ولــكن فراق الميت ليس له حدود

ثم تقول :

شريف الأصل من أشراف دهر تسلسل والرواة له شهود

وكذلك فهى تقول :

فيه عجباً أيا قــبراً حواه وقل أنا فى الورى فلك جديد
فريداً كنت ما بين البرايا وأنت اليوم فى قبر فريد
لأعين أهله سهد طويل ومن عبراتهم بحر مديد

ثم تقول :

لئن تك غبت عن دار ستفنى ففى الفردوس صار لك الخلود

وقالت ترثى كاتبة بنت موسى بسترس التى ذكرناها آنفا وهى من صديقاتها اللواتى كانت تراسلهن :

يا بنت موسى قد دعاك الله من طور الجلال كما دعاه بما مضى
قد شق موسى بالعصا بحراً طغى ونراك شققت القلوب بلا عصا

ثم تقول :

قد أنشبت فيك المنون سهامها ظلما ولم تشفق على ذاك الصبا

وكذلك تقول :

بكت المعارف واللغــات تأسفاً
يوم الفراق على المعــارف والتقى

ورثت سارة بنت المعلم بطرس البستانى بقولها :

ياين ويحك هل أبقيت فى البشر عيناً بلا دمعة حرى ولا كدر

ومنها :

تبكى على فقدك الأتراب دمع دم
أغنت ثراك به عن مدمع المطر
قد كنت بين بنات العصر جوهرة
عظيمة الشأن تزرى أفضــل الدرر

ثم تقول :

يا نومة ما لها من يقظة أبداً وغيبة ما لها فى الدهر من حضر
إن لم تعد نحونا يوماً فنحن غداً نسعى إليها ولو كنا على حذر

وفى رثاء أخيها حبيب تقول :

ياعين وردة فى الأسحار والأصل أبكى لفقد حبيب عنك مرتحل
ويا فؤادى تفتت بعد مصرعه فان سيف المنايا سابق العذل
ويا سلو ابتعد عن مهجتى أبداً ويادموع انزلى كالعارض الهطل

ثم تقول :

غاب الحبيب حبيب الروح عن حلل
باتت لفرقته فى أســود الحلل
ويحى من البين إن البين جارحنا بأسهم لم تزل منها على وجل

وكذلك تقول :

رمى الحبيب بسهم قد أصيب به فبات منطرحاً كالشارب الثمل
روحى فدى ذلك القد الذى قصفت
منه المنايا قواماً كان كالأسل
روحى فدى ذلك الوجه الذى كسفت
جماله حادثات الدهر والعلــل
يا فارس[1] اليوم أشرق قد أتاك على
قرب حبيب فلا تشكو من الملل
بدران أظلمت الآفاق بعدهما فى مقلتى وضاقت بالأسى سبلى
قد كدرت غير الأيام موردنا وبدّل الدهر ما نرجوه من أمل

ثم تقول :

لا أخمد الله ناراً فى الحشا اشتعلت منى ولا نشفت عينى من البلل

---

(١) وفارس هذا هو أخوها وقد توفى قبل أخيه وقد رثته وردة بقصيدة ورد منها هذه الأبيات وهى قطعة من كبدها ومطلعها هو :

يا بين ويحك كم أشعلت نيرانا على القلوب وكم أدميت أجفانا

وتقول أيضاً :

يا ويح خنساء عينى وهى باكية صخراً بدمع لديه الصخر قد لانا

وكذلك تقول :

يا مهجة القلب هل عود نؤمله وهل كتاب سلام منك حيانا
ألبستنى ثوب حزن لست أخلعه حتى أبدل منه فيه أكفانا
لا رطب الله قلباً ظل مشتملا منى ولا جف دمع سال غدرانا

وتختم رثاءها قائلة :

فاذهب عليك سلام الله ما طلعت شمس وزادك من نعماه رضوانا

ولا عرفت ســلواً فى الحياة إلى
أن ألتقى بك فى مستقبل الأجـل

ثم قالت ترثى والدها وقد توفى سنة ١٨٧١ م :

تكاثرت الأحزان فى كبدى الحرى
وزادت دموع البين فى عينى الشكرى
وجارت على ضمنى الليالى وأوقدت
بطى فؤادى من نوائبها جمرا
وقد آلمتنى الحادثات بصرفها كاألمت خنساء إذ فقدت صخرا

ثم تقول :

فتباً ليوم فرق الدهر شملنا وجمّع فى قلبى مصائبه تترى

وهى تقول أيضا :

أيا علم الشرق المبجل والذى أقرت له بالفضل كل الورى طرا
ويامعدن العلم الذى ضمه الثرى وكم معدن كان التراب له سترا
ويا بحر فضل كان بالدرّ زاخراً لفقدك كاد البحر أن يفقد الدرا
ويا من بمسراه تيتمت العلى كما يتم التأليف والنظم والنثرا
ينوح عليك الشعر دهراً وطالما
بك اهتز فاستعلى على فلك الشعرى

ثم تختم قائلة :

وقد غبت يا شمس العلوم وبدرها
فأصبح كل ينـدب الشمس والبدرا
فيا قبره أكرم أعــز وديعة
بطيك لم تبرح لأهـل الورى ذخرا

أما مطلع قصيدتها فى رثاء أخيها نصار وقد توفى فى مدينة زحلة سنة ١٨٧٤ م فهو :

وبلاه وبلاه كم نشكو وننتحب وكم علينا صروف الدهر تنقلب
وكم تجور الليالى فى حوادثها على فؤاد بنار الحزن يلتهب

ثم تقول :

يا أرض زحلة لى فى حبها شغف إذ فى حماها شقيق الروح محتجب
يا راحلا راح صفو العيش يتبعـه
واستوطنت بعده الأحزان والـكرب

ثم تقول أيضاً :

يا قلب صبراً على ما قد أصبت به ولا ترعك البلايا وهى تعتقب
قد عودتك الليالى الحزن من صغر حتى غدوت إلى الأحزان تنتسب

إلى أن قالت :

يا رحمـة الله زوريه ميممة ترباً له قد سقت أرجاءه السحب
وآنسى من تراه مضجعاً بحمى لبنان فيه حبيب القلب مغترب
منى عليه ســلام الله ما غربت
شمس وما طلعت فى أفقهـا الشهب

وفى رثاء أخيها راحيل تقول :

متى تترك الأيام دمعى لا يجرى وقلبى المعنى لا يبيت على جمر
أبى الله أن أنسى وكيف وفى دمى
قد امتزجت أحزان خنسا على صخر

ثم تختم الرثاء بقولها :

وما لك قبر واحــد فقلوبنا
قبور حوت أمثال شخصك فى القبر

وقالت ترثى أخاها خليلا :

رويدك يا من قد نعيت لنا البدرا
أتحمل نعياً ضمن طرسك أم جمرا
ألا أيها القلب الحزين إلى متى
تقاسى خطوب الدهر منقضة تترى
تراكمت الأرزاء من كل جانب عليك فلا يوم يمر بلا ذكرى

ثم قالت :

وياطرف إن جفت دموعك فاتخذ دم القلب دمعاً فوق تربته يُذرى

وتقول أيضا :

ولم أوف حق الحب إن لم أمت أسى عليه فعيشى صرت أحسبه غدرا

وتختم الرثاء بقولها :

سلام على وجـه الخليل وناره
بطى الحشا قد أفنت القلب والصدرا
له العفو والرضوان من فضل راحم
ولى مدمع الخنساء إذ فقدت صخرا

(يتبع) **يوسف يعقوب مسكونى**

شاعر عربي في لندرة :

جنة الأوهـــــام ... !

للأستاذ عبد القادر القط

أسلمت للوهم أفكاري ووجداني   وذقت في خَدَر الأوهام سلواني
أمضي مع الناس لا عيني بشاهدة   ما يشهدون ولا صوت بآذاني
دنياىَ عالمُ أحلامٍ مهومة   تهفو فتمسح آلامي وأشجاني
وأغتدي ورؤاي البيض تبسم لي   وفي خيالي تهويمات وسْنان
هجرت ما كان من يأسي وموجدتي
وصغت بعد مرير الصمت ألحاني
كم ظِلت أضرب في دنياي محتقبا   في القفر شوقي وآمالي وتحناني
يلوكهن فــؤاد جائع بشِمٌ   من الأسى وضمير مُثقل عاني
نوازع من رغابٍ طال ما احتبست
وطال ما لقيت من سوط سجّاني
يعتاقها عن طِلاب الرحب محبسُها
وتلتظي لهباً من نار حرماني
خرساء منطقها وخزٌ وشارتها   وقع المعاول في موهون بنياني
تململت فأصاب القلب حرقتها   وملّ جذوتها صبري وإذعاني
نادبت من ألمي وهمي فأسعدني   بجنة من خيالي ذات أفناني
أطلقتهنّ بما يمرحن في شغب   ونمت بعد سهادي ملء أجفاني
وعفت صحوة دنيا كنت أعشقها   وبتُّ أشرب من دَني ومن حاني
ساقٍ أنيقٌ من دارت على يده   كأسٌ وأعرف آس عند أحزاني
إذا طلبت عزيز الراح بادرني   وإن طلبت رخيم اللحن غنّاني
في كل دفقة كأس ينتشي أملٌ   وبغيةٌ سئمت أعماق نسياني
أرى بأفقىَ ما أخمدتُ شِرّته   من الرّغاب وسحباً ذات ألوان
بكل دانيــة منها يطالعني   مجدي وحبي وأعواني وخلاّني
أروح للحبّ حتى يكتفي نهمي   وأنهل المجد حتى يرتوي شاني
نجواي في الليل أبكار معطرة   أبيت ليلىَ أرعاها وترعاني
أصوغ من ألق الأطياف فتنتها   وقلبها من وفاءٍ عاطف حاني
غنيت بالوهم عن دنيا مخبّلة   تلقي القياد لذي جاه وسلطان
يذوق لذة ما أولَتْهُ نعمته   بحسٍّ أبله غافي القلب سأمان
تلقي القياد وتُلقي من مرارتها   إلى فم رحيق الشهد هيمان
يحسُّ كل شهيٍّ في قرارته   بمترفٍ من سريّ الذوق فنان
مدلّه بالنعيم الحلو يدركه   بالروح والجسم . بالباقي وبالفاني
دماؤه شهوة حمــراء دافقة   والروح بالشهوة البيضاء في حان
أمضيت ريق شبابي في الحياة لقىً   أطفو على ثَبَج بالهمّ ملآن
أرعى بقية إيمــان أعللها   ويطفر الشك من آن إلى آن
حتى تراءت لي الأوهام في شفق   ضافي الجمال على الآفاق فتّان
خفقت ملء جناحي نحو ساحته   وضاع بين الرؤى شكي وإيماني

نهــــاية ... !

للأستاذ محيي الدين صابر

لا حانتي ، رجّعت شدوى ولا الساقي
يا هــذه ! ! أين أحلامي وأشواقي ؟
ظمآن أخفق في الصحراء مغترباً   كأنني خطوة في ساق أفّاق !!
أسرٌ للرمل حنّاتي ومسكنتي   كم من هوى تحته كالنبع ، ألاق
فكل ذرة رمل ، قلب محترق   أو حسن غانية . أو فكر خلاّق
ويسكت الرمل إشفاقاً وسخرية   فكم تولى بعشاق وعشاق !!
وأسأل الريح زفّافاً مواكبها   تدور في زمنٍ محلٍ وآفاق !
متى عبرت بواد كنت أعمره   في واحة طَلِة الأحناء غيداق ؟!
وتعصف الريح أنفاساً مشرّدة   يا طالما عصفت عن قلب خفاق
والليل ! يعرفني طوّاف كعبته   يا ليل ! فانشق عن فجري وإشراقي
يا ليل ! واردد صباباتي وأخيلتي   واملأ عروقي بوهم منك رقراق!
ويطرق الليل ... أظلالا مقيدة   يا رُب ضيمة حلم خلف إطراق
وا رحمتا للمنى أفنيت ريّقها   في خادع من مراعي الوهم ، برّاق
وللهوى الضخم محموماً نوازعه   أمسى رماداً على روحي وأعماقي !!
ظلمت يا غادة المحراب ما نسجت   شفاه مشتاقة ظمأى ، ومشتاق
هلا ذكرت على القمات مسبحنا   على جناح بقلب الفجر صفّاق ؟!
وأغنياتي في أذنيك من وتر   منغّم الوحي بالإلهام طرّاق



١ — قتيبة بن مسلم :

لمجلة « الرسالة » مكانة سامية فى الأوساط العلمية فى جميع البلاد العربية ، ولـكتابها منزلة فى النفوس لا تساميها منزلة غيرهم من الـكتاب . فإذا استعظم على أحدهم هفوة لسان طفيفة أو زلة قلم خفيفة ؛ فذلك لمـا للقراء — على الرسالة الغراء ، وعلى كتابها — من الدالة ، ولمـا لتلك المجلة وأصحابها من الاجلال والاكبار فى نفوس أولئك القراء .

ومن أولئك الـكتاب الذين لـكتاباتهم روعة قوية ، وتأثير عميق فى النفس : الأستاذ الجليل « على الطنطاوى » ولا أدل على ذلك من مقاله القيم المنشور فى العددين ٦٨٠ وتاليه بعنوان : (من التاريخ الإسلامى — قضية سمرقند) ، ولا ينقص من روعة ذلك المقال أن يفهم القارىء منه أن قتيبة بن مسلم الباهلى الفاتح العظيم ؛ أدرك عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز . خلاف ما يفهم من مصادر التاريخ الصيحة التى تنص على أن قتيبة لم يدرك ذلك العهد ، بل قتل فى عهد سليمان بن عبد الملك .

« الرسالة » : لقد سبق الأستاذ الطنطاوى فنبه إلى ذلك .

٢ — أتاريخ صحيح أم خرافة ؟! :

وهذا المربى الأستاذ الـكبير كامل كيلانى يقول فى عدد «الرسالة» ٦٨٢ : (منذ خمسة عشر قرنا تنقص عشرات قليلة من السنين وُلد خرافة القاص العربى المخضرم الذى عاش فى العصرين الجاهلى والاسـلامى ... وقد عاصر جحوان الصحابى جد أبى الغصن عبد الله دجين بن ثابت الملقب بجحا ... وكانت أم جحا تخدم أم سليم بنت ملحان والدة مالك بن أنس راوية الحديث المعروف ... ثم مضى القرن الأول ومضى معه خرافة ومعاصروه . ثم جاء القرن الثانى فـكان من مولوديه أبو الغصن عبد الله دجين بن ثابت الملقب بجحا) . ولـكن قوله هذا لا يؤثر فى منزلته باعتباره أحـد الأفذاذ الذين أسدوا للجيل الجديد منة عظمى مجسمة فى كتبه القيمة النافعة « مكتبة الأطفال » ، وإن فُهم من ذلك القول مخالفة الحقائق الآتية :

١ — أم سليم بنت ملحان والدة أنس بن مالك الصحابى الجليل الذى خدم الرسول صلى الله عليه وسلم عشر سنين . لا مالك ابن أنس الإمام المحدث المشهور صاحب كتاب « الموطأ » المتوفى سنة ١٧٩ هـ .

٢ — أم سليم صحابية أدركت عهد الرسالة ، وحضرت وقعة « حنين » وجرى لها فيها حادثة طريفة ، وتوفيت فى أول القرن الهجرى الأول . فـكيف تكون أم جحا خادمة لها ، ثم تدرك القرن الثانى ويولد لها ابنها جحا فيه ؟!

٣ — كيف يعيش فى القرن الأول الهجرى ويعتبر مخضرما من ولد قبل ذلك القرن بمائة سنة أو أكثر ؟!

(الطائف) **محمد الجاسر**

حول صور سودانية :

قرأت أخيرا فى «الرسالة» ٦٨٠ للاستاذ حسان خضر مقالا عنوانه « صور سودانية » يقول فيه : (ليس التقاء النيل الأبيض بالأزرق عند الخرطوم كما يقول الجغرافيون وإنما هو أقرب إلى مدينة أم درمان وهو يبعد عن الخرطوم نحو (١٥ كيلو) ، ولو أنه كتب هذا ولم يتعرض للجغرافيين لقلنا إنه سهو .

إن المكان الذى يلتقى فيـه النيلان والمسمى « بالمقرن » حيث الحدائق المشهورة يحد الخرطوم من شمالها الغربى وعنده تنتهى مدينة أم درمان فى جنوبها الشرقى وليس هناك (كيلو) واحد يبعد « المقرن » من الخرطوم .

(كسلا) **حسن أحمد البشير**

نسيتِ فى السفح أيامى معذبة ... تبكى وتسأل عن عهدى وميثاقى

قد أنـكر الدَّوح فى الشُّطآن مُغتربى

فرداً ؛ أُقيمُ على حزنٍ وإشفاق

وقد يكون ولى نجوى ولى قُبل ... فى ظله من هوىً فى القلب وفاق!

ياوحشة ، ملأتنى جهشة وأسى ... فى ذكرياتك عندى شارد باق !

تدور فى دمىَ الدنيا مُعطلة ... كأنها أدمع جالت بأحداق !

هى الحياة زحمناها منىً وهوىً ... ألوتْ بوان ، ولم تسلس لسباق!

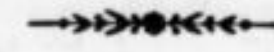
وقد قنعتُ ! وردناها على ظمأ ... فجفت الخمر دونى وانطوى الساقى



مطـــاردة . . . !

للقصصى الانجليزى سومرست موم

بقلم الأستاذ محمد عبد اللطيف حسن



عند ما أرست بنا السفينة على ثلاثة أميال من الشاطئ الشمالى لجزيرة بورنيو ، تقدم ربانها نحوى ومد يده إلى مصافحاً وتمنى لى حظاً سعيداً طيباً . فانتهزت بدورى هذه الفرصة التى أتاحها لى وشكرته على تلك العناية العظيمة التى بذلها نحوى فى خلال تلك الرحلة الطويلة المتعبة ، ثم أخذت طريقى هابطاً سلم السفينة التى كانت مزدحمة بالركاب ذوى الأجناس المختلفة والنحل المتعددة . وكانت هذه السفينة من تلك السفن الشراعية الكبيرة ذات الأشرعة الواسعة الرحبة المصنوعة من خشب الخيزران المجدول . وتذكرت حينئذ حقيبة أمتعتى فنظرت إلى المقر الذى كانت موضوعة فيه فى أحد جوانب السفينة ، فوجدتها قد أنزلت إلى القارب الذى سيقلنا إلى الساحل ووضعت فى مكان ظاهر فيه

ولما اكتمل عددنا فى القارب لوحت بيدى لربان السفينة الذى أخرج من جيبه فى تلك اللحظة منديلا أبيض وأخذ يلوح لى به مبتسما فى الفضاء الواسع العريض ، وقلدنى باقى الركاب الذين كانوا معى فى ذلك ، فأخذوا يلوحون له وللركاب الذين تركوهم يستأنفون سفرهم على سطحها بأيديهم طوراً ، وبمناديلهم الصغيرة البيضاء طوراً آخر ، ودموع الفرح والغبطة تترقرق فى عيونهم التى كان يشع منها بريق السعادة والسرور . وما زلنا على هذا الوداع المؤثر الحار حتى اختفت السفينة عن أبصارنا اختفاء تاماً ، وأصبحت تتراءى لنا لبعد المسافة التى كانت تفصلنا عنها كأنها شبح من الأشباح القاتمة السوداء .

ولما اقتربنا من الساحل تراءى لى عن بعد أشجار جوز الهند المحملة بذلك الثمر الشهى الذى يكثر زرعه فى تلك الأنحاء ، ورأيت من خلالها سقوف الأكواخ الخشبية الرمادية اللون التى يقطنها أهالى هذه المنطقة الاستوائية الحارة . وأشار لى وقتئذ أحد الصينيين الذين كانوا برفقتى فى القارب بيده إلى كوخ أبيض كبير قائم على مقربة من الساحل وسألنى بالإنجليزية التى كان يتكلمها بطلاقة وصدق كأحد أبنائها :

— أتعرف من يقيم فى هذا الكوخ الأبيض المرتفع ؟

فتظاهرت بأننى لا أعرفه وهززت رأسى متأسفاً وقلت : لا !

— إن الذى يقيم بهذا البناء هو حاكم هذا الإقليم ، وهو انجليزى الجنسية كما أعلم ...

فشكرته على هذه المعلومات التى أدلى بها إلى ثم سكت !

ولو كان هذا الصينى يعلم أننى سأقيم مع هذا الحاكم تحت سقف واحد لمدة من الزمن ، لوفر على نفسه مشقة هذا التعريف الذى كنت على دراية به أكثر منه ! وقد كان على حينئذ خطاب توصية إليه من ربان السفينة التى أقلتنى إلى هـذا المكان ، لأنه لم يسبق لى مشاهدته أو التعرف إليه من قبل

وحين رسا القارب بنا وهبطنا إلى الساحل الرملى البديع ، شعرت فجأة بتلك الوحشة التى يشعر بها كل شخص تطأ قدماه أرضاً غريبة ليست له بها عهد من قبل ، وقد وقفت برهة على الساحل أتأمل الشمس وهى تلقى بأشعتها الذهبية التى كانت تتألق على مياه البحر فتزيده بهاء وسناء وروعة ...

ولم ألبث أن شعرت ببعض الخجل والارتباك وأنا أتقدم إلى كوخ الحاكم بخطوات وئيدة ثابتة ، وقد حملت حقيبة أمتعتى فى يدى اليمنى ، وقبعتى العريضة البيضاء فى يدى اليسرى ، وأخذت أسائل نفسى أثناء سيرى قائلا : « كيف أقدم نفسى إليه ؟ بل كيف يخطر لى ببال — وأنا الغريب عن تلك المنطقة — أن أبيت وإياه فى مسكن واحد ، وأتناول ما يقدمه لى من طعام وشراب — وأنا لا أعرفه — حتى تأتى السفينة التى ستقلنى إلى الجهة التى أزمعت الوصول إليها ؟ ! »

ولكنى لم ألبث — حينما وصلت إلى باب الكوخ — أن وفرت على نفسى مشقة هذه الأسئلة الغريبة المحرجة التى أخذت تتوارد على ذهنى بسرعة هائلة ، فأنزلت حقيبة أمتعتى إلى الأرض

وأخرجت من جيبي خطاب التوصية الذى كنت أحمله معى وناديت أحد الخدم الواقفين بالباب وطلبت منه أن يسلمه إلى الحاكم يداً بيد . ولم يمض على دخول الخادم بضع دقائق حتى خرج إلى من داخل الكوخ رجل وسيم الطلعة ، قوى البنية ، ذو وجه باش أحمر يدل على إفراطه فى الشراب ، وعينين زرقاوين حادتى النظرات ، وكأن يبدو من هيئته أنه فى العقد الرابع من عمره أو دون ذلك بقليل ، وقد حيانى تحية قلبية خالصة كما لو كان يعرفنى من سنين ، واستقبلنى بحفاوة شديدة وسرور بالغلم أكن أتوقعهما منه ، وجذبنى من يدى برفق ، ثم نادى أحد الصبية وأمره بإحضار بعض المشروبات المنعشة ، ونادى الآخر وأمره بأن يحمل حقيبتى ويدخلها الكوخ

وأراد الحاكم أن ينسينى ما كنت أشعر به فى تلك الآونة من الخجل والارتباك لوجودى فى هذا المكان الغريب ، فتلطف معى فى الحديث وقال :

— إنك لا تعرف كم أنا مسرور برؤيتك ، ولا سيما أن ربان السفينة الذى أرسلك إلى من أعز أصدقائى وأخلص رفقائى ، ولذلك أرجو أن تعتبر نفسك هنا كأنك فى بيتك

فابتسمت له وشكرته بإيماءة من رأسى على أدبه الجم وحسن استقباله إياى ...

ولم يلبث مضيفى أن استأذننى وذهب لينجز بعض أعماله الضرورية التى لا تحتمل التأجيل . فلما فرغ منها عاد إلى وتمدد بجانبى على مقعد طويل من القماش ، وأخذ يجاذبنى أطراف الأحاديث ، ويروى لى الشىء الكثير من مغامراته ومخاطراته فى تلك البلاد ...

ولما هبطت درجة الحرارة قليلا ، خرجنا للنزهة ، وطفنا ببعض الأجزاء الهامة فى تلك المنطقة ، ومتعنا أنظارنا بجمال الطبيعة الساحر ، ثم عدنا قبيل الغروب وقد تصببت أجسامنا من العرق ، ولم أجد فى ذلك الوقت ما ينقذنى من تلك الحرارة الشديدة سوى أن آخذ حماماً بارداً ... ففعلت .. وقد شعرت من بعده بلذة عجيبة ، ونشاط جسمانى غريب ، أنسيانى ما كنت أعانيه منذ لحظات من ضيق بالغ ، وعذاب أليم !

وبعد أن فرغنا من تناول العشاء استأذنت صاحبى أن أنام لأننى كنت منهوك القوى من وعثاء السفر . وبالرغم من أن رفيقى كان يرغب فى التحدث إلى طول الليل ، إلا أننى استأذنته مرة أخرى ورجوته أن يرشدنى إلى الحجرة التى سأقضى فيها ليلتى . فقال صديق وهو يقودنى من يدى إلى غرفتى :

— كما تشاء ياصاحبى ... ولن أثقل عليك الليلة بسماع أحاديثى المملة ، وأقاصيصى المتعبة ! !

وكانت الغرفة التى أدخلنى فيها كبيرة رحبة ذات شرفة واسعة من الجانبين ، ومؤثثة برياش بسيط لا بأس به ، وفى ركن من أركانها نصب سرير كبير مغطى بكلة رقيقة من الدانتلة البيضاء لتقى من يرقد فيه من لدغات البعوض التى كانت تعد من أخطر الحشرات وأشدها فتكاً بحياة بنى الإنسان فى تلك الجهات وضحك صديقى وقال لى وهو يشير بيده إلى السرير .

وإن هذا الفراش خشن بالنسبة إليك ، ولكنه مع الأسف أحسن ما عندنا فى هذه البلاد !

فابتسمت له ابتسامة رقيقة وقلت :

— إن هذا لا يهمنى مطلقاً ، ولن يؤثر ألبتة فى نومى ما دمت أشعر بحاجة ملحة إلى الراحة بعد هذه الرحلة المضنية :

ونظر رفيقى إلى الفراش مرة أخرى متمعناً وقال :

— لقد كان آخر من نام فى هذا الفراش رجل هولاندى . ولهذا الرجل قصة عجيبة مؤلمة . ولا أجد عندى مانعاً من سردها عليك بشرط أن تسمح لى أولا بذلك حتى لا يكون فى هذا مضايقة لك .

وبالرغم من أننى كنت فى حاجة شديدة إلى النوم كما قلت ، إلا أن اللهجة التى مهد بها رفيقى لهذه القصة جعلتنى أتشوق لسماعها منه ، ولذلك لم ألبث أن قلت :

— لا بأس ياصاحبى ... أسرد على قصتك وكلى آذان صاغية لك .

فجلس رفيقى على حافة الفراش وجلست قبالته ثم استجمع شتات أفكاره وقال وقد ارتسمت على جبينه آيات التفكير العميق :

— لقد جاء هذا الرجل إلى هنا على نفس السفينة التى أتيت

علمها ، وقد حضر إلى مكتبي مباشرة وسألني عما إذا كنت أعرف فندقاً في تلك البلدة يمكنه أن يقضي فيه ليلته . فلما أخبرته بأنه لا توجد فنادق في تلك البلدة على الإطلاق هز رأسه متأسفاً وهم بالخروج من عندي بعد أن حياني تحية رقيقة مؤدبة . ولكني لم ألبث أن أشفقت عليه فناديته وعرضت عليه أن يبيت في مسكني، فقبل ذلك بعد تردد قليل . وكان هذا الرجل الهولاندي يحمل في يده قيثارة (كمنجة) صغيرة غالية الثمن ، فلما رآني أحدق النظر فيها بإمعان ابتسم لي وقال (إن هذه القيثارة هي كل ما أحضرته معي في تلك الرحلة ، وهي تسليتي الوحيدة في أوقات فراغي الممل ، ولذلك تراني أعزها وأفضل حملها معي في كل مكان أذهب إليه .)

وكان هذا الرجل ذا وجه شاحب نحيل ، ورأس مستدير يعلوه شعر أسود كث ، وعينين رماديتين تدل نظراتهما القلقة المتحيرة على ما يعانيه صاحبهما من خوف واضطراب ، أما جسمه فكان هزيلا مفرطاً في الطول بدرجة غير عادية . وكان يلوح عليه أنه تجاوز الأربعين بقليل ، وقد دلتني ملامح وجهه الجامدة على ما به من مرض نفساني غريب ، إذ كان يتلفت وراءه بسرعة زائدة لأقل صوت يسمعه . وكان يتكلم الإنجليزية بطلاقة عجيبة ، ولولا تلك اللكنة الأجنبية التي كانت تظهر في بعض كلماته لظننت أنه إنجليزي قح . وكان يحب الحديث ، ويجيد الكلام إلى درجة تضطر سامعه إلى الإصغاء إليه ، والانتباه لحديثه بلذة وشغف .

وكان لدي بعض الأعمال الضرورية التي يجب أن أنتهي منها على عجل ، فطلبت بلطف أن يسبقني إلى الغرفة المجاورة ، وأخبرته أنني سأوافيه إليها بعد قليل . وبينا أنا أخاطبه إذا بسكرتيري الخاص يفتح الباب فجأة ويدخل بدون استئذان كما اعتاد أن يفعل ذلك في بعض الأحيان . فارتاع الهولاندي لهذه المباغتة واصفر وجهه حتى أصبح يحاكي في شحوبه وجوه الأموات ، وأخذ جسمه النحيل يرتعد بشدة وعنف من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ، وأخرج بسرعة مسدسه من جيبه الخلفي ، فذعرت لذلك ذعراً شديداً وصحت فيه بأعلى صوتي قائلا (ماذا تفعل يا سيدي ؟ ولم أخرجت مسدسك من جيبك ؟)

ولما رأى الهولندي أن القادم سكرتيري ندم على فعلته ندماً شديداً وشعر ببعض الخجل والارتباك ثم أعاد مسدسه إلى جيبه وتهالك على أقرب مقعد منه وهو يلهث من فرط ما اعتراه في تلك اللحظة ، ولما تمالك أعصابه وعاد إليه صوابه قال لي بخجل ظاهر ، (أرجو معذرتي يا سيدي فإنني رجل محطم الأعصاب كما رأيت) .

فأمنت على كلامه بهزة خفيفة من رأسي وقلت (هدئ روعك يا سيدي ولا تخف من شيء) .

ولم يكن يلوح عليه أنه قد أفرط في الشراب حتى تصدر عنه تلك الفعلة المنكرة ، وقد ظننت لأول وهلة أنه قد يكون أحد المجرمين الذين يتعقبهم رجال الشرطة ، ولكني لم ألبث أن أبعدت هذه الفكرة عن رأسي لأنه ليس من المعقول ، أن يجازف بالدخول إلى مكتبي وهو يعلم أنني الحاكم العام لهذه المنطقة فيعرض بذلك نفسه لإلقاء القبض عليه في أقرب فرصة ، وأسرع وقت :

ولم ألبث أن قلت له مشفقاً (يستحسن يا سيدي أن تستريح قليلا في الغرفة المجاورة حتى تستعيد هدوءك ، وتسترد قواك ، وسأوافيك إليها بعد قليل ...)

فقام من مقعده متثاقلا وذهب إلى الحجرة المجاورة لمكتبي ولما عدت إليه بعد أن أنجزت عملي وجدته واقفاً في وسط الحجرة وهو يدور ببصره في كل ركن من أركانها ، وبالرغم من أنني رأيته قد استرد هدوءه ، واستعاد ثباته عجبت لوقوفه وسألته قائلا (لم تقف وسط الحجرة هكذا ؟ إنك تكون أكثر راحة لو تمددت على أحد هذه الكراسي الطويلة ...)

ولكنه ابتسم ابتسامة صفراء وأجاب باقتضاب (إنني أفضل الوقوف هكذا !)

فاستغربت جداً لهذه الإجابة المقتضبة وقلت بلهجة لا تخلو الاستياء (إن هذا عجيب منك حقاً ، لأن من يراك في وقفتك هذه يظن أنك مراقب ، وقد يداخله الشك في أمرك لأول وهلة !)

(البقية في العدد القادم) **محمد عبد اللطيف حسن**

العدد ٦٨٨ — الاثنين ٩ سبتمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

٢٧٠٢١

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 688

Lundi—9—9—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٦٨٨ «القاهرة فى يوم الإثنين ١٣ شوال سنة ١٣٦٥ — ٩ سبتمبر سنة ١٩٤٦» السنة الرابعة عشرة

«لا» أومن بالانسان (*) !

للأستاذ على الطنطاوى

« ويدعُ الانسانُ بالشرِّ دعاءَه بالخير وكان الانسانُ عجولا ، — وكان الانسانُ كَفورا — وكان الانسانُ قَتورا — وكان الانسانُ أكثرَ شيءٍ جدلاً — وخُلِقَ الانسانُ ضعيفاً — قُتل الانسانُ ما أكفره — يا أيها الانسانُ ما غرَّك بربِّك الكريم — وإذا أنعمنا على الانسان أعرضَ ونأى بجانبه — وإذا مسَّ الانسانَ الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يدعُنا إلى ضُرٍّ مسَّه — وإنا إذا أذقنا الانسانَ منا رحمةً فرح بها وإن تُصبْهم سيئةٌ بما قدمت أيديهم فإنَّ الانسانَ كفور — إن الانسان لكفور مُبين — إن الانسانَ خُلق هلوعا ، إذا مسَّه الشرُّ جزوعا ، وإذا مسَّه الخيرُ منوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . — إن الانسان لكنود — كلا . إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى » .

كلام من هذا يا أخى يا عبد المنعم ؟ أفبعد قول الله مقال لقائل ؟ وإذا كان الله الذى خلق الإنسان على أحسن تقويم ، وكرَّمه وعلمه البيانَ يقول إنه ضعيف هلوع جزوع من الشر منوع للخير ، منكر للنعمة ، كفور قتور كنود عجول جَدِل ، يطغى إذا استغنى ، وإن هذا كله فى طبيعته وتركيبه . تريد أن أومن به ؟ وبِمَ أومن ؟ إن ها هنا محذوفاً لا بد من تقديره ، فالإيمان هو التصديق ، ونحن إذ نؤمن بالله نصدق بوجوده وكماله واتصافه بكل صفة خير ، وننزّهه عن كل صفة شر ، فبماذا تريدنى أن أصدق حين أومن بالإنسان ؟ أبكماله النسبى وسموّه وأنه مخلوق خيّر ؟

إذا كان هذا هو المراد فأنا أومن ... ولكن بالإنسان الذى أصلح إنسانيته بالإيمان والعمل الصالح . فاذا لم يفعل عادت هذه الانسانية خسراً لصاحبها ووبالاً عليه ، وكانت (حمارية) الحمار و(كلبية) الكلب ، خيراً من هذه (الإنسانية) فى الدنيا ، وأنجى منها من العذاب فى الآخرة . ولست أنا الذى يقول هذا الكلام ، وليس هذا رأياً أراه ، ولكنه قول ربك الذى أقسم عليه ورب الإنسان : والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

(*) كتب الأستاذ عبد المنعم خلاف فى شرح دعوته إلى الايمان بالانسان كتاباً كبيراً قيماً ، ناظرناه أنا والأستاذ محمود شاكر فيها ساعات طوالا السنة الماضية فى داره ودار الأستاذ الزيات ودار الأستاذ شاكر وتكلمنا فيها فى دار الدكتور عزام ، وليس عندى جديد لم أقله يومئذ فأقوله اليوم ، وما أظن أن عند الأستاذ جديداً فيها لم يكتبه فى كتابه ، فلست أجدد اليوم هذه المناظرة ولكن أذكر الأستاذ بما لم ينتبه فى حكم الاسلام فى هذه المسألة وأبين له لماذا لا أومن (أنا) بالايمان

فاذا كنت تؤمن بالإنسان الذى أدرك ماخلق له فسعى إليه، وعرف الله فأطاعه، فأنا معك، وإذا كنت تؤمن بالإنسان من حيث كان إنساناً، فلا يا أخى. إنى لم أجد دواعى هذا الإيمان. وهذا تاريخ الإنسانية كله، نَحِّ منه الأنبياء ومن ساروا على هديهم، وأصلحوا فساد إنسانيتهم بشرائعهم، ثم انظر ماذا بقى، وقل لى أين الإنسان الذى تؤمن به؟ آلانسان الذى قتل أخاه وتركه فى العراء، حتى علّمه غراب أسود كيف يوارى سوأة أخيه؟ أم الإنسان الذى ارتقى حتى صار يقتل بالقنبلة الذرية الآلاف من النساء والولدان لا يجدون حيلة، ولا يهتدون سبيلا ولم يذنبوا ذنباً ولا أعلنوا حرباً؟ أم الإنسان الذى استغل هذه الحرب، وهى مأتم الإنسانية، فأخذ اللقمة من فم المرأة التى سيق زوجها إلى القتال، والولد الذى أخذ أبوه إلى الحرب، حتى إذا ماتوا من الجوع لبس الحرير ودان بالفجور، ورقص على جثثهم فى هذا المأتم الباكى؟ أم الانسان الذى يخون عهده وينسى الخبز والملح على حين تفى الكلاب؟ أم الذى يجزع ويضيق صدره ويبيد صبره على حين تصبر الحمير؟ أم الذى يشقى غيره ليسعد نفسه، على حين يتعاون النمل والنحل على ما فيه خير الجميع؟

آلإنسان الذى انفرد دون سائر الأحياء من ملائكة وحيوانات بالكفر بالله، لا يشاركه هذا (الشرف ...) إلا الشياطين وهم كفار الجنّ، على حين يسبح بحمد الله كل شىء؟ أهذا الذى تؤمن به؟ وأين دواعى الإيمان حتى أومن مثلك؟ دلنى عليها يا أخى فانى لا أراها. إنى لأتلفت حولى فلا أرى إلا آكلا الدنيا باسم الدين، أو شارباً دم الوطن باسم الوطنية، أو سارقاً أموال الناس باسم التجارة، أو حافراً بئراً لأخيه وهو يبسم له بسمة الأخاء، أو متعالياً على الناس باسم الوظيفة وهو أجيرهم، أو أستاذاً يستغلّ منصب التعليم وهو من عمل الأنبياء ليعتدى على عفاف تلميذته، أو طبيباً يسطو على عرض مريضته أو ممرّضته، أو محامياً يأخذ أجرة الوكالة من (جمال) موكلته، وامرأة تخون زوجها، وزوجاً يخالف إلى غير امرأته، وكل يكذب بقوله وعمله ويظهر غير حقيقته، والكبير يأكل الصغير كما تأكل الحيتان السمك، ويتربص به ليلدغه كما تلدغ الحية، فأين الإنسان الذى تؤمن به يا أخ؟ إنى لأقوم على الطريق فأنظر فلا أرى إلا ذئباً يلبس الثياب ثم يسطو كما تسطو الذئاب، أو ثعلباً يحتال مثل الثعالب، أو ثعباناً ناعم الملمس ناقع السمّ، أو ضفدعاً لها صوت الثور ولكن لا تجر المحراث، أو ضبعاً تأكل أجساد الموتى، أو جرثومة فتاكة تفسد فى الخفاء، فأقول سامح الله عبد المنعم! أهؤلاء هم البشر الذين يؤمن بهم؟!

وأنقل البصر إلى ديار المتمدنين فلا أرى مدنيتهم إلا أظافر من حديد ومخالب من فولاذ كأظافر الوحش ومخالبه. ولكن الوحش يفترس ليعيش هو، وهؤلاء يحاربون لئلا يعيش غيرهم؛ ووجدتهم استخدموا قوى الطبيعة ولكن للشر، واستعملوا عقولهم ولكن فى الضلال. وهذه طبيعة الإنسان، فلا تقل إن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجّسانه، فان هذا حجة لى، لأن أبوى المولود من البشر، فاذا كانا يفسدان الفطرة فلأن الافساد من عمل الإنسان، ما عرفنا حيوانا يفسد فطرة الله فى وليده لا سبعاً ولا قطاً ولا دودة ولا طائراً، أوليست نفس الإنسان يا أستاذ أمارة بالسوء؟ أليست أخت الشيطان: تصفّد الشياطين بالأغلال فى رمضان فتخلفها نفوس بنى آدم فتعمل عملها وتفسد فسادها، وتوسوس وسواسها (فوسوس إليه الشيطان)، (ونعلم ما توسوس به نفسه) (ان النفس لأمارة بالسوء)، وما نفس الإنسان؟ إنها طبيعته التى طبعه الله عليها.

وما دام كلانا (والحمد الله) مسلماً، فعلام نختلف فى حكم من أحكام الإسلام، وهو أن هذه الحياة الدنيا طريق له غاية خلق الله الناس لها، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، وأن من يحرص على راحته فى سفره، ويتخير لذلك الزاد والمركب ولا يكون له مقصد من السفر لا المنفعة ولا المتعة ولا السياحة فهو أحمق، وأن كل عمل يعمله من لا يؤمن بالله، وكل اختراع يخترعه سراب بقيمة، لا يزيده من الله إلا بعداً، ولا يكون فى نظر الإسلام إلا دليلا على جهله وضلاله وخساره ...

أيستطيع مسلم يا أستاذنا عبد المنعم أن ينازع فى هذا؟ فما النتيجة؟ هى أن هذا الإنسان شرّ الدواب فى الدنيا، وأخزى المخلوقات يوم القيامة ما لم يطهر نفسه بالإيمان، ويصلح فساد طبيعته بالاتصال بالله

وهل أدلّ على ندرة الحق والخير والجمال فى عالم الإنسان من كونه جعلها مثلا أعلى ، ومطمحاً من المطامح البعيدة ، وأملاً من الآمال النائية ؟ ولو كانت خلائق راسخة فيه ، وكانت طبيعة ملازمة له ، ما جعلها كذلك . فلو كان صادقاً ما كان يمدح الصادق بصدقه ، ويعجب منه أن لازمه وأقام عليه . ولو كان وفياً ما كان ثالث المستحيلات عنده ... الخلّ الوفىّ ، إنما يطمح المرء إلى ما لا يملك ، وأن مائة الدينار من الذهب هى (مثل أعلى) للفقير المفلس ، ولكنها عند الغنى حقيقة تافهة ...

ألا إنى أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشرّه ، ولكنى لا أومن بإنسانك هذا ؟ فهل علىّ من الله من شئ ؟

إذن فليقل الناس عنى ما شاءوا !

على الطنطاوى

الترجمة والمترجمون

للأستاذ د . جونسون دافيز

الحرب بطبيعتها أداة تخريب ودمار ، ولكن لها فوائد يجب أن توضع فى الكفة الأخرى من الميزان . فهى ترغم الناس على أن يشمروا عن ساعد الجد وينبذوا التكاسل والتراخى فى نواح كثيرة . وبلادنا (بريطانيا) قد جنت من هذه الحرب فائدة جليلة : هى أنها صارت أقل انعزالا وانكماشا فى حدود جزرها مما كانت من قبل . ذلك أن كثيرا من الأجانب قد لاذوا بسواحلها ووجدوا فيها معقلا يحميهم من الاضطهاد والعدوان . والإنكليزى العادى ، والانكليزية العادية ، باختلاطهما بهؤلاء الأجانب ازداد فهمهما للأمم الأخرى وعطفهما على غير ملتهما من الملل . ومن الدلائل على هذا ذلك العدد الضخم من الكتب التى صدرت خلال الحرب عن الدول والأمم الأجنبية . كما ازداد الاهتمام بالترجمة من اللغات الأجنبية ، الألمانية ، والبولندية ، والفرنسية ، والتشيكية ، ثم الروسية طبعاً . وأغلب هذه الكتب بطبيعة الحال قد ألفت قبل الحرب ، لأنه لم يصل من أوربا التى احتلها الألمان إلا العدد الضئيل من الكتب . ومن هذه كتاب جدير بالذكر هو « صمت البحر Le Silence de la Mer » ، ألفه ڤركور Vercors . وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة فى مطابع النشر السرية فى فرنسا ، بالرغم من فداحة الخطر ، ثم هربت منه نسخة إلى الخارج . وقد ظهرت له ترجمة إنكليزية بعنوان « أطفئ النور Put out the Light » . هذا الكتاب الصغير — فهو فى الحق لا يزيد عن قصة قصيرة — يصف موقفا لا بد أنه تكرر فى مئات الألوف من البيوت فى جميع أنحاء فرنسا المحتلة ، فهو يصف أسرة فرنسية صغيرة ، مكونة من رجل هرم وابنة أخيه ، ترغم على إيواء ضابط ألمانى . وهو موقف يسهل جدا اتخاذه فرصة للدعاية الرخيصة ، ولكن ليس من هذا أتفه قدر فى هذا الكتاب ، فهو كتاب فن ، كتاب فن خالص . فالألمانى لا يوصم بأنه مجرم أثيم ، والفرنسى ليس بطلا . بل الألمانى رجل مثقف ، طيب بطبيعته ، ومأساته موصوفة بعطف بديع ، وقد ترك إلى القارئ أن يستنتج ما يريد من النتائج . فهذا الكتاب ، على الرغم من ضآلة حجمه من المؤلفات القليلة عن الصراع الحاضر التى يمكن أن تعد أدبا رفيعاً .

هذه المسألة ، مسألة الترجمة من اللغات الأجنبية ، هى فى اعتقادى ذات أهمية بالغة فى بناء أدب الأمة . فهى هامة فى المحل الأول لأننا إذا أردنا أن نعرف شيئا عن أمة ما فخير ما نعمله هو أن نقرأ كتاب هذه الأمة . ولكن أهميتها ترجع فى أغلبها إلى هذه الحقيقة : إنه كما أن الأفراد مختلفو الطبائع ، كذلك الأمم ، على نطاق أوسع ، مختلفة الخصائص ؛ فالأمم ، لاختلاف أقطارها ودرجات تعليمها وأنواع ثقافتها وتربيتها ، لها وجهات نظر فى المشكلات اليومية ، ومشكلات الحياة والموت ، تختلف إحداها عن الأخرى بعض الشيء . وهكذا تجلب الترجمة دما جديدا إلى أدب الأمة ، وكثيرا ما تكون مصدر إلهام ذى آثار عميقة .

واليوم انبعث من جديد الاهتمام بالروائيين الروس الأعاظم حتى لم يعد ممكنا العثور فى المكاتب على نسخة من روايتى تولستوى العظيمتين « آنا كارنينا » و « الحرب والسلم » . وإذا أسعد الحظ امرءاً باقتناء نسخة ظل أصحابه يستعيرونها منه بلا انقطاع . ومن حسن الطالع حقا العثور على كتب دستيوفسكى

أو تشيكوف أو تورجنييف أو غيرهم من عظام كتاب الروس القدماء برغم أن كتبهم يتكرر طبعها .

قرأت مرة فى أحد كتب النقد الأدبى أن العمل الأدبى ذا الأثر الأعظم فى إنكلترا فى هذا القرن هو ترجمة كنستانس كارنت Constance Garnett للروائيين الروس الأعاظم . هذا تقرير خطير ، وهو يدل على مقدار ديننا لهذه المرأة الملهمة التى وقفت حياتها على ترجمة مؤلفات الآخرين حتى يقرأها ويقدرها أبناء وطنها . وقلما ينال المترجم مثل هـذا الثناء . ومن الثابت أنه لا يكاد يوجد اليوم روائى لم يتأثر تأثرا عميقا بكتابات عظماء الروس . فكم من هؤلاء الذين تأثروا هذا التأثر ودانوا للمؤلفين الروس هذا الدين الجليل كانوا يجدون الفراغ والعزيمة والصبر الكافية لتعلم اللغة الروسية الصعبة حتى يستمدوا هذا الإلهام بأنفسهم . كم منهم كان يفعل ذلك لو أن كارنت لم تقم بما قامت به ؟ إن فرجنيا وولف Virginia Wooff ، هذه الروائية والناقدة البعيـدة الصيت قالت فى إحـدى مقالات كتابها النقدى « the Common Reaber » : كل دراسة للرواية الإنكليزية الحديثة مهما كانت عامة موجزة يجب أن تذكر التأثير الروسى ، فإذا ما ذكر الروس لم يكد يتمالك المرء نفسه من الإفاضة فى التحدث عنهم ، لأنه من إضاعة الوقت أن يتحدث عن رواية غير روايتهم . » فهل بعد هذا ثناء على الرواية الروسية ؟ والمرء حين يقرأ الأدب الروسى الحديث تأخذه الدهشة والاستياء إذ يراه مقفراً كل الأقفار من هذه العظمة ، من هذا الفهم الشاسع البعيد الذى فهم به الروائيون القدماء الدنيا وأبناء جلدتهم من البشر . ويظهر أن الروس المعاصرين ، مع تفوقهم وامتيازهم فى فن الرقص التمثيلى والسينما والمسرح ، قد أجدبت عقولهم فى فن الكتابة . حقاً إن روسيا السوفييتية لها كتابها ، وكثير منهم قد ترجموا إلى الإنكليزية ، ولكن أحداً منهم ليس فى عظمة تولستوى أو دستيوفسكى ، بل لا يقرب من هذه العظمة أقل قرب . من الصعب تعليل هذا ، ولكن العلة فى نظرى قد ذكرتها فرجينا وولف فى مقالة أخرى فى نفس الكتاب حين قالت إن الخاصية المميزة للأدب الروسى هى انحصار هم الكاتب الروسى بروح الإنسان . فدستيوفسكى مثلا لا يهتم كثيراً بوصف حجرة أو منزل ، بل لا يهتم بالصفات الجسدية لشخصياته ، فهو يهتم بأرواحهم ، ويوجه كل همه إلى وصف روح كل شخصية من شخصياته وكيف تقلبها واضطرابها . فلعل الأمر إذن هو أن الروح الروسية القلقة قد وجدت فى نواح كثيرة ملجأ للراحة والاطمئنان فى النظام الجديد ، النظام الشيوعى . وبذلك قل اضطرابها وخفقانها عن ذى قبل أضف إلى هذا أن التقلقل السياسى الذى عانته روسيا فى السنين الخمس والعشرين الماضية لا بد أنه كان له أثر سىء على الأدب . لقد قرأت مجلدات عديدة من الأقاصيص القصيرة الروسية الحديثة ولم أجد بها إلا القليل مما يعد ممتازاً ، وكثير منها دعاية لا أدب

ولكن لنعد إلى الروائيين الروس القدماء . كم من الناس الذين قرأوا تولستوى ودستيوفسكى والآخرين يتذكرون اسم المترجم الذى مكنهم من قراءة هذه الروايات ؟ الترجمة فن أبعد ما يكون عن العمل الآلى : هى تتطلب أكثر من مجرد معرفة اللغتين . هى عمل خالق بلا شك ، والمترجم يستحق فى الأوساط الأدبية من الشهرة أكثر مما يناله اليوم . المترجم لا ينال إلا نصيباً تافهاً من الجزاء المالى ، ولا يكاد ينال شيئاً من الثناء أو الذكر ، مع أن عمله فى الدرجة القصوى من الأهمية ، وحتى أعاظم الكتاب لم يعدوا عاراً عليهم أن يزاولوا هذا الفن — فما من شك أن الترجمة فن . فالشاعر الإنكليزى المشهور بوب ترجم أوديسة هومير من اللغة اليونانية ، وإن كان لا بد من الاعتراف أن بوب لم يكن المثل الأعلى للمترجم ، إذ أن ترجمته وإن كانت فى حد ذاتها عملا أدبياً فائقاً ، فهى تحتوى من بوب على قدر أكبر مما تحتويه من هومير . حتى إن أحد معاصريه هنأه على عمله قائلا: « قصيدة بديعة يا بوب ، ولكن ينبغى ألا تسميها هومير » . والشاعر الفرنسى بودلير ترجم المؤلفات النثرية للكاتب الأمريكى إدجار ألان بو إلى الفرنسية ، وترجماته تعد درراً من النثر الفرنسى بل إن شعره لم ينل فى حياته إلا القليل من النجاح ، حتى إنه كان يصف نفسه مفتخراً بأنه « مترجم بو » . والروائى الفرنسى العظيم مارسيل بروست بدأ حياته الأدبية بترجمة بعض مؤلفات رسكن من الإنكليزية . وكلا بودلير وبروست يقدم مثالا رفيعاً لأدباء استمدوا إلهاماً عظيما من كتابات مؤلفين قاموا بترجمتهم

ولورنس بلاد العرب قام بترجمة نثرية للأوديسة ، بينما قام الروائى د . هـ . لورنس الذى قد يعد أعظم روائيى انكلترا فى القرن العشرين بترجمة روايات إيطالية عديدة ، وإحدى هذه وهى رواية Mastro—Don Gesualdo لمؤلفها جوفانى فيرجا ، تستحق من الشهرة أكثر مما لقيت ، ولورنس نفسه قد وصفها بأنها : « كتاب عظيم مخلد ، إحدى أعظم روايات أوربا » . وهناك رجل آخر أسدى إلى الأدب يداً بيضاء بترجمته ، وهو سكوت منكريف الذى ترجم رواية بروست الضخمة إلى الإنكليزية ، والترجمة الإنكليزية فى اثنى عشر مجلداً ، قام هو بترجمة جميعها إلا المجلدين الأخيرين ، إذ حال الموت بينه وبين إتمام هذا العمل العظيم . ويقال إنه فى زمن ما كانت عادة أغلب الناس فى باريس أن يقرأوا رواية بروست لا فى الفرنسية الأصلية ، بل فى الترجمة الإنكليزية . فهل يطمع مترجم فى ثناء أبلغ من هذا الثناء ؟

إن ترجمة الكتب الأجنبية كان لها على أدبنا الإنكليزى آثار عظيمة بالغة ، وأبرز مثل لهذا هو الكتاب المقدس ، فللكتاب المقدس فى الإنكليزية ما للقرآن الشريف فى العربية ، هو ليس أساس التفكير الدينى فحسب ، بل هو قد صار قسما من الأدب ، ومثالا للكتابة النثرية الفائقة

بل إن التأثيرات المظيمة التى تأثر بها الأدب الإنكليزى فى مختلف العصور كانت كلها راجعة إلى الترجمة . إليك مثلا الترجمات المختلفة للقرآن ، أول ترجمة للقرآن إلى لغة أجنبية كانت ترجمة لاتينية قام بها فى سنة ١١٤١ بطرس رئيس دير كلونى ، وعاونه ثلاثة متعلمين مسيحيين وعربى ، وظهرت أول ترجمة انكليزية فى سنة ١٦٤٩ ، ومن يومها طبعت ترجمات عديدة أخرى أشهرها ترجمات سيل ورودويل وپالمر ومرمديوك پكثال ، وهذا الأخير هو انكليزى مسلم ، ألف عدداً من الروايات والقصص عن الشرق

ولكن الكتاب العربى الذى كان له أبلغ الأثر على أوربا هو ألف ليلة وليلة . وقد ظهرت له ترجمتان إنكليزيتان جيدتان قام بهما إدوارد لين وسير ريتشارد بيرتون ، وإن لم تكن هاتان أول ترجمة للكتاب . والمستشرق البريطانى هـ . ا . ر . جب يقول عن أثر هذه الترجمات الأولى لألف ليلة وليلة : « ليس من شطط القول أن نقول إن هذه الترجمة أمدت الكتاب الشعبيين بالهدف الذى طالما نشدوه ، وإنه لولا ألف ليلة وليلة لما وجد روبنصن كروزو ، بل ربما لم توجد رحلات جلليفر » . [1] بل قد قال بعضهم إن دانييل ديفو استمد إلهام روبنصن كروزو من قصة حى بن يقظان التى ألفها ابن طفيل ، وكان قد ترجمها إلى اللاتينية المستشرق الإنكليزى القديم پوكوك . ويجب أن نذكر فى هذا الصدد أيضاً ترجمة فتزجرالد لرباعيات عمر الخيام ، وهى إن كانت ترجمة شديدة التصرف فقد كان ملهمها الشاعر والمنجم الفارسى . كما قد زعم البعض أن رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى كان لها تأثير كبير على دانتى فى كتابه « الكوميديا الإلهية » . ومهما يكن من شىء فمن المحتمل أن عناصر إسلامية كثيرة توجد فى هذا العمل العظيم لدانتى وعن هذا يقول الأستاذ جب : « إن الاهتمام الذى كانت تتبع به الدراسات العربية فى إيطاليا فى زمن دانتى لا تجعل هذه النظرية أمراً مستحيل التصديق ، وإن لم يكن من المستطاع بعد إثبات هذا إثباتاً جازماً إلا فى الجزئيات . ولكن هذه النظرية نظرية جذابة ، وأقل ما يجعلها ذات جاذبية إنها لو صحت لازدادت عبقرية دانتى سمواً ، إذ تكون قد ألفت فى وحدة منسجمة رائعة بين التراث المسيحى والصوفى القديم العظيم ، وتجارب الإسلام الدينية ذات الغنى الروحى الزاخر . » [1]

أما عن ترجمة المؤلفات الأجنبية إلى اللغة العربية ، فنقول إن العرب قاموا بترجمات من اللغة اليونانية تعد من خير الأمثلة التاريخية على الفضل العظيم الذى يسديه المترجم إلى الجنس البشرى قاطبة . كثير من المؤلفات الطبية والعلمية الأصيلة التى ألفها عظماء مؤلفى اليونان قد ضاعت ، ولكن كثيرا من هذه المؤلفات المفقودة لا تزال موجودة فى ترجمتها العربية ، وهذا من حسن حظ العالم بأجمعه . ويمكننا أن نذكر من كبار مترجمى العرب أبا يحيى ابن البطريق ، وهو من أول من ترجموا من اليونانية ، وثابت بن قرة ، ولكن أشهرهم جميعا هو بلا شك حنين بن إسحق ، الذى كان يلقب بشيخ المترجمين . ومما يدل على علو مكانة الترجمة فى العصر العباسى الأول أن حنينا كان يعطى له راتب شهرى سخى ، وأن الخليفة المأمون كان يعطيه

(١) المقالة عن « الأدب » فى كتاب « تراث الاسلام » أكسفورد .

زنة كتبه المترجمة ذهبا . ومن الترجمات العربية التى أنقذت من من الفناء نصا مفقودا كتاب ابن المقفع « كليلة ودمنة » ، الذى كان أصله باللغة السنسكريتية ، والكتاب العربى مترجم من ترجمة فارسية للكتاب السنسكريتى، وكلا الكتابين السنسكريتى والفارسى قد ضاعا ، حتى صارت الترجمة العربية أصل جميع الترجمات الموجودة الآن للكتاب فى كل لغات الدنيا . ومما يدل على الأثر العظيم الذى كان لهذا الكتاب أنه كان أحد المصادر التى استمد منها الشاعر الفرنسى لا فونتين قصصه الخرافية عن الحيوان .

ولقد كان للترجمة أثر عظيم فى النهضة الحديثة للأدب العربى ، ومحمد على نفسه قد أدرك ضرورة القيام بترجمة الكتب العلمية الفنية من اللغات الأوربية فأسس مدرسة للترجمة وجعل مديرها الكاتب القدير الشيخ رفاعة الطهطاوى ، وقد عرفت فيما بعد بمدرسة الألسن . وقد قام رفاعة نفسه بترجمة عدد كبير من الكتب الجدية من اللغة الفرنسية فى التاريخ والجغرافيا والفلك والقانون وغيرها من الموضوعات . وكان محمد على هو الذى بدأ إرسال البعوث العلمية إلى أوربا ، ويقال إنه عند رجوع الطلبة إلى مصر كان كل منهم يعطى كتابا فى الموضوع الذى درسه ويحبس فى القلعة ثلاثة أشهر حتى يترجم الكتاب إلى اللغة التركية . ثم تطبع هذه الكتب وتستعمل فى المدارس . فاذا جئنا إلى الأجيال الأخيرة تسارعت إلى أذهاننا أسماء رجال كثيرين خدموا الأدب العربى أجل خدمة بترجماتهم . فما لا شك فيه أن من أعظم الآثار على الأدب العربى الحديث الأثر الذى تركه المنفلوطى ، والجزء الأكبر من مؤلفاته ترجمة أو كتابة ألهمها الأدب الغربى . ولقد بلغ من شعوره بحاجة الأدب العربى إلى دم جديد أنه على الرغم من عدم معرفته هو باللغات الأوربية تكبد مشقة العثور على رجال يعرفونها وطلب إليهم أن يترجموا له الكتب الأوربية ثم يقوم هو بصوغها فى قالب عربى حر . حقا إن الكتاب المعاصرين قد أمطروا المنفلوطى بسهام نقدهم المر ، وهو نقد لا شك فى عدله ، وبخاصة مقالة العقاد عن المنفلوطى ، فكتابات المنفلوطى بها عيوب ونقائص كثيرة ، ولكن على الرغم من هذا كله فان أياديه على الأدب العربى الحديث يجب الاستهانة بها . ومن المترجمين المعاصرين يمكننا أن نذكر أحمد حسن الزيات ، مترجم « آلام فرتر » ، والدكتور محمد عوض محمد ، مترجم « فاوست » لجوته ، ومحمد السباعى ، الذى ترجم إلى العربية كثيرا من روايات ديكنز كما نظم بالعربية رباعيات الخيام ، وحافظ ابراهيم الذى ترجم « البؤساء » لهيجو. ويلزمنا أن نذكر أيضا ترجمات احمد الصاوى فى « مجلتى » والعمل الذى تقوم به اليوم لجنة التأليف والترجمة . إلا أنه لا يزال أمام المترجم العربى كنوز زاخرة ، وبخاصة أن القارئ العربى والكاتب العربى فى يومنا هذا قد أخذ يزيد اهتمامهما بالقوالب الأدبية الرائجة الآن فى الغرب كالرواية والقصة القصيرة .

هذا وأحب أن أكرر أن الترجمة ليست عملا آليا بحال ، وأنها ليست مجرد وضع كلمة محل كلمة ؛ بل هى فن ، وهو فن ، لا يزال فى المهد صبيا . ولقد ظهر حديثا فى بلادنا عدة كتب تدور على فن الترجمة . وسأقتبس من أحد هذه الكتب القطعة الآتية التى تبين أهمية هذا الفن : « لا شيء يتحرك بدون ترجمة ؛ فالتجربة الإنسانية تتضمنها عبارات ثلاث : العواطف ، وطرق التأدية ، والفكر . فالعواطف (مثل الخوف الخ ..) لا تتغير طبيعتها ، أما الفكر وطرق التأدية فتتغير . فإذا حدث تغير فى الفكر أو طرق التأدية فلن يقدر له الشيوع والانتقال بغير الترجمة ، لأنه لكى يشيع يجب أن ينتقل من أمة إلى أمة ، أى من لغة إلى لغة . » (١)

إن العالم الحديث يدرك الآن أن الأمم ، كالأفراد ، يجب أن تتعاون إذا أرادت الظفر بالسلام والسعادة والرخاء . كذلك شأن الأدب . الأدب كالتجارة ، يجب أن يكون دائما فى حركة مستمرة ، يجب أن يكون فيه على الدوام دخل وخرج ، أخذ بين الأمم المختلفة . فالذى يقوم بوظيفة التاجر فى هذه المعاملات الحيوية هو المترجم .

[عن مجلة الأدب والفن الانكليزية]

د . جونسون دافيز

(١) E. S. Bates : Intertraffic Jonathan Cape

من عجائب التصحيف

للأستاذ محمود عزت عرفة

[مهداة إلى الأستاذ على الطنطاوى ، رجاء ألا ينفذ وعيده من هجر الكتابة وكسر القلم ، احتجاجاً على ما تمنى به مقالاته البارعة من مشوهات التصحيف والتحريف] .

لو يعلم الأستاذ الجليل على الطنطاوى أنى لا أكاد أقع على تصحيف واحد فى مقالاته ، إلا أن ينبه هو عليه بتصحيحه فى ذيل مقالة تالية لأخذ منه العجب مأخذه . ذلك أنى أقرأ عباراته على صحتها ، وأتناولها فى الأغلب على وجهها ؛ فيسبق لسانى إلى كلمة (المضرى) مثلا ، وهى أمام عينى محرفة إلى (المصرى) ، ولا أكاد أتنبه إلى أن (يطير به) تصحفت إلى (يطربه) الخ . وما أشك فى أن كثيراً من قراء « الرسالة » يفعلون ذلك دون تكلف أو عناء .

ولست أعرّف الأستاذ بمجهول لديه حين أقول إن التصحيف والتحريف والتبديل والتطبيع ، هى ضرائر فى لغتنا لا مخلص لنا منها ، مرجعها إلى تشابه بين بعض الحروف لا يجدى معه شكل أو إعجام . وأين نقع نحن من أسلافنا — أرباب الفصاحة وفرسان البيان — وهم قد أتوا من فنون هذا التصحيف بما أضحك منهم الثكالى وجفف دموع الباكيات ؟ بل أين من سلم فى القدماء والمحدثين من هذه الآفة ، أو تهدّى إلى وجه الخلاص منها ، إلا أن يكون — على حد قول العسكرى صاحب كتاب « التصحيف والتحريف » — « ممن افتن فى العلوم ، ولقى العلماء والرواة والمتقدمين فى صناعتهم ، المتقنين لما حفظوه ، وأخذ من أفواه الرجال ، ولم يعوّل على الكتب الصحفية ، ولم يؤثر شدة الراحة والتقليد على تعب البحث والتنقيب ... » ؟

هذا كتاب الله الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ... لم يسلم ممن يعرض له بالتصحيف والتحريف ، وهوما هو سرياناً على ألسنة المسلمين ، والتياطاً بقلوبهم ، وتمكناً من صدورهم ، لولا أن صدق الله فيه وعده : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

فقد ذكروا أن حماد بن الزبرقان ، المقرئ الراوية ، كان يصحف ألفاظاً فى القرآن لو قرئ بها لكان صواباً ، لأنه حفظ القرآن من مصحف ولم يقرأه على شيخ ، فكان مما يغلط فيه : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه » يريد « إياه » . وكان يقرأ : « بل الذين كفروا فى غرة وشقاق » والصواب « عزة » . ويقرأ : « لكل امرئ منهم يومئذ شان يَعنيه » بدل « يُغنيه » .

وقرأ عثمان بن أبى شيبة على أصحابه فى التفسير : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » ، يعنى قالها كأول البقرة (ألف ، لام ، ميم) . وحدث عنه إسماعيل بن محمد البسرى قال : سمعت عثمان ابن أبى شيبة يقرأ : « وجعل السقاية فى رِجل أخيه » فقلت له : ما هذا ؟ قال : تحت الجيم واحد ! وكان أيضاً يقرأ : « وما علمتم من (الخوارج) مكلّبين » !

وينسب أصحاب حمزة الزيات إليه أنه كان يتعلم القرآن من المصحف ، وأنه قرأ يوماً وأبوه يسمع : « ألم ، ذلك الكتاب لا زيت فيه » ، فزجره أبوه وقال : دع المصحف وتلقّن من أفواه الرجال !

وكان محمد بن الحسن العطار المقرئ — المعروف بابن مُقسم — يتلو قوله تعالى : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجبَاء ... » بالباء والهمزة فى آخره . ويقرأ بحروف أخرى تخالف الإجماع ويتمحّل لها وجوهاً بعيدة من اللغة والمعنى . قال أحمد الفرضى : رأيت فى المنام كأنى فى المسجد الجامع أصلى مع الناس ، وكأن ابن مقسم قد ولى ظهره للقبلة وهو يصلى مستدبرَها ، فأوّلت ذلك مخالفته الأئمة فيما اختاره لنفسه من القراءات

هذا طرف مما أثر عن تصحيفات القراء ... أما « المحدّثون » فلهم فى ذلك ما يستخرج العجب . قال أبو على الرازى : كان عندنا شيخ يروى الحديث — من المغفلين — فروَى يوماً أن النبى صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجام آجُرَّة ! يعنى أجره

وحدث ابن شهاب قال : أخبرنى عبد الله بن ثعلبة أن النبى

صلى الله عليه وسلم مسح وجهه « من القبح » — قال أحمد بن حنبل : أخطأ وصحّف، إنما هو « زمن الفتح » .

وفي الحديث : إن الكافر ليجرُّ لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس . حرفه بعضهم فقال : ليجر لسانه في سجِّين ... والأول هو الصحيح

وأغرب من هذا ما حكاه القاضي أحمد بن كامل قال : حضرت بعض مشايخ الحديث من المغفلين فقال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن جبريل ، عن الله ، عن رجل قال : فنظرت فقلت: من هذا الذي يصلح أن يكون شيخ الله ؟ فإذا هو قد صحّفه ، وحقُّه — عز وجل —

وصحف رجل قول النبي صلى الله عليه وسلم: عم الرجل صِنْوُ أبيه . فقال : غم الرجل ضيق أبيه

وصحفوا : لا رث حَميلٌ إلا ببيِّنة (والحميل الدعيُّ في نسبه) فقالوا : لا رث جميل إلا بثينة !

ومن الأحاديث المصحفة قوله عليه الصلوات : أتحبون أن تكونوا كالحمر الضالة ؟ قالوا : هي (الصالة) بالصاد المهملة — يقال للحمار الوحشي الحاد الصوت ، صال وصلصال ، كأنه يريد الصحيحة الأجساد الشديدة الأصوات لقوتها ونشاطها

***

وللأدباء والنحاة وعلماء اللغة تصحيفات كثيرة تتبّع بعضهم بعضاً فيها فأكثروا التتبع حتى افتضحوا جميعاً . ولا تكاد تخلو مجموعة لغوية من فصل يعقد لهذا النوع المتعنّت من النقد . ونحن نبدأ في هذا المقام بذكر السقطة التي أخذوها على الجاحظ (رحمه الله) ، لأنه كان ممن لا ينفك يتتبع سقطات الرجال ، بل ليتزيد عليهم من القول بما يدعهم مضغة الأفواه وأضحوكة المحافل ... قال العسكري في كتابه : سمعت من يحكي عن ابن دريد - ولم أسمع هذه الحكاية منه — أنه قال : وجدت للجاحظ في كتاب البيان والتبيين تصحيفاً شنيعاً في الموضع الذي يقول فيه : حدثني محمد بن سلام قال : سمعت يونس يقول : ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر[١] : وإنما هو عن البُتّيّ (بضم الباء وكسر التاء مشددة) أي عن عثمان البتي وكان فصيحاً ؛ فأما النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا شك عند المسلم والذمي أنه كان أفصح الناس . فهذا تصحيف أبي عثمان الجاحظ !

وجلس اللحياني (أبو الحسن علي بن المبارك) يملي نوادره يوماً فقال : مُثقَّل استعان بذقنه . فقام إليه يعقوب بن السكيت وهو حدَث فقال : يا أبا الحسن ، إنما العرب تقول : مثقل استعان بدُفَّيه ، يريدون الجمل إذا نهض بالحمل استعان بجنبيه . فقطع اللحياني الإملاء ، فلما كان في المجلس الثاني أملَى فقال : تقول العرب : هو جاري مكاشري (بشين معجمة) ، فقام يعقوب فقال: أعزك الله ، ما معنى مكاشري ؟ إنما هو مكاسري ، كِسْر بيتي إلى كسر بيته . فقطع اللحياني الإملاء بعد ذلك ...

وحدث أبو العيناء قال : كتبت إلى صديق لي : جُعلت فداك من السوء كله ! فلقيني بعد ذلك فقال لي : إنما أستفيد أبداً منك — لا عدمتُ ذاك — وقد كتبتَ إلي : جعلت فداك من الشوكلة . فما الشَّوكلة ؟ قال : فعجبت وضحكت ثم قلت : نلتقي بعد هذا وتقع الفائدة !

وحدث عون بن محمد عن أبيه قال : حضرت الأحمر وهو يملي باباً في النحو ويقول : تقول العرب أوصيتك أباك ، يريدون بأبيك ، وأوصيتك جارك ، يريدون بجارك ، وأنشد :

عجبتُ من (دهماء) إذ تشكونا ومن أبي (دهماء) إذ يوصينا
جيرانَنا ... كأننا جافونا !

فقال له رجل : أنت تقيس الباب على باطل ، إنما هو : خيراً بها كأننا جافونا . قال : فغضب وقام !

وقرأ رجل يوماً على عبد الله بن المفجع :

ولما نزلنا منزلا طلَّه الندى أنيقاً وبستاناً من النور(خالياً)

بالخاء المعجمة — فحرك المفجع رأسه وقال : يا سيد أمه ، فعلى أي شيء كنتم تشربون ؟ ؟ على الخسف[١] ؟ !

ولأجل هذه الشناعة في التصحيف كانوا يتحاشونه ، ويتداعون إلى ذمه في أشعارهم . قال ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق :

(١) كنية محمد بن الحسن بن دريد

(١) هكذا في كتاب التصحيف للعسكري ولعلها (الحشف) وهو أردأ التمر .

في ركب الوحدة العربية :

الأدب في فلسطين

للأستاذ محمد سليم الرشدان

— ٢ —

بين يدي ضروب النثر :

وقفت (في عدد مضى) عند فئة من السلف القريب ، الذين كانوا في مقدمة المنشئين للنهضة الأدبية (في فلسطين) ، والذين نعتبرهم الطليعة المغامرة في هذا الميدان . وفي (ما بين يدي) أتابع ما تقدم بأن أقول :

ويأتي بعد أولئك الأعلام الذين ذكرت ، جماعة قفوا على آثارهم، وساروا على غرارهم ، فكانوا أساتذة الأدب المبدعين . أنتجوا فيه خير إنتاج ، فكثر مقلدوهم بين شبابنا المتأدبين ، وما يزالون إلى اليوم خير أسوة يؤتسى بها . ولو ذهبت أتحدث عنهم مفصلاً لضاق بي المجال ، مهما رحب ، فهم (بحمد الله) في غير قلة ، وآثارهم أكثر من أن يشملها صعيد محدود . ولكنهم (من حيث الاختصاص) يكادون يسلكون مسلكاً عجباً ! فالأديب منهم لا يبعد أن يكتب في شؤون التربية أو التاريخ ، والشاعر لا يبالي أن يكتب في العلوم أو السياسة ، والمؤرخ لا يتورع أن يكتب في علم اللغة وآدابها … ومن هنا تشابه الأمر علي واختلط ، ورأيتني ملزماً على أن أتجوز في معنى الأدب ، فأسلك في عداد الأدباء كل من ساهم في ناحية من النواحي الثقافية ، التي قامت عليها النهضة الأدبية الحاضرة وأعتبر هؤلاء الأدباء (على اختلاف مواضيع إنتاجهم) في فئتين ، فريق في (أهل النثر) وفريق في (أهل النظم) .

وسوف أتجنب (التفصيل والتطويل) في تراجم من أقدم بعض آثارهم علماً مني أن ذلك لا يعدو كونه مهاداً [1] Back ground يستقر خلف المنحى الذي أهدف إليه ، وتكاد — إلى حد ما — لا تربطنا به علاقة مباشرة .

ثم إنني سأقتصر على ذكر من تركوا آثاراً أدبية — مخطوطة كانت أو مطبوعة — ممن تعرفت إليهم أو (وصلتني) آثارهم .

فأبدأ بأعلام الفريق الأول (وهم الناثرون) فأذكر منهم :

الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي (المقدسي) وهو شيخ الأدباء، (وأديب العربية الأكبر) من غير منازع . وله إنتاج أدبي غزير ، فهو ما يفتأ يطالعنا بتآليفه القيمة ، وأبحاثه التي لا ينقطع لها مدد . وبفضل نشاطه الذي لا يفتر أصبح علماً بارزاً في الأقطار العربية جميعها . ومن مؤلفاته المطبوعة (وهي كثيرة) :

الإسلام الصحيح : وهو سفر عظيم الفائدة كبير الحجم . فيه نقد وتحليل ، وفيه توضيح لكثير من الحقائق الغامضة ، ودحض لأشتات من الأباطيل التي سار عليها الناس أمداً طويلاً ، وهم يحسبونها في أصول الدين وما هي منه في شيء . وكل ما في هذا الكتاب رائع ، إلا أن أروع ما فيه تعليقه على كلمة « آل محمد (ص) » ومبلغها في ثنايا الحقيقة والتاريخ .

(١) أرى أن (مهاداً) خير ما تعرب به هذه الكلمة . وإن خالفني في ذلك صديقي الأديب الأستاذ عبد الحميد يسين ، وله حجته التي يركن إليها في هذا الخلاف .

وإنك لن ترى للعلم شيئاً يحققه كأفــواه الرجال
فلا تأخذه من صحف فترمى من التصحيف بالداء العضال

ولم يبخ شاعرٌ أبا حاتم السجستاني بأشد مما قال فيه :

إذا أســند القومُ أخبارهم فإسنادُه الصُّحف والهاجس

ومن طرائف أبي نواس قوله في أبان اللاحقي :

صحَّفت أمك إذ سمَّـــتك في المهد (أبانا)
قد علمنا ما أرادت ! لم تردْ إلا (أتانا) !

وتهكم بأحد المبخلين فقال :

رأى (الصيف) مكتوباً فظن بأنه لتصحيفه (ضيف) فقام يواثبه

وهجا سيف الدين بن المشد عوَّاداً فقال :

عوادُنا قد طُمست عينُه فصار بالتصحيف (قوَّادا)
ما عاد إلا لقيــاداته لأجل ذا سُمِّي (عوادا) !

قال صاحب مطالع البدور : قلت : وإن كان حصل له عمى فأحسن ! !

محمود عزت عرفة

(البقية في العدد القادم)

ومن كتبه الأخرى : (كلمة فى اللغة العربية) و (البطل الخالد والشاعر الخالد) و (الثورة السورية) ثم (الثورة العراقية) .

ومن كتبه التى لم تطبع — بعد — وما تزال قيد بحثه وعنايته : (أبو العلاء المعرى) و (أمالى النشاشيبى) و (نقل الأديب) .

ولهذا الأستاذ أسلوب يكاد يكون وقفاً عليه . وهو ينم على سعة اطلاعه ، وكثرة ما استوعب فى ذاكرته من مفردات هذه اللغة الكريمة . ومن ذلك قوله فى (اللغة العربية) :

« اللغة هى الأمة ، والأمة هى اللغة . وضعف الأولى مقرون بضعف الثانية ... واللغة ميراث أورثه الآباء الأبناء ، وأحزم الوراث صائن ما ورث ، وأسفههم فى الدنيا مضيع .

وإنا (أمم اللسان الضادى) لعرب ، وإن لغتنا هى العربية ، وهى الإرث الذى ورثناه . وإنا لحقيقون — والآباء هم الآباء ، واللغة هى تلك اللغة — بأن نقى عربية الجنس وعربية اللغة ...

ولو كان الموروثون صفاراً ، ولو كان الميراث حقيراً لوجب علينا إكبارهم واعظامه . فكيف والتاريخ يقول : إن الآباء كانوا كراماً ، وإن الآباء كانوا عظاماً ... والزمان يقول إن العربية خير ما صنعت يداى (وإن الدهر لصنع) ، وإنها لخير طرفة أطرفها الناس . والزمان بالخير (وإن جاد) شحيح .

فالعربية الصنع العبقرى للدهر ، والعربية الدرة اليتيمة أو كنز الزمان (ضن به كل الضن ثم سخا) ... » .

والأستاذ أحمد سامح الخالدى (المقدسى) : وهو أبو التربية فى فلسطين . فلقد أنفق شطراً غير قصير من عمره فى مزاولة التوحيد الصحيح والتربية المجدية بين ناشئة الجيل عندنا ، بل بين النخبة من هذه الناشئة ، فى (الكلية العربية) التى يتولى عمادتها .

وله اليوم طلاب عديدون فى طول البلاد وعرضها ، نهلوا من علمه الغزير ، وساروا على النهج الذى رسم لهم خطته ، حتى أصبح فيهم من يشاطره حمل هذا العبء الذى تفرغ لحمله ، ويزامله فى الميدان الذى يعمل فيه .

ولم يكتف الاستاذ (الخالدى) بالتوجيه العملى . ولذا فقد فزع إلى التوجيه النظرى ، فألف فيــه كتباً عدة . ليأخذ بنصوصها هؤلاء الذين حرموا نعمة التخرج على يديه . وأذكر منها الكتب التالية : (أركان التدريس) و (إدارة الصفوف) و (أنظمة التعليم) و (طرق التدريس المثلى) ثم (رسالة اختبار الذكاء) . وهى الأولى من نوعها فى العربية .

ولم يقف الأستاذ عند هذا المدى ، بل تخطاه لما عداه . فشرح وأخرج كثيراً من المخطوطات القيمة ، التى لها علاقة مباشرة ببلاد الشام — وفلسطين قسمها الجنوبى — ومنها : (رسالة ترغيب الأنام فى سكنى الشام ، لعز الدين السلمى . و (فضائل بيت المقدس) للواسطى ، و (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) لأبى محمود المقدسى . و (الاعلام بفضائل الشام) للمنينى .

والكتاب الأخير منها صدر منذ أيام ، وهو الآن فى متناول الأيدى . وفضلا عن المقدمة القيمة التى أوضح الأستاذ فيها أموراً مبهمة ، فضاعف بذلك قيمة الكتاب التاريخية . ثم الموجز التاريخى (الذى اتبعه بها) فى سرد تاريخ سورية (الطبيعية) فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاد . فانه أضاف إليه ملحقاً فى تراجم الصحابة والتابعين (الذين نسبوا إلى الشام أو نزلوا أو استشهدوا أو ماتوا فيها) . فجعله بذلك مرجعاً قيماً للباحثين فى هذا السبيل .

وله (فيما عدا ذلك) كتب أخرى فى العلوم العقلية والأدبية وفى أبحاث شتى . ومنها : (الحياة العقلية) و (أقنعة الحب) و (خفايا النفوس) و (رحلات فى الديار الشامية) .

كما أن له سفراً قيما — ما يزال بين كتبه المخطوطة — وهو (تاريخ المعاهد الاسلامية) . وقد أولاه (ويوليه) الكثير من عنايته . ويقع فى ثمانية مجلدات ضخمة ، يتناول فيها تطور الثقافة عند المسلمين والعرب فى سائر معاهدهم التى أنشأوها فى الشرق والغرب (ما خلا الأندلس) . ثم كيف كانت هذه الثقافة توجه لأغراض شريفة وأهداف سامية .

وهو الآن يكاد يفرغ من كتاب جديد — لعله أول كتاب فى بابه — وعنوانه : (الأردن فى التاريخ الاسلامى) .

وأسلوب الأستاذ فى سائر مؤلفاته سلس بيّن ، خال من التعقيد والتصنع . فاسمعه حين يصف (التعليم) فيقول :

« التعليم فن ، والمعلم فنان ، وكما ينحت المثّال من الحجر الأصم تمثالا بالشكل الذى يريده ، فيصوغ منه ما يشاء من رموز الحياة ومعانيها ، حتى ليخيل إليك أن الحياة تنبض فيه ، كذلك يفعل المعلم !

غير أن المواد التى يعالجها المعلم مواد حية ، حساسة شاعرة متأثرة .تدفعها ميول وغرائز، وبواعث شديدة التأثر والانفعال : مواد هى أرق ما صاغته يد الخالق ، قابلة للتكيف ، تابعة لسنة التطور ، نامية فيها حياة وقوة .

هذه المواد ، وهذه الوديعة الثمينة — التى يعهد بها إلى المعلم ، وتترك إلى عنايته — هى الطفل ... » .

ثم الدكتور إسحق موسى الحسينى (المقدسى): وهذا العالم الدؤوب — بالرغم من أنه يتخطى غضارة العقد الرابع من سنيه — ما يزال يفاجئنا بين الفينة والفينة بسفر قيم ، أو مشروع يرمى إلى إحياء الأدب أو تنشيط النهضة الثقافية .

ولقد صدر له إلى اليوم مؤلفات يخطئها الحصر وهى — إلى جانب ذلك — لطيفة الحجوم ، إلا أنها (رغم ذينك) غزيرة الفائدة ، يحدثك كل وجه فيها عما اقتضاه إعداده من بحر وتدقيق، واستقراء وتحليل . ومن هذه الكتب :

(مذكرات دجاجة) وقد صدر فى سلسلة (اقرأ) . ونال الجائزة الأولى لاتفاق القراء على تفضيله ، و (عودة السفينة) : وهو مجموعة مقالات ترمى إلى هدف واحد ، هو العودة بهذه الأمة إلى ماضى عهدها المجيد ، وأيامها اللامعة المشرقة .

كما أن له كتباً مخطوطة ، ما يزال فى سبيل إعدادها . منها كتاب جامع عن (ابن قتيبة) وفيه دراسات وافية لآثاره ، وسفر كبير عن (الجامعات الاسلامية) يتناول فيه تاريخ نشوئها والأسباب التى كانت تدعو إلى ذلك . والدكتور فى أسلوبه يميل إلى البساطة واليسر ، وملاحقة المعنى دون المبنى . وإليك نمطاً من ذلك قوله فى كتابه (عودة السفينة) :

« إن العالم باقٍ وإن اختلفت مذاهب الناس فيه ، وإن التهمت الحروب كل عام الملايين من سكانه . بل ما دام فيه إنسان واحد .

وهـذا الانسان لن يفنى . إنه سيعيد سيرة جده آدم ، وسيبدأ العالم من جديد ...

ولهذا يجب أن نؤمن إيماناً لا يتزعزع بوجودنا وبعودتنا ؛ وعلى الذين يغمرهم الجزع فى الحاضر أن يلتفتوا مرة إلى الماضى ومرتين إلى المستقبل ...

إننا لن نلقى على الماضى إلا نظرة واحدة ، أما المستقبل فله منا نظرتان وإننا لنعلم أن الوقت لا ينتظرنا حتى نبدأ من حيث انتهى آباؤنا ، ومن حيث ابتدأت الأمم الراقية . سنبدأ من حيث انتهت ، وسنأخذ من كل جديد نهايته ، وسنغرف من الحضارة الأوربية ما يطلق مواهبنا إلى غاياتها ، وما يبعث تراثنا من جديد ...

أجل : إننا سنعود إلى القمة حيث كنا ، وستعود السفينة إلى شاطىء السلامة باسم الله مجراها ومرساها ... » .

(له تكملة) محمد سليم الرشدان

(ماجستير فى الآداب واللغات السامية)

تطـــور الآراء

عن أصل الـكائنات الحية

للدكتور فضل أبو بـكر

لقد أصبح الآن فى حكم البدهيات معرفة أن كل كائن حى إنما ولد من كائن حى آخر سالف من نفس النوع ، وهذه العقيدة التى ندين بها الآن والتى يرتـكز عليها علم الحياة (البيولوجى) وعلم الطب والصحة كانت موضع أخذ ورد وجدال عنيف بين العلماء ولم يسلموا بها إلا بعد مئات من السنين .

اعتقد العلماء حيناً من الدهر فيما سموه بال « Jénération Spontanée » أى « الجيل التلقائى الذاتى » بمعنى أن الأحياء الضعيفة من حشرات وديدان وهوام وميكروبات إنما تولد من تلقاء نفسها من غير حاجة إلى أسلاف وآباء من الأحياء بل تنشأ من البيئة الجمادية التى خرجت منها .

فارسطاليس الذى عاش من سنة ٣٨٤ إلى سنة ٣٢٢ قبل الميلاد والذى كان أكبر عالم فى البيولوجى فى زمانه كان يعتقد فى هذا الجيل التلقائى وظن أن كل جسم جاف فى وسعه أن يلد كائنات حية إذا ما بللته قطرات الماء وأروت عطاشه ... فتلك الحشرة إنما خلقت من الزهرة أو من الطين والوحل ، وتلك الديدان تـكونت من المواد المتعفنة من لحم وجبن والديدان التى تعيش متطفلة فى أمعاء الإنسان خلقت من المواد البرازية .

كذلك الفيلسوف ابن سينا (٩٨٠ إلى ١٠٣٧ م) لم يشذ عما سبقه وعاصره من العلماء والفلاسفة وأكد أن كثيراً من الأحياء تتولد من جيف الجثث التى تلفظها الأنهار وقت الفيضان .

أما الفيلسوف الإنجليزى « فرنسيس بيكن » (١٥٦١ إلى ١٦٢٦) فقد خطا خطوة إلى الأمام وأثبت نظرياً بأن قليلا من الأحياء يكون توالدها نتيجة لانقسامات أو تلقيح لأحياء أخرى ، ولـكن الأغلبية إنما تتناسل من الجمادات والمواد المنحلة التى تعيش عليها ، ومن هذه الأخيرة يذكر الضفادع والذباب والقمل والبق والبرقوت والجراد والديدان والعنكبوت

أما العالم الهولندى « Van Helmont » « فان هلمنت » (١٥٧٧ إلى ١٦٤٤) فـكان يعتقد أن بعض الضفادع والقواقع تنشأ قرب المياه الراكدة مثل البرك والمستنقعات حيث أن النسيم الذى يهب من ناحية تلك المياه والروائح المتصاعدة منها تنفخ الروح فى تلك الحيوانات وتخلقها ، وكان يقوم ببعض تجارب غاية فى الغرابة مثال ذلك تجربته الآتية : —

« خذ قطعة من الطوب واثقبها ثم ضع حزمة من نبات الريحان على الثقب ثم غط قطعة الطوب بقطعة أخرى وعرضها لحرارة الشمس عدة أيام تجد قد تكونت عدة عقارب صغيرة وما نبات الريحان إلا بمثابة الخميرة التى ساعدت على تكوين العقارب » ولـكى تخلق بعض الفيران فالمسألة غاية فى البساطة كما ترى فى التجربة الآتية « ضع قميص امرأة — والأفضل أن يكون متسخاً فى إناء مملوء بحب القمح واترك الإناء بمحتوياته مدة ٢١ يوماً وبعدها تجد أن بعض حبات القمح قد تحولت إلى فيران بعضها ذكور والبعض الآخر إناث وذلك بفعل « الخميرة » التى توجد فى قميص « المرأة » .

إلى أن جاء العالم والفيلسوف الطليانى « Francesco Redi » « فرنسسكو ريدى » وقد كان أول عالم فند فكرة الجيل التلقائى وهزىء من آراء الأقدمين وأثبت بطلانها عملياً . أجرى تجربة بـكل دقة وذلك أنه أخذ قطعة من لحم طازج وشطرها شطرين ثم وضع كل جزء فى إناء غطى أحدهما وترك الآخر مفتوحاً وتركهما عدة أيام ثم فحصهما بعد ذلك فلم يجد أثراً للدود فى الإناء المغطى بينما كان الإناء المـكشوف يعج بالدود عجيجاً ، ثم أخذ الإناء الأول أى المغطى تغطية محكمة وغطاه بمنسوج من سلك رفيع يسمح بدخول الهواء فى الإناء وتركه عدة أيام ثم فحصه فلم يجد أثراً للديدان فاستنتج من هذه التجربة بأنه ليس عدم الهواء هو المانع لتـكوين الدود فى المواد المتعفنة ، وإنما الذى يحول عن تكوينها هو الحيلولة بينها وبين بعض الحشرات مثل الذباب الذى يضع بويضاته على تلك المواد وتفقس تلك البويضات وتكون الدود ، وهذه التجربة على ما بها من سهولة وبساطة أدت خدمة كبيرة .

وفى ســـنة ١٦٧٤ جاء العالم البكتريولوجى الهولندى

« Leeuwenhoeck » « ليو نهوك » وأعاد تجارب العالم ريدى وآمن بها ولكنه زعم أن هذه التجربة لا يمكن تطبيقها على كل الأحياء .

وفى سنة ١٧٦٥ علا نجم العالم الفسيولوجى الطليانى Spallanzani « اسبالانزانى » الذى اهتم كثيراً بمسألة الجيل الذاتى التلقائى وقام ببعض التجارب ، منها أنه وضع فى بعض أنابيب الاختبار قليلا من الحساء المكون من مرق اللحم والخضار وقفل بعض الأنابيب قفلا محكما بإذابة زجاج أحد طرفيها ووضعها فى إناء يحوى ماء يغلى لمدة نصف ساعة . كما ترك البعض الآخر من الأنابيب مفتوحاً فوجد أن الأنابيب الأولى لا تحوى أحياء بينما الثانية مملوءة بالأحياء ، واستنتج من كل ذلك أنه لكى تعيش هذه الأحياء لا بد لها من عاملين : عامل الهواء والحرارة المناسبة فاذا ارتفعت الحرارة لدرجة لا تناسبها أبادتها وقضت عليها .

أما العالم المكروبيولوجى « نيدهام » « Needham » (١٦١٣ إلى سنة ١٧٨١) فلم يعتقد فى صحة آراء « اسبالانزانى » وكان شديد التعصب لفكرة الجيل التلقائى .

وهنالك بعض الفلاسفة مثل «شوبنهور» و«ليبنز Leibniz» وڤلتيرهاجموا فكرة الجيل التلقائى إذ أنها غيرمنطقية ولامعقولة، سيما ڤلتير فقد أعجب كثيراً من نظرية العالم الإيطالى اسبالانزانى وانتقد بأسلوبه التهكمى اللاذع العالم الايرلندى « نيدهام » وسخر من آرائه ، وألف كتاباً سماه شواذ الطبيعة « Singularités de la Nature »

هذا وقد انقسم العلماء إلى فريقين : فريق — وقد أصبحوا أقلية — يعتقد فى تكوين المكروبات والأحياء الدنيا من الجماد والمواد العضوية المتعفنة . وفريق — وهم الأغلبية — قد اعتقدوا فى حقيقة الجرثومة «Jerme» وأن الأحياء لا تنشأ إلا من جرثومة حية . إلى أن جاء العالم الفرنسى الأكبر Louis Pasteur « لوى باستير » الذى يعتبر بحق أكبر رجل خدم الانسانية باكتشافاته العديدة والتى غيرت مجرى الطب والجراحة بل وكل علم الأحياء مما كان له الفضل فى إنقاذ البشرية ، ولا يتسع المجال فى مثل هذه العجالة للخوض فى اكتشافات باستير فقد وصفت فى عدة مجلدات ، ونذكر منها ما يهمنا فيما نحن بصدده . ولد باستير سنة ١٨٢٢ وتوفى فى عام ١٨٩٥ بدأ حياته العلمية كعالم كيميائى، وله فى هذا العلم اكتشافات قيمة ،ولكنه منذ عام ١٨٥٧م بدأ يهتم بعلم المكروبيولوجى فدرس عملية التخمير الكحولى واللبنى وأثبت أن عملية التخمير لا تأتى عرضاً أو عن طريق المصادفة وإنما تسببها كائنات حية تسمى ال « Levures » الخميرة ، وقد أثبت ذلك بتجارب علمية غاية فى الاتقان ، وقد تصدى له كثير من العلماء المعاصرين فى ذلك الوقت ودارت بينه وبينهم مناقشات تاريخية عنيفة عدة أشهر اضطرتهم أخيراً إلى التسليم . وقد أثبت كذلك بأن ظاهرة الانحلال والتعفن التى نشاهدها إنما هى نتيجة لفعل المكروبات وليست المكروبات محلولة من تلك المواد العضوية المنحلة وهذه المكروبات توجد فى الهواء وفى الماء وعلى الأرض ، وأنها تتجمع على تلك المواد العضوية لتقتات منها وتستمد منها قوتها كما تتخذها مهداً لذريتها ، وهذه المكروبات تتوالد بسرعة مدهشة وبكميات وفيرة ، وذلك لضعفها وفتك عوادى الطبيعة بها من حر لافح وبرد قارس ، فلكى تحفظ نسلها ونوعها كان لزاماً عليها أن تتوالد بكثرة على حد قول الشاعر :

بغاث الطير أكثرها فراخاً   وأم الصقر مقلاة نزور

وقد يرى القارىء مما تقدم ذكره بأن علم البيولوجى ولاسيما مايختص منه بعالم المكروبات كان بطىء التطور والتقدم ، وما زال كذلك بالنسبة لعلوم الطبيعة الأخرى مثل الكيمياء والطبيعة وعلم الفلك والمكنيكا التى نهض بها العلماء منذ أجيال بعيدة وبلغت الآن من الاتقان شأواً بعيداً ، ولا نكون مبالغين إن قلنا بأن حضارتنا الحالية إنما نشأت من تقدم هذه العلوم وتطبيقها .

أما علم البيولوجى فأظن أن من أهم أسباب تأخره هى صعوبة الموضوع فهو حقاً شائك . خذ الخلية الحيوانية أو الانسانية خاصة وما تحويه من المواد البروتوبلازمية المعقدة التركيب ولاسيما نواة الخلية وكيف أن هذه النواة تتكون من أجسام كروموسومية ، وأن هذه الأخيرة تتكون من أجسام أخرى ، وهى التى تكيف الانسان وتكون طبائعه بل وشخصيته ، كذلك خلايا الجهاز العصبى وأليافه من حيث فسيولوجيتها وتفاعلاتها الحسية والنفسية كل ذلك غاية فى الدقة وما زال بعضها سراً غامضاً إلى الآن .

فضل أبو بكر

إلى المجمع اللغوى :

الأسماك فى الشواطئ الحضرمية

للأستاذ على عبود العلوى

— ٢ —

ومن حديثهم أن الأسماك تنقسم إلى ستة فصائل .

١ — الفصيلة الأولى :

وهى ما يسمونه بسلطان البحر واسمه فى عرفهم شُوحَطْ ومن فصيلته : صَيِّون ، حاشْ ، قُفَّهْ .

ويلى هذه الأسماء خمسة أسماء أخرى لأنواع هذه الفصيلة ، وقد غربت عن أذهانهم أو لم يعرفوا أسماءها أصلا .

وبهذه الفصيلة يوجد العنبر وبالأخص فهو كثير الوجود فى الشوحَطهْ ، وفى ثلاثة أسماك أخرى من الخمسة التى لم يحفظوا أسماءها .

٢ — الفصيلة الثانية :

هى فصيلة اللَّخم (بَكلاهْ) ، وهذا ما أملوه علينا منها : حَنَيم ، أبوسَيْف ، فنطُهْ ، شِرت ، قِرِين ، شَغْصُهْ هِلْكَهْ .

هذه الأنواع السبعة من أحسن الفصيلة طعما وهى حسب ترتيبها :

عُوزَه ، رِحنى ، زِفى ، نمرانى ، شَوط ، كِلْبِه ، نَغِل ، دِجِل ، حُبُورُوقى ، دُوغَه ، مَسكَح ، شِيخَه ، عوزَوْبر ، غفِر ، بُوبِيل ، قَطْقُطَه ، خَنِيث ، بَرْبِير ، قصقوص ، بِيبَر ، صَعْمُور ، قَطِيف على ، قطف حِمرَه .

٣ — الفصيلة الثالثة :

هى الصيد الأسود وهذه أنواعها :

عَمَدَه ، زَيْنوب ، شِروِى ، صَرِيس ، بَاعكيمة ، نِبلَم ، حَقيبَه .

ومن الستة الأنواع المذكورة يصنع (الحَنِيذ) المعروف بهذا الاسم فى حضرموت .

٤ — الفصيلة الرابعة :

هى ما يسمى بالصيد الأبيض وهذه أنواعها :

تِرْنَاك ، غُودِى . (والنوعان من أطيب الأسماك) .

صَنَك ، خُمْخُمَه ، شِرَام ، رِغِى ، زَرَب ، رِحَنْه ، قَزّه ، طِمكَرِى ، مِهَاى ، زِعْفِنِيه ، صَلِيل ، قَفَاط ، خَرْخَار ، عَنفَلُوص ، صِمبارى ، شَتِمَه ، حِرَاب ، بُكسَه ، غُلس ، ظَرهَد ، طَويله ، فَرس ، عَنبريه ، تَكَيَه .

٥ — الفصيلة الخامسة :

وتسمى بصيد تِشار ، وهذه أنواعها :

صِرعَه . (وهي أحسن أنواع هذه الفصيلة) :

زُوكِى ، حَدرَة ، وَبقد ، عَيظُول ، رُغُف ، رَعِن ، خُودَره ، عَندَق ، بُوعَدِل ، غِرَيض ، بطَّاح ، قَرِيبَه ، نِسَار ، قَرحيَق ، أبو قشار ، قلوان ، حَنيُوبر ، حُمُورَه ، طِيم ، بَهَاره ، نَيْز ، ذَرذَيره ، دُنقره ، حُمْرَان ، صَمرار ، كُتُب ، نُكُز ، صُرادَه ، زريه ، بَريه ، وقَاص ، نَاقِم ، ضِرير ، مَحلُول ، مِشمَا ، قِفَاد ، عُمُد ، قِشار ، مَرِيتَع ، صَبُو ، بُوحَنيط ، حَيثُول ، مِلمَاى ، عُنُوب ، شماط ، قَطِمِيم ، بُوليفَه ، طَرعِين ، دُقنه ، مَغَايم ، جزك ، أبو صَندُوق ، شِيغَر .

٦ — الفصيلة السادسة :

وهى التى تصاد بالشبكة .

عَنيد ، زُمَّار ، طُبُوب ، بَلعِيد ، شغره ، عِرعِره ،

وفي السمك ... (continued)

عِيد بِعَيدُون ، شَنَيظِى ، مَنتُوى ، حَضَيرَه ، كِرَمْشُون ، بَاغَه ، حَايِس .

ملاحظة :

تطيب بعض الأسماك فى وقت ، ولا تستحسن فى الوقت الآخر . مثاله (التِرنَاك) فانه يلذ طعمه فى فصل الخريف بحسب التوقيت العالمى كما يوافق فصل الشتاء بحسب التوقيت الحضرمى ولهم فى هذا دليل كما يقول القريزى .

أما (الفُود) فنى كل وقت فهى لذيذة الطعم .

وفى العَيد — يعنى صغار السمك — يقول بعض أدباء الحضارمة فى المهجر هازلا :

من لى بوطء ثرى تلك البقاع إذا
ما جئت مستقبلا عودى إلى وطنى
هناك أنشد مسروراً ومفتخراً
(العَيدُ والصَيد والأسماك تعرفنى)

(يتبع) **على عبود العلوى**

الحركة التربوية فى مصر

للدكتور ستانلى جاكسون

ترجمة الأستاذ حسن حبشى

[دكتور ستانلى جاكسون — صاحب هذه المقالات — من رجال التربية والتعليم ، خبرهما فى مصر وفى انجلترا من قبل ، وتتلمذ على يده كثيرون من مدرسى اليوم ، وهو ممن يؤمنون إيماناً عميقاً بتطور الحركة التربوية فى مصر وبأن التعليم رسالة أكبر من التلقين هى الخلق والتكوين ، وهذه المقالات التى نترجمها على صفحات الرسالة قد انطوت على كثير من الآراء والنظرات الصائبة فيما يتعلق بالتعليم فى حاضره ومستقبله] .

حينما أقلب الطرف فى عناية دقيقة مستوعباً الحالة التعليمية ، ألاحظ أمرين جوهريين فى التعليم المصرى هما علة ضعفه الكبرى ، أولاهما تلك الهوة الشاغرة بين المدارس والمعاهد ذات النظام الشرقى وبين زميلاتها الآخذات بالنمط الغربى ، فالرابطة بين هذين الضربين من المعاهد ضئيلة ، أو تكاد تكون معدومة ، فلقد جرى القائمون بشؤونها — عمداً أو صدفة — على اتباع سياسة الفصل والتفرقة بينهما ؛ أما مصدر الضعف الثانى فهو أن نوع التعليم المتبع فى كلتا المجموعتين أميل لأن يكون تعليما نقلياً صرفاً ، وفى حين آخر يعتمد على استيعاب الكتب ، فهو كان ولا يزال فى معظم نواحيه تعليما جافاً ، لا يرتكز على أسس إنسانية ، بل إنه ليعتمد على التلقين والإصغاء ، وقلما يأبه بالتفكير والإبداع ، أو بعبارة أخرى نستطيع القول بأنه يعنى بتكوين نماذج ، وفى كثير من بقاع العالم يتخلون عنه إيثاراً لتعليم أكثر حرية وأمس بالإنسان رحماً ، وهو تعليم يرى أن أهمية العناية بتنشئة الجسم والعواطف والخلق تكافىء العناية بتربية الذهن ، ولما للظاهرة اللغوية فى التربية من الأهمية فهى جديرة بأن تلقى من العناية العظمى ما أوفى معه أنها صادفته فى مدارس هذا البلد .

من المسائل التى تشغل مكانة عظمى فى تفكيرنا فى الوقت الحاضر مسألة التربية وتأثيراتها على الخلق وفى الأمور الاجتماعية ، وسأشير فى هذا المقال إلى ناحية واحدة فحسب ، هى أن حاجة مصر ستزداد فى أيامها المقبلة إلى القادة ، لاسيما وهى فى طريقها إلى النهوض وفى طموحها لأن تكون لها حياة قومية مستمدة من ذاتيتها ، ولست أعنى « بالقادة » أولئك الرجال العظام رمز الأهمية القومية ، بل أقصد نوعاً من القادة دون هؤلاء يتركز عملهم فى حمل المسئولية ، وفى إخراجهم إلى حيز الوجود خطط الإصلاح الملقاة على عاتقهم ، وأن جميع حركات الإصلاح العظمى — وهى الخطوات الرفيعة فى سبيل رفاهية الإنسانية — لتتوقف كثيراً على زعامة هذه الجماعات الصغيرة ، كما يقع الجانب العملى من هذه الزعامة إلى حد بعيد لا كلياً على أكتاف مدرسى الأمة ، وقد ظهر أن الأمم التى تفشل فى إيجاد عدد كاف من المدرسين والمدرسات الذين تتوفر فيهم الشخصية الأصيلة القوية ، والثقة والجرأة ، إنما هى أمم ترجع القهقرى ؛ وسواء أظهر هؤلاء القادة فى مصر أم لم يظهروا بعد ، إلا أن وجودهم يتوقف كثيراً على ماهية التربية فى البيت وفى المدرسة وفى الكلية ، فلو أن التعليم كان تعليماً إنسانياً من جميع نواحيه ، فسيح الآفاق ، لألفينا كثيرين من هذا الطراز ،

ومع أن هذا الفريق من القادة لا يدعى الزعامة لنفسه ، إلا أنها تتوقف عليه . زد على ذلك أنه هيهات أن يظهر رجال من هذا الضرب إذا ظل التعليم تلقينياً محضاً ، لا يبعث على الاستزادة ، وكان محصوراً فى دائرة ضيقة من الأفكار .

ليس من شك فى توفر المادة اللازمة لتكوين الزعماء فى مصر ، لكن هل ترانا هيأنا ذلك النوع من التربية الذى يعبد السبيل لظهورهم ؟ وهل أعددنا هؤلاء إعداداً تاما لما سيلقى على أكتافهم ؟ إن للتربية الشرقية فوائدها الذاتية ، لكن يظهر أنها غير كفيلة تماما بإنماء الشخصية . ذلك أن آثارها سلبية أكثر منها إيجابية وعلى الرغم من أنها تبز الغربية فى نواحى التأمل ، إلا أنها أميل لإيثار التكرار والتقليد على الخلق والتجديد ، وسواء أكان هذا الفهم صوابا أم خطأ إلا أنه يلقى كثيراً من التأييد . وليس معنى ذلك أن البلدان الشرقية تعوزها الشخصيات البارزة العظيمة ، إذ الواقع أن الطبيعة تحافظ على أن تتغلب على ضيق تعليمنا المدرسى ومن ثم فإنها تمدنا — بين حين وآخر — برجال أكفاء شديدى المراس ، بيد أن قوتهم هذه قد ترتبط ارتباطا تاما بالنظرة العامة وبضيقها ، فلا يتسع المجال أمامهم ، ولا يكون لهم ثمت أثر عظيم ، ولما كانت تعوزهم الإحساسات الإنسانية الواسعة فإنهم يفشلون فى الزعامة الحقيقية ، ويكون فشلهم على الأخص فى اكتساب احترام الجيل الناشىء ، ذلك الاحترام الذى يتطلب على الدوام اتساع أفق التفكير عند رجال ذلك الجيل العظام ، كما يتطلب قياسا خاصا من الكفاءة فى معالجة المشكلات العامة ، ومن ثم فإنه إذا شئنا إيجاد زعماء كبار أو صغار احتجنا إلى نمط من التعليم الحر المرن ، وأعنى به ذلك الذى يبرز القوى المستترة والعبقريات الدفينة فى كل فرد على حدة أكثر مما أعنى به ذلك التعليم الذى يطبع الرجال جميعاً على غرار واحد ، ويهبط بمستوى الشخصية عند الفرد منهم ، وقد أثبتت المقارنة بين النمط التلقينى الصرف من التربية وبين النوع المرن على أن الضرب الأول يتمركز أثره قطعاً فى النتائج كما هو الحال فى الصين مثلا وليس الأمر مقصوراً على عون قوى العقل المبدعة من التقدم أو تجميد الذاكرة أو إغفال التربية الجماعية فحسب ، بل هناك ما يؤدى إلى هذه الناحية الخطرة ألا وهو انعدام التربية الاجتماعية التى سأشير إليها فيما بعد ، إذ أن التربية أجل من أن تكون تلقينا بحتاً ، كما أن التعليم الحر يشمل اليوم كثيراً من نواحى النشاط داخل المدرسة وخارجها ، وحينما يرى الشخص نفسه صالحة للحياة العامة وللاندماج فيها ، فهو يتعلم كيف يعامل الناس وكيف « يأخذ ويعطى » ، وكيف يكيف نفسه بما يتفق وحاجات الجماعة ، ويدرك أين يتحتم عليه تناسى أهوائه الشخصية وهيهات أن يسلس قياد الإدارة للزعماء مالم يعرف الأتباع كيف يتبعون ، ومن ثم فإن مهارة روح الجماعة أو بعبارة أخرى القدرة على اتباع قائد لا تقل أهمية عن قوة القيادة نفسها ، بيد أنها لا تكتسب فى يوم ، ولا نستطيع القول بأنها لقيت فى نظم التعليم الشرقية ما تستأهله من العناية وما يجدر بها من الأهمية .

إذا أرشدنا إلى هذه العيوب فى تعليمنا ، فينبغى ألا نتناسى أن بعضها موجود فى المدارس الغربية ، فالمتحذلقون يموقون المربين فى كل مكان ، كما أن ضيق أفق الذهن لهو خطيئة المدرسين الكبرى فى جميع بقاع العالم ، فالمتطرف من المصلحين هو فى الغالب رجل ضيق الذهن لكنه مع ذلك رجل من نوع جديد ، ولقد ألف الشرق التحمس للآراء الغربية ، ومن ثم غدا أسير الجدة حتى لقد نبذ كل شىء شرقى وراءه ظهريا ، فعلى الرغم من أن الرجل ولد شرقيا إلا أنه أصبح يزدرى أساليب التفكير الشرقية ولربما لج فى تطرفه فثار ثورة شديدة على عواطف شعبه ، وقد يسرف فيناصب أسرته العداء ، ومن حسن الحظ أن من على هذا المنوال قلة ضئيلة ، لكن الشىء الواضح هو تفكك هذه الأصول ، ذلك التفكك الذى قد يقوض الروابط القوية ، ويحطم اتساق الحياة وهذا يوضح لنا التأثير السىء لتيارين من الثقافة ليست ثمت وشيجة من الصلة توحد بينهما . مما أدى إلى انحراف الشخصيات الضعيفة فى هذين التيارين اللذين تقاسماها ، وسارت فى طريق يؤدى بها فى النهاية لأن تكون شيئاً جديداً وغريبا ، فتزعزعت الروابط القديمة ، واجتثت من الحضارة التى كانت تنتمى إليها فى الأصل ، وفقدت ثقتها فى القديم ، ولم تجد عوضا عنها فى الجديد فكانت عاقبة ذلك خواء لا خير فيه ولا جدوى منه ، أما مصر فتقف فى ملتقى الحياة الشرقية والغربية ، ووصلت إلى مرحلة يستحيل عليها فيها — لو أرادت — أن تقلب أوضاع التاريخ

وتنفصل التياران بعضهما عن بعض ، وكل ما ينتغى هو ألا يتصارع التياران سواء فى الذهن الإنسانى أو فى دنيا الواقع ، وعسى أن يشقا طريقيهما متآخيين بما يعود على كليهما باليمن ، فإذا اتحدا أصاب حياة أعظم رخاء وأكثر عمقاً وأوفر طمأنينة ، لكن ليس معنى هذا أن يبتلع أحدهما الآخر أو أن يفقد كلاهما خواصه الذاتية ، بل الواجب أن تكون هناك تعديلات طفيفة إذا شئنا أن تظل الحياة كما هى ، أما تطرف كليهما إلى الحد الذى رأيناه فشر لا فائدة فيه ، كما أن إثارة العداء الشديد بينهما ستؤدى حتما إلى انهيارهما معاً ، وتكون التطورات التى تنجم عن ذلك أبعد مدى مما نتصور ، أعنى أنها تكون ثورية إن لم تكن هدامة ، هذا بينما يؤدى اتباع سياسة التغير المعتدلة — التى تتناسب ومجريات العالم الحديث — إلى اقتباس كل ما فى الماضى من خير ، وتتسم دنيانا اليوم بأنها دنيا تطور سريع جداً ، وإن لم يتبادل هذا التطور الأمور الأساسية بل يتلخص فى أنه نظرة سطحية ترى أن جميع التغيرات تسير فى سلم التقدم ، مع أن « التوقف عن التغير هو التوقف عن الحياة نفسها » كما قال فرويد ، وسواء أكنا نؤيد هذا الرأى أم ننكره إلا أن الواقع أن الحياة تجرفنا جميعاً إلى غد وليد جديد ، كما أن سير الحوادث يرغم الناس على أن يفكروا بأساليب جديدة كما هو الحال الآن حينما تجد أصغر القرى نفسها مرغمة على التفكير فى أمور المجتمع الإنسانى بأكمله ، وفى مثل أزمنة التغيرات القوية هذه يكون من الضرورى لنا ألا نشعر بأن شيئاً من القيم الحقيقية قد امحى ، وأن ندرك أننا نجنى خيرات التقدم ونستغلها فى حياتنا اليومية ، وعلى الرغم مما يبدو على هذا القول من الغموض ، إلا أنه ينبغى أن يكون الحجر الأساسى الذى ترتكز عليه الحركة التربوية .

إن ما أحدثته الأفكار الغربية من انقلاب فى علوم الطب والصحة والنفس وما شاكلها لينبغى أن يستغل لخير الحياة فى هذا القطر ويجب إدخاله فى تربيتنا ، وأن نمزج بينه وبين الحياة والثقافة المصريتين ، ولا سبيل لهذا التطعيم عن غير طريق المدارس والمعاهد فهى طريقه الطبيعى الكامل ، وكذلك بواسطة مجهودات الأشخاص ونشاط الصحافة والإذاعة ، ففى مكنة هذه كلها إحداث شىء من التغير لاسيما فى الأمور الظاهرية ، وليس معنى ذلك أنه يجب أن تصبح مصر أمة غربية ، فتصبغ فنها ودينها وأدبها وموسيقاها وكل شىء فى حياتها بهذه الصبغة ، وإلا كان ذلك طعناً للأمة فى صميمها ، وحتم علينا أن نشير إلى أنه لو أنه قد تهيأ وجود أداة تراقب تأثير الغرب على الشرق وتنظمه فى حينه لأدى ذلك إلى التفاهم وإلى استبقاء كل ما هو جليل الخطر فى الشرق ، وأشعر أن هناك بعض نواح خاصة فى الأسلوب الغربى لم يكن ثمت رغبة فيها أو حاجة إليها ، ثم أزيلت — هذه النواحى الخاصة — بخير الطرق ، وهذا وحده يبين لنا الحاجة القصوى إلى شىء من الرقابة ، كما أنه لو اتبعت الحكمة فى إدخال بعض النواحى الأخرى من المعرفة الحديثة لكان لذلك أعظم قيمة ، فجل الهندسة الحديثة غربى الأصل على الرغم من أننا لو رجعنا إلى الوراء لو جدناها تدين كثيراً إلى الحساب العربى ؛ كما أن مستشفياتنا ومدارسنا الطبية ليست سوى تعبير صريح للعلوم الطبية الغربية التى تدين بعض الشىء إلى الفكر الشرقى القديم ، أما نسبة الوفيات بين الأطفال (وهى نسبة مرتفعة جداً فى مصر) فقليلة جداً فى البلدان التى أخذت بدراسة الحضانة دراسة علمية وعنيت بها ، وليس ثمت حاجة للبرهنة على أن قرانا ومدننا فى مسيس الحاجة إلى أمثال تلك المؤسسات العلمية ، كما نجد أن روح البحث والتنقيب العلمى القائمة على قواعد غربية لمستعملة فى محيط الفن بقصد كشف كنوز مصر القديمة ، وحفظها من العبث ، هذا فى الوقت الذى أدى فيه الباحثون الغربيون كثيراً من الخدمات فى سبيل تفسير المخطوطات المتعلقة بالمسائل والدراسات الإسلامية ، وفى جمعهم مواضيع الفن العربى وترتيبها ، كذلك كان للغرب أثر غير منكور فى ميدان الرياضة ، ويكفى أن يشاهد المرء ثلة من الأولاد المصريين وهم يلعبون كرة القدم أو كرة السلة ليشعر تماماً مقدار النقص العظيم فى كل نظام تربوى يهمل أمثال هذه النواحى من النشاط ، كما أن ممارسة الطفل لهذه الألعاب لم تخرجه عن مصريته ، كما أنه لا يمكن أن نطعن فى مقدرة مدرس لأنه تربى فى انجلترا أو فرنسا ، وكل هذه الأمثلة تشير إلى ذلك الاتجاه الجديد ، وتوضح ضرورة تشجيع هذين النوعين من الثقافة ، ولا يقصد من وراء ذلك أن يحل أحدهما محل الآخر ، بل المقصود أن يتعاونا معاً فى سبيل انتظام الحياة والانتعاش والتقدم الطبيعى ، وذلك خير لكليهما

حسن حبشى

وردة اليازجي

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

— ٣ —

وقالت فى رثاء ولدها أمين :

بأى فؤاد أبتغى بعدك السلوى وأنت فؤادى فى التراب له مأوى

وهى تقول :

ألح علىّ الحزن من كل جانب فشن على صبر الحشا غارة شعوا
فلو أن ما بى بالجبال لأوشكت تميد لما تلقاه من مضض البلوى
أرى نار قلبى كل يوم وليلة تزيد لهيباً كلما زدت فى الشكوى
لفقد أمينى بل حبيبى ومهجتى
وريحان زوجى من غدوت له نشوى
لقد كان فى عينى أبهى من الدجى
وأعذب فى قلبى من المنّ والسلوى
كصدر القنا كالنصل كالغصن فى النقا
كزهر الربى كالبدر كالرشأ الاحوى
أيا قبره هذا العزيز فلا تدع هوام البلى تهوى عليه كما تهوى
وحافظ على تلك العظام فانها لكنز ثمين ليت قلبى لها مثوى

ورثت ابنتها أسماء بقولها :

يا قرة العين مالى عنك مصطبر كيف السلو ونار القلب تستعر
وكيف أسلو وعنى اليوم قد رحلت
أسما وأبقت دموع العين تنهمر
فيا عيونى جودى بالدموع عسى
تخفى بعض ما فى القلب يستتر
وساعدى مهجة المحزون علّ أن تطفى لهيب فؤاد كاد ينفطر
ياجمرة الحزن هلا تتركى كبدى يوماً بغير قروح فيه تنفجر
أسما شريكة قلبى آه وا أسفا هلا يعود زمان قد مضى نضر
ربيت تسعة أعوام مى وأنى من ليس يمنعه كبر ولا صغر
ما كان أقصر ذاك العمر وا أسفى كزهرة فى انبثاق الصبح تنتثر
يا لهف نفسى لأيام مضت عجلا كالحلم ولى فلا عين ولا أثر
أواه من طول ليل بت أسهره كأنما ماله صبح ولا سحر
قد كنت أشفق من دمعى على بصرى
واليوم هان علىّ الدمع والبصر

وقالت ترثى أخاها عبد الله :

أعينای جودی بالدموع السواكب
وفيضى دماء بعد فقد الحبائب

ومنها :

طوى الدهر ما بينى وبين أحبتى وجمّع ما بينى وبين المصائب
تتابعت الأرزاء من كل جانب علىّ كما ينهل غيث السحائب

ثم تقول :

ويا كوكباً قد غاب عنى فى الثرى
وما هكذا عهدى غياب الكواكب

وتختم الرثاء قائلة :

سأبكيك دهرى ما حييت وإن أمت
ستبكى عظامى تحت طى الترائب

وقالت راثية إحدى السيدات عن لسان شقيقة لها :

قفا بى كى أودعها قليلا قبيل البين إذ أمسى طويلا
رويداً حيث أطلب أن أراها فلا ألقى لرؤيتها سبيلا
وهيهات الوداع وقد أتاها رسول البين يخطفها عجولا

ثم تقول :

إذا ناحت وأعولت البواكى أكون أحق من أبدى العويلا
وإن تك فارقت فى مصر نيلا ففى العليا أجتلت نيلا ونيلا
هناك تمتعت بنعيم عيش به تنسى المنازل والنزيلا
وأبقتنا بأحزان لديها نعد الصبر أمراً مستحيلا

وقالت ترثى قرينها :

أترى ما اكتفت صروف العوادى
بسهام أصمت صميم فؤادى
كلما كاد يضمد الجرح ترميـ ـنى بسهم مفتت الأكباد
وأبى الدهر أن يمن بنظم غير نظم الرثاء والتعداد
سلبتنى المنون إنسان عينى ورفيقى وعمدتى وعمادى
يا أليفى فى شدتى ورخائى ونصيرى فى النائبات الشداد

إلى أن تقول :

قد بكت فقدك المنابر حزنا وردت عليك ثوب الحداد
وبكتك العلوم من كل فن كنت فيه من أوحد الأفراد
شتت الدهر شملنا وافترقنا وكذا الدهر مولع بالعناد
فسأبكيك ما حييت إلى أن نلتقى فى جوار رب العباد

وتختم الرثاء برثاء شقيقها إبراهيم العالم اللغوى المشهور :

لم يبق للحزن صبر ولا جلد ولادموع تفى لى حق من فقدوا
وضاق صدرى مما قد تراكم من حزنى ولم يبق لى للاحتمال يد
بينا يضمد لى جرح لفقد أخ يجدد البين جرحاً ليس ينضمد
أخنى الزمان علينا مثل عادته
واغتال من هو ركن البيت والسند
مضى الشقيق فشق القلب مصرعه
وخلف النار فى الأحشاء تتقد

ثم تقول :

يا قائل القول ما زلت به كلم وصاحب الرأى حقاً ليس ينتقد
منشى الفصول التى ماخطها قلم رب البيان الذى لم يحوه أحد

ومنها :

وكوكب الشرق ما تخبو له لمع
وإن خبت فالضيا[1] فى إثرها مدد
بما نشرت لسان العرب معتصم وما نظمت لسان العرب معتضد
فضل سيبقى بقاء الدهر متصلا عليك لا ينقضى أو ينقضى الأبد

ثم تختم الرثاء بهذه الأبيات :

ياصخر بنت الشريد اليوم منتشر لها عليك قواف فى الورى شرد
هيهات مافقدت صخرى ولا نظمت
دمى ولا وجدت خنساء ما أجد
بكت وحيداً وأبكى ستة ذهبوا لكل محمدة بين الورى ولدوا
يا رحمة الله حلى فى مضاجعهم ويا غمائم جودى حيثما رقدوا

وقد رثته ثانية حيث أنشدت على ضريح العائلة فى بيروت أى بعد نقل رفاته من مصر :

ياقبر اهنأ بما أوتيت من ظفر فقد حويت كرام البدو والحضر
حويت من هزّ ركن العلم مصرعهم
من بعد ما ألبسوه أنفس الحبر
حويت كنزاً ثميناً لو عرفت له قدراً لفاخرت فيه أثمن الدرر

ثم تقول :

يا قبر قد عاد إبراهيم وا أسفى يضوى إلى أسرة من أنفس الأسر
فأى عين لهذا الخطب ما نزفت دماً وأى فؤاد غير منفطر
ويلاه من نكد الأيام كم فتكت بنا ولم تبق لى صبرا ولم تذر
ياقبر أكرم نزيلا حل فيك ولا تمتعنّ البلى من جسمه النضر

وتختم بقولها :

يامن مضى وجميل الصبر يتبعه هل من سبيل إلى لقياك منتظر
قد كنت منى مكان الروح من جسدى إذ
مضى وكنت مكان النور من بصرى

ومن سور الرثاء أيضاً ما قالته فى الذكرى :

جز يا نسيم على وادى النقا سحرا
وسل عن الصحب هل تاقى لهم خبرا ؟
واشرح لهم سوء حالى بعد فرقتهم لعلهم يعطفوا أو يلفتوا النظرا
كنا وكانوا وكان الأمس يجمعنا فصير الدهر ذاك الجمع منتثرا
من لى برؤيتهم يوماً ويسعفنى حظى وتبلغ عينى منهم الوطرا
مضى زمان الصفا ما كان أقصره
وعوض الدهر عن ذاك الصفا كدرا
أحبابنا ما أمر العيش بعدكم وهل يطيب لقلب بات منفطرا ؟

هذه مقتطفات من طويل الرثاء فى إخوتها وأهلها الذين فقدوا فى حياتها بكتهم بعيون تسيل دماً لا دمعاً . ولم يقتصر الرثاء فقط على من ذكرنا وإنما رثت جماعة كبيرة عن لسانها ولسان صديقاتها الكثيرات كما أوردنا البعض منها هنا بإيجاز . ومن الشعراء طائفة ممن قرظوا ديوانها « حديقة الورد » فقالوا فى ذلك أبياتاً نورد منها قسما هنا . منهم قول الشيخ الحوى أحد أدباء يافا مادحاً ديوانها :

الجهل شاع بهذا العصر وا أسفى وقد رأيت بيوى أعجب العجب
بديع نظم سما من وردة عبقت فاحت روائحها فى العلم والأدب
فلله در لآلى درة نظمت كريمة اليازجى حسانة العرب

(١) إشارة إلى مجلة الضياء التى كان يصدرها المرحوم إبراهيم اليازجى آنذاك .

وقال الحاج حسين افندى بيهم :

حديقة الورد قد طابت لجانيها ورق بالطبع قاصيها ودانيها
فاقطف ثمار المعانى من لطائفها وارشف شهى الحميا من قنانيها
ياحسن فكرة من أبدت لنا درراً ونظمت خير عقد من دراريها
فانها فرع ناصيف الذى اشتهرت لطفا مقاماته وارتاح حاكيها
حكت أباها بآداب فما ظلمت جاءت على أصلها الباهى قوافيها
دامت تطرز أثواب القريض لنا ما قام يطرب بالأشعار راويها

ثم قال اسكندر أغا أبكاريوس :

أهدت لنا نفحات الورد فى الكلم
كريمة من بنات الجود والكرم
فريدة قد سمت فى الناس واشتهرت
ألطافها بين عرب الأرض والعجم
أكرم بها درة قد طاب عنصرها بالفضل أشهر من نار على علم
فاقت على سائر الأمثال قاطبة للنظم والنثر والآداب والشيم
صاغت لنا من نفيس الشعر أحسنه
نظما وأجوده فى المدح والحكم
أبدت لنا السحر فى نظم البيان وقد
زهت وباهت نساء المصر بالهمم
لا زال طالعها بالسعد مقترنا
ما ضاء بدر الدجى فى حندس الظلم

وقال خليل افندى الخورى :

لا يفخر الغرب بالغادات لابسة تاج البلاغة تجلو راية الأدب
فان فى الشرق روض رائق نضر
تهدى شذا الشعر فيه وردة العرب
كريمة للكريم اليازجى بدت تجلو الفخار بمجد العلم والأدب

وقال المعلم أسعد الشدودى :

ألا يا وردة العرب التى قد زها نظم لها كعقود در
لقد أنشأت ديواناً بديعاً به أنسيتنا خنساء صخر
معانيه الدقيقة ذات ظرف لها رقصت معانى كل شعر
فلا عجب إذا فاقت سواها فنشر الورد أطيب كل نشر

ثم قال يوسف افندى السيوفى :

نزه لحاظك فى جمال حديقة أبداً يفوح الطيب من أزهارها
لا بدع أن فاقت بحسن بهائها وتقاصر الأقران عن أقدارها
فالورد من أغراسها والطيب من أنفاسها واللطف من أسرارها

ثم قال سليم افندى الخورى :

فى روضة الورد قامت وردة العرب
تبدى لنا نفحات العلم والأدب
كريمة الفرد ناصيف التى أخذت عنه النظام فكانت بنت خير أب
أبدت من رقيق الشعر أعذبما يحلو ويغلو كما يخلو من الريب

وقال المعلم إبراهيم سركيس :

فريدة العصر قد صاغت لنا درراً تدوم ريانة حيناً إلى حين
أحلى الحدائق ما كانت مكللة بالورد والورد سلطان الرياحين

ومما قاله أخوها الشيخ إبراهيم اليازجى :

هذه حديقة ورد عز جانبها وحبذا روض ورد يفرج الكربا
من طافها بر فيها الدر منتظما والطيب منتشراً والسكر مختلبا

هذه صورة مصورة من حياة الشاعرة الكبيرة وردة اليازجى اقتطفتها من ديوانها « حديقة الورد » آملا بعملى هذا تقديم باقة من زهر هذه الحديقة الغناء يشمها القارىء فيتعطر بشذاها ويتعبق برائحتها خدمة للأدب والتاريخ .

(بغداد) يوسف يعقوب مسكونى

مظـــاهر العبقرية

فى الحضارة الاســلامية

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٢ —

عند ما فتح العرب جنوب أوربا واستولوا على جزرها المشهورة وعلى ربوع الأندلس، انتشرت لغتهم فى جميع هذه الأقطار، وخاصة فى شبه جزيرة أسبانيا ومنورقة، وميورقة وجزائر البالبار وصقلية، وإقريطش وما إليها.

وبلغ من شأن العربية فى أسبانيا أن اضطر آباء الكنيسة إلى نقل صلواتهم وأدعيتهم إليها ليحسن فهمها المصلون الذين كانوا قد زهدوا فى اللغة اللاتينية ومالوا عنها إلى اللغة العامة وهى العربية، يتدارسون بيانها وقواعدها، ويحفظون أشعارها وطرائفها، وظلت العربية هى اللغة الرسمية فى تلك الربوع حتى جلاء العرب عنها عام ١٠١٦ هـ. وقد وجد المنقبون نحو ألفى صك كتبها سكان تلك البلاد الأصليين باللغة العربية [١] وفى مكتبة الأسكوريال فى أسبانيا حتى يومنا هذا معاجم يونانية عربية، ولاتينية عربية وعربية أسبانية تدل أوضح دلالة على ذلك العصر العربى الزاهر.

وفى اللغة الأسبانية الحاضرة كلمات عديدة تبدأ بأل التعريف العربية، وفى ذلك أبلغ شهادة على تأثر اللغة الأسبانية باللغة العربية. إذ أمدتها بآلاف المفردات التى لا غنى لها عنها فى التعبير، ولم يقف نفوذ اللغة العربية عند هذا الحد بل تعداه إلى بقية اللغات السكسونية والجرمانية الحية، ولهذا فإننا نجد حتى اليوم ألفاظاً عربية بليغة فى كل من اللغات [٢] الانجليزية والتالية القديمة والألمانية، والهولندية والإسكندنافية، والروسية والبولندية، واللغات الصقلية الأخرى.

(١) غرائب الغرب ج ٢ ص ١٣٤ — لمحمد كرد على

(٢) مجلة المعرفة — بحث لعلى مظهر، والاسلام والحضارة العربية ج ١ لكرد على.

ومما تدل عليه الإحصاءات الدقيقة [١] أن ثلاثة آلاف كلمة عربية قد دخلت اللغة البرتغالية، وأن ربع الأسبانية الحديثة مأخوذ من العربية، وأن تسمائة كلمة من اللغة العربية أيضاً قد أدخلها الفرنسيون فى لغتهم [٢] وتضم الانكليزية كذلك مثل هذا العدد من الألفاظ العربية.

ومن الغريب حقاً أن نجد أمماً غير عربية ما زالت حتى عصرنا الحاضر أمما تتكلم اللغة العربية وتكتبها فى جميع معاملاتها، أو أنها تكتب لغتها بالحرف العربى [٣]، وما زالت العربية حتى يومنا هذا شائعة ومحكية فى معظم أطراف السينغال، والسودان الفرنسى، والنيجر، وليبريا، والحبشة، وجيبوتى، وقازان، والقريم، وكرجستان، وطاغستان، وتركستان وسيام، والفيليبين، والهند، وإيران، والصين، وجاوه، وبلاد المغرب، ومالطه، وكردوفان.

نقف عند هذا الحد قليلا لنسأل سرفيه وأمثاله، أكان فى استطاعة العرب أن يفرضوا لغتهم على جميع الشعوب التى حكموها، لو لم يكونوا أمة موهوبة جميل المزايا وروائع العبقريات؟ أم كان هؤلاء الأقوام يقبلون على تعلم العربية بمثل ما رأيت من الشوق والرغبة، لو لم تكن العربية لغة حضارة سامية ومدنية زاهرة؟ ... وإننا لنجد أمماً كثيرة، بربرية وهمجية، قد فرضت سلطانها على العالم قروناً طويلة، ولما لم تكن ذات حضارة عالية بادت وتلاشى سلطانها دون أن تترك وراءها أثراً يذكر.

ولم نذهب بعيداً فى الاستدلال، وهذه الأمة العربية ذاتها قد تعاقبت عليها مختلف الحضارات، وخضعت لشتى السلطات إلا أنها مع ضعفها السياسى قد حافظت على مزاياها وتقاليدها ولغتها وحضارتها، ولئن استطاعت هذه الدول أن تفرض عليها سلطانها ونظمها السياسية، إلا أنها عجزت عجزاً تاماً عن تجردها من ثقافتها، لتفرض عليها ثقافتها الخاصة

(١) انجلمان : قاموس الألفاظ الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية

(٢) لامنس — ملاحظات على الألفاظ الفرنسية المشتقة من العربية وكتاب Intraoluctionto the Study of English Literature

(٣) تقويم العالم الاسلامى بالفرنسية — ا سنبون.

العرب في ميدان العلم وطور الاستعداد :

وقبل أن نبين مواطن الابتكار والعبقرية في ثروة الإسلام العلمية يحسن بنا أن نرجع ولو قليلا إلى الوراء لنبحث العوامل الرئيسية التي عملت في تكوين الحضارة الإسلامية ، ولنرى بعد ذلك المراحل الأوليـة التي تخطتها هـذه الحضارة العريقة في سيرها وتقدمها ، قبل أن تصبح حضارة العالم بأجمعه بلامنازع

فليس من شـك في أن العرب وإن كانوا أرباب ملاحظة في سائر العلوم ، وأمة موهوبة أعلى درجات النبوغ والذكاء ، إلا أنهم شادوا حضارتهم — شأن بقية الأمم المتمدنة — على أنقاض حضارات سابقة قديمة ، وليس من شك أيضاً في أن الحضارة العربية لم تبلغ حد كمالها فجأة ، إذ أن ذلك أمر بعيد التصديق ، ولـكنها بلغته تدريجياً ولـكن بخطى مسرعة متزنة لم يعرف لها التاريخ مثيلا

لقد كانت أوربا في العصر الذي بدت تظهر فيـه طلائع النهضة العربية تغط في سبات الجهالة ، وتتمرغ في هاوية الانحلال ، وكانت المسيحية إذ ذاك قد بدأت بمطاردة الحرية الفكرية في أقطارها ، وأخذت تنشط في إحراق العلوم الوثنية وتعقب العلماء والفلاسفة . واستئصال شأفتهم من كل بقعة . يخشى أن يكون لهم فيها صوت مسموع ، أو علم مرفوع ، حاسبة أنها بذلك تبيد من حقلها الأعشاب القريبة التي قد تحول في المستقبل دون نماء عقيدتها ، وإذ كان النور يشع إذ ذاك من ناحية الجزيرة العربية فقد أخذت هذه الفئات الممتازة الراقية تؤمها آحاداً وأرسالا حاملة إليها نتاج عبقريات الأمم اليونانية والرومانية الدارسة ، وكانت هذه الجماعات حيثما نزلت تعيش في جو من التسامح الفكري لم تعهد له فيما مضى مثيلا .

أما في بلاد الشرق فقد أدت الحرب العوان التي دارت قبل الإسلام رحاها بين مملـكتي الروم وفارس إلى ضعف كلتا المملـكتين فقد غزا هرقل مملـكة الفرس ، فتركها أطلالا خاوية ، ثم غزا الفرس مصر والشام فثأروا لبلادهم من مملـكة قيصر، وقابلوا الضربة بضربة مثلها وأخذت المناوشات تترى بين المملـكتين مدة طويلة ، وكان من نتيجتها أن ضعف قيصر وذل كسرى ؛ أما قيصر ، فقد استنفدت هذه الحرب الضروس جميع اقتصاديات بلاده حتى لقد عجز عن أن يحفظ حدود مملـكته ، وعن دفع الأتاوة للقبائل العربية التي كانت تقوم بحراسة أطراف هذه الإمبراطورية الواسعة ، وزاد في الطين بلة احتدام الجدل بين الملـكيتين واليعاقبة والنساطرة حـول طبيعتي المسيح [1] الالهيـة والإنسانية ؛ وتدخل الإمبراطور إذ ذاك في هذه المجادلات ، الأمر الذي أدى إلى اضطهاد اليعاقبة والنساطرة ، وإلى اتساع شقة الخلاف . وكان هرقل إذ ذاك قد طعن في السن ، وأوهت قواه الشيخوخة ، فسقط لذلك ألعوبة بأيدي رهبان إيليا الذين ما زالوا به حتى أوغروا صدره على يهود بيت المقدس ، بدعوى أنهم ساعدوا الفرس حين زحفهم على امبراطوريته ، وضربهم إياها تلك الضربة القاضية ، التي صدعت فيها بنيان النظام والطمأنينة والأمن ، فقتل منهم لذلك خلقاً كثيراً ، وجلاداً وافراً ، وعدداً لا يعد ؛ وهكذا فقد كان كل من النساطرة واليهود عوناً لـكل خارج على قيصر أو طامع في ملـكه وإذا استهواهما قبس الحرية الذي كان يشع من ناحية الجزيرة فقد ساروا إليها يحملون معهم في سيرهم ما انتهى إليهم من نتاج المدنيات السابقة ، وما جادت به قرائحهم المتوقدة ؛ فتفسح النسطوريون في أرض الحجاز ، وقطن اليهود بلاد اليمن ؛ وكان أمراً طبيعياً أن تنتشر تعاليمها في سائر أقطار الجزيرة ، وأن تتأثر هذه بها .

ولم تكن الحالة في بلاد فارس بأحسن منها في بلاد الروم ، فقد كان الملك فيها — قبيل الإسلام — في قبضة طفل صغير لا يجاوز الخامسة عشرة من سنه ، ثم في قبضة امرأة مستضعفة ، وهي بوران بنت كسرى ؛ ولما بلغ النبي أمرها قال « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة » وهكذا فقد كان عرش فارس ألعوبة بأيدي أطفال صغار ، ونساء جاهلات ؛ ولم تكن حالة الزرادشتيين في فارس بالتي تدعهم يخلدون إلى السكينة والاطمئنان ولذلك فقد أصبحت الجزيرة — قبيل الإسلام — مثابة صالحة للمضطهدين والمغلوبين على أمرهم من أحرار فارس والروم .

(يتبع) **خليل جمعة الطوال**

---

(١) تاريخ سعيد بن بطريق



إلى علماء العربية وأعلامها :

كنت أحقق منذ عهد بعيد شعر أبى نواس ، وأبحث عنه فى مظانه المخطوطة والمطبوعة ، فدفعنى ذلك إلى دراسة الأديرة والحانات وما يدور فيها ، وأماكن اللهو والتنزه ، ومواضع القصف والنزف وما يتعلق بذلك ، ودراسة الشعراء المجان وتاريخ الخمرة فى الأدب العربى ، وحياة الجوارى والقيان وأترهن ، إلى غير ذلك مما يتصل بموضوعى . فعثرت على شاعر ماجن خليع داعر أسماه أصحاب التصانيف والتآليف « أبا شاس » ، ووصفوه بأنه صاحب دعابة ومجون ، وفسق وتهتك ، وتطرح بالحانات ، وملازمة للديارات .

ذكر هذا الشاعر ابن فضل الله العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » عند الكلام على دير يونس [١] فى موضعين ، وذكر له شعراً فى صفة هذا الدير ، وشعراً فى صفة الخمرة ، ولم يعلق العلامة أحمد زكى باشا على ذلك بشىء ، بينما علق على أبسط الأمور ، وشرح مختلف الألفاظ .

ثم رأيت الأستاذ حبيب زيات يذكره فى كتابه الموسوم « بالديارات النصرانية فى الإسلام » [٢] ويضع له اسماً فى فهرس الشعراء الذين استشهد بشعرهم فى كتابه ويسميه « أبوشاس منير »

ولما كان جميع من كتب فى الديارات والحانات والأعمار وما شابه ذلك اعتمد على كتاب « الديارات » لأبى الحسن على بن محمد الشابشتى [٣] رأيت أن أرجع إليه فى تحقيق اسم هذا الشاعر ونسبه وحياته .

(١) مسالك الأبصار ص ٣٤٦ ، ٣٤٧

(١) الديارات النصرانية فى الاسلام ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٣) هو أبو الحسن على بن محمد الشابشتى المتوفى سنة ٣٨٨هـ ٩٩٨م كان أديباً فاضلا تعلق بخدمة العزيز بن المعز العبيدى صاحب مصر فولاه أمر خزانة كتبه وجعله « دفترخوان » — وظيفة فارسية معناها « قارىء المفاتر » — يقرأ له كتبه ويجالسه وينادمه

وكلمة « شابشتى » فارسية مكونة من « شاه » بمعنى ملك و « بشت » بمعنى خلف أو قفا فيكون معناها : الذى يكون خلف الملك أى الحاجب ، ونرى أن يكون تلفظها « شابستى »

ولكن الشابشتى لم يذكر عن هذا الشاعر ما يبل الغلة ويفى بالحاجة ، بينما ترجم كل شاعر له علاقة بموضوعه ترجمة وافية مهما كان ذلك الشاعر مغموراً .

قال الشابشتى فى الكلام على دير يونس بن متى [١] بعد ما ذكره وعرف به : « ولأبى شاس فيه :

يادير يونس جادت صوبك الديم ... حتى ترى ناظراً [٢] بالنور تبتسم
لم يشف من ناجر حر على ظمأ ... كما شفى حر قلبى ماؤك الشبم
ولم يحلك محزون به سقم ... ألا تحلل عنه ذلك السقم
أستغفر الله من فتك بذى غنج ... جرى علىّ به فى ربعك القلم

ثم يقول بعد هذا : « وكان أبو شاس هذا من أطبع الناس ، مليح الشعر ، كثير الوصف للخمر ، ملازماً للديارات ، متطرحاً بها ، مفتوناً برهبانها ومن فيها . » ثم يقول ومن مليح شعره :

لا تعدلن عن إبنة الكرم ... بابى ففيها صحـة الجسم
واعلم بأنك أن لهجت بغيرها ... هطلت عليك سحائب الهم
وإذا شربت فكن مستيقظاً [٣] ... حتى يتبين طيبة الطعم
لو لم يكن فى شربها راحة [٤] ... إلا التخلص من يد الهم

وهذه القصيدة موجودة فى شعر أبى نواس وهى فيه ثمانية أبيات [٥] ، ورأيت العمرى فى مسالكه ينسبها لأبى شاس ويذكر الأول منها والرابع فقط .

ويستمر الشابستى فى ذكر شعر أبى شاس هذا ويذكر له قصيدة مطلعها :

أعاذل ما على مثلى سـبيل ... وعذلك فى المدامة مستحيل

وبعد هذا البيت ثمانية أبيات ، وهى موجودة أيضاً فى شعر أبى نواس [٦] بنصها وبعدد أبياتها ، وينقلها العمرى فى المسالك ويذكر منها أربعة أبيات ، وينسبها لأبى شاس :

هذا هو أبو شاس الشاعر الظريف الماجن الذى مر ذكره فى

(١) كذا فى الشابشتى والعمرى والصحيح « ناضراً » .

(٢) الشابشتى ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) فى ديوان أبى نواس « . فكن لها متمطقاً » .

(٤) فى مسالك الأبصار « فرجة » .

(٥) ديوان أبى نواس ، المطبعة العمومية ، سنة ١٨٨٩ ص ٣٢٨

(٦) ديوان أبى نواس ، المطبعة العمومية ، سنة ١٨٩٨ ص ٣١٧

هذه المصادر الثلاثة ولم أعثر له على ذكر فى أى مصدر آخر .

أقول أن أبا شاس هذا هو أبو نواس نفسه إذ أن العمرى وحبيب زيات نقلا عن الشابشتى وأن الناسخ له صحف هذا الإسم « أبا نواس » فصيره أبا شاس ، وجاء العمرى ونقل عنه ، وأغفله العلامة أحمد زكى باشا فلم يصحح هذا التصحيف ، ثم جاء حبيب زيات ونقل عن العمرى أو عن الشابشتى ووضع له اسماً هو « منير » .

أضع هذا الرأى بين أيدى علماء العربية وأعلامها لعل لهم فيه رأياً .

(بغداد) شكرى محمود أحمد

بين المحمدية والموسوية :

من الشريعة الموسوية التى نسخها الشرع الإسلامى ، ولكن القوم بها عاملون : قول موسى عليه السلام : (كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من نهر الفرات إلى البحر الغربى يكون تخمكم)

وفى الشرع الإسلامى أن الأرض لأهلها ، يفرض فاتحوها عليها خراجاً ، وجزية على السكان لخوض المحاربين فى الجيش لقاء إقرار الأمن وإقامة العدل وحماية البلاد .

وفى الشريعة الموسوية : (حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك وفتحت لك أبوابها فكل الشعب المولود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة فهو غنيمتك تغتنمها لنفسك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة عنك جداً التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً) ومعنى التحريم هنا القتل العام . وفيها أيضاً : (تمحو اسمهم من تحت السماء لا يقف إنسان فى وجهك حتى تفنيهم تدريجاً لئلا تكثر عليك وحوش البرية) .

وفى الشرع الإسلامى إذا حاصر المسلمون مدينة أو حصناً دعوا أهلها إلى الإسلام فإن أجابوا كفوا عن قتالهم ، وإن امتنعوا دعوهم إلى أداء الجزية فإن بذلوها فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا لجأ المسلمون إلى القتال ، على أن لا يخونوا ولا يغلوا ولا يغدروا ولا يمثلوا ولا يقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا يقطعوا شجرة ولا يذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ولا يعرضوا للمتعبد فى صومعته و ...

وفى شريعة سيدنا موسى أن حفظ العهود ووجوب العمل بها محصور بما عقد منها بين بنى إسرائيل فقط ، ولا يجب على الإسرائيلى أن يحتفظ بعهده مع العدو المحارب أو غيره .

وفى الشرع الإسلامى يجب الوفاء بالعقود عامة لقوله تعالى (واوفوا بالعقود) .

وفى الشريعة الموسوية : (لا تقرض أخاك الإسرائيلى ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا . للأجنبى تقرض ربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا) .

وكذلك سائر القواعد الاجتماعية فى المعاملات والعقوبات . فالحكم فى الشريعة الموسوية يختلف باختلاف الأشخاص ، والعقوبة تخف على اليهودى وتشتد على الأجنبى مع وحدة الجرم ويسقط عندهم الدين بمرور الزمن بعد سبع سنين عن العبرانى وأما عن الأجنبى فلا يسقط أبداً ولا يمر عليه الزمان .

وفى الشرع الإسلامى أن لأهل الذمة ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وفى الحديث النبوى المحمدى (من آذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة) . إلى غير هذا مما هو مبسوط فى مظانه ومصادره .

فوزى محمد طراد

أثر العرب فى الحضارة الأوربية :

هذا عنوان الكتاب الأخير الذى أصدره فى هذا الصيف الأستاذ الكبير العقاد ، ومن حسن حظ العرب والأدب أن هذا الكتاب جاء فى وقته . ووقته الذى أعنيه هو هذه المعركة الحاسمة فى نضال عنيف بين العرب وأوربة استمر منذ أحرق

طارق سفنه فى الشاطئ الغربى من المضيق إلى اليوم . وكان هذا النضال الطويل أفظع صدام شهده التاريخ بين الحق والباطل والعلم والجهل والمدنية والبربرية ، تسلح فيه سماسرة الدين وعلوج المُلك بالضغينة والإفك والتمويه والتشويه ، فوقفوا بالعصبية أمام العرب فى الأندلس ، وبالصليبية أمام الإسلام فى فلسطين ، وبالآرية أمام السامية فى عهد هتلر ، ثم بالغرب كله أمام الشرق كله فى عصر تشرشل . ولقد ظل النصر لنا حليفاً فى مراحل هذا الصدام ، حتى انطمست فى نفوسنا معانى الإسلام والعروبة ، ففقدنا كل سلاح غير سلاح الحق . والحق وا أسفاه أعزل ، فلا بد له من سيف كسيف خالد ، وأبكم فلا بد له من قلم كقلم العقاد . فالكتاب الذى يقرأه الناس لكاتب العبقريات اليوم ، إنما هو صولة من صولات الحق تفيد مصر وفلسطين وسائر بلاد الجامعة العربية فى تعليم من يجهل وإقناع من ينكر أن العرب الذين مدنوا الشرق وهدوه ، وعلموا الغرب وأمدوه ، لا يزالون بفضل عقيدتهم وعقليتهم وجنسيتهم مشعلا من مشاعل الحضارة ، وركناً من أركان السلام ، وأنهم أعطوا العالم أكثر مما أخذوا منه ، وأثروا فى الغرب أكثر مما تأثروا به ، وأن من الكرامة الإنسانية ألا يعاملوا بالقهر ، وألا يؤخذوا بالاستبداد ، وألا يُبنى الاتفاق معهم على الكره .

« موضوع هذا الكتاب الوجيز ينقسم إلى قسمين : أولهما أثر العرب فى الحضارة الأوربية من أقدم أزمانها ؛ والثانى أثر أوربة الحديثة فى النهضة العربية المصرية » فعالج الأستاذ المؤلف أثر العرب فى الأوربيين من جهة العقائد السماوية ، وآداب الحياة والسلوك ، والتدوين ، وصناعات السلم والحرب ، والطب والعلوم والجغرافيا والفلك والرياضة والأدب والفن والفلسفة والدين ، وأحوال الحضارة والدولة والنظام ؛ ثم أجمل أثر أوربة الحديثة فى النهضة العربية ، فأشار إلى ذلك فى الاجتماع والسياسة ، والحكومة البرلمانية ، والوطنية ، والحركات الدينية ، والأخلاق والعادات ، والأدب والفن ، والصحافة ، وكل هذه المسائل معروضة بالعرض الذى يعرفه الناس للعقاد من قوة المنطق وصفاء الأسلوب وسعة الاطلاع . وهو بعد ذلك مطبوع فى دار المعارف طبعاً أنيقاً على ورق صقيل فى غلاف جميل .

(* * *)

فن إنشاد الشعر العربى :

كتاب يقع فى ٧٨ صفحة من القطع المتوسط مطبوع فى مطبعة الآباء الفرنسيسيين فى القدس ، وضعه الأب أغسطس فيكى الفرنسيسى ، ونقله إلى العربية الأب اسطفان سالم ، والدكتور أسحق موسى الحسينى ، وقد صدر الكتاب بمقدمة نفيسة ، فى الشعر ، والإنشاد ، وفى أسباب ضعف الشعر فى عصرنا الحاضر وقد نبه المترجمان الفاضلان على أن الأب أغسطس فيكى لم يكن هو أول من راد مفازة هذا البحث ، وأن العالم استانسلاس جوبار قد سبق المؤلف إلى البحث فى فن الإنشاد الشعرى . كما أن المستشرق المشهور تشارلس كيل ، كان قد سبق المؤلف إلى تبيان مواطن الضغط الصوتى فى كتابه « الشعر العربى القديم »

والكتاب على ما فيه من نظريات لم يألفها أدباء العربية الناشئون ، لا بد وأن يكون له شأن فى المستقبل ، ونحن واثقون بأن إعراض أبنائنا عن الشعر العربى خاصة والأدب العربى عامة مرده إلى أننا لم نعلمهم إياه على الوجه المرغب ، المشوق المطرب . وإلا لكان أساتذة الأدب العربى لا يعانون الأمرين وهم يبتكرون الأساليب ، لإقناع طلابهم بضرورة الإقبال على أدب لغتهم القديم منظومة ومنثورة .

نحن لا ننكر أن الكتاب يصدم مطالعه العربى عند الوهلة الأولى لأنه يزيد رموزاً جديدة ، إلى زحافات وعلل الشعر العربى وهى رموز النطق ، والإنشاد ، ومط الصوت ، مما لا عهد لنا به ولكن كل ذلك يهون إذا علمنا أن كل فن لا بد له من ضوابط وقيود تعصمه من الفوضى .

قد يعترض البعض على هذا الكتاب بأنه يزيد فى القواعد ونحن نحاول التخفيف منها وجوابنا على هذا الاعتراض أن الكمال يحتاج إلى المجهود .

وقد يرى البعض أن الكتاب غايته التنغيم ، وليس هذا من طبيعة الأشياء ، ولا هو من طبيعة الشعر العربى .

والواقع أن هذا الرأى فى غير محله ، لأن التنغيم هو الأصل فى الشعر العربى وهو الأمر الطبيعى فيه ، لأن الشعر والغناء من أصل واحد عند الأمم كافة ، وقد وضع الشعر العربى فى أول أمره لينشد تكريماً للالهة والملوك ، فكان لا بد من إظهار العاطفة فيه بالنغم ، فاليونان ، والرومان يقولون إلى الآن « غنى شعراً » ولا يقولون نظم شعراً [1] والذى نراه أن العرب لم يشذوا عن هذه القاعدة ، لأنهم ليسوا بدعة من بدع الحياة والطبيعة . ونرى فوق ذلك فان العرب ينظموا الشعر من أجل تكريم آلهة العشق فى أول أمرهم (العزى) بدليل أن كل قصيدة لا بدلهم من أن يبدأوها بالغزل [2] . وكان شعراء العرب يغنون شعرهم

(١) أداب اللغة العربية لزيدان ج ١ صفحة ٥٦

(٢) هذا رأى خاص بنا ، ولنا فيه مقال مسهب عنوانه « أفرض العرب النسيب فى بدء قصائدهم لغاية دينية ؟ » .

كالأعشى قبل الإسلام [1] والشاعر الذى لم يكن صوته جميلا رخيما كان يقتنى غلاماً رخيم الصوت ينشد أشعاره [2] ولو لم يكن الإنشاد أصلا فى الشعر لما خص كل نوع من العواطف ببحر ، فنرى أن البحر الطويل يوافق لنظم الشعر الحماسى والوافر للفخر ، والرجل للحزن أو للفرح ، والسريع لتمثيل العواطف [3] .

إذاً فالكتاب البحوث عنه محاولة نفيسة لا يسعنا إلا إكبارها ، وإكبار صاحبها ومترجمها . وسيكون مفتاحاً من مفاتيح الموسيقى العربية الشديدة التفلت من القيود .

روكس العزيزي

معلم العربية وآدابها في كلية تراسانتة بالقدس

(١) التمدن الاسلامى ج ١ ص ٥٦ .

(٢) التمدن الاسلامي ج ١ ص ٥٦ .

(٣) الالياذة العربية للبستانى ص ٩٠

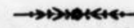


مطـــاردة ... !

للقصصى الانجليزى سومرست موم

بقلم الأستاذ محمد عبد اللطيف حسن

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)



وحلت الخمر التى شربناها فيما بعد عقدة لسانه ، فأخبرنى بعد لأى عن سبب مجيئه إلى هذه البلاد . وقبل أن يسرد على قصته الغريبة توقف عن الحديث برهة ليستعيد حوادثها وفصولها فى ذهنه ، فقد جاء — كما أخبرنى — من سو مطرة ، وقد أساء إلى أحد الصينيين إساءة بالغة فأقسم هذا أن يقتله شر قتلة ، فلم يهتم الهولاندى بهذا القسم فى مبدإ الأمر وظنه من قبيل التهديد ليس إلا ، ولـكن الصينى حاول أن يغتاله بعد ذلك مرتين ففشل فخشى الهولاندى على حياته واعتقد حينئذ أنه جاد فى قسـمه ، ورأى من الصواب والحـكمة أن يرحل عن هذه الجهات فترة من الوقت ثم يعود إليها بعد أن تسدل الستار على حادثة هذا الصينى اللعين ، فسافر إلى بافاريا ليقضى فيها بضعة أيام يروح فيها عن نفسه ولـكنه لاحظ الصينى بعد مضى أسبوع من سـفره يتسلل خفية فى مساء أحد الأيام بجانب حائط المنزل المجاور للفندق الذى حل به مما يدل على أنه كان يراقبه مراقبة شديدة . ويتحين الفرص الملائمة لقتله . وزاد خوف الهولاندى على حياته حينما تبين له أن هذا الصينى يتبعه أينما سار ويرقبه بنظراته التى كان يتطاير منها شرر الحقد والضغينة ، فرحل فى صباح اليوم التالى إلى سربيا . وبينما كان يتجول فى أحد شوارعها الـكبيرة المزدحمة بالمارة بعد ظهر أحـد الأيام ، التفت وراءه فجأة فرأى الصينى يمشى وراءه بخفة وحذر ، وكان على قيد خطوات منه ، فلـما التقت عيناهما تسلل الصينى كالأفعى واختفى بسرعة بين الجماهير التى كانت تملأ الشارع وذعر الهولاندى لهذه المباغتة وتأكد تماماً أن حياته قد أصبحت مهددة بالخطر ، وعاد من فوره إلى الفندق الذى كان مقيما به وحزم أمتعته على عجل وأخذ أقرب سفينة إلى سنغافورة ثم نزل فى فندق بمدينة فانوبك . وبينما كان يتناول طعام الإفطار فى بهو الفندق فى صباح اليوم التالى لوصوله إلى تلك المدينة لمح الرجل الصينى يرمقه بنظراته النارية الملتهبة من خلال زجاج أحد نوافذ الفندق ، وقد التقت أبصارهما للمرة الثانية ، فأسرع الصينى بالانزواء خلف أحد الأبواب . وقد أخبرنى الهولاندى أنه كاد يصعق فى مكانه عند رؤية هذا الصينى للمرة الثالثة . وكان على ثقة وطيدة من أنه ينتظر الوقت المناسب ، ويترقب الفرصة الملائمة لاغتياله . وقد قرأ ذلك فى نظرات عينيه التى كانت تدل على منتهى الغدر والخيانة ، وينبعث منهما بريق الضغينة والحقد الـكامنين فى أعماق نفسه .

وهنا توقف مضيفى عن الحديث ، فانتهزت هـذه الفرصة السانحة وسألته قائلا :

ولم لم يذهب هذا الهولاندى إلى أحد مراكز الشرطة يحيط رجاله علماً بأمر هـذا الصينى الأثيم ، فيقبضوا عليه ، وينقذوه من شره وعدوانه ؟

فأجابنى محدثى على الفور :

لست أدرى سبباً لذلك إلا أن يكون قد ظن أن هذا الأمر من التفاهة بحيث لا يجدر برجال الشرطة أن يتدخلوا فيه ، وربما يكون هنالك سر خفى لا يجب إذاعته بين الناس !

وهنا خطر لى سؤال آخر فقلت :

— وما هى تلك الجريرة التى ارتـكبها هذا الهولاندى حتى جعلت ذلك الصينى يصمم على قتله مهما كلفه ذلك ، واضطرته إلى تعقبه ومطاردته فى كل مكان يذهب إليه !

فهز رفيقى رأسه متأسفاً وقال :

— إننى لا أدرى ذلك أيضاً لأنه لم يشأ أن يخبرنى به ، وعند ما ألقيت عليه هذا السؤال بدورى ، امتقع وجهه ونظر إلى من طرف عينه نظرة غريبة شزراء والتزم الصمت ! وقد تبينت من ملامح وجهه الشـاحب وجبينه المقطب الـكثير التجاعيد أن إساءته لهذا الصينى كانت تستحق القتل ، وهنا قدم لى مضيفى

علبة سجايره الفاخرة فتناولت منها واحدة وتناول هو أخرى وأشعل كل منا سيجارته فى وقت واحد . وظل رفيقى يدخن برهة وينظر إلى سحب الدخان التى كانت تتلاشى فى فضاء الحجرة دون أن يفوه بكلمة واحدة وأخيراً تضايقت من سكوته فقلت :

— وماذا تم فى أمر الهولندى بعد ذلك ؟

فاستجمع رفيقى شتات أفكاره واستطرد قائلا :

— كان ربان السفينة التى تسافر بين سنغافورة وكوتشنج ينزل فى نفس الفندق الذى نزل فيه الهولاندى بمدينة فانويك فى فترات الراحة بين كل رحلة وأخرى . فانتهز الهولاندى هذه الفرصة الطيبة وترك أمتعته فى الفندق ليضلل الصينى وذهب إلى ربان السفينة واتفق معه على أن يمكث فى سفينته إلى أن يحين موعد سفرها فقبل الربان ذلك عن طيب خاطر بعد أن نفحه الهولاندى مبلغاً كبيراً من المال . وهنالك هدأت أعصابه ، واطمأن خاطره بعض الشىء ، وظن أنه أصبح بمنجاة من خطر هـذا الصينى الذى لم يكن يهتم بشىء قدر اهتمامه بالهرب منه ، والفرار من وجهه ، والذى أقلق باله ، وأقض مضجعه ، وجعل حياته سلسلة من الألم المتواصل ، والعذاب المستمر ! وقد شعر بالاطمئنان عند ما وصل إلى كوتشنج ، فنزل فى فندق منعزل هناك . ولـكنه أخبرنى أنه لم يكن يستطيع النوم بأى حال لأن وجه هذا الصينى كان يتمثل له فى أحلامه على الدوام ، وكثيراً ما كان يراه فى خلال نومه وقد أمسك فى يده خنجراً حاداً يلمع نصله المميت فى الفضاء ، ويهوى به بشدة وعنف على عنقه ، فيقوم من نومه فزعاً مذعوراً ، وينتفض جسمه النحيل من شدة الرعب والهلع . وقد شعرت فى الحقيقة بحزن عميق ، وتأثر كبير نحو هـذا الهولاندى التعس وهو يروى لى قصته بصوت أجش مبحوح ، ولهجة مترددة متقطعة النبرات من تأثير هذا الرعب الذى استولى عليه . وقد أدركت حينئذ سبب ذلك الخوف الذى استولى عليه حينما دفع سكرتيرى باب مكتبى فجأة ، وفهمت سر تلك النظرات المتحيرة التى لاحظتها فى عينيه ، والتى لم يكن لها فى الواقع من سبب سوى هذا الخوف وحده دون سواه .

وفى ذات يوم بينما كان يطل من نافذة أحـد الأندية فى كوتشنج إذ لمح الصينى يمشى فى الشارع على مقربة منه ! وقد التقت نظراتهما فى هذه المرة أيضاً ! وكاد يغمى على الهولاندى من هول هذه المفاجأة لولا أن تمالك أعصابه وأمسك بحافة النافذة بكلتا يديه . وقد خطرت له حينئذ فكرة الهرب من ذلك المكان فغادره على الفور وجاء إلى هنا دون أن يأتى معه بشىء من أمتعته سوى تلك القيثارة التى مازلت محتفظاً بها عندى إلى الآن . وقد كان متأكداً فى هذه المرة من أن الصينى لم يتبعه إلى هذا المكان البعيد .

وهنا قطعت حديث مضيفى وألقيت عليه هذا السؤل :

— ولماذا اختار الهولاندى هذا المكان دون سواه ؟

فأطرق رفيقى برأسه إلى الأرض مفكراً ثم قال :

— لأن المفروض فى تلك السفينة أن ترسو على مايقرب من الإثنى عشر شاطئاً ، ولذلك كان من الصعب على الصينى — إذا كان بالفرض موجوداً على سطحها — أن يعرف فى أى الشواطئ سينزل الهولاندى لأن الأخير كان متكتماً ذلك بقدر الإمكان حتى أن الربان نفسه لم يكن يعرف وجهته بالذات . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه كان قد تنكر بحيث يتعذر على الصينى أو أى شخص آخر معرفته .

وهنا سكت رفيقى برهة ربما يسترد أنفاسه ثم أردف قائلا :

— ولما وصل الهولاندى إلى هنا قال لى وهو ينظر حوله بارتياح (إننى هنا فى أمان ، وإذا أمكننى أن أظل هادئاً لبضعة أيام أخر ، فإننى لا ألبث أن أستعيد صحتى ، وأسترد أعصابى المنهوكة المتعبة !) فابتسمت له حينئذ وقلت مشفقاً (أمكث كيفما شئت وستكون أحسن حالا هنا إلى أن تأتى السفينة التالية فى الشهر القادم ، وإذا شئت أن أراقب الذين يفدون إلى هذا المكان فإننى على أتم الاستعداد لذلك) .

فشكرنى بلطف على عنايتى به ، واهتمامى بأمره وقال (أظن أنه لا داعى إلى ذلك ما دمت هنا فى أمان) .

وقد قدته بعدئذ إلى غرفته . فلما صار بداخلها أخذ يفحصها بعناية واهتمام ثم أغلق النوافذ والأبواب بالرغم من أننى أقنعته بأنه ليس هناك ما يستوجب كل هذه الاحتياطات .

ولما تركته أغلق ورائى باب الغرفة إغلاقا منيعاً محكماً كما لو كان يتوقع أن يهاجمه أحد !

وفى صباح اليوم التالى سألت الخادم الذى أحضر لى طعام الافطار عما إذا كان الهولاندى قد استيقظ من نومه ، فأخبرنى بأنه سيذهب ليراه . وقد سمعته بعدئذ وهو يقرع باب غرفته مرات دون أن يفتح له . فلما لم يسمع أى إجابة من الداخل طرق الباب أكثر من ذى قبل ولكن بلا فائدة . وهنا ساورنى بعض القلق لأجله فقفزت من مقعدى وهرعت بدورى إلى غرفته وطرقت الباب بكلتا يدى طرقاً عنيفاً متواصلا ولكن بدون جدوى . وأخيراً دفعت الباب بكل قوتى ودخلت الغرفة ثم اتجهت إلى الفراش وأزحت الكلة بيدى ، فوجدت الهولاندى قد فارق الحياة . وكانت عيناه جاحظتين وفيهما أثر رعب هائل ، وفزع مخيف . ووقع نظرى فى تلك اللحظة على خنجر غائر النصل فى عنقه الأبيض العارى . وقد فتشت الغرفة قطعة قطعة وجزءاً جزءاً على أعثر على أحد . فلم أجد أثراً يدلنى على المجرم . والشىء الذى أدهشنى وحيرنى أكثر من غيره هو الكيفية التى دخل بها المجرم إلى مسكنى بالرغم من أننى اتخذت كل الاحتياطات اللازمة لمنع أى كائن غريب من الدخول إليه ونبهت على الخدم بمراقبة كل شخص يستريبون فيه أو يشكون فى أمره . ولكننى أرجح أن المجرم قد دخل من النافذة إذ من الممكن فتحها من الخارج . ولما كانت غرفة الهولاندى فى الطابق الأول ، فمن هنا يسهل التسلق إليها ، والدخول فيها دون إحداث أى جلبة أو صوت .

وأخيراً سكت محدثى ليشعرنى بانتهاء قصته . فلما رآنى غير مرتاح إلى هذه النهاية المحزنة نظر إلى متأسفاً وقال :

أظنك غير مرتاح إلى نهاية هذه القصة ؟

فنظرت إليه نظرة حالمة وقلت :

إنها لا بأس بها على أى حال ، ولكنى كنت أفضل سماعها فى صباح الغد عند تناول الافطار .

فضحك صديقى ضحكة قصيرة خافتة وقال :

أرجو المعذرة لأننى لم أكن أظن أنها ستؤثر فى نفسك إلى هذا الحد .

قال ذلك ثم حيانى تحية المساء وأغلق وراءه باب غرفتى وانصرف .

محمد عبد اللطيف حسن

مطبعة الرسالة

تقدم قريباً

الطبعة الثانية من كتاب :

فى أصول الأدب

محاضرات ومقالات فى الأدب العربى

بقلم الأستاذ

أحمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

سكك حديد الحكومة المصرية

جداول مواعيد القطارات لفصل الشتاء سنة ١٩٤٦/١٩٤٧

لقد شرعت المصلحة فى إصدار طبعة الشتاء المقبلة من جداول مواعيد القطارات المتداولة بين آلاف الجماهير وذلك اعتباراً من أول نوفمبر سنة ١٩٤٦

وفضلا عن أهمية الإعلان فى الجداول المذكورة فإن المصلحة تتقاضى مقابل النشر فيها أجراً زهيداً فالصفحة الكاملة بستة جنيهات ونصف الصفحة بأربعة جنيهات

فاغتنموا الفرصة وسارعوا من الآن إلى حجز ما يروقكم من صفحات هذه الجداول نظراً إلى أن الإقبال على الإعلان فيها شديد

ولزيادة الاستعلام اتصلوا : بقسم النشر والإعلانات بالإدارة العامة بمحطة مصر

[طبعت بدار الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين]

14 me Année No. 689 | Lundi—16—9—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٨٩ «القاهرة في يوم الإثنين ٢٠ شوال سنة ١٣٦٥ — ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٦» السنة الرابعة عشرة

٥ — بقية من لغو الصيف :

مفـــارقات . . . !

للأستاذ سـيد قطب

أيها القارئ ...

في « سوق الرقيق » على البلاج ، وبين هـذا الحشد من العرايا ، وفي غمار هذا اللحم الرخيص الذي يعرض في سوق الرقيق ، فيعبث به العابثون ، وتتدسس إليه النظرات المريضة ، دون أن يقدم على شرائه أحد إلا بثمن اللحم الرخيص !

في هـذا المكان ... على البلاج ، يقوم البوليس بجولات للمحافظة على الآداب !

أي والله ! لا تضحك ، ولا تدهش ، فعين الدولة ساهرة على الآداب ! ويد الدولة باطشة بمن يخدش الآداب ، وبما يخدش الآداب !

وإليك البيان :

« مايوهات » الرجال ثلاثة أنواع :

نوع بحمالة على العاتق ، ونوع بحزام ، ونوع برباط من المطاط ... وقد استفتيت الآداب فقالت : إنها ترتضي النوعين الأول والثاني ... أما النوع الثالث فلا ... وليس مرد هذا كله إلى فرق في حجم هذه الأنواع الثلاثة ولا شكلها ، ولا في أن واحداً منها ساتر أو كاشف ... لا ... لا ... فتلك شكليات لا تعني الآداب ! إنما السر كله في الحمالة أو الحزام أو الرباط !

ويمر الشرطي بالشاطئ . فأما من كان لباسه بحمالة أو حزام فذاك ، وأما من كان لباسه برباط ، فيسـوقه إلى « النقطة » ما لم يتوسط في الأمر الوسطاء !

ذلك كل ما يعني الدولة هناك من حفظ الآداب ، وإن عين الدولة لساهرة ، وإن يدها لباطشة ... فحذار — أيها القارئ — أن تظن أن عين الدولة هناك غافلة عن رعاية الآداب ! ! !

* * *

ورعاية أخرى للآداب من تلك الرعايات في سوق العرايا على البلاج هذه الأجساد الرخيصة المكشوفة ، المتلاحمة في البحر وعلى الرمال ، المرمية في أوضاع حيوانية مريضة على مشهد من الأنظار ... هذا اللحم المكدس المتخلط من نساء ورجال في كل مكان ، حيث لا يثير في أي حس سليم إلا التقزز والاشمئزاز ، حتى في نفوس طلاب الجسد من ذوي الغرائز القوية السليمة !

هذا اللحم تفرق الدولة بينه في مكان واحد على البلاج : في الرشاش « الدش » فهو يتلاحم في البحر كما يشاء ، ويتكدس على الرمل كما يشاء ، ويتخلع ذهابا وإيابا على الشاطئ كما يشاء . ويرى الجميع الجميع في كل وضع وفي كل مكان ... إلا حيث يذهب هؤلاء وهؤلاء إلى الرشـاش . فهناك يكون الفصل والحجاب !

وهان ذلك لو أن كل رشاش منفصل مستور له باب — كما فى « بلاج الارستقراط » — فهناك مظنة أن يخلع المستحم أو المستحمة لباس البحر ؛ تلك البقية الضئيلة من الستر ، ولكن رشاشات الرجال والنساء فى معظم « بلاجات الشعب » مكشوفة كرشاشات السجون التى يشكو بعضهم من خدشها للآداب هناك ! والفاصل بين هذه وتلك حائط فى الوسط ، وهذه وتلك مكشوفة من الجانب الآخر ينظر الرائحون والغادون فيرون من فيها تحت الرشاش !

وإن الأمر ليبدو « مسخرة » من المساخر . فما قيمة هذا الفصل بين الجنسين فى لحظة الرشاش ؟

وتسأل : ولمَ لا تكون هناك حمامات خاصة للسيدات ، وحمامات خاصة للرجال ؟ ولم لا يحرم لباس البحر على « البلاج » ولا يباح إلا فى الماء وفى الحمامات الخاصة لهؤلاء وهؤلاء ؟

تسأل إن واتتك الجرأة على السؤال . فهنالك مخنثون رقعاء فى الصحف الداعرة وفى كل مكان ... هناك أولاد لا أعراض لهم فى بيوتهم ، يصيحون فى وجهك كما تصيح الكلاب : هذا تأخر ! هذه رجعية ! هذا جمود !

ويقولون لك : فى أوربا وفى أمريكا ، وفى بلاد العالم المتحضر تختلط اللحوم وتتعرى الأجساد !

وفى الغابة كذلك — يا أولاد — تختلط اللحوم وتتعرى الأجساد !

ولكن الغابة أشرف وأسلم ، لأن الفطرة هنالك أصدق وأنظف ؛ فأنثى كثير من الحيوان والوحوش هناك لذكر واحد . وهى بذلك أعف وأشرف من تسعة وتسعين فى المائة ممن تنشرون صورهن عارية على البلاج ، أو شبه عارية فى الحفلات الداعرة فى أوساط « الأرستقراط » . ونفوس الذكران من الحيوان هنالك أرق وأقوى من نفوس تسعة وتسعين فى المائة من نفوس الرقعاء من مخنثى الصحافة والإذاعة والسينما والطرب فى هذه الأيام !

***

ويقولون لك : الشعب هو الذى يقبل على المجلات الداعرة ، وعلى الأفلام الفاجرة ، وعلى الأغنيات المخنثة ، وعلى كل ما يثير الغريزة فى كل وضع من الأوضاع .

وينسون جريمتهم فى انحلال الشعب ،هم والذين يسمونهم كذبا « أرستقراط » ينسون أنهم هم الذين هتفوا لكل أنثى داعرة مريضة الغريزة شاذة التكوين خرجت إلى سوق الرقيق باسم « المودرن » ! والمرأة خاصة يغريها الثناء وتغرها « المودة » ويغويها الإغراء . والرجال المخنثون الذين يشرفون على هذه المرأة لم يجدوا فى عروقهم دماء الرجال !

وينسون أن فى كل نفس بشرية غريزة ، وأن ليس من وظيفة الصحافة والفنون أن تملق هذه الغريزة وتستثيرها ، وتلح فى استثارتها ، فهى لا بد أن تستجيب !

وأن فى كل نفس بشرية كذلك ميلا إلى الترفع عن قيود الضرورة ، وأنها من هنا كذلك يمكن أن تقاد .

فى كل نفس بشرية خيط للصعود وخيط للهبوط ؛ ومن أى الخيطين يمكن أن تجذب فتستجيب . فإذا كان الرواج هو الذى يغرى هؤلاء الهابطين بتملق الغريزة ، فليجربوا الخيط الآخر فقد يؤدى كذلك إلى الرواج .

صحفيون ناجحون ، ومطربون ناجحون ، وممثلون ناجحون ، لماذا ؟ لأنهم يحترفون الدعارة والقوادة . لأنهم دعاة مواخير .. ولم يتعقب بوليس الآداب إذن مديرى المواخير ؟ ... إنهم صحفيون ناجحون ، أو مطربون ناجحون ، أو ممثلون ناجحون ... كلها « فركة كعب » بين هؤلاء وهؤلاء !

ما الفرق بين ذلك الصحفى الذى ينشر فى صحيفته تلك الصور الداعرة على البلاج أو فى حفلات « الأرستقراط » ليقودك إلى شراء صحيفته ، وبين ذلك « القواد » الذى يعرض عليك الصور العارية خلسة على المقهى أو البار ليقودك إلى الماخور ؟ !

فرق ضئيل .

ولكن عين الدولة مع ذلك ساهرة ، ويدها مع ذلك باطشة . وإذا شئت أن تتأكد ، فلتذهب إلى البلاج ، لترى كيف تفرق بين الجنسين فى الرشاش !

***

سأل ولد رقيع من أولئك الذين يسمونهم صحفيين ناجحين ، راقصة عدة أسئلة قذرة ، فأجابته بما شاء ، ليروج صحيفته بصور من الحياة الداخلية لواحدة من أولئك اللواتى لسن عذارى ولسن أمهات !

وكان فى آخر أسئلته سؤال : ما رأيك فى « بنات الذوات » :

وكان الجواب : هن اللواتى يعشن مثل حياتنا ، ثم يقال عنا : بنات الهوى ، ويقال عنهن : بنات الذوات !

رد بارع ، كدت والله أحترمها من أجله !

وهؤلاء هن اللواتى تستلهمهن الصحف الناجحة ، وتسميهن الطبقة الراقية ، وتقول : إنهن شرفن مصر فى المجتمعات .

ونشرت إحدى هذه الصحف مرة صورة نسوان من هؤلاء ، يركبن الخيل فى لباس الفرسان . وقالت : لقد آن لمصر أن تستقل وهؤلاء نساؤها يزاولن جميع الرياضات ، حتى رياضة الفروسية ! كأن لم يكن ينقص مصر لتستقل إلا بضع نسوان فارغات لاهيات من أولئك اللواتى يعشن حياة الراقصات ، فيقال عن هؤلاء : إنهن بنات الهوى . ويقال عن أولئك : إنهن بنات الذوات !

***

ومالى وهؤلاء « الأرستقراط » ؟ الأرستقراط المزيفين الذين ليس لهم من سمات الأرستقراطية إلا الثراء . الثراء الذى دفع بعضهم فيه — على توالى الأجيال المحدودة أعراضاً — ودفع بعضهم فيه خدمات لا يرضاها الشرفاء ، للاحتلال ولغير الاحتلال ؟

مالى ولهؤلاء ؟ إنهم لا يستحقون هذه الكلمات .

ولكن مشهداً فى « بلاج الأرستقراط » لا أنساه :

هبط إلى حرمهم المقدس — وإن لم تكن لهم حرمات — متسول عاجز ... لا أدرى كيف تسلل من عيون الشرط والحراس إلى تلك الأرض المحرمة التى لا تطؤها أقدام الشعب إلا بترخيص !

هبط إلى حيث أقامت الدولة سياجاً حول هؤلاء المقدسين ، فراراً بهم من الشعب الملعون !

هبط هذا المتسول العاجز القذر ، يسأل من هناك قوتاً وطعاماً ... لله ! ... المسكين يعرف أن الله فى كل مكان ! ! !

وإن هى إلا لحظة حتى توجهت إليه النظرات الشزر ، مصحوبة بالتأفف والتقزز والاشمئزاز . وسرعان ما تداولته أيدى الشرط والحراس ، فى حنق وغيظ : كيف جاز لهذا المنبوذ أن يطأ الأرض المحرمة التى لا تطؤها أقدام الشعب إلا بترخيص ؟ !

وبعد وساطة بعض الطيبين من حراس الشاطىء هناك رضى الشرطى أن يقذف به على « الكورنيش » ولا يقوده إلى (النقطة) وحسبه بما لقى من صفعات ...

وفى وسط هذه الظاهرة تبرز فى خفية وفى تلصص فتاة ... فتاة خادم رقيقة الحال ، تبرز لتتدسس خفية إلى الرجل المسكين وتدس فى يده شيئاً وهى مذعورة . ثم تهمس فى حذر : « أدى قرش ساغ ياعمى . بس إدى لى منه تعريفه . أحسن والنبى عايزاه وما عندى غير القرش ده » !

وبحث الرجل فى جيوبه فوجد نصف القرش المطلوب . فكررت له الفتاة معذرتها فى طلب نصف القرش ، وأنا أسمع وأرى . ثم سارت تسرع الخطى ، هابطة إلى الأرض المحرمة . فهى من هناك !

وفجأة وجدت نفسى تضطرب ، فتسرع نحوها خطاى . وأمد يدى إليها بقرش قائلا : خذى يا بنية قرشك الذى أعطيته للشحاذ !

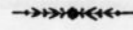
ونظرت إلى برهة ثم قالت : « لا ياعم . إديه للراجل الغلبان . أنا موش عايزاه . أنا عايزه الثواب من الله ! »

الله ! لقد صدق الرجل فى حدسه ! فالله موجود فى كل مكان حتى هنا فى « بلاج الارستقراط » !!!

سيد قطب

مقالات فى كلمــات

للأســـتاذ على الطنطاوى



يؤمنون بالحمار !

وليس هؤلاء الذين يؤمنون بالحمار من بقايا المشركين الأولين الذين يكفرون من جهلهم بالله رب العالمين ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت ، ولا الفراعنة الأقدمين عباد العجل ، ولا من إخوان البوذيين الذين يؤمنون بالبقرة ، ولكنهم قوم من المسلمين ، ومن كبار الأدباء الشاميين ، نظروا فرأوا للحمار مزايا وفضائل ليست لهذا الإنسان الذى يؤمن به أخى وصديقى الأستاذ عبدالمنعم ، فهو لا يكفر بالله ، ولا يجحد بلسانه الإله الذى خلق له هذا اللسان كما يفعل الإنسان ، ولا ينافق ويتخذ له وجهين ، ولا يثير الحروب على إخوانه فى الحمارية ، ولا يعرف جريمة القتل ، ولا رذيلة الانتحار ، ولا تشغله شهوته عن واجبه الحمارى كما تشغل بنى آدم ، ولا يفكر فى الأتان إلا مرة واحدة فى السنة ليقوم بقسطه من فضيلة العمل على بقاء النوع ... ولا ينحرف بغريزته عن طريقها ف (يقترب ...) من حمار مثله ويدع جميلات الأُتن ذوات الخد الأسيل والذنب الطويل والساق النحيل ... كما تنحرف غرائز بعض بنى آدم . ولا تتبرج إناثه التبرج المغرى ، ولا تعرف البغاء الرسمى فى (المحلات العمومية) ولا البغاء الطليق على (البلاج) ، ولا البغاء الفنى فى السينما والمجلات المصورة ...

ولم يشاهدوا أتاناً ترقص رقصاً خليعاً ، أو تدخل فرقة (مرشدات) ولم يسمعوا حماراً يغنى غناء مخنثاً ، أو ينظم شعراً رمزياً ، مع سهولته عليه ، وإنه لا يكلفه إلا أن ينهق نهيقاً من بحر جديد مبتكر ؛ ورأوه مع ذلك صابراً على ما قدر عليه ، راضياً بما قسم له ، لم يستغل هذه الحرب ليسرق شعير إخوانه ... لا يغش ولا يرتشى ولا يخون ولا يعرف السكر ولا الحسد ، ولا يتظاهر بالدين ليصل إلى الدنيا ، ولا يتخذ العمل فى الجمعيات الإسلامية سلّماً إلى المناصب ؛ وهو يطيل التأمل ولكنه لا يؤذى أبناء جنسه بتدوين فلسفته ، ويأتى حين يصوت بسحجات وصيحات لها فى موسيقى الحمير جمال ، ولكنه لا يكذب فيدعى أنه من كبار الملحنين ؛ ويجىء بالبلاغة الحمارية المحدثة ، ولكنه لا يزعم أنه مجدد فى البلاغة كما يزعم بعض مشايخ بنى آدم ، لئلا يقال له : اخرس ، فما تجديدك هذا إلا نهيق !

رأوا ذلك فآمنوا بالحمار إيمان تقدير وتفضيل ، لا إيمان دين وعبادة ، فألفوا منذ ربع قرن (جمعية الحمير) ، وجعلوها سرّية لأن الناس لم يستعدوا بعد لفهم هذه الأخلاق الحمارية ، وتقدير أهلها ، وكيف ولا يزال الواحد منهم إذا شتم آخر قال له من غروره وحماقته : يا حمار !

وقد خرج من هـذه الجمعية رئيس وزارة ووزيران وخمسة من أعضاء المجمع العلمى العربى ، وكان يعطف عليها ملك عربى عظيم ويصغى مستمتعاً إلى حديثها . والانتساب إليها صعب ، لا بد فيه من ترشيح ثلاثة من الأعضاء ، وتقديم أطروحة فى شرح مزية للحمار لم تعرف ، وبعد مناقشتها (علناً) يقبل الطالب ويسلم إلى أحد الأعضاء لتطبيعه على طبائع الحمير ، ثم يثبت عضواً أو يردّ . ولأن يصير المرء وزيراً أو أستاذاً فى الجامعة (بقانون خاص) أهون من أن يصير عضواً فيها

ولهم إشارة يتعارفون بها ، هى التى سرقها منهم تشرشل فعمت الأرض ، وهى الإشارة بالسبابة والوسطى إلى أذنى الحمار ، لا إلى ال (ڤاء) من (ڤيكتوار) ! ولهم اصطلاحات فى كلامهم خاصة بهم ، منها أنه إذا دعاهم كبير جاهل ممن يحب أن يجمل بالأدباء مجالسه ، قالوا : هلم نذهب إلى المعلف ...

وإذا وصفوا غناء عبد الوهاب (مثلا) قالوا : ما أجمل هذا النهيق ، وإذا رأوا على غنىّ من أغنياء الحرب ثوباً جميلا ، قالوا : ما أحلى هذه البرذعة ... وإذا شاهدوا داره ، قالوا : ما أفخم هذا الاصطبل . وللجمعية درجات رفعوا بعضها فوق بعض ، فأعلاها اليعافرة نسبة إلى يعفور حمار النبى صلى الله عليه وسلم ، فالسياروون نسبة إلى حمار أبى سيارة الذى أجاز عليه الحجاج من المزدلفة إلى

منى أربعين سنة ، وكان يشق الناس ويقول :

خلّوا الطريق لأبى سياره

وعن مواليه بنى فزاره

حتى يجيز سـالما حماره

مستقبل القبلة يدعو جاره

فقد أجار الله من أجاره

ولهم علم وأدب ، وهم يفضلون بشاراً على الشعراء لأنه توصل بحدة ذهنه ، وشدة ذكائه إلى التغزل بأتان على لسان حمار ، ويقدمون خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشى لأنهما كانا يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين ويدافعان عنها ، ويثنون على من ألف (خواطر حمار) ومن ترجمه ...

وحديثهم طويل ، فماذا يقول فيه الاستاذ عبد المنعم ؟ أيقول إنهم (حمير ...) ؟ !

أزمة القلوب فى مصر :

أنا أحبكم والله يا أهل مصر ، تخذوها منى كلمة محب متألم لا كلمة عدو ناقم ، وإن مصر بلدى ومنها أصلى ، وفيها قلبى ؛ منحته أهلها ولم آخذ منهم شيئاً ، لأنهم لم تبق لهم قلوب يحبون بها ، قد ذهبت بها صبوات النفس ، ونزوات الصبا ، لقد أماتتها هذه المجلات الداعرة ، وهذه الأفلام الخليعة ، فأين الحب يحييها ؟ أين الحب فى البلد الذى لا تمنع فيه ثمرات الجمال ؟ وهل يزكو الحب إلا على المنع ؟ وهل يعيش إلا على الأمل ؟ وهل يتغذى إلا بالألم ؟

وهل الحب إلا تطلع إلى المجهول ، وتشوق إلى ما وراء (الحجاب) ؟ وهل أنطق الشعراء بآيات الغزل إلا ذاك ؟ وهل هذه الآلاف من السيقان الباديات على سيف الاسكندرية تبلغ كلها من نفس الشاعر كما تبلغ ومضة من بياض ساق ليـلى ، لو بدت للمجنون وللعاقلين ... ساق ليلى ؟ فاذا لم تبالوا يا أهل البلاج ... بهذا الشىء الأثرى الذى يسمونه الدين فاحرصوا على الفن . حافظوا على الحب ، فالحياة الحب والحب الحياة ... فماذا تكون حياتنا بغير عاطفة ولا حب ؟ وأين الشعراء يدافعون ، لا عن الفضيلة ، بل عن الحب الذى يحتضر على رمل الاسكندرية ، على حين ترقص عند سريره الشهوات المعربدة وتصيح .

لقد كنا نقرأ (روفائيل) و (الأجنحة المتكسرة) فترفعنا إلى عالم فى السماء ، عالم مسحور كله عاطفة وفتنة وطهر ، فنتخيل فتاته فى أحلامنا تطير فى جوّ من العفاف ملفوفة بالنور ، لا بل هو شىء فوق ذلك فما يبلغ قلمى الآن وصفه ، فماذا يرى من يقرؤها اليوم من الشباب ، إنهم لا يتخيلون إلا فتاة الترام أو غادة البلاج ، أو صبية السينما ، فيسرعون إليها ، فما تكون إلا دقيقة واحدة ، حتى يتصرم الحلم ، وتمحى الرؤيا ، فنهبط من السماء إلى أعماق الفراش الدنس ...

أعظم العظماء فى تاريخنا :

أعظم العظماء فى تاريخنا السياسى خمسة ، لست أنكر عظمة من عداهم ، ولا أبخسه حقه ، ولا أنزل به عن مكانته . وإنى لأعلم أن فى تاريخنا لعشرة آلاف بطل ، ما تملك أمة مائة من أمثالهم ، ولكن هؤلاء الخمسة معدن آخر ، ما صنع الله منه بشراً غير نبىّ إلا هؤلاء الخمسة ، فكانوا تحقيق المثل الأعلى الذى ينتهى إليه خيال الأديب ، وتأمل الفيلسوف ، وتصوّر الانسان حينما يتصوّر الملك الكامل ، والزعيم والحاكم ، خمسة أتوام من الذكاء أحدّه ، ومن الرأى أسدّه ، ومن الإخلاص أشده ، فان وزنت عظمتهم بسعة نفوسهم ، وجلال مواهبهم ، وقيمة أشخاصهم ، وجدتهم قد رجحوا فى الميزان على كل عظيم من غير الأنبياء ، وإن قستها بآثارهم الباقية ، وما صنعوا لهذه الأمة من مجد ، وما خلّفوا فيها من تراث عقلى أو وطنى أو خلقى ، ألفيتهم السابقين المبرّزين ، وإن رأيت ما أفادوا من خدماتهم ، وما انتفعوا به من سلطانهم ، وما كان لنفوسهم من حظ من ملكهم ، وجدتهم عاشوا جميعاً مثلما يعيش رجل من غمار الناس ، ما استأثروا بطيب من الطعام ولا ليّن من اللباس ، ولا أورثوا فضة ولا ذهباً ، ولا استفاد أبناؤهم منهم مالا ولا نشباً ، وإن عرضت بعد ذلك سيرهم عرض ناقد متعقب ، أو نظرت إليها نظر عدوّ شانىء ، لم تستطع أن

تجد فيها عيباً ؛ فلا أخطأوا فى سياسة ، ولا تعمدوا مظلمة ، ولا حجزوا حرية الرأى ، ولا أساءوا لمسلم ولا ذمىّ ، ولا حنثوا مع محارب بقسم ، ولا نقضوا عهداً ، وكانوا مظفرين فى الخارج فى الحروب ، مظفرين فى الداخل بالسياسة ...

أولئك هم : أبو بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، ونور الدين زنكى ، وصلاح الدين .

(دمشق) **على الطنطاوى**

في ركب الوحدة العربية :

الأدب فى فلسطين ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

— ٣ —

النثر فى شتى ألوانه :

فى فصل مضى (من هذا البحث) ، وقفت عند ثلاثة من الأدباء ، كل منهم يثبت عند حد رسالته ولا يبرحه حتى يعود إليه . وهم يجمعون فى هذه الرسالات بين الأدب والتربية والتوجيه . وكلها حين تجتمع وتتسامت مع غيرها (من الألوان) ، تتألف منها صورة صادقة من صور الأدب الصحيح .

وفى هذا الفصل أتناول ثلاثة آخرين يختلفون فى مناحى رسالاتهم (أيضاً) . ولكن هذا الاختلاف (فى رأيى) لا يعدو كونه من المتممات التى يشتمل عليها الأدب فى شتى ألوانه كما أسلفت . وهؤلاء الثلاثة هم : (باحث سياسى خطيب) و (مؤرخ يصور دقائق المجتمع الذى يعيش فيه) و (عالم يبسط العلم فى ثوب الأدب) .

فأما الباحث الخطيب — والخطباء ذوو الآثار عندنا قليل — فهو الأستاذ عجاج نويهض ولعلى لا أغالى إذا قلت : إنه (سحبان) هذا الجيل . فقد عرفه الناس خطيباً مدرهاً ، ولسناً مفوهاً . وهو إذا ما صعد منبراً تدفق تدفُّق الأتىّ (مرتجلاً مبتدعاً) ، وحلّق إلى رفيع الأجواء مجتذباً معه القلوب والأسماع . فهو — من غير ما جدال — فارس هذه الحلبة وابن بجدتها ، ومجلى هذا الميدان وصاحب قصبه .

وهو — إلى جانب ذلك — أديب مطبوع وكاتب سياسى لامع . وقد زامل النهضة العربية منذ شبابها ، وكانت تربطه أواصر مودة مع كثيرين من أقطابها . فطالع الناس بمجلته (العرب) أدبية سياسية ، رغبة منه فى أن يساهم فى بناء هذه النهضة مساهمة فعلية بقلمه وتوجيهه . فكانت — على قصر حياتها — منبر دعاة الحركة الفكرية الاستقلالية فى العالمين العربى والإسلامى . واستمر ذلك من عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٣٤ ، حين تعرّم (المستعمر) فكم الأفواه ، وأخرس الألسن ، وبدأ — من بعد — يصنع الأعاجيب ! !

وكان الأستاذ — قبل ذلك — لا يبرح هذا الميدان فى مجلات مصر وصحف الشام ، ولعله كان أبرزها يومذاك (فتى العرب [1]) فى دمشق ، و (كوكب الشرق) و (مجلة الفتح) المصريتين ، وللأستاذ فيهما من بديع الآثار ما ينتظم هالة جهاد وفخار .

وقد جمع له الأستاذ (محب الدين الخطيب) فى كتابه (المنتقى) بعض محاضراته القيمة . وإنك لتشهد إنها (قيمة) — لو قرأت أو سمعت — وليس الخبر كالعيان ... وللأستاذ — عدا محاضراته وأبحاثه — كتب غزيرة النفع جليلة الأثر ، بين مترجم وموضوع ، أذكر منها : « حاضر العالم الإسلامى » وهو كتاب وضعه أحد العلماء الأمريكان بعد الحرب الأولى وصف فيه نهضة العالم الإسلامى (السياسية والاجتماعية) ، وقد عربه الأستاذ (نويهض) لما رأى من أهميته ، وعلق عليه الأمير (شكيب أرسلان) تعليقات مستفيضة جامعة . وقد صدرت طبعته الثانية فى أربعة

---

(١) صاحب هذه الجريدة أديب الشام الأستاذ (معروف الأرناؤوط) وقد تتلمذت عليه — إبان حداثتى — فى كتابه (سيد قريش) ، وعرفته (سنة المعرض) فى دمشق . فلمست فيه رزانة الحكماء وتواضع العلماء . وآثاره كثيرة قيمة ، وأسلوبه عبقري فذ . ولكن معظم من لقيت من أدباء مصر ، لا يعرفون عنه شيئاً ! !

أجزاء . وهو إلى أن يكون موسوعة إسلامية ، أقرب منه إلى أن يكون كتاباً مقصور الأبواب .

ثم كتاب (النظام السياسى) : وهو كتاب يبحث تطورات الأنظمة السياسية فى المجتمع منذ أقدم عصورها إلى اليوم .

وله أيضاً كتاب (سيرة الأمير جمال الدين — عبد الله التنوخى) أحد أعلام لبنان فى القرن التاسع عشر .

وأما أسلوبه : فهو أسلوب يتحرر من كل قيد ويسترسل وراء المعانى ، ويراعى فيه أن يتحسس مواطن التأثير فى نفس القارىء أو السامع فيستدرجها إلى اليقظة ، ثم يدفعها بعد ذلك حيث يشاء . وإليك ما يقوله فى كلمة عنوانها (الاستقلال العربى) :

« الاستقلال : شق طريقه الشهداء الأبرار ، فسكنت أجسامهم الأرضين ، وأرواحهم الطاهرة أعلى عليين . عُلِّقوا على الأعواد ، وجالدوا المستعمر أبسل جلاد . فاستشهدوا بين شمال الحجاز وبطاح العراق ، وتطيّب ثرى ميسلون وأرض فلسطين وسهول حوران بطيب أجلادهم وعظامهم .

نعم : الاستقلال العربى ! الذى لذكره تهتاج النفوس العربية فى كل مكان ، وتهفوا قلوبهم إليه ، وتحنوا ضلوعهم عليه . الأمة العربية قد استيقظت ، فليشهد العالم ! ولن ينكص العرب عن هذا السبيل حتى يستردوا حقهم المغصوب ، ويستعيدوا ملكهم المسلوب . ويملكوا بيدهم زمام أمرهم وبلادهم خالصة لهم .

وأمم كثيرة قبلنا كانت متفرقة مقهورة ، فكتب الله لها أن تجتمع حزمتها ثانية ، وأن تعز بعد ذل ، وتعلو بعد هبوط. ولكن كانت (التضحية) هى القائد ، وكان (الفدى) هو الدليل . »

وأما المؤرخ (الذى يصور دقائق مجتمعه الذى يعيش فيه) فهو الأستاذ عارف العارف — وقد بدأ حياته الأدبية ، يوم كان أسيراً فى (سيبريا) أثناء الحرب الكونية الأولى . إذ أصدر هناك جريدة أسماها (ناقة الله) كان يحررها بنفسه . وقد اطلعت على بعض أعدادها التى ما زال يحتفظ بها فألفيتها غاية فى الطرافة .

ثم ألف كتاباً عنوانه (رؤياى) أثناء عودته (فاراً) من منفاه ، عن طريق الصين فالهند ، استجابة لداعى الثورة العربية الكبرى ، بعد أن أضرم نارها يومذاك المجاهد الأكبر (الحسين ابن على) ، الذى قضى شهيد تلك الدعوة المباركة ، ليرقد بعيداً عن مسقط رأسه عند مهوى الأفئدة ، ومؤتم القلوب والأبصار ، عند المسجد الاقصى الذى بارك الله حوله . و كذلك قضى (الأخيار المصطفون) من أبنائه (علىّ وفيصل وغازى) ، وإياك — كائناً من كنت لتعلم من (أولائك) ! !

ولقد ضمن الأستاذ (العارف) كتابه (رؤياى) ما كان يساور خاطره الفتى — إذ ذاك — من أحلام ذهبية مشرقة ، وآمال باسمات عذاب . وحسبك من ذلك أن تعلم نبوءته بـ (الجامعة العربية) . ولم تكن هنالك للعرب دولة . بل لم تكن قامت لهم — بعد — قائمة . فأبصرها — فيما أبصر - ينتظم عقدها من كافة أقطار العروبة ، بما فى ذلك : عمان والبحرين وحضرموت وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش . كما أبصر لهذه الجامعة هيئة تنفيذية أسماها (اللجنة العربية العليا) ، وهى تقوم على إمضاء ما تقره تلك الجامعة مما فيه صالح العرب قاطبة ، يعززها جيش لجب مدرب ، وأساطيل كثيفة ، تمخر عباب الماء وتغمر أعنان السماء …

ويمضى فى (رؤياه) على هذه الوتيرة ، بعدد ما يشاهده من مفاخر هذه الأمة ، ويستعرض ما تكون قد وصلت إليه فى ميادين التقدم والرفعة والمجد فنرجو الله أن يحقق تلك الرؤيا كاملة غير منقوصة ، بعد أن تحقق جانب منها . وما ذلك على الله بعزيز .

وللأستاذ (العارف) كتاب (القضاء بين البدو) وهو أول كتاب من نوعه ، ترجم إلى عدة لغات ، وفيه تصوير بارع لحياة البادية وتقاليدها وعاداتها ونظمها ، وما يتقيد به البدوى فى أفراحه وأتراحه وسلمه وحربه : ثم يشرح بعد ذلك الكثير من أقوالهم وحكمهم وشعرهم ، وما يسير بينهم مسير الأمثال .

وله أيضاً (تاريخ بئر السبع) و (تاريخ غزة) و (تاريخ عسقلان) وجميعها مطبوع . ثم (تاريخ بيت المقدس) وهو تاريخ ضخم ما يزال إلى اليوم مخطوطاً . وفى سائر هذه الكتب يؤرخ لتلك المدن منذ أقدم الأزمنة إلى يوم الناس هذا ، تأريخاً جامعاً شاملاً ، لا تفوته فيه سانحة ولا بارحة .

وإليك مثلا مما يكتبه ، وهو جزء من كلمة يقدم بها كتابه (تاريخ غزة) فيقول :

« الوحدة العربية : تلك هى أمنيتى التى أحملها بين أضلعى ،

وسرت على هداها فى أعمالى ، منذ تعلمت وعرفت معنى (حب الوطن) . وإنه ليسرنى أن أرى هذه الأمنية التى كانت تعد فى يوم من الأيام ضرباً من الخيال ، أو حلماً من الأحلام ، أخذت فى هذه الأيام تطل من وراء سحاب .

« وإنى لا أشك قط فى أنها ستصبح عما قليل حقيقة واقعة لا ريب فيها . وإن غداً لناظره قريب ... وإنا إذا سرنا بقدم ثابتة إلى الأمام ، اهتدينا إلى ضالتنا المنشودة فى أقصر ما يكون من الوقت ، وإلا فإن دون الوصول إليها خرط القتاد ... »

وأما العالم الذى (يبسط العلم فى ثوب الأدب) فهو الأستاذ قدرى حافظ طوقان ، عالم فلسطين الرياضى ، وليس عندنا من يضارعه فى هذا الميدان . وبالرغم من عمله الذى يستنزف معظم فراغه (فى إدارة كلية النجاح بنابلس) ، فإنه أكثر من عندنا تأليفاً ، وأوفرهم إنتاجاً . فبينا تراه يتفرغ لتأليف كتاب من كتبه ، تسمعه (أو تقرأ عنه) يحاضر فى مختلف أنحاء فلسطين ، وفى مواضيع علمية وأدبية وفلسفية وسياسية (أحياناً) . وإنك لو تتبعته فى جولاته الكثيرة بين يافا وعكا والناصرة وحيفا وغزة بل وبئر السبع ، لحسبته من (أهل الخطوة) الذين يتحدث عنهم جماعة (الصوفية) ، وهو لهم — أى للصوفية — صديق وفى . ويشهد لى بذلك من سمعه فى (نادى الناصرة) ، وهو يجادلنى جدالاً عنيفاً فى إحدى مشاكلهم المعقدة .

وكتبه بين مطبوع ومخطوط ورهن الترتيب والإعداد كثيرة . أذكر منها الكتب التالية : (الكون العجيب) وهو العدد الحادى عشر من سلسلة (اقرأ) . ثم كتابه (نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية) أصدره المقتطف عام ١٩٣٦ وقد اشترك فى إعداده مؤلفون آخرون ليكون هدية لقرائه . ثم كتابه (تراث العرب العلمى) وقد أصدره المقتطف أيضاً عام ١٩٤١ هدية إلى قرائه كذلك . ثم كتابه الجديد (بين العلم والأدب) وهو مجموعة مقالات ومحاضرات وإذاعات علمية وأدبية . ومن كتبه المخطوطة (الأسلوب العلمى عند العرب) وقد ألقى جانب منه فى سلسلة محاضرات (ابن الهيثم) التذكارية فى الجامعة المصرية . ثم كتابه (العقل فى الإسلام) وفيه تحليل ومحاكمة واستقراء لكثير مما وصلت إليه الأبحاث الفلسفية فى ظلال الدول العربية الإسلامية على أيدى فلاسفة المسلمين .

وأما أسلوبه فهو لا يخرج عن حد قوله فى كتابه الأخير حين يتحدث عن (الصفر) فيقول : « قد يدهش القارىء إذا قلنا إن حساب التمام والتفاضل لا يستغنى فى بحوثه عن استعمال الصفر ، بل إن الصفر عامل مهم جداً فى تسهيل حل كثير من مسائله العويصة . وعلى كل حال يمكن القول بأن (الصفر) ضرورى ولازم فى البحوث الرياضية الحديثة والعالية . إذ جعل كثيراً من الأوضاع والمعادلات قابلة للحل غير ملتوية المسالك » .

(له تكملة) محمد سليم الرشدان

(ماجستير فى الآداب واللغات السامية)

صورة :

الذى له صومعة . . .

للاستاذ راشد رستم

هذا هو صباح المادي فى الصيف : خضرة وسكون وطير . ولست أقصد إلى المقارنة ، فالأسكندرية اليوم ، رمل وبحر « وسمك » ... كلاهما جميل ، وكلاهما وفقاً للمزاج يختلفان . وحبذا فى هذه الحياة مزاج الوفاق وتوافق المزاج .

وإنى إذ أجلس وحيداً فى هذا الصباح الهادىء اللطيف ، أذكر صاحبي هناك والدنيا حوله تفور وتصخب ، وهو هو كما أعهده قابعاً فى صومعته مفكراً راضياً ساخراً ...

وإنها للذة أن يقنع المرء نفسه بصومعة ينطوى عليها وتنطوى عليه ، فهى فى الحق نظرية عملية ، إذا استطاعها امرؤ فبشره بالفوز العظيم فى معترك الجهاد الأكبر ، إذ هى وحقيقة الحياة تسيران جنباً إلى جنب ، والمرء فيها كالقطرة فى النهر ، لها وحدتها ، ولكنها تجرى وماء النهر من المنبع إلى المصب ...

* * *

وهذا الذى يرونه فيلسوفاً ساخراً ، ما هو إلا روح هادىء قانع قابع ، لا قانط ولا ساخط ، قد عرف الأشياء وعرفته ، وجرب الحوادث وجربته ، وسار مع الأيام وسيرته ، ثم ارتفع بروحه إلى سموات التأمل والتفكير ، مصطحباً الحس والشعور ، حتى لا يضيع بين الوهم والغرور ، وقد طوف فى تلك الأرجاء مع القديم من الأحياء والجديد من الآراء ، ثم عاد وفى نفسه أن ينتظر ويرى .

فماذا يرى ؟ — يرى أن يحتفظ بذاته ، منفرداً غير وحيد ، مبتعداً غير بعيد ، فتحول بينه وبين ما يريد « جاذبية » الأم الحنون — هذه الأرض التى خلق منها ، ولا أقول خلق « فيها » فقد يخلق الشىء من شىء ويوضع فى شىء ، فلا يستطيع البقاء مع الشىء الذى وضع فيه ، ويرتد إلى الشىء الذى خلق منه . وقد يكون المرء فى هذا غير فاهم ما يحصل له ، وهو إذن فى جهل ونعيم .

وقد يكون فاهماً ما يحصل له ، وهو إذن فى علم وشقاء ...

* * *

وهذا آدم أبو البشر بل رمز البشر ، وقعت له الوقعتين ، فجهل الأولى وعرف الثانية . عرف أنه من التراب وإلى التراب يعود . ومن ينبه الذى يدرك ما هو فيه ، هو المعذب فى الحياة ، يقاسيها لأنه يعلم إنه لا مفر له منها . ويعانيها لأنها تعنيه ...

إذن ماذا يستطيع هذا أن يفعل غير أن ينفر ويسخر ثم يقنع ويقبع . يعيش مع نفسه وفى نفسه وإن لم يكن لنفسه ، يرجو أن يعيش وفق خطته وهواه ، وأن لا يزاحمه أحد فى « دنياه » ، وهو بعد ليس بالأنانى ، يحب نفسه ويكره سواه ، ولكنه الإنسان ، يمنع الشر عن أى أحد ، ويتمنى الخير لكل أحد ، ويرجو ألا يصيبه الشر من أحد ، حتى ولو لم ينله الخير من أحد ... هذا تفكيره ، فهل هكذا مصيره ؟

* * *

يعيش هكذا فى « دنياه » ، معتزاً بروحه ورضاه ، معتزلا غير منعزل ، لا يهمل كما لا يحفل برأى الناس فيه ، ولا يعنى بما ليس يعنيه ...

غير أن الأيام وقد ظن أنها كفلته وأمنته تأتى فتمرضه وتشفيه ، فيعلم مداه من اليأس والبأس والناس ، فيأنس دون أن يبتئس أو ييأس .

ثم تعود فتفقده عزيزاً غالياً ، فينتبه من تيه ، ويرى شيئاً لم يكن يرتئيه ، يحس بأن المصير ، هو غير ما كان عليه التفكير ،

ويأخذه الذهول ، وكأنه يرضيه أو أنه قد يشفيه مما صار فيه ، ولكنه يحس دبيب الأسى يوقظه ، ويحركه ويدفعه ، فيمشى يتلمس فى الوجود ، الموجود والمفقود ، لا والد ولا مولود ، يفتقد صاحبه فلا يجده ، ويذكر هواه ولا ينساه ، ويهفو ولا يلهو ، فيراه الناس كئيباً حزيناً ، ثم يراهم يحسبونه مثلهم — ساعة وكل شىء يزول ...

ساعة وكل شىء يزول ! فيعجب ثم يضطرب بل ينتفض ويرتعد ويبتعد قليلا ... ثم يعود ، فلا يراه أحد كئيباً حزيناً ، فقد خجل أن يكون مثلهم ، وهو ... هو الكئيب الحزين ... دخل الصومعة ولكنه يسير بها فى المعمعة ...

راشد رستم

الشريعة الإسلامية

وأعلام القانون في هذا العصر

للاستاذ حسن أحمد الخطيب

عنيت طائفة من علماء الغرب ومحبي البحث بآثار المشارقة وعلومهم وفنونهم ، فكان منهم الباحث في اللغة العربية خاصة ، واللغات الشرقية عامة : يبحث في أصولها ومشتقاتها وتطور ألفاظها وكلماتها ، ومنهم المطلع على آدابها والمعنى بطبع أمم الكتب العربية والأدبية ونشرها بعد تصحيحها وضبطها وتعليق الحواشي بما يعين على الفهم ويفتح المستغلق .

ومنهم من تعدى ذلك ، فبحث في العلوم الشرعية من علوم القرآن والتفسير والحديث . ومنهم من نظر في الفقه الإسلامي ، فاطلع على دقائقه وغاص في بحره ، وعلم أن فيه ثروة واسعة وكنوزا نفيسة ، فنوه بشأنه وشاد بذكره ، ولفت أعلام القانون في وطنه إلى هذه الثروة القانونية فأعجبوا بها ، وأقروا بقوتها ومبلغ أثرها في الحضارة والإصلاح .

وإلى هؤلاء تجد عنقا[1] من أقطاب القانون في مصر وغيرها من الأقطار الشرقية — قد عرفوا ثراءها وخصبها والحياة القوية الكامنة فيها ، فدعوا إلى النهل منها واتخاذها أساساً يرجع إليه في التشريع في مصر وغيرها من البلاد العربية والشرقية .

وإنا لذاكرون هنا آراء بعض أئمة العلم والقانون — في الشريعة الإسلامية من أولئك المنصفين من غربيين وشرقيين لتعرف أن الحق لا يعدم نصيراً ، وإنه يجب اتخاذ تلك الشريعة أساساً ومصدراً لتشريعنا في هذا العصر :

١ — يرى الأستاذ لامبير[2] الفرنسي : أن الكتب والمؤلفات الموضوعة في الشريعة الإسلامية كنز لا يفنى ، ومنبع لا ينضب ، وإنه خير ما يلجأ إليه المصريون في العصر الحاضر في البحوث العلمية حتى يعيدوا لمصر ولبلاد العرب هذا المجد العلمي الذي أخذ الزمن يطويه بحكم الإهمال وعدم العناية به .

وكان يظن أن للقانون الروماني أثراً كبيراً في الشريعة الإسلامية ولكن استبان له بعد أن عمق النظر فيها ، وأوغل في دراستها ، واتصل بعلمائها أنها شريعة مستقلة بذاتها .

٢ — وقال « ليفي أولمان » الأستاذ بكلية الحقوق بباريس في رسالة الدكتور محمد صادق فهمي التي ألفها في الإثبات باللغة الفرنسية ، وعرض فيها لما قرره علماء الشريعة الإسلامية وبخاصة ابن قيم الجوزية :

« إن كتاب الدكتور صادق جدير بأن يلحق بالكتب المكونة للمجموعات العلمية القانونية الحاضرة كمجموعة سالى وغيره من رؤوس القانون في عصر النهضة القانونية الحاضرة ، كل ذلك على اعتبار الشريعة الإسلامية في المعاملات مصدراً حياً للقانون المصري ، ومناطاً للحق في أطواره المختلفة .

٣ — وقال الدكتور « أنريكو انساباتو » : إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الأوربية ، بل هي التي تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً .

٤ — وقال بعض الفقهاء : الشريعة الإسلامية بحر لا ساحل له

٥ — وقال فارس بك الخوري في حفل أقيم في دمشق لإحياء ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم :

إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بمثله . والدين الذي جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها ، وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الإعتراف بفضل الذي دعا الناس إليها باسم الله ، وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية .

إن محمداً الذي تحتفلون به ، وتكرمون ذكراه أعظم عظماء الأرض سابقهم ولاحقهم : فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها .

---

(١) جماعة .

(٢) أستاذ القانون المقارن بليون بفرنسا .

٦ — وقال العلامة سنتيلانا فى بعض مؤلفاته :

« إن فى الفقه الإسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى إن لم نقل إن فيه ما يكفى الإنسانية كلها » .

٧ — وقال الأستاذ سليم باز المسيحى اللبنانى شارح مجلة الأحكام العدلية :

« إننى أعتقد بكل اطمئنان أن فى الفقه الإسلامى كل حاجة البشر من عقود ومعاملات وأقضية والتزامات ، وليس الشاهد على ذلك ما هو ماثل للأنظار فى دار الكتب المصرية وخزائن الكتب فى البلاد الإسلامية فحسب ، بل فيما حوته خزائن دور الكتب الأوربية أيضاً من ليدن فى هولندا إلى روما وبرلين وباريس والمتحف البريطانى ، بل إلى المكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان ، فإن مافى هذه المكتبات من الكتب الفقهية الإسلامية إنما هو ثمرة جهود الألوف الكثيرة من فحول العلماء ، وهى الشاهد الأكبر على أنه لا يوجد معنى من معانى الأحكام المنشود فيها العدل ، ولا حاجة من حاجات البشر فى التشريع إلا تقدم لفقيه مسلم قول فيه .

٨ — وقال كيهلر العالم القانونى الألمانى — حينما اطلع على رسالة الدكتور محمود فتحى فى مذهب الاعتساف فى استعمال الحق عند فقهاء الإسلام :

« إن الألمان كانوا يتيهون عجباً على غيرهم فى ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها فى القانون المدنى الألمانى الذى وضع سنة ١٧٨٧ م ، أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الإسلامى ، وأبان أن رجال الفقه الإسلامى تكلموا عنه طويلا ابتداء من القرن الثامن الميلادى — فإنه يجدر بالعلم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية .

٩ — وقال العلامة الأستاذ شبرل عميد كلية الحقوق بجامعة فينا فى مؤتمر الحقوقيين سنة ١٩٢٧ م :

« إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها ، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة » .

١٠ — وقال هوكنج الأمريكى أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد فى كتابه « روح السياسة العالمية » :

« إنى أشعر بأنى على حق حين أقدر أن الشريعة الإسلامية تحتوى على جميع المبادئ اللازمة للنهوض » .

١١ — وقال الدكتور عبد الرزاق السنهورى عميد كلية الحقوق المصرية السابق من محاضرة له :

« علينا أن نأخذ فى دراسة الشريعة الإسلامية طبقاً للأساليب الحديثة ، وأن نقارن بينها وبين شرائع الغرب ، وإنى زعيم لكم بأن تجدوا فى ذخائر الشريعة الإسلامية من المبادئ والنظريات ما لا يقل فى رقى الصياغة وفى إحكام الصنعة عن أحدث المبادئ والنظريات وأكثرها تقدماً فى الفقه الغربى » .

١٢ — وقال الدكتور عبد السلام ذهنى المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وهو القانونى المتضلع ، والرجل المنصف الذى عرف للشريعة الإسلامية قدرها ، وبذل غاية وكده فى إنصافها :

« إن بحوث أهل الشريعة الإسلامية فى المعاملات مستفيضة بكثرة لا حد لها ، وفيها كنوز قيمة من البحوث العلمية والعملية فى المعاملات ؛ هى أكبر تراث تركه الآباء فى البلاد الناطقة بالضاد »

وقال فى موضع آخر :

« إن الشريعة الإسلامية مليئة فيما يتعلق بالمعاملات بأصول مدنية غاية فى الدقة والمتانة ... ولأحكامها فى المعاملات من القدرة والقوة والتفوق ما يجعلها بحق فى مستوى واحد مع القوانين الدنية العصرية من حيث الدعائم الأولى لعلم القانون ، ولعلم القانون المقارن ... إلى أن قال :

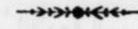
« وفى الأخذ بالشريعة الإسلامية فى المعاملات المدنية تمكين للنزعة القومية فى مصر ، وانتصار للكيان الشرقى العربى وكرامته ، وفيه إحياء لمجد مدفون بغير حق ، وبعث لحياة شرقية عربية جديدة بحق »

١٣ — وقال الأستاذ على بدوى المحامى وعميد كلية الحقوق

مراكش

بين الحاضر والمستقبل

للأستاذ عبد المجيد بن جلون



لم يكن الفرنسيون يقدرون تمام التقدير الحركة الوطنية فى مراكش قبل الحرب الأخيرة . كانوا ينظرون إليها على أنها أحلام مزخرفة تتراءى لجماعة من الشبان بعيدة كل البعد عن الوقائع والمحسوسات ؛ وكانوا يقولون إن هناك هوة سحيقة بين هذه الجماعة من الشبان وبين بقية الشعب ، ولذلك ظلت الحركة الوطنية فى جزر ومد إلى أن كانت سنة ١٩٣٧ حينما اغتالت السلطة الفرنسية هذه الحركة وشردت زعماءها فى المنافى والسجون .

ولكن الحركة الوطنية فى مراكش كانت قد آتت ثمارها فى نفوس الشعب قبل هذا التاريخ ، ولذلك فإن مظهر الشلل الذى أصابها بعد ذلك لم يكن له أى اتصال بالجوهر والصميم . كان من العوارض التى تنزل بالأمم عند ما تصاب بالنكبات القاصمة ، فتذهلها فترة من الزمن عن إيمانها ، ولكنها لا تخنق فيها نبض الحياة متى كان للحياة نبض فى أعماقها . حتى إذا استأنس الشعب بالنكبة وألفها ، بدأ إيمانه يستيقظ فى شكل همس ثم فى شكل صوت ثم فى شكل جلجلة مدوية .

وهذا ما حدث فى مراكش بالضبط : تظاهر ضدها الموت والجوع والحرب والاضطهاد ، وبالرغم من ذلك استطاعت أن تواصل كفاحها السياسى ، وأن تتقبل كل التهم التى وجهت إليها كما تتقبل العذراء البريئة تهم الافك والبهتان . بل استطاعت فى خلال الحرب ذاتها أن تخوض فى صمت وجلد ، وهى بعيدة كل البعد عن الضمير العالمى ، معركة استقلالية دامية ، وجه الفرنسيون خلالها نحو قلب هذه البلاد الباسلة كل ما يملكون من حديد ونار ، دون أن يستطيعوا إخماد النبض فيه . وإذن فالمسألة ليست مسألة شبيبة حالمة ، وإنما هى مسألة نظام بال تقادم عليه الدهر وتزعزع . إنها الأخطاء الفرنسية بدأت تؤتى ثمارها الكريهة المسمومة . إنه الشعور بالذات فى أمة لم تصمم على الاستمساك بالحياة فحسب ، بل صممت أيضاً على أن تعيش حياة حرة كريمة تختلف كل الاختلاف عن الحياة التى عرفتها منذ ثلث قرن مضى فى ظل الحماية الفرنسية .

السابق من مقال له عنوانه : « مكانة الشريعة الإسلامية فى الفقه الحديث » .

« ليست مظاهر استقلال الفقه الإسلامى وتفوقه محصورة فى القواعد المدنية والأحوال الشخصية ... ولكنها تبينت كذلك فى عدة مواضع من التشريع الجنائى الإسلامى » ... ثم قال :

« إن الشريعة الإسلامية تشمل من مبادئ العقوبة ونظمها ما لا يقل فى سعة النطاق وفى تهذيب الفكرة عن أحدث المبادئ والنظم الوضعية ، ومنها ما لم يكن له مثيل فى نظم العقوبات الرومانية ، ومن هذه النظم نظام الحسبة فى الشريعة الإسلامية ، وهى وظيفة اجتماعية فى العصر القديم تقابل وظيفة النيابة العمومية فى العصر الحديث . ومنها كذلك نظام العقاب بالتعزير ، وهو أن يترك تحديد العقوبة — نوعاً ومقداراً — إلى تقدير القاضى يحكم بها تبعاً لما يتضح لديه من ظروف كل جريمة ، ولحالة المجرم ونفسيته ودرجة ميله إلى الإجرام ، وهو نظام تمتاز به الشريعة الإسلامية على الشرائع الأخرى ، وينادى به كبار العلماء الجنائيين فى العصر الحديث ، حتى تكون العقوبات محققة للغاية من تشريعها » .

١٤ — ثم جاء قرار المؤتمر الدولى للقانون المقارن الذى انعقد بلاهاى فى أوائل أغسطس سنة ١٩٣٧ م — مظهراً فضل هذه الشريعة ورسوخ قدمها وعلو كعبها ، وهو الذى جمع أقطاب القانون وأعلام الشرائع فى العصر الحاضر — وخلاصته أن الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة ، وأنها لذلك جديرة بأن تشغل مكانة ممتازة بين مصادر القانون المقارن » .

وبذلك أحرزت الشريعة الإسلامية قصب السبق ، وفازت فوزاً عظيما ، واعترف بمجدها الخالد الغربيون .

حسن أحمد الخطيب

ظلت فرنسا طيلة مـدة الحرب تقريباً مهددة فى كيانها ، فشككها ذلك فى تلك السياسة العتيقة التى كانت تسير عليها فى الشمال الأفريقى ، وظهر لأول مرة فى الأحزاب الفرنسية من ينادى بما يسمى تارة إعطاء الحقوق أو عدم الاضطهاد أو المساواة بين سكان جميع الأراضى الخاضعة أو التابعة لفرنسا . وبدأت تظهر نتائج هذه الأفكار بالنسبة لمراكش ، فاطلق سراح الزعماء الذين قلنا عنهم فيما مضى إن فرنسا اغتالت الحركة التى كانوا قائمين بها سنة ١٩٣٧ ، وعلى رأسهم الأستاذ محمد علال الفاسى بطل حوادث تلك السنة . وظهرت كذلك فى الوسط الحكومى أفكار نيرة كانت تعد إلحادا قبل الحرب الأخيرة ، فبدأ الناس يقرأون فى البلاغات الرسمية ويسمعون فى الدوائر الحكومية عن حقوق الشعب والرخاء العام ، والعمل للمستقبل ، ومحاربة الجهل والفقر والجوع ... الخ . وهذا شىء جديد بالنسبة لما قبل الحرب فى مراكش

وهكذا اعتقد الناس أن الطريق نحو المستقبل قد بدأ يلوح أمام هذه الأمة التى ضلت تلك الطريق منذ زمن ليس بالقصير . بيد أنه يظهر أن الفرنسيين لم يستطيعوا أن يتخلصوا نهائيا من تلك الأفكار العتيقة التى كانوا يسوسون امبراطوريتهم على ضوئها . وبالرغم من أنه لم تمر سوى بضعة شهور على هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الفرنسية فقـد بدأ يظهر فى أفقها نوع من التردد الواضح ، وما يدل على أن الفرنسيين لا يزالون بعيدين عن الإيمان العميق بتلك الأفكار الجديدة التى دفعتهم إليها الحرب الأخيرة .

ومصدر هـذا التردد هو أن الفرنسيين اعتقدوا أن سياسة اللين أجدى على الأمبراطورية من سياسة العنف ، أى أن هدف اللين اليوم هو نفس هدف العنف بالأمس . ودليلنا على ذلك هو أن مشروع الوحدة الفرنسية الذى أشارت إليه المادة ٤١ من الدستور الذى خذله الفرنسيون فى الانتخابات الأخيرة ، لم يقم أى وزن لآراء هذه البلاد ولم يوص باستشارتها بل فرضها فرضاً ؛ فهو مشروع فرنسى من فرنسا وإلى فرنسا .

أضف إلى ذلك أن سفير فرنسا ومقيمها العام الجديد فى مراكش ، وهو الذى أرسلته حكومته لانتهاج خطة جديدة فى هذه البلاد التى أنهكتها القلاقل — أعلن برنامجا سياسيا إعتبره المراكشيون ضربة لآمالهم فى الصميم ، ووصفوه بأنه تماد مع سبق الأصرار فى فرض الحماية والأغراق فى تنفيذها ، هـذه الحماية التى حاربوا طول مدة ثلث قرن فى سبيل القضاء عليها . والبرنامج يتحدث عن السنين البعيدة المقبلة مقرونة بالحماية وما سـوف تقوم به فى المستقبل من أعمال ، ولم يشر البرنامج أية إشارة إلى الإصلاح السياسى أو إعادة النظر فى المعاهدة ، بل اكتفى بالإشارة إلى الإصلاحات المادية المختلفة ناسيا أن يذكر أن الحماية الفرنسية كانت مصدراً رئيسياً لكل هذه الويلات التى تعانيها مراكش ، والتى يظهر أن الفرنسيين لا يفهمونها ، فإن من الواضح بعد هذه التجربة الطويلة أنه لا يمكن القيام بأى إصلاح فى هذه البلاد ما دامت الحماية قائمة ، بل يرجح القارئ أن واضع البرنامج لم يسمع شيئا عن مشروع الوحدة الفرنسية ؛ فهو مهما يقل فيه اعتراف صريح بأن النظام القائم الآن لم يعـد صالحاً وكأنه لم يسمع شيئاً أيضاً عن تاريخ مراكش خلال ثلث القرن الأخير .

وإذن فنحن لا نتردد فى القول بأن مستقبل مراكش ما يزال محفوفا بالأخطار ، وإن الابتسامة الحاضرة هى صرف للنظر أو تخدير للأعصاب . هى كسب للوقت بالنسبة لفرنسا وإضاعة للوقت بالنسبة لمراكش ، ولكن الذى يسرنا أن نعلنه هنا هو أن حزب الاستقلال المراكشى ، وهو الحزب الذى يعبر عن صوت الأمة القوى المجلجل ، قد أعلن سخطه على بوادر السياسة الفرنسية ورفض أن يتعاون مع الحكومة أو أن يهادنها ما لم تعلن صراحة أن معاهدة الحماية ملغاة . وبعد ذلك تبدأ المفاوضات بين حكومة مراكشية شرعية وبين حكومة فرنسا لعقد معاهدة جديدة بين الطرفين .

لن يقبل المراكشيون غير هذا . والظاهر إلى الآن أن فرنسا غير مستعدة للنظر فيما يشبه هذا ، وإذن فمراكش ما تزال مهددة بأن يكون لها مستقبل شبيه بذلك الماضى القريب ، خصوصاً إذا لم يصل وفد حزب الاستقلال الذى يوجد الآن فى باريس مع رجال فرنسا إلى نتيجة مرضية ، ففى حاضر مراكش الآن هدوء ولكنه ربما كان الهدوء الذى يسبق العاصفة .

عبد المجيد بن جلون

من عجــائب التصحيف

للأســتاذ محمود عزت عرفة

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

... ومن عجائب التصحيف أن أحدهم ربما يقع فيه فيخرج بما هو خير من الأصل ، بتصحيح حسن للصحيح ، فيقبل ذلك منه ويحفظ عنه ... كالذى يروى عن جابر بن هبة الله أنه قرأ على الحريرى مقاماته — فى سنة أربع عشرة وخمسمائة — فلما بلغ قوله[1] :

يأهلَ ذا المغنى وُقيتم شراً ولا لقيتم ما بقيتم ضُرًّا
قد دفع الليلُ الذى اكفهرًّا إلى ذراكم شَعِثاً مغبرًّا

قرأها (سغباً معترًّا) ... ففكر الحريرى ساعة ثم قال : والله لقد أجدت التصحيف فإنه أجود ، فرب شعثٍ غير محتاج ، والسغب المعتر موضع الحاجة . ولولا أنى قد كتبت خطى إلى هذا اليوم على سبعمائة نسخة قرئت على ، لغيرت الشعث بالسغب ، والمغبر بالمعتر[2] .

وربما كان يفضى التصحيف أحياناً إلى بركة ونفع ، ويعود بخير على قارفه أو على من يتصل به ... كالذى يروى أن تميم بن زيد القضاعى كان والياً على الهند ، وكان فى حبسه رجل يقال له خُنيس أو حُبَيْش؛ فلما طال حبسه أتت أمه قبرغالب بن صعصعة (أبوالفرزدق الشاعر) ، فأقامت عنده حتى علم الفرزدق بمكانها فأتته وذكرت حبس ابنها ، فكتب إلى تميم بن زيد :

فهب لى حبيشاًواتخذ فيه منّةً لغصة أمٍّ ما يسوغُ شرابُها
أتتنى فعاذت يا تميمُ بغالبٍ وبالحفرة السافى عليه ترابها
تميمَ بن زيد لاتكوننَّ حاجتى بظهر، فلا يخفى عليك جوابُها

فلما أتاه الكتاب لم يدر أحبيش أم خنيس ، وفى حبسه عدة حبيش وخنيس ، فأطلقهم جميعاً ...

(١) المقامة الخامسة الكوفية .

(٢) ينسب أبو محمد بن الخشاب البغدادى إلى الحريرى أنه كان كثير المحو والاثبات فى مقاماته « يسكر على النسخة مبرظنا منه أنه أخطأ ، وكيف وقد غربت وشرقت ، وأشأمت وأعرقت » : من رسـالة ابن الخشاب .

وحكى أبو الحسن بن السكوفى عن محمد بن عبيد عن شيخ له أن رجلا كان يقرأ على الأصمعى شعر النابغة فقال : كلينى لهمٍّ يا أميمــةَ باضتٍ ... بدل ناصبٍ . فقال الأصمعى : أماعلمت — ويلك — أن كل ناجة الأذنين تحيض ، وكل سكّاء الأذنين تبيض ! فصار تصحيف الرجل فائدة لنا . ثم قال ابن السكوفى : لا أعلم تصحيفاً جر فائدة إلا هذا الحرف !

على أن للتصحيف — على عكس ما ذكرنا — جنايات قد تلحق غير أهله ، وشؤماً ربما أصاب من لم يتعلق منه بسبب . فمن الذين جنى عليهم التصحيف حبيش بن الحسن الأعسم أحد تلاميذ حنين بن إسحق الطبيب . قال القفطى: « من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له ، فإن أكثرما نقله حبيش نسب إلى حنين . وكثيراً ما ترى الجهال شيئاً من الكتب القديمة مترجماً بنقل حبيش ، فيظن الغرُّ منهم أن الناسخ أخطأ فى الاسم ، ويغلب على ظنه أنه حنين وقد صُحّف ، فيكشطه ويجعله لحنين !

ولعل أبلغ جنايات التصحيف إنما وقعت على مخنَّثى المدينة الذين خصى ستة منهم أو سبعة بشؤم تصحيفة واحدة . وحديث ذلك أن سليمان بن عبد الملك كتب إلى ابن حزم أمير المدينة أن أحص من قِبَلك من المخنثين . فصحَّف كاتبه فقرأها : اخص من قبلك من المخنثين (بالخاء المنقوطة) ، فدعا ابن حزم بهم فخصاهم . وكان ممن خصى بشؤم هذه النقطة : طويْس ودلال وبرد الفؤاد ونومة الضحى ونسيم السحر وضرة الشمس .

قال جمعدبة : قلت لكاتب ابن حزم : يزعم المخنثون أنه كُتب إليهم أن (أحصِهم) . فقال : يا ابن أخى ! عليها نقطة إن شئت أريتكها... قال : وقال الأصمعى فى روايته : عليها نقطة مثل سهيل[1] ، ولما وقعت الواقعة على طويس قال : هذا الختان الأكبر ! وقال نسيم السحر : أف لكم ، ما سلبتمونى إلا ميزاب بولى !

* * *

هذا ، وللمصحفين لجاج يدفعهم إليه ضعف مُنّتهم عند المحاجة ، وقد يفضى بهم ذلك إلى الإفراط فى المماراة وإلى الكذب والدعوى والاختلاق ، على حد قول القائل فى أحدهم :

يكسر الشعر فإن عاتبته فى محال قال فى هـذا لغة !

(١) نجم فى السماء معروفة يظهر للرائى بوضوح .

حدث المبرد قال : أنشدنا يوماً أبو العلاء المنقرى :

قفا نبـك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فقلت : باللام . فقال : كذا قلت باللام فحومل !

وقال محمد بن عمر الجرجانى : صحف ابن الأعرابى فى شعر الكميت وأنا حاضر ، فأنشد :

فباتوا من بنى أسد عليهم
نجارٌ من خزيمةَ ذى القبولِ

فقلت : إنما هو (باتوا) بالتاء . فلوى شدقه !

فقلت : إن بعد هذا البيت ذِكرُ المبيت :

وقالوا[1] بالأيامن مُنتهاهم
فيا بعد البيت من المقيل !

فقال : لا يُلتفت إلى هذا ! ثم بلغنى أنه ينشده كما قلت له ! !

وحدث على بن الحسن الإسكافى قال : لما خرج « بغاء » إلى منبج متقلداً أمرها كان معه كاتب ، فقرأ عليه يوماً كتاب عامله بسمـيْساط ، وأن فلاناً سقط عن (برذونة) يعنى (برذَونه)[2]. فقال بغاء: ما برذونة ويحك ؟ ؟ فقال : جبل بين سميساط والروم ، وهو الحد بينهما . قال : فلم ندر من أى شىء نعجب ، من تصحيفه ، أم من احتجاجه بما احتج به ! ؟

***

وقد وضع اللغويون فى التصحيف والتحريف كتباً كثيرة ، ولكن لم يصل إلى أيدينا منها إلا القليل . ونحن نشير هنا إلى أهم هذه المصنفات وأسماء مؤلفيها :

١ — كتاب تصحيف العلماء لأبى محمد بن قتيبة (توفى عام ٢٧٠ هـ) .

٢ — المصحَّف لعلى بن الحسن الهنائى (توفى بعد سنة ٣٠٩ هـ) .

٣ — الكلام على ابن قتيبة فى تصحيف العلماء ، لأبى محمد ابن درستويه (توفى عام ٣٤٧ هـ) .

٤ — التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه ، للحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى (توفى عام ٣٨٢ هـ) .

٥ — التصحيف للدارقطنى — أبو الحسن على بن عمر (توفى عام ٣٨٥ هـ) .

٦ — الرد على حمزة فى حدوث التصحيف لإسحق ابن أحمد الصفار (توفى بعد عام ٤٠٥ هـ) .

٧ — التصحيف والتحريف لعثمان بن عيسى البلطى (توفى عام ٥٩٩ هـ) .

٨ — متنزه القلوب فى التصحيف ، لعلى بن الحسن الحلِّى (توفى عام ٦٠١ هـ) .

***

هذا ما عنَّ لنا أن نبسط القول فيه من موضوع التصحيف والتحريف ؛ وقد أغفلنا ما كنا أزمعنا الإشارة إليه من طرائف التصحيفات التى وقعت لنا خاصة ، أو لبعض معارفنا من أفاضل الأدباء على هذا العهد ، فلذلك مجال آخر من الحديث ، ولسنا نكره أن يسبقنا إليه بعض الأدباء ممن تتوفر لديهم بواعث الإفاضة فيه .

ومنا إلى الأستاذ الطنطاوى — الذى بعثنا على كتابة هذه الكلمة بين سغب رمضان وحر الصعيد — أطيب تحية وأزكى سلام ...

(جرجا) **محمود عزت عرفة**

مراجع المقال :

١ — الفهرست لابن النديم .
٢ — معجم الأدباء لياقوت .
٣ — التصحيف والتحريف للعسكرى
٤ — إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى .
٥ — المزهر للسيوطى .
٦ — إحياء علوم الدين للغزالى
٧ — مطالع البدور لعلاء الدين البهائى .
٨ — حياة الحيوان الكبرى للدميرى . . وبعض مصادر أخرى

(١) من القيلولة وهي نوم منتصف النهار .
(٢) البرذون دابة الحمل الثقيلة ، أو التركى من الخيل .

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٥ —

في ميدان السياسة :

نفض ملتن يديه من الخصومات ، ولبث يترقب أنباء الحرب ، وإن الحنين إلى الشعر ليزداد في نفسه يوماً عن يوم ، حتى ليكاد يجزم أنه عائد إليه عما قريب وجاعل همه كله إليه ، كما كان أمره قبل أن ينصرف عنه سنة ١٦٤١ إلى الحرب التي أوقد نارها على القساوسة معتقداً أنها كانت مما يقضي به عليه الواجب نحو وطنه في ذلك الوقت .

ولكن حديث السياسة يشغل باله ويستأثر بفكره أحياناً على الرغم من حنينه إلى الشعر ، حتى ليحسب أصحابها أنها هي اليوم كل همه ، ولذلك يحارون في أمره : أ كان إلى الشعر يومئذ أم كان إلى السياسة ميله ؟ ولقد نظم مقطوعة سنة ١٦٤٨ يمجد بها القائد الظافر فيرفاكس ، ومنها يتبين القارئ شدة اهتمامه في ذلك الوقت بالسياسة والحرب ، وقوة تحمسه لقضية البرلمان . قال ملتن : « أي فيرفاكس[١] ، يا من يجلجل اسمك كجندي في أنحاء أوربا جميعاً ، فيملأ كل فم بالحقد أو بالثناء عليك ، ويملأ الملوك الحاقدين جميعاً عجباً منك ، ويرسل الشائعات المدوية فتخيف أقصى الملوك موطناً . إن بسالتك الوطيدة التي لا تتزعزع لن تزال تأتي لوطنك بالنصر ، ولو أن ثائرين جددا يرفعون رؤوسهم الشبيهة برأس الهيدرا[٢] ، والشمال الخؤون[٣] يحلل ما نقض من عهد ليريش أجنحتهم الخائنة ، وإن عملا أجل مما فعلت لا يزال يرجى على يديك حتى يتحرر الصدق والحق من ربقة العنف ، ويتخلص الإيمان العام بالعدالة مما اتسمت به الحياة من سمة مخجلة هي التدليس العام[١] ، إلا أن الحمية لتنزف الدم عبثاً ، بينما نرى الجشع والسطو يقتسمان الأرض »

الحق أنه لم يكن لملتن مندوحة عن السياسة وأنبائها ، حتى لو أنه حاول بكل ما في وسعه أن يتجنبها ما استطاع ، ومهما يكن من شدة حنينه إلى الشعر وعظم رغبته في أن يعود إليه ، وقد حبس نفسه عليه سنين من عمره ، وتوفر على دراسة وسائله وأسباب النبوغ فيه ، فما كان بقادر على أن يعتزل قضية الحرية ، وهو نصيرها في كل وجه من وجوهها ، وإنه وقد استطاع أن ينتزع نفسه من الشعر انتزاعاً سنة ١٦٤١ ليوقد نار الحرب على القساوسة دفاعاً عن الحرية ليجد اليوم من اليسير عليه أن يرجئ العودة إليه ، ولو إلى أجل قريب لينظر ما ذا تكون عاقبة ذلك الصراع العظيم بين الملك والبرلمان ، أو بين سلطة الفرد وسلطة الشعب .

وكان ذلك الصراع العنيف بين الملك والبرلمان صفحة مجيدة في تاريخ الحرية ، أو فصلا رائعاً من تاريخ الإنسانية في تمردها على الأغلال وأنفتها من الاستعباد ، أو على حد تعبير مكولي في قوله : « لقد عاش ملتن في عصر من أبقى العصور ذكراً في تاريخ البشر ، حيث كانت ساعة الفصل في ذلك النزال العظيم بين هورومازدو أهريمان[٢] بين الحرية والطغيان ، بين العقل والهوى ، ولم تكن هذه المعركة العظيمة من أجل جيل واحد ولا من أجل وطن واحد ، وإنما ارتبطت مصاير الجنس البشري كله بما يكون من مصير الحرية لدى الشعب الإنجليزي ، فها هنا أعلنت لأول مرة تلك المبادئ الغلابة التي اتخذت منذ ذلك الحين سبيلها إلى أعماق الغابات الأمريكية ، والتي أثارت ثائرة اليونان على ما ضرب عليهم ألفي سنة من الذلة والتدهور ، والتي أوقدت في قلوب الشعوب المظلومة في أوربا من أحد طرفي القارة إلى طرفها الآخر ناراً لا تنطفئ جذوتها ، وأرهكت مفاصل الطاغين

(١) فيرفاكس ، أحد مشاهير قواد البرلمان أثبت بطولة في معركة نسبي سنة ١٦٤٥ وحاز انتصاراً باهراً على الملكيين سنة ١٦٤٨

(٢) التنين الخرافي ذي الرؤوس السبعة التي كلما قطع منها رأس نبت رأس

(٣) يقصد الاسكتلنديين الذين نقضوا ما عاهدوا عليه البرلمان سنة ١٦٤٣ أن يكونوا نصراء له على شارل .

(١) اتهم المستغلون البرسبتيريتز بالرشوة وفساد الحكم .

(٢) إلهي النور والظلمة في الديانة الفارسية القديمة كما جاء بها زرادشت

بما لا قبل لهم به من خوف » .

ونحسب بل نكاد فى الحق نجزم أنه لولا ما كان فيه ملتن من شغل شاغل بمحاربة القساوسة ، ثم بما منى به من خيبة فى زواجه ، وماجره ذلك عليه من خلاف شديد بينه وبين البرسبتيريتز وحرب منه أدارها عليهم ، ما كان ليذرقضية البرلمان بضع سنين بغير دفاع منه فى كتيبات كتلك التى نشرها منذ سنة ١٦٤١ ، فإن رجلا له مثل روحه الحرة الوثابة ، ومثل ثقافته الواسعة الممتازة ، لخليق بأن يناضل بقلمه فى تلك المعركة الدائرة فى سبيل الحرية ، وجدير ألا يكون نضاله بالقلم أقل بأساً من نضال الشاهرين سيوفهم الباذلين فى سبيل النصر أرواحهم .

ونعتقد أن يأسه من الإصلاح وحنقه على بنى قومه لعزوفهم عما دعاهم إليه لم يكن كما حسب بعض الناس ليميل به عن السياسة يائساً منها كما يئس من غيرها ، بل لقد كانت المعركة الدائرة هى أمله الباقى الذى ينبثق نوره فيما يكتنفه من الظلمات ، ولذلك علق عليها من الرجاء مثلما يعلقه الغريق على آخر أمل له فى النجاة !

ولملتن اهتمام بالسياسة من جهة أخرى ، فهو خصيم البرسبتيريتز ، ويود لو يذهب سلطانهم . وهو منذ حملتهم عليه أقرب إلى المستقلين مذهباً ، بل وأكثر منهم استقلالا ، ولذلك فهو يتمنى نجاحهم ويتجه بقلبه إلى كرمول وجنوده ، ويتضح موقفه من الفريقين فى مقطوعتيه اللتين ندد فى أولاهما بالبرسبتيريتز مستكرهى الضمائر سنة ١٦٤٦ ، وامتدح فى الثانية فيرفاكس أحد قواد جيش البرلمان سنة ١٦٤٨ .

هكذا لبث ملتن يترقب ويجعل للسياسة همه ، فلما تأكدت قوة كرمول والمستقلين بعد الحرب الأهلية الثانية ، تبين أن الثورة توشك أن تصل إلى نهاية حاسمة ، ورأى ملتن أن الملك وقد ظل على شديد استمساكه بالأسقفية ، وأخذ يفاوض البرسبتيريتز والاسكتلنديين ، إنما يتضح أمره يوماً عن يوم أنه العقبة الكؤود فى سبيل التسوية ، فلما أراد زعماء المستقلين أن يخطوا الخطوة التى يقضى بها الموقف ، وهى طرد البرسبتيريتز من البرلمان ومحاكمة الملك ، تبين ملتن أن الله استجاب دعاءه ، وأن مصير وطنه ومصيره بسبيل أن يتقررا ، وعاودته حماسته إلى الكتابة ، ومن ثم شرع قلمه .

وأخذ ملتن يعد كتيباً جديداً ، وقد بدأه قبل أن تبدأ محاكمة الملك ، وفرغ منه قبل إعدامه بأيام ، فكان صوته أول صوت ارتفع ، والناس عالقة أنفاسهم دهشة ورهباً ، ونشره فى يناير سنة ١٦٤٩ وجعل عنوانه « حق الملوك والحكام » .

وقد ذاع اسمه فى أوربا بهذا الكتيب الذى برر فيه إعدام الملك ، حتى إن زائرى انجلترة يومئذ كانوا يتطلعون إلى رؤية رجلين أحدهما أليفر كرمول رجل السيف ، والثانى جون ملتن رجل القلم . وشاءت الظروف أن يشتهر اسم صاحب الفردوس المفقود أول ما اشتهر فى القارة بصلته بحادث إعدام الملك وجرأته فى الدفاع عن هذا الفعل قبل أن يشتهر بالشعر ، فلم يك قد بدأ قصيدته الكبرى بعد ، أما شعره الذى نشره قبل ذلك ، فلم يقدره حق قدره فى انجلترة إلا خاصة المثقفين ، ولم يعرفه فى القارة إلا قليلون .

ويعد هذا الكتيب من أكثر كتيبات ملتن متعة وأعظمها شأناً ، فقد بسط فيه طائفة من المبادئ العامة فيما يتصل بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وبعض هذه المبادئ قديم يرجع عهده إلى أول عهد المفكرين من الإغريق بالآراء الديمقراطية ، ولكن ملتن يعرضها عرضاً جديداً ، بينا يعينه على حسن بيانه إياها سعة ثقافته ، وبعضها يظهر فيه ابتكاره أكثر مما يظهر اعتماده على ما خلف غيره من المفكرين .

والكتيب فى جملته عليه طابع ملتن فى سمو بلاغته وشدة حميته وروعة أدائه ، وهو فى روحه العامة صيحة على الطغاة ، وتنديداً بالمستبدين ملوكا وحكاماً ورجال دين ، وقد افتتحه ملتن بتبرير ما فعل الجيش جميعاً ، وعدَّ ما لحق الملك جزاء عادلا من الله على ما قدمت يداه ، وجعل جانباً كبيراً منه لتأييد حق الناس فى اختيار حكامهم وعزلهم ، واختتمه بحملة نكراء على البرسبتيريتز والقساوسة إلا من كره منهم الاستبداد وحاد عن سبيله .

وكانت الفكرة التى بنى عليها ملتن تبريره إعدام الملك ، هى

أن الدولة إن هى إلا أداة لخير الناس وأمنهم ، ولذلك فإن إعدام الملك يتمشى مع القانون القائل : « بأن كل ما من شأنه أن يؤدى إلى سلامة المجموع إنما يعد عملا قانونياً مشروعاً » .

ويتكىء ملتن على العقل والمنطق فى الدفاع عن آرائه كما فعل فى كتيباته عن الطلاق ، فأساس العلاقة بين الملك وشعبه الوئام والرضى ، فإذا فقد ذلك فقد بطلت شروط تلك العلاقة ، ومن ثم فلا علاقة بينهما ، وللناس من الخروج عن طاعة حاكم يعمل لصالحه دونهم ، « لأن سلطته فى الواقع مستمدة من الشعب وفق قانون ، وعن قسم أداه ليؤدى بها حق الشعب فى الإصلاح والخير لا لأى شىء خلاف ذلك »

ويقول ملتن إن الإنسان حر بطبيعته ، وأن الرجل العادل لا حاجة به إلى القانون ، فهو يسير على نهج من طبعه ، وما جعل الحكومة أمراً ضرورياً إلا فساد الإنسان ، والحكومة مصدرها الناس الذين وضعوا السلطة فى أيدى الملوك أو الحكام على أساس شروط معينة ... ويعرف ملتن الطاغية بناء على ذلك بأنه الرجل الذى يعتقد أن السلطة سلطته هو ، وأنها ما خلقت إلا لنفعه وخيره ... !

ويعتقد ملتن أن مرد الفساد والشر فى السياسة كما فى غيرها إنما هو إلى سيطرة العاطفة على العقل ، وعلى ذلك فمصدر الشر فى الملك عاطفة ، وعواطف الشر فى نفسه يوسوس بها الشيطان الذى هو أصل كل عاطفة شريرة ، وإن الواجب ليقضى بمقاومة مثل هذا الملك الذى تتغلب فى نفسه العاطفة على العقل !

ويضع ملتن القساوسة فى موضع الشيطان ، فإنهم فى رأيه أشد أعوان الملك على الطغيان ، وأكبر سند له فيما يتمادى فيه من غى وظلم ، ولا يعنى بالقساوسة الكاثوليك منهم فحسب ، وإنما يعنى كل محب لنفسه شره تحركه الأطماع الدنيا ، فيدين للطغيان ، ويتخذ من الطاغية نصيراً ، ويدافع عنه حتى ليكون حياله كعبدة الأصنام . ويعود فيوجه ملتن سهامه إلى البرسبتيرينز ويلقى على كواهلهم تبعة ما لاقته المملكة من شر على يد شارل ، وينكر عليهم انتماءهم إلى الدين بأى وجه ، أو صلتهم بالمسيح إلا ما يكون من مظهرهم جرى به العرف ، وهم فيما عدا ذلك ذئاب جائعة لا تشبع بطونهم مهما كان مبلغهم من الثروة ، وكلما وصلت إلى الثراء العريض أيديهم الآثمة على حساب الفقراء والمساكين قالوا هل من مزيد ، ولا وازع لهم من دين ولا من ضمير !

وكان حرياً أن يثير هذا الكتيب اهتمام القائمين على أمر الدولة ، وأن يسرهم هذا الدفاع عنهم وقد جاء فى إبانه ، ورأوا أن رجلا كمؤلفه علماً واسع الثقافة شجاعاً لا يخاف فى الحق شيئاً ، فصيحاً لا يعى لسانه بأمر مهما عظم ، هو خليق بأن يعول عليه كدعامة من دعائم الحكم الجديد ، ولذلك لم يلبث ملتن أن قلد وظيفة ذات خطر ، فقد جعل قيما على ديوان الرسائل الأجنبية فى مجلس الدولة ... والواقع أن هذه الوظيفة لم تكن إلا ستاراً ، فقد كان ملتن رجل القلم والفكر ، الدافع عن الجمهورية الوليدة ، وظل فى منصبه هذا يدافع عن الدولة ويرد على كل نقد أو تهجم ، ويكتب ما يوحى به كرمول مما يريد أن يلقيه على انجلترة وعلى أوربا من ضروب القول وأوجه الرأى .

ويتساءل المؤرخون عما دفعه إلى قبول ذلك المنصب ، أكان ذلك رغبة منه فى مظاهرة هذه الحكومة ومناصرتها لما توسم فيها من نصرة الحرية ، أم كان لحاجة إلى المال ، أم كان عن رغبة منه فى مراسلة ذوى المكانة من الأجانب ، أم أن كبرياءه وذهابه بنفسه وإحساسه بما قدره لشخصه من سمو المنزلة ، جعله يطيب نفساً بمثوبة الحكومة إياه ، إذ يحس فى عملها هذا نوعاً من الاعتراف بقدره وخطره ؟

ومهما يكن من أمر منصبه الذى ارتضاه ، فما أبعده عن ذلك الخيال الجميل الذى منى نفسه به قبل ذلك بثمانية أعوام حين تنبأ بفجر بهيج يوشك أن يهل على انجلترة نوره ، وبشر بشاعره إذ قال : « ولن يعدم ذلك الفجر طائره الصداح ، فلسوف يتغنى من بين هؤلاء القديسين الذين يناخرون عن دين الله شاعر يأتى بلحن علوى جديد يشكر به أنعم الله ، ويسجل نصر الله فى مملكة تنعم بنعمة الحرية ، وقد تخلصت من القساوسة ومجدت شاعرها المختار » !

وها هو ذا الفجر قد أهل نوره ... فأين طائره الصداح ؟ أين الشاعر وأين لحنه العلوى ؟ كيف ارتضى لنفسه أن يكون

عمله أن يكتب الرسائل اللاتينية ، وأن ينقل ما يرد منها إلى الإنجليزية ، وأن يرد على الشانئين والحاقدين على الدولة فيمود إلى عنت الخصومة وشغب الخلاف ...

أجل ، كيف آثر الشاعر على الخميلة قاعة الحكومة ؟

ذلك ما لا يسعنا إلا أن نحس حياله من العجب قدراً كبيراً

وكان ملتن يحس كما أسلفنا تضاؤل بصره ، ويشعر أن عليه إزاء ذلك أن يقصد كل القصد فى استعمال ناظريه ، وكان ذلك وحده كافياً فيما نرى لأن يرفض هذا المنصب الذى يتطلب طول النظر فى الرسائل ما يكتب منها وما يترجم ، وفى غيرها من الأوراق التى تحتاج فيها الحكومة إلى معونته ورأيه .

ولكنه كما رأينا قبل المنصب ، ويرى بعض المؤرخين أن قبوله إياه على شدة حنينه إلى الشعر وكثرة ما يهجس فى نفسه منه ، وحاجة ناظريه إلى الراحة ، هو ضرب جديد من التضحية أشبه بتضحيته الأولى حين هجر الشعر على رغمه سنة ١٦٤١ استجابة منه لداعى الحرية ، فقد كان يعتقد ملتن أن مساهمته ولو بقدر صغير فى بناء صرح الحكومة الجديد عمل ينطوى على معنى الوطنية ، وبخاصة أنه كان يؤمن يومئذ أن الحكومة الجديدة وقد جاءت نتيجة لذهاب الطغيان لا بد أن تظل نصيرة للحرية ، ولقد أشار إلى هذا المعنى بعد ذلك بقليل فى أحد كتيباته قائلا : إنه تقدم عن طيب خاطر ليخدم بلاده ، حينما طلب إليه ذلك القائمون على الأمر ، وأنه لم يطلب على ذلك أجراً . وحسبه من الأجر ارتياح ضميره ورضاؤه عن نفسه ، والحق أن المال لم يكن له دخل فى قبوله ذلك المنصب ، فإنه وإن كان ملتن فقيراً ، فقد كان القليل من المال حسبه لما تتطلبه أكلاف عيشه وهى يومئذ قليلة ، وكان لا يعوزه هذا المال القليل .

ونعتقد أن ملتن على حق فيما يعتل به من علة ، وليس يمنع هذا من أن نضيف إليها علة أخرى لهـا كما لهذه فى طبعه من الشواهد ما يكاد يؤكدها ، وتلك هى رغبته التى لازمته منذ صغره فى أن يكون عالى القدر ممتاز المكانة ، واختياره لهـذا المنصب يحقق له تلك الرغبة ، فضلا عما فيه من معنى الاعتراف له بالفضل وعلو المكانة فى مجال الأدب والمعرفة ، وكانت تطرب نفس كنفسه بلا ريب لأن يكون ذا صلة بتلك الشخصيات الكبيرة التى قضت بجهادها المرير على الاستبداد الذى يمقته أشد المقت ، لا عن ملق أو افتتان بذوى الجاه والمكانة كما يفعل صغار النفوس ، ولكن عن طموح وكبرياء ورغبة فى السمو ، وعن محبة وإعجاب بتلك الشخصيات لما تنطوى عليه محبته إياها من معان ، كما يفعل الأباة من أولى الفضل ...

وثمة رأى آخر يضاف إلى تلك الآراء ، وهو رأى « مارك باتيسون » أحد من أجادوا الكتابة عن ملتن ، ومؤداه أنه لا يبعد أن يكون ملتن قد رأى فى المنصب مجالا جديداً للازدياد من المعرفة والحكمة ، وهى مما يتطلبه الشعر من زاد ، فقد طالما رأيناه من قبل يعد بأن يتوفر على الشعر متى استكمل منه عدته ، وتم له ما يتوق إليه من نضج وخبرة بالحياة ، وعلى ذلك فلن تذهب تضحية بوقته وبصره هباء ، فلسوف تجدى عليه وثيق المعرفة بأحوال الناس وأمور الحياة !

(يتبع) الخفيف

حول الاتباعية والابتداعية

Classicism and Romamticism

للاستاذ فخرى قسطندى

— ٢ —

عرضنا فى مقال سابق للونين من ألوان الأدب، وضربين من ضروب الخلق الفنى هما الـكلاسيكية والرمانتيكية، وأبنا كيف اضطرب القول فيهما وتضارب الرأى فى مدلولاتهما ومعانيهما، ثم رجعنا بالذاكرة إلى القرن الثامن عشر، وألمعنا إلى اهتمام الأدباء الإنجليز بآثار الماضى التالدة، وإلى اشتغالهم بدراستها وتبيان محاسنها. تلمس ذلك فى أحاديثهم، وتستشفه فى كتاباتهم، وتطالعك به تواليفهم، حتى لقد يشتد بك العجب ويأخذ منك كل مأخذ، فأنت لا تقع على كاتب أو شاعر إلا وقد أغرق فى وصف هذه الآثار والأطلال والرسوم، وأمعن فى التعبير عن إعجابه بها، فهو مفتون بروعتها، مأخوذ بسحرها وجاذبيتها.

ولا عجب، فهذه أشياء كلها ذات طابع ابتداعى يزينها ويجملها تنفرد به ويختص بها. غير أنها ليست ذات طابع رومانتيكى فحسب، بل هى تتسم أيضاً بطابع قوطى، له ما للطابع الرومانتيكى من خصائص ومميزات، وبينه وبين الـكلاسيكية من بون شاسع واختلاف كبير كالاختلاف بين الرومانتيكية والـكلاسيكية. فهناك مقطوعات رومانتيكية أو قوطية، كما أن هناك مقطوعات كلاسيكية. وتكون المقابلة بين رومانتيكية هذه المقطوعة وبين كلاسيكية تلك. ولا أدل على ذلك أو أبلغ من قول هرد فى « رسائله عن الفروسية والرومانس أن منظومة الملكة الجنيــة Faerie Queene للشاعرة الإنجليزية الـكبيرة إدمند سبنسر Edmund Spenhcr منظومة قوطية، وليست كلاسيكية كما يزعم البعض.

ومن ثم فأنت ترى أن الطابع القوطى ينبىء عن عصور غابرة أزال الله من دولتها، فانطمس رسمها ودرس منها، هى العصور الوسطى، وأنت ترى أن مثله فى ذلك مثل الطابع الرومانتيكى تماماً. فهو يترامى مثله إلى أبعد غايات الشذوذ والاضطراب بدلا من التجانس والاتساق، وهو يمتاز بخيال مغرب يتنكب الطريق المطروق، فيحيد عن المألوف ويخرج على المعروف.

وما كان الأدب إلا شكلاً من أشكال الفن يقوَّم بما يقوم به الفن من معايير، ويقاس بما يقاس به، ويصدق على الفن ما يصدق عليه. والأدب شعر ونثر وما يتصل بالشعر والنثر من مبحث وموضوع، وأنماط وقوالب، وصيغ وتراكيب، وعبارات وألفاظ، وعرض وسياق، وحس وشعور. وهو إما أدب رومانتيكى قوطى يتصف بما تتصف به آثار العصور الوسطى، ويضرب شعره ونثره وما يتصل بهما بسهم وافر فى الشذوذ والاضطراب والإغراب فى الخيال. وهو إما أدب غير رومانتيكى قوطى، خلو من جميع الخصائص والصفات التى سبق ذكرها.

هذا ما كان من شأن الأدب، وهذا ما كان من شأن الرومانتيكية فى انجلترا فى القرن الثامن عشر. غير أن الدهر غير، فاهى إلا دورة من دورات الفلك حتى درست القوطية، واندثرت، واختفت من معاجم الأدب. وحان الحين للرومانتيكية أن تتربع وحدها على عرشها، وأن تصبح ذات الـكلمة النافذة والسلطة الأولى واليد الطولى فى الحكم على تواليف الأدباء. على أن الرومانتيكية لم تستقر طويلاً فى انجلترا، فما لبث أن ذاع صيتها واشتهر أمرها وترامى خبرها إلى فرنسا. فاستعملها روسو فى كتاباته، وكان استعماله لها بشيراً بازدياد سيرورتها واتساع انتشارها. فما هى إلا فترة أو بضع فترة حتى تلقفها الـكتاب الألمان، وعكفوا على درسها وشرحها، فاستوعبوها وفلسفوها وبينوا معالمها واختطوا لها الأصول والقواعد

ويعزو جيته إلى نفسه فضل إدخال هذه الـكلمة إلى ألمانيا، ونحن نشك فى هذا الفضل فقد يعزى إليه أو قد يعزى إلى غيره؛ ولـكن هـذا لا يعنينا فى هذا المقام، وإنما يعنينا أن نستقصى ما قاله، ونتعرف ما له من أثر. قال:

« إن فـكرة التفرقة بين الشعر الـكلاسيكى والشعر الرومانتيكى هذه التفرقة التى طبقت شهرتها الآفاق، والتى تثير من المنازعات والانقسامات الشىء الـكثير، ترجع فى الأصل إلى شيلر Schiller وإلىّ. فقد صغت فى عبارة موجزة طريقة معالجة الشعر معالجة موضوعية، وأنا آبى أن أتقى خطى أية طريقة أخرى، غير أن شيلر الذى يهتم بالناحية الذاتية يعد طريقته الطريقة الصحيحة. وقد اعتنق آل شليجل Schlegels هذه الفـكرة، ومن ثم فقد

انتشرت فى جميع أنحاء العالم، وكل فرد يتحدث الآن عن الكلاسيكية والرومانتيكية اللتين لم يطرقهما أحد بتفكيره منذ خمسين عاما ».

والواقع الذى لا مرية فيه أن چيته ساهم بنصيب موفور فى انتشار الرومانتيكية . وينعكس ذلك فى الكتاب الذى طلعت به مدام ستايل madame de Staël على جمهرة النقاد وعامة القراء وعنوانه « من الألمانية ، De L'allemagne » ، وأتت فيه على ذكر الرومانتيكية عند أدباء الألمان ، وما استأثرت به من عنايتهم الفائقة واهتمامهم البالغ . أما مدام دى ستايل فيقول عنها فيكتور هيجو فى مقدمته لديوان أشعاره Nouvelles Odes إنها أول من جرى لسانها بعبارة « الادب الرومانتيكي » فى فرنسا وكأن لفظة رومانتيكى سئمت حياة الترحال والتجوال ، وحنت إلى حياة الثبات والاستقرار ، فولت وجهها شطر وطنها الأصلى ، فعادت إلى انجلترا ، واطمأن بها المقام هناك ، وقد وضحت معالمها واستبانت خطوطها ، على نحو لا ترقى إليه شبهة بل ينهض عليه الدليل .

فبيرون يفهم من الرومانتيكية ما يفهمه جيته حين يقول — أى بيرون « إن شليجل ومدام دى ستايل حاولا جهدهما أن يلتزما فى تقسيم الشعر قسمين اثنين ، هما الكلاسيكى والرومانتيكى وسوف يكون من نتيجة ذلك مناقشات حامية » .

ومن عجب أن الرومانتيكية لم تصادف هوى فى نفوس أدباء الإنجليز ، فصدفوا عنها ولم يعنوا بها عناية غيرهم بها ، بالرغم من أنهم هم الذين ابتدعوها وابتكروها . فبينا نرى الرومانتيكية فى فرنسا وألمانيا قبلة أنظار الكتاب والشعراء ، ثم عنوانا لمدرسة من المدارس الأدبية ، نراها فى انجلترا محل استخفاف الأدباء الإنجليز واستهانتهم ، ومن ثم فقد أعوزها عندهم الدقة والوضوح . أما الفرنسيون فقد وضعوا الكتب والمؤلفات فى التعريف بها ، وبذلوا الجهد الجهيد فى تحديد مفهوماتها ومدلولاتها ، ولعل لبرنتير Brunetiere الفضل الأكبر فى إزالة ما يكتنفها من غموض وإبهام . أما الألمان فقد نسجوا حولها نظرية فلسفية أحكموا أطرافها فجاءت متلاحمة متواشجة ، يدفعهم إلى ذلك الجرى وراء المجردات ، والاندفاع وراء النظريات .

(للبحث بقية) فخرى قسطندى

٣ — من الأدب العربي :

الموت يتكلم . . . !

« ما الموت إلا تمام حد الانسان لأنه حي ناطق ميت ، فالموت تمامه وكماله ، وبه يصير إلى أفقه الأعلى ، فكيف إذن يجزع منه » (ابن مسكويه)

يامن يراع إذا تمثل صورتى فيم ارتياعك ؟
هون عليك ففى ابتعادك عن بنى الدنيا انتفاعك
لك ضجعة عندى تريحك هل سيؤذيك اضطِجاعُك

أولست من دنياك تسبح فى خضم هائل
يغتساك موج فوق موج تحت غيث هاطل
لم لا تسر إذا وصلت مبكراً للساحل ؟

أنا فى الحيــاة كمنجل فى كف حصاد بصير
أهوى على الذاوى فأقصيه عن الزهر النضير
لولا مبادرتى لضاق الروض بالعــدد الكثير

كم من مريض قد غزاه الدهر بالداء العياء
متململا يرجو الشفاء من الطبيب ولا شفاء
يممت منزله فكان له على يدى الدواء

سيزول عنك الجهد حين تنيه فى نوم عميق
ياطالما كانت تصادمك المآزق فى الطريق
فإذا انتصرت على مضيق زل نعلك فى مضيق

ماذا تركت على الحياة سوى جناة آثمين
كانت قلوبهمو تئز عليك بالحقد الدفين
قد بت مرتاحاً وباتوا — رغم بعدك — متعبين

تالله ما قصر تخــر لحسنه شم الجبــاه
قد حفه روض أنيق يمــلأ الدنيا شــذاه
أزكى تراباً من ضريح تاه فى جوف الفــلاه

تالله ما عرس تخف إلى سرادقه الجمــوع
نثرت بساحته الزهور وأوقدت فيــه الشموع
بأجل من نعش يسير على الـكواهل فى خشوع

تالله ما خمــل من الديباج تسبي الناظرين (١)
قد رصعت بقلادة من ســاطع الدر الثمين
أشهى لذى التفكير من كفن على ميت دفين

يارب ملتاع كئيب عــذبته يد القــدر
غمرته دنيــاه بمختلف الحوادث والغــير (٢)
وجد الحمــام يريحه ممــا يكابد فانتحر !

يامن يراع إذا تمثل صورتى فيم ارتياعك ؟
هون عليك ففى ابتعادك عن بنى الدنيا انتفاعك
لك ضجعة عندى تريحك هل سيؤذيك اضطِجاعُك

محمد رجب البيومى

من وحى المصيف . . .

أترع الـكأس من سلاف حلال ... وأرو قلباً قد أظمأته الليالى
غافل الدهر ساعة وتنقل ... بين ظل وكوثر سلسال
هــذه جنة دعوها مصيفاً ... أسكرت خافقى وأذكت خيالى
شادها الله كى نشاهد فيها ... لجنان الخلود خــير مثال
ولو أن الجنان كانت كهذى ... لـكفى صوغها بهذا الجمال

ها هو البحر فى لسانى أجاج ... وبقلبى مــذاقه كالزلال
صفحة تشبه السماء صفاء ... قد أضاءت بخرد كاللآلى
يحتضن الخضم وهو غضوب ... يرسل الموج عالياً كالجبال
فــتراه كعاشق قر عيناً ... بحبيب أمــده بالوصال
هادئاً يغمر الحسان بلثم ... وعناق يثير حقد الرجال

وبدا الشاطئ البديع كروض ... بورود من العرائس حال
ناعمات يوقظن كل فؤاد ... جالسات مع الهوى والدلال
خاطرات مثل النسيم رخاء ... مائسات فى فتنة واختيال
فوق صدر الرمال مستلقيات ... فارشنى الحسن ياشفاه الرمال

أحمد هيكل

(١) الخمل : القطيفة الناعمة
(٢) غير الدهر : مصائبه



إلى الأستاذ على العمارى [1]

إنه لا يزال فى الناس يا سيدى من يتهم المشايخ بالغلاظة والثقالة ، ولا يزال فى المشايخ من يقدم للناس أدلة هذا الإتهام مع أن العلماء كانوا هم أهل الظرف ، وكانوا بُرَءاء من هذه الصفات التى ينكرها الناس على (علمائنا) والتى جعلوا لها من إنكارهم إياها اسماً عَلَماً عليها هو (المشيخة ...) وما يريدون بها إلا الغلاظة ، كأن الرجل لا يكون شيخاً عالماً إلا بهذا الوقار البارد وهذا التزمت الفاسد ، وهذا الجد الكاذب ، والسبحة الطويلة والنصائح المتكلفة المكررة المملولة ، والأمر بالمعروف بغير الأسلوب المعروف ، والنهى عن المنكر بالطريق المنكر ، وإقامة القيامة على (الضعيف ...) يحلق لحيته ، أو يحرق دخينته ، أو يؤم المساء فى غير محرم قهوته ، ويسكتون عن منكرات الحكام ، وضلالات الأحكام ...

لذلك شكرت لك ما كتبت عن ظرف الفقهاء ، وما دفعت عنا (معشر المشايخ) من هذه التهمة (غير) الباطلة ، وجمعتُ طائفة صالحة من الأخبار المتفرقة فى كتب السيرة والتراجم ، وأسفار المحاضرات والأدب ، من ظرف العلماء من لدن سيد العالمين وإمام العالمين محمد صلى الله عليه إلى العصور المتأخرة لأهديها إليك ثم وجدت كتابين فى هذا الباب :

كتاب (الظراف والمتماجنين) لابن الجوزى وهو فى (١٠٦) صفحات وقد كان طبعه فى دمشق الأستاذ حسام الدين القدسى منذ ثمان عشرة سنة وكان شرفنى بكتابة مقدمة له ، هى من أوائل ما كتبت .

وكتاب (المراح فى المزاح) للبدر الغزى ، وهو أجمع لأخبار هـذا الباب ، وقد طبعه فى دمشق الأسـتاذ الأديب أحمد عبيد .

وبعد ، فلعلك يا سيدى تكتب أنت الفصل الجامع فى (ظرف الفقهاء) .

قرأت ما كتبت يا سيدى فى العدد (٦٨٧) فقل لى سألتك بالله ، أأنت تجد أم تهزل ؟ وهل تنقل هذا الهذيان عن أستاذ فى الجامعة أم عن حشاش فى القهوة ؟ وهل هذه هى دروس الجامعة التى نرسل أبناءنا إليها ليغترفوا من علوم أساتذتها ما يعودون به معلمين فى مدارسنا ؟ وهل هذا هو دين التجديد الذى بعث به نبى البلاغة فى آخر الزمان ؟ وإذا نحن احتملنا الركاكة والعجز أفنحتمل الكفر من هذا الشيخ الذى يقرر أن الله قال لمحمد (يا أخى أنت حارق نفسك ليه) ؟ لقد عرفنا من جعل لله صاحبة وولدا ولكنا لم نعرف قبل اليوم من جعل لله أخاً ، أفلا يرضى الشيخ إلا أن يكون مجدداً فى الشرك بالله — تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيراً ؟ ولا يعجبه إلا أن يفتح له إلى جهنم باب خاص ؟

وما ذا يقول صديقنا العميد الدكتور عزام وهو العالم البليغ المؤمن بهذا الجهل والعى والكفر ؟

أما أنا فأقول : أعيدوا أولادنا إلى باريز ليتعلموا فيها العربية كما كانوا ، فان الجهل الذى يعودون به من باريز ، أهون من الكفر الذى يرجعون به من الشيخ أمين الخولى .

على الطنطاوى

رأى فى مجلة الأزهر :

نرى الآن ، كما يرى المعنيون بالأزهر وإصلاحه ، بوادر نهضة توحى بها رياسته الجديدة وترعاها فى ثقة وهدوء ، وبعد عن الإعلان والادعاء . كما هى سجية المصلح المؤمن بفكرته والذى هو فى الوقت نفسه لا يتخذ من عمله وسيلة لمجده الشخصى .

و « مجلة الأزهر » ناحية من نواحى النشاط الأزهرى الذى شملته بوادر هذا الإصلاح الجديد ، فقد عرف أن نظاما جديداً وضع لإخراج هذه المجلة وأن لجنة يرأسها فضيلة الأستاذ الأكبر قد أقرت لائحة جديدة لها وأن هذه اللائحة تضمنت النص على أغراض المجلة وما يراد من إصدارها وكيف يمكن أن تكون حاملة لرسالة الأزهر والتعبير عنها أكمل تعبير ، وأن تشمل الاتجاهات الثقافية والإصلاحية للجامع الأزهر .

---

(١) كتبتها ونسيت أن أرسلها فلذلك تأخرت عن موعدها .

ونحن نرى أن مجلة الأزهر يجب أن يكون لها هدفان : —

الأول إبراز وتصوير نواحى النشاط المختلفة للأزهر وصلاته بالحياة العامة فى مصر والخارج وما يقوم به من المساهمة فى النشاط العلمى والثقافى والروحى ، وهذه النواحى الثلاث تشمل كما نعلم مصر والشرق العربى وسائر البلاد الإسلامية وكثيراً من بلاد العالم الأخرى .

لذلك نعتقد أنه من الواجب أن ينشأ فى المجلة قسم خاص بشؤون البلاد الإسلامية يترجم أو ينقل عن صحف هذه البلاد وينشر الجيد مما يكتبه أعضاء البعوث الإسلامية فى الأزهر عن بلادهم والاتجاهات الإصلاحية فيها ، ويكون له توجيه إيحائى إصلاحى يشعر بما للأزهر من حق التوجيه وما عليه من واجب الرعاية لكل ما فيه خير هذه البلاد الإسلامية كلها .

وفى السنوات العشر الأخيرة أرسل الأزهر طائفة من بعوثه ، بعضها إلى الهند لدعوة النبوذين وبعضها إلى الحبشة وإلى الصين ، وبعضها إلى مؤتمرات علمية ودينية فى كثير من بلاد الشرق والغرب . وللأزهر مبعوثون فى كثير من بلاد الشرق العربى وأفريقيا وله معهد فى لندن وبعوث فى جامعات انجلترا وفرنسا .

وهذه البعوث والمعاهد كلها وما قامت وتقوم به من عمل وما وضعته من تقارير ، وهؤلاء المبعوثون ما قاموا وما يقومون به من دراسات وأعمال كان ولا يزال من الممكن أن نجد فى مجلة الأزهر عن أعمالها وبأقلام رجالها البحوث الجيدة المفيدة الدالة على نشاط الأزهر وحيويته ومشاركته فى بعض مشاكل العالم الفكرية الكبرى وقيامه على إفادة المسلمين والراغبين فى هداية الإسلام وثقافته فى كثير من بقاع الأرض .

وبين الأزهر وكثير من الجامعات والهيئات الدينية والعلمية المختلفة كثير من الراسلات فى شؤون لها من الأهمية ومن العموم والاتصال بشؤون المسلمين وغيرهم ما يجعلها كبيرة القيمة والأثر إذا أبرزت إبرازاً صحفياً مفيداً لقراء مجلة الأزهر والمشتغلين بشؤون الشرق والإسلام .

ولست أقصد بهذا ما هو من الشؤون السرية فى هذه المراسلات أو ما ليست له صفة العموم .

هذه الصفحات من نشاط الأزهر وما يرد إليه من رسائل وما يسأل عنه من مسائل لنشرها وإبرازها فوائد أخرى لا تقل عن فائدتها الثقافية فى توجيه القراء والمشتغلين بهذه المسائل العامة ، هذه الفائدة هى إشعار الأزهريين بما لهم من الخطر والمكانة وما هم جديرون أن يهيئوا له أنفسهم من عمل وأن يشغلوا به قلوبهم وعقولهم وفراغهم من جد الأمور .

وهذا وحده كفيل بأن يشعرهم الكرامة لأنفسهم ومعهدهم وبأن يكون عاملا من العوامل المؤثرة فى حسن توجيههم وإعدادهم لما ينتظر الناس أن يقوموا به من المساهمة فى الخير العام لمصر والشرق والإسلام .

هذا وما يتصل به من إخراج الكتب العلمية والدينية إخراجاً علمياً ونقد المؤلفات العلمية نقداً علمياً أيضاً هو الهدف الأول مما اعتقده غرضاً لإخراج مجلة الأزهر .

أما الهدف الثانى فهو إبراز صورة من النشاط الداخلى للأزهر وأقصد بالنشاط الداخلى ما يقوم به الأساتذة والبرزون فى الطلبة من البحوث وما يضمه الأساتذة والطلبة والمتخرجون من الرسائل ذوات القيمة ، وما يبرزه هؤلاء وهؤلاء من المؤلفات أو ما يقومون لتحقيقه من النظريات العلمية أو الاجتهادات أو التحقيقات التاريخية .

هذا رأى أبديه بعد ما عرف أن لجنة يرأسها الشيخ الأكبر قد وضعت لها منهاجاً تسير عليه فى عهدها الجديد .

ولعل « الرسالة » — وعنايتها بالأزهر وبالثقافة الدينية مشهورة مشكورة — تستطيع فى عددها القادم أن تنشر على الناس شيئاً مما رأته هذه اللجنة فى إصلاح هذه المجلة فقد يجدون فيه ما يجعلهم يتوقعون أن يروا مجلة للأزهر جديرة بأن تحمل اسمه وتفصح عن رسالته .

ونحن نرجو « ونعتقد أن رجائنا سيكون أمراً واقعاً عما قريب » أن الأزهر فى عهده الجديد سيقوم بما أعتقد أنه واجبه الأول . وهو رعاية الحياة الدينية فى مصر وتوجيهها الوجهة الإصلاحية التى طال ترقب الناس لها والتى ظن كثير من المفكرين وأصحاب الرأى أن الأزهر قد تخلى عنها وأنه رضى لنفسه أن تكون حياته الحاضرة والمقبلة امتداداً لهذه الحياة التى عاشها قروناً طويلة ، هذه الحياة التقليدية البعيدة عن روح العلم والنقد والفهم الصحيح والتى هى بعيدة أيضاً عن مسايرة الحياة والناس والزمان.

ومجلة الأزهر على هذا يجب أن تكون ميداناً من ميادين هذا التوجيه الإصلاحى الجديد للحياة الدينية فى مصر والشرق .

محمود الشرقاوي



قدح من الشاي

للكاتبة الانجليزية كاترين مانسفيلد

[كاترين ما نسفلد كاتبة انجليزية ولدت فى نيوزيلندا فى سنة ١٨٩٠ ثم سافرت إلى لندن حيث تلقت تعليمها وأتمت ثقافتها ثم بدأت حياتها الأدبية إلى أن ماتت فى ١٩٢٣ .

واشتهرت الكاتبة بقصصها التى تعنى فيها بتحليل الشخصيات تحليلا قليلا دقيقاً فى أسلوب لا يعرف الرحمة ولا الرأفة وإن كان يجمع فى ظاهره بين الرقة والتهكم وبين العذوبة والمرارة

وفى هذه القصة تحليل الكاتبة لشخصية امرأة يتملكها الغرور وتتحكم فيها الغيرة حاولت القيام بمغامرة تظهر فيها بالكرم والعطف والحنان حتى تعارضت هذه الصفات الأخيرة مع غرورها وغيرتها فأقلعت عن مغامراتها وارتدت إلى طبيعتها الأصلية] .

لم تكن روزمارى جميلة كل الجمال ، فلا تستطيع أن تعدها جميلة . قد تكون حلوة إذا فحصتها قطعة قطعة ... ولكن لما ذا تبلغ قسوتك إلى حد تقطيعها إربا ؟ فقد كانت فى ميعة الصبا ، ذكية ، مطلعة ، عصرية ، أنيقة . وكانت حفلاتها ألذ مزيج من أبرز الشخصيات ... والفنانين — مخلوقات نادرة اكتشفتها بنفسها ...

وكانت روزمارى متزوجة من رجل يحبها حباً شديداً ؛ وكان الزوجان غنيين كل الغنى ؛ فإذا أرادت روزمارى أن تبتاع شيئا ذهبت إلى باريس كما تذهب أنت وأنا إلى شارع بوند ، وإذا أرادت أن تشترى بعض الأزهار وقفت بها السيارة أمام أفخم المحال فى شارع ريجنت ، وقالت روزمارى وهى فى المحل بطريقتها المدهشة « أريد هذه المجموعة وهذه وهذه ، وأعطنى أربع باقات من هذا النوع وأصيص الورد ذاك ... نعم سآخذ كل ما فيها . لا ... دع النرجس فمنظره لا يروقنى » .

فيحنى العامل رأسه ويخفى النرجس عن النظر كما لو كان ماقالت عنه هو الحقيقة . ثم تتبعها إلى السيارة عاملة نحيلة تترنح بما على ذراعيها من باقة بيضاء تشبه طفلا فى ملابسه الطويلة

ذهبت روزمارى فى يوم من أيام الشتاء الشرامشى ، من محل تحف أثرية وكان يعجبها ذلك المحل لمبالغة صاحبه فى التلطف فى خدمتها ، فكان يشرق وجهه عند دخولها ويقبض يديه ويكاد لا ينطق من فرط احترامه لها وإعجابه بها . وكل هذا تملق طبعا .

وبدأ الرجل كعادته يشرح لها بصوت كله هدوء ، وحركات كلها احترام « إنى أعتز بتحفى فأفضل ألا أبيعها أبدا على أن أبيعها لشخص لا يقدرها حق قدرها أو لشخص يفتقر إلى حاسة تذوق الجمال » ثم تنهد وأخرج علبة من القطيفة الزرقاء ووضعها على المائدة الزجاجية بأطراف أصابعه الشاحبة .

وما كان ليحتفظ لها بهذه العلبة الصغيرة التى لم يعرضها على أحد قبلها إلا لندرتها ودقة صنعها وبهاء صقلها .

وأخرجت روزمارى يديها من القفاز الطويل لتفحص هذه العلبة التى أعجبت بها وأحبتها وصممت على اقتنائها ثم لاحظت جمال يديها على القطيفة الزرقاء وهى تفتح العلبة وتقفلها . وربما جرؤ البائع أن يلحظ هذه اللاحظة عينها فى نفسه لأنه تناول قلما وانحنى على المائدة وزحفت أصابعه الشاحبة إلى تلك الأصابع الوردية المتوهجة وقال بلطف « لو سمحت لى سيدتى أن أريها الأزهار على غطاء العلبة » .

فأبدت روزمارى إعجابها بالأزهار وتساءلت عن الثمن . بيد أن البائع لم يسمعها فى اللحظة الأولى . وأخيرا طرق سمعها « ٢٨ جنيهاً يا سيدتى » .

« ٢٨ جنيها ؟ » لم تنبس روزمارى ببنت شفة ووضعت العلبة ولبست قفازها « ٢٨ جنيهاً » حتى إذا كان المرء غنيا ؟ ... واضطربت روزمارى وحملقت فى أبريق شاى ضخم يعلو رأس الرجل وأجابت بصوت حالم « حسنا ، أيمكنك أن تحتفظ بها لى ؟ — سوف ... » .

ولكن البائع انحنى كما لو كان احتفاظه بها لها واجبا معروفا

وخرجت روزمارى وأوصدت وراءها الباب وتأملت فى الجو الممطر ، وكان المطر يتساقط رذاذا وبدأ الظلام يخيم على الدنيا كالرماد المتهاوى ، واشتد البرد وبدت المصابيح المضاءة حزينة

وكانت الأنوار فى المنازل المقابلة معتمة تحترق كأنها تتحسر على فقد شىء، وكان الناس يتعجلون السير وقد شرعوا مظلاتهم .

وشعرت روزمارى بألم غريب وضغطت بقفازها على صدرها وتمنت لو أن العلبة الصغيرة كانت معها لتتعلق بها أيضا . ثم نظرت إلى سيارتها التى كانت تنتظرها فى الشارع وفكرت فى الذهاب إلى المنزل لتناول الشاى .

ولكن فى لحظة تفكيرها فى ذلك جاءتها من حيث لا تدرى فتاة نحيلة قاتمة اللون وقفت قرب مرفقها وصدر منها صوت أقرب إلى الأنين منه إلى التنهد « أيمكننى أن أتحدث إليك لحظة يا سيدتى ؟ »

قالت روزومارى « تتحدثين إلى أنا ؟ » والتفتت لترى مخلوقا صغيرا مهدوما ذا عينين جاحظتين تتعلق يداه المحمرتان بياقة معطفها ويرتعش كما لو كان قد خرج توا من الماء .

تلجلج الصوت وقال « سيدتى ! أسألك ثمن قدح من الشاى » .

« قدح من الشاى ؟ » ولما كان فى ذلك الصوت بساطة وإخلاص لا يجتمعان فى صوت شحاذ سألتها روزمارى « إذن ليس معك نقود أبدا ؟ »

« أبداً ياسيدتى » .

« ياللعجب » وتنهدت روزمارى وتطلعت إلى الظلام وحملقت الفتاة فى وجهها .

وفجأة تصورت روزمارى مغامرة أوحت إليها بها هذه المقابلة فى الظلام تشبه شيئا من رواية للكاتب العظيم دستوفسكى . لتفرض أنها صحبت هذه الفتاة إلى منزلها ؟ ماذا كان يحدث لو أنها عملت شيئا مما طالما طالعته فى الكتب ورأته على المسرح ؟ سوف يكون شيئاً رائعاً ... ثم خطت روزمارى إلى الأمام وقالت للفتاة « تعالى إلى منزلى لتتناولى الشاى معى » .

فصعقت الفتاة لهذا العرض المدهش وارتعشت من شدة الاضطراب فمدت روزمارى يدها ولمست ذراعها وقالت وهى تبتسم « إنى أعنى ما أقول » وشعرت بمبلغ بساطة ابتسامتها ورقتها فأضافت « ولم لا ؟ افعلى . تعالى معى فى سيارتى » .

أجابت الفتاة بصوت مفعم بالألم والحزن : « إنك لا تعنين ما تقولين يا سيدتى » .

فصاحت روزمارى : « ولكنى جادة فأنا أريدك أن تفعلى أرجوك أن تأتى معى » .

وضعت الفتاة أصابعها على شفتيها وأنعمت النظر فى روزمارى وتساءلت بصوت متلجلج « أتأخذيننى للبوليس ؟ »

« البوليس ! ... ولما ذا تبلغ قسوتى هذا الحد ؟ لا ، لا . فكل ما أريد هو أن أدفئك وأسمع منك أى شىء يهمك أن تقصيه على » .

ولما كان من السهل قيادة الجياع تبعت الفتاة روزمارى إلى سيارتها .

وامتلأت روزمارى بشعور النصر وكادت تقول « الآن ظفرت بك » وهى تحملق فى الأسيرة الصغيرة . ولكن ذلك لم يجردها من رقة شعورها وعطفها بل أرادت أن تثبت لهذه الفتاة أن أشياء عجيبة قد تحدث فى الحياة وأن للأغنياء قلوبا وأن النساء أخوات .

ثم التفتت روزمارى مهتاجة قائلة « لا تخافى ولم لا تجيئين معى ؟ أنا امرأة مثلك وإن كنت أنا أيسر منك حالا . فعليك أن تنتظرى منى ... »

وفى تلك اللحظة وقفت السيارة لحسن حظها لأنها لم تعرف كيف تنهى هذه الجملة . ثم دق الجرس وفتح الباب ودفعت روزمارى الفتاة إلى داخل الصالة بحركة لطيفة تكاد تكون عناقا وهى تقول :

« تعالى إلى الطابق الثانى . تعالى إلى غرفتى » وأرادت أن تحمى هذا المخلوق من نظرات الخدم فصممت وهما تصعدان الدرج على ألا تدق الجرس لخادمتها چان وعلى أن تخلع ملابسها بنفسها.

صاحت روزمارى عندما وصلا إلى غرفة نومها الجميلة بستائرها المسدلة ووسائدها المذهبة ونمارقها الزرقاء والنار تفىء ما حولها من أثاث فخم والأزهار تملأ الغرفة عبيراً حلوا : ها نحن هاتان !

لم تعبأ روزمارى بوقوف الفتاة مذهولة على الباب وجرت مقعدها المريح نحو النار وصاحت « تعالى اجلسى على هذا المقعد المريح . تعالى ليدب الدفء إلى جسمك فيبدو عليك أنك تنوئين تحت وطأة البرد » .

قالت الفتاة وهى تتراجع إلى الوراء « أنا لا أجرؤ يا سيدتى »

فتقدمت روزومارى إلى الأمام وقالت : « أرجوك يجب ألا تخافى اجلسى . وعند ما أنتهى من خلع ملابسى سننتقل إلى الغرفة المجاورة لنحتسى الشاى . مم تخافين ؟ » ودفعت الهيكل النحيل فى مهده العميق .

ولم يصدر من الفتاة جواب ، بل بقيت كما أجلست ، يداها إلى جانبيها وفمها مفتوح قليلا ، وإذا شئنا الإخلاص فى الوصف قلنا إنها بدت غبية . ولكن روزمارى لم تعترف بذلك وانحنت عليها قائلة « ألا تخلعين قبعتك ؟ إن شعرك الجميل مبلل ويحس المرء كثيراً من الراحة وهو عارى الرأس ... أليس كذلك » .

تخلعت الفتاة القبعة البالية وهى تقول همساً : « حسناً ياسيدتى »

فقالت روزمارى : « دعينى أساعدك على خلع معطفك عنك أيضاً »

فوقفت الفتاة ولكنها أمسكت المقعد بإحدى يديها وتركت روزمارى تنزع عنها المعطف ؛ ولكنها تذكرت أنه إذا رام الناس العون فعليهم أن يضحوا ولو قليلا وإلا تعذر العون فى الحقيقة . وماذا كانت تفعل بالمعطف الآن ؟ تركته على الأرض مع القبعة .

ولما همت بتناول سيجارة من علبتها المعدنية قالت الفتاة بسرعة ولكن بخفة وغرابة « معذرة يا سيدتى ، لا سيغشى على سأموت إن لم آخذ شيئاً ياسيدتى »

« يالله ! كم أنا طائشة » وأسرعت نحو الجرس « شاى ! شاى بسرعة ! وقليل من الكنياك فى الحال »

وكانت الخادمة قد مضت ولكن الفتاة كادت تصيح « لا ، لا أريد خمراً فأنا لا أشربها أبداً . إنه قدح من الشاى الذى أريد ياسيدتى » ثم انفجرت فى البكاء .

كانت لحظة مؤلمة ساحرة . جثت روزمارى بجانب مقعدها وقالت « لا تبك أيها الشىء الصغير الضعيف . لا تبك » وقدمت إليها منديلها الحريرى ولفت ذراعها حول تلك الأكتاف العصفورية النحيلة .

وأخيراً نسيت الفتاة الخجل ، نسيت كل شىء إلا أن كلتيهما امرأة فقالت « لا أستطيع الاستمرار على هذه الحال . لا أحتمل . سأموت جوعاً »

« لن تموتى جوعاً فسأعنى بك . لا تبكى . ألا ترين كم كان جميلا أنك قابلتينى . سنحتسى الشاى معاً وستخبريننى بكل شىء وأعدك أن أدبر لك أمرك أرجو أن تكفى عن البكاء لأنه شىء مضن »

وكفت عن البكاء عندما وقفت روزمارى قبل حضور الشاى لتضع المنضدة بينهما . ثم زودت المخلوق الصغير الضعيف بكل شىء ، جميع أنواع الشطائر والخبز والزبد ، ولما فرغ قدحها ملأته لها بالشاى والحليب والسكر فطالما قال الناس إن السكر منعش جداً . أما روزمارى نفسها فلم تأكل بل كانت تدخن وتنظر للخارج عمداً حتى لا تخجل الأخرى .

وفى الحقيقة كان مفعول تلك الأكلة الخفيفة عجيباً . فلما حملت منضدة الشاى خارجاً كان يتمدد على المقعد إنسان جديد ، مخلوق خفيف ضعيف ذو شعر مجعد وشفاه قاتمة وعيون غائرة مضيئة ، كان يتمدد هذا المخلوق فى نوع من الاسترخاء الحلو ناظراً إلى اللهب متأملا فيه .

وأشعلت روزمارى سيجارة جديدة وبدأت حديثها بكل لطف « ومتى تناولت آخر أكلة ؟ » ولكن فى تلك اللحظة تحرك مقبض الباب وسمع صوت من الخارج « روزمارى ! أيمكننى الدخول ؟ » كان هذا زوجها فيليب .

أجابت روزمارى « طبعاً »

دخل فيليب ووقف محملقاً بضع لحظات ثم قال « إنى آسف لأزعاجكما »

« لا داعى للأسف فكل شىء على ما يرام « هذه صديقتى الآنسة ... »

« سميث ، ياسيدتى »

قالت روزمارى « سميث وسنتجاذب أطراف الحديث لمدة قصيرة »

قال فيليب « حسنا » ، ولمح بصره المعطف والقبعة على الأرض ، ثم اتجه نحو النار وأدار ظهره إليها « إنه مساء كئيب »

قال ذلك بغرابة مصوباً نظره نحو الشبح المتغافل ثم أنحو روزماری ثانية .

فقالت روزماری بلهجة غير عادية « نعم . أليس كذلك ؟ »

فابتسم فيليب ابتسامته الساحرة الساخرة وقال لزوجته « فى الحقيقة أود أن تجيئى إلى المكتبة لحظة . هل تسمح لنا الآنسة سميث ؟ »

فحدقت العينان الكبيرتان الناثرتان فى فيليب ولكن روزماری أسرعت وأجابت عنها قائلة « طبعاً تسمح » ثم خرجا من الغرفة معاً .

ولما انفردا قال فيليب « وضحى لى من هى ، وما معنى كل هذا ؟ »

فاستندت روزماری إلى الباب وهى تضحك قائلة « التقطتها من الشارع . سألتنى ثمن قدح من الشاى فأحضرتها معى إلى هنا » .

فصاح فيليب « ولكن بالله عليك ما ذا أنت فاعلة بها ؟ »

فقالت « كن لطيفاً معها » كن رقيقاً إلى أقصى حد ... اعتن بها لا أعرف كيف ... لم نتحدث بعد ... لم نتحدث بعد .. ولكن أظهر لها — عاملها — اجعلها تشعر — »

أجاب فيليب « ياطفلتى العزيزة ! أتعرفين أنك مجنونة تماماً ! إن هذا الذى تطلبين شىء يستحيل عمله »

فأجابت روزماری « كنت على يقين من أنك ستقول ذلك ولكن لم لا ؟ إنى أريدك أن تعمله ؟ أليس هذا سبباً ؟ وعلاوة على ذلك يقرأ المرء دائماً عن هذه الأشياء فصممت — »

فقال فيليب ببطء وهو يقطع طرف سيجاره « إنها حلوة للغاية »

« حلوة ؟ » ودهشت بل حنقت روزماری لدرجة أن وجهها احمر وقالت « أتظن ذلك ؟ أنا — أنا لم أفكر فى ذلك »

فأشعل فيليب ثقاب كبريت وقال « إنها رائعة الجمال . انظرى ثانياً ياطفلتى لقد اهتزت مشاعرى لما دخلت حجرتك الآن . وعلى كل حال ... أظنك تخطئين خطأ كبيراً . إنى آسف ياعزيزتى إن كنت أبدو وقحاً أو ما شابه ذلك ولكن عرفينى هل ستتناول الآنسة سميث طعام العشاء معنا فى أثناء مطالعتى جريدة المساء ؟ »

قالت روزماری « يالك من مخلوق ماجن عابث ! » وخرجت من المكتبة ولكن لم تعد إلى حجرة نومها بل ذهبت إلى مكتبها . وهى تردد : « حلوة ! رائعة الجمال ! اهتزت مشاعرى ! حلوة ! جميلة ! »

أخرجت روزماری دفتر شيكاتها ، وغنى عن القول أنه لا قيمة للشيكات فى هذه الحال . ففتحت درجاً وأخذت خمسة جنيهات ونظرت إليها وردت منها اثنين ثم رجعت إلى غرفة نومها ممسكة بالثلاثة الباقية فى يدها .

وبعد نصف ساعة كان فيليب لا يزال فى المكتبة لما دخلت روزماری وهى تقول وقد استندت إلى الباب ثانية ونظرت إليه بتفرسها الدهش المصطنع : « إن الآنسة سميث لن تتناول طعام العشاء معنا هذا المساء »

فوضع فيليب الجريدة جانباً وقال « آه ! ما الذى حدث ؟ موعد سابق ؟ »

فجاءت روزماری وجلست على ركبتيه وقالت « أصرت على الذهاب فأعطيتها منحة مالية . لم أستطع أن أبقيها برغم إرادتها » ثم أضافت بلين « أ كنت أستطيع أن أفعل »

وكانت روزماری قد سوت شعرها تواً وكحلت عينيها قليلاً وتحلت بجواهرها فبدت رائعة الجمال عندما رفعت يديها ولمست خدود فيليب وقالت « أتحبنى ؟ »

فأعجبته نغمتها الحلوة ولكن أزعجه صوتها الأجش فقال « أحبك حباً عنيفاً » وضمها إلى صدره « قبلينى يا روزماری »

ثم سادت جو الحجرة فترة سكون قطعتها روزماری بصوت حالم « رأيت علبة صغيرة فاتنة اليوم ثمنها ٢٨ جنيهاً أأستطيع شراءها ؟ »

فأجابها فيليب « تستطيعين أيتها الصغيرة البذرة »

ولكن لم يكن ذلك ما أرادت أن تقوله روزماری فى الحقيقة فإنها همست فى أذن زوجها وضمت رأسه إلى صدرها وقالت « هل أنا جميلة يا فيليب ؟ »

بولس عبد الملك

بمعهد الصحافة بالجامعة الأميركية

[طبعت بدار الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين]

العدد ٦٩٠ – الاثنين ٢٣ سبتمبر ١٩٤٦ – السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

٢٧٠٢٥

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

دار الفكر العربى

أصدرت للأستاذ سامى الدروبى :

١ - الأخلاق

بلا إلزام ولا جزاء

للفيلسوف الفرنسى : هـ . جويو

فكر فيلسوف ، فى روح شاعر وأسلوب فنان

الثمن ٣٥ قرشاً

٢ - الطاقة الروحية

للفيلسوف الفرنسى : هنرى برجسون

الاتجاه الفلسفى الجديد الذى فضح تناقضات المذاهب المادية وأبان عجزها عن تفسير الظاهرات النفسية وأقام أجمل بنيان للفلسفة الروحية .

الثمن ٣٢ قرشاً

٣ - الأزهر

للأستاذين

عبد الحميد يونس . عثمان توفيق

الثمن ١٨ قرشاً

تطلب هذه الكتب من مكتبات : النهضة المصرية بعدلى باشا ، الأنجلو بقصر النيل ، الخانجى بعبد العزيز ، دار الكتب بالأوبرا ، نهضة مصر ، مصر والهلال والشرق بالفجالة ، الجيزة الحديثة بالجيزة ، كرارة بالسيدة ، الآداب بالجاميز ، الجامعة بشارع محمد على ، ومن مكتبة المعارف بالاسكندرية .

ظهر اليوم :

قصة الذرة

للأستاذ

فوزى الشتوى

* الانقلاب الذرى وأثره فى الآداب والعلوم . . .
* إنسان المستقبل يشتغل ٢½ ثانية فى السنة . . .
* أسلوب قصصى يفسر الذرة ونظرياتها . .

٤٠ صورة ورسماً وثمنه ٢٠ ص

يطلب من المؤلف بنقابة الصحفيين بشارع قصر النيل بالقاهرة . ومن لجنة القاهرة للتأليف

ظهر أخيراً

الكتاب الذى يجب أن يقتنيه كل عربى أو مهتم بالقضية العربية

يقظة العرب

* ألفه بالإنجليزية جورج أنطونيوس ، وعربه على حيدر الركابى ، وقدمه الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام باشا
* يقع فى ٧٦٠ صفحة . طبع على ورق جيد ، وبه خرائط ملونة
* خير عرض لتاريخ القضية العربية الحديثة
* يباع بمكتبة مصطفى البابى الحلبى وأولاده صندوق بوستة الغورية ٧١ بمصر تليفون ٥١٣٣٢
* سعر الكتاب ١٠٠ ص عدا أجرة البريد

14 me Année No. 690

Lundi—23—9—1946

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٩٠ «القاهرة في يوم الإثنين ٢٧ شوال سنة ١٣٦٥ — ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٦» السنة الرابعة عشرة

أجل يا صديقي، ضغط الدم!

أجاوبك يا صديقي عباس على بُعد صفحات في الرسالة[١]، كما تتجاوب حمامتان كسيرتان على بُعد شجرات في الحديقة. أنا أيضاً ضحية هذا القياس الحديث لضغط الدم! كنت من قبل أحمد الله على دوام الصحة، وأغبط نفسي على فراغ البال؛ فإذا مسني الضر لسبب من أسبابه المألوفة، احتملته راضياً لأنه التغير الذي يدفع من سأم العيش، والتنوع الذي يزيد في جمال العافية. فلما كتب الأطباء عن ضغط الدم وأعراضه، وتحدث الناس عن آثاره وأمراضه، تلمست شواهده في جسدي، فإذا صوت يشبه (الوشّ) في رأسي، وحركة تشبه الاختلاج في صدري، فزرت الطبيب المختص؛ فظل وقتين طويلين في يومين متعاقبين، يجس بيده، ويقيس بمقياسه، ويصور بآلته، ويدون في مذكرته، وأنا في كل ساعة من ساعات هذين اليومين أذوب ولا أثوب، وأنظر ولا أرى، وأسمع ولا أعي، وأتوهم ولا أفهم، حتى قرر الدكتور أن أعضائي الرئيسية صحيحة، ولكن عندي ارتفاعاً في الضغط يَخشى إذا أهملته أن يصبح خطراً لا حيلة فيه. ثم نظَّم لي الغذاء ووصف الدواء ونصح لي أن أزوره الحين بعد الحين.

وهكذا خرجت يا صديقي من عيادة النطاسي الكبير وأنا نوع آخر من الخَلق، فيه الروح وليس فيه الحياة، وعنده الهم وليس عنده الأمل! أصبحت منذ ذلك اليوم كريض (موليير)، أتوهم أن في كل أكلة أو حركة أو فكرة ضغطاً على الضغط يشده ويوتره، وأتخيل أني (كبالون) الأطفال المنفوخ أخف صدمة تفجرهُ وتدمره. فأنا آخذ نفسي أخذاً شديداً بالجوع والظمأ والحرمان والتبلد والركود، فلا أطعم ما أشتهي، ولا أنعم بما ألذّ، ولا أنفعل لسرور ولا حزن، ولا أشتغل بفعل ولا فكر، ثم أُهرَع كل أسبوع إلى المقياس المَخُوف فأجده ثابتاً على رقم الخطر لا ينخفض ولا يتذبذب! فأسأل عن علة ثبوته على قلة قوته، فأعلم أن أشد ما يغذي الضغط ويقويه، إنما هو الاكتراث له والتفكير فيه. وهل يستطيع المحكوم عليه ألا ينظر إلى السيف وهو مُصْلَتٌ فوق رأسه، أو يملك المسموم ألا يفكر في الموت وهو يتغلغل في طوايا نفسه؟

الحق يا صديقي أن العيش على هذه الحال جحيم، وأن الله الذي أخفى الأجل عن عباده رءوف رحيم، فلو كان للأجل مقياس كمقياس الضغط لجعل حياة الإنسان همًّا دائماً يُمِر حلاوة الدنيا، ويُذوي خضرة الأمل، ويزهق روح السعي، ويذهب جمال الوجود.

فليت الأطباء يخفون هـذا الداء ما داموا لا يملكون له السلامة، ويدَعوننا نفعل به فعل الآباء نكفكف غلواءه بالفصد والحجامة!

احمد حسن الزيات

(١) اقرأ مقاله (أنا وضغط الدم) في هذا العدد ص ١٠٥١

« نعم » أومن بالانسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

هل يستطيع صديق الأستاذ الطنطاوى أن يحصر الجدل فى هذه الصخرة الراكزة التى يخيل إلىّ أنى وضعت عليها الفلسفة الإثباتية واليقين الدينى ، وقيمة العلم والحضارة حين اهتديت إلى ما زعمته القضية الفكرية الأولى ، وهى الملخصة فى هذه الجملة :

« أومن بالإنسان لأومن بالكون ورب الكون ، فلن يؤمن الفرد الإنسانى بهما إن لم يؤمن أولا بنوعه ، لأن عقل النوع هو المنظار الذى ندركهما به ، فإن أهدرنا قيمة الإنسان أهدرنا عقله وروحه ، فلا يبقى لنا ما ندرك به كوننا وربنا ! ! »

ولو وقف صديقى أمام هذه القضية التى هى كما قلت « أشبه ما تكون بمعادلة رياضية » لعرف أى نظرة جديدة إلى الكون تتراءى من خلال هذه الفكرة ، وأى أفق رحيب يتفتح للنفس البشرية من ورائها ، وأى توفيق لطريق حل مشكلات العيش والفكر يتراءى منها !

وقد زعمت أنى اهتديت إلى القضية الفكرية والدينية الأولى حين أقرر هذه القضية ، فإن لم أكن سبقتُ إلى الاهتداء إليها ، فهذا الزعم صحيح ، ونعم هو من توفيق يحمد الله عليه أجل الحمد .

وقد قلت فى مقدمة الكتاب : « وأكاد أرى أن الموقف الفكرى فى هذه القضية يسبق موقف (ديكارت) حين أثبت « وجود الذات المفكرة » ، واتخذه أساساً بنى عليه فلسفته الإثباتية ؛ إذ أنه من أين لديكارت أن يثبت أن لتلك الذات قيمة واعتباراً ، وأن لما ينتج منها من الفكر قيمة واعتباراً إن لم يثبتهما أولا للنوع الذى تنتسب إليه هذه الذات ، ليكون لما يصدر عن أفراد ذلك النوع تلك القيمة وذلك الاعتبار ؟

فالموقف الطبيعى الأول هو أن نرصد أولا هذا النوع الإنسانى كله بعين غريبة عنه ، مفارقة وجودَه ، لنثبت له مكانته الخاصة فى الكون ، وخصوصاً بعد أن وصل فكره وجهده أخيراً إلى أن يكون عاملا عظيما من عوامل الحكم والتكوين والتخريب فى الطبيعة ، ثم تأتى بعد ذلك جميع مواقف الإثبات واليقين » .

والطفل فى نشأته الأولى يدرك الكون والناس إدراكا فكرياً قبل إدراك نفسه وأعماقها ، فينبغى مسايرة للنشأة الطبيعية أن لا نحاول إثبات « الذات المفكرة » كما فعل ديكارت إلا بعد أن نثبت « النوع » الذى نراه وندركه قبل أن نراها ، بل نحن لا نستطيع أن ندركها إلا فى مرآة النوع ومواريثه . والفرد من غير النوع لا يستطيع أن يدرك شيئاً من مواريث جنسه ؛ ويكون كذلك « الإنسان النزال » ، أو « الإنسان القرد » ، أو « الإنسان الذئب » ، الذى يتحدث عنه الناس !

هذه هى القضية فى سمائها العالية ، وهى تحتاج إلى جناح قوى للتحليق وراءها ، وتحتاج — كما قلت — إلى نظرة المفارق لنفسه ونوعه ، الخارج بالفكر والخيال عن حدود وجوده ، الراصد لنوعه رصد الملأ الأعلى ممن هم فوق الإنسان والملأ الأدنى مما هن دونه ! !

***

ولم يدر صديقى الطنطاوى أن أولى الناس بالفرح والتأييد لهذه القضية هم أمثاله من الدينيين الذين تهفو حياة قلوبهم إلى الإثبات واليقين ، ويرون الكون لا معنى له إن لم يكن قائماً على قِيم ثابتة تعتمد على منطق الطبع ومنطق العقل ومنطق العمل .

والقضية مسوقة للرد أولا على الماديين الذين لا يعترفون بقيم ثابتة للوجود ، و (الدرْونيين) الذين يقررون أن الإنسان ما هو إلا قرد نهض على قدميه وثرثر بلسانه وفرح بما ثرثر ، وخلق لنفسه آلهة ، ووضع مقاييس وموازين لخيره وشره ، وزعم أنها موضوعة من « عقل » الكون ، ويقررون أن عقل الإنسان ودينه وعلمه ، إنما هى كالإفرازات المادية للكبد والمعدة وغدد السموم فى العقارب والحيات ، وأن ما يزعمه من قيم للأمور إنما هى أعاليل يعلل بها نفسه ليخدعها ، وليس بينه وبين « عقل » الوجود — إن اعترفوا به — صلة ، وإنما بينهما هوة لا يستطاع عبورها ، وأن موازين « الخير » والشر عنده مسائل اعتبارية ، وليس هناك وحى ولا نبوة ، وأن ما بين الناس لا يزيد على ما بين النحل والنمل والبقر والبراغيث والبعوض — كما قال ذلك فى الرد

عليّ في هذه المجلة صديقي الأستاذ زكي نجيب محمود في سنة ١٩٤١ — وأن حياة أفراد الإنسانية إلى عدم لا رجعة بعده ، كحياة مليارات أوراق النبات وأهراء الحبوب ، وملايين الحشرات تأتي بها دورات وتذهب دورات أبدية من غير رجعة إلى مصير أكل — كما قال ذلك كاتب متدين صوفي باحث كتب إلى من بيروت يطرح أمامي هموماً ذهنية وشكوكا لحقته —

أفتراني يا صديقي حينما أفتش في رحاب الكون والنفس عن فكرة جديدة أقذف بها على باطل القوم ، أنتزعها من قوى الإنسان الفكرية والابتداعية النامية المنمّية التي جعلت الإنسان في مصاف آلهة القدماء في التكوين والتخريب والتسخير لقوى عظيمة جبارة هائلة كالكهرباء والقوى الذرية والمواد العمياء وتقريب الأبعاد وكشف المستورات في خبايا الكون والتغلب على كثير من الآفات ... أفتراني حينما أفعل ذلك أكون قد خالفت رأى القرآن في الإنسان ؟ !

إن الماديين يهدرون الإنسانية كلها وما أتى عن طريقها من دين وعلم ووحى أنزل على محمد وسابقيه من الرسل . فليس القرآن بشيء في ميزانهم ، وليس محمد وجميع الرسل في رأيهم سوى أفراد من تلك الإنسانية الفردية التي تلغو وتزعم أن للغوها قيمة .

أفتساق الحجة لأمثال هؤلاء من القرآن أو التوراة أو الإنجيل وهم لا يعترفون بها ولا بمن نزلت عليهم ولا بالنوع الذى ينتسب إليه من نزلت عليهم ؟ أم الأولى أن تساق الحجة إلى هؤلاء من رحاب الفكر والكون الواسعة بمنطق هذا الزمان ما دامت آيات الله في الآفاق والأنفس دائماً تسعف الذين يخلصون لله ويخلصون الفكر في الكون ؟ !

إن الفكر الديني آفته أنه يخاف غالباً اجتياز الحدود المورونة ولو أيقن أن وراءها مصلحة محققة ، لأنه فكر يغلب عليه الاتباع لا الابتداع ، وربما يكون ذلك مقبولا ما دامت طمأنينة النفس وسكينتها موفورة ، ولكن أعتقد أن واجبه أن يأخذ الحجة حيثما وجدت ما دامت تسعف في إقناع المعارض أو إلزامه .

***

ثم إني أسأل صديقي بدوري كما سألني : كلام مَنْ يا أخي الذي يقول : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » ، « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ؛ « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » ؛ « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ؛ « والعاقبة للمتقين » ؛ « ولا أقسم بالنفس اللوامة » أى « الضمير » ! ؟

أليس هذا كلام الله أيضاً ؟ وهل وراء سجود الملائكة لأبى هذا النوع تكريم ؟ وهل وراء اختصاصه بعلم ما لا يعلمه الملائكة من غيب السموات والأرض تفضيل ؟ وهل بعد صبر الله وحلمه على ما يبدو من ظواهر الإفساد وسفك الدماء الذى يفعله الإنسان حجة على أن الغاية من خلق هذا النوع ، إنما هي غاية تربو فوائدها وبركاتها على خسرها ولعناتها ؟

وهل بعد رد الله تعالى على الملائكة حينما قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » بقوله : « إني أعلم ما لا تعلمون » يصح أن نعترض كما اعترضوا ، ونجعل حجتنا في السخط عليه هي ما نراه من ظواهر الفساد وسفك الدماء بعد أن نظر الله تعالى إليها في مجموعها نظرة اغتفار وسماح في سبيل تحقيق الغاية الكبرى من حياة هذا النوع ؟

إن أسرار قصة آدم هذه كما أوردها القرآن في أوائل سورة البقرة ، أعظم مفتاح للغز الحياة ، وأعظم تاج على رأس البشرية ، وأعظم صوت يطرد اليأس من مستقبل الإنسان ، وأعظم تفسير لما يبدو من شروره ، وأعظم دافع إلى الكفاح لتحقيق كماله المرجو !

وإني دائماً أقول : إنه يجب على المفكرين ألا يسرعوا بحكمهم النهائي على الإنسانية ، مع أنهم لم يتبينوا خاتمة حياتها ، ولم يدركوا « القطفة » الأخيرة من ثمارها ... ولعلها لا تزال في دور الشباب الطائش ، ولعل وراء طيشها كهولة عاقلة . وما دام الله تعالى لم ييأس منها — ولن تفوت عليه تعالى غاية أرادها — فينبغى لنا ألا نيأس منها كذلك ، فما دام يسمح بخروج بذور إنسانية ، فلا تزال الغايات والنتائج الصالحة منها ، بعضها يتحقق وبعضها يُنتظر تحقيقه .

وما عهدنا نوعاً ما في الطبيعة سلك غير الطريق التى رسمها له الله « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، فلما ذا يستثنى الإنسان

ويجعله يسير فى غير طريقه التى رسمها له ؟ وفيما ذا يكون الاستثناء فى الإنسان أثمن شىء فى الأرض ؟ !

***

ولم يدر صديقى — وهو الباحث الدينى — أن الله تعالى لا يجوز عليه عقلا أن ينعى على الإنسان صفات وطبائع هو الذى قسره عليها وحدها وأخرجه فى قوالبها ، وصوره من نطفةٍ أمشاجٍ وأخلاطٍ من قوى ومواد عمياء حادة ليبتليه ، فليس الإنسان إذاً ملوماً ما دام قد طبع على أن يكون فقط كفوراً وهلوعاً وجزوعاً وكنوداً وعجولا وقتوراً وضعيفاً وجدلا ... الخ

وما كان القرآن — وهو كلام الله الذى كرم الإنسان الأول ودافع عنه أمام الملائكة وأمرهم بالسجود له وخصه بعلم غيب السموات والأرض وطرد إبليس من الجنة حينما استكبر عليه — ليناقض نفسه فى قضية الإنسان ، وبقصد إلى ما فهمه الأستاذ وأمثاله ممن يسوقون دائماً هذه الآيات التى ذكرها هو فى مقام الاعتراض علىّ .

إنما القرآن فى هذه الآيات يصف طبائع الشر التى فى الإنسان كما يصف طبائع الخير فيه ، ولم تفد هذه الآيات أن طبيعته مقصورة على الشر وحده ، فإذا وقع منه الشر ، فهو جدير به لأن فى طبيعته جانباً للشر ، وإذا وقع منه الخير ، فهو جدير به أيضاً ، لأن فى طبيعته جانباً للخير أيضاً : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » ، « وهديناه النجدين » ، « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » ، « إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

فإذا قال القرآن : « إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين » ، فهو يقرر أن من طبع الإنسان هذه الصفات ، لأنه « خلق » عليها ، فليقاومها بما يمحوها أو يعدلها كالمداومة على الصلوات والزكاة وأمانة العهد ، وغير هذه من صفات الخير التى ذكرت وراء الآيات السابقة .

وإذا قال : « ويدعُ الإنسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الإنسان عجولا » . فهو يقرر كذلك أن من طبيعة الإنسان التى خلقه الله عليها العجلة : « خلق الإنسان من عجل ، سأريكم آياتى فلا تستعجلون » . ولذلك يجب التريث والصبر والسكينة وعدم اختلاس حق الأيام فى إنضاج الثمار حسب قوانين الله التى وضعها

وإذا قال القرآن : « وخلق الإنسان ضعيفاً » . فهو فعلا قد خلق من شىء تافه ضعيف : « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة» ، « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين » .

وهكذا سائر الآيات التى ذكرها الأستاذ تنبه إلى ما طبع عليه الإنسان من صفات الشر ليحذرها ولا يستسلم لها ، وليقاومها بطباع الخير التى طبع عليها أيضاً . ولو لم يورد القرآن تلك الطباع فى معرض الذم حينما يستعرض أفعال الأشرار ، ما تنبه أكثر الناس إلى أنها طباع شر يجب الحذر من نتائج الاستسلام لها ، وكيف يتنبهون إلى أنها شر ما داموا يجدونها فى طبيعتهم

والقرآن وهو كتاب تربية ، ما كان له أن يغفل الحملة العنيفة على طباع الشر فى الإنسان والإنحاء عليها باللوم والإزراء ، حتى ينبه الإنسان إلى خطرها فى قذفه إلى أسفل سافلين ما لم يعتصم بما فى طبعه من طباع الخير ، وبما يأتيه من هدى الله .

ولو ربى الأطفال جميعاً حق التربية ، ولم يهملوا هذا الإهمال الشنيع الغالب الذى نراه فى الأمم المتأخرة ، لرأينا أن نسبة الخير ترتفع فى حياة الناس ونسبة الشر تنخفض ، كما وقع ذلك فى عهد الدولة الإسلامية الأولى ، وكما يقع الآن فى دول شمال أوربا كفنلندا والسويد والنرويج والدانمرك .

وهذا يدل على أن الإنسان يتغلب على ما فى طبعه من الشر بالتربية وطباع الخير ، فليس الشر غالباً إلا بما يظاهره من فساد النظم الاقتصادية وإهمال التربية والتهذيب والتعليم

***

وبعد ، فهذا الفهم الذى فهمه الصديق الطنطاوى ، إنما هو من آثار السير فى الحدود الموروثة وعدم تغيير طرق النظر بتغير العصور ، وأرجو أن يتحرر صديقى فى فهم القرآن من جميع الموروثات حتى تنكشف له أعاجيب ووجوه جديدة من الرأى الذى يشهد للقرآن بأنه كتاب البشرية فى جميع عصورها وأحوالها

علوم البلاغة فى الجامعة

للأستاذ على العمارى

— ٢ —

تحدثت فى المقال السابق عن الأسلوب الذى تدرس به البلاغة العربية فى الجامعة ، وعبت أن يكون هـذا الأسلوب العامى الركيك هو الذى يلقى على طلبتها ، وتنقصته بأنه يفسد ذوق التلاميذ ، وبأنه لا يتفق وطبيعة النصوص العربية الفصيحة ، ولا سيما كتاب الله الكريم .

وقد سمعت بعض الاعتراضات على ما كتبت ، فسمعت من يقول إن هذه محاضرات ألقيت على طلبة صغار لم يتعدوا مرحلة التعليم الثانوى إلا منذ قليل ، ولم يشدوا من علوم البلاغة إلا نتفاً يسيرة . ونسى هذا القائل أن طلبة الجامعة تلقوا فى المرحلة الثانوية كتباً ذات بال فى علوم البلاغة ، وفيها من النصوص العربية الفصيحة العالية ، ومن الأسلوب المهذب الطيب ، ما يهيئهم لأن يتلقوا أسلوبا أرق وأسمح ، وحسبك أن تنظر فيما يدرس فى المدارس الثانوية من كتب فى هذا الفن لترى أن أسلوبها أرجح وأقوى من هـذا الأسلوب الذى نقلنا مقتطفات منه فى المقال السابق ، وحتى لو كان الطلاب لم يتلقوا فى المرحلة السابقة شيئاً يذكر لـكان لزاماً على أستاذ البلاغة فى الجامعة أن يكون مثلا لهم فى حسن التعابير ، وجمال اختيارها ، وإذا كان لا بد من أسلوب عامى ، فليكن أسـلوبا مهذبا لائقاً . وإن علماء النفس يحدثوننا عن تداعى المعانى ، وعما تلقيه الـكلمات من المعانى والظلال فى نفوس السامعين ، والأستاذ الخولى مؤمن بهذا ، فهل يستطيع أن يحدثنا عما تحدثه الـكلمات من أمثال قوله عن محمد وجميع الأنبياء أنهم (سماة بوستة) أو قوله شارحاً قول الله عز وجل (وما أنت بمسمع من فى القبور) : (أنت مش قدام ناس . انت قدام ألواح وبهايم) وماذا تنشره من ظلال ، وماذا تستجلبه من معان فى نفوس تلاميذه ؟ وسمعت من يقول إنه لا بأس أن يكون هذا الأسلوب أداة التعليم فى الجامعة ، والأسلوب العامى ما دام لم يكتب فى كتاب وإنما يلقى فى درس فى حجرة فلا غبار عليه . وجوابى على هذا أنى أتكلم عن تدريس فن البلاغة فى الجامعة لا عن تدريس الجغرافيا فى المدارس الابتدائيـة ، أما الثالث فيقول : إن اللجوء إلى نقد الأساليب تهرب من نقد الآراء ، وهذا ولا شك جاهل أو متجاهل قيمة الأسلوب فى تكوين أذواق المتعلمين بل وفى أخلاقهم وعاداتهم أيضاً . على أنى — بحول الله وقوته — ماضٍ فى نقـد ما تضمنته مذكرات الأستاذ الخولى فى علوم البلاغة من آراء فى قواعدها أو فهوم فى النصوص الأدبية ، ولنبدأ بمذكراته فى علم البيان .

والفـكرة المتسلطة عليه فى هذا الفن أن يجعل لـكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية يجب أن تثيرها فى نفس المتكلم أولا ، وفى نفس السامع ثانياً ، وهو لذلك يتكلف العنت ، ويركب الشطط فى تخريج النصوص الأدبية . وهو لا يؤمن بالماديات الصرفة فى هـذا الفن ، ويكاد ينكر المحسنات التى لا تثير معانى نفسية فحين يقول الشاعر مثلا :

تجهز فإما أن تزور ابن ضابىء   عميراً ، وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما   ركوبك حوليا من الثلج أشهبا

لا يرى لهذا التشبيه معنى ، لأن الشاعر لم يزد على أن فضل الفرس فى البياض على الثلج دون أن يلاحظ العلاقات المعنوية بين المشبه به والمشبه ؛ فنراه يقول مثلا حين يتكلم عن أغراض التشبيه « ومنها بيان حاله كما فى تشبيه ثوب بآخر فى السواد ... الخ . هـذه عبارة الخطيب القزوينى صاحب الإيضاح . فيعلق عليها الأستاذ قائلا : هذا كلام فارغ ؛ لأن الانسان حين يشبه السواد

وبعد ، فإن نوعاً يخرج محمداً وأولى العزم من الرسل والحكماء والصديقين والعلماء والرواد المجاهدين ، جدير بأن يوثق به ويؤمن بقيمته ، فإن مقياس قيم الأنواع هو لبـابها وجوهرها ، وغمر الشجر أقل شىء عدداً فيه ، والشوك يكون مع الورد ، والظلام مع النور ، والفساد وسيلة لإدراك الصلاح والحفاوة به .

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، فالخير أيضاً فتنة !

هذى طباعُ الناس معروضةً   نخالِطُوا العالم أو فارِقُوا !

عبد المنعم خلاف

يلحظ فيه الانتشار والتغطية والابهام ، أى أثراً نفسياً يقع من رؤية هذا السواد ، وعلى هذا الملحظ يشبه الميل » . لا يا مولانا ، هذا شيء وذاك شيء آخر ، نعم قد يلاحظ المشبه بالسواد المعاني التي يثيرها في النفس ، ولكن لا بأس أن يلاحظ مشبه آخر مجرد السواد . وليس هذا بالكلام الفارغ ، وهو من أساليب العربية المقبولة ، بل وفى طبائع الناس أيضاً ، فهم لا يزالون يلحقون شيئاً بشيء فى البياض أو الحمرة أو السواد أو ما شاءوا من لون ، ولعله يلفت النظر إلى هذا التهجم الجائر على كلام العالم العلامة الخطيب القزويني ، ومن معه من علماء البلاغة حين يقول (هذا كلام فارغ) ، ولا شك أن مثل هـذا يمحو من أذهان المتعلمين ما لهؤلاء من هيبة وجلال ، وبذلك لاينتفعون بما كتبوا وألفوا ما داموا يحتقرونهم ويسمعون من أستاذهم هذا التنقص لهم ، والغض منهم .

وقد ذهبت به هـذه النظرة الجائرة إلى أن ينكر نوعا من التشبيه قد أطال علماء البلاغة ونقدة الأدب فى امتداحه ، يقول :

« ولا زوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوئل النار فى أطراف كبريت »

المشبه زهرة البنفسج قائمة على ساقها ، والمشبه به أوائل النار فى أطراف كبريت ، إذا أردنا أن نحلل عملية التشبيه لقلنا إنه شعر للبنفسج بجمال فترجم عنه ، ونحن نفهم أن الجميل قادر أن يلفت معنى وراء وجوده المادى ولكن الشاعر لم يتخط الوجود المادى نظر إليها على أنها زهرة لها حجمها الخاص ولونها الخاص ، وقال كلاما شرح به هذا الوضع المادى (كأوائل النار فى أطراف الكبريت) أولا : ما هو الشيء المعنوى الذى لفتت إليـه الزهرة الجميلة ؟ لا شيء . زهرة البنفسج هذه يمكن أن نحس أمامها بنوع من الانصراف عن التنبه واليقظة ، فاذا شبهتها بإنسان حالم تكون قد تذوقت للون طعما خاصاً من طعوم الحياة ؛ وبذلك تكون المادة قد أفلحت فى إيجاد المعنى .. أما وصف اللون بلون آخر فلا شيء .. ثانياً : نلاحظ أن الشاعر نقلنا من جو فسيح إلى جو خانق فليست هنا قوة فى الإحضار ، وإنما هى غفلة وسوء تصرف »

قد يبدو هذا الكلام مقنعاً ورائعاً لأول وهلة ، ولكن يجب أن نتذكر حقيقتين :

الأولى — أنه يدرس التشبيه ؛ ومعنى ذلك أن يقف عند تشبيه الشاعر . هل أصاب أو أخطأ فى إلحاق هذا اللون بذاك . أما أن الشاعر لم يلتفت إلى مايهيجه البنفسج من المعانى فى النفس والتفت إلى شيء مادى بحت فهـذا لا دخل له فى صحة التشبيه أو فساده .

الثانية — أن البيان يبحث عن الأساليب الفنية التى تؤدى بها المعانى ، وما دام يبحث عن الفن فهو يجده فى المعانى البحتة ويجده كذلك فى الماديات البحتة ، وليس أحدهما بأولى من الآخر فى إبراز الفن البيانى فيه ، وعلى ذلك فهم علماء البلاغة ما ورد من هذه الأمثلة . ولعلنا نأتى بالقول الفصل حين نسوق ما قاله إمام البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى هذا الموضوع بعينه: « وهكذا إذا استقريت وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشد كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تحدث الأريحية أقرب ، وذلك موضع الاستحسان ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والمتألف للنافر من المسرة ، أنك ترى بهـا الشيئين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين ، ولذلك تجـد تشبيه البنفسج فى قوله : ولا زوردية .. الخ أغرب وأعجب ، وأحق بالولوع ، وأجدر من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق ؛ لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غض يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء منها يشف ، بلهب نار فى جسم مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف ، ومبنى الطباع وموضوع الجبلـة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر » . وليس بعد كلام الشيخ كلام ، ولكن لعل شيخ الجامعة يتهمه بفساد الذوق ، ولو أنه أعاد وأبدا ، واحتج بنظرية نفسية كان الأستاذ ينكر أن المتقدمين تنبهوا لمثلها ، والأمر أوضح من أن يشرح ، فالشاعر أراد أن يبين زرقة البنفسجة التى تفخر بها على اليواقيت الحمر ففكر فى شبيه لهذه الزرقة ، وهنا يتفاضل الشعراء ، فمنهم من يكون قوى اللفتة فسرعان مايقع على شبيه ولو كان نادر الحضور فى الذهن ، ومن هنا تجيء طرافته وجدته ، ومنهم البليد الذى لا يصل إلى الشبيه إلا بعد حين وربمـا لا يصل ، وإذا كان من

الميسور لأستاذ البلاغة فى الجامعة أن يتهم الشيخ عبد القاهر فى ذوقه فأظن أنه ليس من الميسور أن يتهم جريراً الشاعر. فاليه نسوق القصة التالية : يحكى أن جريراً قال : أنشدنى عدى (يعنى ابن الرقاع العاملى) : عرف الديار توهما فاعتادها .

فلما بلغ إلى قوله:(تزجى أغن كأن ابرة روقه) رحمته وقلت قد وقع ، ما عساه يقول وهو أعرابى جلف جاف ؟ ! فلما قال : (قلم أصاب من الدواة مدادها) استحالت الرحمة حسداً . قال صاحب الإيضاح : فهل كانت الرحمة فى الأولى والحسد فى الثانية إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر ما لا يحضر له فى أول الفكر شبه ، وحين أتمه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف .

وبعد . فهذا كلامهم وهذا كلامه ، وموعدنا المقال التالى .

على العمارى
مدرس بمعهد القاهرة

أنا وضغط الدم

للأستاذ عباس حسان خضر

قضيت ماقضيت من حياتى — قبل أن تبدأ قصتى مع ضغط الدم — بعيداً عن الأطباء ، لم ألقهم فى مرض ألمَّ بى إلا مرات معدودات . وذلك لعديد من الأسباب لا أريد أن أذكر منها إلا أننى حريص على العمل بالحكمة المأثورة : « الوقاية خير من العلاج »

ومهما كانت الأسباب فقد كنت بخير إلى أن لقيت صديق فى الطريق وهو ذاهب إلى مكتب شركة من شركات التأمين على الحياة ليدفع قسطاً من المؤمن به على حياته ، وطلب منى أن أصحبه وقال لى : لم لا تؤمن أنت أيضاً على حياتك ؟ فقلت فى نفسى : حقاً لم لا أؤمن على حياتى ؟ إننى لا أدخر شيئاً ، وهذه قطع كبدى تمشى على الأرض ، ولا يملك أبوهم شبراً من أرض ...

وقال صديقى : على أنك إذا طلبت التأمين عهدت الشركة إلى طبيبها أن يفحصك فحصاً تاما ليتحقق سلامتك من جميع الأمراض ، فإذا كانت هذه السلامة اطمأننت على صحتك وجنيت فائدة التأمين ، وإلا عرفت داءك فتبادر إلى علاجه ؛ وسيسألك الطبيب عن الأمراض التى أصبت بها فى حياتك ، فلا تصدقه وقل له : إنك لم تصب بأى مرض فى أى زمن . تصور أنى قلت له : لم أمرض إلا مرة واحدة فى حياتى ، إذ أصبت بحمى (الدنج) فجعلت الشركة تبحث عما عساه أن يكون لهذه الحمى من الآثار التى تقصر الأعمار ... وبعد البحث والدرس ، والأخذ والرد ، قبلتْ التأمين . قلت لصديقى : إنك — ولا شك — أصدق المؤمنين على حياتهم لدى هذه الشركة !

وتقدمت إلى الشركة بطلب التأمين على حياتى بألف جنيه ، على أن أدفع أقساطاً شهرية بضعة جنيهات ؛ وزعمت أنى لن أبالى بعد ذلك أن أموت فى أى وقت تاركا لأولادى ألف جنيه ! وكنت شديد الحذر من سيارات الحلفاء وما إليها من الدوامم التى تعج بها شوارع القاهرة ، وزعمت أيضاً أننى لن أكون كذلك بعد أن يتم عقد التأمين ...

واستدعتنى الشركة للفحص الطبى ، وليس يهمك أن تعلم أنى أخذت بنصيحة صديقى فى الكذب على الطبيب أو لم آخذ بها ، فقد حدث ما شغلنى عن ذلك ، وهو المقصود من هذه الحكاية ، فلنقصد إليه قصدا ... لفَّ الطبيب على ذراعى قطعة من قماش أسود كثيف ، وأدار الآلة المتصلة بها ، فضغطت على ذراعى ، ونظر إلى دائرة بها مشير يتنقل بين أرقام ... ثم قال : عندك ارتفاع فى ضغط الدم !

ضغط الدم ... ! وما ضغط الدم ... ؟

لم يجب الطبيب ، لأنه لا يتكلم فى الصميم ، وإنما أبدى استعداده للعلاج .

ولكنى لم آت هنا للعلاج ... ولست أعرف هذا المرض ، ولا أحس له بأعراض ، وإنما أطلب التأمين على حياتى ... ولكن الشركة لا تؤمن هذه الحياة التى يتحيفها ضغط الدم ...

وذكرت قول صديقى : « ... وإلا عرفت داءك فتبادر إلى علاجه » ، ولكننى أصررت على تجاهل هذا الداء ، أما أولادى فإن كنت سبباً فى وجودهم فإن موجدهم الأصيل الذى يكفلنى ويكفلهم أقدر على كفالتهم بعدى ، وهو المستعان فى كل حال .

ولـكن مالى أنتبه عند ما أسمع الناس يرددون كلمة « ضغط الدم » بين ارتفاعه وانخفاضه ، وأرى اهتمام بعضهم بقياسه ، ومعرفة درجته ومعالجته ... ؟ استرعى ذلك انتباهى . وأثار باطن الشعور الذى خلته انتفى عنى ، فقصدت أحد الأطباء ... ولفَّ على ذراعى ذلك القماش الأسود ، وقاس ضغط دمى ، وسألنى عن سنى ، وقرر أن الضغط مرتفع إلى درجة لايحسن السكوت عليها .

ورحت أتناول الأدوية ، وسرت على (الرجيم) وكنت كلما أخذت دواء ، أو أكلت مسلوقا ، أو حرمت نفسى محذوراً ؛ أوحى إلىَّ كل ذلك أننى حقاً مصاب بضغط الدم ، وكأن كل ذلك يأمرنى أمراً بأن أكون كذلك ، فيجب أن أستشعر ثقل الدماغ والصداع وفتور الجسم ، وارتخاء الأطراف ، فيجيئنى كل ذلك ومعه هموم الدنيا وسواد العيش . وكنت أحس كلما وطئت قدماى عتبة (عيادة الدكتور) أن الضغط يرتفع ، وإن كنت قد أوحيت إلى نفسى فى الطريق أن الأدوية و (الرجيم) قد أفادت فأذهبته ... فيقيس الطبيب ، وأعاود تعاطى الأدوية ، والخضوع (للرجيم) وهزل جسمى وضعف بدنى . وعجبت من أن حالتى تزداد سوءاً على مرّ الأيام ، مع العناية والدقة فى مراعاة مقتضيات العلاج ، ومع الحرمان التام من كل ما يزيد الضغط !

حرت فى الأمر ، فمرة أقول لعل المرض كان فى أطواره الأولى خفيفاً ، أما الآن فقد استفحل أمره حتى أعضل ، ولولا هذه المعالجة لأدى بى إلى الحالة التى خشيت شركة التأمين خسارتها فيها ، ومرة أقول لعل هذا الطبيب غير موفق ، فأغيره ولا يتغير الحال . وأخيراً قلت : ألم أكن قبل بخير ؟ فلمَ لا أرجع كما كنت ؟ وطرحت الدواء وخلعت طاعة (الرجيم) فغذيت جسمى باللحم والبيض ، ورويته بالخضر المطهية بالطماطم ، وعمرت دماغى (بالتقلية) فعادت روحى إلى بدنى ، وجعلت الحيوية تدب فى أوصالى ، وأقبلت على رياضتى البدنية التى كنت تركتها خيفة أن ينفجر القلب وتتمزق الشرايين ؛ فأشرقت نفسى ورأيت الدنيا مشرقة ؛ وكل شىء يبسم ويدعونى إلى مشاركته ؛ وأدركت ما كاد يفسد من أمورى ، فطابت نفسى بذلك وحمدت الله على هـذا التوفيق . ولم أندم على تلك المحنة لأننى اعتبرتها تجربة استفدت منها ؛ إذ عرفت أن دائى من الحالة النفسية التى وقعت فيها ، والتى كانت تستشرى عند كل مرسوم من مراسيم العلاج إذ أفكر متسائلا : لم آخذ هذا ؟ ولم أدع ذاك ! وعرفت أيضاً أن دائى من ضعف بدنى لحرمانه التغذية والتقوية ، كما عرفت أن سواد عيشى كان من سواد قماش تلك الآلة التى يقيسون بها ضغط الدم .

ولـكن لم تدم جدوى هذه العبرة طويلا ، فقد أوقعنى سوء الطالع مرة ثانية مع موظف فى شركة أخرى للتأمين ، من أولئك المنوط بهم جاب حرفاء للشركة لقاء جعل مقدر بنسبة مئوية من مقدار التأمين ، وأهم ما يتصف به هؤلاء اللباقة فى الحديث ، والقدرة على شرح فوائد التأمين والإقناع بضرورته . أكد لى أن صحتى جيدة ، وأنه لايبدو علىّ مايدل على ضغط الدم ، وأن الضغط لايرتفع فى دم من هو فى نحافتى وفى مثل سنى . ورضيت أن أتقدم للتأمين مرة أخرى ... وما وضعت قدمى على عتبة طبيب الشركة حتى هممت بالرجوع لأنجو بدمى من أكدار أحسست أنها تتسرب إليه ، ولـكننى أشفقت على الموظف الذى يدعونى إلى الدخول متلاطفاً مبتسما ؛ فدخلت ، وتمت الطامة برؤية مقياس الضغط ذى القماش الأسود الـكثيف ... وأظهر الطبيب استعداده للعلاج ... فخرجت وقد أضفت إلى ثبت المنغصات فكرة التأمين على الحياة ، وباعتبارى إنسانا إذا مسه الضر دعا الله إلى جنبه — تذكرت تلك الحكمة التى خطرت لى عقب رفض الشركة الأولى تأمين حياتى . فقلت : « أما أولادى فإن كنت سبباً فى وجودهم فإن مُوجدهم الأصيل الذى يكفلنى ويكفلهم — أقدر على كفالتهم بعدى » .

على أننى لم أدر تماماً أأنا حقاً مصاب بذلك الضغط ، وأن التفاوت بين الحالتين يرجع إلى تلك الأسباب من تركيز تفكيرى فيه كلما جرعت دواء أو أكلت مسلوقاً أو تجنبت محذوراً ، ومن الشعور الكريه الذى ينتابنى فى مدخلى إلى الطبيب ، واسوداد الدنيا أمام ناظرى حينما أبصر ذلك القماش الأسود ، ومن التفكير فى التأمين على الحياة ، إلى ما يجره كل هذا من الهم والحزن ونكد العيش ؛ فإذا نفت عنى إرادتى كلَّ ذلك ،

صحائف مطوية :

١ – من أخلاق البحتري

علاقته بالخلفاء

للاستاذ محمد رجب البيومى

لأبى عبادة البحترى عند أدباء العربية مكانة رفيعة لا يتطلع إليها أبعد الناس أملا فى نباهة الذكر ، واستفاضة الشهرة ، فهو أحد الثلاثة الذين رزقوا من الحظوة والذيوع ما جلجل صداه فى كل زمان ، على أن الوليد أعمقهم تأثيراً وأكثرهم أنصاراً ، نظراً لديباجته الناصعة ، وسلاسته المترقرقة ، ووضوح معانيه وضوحا يصل بها إلى أعماق القلوب بمجرد النظرة الأولى ، ولا كذلك أبو تمام والمتنبى ، فالأول مغرق فى الغموض والالتواء ، والثانى مولع بمخالفة أهواء الناس ، وحسبك أن يقول أبو العلاء — وهو أبعد الناس عن مذهب الوليد — « أبو تمام والمتنبى حكيمان وإنما الشاعر البحترى » !

ولقد تناول شعره بالنقد والتحليل طائفة ممتازة من أرباب الأقلام الناضجة فقالوا فيه ماشاء لهم تفكيرهم واستنتاجهم ، فمن متعصب له كالآمدى ، ومن متعصب عليه كالصولى ، ومن متجرد عن الميول والأهواء كابن الأثير ، ومهما يكن من شىء فقد خرج الأدب من هذا التطاحن المحمود بثروة كبيرة تعتز بها المكتبة العربية على ممر الأحقاب . وإن من الغريب أن يغفل هؤلاء جميعاً عن دراسة أخلاق البحترى دراسة تبرزه على حقيقته أمام الجمهور، اللهم إلا اشذرات يسيرة فى مختلف الأسفار لا تشبع نهمة راغب فى البحث ، آمل فى الوصول إلى نتيجة واضحة يفهم على ضوئها شعر البحترى كما يجب أن يكون الفهم والاستنتاج !

على أنى آسف كل الأسف لهذه الحقيقة المؤلمة التى اهتديت إليها بعد بحث جهيد ، والتى تصور لنا البحترى خبيث الطبع لئيم المكر ، ملتهب الحقد ، وهذا يتجلى بوضوح تام فى مختلف علاقاته بالناس من خلفاء وشعراء وأصدقاء ، بل فى علاقته بأقاربه وأهل بيته وهم أولى الناس بعطفه وإشفاقه ، لو كان فى قلب الوليد إثارة من عطف وإشفاق !

ونظرة واحدة إلى ديوانه تريك العجب العاجب من وقاحته

أو إذا ذهب عنى لابتعادى عن مثيراته شعرت بأنى فى حالة عادية لا يشوبها أى كدر ، ولكن ما بالى لم أشعر بشىء من قبل ولا من بعد ؟ أم أنا يوم فحصنى طبيب الشركة وقاس ضغطى لأول مرة كنت متغير المزاج لأى سبب بأن وقع لى قبيل الفحص ما جعل مشير المقياس يرتفع إلى رقم ما كان يبلغه لو كنت فى حالة عادية ، ثم استقرت الفكرة فى نفسى بعد ذلك بحيث يسبب الشعور بها عند كل مناسبة ارتفاعاً فى الضغط ؟ وعلى ذلك أستطيع أن أفرض أن كثيراً من الناس أسيب به عند ماشاهدت عيناه القماش الأسود يلف على ذراعه لأول مرة ، وصارت رؤيته بعد ذلك تبعث الوساوس وتجلب الأكدار .

ولا أعنى بالوصول إلى نتيجة حاسمة فى ذلك ، فلاسبيل إليها أولا ، لعدم الانسجام بين راحة بالى وبين مقياس الضغط . والأمر الثانى الذى يصرفنى عن تحقق وجود ارتفاع الضغط هو أننى عرفت أن أوفق شىء لى أن أحيا حياة صحية عادية ، لا أتكلف فيها تناول شىء أو تجنب آخر مادمت فى حدود القانون الصحى العام ، وأننى عند ما أعمد إلى العلاج أرانى أتداوى « بالتى كانت هى الداء[1] » على فرق ما بينى وبين أبى نواس من اللذة والألم والنشوة والحسرة ، ومن أن كأسه تداوى والذى كنت فيه يداى[2] .

وبعد ، فهذه قصتى مع ضغط الدم ، سقتها هنا بدافع الرغبة فى التعبير الأدبى عن تجارب تضمنت أحاسيس وانفعالات ، ولعل فيها إلى ذلك مادة تنفع من وقع فى مثل ما وقعت فيه ، أو تعصم من يوشك أن يقع ، أو تحمل العبرة إلى من يعتبر من بعيد .

عباس حسان خضر

(١) من بيت أبى نواس المشهور فى الخمر :
دع عنك لومى فان اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء
(٢) يصيب بالداء .

وغدره فهو يمدح الرجل ويذمه مرات عديدة لا لأنه يستحق المدح أو الذم مثلا، فذلك مقبول، بل لأنه جاد له بالمال فمدحه ثم أبطأ قليلا فى سيبه فأقذع فى هجوه، غير متذكر ما طوق به جيده قبل ذلك، بل لقد وصل به التنكر والجحود إلى أن جعل شعره محلا تجاريا يأخذ منه ما يلزمه إبان حاجته فهو — كما يقول صاحب الموشح — يمدح الإنسان بتحفة خالدة من رائع الشعر ثم يعرض له بعد تناسل الأيام أن يمدح محسنا آخر فيدفعه لؤمه إلى أن يعمد إلى شعره الذى قاله فى الممدوح الأول فيغير ما يحتاج إلى تغيير من الأسماء والألقاب ثم يسوق القصيدة برمتها إلى الممدوح الثانى، وهذه طريقة مقيتة وقع فيها المتنبى أيضاً فقد مدح أبا الفضل وزير كافور الأخشيد بقصيدة:

بادٍ هواك صبرت أم لم تصبرا

وكان منها:

صغت السوار لأى كف بشرت بابن الفرات وأى عبد كبرا

ولما لم يثبه أبو الفضل عليها صرفها عنه وتحول إلى ابن العميد فمدحه بها بعد أن غير كلمة ابن الفرات بابن العميد ثم أردفها بزيادة يسيرة تتضمن جانباً من أوصاف ابن العميد(١)... ! وإذا كان المتنبى قد وقع فى ذلك مرة واحدة فقد كان البحترى غارقا فى هذه العادة إلى أذنه، حتى أنه كرر هذه الجريمة الأدبية إحدى وعشرين مرة(٢) وكأن الله عز وجل أراد أن يكشفه للناس على حالته، فبالرغم من تحفظ ولده أبى الغوث عن الوقوع فيما يدل على ذلك حين جمع ديوان والده فقد ذكر له قصيدتين متشابهتين فى أكثر الأبيات فأنت تقرأ اللامية التى مدح بها المتوكل على الله ومطلعها:

قف العيس قد أدنى خطاها كلالها

وسل دار سعدى إن شفاك سؤالها

ثم تقرأ قصيدته التى مدح بها ابراهيم بن المدبر ومطلعها:

وقوفك فى أطلالهم وسؤالها

يريك غروب الدمع كيف انهمالها

أقول: تقرأ هاتين القصيدتين فتجدهما متوافقتين لفظا ومعنى فى كثير من الأبيات. ولك أن تستنتج من هذا حكمك على ضمير البحترى الفاسد، وحرصه على ابتذاذ الأموال بما تنكره مروءة الأخلاق.

ولننظر أولا إلى علاقته بالخلفاء لنعرف إلى أى مدى سفل الوليد، فما صان عهدا ولا حفظ إلاًّ، حتى مع المتوكل على الله، ذلك الخليفة المعطاء الذى أدناه من مجلسه وأغرقه فى طوفان من حبائه، واختاره نديماً على بساط الشراب إلى أن لقى حتفه وهو فى ندوته يجاذبه أطراف السمر مع الفتح بن خاقان، وحين حلت السكارثة قام الوزير الشجاع بما يفرضه عليه واجب الشهامة والرجولة ففاضت روحه قبل سيده، وفر البحترى إلى حمام مهجور بقصر القاطول فاختبأ فيه وبعد ذلك جاء يكذب على الناس فيقول فى اختلاق ذميم:

أدافع عنه باليدين ولم يكن ليثنى الأعادى أعزل الليل حاسره
ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى
درى الفاتك العجلان كيف أساوره

مع أن البحترى لو كان صادقا فى قوله لصرع لساعته كما صرع الفتح بن خاقان شهيد المروءة والوفاء!

ونحن لا نبالغ فى مؤاخذة البحترى على فراره هذا فلعله ممن لا يلقون بأيديهم إلى التهلكة. ولكننا نبالغ فى مؤاخذته على هجائه المتوكل بعد مصرعه برغم ما غمره به من خير عميم، فقد قال فى مدح المنتصر قاتل المتوكل العاق:

حججنا البنية شكرا لما حبانا به الله فى المنتصر
تلافى البرية من فتنة أظلهمو ليلها المعتكر
ولما ادلهمت دياجيرها تبلج فيها مكان القمر
ولو كان غيرك لم ينتهض بتلك الخطوب ولم يقتدر
رددت المظالم واسترجعت يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبى طالب بعدما أذيع بسربهمو فابذعر
ونالت أياديهمو جفوة تكاد السماء لها تنفطر
بقيت إمام الهدى للهدى تجدد من نهجه ما اندثر

ومعلوم أن المتوكل هو الذى غالى فى قهر آل أبى طالب!!

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان.
(٢) الموشح للمرزبانى.

فهل يليق أولا أن يمدح قاتله ؟ ! وهل يليق ثانيا أن يعرض بهجاء ولى نعمته الأول فيقول إن الفتنة أظلت دياجيرها فى عهده وأن الهدى قد اندثر على يده ؟ إن هذا لغريب .

على أن البحترى لدناءة أصله ، وخسة طبعه لم يلبث أن قلب للمنتصر — ولى نعمته الثانى — ظهر المجن ، فهجاه هجاء مرا بعد مقتله ، ثم انقلب إلى الخليفة الجديد المستعين بالله يتزلف إليه ويمدحه حتى يستنزف أموال خزائنه فهو يقول متظاهرا بالولاء والإخلاص :

لقد نصر الإمام على الأعادى وأضحى الملك موطود العماد
أمير المؤمنين اسلم فقدما نفيت الغى عنا بالرشاد
تدارك عدلك الدنيا فقرت وعم نداك آفاق البلاد

ولقد هبت فى عهد المستعين بالله زعازع شديدة تنبىء بزوال دولته نظراً لقوة أنصار المعتز بالله غريمه الأول ومنافسه الألد فرأى البحترى أن يحتاط لنفسه فأرسل للمعتز فى سجنه قصيدة تنبىء عن ولائه ، وكان قد قالها قبل ذلك فى حبس سعيد بن يوسف ولكنه كما قلنا — فيما تقدم — شاعر تجارى يتصرف فى شعره كما شاء ، ومما جاء فى هذه القصيدة :

جعلنا فداك ، الدهر ليس بمنفك
من الحادث المشكو والنازل الشكى
وقد هذبتك الحادثات وإنما
صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك
على أنه قد ضيم فى حبسك الهدى
وأضحى بك الإسلام فى قبضة الشرك
أما فى نبى الله يوسف أسوة لمثلك محبوسا على الجور والإفك
أقام جميل الصبر فى السجن برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك

وكأنى بالبحترى وقد خاف أن يعلم المستعين بالله نبأ هذه المراسلة فتقدم إليه بقصيدة عصماء مظهراً ولاءه ووفاءه قائلا فى ديباجة مشرقة وأسلوب سلس :

بقيت مسلما للمسلمينا وعشت خليفة لله فينا
فقد أنسيتنا بذلا وعدلا أبوتك الهداة الراشدينا
أراد الله أن تبقى معانا فقدّر أن تسمى مستعينا
إذا الخلفاء عدّوا يوم فخر سبقت سراتهم سبقاً مبينا
وقيناك المنون وإن حظاً لنا فى أن نوقيك المنونا

وبعد أن أمن على نفسه من ناحية المستعين أخذ يراسل المعتز بالله من جديد فهو يقول فى مخاطبة غلامه نائل :

ألاهل يرجع العيش لنا مثل الذى كانا
وهل ترجع يا نائل بالمعتز دنيانا
عدمت الجسد الملقى على كرسى سليمانا
فقد أصبح للمنة نقلاه وبقلانا

والجسد الملقى على كرسى سليمان هو المستعين بالله الذى قربه من مجلسه وغمره بنواله . ولما دارت الدوائر على المستعين وقتل فى قصره تحت جنح الظلام ، أخذ البحترى يضحك لآماله ، وسار من فوره إلى المعتز بالله معتمداً على ما كان بينهما من مراسلة خفية ثم مدحه بقصيدة طويلة عرج فيها على المستعين — ولى نعمته الثالث — فسلقه بلسان حاد ولصق به جميع المثالب حتى جرده من إنسانيته فهو يقول فى هجائه :

متى أسل الديان أن تصطفى له عرى التاج أو تثنى عليه عصائبه
وكيف ادعى حق الخلافة غاصب حوى دونه إرث النبى أقاربه
بكى المنبر الشرقى إذ خار فوقه على الناس ثور قد تدلت غباغبه
ثقيل على جنب الثريد مراقب لشخص الخوان يبتدى فيواثبه
إذا ما احتشى من حاضر الزاد لم يبل
أضاء شهاب الملك أم كل ثاقبه
تخطى إلى الأمر الذى ليس أهله فطوراً ينازيه وطوراً يشاغبه
رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر وعرى من برد النبى مناكبه
وقد سرنى أن قيل وجّه مسرعاً إلى الشرق تحدى سفنه وركائبه
إلى دسكر خلف الدجاج ولم تكن
لتنشب إلا فى الدجاج مخالبه

ثم أخذ يكرر هجاءه ثانية وثالثة ورابعة وما ذاك إلا ليحوز قبول المعتز بالله ! فيا لضيعة الوفاء(١) ...

ولقد كان مصير من سبقه من الخلفاء فى هذا المهد الأحمر

---

(١) للبحترى فى مدح المعتز قصيدة مطلعها .

حذرت الحب لو أغنى حذارى ورمت الفر لو نجى فرارى

ولقد هجا فيها المستعين هجاء فاحشاً أستحى أن أنشر شيئاً منه على صفحات الرسالة ، ولا أدرى كيف تحملتها أذن المعتز بالله حين أنشدها إياه؟!

الذى فاضت فيه دجلة بدماء الخلفاء ، حتى كان تعيين الخليفة حكما عليه بالإعدام ، فهو ينتظر تنفيذه بالليل ، فإذا أخطأه ترقبه بالنهار ؟! ولعمرى أى خطأ شنيع وقع فيه المعتصم حين اصطنى هذه الشرذمة السافلة من غوغاء الأتراك ليدفع بها سلاطة الفرس على قلة شرهم — فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم !

وما إن عرف البحترى مصرع المعتز حتى توجه كعادته إلى غريمه الجديد ، يمدحه ويستدر عطفه. وما فى ذلك عيب ، ولكن العيب كل العيب فى تعريضه الشنيع بهجاء المعتز — ولى نعمته الرابع — محاولا أن يشفى بذلك غلة الممدوح ، ولو طال أمد البحترى إلى الآن لوجدناه يحرص على تمثيل هذا المنظر القبيح مع من يتعاقب على الدول من ملوك وخلفاء

وليت شعرى كيف عمى الخلفاء عن تلاعب البحترى بهم هذا التلاعب المقيت ، فلم يتنبهوا إلى غدره الفاحش ، فيقفلوا أبوابهم فى وجهه على أقل تقدير ، ولكنه الحظ الذى ستر مثالبه ، وأطبق العيون عن مخازيه ، فجعل كل خليفة يبتسم له ناسياً ما ارتكبه فى حق زميله السابق من غدر وعقوق ، ولقد كان أبو تمام أولى بهذه الحظوة لدى الخلفاء ، لما نعرفه من نبل أخلاقه ، وكرم خلاله ، إلا أن السعادة التى احتضنت البحترى قد ناصبت حبيباً العداء ! ! فقد مدح المعتصم بقصيدتين خالدتين ثم رجع ولم يظفر بطائل رغم شفاعة أحمد بن أبى دؤاد ! !

والحظ يقسم عاش بشر ما اشتكى بصراً وعمراً أكمها بشار !

على أن له مع أحمد بن الخصيب موقفاً كموافقه مع الخلفاء سواء بسواء ، قال صاحب الموشح « حدثنى أحمد بن أبى طاهر فقال : ما رأيت أقل وفاء من البحترى ولا أسقط ، رأيته قائماً ينشد أحمد بن الخصيب مدحاً له فيه ، فحلف عليه ليجلس ، ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غاضباً عليه ، وأخذ له منه مالا فدفعه إليه ، ولما نكب المستعين أحمد بن الخصيب بعد كرمه هذا رأيت البحترى ينشده

لابن الخصيب الويل كيف انبرى بإفكه المردى وإبطاله
قد أسخط الله بإعزازه الد نيا وأرضاها بإذلاله
يا ناصر الدين انتصر موشكا من كائد الدين ومغتاله
فهو حلال الدم والمال إن نظرت فى سائر أحواله
والرأى كل الرأى فى قتله بالسيف واستصفاء أمواله

ثم قال ابن طاهر كأن ابن الملجة فقيه يفتى الخلفاء فى قتل الناس ! ترحه الله »

هذه علاقة البحترى المخزية مع أولياء نعمته ، ولقد كان فى حاجة إلى من يذكره بقصة صعصة بن غالب حين بلغه موت الوليد ابن عبد الملك ، فقال : لعنه الله وأخزاه ! لقد سبنى مرة أمام حشمه وخوله ، وكان والده غالب حاضراً فقال : يابنى لقد رفعت من ذكر الوليد إذ ذكرت سلطانه عليك ، وخفضت من شأنك إذ نبهتنا إلى منزلتك لدى الخليفة وأنت سيد قومك ، فلا تفضح نفسك بهجاء رؤسائك أمام الناس ! ! »

(يتبع) **محمد رجب البيومي**

إلى المجمع اللغوى :

الأسماك فى الشواطئ الحضرمية

للأستاذ على عبود العلوى

— ٣ —

اللغة المهرية :

هذه هى المعلومات التى دونتها عن الملاحين الحضرميين طيلة الساعتين التى كنت أتخطر فيهما مع النسمة الروحية — لا — الغذائية .

وهى كما ترى على أكثرها مسحة اللغة المهرية والشحرية — نسبة إلى الشحر — وهى ليست بذاك كما يقول علماء اللغة .

وقبيلة مهرة من القبائل العربية ونسبتها إلى قضاعة . وتسكن مهرة فى ظفار الحبوظية ومرباط وصيحوت وغيرها من الأماكن الشرقية بالنسبة إلى موقع حضرموت . وهذه الأماكن يشملها إسم حضرموت وذلك حسب التقسيم الجغرافى القديم ولا يعتد بالتقسيم السياسى اليوم .

وذكر بعض مؤرخى العرب أن لغة مهرة هى من بقايا التراث العربى القديم أعنى أنها من بقايا لغة عاد . وهى إلى اليوم لا كتابة لها .

ويؤكد بعض المؤرخين أنها من بقايا اللغة الحميرية . ويؤيد هذا الرأى فضيلة شيخنا العلامة الكبير مفتى (جوهور) سابقا السيد علوى بن طاهر الحداد العلوى(١) يقول :

« ويدل على هذا وجود كلمات فيها نص علماء اللغة على أنها حميرية . أذكر منها أنهم يسمون اللبن (شِخَوفْ) وهذا اسمه بالحميرية كما فى القاموس ، ويقولون: (قَبهل) بمعنى أقبل . وقد ذكر هذا اللفظ بمعنى الوجه فى ترجمة صاحب القاموس ، ويقولون للنار (شَوَاظْ) ، وهذا محرف عن شُواظ ، ويسمون الماء (حَموهْ) وهذا هو اسمه فى لغة عربية بتفخيم ألف وزيادة الهاء . فقد حكى علماء اللغة أنه يقال : فيه (حاه) على لغة فإذا فخم الألف قرب جرسه فى السمع مما ذكر . »

وقال أيضاً(١) : وللمهرة والقَرى — هم بادية مهرة وتسكن الجبال — وأهل سقطرى لغات متقاربة تجمعها اللغة المهرية ، وبينهما فروق . وتسمى لغة القرى بالحِكلى .

وأعدادهم محرفة عن العربية بتحريف بعيد أو قريب ، والعدد فى لغة الأمحارة الحبشية أقرب إلى العربية منها .

	أعداد القرى	أعداد المهرة	أعداد الحبشة
(١)	طاد	طَاطْ	أحَدْ
(٢)	ثِرَهْ	ثِلْثْ	لِسنَيْن
(٣)	صَاطِيْطْ	صافيدْ (أو صفديد)	سلاسى
(٤)	أرْبَعَطْ	أرْبوتْ	أرْبُوه
(٥)	خُوْنِشْ	خُمُهْ	هَمْسَهْ
(٦)	شِتِتْ	يَتّيه	سَدِسْ
(٧)	شِبْعَتْ	هِيَيَايِتْ	لَسْبُوْ
(٨)	ثِنْيَتْ	ثِمْنِتْ	سمانيه
(٩)	تسعِتْ	تَايِتْ	زَطّىْ
(١٠)	عِشْرِتْ	عِشْرِتْ	عَشر

هذا ما نص عليه فضيلة شيخنا فى محاضرة له عن ظفار الحبوظية نجتزىء بالنقل عنها بما يهمنا حسب سياق البحث .

ولتكملة البحث نثبت هذه الألفاظ عن اللغة المهرية وهى :

ألفاظ مهرية	يقابلها بالعربية
نُخوْل	إجلس
أَنْث	قم
ثِيُوُطْ (الثاء مفخم)	النار
حَيلو	الليل
من هوك قهبك ؟	من أين جئت ؟

(١) راجع ص ٩٧ من المجلد الثانى لمجلة الرابطة العلوية الصادرة فى بتافيا — جاوه سنة ١٣٤٧ .

(١) نفس المصدر صفحة ٩٧ — ٩٨ .

ألفاظ مهرية	يقابلها بالعربية
كمبيت	الصحفة
شخوف	اللبن
هيبيت	الناقة
هيرون	الغنم
بَقَـريت	البقر
تحِـل	السمن
غجـّنين	صبى
غجـّنيت	بنت
حِـبرانى	إبنى

وعن اللغة المهرية صدرت فى أوربا هذه المؤلفات القيمة كما ذكرها المستشرق الإيطالى (نللينو) راجع مجلة الزهراء . فعسى أن يقوم بترجمتها المجمع اللغوى أو أحد أبناء العروبة البررة

١ — Die Mehri, Sprache. In Sudarabine من تأليف A. jAHN وطبع فى ڤينه سنة ١٩٠٢م .

٢ — Die Mehri und, Soqtri Sprade

كتاب اللغة المهرية والسقطرية ، وهو باللغة الألمانية طبع ڤينه سنة ١٩٠٢ و ١٩٠٧ م وهو فى ثلاثة مجلدات .

٣ — رسائل متعددة وهى من تأليف M. reotted و N Sikanakobodr مطبوعة فى منشورات المعهد العلمى فى ڤينه سنة ١٩٠٩ وبعدها .

مرامى العنبر والابل المعنبرة :

ولن أحيد أصلا عن موضوع بحثنا حينما أستطرد إلى مرامى العنبر ولا سيما أن التاريخ العربى قد أقام لها وزنا .

ويقول الأستاذ حسن عبد السلام عن منشأ العنبر فى كتابه الذخيرة :

« ويغلب على الظن أن منشأه انعقادات صفراوية تتكون فى أمعاء بعض القياطس البحرية (Sqermaceti Whale) كما تتكون الحصوات الرارية عند الانسان وغيره من الحيوانات الثديية » .

والقياطس البحرية هى التى أسماها البحارة الحضرميون بالشوحطة ، وما عزب عن أذهانهم من فصيلتها كما أشرنا إلى ذلك .

ومرامى العنبر ليست محصورة بمكان واحد . فكما يوجد على شواطىء البرازيل وجزيرة مدغشقر وجزائر الهند الشرقية والصين واليابان وزيلندا الجديدة وأستراليا وساحل أفريقيا الشمالى كذلك يوجد على الشواطىء الهندية والعربية إلى باب المندب .

وللشواطىء الحضرمية نصيب من ذلك كما حدثنا التاريخ عنها فى القديم بل والحديث .

قال الهمدانى : (وبها - أى اليمن — مرامى العنبر على سيوفها والمهرة وبنى مجيد على سيفى بحر اليمن شرقا وغربا والجمال المنبرة . وذلك أن مساعها على الساحل ، وإذا اشتم الجمل العنبر به برك فلم يثر حتى يفتقده صاحبه ، فيطلبه فيجده بالقرب منها فيلتقطها . فان أبطأ عليه لم يبرح حتى تفتر قواه من الجوى وربما نفق فذلك خيفته عليها . صفة جزيرة العرب صفحة ٣٧) .

وقال فى موضع آخر : « وباليمن من كرام الإبل الأرحبية لأرحب بن الدعام من همدان ، والمهرية ثم من المهرية العيدية تنسب إلى العيد قبيلة من مهرة ، والصدفية ، والجرمية ، والداعرية تنسب إلى دعر من بلحراث ، والمجيدية ، ومنها الإبل المنبرة . صفحة ٢٠١ » .

وقسم أبو عبد الله محمد أبو طالب الأنصارى الدمشقى المعروف بشيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٨ هـ العنبر إلى خام ومبلوع . وله نظرية فى العنبر . أو هى نظرية المعلومات السائدة فى ذلك العصر وهذه النظرية لا تتفق والمعارف العصرية كما ذكرنا عن الأستاذ حسن عبد السلام ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه نبه فى آخر بحثه إلى ما هو معروف لدينا اليوم وقال : قال قوم : إن العنبر زبل هذه الدابة .

ولا غرو أن نتيح له الفرصة ليتحدث إلينا بمعلومات أجدادنا العرب السابقين قال :

« ولهذا المحيط — يقصد بذلك المحيط المغربى — مد وجزر كالمحيط المشرقى . ويقذف ساحله العنبر الخام من غالب جهاته

ولاسيما من خلجانه . والعنبر نبع من عيون من جبال بقعر البحر الملح الفارسي والحبشي والهنـدي والمغربي والصيني والموسوي فيركب بعضه بعضاً . وهو في حين خروجه شديد الفوران والحرارة فإذا لاقى برد المـاء جمد على أحجار وصار جماجم صغاراً وكباراً فيكون جموده كجمود الشمع إذا أصابه بعد ذوبه المـاء البارد فيبقى لاصقاً بتلك الصخور إلى أن يهيج البحر في زمن الشتاء فيقتلعه قطعاً قطعاً ويخرجه إلى سطحه فترمى به الأمواج إلى الساحل

وأجوده الذي يقع إلى ساحل الشحر من بلاد المهرة فيلتقطه الجلابون ؛ وربما ابتلعه سمك يسمى أوال ، فإذا ابتلعه مات من شدة حرارته فتربقه الأمواج أيضاً فيشق عنه جوفه ويستخرج منه ، وله رائحة زهمة ويسمى المبلوع والآخر الخام .

. والعنبر إذا ألقاه الموج إلى الساحل لا يأكل منه حيوان إلا مات ولا ينقر منه طائر إلا انفصل منه منقاره . وإذا وضع عليه رجليه نصلت أظفاره فإن أكل منه شيئاً مات .

وقد ورد في دابة العنبر حديث صحيح وهو : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث ثلاث مائة رجل سرية وأمّر عليهم أبا عبيدة ابن الجرّاح رضي الله عنه فأجهدهم الجوع حتى أن الرجل كان يقتات في اليوم والليلة بتمرة واحدة فبينما هم يسيرون على ساحل البحر إذ أصابوا دابة العنبر مثل الكثيب الأضخم ميتة فأكلوا منها شهراً حتى سمنوا وكانوا يغترفون من وقب عينيها الدهن بالقلال ، وأخذ أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم في الوقب ، وأخـذ ضلعاً من أضلاعها فنصبه ثم أدخل أعظم بعير وأركبه أطول رجل وأمره يدخل تحت الضلع فلم يبلغ رأسه منقعره . ولما رجعوا تزودوا من لحم السمكة حتى أوصلتهم إلى المدينة . فلما قدموا حكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هـذا رزق ساقه الله إليكم . فهـل معكم شيء فتطعمونا ؟ فأرسلوا إليه منه فأكل .

وقال قوم : إن العنبر زبل هذه الدابة . صفحة ١٣٣ — ١٣٤ من كتابه (نخبة الدهر وعجائب البر والبحر) المطبوع في بطرسبورغ سنة ١٢٨١ هـ و ١٨٦٥ م .

ومن نصه نفهم امتياز العنبر الذي يلقى على الشاطئ الحضرمي على غيره .

٢٦ و ٢٧

وللمسعودي إشارات إلى مرامى العنبر بالشواطئ الحضرمية والإبل المعنبرة فليراجعها من أحب .

ولا أعرف عن الإبل المعنبرة شيئاً اليوم . أما مرامى العنبر فلا تزال القياطس البحرية تكرم شواطئنا الحضرمية بعبراتها الودية في كل حين .

وهذه الإبل المعنبرة هي التي أشاد بذكرها التاريخ في سرعة السير كما تحدثت عنها الأسفار الأدبية . قال البعيث الحنفي :

وهاجرة يشوى مهاها سمومها   طبخت بها عيرانة واشتويتها
مفرجة منفوجـة حضرمية   مساندة سر المهارى انتقيتها
فطرت بها شجعاء قرماء جرشما   إذا عد مجد العيس قدم بيتها
وجدت أباها رائضيها وأمها   فأعطيت فيها الحكم حتى حويتها

وقال جرير :

وكيف ولا أشد حبال رحل   أروم إلى زيارتك المـــراما
من العيدى في نسب المهارى   تطير على أخشتهـــا اللغاما
وتعرف عنفهن على نحول   وقد لحقت ثمائلها انضماما

وقد غالى في القول أبو الشمقمق وجاوز الطرف إذ جعل نعليه تسابق الإبل المهرية على شدة سرعتها في السير ، ولندعه يحدثنا كما شاء له ظرفه وأدبه . قال :

رحل المطى إليك طلاب الندى   ورحلت نحوك ناقتى نعليه
إذ لم يكن لى يا يزيد مطيتى   فجعلتها لك في السفار مطيه
تحدى أمام اليعملات وتفتلى   في السير تترك خلفها المهريه ؟!
من كل طاوئة الصوى مزورة   قطعاً لسكل تنوفة روسيه
فإذا ركبت بها طريقاً عامراً   تنساب نحتى كانسياب الحيه
لولا الشراك لقد خشيت جماحها   وزمامها من أن تمس يديه ؟ !
تنتاب أكرم وائلا في بيتها   حسباً وقبـــة مجدها مبنيه
أعنى يزيداً سيف آل محمد   فراج كل شديدة مخفيه
يوماه يوم للمواهب والندى   خضل ويوم دم وخطف منيه
ولقد أتيتك واثقاً بك عالماً   أن لست تسمع مدحة بنسيه

ويقصد الشاعر بيزيد : يزيد بن المؤيد الشيباني ، وكان والياً على اليمن .

علي عبود العلوي

دعبل الشاعر الشجاع الوفى

للأستاذ عبد العظيم على قناوي

يتربص الرجل أن تضع زوجه حملها ليتخير لوليدها أحسن الأسماء ، فإن كان من التقاة الهداة تيمن باسم من يرى فيه الأسوة الحسنة ، والقدوة الطيبة ، وإن كان من الأثرياء أو السراة دارت بخلده أسماء الأغنياء والأشراف ينتقى منهم من يرى مسماه المثل فيما يشتهويه ، ولا أحسب والداً أو والدة يختاران لوليدهما اسماً قبيحاً أو لقباً مستهجناً لا سيما والأسماء بغير ثمن ، إلا إذا جاء ذلك ساعة دعابة أو مرح ، أوعقب واقعة أو حادث كأبى الشيص وخندف وثعلب وغيرها من الألقاب والكنى والأسماء .

وإذن فلم سمى أبو دعبل ابنه بهذا الإسم ؟ ألأنه رأى فيه منة وصلابة ؛ حتى إنه ليشبه الناقة القوية الضارعة ؟ أو لأنه لاحظ المنفعة والفائدة ، فللناقة لدى العرب من الفوائد ما لها ، فهى عماد حياة العربى ، كما أن الثور كان قديماً رأس مال المصرى . لعل أبا دعبل لاحظ الأمرين معاً ؛ فقد كان دعبل قوى الأسر طويل الجسم ، ولا بد أن يكون قد توسم فيه سراوة طبع وصفاء ذهن ، أو على الأقل هذا ما يراه كل والد فى ولده متى أهل ، فكرمه بهذا الإسم . ولقد وصف العرب الناقة ومنحوها من الصفات والنعوت ما أفعمت به أشعارهم ، وهذه معلقة طرفة بن العبد أبرز محاسنها وصف ناقته وصفاً دقيقاً فى نحو ثلاثين بيتاً ، فلم يترك عضواً إلا أبدع فى تصويره ؛ فمن ذلك قوله يصف خدها وعينيها ، ولعلهما أقل أعضائها حسناً :

وخد كقرطاس الشآمى ومشفر كسبت اليمانى قده لم يجرد
وعينان كالماويتين استكنتا بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد

وننتقل من سبب تسميته إلى حياته ونشأته الشعرية التى تبين صفتيه اللتين سنتحدث عنهما .

ولد دعبل فى العصر الذهبى لدولة بنى العباس ، فالملك ثابت الأساس موطد الأركان ، لايعرفون لبنى أمية شأنا ، ولا يخافون من بنى على نقضاً ، فالأولون قبع بعضهم فى دورهم يبغون نجاة ويطلبون سلامة وأمناً ، وبعضهم هجر جزيرة العرب ، ونزح من الشرق إلى المغرب ؛ فأسس ملكا وبنى دولة ، وأما الآخرون فاكتفوا بتلك الإمامة الوهمية يتوارثونها إماما عن إمام ، وشب دعبل عن الطوق ، واصطنع الشعر يعرضه على شعراء عصره ، وكان مسلم بن الوليد أدناهم إلى نفسه : فما زال هذا شأنه حتى أمره أستاذه بإذاعة شعره ؛ لأنه آنس منه جدة ، ورأى فيه روعة ، وكان أبدع ما أنشد ما قاله فى مدح آل علىّ وذكر مناقبهم ، وتعداد آثارهم ، ورثاء قتلاهم ، والتحسر على صرعاهم حتى صار بحق شاعرهم الذائد عن حياضهم ، الثابت على ولائه لهم ، لا يخشى فى حبهم لوماً ولا يخاف من إعلانه سخطاً ، بل هو بادى الخلفاء العداء ، فالملك لله وحده ، وأينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ؛ فماذا يبعث فى نفسه الهلع وهو ينصر آل الرسول ؟ ولكن أليس الرعديد الخوار قرأ هذه الآية كما قرأها دعبل ؟ لقد قرأها ولكنّ هلعه أنساه إياها ، وذكره بقول الله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فهو يتقى الشر ويتحاشى أن يقع فيه ، ولكن دعبلا كان يرى أنه فى نصرة آل علىّ يدعو لله ويدفع عن آل رسول الله ؛ فإن فاته زخرف الدنيا ؛ لم يفته أجر الآخرة ؛ إلى أنه يتصف بخلال نبيلة عدا الشجاعة فى الحق ، والجرأة فى الذود عنه شجاعة وجرأة يحسبهما الجبان طيشاً وحمقاً ويراهما الشهم النبيل رجولة ومنة ، ولله قول القائل فإنه ليصور فى وصفه دعبلا :

قل للجبان إذا تأخر سرجه هل أنت من شرك المنية ناجى (١)

كانت حياة دعبل أصدق مثل على أن الآجال موقوتة لا تستأخر ولا تستقدم ، فإنه عادى أولى البطش والطول ، وبادى البغضاء ذوى القوة والحول عداوة لدودة لا تعرف هوادة ، يذمهم ويقذع فى ذمه ، ويهجوهم ويفحش فى هجوه ، غير عابىء بما قد يصيبه ، فأرض الله واسعة ، وإذا قلته دار أقلته ديار ، وحسبه أن يجد من يقاسمه زاده ويشاطره رأيه ، روى عنه أنه قال : « لى خمسون سنة أحمل خشبتى على ظهرى أدور على من يصلبنى عليها فلا أجد من يفعل ذلك » .

والسر فى شجاعته أنه كان أول أمره وبدء نشأته من قطاع الطريق وولغة دماء البشر ، يميل إلى إشهار الشر ، ورفع يد البغى فى وجوه من يحاولون مساءته ، قال له أبو خالد الخزاعى : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ، ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك كله طريد شريد ، هارب خائف ، فلو كففت عن هذا ، وصرفت هذا الشر عن نفسك ؟ فقال له : ويحك ! إنى

(١) البيت لجرير من قصيدة يمدح بها الحجاج .

تأملت ما تقول ، فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على رهبة ، ولا يبالى بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخف شره ، ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب إليك فى تشريفه ، وعيوب النــاس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ، ولم يكن ذلك فيه انتفع بقوله ، فإذا رآك قد أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا خالد ! إن الهجاء المقرع آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع . قال أبو خالد . فضحكت من قوله وقلت : والله هذا مقال من لا يموت حتف أنفه ! »

بهذه النفسية الحانقة على البشر كان يعيش ، وبهذا المنظار الأســود الذى يرى به الناس صعاليك أوغاداً كان يرى كثرة معاشريه ومعاصريه ، فكيف يموت حتف أنفه ؟

لقد تحققت كهانة صاحبه ، فقد مات مقتولا بعد أن طارده الخلفاء والوزراء ، وانتهت حياته على يد أتباع مالك بن طوق أمير عرب الشام فى قرية من قرى الأهواز اغتالوه بها ، وانتقموا لمداته وهم كثر منه .

وفى دعبل صفة أخرى غير الشجاعة ، تلك هى الوفاء الصادق الذى لا يعرف فيه مينا ، والإخلاص الراسخ لا يشوبه خداع أو ختل ، وفا لآل على على ضعفهم ، ونصرهم بشعره طوال حياته على غير خلق الشعراء ، وليعذرنا سادتنا شعراء عصرنا » الذين تستولى عليهم عواطفهم ، وتتملكهم أهواؤهم ، فمن أجزل لهم صلته حمدوه ومدحوه ، ومن قبض دونهم يده نبذوه وذموه ، وله فى ذكرهم والإشادة بهم والتنبيه على شأنهم ووجوب إعظامهم قصائد رائعة وأبيات خالدة تدل على أن نظمه فيها كان صادراً عن شعور حار ووجدان متدفق وعاطفة حافزة ، بل تدل على أنه كان رجل عقيدة ورأى وإيمان ومذهب ، لا تأخذ منه زعازع أو أعاصير ، ولا يبلبل إيمانه مآسى ومحن ، ومن قصائده الباقية على الدهر قصيدته التى وهب له من أجلها على بن موسى الرضا عشرة آلاف درهم ، وخلع عليه بردة من ثيابه أريد على بيعها بثلاثين ألف درهم ، فأبى أن يساوم فيها ، فقطع الراغبون فيها عليه طريقه ليأخذوها قسراً فقال لهم : « إنها تراد لله عز وجل وهى محرمة عليكم » . فدفعوا له فيها المبلغ السالف ، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون فى كفنه فأعطوه كماً واحداً ، فكان بين أكفانه ، وأول هذه القصيدة هو :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذى الثفنات (١)
ديار عفاها كل جون مباكر ... ولم تعف للأيام والسنوات

ومنها :

ألم تر أنى من ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسما ... وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومهم ... وآل زياد حفل القصرات
بنات زياد فى القصور مصونة ... وبنت رسول الله فى الفلوات
إذا وُتروا مدوا إلى أهل وترهم ... أكفاً عن الأوتار منقبضات
فلولا الذى أرجوه فى اليوم أوغد ... لقطع قلبى إثرهم حسرات
خروج إمام لا محالة خارج ... يقوم على اسم الله والحرمات

وهى قصيدة طويلة تسيل عيون أبياتها بالعبرات ، وتصطخب أمواج بحرها بالحسرات ، فإذا كفكف من دمعه وهدأ من روعه ، فلأنه ينتظر أن يستأمن الدهر فيؤمنه ، ويستكشف المحن فتنكشف ، فهو ينشد :

فيا نفس طيبى ، ثم يا نفس أبشرى ... فغير بعيد كل ما هو آت
فإن قرب الرحمن من تلك مدتى ... وأخر من عمرى لطول حياتى
شفيت ولم أترك لنفسى رزية ... ورويت منهم منصلى وقناتى
أحاول نقل الشمس من مستقرها ... وأسمع أحجاراً من الصلدات

ولقد رثى الحسين رضى الله عنه رثاء يدمى العيون ويفتت الأكباد حتى لكأنه حضر مصرعه ، وشاهد موقعه ، فمن ذلك قوله :

رأس ابن بنت محمد ووصيه ... يا للرجال — على قناة ترفع
والمسلمون بمنظر وبمسمع ... لا جازع من ذا ولا متخشع
أيقظت أجفانا وكنت لها كرى ... وأنمت عيناً لم تكن بك تهجع
كحلت بمنظرك العيون عماية ... وأصم نعيك كل إذن تسمع
ما روضة إلا تمنت أنها ... لك مضجع ولخط قبرك موضع

هذه الأمثلة تدل على أن الرجل كان لا يخشى فى رأيه لوماً ، ولا يرهب أحداً ؛ فإنه ليهجو فى سبيل مدحه آل علىّ بنى العباس بشر القول ومقذع الهجاء . وأرى أن المأمون لم يكن ليقسو عليه لأنه عرف فيه خلتى الشجاعة والوفاء فأجله وأعظمه ، وكان كثيراً ما يستنشده شعره .

عبد العظيم على قناوى

(١) السجاد زين العابدين على بن الحسين وكان السجود أثر فى ركبتيه ، ولقب بهذا لطول سجوده وكثرته

مظاهر العبقرية
في الحضارة الاسلامية

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٣ —

ولما أظهر الله الإسلام تنفست هذه الفئات المضطهدة الصعداء، وأخذت تسير بسيره، وتترسم خطاه، وإذ آنست فيه إلى ظل نظام عادل، فقد أخذت تؤسس فى كل حاضرة من حواضر الإسلام مدارس للعلم ومجالس للعلماء، وأهم هـذه المدارس على الإطلاق هى مدرسة الأسكندرية المشهورة.

وباتساع رقعة الإسلام أخذ الخلفاء يستعينون بهؤلاء العلماء على تنظيم شئون امبراطوريتهم السياسية، ولما ترادفت عليهم — أى الخلفاء — الفتوح، ودانت لهم الأقطار أخذوا يتطلعون إلى موارد العلم والمدنية والثقافة، ولم يفتهم قط أن يستعينوا بعلم هذه الطبقات الراقية التى خضعت لسلطانهم، ودخلت فى حوزتهم، وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نجمل العوامل الرئيسية التى عملت فى تنشئة الفكر العربى وإعداده إعداداً علمياً صحيحاً لتلقى الحضارة فى خمسة عوامل هامة وهى[١]:

أولا — النساطرة، وقد استمان هؤلاء على نشر أفكارهم فى بلاد العرب بتعاليم منتزعة من الفلسفة اليونانية حتى لقد كان كل نسطورى بحكم الضرورة معلماً فى الفلسفة اليونانية، وهم إلى جانب ذلك أول مدرسة تهذب فيها الفكر العربى باحتكاكه بالثقافة اليونانية، وأول من خدم الطب فى العصور الأولى.

ثانياً — اليعاقبة، وإليهم يرجع الفضل الأول فى إدخال الأفلاطونية الجديدة، ومذهب الباطنية فى جو الثقافة العربية.

ثالثاً — الزرادشتيون فى بلاد فارس، وأهم مدارسهم هى مدرسة جنديسابور التى أسسها «كسرى أنو شروان» وكانت تضم طائفة من العلماء الذين شردهم الإمبراطور «يوستيانوس» حين أمر بإغلاق جميع المدارس والهياكل فى أثينا. وكانت

(١) تاريخ الفكر العربى لاسماعيل مظهر.

تدرس فى هذه المدرسة الكتب اليونانية والسريانية والفلسفة الهندية وآدابها وعلومها، وفى هذه المدرسة أيضاً ازدهر الطب ونما إذ تخلص من ضغط الكنيسة، وتحرر من قيود العلوم اللاهوتية. واشتهر فى هذه المدرسة قبل الإسلام الحارث بن كلدة الطبيب المشهور، وابنه النضر، وقد ذكره ابن سينا مع الذين هزموا يوم بدر، ثم أسرو قتله على بن أبى طالب صبراً.[١]

رابعاً — مدرسة حران الوثنية، ولسنا نعرف مؤسس هذه المدرسة ولا كيفية نشأتها، والذى وصلنا إلينا عن حران هو أنهـا كانت مثابة لتعاليم الديانة اليونانية القديمة بعد أن طغت عليها المسيحية فى العالم اليونانى. والراجح أن حران قد ورثت كثيراً من تعاليم الديانة البابلية القديمة، وأن هذه المدرسة أيضاً قد كانت متأثرة إلى حد بعيد بتعاليم الأفلاطونية الجديدة كما وصفها «فرفوريوس الصورى».

خامساً — العبرانيون، وأهم مدارسهم فى صور، وبامباديثا وكانت عاكفة على درس شرائعهم التقليـدية، ولئن ورث العبرانيون عن النساطرة نزعة إلى علم الطب إلا أنهم لم يتفقوا عليهم قط، وقد ذكر «لكلارك» فى كتابه تاريخ الطب عند العرب فى القرن العاشر ٢٩ طبيباً مسيحياً، على حين لم يذكر سوى ثلاثة من أطباء اليهود وأربعة من وثنى حران.

وإلى جانب هذه العوامل الرئيسية التى استمد منها الفكر العربى أسلوب دارسة الحضارتين القديمتين، اليونانية والرومانية، فقد كانت هناك مراكز هامة أخرى للثقافة اليونانية فقد ذكر «ديبل» أنه كان فى كل من أنطاكية، والرها، ونصيبين — وذكر أيضاً حران — إبان الفتح الإسلامى مدارس راقية أحسن أساتذتها فهم الثقافة الإغريقية، وفلسفة أرسطو، والعلوم والطب المعروفة عند القدماء. وقال أيضاً: «إن خلفاء بنى أمية كانوا يرجعون إلى هؤلاء الأساتذة ليستعينوا بهم على نقل أهم كتب اليونان والبيزنطيين العلمية والأدبية إلى السريانية والعربية»[٢].

العرب والترجمة:

بعد أن تثقف العرب على يد هؤلاء الأساتذة وجهوا هممهم

(١) زهر الآداب ص ٢٧ ج ١ — لأبى إسحق الحصرى القيروانى
(٢) Diehl yzuvee

إلى دراسة الحضارتين : اليونانية والرومانية دراسة مستقلة ، واستخراج أهم روائعهما التى قد تفيدهم فى بناء حضارتهم . فعكفوا على دراسة المؤلفات القديمة ، واجتهدوا فى تفهمها وشرحها ثم علقوا عليها ذيولا ضافية ، ظهر فيها طابع العبقرية الاسلامية ، وعدلوا فيها ونقدوها ، وزادوا من عندهم أشياء جديدة ، وكان لهم نظر صائب فى إمازة الغث من السمين ، والوضع من الأصل . ومن الذين اشتهروا فى ميدان الترجمة كان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان[1] المعروف بحكيم آل مروان ، فقد ترجم كثيراً من كتب الفلاسفة ، ولا سيما كتب علوم الطب والنجوم والكيمياء والآلات ، والصناعات من اللسان اليونانى والقبطى والسريانى « وكانت الترجمة أحيانا من اليونانية إلى العبرانية ، ومن العبرانية إلى السريانية » ويقال إن خالداً هذا كان أول من أنشأ دار كتب فى الإسلام ، وقد أنشأها فى دمشق[2] .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز ، ترجم كتاب الطب الذى ألفه أهرن بن أعين ، إلى اللغة العربية بأمر هذا الخليفة الصالح[3] .

ويقسم بعضهم تاريخ الترجمة عند العرب إلى قسمين : أما الأول فيبتدىء من ١٣٢ هـ — ١٩٨ هـ أى منذ بداية خلافة السفاح إلى خاتمة عصر الأمين ، وفى هذا العصر ظهرت العبقرية العربية واضحة جلية . لا سيما فى الكتب التى ترجمها عبد الله ابن المقفع إلى العربية .

العصر المأمونى :

أما القسم الثانى من تاريخ الترجمة عند العرب فيبتدىء بتسنم المأمون ذروة الخلافة ويعرف بالعصر المأمونى ، ويضاهى هذا العصر فى تاريخ الحضارة العربية ، بتقدم العلوم فيه وازدهارها ، عصر بركليس فى أثينا . وأهم ما يمتاز به هو إنشاء بيت الحكمة التى أقامها الخليفة المأمون فى بغداد ، فجمعت فى خزائنها أشهر الكتب العلمية القديمة ، وضمت بين جدرانها كبار المشتغلين بالعلوم والفلسفة والنقل . وكان يتولى الهيمنة على إدارة دار الكتب

(١) خطط الشام ج ٤ ص ٢٠ لمحمد كرد على .

(٢) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٦٤ .

(٣) تاريخ دمشق : لابن عساكر .

هذه الوزير المعروف ، سهل بن هارون ، وجاء فى بعض الروايات[1] أن يحيى بن أبى منصور الموصلى المنجم المعروف ، ومحمد بن موسى الخوارزمى صاحب الأزياج المشهورة والمصور الأرضى البديع الصنع ، كانا من خزنة بيت الحكمة المأمونى . وكان علان الشعوبى ، والفضل بن نوبخت ، وأولاد شاكر من الذين يترددون على هذه الدار إما للمطالعة ، أو للنسخ والترجمة والتأليف .

وفى هذا الدور أيضاً بعث المأمون إلى حاكم صقلية المسيحى يأمره بأن يرسل إليه جميع الكتب العلمية والفلسفية الموجودة فى مكتبة صقلية الشهيرة ، فتردد هذا فى إرسالها ، وضن بها كل الضن ، ولما ألح عليه الخليفة فى الطلب جمع كبار رجالات الدولة واستشارهم فى الأمر ، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله « إرسلها إليه فوالله ما دخلت هذه العلوم فى أمة إلا أفسدتها » فعمل الحاكم بمشورته ، وهى إن دلت على شىء فلا تدل إلا على مقدار كراهية رجال الاكليروس للعلم ، ونفورهم من ظل العلماء .

وفى هذا الدور أيضاً جمع المأمون بعض حكماء عصره ، على صنعة الصورة التى نسبت إليه ودعيت بالصورة المأمونية[2] صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره ، وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك ، وهى أحسن مما تقدمها من جغرافية بطليموس ، وجغرافية مارينوس . وقد وضع له علماء رسم الأرض — وكانوا على ما يرويه الزهرى سبعين رجلا من فلاسفة العراق ، كتاباً فى الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد التى أظلتها الراية العباسية ، هذا إلى عنايته بالفلك ، وفلكيه الفزارى أول من استعمل الاسطرلاب من العرب ، وعنى بالطبيعة والرياضيات فوق عنايته بالطب ومعرفة العقاقير والنبات والحيوان ، وفتح المأمون باب العقل والتفكير الحر على مصراعيه فى جميع البحوث .

وفى عصر المأمون أيضاً تأسست أول مدرسة للترجمة فى العالم العربى ، وكانت تتألف من حنين بن إسحق ، وابنه إسحق بن حنين ، وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقى وغيرهم . وقد أسس

(١) عصر المأمون ج١ ص ٣٣٥ للدكتور أحمد فريد الرفاعى .

(٢) خطط الشام والاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢١٣ لمحمد كرد على وعصر المأمون ج ١ ص ٣٢٦ .

المأمون هذه المدرسة فى بغداد ، فقامت خير قيام بنقل جميع المتون اليونانية المشهورة إلى اللسان العربى ، وكانت هذه المدرسة أيضاً تشرف على إصلاح جميع ماينقله الغير إلى اللسان العربى[١] .

ومن الكتب التى ترجها وعلق عليها حنين بن إسحق بأمر الخليفة المأمون : كتاب الإيساغوجى لفرفوريوس وارمانوطيقا لأرسطاطاليس ، وجزءاً من الأناليطيقا وجزءاً من الميتافيزيقا ، وتلخيصات نقولاوس الدمشقى وتعليقات الاسكندر الأفروديسى والجزء الأعظم من مؤلفات جالينوس ، وديوشقورس وبولس الأجانيطى ، وأبقراط .

ويروى أن المأمون كان يعطيه من الذهب[٢] زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلا بمثل . وقال أبو سليمان المنطقى إن بنى شاكر ، وهم محمد وأحمد والحسن كانوا يرزقون جماعة من النقلة : منهم حنين بن إسحق ، وثابت بن أبى قرة وغيرهم فى الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة .

وكان يتمتع حنين بن إسحق بمكانة[٣] سامية عند خلفاء بنى العباس ، إذ أحلوه منزلة سامية من الاجلال والاحترام ، وكان أبوه صيدلياً فى جند يسابور[٤] ، وثقفه فى بغداد جبرائيل ابن بختيشوع واشتهر فى زمن المأمون وعاش إلى زمان المتوكل .

وقد ترجم ابنه إسحق بن حنين مقالة أرسطوطاليس فى الروح (De Anima) ، وقد علق عليها فيما بعد الافروديسى ، وتعد هذه الترجمة النادرة اليوم من أهم المراجع لدرس الفلسفة فى عصرنا الحاضر ، ويعلل الأديب الأستاذ إسماعيل مظهر هذه الظاهرة باتجاه الفكر فى الأزمنة الحديثة إلى درس البسيكولوجيا وابتعاده عن درس المنطق .

يقول القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى : « ... ثم لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد تمم ما بدأ به جده المنصور ، فأقبل على طلب العلم فى مواضعه ، وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس ، وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستجاد لها مهرة التراجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حض الناس على قراءتها ، ورغبهم فى تعليمها ، وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده ؛ وأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس فى دقة الصناعة العملية والتباهى بأخلاق النفس ، والتفاخر بالقوى إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها ، وتفضلهم فى كثير منها ، فلهذا السبب كان أهل العلم فى كل زمان هم مصابيح الدجى ، وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم » .

وقد بلغ من اهتمام المأمون بالعلوم وحثه على طلبها أن أصبح يضرب به المثل فى عظم الحركة العلمية ، حتى لقد مثله « نولدكه » بأنوشروان وغيره من رسل الثقافة العامة .

يقول الدكتور طوطح فى رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : « إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكباً على مطالعة رسائله مع أترابه فى مدرسة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة اقضيتها هناك فى بغداد » . وقال إن المأمون أوفد عميد بيت الحكمة إلى بلاد اليونان لنقل حكمة اليونان وعلوم اليونان إلى اللغة العربية[١] .

على أنه ليس فى وسعنا أن نصور عصر المأمون الذهبى فى مثل هذه الكلمة المجلى ، وحسبنا أن نختم الكلام فيه بعبارة السير وليام موير[٢] الموجزة البليغة إذ يقول : لقد كان المأمون عاملا من عوامل النهضة العلمية ، على حين كان الملوك المعاصرون له فى أوربا فى الدرك الأسفل من الجهالة ، ولقد كان عصره يحاكى عصر بركليس فى أثينا من جميع الوجوه .

الجامعات العربية :

وقد أنشأ العرب فى فتوحهم عدة جامعات كبرى ، وكانت جامعاتهم فى البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة وبلرم وسالرنو وأشبيلية تغص بالعلماء والمتعلمين الذين كانوا يقصدونها من أقصى أطراف العالم الغربى الأوروبى ، وفى عهد الخليفتين : عبد الرحمن الثالث والحكم بن عبد الرحمن ، بلغت مدارس قرطبة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة[٣] ، وكان فيها إلى جانب هذه

(١) تاريخ الفكر العربى ص ٢٣ .
(٢) عصر المأمون ج ١
(٣) تاريخ الفكر العربى
(٤) أخبار الحكماء ص ٢٤٨

(١) عصر المأمون ج ١ ص ٣٩٤
(٢) Coiliphates, by Sir. W. Muir
(٣) Onrliel of history, H . g . Wells :

المدارس أيضاً مكتبة حافلة يقال إنها حوت خمسمائة ألف مجلد .

يقول دوزى[1] لم يكن فى كل الأندلس أمىّ واحد يوم لم يكن فى أوروبا من يلم بالقراءة والكتابة إلا الطبقة العليا من القسوس ، وكان العلماء والأدباء والفلاسفة فيها يختلفون إلى مختلف المجامع — كالمجامع العلمية اليوم — للتفاهم والمناظرة .

وقد كان طلبة العلم من مسيحيى أوروبا يفدون أفواجاً على جامعة قرطبة لتلقى العلم فيها ، وعن طريق هذه الجامعة الشهيرة انتقلت الفلسفة العربية إلى مختلف أقطار أوروبا وظهر أثرها واضحاً بليغاً فى جامعات باريس واكسفورد ، وإيطاليا الشمالية وسائر أقطار أوروبا الغربية[2] ومن الذين تأثرت الحركة الفكرية فى أوروبا ببحوثهم ؛ كان أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد مولود قرطبة ؛ فقد ألف هذا العبقرى الفذ فى الفلسفة الطبيعية وفى المادة والقوة ، وقدم العالم ، والطب والرياضات والفلك ؛ وعدل تعاليم الفيلسوف أرسطاطاليس الفلسفية وفصل بها بين اللاهوت والعلم فحسبه قومه كافراً ونبذه بعضهم ولكن « لاوى بن جرسون » ترجم كتاباته إلى اللاتينية وشاركه فى ذلك ابن زبون فوصلت كتابات ابن رشد الفيلسوف العربى إلى العالم اللاتينى سنة ١٢٥٠ فاستند إليها الطبيعيون ، والعلماء ، والفلاسفة ، والاشترا كيون واعتمدها دانس سكوتش كما اعتمد أرسطو ؛ وحتى قال بعض علماء الغرب . إنما ابن رشد كان خميرة أوروبا ، وقد رسخت قدمه فى جامعات شمالى إيطاليا ثلاثمائة عام ، ومن أتباعه بطرس أبو تسيس وجون جندن وأوربانس فى بولونيا ، وبولس فى فينيسيا سنة ١٤٢٨ م ، وكاجاتانوس النيسيى حتى أن الفيلسوفة السيدة كسندرا فيدال دافعت عن ابن رشد[3] ، وقد تسربت فلسفته أيضاً إلى جامعتى بولونيا وبدوى[4] .

ومن مشهورى العرب والإسلام الذين نبغوا فى هذه المدارس أيضاً نذكر الطبيب ابن سيناء ، والفيلسوف الفارابى ، وابن باجه ، وسنعود لدراستهم فى غير هذا الصدد وفى غير هذا المكان .

(يتبع) خليل جمعة الطوال

(١) Dozy ; Hist.des Mus . d Espauge

(٢) تاريخ المسلمين فى أسبانيا : لدوزى و . مختصر التاريخ ولز .

(٣) ا ـ المستشرقون . ب ـ بحث لجيلر .

(٤) فلسفة ابن رشد و . دائرة المعارف البريطانية

بعد الوداع . . . !

للأستاذ محمد عبد الرحيم إدريس

بعد ذاك الوداع سرتُ وحيداً ... أذرعُ الأرض مستهاماً شريدا
يا لبؤس الوداع يُطلقُ فى القلــب اضطراباً وفى الخُطى تقييدا
يا لتلك الكأس المريرة أحسُو ... ها برغمى وأننى عن بعيدا !
يا لسخر الأقدار عند وداعى ... تسأل القلب أين يمضى وحيدا ؟!
وتمــدُّ الديارَ لى وكأنى ... سألاقى بها حبيباً جديداً
كلُّ دارٍ تزور عنى وتنأى ... أىُّ دار تضمُّ هذا الطريدا ؟
كلُّ دارٍ مالم تكن أنت فيها ... طَللٌ يسقم الفؤاد العميدا
كل دار تضيَّقتنى وحيدا ... أطعمتنى الأشجان والتسهيدا

* * *

يا رياح الشتاء هـذا شراعى ... قد ترامى على يديك شهيدا
أبعديه عن كلِّ شطٍّ عزاءٍ ... واقذفيه باليأس جهماً عنيدا
أسلميه إلى العباب الدوِّى ... واطرحيه عن الحياة بعيدا !
أمطريه أسىً وظلمة ليلٍ ... وهبيه صواعقاً ورعُودا
أو دعيه يمضى إلى الهمِّ طوعاً ... إنه عن صخوره لن يحيدا
واحملى للفناء قلــبى وصُبِّى
فوق هذا الصِّبا الوريف الوعيدا
وابعدى عن فمى كُؤُوس دموعى
فلقــد ارتوى وأمضى سعيدا !

* * *

بعد هذا النَّوى دفنتُ بنفسى ... أملاً كنتُ أشتهى أن أرودا
كنتُ أرجو أن لافراق على الدهــر بغير الرَّدى عبوساً مريدا
كنت أرجو حتى غلاب المنيَّا ... ت بذكرى تضفى علينا الخلودا
غير أنى أرى سراب الأمانى ... ثمناً للفراق كان زهيدا !

(الأسكندرية) محمد عبد الرحيم إدريس



جوائز فؤاد الأول وفاروق الأول :

صدر مرسوم ملكي بإنشاء جوائز فؤاد الأول وجوائز فاروق الأول ، وهذا نصه بعد الديباجة :

١ — تنشأ ثلاث جوائز سنوية تسمى جوائز فؤاد الأول ، وتكون كل منها ١٠٠٠ جنيه مصرى ، وتمنح لصاحب أحسن عمل أو إنتاج فى الآداب والقانون والعلوم

٢ — تنشأ ثلاث جوائز سنوية تسمى جوائز فاروق الأول قيمة كل منها ١٠٠٠ جنيه مصرى تمنحها وزارة المعارف العمومية لصاحب أحسن عمل أو إنتاج فى فرع من الفروع الرئيسية للعلوم

٣ — يكون منح الجوائز المنصوص عليها فى المادتين الأولى والثانية وفقاً للشروط الملحقة بهذا المرسوم

٤ — على وزير المعارف العمومية تنفيذ هذا المرسوم الذى يعمل به من تاريخ نشره فى الجريدة الرسمية

شروط منح الجوائز

وورد فى الملحق المشار إليه فى المرسوم عن شروط منح هذه الجوائز أنها تمنح سنوياً للمصريين عن إنتاجهم فى الموضوعات الآتية : الآداب ، القانون ، العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية ، علوم الحياة (البيولوجيا) ، العلوم الكيميائية ، العلوم الجيولوجية .

وتشمل جائزة الآداب : الآداب البحتة مثل الأدب القصصى الأدب التصويرى ، الأدب الاجتماعى ، الشعر ، البحوث الأدبية (النقد ، البحوث اللغوية ، الدراسات الإسلامية الأدبية) والتاريخ والجغرافيا ، والفلسفة والآثار .

وتشمل جائزة القانون : القانون الخاص ، ويشمل القانون المدنى والقانون التجارى وأوضاع التقاضى ، والعلوم الجنائية ، وتشمل القانون الجنائى والإجراءات الجنائية وعلم الإجرام . والقانون العام ، ويشمل القانون الإدارى والقانون الدستورى والقانون الدولى . وتشمل جوائز العلوم : العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية مثل علم الطبيعة التجريبى وعلم الطبيعة النظرى والعلوم الإحصائية وعلم طبيعة الأجرام السماوية (الاسترفيزيقا) والهيدروليكا والميكانيكا والكهرباء ، وعلوم الحياة مثل النبات والحيوان والفسيولوجيا والطفيليات والتشريح البشرى والحيوانى والطب وفروعه والأحياء المائية والعلوم الكيميائية مثل الكيمياء العضوية وغير العضوية والكيمياء الحيوية والتغذية ، والعلوم الجيولوجية وتشمل علم الطبيعيات الأرضية (الجيوفيزيقا) .

وتؤلف لهذه الجوائز لجنة دائمة مكونة من وزير المعارف رئيساً ، وستة أعضاء يمثلون الفروع المختلفة ، ويكون تعيينهم بمرسوم ، ومدة عضويتهم ثلاث سنوات قابلة للتجديد

وتختار اللجنة الدائمة فى كل عام لجاناً لفحص الإنتاج المقدم فى كل مادة ، ويجوز أن يختار لهذه اللجان بعض أعضاء اللجنة الدائمة ، ويكون تعيين أعضاء هذه اللجان بقرار يصدر من وزير المعارف ، ويمنح أعضاء لجان الفحص مكافآت يحددها وزير المعارف . هذا ، ويعلن سنوياً عن مسابقة فى كل من المواد الست المذكورة فى البند الأول ، ويخصص لكل منها جائزة مقدارها ١٠٠٠ جنيه مصرى ، وللمؤلف أن يتقدم بإنتاجه إلى المسابقة بنفسه ، أو أن تتقدم به بعض الجهات أو الهيئات العلمية والأدبية ، ومع هذا فيصح للجنة الدائمة المنصوص عنها فى البند الخامس أن تدخل فى المسابقة من تلقاء نفسها التآليف التى ترى أنها جديرة بالنظر ، ولو لم يتقدم بها المؤلف ، أو من يقوم مقامه .

وتحدد اللجنة الدائمة فى كل عام فرعاً أو أكثر من الآداب والقانون والعلوم تخصص للانتاج فيها جوائز العام ، وتعلن عن ذلك قبل الموعد المحدد لتقديم المؤلفات بستة شهور على الأقل .

ويشترط فى الإنتاج الذى يقدم فى المسابقة فى كل عام ما يأتى :

أن يكون ذا قيمة علمية أو فنية ممتازة تظهر فيه دقة البحث والابتكار ، وتهدف خاصة إلى ما يفيد مصر والإنتاج القومى

وأن يكون قد سبق نشره ولم يمض على نشره لأول مرة أكثر من خمس سنوات من تاريخ الإعلان

وأن يكون باللغة العربية الفصحى .

ولا يجوز التقدم من جديد بإنتاج سبق تقديمه .

ويقدم الإنتاج لنيل جوائز فؤاد الأول قبل اليوم الأول من شهر يناير من كل عام .

ولنيل جوائز فاروق الأول قبل اليوم الأول من شهر أكتوبر من كل عام .

وتمنح الجائزة كاملة لأحسن إنتاج يقدم فى موضوع المسابقة . ومع ذلك فيجوز — إذا رأت اللجنة أن إنتاجين متقاربين ولا يمتاز أحدهما عن الآخر امتيازاً ظاهراً — أن تقسم الجائزة بينهما بالتساوى ، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تقسم الجائزة إلى أكثر من ذلك .

ويجوز للجنة أن توصى بأن يوفد إلى الخارج على نفقة الدولة من يدل إنتاجه على امتياز ظاهر ، سواء ممن نالوا الجوائز أو لم ينالوها ، وذلك تمكيناً له من الاتصال بالمعاهد العلمية أو الهيئات العالمية لاستكمال البحث أو الاستزادة منه .

وإذا لم تمنح الجائزة المقررة للمسابقة فى مادة من المواد فى عام ما استبقيت إلى العام الذى يليه . وفى هذه الحالة يعلن عن المسابقة فى الفرع الذى خصصت له جائزة العام مع الفرع الآخر

ويجوز أن يتقدم شخص واحد بأكثر من إنتاج فى سنة واحدة

هذا ، ويحدد وزير المعارف الفروع التى تخصص للانتاج فيها جوائز سنة ١٩٤٧ ، ويحدد موعد الإعلان عنها وموعد تقديم الإنتاج .

أبو شأس الشاعر :

نقل الأديب شكرى محمود أحمد (فى عدد الرسالة ٦٨٨) بضع مقطوعات من شعر أبى شأس ، من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ، والديارات للشابشتى ، ووجد بعضها أيضاً منسوباً إلى أبى نواس فى ديوانه ، فتسرع الأديب شكرى وادعى أن أبا شأس هذا هو أبو نواس نفسه ، وأن الناسخ صحف هذا الإسم « أبا نواس » فصيره « أبا شاس » ، وإن ابن فضل الله العمرى ، وأحمد زكى باشا ، وحبيب الزيات ، لم يفطنوا لهذا التصحيف ، وقال إنه لم يعثر له على ذكر فى أى مصدر آخر .

ولو رجع الأديب إلى مظان أسماء الشعراء لتحقق أن هناك شعراء يكنون بأبى شأس ، منهم أبو شأس التميمى ، وأبو شأس الطبرى ، المذكوران فى (معجم الشعراء للمرزبانى) المطبوع بالقاهرة .

وهنالك شعراء يتسمون بشأس ، منهم شأس بن نهار بن الأسود بن عبد القيس ، وهو الممزق العبدى الشاعر المشهور ، على ما فى تاج العروس شرح القاموس ، وقد ذكره الآمدى فى كتابه (المؤتلف والمختلف) المطبوع مع (معجم الشعراء) ، وأورد له شعراً .

وأما نسبة بعض الأبيات إلى أبى نواس أيضاً ، فهذا يقع كثيراً ، فكم من شعر لشعراء مشهورين مفيقين[1] تراه منسوباً إلى غيرهم تعمداً أو خطأ .

زكى الحافظ الفيومى

الامام الواعظ أحمد الغزالى :

نشر الأستاذ على سامى النشار مدرس الفلسفة بجامعة فاروق بحثاً قيماً عن أحمد الغزالى فى مجلة الأزهر جزء ٣ مجلد ١٤ — وقد صرح فى آخره بعدم عثوره على مؤلف له بقوله : « وليس بين أيدينا أيضاً كتب لأحمد الغزالى لتبين لنا عقيدته ... »

وإنى قد عثرت أخيراً على مؤلف صغير الحجم للامام المذكور — ضمن مجموعة لأبى حامد — يسمى « كتاب التجريد فى كلمة التوحيد » يحتوى على فصول صغيرة غير مرقومة ، وكلها شروح وتعليقات على كلمة التوحيد — لا إله إلا الله — وتمتاز هذه الفصول على تنوعها بغلبة الوعظ عليها ، ومزجها بالكتاب الكريم والسنة النبوية والحكم المأثورة .

وهى تدل على تبحر الشيخ وعلو كعبه . إذ أن فى هذه الفصول تحقيقات صوفية وخواطر ربانية وأسرارا روحية !

ولعل فى نقل فقرات من فصول هذا الكتاب ما ينير الطريق لمن يريد البحث عن عقيدة الإمام . جاء فى مقدمة كتابه : قال الشيخ الأجل جمال الإسلام أحمد بن محمد بن محمد الغزالى

---

(١) شاعر مفيق : مفلق على ما فى القاموس المحيط وغيره .

رحمة الله عليه فى الحديث الصحيح والنقل الوارد الصحيح عن سيد البشر محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم قال ذلك خبراً عن الله تعالى: لا إله إلا الله حصنى فمن دخل حصنى أمن من عذابى. قال الشيخ الإمام رحمة الله عليه لا إله إلا الله هى الحصن الأكبر وهى علم التوحيد ؛ من تحصن بحصنها فقد حصل سعادة الأبد ونعيم السرمد ، ومن تخلف عن التحصن بها فقد حصل شقاوة الأبد وعذاب السرمد . ومهما تكن هذه الكلمة حصناً دائراً على دائرة قلبك وروحها نقطة تلك الدائرة وسلطانها حارساً يمنع نفسك وهواك وشيطانك من الدخول إلى تلك النقطة فأنت خارج الحصن ومجرد قولك لا يزن مثقال ذرة ، ولا يعدل جناح بعوضة . فانظر ما هو نصيبك من هذه الكلمة فإن كان نصيبك روحها ومعناها « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » وهو نصيب سيد الخلائق محمد صلى الله عليه وسلم ومائة ألف نبى ونيف وعشرين ألف نبى فقد حزت ذخر الكونين وفزت بسعادة الدارين ... الخ .

وفى الفصل الثالث : إذا قلت لا إله إلا الله إن كان مسكنها منك اللسان لاثمرة لها فى القلب فأنت منافق ، وإن كان مسكنها منك القلب فأنت مؤمن ، وإن كان مسكنها منك الروح فأنت عاشق ، وإن كان مسكنها منك السر فأنت مكاشف . فالإيمان الأول إيمان العوام والثانى إيمان الخواص والثالث إيمان خواص الخواص ... الخ .

وفى الفصل الحادى عشر : افتح بصر بصيرتك فإنه ليس فى الوجود شىء إلا وهو يقول لا إله إلا الله « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » الآية « يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض » يدل بوجوده على موجده وبخلقه على خالقه ...

وفى الفصل الخامس عشر : اجعل رأس مال بضاعتك التوحيد ، وملاذ أمرك التجريد ، واجعل غناك افتقارك وعزك انكسارك ، وذكرك شعارك ، ومحبتك دثارك ، وتقواك إزارك فإن كنت مفتقراً إلى زاد وراحلة وخفير فاجعل زادك الافتقار ، ومطيتك الانكسار ، وخفيرك الأذكار ، وأنيسك المحبة ومقصد سفرك القربة . فإن ربحت فقد ربحت ... الخ .

وفى الفصل السابع عشر : متى تتنبه من سنة غفلتك ، وتصحو من خمار سكرتك ؛ فتفهم ما تذكر وتعلم ما تقول ، أمرت بالفهم ثم بالذكر ، وأمرت بالعلم ثم بالقول فما لم تعلم لا تقل وما لم تفهم لا تذكر . إذا قلت لا إله إلا الله وأنت غافل القلب غائب الفهم ساهى السر فلست بذاكر « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » إذا ذكرته فلتكن كلك قلباً ، وإذا نطقت به فلتكن كلك لسانا ، وإذا سمعت فلتكن كلك سمعاً ؛ وإلا فأنت تضرب فى حديد بارد :

إذا ذكرتك كاد الشوق يقتلنى وغفلتى عنك أحزان وأوجاع
فصار كلى قلوبا فيك واعية للسقم فيها وللآلام إسراع

وفى الفصل السادس والعشرين : اعلم أن شجرة لا إله إلا الله شجرة السعادة فإن غرستها فى منبت التصديق وسقيتها من ماء الإخلاص وراعيتها بالعمل الصالح رسخت عروقها وثبت ساقها واخضرت أوراقها ، وأينعت ثمارها ، وتضاعف أكلها ... الخ .

وفى الفصل الثلاثين : أعرف عبدى ؛ خلقت الأشياء كلها من أجلك وخلقتك من أجلى فاشتغلت بالنعمة عن المنعم وبالعطاء عن المعطى . فما أديت شكر نعمته ولا راعيت حرمة عطائه ، كل نعمة شغلتك عنى فهى نقمة ، وكل عطية ألهتك عنى فهى بلية ... الخ .

وفى الفصل الحادى والثلاثين : عبدى أنا الذى أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ؛ أعطى لا لباعث ، وأمنع لا لحادث ، وأسعد لا لعلة ، وأخلق لا لقلة ، وأبتلى بالشكر لا لحاجة ، وقد خلت الأحدية وتقدست الصمدية عن البواعث والعلل ، لو كانت الإرادة هى عن باعث لكان محمولا ، ولو كانت عن حادث لكان معلولا وليس بمحمول ولا معلول ؛ بل خالق البواعث والعلل « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

وفى الفصل الثانى والثلاثين : عبدى ليس فى الوجود إلا أنا فلا تشتغل إلا بى ولا تقبل إلا علىّ إن حصلت لك فقد حصل كل شىء وإن فتك فقد فات كل شىء ... الخ .

على أن عقيدة الشيخ الواعظ فياحة كالعطر ؛ شذاها فى ثنايا كتابه الصغير ، ويؤيد هذا قول الأستاذ إنه تبحر فى علوم الشريعة ثم دخل طريق القوم عن دراية ؛ وقد عهد إليه أخوه بالتدريس فى النظامية ؛ كما يدل على سمو رتبته فى الطريق ما قاله

في أخيه عند ما سئل [1] عنه . كل هذه دلائل على سلامة عقيدة الشيخ من كل زيغ .

وفي الحق إن هذا الواعظ الصوفي صنو أخيه ، وإن كان أقل منه شهرة . يعرف ذلك كل من سلك طريق القوم ، وكل ميسر لما خلق له !

هذه كلمة ما أردت بها إلا وجه الحق . وفقنا الله جميعاً للصواب .

(شطانوف) **محمد منصور خضر**

اللائحة الداخلية لمجلة الأزهر :

تألفت في يوم الأربعاء ٢٤ من أبريل سنة ١٩٤٦ لجنة لوضع نظام لمجلة الأزهر برياسة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر وقررت ما يلي :

أولا – تنظيم مجلة الأزهر بحيث تصلح لحمل رسالة الجامع الأزهر والتعبير عنها أكمل تعبير .

ثانيا – أن تكون المجلة من غزارة المادة وتنوع البحوث بحيث تشمل الاتجاهات الثقافية والاصلاحية للجامع الأزهر .

ثالثا – أن يكون لها ملحق يكتب بلغة أجنبية في موضوع يهم من لا يعرف العربية من المسلمين وغيرهم أو يشتمل على طبعة مستقلة لبعض المخطوطات العربية القيمة أو لما يظهر في المجلة من بحوث .

رابعا – أن تظهر المجلة في نحو مائة صفحة في أول كل شهر عربي ماعدا شهري الحر الشديد ، وتكون سنتها عشرة أشهر .

ورأت اللجنة أن تحدد أغراض المجلة والموضوعات التي تنشر فيها على النحو التالي :

أغراض المجلة هي : الدفاع عن الاسلام وبيان فضائله والتعبير عن مساهمة الأزهر في العناية بالدراسات الاسلامية عناية إنشائية وتكون حلقة اتصال بين الأزهر وسائر الجامعات والمعاهد العلمية من جهة ، وبين الأزهر والرأي العام المثقف من جهة أخرى ، وتكون أداة تعليم للأزهريين وأداة توجيه ديني وإصلاحي للمسلمين.

(١) قيل لأحمد : أين أبو حامد ؟ قال في الدم ، وذكر ذلك لأبي حامد فقال : صدق . كنت أفتكر في مسألة من مسائل المستحاضة .



التجربة ...

للأستاذ نجاتي صدقي

رآها تسير فى بوليفار غامبيتا بباريس ، وبرفقتها رجل سمين مترهل يكبرها بعشرين حولا على وجه التقريب ، فظنها ابنته ... ومما عزز فيه هذا الظن أن الرجل كان يسير إلى جانبها بخطوات آلية متئدة ... فى حين أن الفتاة كانت كتلة من النشاط والحيوية ... تسير وكأنها تقوم بحركات من الرقص الإيقاعى ... وكان الهواء يعبث بشعرها الذهبى فيتطاير ألسنة هى أشبه بألسنة اللهيب ... أما عيناها المتقدتان فكانتا لا تفتآن تتطلعان هنا وهناك .

ولما وقع نظرها عليه ابتسمت له ، وظلت تتطلع فيه حتى صار خلفها ، ثم أدارت رأسها نحوه ثلاث مرات ... أما هو فقد آنسته عنايتها هذه به ، فتتبع أثرها إلى أن ولجت مع الرجل فندقاً صغيراً ، ويبدو أن الفتاة أحست أن الفتى قد اقتفى أثرها مستجيباً لندائها ، فالتفتت إلى الوراء وهى تعبر عتبة الفندق وأومأت له برأسها ، فأدرك بأن عليه أن ينتظر .

وبعد عشر دقائق نفرت الفتاة من الفندق ، فاقترب منها الفتى ، وصافحها كما لو أنه ربى وإياها ... وصافحته هى كما لو أنه عزيز على قلبها كان غائباً فأتى ... وسارا جنباً إلى جنب ... ثم بادرها الكلام بقوله :

— أظن أنكما لستما من باريس ؟

— كلا ، نحن من النورماندى .

— ويلوح لى أنه والدك ... أليس كذلك ؟

— كلا إنه زوجى ...

— ماذا ... زوجك ؟ ... أنت فتاة يانعة يافعة وهو رجل يكبرك جداً ، وسمين ، ومترهل ، وعديم الحيوية ، فكيف قبلت به بعلا لك ؟

— كنت جاهلة ولم أفقه معنى الزواج فوقعت فى أحبولته ، وزوجت به ... والآن أفقت إلى نفسى ... فرأيت أننى فى واد ، وفتى أحلامى فى واد آخر .

— ولم أتيتما إلى باريس ؟

— لأننى أردت المجىء إلى مدينة النور هذه ، مدينة اللهو والحب الأعمى ، فطالما طالعت فى الصحف الباريزية إعلانات وأخباراً مثيرة ، فصممت على أن آتى إلى باريس بأية وسيلة كانت لأمتع نفسى بملاذها ... ولأختبر آثامها ولو فى أيام قلائل ! ... فاختلقت المرض .

اعترت الفتى الدهشة من مسلك هذه الفتاة الجامحة ... ففكر فى أن يردعها عن غيها ، لكن الشيطان شدد عليه الوطأة ، وزين له الإثم الذى هى تسعى إليه ... فقال لها مبتسماً : أمأذونية أنت فى هذه الساعة ؟

قالت — استحصلت على إذن من زوجى لمدة أربع ساعات لأزور صديقة لى هنا ، فالساعة الآن الخامسة ، وعلى أن أعود إلى الفندق فى تمام الساعة التاسعة مساء .

حملق الفتى فى وجهها ، وحملقت فى وجهه ، وشد على يدها وشدت على يده ، فتأبط ذراعها وسارا فى « بوليفار غامبيتا » الطويل ... ثم راح يسرد لها منهاجه لاستغلال هذه الساعات المعدودات على أكمل وجه ، وقال — نذهب الآن إلى جامع باريس ، فنأكل كباباً وبقلاوة ، ثم نذهب إلى متنزه (بوتشومون) ، ثم نذهب إلى مقهى فنحتسى بعض المشروب ، ثم نزور دار السينما ... ثم نعرج على فندق لأخذ شىء ما ... ثم نعود إلى فندقك فى تمام الساعة التاسعة ، أتوافقين ؟

— جداً ... جداً ... إنه لمنهج ممتع .

— يالها من أويقات عذبة سنقضيها معاً فى باريس .

— هذا جل ما أتمناه ... فأنت الطبيب الذى أسعى إليه ...

— أستمكثان طويلا فى عاصمة النور ؟ ...

— ثلاثة أيام فقط .

— شىء مؤسف حقاً !

— لماذا ؟

— أتسألين لماذا أيضاً ... إنه ليشق على أن أفارق هذا الجمال، وهذا الصبا، بمثل هذه السرعة.

— أيهمك أمرى بعد انقضاء هذه الأيام الثلاثة؟

احتار الفتى فيما يجيب ... أيقول لها بأنه لا يهتم بأمرها، فربما تعتبر ذلك إهانة لها وتنفر منه، أم يقول لها بأن أمرها يهمه جداً، فتعتبر ذلك اطراء وترضى عليه؟ ... وبعد تردد قليل قال:

— يهمنى أمرك جداً ياعزيزتى ... وثقى بأننى لن أنساك ما دمت على قيد الحياة، وسأراسلك دائماً. بل سأبذل أقصى جهدى لكى أزورك فى بلدك، كونى عند حسن ظنك بى ...

وما إن سمعت الفتاة هذا الكلام حتى امتقع وجهها. وانطوت على نفسها، وهى تفكر فى أمر غامض ... وكان لسان حالها يقول:

— هل ارتكاب الإثم فى باريس يتطلب حباً؟ ... إننى لم آت إلى عاصمة اللهو والملذات لكى أجد لى زوجاً ثانياً ... إننى لا أود شخصاً ليراسلنى ويتبعنى من مكان إلى آخر ... إننى تصورت اللذة الباريسية بمثابة كأس من الخمرة يحتسى على عجل، وينتهى الأمر أما وأن هذه اللذة ستسبب لى متاعب ومراسلات ومطاردات فهذا مما لا أريده ألبتة.

ولما مرا بكنيسة فى حىّ «مون مارتر» قالت الفتاة:

— أتأذن لى بالدخول إلى الكنيسة قليلا؟ ...

فانتفض الفتى، وقال — أتريدين الصلاة؟!.

قالت — أجل ... لخمس دقائق فقط ... انتظرنى عند باب الكنيسة، كما انتظرتنى عند باب الفندق.

مضت خمس دقائق، فصارت عشراً، وخمس عشرة ... فانزعج الفتى ودخل الكنيسة فرأى فى طرفها الأيمن جماعة من النسوة الضالات، والرجال الضالين، وأمامهم قسيس يتلو عليهم فقرات من الاصحاح الرابع لرسالة يعقوب فيقول:

(أيها الزناة والزوانى! ... أما تعلمون أن محبة العالم عداوة الله ... قاوموا إبليس فيهرب منكم ... اقتربوا إلى الله فيقترب إليكم ... نقّوا أيديكم أيها الخطاة، وطهروا قلوبكم يا ذوى الرأيين، اكتئبوا ونوحوا وابكوا ... ليتحول ضحككم إلى نواح، وفرحكم إلى غم ... اتضعوا قدام الرب فيرفعكم).

اندس الفتى بين هذا الرهط من الناس باحثاً عن فتاته، إلا أنه لم ير لها أثراً ... ثم أجال نظره فى أرجاء الكنيسة، فلمح أن لها باباً آخر، فاشتبه بأن الفتاة أخطأت المخرج، فالحق بها ... وإذ بلغ الباب وجد قسيساً يحاول إغلاقه فاستوقفه بلطف وقال له: عم مساء أيها الأب!

— عم مساء يابنى.

— أبانا ... ألم تر فتاة خرجت من هذا الباب قبل دقائق معدودات ... وهى تلبس قبعة قش واسعة الأطراف، مطوقة بشريط أخضر ينتهى بباقة صغيرة من الورد؟ ...

فأشاح القس بوجهه عن الفتى، وقطب حاجبيه ... ثم قال:

— أهذا أنت؟ ... اذهب فى سبيلك يابنى ... ولا تسخر نفسك لتجارب الشيطان ... أجل ... رأيتها، واعترفت! ...

وأغلق باب الكنيسة فى وجهه ...

نجاتى صدقى

وزارة المعارف العمومية :

الجامعة الشعبية
وفروعها بالاقاليم

تنظم الجامعة الشعبية دراسات عقلية وفنية ومهنية لتكوين الشخصية وترقية الملكات ورفع المستوى الثقافى والفكرى والاجتماعى وذلك عن طريق نشر ألوان الثقافة العامة بين جميع طبقات الشعب على أساس من الرغبة الشخصية دون اشتراط مؤهلات معينة .

وقد تقرر أن تفتتح الجامعة أربعة عشر مركزاً ثقافياً فى الأقاليم تتبع الجامعة وتسير على نظمها ، وقريباً تفتتح مراكز ثقافية فى الأسكندرية وعواصم الأقاليم .

نظام الانتساب :

حق الانتساب للجامعة أو فروعها مباح للكبار من الجنسين على السواء ممن يحسنون القراءة والكتابة .

وعند قبول الطالب يسدد رسماً قدره مائتى مليم عن كل شعبة دراسية للموسم الثقافى الواحد .

مواد الدراسة هى :

١ — الشعبة الطبية والصحية .

وتهدف إلى مكافحة الأمية الصحية .

٢ — الشعبة التاريخية :

وتهتم بدراسة تاريخ مصر الحديث وحضارتها كأساس للتربية القومية .

٣ — شعبة التجارة الاقتصادية :

وتشمل إمساك الدفاتر والرياضيات التجارية وطرق التجارة وإدارة الأعمال وأسس الاقتصاد القومى .

٤ — الشعبة الفنية :

وتشمل فنون التصوير والنحت والزخرفة والموسيقى والتمثيل .

٥ و ٦ — شعبتا الصناعات الميكانيكية والزخرفية وتشملان :

تجارة الأثاث — الزخرفة والتذهيب — النسيج — الطباعة — السجاد والكليم — معادن وصياغة — التصوير الضوئى والسينمائى — الكيميا الصناعية — البرادة — الخراطة — السيارات — ساعات — كهرباء — لاسلكى آلات — تليفونات الخ .

٧ — الشعبة السياسية القومية الدولية :

ترمى إلى نشر الثقافة السياسية المستنيرة بين الطلاب سواء فى الشئون الداخلية أو الخارجية . ومبادئ القانون الدولى .

٨ — الشعبة الأدبية :

تهدف إلى رفع المستوى الأدبى بين الطلاب وتربية الذوق الأدبى السليم .

٩ — شعبة الدراسات الاجتماعية :

تهدف نحو تبصير الطلاب بالمشاكل الاجتماعية والجهود التى تبذل لعلاجها .

١٠ — الشعبة العلمية :

وتشمل دراسة العلوم الطبيعية حيث تتناول معرفة أهم المظاهر فى الحياة العلمية .

١١ — الشعبة الزراعية :

تهدف نحو العناية بنشر الثقافة الزراعية بين أهل المدن وزيادة التوجيه الفنى بين أهل الريف .

١٢ — الشعبة النسوية :

تشمل الطهى والحياكة والادارة والصحة والاجتماع . وتهدف إلى تزويد الفتاة أوربة البيت بما تحتاجه من ثقافة تساعدها على النهوض بأعباء الأسرة وتكوين جيل جديد

وتفتتح فروع فى الأحياء المختلفة متى توافر عدد الطالبات وذلك تيسيراً لهن فى حضور الدراسات .

الدراسة :

تبدأ فى أوائل أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

الطلبات :

تقدم طلبات الانتساب للجامعة وفروعها فى الأقاليم إلى إدارة الجامعة بالقاهرة بريد البرلمان للاستعلامات يومياً فى الصباح من الساعة التاسعة إلى الواحدة . وبعد الظهر من الخامسة إلى التاسعة — تليفون ٤٩٢٧٤ . ٦٠١٩

وزارة الأوقـــــــــاف

تشن بيع الأطيان الآتية بجلسة الخميس ١٧ أكتوبر ســـنة ١٩٤٦

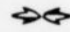
الجهـــة	الساحـــة			الثمن الأساسى للفدان	جهات الجلسات
	س	ط	فدان	جنـــيه	
الغربى بهجورة مركز نجع حمادى	٢٠	٠٣	٠٦	٢٠٠	منطقة نجع حمـادى
»	١٢	١٣	٠٢	١٧٥	» » »
»	١٦	٢٣	٣٦	١٧٠	» » »
»	٠٠	١٥	١٤	١٨٠	» » »
»	١٦	١١	٢٤	١٧٠	» » »
»	٢٠	٠٨	٠١	٢٠٠	» » »
»	٠٠	١٢	٠	١٨٠	» » »
»	١٦	٠٩	٠١	١٨٠	» » »
النجمة والحران مركز نجع حمادى	١٦	١٠	٠٢	١٧٥	» » »
شرحه	١٦	١٠	٠٤	٢٢٠	» » »
	٠٠	٠٦	٠	١٥٠	» » »
	٠٠	١٧	٠٣	٢٥٠	» » »
القمانة مركز نجع حمادى	١٢	٠١	٠٠	٤٨٠	» » »
الشرق سمهود نجع حمادى	٠٠	٠٠	٠٢	٠٨٥	» » »
شرحه	١٢	٠١	٠٠	١٨٠	» » »
أبو طشت مركز نجع حمادى	١٦	١٢	٥٠	١٨٠	» » »
أولاد نجم مركز نجع حمادى	٠٤	٠٦	٠٠	٢٤٠	» » »
النجمة والحران نجع حمـادى	٠٨	١٠	٠١	٢٤٠	» » »

[طبعت بدار الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين]

العدد ٦٩١ — الاثنين ٣٠ سبتمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد



٢٧٠٢٧

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 691

Lundi—30—9—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٩١ « القاهرة في يوم الإثنين ٥ ذو القعدة سنة ١٣٦٥ — ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الآراء الخـــاطفة...

للأستاذ عباس محمود العقاد

الحركات الخاطفة معروفة في ميادين الأدب كما عرفت قديماً وحديثاً في ميادين الحروب

وهي تنجح في هــذه الميادين كما تنجح في تلك الميادين، فليست الأناة لازمة في كل عمل، وليس البطء في التفكير مطلوباً من كل أحد:

وربما فات قوماً جل أمرهم ... من التأني وكان الأمر لو عجلوا

كما قيل بحق وصواب

ولكن الحركات الخاطفة قد تنهزم في ميادين الأدب كما تنهزم في ميادين القتال، لأنها لا تصلح لكل موضع ولا تنتصر على جميع الأعداء

وعيبها الأكبر في الآراء الأدبية أنها سريعة الرواج سريعة الإقناع، وأنها تجتذب إليها « على وجه السرعة » أولئك الذين ينفرون من التمحيص لأنهم لا يستطيعونه أو لا يجدون له متسعاً من الفراغ، فيقبلون كل ما قيل ويصدقون في معظم الأحوال ما هو حقيق بالتكذيب والإعراض

ومن هذه الآراء الخاطفة آراء بعض الناقدين المحدثين في أدب الصحافة أو فيما يكتبه الأدباء في الصحف والمجلات. فعند هؤلاء الناقدين المحدثين أن الأديب لا ينبغي أن يكتب للصحف والمجلات، وأنه لا يكتب فيها شيئاً يستحق أن يعيش إلى غير الأجل الموقوت الذي يقدر لأخبار الصحافة وحوادث اليوم أو الشهر أو العام على أبعد الآجال

وفي هذا الرأي آفة الآراء الخاطفة جمعاء

فهو صحيح وغير صحيح، أو هو لا يقبل كله ولا يرفض كله، ولكنه يروج بصوابه وخطئه عنــد من « يخطفون » الآراء ويقابلون عجلة التفكير بعجلة الإصغاء

فهذا الرأي صحيح إذا كانت كلمة « الكتابة » تشمل التفكير والتجربة والدراسة والمراجعة وتدوين الكلام على الأوراق

فالكاتب الذي يفكر ويجرب ويدرس ويراجع في الساعة التي يدون فيها كلامه على الورق يخطئ في حق الأدب وفي حق نفسه ولا يستحق البقاء بعــد طي الصحيفة التي يكتب فيها بساعات أو أيام

ولكنه إذا كان يودع الصحيفة ثمرة التفكير الصحيح والتجربة الطويلة والدرس الدقيق والمراجعة المتوالية، فما هو الفارق بين إيداع هذه الثمرة في صفحات مجلة أو صفحات كتاب؟

وما هو وجه الخطأ في تعويد القارئ الصحفي أن يطالع الموضوعات المدروسة إلى جانب الموضوعات العابرة وأحاديث الفضول والسمر الرخيص؟

لا فارق في هذه الحالة بين أدب الكتب وأدب الصحافة،

ولا خطأ فى اقتران الجد بالهزل ، لأنه خير من استئثار الهزل وحده بعقول القراء « الصحفيين »

ومن الواجب هنا أن نفرق بين تفكير وتفكير ، وبين إسراع وإسراع ، وبين ثمرة وثمرة

فإذا كان الكاتب يفهم فى أسبوع ما ليس يفهمه الكاتب الآخر فى سنة أو بضع سنوات ، فليس هذا البطء بالمزية المحمودة ولا ذلك الإسراع بالذنب المعيب

وليست السلحفاة أفضل من العصفور لأنها سلحفاة ، ولا العصفور أعجز من السلحفاة لأنه عصفور

وإنما المعول على « الثمرة » لا على الزمن الذى تصل فيه هذه الثمرة إلى آكليها . فإذا وصلت إليهم فى القطار السريع فليس حتما لزاماً عليهم أن يردوها إلى البستان ليحملها إليهم بائع يمشى على قدميه !

كذلك لا يعاب الأديب لأنه يكتب فى الموضوعات الهينة أو موضوعات الصحافة على اختلاف مواعيدها ، فإنما المعول على ما يقول فى موضوعاتها لا على عناوين تلك الموضوعات ، وربما كتب بعضهم فى الحروب العالمية فضاعت فى قراءته اللحظات فضلا عن الساعات ، وكتب بعضهم فى لعب الأطفال فكانت كتابته أحق بالقراءة والحفظ من كتابة ذلك فى حروب الأمم وقيام الدولات أو سقوط الدولات

ولم نر من الأدباء المعاصرين من طرق هذا البحث فأحسن فيه كما أحسن الأستاذ محمد روحى فيصل فى مقاله بمجلة « الفكر » السورية حين قال : « ... أرى مع ذلك أن الصحافى إذا استأنى فى تحقيق كلته ، وجرى فيما يكتب على مهل وعناية ، وحلل البواعث وتصور النتائج وأحب وكره وخاصم فى المثل الأعلى كان أديباً يأدق ما فى الأدب من الخصائص ، كما أن الأديب إذا أسرع فى تركيز صوره وعرض تصوره صار إلى الصحافة وهو لا يدرى »

وهذا هو الرأى السديد فى موضوع الأدب والصحافة كما نراه ، ولو عاد إلينا الجاحظ والأصفهانى وابن سينا وأدباء العربية الأقدمون أجمعين لرأوه مثلنا بلا خلاف فى الجملة أو التفصيل ، لأننا لا نحسبهم قضوا فى تدوين مصنفاتهم المرسلة وقتاً أطول من الوقت الذى يقضيه الصحفى اليوم فى كتابة مقال ، ولكنهم قضوا الوقت الطويل فى الجمع والتحصيل ، فهان عليهم بعد ذلك أمر التدوين والتسجيل

***

وعلى ذكر الكتابة المرسلة نذكر الآراء « الخاطفة » التى تقال هذه الأيام عن السجع والترسل فى بعض الموضوعات

فقد تلقف بعضهم كلام الناقدين فى نقد السجع فحسب أن السجع معيب على كل حال ، وأنه أسلوب قديم لا يطرقه الكتاب المحدثون ولا يوافق كتابة العصر الحديث !

وكنا قد تناولنا كاتباً منهم بالتسخيف والتفنيد فى عبارات مسجوعة ، فظن أنه « أديب حديث » لأنه لا يسجع ، وأننا أناس جامدون لأننا نستخدم السجع فى بعض العبارات !

ونحن نتعمد السجع أحياناً للسخرية أو للتوكيد والتقرير ، ونفهم لماذا يعيبه الناقدون فنفهم أنه أسلوب يطرق فى هذا العصر كما يطرق فى كل زمان ، لأن السجع لا يعاب لذاته ، ولكنه يعاب لأن المتقيدين به يهملون المعنى فى سبيل القافية أو الفاصلة ، فيعاب عليهم هذا الإهمال ، ولو كان مجرد العناية بالقافية عيباً لعيب الشعر كله فى اللغة العربية على التخصيص ، لأنه يجمع القافية والوزن معاً وينفرد الكلام المنثور بالقوافى دون الأوزان .

أما إذا اتفق السجع والمعنى فلماذا يعاب ؟ بل لماذا لا يستحسن ويطلب فى الكلام المنثور ؟ إنه زيادة فيه وليس بنقص ، ومزية فيه وليس بعيب ، ومطلب يراد وليس بمأخذ يجتنب ، ولنا أن نتحدى من ينكره فى بعض عباراتنا أن يمحوه ويرسل الكلام فى موضعه ، فإن لم يكن الترسل فى هذه الحالة هو المخل بالمعنى ، فهو المحق فى نقده ونحن المبطلون !

***

ومن هذه الآراء « الخاطفة » نقد الناقدين « الخاطفين » لوصف الناقة أو وصف الصحراء فى عصرنا الحديث

عز عليهم أن يفهموا لماذا عيب هذا على الشعراء المتقدمين فحسبوا أنه منقود على الإطلاق ، وأن آية التحريم قد نزلت على وصف النوق والصحراوات إلى أبد الآبيد

وليس الأمر كذلك

فإنما يعاب وصف الناقة على المحاكاة كما تعاب المحاكاة في وصف الطيارة من أحدث طراز ، وكما تعاب المحاكاة في وصف القنبلة الذرية ، وكل مخترع يأتي بعد القنبلة الذرية ، ولو أتى بعدها بعدة قرون

والجبال أقدم من الناقة ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟ والبحار أقدم من الجبال ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟ والكواكب والشموس أقدم من الجبال ومن البحار ومن الأرض نفسها ، فهل يحرم وصفها على الشعراء والكتاب ؟

والعجب أن تخفى هذه الحقيقة البينة على أحد ممن يفقهون الشعر أو لا يفقهونه ! فكيف خفيت على أولئك النقاد ؟

ما نخالها خفيت عليهم إلا لأنهم حسبوا أن الناقة « أداة مواصلات » ، ووصفها الشعراء الأقدمون لأنها أداة مواصلات . فلا يحسن بالشعراء المحدثين أن يتركوا أدوات مواصلاتهم ليصفوا النوق في الصحراء

والناقة ليست بأداة مواصلات وكفى ، إلا إذا كان راكبها جمالا وكفى

ولكنها حيوان وراكبها إنسان ، وشأن الحيوان والإنسان باق في الشعر وفي الإحساس والتعبير عن الإحساس إلى آخر الزمان

وهي بهذه الشابة أحدث من طيارة اليوم وطيارة القرن الثلاثين وما بعد القرن الثلاثين

وكذلك الصحراء وأهل الصحراء ، وكذلك كل بقعة من بقاع الأرض وكل مطلع من مطالع السماء

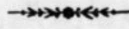
فالشاعر الذي تروعه الصحراء ولا ينظم فيها أعرق في المحاكاة والتقليد من الشعراء المتقدمين ، والأديب الذي يحسب أن الطيارة قد نسخت الناقة والجواد وسائر المطايا الحية لا يحس الحياة ولا الأحياء

وهذه تعقيبات تقال ، ولا بد أن تقال وتعاد على تلك الآراء الخاطفة التي تروج بين خطاف الآراء والمذاهب في هذه الآونة ، ولكنها ليست بالتعقيبات الخاطفة كما يرى القراء

عباس محمود العقاد

القيم . . .

للأستاذ عبد المنعم خلاف



من ذا الذي يستطيع أن يرد على الناس إيمانهم « بالقيم » العظيمة التي تعمر الوجود ، وكانت تعمر القلوب إلى ما قبل هذا العصر المادي ، عصر زوال الحدود وكثير من الفروق القديمة بين الأشياء والأمور ؟ إنها رسالة المخلصين للحياة لرد الإيمان بالحياة نفسها إلى قلوب أوشكت أن تفقد إحساسها بالحياة ...

إن الكون العظيم قائم على نسب ثابتة ، وحدود واضحة بين الجمال والقبح ، والصحة والفساد ، والنظام والفوضى ، وكانت عقول الناس وطباعهم متأثرة بما في طبيعة الكون من هذه النسب والحدود . لا تحاول طمسها بفلسفتها ، ولا تغييرها بمقدرتها العلمية ؛ لأن الكون المادي ظل في قوالبه القديمة وحدوده الجامدة ، لا يستطيع الناس الخلط بينها إلى أن أتى هذا العصر الذي زالت فيه كثير من الحدود والمسافات بين الأشياء والأمكنة فزالت الحدود كذلك بين الخير والشر والجمال والقبح أو خيل للناس أنها زالت ، واتسع مدى الخلط والتأويل ، لأن رجال الأخلاق لم يسايروا المنطق العصري فيجعلوا الحكم النفسي على « قيم » الأمور متمشياً مع الفهم العلمي الجديد لها ، وهذا كله نتيجة لتخلف الروح تخلفاً بعيداً عن سير الحياة المادية وقد صار الناس لا يتذوقون الأشياء المادية تذوقاً روحياً يضفي عليها ظلال التأويل ، ويخلع عليها لونا من حياة القلوب نفسها فيخرجها في هالة روحية وطاقة نفسية .

خذ أمثلة : الانتقال السريع بالطيران ، والاتصال الخاطف باللاسلكي ، والمقدرة الساحقة بالكهرباء والفولاذ والقوى الذرية .. إنها أعمال واقعية الآن ، وكانت إلى ما قبيل الربع الأول من هذا القرن أحلاماً إنسانية خالدة لا تقترب من خيال الناس إلا حيث يدور حديث الآلهة والكائنات القادرة التي تتصل بالآلهة ... والتي لا سدود ولا قيود في عالمها

والآن بعد أن صارت هذه الأعمال من أعمال الانسان ابن المعجز القديم ، صار يفعلها وهو فى ذهول عن « قيمة » مايفعل ، كأنها لم تكن يوماً ما أحلاماً عن عالم الآلهة ! وإنى أعتقد أن أزمات الحياة الآن ناشئة عن هذا الذهول الشنيع الناشىء من إهمال الوعاظ والأخلاقيين والمربين أن يجعلوا هذه المقدرة الانسانية الأخيرة مجالا عظيما من مجالات الوعظ والارشاد لإيقاظ الإنسان أولا إلى « قيمة » ما يفعله الآن .

ونحن إذا أفلحنا فى أن نجعل الفرد الإنسانى يتذوق هذه الأعمال المادية اليومية التى يفعلها تذوقاً روحياً يجعله يتلفت بالفكر والقلب إلى قيمتها ، نفلح لاشك فى أن نعود به إلى رؤية « القيم » العظيمة الخالدة التى تعمر الوجود ، وكانت تعمر القلوب أيام العجز قبل التسلط المادى الأخير .

وبديهى أن الطفل الناشىء فى هذا العصر بين القطارات والطائرات والبرقيات وعالم الكهرباء ينشأ وهو يرى هذه الأشياء كأنها أشياء طبيعية لا تسترعى انتباهه ، ولا تثير اهتمامه ، لأنه ألفها منذ نشأته ؛ فيمر عليها مخدراً بالألفة ، ولا يعرف لها قيمة تجعله يلتفت إلى « الإنسانية » التفاتة خاصة يدرك بها تفردها وامتيازها .

ومن هنا ينشأ الذهول عن « القيم » الثابتة التى فى الوجود ؛ كالحق ، والخير ، والجمال ، والمروءة ، والإيمان ، وغير أولئك من معايير الحياة القديمة التى كانت تسجد على أقدامها قلوب الناس أيام العجز .

وما أدرى : لعل هذا الكائن الإنسانى سيأتى عليه عصر يشعر فيه بقدرة فائقة ، ولعله حينئذ يستحيى كما يستحيى الخلائق العقلاء الكاملون أن يعتدوا على « قيم » الحق والخير . لأن حياة الإنسان القادر لا تستقيم ولا تستمر إن لم يقمها على الحق والخير ، والحق والخير هما أساس هذا الوجود الذى نعيش فيه ، ولا يعمى عنهما وعن أخواتهما كائن يخلف الله فى الأرض تلك الخلافة الواسعة

والحياة الفردية والحياة الاجتماعية قد أثر فيهما فقد « القيم » الآن تأثيراً خطيراً هو الذى يجعلهما على قلق واضطراب وتقطع أمر . فلست ترى الفرد الذى يستحيى من نفسه إذا فعل القبيح أو الضار حينما يخلو بتلك النفس اللوامة ؛ لأنه صار يرى الأعمال بدون « قيمها » ، وصارت الفلسفات الأبيقورية والميكيافللية تمهد له وتبرر عمله ، وتسمفه بالأعذار الكاذبة الخادعة ، فلا يسمع لضميره صوتاً ينكر عليه ، لأنه فقد الحساسية بالقيمة الخلقية للأعمال ، وأسعفته الحريات التى صارت شعار العصر ، واختلطت فيها حرية الفكر والرأى بحرية الطباع ، وحرية الطباع معناها الانطلاق وراء البدوات والنزوات ، والبدوات والنزوات هى امتداد حياة الطفولة التى لا تدرك « قيم » الأشياء ، وامتداد طيشها الذى لا يحسب حساب عواقب الأعمال والأقوال .

ولست ترى كذلك الآن الدولة التى تحترم العهد والكلمة والشرف لأن فقد « القيم » قد انتقل إلى المجال الدولى كذلك كنتيجة طبيعية للحياة الفردية الحالية . وهى حالة بالغة الخطورة إن لم يتداركها المربون والمفكرون بالسعى المتواصل لرد « القيم » إلى مكانها من القلوب والأشياء ، وخلع القداسة على كل حرمات الحياة ، وإحاطة النظم والقوانين والعقائد السامية بهالة من الاحترام والاعتبار ؛ حتى تحد من الفجور الذى يصحب القدرة المادية الفائقة ، وتكفكف من غلواء الغرور الذى تبعثه السيطرة على القوى . ذلك الغرور الذى جعل الولايات المتحدة الأمريكية توشك أن تتنكر لرسالتها الإنسانية ، وتغفل عن تاريخ أبطالها العالميين حين اهتدت إلى سر القنبلة الذرية الذى جعل لها المقام الأول فى التسلح والقدرة على البطش . فهى الآن تسير فى سياستها العالمية تحت تأثير غرورها بأنها حائزة أسرار ذلك الطارق العنيف الذى جعل اليابان تركع على قدميها إثر ضربتين اثنتين من ذلك الطارق .

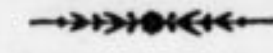
فقيمة رسالتها الإنسانية قد أثر فيها زيادة مقدرتها المادية ، وقوتها المحاربة ، لأنها خطت خطوة واسعة فى العلم لم يصحبها خطوة موازية فى الروح التى تخلع القيم على الأشياء ، وإن رد القيمة الخلقية للأعمال والأشياء رسالة تحتاج إلى معجزات من الجهاد الموصول والإخلاص الإنسانى والاستمداد من رب الحياة الذى جعل فى الإنسانية مرونة تجعلها تدرك رشد أمرها وتكيف حياتها حسب مصلحتها ، وتخرج من الأهوال وفيها بقايا حياة تسمح بتجديد شملتها ، وامتداد وجودها فى كل الظروف والأحوال .

وأعظم أسلحة الجهاد فى هذا السبيل هو التفاؤل والتأميل ، وعدم اليأس من روح الله ؛ مع اليقين الثابت بأنه ما خلقنا إلا للخير ولو بدا فى ثياب الشر لدى أنظارنا القصيرة .

عبد المنعم خلاف

هـــــــزل . . . !

للأستاذ محمود محمد شاكر



يخيل إلىّ أن بين قلمى والليل صبابةً أو هوًى قديماً . فطالما رأيتنى أعقد الرأى والعزمَ نهاراً على شىء أجعل الكتابة له قيداً إذا جنّ الليلُ ، فما أكاد أحملُ القلم وأبدأ حتى أرى القلم ينقض علىّ رأيى وعزمى ويمضى إلى حيث شاء كما شاء ، فما يُبقى من آية النهار المبصرة شيئاً إلا طمسَهُ أو أزاله أو نكَّر من معارفه . وما أظنّ إلا أن كل كاتب قد ابتُلِىَ من قلمه بمثل الذى ابتُليتُ به أو بشىء يقاربه . ومن أعسر شىء ألقاه من هذا القلم أنى ربما بدأتُ الكتابة ، فإذا هو مِطواعٌ حثيثٌ ماض لا يتوقف ، وإذا كلِمٌ مرسلةٌ إليه ليقيدها ، فإذا هو كالفرس الحرون قد ركب رأسه وأبى إباء ، فلا أزال أرفقُ به وأستحثُّه وأديره بين أناملى ليلين ما استعصى من طباعه ، ولكنه يأبى إلا لجاجةً وعناداً ، ثم ينزع إلى وجه غير الذى أردتُ ، وإذا أنا مضطر أن أعود من حيث بدأ هو لا من حيث أردتُ أنا أن أبدأ ، وعندئذ يمضى على هواه وعلى ما خيّلتْ . وقد عرفت ذلك من عاداته قديماً ، فما يكاد يفعل ذلك حتى أثوبَ به إلى ورقة أخرى فأبدأ الكتابة من حيث أرادُ ، وأمرى لله .

أفترانى أخطئ إذا أنا زعمت أن لقلم الكاتب شخصية مستقلة بل منفصلة تكاد أحياناً تغلب حامله على رأيه وعلى تقديره وعلى عزائمه ؟ أم الإنسان المفكر صاحب العقل شىء آخر غير الإنسان الكاتب حامل القلم ؟ فهو حين يفكر يُعطى أفكاره من الحرية والسَّعة والحماسة ما يجعلها أقدر على التصرف فى وجوه الرأى وشعابه ونواحيه ، فإذا حمل القلم ليملى عليه بعض أفكاره ، استقل قلمه بالفكرة بعد الفكرة يزنها ويقدرها على قدر عقله هو لا على عقل حامله ، فربما عرض له أن ينبذ منها أو ينتقّصها أو يتجافى عن طريقها فيسدّ عليها المسالك ويضرب عليها بالأسداد ، ثم يشرع إلى وجه غير الذى يُرَاد له ؟ أم الإنسان إذا فكر ثم أراد أن يكتب وحمل القلم صار هو نفسه شخصاً آخر غير الإنسان المفكر بغير قلم محمول ؟ كل ذلك ممكن ، ولكنه على كل حال متعبةٌ وشقاء لحامل القلم ما بعده شقاء ولا تعب .

وأعرف رجلا من أصدقائى الكتاب ، إذا حمل القلم وكتب كلمات ألقى قلمه ضجراً يائساً متململا من عُسر المدخل الذى دخل به على ما أراد ، فإذا عاد عاد القلم إلى جماحه وتمدده ، ولا يزال كذلك مرة بعد مرة حتى يرى قلمه قد رضى وأطاع ومضى إلى آخر حرف فى المقالة غير متوقف ولا متلعثم ، وقد قال لى : إنه ربما مضت الأيام على ذلك الحران ، مع أنه يعلم مستيقناً أن الفكرة كانت قد اختمرت واستوت وتهيأت له من قبل أن يحمل القلم بأيام ، وأنه كان يظن أنه لن يحمل قلمه حتى يراه قد انساب انسياباً لا يعوقه شىء ، فإذا فرغ من كتابة ما أراد لم يجد أنه زاد قليلا ولا كثيراً عما كان فكّر فيه وعزم على كتابته .

فأى سر هذا الذى ينطوى عليه القلم حتى يكون هو المتصرف الذى لا ردّ لما أرادهُ أمر ؟ قد تقول : إنه الحالة النفسية التى يكون عليها الكاتب ؛ وقد تقول : إنه الجو الذى تعيش فيه الكلمات التى يبتغى استنفارها من مكامنها ؛ وقد تقول أشياء كثيرة من هذا وأمثاله ، ولكن يبقى أنك لا تكاد تميز بعدَ الكتابة شيئاً من الاختلاف عما كنت قد فكرتَ فيه وأدرته فى نفسك وعرفت أنه قد أطاع لك ، فمن أين جاء هذا التوقف العجيب الذى تعتاده بعض الأقلام ؟ !

وأنا قد جربت نفسى ، فرأيتنى إذا أردت أن أكتب أحياناً شعراً يدور فى قلبى ويلح على خاطرى ، فأمسكت أى الأقلام وقعتْ عليه يدى ، فإذا هو عصىٌّ عنيدٌ لا تلين له سنٌّ — أو قناةٌ على ما يقولون — فإذا ألقيتُه وحملتُ القلم الذى اعتدتُ زماناً أن أكتب به الشعر ، أو الذى اعتاد هو أن يكتب لى الشعر ، انطلق على سجيته طيّعاً رفيقاً سهل القيادة حسَن الهدَى إلى قِبلة الشعر . فأحبُّ الآراء إلىّ أن أجعل للقلم شخصية منفصلة تعين الكاتب أو تعانده ، فذلك أشبه بالسلطان العريض العظيم الذى فرضته الأقلام على الحياة ، والذى لولاه لماش الإنسان ومات وكأنه لم يوجد قط .

***

كنتُ أردتُ أن أكتب شيئاً عن المتنبى وعن حكمته

وبصره بالحياة وبالناس وبما يعتاج فى القلوب على اختلافها ، وذلك لحديث جرى بينى وبين أحد ضيوف مصر من أهل العراق . وأردت أن أقارن بين مايسمونه شعر الحكمة ، وبين حكمة المتنبى فى شعره ، وأين وقع منه سائر الشعراء ؛ فما كدت أبدأ حتى عرضت لى أبيات المتنبى التى يقول فيها :

إنما أنفس الأنيس سباعٌ يتفارسن جهرةً واغتيالا
من أطاق التماس شىء غِلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غادٍ لحاجةٍ يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

وذكرت عندئذ ذلك البيت الذى أحيته أم كلثوم حين غنت فى شعر شوقى :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا
وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الإقدام كان لهم ركابا

وأردت أن أعرض للفرق بين القولين ، وبين العبارتين ، وبين القوتين ، وبين البيانين . فأى دقة وأى هداية كانت لهذا الرجل الفذ الذى لو احتلت على بعض ألفاظه أن تجد لها بديلا فى كلامه لأفسدت معنى البيت وقوته وعبارته وبيانه ! خذ مثلا لفظ « الأنيس » ، وتخير ما شئت من حروف اللغة وضعه حيث وضع المتنبى لفظه ، واقرأ وانظر وتدبر ، هل يليق أو يسوغ أو يلين أو يستقر فى مكانه من البيت ؟ ضع مكانه « الإنس » أو « البشر » أو « الناس » أو « الأنام » أو ما شئت ، سواء استقام الوزن أو لم يستقم ، تجد الفرق بين الاختيارين عظيما واسعاً . فهو قد اختار اللفظ والبناء الذى يدل دلالة على المؤانسة والرقة والتلطف وإظهار المودة والظرف وحلاوة الشمائل ولين الطباع ، ليظهر لك أنها تخفى تحت هذا كله طباعاً وحشية ضارية مترفقة حيناً وباغية أحياناً ، فهد للصورة التى أرادها باللفظ الذى لا يستغنى عنه فى دقة الصورة وحسن بيانها . فأين هذا من ضعف شوقى الذى لم يزد على أن جمع كلمات رُصّ بعضها إلى بعض لا حاصل لها ولا خير فيها . وما قيمة ذكر الركاب ، مع الإقدام والاستعصاء والمنال ؟ وأما البيت الأول « وما نيل المطالب » ، فهو كلام عامى دائر على الألسنة ، ولا فضل فيه ، بل هو أشبه بتقرير ضعيف عن معنى ليس بشىء .

وعندئذ عرض لى أنا أن هذا الفعل من شوقى هزلٌ للمعانى ، وهزل فى طِلابها ، وهزل فى إدراكها على وجهها . وإذا هذا القلم يسألنى — أو يأبى إلا أن يذكرنى — بأن الهزل الذى كان فيه شوقى خير من كل هذا الهزل الذى أصبحنا وأمسينا نعيش فيه . فالدنيا تجدُّ من حولنا ونحن نهزل ، ولا نكاد نجد من كبار رجالنا أحداً قد نهض به جَدُّه وجِدُّه فى ناحية إلا وقد سقط به هزله فى ناحية أخرى . وأن أشدّ البلاء من مثل هذا الرجل أن يُلبس عليه حتى يظن أن هذا الهزل هو أجدُّ الجدّ ، لأنه ظن أنه ما بلغ إلا بجدٍ كان فيه طبيعة مغروزة فظن حتى صار ظنه حقاً عنده .

ولسنا نحب أن نطعن على الرجال بالحق فضلا عن الباطل ، ولكن بلادنا فى كل مكان من مصر إلى الشام إلى لبنان إلى فلسطين إلى العراق إلى بلاد الهند إلى أندونسيا إلى الجزائر وتونس ومراكش ؛ قد أحست شعوبها أن ساعة الجِدّ قد آذنت ودنت ، وأنها ساعة إذا أفلتت فلن تعود إلا بلاء وعناء وشقاء . ومع ذلك فالرجال والزعماء وأصحاب الرأى أيضاً ، وهو أشد البلاء ، قد ركَّبوا فى رؤوسهم أذناً من طين وأذناً من عجين — كما يقول المثل العامى — فما يسمعون حسيس النار التى تشتعل فى صدور أبناء هذا الشرق إلا كحشرجة الميت ، فهم يعالجون أمورنا على صورة من اليأس والملل ، كأنما يرجون الظفر بأى شىء كان ، ما داموا يحسبون أنهم إذا رفعوا لأعين الناس هذا الذى ظفروا به ، وقالوا لهم لقد ظفرنا لكم بخير ماترجون ، صدّقهم الناس وصفقوا لهم ومشوا فى ركاب مجدهم ، وجأروا إلى الله بالشكر على ما أنعم على أيديهم . فهم ليسوا طُلاَّب حق ضائع بل طُلاَّب مجدٍ كاذب ، يظنون أنهم يختمون به أعمالهم الصالحات .

فأى هزل كهزل رجال الهند مثلا ، وهم الذين عركوا ساسة الإنجليز مئة وخمسين عاماً أو تزيد ، ولقوا من خداعهم وكذبهم وتغريرهم وقسوتهم وشناعة أحقادهم ما لاينسى مواجهه إلا غِرٌّ غافل ؟ وإذا الذين كانوا بالأمس نار الثورة وضرامها قد رضوا أن يستمتعوا بالحكم ويصيروا وزراء فى شعب مستعبد تدوسه أقدام الناصبين ، وهو لا يزال يسمع منهم أن الهند جزء لا يتجزأ من هذه الإمبراطورية التى لا تغيب الشمس عن

أملا كها - فأى هزل أسخف وأبعد فى الغفلة والسذاجة وسوء التقدير من هذا الحكم ؟ وفيمَ يدلس هؤلاء على إخوانهم الذين لا يعرفون كما يعرفون من خبايا النيات البريطانية التى تدسّ لهم السمّ فى الدَّسم ؟ أو لم تكفهم العِبْرة التى لا تزال أختهم مصر ترفل فى أغلالها منذ سنة ١٩٢٤ إلى يوم الناس هذا ، حين قبِل رجال الثورة أن يكونوا للناس حُكاماً تحت ظلال الغَصْب والاحتلال ؟

وأى هزل أشد على النفس الشاعرة مرارة وغضاضة من رجال قاموا من غفلتهم ومنامهم يسمعون الشعب كله ينادى « الجلاء ووحدة وادى النيل » ، أى ينادى بالحق الطبيعى الذى لا يحتاج إلى تفسير ولا بيان ولا شروط ، والذى ظلت مصر الصابرة تهمس به أحياناً وتصرخ به أحياناً أخرى منذ سنة ١٨٨٢ ، وإذا هم يطالبون بالذى يطالب به الشعب ، ولكنهم لا يلبثون إلا قليلا حتى رضوا لأنفسهم أن يدخلوا من باب المفاوضة مع البريطانيين ، فلما دخلوا داروا فيها كما تدور بهم ، وهم كانوا أولى الناس بأن يعرفوا بعد طول التجربة ما عرفه الشاب مصطفى كامل إذ قال لهم : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، لأنه أدرك أن المفاوضة معناها أن ينزل الضعيف عن أكثر حقه للقوى الطائش الباغى ؟ فما ظنك به وهو ليس بقوى طائش باغ وحسب ، بل أيضاً منصور مظفر قد خرج من الحرب وهو يظن أن الدنيا له ، وأنه وإن كان ضعيفاً بين الأقوياء ، إلا أنه هو الجبار العظيم بين الضعفاء ؟ وأنه سوف ينال من الأقوياء والضعفاء بحيلته وسياسته ما لا ينال بالعنف ، فلذلك آثر طريق المفاوضة ، واتخذ أعوانه لينيموا الشعب إليها حتى يهدأ ويسكن ويظن أنه بالغ ما يريد ؛ لأن الدنيا تغيرت ، ولأن العالم فى حاجة إلى نظام جديد ليس بينه وبين القديم شبه . وظلت المفاوضات أشهراً وهى تسير فينا على عكازتين كأنها هى الأخرى من ذوى العاهات الذين خلقتهم الحرب عُرْجاً وظُلَّعاً أو شراً من ذلك . فأى هزل هذا ؟

أى هزل هذا الذى يؤمن به رجال يخالهم الناس من أصحاب العقل والحكمة وسداد الرأى فى المعضلات ؟ وماذا فعلوا منذ بدأوا إلا أن قدّم الإنجليز مشروعاً وقدموا مشروعاً ؟ ولا يزالون على ذلك إلى يومنا هذا . فهم إنما يتقارضون كلاماً لا يغنى عنهم ولا عن مصر . وفيم يتفاوضون ؟ ألا إن الحق بيّن والغصب بيّن ، فقولوا لأصحابكم الذين تفاوضون إن مصر لا تريد إلا تحقيق هذه الكلمات : « الجلاء ووحدة وادى النيل » . إننا نريد مصرنا وسوداننا ، إننا لا نريد منكم إلا أن تدعونا وشأننا ، اخرجوا من بلادنا ، فارقونا . قولوا ذلك واعلموا الشعوب بإيمانكم وإصراركم أن تكونوا أشد إصراراً وإيمانا وأوفى شجاعة وأقدر صبراً ، وإلا فسوف يأتى يوم يجدُّ فيه الشعب جدَّه ، فإذا الذى ظننتم أنه مجد لكم هو أبغض شىء إلى الشعب ، واعلموا أنه لا مجد إلا بِفعَال ، والهزل مَخْبَثة للفَعال ، فجِدّوا إذن وعودوا إلى الانجليز من حيث بدأوا بكم .

إن هذا الذى يحدث فى الهند وفى مصر حسرة للنفوس تطوى تحتها أسوأ مغبَّة ، فهل من رجال ينقذون بلادهم من شرّ هذه الموبقة المستطيرة ؟ إن الحكام والمفاوضين طُلاَّبَ المجد لن يذوقوا لذة المجد حتى يكون الشعب هو الذى يذوق لهم طعمه ، فإذا استكرهه ، فلا تخدعنهم الحلاوة التى يجدونها فى ألسنتهم ، فإنها مرارة الدهر وذلّ الأبد . ورحم الله المتنبى :

من أطاق التماس شىء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

فعلام المفاوضة ، وفيم السعى إلى الحكم ؟

محمود محمد شاكر

من أحاديث الإذاعة:

عيدي الذى فقدته (*)

للأستاذ على الطنطاوى

يا آنسين بالعيد، يا فرحين به، هل تسمعون حديث رجل أضاع عيده، وقد كانت له أعياد، أم يؤذيكم طيف الشجى إذ يمر بأحلام أفراحكم الضاحكة؟ إذا كنتم تصغون إلى حديثى فلكم شكرى، وإن أنتم أعرضتم عنى فما يضرنى إعراضكم، وإن من نعم (المذياع) أنه لا يدرى المتكلم فيه من ينصت له، ومن يشغب عليه، ولا يسمع مدحاً ولا قدحاً، وما يرى إلا (العلبة) يكلمها، وما ترد علبة على متكلم جواباً ...

ولا تقولوا إذا سمعتم حديثى. هذا رجل لا يتكلم إلا عن نفسه. فكذلكم الأدباء كلهم؛ لا يتكلمون إلا عن أنفسهم، ولكنهم إذ يصفون أحلامها وآلامها يصفون أحلام الناس كلهم وآلامهم، فهم تراجمة العواطف، وألسنة القلوب، وصدى الخواطر، حتى ليقول القارئ إذ تمر به آثارهم: ما هذا؟ إن فى هذا التعبير عما أحس به؛ إنه وصف لى أنا وحدى ... وما هو له وحده؛ إنه وصف لكل نفس بشرية ...

ألا ما أعظم فضل الأدباء على الناس! ولكن الناس لا يشكرون ...

* * *

يا سادة: إنه كان لى فى حياتى عيد واحد، ولكن طمس القدم صورته فى نفسى فلا أرى منها إلا ملامح. لقد وجدت عيدي فى (صرماية حمراء[1]) أصبحت يوماً فلقيتها إلى جانب الفراش، وكنا نبسط الفرش، وننام على الأرض؛ لم تكن قد انتشرت هذه الأسرة وعمت، لم تكن إلا للأكابر، ولقيت معها (قنبازاً) من (الألاجة[2]) له خطوط حمر على أديم أخضر كأنه حقل قمح قد نبتت فيه سطور من شقائق النعمان، وعقالا (مقصباً) كأنما قد نسج بخيوط الذهب، يبرق كأنه تاج ملك جديد. وعباءة رقيقة فيها مناطق حمر، وأخر بيض، وحواش من القصب اللماع؛ لها طرر مختلفات الألوان ... تخطف ببريقها النظر.

فلم أصدق أن كل ذلك لى أنا، وسألت متحققاً. فقالوا: إنه لك، إنه لباس العيد. قلت: وما العيد؟ قالوا: العيد. ألا تعرف العيد؟ فلم أعرفه، ولكنى قنعت بما وجدت من نمائه وتخيلته ضيفاً جيلا نزل البلد ...

وذهبنا نبصر العيد، ومشينا فى الطرقات، وإذا الوجوه باسمات الثغور، منبسطات القسمات فكأن أصحابها قد لبسوا مع الثياب البراقة الزاهية حلة من اللطف والظرف، ولم نر نحن الصغار من يزجرنا ذلك اليوم عن حماقة نأتيها، أو ذنب نذنبه، بل وجدت كل من أسلم عليه من أقربائى وأصحاب أبى يعطينى نقوداً (نحاسات) صفراً لامعات كالدنانير، و (متاليك) جدداً، ولم تكن قد عرفت هذه القروش الورقية القذرة الممزقة التى يأنف المرء من مسها، فاجتمع لدى مبلغ من المال، هو بالنسبة إلى طفل مثلى ثروة كثروة رجال (الشركة الخماسية) فى دمشق، ولكنى أخذته حلالا بطيب نفس، وأخذوا هم ما أخذوه حراماً انتزعوه من فم الأرملة واليتيم؛ فكان برداً على قلوبهم وسلاماً فى لهب هذه الحرب، ولكنه سيكون من بعد ناراً آكلة فى أكبادهم، وسماً هارياً فى أمعائهم، وغصة خانقة فى حلوقهم، ولعنة متسلسلة فى ذراريهم، وجحيما متسعراً يوم المآب ... فارتقبوا - أثرياء الحرب - إنا معكم من المرتقبين!

* * *

وكانت دارنا فى (العقيبة) فكان أول ما لقيت من العيد (جامع التوبة)؛ هذا الجامع المأنوس الذى يملأ جوه دائماً خشوع وأنس، ولم أكن أدرى يومئذ ما الخشوع وما أنس الروح، ولكنى أحسست فيه فرحة شاملة ملأت نفسى، وذهبنا إلى (الأموى)، وكان صوت التكبير ينبعث منه قوياً مجلجلا، كأنه هدير (بردى) عند شلال (التكية) فشعرت بحال لم أعهدها فى نفسى من قبل ولم أعلم ما هى؛ شعرت بالحماسة

(*) أذيع ولم ينشر.
(١) الصرماية: كلمة شامية معناها «الخف».
(٢) نسيج شامى هو الذي تصنع منه قفاطين مشايخ مصر.

التى تغلى منها دماء المسلم حينما يسمع هذا النشيد السماوى الذى لم تسمع أذنا الأرض نشيداً بشرياً أروع منه روعة أو أشد أو أقوى ؛ هذا النشيد الذى علمت بعد أن أجدادنا كانوا يهدرون به فى أشداقهم فتتداعى أمامهم الحصون ، وتساقط الأسوار ، وتفتح لهم به أبواب المجد حتى فتحوا به الدنيا ، هذا النشيد الذى كان من بشائر الرجاء أن اتخذه (الاخوان المسلمون فى مصر) شعاراً لهم ليصلوا به ما كان انقطع من قلادة أمجادنا التى طوقنا بها عنق الزمان ، ولينشروه مرة ثانية فى آفاق الأرض فتردده معهم الجبال والأودية . والمدن والقرى : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله — الله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد !

ودخلت فوجدت فى المسجد متعة لم أجد مثلها فى لهو كنت أتخذه ، أو ما كنت أسرّ به ، وجدت — ولم أكن أدرى — متعة الدين والدنيا إذا اجتمعا : الكثرة والألفة والثياب البراقة والنظافة والنظام ، والتقى والاخلاص ، والغنى السمح الشاكر والفقر المتجمل الصابر ، والمعاونة على الخير ، والمواساة والإيثار ، وكان فى المسجد نساء قد اجتمعن فى (المشهد[1]) بالأزر البيض والملاءات الساترة ، ما يظهر منها عين ولا بنان ولا ساق ، قد جئن للصلاة .

كذلك كان بلدنا قبل أن تصله هذه (الحضارة) الجديدة ، كذلك كان يوم كان أهله متأخرين جامدين ، فياليته يعود كما كان ، ياليتنا بقينا متأخرين عن هوّة الفساد لم نقدم عليها ، جامدين لم نعرف هذا المَيْع . إن الجامد يتماسك ويثبت ، أما المائع فيسيل ويجرى حتى ينصب فى البَلُّوعة[2] ... أفعرفتم الآن مصيركم يا أيها (المائعون) ؟ !

ثم أممنا (مقبرة الدحداح) فاذا الحياة الضاحكة جاءت تزاحم الموت العابس على أرضه ، وتنتزع منه مثواه ، وإذا المقبرة دار الوحشة والعبرة قد أحالها العيد منزل الفرح واللهو ، ففيها (الدُّوَيْخات) منصوبات ، و (القلاّبات) قائمات ، والعربات الصغار مزينات بالأعلام الملونات مشدودة فى جوانبها الأجراس والجلاجل ، والأطفال بثيابهم التى تحكى زهر الربيع ، منها الأحمر والأصفر والأخضر والفضى والقصب وذو الطرر وذو الحواشى ، راكبون على أفراس (الدويخة) تدور بهم ، أو جالسون فى سرر (القلابة) تصعد بهم وتنزل ، أو متعلقون بالعربة ، والنساء قاعدات عند النهر ، والرجال مجتمعون عند التل ، وعلى القبور الآس الأخضر معقود بشرط الحرير يخيل للرائى من كثرته أنه فى جنة ملتفة الأفنان ، وخلال الآس الخيام المنقوشات والسرادقات ، وباعة (القضامة) و (الاب) و (عرق السوس) يجولون بين الناس ينادون أعجب النداء ، وبياع (الفول النابت) قد أوقد ناره ورفع قدره ، ونصب مائدته ، وحفّ به الصبيان والبنات ، وصاحب (صندوق الدنيا) قد حطّ صندوقه ، وقعد حوله الأولاد ، ينظرون فإذا هم يسيحون فى البلاد ، يرون عبلة وعنتر بن شداد ، فلا يكادون يستمرئون الحلم ويستغرقون فيه حتى يرخى الستار فيهبطوا إلى أرض الواقع ؛ فاذا الذى كانوا فيه قد مرّ كما تمرّ الأحلام لم يخلف إلا ذكرى مشوبة بألم الفقدان .

كذلك كانت المقبرة أول ما عرفت العيد . إنها صورة المقبرة يوم نفخ إبليس فى بوق الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤

صبركم يا أيها المستمعون ، ودعونى أطل وقوفى على هذه المقبرة ، فإنكم لا تعلمون منزلتها فى قلبى ، ولا أستطيع أن أعلمكم ، وكيف ؟ أوتصدقون إذا قلت لكم إن لهذه المقبرة صوراً فى نفسى أحلى من صور الرياض ، وذكريات أجمل من ذكريات الحب ؟ وإن نهرها هذا الصغير القذر أعزّ علىّ من بردى ودجلة والنيل ، وأشجارها هذه المنحنية عليه أبهى عندى من صنوبر فالوغا ونخيل الأعظمية ، وكراسيها هذه الواطية أفخم فى عينى من أسرّة (أورليان بالاس) و (شبرد) ؟

إن فى هذه المقبرة بقايا من قلبى ، إن لها تاريخاً فى نفسى يعرف أكثره أخى أنور العطار . فسلوا أنور متى يقوم بحق الوفاء لهذه الذكريات فيخلدها بقصائد بارعات من شعره العبقرى ؛ فما أحسن أنا تخليدها ، لا أطيق أن أنى لها هذا الوفاء ؟ سلوه أنسى ليالى نمشى فيها لنزور قبور الأحبة فى ظلمة الليل : أبى وأمى وأمه وأبيه ، ونبكى عليها ، والمقبرة ساكنة خالية ، ما ترانا إلا عيون النجم ، وما تسمعنا إلا الشواهد الشواخص .. ونحدق فى سدفة الزمان نرقب أن نرى طلعة الأحباب الذين اشتد إليهم

(١) المشهد فى الأموى اسم لحرم صغير فيه جانبى وفى المسجد أربعة مشاهد فى أحدها رأس الحسين . هو فيه لا فى مصر والله أعلم .

(٢) البلوعة البالوعة من العامى الفصيح

الشوق وطال الغياب ، فلا نرى إلا ظلاما متراكباً ، ونعود فنحاول أن نخترق حجاب الآنى لنبصر طيف الأمل الحلو فلا نبصر إلا الظلام ... ليالى كنا نعود وقد برّح بنا الألم ، وهدّنا الحزن ، فأستمع من أنور بواكير أشعاره ويسمع منى بوادر رسائلى ، تلك البواكير التى قرأها الناس فرأوها ندية بالدمع ، فياضة بالحزن . فقالوا : ما لهـذا الشاب والألم ، ماله لا ينظم إلا الشعر الباكى ، ما دروا أن هذا الشعر قد نظمت حباته على قبر الوالدين ، فى ليالى اليتم الكوالح ...

مساكين الأدباء . يجبلون فلذات قلوبهم بدموع عيونهم ، ليقيموا منها تماثيل الأدب فيأخذها الناس عابثين ، وينظرون إليها لاهين ، ويعيبونها ظالمين ، ثم يملّونها كما يمل الصبى لعبته فيرمونها فيحطمونها ، ويفتشون عن لعبة جديدة ...

مساكين الأدباء !

يا سادة :

لقد مشيت بعد فى الزمان ، وسحت فى البلدان ، فكبرت ورأيت أياماً قال (التقويم) إنها أيام عيد ، رأيتها فى دمشق بلدى ، ورأيتها فى الأعظمية فى بغداد ، ورأيتها فى البصرة ذات الشط والنخيل ، وفى الحرش من بيروت ، وفى القاهرة أم الدنيا ، ولكنى لم أعد أجد فى ذلك كله تلك البهجة التى كانت للصرماية الحمراء والعقال المقصّب ، والعربة ذات الشراع الأحمر والجلاجل والثياب الملونة الزاهية التى تحكى زهر الربيع ؟ أفتغيرت الدنيا أم قد أضعت عيدى ؟

أتغيرت الدنيا يا ناس أم الناس قد فقدوا فرحة العيش حينما تركوا تلك الحياة السمحة القانعة الطاهرة البرأة من أدران حضارة الغرب ؟ تلفتوا أيها السادة حولكم ، واسألوا من تلقون من الكهول عن ذلك الزمان ... تجدوا فى عيونهم عَبْرة ، وفى قلوبهم حسرة ، وعلى ألسنتهم جواباً واحداً : رحم الله تلك الأيام لقد كانت أيام انشراح ...

كانوا لا يعرفون دسائس السياسة ، ولا التزاحم على الرياسة ، ولا شبه العلم ، ولا رذائل الحضارة ، لا يختلفون على مذهب اجتماعى ولا يقتتلون لمصلحة حزب سياسى ، ولا يقرعون أبواب الوظائف ، إن تعلموا العلم تعلموه لله لا للشهادات ، وإن طلبوا المال طلبوه من التجارة لا من المضاربات والاحتكار والرشوات ، وإن أرادوا تسلية ولهواً ، قصدوا الربوة أو المزان أو الشاذروان ، ينصبون سماورات الشاى ، وسماط الأكل ، وبساط الصلاة ، لا يعرفون سينما ولا ملهى ولا ماخوراً ولا (نادى دمشق) ، المساجد ممتلئة بهم ، ومدارس العلم حافلة بأبنائهم ، والعلماء هم الأمراء ؛ طلبوا الآخرة لا الدنيا فأعطاهم الله الدنيا والآخرة ، والبيوت جنان الأرض ، والنساء حور تلك الجنان لا يعرفن التبرج ولا التكشف ولا يراهن أحد فى الطريق ؛ إلا خارجات لضرورة لا بدّ منها ، ومعهنّ الزوج أو الأب ، يسبقهنّ وهنّ يتبعنه ، لا يعرفن بيوت الفجور ، ولا أماكن العصيان ، ولا (دوحة الأدب) ، ولا يخطر على بالهنّ أن الدنيا ستبلغ من الفساد أن سيكون فيها (فرق مرشدات) ...

كذلك كانوا فكانت أيامهم كلها أعياداً ؛ فأين أعيادنا نحن ؟ أربحنا من هذه المدنية ... وهذا العلم ... أم خسرنا ؟ سلوا هذه الحرب عما صنعته علومهم بسعادة البشر ، وسلوا التاريخ عما صنعت بها علومنا وشريعتنا ؟

يا سادة :

إننا صرنا اليوم نلبس (البذلة) بدل (القنباز) ، وننام على السرير ، ونأكل بالشوكة والسكين ، ونقرأ أخبار أمريكا وأوربا ونتكلم فى الجغرافيا والكيمياء وفى السياسة ، ونركب السيارة والطيارة ، ونسمع الرادّ ونبصر أفلام السينما ، هذا الذى ربحناه ولكنا خسرنا التقى والعفاف والاطمئنان ، لقد كان أجدادنا أبعد عن حضارة أوربا ، ولكنهم كانوا أرضى لله منا ، وأقرب إليه ، وكانوا أقوم أخلاقا ، وأطهر قلوباً ، وأصفى سرائر ، وأصدق معاملة وكانوا أسعد منا فى الحياة ...

لا يا سادة : إنى لم أعد أجد للأعياد بهجة ، فردوا إلىّ ماضىّ ، أرجعونى إلى عيد الصرماية ، والمقبرة ، والمسجد ، فإنى لم ألق السعادة إلا فيه ، أنقذونى من هذا العلم وهذه الحضارة ، فأنا جامد ، أنا رجعى ، رجعى ، رجعى ! !

والعفوَ يا سادة : لقد نغصت عليكم بهـذا الحديث القاتم المضطرب عيدكم لقد نسيت قواعد الآداب الاجتماعية فكدرتكم يوم الصفاء ، وكنت عندكم فاسد الذوق سيء الاختيار ، فلا تؤاخذونى ... واقبلوا على عيدكم وسروركم ، ودعونى أبكى يوم العيد ماضيات أيامى . وكل عام وأنتم بخير !

على الطنطاوى

مدارس للسخط ... ؟ !

للأستاذ سيد قطب

قال لى صاحبى : أما تفتأ هكذا ساخطاً على جميع المظاهر والأوضاع ؟ أرح أعصابك يا أخى ، ودع الخلق للخالق . إنه لا فائدة . لا فائدة من كل هذه الصرخات ! ! !

قلت لصاحبى : أما أنا فسأظل ساخطاً ، أعلن سخطى على كل شائه من المظاهر والأوضاع . ولن أدع الخلق للخالق ، لأن الخالق هو الذى يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ويصف قوماً ضعفوا واضمحلوا فيقول عن سبب الاضمحلال : « كانوا لا يتناهوْن عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون! » وأما أنه لا فائدة هناك ، فأنا لست يائساً ولا متشائماً ، واعتقادى الكامل أن هذا الكون الوسيع لا يضيع صوتاً واحداً ينطلق فيه بدعوة الحق ، ولا بد أن يردد صدى هذا الصوت فى يوم من الأيام ، طالت أو قصرت به الأعوام .

وقلت لصاحبى : إنه لو وكل إلىّ الأمر لأنشأت ضعف هذه المدارس التى تنشئها الدولة لأعلّم فيها هذا الشعب شيئاً واحداً هو السخط ! السخط على الأوضاع والمظاهر الشائهة التى تسيطر على حياة هذا الجيل فى كل اتجاه . فالسخط هو دليل الحيوية الكامنة ، والرضى بهذه الحال المائلة هو نوع من اليأس والتشاؤم يقتل الأمم أو يؤدى بها إلى الاضمحلال .

أجل ، لو وكل إلىّ الأمر لأنشأت مدرسة للسخط على هذا الجيل من رجال السياسة فى هذا البلد ، أولئك الذين يتخاصمون فيتشاتمون ، ويتهم بعضهم بعضاً بكل كبيرة : بالخيانة . بالرشوة. بفساد الذمة ... إلى آخر هذه الجعبة من الشتائم والتهم النكراء ، حتى إذا ارتفعت لهم تلك العصا السحرية ، عصا دار الحماية التى هى دار السفارة ، أو دار السفارة التى هى دار الحماية ، نسوا كل ما قيل ، واتحدوا وائتلفوا ، وصافح بعضهم البعض ، وابتسم بعضهم لبعض ، وأثنى بعضهم على بعض ، والشعب ينظر ويعجب: إما أن يكون الجميع كاذبين فى الماضى ، وإما أن يكون الجميع كاذبين فى الحاضر ، وهم فى كل حال لا يؤمنون على مصير هذا الوطن ، وتلك ذممهم وهذه ضمائرهم ... كلهم جميعاً بدون استثناء!

ومدرسة للسخط على أولئك الكتاب والصحفيين ، الذين يقال عنهم إنهم قادة الرأى فى البلاد ، وإنهم آباء الشعب الروحيين، أولئك الذين يسخرون أقلامهم وذممهم وضمائرهم لهذا الجيل من الساسة . فيضربون بأقلامهم ذات اليمين وذات الشمال ، وينهشون سمعة هذا السياسى أو ذاك ، ثم يعودون فيبيضون ما سودوا ، وقد يقفون مادحين فى حفلات تكريم تقام لأولئك الساسة الذين قالوا عنهم من قبل : إنهم مجرمون قذرون منحطون منخوبو الضمائر فاسدو الذمم ، لا استصلاح لهم بحال من الأحوال ! والشعب ينظر ويعجب : إما أن يكون هؤلاء القادة الروحيون كاذبين فى الماضى ، وإما أن يكونوا كاذبين فى الحاضر . وهم فى كل حال لا يؤمنون على قيادة الشعب الروحية ، وتلك ذممهم وهذه ضمائرهم بين حال وحال !

ومدرسة للسخط على أولئك الوزراء الذين تطول ألسنتهم وتطول أقلامهم وهم يتطلعون إلى الكرسى المسحور ، فتتفتق قرائحهم عن خطط وبرامج للاصلاح الاجتماعى ، وللنهضة الفكرية وللقضية الوطنية ، ولإصلاح أداة الحكم ، ولتطهير الدواوين ، ولمكافحة اللجان .. إلى آخر ما تهديهم إليه اللهفة على ذلك الكرسى المسحور ، حتى إذا جلسوا فى ذلك الكرسى ، ندّ عنهم جميع ما أعدوا من خطط ، وما نسقوا من برامج ، ونفث فيهم ذلك الكرسى اللعين سحره الذى يعمى ويصم ، ويفسد الذمة ، ويكبت الضمير ... ثم يطيح به الكرسى اللعين فيصحو من سبات ، ويجد له بعد ذلك عيناً يفتحها ولساناً يديره لإعادة الاسطوانة من جديد ! والشعب ينظر ويعجب : إما أن يكون هؤلاء كاذبين فى الأولى ، وإما أن يكونوا كاذبين فى الثانية . وهم فى كل حال لا يؤمنون على مصالح هذا الشعب ، وتلك ذممهم وهذه ضمائرهم فى جميع الأحوال !

ومدرسة للسخط على أولئك الباشوات وغير الباشوات الذين يلحقون بعضوية الشركات ليكونوا ستاراً لهذه الشركات فى استغلال الشعب واستغفاله ، ثم يدعون أن الشركات إنما قدرت فيهم الكفاية الممتازة « ما يأكلون فى بطونهم إلا النار » !

ومدرسة للسخط على أولئك « الأرستقراط » الذين يعلمون من هم ، ويعرفون ينابيع ثروتهم أو ثروة آبائهم وأجدادهم ، ونصفهم يعلمون أن أصلهم القريب جارية أو معتوقة ، ونصفهم الآخر — إلا عدداً بعد على الأصابع — يعرفون أنهم هم أو آباؤهم أو أجدادهم على أكثر تقدير أدوا ثمن هـذا الثراء أعراضاً أو خدمات لايقوم بها الرجل الشريف للاحتلال ولغير الاحتلال ...

ومع هـذا كله يزمون أنوفهم اشمئزازاً من « الفلاحين » ومن « أبناء الشعب » على وجه العموم ، لأنهم ليسوا من « أولاد الذوات » وليسوا « أرستقراط » ! والشعب ينظر ويعجب : أ كان حتما على هذا الشعب كله أن يكون أبناء جوارى ومعاتيق ، أو أن يقوم بخدمات لايقوم بها الشرفاء للاحتلال وغير الاحتلال ؟

ومدرسة للسخط على أولئك الذين ليسوا « أرستقراط » ، إنما هم من أبناء الشعب ، علمهم الشعب ، وارتفع بهم إلى مقاعد الوزارة وغير الوزارة ، وقد يكونون ممن تعلموا بالمجان لضيق ذات اليد والعجز عن أداء نفقات التعليم ، ثم هم بعد ذلك يتسخطون على « مجانية التعليم » ، لأنها تزحم المدارس بأولاد الفقراء ، ولأنها تمزج بين أبنائهم وأبناء الفقراء ، ولأنها تعلم أولادهم أخلاق الفقراء !

« يا دم » ! باللغة العامية الفصيحة ! شيئاً من الحياء يا هؤلاء ! شيئاً من الاعتراف بالجميل للشعب صاحب الجميل ! !

وتنشئ الدولة مدارس خاصة لأبناء الأغنياء ومن يتشبهون بالأغنياء ... لماذا ؟ لأنهم مالوا بأبنائهم إلى المدارس الأجنبية فراراً بهم من أبناء الشعب فى المدارس المجانية ! !

وما ذا على الدولة وما ذا على الشعب حين يذهب هؤلاء إلى الجحيم لا إلى المدارس الأجنبية ؟ إنه لا خير فيهم لهذا الشعب هنا أو هناك ! إنهم خوارج عليه لأنهم يتبرأون منه . فليذهبوا حيث يشاءون ، ولتسر الدولة فى الطريق المرسوم لتعميم المجانية ، فهو طريق إجبارى مهما عارض فيه المعارضون ، لأن المستقبل لن يسمح بفوارق الطبقات !

ومدرسة للسخط على محطة الإذاعة ، تلك المحطة التى تنقل ما فى المواخير والصالات ، وما فى الأفلام السينمائية ، وهى لا ترتفع عن المواخير والصالات ، تنقله إلى كل بيت ، وإلى كل سمع ، شاء من فى البيوت أم أبوا ، ورضى الناس أم كرهوا ، ولا تدع هذا الهراء القذر محدوداً فى الصالة أو الفيلم يراه من يشاء ، ويذهب إليه من يشاء ، بل تفرضه فرضاً على البيوت ، حتى إذا كان فيها بقية من إنسانية أو حياء ، قضت على هذه البقية الباقية من الإنسانية ومن الحياء ، وهى تصنع كل يوم هذه الجريمة وتنفق عليها من جيب هذا الشعب الذى تفتت كيانه فى كل لحظة من اللحظات !

ومدرسة للسخط على تلك الصحافة الداعرة ، التى تسمى نفسها « صحافة ناجحة » لأنها تنادى الغريزة الحيوانية وتستثيرها فى كل سطر وكل صورة ، وهو عمل رخيص لا يحتاج إلى براعة صحفية ، عمل يقوم به مديرو المواخير فيطاردهم بوليس الآداب فى كل مكان ! ودع عنك ما يقوم به بعض هذه الصحف من دعاية للاستعمار ولخدام الاستعمار ، وما يثبطون به عزائم المصريين كلما هموا للجهاد فى سبيل قضيتهم الكبرى . وما كانت هذه الصحف فى حاجة إلى تلك الدعاية السافرة أو المستترة ، فهى بما تنشر من صور داعرة ، وبما تثير من غرائز هابطة ، تقتل فى الأمة كل نخوة وكل شرف وكل قوة ، وتهيئها للاستغراق فى لذائذ حيوانية ، لا تسأل بعدها عن وطن ولا عن استقلال !

وأخيراً مدرسة للسخط على هذا الشعب الذى يسمح بكل هذه « المساخر » ، ويتقبل كل تلك الأوضاع ، دون أن ينتفض فينبذ هؤلاء ، وأولئك جميعاً ، وينفض يده من رجال السياسة الضالين ، ورجال الأدب والصحافة المأجورين ، ورجال الحكم المدلسين ، ومن الأرستقراط والمتسقرطين ! ومن دعاة المواخير : فى محطة الإذاعة ، وفى السينما ، وفى الصحف ، وفى المواخير !

مدارس للسخط ! ما أحوج الشعب منها إلى الكثير ، إنه لأحوج إليها من الطعام والشراب . . فمن ينشئها ؟ !

أينشئها هذا الجيل من الشباب المائع المسترخى إلا النادر القليل ؟... كلا ! إنما تنشئها الأقلام المخلصة ، الأقلام التى تواجه الحقائق ، ولا تنفر منها ، ولا تخشى عاقبة الجهر بها ، الأقلام التى لا تيأس ولا تمل ، ولا تؤمن بأنه لا فائدة !

وإنها لفريضة على كل صاحب قلم ، ولن تضيع صرخة واحدة فى الهواء ، فالهواء أحفظ للأصداء ، والأجواء حفية بالدعاء ، ومن لم توقظه الدعوة ، فلتوقظه الصيحة...

ولا يأس مع الحياة !

سيد قطب

الحـــلم والتحلم ...

للأســتاذ محمود عزت عرفة

— ١ —

« إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه »

حديث شريف

لاينهض رواج الرذيلة فى هذا العصر المادى دليلا على رجحان كفتها فى ميزان الأخلاق ، إذ ما يزال للفضائل القِدح المعلى ، ولا يزال الفضلاء — على قلة فيهم وضعف — أقدرَ الناس على الجهر بالدعوة إلى مذهبهم ، وأقومهم بالحجة فى الإبانة عن صحة مأخذهم ... وحسب الرذيلة من ضَعة أنها مقرونة أبداً بالتوارى ، محجبة بقناع التخفى ، لا تحيا إلا فى مدلهمٍ من الظلام ، ولا تنشط إلا على غفلة من العقل ، وغفوة من سلطان الضمير .

والخلق النفسى قسمان : فطرى و كسبى . وليس لنا من أمر الخلق الفطرى شىء إلا أن نشكر واهبه على ثمرات خيره ، ونستعيذ به من بائقات شره . أما الثانى ، وهو ما تتهيأ النفس لا كتسابه من صفات خلقية ، فذلك الذى يتسع معه مجال الحديث ، بل من أجله سنَّ الباحثون قوانين الأخلاق وقواعد السياسة والتربية ، وسائر علوم الاجتماع .

ولا يكاد يُتصور لهذه العلوم وجود إلا مع الاعتراف بأهمية الصفات الكسبية للنفس كدعامة من دعامتيها ، وعنصر — بالغ الأهمية — من عنصريها .

ولقد أخذ ابن مسكويه[1] على منكرى « التطبع » قولهم ، وأبلغ — ولم يبالغ — فى تقدير الخلق الكسبى ، وما تتهيأ له النفس من قبول التحول ، والانصياع إلى ضروب التأديب والتهذيب . يقول فى فصل من كتابه « تهذيب الأخلاق » : اختلف القدماء فى الخلق فقال بعضهم : الخلق خاص بالنفس غير الناطقة[1] . وقال بعضهم : قد يكون للنفس الناطقة فيه حظ . ثم اختلف الناس أيضاً اختلافاً ثانياً فقال بعضهم : من كان له خلق طبيعى لم ينتقل عنــه[2] . وقال آخرون : ليس شىء من الأخلاق طبيعياً للانسان ، ولا نقول إنه غير طبيعى . وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق ، بل ننتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً . وهذا الرأى الأخير هو الذى نختاره لأنا نشاهده عياناً ، ولأن الرأى الأول يؤدى إلى إبطال قوة التمييز والعقل ، وإلى رفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين ، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم ، وهذا ظاهر الشناعة جداً — انتهى قول ابن مسكويه .

ويقول الغزالى فى مثل هذا المعنى[3] : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أخلاقكم ! وكيف يُنكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمة ممكن ، إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ؛ وكل ذلك تغيير للأخلاق ؟ ﻫ

وإذا نحن أدركنا هـذا القول تسنى لنا أن نفهم الحكمة الجليلة التى ينطوى عليها قول الرسول عليه الصلوات : إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يُعطَه ، ومن يتوقَّ

(١) أبو على أحمد بن محمد . توفى سنة ٤٢١ ﻫ .

(١) يقسم ابن مسكويه القوى النفسية ثلاثة أقسام : القوة الناطقة ، وتسمى الملكية (العقل) ؛ والقوة الشهوية وتسمى البهيمية ، والقوة الغضبية وتسمى السبعية . ومعنى تخصيص الخلق بالنفس غير الناطقة أنه طبيعى وجبلى — أى غريزى — لاأثر فيه للدربة ولا التفكير . وذلك هو الرأى المرجوح الذى يفنده ابن مسكويه والغزالى ، كما سترى بعد .

(٢) لعل أبا الطيب كان يأخذ بهذا المذهب حين قال :

وأسرع مفعول فعلت تغيراً   تكلف شىء فى طباعك ضده

وقال :

وإذا الحلم لم يكن عن طباع   لم يحلم تقدم الميلاد

وقال :

فقلما يلؤم فى ثوبه   إلا الذى يلؤم فى غرسه
من وجد المذهب عن قدره   لم يجد المذهب عن نفسه

وقال :

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل

(٣) جزء ٣ صفحة ٤٨ من سفر الإحياء (كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق)

الشر يُوقّـه . فالتحلم والتعلم والتبصر والتوقى والتورع والتصبر والتكرم والتعفف وغيرُها من هـذه الصفات التى تنطوى فى صيغتها على معنى التكلف إنما هى معدودة من أهم مقومات الخلق النفسى ومن أخطر العناصر فى تكوينه . وهى إلى ذلك وسيلة ميسورة إلى ترقى النفس فى مدارج الفضيلة واكتسابها ماحرمته بالفطرة من أسباب الخير . ثم هى مقوية للفضائل ومتقوية بها ، لما هنالك من واشج العلاقة بين القسيمين . يقول أبو على القالى فى أماليه : العقل عقلان : فعقل تفرد الله بصنعه ، وعقل يستفيده المرء بأدبه وتجربته . ولا سبيل إلى العقل المستفاد إلا بصحة العقل المركب ، فإذا اجتمعا فى الجسد قوّى كل واحد منهما صاحبه تقوية النار فى الظلمة نور البصر .

الحلم والتحلم :

قال ابن مسكويه : الحلم فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة فلا تكون شَغِبة ، ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة . ﻫ

وواضح أن الحلم — كخلق فطرى — يؤدى إلى طمأنينة النفس . على أن هذه الطمأنينة من ناحيتها تكسب النفس صفة الحلم وتمكّن لها منه ، والحلم المكتسب هو (التحلم) نفسه . فطمأنينة النفس نتيجة للحلم وسبب للتحلم ، ومن هنا يصعب الفصل بين الخلقين ولكنه لا يستحيل ، لأن الحلم إذا جاء عفو الطبع ، وبدون تكلف له ولا تحامل على النفس فيه ، فالتحلم لايكون إلا نتيجة مران وثمرة ممارسة ومعاناة . وليس من شك فى أن الأول يفضل الأخير ، كما يفضل الأصلُ الفرع ، ويشأو السابقُ اللاحق[1] .

والغزالى يردف التحلم « كظم الغيظ » ، فهما عنده شىء واحد يقل فى الرتبة عن الحلم ، ولكنه يتحول إلى الحلم نفسه بطول المجاهدة التى تُفضى إلى الاعتياد . فهذا الفيلسوف لا يكاد يتصور للحلم وضعاً إيجابياً أو مظهراً مستقلا ، إلا أن يكون صورة كاملة استوفت خطوطها وألوانها من مظاهر للتحلم توالت على النفس وتعددت صورها حتى استوت فيها خلقاً كاملا تصقله المجاهدة وتهذبه الدربة وفرط المعاناة ؛ وإليك عبارته[2] : « اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم (أى تكلف الحلم) ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون فى كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعى ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً . » ﻫ

(١) أى فى مجرد السبق فى الوجود والتقدم فى الكون .

(٢) إحياء علوم الدين ج : ٣ ، ص : ١٥٣ .

ويبدو أن ابن مسكويه كان أدق فهماً من الغزالى لحقيقة الحلم وموضعه من التحلم ، عند ما جعل الحلم خلقاً أساسياً فى بعض النفوس ، ثم أوضح إمكان اكتسابه بالمعالجة فيسمى حينئذ تحلماً . وهو يقول فى الكشف عن حقيقة الحلم : متى كانت حركة النفس العصبية معتدلة ، تطيع النفس العاقلة فيما تقسطه لها ، فلا تهيج فى غير حينها ، ولا تحمى أكثر مما ينبغى لها ، حدثت عنها فضيلة الحلم ، وتتبعها فضيلة الشجاعة[1] ، ثم بيّن السبيل لبلوغ فضيلة التحلم عند فقد الحلم بقوله : من أنكر من نفسه مبادرة إلى غضب فى غير موضعه ، أو على من لا يستحقه ، أو زيادة على ما يجب منـه ، فليقابل ذلك بالتعرض لسفيه يُعرف بالبـذاء ، ثم ليتحمله ، وليتذلل لمن يعرف بالخبرية[2] ممن كان لا يتواضع له قبل ذلك .

على أن من الإنصاف للغزالى أن نقول : إنه كان فيلسوفاً (عملياً) فى مقارنته بين الحلم والتحلم ، فهو لا يكاد يعترف إلا بالتحلم أصلا وفرعاً ، لأنه محله التجربة ومظهر المجاهدة والمعاناة ، وفلسفة الغزالى الخلقية كلها تقوم على هذا الأساس . أما ابن مسكويه ففيلسوف (نظرى) عميق الفكرة ، يجرد الحلم أصلا قائماً بذاته ، ثم يلتقى مع الغزالى فى بسط قضية التحلم ، وبيان السبيل إلى بلوغه تكلفاً .

فمن المجاز إذن — لا الحقيقة — أن نقول مع الغزالى : إن كظم الغيظ واعتياد التحلم يصبح (حلماً طبيعياً) — وإن كانت هـذه العبارة هى أفضل ما يجرى على لسان مربٍّ يعنى

(١) يعنى أن كبح القوة الغضبية ينتج الحلم ، واستعمال هذه القوة فى وجهها ينتج الشجاعة .

(٢) هكذا وجدتها (بالخبرية) ولعلها تصحيف لكلمة (بالجبرية) .

بتهذيب الأخلاق وهداية الناس إلى سبيل الفضائل ، بتيسير وسائلها لهم ، وتهوين مشقة إحرازها عليهم .

فضيلة الحلم :

بان الحلم إذن بفضل له ومزية ، وطال على التحلم قدر مايطول أصل على فرع ، وأول — فى الكون — على أخير . وما ثمة شك فى أن الحلم أثبت على تتابع المثيرات ، وأبلغ فى الدلالة على كرم النفس ، وصفاء موردها من نبع الفضيلة . وليس يتصل الحلم بنفس إلا وقد تم لها إلى جانبه حظها من التحلم ، إن لم يكن فى الأول الغَناء كله عن الثانى . والنفس بعدُ من نتيجة التحلم على شك ، تسمى إليه فتبلغ حيناً وتقصر أحياناً ، وإنها لتلقى فيه من البلاء ما يضجرها منه مرة ، وقد يصرفها عنه أخرى .

وأين فى الناس مثل عمر الذى كان يبلغ بالتحلم حد الحلم دون مجهود ، حتى ليلقى الرجل السكران مرة فيزمع أخذه وتعزيره ، ويشتمه السكران فيرجع عنه ، ثم يُسأل عن ذلك فيقول : إنه أغضبنى ، ولو عزَّرته لكان ذلك لغضبى لنفسى ، ولم أرد أن أضرب مسلماً حمية لنفسى ؟ !

وفى كتاب الإحياء أن أشجَّ عبد القيس وفد على النبى صلى الله عليه وسلم فأناخ راحلته ثم عقلها ، وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع . ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : إن فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله . قال : ما هما بأبى أنت وأمى يا رسول الله ؟ قال : الحلم والأناة ! فقال : خلتان تخلقتُهما ، أم خلقان جُبلت عليهما ؟ فقال : بل خلقان جبلك الله عليهما . فقال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله ورسوله . فقد كان رسول الله عليه الصلوات إذن أعلمَ الناس بفرق ما بين الحلم والتحلم ، وُبعدِ ما بين الطبيعة والتطبع ، وإنه ليمتدح صاحبه — فيثلج قلبه ، ويستحمده ربه — حين يجيبه عن سؤاله بقوله: بل خلقان جبلك الله عليهما !

هذا ، والحلم سيد الأخلاق — كما يقولون — لأنه السجية النبيلة التى لا تليق إلا بالملوك والأمراء ، ولا تأخذ أروع زينتها إلا حين يصطنعها السَّراة والوجوه وأعيان الناس . رُوى أن علياً (عليه الرضوان) سأل رجلا من أهل فارس عمن كان أحمد ملوكهم سيرة . قال : أنو شروان . فقال على : أى أخلاقه كانت أغلب عليه ؟ قال : الحلم والأناة . فقال على : هما توأم الملك ، نتيجتهما علو الهمة !

ولقد بلغ بعض الملوك والرؤساء من الحلم مبالغ تثير الدهشة وتستخرج العجب ؛ وليس يعزى هذا إلى طبيعة فيهم بأكثر مما يعزى إلى الظروف التى أحاطت بهم . ونحن نحب أن نقف قليلا عند بعض من طارت شهرتهم بالحلم ، وأخذوا من التحلم بأسباب قوية ، فنتبين مظاهر هذين الخلقين فيهم ، ونلمس البواعث عليهما ، والمقاصد الخفية أو الظاهرة الدافعة إليهما ...

(يتبع) محمود عزت عرفة

جامعة فاروق الأول

كلية الآداب

جائزة واصف غالي باشا

تعلن كلية الآداب بجامعة فاروق الأول بالأسكندرية أن لديها حوالى مبلغ ١٠٠ جنيه جائزة من حضرة صاحب المعالى واصف غالى باشا لمن يكتب أحسن بحث فى أى موضوع يتصل بالأسكندرية فى أى عصر من عصورها .

فعلى من يريد أن يدخل هذه المسابقة أن يقدم إسمه وعنوان موضوعه فى ميعاد غايته آخر أكتوبر سنة ١٩٤٦ والموضوعات التى ترى الكلية صلاحيتها للمسابقة ستعلن إلى أصحابها كتابة أبحاثهم فيها ويشترط فى الأبحاث أن تكون باللغة العربية . وترسل المكاتبات الخاصة بهذه الجائزة بإسم حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب بالأسكندرية . ٦٠٧٢

الأدب في سير أعلامه :

ملــتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣٦ —

في ميدان السياسة :

وعاب خصوم ملتن عليه قبوله منصباً في حكومة مغتصب جمع السلطة كلها في يده ، وقالوا كيف يفعل هذا نصير للحرية ، واستخرجوا من ذلك أن دفاعه عن الحرية لم يكن إلا زعماً فحسب ؛ بل وذهبوا إلى أكثر من هذا فرموه بالتبجح أو بالغفلة إذ يحل لنفسه من التعصب ما يحرم مثله على غيره فهو في منصبه يرد على مخالفي الحكومة ، ويعنفهم ويسخر من آرائهم ، وماذا يكون التعصب إن لم يكن فعله هذا تعصباً ؟ ويزيدون على هذا أنه إن جاز ذلك من ذي جهالة ضيق الأفق فهو لا يليق من رجل يزعم أنه يتحلى بالأدب وينتسب إلى الفن ...

وهذا كلام يشبه بادي الرأي أن يكون حقاً ، ولكنه لا يلبث عند رده إلى الواقع والاعتبار في أحكامه أن تتزايل عنه شبهة الحق ؛ فأما عن التعصب في ذاته عيباً ، بل إن التعصب للرأي محمدة ما دام يؤمن المرء بما يقول ، ويشعر أنه يدافع عن حق ، والمعول هنا على نيته لا على خطئه أو صوابه ، فان لم يتبين حقيقة ماينتوى فدار الحكم على القضية المتنازع فيها ، ويستحيل أن يخفى وجه الحق في قضية يتناولها متخاصمان يبذل كلاهما أقصى جهده في إثبات ما يحاول الآخر نفيه ، أو نفي ما يعمل خصمه على إثباته . طالما أن الوقائع غير خافية ، وكان الأمر أمر اعتبار وتدبر ورد إلى قواعد مقررة ؛ فان جهل الخصمان بعض الوقائع أو جهلاها كلها انتفى التدليس عنهما جميعاً ، وإن غابت عن أحدهما كان الثاني هو المدلس ، وإن لم يمكن اتهامه بالتعصب حتى يتبين تدليسه ؛ وإنما يكون التعصب مذمة إذا أصر المرء على رأيه وهو يعلم كما يعلم خصمه أنه باطل . أو إذا تبين له وجه الحق فكبر عليه أن يرجع إليه وتمادى فيما انساق فيه أول الأمر بجهالة .

وكان ملتن يؤمن أن حكومة كرمول تنصر الحق والحرية فالدفاع عنها دفاع عنهما ، ولا عبرة عنده بشكل الحكومة الاستبدادي ، وقد تحقق له ما كان يتمناه من نتيجة ، وطالما كان يؤمن ملتن دون أن يعميه غرض خاص بعدالة كرمول ، وبعده عن المطامع الذاتية ، وإباحته الحرية للناس فليس يعيبه أن يتعصب له ، وإنما يلحقه العيب إذا تبين له تحرف كرمول عن الصواب في أمر وتحيزه لرأيه وظل على ولائه له ؛ وما فعل ملتن شيئاً من ذلك . بل لقد عارض كرمول ، وأنكر من تصرفاته ما سيأتي بيانه في موضعه ...

واتخذ ملتن أهبته للدفاع عن الحكومة في كل موقف تحتاج فيه إلى الدفاع ، وكانت أول خطوة له في هذا المضمار الطويل ذي المسالك الوعرة ما كتبه بعنوان « ملاحظات » في صدد صلح كِلْكِنِي الذي عقده كرمول مع الأرلنديين ، فأخذ يمن عليهم ملتن بما يلقون من عدالة وتسامح ما كانوا ليظفروا بمثلها على يد شارل ، وقد حسن وقع هذه اللاحظات في نفس كرمول ، ونفوس أعضاء حكومته وأنصاره .

وكانت حكومة كرمول في أشد الحاجة إلى مثل هذا الثناء فهي في الواقع تستند إلى أقلية الشعب ، وتعتمد في بقائها على الجيش المنتصر ، وعلى شخصية كرمول الذي لقب حامي الجمهورية وإن كان ملكا في حقيقة الأمر ينقصه التاج ؛ وكانت أغلبية الشعب قد أسخطها القضاء على الملكية ، وبات الناس يتوجسون خيفة من انفراد كرمول بالسلطة على هذا النحو دون البرلمان ، وأخذ البرسبتيريز في داخل البلاد يكرهون هذه الحكومة إلى الناس خفية ، بينما كان الرأي العام في أوربا يعلن استنكاره وسخطه عليها ...

وفي شهر أغسطس سنة ١٦٤٩ نشر في الناس كتاب غفل من اسم مؤلفه عنوانه « إيكون باسِلِيك — صورة جلالته المقدسة في عزلته وآلامه » ؛ وتلقفت الأيدي هذا الكتاب ، وكان الناس قد أحزنهم وآلمهم إعدام الملك على الرغم مما كان

من طغيانه وعقد ألسنتهم الرعب والدهشة ؛ وسرعان ما نفدت طبعته فأعيد طبعه وأعيد حتى لقد بلغ خمسين مرة فى تلك السنة ، وذهبت الظنون بالناس كل مذهب من يكون مؤلف هذا الكتاب ، وشاع فيهم أنه من وضع الملك نفسه كتبه قبيل إعدامه ؛ وقد ادعى تأليفه فيما بعد أحد رجال الدين واسمه دكتور جودن وتقرب به إلى الملكية العائدة ، وزعم أنه اعتمد فى تأليفه على مذكرات كتبها شارل بخطه فى أخريات أيامه ؛ وخلاصة الكتاب أن الملك ذهب ضحية العدوان والبطش وقد ظل مؤمناً بربه صابراً حتى قتل مظلوماً .

ومهما يكن من أمر تأليفه فقد ذاع الكتاب فى الأمة على نحو لم يعرف الناس له شبيهاً من قبل ، وهال الحكومة الأمر فتلفتت تبحث عمن يرد عنها هذه الوجة العاتية ، وفكرت فى أول الأمر فى سلْدِن وكان من أشهر رجال عصره مهارة وعلماً ، ولكنها اتجهت أخيراً إلى ملتن .

وما أهل أكتوبر حتى كان ملتن على الرغم مما كان يعانى من ضعف بصره قد ردَّ بكتاب بلغ نيفاً ومائتين وأربعين صفحة ، سماه « إيكون أوكلاستِيسى » أى محطم الأيقون ؛ وفيه استعرض ما جاء فى ذلك الكتاب فصلا فصلا وأخذ يفند كل رأى فيه ويسفه كل حجة فى بلاغة وتحمس وتدفق على نحو ما فعل فى خصوماته وردوده السالفة ...

وقد افتتح ملتن كتابه بقوله إنه مما يجمل بالمرء أن يتعقب مساوىء رجل هوى من مثل تلك المنزلة العليا التى تبوأها شارل وبخاصة بعد أن دفع ثمن ما اقترف ، ولكن كتابه على الرغم من هذه الفاتحة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما فعل شارل إلا أحصاها ، ثم راح يعيب على هؤلاء الذين يمجدون ذكرى هذا الملك الذى صنع بحرية بلاده ما لم يصنعه فى انجلترة ملك قبله ، ورأى أن الذين يفعلون ذلك إنما يبرهنون به على أنهم غير جديرين بالحرية التى حاربوا من أجلها وأخلق بهم أن يعودوا إلى الأغلال فمثلهم كمثل عدد من الوحوش الثائرة المقتتلة لا تسكن حتى تكبل أرجلها وتغل أعناقها ، وتنم هذه اللهجة القاسية عن مقدار حنقه على من أحزنهم إعدام شارل ، والكتاب فى جملته وفى روحه العامة لا يعدو كونه مجادلة حزبية وخصومة جامحة لا كما تكون

الخصومات فى الرأى بين العلماء ولذلك فهو لا يشرف رجلا مثل ملتن إن لم يك كفيلا بأن ينتقص من قدره ...

من أجل هذا لا يسع المرء إلا أن يحس أسفاً عميقاً لانصرافه عن الشعر والفن فذلك ماخلق له ، أما هذه الخصومات السياسية وما ينفق فيها من جهد ويحتمل من عناء فما أقلها عوداً إلا على الذين طلبوها ليحتموا بها ، وما أثقلها وأرذلها وقعاً فى نفوس الذين يقدرون ملتن حق قدره كشاعر ، والذين تهفو قلوبهم إلى أمثال ما غنى من قبل من ألحان بلغ بها ذروة الإجادة ، وتجاوز بها أقصى ما بلغه شاعر من سحر الفن .

ويحلو الخصوم ملتن أن يأخذوا عليه مأخذين يتصلان بالأدب والفن فى كتاب إيكون أوكلاستسى، فأما أولهما فقد نسبوا إليه أنه تهكم على شارل أن جعل وليم شكسبير قرينه المقرب فى عزلته آخر حياته ، وأما ثانى المأخذين فقريب من الأول وخلاصته أن ملتن ترمت ترمت البيوريتانز خصوم الفن إذ يعيب على الملك أنه أخذ فقرة من قصيدة أركاديا لسير فيليب سدنى فجعل هذه الفقرة صلاته ، ويرى أنه مما يشين الملك أن يتخذ صلاته من قصيدة كهذه وإن كانت لها فى ذاتها قيمتها وروعتها فى ساعة عصيبة كالتى كان فيها ، ويصف ملتن تلك القصيدة كأنه فى بأنها من قصائد الحب العابثة .

ويرى مارك باتيسون أن المأخذ الأول لا أساس له وإنما جرده إلى سوء الفهم، فما سخر ملتن من شارل وإنما كان يقتبس ملتن فقرة من مسرحية ريتشارد الثالث لشكسبير يوضح بها معنى يريده . فذكر فى صدد ذلك أنه لا يقتبس من كاتب ممن لا يحسن الملك مصاحبتهم ، وإنما يقتبس ممن يعرف الجميع أنه كان رفيقه المقرب فى عزلته ألا وهو وليم شكسبير .

ولكن باتيسون لا يعفى ملتن من المأخذ الثانى ، ويقول إن فيه شاهداً على أن مؤلف الأليجروا قد تأثرت الناحية الفنية فيه تأثراً غير قليل بما اندفع فيه من الخصومات الدينية والسياسية وإلا فكيف يحقر قصيدة كهذه فينسبها إلى العبث واللهو .

وما كاد يستريح ملتن من عناء رده حتى وجد نفسه كما وجدت الحكومة نفسها تلقاء هجوم آخر لا يقل عنفاً عن سالفه ويزيد عليه فى سعة انتشاره ، وما أحدث فى أوربا وفى انجلترة من قوة

الأثر وشدة الدوى ، وقد انبعثت هذه الصيحة من هولندا هذه المرة فى كتاب ألفه باللاتينية علم من أعلام الأدب الأفذاذ هو الأستاذ سلامَسْيَس أحد رجال جامعة ليدن وجعل عنوانه : « دفاع عن الملك شارل الأول » .

وبيان ذلك أن شارل الثانى كان يعيش فى مدينة هيج ، وكان على مقربة منه سلامسيس فى جامعة ليدن، وكان هذا الأستاذ أقدر معاصريه على الكتابة باللاتينية لغة العالم يومئذ كما هو الحال فى الفرنسية اليوم ، فاستعانه شارل ليدافع عن أبيه ، وقبل سلامسيس ذلك عن طيب خاطر لأنه كره إعدام الملك فى انجلترة كرهاً شديداً .

وكان الأدباء القادرون على الكتابة ، وعلى الأخص كتابة اللاتينية عدة الملوك والأمراء وذوى المكانة فى ذلك القرن، وكان لبضاعتهم سوق يعظم فيه الربح ، وكان لهم قدرهم وعظيم خطرهم لا عند الجمهور ولكن عند الحكام . فبهم يجتذب الرأى العام ولأقلامهم المشروعة مثل ما للسيوف من أثر أو كانت أبعد من ذلك شأناً ، وكان المتبع أن يستأجر الحكام هؤلاء الكتاب ليصنعوا ما تصنع الصحافة اليوم من دفاع وتهيئة للأذهان ، ونشر لما يراد نشره من الآراء .

وكان سلامسيس قمة من القمم الشوامخ تتنازعه الجامعات والعواصم ويحب البابا أن يستأثر به فيبقيه عنده فى روما ، بينما يعمل الملوك على إغرائه بزيارتهم والإقامة عندهم ، وكان هذا الرجل واسع الأفق ، قلما وجد ندله فيما قرأ ودرس من الكتب ؛ لذلك كانت استجابته لشارل الثانى كسباً عظيما لهذا الذى يهمه الدفاع عن أبيه ، وقد كتب دفاعه ولم يأخذ عليه أجراً كما يرجح أكثر المؤرخين ، ونستطيع أن نتصور مبلغ ما أحدثه كتاب مثل كتابه من أثر فى انجلترة وفى أوربا ، كما نستطيع أن نتصور فداحة العبء الذى ألقى على عاتق ملتن وإن المرض ليخترم جسمه يومئذ وإن العمى ليتهدد ناظريه .

وصل كتاب سلامسيس انجلترة فى أواخر سنة ١٦٤٩ ، وسرعان ما أصدر مجلس الدولة قراراً يحرم تداوله ، وفى يناير سنة ١٦٥٠ انتدب ملتن ليكتب رداً على هذا الكتاب فما أهل شهر مارس حتى نشر ملتن ، وهو لا يكاد يقوى على فتح عينيه كتاباً عنوانه « دفاع عن الشعب الانجليزى » ، وقد ازدادت بهذا الكتاب شهرة ملتن فى أوربا جميعاً وعظم قدره فى الأوساط الأدبية كلها ، وكانت دهشة الناس من شجاعته أكثر من إعجابهم بوطنيته فانه لم يحجم عن منازلة ذلك المارد الأوروبى سلامسيس ، وأن يجعل عدته اللاتينية ، وقد حسب خصمه أن لن يقدر عليه أحد ، فإذا به حيال قوة لا ريب فيها ، وفصاحة لا يستطيع أن ينكرها إلا الجاحدون .

احتشد ملتن لكتابه وبذل قصارى جهده على الرغم من إلحاح العلة عليه وطغيان الغشاوة على ناظريه ، ليظهر لأوربا أنه أعلى من سلامسيس فى اللاتينية كعباً وأطول منه باعاً ؛ ولقد بلغ فى كثير من مواضع الكتاب غاية ما تمنى ، ولكنه كان فى مواضع أخرى كالمغنى الذى يكلف نفسه ما لا تطيق ليأتى بخير ما عنده ، فما يعود من ذلك الجهد إلا بانقطاع نفسه واحتباس صوته ؛ ولقد وجد ملتن فى الرد على سلامسيس العظيم فرصة يلفت فيها أوربا إلى مقدرته ويقنعها بضلاعته وتمكنه واتساع أفق ثقافته ، لذلك أسرف فى التحمس وبالغ فى سوق العبارات الضخمة وتأنق وتعمق وتعالى وحلق ، وكان فى بعض المواطن إلى الخطيب الذى نسى نفسه أقرب منه إلى الكاتب الذى حذق فنه .

على أن ما بذل من طاقة فى هذا السبيل قد سبب له كثيراً من الضعف فى نواحى القياس والبرهان والاستيعاب والشمول والإحاطة بموضوع الدفاع وحسن ترتيبه وتسلسل سياقه ؛ هذا إلى أن اهتمامه بإظهار عيوب سلامسيس وتصيد أخطائه وتعقب متناقضاته والسخرية منه قد صرفه كثيراً عن غايته ؛ ثم إن توجيه المطاعن الشخصية إلى خصمه وإسرافه فى ذلك إلى مدى من الفحش بعيد قد ألبس كتابه كثيراً من السخف وألحق به غير قليل من الفسولة .

ولم يعف ملتن شارل الأول فى هذا الكتاب كذلك من التحقير والإهانة وهو فى لحده ، فشبهه بنيرون طاغية روما، ونسب إليه كثيراً من الفجور والفسوق واتهمه بتهمة نكراء هى دسه السم لأبيه ، إلى غير ذلك مما يبعد كل البعد عن اللياقة ....

وأنكر ملتن ما ادعاه الملوك لأنفسهم من حق إلهى ، فليس يستند هذا الزعم إلى أساس معقول ، ولا هو مما يتفق مع ما يتصف

به الله من عدالة وحكمة ، فالله عدو الظلم ونصير الحرية ، وهو يحب الأحرار من عباده ويرفع منزلتهم ؛ وقد جاء المسيح لنصرة الحرية ، وإلا فهل يرضى الله أن تقوم الحكومات لتكون كل منها أداة للطغيان ، وكيف يقبل أن يفرض على الناس طاعة هذه الحكومات ويقرخضوعهم للظلم والبطش ؟ وما فعل الشعب الإنجليزي أكثر من ثورته على الطغيان وتقريره مبادئ الحرية ليعيش الناس في كنف هذه المبادئ آمنين مطمئنين لا يأتيهم الخوف من أي مكان ...

ويمجد ملتن حكومة كرمول وما فعلت في سبيل الحرية وما ظفرت به من نصر لن يظفر بمثله إلا الأمجاد الميامين أولو العزم والبطولة ، ولكنه يصارحها أنه لا تزال أمامها ما يقتضيها جهوداً وبطولة ليست أقل مما بذلت ، فعليها أن تقضي على ما يتهدد كيان البلاد من المساوئ الداخلية كالجشع والطمع وأنانية ذوي الثراء وبغيهم ، حتى يتمتع الناس بالسلام والأمن في كنف الحرية ؛ وتنطوي عباراته هذه على شيء من الوعيد يتهدد به خصوم الحكومة من طرف خفي ، فقد كان ملتن ضيق العطن بهؤلاء الخصوم شديداً عليهم يتمنى لو ابتلعتهم الأرض وسعيهم وما يمكرون !

وسخر ملتن من شارل الثاني وسماه شارل الصغير وبالغ في تحقير دعوته سلامسيس للدفاع عن أبيه ونعت من التفوا حوله بأنهم حفنة من الصماليك يتصايحون ولا هم لهم إلا التصايح والعواء

أما ما قذف به سلامسيس من مطاعن ، فقد تجاوز في ذلك كل حد ، فلم يتورع عن شيء مما يمس العرض والشرف ، ونال بسهامه زوجته وسخر منها كما سخر من زوجها ووصفه بأنه مطية لهذه الزوجة التي تملك زمامه فلا يملك لنفسه بين يديها ضراً ولا نفعاً ؛ هذا إلى ما رماه به من الجهل والغباء والغرور والادعاء والحمق والعبودية وما إليها من ألفاظ السباب ومرادفاتها مما نعجب كيف تسنى أن يصدر مثله من رجل كملتن فضلا عن أن يعد هذا دفاعاً عن قضيته ، ولكنها فيما يبدو طريقة ذلك العصر وأسلوبه في الجدل والخصام ...

وبلغ الغضب كل مبلغ بسلاميس ، ونال من نفسه فرح حاسديه لما أصابه أكثر مما نالت مطاعن ملتن ، فقد أشمت ملتن به الأعداء وأضحكهم منه ، وكان يبالغ هؤلاء الحاسدون في إعناته فيثنون على ملتن ويعجبون بعبقريته وضلاعته في اللاتينية وآدابها ، وانبرى فريق من محبيه يسفهون هؤلاء ويوجهون المطاعن إلى ملتن ؛ وبرز لهؤلاء أنصار ملتن فكالوهم صاعاً بصاع ، وهكذا تشعبت المعركة إلى معارك حتى كاد ينسى الدفاع عن شارل والدفاع عن الشعب الإنجليزي .

ونفس سلامسيس عن نفسه بكتاب ثان بلغ ثلثمائة صفحة ولكنه مات سنة ١٦٥٤ ، ولم ينشر كتابه إلا سنة ١٦٦٠ بعد عودة الملكية إلى انجلترة ، وقد نسي الناس هذا الموضوع ، ومن شاء أن يقف على مبلغ حنق سلامسيس على خصمه ، فليقرأ ما جاء في هذا الكتاب من مطاعن ، فقد كال لملتن بنفس كيله فهو عنده الأحمق المفتون الذي يظن في نفسه الملاحة ، وما هو إلا وحش قذر ، وإن خير ما يجب أن يصنع به هو أن يشنق على أعلى مشنقة ، ثم يوضع رأسه فوق برج لندن ، وأباح سلامسيس لنفسه أن يعير ملتن بما أصابه من عمى كأنما هو أمر يدخل في مسؤوليته ، ومما قاله في هذا الصدد نعته ملتن بأنه الرجل الذي لم تكن له بصيرة ، حتى فقد بصره كذلك ، وإن من أقبح الأمور وأرذلها أن يعيب المرء على خصمه عاهة لحقته ولا يد له فيها وليس وراء ذلك سخف فيما نعتقد ، وما نظن إلا أن سلامسيس قد مسه الخبل من فرط ما ملأه من غيظ فطوعت له نفسه أن يقول هذا الكلام ، وهكذا احتدمت الخصومة بين الرجلين حتى قال هوبز: إنه عاجز عن أن يقطع أيهما كان أحسن لغة وأيهما كان أسوأ جدلا ؛ ويرى دكتور جونسون على الرغم من شدة وطأته ، إذ ينقد ملتن أنه كان أبلغ من سلامسيس . ويرى مثل هذا الرأي مارك باتيسون ، ويزيد عليه أن ملتن كان أقوى فهما وأرجح عقلا من خصمه ، وإن كان على سعة اطلاعه أقل منه قراءة ومعرفة بالكتب ...

وقد مات سلامسيس بعد رد ملتن عليه بنحو ثلاث سنوات ، ومع ذلك فقد أذاع أنصار ملتن ومنهم ابن أخته أنه مات كمداً ، ومن أعجب الأمور وأدعاها إلى الأسف أن يقر ملتن هذا الزعم ويجعله من دواعي فخره ، وإنها لسقطة تحسب على الشاعر العظيم ، وكم نود لو أن تاريخه قد خلا منها ، فهي لا تقل عن سقطة خصمه ، إذ عيره بفقد ناظريه ...

(يتبع) **الخفيف**

بريطانيا وممتلكاتها الحرة

للأستاذ عبد الفتاح البارودى

لا تزال شركات الأنباء العالمية توافينا بآراء غريبة لساسة البلدان التى تسمى ممتلكات بريطانيا الحرة (Dominions) حول المسائل السياسية الكبرى . ووجه الغرابة — ولو فى أذهاننا وتصوراتنا — هو أن وجهة نظرهم لا تتقيد مطلقاً بوجهة نظر ساسة انجلترا ذاتها ، أى قد تختلف معها ، وهذا مما قد يتنافى منطقياً مع مجرد تبعيتها لها . لذلك يبدو من المهم لنا ونحن فى فترة نضج سياسى أن نلقى بعض الضوء على النظام البرلمانى فى الأمبراطورية البريطانية من هذه الناحية :

من المصطلح عليه أن النظام البرلمانى البريطانى من أكثر نظم الحكم السائدة الآن نجاحاً بدليل أنه فى خلال الثلاثة قرون الأخيرة لم يحدث أى انقلاب برلمانى فى الامبراطورية الشاسعة الأرجاء ، بينما حدثت انقلابات كثيرة ، بل ثورات دموية أحياناً فى كثير من أقطار العالم ، ومن بينها أقطار صغيرة المساحة والممتلكات والشعوب . ولا شك أن معظم هذا النجاح راجع إلى الصلات السليمة الوثيقة بين بريطانيا وممتلكاتها الحرة لسببين بسيطين :

الأول : أن شعوب هذه الممتلكات تمت غالباً إلى أصل بريطانى ، ولذا تهدف بالفطرة لغرض واحد هو الصالح الأمبراطورى العام .

والثانى : أن انجلترا تفهم معنى حرية الرأى بين شعوبها ، فأتاحت لها حكومات نيابية لا تقل قوة وقيمة وممارسة عن حكومة الدولة ، وتشرف عليها جميعات عمومية منتخبة على هيئة برلمانات تشبه مجلس العموم كذلك ، وتقوم بأعمال مماثلة لأعماله ولها وسائلها الخاصة وأغراضها وذاتيتها المستقلة عنه ، ولا ترتبط معه إلا بعلاقات استشارية متبادلة .

غاية ما فى الأمر أن هذه العلاقات وطيدة ومحترمة ، وأهم من ذلك أنهم يعملون جميعاً على رعايتها وصيانتها وتنميتها بإخلاص لا حد له .

وليس أدل على ذلك من أنهم — تحقيقاً لهذا — أنشأوا لجنة دائمة تمثل كل أطراف المملكة المتحدة اسمها الجمعية البرلمانية الامبراطورية (The Empire Parliament Association) تسير طبقاً للائحة عامة (The Statute of Westminuster) ، وهى المرجع الوحيد لكل ما يتصل بالممتلكات الحرة . ومن الغريب أن هذه اللائحة التى تنظم الروابط بين وحدات الأمبراطورية ليس لديها القوة التنفيذية التى تجبر أى وحدة منها على عدم الانفصال عن الأمبراطورية إذا رغبت فى ذلك ! ومع هذا لم تتولد مثل هذه الرغبة بشكل جدى حاسم فى أى جزء من الأجزاء ، لا لشىء إلا لأن اللائحة أولا تتجنب كل مايتعارض مع مبدأ المساواة التامة بين الجميع . وثانياً توجه المجموعة بأ كلها توجيهاً عاماً مركزاً حول الضرورات فقط ، ولا شأن لها بالتفاصيل التى قد يتشعب منها خلاف ما . وهذا هو السبب فى أن كل جزء من أجزاء الممتلكات الحرة يخضع لنفوذ هيئة خاصة به تدير شؤونه وحدها كاتحاد أمريكا الشمالية فى كندا والاتحاد الاسترالى العام فى استراليا ، وهكذا فى جنوب أفريقيا ونيوزيلندة أكثر من هذا ، فإنه عند وضع « اللائحة » أصرت كل وحدة على إثبات رغبتها فى الاحتفاظ دائماً بحقوقها كقوة خارجية تكاد تكون أجنبية لا يربطها بالتاج إلا حق الولاء . وإذن لا نستغرب حين نعلم أن كل ما يربط بين نيوزيلندة وبين الأمبراطورية مثلا اتفاقية تسمى (The Merchant Shipping Aqreement) لتنظيم الملاحة التجارية لا غير . وهكذا فى سائر الأجزاء ، لكل جزء رابطة خاصة به على حدة .

ويحسن هنا أن ننوه بأن كثيراً من البريطانيين حاولوا إدماج هذه المجموعات فى « بريطانيا الأم » ، أو ما يطلقون عليه (The Mother Country) ، وكانت أهم محاولة عملية فى عام ١٩١٠ عند ما ألقى المستر إمرى محاضرة خاصة بذلك على مسمع من ممثلى الجمعية الأمبراطورية الملكية (The Royac Empire Society) ودعا إلى الاتحاد الشامل من جميع الوجوه ، وانتهز فرصة حفلات التتويج التى كانت تقام فى ذاك الحين ، وطالب بتمثيل البرلمانات الحرة فيها تمثيلا له صبغة رسمية ، وفعلا حظيت دعوته بنجاح يذكر كان من نتائجه عقب ذلك إنشاء لجنة تنسيق

مظاهر العبقرية في الحضارة الاسلامية

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٤ —

دعوى باطلة :

ويظن بعض المعتدلين من المتعصبين على العرب أنه لم يكن للمسلمين من فضل على الحضارة إلا ما كان من حفظهم للثقافة اليونانية . فهم لذلك حفظة أكثر منهم مبتكرين ؛ والفساد في هذا الظن ظاهر كل الظهور . فإن المسلمين وإن نقلوا الكتب اليونانية ، وحفظوا الثقافة الأغريقية من الضياع حتى تسلمتها منهم أوروبا في العصور المتأخرة الحديثة ، واعتمدوها في بناء ثقافتهم ؛ فقد كان لهم إلى جانب ذلك كله مناح ثقافية خاصة بهم ، لم يعتمدوا بها على غيرهم ، وهم من ناحية ما أنشأوا وابتكروا قد عجلوا في سير الحضارة الأوربية الحاضرة . حتى لقد قال فيهم برنارد شو : « لو لم يكن المسلمون في التاريخ لتأخرت الحضارة عدة قرون ، ولما قطعت هذا الشوط العظيم إلا بعد أجيال طويلة والحق في هذا القول بيّن جلي ؛ فقد اتصل الأوروبيون بالمسلمين في الأندلس اتصالا عظيما ، وتتلمذوا على فلاسفتهم وعلمائهم ؛ وتأثروا بأساليبهم الفكرية إلى حد كبير ، حتى أن « ريموند » الذي كان مطرانا لطليطلة قد أسس في القرن الثاني عشر جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية إلى اللغة اللاتينية[1] وما زالت جامعات باريس حتى اليوم تدرس تلامذتها وطلابها منطق أرسطو المترجم من العربية إلى اللاتينية ، وتعتمد إلى حد كبير على شروح العرب وتعاليمهم على جميع الكتب الفلسفية الهامة التي ترجموها ، ولقد كان فردريك الثاني يعرف اللغة العربية فاطلع لذلك على الفلسفة العربية في مصادرها الأصلية ، وبلغ به حد التعجب بفلاسفة المسلمين أن أنشأ سنة ١٢٢٤ مجمعاً في نابولي

(١) الاسلام كعامل في المدنية . بحث لأحمد أمين .

خاصة ظلت تعمل على تسهيل الاتصالات وتقريب وجهات النظر بدرجة محسوسة النفع .

وبعد الحرب الكوكبية ١٩١٤ — ١٩١٨ نمت الدعوة نمواً كبيراً إلى أن عقد لتنسيقها أول مؤتمر للممتلكات الحرة فيما وراء البحار في مقر اتحاد جنوب أفريقيا عام ١٩٢٤ . ثم عقدت بعد ذلك عدة مؤتمرات في مختلف أنحاء الأمبراطورية ، وأسفرت عن اتفاقيات ذات قيمـــة كاتفاقيات « أتاوة » المعروفة باسمها (Ottawa Aqreements) .

ولكن يظهر أن فكرة الاتحاد التام قد وصلت عند هذا الحد إلى نهايتها القصوى ، أي دون أن يحدث الاندماج المنشود ، بل بقيت كل الممتلكات الحرة محافظة تماماً على استقلالها التقليدي ، وإن كانت وجهات النظر قد وضحت وتقاربت تقارباً يضمن عدم الانفصال ويضمن حتى عدم احتماله .

هذه هي على وجه الإجمال علاقة بريطانيا بممتلكاتها الحرة ، وهي علاقة يمكن اعتبارها انفصالية بمقدار ما هي اتصالية ، ومع هذا يتبادلون الرأي بإخلاص وثقة فيما يتعلق بمصالحهم المشتركة ، ويعملون معاً وقبل كل شيء على صيانة الأمبراطورية .

عجيب جداً هذا النظام ، وأعجب منه نجاحه الرائع . ولعله لا عجب إلا في أدمغتنا المتأثرة بشر أنواع الحزبيـة والفردية في الشرق المنكود .

وليس معنى ذلك أنه نظام مثـالي لا وجه لنقده ... فلكم تعرض في انجلترا ذاتهـا لمهاجمات كثير من المفكرين أمثال (كارليل Garlyle) الذي كان يتساءل متهكما عما إذا كان من المستطاع تصوره عقلا أن حوالي ٦٠٠ إنسان مهما بلغوا من الحكمة والحنكة والخبرة يمكنهم وحدهم أن يحكموا ويتحكموا في أكبر امبراطورية بنزاهة وعدم انحراف !

غير أن الواقع الذي لا تجدي فيـه المكابرة قد أثبت نجاح هذا النظام نجاحاً يعتبر نموذجياً إذا قيس بفشـل معظم النظم الأخرى وانهيارها ، حتى في البلاد التي أحكمت وضعها وتطبيقها كألمانيا وإيطاليا وغيرهما .

عبد الفتاح البارودي

لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية إلى اللاتينية والعبرية ليطلع عليها جمهور المثقفين فى أوربا وبأمره أيضاً سافر ميخائيل سكوت إلى طليطلة وترجم شروح ابن رشد على أرسطو .

« وما كاد ينتهى القرن الثالث عشر إلا وجميع كتب هذا الفيلسوف المشهور قد ترجمت إلى اللاتينية ، وقبل ذلك بقليل : كانت قد نقلت إلى اللاتينية جمهرة من كتب ابن سينا لتدرس فى باريس . ومما لا مرية فيه أن قادة الفكر الأوروبى الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية العظيمة قد تأثروا بهذه الكتب تأثراً عظيما ، واستفادوا منها مادة جزلة ، وتدل التحقيقات الهامة أن روجر بيكون قد تثقف بالثقافة الاندلسية الاسلامية ، ودرس فلسفة ابن رشد واعتمد ابن الهيثم فى تأليف كتابه (البصريات)[١] .

وسنحاول فى الفقرات التالية أن نبين مواطن الابتكار فى الثقافة الاسلامية فى كل مبحث من بحوث العلم . فذلك أقرب إلى الاقناع ، وأوضح حجة فى دفع مفتريات الخصوم .

فى علم الرياضيات والفلك :

لقد أدى العرب إلى العلوم الرياضية خدمات جلى ليس من ينكرها إلا أن يكون مجانفاً للحق . فهم الذين وضعوا أساس حساب المثلثات ، ولولا العرب لبقى علم الجبر مجهولا فى العالم الأوروبى ؛ إذ وضعوا مبادئه ، وأقاموا أساسه ، وما تزال بحوثهم فيه حتى اليوم هى القاعدة الأساسية التى قام عليها ؛ وما زال الأوروبيون حتى الآن يعتمدون تآليف الخوارزمى الجليلة فى العلوم الرياضية إلى حد كبير ، ولقد عدل العرب كثيراً من كتب اليونان الهندسية والحسابية ؛ ولم يكتفوا فى ترجمتها بمجرد النقل الحرفى ، بل إنهم علقوا عليها شروحاً ضافية قيمة ، وما زال « الصفر » و « الكسور العشرية » و « نظرية الأسس » تحمل طابع العبقرية الاسلامية ، وتشهد بطول باعهم فى الابتكار والإبداع ، ومهما يفاخر الغربيون بعلمائهم ؛ فلن يجدوا فيهم من يدانى الكندى بغزارة علمه وكثرة بحوثه . فقد ألف هذا العالم الجليل ما يناهز المائتين والثلاثين (٢٣٠) كتاباً فى مختلف البحوث الرياضية ، والطبيعية ، والطبية ، والهندسية . يقول

(١) التاريخ العام للافيس وارمبو .

سيديليو : « إن مؤلفات الكندى تصطبغ بطابع العبقرية العجيبة[١] » ، وقد عده « كاردانو الإيطالى » من أشهر عباقرة العالم المشهورين .

ولقد جمع العرب بين مختلف العلوم الرياضية ، وأحسنوا تبويبها تبويباً علمياً صحيحاً ، وطبقوا الهندسة على المنطق ، واعترف بفضلهم على الجبر العالم المشهور (كاجورى) فقال : « إن العقل ليحار حيال مآثر العرب فى الجبر ... وإن حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطع المخروط لمن أعظم الأعمال التى قام بها العرب ... » .

ويعدُّ ابن البناء المراكشى فى الطراز الأول من مفكرى العالم الرياضيين . فقد ألف أكثر من ثمانين كتابا فى الرياضيات وعلم الهيئة ، وقد شهد بفضله معظم علماء أوروبا وخاصة « لالاند » و « سارطون » ، ومن كتبه المشهورة كتاب : « الحصار الصغير » و « رفع الحجاب » ، وقد ظلت أوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر تدرس كتابه « تلخيص أعمال الحساب » فى مدارسها ، وقد حاز هذا الكتاب أيضاً اهتمام العلماء فى القرنين التاسع عشر والعشرين ؛ ويقول فيه سارطون : « إنه من أفضل الكتب التى وضعت فى الحساب » ، وقد بحث فيه الجذور الصماء والكسور المتسلسلة بحثاً وفياً ، وجعل العقل يقرب من فهمها بعد أن كانت عليه طلاسم وألغازاً . ومن مشاهير العرب أيضاً « البيرونى » وقد شهد بنبوغه وتفوقه العالم الألمانى « ساد » فقال : « إن البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ » .

وأما فى تاريخ علم الهيئة والفلك فللعرب فيه صفحة مشرقة وآثار جليلة . يقول لامبرو[٢] : « إننا إذا أحصينا راصدين أو ثلاثة من الروم رحنا نعد الكثيرين من العرب فى هذا الفن » وأول من اعتنى من الخلفاء بهذا العلم الجليل وحض الناس عليه هو أبو جعفر المنصور .

قال الأستاذ نللينو : « وما اقتصر الخليفة المنصور على مجرد أحكام النجوم ؛ بل إنه منذ تأسيس بغداد بسنين قليلة قد بادر إلى إحياء علم الهيئة المحض » ، وبلغ من شغف المنصور بهذا العلم أن

(١) تاريخ الرياضات .
(٢) الاسلام والحضارة العربية

كان يصطحب معه دائماً المنجم الفارسى المشهور « نوبخت »[1] واشتهر فى زمنه المنجم الذائع الصيت « ما شاء الله »[2] الذى ألف فى الاسطرلاب ودائرته النحاسية « وأحمد بن محمد النهاوندى» صاحب الزيج «المستقبل» ، وفى زمن المأمون اشتهر يحيى بن أبى منصور صاحب الزيج المشهور ، وعلى بن عيسى ، وعلى بن البحترى وفى زمنه أيضاً أصلحت غلطات المجسطى لبطليموس ، وأنشىء أول مرصد على جبل قيون فى دمشق ، وآخر فى الشماسية فى بغداد

ومن علماء الفلك العرب المشهورين : ثابت بن قرّه ، والمهانى والبلخى ، وحنين بن إسحق ، والعبادى ، والبتانى الذى عدّه « لالاند » من العشرين فلكياً المشهورين فى العالم ؛ ولو شئنا أن نحصى جميع علماء العرب الفلكيين لضاق بنا المقام ، وطال بنا الحديث ، وليست هذه الكلمة العجلى بالتى تتسع لذلك .

والعرب أول من أوجد بطريقة علمية صحيحة طول درجة من خط نصف النهار ، وأول من عرف كيفية الرسم على سطح الكرة[3] ، وقالوا بكروية الأرض واستدارتها ؛ وبدورانها على محورها بعد أن كان يظن أنها منبسطة وثابتة ، وقد استطاعوا بفضل ما كان لديهم من الأدوات أن يحققوا طول محيط الأرض ومقدار ارتفاع القطب ، ودورة كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر كما حققوا أيضاً طول البحر المتوسط الذى حققه بطليموس بـ ٦٢ درجة فأرجعوه إلى ٥٤° أولا ثم إلى ٤٢° أى إلى مقداره الصحيح تقريباً ، وعملوا الأزياج الدقيقة والمظيمة النفع ، كما ضبطوا حركة أوج الشمس ، وتداخل فلك هذا الكوكب فى داخل أفلاك أخر ، واكتشفوا بعض أنواع الخلل فى حركة القمر واخترعوا الاسطرلاب ، والمربع ذا الثقب[4] ، ورسموا خرائط للنجوم المنظورة مطلقين على ذوات القدر الأعظم أسماء عربية ، ووضعوا جداول للجاذبية النوعيـة ، وعرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها[5] ، وعينوا الكسوف والخسوف ، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقرروا طول السنة ، وعرفوا الاعتدالين وسبقوا غيرهم إلى اختراع «المواد» واستعمال الساعة الرقاصة ، وحسب البتانى الحركة المتوسطة للشمس فى السنة الفارسية ، وميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجده ٢٣ درجة و٣٥ دقيقة ، ودقق فى حساب[1] طول السنة الشمسية وفى حساب أهليليجية فلك الشمس ، فاستطاع أن يجد بعد الشمس عن مركز الأرض فى بعديها الأبعد والأقرب ، وحقق مواقع كثير من النجوم ، وقال بعض علماء العرب بانتقال نقطة الرأس والذنب للأرض ، ورصد الاعتدالين الربيعى والخريفى ، وكتبوا عن كلف الشمس ، وأوحت بحوثهم فى علم الفلك إلى كبلر أن يكتشف الحكم الأول من أحكامه الثلاثة الشهيرة وهى اهليليجية أفلاك السيارات[2] وبالجملة « فقد طهروا هذا العلم من أدران المنجمين والخزعبلات وأرجعوه إلى ما تركه علماء اليونان علماً رياضياً مبنياً على الرصد والحساب والفروض التى تعلل الظواهر والحركات الفلكية » .

(يتبع)

خليل جمعة الطوال

(١) علم الفلك ص ١٤٢ — لكرلونيلينو .
(١) خلاصة تاريخ العرب ص ٢١٠ لسيديو .
(٣) كاجورى : تاريخ الرياضات ص ١٠٦ .
(٤) خلاصة تاريخ العرب ص ٢٣٣ — لسيديو .
(٥) الاسلام والحضارة العربية ج ١ لمحمد كرد على .

(١) الرسالة ع ١١ السنة الأولى .
(٢) المقتطف مجلد ٣ ص ٦٠ .



لا غير :

إلى الأستاذ الشيخ عبد الرحمن القلهود فى طرابلس الغرب .

إذا لحن إمامان (لاغير) — ودع علة التلحين — فقد غنى به وأجازه أئمة سميت طائفة منهم فى تلك (الجريدة) الطويلة وسردت مقالاتهم.

وإذا لم أجد نصاً عربياً قديماً تطمئن النفس إليه كل الاطمئنان فقد اطلع أولئك الأثبات الثقاة على مالم أطلع عليه أو رأوا — وكل واحد منهم أكبر من (مجمع لغوى) رجاله أربعون أو مئة — رأوا أن يقولوا فقالوا . وفى هذا اللسان القوى الجرىء المتقدم السائر مع الزمان ألوف من الكلمات والتراكيب المولدة . وأبناء العرب عرب وإن غير الدهر والبيئة سحناتهم ... وتلحين الامامين (السيرافى وابن هشام) أورده صاحب التاج ثم قال :

« ... فلا يكون — يعنى لا غير — لحنا ، وهو الصواب الذى نقلوه فى كتب العربية وحققوه » .

وبعد فها هو ذا الإمام ابن الحريرى الذى اعتاد — سامحه الله — تخطئة الصحيح يقول فى (الدرة) ص ١٥ : « ويقولون اجتمع فلان مع فلان فيوهمون فيه ، والصواب أن يقال اجتمع فلان وفلان ، لأن لفظة اجتمع على وزن افتعل ، وهذا النوع من وجوه افتعل مثل اختصم واقتتل ، وما كان أيضاً على وزن تفاعل مثل تخاصم وتجادل يقتضى وقوع الفعل من أكثر من واحد ، فمتى أسند الفعل منه إلى أحد الفاعلين لزم أن يعطف عليه الآخر بالواو لا غير » .

وروى الامام الرازى فى (مفاتيح الغيب) ج ٤ ص ٤٢٤ عند تفسير القول الكريم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » هذه الفائدة :

« قال أبو عبيدة : الأحبار الفقهاء ، واختلفوا فى واحده فبعضهم يقول حبر ، وقال الأصمعى : لا أدرى أهو الحبر أو الحبر ، وكان أبو الهيثم يقول واحد الأحبار حبر بالفتح لا غير ، وينكر الكسر ، وكان الليث وابن السكيت يقولان : حبر وحبر للعالم ذمياً كان أو مسلماً بعد أن يكون من أهل الكتاب » .

وفى آمالى الإمام القالى ج ٣ ص ١٤٢ :

« إبراهيم بن عثمان العذرى وكان ينزل الكوفة قال: رأيت عمر بن ميسرة وكان كهيئة الخيال ، كأنه صبغ بالورس ، لا يكاد يكلم أحداً ولا يجالسه ، وكانوا يرون أنه عاشق ، فكانوا يسألونه عن علته فيقول :

يسائلنى ذو اللب عن طول علتى ... وما أنا بالمبدى لذى اللب علتى
سأكتمها صبراً على حر جمرها ... وأسترها إذ كان فى الستر راحتى
صبرت على دائى احتساباً ورغبة ... ولم أك أحدوثات أهلى وخلتى

فما أظهر أمره ، ولا علم أحد بقصته حتى حضره الموت ، فقال : إن العلة التى كانت بى من أجل فلانة ابنة عمى ، والله ما حجبنى عنها ، وألزمنى الضر إلا خوف الله (عز وجل) لا غير ، فمن بلى فى هذه الدنيا بشىء فلا يكن أحد أوثق بسره من نفسه ، ولولا أن الموت نازل بى الساعة ماحدثتكم ، فاقرئوها منى السلام ، ومات من ساعته .

واختتم هذه الأسطر بالثناء على أدب الأستاذ القلهود وشكره على حسن ظنه بهذا الضعيف وسؤال حضرته للاستفادة من فضلها عن هذه الفاء فى جواب الشرط فى هذه الجملة : « وإنها إن أقنعت أمثالى من المقلدين فلم تقنع أمثال السيرافى وابن هشام من زعماء النحو المجتهدين » وعن معنى هذه الجملة : « فياحبذا لو أن الأستاذ أعاد الكرة واستظهر دواوين العرب ورسائلهم فربما يعثر فيها على شواهد أخرى » وعن ورود مثل هذا التركيب (فياحبذا لو أن الأمر كذا وكذا) فى كلام قديم أو مولد متقدم أو متأخر .

قد ذكرتنى (حبذا) بقول هذا الشاعر :

يا حبذا جبل الريان من جبل ... وحبذا ساكن الريان من كانا

محمد اسعاف النشاشيبى

إلى الأستاذ على الطنطاوى :

أشكر لك أيها الكاتب الألمعى ماوجهته إلى من لطيف كلماتك، وأرانى مضطراً إلى أن أرجع إلى أسلوب الأستاذ الخولى — وإن كان المقال الثالث عند صاحب الرسالة وأظنه ينشر فى هذا العدد — أعود إلى أسلوبه لتعلم أنت وليعلم قراء « الرسالة » أنى ماتجنيت ، وما كان لى أن أتجنى ، بل حرصت الحرص كله على توخى الأمانة والدقة فلم أزد حرفا على كلماته ، وإنمـا نقلتها بنصها وفصها كما يقولون .

وإذا كنت تستبعد أن يتوهم الأستاذ أن الله سبحانه وتعالى قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (يا أخى) فاعلم أن الله — فى لسان الشيخ — قال لعيسى عليه السلام (يا سِيدى) وإليك نص عباراته (ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم) هذه الآية وما قبلها وما بعـدها تدور على شكل حوار خيالى بين عيسى وبين الله سبحانه وتعالى . المقصود بهذا الكلام من يعتقدون بألوهية المسيح وكأن المسألة هكذا : أنتم تعتقدون أن المسيح إلـه وتعبدونه فمن أمركم بذلك ؟ هذا هو عيسى . أأنت قلت للناس إنك إله ؟ ! أبداً أنا لم أقل لهم ذلك . طيب قولهم يا سِيدى إياك ينكسفوا) .

ولعل أهون من ذلك شرحه لكلام سيدنا أبى بكر بعد وفاة رسول الله ، وما كان من قراءته آية (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) قال الأستاذ (وكأن أبوبكر يريد أن يقول : ياسى عمر الدنيا بخير ، والأمانة لاتزال فى أعناق الوجودين ومحمد يموت زيّه زى غيره) .

ولعل مما يؤسف ويمض ألا يخلو فصل من هذه المذكرات من عبارة أو عبارات عامية ركيكة كأن من الحتم لإفهام طلاب الجامعة اللجوء إلى اللغة العامية ، وإنى لأعرف أن إدارة الأزهر حظرت على المدرسين إلقاء الدروس باللغـة العامية ، وما زال التفتيش فى الأزهر يعد هذا من أقبح عيوب المدرس .

على أنى — ياصاحب القلم الفاضل — أطلعتك وأطلعت قراء « الرسالة » على عامية مبكية لأنها تتصل بكتاب الله وأحب أن أطلعك على عامية مضحكة ، يقول الأستاذ ممهداً للكلام فى الفصل والوصل : « تقول للخادم مثلا خدْ تعريفه ، وهات بنكلة شقة عيش وبمليم كرات وبمليم سلطة فوطة وبمليم طعمية بل أكثر من هذا تمد له على أصابعك ليفهم هذه الأشياء ، وإن كنت حدِءْ (يريد حدق يعنى متنبهاً) تقول هات العيش الأول لأنه حايقابل بتاع العيش أول ما يخرج وبعدين تحود على شمالك تلاق بتاع الطعمية هات منه بمليم سلطة ، وبمليم طعمية ، وهكذا تسرد الحوادث ، وتشير إليهـا فى كلامك فمن الجائز أن تراعى القرابات والمناسبات إذا كان حدِءْ . فإذا كان بتاع الكرات فِرِيحْ (يريد بجانب) بتاع الطعمية يقوم بذكره بعده على طول علشان الواد ما ينساش ... وهكذا » .

وأنى لأعتذر إلى صاحب « الرسالة » من نشر مثل هذه التفاهات فى مجلته ، غير أن الانتصاف للغتنا العربيـة يدعونا إلى ذلك .

وليس شيئاً — كما أشرت إلى ذلك فى مقالى السابق — أن يأمر الأستاذ طلبته عند المراجعة أن يمروا بالقلم على بعض هذا فأننـا نعيب عليه أولا أن تدرس البلاغة العربية بهذا الأسلوب وثانياً أن يدون مثل هـذا فى مذكرات ، ومعروف أن طلبة الجامعة يدوّنون مذكراتهم مما يلقفونه من أفواه أساتذتهم .

* * *

أما عن ظرف الفقهاء ، فإنى قد ذكرت حينذاك أننى إنما أذكر نماذج ولا أريد الاستقصاء ، والحق أن الاستقصاء يحتاج إلى زمن طويل وإلى مجهود قد لا تسمح به شواغل الدرس ، وحسبك أن تقرأ كتابى الأغانى ونفح الطيب لترى فيهما كل طريفة مستحبة من ملح علمائنا وفقهائنا ، وربما استطاع الكاتب أن يتحدث عن أشخاص من الفضلاء الذين شهروا بالظرف فأبى السائب المخزومى وابن أبى عتيق ، أما أن يستقصى هذا الفصل فى العربية ، فذلك شأو بعيد . وإلى الأستاذ تحياتى

على العمارى

مدرس بالأزهر

محطة

الشرق الأدنى للاذاعة العربية

تذيع على أربع موجات قصيرة طولها

٢٥ ر ٤٤ و ٦٢ ر ٤٨ و ٩ ر ٤٨ و ٣٦ ر ٩٠ متراً

خمس مسابقات أدبية جديدة :

يسر محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية أن تعلن افتتاحها باب المسابقات الأدبية الجديدة التي ستفصل فيها لجان مؤلفة من كبار رجال الأدب في العالم العربي .

وستكون هذه المسابقات شهرية تتناول في كل شهر ابتداء من نوفبر موضوعاً خاصاً ، وذلك حسب الترتيب التالي : — مسابقة الأحاديث — مسابقة القصة — مسابقة الزجل — مسابقة الشعر — مسابقة الترجمة

شروط مسابقة الأحاديث :

أولا : مواضيع الأحاديث المتسابقة — تقتصر الأحاديث على معالجة المواضيع الخمسة التالية : الأدب ، الاجتماع ، الثقافة ، الفنون والعلوم .

ثانياً : أن يكون الحديث قد كتب خصيصاً لهذه المسابقة ، وإلا يكون مقتبساً عن أية مجلة أو كتاب ، أو أية مخطوطة أخرى أو مترجما ، أو سبق أن نشر أو أذيع .

ثالثاً : أن يستوعب الحديث مالا يقل عن صفحتين عاديتين (فولسكاب) مطبوعتين على الآلة الكاتبة ، وإلا يزيد على ثلاث صفحات .

رابعاً : موعد إذاعة النتائج : آخر موعد لقبول الأحاديث المتسابقة في العاشر من شهر نوفبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٤٦ . أي إن الحديث إذا وصلنا في العاشر من الشهر المذكور فسندرجه في مسابقة هذا الشهر (نوفبر) ، وإن جاء متأخراً عن التاريخ المذكور أدرجناه في مسابقة الأحاديث التالية .

خامساً : تختار المحطة لجنة خاصة للفصل في الأحاديث المتسابقة ، واختيار ثلاثة أحاديث فائزة .

سادساً : الجوائز : خمسة عشر جنيها فلسطينيا جائزة الحديث الفائز الأول . وعشرة جنيهات فلسطينية جائزة الحديث الفائز الثاني وخمسة جنيهات جائزة الحديث الفائز الثالث .

سابعاً : تعقد لجنة التحكيم جلستها أمام الميكرفون ، وتذيع النتيجة التي توصلت إليها يوم الجمعة ٢٩ نوفبر (تشرين ثاني) سنة ١٩٤٦ الساعة ٠٠ر٦ مساء حسب توقيت فلسطين .

شروط مسابقة القصة :

أولا : موضوع القصة مطلق . ولكن يشترط أن تكون القصة نفسها قد كتبت خصيصاً للاذاعة وإن لا تكون مترجمة أو مقتبسة أو منشورة من قبل .

ثانياً . تبقى القصة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتيجة المسابقة ، وبعد ذلك ، يحق لصاحبها التصرف بها .

ثالثاً : يجب أن لا تزيد القصة على أربع صفحات عادية حجم (فولسكاب) وإن لا تقل عن ثلاثة .

رابعاً : ترسل القصة مطبوعة على أربع نسخ على أن لا يذكر الكاتب إسمه على إحدى هذه النسخ ، بل يرفق إسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة .

خامساً : تقبل القصص حتى اليوم الخامس والعشرين من نوفبر ١٩٤٦ وكل قصة تصل بعد ٢٥ نوفبر ١٩٤٦ تؤجل للمسابقة التالية .

سادساً : ترسل القصص إلى « محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية » يافا — فلسطين برسم « مسابقة القصة » .

سابعاً : تعلن اللجنة القصص الفائزة في جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٧ / ١٢ / ١٩٤٦ الساعة ٠٠ر٦ مساء حسب توقيت فلسطين .

ثامناً : ينال الفائز الأول جائزة مالية قدرها ثلاثون جنيهاً فلسطينياً والثاني ينال جائزة مالية قدرها خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً والثالث ينال جائزة مالية قدرها عشرة جنيهات فلسطينية .

تاسعاً : ترسل الجوائز على أثر إذاعة النتائج .

شروط مسابقة الزجل :

اولا : يجب أن تعالج المقطوعة أحد المواضيع الأربعة التالية : —

١ — الراديو ٢ — الريف ٣ - القنبلة الذرية

٤ — نهضة المرأة فى الشرق .

ثانياً : أن لا يقل عدد الأبيات عن خمسة وعشرين بيتاً ، ولا يزيد على أربعين بيتاً .

ثالثاً : أن ترسل المقطوعة مطبوعة على أربع نسخ وإن لا يذكر الناظم إسمه على هذه النسخ بل يرفق إسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة

رابعاً : تقبل أزجال هذه المسابقة حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

خامساً : ترسل الأزجال إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية — يافا فلسطين — برسم مسابقة الزجل .

سادساً : تعلن اللجنة الأزجال الفائزة فى جلسة مذاعة يوم الجمعة ٣١ يناير سنة ١٩٤٧ .

سابعاً تحكم فى هذه المسابقة لجنتان واحدة للزجل المصرى والثانية للزجل اللبنانى والسورى وما كان قريباً منه .

ثامناً : توزع الجوائز كما يلى :

الجائزة الأولى ثلاثون جنيهاً فلسطينياً وتقسم إلى جائزتين متساويتين كل منهما خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً تعطى الواحدة للفائز الأول فى نوع الزجل المصرى ، وتعطى الثانية للفائز الأول فى نوع الزجل اللبنانى أو السورى أو ما كان قريباً منه .

الجائزة الثانية خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً وتقسم أيضاً إلى جائزتين متساويتين كل منهما سبعة جنيهات ونصف الجنيه الفلسطينى ، تعطى الواحدة للفائز الثانى فى نوع الزجل المصرى وتعطى الثانية للفائز الثانى فى نوع الزجل اللبنانى أو السورى أو ما كان قريباً منه .

الجائزة الثالثة عشرة جنيهات فلسطينية وتقسم إلى جائزتين متساويتين أيضاً ، كل منهما خمسة جنيهات فلسطينية تدفع أحداها للفائز الثالث فى نوع الزجل المصرى والأخرى تدفع للفائز الثالث فى نوع الزجل اللبنانى أو السورى أوما كان قريباً منه

تاسعاً : ترسل الجوائز على أثر إذاعة النتائج .

عاشراً : يحق للمحطة أن تلحن وتذيع ما تشاء من الأزجال الفائزة من دون مقابل .

أحد عشر : تبقى الأزجال الفائزة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتائج المسابقة ، وبعد ذلك يحق لاصحابها التصرف بها .

إثنا عشر : ستقام مسابقة أخرى يعلن عنها فيما بعد لنوع الزجل العراقى الحجازى أو ما كان قريباً منه .

شروط مسابقة الشعر :

أولا : يجب أن تعالج القصيدة أحد المواضع الأربعة الآتية :

١ — نهضة الشرق العربى ٢ — ملهمتى ٣ — اليتيم

٤ — الطبيعة الغاضبة .

ثانياً : أن لا يقل عدد أبيات القصيدة عن خمسة وعشرون بيتاً ولا تزيد على أربعين بيتاً .

ثالثاً : أن ترسل القصيدة مطبوعة على أربع نسخ وإن لا يذكر اسم الناظم على هذه النسخ بل يرفق اسمه وعنوانه كاملين مكتوبين على ورقة منفصلة .

رابعاً : تقبل قصائد هذه المسابقة حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٤٧ .

خامساً : ترسل القصائد إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية — يافا — فلسطين ، باسم مسابقة الشعر .

سادساً : تعلن اللجنة القصائد الفائزة فى جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٧ .

سابعاً : توزع الجوائز كما يلى : —

الجائزة الأولى ٣٠ « ثلاثون جنيهاً فلسطينياً » .

الجائزة الثانية ١٥ « خمسة عشر جنيهاً فلسطينياً » .

الجائزة الثالثة ١٠ « عشرة جنيهات فلسطينية » .

ثامناً : ترسل الجوائز على أثر إذاعة النتائج .

تاسعاً : يحق للمحطة أن تلحن وتذيع ما تشاء من القصائد الفائزة من دون مقابل

عاشراً : تبقى القصائد الفائزة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر

من تاريخ إعلان نتائج المسابقة ، وبعد ذلك يحق لأصحابها التصرف بها .

شروط مسابقة الترجمة :

أولا : يجب أن تكون القطعة المترجمة نثرية إما من الأدب الإنجليزي أو من الأدب الأفرنسي ، وأن تكون من أدب القرن التاسع عشر ، أو أدب القرن العشرين .

ثانياً : يذكر إسم المؤلف والمرجع الذى أخذ منه المترجم ، ترسل نسخة مطبوعة من الأصل المترجم عنه .

ثالثاً : يجب أن لا تزيد الترجمة العربية على ألف وخمسماية كلمة وإن لا تقل عن ستماية كلمة .

رابعاً : ترسل المقطوعة مطبوعة على أربع نسخ على أن لا يذكر المترجم إسمه على هذه النسخ بل يرفق إسمه وعنوانه مكتوبين على ورقة منفصلة .

خامساً : تبقى القطعة المترجمة ملكا للاذاعة مدة ثلاثة أشهر من تاريخ إعلان نتائج المسابقة ، وبعد ذلك يحق لصاحبها التصرف بها .

سادساً : تقبل القطع المترجمة حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٤٧ .

سابعاً : ترسل هذه القطع المترجمة إلى محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية — يافا — فلسطين ، باسم مسابقة الترجمة .

ثامناً : تعلن اللجنة القطع الفائزة بالترجمة ، فى جلسة مذاعة يوم الجمعة ٢٨ مارس « آذار » سنة ١٩٤٧ .

تاسعاً : توزع الجوائز كما يلى :

للفائز الأول ٣٠ « ثلاثون جنيهاً فلسطينياً » .

للفائز الثانى ١٥ « خمسة عشرة جنيهاً فلسطينياً » .

للفائز الثالث ١٠ « عشرة جنيهات فلسطينية » .

عاشراً : توزع الجوئز على أثر إذاعة النتائج .

ملاحظة هامة — لا يجوز المشترك أن يشترك بأ كثر من قطعة واحدة أو موضوع واحد فى المسابقة الواحدة .

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

دليل تليفونات القاهرة طبعة مارس سنة ١٩٤٧

يمكنكم أن تحجزوا الأماكن التى تختارونها للاعلان عن أعمالكم فى دليل تليفونات القاهرة الذى سيصدر فى شهر مارس سنة ١٩٤٧ .

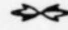
والإعلان فى الدليل المذكور له مزايا خاصة إذ يتجدد كل يوم طوال مدة سريان الطبعة ويتداوله الآف المشتركين وبه أماكن خالية تستطيعون إستئجارها بأسعار زهيدة .

ولزيادة الإيضاح اتصلوا : — بقسم النشر والإعلانات بالإدارة العامة — بمحطة مصر .

العدد ٦٩٢ — الاثنين ٧ أكتوبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد



٢٧٠٢٩

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 692

Lundi—7—10—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

السنة الرابعة عشرة « القاهرة فى يوم الإثنين ١٢ ذو القعدة سنة ١٣٦٥ — ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٦ » العـــدد ٦٩٢

بين جيلـــين . . . !

للأستاذ محمود محمد شاكر

انتفض شعر المتنبى فرمى إلىّ بهذين البيتين ، وهما على بساطة لفظهما كالجبلين الشامخين فى تاريخ الحياة الإنسانية :

سُبِقنا إلى الدُّنيا فلو عاش أهلها ... مُنعنا بها من جَيْئة وذُهوبِ
تملَّكها الآتى تملُّكَ سالبٍ ... وفارقها الماضى فِراقَ سَليبِ

أفليس لملك الموت من عملٍ إلا إخلاء الطريق للقادم ، حتى يتاح له أن يغدوَ ويروح فى الأرض التى ورثها عن السابق الفانى الذى مهَّد له بعواطئه سبيل الحياة ! ! ولعلّ ملك الموت يحارُ أحياناً حيْرَةً تديرُ رأسه فى الأمر الذى حمل أوزاره ، وكُلِّف بقضائه ، ولعله يرى أحياناً أنه يَزيلُ خيراً كثيراً ليخلُفه شرٌّ كثير ، فهو يتردَّد تردُّد المتحسِّر على ذاهبٍ هو أولى بالبقاء من قادم ، ولكنه يقضى قضاءه الذى لا يجد عنه مندوحة ولا مهرباً ؛ وهو ككل صاحب صناعة قد ألِفها ودرِب عليها ولا يجيدُ سواها ؛ فهو يعيش بها على الرضى وعلى السخط ، وعلى الفقر والغنى ، وعلى الفتور والنشاط ؛ وهو كسائر الخلق ميسَّرٌ لما خُلق له ، ولو تُرك له أن يختار لاختار قديماً كثيراً على جديد كثير ، ولآثر ناساً على ناس وحياةً على حياةٍ . ولقد أرثى أحياناً لهذا المخلوق البائس الذى يسَّرهُ الله لصناعة الإفناء والإهلاك ، فإنه ولا ريب يرى ما لا نرى ويحس ما لا نحس ، ولربما كُلِّف أن يقبض الروح من زهرة ناضرة لم تكد تستقبل الحياة . فهو يذوب لها رقة وحناناً لما سوف تتجرَّعه من غُصصه وسكراته وحشرجته ومكارهه ، فكيف يقسو على من هو بالرحمة أولى ، وبالبقاء أخلق من أُخرى لم يُبق فيها العمر المتقادم إلا الأعوادَ والأشواكَ والجذور التى ضرَبتْ فيها الآفاتُ ، ويَرِم بها البِلَى من طول مُراغمتها له على العيش !

وكيف يفعل هذا البائس حين يعلمُ أنه قد دنا أجلُ عقلٍ عبقريّ لم يتمّ عمله لخير هذه الحياةِ الإنسانية ، فهو مأمور أن يطفىء نوره ليخلُفَه عقل دَجُوجىّ لا يأتى إلا بالسواد والإظلام ؟ أُترى أنامله ترتجف من الإشفاق والضنّ والبُقيا على هذا السراج الذى أُمر أن يقطع عنه أسباب الحياة ؟ أم تُراه يفعل ذلك وهو مسلوب العقل والإرادة والإحساس كأنه قائد من رجال الحرب الحديثة ، لا عقل له إلا الحرب ، ولا إرادة له إلا الحرب ، ولا إحساس له إلا الحرب ، فهو كله حرب على الجنس البشرى بشيبه وولدانه ورجاله ونسائه ، لا يرحم صغيراً ، ولا يوقِّر كبيراً ، ولا يشفق على أمٍّ ولا ذات جنين ! أم تَراه يعلمُ ما لا نعلمُ من خَبْءِ هذه الحياة الدنيا ، وأن جليلها الذى نجله ونوقره ، هو

أولى الشيئين بالمهانة والتحقير ، وأن الحقير الذى نزدريه كان أولاهما بالتجلة والتوقير ؟ فهو إذن يؤدى عمله راضياً عن نفسه وعما يعمل ، لا تزعجه الرحمة لما لا يستحق رحمة ، ولا يمسك يده الإشفاق عما لا يستأهل إلا الإرهاق والتعذيب . وكأننا نحن إنما نحبُّ ونبغض ونرضى ونكره على قدر إدراكنا وما يبلغ ، لا على منطق الحياة المتطاولة الآماد والآباد ، فنزى الأشياء متصلة بمصالحنا ومنافعنا ، ومحصورة فى حاجات أنفسنا وآمال قلوبنا ، لا متماسكة ممتدَّة فى كهوف الأمس السحيق ، وسراديب الغد العميق .

فلو أن هذا الملك كان ميسَّراً لإدراك الحياة ومعانيها بمثل العقل الذى ندركها نحن به ، وكان كمثلنا فى تقدير الأقدار على قياس الحاجات والآمال الراهنة محجوباً عن الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، لرأيناه يحرص أحياناً على أن يُبْقى على بعضنا ويعجل أحياناً فى القضاء على بعضٍ آخر نظنُّ ، ويظنُّ معنا ، أنه لا معنى لبقائه فى هذه الدنيا ليكون زحاماً من الزحام لا عمل له إلا أن يَعُوق المتقدم ، ويعثُر به الماشى ، ويتفلَّل من جرائه حدُّ الماضى المتعجل ، ولكان الناس يومئذ يأتون إلى الدنيا ليجدوها ممهَّدة من نواحيها لا يلقى لاحقٌ عَنَتاً من وجودِ سابق ؛ ولا يصادف الطريق خالياً لا يضطره إلى جهاد ولا حيلة ولا حذر ، ولا يحمله على النظر والتأمل والهمة فى إصلاح الفاسد والفكر فى أسباب الفساد ، وبذلك يتعطل العقل وتقف الإرادة ويستنيم المرء إلى الراحة حين يرضى عن عمل من سبقه من الذين أبقى الموت عليهم لأنهم أهلٌ للحياة . وكذلك تنقطع مادة الحياة ، ويتفانَى الخلق بالرضى والقناعة كما يتفانون اليوم بالسُّخط والطمع . بيد أن موت الرضى والقناعة شرٌّ كله لأنه عقيم لا ينتج ، أما موت التسخُّط والطمع فهو إلى الخير أقرب ، لأنه يبقى البقية الصالحة التى تستمرُّ بها الحياة متجددة على وجه الدهر .

ومن أجل ذلك قُدِّر للآتى القادم على الدنيا أن يأتى منذ يولد وفى إهابه حبُّ التملك والتسلط والأثرة والعناد واللجاج فى صغير الأمر وكبيره ، وكذلك الطفل . وقُدِّر للذاهب الراحل عن هذه الدنيا أن يدلف إلى الغاية ، وقد نفض عن نفسه أحبَّ أشيائها إليه فهو يؤثر الزُّهد والإيثارَ وسعة العقل وقلة المبالاة فى كبير الأمر وصغيره ، وكذلك الشيخ . فإذا الآتى متمسِّك سالب ، وإذا الماضى مفارق سليب .

فهذا هو تاريخ الصراع بين أجيال الناس كلهم ، والأمم جميعها ، والآراء بأسرها ، والمذاهب برُمَّتها ؛ إلى آخر هذا الحشد الحاشد مما يقع عليه الخلاف فى هذه الحياة الدنيا ، وليس يكون فيها شىء إلا كان مظِنَّة للخلاف . وهذا الصراع المُفنى هو نفسه سرُّ القوة المُحْيية ، وهذا الجهاد المتواصل فى طلب الغلبة والظهور ، والنصر بين السالب والمسلوب ، هو الحياة . وهذا العناء الشديد الذى يلقاه الشباب حين يحتدم الصدام بينهم وبين أهل السنّ من قدماء الأحياء هو تكملة الإنسان الجديد الذى يريد أن يتملك مواطىء أقدام الإنسان القديم الذى كتب عليه أن يرحل ويُفسح الطريق لمن هو أولى منه بالعيش وعليه أقدر .

وقديماً قال القائل :

لكلِّ جديد لذَّةٌ ، غيرَ أننى وجدت جديدَ الموت غير لذيذ

فيأتى الآتى إلى جديد الحياة ، فإذا هو بها مشغوف لهيفٌ ، وإذا هو نفسه جديد ، فهو معجبٌ بجديد نفسه ساخرٌ من قديم غيره ؛ وإذا سرُّ كل « آت » هو جدَّته الموفورة ، وسرُّ الضعف فى كل « ماض » هو جدَّته البالية . وللجديد نخوة ونشوة وإرباء على القديم ، وفى القديم هيبة وذهول وتقصير عن الجديد ، والصراع بين القديم والجديد هو صراع على الحياة وعلى البقاء وعلى الخلود ، ولذلك لم يخلُ وجه الأرض قط من نزال دامٍ مفزع بشِع بين هذين الجبارين : الجبار الآتى الذى يريد أن يستأثر بالحياة ، والجبار الراحل الذى يلتمس لجبروته الخلود . ولا تزال الدنيا دنيا ما اصطرع هذان الجباران ، فإذا سكن ما بينهما فقد انطفأت يومئذ جمرة الحياة ، ولم يبق إلا رمادها .

ونحن اليوم أحوج ما كنا إلى حدَّة الصراع بين الجبارين : جبار الشباب وجبار الهرم ، لأن الحياة التى حولنا تريدنا على ذلك ، إذا أغفلنا مطالب الحياة الانسانية نفسها ، والتى لا بقاء

لها إلا على مكاره النزاع والنزال والمصاولة . ولكن يخيل إلىّ أن جبارنا هذا الشابَّ لم يعرف بعدُ أن اتخاذ الأهبة للقتال شىء لاغنى عنه لمن يريد أن تكون له العزة والغلبة ، وأنه ينازل جباراً سبقه إلى الدنيا فعرفها وخبرها واستعدَّ لها ، وصرف همه إلى درسها وتمحيصها ، وأنه قد بذل فى إبان شبابه من جُهد التحصيل والاستعداد ، ما غفل هو عن مثله بين اللهو والعبث والآراء غير الممحصة ، وأخذ الدنيا على أهون وجهيها وأيسرهما ، وعلى أن الصدق فيما قاله أسخف قائل : « اضحك يضحك لك العالم » ! !

ليس معنى الصراع بين الجديد والقديم : هو أن ينازل أصغر الخصمين وأقلهما تجربة ، أكبرهما وأوفاهما تجربة ، وهو يضمر له فى نفسه الإزراء به والتحقير له والاستهانة به وبسابقته فى الحياة ، كلا ، بل هو يحرص أشد الحرص على فهم خصمه ، وعلى معرفة حيله ، وعلى درس قوته ومواطن الضعف فيها ، وعلى أساليب معالجته للأشياء التى حازها بالنصر والغلبة على من سبقه . وذلك يقتضيه أن يجعل صدر أيامه وريِّق شبابه وقفاً على الدرس والتحصيل ورياضة النفس ، وتربية القُوَى ، وتعهُّد نفسه فى مراشدها وتجنيبها مغاويها ، فإذا فعل كان أهلا لمن ينازله ، وكان خليقاً أن يكتب له النصر عليه ، ولكن شاء الله أن يسلك جبارنا الشاب أضلَّ الطريقين .

فماذا كانت العقبى ؟ بقينا إلى زمن نرى فيه الشيوخ الذين أكلَ الدهر جدَّتهم ، وأبلى هممهم ، وأفنى حوافزهم ، وقطع دابر الحماسة من نفوسهم ، هم الذين يتولون تصريف الأمر فى غدنا تصريفَ العاجز ، ويدبرون سياستنا المستقبل تدبير الذاهل ، ويسيرون بهذا الشرق كله إلى رَدَغَةٍ موحلة يرتطم فى أوحالها الشيب والشبان جميعاً . وإلا فأين الشباب المبشر بالخير المهدى إلى طريق الرشاد ، ليكون لشيوخنا إذا عجزوا عُضداً ، وإذا قصَّروا باعاً ، وإذا سقطوا خلفاً ؟

إنى لأفتح عينى حين أفتحهما على كثير ، ولكن لا أرى أحداً

ومعاذ الله أن أكون ممن يُخلِى هذه الأمم من رجال شبان يدخل فى أطواقهم أن يغيروا وجه هذا الغد الذى نستقبله ،

ومعاذ الله أن يلمّ بى اليأس ويتداخلنى القنوط ، فإنى لأرى فيهم رجالا لو هم صرفوا عاماً أو عامين فى التأهب لصراع الغد ، أى لصراع الحياة ، أى لإنقاذ بلادنا من خوَر الشيخوخة ، وجبن الهرم ، وعجز السنّ ، وضعف الكِبرَ الطاحن ، ومن غرور هذه جميعاً بسالف تجربتها واحتناكها ، لأدركنا البغية التى يظن شيوخنا أنها محال ، وأنها طَفْرة ، وأنها جراءة وتقحم ، وارتماء فى مهاوى الهلاك .

أوليس من أكبر العار فى هذا الزمن أن يكون الشرق الذى بلغ بفتيانه قديماً ما بلغ ، هو اليوم مبتلى بفتيانه أشد البلاء ؟ أليس من الخزى أن يعرف أحدنا كيف تعاون شبابنا قديماً وكهولنا وشيوخنا على فتح الدنيا ، فإذا خَلَفهم يتعاونون جميعاً شيوخاً وشباناً وكهولا على ترك بلادهم وأرضهم لقمة سائغة لكل طامع ، ولحماً ممزقاً بين يدى كل جزَّار وإن هان ؟

إن علينا نحن الشباب أن نوقر شيوخنا ونجلّهم ونستفيد من تجاربهم ، وعلينا أن ننازلهم ونصارعهم ، ونأخذ من أيديهم المرتعشة ما يستقرُّ فى راحاتنا الثابتة التى لا تخافُ ولا تهيب . علينا أن نأخذ حقنا أخذ الكريم المقتدر ، من أقران نصارعهم ليموتوا موت الكريم البذَّال . وعلى هذا الصراع بين جيلينا يتوقف أمر الخير الذى نبتغيه ، والاستقلال الذى نجاهد فى سبيله ، والعزة التى نسمى إلى اقتحام أهوالها .

وعلى شيوخنا أن يعلموا أنه لابد لهم من شباب شديد الأسر يشد أزرهم إذا ضعفوا ، ويخلفهم إذا هلكوا ولكنهم غفلوا زماناً فتركوا النشء ينشأ بين أحضانهم ، فلم يسدّدوه ولم يعاونوه ولم يعدُّوه لغدهم ، وقلبوا آية الحياة وبدَّلوا معناها ، فكانوا هم الصبيان حين تخلقوا بأخلاق الصبيان ، وأصرُّوا على حبّ التملك والتسلط والأثرة والعناد واللجاج فى كبير الأمر وصغيره !

هذه الأيام تمضى بنا سِراعاً ، فلنقدِّر لغدٍ ، فإن مستقبل الشرق معقود بنواصى شبابه ، فإذا نفضَ عن نفسه غبار الكسل والمجانة واللهو ، كان إلى النصر أسرع ساعٍ ، وعلى الدنيا الجديدة أكرم وافد .

محمود محمد شاكر

مقالات فى كلمـــات

للاستاذ على الطنطاوى

المذهب الرمزى كما أفهمه :

يقف الشاعر على الطريق فتمرّ به مائة امرأة ، ما فيهن إلا جميلة فتانة تستهوى القلب وتستميل الفؤاد ، وما واحدة منهن تشبه فى جمالها الأخرى ، فلكل (جمال) طعم فى الذوق ، وأثر فى النفس ، ومعنى فى الحسّ . ويسمع مائة صوت ما فيها إلا مطرب يهز ويثير ، ولكنّ للبيات (طرباً) ليس للرصد ، وفى الصبا ما ليس فى النهاوند . ويشمّ عشر زهرات فلا يجد فيهن إلا طيباً وعطراً ، ولكن أثر الياسمين فى النفس غير أثر الورد ، وفى الزنبق ما ليس فى البنفسج ؛ وربما رأى المرأة أو سمع النغمة فى حال ، فأثارت فى نفسه عواطف لا تثيرها فى حال أخرى ، فإذا جاء يصور بالألفاظ هذا العالم الزاخر من (المشاعر) والخواطر لم يجد لهذه الآلاف المؤلفة ، من (المشاعر) المختلفة ، والخواطر المتباينة ، إلا ألفاظاً قليلة لا تقوم لهذه الكثرة ، ضيقة لا تتسع لشىء من هذه التفاصيل ، ميتة لا تستطيع أن تجارى هذه القافلة الحية المتوثبة من الخواطر والأحلام الإنسانية ...

ويقرأ القصة من القصص ، أو الأبيات من الشعر ، فتنقله إلى دنيا أخرى يرى فيها ما لا تراه عيون أكثر الناس ، ويدرك من جمالها وسحرها ما لا تدركه قلوبهم ، فإذا عمد إلى حصر هذه الدنيا فى نطاق من الألفاظ تفلتت منه ومضت ، كما يمضى عبق الزهر إذ ينبثّ فى الجوّ ، وهبط من بعدها إلى أرض الحقيقة الصلدة ، كما هبط آدم من جنته إلى الأرض ...

ويسمع الأغنيـة الحالمة تخرج من قلب عاشق مشوق ، فتطفو على وجه النسيم العليل ، فى الليـل الساجى ، ينادى بها الليل ، والليل معرض لا يجيب ، فتهز الأغنيـة إذ يسمعها (شاعريته) فتسقط أنضج ثمارها وأحلاها ؛ فإذا راح يجمعها ليودعها ظروف الألفاظ ، طارت من بين أصابعه كأنها حباب الخمر ، أو خيوط النور ...

ويحلم نائماً أو مستيقظاً فيجد لهذه الرؤى والأحلام متعة وجمالا يملأ جوانب نفسه ، ويصل إلى قرارة قلبه ، ويصحو منها ولذتها فى حسّه ، وأثرها فى نفسه ، وبقاياها فى ذاكرته ، فإذا أراد أن يضع وصفها على لسانه ، خانته الألفاظ ساعة الشدة ، وفرّت منه ولم تسعفه ... .

فماذا يصنع الشاعر ؟

أيقنع من الشعر بوصف الحالات النفسية الواضحة الدانية ، ويدع كل سام منها رفيع ، أو غامض معقد ؛ وتصور مشاهد الطبيعة الجامدة دون أن يفيض عليها أفكاره وأحلامه وذكرياته؟ إنه إن فعل كان كمن يأخذ الأصداف والديدان من شاطىء البحر مجتزئاً بها عن كل ما فى البحر من لآلىء وأسماك ، فماذا يصنع ؟

فكر فى ذلك ناس من شعراء أوربة فرأوا أن الخصلة من شعر الحبيب ، تذكر المحب بأيام الغرام ، وتتلو عليه وهى خرساء لا تنطق تفاصيل أحداثها حتى كأنه قد رجع إليها ؛ والنشيد الحربى يقص على الجندى الهرم أنبـاء معاركه التى خاضها ؛ وصورة برج إيفل يعيـد للباريسى النازح ذكريات بلده الذى فارقه ، وما خصلة من الشعر وما النشيد وما الصورة ؟ إنها رموز (Symboles) تستدعى فى الذهن صوراً وحقائق على طريق (تداعى الأفكار) كما تذكر صـورة الكعبة بالحج ، و (جون بول) بانكلترا ، والاهرام بمصر ... فلماذا لا نرمز لكل حالة نفسية غامضة برمز يذكر القارىء بحالة مثلها كان وجدها ، اعتماداً على (تداعى الأفكار) وعلى أن نفوس البشر متشابهات فى الجملة فى حالاتها الكبرى ؟

وقد حاولوا أن يفعلوا ذلك فنشأ ما ندعوه بالمذهب الرمزى (Symbolisme) ، فليس الشعر عند الرمزيين أن تصف الحبيب بل ما يثير فى نفسك الحبيب من عواطف ، ولا أن تصور مشهد الطبيعة بل ما يبعث المشهد فيك من خواطر . وإذا كانت هذه العواطف والخواطر غامضة ، فليكن الشعر غامضاً مثلها ، على أن يثير فى السامع أمثالها ، ويحضر له نظائرها . وأول شرط للشعر عندهم هو أن يكون وقعه فى الأذن جميلا بارعاً ، وأن يكون لألفاظه رنين اللحن الموسيقى . والشرط الثانى هو أن يعلو بسامعه ، ويحمله إلى أسمى الحالات النفسية . قال عميد الرمزيين

بول ڤرلين (Verlaine) : « الشعر ما انبعث من قرارة النفس ، ورفع إلى ذروة السماء ، وكان موسيقياً قبل كل شيء » .

وهذى غاية ما نظر إلى أبعد منها أديب ، ولكن هل بلغ الأدباء الرمزيون هذه الغاية ؟

الجواب : لا ، وإن نهاية ما وصلوا إليه أن جاءوا بشعر فى ألفاظه موسيقية وجمال ، يلوح من ورائها معنى فيه من (تلك) الحالات النفسية غموضها ، ولكن ليس فيه سموّها ولا عظمتها ، ولا يدنى منها ولا يوصل القارئ إليها .

هذا ما عندهم ؛ فما الذى عندنا ؟

الذى رأيناه عندنا إلى الآن : أفكار مهوّشة مضطربة فى رؤوس أحب أصحابها التعبير عن أفكارهم بالشعر ، ولم يؤتوا ملكته ، ولا أعدّوا له عدته ، ولم يعطهم الله (شعور) الشاعر ، ولطف حسّه ، وصفاء نفسه ، فاستعاضوا عن ذلك كله بالانتماء إلى المذهب الرمزى ... ولا يكلف ذلك من يريده إلا أن يكتب فى رأس قصيدته ... أو مصيبته التى يحب أن ينزلها بالقراء ، كلمة (من الشعر الرمزى) وأن يلقى صحفياً أحمق ينشرها له ...

وكل الذى قرأناه إلى الآن من هذا الشعر ... الرمزى ، قطع هى أبعد عن الموسيقى من بُعد الأرض عن السحاب ، وبُعد أصحابها عن الشعر ، وهى تنزل بقارئها إلى أحطّ دركات الاشمئزاز و (القرف ...) بدلا من أن ترفعه إلى السماء التى ينظر إليها (ڤيرلين) عميد الرمزيين الأصليين لا القردة المقلدين ...

لا . لا هذه ولا تلك ، فالرمزية الحقيقية حلم جميل ولكنه منافٍ لطبائع الأشياء فلا يتحقق أبداً ، ورمزية أصحابنا ... (تهريج) ثقيل ، وتقليد بشع ، وعدوان على الفن ، فلا تدخل حرم الشعر أبداً ...

إنها رطانة بحروف عربية ، و (شعر ...) ولكن لا شعور فيه ولا موسيقى ولا حياة .

عودة إلى « حرية الكتابة » :

دفع إلىّ أمس صديقى الأستاذ مظهر العظمة عدداً من مجلة الثقافة فقال :

— انظر ما فى هذا العدد .

فنظرت فإذا أنا ألقى أسماء جديدة لم أسمع بها قط قبل اليوم ، فلا أحمد أمين ، ولا فريد أبو حديد ، ولا أحمد زكى ؛ ولكن صدقى إسماعيل (؟) ، وخالد حمد (؟) ، وعمر كركوتلى (؟) فأنعمت النظر فإذا هى (ثقافة) أخرى ، غير (الثقافة) المصرية المعروفة ، تصدر فى (دير الزور) من أعمال الشام ، وإذا أصحابها قد سرقوا اسم مجلة الثقافة وحجمها وشكل غلافها وترتيبها حتى ليظن القارئ أنها هى ، مع أنها منها كخريطة مصر بالنسبة إلى مصر ...

فرددتها إليه ، وقلت له :

ألم تسمع أن المكتوب يقرأ من عنوانه ، فدعنى بالله منها لا أريد أن تَغَثَّى نفسى .

قال : لا والله ، إلا أن تقرأ هذا .

وأشار إلى فقرة قرأت فيها ما نصّه بحروفه :

« أيها السادة ! الممعن فى الأدب العربى من إنتاج العصور وجماع الفنون يلمح خطاً واحداً تنتظم فيه كل الألوان والأغراض هو خط السكون ، والممعن فى الأدب الفرنسى يلمح خطاً واحداً يناقض ما تقدمه هو خط الحركة » .

قلت له :

لقد قرأت ، فقل لى ماذا تريد من رجل جاهل بالأدب العربى وبالأدب الفرنسى[1] ، ويريد مع ذلك أن يتعالم وأن يتشبه بالباحثين ؟ أيمكن أن يفتح عليه إلا بهذا الهذر الذى لا معنى له أبداً إلا (الدعاية) المضحكة لفرنسة التى قطع رأسها فى بلادنا ، وبقيت أذنابها تتحرك كما يتحرك ذنب (سام أبرص) بعد دعسه بالحذاء ؟ ... وهذه ثمرة (حرية الكتابة) ، فمادام كل دعىّ فى الأدب أحمق يستطيع أن يكتب ما توحيه إليه حماقته ، ومادام كل رجل معه ثمن الورق وأجرة المطبعة يستطيع أن ينشئ صحيفة أو مجلة تنشر كتابات الأدعياء والحمقى ، فارتقب العجب العجاب ، من هذا (الأدب ...) الجديد ، وهذه (المجلات ...) المحدثة التى لا آسف على شىء إلا على أنها لم تلحق الأديب الكبير أبا العبر الذى كان يقف على جسر بغداد فيكتب

---

(١) كان أجدادنا يسمون فرنسا فرنجة وفرنسة بفتح الفاء والراء وبتاء مربوطة

كل ما يسمع من كلام المجتازين فى صحيفة معه ، ثم يشقها ويخالف بين أجزائها ويقرأ ما تحصل معه ، فيأتى بالأعاجيب ، إذن لكانت تنشر له ، وتقدمه وتفضله على سائر الكتاب ، لأن مقياس الجودة عند أصحاب هذه المجلات الجدّة والمخالفة ، وآثار ابن العبر هذا جديدة لم يسبق إليها ، مخالفة لكلام العقلاء جميعاً .

قال : أرجو أن تتم المحاضرة .

قلت : أعوذ بالله ، ماذا عملت معك حتى تعاقبنى بقراءتها ؟

قال : لا بد .

وأخذ يتلو علىّ تتمة هذا الهذر :

« السكون والحركة هذا هو كل ما استطعت الحصول عليه من وراء دراستى للأدب العربى والأدب الفرنسى » .

قلت : يظهر أن هذا الرجل قد أطال الدراسة للأدبين ، وسهر فيها الليالى ما دام (كل) ما استطاع الحصول عليه (من وراء ...) هذه الدراسة ، هو السكون والحركة ، وما السكون والحركة ؟ العلم عند الله ، فهذا شىء يدق عن أفهام أمثالنا من عباد الله المساكين ، ويعلو عن مداركهم ...

وجعل يقرأ أشياء من هذا الباب ، وأنا لا أكاد أفهم منها إلا مفردات الألفاظ ، أما الجمل وما يراد من إيرادها ، فكان يخفى عنى ، حتى وصل إلى قوله :

« ... وفى أزهار شر (بودلير) و (لا أخلاقية) أندره جيد ، وإباحية فيكتور مرغريت الأدب الحر والفن الثائر » .

فقلت له : وصلنا . هذا هو المقصد ! إنه ينقم من الأدب العربى خلوّه من هذه (اللا أخلاقية) وهذه (الاباحية) مع أنه لم يخل منها ، ولكن هذا الجاهل لم يسمع كما يبدو باسم بشار وأبى نواس ، وأبو نواس هو أمام أندره جيد فى (مذهبه ...) .

هذا هو مقصد هؤلاء الذين سماهم الأستاذ سيد قطب أولاداً لا أعراض لهم ، كما جاء فى إحدى مقالاته العظيمة التى جعل عنوانها (من لغو الصيف) وهى والله الجدّ كل الجد ، ليست باللغو ولا باللهو ، وهى من خير ما جرت به الأقلام فى هذا العصر .

هذا هو مقصدهم : الاباحية !

إنه لا يغيظهم شىء ما يغيظهم أن يكون فى الكتاب من يدعو إلى الأخلاق ومن يحارب الاباحية ...

إننا نحاربها يا أولاد ، لأن لنا أعراضاً ، وأن لنا بنات وأخوات ، أما أنتم فلا بنات لكم ولا أخوات ، ولو كنّ لكم لما باليتم والله بأعراض بناتكم وأخواتكم ، ولكشفتموهن على البلاج ولجعلتموهن (مرشدات) . إنكم تؤثرون لذة الاباحية والانطلاق على شرف العفاف والحرمان ، ثم إنكم جاهلون تقولون ما لا تفهمون ، وتهرفون بما لا تعرفون ، أفسدتم بكتاباتكم هذه ملكة البيان فى نفوس النشء ، وأفسدتم خلق العفاف فى قلوبهم ، وأفسدتم ميزان المنطق فى رؤوسهم ، وتلقون مع ذلك مجلات تنشر لكم ما تكتبون ...

إنى أعود مرة ثانية فأقول : إن المصيبة ليست بهذا الدعى الجاهل ذنب فرنسا صاحب هذا الهذيان ولا بأمثاله ، ولكن المصيبة فى (حرية الكتابة) فمتى يصحو رجال الحكومات ، ويتنبه العقلاء ، فيكفوا هؤلاء الأولاد الذين لا أعراض لهم ، عنا وعن أعراضنا ؟

متى ؟ متى ؟ أبعد خراب البصرة ؟ !

على الطنطاوى

الحضـــارة المصرية

فى عهد الدولة الوسطى

بحث للعلامة الأثرى أريك بيت

للاستاذ أحمد نجيب هاشم

عهد الاقطاع :

يطلق عادة على الدولة الوسطى — وتشمل بمعناها المحدود الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ — ١٧٨٨ ق . م) — عهد الاقطاع أى أن نظام المجتمع كان يشبه ذلك النظام الذى ساد فى أوربا فى العصور الوسطى — فهناك على رأس الحكومة يقوم الملك ، وهو لا يزال نظرياً مصدر السلطات كلها ، والكاهن الأكبر لكل الآلهة ، والمشرّع الوحيد — ويليه عدد كبير من الأمراء المحليين يتسلمون أراضيهم منه ، ويدينون له بالولاء ، ولكنهم مستقلون عنه فى إماراتهم ومقاطعاتهم استقلالا يكاد يكون تاماً . على أنه لاينبغى أن نغالى فى الفرق بين هذه الأحوال وتلك التى سادت فى عهد الدولة القديمة . فالفرق كان فرقاً فى الكمية أكثر منه فرقاً فى الكيفية .

ففى أواخر الأسرة السادسة سقطت مصر فى فوضى شديدة نظراً لعجز الملوك عن الإشراف على الأمراء الأقوياء وضبطهم ، ثم لاغارة قبائل « عامو » الأسيوية على الدلتا . فاستقل أمراء المقاطعات وصاروا يتنازعون فيما بينهم ، فاضطرب الأمن واختلت أحوال البلاد ؛ لذلك كان تاريخ تلك السنوات مظلماً ، وعند ما ينبثق النور نجد الحكم فى يد أسرة من الأمراء مقرها هيراقليوبوليس فى مصر الوسطى — وقد ذكر مانيتون أنهم كونوا الأسرتين التاسعة والعاشرة — ونجد فى الجنوب أسرة أخرى تقوم بالحكم فى طيبة . هذه هى الأسرة الحادية عشرة ، وقد عاصرت الهيراقليوبوليسين مدة ما ، ولا بد أن نزاعاً شديداً قام بين هاتين الأسرتين ثم انتهى بانتصار الجنوب انتصاراً حاسما.

ولما تولى الحكم الطيبيون ملوك الأسرة الثانية عشرة ، واجهتهم حالة تختلف كل الاختلاف عن تلك التى صادفت الملك مينا عند ما وحد القطرين — فقد انتهز الأمراء المحليون سنوات الاضطراب وعادوا إلى توطيد سلطتهم ، وتقوية نفوذهم حتى تجرأ أمراء « مقاطعة الأرنب » على قطع الرمر من محاجر حاتنوب ، وكان هذا الحق مقصوراً على الملك وحده ، وزيادة على ذلك أخذوا يؤرخون نقوشهم التذكارية هناك بتاريخ سنوات حكمهم الشخصى — وقد وحد أوائل ملوك هذه الأسرة الجديدة تلك العناصر المتفرقة ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليها فقبلوا حلاً وسطاً وذلك أنهم مقابل الولاء الذى طلبوه من هؤلاء الأمراء سمحوا لهم أو على الأقل لم ينكروا عليهم درجة كبيرة من الاستقلال المحلى .

إخضاع أمراء الاقطاع :

ولم يشعر الطيبيون أنهم فى مركز قوى يسمح لهم بإخضاع أولئك الأتباع المشاكسين حتى تولى الحكم سنوسرت الثالث كما يتبين ذلك من توقف الأمراء فجأة عند بناء مقابرهم الصخرية فى عهده بجهات البرشة وبنى حسن ومير — ثم عاد الأمراء إلى تقوية نفوذهم فى عهد أمنمحيت الرابع . فعادت الفوضى الداخلية إلى البلاد مرة أخرى ، ووقعت فريسة فى أيدى الغزاة الأسيويين المعروفين بالهكسوس .

وبمقتضى هذا النظام الاقطاعى كانت سلطة الأمير فى إقطاعيته تكاد تكون هى السلطة العليا . أجل كان بديهياً أنه عند ما تخلو إقطاعية من أميرها تعود إسمياً لفرعون كى يهبها مرة أخرى ، ولكن لعله كان من الصعب عليه أن يرفض الوارث الشرعى حقه فيها ، وقد وضح أحد أمراء أسيوط فى العقود الكثيرة التى عقدها مع كهنة المعبد المحلى كى يتولوا تقديم القرابين لمقبرته بعد موته — الفرق بين ميراثه عن أبيه ، وبين أملاكه بحكم وظيفته كأمير فالأولى يتصرف فيها بلا قيد ولا شرط حتى عن المستقبل ، والثانية لا يستطيع أن يتصرف فيها بعد موته

— وظل الملك كما كان الحال فى عهد الدولة القديمة — حقوق مالية فى كل أقليم، وكان موظفو الخزينة العليا يجمعون الضرائب .

القانون :

كان الوزير ساعد الملك الأيمن فى كل المسائل الإدارية والقضائية ، ولا نعرف عن نظم القضاء نفسها أكثر مما نعرفه عنها فى عهد الدولة القديمة ؛ بل ولا نستطيع أن نقول إلى أى حد كانت هناك مجموعة من القوانين التى تعالج الجرائم الجنائية — بيد أن معلوماتنا عن القانون المدنى أحسن وأوفر ، فنجد بين نقوش مِتِن سلسلة من الوصايا تنتسب إلى حكم سنفرو أحد ملوك الأسرة الثالثة ، وهى على رغم قدمها تدل على الدرجة الراقية التى وصلها قانون العقار إذ ذاك ، وبين النقوش الواردة على جدران مقابر الأسرة الخامسة وصايا كثيرة عن أراض نظير خدمات جنائزية يقوم بها الموصى إليه لصاحب الوصية — كذلك تحوى أوراق البردى التى عثر عليها فى اللاهون عدداً من العقود والوصايا مكتوبة بأسلوب راق وتعبيرات فنية تدل على أن كتابها محامون فنيون ولو أن هؤلاء لم يتمتعوا بلقب غير لقب الكاتب وهو بالهيروغليفية « سش » .

وأهم الوثائق كلهـا هى الواردة فى نقوش مقبرة الأمير حبفظا أمير أسيوط السالف الذكر ، وفيها يعقد بصفته رئيس كهنة معبد ابْواوِت إله أسيوط المحلى عشرة عقود مع الكهنة يتنازل فيها عن جزء من نصيبه الحالى فى القرابين التى تقدم إلى المعبد مقابل خدمات يقوم بها الكهنة له بعد موته — وهنا نجد التمييز القانونى بين ما يملكه الشخص بصفته الفردية وما يملكه بصفته موظفاً ، وبين هـذه العقود واحد يعقده الأمير بين نفسه بصفته الفردية وبين رئيس كهنة أبْواوِت بصفته موظفاً ، وغنى عن الذكر أن رئيس الكهنة هنا هو حبفظا نفسه

تدل هذه الوصايا والعقود على أن قانون العقار كان موجوداً ومحترماً فى مصر فى عهد الدولة الوسطى . والغالب أن القانون الجنائى لم يكن أقل تقدماً . ولا غضاضة علينا فى أن نجرؤ فنظن بأن الأربعين درجاً التى حوت هذا القانون والتى كانت تبسط أمام الوزير فى محكمته فى أيام الأسرة الثامنة عشرة كانت موجودة بشكل ما أيام الأسرة الثانية عشرة .

الديانة والأخلاق :

ما مبلغ دلالة هذا النظام القانونى على وجود قانون خلقى؛ ثم إلى أى حد كان لهذا إن وجد — أساساً دينياً ؟ — هذه أسئلة ليس من السهل الإجابة عليها ، وإن الصورة الناقصة التى لدينا عن الديانات المصرية أيام الدولتين القديمة والوسطى تمثلها كأنها شىء شكلى غير شخصى ، فمعبود الشمس « رع » الذى علت منزلته حوالى بداية الأسرة الخامسة ، وكان مندمجاً مع المعبود حوريس فى شكل « رع حوريس الأفق » اندمج مرة أخرى بالإله آمون إله طيبة لما ارتقت منزلته بارتقاء الأسرة الثانية عشرة الطيبية الحكم ، وسمى « آمون رع » .

ولكن مما لا ريب فيه أن كان هذا الإله للمصرى العادى شيئاً بعيداً غامضاً ؛ فقد كان اهتمامه الدينى — مركزاً فى إله مدينته أو إقليمه . بل وهنا أيضاً كانت الديانة مجرد احترام للتقاليد والطقوس أكثر من كونها صادرة من الضمير ، فالنقوش التى دونها الأمراء على جدران مقابرهم ، وتباهوا فيها بأعمالهم فى حياتهم قلما تشير أو قد لا تشير بالمرة إلى أداء العمل الطيب لذاته أو لأن الآلهة تحض عليه . كذلك تعطينا أوراق البردى التعليمية الفكرة نفسها فحيثما تحث على اتباع الأمانة تحض عليها لمجرد أنها « تفيد » صاحبها .

وفى الوقت نفسه يمكننا أن نتتبع فى الدولة الوسطى بداية ظهور مقياس خلقى واعتقاد الحساب فى الآخرة ، وهـذا راجع إلى حد ما إلى انتشار عقيدة أوزيريس الذى اعتقد فيه أهل الدولة الوسطى أنه يسكن أبيدوس كإله الموتى ، فنرى فى النقوش الواردة على توابيت هذه الفترة أول إشارات إلى هذا الإله بأنه القاضى الذى يعرف الحق من الباطل ، وهذه فكرة لم تبلغ تطورها التام إلا فى عهد الدولة الحديثة فقط؛ فلم تكن هناك فى الدولة الوسطى قائمة الآثام المعروفة التى كان يتبرأ منها الميت أمام محكمة أوزيريس بالاعتراف السلبى .

ولكن ما مقدار هذا الخوف من حساب الآخرة ؟ أليس

من المرجح أن القوم فى الدولة الوسطى اعتقدوا كما اعتقد خلفهم فى الدولة الحديثة بصحة التعاويذ السحرية التى كانت تدفن مع الميت سواء أكانت فى شكل نقوش على تابوته أم كانت لفة من ورق البردى ، واعتبروها حامية كافية له ضد عواقب حياة أثيمة ؟ وإذا فرضنا أن نشأة الاعتقاد فى الحساب فى الآخرة تدل على نهوض وازع خلقى ألا يظهر كأن السحر سرعان ما قدم مسكننا دفع ذلك الرادع الثائر إلى النوم مرة أخرى ؟

الواقع أن هذه أسئلة يصعب الإجابة عليها نظراً لقلة الأدلة التى لدينا فمن الصعب أن نقرر شيئاً حاسماً فى هذه المسألة فى حالة أمة تعيش الآن ناهيك بشعب مضى فان هـذا عادة يكاد يكون من المستحيل .

العناية بنظام الرى :

وإذا انتقلنا من هذه الناحية الخلقية من الحياة المصرية إلى الناحية المادية واجهتنا مسألة أسهل . فهنا مع أن أحوال المعيشة العامة لم تتغير فى بعض نواحيها عما كانت عليه أيام الدولة القديمة إلا أنه من الممكن أن نذكر تقدماً جد عليها ، ويرجع هذا التقدم إلى أمرين أولها : نمو التجارة الخارجيـة ، وثانيهما : تحول الفراعنة عن تسخير الرعيّة فى أعمال لا فائدة منها أى فى بناء الاهرام ، إلى العمل النافع الذى يعود على البلاد بالخير وهو تحسين نظام الرى . وسنبحث هذا الموضوع الآن ، أما الأمر الأول فسنؤجل التكلم عنه إلى مكان آخر فى هذا البحث .

لما كانت واحة الفيوم فى منخفض عن سطح البحر كان فيضان النيل يعمها كل عام ويحولها إلى بحيرة عظيمة ، وفطن ملوك الأسرة الثانية عشرة إلى خزن كمية عظيمة فى تلك الجهات ، وتصريفها وقت التحاريق كى تطول مدة رى الوجه البحرى — أى إن الفكرة كانت تشبه الفكرة الخاصة بخزان أسوان الحديث . ولا يعرف بالضبط مَن مِن فراعنة الأسرة الثانية عشرة نفذ هذا المشروع ، وإن كان قد جرى العرف على نسبته إلى أمنمحيت الثالث — وقد عمل المشروع على كسب أراض شاسعة للزراعة من تلك المساحات الهائلة التى كان يغمرها ماء الفيضان عند مدخل الفيوم ، وذلك ببناء سور عظيم .

الحالة الاجتماعية :

الرقيق : سرعان ما ظهرت نتائج هذه الاصلاحات فى زيادة رفاهية البلاد . نعم إن الرقيق لم تتغير حاله عما كانت عليه أيام الدولة القديمة ، والواقع أنها قلما تغيرت طول عصور التاريخ المصرى .

الأشراف :

أما النبيل المصرى فقد عاش عيشة الترف والمتعة ، واقترن بها فى بعض الأحوال عناية طيبة وشفقة بأولئك الذين يخضعون لسلطته . هـذا طبعاً إذا صدقنا النقوش الواردة على مقابر الأشراف . ففيها نقرأ أن النبيل كان يطعم الجوعان ويكسو العريان ، وينقل فى سفينته عبر النيل من ليست له سفينة — وفى وقت المحن كان يمد إقليمه بالغلال ، ولعل دعواه فى أنه لم يسلب أرملة أو يغتصب حق يتيم لم تكن مجرد عبارات تقليدية ترددها النقوش — وقد أولع الأشراف بالرياضة فكان النبيل يخرج على قدميه لصيد ما يجده من حيوان فى الصحراء ؛ أو يركب قارباً من البردى يمخر به المستنقعات لصيد السمك بالحراب أو وحش الطير بعصا صغيرة .

ظهور الطبقة الوسطى :

كان ظهور طبقة متوسطة وفيرة العدد من أهم المميزات الاجتماعية للدولة الوسطى ، ولهذه الطبقة مقابر كثيرة فى أبيدوس حيث تخيل المصريون وجود قبر الإله العظيم أوزيريس وتمنى كل مصرى صالح أن يدفن على مقربة منه . وكان إذا أدرك استحالة ذلك قام على الأقل بالحج إليه أو أوصى بأن تحمل جثته بعد تحنيطها إلى أبيدوس لتحضر احتفالا دينياً قبل أن ترقد فى مقرها النهائى فى مدينته أو إقليمه — وهكذا كانت أبيدوس مركزاً دينياً هاماً فى القطر المصرى .

(للبحث بقية)

أحمد نجيب هاشم

فرويد ونظرية التحليل النفساني

للدكتور أحمـــد فؤاد الأهوانى

مذهب فرويد أو فلسفته من المذاهب التى لقيت رواجاً عظيما فى العصر الحاضر ، وأحدثت انقلاباً فى علم النفس ، وانقسم العلماء بالنسبة لآرائه إلى فريقين : معسكر الأنصار والمحبذين والتلاميذ ، ومعسكر المنكرين والناقدين . ومن تلامذته الذين خرجوا عليه وكونوا مذاهب جديدة فى تفسير الحياة الإنسانية « أدلر ويونج » .

ويرى فرويد — كما يرى غيره من علماء النفس — إلى تفسير الأعمال الصادرة عن الإنسان . فليس هناك عمل نفسى مهما خيل إلينا أنه تافه يخلو من معنى . فإذا بدا لنا أحد هذه الأعمال غيثاً ، فواجبنا أن نسعى إلى كشف العلة فى حدوثه ، والغرض الذى يرمى إليه ، والنزعة التى دفعت إليه

ونضرب مثلا لما قدمنا يوضح ما يذهب إليه فرويد قبل أن ندخل فى صميم نظريته : دخلت خطيبة إلى الحمام وخلعت خاتم الخطبة ونسيت أن تلبسه ثانياً ، ثم أخذت تبحث عنه ولم تهتد إلى مكانه . نسيان الخاتم سلوك صدر عن الفتاة قد يفسره البعض أنه راجع إلى الشرود أو الانشغال أو الصدفة . وكثير من الناس لا يجدون تعليلا لهذا العمل . أما فرويد فيجعل السبب فى ذلك رغبة الفتاة عن خطيبها وعدم رضائها عن الزواج ، فتحركها هذه الرغبة الباطنة التى لا تشعر بها ، لأنها موجودة فى اللاشعور إلى نسيان الخاتم ، وهو رمز الزواج .

هذه النظرة إلى الأعمال الإنسانية علمية وديناميكية .

فهى علمية لأن فرويد يحاول ربط المظاهر بالأسباب كما يجرى فى عالم الطبيعة . فهى نظرة جبرية Determinist . وليس هذا مما يعاب على فرويد ، بل على العكس مما يمدح به محاولته هذا التفسير الجبرى الذى بدونه لا يستقيم العلم الصحيح ، بل يخرج علم النفس من ميدان العلوم .

وهى نظرة ديناميكية ، لأنه يجعل للنفس الإنسانية قوى متحركة يصدر عنها السلوك . وفى ذلك يقول فى كتابه « مدخل إلى التحليل النفسانى » ما يأتى :

« ليس غرضنا أن نصف ونرتب المظاهر فحسب ، بل نريد أيضاً أن نراها علامات على حركة القوى العاملة فى النفس ، كأنها مظاهر ميول لها غرض محدود ، سواء أكانت هذه الميول تعمل فى اتجاه واحد أم فى اتجاهات متعارضة . إننا نسعى وراء تكوين نظرة ديناميكية Conception dynamique للمظاهر النفسية »

وقد أوردت هذا النص امثلة ، ذلك أن أحد الباحثين فى علم النفس ، وهو الدكتور يوسف مراد المدرس بكلية الآداب قال فى كتابه « شفاء النفس » ص ٩٥ ما يأتى :

« تمتاز فلسفة فرويد بكونها ميكانيكية جبرية ، فإنها تنظر إلى الإنسان كأنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة » . وقال فى مكان آخر : « أما فلسفة ادلر ، فهى على نقيض فلسفة فرويد ، تمتاز بكونها غائية اختيارية تفاؤلية . ونعلم أن المذهب الغائى على نقيض المذهب الميكانيكى » ص ٩٧ — ٩٨ . فهو يجعل مذهب فرويد ميكانيكياً

ويقول الطبيبان ريجى وهسنار فى كتابهما التحليل النفسانى ص١٥ : « إن نظرية فرويد تمثل الحياة النفسية فى نظرة موضوعية على طريقة النظر إلى الوقائع العلمية ، كما تمثلها مذهباً (System) يتطور باستمرار ، يحتوى على قوى أولية متعارضة أو مكونة أو منتجة . ونستطيع تطبيق اصطلاح علم النفس الديناميكى على هذه النظرة الديناميكية للعقل »

وقد أخطأ الدكتور يوسف مراد خطأ آخر ص٩٧ : « وأخيراً يجب أن نشير إلى الشجاعة التى واجه بها فرويد المشكلة الجنسية وإلى الدقة الفائقة التى حلل بها مختلف مظاهر الوظيفة الجنسية ، غير أنه أسرف ، وخاصة تلامذته ، فى إرجاع كل ظاهرة سلوكية إلى الغريزة الجنسية »

وليس الأمر كذلك عند فرويد ، لأنه لا يرجع كل شىء إلى الغريزة الجنسية ، بل بعض تلامذته ، وأولئك الذين كتبوا عنه كتابات شعبية تحمل معنى التعميم والتبسيط . وقد دافع فرويد عن نفسه ضد الذين يخطئون فهمه فقال : « لقد كررت وأعلنت بكل وضوح ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، بمناسبة الأمراض النفسية الانتقالية ، أننى أميز تماماً بين الغريزة الجنسية وبين الغريزة النفسية (Tchtriebe) ، وأن اللبيد Libida ، يعنى نشاط الغريزة الجنسية . إنه يونج — لا أنا — الذى

يجعل من الليبيد مساوياً للدافع الغريزى لجميع القوى النفسية ».

وقال فرويد فى موضع آخر : « لم يغفل التحليل النفسانى مطلقاً وجود ميول غير جنسية ، وقد أقام التحليل النفسانى بناءه على مبدأ الفصل التام الواضح بين الميول الجنسية والميول المتصلة بالذات أو الأنا le moi ، وقد أثبت التحليل دون انتظار الاعتراضات الموجهة إليه ، أن الأمراض النفسية ليست نتيجة الغريزة الجنسية ، بل نتيجة الصراع بين الأنا والغريزة الجنسية Conflit entre Le moi et la sexuatitè » .

وهنا نجد أن الدكتور يوسف مراد يقع فى خطأ ثالث إذ يقول : « إذ ليس هذا رأى فرويد كما رأينا ، لأن المرض قد يقع نتيجة الصراع بين الغريزة الجنسية والأنا فى حالة الشعور ، وقد يكون الصراع فى اللاشعور فقط . فالعنين الذى يشعر بعجزه عن مباشرة المرأة يضطرب نفسانياً لشعوره بالضعف ».

والغريب أن الدكتور يوسف مراد أنصف نظرية فرويد ص ٨٦ بقوله: « والواقع أن المشكلة النظرية التى أثارها التعارض بين فرويد وأدلر لا تزال حتى الآن متعلقة . بل يبدو أن النزاع بين الفريقين يزداد عنفاً ويتجاوز حدود المناقشة العلمية الهادئة إلى أساليب التهكم والتحقير » . ثم عاد وحقر نظريته بما يخرج عن الأسلوب العلمى

وأذكر الآن حالة مريض عالجته على طريقة فرويد لأثبت صحة نظريته . جاءنى شاب يشكو ضيقاً وقلقاً وتبرماً وانصرافاً عن الاستذكار ، وتبلغ سنه اثنين وعشرين عاماً ، يعيش مع أخيه الأكبر ، يتناول من والده مرتباً لمصروفه الشخصى أربعة جنيهات فى الشهر . سألته عن أحواله الجنسية فقال : إنه يتصل بالعاهرات ، ولكنه لايستطيع الزواج نظراً للظروف الاجتماعية إذ لايزال طالباً ، ولايستطيع الصبر عن المرأة . وبالبحث اتضح أن ضميره يؤنبه على هذه الصلة غير الشريفة ، فهناك صراع بين الغريزة الجنسية وبين نفسه الخلقية ، وكلاهما كان فى مستوى الشعور ، وحلت المشكلة بتعليمه التسامى بالغريزة الجنسية نحو الموسيقى التى برع فيها .

وحيث كان فرويد يجعل للغريزة الجنسية أهمية كبيرة فى حياة الإنسان ، ويجعل لتجاربه الماضية المسجلة فى اللاشعور أثراً فى سلوكه الحاضر ، فقد بحث فى الحياة الجنسية للفرد منذ ولادته ، حتى دور المراهقة ، وافترض أن الرضيع يشعر بلذة جنسية من امتصاص ثدى أمه ومن إخراج الفضلات ومن الملامسة مما لا يتسع تفصيله الآن

وإنما نذكر أهم الاعتراضات العلمية التى توجه إلى نظرية فرويد لتكون ماثلة بالبال

وأولها أن نسبة لذة جنسية إلى الرضيع والصغير فيها شىء كثير من الإسراف والغلو بل الجرأة . ثم إن فرويد يقيم بناء نظريته على دراسة المرضى والشواذ ، ويتخذ من هؤلاء سبيلا إلى أحكام عامة يصدرها على سواد الناس وهم الأغلبية ، فيحكم بالخاص على العام ، وبالشاذ على السليم . كما أنه لا يعنى أن تفسر شخصية الإنسان فى ضوء الغريزة الجنسية ، ولو عكسنا لأصبنا الحق ، فتصبح الغريزة الجنسية وما يتبعها من مظاهر إحدى وظائف الفرد التى تدخل فى حسابنا ، وليست كل وظائفه على رأى المغالين فى مذهب فرويد .

أحمد فؤاد الأهوانى

الخـــائبون . . . !

للأستاذ عـــبد الوهاب الأمين

ان أولئك الذين يقسمون الحياة إلى قسمين: ملهاة ، ومأساة ، قصيرو النظار ؛ فالحياة أكبر من هذين ، وهى تحويهما لأنها أوسع من أن تحد بحالتين فقط ، وإن كانت هاتان الحالتان تمثلان طرفى نقيض

وحيث تنتهى الملهاة تبدأ المأساة فى حياة كل فرد أومجموع ، كما أن نهاية المأساة قد تكون بداية لملهاة جديدة ... وهكذا

والناجحون فى الحياة هم أناس رأوا منها جانباً واحداً فقط . وبينهم وبين أن يدركوا معنى الحياة بصورة شاملة عبور الجانب الآخر ..

ولا يضير هــذه القاعدة أن يعيش فى الدنيا أناس جربوا النجاح حتى آخر لحظة من حياتهم ، أو أن يكون هناك آخرون لم يصادفوا غير الفشل . فالواقع أن هؤلاء هم الشذوذ الذى يثبت القاعدة ولا ينفيها .

ويجب أن نفسر ما نرى إليه من النجاح أو الفشل فى الحياة الفردية ، فقد يفهم كثير من الناس من النجاح جانباً واحداً مثلا ، وقد يكون هذا الجانب هوالثروة عند الفقراء ، أو الصحة عند المعلولين ، أو سواء الخلقة عند المشوهين .

ولكن النجاح الذى نرمى إليه هو قدرة الفرد أو المجموع على بلوغ مثل أعلى لا يتقيد بحاجات الفرد الزمنية أو المادية ، وينطوى على فكرة سامية وهدف مقصود .

والخائبون فى بلوغ هــذا الهدف ، مع استمرار كدهم ، هم الذين يستحقون العناية ، لأنهم بذلوا جهدهم كله ، وما زالوا يبذلون ...

***

قيل إن غادة جميلة لم يأسر قلبها حب ، ولم تجرب بعد زكامه ، اختصم حولها رجلان كأن كل واحد منهما يظهر لها أقصى غاية الحب والتضحية ... فحارت فى أمرها ، ولم تجد فى قلبها هوى معيناً نحو أحدهما على التخصيص فصممت على أمر !

قالت لهما : إنها لا تشعر بميل قطعى إلى أحدهما ، ولكنها ستهب نفسها للفائز منهما فى صراع ينشب بين الإثنين ، يقرر الغلبة لواحد منهما !

واصطرع العاشقان وتمت العملية بفوز الفائز ... !

والتفت هذا مفتوح الذراعين ليحتضن أمنيته فى الحياة ... فما راعه إلا أن رآها منكبة على العاشق المصروع ، تضمد له أوجاعه ، وتهب له قلبها ! !

فلما سئلت : لماذا غيرت رأيها ؟ أجابت بأنها لا تستطيع إلا أن تحترم ذلك الذى أفنى كل جهده فى سبيل الحصول عليها ، ولم يبق لديه بعد ذلك شىء يغنيه ! !

وهذه المرأة سليمة الشعور ، قويمة العاطفة ، وهى خير مثال يضرب لفكرة تقدير « البطل الخائب » ، وإن كان هو فى هذا المثال قد خرق القاعدة فنال ما تمناه بسهولة ...

والنجاح السهل الذى يخيل لبعض الناس أنه ميزة يمتاز بها بعض من حبتهم الطبيعة ما يسمونه « الحظ » ، قد شوه الواقع تشويهاً ، وأصبح من جملة الشرور البشرية التى يكابد منها كل فرد فى كل مجموع !

***

النجاح السهل هو ما يريده كل الناس فى كل الأزمان ، لأنه خير اختصار للمجهود الشاق الذى ينبغى على الحى أن يبذله فى سبيل حياته !

وأسطورة « الحظ » هى الحلم الذى يطرق أخيلة الطامحين بعد كل كابوس !

وليس معنى هذا أن ليس هناك « حظ » فى الدنيا ، ففيها كثير من الحظوظ والمحظوظين ، ولكنهم — هنا أيضاً — القلة التى تثبت القاعدة ولا تنفيها

ومن هذه الأسطورة نشأت شرور « الحياة الخالة » التى تبدأ بالمراهقة ، وقد تنتهى بالسجن والعذاب ، أو بشقاء المسؤوليات التى لا يستطيع الفرد أن يضطلع بها

والحالمون هم أولئك النـاس الذين يريدون أن يختصروا الطريق إلى غاية معينة لكى ينصرفوا — من بعدها — إلى المثل

الأعلى الذى يسمون إليه ، فلا تنتهى حياتهم قبل أن يقطعوا الطريق ، وتلتاث أفكارهم فى الصراع على الآونة الحاضرة ، ويصبح المستقبل عندهم أبعد من الماضى

والمقامرون هم خير مثال لذوى الحياة الحالمة إذ كان مثلهم الأعلى هو الثروة ! والموسوسون هم خير مثال لأولئك الذين يريدون السعادة الطهرية من أقرب طريق !

***

أما شر ما يمكن أن يصنعه « الحالم » فى هذه الدنيا ، فهو بعد أن يتحقق حلمه الأول

فليست هناك قوة تقنع الإنسان بعد تحقق أول حلم له بأنه غير موهوب وذى رسالة ينبغى عليه أن يؤديها

ومن هنا يبدأ النزاع الأبدى بين المنطق والواقع ، ويشتد الصراع بين قوة قوية دافعة ، وبين واقع واقف كالجدار

وتحل النكبة عند اختراق أول جدار ، لأنه يفك أسر جميع ما فى الفرد من قوات مخزونة لكى يندفع إلى الأمام

ولا تنتهى حياة كهذه إلا بكارثة ، وأهون الكوارث فى هذا المضمار هى الكارثة التى تقتصر على الشخص الفرد نفسه ، ولا يشترك معه آخرون

وما هذه الحرب التى نكابد شرورها إلا نتيجة كابوس طويل لرجل حلم تحقق حلمه الأول !

***

الخيبة مرحلة من مراحل الحياة يجب أن يتخطاها الفرد لكى يكون ذا تجربة

ولا يضير هذه القاعدة قول « أوسكار وايلد » إن « التجربة هى اللفظة التى اصطلح الناس على تسمية أخطائهم بها »

فالواقع أن الخطأ كالخطيئة ، هو الجانب الآخر الذى يقاس به الصواب والفضيلة . وكما أن الخطيئة عمل إيجابى قائم بذاته ، فكذلك الفضيلة ، وكل فضيلة مبنية على السلب فهى شق ينبغى تكملته

وكل نجاح سهل يحصل عليه الإنسان ، فهو الشق الناقص من حياته ، وينبغى تكملته

ومن لم يصطرع فى حياته تهشم عند أول صراع بعد نجاحه

وليس انتحار الموسرين والأصحاء والموهوبين إلا لأنهم حازوا أكبر نجاح بأقل خذلان ، ولأنهم اصطدموا بالواقع لأول مرة فى حياتهم ، جاءت الرجة أقوى مما يتحملون

ولهذا فلن يكون مما يضير الإنسان الكامل الإنسانية أن يكون « خائباً » !

عبد الوهاب الأمين

الأدب فى سير أعلام :

ملـــتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأســـتاذ محمود الخفيف

— ٢٧ —

فى ميدان السياسة :

ورضيت حكومة كرمول عن ملتن أعظم الرضاء وأصبح لديها المكين الأمين ، ورفع كتابه ذكره فى أنحاء أوربا ، ومما ساعد على ذلك أن كثيرين كانوا يضيقون بترفع سلامسيس وصلفه ونظرته إلى الكتاب والأدباء جميعاً نظرة الزعيم الذى لا يرضى منهم بغير الإذعان له ، وساعد عليه كذلك أن الناس عادة ينجذبون إلى الكاتب الجديد الذى يظهره موقف كهذا الموقف . هذا إلى أن ملتن كان يتغنى بالحرية ويدافع عن حق الشعب فتشيع فى عباراته حرارة الوطنية ، وهو انجليزى يناضل عن بنى جنسه ، بينما يرى الناس سلامسيس يعمل لحساب غيره فى قضية لا يربطه بها رباط إلا استجابة لشارل الثانى ، وشتان بين موقفه وموقف خصمه . . .

وأصبح مقر ملتن فى ديوان الحكومة كما أصبح بيته قبلة الزائرين من ذوى المكانة وأعلام الأدب من الإنجليز وغير الإنجليز من الأجانب الذين يهبطون انجلترة ، ولا ريب أن هذا قد أثلج فؤاده وأبهج نفسه ، فما أشد ولوعه بنباهة الشأن وبعد الصيت ! !

ويزعم جونسون أن ملتن قد نال جزاءاً على صنيعه ألف جنيه صرفت له بإذن من البرلمان ، ولكن بايتسون ينكر هذا الزعم ويقول : إن جونسون هو المسؤول عن شيوعه فى كل ما كتب عن ملتن من تراجم ، فهو خالق هذا الزعم ؛ والحق أنى لم أجد فيما زعم جونسون برهاناً لزعمه ولا فيما أنكر بايتسون دليلا لإنكاره ، ولعل جونسون تأثر بما قاله سلامسيس إذ أنه اتهم ملتن فيما اتهمه به بأنه مأجور يكتب لا عن عقيدة ولكن عن رغبة فى الكسب ، ويعتمد بايتسون فى نفيه هذا عن ملتن على مجرد استبعاد حدوثه ، فما يتفق هذا وما طبع عليه ملتن من كبرياء واعتزاز

على أن ملتن فى الواقع قد دفع ثمن ما كتب ، ودفع ذلك الثمن غالياً لا يقوم بمال ولا بشىء من أعراض هذه الحياة ، وأى شىء أغلى عليه من ناظريه ؟ لقد كان ذلك المجاهد الحر يشكو العلة فى عينيه منذ بضع سنين ، وكانت تنتابهما غشاوة من حين إلى حين ؛ وفى سنة ١٦٥٠ ذهب النور من عينه اليسرى ، وحذره الطبيب ملحاً ، وما برح يكرر عليه أنه إذا أجهد عينه اليمنى ، فهى ذاهبة كأختها لا محالة ، ولكنه جاد على وطنه بما بقى من بصره ، قال فى ذلك بعد أن وقعت الكارثة بسنتين أى سنة ١٦٥٤ : « لقد كان علىّ أن أختار بين أن أنكص عن واجب سام أو أفقد بصرى ، وفى هذه الحالة ما كنت لأستطيع أن أصيخ إلى الطبيب ... ولم يك فى وسعى إلا أن أستجيب إلى ذلك المرشد القائم فى داخلى ، ذلك الذى لست أدرى ما هو ، والذى تحدث إلىّ من السماء ، واعتبرت فى نفسى أن كثيرين قد اشتروا ما هو أقل خيراً من هذا بضر هو أعظم مما يتهددنى من ضر ، كهؤلاء الذين يبذلون نفوسهم مثلا ليشتروا المجد فحسب ؛ وعلى ذلك فقد جمعت عزمى على أن أبذل ما بقى من بصرى على قلته فى أداء أعظم ما فى طوق أداؤه من خدمة للصالح العام »

ولقد أقبل المجاهد المصمم لم ينكص عن جهاده ، وإنه ليعلم أن ذهاب بصره هو عقباه التى لا محيص عنها ؛ وما دخلت سنة ١٦٥٢ حتى حلت به الكارثة وا أسفاه ، فحيل بينه وبين النور ، وغشيته الظلمة ، وهو لا يزال من عمره فى الثالثة والأربعين وباتت عيناه اللتان كانتا أجمل ما فى محياه الأبلج الحلو أقوى دواعى الحزن والألم لكل من تطلع إلى ذلك المحيا الكريم ؛ وكانت الأرض يومئذ تأخذ زخرفها وتتزين للربيع ، ولكن الشاعر الذى عشقت روحه الجمال لن يرى بعد اليوم جمالا لربيع !

وما نحسب أن فى تاريخه على ما يزخر به من الشواهد على شجاعته شاهداً هو أجل من هذا أو أصدق منه أو أبعد أثراً فى النفوس ، وإنا لنحس حياله مثل ما نحسه حيال فارس ترك فى الميدان شلوا من أشلائه : أو سقى أرض وطنه بفيض من دمه !

ولأن فقد البصر يحول بين عامة الناس وبين متع الحياة ، فذهاب بصر الشاعر أو الكاتب معناه الحيلولة بينه وبين طلب الحكمة ، وهذا أوجع فى نفسه وآلم لخاطره من حرمانه من اللهو ومن زينة الدنيا ؛ ولنا أن نتصور وقع هذا فى نفس كنفس ملتن ، ذلك الذى ما انصرف يوماً عن القراءة والدرس على الرغم من كثرة شواغله وتعدد مشاكله !

البطل الضرير

أحاطت الظلمة بالشاعر العظيم ، فهل ذهبت نفسه حسرات على ما أصابه ؟ كلا ، بل تماسك للخطب وقد أُنذِرَه قبل وقوعه ، وتدرع بالصبر ، وإنه لذو كبرياء حتى على الدهر وأرزائه ؛ وما كان لروح مثل روحه أن تهن مهما كرثته الأهوال ونزل به ما يعيا بحمله الرجال !

وراح البطل يتلمس العزاء لنفسه ، فكان عزاؤه الذى اطمأنت إليه روحه أنه أدى لوطنه صنيعاً جليل القدر بكتابه الذى رد به على سلامسيس ، فليس بضائره بعد ذلك أن يذهب فى سبيل صنيعه بصره ...

وثمة عزاء آخر يدلنا على شدة اهتمام ملتن بنفسه وفرط اتجاه فكره إلى ذاته ، وعظم انطواء شعوره على ما عسى أن يكون شعور الناس نحو شخصه لا فى جوهره فحسب ، ولكن فى مظهره كذلك ؛ وذلك ما أحس به من ارتياح ، إذ علم أن ذهاب بصره لم يؤثر فى مظهر عينيه ؛ عبر عن ذلك الارتياح فى قوله : « إن عينى لم يمسسهما فى مظهرهما ضر ، وإنهما لتاتمعان بضوء لم تحجبه غشاوة ، ومثلهما فى ذلك مثل عينى من يبصر بصراً تاماً ، وهذه هى الناحية الوحيدة التى أجدنى فيها على الرغم منى منافقاً » ؛ وفى إشارته إلى ما عده نفاقاً منه سخرية عذبة وتهكم لا يخلو من مرارة ...

ولندع ملتن نفسه يفصح عما جال فى خاطره نتيجة لما أصابه ، فقد عبر عن ذلك أبلغ تعبير وأصدقه فى مقطوعة من مقطوعاته ، وأشار إليه إشارة رائعة فى مقطوعة أخرى ، قال فى الأولى : « إذا أنا تفكرت كيف انطفأ من حولى الضوء قبل أن أقضى نصف أيامى فى هذه الدنيا الواسعة المظلمة ، وكيف عطلت فىَّ تلك الملكة الوحيدة[1] التى يعد تعطيلها موتاً من الموت ، بينما أجد نفسى أكثر نزوعاً لأن أخدم بها خالقى[2] وأن أقدم حسابى الحق بين يديه ، خشية أن يحق علىَّ لومه ؛ إذا أنا تفكرت فى ذلك تساءلت فى حماقة : هل جعل الله النهار للعمل ، بينما أحرم هكذا من الضوء ؟ ولكن الصبر كى يقضى على هذه الشكوى لايلبث أن يجيبنى : إن الله غنى عن عمل الإنسان وعن مواهبه[3] فإن الذين يذعنون لسلطانه الرحيم خير إذعان هم الذين يخدمونه خير خدمة ، وإن مكانته لهى مكانة الملك المهيمن ، يجرى بأمره الألوف[4] فى البر والبحر دائبين ، وكذلك يخدمه من هم واقفون لأمره منتظرون » ... وقال ملتن فى المقطوعة الأخرى يخاطب صديقه سيريك سكينر : « أى سيريك ، منذ ثلاث سنوات وهاتان العينان وهما من النور سليبتان ، ولو أنهما سليمتان فى مظهرهما الخارجى من العيب ومن الغشاوة قد نسيتا إبصارَهما ، ولا يقع فى مقلتيهما المكفوفتين منظر لشمس ولا لقمر ولا لنجم خلال العام ولا لرجل ولا لامرأة ، ومع ذلك فلست أشكو يد الله ولا مشيئته ، لا ولا ينقصنى شىء من حماسة القلب ومن الأمل ، بل أحتمل وأمضى قدماً ، ولعلك تسأل : ما ذا يعيننى ؟ ألا إنه شعورى أيها الصديق بأنى فقدتهما مرهقاً بالعمل فى سبيل الدفاع عن الحرية ، ذلك العمل النبيل ، عملى الذى ترن به أوربا من جانب إلى جانب ؛ وإن هذا الخاطر لخليق أن يقودنى فى متاهة هذه الدنيا ، فأسير به رضىَّ النفس ، ولو أننى أعمى ولم يتح لى غيره رائداً أسمى »

واختير له فى أبريل سنة ١٦٥٢ مساعد يصرف شؤون وظيفته بأمره ، ويقرأ له ما يقتضيه عمله من قراءة ، ويكتب ما يمليه عليه مما يستدعى العمل أن يدون ؛ وأقبل ملتن على عمله كأن لم يعقه عنه عائق ، يشعر من يدانيه أنه رخى البال مطمئن الخاطر ، لا يفتر اهتمامه بالسياسة ، ولا يتخاذل عزمه أو تتطامن كبرياؤه ...

وفى مايو استطاع ملتن ولم يمض شهر على مصيبته أن ينظم

(١) يقصد ملكة الكتابة

(٢) فى ذلك إشارة إلى ما كان يفكر فيه من موضوع لقصيدته

(٣) غنى بملائكته (٤) من الملائكة

مقطوعة وجهها إلى كرمول عنوانها « إلى اللورد جنرال كرمول » ولم يك كرمول يومئذ قد سمى حامى الجمهورية بعد ، وإنما كان بسبيل أن يحمل هذا اللقب ، إذ كان ينظر إليه كأعظم رجل فى الدولة ، وألزم شخصية لسلامتها إذ ذاك ، وقد نجاها بعد هزيمة الملك مما كان يتحيفها من مهالك ، فأعاد النظام إلى إرلندة سنة ١٦٤٩ ، وهزم الملكيين فى اسكتلندة سنة ١٦٥٠ والتى تليها وأجبر شارل الثانى على الفرار إلى فرنسا ؛ وبذلك قبض على أزمة الحكم فى المملكة جميعاً ، ولم يبق يستدعى حكمته وهمته إلا ما يتصل بالناحية الدينية ، فقد كثرت الفرق والطوائف التى يخشى من اختلافها بعضها مع بعض ، فهناك قساوسة شارل الأول ، وهناك البرسبتيريتز ثم المستقلون ؛ وتركت بعض الكنائس بغير رعاة من هؤلاء ولا من هؤلاء ؛ ودعا فريق إلى أشراف الدولة على الكنيسة بحيث يتمشى النظام السياسى الجديد مع نظام دينى يشاكله ، ورغب فريق آخر إلى القضاء على الكنيسة الأنجليكانية ، أى كنيسة الدولة الباقية من عهد شارل ، واقترح بعض المستقلين وضع نظام جديد لكنيسة لا يقبل فيها رجل من رجال الدين إلا إذا أقر خمسة عشر مبدءاً أساسياً وضعها هؤلاء ، وإذ ذاك لم يرض ملتن عن هذه القيود ، واهتاجه الحنين إلى الدفاع عن الحرية ، وتخالجه السخط على هؤلاء الذين يريدون شراً بالحرية الدينية فى عهد الحرية السياسية ، فنظم مقطوعة يناشد ملتن أن يتجه من شؤون الحرب إلى شؤون السلم ليدافع عن الحرية الدينية فى مهارة وجدارة ، كما دافع عن الحرية السياسية !

وكأنما كان بين ملتن وبين القدر ثأر ، فلم يكد يفيق مما غشيه ويذهب عنه روعه ، حتى روع بموت وحيده الطفل فأرمض جوانحه الحزن ، وكان لا يذكر ولده أو يقع فى سمعه إشارة إليه من قريب أو من بعيد إلا تبادر دمعه فامتلأت به عيناه الكفيفتان فما استطاع — وهو القوى الجلد — أن يحبسه ! وضربه الدهر ضربة أخرى ولما يرقأ دمعه ، إذ ماتت زوجته بعد ابنها بشهر وبعض شهر فى يونيو سنة ١٦٥٢ ، وقد وضعت له أنثى فتركتها فى سرير الوضع ووسدت التراب وهى بعد فى السادسة والعشرين وقد مضى على زواجها بملتن تسع سنوات ، وعاشت معه نحو سبع سنوات بعد أن صلحت ذات بينهما

وهكذا تتوالى عليه المحن وتتنوع صروف الدهر فتمحصه وتثبت فؤاده ، ويجمع فى حياته بين وجهى الشجاعة ، فله إلى جانب إقدامه وحميته عظم صبره وصرامة عزيمته !

وحق له أن يستريح من السياسة ومتاعبها ، وأن يطلب العزاء فى قيثاره وله فى هوميروس من قبله أسوة ، وما يكون له بعد ما حاق به عزاء إلا الشعر ، لعله يقضى منه مآرب صباه ومنزع هواه بعد أن شغلته عنه الحوادث سنوات طويلة

ولكن البطل الضرير لم يكد ينزع إلى الراحة ويستنشى نسائم الشعر ، حتى انبعثت صيحة جديدة من نفس المكان الذى انبعثت منه الصيحة الأولى ، فنشر فى هيج كتاب جديد باللاتينية سماه صاحبه « استصراخ دم الملك السماء على الخائنين من الإنجليز » وأخذ مؤلفه يسخط على كرمول وجنوده فى عبارات شديدة نجد مثالا لها فى قوله : « إن جريمة اليهود بصلب المسيح ليست شيئاً مذكوراً إذا قيست بإعدام شارل الأول » ؛ ثم راح يمتدح سلامسيس ويطنب فى مدحه ويغلو فى ذلك غلواً كبيراً ؛ وبقدر ما أسبغ على سلامسيس من مدح كانت سهامه التى قذف بها ملتن ، فهو عنده دودة تدب من كومة قمامة ، وهو أحط من القرد وأكثر ضآلة من البقة ، وهو أرنب فاتر وصعلوك جائع هزيل ، وإنه لجاهل طرد من كمبردج لاستهتاره وتبذله . وفر إلى إيطاليا لما لحقه من عار إلى غير ذلك من عبارات أقل ما توصف به أنها البذاءة فى أشنع صورها وأرذلها .

(يتبع) **الخفيف**

الحلم والتحلم . . .

للاستاذ محمود عزت عرفة

— ٢ —

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه »

حديث شريف

معاوية بن أبي سفيان :

استبد معاوية بأمر الشام بعد إذ جنح إليه سواده ، وقامت بنصرته أجناده ؛ فناوأ بهم « عليا » على عرش الخلافة ، وأضرم على أهل البيت وأبناء العراق من شيعة أمير المؤمنين نار حرب عوان أعادت أيام الجاهلية جذعة بعد أن عفّت على تراثها أخوة الإسلام ، ومسحت جراحها يد الشريعة السمحة . ومهما يكن من شأن معاوية فلقد كان صحابياً جليلا عامر القلب بالإيمان ، زاخر النفس بالورع والتقوى ، أشدّ ما يكون خليفة حدباً على الإسلام والمسلمين ، وأعظم ما يكون خشية على هذه البنيّة الناهضة أن تتصدع وتنهار ، وهو يرى جوائح الحرب تعصف بقوائمها وتتحيف من دعائمها .

ولعله كان بسبيل أن يراجع أمر نفسه ، ويتدبر السبيل للخروج بالمسلمين من هذا المأزق الذي التاثوا فيه عند ما قتل « على » بيد ابن ملجم ، فاستقر زمام الأمور بيد معاوية ، وتدلت إليه قطوف النصر ثمراً جنياً .

ولم يصعب عليه بعد ذلك أن يعالج أمر الحسن بن عليّ بما يكفيه مؤنة قتاله ويدفع عنه شرّ خلافه ؛ فالتأمت صفوف المسلمين وأغمدت سيوفهم ، وسمى معاوية هذا العام عام الجماعة(١) وكانت مسرته بالغة بما آل إليه أمر هذا الخلف ، وثقته في مستقبله عظيمة عظمَ قوته في حاضره ، ثابتة ثبات كفاحه في ماضيه .؛

(١) كان ذلك سنة ٤١ من الهجرة ، وقتل على سنة ٤٠ هـ .

حتى لأقبل غداة النصر على أعدائه من بني هاشم باسط اليدين بالمنحة وبالعفو وهو يقول :

يا بني هاشم : والله إن خيري لكم لممنوح ، وإن بابي لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيري عنكم علة ، ولا يوصد بابي دونكم مسألة .

سلك معاوية نهجاً من التسامح امتلك به القلوب ، وبقدر اطمئنانه على ملكه كان تسامحه وإغضاؤه ، وعلى حسب مقدرته على الأخذ كان جنوحه إلى الإمهال والترك . يقول في خطبة له مشهورة ألقاها بالمدينة عام الجماعة : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دَبْر أذني وتحت قدمي » .

وكأنما كان يخجل معاوية أن يحول بين أعدائه وما يتشهّون من تناوله بألسنتهم ؛ بعد إذ تناولهم هو وجنوده غير راحمين طعناً وضرباً بأطراف الرماح وأسنة السيوف . ولقد دخل وهو خليفة على صعصعة بن صوحان العبدي — وكان سجيناً عنده — فقال له صعصعة في حوار بينهما غير راهبٍ منه ولا خاش : أما والله مالك في يوم بدرٍ مضرب ولا مرمى ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لاحلّى ولا سيرى » ولقد كنت أنت وأبوك في العير والنفير ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما أنت طليق ابن طليق ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى تصلح الخلافة لطليق ؟

فقال معاوية : لولا أني أرجع إلى قول أبي طالب حيث يقول :

قابلتُ جهلهمو حلماً ومغفرة
والعفو عن قدرة ضرب من الكرم

... لقتلتكم !

ولقد أسبغ معاوية عطفه على أهل الشام لسابق مآثرهم عنده ، وزادهم على العفو واسع العطية وجميل الإقبال ، حتى لأفضل مرة بمائة ألف على أبي جهم بن حذيفة حين قال له : نحن عندك يا أمير المؤمنين كما قال عبد المسيح لابن عبد كلال :

نميل على جوانبه كأنّا — نميل — إذا نميل — على أبينا
نقلّبه لنخبر حالتيه — فنخبر منهما كرماً ولينا

وقسم مرة قُطُفاً (جمع قطيفة) فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه ، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية

فأتاه فأخبره ، فقال له معاوية : أوفِ بنذرك ، وليرفق الشيخ بالشيخ !

كان تحلّم معاوية إذن تكفيراً لما سبق من ضروب الأذى أو وفاء لما مضى من سوالف الجيل ... ولقد أراب ذلك كثيراً من المؤرخين — ممن سجلوا حوادث عصره — حتى لا تّهموه فى هذا الحلم التصنع ، ولم يثبتوه له كفضيلة يحمد عليها ؛ وكان ذلك إما حقداً عليه وغمطاً لحقه ، وإما توسعاً فى استنباط سريرة نفسه ، واستكناه بواعث تصرفه ؛ جرياً على سنة المتفلسفين والنقدة من أمثال الجاحظ ؛ فقد ورد فى كتابه البيان والتبيين[(١)] إنه قيل لشريك بن عبد الله[(٢)] : كان معاوية حليما ! فقال : لو كان حليما ما سفه الحق ولا قاتل عليا ، ولو كان حليما ما حمل أبناء العبيد على حرمه ، ولما أنكح إلا الأكفاء . ثم يقول الجاحظ : وأصوب من هذا قول الآخر[(٣)] : كان معاوية يتعرض ويحلم إذا أسمع ، ومن تعرض للسفيه فهو سفيه . وقال الآخر[(٣)] : كان يحب أن يظهر حلمه ؛ وقد كان طار اسمه بذلك ، فكان يحب أن يزداد فى ذلك .

وكيفما كان الرأى فى حلم معاوية فقد وطد بهذا الخلق الكريم ملكه ، ومسح ببلسمه الجراح التى أسال دماءها ؛ ولم يكن ليلومه على هذا التصرف إلا غِرٌّ مأفون ، أو نزق أرعن سفيه ، وكذلك كان ابنه يزيد الذى عتب على أبيه يوماً فقال : لقد أفرطت فى الحلم حتى خفتُ أن يعد ذلك جبناً (! !) فأجاب الوالد الحصيف : ليس مع الحلم ندامة ولا مذمة ...

أبو جعفر المنصور :

يعد الناس أبا جعفر مؤسساً لملك بنى العباس ، بما بذل فى ذلك من همة وأنفق من جهد ... لكن سبقه إلى تبوّىء عرش الخلافة أخوه أبو العباس السفاح ، ومن ثم يصطلح المؤرخون على تلقيب أبى جعفر بالمؤسس الثانى للدولة العباسية ، ولقد أفضى اللواء إلى يده بعد أخيه فنهض بأعباء الكفاح وحده ، وعنف على مناوئيه عنفاً مزق به أديمهم وفلّ حدهم ، إذ كانوا من القوة ومن الكثرة — وهو الضعيف بجدة ملكه القليل بعدة أنصاره — بحيث لا تجدى مع مثلهم المهادنة ، أو تدفع من بأسهم المطاولة والمصانعة . كان ملك بنى العباس كنبتةٍ غضة لا تكاد تنهض على ساقها لتأخذ حظها من الغذاء والنماء ؛ إلا أن يحيطها بسياج متين من القوة والبطش يرد عنها كيد الموتورين من بقايا آل مروان ، وثورة الحاقدين من شيعة آل هاشم ، وسائر من يتربصون به الدوائر من العرب . ولم تكن قد تهيأت بعدُ لخلفاء بنى العباس تلك القداسة التى حظوا بها على تطاول السنين ، وإنما كانت أكثر العيون تنظر إليهم كدهماء ارتفعوا على ظبات السيوف إلى تلك المكانة العلية التى بلغوها ، فلا غرو إذن أن تكون ظبات السيوف وحدها هى التى تحفظ عليهم هذه المكانة ، وتقرها فيهم وفى أحفادهم من بعدهم[(١)] . قال عبد الصمد بن على العباسى للمنصور يوماً : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو . فقال المنصور : لأن بنى مروان لم تَبْلَ رممهم ، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء ، فليست تتمهد هيبتنا فى صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة !

تلك كانت سياسة المنصور التى أخذ نفسه باتباعها مواجهة منه للمخاطر التى تهدد ملكه ؛ ولقد بعثته الريبة على أن يبسط يده بالعدوان إلى أقرب الناس إليه ، من وزرائه وخاصته وأعوانه فضلا عن أعدائه والخارجين عليه . فاستقام للمنصور الأمر ، وعنتْ له لوجوه رغبة منها أو كرهاً ، حتى لعادت إلى نفسه بعد حين تلك الطمأنينة التى تنىء معها النفوس إلى جانب من الحلم والإسجاح ...

---

(١) صفحة ١٦١ من الجزء الثالث . طبعة السندوبى .

(٢) كان شريك بن عبدالله النخعى عالما فقيها تولى القضاء بالكوفة والأهواز أيام المهدى ، ثم عزله الهادى . وقد ولد سنة ٩٥ هجرية بمدينة بخارى وتوفى بالكوفة عام ١٧٧ ﻫ .

(٣) لعل الجاحظ إنما كان يعنى نفسه بهذا الآخر الذى يحكى عنه .

(١) يضاف إلى هذا أن استيلاء العباسيين على الخلافة كان ينطوى على الخيانة لأبناء عمومتهم العلويين ، إذ كانت الدعوة إنما بدأت باسمهم منذ عهد بنى أمية حتى سلبهم العباسيون حقهم فيها . ويدل على تبلور هذه الفكرة وشدة استيلائها على الأذهان ما حاوله المأمون فيما بعدُ من تحويل الخلافة إلى على الرضا بن موسى الكاظم ، حتى صده العباسيون عن ذلك بانتخابهم عمه إبراهيم بن المهدى فى بغداد ، وقد رجع المأمون عن رأيه وتخلص من على الرضا بطريقة غامضة ثم قدم بغداد ، فلاذ عمه بأذيال الفرار حتى وقع القبض عليه عام ٢١٠ ﻫ .

وكأنما كانت نفس المنصور قد غثيت لمنظر هذه الدماء التي أفاضها أنهاراً ؛ أو عادت إليه ثقته ووقاره بعد أن طاحت بهما رهبة الحوادث ، أو هو قد بلغ من نفسه هذا الزجر والتقريع الذي كان يلقاه به أمثال عبد الصمد بن علي من فضلاء أصحابه ، وذوي الرأي والنصيحة فيهم ؛ أو كأنما استشعر المنصور قلق الرعية من هذا الكابوس الجاثم فوق صدورها ، ورأى مرجل الحفيظة والسخط يغلي في قلوب الناس فمال إلى شيء من التحلم بقدر ما استراحت إلى ذلك نفسه ، وكان عجيباً — عند النظرة غير الدقيقة — أن يصدر مثله عن مثله !

ولعله كان لا يزال يعالج هذا الأمر من نفسه ، ويتكلف الدربة عليه ، ويتجرعه ولا يكاد يسيغه ... عند ما اعترضه المعترض في خطبة له وهو يذكّر بالله تعالى فقال : أذكّرك من ذكّرتنا به يا أمير المؤمنين !

فكان من جوابه أن هشّ للاعتراض وبش ، وذكر الله واستعاذ به ثم قال : وما أنت يا قائلها فوالله ما الله أردتَ بهذا ، ولكن ليقال قام فلان فقال ، فعوقب فصبر ، وأهوِنْ بها من قائل لو كانت . وأنا أنذركم أيها الناس أختها ! فإن الموعظة الحسنة علينا نزلت وفينا ثبتت ... ثم أخذ بقائم سيفه وقال : إن بكم داء هذا شفاؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبدٌ قبل أن يعتبَر به ، فما بعد الوعيد إلا الإيقاع ؛ وإنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله .

كان المنصور — وقد ظفر برؤوس أعدائه — لا يضيره أن يعفو عن أذنابهم ، وأن يضفي ثوب حلمه على من نهض مع الرؤساء من أوشاب الناس وعامتهم ، لأن إشمال العقوبة لا يخلو من الظلم ، والعفو عن العامة — وهم سريعو النفرة سريعو الفيئة — أقوم بأسباب الملك وأجمع لشمل الرعية ، وأكفل بتقدم الحياة وانتظام العمران .

قال المنصور يوماً لجعفر الصادق : قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي — يعني عند ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي فيهم [1] — وقد رأيت أن أبعث إليهم من يعوّر عيونهم

(١) يلقبونه النفس الزكية . خرج بالمدينة عام ١٤٥ هـ وقتل في رمضان من نفس السنة ؛ قتله عيسى بن موسى قائد جيش المنصور .

ويجمّر نخلهم . فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين ! إن سليمان أُعطي فشكر ، وإن أيوب ابتلي فصبر ، وإن يوسف قدر فغفر ، فاقتدِ بأيهم شئت ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون . فقال أبو جعفر : إن أحداً لا يعلمنا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ! وإنما قلتُ هممت ولم ترني فعلت . وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم ...

وتحقيقاً لهذه الأغراض البعيدة نفسها كان عفو المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، فإنه كان ممن شق عصا الطاعة ، وداهن في شأن إبراهيم بن عبد الله العلوي [1] . فلما صار إلى المنصور أمر الربيع بخلع سواده [2] ، ووقف به على رءوس اليمانية في المقصورة في يوم الجمعة ، ثم قال : يقول لكم أمير المؤمنين ، قد عرفتم ما كان من إحساني إليه وحسن بلائي عنده ، والذي حاول من الفتنة والغدر والبغي وشق العصا ومعاونة الأعداء ... وقد رأى أمير المؤمنين أن يهب مسيئكم لمحسنكم ، وغادركم لوفيكم !

وحُمل إلى المنصور عبد الحميد بن ربعي بن خالد بن معْدان فقال : لا عذر فأعتذر ، وقد أحاط بي الذنب ، وأنت أولى بما ترى . قال : لست أقتل أحداً من آل قحطبة [3] بل أهب مسيئهم لمحسنهم وغادرهم لوفيهم .

وعفا المنصور عن عمه عبد الله بن علي بعد أن تمت هزيمته على يد أبي مسلم الخراساني ، واكتفى باعتقاله حتى مات في محبسه [4] .

وهكذا بدأ المنصور قاسياً شديد القسوة ، ثم تكلف من التحلم ما أفضى به إلى قريب من الحلم ، عند ما استتب له الأمر وبلغت الطمأنينة من نفسه مبلغها .

(يتبع) محمود عزت عرفة

(١) أخو النفس الزكية . دخل البصرة وأعلن البيعة لأخيه ، ثم استولى على الأهواز وواسط . قتله عيسى بن موسى في موقعة باخمرى لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ .

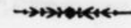
(٢) شعار العباسيين ومن على ولائهم .

(٣) كان قحطبة بن شبيب الطائي أحد الدعاة العباسيين ومن نقبائهم الاثني عشر ، عقد له إبراهيم الامام اللواء بيده ، وصرفه إلى أبي مسلم في خراسان (سنة ١٠٣ هـ) فأبلى في قتال الأمويين البلاء الحسن .

(٤) كان عبد الله بن علي والياً على الشام ثم ثار عام ١٣٧ هـ طامعاً في الخلافة ، ولما هزم لجأ إلى أخيه سليمان بن علي بالبصرة فأسلمه إلى المنصور سنة ١٣٩ ، وظل في سجنه حتى مات سنة ١٤٧ هـ

علوم البـــلاغة
بين القدامى والمحدثين

للأستاذ كامل السيد شاهين



مدرسة الرسالة، لها طابعها الخاص، فى المساجلة والنقاش على هذا أسست، وامتحنتها الأيام بضروب من المحن، فثبتت على الزعازع، وانتصرت على الأغراض والأهواء. يعلم ذلك من تابع «الرسالة» منذ مولدها الميمون إلى حاضرها الزاهر.

فالرسالة للجميع بلا تفضيل ولا إيثار. لأن البحث والدرس يلدان الحقيقة التى كانت نشدة أصحاب العقول منذ خلقت الفلسفة وبهما تقررت الحقائق وثبتت، ولم يشـفها التضليل مع السافيات.

إذا تقرر هذا، فليسمح لى الزميلان: الطنطاوى والعمارى، أن ألفت نظرهما فى رفق إلى مزالق ما كنت أحب لهما أن يتورطا فيها، أو ينحدرا إليها فقد راع الأول أن يقول أستاذ البلاغة فى الجامعة «الله يقول لنبيه: يا أخى أنت حارق نفسك ليه؟» . وراح يزعم أن هـذا إشراك وكفر، ويستعدى على الجامعة والجامعيين، ويثير الناس ليدّاركوا أبناءهم أن يجرفهم تيار الشرك والإلحاد!

بالله هوّن عليك يا على!، فليس ثمّ شرك ولا كفر، وأنت أخبرُ الناس بذلك، وأدراهم أن هذه الـكلمة قد فقدت حقيقتها فى أفواه الناس، ألم تسمع إلى الفلاح يهز حماره، ويقول يا أخى سِرْ! أفتراه قصد أخوة النسب أو الرضاع، أو الآدمية، أو الحمارية. لا: إنما هى كلة تحنن وتعطف! وشبيه بهذا قول السائق لحصانه: ياشيخ! والنظائر فى هذا أكثر من أن تحصى.

فلا تُرَعْ، ولا تستنفر وأبق على الجامعـة والجامعيين، ودَعْ حديث الـكفر والإلحاد فقد جنت مصر ثمراً مراً فى دهر طويل، كانت حَـرِيّة أن تصرفه فيما يفيد ويغنى!

ثم اللغة العربية، ليست لغة الإيمان والإسلام، فقد سبقت الإيمان والتوحيد بقرون طويلة، فإن أبيْتَ إلا أن تخرج لغة مؤمنة مسلِمة موحدة، فدونك فامنع دراستها فى كلية اللغة ودار العلوم بمصر، ودار العـلوم ببغداد، وأنشئ لتلك اللغة المباركة التى ولدت مسلمة وشبت مسلمة، ثم ادعنا، وإنا — إن شاء الله — لمستجيبون! وأظن هذه لمحة دالّـة فى علاقة اللغة بالإيمان والإسلام. فإن غُمَّت فسنفرد لهـا مقالا خاصاً يفهم الشتيت ويجمع المتفرق.

وأما أنت يا عمارى، فـكنت بمنجاة من اللوم، إذ عرضت للاسلوب الذى تدرس به البلاغة فى الجامعة فلـكل امرئ فيما يحاول مذهب، وما كنت أحسب أنه سيغريك نقد الأسلوب بنقد الآراء، فأما إذا انحدرت إلى هذا فهـلُمّ!:

(١) تقول: «إن الفـكرة المتسلطة عليه فى هذا الفن أن يجعل لـكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية».

إى نَعم، يا على، أأنت قرأت تعريف البلاغة؟ إن الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الـكلام لمقتضى الحال ولا أزيد بياناً ولا بسطاً، ولـكن هـذه المطابقة لا تكون إلا بإدراك المتكلم لنفسية السامع وما تحوى من ملابسات! فهذا هو فحوى كلام الأستاذ الخولى، أفتمارى فى هذا؟ إذن فهات تعريفك أنت لعلم البلاغة فانا منتظرون!.

(٢) تقول: «أن الأستاذ لا يؤمن بالماديات الصرفة، ولا يستحسن تشبيـه الفرس بالثلج فى البياض»؛ فهو ذاك يا صاح! فإنه لا يجْـمُلُ إلا حيث يكون للبياض مزية كالمساعدة على الاختفاء، وعدم ظهوره فى آل الصحراء، فأما إذا لم تعتبر هذه المزية فلا فضل لأبيض على أبلق أو كميت! وذلك هو ماقصد إليه الأستاذ من تنبيه على تفاهة التفضيل المقتضى للتشبيه فى بيت ابن الزَّبير الأسدى.

(٣) عاب أستاذ الجامعة البيتين:

ولا زوردية تزهو بزرقتها ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها بين قامات ضعفن بها ... أوائل النار فى أطراف كبريت

وخلاصة العيب أن الشاعر شبه صورة بصورة فى الوضع واللون، ولم يلتفت إلى ما وراء ذلك من إيحاءات وأفاعيل ينتظرها السامع من شاعر!

وقد خالف عليه الأستاذ العمارى بأن الفن يوجد فى المعانى كما يوجد فى الماديات.

وليس هذا بالـكلام يُصغى إليه ، فالماديات بحتة لا تأثير لها وإنما التأثير لما يتعلق بها من معانٍ ، أفإن قلت : إن تمثال الزهرة كالزهرة كنت مشبهاً تشبيهاً مصيباً مؤثراً ، لا إنه لاعتبار إلا لما يوحيه ويستلزمه هذا التشبيه من دقة الصناعة والمهارة فى المشاكهة بين زهرة الورق أو الصلصال وأختها الطبيعية الحية .

ياسيدى : إن مثل التشبيه فى البيتين فى خلوه من الروح كمثل من يرى بقعاً من دم قتيل أو طائر منثورة على الرمال، ثم يسير فيجد خرزات حمراً مستديرة فيفجأ السامع : أتدرى ؟! إن بقع الدم التى رأينا كهذه الخرزات احمرارها احمرارها . احمرارها ، واستدارتها استدارتها ، وحجمها حجمها ، وانتثارها على غير نظام انتثارها ! أفيعجبك هـذا ويكون تشبيهاً غريباً عجيباً مصيباً مستحقاً للاطراء والثناء ؟ !

أحسب أن لا ! .

ذلك أن السامع حين يُذكر الدم تعتريه الرهبة والإشفاق والرثاء لصاحب الدم المطلول ، وحب التشفى ممن سفـكه ، ولا يخطر له ببال أنه مستدير أحمر منثور على غير نظام .

فمثل هذا التشبيه عبث ولغو وشعبذة ، وسقوط بالقيم الفنية للشعر إلى حد سخيف ! .

وهمسة أهمسها ، لا بل مجلجلة أعلنها لا متردداً ولا هائباً ، تلك : أن الثقة بأذواق النقـاد القدامى يجب ألا تطرد ، وأن استشهادهم يجب أن يكون موضع نظر جديد ، وأن الاستشهاد بآرائهم يجب أن يعرض على محكّ التمحيص . ذلك بأنهم — على جلالتهم — قد شملهم ذوق العصر ولم تستقم فى أذواقهم اللغة غضة طرية ، عطلا من زينة وحلية ، وأثر البيئة أثر جليل فى الأذواق والعقول ، ومن ثم كانت تفاهة الاستشهادات ، والتخريجات ، وكان لجوؤهم إلى الفلسفة والناحية العقلية هرباً من الناحية الذوقية ، فقاسوا بالشبر والقيراط ، واتخذوا المبالغة أساساً للتفضيل ، ولم تظهر لهم الزينة فى القوة والعذوبة والسلاسة والنغم فطلبوها بالصّبغ والألوان والشعبذة اللفظية . إذا ثبت هذا فأعفنى — عافاك الله — من استحسان البلاغيين ، وعدم استحسانهم ، فنحن نسأل الذواقين من أمراء البيان . فطه حسين والزيات ، والعقاد ، وأحمـد أمين ، وخليل مطران ، أولئك المحكّمون ترضى حكومتهم . فأما السعد والخطيب فلا نعيبهما ولـكن نقول غلبت عليهما شقوة العصر وفساد الذوق ، وقوة الفلسـفة ! .

فـكلام عبد القاهر فى أن التباعد كلما زاد كان موجباً لارتياح النفس ليس مطرداً ، وليس أدل على هذا مما سقته لك مثلا من تشبيه الدم بالخرز الأحمر .

(٤) وأما حسد جرير لعدى بن الرقاع العاملى عندما أنشد :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فناحيته أنه أعرابى لا يعرف التحبير ، ولم يخبر من الدنية ما يطوع له أن يعرف قراطيسها ، ومحابرها وأقلامها ، فظن جرير أنه لن يهتدى إلى شىء يشبه به رُوق الأغن ، فلما أصابه حسده جرير . ألا تراه يقول : « قلت : قد وقع ! ماعساه يقول ؟ وهو أعرابى جلف جاف ! » .

فأنت قد وقعت — يا علىّ — فى سِرّ حسَد جرير ، ولم تدره فظننت أنه إنما حسده لأنه كان تشبيهاً بارعاً مصيباً له تأثيره وجماله ، وما هو بذاك .

(القاهرة) كامل السيد شاهين

مدرس بالمدارس الأميرية

جنـــازة . . . !

للأســـتاذ عثمان حلمى

ولقد تبعت ضحىً جنازة راحل لمنازل فى القفر غير أواهل
ووقفت فيمن شيَّعوه بساحة لم تخفَ وحشتها على متجاهل
الراقدون بتربها تحت الثرى ما بين أحجار وتحت جنادل
والنائمون بها ولا من موقظ يرجى ولا صبح يلوح لآمل
ستر التراب عن العيون بلاءهم وأظلهم تحت البلاء الشامل
وسرى البلى فيهم فلم يترك لهم
غير العظـــام عليهم كدلائل
فعجبت للانسان كيف يغرُّه بحياته محض الغرور الباطل
لمـا نظرت إلى اللحود وكم طوت
من عالِمٍ جمِّ الذكاء وجاهل
أو ذى يسار جنب عاف معدم أو عاشق دفنوه جنب العاذل
ضم التراب شتاتهم فأواخر يمضون فيمن ضم إثر أوائل
لم يُجزع الأضداد قربُ مباين
فيه ولا الأشـــباه بعدُ مُشاكل
خلطوا فتلك على الزمان جماجم من فوقها أقدام جيل زائل
وتفتتوا حتى تخال جميع ما فى الأرض دمّ مفاصل وأنامل
وقرأت ما كتب الألى فوق الألى
دفنوهمو — من خلة وشمائل
أحسست أنى قد دفنت بجنبهـــم
ما كان بى من غيرتى ودخائل
ومضى الذى قد كان أثقل مهجتى
من كلِّ همٍّ بالتـــوافه شاغل
أنظر فهذا دون طرفك ثاكل
يبكى ابنه واعذر فؤاد الثاكل
وابن هنا يبكى أباه وأمــه وبدمعه معنى الغرور الشامل
واسوف يتلوا نعيُه نعْيَيهما فى ذات يوم للنعاة مماثل
وتقرَّب الأيام بينهـــم إذا وصلوا تباعاً نحو هذا الساحل
من مات هذا اليوم ساوى من قضى
فى موته أيام دهـــر كامل
أنظر فهذا القبر كاد لطول ما هجروه يبدى لهفة المتسائل
أين الذين بكوا عليه وما لهم شحُّوا بما زاروه زورة باخل
محتْ الليـــالى كلَّ وجد منهمو
والبينُ أبرأ كلَّ حزن قاتل

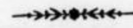
عثمان حلمى



القاهرة الجديدة

للأستاذ نجيب محفوظ

بقلم الأستاذ ثروت أباظة



قصة رائعة من صميم الحياة المصرية وضعها الفنان الموهوب الأستاذ نجيب محفوظ ، وقد استهدف فيها عدة آراء عالجها بأسلوب يتفق وكل رأى ، فهو ساخر حيناً ؛ جادٌّ حيناً آخر ، رائع فى الحينين . وللأستاذ نجيب ريشة لا تخطئ النأمة الخالجة فى شخصياته ، وهو واثق من فنه فتراه لا يقصر هذه الريشة على شخص واحد بل يطلقها على أشخاص كثيرين يرسمهم فتعرفهم وتعيش معهم وتحس إحساسهم فتصبح شريراً مع الشرّير خيّراً مع الخير مندفعاً متأججاً مع المندفع المتأجج .

وشخصيات الرواية مركَّزة فى أربعة شبان وفتاة . أما الشبان فتجمعهم رابطة الدراسة فى الجامعة فهم جميعاً فى الليسانس كما يجمعهم اتحاد السكن . ثم تتشعب بهم مسالك الخلق فلا مواءمة ولا انسجام ؛ فأحدهم — وهو من طارده الأستاذ نجيب وجعله بطلا لقصته — شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ذو منبت يابس وتربية وضيعة تأصلت فى نفسه ، واجتمع الفقران ، ففقدا ولا أصل يتكئ عليه ، ولا مال يتستر به . فكفر بالأخلاق ، وأصبح مثله الأعلى « طظ » التى يلجأ إليها كلما أكفهرت الحياة وأغلقت شعابها دونه . « فطظ » فى الأخلاق ، « وطظ » فى الفضيلة « وطظ » فى القوم ، وليس « طظ » فى شىء واحد هو نفسه ، وعلى هذا النهج سار ، وعن طريقه وصل إلى زوجه وهى فتاة القصة ، وعن سبيها تم تعيينه . فهى عشيقة موظف ضخم ، زلَّ وأراد أن يتمادى فاتخذ من « الطظ » ستاراً . فقبل قائلا : طظ ...

وهذه الفتاة هى ابنة بائع سجائر مواجه للجامعة ذات أم عاهرة ، ووالد من حزب الطظ محتاج إلى المال فحرض ابنته لتأتى له به . فتمنعت أول الأمر ، وانصاعت لحب عفيف بينها وبين أحد الشبان الأربعة هو على ... شاب جميل ذو أصل ليس بالهين ، ومال يكفيه ذلة السؤال ، له آراؤه الملحدة ، ولكن عن عقيدة ، وله أيضاً مثله العليا التى يسعى لتحقيقها ؛ فهو اشتراكى يفخر بغناه واشتراكيته ، ولا يمنعه الإلحاد ولا الاشتراكية من أن يكون عفيفاً فى حبه ، قوياً فى خلقه ذا نجدة عند الشدة ، وهو بعدُ صافى القلب لا يحمل ضغينة ولا موجدة على عكس زميله محجوب طظ ... أحبت إحسان علياً وإن لم يملك الحب لبها ، وأحبها هو وتمكن الحب منه ، ولكن ما لبث أن فجع فى حبه حين تعرض لفتاته الموظف الضخم الذى أغرى عياله ... فطمع والدها ، وشجع ابنته ودفعها فسقطت وحاولت أن تقنع نفسها أنها إنما تضحى من أجل والديها وإخوتها .. سقطت ووجدت زوجها شاباً ساقطاً لا ضمير له ؛ عرفته أيام كان تلميذاً . فهو صديق لعلىّ ، وهو بعينه الأستاذ محجوب طظ الذى لا مانع لديه من أن يغذى قرنين ينبتان فى رأسه ما دام فى الأمر منفعة له ، وطظ فى الكرامة ... تزوجت محجوباً وعُيّن وارتفع وما زال فى ارتفاع سادراً عن كل شىء غير معنىٍّ بأبيه مدقع الفقر الذى أعياه المرض فقعد عن العمل ، ومحجوب ما دام لا يهمه الوالد فالأصدقاء لا قيمة لهم ، ولتتقطع وشائج الزمالة ، وليغضب مأمون للأخلاق ما شاء ، وليحزن علىّ على حبيبته ما دام محجوب يرتفع كل يوم ... وفى نشوة الارتفاع ركل محجوب سالماً الأخشيدى ، وهو الذى قدمه إلى الموظف الكبير ، وقد كان أثيراً عنده قبل أن يأتى محجوب فانتقم الأخشيدى لنفسه ، ودبر المؤامرة فعصفت بالموظف الكبير ، وكان قد أصبح وزيراً ، وعصفت بمحجوب وزوجه فذهب وكأنما أراد الأستاذ نجيب أن يهمس فى أذنه : « طظ فى طظك ، ولتحى الأخلاق ! » .

أما مأمون فشاب ملؤه الإيمان بالدين وبالقضية العربية أخره المرض وهو طفل عن الالتحاق بالمدرسة ، وعندما التحق أخذ نفسه بالشدة ، فكان الأول دائماً ، وكانت حياته سائرة على

نظام رتيب ، وأنك لتجده كل خميس ذاهباً إلى مصر الجديدة حيث خطيبته التي تزوجها بعد حصوله على الليسانس وسافر معها إلى باريس في بعثة علمية .

وأما الرابع فهو أحمد طالب صحفي لايلعب كثيراً على مسرح الرواية ، ولا نعرف له رأياً لأنه صحفي والصحفي في رأيه — ولعل هذا هو رأيه الوحيد الذي أذاعه — لا يصح أن يقول رأياً ، وهكذا اجتمع هؤلاء الأصدقاء وليس من سبب يجمعهم سوى درس في الصباح ومسكن في المساء .

ولا يقتصر الأستاذ نجيب على هؤلاء بل هناك أشخاص كثيرون غيرهم كوالدي محجوب وحمد يس بك وأسرته ذات الماضي المتواضع ، والحاضر الارستقراطي ، وإن لمحجوب معها لشأناً في حالي فقره وغناه ، وهناك أيضاً جامعة أعقاب السجاير التي أبرز الأستاذ لها صورة واضحة تلمسها في وصفه لها وحديثها مع محجوب فتسمعها تقول : وجب ، وغير ذلك من ألفاظ تكمل الصورة وتوضحها ، وهناك عفت وغيره من أصدقاء محجوب في أيام العز ... تمر الريشة على كل هؤلاء فتبرز معارف وجوههم وخلجات نفوسهم نابضة بإحساسهم غير مغفلة شيئاً .

وتدور حوادث القصة في سنة ١٩٣٠ ، والناحية القصصية فيها أبرز منها في قصة خان الخليلي وقد كانت هذه الأخيرة أشبه بمعرض صور رائع منها بقصة ، وإن لم يفقدها هـذا شيئاً من روعتها وقوتها ...

وواضح أن الأستاذ نجيباً أوجد علياً ومأموناً وأحمد في قصته الجديدة ليثبت أن الأخلاق وإن هتكت عند محجوب فهي مصونة عند أصدقائه ، وقد تعرض الأستاذ نجيب في قصته هذه لنواح اجتماعية عديدة يغض من رونقها كثرة ترددها إذ نحن الآن في حاجة إلى العلاج أكثر من حاجتنا إلى الشكوى ، وإن بالقصة لفتات فنية رائعة ننتظرها من الأستاذ نجيب الذي خطا بالقصة المصرية خطوات واسعة نحو الكمال ، وهذا أمر لا نستغربه عليه فهو فنان موهوب بفطرته جشع في القراءة العربية والغربية ... وعسى أن لا يتأخر إنتاجه القادم . فنحن في شوق منتظرون ...

ثروت أباظة

نفحات من سيرة السيدة زينب

إن أعصى مايتكاءد المصلحين ، تلك العادات التي امتزجت بدماء العامة ، والعقائد التي أشربتها نفوسهم ، فتمكنت فيها على مر الأيام .

وإنه لمن الجهل والسفاهة ، تحدى هـذه العادات والعقائد ومهاجمتها في عنف ، بل الواجب علاجها بالحكمة ، والاحتيال لاقتلاعها ؛ أو توجيهها وجهة نافعة .

وقد اتخذ الأستاذ أحمد الشرباصي في كتابه « نفحات من سيرة السيدة زينب » خطة جديدة في « التربية الشعبية » ودرج على غير المنهج المتبع في الثورة بعقائد الناس . بل تناول مسألة الموالد ، والأذكار ، والتوسل ، والتشييع ، والتمسح بالأضرحة ، والنذور ، بروح جديدة ، هي روح عالم النفس الحاذق ، هي روح « الإعلاء » التي تعالج بها الغرائز وتهذب ، ويحد من جوحها وطغواها ، وتجعلها أداة صلاح وخير ! .

والكتاب بعد ذلك عرض تاريخي أنيق لحياة هذه السيدة الكريمة ، وتوجيه نافع للشباب الذي يريد أن يحيا حياة طيبة ، ولايستخذى أمام القوى الطاغية ومثل عال في التضحية والجهاد .

فللوعاظ والمرشدين وللمؤرخين المعنيين بتحقيق حياة الشخصيات الإسلامية البارزة ، ولمن يريد أن يتهدى بهدى جديد في التربية الشعبية ، ولمن يبتغي الأسوة والقدوة في حيوات عترة النبي الكريم .

لهؤلاء جميعاً وضع هذا الكتاب ، جامعاً بين دقة البحث وطلاوة الأدب ، وتأثير الوعظ واستخلاص العبر .

كامل السيد شاهين



لا قـــدر الله . . . !

للروائي الأنجليزي أوسبرث سيتويل

لست أعرف بعد كيف ستنتهى هذه القصة ، فإن ماسأقصه عليك إنما حدث صباح أمس ، قبل أن أغادر السفينة فى السويس .

جلست على كرسى طويل من القماش ، وإلى جانبى أكداس من الكتب وصحفة حساء فارغة ، أتطاول ببصرى إلى الفضاء المكلل بالغمام ، الفضاء الخاوى الذى لم يخفف من وطأته على الصدر سمك يتواثب فيسلى المسافرين . بدا كل شىء دفيئاً رطباً بالغ الرطوبة . وكانت حافة السماء تتدلى منها أعلام مهلهلة من السحب ، وقد ذابت فيها حافة البحر . وكان الرجل الجالس بجوارى قد بسط على حجره كتاباً مفتوحاً ، وإلى جانبه أيضاً عدة كتب ، وكان هو الآخر يحملق بنظرة ثابتة إلى المنظر المائى الخاوى . كان البحر يثير روحاً من الكآبة والاغتمام ، لا يساعد على احتمالها إلا ما تبعثه فى النفس من الفتور والكسل ، وأنها تولج اليوم فى اليوم فتحمل أناساً كثيرين على الاعتقاد بأنهم لا بد قد تمتعوا بالرحلة ما دام الوقت قد مر بهذه السرعة . كان من الواضح أن هذه الروح الكئيبة المغتمة تخيم على وعلى جارى أيضاً . كان جارى طويل القامة نحيفاً دقيق اليدين ، وكان يبدو على خلقته حساسية بالغة الارهاف ، وساءلت نفسى من تراه يكون ... لم تكن الكتب التى بجواره تساعدنى على إجابة هذا السؤال ، إذ كانت متنوعة : ترجمة لمجموعة شعر إغريقية ، ورواية عصرية ، وكتاب علمى ، ودراسة لسيرة أحد السياسيين ، ومجموعة من القصص القصيرة الحديثة . ثم لاحظت معها كتاباً من كتبى ، وهو ذلك المسمى « الرجل الذى فقد نفسه » وبغتة حوّل عينيه عن الماء وخاطبنى قائلا : « أتحب البحر؟ ». فأجبت : « نعم أنا أحبه ، نوعاً من الحب ، على الرغم من ملاله ، وما يمت فى اسوء الحظ من الرعب . إننى بحار ماهر ، ولكن حين يتمدد الآخرون فى فرشهم الخشبية يتمنون لو أنهم يغرقون ، أتمدد أنا على فراشى الخشبى ، مرتدياً جميع ملابسى ، أبتهل إلى الله لئلا أغرق ، وأفكر فى الخضم الشاسع من المياه الذى يتلاشى فيه رأس الإنسان فلا يكاد يكون شيئاً . ذلك هو السبب فى أننى أفضل البحر الأبيض المتوسط ، حيث نكون عادة على مرأى من البر ... لكن يبدو أنه قد اختفى كلية فى هذا اليوم ... بل ليتنى أبلغ قناة السويس ، فإنى أرتقب أن أحظى بوقت ممتع » .

قال : « نعم أنا أعرف هذا الشعور ، فإنه يداخلنى أنا أيضاً بعض الشىء . وما دمت أنت كاتباً ، فسأقص عليك قصة عنه ولكن أرجو ألا تكون ممن يؤمنون بالطيرة والفال

ربما لا تستحق هذه القصة أن تسمى قصة فى واقع الأمر . هى شاهد أكثر منها قصة ، أوهى برهان على إحدى النظريات ... هذه النظرية ، أو المغزى ، هى تلك النظرية القديمة البديهية التى شغف أحد الروائيين المحدثين بترديدها ، وهى أن ما تشعر به يكون أشد صدقاً ، ولا بد أن يكون دائماً أشد صدقاً ، من مجرد الفكرة التى تدور بخلدك . أو بعبارة أخرى ، اعتمد فى حكمك على اللمس ، لا على البصر . ولكن الناس فى هذه الأيام تعوزهم الشجاعة التى تجعلهم يعملون كما يشعرون ، فهم يعملون طبقاً للعقل ، ثم يحاولون أن يخترعوا تفسيراً منطقياً فيما بعد ، يفسرون به الأشياء الفذة التى تحدث لهم . لكن لا جدوى من وراء هذا مطلقاً

كانت السفينة مبحرة إلى أمريكا الجنوبية . غادرت تلبرى فى عصر يوم ممطر من أيام ديسمبر ، ولكن فى اليوم التالى كان البحر هادئاً كأنه بركة زرقاء فى فصل الصيف . واستمر كذلك ثلاثة أيام ، حتى عندما عبرنا خليج بسكاى . ولكن برغم هدوء البحر تأخرنا عن الوصول إلى لشبونة ، حتى إذا وصلنا إليها أخذ موظفو الميناء يتجادلون جدالا لا ينتهى ، كأنهم عقدوا العزم على أن نتأخر عن الاقلاع من الميناء . وقفت أرقب المسافرين النازلين وأستمع إلى المشاجرة البرتغالية الصاخبة تعلو وتتناثر كأنها صواريخ مبتلة ، بين وكيل السفينة وأحد موظفى الجمرك ... لم يكن بين المسافرين الجدد من يلفت النظر إلا امرأة انكليزية وزوجها . كانت جميلة حقاً ، ولكن جمالها كان من

نوع عجيب ، كأنها إلاهة القدر الاغريقية . كانت عيناها واسعتين ذواتى زرقة عميقة ، يمكن أن نقرأ فيهما معانى كثيرة ، أحدها صادق وكثير منها كاذبة . كانت قسماتها المذعورة الحجرية كأنها تمثال كلاسيكى ، يكمن فيه شىء من المأساة . ثم إنى ظننت أو الأحرى أن أقول أحسست — أن بقسماتها شيئاً من حورية البحر . إذ انتمت عيناها إلى البحر ... كان زوجها إلى جانبها يبدو عادى المظهر . لكن منظرها الفذ كان مقتصراً على محياها ، أما ملابسها فكأنها اختيرت بحيث تمحو الأثر الذى يخلفه جمالها العجيب ، وتحط من سموه وتجعله عادياً مألوفاً .

فى الصباح التالى كنت جالساً على ظهر السفينة ، كما أنا جالس الآن معك ، فوجدتنى مجاوراً لها . وبعد أن عبثنا برهة بكتبنا عبثاً يشابه فى اضطرابه حركة السفن واهتزازها - حقاً إن هناك رابطة قوية بين دوار البحر والكتب المطبوعة — بدأنا نتحدث قليلا . وحين تحدثنا لم يتركا فى النفس أثرا غير عادى ، وكان صوتها هادئاً مليئاً بالاهتمام ثابت النبرات وإن كان فارغاً بعض الشىء ، ولم يكن به أى عنصر غريب من المأساة أو من النبوءة . ولكنى برغم ذلك عرفت ، بل شعرت وأحسست ، بأنها كانت تصلها بتلك العناصر الغريبة صلات وثيقة . تجاذبنا أطراف الحديث ساعتين أو أكثر ، وكان البحر قبل ذلك هادئاً كالبساط ، ولكنه بدأ فى خلال محادثتنا تظهر عليه علائم التغير الأكيدة . وكأنه كان يحاول اختبار قواه ، ليستخدمها فى مناسبة مقبلة . فصفرت فى جنباته رياح هينة ، وأخذت السفينة هزةٌ أثارت المزاح والضحك المعهودين بين الشبان من المسافرين الذين كانوا يتنقلون على ظهر السفينة فى جلبة ، وضاعفت من حماسة اللاعبين فى لعبهم المختلفة ، فازدادوا مرحاً ، حتى يخفون ما شعروا به من بداية التقزز والغثاثة ... تسألنى عم كنا نتحدث ؟ ... قد نسيت ، ولكنها كانت أشياء مختلفة ، من السياسة ، والأسفار ، والكتب — الكتب البريئة المملة .

ولكن كلما مرت دقيقة ازداد التحدث صعوبة ، إذ ارتفعت بين آونة وأخرى أصوات الأشياء المتصادمة ، وازدادت الريح دوياً ، وإن كان الركن الذى انتحيناه محمياً هادئاً بعض الشىء ...

أخبرتنى أنهما كانا ذاهبين إلى بونس أيرس ، حيث يمكثان أسبوعاً ، ثم يعودان إلى وطنهما مباشرة . فإن المستر روفنى — وهذا اسم زوجها — كان مريضاً ، وقد نصحه الطبيب بالقيام بهذه الرحلة البحرية . وقال الزوج : « لقد حاولت أن أثنى زوجتى عن المجىء ، ولكنها ألحت . أنا لم أغرك بالمجىء يا حبيبتى ، أليس كذلك ؟ لقد بذلت كل جهدى لمنعك » .

كلا ، لست أستطيع أن أتذكر كل المحادثة بجلاء ، وإنما أتذكر شيئاً أو شيئين من هذا القبيل . أتذكر المسز روفنى تقول ، بصوتها الحازم الذى لا يقبل أى سخف أو عبث ، والذى كان مع ذلك فارغاً بدرجة عجيبة ، ذلك الصوت الذى نطق بالأشياء كأنه لا يعنيها — أتذكرها تقول : « مهما يكن من شىء ، فأنا مؤمنة بالقضاء والقدر . أنت لن تستطيع النجاة مما سيحدث لك فهذا هذا ، وما عليك إلا أن تتقبله بأحسن ما فى استطاعتك . لن يستطيع ثعلب أن ينجو إلى الأبد ، إذا كانت كلاب الصيد تطارده » ... أنا أتذكر ذلك جيداً ، فإن هذه الملاحظة ، برغم أنها شىء معهود طالما سمعناه على الرغم منا ، ضايقتنى إذ ذاك أشد مضايقة ، حتى كدت لا أكتم سخطى ؛ إذ وجدتها لا تنسجم مع ذلك الجمال العجيب ، أو ذلك الوجه الذى كان يبدو مترقباً لأحد الانفعالات العاطفية العظمى — وكنت واثقاً أن هذا الانفعال هو الخوف — فما يجىء هذا الانفعال حتى يصير ذلك الوجه آية رائعة من التعبير ... ولكن ما أكثر ما ينطق الناس فى هذا المجال بأفكار تخيب ظن المرء إذ لا يجدها تنسجم معهم ... ثم إنها استرسلت تتحدث عن الأسواق فى مقاطعات انكلترة ، وأسلمت نفسها إلى نوبات طفيفة من الاعتداد بالذات لم تنسجم معها أيضاً .

ولكنى ساءلت نفسى فى ذلك الوقت : أكانت تلك حقاً نوبات من الاعتداد بالنفس ؟ لقد شعرت بأنها أدخلتها فى الحديث لا لتحدث وقعاً على نفسى بل لتدخل الراحة والاطمئنان على نفسها هى . فإن مثل هذا الاعتداد بالنفس يرتبط بالحياة اليومية ، والحياة اليومية هى عادة خالية من البطولة والبسالة ومن النكبات والمآسى ، كما أن الأفكار التى عبرت هى عنها كانت أفكار الحياة اليومية العادية . وقد تشبثت هى بهذه الأفكار لأنها

كانت تتوق أشد توق إلى أن تقنع نفسها بأن حياتها ليست فى حقيقتها إلا من ذلك النوع العادى ، وأنه ليس من وجود فعلى لتلك النكبة العظيمة والمأساة القديمة التى ترتبط بها والتى هربت منها . فكل فكرة عبرت عنها ، وكل مناسبة أشارت إليها ، كانت كأنها تقرص نفسها لتتأكد من أنها صاحية ومن أن الكابوس المخيف قد زال ...

ازداد الطقس اضطراباً ، ولم أرهما بعد ذلك فى ذلك اليوم . فقد تضاعفت حدة الزوبعة فلم يعد أحد ليجد متعة فى الرحلة البحرية . بل لم يعد من المستطاع أن ينام المرء ، وإن كانت الزوابع فى العادة تجعلنى أستغرق فى النوم . فإن طرق عينك السبات لحظة واحدة فى الليل فلا بد أن يوقظك فى الحال صوت الأبواب تنفتح وتنصفق وتتصادم ، أو يوقظك إحساس عجيب بأن الروح نفسها ، تلك الذات النفسانية التى بنى حولها الجسد ، قد تنقلت من مقرها بعض الشىء ... يسائل المسافرون أنفسهم ، كعادتهم فى خلال رحلة بحرية : « لم قمت بهذه الرحلة ؟ » ولكنى لم أشعر إلا بشعور واحد ، شعور طالما أحسست به فى المحيط الأطلنطى ، وإن كنت قد قمت فيه برحلات كثيرة لم يكن عنها من محيد ، ذلك الشعور هو الرعب . لم يغلبنى دوار البحر ، وإنما شعرت بالرعب من تلك الأودية الباردة فى أعماق المياه تحت سطح البحر ، تلك الأودية اللانهائية المتعرجة التى أخبرنا بأنها فى عمقها تماثل جبال البر فى علوها ... وبهذه المناسبة (سامحنى لقطعى حبل قصتى) ألم يزدد الطقس اضطراباً منذ بدأنا حديثنا ، أم ليس هذا إلا وهماً من أوهام مخيلتى ؟ »

فاضطررت إلى أن أعترف بأن الطقس قد تغير ؛ فقد بدأت السفينة تترنح بصورة غير منتظرة .

« لقد ظننت كذلك » قال ذلك وتوقف برهة ، ثم استرسل : « على أية حال ستكون القناة هادئة ... ولكن لأستمر فى قصتى : من حسن الحظ أننى كنت سأغادر السفينة فى ماديرا ، ولم يكن دونها إلا رحلة يومين . ولكن كم تشوقت إليها فى ذينك اليومين ، تلك الدرة البديعة المستقرة فى وسط المحيط تحت غطاء سحاب الأطلنطى » .

كان اليوم التالى سيئاً للغاية ، بحيث لم يعد المرء يهتم بشىء ما لا بالطعام ولا بالشراب ولا بالنوم ولا بالمسافرين : ولكنى لاحظت مع ذلك أن المستر روفنى جلس إلى طعام الغداء وحيداً ...

وفى الصباح التالى بدا كأن الزوبعة قد هدأت قليلا ، وفى أثناء تجوالى على ظهر السفينة قابلته .

صحت بحماسة كاذبة : « صباح الخير ... ! كيف أنت فى هذا الصباح ... يؤسفنى أن أراك وحيداً » .

فأجاب : « نعم إنه شىء مقلق . كم تمنيت أن يكون الطقس لطيفاً ... فإننا نقترب من ماديرا الآن ، وينبغى ألا يكون الطقس هكذا ... إننى أصارحك بأنه يزعجنى ... ليس ذلك لأن زوجتى غير متعودة على الأسفار البحرية — فإنها الآن لا تشعر بالدوار — بل الحق أن الرعب يتملكها فى أى سفينة ! »

قلت : « ليس هذا شيئاً مخجلا ، فأنا أيضاً مرتعب ... وأعتقد أن كثيرين جداً من الناس هم أيضاً كذلك ، لو أنهم اعترفوا بالحقيقة ! »

أجاب : « قد يكون هذا صحيحاً ... ولكن الأمر مختلف بالنسبة إليها فإن آخر رحلة بحرية قامت بها كانت فى (التيتانيك) وقد غرق أخوها التوأم مع تلك السفينة ، ولم تنج هى إلا بمعجزة ... ولسنين عديدة رفضت أن تركب سطح سفينة على الاطلاق ، بل إنها أبت أن تقوم برحلة القناة الانكليزية التى لا تستغرق إلا ساعة واحدة ، مع أنها قبل ذلك كانت مغرمة بباريس ... وسأذكر لك شيئاً غريباً : قد يكون البحر هادئاً بالغ الهدوء ، ولكن ما تكاد تضع قدمها على سطح السفينة حتى تبدأ الزوبعة ، بداية لا شك فيها . لقد شاهدت ذلك يحدث فى القناة الانكليزية عشرات المرات ، حتى إننى كثيراً ما تمنيت أنى لم أحملها على تغيير عزمها والمجىء معى ، حتى لتلك المسافة القصيرة ... ما كان ينبغى أبداً أن أسمح لها بالمجىء فى هذه الرحلة ... كان ينبغى أن أحظر ذلك حظراً باتاً ، من البداية ... ولكنها كانت قلقة البال علىّ — فقد كنت مريضاً زمناً طويلا ، وأولئك الأطباء اللاعين قالوا إن رحلة بحرية طويلة هى الشىء الوحيد الذى يرد إلىّ العافية — فألحت هى وأصرت . ولم أستطع منعها ، فقد بدا كما لو كان من المحتم أن تجىء ، وإن ارتاعت هى من ذلك ، لو كنت تفهم ما أعنى ... »

وإذن فهذا هو السر! لا غرابة إذن أن تكون مرتاعة، حتى على أشد المياه ضحولة. تذكرت تلك السفينة الفاخرة فى رحلتها البكر، وتذكرت اليدين اللاعبتين، والاصطدام المفاجئ الرهيب، والسكون الشامل، حين وصلتها رياح التدمير، ثم تذكرت الاضطراب والفوضى فى الماء، والتلاقى الغريب الصامت فى الدروب العميقة الخضراء بين الأمواج، حيث ترنح القادرون على السباحة إلى أعلى وإلى أسفل، أو اصطدموا الواحد بالآخر كأنهم سدادات الفلين، ولكن لم يستطيعوا تخاطباً، إذ كانت أصواتهم قد ضاعت تحت صوت المحيط، فبدوا وكأنّ بعضهم لبعض عدوّ ... إذن فهذا هو السر ... ! هذا هو معنى تينك العينين الواسعتين، كعينى تمثال فى ضياء الشمس الباهر، ذلك هو المعنى المختفى تحت كلماتها العارضة، السخيفة الجادة معاً: «لن يستطيع ثعلب أن ينجو إلى الأبد، إذا كانت كلاب الصيد تطارده». كلا، ولا الإنسان يستطيع النجاة، إذا كانت قطعان الشر والهلاك تصاحب مجيئه وذهابه.

فى عصر ذلك اليوم وصلنا ماديرا. فودعت المستر روفنى وزوجته. وعلى رغم أنهما كانا مشغولين مع أهل الجزيرة الذين هاجموهما يريدون أن يبيعوا لهما ما يحملون من الأقمشة المطرزة والزهور والنعال والصناديق المصنوعة من خشب النخل، ونماذج العربات التى تجرها الثيران، وملابس سكان الجزيرة — فإنهما لوحا لى بأيديهما إذ غادرت السفينة فى زورق إلى البر. ولاحظت مرة أخرى خلو وجهها من التعبير خلوا عجيباً، وذلك شىء إن أنعمت النظر فيه تجلى لك رعب أشد من الرعب. ثم ظننت أنها نظرت إلى البر نظرة المتلهف المشتاق، ولكنى كنت أبعد من أن أرى بوضوح ... مهما يكن من الأمر فإنهما الآن سالمان، فإن بقية الرحلة، خصوصاً فى هذا الوقت من السنة، هادئة فى المنطقة الحارة، تتجلى فيها الحدائق العميقة الزرقاء المتألقة تحت المياه، وتقفز الأسماك الطائرة فوقهما كما تثب العصافير فوق أرض البستان.

مضى أسبوعان، قبل أن أقرأ فى صحيفة هذا الخبر: «إعصار فى المحيط الأطلنطى الجنوبى. أمواج المد تطغى على المدن الساحلية. باخرة بريطانية تغرق على مقربة من (ريك). غرق جميع المسافرين». وفى الحال تذكرت المسز روفنى ... إذن قد انتهى الأمر الآن ... إنها كانت تنتمى إلى البحر بكيفية ما ... ولا بد أن يستردها البحر إلى أحضانه. لقد كانت تعرف ذلك دائماً، وإن لم يستطع عقلها تصديق ذلك أحياناً. مهما يكن من شىء، فقد انتهى الأمر، كائناً ما كان مغزاه. انتهى طراد طويل، لا يستطيع المرء أن يتعرف على بدايته، أو لعله ليس إلا الفصل الأوسط فى درامة تستغرق عدة قرون، أو عدة أحقاب ... ساءلت نفسى: ترى كيف كانت هيئة ذلك الوجه الجميل فى النهاية، وإلى أى حد جعلت صوتها هادئاً عملياً وهى تحدث زوجها للمرة الأخيرة، عارفة ما يخبئ لها القدر ... ولكن الواقع كثيراً ما يختلف عن النبوءة، وهذا ما حدث فى هذه الآونة ... فإننى عاودت قراءة الصحيفة، فقرأت فى أخبار آخر ساعة: «إنقاذ أحد المسافرين. اتفاق غريب ... المسز روفنى التى أنقذت عصر أمس فى حالة إنهاك، يتحقق أنها أحد الذين نجوا من التيتانيك، حين غرق أخوها التوأم مع تلك السفينة. ويخشى أن المستر روفنى، المشهور فى عالم الرياضة، وجميع المسافرين الآخرين والبحارة، قد غرقوا» ... إذن فالبحر لم يستردها بعد، والثعلب قد نجا مرة أخرى، يا للمسكينة! لم يتم الفصل الأخير بعد.

لعلك تعتقد أننى من المؤمنين بالخرافات إذ أشعر بما أشعر الآن؟ ولكن الحياة تبدو أقرب إلى الفهم حين يؤمن المرء بالخرافات ... على أية حال، قد حدث ذلك منذ ثلاث عشرة سنة ... وأستعيذ بالله، إنها فوق هذه السفينة، مسافرة إلى سيلان لترى ابنها. لقد تحدثت إليها هذا الصباح، هى كأنها لم تكبر يوماً واحداً. ولكن ماذا ينبغى أن يفعل المرء: أيجيب غريزة الإيمان بالخرافات أم يتحداها؟ ... إننى أجبن من أن أرتكب سخف مغادرة هذه السفينة فى السويس».

توقف عن الحديث، واستغرق فى الصمت والتفكير — ولكننى جاهدت حتى نزلت إلى قاع السفينة، متشبثاً بكل ما وقعت عليه يدى حتى لا أفقد توازنى، وهناك أرسلت رسالة برقية.

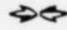
[عن مجلة الأدب والفن الانجليزية] **أوسبرت سيتويل**

[طبعت بدار الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين]

العدد ٦٩٣ — الاثنين ١٤ أكتوبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد



٢٧٠٣١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

[illegible]

14 me Année No. 693

Lundi—14—10—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر المالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــدد ٦٩٣ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٩ ذو القعدة سنة ١٣٦٥ — ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الضـــد والنقيض

فى الفلسفة المادية الثنائية

للاستـاذ عباس محمود العقاد

تناولت فى كتابى الأخير عن ابن سينا خلاصة الفلسفة المادية الثنائية فقلت فى تلخيصها إن « من قوانينها اجتماع الأضداد فيها ربما يتغلب ضد منها على ضده بغير انقطاع لهذه المغالبة الدائمة ، وإن الصفة الكمية فيها تتحول إلى الصفة « الكيفية » فتنشأ الحياة كما ينشأ العقل من هذا التحول ، إما على التدريج وإما طفرة كما يظهر بعض أنواع النبات من الأنواع الأخرى ، فلا توجد كيفية إلا وهى نتيجة التغير فى الكمية ، ولا توجد حالة قط إلا وهى تنطوى على ما يناقضها ، فلا تبلغ تمامها إلا ظهر منها النقيض الذى تنطوى عليه ... »

وقد كانت هذه النبذة موضع ملاحظة بين بعض المشتغلين بالمباحث الفلسفية ، لأنهم وهموا أن إيراد النقيض والضد فى عبارة واحدة يدل على استخدامهما بمعنى واحد . وهما مختلفان

وتصحيح هذا الوهم أن النقيض يأتى بمعنى الضد ، لأن كل نقيض لشىء من الأشياء فهو ضده بلا استثناء ، ولا خطأ إذن من الوجهة العامة فى الجمع بين الكلمتين فى سياق واحد ، ولا حرج من التخصيص بعد التعميم على الإجمال

نقول هذا من الوجهة العامة التى لا ترتبط بالفلسفة الثنائية المادية أو بغيرها من الفلسفات

أما إذا رجعنا إلى مصطلحات الفلسفة المادية الثنائية فهنالك يبدو جلياً أن أصحاب تلك الملاحظة لم يطلعوا على بحث واحد من بحوثها المطولة فى مراجعها المعتمدة ؛ لأن شراح الفلسفة المادية الثنائية قد استخدموا فى هذا الباب كل مصطلح يخطر على البال فى معنى المخالفة والمباينة

فاستخدموا معنى التناقض فى كل شرح من شروحهم المطولة Contradictions أو Contrasts

واستخدموا معنى التضاد (أو التقابل) Opposites

واستخدموا معنى التقابل antisethis

واستخدموا معنى التغاير Change

واستخدموا فى جميع هذه الأحوال كلمة التنافى أو التناسخ أو التناقض فى أقوى معانيه Negation.

فن أمثلة استخدامهم لمعنى التناقض شعارهم الذى اقتبسوه من هيجل حيث يقول بالنص الإنجليزى :

Contradiction is the root of all movement and vitality

وترجمتها : « أن التناقض هو جذر كل حركة وحيوية »

ومن أمثلته قانونهم الثالث الذى يقولون فيه بالنص الإنجليزى :

Each state or phase of development is considered a synthesis, which resolves the contradictions contained in the preceding synthesis.

وترجمته : « إن كل حال أو وجه من أحوال التطور ووجوهه يعتبر تركيبة تقرر النقائض المطوية فى التركيبة السابقة »

ومن أمثلة استخدامهم لمعنى التضاد قانونهم الأول الذى نصه بالإنجليزية The law of the unity and Conflict of opposites

وترجمته : « قانون الاتحاد والتنازع فى الأضداد »

ومن أمثلته قول لينين فى شرح هيجل بنصه الإنجليزى : Develofment is in fact the conflict of opposites

وترجمته : «إن التطور فى الواقع إنما هو التنازع بين الأضداد»

ومن أمثلة استخدامهم لمعنى التقابل قول كارل ماركس فى شرح نشأة رأس المال :

The synthesis negates and overeomes both the thesis and also the antithesis

وترجمته : « إن المركب ينقض المقرر كما ينقض ما يقابله ويتغلب عليهما »

ومن أمثلة استخدامهم لمعنى المغايرة كلام الفيلسوف الشيوعى بلخانوف p'ekhanov فى شرح هيجل : « إن الثنائية هى تغاير أبدى فى الصور Eternal change of forms »

أما التنافى أو التناسخ أو التناقض ، فأكثر من أن يؤتى له بشاهد أو بضعة شواهد ، وحسبك منه نص القانون الثالث ، وهو قانون نفى النفى أو نسخ النسخ أو نقض النقض كما يسمونه : The negation of negation ولا يخلو مبحث واحد من مباحث شراحهم من تكرار هذه الكلمة عشرات المرات فى كل سياق

فنحن قد لخصنا مذهب القوم بعباراتهم ، ولم نأت بكلمة من عندنا فى معناها اللغوى أو معناها المنطقى أو اصطلاحها الفلسفى الذى أرادوه ، وقد ذكرنا النقائض والأضداد لأنهم أكثروا من ذكرها فى أمهات كتبهم ومطولات شروحهم ، ولم يدعوا لوناً من ألوانها فى التعبير الفلسفى والتعبير اللغوى إلا ذكروه وكرروه

ولم يخطئ القوم فى استخدام هذه المصطلحات ، لأنها تلزمهم جميعاً فى مواضعها وتفيدهم فى تفسير أطوار المادة وأطوار المجتمع الاقتصادية على اختلافها وتعاقب مظاهرها وصفحاتها

ولكنهم إذا استغنوا عن بعض هذه المصطلحات فهم أحوج ما يكونون إلى مصطلحين منها ، وهما النقائض والأضداد

فلا يخفى أن مذهب القوم يدور على الحتم واللزوم ، وقد سماه بعضهم بالحتمية المادية أو material determinism ، لأنه لا يسمح بفكرة المشيئة الإلهية التى تقضى بالإرادة والاختيار فى تدبير هذا العالم

فالحالة المادية تخرج نقيضها على سبيل الحتم واللزوم لا على سبيل المشيئة والتدبير ، ولهذا وجب عندهم أن تخرج نقيضاً واحداً لا اختيار فيه ، ولو كانت تخرج شيئاً فى طبيعية الأضداد المتعددة لاقتضى ذلك مشيئة تميز بين الأضداد وترجح بعضها على بعض فى التطور من حال إلى حال . ولا يخفى أن الشىء قد تكون له أضداد كثيرة غير أضداد التقابل ولا يكون له غير نقيض واحد ليس يقبل التعدد والتكرار

فذكر النقيض فى مذهبهم لازم على قدر ما فى هذا المذهب من الحتم واللزوم

أما الأضداد فلزومها عندهم أن الحالة اللاحقة تنقض الحالة السابقة ، ولكن السابقة لا تنقض اللاحقة ولا تبطلها ولا تنفيها . فهى مضادة لها وليست ناقضة لها أو واقفة عندها موقف النقيض من النقيض

ومثال ذلك فى مذهب القوم أن طور الصناعات البخارية ينقض طور الصناعات اليدوية لأنها تأتى بعدها . ولكن الصناعات اليدوية لا تنقض الصناعات البخارية التى تعقبها ، وكذلك عصر المدن التجارية ينقض عصر الإقطاع ، ولكن عصر الإقطاع لا ينقض عصر المدن التجارية ، وقس على ذلك جميع الأدوار فى ترتيب التطور الاقتصادى ، أو ترتيب التطور فى مادة الكون على التعميم

فإذا تعددت هذه الحالات ، فالأصح أن تسمى كلها أضداداً بعضها لبعض ، لأن هذه الصفة تصدق عليها جميعاً بلا استثناء ، ولكنك لا تسمى السابق منها ناقضاً لما يأتى بعده ولا مناقضاً له إلا فى عالم العقل دون عالم الواقع الذى يفسره الماديون الثنائيون .

وبعد ، فهذه همسة فى الآذان المفتحة ، وعركة فى الآذان المغلقة ، وقد يفتح العرك ما استغلق من الآذان !!

عباس محمود العقاد

بين الفكر والعمل

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كلما استعرضت ما يقال فى الأندية الثقافية والمعاهد العلمية، وما يكتب فى الصحف والمجلات حول الأخلاق والمثل العليا، ووازنت بينه وبين حياة الواقع وما تندفع إليه مراكب الحياة العملية من الانحدار والسوء ... كدت أميل إلى أن الكلام فى المثل العليا ليس إلا لإدراكها فى عالم الفكر فقط، وأننا لا نملك قدرة عملية على تحقيقها، وأن الكلام فيها ليس إلا لحملنا على الإيمان بأن هناك عالماً للكمال الذى فى آجل حياتنا، فيجب أن نؤمن به للآجل لا للحاضر. وكدت أميل إلى أن الكلام فى تلك المثل ليس إلا صناعة اتخذناها للارتزاق كما اتخذنا صناعة الأحذية ودبغ الجلود للارتزاق أيضاً... لما رأيته من أن كثيراً من المتكلمين يؤجرون كما يؤجر الراقصون والمغنون وغيرهم من محترفى الفنون الذين يستعان بهم للترويح عن النفس وللزينة وتجميل الحياة، و « للاستعراض » والترف الذهنى واستعمال ما يسمونه « حرية الفكر » ...

ولكن ... هل هذه الظاهرة — ظاهرة بعد حياة الواقع عن حياة الفكر — مطردة فى جميع الأمم ؟ إننا نعلم أن هناك أمماً أدركت فى حياة الواقع كثيراً من أحلام الكمال، أو اتجهت نحو الكمال أو سددت وقاربت إن لم تكن أدركت، وأن العزيمة الصادقة والإرادة القوية والإخلاص للجمال والنظام صفات جديرة أن تنزل بعض سماء ما فى عالم النفس والفكر من أحلام الكمال إلى عالم الواقع وتجسيمها.

والحق أن كثيراً من حقائق الأخلاق اليوم فى بعض الأمم كانت أحلاماً بالأمس، وأن ضمير تلك الأمم قد صقل بالخير واقتنع به وارتاح إليه وبنى حياة الاجتماع عليه.

والحق كذلك أن تعاليم الخير صار ينادى بها الآن — ولو نظرياً — فى معاهد جميع الأمم.

وانظروا: هل فى الأرض إلا أمم وأفراد ترفع رءوسها نحو الحريات والكرامات تطلبها لنفسها بالدم والرأى والسلم والثورة ؟ وهل فيها صرخات وهتافات بكلمات الحق والعدالة يطلبها المستضعفون لأنفسهم وللناس، ويتشدق بها الأقوياء والمتسلطون كحلية يزينون بها صوالج دولهم، ويجملون بها الأحاديث عن سلطانهم، ويزعمون أنهم حماتها وأمناؤها والماهدون لها فى مجال سطوتهم ؟

فما ذا يدل عليه ذلك غير أن « سطح الحياة الإنسانية » ابتدأ يغلى ويفور ويشتد ويقذف وينضج ؟ إن كل وحدة إنسانية تطلب الآن لنفسها ولقومها حقوق الحياة الكريمة الطيبة، لأنها تريد أن « تعيش » فى عصر أصبحت فيه الحياة جديرة بأن « تعاش » بعد أن فتح العلم آفاقها ومهد مسالكها ووسع رحابها وأمدها بروح من قدرة الله وجدد ديباجتها وملكها مفاتيح كنوز الصحة والثروة ومقامع المرض والفقر والجهالة، وأفاض عليها بركات من السماء والأرض، وإنما يسىء إلى الحياة شىء واحد يشوه وجهها ويطمس سحرها، وهو أنانية بعض الأقوام!

هو الاستعمار الجشع: سواء كان استعمار طبقة لطبقة أم قوم لقوم أم فرد لفرد. فهو الشىء الوحيد الكافر بروح هذا العصر والناشز فى انسجامه والمشوه لوجهه!

***

ولو أحسنا الإدراك والتفريق بين الأفكار التى للعمل والأفكار التى للترف الذهنى، وعرفنا كيف نقدم الاستفادة بأفكار العمل فى الأمم الشارعة فى النهوض على غيرها من الأفكار لأنها أساس حياة الاجتماع ووسيلة بعث الثقة فى نفوس الأفراد وتأمين حياتهم وحل مشكلات « عيشهم » لوفرنا على أنفسنا أزمات وشدائد تثير فى نفوسنا الشك فى حديث المثل العليا وتوهى عوامل الثقة والطمأنينة إلى الحياة.

وأعنى بأفكار العمل الأفكار التى هى أمهات الأخلاق والعلوم والأعمال الصالحة، وهى الأفكار التى درجت الإنسانية ونقلتها من طفولتها وأقامت الحرمة والقداسة حول أصول حياتها، وهى تشمل أيضاً العلوم والمعارف الطبيعية التى تمهد الحياة المادية تمهيداً يسمح باستقرار العيش ورفاهته والإقبال على الحياة فى ثقة بها واستمتاع بطيباتها

وهى أفكار يجب الحرص عليها دائماً فى كل عصر لحفظ

الاجتماع واحترام حرمات الإنسان والاستمساك بقيم الحق والخير فى حياته ، وهى أيضاً أفكار لا يجوز مطلقاً أن يعفى من العلم بها والعمل بمقتضاها أى فرد فى الدولة ، بل والمحيط الإنسانى ، لأنها « القاسم المشترك » فى جميع النفوس ، والميراث الواحد الذى انحدر إلينا جميعاً من تاريخ جهاد الإنسانية فى سبيل الحق والكمال والألفة والوحدة .

فنحن لا يؤاكل بعضنا بعضاً فى الأسرة ، ولا يجامل بعضنا بعضاً فى القبيلة والأمة ، ولا نتراحم بالمعنى الواسع فى الإنسانية ، ولا نسعى لترقيها وإسعادها بالعلوم والمعارف إلا تحت تأثير القديم العميق لمواريث هذه الأفكار العملية التى هى فى مبتدى أمرها فيض من روح الخير فى الطبيعة البشرية ومن هدى « الدين » الذى قاد هـذا الطبع الخيّر فى ظلمات التاريخ ، حتى وصل الانسان إلى عصر رشده وقدرته .

وقد يعـترى نفوسنا بعض الانقباض والاستثقال لتلك الأفـكار العملية وما يتبعها من تـكليف نظراً لمـا يلابسها من قيود ومضايقات تقيد حرية الطبع والهوى الذى لا يعرف إلا الانطلاق وإشباع الشهوات ، ولـكن هذه القيود نفسها لازمة لتحقيق حرية الطبع وحرية الفـكر فى حـدود المعقول ؛ لأن القيود التى تفرضها الجماعة فى الواقع إنما هى لحفظ الحريات الفردية فى حدود خاصـة غير مختلطة ، ولن تتحقق لأى فرد حريته الضرورية إذا أطلقنا لـكل فرد حريته الطبيعية ؛ لأن الحريات عندئذ تتصادم وتتنازع ، ويتغلب قوىّ واحد يسلب الجميع حرياتهم ويستعبدهم ، ويتمتع هو وحده بإشباع هواه الطليق الذى لاحدود له ، ويترتب على هذه النتيجة السيئة جميع الحالات السيئة فى حياة الاجتماع ، والتى كانت طابع عصور الاستبداد والمظالم والجهالات والضياع فى مجرى التاريخ .

***

أما أفـكار « الترف الذهنى » فرتبتها بعد تلك ، وخاصة فى بدء النهضات كما قدمنا ؛ ولـكن مع الأسف قد ذهب كثير من رواد الفـكر والإصلاح فى مصر من عصر إسماعيل للآن إلى أن جلبوا لأمتهم الأزهار وتركوا الثمار ، وفتنوا بالألوان والأضواء وتركوا جواهر الأشياء .

وكان إدراك « محمد على » الـكبير أصح من إدراكهم ، وجهده أقرب إلى طبيعة الأشياء من جهدهم . إذ عنى ببناء أساس النهضة المصرية العملية المعتمدة على الأفـكار العملية قبل أن يعنى بالترف الذهنى . فأسرع الخطى بمصر ، وبعث الثقة فى نفوس أبنائها ، والخوف فى قلوب أعدائها .

وكذلك فعلت اليابان فى بدء نهضتها ؛ إذ كانت تكثر من إرسال البعوث إلى المصانع والمعامل الأوربية وتقلل من البعوث النظرية للآداب والفنون والفلسفات .

وكان من نتائج الاتجاه إلى الترف الذهنى أن وجدنا فى مصر الطبقة المثقفة الأولى طبقة أوروبية أو أمريكية بالفـكر والسلوك الظاهرى وهم مصريون باللون والجنس والانتساب ، وقد انفصلوا بأفـكارهم وحياتهم عن أمتهم ، وضاقوا بالمتخلفين منها ذرعا ، ووجدت بينهم وبين السواد الأعظم هوة واسعة سحيقة ، وحين يحاولون إصلاحها يكون أول ما يتوجهون إليه أن يجلبوا لها آخر ألوان الإصلاح والترف فى الأمم العريقة فى النهضة والرقى ، قبل أن يقيموا أسباب الحياة الصالحة على قواعد بسيطة عريضة تتسع للشمول . فصاروا يهتمون بالقرى النموذجية ، والمناظر الاستعراضية وفنون الحياة الأمريكية والأوروبية ، ويتحدثون عن أحدث ألوان الحياة ويتركون الحديث عن قراهم ودساكرهم التى كأن سكانها من آثار الأزل السحيق والماضى الواغل فى القدم !

وبدهى أن إصلاحا على هذا الأسلوب يكون كإلقاء قطعة من السكر فى بحر من الملح !

***

وكل يوم يمر على أمة بدون أن تعلم ما استجد فى العالم من الـكشوف والمخترعات يجعلها أمـة بائدة ضعيفة متخلفة وراء الأمم العاملة …

فما بالنا بالأمم الواقفة عنـد خطوات آبائها الأولين من آلاف السنين كالمستنقعات الآسنة التى تزيدها حرارة شمس كل يوم جديد عفونة !

عبد المنعم خلاف

علوم البلاغة فى الجامعة

للأستاذ على العمارى

— ٣ —

وماذا يقول الاستاذ فى قول الله تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » ؟ لقد ذكر أن تشبيه زرقة البنفسج بأوائل النار فى أطراف الكبريت ليس شيئاً لأنه ينقلنا من جو الزهر والجمال إلى جو اللهب والاختناق ، ولم ينظر إلى فنّية التشبيه ، ولا إلى ندرته . فهل يقول فى هذا التشبيه فى الآية الكريمة إنه ليس شيئاً أيضاً ؛ لأن القمر مسكنه فى السماء والعرجون مسكنه فى الأرض ، والقمر من فصيلة الكواكب ، والعرجون من فصيلة النبات ، والقمر مثال العلو والهداية ، والعرجون شىء تافه حقير لا تكاد تظهر له فائدة ؟ وهل تخسر البلاغة القرآنية شيئاً إذا وقف الأمر عند حد تشبيه القمر حين يحتضر فى آخر الشهر فيدق وينحنى ويصفر بالعرجون المحول الذى دق وانحنى واصفر ، ولا يلاحظ شىء وراء ذلك مما توجبه صورة العرجون وبيئته وتفاهته ؟

لا بد إذن أن نكون مع علماء البلاغة حين يرون أن القصد من التشبيه ليس فقط إثارة جو عام بين المشبه والمشبه به أو أنه منبع لمعان تتداعى يجب أن نتلمس آثارها فى النفس ، ويكفى أن نقول معهم إن التشبيه بالمحس المشاهد يحدث نوع اطمئنان ، وأن السامع قبل أن تذكر له التشبيه قد يكون الكلام عنده غامضاً مضطرباً حتى إذا شبهت استقر القول فى نفسه ، وأنت قد تبالغ فى القول ولاتدع مزيداً فى الاسراف فلا يكون ما يكون حين تشبه بشىء مُحَسّ فتقول مثلا : يوم بلغ فى القصر نهايته ، وليس وراء هذا القصر قصر ، وما علمت يوماً أقصر منه ، ولكن هذه العبارات مجتمعة لا تفيد ما يفيده قول الشاعر :

ظللنا عند باب أبى نعيم بيوم مثل سالفة الذباب

(سالفة الذباب : ناصية مقدم العنق) .

وكما أن التشبيه هذا الأثر فكذلك التمثيل ، فحين يقول ابن الرومى :

وإذا امرؤ مدح امرءاً لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءه

تأخذ السامع موجة من الشك فى صدق هذا المعنى ، ولكنه حين يسمع قوله بعده :

لو لم يقدر فيه بُعد المستقى عند الورود لَما أطال رشاءه

ويرى أنه شبهه بالبئر فيها الماء كلما كان أبعد احتاج أن يطيل المائح حبله . حينئذ تتبدد الشكوك من نفسه ، ويذهب الاستغراب عن وعيه وحسه . وإنما سقت هذه الجملة من القول لأطيل التعجب من الأستاذ كيف ينكر على البيانيين أن يجعلوا من أغراض التشبيه بيان إمكان المشبه أى بيان أن المشبه أمر ممكن الوجود ، وذلك إذا كان أمراً غريباً يمكن أن ينازع فيه ، فيعلق على قول المتنبى :

فان تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

بقوله : كلامهم فى أن الغرض من هذا التشبيه بيان أن وجود المشبه ممكن : مرفوض ؛ لأن الأديب لا يضع نفسه موضع المناقش ، ولكنه يفرض نفسه على الناس ، وكل ماهنالك أن الناس من طبيعتهم إنكار هذا الامتياز ، والمعنى فيه شىء من الغرابة فى أنه واحد منهم وفاق عليهم . فقال هذا لا غرابة فيه ؛ لأن له نظائر وشواهد . اه .

وهذا كلام غريب جداً ووجه غرابته أمران :

أحدهما أنه ينفى الشىء ثم يثبته فى وقت واحد وسطر واحد ؛ فهو يرفض كلامهم بدعوى أن الشعراء قوم متغطرسون يفرضون أنفسهم على الأجيال وعلى الأذواق وعلى الطبائع ، ولكنه يحس أن من طبائع الناس إنكار هذا الامتياز ؛ فالشاعر يقول لا غرابة . ولا يقصد العلماء من إمكان ثبوت المشبه أكثر من أن المتكلم يأتى بقضية تقرب إلى الأذهان أن هذا جائز مادام شبيهه واقعاً . وربما كان من الخير أن نسمع للشيخ عبد القاهر الجرجانى يحدثنا فى أسرار البلاغة عن هذا الغرض من التشبيه فقد يكون فى كلامه مقنع . « فان قلت إن الأنس بالمشاهدة بعد الصفة والخبر إنما يكون لزوال الريب فى الأكثر ، أفتقول إن التمثيل إنما أنس به لأنه يصحح المذكور والصفة السابقة ، ويثبت أن كونها جائز حتى لا يكون تمثيل إلا كذلك . فالجواب أن المعانى التى يجىء التمثيل فى عقبها على ضربين : غريب بديع يمكن أن يخالف فيه

ويدعى امتناعه نحو قوله : فان تفق ... البيت ، وذلك أنه أراد أنه فاق الأنام إلى حد بطل معه أن يكون بينه وبينهم مشابهة ومقاربة بل صار كأنه جنس برأسه ، فإذا قال : « فإن المسك بعض دم الغزال » فقد احتج لدعواه وأبان أن لما ادّعاه أصلا فى الوجود . والضرب الثانى ألا يكون المعنى الممثل غريباً يحتاج فى دعوى كونه على الجملة إلى بينة . نظير ذلك أن ينفى عن فعل من الأفعال التى يفعلها الانسان الفائدة ويدعى أنه لا يحصل منه على طائل ثم يمثل فى ذلك بالقابض على الماء والراقم فيه ، وليس بعجيب أن يخيب سعى الانسان حتى يستشهد على إمكانه ، وتقام البينة على صدق المدعى لوجدانه[1] » .

ولنخرج قليلا عن مناقشة الآراء العلمية لنتحدث فى شيء من البساطة عن دقة الشيخ فى تعبيراته ، والمعلوم لكل من يدرس كتب المتقدمين أنهم يدققون كل التدقيق فى وضع الألفاظ ، وهم فى ذلك أشبه برجال القانون لا يدعون لفظة تؤدى غير معناها ولا فوق معناها ، ولعلهم أفادوا كثيراً فى هذه الناحية من دراسة المنطق ، ولذلك نجد الشراح وأصحاب الحواشى من المتأخرين عنوا عناية خاصة بنقد التعابير والألفاظ . والحق أن العلوم المقعدة فى حاجة إلى هذه الدقة حتى تكون التعاريف والمصطلحات وافية بالغرض . عرض لى كل ذلك حين ابتدأت اقرأ مذكرات الأستاذ فى علم البيان فما كدت أنتهى من السطرين الأولين حتى وجدت أغلاطاً أربعاً ، وليست هى أغلاطاً لغوية ولا أغلاطاً نحوية حتى يمكن التسامح فيها ، ولكنها أغلاط علمية لو فهمها الطلاب على ما هى عليه لفهموا حقائقها مغلوطة محرفة قال :

« هم يقولون إن بعض التعابير أوضح من بعض . فعلم البيان هو الذى يبين درجات هذا الوضوح . فالجملة تتكون من أجزاء سليمة وهذا ما يكفله علم النحو؛ صالحة للسكنى ، وهذا ما يكفله علم المعانى . هذه الجملة ذاتها يمكن أن تعرض عرضاً متنوع الأنماط ، وهذا ما يكفله علم البيان » .

فأولا — ليست وظيفة علم البيان البحث فى درجات وضوح التعابير ، وإنه لن تنقص هذا العلم أن نقول إن مباحثه تقتصر على معرفة أن مهزول الفصيل أوضح من كثير الرماد فى الدلالة على الكرم ، أو أن التشبيه والاستعارة مختلفان فى وضوح الدلالة؛ ولكن هذا العلم له أبحاث كثيرة قد يكون البحث فى وضوح الدلالة أقلها .

وثانياً — قوله : « الجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا ما يكفله علم النحو » . فالنحوى لا يبحث فى سلامة المفردات وإنما يبحث هذا علم التصريف ، ووظيفة النحوى سلامة التراكيب .

وثالثاً — كون الجملة صالحة للسكنى ليست وظيفة علم المعانى ، ولكن صاحب المعانى يعنيه إذا أردنا أن نلجأ إلى التعبير بالمبنى أن يعرف هل هذا البناء مطابق للمواصفات التى وضعها المهندسون ، أو غير مطابق ، كما يعنيه أن يعرف هل هو ملائم للمكان والبيئة أو غير ملائم .

أما الغلطة الرابعة — فقوله : إن هذه الجملة يمكن أن تعرض عرضاً متنوع الأنماط . والذى يدقق فى هذا الكلام يجده عليلا؛ ذلك أن الجملة نفسها لا تعرض وإنما يعرض المعنى فاذا عبر شاعر عن طول الليل بقوله :

أضلّ النهار المستنير طريقه ... أم الدهر ليل كله ليس يبرح

وعبر الآخر بقوله :

حدثونى عن النهار حديثاً ... أو صِفوه فقد نسيت النهارا

وعبر الثالث بقوله :

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

فهذه التعابير كلها ليست عرضاً لجملة واحدة ، وإنما هى عرض لمعنى واحد .

* * *

ينكر الأستاذ على علماء البلاغة جعلهم أداة التشبيه ركناً ، ويرى أن ذلك إغراق منهم فى الماديات ، ومتابعة مسرفة للتصوير العقلى أدى إلى نسيان الناحية الأدبية فى التشبيه ، وهى أن أفضل التشبيه ما يقوم على إيهام أن المشبه هو المشبه به ، وهذا لا يكون إلا بحذف الأداة .

ولا معنى لهذا الكلام إلا أنه كلام فحسب ، علماء البلاغة

---

(١) ص ١٠٣ ، ١٠٤ طبعة المنار (بتصرف)

وضعوا لها ضوابط ، ورأوا أن من أحكام هذه الضوابط أن تكون أداة التشبيه ركناً من أركانه لما رأوا أنها لا تنفك عن التشبيه مطلقاً ، فهي إما مذكورة وإما مقدرة ، والتشبيه البليغ لم يبن على نسيان الأداة أو إعدامها ، وإنما بنى على حذفها فى اللفظ ، وهذا الحذف اللفظى كاف فى إيهام أن المشبه هو المشبه به .

وإذا كان التشبيه إلحاق أمر بأمر ، وكانت اللغة وضعت أداة لهذا الإلحاق فلا يمكن أن يتخلى الإلحاق عن أداته مطلقاً ما دامت طبيعة اللغة تأبى هذا التخلى بل وطبيعة الناس كذلك .

فأنت عند ما تسمع كلمة تشبيه يتبادر إلى ذهنك أول ما يتبادر أن هناك أداة ألحقت شيئاً بشيء وشبهته به ، والحمل لا يمكن إلا أن يكون كذلك . تقول محمد كريم فتحمل كريماً على محمد لأنه صفة ، ولكنك إذا قلت محمد حاتم تريد تشبيهه به فى الكرم لا يمكن إلا أن تلاحظ أن هنا أداة صححت الحمل ، وإلا كنت حاملا ذاتاً على ذات وطبيعة اللغة تأباه . وقد فطن علماء البيان لمكان الأداة فى التشبيه ، ورتبوا عليها أحكاماً هى فى غاية الدقة والضبط ؛ فرأوا أنه إذا لم يمكن تقديرها مطلقاً كان الكلام استعارة ، وإذا أمكن بسهولة دار الأمر بين كون الكلام تشبيها أو استعارة ، وهو ما يسمونه التشبيه البليغ . فإذا أمكن تقدير بعض الأدوات دون بعض كان إطلاق التشبيه على الكلام مقبولا ؛ فإن غمض مكان الكاف وكأن بأن يوصف الاسم الذى فيه التشبيه بصفة لا تكون فى ذلك الجنس وأمر خاص غريب كقوله :

شمس تألق والفراق غروبها ... عنا وبدر والصدود كسوفه

فهو أقرب إلى أن نسميه استعارة ؛ فإنه قد غمض تقدير حرف التشبيه فيه إذ لا تصل إلى الكاف حتى تبطل بنية الكلام ، وتبدل صورته . وقد يكون فى الصفات التى تجىء فى هذا النحو ما يختل به تقدير التشبيه فيقرب حينئذ من القبيل الذى تطلق عليه الاستعارة من بعض الوجوه كقوله :

أسد دم الأسد الهزبر خضابه ... موت فريص الموت منه يرعد

لا سبيل لك إلى أن تقول هو كالأسد وهو كالموت لما يكون فى ذلك من التناقض[1] .

وأياً ما كان فلا معنى لأن ننكر شيئاً يقره المنطق والعقل واللغة والذوق . ولا أحب أن أختم قولى فيما كتبه الشيخ تعليقاً على بعض مباحث البيان حتى ألفت نظر القارىء إلى ما يلجأ إليه الأستاذ من تكلف الشطط فى تأويل النصوص الأدبية وبيان مواضع البلاغة فيها . يقول بشار بن برد :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ويقول الأستاذ : « التركيب يفهم على أنه صورة ملونة . الغبار تكاثف حتى أظلم ووصل إلى السواد القاتم ، وليس تشبيه مثار النقع بالليل لمحض القتام ، وإنما ملحوظ فيه أيضاً الحيرة والظلام والخطورة والاضطراب وهذا ما يطلب فى القتال بالسيوف ؛ فاذا أضفنا إلى هذا الحالة النفسية لمن يقاتل بالسلاح الأبيض نجد أنه يعتقد أنه معرض للموت بشهاب ممزق ، ولذا قال فى السيوف ليل تهاوى كواكبه » .

فهذا كلام يقوله من لا يحسب لعقول الناس حساباً فمن أين له أن بشاراً لاحظ فى تشبيه الغبار بالليل الحيرة والضلال والخطورة ؟ ! ومن أين له أنه لاحظ أن المقاتلة يتوهمون أنهم معرضون لشهاب ممزق ؟ ! ومتى فكر المقاتل فى رُجُم السماء وهو مشغول عنها برجم الأرض ؟

المسألة بسيطة جداً : يريد الشاعر أن يمثل جماعة يقاتلون وقد عقد الغبار فوق رؤوسهم ظلاماً كما يقول أبو الطيب :

نثرت سنابكها عليها عثيراً ... لو تبتغى عنقاً عليه لأمكنا

ثم تصور سيوفاً بيضاً لوامع مستطيلة تعلو وتهبط وتجىء وتذهب ، تتلاقى وتتداخل ويقع بعضها فى بعض . فالتمس لذلك شبهاً فوجده فى ليل مظلم تتساقط كواكبه ، وما أظنه خطر على باله شىء مما يقول الأستاذ ، ولكنها دعوى التجديد .

على العمارى

المدرس بمعهد القاهرة

(١) أسرار البلاغة ص ٢٨٦

الحـلم والتحلم . . .

للاستاذ محمود عزت عرفة

— ٣ —

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » حديث شريف

المأمون :

يرتفع الستار بعد موت الرشيد عن مشهدين متنائيين — أحدهما فى بغداد والثانى فى مرو — بينهما متسع من الأرض فسيح تخب الدسيسة فيه وتضع .

ولم يكن هذا النزاع بين الأمين والمأمون إلا مظهراً لنزاع أشد وأروع بين حاشيتيهما فى حاضرتى العراق وخراسان ، وكان على رأس الأولى الفضل بن الربيع يشد أزره فريق من دعاة السوء وأرباب المطامع ... وعلى رأس الثانية الفضل بن سهل يكتنفه الشيعة من أهل خراسان ، وقد وطدوا عزمهم على تقويض العرش العباسى ببغداد وإسناد الخلافة إلى العلويين ، (والعجيب أن المأمون أصبح يرى هذا الرأى ، بل هو يضعه موضع التنفيذ كما سترى) .

ولم يكن بين الأخوين من العداوة الشخصية ما يبلغ حد القتال ، ولكن بعد ما بينهما أفسح المجال للدسائس والوشايات ، وكان الأمين ضعيف المنة فاشل الرأى يصيخ لإغراء وزيره ، ودس رجال حاشيته ، فنادى بخلع أخيه من ولاية العهد وجعلها لابنه موسى (الناطق بالحق) .

وكان خليقاً بالمأمون أن يرفض هذا التبديل ، وأن يأبى التنازل عن حق كفله له أبوه الرشيد بإشهادين أودعهما البيت الحرام ... وكان قد أزالهما الأمين عن موضعهما بإشارة خبيثة من الفضل[1] .

(١) كان الرشيد عند وفاته بطوس (١٩٣ هـ) قد أوصى بالجيش وسائر معداته وذخائره لابنه المأمون ، فخالف الفضل بن الربيع هذه الوصية وارتد بالجيش إلى بغداد وفقاً لرغبة الأمين ، ولم يقبل دعوة المأمون له بالرجوع ، فأوقع ذلك فى نفسه الرهبة من انتقامه إذا ما تولى الخلافة و.و حى فن هنا كان تفنن الربيع فى الكيد للمأمون !

تحركت جيوش جرارة من بغداد منذ عام ١٩٥ هـ بقيادة : على بن عيسى ، وعبد الرحمن بن جبلة ، وابن مزيد ، وابن قحطبة على التوالى . فانبرى لقتالها رجلا المأمون : طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين .

وبعد حروب امتدت ثلاثة أعوام وطئت عساكر المأمون أرض بغداد . وقتل الأمين بأيدى الخراسانيين ، وحمل رأسه إلى أخيه مع بقية شارات الملك ، وكان هذا القتل على غير رغبة المأمون ...

تولى كبره رجال طاهر من الفرس حين أسلم الأمين نفسه إلى هرثمة بن أعين . وليس من شك فى أن الأمين أيضاً كان يضن بأخيه أن يقتل فيما لو أظفره الله به . وإنا لنراه يوصى قائد جيوشه (على بن عيسى بن ماهان) يوم وجهه من بغداد إلى خراسان فيقول :

إذا أشخصته — يعنى عبد الله المأمون — فليكن مع أوثق أصحابك عندك ، فإن غره الشيطان فناصبك العداء فاحرص على أن تأسره أسراً !

وتقول زبيدة أم الأمين فى وصيتها للقائد (على) : اعرف لعبد الله حق والده وأخوته ، ولا تجبهه بالكلام فإنك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد ولا غل ... ولا تركب قبله ، ولا تستقل دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا تراده ... ثم هى ترفع إليه قيداً من الفضة وتقول : إن صار فى يدك فقيده بهذا القيد !

فلما تم النصر للمأمون ، واستولى على عرش بغداد قال لجلسائه مرة وهو يثلب الفضل بن الربيع ويعدد مخازيه : كان صغوه إلى المخلوع ، فحمله على أن أغراه بى ودعاه إلى قتلى ، وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال : أما القتل فلا أقتله ، ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا لم يجب . فكان أحسن حالاتى عنده أن وجه مع على بن عيسى قيد فضة بعد ماتنازعا فى الفضة والحديد ؛ ليقيدنى به ، وذهب عنه قوله تعالى : « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه ، لينصرنه الله » هـ

كان المأمون يعرف عن أخيه فسولة الرأى وسهولة الانقياد لمن أحاط به من بطانة السوء ، ولعله لو وقع فى أسره لكان أقصى

ما يفعله معه أن يقيده بهذا القيد من الفضة الذى أعده له ، ثم يحمله حتى يطرحه عند أمه زبيدة فيقول لها : أدِّبى ولدك يا أماه بعنا أساء ، فلقد خان عهد أبينا الرشيد ، وأصاخ إلى من يريدون بأمرنا وبملكنا شراً ...

ولكن جرت الأمور بغير ما قدر هؤلاء جميعاً ، وطاح رأس الأمين على مذبح هذه الفتنة الغشوم ، والتفت المأمون حوله فإذا سكون شامل وصمت رهيب ؛ وإذا أعداؤه ما بين قتيل قد كُفى شره ، أوهارب يتلمس التخفى ويطلب أسباب النجاة ، ولم تنشط نفس المأمون إلى ورود بغداد واعتلاء عرشها الدامى إلا بعد انطواء ست سنين على مقتل أخيه (من ١٩٨ إلى ٢٠٤ هـ) ، وكأنما كانت نفسه قد ملت القتل وبرمت بالقتال ، وامتلأ قلبه بالسكون وبالطمأنينة ، وبالفلسفة والتأمل الصامت ؛ فجنح إلى العفو والمسامحة ، وشُغل عن كثير من مطامع الحياة وأهواء السياسة والمجتمع ، وانصرف بجهده إلى العلم ومدارسته وتشجيع المشتغلين به ، وحثهم على التوفر عليه ؛ كما هو معلوم من سيرته ...

وكان عفوه عمن دخلوا فى فتنة الأمين شاملا ، وأتبع ذلك عفوه عن عمه إبراهيم بن المهدى الذى ادعى الخلافة (عام ٢٠١هـ) قبل مقدم المأمون إلى بغداد ، وكان سبب قيام ابن المهدى فى بغداد ما أجمع عليه العباسيون من خلع المأمون عند ما اختار لولاية عهده علياً الرضى بن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق من العلويين وظهر الفضل بن الربيع وقتئذ — وكان مختفياً منذ مقتل الأمين — فانضم إلى ابن المهدى متحدياً المأمون للمرة الثانية ، وكان من العجيب أن يشمله العفو رغم كل ذلك . ولما مثل بين يدى المأمون فى ذلته وانكساره قال له : يا فضل ، أكان من حق عليك وحق آبائى ونعمهم عند أبيك وعندك ، أن تثلبنى وتسبنى وتحرض على دمى ؟ أتحب أن أفعل بك ما فعلته بى ؟ فقال : ياأمير المؤمنين : إن عذرى يحقدك إذا كان واضحاً جيلا ، فكيف إذا حفّته العيوب وقبحته الذنوب ؟ فلا يضقْ عنى من عفوك ما وسع غيرى منك ، فأنت كما قال الشاعر فيك :

صفوحٌ عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرما

وليس يبالى أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلما(1)

فأسبل المأمون عليه ثوب عفوه ...

وعفا عن إسحق بن العباس ، وكان ممن أجلب مع ابن المهدى ، وعفا أيضاً عن ذوى قرابته من آل عبد الملك بن صالح بعد أن كان قبض ضياعهم . فردها عليهم وقضى حوائجهم .

بل لقد هجاه دعبل الخزاعى الشاعر بداليته التى يقول فيها :

أيسومنى المأمونُ خطة خسفِه أو ما رأى بالأمس رأس محمد ؟

فلم يمد إليه يداً بسوء . ثم عمل دعبل أبياتاً فى إبراهيم بن المهدى بعد العفو عنه ، أولها :

نعَر (ابن شكلة) بالعراق وأهله فهفا إليه كل أطلسَ مائق

فشكاه إبراهيم إلى المأمون . فقال له : لك أسوة بى ، فقد هجانى واحتملته ، وقال فىّ : أيسومنى المأمون ... وأنشده الأبيات . فقال إبراهيم : زادك الله حلماً يا أمير المؤمنين وعلماً ، فما ينطق أحدُنا إلا عن فضل علمك ، ولا يحلم إلا اتباعاً لحلمك .

وهجا الحسين بن الضحاك المأمون بقصائد ، ثم دخل عليه فى بغداد مادحاً ، فعاتبه ووبخه ؛ ثم عفا عنه ، وقال : جعلت عقوبة ذنبك امتناعى عن استخدامك .

***

كانت فتنة الأمين والمأمون شديدة الوقع فى نفوس العباسيين جميعاً ، وضاعف من وضعها مقتل الأمين الذى يعد الحادث الأول من نوعه فى تاريخهم ، وقد تلا ذلك فترة سكون وسلام داخلى زينها المأمون بعفوه وتسامحه ، وبلغ من تماديه فى هذا الخلق الكريم أن كان يقول : أما لو عرف الناس ما لنا فى العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات !

وكأنما كان يسمع كلامه هذا أحدُ البغداديين حين أثنى عليه بقوله :

مازلتَ فى البذل والنوال وإط لاق لعانٍ بجرمة غَلِقِ

حتى تمنى البراء أنهمو عندك أسرى فى القيد والحلق

ولقد أتى على المأمون حين من الدهر كان لا يثق فيه بالسلامة من أعدائه فضلا عن التغلب عليهم . فلما توطد له الأمر وتمت عليه نعمة ربه ؛ جعل من العفو عن أعدائه شكراً يتقرب به إلى الله

(1) قال الصولى : الشعر للحسن بن رجاء .

وقد ألم بهذا المعنى فى كلامه غير مرة ... كان فى مجلسه من أصحابه يوماً حين انهملت عيناه بالدمع ، فلما سئل عن سبب بكائه قال : ما ذلك من حدث ، ولا لمكروهٍ هممت به لأحد ، ولكنه جنسٌ من أجناس الشكر لله لعظمته ، وذكر نعمته التى أتمها علىَّ كما أتمها على أبوىَّ من قبل . أما ترون ذلك الذى فى صحن الدار — يعنى الفضل بن الربيع — كان فى أيام الرشيد ، وحاله حاله ، يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن ؛ وكان له عندى كالذى لى عنده ، ولكنى كنت أداريه خوفاً من سعايته وحذراً من أكاذيبه . فكنت إذا سلمت عليه فرد علىّ ، أظل لذلك فرحاً وبه مبتهجاً ...

وعفا المأمون عن سعيد الخطيب وقال عنه — وقد وقف على رأسه يمدحه ويشيد بسيرته — : هذا الخطيب كان بالأمس يقف على المنبر الذى بازائى مرة ، وعلى المنبر الغربى مرة ، فيزعم أنى المأفون ولست بالمأمون ! ... ثم هو الساعة يقرظنى تقريظه المسيح ومحمداً عليهما السلام !

صلاح الدين الأيوبى :

يعد صلاح الدين النموذج الكامل للحليم يجنى عليه حلمه ، ويُوزده وقومه موارد الضر والأذى . فهو قد نهض بهذا السلاح النبيل فى وجوه قوم لم يتخذوا سوى الغدر والخيانة عدة لهم وسلاحاً ، وكانوا بما دسَّ فى عقولهم رهبان القرون الوسطى لا يرون فى الحملات الصليبية إلا وسيلة لإبادة المسلمين بالمشرق ، والاستيلاء على تراثهم المادى فيه .

وهكذا كانت خرافة بيت المقدس وتطهيره من « الكفار » تخديراً — ليس أكثر — لأعصاب الملايين من طغام أوربا ، واستثارة للعصبية الدينية المقيتة فى نفوسهم ، ولم يكن ليسع البابا أوربان الثانى وهو يرسل صيحاته المفتعلة — فى كليرمونت بفرنسا عام ١٠٩٥ — إلا أن يقرنها بذكر الباعث الحقيقى على شنَّ هذه الحروب فيقول : إنها ليست لاكتساب مدينة واحدة ؛ بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لا تحصى . فاتخذوا البيت المقدس حجة ، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيدى المختلسين لها ، وامتلكوها أنتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الأرض كما قالت التوراة : « تفيض لبنا وعسلا »[١] .

وكان سواد الجيوش الصليبية يتألف من رعاع أوربا الذين طمست الجهالة بصائرهم ، فساقهم رجال الدين سوق السائمات لتحقيق مآربهم السياسية وأطماعهم المادية . يصفهم المستشرق الانجليزى سير وليم موير بأنهم « الطبقة الدنيا ... خرجوا فى جموع غفيرة متبعين بطرس الناسك وغيره من القواد ، مدفوعين بالتعصب الشديد ؛ ولكن لم يلبثوا أن ظهروا عبيداً للشهوات والميول الدنيئة[٢] » .

ويقول عنهم فى موضع آخر : « أما البارونات والفرسان مهما كانت طبقتهم ، فلم يكن همهم غير التنازع على السيادة . والواقع أنه قضى عليهم الشره والغيرة والخصام والمبالغة فى الترف وهؤلاء الرجال الدنسون هم حماة الأرض المقدسة ! » .

ويصف من شرهم يوم فتحوا بيت المقدس أنهم سفكوا دماء سبعين ألف مسلم لم يراعوا فيهم حرمة لشيخ أو امرأة أو طفل . ثم يقول : « وبعد أن أشبع جنود الصليب شهواتهم الوحشية أوفوا بنذورهم وقبلوا الحجر الذى كان يغطى المسيح الذى قال : إن مملكتى ليست من هذا العالم وإلا لما قاتل أتباعى » .

هؤلاء هم الأعداء الذين قدر لصلاح الدين أن يلقاهم فى ميدان الجهاد ... فكيف لقيهم ؟

لسنا نعدو هنا الإشارة إلى بعض مواقفه حيالهم ، غب كل انتصار كان يتم له عليهم ، ففى ذلك وحده ما يكفى فى الدلالة على ما نريد .

أسر السلطان صلاح الدين فى موقعة حطين : جاى دى لوزينان (جوى) ملك بيت المقدس ، وبليان صاحب الرملة ، ورينولد أمير الكرك والشوبك . فلم يهدر إلا دم الأخير منهم وفاءً ليمين كان أقسمها أن يضرب عنقه بيده جزاء ما تطاول به على مقام النبوة ، ولسوء غدره ، وكثرة تعرضه لقوافل المسلمين المجتازة على الكرك .

---

(١) تاريخ صلاح الدين الأيوبى للدكتور أحمد بيلى

(٢) تاريخ دولة المماليك فى مصر تأليف وليم موير ، وترجمة محمود عابدين وسليم حسن

أما بليان صاحب الرملة فقد استأذن من صلاح الدين — كما يستأذن الحر الشريف ! — أن يتركه يمضى إلى القدس فيحمل زوجه وأولاده قبل أن تدهمها جحافل السلطان وأقسم ألا يتجاوز مكثه بها الليلة الواحدة . فلما بلغها التف حوله القوم ضارعين ، واستماله البطريق إلى أن يقيم معهم ليضطلع بقيادة الحملة الصليبية وأباحه كنوز الكنيسة يتناول منها ما يشاء . فجنح الأمير إلى الغدر ، ونسى يمينه ووعده فما ذكره بهما إلا صلاح الدين وهو يدق عليه أبواب بيت المقدس ، ثم يفتحه على القوم صلحاً ؛ ومن العجيب أنه خرج مع سائر من خرجوا — وفق شروط الصلح — معافى موفوراً ...

وأما جاى دى لوزينيان Guy de Lusignan ملك بيت المقدس فقد احتمله السلطان معه فى تنقلاته فترة ما ، فلما كان فى (أنطرطوس) أطلق سراحه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق أن يغادر الشام إلى أوربا نافضاً يده من القتال . فحنث هذا الملك بعهده ؛ ومضى إلى صور حيث أبى عليه كونراد صاحب حاميتها أن يتولى معه زمام أمر . فاتجه إلى طرابلس وحشد بها الحشود ، ثم ذهب إلى عكا — وكانت فى يد المسلمين — فضرب حولها الحصار عامين ، يعاونه فيليب ورتشارد ملكا فرنسا وانجلترا ، وقد قتل فى هذا الحصار ستون ألفاً من المسلمين ، ثم جرت يوم فتحها مذبحة رهيبة ذهب فيها ألفان وسبعمائة مسلم . ويقول المؤرخون إن ملكى الانجليز والفرنسيس مرضا فى أثناء هذا الحصار فأرسل إليهما صلاح الدين ألطافاً من ثلج وشراب بارد وفاكهة وغيرها[1] .

لقد كان صلاح الدين فى الحقيقة أسداً باسل الهمة كريم النحيزة ، يلقى ذئاباً ضاريات حشو جلودها الخسة والمكر ، والخديعة والجبن ، وأشباهها من دنيئات الأخلاق .

ولقد أفضى سقوط عكا عام ١١٦١ م فى أيدى الصليبيين إلى نتيجة مؤلمة رهيبة هى — فى أوجز تعبير — امتداد الحروب الصليبية « مائة عام » أخرى يسجلها التاريخ بمداد من الدم الصبيب !

(١) وفى موقعة عند يافا بين صلاح الدين ورتشارد يقولون إن السلطان أهدى إلى الملك جوادين من أفره جياده ، لما رآه يقود جوعه راجلا .

فقد اتخذ الصليبيون عكا حصناً لهم عوضاً عن بيت المقدس ، وظلوا يناوئون منها المسلمين فى الشام وفى مصر ؛ حتى كان سقوطها على يد السلطان الظاهر بيبرس (١٢٩١ م) خاتمة لهذه المذابح الفظيعة التى انتهت بطرد الصليبيين من المشرق بعد أن لطخت سجل تاريخ العصور الوسطى بدماء لا تبلى ولا تجف .

فما أبهظ الثمن الذى دفعه المسلمون من دمائهم ومن مدنيتهم — خلال مائة سنة « إضافية » من الحرب — لقاء هذه اللحظة العابرة التى تحركت فيها مشاعر صلاح الدين فأطلق سراح ملك بيت المقدس جاى دى لوزينان ! حقاً إنها للحظة حاسمة من لحظات التاريخ ؛ تركت على وجه الأرض أثرها الذى لا يمحى .

(يتبع) **محمود عزت عرفة**

عناصر الاســـتقلال . . !

[مهداة إلى شباب العرب]

(لأستاذ فاضـــل)

ليست هناك فكرة جلية لدى الأمة وفريق من خاصتها ، عن الاستقلال الحقيقي ؛ بل إنهم يفهمون من — الاستقلال — الاستقلال السياسي فحسب ! وقليلون أولئك الذين يفهمون الاستقلال على حقيقته ، والعلة فى ذلك قلة ما صدر حتى اليوم من الكتب التى تعالج القضية الوطنية ، على أنها محدودة الشمول ، أو سطحية الخ .

والاستقلال بمفهومه العام يقوم على أركان ثلاثة أساسية ، وفقدان أحدها يعد ثلماً فى الاستقلال ، إذ يؤثر على الآخرين . وإذا كنا لا نفيد كثيراً من المفاضلة بينها إلا أنه يهمنا أن نقرر أن كلا من هذه الأركان خطير الأهمية .

وبعد ، فما هى عناصر الاستقلال وأركانه التى يقوم عليها ؟ هذه الأركان ثلاثة هى :

الاستقلال السياسى .

الاستقلال الاقتصادى .

الاستقلال الفكرى .

ولا يعزب عن البال أن العرب حتى اليوم لم يعيروا الركنين الأخيرين ما يستأهلانه من العناية والاهتمام . ولعل مرد ذلك إلى أن الأجنبى هو الذى حال دون ذلك حتى اليوم .

كذلك لا يعزب عن البال ما للركن الثالث من أهمية (خاصة) لأن علاقتنا مع (أجنبى) جنى (ويجنى) فوائد عظيمة من ثلم الاستقلال الفكرى ، بل هـذا هو سلاحه الفتاك ، أعنى « الدعاية » بمفهومها الواسع التى توفر عليـه إراقة الدماء ومر العناء ، مما لم يثبت أجنبى غيره قدرته على الاستفادة من هذا السلاح ....

ولما أصبح مفهوم الاستقلال السياسى وقضية الحرية من البدائه التى لا يختلف فيها اثنان فسوف نقصر كلامنا على الركنين الأخيرين ، إجمالا .

أولا : ما هو الاستقلال الاقتصادى وأهميته وأثره ؟

هو أن يكون للبلد زراعة ثم صناعة ثم تجارة مزدهرة ، بحيث يكون ميزانه التجارى وميزانه الحسابى سليمين ، فلا يعتمد فى شىء من حاجاته على بلد أجنبى ما لم ينتج ما يسد النقص .

وعلى ضوء هـذا التعريف البسيط الموجز نتساءل هل نحن مستقلون اقتصادياً ؟ ؟ الحق أننا لم نجتز بعد الخطوة الأولى فى مضمار التقدم الاقتصادى ، وما نزال مستعبدين اقتصادياً ، فكثير من المشاريع المنتجة العظيمة فى بلاد العرب ، تستغل برؤوس أموال أجنبية ولا يصيبنا منها إلا نصيب الأيتام على مأدبة اللئام !

ولم تغب بعد من الأذهان والخواطر تلك الحالة الاقتصادية البائسة التى فرضت علينا طيلة الحرب العالمية الثانية ، وما نزال ، حيث تمكن الأجنبى من تحطيم كيـان العرب الاقتصادى بين عشية وضحاها ، فأحصى علينا حركاتنـا وسكناتنا ، ووقعنا تحت رحمتـه أسارى ، وازدهرت الأندية والملاهى والخلاعة ... وسهل عليه أن يستعمل جيشاً لجباً من رجالنا ... كرتزقة ... !! الخ ... الخ ... الخ ...

(وأبقى لنا جلداً رقيقاً وأعظما) أورثنا الطبلاوى افندى[1] هذا الحيوان الذى أتخيله وحشاً يخرب ويدمر ... ويبتلع الأخضر واليابس ... وأورثنا التضخم النقدى ... وسرق الرغيف منا سراً وعلانية ، وابتلع نتاج أرضنا من بترول وممدن ... وذهبت الدماء التى أريقت منا هباء منثوراً ... ولئن عادت تلك الظروف عدنا نحن والهنود وغيرهم ... ندفع الثمن !!!

إذن ما نزال تحت رحمته ، ولم نخط خطوات محسوسة فى سبيل الاستقلال الاقتصادى ، وهذا يعنى — وهو حقيقة مرة — أن الوضع الحاضر المقيت سيمتد إلى أجل غير مسمى فى بلاد العرب ... وسيبقى الاستقلال السياسى — إذا أتممنـاه — عديم الفائدة .

ثانياً : ما هو الاستقلال الفكرى وأهميته ؟؟

هو ألا نجرى وراء الآخرين بل نجاريهم فى كل شىء !

هو ألا نصدق بكل ما يرد إلى بلادنا من أفكار ومذاهب وآراء على علاتها .

هو ألا نشعر بأننا قاصرون ، وأقل جدارة ، وأحط أهلية

---

(١) ثرى الحرب كما ينعته الأستاذ الكبير الزيات

الأدب في سير أعلامه :

ملـــتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأســـتاذ محمود الخفيف

— ٢٨ —

البطل الضرير :

وكان ملتن في جنوحه إلى الراحة يفكر فيما عسى أن يرد به سلامسيس على رده هو عليه ، ويدير في خاطره ماذا يصنع وماذا يعد من رد ؛ حتى جاء هذا الكتاب فاستأثر بفكره ، وطلب إلى ملتن أن يرد فيدفع عن وطنه ما يتهم به كما فعل حيال صيحة سلامسيس ، وما كان في حاجة إلى أن يطلب إليه ذلك . ففي هذا الكتاب تهجم وقح على قوم يجلهم وعلى حكومة يعتز بها فضلا عما فيه من مطاعن شخصية كفيلة بأن تثيره وتسخطه على صاحبه أعظم السخط .

ومن عسى أن يكون صاحب هذا الكتاب ؟ ذلك ما أخذ يتساءل ملتن عنه ؛ فليس على غلافه إلا أنه طبع بإشراف ألكسندر مورس ، وفطن ملتن آخر الأمر أن مورس هذا هو مؤلف الكتاب ولكنه يتوارى . والواقع أن مؤلف الكتاب كان يعيش في انجلترة ما بين أكسفورد ولندن ، وهو بيير دى مولان ، ولم يجرؤ بالضرورة أن يلقى بكتابه إلى مطبعة في انجلترة فأرسله إلى مورس في هيبيج ، وهو من سلالة اسكتلندية ولكن أباه نزح إلى هولندة ؛ ونشر مورس الكتاب وقدم له ، وظن ملتن وشايعه في ظنه أكثر الناس أن الناشر هو المؤلف ؛ وكتم مورس حقيقة الأمر كتمانا شديداً فيما يتعلق بمؤلف الكتاب ، ولكنه أنكر أنه مؤلفه ؛ إلا أن إنكاره لم يزد الناس إلا اعتقاداً بأنه هو تخفت عليه لعنة ملتن وأصحابه أجمعين ، وبالغ مورس في كتمان سره وكان شديد الوعى ؛ فلو بدرت منه كلمة أو إشارة

من الآخرين . ففي مضمار السياسة والوطنية يجب أن نعمم الأفكار العربية الصحيحة ، وأن تكون لنا فكرة أو عقيدة ثابتة لا نخرج عن حدودها .

وأن نميز بين الآراء الصحيحة والمغشوشة التي تبث في وسطنا ، فنفضح الموضوعة بقصد التمويه والتضليل ... فكثير من المفتريات والأباطيل تلعب دوراً خطيراً في عقول عامة الناس وفريق من الخاصة .

ولنضرب مثلا : لنفرض أنها حدثت ثورة في بلد عربي في وجه الطغيان ... وقد حدثت فعلا ... وكانت النتيجة المعروفة ... وذهبت الأمة في آرائها مذاهب شتى ! لماذا ؟ لأن الأجنبي سمم الأفكار وألبس الباطل بالحق ... بأبواق دعايته المنظمة ... ونجح أخيراً في تفريق الكلمة وصدع الشمل ، وتشتيت الجماعة ، ورد الكيد إلى النحر ... وباتت الأمة تئن أحرارها ... وتخبط في دياجير العمى جهلتها ... وكانت الطامة الكبرى والعياذ بالله ! .

وفي مضمار المعرفة : يجب أن يكون لنا منبع علمي عربي تنهل منه ناشئتنا ، فلا نشعر بالنقص على الدوام ، وبعقم عقليتنا .

وفي اللغة : (وهى الأمة ... والأمة هى) كما يقول الحكماء لغتنا الخالدة يجب أن نؤمن بعبقريتها ، ونفخر ونعتز .

ولا بد من زيادة الإيضاح حول « الاستقلال الفكرى » لكى ندلل على أهميته وأثره :

قضت البلاد العربية حيناً من الدهر طال وهى تتلقى صنوف المصائب من غفوة طبيعية في ظلام العهد العثماني .. إلى غفوة صنمية إكراهية في هذا العهد الأسود الأبيض المميت ، حيث تتلقى كل يوم بل كل ساعة بل كل لحظة ؛ ضربة صامتة في صميم الاستقلال والكرامة — يوجهها عبدة المادة وإخوان المطامع . لقد توطنت النفوس على الشعور بالنقص ، وضعف الثقة بالذات مع مرور الزمن ... وصرنا نسلك مسلكا عجيباً ، يندى له جبين التاريخ العربي . لنذكر كل أولئك لنعرف مدى حاجتنا إلى الاستقلال الفكرى !

وصفوة القول : لا استقلال صحيح إلا بهذه الثلاثة .

(***)

ثم عن صاحب الكتاب لحاق به وهو على مقربة من كرمول ، ومن ملتن سوء العذاب …

وتنزّى ملتن تنزى الليث الجريح يريد أن يتعجل الرد ، ولكن المرض يقعده والعمى يحوجه إلى من يكتب له ؛ ولم يك أعون له يومئذ من ابن أخته چون فيليبس ، ولكن فيليبس كان فى شغل برد كلفه به عمه على هجوم آخر صغير وجه إليه ؛ لذلك لم يكن بد من التمهل . فتمهل ملتن على رغمه وإن جوانحه لتتقد حقداً على مورس ومن دفعه من الكائدين .

وظل ملتن يرصد أنباء مورس ويتسقط معايبه ، ويرسل من يتجسس عليه ويجمع ما يستطيع جمعه مما عسى أن يكون حوله من أمور تشينه فى حياته العامة وفى حياته الخاصة .

وكان ملتن حرياً أن يترفع عن هذا فلا يكلف نفسه مثل هذا العناء من أجل إمعة من النكرات بعد ازدراء ملتن إياه لما فى ذلك من مجرد الاكتراث له شرفا يلحق به ، وحسبه أن يرد على ما نسب إلى الحكومة من مثالب مقيما الدليل إن أمكنه على بطلانها وحقيقة الدافع إليها .

وإنه لما يؤسف حقاً أن يتنزل رجل مثل ملتن على جلالة قدره وسمو أفقه إلى ما لا يخرج فى جوهره عن كونه مغالبة ومجادلة حزبية لقوم يعكفون عليها غدواً وعشياً لا يبتغون إلا الكيد ولو أنه أعرض عنهم واستصغر أذاهم لكانوا هم المكيدين …

وجاء رده بعد سنتين أى سنة ١٦٥٤ إذ نشر باللاتينية « الدفاع الثانى » ، وإن المرء ليتملكه الأسف كلما فكر فيما كانت تجدى على الشعر مثل هذه الطاقة من جانب شاعر اقترن اسمه بالسمو فى ذلك الفن ، وجوز بلسان قومه فى شعر الغناء والملاحم أسمى درجة أمكن أن يبلغها شاعر قبله وبعده بحيث صار له فى الشعر الانجليزى أفق يشرف أقوى الشعراء بعده تحليقا أن يدنو منه فيستشرف له ، وفى شعر الدنيا قاطبة مكانة تسلكه فى القلائل الأفذاذ .

على أن كتاباته النثرية اللاتينية منها والانجليزية لم تخل من فائدة وأهمية فنها وقفنا على كثير من آرائه فى الدين والسياسة والاجتماع ، ومنها لمحنا بعض خلاله ونزعات وجدانه وخلجات شعوره ، هذا إلى أنه كان يبلغ أحيانا فى نثره كما سبق القول درجة لا تتقاصر عن مستوى شعره ، بلاغة عبارة ، وإشراق ديباجة ، وقوة أداة ، وروعة فن . مما جعله يعد فيمن لهم على اللسان الانجليزى عظيم فضل …

ويستبين كثير من صفاته ككاتب أحسن ما تستبين فى كتابه هذا « الدفاع الثانى » فالرأى مجتمع على أنه من خير ما كتب ملتن إن لم يكن خير ما كتب جميعاً ، ويقول ذوو الخبرة باللاتينية ممن تحدثوا عنه إن ملتن أشرف على ذروة البلاغة فيه ، وقد ضمنه جانباً من حياته الشخصية ، وتعرض فيه لأقوى شخصيات الحكومة الجمهورية وأورد طائفة من آرائه الأساسية فى السياسة والحكم ، وأنذر فى ختامه بما يخاف ، وأفصح عما يتوقع إن لم يأخذ بنصحه المعاصرون .

أسرف ملتن فى التفاخر بحكومة كرمول وما أدته إلى انجلترة من صنيع ، وما كان لها فى قضية الحرية من مواقف مشهودة ، وما أتيح لها من نصر فيها لم تشهد الدنيا مثيلا له ، وما كان إلا مردداً بكلامه هذا ما سبق أن ذكره فى الرد على سلامسيس ؛ وكذلك كان شأنه فى امتداح رجال ذلك العهد وما قدمت أيديهم من خير ، وأمعن ملتن فى الذهاب بنفسه وكان شعوره بأنه قاهر سلامسيس يدفعه إلى الغلو فى ذلك حتى لقد أشبه أن يكون غلوه شططاً ، وكان كلما تذكر ما رماه به خصمه من مطاعن يعظم غلواؤه فينسى أنه بذلك يبدى ما كمن فى نفسه من غيظ .

يقول لمن ظن أنه خصيمه : « تتساءل من أكون ومن أين جئت وتزعم أنى فى ذلك يحيط بى الشك ، كذلك أحاط الشك بهوميروس من يكون وأحاط بديموستين … » ثم يسرد ملتن تاريخ حياته ويعدد مآثره ومفاخره ، ويدفع عن نفسه ما نسب إليه ، حتى ما عيّر به من فقد بصره فلم يدع هذا بغير رد فأشار كما سلف القول إلى براءة عينيه فى مظهرهما مما يعيبهما حتى ليخالهما من يراهما مبصرتين كأحسن ما يكون الأبصار وأعه ، ونجد فيما يقول ملتن عن نفسه مثلا من أحسن الأمثلة لما يلحق الرجل القوى من ضعف إذا عنى من الأمور بما لا يتفق وسامى منزلته وعظيم خطره ؛ والحق إن شدة إحساس ملتن بذاته هو الذى يجره إلى مثل هذه المواقف …

ويرضى ملتن لنفسه فضلا عن هذا أن يوجه المطاعن إلى

مورس وكان خليقاً أن يدرك وهو المسرف فى كبريائه وغلوائه أن الحملة من مثله على مورس وأشباهه إن هى إلا ضرب من المهانة وإلا جاز أن يتداخل المرء إعجاب بقوة النسر أو الصقر إذا انقض على عصفور وديع ، أو ببطولة الفارس إذا جندل غلاماً لم يدر ما الدرع بعد ولا ما السيف !

ومن عجب الأمور حقاً أن يهتم ملتن اهتماماً كبيراً بالعيب على مورس كأنما كان له نداً يحرص أن يظهر عليه ، وأن يأتى فى مهاجته بأمور حسبه فيها من إساءة إلى نفسه أن يكون هو قائلها ؛ فهو يتدسس على علاقاته بالنساء ويستعرضها متهكما ساخراً وينعت مورس أثناء ذلك بما يشاء خياله من نعوت ويعنف عليه ويغلظ غلظاً كبيراً حتى ليكون للمرء عذره إذا ظن أن ملتن إنما يباهى بمقدرته على الطعن والكيد ...

ولكن « الدفاع الثانى » على الرغم من هذا كله يعرض أحسن ما كتب ملتن كما ذكرنا ، ومرد ذلك إلى صفات فيه بيناها ، ونزيد عليها صفة أخرى جديرة بالاعجاب حقاً وخليقة أن تجعل للكتاب ذلك الأثر الحسن فى نفوس قرائه وتلك هى هواجسه وقلقه على الحرية ؛ فقد أحيطت حماسته لكرمول بما ألقى عليها الفتور من التحذير والنصح والإبانة عما توسوس به نفسه من مخاوف .

وكان كرمول قد استغنى عن البرلمان وأصبح يلقب بحامى الجمهورية ، وإنه فى الحق لملك مستبد بالأمر لا ينقصه إلا التاج ، وأحس ملتن أن الحكومة القائمة حكومة أقلية متحكمة تعتمد على الجيش ، ولا سند لها من الشعب إلا أقلية تدين لها طوعاً أو كرهاً ، وعلى ذلك فلا بد أن يكون لها من المبادئ ما تستغنى به عن الكثرة المؤيدة لحياتها فى استمسا كها بما يميزها من غيرها قدراً وفضلا .

ولم يك ملتن راضياً عن مسلك كرمول فى المسألة الدينية كما ذكرنا ، وكذلك لم يعجبه تنكر كرمول لبعض الرجال ممن قام على كواهلهم عهده ، وأزعجه تشدد كرمول والتجاؤه إلى العنف وعد ذلك نذيراً بخنق الحرية بأيدى أوليائها ؛ وغمزت على قلبه المخاوف أن يمنى بخيبة جديدة كتلك التى منى بها من القساوسة أولا ثم من البرسبتيريز ؛ فها هو ذا رأس الدولة يميل إلى القائلين بإشراف الدولة على الكنيسة أعنى بإقامة كنيسة للدولة ، وهكذا يجد ما كان يحلم به من حرية العبادة وحرية النشر وحرية الطلاق تتهادى جميعاً صرعى فى عالم ما أبعد أهله عن الفطنة والمدنية فى رأيه وما أبعده فى جملته عما وصف به من السمو ، وما علق عليه من آمال ...

وتتجلى لباقة ملتن فيما اصطنعه لبيان معايب كرمول فهو يسوق كلامه ساق النصح فينهاه عن أمور ويطلب إليه فعل غيرها فيتضمن نهيه وطلبه أن كرمول فعل ما لا يصح فعله وقصر فيما يجب أن يفعل ...

يقول ملتن إن الدولة مكينة الدعائم إذ أنه يسيطر عليها رجل عظيم وبعينه مجلس يتكون من عظماء أماثل ، وهى بذلك خير مما تكون عليه لو وجد البرلمان وفساده وسخافاته ؛ ولكن لا بد من الحرية ، ولا بد أن تكون الحرية آمنة مطمئنة لا يأتيها خوف ولا يمسها عنف . فانها إن مسها العنف من الرجل الذى تكفل بحمايتها كان ذلك بمثابة ذبح الفضيلة ؛ ويتجه بالخطاب إلى كرمول طالباً إليه أن يمسك عليه ذوى الرأى والمشورة من رجاله ويذكر له بعض الأسماء ؛ ثم يسأله ملحاً أن يدع الكنيسة للكنيسة ويعظه ألا يزيد القوانين وقد رأى عدداً كبيراً منها يشرع حديثاً والا يحظر شيئاً لا يصح أن يحظر ، وأن يعنى بالتعليم ونشر الثقافة وأن يكافىء المجتهدين فى هذا السبيل ، وينصح له أن يطلق حرية الفلسفة ، وأن يدع كل ذى رأى ينشر رأيه بغير رقابة فلا يأتى العلم على أيدى الجهلاء ؛ ثم يدعوه أن ينصت إلى كل شىء وألا يخاف من استماع أى رأى خطأ كان أو صواباً إلا رأى من يدعو إلى الوقوف فى وجه الحرية ...

وفى ذلك الذى يقوله ملتن أبلغ رد على الذين اتهموه بممالأة كرمول بالحق وبالباطل ؛ ونعجب أن يكون رجل مثل الدكتور جونسون ممن اتهموه بهذا . قال جونسون فى كتابه عن ملتن : « وكان كرمول قد طرد البرلمان معتمداً على السلطان الذى قضى به على الملكية ، وأخذ يتملك بنفسه تحت اسم حامى الجمهورية ، ولكن كانت له قوة ملكية بل وأكثر من قوة ملكية ؛ أما أن سلطانه كان مشروعا فذلك ما لم يقل مدع به ، ولقد أقام هو نفسه أساس حقه على الضرورة ، ولكن ملتن وقد ذاق

حلاوة استخدامه هكذا فى صورة عامة لم يكن يرضى أن يعود إلى الجوع والفاسفة فخان الحرية التى دافع عنها وأسلمها إلى قوته ، بينما كان يؤدى وظيفته فى عهد اغتصاب واضح ، وليس فى الآراء أحق وأعدل من الرأى القائل بأن الثورات لابد أن تنتهى إلى العبودية ، وأن الذى برر قتل مليكه بسبب أفعال عدها غير قانونية يُرَى الآن وهو يبيع خدماته وضروب ملقه لطاغية ، لا يمكن كما هو واضح أن يجد عنده عملا قانونياً » .

وما خان ملتن الحرية ولا أسلمها إلى قوته وسلطانه ، وإنما خاف على الحرية منذ أن لاحت له أمارات تخيفه عليها من شخص أفرط فى حبه ، وليس يدل ذلك إلا على أنه يجعل الحرية فوق كل شىء وأنه فى سبيلها يضحى بكل شىء ، والحق أننا لا نجد فيما سلف من مواقفه فى جانب الحرية موقفاً أكثر من موقفه هذا دلالة على صدق حبه للحرية وصدق إخلاصه فى كل ما ينهض له من دفاع عنها ، وما نجد كلام جونسون إلا مثلا لما تكون عليه الكتابة عن غرض أو عن جهل .

ويختم ملتن كتابه فيعود إلى الإنذار والتحذير قائلا إنه فعل ما يجب عليه فعله وعلى مواطنيه أن يتدبروا فى أمرهم ، وإلا ساءت العاقبة ، ومهما يكن من شىء بعد ذلك فرده إليهم فعليهم تبعة كل خير أو شر . يقول فى ذلك « لقد أديت شهادتى ، وأكاد أقول إنى قد بنيت تمثالا لا يسهل هدمه يقوم شاهداً على تلك الأعمال الفريدة الجبارة التى تسمو على كل مدح ؛ وكان مثلى مثل شاعر الملاحم الذى يحرص على قواعد هذا الضرب من النظم ، فلا يعنى بأن يصف حياة بطله الذى يمجد كلها ، وإنما يقتصر على بعض أفعال خاصة من حياته كأخيل إذ كظم ما فى نفسه تلقاء طروادة وكعودة أوليس وكمجىء إينياس إلى إيطاليا ؛ وكذلك فعلت نحسبى مبرراً لموقفى أو عذراً عنه أنى مجدت كما تمجد البطولة على الأقل فتحاً من فتوح بنى قومى ومررت بغيره مراً ، إذ من ذا يستطيع أن يسرد أعمال أمة بأسرها ؟ فإذا تنكبتم طريق الفضيلة بعد هذا الذى أظهرتموه من البسالة والحمية وفعلتم ما لا يخلق بكم وما هو دون قدركم . فان أعقابكم سوف يحكمون على أخلاقكم ؛ ولسوف يرون أن الأسس أحكم وضعها وأن البداية كانت مجيدة ، ولكن يحزنهم أن لم يوجد من يرفع القواعد ويتم البناء » .

هذا هو ملخص « الدفاع الثانى » أو رد ملتن على مورس ، ولقد بذل هذا المسكين أقصى ما فى وسعه قبل أن ينشر ملتن كتابه ليقنعه بأنه ليس صاحب الكتاب الذى يريد أن يرد عليه فلم يعد من ذلك بطائل إذ أصر ملتن على أنه هو ، وتلك خلة من خلال الشاعر العظيم فما تتجه نفسه إلى أمر أو تتعلق بفكرة إلا اشتد تمسكه بها فصعب زحزحته عنها أو استحال ذلك ، ومن السهل أن نرد هذه الخلة إلى شدة اعتداده بنفسه أولا ثم إلى ثقته ويقينه من أنه لا يفعل شيئاً عن هوى ولا يريد إلا الحق ...

ولما نشر كتابه هالت مورس تلك العاصفة التى أرسلها عليه ، وعاد ينفى عن نفسه أنه كتب شيئاً ، ولقد كان يستطيع أن يفشى السر فيدل على الخصم الحقيقى لملتن ولكنه آثر أن يتحمل الأذى وهذه محمدة ومكرمة منه لا ريب ...

وتعاظم مورس الأمر فما يدرى ماذا هو فاعل حياله ، وأول ما خطر له هو شراء ما ورد هيج من نسخ الكتاب وإعدامها جميعا ولكن ماحيلته فيما نشر من النسخ فى القارة وفى انجلترة ؟ وأعد رداً على ملتن لم يعد كونه دفاعا عن نفسه ونفياً لما رمى به من تهم وبخاصة ما يتصل بعلاقاته بالنساء ، تلك التهمة التى جعلت الأمهات فى كل بيت يجفلن من دخوله عليهن وعلى بناتهن الأمر الذى أحزنه وأزعجه حتى كاد يذهب بصوابه .

ولم يشأ ملتن أن يسكت حتى على هذا الكتيب الذى رد به مورس ، فبادره بكتيب سماه « الدفاع عن نفسه » وعاد يسخر فيه من مورس ويضيف إلى ما رماه به من مطاعن شخصية مطاعن جديدة ليست دون سالفتها إفحاشاً وإقذاعا ، وعقب مورس على هذا محاولا أن يبرىء نفسه من كل ما رمى به ، ولكن ملتن يأبى إلا أن تكون له الكلمة الأخيرة ولذلك لقيه برد ثالث آثر بعده مورس الصمت فلا طاقة له بهذا الذى يرسل الصواعق عليه لا ينى ولا يفتر ولا يريد أن يسمع دفاعا ولا استغفاراً .

هذه هى قصة النزاع بين ملتن وبين سلاميس ومورس وهى قصة كما رأينا حوت الكثير مما يكشف لنا عن جوانب شخصيته ويرينا جانباً من آرائه وموقفه من كرمول وحكومته ورجال عصره .

(يتبع) **الخفيف**

الحضـــارة المصرية

فى عهد الدولة الوسطى

بحث للعلامة الأثرى أريك بيت

للأســتاذ أحمد نجيب هاشم

الرقيق :

أحدث الغزو الأجنبى تغييرات أخرى فى المجتمع ، فأصبح الرقيق الأجنبى طائفة خاصة ، وكان أغلبهم من الشام وقليل من النـوبة ، ولذا أصبحت لفظة « عام » مرادفة لرقيق فى عهد الأسرة الثانية عشرة — ولم يكن هؤلاء الأرقاء ملحقين بخدمة الأفراد فقط ، بل كان الـكثيرون منهم يلحقون بخدمة المعابد كنصيب الآلهة فى غنائم الحرب . على أن نصيب المعابد لم يقتصر على الرقيق ، بل كان ينالها عدد كبير من الماشية ومقدار عظيم من الغلال ، وكثير من الغنائم المختلفة التى تعود بهـا الحملات الخارجية — وقد أدى ذلك بطبيعته إلى ازدياد ثروة طائفة الـكهنة وعددهم ، فقويت هذه الطائفة حتى استطاعت بعد ألف سنة أن تخلع الفراعنة من عروشهم

مركز النساء :

ولم يكن مركز النساء فى هذا المجتمع حقيراً بأى حال ، ولـكن مجال السيدة كان فى البيت ، ولذا كان لقبها « بنت بر » أى ربة المنزل ، ونراها فى النقوش ممثلة بلون أصفر خفيف . أما الرجال ، فكانوا يمثلون بلون نحاسى داكن نظراً لقضائهم أغلب وقتهم فى الهواء الطلق تحت أشعة الشمس — وكانت السيدة تقوم بالأعمال المنزلية المختلفة من خبز وعمل الجعة وغزل ونسج ، وقد يساعدها الرجل فى كل ذلك أحياناً — وكان الزوج يحب زوجته ، ونراها فى النقوش الظاهرة على جدران المقابر جالسة وقد وضعت ذراعها وراءه ، أو مرافقة له فى نزهاته للصـــيد فى المستنقعات ، وكانت ترسم عادة فى هذه الظروف بشكل أصغر ، ولعل ذلك دلالة على أنها كانت تأخذ بنصيب أقل فى هذه الرياضة

ولا نعرف عن الطقوس الخاصة بحفلات الزواج شيئاً ما ، وجرت العادة أن يكتفى الرجل بزوجة واحدة ، ولـكن هناك أمثـلة كثيرة لرجال اتخذوا زوجتين أو أكثر . والظاهر أن القانون لم يمنع تعدد الزوجات ، وقديماً أيام الأسرة الخامسة أوصى الحـكيم بتاح حتب وزير الملك إسيسى بمحبة الزوجة ، فقال فى نصائحه المشهورة : « كوّن لنفسك منزلا ، وأحب زوجتك ، واكفها حاجتها من الطعام والملبس ، وقدم لها العطر ، فإنه دواء لها ، وأدخل على قلبها السرور مدة حياتك ، إن المرأة حقل نافع لزوجها إذا أحسن معاملتها ! »

الزواج من الأخت :

كثيراً ما يقال إن الملوك المصريين كانوا يتزوجـون من أخواتهم ، ولا جدال فى أن البطالسة فعلوا ذلك ، بل هناك أمثلة أقدم منهم عن هذا النوع من الزواج ، ولـكن ليس لدينا ما يدل على أنه كان قاعدة عامة ، فإن إشارات القصائد الغرامية إلى الصديقة بلفظ « أختى » جعلت البعض يعتقدون أنها تشير إلى وجود هذه العادة ، ويجب أن نشك فى صحة هذا الاعتقاد ، لأن التعبير فى هذه الأحوال قد يكون مجرد لفظ تقدير وإعزاز

كذلك يعتقد البعض أن الوراثة كانت تؤول عن طريق الإبنة الـكبرى ، ولـكن الأمثلة التى ضربت لتأييد ذلك تدل على أن الميراث آل إلى البنت ونسلها فى حالة موت أبناء الرجل دون أن يتركوا وريثاً .

النساء الكاهنات :

وقد لعب النساء دوراً هاماً فى نظام الـكهنة ، فـكان بعهد إليهن — بصفة خاصـة — الحفلات الموسيقية التى كانت تقام للآلهة من ذكور وإناث ؛ وفى عهد الدولة الحديثة أصبح أولئك الـكاهنات الموسيقيات محظيات للإله آمون رع ، وكانت تعرف

رئيستهن بزوجة الإله ؛ والظاهر أن هذه الحالة وجدت فى عهد الدولة الوسطى أيضاً .

المنازل وهندستها :

نعرف تفاصيل الحياة المنزلية من الرسوم الكثيرة الواردة على جدران المقابر ، بيد أننا لا نعرف إلا الشىء القليل عن البيت العادى ، إذ لم يبق من بيوت الدولة الوسطى أو القديمة سوى بيوت مدينة صغيرة بنيت خصيصاً فى اللاهون للعمال الذين اشتغلوا ببناء هرم الملك سنوسرت الثانى ؛ وأغلب هذه البيوت أكواخ للعمال والبيوت القليلة التى أعدت لمراقبى العمل كانت أكبر حجماً ، واختلفت اختلافاً كبيراً عن منازل الدولة الحديثة التى نعرفها جيداً من آثار تل العمارنة

أجل ، لقد كانت مادة البناء واحدة فى الحالتين ، فاستعمل اللبن والخشب ؛ كذلك حوى كل بيت بهواً بأعمدة يقوم السقف عليها ويدخل إليه النور من نوافذ فى أعلى الجدران فوق مستوى أسقف الحجرات المجاورة ؛ ولكن بينما نجد فى منازل تل العمارنة نافذة للبهو الأوسط مفتوحا نصفها نحو السماء إلى الجهة الشمالية والغربية ، نرى البهو الأوسط فى بيوت اللاهون يتقدمه حجرة فسيحة بعرض البيت ، ويتقدم هذه بهو ذو أعمدة

الأزياء :

والآن ، فلنحاول أن نتخيل سكان هذا البيت هناك . أولا : رب الأسرة ، ويرتدى فى الأحوال العادية إزاراً قصيراً من نسيج الكتان الرقيق يصل إلى ما بعد ركبتيه بقليل ، وقد يلبس فى مناسبات أخرى فوق هذا الإزار قميصاً أطول يصل إلى عقبيه — وقد يكون فى بعض الأحوال لحمايته من البرد ، ولذا كان يصنع من نسيج أكثر سمكا — ولكن لم يكن ذلك شرطاً أساسياً ، فكثيراً ما كان يصنع من كتان رقيق جداً ، فيظهر القميص القصير الذى تحته

ومن الملابس النادرة التى تلبس فى الحفلات ، ويلبسها الملك بصفة خاصة ، قميص الصيد ، وهو قميص من الكتان ذو ثنيات يربط جانباه إلى الأمام ، وبينهما ميدعة مثلثة الشكل مصنوعة من نسيج القميص نفسه ؛ ويلبس رب الأسرة فى قدميه نعالا مصنوعة من البردى ، أو من الجلد ، وتلبس زوجته ملابس بسيطة من الكتان الأبيض ، هى مهلهل ضيق غير مكمم ، كاس للجسم من الثديين إلى القدمين ومثبت فوق الكتفين بشريطين من النسيج نفسه ، وكانت تلبس فوقه فى الحفلات والولائم قميصاً آخر به خيوط من الخرز . وهكذا كانت الملابس فى الدولة الوسطى تمتاز ببساطتها ، أما فى الدولة الحديثة فقد تعددت الأزياء

واعتاد صاحب البيت أن يقص شعره قصيراً أو يحلقه بالموسى وأن يضع على رأسه فى الحفلات الرسمية قلانس شعرية ، وهذه القلانس نوعان : أحدهما قصير الشعر أجعده ، والآخر شعره طويل ناعم مفروق فى الوسط ، وكانت الزوجة تترك شعرها مرسلا إلى الأمام فى ضفيرتين على كتفيها ، وليس لنا أن نفرض أنهما من الشعر الطبيعى ، لأن هناك رسوماً كثيرة عن نساء راقيات وفتيات صغيرات وخدم بشعر قصير جداً ، وكان أطفال البيت الصغار لا يثقلون أنفسهم بالملابس ، أما الكبار منهم فكانوا يتشبهون بوالديهم ، فالأولاد يلبسون قميصاً قصيراً ، والبنات يلبسن مهلهلا طويلا ، ويضع الأولاد خصلة طويلة من الشعر ، ويكتفى البنات بخصلة قصيرة

الحياة المنزلية :

وليست الحياة فى البيت حياة كسل أو خمول ، فنجد فى إحدى الحجرات الخدم يغزلون الكتان على مغازل أولية لا تزال تستعمل فى الأمم المتأخرة ، بينما يشتغل آخرون على النول الأفقى أو العمودى بنسج أنسجة تيلية تختلف خيوطها من حيث الدقة والمتانة ، ولا تزال بعض هذه المصنوعات موجودة ، وهى لا تقل جمالا وجودة عن أجمل الحرائر الحالية — ولا نعرف إلا الشىء القليل عن استعمال الصوف فى الدولتين القديمة والوسطى — بيد أن المعاطف الثقيلة التى نراها ممثلة أحياناً على التماثيل أو فوق النقوش ، لا بد أنها كانت مصنوعة منه

ونرى العمل قائماً على قدم وساق لإعداد الطعام فى مطبخ

البيت ، ونجد النساء يطحن القمح بقطعة من الحصى على لوح كبير من الحجر ، ويعجن الأرغفة فى أشكال مختلفة من الشعير والشوفان ويخبزنها فى فرن اسطوانى من الفخار أو أفران من اللبن ، ونلاحظ أن هذه الأفران كانت منخفضة ومفتوحة فى عهد الدولة القديمة ومرتفعة ومقفلة بعدها

كذلك نجد صناع الجعة يأخذون الكعك المصنوع من الشعير أو حبوب البيشة ويكسرونه فى الماء ، ثم يضغطونه بعد أن يتخمر فى مناخل رفيعة ، ويعصرونه فى أوان كبيرة ، ويعبئ غيرهم العصير الناتج فى قدرين طويلتين . أما النبيذ ، فالراجح أنه لم يكن يصنع فى المطابخ ، بل قرب الكروم نفسها ، فكان العنب يحمل فى سلال ، ثم يوضع فى مكبس ، هو لوح كبير من الحجر له سطح مجوف ، ثم يدهسه خمسة رجال أو ستة ممسكين بحبال مربوطة إلى عمود أفقى مثبت فوق رؤوسهم ، وبعد أن يصب النبيذ فى قدر تحتـه يوضع العنب المدهوس فى قطعة من القماش أو فى زكيبة يلف طرفاها لفاً عكسياً بقطعتين من الخشب يمسك كل واحدة منهما رجل ، وبهـذه الطريقة يعصر العنب عصراً جيداً ، ثم يوضع هـذا العصير الأخير فى قدر ، وينقل العصير كله إلى قدر ليختم كل منها بالطين كما يفعل الفلاح اليوم بقدر عسله وجبنه ، ويبصم الغطاء بخاتم اسطوانى ، أو فى شكل جعران عليه اسم صاحب الكرم أو الموظف المسئول عنه

وسائل التسلية :

وقد اعتقد المصرى أن الغرض من النبيذ هو إدخال السرور على نفسه ، كما أولع بإقامة الولائم فكان الجار يدعو جيرانه ليقضوا معاً « يوماً سعيداً » . ونرى فى الرسوم الضيوف من رجال ونساء جالسين فى هدوء يشاهدون ما أعد لهم من وسائل التسلية والسمر يشمون أزهار اللوتس ويحتسون النبيذ من الطاسة عند ما تقدم لهم ، وفى أثناء ذلك تعزف فرقة موسيقية على العود والقيثارة أنغامها الشجية ، ويقوم المغنون بدورهم ويصفقون بأيديهم تصفيقاً منتظما ، ويعرض الراقصون والراقصات حركات بسيطة بالأذرع الأرجل والجسم . ويجب أن نذكر أن الموسيقى والرقص لم يكونا وسائل للتسلية فحسب ، بل استعملا بكثرة فى الحفلات الدينية والجنائزية .

ويظهر من الرسوم التى وصلتنا أن المصارعة كانت أكثر الألعاب الرياضية انتشاراً ، ولم تقتصر الرياضة على الرجال ، بل أخذ النساء بقسطهن فيها ، ولدينا رسم واحد لسيدات يلعبن الكرة ، ورسوم كثيرة عن سيدات يقمن بحركات بهلوانية ، ولا سيما الشقلبة إلى الخلف . فإذا أراد القوم تسلية هادئة ، لجأوا إلى ألعاب منزلية شتى يلعبونها بقطع ولوح خشبى أشبه بالشطرنج ومن أبسط الألواح التى عثر عليها وأقدمها لوحة عليها رسم فى شكل ثعبان ملتف حول نفسه . ونرى ألواحاً أخرى مقسمة مربعات عددها أربعة وعشرون أو ثلاثون ، تتحرك عليها القطع طبقاً لقواعد نجهلها ، ولعلها اللعبة المعروفة اليوم باسم « السيجة » والتى لا يزال يلعبها كثيرون من أبناء الصعيد

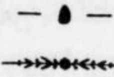
أحمد نجيب هاشم

مظاهر العبقرية

في الحضارة الاسلامية

للدكتور خليل جمعة الطوال

— ٥ —



فى العلوم الطبيعية :

ولم يعتمدوا فى دراسة العلوم الطبيعية والميكانيكية والسوائل والبصريات على مجرد النظر ؛ بل اعتمدوا على فرض الفروض واستخراج النتائج منها بالمراقبة والامتحان . ولقد كان الحسن ابن الهيثم الذى ظهر فى القرن الخامس للهجرة ؛ علماً فذاً فى هذه العلوم ، ولئن تجاهله المسلمون فقد عرف فضله الغربيون ، وقدروه قدره وأوفوا كتبه حقها من الدراسة العميقة وأحاطوا شخصه بما هو أهل له من الاحترام والاكبار . فقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية : إن ابن الهيثم قد أوحى بكتابته فى الضوء إلى اختراع النظارات ، وأن علماء القرون الوسطى كروجر باكون العالم الانكليزى المعروف ، وبول واتيلو ، وليونارد فنشى ، وكوبرنيكس وكبلر ، وغيرهم ، قد اعتمدوا على كتاباته ، واقتبسوا منها معظم بحوثهم فى مختلف المواضيع . وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية أيضاً مانصه : « كان ابن الهيثم أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات » .

وجاء فى كتاب تراث الاسلام : « إن علم البصريات وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم » . ويقول الأستاذ سارطون[١] : « إن ابن الهيثم أعظم مؤلف ظهر عند العرب فى علم الطبيعة ؛ بل هو أعظم علماء الطبيعة فى القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات المعدودين المشهورين فى العالم كله ... » ، وجاء عن العالم الفرنسى « لوتيرتياردو » بأن « كبلر » قد استمد معلوماته فى الضوء وانكساره فى الجو من كتابات ابن الهيثم .

(١) مجلة الرسالة الغراء عدد ١١

وإلى ابن الهيثم يرجع الفضل الأول فى معرفة قانون الانعكاس وزاويتى السقوط والانعكاس ، وهو الذى أثبت أن الضوء يسير فى خطوط مستقيمة فى الهواء وفى أى وسط آخر ، وأنه إذا سار من وسط إلى وسط آخر انكسرت أشعته ، وقاس كلا من زاويتى السقوط والانكسار ، وأظهر خطأ بطليموس فى بحثه عنهما . وقد اخترع آلة لبيان العلاقة بين زاويتى السقوط والانكسار؛ فبنى علماء الغرب فيما بعد آلتهم الحديثة على أساسها . وقد علل كثيراً من الظواهر الجوية التى تنشأ عن الانكسار تعليلا علمياً صحيحاً ، وأصلح خطأ رأى أقليدس القائل بأن شعاع النور يخرج من العين إلى الجسم المرئى ، وقال بأن النور يأتى من الجسم المرئى إلى العين ، وقد بحث كثيراً فى العدسات وحاول استعمالها فى إصلاح أمراض العين ، وكتب فى الزيغ الكرى وفى تعليل الشفق[١] وهو إلى جانب ذلك أول من رسم العين ، وبين جميع أجزائها ، وكيفية تشريحها ، ووضع أساس آلة الاستربنسكوب .

على أننا لسنا فى صدد تدوين تاريخ ابن الهيثم أو بيان مآثره فذلك أمر لا تفى المقالة ، ولا المقالات حقه ، ولهذا فإننا نكتفى بهذه اللمحة الموجزة عنه ؛ لنتقدم بفقرة أخرى موجزة نشير بها إلى مواطن ابتكار العبقرية العربية فى هذا العلم الجليل الشأن .

يقول درابر : « لقد قرر العرب فى الميكانيكا نواميس سقوط الأجسام وطبيعة الجاذبية ، وعللوا القوات الميكانيكية ، واصطنعوا فى نقل الموائع وموازنتها الجداول الأولية للجاذبية النوعية ، وبحثوا فى طفو الأجسام وغرقها فى الماء ... وأثبتوا أننا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب ، ومما قال أيضاً : والذى يدهش كثيراً أن نتصور أشياء نفاخر بأنها من ابتكارنا ثم لا نلبث أن نراهم قد سبقونا إليها . فتعليمنا الحاضر فى النشوء والارتقاء كان يدرس فى مدارسهم[٢] وحقاً إنهم وصلوا إلى الأشياء الآلية وغير الآلية فكان المبدأ الرئيسى فى الكيمياء عندهم ، والمظهر الطبيعى للأجسام المدنية »

وقال جوتيه : « لقد علمنا العرب صنع البارود ، وعمل إبرة

(١) Ameer Abi : the siqrit glseam

(٢) الاسلام والحضارة العربية

السفينة ؛ وعلينا أن نقدر دائماً مدى الشوط الذى كانت تقطعه مدنيتنا لو لم تقم على مخلفات المدنية العربية ، ولقد عرف العرب قبل غيرهم آلة الظل ، والمرايا المحرقة بالدوائر ، والمرايا المحرقة بالمقطوع وقطعوا شوطاً بعيداً فى علم الميكانيكيات » وجاء عن سيديلو : « أن هارون الرشيد الخليفة العباسى قد أهدى إلى شارلمان ساعة دقاقة ، فلما أطلع عليها حاشيته تعجبوا كثيراً من أمرها ، وحاروا فى معرفة تركيب آلاتها[1] » .

وقد حاول حكيم الأندلس عباس بن فرناس الطيران ، واخترع صناعة الزجاج من الحجارة ، وكتب فى الموسيقى ، ووضع آلة المثقال التى يعرف بها الوقت على غير حساب ، ومثل فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلا يقرب من الحقيقة ، وقد سبق العرب إلى معرفة الطباعة فألف أبو بكر القدسى كتاباً فى الخواص ، وصنعة الأمدة وآلة الطبع غريب فى معناه .

الطب والكيمياء :

يقول ولز[2] : «لقد ازدهر علم الطب والتداوى عند العرب على حين كان الأوروبيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه ، إذ أن الكنيسة كانت قد حرمته عليهم ، وحصرت التداوى بزيارة الكنائس ، والاستشفاء بذخائر القديسين ، وبالتعاويذ والرقى التى كان يبيعها رجال الدين ، ولقد كان لعلم الجراحة عند العرب أهمية كبرى ؛ فقد كان جراحوهم يزاولون العمليات الجراحية الكبرى بطريقة علمية فنية ، وساعدهم على ذلك ابتكارهم للمخدرات والمطهرات التى تشغل المكان الأكبر فى علم الطب الحديث ؛ على حين كان الأوروبيون ينظرون إلى الجراحة كعمل منكر ، ويستنكفون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين » .

ونذكر من السابقين فى هذا الميدان من أطباء العرب : طبيب طليطلة المشهور ابن الوافد (٩٩٧ — ١٠٧٤) صاحب كتاب « الأدوية البسيطة » الذى ترجم إلى اللاتينية أكثر

(١) سيديلو : تاريخ العرب
(٢) مختصر التاريخ لولز

من أربعين مرة ، وقد وصف فيه أنواعاً من العلاجات ، ترتكز على النظم الغذائية ، وما زالت جهود العلماء حتى الآن منصرفة فى هذا السبيل . أى بناء العلاجات على الأسس الغذائية .

ونذكر من الذين سموا بعلم الجراحة إلى مكان العلوم الراقية الجراح العربى الكبير أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى ، صاحب كتاب « التعريف لمن عجز عن التأليف » وقد شهد بنبوغه وتفوقه الجراح الكبير « فورج » فقال : لا شك فى أن الزهراوى أعظم طبيب فى الجراحة العربية ، وقد اعتمده واستند إلى بحوثه جميع مؤلفى الجراحة فى القرون الوسطى ... ويستحق كتابه فى الجراحة أن يعدّ اللبنة الأولى فى علم الجراحة » ، وقد سبق الزهراوى إلى أشياء كثيرة ، ومبتكرات عظيمة فى علم الطب ؛ فهو أول من بحث فى علاج الأقواس الضرسية ، ومعايب الفم ، وربط الشرايين[1] ، وهو أول من وصف عملية تفتيت حصاة المثانة ، واستخراجها بعملية جراحية ، وعالج الشلل ، ووصف كيفية استخراج الأجسام الغريبة من الأذن ، وداوى الجراحات الكبيرة ، ووضع أساساً لمعالجتها بالطرق الجراحية ، ووصف علاج الباسور بالكى ، وتكلم فى فن الولادة ، وهو أول من استعمل خيوط الحرير فى العمليات الجراحية ، وعالج النزف بالكى ، وما تزال أوروبا حتى الآن تدرس نظرياته الطبية فى جميع معاهدها .

ومن عباقرة العالم فى هذا الباب أيضاً « أبو بكر الرازى » المعروف بأبى الطب العربى ؛ ولكتب الرازى أهميتها العظيمة فى علم الطب ، فقد وصف الجدرى والحصبة ، وعرف أعراضهما ، ومعالجتهما ، وطرق الوقاية منهما ؛ وكان أول من استعمل « الفتائل » فى العمليات الجراحية ، وكذلك الأنابيب التى يمر منها الصديد والقيح والإفرازات السامة ، وقد ألف فى الطب ماينا هز (٢٠٠) كتاب وقد ترجمت جميعها إلى اللغة اللاتينية[2] .

وكان الطبيب مروان بن زهر الأشبيلى مستفيض الشهرة فى العالم الأوروبى ، فهو أول عالم بالطفيليات ، وفى معرفة مكروب الجرب ، وأول من وصف شلل البلعوم ، والتهاب الأذن

(١) من بحث للدكتور زكى على .
(٢) روح الاسلام (بالانكليزية) لأمير على .

الوسطى ، ووصف لبن الماعز فى علاج الدرن .

وقد كان ابن رشد إلى جانب تفوقه فى الفلسفة طبيباً لا يجارى، وما زالت كتبه تدرس فى أرقى جامعات العالم ، فهو أول من أشار وعلل الدورة الدموية فى كتابه « الكليات » الذى استمد منه وليام هارفى معظم نظرياته وبنى عليها . ومن أطباء العرب الأعلام موسى بن ميمون وله شهرة واسعة فى عالم الطبابة .

وقد سبق العرب إلى معرفة مرض النوم ، وسموه النوام ، ووصفوا علاجه وصفاً علمياً دقيقاً ، وسبقوا أيضاً إلى استعمال الحجامة فى أمراض الصرع ، واستعمال الماء البارد فى الحمى الدائمة وقرح العين واستخراج الجريم العدسى الشفاف منها ، وهم أول من عرف الطاعون وكيفية علاجه ، وانتقال العدوى عن طريق الملابس والأوعية والحلى .

ومن آثار العرب التى سبقوا إليها ، تأسيس البيمارستانات لمعالجة الأمراض العقلية ؛ ويعزى إليهم الفضل الأول فى إقامة المستشفيات ، وكان نظامها وتجهيزاتها فى غاية من الكمال والإبداع ، وكانت إمبراطوريتهم الواسعة تغص بآلاف من المستشفيات الراقية ، وقد ذكر العلامة الأمريكى فكتور روبنصن أنه كان فى طليطلة وحدها ما يزيد على أربعمائة مستشفى .

وقد برع العرب أيضاً فى فن الصيدلة ، ويشهد كتاب « الجامع فى الأدوية المفردة » لابن البيطار بعلو كعبهم فى هذا الباب فقد جمع فيه ما يناهز الألفين وصفة من أوصاف العقاقير المشهورة ، ويعتبر هذا الكتاب اليوم فى العالم الأوربى مرجعاً أساسياً فى الوصفات الطبية والعلوم الغذائية وقد سبق العرب الأوربيين فى وضع الأوانى الزجاجية الكبيرة التى تحتوى على السوائل الملونة عند مدخل الصيدليات ، وقد ميزوا بين مخازن العقاقير و « الأجزخانات » وإلى العرب يرجع الفضل فى إدخال التمر الهندى ، والمسك ، والسنامكى ، وجوز الطيب ، والراوند ، والتمر ، وعرق السوس ، والكافور ، والقرنفل ، والزعفران فى تركيب الأدوية ، والوصفات الطبية . وقد تعلم الأوربيون من العرب أيضاً طريقة طلاء الحبوب العقارية بالورق المذهب ، وتقطير ماء الورد ، واستعمال المقيئات .

وأما فى علم الكيمياء . فللعرب مكانة لم ينازعهم عليها أحد فهم الذين اكتشفوا الحامض الكبريتيك . اكتشفه الرازى وسماه « زيت الزجاج » وقد اكتشف أيضاً هذا العالم الجليل الكحول ، وذلك باستقطار المواد النشوية والسكرية المختمرة ، وألف فى استخراج الذهب من المعادن الأخرى .

ومن أفذاذ العرب فى هذا العلم أيضاً « جابر بن حيان » ، ويقول المسيو برتيلو فى الجزء الثالث من كتابه « الكيمياء فى القرون الوسطى » : « إن كتب جابر بن حيان فى الكيمياء هى غاية ما وصل إليه العقل العربى من الابتكار ، وإن كل المشتغلين بهذا العلم من بعده كانوا عالة عليه نقلا وتعليقاً » .

وقد حاول كيمائيو العرب العثور على إكسير الحياة ، وعلى اكتشاف حجر الفلاسفة ، وكتبوا كثيراً فى خصائص الفلزات واللافلزات ، وعملوا لها جداول علمية دقيقة ، وعرفوا ماء الفضة والقلى ، وطرق إذابة الذهب وملح النشادر ، وحجر الكى ، والسليمانى ، وصنع الصواريخ ، والنترات الفضية ، والنول ، وكيفية استخراج المعادن كالذهب والفضة ، والنحاس والبرونز ، والفولاذ ، وعرفوا أيضاً طرق الصباغة الفنية ، وعمل الأوانى الفخارية ، وتحضير الورق من القش ، وعمل الأشياء الجلدية الثمينة ، واستخرجوا السكر من القصب والألوان من الأعشاب .

(يتبع) خليل جمعة الطوال

وحى فيضان سنة ١٩٤٦

للمهندس فؤاد السيد خيل

سارت على الطوفان وهو جبال
ورست على الجودىّ وهى جمال
ونجت من الهول العظيم بحكمة ... جلى وفنّ ما له أمثال
أخذت من الفيض المدمّر خيره
ومشت على طغيانه تختال
مصر الحبيبة للقلوب جميعها ... وإذا اشتكت يوماً يهبّ رجال
من كل شهم للبلاد مجاهد ... هو فى الكفاح مهندس رئبال
إن لم يسر فى المشرقين كلامه ... يوم النزال فإنه فعّال
أوغاب عن سمع الأنام وحسّهم ... فاعلم بأن وجوده أعمال
ليس الشجاعة إذ تقاتل فتية ... مثل الشجاعة أن دهى زلزال
والموت أهون بالمدافع فى الخلا
من أن تموت وفوقك الصلصال
ما النبل تقتيل العباد وإنما ... تحمى رجال من أذى وعيال
ينشى غداة الروع كل محبة ... وتكون مصراً وحدها الآمال
تتنكر الأيام والساعات فى ... شغل ويخفى العيد والآصال
تتشابه الأوقات وهى عصيبة ... وتعمّها الأحداث والأحوال
ولكم تقبيل الجنّ وهو مثابر
ولكم رآه كوكب وهلال
ولكم رأته الشمس فى حمّامها
بالنيل يحرسها سناً وجلال

* * *

لما أتى النيل العظيم بخيله ... لا هدنة منه ولا إمهال
يزجى المياه كتائباً وجحافلا ... ترد البلاد كأنها أغوال
قام المهندس للدفاع بفنه ... وبنفسه ، وحياته أهوال
يحدوه واجبه العظيم وحبه ... لا تزدهيه عقوبة ونوال
وأتاه من أهل الادارة نخبة ... مشكورة والجند والعمال
قاموا جميعاً للجهاد بهمة ... لا يعتريها فى الجهاد كلال
وعمادها الفلاح وهو علاج كل
ملمّة . لم يهتضمه نضال
إن قلدوه السيف فهو بطولة ... أو قلدوه الفأس فهو غلال
قوّى الجسور بقوة وعزيمة ... لم يثنه مرض به وقتال
فلاح مصر ذخيرة مطمورة ... وجلاؤها التعليم والأعمال
ابن الفراعنة العظام وطالما ... آتاه فى شتى الفنون كمال
لو علموه فأطعموه وعالجو ... ه لكان منه عباقر وغزال
ولحلّ بالدستور كلّ صعوبة ... إن العليم لصعبه حلال
أرأيت فى التاريخ طرّا أمة ... ترقى بشعب جله جهال
بالعلم عزّت فى الزمان ممالك ... وصلت لما لم يبتدعه خيال

* * *

خزان أسوان العظيم تحية ... منا إليك كأنها تمثال
حمّلت مصر وأهلها لك منّة ... عظمى ستذكرها لك الأجيال
ودفعت عنها شرّ أرعن مزبد ... بحر خضمّ دافق هطال
وجدت بحصنك فى المهالك والأسى
ما لم نجده (بروسيا) و (الفال)
يا قوم هيا عززوه بآخر
فى حفظ مصر تنفق الأموال
لا تتركوه على الحوادث (مأرباً)
فإذا أصيب دهى البلاد وبال
أيجوز أن الماء وهو حياتنا ... يلقى سدًى فى البحر أو يغتال
فى خزن ماء الفيض كل رجائنا ... والاعتماد على الجسور محال

* * *

يا مصر حبك فى القلوب عقيدة
يحيا بها الأبوان والأشبال
لكن بنوك تفرقوا فى حبهم ... حتى قسوا وتقطعت أوصالا
ماذا عليهم لو تكاتف جمعهم
فى ردّ عادية الألى قد مالوا



الثقات :

كان هذا الضعيف إذا وجد فى مكتوباته أو منسوخاته فى « الرسالة » الغراء تطبيعاً بادر إلى إصلاحه ، ثم هجر طريقته هذه ، وفوض أمره إلى الله (تعالى) متكلا عليه ، وعلى الظن الكريم الحسن لقراء « الرسالة » بخادم قرآنهم ولغتهم . فمثل التطبيع فى (آمالى الإمام القالى) و (المسيح بن مريم) فى كلمة (لا غير) فى « الرسالة » ٦٩١ — يروح فى سبيل التفويض بيد أن (الثقاة) بهذه الهاء أو التاء المقصورة التى تبدو بهذه الصورة المنكرة فى كل جريدة ومجلة — يدعو تطبيعها فى كلمة (لاغير) إلى غير التفويض والاتكال إشفاقا من أن يضعف ذلك الظن الحسن أو يزول إن لم يكن قد ضعف أو زال ...

وإذا كنت لم أصل بعد فى (علم العربية) إلى درجة التلاميذ لتلاميذ الامام ابن خالويه فانى أقدر — بحول الله — أن أفرق بين المكسر والصحيح فلا أجمع (الثقة) إلا على (الثقات) ذات التاء المطولة ، ولا أحسبها مثل (القضاة والدعاة والرعاة والسعاة والبغاة والشراة والأباة والرماة) ف (الثقات) جمع صحيح سالم ، وهنا الجمع المكسر حين تجمع به .

فى اللسان : « ورجل ثقة وكذلك الاثنان والجميع ، وقد يجمع على ثقات ، ويقال : فلان ثقة وهى ثقة وهم ثقة ، ويجمع ثقات فى جماعة الرجال والنساء » ومثله فى مستدرك التاج .

وقد استوى فى الثقة المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع لأنه فى الأصل مصدره فى المصباح المنير : « وهو وهى وهم وهن ثقة لأنه مصدر ، وقد يجمع فى الذكور والأناث فيقال : ثقات كما قيل : عدات » .

وأول من نبه على ذلك الخطأ هو العلامة اللغوى الكبير الشيخ إبراهيم اليازجى فى مجلته الضياء فى سنة من سنيها لا أذكرها اليوم ، ولا أذكر رقم الصفحة فيها ، ثم أغار على نقد الشيخ مغير ، وعزو الفضل إلى صاحبه لن يضع من عازيه ولن يضير .

ذكرنى بالامام ابن خالويه هذا الخبر :

« جاء رجل إلى ابن خالويه وقال : أريد أن أتعلم من العربية ما أقيم به لسانى . فقال : أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو فما تعلمت ما أقيم به لسانى »

محمد إسعاف النشاشيبي

يستكثرون على الشعوب حياتها
وحياتهـا الحسنى والاستقلال
ويرون أن الشرق ظلٌّ بضاعة — يشرونها وتَغُرُّهُ الأقوال
فى الشرق قوم لا تَلين قناتهم — يحلو الفناء لهم ولا الاذلال
كم ظالم فى مصر أظهر بأسه — سَخرتْ به الفتيات والأطفال
مصر الكنانة والإله نصيرها — والحق والأملاك والأبطال

* * *

فاروق عهدك آية قدسية — تَسْمو بها الألباب والآمال
أكثرت فى مصر المآثر والهدى
وأشعت فيها العلم فهو حلال
الشمس أنت على المدائن والقرى
منك السَّنا والمخلصون ظلال
حاربتَ أدواء الرعيّة كلها — وعلى يديك تحطم الأغلال
عصر به حكم الزمان لأهله — طرًّا بأن شعوبهم أعدال
والنيل مِلكك لا مردَّ لحكمه
وعلى جوانبه يعيش الآل
شعبٌ يحبك بالفؤاد وبالنُّهى — ويذود عن واديكَ من يغتال
فاسلم ودم للمشرقين منارة — ويحفُّك التوفيق والأجلال

فؤاد السيد خليل

أبو شاس أيضاً :

علق الأديب زكي الحافظ الفيومي في العدد ٦٩٠ من الرسالة الزاهرة على ما كتبناه في تحقيق ما ورد في الشابستي والعمري والزيات عن أبي شاس ، وقلنا إنه تصحيف أبي نواس ، وأوردنا الأدلة الكثيرة على ذلك ، وذكرنا أننا لم نعثر لأبي شاس على ذكر في أي مصدر آخر غير ما ذكرناه ، لكن الأديب الفيومي ذكر أننا تسرعنا في الحكم ، وأنكر علينا حكمنا ، وقال : لو رجع الأديب إلى مظان أسماء الشعراء لتحقق أن هناك شعراء يكنون بأبي شاس ، منهم أبوشاس التميمي ، وأبوشاس الطبري المذكوران في معجم الشعراء للمرزباني . ثم قال : هنالك شعراء يتسمون بأبي شاس منهم شاس بن نهار بن الأسود بن عبد القيس .

أقول : لا أزال على رأيي الأول من أن هذا الإسم أبوشاس الذي مر ذكره في الشابستي والعمري والزيات هو تصحيف أبي نواس ، وهذه الأدلة :

١ – طريقة الشابستي في كتابه الديارات أنه يعرف بالشاعر أولا ، ثم يذكر أخباره ونوادره وما له علاقة بموضوع كتابه ، فذكر أبا شاس وعرف به ، ثم ذكر أخباره ، وفي كلامه على دير فيق ذكر شعراً لأبي نواس دون تعريف به ، وكذلك فعل معه في الكلام على دير سرجس ودير هند .

٢ – إن هذا الشاعر الماجن الخليع الذي كان – على رأي الشابستي – أطبع الناس ، مليح الشعر ، كثير الوصف للخمر ، لازم الديارات وتطرح بها ، وفتن رهبانها ومن فيها ، هو أبو نواس نفسه لا أبو شاس ، لأن هذه النعوت التي وصفه بها تنطبق على أبي نواس ، ولم يرو عن أبي شاس المزعوم مثل هذه النعوت أبداً .

٣ – ذكر الشابستي والعمري والزيات شعراً وجدته بنصه في شعر أبي نواس .

٤ – الممزق العبدي شاعر جاهلي واسمه شأس بن نهار ، لم يرو عنه شعر في الخمرة ، وإنه تطرح في الحانات ، وإنه فتن رهبانها ومن فيها ، وهو الذي يقول :

فإن كنت ما كولا فكن أنت آكلي
وإلا فأدركني ولما أمزق

وهذا البيت سبب تسميته

٥ – أما أبو شأس التميمي وأبو شأس الطبري ، فلم يرو عنهما في كتب الأدب والسير أنهما شربا الخمرة ووصفاها ، بل لم يرو عنهما خبر له قيمة ، كما لم يرو أنهما كانا أطبع الناس شعرا ...

٦ – ارتجل حبيب زيات اسماً لأبي شاس هذا فأسماه أبو شاس منير ، ولم يرد ذكر لهذا الإسم في جميع كتب اللغة والسير .

(بغداد) شكري محمود احمد
مدرس العربية بدار المعلمين الابتدائية



المليونير النموذجي ... !

للكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد

إن لم يكن الإنسان ثرياً فلا جدوى من كونه فاتناً ، لأن الشعر والحب من مميزات السراة وليسا شأناً من شؤون المتعطلين ، وعلى الفقراء أن يكونوا رجالا عمليين عاديين . وخير للانسان أن يملك دخلا ثابتاً من أن يكون ذا فتنة أخاذة .

تلكم أعظم حقائق الحياة الحديثة التي لم يفطن إليها « هوفى ارسكاين » المسكين . فلم تكن قواه الذهنية خارقة للعادة ولم تندّ عنه قط فكرة متألقة أو غير عادية ؛ ولكنه كان مشرق الطلعة بشعره البني الجعد وعينيه الرماديتين ، مما حبب فيه الرجال والنساء جميعاً ، وكان يتمتع بكل وسائل الحياة إلا وسيلة كسب النقود .

ولم يخلف له أبوه سوى سيفه الذى علقه « هوفى » فوق مرآته ، وكتاب تاريخ في خمسة عشر سفراً وضعه وسط مجموعة من المجلات . ثم قنع بالعيش بمبلغ يسير منحته إياه عمة شمطاء بعد ما أخفق في كل عمل مارسه . فقد تردد على البورصة ستة أشهر ، ولكن ما حيلة فراشة بين ثيران وذئاب ؟ واتجر بالشاى مدة أطول ، ولكنه سرعان ما عزف عن التجارة . ثم زاول بضع مهن أخرى لم يفلح فيها . وأخيراً أصبح لا شيء ؛ أصبح شاباً مرحاً عقيما ذا وجه صبوح بلا عمل ...

ومما زاد الطين بلة أن « هوفى » كان متيما بحب « لورا مرتون » كريمة ضابط متقاعد فقد أعصابه وخسر معدته في الهند ولم يستعدها . وكانت « لورا » تحب « هوفى » حباً يكاد يصل إلى العبادة ، وكان يسعده أن يلثم سيور حذائها ، وشهدت لهما لندن بأنهما أجمل حبيبين وأوفاهما فيها لأن المال لم يعترض حبهما . وكان الضابط ولوعاً بهوفى ؛ بيد أنه أبى أن يعقد خطبة ابنته له ، وجرى على أن يقول له « عد إلىّ يا بنى عند ما تملك عشرة آلاف جنيه وسنتدبر الأمر حينذاك » فيكتئب « هوفى » ويبدو عليه الوجوم ويقصد إلى « لورا » طلباً للسلوى .

وبينما كان « هوفى » ذاهباً إلى « هولاند بارك » حيث تقطن أسرة « مرتون » ذات صباح عرّج على صديقه « آلن تريفور » الرسام . وكان « آلن » فناناً متفرداً إلا أنه كان جافا غريب الأطوار ؛ طفح النمش على وجهه وأرخى لحية حمراء شعثاء ؛ أما حين يمسك بالفرشة فإنه يثبت أنه سيد فنه حقاً ، وكان يجد في البحث عن أمثلة صوره بشوق وتلهف . وما جذبه إلى « هوفى » في بدء الأمر إلا إشراق وجهه ، ولا غرو فكان دائماً يقول « ما على الرسام أن يعرف من الناس سوى البسطاء الوجهاء الذين يجد في النظر إليهم لذة فنية ، وفي التحدث معهم راحة الذهن . فالوجهاء من الرجال والحسناوات من النساء يحكمون العالم ، أو يجب أن يفعلوا ذلك على الأقل » وكلما زاد معرفة بشخصية « هوفى » زاد إعجابه بروحه المرحة الخفيفة ، وطبيعته الكريمة الطائشة ، حتى فتح أبواب مرسمه على مصراعيها أمامه في كل وقت .

وعند ما دخل « هوفى » وجد « تريفور » يجمّل صورة رائعة لشحاذ بالحجم الطبيعي ، وكان الشحاذ نفسه واقفاً على ربوة مرتفعة في زاوية من زوايا المرسم ، وهو رجل عجوز تبدو الحكمة على وجهه المتغضن الكئيب الداعي إلى الشفقة . وكانت على كتفه عباءة رثة من قماش داكن ، وكان حذاؤه الغليظ قديماً مرقعاً . واتكأ الكهل بإحدى يديه على عصا غليظة بينما مدّ يده الأخرى بقبعته البالية يتكفف الناس .

وصافح « هوفى » صديقه وقال همساً « ياله من مثال رائع ! » فصاح « تريفور » بأعلى صوته « نموذج رائع ؟ أعتقد ذلك ، لأنه لا يُلتقى بأمثال هذا الشحاذ كل يوم ! إنه كنز يا عزيزى »

— مسكين هذا الرجل ! ياله من بائس ! ولكني أظن أن وجهه بالنسبة إليكم معشر الرسامين هو كل ثروته ؟

— بلا شك . إنك لا تريد الشحاذ يبدو سعيداً ؟ أو تريد ؟

فسأل هوفى « وكم يتقاضى النموذج مقابل هذه الجلسة ؟ » واقتعد مقعداً مريحاً .

— شلنا فى الساعة .

— وكم تتقاضى أنت عن الصورة يا آلن ؟

— آه ! عن هذه أتقاضى ألفين .

— من الجنيهات .

— نعم يا عزيزى .

فصاح « هوفى » ضاحكا « هذا حسن ! ولكن يجب أن يظفر النموذج بنسبة مئوية لأن عمله لا يقل مشقة عن عملك » .

— كيف ذلك ؟ انظر إلى مشقة توزيع الألوان والوقوف طيلة اليوم أمام منصة الرسم ! كل هذا يروقك أنت يا « هوفى » ولكنى أؤكد لك أن هناك لحظات يكاد يصل فيها الفن إلى منسوب العمل اليدوى . والآن أرجز ولا تثرثر لأنى جد مشغول ؛ فدخن سيجارة والزم الهدوء .

وبعد فترة من الزمن دخل الخادم وأخبر « تريفور » أن صانع الإطارات يريد مقابلته . فقال « تريفور » وهو خارج « لا تجر يا « هوفى » فسأعود بعد لحظة » .

وانتهز المتسول فرصة غياب « تريفور » ليستريح على مقعد خشبى وراءه ، وكان يبدو عليه البؤس والشقاء حتى أشفق عليه « هوفى » فبحث فى جيوبه ليعرف ما عنده من نقود ، وكان كل ما وجد جنيها وبضعة بنسات ، ثم فكر فى نفسه « هذا الزميل العجوز المسكين يفتقر إليها أكثر منى » وذرع الاستوديو ونفح الشحاذ بالجنيه .

تحرك الرجل العجوز وعلت شفتيه اليابستين ابتسامة صفراء وقال « شكراً يا سيدى ، شكراً » .

ولما عاد « تريفور » استأذن « هوفى » فى الخروج ووجهه محمر لما فعل . وقضى ذلك اليوم مع لورا ، وقبل الإياب إلى منزله ظفر منها ببعض التأنيب والتقريع لتبذيره .

وفى مساء ذلك اليوم بينما كان « هوفى » يتجول فى نادى « الباليت » فى الساعة الحادية عشرة وجد « تريفور » جالساً وحده فى غرفة التدخين فقال له مشعلا سيجارته : « أأتممت الصورة على ما يرام ؟ » .

— تمت ووضعت فى الإطار يا بنى . ولئلا أنسى لقد تمت بغزو ، فذلك النموذج يدين لك بالإخلاص الشديد ، وقد أطنبت له فى الحديث عنك — من أنت ، وما هو دخلك ، وما هى آمالك —

— « يا عزيزى آلن » صاح هوفى « ربما وجدته فى انتظارى عند عودتى إلى المنزل ؛ ولكنك تمزح بدون شك . مسكين هذا العجوز البائس ! وددت لو استطعت مساعدته . إنه لشىء مرعب أن يصل إنسان ما إلى هذا الدرك من البؤس . أتعتقد أنه يحفل بشىء مما عندى من أكوام الملابس القديمة ؟ وكيف لا ! فإن أسماله كانت تتساقط قطعاً » .

— ولكنه يبدو بديعاً فى هذا النوع من الملابس . وأنا لا أرسمه بملابسه الرسمية السوداء بمقابل أى ثمن ؛ لأن الذى تدعوه أنت خرقا بالية أسميه أنا خيالا رائعاً ، وما يبدو لك فقراً مدقعاً هو ما يستحق التصوير عندى . وعلى كل حال سأخبره باستعدادك لمنحه بعض الملابس .

فقال « هوفى » جاداً « آلن ! أنتم معشر الرسامين لا قلب لكم » .

— قلب الفنان رأسه ، وعلاوة على ذلك لا تنس أن عملنا تصوير العالم كما نراه لا كما يجب أن يكون ؛ ولكل عمله ، والآن أخبرنى كيف حال لورا ؛ فالنموذج العجوز أظهر اهتمامه بها .

— إنك لا تعنى أن تقول إنك حدثته عنها ؟

— بل فعلت بلا ريب . فهو يعرف كل شىء عن الضابط القاسى الفظ و « لورا » الحلوة والعشرة آلاف جنيه .

فصاح « هوفى » محمراً من شدة الغضب « أتخبر ذلك المتسول العجوز عن جميع شؤونى الخاصة ؟ » .

وقال تريفور مبتسما « ياولدى العزيز ! ذلك المتسول العجوز ، كما تدعوه ؛ من أثرى رجال أوربا . فهو يستطيع شراء لندن غداً دون أن يسحب أكثر من رصيده ، وهو يملك قصراً فى كل عاصمة ، ويتناول الطعام فى أطباق من ذهب ، ويستطيع أن يمنع روسيا من دخول الحرب عند ما يرغب فى ذلك » .

— ماذا تعنى بالله عليك ؟

— إن الرجل الذى رأيته فى الاستوديو اليوم هو « بارون هوسبرج » وهو صديق حميم لى يبتاع جميع صورى ، وقد أعطانى جعلا فى الشهر الماضى لأرسمه فى زى شحاذ ! ماذا ترجو من

أهواء مليونير ؟ ولكن يجب أن أعترف أنه بدا مثالا رائعاً فى خرقه ، أو فى ملابسى أنا ، لأن ما كان يرتديه إن هو إلا عباءة قديمة لى اقتنيتها من أسبانيا .

فصاح هوفى « بارون هوسبرج ! يالله ! فقد نفحته جنيها ! »

وغاص فى المقعد المريح مرتعباً فزعاً .

وانفجر تريڤور فى الضحك « منحته جنيها ! لن تراه ثانية ياولدى العزيز ، فما أعماله إلا مستمدة من نقود الآخرين » .

وقال هوفى عابساً « أظن أنه كان يجب أن تخبرنى يا آلن ، ولا تتركنى أخدع نفسى إلى هذا الحد » .

— فى الحقيقة لم يتصور عقلى أنك توزع الصدقة بتلك الطريقة الطائشة . إنى أفهم تقبيلك نموذجا جميلا ، ولكن إعطاءك جنيها لنموذج قبيح — لا ، بالله ، لا ! فهذا مستحيل . وعلاوة على ذلك فالحقيقة أنى أنكرت وجودى فى الاستوديو لكل طارق اليوم ، فعند ما دخلت أنت لم أعرف هل يجب « هوسبرج » أن يذكر اسمه ، فأنت تعرف أنه لم يكن يرتدى ملابسه الرسمية .

— لا بد أنه حسبنى شيخ البلهاء فى هذا البلد .

— لا ، أبداً . فقد كان مسروراً بعد خروجك ، وكان يحدث نفسه ويمسح يديه المجعدتين ؛ ولم أستطع أن أستنتج سبب شغفه بمعرفة كل شىء عنك ، ولكنى فهمت كل شىء الآن .

— « إنى شيطان عديم الحظ » زمجر هوفى « خير ما أستطيع عمله هو الإيواء فى مخدعى . وياعزيزى آلن يجب الا تخبر أحداً بما حدث ، فإنى لا أستطيع ان أواجه المجتمع »

— ولم ذلك ؟ إن عملك هذا لأقوى دليل على حبك لخير البشر يا هوفى . والآن خذ سيجارة أخرى وتحدث عن « لورا » بقدر ما تحب .

بيد أن « هوفى » لم يطع وذهب إلى منزله حزيناً مكتئباً ، وترك « آلن تريڤور » يقهقه من شدة الضحك .

وفى الصباح التالى فى أثناء تناول « هوفى » طعام الافطار حمل إليه الخادم بطاقة كتب عليها « المسيو چوستاف فودان من طرف البارون هوسبرج » فأمر الخادم بدخول الزائر ودخل الحجرة رجل عجوز بمنظار ذهبى وشعر رمادى ، وقال بلهجة فرنسية « هل لى شرف التحدث مع المسيو أرسكاين ؟ » .

فانحنى هوفى .

وقال الرجل : « جئت من عند البارون هوسبرج ، والبارون ... » .

تلجلج هوفى « أرجو يا سيدى أن تقدم للبارون أصدق اعتذاراتى » .

فقال الرجل العجوز مبتسما : « كلفنى البارون أن أحمل إليك هذه الرسالة » ، وقدم له مظروفاً مختوماً .

وكتب على خارج المظروف : « هدية زفاف لهوفى أرسكاين ولورا مرتون ، من متسول عجوز » ، وكان بداخله صك بمبلغ عشرة آلاف جنيه .

* * *

ولما تزوجا كان « آلن تريڤور » شاهد العروس ، وألقى « البارون هوسبرج » كلمة فى حفلة الزفاف .

وتعجب آلن قائلا : « إن من أندر الأمور الظفر بنموذج مليونير . ولكن أندر منه الظفر بمليونير نموذجى » .

بولس عبد الملك

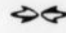
بمعهد الصحافة بالجامعة الأمريكية

[طبعت بدار الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين .]

العدد ٦٩٤ — الاثنين ٢١ أكتوبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد



٢٧٥٣٣

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 694

Lundi — 21 — 10 — 1946

بدل الاشتراك عن سنة
ـــص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٩٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٦ ذو القعدة سنة ١٣٦٥ — ٢١ أكتوبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الضمير الأمريكانى . . . !

وقضـــية فلسطين

للاستاذ ســيد قطب

أخيراً يتـكشف ضمير « الولايات المتحدة » الذى تعلقت به أنظار كثيرة فى الشرق ، وحسبته شيئاً آخر غير الضمير الإنجليزى والضمير الفرنسى ، وسائر الضمائر الأوربية المعروفة

أخيراً يتـكشف ضمير « الولايات المتحدة » هذا ، فإذا هو — كـكل شىء أمريكى آخر — « ضمير أمريكانى » !

ونحن نعرف فى مصر « اللعبة الأمريكانية » ونعرف أنها « نصب » فى « نصب » ، وقد حرمت هذه اللعبة لما فيها من غش وخداع . و « الضمير الأمريكانى » الذى تـكشف عنه تصريحات ترومان لا يرتفع كثيراً عن هذه اللعبة الممنوعة !

ولقد كان الـكثيرون مخدوعين فى هذا الضمير ؛ لأن الشرق لم يحتك طويلا بأمريكا ، كما احتك بانجلترا وفرنسا وهولاندا ، فلما بدأ الاحتكاك فى مسألة فلسطين تـكشف هذا الخداع عن ذلك الضمير المدخول ، الذى يقامر بمصائر الشعوب ، وبحقوق بنى الإنسان ، ليشترى بضعة أصوات فى الانتخاب .

وكلهم سواء أولئك الغربيون : ضمير متعفن ، وحضارة زائفة ، وخدعة ضخمة اسمها « الديمقراطية » يؤمن بها المخدوعون !

تلك كانت عقيدتى فى الجميع ، فى الوقت الذى كان بعض الناس يحسن الظن بفريق ويسىء الظن بفريق ، وكانت أمريكا فى الغالب هى التى تتمتع بحسن الظن من الـكثيرين

فها هى ذى أمريكا تتكشف للجميع . هذا هو « ترومان » يكشف عن « الضمير الأمريكانى » فى حقيقته ، فإذا هو نفسه ضمير كل غربى ، ضمير متعفن ، لا يثق به إلا المخدوعون !

إنهم جميعاً يصدرون عن مصدر واحد ، هو تلك الحضارة المادية التى لا قلب لها ولا ضمير . تلك الحضارة التى لا تسمع إلا صوت الآلات ، ولا تتحدث إلا بلسان التجارة ، ولا تنظر إلا بعين المرابى ، والتى تقيس الإنسانية كلها بهذه المقاييس .

كم ذا أكره أولئك الغربيين وأحتقرهم ! كلهم جميعاً بلا استثناء : الإنجليز ، الفرنسيون ، الهولنديون ، وأخيراً الأمريكان الذين كانوا موضع الثقة من الـكثيرين .

ولـكننى لا أكره هؤلاء وحدهم ، ولا أحتقر هؤلاء وحدهم . إنما أكره وأحتقر أولئك المصريين ، وأولئك العرب ، الذين لا يزالون يثقون بالضمير الغربى عامة ، وضمير الاستعمار على وجه الخصوص .

إنها الجريمة . تلك التى يقترفونها كل يوم فى حق شعوبهم المسكينة . جريمـة التخدير والتفغيل ، وإنامة الأعصاب على

الأذى ، وهدهدة الآمال الباطلة ، والأمانى الخادعة ؛ فى ذلك الضمير المأفون .

يقول نبى الإسلام الكريم : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ، وها نحن أولاء نلدغ من الجحر الواحد مرات ، ثم نعود فى كل مرة إلى هذا الجحر نفسه مغمضى الأعين نتطلب « الشهد » من جحور الأفاعى . ولا نجرب مرة واحدة أن نحطم هذه الجحور وأن ندوس هذه الأفاعى ، وأن ننفض عن نفوسنا ذلك الوهم الذى يقودنا المرة بعد المرة إلى تلك الجحور !

إنها الجريمة . تلك التى نعاودها مرة بعد مرة . الجريمة فى حق النفس ، والجريمة فى حق الوطن ، والجريمة فى حق العقيدة . إنها الغفلة التى لا يستحق صاحبها الاحترام ، وهو يشهد على نفسه بالتغفيل !

ولكن من الحق أن لا نصم الشعوب العربية بهذه الوصمة . إن هذه الشعوب لأذكى وأشد حمية من أن ترضى لنفسها بالهوان ولكنها تلك الحفنة من ساسة الجيل الماضى فى مصر وبعض البلاد العربية . تلك الحفنة الرخوة المسنة الضعيفة المتهالكة ، المهدودة الأعصاب ، لا تقدر على الكفاح ، ولا تدع الشعوب تكافح ، لأن أنانيتها الأثرة تمسكها عن الانسحاب فى الميدان وتركه للقادرين !

هذه الحفنة من ساسة الجيل الماضى هى التى اخترعت كلمات : المفاوضات ، والمحادثات ، والمؤتمرات ... لماذا ؟ لأنها وسيلة مهلة لا تكلف شيئاً ، وتضمن كراسى الحكم والسلطة فترة من الزمان . وكلما همت الشعوب أن تسلك طريقها ، وأن تواجه المستعمرين بذاتها ، حال هؤلاء بينها وبين المستعمرين ، ووقفوا من دونهم يصارعون الشعوب ، وتصارعهم الشعوب . فإذا أتعبهم الصراع مع شعوبهم راحوا يبثون فى الأمة روح الثقة بالمستعمرين ، وراحوا يشيعون الآمال الخادعة فى هذا الضمير المدخول ! !

تلك هى القصة . قصة الجحور والأفاعى . وقصة اللدغ المتكرر من هذه الجحور . وإنها لمأساة ، ولكن من العدل أن نبرىء منها الشعوب العربية ؛ فلا تؤخذ بجريرة حفنة من الساسة الضعفاء المرضى المتهالكين !

والضمير الأمريكانى !

لقد كان الكثيرون يفهمون أنه شىء آخر غير الضمير الأوربى . فأراد الله — ولعله لخير هذه الأمة العربية المنكوبة — أن يكشف عن ذلك الضمير ... إنه ضمير مادى ، ضمير الآلة التى لا تحس . وضمير التاجر الذى لا يتورع ، ولا يهمه حق ، ولا عدل ، ولا حياء .

وهل تملك تلك الحضارة الآلية أن تنشىء إلا ضميراً من هذا القبيل ؟

ليست المسألة مسألة جنس ولا دولة . فليس الأمريكان خيراً من الإنجليز ، وليس الانجليز خيراً من الفرنسيين ، وليس الفرنسيون خيراً من الهولنديين ... كلهم أبناء حضارة واحدة . حضارة مادية بغيضة لا قلب لها ولا ضمير . حضارة تأخذ ولا تعطى ، وتجرح ولا تأسو . حضارة أنانية صغيرة مهما بدت من الخارج ضخمة ذات بريق وضجيج !

إنها حضارة زائفة لأنها لم تقدم للانسانية زاداً من الروحية ، ولم تحاول رفع الآدمية عن قانون الوحوش . وهل تطبق هذه الحضارة مع شعوب الأرض المنكوبة إلا قانون الوحوش ؟

ثم يوجد بين أمم الشرق غافلون أو خادعون يثقون بأصحاب هذه الحضارة ، ويراودون شعوبهم على الثقة بذلك الضمير ، ويثبطون عزائمهم عن الجهاد الحاسم ، والكفاح المثمر ، فى أنسب الظروف !

وبين ضجيج الآلات يرتفع بين آن وآخر صوت إنسانى خافت فى تلك الربوع : ينادى بالعودة إلى الله ، كذلك الصوت الذى أرسله الكردينال جريفان فى انجلترا منذ أيام ، حين ألقى بكتدرائية وستمنستر عظة دينية فقال :

« لقد أبعد الله عن ميثاق هيئة الأمم المتحدة . وهذا هو السبب فى أن الأمم المتحدة لم تستطع إلى اليوم أن تصبح « متحدة » فعلا » .

« وإنه لينبغى أن يكون لله ومبادئه القائمة على الإحسان والعدالة مكان فى الشئون الدولية حتى تصبح الحرية حقيقة فى العالم بأسره ويعيش الإنسان فى ظل السلام والأمن » .

ولكنه صوت خافت لا يسمع فى ضجيج الآلات التى

اسلمي يا مصر....!

للأستاذ محمود محمد شاكر

ظللتُ سنوات معتزلاً أو كالمعتزل ، وما اعتزلتُ إلا لأن الحياة أرادتني على ذلك فأطعتها ، وليتني ما فعلتُ ! ثم جاءت أيام فهزّتني حتى كادت تقتلعُ جذور الحياة من أغمض أعماقها في نفسي وفي قلبي وفي سائر بنياني وحواسّي ، فانتبهت كالذاهل المغمور وأنا لا أدرى أحيٌّ أنا أم ميت ، وإن كان لم يشعر بما أشعر به إلا رجلٌ أو رجلان أدركا ما أنا فيه من محنة وشقاء . ثم انجلت الغمة وارتفعت الغشاوة ، وبدأتُ أرى الدنيا كما ينبغي لمثلي أن يراها ، فأقبلتُ عليها أتفحصها كأني أقرأ تاريخاً جديداً لم يكن لي به علم ولا خَبر . ومن يومئذ آثرت أن أغفل شأن هـذه الشعرات البيض التي تلتمع على فوديّ نذيراً وبشيراً ، وقلت لنفسي : كذب والله عليٌّ بن جبلة الخزاعي ، فإني لأجد هذه الشعرات البيض أخفُّ على قلبي محملا وأشهى إلى نفسي من كل ما استمتعت به في صدر شبابي ، وكيف أشجَى بشيء قد جعله الله بديلا من جنون الصِّبا وغُرَامِ الشباب . وأنا أسوق هنا أبيات عليّ بن جبلة ، وإن كان لا حاجة للمقال بذكرها ، لأني أعتدُّها من أجود الشعر وأرْصنه وأحسنه تمثيلا لقدم الشيب ، وأدقه تصويراً لإحساس الفزع الذي تتجرّعه النفوس الشاعرة في يوم الكريهة — يوم المشيب . قال يذكر الشيب وقد بلغ الأربعين :

ألقى عصــــاه ، وأرخى من عمامته
وقال : ضَيفٌ . فقلت : الشيبُ؟ قال : أجلْ!
فقلتُ : أخطأت دار الحيّ ! قال : ولِمْ ؟
مضتْ لك الأربعون التِمّْ ! ثم نزَلْ
فما شَجِيتُ بشيء ما شَجِيتُ به ،
كأنما اعتمّ منــه مَفْرِقي بجَبَـل

ولست أنكر أن عُلوّ السن بالمرء أمر ينبغي أن يلقى له باله ويتمهده حتى لا يؤخذ على مهوة وفي غفلة ، وأن الشيبَ هو النذير العريان — ولكن ما بالشيبِ من عارٍ ، فنحن إنما خلقنا

تغشى على صوت الضمير ، ونغمة مبحوحة لا تسمع بين صراخ المطامع ، وعواء الشهوات ، في ذلك العالم الهائج الشعور !

والآن . أيها الشرق . ماذا تريد ؟

فأما إن كنت تبغى الخلاص من براثن الوحش الغربي . فهناك طريق واحد لا تتشعب فيه المسالك . فهو أقرب طريق ... اعرف نفسك ، وراجع قواك ، واستعد للصراع ، وابدأ في الكفاح ، ولا تستمع إلى صوت خادع يوسوس لك بالثقة في ضمير الغرب المدخول .

وأما إذا كنت تبغى الراحة مع ذلك الجيل المكدود المهدود من الساسة المترفين الناعمين ، فأمامك طرق كثيرة ذات شعب ومسالك ، وذات منعرجات ودروب . هناك المفاوضة ، والمحادثة ، وجس النبض ، واستطلاع الآراء . وهناك الدبلوماسية الناعمة الرقيقة ، والكلمات الرفيقة الظريفة ، وهناك الانتظار الذي لا ينتهي ، والاستجداء الذي لا يغني . وهناك المؤتمرات الحافلة والموائد المستديرة ، وهناك الكتب البيض ، والكتب الزرق ، والكتب الخضر ، وما لا ينتهي من الطرق والمنعرجات والدروب !

والحمد لله — أيها الشرق — لقد تكشف لك القناع عن آخر ضمير « الضمير الأمريكاني » الذي كانت تتعلق به الأنظار ، أنظار الغافلين والخادعين !!!

والحمد لله — أيها الشرق — إن شمسك الجديدة في شروق ، وشمس هذا الغرب الفاجر في غروب . وإنك تملك من الرصيد الروحي ، ومن ميراثك القديم ، ما لا يملكه هذا الغرب المتطاحن الذي يأكل بعضه بعضاً كالوحوش لأنه يحكّم قانون الغابة فيما يشجر بينه من شقاق لا ينتهي ، وهل ينتهي الشقاق في الغابة بين الوحوش .

إنها الفرصة السانحة — أيها الشرق — للخلاص . فانفض عنك رجال الماضي الضعفاء المنهوكين . وابرز بنفسك للميدان ، فقضايا الشعوب في هذه الأيام لا بد أن تعالجها الشعوب .

وما قضية فلسطين إلا قضية كل شعب عربي ، بل كل شعب شرقي . إنها الصراع بين الشرق الناهض ، والغرب المتوحش . وبين شريعة الله للانسان وشريعة الغاب للوحوش .

سيد قطب

لنحيا ونموت ، فلتكن حياتنا كلها كما بدأت جهاداً متصلا جريئاً في سبيل الغاية التي نفخ الله فينا من أجلها الروح . وقبيح بامرىء علمته الأيام ووعظته الأسى منذ كان أبوه الشيخ آدم إلى يوم الناس هذا — أن يجزع أشف جزع من منهل لم ينج سابق من وروده ، ولن ينجو من وروده لاحق .

وليت شعري ماذا يضيرني من شيبة في شعرات ، إذا كان قلبي لا يزال غضاً جديداً كأنه ابن الأمس القريب ؟ ولو قد كان ذلك ضائري لقد هانت الحياة هواناً يجعلها أسخف وأخف وأضأل من أن أحفل بها أقل حفل . وكذلك عقدت عزمي على أن أضرب في مسالك الحياة حيث لا يعوقني وقار غث ، ولا حنبلية متزمتة ، وحيث أخبر الحياة على وجهها الذي هي عليه اليوم ، لأعرف ما الذي ستكون عليه غداً . فأسرعت إلى حلقات الشباب ممن تجاوزوا العشرين وأشرفوا على الثلاثين ، لأرى كيف يفكرون ، وأنظر كيف يعملون ، وأعرف ماذا يدبرون ، وأعلم أين يستقبلون فرأيت ونظرت وعرفت وعلمت ، فأشفقت وأملت ، وخفت ورجوت ، ولكني على ثقة من أن رحمة الله أوسع من أن تضيق بأمة ضلت في بيداء هذه الحياة ، وقد خرجت تضرب في جوانبها مطموسة البصر إلا ماشاء الله .

كان من أهم ما شغلني أن أسمع ماذا يقولون عما يشغل الناس جميعاً في هذه الأيام ، وأن أناقشهم فيما يقولون حتى أعرف خبء نفوسهم وضمائرهم ، وأن أنقل ما استطعت شيئاً مما يعتلج في هذه القلوب الشابة التي تريد الحياة الحرة الكريمة — أي تريد الفطرة التي فطر الله الناس عليها . وينبغي لكل صاحب قلم أن يحرص أشد الحرص على بيان ما يرى وما يراقب ، فإن الجيل الماضي الذي صارت إلى يديه مقاليد الحكم في مصر غافل كل الغفلة عن الآمال والآلام التي تساور القلوب المصرية الشابة ، وجاهل كل الجهل بالمولود الجديد الذي ولد في أرض مصر وشب ونشأ واستوي وكاد يبلغ مبالغ الرجال . يقول قائل الشباب :

« لقد خرجت مصر كلها ، عالها وجاهلها وغنيها وفقيرها ، تنادي يوماً ما باسم « الجلاء » وباسم « وحدة وادي النيل من منبعه إلى مصبه » وباسم البلد الواحد الذي هو «مصر والسودان» .

والشعوب أو الجماهير إن شئت ، لا تعرف تفاصيل التاريخ ولا يهمها أن تعرف ، بل هي تحس وتدرك وتتمنى وتسعى وتفعل كل شيء بالإلهام الذي تسدده الفطرة المستقيمة ، وهذه الفطرة المستقيمة إذا نظرت إلى شيء استوعبت لبه وطرحت نفايته

ولقد نظر الشعب المصري بفطرته المستقيمة فرأى دولة طاغية تحتل سماء بلاده وأرضها وبحارها ، بل تحتل أرزاقها المقسومة لأهلها من طعام وشراب ، وتشاركها في نسمات الهواء بل تضيق عليها أيضا ، وتحرمها النفحة بعد النفحة من هذه النسمات . وإذن فهي تمنع عنها ما هو مباح للوحوش في مساربها ، والبهائم في مراعيها ، والطير في مسابحها . وإذن فلا بد من أن تظفر بما يظفر به أدنأ الخلائق وأهونها على الناس وعلى الله ربها وربهم . وإذن فالشعب لن يعرف إلا كلمة واحدة هي : « الجلاء » ، ولا ينادي إلا بشيء واحد هو : « اخرج من بلادي أيها الغاصب » ، ولا يعرف من التاريخ ولا من السياسة ولا من البراعة والحذق في الدهاء إلا أن هذا غاصب واقف بالمرصاد يغتاله ويغتال أسباب حياته ، ويرمي به في الرغام ليعيش هو في رغد وفي بحبوحة .

« قام الشعب فأسمع من كانت له أذنان ، فإذا فئة من محترف السياسة ، ومن كل محتال عليم اللسان ، ومن كل وجيه زينه ماله وغناه ، ومن كل ذي صيت رفعته الأقدار بالحق أو بالباطل — قد هبوا جميعاً مع الشعب يقولون بمثل الذي يقول ، فظن الشعب أنهم قد صدقوا بعد ماض كذب على التاريخ وعليهم ، فرضي عنهم وأعانهم ، ولكن لم يلبث إلا قليلا حتى رأى الوادي يموج عليه بالحيات والأفاعي والعقارب ، وكل لداغ ونفاث وغدار ، فانتبه فزعاً يطلب النجاة مما تورط فيه من ثقة بأقوام لم ينالوا يوماً ما ثقته ، ولاحملهم أمانته ، ولارضي عن أعمالهم ، ولا سلم إليهم مقاليده إلا مرغماً أو مغرراً أو مخدوعاً . ثم بقي الشعب يترقب نهاية هذه المفاوضات العجيبة التي نالت فيها مصر كل شيء إلا الجلاء ، وحازت كل خير إلا الاستقلال ، ورأت كل عجيبة إلا عجيبة ارتحال الجيوش البريطانية ذات الزي العسكري أو الزي المدني » .

ويقول قائل الشباب : « إنني لا أعرف تاريخ القضية المصرية على الوجه المعقد الذي يدلس به الساسة علينا ، ويدخلون به المخافة والذعر في قلوبنا . لا أعرف من تاريخ هذه القضية إلا أن بلادي كانت توشك أن تكون قبيل سنة ١٨٨٢ إحدى الدول العظمى في العالم ، ثم إذا بأوربة كلها تتألب على هلاكها ، وقتلها ، والولوغ في دمها بتحريض دولة واحدة قد امتلأ قلبها جشعاً وحقداً . فلما ظفرت بما أرادت ، ذادت كل دولة عن

طريقها ، ورمت مصر غدراً وخيانة فاحتلتها فى سنة ١٨٨٢ ، وحسدتها الدول ، وخافت مغبة احتلالها لأرض مصر ، فتألبت عليها وطالبتها بالخروج منها ، فوعدت أن تجلو عن أرض مصر جلاء ناجزاً بعد أن تستقرّ الأمور ويتوطّد سلطان العرش المزعزع ! وقامت مصر تطالب بالجلاء فوعدت أيضاً بالجلاء ، وظلت بعد ذلك تَعد وتَعِد وتَعِد وهى لا تمل وعداً ولا تحققه ، إلى أن كانت سنة ١٩٤٦ ، فإذا هى تعلن الجلاء إعلاناً تاماً صريحاً بيّناً واضحاً ناجزاً سريعاً ، وتبدأ تجلو ، ولكن من غرفة إلى غرفة ، ومن سرير إلى سرير ، ولكنها لا تخرج من باب الدار إلى قَمَم الطريق .

« ثم إننا نرى هذه الفئة التى اختالت فى ثياب « الزعامة » ومجدتها الصحافة وسمتها باسم « الزعامة » قد دخلت فى المفاوضات بينها وبين البريطانيين باسم مصر ، ومصر منها براء ، فإذا بريطانيا تزعم للشعب أنها جلت عن مصر ، فأخلت القلعة ، وأخلت فندق سميراميس ! وكانت فيه القيادة العليا البريطانية للجيش البريطانى فى مصر ، وأخلت كذا ، وستجلو عن كذا ، ولكنها تأبى فى المفاوضات إلا أن تبقى فى مصر لتشارك مصر فى الدفاع عن أرض مصر العزيزة — على بريطانيا بطبيعة الحال !

« أفتظن هذه الفئة أن الله قد سلب الشعب المصرى فطرته السليمة ، حتى تخدعه كل هذه الترهات الباطلة التى يرسلها كهنة السياسة من كهوف المفاوضات على واديه المحرّم ؟ لئن ظنوا فقد خابت ظنونهم وباءوا بأخيب الرأى وأبعده عن مواقع الصواب . إن الذى بيننا وبين بريطانيا قد بان وتكشّف لكل ذى بصر . نعم لقد مضى على مصر دهر وهى مخدوعة بالمفاوضة ، ومخدوعة بقدرة السياسة على نيل الحقوق المهضومة ، ولكن لم يبق فى مصر بعد اليوم شابٌ فى قلبه ذرة من إيمان بالحرية ، وفى عقله ذرة من حسن التقدير وصدق التفكير ، إلا وهو يعلم أصدق العلم أن المفاوضة معناها كذب القوىّ على الضعيف ، وذلة الضعيف بين يدى القوىّ . ونحن ننظر صابرين إلى هذا العبث الدائر بين رجال قد أحدّوا أنيابهم ، وأعدّوا مخالبهم ، ورجال قد عرّضوا مقاتل أمتهم لهذا الضارى المفترس ليقضم منها حيث شاء كما شاء ، ثم يقول للفريسة : لقد أعددت لك الأطباء والمرضين ليضمدوا جراحك ويحقنوا دمك ، ويدفعوا عنك عادية الرّدى ! وكذلك تكون شفقة الأسود الرحيمة !

« إن القضية المصرية أبسط قضيّة على وجه الأرض : غاصب قد أقرّت الدول جميعاً منذ سنة ١٨٨٢ أنه غاصب معتدٍ ، ومغصوبٌ لا يزال يصرخ منذ ذلك التاريخ ، ويقول لأهل الدنيا : أنقذونى . فما معنى الدخول فى المفاوضات بيننا وبين بريطانيا ؟ إن العالم كله مطالب بإخراج بريطانيا من مصر ، ونحن لا نحب أن نفاوض بريطانيا ولا ينبغى لنا أن نفعل ، بل الذى ينبغى هو أن نفاوض الدول كلها إلا بريطانيا فى شأن إخراج هذا الغاصب وإجلائه عن برّنا وجوّنا وبحارنا ، وفى صدّه عن عدوانه على أعراضنا وعلى طعامنا وعلى أرزاقنا وعلى أخلاقنا وآدابنا وثقافتنا ...

« إن بريطانيا دولة قوية ما فى ذلك شك ، ولكننا أقوى منها لأننا أصحاب حق . فليعلم هؤلاء المفاوضون أن مصر لن تقبل الدنيّة فى مستقبلها ومستقبل أجيالها ، وليعلم هؤلاء المفاوضون أنهم لا يملكون التصرف فى رقاب أهل مصر الحاضرين ، ولا فى رقاب الأجيال الآتية ، وأنهم وإن كانوا مصريين كراما ، إلا أن مصر خالدة على وجه الدهر ، وهى أكرم منهم على أبنائها ورجالها الآتين . ونحن الشباب الناشئ نعرف أننا لن ننال لأنفسنا ولبلادنا حقها وحريتها إلا بالحزم والعزم وترك التهاون ، والإقلاع عن هذه الخبائث التى يسمونها المفاوضات ، ونسميها نحن المساومات . ونحن الشباب الناشئ نعرف أن الحياة لا معنى لها إذا خلتْ من الشرف والكرامة ، وأن الشرف والكرامة عندئذ هى الموت . فلنمت كراماً صادقين ، فذلك خير من أن نعيش أذلاّء مستعبدين . ولتعلم هذه الفئة أنها تسير بمفاوضاتها فى وادٍ ، وأن الشباب يسير فى وادٍ غيره ، فليحذروا مغبة ما يفعلون ، وخير لبريطانيا أن تفهم هذا ولا تتجاهله ، فربما جاء يوم لا ينفعها فيه هذا التجاهل ، وكان خليقاً أن ينفعها الفهم وحسن الإدراك » .

هذا حديث الشباب أيها الشيوخ ، فاحذروا غداً ، فإن القوة التى تتجمع فى الصدور قد أوشكت تنقض السدود التى رفعتها بريطانيا وشيدتها وجعلتكم عليها قُوّاماً وحُرّاساً . أيها الشيوخ شاركوا الشباب قبل أن يأتى يوم لا يُغنى عنكم عقلكم ولا استبصاركم ولا تلبُّسكم بأثواب السياسة ومُسُوح الحكمة وعمائم الوقار . وذلك يوم قد دنا أوانه .

محمود محمد شاكر

مناظرة هادئة . . .

للاستاذ علي الطنطاوي

نحن معشر الرجعيين . . لا نرى قتال المرأة ولا نزالها ، ونجد ذلك قادحاً بالرجولة ، ونعد ذنب المرأة مغفوراً وجنايتها جُباراً ، ولكن آراء الرجعيين الجامدين من أمثالي ... صارت أثراً عتيقاً من آثار القرن الماضي لا تصلح إلا لدار الآثار ... وقد تغيرت الدنيا وأهلها ، وأصبح من أشد ما تأباه المرأة (أو السيدة إذا شئت الأدب في الخطاب) وتنكره وتراه هواناً لها ونزولا بها عن منزلتها أن تترفق بها لأنها امرأة وغدت تريد أن تكافح الرجل وتنازله ، لا ترى نفسها أصغر من أن تغلبه ولا تجده أكبر من أن ينهزم أمامها . فعلى هذا ، وإكراماً للسيدة الجديدة ، ومجاراة لها في مذهبها ، ووفاء بحق هذه الأمانة ، أمانة (القلم) الذي منّ الله به عليّ وجعلني من أهله ، لأضرب به في كل ميدان إصلاح ، وأقرع به كل معالم الفساد ، لا تمنعني من ذلك رهبة عدوّ ، ولا رغبة في مودة صديق ... لهذا كله أعرض اليوم عرضاً إلى هذه (النهضة النسائية) التي أصبح الكلام فيها واجباً وجوب عين ، فعفوَ كنّ — يا سيداتي — فأنتن أردتن هذا ، وإنه لا يزعجكن — فيما أظن — الكلام في هذه النهضة ، لأنها ليست من الضعف (في رأيكن) ومن الوهن بحيث تنهدم من ضربة ، وتطير من نفخة ، ثم إني كتبت مجيباً لا مبتدئاً ، ومنتصفاً لا معتدياً ...

ولا بدّ لي قبلُ من ذكر مقالتي (دفاع عن الفضيلة)[1] ، لأن هذا الفصل كالتعليق عليها ، ولولا الحياء وخوفي من أن أُوصف بالغرور ، وبأني ممن يحرص على (صيد) الفرص ، لينوّه باسم نفسه ويزكيها ، لقلت : إنه قلما تصيب مقالة من النجاح الصحفي ما أصابت هذه المقالة (في بلاد الشام) ، فقد نفدتْ نسخ « الرسالة » كلها في ساعات من نهار ، حتى صارت النسخة تطلب بأضعاف ثمنها فلا توجد ، وقرأ كل نسخة — فيما أُقدّر — أكثر من خمسة ، ومن القراء من أخبرني أنه كان يعقد لها المجالس ليتلوها فيها كما تتلى المحاضرات ، وسُرّ بالمقالة جمهور من الناس ودعا لي من أجلها وأثنى عليّ وهنأني ، وغضب منها جمهور من الناس ودعا عليّ وشتمني ولعنني ، ورأى فيها إخواننا الرجعيون ... الخيّرون أنصار الفضيلة ترجمة آرائهم ولسان أفكارهم ، ورأى فيها المجددون تجديد الباطل ، المجردون أنفسهم وأهليهم من ثياب الستر ، المبددون تراث الأجداد الماجد الثمين ، سداً في طريقهم إلى غايتهم التي يدعون إليها ، وبلاء صبه الله عليهم ، وخزياً لهم وغيظاً لقلوبهم ، فقالوا : رجعي ؛ وقالوا : مجنون ؛ وقالوا : مُشْتَهٍ محروم يتفس بهذا عن نفسه ؛ وقالوا : فاجر يتستر بالدفاع عن الفضيلة ، وما باليت كل ما قالوا ... لأني ما كتبت هذا المقال ، وما قبله ، ولا ألححت هذا الإلحاح على محاربة تلك المفاسد ، ابتغاء رضا الناس ، فأنا أعلم أن من تغضبه هذه الكتابات أطول يداً ، وأشدّ سلطاناً ، وأحدّ لساناً ، وأقدر (ولا يقدر إلا الله) على نفعي وضري ، ولكني كتبتها ، وكتب مثلها الأستاذ سيد قطب ، غضباً لله ولدينه ولمحارمه ، وتنبيهاً لهذه الأمة الغافلة ، أن يفتك بها ذلك الداء ، وتحرقها تلك النار ، ووطنت نفسي على حمل ما (قد) تأتيني به من الأذى ، لا حمل الضعيف العاجز ، بل المحارب المقاتل الذي لا تصيبه الضربة حتى يردها بعون الله عشراً . على أني إذا لمت الحكومات ورجالها ، فلا أبرئ العلماء ولا الأدباء ، فهم أولى باللوم ، وأحمل للتبعة ، إذ يسكتون عن إنكار المنكر ، ولا يسخرون له ألسنتهم وأقلامهم ، ولو أنهم أدّوا زكاة بيانهم دفاعاً عن الفضائل والأعراض ، وأثاروها داحسيّة بسوسيّة على الإباحية والفجور ، لما حقت هذه اللعنة علينا حتى صار يقود ناشئتنا في دورنا وأسواقنا نفر من الفجار عباد إبليس ، سموا أنفسهم كتاباً وصحفيين ، وصارت لهم كتب تقرأ ومجلات .. وما كتبهم ولا مجلاتهم إلا الترجمة الفنية لحديث المراقص والمواخير ، وبيوت الخنا والزنا ، وما يكون فيها من مشاهد وصور ، تحملها كل يد إلى كل دار ، فيقرؤها الشاب في المدرسة ، والفتاة في الخدر ، فتكون هادياً لهم إلى تلك البيوت وإماماً !

ولكن المسؤول قبل الحكومات وأرباب البيان ، والمجرم الأول ، ومنبع الشر ورأس البلاء ، إنما هو الأب ، الأب الذي يشتري لبنته لباس الرشدات ، وتُبان السباحة[1] ، ويقطع لها

(١) الرسالة ، العدد ٦٨٧

(١) التبان : هو المايوه بذاته .

(تذكرة السفر) إلى بلاج الأسكندرية ، وفندق بلودان ، ومحافل لبنان ، ويرضى لها أن تتكشف وتتعرى . وتحتك بالشبان فى الترام ، وتشرب القهوة عند البياع فى سوق الحرير ، ويرسلها إلى مدارس يعلم فيها أدب بشار وأبى نواس شباب فى أعصابهم مثل النار التى فى أعصابها ، ويبعثها فى رحلاتهم التى تمتد أياماً وليالى ، تنزل معهم فى الفنادق ، وتركب معهم فى السيارات ، وتؤم معهم المتنزهات ، وتسمع (وكيف لا تسمع ؟) الفاحش من نكاتهم ، والبذئ من أغانيهم ، وما أغانيهم إلا غزل فى مثلها وتشوق إليها ، وهى فى السن التى تصرخ فيها غريزتها ، وتغلى دماؤها ، ويتفتح للحب قلبها !

ولا يدرى هذا الأب المغفل القرنان أن ليست عاقبة هذا إلا فضيحة تقصم الظهر أو مرضاً يحمل إلى القبر ، ثم إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى !

أقول : إن هذه المقالة شغلت الناس ، واختلفت فيها آراؤهم ، وكان من أعجب ما سمعت من التعليق عليها ، أنى كنت فى الترام ، وكان الترام فى تلك الساعة خالياً ، فسمعت حديثاً بين امرأتين فى غرفة النساء ، لا أراهما ولا ترياننى ، موضوعه التعليق على هذه المقالة ، ولست أروى من هذا الحديث إلا كلمتين اثنتين تدلان عليه ، قالت الأولى :

— يه ! ما تردّى عليه ؟ ينزل عليه الدم ان شا الله ، وعلى هالمشايخ كلهم !

قالت الثانية : وانت ليش مهتمة فيه ، مين رادد عليه ؟ يبعت له الحمَّى ، يعنى بدّو نرجع لورا ، ونضيع النهضة النسائية ونرجع جاهلات متحجبات ، يتحكم فينا الرجال ؟ فشر ! إننا سنكسر راسه !

وليصدقنى القراء إذا قلت لهم إن هذا كلامهم بالحرف الواحد! وأنا لا أحب أن أردّ الشتائم ولا أحسن مثلها مع الأسف الشديد، إنما أحب أن أبحث فى أصل الموضوع ، أما رأسى فقد عجزت عن كسره أقلام كتاب فحول ، حاولته من قبل ، وألسنة خطباء مقاول ، وعصىّ حكام جبابرة ، فلن تكسره أقلام طرية ، فى أيد ذات سوار ، رخصة البنان ، محمرة الأظافر . لا يا سيداتى ، إن الله قد صنعه من (مواد غير قابلة للكسر) ، فدعن رأسى وتعالين نتناظر (مناظرة هادئة) فى هذه النهضة النسائية ، فذلك أجدى عليكن من كسر رأس لا تستفدن من كسره شيئاً ... لأن رؤوس (الرجعيين) لا تزال كثيرة جداً !

ما هى هذه النهضة النسائية ؟ بما ذا تختلف نساء اليوم عن نساء الأمس ؟ أنا ألخص الاختلاف فى كلمات :

كانت نساؤنا تقيات جاهلات متحجبات مقصورات فى البيوت ، فرقّ دينهن وتعلمن وسفرن وخالطن الرجال ، فلننظر فى كل خصلة من هذه الخصال ، أكانت خيراً أم كانت شراً :

أما الدين (على إطلاقه) وخوف الله فى السر والعلن ، وما يكون معه من الاطمئنان والرضا ، والإحسان إلى الناس ، والبعد عن الفواحش ، وترك الكذب والغش والحسد والمكر ، وهذه خلائق يوحى بها كل دين من الأديان الصحيحة والفاسدة ، فلا يشك عاقل فى أنه خير ، وأن تركه شرّ ، وأن هذه النهضة بإبعادها النساء عن شرعة الدين ، قد أضرّت ولم تنفع ، وكان ضررها مضاعفاً مكرراً ، لأنه إن جاز أن يمنع الرجل من الفاحشة خلقه وإرادته ، فقد ثبت أن المرأة لا يمنعها منها إلا دينها !

وأما العلم ، فهو خير للمرأة بشرط أن تتعلم ما يصلحها ويصلح لها ، وألا يوجب تعلمها اختلاطها بالرجال ، لأننا إن قدرنا العلم قدره ، وعرفنا له فضله ، فلا نستطيع أن نفرط من أجله بالشرف ولا نضيع العرض ، وهما أكبر قدراً وأكثر فضلا ، وليس معنى هذا أن كل اختلاط يؤدى حتما إلى إضاعة العرض ، لا ، ولكن الغرائز موجودة ، والشهوات مستقرة فى النفس ، إنْ منعها سدّ فقد تطغى فتحطم السدّ أو تعلو عليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، والعبرة بالشائع الغالب ، لا الأقل النادر ، وعلى ذلك نزلت الشرائع ووضعت القوانين ، ولو كان احتمال سقوط المرأة فى هذا الاختلاط واحداً فى الألف لوجب منعه وتحريمه ، لأن أمة فى كل ألف من نسائها واحدة ساقطة لأمة فاجرة ليست بذات خلق قويم ، ولا تستحق أن تعيش ....

ونحن لا ننكره أن نرى فى نسائنا أمثال باحثة البادية ، ووردة اليازجى ، ومىّ ، ومارى عجمى ، ووداد سكاكينى ، ولكن أين السبيل إلى أن نوجد أمثالهنّ ؟ وهل توصل إلى ذلك مدارسنا ؟ إننا نبصر فتيات يتجاوز عددهن الآلاف المؤلفة ، يقطعن الطرقات كل يوم إلى المدارس ، غدوًّا إليها ورواحاً منها وهنّ بأبهى زينة وأبهج منظر ، يقرأن كل ما يقرؤه الشبان من هندسة وجبر

ومثلثات وكيمياء وفيزياء وأدبِ غَـزِل ، ويتعلمن الرسم والرياضة والغناء ، ويدخلن مع الشبّان فى الامتحانات العامة ، ويحملن مثلهم البكالوريات والدبلومات ، ويجمعهن مجلس بعد هذا كله بالعاميات الجاهليات ، فلا تجدهنّ أصح منهن فكراً ، ولا أبعد نظراً ، ولا ترى لهذا الحشد من المعلومات الذى جمع فى رؤوسهن من أثر فى المحاكمة ولا فى النظر إلى الأشياء ، فكأن هذه المعلومات الأغانى التى تصب فى اسطوانات الحاكى (الفونوغراف) إن أدرتها سمعت لهجة فصيحة ، وكلاماً بيناً ، ونغماً حلواً ، فتقول إنها تنطق ، فإذا سألتها وكلمتها رأيتها جماداً أخرس ، ليس فيها إلا ما استودعته من الكلام الملحّن ... !

وهذا حق ، ما أردت بسرده الانتقاص ، ولكن بيان الواقع

ثم إن تزوجن لم يعتززن إلا بإهمال الولد ، وتركه للخادمات والمراضع ، والانصراف عن الدار وأعمالها ، والترفع عن الزوج ، ثم إنه لا يعجب إحداهن إلا أن تلقى فى زوجها حماراً (ولا مؤاخذة) تركبه إلى غايتها ، لا رجلا تحبه وتطيعه ويحبها ويرفق بها

وإن هى اشتغلت معلمة أو محامية أو طبيبة ، لم تكن إلا (دون الوسط) فى المعلمين والمحامين والأطباء ، فما هذا العلم ؟ ولماذا لا تتعلم ما ينفعها امرأةً وزوجةً وأماً وربةَ بيت ؟ ولماذا لا تتعلم مع ذلك التحرر من عبادة (الموضات) والأزياء ، ومن حبّ تقليد النساء الغربيات حتى فيما هو ضرر محض ، وأن يجعل لها العلم استقلالا فى فكرها ، تتبع كل ما تجده صالحاً ولو كان مخالفاً للموضة ، مبايناً لما عليه أهلها ؟

وأما الحجاب ، وأعنى به ستر الأعضاء التى تثير غرائز الشر فى نفوس الرجال ، حتى تبقى الفتاة كالجوهرة فى صدفتها ، لا يصل إليها سارق ولا غاصب ، فأنا أفهم سبب ثورة الفساق من الرجال عليه . إنهم يريدون أن يستمتعوا بالجمال المحرّم عليهم ، ولكنى لا أفهم أبداً لماذا يقلدهم النساء فى هذه الثورة ، وما وضع الحجاب إلا لصيانتهن وإكرامهن ؟ وماذا يضر السيدة الفاضلة المتعلمة إذا لبست اللباس المحتشم الساتر ، وهى ترى الرجل الذى تحاول التشبه به لا يكشف إلا وجهه وكفيه ، مع أنها هى التى ينبغى ألا يظهر منها إلا وجهها (عند أمن الفتنة) وكفاها ؟ أفانعكستْ الحال ، وانقلبت الأمور ، حتى احتجب الرجال وتكشف النساء؟ وما الذى ربحناه من السفور؟ ليجب من كان عنده جواب مقنع،

أما أنا فأدعى أننا لم نربح منه إلا الشرور والفجور ، والدلائل حاضرات :

أما الاختلاط ، واشتغال المرأة بأعمال الرجل ، فأنا أعجب من مطالبة المرأة به ، ولا أفهم من منا يريد لها الخير ، ومن الصديق لها ومن العدو !

نحن نريد لها أن تكون سيدة حقاً مخدومة لا خادمة ، تأتيها حاجتها من غير أن تسعى إليها ، وهم يريدون أن تسعى وتزاحم الرجال حتى تصل إلى خبزها ، ولو اشتغلت بأخسّ الصناعات وأحطّ المهن ، ويدعون مع ذلك أنهم أنصار المساواة

أين المساواة إذا حملت على ظهرها مثل حمل الرجل وهى تحمل فى بطنها ولده ، وأخذت مثل وظيفته وهو يغذى نفسه وهى تغذى نفسها وتغذى من ثديها ابنه ؟

ثم إنكن تقلدن أوربة ، مع أن المرأة تشتغل فى أوربة عن عوز وحاجة ، وكريمات السيدات لا يشتغلن شيئاً ، إنما تعمل البائسات الفقيرات ويتمنين زوجاً يخلصهن من جهد العمل ، وإن عقلاء أوربة يصيحون شاكين من مزاحمة المرأة الرجل . فقد عطلت بيتها ، وشغلت الرجل بـ (غير العمل ..) فقللت إنتاجه ، ورضيت بالأجر الخسيس ، فنزلت الأجور ، فاضطر العامل أن يبعث بامرأته إلى العمل ، فجاءت قضية الدور التى زعم المناطقة أنها من المستحيل !

أفنبدأ نحن من حيث أراد الغرب أن ينتهى ؟ أنلحق ما يريدون هم الفرار منه ؟ !

وهذه هى الصناعات ، فأيها تصلح له المرأة العادية وتعدل فيه الرجل ؟ إعرضها كلها من تكسير الحطب وتنظيف المجارى وكنس الطرق إلى المحاماة والقضاء والنيابة والوزارة ، وأخبرنى عما تختزن منها ...

نعم ، إن الدهر يجود أحياناً بنساء نابغات يصلحن لبعض أعمال الرجال ، ولكن الكلام على سواد الرجال والنساء لا على النادر ، فكم هى نسبة الصالحين لكل من هذه الأعمال من الجنسين ؟ وإذا صلح لها النساء فهل يصلح الرجال (بالمقابلة) للطبخ وإدارة المنزل وتربية الطفل ؟ إن هذا ينتهى بنا إلى إعلان (مساواة الجنسين) ، وأنه لم يبق مجال للتفريق بين رجل وامرأة ؛ وإذن يجب على الحكومة أن تسنّ قانوناً يجعل الحَبَل على كل

أعلام الفكاهة :

جحا الألمـــانى
أو
مرآة البـــومة

للأســـتاذ كامل كيلانى

لا يسع الباحث — مهما أغفل من الشخصيات الجحوية فى أرجاء العالم وهى كثيرة كما رأيتم — أن يغفل الحديث عن « تل » جحا الألمان الملقب : بـ « مرآة البومة » .

فنحن إذا تركنا الشرق الذى أبدع فيما أبدع من أعلام الفكاهة الشرقية : هذين الجحوين الفاتنين : الشيخ « أبا الغصن دجين بن ثابت » والأستاذ « نصر الدين » ، وانتقلنا إلى ألمانيا رأينا شخصية جحوية ثالثة تظهر فى العصر الذى ظهرت فيه شخصية الأستاذ « نصر الدين » أعنى فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وهو رجل شديد الشبه بجحا التركى ، يكاد يكون — فى كثير من أحواله — نسخة مكررة له ، إن لم يكن على التحقيق.

وقد نشأ « تل » : جحا الألمان ، كما نشأ صاحبه الأستاذ نصر الدين : جحا الأتراك فلاحاً يحرث الأرض ويزرعها .

وقد ولد « تل » فى مدينة « كنيت لِنجن kneit lingen » من أعمال « برنزويك Brunswick » ومات فى « مين Molln » بالقرب من « سليسفج Sblossiuig » عام ١٣٥٠ . قالوا :

وكان كثير السياحة والتجوال على قدميه فى أنحاء ألمانيا ، ولم يتجاوز « تل » منتصف العقد الثانى من عمره حين مات أبوه فى مدينة « هلى Holle » . عاش « تل » و « نصر الدين » كلاهما فى عصر واحد ، كما ترون ، فى بلدين متباعدين ، من قارتين متجاورتين .

وقد أطلق عليه لقب « مرآة البومة » ، وهو لقب بارع الدلالة رائع المغزى . فإن البومة — برغم إجماع الناس — مهما تباينت أجناسهم وعصورهم — على النفرة منها ، واستنكار صورتها — لا ترى فى المرآة إلا وجهاً طبيعياً ليس به ما ينكر ، ولا فيه ما يعاب . وهو لون مبتدع للتعبير عن الحكمة المأثورة الخالدة : « إن المرء لا يرى عيب نفسه » .

وقد شاء بعض الباحثين أن يميز « تل » ذلكم الفلاح الذكى بقسط موفور من الغفلة ، كما حلا لآخرين أن يعزوا إليه شيئاً قليلاً من الخبث . واستدل بعضهم على ضيق ذهنه وموفور غفلته ، بما يؤثر عنه من المغالاة فى تطبيق ما يسمع تطبيقاً حرفياً ، والوقوف عند مدلول الألفاظ الحرفى ، غير معنىّ بما تنطوى عليه فى أثنائها من دلالات حقيقية كانت أم مجازية .

وقد افتن المتخيلون فى نسبة كثير من الطرائف إليه فى هذا الباب تمثل — أكثر ما تمثل — ألواناً من آراء متخيليها وروح الدعابة الأصيلة فى نفوسهم .

ولكن أىّ الشخوص الجحوية سلم من أمثال هذه الغمزات؟ على أن سواد الباحثين يذهبون — فى غير مغالاة — إلى أن « مرآة البومة » كان فلاحاً ذكياً مستقيم الفطرة ، وأنه لم يلجأ إلى التشبث بحرفية ما يلقى إليه من حديث ، إلا رغبة فى السخرية من غرور سكان المدن المتحضرين الذين لا يستطيعون إخفاء

منهما سنة ، فهى تحبل مرة وهو مرة ، وهى ترضع ولداً وهو يرضع ولداً ، وأن ينص هذا القانون على أن من يستعمل (نون النسوة) يعاقب بغرامة قدرها عشرة جنيهات !

يا سيداتى ، إنكن تعودتن منا التشجيع والتصفيق والهتاف ، ولكن المسألة خرجت عن المجاملات وصارت مسألة موت لهذه الأمة أو حياة ، فأعدن التفكير فى أسس هذه النهضة ، واجعلن مصلحة الأمة هى الميزان فيها !

يا سيداتى ، لقد كنا نرجو منكن أن تدفعن عنكن هؤلاء السفلة من الرجال ، وأن تصفعنَهم على وجوههم النجسة ، كما تصفع المرأة العفيفة أحد هؤلاء الكلاب إذا حاول الاعتداء على عفافها ، وأن تقاطعن هذه المجلات الداعرة الخبيثة التى تؤذى شرفكن باسم الصحافة والفن ، وأن تثرنَ على هذه الأفلام السينمائية الداعرة ، وأن تخرجن معلمات حاذقات وتنادين بمنع كل شاب مهما كان شأنه ، معلماً أو مفتشاً أو ناظراً ، من تجاوز عتبة مدرسة من مدارس الأناث ، فهل تحققن هذا الرجاء ، هل تقمن هذه النهضة على أساس الدين والخلق والعلم النافع ؟ !

علي الطنطاوى

(دمشق)

ما يضمرونه من احتقار لأمثاله من الفلاحين .

ويستدلون على ذلك بقصته مع الخباز ، وإليكم خلاصتها فما يتسع الوقت لغير الخلاصات .

قدم « مرآة البومة » على خباز فى بعض المدن ، واتفق معه على أجر يومى لعمله . وأمره الخباز ذات يوم أن ينجز — فى غيبته — ما اعتاد أن ينجزه كل يوم من أرغفة الخبز .

فسأله « تل » متباهاً : « ماذا أخبز ؟ » .

فضاق صدر الخباز بغباء صاحبه ، وقال له متهكماً :

« اخبز لنا بوماً وغرباناً ! » :

وما كان أشد حيرته حين عاد فرأى صاحبه يطبق ما سمعه منه تطبيقاً حرفياً ، فيخبز كل ما لديه من الدقيق بعد أن يقطّعه على صُوَر البوم والغربان وأشكالها ، ولا يكاد الخباز يعود ويرى ما فعله « تل » حتى يتملكه الغيظ ، فينهال عليه تعنيفاً وتقريعاً . فيقول « تل » : « ماذا يغضبك ؟ ألم تقل لى ذلك ؟ ألم تأمرنى أن أخبزه بوماً وغرباناً ؟ » .

فإذا اشتد هياج الخباز قال له « تل » : « هوّن عليك ياصاحبى ولاتماد فى غضبك ، وخبرنى ثمن ما أتلفت من خبز؟ » .

فيقول : « جنيهان » فينقده « تل » ما طلب . ثم يحمل السلة إلى السوق ، فلا يكاد يراها الناس حتى يتهافتوا على شراء تلك الأشكال الطريفة التى أبدع صنعها ولم يكن لهم عهد بمثلها فيبيعها بخمسة أمثال ما دفعه للخباز . ويَنْمى إلى الخباز ما ظفر به صاحبه من نجاح ، فيعود إليه مستعطفاً ، ليستأنف عمله ، بعد أن ظهر له وجه الفائدة فى ابتكار « تل » ولكنه لا يعثر له على أثر . فقد غادر المدينة ، وكأنما كان « تل » يتوقع هذه النتيجة ، فذهب إلى مكان آخر ليستديم حسرة الخباز عقاباً له على ما أسلفه إليه من إساءة وغرور .

ومن بديع ما يستدل به الباحثون على حرص « تل » على التقيد بحرفية ما يقول بعد أن استدلوا — بما أسلفناه — على حرصه على التقيد بحرفية ما يسمع ، تلكم الطرفة التالية :

سأله سائل : ترى بعد كم من الزمن أبلغ المدينة ؟

فقال له « تل » : سر فى طريقك .

فحسبه الرجل لم يسمع ، فأعاد عليه السؤال مكرراً رجاءه بصوت مرتفع . فأجابه « تل » نفس إجابته الأولى . فغضب الرجل وحسبه يهزأ به ، فصرخ فيه : أجب عن سؤالى أيها الغبى ؟

فقال له : « سر فى طريقك » فتركه الرجل ، وسار فى طريقه وهو يكيل له اللعنات ، والغضب آخذ منه كل مأخذ ، ولم يكد الرجل يبتعد عنه قليلا حتى صاح به « تل » أن يتمهل ريثما يفضى إليه بأمر يعنيه . فوقف الرجل متعجباً من غرابة أطوار هذا الرجل . وسأله : « ماذا تريد ؟ » .

فقال له فى هدوء الفيلسوف : « إذا سرت على هذا النهج بلغت المدينة بعد ساعتين » .

لم يفهم الرجل أول الأمر ما يعنيه « تل » بقوله : سرْ فى طريقك وحسبه يتعالى عن إجابته ويرغب فى التخلص من رؤيته ، ولكنه أدرك أخيراً أن صاحبه على صواب ، فلم يكن فى وسعه وهو يتوخى الصحيح فى إجابته أن يعرف مدى الزمن الذى يستغرقه حتى يبلغ المدينة قبل أن يتعرف من مشيته مدى اتساع خطوته .

ألم يقل أبو نواس : « عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء » ثم ، ألم يقل المتعمقون : إن لكل مسألتين وجهين على الأقل ؟ فها هو صاحبنا يأخذ فى فهم ما يسمع وما يقول بالوجه الثانى للمسألة ، فلا يبعد فى حاليه عن الصواب . ورحم الله القائل :

« خذا وجه هرش أو قفاها ، فإنما
كلا جانبى هرش لهن طريق »

ومن عجيب المصادفات أن تجنى الحرفية والتشبث بالمشاكلات اللفظية على صاحبنا بعد مماته ، كما جنت عليه أثناء حياته . فإن لقبه : « مرآة البومة » مؤلف — كما ترون — من لفظين : « مرآة » و « بومة » ، وكلمة مرآة تكتب بالألمانية « سيجل siegel » وتذكرنا حروف رسمها كلمة « سجنجل » ومعناها — فيما يعلم القارىء — مرآة ، وهى ترجمتها بالعربية .

ولكن حروف سيجل ، إذا لفظها الألمانى قلب الياء الأولى باء ، فنطقها « شبيجل » دون أن يثبت هذا القلب فى كتابتها . وقد استخرج الفرنسيون منها لفظاً يجمع بين الكتابة والنطق ، وتمسكوا بالحرفية فى كليهما ، فأضافوا إلى بنية الكلمة

المكتوبة حرف « الباء ؟ » الذى ينطق به الألمان ولا يثبتونه . وبذلك تألفت منهما كلمة « اسبيجل espiegle » ، ومعناها : ألعبان أو هازل ثم خرجوا منها كلمة « espieglerie » ومعناها الألعبانية أو المجون . ثم أوحى لهم هذا التخريج الجائر ومشتقاته أن ينتحلوا قصصاً يدور محورها على الهزل والمجون . فكان لهم ما أرادوا . ورحم الله المتنبى القائل : « ومثلك من تخيل ، ثم خالا » .

وقد ذكرتم تلكم المغالطة اللفظية — أو الحرفية إن توخينا الدقة — بمغالطة أخرى منطقية ابتدعها ابن الرومى الشاعر البارع منذ أكثر من أحد عشر قرناً تخلص منها إلى نتيجة عجيبة ، لا تقل فى غرابتها عما وصل إليه ذلكم الساحر الفرنسى الذى جوز لفظ المرآة — وهى ترمز إلى الطيبة أو الغفلة — إلى لفظ « الألعبان » وفيه من الخبث ما فيه .

اتخذ ابن الرومى من قول الإمام العراقى أبى حنيفة بجواز شرب النبيذ وتحريم شرب الخمر ، ومن رأى الإمام الحجازى الشافعى : أن النبيذ كالخمر ، نتيجة لم تخطر على بال الامامين على بال . أراد الشافعى كما تعلمون وكما يعلم ابن الرومى المغالط الأكبر أن يقول :

« إن النبيذ كالخمر فهو مثلها حرام » ، وعكس ابن الرومى قصد الإمام فقال : مادام النبيذ حلالا فى رأى أبى حنيفة ، والخمر كالنبيذ فى رأى الشافعى ، فالخمر حلال كالنبيذ فى رأى القياس المنطق .

وهكذا استطاع الخبيث بما وهبه الله من أدوات الخبث وفنون المغالطة أن يتخذ من المنطق سلماً إلى الفرار من الحقيقة التى لم يخلق المنطق إلا لدعمها وبنائها ، فقال : غفر الله له :

أحل العراقى النبيـــذ وشربه
وقال : « الحرامان المدامة والسكر »
وقال الحجازى : « الشرابان واحد »
فحلت لنا من بين قوليهما الخمر
سآخذ من قوليهما طرفيهما
وأشربها ، لا فارق الوازرَ الوزر

الحظ السعيد

ومن بديع سخرية « تل » وتهكمه ، ما تمثله لنا قصته مع أحد السادة وكان يصحبه إلى الغابة ليصطادا ؛ فلقيا فى سيرهما أرنبا صغيراً يجرى مسرعاً ، وكان صاحبه كشاعرنا ابن الرومى ، من المتطيرين . فلم يطق مواصلة سيره خشية أن يصيبه مكروه فى ذلك اليوم ، وحاول « تل » أن يقنعه بسخف ما يذهب إليه المتطيرون ، فلم يفلح . فلما جاء اليوم التالى رأيا فى طريقهما إلى الغابة ذئباً فقال له « تل » : الآن وجب علينا أن نرجع ، حتى لا يصيبنا مكروه ! وليس فى أيدينا ما ندفع به عاديته من السلاح . فراح صاحبه يهون عليه ويقلل له من خطره ، ويحدثه أن الذئب متى اعترض الإنسان فى طريقه ، فذلك بشرى بما تدخره له الأقدار من حظ سعيد ، وحاول « تل » أن يثنيه عن عزمه فى متابعة السير ، ويقنعه بفساد هذه الخرافة فلم يفلح .

ثم لم يلبث « تل » أن ظهر رجحان رأيه بعد قليل : فقد أقبل الذئب على جواد صاحبه ، وهو مربوط إلى بعض أشجار الغابة ، فافترسه وأكل من لحمه ما شاء ، و « تل » وصاحبه مشغولان بالصيد . فلما عادا ورأيا الذئب منهمكا فى تمزيق لحم الجواد وازدراده ، التفت « تل » إلى صاحبه ، وقال له متهكما :

« ما أصدق رأيك يا صاح : ألا ترى حسن الحظ وهو يأكل جوادك » .

* * *

بحسبنا هذا القدر على وجازته وإلا امتد بنا نفس القول فشغلتنا طرائف « مرآة البومة » عما هدفنا له من أغراض . على أننى أجتزىء فى الحديث بتلكم الطرفة التى تعزى إلى « تل » مرة وإلى « بات » مرة أخرى ، وإن كانت بثانيهما ألصق ، وبطبعه أليق .

فهى من أبرع ماقرأته من أخبار هذه الشخصيات الرائعة : فقد زعموا أنه بعث إلى خليلته أو حليلته ، فما يدرى ذلكم أحد على وجه التحقيق ، بالكتاب الآتى :

« أرجو ، إذا لم تصل إليك هذه الرسالة ، أن تسرعى — من فورك — بالكتابة إلىّ لأعرف أنك لم تقرئيها .

رد على نقد :

مع البلاغيين ..

للأستاذ على العمارى

كتب الأستاذ كامل شاهين فى عدد « الرسالة » (٦٩٢) مقالا تحت عنوان (علوم البلاغة بين القدامى والمحدثين) يرد به علىّ وعلى الأستاذ على الطنطاوى فيما كتبناه عن علوم البلاغة فى الجامعة . وأنا أوثر أن أترك للأستاذ الطنطاوى أن يرد عما وجهه إليه الكاتب . فللأستاذ أسلوبه وقلمه البليغ ، وما أحب أن يحرم قراء « الرسالة » من بيانه فى هذا الموضوع .

والأستاذ شاهين مشكور لأنه لما رأى سكوت الأستاذ الخولى وجماعته من الذين يسمون أنفسهم (الأمناء) تبرع بالذّبّ عنهم ، والانتصار لهم ، وما أظنهم راضين عنه فقد كان السكوت أولى من مثل هذا الرد المملوء أخطاء وتخليطاً ، وحسب القراء أن أنقل إليهم الفقرة الأولى من كلامه ليتبينوا مدى ما فيها من الأغاليط :

١ — « تقول إن الفكرة المتسلطة عليه فى هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية . أى نعم يا علىّ ، أأنت قرأت تعريف البلاغة ؟ إن الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولا أزيد بيانا ولا بسطاً ولكن هذه المطابقة لا تكون إلا بإدراك المتكلم لنفسية السامع وما تحوى من ملابسات . فهذا هو فحوى كلام الأستاذ الخولى أفتمارى فى هذا ؟ إذن فهات تعريفك أنت لعلم البلاغة فإنا منتظرون » .

كما أرجو أن تعلمى أيتها العزيزة — إن كنت لا تعلمين — أننى لا شأن لى بما يقع فى كتابى من خطأ فى بعض الأحيان . فلست أنا مصدرها ، ولا يجوز أن أحاسب عليها . إنما يؤخذ بها قلمى ، فهو من نوع غير جيد ، وكثيراً ما يتعثر فى الكتابة ، ويخونه التوفيق ، فيجرى بغير الصواب .

كامل كيلانى

وأنا قد قرأت تعريف البلاغة ، واطلعت على أكثر الكتب التى عرفت البلاغة ، ومما يؤسف له يا سيد كامل أن أحداً من العلماء لم يعرّف البلاغة هذا التعريف الذى ذكرته ، ويبدو لى أنك تريد أن تجدد كما يجدد الشيخ أمين الخولى ، والتجديد سهل ميسور ، ما دام قصارى المجدِّد أن يسوق قضايا مخطئة ، وإليك ما أعرفه أنا وما يقوله العلماء فى تعريف البلاغة :

ذكر يحيى بن حمزة صاحب كتاب الطراز وهو من الكتب المعدودة فى البلاغة تعريفها فقال : « اعلم أن البلاغة فى وضع اللغة هى الوصول إلى الشىء والانتهاء إليه فيقال بلغت البلد أبلغه بلوغاً والاسم منه البلاغة ، وسمى الكلام بليغاً لأنه قد بلغ به جميع المحاسن كلها فى ألفاظه ومعانيه ، وهو فى مصطلح النظار من علماء البيان عبارة عن الوصول إلى المعانى البديعة بالألفاظ الحسنة ، وإن شئت قلت هى عبارة عن حسن السَّبك مع جودة المعانى » فهذا عالم من علماء القرن الثامن الهجرى وهو يذكر أن هذا التعريف (فى مصطلح النظار من علماء البيان) وعرفها أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين فقال : « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن » ، وللعلماء والأدباء تعاريف كثيرة للبلاغة ليس منها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ونحن إذا سألنا طالباً صغيراً عن تعريف علم المعانى يقول : « إنه علم بقواعد وأصول يعرف بها مطابقة الكلام لمقتضى الحال » . فاذا قلنا له : هل مطابقة الكلام لمقتضى الحال هى البلاغة . يقول : لا . بل لا بد من زيادة وإضافة إليها . فنقول كما قال بعض العلماء (مع فصاحته) ، وهذه عبارة مهمة جداً ومكملة للتعريف .

والطلاب الصغار يعرفون أن علوم البلاغة ثلاثة : المعانى ، والبيان ، والبديع . وأن لكل علم تعريفاً خاصاً ، ولا يصلح تعريف علم منها لأن يكون تعريفاً للبلاغة . فهل يصر الأستاذ شاهين على أن هذا التعريف للبلاغة « لا يختلف فيه اثنان » أو يسلم معنا أنه كبا حيث أراد النهوض .

على أنى كنت أنقد كلام الأستاذ فى علم البيان وقلت (فى هذا الفن) أقصده فهل يحتج بتعريف علم المعانى على كلام فى علم البيان ؟

٢ — قلت إن اللغة العربية مملوءة بالتشبيهات الحسية التي لا ترمي إلى معانٍ وراءها ، وعبت على الشيخ الخولي أن يعتبر جعل العلماء بيان حال المشبه من أغراض التشبيه (كلاماً فارغاً) فجاء الأستاذ شاهين يرد علينا هذا ، وهو لم ينصف الشيخ أمين ولم ينصفنا .

العرب يقولون : أسود كحنك الغراب ، ويقولون : أحمر كالدم القاني ، ويقول امرؤ القيس :

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفـــل

ويقول الله سبحانه وتعالى (وجفان كالجواب وقدور راسيات) أفلا تكون هذه التشبيهات مقبولة حتى نتلمس لها معاني وراءها .

على أن الخبط وتلمس المعاني سهل ميسور ما دمنا لا نبالي الخطأ . فكل إنسان يستطيع أن يحمل النصوص ما لا تحتمل ، ولذلك مثال سقناه في مقالنا الثالث المنشور في « الرسالة » وهو تعليق الشيخ أمين على بيت بشار بن برد .

٣ — ونحن لا نأخذ كلام المتقدمين قضايا مسلمة دائماً ، كما لا نتهم أذواقهم ولكنا نقبل منها المقبول ، ونرفض ما يتبين أنه ضعيف واهٍ . وليس كلامهم الذي سقناه بالكلام الضعيف الواهي ولكنه حسن جميل يعتمد على الذوق قبل كل شيء ، فأنت حين تسمع ذكر المشبه تستشرف لما يجيء بعد وتخطر في ذهنك أكثر التشبيهات القريبة ؛ فإذا جاء الشاعر أو الناثر بتشبيه بعيد نادر وقع من نفسك موقعاً حسناً ، وعرفت مقدار ما عانى الشاعر في استخراج هذا التشبيه . والتشبيه فن ، وهو يكون في الماديات البحتة كما يكون في المعنويات ، وتلمس المعاني وراء كل تشبيه إنما هو تعنّت وحذلقة .

أين المعاني النفسية وراء قول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة بقايا سفين بالنواصف من دد

أو قول امرىء القيس :

كأن ثبيراً في عرانين وبله كبير أناس في بجاد مزمّل

أو قول المهلهل بن ربيعة :

كأنا غــدوة وبني أبينا بجنب عنيزة رحَيَا مدير

أو قوله :

كأن رماحهم أشطان بئر بعيد بين جاليها جرور

الخ ... الخ .

وتكذب على هذه التشبيهات بما شئت فإنك تستطيع أن تحيطها بكثير من المعاني ، ولكنها بعد من عندك وصنعك ، ولم يفكر فيها الشاعر ولا إليها قصد .

يختلف معي الأستاذ شاهين في سر إعجاب جرير بن الخطفى بتشبيه عدي بن الرقاع في بيته :

تزجي أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فهو يرى أن سر إعجابه أن هـذا التشبيه حضري وعدي بدوي جلف جاف ، وأنا أرى أن سر الإعجاب أن الشاعر استطاع أن يأتي بمشبه به موافق كل الموافقة للمشبه . ثم جاء به من مكان بعيد لا ينتظر أن يهتدي إليه .

غزال صغير له قرن صغير في طرفه سواد أراد الشاعر أن يلتمس له شبهاً وجرير حاضر فوقع في نفسه أنه لا يمكن الإتيان بشبيه له لدقته وبعده عن الأفهام، فلما تهدّى إليه الشاعر ووجده في قلم لم يصب من المداد إلا قليلا ووجد جرير أن الشبه تام بين المشبه والمشبه به حسد عدياً على هذه القوة البيانية .

أما أنه حسده على أنه أتى بشبيه حضري فمعنى ذلك أن جريراً كان يتوقع من الشاعر أن يهتدي لهـذا التشبيه نفسه أو مثله من التشبيهات الحضرية ، وما أظن جريراً خطر على باله شيء من ذلك . وهب أن شاعراً شبه شيئاً بدوياً بشيء حضري وكان التشبيه ضعيفاً واهناً أكان يعجب ذلك جريراً . لا . وإنما إعجابه كان لما ذكرنا .

٥ — كنت أحب للأستاذ شاهين أن يخلو نقده من هذه الكلمات .

« فليسمح لي الزميلان الطنطاوي والعماري أن ألفت نظرهما إلى مزالق ما كنت أحب لهما أن يتورطا فيها أو ينحدرا إليها » .

وقوله : « فأما إذا انحدرت إلى هذا فهلم » وقوله : « وليس هذا بالكلام يصغى إليه » إلى غير ذلك من الكلمات التي تجرح وأظن أنا كلنا له صاعاً بصاع فان زاد زدناه .

علي العماري
المدرس بمعهد القاهرة

الشرع الاسلامي وعلماء الفرنج (*)

للأستاذ مصطفى محمد حسين

« كتب الفرنج كثيراً عن الشرع الاسلامى وعن النبي العربى صلى الله عليه وسلم ، وفى ما كتبوه الغث والسمين ، والحالى والعاطل ، والحق والباطل . ولكن العصر الأخير أنصف الاسلام كثيراً بالقياس إلى العصور الخوالى ، كما يتبين من الأقوال التى أنقلها ولو عنى المسلمون بدعاية منظمة للاسلام لصححوا أباطيل كثيرة وبددوا أوهاماً كثيرة تتعلق بهم وبدينهم ، ولاهتدى إلى الاسلام جم غفير يؤثرون تأثيراً شديداً فى مجرى السياسة العامة » .

قال كارليل : فى الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها ، وهى التسوية بين الناس ، وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى ، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس فى الإسلام سواء . والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضاً حتما على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الإسلام ، ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل ، فتكون جزءاً من أربعين من الثروة تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا ، وما هو إلا صوت الإنسانية ، صوت الرحمة والإخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل ابن القفار والصحراء (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الدكتور انسباتو الإيطالى فى كتاب : (الإسلام وسياسة الحلفاء) الذى نشره سنة ١٩١٩ : إن الكرم العلمى والصدقة الفكرية صفتان من صفات الإسلام شأنهما أن تجعلا الأمة العاملة بهذا الدين أهلا لأن تبلغ من الحضارة ذروتها العليا .

لما كان الأستاذ أمين الريحانى فى السفينة الشراعية على ساحل جزيرة البحرين قاصداً ساحل الأحساء ، أثقل الهواء جفنه فنام قليلا ، ثم أيقظه صوت الملاحين ، وهم إذ ذاك يشتغلون فى قلب الشراع طوعاً للريح ويرددون : (صلى على النبى) فقال الريحانى فى كتابه (ملوك العرب) يصف أثر ذلك فى نفسه : وربك أيها القارىء ما سمعت فى أنغام الليل على المياه أطرب منها ، إلا أن يكون صوت المؤذن فى الخليج وهو يؤذن الفجر ، ليس فى صلوات الأمم كلها أدعى منه إلى الورع والخشوع ، وقل فيها ما هو أجمل وقعاً فى النفس من صلاة الملاح فى ظل الشراع .

اجتمع الأستاذ محمد لطفى جمعة مع السيد توفيق البكرى ، بعد عودته من مستشفى بيروت إلى القاهرة ، ودار بينهما حديث نشره المقطم ، ومما قاله فيه : وجاء على لسانى عرضاً ذكر برتلميه سانت هيلير فقال السيد : بعد أن تنتهى من حديثك سأذكر لك عبارة تاريخية تنسب إلى سانت هيلير . فتكلمت وأسهبت ، ولكن السيد لم ينس وعده فلما انتهيت قال لى :

قال سانت هيلر فى تاريخ النبى محمد الذى ألفه باللغة الفرنسية إنه كان يشك فى صدق النبى فى رسالته حتى قرأ فى جميع السير أنه لما نزلت آية الحفظ ووعد الله نبيه بأنه سيتولى حراسته (والله يعصمك من الناس) . بادر محمد إلى صرف حراسه ، والمرء لا يكذب على نفسه ولا يخدعها ؛ فلو كان لهذا الوحى مصدر غير الله لأبقى محمد على حرسه .

وقالت مسز سروجنى نائدو الشاعرة الهندوسية : لقد دعا الإسلام قبل اليوم بثلاثة عشر قرنا إلى المساواة والأخوة ، وقد أسس الإسلام أول جمهورية كان القانون الإلهى رائدها ، والفقير والغنى سواء فيها ، ولا شك مطلقاً أنه يأتى يوم يبتلع الإسلام فيه جميع الأديان

وقال شبلى شميل : إن فى القرآن أحوالا اجتماعية عامة ، حتى فى أمر النساء فإنه كلفهن بأن يكن محجوبات عن الريب والفواحش ، وأوجب على الرجل أن يتزوج بواحدة عند عدم إمكان العدل ، وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة ، ولترقية الروح والجسد ، بعد أن أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلى عن هذا العالم الفانى .

وقال هنرى دى شامبون مدير (ريفوبارلمنتير) الفرنسية : لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجى على تقدم العرب فى فرنسة لما وقعت فرنسة فى ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى

(*) ذكرنى بهذه الكلمات مقال الأستاذ حسن أحمد الخطيب (الشريعة الاسلامية وأعلام القانون فى هذا العصر) المنشور فى عدد الرسالة ٦٨٩ .

والمذهبي . ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون . ونحن مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة ؛ مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على تلك الشعوب العريقة في الفضائل . وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشرى مدة ثمانية قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية ، وإنه لكذبٌ وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف ، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى .

وقال المؤرخ ولز الانجليزى كبير كتاب انجلترا : كان النبي محمد زراعياً وطبيباً وقانونياً وقائداً ، واقرأ ما جاء في أحاديثه تتحقق صدق ما أقول ، ويكفى أن قوله المأثور : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » هو الأساس الذى بنى عليه علم الصحة ، ولم يستطع الأطباء على كثرتهم ومهارتهم أن يأتوا حتى اليوم بنصيحة أثمن من هذه . وقال إن محمداً هو الذى استطاع في مدة وجيزة لا تقل عن ربع قرن أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم وأن يقلب التاريخ رأساً على عقب ، وأن يكبح جماح أمة اتخذت الصحراء المحرقة سكناً لها واشتهرت بالشجاعة ورباطة الجأش والأخذ بالثأر واتباع آثار آبائها ، ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب الأمة العربية على أمرها . فمن الذى يشك أن القوة الخارقة للعادة التى استطاع بها محمد أن يقهر خصومه هى من عند الله .

وقال غوستاف لوبون : يستميد العالم الإسلامى اليوم من قوته ما يضطر أوربة إلى أن تطأطيء له رأسها .

وقال المؤرخ الفرنسى لافيس : كان محمد مشهوراً بالصدق منذ صباه حتى كان يلقب بالأمين . . الخ .

وقال غود فروا دمبومبين وبلاتونوف في (تاريخ العالم) : غاية ما نقدر أن نجزم به هو تبرئة محمد من الكذب والمرض ، وإنما كان محمد ذا مواهب إلهية عليا ساد بها أبناء عصره ، وهى رباطة الجأش وطهارة القلب وجاذبية الشمائل ونفوذ الكلمة وأنه كان عابداً عظيما ، وأنه كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة التى هو مأمور بها من جانب الحق تعالى ، وبين ملكة الأعمال الدنيوية ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة .

وقال غروسه صاحب (مدنيات الشرق) : كان محمد لما قام بهذه الدعوة شاباً كريماً مملوءاً حماسة لكل قضية شريفة ، وكان أرفع جداً من الوسط الذى كان يعيش فيه ، وقد كان العرب يوم دعاهم إلى الله منغمسين في الوثنية وعبادة الحجارة ، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية إلى التوحيد الخالص البحت ، وكانوا يفنون في الفوضى وقتال بعضهم بعضاً . فأراد أن يؤسس لهم حكومة ديمقراطية موحدة ، وكانت لهم عادات وأوابد وحشية تقرب من الهمجية ، فأراد أن يلطف أخلاقهم ، ويهذب من خشونتهم . . الخ .

وقال الأستاذ مونته أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف في كتابه (محمد والقرآن) : أما محمد فكان كريم الأخلاق حسن العشرة عذب الحديث صحيح الحكم صادق اللفظ ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هى صحة الحكم ، وصراحة اللفظ ، والإقناع التام بما يعمله ويقوله ... إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه القصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص ، فقد كان مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة ، ولم يقم إلا بعد أن تأمل كثيراً وبلغ سن الكمال بهاتيك الدعوة العظيمة التى جعلته من أسطع أنوار الإنسانية في الدين ... ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه ... ولقد منع القرآن الذبائح البشرية والخمر والميسر ، وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير متناه في الخلق ، بحيث ينبغى أن يعد محمد في صف أعاظم المحسنين للبشرية . . إن حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هى إبقاء الإنسان من الصباح إلى المساء تحت تأثير الديانة ليكون دائماً بعيداً عن الشر . وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم ، وزيادة القوة الروحية في الإنسان . وحكمة الحج هى توطيد الإخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية فهذا هو البناء العظيم الذى وضع محمد أساسه ، وثبت وما يزال ثابتاً بإزاء عواصف الدهور الدهارير .

وقال ولز : إن ديانة محمد كان فيها روح حقيقية من العطف والكرم والإخاء ، وكانت بسيطة مفهومة سائغة ، وكانت ملأى بمكارم الأخلاق وعلو النفس والمعالى التى يشغف بها أهل البادية .

وقال العلامة هيار أستاذ الألسن الشرقية في باريس في كتابه (تاريخ العرب) : اتفقت الأخبار على أن محمداً كان في الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقب بالأمين ، أى الرجل الثقة المعتمد عليه إلى أقصى حد ، أى كان المثل الأعلى في الاستقامة .

مصطفى محمد حسين

الأدب في سير أعلامه:

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والجمال ..]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٢٩ —

البطل الضرير:

وآن أن يتجه ملتن إلى الأدب بعد طول انقطاعه عنه؛ وكان يميل به إلى الأدب ما تنطوى عليه نفسه من حنين إليه شديد، ما برح يملأ خاطره كلما خلا إلى نفسه لحظة من السياسة ومشكلاتها وخصوماتها، وتزايد هذا الحنين في نفسه إلى الشعر حين اطمأن قلبه من جهة إلى أنه أحسن البلاء فلم يعد يقوى على مجادلته خصيم، وحين توجس قلبه من جهة أخرى خوفا من المستقبل، إذ كان يكربه إعراض الناس عن الجمهورية، وتزايد رغبة الكثرة في إعادة الملكية وإن كان لا يجرؤ أحد على الجهر بذلك؛ وكذلك دب إلى قلبه السأم من كرمول نفسه فيما يتصل بسياسته الدينية إذ كان كرمول لا يريد أن يتحول عن إقامة كنيسة تشرف عليها الدولة، ويكون لرجالها حقوق وامتيازات مالية؛ وكان ملتن شديد التمسك بفصل الكنيسة عن الدولة لأنه يعتقد أن قيام طائفة دينية تعتمد في حياتها على الدولة هو سبب ما يلحق بهذه الطائفة من فساد، ثم تكون هذه الطائفة بدورها السبب الأكبر في فساد الدولة ...

لهذا رغب ملتن وقد أزعجه شبح اليأس أن يعكف على الشعر فلا تكون له إلى السياسة عودة، وقد جعل مرتبه معاشا له مدى حياته فزالت عنه مخاوف الرزق، والحق أنه بعد رده على مورس بات فيما يشبه العزلة؛ أما عمله الرسمي فكان نائبه فيه يؤديه عنه إلا إذا استدعى الأمر إشرافه، ولم يك ذلك في الأكثر إلا عند كتابة الرسائل الهامة باللاتينية أو ترجمة ما يرد منها إلى الانجليزية وكان يستعان بغيره أحيانا فيما يتطلب الدقة والمراجعة ...

ولم يستدع إشرافه واهتمامه بعد تلك المعارك العنيفة بينه وبين خصوم الجمهورية إلا حادث وقع سنة ١٦٥٥ فاهتز له البروتستانت في أوربا كلها، واهتم به كرمول اهتماما عظيما، وشايعه في ذلك ملتن وامتلأت يده بسببه بالمكاتبات وذلك هو مذبحة بيدمنت؛ وخلاصتها أن شارل عمانويل الثاني دوق سافوى وأمير بيدمنت، قد أنذر البروتستنت في بيدميت منه بريح عاتية فعليهم أن يعتنقوا الكاثوليكية وإلا فليخرجوا من ملكه في مدى عشرين يوما؛ وكأنما رأى هذا الأمير أن المذاهب حتى الدينية منها كالثياب لا يكلف الناس فيها إلا استبدال ثوب بثوب! ورفض البروتستنت في بيدمنت أن يذعنوا لهذا الطغيان وآثروا أن يذوقوا العذاب ألوانا، فأرسل عليهم الملك طائفة من جنده أكثرهم من المرتزقة، وما فيهم إلا كل فظ غليظ القلب كأنما قدت كبده من صخر فأخذوا يذبحون من يلقون أو يقذفون بهم رجالا ونساء وأطفالا من فوق الجبال إلى الأودية ولقد وجد الناس أما ورضيعها في قرار سحيق في أحد الأودية، قد ألقى بهما من فوق الجبل، أما الأم فكانت جسداً هامداً ولكنها كانت تحتضن بيديها الميتتين الباردتين رضيعها ولما يزل على قيد الحياة ...

وضج البروتستنت في أوربا بالسخط، وقال كرمول إن الحادث قد مس قلبه كما لو كان يتصل بأقرب الناس إليه وأعزهم عنده، وأمر فجمع الشعب الانجليزي أربعين ألف جنيه معونة للمنكوبين، واحتج كرمول، وأخذ يتأهب ليعقب احتجاجه بتدخل مسلح لولا أن تداركت فرنسا الأمر، وحملت شارل عمانويل الثاني على سحب قراره. فعاد إلى البروتستنت في بيدمنت الأمن والهدوء.

ولم يقتصر ملتن على إملاء رسائل الحكومة؛ بل أعلن سخطه في مقطوعة من أقوى مقطوعاته الشعرية ومن أكثرها ذيوعا قال: « انتقم أيها المولى العلى لقديسيك المذبوحين الذين تتناثر أعظمهم على جبال الألب الباردة، فقد حل العذاب حتى بهؤلاء الذين حافظوا على دينك الحق خالصا كما كان في عهده الأول[1] في حين كان يعبد آباؤنا الأوثان والأحجار[2]؛ لا تنسهم أيها المولى، وسجل في كتابك أنين هؤلاء الذين كانوا قطيعك والذين

---

(١) قيل إن هؤلاء الشهداء قد احتفظوا في أوديتهم المنعزلة بتعاليم المسيحية كما كانت في عهد الحواريين

(٢) نظر ملتن إلى الكاثوليك نظرته إلى الوثنيين لأنهم يحنون رؤسهم لصورة العذراء وصور القديسين.

ذبحهم فى قرارهم القديم أولئك السفاحون من أهل بيدمنت ، وألقوا بالأم وطفلها من حالق فوق الصخور ترميهم صخرة إلى صخرة ؛ لقد كان لأنانهم فى الأودية صدى رفعته إلى التلال ، ونقلته التلال إلى السماء ؛ انثر أيها المولى دماءهم الشهيدة وأشلاءهم على حقول إيطاليا كما تنثر البذور(1) حيث لا يزال يتسلط الطاغية الثلاثى(2) عسى أن ينمو من هذه مائة نمو فيكون منها جيل يعجل وقد علم سبيلك بالقضاء على هذا الكرب البابلونى(3) » .

وجنح ملتن إلى العزلة بعد هذا الحادث ، وكان يقضى أكثر الوقت فى بيته ، يقرأ له ابن أخته أو غيره من تلاميذه القدامى أو من محبيه من المتأدبين حاشيتى النهار وطرفاً من الليل ، وكان يدير فى رأسه فى تلك الأيام ما عسى أن ينهض له من الشعر .

ففكر فى أن يجعل موضوعه بطولة الملك آرثر ، ذلك الموضوع الذى فكر فيه من قبل فينظم الآرثريادا كلحمة يسجل فيها فترة من تاريخ قومه ؛ ولكن أكثر اتجاهه كان إلى موضوع آخر كما يذكر ابن أخته وذلك هو « قصيدة من قصائد البطولة عنوانها الفردوس المفقود » ، واقتصر جهده على التدبر فى هذا الموضوع والصورة التى يصوغه فيها وقراءة ما يتصل به ، وكان أول الأمر يريد أن يتخذ نوعاً من المسرحيات لباساً له ؛ على أنه كما يذكر ابن أخته فيلبس لم يبدأ نظم قصيدته فعلا إلا لسنتين قبل عودة الملكية أى سنة ١٦٥٨ ...

وكانت الحكومة قد أسكنت ملتن هويت هول فى أول عهده بالوظيفة ، ولكنه لم يلبث هناك طويلا فاستأجر بيتاً على مقربة من حدائق سان جيمس وعاش فيه منذ سنة ١٦٥٢ ، وفى هذا المنزل أقام ملتن حتى سنة ١٦٦٠ حيث أجبرته عودة الملكية إلى الاختفاء حينا لينجو بنفسه من الهلاك .

وكان يزوره فى منزله أصدقاؤه ، وهم بين تلميذ له جاوز مرحلة التعلم أو معجب به من المثقفين ، وقل فى زائريه من كان من المبرزين من رجال العصر فى الأدب أو فى السياسة أو فى الدين ، وذلك أن اعتداد ملتن برأيه وتعاليه بثقافته جعلا بينه وبين أكثر الناس ممن يرون أنفسهم أنداداً له حجاباً كثيفاً ، فكان هؤلاء يرمونه بالكبرياء والصلف ويكرهون منه أن ينظر إليهم من عل نظرة ترفع وتحفظ وإعراض ، هذا إلى أن آراءه الدينية قد باعدت بينه وبين النابهين من البرسبتيرز ، وميوله السياسية قد جعلت من الملكيين أعداء له ، وعنفه فى الخصومة قد ألقى فى روع الناس أن من يتصل به لا يأمن أن يصبح من عدوه لأقل خلاف فى الرأى أو فى العقيدة .

ويجب أن نضيف إلى تلك الأسباب محبته للعزلة منذ أيامه فى هورتون وعكوفه على المطالعة والدرس ؛ فقد كان ميله إلى العزلة من الظواهر الواضحة فى حياته ؛ وقد كرهت إليه محبة العزلة لقاء الناس وغشيان مجالسهم أو سوامرهم ، وعنده من الكتب عن ذلك عوض . ففيها لنفسه ولعقله متعة حق متعة .

ونستطيع أن نتبين مقدار ما كان بينه وبين نابهى عصره من جفاء مما ذكرته أرملته عن رأيه فى هوبز الفيلسوف الكبير قالت « لم تكن له معرفة به ، وكان لا يحبه زوجى أبداً وإن كان يصرح أنه رجل ذو نواح عظيمة » .

وكان من أحب أصدقائه إليه وأكثرهم اختلافا إلى منزله وأقربهم مجلساً منه لورنس وسيرياك سكنز ونيدهام وهارتلب وأولدنبرج وأندرومارفل ، وكان الأولان تلميذين له أما البقية فكانوا من ذوى المكانة الأدبية وعلى الأخص آخرهم ذلك الذى اختير مساعداً لملتن فى وظيفته الرسمية سنة ١٦٥٧ ، وكان مارفل متين الخلق كصاحبه لا تضعضعه النوائب ولا تحنى رأسه الفاقة ، وكان أصغر من ملتن باثنتى عشرة سنة وكان مثله متخرجاً فى كمبردج ، وقد أحب ملتن حباً شديداً وأعجب به إعجاباً عظيما فتوثقت بينهما عرى المودة وظل مارفل على ولائه له حتى فرق بينهما الموت .

ويذكر فيليبس أنه كان يزور خاله إبان السنوات الثمانية التى قضاها فيما يشبه العزلة قبل عودة الملكية عدد كبير من ذوى المكانة ثم لا يشير إلا إلى اثنين : ليدى رانالا ودكتور باجت ، وكانت ليدى رانالا على حظ من الذكاء غير قليل كما كانت ذات ثقافة وذات ميول حرة ؛ وكانت قد وكلت إلى ملتن تعليم ابن أخ لها ثم ابنها من بعده ، وقد أعجبت بالشاعر العظيم ولما كان لا يستطيع زيارتها كانت تزوره هى وتستمع فى إكبار وإجلال إلى حديثه ...

(1) إشارة إلى حكمة مؤداها أن دماء الشهداء هى بذور الكنيسة

(2) إشارة إلى البابا الذى يلبس عمامة بها ثلاثة تيجان .

(3) شبه ملتن روما وكنيستها ببابل وهى عند المسيحيين من أنجس المدن وأشقاها وكانوا يسمونها بابلون .

وحدثت عنه دِبورا إحدى بناته فقالت : « إنه كان جليساً مؤنساً ، وكان حياة حلقة من الصحاب تدور به ، وذلك لأنه كان يتدفق بشتى الأحاديث والموضوعات وكان عذب الروح مرحاً ذا مودة فى غير تـكلف لشىء من هذا » .

والحق أن ملتن كان لين الجانب طلق المحيا محبب العشرة صادق المودة لمن يجلس منه مجلس التلميذ من أستاذه وهؤلاء هم خاصته الذين ذكرنا ، وكانت لهجته فى مخاطبتهم لهجة المعلم ، وكان يتلو عليهم ما يظن أنهم فى حاجة إلى معرفته ولا يحب أن يجادلهم أو يبادلهم حجة بحجة فليس هـذا شأن الأستاذ مع تلاميذه ، وما منهم إلا من يكبره ويخفض له جناحه ويغض عنده من صوته ، وإن كثيراً منهم ليتنافسون من يكتب له إذا أملى ومن يقرأ له إذا طلب بحثاً من البحوث ، ومن يقوده ويأخذ بيده ليمشى ساعة فى الحدائق القريبة ، وكلهم بذلك مغتبط أيما اغتباط .

وكان يزوره فى منزله كثير من كبراء الأجانب ممن يهبطون انجلترة ، وكانوا يسمعونه عبارات التجلة والاعجاب ، ويذكر أوبرى أحد مؤرخى حياته فى ذلك قوله « إن الحافز الوحيد الذى كان يحفز فريقاً من الأجانب لزيارة انجلترة كان فى الأكثر رؤية أليفر كرمول حامى الجمهورية ومستر چون ملتن ، وكانوا يرغبون أن يروا بيت الشاعر والحجرة التى ولد فيها فقد كان الاعجاب به خارج انجلترة أشد منه فى موطنه كثيراً » .

وكان يعينه فى كثير من شؤونه إلى جانب أصدقائه ابنا أخته . أما بناته الثلاثة فـكن صغيرات فقد تركتهن أمهن حين ماتت منذ ثلاث سنوات أى سنة ١٦٥٢ وكبراهن فى السادسة من عمرها ووسطاهن فى الرابعة وصغراهن بنت شهر واحد .

وفى سنة ١٦٥٦ تزوج ملتن بزوجة ثانية ، وقد جاءت كما أحب رجاحة عقل وصدق عاطفة ، واستنشى الشاعر نسيم المودة والرحمة بين يديها ، وأحس كأنما يحيى حياة جديدة على الرغم مما يحيط به من ظلمة ، وكان كمن ألقت به الصحراء المجدبة إلى واحة ظليلة ؛ ولـكنه لم يلبث فى واحته هذه أو جنته إلا خمسة عشر شهراً ثم نـكبته النـكبة فى زوجته فـكأنما كان يكيد له الدهر حين أذاقه النعيم فما كان ذلك منه إلا ليعظم فى نفسه هول الجحيم وماتت الزوجة كسابقتها فى سرير الوضع وتركت له كذلك أنثى لم تعش بعد أمها إلا نحو شهر ؛ وفزع الشاعر إلى قيثارته يخفف عن نفسه ما يعتلج فيها من حزن ، وكأنه من فرط ما فى جوفه من حريق يحس كأن الجحيم نفسها تتنفس على كبده . قال الشاعر المحزون : « رأيت فيما يرى النائم أن قديستى التى تزوجت بها أخير قد أحضِرتْ إلى من القبر كما أحضرت أليستس[1] التى أرجعها الإبن الأكبر لچوف إلى زوجها الذى امتلأ فرحاً وقد نجاها ابن چوف من الموت بقوة ولو أنها ظلت شاحبة هزيلة ، ولـكن امرأتى جاءت كما لو أنها اغتسلت مما يتركه الوضع فتخلصت بذلك من التطهر وفق الوضع القديم ؛ ونظرت فإذا بى كأنى أملأ منها عينى فى الجنة بغير عائق ما ، وقد خطرت فى ثياب بيضاء نقية نقاء عقلها ، ولـكن وجهها كان مقنعاً ، بيد أنى أبصرتها بعينى خيالى فاذا الحب والجمال وطيبة القلب تضىء فى هيكلها بصورة لن يكون أحسن منها وأبهج فى وجه من الوجوه ... ولـكنها يا ويلتا ما كادت تميل إلى لتعانقنى حتى صحوت فلم أجدها ووجدت النهار يحيطنى ثانية بليلى المظلم » .

هذا هو الشاعر يصف فى هذه القطوعة الجميلة مبلغ حزنه ولـكن به كبرياء أن يصرعه الخطب ؛ وإن صدق إخلاصه للشعر واعتقاده أنه خلق لعظيمة فيه ليرتفع به عن الحزن ؛ وكان يجد عزاءه فيما يقرأ له أصدقاؤه وفيما تنطوى عليه نفسه وتختزنه ذاكرته ؛ وإنه فى هذا ليتداوى بالتى كانت هى الداء ، فهذه الـكتب هى التى أفقدته ناظريه؛ على أنه اليوم يقرؤها بعينى غيره .

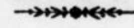
وكان يقول لمن حوله إن خياله يضىء ويلتمع فى الظلمة أكثر مما يضىء فى النور ، وأن النور لم يذهب عنه ولـكنه تسرب إلى داخله ليرهف مخيلته وعقله ، وتلك تعلات كان لا بد له منها لـكى يقوى على ما كان يحيط به ، وإنه لينهض على ما هو فيه لقصيدة تضعه فى مستوى هوميروس ودانتى ، وما نعرف شاعراً كانت حاله أكثر سوءاً من حال هذا الشاعر حين يضطلع بعبء كهذا العبء وفى هذا أبلغ شاهد على سمو روحه وقوة نفسه .

(يتبع) **الخفيف**

(١) زوجة أودمينس ملك فيرا فى تساليا ، وقد وعد أن ينقذ من الموت إذا مات أحد بدله فماتت بدله أليستس ، ولـكن هرقل ابن چوف وكان صديقاً لزوجها أرجعها حية إلى ذلك الزوج ، وقد قص يوروبيد هذه القصة فى مسرحية أليستس .

مراكش وأسبانيا

للأستاذ عبد المجيد بن جلون



هناك حقيقة تاريخية لا يمكن إغفالها عند التحدث عن العلاقة بين المراكشيين والأسبانيين ، وهذه الحقيقة التاريخية هي أن الدولتين ظلتا في خصومة مستمرة منذ عهد بعيد وطيلة أجيال متعاقبة ، وقد دخلت تلك الخصومة في طورها الفعال بعد أن قويت دولة النصرانية في الأندلس واستطاعت أن تستولى قواتها على شبه الجزيرة كلها

شبت منذ ذلك الحين معركة قاسية طويلة الأمد بين المراكشيين والأسبانيين،وكانت على شكل غارات بحرية متوالية ، فكان الأسبانيون ينزلون إلى سواحل مراكش غازين مغامرين ، وكان المراكشيون ينزلون إلى السواحل الأسبانية غازين مغامرين مدمرين ، وظل الأمر على ذلك أزمنة طويلة حتى بعد قيام الأمبراطورية الأسبانية ، إلى أن ضعف أمر الدولة المراكشية في القرن التاسع عشر ، فاقتحم حدودها الأسبان سنة ١٨٦٠ ، وشبت دون مدينة تطوان معركة طاحنة بين الفريقين تبادلا خلالها النصر والهزيمة مرات كثيرة ، إلى أن دارت الدائرة على الجيش المراكشي وسقطت المدينة لتدوسها سنابك خيل العدو ، فذاقت مدة من الزمن حياة المهانة على يد أعدائها القدماء . ولولا الظروف السياسية والتنافس الدولي لذاقت مراكش كلها ما ذاقته المدينة التعسة ، ولكن كان على الجيش الأسباني أن يغادرها تحت تأثير الظروف الدولية ؛ وهكذا خبا أمل الأسبانيين وضاعت الفرصة الثمينة التي أشرقت ثم غار نورها .

ولكن فكرة غزو مراكش زادت قوة ، فظلوا يتحينون الفرص للانقضاض عليها . وكانت الجيوش الفرنسية في الجزائر على حدود مراكش الشرقية تشارك الأسبانيين هذا الأمل الخلاب ، وباتت مراكش بين هاتين القوتين المضطرمتين ، ولكن تطور الحوادث بعد ذلك دفع بالدولتين إلى الاتفاق .

كان ذلك في مفتتح هذا القرن ، إذ اتفق الفرنسيون والأسبانيون على اقتسام مراكش بينهما ، على أن تستولى أسبانيا على نصفها الشمالي إلى ما بعد مدينة فاس ، ويستولى الفرنسيون على الباقي . ولكن الوضعية الدولية تغيرت واستطاعت فرنسا أن تعقد الاتفاق الودي المشهور مع انجلترا سنة ١٩٠٤ ، وبذلك قوى مركزها الدولي ، وتزعمت منافسة ألمانيا التي كانت تعمل هي أيضاً للاستيلاء على مراكش . وشبت الخصومة قوية خلال سبع سنوات بينهما ، وتطورت تطورات خطيرة كادت تعجل بقيام الحرب العظمى ، يوم دخل الطراد « بنثر » مياه أجادير . وكاد يطلق القذيفة الأولى في أول حرب عالمية . كانت أسبانيا مختفية طول تلك المدة ، بينما كانت فرنسا في مقدمة العاصفة ، وقد غامرت بمستقبلها في سبيل مراكش ، ولذلك ألغت من تلقاء نفسها الحدود القديمة التي اتفقت عليها مع أسبانيا ، واكتفت بإعطائها ، بعد أن انتهت القضية المراكشية إلى ما انتهت إليه ، منطقة صغيرة في الشمال ، ولم تسمح لها بالاستيلاء على مدينة فاس .

وهكذا انتهت تلك القصة الطويلة سنة ١٩١٢ يوم فرضت معاهدة الحماية على مراكش ، ولكن تلك النهاية كانت إيذاناً ببداية معركة أخرى ، هي معركة بين شعب يدافع عن نفسه وشعب آخر يحاول اغتياله والقضاء عليه . وما أن انتهت الحرب العظمى حتى هبت ثورة بطل مراكش الكبير الأمير عبد الكريم الخطابي في وجه الجيش الأسباني ، وبدأت الأحلام الأسبانية تترنح تحت الضربات القاصمة التي وجهها إليها الأمير البطل ، ذلك الرجل الذي أثخن الجسم الأسباني جراحاً ، وقدم إلى أسبانيا جزاء على مغامرتها مرارة الثكل واليتم والآلام ، إلى درجة أنهم فكروا جدياً في الإقلاع عن السير في هذه الطريق المحفوفة بالأخطار . ولكن تدخل فرنسا في النهاية واستفحال القوات المهاجمة أرغما البطولة على الاستسلام ، فلم يكن للجيش المراكشي الباسل مناص من إلقاء السلاح أمام الجيوش الجرارة التي جردتها عليه الدولتان القويتان

انتهت المعركة وبدأت أسبانيا تحاول أن تشق الطريق إلى أهدافها في القضاء على مراكش مرة أخرى ، ولكن منعها من ذلك قيام الحركة الوطنية وانتشارها بشكل واسع في البوادي والمدن ، وقد كان قيام هذه الحركة بمثابة تحصين لروح الأمة وكيانها ؛ كما منعها من ذلك أنها لم تحقق من أحلامها العسكرية في مراكش إلا اليسير ، فهي ما تزال بعيدة كل البعد عن ذلك مادامت لم تسيطر إلا على هذه الرقعة الصغيرة من الإقليم المراكشي

ولذلك فإن تسرعها فى محق هذه البلاد لا يمكن أن يكون عملياً ما دامت لم تسيطر بعد عليها كلها .

وإذن فلتؤخر الكارثة إلى أن تتمكن أسبانيا من الاستيلاء على مراكش كلها . وهكذا اتجهت السياسة الأسبانية إلى نوع من المخاتلة ، محاولة إخفاء نياتها الحقيقية لكي تستمين فى الوقت المناسب بسمعتها ضد الفرنسيين . وكانت فى نفس الوقت تخاف أن يهب فى وجهها عبد الكريم آخر إذا هى اتجهت فى سياستها نحو الشدة . كانت تقول للوطنيين : لا تطالبوا أسبانيا بشىء ، فإن مسألة مراكش فى يد فرنسا ، وفرنسا هى التى أعطت أسبانيا هذه المنطقة . ثم إن أسبانيا لا تستطيع أن تتنازل عن نفوذها فى هذا الجزء الصغير من مراكش لكى تستولى عليها فرنسا . ولذلك فإنه يجب على الوطنيين أن يوجهوا جهودهم نحو تحطيم الاستعمار الفرنسى ، وبعد ذلك تكون أسبانيا على استعداد للتنازل عن نفوذها لكى يتمتع المراكشيون جميعاً باستقلالهم الحقيق

وهذا كلام لا يعوزه المنطق ، ولكنه ليس صحيحاً ، فقد اندلعت الحرب الأهلية فى أسبانيا ، وتلاحقت الحوادث بعد ذلك تلاحقاً خطيراً أدى إلى نشوب الحرب العظمى الثانية ، فخيل لأسبانيا الفاشستية — بعد الهزيمة الفرنسية — أن الفرصة الموموقة قد سنحت ، وأن مسألة استيلائها على مراكش أصبحت مسألة زمن فقط ، وفعلا اجتازت جيوشها الحدود إلى مدينة طنجة الدولية ، وكادت تقتحم منطقة مراكش الجنوبية ، ولكن كلا من سياسة ألمانيا حيال الأمبراطورية الفرنسية والمطامع التى كانت تجيش بها إيطاليا الفاشستية حال دون ذلك .

ووجدت أسبانيا نفسها مرة أخرى عاجزة عن تحقيق مآربها القديم ، فهى لن تستطيع الاستيلاء على مراكش إلى جانب المحور ، ولن تستطيع ذلك بالطبع إلى جانب الحلفاء . ومالت كفة النصر نحو الديمقراطيات ثم انتهت الحرب بانتصارها ، وانسحبت أسبانيا المعزولة عن مدينة طنجة ، وتلاشى بريق الأمل الذى أوهمها أنها قاب قوسين من الشروع فى خطتها التى ترمى إلى الاستيلاء على تلك البلاد

لقد حالف الفشل والإخفاق أحلام أسبانيا التاريخية ، وإذن فلتلتفت إلى المراكشيين لتصب عليهم نقمتها وغضبها . وإذا كان لعلم النفس دخل فى السياسة ، فقد خلف عندها هذا الفشل عقدة نفسية ، وطاقة مكبوتة ، وهى تتصرف اليوم حيال المراكشيين بإيحاء من تلك العقدة التى تزيد تعقدها فى الشعور الباطن طمع هائل وباع قصير .

وهكذا تجرد اليوم أسبانيا على مراكش سوط عذاب ، ولا تزيدها المقاومة إلا تمادياً فى القسوة والجبروت ، فهناك عند سفوح جبال الريف يتفنن أيتام النازية والفاشستية فى السفك والجلد والتنكيل لأسباب تافهة ، ويراقبون الضمائر وخلجات النفوس ، ويهددون الأحرار بالمحق ، ويتربصون الدوائر بالحركة الوطنية كلها .

أما الطامة الكبرى ، فهى الهجرة الأسبانية إلى شمال مراكش ، ذلك أن أسبانيا حينما أحست بالفشل يحاصر آمالها عمدت إلى فتح السدود أمام سيل الهجرة العرم ، فتدفق على البلاد وكأنه الطوفان . كان قوام السيل من المعجزة والعاطلين ، فنشروا الأمراض ، وقاسموا المراكشيين ما أبقى لهم الجفاف من قوت ، وبلغت المأساة فى أول السنة الحالية ذروتها ، فكان الموتى يحملون فى عربات النقل من الشوارع تحت جنح الظلام!

هذه هى الناحية المنسية من المسألة المراكشية التى ارتبطت بفرنسا وحدها ، فخيل إلى الناس أن كل ما حاق بهذه البلاد هو نتيجة لأعمال فرنسا وحدها . كلا ، فإن المراكشيين يقاومون فرنسا ويقاسون عذابها مؤمنين بأن التخلص من الاستعمار لا يكون دون صراع ، وبأن الغلبة فى النهاية للايمان لا للقوة ، ولكن ما يحيق بمراكش من ختل أسبانيا ووعودها الكاذبة وتربصها وهول أطماعها ، وتصرفاتها الشاذة ، يضاعف أتعاب المراكشيين فى مقاومتها .

وليس هذا بالشىء الخفى ، فلدى كل دولة عشرات من التقارير عن الحالة فى مراكش قدمها إليها المراكشيون الأحرار ، وفى أمانة الجامعة العربية عشرات كذلك ، وكلها تشرح بالأرقام والصور ما حاق بمراكش العزلاء على يد أسبانيا الفاشستية المدججة بالسلاح ، دون أن يبدى أحد حراكا . ولكن المراكشيين سوف يمضون فى مقاومة هذا الطغيان إلى آخر رجل سواء ناصرهم أحد أو لم يناصرهم . فلأن يقال غداً إنهم انقرضوا دون شرفهم ، خير من أن يقال إنهم خفضوا هامهم للطغيان !

عبد المجيد بن جلون

الحلم والتحلم ...

للأستاذ محمود عزت عرفة

— ٤ —

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » حديث شريف

دواع إلى التحلم :

تدعو إلى التحلم عوارض كثيرة ، وأمور متعددة ، لأن التكلف كيفما كان خروج على الطبيعة ، وتحويل للغريزة ؛ وشيء من ذلك لا يكون أبداً وحده ، ولا يتم مجرداً عن العلل خارجاً على البواعث والأسباب .

فما يدعو النفس إلى التحلم ويطوعه لها أن تستشعر القدرة على الانتصار فيفثأ ذلك من حر غضبها ، ويبدلها بقلقها هدوءاً ، وبجزعها تثبتاً واطمئناناً وحينئذ تنتفى بواعث الانتقام ، فيكون التحلم الذى يتطاول مع الزمن حتى يصير حلماً ، وأكثر ما يكون عفو الملوك لمثل هذا الباعث ، وقد مرت بنا أمثلة منه مختلفات . ويكاد يضع يدنا على هـذه الحقيقة وضعاً قول المنصور لجعفر الصادق بعد عفوه عن أهل المدينة : إنك لتعلم أن قدرتى عليهم تمنعنى من الإساءة إليهم[1] .

ومن كلام بعض الحكماء : ليس الحليم من ظُلم فحلم ، حتى إذا قدر انتقم ؛ ولـكن الحليم من ظُلم فحلم ؛ حتى إذا قدر عفا .

ويقول عبد الله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وأمانته عند طمعه . وما علمك بحلمه إذا لم يغضب ؟ وما علمك بأمانته إذا لم يطمع ؟

وقد نصح معاوية لابنه يزيد فقال : عليك بالحلم والاحتمال حتى تمـكنك الفرصة ؛ فإن أمكنتك فعليك بالصفح ، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور ، ويوقيك مصارع المحذور ... ولعل هذا الخلق الـكريم — العفو عند المقدرة — يعد أشرف مواقف الرؤساء ، وأدلها على أصالة النبل فى نفوسهم ، واستحواذ الـكرم والفضيلة على طباعهم .

ومن البواعث على التحلم أيضاً مايكون من الاستهانة بالمسىء أو استضعاف شأنه ، حتى لـكأنه المعنِىّ بمثل قول « مسلم » :

فاذهب فأنت طليقُ عرضك إنه ... عِرضٌ عززْتَ به وأنت ذليل

وبمثل قول الآخر :

نجابك عرضُك منجى الذبابِ ... حمته مقاذيرُه أن يُنالا !

ولقد عفا مصعب بن الزبير — لمثل هذا الباعث — عن قاتل أبيه[1] . فقد روى أنه لما ولى العراق جلس يوماً لعطاء الجند ، وأمر مناديه فنادى : أين عمرو بن جرموز ؟ — وهو الذى قتل أباه الزبير — فقيل له : أيها الأمير ، إنه قد تباعد فى الأرض . فقال : أويظن الجاهل أنى أقيده بأبى عبد الله ؟ فليظهر آمناً ليأخذ عطاءه موفوراً ... !

وقال عمر بن الخطاب لأبى مريم السلولى قاتل أخيه زيد بن الخطاب — وكان قد كفَّه عنه دينُه وورعه وعدالتهُ — : والله إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم ! قال : أفيمنعنى ذلك حقاً ؟ قال : لا . قال : فلا ضير ، إنما يأسى على الحب النساء !

ولقد يدعو إلى التحلم فرط السآمة من الانتقام ، ورغبة النفس عن التشفى لطول ما بلغت من ذلك حظها ، والشىء إذا زاد عن حـده مال إلى ضده ، وللنفوس ثورة تجنح معها إلى السكون ، ومؤاخذة تميل بعدها إلى المتاركة ، ويبدو ذلك المظهر واضحاً فيما يسجله التاريخ من عفو المنصور بعد حروبه مع العلويين ، وتسامح المأمون بعد حوادث الفتنة بينه وبين أخيه الأمين . ولما انتهت فتنة ابن الأشعث أُتِى عبد الملك بن مروان بأسارى موقعة دير الجماجم[2] ؛ — وكانوا ممن خان عهده ونقضوا بيعته وقاتلوا جنده قتالا عنيفاً — فقال لرجاء بن حيوه : ما ترى ؟ قال : إن

---

(١) انظر الحوار بتمامه فى الحلقة الثانية من هذا البحث .

(١) اشترك الزبير فى موقعة الجمل كما هو معلوم ، ثم اقتنع بخطئه فى مخاصمة علىٍّ فنفض يده من الأمر وقفل راجعاً إلى المدينة — عام ٣٦ هـ — فلما كان بوادى السباع نزل فنام ، فجاء عمرو بن جرموز فقتله

(٢) حدثت قرب الـكوفة عام ٨٣ هـ وفر بعدها عبد الرحمن ابن الأشعث إلى فارس فآواه إليه رتبيل ملك الترك ، وكاتبه الحجاج وتوعده إن لم يرسل إليه ابن الأشعث فقتل عبد الرحمن نفسه بأن تردى من أعلى القصر ، وحمل رأسه إلى الحجاج عام ٨٥ هـ .

الله تعالى قد أعطاك ما تحب من الظفر ، فاعط الله ما يحب من العفو ! فلم يكن بأسرع من أن فك قيودهم وعفا عنهم .

ونحن لا نكاد نفهم عفواً يصدر عن الحجاج — أظمأ ولاة المسلمين إلى الدماء — إلا على هذا الوجه ، ولمثل ذلك الباعث . فهو قد أبلى في قتال ابن الأشعث أعظم البلاء ، وذاق أمام قواته مرارة الهزيمة وحلاوة الانتصار ، حتى قهره في موقعة دير الجماجم فلما عرض الأسرى من رجاله على السيف مثل أمامه الشعبي[1] في جملتهم . فقال : أصلح الله الأمير ، نبا بنا المنزل ، وأجدب الجناب ، واستحلسنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وضاق المسلك ، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء . قال الحجاج : صدقت ، والله ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتم … خلوا سبيل الشيخ !

وكان قوم يتحلمون على السفهاء إذا اعترضوهم بالأذى ، بل ربما تعرضوا إليهم عامدين طلباً لاكتساب الحلم وتدرباً عليه ، وقهراً للنفس على السكون ، وتعويداً لها على المسامحة . رُوى أن جعفر بن محمد الصادق كان إذا أذنب له عبد أعتقه . فقيل له في ذلك فقال : إني أريد بفعلي هذا تعلم الحلم ! ومن كلام الأحنف ابن قيس وكان من أحلم الناس : لست بحليم ولكني أتحلم[2] !

ويقول أبو عثمان الجاحظ في بيانه وتبيينه : « كانوا يأمرون بالتحلم والتعلم ، وبالتقدم في ذلك أشد التقدم » ، وحجة القائلين بهذا أن تكلف الفضيلة عند فقدها فضيلة . نعم ، يفرق الصوفية — في المعنى وفي الدرجة — بين حالتي الوجد والتواجد مثلا ، ولكنهم لا ينكرون المقام الأخير متى قُصد به التوسلُ إلى بلوغ الأول وتحصيله ، والأصل عند الجميع في هذا ما يروى عن الرسول عليه الصلوات من قوله : إن لم تبكوا فتباكوا !

هذا وقد تحمل الشفقة على المسيء والرحمة له إلى مقابلته بالحلم ، إذا ما تقرر في الذهن أن الإساءة لا تعدو أن تكون تصرفاً مريضاً مبعثه الجهل ، وأن صاحبه أولى بالعلاج منه بالعقوبة ، وهذا باعث كريم على التحلم لا يتسامى إليه من النفوس إلا أكرمها عنصراً وأزكاها جوهراً .

ولقد عوتب كسرى أنوشروان مرة على ترك عقوبة المذنبين فقال : هم المرضى ونحن الأطباء ، فإذا لم نداوهم بالعفو فمن لهم ؟ وقال إبراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحمه ! قال الغزالي : « وهذا إحسان وراء العفو ، لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يطالَب يوم القيامة فلا يكون له جواب » .

وحكي الفضيل بن عياض قال : ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان ، جلس إليّ في المسجد الحرام ثم قام ليطوف ، فسرقت دنانير كانت معه . فجعل يبكي . فقلت : أعلى الدنانير تبكي ؟ فقال لا ، ولكن مثلتني وإياه بين يدي الله عز وجل ، فأشرف عقلي على إدحاض حجته ، فبكائي رحمة له !

وقد يحلمون — في غير موضع الحلم — تجانفاً عن شبهة قد تعرض في القصاص وإن كان عدلا ، والتماساً لرتبة من الخلق أسمى من هذا العدل ، وأبعد مما يتلبس به من تلك الشبهة . قال عمر بن عبد العزيز لرجل غلط غلطاً اشتد له غضبه : لولا أنك أغضبتني لعاقبتك . وإنه في هذا ليأتسي بجده ابن الخطاب ، وقد أشرنا — فيما سبق — إلى كفه عن السكران الذي شتمه ، وقوله : إنه أغضبني ، ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسي …

وربما يكون التحلم وسيلة لتحقيق غاية بعيدة ، خفية أو ظاهرة ؛ من تطييب نفس ، أو ربّ صنيعة ، أو إتمام سالف جميل ، أو مراعاة قديم حرمة ، أو تمهيد لاستمالة وتكليف : وكان أصحاب الجنايات من الولاة والوزراء والعمال يدركون هذا الباعث ، ويعملون على إثارته في نفوس الخلفاء إذا هم تعرضوا لسخطهم وصاروا موضع نقمتهم .

ولى معاوية روح بن زنباع ثم عتب عليه في جناية فكتب إليه بالقدوم . ولما قدم أمر بضربه بالسياط ، فلما أقيم ليضرب قال : نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم مني ركناً أنت بنيته ، أو أن تضع مني خسيسة أنت رفعتها ، أو تشمت بي عدواً أنت وقمته . وأسألك بالله إلا أتى حلمك وعفوك دون إفساد صنائعك . فقال معاوية : إذا الله سنّى عقد أمر تيسر … خلوا سبيله .

ومن العفو لمثل هذا الباعث عفو الأمين عن الحسين بن علي

---

(١) أبو عمرو عامر بن شراحيل ، كوفي تابعي عالم جليل توفي سنة ١٠٥ هـ .

(٢) يشبه هذا قول طلحة بن عبيد الله — وكان من الأجواد — : إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء ، ولكنا نتصبر !

مظاهر العبقرية
في الحضارة الاسلامية
للدكتور خليل جمعة الطوال

(تتمة)

في سائر الصنائع :

وقد أدخل العرب إلى أوربا أنواعاً كثيرة من الحبوب كالحنطة ، والقنب ، والتوت ، والأرز ، والزعفران ، والنخيل ، والليمون والبرتقال ، والبن ، والقطن ، وقصب السكر ، وما زال هواؤهم الفاسد بزفير آلاتهم ومخترعاتهم التي كبلت الأيدي ، وشلت حركة الأعمال ، يعبق بشذا الأزهار الجميلة التي أخذوها عن الشرق .

وقد تعلم الغربيون منا صناعة تزيين الأقمشة الدمشقية ، وصناعة السختيان ، وأقمشة الحرير المزركشة بالفضة والذهب ، والشاش الموصلي والمخمل ، وعمل الحلويات والمشروبات وصناعة الجوخ(١) ، وعمل الجليد .

كلمة غوستاف لوبون :

أما وقد أظهرنا مواطن القوة في الحضارة العربية فيحسن بنا أن تقدم للقارىء : رأى لوبون في العوامل الرئيسية التي أدت بالغربيين للنيل من العرب ومن حضارتهم . فقد سأل لوبون نفسه هذا السؤال : لماذا غمط اليوم حق العرب وتأثيرهم ؛ وأنكر حسناتهم علماء عرفوا باستقلال أفكارهم ، وبعدهم عن مظنة الشك ؟ ...

ثم تقدم للاجابة وقال : « ... أرى أنه لا جواب على هذا السؤال غير ما أنا كاتب ، ذلك أن استقلال آرائنا هو في الواقع صوري أكثر مما هو حقيقي ؛ ونحن لسنا أجرأ على ما نريد في خوض بعض الموضوعات ، وهذا لأن فينا أحد رجلين الرجل

(١) حضارة العرب . لغوستاف لوبون ، والاسلام والحضارة العربية

ابن عيسى بن ماهان ، وكان قد انتقض عليه أيام حربه مع المأمون ، وخلعه وحبسه يومين في قصر أبي جعفر ، ثم بايع للمأمون . ولكن قام أسدٌ الحربي وجماعة فدافعوا عن الأمين ، وفيَّلوا رأى الجند فيما صنعوه من طاعة الحسين بن علي . ثم قاموا فقاتلوا الحسين وأصحابه ، وكسروا قيود الأمين وأجلوه في مجلس الخلافة ، ولما أُتي بالحسين لامه على انتقاضه وذكّره بسالف نعمته عليه وعلى أبيه (وكان أبوه قد قتل على رأس جيش الأمين في حربه مع المأمون) ، ثم قال الأمين : ما الذي استحققتُ به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلب الناس عليّ ، وتندبهم إلى قتالي ؟ قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين ، وحسن الظن بصفحه وتفضله . قال : فإن أمير المؤمنين قد فعل بك ذلك ، وولاك الطلب بثأرك ومن قتل من أهل بيتك ! ثم دعا له بخلعة نخلعها عليه ، وحمله على مراكب وأمره بالمسير إلى حلوان . وخرج الحسين فهرب مرة أخرى في نفر من خدمه ومواليه ؛ فنادى محمد في الناس فخرجوا في طلبه حتى أدركوه فقتلوه ...

وقد يدفع بالنفس إلى التحلم مجرد ما تدركه من فضيلة الحلم ، وماتشاهد من جميل أثره على المتصفين به في الدنيا ؛ مع ماينتظرهم من الكرامة عند الله في الآخرة . ذلك أن الفضائل كلها صور جذابة حالية يكفي أن تهتدي الفطر السليمة إلى حقائق جمالها ، أو تشهدها على المتخلقين بها حتى تجنح إلى اكتسابها والتمسك بأسبابها . قال الأحنف بن قيس : تعلمت الحلم من قيس بن عاصم !

والذي يتفهم قول عليّ عليه الرضوان : أول ما عُوِّض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . لا يرى في الحلم إلا خيراً كله . بل من يعرف أن الله سبحانه سمى نفسه (الحليم) ولم يتسمَّ بالعاقل أو العالم يتبين له قدر الحلم بين الفضائل بحالة لا تدع له دون التمسك به من سبيل .

يقول الغزالي في كتاب ذم الغضب من سفر الإحياء : ينبغي أن يعالجَ هذا الجاهلُ — يعني المغضوبَ غير المتحلم — بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو ، وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء ، وضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لاعقول لهم ولا فضل فيهم .

(للحديث بقية أخيرة) محمود عزت عرفة

الحديث الذى صاغته دروس التهذيب ، وعمل المحيط الأدبى والمعنوى فى تنشئته . والرجل القديم المجبول على الزمن بخميرة الأجداد وبروح لا يُعرف قراره ، يتألف من ماض طويل ، وهذا الروح اللاشعورى هو وحده الذى ينطق فى معظم الرجال ، ويبدو فى أنفسهم بمظاهر مختلفة ، يؤيد فيهم المعتقدات التى اعتقدوها ، ويملى عليهم آراءهم ، وتظهر هذه الآراء بالغة حداً عظيما من الحرية فى الظاهر فتحترم ، وقال : « ... وقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الإسلام وأتباعه فى عدة قرون حتى أصبحت جزءاً من نظامنا ، وكانت هذه الأوهام متأصلة فينا ، كالبغض الدوىّ المستتر أبداً فى أعماق قلوب النصارى لليهود » .

« وهناك سبب آخر ، وهو أن بعض أرباب الأفكار يرى أنه من العار أن يعتقد أن أوروبا النصرانية مدينة لأعداء دينها بخروجها من ظلمة الهمجية ... وليس من شك فى أن العرب كانوا ممدنينا وأساتذتنا مدة ستمائة سنة .

« ولا جرم أن كثيراً من المؤرخين قد اندفعوا بسائق هذه الأوهام ، فأتوا بآراء بعيدة عن محجة الصواب فى بيان فضل الحضارة الاسلامية ، ولا يزال التحامل على العالم الإسلامى القديم بحاله من الشدة ، ولذلك وجب أن يعاد النظر فى تاريخ القرون الوسطى بجميع أجزائه التى لها مساس بانتقال المدنية القديمة إلى العصور الحديثة » .

ونود فى ختام هذا الحديث . أن نثبت أقوال بعض عظماء المستشرقين فى الحضارة الإسلامية العربية ، وذلك استجماعاً للموضوع من جميع نواحيه ، ودحضاً لأوهام الخصوم وحملاتهم ، بشهادة من لا تجمعهم بنا إلا صلة العلم ، ونزاهته الحقيقية ، دون أى آصرة أخرى من أواصر القربى ، وعلائق الدم ، وصلات الجنس :

يقول أوليرى : « إذا محونا العرب من سجل الحضارة . تأخرت النهضة الأوربية قروناً عديدة » .

ويقول هـ . ج . ولز : « إن العرب هم الذين حفظوا كنوز الحضارة اليونانية من أن تتسرب إليها بكتيريا همجية القرون الوسطى ، وليس طبقة الاكليروس الذين خنقوا نشوء العلم بحجرهم الحرية الفكرية ، ولولا العرب لما قطعت المدنية هذا الشوط الواسع فى مضمار التقدم والرقى » ، وقال أيضاً : « كانت طريقة العربى أن ينشد الحقيقة ، بكل استقامة وبساطة ، وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق ، دون أن يترك منها شيئاً فى ظل الابهام ، وإن نشدان النور إنما تعلمناه من العرب وليس من اللاتين » .

وقال العلامة السيامى أوجين يونغ فى كتابه يقظة الإسلام والعرب : « ... لقد كان للعرب ماض مجيد يدعو إلى الدهشة : ماضٍ حربى ثم ماضٍ فى العلم الراقى والصنائع الزاهرة ؛ ذلك الماضى الذى اتخذته أوربا فى نهاية القرون الوسطى دعامة لحضارتها بعد أن كانت نصف متوحشة » .

ولله در جوتيه إذ يقول : « إن محصول المدنية العربية فى العلم يفوق محصول المدنية اليونانية كثيراً ، وذلك لأن العلم عندهم كان يقوم على أصول علمية ثابتة »

وقال فلوريان : « انكب العرب فى عصرهم الذهبى على مواصلة الدرس ، وترقية العلم والفنون ، حتى إن حضارتهم كانت العامل الأكبر والأول فى نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاد » .

وشهد بذلك العالم الفرنسى سيديو فقال : « تشهد آثار العرب ومخترعاتهم ومستكشفاتهم على أنهم كانوا أساتذتنا فى كل علم وفن » ، وقد وافقه على هذا الرأى العلامة جورج سارطون إذ يقول : « يستخف بعض الغربيين بما أسداه العرب إلى الحضارة والمدنية ، ويزعمون أنهم لم يكونوا إلا حفظة للعلوم القديمة دون أن يضيفوا إليها شيئاً ... والحقيقة أن هذا الرأى فاسد من أساسه . فلولا العرب لتوقف سير المدنية . إذ كانوا مشعل الحضارة ، وأساتذة العالم فى القرون الثلاثة وهى الثامن والحادى عشر والثانى عشر » .

وقال آرثر جلين ليونارد[1] : « يجب أن تكون حالة أوربا مع الإسلام بعيدة من كل هذه الاعتبارات الثقيلة ، وأن تكون حالة شكر أبدى بدلا من نكران الجميل الممقوت والازدراء المهين ... فلقد وصلت المدنية الاسلامية عند العرب إلى أعلى

(١) إيقاظ الغرب للاسلام لهنلى تعريب البارودى

مستوى من عظمة العمران والعلم فأحيت جذوة المجتمع الأوربى وحفظته من الانحطاط . ولم نعترف ونحن نرى أنفسنا فى أعلى قمة من التهذيب والمدنية بأنه لولا التهذيب الإسلامى ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم فى مسائل العمران ، وحسن نظام مدارسهم ، لكانت أوربا إلى اليوم غارقة فى ظلمات الجهل » ، ويقول ويدمان فى هذا الصدد : « ... لا تقل خدمات العرب للغرب عن خدمة نيوتن وفراداى ورنتجن » .

ويقول غوستاف لوبون[1] : « ما كاد العرب يخرجون من صحارى بلادهم حتى اتصلوا بالمدنية اليونانية اللاتينية ، فتمثلوها ، وكان تمثلها يتطلب فكراً مهذباً ... ونحن نجهل ما كان لهم من حضارة راقية قبل الرسول (ص) فقد كانوا على اتصال بالتجارة مع العالم ، وكانت لهم ثقافة أدبية عالية قبل الإسلام ، ومن ثم حضارة علمية زاهرة بعد الإسلام » ، وقال أيضاً : « تفوق العرب فى المدنية على شعوب كثيرة ، وربما لم يقم من الشعوب من تقدمهم فى هذا السبيل » .

وشهد نوبرجر بالحضارة العربية شهادة ترفع الرأس عالياً . فقال : « فاقت المدنية العربية فى عصرها الذهبى مدنية رومية القديمة فى حيويتها » ووافقه دوسن فقال : « إن المدنية الغربية الأوروبية مدينة للمسلمين بميراث حكمة الأقدمين ، وأن فتوح العرب في الإسلام لتعد من عجائب التاريخ ، ومما يدعو إلى العجب أيضاً أن يصبحوا سادة نصف العالم فى أقل من قرن ، وأن يصبحوا فى مئة سنة ذوى ثقافة عالية ، وعلوم راقية ، ومدنية زاهرة . بينا نجد الجرمانيين لما فتحوا الامبراطورية الرومانية قد قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش ، وينهضوا لإحياء العلوم » .

وقال العالم يهودا وهو رجل عبرانى يدرس فى جامعة مجريط « أخذ الناس يدركون الآن أن أوربا فى القرون الوسطى مدينة للحضارة العربية التى اغترف من مناهلها المسلمون ، واليهود ، والنصارى على السواء . أخذ الناس الآن يفهمون أن العلوم الطبيعية والقوانين الأساسية فى الفلسفة ، والرياضيات ، وعلوم العمران كانت تستمد روحها فى زمن النهضة والاصلاح من ذلك المنهل العذب ألا وهو الحضارة العربية ، وصار علماء العصر كلما تعمقوا فى دراسة هذه الحضارة أدركوا أثرها البليغ فى حضارة اليوم ، وكشفوا مئات الكلمات الداخلة فى اللغات الأوروبية من أيام تلك الحضارة » .

وقال سينوبوس : « لامرية فى أن العالم الإسلامى كان أسطع نوراً من العالم الغربى . فكان المسيحيون يشعرون بنقصهم فى التهذيب ، ويعجبون بما يبدو لهم من غرائب الشرق ، وكان النازع فيهم إلى العلم يقصد مدارس العرب » .

هذه هى حضارة العرب الزاهرة التى يطعن عليها سرفيه وأمثاله من الخصوم والمتشيمين ، والتاريخ كفيل بأن يعيد نفسه ، فيتبوأ العربى عالى مكانته ، ويستعيد زاهى مدنيته .

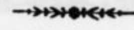
وهذه أيضاً صورة أخرى من كتابنا « تحت راية الإسلام » الماثل للطبع . فعسى أن نكون قد أسدينا لهذه الأمة العزيزة بعض حقها علينا .

(شرق الأردن) خليل جمعة الطوال

(1) الاسلام والحضارة العربية ج ١ .

الحب والعمر ...

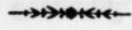
للأستاذ عثمان حلمى



من سحر عينيك للأبصار معجزة
يحوطها من جلال الحسن أسرارُ
يحارُ فى وصفها الراءون إن فتنتْ
أبصارهم وبحق إن همو حاروا
ومن حديثكِ أنغام لهـا أبداً
فى السمع والقلب إن حدّثتِ أوتار
ما بين سمعى وقلبى من تدفقها   فى كلّ هامسة من فيكِ تيّار
وفيكِ رقّةُ نفس دون رقتها   إذا تأمل فيكِ -العقل جبار
نوع من الضعف فيه محض قسوته
كلمس السيف مهل وهو بتّارُ
وأنتِ غامضة كالليل واضحة   مثل النهار فإعلانٌ وأسرار
ضدّان من عجبٍ فى نفسك اجتمعا
كالغصن يكمن فيه المـاء والنار
أخاف منك على ما فيك من دَعَـة
كأنما لكِ عندى فى الهـــوى ثار
وليس لى أىُّ سلطان عليكِ وفى   صميم قلبى عليه منك قهّـار
وفى جبينكِ من صبح الشباب ومن
ضُحـاه من مغرياتِ الحبّ أنوار
هدى لمن شاء فيها للغرام هدى
وفى الضـلال له إن شاء أعذار
مالى أراكِ بشيب الرأس ضاحكة
متى كان مشيبى فى الهوى عار
أما لـكهل إذا ما شاب مفرقه   مهما تجمّـلَ عند الغيد أنصار
لا تسخرى من غرامى إنه قدرٌ
والحبُّ كالرزق والأعمار أقدار
لم يطفىء العمرُ من نيران عاطفتى
قلبى شبابٌ وجسمى كاد ينهارُ
فليس للعمر فى شرع الغرام مدى
وليس فى الحب للعشاق أعمـار

القـــدرُ الرطَب!!

للأستاذ محيي الدين صابر



لعينيكِ أيامى... ينازعها الحبُّ   كما نازع الأحلامَ فى قفرة ركبُ
طويت على قلبى هواكَ ... كأنه   لقلبى إذا جفّ الحنينُ به قلبُ
يشارفنى أفقٌ بعينيك خلتُه   أساطير ملأ حين يسرى بها الغيب
كلانا به صمتٌ تطيفُ به الرؤى
أناشيدَ منها الشوق والحزن والعتب
ويرفضُ أحلاماً ذواهلَ فى دمى   كما رفض أسراباً مصبّغة سحب
أمدُّ بها نفسى وينهلُ خاطرى   ويملؤنى معنًى على وجهها عذب
قرأت به وحى النبيين فى الهوى   كأنى نبى، أو كأن الهوى ربُّ!
لقد عشتُ فى صحراء نفسى نخلة   يسامرنى جن ويحتضنى جدب
وتسفو على جذعى رياح عقيمةٌ   وتعمرها الخضر أغربة شهب
وتمشى الرمال الصفر حولى حزينة   إذا مرّ سرب خاشع جاء فى سرب
فضاء كأيام المجانين ... شاردٌ   فليس به أمنٌ وليس به رعب!
فأضبحت أحيانى هواكَ فتفجرت   ينابيع فى عمرى يرف بها العشب
وغنت عذارى الطير فى ربوتى منى   كأن حياتى من تدفّقها وثبُ
وأترف أيامى ووشّى خواطرى   والهم قيثارى سناً نابض خصبُ
فياساحراً.. كفّاه بعث ورحمة   وخمارة... غنى بأفراحها الشرب
لعينيكِ مذخورُ الخلود بمهجتى   فأنت عليها فى الهوى قدرٌ رطبُ
ويا لفتةً يطوَى زمانى عندها   خيالا ويغشانى بها زمن رحب
فإن تك أيامى ذنوباً ... فإنه   بحبكِ يا دنياى يُستغفر الذنبُ
حشدت مزاميرى لمنغومة الصبا   كأن جمالا قبلها صِدقه كذب
لمحمومة الأشــــواق محرومة المنى
كما انهلّ من بين الصفا جدول سَكب
شباب بخدّيها... ومجد بجيدها   وجوع بعينيها. فياشهوة تصبو
وفى نهدها من يقظة الفن لفتةٌ   وفى قدّها سكرٌ يميدُ له اللب
وفى شفتيها وقدةُ القلبِ فى الصبا   وفى شعرها أغرودة للهوى نهب
بها مثل مابى من أسى فى كيانها   إذا ضمنا خطب يُفزّعنا خطب
فإن رجعتْ فى الليل أنة موجَع   تلفتَ فى عينى وفى مهجتى الحبُّ
وتسمعنى فى الليل أشكو فتشتكى   وفى روحها جُرح وفى قلبها ندْب
هى الزادُ . ما باليتُ بعد غرامها   أسلمٌ إذا وفّت حياتى أم حربُ!



أعلام عابرة :

العلم والحياة

تأليف الدكتور مشرفة بك

للاستاذ عبد الفتاح البارودى

يتقمص الأستاذ الجليل الدكتور مشرفة فى معظم كتبه عدة شخصيات أهمها العالم والمدرس والأديب معاً ، وهذه ميزة قلما تتوافر لعالم غيره وهى فى هذا الكتاب بارزة جداً ، والظاهر أن ذلك راجع إلى أنه يتمشى مع المنهاج الموضوع لسلسلة « اقرأ » المقصود به صلاحيتها لأوساط الناس على اختلاف ثقافاتهم . فأولا :

شخصية العالم :

وتبدو واضحة لدرجة المحاباة ، محاباة العلم والعلماء . يقول : « إن العلماء أعرف الناس بالخير وأقربهم إلى الفضيلة » ويقول : « من الخطأ الفاحش أن يقال إن العلماء يقفون عند المظاهر المادية للعالم ، فالعلماء إذ يبحثون عن الحقيقة يسمون بعقولهم إلى المنتهى » ولعل الدكتور يريد أن يصف العلماء كما يجب أن يكونوا أو يظن أنهم جميعاً على شاكلتـه أطهار أبرار ؛ وإلا فأهوال الحروب الحديثة لا تؤيد القول الأول ، وبعض الباحثين لا يؤيدون القول الثانى بل يقولون بمثل ما يقول به (تشارلتن) فى كتابه (فنون الأدب) : « إذا أردنا الدقة ألفينا العلم بعيداً كل البعد عن الحياة العملية ، إذ العلم لا ينظر إلى المعرفة من وجهها النافع المفيد فهو لا يعنيه إلا المشكلات المجردة والمبادىء العامة . العلم مجرد فكر يقوم به العالم بغض النظر عما إذا كان يفيد أو لا يفيد » . وثانياً :

شخصية المدرس :

وطبيعى أن يكون الدكتور الفاضل مدرساً ناجحاً فى معظم كتابه لأنه متصل الوقت والجهد بالتدريس مشرفا وأستاذاً ومحاضراً . والذى لا شك فيه أنه تطبع لهذا على أن يتصور أن الأذهان التى يحادثها أذهان طلاب فى حاجة دائمة إلى شىء من الإعادة والتكرار والتشويق والمبالغة أحياناً كلما اقتضت الظروف . غير أن هذا التطبع قد اضطره هنا إلى بعض الإطالة ، وصحيح أن الإطالة من مثله مرغوبة محببة لأنها تحمل فى غضونها معلومات مفيدة أو طريفة غالباً إلا أن حجم هذا الكتاب لا يحتملها نسبياً . فمثلا فى القسم الأول لكى يصل إلى تفهيمنا أن العلم يخدم السياسة يبدأ بأقوال شتى لمحمد عبده وأرسطوطاليس وبلاتون وسقراط ، وإلى هنا يكون قد استنفد سبع صفحات من تسع صفحات مخصصة للقسم كله . وهكذا فى سائر الأقسام تقريباً . كذلك يطيل فى شرح بديهيات . فقد عقد قسما كاملا عن (العلم والمال) يدور حول تعريف أصحاب الأموال والعقارات أنهم لو استخدموا الطرق العلمية فى إدارة أموالهم وتنظيم عقاراتهم لزاد إنتاجهم .

وهناك سمة أخرى من سماته كمدرس نلمسها حين يدلى ببعض آرائه فى صيغة الأحكام المؤكدة التى لا تقبل المراجعة أو التعقيب من ذلك قوله : « السياسة أرفع الفنون البشرية منزلة وأعلاها قدراً » ! ! لماذا يا سيدى ؟ يقول : « لأن كل فن يرمى إلى تحقيق فائدة لنفر من الناس ، أما فن السياسة ففرضه نفع الناس جميعاً » ! ! وأظن أنه ليس هناك ما يمنع أى إنسان من أن يرفع من شأن أى فن يشاء . غير أن السائغ المحتمل أن الفنون كلها رفيعة المنزلة بلا تفاضل ، كما أنه ينبغى أن ترمى كلها إلى نفع الناس جميعاً ، قد يجوز التفاوت ولكن هل يجوز أن يعزى — إن وجد — إلى الفائدة من حيث كثرتها أو عمومها ؟ ! وثالثاً :

شخصية الأديب :

وما بنا من حاجة إلى وصف الدكتور بالأديب فإن كل إنتاجه يمت إلى الأدب الممتاز بصلة وثيقة تفسح له بين أساطين

الأدب مكانا محترماً . غير أن معظم العلماء الأفاضل حين يكتبون يميلون إلى زخرفة أسلوبهم بمـا تدلهم عليه (قواعد البلاغة) ، وهذا الأسلوب على هذا النحو هو الذى يتم حتى أنهم علماء لذلك نجد الدكتور تارة يصطنع « التضمين » اصطناعا يكاد يكون مقصوداً لذاته ، فيقول مثلا وهو يستحث الشرق لينهض كالغرب : « فإما خففنا معهم وإما تخاذلنا فقعدنا فرمونا بحجارة من سجيل تُجْعِلُنا كعصف مأكول » ، ويقول وهو يسرد حقيقة علمية معروفة : « الجسم إذا كان فى موضع مرتفع فإن ذلك يكسبه مقدرة خاصة على اكتساب الحركة فيكون كجلمود صخر حطه السيل من عل » .

ونجده تارة أخرى يستشهد بالشعر بغير ضرورة ملحة :

(العلم يرفع بيتاً لا عماد له) (على قدر أهل العزم تأتى العزائم)

بل يستشهد بشعر صوفى :

دواؤك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولعل هذا كله للتنويع المقصود به الترفيه عن القارىء

غير أن الحق أنه بهذه الشخصيات المتنوعة قد استطاع أن يجعل من كتابه هذا سجلا شاملا لحسنات يرجع إليها المستفيد لمحض الاستفادة والمستفيد لغرض الاستزادة علماً وعملا على السواء؛ فمن حسناته أنه يصحح أخطاء شائعة بين الجمهور وأخرى بين الأوربيين وثالثة بين العلماء . إذ من الجمهور من يعتقد أن الدين يؤخر العلم والكتابُ ينفى ذلك بالحجة الدامغة والواقع والمنطق الاستقرائى . ومن الأوروبيين من يعتقد أنهم أصحاب الفضل على العلم والكتابُ يبدههم بأن العلم إنما ازدهر قبل ميلاد الفكر الأوربى بمئات السنين . ومن العلماء من يعتقد أن (بيكون) هو الذى استحدث (المنهاج) والكتابُ يدلهم على أن المصريين والبابليين عرفوه من قديم . وهكذا . كتاب عظيم بمادته الغزيرة وحقائقه المدعمة بالأرقام حيثما كان للأرقام مجال . والمؤلف فطن غاية الفطنة إذ يعقب عليها بمـا يعود بالنفع على وطنه وعلى العالم جميعاً . فحينما يذكر مقدار الثروة المعدنية فى مصر يهيب بشباب العلم أن يفكر فى استخدامها وتنميتها ... وحين يقرر أن الجزء المنزرع من الوجه البحرى فقط (٢٢٠٠ كيلومتر) يمكن أن يسع سكان الأرض طرا (٢٠٠٠ مليون نسمة) بحيث يخص كل فرد حوالى عشرة أمتار يستطرد فيشير إشارة خفيفة عنيفة إلى أن هذا النصيب الفردى الضئيل لا يحصل عليه كثير من المصريين ، ثم يستطرد فينبه الأثرياء إلى أن حريتهم فى أموالهم يجب أن تخضع للشعور بالمسؤولية وتقدير الواجب . وهكذا .

ولو أن فى الكتاب أيضاً آراء سلفية تردد أقوال سقراط وأفلاطون وحلوكون عن الجمهورية والطيموقراطية والأوليجراكية وهى — بالمعانى التى قصدها — أسماء تكاد تكون معدومة المسمَّيات بل معدومة الوجود والأثر فى عام ١٩٤٦ الذى نعيش فيه ، ويحسن أن نعيش له وللأعوام المقبلة إلا أن الكتاب فى مجموعه كنز ثمين يزيد من قيمته أنه متجه كله نحو الخير والانسانية .

عبد الفتاح البارودى

العدد ٦٩٥ — الاثنين ٢٨ أكتوبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

٢٧٠٣٥

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

يوم الاثنين الموافق ٢٨ أكتوبر

معرض عام

لأحدث أزياء فصل الشتاء

فساتين – معاطف – فراء

(وارد : باريس . لندن . بروكسل . نيويورك)

حرائر (واردة من ليون) قطيفة

برانيط حريمي صنعت من ريش البارادى

(أحدث موديلات باريس)

* شنط حريمى – جوارب نايلون – حمالات نايلون . . .
* كاف – مربعات – كوفيات حريمى من اللاميه ومن الصوف المزركش بالمعدن من محال روديبه . . .
* فراء للكاف ومعاطف من الحمل المحلوق ومن البريتشوانتز . . .
* روب دى شامبر من الحرير روديا . . .
* مشدات للبطن (جين) « سكاندال » مشدات للصدر (سوتيين) كستوس من النايلون . . .
* فساتين للبنات من الفييلا بتطريز مشغول على اليد . . .

عند

شيكوريل

م . ت . ق ٢٦٤٢٦

14 me Année No. 695

Lundi — 28 — 10 — 1946

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٦٩٥ « القاهرة فى يوم الإثنين ٣ ذو الحجة سنة ١٣٦٥ — ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

هـــذه هى الأغلال

للأستاذ عباس محمود العقاد

المسلمون فى حاجة إلى جرعات قوية من قبيل هذه الجرعة التى ناولهم إياها صاحب الفضيلة الأستاذ عبد الله على القصيمى فى كتابه « هذه هى الأغلال ».

لأن الذين يحجمون عن مساعى الحياة اعتقاداً منهم بتحريمها إنما يخرجهم فى هذا الوهم عاملان ضروريان ، وهما عظة الحوادث وعظة المرشدين ، وأحق الناس بإسداء هذه العظة إليهم من يصححون لهم الوهم بأسناد من الكتاب والسنة النبوية ، ومن يرشدونهم لأنهم متدينون يفهمون الدين على وجهه المستقيم ، لا لأنهم ينكرون الأديان فلا يلتقون بهم فى أصل من أصولهم التى يتقبلون منها الحجة والدليل

والكتاب بحق كما وصفه مؤلفه الفاضل « ثورة فى فهم العقل والدين والحياة » لأنه يهجم على سلطان غشوم هو سلطان الجهل ، ومعقل حصين هو معقل العادة ، وجحفل مجر هو جحفل الغوغاء وأشباه الغوغاء ، فيرفع السيف والمعول بغير رهبة ولا هوادة ، ويعتمد سيفاً واحداً ومعولا واحداً فى هذه الثورة الجريئة ، وهما سيف اليقين ومعول البرهان.

فهو يشن الغارة الشعواء على من يقدسون البلاهة ويوجبون على الناس الكسل باسم الاتكال على الله ، ويحرمون تعليم المرأة وتدريبها على فرائض الأمومة والرعاية الاجتماعية ، ويوهنون ثقة الإنسان بنفسه ، وينكرون الحكمة القديمة والعلم الحديث ، ويزعمون أن الزمن يتأخر ولا يرجى فيه من أبناء اليوم والغد رجاء يضيفونه إلى تراث السلف ومآثر المتقدمين

وقد استند فى كثير من معارض النقد على آيات من الكتاب وأمثلة من سير الأنبياء ، وأسانيد من المنطق السليم ، ولم يبال بالسمعة الموروثة ولا بالأنصاب المرفوعة ولا بالأكاذيب المتواترة ، فهاجم أناساً يحسبون من الأئمة المقدسين عند العامة وأشباه العامة ، وذب عن فلاسفة غير مسلمين لم يشهدوا عهد الأديان الكتابية مثل أرسطو وأفلاطون

فلما روى هذه الأبيات :

من أنت يا رسطو ومن　　أفلاط قبلك « يا مبلد »[1]
ما أنتمـــو إلا الفرا　　ش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفســـه　　ولو اهتدى رشداً لأبعد

مهد لها قائلا إنهم « قالوها فى مذمة أولئك الرجال الذين حاولوا فى عصور سحيقة أن يضعوا اللبنات الأولى فى بنيان هذه الحضارة ... » . وعقب عليها مستنكراً أن يكون هؤلاء الرجال

(١) وقد رواها الأستاذ « قد تجدد »

الباحثون » حكمهم حينما أرادوا الدنو من المعرفة ومن العلم حكم الفراش الذى يرى النور المتوقد فيثب عليه »

ثم استطرد بعد صفحات فقال : « ومن البلاء حقاً أنهم لم يُقصروا عند امتداح الجهالة بل قاموا — ببلاهة كثيفة — يمتدحون الجنون والبله والبُله والمجانين ... وهنالك قسم كبير من الأولياء كُتبوا فى الطبقات يسمون بالمجاذيب أو بالأولياء المجاذيب ، وقد أورد الشعرانى فى كتابه طبقات الأولياء الكبرى أسماء طوائف كثيرة من هؤلاء المجذوبين . وكذلك صنع غيره »

أما الفصل الذى تناول فيه موضوع المرأة بعنوان : إنسان هى أم سلعة — فقد قابل به بين أقوال المتطرفين فى الحجر عليها وأقوال المتطرفين فى تخويلها حقوق العمل والحرية ، ووقف بين الطرفين وسطاً يعدل بين هؤلاء وهؤلاء ، ولكنى أحسبه لو خير بينهما لآثر الإطلاق على التكبيل بقيود الحجر والجمود

***

ونحن نوافق الأستاذ القصيمى على الهدف الذى يرمى إليه ، وعلى الآفة التى يشكو منها ، ولكننا نخالفه فى بعض الآراء كما نخالفه فى بعض العبارات ، ولا نخص منها بالذكر هنا إلا جانباً واحداً يلتبس فيه الرأى ويبدو فيه الظاهر على وجه غير وجهه الباطن ، أو وجهه الذى نطلع عليه بعد المراجعة والموازنة بين الحقائق المتقابلة . فرب حقيقة تقابلها حقيقة أكبر منها ، ورب ناحية نراها وحدها فإذا هى مستنكرة ، ونراها فى مكانها من مجموعة النواحى المختلفة ، فإذا هى لازمة لا غناء عنها

هذا الجانب الذى نخصه بالذكر فى هذا المقام هو كلام الأستاذ على فلسفة التصوف إذ يقول : « إن وجه الخطأ فى هذه الفلسفة أنهم اعتقدوا أن الروح والجسد عالمان مستقلان متعاديان ، وأن كلا منهما حرب للآخر ، وأن كلا منهما أيضاً إنما ينمو ويزكو على حساب الآخر . فإذا أهين أحدهما وعذب نما الآخر وترعرع وقام بوظيفته خير قيام ، وإذا أكرم وأريح وأجم أصاب الآخر بالعكس .. وهذه فلسفة عقيمة لا تقف أمام الحقائق . فإن الروح مهما اختلف فى حقيقتها وفى تفسيرها تزكو وتقوى وتقدر على أداء وظيفتها إذا صح الجسم وقوى واستراح ، وتضعف وتخبو وتعجز عن القيام بعملها إذا مرض الجسم أو تعب أو عجز ... وهذه حقيقة هى اليوم فوق مذاهب الشك ، وفى استطاعة الرجل العادى أن يعلم صدق هذا بالملاحظة والاستقراء ... » .

ونحن نقول إن هذه حقيقة لا شك فيها .

ولكننا نقول إنها ليست كل الحقيقة ، أوليست بالحقيقة التى تستغنى عن الرجوع بها إلى جملة الحقائق فى الملكات الروحية والجسدية .

ولعلنا نستعجل الغاية التى نرمى إليها بالإشارة إلى حقيقة أخرى مجسمة لا شك فيها . فما القول مثلا فى الإنسان الذى يقبل على الجسد وحده فيجعله أصلب من الفولاذ وأقدر على حمل الأثقال وجرها من الفرس والبعير ؟ أيقال إن هذا الإنسان قد زاد قوة الروح بزيادة قوة الجسد ؟ أيقال إنه مثل يحتذيه كل إنسان ولا يصيب الأمة نقص فى الملكات إذا اقتدى به كل فرد من أبنائها ؟

لا يقال ذلك ، ولا يقال مع ذلك إنه مثل ضار وخيم العاقبة على أبناء الأمة ، بل يقال إنه لازم ومطلوب ومعقول ، وأن « القصد الحيونى » فى تربية الإنسانية يسمح للرياضة البدنية أن تصطفى لها أفراداً من هذا الطراز ، ويسمح للرياضة الروحية أن تصطفى لها أفراداً من طراز آخر ، ولا تسمح لهذه ولا لتلك بتعميم حكمها على جميع الآحاد .

هذا « القصد الحيوى » هو الحقيقة الكبرى التى تقابل تلك الحقيقة المبسوطة فى كتاب الأستاذ .

فالملكات الإنسانية أكثر وأكبر من أن ينالها إنسان واحد .

ولكنها ينبغى أن تنال . فكيف يمكن أن تنال ؟

إنها لا تنال إلا بالتخصص والتوزيع ، ولا يتأتى هذا التخصص أو هذا التوزيع إذا سوينا بينها جميعاً فى التحصيل ، وألزمنا كل أحد أن تكون له أقساط منها جميعاً على حد سواء .

ولا يقتصر القول هنا على الملكات العقلية أو الروحية التى لا يسهل إحصاؤها ولا تحصيلها ، ولكننا نعم به هذه الملكات ومعها ملكات الحس والجسد ، وهى محدودة متقاربة فى جميع الناس .

فهذه الملكات الجسدية — فضلا عن الملكات العقلية والروحية — قابلة للنمو والمضاعفة إلى الحد الذى لا يخطر لنا على بال ولا نصدقه إلا إذا شهدناه

وقد رأينا ورأى معنا ألوف من أبناء هذا البلد رجلا أكتع يستخدم أصابع قدمه فى أشياء يعجز الكثيرون عن صنعها بأصابع اليدين : يكتب بها ويشعل عيدان الثقاب ويصنع بها القهوة ويصبها فى الأقداح ويشربها ويديرها على الحاضرين ، ويسلك الخيط فى سم الإبرة ويخيط الثوب الممزق ، ويوشك أن يصنع بالقدم كل ما يصنع باليمين أو باليسار .

ورأينا ورأى معنا ألوف من هذا البلد لاعبى البليارد فى المسابقات العامة يتسلمون العصا ثم لا يتركونها إلا بعد مائة وخمسين إصابة أو تزيد ، ولعلهم لايتركونها إلا من تعب أو مجاملة للاعبين الآخرين ، وهم يوجهون بها الأكر إلى حيث يريدون ، ويرسلونها بين خطوط مرسومة لا تدخل الأكر فى بعضها ، ولا تحسب اللعبة إذا لم تدخل فى بعضها الآخر . بحيث لو قال لك قائل إن هؤلاء اللاعبين يجرون الأكر بسلك خفى لجاز لك أن تصدق ما يقول .

ورأينا من يقذف بالحربة على مسافات فتقع حيث شاء ، ورأينا من ينظر فى آثار الأقدام فيخرج منها أثراً واحداً بين عشرات ولو تعدد وضعه بين المئات ، ورأينا من يرمى بالأنشوطة فى الحبل الطويل فيطوق بها عنق الانسان أو الحيوان على مسافة أمتار .

هذه هى الملكات الجسدية المحدودة ، وهذه هى آماد الكمال الذى تبلغ إليه بالتخصص والمرانة والتوزيع .

فما القول إذا حكمنا على الناس جميعاً أن يكسبوا أعضاءهم ملكة من هذه الملكات ؟

إننا نخطىء بهذا أيما خطأ ونعطلهم به عن العمل المفيد .

ولكننا نخطىء كذلك كل الخطأ إذا عاقبنا إنسانا لأنه أتقن ملكة من هذه الملكات الجسدية ، ولو جار فى نفسه على ملكات أخرى يتقنها الآخرون .

فاذا كنا جاوزنا بالقوى الجسدية حدودها المعهودة بالمرانة والتخصيص فما الظن بالقوى الروحية أو العقلية وهى لا تتقارب فى الناس ولا تعرف الحدود .

وإذا كان طالب القوة الروحية يجور على جسده فلما ذا نلومه وننحى عليه ونحن لا نعاقب اللاعب إذا جار على روحه أو عقله فى سبيل إتقان لعبة أو تدريب عضو أو تزجية فراغ ؟

إذا لنا من يجور على جسده لأنه يضر الناس إذا اقتدوا به أجمعين فمن واجبنا أن نلوم كل ذى ملكة وكل ذى عمل وكل ذى ملكة وكل ذى فن وكل ذى رأى من الآراء ... فما من واحد بين هؤلاء إلا وهو يضر الناس إذا اقتدوا به أجمعين .

ومما لا جدال فيه أن نوازع الجسد تحجب الفكر عن بعض الحقائق الاجتماعية فضلا عن الحقائق الكونية الصفاة .

ومما لا جدال فيه أن شواغل العيش وهموم الأسرة عائق عن بعض مطالب الاصلاح فى الحياة اليومية ، فضلا عن الحياة الإنسانية الباقية على مر الدهور .

ومما لا جدال فيه أن طالب القوة الروحية كطالب القوة البدنيـة له حق كحق المصارع ، والملاكم ، وحامل الأثقال فى استكمال ما يشاء من ملكات الإنسان ، ولسنا على حق إذا أخذنا عليه أنه جار على جسده أو لذات عيشه ، لأننا لا نلوم المصارع إذا نقصت فيه ملكة الفن أوملكة العلم أوملكة لروح .

لو أصبح كل الناس مصارعين لفسد كل الناس .

ولكن لا بد من المصارعة مع هذا ، ولا بد من المتفرغين لها إذا أردنا لها البقاء .

ولو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شواغل الدنيا لفسدت الدنيا وبطل معنى الحياة ومعنى الزهد فى الحياة .

ولكن لابد من هذه النزعة فى بعض النفوس ، وإلاقصرنا عن الشأو الأعلى فى مطالب الروح ، وفقدنا ثمرة « التخصص » أو ثمرة « القصد الحيوى » الذى ينظم لنا ثروة الأرواح وثروة العقول وثروة الأبدان .

***

فنحن لا نفنـد الحقيقة التى بسطها الأستاذ القصيمى فى كتابه الجرىء على الباطل .

ولكننا نقابل حقيقته بالحقيقة التى توازنها وتتمم لها موازينها ونقول إن الإفراط فى العناية الروحية كالإفراط فى العناية الجسدية بلاء إذا عم جميع الناس ، ولكن البلاء الذى هو أعظم منه وأقسى على الناس جميعاً أن يبطل فيهم « الاختصاص » ولو كان الإفراط من مستلزماته ، لأن « الإنسانية » كلها تستفيد من زيادة ملكاتها ، وهى لاتزيد إلابنقص فى بعض الآحاد المعدودين .

عباس محمود العقاد

على الطـــــريق

فى سورية ولبنان

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

عميد كلية الآداب

أثبت فى هذا المقال طرَفاً مما شهدت فى طريقى أثناء تجوالى فى سورية ولبنان فى سَفرتى الآخرة

لا أعرض لما شهدت وسمعت فى المجامع والمجالس من آيات الحب والود بين البلاد العربية وإكبار إخواننا فى سورية ولبنان لمصر وأهل مصر ، ولكن أسجل حوادث طارئة ، وأمارات عابرة شهدتها على الطريق لم تصدر عن إعداد أو احتفال أو تكلف بل ترجمت به الأنفس عما فيها ترجمة صادقة خالصة :

سارت بنا باخرة صغيرة اسمها القاهرة من الأسكندرية تؤم بيروت . وكان ركبان الباخرة قليلين أشتاتاً ألَّف بينهم سفر قصير ، ولم أحاول أن أختلط بهم أو أتعرف إليهم ، وتركت نفسى على سجيتها ، والأمور على أذلالها

رأيت شاباً أسمر عربىّ السحنة يتكلم لهجة عذبة بين العامية والفصيحة .

قال : أنا من زحلة ، وأقيم مع أسرتى فى نيكارجوى من أمريكا الوسطى ، وهناك بيتان من العرب فقط ؛ ولكننا نحفظ لغتنا ونحرص على تعلمها والتكلم بها .

قلت : ولكن لغتك عربية خالصة تعلو على العامية .

قال : هذا أثر الدرس والقراءة

قلت : لقد نطق وجهك قبل لسانك بأنك عربى . فسرّ معتزاً

ورأيت كهلا يقيم فى دَكار من بلاد السنغال وقد غاب عن بلده سنين كثيرة زهاء ثمانى عشرة فيما أذكر .

حدثنى الرجل عن مهاجرى العرب فى دكار وعن تجارتهم ومكانتهم وعن العرب من أهل البلاد والمستعربين ، وأفادنى كثيراً من أخبار تلك البلاد وحالاتها . ومن طريف ما أخبرنى أن أهل السنغال شجر بينهم وبين الفرنسيين خلاف ، وامتد بينهم نزاع على بعض الأمور ؛ فقال السنغاليون يهددون فرنسا : نحن عرب ، وسنعمل للانضمام إلى الجامعة العربية

وسمعت عجوزاً من زحلة أو ما يصاقبها من القرى تقول وقد سمعتنا نتحدث عن اللغة العربية وحرص العرب عليها حيثما ساروا وأينما ساروا . قالت : أيترك الإنسان أمه إلى جارتها !

شرحت صدرى ، وأضاءت نفسى هذه الأحاديث وأشباهها وكم أصغْت إلى صاحبى القادم من دكار يحدثنى فى ضوء القمر ، ونحن نساير الساحل الشرقى من البحر الأبيض ، ونرى جباله ومناراته وأضواء بلاده بعيدة خافتة .

ونزلت من الباخرة صباح السبت لعشرة من شهر آب ، وفى سحنتى ولهجتى ما يسر لى الأمور فى الميناء

وأخذت سيارة إلى دمشق ، فلما بلغنا أول مخفر فى سورية وقف عليه السائق وتقدم شرطى ينظر فى السيارة . قلت : أتريد جوازَ السفر ؟ فضحك وقال : عرفناك بلغتك . أهلا وسهلا ، مع السلامة مع السلامة . يعنى أنه عرفنى مصرياً .

ودخلنا مدينة حماة بعد ظهر الإثنين سادس شوال أنا ورفيقى الأستاذ عبد المحسن الحسينى فطعمنا واسترحنا فى فندق أبى الفداء ثم خرجنا نتفرّج ونرى النواعير الهائلة على نهر العاصى ، ونستمع لحنينها الدائم . وكنا على نية زيارة ملك حماة أبى الفداء صاحب التاريخ . فقلت لصاحبى : نرجع إلى الفندق فلن نعدم من يتعرّف بنا ويدلنا على أبى الفداء . فلما بلغنا الفندق رأينا عربة تقف على الفندق ، فقلنا نركب هذه العربة إلى مزار أبى الفداء ، ورأينا رجلا ينزل من العربة وطفلا يبقى فيها ، فانصرفنا عنها ، وإذا الراكب الذى نزل يتقدم إلينا ضاحكا قائلا : أأعجبكما صورة العلم المصرى على ظهر الحصان . إن هذا الهلال والأنجم تصوّر العلم المصرى . قلنا : بارك الله فيك. وسألناه عن الطريق إلى أبى الفداء فعرّفنا نفسه وعرفنا ، فإذا هو من وجوه المدينة ولا أريد ذكر أسماء فى هذا المقال . قال : شرّفوا . ودعانا إلى الركوب . قلنا : معك طفل ، وقد خرجت للتنزه ، أو جئت للجلوس فى هذه الحديقة ، فلا نصدك عما خرجت له . فأبى إلا أن نركب معه . فأجبنا دعوته وسرنا إلى ضريح أبى الفداء فى ظاهر المدينة ؛ ولجنا باباً فرأينا إلى اليمين حجرة صغيرة عليها قبة ، فدخلنا إلى

ضريح قديم كتب عليه اسم أبي الفداء وتاريخ وفاته . ثم هبطنا درجات إلى صحن فيه أنبوب يستخرج الماء من نبع ويستقي منه جيران المسجد . وتقدمنا شطر الجنوب إلى مسجد صغير قيل لنا إن العامة تسميه مسجد الحيايا (أى الحيات) لأن فيه عمداً على صورة الحيات . فدخلنا إلى مصلًى فى جداره القبلى إلى جهة الشرق نافذتان بينهما عمود من الرخام نحت نحتاً عجيباً ، وصورت عليه حبال متداخلة مجدولة كأنها حيات التفّ بعضها على بعض

وأبى كرم السيد الذى شرّفنا بصحبته إلا أن يرينا بعض الدور الأثرية فى حماة . فقلنا : قد رأينا دار العظم فى مهرجان أبى العلاء . فسار بنا إلى حىّ قديم فيه دار كبيرة جليلة مشرفة على العاصى ، هى دار الكيلانى ، فاستأذن لنا من أهلها فدخلنا فرأينا من نظام بيوتنا العتيقة وجمالها وجلالها ما راقنا وسرّنا .

وأمر مضيّفنا السائق أن يتوجه تلقاء داره . فسرنا إلى دار نزهة خارج المدينة على منحنى العاصى مشرفة على النهر يزينها وتزينه ، وجلنا فى الحديقة إلى النواعير الخمس التى ترفع الماء إلى البساتين المجاورة ، فكان مشهداً عجيباً جميلا . وكان لأصوات النواعير وخرير المياه بين الأشجار ومجرى النهر وأشعة الأصيل الشاحبة على النواعير العالية جمال ورهبة وسحر .

ثم جلسنا فى حديقة الدار مطلين على النهر فى حفاوة صاحب الدار وكرمه .

فلما استأذنا أبى إلا أن يعود بنا إلى الفندق ، ولم يستجب رجاءنا إذ أشرنا عليه بالاستراحة فى داره ، وكان يشكو ألماً يقطع عليه حديثه بين الحين والحين . ورجع بنا إلى الفندق وجلس معنا فى المقهى حيناً ، وقام ليذهب إلى الطبيب معتذراً إلينا . وقد ألح علينا أن نبقى إلى الغد ، فعرّفناه أنا أزمعنا السفر ليلاً إلى حلب

فهذه حفاوة سيد من سادات حماة بمصريين قابلاه على الطريق دون معرفة سابقة . بارك الله فيه وفى طفله بشّار الذى آنسنا بصحبته وراقنا بمخايله وبما قصّ والده من أحاديث ذكائه .

وليس هذا إلا مثلا كريماً مما يلقاه المصرىّ فى الشام حيث توجّه !

* * *

وأزمعنا السفر إلى حلب بالقطار ، وعلمنا أنه يبرح محطة حماة والساعة ثلاث ونصف بعد نصف الليل ؛ فلم يثن هذا عزمنا وتركنا الفندق والساعة اثنتان ونصف .

وبينا نحن فى انتظار القطار تقدم نحونا شرطىّ عرفنا بوجوهنا أو لهجتنا ، فتحدث إلينا وتلطف . وساق الحديث إلى ثورة سورية وبلاء أهل حماة ، وأفاض الرجل فى الحديث ، ثم تكلم عن الجامعة العربية ، وعن عبد الرحمن عزام فأثنى عليه . ثم نظر إلى وقال : أرى فيك والله شبهاً منه . فضحكت وقلت : هل رأيته ؟ قال : رأيت صورته . وما زال الرجل يتعهدنا حتى أركبنا القطار وودّعنا .

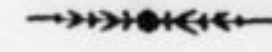
فهذا شرطىّ فى محطة صغيرة فى أخريات الليل لم يشغله عمله وتعبه عن الحديث والمودة . ولم يقصر علمه عن معرفة البلاد العربية والجامعة العربية ورجالها .

(للكلام صلة) **عبد الوهاب عزام**

فتح عكا

(٦٩٠ هجرية — ١٢٩١ ميلادية)

للأستاذ أحمد رمزي بك



جاء فى نهاية المقال القيم الذى كتبه الأستاذ محمود عزت عرفة بعدد الرسالة رقم٦٩٣ أن سقوط عكا بيد المسلمين كان فى عهد الملك الظاهر بيبرس ، والحقيقة أن الفتح تم فى عهد الملك الشهيد الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون فى سنة ٦٩٠ هجرية ١٢٩١ ميلادية ، وقد تم على يده فتح صور وصيدا وبيروت وغيرها من مدن الساحل فأعادها إلى الاسلام ، وأطلق على هذه الحروب إسم الفتوحات الأشرفية ، واستمر المسلمون قرونا بالساحل والجبل يؤرخون بهذا الفتح فيقولون تم هذا فى أيام الفتح الأشرفى أو بعده أو قبله . وفى بيروت حىّ مشهور اسمه حىّ الأشرفية نسبة إلى ملك مصر الشهيد الأشرف خليل بن قلاوون ، وقد ذكر جيبون المؤرخ الانجليزى نهاية هذه الحروب وهذا الفتح فقال : « ساد سكون محزن على امتداد ذلك الساحل الذى ظلّ أزماناً طويلة ميداناً تسمع فيه قعقعة سيوف نضال العالم » .

وهذا الفتح من أهم الفتوحات الاسلامية التى منّ الله بها على مصر الاسلامية فى أزهى عصورها بل جعل منها دولة مهيبة الجانب يخشاها العدو ويرهبها الصديق ، وبقيت موضع رعب أوربا حتى موقعة امبابة أيام نابليون .

ويقول ابن الفرات فى كتابه إن سلطان مصر لما عزم على التوجه إلى حصار عكا أمر بجمع العلماء والقضاة والأعيان والقراء بتربة والده الملك المنصور وهى لا تزال بالقاهرة إلى اليوم وتعدّ تحفة من تحف الفن الاسلامى العربى ومفخرة من مفاخر ذلك العصر . أرجو أن تذهب لرؤيتها وإشباع النظر بها .

قال إنهم اجتمعوا فى ليلة الجمعة الثامن والعشرين من صفر من هذه السنة ، وباتوا بالقبة المنصورية يقرأون القرآن الكريم ، وحضر الملك الأشرف إلى التربة فى بكرة نهار الجمعة وتصدّق بالهبات وفرّق على القراء والفقراء أموالا كثيرة غير الكسَى والهدايا التى وزعها على أهل المدارس والرباطات والزوايا . كأنه كان يودع والده حينما عزم على التوجه للجهاد .

وفى الثامن من ربيع الأول نزل السلطان من القلعة وتوجه بالعساكر المنصورة إلى دمشق وسار منها حتى نزل على عكا وحاصرها وسدّ الطرق عليها ، وكان الفرنجة لما بلغهم مسير الجيوش الاسلامية المصرية وعزم السلطان على محاصرة مدينتهم فى قلق زائد ، ولذلك كتبوا إلى ملوكهم وسألوهم النجدة . فاجتمع لديهم جموع من مختلف مللهم ونحلهم . ويقول السير وليم مور « إن جزيرة قبرص بعثت بنجدة إليهم » ، ولكن الذى يظهر من كلام المؤرخين المعاصرين أن أكثر النجدة أتت إليهم من الأرمن المقيمين بالمشرق .

وليس فى عزمى شرح المعارك التى ظهر بها المسلمون على الصليبيين فى آخر عهدهم ، ولا ذكر القتال يوماً بعد يوم وتتبع الشهداء والقواد وأهل الرياسة من جند مصر والشام فتلك ملحمة من ملاحم الاسلام أجمع لها المواد ليوم قريب بإذن الله ؛ كما أنه ليس فى العزم أن أكتب عن الملك الشهيد الأشرف خليل وحياته ، ولذلك نمرّ على ذلك مراً ، ونكتفى بشهادة بعض المعاصرين نقلا عن صاحب النجوم الزاهرة .

قال النويرى : « كان ملكا مهيباً شجاعاً مقداماً جسوراً جواداً كريماً » .

وقال الذهبى : « لو طالت أيامه لأخذ العراق وغيرها . فانه كان بطلا شجاعاً مقداماً مهيباً عالى الهمة » .

وقال صاحب النجوم « وجمهور الناس على أنه أشجع ملوك الترك قديماً وحديثاً بلا مدافعة ، ثم من بعده الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق ، وشهرتهما فى ذلك تغنى عن الاطناب فى ذكرهما » .

ولقد كان الأمير بيبرس المنصورى شاهد عيان لمعركة عكا ،

ولذلك أطنب فى وصفها ووضع ذلك فى كتابه « زبدة الفكرة » وقال إن هذا الفتح العظيم جاء فى يوم الجمعة المبارك السابع عشر من جمادى الآخرة من سنة ٦٩٠ ، وإن عكا انتزعت من يد المسلمين فى عهد صلاح الدين سنة ٥٨٧ ، وبقيت بيد الصليبيين ١٠٣ سنة ، وختم كلته بقوله : « لله الحمد على انتصار المسلمين واستظهار الموحدين بهمة أولى الهمم العلية ، والعزمات المنصورة المنصورية (نسبة إلى المنصور قلاوون) الأشرفية (نسبة إلى الأشرف خليل) ، ولا شك فى أن هذه الطائفة أربت على الأول ونالت بها الدولة من النصرة والنضرة ما لم تنله الدول » .

ويصف السير وليم موير فى كتابه « تاريخ دولة المماليك » سقوط آخر معقل للصليبيين بالمشرق والحقد يأكل قلبه فهو لا يترك نقيصة إلا ألصقها بالمسلمين وملكهم فيقول : « حتى الفرسان الذين وُعدوا بأن يفسح لهم طريق النجاة أمر السلطان بقطع رقابهم جميعاً بدون رحمة ، وأن ما لاقاه أهل بيروت من إهدار دمائهم وقتلهم صبراً لا يقل فظاعة عما وقع فى عكا » . يسوق كل هذا ولا يبين لنا أسباب هذا الغدر من الجانبين .

ولقد احتفلت العاصمتان مصر ودمشق بهذا الفتح الأشرفى العظيم ، ولما دخل الأشرف مدينة دمشق زينت له الشوارع وأقيمت القباب وأقواس النصر ، ودخل وبين يديه الأسرى من الفرنج تحت الخيول وفى أرجلهم القيود وأعلامهم منكسة ، ولما دخل مصر شق المدينة من باب النصر إلى باب زويلة ، وأقيمت له الاحتفالات الشائقة .

ولما كثرت الأقاويل والروايات عن هذا الفتح ، وصرح كثيرون أنهم تنبأوا به قبل وقوعه ، وقال بيبرس المنصورى : ولما أتاح الله هـذا الفتح وسهله وأباحه وعجّله قرظه الشعراء ، وذكره الفضلاء » .

وقد اطلعت فى كتاب ابن الفرات على الكثير من القصائد التى قيلت أعجبنى منها بعض الأبيات أنقلها لقراء « الرسالة » .

فمن قصيدة الشيخ بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنجى التاجر المقيم بالقاهرة :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل
وفُت شأو ملوك الأعصر الأول

ونلت بالحول دون الناس منفرداً
ما لم تنله ملوك الأرض بالحيل

وهى طويلة فيها العربية السهلة وبعض الألفاظ العامية ومن الغريب أن يأتى بعد خمسة قرون من ينحو نحوها ويقول :

ماذا أقول وكيف القول فى ملك
قد فاق كل ملوك الأعصر الأول

وقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر أظنه صاحب سيرة الملك الظاهر :

يا بنى الأصفر قد حل بكم · نقمة الله التى لا تنفصل
قد نزل الأشرف فى ساحلكم · فابشروا منه بصفع متصل

وكتب القاضى شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبى كاتب الانشاء قصيدة أطول من كل هذا نحا فيها نحو صاحب قصيدة « السيف أصدق أنباء من الكتب » ، وقلّد عباراته وتشبيهاته جاء فيها :

بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت
بك الممالك واستعلت على الرتب

فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها
مدّت إليك نواصيها بلا نصب

أدركت ثأر صلاح الدين إذ غضبت
منه لسر طـــواه الله فى اللقب

إن عكا مدينة عزيزة على القلب بذكرياتها ، اقلب صفحات الفتح الأشرفى فاقرأها بجانب صفحات من عاصر صلاح الدين وعاين قلقه على جنوده المحاصرين بقلعتها . أمضيت أياماً أسجل من سيرته تنقلاته فى التلول المقابلة لسهول عكا ، وأتابع تلك النفس العظيمة ، ولذلك كنت كلما مررت بهذه الجهات يخفق قلبى وتهتز نفسى شوقاً إلى أرواح الشهداء الذين ماتوا على تلك البقعة التى تجمع مع الطهارة الخلود فى نفس كل مسلم .

أحمد رمزى

من صميم الحياة ...

للاســـتاذ على الطنطاوى

هذه قصة شاب مدرس فى ثانوية من ثانويات البنات فى بلد من بلاد الله حديث السن لم يجاوز إلى الآن الرابعة والعشرين ، معتزل متفرد عاكف على كتبه ودفاتره ، لا يخالط الناس ، وليس ممن يبتغى الظهور فيهم والحظوة لديهم ، فلا يحاول أحد من القراء أن يبحث عنه أو يسعى إلى معرفته ، وليكتفوا من قصته التى قصها علىّ بمكان العبرة منها ، إذا كان قد بقى فى القارئين من يفتش على العبرة ، أو يسعى إلى الاعتبار ...

***

وهذا الشاب ابن صديق من أدنى أصدقائى إلى قلبى ، وكان فى صباه تلميذاً لى ، وكان من أذكى الطلاب قلباً ، وأطهرهم نفساً ، وأمتنهم خلقاً ، وأتقاهم لله فى سرّ وفى علن ، وكان على صغره جاداً بعيداً عن المزاح ، مجتنباً الهزل ، باراً بأمه وأبيه ، لايعرف إلامدرسته وبيته ، لم يُرَ قط واقفاً فى طريق ، أو ماشياً إلى لهو ، وثبت على ذلك حتى شبّ وأكمل الدراسة ، وفارق المدرسة ، وهو لم يدخل قهوة ولاسينما ، ولم يصاحب أحداً أبداً ، ولم يجالس امرأة غير أمه ولم يكلمها . .

وكان لذلك بمنزلة الأخ الأصغر منى ، أحبه محبة الابن ، ويجلنى إجلال الوالد ، وكان ينفض إلىّ دخيلته ، ويكشف لى سريرته ، وكان من مزاياه أنه صادق اللهجة ، لم أجرّب عليه فى هذه المدة الطويلة كذباً قط ...

***

وانقطع عنى مدة طويلة ، ثم رأيته فأخبرنى أن والديه قد توفيا بالتيفوئيد فى شهر واحد ، وأنه غدا وحيداً فاحترف التعليم ، وبعثتْ به الوزارة ، لما تعلم من عظم أخلاقه ، إلى مدرسة ثانوية للبنات ، فثار وأبى وطلب نقله إلى غيرها من مدارس البنين ، فما زالوا به يداورونه ويقنعونه بأنه إن كان معلمَ البنات رجل مثله ، فذلك خير لهن من أن يدخل عليهن فاسق خبيث ، وإن قبوله التدريس فى هذه المدرسة قربة إلى الله ، فخدع المسكين وقبل!

قال : وبتّ ليلة افتتاح المدرسة بليلة نابغيّة لم ينطبق فيها جفناى ، من الفكر والوساوس والمخاوف ، فلما أصبح الصباح ذهبت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، حتى دخلت المدرسة ، فما راعنى عند الباب إلا أن فتاتين كاملتى الأنوثة ليستا بالصغيرتين ولا القاصرتين قد دخلتا أمامى ، فلما صارتا من داخل ألقتا عنهما الخمار ، فعادتا كأنهما فى دارهما . وتلفتّ حولى فإذا ملء الساحة فتيات نواهد نواضج الأجساد ، قد حسرن ورحن يلعبن ويمشين وهنّ بالثياب الحريرية الزاهية ، شعورهن مهدّلات على الأكتاف ، والسواعد عاريات والسيقان ، فأحسست كأنما قد صبّ علىّ دلو من الماء الحامى ، فاحترقت منه أعصابى ، فاستدرت راجعاً ونفضت يدى من الوظيفة ، وقلت : الرزق على الله !

وقصدت بيتى فما وسعنى والله البيت ، ووسوس إلىّ (لا أكتمك) الشيطان ، وزين لى تلك المتعة بمعاشرة أولئك الفتيات ، والحياة بينهن ، فاستعذت بالله ، وأعرضت عنه ، وذهبت أفتش عن عمل غير هذا ، فسدّت فى وجهى الأبواب إلا هذا الباب ، ولاحقتنى الوزارة وإدارة المدرسة حتى عدت مكرهاً . .

وأنا رجل رضت نفسى على العفاف ، وأخذتها بضروب الرياضات حتى سكنت شِرّتها ، ولكنها مع ذلك كانت تثور بى كلما سبقت عينى وأنا غافل إلى فتاة فى الشارع كاشفة ، أو سمعت أذنى حديثاً من أحاديث الشبان سقط إلىّ وأنا لا أطلبه ، أو قرأت (وقلما أقرأ) قصة خليعة ، أو نظرت (ونادر أن أنظر) مجلة من هذه المجلات الداعرة الخبيثة وما المرأة التى يفتش عنها الشبان ويتحدثون عنها إلا هذه النّصف التى تصلح ما أبلى منها الدهر بالثياب والأصباغ وما عند العطار ، والتى تقاذفتها الأيدى حتى صارت كالغصن الذاوى وكالثوب الخَلَق ، فما بالك بشاب كتب عليه أن يعاشر النهار كله فتيات كزهرة الفلّ ، أو كالغلالة الجديدة ، لم تمسسهن يد بشر ، ولم يعرفن من تجارب الحياة ما يتقين به شبا كها ، ويطلب منه أن يكون عفيفاً شريفاً ، وأن يكنّ هن أيضاً عفيفات شريفات ، وله فى نفوسهن مثل الذى لهن فى نفسه ؟

يا أستاذ ! إن الخطر أشد مما تتوهمون أنتم معشر الكتاب المعتزلين في بيوتهم أو في أبراجهم العاجية ، كما يقولون عن أنفسهم ، الخطر أشد بكثير .. شباب وشابات ، يُعيي كلاً منهما أن يشم ريح الآخر من مسيرة فرسخ ، يجتمعون على دروس الأدب وقراءة أشعار الغزل ... تصور (يا أستاذ) المدرس يلقى على طالباته حديث ولاَّدة وابن زيدون ، وإنها كتبت كما رووا (كذباً أو صدقاً) على حاشية ثوبها :

أمكن عاشقي من صحن خدي وأمنح قبلتي من يشتهيها

ويمضي يشرح لهن ذلك ويفسره لهن .. حالة فظيعة جداً يا أستاذ ... ولو كن كبيرات مسنات ، أو كن مستورات محجبات ، أو لو كن صائمات مصليات يخفن الله ، لهان الأمر ، ولكنهم يجتمعون بهن على سفور وحسور وتكشف ، وتنطلق البنت حرة تزور معلمها في داره ، وتمشي معه إن دعاها إلى السينما أو المتنزه ، كذلك يرى الآباء اليوم بناتهم فلا ينكرون ذلك عليهم .. !

أنا لا أقول إن الآباء كلهم لا يهمهم أعراض بناتهم ، وأن كل أب قرنان ، معاذ الله أن أقول ذلك ، ولكن هؤلاء الآباء قوم مغفلون ، أعمى أبصارهم بريق الحضارة الغربية فحسبوا كل شيء يجيء من الغرب هو خير وأعظم أجراً ، ولو كان ذهاب الأعراض والأديان والأبدان ! إن هؤلاء كالنعامة يلحقها الصياد فتفر منه حتى إذا عجزت أغمضت عينيها ودست رأسها في التراب لظنها أنها إذا لم تبصر الصياد ، فإن الصياد لا يراها ! إن هذا الأب يحسب أن كل رجل ينظر إلى ابنته بعينه هو ، وطبيعي منه ألا ينظر هو إليها بعين الشهوة ، فلذلك يطلقها في الشارع ، ويبعث بها إلى المدرسة على شكل يفتن العابد ، ويحرك الشيخ الفاني .. !

***

دخلت يا سيدي ودرست ، وكنت أغض بصري ما استطعت وأحافظ على وقاري ، ولا أنظر في وجوه الطالبات إلا عابساً ، ولا أقول كلمة في غير الدرس المقرر ، وكنت مع ذلك أداري من أثرهن في أعصابي مثل شفرة السيف الحديد ، وإذا قرع الجرس خرجت قبلهن مهرولا حتى لا أماشيهن ولا أدنو منهن ، فذهبت مسرعاً إلى داري أصلي وأسأل الله أن يصرف عني هذه المحنة ، وأن يجعل رزقي في غير هذا المكان ، وكنت أصوم وأقلل الطعام لأطفئ هذه النار ، فإذا مشيت إلى الفصل وسمعت كلامهن ، وسبقت عيني إلى بعض ما يبدين من أعضائهن وزينتهن زادت ضراماً واشتعالا .. !

وكان فيهن طالبة هي ... لا .. لست أصفها ولا ينفعك وصفها ، وحسبك أن تعلم أنها زكية ومتقدمة في رفيقاتها ، وأنها من أسرة من أنبل الأسر ، وأنها فوق ذلك جميلة جداً .. جداً .. إنها تمثال ، هل رأيت مرة تماثيل الجمال والفتنة ... ؟ وكانت كلما نظرت إليَّ قرأت في عينيها كتاباً مفتوحاً ، رسالة صريحة لي أنا وحدي ، وأحسست منها بمثل شرارات الكهرباء تحرق قلبي ... فكنت أزداد عبوساً وإعراضاً ، فلا يردها عبوسي ولا يثنيها إعراضي ، وأسرعت مرة وورائي وأنا خارج وهي تناديني : « سؤال يا أستاذ » ... ولها في صوتها رنة ... يا لطيف .. ! فوقفت لها فجعلت تدنو مني حتى شعرت كأني الامس ... الامس ما ذا ؟ لا أجد والله شيئاً أشبهها به ، لأنه ليس في الدنيا شيء آخر له مثل هذا التأثير ... فهربت منها وأسرعت إلى الدار ، وحرصت على ألا أدعها أو أدع غيرها تفعل مثل هذا !

وكنت أكتب الدرس في كراس وأدفعه إليهن لينسخنه ، فهو يدور عليهن ، فلما كانت نوبتها عاد إليَّ الكراس وفيه هذه الأبيات لعلي بن الجهم :

نطق الهوى بجوى هو الحق ومَلَكتني فليهنك الرق
رفقاً بقلبي يا معذبه رفقاً وليس لظالم رفق
وإذا رأيتك لا تكلمني ضاقت عليَّ الأرض والأفق

مكتوبة بخطها منقولة من (المنتخب) ، فمحوتها وكتمت الأمر ، وعقدت العزم عقداً مبرماً على ترك التدريس ، وخرجت من الفصل بهذه العزيمة ، وكان في الساحة تلميذات فرقة أخرى في درس الرياضة ، وقد اصطففن بالشلحات ، كاشفات الأفخاذ والأذرع ، راسخات النهود ، يقفن كذلك بين الرجال (والمعلمون كلهم رجال) ... فكبر رأسي وأسرعت إلى الشارع ، وقد حلفت ألا أعود ولو مت جوعاً ، وبعثت بكتاب الاستقالة !

ومرت أيام وكنت وحدى فى الدار — وأنا وحدى دائماً ليس لى زوجة ولا قريب — فإذا الباب يقرع ، فقمت ففتحت وإذا بها تدخل علىّ ، وتغلق الباب وراءها ، وترفع الغشاء عن وجهها ، وتلقى المعطف عن منكبيها ، وكأن تحت جلدها الأبيض المورَّد الناعم أنهاراً من الدماء تجيش بالرغبة ... مثل الشلالات المتحدرة ، وجلست أمامى كما تجلس أمام زوجها . . وقعدت تحدثنى تطلب درساً خصوصياً ، وعيناها تحدثاننى تطلبان غير الدرس ... ولست يا أستاذى رجل سوء ولا أليف دعارة ، ولكنى رجل على كل حال ... فلما رأيتها فى دارى ... وتحت يدى ... والباب مغلق ... وهى تريد ... ملكنى الشيطان ... ورأيت الدنيا تدور بى ، ولما حاولت أن أتكلم اختنق صوتى ثم خرج وفيه بحة غريبة كأنى أسمع معها صوت إنسان آخر غيرى ، وهممت يا أستاذ ... ولكن صوت الدين رنّ فى أذنى ، ينادى لآخر مرة كما يصرخ الغريق آخر صرخاته ... فاستجبت له ... ولو أعرضت عنه لحظة لضاعت هذه الفرصة إلى الأبد ، ولخسرت أنا والبنت الدنيا والآخرة من أجل لذة لحظة واحدة ... لم أتردد بل قلت لها بصوت بارد كالثلج ، قاطع كالسيف ، خشن كالمبرد : « يا آنسة ، أنا آسف ، إن هذه الزيارة لا تليق بطالبة شريفة ، فاخرجى حالا ! » ... وفتحت لها الباب وأغلقته خلفها ، وتم ذلك كله فى دقيقة !

ولما خرجتْ ندمت ... نعم ندمت ... وعاد الشيطان يوسوس لى ، وضاق بى المنزل حتى كأنى فيه محبوس فى صندوق مقفل ، ولم أعد أدرى ما ذا أصنع ، وأحسست أنى أضعت كنزاً وقع إلىّ ، وتغلبت غريزتى ، فأخفت صوتها صوت الدين والعقل ، وأحسست توتراً فى أعصابى ، حتى وجدت الرغبة فى أن أعضّ يدى بأسنانى ، أو أضرب رأسى بالجدار ، وعدت أتمثل حركاتها ونظراتها ... فأراها أجمل مما هى عليه ، وأحس بها فى نفسى ، فكأنى لا أزال أشم عطرها ، وأرى جمالها ، بل لقد مددت يدى لأمسك بها ، فإذا أنا أقبض على الهواء ، وخيَّل لى الشيطان أن هذه البنت لم تعد تستطيع البصر بعد أن أذكى هذا النظام المدرسى نار غريزتها ، وأنها ستمنح هذه الـ ... هذه النعمة رجلا غيرى ... فصرت كالمجنون حقاً ، وحاولت أن أقرأ ففتحت كتاباً فلم أبصر فيه شيئاً إلا صورتها ، وأردت الخروج فرأيتنى أنفر من لقاء أىّ من أصحابى كان ولا أريد إلا إياها ، وحسدت إخوانى المدرسين الذين لم يتربوا مثل تربيتى الصالحة ، فتمنعهم من الانطلاق فى هذه اللذائذ انطلاق الذئب فى لحم القطيع الطرىّ !

والعفو يا أستاذ إذا صدقت فى تصوير ما وجدت ، فأنت أستاذى أشكو إليك ، وأنت الرجل الأديب قبل أن تكون الشيخ والقاضى ، فقل الآن ما ذا أصنع ؟ إنى تركت التدريس واشتغلت بغيره ، ولكنى لم أستطع أن أنساها ، ولو أنا أردت وصالها لقدرت عليه ولكنى لا أريد ، فما ذا أصنع يا أستاذ ؟ لقد حاولت الزواج ، فرأيت الأب الذى لا يكاد يمنع ابنته حراماً لا يمنحها حلالا إلا بمهر وتكاليف يستحيل دفعها على مثلى ، فأيست من الزواج ، فما ذا أصنع ؟

* * *

ما ذا يصنع يا أيها القراء ؟ قولوا ، فإنى لم أجد والله ما أقول!

(دمشق) علي الطنطاوي

زورق الأحــلام ...

للاستاذ عبد المنعم خلاف

هذه السفينة الجوية الجبارة التى طارت فى أربعين ساعة من هونولولو إلى القاهرة فى مرحلة واحدة ، مصعدة إلى جزر الوشيان وشبه جزيرة ألاسكاو منطقة القطب الشمالى ، ثم حادرة إلى جزر جرينلند وأيسلند والجزر البريطانية والقارة الأوربية والبحر المتوسط ، مخترقة أجواء مختلفة ومناطق متضادة ، حاملة عشرة رجال من طلائع الإنسانية الحديثة ... إنها زورق أحلام حقاً تطير به الإنسانية كلها من أمسها إلى غدها فى غزوة من غزواتها للطبيعة

أجل، ليس الذين طارت بهم عشرة وحسب ، وإنما هم الإنسانية كلها عبرت حاجزاً ، وكسرت قيداً ، وتخطت عقبات ، وكشفت مجهولا ، وأدخلته فى رحاب المعلوم ، وصححت أخطاء ، ومهدت طريقاً لنفسها فى سعيها الحثيث نحو صوب مجهول ...

وإنه لزورق أحلام حقاً عاشت به الإنسانية الواعية الراصدة فى حلم سعيد ما لبث معبّر الزمان أن أوّله وعبره مع فلق صباح جميل على أرض النيل ...

وقد أحسست قلبى يرافق هؤلاء العشرة حين علم بانطلاق ذلك الزورق من قيود الأرض هناك فى هونولولو ، فإن فيهم سر نوعه الذى وثق به وآمن بمستقبله ودعا إلى ذلك ...

وإنها للحظة فرح عميق سجلت على لوح الأرض حين بلغ هذا الزورق مرساه فى غزوة من غزوات الإنسان لحصون الزمان والمكان ...

ولو قيل للناس : إن مَلكاً أو جنّيا سيطير إليكم من هونولولو إلى النيل لخرجوا إليه فى يوم مشهود مجموع له ليزوّدوا فضولهم ونهمهم بحديث متاع لا يزالون يجترّونه ويذيعون سيرته مدى أعمارهم ... ولكن الذين طاروا كانوا عشرة من الناس ذوى الوجوه المألوفة والأجسام المحدودة المعروفة ، ولذلك قل من أبه لهم من هذا الجنس الذى لا يزال ذاهلا عن قيمة ما يصنع فى فتوح العلم وقيمتها فى عقائد الحياة ...

***

إن فرحى بوصول زورق الأحلام فى هذا الأوان الذى يجادلنى فيه المجادلون فى قيمة الإنسان لا يعدله إلا فرحى يوم طالعت الإعلان عن كتابى « أومن بالإنسان » فى جريدة الأهرام منشوراً تحت خبر الوصول إلى سر القنبلة الذرية الذى أعلنه ترومان وأتلى ، فشعرت أن هذا التوافق المصادف إشارة موافقة من الأقدار على فكرة الكتاب ! ولقد ظل هذا الإعلان ينتظر فى الأهرام دوره فى النشر ما يزيد على شهر حتى أتى ذلك اليوم . ولو خيرت ما اخترت غير هذه المناسبة للاعلان ولو تأخر شهوراً أخرى ... ولو طولبت بأجر على ذلك التأخير وتلك الموافقة التاريخية لدفعته عن طيب خاطر ؛ فإنه ليس بالقليل أن ترى الأقدار تؤنسك بلفتة من لفتاتها وتتطوع لتصديق رأيك بتقديم دليل جديد يؤيدك وأنت فى شك مما سيقابلك الناس به غداة الإعلان على رءوس الأشهاد عن قضيتك : « أومن بالإنسان » !

وحسبك من جزاء على التبشير بمستقبل الإنسان فى زمن الشك والجحود به أن ترى أو تسمع كلمة تصديق وتشجيع ينطق بها ناطق الزمان فجأة وعلى غير انتظار !

وإنه لنصر فى أول الطريق يثير الشجاعة إلى المضى إلى آخره حين تحس أن الكون معك بهتافاته وإرهاصاته !

وإن القضية التى يُعلن عنها وتدخل إلى الأذهان مع صدى ذلك الطارق الجبار العنيف الذى تنسف القدرة الإنسانية به مدينة فى لحظة تترك عاليها سافلها ، لقضية ينبغى أن تكون أسلوباً جديداً من أسلوب تجديد الدعوة الدينية ، دعوة إقرار القيمة العليا التى للوجود ورب الوجود وخليفته فى الأرض !

***

إن خطوات الفكر الإنسانى فى مجالات العلم السرية والجهرية خطوات متلاحقة تطالعنا بها الصحف والمجلات مع كل صباح ، ولكن طى الأبعاد والمسافات الشاسعة فى سرعة بالجسم البشرى الثقيل ، رهين الأحباس والقيود بطيران يخترق حجاباً وراء حجاب ، ويركب طبقاً عن طبق فوق الضباب والسحاب والتراب ،

وبين المناطق المتضادة الجواء، وعند قمة الأرض فى قطبها الشمالى، حيث البقاع التى يعمرها السكون الموحش والصمت المطبق والمناطق البكر والسهوب المثلجبة التى تتجمد فيها الحياة وتضل فيها خطرات الظنون والأوهام — يجعل أمر اليوم الذى حمله زورق الأحلام أمراً خطيراً كبيراً يراه العوام قبل الخواص، فيشعرون جميعاً أن هذا هو المجال الأصيل للجهد الإنسانى كله لو عقل الناس!

أيها الزورق العابر مناطق الجو وفضاء النفس البشرية! القاهر لما فى الآفاق من سدود وعوائق، ولما فى النفس من شكوك وقيود تقعد بالإرادة البشرية عند العجز القديم الذى يقعد ببنى الإنسان عن أن يبلغوا غايتهم من السيادة التى أرادها لهم خالقهم حين ينبههم كل يوم إلى أنه ليس هناك باب فى الطبيعة مكتوب عليه « ممنوع الدخول » إذا ما كان فى أيديهم المفتاح!

لقد كانت حمولتك أيها الزورق من أحلام البشرية العالمة الراصدة أضعاف حمولتك من ثقل الحديد والفولاذ والوقود وأجسام ملاحيك!

ولقد سلمت تلك الأحلام من الارتطام بصخور العجز والشك والوهن والكسل عن الاقتحام حين سلمت أثقالك من الارتطام بصخور الأرض!

وإن اليد الإلهية التى حملتك وسددتك إلى غايتك من غزو المجهول وكشف المستور وتصحيح المغلوط، إنما هى يد تشير بالموافقة وتلوح للقاعدين على التراب أن هُبُّوا ويحكم أيها النوّام إلى السحاب، ولا تقعد بكم عقائد الجهل ومثبطات الهمم عن محاولة الانطلاق وراء أحلامكم الطليقة ما دامت لا تبطل حقاً ولا تحق باطلا

وما كانت عبثاً تلك الطاقات المذخورة من الأحلام التى عشتم بها أيام العجز القديم، ورفرف بها خيالكم حول عالم القدرة والحرية ...

أجل، ما كان ذلك عبثاً، وإنما كان إعداداً لهذا الحاضر، وتدريبا باللعب على مستقبل حياة الجد والاكتمال، وإرهافا للعزائم والإرادات، ودفعا لها إلى أن تحاول تحقيق الأحلام فى عالم اليقظة!

أيها الزورق! لقد ألقيت بحمولتك من الأحلام التى حملتها من تلك الجزيرة التى كانت مجهولة غائبة فى المحيط الأعظم إلى أرض النيل التى عُرفت فى دفاتر التاريخ أنها أول أرض حاول الإنسان فيها تحقيق الأحلام وتجسيم الآمال، وحبت الإنسانية على عتباتها ودرجت وخطت إلى بعض غاياتها فى الآلاف الأربعة قبل الميلاد، فكأن هذه الرحلة عبور لطريق الحضارة الإنسانية من آخرها فى أمريكا إلى أولها فى مصر ...

وكم ذا من الآماد بين الأمس البعيد واليوم! وكم من جثث الرواد الذين عبدوا هذا الطريق مطروحة على حافتيه! وكم رأى هذا الطريق من وجوه تطلعت فى نهاياته البعيدة فهالها بعد الشقة فقعدت حيث ولدت إلى أن ماتت ودفنت فى حفره وأغواره! وكم قرعته أقدام القافلة الإنسانية فى وقع رهيب وزحف ودبيب، وصلصلة قيود وأصفاد جعلتها تسير ثقيلة الخطى، محرومة الهدى مطموسة الأفق!

واليوم أيها الزورق الحالم، تأتى طائراً فى أربعين ساعة من أقصى الأرض، وفى هبوة من هبوات الرياح تثير غباراً فى أثرك هو لا شك رفات مسحوق من عظام أولئك الرواد الذى ماتوا على الطريق ودفنوا فيه!

وحسبهم عزاء أنهم رأوا ذواتهم غباراً يلحق ذيلك الجرار... وأن رأوا أحفادهم يمتطونك فى خيلاء القوة، وعزة الحديد وقبضة العلم كأنهم ركب من الجن فى زى ناس..

وهل تملك الجن الحمراء أن تطير فى عالم الثلوج البيضاء؟!

أفتِنا يا سليمان! فإنك أعلم الناس بعالم الريح، وصاحبُ البساط ومسخّر الجن وملهب ظهورها بالسياط!

وعليك السلام، فقد كنت ثمرة مبكرة فى شجرة الإنسانية أمدت أحلامها وغذت آمالها وأفهمتها أن أحلام القدرة والانطلاق فى حيز الإمكان، فلم تيأس حتى وصلتْ إلى تلك « الكرامات » العامة بعد تلك « الكرامات » الخاصة التى صنعها الله لبعض أصفيائه ليشير للنوع بهم إلى طريق التحرر والقدرة والانطلاق!

عبد المنعم خلاف

خاتمة فلســفية ....!

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

تلك هي الخاتمة التي انتهى إليها الأستاذ عباس محمود العقاد .

ولم تكن هذه الخاتمة غريبة على هـذا الـكاتب الذي بدأ حياته أديباً ، ناقداً ، شاعراً ، وكل شيء إلا الفلسفة . فقد يبدو للقارىء العادي أن معالجته الفلسفة الحقيقية مما يتنافى مع مظاهر كتاباته وكتبه ، ومطالعاته في الـكتب والفنون ، غير أن الناظر في أعماق آثاره القلمية ، أو القارىء ماوراء السطور ، يلمح ولا ريب فـكراً نافذاً عميقاً يتخطى الظواهر القريبـة المألوفة ، ويذهب إلى الأصول الأولى والغايات البعيدة . وتلك هي النظرة الفلسفية ، رد الـكثير إلى الواحد ، والبحث عن العلة الأولى والغاية النهائية .

ولهذا السبب كان جمهور القراء يجدون مشقة في فهم آرائه ، لأنه لا يحفل بالتوافه ويمضي إلى الأعماق ، ولأنه كاتب لا ينزل إلى الجماهير بل يأخذ بأيديهم إلى مستواه .

وكتاب « في بيتي » الذي صدر في سلسلة « إقرأ » ينبيء عن هذه الخاتمة الفلسفية ، ولو أن صاحب الـكتاب تجنب الاعلان في العنوان .

أما كتاب الشيخ الرئيس ابن سينا ، الذي صدر بعد ذلك بعام ، فقد أسفر وأبان ، وكشف فيه العقاد عن حقيقة نزعاته الفـكرية ، واتجاهاته العقلية .

غير أن نزعة الأدب التي التزمها خلال سنوات طويلة من حياته لم يتخل عنها ، فهي منه بمنزلة الطبيعة . وبتعبير فلسفي : أصبحت « مادة » فـكره فلسفية ، و « صورة » فـكره أدبية . وأعني بالصورة الأدبية أنه ينحو منحى ذاتياً شخصياً في التعبير ، في مقابل النزعة العلمية التي يعبر فيها صاحبها تعبيراً موضوعياً . لا تحس فيه بالتأثيرات الشخصية .

أو هكذا أفهم الأدب ، ولعل فريق الأدباء يفهمون منه شيئاً آخر .

وقد تسأل نفسك : ما المادة وما الصورة ، هذان الاصطلاحان اللذان وضعتهما بين أقواس ؟ .

ليس غريباً على من درس الفلسفة أن يعرفهما ، فهما خلاصة مذهب أرسطو في الفلسفة ، حين يقول : إن كل جسم طبيعي مركب من هيولى أو مادة ، وصـورة . ولا مادة بغير صورة كالتمثال مادته النحاس ، وصورته هيئته التي هو عليها . ولست تجد نحاساً بغير صورة ، مهما تكن .

لقد تعرض العقاد ، حين تحـدث عن فلسفة ابن سينا ، لأفلاطون وأرسطو ، وأفلوطين ، والـكندي والفارابي ، بل وصل إلى فلسفة العصر الأخير الذي نعيش فيه ، فـكأنه اتخذ من الشيخ الرئيس محوراً تدور حوله الآراء من الماضي البعيد إلى الحاضر القريب .

وهو منهج سليم ، لأن الفلسفة هي تاريخ الفلسفة .

وقد رأى أن يصنف المشكلات الفلسفية التي سوف يعالجها حتى يمضي في ترتيب ووضوح ، فلخصها في مسائل أربع : وجود العالم ، وجود النفس ، وجود الشر ، حرية الإنسان . ثم نظر إلى حلول الفلاسفة القدماء لهذه المشكلات العسيرة الحل ، وأثبت رأي ابن سينا فيها ، وهي على كل حال مشكلات لا تزال قائمة ، تعالجها الفلسفة ، وأكبر الظن أن الآراء سوف تظل متضاربة في شأنها ، لأنها تفوق نطاق العقل وحدوده ، على الرغم من تقريب العلم الحديث لبعض تفصيلاتها .

وإذا أردت أن تعلم رأي العقاد الشخصي في هذه المشكلات فاقرأ تعقيبه في آخر الـكتاب ، فهو يذهب إلى أن المادة والعقل شيء واحد . فيضع بذلك حداً حاسماً للمشكلة التي أثارها الأقدمون مشـكلة الثنائية في الوجودات ، أو الفلسفة المادية والفلسفة الإلهية ، كما يقول العقاد في تقسيمه لمشكلات الفلسفة ، أو بين المادية والروحية كما يذهب إلى ذلك بعض المفـكرين .

وفي ذلك يقول ما نصه في آخر الـكتاب « فصورة المادة

الحلم والتحلم ...

للاستاذ محمود عزت عرفة

(تتمة)

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه » حديث شريف

تماحي الرذائل :

قال طرفة في شعر له : حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض !

وتلك جملة موجزة في لفظها وفي معناها ، ولكنها تنطوي على حكمة بليغة ، وتكنُّ نظرية في الأخلاق عظيمة النفع إذا نحن حاولنا أن نفهمها وأن نحسن تطبيقها ، ومؤدَّى هذه النظرية أن يتقبل الإنسان الشر من الشرور ، ويحتمل غضاضة الرذيلة من الرذائل ، تخلصاً بهما من شر ورذيلة أبلغ ضرراً وأوخم عاقبة وتعد هذه مرحلة — لا بد منها — نتحول بها من وضع إلى وضع ، فنتخلص بأنفسنا من غياض الشر إلى رياض الخير ، وننتقل بجوهر أخلاقنا من مناقع الرذيلة إلى منابع الفضيلة .

ذلك أن الخير (كالحلال) بيّن ، والشر (كالحرام) بيّن ، وبينهما أمور متشابهة ، يلتبس فيها حق بباطل ، ويلتقي مباح بممنوع ...

وتحذير الرسول عليه الصلوات ، في حديثه المعروف ، من هذه المواطن التي يشتبه فيها الحرام بالحلال إنما يتجه إلى الأخيار الذين أحرزوا من الفضيلة القسط الوافر . لأن تلبس أحدهم بالمتشابهات يعد انتكاساً له بعد عافية ، وانحداراً لنفسه بعد ارتقاء ، أما من ران الشر على قلوبهم ، وملكت الرذيلة عليهم وردهم وصدرهم ، فهؤلاء سبيلهم إذا أرادوا الخلاص لأنفسهم أن يحاولوا « الترقي » أولا إلى درجة المتشابهات ، لأنها الطريق المفضي بهم فيما بعد إلى الخير والفضيلة خالصين من كل شائبة . ويعد هذا الترقي إلى المتشابهات في حقهم فضيلة وتقدما ، وإن عُد في حق الفضلاء من غيرهم شراً وارتكاساً ، ولا غرو فحسنات العاصين سيئات المطيعين !

وقد ذكرنا قبلُ من دواعي (التحلم) ما يُعدّ وسائل إلى بلوغه وتحصيله ، وضروباً من ترويض النفس وإغرائها على الأخذ منه بنصيب .

ونضيف هنا إلى ماسبق هنالك أن التحول بالنفس من معرة الغضب والحدة ، إلى كمال الحلم وفضيلة الإسجاح ، قد لا يتم دفعة ؛ وإنما يكون على مرحلة أو مراحل نساير فيها النفس التي

في أذهاننا باطلة . فكيف نعلم ما يؤثر فيها وما لا يؤثر فيها على وجه التحقيق ؟

« والذي يثبت في روعنا أن الكائنات خلق واحد يدور حول (الوحدانية) ، ولا فرق بينها غير الفرق بين التعميم والتخصيص .

« فالتعميم مظهر المادة ، والتخصيص مظهر العقل والحياة .

« فالمادة في أبسط صورها شعاع « عام » لا فرق فيه بين مكان ومكان من الفضاء » .

ولقد ميز ديكارت من قبل بين المادة والفكر ، وجعل في العالم ثنائية يصعب الجمع بينهما بعد ذلك . غير أن اسبينوزا بالذات وهو من المدرسة الديكارتية ، اضطر للتوفيق بينهما إلى القول بوجود ما يسميه الامتداد العقلي

مهما يكن من شيء فإن اهتداء العلم الحديث إلى أصل المادة وأنها ذرة أو جزء لا يتجزأ ، وأن هذه الذرة هي في النهاية إشعاع أو طاقة ، كل ذلك لا يحل مشكلة المادة والعقل ، لأن العقل ليس إشعاعاً ... من يدري لعله كذلك ولكننا لا نستطيع أن نجزم بشيء .

والعبر التي نأخذها من كتاب العقاد كثيرة ، منها أن اتجاه مفكرينا وجهة فلسفية دليل على الرقي العقلي ، والسمو إلى عالم المعاني ، ومنها أن استساغة الجمهور لهذا النوع من التأليف ، بل إقباله عليه . دليل على رقي الجمهور بل على انتقاله من طفولة الفكر إلى شبابه .

والخاتمة الفلسفية هي نهاية التقدم .

أحمد فؤاد الأهواني

نعالجها من حال إلى حال . فقد نستطيع مثلا أن نفثأ من حر غضبها وشدة بادرتها بنوازع — نجعلها تستريح إليها مؤقتاً — من الكبر والاستهانة بالمسيء وتحقير شأنه .

ونحن لم نعمْدُ في هذا أن تحولنا بها من رذيلة إلى رذيلة ، ولكن إذا مرنت النفس على ذلك ، وتزحزحت عما استولى عليها من الغضب والحدة إلى خلق طارىء من الأنفة والاستكبار أمكننا أن نعالج هذه الحالة الأخيرة بوسائل علاجها ، ثم لا نزال ننتقل بالنفس من وضع إلى وضع حتى تخرج عن حد الرذائل والتشابهات جملة ، وتنتهي إلى الخير المحض الذي نتوخاه لها .

وقد نص الغزالي على هذه الوسيلة من العلاج في مؤلفاته غير مرة فهو يقول مثلا في كتاب « رياضة النفس وتهذيب الأخلاق » من سفر الإحياء : من لطائف الرياضة إذا كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأساً أو بترك صفة أخرى ، ولم يسمح بضدها دفعة ؛ فينبغي أن ينقله — أي المرشد — من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه ؛ كالذي يغسل الدم بالبول ، ثم يغسل البول بالماء ، إذا كان الماء لا يزيل الدم . وكما يرغب الصبي في المكتب باللعب بالكرة والصولجان وما أشبهه ، ثم ينقل من اللعب إلى الزينة وفاخر الثياب ، ثم ينقل من ذلك بالترغيب في الرياسة وطلب الجاه ، ثم ينقل من الجاه بالترغيب في الآخرة . هـ .

وفي « ربع المهلكات »[1] من سفر الإحياء إشارات متعددة إلى هذا العلاج يدرجها الغزالي في أعقاب كل خلق مرذول عند النص على أوجه علاجه . ففي كتاب ذم البخل وذم حب المال يقول : ومن لطائف الحيل فيه أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء حتى تسمح نفسه بالبذل طمعاً في حشمة الجود ؛ فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل واكتسب لها خبث الرياء . ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ويزيله بعلاجه . ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلَّى الصبي عند الفطام عن الثدي باللعب بالعصافير وغيرها ، لا ليخلَّى واللعب ، ولكن لينفك عن الثدي إليه ثم ينقل عنه إلى غيره . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ينبغي أن يسلط بعضها على بعض . هـ

وهذا العلاج الذي وضعنا له عنوان « تماحي الرذائل » ينطوي على خطر غامض دقيق يستوجب ألا يتعرض لمزاولته وأخذ المريد به إلا كل طبيب خبير بأدواء النفوس ، عارف بالعلل الخلقية دقيقها وجليلها ، وأيها أصعب علاجاً ، وأيها أيسر تحولا … وإلا تفاقمت العلة بمريضه وهو يحاول شفاءه ، أو مات بين يديه وهو يريد إحياءه …

وقد سبق الغزالي إلى توضيح هذه الخطورة وإلى التحذير منها — وكم للغزالي من سبقٍ إلى مثل هذه الحقائق النفيسة الخالدة — فهو يقول بعد ذكر علاج البخل (بتكلف السخاء على قصد الرياء) : إلا أن هذا مفيد في حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبدل الأقوى بالأضعف ، فإن كان الجاه محبوباً عنده كالمال فلا فائدة فيه ، فإنه يقلع من علة ويزيد في أخرى مثلها !

ويضرب لنا الغزالي في موضع آخر مثالا حسياً عجيباً لتناحر هذه الرذائل واصطراعها في النفس حتى تضعف فتفنى جميعاً ، وتحل محلها الفضيلة التي جعلناها هدفنا من العلاج ، فيقول : مثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ما يقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دوداً ، ثم يأكل بعض الديدان البعض حتى يقل عددها ، ثم يأكل بعضها بعضاً حتى ترجع إلى اثنتين قويتين عظيمتين ، ثم لا تزالان تتقاتلان إلى أن تغلب إحداهما الأخرى فتأكلها وتسمن بها ، ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها إلى أن تموت . فكذلك هذه الصفات الخبيثة يمكن أن يسلط بعضها على بعض حتى يقمعها ويجعل الأضعف قوتاً للأقوى إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة . هـ

خاتمة :

الحلم كسائر الفضائل وسط ممدوح بين طرفين مذمومين . فإذا نحن « نحيَّفنا » منه متجهين إلى أحد طرفيه كان ذلك تفريطاً في الحلم يتحول بنا إلى الحدّة وإلى السفاه وسرعة الغضب . وإذا نحن « تزيدنا » فيه متجهين إلى طرفه الثاني كان إفراطاً يفضي إلى الضعف والخور وفقد الحمية ، وكلا الطرفين مذموم .

---

(١) يقسم الغزالي مؤلفه النفيس (إحياء علوم الدين) أربعة أرباع : ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات ؛ وكل ربع يتألف من عشرة كتب فجملة (الاحياء) أربعون كتابا .

أما الأول فحاله معروف ، والتحذير من الغضب كثير ، لأن النفوس إليه أسرع ، فكان التخويف منه أوجب وأولى .

وأما فقد الحمية فآفة أقل — فى سواد الناس — من الغضب انتشاراً ، ومع ذلك يتردد ذمها كثيراً ، لأنها الإفراط المتناهى فى الحلم الذى يتحول به من ممدوح الفضائل إلى مقبوح الرذائل .

يقول الغزالى فى هذا المعنى : « لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم فى جانب الرفق أكثر ؛ فلذا كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف فى محله حسناً ، كما أن الرفق فى محله حسن . فإذا كان الواجب هو العنف ، فقد وافق الحق الهوى ، وهو ألذ من الزبد بالشهيد ! »

هذا ، ومن المشاهد الذى يستحق التسجيل أن السفه قد يكون مستحسناً فى بعض المواطن ، وربما يبدو فى بعض الظروف واجباً حتى ليذكر فى معرض المدح . ومن هنا يقول عمرو بن العاص : أكرموا سفهاءكم فإنهم يقونكم العار والشنار ! ويقول مصعب بن الزبير : ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا ! ويقول الشافعى ناصحاً للفقهاء : ينبغى للفقيه أن يكون معه سفيه ليسافه عنه !

وانظر بعد إلى قول أبى تمام فى مدح إسحق بن إبراهيم المصعبى :

إن المنايا طوع بأسك ، والوغى ممزوج كأسك من ردًى وكلوم
والحرب تركب رأسها فى مشهد عُدل السفيه به بألف حليم !
فى ساعة لو أن لقماناً بها — وهو الحكيم — لكان غير حكيم

وفى حديث شريف : خير أمتى أحداؤها (من الحدة) الذين إذا غضبوا رجعوا . ومن مأثور قول الشافعى : من استُغضِب فلم يغضب فهو حمار . قال الغزالى : « فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جداً . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية فقال : أشداء على الكفار رحماء بينهم . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ... وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية ، وهو الغضب » .

على أن الغزالى يحدد لنا صفة الغضب فى موضع آخر فيقول : « المطلوب من صفة الغضب حسن الحمية ، وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعاً ؛ وبالجملة أن يكون فى نفسه قوياً ، ومع قوته منقاداً للعقل »

فليس يغنى المرء إذن أن يُعرف بالحلم فى موضعه ما لم يعرف بالغضب كذلك فى موضعه ؛ وإذا قلنا (الغضب فى موضعه) ، فقد جعلناه فضيلة وحكمة ، إذ ليست الحكمة إلا وضع الأمور فى مواضعها . بل لو قرنّا ذكر أية رذيلة بقولنا (فى موضعها) لأصبحت فضيلة يُحث عليها ويشاد بذكرها . فالكذب فى موضعه فضيلة وقد نسميه : حسن التأتى ، واللباقة ، وحسن التصرف . والجبن فى موضعه فضيلة ، نسميه : الحرص ، والتوقى ، والحذر .. وهكذا .

القياس الصحيح إذن أن نوائم بين تصرفنا — بالقول أو بالعمل — وبين الموقف الذى نكون فيه ؛ وبقدر اختلاف المواقف يكون اختلاف التصرفات . والخطأ فى التطبيق هنا يتأتى من الخلط بين كل موقف وما يلائمه من تصرف . وأحسب أن النعمان بن المنذر كان أحد من أخطأوا على هذا الوجه . فقد روى أنه أُتى برجلين قد أذنب أحدهما ذنباً عظيما فعفا عنه ، والآخر أذنب ذنباً خفيفاً فعاقبه . ثم أنشد يقول :

تعفو الملوك عن العظيـ ـم من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب فى اليسيـ ـر ، وليس ذاك لجهلها ...
لكن ليُعرَف حلمها وتُخافَ شدة ذحلها !

وهذا سوء تصرف منشؤه الخلط بين مواطن العفو ومواطن العقوبة

نعم ، كان من حق النعمان أن يعرّف الناس حلمه ، وأن يخوفهم شدة ذحله ، لكن على أن يجعل لكل من الحالين موضعاً لا يعدوه ، وشرطاً لا يخل به . فأما وقد فاته ذلك فقد صيّر حلمه تفريطاً وعقوبته إفراطاً ... وكلا الأمرين وَضَح[1] فى جبين الحق ، وانحراف فى ميزان الحكمة والعدالة .

(تم الحديث — جرجا) **محمود عزت عرفة**

---

(١) من معانى الوضح : الضوء والغرة والشيب ، والبرص ، والمعنى الأخير نريد ؛ ومنه سمى جذيمة الأبرش بالوضوح انظر القاموس

الأدب فى سير أعلام :

ملـــتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والجبال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣٠ —

البطل الضرير :

وكان ينتاب الشاعر الحزن على فقد بصره الحين بعد الحين وذلك كلما أحس الوحدة قاسية موحشة بعد فقد زوجته الثانية والظلمة محيطة به وبنياته لا يملكن لأبيهن ولا لأنفسهن عوناً ولا نفعاً ، ولقد كان يتمهن وهن زغب الحواصل وأبوهن ضرير ، لا يرى فى وجوههن رضاءهن إذا رضين ولا ألمهن إذا ألمن ، من أكبر بواعث حزنه وغمه ...

ولكنه كان يعتصم بالحكمة أن يهن أو يتخاذل عزمه أو يتزايل وقاره ؛ وكان يلوذ بالشعر فيجد فيه ما ينشد من عزاء لروحه ، بل لقد كان والظلام والغم يعتورانه يجد فيه من الأنس ما يكاد يحس معه مثلما يحس الناس فى الحياة لنفوسهم من بهجة ؛ ويحسب المرء أن يذكر هذا ، وأن يذكر كيف بلغ مع ذلك بقصيدته الكبرى مبلغاً تنقطع دونه الآمال ، وقد توالت عليه ألوان غير هذه من الشدائد ، ليرى مقدار أصالته فى الشعر ومبلغ تعلقه بفنه ومدى إخلاصه له ؛ والحق أنه إن كان ثمة رجل له مما حاق به أكبر المعذرة عن القعود عما نهض له فلن يكون هذا الرجل إلا ملتن ، ومن لقى من الحياة مثلما لقى ؟ ولكنه لم يقعد بل لم تزده المحن إلا صبراً وإقداماً . فدل بذلك على أنه من الأفذاذ القلائل الذين تتضاءل الدنيا فى نظرهم وتتحاقر تلقاء ما يسمون إلى بلوغه من نبيل الغايات ...

وضايقه يومئذ من ابنى أخته أن سارا على نهج غير نهجه فى الأدب والفن وسلكا سبيلا غير سبيله ، بل لقد كان ذلك يكربه أحيانا إذ يحس الفشل حتى فى هذا ، فلقد قام على تربيتهما بنفسه وتوجيههما الوجهة التى يريد ، فلما كبرا كرها التزمت والمزيد من الجد والاحتشام ، وبرما بالبيوريتانية الجافة التى تبدو لهما كالشجرة جردت من كل ثمرة وكل زينة وإن بقيت قوية الجذع والأغصان فما ترى العين من معانى الشجرة فيها إلا القوة والصرامة

وأقبل الفتيان يستمتعان بالحياة كما يستمتع الفتية فى المدينة وكأن الناس قد سئموا البيوريتانية فى نزعتها الاجتماعية وضاقوا بالحياة خالية من المرح والزينة . فتهافت الشباب على الموسيقى والشعر ، ورأت الحكومة ألا مناص من مماشاة هذه النزعة مخافة أن يؤدى التشدد فى صدها إلى ازدياد الدعوة إلى إعادة الملكية ؛ فسمحت بنشر بعض الكتب الخفيفة التى تطلب للتسلية واللهو أكثر مما تطلب للمنفعة ؛ وكانت المسارح جميعاً مغلقة تحول الشرطة دون فتحها ؛ ولكن واحداً استجد فسمحت الحكومة بأن يستمتع فيه الناس بالموسيقى ، وبعض المسرحيات من النوع الغنائى ، وأحس أهل لندن بشىء من المرح والأنس يدب فى الحياة التى ألقت عليها قيود البيوريتانية كثيراً من الوحشة والجهامة .

وتطرف الفتيان فى مسايرة النزعة الجديدة ، وعلى الأخص أصغرهما جون فيلبس فقام على نشر كتاب احتوى على غير قليل من الاستهانة والمجون . ثم نشر كتاباً آخر جعل عنوانه : « سخرية من المنافقين » وهاجم فيه البيوريتانية هجوماً عنيفاً ، وأما أكبر الأخوين فكان لا يزال يغلب عليه التحفظ والتحرج وإن شايع الاتجاه الجديد كما تجلى فى كتابه : « أسرار الحب والفصاحة » .

وفى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٦٥٨ قضى كرمول نحبه ، وذهب بذهابه الرجل الذى طالما عقد ملتن عليه الرجاء ؛ وحزن الشاعر للنبأ العظيم وازدادت من المستقبل مخاوفه ، وإن كانت حماسته لكرمول قد مسها الفتور قبل مماته بسبب سياسته الدينية

ولسنا نعرف على وجه اليقين هل كانت ثمة صلة شخصية بين الرجلين ؟ ولقد ذهب فريق من المؤرخين إلى أن مثل هذه الصلة كانت قائمة بينهما ، ولكن لا يسوقون حادثة واحدة تؤيد زعمهم هذا وقصاراهم الاستنتاج والظن ، فقد كان كرمول يحب النابهين ويحسن حزاءهم ويقربهم إليه فما يفوته أن يصطفى رجلا مثل ملتن وضعته الحكومة فى مثل ذلك المنصب الخطير ، وما ينسى له نضاله عن الجمهورية وبلاءه فى رد كيد الكائدين ،

ويحاول هؤلاء أن يجدوا فى مقطوعته التى امتدح بها كرمول دليلا على صلة شخصية بينهما ...

ولكن فريقاً آخر من رجال الأدب ينكر هذه الصلة ، ويقولون إن رضاء كرمول عن ملتن لا يستلزم أن تكون له به معرفة شخصية ، وما دامت تعوزنا الحوادث المعينة التى تثبت ذلك فلا قيمة للظن والاستنتاج والاعتماد على قرائن واهية ، فما كل من ينظم مقطوعة أو قصيدة لملك أو حاكم يكون ذا صلة بذلك الملك أو ذلك الحاكم ، وأنا أميل إلى هذا الرأى وأزيد عليه أن ملتن رجل ذو كبرياء ، وقد عرف عنه أنه كان قليل الصلة برجال الحكومة أنفة منه وتعففاً أن يقال به حاجة إلى أحد ، كما أنه كان شديد الاعتداد بنفسه والحرص على كرامته ، فلم يك لذلك حدِّيث مجالس ولا كان ممن يحسنون فن التقرب والتودد الذى هو فى حقيقة الأمر ضرب من الملق وإن تعارف أهله على تسميته بالكياسة أو اللباقة ، ولذلك لم يتقرب ملتن ولم يتودد وإن كان فى دفاعه عن الحكومة بكتبه شديد التحمس فياض الثناء ؛ ولم يك تحمسه وثناؤه إلا شعوراً وطنياً من ناحية وأمراً يقتضيه الدفاع والمغالبة من ناحية أخرى . وكان ملتن شاعراً ولم يك للشعراء عند رجال الحكومة من البيوريتانز ما ينبغى أن يكون لهم من رفيع المنزلة إن لم يضعهم الشعر فى موضع الكراهية لهم والاستخفاف بأمرهم ، هذا إلى أنه كانت للرجل آراء فى الطلاق وفى الدين عده الناس فيها مسرفا أو به جِنَّة ، وكان يحس ملتن كثيراً من الفتور والبرود عند من تضطره الظروف إلى لقائهم من كبار رجال الدولة ، وهو رجل فى أنفه ورم وفى نفسه أشد من الكبر على كل ذى كبر ، ولذلك تجافى هؤلاء الكبراء ، ومن كان هذا شأنه معهم كانوا خليقين أن يصرفوا بحيلهم نظر كرمول عنه إن اتجه إليه إن لم يعملوا على الكيد له والوقيعة به ، أما هو فلم يسع من جانبه إلى تقرب أو تودد ؛ قال ملتن يرد على رجل التمس وساطة فى أمر « يؤسفنى أننى غير قادر على أن أفعل ذلك ؛ فان معرفتى ضئيلة بأولئك الذين فى أيديهم القوة تناسب فى ضآلتها حرصى على أن ألزم بيتى فى الأكثر ، وإنى لأوثر أن ألزمه » .

وظل ملتن بعد موت كرمول فى منصبه يعينه فيه مساعد ، ولكنه كما قلنا كان فيما يشبه العزلة فقلما شغله من ناحية منصبه عمل وإنه ليطيب بذلك نفساً لأنه يستطيع أن ينصرف اليوم إلى بغية شبابه ويعكف على تحقيق ذلك الحلم الذى انشغل عنه دهراً طويلا ...

ومن عجيب أمره أن همه يومئذ لم يك منصرفاً إلى الشعر وحده على شدة ولوعه به وتحرقه إليه ؛ بل لقد كتب باللاتينية رسالة طويلة فى العقائد المسيحية ضمنها آراءه فى الله وفى غرضه من خلق الناس وفى أصل الوجود وفى الحياة والموت وفى خطيئة آدم وخروجه من الجنة ، وفى علاقة المرأة بالرجل ومنزلتها فى المجتمع وفى السياسة والدولة والحرية . وفى مسائل القضاء والقدر وما يتصل بها ...

ولكن كتابه هذا لم يعثر عليه إلا سنة ١٨٢٣ أى بعد قرابة قرن ونصف من وفاته ، وقد عثر عليه مصادفة ضمن إضبارة من الورق كانت تحتوى كذلك على صور مراسلاته اللاتينية الرسمية التى كتبها وهو فى منصبه ؛ وليس يعرف على وجه اليقين متى بدأ كتابة هذه الرسالة ، وأكبر ظن المؤرخين أنه كتبها ما بين سنتى ١٦٥٥ ، ١٦٦٠ ، وكذلك لم يعرف غرضه من كتابتها ؛ ويرى بعض النقاد من تقسيمها وتبويبها أنه قصد بها أن تكون رسالة يدرسها الناشئون ، ويقرؤها غيرهم من المثقفين ويرى آخرون أنه ضمنها خلاصة فلسفته لتكون مرشداً وهادياً لمن يقرأ قصيدته الكبرى فأكثر آرائه فى القصيدة يتمشى مع ما ذكر فى رسالته اللاتينية ، وكلا العملين الفنى منهما وغير الفنى يلقى من الضوء على الآخر ما يكشف عن دقائقه ويوضح كثيراً من أسراره ، ولعل هذا هو غرضه الحقيقى من كتابة هذه الرسالة ، ولذلك نميل إلى أن نرجىء الكلام عنها حتى يأتى ذلك عند دراسة فلسفته فى قصيدته الكبرى ، ونكتفى الآن بأن نذكر أن ملتن اعتمد على الكتاب المقدس فيما أورد من آراء، كما ذكر ذلك ، ولكنه لم يتقيد بأقوال المؤولين والمفسرين قبله ، بل اعتمد على تأويله هو وتفسيره . فأتى بكثير من الآراء التى لا يتفق معه أحد فيها ؛ ويعنينا ذكر هذا لأنه يدل على ناحية من نواحى شخصيته وهى حرية فكره ورغبته فى التخلص من كل قيد ، ولقد تجلت هذه النزعة فيه من قبل أيام كان يجادل القساوسة وأيام كان يدافع عن الطلاق ...

وما كان يظن أحد ممن حوله أنه سوف ينصرف عما أقبل

عليه من شعر ومن دراسة ؛ ولكنه ما لبث أن انصرف عنهما سنة ١٦٥٩ وعاد إلى كتيباته ! فى أوائل تلك السنة قدم للبرلمان رسالة عنوانها : « حول السلطة المدنية فى الأمور الدينية لبيان أنه ليس من المشروع لأية قوة على الأرض أن تتبع الإكراه فى مسائل الدين » ؛ وأخذ يدافع عن الحرية الدينية ويعلن أشد سخطه على الاضطهاد الدينى وإكراه الناس على غير مايعتقدون ، ولم يقتصر سخطه على غير البروتستنت ، بل شمل البروتستنت كذلك ، لأنه يمقت الاضطهاد والقهر أيا كان مصدره ؛ ومعنى ذلك أنه يجب أن يقبل أن تتاح الحرية للكاثوليك ، وإلا فكيف يحل لنفسه ما يحرم على غيره ويدعى مع ذلك أنه طالب حرية ؟ ولكنه يناقض نفسه فى هذا الأمر فيحاول أن يفلت من التناقض فيأتى برأى عجيب عن الكاثوليكية ، فهى ليست ديناً ، ولكنها بقية باقية من حكومة روما ، وعلى ذلك فلا تسامح معها فى انجلترة خوفاً على سلامة الدولة ، فما يضطهد الكاثوليك لمذهبهم ، وما عوقبوا من قبل لإلحاد أو زيغ ولكن للخيانة ؛ ومهما يقل ملتن فلن يستطيع أن ينفى عن نفسه ما يكرهه من غيره من اضطهاد وإكراه ؛ وألح ملتن فى هذه الرسالة فى مطالبة البرلمان بما طالب به كرمول من قبل ، وهو ألا تكون هناك كنيسة للدولة .

ونشر فى أغسطس من السنة نفسها كتيباً عنوانه « نظرات فى أمثل الطرق لطرد المأجورين من الكنيسة » . وعنده أن أمثل هذه الطرق أن تتخلص الدولة من هؤلاء القساوسة جملة ؛ فإطعام هؤلاء يمكن أن يوكل إلى من يقومون على رعايتهم وهديهم ؛ وفى استطاعة القساوسة أن يجدوا لأنفسهم عملا آخر وذلك خير لهم ؛ وفى رأيه أنه ليس ثمة ضرورة لهؤلاء القساوسة ، وأن المال الذى يعطى للكنيسة يمكن إنفاقه فى أوجه كثيرة هى خير مما ينفق فيه ، كأن تبنى مدارس وتنشأ مكتبات تلحق بهاتيك المدارس ، حيث يتعلم الناس اللغات والفنون بغير أجر تعليما شعبياً لا يعوقهم عن مزاولة أى عمل يكسبون منه أقواتهم فتستنير بصائرهم ويرتفع مستواهم الثقافى فتنتشر المدنية فى أنحاء الدولة .

وينبغى ألا يذهب رجال الدين إلى الجامعات ، فما يتركون فيها إلا أسوأ الآثار ، فهم كطلاب يكونون فى الأكثر ضيقى الأفق أغبياء وليسوا أحسن حالا وهم رجال ، وخلاصة القول إنه يجب أن تتخلص المسيحية من هؤلاء المأجورين لتتحقق لها السعادة ، فإن إفساد الدين على يد السلطة الزمنية يكون بإحدى وسيلتين القوة أو المال ، وإفساده بالمال أشد من إفساده بالقوة ، لأن القوة ممثلة فى الاضطهاد قد تؤدى إلى ازدياد الاستمساك بالدين ، ومن ثم تمتد جذوره وتسمق فروعه ؛ أما المال فبه تشترى الضمائر وبه يستأجر الضعاف والجهلاء من المرشدين والقائمين على أمر الدين ، ومن هنا يكون التدهور والفساد الحق

ولم يعد ملتن بطائل من وراء هاتين الصيحتين ، فقد كان البرلمان فى شغل بما هو أخطر من المسائل الدينية ، فقد أخذت تصطرع الأهواء فى عهد ريتشارد حامى الجمهورية الثانى ، وتزايدت الدعوة إلى إعادة الملكية ، وقل أنصار الجمهورية فى البرلمان ، وعاد إلى البرسبتيريز شىء من قوتهم فرغبوا فى الثأر من المستقلين وتفرق الناس على هذه الصورة شيعاً وأحزاباً ، فلا غلبة إلا لمن يثبت أنه أقوى جنداً أو أكثر نفراً

وكان يدرك ملتن أنه كمن يصرخ فى واد قفر من أهله فلا سميع ولا مجيب ولا صدى لصوته ؛ ولكنه على الرغم من ذلك — كما يقول — مطمئن إلى أنه يفعل ما يجب عليه فعله وأن يفعله فى وقته لا يبتغى إلا الخير لدينه ولوطنه

وإن المرء ليتملكه العجب من إصراره على هذا النحو ودأبه على محاربة رجال الدين ، لايدع فرصة ولايدركه سأم ؛ فها هو ذا يرسل عليهم سهامه فى عهد ريتشارد مؤملا أن يجد عنده من القبول ما لم يجده عند أبيه ، ويميل بعض من كتبوا حياة ملتن إلى رد هذه الصرامة إلى حنقه عليهم وعلى الأخص البرسبتيريز لما ناله من أذى على أيديهم ولأنهم أعلنوا طرده من الكنيسة ، ويرى غير هؤلاء أن مرد قسوته عليهم إلى عقيدة فى نفسه لا يتحول عنها وهى أن تسلط رجال الدين مهما يكن مذهبهم على شؤون الدولة هو سبب كل طغيان وكل خنق للحرية ، ولما كان يكره الاستبداد من أعماق قلبه بقدر ما يحب الحرية فقد انصبت كراهته على هؤلاء الذين يرى فيهم رمز العناد الغبى والتسلط الأحمق ، وزاده إيذاؤهم إياه يقيناً بأنهم أصل كل شر ، وسبب كل رجعية لأنهم خاصموه من أجل مبادئه فى الزواج والطلاق ، وهو لم يرد بهذه المبادىء إلا الخير للانسانية جميعاً ، وما ساوره شك فى أن ما دعا إليه إنما هو الحق .

(يتبع)

الخفيف

حول بيت لأبي نواس ...!

للأســتاذ عباس حسان خضر

مات ابن الحجاج وأخوه فى يوم واحد ، وكان اسم كل منهما محمداً ، فقال : « يا لله ! محمد ومحمد فى يوم ! » فكرر محمداً ، ولو قال : « محمدان فى يوم » لما أدى المعنى الذى أداه التكرار ، فأحد المحمدين ابنه والآخر أخوه ، وهو بالتكرار يفصّل الفاجعة فيهما ، وما تقوم التثنية بنقل هذا الشعور إلى السامع ، أو قل ما شئت فى التعليل ، ولا أشك فى أننا متفقون على حسن التكرار هنا ، وأن التثنية لا تغنى شيئاً .

وقال أبو نواس :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديدٌ ودارسُ
مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جنىٌّ ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم ... وإنى على أمثال تلك لحابس
ولم أدر من هم غير ماشهدتْ به ... بشرقىّ ساباط الديار البسابس
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يوم الترحل خامس

أفترى التكرار فى البيت الأخير حسناً كذلك ، أم تراه معيباً لا غَناء فيه ؟

وقع نظرى فى كتاب « البلاغة الواضحة » لمؤلفيه الأستاذين على الجارم بك ومصطفى أمين بك على هذا البيت (أقمنا بها .. الخ) مسبوقا بهذه العبارة : « بيّن ما تراه فى الأبيات الآتية من العيوب البلاغية » ومتلوًّا بأبيات أخرى[1] . تأملت هذا البيت المتهم بالعيوب البلاغية وهو ماثل فى قفص التمرينات المطلوب حلها ... فلم أرَ به ما يريب ، ثم رجعت إلى نفسى وكدت أتهم عقلى بالقصور ، وتخيلت أنى طالب أُلقى إليه بهذا السؤال فى الامتحان ، فهالنى الصفر الأحمر يسقط علىّ من قلم الممتحن المهيب ... ثم لمحت رقماً بين قوسين على آخر البيت ، فتبعته إلى الهامش حيث وجدت به : « يريد أنهم أقاموا ثمانية أيام ، عدّ منها ثلاثة فى الشطر الأول ، ثم أضاف إليها خمسة فى الشطر الثانى ، لأنه يقول إننا أقمنا بعد ثلاثة الأيام الأولى يوماً له يوم الرحيل خامس أى خمسة أيام أخرى » فذهب عنى الفزع وقلت : وهذه مسألة أخرى أرى الخطأ فيها ظاهراً ، مما يطمعنى فى تبرئة البيت مما يراد لصقه به من العيوب البلاغية .

ويلحق بهذا الكتاب القيم — رغم ما نحن بصدده — كتاب اسمه « دليل البلاغة الواضحة » لنفس المؤلفين ، يشتمل على حل التمرينات التى تضمنها كتاب « البلاغة الواضحة » . فلا بد أن يكون به بيان « العيوب البلاغية » الموجهة إلى بيت أبى نواس ، وهناك رأيت « فى هذا البيت تكرار غير مفيد ، فإن أبا نواس يريد أن يقول إننا أقمنا بها ثلاثة أيام ، فكرر كلمة (يوماً) تكراراً معيباً لا غرض فيه ، ولا قصد منه ، والتكرار إذا لم يورث اللفظ حلاوة ، ولم يكسب المعنى طلاوة كان ضرباً من السخف والعىّ ، والعجب لأبى نواس يأتى بمثل هذا البيت السخيف الدال على العىّ الفاحش مع أبيات عجيبة الحسن تتقدم هذا البيت[1] » .

ووجدت بالهامش تعليقاً على ثمانية الأيام مايلى : « فى المثل السائر أن أبا نواس يريد أن يقول إنهم أقاموا بها أربعة أيام » .

وفى كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » قال مؤلفه الشيخ ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الموصلى الشافعى فى باب التكرير : « وعلى هذا الأسلوب (يشير إلى ما سماه التكرير فى اللفظ والمعنى غير المفيد) ورد قول أبى نواس :

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يوم الترحل خامس

ومراده من ذلك أنهم أقاموا بها أربعة أيام ، ويا عجباً له يأتى بمثل هذا البيت السخيف الدال على العى الفاحش فى ضمن تلك الأبيات العجيبة الحسن التى تقدم ذكرها فى باب الإيجاز وهى : ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... » .

ولقد وددت لو وافق صاحبا « البلاغة الواضحة » مؤلف « المثل السائر » فى عدد أيام الاقامة بدار الندامى ، وخالفاه فى تهجين البيت ، ورميه بالسخف والعي ... ولكنهما عكسا ، فعارضاه فى الأولى ، وأخذا بالثانية ، وإن كان أدق منهما فى

(١) ص ٢٥٧

(١) ص ١٣٢

عجبه من وقوع هذا البيت فى ضمن أبيات عجيبة الحسن وعجبهما من وقوعه بعد أبيات عجيبة الحسن ، لأن الأبيات التالية له لا تقل حسناً إن لم تزد عن التى تتقدمه ، وها هى ذى :

تدور علينا الكأس فى عسجدية ... حبتهـا بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مهاً تدّريه بالقسىّ الفوارس

فللخمر ما زرت عليه جيوبهم ... وللماء ما دارت عليه القلانس

قال الجاحظ : نظرنا فى شعر القدماء والمحدثين ، فوجدنا المعانى نقلت ، ورأينا بعضنا يسرق من بعض إلا قول عنترة : « وخلا الذباب بها فليس ببارح » وقول أبى نواس : « قرارتها كسرى ... الخ » .

وأرجع إلى جادة البحث فأقول : إننى أخالف مؤلف المثل السائر وصاحبى البلاغة الواضحة فى الزراية على بيت أبى نواس ورميه بالتكرار المعيب ، وأخالف الأخيرَين فى أن أبا نواس وصحبه أقاموا بدار الندامى ثمانية أيام ؛ وأقدم الكلام على المسألة الثانية لأفرغ للأولى .

الشطر الأول : « أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً » يدل على ثلاثة أيام قطعاً ، أما الشطر الثانى « ويوماً له يوم الترحل خامس » فيقول صاحبا البلاغة الواضحة إنه يدل على خمسة أيام أخرى ، وإنى لأعجب كيف يقولان ذلك وهما معدودان فى الصف الأول من رجال اللغة العربية فى هذا العصر ، وهل يستقيم فى العربية أن تقول — على رسم ذلك — : أقمت يوماً فى الاسكندرية له يوم السفر خامس ؟ ! إنهما يعلمان أن صيغة (فاعل) من العدد لا تكون فى مثل هذا الاستعمال إلا مُصيِّرة ما تحتها بدرجة واحدة مساوياً للعدد الذى اشتقت منه ، أو دالة على بعض العدد الذى اشتقت منه ، فيقال خامس أربعة وخامس خمسة ، ولا يقال خامس واحد أو اثنين أو ثلاثة . وعلى هذا لا يدل قوله (ويوماً له يوم الترحل خامس) إلا على أن هذا اليوم هو الرابع ويوم الرحيل خامسه ؛ فالبيت يدل على أنهم أقاموا أربعة أيام وسافروا فى اليوم الخامس .

أما الحملة العنيفة التى حملها الشيخ ضياء الدين على التكرار الوارد فى بيت أبى نواس وتابعه فيها صاحبا البلاغة الواضحة ، إذ عدّوه تكراراً معيباً سخيفاً ، وعجبوا من الإتيان به فى ضمن أبيات عجيبة الحسن — فإنى أرد هذه الحملة عن البيت ، وأريح العاجبين من عجبهم الذى لا محل له ، لأن البيت نفسه عجيب الحسن كإخوته ، وما كان لأبى نواس — وهو أبو نواس وقد واتاه الإبداع فى سائر الأبيات — أن يسف هذا الإسفاف بحيث يكون كل ما يريد أن يؤديه بهذا البيت أنهم أقاموا بالدار أربعة أيام أو ثمانية ويرتكب لتأدية هذا المعنى التافه ذلك التكرار الذى لا غرض فيه ولا قصد منه !

إنما يقول أبو نواس إن هذه الدار التى غادرها أهلها مخلفين بها آثاراً تدل على ما كان لهم بها من لذات الشراب وطيب العيش عرجنا عليها لنجدد عهد الراحلين عنها ، فأقمنا بها يوماً كان العزم أن نرحل بعده ، ولكن طابت لنا الإقامة فمكثنا يوماً آخر ، وحلا لنا التمادى فى التمتع بلذة الشراب بهذا المكان فتلبثنا يوماً ثالثاً ، واستمرأنا الإقامة على هذه الحال فتراخينا يوماً رابعاً ، وفى اليوم الخامس اضطررنا إلى الرحيل .

فهل كان يمكن أن يؤدى هذا الشعور بغير ذلك التكرير ! وإن العائبين عليه ليريدون أن يقيموا من البيت جداراً مسموكا لا تنفذ منه أشعة ذلك الإحساس المعهود فى الحالات التى تستطيبها النفس وتتمنى دوامها . وأى تكرار يورث اللفظ حلاوة ، ويكسب المعنى طلاوة إن لم يكن هو هذا التكرار . . ؟

ولقد أتى أبو نواس بنوع آخر من التكرار إذ قال فى وصف صاحبته جنان :

والحسن فى كل عضو ... منها معاد مردّد

فليس هذا تكرارا فى اللفظ ولا فى المعنى ، بل المكرر الجمال يرى معاداً مردداً فى كل عضو من أعضائها ، وهذا التكرار ليس كمثله إلا (تكرير) السكر ...

ويجرنا حديث التكرار إلى بعض المفارقات العجيبة فى هذا الباب ، فبينما نجد نسقاً منه لم يدفع إليه إلا الحق والحق، إذا أنت ترى ما يشبه هذا النسق مقبولا مستساغاً

قال الجاحظ فى باب العى من « البيان والتبيين » :

« وتزعم بنو تميم أن صَبِرة بن تيمان قال فى حرب مسعود والأحنف : إن جاء حُتاتُ جئت ، وإن جاء الأحنف جئت ، وإن جاء جارية[1] جئت ، وإن جاءوا جئنا ، وإن لم يجيئوا لم نجىء ! »

وأنت تعرف التكرير الذى احلولى به أسلوب الدكتور طه حسين بك ، والعجيب أن نحواً منه يشبه الكلام المعزوّ إلى صبرة بن تيمان . وهاك أمثلة من مقال له عن كتاب (نابليون) تأليف إميل لودفيج فى مجلة الكاتب المصرى الصادرة فى أول اكتوبر الحالى :

« ولست من المعجبين بإميل لودفيج وفنه إعجاباً شديداً . ومصدر هذا فى أكبر الظن أنى لم أقرأه فى نصه الألمانى ، ومصدر هذا فى أكبر الظن كذلك أن بين خياله الألمانى البعيد وتفكيره الألمانى الملتوى وبين خيالى القاصر وعقل العربى الذى يواجه الأشياء أكثر مما يدور حولها ، أمداً بعيداً ، ومصدر هذا فى أكبر الظن كذلك أنى حاولت أول ما حاولت أن أعرف لودفيج عن طريق كتابه عن حياة المسيح ، ومن طريق كتابه عن حياة جوت ، فلم أستطع أن أمضى فى الكتابين إلا قليلا ، ومصدر هذا آخر الأمر أنى لقيت لودفيج فى القاهرة حين زار مصر مهنئاً لإنشاء كتابه عن النيل ، فلم أحمد لقاءه ولم يحمد لقائى » ، وفى نفس المقال : « يظهرنا لودفيج على هذا كله وعلى أكثر جداً من هذا كله ، فى هذا الكتاب الذى لم يخلص للتاريخ ولم يخلص للقصص ، وإنما كان مزاجاً منهما » .

على أن بعض الناس لا يرتضون هذا التكرار الذى تشتمل عليه كتابة الدكتور طه حسين بك ، وغيرهم يعجبون به ، ويعدونه حلواً طلياً .

عباس حسان خضر

(١) حتات والأحنف وجارية أعلام رجال .

لا أدرى ...

للأستاذ حسين الغنام

أسائلُ شاطئ البحر
وأسأل نجمة الفجر :
إلى مَ يلجُّ فى الهجر
ويُمعن ساحرى نأيا ؟
وضاق بنأيه صبرى
فسالت ، وهى لا تدرى

وعدت أسائلُ البحرا
ورحتُ أخاطبُ البدرا
هناك ، بمهجةٍ ، حرَّى :
ألم ترَيا هنا ظبيا
أغنَّ وفتنةً كبرى ؟
فقالا : نحن لا ندرى

وقال البحر فى إرغاءْ
لكم مرَّتْ على ظباءْ
وقال البدرُ فى خيلاءْ :
وإنى لستُ معنيا
فكم مرت هنا حسناءْ
فمن فيهن ؟ لا أدرى

وقال البدرُ فى عتْبِ
إليكِ عرائسَ الحبّ
فشِمْ فيهن من تصبى
هواكَ ، أمهد اللقيا
يظلى الوارف الرحب
نكلمْ ! قلت : لا أدرى

فظنبى ، إنه حسبى
لقد أسكنتهُ قلبى
وكم من رقة العذب
نهلت ، ولم أجد ريَّا
سواه لقلبى الصَّبِّ
فأين ؟ فقال لا أدرى !

وسرت أسائل الليلا
ومرّ الليلُ وانسلاَّ
فعدت أسائل الطَّلا
وظلتُ أسائل الدنيا
لأية نقمةٍ ولى
غزالى الحلوُ ، لا أدرى !

(المندرة — الرمل) حسين الغنام



حرية الكتابة :

اطلعت على مجلة « الرسالة » عدد ٦٩٢ فقرأت فيها موضوعا عنوانه « مقالات فى كلمات : للاستاذ على الطنطاوى » لفت نظرى فيه فقرة حول «حرية الكتابة» تعرض فيها إلى موضوع نشر فى مجلة « الثقافة » الغراء التى تصدر فى دير الزور عن « الموازنة بين الأدب العربى والأدب الفرنسى » ، وقد أسعدنى الحظ أنى أنا أيضاً اطلعت على الموضوع نفسه فى المجلة نفسها ، فاذا هو لا يخرج عن كونه مقارنة تحليلية طيبة من الأدبين ، حاول فيها الكاتب أن يكون باحثاً موضوعياً جهد المستطاع . فاستغربت جد الاستغراب أن يتجاوز السيد على الطنطاوى حدود النقد النزيه القائم على المناقشة العلمية الهادئة التى لا علاقة لها بالعاطفة والمزاج الشخصى .

يذكر الناقد فكرة (السكون والحركة) التى وردت فى المقال ، ويعلق عليها بأنه لم يفهم منها شيئاً . ولو رجع — حفظه الله — إلى فلسفة اليونان لوجد أن فكرة السكون والحركة قد لعبت دوراً كبيراً من المدرسة « الأيلية » إلى مدرسة « هرقليط » على أن فكرة السكون ليست مأخذاً على الأدب العربى ، فالطمأنينة النفسية هى غاية ما يتوخاه المؤمن المتعبد ، بدليل الآية الكريمة « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك .. » .

أما حملته على « حرية الكتابة » فنحن نرفضها جملة وتفصيلا فانما تحت ظلالها الوارف أينعت المدنية الإسلامية ، كما أينعت المدنيات القديمة والحديثة من العهد اليونانى إلى العصر الحديث . وإذا كنا نفخر بشىء فانما نفخر بحرية الكلام وحرية الفكر وحرية الكتابة التى شع نورها فى بغداد والقاهرة ودمشق ، والتى أثمرت تلك العلوم والفنون التى لا نزال نتغنى بها فيما نتغنى بأمجاد الماضى والتهمة التى ألصقت بنا فى حرق مكتبة الأسكندرية قد نجمت عن ضيق بعض العقول التى كانت تتصور فى وهمها بأن العرب أعداء الفكر والعلم والأدب الأجنبى . فلم تنشأ البذرة الأولى للعلوم فى العهد العباسى إلا بعد أن أدرك العرب أن عند غيرهم من الأمم علوماً وفلسفة يجب أن يطلعوا عليها وأن يتأثروا بها .

« لا إكراه فى الدين » ، هذا هو المذهب العربى الصميم . فليس من الضرورى أن توافق الآراء بعضها بعضاً ، ولا أود أن أبدى رأيى الشخصى فى الموضوع ، مادام الناقد الطنطاوى لم يراع فى نقده مبادىء النقد الأولية . فله رأيه إذا كان مخالفاً لصاحب المقال ، شريطة مع ذلك أن يكون جارياً على أصول المنطق والذوق والتهذيب ، وعدم مزج المهاترة والألفاظ النابية فى البحث العلمى ، وإنى مثلا لا أفهم ما هو مكان النزعة السياسية فى النقد الأدبى ! ...

ويدخل فى هذا الباب أيضاً مزج الأخلاق بالأدب ، فليس غرض الكاتب صاحب المقال فى « الثقافة » أن يدعو إلى الأباحية ... وقد عرفناه فى جميع ما يكتب بعيداً عنها بعد الأرض عن السماء . فهو لا يبتغى كما يوحى مقاله إلا بيان خصائص الأدبين العربى والفرنسى ، على حسب ما وصل إليه جهده ونزاهته ، فان لم يصب المرمى على رأى الناقد ، فحسبه أن اجتهد « وللمجتهد أجره وإن أخطأ » .

أما قولك يا سيد على بأن الكاتب لا أخوات له ولا بنات ، فلا ينطبق على الحقيقة ، ولا دخل له فى موضوع النقد الأدبى . أما إذا كان فى النية بيان تأثير الأدب فى الأخلاق ، وما ينجم عن ذلك من فضائل ورذائل ، فلذلك طريقة خاصة فى البحث غير الطريقة التى سلكتها ...

وأختم كلمتى بالرجاء إلى السيد على الطنطاوى أن يتقبل ملاحظاتى المتواضعة بصدر رحب ، كما أنى أرجو جميع الناقدين أن يلتزموا حدود البحث العلمى ، والحيادية ، والتجرد عن النزعات الشخصية ، وعن الطعن البعيد عن الروح الموضوعية ، كى تثمر مناقشاتنا الثمرات المؤملة ، والسلام .

(حلب) الدكتور محمد يحيى الهاشمى

من أساليب النقد عندنا :

إن القارىء المنصف ليأخذه العجب حين يطالع تلك الفصول التى يكتبها النقاد المحدثون ؛ فأ كثرها يمليه الهوى ، ولا يصدر عن رأى خالص لوجه الحق ، ولا سيما ما يكتب مقدمات لكتب المؤلفين ، ودواوين الشعراء ، ولكن العجب الذى لا يكاد ينتهى مايلاحقك حين تقرأ لناقد واحد لكتاب واحد فى أسبوع واحد كتابين متناقضين .

كتاب « نفحات من سيرة السيدة زينب » وضعه الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى ونقده الأستاذ كامل السيد شاهين فى مجلة « الرسالة » بتاريخ ١٢ من ذى القعدة سنة ١٣٦٥ ، وفى مجلة الإسلام بتاريخ ١٦ من الشهر نفسه فبين الكلمتين أربعة أيام فقط ، ولكن هذه المدة القصيرة غيرت رأى الناقد . ولو كانت إحدى المجلتين تصدر فى أمريكا أو فى الصين ، ولو كان بين النقدين زمن طويل لالتمسنا للناقد عذراً ، ولا يمكن أن يحمل كلامه فى « الرسالة » إلا على أنه مجاملة لزميله وصديقه ، ولكن كان يجب أن يفهم أن « الرسالة » ومثيلاتها من المجلات التى تكتب للخاصة ليست موضعاً للمجاملات .

وانسق جملة من كلتا الكلمتين ليعرف القارىء إلى أى مدى تكون المجاملة . فى مقال الرسالة ص ١١٢٣ « والكتاب بعد ذلك عرض تاريخى أنيق لحياة هذه السيدة الكريمة . فللوعاظ والمرشدين والمؤرخين المعنيين بتحقيق الشخصيات الاسلامية البارزة لهؤلاء جميعاً وضع هذا الكتاب جامعاً بين دقة البحث وطلاوة الأدب ... الخ » . فالكتاب إذن للمؤرخين الذين يعنيهم التحقيق والتدقيق وصاحبه قد بذل فيه جهداً جباراً حتى جاء دقيق البحث ، فما باله يصبح فى مجلة الاسلام عارياً عن التحقيق جامعاً بين الغث والثمين والطم والرّم ، حتى فى أخص ما يجب فيه التحقيق وهو تأويل آيات الله الكريمة قال الناقد ص ١٨ « نحا المؤلف فى تأويل الآيات القرآنية منحى شيعياً ، وذلك يذكرنا بشر ما يقع فيه إنسان أن يكون كتاب الله الكريم خاضعاً فى تأويله لمجارى الأهواء ، وقد انساق كثير من المفسرين فى هذا التيار عن غفلة وثقة بمن يأخذون عنهم ، وما كنا نحب من المؤلف أن يأخذ ممـا قاله الرواة والمفسرون بدون تحقيق ولا تمحيص » . وإذا كان فى هذه الفقرات يعيب على صاحبه عدم التحقيق فى تفسير الآيات القرآنية ، فهو فى موضع آخر يعيب عليه عدم التحقيق فى الروايات التاريخية وهى ما قام الكتاب عليها ، فلا مندوحة لمن يقرأ كلامه أن يعتقد أن المؤلف لم يحقق ولم يدقق فى أصول كتابه أو فروعه . قال الناقد فى مجلة الاسلام ص ١٨ أيضاً « وآخر ما أذكر به المؤلف أن يراجع ما كتب ، ولا يأخذ من أفواه المؤرخين والمفسرين أخذاً لينظر فيما قيل ويعرضه على محك عقله ، وحقيقة دينه ، فأما أن يجمع بين الغث والسمين فذلك غير ما نأمل فيه » ، وقد تلفت القارىء هذه الكلمة من الناقد « وحقيقة دينه » ولا عجب فان الناقد يرى المؤلف بعيداً عن روح الاسلام فى بعض ما كتب ، قال بعد أن ذكر تأويل المؤلف لآيتين من كتاب الله ، وذكر هو تفسيرهما : « هذه هى روح الاسلام الصحيح ولا ينبغى أن يبعد عنها رجل يبتغى بعمه وجه الله ورسوله ، فإن كنت يا سيدى تؤمن بأن الله اصطفى طائفة من نور ، وجعل طائفة من نجس فذلك عن روح الاسلام بمعزل » .

والناقد يشير بقوله : « ولا ينبغى أن يبعد ... الخ » أن المؤلف قصد بما ساقه عن آل البيت تملق العامة وابتغاء ما عندهم ثم ترى أن الأستاذ شاهين يذكر لصاحبه فى مجلة « الرسالة » أنه تناول التربية الشعبية « بروح جديدة هى روح عالم النفس الحاذق » ، ولكنه فى مجلة الاسلام يقول : « ولا أنسى أن ألوم المؤلف على أنه ذكر أن النساء لطمن خدودهن عقب مصرع الحسين ، فان هذا الكتاب للعامة ولا يصح أن تساق هذه الأشياء وأمثالها فيتخذها العامة ذريعة لاستحلال ما حرم الله . والحرام حرام مهما كانت مكانة فاعله ومنزلته » .

(وبعد) فإن القارىء يتبين مما نقلته مدى التناقض بين كلامى الناقد ، وأنه بصنيعه هذا فى المجلتين ، وما ساقه امتداحاً لصاحبه ثم ما عقب به من هذا النقد الذى يهدم كل ما بناه ليذكرنا بما قاله المرحوم شوقى بك على لسان أحد أبطال روايته مجنون ليلى يخاطب منازلا غريم قيس فى حب ليلى :

منازِ يابن العم ما هـذا الخبر ... رفعت قيسـاً لجعلته القمر
والآن أغريت بقتـله الزمر ... كفعل جزار اليهود بالبقر
براها من العيوب وعقر

أما رأيى فخلاصته أن المؤلف — على ما نعهد فيه من علم وفضل — كان فى هذا الكتاب حاطب ليل ، وأنه استهدف لنقد عنيف محق وأمكن الرامى من صفاء الثغرة كما يقول العرب فى أمثالهم .

على العمارى

إلى الأستاذ الجليل محمد إسعاف النشاشيبي :

ذكرتم في النقلة ٦٩٧ قصة عن محمد بن الحسين المخعي وتلميذه ، وفي ختامها هذه الأبيات :

رب ما أقبح عندي عاشقاً مستهاماً يتفقا سمنا
قلت من ذاك ؟ أنا ؟ فاستضحكت
ثم قالت : من تراه ؟ فأنا
قلت زوربني فقالت عجباً أنا والله إذن قاري مني
إذ يصلي وعليه زيتهم أنت تهواني وآتيك أنا ؟

فمن هو قارئ مني الذي يصلي بالناس وزيتهم عليه ؟ وهل هذه القصة حقيقية ؟

(البصرة) محمد حسين اسماعيل

في إرشاد الأريب :

كنت أراجع مقالات الأستاذ إسعاف النشاشيبي في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب فعرض لي في العدد (٦٥٥) من « الرسالة » الغراء ما أردت إثباته ، وبالله العون .

جاء في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ج ٩ ص ٨ : فكتب إليه المهلبي : وصل كتابك يا أخي ... المتضمن نفيس الجواهر من بحار الخواطر ، الحاوي ثمار الصفاء من منبت الوفاء وفهمته ، ووقع ما أهديته من نظم ونثر ... موقع الري من ذي الغُلة ، والشفاء من ذي العلة ، والفوز من ذي الخيبة ، و « الأدب » من ذي الغيبة ، وجاء في الشرح : الأدب التأديب .

ورأى العلامة النشاشيبي في تحقيقاته أن المهلبي قال : (والغنم من ذي الغيبة) ويعزى إلى امرئ القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وأظن أن الصواب هو (والأوب من ذي الغيبة) والبيت الذي أورده الأستاذ لامرئ القيس دليل بظاهر ما أوردته في سياق المعنى المراد .

هذا ، وفي الختام إلى أستاذنا المحقق تحياتي ، والسلام .

(الزيتون) عدنان أسعد

أبو شاس ليس هو أبا نؤاس :

رأى الأستاذ شكري محمود أحمد في « الرسالة » الغراء (٦٨٨) أن أبا شاس الشاعر هو أبو نؤاس نفسه وإنما صحفه النساخ ، وقد أيد رأيه بأبيات منسوبة لأبي شاس وهي موجودة في ديوان أبي نؤاس .

وإني أقول للأستاذ إن لفظة أبو شاس قد وردت لعلمين من أعلام الأدب العربي كما في معجم الشعراء للمرزباني وهما أبو شاس التميمي وأبو شاس الطبري .

فأما التصحيف الذي ذكره الأستاذ فلا يمكن أن يقع على مثل هذه الكلمات لبعد الشبه بينها .

وأما الأبيات التي استشهد بها فيمكن أن تكون لأبي نواس وإنما وجدت منسوخة عند أبي شاس من غير أن تعزى إلى أحد فظنها من وجدها عنده أنها له فأذاعها بين الناس باسمه فنسبت له .

كما أن أبا نؤاس لم ينفرد بهذه الكنية بل هناك أبو نؤاس آخر هو أبو السري[1] سهل بن يعقوب المكنى بأبي نؤاس قيل إنما كُني بذلك لأنه كان يظهر التطيب والتخالع مع الناس فسمي أبو نؤاس لتخالعه وقد كان محدثاً فقيهاً .

(كربلاء) م . ع . ك

رجاء :

لاحظت أن كثيراً من الأدباء ينشرون المقالة في « الرسالة » ثم بعد ذلك ينشرونها في الثقافة ، ومن هؤلاء العلامة الدكتور محمد البهي في مقالة (الدين الصناعي) ، والأستاذ الشاعر محمد رجب البيومي في قصيدة (مقبرة ريفية !) والأديب الفاضل أحمد عبد المجيد الغزالي في مقاله (الصراصير) ... ومن المعلوم أن قراء « الرسالة » في الغالب — هم قراء الثقافة فما الداعي إلى ذلك ؟ مع أننا معشر القراء — نريد الطريف الجديد لا المكرر المعاد !! ...

سعاد كامل

(١) ذكره المامقاني في الجزء الثاني من رجاله عدد ٥٤٠٥ وكذلك ذكره غيره كأبي علي في رجاله والقمي في كناه وألقابه



القافلة الضــالة ...

تأليف الأستاذ محمود كامل المحامى

[منشورات دار الجامعة]

للاســـتاذ شاكر خصباك

للأستاذ محمود كامل المحامى باع طويل فى القصة القصيرة ، فقد أخرج منذ أن اقتحم هذا الميدان حتى الآن ما يقارب الخمسة عشر مؤلفاً ، ضمت بين دفتيها عشرات الأقاصيص والقصص . هذا عدا الروايات الطويلة والقصص المسرحية التى احتوتها ثمانية مؤلفات . فكتابه « القافلة الضالة » إذن ليس أول محاولة قصصية يقوم بها ، وفى هذه الحالة يترتب علينا عدم الإغضاء عن أى ضعف فى أسلوب أقاصيصه الحديثة ، أو تشويش فى حوادثها ، أو ركاكة فى لغتها . إذ لو وقع فى مثل هذه الأغلاط التى تفقد القصة بعض مميزاتها الفنية قصاص مبتدئ لتسامحنا معه بعض المسامحة . أما والأستاذ محمود كامل قصاص قديم فسنلجأ إلى التشدد والصرامة فى محاسبته على ما اعتور مؤلفه من أغلاط فنية كثيرة .

— ١ —

فلنتصفح الكتاب ولنتناول قصصه قصة قصة ؛ فقد افتتحه بقصة « موسيقار الطريق »

وملخصها : (أن نادية — وهى مدرسة للموسيقى فى إحدى المدارس الثانوية — سافرت فى الصيف إلى (عتاقة) ، فأحبت هناك موسيقاراً شاباً وأحبها ، وتوثقت بينهما عرى الصداقة ، وقويت أواصر الود ، ولكن ما كادت تمضى على اجتماعاتهما ثلاثة أيام حتى فرت نادية عائدة إلى القاهرة . . لماذا ؟ ! لأنها خشيت أن يتمكن حب هذا الموسيقار فى قلبها ، فى حين أنه قد يكون شاباً من هؤلاء الشباب الذين يقضون فترة خاطفة من الوقت على شاطئ البحر ليقتنص أثناءها فتاة من المصادفات يخدعها ويلهب عاطفتها ، ثم يفترق عنها ولا يعود يسمى إليها أو يسمع بها كأن أحداً لم ير الآخر ! !

غير أن هذا الموسيقار تبعها إلى القاهرة وهو لا يعرف من عنوانها غير الشارع الذى تسكن فيه ، فلجأ إلى أسلوب غريب (وغريب جداً) فى البحث عنها : وهو أن يحمل أكورديونه ويجوب فى ذلك الشارع ليلا متغنياً بقطعة غنائية كان قد غناها لها آخر مرة . واستمر على ذلك بضع ليال دون أن يبالى بصحو الجو أو اكفهراره ، حتى أن الماء كان يتساقط من كتفيه فى بعض تلك الليالى الماطرة . وأخيراً شاءت له المصادفة أن يعثر عليها فتم بينهما الزواج »

وهكذا تنتهى من القصة ! !

وبعد ، فهل سمعت من قبل أو من بعد أن محباً حمل آلته الموسيقية وانطلق يجوب بها الشارع الذى تسكن فيه حبيبته ، وهو يغنى ويعزف كيما يستجلب انتباهها ؟ ! قد تكون سمعت بمثل هذا فى أقاصيص العجائز الخيالية البعيدة عن الواقع ، أو فى أقاصيص بعض القصاصين الكلاسيكيين أمثال شيكسبير وبوكاتشيو وسرفانتيس . وأما أن تقرأه فى كتاب قصصى لمؤلف مصرى معاصر؛ يقول فى مقدمة كتابه إن :« أقاصيصه عبارة عن مجموعة صور منتزعة من الحياة الاجتماعية المصرية » . فالحق معك إن استغربت من ذلك وأغرقت فى استغرابك . إذ أن مثل هذا التصرف الشاذ بالنسبة لعادات وحياة المجتمع المصرى بعيد عن الوقوع كل البعد . وبما أننا نعنى بـ(الصور الاجتماعية) الحوادث التى يتكرر وقوعها حتى تصبح من سمات المجتمع ؛ فهذه القصة إذن قد فقدت طابعها الفنى — باعتبارها قصة اجتماعية واقعية — ببعدها عن الحقيقة وإغراقها فى الخيال ، وأقصد ببعدها عن الحقيقة عدم واقعية تكرر حدوثها فى المجتمع المصرى ذاته ، ولا علينا أن يحدث لأحدهم أن يحمل أكورديونه ويعزف عليه ويغنى وهو يجوس فى ظلمات الليالى فى الشارع الذى تسكن فيه حبيبته فى بلاد أخرى أو لا يحدث ما دامت القصة مصرية وليست أجنبية !

ويكفى هذا السبب للحكم على هذه القصة بالفشل ، لأن

تجوال صاحبنا جمال فى شارع يلبغا بشبرا وغناءه وعزفه كما تسمعه حبيبته نادية وتخرج له . حادث رئيسى فى القصة ترتكز عليه حوادث مهمة ونتائج خطيرة . ومن هنا أطلق المؤلف عليها اسم « موسيقار الطريق » . ولما كان هذا الحادث فاشل — لافتقاره إلى الصدق والواقع — فإن ما ارتكز عليه من حوادث ونتائج فاشلة بالطبع ، فالقصة فاشلة إذن

— ٢ —

ونفرغ من القصة الأولى فنتناول القصة الثانية وهى « رسائل حب » . وفى ظنى أنك لو قرأت يا عزيزى القارئ هذه القصة لما خرجت منها بشىء . وهذا ما حدث لى بالضبط عند قراءتها فاستمع الآن إلى ملخصها علك تجد شيئاً من الصحة فيما ذكرت:

ف « ممدوح صادق طالب فى كلية الهندسة : سافر مع أسرته فى الصيف إلى الأسكندرية ، فالتقى هناك بسنية فى أحد الملاهى ، وكانت هذه فى صغرها تسكن فى نفس الشارع الذى تسكن فيه أسرته ، لكن والدها التاجر أفلس أخيراً فانتقل إلى حى آخر ، ولم ير سنية منذ ذلك اليوم ، فلما رآها الآن تملكه شعور قوى جذبه إليها ، واضطر إزاء ذلك الشعور أن يتعرف إليها ، ثم جلسا حول مائدة يتحدثان عن الماضى والحاضر ، فعلم أنها قد أصبحت ممثلة ، وعلمت أنه طالب فى كلية الهندسة ، ومن ثم اتفق معها على أن يبعث لها برسائل غرام عند ما تعود إلى القاهرة ، وذلك لأن أحد ناشرى الكتب أوصاه أن يكتب رسائل غرام حقيقية لينشرها له — وهنا يجدر بى أن أشير إلى أن لممدوح صادق ميلا إلى القصة ، وقد نشر فى بعض المجلات أقاصيص قصيرة — ولكنه لم يوف بوعده بعدئذ ، بل كتب الرسائل واحتفظ بها لنفسه عملا بوصية الناشر .

ومضت الأيام سراعاً ، وإذا بخطاب يصله من سنية ذات يوم تبلغه فيه أن رسالته الغرامية التى بعث بها إليها مدهشة جداً جداً ، وأنها حازت إعجابها ، وأنها تأمل أن تراه قريباً . فدهش لأنه لم يبعث لها بأية رسالة ، وظل فريسة للقلق والاضطراب إلى أن عاد إلى القاهرة مع أسرته . فسأل عن سنية وعلم أنها سافرت إلى إحدى قرى الريف لتصوير مناظر فلم جديد .

وقصد ذات يوم إلى حلاق قريب من داره ، فبدأ صبى الحلاق يؤدى عمله ، وفتح الدرج الذى أمامه ليخرج (المسن) الجلدى ، فلمح ممدوح صورة لسنية مقتطعة من صحيفة من الصحف ومحاطة بإطار رشيق ، وسأل الصبى عن اسمه ولقبه ، فإذا هو « ممدوح أسعد » . وسأله عن علاقته بسنية فأخبره أنه رآها مرة فى حياته فأعجب بها أشد الإعجاب . وقد بحث عن صورتها طويلا فعثر عليها فى إحدى الصحف واقتطعها منها ، وأنه يكتب لها كلما شاء أن يفضى إليها بشىء . وأخبره أيضاً أنه أديب يكتب فى المجلات بعض القصص والأزجال !

. . ومضت أيام على اجتماعه بذلك الصبى ، وإذا ببرقية من بور سعيد تصله من سنية : تطلب منه فيها أن يوافيها إلى محطة القطار . وبعد تردد طويل أجاب طلبها . وما كاد القطار يبلغ المحطة حتى قفزت سنية من العربة وتعلقت به ، وانطلقت تطرى مقدرته الأدبية ، ثم قدمت له مجموعة من الرسائل الأنيقة (الزرقاء) التى كانت موقعة بتوقيع (ممدوح أسعد) . ثم سألته عن سر هذا التبدل فى اسمه ، فأخبرها أن « ممدوح صادق » الإسم الذى يعرف به فى المدرسة ، و « ممدوح أسعد » اسمه الحقيقى ، والذى يعرف به فى عالم الأدب

وبعد المقابلة عاد إلى المنزل مهدم الأعصاب وقد فهم السر . وفتح الدرج الذى اعتاد أن يحفظ به رسائله التى كتبها لسنية ، وانطلق يتلوها فى خيبة أمل ومرارة . وقبل أن يتم تلاوتها سمع صراخاً وصوت احتشاد أقدام فى الشارع . فلما استطلع الخبر علم أن الترام قد قتل الصبى ممدوح أسعد الحلاق . فاستغل هذا الحدث لصالحه ومزق رسائله وألقاها فى الموقد ، وذهب برسائل ممدوح أسعد إلى مجلة معروفة نشرتها له فى أعداد متسلسلة . وبعد بضعة أسابيع قرأ فى نفس المجلة خبراً يتعلق بسنية التى كانت قد سافرت مع فرقة تمثيلية إلى مراكش وفاس مفاده أنها تزوجت بأحد تجار الجلود فى فاس ، وأنها اعتزلت التمثيل . ومنذ ذلك اليوم لم تعد إلى مصر ، ولم يسمع عنها ممدوح شيئاً »

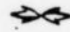
(البقية فى العدد القادم)

شاكر خصباك

العدد ٦٩٦ — الاثنين ٤ نوفمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد



٢٧٠٣٧

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 696

Lundi — 4 — 11 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

السنة الرابعة عشرة «القاهرة فى يوم الإثنين ١٠ ذو الحجة سنة ١٣٦٥ — ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٦» العــــدد ٦٩٦

على الطـــــريق

فى سورية ولبنان

للدكتور عبـــد الوهاب عزام بك
عميد كلية الآداب

— ٢ —

وعدنا من حلب بالطريق الحديدى فى مركبة كالمركبة الديزلية تسمى (أوتومتريس) وقد سميتها المسْتارة . وتذاكر الدرجة الأولى فى هذه المركبة تخوّل لحاملها القعود فى المقاعد الأولى من السيّارة الحافلة التى تنقل مسافرى السكك الحديدية بين حمص ودمشق . وهذه الحافلة تقبل غير ركاب السكة الحديدية ، ولـكن هؤلاء أولى بها إن لم تتسع لغيرهم ، ولما تركنا محطة حمص إلى هذه السيارة ألفينا ركاباً قد شغلوا المقاعد الأمامية ، وكان الجوّ حاراً فبدا لى أن أتركها وأستأجر سيارة خاصـة ورجعت إلى المحطـة آوياً إلى الظل من وهج الشمس ، وثار جدال بين بعض من رافقونا فى المستارة ومن شـغلوا المقاعد الأمامية . فسمعت أحد هؤلاء الرفقاء يجادل عن نفسه وعنّى وأنا بعيد عنه ، وما حسبته رآنى ؛ ولـكنه تطوّع بالدفاع عن حقى كما دافع عن حقه ، ودعيت أنا ورفيقى المصرى إلى الركوب وخُلّى لنا مكان . وجاء أحد من حجزوا المقاعد الأمامية فى ضجّة يقول : « قد حجزت مكانى ومعى رقمه ، والأرقام تتكلم » فأشار إليه أحد الراكبين ، وهو مشتدّ فى جدله متحمس فى الدفاع عن حقه ؛ وما زال الرجل يشير إليه ليقترب منه ، فلما دنا قال له : إنهم مصريون . فسكت غضبه ، وهدأت ثورته بغتة وقال : مصريون ؟ على رأسى إذن . ولم نكن نحن المصريّين أخذنا مكانه بل أخذه أحد من شاركنا فى المطالبة بالمقاعد الأمامية ، ولـكن الذى أراد أن يسكن غضب الرجل لم يجد أجدى عليه من أن يقول إنهم مصريون ؛ وقد تمادى الرجل فى مروءته بعد أن آثر المصريين بمكانه فعمّ الراكبين جميعاً وقال نحن حمصيُّون وهذا بلدنا . نؤثر كل راكب على أنفسنا .

كانت كلمة مصريين قاطعة لـكل جدل ، ذاهبة بكل غضب ، نضّر الله وجوه إخواننا فى حمص وغيرها ، وجزاهم عن مودّتهم ومروءتهم خيراً .

ونزلنا فى النَّبْك نستريح قليلا ، فأوينا إلى حديقة هناك يجرى فيها جدول تدور به ناعورة ، وكنا جلسنا فى هذه الحديقة أيام مهرجان أبى العلاء فى طريقنا إلى حلب وفى رجوعنا إلى دمشق وفى سفرتنا الأخيرة من دمشق إلى حلب ، فجلسنا فشربنا القهوة ، فإذا أحد رفقاء السفر ممن يعرفنا ولا نعرفه تطوع بأداء

ما علينا إذ وجدها فرصة للإعراب عن مودته وإكرام إخوانه وحيوه على الطريق بتحية وسيمة . وما زال يرتقب الفرص ليسرّنا بكلمة أو فعلة حتى افترقنا .

* * *

وخرجنا من دمشق يوم الجمعة ٢٤ من شوال (١٩ أيلول) نؤمّ حيفا لنركب منها قطار مصر . وكان بجانب السائق رفيق لم يصِلنا به تعارف ولا تحادث . فلما بلغ بنا السير الحدود الموهومة التى تفصل سورية وفلسطين — تلك الحدود لم يخلقها الله ولم يقرّها الحق ، ولا عرفها تاريخ البلاد ، ولا اعترف بها سكانها — نزلنا ننتظر الإذن بدخول فلسطين بعد رؤية جوازات السفر والأعمال المعتادة على الحدود ، ورأينا دكاناً أمامه كراسىّ فأخذنا سجاير وجلسنا لنشرب القهوة أنا والأستاذ محمد خلاف بك ، ووجد ذلك الرفيق الذى لم يحادثنا ولا تعرّف إلينا فرصة للتودد إلينا والإعراب عما يضمره من مودّة فأصرّ على أن يؤدّى ثمن القهوة وأبى أن يستمع لقولنا ، وأن يلين لإلحاحنا .

ثم اجتزنا الحدود وواصلنا السير حتى مررنا بعين عذبة باردة يجرى عنها الماء فى جدول وفى أنابيب من الحديد . فنزلنا هناك لنشرب من العين ووجدنا دكاناً فتقدمنا لنشترى فاكهة وقلنا حبذا فاكهة مبرّدة فى ماء هذا النبع . فلما اشترينا ما أردنا غافلنا هذا الرفيق وأصرّ إصراره الأول على أن يؤدى ثمن الفاكهة .

ليس شيئاً ثمن القهوة ولا ثمن الفاكهة ولكن مقصد هذا الشاب كان عظيما ، ومعنى هذا العمل جليل . فهذا شاب من نابلس عرَفنا مصريين فأراد أن يحيينا بما تهيأ له على الطريق ، أو عرف شخصَينا فبالغ فى الإيناس والإكرام .

ولما دخلنا حيفا ، وعلمنا أن المحطة التى نسافر عنها نُسفت قبل دخولنا المدينة بقليل ، وحسبنا أن السفر لا يتيسّر يومنا ، جاء رفيقنا هذا معه سيارته يدعونا إلى المضىّ معه إلى نابلس إلى أن يمكن السفر على السكة الحديدية ، فشكرنا له وانتظرنا حتى تسنّى لنا السفر .

وجاءنا فى القطار بعض الموظفين يسألوننا عن جواز السفر ثم سلّما وتحدثا إلينا وقال إنما تعللنا بطلب الجواز لنتحدث إليكما فقد رأينا فى أحدكما شبهاً من أمين الجامعة العربية فأردنا أن نعرف جلية الأمر وسألا عن الأمين يدعوان له ويثنيان عليه .

هـذه أحداث يراها المسافر حيث كان فى سورية ولبنان وفلسطين فى بلاد إخواننا وجيراننا الأدنين ، وهى على صغر ظاهرها كبيرة المعنى عظيمة الدلالة . تنطق بأن المصرى حيثما توجّه من بلاد العرب فهو فى بلده بين إخوانه ، إلا أنه يحظى بكرامة الضيف ، وأن العربىّ لا يغترب أيان سار فى بلاد العرب ، يُشعره بهذا الخاصة والعامة ، ومن يعرفه ومن لا يعرفه .

وأما الخاصة من الأدباء والعلماء ، وأما الحكومات ومعاهد العلم والهيئات المختلفة التى تعمل للجامعة العربية ، وتشدّ الأواصر بين بلاد العرب ، وما يقال فى هذا ، وما يكتب ، وما يعمل ، وما يدبّر ، فله حديث آخر طويل .

عبد الوهاب عزام

بعض الذكرى ... !

للأستاذ محمود محمد شاكر

كان ذلك منذ عشرين سنة ، وكنت فتى لا يملّ الدُّؤوب والسعي ، وكانت أول مرة أدخل فيها بيت ذلك الشيخ[1] الضئيل البدن المعروق اللحم ، الذى ينظر إليك أبداً كالمتعجب . وكان الذى سمى بى إليه حبٌّ قد ملأ قلبى له ، وإجلال قد أخذ علىّ العهد أن أفى لهذا الشيخ ما حييت وفاء الذكرى ووفاء العلم ووفاء الاقتداء ؛ وكنت يومئذ قد حضرت بعض دروسه فى مسجد البرقوقى ، وقرأت عليه شيئاً من كتاب أبى العباس المبرّد ، وكان يعدُّنى كبعض ولده لسابق معرفته بأبى رحمهما الله . وكنت يومئذ سقيم الجسم خفيف اللحم نحيل التجاليد ثائر الشَّعر ، فإذا لقيته فربما كان يقول لى : « كأنك آيبٌ من سفر بعيد أيهـا الفتى » . فكنت أفهم عنه ، فإذا انقلبت إلى الدار عدوت إلى المرآة لأرى ماذا حمل الشيخ على مقالته التى لم يزل يقولها لى ويدى على يده أو فى يده ، فما أرى سوى وجه شاحب ضامر ، وعينين غائرتين كأنهما تنظران إلى شىء بعيد فى جوف وادٍ سحيق عميق . فأقول لنفسى : هـذا جُهْد التحصيل وكدُّ النفس فى قراءة هذه الأسفار القديمة التى تباعدت معانيها وتقادمت عهودها .

طرقتُ بابه فى ذلك اليوم على غير ميعاد ، ففتح لى صغير من حَفَدته وقادنى إلى غرفة الشيخ ، فإذا هو جالس على حشيّة على بساط كالح من تقادم الأيام ، وعلى يمينه خزانة كتب مطويّة فى جوف الجدار ، وأمامه صينيّة صفراء من نحاس فيها أداة القهوة ، وعلى يساره كتب مركومةٌ ، وفى يمناه قلم يكتب . فلما سمع حسّى رفع إلىّ بصره وسكن ، وظلّ كذلك ساعة وأنا بين يديه يأخذنى ما قرُب وما بعُد من هيبته ، وجعل ينظر إلىّ فأطال النظر ؛ ثم لم يلبث أن قال بصوت خافت ما كنت لأتبينه لولا أنى عرفت الذى يقول وكنت أحفظه ، وهى هذه الأبيات من شعر بعض الأعراب :

رأت نِضْوَ أسفارٍ ، أُميمة ، شاحباً
على نِضْوِ أسفارٍ ، فجنَّ جنونها[1]

فقالت : « مِن أىّ الناس أنت ؟ ومن تكن ؟
فإنك راعى صِرْمةٍ لا يَزِينُها[2] ! »

فقلت لها : « ليس الشُّحوبُ على الفتى
بعارٍ ، ولا خيرُ الرجال سمينها .

« عليك براعى ثَلّة مُسْلَحِبَّة
يَرُوحُ عليه مَحْضُها وحَقِينُها[3]

« سمينِ الضَّواحى ، لم تؤرِّقه ليلةً
— وأنعمَ — أبكارُ الهموم وعُونُها[4] »

وكان الشيخ حسنَ التقسيم للشعر حين يقرؤه ، فيقف حيث ينبغى الوقوف ، ويمضى حيث تتصل المعانى ، فإذا سمعت الشعرَ وهو يقرؤه فهمته على ما فيه من غريب أو غموض أو تقديم أو تأخير أو اعتراض ، فكأنه يمثله لك تمثيلا لا تحتاج بعده إلى شرح أو توقيف ، وكان فى صوت الشيخ معنى عجيب من الثقة والاقتدار ، وفى نبرآته حين ينشد الشعْر معنى الفهم للذى يتلوه عليك ، فلا تكاد تخطىء المعانى التى ينطوى عليها ، لأنها عندئذ ممثلة لك فى صوته . والصوت الإنسانىّ هو وحده القادر على الإبانة عن المعانى الخفية المستكنَّة فى طوايا النفوس أو فى أحاديث النفوس .

---

(١) هو إمام العربية وحامل أمانتها شيخنا وأستاذنا سيد بن على المرصفى رحمه الله.

(١) نضو أسفار : مهزول قد أذابت لحمه الأسفار ولوحته البيد . يعنى بالأول نفسه ، وبالثانى بعيره

(٢) الصرمة القطيع من الابل والغنم .

(٣) الثلة . جماعة الغنم . مسلحبة : أى منبطحة فى مراعيها قد اطمأنت شبعاً ورياً . والمحض : اللبن الذى يستهلك فيه زبده فلا يكاد يخرج منه زبد ، وهذا أطيب ألبان الغنم وأمرؤها على البدن . والحقين : هو اللبن يجمع فى السقاء ويصب رائبه على حليبه ، فهو غذاء حسن ، وذلك كله كناية عن طيب مطعم هذا الراعى وحسن مشربه ، فهو فى خفض ونعمة

(٤) الضواحى : ما برز من الانسان كالمنكبين والكتفين ، يريد ممتلىء البدن من الراحة والدعة وسكون النفس . والأبكار : جمع بكر ، وهى المرأة لم تتزوج بعد . والعون : جمع عوان ، وهى المرأة كان لها قبل ذلك زوج . أما قوله : « وأنعم » فهى كلمة معترضة أراد بها أن قد طال على ذلك الراعى ما هو فيه من خفض ورغد وراحة ورفاهية حتى ربا وسمن وزاد ، فلم يشغله شىء يضنيه أو يأكل من بدنه .

وربّ رجل أو امرأة تسمع كلامه أو كلامها وأنت لا تعرف عن أحدهما شيئاً ، فيخيّل إليك وأنت تسمع أنك قد نفذت على نبرات هذا الصوت إلى أعمق الأعماق المدفونة فى هذه النفس الإنسانية التى تحادثك ، وهذا شىء لا يكون إلا فى ذوى النفوس الصادقة الصافية البريئة من حشو الحياة وسفسافها ، وهذه النفوس وحدها هى القادرة على أن تجعل الصوت بمجرّده لغة مبينة عن أغمض المعانى التى تعجزُ لغات البشر عن حملها وأدائها .

وأنت محتاج حين تسمع « لغة الصوت » أن تكون يقظ النفس حىّ الإحساس ، نفّاذاً إلى المعانى المتلفّعة بالغموض ، حسن التيقظ للنبرات التى تدل على ضمير اللفظ ، سريع الخاطر فى إدراك هذا الموج المتلاحق من الحركات المختلفة . فإذا كان الذى تسمعه كلاماً يُتلى أو يُنشد كالشعر مثلا ، وكان الذى ينشده قد عاش ساعة فى معانيه حتى تلبّس بها ونطق لسانه معبّراً عن لسانها وعن لسان قائلها الأول — كان عليك أن تكون ليّناً طيّعاً سريع التبدُّل جرىء النفس فى غمرات العواطف ، حتى يتاح لك أن تعيش أنت نفسك فى هذه المعانى ساعة تتلى عليك . وعندئذ تغشاك غمرة لذيذة تدبُّ فى غضون نفسك ، فتحسُّ كأنك تُبعث بعثاً جديداً فى حياة جديدة حافلة بالصُّور التى قلما يدركها العقل إلا مُشوّهة مُشيّأة متخالفة التركيب ، فلا يزال يجهدُ فى تلفيق أجزائها حتى لا يبقى من أصولها الحيّة الصريحة الصادقة شىء ألبتة . فإن استطعت يوماً أن تجد فى نفسك أنك مستطيع أن تكون على هذه الصفة ، فقد فهمت الشعر ونفذت إلى أغواره ، وإن عجزت عن بيان ما فيه .

وفى الناس ناسٌ ، وقليلٌ ما همْ ، قد أجادوا « لغة الصوت » إجادة بارعة ، وإن كانوا فى أكثر الأحيان لا يدركون أنهم يحسنون منها شيئاً ، وذلك لطول ما انطوَوْا على أنفسهم حتى غمروها فى بحر النسيان . وربما سمعتَ أحدهم وهو يتكلم ، فما يكاد ينطق حرفاً أو حرفين حتى تحسّ كأن كل معانى نفسه تتسربُ فى نفسك واضحة بيّنة ، وأنك قد عرفت منه ما يكاد يخفيه عن الناس جميعاً ؛ لأنه متكبر أو قانط أو هيّاب جزوع .

وهذا الضرب من الناس هم أشد خلق الله حرصاً على إخفاء آلامهم ، وأبعدهم رغبة فى الاستمتاع بالعذاب الذى يقاسونه ، لأنهم يظنون أنهم بذلك قد حازوا النصر على آلامهم ، وعلى الناس أيضاً ؛ إذ استطاعوا أن يواروا عنهم خبء ما فى نفوسهم الحزينة المعذبة ...

* * *

لما سمعتُ الشيخ رحمه الله ينشد تلك الأبيات ، تمثّلت لعينى تلك المأساة الخالدة بين الرجل الصادق والمرأة التى أحبّها ، وكانت تطمع أن يكون لها كما خيّلت لها أوهامها ، وأن يأتيها بتحقيق أحلامها — أى أحلام حواء منذ كانت حواء ، على اختلاف العصور وتباين الحضارات . فهذا أعرابىٌّ محب لصاحبته « أميمة » التى ذكرها فى شعره ، فدارت به الأيام فى فيافى الحياة ملتمساً ما يحقق به أمانى هذه المرأة المحبوبة ، ثم عاد إليها وقد أذابت البيد منه ما أذابت بظمئها وشمسها وجوعها ومخاوفها . فلما رأته شاحباً مهزولا رثّاً أسوأ حالا مما عهدته ، أنكرته وقد أثبتته معرفة ، فجُنّ جنونها لأنها محبّةٌ قد أخطأت فى الرجل الذى تحبُّ كل ما كانت تؤمله ، وخانها ما كانت تتمثله فى أحلامها من صحة وشباب وأناقة وجمال . وما أسرع ما تتنكر المرأة إذا خاب ظنها وتبددت أحلامها ، وفاجأتها الحقيقة العارية بالشىء الذى يخالف ما كانت تتوهم !

كانت المفاجأة صارخة فى نفس أميمة ، فلم تلبث أن غلبتها تلك الطبيعة المتقلّبة الغدّارة التى طال عهد المرأة بها ، فأظهرت كأنها لا تعرفه ولم تلقه ساعة من دهر . وجرى على لسانها ذلك الحديث الذى يرويه لنا المحبّ ، فقالت : مِنَ أىّ الناس أنتَ ؟ ولم تقف عند هذا وأبدت الفزع منه لئلا يخونها ما فى حنايا ضلوعها فيظهر على لسانها فعادت تقول : ومن تكُنْ ؟ ولكن أنّى للمرأة الضعيفة التى زلزلت المفاجأة بُنيانها أن تكتم حقيقة نفسها ؟ لقد كانت منذ هنيهة تسأله سؤال الجاهل من هو ومن يكون ، فإذا بها تنهار من شدة ما تعانى من اهتزاز كيانها ، فتقول له مقالة الناقد الساخر ، محاولة أن تبدى عن احتقارها وازدرائها لما ترى ، فزوَتْ عنه وجهها وهى تقول : لو كنت

راعيَ إبل لكنت خليقاً أن تنكر النفوسُ والأعيُن ما ترى من حقارتك وبذاذتك ، فكيف ترجو أيها المحب المغرور أن تكون حسناً في عين من تحبُّ ، وأن تكون زيناً لامرأة أحبتك؟ وهكذا المرأة — إلا من عصم الله ...

فهم الشاعر المحبُّ مرمى كلامها فأنف لنفسه ، فانطلق يسخر منها بعد أن تكشَّف له ضمير المرأة الغادرة . فقال لها : ليس الشحوب على الفتى بعارٍ ، ولا خير الرجال سمينها ، وإذا كان شحوبي قد ساءك وآذاك حتى أنكرت مني ما تعرفين ، فنعم ولك العُتبى عليَّ . عليك بمن يزينك . اطلبي لنفسك راعي غنم قد اطمأنت به وبها الحياة ، فعاش خافضاً وادعاً لا همَّ له إلا بطنه ، حتى امتلأ وتضلّع وغدا سميناً بضاً جميلا كأحسن ما تأملين ، فأنتن أيتها النسوة إنما تحببن من الرجال الزينة وحدها ، كأنكنَّ إنما تتخذن الرجال حلياً لا أصحاباً ولا أزواجاً.

وهكذا المرأة ، هي لضعفها تؤثر لحياتها كل ظاهر يدلُّ على القوة فهي تؤثر البدن القوى على البدن الضعيف ، وتؤثر اليسر على الخصاصة ، وتؤثر القناعة على الطموح ، وإن كان قلبها يؤثر بالحب ذلك الضعيف الفقير الطمّاح الذى أضرَّ به الكدح ، ولكن قلب المرأة هو آخر ما تهتم له إذا جاءها بمن لا ترضاه لحياتها ؛ فالمرأة مفتونة بكل مايدل على القوة الظاهرة ، ولا تكاد تبالى شيئاً بالقوة المستكنّة كالعلم والعقل والجهاد والصبر ؛ لأنها تريد أن تحيا حياة مطمئنة محفوفة بما يحسدها عليه النساء سواها لا أن تحيا مجاهدة في عذاب حبيب مجاهد .

ومنذ سمعتُ الشيخ ينشد تلك الأبيات ، وقفتُ على كلمة في هذا الشعر لا أزال أعجب لها وهي : « أبكارُ الهموم وعُونُها »

« أبكار الهموم » ! يا لها من كلمة عبقرية ! إن مزيّة هؤلاء الأعراب البُداة على سائر من نطق بالعربية هي هذه الجراءة العجيبة التي تنقضُّ على اللغة فتنفضها نفضاً وتختار من ألفاظها كلمة تضعها حيث تشاء ، فلا تراها تقلق في مكانها أو تضطرب ، وهم بذلك يختصرون المعاني كلها في كلمة واحدة يخبأون فيها أحلامهم وخيالهم، وأحاسيسهم وأسرار قلوبهم ، كما خبأ هذا الأعرابي كل ما كان في نفسه في « أبكار» ، ودلَّ بها على المعاني

التي كانت تضطرم في قلبه حتى أضنته ومسحت وجهه بالشحوب ، وعرقت لحمه بالهزال ، وصيّرته إنساناً مُنكراً في عين من يُحب .

فهذا الأعرابيُّ الجرىء ، والمحب المزدَرَى ، والساخر المستخفُّ عندئذ بالناس وبالنساء وبالحياة ، قد أراد أن يُعلِمَ « أميمته » الباغية أنها إذا كانت تؤثر عليه امرأً غضاً ناضراً ناعماً لم تؤرّقه هموم النفس ولم يُضرِ به الكدح في بوادى الأحلام والآلام والآمال ، فإنه غنيٌّ عنها ، وعن سائر نساء العالمين — وأن أمثالها لسنَ له بهمّ ، وأن له من حاجات نفسه وهمومها « أبكاراً » كأبكار النساء و « عوناً » كعونها ، فهو راضٍ بها وبما يلقى في سبيلها من أرقٍ وسُهادٍ . وأراد أن يُعلمها أنه لا يأسى على ما فاته من بِكْرٍ ولا عوانٍ، فإن للنفس الشاعرة هموماً « أبكاراً » لم تمسسها يدٌ ولا فكرٌ ولا حُلُم ، تجد النفس المحبة فيها ما يجد المحبّ في العذراء الحييّة العصيّة من فتنة وجمال ونضرة وشباب ، ولا يزال يداورها ويحاورها ويشق بالسعى في طِلابها شقاء لذيذاً له في القلب نشوة أوسُمار.

وهى « أبكار » لا تزال عذراء على وجه الدهر لا تغيّر منها الأيام شيئاً ، ولا تُنيل الطالبَ المحبَّ إلا متاع الحبّ المجرد من شهوات الأبدان ، بل هى تغتذى بالأبدان فتضنيها وتنهكها لتبقى هى أبداً أبكاراً .

وللنفس أيضاً هموم « عُون » قد أصاب الناس منها ما أصابوا ، ولكن بقيت منها للنفوس الشاعرة بقية فاتنة بما فيها من دلال وكبرياء وقدرة على الامتناع عند الإمكان ، ونُبل في الخضوع والتسليم عند العجز ، فهى تداور صاحبها وتحاوره حتى تشقيه شقاء لذيذاً ثم تنيله ما يشاء حتى يرضى .

ولقد عجبتُ للشيخ يومئذ وهو يكرّر : « لم تؤرّقه ليلة ، — وأنعمَ — أبكارُ الهموم وعُونُها » فقد كانَ في صوته ما جعلني أنسَى أني لم أزلْ واقفاً أنصِتُ لدبيب هذه الحياة في جوّ الغرفة ، ثم خرجتُ من عنده ولا يزالُ صَدى صوته يردّد في نفسي تلك الكلمات المصوّرة المبدعة : « أبكارُ الهموم وعُونُها».

محمود محمد شاكر

على هامش النقد :

مواضع النقد الأدبى

للأستاذ سيد قطب

التعبير فى الفن للتصوير والتأثير . التصوير للتجربة الشعورية التى مرت بالفنان ، والتأثير فى شعور الآخرين بنقل هذه التجربة إلى نفوسهم فى صورة موحية مثيرة لانفعالهم ، وهذه هى غاية العمل الأدبى .

ولما كان العمل الأدبى مؤلفاً من عنصرين هما التجربة الشعورية والتعبير عن هذه التجربة ، فإن مواضع النقد الأدبى تنحصر فى هذين العنصرين .

ولكن التجربة الشعورية لاتبدو لنا — فى العمل الأدبى — إلا من خلال التعبير . فهو وسيلتنا الوحيدة لإدراك هذه التجربة التى مرت بالأديب فحركته للتعبير عنها . وإذا نحن فقدنا هذه الوسيلة لم نستطع بحال أن ندرك ما جاش بنفسه ، ولا نوع إحساسه به ، ولا درجة انفعاله كذلك .

ومن هنا يستمد التعبير قيمته فى النقد . فليس هو ألفاظاً وعبارات ؛ ولكنه العمل الأدبى كاملا باعتبار ما يصوره من التجارب الشعورية .

وهذا التعبير يدل على التجربة الشعورية بخصائص ثلاث مجتمعة وهى :

١ — الدلالة اللغوية للألفاظ والعبارات .

٢ — الإيقاع الموسيقى للكلمات والتراكيب .

٣ — الصور والظلال التى يخلعها التعبير من خلال الكلمات والعبارات .

وتزيد خاصة أخرى مشتركة بين الشعور والتعبير تدل على طبيعة التجربة الشعورية ونوعها ودرجتها وعلى سمة الأديب التعبيرية أيضاً . هذه الخاصية هى طريقة التناول أو طريقة السير فى الموضوع أو ما نسميه الأسلوب .

ومعروف أن لكل أديب أسلوبه المعين . وكثيراً ما يطلق بعضهم الأسلوب على العبارة اللفظية ، ولكنه فى الحقيقة أشمل ، فهو طريقة الإحساس بالموضوع والسير فيه وطريقة تنسيق العبارات واختيار الألفاظ .

يقول عمر الخيام :

طوت يد الأقدار سفر الشباب ... وصوحت تلك الغصون الرطاب
وقد شدا طير الصبى واختفى ... متى أتى ؟ يالهفا ! أين غاب ؟(١)

فما المعنى العام الذى يريد أن يبلغه لنا فى هذه الشطرات ؟ إنه يريد أن يقول : إن شبابه قد ولى ، وقد جف عوده سريعاً ، وانتهى صباه عاجلا ، فما كاد يبدأ حتى انتهى .

ولكن الأمر لم يكن معنى فى ذهنه ، بل شعوراً فى نفسه ، وهو لايريد المعنى بل يريد ما وراءه . ولهذا آثر أن يسلك طريقة أخرى فى التعبير غير التى سلكناها ، فعرض علينا صورة ليد الأقدار تطوى كتاب الشباب ، وصورة بجوارها للغصون الرطاب تصوح وتجف ، وهما صورتان توقعان فى النفس الكآبة والأسى ، وتغمرانها بالحسرة والوجوم ، وتخلعان على المشهد ظلالا كابية حزينة . ثم شاء أن يشعرنا أنه لم يحس بشبابه ولم يستمتع فلم يقل لنا هذا المعنى مباشرة . بل رسمه لنا صورة متحركة ، فقد شدا طير الصبى واختفى ، وإنه لواقف يتلفت فى لهفة ويتساءل فى وجيعة : متى أتى ؟ متى غاب ؟ ومن هنا ينقل إلينا شعوره نقلا حياً موحياً فنكاد نتلفت معه على هذا الطائر — طائر الصبى الجميل السريع — الذى ما كاد يظهر حتى اختفى ، وترك وراءه اللهفة والأسى !

طريقة السير فى الموضوع إذن هى التى جعلتنا نزداد شعوراً بما يخالج نفس الشاعر فى الأسى والكآبة ، وفى اللهفة والحسرة ، دون أن يقول لنا : إنه مكتئب آس ملهوف حسير . وهذه الطريقة هنا هى نظام عرض الصور واحدة بعد الأخرى ، فتخلع كل صورة ظلا ، وتجتمع الظلال وتتناسق فتثير فى نفوسنا انفعالا خاصاً ، هو الانفعال الذى عاناه الشاعر أو ما يشبهه .

وبطبيعة الحال لقد اشترك فى إحداث هذا الأثر كلٌّ من المعانى اللغوية للألفاظ والعبارات ، والإيقاع الموسيقى للتراكيب ، والصور والظلال التى يخلعها التعبير .

انتهينا إذن إلى أن العمل الأدبى يبلغ غايته وهى التأثير بتوافر عناصر الكمال فى خصائص التعبير ، وهى طريقة الأداء ، والدلالة اللغوية للألفاظ والعبارات ، والإيقاع الموسيقى للكلمات

(١) ترجمة « رامى »

والتراكيب والصور والظلال التي يخلعها التعبير ، وهي زائدة على المعنى العام للتعبير

ولكن التعبير بعناصره هذه إنما هو وسيلة لغاية هي إبراز التجربة الشعورية وتجليتها

وعلى هدى هذا البيان يظهر أن مواضع النقد الأدبي هي :
أولا : التجربة الشعورية أو الشعور كما يبدو من خلال التعبير
ثانياً : التعبير بخصائصه التي أسلفنا عنها الحديث

ونقد التعبير وخصائصه والحكم عليها سهل نوعاً إذا قيس بنقد الشعور والحكم عليه ، لأن إخضاع خصائص التعبير لقواعد عامة أمر مستطاع — مع ما في هذا من حرج — ما دمنا نملك وضع قواعد للنقد الأدبي فيها سماحة كبيرة وشمول ، بحيث تسمح بظهور الخصائص الشخصية كاملة في كل أديب ، ولا تقيده باتباع « مشق » معين في طرق الأداء أو طرق التعبير !

أما إخضاع خصائص الشعور لقواعد معينة فتحكم في النفوس والطبائع والمشاعر غير مأمون ، والحكم على الشعور الإنساني مسألة ليست من حقنا على إطلاقها ، فقد يطرق الأديب عوالم من الأحاسيس والخطرات والانفعالات لم تتهيأ لنا من قبل لأنه هو إنسان ممتاز غير مكرور !

ولكن ما ذا نصنع ؟

ترانا نقبل كل شعور ونعده في صف واحد مع كل شعور آخر من حيث قيمته الفنية ، ما دام صاحبه قد عبر عنه بطريقة صحيحة من ناحية التعبير ؟

إننا بهذا نبخس العمل الأدبي قيمته ، لأننا نعده صوراً وألفاظاً خارجية ، لا رصيد لها في عالم النفس والشعور .

ولحسن الحظ أن لدينا حقيقتين واقعتين في هذا المجال : أولاهما أن التجارب الشعورية الإنسانية مشتركة في مساحة واسعة من النفس الإنسانية ؛ وثانيتهما أن الناقد هو الذي يستطيع أن يعلل لنا حكمه .

وفي الحقيقة الأولى ضمان بأن عدداً كبيراً من الناس سيدرك قيمة التجارب الشعورية التي يصورها الأدب ، لأن لها صدى في نفوسهم على كل حال ، وإذا لم يتحقق هذا في جيل ، فإن تتابع الأجيال كفيل بتحقيقه ، فركب الإنسانية متصل المواكب ، والتجارب الشعورية ملك للجميع .

وفي الحقيقة الثانية ضمان بأن الحكم على قيمة شعور ما لن يلقى مجرداً كإشارات الصم البكم ، بل ستتبعه أسبابه ، وبيان الأسباب يتيح للآخرين أن يقتنعوا بها إن وجدوا لها في نفوسهم صدى ، أو لا يقتنعوا ، ولهم ما يشاءون !

لهذا كله نرى أنه لا بد للنقد الأدبي أن يتناول طبيعة الشعور الذي يصوره التعبير ، فيصفه — على الأقل — كما يبدو من خلال الصورة التعبيرية ، ويحكم على قيمته في عالم التجارب الشعورية .
ونضرب هنا بعض الأمثال :

يقول شاعر حديث في قصر أنس الوجود :

قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضا سابحات به وأبدين بضا

وكل بيت بمفرده جميل من ناحية التعبير والإيقاع والأداء ، ولكنهما مجتمعين يكشفان عن اضطراب في الشعور ، أو عن تزوير في هذا الشعور ، ذلك أنا حين نستعرض البيت الأول :

قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا

نجد أنفسنا أمام مشهد غرق ، والغرقى مذعورون يمسك بعضهم من الذعر بعضا ، فالشاعر إذن يرسم لنا مشهداً مثيراً لانفعال الحزن والأسى ، مشهداً يظلله شبح الفناء المتوقع بين لحظة وأخرى ، ونفهم أن هذا هو الانفعال الذي خالج نفسه وهو يتملى ذلك المشهد الذي يثير الذعر ويقبض الصدر .

ولكنه ينتقل بنا فجأة ونحن أمام المشهد نفسه لم نزايله ، فيقول :

كعذارى أخفين في الماء بضا سابحات به وأبدين بضا

فأي شعور بالانطلاق والخفة والمرح يوحيه مشهد العذارى ، ينزلن الماء سابحات ، يخفين في الماء بضاً ويبدين بضا ؟ !

هنا ظل لا يتسق مع الظل الأول ، ولا تفسير لوجوده هنا إلا بأن الشاعر زوّر لنا تجربة شعورية لم تمر بنفسه ، لأنه لو كان قد انفعل حقيقة بالمنظر لغمره شعور نفسي واحد إزاءه في اللحظة الواحدة ، أو غمرته مشاعر مختلفة ، ولكن من جو واحد .

فحكمنا هنا ينصب على شعور الشاعر لا على تعبيره ، ولكننا إنما نحكم على هذا الشعور من خلال التعبير ، ومن حقنا أن نحكم هذا الحكم لأن التعبير المعروض علينا يصور لنا شعوراً مزوّراً ، والفن شعور صحيح . ولو أنه في بيته الثاني رسم لنا ظلالا

تتسق مع ظلال البيت الأول ، لكان هذا دليلا على صحة الشعور وصدق تأثره بالموقف .

ويقول شاعر قديم فى وصف زهرة حمراء على عود أخضر : إنها مثل « أوائل النار فى أعواد كبريت »

فنحس حين نقرأ البيت أن شعوره بالزهر والطبيعة كان شعوراً « من الظاهر » ، ولم يتصل حسه بالطبيعة أى اتصال ، فاقتصر بصره على تشابه الأشكال ، ومسخ الطبيعة الحية شكلا جامداً لا حس فيه ولا شعور ، ولا تعاطف بينه وبين قلب الشاعر ولا منافذ له إليه عن أى طريق .

وفى الناحية الأخرى نجد شاعراً كالبحترى يقف أمام إيوان كسرى المهجور ، فتجيش نفسه بانفعال صادق يغشى الجو كله بغشاء واحد ، غشاء الأسى وشجون الذكرى .

فهذا الإيوان :

يُتظَنَّى من الكآبة إذ يبـ ـدُو لعينىْ مصبّح أو ممسّى
مُزعجاً بالفراق عن أُنس إلفٍ عزَّ ، أو مُرهقاً بتطليق عِرْس
فهو يبدى تجـلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مُرْسى

فهو يحس بالإيوان المهجور كئيباً حتى ليظنه من يراه مزعجاً بالفراق عن أليف عزيز ، أو مرهقاً بتطليق عرس ، وهو يبدى التجلد ، ولكن كلكل الدهر ينيخ عليه ويرسى بثقله ... وهى صور حية موحية ، تشعر بالانفعال الصادق العميق .

ونجد شاعراً كابن الرومى ينظر إلى مشهد فى الطبيعة فيحسه « من الباطن » حياً ، ويتجاوب معه ويتعاطف كالأحياء : ذلك حين هبت ريح الشمال :

هبت سُحَيراً فناجى الغصن صاحبه موسـوساً وتنادى الطير إعلانا
ورق تغنى على خضر مهدلة تسمو بها وتشم الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه نشوانا

وهكذا يحس الغصن حياً ذا نفس يناجى صاحبه موسوسا ، والطير تنادى إعلاناً ، والورق تتغنى على الأفرع الخضر المهدلة ، وكأنما هذه تداعبها وتؤرجحها (تسمو بها وتشم الأرض أحيانا) والطائر يخال نشوان من الطرب ، والغصن يشاركه فيهز عطفيه

وهكذا يحس الطبيعة حية ، وكأنما هى فى مرقص تميل من النشوة وتتغنى من الفرحة ...

وهكذا يعاطف الطبيعة وتعاطفه ، ويتصل حسه بحسها . وذلك معنى الصدق فى الإحساس بالتجارب الشعورية !

سيد قطب

الحركة الفكرية

فى العصور الحديثة

للأستاذ رفيق التميمى

١ — الحركة الأدبية :

لقد ظهر فى أوائل القرن السابع عشر ثلاثة من كبار الأدباء كانوا النجم اللامع فى سماء الأدب العالمى الأوربى وهم شكسبير وسرفنتس، ولوب دى فينا . والأول شاعر الانكليز الأشهر . أما الثانى والثالث فقد ظهرا فى أسبانيا

والحركة الأدبية فى فرنسا لم تتبوأ مكانتها الرفيعة إلا اعتباراً من انتهاء الثلث الأول من القرن السابع عشر .

لقد ظهر فى انكلترا خلال القرن السابع عشر رجلان عظيمان هما شكسبير وملتن . أما شكسبير فقد تبوأ مكانته الأدبية الرفيعة فى عصر الملكة اليصابات ، وظل يغذى الأدب الانكليزى بآثاره الخالدة فى أيام الملك چيمس الأول . ويقول أساتذة الأدب العالمى إنه ليس بين الشعراء المتقدمين والمتأخرين من أبرز مثله معارف واسعة فى جميع أدوار الحياة وأطوارها ، ولا أبدى سواه مثل اطلاعه على ظواهرها وأسرارها ؛ فقد كتب فى موضوعات يدخل فيها كل وجه من وجوهها . وبحث فى كل مطلب من مطالبها ، وكان فى جميع هذه الأبحاث أستاذاً كبيراً وحكيماً وخبيراً حتى يكاد الناس اليوم لايعمدون إلى درس موضوع منها ما لم يساقوا بطبيعة الحال إلى درسه فى مخلفات شكسبير ، فهو كراوية لا مضارع له ، أما كشاعر فلا يذكر بجانب اسمه إلا واحد أو اثنان ، وكفيلسوف حكيم لا تكاد تفكر فى معضلة حيوية إلا تراه قد طرقها وحلها ، ولا تطلب مطلباً إلا تجده بين كنوزه التى لا تحصى ولا تثمن .

والألمان أول من ترجم شكسبير إلى لغة أجنبية وقام نقاد كبار منهم يوضحون مزاياه الرائعة ومراميه السامية حتى انفتحت أعين العالم على معينه الفياض فأخذوا يغترفون منه ما لذ وطاب ؛ وهكذا تحول أعظم شاعر فى انكلترة إلى أعظم شاعر فى العالم كما يقول علماء الأدب

ولشكسبير آثار خالدة : منها الزوبعة وحلم ليلة فى منتصف الصيف ومكبث وروميو وجوليت وهملت وتاجر البندقية والبطل وقد ترجمت هذه الكتب باللغة العربية .

وظهر فى أيام الملك شارل الثانى شاعر كبير هو ملتن ، وقد كان على المذهب البيوريتانى وألف باللاتينية بعد إعدام الملك شارل الأول كتاباً دافع فيه عن العدالة فى قتل الملك . فلما عاد آل استوارت إلى عرش انكلترا اضطر ملتن إلى أن يعتزل العالم أربع عشرة سنة ، وفى خلال ذلك وضع فى عزلته وعماه قصائده الخالدات الإثنتى عشرة وهى التى سماها الفردوس المفقود والفردوس المردود .

ونبغ فى أيام ملتن أديب بيوريتانى آخر هو يوحنا بنيان كان سجن بعد عودة آل استوارت اثنتى عشرة سنة لأنه لم يكن على المذهب الانجليكانى ، وفى وحشة سجنه وضع كتاباً سماه (سياحة المسيحى) وهو من أعجب الرمزيات فى الأدب الانكليزى .

وفى خلال القرن الثامن عشر ازداد عدد الكتاب والشعراء والروائيين والمؤرخين . ولا شك أن لظهور طائفة من أمهات الجرائد والمجلات الانكليزية حينئذ علاقة كبرى بذلك الازدهار الأدبى والعلمى نذكر هنا على سبيل المثال (أدباء البحيرات) الذين خلدوا جمال الطبيعة فى أشعارهم ، والروائى الذائع الصيت (والتر اسكوت) وبه يبدأ الدور الابداعى فى الأدب الانكليزى ، وجون كيتس ، والمؤرخ أدوردجيبن . وظهر فى ألمانيا خلال القرن الثامن عشر الكاتب الكلاسيكى (كلوبستوك) ، والأديب (وايلند) والروائى (لسينغ) و (هردر) ، وكان هؤلاء الأدباء ينقلون عن الأدب الفرنسى ويقلدون المؤلفين فيه .

وفى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر نشأ فى ألمانيا طراز جديد للتأليف بفضل أدباء عظام يأتى فى مقدمتهم لسينغ ، وغوته ، وشيلر . وقد وضع هؤلاء منهاجاً جديداً يختلف عن المنهاج الكلاسيكى الذى كان شائعاً آنئذ فى فرنسا ، وسمى هذا الدور فى الأدب الألمانى بدور العاصفة أو الهجوم .

لقد اتجهت عناية هؤلاء الأدباء الكبار إلى تحسين أداء

المعانى التى تثير العواطف دون الالتفات إلى إرضاء الناس بإجادة معانى الكلام وتنميق العبارات ، وفى خلال هذه الحركة الأدبية الجديدة بات الكتاب والشعراء والأدباء ينطقون بما توحيه إليهم أفكارهم ومشاعرهم وينتقون من الحوادث اليومية مواضيع لكتاباتهم . فاذا اختاروا حادثاً قديماً فانهم يجعلون رجاله من بين الألمان القدماء المعاصرين أمثال وليم تل وولنشتين، وقد انصرف همهم إلى أن يكتبوا بلغة يفهمها الناس ويألفها القراء ، وبذلك أصبحوا يخاطبون سواد الشعب ولا يعنون بأبناء الطبقة الممتازة .

وكان نابوليون وصف غوته ، أحد رجال المذهب الأدبى المتقدم ذكره ، بأنه رجل ، وهو فى الحقيقة رجل عبقرى استطاع أن يستغل مواهبه الرفيعة ، وأن يسمو بأعماله وأدبه إلى الذروة ، ويطلق العنان لتفكيره فيذهب فى مختلف الشعاب ، ويبلغ به أقصى الأغراض . وامتاز غوته بعقله الخصب وإحساسه المتقد وخياله الخصب الواسع ، وكان يستوحى من حياته الطويلة التى كادت تمتد إلى قرن كامل كل العظات الجسام التى حفلت بها ، ويستخلص من حوادثها دروساً جليلة فى الفن والأدب والفلسفة والاجتماع ، ومن آثاره الخالدة « فاوست » و « آلام فرتر » .

وظهر فى فرنسا خلال القرن السابع عشر من الكتاب والروائيين العظام (كورناى) و (ديكارت) واضع الفلسفة الحديثة و (بسكال) المعجزة فى الرياضيات ، وعدو اليسوعيين . وظهر فى النصف الأخير من القرن المذكور الروائى الكبير (موليار) والشاعر (بوالو) والروائى العظيم (راشيل) وواضع الأمثال الشعرية الخلابة (لافونتين) ، و (بوسويه) الواعظ ببلاط الملك لويس الرابع عشر ، و(لابروبار) الروائى والوصاف للأخلاق والآداب المعاصرة ، و(فنلون) الأسقف والكاتب . ولقد اتصف هؤلاء الكتاب والأدباء والشعراء بمعرفتهم التامة لنوابغ اليونان والرومان وبتقليدهم إياهم فى جميع آثارهم الخالدة التى ازدان بها الأدب الفرنسى الحديث .

وفى بدء القرن التاسع عشر أخذت مبادىء الحركة الأدبية الجديدة تنتشر فى ألمانيا على يد كبار الأدباء وفى مقدمتهم غوته ، وشيلر ، ولسينغ ، وسميت تلك الحركة بالمذهب الابداعى (الرومانيتك) ، ومع أن هذا المذهب كان دون المذهب الكلاسيكى كمالا فان الألمان وجدوه ألعب بالألباب ، وأكثر تأثيراً فى العواطف وأقرب إلى طبيعة القارىء واستقبلوه بالإعجاب والتقدير .

وما لبث المذهب الأدبى الجديد أن انتشرت مبادئه وقواعده فى سائر البلاد الأوربية وبات البيان الألمانى نموذجاً لكتاب أوربا منذ بداءة القرن التاسع عشر . وقد رفع لواء المذهب الابداعى الجديد فى ألمانيا كل من شليكل ، وتيك ، وبرنتانو وهوفمان ، وحينما كانت ألمانيا ترزح تحت السيطرة الفرنسية أيام عظمة نابليون ألف فريق من الشباب المتحمسين جمعية (ألمانيا الفتاة) وأخذوا ينشرون مبادئهم القويمة بمختلف الطرق وينبهون بنى قومهم إلى وجوب تخليص وطنهم من الحكم الأجنبى ، ودعم هذه الحركة الوطنية فريق من الأدباء والشعراء ووضعوا لذلك مؤلفات قيمة ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء من الأدباء : (غوتزكو) و (لوبه) و (بورن) و (هنرى هين) و (شنكندورف) .

وفى أواخر القرن الثامن عشر دخلت مبادىء المذهب الابداعى إلى إنكلترا غير أنها لم تكن فى بادىء الأمر إلا عبارة عن (بدعة مخالفة للشعر المألوف) كما كانوا يقولون عنها . فحاول بعض الشعراء نظم القصائد والأشعار باللغة العامية وأحيوا ما كاد يندرس من قصائد العصور المتوسطة .

وظهر فى الربع الأول من القرن التاسع عشر الشاعران الغنائيان (بايرون ، وشيلى) الاربستقراطيان وأضافا إلى الأدب الانكليزى صفحات خالدة من الشعر الرقيق ، ومات الاثنان فى سن الشباب . وذهب الأول ضحية الحمى فى مدينة (ميسولونكى) حين ذهب إليها ليشارك الثوار اليونان فى ثورتهم ضد الدولة العثمانية ، وكان بايرون لا يبحث فى شعره إلا عن نفسه ، وقد فصل فيه مغامراته وآلامه وملذاته وغرامه وحقده وشدة شغفه بالابتعاد عن الناس وضجره من الحياة ، واحتقر بوقاحة أبناء الطبقة البورجوازية .

وامتاز الكاتب الكبير (ولتر سكوت) برواياته التاريخية التى نالت إعجاب الجمهور وتقديره . أما (تشارلز ديكنز) فلم يعن بالحوادث التاريخية فى رواياته بل انصرف بكليته إلى وصف الظروف والبيئة الاجتماعية التى وقعت قصصه فيها فجاءت كتبه مرآة صافية انعكست فيها أخلاق القوم وميولهم وعاداتهم . وبرع الكاتب الفكه (تكرى) فى دقة الوصف وقوة التعبير فى كتابيه : أغنياء الجيل ، ومعرض الأباطيل

وامتاز النصف الثانى من القرن التاسع عشر بوفرة الانتاج الأدبى واتصاله الوثيق بالفنون الجميلة ، وظهر من الأدباء والشعراء فى انكلترا من كان له باع طويل فى الرسم والنحت مثل : روسِتّى الرسام ، ووليم موريس النقاش ، وجون رسكين الذى مثل عصره خير تمثيل بكتاباته التى تزخر بحماسة غير مفتعلة ، وبلاغة ساحرة ، وامتاز رسكين بتفكير سليم مكنه من أن يتناول أعقد الأمور وأخطر المواضيع فى الأخلاق والاجتماع ، ويناقشها بسهولة عجيبة ، وقد اشتهر أسلوبه بالبهجة والرشاقة رغم طول الجملة فى كتاباته وتزاحم الأدلة والبراهين فيها ، وقد كان لرسكين أعمق الأثر فى ترقية الفنون الجميلة وتنسيق الجهود الرامية إلى تدعيم الأخلاق وتقويتها .

وخلف راسكين فى ترقية الفنون والآداب فى انكلترة طائفة من الشعراء والفلاسفة والرسامين وكتاب القصص ومنهم (مريديث) و (رديارد كبلينغ) و (أتش . جى . ويلز) ، وامتاز مريديث بدقة الملاحظة وإتقان التحليل النفسى؛ أما كبلينغ فقد سجل فى كتبه عظمة الشعب البريطانى وقوة تفكيره ، ومتانة خلقه وسلامة ذوقه . ورمى ويلز بمؤلفاته المختلفة الأدبية والاجتماعية إلى وجوب القيام باصلاحات عميقة فى حياة الأمم الاجتماعية والسياسية .

وأشهر من ألف روايات تمثيلية (اسكار وايلد) و (برناردشو) . وانصرف وايلد إلى وضع روايات هزلية امتازت بشدة الحوار والتعمق فى البحث والنقد إلا أنه أغضب طائفة كبيرة من الشعب بنقده اللاذع ومجونه . أما برنارد شو الإيرلندى الاشتراكى المتطرف فقد أدخل إلى مسارح انكلترا روايات هزلية ذات طابع خاص فلسفى ، وانصرف بكليته إلى نقد المجتمع المعاصر نقداً لاذعاً وإلى وصف النواحى العوجاء فيه وصفاً مؤثراً طالب فيه بوجوب القيام باصلاح اجتماعى عاجل . وتحمل كتبه كلها طابعاً اشتراكياً متطرفاً .

وفى خلال القرن الثامن عشر ظهر فى فرنسا عدد من الكتاب البارعين سموا أنفسهم فلاسفة على أنهم لم يبدوا رأياً جديداً فى القضايا التى كانت محط نظر رجال الفلاسفة وإنما صوبوا أنظارهم إلى المسائل العلمية فدرسوا العقائد والسنن القائمة فى عصرهم . وكانوا إذا ظهر لهم منها ما يخالف العقل طفقوا يحملون عليها بأقلامهم ويفضحون معايبها . فهم والحالة هذه كانوا منشئين أكثر منهم فلاسفة .

وكانت الهيئة الاجتماعية يومئذ فى بلاد أوربا قائمة على دعائم متشابهة هى السلطة المطلقة للحكومة ، وكان الشعب قد اعتاد على الطاعة للملوك ، وكانوا يقولون إن سلطة الملك مستمدة من الله تعالى فللملك حق الحكم وعلى شعبه واجب الطاعة . وهكذا كان شأن المؤمنين مع الكنيسة سواء أكانوا فى البلاد البروتستنتية أم الكاثوليكية ؛ فلقد كان من حقوق الكهنة تقرير العقائد الواجب اتباعها،وتعيين الاحتفالات وكانوا لا يطيقون أن يكون فى الدولة الواحدة أكثر من مذهب واحد ، وكانت الكنيسة تتعاون مع حكومة الملك المستبد فى تنفيذ المبادىء المتقدم ذكرها فكانت الحكومة تقتص من المراطقة ، وتوجب على الشعب إطاعة الكنيسة ، وقد جعل الكهنة مقابل ذلك إطاعة الملك فرضاً دينياً لا يجوز إغفاله .

وقام فريقان من الفلاسفة المصلحين فى فرنسا : الأول فى النصف الأول من القرن الثامن عشر وقوامه فولتير ومنتسكيو ، والجيل الثانى فى النصف الأخير من ذلك القرن وقوامه جان جاك روسو ، ودريدرو ، وجماعة العلماء المعروفين برجال الموسوعة .

أما منتسكيو وفولتير : فكلاهما من أهل الطبقة العليا ، وكان فولتير عدو الأديان الموضوعة ولا يعترف إلا بالدين الطبيعى القائل بوجود الله وخلود النفس . وقد بشر بالتساهل ودافع عنه فى جميع كتبه وطالب بديانة خالية من العقائد والرموز والأسرار ، ومقتصرة على تعاليم أدبية واجتماعية شعبية ، وقلما خاض فولتير فى مسائل الحكومة ، وكان تلاميذه الكثيرون يبتعدون عن السياسة ويكتفون بمهاجمة الكهنة وأنظمة الكنيسة تحت عنوان العقل أو الانسانية .

أما منتسكيو فقد وضع مبدأ توزيع السلطات وهى التشريعية والقضائية والتنفيذية وحض على فصل هذه السلطات بعضها عن بعض ليتسنى للشعب حكومة عادلة ، ودافع منتسكيو عن مبدأ استخدام النبلاء فى مناصب الدولة وعن عدالة توزيع الضرائب على جميع أفراد الشعب بلا استثناء ، ووجوب إلغاء التعذيب والعقوبات القاسية واحترام حرية الفرد .

وكان كتاب الجيل الثانى يعتنقون مبادىء ثورية ويحرضون

الشعب على نقض التشكيلات الاجتماعية والسياسية والدينية القائمة . وكان روسو يعتبر أن الإنسان صالح بالطبع إلا أن التشكيلات الاجتماعية القائمة فى عصره قد حرمته من خيرات الطبيعة وأن حق التملك جائر ، وأن الحكومة أكثر جوراً لأنها تستبد بالناس وتنشر بينهم مبادئ شريرة ؛ فيجب والحالة هذه القضاء على التشكيلات الاجتماعية القائمة وإبادة حق التملك والحكومة المستبدة ثم الرجوع إلى الطبيعة ليتفق الناس حينئذ على شكل من أشكال الحكومة يستحسنه الجميع ويساوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات ، ويستعاض به عن سلطة الملك بسلطة الشعب ويصبح الوطنيون كلهم سواء ، وتخول الحكومة التى يختارها المواطنون السلطة المطلقة لتدير وتنمى ثروة البلاد وتنشر العلوم وتشرف على مبادئ الدين ومعابده . وقد فصل روسو هذه المبادئ الثورية فى كتابه الشهير (العقد الاجتماعى).

وحينما كان روسو ينشر تعاليمه كان الأستاذ (ديدرو) ينشر موسوعته الشهيرة ، وقد جمع فيها خلاصة المعارف الإنسانية بعنوان الانسيكلوبيديا ، واشترك فى تأليفها جماعة من رجال الأدب والعلم والفلسفة ، وهى فى ثمانية وعشرين مجلداً ضخما انتشرت فى جميع أنحاء أوربا ، ونقلت معها أفكار الفلاسفة الإصلاحيين فى إصلاح المجتمع من الوجهات السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية .

وانتشر المذهب الابداعى بفرنسا فى أيام نابليون ، وذلك بفضل الأديبة مدام دى ستايل التى كانت تنشر مقالات متتابعة عن الحركة الأدبية الجديدة فى ألمانيا .

وفى أوائل القرن التاسع عشر ظهر الكاتب الفرنسى العبقرى (شاتوبريان) فغذى الأدب الفرنسى بمؤلفاته القيمة التى حافظ فيها على قواعد المذهب الكلاسيكى إلا أنه اقتبس مادتها من الكتب الدينية والحياة العصرية خلافاً لما كان متبعاً فى العصور السابقة .

وحين نبغ شاعر فرنسا الأكبر فيكتور هوغو انتشرت مبادئ المذهب الابداعى التى تحض على تنويع مادة الكتابة ، وعلى نقل مؤلفات الكتاب الكبار فى الأمم الأجنبية إلى اللغة الفرنسية . وامتاز الابداعيون عن سواهم بالبحث عن الفرد إلى جانب مجموع الأمة وانصرفوا إلى التوسع فى وصف المناظر والأشخاص والأشياء وصفاً دقيقاً حتى بانت كتاباتهم كأنها مرآة صافية انعكست فيها ما كان يقع تحت بصر الكتاب من الأمور والمناظر المختلفة .

وحمل لواء هذا المذهب الجديد من الأدباء والشعراء لامارتين وفيكتور هوغو ، وجورج ساند . ثم تبعتهم طائفة كبيرة من الشبان ، وحين نشر فيكتور هوغو روايته (كرومول) اعتبرت مقدمتها بمثابة منهج للمذهب الابداعى . وأخذ الكتاب يخاطبون الشعب بلغته الدارجة دون أن يتحروا الأسلوب العالى فى الإنشاء وبات الإبداعيون يُعرَفون بأنهم يرمون فيما يكتبونه إلى جعل فن الكتابة أكثر وضوحاً وأقرب إلى مباهج الطبيعة ومناظرها الجميلة بخلاف مبادئ المذهب المدرسى (الكلاسيكى) الجافة المملة .

وفى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر قام فريق من الكتاب يناهضون الإبداعيين ويدعون الدفاع عن الحقيقة وعن الطبيعة كما هى دون طلاء أو تزويق ، ثم انصرفوا إلى وصف مشاهد الحياة المختلفة وصفاً دقيقاً مع إسهاب فى ذكر الجزئيات وقد دعى أرباب هذه المذاهب بالواقعيين Rèalistes أو الطبيعيين Maturalistes واتصفوا بدقة التعبير ووفرة المفردات اللغوية وجمال الأسلوب . ومن أشهر هؤلاء الكتاب (غستاف فلوبير) و (الكونت دى ليل) و (أميل زولا) .

وفى فجر القرن العشرين ظهرت طائفة من الأدباء والكتاب والشعراء فى مختلف الممالك أسدت للبشرية خدمات قيمة فى تنويع الأدب العالى وزخرفته . ومن هؤلاء الأديب الفرنسى بيارلوتى الذى وصف البلاد الحارة والشرقية أحسن وصف ، والروائى النرويجى (ايبسن) الذى درس جهود الأمم الراقية التى تستهدف هدم الأوهام والتقاليد البالية والقضاء على العوائد السخيفة .

وامتاز بأدب القصة كتاب روسيون أشهرهم (تولستوى) و (دستويفسكى) . وظهر فى السنين الأخيرة مذهب جديد فى الأدب هو المذهب الرمزى (Symbolisme) وقد أهمل أتباعه القيود البيانية القديمة ، ونهجوا مناهج جديدة فى النثر والشعر اعتقدوا أنها أخف وقعاً فى النفوس وأرق بياناً وأحكم إعراباً عن مختلف المشاعر والأحاسيس ، وترأس هذه الحركة الأدبية بفرنسا الأديب (ملارميه) ثم تبعه كل من (بودلير) و(فرلين) .

رفيق التميمى

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للاستاذ محمود الخفيف

— ٣١ —

البطل الضرير :

أيقن ريتشارد ولم يك له شيء مما كان لأبيه من قوة العزم وصدق العبقرية أن الجيش قد غلبه على أمره ، بعد أن آثر الانحياز إليه وطرد من أجل ذلك البرلمان الذى اجتمع فى عهده لكثرة أنصار الملكية فيه ، فلم يعد له وهو حامى الجمهورية بعد أبيه من السلطان شيء ، ففضل أن يركن إلى الدعة وأن يفلت من الحكم إذ لا طاقة له بالنضال والاقتتال فى وقت اضطربت فيه شؤون الدولة وتصارعت أهواء الرجال ، فترك « هويت هول » إلى داره قبل أن تكرهه الحوادث إكراهاً على ذلك ...

وأصبح الحكم لرجال الجيش ، وكان على رأسهم فى انجلترة لامبرت ، ولكن لامبرت فوجئ بهجوم مُنك قائد كرمول فى اسكتلندة فنهض لملاقاته ، وتهددت البلاد حرب جديدة ، ولكن فيرفاكس ذلك الذى مجده ملتن بمقطوعة من مقطوعاته — كما رأينا — أنذر لامبرت بأنه منضم إلى منك ، فاستخذى لامبرت وتفرق أصحابه وتم الأمر لمنك ، فدعا مؤتمراً لينظر ما ذا ينبغى فعله ، فجاءت الكثرة فيه من الملكيين والبرسبتيريز الذين أذعنوا على رغمهم سنين للجيش ؛ واجتمعت كلة المؤتمر على إعادة الملكية ، وذلك فى مايو سنة ١٦٦٠ .

وكان ملتن فى ذلك الجو الملئ بالعواصف لايزال يشغل نفسه بالدفاع عن الجمهورية ، فنشر فى مارس سنة ١٦٦٠ آخر كتيباته السياسية ، وجعل له عنواناً طويلا هو: « الطريقة العاجلة السهلة لإقامة جمهورية حرة وما يترتب على ذلك من حسنات إذا قورن بالأخطار وعدم التلاؤم المترتبين على السماح بإعادة الملكية فى هذه الأمة » .

وحسب القارئ عنوان الكتاب وحده للدلالة على مبلغ ملتن من الشجاعة ؛ وليس مصدر شجاعته التهور ولا الجهل بما يحيط به كما قد يخيل إلى بعض حسدته وكارهيه ، وإنما كان مثله مثل الجندى فى مدينة محاصرة ، إذ تأبى عليه نفسه إلا أن يطلق آخرما فى كنانته وأن يبذل أقصى ما فى طوقه أنفة منه وحفاظاً وإن علم أنه هالك لا محالة !

ولم يقف ملتن وحده للدفاع عن الجمهورية الذاهبة وتخويف الناس وتحذيرهم من الملكية العائدة ، وإنما حذا حذوه طائفة من أنصار الحكم الجمهورى ، فكان هو بكتيبه هذا ترجمانهم القوى الأمين ، ولكن هؤلاء الجمهوريين كانوا فى الحق أشبه بعلماء بزانطة الذين اشتد بينهم وبين خصومهم الجدل ، بينما كان محمد الفاتح يقرع عليهم أبواب مدينتهم ، وقد سوى جنده وأعد للأمر عدته !

وإن المرء ليتملكه العجب حقاً إذا قرأ ما جاء فى كتيب ملتن ، وقد نشر قبل مجيء شارل الثانى بنحو شهرين . اقرأ مثل عبارته هذه وانظر أى مبلغ بلغت شجاعته . قال : « حقاً ، إن الناس قد أصابهم الجنون ، أو أطبقت عليهم الغفلة ، فهم يعلقون أكبر آمالهم فى الطمأنينة أو الأمن على رجل واحد ، لا يصنع أكثر مما يصنعه أى رجل غيره إن جاءت به المصادفة طيباً ، ولكن له من القوة ما يصنع به من الشر أكثر مما يصنع ملايين الناس إن كان خبيثاً ، وليس يصده عن وجهه أحد ؛ إن سعادة الناس لا تتحقق إلا فى مجلس حر يختارونه كله بأنفسهم حيث لا يتحكم فرد واحد ولكن يسود العقل وحده ؛ وأى جنون هذا الذى يبلغ بقوم يقدرون على أن يدبروا شؤونهم فى نبل حتى يلقوا تدبير هذه الشؤون على كاهل رجل واحد ، ويفعلون ذلك فى ضعف واستخذاء ، فيكونون أشبه بصبية لم يبلغوا سن الرشد إذ يتركون كل شيء لرعايته ومطلق تصرفه فى حين أنه لايستطيع أن ينهض بما تعهد به ، وهو فى الوقت نفسه إذ يؤجر على تعهده لا ينظر إلى نفسه نظرة خادمهم ، بل يعد نفسه سيدهم المطاع! »

ويقترح ملتن أن يكون للمجلس الذى يشير إليه حق الاجتماع مدى الحياة ، فلا يتغير رجاله كل مدة معينة إلا من مات أو تركه لأمر ما ؛ ويقول ملتن إن هذا المقترح يبدو عجيباً لأول وهلة عند قوم ألفوا البرلمانات ، ولكنه ضائق بهذه البرلمانات المتغيرة ، وعنده أن مثل هذا المجلس الدائم يكون أجدى على الدولة ، لأنه يكتسب الخبرة بطول الأمد ، ويقف على حقيقة ميول الناس ، وما يتطلبه إصلاح أمورهم وتتوثق صلاته بهم ، كما تعظم خبرته

بالأمور الخارجية ، ولكي تضمن الدولة صلاحية من يختارون وصلاحية من اختيروا ، ينبغي أن تصلح نظام التعليم وتغرس في نفوس الناس حب الفضيلة والإيثار والتواضع والاعتدال ، فلا يغترون بالمظاهر ، ولا يخضعون لذوي المال والجاه ، ويجب أن يعلموا مبادئ الحرية ، ويعلموا كيف يسمون بأرواحهم وعقولهم ولن يحقق هذا للناس إلا جمهورية رائدها الخير للجميع .

ولكن ملتن يائس من بني قومه ، موقن أنهم لن يستمعوا له فيقول : « إني على يقين أنه كان عليّ أن أتحدث إلى الشجر والحجارة فحسب ، فليس ثمة من أصيح به ، ولكني أهتف مع النبي: أيتها الأرض .. أيتها الأرض . أيتها الأرض ... لأنبئ التربة نفسها ما يصم أبناؤها المخالفين آذانهم عنه » !

ويتحسر ملتن على الأمل الضائع فيقول : « أين ذلك البرج الشاهق الطيب ؟ أين الجمهورية التي افتخر الإنجليز بأنهم يقيمونها لتغشى الملوك بالظلمة وتكون روما أخرى في الغرب ؟ ... إذا عدنا إلى الملكية ووجدنا المساوئ القديمة تعود شيئاً فشيئاً .. تلك المساوئ التي لا بد أن تنجم عن الملك والقسيس مجتمعين ، فربما اضطررنا إلى أن نحارب مرة ثانية كل ما حاربناه من قبل ، وكلما اعتبرت في هذه الأشياء الواضحة السهلة المعقولة ! »

ولكن هذه الصيحة على قوتها وبلاغتها وما تنطوي عليه من حرارة الإيمان وجرأة القلب ، ما لبثت أن ضاعت في ضجيج الناس وأفراحهم بالملك العائد وذهبت في المواكب الهاتفة وفي رعود المدافع القاصفة ، كما تذهب حفنة من الماء يلقى بها في عباب دافق ، فها هو ذا شارل الثاني يهبط انجلترة في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنة ١٦٦٠ ، وهو يوم عيد ميلاده ، فأصبح كذلك عيد عودته ، وكان له من العمر يومئذ ثلاثون عاماً .

وكانت عودة الملكية وبالا على ملتن والجمهوريين جميعاً ؛ فقد فقد منصبه بالضرورة ، ولكن فقد المنصب خطب هين إذا قيس إلى ما بات يتهدده وأصحابه ، ولم يك ملتن يتوقع أقل من الشنق نكالا به وبمن ذهب مذهبه من الجمهوريين ، وكان اسمه أبغض الأسماء إلى الملكيين بعد اسم كرمول وحده ، ولم يعف كرمول الموت من التنكيل برفاته . فقد بلغ الحنق بالعائدين أن نسوا إنسانيتهم فأخرجوا رفاته من القبر وشنقوا ما تركه البلى من عظام كما يشنق الأحياء في حفل شهده الناس ؛ ولن يصل الحقد والحنق فيما نرى إلى أبعد من هذا ، ولن يكون في السخف ما هو أسخف من هذه الفعلة التي نحار كيف نصف شناعتها ، وأي نعت ننعتها به ، وإذا كان هذا موقف الحانقين من الموتى فكيف بموقفهم من الأحياء ومن ملتن على الأخص ذلك الذي دافع عن إعدام شارل والذي ناصر حكومة كرمول بكل ما في طاقته من جهد ، والذي لم يأل جهداً في السخرية من أسرة ستيوارت وإطلاق قلمه فيهم بكل عيب ، والذي ظل عدواً للملكية يرى فيها شراً محققاً ويدعو الناس إلى كراهيتها بكل ما في وسعه من أوجه القول ووسائل الإقناع إلى ما قبل عودتها بنحو شهرين ...

ولم يك يشك أحد من أعدائه أنه يتحدى الموت ، وإلا فما باله يريد أن يسمع الشجر والحجارة ما لا يريد الناس أن يسمعوا ، وما باله يظل على عناده لا يتزلزل ولا يتحول ، وأيقن أصدقاؤه أن الموت لا محالة جزاؤه ، فحملوه إلى سمتفيلد حيث أخفوه أربعة أشهر من مايو إلى أغسطس ١٦٦٠ .

وفي أواخر أغسطس أصدر الملك عفواً عاماً عن أعدائه السياسيين إلا من جاءت أسماؤهم في قرار العفو ، فهؤلاء حق عليهم العقاب ، وهم الذين كانت لهم صلة وثيقة بمحاكمة شارل الأول وإعدامه ، وقد أعدم من هؤلاء عشرة وألقى في السجن عدد غيرهم ، ولم يك ملتن من هؤلاء ولا من هؤلاء ، إذ لم يدرج اسمه فيمن أستثنى من العفو ...

وكيف تأتى ذلك ؟ كيف نجا ملتن من حبل المشنقة وهو الذي برر إعدام شارل في كتاب أذاعه في أوربا لا في انجلترة وحدها ؟ هل أنجاه الاختفاء ؟ كلا ؛ فلم يك يمنع اختفاؤه أن يجيء اسمه فيمن يقتلون أو يسجنون حتى يعثر عليه .

لقد ذكرت آراء حول نجاته ، ولكن مردها جميعاً إلى الظن ، إذ لم يقف المؤرخون على حقيقة مقررة في هذا الأمر ؛ فمن قائل إن أصدقاءه في البرلمان الجديد بذلوا قصارى جهدهم لينجوه ، وكان له في البرلمان بضعة نفر من المعجبين به ومنهم صديقه الحميم مارفل ؛ وثمة رواية رواها ريتشاردسون في مذكراته وهو أحد من كتبوا عن ملتن في أوائل القرن الثامن عشر ، وقد استمدها من الشاعر بوب الذي يعزوها إلى بترتون أحد مشاهير الممثلين في الفترة التي أعقبت عودة الملكية ، والذي يرجح أنه أخذها بدوره من الشاعر الملكي دفنانت ، ومؤداها أن دفنانت هذا قد ألقى به في السجن أثناء النزاع بين شارل الأول

والبرلمان ، ولـكن ملتن عمل على نجاته وما زال يسعى حتى أطلق سراحه ، فلما دارت الأيام دورتها ووقع ملتن فى مثل ما كان فيه دفنانت ، رد هذا الشاعر له الجميل فعمل على خلاصه ؛ وهذا رأى غير هذين يميل إليه كثرة النقاد ومنهم دكتور جونسون وخلاصته أن مرد نجاته إلى شىء من القدر وشىء من العطف ، فإن رجلا مثل ملتن كان خليقاً أن يحمل بعقوبته كثيراً من أولى الرأى والبصيرة على أن يقدروه حق قدره فيطلقوه لما هو عسى أن يأتى به فى الشعر والفن مما يكون من مفاخر بلاده ؛ وكذلك كان ملتن خليقاً أن يحمل الظافرين على الرحمة به لما أصابه ، فهو اليوم ضرير فقير وحسبه ما أنزله به الدهر من حزن وما ناله به من عقوبة ؛ ولقد كانت كلة واحدة من شارل كفيلة أن تفقده حياته ، ولـكنها كانت تفقد أدب انجلترة وأدب الدنيا كلها « الفردوس المفقود » و « الفردوس المستعاد » و « سمسُن أجُـنسْـتِس » ، تلك الآثار الخوالد التى ما كانت تجود بمثلها أو بما يقرب منها عبقرية غير عبقرية ملتن .

وشمل العفو ملتن ، ولـكن كان للناس عجباً بعد ذلك أن يأمر البرلمان به فيلقى فى السجن ، حيث أحرقت كتبه أمامه ، وإن لم ير شيئاً حوله ، فإن ما يحيط به من ظلمة لن يمحوها ألف نار كالنار التى أوقدتها كتبه ؛ ولا يزال أمر حبسه على هـذه الصورة غامضاً ، ولـكن « ماشُ » ، وهو من أشهر من كتبوا عنه يفسر ذلك بأن البرلمان كان قد أصدر هذا الأمر بمسعى أصحابه ليجنبوه به الـكارثة الصحيحة ، وهى إدراج اسمه فى المستثنين من العفو ! ومهما يكن من الأمر ، فإنه لم يلبث إلا قليلا حتى أمر بإطلاقه ، ولإطلاقه قصة نوردها كشاهد جديد على عناده واستكباره ، حتى فى مثل هذا الظرف ، فقد طلب إليه القائم على أمر السجن أن يدفع أجرة إقامته حسب المتبع ، ولـكن ملتن رأى أنه غالى فيما طلب ، وأحس فى ذلك جوراً ظن أنه مقصود به فرفض أن يدفع — وفى يده المال المطلوب — فما يطيق أن يتحكم فيه رجل مهما لقى من عنت الأيام ، وتقدم أصحابه فأدوا عنه المال المطلوب على غير علمه ، وجاء بعضهم فأخرجه من السجن ، وكان ذلك فى نهاية سنة ١٦٦٠ ، وله من العمر اثنتان وخمسون سنة .

ولولا ما كان يحيط بالشاعر العظيم من أسباب الشقاء والأسى لجاز أن يتطرق شىء من الفرح إلى فؤاده ، وقد نجا من الموت واسترد حريته ، ولـكن أين هو من الفرح ، وإنه ليذوق مرارة الفشل ويجرر أذيال الخيبة ؛ فى بضعة أشهر ذهبت جهوده التى بذلها فى عشرين سنة من عمره هباء ، وخرصرح آماله من قواعده ورأى أصحابه يساقون إلى الموت ، كما نعم بالقبور تفتح فيحمل إلى المشنقة من طوتهم يد المنون ! وبلغ من نفسه كل مبلغ أن يجد الـكنيسة وقد عادلها سلطانها فى ظل الدولة ، وأن البرلمان يقيد حرية النشر بقيود غليظة ، وأن الحياة يشيع فيها الفجور والفسوق ، ويتسلط على سياسة الدولة النساء والمتعصبون والأذلاء من المتملقين والماجنين .

وترك ملتن الحى القريب من هويت هول ، واتخذ له مسكناً بعيداً فى المدينة أو فيما جاورها . ويقول ريتشارد سون إنه لبث أياماً ينتابه الرعب أن يؤخذ غيلة بيد متعصب من أنصار الملـكية ، ولذلك كان قليلا من الليل ما يهجع ، وكان خوفه على بناته أشد من خوفه على نفسه !

وقل حظه من الثراء قلة كبيرة ، فقد فقدَ مرتبه كما فقد ألفين من الجنيهات تعادل سبعة آلاف من جنيهاتنا اليوم كان قد أودعها فى مأمن حكومى أثناء الجمهورية ، فصودرت كما صودر بعض ما اشتراه من أملاك ؛ على أنه على الرغم من ذلك ظل يعيش عيشة مرضية لا هى إلى الرغد ولا هى إلى العوز .

وأصابه النقرس ، فكان باقى من آلامه ما يتضاءل عنده ما يعانى من عمى ، وظل هذا المرض ينتابه من حين إلى حين ، فيضيف آلامه إلى ما ترشقه به الأيام من سهام !

وكان أوجع هاتيك السهام ما كان يلقاه على أيدى بناته ، وكانت كبراهن سنة ١٦٦١ فى الخامسة عشرة من عمرها ، ووسطاهن فى الثالثة عشرة ، وصغراهن فى الثامنة ؛ وهن بناته من زوجته الأولى التى ماتت سنة ١٦٥٢ ؛ وكان يأمل أبوهن أن يكن أنسه وسلوة نفسه فى وحدته وشقائه ، ويكن له عوناً على الأيام ، وهو الضرير الذى زال عنه جاهه وألح المرض على بدنه ، وهجره إلا قليلا ابنا أخته ، إما انشغالا بما ملأ قلبيهما من لهو أوتهرباً مما يكلفهما به من قراءة ومراجعة ، ولم يذكرا يده عليهما وقد رباهما فى بيته صغيرين ولبثا فى رعايته من عمريهما سنين .

ولـكن عقوقهما لم يك شيئاً مذكوراً تلقاء عقوق بناته ، فقد كان أسوأ ما لقى من دهره هذا العقوق الذى ذاق معه أعمق الحزن ، وهو الشاعر الذى تتأثر نفسه بالمعانى أضعاف ما يتأثر بها غيره من الناس ، ولعقوق بناته إياه قصة يحسن أن نأتى بها على سردها ...

(يتبع) **الخفيف**

النهضة العلمية

للأستاذ علي عبود العلوي

« ظلت الحياة الأدبية فى حضرموت برهة من الزمن وهى تحت السير فى اقتفاء السمة التى كانت متغلبة على الآداب فى القرون الماضية ، وما زالت كذلك إلى أن أتاح الله لها من يوجهها الوجهة الصادقة فنهضت من كبوتها نهوضاً تجلى أثره فى أدب الكهول اليوم كما اتشح به أدب الشباب . والفضل فى ذلك يعود إلى زعيم النهضة الأدبية السيد أبو بكر ابن عبد الرحمن بن شهاب العلوي الموجود سنة ١٢٦٢ هـ والمتوفى سنة ١٣٤١ هـ

وهذا ما حدا بنا لدراسة أدبه دراسة مفصلة وهذه الكلمة من إحدي لبنات هذه الدراسة أخص بها « الرسالة » الغراء » .

ما اهتزت ربوع الوطن الحضرمى كاهتزازها للثورة الفكرية التى امتد سناها على وادى ابن راشد(١) إن لم نقل تجاوزته إلى الأماكن الأخرى .

أجل هكذا انبعثت فى حضرموت روح النهضة العلمية فى القرن الثالث عشر الهجرى فسطع تاريخها بأعلام لهم فوق مكانتهم العلمية المرموقة مكانة الزعامة السياسية والاجتماعية والإصلاحية والاقتصادية ، وكل هذه قيم عظيمة تستدعى من المؤرخ المنصف الوقوف أمامها وقفة الخاشع ليتهيأ له إصدار الحكم عنها بعد نفاذ الفكر والتحليق به فوق أوج مراميها ، وبذلك ينير السبيل للتاريخ ، وهو فى أمان من أن يطغى الحكم فى ناحية فيمس النواحى الأخرى .

ومن شأننا فى هذه الكلمة أن نلم بالموضوع إلمامة وجيزة ندرك بها تاريخ العصر الذى نشأ فيه شاعرنا الشهاب العلوى ومعرفة مقدار الأثر الذى تركه فى أدبه وميوله .

امتدت الثورة الفكرية فى حضرموت امتداداً لم يسبق له مثيل فيما قرأناه من تاريخ حضرموت وسير أعلامها ؛ إذ انبعثت منها روح فياضة ترمى إلى محو الأمية ، وتنوير الأفكار والقيام بنشر العلم قياماً يرتكز على أن تتخطى الدعوة إليه المدن والقرى

(١) ويطلق عليه عرفا من محل يسمى بالمقاد غربى (شنبام) إلى نبى الله هود عليه الصلاة والسلام .

التى تزدان معاهدها ومساجدها بالدروس العلمية الخاصة والعامة إلى نشره بين جميع الطبقات حتى التى تسكن الجبال من البادية بإرسال المرشدين إليهم تلو المرشدين .

ومرد هـذا فيما نعتقد أنه من قبيل رد الفعل . فقد أنفت حضرموت من الظلم الذى طال عهدها به والعبودية والتسخير التى فرضها كل من له أى قدرة إلى حد العامة الذين تناط بهم إدارة الحياة الاجتماعية فقد كونوا لهم رابطة تساعدهم على الإضراب عن العمل وأداء الواجبات إن لم تمنح لهم الأتاوة المفروضة بحسب رأيهم .

ومما شجع هؤلاء الفوضويين على العبث بالأمن ضعف الحكومة الحضرمية — أستغفر الله — بل فقدها بالكلية وتلاشى أمرها ولم تبق لها سمة معروفة ولم يذكر التاريخ إلا تعدد الحكام ما بين كل ربعة وأخرى بل فى البلدة الواحدة(١) .

لا نستثنى من هذه الفوضى إلا ما كانت تنعم به بعض القرى التى يناط الحكم فيها لبعض السادة العلويين — المناصب — أو القرى التى يحكمها بعض أبناء بيوتاتها ممن كانت لأجدادهم مكانة علمية وصلاح وفضل ويسمون أيضاً (بالمناصب) .

من أجل هـذا فكر أكابر علماء القطر الحضرمى وقادة الرأى فيه فى الوسيلة التى يمكن القضاء بها على هذه الفوضى .

وأى وسيلة بيدهم أعظم من نشر الدعوة الإسلامية بصورة أوسع نطاقا مما كانت قبلها .

وأنى تلاقى دعوتهم آذانا صاغية إن لم تتجاوز المحيط الذى طالما تاق إلى وجود قيام الوالى العدل من كثرة ما أصيب به من الظلم ؟

فلا بد إذاً من توسيع نطاق الدعوة بصورة أكبر مما عرفتها حضرموت فى الماضى ليضمنوا بهـا بعض الفائدة إن لم تحققها كلها .

وما دام مصدر الفوضى آتيا من قبل البادية التى تروع القطر بما تصبه على البلاد من ويلات تلو الويلات . فلابد إذاً من غزوها فى عقر دارها بالدعوة الاسلامية وتعريفها بعض الواجبات وإرشادها إلى ما فيه الخير والصلاح .

(١) راجع من كتابنا (الشهاب العلوى) مقال من تاريخ حضرموت السياسى . أو : النهضة السياسية .

وهذه دعوة عظيمة لا بد من تدعيمها بقوة الروح والإيمان الصادق ، وصدق العزيمة وبذل الأموال ولا شك أنها أصابت فى قائدها المحنك وزعيمها الممتاز من أسبغ الله عليه الفضل الواسع وأهّله بجميع المؤهلات التى تخول له قيادة مثل هـذه الحركة العظيمة بمـا أوتيه من نباهة الذكر والسمعة العلمية ، والفطنة ، وقوة الإيمان ، والعزيمة الصادقة ما هيأ لدعوته أن تجوب القطر الحضرمى ويتردد صداها بين الخافقين .

فمن هذا الزعيم الذى أسندت إليه حضرموت قيادة هذه الحركة الاصلاحية ؟

هو العارف بالله السيد أحمـد بن عمر بن سميط العـلوى المتوفى سنة ١٢٥٧ هـ .

نشأ هذا السيد الإمام فى محيط يشع بالسؤدد والمـكارم ، وزحابة الأخلاق ؛ تحيط به هالة من النور والفضل والنبل والعلم وسراوة التقوى فـكان من هذه المـكونات فذاً فى التاريخ .

وعلى نبعة العلم والده السيد عمر بن زين تثقف ثقافته الأولى ؛ وكان السيد عمر مشغوفا بالقراءة ليلا ونهاراً ، وحينما استطاع السيد أحمد الاندماج فى الصف الذى يصله بركب والده العلمى أصبح هو الذى يروى ظمأ والده بالقراءة عليه ليلا ونهاراً[1] .

وبالطبع تهيأ له من الاتصال بوالده ما لم يتهيأ لغيره ، وهذا له أثر عظيم فى تكوينه العلمى، وكان هذا شأنه إلى أن لحق والده بربه فى ٢٤ / ٣ / ١٢٠٧ هـ فاتصل بابن عمه السيد عبد الرحمن بن محمد زين[2]، وامتد اتصاله بعد هذا بأكابر رجال عصره وهم من الـكثرة بحيث لا يمكن الإلمام بهم فى مقام يقتضى أن نسير فيه بالإيجاز .

وما إن ترعرع فى الطلب حتى تم له من التفوق ما لا يدركه إلا الصفوة المختارة من أمثاله .

وما كانت نشأته إلا فى عصر مضطرب أشد الاضطراب تعصف به الناحية السياسية القلقة من جانب ، والحياة الاجتماعية المريضة من الجانب الآخر كما تتجاوب فيه الموجة العلمية الفياضة .

وليس بمستغرب أن يدوى صيته فى القطر الحضرمى تجاه التموجات التى كان يذيعها من على منبر الإصلاح نحو التوجيه العام ، ومن كان فى مثل مكانته العلمية خليق أن ينهل من نبع علمه الفياض الراغبون فى المعارف والثقافة العالية .

وحسبك أن تعلم أن حضرموت لم تتوان عن الاتصال بهذا السيد الإمام . بل اندمجت فيه وكرعت من حياض علمه الزاخر وانتشت بدعوته الإصلاحية وتبارت فى القيام بتنفيذها .

كيف كانت حضرموت فى عصره ؟

وعلى ماذا تنطوى دعوته ؟

أما حضرموت من الناحية السياسية فقد تمزقت أوصالها وأصبح النفوذ لمن عزّ كما فى المثل . ولبحث هـذه الناحية موضع آخر[1] .

أما ما يتصل بوشائج البحث إلى هذه الناحية فلا بأس من أن ننير السبيل فيها ولو قليلا لـكى نتصور أثر النهضة العلمية تصوراً تاماً .

١ — كان من أثر قسوة الظلم والفوضى التى سادت فى هذا العصر أن تمزقت أوصال الحياة الاجتماعية فنتج عن هذا ازدياد الهجرة ازدياداً خيف من عواقبـه الوخيمة بأن تصبح البلاد ولم يبق بها من السكان أحد .

وكادت الحال تصل إلى هذه النتيجة ؛ فقد جرفت الهجرة عدداً وافراً من أبناء الوطن بل بلغ بها الحال أن سافرت بعض الفخائذ العلوية بأكملها ، وإلى اليوم لم يبق بحضرموت منهم أحد . والهجرة وإن تـكن قديمة وقد برم بها الامام الحداد إذ يقول :

مشتتون بأطراف البلاد على رغم الأنوف كما تهواه حساد

إلا أنها فى هذا القرن بلغت أقصى ما يتصوره العقل .

٢ — كان من جراء الفوضى أن خربت البلاد وقلت حاصلاتها ، ولم تبق لدى الزراع رغبة فى الزراعة على ضعفها لأنهم يتعرضون للضرائب الفادحة من ناحية الحـكام المتعددة أسماؤهم ، ولعبث البادية من الناحية الأخرى .

وكذلك ضعفت التجارة فـكسدت الأسواق وكادت تتعطل الحياة الاجتماعية والاقتصادية من كل ناحية .

ضاق بهذه الحالة أعيان القطر الحضرمى وفى مقدمتهم الامام أحمد بن عمر بن سميط ، ونظر إلى الوسيلة التى يمكن بها القضاء على ما آل إليه الأمر : فرأى أنها تنحصر فى الأمور الآتية :

(١) راجع عقـد اليواقيت الجوهرية ج ١ صفحة ٩٣ طبع مصر سنة ١٣١٢ هـ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٩٣ .

(١) راجع من كتابنا (الشهاب العلوى) من تاريخ حضرموت السياسى ، والنهضة السياسية .

١ — نشر العلم بين جميع الطبقات .

٢ — تنظيم الحياة الاقتصادية بما يكفل للبلاد الخير والصلاح .

٣ — الدعوة إلى إيجاد والٍ عدلٍ ، وبذلك تنتعش الآمال ويسود ما بين الناس الهناء والطمأنينة .

دأب مجاهداً فى سبيل إعلاء هذه الفكرة السامية أربعين سنة[١] وهو لا تفتر له عزيمة ولم تقعد به همة .

ومن أجل هذا « كان يشدد على كل عالم ومتعلم ويلومه أشد اللوم فى ترك الدعوة ولا يتركه حتى يأخذ عليه العهد بالدعوة فإذا جاء ثانياً سأله عما فعل[٢] » .

« أخذ يرسل الدعاة إلى القرى قرية فقرية وطلب لهم المعاونة المالية من أربابها[٣] كما كان يفيض عليهم من ماله الخاص[٤] .

فكان الدعاة يجوبون بها طرقها وينادون من على رؤوس المنابر وبعد الصلوات ، وقد يطلع منهم جماعة على منارة جامع القرية فيدعون الناس إلى الله ويتداولون ذلك فيجتمع الناس قياماً وقعوداً فى سطوح بيوتهم يستمعون إليهم ويتعلمون منهم ، ومنهم من يشرف من طاقته منصتاً لذلك[٥] » .

ثم ألقى نظرة نحو الناشئة فأخذ فى تعميم الكتاتيب ووضع لها نظاماً خاصاً ، ولم يقصر الأمر على تعليم البنين بل أمر بتعليم البنات .

وكان يقول : « إن البنت التى لم نعلمها أمر دينها ولم تمكن الإيمان من قلبها لا تأتينا بنجباء ، ولا تربى أولادها على محبة الخير . فاجتهد فى تعليم طائفة منهن ثم نشرهن للتعليم فلم تمض مدة وجيزة حتى كانت البيوت تحن بالتعليم والقراءة كأنها بيوت النحل .

وكان الرجال من قبل لا يسمعون لفظة تعيير منهن على التقصير أو الخطأ بل ربما يحبذنهم عليه .

فلما تعلمن كن مهمازاً لهم إلى الخير ، وطالما عيرنهم على ظلمهم وقبحنهم على ما يرتكبون منه فلم يعلم إلا الله كم كففن من يد ظالمة وأنهضن من همة ناعة[١] » .

ثم التفت نحو البوادى ، وخصهم بمزيد عنايته وقال : « لا ينبغى لنا أن نلومهم على ما يفعلون إذا لم نعلمهم فإن تعديهم الحدود نتيجة جهلهم . فعلينا أن نزيل السبب الذى هو الجهل فيزول المسبب وهو الظلم » .

وألقى نظرة نحو البوادى المتنقلة وهم الذين لا قرى لهم أولهم قرى بعيدة لا تبلغها أقدام الدعاة تجمل لهم ليالى تعليم ودعوة إذا جاءوا إلى بلدة (شبام) بقوافلهم وجلبهم فكان الدعاة يأتونهم ليلا فيسمرون عندهم وهم فى محطاتهم خارج البلد على الرمل . فكان الأعرابى يأتى وأنفه فى خزامة الشيطان وينقلب مبصراً بنور الإيمان[٢] .

وفى مسئولية أهل العلم يقول :

معاشر أهل العلم قوموا جميعكم ... قيام امرئ فى دعوة الخلق تؤجروا
ونوبوا عن المختار فى نشر ما أتى ... إليكم به عن ربه لا تقصروا
ولا تخذلوا شرع الرسول فإنه ... عزيز عليه ما عنتم بل انصروا
فمن نصر الشرع الشريف فنصره ... تكفل مولاه به فتدبروا

وما دام مناط الدعوة ونجاحها يرتكز على سمو أخلاق الدعاة والمرشدين وابتعادهم عما يتنافى ومكانتهم الأدبية ودعوتهم لذلك وجه إليهم إرشاداته فقال :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً ... إذ عبت فيهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهداً ... والموبقات لعمرى أنت حاويها

ودعوة مثل هذه تستدعى نفقة عظيمة ومن أجدر بالتسابق والإنفاق عليها من ذوى السعة والمال ، ولذلك عرض بالحث على الانفاق والمباراة فيه فقال :

لا ينفع المرء إلا ما يقدمه ... لنفسه عند مولى الخلق باريها
ما للحريص على الدنيا سوى كفن ... ولو أتاه من الأموال غاليها
لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة ... فليس إنفاقها فى الخير يفنيها
ولا تضن بها فى حال جفوتها ... فليس إمساكها بخلا يبقيها

(يتبع) على عبود العلوى

(١) راجع صفحة ٢٠٨ من مجلة الرابطة العلوية السنة الثانية .
(٢) نفس المصدر ص ٢٥٤ و ص ٩٢ ج ١ من عقد اليواقيت .
(٣) الرابطة ص ٢٥٤ .
(٤) تاريخ الشعراء الحضرميين ج ٣ صفحة ١٠٠ نقلا عن حدائق الأرواح .
(٥) صفحة ٢٥٥ من مجلة الرابطة السنة الثانية .

(١) صفحة ٢٥٥ من مجلة الرابطة السنة الثانية .
(٢) المصدر السالف الذكر ص ٣٠٥

من عيون الأدب الغربي:

محاورات خيالية

لولتر سافيج لاندور

للأستاذ بولس سلامة

— ٣ —

الخصوم النبلاء

تمهيد:

[كانت رومة وقرطجنة في كفاح دام مرير حول السيادة على البحر ، هذا البحر الذى يفصل بين قارتين ويصل بينهما والذى كان ولما يزل موضع النزاع بين الدول الكبرى حتى حربنا هذه . ذلك أن الذى يسود هذا البحر يسود البر والبحر معاً . وكان هنيبال ومرسيل قائدى الجيشين المتحاربين

وفى هذا المقال من مقالات (لاندور) نرى مرسيل وقد خر صريعاً فى الميدان ووقف بجانبه خصمه هنيبال يريد أن يبتهج بالنصر ولا يستطيع . ثم نسمع هذا الحوار النبيل بين القائدين أحدهما جريح مقهور والآخر ظافر منصور

تأمل هذه الصورة الرائعة ثم الق نظرة على ما يجرى حولنا الآن من محاكات ثم قارن بين الحالين واسأل نفسك كما سألت نفسى : هل تقدمت الانسانية أو تقهقرت فى مدى هذه القرون الطوال] .

(مارسيل القائد الرومانى ملقى على الأرض أمام هنيبال)

هنيبال : هلا أجد فارساً نوماديا سريعاً ! مرسيل مرسيل . إنه لايبدى حراكا . أظنه قد مات . ألم يحرك إصبعه ! أيها الجند تنحوا . دعوه يستنشق شيئاً من الهواء . اعطوه قليلا من الماء . اجمعوا هذه الأوراق والأعشاب وضعوها تحت رأسه . اخلعوا شكته ، وارفعوا عنه خوذته . هاهوذا يتنفس . يخيل إلى أنه فتح عينيه ثم أغمضهما . ولكن من الذى لمس كتفى (يلتفت وراءه) هذا فرس مارسيل . لا يمتطيه من بعده أحد . إيه حتى هؤلاء الرومان بدأوا يتذوقون النعيم . ما هذه الحلى الذهبية (مشيراً إلى الفرس) .

قائد غالى[1] : يا للص . إن هذه السلاسل كانت قلادة مليكنا . لقد انتقمت منه الآلهة .

هنيبال : سوف نتكلم عن الانتقام بين أسوار روما . ابحث عن الطبيب الآن فالسهم يجب أن ينزع مهما كان عميقاً . أرسلوا السفن إلى قرطجنة وقولوا لها إن هنيبال على أبواب رومة وإن قاهر سيراقوسة قد وقع مقهوراً . لقد سقط مارسيل الذى كان يحول بينى وبين روما . (مخاطباً مرسيل) أيها الرجل الشجاع . إنى أود أن أبتهج ولكنى لا أستطيع . هذا المحيا أى جلال فيه ! وهذا القوام أى عظمة تحتويه ! إنها لعظمة أولئك الذين سمعنا عنهم فى أرض النعيم . أولئك الذين جاهدوا وخروا على الأرض المضمخة بدمائهم ثم تأمل : ما أبسط سلاحه وعدته !

قائد غالى : لقد قتله أصحابى . بل أغلب الظن أنى قاتله . إن هذه السلاسل الذهبية وقد كانت للمليك يجب أن تكون من نصيبى . إن شرف بلادى يقضى أن لا يأخذها غيرى .

هنيبال : يا صاحبى إن عظمة مرسيل كانت فى غنى عن هذه السلاسل ، فلما قتل مليككم لم يحتفظ بها لنفسه ولا للآلهة ولكنه وضعها على فرسه .

قائد غالى : اسمع لى يا هنيبال .

هنيبال : ماذا تقول ؟ أفى هذه اللحظة التى يرقد فيها مرسيل أمامى مثخناً بالجراح وهو بين الحياة والموت ، أفى هذه اللحظة التى قد تعود فيها حياته إليه فيساق فى موكب النصر إلى قرطجنة ، أفى الوقت الذى تنتظر فيه إيطاليا وصقلية واليونان تلبية أوامرى ، أفى هذا الوقت تسألنى أن أستمع لك ؟ ولكن هوّن عليك ! سوف أعطيك سرجى هذا المرصع بالجواهر ، وهو أثمن من هذه السلاسل عشر مرات .

قائد غالى : لى أنا !

هنيبال : نعم لك أنت .

قائد غالى : وهذه الجواهر ؟

هنيبال : نعم .

قائد غالى : إيه هنيبال الذى لا يقهر ، وما أسعدك يا بلادى بهذا الحلف العظيم ! إنى مدين لك بالشكر ، بالحب ، بالولاء إلى الأبد .

هنيبال : نحن عادة نحدد الوقت فى المحالفات . عد الآن

---

(١) نسبة إلى بلاد الغال (فرنسا) .

إلى مركزك . إنى أريد أن أرى الطبيب وأعرف رأيه ، حياة

مرسيل ، انتصار هينبال . وماذا فى العيش بعد ذلك . رومة ، وقرطجنة ، ولا شىء .

مرسيل : أموت الآن ، للآلهة الحمد . فالقائد الرومانى لا يؤخذ أسيراً .

هينبال : (للطبيب) ألا يقوى على السفر بحراً . انزع منه السهم .

الطبيب : إذا نزعته قضى نحبه .

مرسيل : إنه يؤلمنى ، انزعه .

هينبال : يا مرسيل إنى لا ألمح ظلا للألم فى محياك . وإنى أكره أن أتعجل منيتك وأنت خصمى فى يدى . وما دام شفاؤك عسيراً فأنت — كما تقول — لست أسيراً .

هينبال : (للطبيب) أليس لديك ما يخفف هذا الألم الذى يمضه وإن كان يخفيه ؟

مرسيل : يا هينبال أعطنى يدك . لقد حبوتنى بعطفك ، وآسيت جرحى بلطفك . (للطبيب) اذهب يا صاحبى فهناك كثيرون محتاجون إليك ؛ كثيرون وقعوا بجانبى .

هينبال : يا مرسيل هل لك أن توصى بلادك بالصلح وتخبر مجلس الشيوخ بتفوق قواتى التى لا تجدى معها المقاومة . اللوح معد ، وهذا ختمك دعنى أنزعه من يدك لتختم . كم يسرنى أن أراك تستطيع أن تتكىء قليلا وتبسم

مرسيل : بعد ساعة أو بضع ساعة سوف تلقانى الآلهة غاضبة وهى تقول يا مرسيل : هذه كتابتك . لقد فقدت رومة رجلا فقدت مثله رجالا من قبل ؛ ولكن لما نزل فى رومة رجال .

هينبال : ماذا تقول ؟ أتخشى الكذب ؟ إنه ليخجلنى أن أعترف لك بأن رجالى متوحشون والمراكز القريبة يقوم عليها غاليون موتورون ، والنوماديون ليسوا بأقل وحشية . وإنى لا أستطيع البقاء بجوارك إذ أحتاج أن أكون بعيداً ، وأخشى أن ينالك سوء فى غيابى إذا علم هؤلاء أنك أبيت أن تنصح بلادك بالصلح فمنعتهم العودة إلى بلادهم التى طال عنها غيابهم .

مرسيل : يا هينبال أنت لا تجود بأنفاسك كما أجود .

هينبال : ماذا تعنى !

مرسيل : أعنى أنك تخشى أشياء كثيرة ولكننى لم أعد أخشى شيئاً . إن قسوة جنودك لا تضيرنى وجنودى لا يكونون علىَّ قساة . إن هينبال تبعده مهام عمله فتبتعد فى أثره جواده سلطته ، وعلى هذه الحشائش بقايا قائد مجروح ولكن لا يزال هو روح الجيش وقوته . أتستطيع أن تتنازل عن سلطان منحته لك بلادك ؟ أوتستطيع أن تقول إنك بأخطائك قد جعلته دون سلطان خصمك ؟ لقد تكلمت كثيراً . دعونى أستريح . إن هذه العباءة تضايقنى .

هنيبال : لقد وضعتها على رأسك لتقيك الشمس لما خلعوا عنك خوذتك . دعنى الآن أضعها تحت رأسك وأن أعيد هذا الخاتم إلى إصبعك .

مرسيل : بل خذه لك . لقد أعطتنيه امرأة لاجئة فى سيراقوسة غطته بخصلة من شعرها وقالت لى خذه هبة منى فهو كل ما أملك . ولم يخطر ببالى يومذاك ان سيأتى على يوم يكون فيه حالها حالى ومقالها مقالى . ما أعجب القدر ! فى لحظة تتحول مصائر البشر ! خذه يا هينبال ، وليكن وهذه العباءة التى وسدتنيها هدايا ضيفين يفترقان . قد يأتى يوم تجلس فيه تحت سقف بيتى ظافراً أو غير ظافر فتجد هذه الهدايا ذات نفع فنى شدتك قد يذكر أبنائى أن فوق هذه العباءة جاد أبوهم بأنفاسه فيكافئونك على جميلك ؛ وفى رخائك قد يسرك أن تحميهم غوائل الدهر ، وهى أقرب ما تكون إلى الإنسان حين يظن أنه بنجوى منها ، ولكن هناك شىء واحد .

هينبال : ماذا ؟

مرسيل : هذا الجسم .

هينبال : أين تريد أن تحمل ؟ الرجال معدُّون .

مرسيل : لست أعنى هـذا . قوتى تزايلنى ، ويخيل لى أنى أسمع ما بداخلى ولا أسمع ما حولى . نظرى وحواسى تضطرب . أريد أن أقول إن هذا الجثمان بعد أن تفارقه روحى لا يستحق اهتمام أحد ، ولكن نبلك يأبى عليك أن تضن به على أهلى حناناً وعطفاً .

هينبال : هل عندك شىء آخر تسأله ، فإنى أحس رغبة مكبوتة فيك .

مرسيل : الواجب والموت يذكراننا بالوطن أحيانا .

هينبال : أجل فإلى الوطن تتجه أفكار المنصورين والمقهورين على السواء .

مرسيل : هل عندك أسرى من حرسى .

أمنيات ...!

للشاعر إبراهيم محمد نجا

يا ليتني كنت العبير إلى ورودك ينتمى
يا ليتني كنت الغدير على ظلالك يرتمى
يا ليتني كنت الهزار بدوحك الترنم
يهدى إلى دنياك أغنية المحب المغرم !

يا ليتني كنت الندى وافى زهورك فى الصباح
فاستضحكت وتمايلت نشوى بأحضان الرياح !
يا ليتني كنتِ الفراش يرفّ عربيد الجناح
يهفو إلى العطر المحبّ ، والرحيق المستباح !

يا ليتني كنت الشعاع سما بأجواز الفضاء
كالموجة العذراء تسبح بين موجات وضاء
بالشوق يصعد للذرى ... بالحب يرقى للعلاء
يهفو إليك ، وأنت نجم قد تناءى فى السماء !

يا ليتني رؤيا منام فى العيون النائمه
يا ليتني ذكرى غرام فى القلوب الحالمه
يا ليتني نجوى العيون أو الشفاه الناعمه
يا ليتني الفرح الطليق مع الأمانى الهائمه !

يا ليتني يا واحة الأيام نبع فى حماك
يا ليتني يا كعبة الأحلام حلم فى صباك
يا ليتني يا قبلة الأشواق شوق فى هواك
يا ليتني يا مبعث الإلهام إلهام حواك !

يا ليتني أحيا — وأنت معى — على قمم الجبال
نرنو إلى الأفق الموشح بالضياء وبالظلال
والبحر جياش كأشواق المحب إلى الوصال
ونظل نسبح فى الفضاء على مويجات الخيال

يا ليتني — وأنا المحب عواطفى نار ونور —
أسمو بأشواقى إلى الأفق المحجّب بالستور
فأظل أسمعه شكاياتى ؛ ليأذن بالعبور
فاذا عبرت ، فقد خلصت إلى اللباب من القشور !

يا ليتني شدو البلابل فى الليالى المقمرات
يا ليتني إشراقة الآمال فى ليل الحياة
يا ليتني ... أواه من تلك الأمانى الضائعات !
كيف العزاء ، وكل شىء ضاع ... حتى أمنياتى ؟ !

لو كنت يا دنياى فى الغيب المحجّب لا أزال
كنت استرحت ، فليس لى قلب يحن إلى الجمال
وسلمت من لهف إلى النبع الموشح بالظلال
وتركت أيامى تمر كأنها رؤيا خيال !

ابراهيم محمد نجا

هينبال : كثيرون . رأيتهم مطروحين على الأرض يموتون فليموتوا ، إنهم توسكانيون . ورأيت آخرين هاربين ، إلا شاباً رومانياً رأيته يكر علينا وهو مجروح . أحاطوا به وأزلوه من فوق فرسه وهم يطعنون الفرس بالسيوف ، ولكن هؤلاء الرومان الشجعان يعرفون كيف يملكون زمام شجاعتهم وكيف يستردونها فى نبل . ولكن لماذا تفكر فيهم يا مرسيل ؟ أو لك أمنية أخرى وما الذى يزعجك ؟

مرسيل : لقد كتمتها طويلا ... ابنى ... ابنى العزيز .

هينبال : أين هو . لعله هو ، وهل كان معك ؟

مرسيل : لو كان معى لشاركنى نصيبى ، ولكنه نجا . حمداً للآلهة التى رفقت بى حياً ، وكانت بى فى مماتى رفيقة . أشكر لك صنيعك .

(الخرطوم — سودان) بولس سلامه



طه الراوي :

كنت منذ ساعتين فى احتفال للجامعة العربية فلقيت صاحب الفخامة السيد جميل المدفعي فوقفت معه أحدثه ، ورأيت أن نتحدث عن العراق . فبدأت بأحب الذكريات إلى نفسى ، وأقربها إلى قلبى . فقلت : كيف السيد طه الراوى ؟ فأجاب بصوت لا أكاد أسمعه : « لا أقدر على أن أخبرك خبره » وأشار إشارة لم أتبينها . فحسبت أنه يعنى ما عرفت من قبل من ضعف بصر الأستاذ الراوى . فقلت : قد لقيته فى القدس منذ ثلاث سنوات وفى دمشق منذ سنتين ، وكان يشكو ضعف بصره . ولكن كيف هو ؟

فقال السيد جميل والأسى يملك عليه صوته : قد مات . وسكت وسكت .

وا أسفا ! وا حسرتا على الصديق الحميم ، السيد النبيل العالم الجليل ، الأديب المتبحّر . وا حسرتا للخلق الكريم ، والنفس الزكية ، المحبَّبة إلى كل من عرفها ، والقريبة إلى كل من سمع عنها .

والله ما ذُكر فى مجلس من معارفه إلا اجتمعت القلوب على حبه ، والألسن على مدحه ، وما ذكرته عند من يعرفه فى مصر والشام بله العراق إلا كان الجواب ثناء عليه ، وإعجاباً بعلمه وأدبه ، وإكباراً لخلقه .

عرفت الأستاذ الكريم — أوسع الله له فى رحمته ، وأجزل لآله وإخوانه وتلاميذه الصبر والعزاء — منذ عشر سنين ولقيته فى بغداد ، والقاهرة ، والقدس ، وفى مدائن من سورية ولبنان ، وراسلته على البعد ، وجالسته طويلا ، وتحادثنا فى العلم والأدب والسياسة والاجتماع والأخلاق وفى أمور شتى . فما عرفته إلا ذكياً عالماً أديباً فاضلا ، لا يتكلم فى موضوع إلا أفاض فيه إفاضة المحيط بأطرافه ، المتمكن منه ، المتثبت فيه ، وكم قلت فى حضوره وغيبته اعترافاً بالحق : « ما يجلس أحد إلى الأستاذ طه إلا استفاد من فلسفته » وأشهد أنى ما حضرت مجلساً له فى داره أو فى غير داره ؛ إلا فرحت بمجلسه ، وأنست به ، وأصخت إلى حديثه وهو يصرّف الكلام فى شجونه ، وينقل الحديث فى معارفه الواسعة ، وتجاربه الجمّة.

وكنت أصغى إليه ، وأعجب به فيما أوافقه فيه وما أخالفه . وندر أن خالفته ، وما أذكر أنى جادلته أو ماريته قط . بل كنا نلتقى التقاء صديقين تقاربت قلوبهما وعقولهما ، ومعارفهما ، وعواطفهما ، وآراؤهما .

وما لقيته أو كتبت إليه ، أو حمّلت أحداً إليه رسالة ، أو بُلّغت عنه قولا أو خبراً إلا فرحت وهششت ، والتمست السرور فى ذكراه ، وحاولت أن أمرّه بكلمة من الجدّ أو المزاح يسمعها أو يُبلّغها .

وقلّ أن صادفت أحداً فوثقت به ، وسكنت إليه ، وأنست به حاضراً ، وبذكره غائباً كالصديق الكريم العزيز المفتقد السيد طه الراوى .

وقد أردت هذا العام أن أحقق مقصد الجامعة العربية فى تزاور الأساتذة فى البلاد العربية ، وفكرت فى أن أدعو بعض أدباء العراق والشام لزيارة جامعتنا ، والمحاضرة فيها . فكان الأستاذ الراوى أول من ذكرته وأول من ذكره لى من استشرته فى الشام ومصر .

وما قدّرت أن الموت يسبقنا إليه ، ويستأثر به ، ويحرمنا منه ويصيبنا فيه .

أى خسارة للأدب ! وأى رزء للأخوة ، وأية حسرة للصداقة ، وأى مصيبة للخلق الكريم .

أى نعى فادح ، ونبأ قاصم ، نعى السيد الراوى إلى أصدقائه وإخوانه وتلاميذه ومعارفه .

ياصديقى العزيز لك رحمة الله ، ولإخوانك اللوعة والحسرة ، والأسى والحنين والافتقاد والبكاء عليك ؛ ثم لهم الصبر والتأسّى .

يا صديقى النبيل ! هذه كلمة يدفعها الحزن ويصدّها ، ويمدّها الأسى ويقبضها ، وتطيلها اللوعة وتقصرها . فنى النفس معان تستعصى على اللفظ ، وعلى اللسان ألفاظ ينوء بها القلم ، وفى القلم اضطراب لا يُقرّه واقفاً ، ولا يتركه سائراً . فليجف المداد ، ولتسل الدموع يا صديقى .

وقفت الحيرة بقلمى هنا . فرحمك الله . رحمك الله .

عبد الوهاب عزام

حماني تحبني :

. سألت (الاثنان) الغراء الأديب الكبير الأستاذ أحمد رامي الشاعر الناثر المشهور عن هذا المثل (حماني تحبني) ، وقد روته تلك الصحيفة (حماتك تحبك) فأملى على الأستاذ أدبه المستنبط في أصله ومعناه ما أملاه ، وفي الجواب تفنن وبراعة ، وقد يصيف سهم الرامي . والذي نراه أن أصل المثل لا يدريه إلا أهل القرن الذي نجم فيه ، وهو القرن السابع حسب المظن . وأما معناه فقد أظهره العلامة الخفاجي في كتابه (شفاء الغليل) قال :

(حماني تحبني) هو من أمثال العامة ، بقوله من صادف نعمة لم تكن على خاطره ، قال ابن نباتة مورياً :

كلما جئت في حما ة على خير موطن
أجد الأكل والندى فحماتي تحبني

قلت : صاحب هذين البيتين هو (المصري) لا (السعدي) معاصر (المتنبي) ونون نباتة عند ناسبي الشاعر إلى جده القديم (عبد الرحمن بن نباتة) صاحب الخطب المشهورة — مضمومة ، أو الضم في هذا العلم أكثر وأثبت كما قال (المجد) وعند ناسبي (جمال الدين) إلى ما ذكره شيخ صاحب (التاج) مفتوحة ، وهذا قوله كما روى شارح (القاموس) :

قال شيخنا : وأما الجمال محمد بن نباتة المصري الشاعر فانه بالفتح كما جزم به أئمة من شيوخنا لأنه كان يوري في شعره بالقطر النباتي ، وهو بالفتح لأنه نسبة للنبات ، وهو نوع من السكر العجيب ، يعمل منه قطع كالبلور شديد البياض والصقالة ، والظاهر أنه فارسي حادث ، وكان أولى بالمصنف — يعني صاحب القاموس — أن ينبه عليه ولكنه أغفله .

قلت : الضم خير مع حلاوة هذا القول[1] ...

السهمي

طيزناباذ :

نقل الأستاذ شكري محمود أحمد في العدد ٦٨٢ من «الرسالة» النيرة تعليقاً على نقل الباحث الفهامة محمد إسعاف النشاشيبي المنشورة في العدد ٦٧٨ من «الرسالة» الغراء : أن الخبر المنسوب إلى محمد بن مسروق في هذه النقل النشاشيبية هو من أخبار الحسن بن هانىء . كما رواه ابن منظور في الصفحة ٢٠٢ ، ٢٠٣ وإن الاسم في البيت الأول هو «طيزناباذ» وليس «بطور سيناء» ثم نقل في الحاشية عن كتاب مسالك الأبصار. أن هذ الاسم: «هو موضع بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق على جادة الحاج. الخ»

والذي أروم عرضه على الأستاذ — وعلى غيره من جهابذة «الرسالة» — هو رواية ثالثة لهذا الاسم تختلف عن «طورسيناء» و « طيزناباذ » ... فقد ذكر أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى ٣٢٨ هـ في الجزء الرابع من عقده الثمين « الطبعة الأولى ١٩١٣ المطبعة الأزهرية بالقاهرة » — عند كلامه على ضروب العروض شعراً — ذكر أبياتاً ذالية ؛ يظهر من فحواها أن هذا الاسم يدعى « طيرناناذ » — بالراء المهملة والتاء المثناة بعدها الألف ثم النون يليها الألف أيضاً — وأنه محلة من محلات اللهو والشرب والأنس . أنظر قوله :

أذكرتني طـيرناناذ فقرى الكرخ ببغداد
قهـوة ليست ببارقة لا ولا نبع ولا ذاذي[1]

أفيكون أن « طيرناناذ » هذه هي محلة من محلات بغداد أم هي طور سيناء ابن مسروق أو طيزناباذ ابن منظور ؟ ولكن حروف الطابع حولها من طيرناناذ — إلى طيزناباذ — إلى طور سيناء ؟ كما حوات غيرها من الأسماء والألفاظ . والمحلات والكلمات ؛ فعملت بها تصحيفاً وتحريفاً وغيرت مواضع الحروف تأخيراً وتقديماً .

وإني لأرى في لفظ الاسم على رواية ابن منظور وصاحب مسالك الأبصار بعض النبو والسماجة ، وأن الصحيح هو صاحبنا ابن عبد ربه ، وخصوصاً في لفظ المقطع الأول ، ولو أنها كانت في عصر ابن هانىء ، ذلك العصر الذي لائم بين عفاف العرب ، وحشمة الإسلام من جهة ، وخلاعة الترك ومجون الفرس من الجهة الثانية ؛ وإن هذا الاختلاط لا بد وأن يكون مدعاة لكل بدعة في السلوك الأخلاقي ولو بالأسماء والكنى . فأرجو من الأستاذ — وغيره من أدباء العصر أن لا يضنوا علينا بطرائفهم الأدبية وأخبار مصادرهم العلمية في تحقيق أمثال هذه الأسماء ، وتعيين مواضعها — وله مني أجمل الثناء ، وأفضل التحيات .

(العراق — القرنة) **حسين السيد جمعة الجابري**

(١) من الكتاب من يقول في مثل هذا التعبير : (رغماً عن حلاوة هذا القول) وانظر إلى الرغم — وأصله معروف — في هذا المقام كيف يكون ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون !

(١) ص ٨٣ من العقد الفريد . الجزء الرابع . الطبعة المذكورة .

فى الأدب التحليلى :

فى صيف سنة ١٩٢١ م خرج جبران خليل جبران ونسيب عريضة وميخائيل نعيمة وعبد المسيح حداد ، وهم من أدباء المهجر المشهورين كى يتمتعوا بمناظر الطبيعة والخلاء فى مزرعة « كاهوزى » بأمريكا ، ولما دنا المساء وغابت الشمس ، أخذوا يسيرون الهوينى على الطريق العامة ، وهم فى حديث متواصل ، وبينما هم كذلك إذ خطر لميخائيل نعيمه هذا البيت :

أسمعينى سكينة الليل لحناً   من نشيد السكينة الأبديه

فألقاه على مسامع رفاقه الثلاثة ، فوقع من نفسهم موقعاً حسناً ، وجعل كل واحد يُتبعه ببيت أو بنصف بيت ، والآخر يزيد على ما قال سابقه ، حتى نتج عن ذلك الأبيات التالية :

أسمعينى سكينة الليل لحناً   من نشيد السكينة الأبديه
وافتحى يا نجوم عينىّ علّى   أن أرى بينك الطريق الخفيه
واجعلى يا رياح منك بساطاً   واحمليني إلى الرياض العليه
واخطفى يا نسائم الليل روحى   وخذيها منى إليك هديه
ودعينى هناك أسرح حراً   إنما العبد يشتهى الحريه
طال سجنى وطال فى الأسر يأسى   واحتمالى لحالتى البشريه
أنا مالى وللورى ، فارفعينى   ودعيهم فى بؤسهم والرزيه
ملّ قلبى بغضاهم ، وهواهم   ملّ قلبى سبابهم والتحيه
ولسانى قد صار يخشى لسانى   وجنانى أضحى علىّ بليه
وفراشى شوكا ، ونومى ارتماشاً   ويقينى شكا ، وبرى خطيه
وشرابى تعللا وأواما   وطعامى مجاعة روحيه
ولباسى رماد فكرى تذريه   رياح تثيرها الأمنيه
تلك حالى . حرب عوان ، فإن   أظفر فنفسى قتيلة أو سبية !

والقصيدة على صغرها زاخرة بالمعانى حافلة بالآراء الفلسفية والفكرية . وإنا لنتساءل : أتصور هذه القصيدة نفسية واحدة ، وتنبئ عن ذهن فرد من أفراد منشئيها ، فنقول إن أفكار ذلك الفرد كانت ساعة الإنشاء للقصيدة قوية وذهنه متوقداً ، فاستطاع أن يفرض شخصيته وطريقة تفكيره على زملائه ، فقلدوه وتابعوه فى هذه الساعة ، أم أن الرفاق الأربعة وهم من مشهورى الأدباء قد اتفقت آراؤهم وأحاسيسهم ، فهم كالشخص الواحد ، كما يحدث كثيراً فى مثل هذه اللحظات التى يتجرد فيها الإنسان من أثقال الحياة ويتعبد فى محاريب الطبيعة والجمال الإلهى الخالد . فالقصيدة حينئذ تعبر فى مجموعها عن رأيهم جميعاً ؛ أم أن القصيدة ليست ذات وحدة مطردة وطابع خاص شامل ؛ بل إن فيها أشتاتاً من الآراء والأفكار ، ولكل واحد من الرفاق بعض هذه الأفكار ؛ وفى استطاعة أدباء التحليل ودراسة الشخصيات والآثار الأدبية أن يعرفوا بوسائلهم الفنية أن هذا البيت لهذا الرفيق ، وذاك لذاك ، وذلك لذلك ، وهكذا ؟! ...

لا يستطيع أن يتحدث بجدارة فى هذا المجال إلا من درس هذه الشخصيات الأربع المشهورة ، ووقف على آثارها الفكرية وقفة الدارس البصير ؛ وأظن لو أن أحد هؤلاء الخبراء قام بتحليل هذه القصيدة وتشريحها وذكر مجهود كل من الأشخاص الأربعة فيها ، مستعيناً فى ذلك بأصول البحث الأدبى المشهورة ، وإيراد الدلائل الكافية لنعمنا بطرفة تحليلية رائعة ! . .

أحمد الشرباصى

رجاء وشكوى :

مما يلاحظ — مع الأسف الشديد — أن بعض الأساتذة الكتاب يبدأن فى نشر مقالات ممتعة ذات فصول ، ثم يتركون الموضوع بدون أن يتم بعد كتابة فصل أو أكثر ، وإنا لنذكر بعض هؤلاء رجاء أن يتداركوا الأمر ويعلموا أن من حق القارىء أن يقرأ الموضوع كاملا ... فمنهم الأستاذ فخرى قسطندى فى مقاله « حول الاتباعية والابتداعية » آخر ما نشر منه فى العدد ٦٨٩ والأستاذ محمد رجب البيومى فى مقاله « من أخلاق البحترى » كتب البحث الأول فى العدد ٦٩٠ ثم انقطع البحث بعد ذلك .

والأستاذ محمد سليم الرشدان فى مقاله « الأدب فى فلسطين » آخر ما كتب منه فى العدد ٦٨٩ .

وبرغم أن هذا العدد رقم ٦٩٦ — أى أن حوالى شهر ونصف أو يزيد قد مضى على بعض المقالات ولم تتم بعد فصولها .

وإنا لنرجو من أصحاب هذه المقالات مراعاة حق القراء وإتمام فصولهم بدون مباعدة بينها

(المنصورة) **لبلى عبد السلام**
المدرسة



القافلة الضــالة

تأليف الأستاذ محمود كامل المحامى

[منشورات دار الجامعة]

للاستاذ شاكر خصباك

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

ومن ثم تنتهى القصة ! فبالله عليك أيها القارئ خبرنى : أى شيء استنتجته من هذه القصة المملة ؟ ! لاشك أنك ستجيبنى بـ « لا شيء » ! إذاً ما قيمة تلك الحوادث التافهة ليصاغ منها قصة تستغرق ثمانى عشرة صفحة ؟ ! ثم ما علاقة تلك الخاتمة التى تنتهى بها القصة ، وأقصد بها زواج سنية من تاجر الجلود بحوادثها المتواترة الأخرى ؟ ! كأنى بالمؤلف تورط فى سوق الحوادث بغير حساب ، ولم يدر كيف سينهيها ، ثم عن له أخيراً أن يختمها على تلك الصورة الغريبة ففعل ! وما هذه المصادفات العجيبة المسيطرة على جو القصة ، والتى لا تحدث فى الواقع إلا نادراً ؟ ! فتلك الصدف تدفع ممدوح صادق مثلا أن يخبر سنية أنه سيبعث لها برسائل غرام ، ولكنه يضرب عن هذا العمل ، وتجعل من ممدوح أسعد محباً لسنية أيضاً حيث يبعث لها برسائل غرامه فتعتقد أنها من ممدوح صادق ؟ !

انظر إلى تلك المصادفات واعجب ، إذ يجعل منها قصاص قدير حوادث قصة منتزعة — على ادعائه — من صميم حياة مصر الاجتماعية ! !

إن المصادفات فى هذه القصة لتتوارد وكأن المؤلف قد أقحمها إقحاماً ، بل كأن أبطال القصة شخصيات آلية يحركها المؤلف بدلا من أن تتحرك هى نفسها ! وبهذا فقد فقدت القصة عنصراً مهماً من عناصرها الفنية هو عنصر إظهار حيوية الشخصيات !

وأخيراً ، دعنى أسألك يا عزيزى القارئ قبل أن أغادر هذه القصة : إن كنت قد ضحكت قبلا عندما أخبرتك فى ملخصها أن الصبى ممدوح أسعد (الحلاق) الذى تخرج من الصف الثالث الابتدائى أديب موهوب يكتب قصصاً وأزجالا ينشرها فى مجلات معروفة . ويكتب رسائل غرام تجعل من ممثلة تحتقر الأدب تقدس كاتبها غاية التقديس ؟ !

— ٣ —

وقصة الكتاب الثالثة « تمثال يتحطم » قصة تحليلية ممتازة ولا أود التعرض لها بشيء ، فليس فيها نقيصة ، بل إن من واجبى أن أشركك يا صديقى القارئ بإعجابى بتحليلها النفسى الملذ الذى توفق فيه المؤلف أعظم التوفيق !

— ٤ —

ولأنتقل الآن سريعاً إلى القصة الرابعة التى كانت بعنوان « المعلم حنفى » . والواقع أن جو هذه القصة فاتر الفتور كله . ولعلك تتبين هذا من الملخص الذى سأسوقه لك الآن :

فـ « رفيق حامد طالب فى الجامعة ، ولكنه لا يشبه رفاقه ممن اعتادوا فى مثل هذا السن أن ينشئوا علاقات غرامية مع النساء ، بل كان منصرفاً إلى قراءة المسرحيات الفرنسية ليكون فى المستقبل كاتباً مسرحياً . وكان يتحاشى الاختلاط برفاقه الطلاب الآخرين حتى قيل عنه إنه متوحش . وقد اعتاد أن يتردد على مقهى « فينيكس » فى شارع عماد الدين ، فينتبذ مقعداً منعزلا — من جهة الزقاق الذى تجتمع فيه سيارات وعربات الأجرة — فأشيع عنه أنه يعتز بصداقة الحوذية والسواقين. ولكنه لم يهتم بكل تلك الاشاعات ومضى يطبق برنامجه حتى إنه كتب قصة بعنوان « المعلم حنفى » استوحاها من شخصية معلم من معلمى عربات النقل فى « الجيوشى » إمعاناً فى العناد .

ثم إنه نال ليسانس الآداب وتوظف فى إحدى المدارس الثانوية فأبعدته مشاغله عن مقهى فينيكس وأقصته عن الجو الأدبى نوعاما .

وبدأ يسترد لونه الطبيعى — بعد أن كان « صفراوى » من كثرة الجهد الذى يبذله فى الدراسة — ثم بدأ يعنى بهندامه

ويخيط ملابسه لدى خياط شهير . وتقدم خطوة أخرى فى ميدان حياته الجديدة فاشترى سيارة .

ثم إن الأستاذ على عبد السلام — ناظر مدرسته — دعاه ذات يوم بمناسبة عيد ميلاد ابنته سماد وقدمه لها على أنه قصصى فسألته عن قصصه ؛ وعندما أخبرها بقصة « المعلم حنفى » هزت كتفيها احتقاراً ؛ وأشارت إلى أنها تفضل قراءة القصص الغرامية على قراءة قصة عن حوذى . فعاد إلى منزله وقد صمم أن يكتسب إعجاب ابنة رئيسه . وأعد هيكل مسرحية تدور حول حادثة حب عنيف . وبعد أسبوع (!!) تمت الرواية ؛ ومثلتها إحدى الفرق التمثيلية فنجحت نجاحاً باهراً (!!) وتناقلت خبرها الصحف المصرية والأجنبية بإعجاب (!!) .

وعاد رفيق فى الليلة الأخيرة لتمثيل روايته إلى داره ؛ ففوجىء بدقات التلفون ؛ وإذا بفتاة تخبره أنها شهدت تمثيل روايته أسبوعاً كاملا وأنها معجبة به كل الإعجاب .

وتطور هذا الإعجاب من جهة الفتاة وجهته فأصبح حباً عنيفاً . وانطلقا يتواعدان على اللقاء باستمرار دون أن تعلم أسرة الفتاة بتلك العلاقة الغرامية . ولكن علاقتهما انكشفت ذات يوم لسائق سيارة الأسرة ؛ فبينما كانت الفتاة تهبط من سيارة رفيق أمام منزل من المنازل وإذا بالسائق السودانى العجوز يبصرها . فثار لكرامة ابنة سيده ، واعترض سيارة رفيق ؛ ورفع يده ليهوى بها على رأسه ، ولكن رفيق دفعه دفعة ألقته على الأرض وأسرع بسيارته هارباً .

ووقف عند مقهى فيتيكس فاختار مقعداً منفرداً وجلس يفكر بما صنع مع السائق العجوز وقد شعر بالندم يتسرب إلى نفسه . وفى أثناء ذلك اجتمع حوله السواقون والحوذية يسائلونه عن سر تلك الغيبة الطويلة . فرحب بهم ودعاهم إلى تناول أقداح الشاى

ولما عاد إلى منزله لبث ليلته ساهراً حتى الصباح وقد انهمك فى كتابة قصة جديدة عن سائق عجوز لأسرة من الأسر كان أكثر وفاء لابنة الأسرة وحرصاً عليها من أهلها .

ومنذ تلك الليلة فضل أن يستعيد لقبه القديم الذى عرف به فيما مضى على أن يقوم بعمل مشابه للعمل الذى قام به فى تلك الليلة المشئومة !

وبهذا انتهت القصة ... ! ! وبانتهائها تسنح لى الفرص لابداء رأيى فيها .

فأول نقطة لاحظتها عليها هو الفتور الذى صبغ به المؤلف جو القصة . يبدو هذا الفتور فى حوادثها الاعتيادية المجردة من عنصر الحركة والنشاط . وفى ذات الوقت فهى تفتقر إلى عنصر مهم من عناصر القصة الفنية هو عنصر اللذة أو التشويق . إذ أن القارىء قد يترك هذه القصة فى أى قسم منها دون أن يشعر بجاذبية تربطه بها كيما يتمها . تلك الجاذبية التى يخلقها عنصر اللذة أو التشويق فى القصة الفنية .

والملاحظة الثانية هى أن الصورة التى انتهت بها القصة قد أقحمت إقحاماً . وإلا فما وجه الندم فى دفع سائق عجوز وإلقائه على الأرض ؟؟ !!

أهذا الحادث التافه يقلب حياة شاب رأساً على عقب ؟ ! ! أهذا الحادث البسيط يبدل أفكار رجل وآراءه ويوجهها وجهة جديدة ؟ !! اللهم هذه نفيسة شاذة ولاقياس على الشاذ .. !!

ولكن رويدك يا أستاذ . ما هذه الغلطة الفظيعة ؟ !! أيمكن لقصاص مبتدىء أن يكتب مسرحية فى ظرف أسبوع وأن لا يطول مدى تفكيره فى هيكلها أكثر من ساعة أو ساعتين ؛ ثم تنجح نجاحاً باهراً جداً ؟ !! إن هذا النجاح الذى لقيته تلك الرواية التى كتبت فى أسبوع والتى تناقلت أخبارها المجلات والصحف المصرية بإعجاب ونقلتها عنها المجلات الأجنبية المحلية لا تلقاها إلا رواية كاتب كبير ذو مران طويل ؛ لا كاتب ناشىء ليس له — حسب تحليلك — المقدرة القصصية ؛

ثم إن الرواية التى ترفع كاتبها إلى مرتبة كبار كتاب المسرح — على حد قولك — لا يفكر فى هيكلها ساعة ولا تسجل فى ظرف أسبوع يا أستاذ بل تحتاج إلى مدة طويلة ليعاد تهذيبها مرات ومرات .

ودع عنك كل ذلك ، ولكن ما هذا التحليل السطحى يا سيدى ؟ !! إنه لا يفوق تحليل أقل كاتب ناشىء إطلاقا . أين هذا التحليل — ولا أدرى كيف أسميه « تحليلا » !! — من نفسيات شخوص قصتك « تمثال يتحطم » ؟ !! ولكن صبراً فهناك ما هو أدهى من ذلك وهى ...

— ٥ —

قصة « شبح اللقاء » . إنها قصة مفككة الحوادث باردة الأسلوب عادية المعنى . ولا أغالى إن قلت إنها أتفه ما فى الكتاب من قصص . وهى تتلخص فيما يلى :

فـ (الأستاذ حمدى يحب فتاة اسمها راجية . وينافسه فى حبها ابن عم لها اسمه سامى . إلا أن الفتاة لا تحب سامى بل حمدى على الرغم من أن أهلها يعارضون فى ذلك الحب .

ثم إنهما اتفقا على الزواج ، ولكن حمدى سافر إلى باريس لقضاء عطلته ولكى يمتع نفسه بمباهجها قبل أن يربط حياته بحياة راجية . وهناك تعرف براقصة فرنسية كانت قد اتفقت مع إحدى الملاهى فى الأسكندرية على العمل فيه .

فلما أراد أن يعود إلى الوطن صحبته تلك الفرنسية . وعند عودته علم أن راجية قد عقدت خطبتها على ابن عمها سامى ، فقرر أن ينتقم منها : وقد اغتنم ذات يوم فرصة وجودها فى أحد المطاعم مع خطيبها فدخل إليه مصطحباً الراقصة الفرنسية معه . فتعشيا معاً ، ثم انقضت فترة قصيرة وعزفت الموسيقى تدعو للرقص فأما راجية فقد أحجمت عن الرقص لئلا يتألم حمدى . وأما حمدى فقد نهض وتبعته الراقصة إلى حلقة الرقص ومضيا يرقصان . وكان هذا هو الانتقام الذى أعده لها (!!) .

وفى صباح اليوم التالى تلقى حمدى من راجية رسالة تخبره فيها بانقطاع العلاقة بينهما إلى الأبد ...) وبذا انتهت القصة ..!

أتمعنت فى حوادثها الخطيرة يا عزيزى القارئ ؟؟ !! تلك هى الصورة المنتزعة من صميم المجتمع المصرى .. !!

ولا حاجة بى أن أكرر الحديث عن ضعف أسلوبها وركاكته مرة أخرى . ولا حاجة بى أن أكرر الإشارة إلى حوادثها الاعتيادية — وأقصد بالاعتيادية تلك التى لا تصلح أن تكون مادة لقصة من القصص — وموضوعها التافه . والحق أننى أعجب لقاص شهير كالأستاذ محمود كامل المحامى أن يكتب أمثال هذه القصة . والواقع أننا يجب أن نطلق على مثل هذه القصص اسم « حكايات العجائز » لا اسم « قصص اجتماعية » . وكان الأحرى بالمؤلف أن يطلق عليها ذلك الإسم كى لا يكلف نفسه مئونة نقد النقاد . فبالله عليك أيها القارئ خبرنى أى فائدة جنيتها من مطالعة تلك القصص ؟ ! ! وأى عبرة اعتبرتها من قراءتها ؟ ! !

ومع ذلك فالمؤلف يفخر فى مقدمة كتابه بأن قصصه هذه عبارة عن مجموعة صور اجتماعية انتزعت من صميم حياة مصر الاجتماعية

— ٦ —

والقصة السادسة هى قصة « الجارة الراحلة » . وهى قصة نفسية جيدة وإن كان فيها شىء من الاستخفاف بنفسية المرأة لا نصيب له من الواقع .

ولكنها على كل حال قصة فنية من طبقة قصة « تمثال يتحطم » .

وأختتم نقدى لهذا الكاتب بالإشارة إلى ضعف لغته فهى إن لم تكن فى الدرجة المتوسطة فأقل منها . وقد لاحظت أن المؤلف قد استعمل كلمات فى غير موضعها أمثال كلمة « الحياكة » — فى قصة « موسيقار الطريق » — بدل « الخياطة » ، و « الحائك » — فى قصة « المعلم حنفى » بدل « الخياط » .

العراق — الحلة **شاكر مصباك**

رد على رد

للأستاذ كامل السيد شاهين

كتب الأستاذ العمارى فى عدد « الرسالة » (٦٩٤) بعنوان (مع البلاغيين) رداً يزعم فيه :

١ — أن التشبيه الذى يقصد منه بيان حال المشبه تشبيه معتبر معدود ، ويمثل له بقول العرب «أسود كحنك الغراب» وقولهم « أحمر كالدم القانى » .

وتلك عثرة بطيئة الإقالة ، فإن أغمار التلاميذ فى المدارس الثانوية يميزون بسهولة بين التشبيه الذى يراد به بيان الحال ، والآخر الذى يراد به بيان مقدار الحال ، ولنسق عبارة عبدالقاهر فى هذا المقام لعل فيها مقنعاً للأستاذ الكبير . قال :

« قد يحتاج الوصف إلى بيان المقدار فيه ، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه فى القوة والضعف والزيادة

والنقصان . مثال ذلك قولهم هو أسود كحنك الغراب ، فالقصد إلى التعريف بمقدار الشدة لا التعريف بنفس السواد على الإطلاق » .

وأما الآية الكريمة « وجفانٍ كالجواب » فهى تدل على مقدار الاتساع لا أصل الاتساع ، وذلك ما لا يصح أن يقع فيه جدل أو مُماراة .

٣ — أنه لا يأخذ كلام المتقدمين قضايا مسلمة دائماً ولكن هذا — يا سيدى — لا يتفق مع ما جئت به وسقته من كلام عبد القاهر فى تحسين التشبيه بين البنفسجة وأوائل النار فى أطراف الكبريت فما كان لك من حجة إلا هذا الكلام الذى ساقه ، أفبعد أن تطعم على مائدتهم وتتوكأ مغمض العينين على عصاهم تزعم أنك لست كلاً عليهم ؟

٤ — أن بيت امرئ القيس :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله كبير أناس فى بجادٍ مزمل

لامعنى وراءه ، وليست هذه الدعوى بالتى يستمع لها ، فإنه لما صور الجبل وقد أصابه الوَبْل بعث فى نفس السامع الرهبة وأشاع شيئاً من البرودة التى يقتضيها المطر ، فشبهه رجلا مَهيباً مُزَمَّلا فى بِجَادة فأصاب ما أراد من المعنى الذى أحاط به المشبه .

وأما قول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة بقايا سفين بالنواصف من دد

فإن الحدوج حينئذ لها اعتبار خاص فهى ليست ملقاة فى الفناء أو خارج الخيمة ، ولكنها متأهبة للرحلة مشدودة على البعران ، مهيأة للسفر ، فمن ثم أصاب القصد فيما تصيبه العين من بقايا السفين المقلعة بعد أن أبعدت عن مرساها ، وفيه إبراز للاشفاق والحنين والتخوف من الوحشة ، وذلك لايدركه إلا قلب شاعر !

٤ — أننى أخطأت فى تعريف البلاغة ونقصتها قيدا ، وأنه كان ينقد فى البيان فلا يحتج عليه بتعريف المعانى .

أما القيد الذى ذكره فقد تركته لأنه ليس محط الإجابة ، واقتصرت على ما به أداء الغرض حتى لا يضل عن القصد فتكثر شطحاته .

وأما أنه يتكلم فى البيان فلا يحتج عليه بتعريف المعانى فهذا ما كنت أُجلّ الأستاذ عن أن يقع فيه ، وكأنه يريد بذلك أن من التراكيب تراكيب ينظر إليها علم المعانى وأخرى ينظر إليها علم البيان ، فتركيب القصر ، والانشاء مثلا لا ينظر إليهما من ناحية أنهما استعارة أو كناية ، و « مكر الليل والنهار » لاينظر إليهما على أنهما إيجاز أو إطناب . إن كل جملة — يا سيدى — خاضعة للمنظرين فلا تقل بعد اليوم : إن هذا التركيب خاص بعلم البيان ، وذاك خاص بعلم المعانى . فهذا عن الصواب بمنأى .

٥ — أن حسد جرير لابن الرقاع إنما كان لروعة التشبيه ولكن قول جرير « ما عساه يقول وهو أعرابى جلف جاف » مما يفيد أنه إنما حسده لاستطاعته وهو بدوى جلف أن يصل إلى تشبيه مدنى حاضر . فلا تزال شجاً مؤلماً وغصة مانعة من إساغة تأويل الأستاذ .

كامل السيد شاهين

المدرس بالمدارس الأميرية



للطبـــاعة والنشر

٣ حارة باغوص بشارع فاروق
ت ٥٠٩٣٨ - ٥٨٩٢٠

لصـــــاحباها

محمد حلمى المنياوى و سعيد جوده السحار

تستطيع فى القريب العاجل

بعـــون الله تعـــالى

أن تؤدى خدمتهـــا كاملة

للكتاب العـربي . . .

العدد ٦٩٧ — الاثنين ١١ نوفمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

٢٧٠٣٩

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون



للطباعة والنشر

٢ حارة باغوص بشارع فاروق
ت ٥٠٩٣٨ – ٥٨٩٢٠

لصاحباها

محمد حلمى المنياوى و سعيد جوده السحار

تستطيع فى القريب العاجل

بعون الله تعالى

أن تؤدى خدمتها كاملة

للكتاب العربي . . .

14 me Année No. 697

Lundi — 11 — 11 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ـــص
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٩٧ « القاهرة في يوم الإثنين ١٧ ذو الحجة سنة ١٣٦٥ — ١١ نوفبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

لغـــة عالميـــة . . .

للأستاذ عباس محمود العقاد

تجدد في هذه الأيام نشاط الدعاة العالميين إلى تعميم لغة واحدة بين أمم الحضارة ، لتصبح في يوم من الأيام لغة النوع الإنساني كله ، أو لتصبح — على الأقل — لغة إضافية يتفاهم بها أبناء الأمم جميعاً إلى جانب لغاتهم القومية ، إذا تعذر الاتفاق على لغة واحدة تغنى عن جميع اللغات

وهذه الدعوة تتجدد في أيام الدعوة إلى السلام ، وهي أرفع ماتكون صوتاً وأبعدما تكون صدى في أعقاب الحروب العالمية ؛ لأن الناس يشعرون في هذه الأوقات بعواقب التفرق والانقسام ، ويستمعون إلى كل نصيحة يرجون منها منع الحروب وتقريب الشقة بين بنى الإنسان ، في اللغة والعقيدة والعصبية القومية

ومن تقديرات هؤلاء الدعاة أن التفاهم بلغة واحدة يقضى على سبب من أسباب سوء التفاهم بين الأمم ، فلا يقع بينها هذا التنافر الذي يثير الفتنة وينفخ في نيران العداوة ، ويفرق الناس شيعاً في القلوب كما تفرقوا شيعاً في الألسنة واللغات

ومن البديه أنهم يقدرون إمكان النجاح في هذه المحاولة ، ولا يسلكونها في عداد المستحيلات الممتنعة على جميع المحاولات

ونشاطهم اليوم أقوى من نشاطهم في السنوات الماضية ، فقد شهدوا أمم العالم تجمع مندوبيها في صعيد واحد ، وقد بلغوا في عهد عصبة الأمم المنحلة أن تعترف العصبة (سنة ١٩٢٧) بأشهر اللغات العالمية وهي « الاسبرانتو » التي سمعنا عنها كثيراً في البلاد العربية . فإذا بلغوا في عهد الأمم المتحدة أن يتكلم المندوبون بهذه اللغة ، أو يتكلم أحدهم بها ويفهمه بعض زملائه ، فهي خطوة مفلحة في سبيل التعميم ، وقد تتبعها خطوات تشترك فيها الحكومات وتنتظم فيها الشعوب

فالمجلات التي كانت تطبع بلغة الاسبرانتو ثم احتجبت في السنوات الماضية تعود الآن إلى الظهور ، والمجلات التي ضاق نطاق انتشارها توسّع هذا النطاق جهد ما تستطيع ، ولا تكتفي الجماعات الدولية بمطبوعات هذه اللغة فتعقد الاتفاقات بينها وبين المجلات المشهورة على تخصيص أقسام منها لتعليم « الاسبرانتو » ونشر الترجمات إلى هذه اللغة مع أقسام المجلة الأخرى التي تنشر بلغتها القومية ، وتتوالى الدعوات إلى عقد المؤتمرات السنوية كما كانت تنعقد منذ أربعين سنة بغير انقطاع فيما عدا أيام الحروب . وقد كانت للاسبرانتو مؤتمرات سنوية شهدها أربعة آلاف مندوب من أرجاء العالم في بعض السنين ، ولهم أمل في ازدياد هذا العدد خلال السنوات المقبلة ، ولهم أمل أهم من ذلك وأجدى على اللغة بين أمم الحضارة ، وهو أن يظفر كتاب أدبي من كتب الاسبرانتو بجائزة « نوبل » أو بجائزة من قبيلها ، ولايسمحون

بترجمة بعد ذلك إلا إذا اقترنت الترجمة بنصوص الكتاب الأصيل

ومما لا شك فيه أن الاتفاق على لغة عالمية إضافية مفيد فى عالم السياسة والمال ، ومفيد فى السياحات والمقابلات بين الغرباء .

ولا شك كذلك فى سهولة الاسبرانتو على المتعلم بالقياس إلى جميع اللغات التى عرفت إلى الآن ، لأن كلمات اللغة تكتب كما تنطق ، وقواعد النحو فيها قليلة لا يعرض لها شذوذ ، ولا يعسر على قارئ من القراء أن يحفظ جذورها جميعاً وأن يتصرف فى الاشتقاق منها على حسب القواعد المعدودة بغير مشقة وبغير حاجة إلى مراجعة ، فهى أيسر لغة على المتعلم بلا خلاف

ولكن الشك كل الشك فى الأساسين اللذين يقوم عليهما بناء اللغة والرجاء فى جدواها ، وهما إمكان التعميم ومنع الخلاف بهذا التعميم

فموضع الخطأ الأكبر فى تقدير هؤلاء الدعاة حسبانهم أن اللغة وسيلة تفاهم وكفى ، ولا شأن لها قبل ذاك ولا بعد ذاك .

والواقع كما نشهده أن اللغة « كائن عضوى » يمتزج بكيان الأمم فى ماضيها وحاضرها ، ومستودع حيوى لما يجيش فى نفوسها وعقولها من فكر وأمل وعاطفة واعتقاد

ومهما يبلغ من إنصاف الدعاة المشغوفين بالسلام وتوحيد الشعوب ، فلن يستأصلوا من نفوسهم تمييز جنس على جنس ولسان على لسان ، وآية ذلك أنهم قصروا جذور اللغة العالمية على مصادر اللغة اللاتينية ومشتقاتها ، فليس فيها حساب للعرب مثلا ولا لأهل فارس أو الهند أو الصين

ونحسبهم لو استطاعوا أن يلحظوا اللغات كافة فى جذور لغتهم لما ضمنوا بذلك توحد اللغة ، ودوام التوحد فيها مائة سنة متوالية ، ولا نقول بضع مئات

وتاريخ اللغة العالمية شاهد على ذلك يغنينا عن ترقب حكم المستقبل البعيد أو القريب

فقد ظهرت أول لغة عالمية فى سنة ١٨٧٩ قبل إعلان الاسبرانتو بنحو تسع سنوات

وقد وضع تلك اللغة قس ألمانى يسمى شلير Schleyer وأطلق عليها اسم « الفولبك » Volpuk منحوتاً من كلمات انجليزية وجرمانية معناها لغة العالم

فلم تمض سنة ١٨٨٧ حتى أعلن الدكتور زمنهوف Zamenhof الروسى لغة عالمية أخرى هى لغة « الاسبرانتو » التى كان لها من الذيوع فى أوربة وأمريكا أوفى نصيب

ولم تمض سنة ١٩٠٠ حتى رأى بعض أنصار الاسبرانتو أنها محتاجة إلى تعديل ، وأدخلوا عليها هذا التعديل فى النطق والهجاء فعرفت باسم لغة « الأيدو » ido ، وهى الكلمة التى وقع بها مقترح التعديل اسمه عند جمع الأصوات ،

وحاول أصدقاء الفريقين أن يرأبوا الصدع بينهما ، فاقترحوا توحيد اللهجتين باسم « الاسبرانتيدو » ispirantido تركيباً مزجياً من الاثنتين ، فلم يفلحوا فى التوفيق ، وأسفرت المحاولة فى أقل من أربعين سنة عن ثلاث لغات أضيفت إلى اللغات المتفرقة ، فزادت ولم تنقص بمحاولة التوحيد

ويحدث هذا فى كل محاولة يراد بها جمع البشر كافة إلى لغة واحدة أو عقيدة واحدة أو تفكير واحد ، وشواهد ذلك عندنا فى الشرق المعروف ، وفى العصر القريب

فالباب قد أراد فى القرن الماضى أن يفسر الكتب الدينية تفسيراً يقبله المسلمون والمسيحيون واليهود ويجمع به الأديان الثلاثة إلى كلمة واحدة ينحسم فيها الخلاف ، فلم يمض على دعوته عمر رجل واحد حتى كانت « البابية » نفسها ثلاث شعب لا تدين واحدة منها بأمامة الشعبة الأخرى ، فلم تتوحد العقائد بل زادت عقيدتين مع الدين الجديد .

وحاول القاديانى فى الهند مثل هذه المحاولة فلم يسلم الروح حتى أصبح الأحمديون شعبتين متنازعتين تدين إحداهما بنبوة الإمام وتنكر الأخرى عليه النبوة وتنعته بلقب الاجتهاد والأمامة وافترق أتباعه قبل أن يوحدوا الأديان . وقد تنقسم الفرقة إلى فرق والشعبة إلى شعب . دون أن يتحقق القصد الذى نزعوا إليه .

والاسبرانتو على هذا القياس ستصبح لغات ولهجات قبل أن تتفق على لغة واحدة إلى جانب اللغات القومية . أما أن تزول هذه اللغات القومية جميعا فذلك تقدير بعيد ، بل جد بعيد .

* * *

والخطأ فى التقدير الآخر أن نرجع بأسباب الحروب إلى تعدد اللغات ، وأن نعتقد أن توحيد اللغة يزيل تلك الأسباب ؛

من أحاديث الإذاعة :

شهيد العيـــد . . . !

للأســـتاذ علي الطنطاوي

كلفتني محطة الشرق الأدنى أن أكتب قصة لتذاع عني أولَ يوم من عيد الأضحى ، وهذا هو العيد قد حلَّ حلَّت عليكم فيه البركات والخيرات ، ولكن القصة لم تكتب ... إن لها قصة يا سادة ، فاسمعوا قصتها ...

***

أنا رجل من طبعه التأجيل والتسويف ، أؤخر الأمر ما دام في الأجل فسحة ، وأرجئه إلى آخر لحظة منه ، ثم أقوم كالمجنون أنط(١) قافزاً مثل الأرنب الذي زعم (أخونا ...) لافونتين أنه نام حتى سبقته السلحفاة ، وإن لم أكن قد رأيت في عمري سلحفاة تسبق أرنباً ...

فما ورد عليَّ كتاب المحطة نظرت فإذا بيني وبين موعد الإذاعة أمد طويل فاطمأننت ونمت ، حتى إذا كانت ليلة العيد ، ولم يبق أمامي إلا ساعات معدودة أكتب فيها القصة وألحق بها البريد الجوي ، أخذت قلمي وصحيفتي لأكتب فسدَّت عليَّ أبواب القول ومنافذه وكواه ... وعدت مرتجاً عليَّ محبوساً لساني كأني ما مارست الكتابة قط ، وكذلك نفس الأديب يا سادة تتفتح تفتُّح الينبوع الدفاق ، ثم تشحّ شحَّ الصخرة الصماء ما تبض بقطرة ماء ، ولكن الناس لا يصدقون ذلك : إنهم يحسبون الكاتب يخرج المقال من نفسه كما يخرج التاجر البضاعة من دكانه ، لا يدرون أن هذا الكلام يجيء أحياناً حتى ما يقدر الأديب على ردّه ، ويعزب حيناً حتى لا يلقاه ، وأنه يعلو ويصفو وينزل ويتعكر ، وما عجزت الليلة عيًّا ولا فهاهة ، فأنا أكتب في الصحف من عشرين سنة ، ولكن الكتابة بالأجرة

(١) نط في الأرض : ذهب .

أو يزيل سبباً قوياً منها إن لم يُزل جميع الأسباب .

فإن الحروب التي وقعت بين أبناء اللغة الواحدة لا تقل عن الحروب التي وقعت بين أبناء اللغات المختلفة ، وأمثلة ذلك ظاهرة في تواريخ الرومان واليونان والعرب والصقالبة والجرمان والانجليز ، وأبناء الهند والصين .

ونحن إذا رجعنا إلى الحروب بين أبناء اللغات المتعددة لم نستطع أن نردها جميعاً إلى انقطاع التفاهم بين أمة منها وأمة ، أو بين زعماء الأمة الذين يقودونها إلى الحرب وزعماء الأمم التي يحاربونها . فربما فهم كل فريق منهم ما يريده الآخر ووقعت الحرب بينهم لأنهم « يفهمون » لا لأنهم لا يفهمون .

فإذا خطر لنا أن تعميم « الاسبرانتو » يعمم الوفاق ويقضي على أسباب الشقاق فليس في حوادث الماضي ولا في حوادث الحاضر ما يعزز هذا الخاطر بدليل .

وغاية ما يرجى من تعميم لغة إضافية بين أبناء النوع الانساني أن تتيسر بينهم المعاملات ويستفيد العارفون بتلك اللغة من سهولة قواعدها فينقلون تلك القواعد شيئاً فشيئاً إلى لغاتهم القومية التي تحتاج إلى تعديل .

أما امتناع الحروب فليس سبيله توحيد الكلام ، بل توحيد البواعث التي يعبر عنها الكلام ، وتوحيد هذه البواعث مستطاع في ناحية واحدة على وجه التقريب لا على وجه الشمول والاطلاق ، وهذه الناحية هي ناحية المثل العليا للأخلاق والقيم والأقدار .

فإذا أعجب الناس بفضيلة واحدة واشمأزوا من رذيلة واحدة وتكلموا بألف لغة فذلك أدعى إلى التقارب بينهم من لغة واحدة يتكلمونها وليس بينهم وفاق في مواطن الاستحسان والاستنكار ، وليس لهم مقياس واحد يقيسون به أعمال الدول والرجال .

وآية ذلك أن اتجاه الناس إلى وحدة المقاييس الخلقية يطرد في مراحل التقدم والحضارة ، ولم يكن تفرقهم في مذاهب اللغة والرأي مناقضاً لاتجاه التقدم والحضارة في عصر من العصور .

عباس محمود العقاد

بيع وشراء ، ولكل مبيع ثمن ، وأنا أحب أن أنتصف وأنصف الناس من نفسي ، لذلك رأيتني كلما سقطت على موضوع وزنته فوجدته لا يساوي الثمن الذي تدفعه لي المحطة ، فتركته وفتشت عن أغلى ، وكلما خطرت لي فكرة طمحت إلى أعلى ، حتى كاد يمضي الوقت ولم أصنع شيئاً ، ونزل بي ما نزل بالأستاذ توفيق الحكيم لما كلفوه أن يضع حواراً للفلم وجعلوا له جعلا ضخماً ، فحصر فيه فكره ، وحشد له قواه ، وفرّ لأجله من داره . ثم انتهى به الأمر أن ألّف كتاب (الحمار) ولم يضع الحوار .

عند ذلك أيست ولبست ثيابي ، وهربت إلى الأسواق .

* * *

جلت في الأسواق ، وأسواق دمشق ليلة العيد كأنها المحشر ، قد أوقدت فيها المصابيح ، وفتحت المخازن ، وانتشر الباعة ، وتدفق عليها أهل البلد والفلاحون ، بالأزياء المختلفة واللغات المتباينات ، وكل بائع ينادي برفيع صوته ، وكل مشترٍ يصيح ، وكل مجتاز يتكلم ، والبضائع معروضات من كل مأكول وملبوس ومفروش ومنظور ومشموم ، وكلٌّ يريد أن يعدّ الليلة عدته للعيد فيشتري فيها طعامه ولباسه ...

وكنت أسير في هذا الزحام شارد الذهن ، نازح الفكر ، أعمل عقلي في هذه القصة ... التي وعدت بها المحطة ، فأعلنت عنها وبشرت بها ، ثم لم أستطع أن أكتبها ، حتى وصلت إلى (باب المصلى [1]) ؛ فإذا أنا بحشد عظيم من الناس قد احتشد حيال دكان ، فدفعني الفضول إلى معرفة الخبر ، فأقبلت أدفع الناس بكتفي ، وأشق طريقي بيديّ كلتيهما وأطأ أعقاب الناس وأقدامهم ، وأصغي إلى هذا الفيض العجيب من ... النثر الفني .. الذي جادت به قرائحهم ، فتدفق عليّ من ألسنتهم ، حتى بلغت المشهد ، ونظرت ...

* * *

نظرت ، فرأيت اثنين يختصمان ويعتركان ، أما أحدهما فكان مسكيناً قميئاً أعزل عاجزاً ، وأما الآخر فكان ضخماً طوالا كالح الوجه ، مفتول العضل ، وسخ الثوب ، قد حمل سكيناً في يده طويلة النصل ، حديدة الشفرة ، وهجم بها على صاحبه والناس ينظرون ولا ينكرون ، وصاحبه المسكين يصرخ ويتلفت تلفت المذعور ، يطلب الغوث فلا يغيثه أحد ، ويبتغي الهرب فيسد عليه الناس طريق الهرب ...

وإني لأفكر ماذا أصنع ... وإذا بالخبيث العاتي يذبحه والله أمامنا ذبحاً ، ويتركه يتخبط بدمه ، ويوليه ظهره ويمضي إلى دكانه متمهلا ، فيعالج فيها شأنه على عادته ، كأنه لم يرتكب جرما ، ولم يأت الأمر النكر جهاراً !

وكدت أهجم عليه ، وأسلمه إلى الشُّرَط . ثم ذكرت أن الشجاعة في مثل هذا الموطن تهور وحماقة ، وأن المجرم بيده السكين لا يمنعه شيء أن يجأ بها من يريده بشرّ ، وطمعت أن يتحرك أحد الواقفين فيقدم عليه فأتبعه وأشد أزره ، فلا والله ما تحرك أحد منهم ، ولا جَرُؤَ على ذلك ؛ بل لقد تكلم واحد منهم ، فلما رفع القاتل رأسه ونظر إليه رأيته يجزع منه ويفزع ، ويقول له بصوت مضطرب متلجلج : « الله يسلّم يديك » !

وحرت ماذا أعمل : أأبلغ الشرطة ، أو أدعهم وأمضي إلى داري لا عليّ ولا لي ؟ ثم رأيت أن خير ما أفعل أن أكتب وصف ما رأيت ، وأبعث به ليذاع ويعرفه الناس .

* * *

وها أنذا أتهم هذا الرجل بالقتل ، وأدعو الحكومة إلى القبض عليه حتى يعاقب ويكون عبرة لمن يعتبر . ولا يحسبن أحد أنه فرّ ، أو أن القصة متخيلة أو مكذوبة ، أو أنها من أساطير الأولين ، أو من أخبار العصور الخوالي ، فالقاتل موجود في دكانه ، يغدو إليها ويروح إلى بيته ، والقصة صحيحة رأيتها بعيني رأسي وأنا سالم العقل غير مجنون ولا معتوه ، متيقظ غير نائم ولا حالم ، صاحٍ غير مخدّر ولا سكران ، ثم أني رأيتها الليلة البارحة !

* * *

هذه هي الحادثة الفظيعة التي كتب الله أن تكون هي موضوع قصتي التي فكرت فيها وأطلت التفكير فكيف رآها الناس فلم يحفلوا بها ولم يأبهوا لها ؟ أفسدت الأخلاق ، وضاعت

(١) حي في أول (ميدان) الحصى في دمشق ، كان فيه مصلى العيد، لما كان الناس يعرفون السنة فيصلون العيدين فيه لا في المساجد .

الذى عطـــل الدين

للأســتاذ عبد المنعم خلاف

ما رأيت شيئاً أضر الحياة وأضر الدين وحال دون شيوعه فى الناس مثل ما عطله الإيغال فيه والاستغراق فى معانيه حتى يصير بعيداً عن متناول عقول أكثر الناس ومتناول جهدهم المحدود وإحساسهم بالحياة ... ! وينبغى لقواد الاجتماع ألا يخطوا خطوة عامة فى رحاب الفكر الاجتماعى إلا وهم مقدرون أن جمهور الإنسانية يستطيع أن يخطوها وراءهم.

وقد كان نتيجة ذلك الإيغال أن حياة أكثر الناس انفصلت عن حياة الدين واتجهت إلى مجرى المادية الصماء — وهو المجرى الظاهرى وحده — من غير أن يصحبها الروح السامى الذى يليق بعظمة تفرعاتها المادية وتشقيقاتها .

ولو أن الدين نُظر إليه على أنه موقف لازم من مواقف الحياة كالأكل والنوم والرياضة والعلم الخ ... وساير حياة المجتمع ، وفُهِم على أنه « ركن مادى » فيها لا بد أن تقوم عليه كما تقوم على غيره من دعاماتها كالقانون وحفظ الأمن مثلا ، ولم تلتصق به نزعات التصوف والانطلاق الشعرى المغرِقين ، وتصوير موقف الإنسان فيه موقف الفناء والإنكار للنزعات المادية التى تستلزمها الحياة بالجسد ، والخروج من الدنيا بالسهر والجوع والزهد واستمراء الآلام قبل الخروج منها بالموت ... إذاً لسارت الحياة الإنسانية فى تناسق بين جانبيها الروحى والمادى .

ولو علمنا أن الحياة صادقة أصدق من تلك النزعات الشاذة التى تجلت فى أفراد من المتشائمين ، من كل من طلق الدنيا ألماً منها أو زهداً فى لذاتها ، لتغير الموقفِ العام ، فان الحياة الإنسانية فى مجراها العام أخذت الإنسانية كلها ، ونقلتها إلى رحاب الكرامات والتسلط والتسخير عن طريق العلوم الموضوعية ومكارم الأخلاق العملية لا الاستغرافات الذاتية الضيقة.

ولا يغرَّنَّنا من شذوذ كل أولئك الصوفيين المغرقين ما تركوه من كلام شعرى مزوّق جميل فى طيوف وأشباح وأصداء لوجداناتهم المحرومة المولهة التى تركت طرق الحياة الواضحة ، وأرادت أن تدرك الله الأعلى بعقولها المحدودة ، فكانت النتيجة الحتمية لذلك المطلب هى بلبلة الخاطر وخفاء البيان واضطراب السير ...

إن الحياة المادية العلمية الظاهرة هى الحكَم لصالح حياة الجماعة ، وهى الأفق الأول الذى أراد الله العظيم أن تتجلى فيه أسرارنا ونتائج خلقتنا ، ونتائج جهادنا فيها نتائج دائمة ثابتة ، يراها أطفالنا وجهالنا كما يراها علماؤنا وفلاسفتنا .

وأنا مؤمن بالإنسانية ذات المنطق الواقعى المستمد من الطبيعة ، ناشدٌ كمالها عن طريق تكميل سيطرتها على الطبيعة وإدراكها للنفس إدراكا علمياً وتحكمها فى العمل تحكماً صالحاً .

ومن الذى سار وراء الشذاذ من الصوفية والمتشائمين وأخذ أخذهم فى الحياة ؟ إنهم أقل عدد ، ومن صالح الأرض أن يكون

المروءات حتى لا ننكر الأمر النُّكْر ، أم خارت العزائم ، وانخلعت القلوب حتى لا نجرؤ على المجرم الظالم ؟ وهل نامت الحكومة فى الشام نومة أهل الكهف حتى ما تدرى بالدم يسيل فى شارع من أكبر شوارع دمشق ؟

لقد سكت الجميع ، حتى أن أنسباء القتيل قد ناموا عن دمه ، وقعدوا عن الثأر له ، ولم يتقدم أحد منهم شاكياً ولا مدعياً لأن القاتل كما قالوا ، عازم على ذبحهم كلهم إن قدر عليهم ، وماضيه حافل بأمثال هذه الجرائم .

فما سرّ هذا السكوت ؟

لقد علمت السرّ بعدُ يا سادة ...

ذلك أن المسكين الشهيد كان خروفاً من خرفان الضحية ، وأن القاتل كان جزَّار الحارة ، وأن الناس شاركوه فى جرمه . فأكلوا لحم الذبيح مشوياً ومقلياً ومطهياً ، وأكلت معهم ونسيت من طيب اللحم هذا المشهد ...

هذه هى سنة الحياة ، يموت المسكين لنستمتع نحن بأكلة طيبة . فكلوا منه أنتم أيضاً هنيئاً ، واشربوا عليه مريئاً ، واشتغلوا بالأكل عن مطالبتى بالقصة ، وكل عام وأنتم بخير !

على الطنطاوى

ذلك كذلك ، إذ لو طاوعهم الناس لعطلت الأعمال فى الأرض ، ولم تتحقق الأعمال البارعة التى للانسان فى المادة وأسرار الحياة

* * *

غير أن الإنسانية إن كانت طبيعية بسيرها هكذا فقد أساءت بإهمال جانب الروح فيها باعتباره دعامة أساسية فى الحياة ذلك الإهمال الشنيع .

وربما يكون ذلك الأمر محتملا فى العصور السالفة ، عصور القصور والطفولة ، ولـكن الآن يجب أن تدرك أنها بلغت دوراً لا يصح أن تسكت فيه على إهمال الجانب الروحى فى حياتها باعتبار أنه « ركن حيوى » ودعامة نظامية لحياتها المادية ذاتها ، والحمد لله قد تحول كثير من أحلام الروحيين القدماء إلى أخلاق عملية عامة .

والتصوف بمعناه العملىّ شئ سام عظيم فى رياضة الخلق وتطبيع الأعصاب على السمو والخير وإيقاظ الضمير ، ولـكنه بمعناه الشعرى الذى نراه فى شعر بعض القوم ليس أخلاقاً ، وإنما هو أحلام وتأملات مستغرقة حادّة للخلاص من الجسد لرؤية الحقيقة العظمى والخروج من نطاق الأرض لرؤية ماوراءها ، وهؤلاء قد لا يهتمون بالأعمـال والأخلاق كالحلاج وغيره ؛ فواجب أن ننظر إليهم لا كرجال دين يسنون طرقا ليسير الناس عليها ، وإنما كشعراء استهوتهم المعانى الدينية فأسرفوا فيها ، واستغرقوا وانطلق وجدانهم فيها كما استغرق أبو نواس فى الخمر وبشار فى الملذات الحسية ...

وقد ينظر إلى معانيهم على أنها انطلاقات فى « فن الدين » أو موسيقى فى جوّه ليست ذات محصول ... وقد ينظر إليهم رجل الدين العالم العملى على أنهم صناع أحلام استهوتهم إلى غير الطريق الجمى . وكل فتح عظيم لهم وتستطيع الإنسانية أن تنتفع به ينتهى إلى « صواب الأحكام » عن طريق البيان ؛ لأنهم أطالوا التأمل وأدمنوا تقليب النظر فى وجوه الأشياء المختلفة . وهذا لا يتيسر لـكثير غيرهم .

ولم يأت وصف لله تعالى على لسان أى مخلوق بما يخرج عن نطاق عمله تعالى وصفاته الممثلة فى الطبيعة التى تدرك بالقوى الواعية وبالحواس .

نعم قد تشرق عليهم لمعات من الأذواق الغريبة عن الحياة ومن المشاهد الغيبية ، ولـكن لا يستطيعون إظهارها ، لأنها يضيق عنها نطاق النطق كما يقول الغزالى .

وإنى ما قرأت بيان صوفى إلا وجدته خيالا شعريا جميلا ، إن كان صاحبه قديراً ، ورديئاً إن كان صاحبه قاصراً كليل الذهن ، وكثيراً ما أظفر بمثله من بيان أهل الدنيا السائرين على ظاهرها .

* * *

وتظهر قيمة القرآن العظيم حين أراه يأخـذ المجتمع كله بمنطق وسط صالح للجماعات ، وحين أراه كتاب العدل والاتزان والاعتراف بالحياة المادية والحياة الروحية كأساس واحد لازم للحياة الانسانية .

والعمل هو روحه ، لا الأمانى الشعرية ، ولا الأغانى الدينية ولا التماس « حسن التعليل » ولا الأماديح التى تتملق ويتهرب بها صاحبها أو يتشفع بها ويعتذر فى مسئولية إهمال الأعمال ، كتلك المعاذير التى يتخذها الناس مع رؤسائهم الدنيويين .

والثواب والجنة الحسية والحسنى والرضا والرحمة والاحترام والخير لذى الخير هى من أدواته كذلك فى الدعوة ومجازاة الفضائل والطبائع الـكريمة لأنها منطق الغرائز الصالحة والأخلاق المثلى . وكل أخلاق القرآن هى أخلاق أبناء الحياة بجزءيها العاجل والآجل ، الصالحين لعمارة الأولى ونحوها والعاملين لحيازة الأخرى والرفعة والرفاهة الخالصة فيها .

وكل عقائد القرآن واضحة مأخوذة من منطق الانفصال بين الإنسان والله تعالى ؛ فلا حلول ولا وحـدة ولا اتحاد ، وبين الله والطبيعة ، ومن موقف الخلافة فى الأرض خلافة واسعة والتدخل فى شئونها جميعاً ، لا التقليل من شأنها والهرب من مجابهة فتنتها كدار امتحان وكفاح وابتلاء . موقف الاعتراف بقيمة الجسد الإنسانى وسمو الروح الإنسانى ووجوب الجمع بينهما لصلاح الحياة والفـكر .

فَلْـنَدِنْ لله بالحياة ، ولنتعبد بها هى ذاتها ، ولنتخذ منطقنا من سننها التى لا تتبدل وحقائقها التى لا تلتوى ، لأنها منطق الله ربنا وربهـا ، وما عرفنا الله إلا منها . فـكيف نهملها ؟ وكيف نجهلها أو نجهل عليها ؟ فيها قِوامها ، ومنها دينُها ! .

علوم البلاغة في الجامعة

للأستاذ على العمارى

— ٤ —

انتهينا فى المقال السابق من مناقشة آراء الأستاذ الخولى فيما يتعلق بعلم البيان ، وقد أغضينا عن أشياء استنكرنا على علم الأستاذ وفضله أن تكون من آرائه وتوجيهاته ، فنحن هنا لا ننقد إلا ما يتأكد عندنا أنه من رأيه بمراجعة النسخ المختلفة لمذكرات الطلاب ، أو بأن يشيع الرأى فى فصل من الفصول فيتكرر فيه مرات . ولقد عملنا بالحكمة المأثورة « ما استقصى كريم قط » فأنكرنا بعضاً وأعرضنا عن بعض . وحديثنا اليوم عن آرائه فى باب القصر ، وهذا باب تعرض منه لثورة عنيفة فناله من حرائها شر مستطير ، نرى من الحتم علينا أن ننصفه ، وأن نرد إليه كرامته ، فإن مسائل العلم لها عند دارسيها كرامة تعلو على كرامة عظماء الرجال ، والأستاذ بدأ أولا فمزق هذا الباب إرْباً إرْباً ،

ورمى بكل شِلو منه فى ناحية . فذهب بقطعة إلى علم النحو ، ومضى بثانية إلى علم البيان ، أما سائره فأبقاه فى علم المعانى ولكن بعد أن هاض جناحه ، وتحيَّف أطرافه . ورأيه أن القصر الجدير بأن يبحث عنه البلاغى هو القصر الادعائى ، أما القصر الذى يعبر عن الواقع فيجب أن يبقى فى علم النحو لأنه يؤدى به أصل المعنى المراد فقط ، والبلاغى إنما تعنيه المعانى الثانية ، وهى المعانى التى يومىء إليها الكلام وراء المعنى الأصلى : « القصر صيغة من صيغ التعبير العربية التى يحتاج إليها فى أداء المعانى الأصلية ، وتأتى المرحلة الثانية وهى أن القصر الحقيقى ما دام حقيقياً بمعنى أنه مطابق للواقع فهو مرحلة لا تتجاوز أصل المعنى وصحته ، أى أن معناه النحوى هو دائماً معناه الوحيد ولا يخرج عنه إلى أغراض أخرى . أما القصر الادعائى فبخلاف ذلك له وراء المعنى الأول لصيغة القصر معان أخرى يرمى إليها المتكلم ومن أجلها لجأ إلى هذا الادعاء فأسقط من حسابه كل شىء غير المتكلم فيه وأثبت المعنى الذى عنده له » .

ثم يقول : « القصر الادعائى إذا توسعنا قليلا فى فهمه وتطبيقه فإننا نستطيع نقله من باب المعانى إلى أسلوب من أساليب التعبير الأدبى . فلا نقصر المسألة على البحث اللفظى والدلالة على جزء المعنى الذى هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال . إذن نخرج من باب القصر بأسلوب يدخل فى البيان لا فى المعانى » ، ويؤكد هذا الرأى فى موضع آخر : « القصر عندى معنى نحوى لا بلاغى ، أى أنه من الصيغ العربية لازم لصحة المعنى لا لحسنه ؛ فهو يساق لتقوية المعنى لا لجماله ، وأنه لا احتراز فيه ولا نفى فيكون معناه أنه تعبير قوى . يتلخص من هذا أن للقصر استعمالات ثلاثاً :

١ — القصر طريق من طرق التعبير العربى فهو صيغة نحوية لأصل المعنى .

٢ — القصر صنيع بلاغى قوى لتقوية المعنى .

٣ — القصر أسلوب من الأساليب البيانية » .

هذا كلامه . ولإنارة هذه المسألة نقول : إن بعض العلماء يرى أن مباحث النحو يجب أن تنفصل عن مباحث البلاغة ، والحد الفاصل بينهما أن البلاغى لا بد أن يكون له ملحظ وراء المعنى الأصلى ، فإذا لم يكن له غرض من الكلام غير أداء المعنى

ولنَعرض أقوال الرجال على موازينها قبل الأخذ بها فى تسليم وغرور ... ولنحذر أن نعكس الأمر فنعرض أمر موازينها على أقوال الرجال ، فإن أقوال الرجال متغيرة متناقضة وأقوالها هى ثابتة لا تتبدل !

ولكل عقل موهوب الحق فى الاتصال بها والاحتكاك بقوانينها ليكون من وراء ذلك اتصال مباشر بعقل الوجود ، وقلب الطبيعة ... !

وقد صارت الحياة تغزو بصدقها قلب الإنسان وتستهويه وتبعده عن الخوف والوجل من القرب منها ، وجعلت أبناءها المجاهدين الشجعان هم السادة ، وتركت الفارين منها فى خوف ووجل يئنون تحت أثقالها وهم يحسبون أن أنينهم هذا شعر ونشيد وحكمة ... ! وما ظفر فيها بالحق إلا من أحسّ بها وتقرب إليها وبَعُد عن أساطير الأولين من المرضى والفارين الذين حرموا من الإحساس بعنفوان شبابها يفيض فى كيانهم ...

عبد المنعم خلاف

الأصلى فلا يدخل أداؤه فى مباحث البلاغــة . مثال ذلك ذكر المسند إليه ، فانه إذا قامت قرينة تجوّز حذفه كان المتكلم بالخيار بين أن يذكره أو يحذفه ، والحال هو الذى يرجح عنده أحدهما فالشاعر الذى يقول :

بالله يا ظبيات القلاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

كانت له مندوحة أن يحذف المسند إليه (ليلى) ولـكنه آثر ذكره بعد دلالة القرينة عليه لو حذف لغرض فى نفسه ، فإذا لم تكن قرينة تدل عليه إن حذف كان الذكر واجباً ، وحينئذ لا يعلل هذا الذكر بغرض بلاغى وهكذا .

على هذا الضوء ننظر فيما ذهب إليه الأستاذ الخولى فنرى أنه غفل عن أمور أربعة حين رأى أن بعض القصر يجب أن يبعد عن دائرة البلاغة ، ويبقى فى مباحث علم النحو :

١ — فأصل الجملة الواحدة فى العربية أن تؤدى حكماً واحداً مقصوداً لا تتعداه سواء أكانت حقيقة أو مجازاً ، وغالباً مايتبع هذا الحكم غرض يسمونه وأمثاله مستتبعات التراكيب ، وهذه الأغراض هى التى يلاحظها المتكلم ويقصدها من كلامه . فاذا أدت الجملة حكمين مختلفين خرجت عن أصل الجمل العربية ، وكان هذا الاختصار من المقاصد التى يلجأ إليها المتكلم ، وهو مقصد وراء الأداء الأصلى . يقول الشاعر :

وليس أخى من ودّنى رأى عينه

ولـكن أخى من ودنى وهو غائب

فنجد هذا المعنى أدى على طبيعة الجملة ، فاذا أردت أن تسوقه فى أسلوب مختصر قلت : ما أخى إلا من ودنى وهو غائب ، فتلجأ إلى القصر لغرض الاختصار .

٢ — من المعروف لدى كل من يشـدو شيئاً من علوم البلاغة أن القصر فى كل حالاته يفيد التوكيد والتقوية ، والأستاذ لا يخالف فى هذا ولا ينفيه بل يذكره فى غير موضع من مذكراته ويراه أدل على إفادة التوكيد من الاختصاص فيقول إن ما نعبد إلا إياك آكد من إياك نعبد ، وبدهى أن التوكيد ليس غرضاً أول بل هو من أوليات الأغراض البلاغية .

ولهذين الأمرين المتقدمين لم يعدّ العلماء من أدوات القصر الألفاظ التى تدل عليه من مثل اختصر وقصر وما إلى ذلك ؛ فمثل قوله تعالى والله يختص برحمته من يشاء ، وقوله : حور مقصورات فى الخيام لا يعد من القصر ؛ لأن الجملة لم تؤد غير معنى واحد مقصود ولا اختصار فيها ؛ فلا يرتبون شيئاً من أحكام القصر على هذه الألفاظ ، ولذلك نحن لا نرى رأى أستاذنا الشيخ سليمان نوار حين يرى أنه يجب أن نعد من القصر كل أسلوب ينحدر منه الذهن إلى معنى القصر وإن لم توجد أداة من أدواته المعروفة ، ويعرف القصر بأنه دلالة جملة واحدة على اختصاص أمر بآخر سواء كان منشأ تلك الدلالة الوضع أم العقل أم الذوق فيشمل نحو :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ونحو :

أرونى أمــة بلغت مناها بغير العلم أو حدّ اليمانى

ثم يعجب قائلا « لماذا يجعلون شبه ومشبها من صيغ التشبيه ولا يجعلون نحو اختص من صيغ القصر » وأظن الفرق واضحاً بين دلالة شبه على التشبيه ودلالة اختص على القصر الذى رتبوا عليه الأحكام البلاغية الـكثيرة ؛ والذوق شاهد عدل فى هذا . فأين قولك قصرتك على الشعر من قولك : إنما أنت شاعر ؟ وكذلك لم يجعلوا من صيغ القصر الاستثناء التام المثبت لأنه يؤدى معناه الأصلى لا غير . قال صاحب الأطول : « إذ الاستثناء من الإيجاد ليس القصد فيه إلى الحصر بل إلى تصحيح الحكم الإيجابى ، فهو بمنزلة تقييد طرف الحكم ؛ فـكما أن جاءنى الرجال العلماء ليس قصراً كذلك جاءنى الرجال إلا الجهال ليس قصراً بخلاف نحو ماجاءنى إلا زيد ، فان المقصود منه قصر الحكم على زيد لا تحصيل الحكم فقط وإلا لقيل جاءنى زيد »

ونحن نريد أن نبسط القول فى أدوات القصر لنقطع كل حجة على من يتهم العلماء بأنهم ضيقوا دائرته ، وأنهم غفلوا عن مزاياه ، وأنهم وضعوا فى علوم البلاغة ما كان يجب أن يوضع فى علم النحو ، وسنقتصر على الطرق الأربعة التى ذكرها الخطيب القزوينى فى الإيضاح وهو الـكتاب الذى يشرحــه الأستاذ فى الجامعة ويعلق عليه .

« التقديم » قد كفانا الأستاذ مؤونة القول فى هذا الطريق

وأنه لا يؤدى به أصل المعنى فحسب بقوله : « أما التقديم فمادام الأصل فيه التأخير أى أن الحالة الطارئة هى التقديم فلا يكون إلا لملحظ بلاغى » .

« العطف » ومن المسلم به عند العلماء والذى لا يعارض الأستاذ فيه أن هـذا الطريق لا يؤدى به إلا القصر الإضافى ، وأنه « لرد السامع عن الخطأ فى الحكم إلى الصواب » وهذه عبارته ، وطبيعة القصر الإضافى تقتضى ذلك فهو إما لبيان خطأ المخاطب فى اعتقاد الشركة بين الأمرين أو فى اعتقاد العكس ، وإما لإخراجه من ظلمة التردد والحيرة فى قصر التعيين ، فهذا الطريق أيضاً لا بد أن يلاحظ فيه ملحظ بلاغى .

« النفى والاستثناء » . « إنما » قد فات الأستاذ فيهما أن يرجع إلى الشواهد العربية ، ونظر إلى الموضوع من ناحية القواعد الجافة مجردة عن شواهدها ، ولو أنه نظر من هذه الناحية لرأى عجباً ، كما يرى أن المرجع الأول للبلاغة وهو كلام العرب يدل بوضوح على أن هذين الطريقين لا يجيئان حين يراد أصل المعنى أبداً ، وإنما يجيئان حين يقصد المتكلم غرضاً من الأغراض . فالأصل فى الأول أن يجىء فيما يجهله المخاطب وينكره ، فاذا جىء به فيما يعلمه لوحظ تنزيل العالم منزلة الجاهل أو تنزيل المعترف منزلة المنكر « وأما الخبر بالنفى والإثبات فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، فاذا قلت ما هو إلا مصيب قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا كان الأمر ظاهراً لم تقله كذلك فلا تقول للرجل ترققه على أخيه وتنبهه للذى يجب من صلة الرحم ومن حسن التحاب : ما هو إلا أخوك . ومتى رأيت شيئاً هو من المعلوم الذى لا يشك فيه قد جاء بالنفى فذلك لتقدير معنى صار به فى حكم المشكوك فيه[1] » .

وأما « إنما » فتجىء فيما يعلمه المخاطب ولا ينكره ولكن مع ملاحظة غرض غير ماتضمنه أصل الكلام « اعلم أن موضوع « إنما » على أن تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة ، تقول للرجل إنما هو أخوك ، وإنما هو صاحبك القديم ، لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن يعلمه ويقر به إلا أنك تريد أن تنبهه للذى يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب . وأما مثال ما ينزل هذه المنزلة فكقوله :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ادعى فى كون الممدوح بهذه الصفة أنه أمر ظاهر معلوم للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا فى الأوصاف التى يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم وأنهم قد شهروا بها وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذى لا يجهله أحد . واعلم أنه ليس يكاد ينتهى ما يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق[1] » .

لعل القارئ يتبين بعد ذلك أننا نخطئ الخطأ الأكبر حين نعتمد على القواعد جافة مجردة عن شواهدها ، أو نلجأ إلى الشواهد التى وضعها المتأخرون ثم نحاول هدم القواعد جملة . والذى قلناه فى هـذه الطرق المشهورة يمكن أن نقوله فى كل طرق القصر ، وبذلك نجد أن العلماء حين وضعوا القصر فى علم المعانى لم يخطئوا .

٤ — أجاب بعض العلماء عن مثل هذا الاعتراض بما أعده « أضعف الإيمان » ولكنه على كل حال جواب صالح . وذلك أن المتكلم قد تدعوه الحال إلى أن يؤدى الكلام مقتصراً على المعنى الأصلى ، وما زال العلماء يرون أن خالى الذهن يجب أن يلقى إليه الكلام مجرداً عن التوكيد ، وبذلك يطابق الكلام مقتضى الحال . قال التفتازانى فى المطول : « أن المقتضى أعم من الموجب والمرجح ، ولا نسلم المنافاة بين وجوب الذكر وكونه مقتضى الحال ، فان كثيراً من مقتضيات الأحوال بهذه المثابة » وهو جواب عن المسألة التى ذكرناها فى أول هذا المقال .

* * *

أما الذهاب بالقصر الادعائى إلى علم البيان فأمره أشد غرابة . وذلك أن علم البيان وضع ليحترز به عن التعقيد المعنوى ، فهو يبحث فى الجملة من حيث أداؤها للمعنى ، فينظر فى ألفاظها ومدلولاتها وتركيبها ، فمرجع مباحثه إلى اللفظ التركيبى ومدى تأديته للمعنى ، فالتشبيه والمجاز والاستعارة والكناية كلها طرق يمكن البحث فى صورها من حيث دلالتها على ما سيقت له ، وليس كذلك القصر الادعائى فان المزية التى فيه ليس لها مظهر فى صورة الكلام ، وإنما مظهرها فى اعتبار المتكلم ،

(١) دلائل الاعجاز « بتصرف » .

(١) المصدر السابق

فتنامى المتكلم لكل حالة غير الحالة المتكلم فيها أمر فى نفسه هو ولا مظهر له فى أجزاء تركيب الجملة ، وإنما جملت الجملة مشيرة له ، ففرق بين أن تقول : ما شوقى إلا شاعر ، وبين أن تقول : شوقى بلبل غرّد ثم سكت ، فأنت تبحث فى الثانية عن الكلمات وأدائها للمعنى ، وأما فى الأولى فأول مرجعك قصد المتكلم وغرضه ، والحال التى ألجأته إلى هذا التعبير ، وهـذا هو مبحث علم المعانى . على أن العلماء قالوا إن الجملة يمكن النظر إليها من جهات مختلفة فهى من حيث مطابقتها لمقتضى الحال تكون من مباحث المعانى ، ومن حيث أداؤها للمعنى تدخل فى مباحث البيان ، ولاشك أن القصر بجملته يلاحظ فيه الأحوال الداعية . وقد يمكننا على هذا أن ننقل كثيراً من الأساليب إلى علم البيان؛ فالالتفات بأقسامه الكثيرة ، والتعبير بالخبر عن الإنشاء ، والأسلوب الحكيم ، والتعبير عن الأمر بطريق الاستفهام وما يتصل به من هذه المباحث الطويلة العريضة كل أولئك مما يمكن التماس لها فتدخل فى مباحث البيان ، ولكن أهى غريبة عن علم المعانى ؟

أهناك داع إلى هذا التمزيق ؟ لا .

المسألة يجب أن تقتصر على التجديد فى قواعد الفن والزيادة عليها أوالنقص منها ؛ أما أن نجدد فننقل قطعة من مكان إلى مكان ثم لا نفعل شيئاً أكثر من ذلك فلا .

وأحب أن أهمس هنا همسة فى آذان الذين ينتقصون القدماء من غير مبرر وهى أن علماءنا الأعلام لم يكونوا أصحاب أذواق مريضة ، ولم يضعوا القواعد وهم مغمضو الجفون عما وراءها من الشواهد ، ولكنهم درسوا تراث العرب الأدبى وفهموه وتذوقوه ثم وضعوا بعد ذلك قواعدهم — أليس السكاكى وهو مقعّد هذا الفن ومفلسفه هو صاحب الرأى القائل بأن إعجاز القرآن لا يدرك إلا بالذوق . وفى ذلك يقول : « واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة ، ومدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا[1] » . ويقول فى موضع آخر بعد أن ذكر وجوهاً أربعة للإعجاز « يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة ولا استبعاد فى إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطلع عليه فلكم سحبنا الذيل فى إنكاره ثم ضممنا الذيل ما أن ننكره[1] » . أوليس السكاكى هو الأعرج الثانى الذى قيل فيه وفى صاحبه الزمخشرى : « لولا الأعرجان لضاعت بلاغة القرآن » ؟ أفيعد هذا يقول قائل إننا لا نثق فى ذوق المتقدمين « وأنهم شملهم كغيرهم ذوق العصر ، ولم تستقم فى أذواقهم اللاغبة غضة طرية عطلا من زينة وحلية ، ومن ثم كانت تفاهة الاستشهادات والتخريجات، وكان لجوؤهم إلى الفلسفة هرباً من الناحية الذوقية ، فقاسوا بالشبر والقيراط ، ولم تظهر لهم الزينة فى القوة والعذوبة والسلاسة والنغم فطلبوها بالصبغ والألوان والشعبذة اللفظية[2] » .

بخ . بخ ... لقد قال شوقى على لسان أحد أبطاله :

تهـــددنى زياد وأنت ظل   لمجنون وراوية لهـاذى
وتزعم أنـــنى ندٌّ لقيس   رضيت من المصائب غير هذى

فهل كان يقوله على لسان السكاكى والخطيب وغيرهما من أساطين البلاغة والأدب ؟!

(يتبع)

على العمارى
المدرس بمعهد القاهرة

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٦ طبعة الحلبى .

(١) المصدر السابق ص ٢١٧ .
(٢) من مقال للأستاذ كامل شاهين « الرسالة » (٦٩٢)

من غرائب النسيان . . . !

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

كنا جماعة نتحدث فى شتى الشئون ، فأطلعنا الأستاذ محمد عبد الغنى حسن على كتاب فرنسى طبع حديثاً نقل فيه صاحبه مقتطفات من الشعر العربى إلى اللغة الفرنسية ، وكانت إحدى هذه القصائد بعنوان « تحت الشراع » للأستاذ عبدالغنى ترجمها الناقل عن مجلة « الرسالة » عام ١٩٤٠ . وتتبعنا الشعر الفرنسى محاولين رده إلى أصله العربى فعجزنا ، وهنا طلبنا من صاحب الشعر — أى الأستاذ عبد الغنى — أن ينشد شعره الذى نظمه ، فأجاب : لقد نسيت ! قلنا : ألا تذكر مطلع القصيدة ؟ قال : لا . قلنا : ولا بيتاً واحداً ؟ قال : لا . وهنا بلغ منا العجب مبلغه ... كيف ينسى صاحب الشىء شيئه هذا النسيان الغريب !

ومن المعروف أن كثيراً من الشعراء يحفظون شعر أنفسهم ولا ينسونه وينشدونه فى المناسبات . ومن هؤلاء على سبيل المثال صديقنا الشاعر غنيم . غير أن السؤال الذى يحتاج إلى جواب هو : لماذا ينسى المرء أعماله وآثاره ، وبمعنى آخر : لماذا ينسى نفسه ؟ !

قلت فى تعليل ذلك — وسكت الأستاذ عبد الغنى عند هذا التعليل دون تعليق — : إن الشاعر شخص مبدع خالق مبتكر قبل كل شىء ، مثله فى ذلك مثل الفنان الذى يبدع آثاراً فنية ، كالتماثيل التى يصنعها النحات ، أو اللوحات الزيتية التى يرسمها المصور ، والشعر كالتمثال أو كاللوحة الزيتية ، يتركب من شيئين : من المعنى الحائر فى الذهن ، أو الفكرة المبتدعة فى صفحة الخيال ، ومن مادة يصوغ فيها الفنان هذه الفكرة ؛ فمادة التمثال الرخام أو النحاس ، ومادة اللوحة الألوان ، ومادة الشعر الألفاظ . وكثيراً ما يسخط الفنان على عمله فلا يرضى عنه ، وعندئذ يحطم النحات تمثاله ويكسره ويأبى أن يظهره ، أو يمحو المصور لوحته ، وقد يتركها دون أن يتمها ، أو يأبى وضع اسمه عليها . تعرفت بمصور بمدينة المنصورة كان يشتغل مدرساً بها ، اسمه الأستاذ حلمى ، ثم طلبت منه صورة زيتية من ريشته أحتفظ بها تذكاراً لصداقته ، فأحضر لى صورة تمثل منظراً ريفياً على شاطئ النيل ، ولم تكن ممهورة باسمه ، فقلت له : ضع عليها خاتمك ، فرفض . ولم أثقل عليه ، لأنى فهمت ما يقصد : الصورة أعجبتنى ، ولكنها لا تعجبه ، ولو أنه صانعها !

فإذا كان الأستاذ عبد الغنى قد نسى شعره ، فذلك لأنه فنان يسخط على ما يفعل ، ولا يرضى عما يبدع ، إذ يتطلع دائماً إلى الكمال والترقى . ولو رضى الناس عن أعمالهم ما تقدموا . وأكبر الظن أن الصورة الشعرية تكون فى الذهن بالغة غاية الروعة ونهاية الكمال ، غير أن تحقيقها فى المادة ، وصياغتها فى أثواب من الألفاظ هو سر نقصها . والمادة هى علة النقص فى الوجود .

وأذكر حادثة أخرى من نوع آخر :

ركبت المترو من عماد الدين ، حتى إذا بلغت مصر الجديدة فى إحدى محطاتها المتوسطة ، سألنى أحد الركاب — وكان يجلس أمامى — هل هذه الحافظة لك ؟ فنظرت إلى جانبى فرأيت مكان الراكب الذى كان إلى جوارى خالياً ، ورأيت حافظة نقود ليست حافظتى . قلت : إنها ملك الراكب الذى نزل ! وهنا سألت نفسى : ما شكله ؟ هل هو شاب أو شيخ ؟ هل هو هزيل أو بدين ؟ هل هو أسمر أو أبيض ؟ كل ذلك لم أذكر منه شيئاً كأن أحداً لم يجلس إلى جانبى . ثم تناولنا الحافظة وفتحناها ووجدنا فيها أوراقاً باسم « عماد » . وبدا لى أن أنادى هذا الإسم لعل صاحبه يستجيب ، فقلت : عماد ... والتفت شاب أوشك أن ينصرف فى أعماق الشارع ، ولوحت له بالحافظة فأدرك المقصود ، وعاد مسرعاً وأخذها شاكراً . هنا فقط تذكرت ؛ أو على الأصح تعرفت عليه ، وبان لى أننى تأملت هذا الشخص حين كان إلى جوارى ، إذ كان يقرأ كتاباً باللغة الإنجليزية فيه أشكال رياضية ، واستنتجت عند ذلك أنه طالب فى كلية الهندسة أو كلية العلوم ، وكان يلبس بنطلوناً وقيصاً فقط . ثم سألت الراكبين : هل يذكر أحدهم هذا الشخص ؟ فقالوا جميعاً : لا . قلت فى نفسى : لو أن هذا الشخص ارتكب حادثة أو جناية ، ولم تكتشف إلا فيما بعد ، ثم طلبنا البوليس إلى الإدلاء بالشهادة فماذا كنا نجيب ؟ ثلاثة رجال لا يتذكرون شيئاً عن شخص رابع ظل يجلس معهم نصف ساعة على الأقل ، ووقعت أبصارهم

عليه ، وشاهدوه ، ثم ينسون كل شيء عنه ... هذا أمر عجيب ! والأغرب من ذلك اتفاق الثلاثة على هذا النسيان ! اللهم إن شهادة الشهود فى المحاكم أمر مشكوك فيه ، ويجب على القضاة أن يتنبهوا إلى هذه الحقائق النفسية الثابتة بالخبرة والتجربة !

لا أملك الحديث عن زملائى الآخرين ، ولكنى أعرف نفسى . فأنا حقيقة كثير النسيان ، وعلى الخصوص فيما يتصل بأسماء الأشخاص . وهذه مسألة تحدث لى كثيراً من الخجل والارتباك عند ما أكون فى صحبة صديق ، ثم أقابل صديقاً آخر فى الطريق مثلا فأحييه ويحيينى ، ويستوقفنى يتحدث إلىّ ، ثم أحاول أن أقدم الشخصين أحدهما إلى الآخر ، وهنا تخوننى الذاكرة فأفتقد اسم صديقى ، وقد يكون عزيزاً لدى أعرفه من زمن طويل ، وليس مايدعو إلى نسيان اسمه ، فأقع فى الحيرة والخجل ، والجأ إلى الحيلة فلا أقدم أحدهما إلى الآخر ، وأضرب صفحاً عن هذه المجاملات الاجتماعية الضرورية .

وقد تسألنى : وما علة هذا النسيان ، وما سبب نسيان أسماء الأصدقاء بالذات ؟

الواقع أننى لم أعثر على جواب يقنعنى ، ولعل أحداً يتبرع بالجواب ...

أحمد فؤاد الأهوانى

فيضان النيل ...

بين التفاؤل والتشاؤم

للاستاذ عبد الفتاح البارودى

ذكرتنى القصيدة التى نشرتها « الرسالة » تحت عنوان : (وحى فيضان سنة ١٩٤٦) فى عددها رقم ٦٩٣ بالفزع البالغ الذى أصاب البلاد جميعاً إبان اشتداد الفيضان فى أغسطس الماضى ، وغنى عن البيان أن النكبة كانت جسيمة وأن الخسارة الناجمة عنها كانت ولا تزال فادحة ، ولكن هل كان ينبغى أن يصل الأمر إلى هذا الحد من التشاؤم الذى شاهدناه مرتسما وقتئذ على وجوه الناس والذى صورته كل الصحف بلا استثناء والذى أوحى إلى الشاعر أن يصف الفيضان (بالهول العظيم !!) ويصف مياه النيل بأنها (ترد البلاد كأنها أغوال !!) ؟

صحيح أنه كان لشدة اهتمام الحكومة وقلقها ومظاهر الرعب التى بدت على تصريحاتها أثر محسوس فى الإشعار بالخطورة ، ولكن أليس المفروض من جهة أخرى أن التزاماتها ومسؤولياتها قد تسوغ لها « تقدير البلاء قبل نزوله » لتهيء الشعب لاحتماله أو دفعه أو توقيه بالحيطة والحذر والعمل بهيئة جدية ؟ ومع هذا فالإجراءات التى اتخذتها — وقصاراها اعتماد مبلغ ٢١٠ آلاف جنيه وتشغيل بعض الأيدى العاملة — كان ينبغى أن ترشدنا إلى أن الحالة كانت مطمئنة أو على الأقل غير مروعة إذا قورنت بالسوابق فى الفيضانات التى انتابت البلاد الأخرى فى القديم والحديث، بل إذا قورنت بالسوابق الغير بعيدة فى فيضانات النيل ذاته « نسبياً » : ذكر ابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة) أنه كان يُرصد لعمارة جسور النيل واتقاء فيضانه ثلث الخراج سنوياً ، وحكى ابن لهيعة أن المرتبين للوقاية من الفيضان سنوياً مائة ألف وعشرون ألف رجل : سبعون ألفاً للصعيد ، وخمسون ألفاً للوجه البحرى . ورغم هذه الاحتياطات الشديدة فقد روى ابن زولاق أن أحمد بن المدبر لما ولى الخراج بمصر كشف أرضها فوجد غامرها أكثر من عامرها .

أى أن الحالة التى كانت استفحلت هذا العام لم تكن غريبة على الوادى ، ولم تكن تستلزم ولا تحتم التشاؤم الأسود الذى قابلناها به ، بل إنى أزعم بكل شجاعة — بعد فوات الأوان ! — أن التفاؤل المطلق كان أنسب لها وأحرى بنا ! ! لماذا ؟ أبادر فأقول إن الحجة حاضرة ولكنى أريد قبل أن أسوقها أن أسوق من بعض حوادث أسلافنا بهذا الصدد عبرة وقياساً ولو لمجرد الترفيه الفنى والتذكير التاريخى : جاء فى (نهاية الأرب) للنويرى أن النيل يبلغ تمامه إذا وفى ستة عشر ذراعاً ، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً بمقياس مصر . أى أنه بالبداهة إن زاد عن ١٧ ذراعاً مثلا كان مُغرقا وإن نقص عن ١٣ ذراعاً مثلا كان مقحطاً . فما الرأى فى أن الناس كانوا يتفاءلون بزيادته مهما أغرقت ويتشاءمون من أى نقصان مهما قصد واعتدل ؟ وما الرأى فى أن الحوادث كانت تؤيدهم دائماً تأييداً إن يكن غير منطقى إلا أنه واقعى ؟ فمثلا عند ما بلغت زيادة النيل أقصاها (١٩ ذراعا) فى سنتى ٣٣٢ هـ ، ٤١٠ هـ تصادف أن كانت حوادثهما سعيدة فى الغالب . ففى السنة الأولى تزوج ابن الخليفة المتقى بالله ببنت

ناصر الدولة بن حمدان التغلبي وتآلفت قلوب المسلمين ... وفيها أطلق الروم أسارى المسلمين ... وفى السنة الثانية فتحت بلاد الهند وغنم المسلمون بغنائمها ... الخ . هذا بينما عند ما بلغ انخفاض النيل (١٢ ذراعاً) فقط فى سنتى ٢١٥ هـ ، ٣٥٦ هـ تصادف أن كانت حوادثهما محزنة فى الغالب . ففى السنة الأولى غضب الناس على الوالى عبدويه بن جبلة وحزنوا كذلك لوفاة زبيدة بنت جعفر زوجة هرون الرشيد، وكانت أعظم نساء عصرها ديناً وأصلا وجمالا وصيانة ومعروفاً ... وفى السنة الثانية مات السلطان معز الدولة ابن بويه ، وقبض على الملك الناصر وولده أبو تغلب ومات الإمام العلامة أبو الفرج الأصبهانى مصنف كتاب الأغانى ... الخ .

مصادفات . ولكن أعجب ما فيها دلالاتها المطردة فى سنى الرخاء والجدب على السواء .

فإذا تركنا التكهنات إلى الحقائق . وجدنا بالاستقراء والاستقصاء أن وادى النيل لم ينكب نكبة واحدة بسبب الفيضان أيا كان طغيانه فى حين أن المجاعات الفظيعة فى مصر كالمجاعة التى حدثت فى آخر حكم الأسرة السادسة الفرعونية ، والمجاعة التى حدثت أيام يوسف الصديق ، والمجاعة التى حدثت فى العهد الفاطمى وعرفت باسم « الشدة المستنصرية » ، والمجاعة التى حدثت فى عصر المماليك زمن السلطان كتبغا ... إلى آخر المجاعات التى روعت الوادى واجتاحته فى مختلف العهود تدل دلالة قاطعة على أن سببها الوحيد المباشر هو انخفاض النيل على تفاوت . وأظن أنى لست فى حاجة إلى وصف حالة البلاد وسكانها أثناء هذه المجاعات فذلك مذكور مشهور فى كتب الأدب والتاريخ . ومن قبيل التمثيل أذكر بعضاً مما حدث أثناء « الشدة المستنصرية » فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، فقد وصل الأمر إلى حد أن أكلت النساء أولادهن الموتى ، وأكل الناس الحيوانات الميتة من كلاب وقطط وحمير وغيرها لدرجة أن تسبب عن التهافت عليها ارتفاع أثمانها وصعوبة الحصول عليها ، وزادت المحنة اشتداداً حتى كاد الناس من هول الجوع يأكل بعضهم بعضاً . رُوِىَ أن وزير المستنصر نزل عن بغلته أمام باب القصر وتركها تحت حراسة غلامه فهجم ثلاثة رجال على الغلام وأخذوا البغلة قسراً وذبحوها وأكلوا بعضها وباعوا الباقى فقبض عليهم وصلبوا عقاباً لهم فى أحد الميادين . فلما أصبح الناس لم يروا إلا بقايا عظامهم إذ كان الشعب الجائع قد أكل لحومهم أثناء الليل ! !

هذا مثل واحد من أمثلة المجاعات التى كانت تحدث بسبب انخفاض النيل ، ولذلك أجمعت الروايات المختلفة على أنه « كان يحصل لأهل مصر إذا وفى النيل — بغير تحديد — فرح عظيم بحيث أن السلطان يركب فى خواصّ دولته وأكابر الأمراء فى الحراريق إلى المقياس ويمد سماطاً يأكل منه الخواص والعوام ويخلع على القيّاس ويصله بأجزل الصلات » ونحو ذلك .

فلماذا لا نساير منطق الحوادث ، ومنطق الحقائق ، ومنطق التاريخ معاً ، ونتفاءل أعظم التفاؤل من الفيضان الذى دهمنا هذا العام — بشرط عدم التهاون أو التراخى فى تدبير وتوفير وسائل المكافحة الدائمة مستقبلا — فلعل خطورته أن تسفر كالعهد بها عن مصادفة سعيدة ، ولعلها أن تكون تحقيق « الجلاء ووحدة وادى النيل » .

عبد الفتاح البارودى

من يد ذات سوار

إلى حضرة الأستاذ على الطنطاوى

موضوعاتك ياسيدى صفقات رابحة فى عالم الأدب ، ونفحات عاطرة من أريج القلم . ومنْ أنا حتى أستطيع أن أقول ما يعنّ لى تلقاءها ؟ وا أسفاه ! لست ربة قلم ، ولا صاحبة بيان ، وليس لى من الحول والطول مايعيننى على نشر مايجول بفكرى وخاطرى .

بعثت بمقال مرة رداً على أحد الكتاب إلى إحدى المجلات ، فكان نصيبه الإهمال . وكم فرحت كثيراً لأنه لم يُنشر ، ذلك أنى بعد أن بعثت به تذكرت : (إن الله تعالى يحب معالى الأمور ويكره سفسافها) . فإما أن أكتب فى « الرسالة » بين كتاب الأدب الرفيع وإلا فلا .

ولو أن الله وهبنى من العقل كِفَاء ما وهبنى من الحسّ لكان لى فى ميدان الكتابة شأن . ولقد شاء الله أن أتذوّق فنون الكلام وحلاوة البيان ، و « للرسالة » فضل كبير فى هذا التذوق ، فقد عكفت على قراءتها بانتظام منذ أكثر من عام ، وعشت بنفسى وحسى مع كتابها العظام ، أحمل لهم من التقدير والاحترام ما لا ينضوى تحت صفة ولا معرفة ، وأنت يا سيدى الطنطاوى من هؤلاء ، فلو رأيتنى حين أقرأ مقالاتك ، لوجدتنى جوّالة بها جوالة فى عالمى الصغير باحثة عن زميلة تشاركنى السرور فى تلاوتها ، خصوصاً ، وأنك من قطر شقيق لى فيه صديقات تتجلى فى سجاياهن أرفع آيات المودة والإخلاص والنبل .

وإنى أخشى أن أثيرك بهذه العجالة فيصيبنى من يراعك ما لا أنساه ما عشت .

إن استهلالك فى موضوعك (مناظرة هادئة) بقولك : (نحن معشر الرجعيين لا نرى قتال المرأة ولا نزالها) هو الذى شجعنى على أن أقف أمام مقامك الكريم موقف التلميذ من معلمه — ويحى !! وهل لمثلى أن تطمع فى هذا الشرف ؟ .

لو كنتُ من قريباتك ... مالى أقول هذا والمسلم أخ للمسلمة وهى أخت له . وإذن لى — بهذه الأخوة — عليك دالّة خفيفة مشفوعة بالأدب والطواعية ، وعلى ذلك أتقدم إليك قائلة : إن موضوعاتك كلها تأخذ بمجامع قلبى ، ونفدى روحى ولبى ، وكلها من صميم الواقع الملموس ، غير أن بعضها موشى بقليل من المغالاة والحدة ، وإن الموضوع الذى عنونته (مناظرة هادئة) كان أمَنْ أن تسميه (مناظرة ثائرة) . ألستَ معى فى أن لفظ مناظرة فيه معنى النظير ، وهذا لا يتفق مع ما بدأت به مقالك . يعلم الله أنى تلوت هذه المناظرة بشغف ، ولم ألمس فى غضونها ذلك الهدوء الذى نعتّها به ، وإنما لمست فيها صرخة مجلجلة وتهداراً .

إنه لايزال يتواود على نفسى ، ويرن فى سمعى كل يوم حديث تلك القصة التى طلعتَ بها علينا فى صفحات « الرسالة » عن تلك الفتاة ّالتى صُوِّرت عارية ، فسجلتَ بذلك على هذا العربى الذى فعل هذا الفعل خزياً لم نسمع به من قبل . يا للعار والقسوة أيحدث مثل هذا فى بلد عربى ؟

إن القلم الذى تحمله رهيف يحز فى نفسى ، ويترك أثره فى حسّى ، فهلّا رأفتَ وخففت من إرهافه ؟ رأفت ! كيف أقولها وأنت الذى فى ثنايا فؤادك (رفقاً بالقوارير) .

إنى لتعجبنى تلك النزعة التى تنزع إليها فى مناهضة السفور واختلاط الجنسين ومشاركة المرأة الرجل فى أعماله ، ومن المعروف أن النهضة النسائية قام الرجل فيها بقسط كبير ، وكانت له اليد الطولى فى توجيه دفتها ، ومادام الرجل قواماً على المرأة فهو الذى يحمل وحده وزر هذه التبعة ، وهو الذى فتح عليها سدود النهر لجرفها التيار ، ثم بعد ذلك قطعت شوطاً بعيداً فى عالم الأزياء ، وقلدت الأجنبيات ، وحملت الشهادات من بكالوريات ودبلومات

إن هذه الحملة التى تقوم بها تكون أجدى لو أرسلتها صواعق متوالية فى غارات مدوّية على الذين بيدهم مقاليد الأمور والحكم ، فإن هؤلاء فى مقدورهم أن يحملوا الناس على السير بتعاليم الإسلام ، وفى مكنتهم إغلاق أبواب الفجور ، ومنع إصدار الصحف التى تخدش كرامة الفضيلة .

يا للاساءة التى تصبها على المتعلمات بقولك : (ويجمعهن مجلس بعد هذا كله بالعاميات الجاهلات ، فلا تجدهن أصح منهن فكراً ، ولا أبعد نظراً ، ولا ترى لهذا الحشد من المعلومات الذى جمع فى رءوسهن من أثر فى المحاكمة ولا فى النظر إلى الأشياء ،

فكأن هذه المعلومات التي تصب في اسطوانات الحاكي (الفونوغراف) إن أدرتها سمعت لهجة فصيحة وكلاماً بيّناً ، ونغماً حلواً فتقول إنها تنطق ، فإذا سألتها وكلمتها رأيتها جماداً أخرس ليس فيها إلا ما استودعته من الكلام الملحّن .

هذا يا أستاذ كلام لا تقبله فتاة ولو كانت نصف متعلمة مثلي . هـذا تجريح لإنسانيتها التي يكتنفها العقل والشعور . (جماداً أخرس ؟) يا لبشاعة الوصف والتشبيه ! (جماداً أخرس ؟) كيف ؟ وقد برأها البارئ إنساناً ضاحكا ناطقاً فيه حركة ولب وإحساس . هذا لا يُستغرب لأنك لا تؤمن بالإنسان .

إن لي صديقات ، وأعرف جمّا غفيراً من السيدات والفتيات كلهن متعلمـات وحاملات للشهادات : ولسْنَ كما تقول ، فإذا جمعك بهن مجلس وسمعت حوارهن ونقاشهن لا يسعك إلا أن تغيّر رأيك في بنات هذا الجيل ، وإذا كنت تصف المثقفة بالجماد الأخرس فبماذا تصف الجاهلة ؟

قل ما شئت من ناحية الدين في فتاة العصر ، فإني أشايعك على كل ماتقول ، ولو أن هنا في مصر نهضة نسائية دينية مباركة ، يملك زمامها جمعية الأخوات المسلمات ، بارك الله فيهن ، وحقق على أيديهن ما يرضاه الدين للمرأة المسلمة . أما من ناحية العلم والمنطق فالبَوْن شاسع والشقة بعيدة بين الجاهلة والمتعلمة .

لستُ بهذا أدافع عن نفسي ، وإنما الدفاع واجب عليّ لمن عرفت فيهن سـداد الرأي واستقلال الفـكر وبعد النظر ووزن الأمور بميزانها .

وقلت أيضاً : (ثم إن تزوجن لم يعتزن إلا بإهمال الولد الخ) .
وأقول أنا إزاء هذا : إني أعرف سيدات فضليات متعلمات ، لا جاهلات عاميات ، ينشّئن أطفالهن أحسن تنشئة ، ويحرصن على تربيتهم بأنفسهن ، ليكون منهم في المستقبل رجال نابهون ، وأجناد مجاهدون ، وقادة محنكون .

إن تلك التي تهمل طفلها وتتركه بأيدي الخدم خرقاء ولا تُعد في سواد النساء .

(إنه لا يعجب إحداهن إلا أن تلقى في زوجها حماراً) هكذا قلت . ولـكن أكلّ هؤلاء الرجال الذين تزوجوا متعلمات تعدهم في شرعتك حميراً ؟ (معاذ الله) من فيهم يرضى بهذا ؟

إن السيدة المتعلمة الراقية المستنيرة لا ترضى على الإطلاق أن تلقى في زوجها (حماراً) تركبه — كما تقول — إلى غايتها . إنها ترفض في شمم وإباء أن تفقد احترامها للرجل الذي يشاطرها الحياة ، ولا بد لها من الإحساس بأنه السيد المطاع القوّام الذي تخافه رغبة لا رهبة . وقياساً على هذا أنقول إن أزواج المتعلمات كلهم أشقياء؟ إن كان الإيجاب ، فيالعثار جدهم ، وسواد عيشهم!

إني استحييت مرة من قراءة بعض العبارات التي وصفت بها محاسن المرأة وصفاً سافراً ، ولولا حرصي على قراءة أفـكارك كلها لأبيت قراءتها .

وما يعجبني إلا كتابتك في الحب والغزل ، وحسن وصفك للغواني . قدرٌ قدير — بلا شك — في ألوان الـكتابة . أوَليس في هذا الـكفاية لما تحمله من احترام المرأة وإكرامها ؟

كثيراً ما تدفعني مقالاتك إلى الـكتابة . لعل فيها سراً يحبب إليّ الأخذ بناصية القلم ، ولـكني لا ألبث أن أدعه هيبة وإجلالا .

لا أدري كيف كتبت هذا المقال الجريء ، مع أني أعلم أني أمام جهبذ من جهابذة الأدب ، فاعذرني ياسيدي لأن الحق أنطقني.

لا يغضبنك هذا القول ، فما قصدت به إلا الترفيه عنك ، ليزول من صـدرك تبرّمك بالمرأة المتعلمة . وعسى أن تجد فيما كتبتْهُ صاحبة اليد ذات السوار — كما وصفتها — رَوْحاً وترويحاً ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(يد ذات سوار)

الأدب في سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣٢ —

البطل الضرير :

أدت نظرة ملتن إلى المرأة أنها دون الرجل منزلة وعقلا إلى إهمال منه معيب في تعليم بناته فكبرن وحظهن من الثقافة قليل ، وكن لا يعرفن إلا لغتهن إذ رفض أبوهن أن يعلمهن لغة غيرها . وكان يقول في ذلك ساخراً « حسب المرأة لسان واحد » ؛ وكان أبوهن في شغل عنهن أكثر الأوقات بكتيباته وخصوماته وأعباء منصبه فكان يترك أمورهن للخدم . والحق أن ملتن كان متخلفاً عن عصره في النظر إلى تعليم البنت ولذلك لم يشايع كومنَس حين كتب هو عن التعليم رسالته التي سلفت الإشارة إليها إذ كان كومنس يذهب مذهب أفلاطون في المساواة بين البنين والبنات ، وكان لا يعنى ملتن إلا بالبنين ، وعنده أن من العبث تعليم البنت كما تعلم الكائنات العاقلة على حد تعبيره .

وأملت عليه بيوريتانيته أن يحيط بناته بشيء من الخشونة فلم يمتعهن كما تتمتع البنات إلا قليلا ، فأحسن استبداده بهن وإن لم يشعرن منه بغلظة أو فظاظة ، وزاد إحساسهن شدة حرمانهن من أمهن ، فقر في نفوسهن شيء يشبه أن يكون جفاء منهن لأبيهن .

ولما عاد ملتن إلى الشعر وأراد أن يرجع إلى الكتب التي تتصل بموضوعه ، كان يقرأ له ويكتب رجل استأجره لذلك ، ولكنه كان لا يعرف غير الانجليزية حتى لقد شكا ملتن في كتاب إلى صديقه أنه كثيراً ما يتضجر ويضيق بهذا الكاتب الذي يضطره إلى أن يذكر له هجاء كل عبارة لا يتبينه يمليها عليه كلمة كلمة ، وكان يقرأ له أحياناً بعض الشباب ممن تنافسوا في الحظوة بهذا الشرف وممن طلبوا الفائدة من القراءة له ، كما كان يرسل بعض أصدقائه أبناءهم ليحظوا عنده بالقراءة أو الكتابة له وليقوموا بذلك ألسنتهم وليفيدوا عرفانا وبياناً .

ولكنه كان لا يضمن مجيء هؤلاء إليه كل حين ، وعلى ذلك فقد عول على تعليم بناته النطق باللغات المختلفة وهن لا يفهمن شيئاً مما تتحرك به ألسنتهن وبذل في ذلك جهداً كبيراً وهو على حاله من المرض والعمى ؛ وإنه لعجَبٌ أن يحرص هذا الحرص كله على المعرفة فلا يقعد عن وسيلة مهما بلغ من عسرها وإنها لحالة تملأ النفس أسى على ما مسه من ضر بقدر ما تملؤها إعجاباً بعزيمته التي لا تعرف كلالا ولا سأما . ولا ريب أنه كان يستشعر كثيراً من المرارة والحزن في تلك اللحظات التي لا يجد فيها من يقرأ له أو يكتب ما نظم من الشعر ، ولم يك له عزاء في هذا البلاء إلا استغراقه في قصيدته الكبرى وإقباله عليها بكل جوارحه وارتياح نفسه إلى أن يحقق أملا طالما طاف بخياله وأثلج فؤاده وأبهج نفسه .

وكان يدعو بناته ليقرأن له ما يطلب من الكتب اللاتينية والعبرية والأغريقية والفرنسية والطليانية والأسبانية ، فينطقن نطقاً آلياً بعبارات لا يفهمن منها بالضرورة شيئاً ؛ وكن يضقن بهذا ويتبرمن به ويتضجرن منه ، وحق لهن أن يكرهن هذا العمل كرهاً شديداً ، فإذا دعاهن أبوهن إليه أقبلن متثاقلات متكرهات ، ثم اعتذرت كبراهن بما في لسانها من حصر لا تحسن معه النطق فأعفاها أبوها من القراءة وجعلها للكتابة فوقع عبء القراءة على الوسطى فازدادت بذلك ضيقاً وضجراً .

وما زال يشتد ضجر ماري وهي الوسطى حتى أصبح تمرداً وعصياناً فصارت تهمل ما يطلب إليها أبوها متغافلة أو متناسية . وكانت تعرض عنه أحياناً ساخطة ناقمة ؛ وصبرت دِبُرا وهي الصغرى بعض الصبر ، ولكنها ما لبثت أن تكرهت لأبيها وخشنت عليه وما برحت تشكو لأختيها أنه يدعوها في أي ساعة من ساعات الليل فيوقظها وهي مستغرقة في نومها لتكتب بضعة أسطر نظمها .

وتفاقم الأمر فكره البنات أباهن حتى ما يطقنه ؛ قالت الوسطى مرة وقد سمعت أنه يزمع أن يتزوج « ليس فى الحديث عن زواجه ما يعد جديداً من الأنباء أما أن أسمع بموته ففى ذلك ما يؤبه له » .

وتآمر البنات مع إحدى الخدم على غشه فيما يشترى ويبيع مما يحتاج المنزل إليه ، وفعلن أقبح من ذلك فأعنّ الخدم على بيع كتبه بغير علمه فإذا علم بشىء من هـذا مسّ الحزن قلبه مساً شديداً ولـكنه يكظم غيظه ويكتم أمره عن الصحب والجيرة مخافة العار ، وكم كان وقع ذلك أليماً على نفس كبيرة مثل نفسه ، وكم كان يشعره ذلك بمـا آل إليه حاله من استكانة بعد عزة ، ويذكره بهذا الضر الذى أحاطه بالظلمة فجمل من بناته عدوات له .

ولـكن روحه قوية على الرغم من هذا كله ، وإقباله على قصيدته واستشرافه لآفاقها الفسيحة العليا يدفع عن نفسه القنوط إذ يرفعها من عالم صغير حقـير إلى ملـكوت لا يدرك جلاله وعظمته إلا عقل مثل عقله وروح مثل روحه . ولقد كان له فى الشعر أعظم العزاء ، وأطيبه وإن كان يعمـد أحياناً إلى قيثارته فتختلج أوتارها بين يديه بلحن يسرى به عن نفسه أو يهيء به جواً ملائماً لما تجيش به نفسه من شعر .

عود إلى الشعر :

انقطع ملتن عن الشعر منذ سنة ١٦٤١ كما سلف القول ، ولم يكد يعود إليه سنة ١٦٥٨ حتى انشغل عنه بما كتب فى عهد ريتشارد وقبيل عودة الملـكية . ثم أقبل عليه إقبالا غير منقطع منذ أن نجا بحياته فى أواخر سنة ١٦٦٠ ؛ ومن ذلك نرى أنه انصرف عن الشعر قرابة عشرين سنة وهى مدة طويلة لم يقضها فى تأمل وهدوء وتهيؤ على نحو ما كان يفعل فى هورتون ، وإنما كانت حياته فيها كما رأينا مليئة بالأحداث حافلة بالخصومات ، ولـكنه أفاد خبرة عظيمة وتم نضجه فأصبح كالشجرة المحملة بالثمرات تجود بأطيبها لأقل هزة...

ولم تخل هذه السنوات العشرون من الشعر خلواً تاماً فقد نظم الشاعر أثناءها بعض المقطوعات فى مناسبات مختلفـة ، وليست هذه المقطوعات من نفاية الشعر كما قد يخيل إلى المرء فإن لها لشأناً جليلا فى ذاتها ومنزلة سامية فى تاريخ هذا النوع الذى نسميه المقطوعات ، ولذلك نرى أنه يجدر بنا أن نتكلم عنها ونبين مبلغ ما لها من خطر فى الشعر الانجليزى قبل أن نتكلم عن الفردوس المفقود وما جاء بعدها .

جاء ملتن من هذه المقطوعات بما لم ينته فيه كثير من أفذاذ هذا الضرب من النظم منتهاه ، ولقد قلّ فيه أكفاؤه وذهب له فيه صيت عظيم جعله نداً لشكسبير فى هذا الباب على قلة ما نظم منه بالقياس إلى شكسبير إن لم يك يبرعه فى أكثر من ناحية من نواحيه . ولقد أصبح فيه مثالا لمن جاء بعده فاحتذى حذوه وأعجب به وردثورث وكيتس وغيرهما من شعراء القرن التاسع عشر .

ولا بد لنا من كلمة فى أصل هذه المقطوعات ونشأتها لا فى شعر ملتن وحده ولا فى الشعر الانجليزى وحده ولـكن فى الشعر الأوروبى بوجه عام ثم نعطف الـكلام بعد على مبلغ ما توافى لملتن فيها من براعة وتبريز .

لم يقطع نقدة الأدب الأوروبى برأى فى نشأة المقطوعات[١] وتسميتها بهذا الإسم الذى سموها به ؛ ويرى بعضهم أن الإيطاليين هم مبتدعوها ، وأن اسمها يرجع إلى لفظ إيطالى معناه اللحن الصغير أو الصوت الصغير[٢] وهو لحن كان يغنى على عود أو قيثارة . ويرى فريق آخر أن منبتها كان فى فرنسا فى مقاطعة بروفانس وأن اسمها نجم من تلك الـكلمة الفرنسية التى تطلق على الجرس الصغير[٣] أو جرس النغمات . ويذهب البعض إلى أن أصلها أغريقى وأن الأغريق اختاروا لها لحنها ووضعها الفنى بعد أن مرت على عدة أطوار من الخلق والابتكار . ولأحد النقدة وهو وليم شارب رأى غير هذه جميعاً فهو يردها إلى أغانى الرعاة فى صقلية وجنوبى إيطاليا ويرى أنها انتهت إلى وضعها المعروف بعد أطوار مختلفة ، ويرد اسمها إلى الإسم الذى كان يطلق فى هاتيك الجهات على أغنيات الفلاحين والرعاة[٤] على وجه العموم .

---

(١) Sonnets : وقد اخترنا لها لفظ المقطوعات في العربية ، وإن كان لا يؤدى المعنى الفنى لها ، ولـكنه على أى حال خير من تسميتها بالأغنيات

(٢) Sonetto   (٣) Sonnette   (٤) Stornello

وكان أول ما ظهرت تلك المقطوعات فى صورتها ولحنها الخاصين بها فى الأدب الإيطالى فى القرن الثالث عشر فى شعر شاعرين هما : بييردل فِنْى وجيوتودارزُّو ؛ وكذلك كان أول من طرق هذا الضرب من النظم من كبار الشعراء من الإيطاليين فقد تغنى دانتى فى أواخر القرن الثالث عشر بحبيبة قلبه بياتريس فاتخذ لغنائه عدداً من هاتيك الألحان ، وكذلك أفصح بترارك فى أوائل القرن الرابع عشر عما ينبض به قلبه من حب لمعشوقته لورا بعدد من تلك الأصوات الصغيرة التى سميناها المقطوعات .

أما عن الصورة أو الوضع الذى انتهت إليه المقطوعة فى الأدب الإيطالى فانها لم تك تزيد على أربعة عشر سطراً . ثمانية منها تكون من حيث النغم والموضوع فاتحة المقطوعة أوصدرها ، وتكون الستة الباقية خاتمتها أو « قفلتها » ، ولا بد فى الفاتحة أن تجرى قوافيها على وضع معين، فالقافية فى السطر الأول مشاكلة لها فى الرابع وبينهما الثانى والثالث متحدة قافيتهما ولكنها مغايرة لما بدأت به المقطوعة ، ثم يكرر هذا الوضع حتى تتم الأسطر الثمانية[١] بعد ذلك وتتغير القافية فى الأسطر الستة التى تكون الخاتمة على أساس أن تكون ثلاثتها الأولى مشاكلة لثلاثتها الثانية[٢] .

وأما عن موضوع المقطوعة فهى كما يفهم من حجمها يقصد بها التعبير عن معنى من المعانى تجيش به النفس فى مناسبة من المناسبات ، أو هى تسجيل لخاطر يخطر للقلب فى غير استطراد يخرج به عن أن يكون خاطراً هو ابن لحظته أو ابن مناسبته ؛ ويقول فى ذلك وليم شارب إن المقطوعة « هى خير وسيلة للتعبير عن خاطر شعرى منعزل عن غيره تعبيراً موجزاً محدوداً » ؛ وتقتضى طبيعتها أو يقتضى النجاح فيها أن يكون التعبير قوياً رائعاً يجمع إلى عمق الفكرة وجمالها بلاغة اللفظ وإشراقه ، كل أولئك فى إيجاز لا يخل بالمعنى المراد . وما أجمل ما وصف به روزتى المقطوعة وهو من الشعراء الذين أحبوها وبرعوا فيها فى القرن التاسع عشر ، قال « إن المقطوعة هى تمثال لحظة » وهذا التعبير القوى الجميل هو من قبيل ما يجب أن تبنى منه المقطوعات القوية أو التى تتسم بالنجاح ؛ ومن هذا ندرك أنها عمل فنى يتطلب قدراً كبيراً من البراعة الفنية والطاقة الشعرية ، وحسب الشاعر أنه يقيم تمثالا فى لحظة ولن يكون التمثال جديراً باسمه وبالغرض منه إلا إذا حملك على الإعجاب به والشعور تلقاءه بما تشعر به تلقاء كل عمل فنى من روعة الفن وجلاله .

والمقطوعة ضرب من الشعر الغنائى ، ولكنها تختلف عن القصيدة الغنائية الصغيرة بما ينبغى أن يلقيه الشاعر على غنائه من الوقار والاحتشام فلا يتبذل ولا يسف ولا يتلاعب بالألفاظ والأسجاع وألوان التورية وأشباهها مما يستساغ فى القصيدة العادية ولا يجوز هنا ، حيث ينبغى التأمل والتسامى كى يأتى التمثال معبراً عما يراد به التعبير عنه ، ومانقام التماثيل إلا للجليل من الأشخاص والأفكار .

وقد شبه أحد النقدة لحن المقطوعة بالموجة إذ يتدفق ويتجمع ماؤها فتمج به وترتفع ثم تهبط فتنساح ويرتد الماء ليعود ثانية إلى البحر ، والمقصود من هذا التشبيه أن المقطوعة وحدة غنائية ملتزمة الصورة واللحن فلا حرية فيها للشاعر أن يجرى ألحانه كيفما شاء وأن يتظرف ويتخلع وينطلق حسبما يتجه خياله ومزاجه وهواه .

وظهرت القطوعة أول ما ظهرت فى الانجليزية فى ثنايا كتاب نشره أحد رجال الأدب واسمه تُتِل سنة ١٥٥٧ تحت عنوان « خليط من الأغانى والمقطوعات » ولما كانت مقطوعات كثيرة منها غفلا من أسماء أصحابها فليس يدرى من الرائد فى هذا الضرب من النظم فى الانجليزية ، على أن الإنجليز لم يتبعوا ما وضعه الإيطاليون ، فقد تصرفوا فيه وأتوا بصورة جديدة للمقطوعة وإن بقى عدد أسطرها كما هو فى المقطوعة الإيطالية ، وجاءت الصورة الانجليزية أيسر بناء من الصورة الإيطالية كما يتبين من طريقة التقفية فيها[١] ، وليس يشترط فيها أن يكون هناك تغير بين صدرها وخاتمتها وإن كان الغالب أن يحدث هذا التغير كما هو واضح من المثال الذى أثبتناه فى ذيل الصفحة ؛

(١) تكون على هذا النحو إذا رمزنا للقافية بحروف (اب ب ا اب ب ا)

(٢) (ج د هـ ج د هـ)

(١) جعلوها على هذا النحو (ا ب ا ب ج د ج د هـ و هـ و ز ز) .

صحائف مطوية:

من أخلاق البحترى

للأستاذ محمد رجب البيومى

— ٢ —

ذكرتُ فى مقالى السابق[1] أن أبا عبادة البحترى كان ذا حظوة سعيدة لدى الخلفاء، فقد أغدقوا عليه من الهبات الجزيلة ما اشترى به ضياعاً واسعةً فى ضواحى بغداد، وأخرى فى منبج بالشام، ولكنه على رغم ثروته الطائلة كان يُضيِّق على نفسه فلا يلبس سوى الخز الرخيص ولا يأكل غير ما يقوم بحاجته الضرورية، وطبيعىٌ أن يعامل أهله بهذه الكزازة الشحيحة، قال الحكم بن يحيى: «كان للبحترى أخ وغلام معه فى داره فكان يقتلهما جوعاً، فإذا بلغ منهما الألم مبلغه أتياه يبكيان فيرمى إليهما بثمن أقواتهما مُضيِّقاً مُقتِّراً ويقول: كُلاً، أجاع الله أكبادكما وأطال إجهادكما[2]»، وكان يأخذ أضيافه بنوع من القسوة لا ينبغى أن يَصْدر من شاعر مرهف الإحساس رقيق الشعور، قال أبو مسلم محمد بن الأصفهانى الكاتب «دخلت على البحترى يوماً فحبسنى عنده ودعا بطعام له فامتنعتُ من أكله وعنده شيخ شامى لا أعرفه فدعاه فتقدم وأكل معه أكلا عنيفاً فغاظه ذلك، والتفت إلىَّ قائلا: أتعرف هذا الشيخ؟ فقلت: لا، فقال: هذا رجل من بنى الهجيم الذين يقول فيهم الشاعر:

وبنو الهجيم قبيلة ملعونة … حمر اللحى متشابهو الألوان

لو يسمعون بأكلة أو شربة … بعمان أصبح جمعهم بعمان

قال: فجعل الشيخ يشتمه ونحن نضحك[1]».

ولقد كان غرام الوليد بالمال خيراً وبركة على شعره، إذ فتح له أبواباً من القول ضاعفت إنتاجه، فقد كان لا يرى عند خليفة أو رئيس سيفاً أو فرساً أو خاتماً أو قلماً إلا وصفه وصفاً بارعاً ثم استهداه منه؛ فإذا تمَّ له ما أراد أخذه فباعه وأضاف ثمنه إلى خزينته، والواقع أن هذا استجداء غير مشرِّف، لأن الهدية لا تباع بحال من الأحوال!!

وقد نشأ البحترى فى عصرٍ تفاخر فيه المترفون باقتناء الجوارى والغلمان، باذلين فى ذلك أنفس ما يملكون من ذخر وعتاد، فكان الوليد لا يفتأ يستهدى مَن يروقه من المُرْد الحسان فى أسلوب جميل يجعل سامعه يمنح الهديّة فى سرعة واغتباط، وهل نجد أرق من قوله فى استهداء غلام يدعى ميخائيل:

فإن تهد ميخائيل تبعث بتحفة … تقفَّى لها العتبى ويغتفر الوزرُ

غرير تراءاه العيون كأنما … أضاء لها فى عُقب داجيةٍ فجرُ

ولو يجتلى فى بضع عشرة ليلة … من الشهر ماشك امرؤ أنه البدر

إذا انصرفتْ يوماً بعطفيه لفتةٌ … أو اعترضتْ من لحظه نظر شزْر

رأيت هوى قلب بطيئاً نزوعه … وحاجة نفس ليس عن مثلها صبر

تجاوز لنا فيه فإنك واجد … به ثمناً يُغليه فى مدحك الشعر

والطف منه فى الفؤاد محلّة … ثناء تبقِّيه القصائد أو شكر

وإذا كان البحترى قد هام بميخائيل لأنه وضىء الوجه حسن الصورة، فليت شعرى بِمَ نعلل هيامه بنسيم؟ وقد كان رومياً دميم الصورة كريه الرائحة! ألِأنَّهُ وجد هذه الصفات تجعل صاحبه يفرِّط فيه بسهولة، فكان يستهديه ويبيعه، ثم يستهديه ويبيعه، فهو إذن شرك «مُحكم» يصيد به النقود،

(١) المنشور بالعدد (٦٩٠).

(٢) الأغانى

(١) مقدمة الديوان.

وكانت تنتهى بسطرين فى قافية واحدة يكونان نغمتها الأخيرة.

وذاع هذا الوضع الجديد، وسميت مقطوعاته المقطوعات الانجليزية أو المقطوعات الشكسبيرية، فقد نسبت إلى شكسبير ولو لم يك مبتكرها لأنه خير من أجاد فى بناء هذه المقطوعات ولأنه من أكثر الشعراء إنتاجاً فيه؛ ولقد كثر نظم المقطوعات كثرة ملحوظة فى العصر الاليزابيثى وبرع فيه غير سبنسر وشكسبير نحو اثنى عشر شاعراً، هذا فضلا عن عدد كبير لم يكن لهم مثل ما لهؤلاء من الإجادة وحسن السبك.

(يتبع) **الخفيف**

ومُلهِمٌ بقدح شاعريته ، فيصفه بما ابس فيه ، ويبالغ فى التشوق إلى لقائه مبالغة تستهوى الأفئدة كأن يقول :

دعا عبرتى تجرى على الجور والقصد
أظن نسيما قارف الهجر من بعدى

خلا ناظرى من طيفه بعد شخصه
فياعجباً للدهر فقـداً على فقد

خليلىَّ هل من نظرة توصلانها
إلى وجنات ينتسبْن إلى الورد

وقدٍّ يكاد القلب ينقـــدّ دونه
إذا اهتزّ فى قربٍ من العين أو بُعد

فلو تمكن الشكوى لخبَّرك البكا
حقيقة ما عندى وإن جلَّ ما عندى

غُصبتك ممزوجاً بنفسى ولا أرى
لهم زاجراً يُنهى ولا حاكما يعدى

أبا الفضل فى تسع وتسعين نعجة
غنىً لك عن ظبى بساحتنا فرد

ومهما يكن من شىء فلقد مات نسيم فى ميعة صباه ، وارتاح الناس منه ومن عاشقه المشوق !

على أن البحترى كان يغيّر فى سبيل المال مذهبه واعتقاده فهو لا يثبت على قول واحـد ، فإذا مدح معتزليًّا كان معه ، أو سُنّيًّا جاراه فى رأيه ، قال إبراهيم بن عبد الله الـكبجى : قلت للبحترى ويحك ! إنك فى قصيدتك « أأفاق صب من هوى فأفيقا » تقول :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم
ويحرّفون كلامه المخلوقا

فهل صرت معتزليا قدريًّا ؟ فقال : كان هذا دينى فى أيام الواثق ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل ! فقلت له : هذا دين سوء يدور مع الدول [1] » .

وإذن فالوليد لا يهتم بغير المال مهما غيّر رأيه واستجدى أصحابه ، وعنّف أضيافه ، وقتّر على نفسه وأهله كما تقدم فى صدر هذا المقال ، وذلك كثير ! !

* * *

بقى أن نتحدّث عن علاقة الوليد بزملائه الشعراء ، وهى فى جملتها غير مرضية ، فقد نشأ فى عهد نبغ فيه المُغْلَمون من أبطال الشعر وقادته ؛ فـكانوا يتراكضون فى ميدان فسيح ، فَمَنْ حاز قصب السبق كانت له الشهرة المستفيضة ، والصيت الذائع ، وهذا تنافس شاق ترك فى نفس الوليد أثره الواضح ، فأبو تمام مثلا كان لا يستحق منه غير المدح الجزيل ، فقد أخذ بيديه فى بادئ أمره ، وقرّظه للعامة والخاصة ، وواصل تعريفه بالناس ولولاه ما أكل الخبز — كما يعترف بذلك البحترى — ولـكنه لم يرع له هذا الجميل ، فهاجمه بعد موته ، وقال لولده أبى الغوث « إنه ما مات حتى أسقى من الشعر ، وقد سألتُ ابن الأعرابى عنه فقال : إن كان شعره شعراً فجميع ما قالته العرب باطل » بعد أن كان يقول فى حياته « إن نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه »

ونود هنا أن نلفت الأنظار إلى قصة روتها كتب الأدب عن مبدأ تعرفه بأبى تمام ، وخلاصتها أن البحترى قد مدح أبا سعيد محمد بن يوسف بقصيدة :

أأفاق صب من هوى فأفيقا ؟
أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

وكان أبو تمام حاضراً فنسبها إلى نفسه ، وصدّق جميع من فى المجلس ، فجعل البحترى يقسم بالله أنها له ، إلى أن استحيا أبو تمام ، فقال : الشعر لك يا بنى ولـكنى ظننت أنك تهاونت موضعى فأقدمتَ على الإنشاد بحضرتى تريد بذلك مضاهاتى ، ... ونحن نقول إنها قصة مكذوبة نجل أبا تمام أن يصدر عنه ما ذُكر بها ، سواء رواها البحترى أم سواه ، لأن حبيباً كان ذا مذهب مشهور فى القول حتى إنك لتعرف قصيدته من أول بيت تسمعه ؛ فلو أنه ادّعى ذلك ما صدّقه أحد فى دعواه ، لخلوّها عن بيت واحد تشمّ منه رائحته ، ولا سيما وجميع من فى المجلس يعرفون جيداً من هو أبو تمام ! وإلى أى حد ينزع .

أما ابن الرومى فقد جرّ على البحترى من البلاء ما أقلق باله وأزعج خاطره ، ذلك لأنه كان مولعاً بهجاء من يعرف ومَن لا يعرف مِن الناس ، فخاف الوليد على نفسه منه ، وطلب من سعيد بن الحسن الناجم أن يجمع بينهما فى مجلس ، وما إن تم ذلك حتى نشأت بينهما صداقة وليـدة ، ولـكن البحترى عاد فهجّن شعر صاحبه على ملأ من الناس ، وما إن شاع فى ذلك

(١) الموشح .

حتى انفجر ابن الرومى كالبركان الهائج بقذف الحمم على رأس الوليد . فهجاه مرات عديدة ، ولم ينس أن يتعرض إلى شعره فيُبيِّن رأيه فيه بوضوح حين يقول :

قُبحاً لأشياء يأتى البحترى بها   من شعره الغث بعد الكد والتعب
عبد يغير على الموتى فيسلبهم   حر الكلام بجيش غير ذى لجب
وقد يجئ بخلط فالنحاس له   وللأوائل ما فيه من الذهب
يعيب شعرى وما زالت بصيرته   عمياء عن كل نور ساطع اللهب
الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره   للبحترى بلا عقل ولا أدبِ !

إلى آخر ما قال .

هـذا وقد هاجم على بن الجهم بدون ذنب جناه . فقد ورد على المتوكل على الله من البادية فأعجب الخليفة بخشونته وبسط له جناح عطفه ، وما زال به حتى دمث طبعه ، ورقتْ معانيه فأتى فى شعره بالمرقص المطرب ، ولكنّ الوليد لم يطق ذلك من المتوكل ، فانبرى يهجو ابن الجهم هجاء مُرًّا ، وكان علىّ قصير الباع فى السِّباب فلم يستطع الصُّمودَ أمام غريمه ، فتزيد عليه البحترى مُوجِّهاً جُلَّ هجوه إلى ما تحت ثيابه ! وكان الأولى بالوليد أن يترفع عن هذه الناحية المقيتة ، ولكن هذا ما كان ! على أن للبحترى فيه هجاء قد خلا من الفحش الصارخ . فكان جيِّد المعنى ، رائع السَّبك ، يدل على تفكير قوى وشاعرية ثرّة ، كأن يقول :

يا قذىً فى العيون يا غُلَّة بـ   ـين التراقى ياحرارة فى الفؤاد[1]
يا طلوع العذول غب صفاء   يا غريماً أتى عـلى ميعاد
يا ركوداً فى يوم غيم وصَيْف   ياوجوه التجار يوم الكساد
خلّ عنّا فإنما أنت فينا   واو عمرو أو كالحديث المُعاد
امض فى غير صحبة الله ما عشـ   ـت مُلقى فى كل فجّ وواد
يتخطى بك المهامه والبيد   دليلٌ أعمـى كثير الرقاد
خلفك الباتر المصمّم بالسيـ   ـف ورجلاك فوق شوك القَتاد

كما أن من الغريب أن الدور الذى مثّله البحترى مع أبى تمام قد مثّله مع دعبل الخزاعى ، فكان فى حياته يرفع شعره إلى درجة عالية ، وما سمع بموته حتى بدّل رأيه فيه ، فقال لمن سأله عنه « إنه يدخل يده فى الجراب ولا يقول[1] شيئاً » ولعله كان يخاف من لسانه السليط !

ومهما يكن من شىء فإن حبيباً ودعبلاً أقربُ إلى نفس البحترى من ابن الرومى وابن الجهم ، وهذا يرجع إلى تقدمهما فى السنّ من جهة ، وعطفهما عليه من جهة أخرى ، فليت الوليد قد حبس لسانه عنهما حتى نذكره مع الذين يحفظون الجميل !

***

وبعد فأخشى أن أكون قد أغضبت عُشّاق البحترى بهذا الإلمام السريع . فأنا أعترف كما يعترفون ببراعته الفائقة ، وخياله الرائع ، وديباجته المشرقة ، ولكنى أعترف أيضاً بسلاطة لسانه ، وقلة وفائه ، وشح نفسه .

« ومن ذا الذى يُعطى الكمال فيكمل ! » .

(الكفر الجديد)   **محمد رجب البيومى**

(١) كذا فى الديوان ولعلها (ياجمرة فى الفؤاد) كيلا ينكسر البيت.

(١) الموشح أيضاً .

رباعيـــات عثمان . . . !

للأســـتاذ عثمان حلمى

كم جبانٍ من الخيال يراعُ   هو فى نفسه الجرىء الشجاعُ
فإذا جـــدَّ أى أمرٍ تبينْـ   ـتَ جزوعاً خانت قواهُ الطباع
كيف أضحى وجه العبوس كوجه الـ
ـطفلِ هشاً والقلبُ وهو شعاع
هكذا تأخـذ المظاهرُ بالألـ   ـباب أخذاً ويستقيم الخداع

هكذا ما استقام فى الأرض ظلٌّ   أو تعزّى فى ظلها المستظلٌّ
ما بنوها أقل ميناً ولا الأر   ض على المين من بنيها أقلٌّ
معدنٌ واحدٌ فلا ترج ما ير
وى الصدى من كذابهم أو يُعل
وتبسَّمْ ولا تملَّ فإن الـ   ـعاقل المستنير من لا يمـل

أيما أبصرتْه مقـــلة رائى   باطل فى بصـــائر الفهماء
فأرح فى الحياة نفسك ما اسطعـ   ـتَ بمـا تستطيعُ من إغضاء
ما على الأرض لو تأملت خيرٌ   لك من لقمة وجرعة ماء
وسوى ذاك باطلٌ أى بطلٍ   وعناء ما بعده من عناء

أى حق ما لابسته الظنون   ليت شعرى فأين أين اليقينُ
الذى كان ليس يدريه حىٌّ   ومحـال إدراكُ ما سيكون
حُلُمٌ هـذه الحياة على الأر   ض وسرٌّ لا ينجلى مكنون
ذلك السرُّ ليس يجـــلوه للأحـ
ـياء — لولا الضلال — إلا المنون

كل نفس لها لدى الفـكر حق   فالذى خلته هو الحق — حق
والذى خاله سواك هو الحـــق ، فمن منكما لعمرى أحق
شدَّ ما فى رأييـكما من خلاف   هو غربٌ وأنت فى الرأى شرق
ليس من يعرف الحقيقة فى الخلـــق برأىٍ ما فى ثناياه خرق

فعلام الجدالُ والأضغانْ   وإلام الحقـود والطغيانُ
نحن مهما تباين الرأى فينا   واختلفنا فأصلنا الإنسانْ
ما جرى فى عروقنا من دماء   أو حوتْ فى صميمها الأبدان
واحدٌ ذلك التراب إذا ما   حللته الأحداث والأزمان

كل حىٍّ فى الأرض أسعد حالا   من بنى آدم وأسمى مثـالا
فالحمار الذى حسبناه أشقى الخلـ   ـق منّى ومنك ، أنعم بالا
فهو أنَّى اغتدى على الأرض لم يجـــن على نفســه بخطء وبالا
ومع العقل يا ابن آدم تزدا   د لعمرى حماقة وضــــلالا

نهض العلمُ بابن آدم نهضاً   فسمى يبتغى سوى الأرض أرضا
ترك الأرض بعد أن دوّخ الأر   ض وجاب السماء طولا وعرضا
وارتقى فيه كل شىء ولـكن   بقيت نفسه كما هى فوضى
وتقضى بعقـله كل نقص   غير نقص بنفسه ما تقضى

هذه النفس يا أخى كيف تصفو
إن حواها جوٌّ من الشر صرف
هى إبليس لو فطنت وفيها   مَلَك حائر على الخير يهفو
وهى وحش من الوحوش ونسر   بجناح علـــى المخم يرف
لم يهذِّبْ مر القرون طوايا   ها فظلت من ضعفها تُستخف

ملك النسل أمرها والجوع   فهى طفل على الدهور رضيعُ
أيما أيقظا هواها فمـــا ينـــفع فيها التثريب والتقريع
هكذا قام فى غريزته الأصـــل وقامت على الأصول الفروع
ما استطاع الإنسان حدَّ هواها   لا ولا حدَّ شرّها مستطيع

عجز العـلم والنهى والدين   والردى دون نقصها والسنون
فتأمـل أيان كنت وأنّى   شئت فالضعف جاثم والشجون
وفنون من الخصاصة والتعـــس وجمٌّ من الشقاء فنون
ودمٌ فى براءة مُهـــراق   وغريم من كلّ شرٍّ مصون

يا لهـا من حقيقة تتوارى   خجلا والنفوس منها حيارى
فإذا ما تحجبتْ أسدل المير   ن على وجهها البغيض ستارا

وإذا ما تكشَّفتْ لم يرَ البصر فيها يراه إلا صغارا
كم يرى النفس كيف لطخها الطين ن وخفّتْ حماقة وسَعارا

كلنا لائمٌ فأين الملوم أين منا الأريب أين الحكيمُ
فالتمس للنفوس ما اسطعت من عذ ر فما فى نفوسنا المعصوم
وتقبّل ما ساء منها وما سر ر بقلب ما أثقلته الهموم
هكذا كانت النفوس فلا يُحزنك منها صحيحها والسقيم

لو ترانى والشر يطغى أمامى ودموعى يطغى عليها ابتسامى
لو ترانى عجبتَ لى كيف أمضيتُ حياتى فى راحة وسلام
فتأمل مع ابتسامك فى عصرى وكيف انقضت به أيامى
لو تأملتها كفتكَ كثيراً من تجاريب سادرٍ مغتشام

كلما زاد بالحياة اهتمامى واشتغالى زادت بها آلامى
وتبيّنت كلما مرَّ يومٌ إثرَ يوم حقيقة الأيام
فالتجاريب علمتنى أن تذ عن نفسى فيها لغير مرامى
والقيود التى فُرضنَ على الأحياء فيها قوبلن باستسلامى

والسلام الذى أراه أمامى كم تبينت فيه عكس السلام
غير أنى على مرارة سخرى لم أبح فى انتقاده بملام
هذه حكمة الحكيم جناها عقله من تتابع الأعوام
من يُرد هذه الحياة جحيما جاء من نفسه لها بضرام

أصبحت تشبه الحمامة نفسى
فهى تضحى على الهدوء وتمسى
حسبها السعى للقليل من الرز ق وحسبى الرضى به والتأسى
ثم حسبى أن لم أرق ماء وجهى لابن أنثى من ذى ثراء وبأس
وأرى فى الرضى أماناً من الهم وبرءاً من كل غمٍّ وبأس

ولقد رُضتُ فى العواطف قلبى وتقلبتُ بين بغض وحب
ثم أصبحت لا أودّ ولا أقلى ولا يستقيم للعطف لُبى
كل همى أن أبصر الخلق عن بُعدٍ على مسرح الخليقة قربى

ساخراً من مشاهدٍ تتوارى بين جهل من الأمور وصعب

ليس للحبّ والقلى أسبابُ أدركتها النفوس والألبابُ
حيَّر العلم كل عقل ودون العلم عن حيرة القلوب حجاب
ربَّ قلب أحبَّ نفساً أساءته ومن أحسنت يبغض نتاب
ذاك أمرٌ مثل المنية خافٍ جهل الشيب سرَّه والشباب

كل ما فى حياتنا أوهام إن خبرت الحياة أو أحلام
فاسأل الغيبَ عن حقيقة دنيا نا تجبك النجوم والأجرامُ
وسل الكائنات عن منشأ العقل ومأوى النهى يجبك الرغام
واعتصم يا أخى بعجزك إن العجز فيه إذا ضللت اعتصام

كم سؤال لا ينتهى وجواب لم يكن فى هداك فصل الخطاب
فتبرَّمتَ بالحياة ولم يرْ ددك عقل إلى سواء الصواب
ما الذى يستطيع عقلك أن يفهم مما اختفى وراء الحجاب
ولعمرى ما الأرض فى الكون إلا ذرة فى خضمّه الصخاب

عماره حلمى



طه الراوي

بعد أن كتبتُ الكلمة التي حملت إلى قراء « الرسالة » الخبر المصمّ ، والنبي الكارث ، نعي فقيد الأدب العظيم الأستاذ طه الراوي جاءتني هذه « الرسالة » من الأستاذ حسن حبشي مدرس التاريخ بمدرسة المعلمين العالية ببغداد ، وكنت حمّلته بطاقة إلى الأستاذ الكبير رحمه الله ، فقابله قبل وفاته بيوم واحد .

وهي أسطر قيمتها في أنها تتحدث عن الأستاذ في آخر حياته ، وتحمل إلى أصدقائه من أواخر نفحاته .

قال الأستاذ حبشي :

« ما كدت أبلغ عاصمة الرشيد حتى توجهت يوم السبت إلى الأستاذ طه بك الراوي وكنت قد بعثت ببطاقتكم إليه مع الأستاذ جميل سعيد ، وقد رحّب بي الرجل أجمل ترحيب ، وسألني أن أحدّثه عنكم ، إذ هو مشتاق إلى الوقوف على أخباركم ، وقال إنه يعتب عليكم في أنكم لا تجيئون العراق ، مع أنه قد ألحّ عليكم من قبل ، وكان حاضراً المجلس الدكتور مصطفى جواد . وأنبأني أنه سيكتب إليكم .

ولكن العجيب يا أستاذي أن هذا الأديب الكريم كان ممتلئاً صحة ، وكانت دلائل العافية بادية عليه ، لا تلمح به أثراً من جهد أو تعب ، ولكن ما انقضى اليوم الثاني حتى وافانا نعيه فكان الرزء فيه عظيما . وأي خطب للأدب والدين في العراق أجل من أن يختطف الموت طه الراوي وقد كان ملء السمع والبصر ، وكانت جنازته جنازة دلّت على مكانته ، فقد شيعه كبار القوم ببغداد ، وعارفو فضله وأدبه ، على الرغم من أن المدة بين نعيه وبين تشييعه إلى لحده لم تتجاوز خمس ساعات .

فإن يكن قد كتب إليك فذلك آخر ما كتب ، كما أن رسالتك التي حملتني إياها كانت آخر ما تسلّم ، ولا أستطيع يا أستاذي أن أصوّر لك مبلغ حبّه لك مما بدا في حديثه معي ومع سائر زواره في ذلك اليوم ، وإنني لأرجو أن يفسح الله له في جناته بقدر خدمته للأدب والعروبة والدين » .

من صميم الحياة :

القاضي الفاضل الأستاذ علي الطنطاوي من بقايا السلف الصالح ، يرسل علينا من آن لآخر آيات فيها العظة والاعتبار بأسلوب رشيق وقصص ممتع ، وفيها أيضاً أثارة من قلم أستاذنا الرافعي طيب الله ثراه .

ساق إلينا في « الرسالة » رواية عن شاب مستقيم الخلق والدين عهد إليه بالتعليم في مدرسة ثانوية للبنات ، ثم انتهى به فساد بعض التلميذات إلى الاستقالة من المدرسة ؛ ولي على الكاتب الفاضل ملاحظات :

١ — تغلب عليه روح التشاؤم فيما يكتب ، ونحن في عصر نهوض أو في عصر انقلاب اجتماعي قد نسيء وقد نحسن ، فنحن في حاجة إلى من يروضنا ويبعث فينا روح التفاؤل بأسلوب يهز النفوس هزاً لتنشط إلى السير قدماً في طريق الفلاح والنجاح ، ويحملها على الاعتراف بالخطأ فتصفو من عيوب المجتمع وتسلك سواء السبيل .

٢ — لقد قدّم لنا بطله في مدارس البنات شاباً ضيق الأفق ضعيف الحيلة أشد حياء من العذراء ، ثم صوّر تلميذته في صورة داعر تعشق معلمها من غير مقدمات ... وليتها فعلت كما قال شوقي :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وما هكذا طبائع الأشياء ، وما كذلك مدارس البنات !

٣ — كثيراً ما تتغلب الفكرة والخيال على الأستاذ الكاتب فيفوته الواقع في قصصه : (فهي فتاة من أنبل الأسر تسرع وراء معلمها فيعف عنها ثم تكتب له :

وإذا رأيتك لا تكلمني ضاقت على الأرض والأفق)

وما كان لها أن تخجل وتعرض عن معلمها بعد أن صدّ عنها وأعرض ، حتى هجمت عليه في منزله كالوحش الضاري لتهتك عرضه

لا — يا أستاذ — لقد شط معلمك شططاً بعيداً . ولعلي أصدقك — وقد كنت في ماضي حياتي معلماً بمدارس البنات — فهذه المخاوف التي استولت على ذهنك كنا نتصورها ، أو قريباً منها ، حتى إذا وجدنا أنفسنا في هذا الوسط أحسسنا أن هؤلاء البنات بناتنا والمعلمات أخواتنا ، وزال هذا الخوف الأسود من مشاعرنا ، وصارت الحياة عادية ، وهذا شأن سائر المعلمين في مدارس البنات

فرفقاً بالناس وحنانيك ، وإنصافاً — يا حضرة القاضى — فالأمر إن شاء الله على ما تحب بفضل القدوة الصالحة والتهذيب الصحيح أولا فلتغلق مدارس البنات والسلام

حسنين حسن مخلوف
مفتش بوزارة المعارف

تحية قدوم :

[من الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين إلى الأستاذ أحمد أمين بك بمناسبة قدومه من أوربا] :

سعدت بمقدمك العبـاد يا خصب أذهان البلاد
الشرق محتفل القلـو ب بكم وإن حال البعاد
بشرى تناقلها البـلا د تناقل النغـم المعاد
يسرى شـذاها حاملا أمـلا إليها فى ازدياد

أحمد الزين

مناظرة هادئة

اطلعت بالعدد ٦٩٤ من مجلة « الرسالة » الغراء على المقال القيم بقلم الأستاذ الكبير على الطنطاوى . وإنى وإن كنت من (الرجعيين) أمثال الأستاذ الكبير ، إلا أنى أريد أن أنصف النساء والرجال أيضاً فأقول : إن النساء لم يجرمن ولم يذنبن ، (وطالب القوت ما تعدى) ، فموضوع النساء كموضوع الرجال تماماً ، ينحصر فى غريزتين اثنتين : وهما المحافظة على الذات والمحافظة على النوع ، وبعبارة أصرح الحاجة إلى الطعام واللباس والغريزة الجنسية ، وكان الزواج يكفى المرأة هاتين الحاجتين ؛ إلا أن الشبان فى هذه الأيام — تبعاً للتصور الفكرى والمادى — أرادوا أن تكون زوجاتهم على علم يتفق وثقافتهم ، كما رأوا أن الزواج عبء ثقيل لما يتبعه من تربية أبناء وتعليمهم وعلاجهم فأرادوا أن تكون لزوجاتهم ثروة تعينهم .

واضطرت البنت إلى أن تتعلم ، أو اضطر أهلها إلى تعليمها ، واستتبع التعليم حتما السفور ، ثم اضطرت الفتاة إلى أن تعمل لتكوّن لنفسها ثروة يطلبها الرجال !

وكان لا بد من أن تتطور أفكار الفتاة تبعاً لثقافتها وقدرتها على الكسب ، فرأت لنفسها الحق فى شىء من الحرية والاستقلال وهو أمر — إذا لم يتعد حدوده — لا يتنافى مع الدين ولا مع الشرف ولا مع حقوق الزوجية !

وفى فترة انتظار الزوجة المتعلمة الغنية اتصل الشاب ببعض المتهتكات -- اللاتى كانت المشكلة الاقتصادية أيضاً هى السبب الرئيسى فى سقوطهن — فاستمرأ المرعى ووجد الأمر أسهل من الزواج

وظنت الفتاة المتعلمة أن الشبان يفضلون الظاهر الخلابة ، فأرادت أن تتقرب إليهم ببعضها فنفروا من زواجها ! فماذا تصنع ؟!

كما رأت أخوات لها تزوجن رجالا ابتزوا أموالهن وجروا وراء شهواتهم وملاذهم ، بل طلقوهن وهربوا من النفقة ! فأصبحت هى أيضاً تخشى الزواج !

ومن هذا ترون أن المشكلة أشد تعقيداً من أن ينفع فيها لوم المرأة ، والمرأة وحدها . إنها مشكلة الجوع والحرمان — المادى والمعنوى — مشكلة العصر الحاضر كله ، والذين وضعوا أسسه ونظمه هم الرجال لا النساء . . فما ذنب المرأة ؟ !

الشاب يحب أن يتزوج فتاة مثقفة محتشمة ، والفتاة تريد أن تتزوج رجلا يرعاها ولا يظلمها ، ولكنهم جميعاً يخشون المستقبل ، ولا ضمان لهم ، فلا التعليم مباح لأبناء الفقراء ، ولا العلاج ميسر للمرضى ، ولا العمل مكفول للعاطلين والعاطلات !

فليس التعلم إذن ولا السفور مسئولين عن هذه التبعة الثقيلة ، ولو كانت الفتاة جاهلة ومحجبة وحُرمت الزواج ، لما كانت الحال أحسن ، بل تكون أسوأ ، لأن الجاهلة لا تجد ما يشغلها ، وكل ممنوع محبوب ومطلوب !

صحيح أنه يوجد فى التعليم والاختلاط أخطاء وضحايا ، ولكن العلاج ممكن ببعض التنظيم والتهذيب ، فالفضيلة أسهل من الرذيلة التى لا يلجأ إليها الإنسان إلا مضطراً لسوء الظروف أو سوء التربية

إن الزمن يتطور ، والنظريات تتغير ، وإن التيار جارف شديد لا يمكن اعتراضه ، ولكن يمكن توجيهه إلى الخير ، إذا صلحت النيات وقويت العزائم

والمشكلة الرئيسية مشكلة اقتصادية — كما أوضحنا — فإذا أراد أولياء أمورنا حلها ، فعليهم أن يوفروا للرجال والنساء حاجتهم من العيش والزواج بكرامة واطمئنان ، ليوفروا التعليم للفقراء ، والعلاج للمرضى ، والعمل للعاطلين ، ليكفوا الناس شرور الفقر والجهل والمرض !

وبغير هذا (فصاحب الحاجة أرعن) ، ولا فائدة من اللوم ولا من الكلام !

فؤاد السيد خليل



دعوة فى وقتها :

الرسالة الخالدة . . .

بقلم الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا

الأمين العام لجامعة الدول العربية

عرض وتعليق

للأستاذ عبد المنعم خلاف

— ١ —

دين وسياسة

هذا الكتاب إن شئت قلت هو كتاب دين كتب بقلم سياسى مفكر عارف بآفاق الحياة البشرية ، له بأكثر الأمم والأديان والعلوم والمعارف والحوادث العالمية والقومية خبرة نادرة ، فلست تجد فى كتابه الذى نحن بصدده تلك العقلية النمطية المقيدة التى تواجه القارئ فى أكثر مايعالج المسألة الدينية من كتب .

وإن شئت قلت هو كتاب سياسة كتب بقلم رجل هو فى أعماق نفسه وظاهر حياته رجل عقيدة وفضيلة وسمو ، يرى الحياة السياسية لن تكون على شىء غير الخداع والكذب وحب الغلب واللعب بالشعوب والأفراد إن لم تؤسس على العقائد السامية التى يستمدها العقل والقلب من التعلق بتلك الحقيقة الأولى العليا وهى الإيمان بالله عز وجل واستمداد الضمير مما يفيضه سبحانه على الكون من قيم الحق والخير والعدل والرحمة والجمال والنظام وغير أولئك من عزائم الإحسان التى توحى بأن تكون وجهة الناس خدمة الحياة البشرية جميعها بدون نظر إلى ما بين الناس من فروق الجنس واللغة والدين والطبقات ، والسعى المخلص للتوفيق بين الأمم ودفعها لخدمة الحضارة والعلم ومقاومة عوامل التفريق والتنازع فى مجالات الكسب المادى .

صوت متوقع من الشرق

والصوت الذى يعلو فى هذا الكتاب كان لا بد أن يرتفع الآن من الشرق العربى مع أصوات الدعاة فى العالم ومع نهوض الجامعة العربية برسالة « الأمة الوسط » التى يلتقى لديها الشرق والغرب لقاء جميلا ، ليجلو هذا الصوت وجهة رسالة الله الواحدة الخالدة التى تنقلت بشعلتها يده تعالى مع تنقل البشرية وتطورها التاريخى حتى استبانت معالمها التاريخية على أيدى أربعة من هذه « الأمة الوسط » هم إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد .

وكان لا بد لهذا الصوت أن ينطق عن هذه الرسالة بلسان هذا العصر ويوضح منطقها بأسلوبه ويبين عن آرائها فى الحضارة الروحية التى لا بد منها أولا لتوطيد أسس الحضارة المادية فى القلوب والعقول قبل إقامتها فى المجالات المادية .

وقد رأينا دعاة السلام فى الغرب يعالجون مشكلات العالم بأسلوبهم وحسب تكييف حياتهم ومواضعات بيئاتهم ، مثل مافعل (وندل ويلكى) و (هنرى ولاس) و (ويلز) وغيرهم . وما كان لسكان الشرق الأدنى صاحب الرسالات الفاصلة فى توجيه الحضارات الروحية والمادية ، والماهد لها فى قديم التاريخ وأوسطه ، والجامع لأطراف إنسانية الشرق والغرب حيث نزل إلهام الله ووحيه على رسله وأنبيائه فى رسالات لا تزال هى المسيطر على أرواح أعظم جماهير الأمم العظيمة للآن . . وما كان لهم أن يتركوا الناس يتخبطون فى التماس الهدى وحل مشكلات الفكر والعيش دون أن يرتفع فيهم صوت يذكر الناس برسالة الله الخالدة ويعلن عما فيها من هدى قديم جديد .

البحث عن غد

والغربيون يبحثون عن غد يشرق عليهم ضحاه ، وقد خرج روادهم منذ الحرب العالمية الأولى يبحثون عن ذلك الغد فى كل مكان حين أحسوا ظلمة المادية تخنق أسمهم ويومهم وتتراكم على منافذ حياتهم الروحية فتحجب عنهم أضواء الهدى وتخنق حياة الوجدان والضمير وتطارد طمأنينة النفس إلى الحياة وإلى قيم الحق والخير فيها . . .

غير أن الموجة المادية كانت قد وصلت إلى ذروتها من الظلام والطغيان على الفكر الغربي بحيث لم يستطع الباحثون عن السلام أن يصدوا من طغيانها وظلامها ، فانطلق سيلها الجارف الهدار حتى طم على حياة الغرب والعالم كله فأغرقه بفلسفة البحث عن « الذهب الأسود » و « الفحم الأبيض » وأحرقه بنارها مع ما جمع من الحديد والفولاذ وأدوات المتاع والزينة والخيلاء والجشع والاستعلاء ... ، وإذا بأوربا موئل الحضارة المادية تشقى بحضارتها وتدمر بوسائل قوتها حتى تصبح خاوية على عروشها لايطمئن إلى الحياة فيها سكانها وهجرها عشاقها كما تهجر الفيران السفينة حين تشفى على الغرق ... وإذا الحقيقة الخالدة تتجلى من جديد ، وهى أن الحياة الانسانية إذا لم تقم على الطمأنينة والسلام وعقائد الخير وانسجام الإنسان مع ما أراده الله فى الطبيعة ، فهى إلى فناء وزوال فى غدها مهما غَنِيَتْ فى أمسها وحاضرها !

نعمة تستحيل إلى نقمة

وهذه الحضارة نعمة عظيمة لا يكدر صفوها إلا الطيش والجشع بينها ؛ لأنها حضارة جعلت للانسانية قدرة على تحقيق أحلام السيطرة والتغلب على كثير من قوى الطبيعة ، وكشفت للبشر عن مدى قدرتهم التى صارت لا يقاس بها ما كان لآلهة الخرافة عند القدماء من قدرة على التكوين والتخريب . فلماذا يصرون على الحروب والخصام بعد أن صار فى حروبهم من الهول والدمار ما يسحق جذور الحياة نفسها ، وبعد أن وضح لهم أن الأرض دار واحدة لهم جميعاً وأن خيراتها كافية لأن ينعم بها الجميع ويتمتعوا ما وسعتهم القدرة على المتاع ؟ !

إن ذلك طيش وسفه يجب أن ينهض لمقاومته العصبة ذوو القوة من المفكرين والمربين ودعاة السلام فى الشرق والغرب وأن يصدعوا بذلك ، كل فى محيطه ووطنه والعالم .

وهذا ما أراده عزام باشا حين أخرج بحوث هذا الكتاب الذى لا شك فى أنه ضوء عريض سيكشف للعالم جميعه مدى ماعند وارثى « الرسالة الخالدة » من فهم وإدراك وعلاج لمشكلات الفكر والعيش والسلم والحرب والاجتماع ، وما لديهم من استعداد عظيم للمشاركة فى إقامة حياة كريمة بين الناس جميعاً ؛

ومدى ما فى طبعهم من سماحة تؤهلهم أن يكونوا بحق « الأمة الوسط » لا فى المركز الجغرافى وحده ، بل فى المركز الفكرى كذلك

مسألة المسائل

والمسألة الدينية هى أعظم مسائل الحياة قيمة وتشويقاً وإثارة للجانب السامى فى النفس البشرية وللتفكير والرجاء والرغبة والرهبة ، وقد كانت ولا زالت محور بحوث العقول المفكرة وعقول الجمهرة ، لأنها تتصل بأعماق الفطرة ويترتب عليها قيمة الحياة وقيم الحق والخير فيها ، ومعرفة المصدر والغاية منها ، وما برحت « ما نحن ؟ وما الكون ؟ ومن أين ؟ وماذا وراء الطبيعة ؟ وما هى الغاية ؟ » أسئلة خالدة تثيرها القوى المفكرة فى كل فرد ، وهى موجهات الحياة ومكيفاتها ، تضل الجماعة البشرية أو تهتدى حسب توفيقها فى الإجابة عليها . وهذا الكتاب يعالج الحياة الإنسانية ومشكلاتها بتثبيت جذور هذه المسألة الدينية وتفريع فروعها فيتمشى بذلك مع طبيعة الشرق واتجاهاته من قديم ، فالشرق دائماً يعالج حياته المادية بالاستمداد من خالق الوجود وواهب الحياة ، ويقيم علاقات الاجتماع على أسس من علاقات الناس والكون بالله . بينما الغرب من قديم كذلك يتمشى مع عقليته المادية ، فهو دائماً الباحث المادى الرهين بالمحسوسات المستوحى جفاف الأرقام ...

ولذلك كان المزاج الشرقى واسع الرحاب برحابة ما يتصوره من عالم الكماليات الإلهية وراء هذه الطبيعة ، طليقاً فى أحيان كثيرة من القيود المادية التى تحبس الخيال وتربطه بالأرض ، يأخذ الماديات لا لعبادتها وتأليهها ولكن للتعلق بحسب أسبابها .

الحاجة إلى حضارة الروح

والدعوة الدينية هذه فى حاجة ماسة إلى الحديث الدائم عنها وخصوصاً فى هذا العصر المادى ، بأسلوب هذا الكتاب الذى رأى المسألة الدينية أكبر معين لبناء الحضارة المادية على أوتاد ثابتة من الإيمان والإحسان ، فاستعان بها أعظم استعانة واستفتى نظرياتها وأفكارها لتطبيقها على التاريخ الحى الذى يحياه الناس الآن ، ليريهم أن منشأ ضلال الحياة الغربية هو ترك الاستعانة والاعتماد على الهدى المجرب من هذه المسألة .

وقد ثبت أن من الخير المؤكد للناس أن يحكموا بحكومة الوجدان والضمير من داخل نفوسهم قبل أن تحكم أحكامهم وظواهر أعمالهم بالقوانين ، لأن حكومة الوجدان راعيها الله المطلع فى كل حين على خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، بينما حكومة الأجسام لا ترى إلا ما فى الشوارع ولن تستطيع أكثر من هذا ... ولن تقوم حكومة الوجدان إلا فى ظلال الدين الصحيح الكفيل بإقناع الناس فيما بينهم وبين أنفسهم بقيم الحق والخير والفضيلة ، وبقبح الباطل والشر والإثم والجريمة .

الفكر والسلطة

والكتاب مثل واضح لما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الفكر والضمير والسلطة حتى يكون « فن الحكم » — وهو أعظم فنون الحياة — قد استكمل أدواته فى نفوس الحاكمين والمحكومين

والعلاقة بين الفكر والسلطة هى مشكلة الحضارة فى هذا العصر ، إذ أن المفكرين المؤمنين العالمين بسير الحياة بالأحياء والساكنين فى قمة العلم والخلق لا يزالون بمعزل عن حكم الناس ، قد تركوهم للسياسيين المحترفين والسماسرة والدجالين واللاعبين بالشعوب المنقطعين عن العلم والخلق ، ولا هم لهم إلا الثروة المادية والبطش والخيلاء والغلبة على الأعداء ...

والذين يعرفون المؤلف يشهدون فى إجماع أنه من نوابغ المفكرين المؤمنين السياسيين العمليين والآمليين فى آن واحد . ولذلك وفق غاية التوفيق فى أن يكون كتابه كتاب تربية وتهذيب ودين وسياسة وإصلاح اجتماعى ، وفقه فى العلاقات الدولية ، ومعالجة أسباب المشكلات العالمية ، ووضع نظام عالمى جديد .

فهو كتاب من الكتب المتفردة التى يخرجها عمالقة الفكر والخلق الذين يلتقى فيهم العقل والقلب ذلك الالتقاء المنشود المحبب الجميل ، ليفرقوا بها أمراً حكيما من أمور باطلة ، يضعونه على طريق الانسانية فى مرحلة من مراحل تاريخها ، فيكون مناراً يضىء مسالك الخطى حين تختلط الطرق وتضل الاتجاهات ويحتاج الناس إلى صوت يقول لهم : من هنا الطريق ...

المدخل

ودعونا الآن نلج إلى الكتاب من أبوابه الستة ذات الفصول الثلاثين لنتعرف إلى أمهات مسائله فى إلمامة خاطفة ونظرة عابرة إن فاتها التعرف إلى الدقائق فلن يفوتها التعرف إلى الجلائل :

الكتاب كما يتضح من عنوانه « بحث فى رسالة الله الواحدة الخالدة على مدى الزمن ، واقتباس من هداها فى الاجتماع والسياسة والحرب والسلم والعلاقات الدولية ، لإزالة أسباب الاضطراب العالمى وإمداد الحضارة بسند روحى فى إقامة نظام عالمى جديد » وقد أوضح المؤلف فى مقدمته أن الذى دعا إلى تناول موضوعاته هى حالة الشذوذ والاضطراب أثناء الحرب الأخيرة والرغبة فى الكشف عن أسباب هذا الاضطراب العالمى ، ومحاولة إيجاد علاج له بعد أن تبين أن هذا العلاج غير ميسور فى هدى الدعاوى المبادئ السارية فى هذا القرن ، والتى أوحت بها المدنية المادية الحديثة . فلا بد إذاً من النظر بجد لالتماس الهدى فى غيرها بعد أن ظهر عجزها فى تنفيذها الواقعى بأوروبا وأمريكا .

فهل هذا العلاج فى الرسالة الخالدة التى تعاقب رسل الله على الدعوة إليها وجاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد .

وقد تولى الكتاب الإجابة على ذلك ، وهو إن كان أفاض فى التعرض لشرح وجهة النظر الإسلامية باعتبارها آخر تطور للرسالة الخالدة « فإنما قصد بذلك إلى التعاون والقربى لا التنابذ والتفرقة وأن يجد الناشئ الجديد المتعطش إلى المعرفة والطالب للهدى من المسلمين وغير المسلمين ، مادة للتفكير وسبيلا إلى رأى عالى مستقيم بعد هذه الحروب المدمرة التى أثارت اضطراباً لا نظير له » واضعاً نصب عيون المسلمين وغير المسلمين قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه » .

وهو يهيب بالجيل الناشئ من العرب « أن يكونوا أهلا لحمل هذه الرسالة يمدون الحضارة والعلم بالسند الروحى الذى لا بد منه لعالم جديد متضامن متعاون على تثمير خيرات الأرض متجه نحو دولة عالية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه » .

(يتبع) عبد المنعم خلاف

فهرس مفصـــل

لكتاب « فى أصول الأدب » الذى ظهر هذا الأسبوع

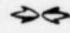
المحاضرات

المقـــــالات

العدد ٦٩٨ — الاثنين ١٨ نوفمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد



٢٧٠٤١

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقي

تقدم الرواية الثانية من موسمها فى

دار الأوبرا الملكية

الرواية المصرية الفكاهية ذات الموضوع العجيب

عفريت مراتي

تأليف وتمثيل
سليمان نجيب بك

إخراج
الأستاذ زكى طليمات

ويشترك فى التمثيل أبطال الفرقة وفى مقدمتهم

فؤاد شفيق — زوزو الحكيم — إحسان شريف — روحية خالد

كل ليلة ابتداء من يوم الخميس ٢١ نوفمبر والأيام التالية — الساعة ٩

14 me Année No. 698

Lundi — 18 — 11 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــدد ٦٩٨ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٤ ذو الحجة سنة ١٣٦٥ — ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

نافقاء اليربوع

للأستاذ محمود محمد شاكر

لى صديق ، أطال الله بقاءه ، يعيش فى الدنيا وهو خارج منها . هذا غاية نَعْته وصِفته : « يعيش فى الدنيا » وهو حريص عليها ، لا حرصَ البخيل الذى يجمع المال ، ولا حرصَ المستمتع المستهتر باللذات ، ولا حِرْصَ الطامح الطامع فى الخلود — كلا بل هو حرصٌ على حِدَته وعلى حِياله لا يُشبهه فى الناس إلا قليل . هو حِرْصٌ على التعجُّب منها ومما فيها ، وهو حرصٌ على النظر فى الأشياء والحيرة فى فهمها — واضحة كانت أو مبهمة ، وهو حِرْصٌ على استيعاب الحياة كما هى عند الناس من نُظرائه ومن غير نظرائه . ولا يخرجُ من كل هذا الحِرْص الشديد على الدنيا التى تحت عينيه إلا بطول التساؤل وبتنازُع الحيرة ، وبالخوف مما كان ومما لم يكن . هذه واحدةٌ .

وعجيبٌ أنه أبداً مولَعٌ بهذا الحرص وَلوعَ المحبّ بحبّ جديد . وهو نفسه يعلم أنه حرص عقيم لا يجدى عليه شيئاً فى معرفة الدنيا ولا فى التثبُّت من شىء من أحوالها ، ولكنه يزدادُ به على الأيام وُلوعاً وكلفاً وغراماً حتى يستهلك نفسه فى السؤال والبحث والتقصّى عن أشياء لا تغنى عنه شيئاً ، ولا يغنى عقله فى إدراكها ، ولا يغنى قلبه فى الإيمان بشىء منها . وهو يأبى أن يُلْقى عن كاهله هذا العبء الثقيل الفادح ، وإن كان يثق كل الثقة بأنه شىء لا جدوَى من حَمْله ، ولا من الصَّبْر على بلواه . هذه ثانيةٌ .

وثالثة الأثافىّ ، كما قال أسلافنا ، أنه إنسان حىُّ النفس قابلٌ للتلقّى ، فكل شىء من حوله يثير فى نفسه الفضول ، وينشُر عليه ذلك الحرصَ الشديد على المعرفة — مجديةً كانت أو غير مجدية ، لا يبالى . فإذا هو كالمغموم إذا اعترضه ما يعوقُه عن الاستقصاء . وأشدُّ من ذلك هولاً أنه لا يكادُ ينسى شيئاً مما ائتمنَتْه نفسه على استقصائه . إذا قطعه ذلك العارض البغيض إلى نفسه ، فإذا عادَ إلى ما لا بدَّ له منه عاد أشدَّ رغبة فى النفاذِ والاستقصاء والبحث . فهو بذلك مُمعَانٌ على الحرص على الدنيا وما فيها بالذى انطوت عليه جوانحه ، وبالذى فطرت عليه نفسه ، فهو لا يرى خلاصاً ، أو لا أرى أنا له خلاصاً ، من هذه العادة المتمكنة ، أو هذه الخصلة الكامنة فى أعمق أعماق طبيعته .

فهو بهذا الذى وصفت : « يعيش فى الدنيا » ، ولكنه « خارج منها » بشىء آخر ، وإن كان متصلا بهذا كله أشد الاتصال . فهو لا يكادُ يعبأُ بنفسه شيئاً ، بل هو لا يعرف أن له نفساً موجودة ، أو أصحُّ من ذلك أنه يشك كل الشك فى وجود نفسه ، فهو أبداً مختلَسٌ من نفسه بالبحث عن نفوس الناس . وهذه مَسْلبة الفضول ، فإنها تمنعُ المرء عن التأمل فى

نفسه ، فإذا أراد أن يتأملها فكأنما يتأمل شيئاً غريباً ليست بينه وبينها وشيجة أو آصرة أو عاطفة . ومن أجل ذلك تراه يدور من حياته هو فى مثل الحلقة المفرغة لا يدرى من أين بدأ ولا أين انتهى ، ولا يعرف أهذا هو الحق فى فهم نفسه أم الحق سواه . ويذهب ويعود فى البحث ولكنه لا ينتهى إلا إلى شىء واحد هو أنه لا يدرى .

كنتُ على وشك أن أكتب شيئاً حين أسرع هذا الصديق إلى التلفون ليسألنى هل قرأتُ جريدة « المصرى » ، وما جاء فيها من الذى سمّته « النص الحرفى لمشروع اتفاقية صدقى — بيفن ، ولبروتوكول الجلاء والسودان » : وذلك فى عدد الأحد ١٠ نوفبر سنة ١٩٤٦ ، وكنت قد فرغت لساعتى من قراءته ومن التعجب لما جاء فيه . وأنا لا أستطيع أن أطمئن إلى نص مختلس لا أدرى أحقٌ هو أم باطل ، ولكنى قرأته فإذا لم يكن هو النص فكأنه هو ، لأنه أشبه مُعْوَجٍّ بحقيقة العوج . ولا أظن أن الانجليز يبلغ بهم صدق الطبيعة أن يقولوا فى السياسة شيئاً على وجهه وعلى استقامته ، فلذلك خُيّل إلىّ أن فى هذا النص طرفاً من الحقيقة الدالة على طبيعة الاعوجاج فى ألسنة هؤلاء الساسة الإنجليز ، ولست أعجل إلى مثل هذا النص المختلس فأقول فى عبارته قولا ، فإن العجلة فى مثل هذا شىء لا غناء فيه ، كما لا غناء لك فى إقناع الإنجليز بأن الحق الذى لك هو حقك ، إذا كان الإنجليزى يرى أنه ليس حقاً لك ، وإن ظاهرتك الدنيا كلها على حقك .

ونحن منذ كانت سنة ١٩١٩ أخذنا نجهل كيف يعامَلُ هؤلاء الناس ، فإن ذلك الخطَل الذى ضَرَب على آذاننا وأبصارنا وقلوبنا ، والذى يسمونه « المفاوضة » قد جرَفنا فى عُباب مُتلاطم من الحيرة والضلال ، فما نكاد نبصر ولا نعى ولا نعقل شيئاً من حقيقة هذا الشعب الإنجليزى أو ساسته الذين يتصرفون فى أمور الدنيا كأنهم وارثوها وأصحابها الذين تلقّوا مقاليدها من يدِ الله القدير العزيز . وكنت أظنُّ أن التجارب قد حنّكت رجالنا فعرفوا مواعيد هؤلاء القوم ، وأدركوا كيف تكون مواثيقهم منذ علا أمرهم فى الأرض ، وكيف كان تاريخ معاهداتهم منذ كان لهم شأن فى هذه الدنيا يكتبون من أجله المعاهدات . بيد أن ذلك لم يكن ، لأن رجالنا يستضعفون أنفسهم ، ويظنون أن هذا الشعب لا يمكن أن يظفر بحقه إلا بمداورة الإنجليز والترفق فى معاملتهم ، حتى ينالوا من أيديهم ما تيسّر ! وهذا عجبٌ ! بل هو غفلةٌ ، بل هو كدْحٌ أحمقُ فى سبيل لا شىء . فقل لى بربك كيف يستطيع إنجليزىٌّ أن ينزل لنا عن شىء هو يريدُ أن يؤمن بأنه حقٌّ له ، وإن كان حقاً موروثاً متحدراً مع أصل البشرية كلها ، وهو الاستقلال والحرية ! ...

خلق الله فى دوابّ الأرض دابة يسميها العرب اليَرْبُوع ، تكثر فى بلادهم ، وهى نوعٌ من الفار قصيرُ اليدين جداً ، وله ذنب كذنب الجُرَذ يرفعه صُعُداً ، وفى طرفه شبْه النوّارة . ولهذا اليربوع أسلوب فردٌ فى حياطة نفسه وأموره ، حتى إنه يتخذ لعشيرته رئيساً يقف حارساً على جِحرَة اليرابيع يحميها ، فإذا قَصَّر فى الحراسة ، وهجم على اليرابيع من جراء غفلته وإهماله هاجمٌ أفزعها أو أضرّ بها ، انقلبت على ذلك الرئيس فقتلته وأقامت غيره مقامه . ويتخذ كل يربوع منها جِحرَةً يلوذ بها ، ويجعلها سبعةً لها سبعة أبواب . فيبدأ أول ما يبدأ بالجحر الذى يسمونه « الراهطاء » فيغطيه بالتراب حتى لا يبقى منه إلا على قدْر ما يدخل الضوء منه إلى جحره هذا ، ثم يحتفر جحراً يسمونه « الحاثياء » يحثو عنده التراب برجليه ليخفى مدخله . ثم يحتفر آخر يسمّونه « الدامّاء » لأنه يُدمّمه بتراب نَبيثته حتى لا يَنْفذَ منه عدُوٌّ ، ثم ينشىء جحراً آخر يقالُ له « العانقاء » يملؤه تراباً ، فإذا فجأه مايخاف اندسّ فيه إلى عنقه . ثم يحتفر « القاصعاء » وهو جحرٌ يسدُّه سدّاً محكما لئلا يدخل عليه منه حيّة أو دابة . ثم يحفر « النافقاء » ويجعل على فمه غشاء رقيقاً ، فإذا أُخِذ عليه بقاصعائه عدا إلى هذه النافقاء فضربها برأسه ونفق منها ومرق خارجاً . ثم يجعل سابع سبعةٍ جحراً يقاله له « اللُّغز » يجعله بين القاصعاء والنافقاء ، يحفره مستقيما إلى أسفل ، ثم يعدلُ به عن يمينه وشماله عُرُوضاً تعترض ، يُعَمّيه ليخفى مكانه بذلك الإلغاز ، فإذا طلبه طالب بعضاً أو سواها نَفَق من الجانب الآخر

أفرأيت إلى كل هذه الحيطة وكل هذا التدبير ! فلا تعجب

فإنك واجدٌ فى الْخُلُق الإنجليزى أكثر من هذا مداورةً وتفلُّتاً وإلغازاً ومراوغة . والإنجليز أنفسهم يعلمون أنهم كذلك وأنهم يخفون فى سرائرهم ما لو اطَّلعتَ عليه لاستصغرت من احتيال هذه الدابة ما استكبرت . ومن أراد أن يدخل على الإنجليز جِحَرَتَهم وقع فى مَتاهة لا يدرى معها من أين ولا إلى أين . فمن العجيب الذى لا ينقضى عجبه أن يظن رجالٌ من رجالنا أن فى طوقهم أن يراوغوا الإنجليز فيستولوا على جحرتهم المحتفرة فى طبائعهم وأخلاقهم وعقولهم .

إن معنى المفاوضة والمعاهدة بيننا وبينهم هى أن يسمى الانجليز جُهدهم حتى تطمئن إليهم ، فإذا فعلت أخذوا بيدك وقادوك إلى مثل جحرة اليربوع ، فيدخلون بك من واحد إلى ثان إلى ثالث ، حتى إذا خُيل إليك أنك قد تمكنت منهم « نفقوا » من نافقائهم بأسهل مما كنت تتصوَّر . وهكذا شهدنا وعرفنا وخبرنا منذ احتلوا بلادنا فى سنة ١٨٨٢ ، فوعدوا الدنيا كلها — لا نحن وحسب — بالجلاء الناجز ، ولكنه ظلَّ وعداً إلى هذا اليوم . وجاءونا اليوم يعدوننا أيضاً أن يَجْلوا عنا بعد عام أو عامين أو ثلاثة — أيُّ ذلك كان . فمن الذى يصدِّق هذه اليرابيع ؟ ومن شفيعهم وضمينهم فى كل هذا ؟ أهو الخطُّ المكتوب ، أم اللفظ المنطوق ، أم سوابق العهود المؤكدة والمواثيق الغليظة !!

إنها لغفلةٌ أن يرى امرؤ نفسه أقدرَ على خديعة هذه اليرابيع من قدرتها هى على خديعته . وليس يعلم شيئاً من ظن أن الإنجليز ينفضون أيديهم من شىء هو كائن فى أيديهم . فالإنجليز يرابيعُ بالطبع والممارسة ، حتى إن « النِّفَاق » الذى علمته فى أخلاق اليرابيع ، قد صار أيضاً خُلُقاً من أخلاقهم يشهدون هُمْ به على أنفسهم ، ويشهدُ عليهم به تاريخهم منذ كان لهم تاريخ . وهذا النفاق المطبوع هو الذى جعلهم أقدر شعوب الأرض فى كل شئون السياسة . وما مواعيدهم ، ولا معسول ألفاظهم ، ولا روعة دعوتهم إلى الحرية ، ولا كمال إخلاصهم فى تحرير الجنس البشرى من غوائل النازية ، ولاصبرهم على المكاره فى سبيل المثل الأعلى للانسانية — كل ذلك ليس ببعيد عنا فى زمن الحرب الماضية . لقد نطقوا بكل شىء ، ولكنهم لم يحققوا شيئاً مما نطقوا ، فكيف نرضى لأنفسنا أن نؤمن بأنهم فاعلون معنا شيئاً لم يردّهم خجل ولا حياء عن نكث مثله وإخلافه ، بل أكبر من ذلك أنهم فعلوا نقيضه ودافعوا عن فعله بمثل القوة والبلاغة التى كانوا يزيّنون بها لأمم الأرض أن تعينهم فى أيام محنتهم وبلواهم !

ومن عجائب الإنجليز أنهم يعلمون علماً ليس بالظن أنهم معتدون متغطرسون ظالمون ، يأكلون الحقوق أكلا لا يرعون فيه حرمة ولا ذمة . ومع ذلك فهم من طول ممارستهم للنفاق قد انتهوا إلى أن أقنعوا أنفسهم بأن هذا الاعتداء وهذه الغطرسة وهذا الظلم ليس له وجود حقيقىّ ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أنهم وحدهم دون سائر العالمين أهل العدل والنَّصَفة والتواضع ، وأنهم هم الذين جاءوا إلى الدنيا ليردوا الحقوق إلى أهلها ، وأنهم هم القُوَّام على هذه الرسالة السامية . ولذلك ترى كلام رجالاتهم كلاماً نيّراً مضيئاً فاتناً ساحراً إذا عرضوا لمعنى الحرية وما أطافَ بها ، ويُخيل إليك أن إيمانهم بهذه المثل العليا إيمان لا يعتوره نقصٌ . وهذا حق ، ولكنهم إذا جاءوا إلى تنفيذ مايقولون رأيتهم أهل بغْى وعُدْوان فيما ترى ويرى الناس ، ولكنهم هم يصرُّون على أن هذا هو الحق الذى لا محيصَ لك ولا للناس عن الأخذ به ، تقول : وإن كان بغياً وعدواناً ، فأقول : وإن كان بغياً وعدواناً !

والإنجليزى يرى أن هذه الأمانة التى حُمِّلها هى الأمانة ، وأنه مؤدِّيها على وجهها ، فإن أنت خالفته وزعمتَ له أنه يجورُ عليك جوراً عبقرياً قال لك : إنك شديد المماكسة مولَعٌ بالجدال ، ويحاول أن يبسُط لك الأمر بسطاً حتى تقتنع بأنه غير ظالم ، بل هو العادل الذى لا يعرف العدل أحدٌ سواه . ومن شاء أن يناقض هذا الذى أقوله فلينظر إلى حُجَّة هذا الشعب فى موقفهم أو احتلالهم للهند ، وفى احتلالهم لمصر من أجل الهند . فالهند مستعبدة ظُلماً وجوراً ، وهم يريدون أن يحللوا بقاءهم فى مصر ، لأن فيها قناة السويس ، وهى التى تؤدى أو تسهل الطريق إلى بلاد الهند . فإذا خرجت القناة من أيديهم كان ذلك وبالا مستطيراً على مصالحهم فى الهند ! فينبغى عندهم أن ترضى مصر بالأمر الواقع ، وهو بقاؤهم حراساً على القناة ، لئلا تضيع مصالحهم فى البلاد التى استعبدوها واستذلوها وأفقروا أهلها وأكلوا أموالها

وأعروا ذَرَاريها ، وهتكوا الستور عن أحرار نسائها . يا له من منطق ! وهل فى طاقة أحدٍ أن لا يقتنع برأيهم فى حفظ كيان هذه الامبراطورية الضخمة ! كلا بل ينبغى أن يُطيع العالم وأن يَسمع . فلو أن الإنجليز فرَّطوا لهوَى العلم البريطانى إلى الرغام فى أرض الهند ، ولبقيت الهند عارية لا تجدُ هذا الدفءَ الحلو اللذيذ ، ولا هـذا الظل الوارفَ الناعم الذى ينشره عليها علم بريطانيا !

فحدثنى أيها الصديق ماذا تريد بعد ذلك أن أقول لك فى هذه المعاهدة التى تريد إنجلترا أن توقعها مصر راغمة أو راضية ! دَعْ عنك الحيرة ، ودع عنك تقلب الرأى ، واختر لى أنت رأياً أصير إليه . وإلا فإنى أقول لك كما قلت دائماً : إن المعاهدة بيننا وبين بريطانيا ، هى أن ندخل معها فى جُحر اليرْبُوع حتى إذا استقرَّ بنا المقام قليلا « نفقت » كما يمرق اليربوع من نافقائه إذا سُدّت عليه المسالك !

محمود محمد شاكر

من التاريخ الاسلامى :

وديعـــة الله (*)

للأستـــاذ على الطنطاوى

[إلى أصدقائى وتلاميذى فى بغداد ، ولا سيما الأحبة على طريق الأعظمية ليذكرونى بهذه المدية كما أذكرهم دائما]
« على »

كان فتى من أبناء التجار ، بارع الفتوّة ، واسع الغنى ، قد جمعت له اللذائذ ، وسيقت إليه المنى ، دكانه البحر تنصبّ فيه جداول الذهب ، وداره الجنة تجرى من تحتها الأنهار ، وفيها الحور العين ، خمسون من الجوارى الفاتنات اللائى حملن إلى بغداد من أقطار الأرض وحشدن فيها ، كما تحمل إلى مخدع العروس كل وردة فاتنة فى الروض ، وزهرة جميلة فى الجبل ...

ولـكنه لم يشعر بنعيم الحياة ، ومتعة العيش ، حتى اشترى هذه الجارية بخمسمائة دينار ، وكان قد رآها فى سوق الرقيق فرأى جمالا أحلى من أحلام الحب ، وأجمل من بلوغ الأمانى ، وأطهر من زنبقة الجبل ، فهام بها هياماً وزاد فيها حتى بلغ بها هذا الثمن ، وانصرف بها إلى داره ، وهو يحسب أنْ قد حيزت له الدنيا ، وأمتع بالخلود ، واشتغل بها وانقطع إليها ، ولم يعد يخرج إلى الدكان إلا ساعة كل يوم ثم لا يستطيع أن يصبر عنها ؛ ويزلزله الشوق إليها ، وتدركه هواجس الحب فيغار عليها ، لا من الناس فما يصل الناس إليها ، بل من الشمس أن تلمحها عين الشمس ، ومن النسيم أن تلمسها يد النسيم ؛ ويشعر بهذه الغيرة المحرقة فى قلبه ، فيُهرع إليها ليطفئها بلماها ...

لقد صار هـذا الحب مصدر لذته ، وسر حياته ، ما كان يدرى من قبله ما اللذة وما الحياة ، وما كان يحسّ أنه يعيش حقاً وأن له قلباً ، وما كان يدرك من قبله بهاء النهار ، ولا فتنة الليل ، ولا سحر القمر ، كان ذلك عنده كالألفاظ بلا معنى ، يفهم منه ما يفهمه الأعجمى إذا تلوت عليه غزل العرب ؛ فلما عرف الحب أدرك أن وراء هذه الألفاظ معانى تهز الفؤاد ، وتستهوى القلب . وكان يمشى فى طريق الحياة كما يمشى الرجل فى المتحف المظلم فطلع عليه هذا الحب نوراً مشرقاً أراه هذه التحف الفاتنات وهذه الروائع ...

***

وتتالت الأيام ، وزاد إقبالا عليها وإعراضاً عن الدكان . وكان يبصر دنياه تدبر عنه ، وتجارته تذوب فى ضرم هذا الغرام كما يذوب الثلج ، وتتبدد كما يتبدد الندى فى وهجِ الشمس ، ولـكنه لا يكره هذا الحب ولا ينفر منه ولا يزداد إلا تعلقاً به وتمسكا بأهدابه . وكان كل ما فى الحياة من متع ، لا يعدل عنده لحظة واحدة من لحظات الوصال ، وذهب الأرض كله لايساوى هناءة من هناءات الحب ، فكان يترك البائعين والمشترين ويسعى إليها ليشترى منها اللذاذات والقبل .

وكانت كلما نصحته وأرادته على العود إلى تجارته قال لها : مالى وللمال ؟ أنت مالى وتجارتى ومكسبى ، فلا تستطيع أن تفتح فمها بجواب لأن شفتيه تقيدان فمها فلا ينفتح !

***

(*) كتبت لتذاع من محطة الشرق الأدنى فى يافا وأصل القصة فى الفرج بعد الشدة للقاضى التنوخي فى أوائل الجزء الثانى فليرها القراء .

وأصبح الرجل ذات يوم فاذا التجارة قد بارت ، وباد المال ، وذهب الأثاث ، وبيعت الجوارى ، ولم يبق فى يده شئ يباع ؛ فأقبل ينقض الدار ويبيع أنقاضها ، ولم يأسَ على ذاهب ، ولم يحسَّ بفقد مفقود ، فقد كان يلقى الحبيبة ، ويجد فى حبها غذاءه إذا جاع ، وريّه إذا عطش ، ودفئه إذا برد ، وفى وجنتيها ما يغنيه عن الأوراد ، وفى ثناياها بديلا من اللآلئ ، وفى ريقها عسله المصفّى ، وخمره المعتق ، ومن ريحها عطره الفواح ، وفى صدرها دنياه وآخرته ، ويرى الدار الخالية معها قصراً عامراً ، والصحراء روضة مزهرة ، والليل المظلم معها نهاراً مضيئاً ...

وأثمر الحب وجاء الحصاد ، ولكنه قد خالف موعده ، فلم يجئ فى الربيع الطلق ، ولا فى الصحو الجميل ، بل قدم فى الشتاء الكالح ، والأيام القاتمة الدكناء أيام الفقر والعوز ؛ وأخذها المخاض فجعلت تتلوى من الألم على أرض الحجرة ، وما تحتها إلا حصير تقطعت منه الخيوط ، وفراش بلى وجهه وتناثر قطنه حتى اختلط بالتراب ... وطال عليها الوجع وهو واقف أمامها يحس أن ألمها فى ضلوعه ، وأن كل صرخة منها سكين[1] محمى يحز فى قلبه ، ولكنه لا يملك لها شيئاً ، وقالت له بعد أن عجزت عن الاحتمال :

— إنى أموت ... فاذهب فاحتلْ بشئ تشترى به عسلا ودقيقاً وشيرجا[2] ... اذهب وعجل ، فانك إذا أبطأت لم تجدنى .

***

وخرج ... وصار يعدو كالمجنون ... أين يذهب والليل قد مالت نجومه ، والناس نيام فى دورهم ، ولا يجد من يلجأ إليه ، فقد فصله الحب عن الدنيا وصيّره غريباً فيها ، ليستْ منه ولا هو منها ، وكذلك يصنع الحب ! وجعل يهيم على وجهه حتى بلغ الجسر ، جسر بغداد ، وكان الليل خاشعاً ساكناً ، والناس قد أمّوا بيوتهم ، وأنسوا بأهليهم ، وهو الوحيد الشارد لا أهل له إلا التى خلّفها تعانى سكرات الموت ، وعجز عن إسعادها ؛ ولا دار له إلا هذه الخربة التى فرَّ منها . لقد كانت هذه المرأة حظّه من دنياه ، وها هى ذى تموت فلا يبقى له فى دنياه حظ ، وكانت هى نورَها فلن يبقى له بعدها من نور . وتصور الوحشة المخوفة ، والوحدة المرعبة التى سيقدم عليها إن وَلَّت عنه هذه المرأة التى كان يعيش بها ولها ، ونظر إلى ماء دجلة يجرى أسود ملتفاً ببرد الليل ، فأحب أن تواريه أحشاؤه ، وتراءى له الموت حلواً فيه متعة اللقاء ، وأَنَسة الاجتماع ...

وعاد فذكر آلام الحبيبة وانتظارها ، وعجزه عن معونتها وإسعادها ، فتوجه إلى الله ودعاه من قلبه صادقاً مخلصاً وقال : « يارب ، إنى استودعتك هذه المرأة وما فى بطنها ... » ، وهمَّ بإلقاء نفسه فى الماء ، وفكر فى الموت فوارت صورته أحلام الحب وصوره ، ولم يعد يرى إلا هذه الهوة التى سيتردَّى فيها ، وتسلق درابزين الجسر فأدركته حلاوة الروح فراح يتصور برودة الماء ويفكر فى الموت هل يأتيه سهلا هيناً ، أم هو سيذيقه العذاب ألواناً ، وحاول أن يتذكر ما سمع عن الغرقى وهل يختنقون عاجلا أم يبطئ عليهم الموت ، وذكره هذا العذاب بعذاب الله يوم القيامة ، أليس الله قد حرَّم الانتحار ؟ أليست هذه النفس ملكا لله وحده أودعها جسده أمانة ليستردها متى شاء ليست له هو ولا يملكها ، وليس هو الذى خلقها وأبدعها ، وذكر أنه توجه لله واستودعه حبيبته فكيف يلقى الله آثماً ويسأله عونها وحفظها . وتنبه إيمانه فتردد ، ووقف ... ثم عاوده التفكير فى حياته بعد اليوم ، وكيف تكون إن ذهبت منها متعة الحب ، فرجع إليه يأسه وقنوطه وعزم عزماً مبرماً على الموت ، وأغمض عينيه وخفق قلبه من هول ما يقدم عليه ، وكاد يقفز ولكن ... ولكن يداً لم يطق لها دفعاً ، ولم يملك معها حراكا أمسكت به ... ذلك هو صوت أخذ أذنيه من بعيد ، ثم امتد حتى بلغ الأفق الذى أطلَّ منه الفجر والأفق الذى انغمس فيه الليل ، ثم غمر النهر والشاطئين والمدينة ... فأحسَّ به يشرق على نفسه كهذا الفجر فيبدد ليلها ، ذلك هو صوت المؤذن ، ينادى فى صفاء الليل وإصغاء الدنيا ، أجلّ وأجمل نداء اهتز به هذا الفضاء ومشى فيه : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

وسمع : « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » فرأى فيها مجد الآخرة بالعبادة ، ومجد الدنيا بالنجاح ، وصبت القوة والعزم فى أعصابه فعدل عن الموت ، وأقبل يسعى فيما جاء له ، ولكنه لم يجرؤ (على هذا كله) أن يعود إلى الدار ، وحدثه قلبه أن

---

(١) السكين مذكر وحكى فيه التأنيث

(٢) دهن السمسم معرب شيره وعامة الشام ومصر تسميه اليوم السيرج

الفتاة قد ماتت ، فمضى على وجهه تقذفه قرية فتتلقاه قرية ، يضيفه الناس ، وقد كان فى الناس سلائق العرب وآداب الإسلام : يضيفون الغريب لا يسألونه من هو ولا يبتغون منه أجراً ولا شكراً ، وجعل يطوى الأرض والأرض تطوى صحائف عمره ، حتى حطّت به النوى فى خراسان .

ولقى من عرفه فيها ومدّ إليه يده مُسْعِداً ومعيناً فعاد إلى تجارته ... وجعل يفكر لما استقر به المنزل فى داره وامرأته والشك يَحِزُ فى قلبه ، ويكتب الكتب يسأل عنه وعنها ويستنجد ، ويلح ويتوسل حتى كتب ستة وستين كتاباً[1] ، ولم يرجع إليه جواب فأيقن أنها قد ماتت ...

وأثرى وامتلأت يده بالذهب ولكن قلبه ظلّ خالياً من الحب . وما كان يوسع فيه الأسى مكاناً لحب جديد ، فكان كلما احتواه العشيةَ منزله ، وأغلق عليه بابه جفا عالم الناس وراحت روحه تسبح فى عالمه هو ، عالم ذكرياته وماضيه الذى أحبه وافتقده ولم يجد منه بديلا ، فيشعر بحرارة تلك القبل ويسمع وسوستها ويلمس دفء ذلك العناق ، ويستروح نسيم تلك الدار التى كانت جنة وارفة الظلال ، فيها الروح والريحان وفيها من كل فاكهة زوجان ، فصيَّرها الحب قاعاً صفصفاً ... ولكن تلك الخربة أحب إليه من هذا القصر الذى يعيش فيه اليوم وحيداً لا يؤنسه فيه إلا الذهب ...

وتصرَّمت السنون ، وتتابعت خالية فارغة حتى أقامت بينه وبين ليلة المخاض حاجزاً من الأيام سمكه ثمان وعشرون سنة ، وهبَّت على عمره رياح الخريف ، فذوى غصنه ، وكاد يدركه الجفاف ، فأفزعه أن يموت بعيداً عن بغداد وعن داره التى ثوت فيها الحبيبة ؛ فباع كل ما يملك بعشرين ألف دينار من الذهب واشترى قماشاً وبضاعة حملها إلى بغداد ، وسار فى قافلة له ضخمة يؤم دار الوطن ... ولم يكن له من أمل إلا أن يقيم بهذا المال قبراً ضخماً للحبيبة ويجعل فيه له مكاناً ، ولكن الدهر لم يُبلغه حتى هذا الأملَ ، فقد خرج على القافلة اللصوص . فنهبوها ، وقتلوا من فيها ، ولم يتركوا منهم أحداً ...

***

ونهض من بين الموتى ، وسار على رجليه وقد تبلَّد ذهنه من عظم الفاجعة حتى ما يقدر على الحزن . ومشى حتى حاذى النهر ، وجعل يمر على مغارس النخيل ، ومشارع المياه ، ومنابت الورد والفل ، وهو سادر ساهم ، كأنما يمشى فى حلم ، قد ماتت فى نفسه كل رغبة إلا الرغبة فى الموت ... وماذا بقى له فى الحياة بعد ما فقد الحب وفقد المال ؟ ولكنه لم يشأ أن يموت إلا فى داره ولم يرد أن يضمّ عظامه إلا الثرى الذى ضمّ أعظم الحبيبة ، حتى يجاورها فى الموت كما جاورها فى الحياة ، وتحامل على نفسه وقام يجرّ رجليه جراً ، وكلما دنا من بغداد وأحسّ ريحها انتعش واشتد ، وعاش بذكريات الحب الذى ذهب ولم يبق إلى عودته سبيل ، وآنسه أن يرى مرة ثانية الديار التى شهدت صور هذا الحب ، ولكنه أعيا أخيراً وسقط على الشاطئ ولم يعد يستطيع الحراك ...

وجعل يفكر تفكيراً مبهماً ملتاثاً يقطعه الجوع الذى يفرى أمعاءه ، والتعب الذى يهدّ عظامه ، فيرى أنه كان فى حلم وصحا منه ... الدنيا كلها حلم كاذب : الحب ، والمال ، والصحة ، والسعادة ، والمجد ... لا يخلد شىء من ذلك ولا يبقى ... لا يبقى منه إلا ذكرى تبعث الألم ، وتثير حسرة ، وتحرق القلب ، وتمنى أن لو كان خلق فقيراً منفرداً ، ما عرف لذة الألفة ، ولا متعة الغنى ، وعاودته فكرة الموت التى كانت مرت بذهنه منذ ثمان وعشرين سنة ، ولكن دينه منعه أن يختم حياته بهذه الخاتمة البغيضة وأن يجمع على نفسه شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، وهبت عليه نفحة من نفحات الإيمان فاستراح إليها ، وذكر أنه استودع فتاته الله ، ولا تضيع عند الله الودائع ، وأن وراء هذه الأحداث حكمة بالغة ، وقدراً حكيما . فاطمأن إلى حكمة الله وسلم أمره إليه ووجد لهذا الاطمئنان راحة وشبعاً ...

وسمع صوت بوق يرعد على حاشية الأفق فنظر فإذا (زلال[1]) ضخم قد أقبل عليه ، فلما حاذاه أشار ونادى ، وسأل صاحبه أن يحمله إلى بغداد ، وكان فيه أمير كبير ، ولكن (الديمقراطية) كانت شعار العرب ، وكانت سليقة فيهم ، لا يمنع الأمير مجده أن يقف لفقير سائل ويحمله معه فأدخله الزلال وأطعمه وخلع

---

(١) كذا فى الأصل .

(١) كلة عباسية مولدة معناها السفينة الحربية .

عليه . ولم يُسائله عن خبره ، لأن النوم قد غلب عليه فهجع كالقتيل قبل أن يسأل وقبل أن يجيب .

ولما أفاق كان المساء قد حلَّ ، وكانت بغداد قد بدت ، وسربت الزوارق والسفن على سطح دجلة الفاتن تنشد لهواً وتبتغي لذة ، وتملأ الصفتين نغماً سائغاً ، وحباً ومجداً ؛ وترنحت القصور طرباً ، وانتشت الرياض أنساً ، وتعانق النخيل وتشاكى الغرام . وتراقصت الأمواه من دجلة وتناجت بالحب ، وسكرت السفن وهامت ، وسدرت بغداد في نشوة الظفر ، وكانت بغداد هي الدنيا وكانت دارة الخلافة ، وكانت عاصمة الأرض ، وكانت منبع العلم والفن ، ومثابة الغنى والترف . وكان فيها الصلاح وفيها الفجور ، وفيها الخيرات وفيها الشرور ، وفيها من كل شيء ... وكذلك تكون الدنيا !

وكان دجلة يسير مَزْهوًّا طرباً . فقد بدأ سيره منذ الأزل ، ورأى الحكومات تقوم وتقعد حتى ملَّ قيامها وقعودها ، وشهد من بأساء الحياة ونعيمها ما زهَّده في نعيمها وبؤسها ، ورأى الأنام حتى كره مرأى الأنام ، ولكنه لم يرَ أياماً أحلى ، ولا مجداً أبقى ، ولا ناساً أنقى وأتقى ، من تلك الأيام وناسها ...

وجاز الزلال بتلك السفن والزوارق الحالمة السكرى كأنه البطل القوي يمر بالحسان في يوم عرس ، فاجتمع على الصفحة الحب والحرب ، والعز والهوى ، هذا يمثله زلال القائد ، وتلك تمثلها زوارق العشاق ، وكان يمضي إلى غايته مسرعاً كأنه يسابق شعاع الشمس إلى الأفق الزاهي ، وكان هو أيضاً شعاعة من الشمس التي أضاءت الدنيا في هاتيك الأيام ، فأشرقت على القلوب عاطفة وجمالا ، وعلى العقول علماً وكمالا ، وعلى الإسلام عظماً وجلالا ، وعلى الناس كلهم حضارة وتمدناً وسلاماً وأمناً ، وضوَّأت لهم طريق المجهول ، وشقت لهم السبيل الموصلة إلى تحقيق المثل العليا في المجتمع البشري ، تلك هي شمس بني العباس إذ كان بنو العباس سادة الأرض .

وأنزله الزلال على الجسر ، حيث قام تلك الليلة ، فأعاده الجسر إلى ماضيه ، فأحسَّ بأن هذه السنين كلها لحظة واحدة ، وأنها صفحة قد سقطت من سفر حياته ، فاتصل ما قبلها بما بعدها ، ورأى الناس من حوله فهمَّ بأن يسألهم درهماً يشتري به عسلا ودقيقاً وشيرجاً لامرأته التي أخذها المخاض ، وأسرع يريد أن يدركها قبل أن يشتد بها الألم ، ثم انتبه فرأى هذا الحجاب الصفيق من الزمان يقوم بينه وبينها ، ثمان وعشرون سنة ليست يوماً ولا يومين ... دهر طويل ولد فيه ناس ومات ناس ، عمر كامل ... فتهافت وخمدت هذه الشرارة من الأمل التي أضاءت في نفسه ، وسار محطماً مكدوداً ، يبصر الوجوه من حوله فيراها غريبة عنه لا يعرفها ، ويرى المسالك والدروب فيفتش عن ذكرياته فيها فلا يجدها ... حتى بلغ الدار ونظر فاذا الخربة التي خلّف فيها الحبيبة قد صارت داراً فخمة على بابها الجند والشاكرية فوقف ينظر إليها من بعيد ... هذه داره التي رجع اليها ليتخذ لنفسه من ثراها قبراً قد أنكرته وأعرضت عنه . لقد عاد غريباً في بيته . منكراً في بلده . إنه ميت يمشي بين الأحياء . لقد بحث عن أثر واحد من دنياه التي كان يألفها ، فاذا كل شيء قد تبدل ، فلا الوجوه بالوجوه ، ولا الأمكنة هي الأمكنة : فياويح الزمان كيف صنع ذلك كله ! هذا الجبار المخيف الذي يفعل الأفاعيل ، ولا يحس به أحد ولا يبصره ولا يلمسه بيده ... ثم استغفر الله وأناب إليه ، إنه هو الفاعل المدبر ، فلا الزمان ولا الأحداث بقادرة على شيء ، إنه هو وحده الذي يصرف الأكوان .

وولى ليعود فيضرب في الأرض حتى يموت ، فما يبالي الآن أين يدركه الموت بعد أن حرم آخر أمانيه ، وهي أن يواريه الثرى الذي وارى جسد الحبيبة ، ولم تسِلْ من عينه دمعة ، ولم يتحرك لسانه بكلمة وداع ، ولم يفكر في شيء فقد تواردت الآلام على قلبه حتى صار هو كتلة من الألم جامدة تسمى قلباً ، وتتابعت عليه المصائب حتى صارت حياته كلها مصيبة ... ويئس من السعادة حتى ما عاد يفكر فيها ، أو يؤله فقدها ، وتلفت ليودع المكان الذي اصطفاه من دون الأمكنة ، وأودعه أعز شيء عليه : حبيبته وذكرياته ، ويشمله بنظرة فاذا هو يرى دكان بقال كان يعرفه لا تزال قائمة على العهد بها ، كما يقوم الطلل البالي في المدينة العامرة ، فأسرع إليها ...

وكان فيها شاب حدث علم منه أن أباه البقال مات من عشرين سنة ، وأن الدار لابن داية أمير المؤمنين المأمون وصاحب بيت ماله ، وأن لهذا الرجل قصة عجباً ، فقد كان أبوه من سراة التجار ،

الغازي مصطفى كمال

بحث وتحليل للدوافع النفسية التي دفعته إلى الزعامة

للأستاذ أحمد رمزى بك

[إن من السهل على المرء أن يعمل من أن يفكر ، وإذا فكر فمن أصعب الأمور أن يجعل عمله خاضعاً دائماً لما أوصله إليه فكره] . «جوته»

عند اقتراب نهاية هذا العام يكون قد مضى على وفاة مصطفى كمال ثمانية أعوام ، خرج منها العالم من حرب عالمية طاحنة ، وتمخض فيها بالتغييرات والانقلابات الكثيرة . وكلما مرت الأيام تمثلت إليّ شخصية الغازى كأنموذج لكلمة جوتة الخالدة : إذ هو من الأفراد القلائل فى الشرق الذين عملوا بعد تفكير طويل ، وأخضعوا أعمالهم لفكرتهم الأولى ، ولما لازمهم التوفيق فى جهادهم ، لم تسكرهم نشوة الظفر ولا شغلتهم مظاهر السلطان عن فكرتهم التى بدأوا منها وأخذوا بها ، ولذلك جاءت حياتهم العامة صورة لما انطبع فى أذهانهم من أفكار وآمال كبار .

إن الزعيم المجاهد والجندى المنتصر قد أصبح الآن فى ذمة التاريخ ؛ ولن يضيرنا اليوم أن نعرض لشىء من حياته وأعماله وخدماته ، فلو كان حيًّا يرزق لقيل لنا إننا نتملقه أو نتملق بلاده وشعبه ولاتخذ بعض الناس ذلك للقيل والقال ، أما وقد خفت ذلك الصوت الهادئ النبرات الذى كنت تسمع له رنيناً عند ما كان يخطب بالمجلس الوطنى الكبير بأنقرة ، وأغمضت العينان اللتان كانتا تشعَّان نوراً وبريقاً ، فقد أصبح فى وسعنا أن نقول ما نعتقد وأن نكشف الستار عما نعلم وليست لنا غاية سوى إرضاء الحق .

***

بين ٢٥ إبريل و ٩ ديسمبر ١٩١٥ كانت حملة الدردنيل حيث دارت رحى الحرب على روابى شبه جزيرة غاليبولى ، وكانت معاركها محط أنظار العالم إذ كانت سلسلة من التجارب للقيادة التركية بل كانت أكبر من ذلك للجندى المقاتل . كانت

فاشترى جارية أولع بها وعكف عليها حتى افتقر ، وجاءها المخاض فذهب يطلب لها شيئاً فلم يرجع ، وأسعفها البقال أبو الفتى ، وولد للرشيد مولود فطلبت له المراضع فلم يقبل ثدى واحدة منهن فدل على الجارية فقبل ثديها ، وصارت ظئره وكان المولود هو أمير المؤمنين المأمون .

ويسمع الرجل القصة فيحس أن الأرض تدور به ، فيمر بآلاف الصور والألوان ، والشكوك والأمانى ، ثم يسأله : وأين أم الولد ؟ ويحسب أن هذه اللحظة التى انتظر فيها الجواب ، قد طالت حتى غدت دهراً ، وأنه كالقائم ليسمع الحكم عليه بالبراءة أو القتل . فيقول الفتى : إنها باقية تغدو إلى دار الخليفة أياماً وتكون مع ابنها أياماً ، ولكنها لا تزال حزينة لم تمسح آلامها الأيام ولم ترقأ لها دمعة .

ويدعه الرجل ويركض إلى الدار يشعر أنه يمشى فى الزمان ، يعود أدراجه إلى لياليه الماضيات ، إلى عهد الحب الضاحك ، ولياليه المترعات بالقبل . لقد نسى فى هذه الخطوات كل ما لقى من شقاء ، وما حمل من ألم ، وامتلأ قلبه شكراً لله الذى استودعه حبيبته وما فى بطنها فما ضاعت عنده الوديعة ، هذه الحبيبة التى طالما بكاها يحسبها ميتة وجاء ليدفن جسده الوانى بجانب رفاتها ، قائمة تنتظره لتمنحه عطرها وسَحْرها ونحرها ، وهذا الجنين الذى خلفه على باب الموت شاباً ممتلئاً قوة وأيداً ومالا ومجداً ...

ووصل إلى الشاب ، فقال له : ما تبتغى ؟

تخفق قلبه ، وتلاحقت أنفاسه ، وهمت مقلتاه ، ولم يجد ما يمهد به الحديث ، فقال له :

— أنا أبوك !

ونظر الشاب شاكا ، وقال له : اتبعنى ، فاتبعه فاجتاز به صحناً بعد صحن ، حتى انتهى إلى مكان الحرم فأقامه أمام ستارة ، وذهب ليسأل أمه ، ودلّ الرجل قلبه على أن الحبيبة وراء الستارة فناداها ، وإذا الستارة تهتك ، والمرأة تثب إلى عنق الرجل ، تبكى وتضحك وتضحك وتبكى وتقول ما لا تدريه ...

ويدير الشاب وجهه فما يحسن به أن ينظر إلى أبويه وهما يعيدان عهود الهوى والشباب ...

علي الطنطاوي

له مدرسة قاسية وامتحاناً وعراً أظهرا مزاياه وصفاته ، ففي معركة أنافارطة أوقفت هذه الصفات الخلقية الكامنة في نفسه الهجمات البريطانية المتراصة المتتالية المتتابعة كأمواج البحر .

وكان ذلك تحت قيادة رجل نحيف الجسم عصبي المزاج امتاز على أقرانه الضباط بعناده وقوة شكيمته : ذلك هو الأميرالاي مصطفى كمال الذي أقدم في ساعة من ساعات التاريخ الفاصلة لحمل عبء أفدح المسئوليات التي تواجه رجل الجندية ، إذ كان الموقف جدّ الخطورة ، وكانت القيادة في قلق من انهيار الجبهة إزاء هجوم بريطاني حاسم ، ولم يكن الوقت يتسع للمداولة وتبادل الرأي فلم يكن لديها سوى رأيين يتلخصان في نعم أو لا ، فنعم كانت قبول الهزيمة وما يتبعها من تراجع وفشل وسقوط العاصمة والفناء ، و«لا» كان معناها قبول المعركة في ظروف سيئة ولكن فيها الثبات والعناد والمصادمة والمقارعة حتى يتم النصر .

وكان القائد الأعلى للجبهة الجنرال فون ساندوس الألماني وهو من خيرة ضباط السواري في الجيش البروسي قد وجدها كبيرة عليه أن ينطقها لما تحتمله من المجازفة في دخول معركة تبدو خاسرة ، فهو ليس من أهل البلاد ، وهو يعلم جيداً أن الفن العسكري والعبقرية لا يجديان شيئاً أمام ساعات التاريخ الفاصلة ، وأمام القرارات الحاسمة ، التي لا تصدر عن إرادة القائد الحربي ، إلا بعد أن يدعمها الشعور القومي الواعي ، والإحساس الوطني الوافر الذي يربط المرء بأرض بلاده وتاريخها ويجعله يشعر بأخطار المستقبل وبالمسئولية أمام الوطن ، وفي مواجهة الأجيال القادمة .

ولذلك ألقي العبء والمسئولية على عاتق مصطفى كمال ، فتولى المعركة وأعلن للقائد الألماني « أن الهاجمين لن يقتحموا الجبهة وأنه يتحمل وحده مسئولية ونتائج المعركة التي تبدو خاسرة » .

واعترف مصطفى كمال بأن الذي دفعه لذلك هو إيمانه بأن الجنود الذين تحت إمرته سيبذلون ما في طاقة البشر للقيام بواجبهم وأنهم سيقبلون التضحية بمجرد اشتباك القتال وأنهم سيثبتون في مراكزهم ، وحقت فكرة قائدهم فقد ظهر جندي المشاة في الصورة التي رسمها في مخيلته مصطفى كمال . وهكذا ذاقت تركيا طعم النصر بعد سلسلة طويلة من النكبات والهزائم . فكانت وقفة رائعة لفتت الأنظار إلى عبقرية هذا القائد حتى إنه عند زيارته لألمانيا بادره الامبراطور غليوم عند ما قدم إليه بقوله : « الفرقة التاسعة عشرة أنافارطة » ونظرة عابرة تريك ماهي هذه الوقفة .

إن القطع العسكرية التي في الخطوط الأمامية ذابت تحت نيران المدفعية وقذائف الأسطول ونيرانه المركزة ، ولكن لم يتراجع أو يفر فرد واحد منها ، بل فنيت بأكملها حتى آخر جندي فيها ، وكانت عظيمة في موتها واستشهادها لأن الطلقات التي استمرت تقذف بها أوقفت الهجوم في أشد الأوقات وأنقذت الجبهة إذ لم يطأ العدو خنادقها إلا بعد أن لفظ آخر جندي بها أنفاسه الأخيرة .

أما الفرق التي تجمعت في الخطوط التالية فقد كانت تسير إلى الموت وقد ظهر تصميم القتال على وجوه أفرادها ، كانت رائعة في مواقفها وفي ثباتها وهي تتراص ، كانت قد تحملت نيران العدو وقذائفه ثلاثة أيام بلياليها ، لم تؤثر فيها أيام الانتظار ولا ساعات السير على الأقدام من موقع لموقع . كان يخيل إلى من رآها أنها قد أتت من المؤخرة من ساحة العرض أو احتلت مراكزها بعد راحتها وكأنها لا تعلم بما يدور حولها أو كأنها لم تر بعينيها سوق الموت القائمة .

نعم كانت معنوياتها وأعصابها بإقرار كل من كتب عن هذه الحرب من النقاد الحربيين من البريطانيين والألمان وغيرهم ، فوق المستوى العادي للبشر في الساعة التي رأت قائدها العنيد يباشر القتال بنفسه ويصدر أمره مقتحما أول رابوة واجهته ليقودها إلى النصر ، ولذلك جاء هجوم هذه الوحدات كأعصار يدك كل شيء ، ولم يكن الخصم ينتظر دفاعاً مثل الذي لقيه في أول يوم ولا هجوماً كهذا ، وعليه ولى الهاجمون الأدبار وأخلوا المواقع التي احتلوها متجهين إلى البحر ، وفي مساء آخر يوم للمعركة جاء قائدهم من جزيرة لمنوس على باخرته من الجنوب ليشهد الشراذم تتجمع على الشاطئ لركوب القوارب ، كانت بقايا الوحدات المنظمة التي قذف بها على الجزء الغربي من غاليبولي : وكان أن اتخذ الأتراك اسم المعركة لقباً لأبطالهم فخلفوا بأنافارطة واحتفلوا بها واتخذوا يومها عيداً لهم يعيدون فيه ويشيرون إلى أن بعثهم من جديد كأمة بدأ من ذلك اليوم .

واختتمت معركة أنا فارطة بأيامها ولياليها والقمر شاهد عليها بالنصر الذى جعل أعظم قوات العالم تبدّل وتغيّر فى خططها الكبرى واستراتيجيتها ثم تقرر إخلاء شبه الجزيرة ، وانتهت بذلك حملة الدردنيل بعد أن فتحت الطريق للقواد والنقاد والكتاب الحربيين يضعون المؤلفات عن تاريخها وأيامها ومواقعها فإذا نحن أمام مكتبة فيها عشرات المجلدات بمختلف لغات العالم ما تقرأ مجلداً بالانجليزية حتى تراه مترجماً للتركية وترى مثيله فيها ، وما تجد مؤلفاً بالألمانية حتى تجد ما يساويه بالفرنسية ، استعرض كاتبوها مواقع البر ومعارك البحر وحدّدوا سير القتال ومواضع الزحف وانتقدوا عمل الأساطيل كما انتقد رجال البحر عمل رجال الجندية ، وتبين من أقوال الاختصاص أن مشاريع اقتحام المضايق درست وبحثت ووضعت تفاصيلها منذ عام ١٩٠٦ ، وضع المؤلفون كتبهم وتداولها الناس ولكن رجلا واحداً بقى صامتاً لا يتكلم هو مصطفى كمال صاحب المواقف الحاسمة وبطل أنافارطة ، إنه لم ينسب لنفسه شيئاً بل قال : « إن ما حصل عليه من مجد ليس من عمله ؛ إنه نتيجة كفاح الجندى التركى وحده » ذكر مراراً ذلك وأعاده وكرره .

لقد انتهت المعركة التى جعلت منه بطلا عالياً وخفتت أصوات المدافع وزمجرة البطاريات السريعة الطلقات وزالت الأخطار عن عاصمة آل عثمان فأقيمت الأفراح فإذا بأنصاف الرجال يدقون الطبول ويرفعون أرباع الرجال إلى السماء ، وإذا بهم يتقاسمون الأسلاب ويفرحون بما لم يفعلوا وينسبون أمجاد الغير لأنفسهم ، ووقف القائد العنيد يدخن سيجارته بهدوئه وصمته وقد اتجهت أنظاره إلى آفاق بعيدة ، فما الذى أوحت به إليه تلك الأيام الحالكة السواد وهذه المعارك الفاصلة ، وماذا تركت فى نفسه من دوافع وما حملت إليه من أفكار ؟ لقد كانت إقامته وقتئذ بمركز قيادة الفرقة التاسعة عشرة بشبه جزيرة غاليبولى ، وكان يقضى الأيام والليالى فى وحدة شاملة وقد تجمعت أفكاره واتجهت إلى مستقبل هذا الوطن الجريح ، وقد اخترقت عينه النافذة ما وراء الحجب فإذا هى تبصر ما يحيط ببلاده من الأخطار وما يحاك حولها من مكائد وما يرسم ويدبر من خيانات ، وما يرقبها من أهوال ونكبات .

فى لحظات التركيز والوحدة استرد مصطفى كمال ثقته فى نفسه وإيمانه فى أمته ، فأيقن أن الأقدار قد حمّلته رسالة مقدسة هى إنقاذ تركيا من مصائبها . ويحدثنا عن نفسه فى تلك الفترة الرهيبة فيقول : أخذت تنتابه الأفكار وترتاده الآمال الكبار وهو يحركها فى بوتقة التحليل مستعيناً بمنطقه الجبار فيفرز الغث من السمين ويطرد الهواجس والأحلام والخيالات الوهمية من نفسه بل يجتهد أن يحرّر عقله منها ، وأخيراً وجد ضالته فقال : « إن الامبراطورية التى أقامها بنو عثمان من بقايا ملك آل سلجوق وقدّر لها أن ترى فتح القسطنطينية يتحقق على يديها ، هذه الدولة التى سبّبت المتاعب والمخاوف لأوروبا وشعوبها ودانت لها الدنيا ستة قرون لم تعد شيئاً مذكوراً بعد الضربات التى تلقتها من أعداء الداخل والخارج ، فكل عمل يبذل لإنقاذها سيذهب هباء منثوراً » .

واضطربت نفسه أمام نكبات تركيا المتتالية وحروبها التى لا تنقطع فأراد أن يجد لذلك مبرراً من دروس الماضى متسائلا لماذا كانت بلاده من بين بلاد العالم هى التى توجّه إليها الضربات والهجمات من كل جانب ؟ حاول أن يجد تفسيراً لذلك فقال : « إن الأعلام الحمراء التى ظهرت فى آسيا وحملتها جيوش المسلمين إلى أوروبا حتى ظللت أسوار فينا ، وقفت هناك وقفتها الأولى وكان ذلك فى القرن العاشر من الهجرة ، كما وقفت من قبل أعلام العروبة والإسلام(١) فى تود وبواتييه من أرض فرنسا فى القرن الأول قبل الوقفة الثانية بتسعة قرون » .

« إن العهد الذى لقى فيه المسلمون أولى هزائمهم وفترت فيه معاركهم الزاحفة الفاصلة قد حرّك روح الانتقام لدى أعدائهم وأن القاعدة أن كل هجوم تعقبه فترة هدوء واستجمام للمهاجم ولكن هذا لا يمنع أن كل تصادم يحرّك تصادماً وكل هجوم يعقبه هجوم مضاد ، فالهزيمة التى أوقعها شارل مارتل بجيوش المسلمين فى فرنسا كانت فاتحة الهجوم المضاد الذى شنّته أوروبا على العرب فى أراضيها والذى دام ثمانية قرون حتى قذفت بهم

(١) لا يندهش القارىء من ذكر فتوحات العرب فقد أوردها بالنص فى خطبته وتحدث عن هذه النظرية مراراً وهو من أقدر الرجال فى استخلاص الحقائق من التاريخ .

على الشاطىء الأفريقى ، ولم تقف عند ذلك الحد ، بل استجمعت قواها فى القرنين التاسع عشر والعشرين وأخذت تطارد العرب فى ديارهم وتنزع من أيديهم الجزائر وتونس ومراكش ومصر وطرابلس ، وما ملاحقة هـذه الشعوب والعمل على إفنائهم وإسكان الأوروبيين بأراضيهم سوى حلقة من حلقات ذلك الصراع الصليبى الذى بدأ من تور وبواتييه أو قل هو الثمن الذى يدفعه العرب نتيجة لهزيمتهم فى قلب فرنسا » .

« أما الأتراك العثمانيون فقد أثاروا الهجوم المضاد عليهم من يوم هزيمتهم تحت أسوار فينا إذ تلاحقت عليهم النكبات فى خلال ثلاثة قرون ، فرض عليهم القتال فيها ولم تبق أمة من أمم أوروبا إلا اشتركت وساهمت فيه بحق وبغير حق ، بل وافتخرت بما سفكت من دماء المسلمين وبما أفنت من رجالهم وبما مزقت من أشلائهم وبما خربت من مساجدهم وآثارهم وقبورهم . لقد تجمعت على الأتراك القوى من كل جانب وحاصرتهم فى البر والبحر ولم يبق بعد طول العراك سوى هذه البقعة من الأرض يرفرف عليها علمهم : فما قيمتها للجندى المقاتل الذى أغمض عينيه للمرة الأخيرة أمام نظر قائده ؟ هى له الموئل والمآل فهل هى النهاية كما كانت للأجداد بداية ؟ » .

فى ليلة من ليالى أنقرة بقصر نشان قايا أخذ الزعيم يشرح هذه النظرية أمام جمع التف حوله فقال : « إن المعارك التى خضنا غمارها بالأمس والتى سندعى لغيرها بالغد هى حلقة من حلقات هذا الهجوم المضاد القاسى الذى شنه الغرب علينا وأثاره الترك بزحفهم إلى فينا كما أثاره العرب بفتوحاتهم الأندلسية ودخولهم إلى قلب فرنسا » .

قال إنه بعد معارك الدردنيل وفى وسط حرب الاستقلال كان يحدث نفسه قائلا : « لقد فرض علينا الأعداء أن نفنى لأننا كنا أقوياء وخيل إليهم أن جهادنا التاريخى قد انتهى وأننا نعالج سكرات الموت فى الموقع الأخير the hast fost فهل تنفخ فى البوق النغمة الختامية على أجساد آخر المقاتلين من بقايا تلك الملايين التى جادت بالأرواح فى حومة الوغى وتطوى تركيا وتحمل إلى اللحد كما فنيت وطويت آشور وروما وكما زال فرعون وثمود وعاد » .

حدث عن نفسه قائلا إنه فى أسوأ المواقف كان يشعر « بأن هذا لن يكون وأن بلاده ستبعث قوية وستحيا إلى الأبد » .

وهنا التفت وصوب نظراته النافذة وخرج كلامه قوياً فقال « إن إطلاق النظريات الإنشائية والآمال والأفكار الكبرى سهل على النفس ولكن التمسك بها والسير على ضوئها صعب ، لأن هذا يستلزم أولا إخراج ما يلابس هذه النظريات والمبادئ من عوامل السلبية وما يلازم الفكر البشرى من عناصر الضعف والتردد ، إن الأفراد الذين ينصبون أنفسهم لخلاص الوطن يجب عليهم أن يتجردوا من أشياء كثيرة عزيزة عليهم » .

ذلك مبدؤه الذى نادى به فى تلك الليلة ؛ وتفسير ذلك أن معارك الدردنيل أصبحت له قوة دافعة بل كانت حداً فاصلا فى حياته إذ أمضى الشهور ونفسه متوثبة متطلعة تحت تأثيرها ، ولكن ما لبث أن واجهتها الحقائق : عادت إليـه ذكريات الهزائم المتتالية وأخذت تبدو إليـه العاصمة بمظاهر التفكك والانحلال الخلقى وعوامل الهدم وتأثرت نفسه لما استعرض تاريخ الحروب والمعارك التى كسبها مقاتلة الترك ثم أضاعها رجال السياسة والمواقف التى اكتسبها هؤلاء فى ميادين السياسة وأضاعها رجال الحرب فى ميادين القتال .

وبرزت تركة الرجل المريض المحتضر على حقيقتها محملة بالأعباء والمصائب وبدا المستقبل قاتماً مظلماً كالليل . تلك هى النواحى السلبية التى أخذت تساوره فى الأيام التاريخية التى وقعت بين حملة الدردنيل وعودته من ألمانيا ، قال « إنه وجد أمامه بصيص نور من أنوار الأمل هو ذلك الضياء الذى ارتسم على وجه الجندى التركى فى معركة أنافارطة حينما لقى الموت وهو قرير العين ، كانت ابتسامة تحمل الخلود للأمة التى أنجبت هذا المقاتل الذى لقى ربه وهو ضاحك بعد أن أدى واجبه نحوها » .

وكتب مصطفى كمال فقال : « لو قدر لهـذا الجندى أن يجد القيادة الحازمة ، ولو لمس الإخلاص الذى يشع من قلبه فوجده فى قلوب الساسة والقادة لتغير وبدل ما كتبه التاريخ فى عصور الانحطاط ولأعاد مرة أخرى عهد الدماء القوية التى حملت الأعلام الحمراء إلى قلب أوربا وفرضت النصر فى كل معركة دخلتها . إنها ليست أخطاء الشعب إنها خطايا القادة التى أوصلتنا إلى ما نحن فيه »

على هامش النقد :

شـــــعر من الجزيرة

للأستاذ سـيد قطب

١ — الهوى والشـباب : أحمد عبدالغفور عطار
٢ — الشاطىء المسحور : محمد عبده غانم

هذه تحية لا نقد ؛ فتلك بواكير يقظة فى قلب الجزيرة ، ما أجدرها منا بالتحية ، لا لأنها لا تثبت للنقد ، ولـكن لأن التحية هنا أليق !

وهما ديوانان من الشعر ، والشعر فى هذه الفترة يعانى أزمة ، فبين مئات الـكتب التى صدرت فى فترة الحرب بوفرة ، لم تصدر إلا دواوين قليـلة تعد على الأصابع ، وذلك موجب آخر من موجبات التحية !

شعر من الحجاز وشعر من اليمن . . وقد اعتدنا أن ننتظر الشعر فى لبنان ومصر ، وفى سورية والعراق ، وربما فى تونس ، فقد نبغ فيها الشابى شعلة تضوى ثم تخبو سريعاً ، فها هو ذا الحجاز ، وها هى ذى اليمن تساهمان أيضاً بنصيب ... فما أجدرهما بالتحية !

وكم ذا يسرنى — كمصرى مشتغل بالنقد الأدبى — أن أستقبل هذا النتاج ، وأن أضم بدىّ على طاقة من تلك الزهرات من مشرق الشرق العربى إلى مغربه ، فمصر كثيراً ما تهم بالتقصير فى حق جيرتها ، فهى فى عرف بعضهم غافلة أو متغـافلة عن خطوات النهضة الأدبية فى البلاد الشقيقة .

وهذا ظلم لمصر ، فما أحسبها قصرت فى التنويه بأى أدب ، ولا بأى أديب وصلت إليها أنباؤه ، وإنى لأعلم أن صحافتها تفسح لأبناء البلاد العربية ما لا تفسحه لبنيها ، وتؤثر بريد البلاد العربية على بريدها ؛ ولا تجد فى نفسها غضاضة ولا حسداً أن يتفوق بعض أبناء الشقيقات على بعض أبنائها ؛ وإنها لحفية بكل مايصل إليها من هناك . أما الذى لايصل فليس الذنب ذنبها ، ولايكلف الله نفساً إلا وسعها .

وقبل أن يلومنا الإخوان على إهمالنا لنتاجهم ، يجب أن يسألوا أنفسهم : هل بلغنا نبأ ذلك النتاج ؟ هل هو يباع فى أسواقنا ؟ هل أعلن عنه فى صحفنا ؟ هل وصلتنا صحفهم التى أعلنت عنه ؟ وإلا فما نجد سبيلا إلى الحصول على كتب ممايصدر فى كثير

ولم يدر مصطفى كمال فى تلك الفترة أن ابتسامة الشهيد التى رآها هى نفحة من نفحات الإسلام يرزقها المولى لمن ذاق حلاوة الإيمان فى قلبه ولقى الموت وهو يؤدى فرض الجهاد ابتغاء مرضاة الله ، وفى سبيل الله وعملا بما أمر به الله . فهى ليست دليلا على تفوق المنصر بل هى آية من آياتَ الرسالة المحمدية للناس كافة

إننى أكتب هذه الـكلمة بعد إقامة سبع سنوات بتركيا وبعد أن التقيت بمئات من المسلمين من أنحاء الأرض منهم من جاء من كاشغر عاصمة التركستان الصينية ، ومنهم من كان فى القرم وفى قفقاسيا وعلى نهر الفولجا : لأقرر أن الثورة الـكمالية فى عنفوان شدتها ، والثورة الشيوعية بأساليبها التى لا يقرها العرف وكلاها فى إبان القوة والبطش لم يستطيعا التغلب على الإسلام فى البلاد التى رسخ فيها ، وإن الذين خُيِّل إليهم أن سلطان الإسلام قد زال من الأقاليم الاسيوية الخاضعة للسوفييت وأن ظله قد تقلص من تركيا واهمون : وسيبعث الإسلام ودين محمد فى تلك الجهات ويعود على صورة تبهر العالم .

إن أقوى التعاليم الدنيوية والنظريات لا تلبث أن تهوى وتذبل مع الزمن ، أما قواعد الثورة المحمدية الـكبرى التى أودعت فى تعاليم الإسـلام وأتت بها النبوة فباقية مع الزمن فى أفئدة الشعوب والجماعات والأفراد وحتى الذين خرجوا عليها وشقوا لأنفسهم الطريق بعيداً عنها ونابذوها العداء لا يلبثون أن يعودوا إليها ، وما مصطفى كمال إلا واحد من هؤلاء ستكشف الأيام الـكثير عن روحه الحائرة وسنعود يوماً لدرس هذه النفس المتمردة من ناحية الإيمان والعقيدة وكل آت قريب .

(يتبع) **أحمد رمزى**

من البلاد العربية إلا أن نقوم برحلة إلى هناك ، وهذا ما لا يستطاع لكل فرد فى كل آن .

لقد أعلنت مرة فى « الرسالة » — وهى مقروءة فى كل بلد عربى — أننى فى حاجة إلى كل ديوان شعر وإلى كل قصة أو أقصوصة طبعت فى شتى البلاد العربية ، لأن لدى بحثين معطلين عن : « الشعر المعاصر » وعن « القصة الحديثة » ، ولأننى كرهت أن أقتصر على الشعر المصرى وعلى القصة المصرية ؛ وقلت : إننى لا أطلب « هدايا » ، ولكننى أطلب هذه الكتب محوّلا بثمنها على البريد ، ذلك أننى لا أجدها فى السوق المصرية ، ولا أجد لى سبيلا إليها . فماذا حدث ؟

حدث أن تفضل بعض الشعراء والأدباء فى فلسطين والعراق والحجاز بإهداء دواوينهم وقصصهم إلىّ ، ولكن البقية لم تصلنى كما أن سورية ولبنان لم يسمعا النداء ، وهمس بعضهم فى أذنى : إن هناك موجدة على مصر لأنها تصدر أدبها ولا تستورد آدابهم وهذا غريب . . فلقد اشترينا هنا كل ما صدر إلينا من هناك ، ومن سورية ولبنان خاصة ، وإننى لأكره هذه النغمة ، إنها نغمة مقيتة — وفى جو الأدب خاصة — فكلنا شركاء فى النهضة ومصر تؤدى واجبها الذى فرضته عليها الظروف ، وإنها لتجد نفسها سعيدة حين تنهض شقيقة لها أو أكثر بالمشاركة فى العبء فهو عبء أثقل من أن تنهض به وحدها ، وما يجوز أن ترتفع هذه النغمة المقيتة فى بلد من البلاد الشقيقة

فلندع هذا كله لنعود إلى تحية الشاعرين والديوانين

***

هنالك شبه عجيب بين النسيج الشعرى فى كلا الديوانين ، فهو نسيج رقيق هفهاف ، والشعر الحجازى القديم مشهور بالرقة والعذوبة ، والشعراء الغزلون قد نشأوا هناك ، فديوان « الهوى والشباب » ليس غريباً فى بيئته ، فالظاهر أن الرقة والعذوبة ما تزالا كامنتين — تحت الشظف — فى مدائن الحجاز . أما « الشاطئ المسحور » ، فيبدو أنه يستمد عذوبته ورقته من خصب اليمن وروائها التاريخيين ، فالبذرة هناك كامنة ما تزال .

وإذا كان فى شعر الأستاذ « عطار » جزالة تمازج الرقة فى بعض الأحيان ، فإن فى شعر الأستاذ « غانم » انسياباً وسيولة دائمين فى جميع فصول الديوان ، ولكنهما قريب من قريب .

وإليك قطعتان من الديوانين :

يقول صاحب « الهوى والشباب » بعنوان « وعود الغانيات » :

وعودك يا غادتى جمة   ولكن إلى اليوم لم تصدقِ
كأنك لم تبصرى عاشقاً   ألح به الحب لم يشفق
يعيش بمساله كاسفاً   ويغرقه الهم للمفرق
يسير بلا وعيه ناجياً   إليك ... إلى بيتك المغلق
عساه يرى طيفك المشتهى   يلوح له كالسنا المشرق
ويسمع صوتك جم الحنان   يغرد كالبلبل المطلق
فيحسبه أغنيات الخلود   ترف على قلبه الشيق
فهلا رحمتِ الفؤاد الحزين   وأنجيته من ردى محدق
وهلا أنلت الرضى مغرماً   يصافى الوداد ولم يمذُق !
بهجرك أمسى يذوق اللظى   ولو أنت وفّيت لم يربق
ولولاك ما اجتر آلامه   وأمسى صريع الهوى المطبق
وعاش على أمل شارد   يلوح كآل الفلا الرهق
فإنك إن تكذبيه الوعود   فليس سوى يأسه المُمْسِنِق
ألا فاصدقى مرة وامنحى   حبيبك رشف الجنى الرّبق
فقد صرعته أكف الخطوب   وما انفك عن حبه الموثق
وصفق كفيه غل الأمى   فضاع حجاه مع المنطق

ويقول صاحب « الشاطئ المسحور » بعنوان « أنين » :

لست تمشين على الأرض ولكن فوق قلبى
تلك أنغام خطىً قد مازجت روحى ولبى
نقلِى الخطو كما شئت ولا ترثى لصب
ضاق بالآلام والآمال فى بعد وقرب

ما براك الله مثل الناس من لحم وعظم
أنت إشعاع من القدس لقلبى المستهم
جمّع الله بك الألوان فى أبدع نظم
وأرانا كيف يجلو آية الحسن الأتم

كم تعرضتُ لعينيك لكى أحظى بنظره
وتمنيت بأن أرشف من ثغرك قطره
وتحايلت لكى ألمس من جَعْدِك شعره
وتلويت لكى أقطف من وردك زهره

وتمرّين كأنى لست موجوداً بقربك

وكأنى ما ملأت الكون أشعاراً بحبك
لا تغضى الطرف عنى وانظرى نحوى بربك
أنا والله الذى ترضين لو عشتِ لقلبك

أنا لحن فى فم البلبل ترويه الرياح
ورحيق فى كؤوس الحب تحسوه الملاح
وشعاع فى الثرى النعسان يزجيه الصباح
وشذا ما منه للهائم بالروض براح

لستُ أدرى ما الذى تخشين منى لست أدرى
وأنا الشاعر لا أرضى لمخلوق بضر
أنا لولا لوعتى صنتُك فى قلبى كسرّ
ومنعتُ القلبَ أن يخفق حتى لا تضرى

كم يقاسى الشاعر الهائم فى دنيا الجمال
كم له من أنة حمراء فى سود الليالى
ودموع دونها لولا الهوى رطب اللآلى
قد جرت فوق الروابى وتلاشت فى الرمال

أنت يا رب الذى أوجدت فينا الشاعرينا
وجعلت الحب للشاعر فى دنياه دينا
كلما لاح جميل جن بالشوق جنونا
ومضى ينفث فى آهاته الداء الدفينا

لست أدرى لِمْ خلقت الحب يا رب غشوما
وملأت القلب بالإحساس والوجد جحيما
لو محوت الحسنَ ما ذقنا به الذل الأليما
أو مسخت القلب صخراً عاش كالصخر كريما

أنت قد سلّحت يا رب الحسان الفاتنات
بلحاظ فاتكات وقدود طاعنات
وحرمت القلب فى بلواه من درع الثبات
فهو بين الضرب والطعن على وشك الفوات

***

هاتان القصيدتان تمثلان فنى الشاعرين كل التمثيل ؛ وحينما يبدو من الأستاذ « عطار » ميل إلى اتباع « عمود الشعر العربى » يبدو من الأستاذ غانم ميل إلى الرومانتيكية « الإبداعية » ثم يجتمع كلاهما على الرقة والعذوبة كما رأينا .

وقد أثبت القصيدتين كاملتين بما فيهما من مواطن الضعف ومواطن القوة فى الشعور وفى التعبير ، لأننى أرمى إلى التعريف بالشاعرين . ولقد يدهش الكثيرون أن يجدوا مستوى الأداء قد وصل إلى هذا الحد فى الحجاز وفى اليمن ، لأننا حديثو عهد بالنهضة الأدبية فى هذين البلدين الكريمين .

وقد يكون الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار معروفاً للقراء فى مصر ، لأنه كتب فى بعض صحفها ، كما نشر من قبل كتابين : « كتابى » و « محمد بن عبد الوهاب » ، والأول مجموعة مقالات لها قيمتها فى الأدب والاجتماع والسياسة . والثانى دراسة طيبة لحياة المصلح الكبير « محمد بن عبد الوهاب » ، فكتبت عنهما الصحف المصرية مثنية مشجعة .

أما الأستاذ محمد عبده غانم ، فيسرنى أن أقدمه شاعراً عذب الإيقاع ، رقيق العبارة ، حلو الروح

وإنه ليسرنى أن أجمع بين الأدباء والشعراء فى جميع البلاد العربية ، وبين قراء « الرسالة » فى مصر وفى هذه البلاد مرات بعد مرات ..

سيد قطب

مجالس الأدب:

في إحدى ليالي رمضان

للأستاذ كامل كيلاني

[تثبت فيما يلي نص الحوار الطريف الذي دار بين ثلاثة من أدباء مصر وشعرائها في إحدى ليالي رمضان كما أذاعته محطة الشرق الأدنى]

١ — المعري يصوم ويصلي

عبد الغني: بمناسبة شهر رمضان، هل كان كبار الشعراء — يا أستاذ كامل — يصومون؟ وهل كان أستاذك المعريّ يصوم؟

كامل: ويُصلّي أيضاً.

عبد الغني: إذ يقول في الصلاة يا أستاذ كامل.

كامل:

« وأعجز أهل هذي الأرض غاوٍ أبانَ العجزَ عن خمسٍ فرضْنَهْ »

ولكنه يريدها صلاة خالصة لوجه الله، وإلا حلّت اللعنة على صاحبها.

عماد: إذ يقول؟ يا أستاذ كامل.

كامل:

« إذا رام كيداً بالصلاة مُقيمها فتاركُها عمداً إلى الله أقربُ »

ولن يصح تديُّن الإنسان — فيما يرى — إذا اقتصر على الصلاة والصوم، دون أن تخْلُص نفسه من أرجاسها، وتكفَّ أذاها عن الناس.

عبد الغني: وما الذي يحضُرُك من شعره يا أستاذ كامل؟

كامل:

« ما الدِّين صومٌ يذوب الصائمون له
ولا صلاةٌ، ولا صوف على جَسدِ
وإنما هو ترك الشر مطرحاً
ونَفضُكَ الصدر من غل ومن حسد »

عماد: أو يقول؟

كامل: ما أكثر ما يقول في هذا المعنى — يا صاحبيَّ — وما أبرع قوله في هذا الباب:

« إذا الإنسان كفّ الشر عني فسقياً — في الحياة — له ورعيا
ويدرسُ — إن أراد — كتاب موسى
ويضمر — إن أحبّ — ولاء شعيا »

عبد الغني: فهل كان يصوم يا أستاذ كامل؟

كامل: كان صائمَ الدهر، يصوم عن الأكل كما يصوم عن الأذى والشر.

عبد الغني: وماذا قال في هذا الباب يا أستاذ كامل؟

كامل:

« أنا صائم طول الحياة، وإنما
فِطري الحِمام، وذاك حين أُعَيِّدُ »

٢ — عقيدة المعري

عماد: إذن يا أستاذ كامل كيف تعلل اتهامه في دينه؟

كامل: لم يتهمْهُ في دينه إلا قاصِرٌ أو مُقصِّرٌ في درسه، أو راغبٌ في إذاعة مبادئ الشك على لسان غيره، أو متسرِّع في فهم مراميه، أو رجل يُحسن الظن بآراء بعض الباحثين، فلا يُعَنِّي نفسه بمناقشتها وتمحيصها، أو ببغاء يُردد ما يسمع بلا تعقل.

عبد الغني: فكيف تعلل قوله:

في القدس قامت ضجة ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح
كلٌّ يعلل دينه ياليت شعري ما الصحيح؟ »

كامل: إن السخرية واضحة في الأبيات كما تريان، ولعلكما تذكران الآية الكريمة: « كل حزب بما لديهم فرحون » كما تذكران الآية « وإنَّا — أو إيّاكم — لعلى هُدًى أو في ضلال مُبين ». ولن يدور بخلدِ كائنٍ كانَ: أن الرسول (ص) كان شاكًّا في أنه على هدى، وأن مُجادليه في ضلال مبين.

عبد الغني: فكيف تعلل اضطرابه وتناقضه في شعره يا أستاذ كامل؟

كامل : لم يضطرب أبو العلاء ، ولم يتناقض . ولكن اضطرب فى فهمه المتسرعونَ وتناقضوا ، ورأى بعضُهم — فى مرآة نفسه المضطربة — صورته ، فحسبها صورة المعرى ، وهو منها برىء .

على أن المخلصين فى فهمه ، ممن رموه بالتناقض ، نسوا الحكمة التى درسوها فى مستهل حياتهم ، وهى : « لكل مقام مقال » فكان مَثلهم مثلَ من يُنصت إلى رجل : فيسمعه مرة يقول لولده مُغرياً : « لا شك عندى فى أنك باذلٌ فى دروسك يا ولدى قصارى جهدك وسيكون لك إن شاء الله شأن عظيم . ولتبلغن بجدك أعلى المراتب وأسماها » .

ثم تسمعه مرة أخرى يقول له :

« لن تنجح يا ولدى ما دمت مستسلماً لكسلك ، متمادياً فى غَيك ، مسترسلا فى تهاونك » أو يقول له غاضباً ثائراً : « والله لا أفلحت أبداً » .

فيزعم أن الوالد متناقض مضطرب ، لأنه يتمنى لابنه النجاح مرة والاخفاق مرة أخرى ، وينسى أنهما أسلوبان متباينان يهدفان — على اختلافهما — إلى غرض واحد : هو حفز الولد إلى الخير . وكلاهما يعبر عن حب أبيه لولده وحرصه على نجاحه .

***

وما أدرى — أيها الصديقان — كيف يشك فى صدق إيمان هذا الرجل ، دارس متعمق حصيف ، يجمع بين الإنصاف والإحاطة والفهم ؟

كيف يشك فى حسن عقيدة من يقول :

أقر بأن لى رباً قديراً ولا ألقى بدائعه بجَحْد

أو يقول ويصل إلى ذروة الإبداع :

تعالى الله ، وهو أجل قدراً من الإخبار عنه بالتعالى

إلى آخر ما يقول ، فما أنتما بحاجة إلى أن أتلوَ ما يزخر به شعره ونثره من الآيات الدالة على سلامة عقيدته ، وخلوصها من الشكوك والأوهام .

٣ — الفطرة المؤمنة

وقد علمتما — يا صاحبيّ — أننى عرضتُ لهذا الموضوع فى مناسبات عدة لا سيما فى رسالتَى الغفران والهناء ، وكتابى على هامش الغفران ، وحديقة أبى العلاء وربما أنجزت كتاب « عقيدة المعرى » وأعددته للطبع بعد قليل .

حسبكما الآن قوله فى رسالة الغفران ، ولعله — على وجازته — أبرع ما رأيت فى هذا الكتاب ، لأنه يقرر فى بلاغة علائية فاتنة : أن الإنسان مؤمن بغريزته ، وأن الله سبحانه قد وهبه فطرة مؤمنة تعصمه — إذا لاذ بها — من الزيغ والإلحاد ، كما يعصم الحصن الحصين من يلوذ به ويحميه من المغيرين وإليكما ما قال :

« والتأله (يعنى : الإيمان بالله) موجود فى الغرائز ، يكون لهنّ كالألجاء الحرائز (يعنى : كالحصون الحصينة كما تعلمان) » وبهذه الجملة البارعة يلتقى المعريُّ بما أبدعه لامرتين فى قصيدة « الخلود » وهى من غرر الشعر الفرنسى وروائعه .

كما يلتقى مع شكسبير فى قوله : « كل ما نلقاه حسنٌ إذا حسنت خاتمته » . فيقول :

« إن ختم الله بغفرانه فكل ما لقيته مهمل »

لا أدرى كيف يجرؤ منصف على اتهام مثل هذا الرجل الطاهر فى عقيدته . ألا ما أصدق المثل :

« رمتنى بدائها وانسلت »

ورحم الله ابن الرومى القائل :

ما خمدت نارى ، ولكنها ألفت نفوساً نارُها خامده
قد فسدت فى دهرنا أنفس تستبرد السخنة لا البارده

٤ — شيطان الشعر

عبد الغنى : هل تحسن نظم الشعر وأنت صائم يا أستاذ عماد ؟

عماد : كلا فإن سطوة الجوع تكفل هدم كل بيت من الشعر أحاول بناءه . أو لعل شيطان شعرى يسجن فى شهر رمضان مع سائر إخوانه الشياطين ، وإن كنت أنا نفسى مثلت دور شيطان فى هذا الشهر المبارك .

عبد الغنى : وكيف كان ذلك يا أستاذ عماد ؟

عماد : فى ليلة مظلمة من أحد رمضانات الحرب ، التى حرموا فيها النور عدت إلى منزلى متأخراً وكنت مرتدياً بذلة سوداء ، وبينما أنا واقف أمام الباب والشارع مقفر أقبل شخص

موازين البلاغة

بين القدامى والمحدثين

للأستاذ كامل السيد شاهين

— ١ —

وبعد جهد جاء الأستاذ العمارى يتمسح فى الآية الكريمة « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » زاعماً أنه نظير قول الآخر فى تشبيه البنفسج بأوائل النار ... الخ . غافلا أو متغافلا عن قدر التشبيه وما وراءه ، مدعياً أن أمره واقف عند حد الدقة والانحناء -- قال — والاصفرار ، ولو كان الأمر كما رجم لكان منزلة التشبيه فى الآية منزلة التشبيه بالمنجل والزورق الفضى ، وقلامة الظفر ، مما يظهر فيه النحول والتقوس .

فالمعنى الذى تمتلىء به النفس عند رؤية القمر آخر الشهر هو الفناء بعد الامتلاء ، وذلك أن القمر نزل منازل مختلفة منذ طلوعه فهو قد زاد نوره قليلا قليلا حتى استكمل ثم تناقص قليلا قليلا حتى كاد يذهب ضياؤه ، مثله كمثل العرجون يكون حياً فى نفسه مُمداً شماريخه بالحياة ثم يدب فيه اليبس والفناء فيرجع ولا غناء فيه ولا حياة . فوجه الشبه بعد التصوير يرجع إلى قلة النفع والاضمحلال واقتراب النهاية ، وإنما يهدى إلى ذلك سلامة الفطرة وحُسن التذوق(١) .

ولا أترك القول فى التشبيه المحَس حتى أضع يد الأستاذ على الميزان الذى يعرف به قيم التشبيه جمالا وغثاثة فقد ترك القدماء لنا ميزانا شائلا أملته طبيعتهم الأعجمية المتفلسفة ، وقديماً تحدى بعض الأدباء ابن الرومى ببيت ابن المعتز فى الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقوله فى الآذريون ، وهو زاهر أصفر فى وسطه خمل أسود :

(١) وفى اللسان : أنه — أيضا — نبت أبيض مستدير ، ييبس — إذ ضرب من الكمأة قدر شبر أو دون ذلك ، وهو طيب ما دام غضا .

أقول : لعل التشبيه فى الآية بأحد هذين وليس بعرجون النخلة . وهو أقرب إلى حقيقة الصورة وأظهر فى إبراز المعنى

من بعيد ، ولكنه حين لمحنى تباطأ فى مشيته ثم وقف متردداً ، فأدركت أنه خاف منى . وأنه حسبنى أحد شياطين الظلام ، فدفعنى حب العبث إلى أن أمثل دورى إلى النهاية . فتقدمت نحوه خطوتين فاضطرب وكاد يولى هارباً ، ولكن إلى أين ؟ وقد علم سلفاً أنى أدركه بوثبة شيطانية واحدة . وكان منزله لسوء حظه مقابلا لمنزلى ، فجمع قواه واندفع يجرى من أمامى فى سرعة الريح وهو يتلو آية الكرسى فى صوت عال محاولا إحراقى بها ، وأنا أشير إليه إشارات تزيده رعباً ، حتى أدرك باب منزله فارتمى فيه على وجهه .

كامل : وماذا كان وقع آية الكرسى فى نفسك يا أستاذ عماد؟

عماد : برداً وسلاماً على خلاف عادتها مع الشياطين .

عبد الغنى : إن هذه الحادثة لا تخلو من فائدة ، فهى تعلل لنا الحوادث التى يؤكد بعض الناس أنهم رأوا فيها الشياطين رأى العين

ولكن قل لى يا عماد هل تعتقد حقاً أن لكل شاعر شيطاناً يوحى إليه الشعر ؟ كما كان يعتقد حسان بن ثابت إذ يقول :

ولى صاحب من بنى الشيعبان فطوراً أقول وطوراً هوه

عماد : هذا بالطبع أمر لم يقم عليه دليل مادى ، ولكن مما لا شك فيه أن الشاعر عند ما ينظم قصيدته يكون مدفوعاً بقوة غير عادية ، فقد يعود إلى قراءة هذه القصيدة فى وقت آخر فيراها أعلى من مستوى تفكيره ، ويعجب من نفسه كيف تيسر له نظمها على هذه الصورة . والشاعر الذى أعنيه هنا هو الشاعر الصادق الذى لا ينظم إلا متأثراً بفكرته ، فالتأثر هو الذى يوحى إليه ما يحسبه من وحى قوة فوق قوة البشر ، كالشياطين أو الملائكة . أما الشاعر الكاذب المقلد فشعره من وحى القردة لأنها أطبع المخلوقات على التقليد ، ويجب عليه إذا ذكر وحيه أن يقول قال لى قردى لا قال لى شيطانى .

عبد الغنى : هذا حق والشعراء القردانية كثيرون فى كل عصر لسوء الحظ .

(البقية فى العدد القادم)

كامل كيلانى

كأن آذريونها والشمس فيها كاليه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليـــه

فمذهب القدماء « أن الغرض من التشبيه هو مضاهاة أبيض على أبيض ، وأصفر على أصفر ، ومستدير على مستدير ، ومستطيل على مستطيل ، مما يُرى بالعين ، ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، وقصارى ما يطلب من الشاعر فى التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئين فى شكل واحد ومن لون واحد كأنك فى حاجة إلى ذلك الإثبات الذى لاطائل تحته ، فأما أنه أحسَّ وتخيل وصور إحساسه وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل فى باب البلاغة والشاعرية .

وهذا خطأ بعيد فى فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية إلى القدرة الإلهية التى تحكى المناظر الظاهرة كما تحكيها المصورة الشمسية .

وليس يعنيك أنت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعاً على المرئيات المتشابهة ليتصل وجدانك بوجدانه ، ولكنما يعنيك منه أن يكون حياً يشعر بالدنيا ، ويزيد حظك من الشعور بها[1] » ويجلى لك ما اضطرب فى نفسك من أحاسيس وخوالج لا تستطيع لها كشفاً ولا بياناً وتلك مزية الشاعر فى كل زمان ، وما كان للقدامى أن يخلطوا فى الحكم لولا أنه التبس عليهم ملكة الشعر بملكة الوصف ، وأن هذه شىء وتلك شىء آخر . « فمن وصف وشبَّه ولم يشعر فليس بشاعر ، ومن شبه وأبلغك ما فى نفسه بغير وصف مُشَبَّه[2] » .

ذلك هو ما جر عبد القاهر وغيره إلى سوء الاختيار وطول الإطراء لسخافات هؤلاء الوصافين المصورين ، وإلا فأى جمال وروعة وأى وجدان أثاره الشاعر بقوله فى صفة مِنْسر البازى :

فى هامة غلباء تهدى مِنسرا كعطفة الجيم بكف أعسرا
يقول من فيها بعقل فكرا لو زادها عيناً إلى فاء ورا
فاتصلت بالجيم صارت جعفرا

وتقرأ عبد القاهر ، فإذا كلام جميل ، وتطريز بديع أملاه تركيب الرجل العقلى الفلسفى .

ويجرى فى هذا الميدان قوله :

كلنا باسط اليـــد نحـــو نيـــلو فرند
كدبابيس عسجـد قضْبها من زبرجد

وقول الآخر :

لم أر صفاً مثل صف الزُّطِّ تسعين منهم صلبوا فى خَط
من كلِّ عالٍ جذْعه بالشطِّ كأنه فى جذعه المشتط
أخو نعاس جدَّ فى التمطِّى قد خامر النوم ولم يَغُط

كل هذه صور ولكنها ليست شعراً ولا تقوَّم فى باب الشعر بقليل ولا كثير ، ولا يحسب لصاحبها وإن رقت صناعته بين الشعراء حساب ، وكل ما لها من حسن مرجعه دقة الريشة ، وقوة الملاحظة . أما الشعور ، أما الإحساس ، أما الإثارة التى تهز الوجدان ، فما أبعدها عن هذه الصور الميتة الجامدة .

والفرق بين الشعر والوصف ، كالفرق بين الحياة والموت فالذى يشعر إنما يعطيك صورة تدب الحياة فى أعطافها ، والذى يصور يعطيك تمثالا لا حركة فيه ولا حياة .

— ٢ —

يقول الأستاذ الخولى فى قول المتنبى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

كلامهم فى أن الغرض من التشبيه بيان أن وجود المشبه ممكن مرفوض لأن الأديب لا يضع نفسه موضع المناقش بل يفرض نفسه على الناس . وإنما دعاه إلى هذا التمثيل أن الناس ينكرون المزايا ، فقال إن لذلك نظائر . اهـ

أما أن الشعراء يفرضون أنفسهم فذلك ما لا يسع أحداً التشكك فيه ، ودونك فافتح صحيفة من ديوانٍ ، أىِّ ديوان ، فإنك واجدٌ أكثر من مثال :

قال أبو العلاء فى رثاء الشريف الموسوى :

ذهب الذى غدت الذوابل بعده رُعْشَ المتون ، كليلة الأطراف
طار النواعبُ يوم فَادَ نواعيا فندبنـه ، لموافق ومُنافِ
أسفٌ أسفَّ بها وأثقل نهْضها بالحزن فهى على التراب هواف

فهذا الذى ادعاه من اختلاج أواسط الرماح وكلال أطرافها ، وهذا الذى ادعاه من أن الغربان قامت نوادب للشريف ، وأنها لحزنها ثقلت حتى كادت تخالط التراب ، وما زعمه بعدُ من أن الغربان رثى الشريف بقصيدة على رَوِىِّ القاف .

(١) ، (٢) ابن الرومى : حياته من شعره . للاستاذ العقاد .

هذا كله إدعاء سوّغه أن الشعراء يفرضون أنفسهم على الناس ، فليس فى حسابه أن يقول له القوم كذبت فأقم الدليل على ما تقول . فإذا قال المتنبى أنت أربيت على الأنام وفقتهم ، فما عليه بأس ، وليس لأحد أن يقول له هذا غير ممكن أو ممكن حتى يقال إن قوله : فإن المسك بعض دم الغزال لإثبات هذا الإمكان ولكنه حين يقول ذلك يؤكد دعواه ، ويقرّب المعنى الذى قصد إليه ، وإلا فما هو بالذى يحتاج أن يثبت أن الأمر ممكن ، لأن للشاعر أن يدعى ما شاء وليس لأحد أن يحصى عليه ، فاقبض على هذا الأصل وَعِهْ ، وتبينه ، فلن نجد تناقضاً ولا غرابة ، وجُمّال الرد فى هذا : إن الشعراء لهم أن يدعوا ما شاء لهم الخيال ، وإن التشبيه هنا للتأكيد والتقوية والإيضاح ولا يفوتنى أن أنبه الأستاذ أنه ذكر أن مَرَدّ الغرابة فى كلام الأستاذ الخولى أمران ، ثم ذكر أحدهما ولم يذكر الآخر ، فلعل فى هذا المنسىّ الإلزام والافحام ، والإقناع والإمتاع ! .

— ٣ —

يقول الأستاذ الخولى :

(ا) هم يقولون إن بعض التعابير أوضح من بعض ، فعلم البيان هو الذى يبين درجات الوضوح » .

فيقول الأستاذ العمارى « ليست وظيفة علم البيان البحث فى درجات الوضوح » ثم يقول « هذا العلم له أبحاث كثيرة ، قد يكون البحث فى وضوح الدلالة أقلها » .

فأى تهافت هذا وأى اضطراب : علم البيان لا يبحث فى الوضوح والخفاء ، علم البيان يبحث فى هذا ولكن ليس هذا وحده .

تعال — يا أستاذ — أين الخطأ فى قول أستاذ الجامعة ؟ هل عبارته تفيد أن علم البيان لا يبحث إلا فى أمر الوضوح والخفاء كما تزعم ؟ . إنه يقول « علم البيان هو الذى يبين هذا » نعم هو ذاك فليس ذلك موكولا إلى علم المعانى أو علم البديع ، ولكنه لم يقل إن هذا كل مباحث علم البيان يا دقيق ! !

(ب) ويقول أستاذ الجامعة :

« والجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا ما يكفله علم النحو » فيزعم الأستاذ العمارى أن النحو « يبحث فى سلامة التراكيب » و« أن الذى يبحث فى المفردات إنما هو علم التصريف »

فليفرخ روعك ياصديقى ، فان الكلمة فى الجملة لها ناحيتان : ناحية هيئتها من مادة وترتيب حروف وضبط وهذه للصرف ، وناحية آخرها — إذ هى فى جملة يا فتى ! — وهذه للنحو .

وأستاذ الجامعة حين كفل النحو بذلك إنما أراد النحو والصرف ، قال فى الشافية : واعلم أن التصريف جزء من النحو بلا خلافٍ بين أهل الصناعة[1] » .

(ح) ويقول الأستاذ الخولى :

« والجملة قد تعرض عرضاً متنوع الأنماط » فيصل الأستاذ المحقق إلى أنه كان يجب أن يقول : ومعنى الجملة ... إلى آخره .

وذلك لا يخفى على غبى ولا لبيب .

يقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه

فقرر أستاذ الجامعة أن الشاعر قصد وراء التصوير وهو مداخلة السيوف ومزايلتها والتماعها فى العجاج ، معنًى نفسياً هو الحيرة والاضطراب فتشبيه هذه الحالة بالليل تتساقط كواكبه مرشد قوى إلى هذا الخوف الذى يتملك المحارب عند الالتحام وهياج المثير وانعقاده على رءوس الفرسان :

ولكن الأستاذ العمارى ينكر هذا ، وما كان لينكره لولا أنه يقتفى أثراً مُضلِّلا ، فينقل ما كتب عبد القاهر حرفاً حرفاً ، ويسير وراءه إصبعاً إصبعاً ، ومع هذا فإنى أناشد شاعريته أيهما أليق بالشاعر : أن يكون مصوراً نحاتاً كما يريده القدامى أم يكون حسّاساً للظلال التى تحيط بالمرئى مُشعراً لك بها فى وضوح ونقاء كما يريد النقاد المحدثون ؟

أحسب أن حكم الشاعرية لا يَعْضُدك ولا يسنُدك وحسبى بها حكما .

كامل السيد شاهين
المدرس بالمدارس الأميرية

---

(١) ج ١ ص ٦ طبعة محمود توفيق .

وفاء الشعراء...

مسرحية فى فصل واحد

مهداة إلى صاحب السعادة عزيز أباظه باشا

بمناسبة زواجه الجديد السعيد

[كان زواج الشاعر الكبير عزيز أباظه باشا ، بعد أن عاهد روح زوجه الأولى على ألا تشغل امرأة بعدها بيته ولا قلبه ، حديث الأندية الأدبية حيناً من الدهر ، ثم انتقل الموضوع من الحديث إلى الكتابة ، فنظم فيه الشعراء ونثر الكتاب واطلع صاحب (الأنات الحائرة) على بعض ما كتب فسمح بنشره واعداً أن يعقب برأيه على جلة ما ينشر]

المقــــــدمة

الأشخاص :

١ — عبد الرحمن صدقى : صاحب ديوان (من وحى المرأة)

٢ — عزيز أباظه باشا

٣ — سعاد

٤ — وداد } رفيقات مخلصات لزوجه زينب الفقيدة رحمها الله

٥ — خالصة

٦ — نعمى

٧ — روح المرحومة زينب المستحضر

عبد الرحمن صدقى :

عزيز ، فأين العهد أوثقت عقده
وأرسلته يدوى فيختال من عُجب ؟

أحقاً ، عزيز ، قد تزوجت بعدها
أأنسيتَ بيتاً ظل أنشودة الركب ؟

(سألقاكِ لم يُشغل فراغ تركته ببيتى، ولم يُملأ مكانك فى قلبى)

سعاد :

عزيز ، أفقدها ذو اللب طاشا وكان وفاؤك المعجب انتعاشا

إذا قاسوا وفاءك قلتُ : حـلا وإن ذكرواشبيهك قلت: حاشا

أتبغى بعدها أنساً بزوج وتبنى بعد ما رحلت فراشا

وداد (تنادى سعاد مستفهمة) :

سعاد ؟

سعاد (تجيب) : قد تزوج

وداد : لا

سعاد : وحقك

وداد : كيف ؟

سعاد : لا أدرى

فأين العهد ؟ ويح العهد زال كنشوة الخمـر

أكان العهد مصنوعاً بقصد رياضة الشعر ؟!

وما عهد الرجال لنا ؟ فكلهـــم إلى غدر

عهود دونهـــا الأحلام فى إغفــاءة الفجر

ستنفضها رؤى اليقظات عن جفن وعن فكر

خالصة :

ألا لا عهد إن غابت عيون الإلف فى القبر

سعاد :

ألا تعرفن قلب المر ء بين أصابع الربّ

يقلّبـــه إذا ما شا ء جــل مقلّب القلب

عزيز باشا :

أيا ربِّ مالى فى قضائك حيلة وإنى إلى الرضوان منك لأحوج

وإنك أدرى بالنوايا ، فإن أرم سوى شرعك الهادى فإنى أهوج

فهب لى رضاك المبتغى وسكينة لقلبى ، فلا يطغى ولا يتحرّج

لئن أنطقتنى سورة الحزن ضلّة فعقل الفتى تحت الأسى يتلجلج

وما بىَ عىّ عن جواب وإنما أرى الصمت خيراً لى إذا الحق أبلج

لئن كان شرع الله حتماً ومأثماً فالامرئ من حوزة الإثم مخرج

يظنون بى غير الوفاء لزينب ألست بأوفى اليوم ، إذ أتزوج

رأيت رسول الله لى خير قدوة وسنّته للعقل والفضل منهج

عبد الرحمن صدقى :

يا ليت زينب أشرفت من كوة الخلد البعيد

فترى العزيز وعرسـه فرحين بالعش السعيد

أنست جوارحــه بها وتذوقت معنى الجديد

أنجته من ألم الفراق وأطفأت حرّ القصيد

عزيز باشا :

يا زين قــد أقسمت إلا أن تطلى وتعودى

جودى بوجهك وافصلى ما بيننا بالله جــودى

هل أنت راضية — أبينى — عن وفائى والعهود ؟

شبح الفقيدة زينب :

ويح الرشاد بدار اللهو واللعب لقد تحكمت الأهواء بالأدب
كفُّوا السهام فما أصميتم أحداً غيرى بها ، يالها من نصرة عجب
أتمسكون برهبانية حرمت والجاهلية فى ظلّ النبى العربى
هل تنكرون إذن وحشية سلفت يحدو بها الجهل قوماً فى دجى الحقب
قوم إذا مات زوج عندهم دفنوا رفيقه معه فى ظلمة الترب
فهل تريدون بيتاً لا عماد له وأى أنس ببيت موحش خرب
هل الوفاءُ سوى الذكر الجميل إلى فعل نبيل وقصدِ طيب الحلب

نعمى :

ما ذا نشاهد ؟ أحلام وأوهام أم روح زينب أم وحى وإلهام ؟

سعاد :

بل رُوحها ، جلّ باريه ومرسله واليوم يُستحضر الأرواح أقوام
تأتى وتنطق عن علم ، وربّما تلوح منها لبعض القوم أجسام

وداد :

أفزينب غضبى وهــذا زوجهـا لم يرْعَ إلاًّ !
أيسرهـا ما ساءنا من أجلها وتراه فضلا

سعاد :

لا تعجبى فالمرء فى الأ خرى يرى ما لا نرى
فلعــلّ ما تأبى عوا طفنا يكون هو الهدى

خالصة :

يا زين لم ننكر عليه زواجه لو لم يكن بالعهد شد رتاجه
أوليس أجدر أن يبرّ بعهده من أن يعود بعهده أدراجه

شبح زينب :

ألا إن شرع الله عهد وموثق بأعناقكم لو تعلمون مهاتق
فذاك هو القسطاس . كل أليّة تحيد بكم عنه فذلك موبق
ألم تحفظوا ما كان أوصى رسولكم ولم يك يوما عن هوى منه ينطق
إذا المرء بالمكروه أبرم عهده فحنثٌ وتكفيرٌ أحقّ وأوثق

عبد الرحمن صدق :

صدقت ورب البيت . ليس بمسك على خطل إلا جهول وأحمــق
وكائن نقضنا فى الحياة عزائماً إذا لم يكن فى العزم حزم ومنطق
جميل ثبات فى الفتى عند عزمه وأجمل من ذاك الصواب الموفق

سعاد :

بوركت زينب عم فضلك فى الحيــاة وفى الممات
فلأنت أفضل من عرفنا من نساء المكرمات
أوتيت من فصل الخطاب وفضل خير المحصنات

شبح زينب :

عزيز ، تمتع ما أباح لك الله وودك عندى راسخ لست أنساه
عليك سلام الله فاهنأ وبوركت عروسك فى أحلى نعيم وأصفاه
وعند إله العرش مجمع شملنا على خير ما يرضيه منا ورضاه

(يتوارى شبح زينب وينشد عبد الرحمن صدق مخاطبا عزيز باشا) :

دم عزيزاً يا عزيز فلقــد نلت حظاً من ولاء ورشد

سعاد :

فلك التوفيق يسعى والرغد فى وفاء ورفاء وولد

وداد :

عشتما فى الأمن من كيد الحسد

خالصة :

وشرور النافثات فى العقــد

نعمى :

ما أنار الكون مصباح الأبد

(دمشق) **مصطفى أحمد الزرقا**

أستاذ الحقوق المدنية فى الجامعة السورية



قاري منى ، فى إرشاد الأريب :

١ — إلى السيد محمد حسين إسماعيل فى البصرة :

قصة (القارى) — يا أيها الفاضل الأديب — حق ، وهل يمنع من صحتها مانع؟ وهذا الشاعر إنما شعر فى الذى كان واشتهر ، والأبيات رواها الخطيب فى (تاريخ بغداد) — ج٢ ص٢٣٧ — ولم يشر إلى حكاية ، لم يزد على الرواية ، والشعر يشرح نفسه ، ولم أعثر فى مصنف طالعته على حديث ذاك القارى ، «ومن هوى الصدق فى قولى وعادته » ، صددت عن البناء على الرجم ، فمن يعرف من أهل الفضل ما غاب عنا فليشر كنا — غير مأمور — فيما استفاد مشكوراً . وغير ضائر — ونحن فى التكلم على قارى منى — أن أروى مقال ياقوت فى (منى) كيما يجىء فى هذه الخرفشة أو الخربشة شىء مفيد . قال صاحب (معجم البلدان) :

« منى بالكسر والتنوين[(١)] ... بليدة على فرسخ من مكة ، طولها ميلان ، تعمر أيام الموسم ، وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها . وقل أن يكون فى الإسلام بلد مذكور إلا ولأهله بمنى مضرب . وعلى رأس منى من نحو مكة عقبة ترمى عليها الجمرة يوم النحر ، ومنى شعبان بينهما أزقة ، والمسجد فى الشارع الأيمن ، ومسجد الكبش بقرب العقبة ، وبها مصانع وآبار وخانات وحوانيت ، وهى بين جبلين مطلين عليها . وكان أبو الحسن الكرخى يحتج بجواز الجمعة بها لأنها ومكة كمصر واحد . فلما حج أبو بكر الجصاص ورأى بعد ما بينهما استضعف هذه العلة ، وقال : هذه مصر من أمصار المسلمين تعمر وقتاً ، وتخلو وقتاً ، وخلوها لا يخرجها عن حد الأمصار ، وعلى هذه العلة يعتمد أبو الحسن القزوينى ، قال البشارى : وسألنى يوماً كم يسكنها وسط السنة من الناس ؟ قلت : عشرون إلى ثلاثين رجلا ، وقلما تجد مضرباً إلا وفيه امرأة تحفظه ، فقال : صدق أبو بكر فيما علل . وقد ذكرمنى الشعراء ، قال العرجى:

نلبث حـولا كاملا كله ما نلتقى إلا على منهج
الحج إن حجت وماذا منى وأهله إن هى لم تحجج[(١)] ؟»

قلت : تلكم (منى) بالأمس ، فكيف اليوم حالها ؟

٢ — إلى السيد عدنان أسعد فى الزيتون :

لاريب فى أن أصل «والأدب من ذى الغيبة» هو «والأوب من ذى الغيبة » والدليل على ما ذهبت إليه أنت — أيها الفاضل الأديب — قريب وإن تباعد منى ؛ فإن الناسخ القديم البارع (سامحه الله) استبدل بالواو دالا ثم جاء الطابع فطبع . وأما بيت امرئ القيس فلا يظاهرك لكن قد يشايعنى ، وقول (الملك الضليل) هو الذى ضلل ... وقوى (الغنم) عندى ، فهو لم ير الإياب غنيمة بل رضى من الغنيمة بالإياب ، ولم تكن حاله كما قال فى هذه البائية :

ألم أمض المطى بكل خرق أمق الطول يلماع السراب[(٢)]
وأركب فى اللهام المجر حتى أنال مآكل القحم الرغاب[(٣)]
وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب[(٤)]

(١) فى الصحاح : يصرف ، وفى اللسان والتاج : يصرف ولا يصرف

(١) فى الأغانى فى أخبار العرجى وفى الكامل : (فى الحج إن حجت و (الحج إن حجت) عند أشكال هذا الشاعر الغزل من أدباء عصرنا — أحسن . والبيتان فى أبيات ، مطلعها :

عوجى علينا ربة الهودج إنك إن لا تفعلى تحرجى

وقد كان العرجى (غفر الله له) خليفة عمر بن أبى ربيعة فى مكة

(٢) فى شرح ديوانه للوزير أبى بكر عاصم بن أيوب : الأمق الطويل ، واليلمع من أسماء السراب ، وفى البيت ما يسأل عنه من طريق العربية وهو إضافة أمق إلى الطول فيتوهم أنه من إضافة الشىء إلى نفسه لأن الأمق هو الطويل . وليس على ما يتوهم ، إنما هو كما تقول بعيد البعد . (قلت) : أراد (يلمع السراب) فأشبع كما قال عنترة (ينباع من ذفرى غضوب جسرة) فى طويله والفعل بقدع . وفى شرح ديوان امرئ القيس تأليف الأستاذ حسن السندوبى : (لماع السرابُ) والظاهر أنها رواية وجدها الأستاذ فآثرها

ومن معانى اليلمع البرق الخلب ، وما لمع من السلاح . والخرق الأرض الواسعة .

(٣) فى شرح الوزير أبى بكر : اللهام الجيش الكثير العدد ، المجر الثقيل ، القحم جمع قحمة وهى الدفعة الكثيرة من المال أو غيره ، الرغاب الواسعة (قلت) : وفى شرح الأستاذ السندوبى : القحم البضع الكثير من الأموال وغيرها .

وفى كتب اللغة التى بين يدى : القحم عظام الأمور التى لا يركبها كل أحد ، الأمور العظام الشاقة واحدها قحمة ، وربما عنى امرؤ القيس ذلك وللأستاذ السندوبى فى إرشادنا إلى مراجعه فى شرح (القحم) الرأى الأعلى

(٤) قال الوزير : أى أكثرت من الطواف فى الآفاق حتى شق على ذلك ، وحتى صار رجوعى إلى أهلى خائبا غنيمة لى ولهم .

لم تسكن حاله كما قال و« لم يركب الأهوال إلا لينال الآمال [1] » فلما أخفق رضى من الغنيمة بالإياب . وكأن الغائب الآئب غير غانم أو رابح أو ناجح أو مستفيد لا تتم غبطته وغبطة الأهل به . والأوبة البحت [2] أو البحتة المجردة التي تسر العائد والمنتظر إنما هي أوبة الجندي من المعركة ، من ميدان الحرب ... « ومن نجا برأسه فقد ربح » — كما قال الشاعر في صفين — أو عودة الحبيبة — كما يقول العارفون — عند المحب وعندها . والسلام .

محمد إسعاف النشاشيبي

جواب :

كتب مجهول باسم مستعار لا وجود لصاحبه ، يعلمنا أصول النقد وقواعده ... ونحن نجاهد هؤلاء الإباحيين بأقلامنا جهاداً ، نرجو عليه ثواب المجاهدين ، ولسنا نتقدم نقداً . ثم إن النقد نحن أربابه ، ونحن ألّفنا فيه لنعلم الناس قواعده ، وندلهم على أصوله ، وما أنت منه يا هذا في قليل ولا كثير ، فانصرف رحمك الله إلى ما تفهم ، ودع النقد لأهله ، ولولا أنك كتبت في « الرسالة » ، لكان جوابك مني جواب الذي نبحني في آخر دقيقة ، وطنّ في أذني من شاطئ الفرات ، و(سلاماً) !

علي الطنطاوي

(دمشق)

رأي غريب لأديب :

لبعض القراء تعليقات على ما يقرأون ، ولكن بعض الناس يرون من الغرابة أن تتتبع القارئات المقالات الأدبية بشغف واهتمام ، ويجدون ذلك دليلا على فقر صاحبته من الجمال ، لأن الجمال في رأيهم يغنيها عن هذا التتبع . هذا رأي أديب كتبه له أحد محرري مجلة الأسبوع ، وهو رأي كما ترون غريب . فما العلاقة بين الأدب والجمال ؟ ! وهل إذا دققت المرأة فيما تقرأ وتذوقته عُدَّ ذلك دليلا على أنها ليست على جانب من الجمال تشغل به ؟ !

غريب جداً هذا الرأي في الوقت الذي نشكو فيه من أمية القراء ونطلب الثقافة للجميع ، وأغرب منه أن يكون من أديب يفهم قيمة الأدب ويعرف مقدار الثقافة !

فما رأي الأدباء في رأي هذا الأديب وفي نعيه على المرأة قراءتها للمجلات الأدبية ؛ ثم ما رأي أديب مجلة الأسبوع فيما يريد أن تقرأه المرأة وما ينبغي لها أن تكون ؟ افتونا أفادكم الله فإنه يخيل إليّ أننا لا زلنا في ظلمات !

« **قارئة بالمنصورة** »

من الأمانة في العلم :

نشر الأستاذ المنجد (دور القرآن بدمشق) وترجم لأعلامه سوى بضعة رجال قال إنه لم يعثر على تراجمهم :

١ — الخضر بن كامل بن سالم بن سبيع الدمشقي السروجي المعبر (لا المقير) توفي في شوال سنة ٦٠٨ على ما في (شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد) ج ٥ ص ٣٣

٢ — أمين الدين أبو الغنائم سالم بن الحسن بن هبة الله الشافعي التغلبي الدمشقي . توفي في جمادى الآخرة سنة ٦٣٧ عن ستين سنة ، ودفن بتربته بقاسيون ، وخلف ذرية صالحة أبقت ذكره . ترجم له أيضاً في (شذرات الذهب) . ج ٥ ص ١٨٤

وهو نجل الحافظ أبي المواهب الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى ، المترجم له في (شذرات الذهب) ج ٤ ص ٢٨٥

٣ — أبو مسلم الكاتب محمد بن أحمد بن علي البغدادي . توفي بمصر في ذي القعدة سنة ٣٩٩ ، له ترجمة كذلك في (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) ج ٣ ص ١٥٦

٤ — محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد العزيز البصروي . ولد ببصرى ، ثم تحول لدمشق ، واشتغل بالعلم حتى بلغ درجة الإفتاء ، توفي بدمشق في أواخر سنة ٨٧١ ، ترجم له السخاوي في كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ج ٧ ص ٢٩٥ ، وهو مذكور في ترجمة الخيضري (صاحب مدرسة القرآن المشهورة) من (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ج ٩ ص ١١٧

عبد الرحمن محمد عبد الوهاب

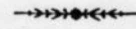
(١) من مثل أصله : من لم يركب الأهوال لم ينل الآمال .

(٢) في اللسان : وأكل الخبز بحتا بغير أدم ، وفي الأساس : وقدم إليه قفارا بحتا لا أدم معه . وفي اللسان : القفار بالفتح الخبز بلا أدم ، والقفار الطعام بلا أدم ، يقال أكلت اليوم طعاما قفارا إذا كان غير مأدوم



كاتب العرائض . . .

للأستاذ نجاتي صدقي



تذكر جميل العكرماوي بعد مضي خمس وثلاثين سنة من عمره ، أن والدته كانت تقول له في حداثته : والله يا بني لأزوجنك متى كبرت من فتاة شامية ، جسمها أبيض مثل الثلج ، وشعرها أشقر مثل الذهب ، وخداها أحمران مثل التفاح ، وكان هو يسمع كلام أمه هذا وعلى ثغره ابتسامة الحداثة البريئة .

وماتت أم جميل ، وتعاقبت السنين ، فكبر جميل ، وتخطى العقد الثالث ، وأناخ الدهر عليه بأثقاله وهمومه ، فكان من البائسين المعدمين ، يضطر إلى ممارسة كتابة العرائض كوسيلة للمعاش . .

ورأس ماله في هذه المهنة : صندوق خشبي صغير ، وكرسي أصغر ، ومحفظة كرتونية ، وقلم حبر ، ودواة ، والقليل من الأوراق ، ونسخة من قانون العقوبات الجديد الذي نسخ قانون الجزاء العثماني القديم .

وبعد أن عمل في هذا الحقل عشر سنوات ، تمكن من ادخار بعض المال بفضل صفقات خاصة عقدها مع السذج من الفلاحين ، وكان يخفي هذا المال في حزام لا ينفك يطوق خصره ليلا ونهاراً ... وذات يوم راح يخاطب نفسه : أنت وحيد يا جميل ، وعليك أن تجد سبيلا قويماً لتتدبر فيه أمر ما ادخرته من مال ... هيا افتح لنفسك مكتباً يرفع من مكانتك بين الناس ... كلا . كلا ... هيا افتح لنفسك حانوتاً يدر عليك الربح الوفير ... كلا . كلا ... لا هذا ولا ذاك ... عليك أن تتزوج من امرأة غنية تستفيد من ثروتها واذكر ما كانت تقوله لك المرحومة أمك : « والله لأزوجنك من فتاة شامية » وسرعان ما سافر إلى دمشق في طلب العروس .

حل جميل افندي في فندق « أمية » في دمشق ، وهو من أشهر فنادق العاصمة السورية ، وسجل في دفتره اسمه : « جميل بك العكرماوي محام من القدس » ...

وكان يضع على عينيه نظارة بسلسلة ذهبية ، ويلبس لباساً أنيقاً ، ويثبت في ياقته دبوساً ثميناً ، ويحلي أصابعه بخواتم ذهبية ، وأشاع في الفندق بأنه أتى دمشق يطلب زوجة .

وإذ علم سماسرة الزواج في دمشق أن في فندق « أمية » وجيهاً فلسطينياً يود الزواج من فتاة مثرية ، هرعوا إليه ، وطرحوا خدماتهم عند قدميه .

وكان بطل قصتنا بحكم عمله ككاتب عرائض خبيراً بضروب الدجل والمخاتلة . فكان يستقبل سماسرة العرائس ، ويكرم وفادتهم ويساومهم . ويستفهم عن الأسر القديمة الغنية ، ويجمع عنها المعلومات المفصلة إلى أن قر رأيه على خطبة بنت (...) باشا ، وهي تنحدر من أسرة تركية عريقة استوطنت دمشق منذ أيام عبد الحميد ، ثم أثرت ، واستعربت .

وبعد مداولات مع أهل العروس ، وهدايا متواصلة حملها جميل بك لإبنة الباشا ، وحديث مطول ألقاه على مسامعهم عن أملاكه في فلسطين في عين كارم والخليل ... وبياراته في يافا واللد ... وعن مكتبه الرئيسي في القدس ، وفروعه المنتشرة في جميع أنحاء البلاد المقدسة ... اقتنعت أسرة الباشا بمكانة جميل بك السامية ، وكان له شريك في القدس يرسل إليه برقيات عن سير « القضايا » في دور المحاكم ! ...

وهكذا تم عقد قران ابنة الباشا على جميل بك العكرماوي في حفلة اقتصرت فيها الدعوة على الأقارب والأصدقاء ، ثم رحل العروسان إلى لبنان ليقضيا شهر العسل في فندق (القاصوف) في ضهور الشوير ... وطالما كان يحدث العريس عروسه وهما في مصيفهما الجميل هذا ، عن أشهر مرافعاته في المحاكم محركا يديه ، وملوحاً بأكمام (الروب ... دي شامبر) ، ومتنقلا في الغرفة ذهاباً وإياباً ، وكانت عروسه تستمع إليه طربة ، وهي مستلقية على مقعد وثير طويل وقد عقدت يديها تحت رأسها .

وقالت له مرة : حدثتني كثيراً عن قضاياك ... لكنك لم تحدثني قط عن حياتنا الزوجية في بلدك وكيف ستكون ؟

قال : دعى الحديث عن حياتنا المقبلة ، فقد صرنا الآن روحين في جسم واحد ، أو جسمين تختلج فيهما روح واحدة ! ... وثقى بأننى سأوفر لك جميع أسباب الرفاهية والسعادة فى منزلى الجديد الذى أبنيه فى حى القطمون فى القدس . والآن أرجوك ترك هذا الموضوع الجاف ، وهيا بنا إلى البستان لنأكل ما طاب لنا من الفاكهة .

وبعد انقضاء شهر العسل سافر العروسان إلى القدس ، ونزلا فى بيت حقير شبه قذر يقع فى محلة (وادى الجوز) ... ولما وطئت قدما إبنة الباشا هذا البيت ارتدت إلى الخلف مذعورة وقالت : ما هذا الذى أراه يا ابن عمى ؟ !

قال : لا تضطربى ... إننى متخاصم مع أهلى ، وقد انفصلت عنهم مؤخراً ، واضطررت إلى استئجار هذا البيت المفروش مؤقتاً إلى أن يتم بناء بيتى الجديد فى حى القطمون ... وبيتى الجديد ... عفواً ... بيتنا الجديد ، هو عبارة عن طابقين مبنيين من الحجر الأحمر المعرّق ، وله حديقة غناء مزروعة بأطيب الزهور والرياحين ، وله أربع شرفات فى جوانبه الأربعة ، تطل إحداها على المدينة المقدسة ، وتطل الثانية على هضاب بيت لحم ، وتطل الثالثة على قرية المالحة ، أما الرابعة فتطل على أحياء القدس العصرية ، وسأفرشه بأفخر الأثاث المصنوع من خشب الزيتون .

ومرّ الأسبوع الأول ، ثم تلاه الثانى والثالث ، ثم اكتمل الشهر ... وكل شىء باق على ما هو عليه ضمن الوعود المتواصلة وكانت سيارة تأتى إلى البيت فى كل صباح لتقلّ جميل بك إلى عمله ثم تعيده مساء ...

ويبدو أن ابنة الباشا قد خامرها بعض الشك فى سلوك زوجها ، فعقدت النية على أن تزوره فى مكتبه وأن تلح عليه بالذهاب معاً لرؤية البيت الذى لم يكتمل بناؤه بعد . وراحت فى أحد الأيام تبحث عنه وعن مكتبه بجوار دور المحاكم ...

وهناك سألت أحد سعاة البريد عن مكتب المحامى جميل بك العكرماوى ، فقال لها إنه لم يسمع بهذا الإسم قط ... ثم سألت غيره فتلقت منه الجواب ذاته ... ثم سألت عنه أحد كتاب العرائض ... فقهقه هذا وظنها عميلة جديدة وقعت فى فخ زميله جميل ... فقال لها : إننى لا أعرف جميل بك العكرماوى ، لكننى أعرف جميل العكرماوى كاتب العرائض ، وهاهوذا يجلس فى تلك الزاوية من المهارة ... وأنصحك بألا تكتبى عنده شيئاً فهو شخص يغرر بالسذج من الناس وإنى لعلى استعداد بأن أتقاضى منك من الأجر نصف ما يتقاضاه هو ... يضاف إلى ذلك أننى آخذ على عاتقى ملاحقة قضيتك فى جميع الدوائر ، هلا أطلعتنى أيتها السيدة على ماهية قضيتك هل هى جزائية ... أو حقوقية ...؟

وتركته المرأة مسرعة إلى حيث أشار ، فرأت زوجها يضع ورقة على ركبته ، والعرق يتصبب من جبينه ، وهو يكتب رسالة لرجل فقير كسيح ...

فصرخت ... وخرّت على الأرض مغمى عليها .

نجاتى صدقى



دعوة في وقتها :

الرسالة الخالدة ...

بقلم الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا
الأمين العام لجامعة الدول العربية

عرض وتعليق

للاستاذ عبد المنعم خلاف

— ٢ —

في أصول الدعوة

وهو يقرر في فصول الباب الأول من الكتاب أصول تلك الرسالة الخالدة ، وهي تنحصر في دعامتين اثنتين وهما الإيمان بالله الواحد والإحسان ، فمن آمن بالله الواحد وعمل صالحاً فهو مسلم متبع لرسالة الله ، سواء أكان قبل محمد أم بعده « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ! » والإحسان على معناه الأوسع الأعم الذي يشمل كل نشاط ينفع الناس ويعمر الدنيا .

وهذه الحقيقة وإن كانت معروفة للخاصة من الناس إلا أنها لدى العامة مجهولة ، ولذلك تأتي الآن في وقتها ، وقت الدعوة إلى الإنسانية الجامعة والعالمية الشاملة التي لا بد فيها من فهم الدين على حقيقته فهماً يجمع الناس ولا يفرقهم ، ويعقد بينهم سباقاً للخير كما يقول الله لأهل الأديان الثلاثة : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، فاستبقوا الخيرات » لا سباقاً إلى الشر والحروب كما يقول الشيطان ...

وتقرير هذه الدعوة الآن بلسان زعيم من كبار زعماء المسلمين وأمين جامعة الدول العربية أمر له مابعده ! وشأن جدير أن يخطو بالجامعة العربية والجامعة الإنسانية خطوات حثيثة .

والحق أن القرآن أتى في هذا الأمر بالعجب العجاب الذي لم تأت به فلسفة العصر من التسامح وفهم روح الدين .

والحق كذلك أن الأرض تحتاج مسيس الحاجة إلى وحدة اتجاه أهل الأديان الثلاثة السماوية وأهل الدينين الكبيرين العامين منها المسيحية والإسلام بوجه خاص ليقاوموا عوامل الجحود والطغيان والتنكيل بميراث الإنسان .

والحق كذلك أنها دعوة مدخرة لسكان الشرق الأدنى من المسلمين والمسيحيين واليهود — إن تركوا مزاعم الصهيونية البغيضة — وقد نصر الله روح حضارتهم على روح الوثنيات دائماً ، وآخر معركة بين الروحين هي معركة اليابان التي ما كان أحد يدري ما ذا كان يحدث لأتباع الأديان الثلاثة من انقلاب في مثلهم العليا الدينية الواحدة لو انتصرت اليابان وأتت بموجات وثنيات الشرق الأقصى طاغية بها على بلاد المسيحيين والمسلمين واليهود ؟ !

وقد كنت كمسلم أخشى هذا وأتمنى أن أدعو المسلمين وقت معركة اليابان إلى الفطنة لهذا المعنى وأخذ نصيبهم من المعركة ، لولا أن قعد بي ملاحظة أن في هذه الدعوة ممالأة للانجليز غاصبي بلدي وبلاد المستضعفين من قومي وغيرهم ، مما يدعو الأحرار أن يتمنوا هزيمة أعداء الحرية ولو على يد الشيطان كما قال تشرشل حين حالف روسيا العدو الأول للامبراطورية البريطانية ضد الألمان ...

وعزام باشا يثبت دائماً هذا المعنى الجامع للمسلمين وأهل الكتاب خصوصاً النصارى ، ويدعو المسلمين والمسيحيين في الشرق بوجه خاص لينهضوا برسالة الإنسانية في العصر الحديث ، وينادوا العالم إلى ما عندهم من الأخوة السامية على الأجناس والألوان والنعرات . وهو يقرر دائماً أن التسامح هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الوحدة العالمية ، ولن يكون التسامح إلا بتوطيد الدعامة الثانية للدين وهي الإحسان المبني على أصلين عظيمين : هما الرحمة والإخاء

فى الاصلاح الاجتماعى

يرى المؤلف فى فصول هـذا الباب الأربعة أن الإصلاح الاجتماعى فى الإسلام على أربعة فصول : التطهير الخلقى للفرد ، والتكافل بين الجماعة ، والبر الذى يطارد الفقير والترف والربا ، والعدالة والحرية اللتين هما ميزان الخليقة والشريعة . فأما التطهير الخلقى للفرد فهو نتيجة للعقيدة الخالصة بالله المتصف بجميع صفات الكمال والجمال والجلال ، إذ العبد مأمور أن يتخلق بأخلاق الله ومطبوع على أن يقلد صفات سيده الذى لا شريك له ولا سلطان مع سلطانه ، فلا يتوجه قلب من يعرفه إلى غيره ولا يخشاه إذ تتساوى الخلائق فى ملكوته وفى العبودية له . فالمؤمن شجاع صادق صريح جرئ فى الحق مناضل للباطل والفساد ، كريم ، وفى ودود إلى آخر صفات المروءة والكمال .

وأما التكافل فهو مبنى على مسئولية الفرد عن الجماعة ومسئولية الجماعة عن الفرد واعتبار المسئوليتين هما أولى الوسائل فى الاصلاح الاجتماعى إذ بهما ينشأ « الرأى العام » الحارس لكيان الأمة البصير بمصالحها ، الدافع للآفات عنها المعالج بالتشريع لما ينشأ من أدوائها .

وأما البر فهو الإحسان والمواساة للفقراء ، والمتخلفين فى المجتمع . والفقر هو مشكلة العصر ومادة حديث الدعوات السياسية والاجتماعية والبر نتيجة للتكافل الجماعى . ولم يجعل الدين الفقر سبباً لازدراء صاحبه بل كانت أول مواساة الفقير هى شعوره بالمساواة مع غيره من الأغنياء . والفقير لعجز أو مرض جعل الدين مواساته و كفاية حاجاته حقاً له على المجتمع « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » والفقر لفقد الوسيلة إلى العمل جعل الدين علاجه واجباً على الدولة بإيجاد وسائل العمل والتكسب . والعمل هو الأصل وقد حض عليه الدين كثيراً .

وقد طارد الدين الترف فى أعلى المجتمع والبؤس فى أسفله ليجعل مستوى الحياة متناسقاً ، و كذلك حارب الاكتناز والربا والإسراف فى الشهوات ، واستعلاء طبقة على طبقة ؛ إذ المؤمن الصادق لا يضمر فى نفسه أنه خير من خادمه مع سيطرته عليه . وقد أعطى الإسلام سلطات واسعة لولى الأمر ليحقق البر والمساواة بين الناس ، ودعا إلى البر بجميع الوسائل بالترغيب والترهيب ، وجعل حق الفقير حق الله فهو مصون وليس لأحد أن يمن به . والبر فى الدين بر عام شامل لفقراء المسلمين وغيرهم لا فرق بين فقراء دين وفقراء آخر .

والحق أن فى هذا الفصل بياناً واضحاً لطرق مكافحة الفقر بتثبيت قواعد البر وصوره فى الضمير قبل ظواهر القوانين .

وأما العدالة والحرية فهما مبدآن فى السياسة وفى الدين الذى هو محطم القيود والأغلال الوهمية عن النفس البشرية ، ولن يقوم مجتمع صالح إن لم يؤسس على ميزانهما الذى لا يحابى الأحباب ولا يظلم الذين وقع عليهم البغض والشنآن .

والحرية فى الإسلام من أقدس الحقوق فى السياسة والفكر والدين والحياة الدنية ، وهى مكفولة للصابئ والمجوسى واليهودى والنصرانى والمسلم يقول ويكتب مايشاء فى حدود المصلحة العامة فلينظر من شاء كما يشاء فى الكون ليستنبط لنفسه ما يراه حقيقة تطمئن نفسه إليها ، ولا ملام عليه ولا جناح .

فى العلاقات الدوليـــــة

فى هذا الباب فصول ستة يتجلى بها الطابع الأصيل الذى غلب على حياة المؤلف كرجل سياسة من الطراز الأول ، وقد أتى فى فصوله بأبحاث بكر عن الدولة الإسلاميـة الأولى وتاريخ علاقاتها بالناهضين للاسلام ، وحلل أولى معاهدة دولية بين المسلمين واليهود والوثنيين ، وخرج منها بمبادئ تجعلها نموذجاً قديماً لعصبة الأمم الحديثـة . ثم بيّن الدواعى والأسباب التى جعلت الحرب الدفاعية أمراً لا مناص منه بين الدولة الإسلامية الناشئة والناهضين لها ، وبين تقييد الحرب فى الإسلام بالأغراض السامية ، سلبية كانت كدفع الظلم والاعتداء عن النفس وعن المظلوم أيا كان ، أم إيجابية كالخير العام أو الصالح العام ، ولا يجوز أن تكون أغراضها هى التوسع فى الملك أو الاستعمار أو تعجيز الآخرين لإضعافهم عن المنافسـة فى ميادين العيش ، ولا العلو والاستكبار وحب البطش .

وبيّن أن الإسلام دين عملى يواجه الحقائق حين أباح الحرب لدفع العادية أو نصرة المظلوم ، وما ورد فى القرآن من آيات الشدة

والغلظة على الأعداء وليس معناها الدعوة إلى الابتداء بالاعتداء وإنما هي تحميس للنفوس إذا وقعت الحرب فعلا ولم يكن مناص منها ؛ لأن الضعف والذل ظلم للنفس لا يرضاه الله بل يعاقب عليه . والحرب الهجومية لا يبيحها الإسلام مطلقاً ؛ والحرب المشروعة ضرورة تقدر بقدرها ؛ فإن جنح الخصم للسلم فليجنح لها المسلمون متوكلين على الله ، فالإسلام على استعداد دائم لعقد اتفاقات مع من شاء لصيانة السلم ، ولا تحالف في الإثم والعدوان .

والمسيحية وإن حرمت الحرب تحريماً قاطعاً إلا أن الحياة العملية التي واجهت المسيحيين جعلتهم يختلفون في تحريمها . فالكنيسة الشرقية أحلتها بإسراف حين خلطت بين شخصية الرئاسة الدينية وشخصية الدولة الزمنية في شخص واحد فوضت إليه أن يعلنها كما يشاء ، بينما حرمتها الكنيسة الغربية في القرون الأولى للمسيحية تحريماً باتاً حتى ولو كانت دفاعاً عن النفس .

وقد لجأ المسيحيون أخيراً إلى شبيه بالنظرية الإسلامية التي جمعت بين ما يقتضيه إقامة صرح العدالة العالمية وما تقتضيه الرحمة والأخوة البشرية والانصاف وكبح أهواء النفس الشريرة وجنون الدماء ، وإقامة السلام .

وقد وضع الإسلام آداباً عامة للحرب وآداباً خاصة حين فشل في القضاء على الحرب كما فشل في القضاء على الرق ؛ لأن تنظيم الشر الذي لا بد منه خير . وقد أتى في هذه الآداب بما في طاقة البشر من السمو ، وروح الفروسية والنبل ورحمة الأعداء وحماية حقوق المستأمن ومسالمة غير المحاربين ومجاملة رسل العدو والإحسان للأسرى ، والترفع عن التخريب والإحراق وإيذاء الضعفاء وغير المحاربين ، وقد امتلأ تاريخه بهذه الخلال التي تجعل الحرب كأنها ميدان لظهور مكارم الأخلاق ظهوراً قد يغطي على ما فيها من سفك الدماء ...

وقد أتى المؤلف في هذا الباب بنظارة جديدة في أحكام الأسر والاسترقاق تجعل استرقاق الأسرى لا سند له من القرآن والسنة الصحيحة ، وقد أنحى بالحجج العقلية والنقلية على ما يقال من جواز القتل لعلة الكفر أو الشرك وحدهما ، وبيّن أن هذا ينافي روح الإسلام الذي يقرر أن لا إكراه في الدين ، وقد أمده التاريخ بنصوص وحوادث لا سبيل إلى الشك فيها .

وقد بيّن أن السلم الدائمة هي أساس العلاقات الدولية في نظر الإسلام ، وأن الحرب طارئة عليها . وقد دفع التهم والأوهام التي تزعم أن دعوة الإسلام قامت على السيف وتقوم به وأن الإسلام بصفته ديناً ودولة في حالة نزاع دائم مع من يخالفونه ، وبيّن أن روح الإسلام السلمية واحدة في مكة أيام الضعف وفي المدينة في عهد القوة ، وقد استشهد بالأجانب وبالتاريخ وقد بيّن أطراف العهود والمواثيق التي يمكن أن تقوم بين دولة إسلامية وغيرها سواء أكان ذلك الغير جماعة إسلامية أخرى أم جماعة معاهدة أم جماعة ليس بينها وبين المسلمين عهد .

ومن الأمور الهامة التي رأى فيها رأياً جديداً مسألة التخيير بين الإسلام والجزية والسيف ؛ فقد بيّن أن هذه الحالات الثلاث التي كانت تعرض على الأعداء ليست آتية في عمل المسلمين على سبيل الحصر فقد وجدت اتفاقات وحالات سلم بين المسلمين وجيرانهم ودول أخرى بغير أن يشترط فيها حالة من الحالات الثلاث . وحق إمام المسلمين وجماعتهم في عقد ما يرونه صالحاً متفق عليه . فصلح الحديبية مثلا لم يشترط شيئاً منها بل كان فيه شرط اعتبر إعطاء للدنية من المسلمين أمام المشركين المحاربين . وإنما كان الأمر المطرد الذي يلحظ في جميع اتفاقات الرسول صلى الله عليه وسلم هو القصد إلى نشر دعوته والوصول بها إلى الظهور بدون أن تعترضها قوة ، وكثيراً ما كان الوصول إلى حالة سلم مستقرة هو الهدف الأسمى لتمكين الدعوة من الحرية اللازمة لظهورها . فلا يشترط شيء آخر ، بل يكون شرط الجزية أو الإسلام مؤخراً ومانعاً للتفاهم فيؤجل انتشار الدعوة التي سلاحها الوحيد أنها حق لا يقاومه جدل . ففي هذه الحالة يصبح شرط الإسلام أو الجزية مضراً ويكون فاسداً ، وعلى ذلك ليس حقاً أن إمام المسلمين أو جماعتهم ملزمون بإقامة السلم على شرطي الإسلام أو الجزية ، وإلا كانوا في حالة حرب دائمة مع أكثر البشر وامتنع ظهور الإسلام كدعوة عالمية .

(البقية في العدد القادم)

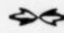
عبد المنعم خلاف

مطبعة الرسالة

العدد ٦٩٩ — الاثنين ٢٥ نوفمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد



٢٧٠٤٣

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 699 — Lundi — 25 — 11 — 1946

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٦٩٩ « القاهرة فى يوم الإثنين أول محرم سنة ١٣٦٦ — ٢٥ نوفبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الاسلام والنظام العالمى الجديد

للأستاذ عباس محمود العقاد

هذه هى الدعوة الثانية من الهند فى هذا الموضوع ، وهو موضوع الإسلام وأحكامه التى تتكفل للعالم بنظام شامل يحل معضلاته ويوثق الروابط بين أممه ويبسط فيه الطمأنينة والسلام

وقد كتبت فى « الرسالة » عن الدعوة الأولى لصاحبها المولى محمد على الكاتب الهندى المشهور ومترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية

وهذه الدعوة الثانية هى خطاب ألقاه ميرزا بشير الدين محمود أحمد فى الاجتماع السنوى للجماعة الأحمدية بقاديان سنة ١٩٤٢ ، ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية وعنيت الجماعة بنشره قبل بضعة شهور

ويبدو من مطالعة هـذا الخطاب أن صاحبه يوجه النظام العالمى إلى حل مشكلة الفقر أو مشكلة الثروة وتوزيعها بين أمم العالم وأفراده ، وأنه بغير شك على اطلاع واف محيط بالأنظمة الحديثة التى عولجت بها هذه المشكلة ، وهى نظام الفاشية ونظام النازية ونظام الشيوعية ، وبعض النظم الديمقراطية

ولكنه يعتقد بحق أن المشكلة لا تحل على أيدى الساسة وزعماء الأحزاب والحكومات ، وأنه لامناص من القوة الروحية فى حل أمثال هذه المشكلات ، لأن الحل الشامل لكل مشكلة إنسانية عامة يتناول الإنسان كله ولا يهمل فيه الباعث الأكبر على الطمأنينة والحماسة للخير والصلاح ، وهو باعث العقيدة والإيمان .

وقد عرض للأديان الكبرى القائمة فى الهند خاصة — والعالم عامة — من حيث علاقتها بهذه المشكلة وتدبير الحلول التى تزود العالم بنظام جديد أفضل من نظامه المغضوب عليه ، فأتى بالأدلة الكثيرة على انفراد الإسلام بينها بمزية الإصلاح وتعميمه بين جميع الأجناس والطبقات فيما مضى وفى هذا الزمن الحديث

فالديانات الهندية تعلم الإنسان أن تفاوت الطبقات قضاء من الأزل لا نجاة منه لمخلوق ، لأن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد جزاء لها على ما جنت فى حياتها السابقة من السيئات والذنوب ، فهى تخرج إلى الدنيا بنصيب محتوم لا يقبل التبديل ولا يحسن تبديله إذا استطيع — ولن يستطاع — لأنه هو سبيل التكفير والارتفاع من حياة إلى حياة . وقد جاء فى قوانين مانو : « إن الفرد من طبقة السودرا لا يجمع الثراء ولو قدر عليه ، لأن ثراءه يؤلم نفوس البرهميين » . فإذا ادخر بعض المال لحاجاته التى تزيد على القوت والكساء حق للحكومة أن تجرده من ماله وتتركه للفاقة والكفاف ، وهكذا تقوم الفواصل بين الطبقات المختلفة ، وهى طبقات البرهمان والكشاتريا والفاشيا والسودرا وهم أخس الطبقات .

وتقضى القوانين البرهمية بسداد الديون بالعمل إذا كان الدائن والمدين من طبقة واحدة . فأما إذا كان المدين من طبقة أعلى من

طبقة الدائن فلا سداد إلا بالنقد أو العين متى تيسر ، ولا إلزام بالسداد قبل التيسير .

وتجب التفرقة بين الأخوة فى حقوق الميراث إذا اختلفت أمهاتهم فى الطبقة الاجتماعية . فيقسم الميراث كله إلى عشر حصص متساوية ، ويعطى ابن البرهمانية أربعاً وابن الكشاترية ثلاثاً وابن الفاشية اثنتين وابن السودرا حصة واحدة على قدر مايجوزله من الثراء

ومن حق البرهمان أن يستولى على ملك خادمه من السودرا لأنه وما ملك فى طاعة مولاه .

فاذا كان الإصلاح العالمى محتاجاً إلى حماسة العقيدة ، وكانت هذه عقيدة المؤمنين بالديانات الهندية فلا رجاء فيها لعلاج مشكلة الفقر وإنصاف الطبقات المظلومة والتقريب بين الناس فى حظوظ الحياة .

أما الإسرائيلية فهى بأحكامها المنصوص عليها فى كتاب العهد القديم تخص اليهود ولا تعم الأمم جميعاً بالمساواة . فحرام على اليهودى أن يقرض يهودياً بالربا ولا يحرم عليه أن يتقاضى الربا المضاعف من أبناء الأمم الأخرى . ولا يجوز استرقاق اليهودى طول حياته ولا تزيد مدته فى الرق على سبع سنوات ، ولكن استرقاق العبيد فى الأمم الأخرى جائز فى كل حال ولا حرج عليه . وفى الإصحاح العشرين من سفر التثنية يقول العهد القديم لشعب إسرائيل : « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك .. وأما مدن هذه الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما ... » .

هذه هى حدود المعاملة بين المؤمنين بالعهد القديم وسائر بنى الإنسان ، فإذا سادت هذه المبادئ فالأمم كلها عبيد مسخرة وأبناء إسرائيل وحدهم هم أصحاب السيادة والثراء .

والمسيحية كما هو معلوم لم تعرض لمسائل القانون ومسائل السياسة أو الاجتماع ، ولهذا كانت دعوتها إلى السلام من الدعوات التى تصطدم بالواقع وتتمخض عن حروب لا تنقطع وحزازات بين الطبقات لا يهدأ لها أوار كما نرى فى تاريخ أوربة الحديث والقديم .

لكن الإسلام يتناول مسائل الاجتماع ومسائل العلاقات بين المحاربين والمسالمين . فالمسلم يقاتل إذا ظلم وأخرج من دياره ، ويأمره كتابه إذا ملك الأرض أن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر : « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .

ولا يجيز الإسلام للنبى أن يكون له أسرى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » .

ثم هو يستحب للمسلم المن أو الفداء « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فأما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » .

ومن بقى فى الأسر وطلب المكاتبة فقبول طلبه واجب على مولاه « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

ولا مطمع فى معاملة بين الشعوب المتمادية أعدل من هذه المعاملة وأقرب منها إلى إزالة العداء والبغضاء . فأما المعاملة بين المسالمين فهى كفيلة بإنصاف جميع الطبقات ؛ لأن الناس يتفاضلون بالأعمال الصالحة ولا يتفاضلون بالمظاهر والأنساب . وينكر الإسلام الجور فى توزيع الثروة فلا يجيز لأحد أن يكنز الذهب والفضة قناطير مقنطرة . ومن جمع مالا وجب عليه أن يؤدى زكاته للفقراء والمساكين ومصالح الجماعة بأسرها ، وعليه أن يمين من يطلب منه العون قرضاً حسناً لا مضاعفة فيه للربا ولا يجاوز فيه المكاسب البيع والشراء ، فلا تطفيف للكيل ولا مغالاة بالربح ولا مماكسة ولا خداع ، وكل يجزى بعمله وسعيه دون

إيثار لأحد على أحد فى خيرات الأرض جميعاً ... « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » فلا يزعمن إنسان أو جمع من الناس أنه أحق بالأرض من سواه .

***

فالنظام العالمى لا يعتمد على عقيدة أصلح لتعميمه وحض النفوس عليه من العقيدة الإسلامية ، وقد أجاز الإسلام الوصية وندب لها المسلمين فى بعض الحالات . فان قصرت موارد الزكاة فموارد الوصية لا تضيق بما يطلب منها ، لأنها تشمل جميع الأموال والعروض ، وقد حث « الميرزا أحمد القاديانى » أتباعه على التوصية بمقدار من ثرواتهم يتراوح بين عشرها وثلثها ، للانفاق منها على الدعوة والاصلاح .

***

ولم يقصر المؤلف — أوصاحب الخطاب — مقابلاته ومقارناته على العقائد الدينية التى أجملنا الاشارة إليها فيما أسلفناه ؛ ولكنه خصها بالعناية لأن العقيدة كما قال هى أمل الإصلاح الوحيد ، ونظر معها إلى النظم السياسية أو الاجتماعية فإذا هى قاصرة عن بغيتها من الوجهة العملية والوجهة الروحية على السواء .

فالفاشية — ومثلها النازية — لا تؤسس نظاماً عالمياً مكفول الدوام لأنها تقوم على تفضيل الجنس والعصبية القومية . فلا مكان فيها لأمم العالم غير الخضوع والتسليم لجنس الذى يزعمون له حق السيادة والرجحان .

والشيوعية تعطل البواعث الفردية وتسلب النفس حوافز الاجتهاد وتجعل الحياة مادة فى مادة لا يتخللها قبس من عالم الروح ، وتأخذ للدولة كل ما زاد من ثمرات الأفراد ، ولم تفلح مع هذا فى إنصاف العاملين ، لأن السادة فى روسيا الشيوعية طبقات فوق طبقات فى الترف والمتاع ، وقد روى الصحفيون أن وليمة الدولة للمستر ويلكى مُدت فيها ستون صحفة من الوان الطعام ، فهل يجعلون هذه المائدة مثلا يقتدى به المقتدون ؟ أوهى بذخ مقصور على فريق من الضيوف دون فريق ؟

***

والترجمة الانجليزية التى اشتملت على تفصيل هذه الخلاصة تقع فى مائة صفحة من القطع المتوسط وبعض صفحات ، ونحسبها صيحة لا تذهب فى الهواء إذا انتشرت بين قراء الانجليزية الأوربيين والأمريكيين بل الهنديين والشرقيين ، ولكننا نقرأ فيها أن مؤلفها يلقب بأمير المؤمنين وأنه الخليفة الثانى للمسيح الموعود ، ومعنى ذلك أنه من فريق القاديانية الذين يدينون برسالة « مسيحية » أو مهدية للقاديانى ولا يكتفون له بوصف الاجتهاد كما اكتفى المولى محمد على وأصحابه من الهنود المسلمين . فنعجب لهذه الألقاب التى تحيط الدعوة بين المسلمين أنفسهم بأسباب الحبوط والإنكار ، ونسأل : ماهو موضع هذه المسيحية الجديدة أو هذه الخلافة إذا كانت الحجج التى ساقها المؤلف كلها من المراجع الاسلامية الأولى ولا زيادة عليها من وحى جديد ؟

فخير للدعوة أن تقصى عنها هذه الألقاب التى لا تزيدها قوة وتأخذ منها كثيراً من قوتها بين المسلمين أنفسهم ، فضلا عن غير المسلمين .

عباس محمود العقاد

وفاة الملك الظاهر ودفنه

للأستاذ أحمد رمزى بك

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » (سورة فصلت الآية ٣٠)

إيه أيتها الليلة الظلماء القاتمة السواد لماذا فجرك يتأنى ويتمهل ؟ وأين صبح نهارك ؟ لماذا لايشرق ؟

وأنت ياموكب الحزن الشامل مالك لاتزال مرابطاً بأشباحك السود على أبراج قلعة دمشق وعلى جدران القصر الأبلق ؟

أين الطبول والدبادب التى كانت تقرع على أسوار الحصون والقلاع ؟

أين آلات الحرب والكراع التى كانت تدك معاقل الأفرنج ما لها قد سكتت ؟

أين الأعلام وأين السيوف ؟ أتراها قد نكست وأغمدت لدى مصرع الملك الشهيد الراحل، وتنزلت أرواح الشهداء من الأمراء والجند بأمر الرحمن تحمل أرياح الجنة إلى قلعة دمشق تحيى بطل الفتوح وسيد المعارك الذى قادها إلى النصر والشهادة .

إنه يرقد بداخل تابوت تراه معلقاً وسط قاعة من قاعات الجند . إنه الملك الظاهر الذى لم تكن تحويه الدنيا بأسرها .

***

فى ساعة بعد الزوال من يوم الخميس ١٧ المحرم سنة ٦٧٦ هـ (يولية ١٢٧٧ ميلادية) فى حجرة من حجرات القصر الأبلق ومكانه اليوم التكية السليمانية بمدينة دمشق فاضت روح الملك الظاهر أبو الفتوح بيبرس بعد مرض بسيط لم يمهله غير أيام معدودات ، وبموته انتهت حياة أعظم ملوك مصر والشام طراً فى عصرهما الإسلامى العربى المجيد لا بل فى جميع أعصر التاريخ .

وكان السلطان المظيم قد دخل دمشق على رأس جيشه الظافر عائداً من الجهاد عن طريق أنطاكية يحمل على جبينه غار النصر فى آخر حملة قادها إلى أواسط آسيا الصغرى حيث حارب وقاتل وقارع وانتصر ، ودخل مدينة قيصرية ، وخطب باسمه على منابر أرض الروم بعد أن كسر التتار هناك وشتت شملهم ، وحرّر بلاد المسلمين من طغيانهم . ويقول مؤلف سيرته القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر :

« دخل دمشق معتقداً أن الدنيا فى يده قد حصلت ، وأن سعده استخلص له الأيام والليالى والممالك شرقاً وغرباً » ، ولكن المنية كانت على مقربة منه كما قال تعالى : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » سورة الأنعام .

وكان رحمة الله ورضوانه عليه بطلا من أبطال الإسلام أمضى العمر مجاهداً فى سبيل الله ذائداً عن دينه وصفه المعاصرون فقالوا « كان طويل القامة أسمر اللون أزرق العينين أشعر اللحية جهورى الصوت شديد الهيبة تخضع له أسود الرجال وكان خفيف الركاب سريع الحركة لا يستقر فى جهة حتى يظهر فى أخرى » .

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز ويو ماً بالشآم ويوماً فى قرى حلب

كان رجلا من رجال الله يحمل بين جنبيه قلباً لا يعرف المخاوف ولا ترهبه الأخطار ، وكان بعيد الهمة عظيم الآمال يقدم بطبعه على عظائم الأمور ويرحب بالمجازفة ومقارعة الأخطار ، يواجهها وهو ثابت مطمئن ويدفعها بالهدوء الذى يلازم النفس المطمئنة ذات النظرة النافذة التى لا تحيد عن الهدف ولا ترتد ، والتى تشعر بأن لصاحبها من القوى الكامنة والظاهرة ما يجعله يسيطر على حوادث الزمن ، وأن فيه من صفات الرجولة ما يجعله بطلا من أبطال العالم ، وأنها تشعرك بأن لوازم القيادة متأصلة فيه ، فهى التى أوصلته أن يتحكم على نفسه ويقودها كما شاء ثم مكنته أن قاد الناس معه .

كان من أبطال المسلمين المؤمنين بعظمة الإسلام لا ينفك يفكر فيه ويخفق قلبه له ، فهو من أولئك الذين إذا قاموا بعمل عظيم وضعوا كل شىء فى سبيل تحقيقه والوصول إليه . هؤلاء ليس لهم أن يختاروا من الأمور أوسطها وأسهلها أو يقفوا بين طريقين مترددين وجلين ؛ لم يكن من أولئك الذين تشغلهم أمور الدنيا فترى الواحد يوزع جهوده ذات اليمين وذات اليسار . بل

كان من الفريق الذى يضع عقله وروحه وما يملك فى إتمام ما بدأ فيه ويحشد عواطفه وغرائزه ، فى تأكيد إرادته نحو الغاية التى ينشدها ، فكان أن وصل بالإيمان والثقة إلى أن تملكته نفحة من تلك النفحات الدافقة التى يُسبغها المولى على من اختار من عباده ، فأصبحت هذه النفحة غريزة فى خُلُقه وقوة فى نفسه ودمه ، تحركه للعمل والجهاد فى سبيل الله وخدمة دينه ونصرة كلمته ، فغدا بهذه النفحة قوة من قوى الخالق جل شأنه « إنى لهذا أقتك لكى أرى قوتى فيك » .

***

عجب الناس له : إذ رأوه ملكا على أعظم ما تكون الملوك عليه هيبة ووقاراً ، وقائداً على أعظم ما يكون عليه القواد أمام الأخطار والمعارك ، ساس الملك وخاض المعارك فأدهش الدنيا بملكه وعظمته ، وأدهشها بفتوحاته وانتصاراته ومواقعه الحاسمة الفاصلة . حكم فعدل ، وخُطب باسمه فى مشارق الأرض ومغاربها وأعاد الخلافة العباسية ، وقاد الجند فى الحروب فما من معركة دخلها ضد الفرنج أو التتار إلا وانتزع النصر من أيدى أعدائه ، فحطم قلاعهم وحصونهم وساق الملوك والأمراء والقادة أسرى بين يديه . لهذا بقيت صورة الملك الظاهر حيَّة خلال الأعصر ، ولهذا صاحبت أعماله السنين ، وبقيت خالدة مع الزمن راسخة فى قلوب الناس جيلا بعد جيل يتناقلها الخلف عن السلف ويسمر بسيرته الرجال .

ألم تر السامعين لسيرته . ما الذى يجمعهم حولها ويجعلهم يأنسون بها ؟ إنهم يلتمسون من عزيمته وعزمه ما يقوى عزيمتهم وعزمهم ، إنهم يرون فى صبره وإقدامه وشجاعته ما يخفف من وقع الأحداث والنوائب عليهم ، ولذلك عاشت سيرته وأعماله وأصبحت أعماله مضرب الأمثال ، وأطلت شخصيته من وراء الأجيال والقرون تحدث الناس بدروس البطولة والمجد .

* * *

وفى ليلة وفاته كتب مؤلف سيرته : « قبض الله روحه الزكية فرجعت إلى ربها راضية مرضية ، وكأن نفوس العالم كانت نفساً ، وأنزل الله السكينة فلا تسمع إلا همساً ، واستصحب نهايته السكوت ، وخادعت المقول نفسها بين مصدق ومكذب ، وسكتت الشفاه والألسنة ، وتناومت النفوس من غير نوم ولا سنة ، وأسدلت ستور المهابة ، وأُفرد بقاعة من القلعة يوماً إليه بالترحم والسلام ، ولا يزوره غير الملائكة الكرام ، وكانت مدة مرضه قدَّس الله روحه ثلاثة عشر يوماً ، وهى مدة مرض الشهيد صلاح الدين رحمهما الله تعالى » .

وفى قاعة من بيوت الجند من المماليك البحرية بقلعة دمشق وضع جثمان الملك الظاهر فى تابوت بعد أن تولى غسله وتصبيره وتكفينه خادمه الخاص الشجاع عنبر ، وساعده المؤذن كمال الدين على المنيحى بحضور الأمير عز الدين الافرم ، وبقى التابوت معلقاً حتى شهر رجب من تلك السنة حينما جاء وفد من القاهرة لدفنه بتربته التى أنشئت بالمدرسة الظاهرية . ذكر صاحب البداية والنهاية : أن العمارة بدأت فى يوم السبت تاسع جمادى الأولى فى مكان الدار المجاورة لحمام العقيقى تجاه المدرسة العادلية ووضعت أسس التربة فى خامس جمادى الآخرة .

عندئذ أوفد ابنه الملك السعيد : الأمير علم الدين سنجر والطواشى صفى الدين جوهر الهندى فوصلا من مصر إلى دمشق ، ولما كانت ليلة الجمعة الخامس عشر من رجب سنة ٦٧٦ حمل نعش الملك الظاهر من القلعة ليلا على أعناق الرجال :

خرجوا به فوق الرقاب وساروا ... تهديهم من وجهه الأنوار
وسروا به ليلا ليخفوا قبره ... والليل لا تخفى به الأقمار
هم سارعوا نحو الثرى بعبيره ... وقبوره الأسماع والأبصار

وسارت جنازته إلى صحن الجامع الأموى للصلاة عليه ، ولما انتصف الليل خرجوا به يتقدمهم نائب السلطنة المصرية بالشام الأمير عز الدين أيدمر ومعه أمراء جند الشام وتوجهوا به إلى المدرسة الظاهرية ثم إلى التربة التى أنشئت له ، وهناك ألحده قاضى القضاة عز الدين بن الصايغ . ولما أرقد رقدته النهائية بدأ القراء مستفتحين بالآية الكريمة « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » ، ولقد زرت هذا الضريح ووصفته على حالته بعدد « الرسالة » ٤٧٠ المؤرخ ٢٣ نوفبر سنة ١٩٤٢ ، وكنت

لا أدخل دمشق إلا جعلت من برنامجي زيارة هذا القبر الطاهر والوقوف أمامه أرتل قول القائل نقلا عن ابن الفرات :

صاح هذا ضريحه بين جفنيّ   فزوروا من كل فج عميق

وهو القائل أيضاً : « إن الأسف تجدّد بدفنه فكأن العالم فجعوا بأبيهم الشفوق ، وقضوا حق التعزية وأنى يقضى أحد ما له من الحقوق » .

ولقد تقلبت بي الأيام وتنقلت بين بلدان كثيرة وأتيت من كل فج عميق لأجدد عهد الإخلاص أمام الملك الظاهر أعظم ملوك الإسلام المجاهدين المرابطين ، فما وجدت بقعة أوحت إليّ وملأت روحي مثل هذه البقعة وقبر صلاح الدين . لقد جعلاني أومن بحق الوطن الخالد وعظمة مصر قلب العروبة والإسلام وأوحت كل منهما إليّ بالدوافع النفسية للعمل وعرفتني مكانة بلادي في التاريخ إن القوى الكامنة فيها لا تقهر وإنها سوف تظهر للعالم وتكتب في تاريخ العرب والمسلمين صفحة جديدة ، وستبعث بعثاً جديداً بإذن الله .

إلى هذه التربة انتهى المسير بجثمانه الطاهر ليرقد رقدته الأبدية إلى يوم البعث إذ هناك يرقد بطل المنصورة وعين جالوت وصاحب الفتوحات الكبرى : قيصرية وارسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وحصن الأكراد ، وغيرها من البلاد والحصون والقلاع ، صاحب مصر والشام وبرقة والحجاز والنوب وأرض الفرات :

تدبر الملك من مصر إلى يمن   إلى العراق وأرض الروم والنوبي

ولن أترك الظاهرية من غير أن أشير إلى ما ذكره اليونيني في تاريخه عن أول درس للشريعة ألقي بها بعد بنائها إذ قال : « وفي يوم الأربعاء ثالث عشر صفر كان أول درس بها ترأسه نائب السلطنة المصرية بالشام ، وكان درساً حافلا حضره القضاة وكان مدرس الشافعية الشيخ رشيد الدين محمود بن الفارقي ، ومدرس الحنفية صدر الدين سليمان ، ولما توفي تولى بعده حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن أنوشروان الرازي الحنفي الذي كان قاضياً بمدينة ملطية » .

ها قد عشت يوماً من أيام الملك الظاهر فانظر أثابك الله إلى آثار ذلك العهد وإلى علمائه وتعجب لحالنا اليوم وما نحن فيه .

فهل فكّر أهل مصر والشام في الظاهرية والملك العظيم المدفون بداخلها ؟ هل أعطيت له مكانة البطولة التي يستحقها في التاريخ ؟ انظر إلى الحجر الرخامي على الباب تجده من عمل أحد الولاة بدمشق فيه شعر ركيك بالعربية وبالتركية يكيل المدح ، وينسى واضعه أن يذكر صاحب المدرسة والتربة بكلمة واحدة .

ومن نكد الدنيا أن الوقفية على المدرسة الظاهرية منقوشة على أحجار البناء على الباب الكبير ، ولكن هذا لم يمنع الولاة والناصبين من أن يحرموا الظاهرية من القرى الموقوفة على دروس الدين . إني أستحي من نفسي وأخشى أن يقرأني العالم إذا ذكرت للناس أسماء الضياع وأسماء من اغتصبها : رحم الله الإسلام والمسلمين ووقانا من شر أعمالنا .

قضى وله على الدنيا أيادٍ   يصح بها من الزمن السقام
فراح من الملائك في صفوف   لهم من حول تربته زحام

أحمد رمزي

إلى وزارة المعارف :

وعلى هذا فنحن ندور ...

للأستاذ كامل السيد شاهين

وها هو ذا العام الدراسي قد ابتدأ ، بعد أن تحيفته عوامل وأسباب نستكره الخوض فيها ، ونرجو أن تكون عوامل خير واستعداد وتهيؤ لا عوامل تخوف واستيحاش وإجفال .

بدأ العام الدراسي بعد شهور خمسة قضتها الوزارة في فتح المدارس وتنظيم المصروفات ، وإجراء التنقلات والترقيات ، وغير هذا مما هو من نصيب المدرس أو الناظر أو المفتش أو المراقب ، وكلهم — بحمد الله — يقظ ، مفتح العين ، مترقب عامل دءوب ، متنسم لأخبار الترقيات والعلاوات ، متخصص في تطبيق « الكادر » سباق إلى ذوي الحظوة المقربين ليقفز درجة أو ينال مرتبة .

وقد أبلت وزارة المعارف بلاءها السنوي . فنال من نال ، وحرم من حرم ، وبات الجميع بين مفطور القلب أسوان ، ومفتر الثغر فرحان . فأما الذي نسيته الوزارة والقوامون على تصريف شئونها ، وأغفلته شر إغفال ، ولم يذكرها به مذكر ، فذهب ضياعا وراح هدرا ، فهو حق التلميذ . فللتلميذ الحق الأول لدى وزارة المعارف ؛ وليس حقه هذا في مصروفات تزاد أو تنقص ، ولا في غذاء يخفف أو يجوّد ، فالخطب في المال يسير ، وهو في الغذاء أيسر ، وما كان أمر المال أو الطعام بالأمر الذي يدخل في اختصاص وزارتنا في الصميم ، وإنما حقه في تيسير العلم ، وترقية الطرق ، وتغذية المواهب ، وحل المشكلات ، والتجانف عن التعقيد والالتواء . وإماطة الأشواك المربكة لعقله ، والمعوقة لفهمه ، وتنقية الكتب من الطفيليات العلمية التي تتعلق بالأصول المفيدة ، فتحد من إفادتها وتقلل من قيمتها .

وما كانت وزارة المعارف — وحاشاها — أن تلتفت إلى حق التلميذ هذا ، وكيف تلتفت وصاحب الحق قاصر ، والقوام عليه مشتغل بشأنه عنه ؟ وكيف تلتفت ، وهذه اللفتة لا تفيدها ضجيجاً ولا تلفت إليها الأنظار ، ولا تخرجها إلى عالم لا يسمع إلا الفرقعة المدوية ، والانفجار الهائل ؟

وكيف تلتفت ، وهذه اللفتة لا تفيدها ثناء ولا إطراء ، ولا تجر إليها إعجاباً ولا إكبارا ؟ وهي بمنجاة من اللوم ، فصاحب الحق خافت الصوت لا يعرف حقه ولا يدريه !

ابتدأ العام الدراسي ونظرنا فإذا المقررات هي هي ، وإذا الكتب هي هي ، منذ عشرة أعوام حتى لكأنما سار هذا الموكب الحافل من المدرسين والمفتشين طوالها لا يلمسون عيباً ، ولا يحسون عوجاً ، ولا يرضَوْن عنها بديلا . وكأنما رضوا ما آتاهم المفتشون ولصقاؤهم من كتب خالدة باقية على الزمن يتغير كل شيء ولا تتغير ، وتعيش في جو يجر التلميذ والمدرس إليه كرهوا أم رضوا ، تعبوا أم استراحوا فإنما هو تأليف فلان أو فلان من الخيرة الأعلام الراسخي الأقدام !

يتغير كل شيء ويتطور ، وتخرب الأرض وتعمر ، وتقوم الحرب وتضع أوزارها ، وتثور الشعوب وتخمد ثورتها ، والكتب المدرسية ماضية فيما هي فيه لا تتأثر بهذه الأحداث ، وأي عيب في هذا ؟

أليست حقائق الأشياء ثابتة ما لها من زوال ؟

لقد بحت أصواتنا — نحن المدرسين — أن أدركوا الناشئة من التلاميذ التي جنت عليها الدراسات العقيمة في الأدب والقواعد الجافة التي لا تخرج عن أنها مضيعة للوقت ومفسدة للعقل ، فقالوا : هدامون نسافون مخربون ، فجئنا لهم بالأحجار والملاط ، وقلنا لهم شيدوا ! أولا ، فأفسحوا لنا المجال لنشيد بعيدا عن تحكم المفتشين ، وعجرفة المناهج ، فأبوا إلا مضياً في الفساد ، ورجفت قلوبهم من التغيير والتجديد . وهأنذا أضع بين يدي القارئين طرفاً من هذا العوج حتى يلببوا القائمين على شئون التعليم بوزارة المعارف ، ويردوهم إلى شيء من التبصر في أمر هذه الناشئة .

فالتلاميذ في المدارس الثانوية يدرسون أدب اللغة العربية على طريقة التلقين فالحفظ من غير تذوق الإدراك ، ولا إحاطة

بملابسات العصر المدروس ، فى كتب مضغوطة محشوة ، وكثيرا ما يلجأ المدرس إلى بترها أو مسخها أو سلخها ، فيزيد من غموضها وانبهامها ، ويخرج التلميذ بجمل فى كل شاعر أو خطيب لا تبقى معه إلا ريثما يخطها فى ورقته ثم يفرق الله بينهما أبد الآبدين .

وقد اقترحنا علاج هذه المشكلة بأن يقرر مع العصر روايات لها فائدتها فى إنارة العصر المدروس وأحواله الاجتماعية ، فرب رواية تكون أجدى على التلميذ من قراءة كتاب من موسوعات أدب اللغة .

اقترحنا أن تقرر رواية «عنترة بن شداد» مع العصر الجاهلى ، ورواية « شاعر ملك » مع العصر الأندلسى ، ورواية « فارس بنى حمدان» مع العصر الثانى العباسى ، وأن تنشأ روايات أخرى لهذا الغرض عينه يراعى فيها الإكثار من الشواهد ، والتحرى لطابع العصر ، فلذلك فائدته وجدواه ، وقلنا : إن التاريخ الأدبى مغلول بالتاريخ السياسى مقيد به ، ومع اعترافنا بقيم الأحداث السياسية ، فإننا نرى أن متابعة تاريخ الأدب للتاريخ السياسى خطوة خطوة وشبرا شبرا مما يتضمن الإسراف على حقائق الأدب وتطوره إلى أبعد مدى .

وقلنا : إن الدراسات النثرية فى الأدب لم تأخذ حظها وافيا من الدراسة وأن الشعراء خطوا خطوة واسعة ، على حين أهمل أمر كثير من الكتاب . ولو أننا تتبعنا الأعمدة التى وضعها الكاتبون فى أدب اللغة لتطور الكتابة لوجدناهم قد راعوا ناحية الوظيفة ، فجعلوا من الكتاب « الموظفين » أعمدة على حين بقى غيرهم لا يعرف ولا يشار إليه ، فى هذه الطريق تجد « عبد الحميد » وهو موظف ، ثم بعده تجد ابن العميد ثم بعدهما تجد القاضى الفاضل ، وهما موظفان كذلك . فيملأ العجب جوانحك وتتساءل فى استغراب ودهش : أين ابراهيم بن المهدى ، وهو ذو أسلوب فى النثر مبتدع ؟ وأين الجاحظ سيد كتاب عصره ، والذى سوى لنفسه طريقة لا تزال تؤتسى إلى يوم الناس هذا . وهذان مثلان من مُثل كثيرة ، ليس هذا مقام تتبعها وأياً ما كان ، فإنه يجب أن يخطط تاريخ الكتابة تخطيطاً جديداً ، ويخص بقسط من العناية أوفى .

قلنا هذا كله ؛ وسمعنا إطراء وثناء وبدت لنا الآذان مفتحة والنفوس منشرحة ووعدنا بالنظر ، فكان النظر فى كل شىء إلا فى حق التلميذ فقد بقى « على قدمه » ، كأنما هذا الذى بين يديه ، غاية الغايات وآية الآيات !

وقلنا إن المستوى الإنشائى للتلاميذ غير مناسب ، فيجب أن تقرر عليهم روايات أخرى تنزع بهم إلى ترقيه الأسلوب وتذوق الجمال فى الآثار الأدبية « كالام فرتر » و « روفائيل » وكتب فيها مقالات أمشاج ، تذهب فى علاج نواحى اجتماعية أو سياسية فى أسلوب أدبى راق « كفيض الخاطر » و « مختار البشرى » على أن يكون لها نصيب من الدرجات حتى يرغم التلميذ على قراءتها وإجادتها وتذوقها والإفادة منها .

ونحن إذ نهيب بوزارة المعارف أن تولى أمر المناهج والمعلومات التى يتلقاها التلاميذ عنايتها إنما نفعل بدافع من هذا الأسف الممض الذى يعتصر قلوبنا اعتصاراً على نابتة تفنخ فى غير فخم ولا تسير فى طريقها على أمم !

ولى عودة إلى مناهج التعليم الابتدائى إن شاء الله .

كامل السيد شاهين

المدرس بالمدارس الأميرية

مجالس الأدب :

فى إحدى ليالى رمضان

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

[تثبت فيما يلى نص الحوار الطريف الذى دار بين ثلاثة من أدباء مصر وشعرائها فى إحدى ليالى رمضان كما أذاعته محطة الشرق الأدنى] ...

٥ — المعرى والجن

وما رأى المعرى فى الجن يا أستاذ كامل ؟

كامل : يقول :

فاخشَ المليكَ ولا تَـقْعُـد على رهَـب

إن أنت بالجن فى الظلماء خُشِّيتا

فإنمـا تلك أخبارٌ مُلفَّـقَةٌ لخدعة الجاهل الحوشىِّ، حوشيتا

٦ — شكوى ابن الرومى

عماد : قل لى يا أستاذ كامل . هل كان ابن الرومى كالمعرى يصوم أيضاً ؟

كامل : كان المعرىّ يصوم الدهر مختاراً . وكان ابن الرومى يكاد يصوم الدهر مضطراً ، لأنه لم يكد يظفر بالقوت .

عماد : إذ يقول يا أستاذ كامل ؟

كامل : « فلو كَفَّ قوتى ماء وجهى صُنْتُه » .

أو يقول :

« لا تَعجبنَّ لمرزوق أخى هوج

حظاً تخطَّى أصيل الرأى طرَّافا

نخالقُ الناس أعراء بلا وَبرِ كاسِى البهائمِ أوباراً وأصوافا »

أو يقول مُتبرِّماً بحظه :

« إن للحظِّ كيمياء إذا ما مسَّ كلباً أحاله إنسانا »

أو يقول :

« حُرمت فى سِنِّى وفى مَيْـعَتى قِراىَ من دنيـا تَضيَّـفْتها

لهفى على الدنيا ، وهل لهفة تُنصف منها ، إن تَلهَّـفْتها »

إلى آخر ما يقول مما يفيض به ديوانه .

٧ — ابن الرومى وشهر الصوم

عبد الغنى : ولـكن هل كان يحب رمضان ؟

كامل : كانت تجهدُه أيامه بقدر ما تبهجه لياليه .

عبد الغنى : إذ يقول يا أستاذ كامل ؟

كامل : من طرائفه فى هذا الباب قوله مداعباً :

« أذمُّـهُ غيرَ وقت فيه أحمدُه من العشاء إلى أن تَـنْقع الديكه »

عماد : هذا بيت رائع ، فهل تذكر إخوته ؟

كامل :

« شهر الصيام وإن عظمت حُرمته

شهر ثقيلٌ بطىء الظلّ والحركه

يمشى الهوْينى ، فأما حين يطلبنا

فلا السُّـلَيْكُ يُدانيه ولا السُّـلَكه

يا صدق من قال أيام مباركة

إن كان يكنى عن اسم الطول بالبركه »

٨ — بياض المشيب

عبد الغنى : ولـكن قل لى يا عماد إن الشعرات البيض فى رأسك تكاد تظفر بالشعرات السود ، فلماذا لا تعمد إلى الخضاب تسود به ما ابيض من شعرك كما يفعل كثيرون ، وكما فعل ابن الرومى حيث يقول :

ياببياض المشيب سودت وجهى عند بيض الوجوه سود العيون

وبهذه المناسبة هل تذكر يا أستاذ كامل شيئاً لابن الرومى فى المشيب ؟

كامل : كثير، ولـكن هيهات يُنسى قوله :

أما رأيت الدهر كيف يجرى يثبت ما أكتمه من عمرى

بأحرف يخطهـا فى شعرى يمحو بها غض الشباب النضر

إذا محا سطراً بدا فى سطر

عبد الغنى : والآن أجبنى يا أستاذ عماد لماذا لا تعمد إلى الخضاب ؟

عماد : إنى لا أحب الـكذب فى الشعر وأنا لا أحبه أيضاً فى الشَّعر . ومع ذلك فأنا مقيد بقسم قديم لا أستطيع التحلل منه الآن .

عبد الغنى : وما هو هذا القسم ؟

عماد : قد تطغى على النفس البشرية فى الشباب ساعات يأس أليم تبغض إليها الشباب حتى لتحسب سعادتها فى الشيخوخة، وذلك رغبة فى الانتقال من حال إلى حال . لا لأن الشيخوخة سعيدة فى حقيقتها ، وقد قلت فى شبابى الباكر قصيدة يأس أذكر منها هذه الأبيات الغريرة :

قل يا رعى الله المشيب ولا رعى الله الشباب
عهد بلوت عهـوده فإذا بأغلبها كذاب
حلو على مُرٍ فهـل يرضيك من هذين صاب
من لى بظهر قـد تأطّـ ـر أو بيوم يقال شاب
آليت ثمّ أليـة أن لا عمدت إلى الخضاب

٩ — ليلة الوزة

عبد الغنى : أذكر يا أستاذ كامل . أن الصحف والمجلات منذ خمسة عشر عاماً أشارت إلى ليلة من ليالى رمضان أقيمت فى دارك وأطلقت عليها : « ليلة الوزة » اجتمع فيها على مائدتك الزنكلونى وأحمد حسنين وشوقى والهراوى والهيهاوى وصادق عنبر وأحمد عيسى وأبو العيون ودراز ، ولا أزال أذكر منها الأبيات التالية :

« هذا هوالمجلس ، لاتذكروا شبيهه فى الصفو لا تذكروا
رأيت فيـه كيف أضحت به حقيقة مَرْئيـة عَبْـقَر
كان زكى باشا ، إلى جنبه زعيمُ سوريا الحرُّ شَهْبَنْدر
وكان هرّاوىُ الرقيق الدقيـ ـق ، واللغوى صادق عنبرُ

فما حكاية هذه الليلة ؟

كامل : جاء ولدى ذا صباح متهللا يُبشرنى بأن الوَزّة التى طارت من بيتنا منذ يومين إلى بيت الجيران عادت إلينا . وكان بعض الأدباء حاضراً فقال متظرفا : « ما دمت قد وجدت الوزة الضائعة فقـد وجب عليك أن تدعونى إلى الإفطار عليها غداً . فأجبته إلى اقتراحه ، وجاء ثان وثالث ورابع وخامس وسادس وصاحبنا لا يكف عن تظرفه ، ولا يفتأ يروى قصة الوزة ثم يختمها قائلا :

والكيلانى يدعوك إلى الإفطار غداً على هذه الوزة ابتهاجاً بعودتها . فيقبل صاحبنا الدعوة فى غير تردد .

فلما رأيته يتمادى فيما يظنه إحراجاً لى وهو — لو علم — مصدرُ سرور وبهجة ، قابلت تحديّه بمثله ، فرحت أدعو بقية أصحابى تلفونياً إلى الفطور بعد أن أوجز لهم القصة ، حتى تجاوز عددهم الأربعين .

ولا أكتمكما أن تظرُّفَ صاحبى — مضافا إليه انسياقى معه فى التحدى — قد جَنَيا على كبش لم يكن له فى هـذه الجناية يد ، كما جنيا على جماعة أخرى من ذوات الأجنحة تكفى لإطعام أربعين أديباً ، من بينهم أديبان ، كلاهما — علم الله — جديرٌ أن يكون أمة وحده .

وقد استولى المرح على الحاضرين حين سمعوا أحد الأديبين يشكو أضراسه وهو يطحن الأكل طحناً ، وعلا هتافهم حين سمعوا قول ابن الرومى :

على أنه ينعَى إلى كل صاحب
ضروساً له تأتى على الثور والكبش
يخبر عنها أن فيها تَثَلُّماً وذلكم أدهى وأوكد للجرش
ألم تعلموا أن الرحى — عند نقرها
وتجريشها — تأتى على الصلب والهشّ

وكانت ليلة أنس حافلة قلّ أن يجود بمثلها الزمن . وتوسطت الوزةُ المائدة ولم يفكر أحد فى لمسها وتمزيق لحمها شكراً لما أسدته إلينا من جميل ، بما هيأت لنا من اجتماع سعيد . وقد اجتمع الحاضرون على تخصيص الليلة كلها لأبرع ما يعرفون من حكايات الوَز .

١٠ — ساق الوزة

عماد : بمناسبة اشتغالك بجحا يا أستاذ كامل فى هذه الأيام هل كان لجحا نصيب من حكايات الوَزّ .

كامل : نصيب الأسد . فقـد ظفِرتْ بعضُ حكاياته — على عادتها — بالجائزة الأولى . وخلاصتها أن الجوع استبد به ذات مرة ، فاضطره إلى التهام ساق الوزة الشوية قبل قدوم صاحبه .

فلما سأله فى ذلك قال :

ألا تعلم أن للوز ساقاً واحدة ؟

واشتدّ اللجاج بينهما فخرجا إلى حديقة الدار — وكان يوماً

تعقيبــات ...

للاستاذ عباس حسان خضر

أعداء المرأة :

منذ سنين أطلق بعض المروِّجين للأستاذ توفيق الحكيم عليه لقب (عدو المرأة) ، واتخذت المجلات الشعبية هذا اللقب مادة للتندر فيما يتصل به ، وطاب ذلك للأستاذ نفسه ، فأكثر فى كتاباته مما يثبته ويسيّره بين الناس ، وكان بين الناس ، ولم يزل بينهم ، من يتساءل عن معنى هذه العداوة . وأكثر هؤلاء المتسائلون تساؤلهم لما رأوا أخيراً الدكتور زكى مبارك يعلن بنفسه فى مجلة (مسامرات الجيب) أنه عدو المرأة ، ويتبع ذلك بحملة عشواء ... يعلو فيها مثار النقع ، وتنجلى غمراتها عن هزيمة الجنس الناعم أمام أسلحة الشتائم التى جرد منها بالتثقيف والتهذيب ، واتخذها بعض الرجال أداة لحربه ...

ويعجب الشاهدون لهذه المعامع من هؤلاء (الأبطال) الذين يريدون أن يعكروا صفو المودة بين الجنسين التى هى من آيات الله الذى جعل لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها وجعل بيننا مودة ورحمة ؛ ويعجبون أشد العجب لتحقير اللائى هن من أنفسنا ونحن منهن ولا يحق لهن إلا الكرامة والإعزاز

ويقول السائلون عن معنى تلك العداوة : أهى عداوة جنسية بحيث يدعو أولئك المغاوير سائر الرجال إلى حرب النساء ، ويضطر النساء إلى المقاومة ، فيقف الجنسان فى الميدان صفين على رأس أحدهما توفيق الحكيم وزكى مبارك ... ؟

ما الرجل ؟ وما المرأة ؟ أليسا نصفى شىء واحد هو الإنسان ؟ وهل يستطيع هذا الإنسان أن يتحرك إذا شل نصفه ؟

إن الرجل ليس رجلا إلا لأن هناك امرأة ، فهما متقابلان لا وجود لأحدهما دون الآخر ، وليست المرأة إلا شريكا للرجل له قيمته ، وليس من الرجولة أن نتنقصه ونتنكر له !

فإذا كان من يتسمون أعداء المرأة يريدون أن يحاربوا عيوباً تتصف بها ، ونقائص جرت أو طرأت عليها ، فليس السبيل إلى ذلك إيذاء شعور الكرائم وجرح نفوسهن بتلك المهاترات ، إنما السبيل هو الذى يسلكه ذوو الألباب من التنديد بالنقائص والعيوب والدعوة إلى نبذها والتجمل بأضدادها ، كما يصنع الأستاذان الطنطاوى وسيد قطب فى « الرسالة » الزاهرة

وليس للرجل أن يعيب المرأة — من حيث هى امرأة — لنقائص فى جنسها ، أو لأن أفراداً منه حادوا عن الجادة ، فالرجال فى ذلك كالنساء ، بل إن من الرجال من لا تستطيع أشد النساء إمعاناً فى الخزى أن تبلغ شأوه فى هذا المضمار ، وهم المتشبهون بهما ... ومن يتخذونهم بدلا منها ... ومع ذلك لم نسمع أن امرأة نودى بها أو نادت بنفسها عدوة للرجل ... !

فعداوة الجنس برمته لا موضوع لها إلا أن يكون القصد منها الترويج والتهريج والتظاهر بأعجب البطولات !

رؤيا لم تقص :

رأى أحد الأشرار فى نومه أنه قتل رجلا ، ولم يستطع الفرار : فوقع فى يد الشرطة ، وقدم إلى المحاكمة . وحكم عليه بالإعدام ، وحل وقت التنفيذ ، وأتى به إلى المشنقة ؛ وبينما كان الرجل سابحاً بفكره فى رؤياه دخلت زوجه لتوقظه ، وفى اللحظة التى وصل فيها إلى أن كان الجلاد يمدُّ له حبل المشنقة — لمست يد زوجه عنقه ، فقامت هذه اللمسة مقام الحبل فى التأثير فى الرجل ... ففاضت روحه .

مهلاً قارىء « الرسالة » ، فأنا أعرف فطنتك ، وما يقاس ذكاء مثلك بمثل هذه الحكاية ، فلا إخالك إلا سائلا : وكيف عُرف أن الرجل رأى هذه الرؤيا وقد اتصل نومه بالموت فلم يقص رؤياه على أحد . . ؟ !

وبعد ، فقد قرأت قصة (قطر الندى) للصديق الكريم الأستاذ محمد سعيد العريان التى ظهرت فى سلسلة (اقرأ) ، وهى

قائظاً يكاد يلتهب فرأيا الوز واقفاً على رجلٍ رجل .

فقال جحا :

أرأيت صدق ما أقول

فأسرع صاحبه إلى الوَز وهشّه ، فجرت كل وزة على ساقيها فقال له :

أرأيت الآن لكل وَزَّةٍ ساقين ؟

فقال جحا متباهلاً :

آه ! لقد ذبحتها ياصاح من غير أن أقول لها هش !

قصة ممتعة جلاَّها أسلوب العريان الطلى وحلاَّها براعته الفنية ، ولكنى وقفت فيها عند رؤيا لم تقص ... لست أدرى كيف عرفها الأستاذ العريان ؟ !

ذلك أن (أم آسية) حاضنة قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد ابن طولون — رأت ذات ليلة أنها فى قصر عظيم تزف فيه قطر الندى بنت ملك الغرب (خمارويه) إلى ملك الشرق (الخليفة العباسى) ، وكأنها (أم آسية) أم العريس ، وقد أفسحوا لها حتى دخلت إلى دار الحرم فشاهدت قطر الندى جالسة على سريرها... وحملها أريج البخور على جناحين من لهب إلى السماوات ، فما تنبهت إلا على صائح يصيح .. !

وقصت رؤياها على سيدها خمارويه راجية منه أن تكون ماشطة الأميرة يوم زفافها ... ثم كبرت الأميرة ... وهيئت للزفاف إلى المعتضد ، وسار ركب العروس من مصر إلى العراق . وفى بعض منازل الطريق نامت أم آسية ماشطة العروس ذات ليلة ، فرأت تمام الرؤيا التى بدأتها فى منامها منذ سنين ... حملها الأريج إلى السماوات ، وسمعت هذه المرة صيحة الصائح ... عرفته وفهمت عنه رسول من مصر يهتف بنبأ مروع ... قال الأستاذ : « وطوت صدرها على السر فلم تكشف لأحد عن خبره » . وقال : « واشتد بها الوجع ذات ليلة فى بعض منازل الطريق ، وأصبحت ميتة لم تكشف عن سرها ولم تتحدث إلى أحد برؤياها ! »

وعرفنا من حوادث القصة بعد ذلك أن تمام الرؤيا قد تحقق كما تحققت بدايتها ، إذ كان النبأ المروع أن غلمان خمارويه وثبوا عليه فقتلوه !

ولا أشك فى أنك الآن مشاركى العجب من معرفة الأستاذ العريان رؤيا أم آسية الثانية وهى لم تتحدث إلى أحد بها ! اللهم إلا أن يكون قد رأى أم آسية فى نومه فأفضت إليه بالسر الذى طوته حقباً من الدهر ... ؟

فى تعليم اللغة العربية :

كتب الأستاذ عادل الغضبان فى مجلة الكتاب الصادرة فى أكتوبر الفائت مقالا بعنوان « اللغة العربية بين المعلم والطالب » بين فيه ما رآه من أسباب ضعف الناشئة فى اللغة العربية ، ووزع التبعة فى ذلك بين الطالب والمعلم والمنهج ، فالطالب منصرف عن الدرس مقبل على مطالعة صحف المتعة والتسلية ، والمعلم مرهق بكثرة العمل مشغول بأسباب معاشه فى عصر كثرت فيه المطالب والنفقات . وقد أفاض الأستاذ فى هذه النقطة فأنصف المعلم ودعا الدولة إلى رعايته وتقديره

وتلك أسباب لضعف الطلبة فى جميع المواد لا فى اللغة العربية وحدها ، ويظهر أن الكتاب ، لغيرتهم على اللغة العربية وتشبعهم بحبها ، يقصرون الكلام عليها حينما يتعرضون لشئون التعليم من حيث انخفاض المستوى العلمى للطلبة مع أنه يكاد يكون على سواء فى جميع المواد

أما كلام الأستاذ فى المنهج ، فقد تضمن ما نخالفه فيه ، عاب معالجة المنهج المشحون بالحذف والتبسيط ، ولكنه لم يقل بم يعالج ، فمن المعلوم أن ازدحام المنهج بالمواد يتخم الطالب ويعسر عليه هضم المعلومات ، فبم يعالج إن لم يكن بنقصه وتسهيل صعبه ؟

وحمل على التبسيط فقال : « ولقد عمت موجة التبسيط كل مقومات اللغة ، فتناولت اللفظ والأسلوب والصرف والنحو والبلاغة والأدب . فبدت اللغة العربية لذهن الطالب بعد ذلك التبسيط شجرة جرداء مقلمة الفروع جافة الغصون » . وقال : « إن هذا التبسيط يبعد الطالب عن الأساليب القديمة البليغة » . إلى أن قال : « وأعجب العجب ما قرأناه أخيراً من أن أستاذاً فى الجامعة يملى على تلامذته تفسير القرآن باللغة العامية »

والذى أراه أن أستاذ الجامعة يسف فى التسهيل والتقريب ، والأستاذ عادل الغضبان يوغل فى البعد عن مدارك التلاميذ ، ومن أسس التربية المفروغ منها وجوب البدء بالسهل ثم الانتقال منه إلى الصعب ثم إلى الأصعب ، ولكن الأستاذ عادل يريد أن يصدم الأذهان الغضة بالأساليب القديمة البليغة ، وأستاذ الجامعة ينتهى بالجامعيين إلى ما هو دون ما يجب أن يبدأ به ، فالتلميذ يبدأ فى السنة الأولى الابتدائية بالمحادثة العربية وينتهى فى الجامعة بالبلاغة العامية .. !

ويغالى الأستاذ عادل فى بيان قيمة القواعد ويرى الإكثار منها فى المدارس ، ولم يولِ اللغة نفسها أى الكلام العربى شيئاً من الاهتمام مع أنه هو الغاية المنشودة ، والأجدى فى الوصول إلى هذه الغاية أن نعرض الكلام نفسه مكونا مركبا على الناشىء بمختلف الوسائل ، ليدركه ويتذوقه وينطبع مثاله فى ذهنه ، قبل أن نحشوه بتلك القواعد التى تحلل الكلام وتفككه . وبهذا نحقق فائدتين : الأولى تكوين ملكة لغوية يقتدر بها

فلسفة التعمير فى الحياة

للدكتور فضل أبو بكر

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله
وعلم نوحاً وابنه صنعة السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم
وقد وعدا من بعده جنتي عدن
« أبو العلاء المعرى »

التشبث بأهداب الحياة أمنية كل إنسان ، بل هدف جميع المخلوقات من الأحياء ، وهى ليست أمنية أو محض رجاء ، بل هى سعى وكفاح أزلى دائم بين تلك الأحياء تتنازع فيه من أجل البقاء ولأجل البقاء ، فينتصر فى هذا العراك الأقوى ويحرز النصر الأصلح على حساب الضعيف الذى لا تعد له الطبيعة حساباً ، كما سمعت صيحة أزلية داوية يتجاوب صداها فى خلال القرون « الويل للضعيف » ! وتنازع البقاء هذا هو علة العلل — هو سبب الويلات والحروب التى يشنها الأفراد كما تشنها الأمم بعضها على بعض من حين إلى حين كلما اشتدت وطأة هذا التنازع ، كما تشتد وطأة البراكين فتثور ثائرتها وتقذف حممها وهذا التنازع يغرى بالأثرة ويوعز بالأنانية التى تعد من أقوى الغرائز المستأصلة فى الإنسان ، وقد يخفف من وطأتها ويهذب بعض الشىء من شراستها القوانين الأخلاقية وما أنزل من السماء من كتب مقدسة تحث على الأيثار وتندد بالأثرة ، ولكن هيهات ! إذ الطبع يغلب على التطبع ، والغرائز لا يمكن استئصالها وإن كان من المحتمل تهذيبها

ألم يأتك نبأ الأم وقد خرجت من دارها مذعورة تحمل وحيدها على ذراعيها لما طغى الماء وهدد بالطوفان ؟ ! كانت ترفع فلذة كبدها إلى أعلى رويداً رويداً كلما زاد طغيان الماء ، وعلا منسوبه ولما قارب الماء وجهها رفعت الإبن إلى هامة رأسها ، وما أن أدرك الماء الوجه منها وهددت بالاختناق والغرق ، حتى ألقت طفلها فى القاع لكى تعلو عليه فيقيها شر الخطر المحدق ولو إلى حين ! ضحت بابنها لكي تنجى نفسها ولم تضمه فى تابوت مريح وتسمى عليه كما فعلت أم موسى ، وكما يقول المرحوم شوقى بك فى إحدى قصائده :

الناشىء على التعبير الفصيح وتذوق الأساليب العربية ، والفائدة الثانية أن يقبل على القواعد بعد ذلك شاعراً بالحاجة إليها لضبط ما عرفه ومرن عليه من الكلام .

ومن مغالاة الأستاذ فى هذا الصدد قوله : « أما البلاغة فقد أخنى عليها الذى أخنى على القواعد فبسطت بالحذف دون مراعاة جلال شأن المحذوف ، فقد حذف من أبوابها باب الفصل والوصل ولعله فى نظرنا أهم أبواب البلاغة والطريف أن للبلاغة تعريفات جمة منها أنها (معرفة الفصل من الوصل) ولو عرف كثير من الكتاب هذا الباب ووقفوا على أسراره ودقائقه لاهتموا بأن يقدموا للقارىء أسلوباً لا تتعادى فقره ولا تتجافى ألفاظه ولا تختلط فيه حروف العطف اختلاطا متنافراً متنا كراً » .

وأنا أقول له : إن الكتاب الذين يشير إليهم إن يقرءوا باب الوصل والفصل فى كل كتاب من كتب المعانى مائة مرة فلن يأتوا منه فى أسلوبهم بشىء ، إنما يعوز هؤلاء — كى يقدموا للقارىء أسلوبا لا تتعادى فقره .. الخ — أن يقرءوا الأدب العربى ويفهموه ويتذوقوه ويعيشوا معه حتى يكتسبوا منه سليقة يعرفون بها الفصل من الوصل وغير الفصل والوصل من مقتضيات البلاغة ، فالذى أفهمه من معنى أن البلاغة هى معرفة الفصل من الوصل أن الكلام البليغ ما يجىء فيه كل من الفصل والوصل فى موضعه ، فليس المقصود من البلاغة هنا أنها « علم بقواعد » .

وفى وسع أى كاتب أن يرد على هذا الكلام بمقال يبين فيه الفوائد التى لا تحصى من دراسة علوم البلاغة ، ولكن المحقق أنه لن يفكر وهو يكتب هذا المقال فى شىء من قواعد هذه العلوم ..

وبعد فثمة عامل من عوامل ضعف تلاميذ المدارس فى اللغة العربية لم أر أحداً نبه عليه ، ذلك أن فروع اللغة العربية من إنشاء وأدب وقواعد وتطبيق ومحفوظات ومطالعة وإملاء وخط — متعاونة كلها متآزرة كأعضاء الجسد ... الواحد إذا اشتكي فرع منها تداعى له سائر الفروع بالدرجات المكملات للنهاية الصغرى اللازمة للنجاح ... فالذى يقع من جراء ذلك أن التلميذ يهمل فروعا قد يجهلها جهلا تاما اعتماداً على تلك الوحدة الرائعة ..

فلا تعجب إذا رأيت تلميذاً ينجح فى امتحانات اللغة العربية وهو لا يستطيع كتابة سطر بأسلوب سليم ، لأنه يحفظ القواعد أو يحسن غيرها من بقية الفروع ، وقل مثل ذلك فى الباقى ، ولو جعل لكل مادة درجة معلومة لا بد منها للنجاح لا ضطر التلميذ أن يصل إلى المستوى الذى يجب أن يكون عليه فى كل مادة بدلا من أن تمكن له أن يجهل شيئاً بشىء .

عباس حسان خضر

كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا

وقد يبدو من تصرف تلك الأم كثير من الأنانية ، غير أن غريزة حب النفس طغت على عاطفة الأمومة ، وهل عاطفة الأمومة نفسها إلا جزء من غريزة حب النفس ؟ ! فالأم تحب ابنها لأنه جزء منها ولأنه عزاء لها بعد مماتها إذا قدر لها أن تموت قبله ، فهو موصل ومكمل لتلك الحياة .

كل ذلك كما أسلفنا سببه تنازع البقاء وطلب الخلود حتى الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر وقد أفعم الإيمان قلوبهم وزهدوا عن حطام الدنيا تراهم يعلقون بالحياة وتراهم يعزون أنفسهم — وقد علموا ألا خلود فى الحياة — بأن الحياة ما هى إلا طيف خيال ، وأن وراءها الدار الخالدة الباقية ، فالبقاء هو الغاية فى كلتا الحالتين .

فالإنسان يطمع إذن فى خلود نسبى ، إذ لا سبيل إلى المطلق فى هذه الدنيا « وما لا يدرك كله لا يترك جزؤه » . فهو يرجو بعبارة أخرى أن يطول عمره إلى أقصى حد ممكن . لهذا أريد أن أوضح باختصار بعض الطرق المؤدية إلى التعمير ، وهى طرق نفسانية غير الطرق الطبية والصحية المألوفة مع اعتقادنا بأنه « لكل أجل كتاب » . وهذه الطرق هى كالآتى :

١ — الاعتقاد فى طول العمر والاختلاط الدائم بالشباب .

٢ — نبذ عواطف البغض والحسد والغضب .

٣ — الإيمان بالله والاعتقاد فى البعث والخلود .

١ — الاعتقاد فى طول العمر :

أن نؤمن بحقيقة أن بعض الناس منذ بدء الخليقة وفى كل زمان ومكان قد بلغوا من العمر عتياً وتناقل أخبارهم الناس فى شىء من الاستغراب والغبطة ، غير أن عملية الإحصائيات لم تنظم إلا متأخراً نسبياً . ولنذكر بعضاً من أولئكم المعمرين على سبيل المثل :

روى المؤرخ الرومانى « بلين » (٢٣ — ٧٩م) أن عمل فى ذلك الوقت إحصاء فى شمال إيطاليا ، وكان محصوراً فى ثلاثة ملايين نسمة وجدوا بينهم أكثر من ١٧٠ ممن عاشوا بعد المائة عام . كما روى المؤرخ « استرابن » أن بعضاً من سكان البنجاب زادت أعمارهم على المائة . كما ذكر الشاعر الإغريقى « أنا كريون » أن ملك قبرص فى ذلك الوقت واسمه « سنجراس » بلغ من العمر ١٦٠ سنة . كذلك يقول العالم الفسيولوجى « هالر » فى كتابه « مبادئ الفسيولوجى » أن المتوسط لعمر الإنسان يمكن أن يبلغ ٢٠٠ عام — وعمل إحصاء فى مدينة بوينس إيرس بأمريكا الجنوبية سنة ١٨٩٦ فوجدوا أن أحد السكان واسمه « برونو » بلغ عمره ١٥٠ سنة . وعملت أيضاً إحصائية بالولايات المتحدة سنة ١٨٩٠ أسفرت عن وجود ٣٨٩١ من المعمرين الذين عاشوا بعد المائة عام إلى غير ذلك من الإحصائيات .

هذا ، وقد ذكر بعض العلماء مثل : هاملر وبلاندن وجريفز أن بعضاً من المعمرين تنبت أسنانهم للمرة الثالثة ، وأن امرأة هرمة ربا عمرها عن ١٤٠ عام عادت إليها أسنانها للمرة الثالثة كما تبدل بياض شعرها سواداً . والبعض منهم يحتفظ بقواه العقلية والجسمية بدرجة تمكنه من إدارة شؤونه . فوليم جلادستون مثلا الذى كان زعيما لحزب الأحرار البريطانى ، والذى كان زميلا ومعارضاً لدزرائيلى زعيم المحافظين فى ذلك الوقت بلغ جلادستون من عمره التسعين ، ومع ذلك كان محتفظاً بقوة عقله وجسمه ، وكان يمارس قطع الأخشاب كغية فى وقت فراغه ، وهو عمل شاق حتى على الشبان .

كان يلذ للناس منذ قديم الزمن ويسترعى فضولهم أن يسألوا المعمرين عن سر تعميرهم ، وهل عثروا على حجر الفلاسفة وأكسير الحياة ؟ ! وكانت الأجوبة فى كثير من الأحيان لا تروى ظمأ ولا تشفى غليلا ، بل كان فيها أحياناً شىء من التناقض ، مثال ذلك ما يرويه الفرنسيون على سبيل التندر عن بعض المعمرين من سكان بريتانيا فى شمال فرنسا . سألوه ذات مرة عن السر فى طول عمره ؟ فأجابهم بشىء من التحدى : « إن السر فى ذلك بسيط جداً . كنت إذا ما أكثرت من شرب الخمر رجعت فأكثرت من التدخين ، وإذا ما أكثرت من التدخين عدت لأدمن الخمر وهكذا دواليك » . والمفروض فى هاتين المادتين ، أى الخمر والتبغ ، هو ضررهما بالجسم ولا سيما فى حالة الإدمان . غير أن الذى يشاهد فى معظم الأوقات أن أغلب المعمرين كانت حياتهم هادئة نسبياً قليلة الهموم والعواطف المؤذية

مثل الغيرة والحسد والبغض . وقد قال بعض علماء الصحة — في شيء من المبالغة — إن الإنسان لا يموت موتاً طبيعياً ، ولكنه ينتحر لإسرافه وعدم مراعاته الاعتدال الذي هو أهم العوامل لصيانة الجسم . فالإفراط مادياً كان أو نفسياً يعود على الجسم بأضرار بليغة ؛ كما أن الكثير من الناس يتعاطى من الطعام ثلاثة أضعاف ما يلزمه ، ومن هنا نشاهد نسبة التعمير بين الفقراء ومتوسطي الحال تفوق نسبتهم بين الأغنياء المترفين . وليس خطأنا فيما يتعلق بالأطعمة محصوراً في « الكم » ولكنه يشمل « الكيف » من حيث تحضير الأطعمة . نتفنن في طرق طبخها ونبالغ فيه ، وفاتنا أن كثرة الطهي تفقد الأغذية كثيراً من قيمتها الغذائية ، كما أن المواد الحية من حيوان أو نبات هي أفيد لصحتنا وأجدى لإحياء أجسامنا . خذ مثلا بعض سكان النرويج وسيبريا الذين يعيشون في أغلب الأوقات على المواد النيئة من حيوانية مثل السمك والقواقع وغير ذلك مما يلفظ البحر ، ونباتية مثل الفواكه والخضروات والبقول نجد نسبة المعمرين مرتفعة عند تلك القبائل . وقد استرعت هذه الخاصية أنظار العلماء والفلاسفة منذ عهد بعيد . ويذكر الفيلسوف العالم أرسطاطاليس أن بعض التماسيح تبلغ من العمر عتياً ، وقد يمتد بها الأجل إلى أكثر من ٥٠٠ عام ، ومن أهم الأسباب المؤدية لطول أعمارها — كما يزعم — هو كونها تتغذى على الأحياء المائية من نبات وحيوان .

أما الاختلاط الدائم بالشباب الأقوياء ، وكونه مؤديا إلى الاحتفاظ بالشباب ، فقد أقر هذه الحقيقة القدماء ونوه بها بعض الفلاسفة والعلماء مثل جالينوس ؛ وكذلك الفيلسوف الإنجليزي « روجربيكن » . وقد قال في ذلك : « إن هنالك أرواحا وإشعاعا ينبعثان من الإنسان الشاب القوي ، ويكون فيهما شفاء للمريض ، وتجديد لشباب من ولى عنه الشباب وعلا مفرقه الشيب » . والواقع أن هذه الظاهرة النفسية الحيوية قد أثبتها العلم الحديث ووجد لها تعليلا بيولوجياً بواسطة الاهتزاز والذبذبة الخلوية « Vibration ocellatoire Ce 114 Laire » ، وأثبت عملياً وجود مثل هذه الذبذبة بواسطة أجهزة بلغت منتهى الإتقان والحساسية ، وكلما كان الجسم قوياً شاباً كانت الذبذبة أكثر نشاطاً ، ومجموعة الاهتزازات والذبذبة المنبعثة من الخلايا الحية تكون ما يسمونه « بالإشعاع الحيوي » وهذا الإشعاع إذا ما صادف — بالقرب منه — جسما هرماً أو هزيلا أحدث فيه اهتزازاً قوياً لخلاياه بواسطة الجذب الكهربائي المغنطيسي .

وقد استخدم بعض العلماء ظاهرة الإشعاع الحيوي وما ينتج عنه من جذب مغنطيسي كهربائي لإعادة الشباب منها طريقة « جاورسكي » بواسطة حقن دم شاب قوي لآخر معتل الصحة أو متقدم في السن على شرط أن تكون الدماء من نفس النوع والفصيلة لكيلا تحدث تفاعلات مؤذية للجسم . وهناك طريقة أخرى هي طريقة « ڤورونوف » . وهي تطعيم الجسم بخلايا وأنسجة من جسم آخر وهي نوع من الترقيع الجسمي Greffe Tissulaire

وليس من النادر أن نشاهد فتاة زوجت من شيخ ، وهذا كثير الحصول عندنا في الشرق ، إذ عامل الجاه والغنى يلعب دوراً كبيراً في مثل هذه المناسبات . فنلاحظ أن الزوجة الشابة تذبل قبل أوانها ، بينما تبطأ خطوات الشيخ نحو الهرم والمشيب ، والسبب في ذلك هو ما أسلفنا من شرح . وحتى من المتداول بين عامة الناس أن الشيخ إذا تزوج من شابة « شرب أنفاسها »

٢ — **نبذ عواطف البغض والحسد والغيرة :**

الحسد داء عضلي يفسد الأود وينهك الجسد . هو أخبث مكروب يودي بحياة صاحبه ، وقد قام بعض علماء النفس باحصائيات دقيقة ، فوجدوا أن كثيرين ممن أصيبوا بهذا الداء لم يعمروا كثيراً إذا استثنينا بعض الشواذ « يعجل الله بالأحياء » أو كما يقال بالفرنسية Ce sont les bons qui s, en uont ، ولكن في الغالب فالوضع كما أسلفنا . والحسد يسبب البغض والغضب عن الغير لما أصابوا من نعمة أو ما حصلوا عليه من جاه ، وهذه العواطف الذميمة تؤثر تأثيراً سيئاً على سائر أعضاء الجسم ولا سيما الجهاز العصبي فتتوتر الأعصاب ويعتريها التعب من فرط التهيج والانفعالات ، كما تتأثر بقية الأجهزة لخضوعها المباشر للجهاز العصبي فيحدث بالجسم ضرراً بليغاً . وقد أجاد بعض شعراء العرب في وصف مفعول الحسد فقال :

أصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله
كالنــار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وكثيراً ما يكون الحسد سبباً فى إفساد العلاقات الودية بين أفراد العائلة ، كما يفسد صحة أولئك الأفراد . وقد قص علىّ صديق فرنسى مأساة عائلية مؤداها أنه تعرف بعائلة كريمة كانت فى رغد من العيش ، وتتكون من أبوين وأربع بنات يربط أفرادها حب عائلى وثيق . تزوجت الكبرى بمهندس دمث الأخلاق موفق فى جميع مشاريعه وأعماله ، فمهرها أبوها مهراً عالياً — كما هو الحال عند الغربيين — وجهزها بكل ما تحتاج إليه ، كما قام بنفس الواجب نحو باقى البنات . نجح المهندس زوج الكبرى وازدهرت أعماله وتضخمت ثروته بعكس ما وصلت إليه حال بقية الأزواج ، فقد ساءت لحد بعيد ، وذلك بسبب سوء تصرفهم أو سوء حظهم أو لكليهما معاً . دب الحسد فى قلوب الأخوات الثلاث نحو الأخت الكبرى وصرن يتقولن عليها ويرمينها وزوجها بالبخل والتقتير حيناً وبالكبرياء أحياناً ، وأن زوجها من عائلة وضيعة ، وأنه جمع ثروته سحتاً عن طريق التزوير ؛ وأصبحن لا شاغل لهن غير التعرض لأختهن وزوجها ، وتسبب فى نفوسهن مايشابه « العقدة النفسية » من جراء هذا الحسد ، فماتت إحداهن فى سن مبكرة لم تزد على السادسة والعشرين كما قضت الأخرى نحبها فى سن الثامنة والعشرين بأمراض عادية أخف وطأة - فيما أعتقد — عن مرض الحسد الذى قصر من عمريهما . أما الصغرى فقد انتحرت نتيجة مشاجرة مع زوجها . هذا مثل بسيط سقته على سبيل الاستشهاد ، وإن كانت الحياة اليومية ملأى بمثل هذه المآسى المحزنة .

٣ — **الإيمان بالله والاعتقاد فى البعث والخلود :**

لا جدال أن الإيمان بالله وباليوم الآخر فيه طمأنينة للنفس على عكس الشك والحيرة فى أمر الإله ، فهو مدعاة للقلق والخوف والخوف مضر بالجسم وقد يسبب الموت إذا اشتدت وطأته فيسبب للجهاز العصبى ما يسمى Inhibition «بال» أى يوقف حركته ، ومن المتعارف بين الناس أن الخوف مميت بخلاف من يؤمن بالله وبالبعث فيقل خوفه من الموت ومن التفكير فى شأنه ويهون عليه بعض الشىء فراق الحياة ، إذ يعزى نفسه بالأخرى وهى خير وأبقى . ويقول بعض علماء النفس أن قوة إيمان الصالحين والقديسين وعدم مبالاتهم كثيراً بالموت كل ذلك له بعض الدخل فى تعميرهم .

أما مسألة الخلود — أى خلود الأرواح — فقد نوهت عنه الأديان كما حاول إثباته نفسياً علماء الروح وعلمياً أساتذة الطبيعة ، فالذى يموت فى الإنسان إنما هى مادته وليست روحه التى تفارق تلك المادة ، وحتى الموت نفسه لا يستطيع فناء تلك المادة لأن المادة خالدة لا تفنى ، ولكنها تتحول إلى عناصرها الأولية التى تحفظ فى الطبيعة ، فالحياة بعبارة أخرى ما هى إلا مجموعة الذبذبة والاهتزاز الخلوى كما سبق ذكره ، وهذه المجموعة هى إحدى القوى الطبيعية « Energie » مثلها مثل قوة الجاذبية والدوران ، والقوة الكهربائية من حيث أنها قوة كلها من أصل واحد هو « Origine Cosmique » أى من أصل كونى . والقوى كالمادة لا تفنى ، ولكنها تتحول من نوع إلى نوع آخر على حسب العوامل التى تسيطر عليها . كذلك الروح « L Ame » كما يسميها النفسيون والقوة الحيوية « Energie Vitale » كما يسميها الطبيعيون ليست فانية ، وإنما هى موجودة ومحفوظة فى الكون .

ذكرنا كذلك أن الجسم لما تفارقه الروح أو القوة الحيوية أو بتعبير آخر يموت صاحبه تنهدم مادة الجسم وتنحل إلى عناصرها الأولية ، وهذه العناصر موجودة ومحفوظة فى الكون أيضاً ، ومن المعقول جداً أن يعود الجسم مرة ثانية ويبعث من جديد بائتلاف عناصره الأولية مرة أخرى ، إذ الحياة ما هى إلا حلقة من بناء « Metabolime » يعقبه هدم « Catablisme » ، ثم يعقبه بناء وهكذا . وإذا ما عاد بنا الجسم من جديد جذب إليه روحه التى فارقته بواسطة نوع من الجذب المغنطيسى الكهربائى إذ كل روح تنجذب إلى جسمها الذى فارقته ، وشبيه الشىء منجذب إليه .

فضل أبو بكر

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣٣ —

عود إلى الشعر :

وانطوى ربيع الأليزابيثيين فكان من ألحانه التي احتبست بانطوائه تلك المقطوعات ، وظل الحال كذلك حتى جاء ملتن في صيف البيوريتانز ، فغنى في طلائع ذلك الصيف ألحان الربيع الراحل ؛ وجدد هذا الطائر المتخلف لحن هاتيك المقطوعات . وكان ملتن يحب إيطاليا فازداد حباً لتلك المقطوعات في أول عهده بالشعر وهو في جنة الشباب وريعانه ؛ وكيف لا يتغنى شاعر مثل ملتن بهذا الضرب من الأغاني وفي نفسه من الخواطر وفي خصائص شعره من الموسيقى وسحر اللفظ ما يجعله كأنما خلق لهذا الغناء وحده . على أنه كان مقلا قلة تبعث على كثير من الأسف ، وذلك لانشغاله بأمور الدين والسياسة وإن كانت أكثر مقطوعاته وليدة هذا الانشغال

ولكنه على إقلاله قد أضاف إلى تاريخ تلك المقطوعات فصلا ممتعاً رائعاً في أدب قومه . ولقد كانت مقطوعاته من بعده كالوحي لشعراء القرن التاسع عشر من قادة المذهب الابتداعي وفي مقدمتهم وردثورث الذي أعجب إعجاباً شديداً بمقطوعات ملتن ودأب على محاكاته ، ويتضح هذا الإعجاب في مقطوعته التي بدأها بقوله : « أي ملتن ، إنه لينبغي أن تكون موجوداً في هذه الساعة ، فإن انجلترة في حاجة إليك » ؛ والتي وصفه فيها بأن نفسه كالكوكب في سموه ومنعزله ، وأن له صوتاً ينبعث كما ينبعث صوت البحر ، طاهراً كالسماوات الصافية العارية عليه سيماء الجلالة والحرية ، وأنه خالد يتنقل مسافراً في طريق الأبدية . وقد تبع وردثورث في عجابه بملتن بيرون وكيتس وبروننج وأرنولد وروزتي وتنيسون ، ولهذا الأخير مقطوعة رائعة تغنى فيها بمجد ملتن بدأها بقوله : « يا ذا المِقْوَل القدير ، يا مبدع النغمات والألحان ، إيه يا من وهب المهارة ليغني للزمن أو الخلود ، يا من هو لانجلترة صوت أرغنها جاءها هبة من الله ... ملتن هذا الاسم الذي سوف يرن في مسامع الأجيال »

وليس بين ما تغنى به ملتن من مقطوعات وبين ما أوحت به مقطوعاته إلى هؤلاء الأفذاذ الذين افتتنوا به شيء يذكر من هذا الضرب من الغناء ، وهذه هي القيمة التاريخية لمقطوعاته وخطرها في أدب قومه

لم يترك ملتن إلا أربعاً وعشرين مقطوعة ، منها خمس نظمها بالإيطالية ، ويرجح نقدة الأدب أنه نظم هذه الخمس أثناء مقامه بإيطاليا ، وهي من أغاني الحب ، وجهها الشاعر الشاب إلى غادة إيطالية من بولونا سحرته بسمرة محياها وبمقلتيها الدعجاوين اللتين افتتن بهما لأنه كان بهذا الدعج مولع كما قال ، وبصوتها الحلو وغنائها المطرب الذي هو كفيل أن يسحر القمر السابح ؛ وقد تغنى الشاعر بجمال فاتنته وشكا من قسوة قلبها عليه كما يشكو الشباب في أول عهدهم بالحب !

أما عن الطريقة التي جرى عليها في نظم هذه المقطوعات الخمس ، فإن اثنتين منها جاءتا وفق الطريقة الإيطالية ، وجاءت الثلاثة الباقية مزيجا من الإيطالية والإنجليزية على صورة اتبعها ملتن ذلك الذي كان كثيراً ما يحب أن يتخلص من الأوضاع المتبعة والقيود

والذي يعنينا في الواقع هو مقطوعاته الإنجليزية ، ونحب قبل أن نتحدث عن مادتها وعن قيمتها الفنية أن نشير إلى ما اتبعه الشاعر في نظمها ، لأنه لم يجر فيها جميعاً على طريقة واحدة ، إذ أنه لم يتقيد بالطريقة الإيطالية فيها جميعاً ولا بالطريقة الإنجليزية أو الشكسبيرية ، وإن كان فيها محافظاً أكثر منه مجدداً

ويمكن القول بوجه الإجمال أنها جميعاً أقرب إلى الطريقة الإيطالية إلا الحادية عشرة منها ، وهي جميعاً إيطالية الصدر أو الفاتحة ، وهي كذلك جميعاً إيطالية الخاتمة ماعدا الحادية عشرة ، فهي في خاتمتها مزيج من الإيطالية والشكسبيرية ؛ بيد أن ملتن

لم يتقيد فى بعضها بإحداث تغيير فى القوافى بين الفاتحة والخاتمة بل تركها تنساب كما هى بعد السطر الثامن . ونستطيع أن نقسم مقطوعاته التسع عشرة على النحو الآتى : تسع إيطالية من جميع الوجوه ، وثمان إيطالية ولـكن بغير فاصل بين الفاتحة والخاتمة ، وواحدة هى الحادية عشرة بين الإيطالية والإنجليزية ، وهى التى وجهها إلى كرمول ، وواحدة هى التاسعة عشرة أو الأخيرة ذات ذيل بعد خاتمتها . ولم نشر من قبل إلى هذا النوع الأخير ، فنقول الآن : إن هـذا النوع المذيل ليس من ابتكار ملتن ، ولـكن وقع مثله فى مقطوعات الإيطاليين ، وإن كان ذلك مما ندر ، فإن بعض الشعراء كانوا يضيفون سطرين أو خمسة إلى الأربعة عشر سطراً التى تتكون منها المقطوعة إذا لم يستطيعوا أن يعبروا عن المعنى كله فى هذا العدد من الأسطر ، وكان يعد هذا الضرب معيباً ضعيفاً ولذلك قلما لجأ إليه الشعراء . ولم يخل من هذا الضعف ملتن نفسه فى ذلك الذيل الذى أضافه إلى مقطوعته الأخيرة : « إلى مستكرهى الضمائر الجدد فى عهد البرلمان الطويل » ، فى هذا الذيل ما ينبو عن الذوق من خشونة وعامية وتلاعب باللفظ.

أما عن مادة هذه المقطوعات ، فيجدر بنا أن نذكر ما سلف به القول من أنها قيلت فى مناسبات ، ولذلك جمعت بين الخواطر السياسية والدينية والوطنية وما يتصـل بالرثاء والحب والمسائل الشخصية . وكانت المقطوعات قبل ملتن تدور على الحب ، وندر فيها ما خرج عن هذا المجال سواء عند الإيطاليين وعند الأليزابيثيين ولذلك مال بعض نقدة الأدب إلى استصغار شأن المقطوعات على العموم ونظرهم إليها نظرتهم إلى التافه من الأشياء ، فهى عندهم من مظاهر العبث واللعب وملء الفراغ بما لا يجدى ، وليس فيها صدق ولا علم ولا فائدة من أى نوع . ولعل لهؤلاء بعض العذر فيما ذهبوا إليه ، فإن شعراء الشباب كثيراً ما كانوا ينظمون خواطرهم فى مقطوعات وليسوا جميعاً مجيدين فشاع فيها الضعف والفسولة ، ولـكن قدراً منها كان محكم السبك رائع المعنى صادق العاطفة جليـل الشاعرية كما يتبين فى أكثر مقطوعات سبنسر وفى مقطوعات شكسبير جميعاً على كثرتها . إذ قد بلغت مائة وخمسين مقطوعة ، وما جعل بعض النقاد يحتقر شأن المقطوعة كضرب من ضروب الشعر إلا سأمهم من نغمات الحب الشاكية الباكية فى معظمها ، وظنهم أنها ما نظمت إلا على سبيل اللهو وإبراز المقدرة على النظم ، فإن كان فى بعضها شىء من الصدق ، ففيها كذلك كثير من المبالغة والـكذب !

وجاء ملتن نخرج بالمقطوعة عن مجال الحب وجعلها لـكل ما يخطر على قلبــه ، فاكتسبت المقطوعة على يده قوة وخطراً وطبعت بطابع الصدق والإخلاص ، وجرت فيها إشارات إلى أمور تتصل بالعلم أو بالفلسفة فألبسها ذلك كثيراً من الجد والفائدة وليس هذا الاتجاه بالأمر الهين فى تاريخ المقطوعة إذا ذكرنا أنه أوحى إلى شعراء القرن التاسع عشر أن يحذوا حذوه ، فـكان لمقطوعاتهم فى الحرية والسياسة وانتقاد عيوب المجتمع وأشباه ذلك من المسائل قيمة عظيمة وأثر بعيد فى القلوب والأذهان ما كان يتفق لها لو أنها اقتصرت على التغنى بمعانى الحب والجمال . ويتجلى أثر ملتن فى هذا التوجيه فى مقطوعة وردثورث التى أشرنا إليها والتى يقول فيها شاعر القرن التاسع عشر : إن انجلترة فى حاجة إلى ملتن ؛ والتى يذكر فيها شكواه قائلا : « نحن قوم طغت علينا الأنانية ، فارجع إلينا وارفعنا وامددنا بالمُثل فى الآداب والفضيلة والحرية والقوة »

ويحس من يقرأ مقطوعات ملتن أنها نفثات نفس عظيمة وهمسات روح قوية ، وهى على قلتها زاخرة بفيض من الخواطر ، ويرجع ذلك إلى طبيعة المقطوعة فى بنائها كما يرجع إلى مقدرة ملتن العظيمة على الإيجاز البليغ الذى جعله يعبر بالـكلمات القلائل عن المعنى الواسع الـكثير الوشائج ، وهى مقدرة جعلها مكولى من أبرز خصائص شعره ، بل جعلها خاصته التى يمتاز بها من أكثر الشعراء ، وهى من ألزم الصفات كما ذكرنا لبناء المقطوعة

وحسبك أن تقرأ فى هذه المقطوعات العاطفة الرقيقة التى تعبر عنها النغمة الهادئة الرخية كأنها نسمات الفجر ، إلى جانب الصرخة الصاخبة المدوية كأنها هياج العاصـفة أو اصطخاب الموج ، لتعرف كيف استطاع ملتن أن يجعل من المقطوعة شيئاً آخر قوياً مهيباً له خطره وأثره ، وتجد مثالا للأولى فى إشارته إلى ما أصابه من عمى وفى توجده على فقد زوجته الثانية ، وتجد

مثالا للثانية فى غضبته لمذابح بيدمنت وحملته على مستكرهى الضمائر من البيوريتانز ، وفى سخريته ممن انتقدوا كتيباته من خصومه . وبين هذا وذاك تقع على نغمات تتصف بالقوة والجلال وهى التى مجد بها أبطال قومه مثل فيرفاكس وكرمول ، والتى دافع بها عن الحرية الدينية والسياسية

بهذه الصفات وأمثالها رفع ملتن المقطوعة مكاناً علياً ، فلم تعد كما كانت مجرد أغنيات غرامية رائعة أو مائعة ، وإنما أصبحت هتاف شاعر يهيب بقومه إلى جانب كونها خلجات نفس تتألم وتتفجع كسائر النفوس ، وما أصدق وأجمل كلمة وردثورث التى وصف بها المقطوعة على يد ملتن إذ قال : « لقد أصبحت هذه بوقا فى يديه »

والن خرج ملتن بالمقطوعة عن نطاق الإليزابثيين ومن قبلهم من الإيطاليين ، واتخذ منها أداة لخواطره السياسية والاجتماعية إلى جانب خطراته المنحصرة فى حياته الشخصية ، فإن تمكنه وصدقه قد جعلا لمقطوعاته فى السياسة والاجتماع من الجمال والسحر ما تسمو به إلى مستوى الآثار الأدبية الرفيعة ، وأعانته ضلاعته على أن يلبس الآراء السياسية لباس الأدب الصحيح ، ويضفى عليها رونق الفن وروعته وهو عمل يستعصى على من لم يكن له مثل عبقريته . ولما كانت المقطوعة عند الايطاليين والاليزابثيين شكاة فى الأكثر من حبيب قاس أو من ضنى الحب ومهده ووجده فقد ألفتها النفوس فى هذا المجال وإن كان قد تطرق إليها بسبب هـذا الفتور والصنعة حتى استصغر شأنها بعض النقدة كما أشرنا .

ويُعد خروج ملتن بها عن نطاقها جرأة فى الفن تنهض دليلا على فحولته وصدق شاعريته يضاف إلى ما توافى له من أدلة وذلك فضلا عن كونه فتحاً فى تاريخ المقطوعة صار له ما بعده .

ولقد أشرنا إلى أكثر هذه المقطوعات كلا فى موضعها من سيرته أو فى المناسبة التى نظمها الشاعر فيها ، وكانت مقطوعته التى ناجى فيها البلبل أول شبابه هى باكورة مقطوعاته الانجليزية وتليها المقطوعة التى نظمها بعد ذلك بقليل بمناسبة بلوغه الثالثة والعشرين من عمره ، وكلتاهما من المقطوعات التى تدور حول شخصه ، ومن أشهر تلك المقطوعات الشخصية ما نظمه حين أصيب بفقد بصره ثم تلك المقطوعة التى رثى بها زوجته الثانية .

أما مقطوعاته العامة فأولها مقطوعة جميلة لم نشر إليها من قبل وهى التى اتخذ عنوانها « حينما أزمع مهاجمة المدينة » وكان ذلك سنة ١٦٤٢ إذ تهددت جنود شارل مدينة لندن ، وهو يخاطب فيها الفرسان ألا يزعجوه فى مأمنه وألا يزعجوا الشعر فى منزله وجزاؤهم على ذلك أن يخلد أسماءهم بثنائه ويشير فيها إلى ما فعله الاسكندر الأكبر حين حطم مدن مقدونيا فانه استثنى البيت الذى كان يعيش فيه من قبل الشاعر بندار ، وكذلك فعل ليساندر القائد الأسبرطى فانه أنقذ أثينا من الدمار لأنها أنجبت يوروبيدس وكان القائد قد سمع بطريق المصادفة شيئاً من شعره . ومن أشهر هذه المقطوعات العامة مقطوعة عن مذابح بيدمنت وتلك التى مجد فيها فيرفاكس ثم تلك التى رفعها إلى كرمول .

ولسنا بحاجة إلى كثير من القول لبيان قيمة تلك المقطوعات جميعاً من حيث بلاغة الشعر فيها وروعته ، فان خصائص شعر ملتن كما أسلفنا كانت مما يوائم بناء مثل هذه المقطوعات ؛ ولقد كانت جزالة اللفظ مع إشراقه وجماله ووجازته وأداء المعنى المراد لا أكثر منه ولا أقل من أبرز خصائص شعر ملتن ، وكذلك كان من خصائصه قوة تأثيره فى النفوس بما توحيه ألفاظه من رؤى وأطياف ومايتداعى إلى الخاطر عند سماعها من معان وأخيلة كأنما كان للفظه قوة خفية سحرية لا تنكر وإن كانت لا تدرك ؛ أضف إلى هذا موسيقى عذبة ناتجة من ائتلاف الألفاظ وصوغها وإضافة بعضها إلى بعض على صورة تكسب كلا منها جمالا لا يكون له فى غير هذا الوضع وتجعل منها فى مجموعها لحناً عجيباً تستشمره النفس كما تستشمره الأذنان ، ويرى أكثر النقاد أن هذه الخصائص واضحة فى هاتيك المقطوعات لم تشذ إلا فى أسطر قليلة أو فى كلمات معدودات كانت أقرب إلى لغة العوام فى مقطوعة من المقطوعات التى هاجم فيها الشاعر منتقدى فلسفته فى الطلاق من خصومه .

(يتبع) الخفيف

عنـــد القمة الأولى . . .

للاســـتاذ محمد العلائى

[أخى سيد قطب :

كان فى حسابك وحسابى أننى سأبعث بهذه القصيدة أو بمثلها من « لندن » ولكن ! ضحكت الأقدار وبعثت بها من هذه القرية المصرية الهامدة التى مزقت أهلها متربة الأنفس ومجاعة الأفواه !! .. فهل يأذن أستاذنا « الزيات » وهو والد كريم ولمحنتى حق فى « رسالته » هل يأذن فى أن أشهد على وزارة المعارف المصرية وموقفها من « بعثتى » بعد أن أصبحت حقاً لا يقوى على اغتصابه إلا من أعفى نفسه من الواجب والضمير . أريد أن أشهد على وزارة المعارف وعلى شعورها بقضيتى أولئك الذين مسنى عطفهم أو عنايتهم من أساتذتى بالجامعة وخارجها ومن أصدقائى الأقربين ...

وأشهد وزراء المعارف وذوى الأنفس والآراء فى الشرق العربى على وزارة المعارف المصرية وكيف أفقدتنى الثقة فى وطني وبيئتى مما جعل غايتى فى الحياة أن أخرج من « مصر » التي أبت على أن أقنع من الدنيا بالماء والهواء وأن أكون عاملا أميناً مخلصا فى قضية الحق والخير وأن أخدم طائفتى من أبناء الظلام فأعوضهم عن ظلمة البصر نور البصيرة . فلتحتمل وزارة المعارف المصرية تبعة انزوائى فى هذه القرية أو هجرتي من هذا الوطن الذى لم تشملنى وزارة معارفه بذرة من العطف الذى شملتنى به وزارتا المعارف الأنجليزية والأمريكية] .

« العلائى »

طال عهد النوى فسيروا أمامى   ودعونى فلن يطول مقامى !
ودعونى فما انتهيت ولكن   أوهن الخوف والرجاء عظامى
وازدرائى لما أرى لم يدع لى   أملا فى الثرى ولا فى الغمام
فرّق الصحو مهجتى وطوانى   ألم السهد بين قوم نيام
قصّر العزم خدعة بعد أخرى   فى شعور مفزّع بالحمام !
كم طويت الشعاب أحمل نفسى   تحت عبء الرغاب قيد الظلام
وسقى الشوك فى الأجادب مائى   وترامى على الأقاحى سلامى !!
أستر الفحش فى عيون الليالى   وأدارى سفاهة الأيام
أستحث الخطى صباحاً فتبدو   عثرات المساء فى أقدامى
مسرف لا أريد غير بعيد   يأس تستخفنى أوهامى
وبصدرى مع الشقاء صراع   بين حب المنى وبغض الزحام
كنت أهوى امتداد خطوى حتى   تتوارى مواطن الأحلام
غير أنى أحس ضعفاً ... وهذا   مجمع الشوق والعواطف دام
وبنفسى تساؤل وملال   ولجفنىَّ رغبة فى المنام

ذهب الركب والتقيت بنفسى   هامد الحس من صروف الليالى
من طريق أحلامه عبرات   فى ظلام الكهوف والأدغال
وقطيع دماؤه من صديد   أفرزته نجاسة الأذيال
حمل الخزىَ فى وجوه عليها   بصقات الزمان غير مبال
فى عظامى تقزز . . وبنفسى   غثيان من قوله والفعال
فى حماه عشقت سود الأمانى   وشربت القذى طرع الملال
وعدمت الصديق أهفو إليه   فى ذرى شوقه ومسرى اكتمالى
أنزع الشوك من رؤاه... وترمى   زهرة الشر من رياض انفعالى
نسكب النور فى المدى ونوالى   دوحة الخلد فى سكون الكمال
وعدمت الملاك يشرع ذاتى   فى سلام الربى ومجد الأعالى
فوق عرش من المودة يندى   بشذى رحمتى وفيض ابتهالى
سكنت روحنا إليه وغابت   فى أناجيل من وراء الخيال
ضل عنى رجاؤها رغم أنى   صانع الوهم خالق الآمال
واحتوانى السكوت رغم لسان   عرفته مضارب الأمثال

ذهب الركب والتقيت بنفسى   أنزع الحس من رميم الشقاء
وكأنى بهم مقابر موتى   بعثرتها عواصف الصحراء
وأرى بالعظام جمرة سُخرى   وبأشلائهم قروح ازدراء
عَفَن فاح من جماجم أهلى   أشبهت ريحه صديد البلاء
ذكرتنى الرمام عهداً تولى   وزماناً مضى لغير لقاء !!
ذكرتنى بأنفس وأفاع   شرقت بالزعاف تحت سمائى
مسّنى غدرها فأضحك همى   ثم أهدى لها الدوارَ وقائى
وبأخرى منحتها من وجودى   نشوة الأمن واحتساب الرجاء
ورمتنى بشرها فوقانى   شر نفسى وشرة الأهواء
وبأخرى تظامأت تحت حسى   فسقاها تنبلى وحيائى
شربتنى وحين خارت قواها   علمت أن حكمتى فى دمائى

وبأخرى وأخريات تلوى   تحت ماض يمور فى أحشائى
آه من يبعد الرمام ويقصى   فضلات البلى ودود الفناء
غير أن الرمام خير وأزكى   من ذويها بعالم الأحياء

ذهب الركب والتقيت بنفسى   بين أجداثها ومسرى الحياة
ومضى النـاس أنفساً تتشهى
جيفة الأرض، وامتصاص الرفات
دنسوا مورد الحياة وفاتوا   رجس أفواههم على الثمرات
عشت فيهم بظاهر من شعورى   مشمئز النهى رضى السمات
ثم ضمدت بالزعاف جراحى !!   وتغنيت للأصم شكاتى !!
يا لنفسى بها نبىٌّ وطفل !!   فهى فوق المدى وبين اللدات !
تسع الكون غاية وابتداء   ولها بعد ذاك فى التافهات !!
يالنفسى بها بشائر غيث   يغمر الجدب ماؤه بالصِّلات
وبعد الظلال تهوى إليها   أنفس الظامئين للرحمات
يا لنفسى بها بشائر نجم   ينفح الليل نوره بالهبات
يكشف الستر عن كثير ويغشى   فى الدياجى مهازل الحرمات
يا لنفسى جهلتها ... كيف غيرى ؟ !
ويح من خاض وهمه فى صفاتى
خاطرى كالسحاب ليس مقيما   هو فى الصبح غيره فى الغداة
أنكرونى ملثما .. ليت شعرى   لو تراءت لهم معالم ذاتى !

ذهب الركب والتقيت بنفسى   ليس محواً وليس حلم اتحاد
ذاك ما كنت أرتجيه وهذا   فوق ما أرتجي وفوق مرادى !!
تلك نفسى وذاك غير قليل   مائىَ النور والحقيقة زادى
فرحة الغيب أشرقت فى ضميرى   وينابيع راحها فى ازدياد
أومض الحق بالرجاء وهبت   نسمة الروح فى كيان الجماد
لمحات تمايلت فى سناها   راسيات المكان والآباد
لمسات من الكمال وأخرى   تاه فيها المدى وذاب فؤادى
ونشيد من الجمال تبدى   فيه أحلام غايتى وانفرادى
دوحة الخير هذه ... كم تراءت   فى مناى ظلالها ومهادى
شهدت مولد الزمان وألقت   فى يديه بما نرى من أياد !
ذلك البحر قطرة من نداها   بين هذى الربى وتلك الوهاد

مست الكون يوم كان فألقى   حظه من تكامل وامتداد
سكرت مهجتى وغابت رؤاها   ويك إنى أخاف مفزع ارتدادى
نشوة الحلم فى حسابىَ أهدى   من يقين بواقع الأصفاد

ذهب الركب والتقيت بنفسى   بين هم مضى وحلم كذاب
منذ حين دفنت أمسى حتى   زهرات ورثتها أحبابى
ورسوماً تفوح منها معان   نسيتها لدىَّ ريح الشباب
وتناسيت أرضنا وهواها   وتجاهلت أننى من تراب !
ثم أسلمت للسماء رجائى   وتخيرت فى السها محرابى
وتساميت فى المدارج حتى   مست الغيب فى العلا أسبابى
وارتوى خاطرى وأوشك ينسى   موبقات الصدى وراء السراب
واستوينا على السكينة لكن   عاود النفس حبها للعذاب
يا لنفسى تذكُّر واشتياق   نازعاها إلى حضيض الرغاب
هاهنا الدوح والظلال فمالى   أشتهى منابت الأعشاب !!
لى فؤاد يعاف قبل اكتفاء   مستطار بهيم بعد ارتياب
ظلمة الطين حركت فى ضلوعى   صور الناس وارتياد الشعاب
ضجة الركب لم تزل تحت سمعى   وأمانيه لم تزل فى حسابى
فوق هذا الأنام روحىَ لكن   لم يصل بى مكانة الأرباب

ذهب الركب والتقيت بنفسى   أستشف المدى وروح الزمان
أنطق الوهم كل أعجم حتى   كلمتنى صخور هذا المكان !؟
وتوهمت أن للدوح سمعاً   فعزفت الشجىَّ من ألحانى !!
وتخيلت فى النجوم عيوناً !   فكشفت الجراح قبل الأمانى!!
وحسبت الرياح تعقل خطبى   فأفاضت سريرتى وبيانى !!
وتأملت ... لم أجد غير نفسى!!   وجماد غمرته بالمعانى !!
وتراجعت أسترد شعورى   فأهالت جودها فى كيانى
ضل فى عثرة الجماد ذكائى   بعد ما ضل فى بنى الإنسان !!
كم تمنيت غير شىء وخاضت   فى فضاء مفرغ أشجانى
كم ركبت الشقاء نحو ضلال   وتوسدت فى الدجى أدرانى
كم تلهيت بالكبائر حتى   طفر الرعب من دم الشيطان !!
كم تطهرت بالقداسة والنـور وفاض الحياء من إيمانى !!
أنت يا من خلقتنى كنت أولى   بضيائى من الثرى والهوان !!

أنا راض بما قضيت ولكن   عاتب أخرس الحياء لسانى

ذهب الركب والتقيت بنفسى   نتشاكى مذاهبى ودياري
أطفأ اليأس ما أمامى حتى   مثل النور بعد شمس النهار !
وجم القلب ... لا صلاة عليه   لا، ولا قدرة على أوزار !
وانقضى الخوف والرجاء وزالت   شائقات الرضى ففيم انتظارى ؟!
لم تدع موجة الصعود لحسى   رمقاً أهتدى به فى انحدارى !!
كلما لاح فى الأصائل معنى   طمسته شوائب الأسحار
أذهلتنى مواقف الحظ منى   وجنونى بحكمتى واختيارى
راعنى ذلك التصادف حتى   خلت فيه تصرف الأقدار
ليتنى لم أذق تجارب دهر   سلبتنى إرادة الأحرار
حلقات من التماسك هاجت   فى أوجاعها خطوب انهيارى
شرقت بى محافل ستباهى   بازدرائى لها وتبكى احتقارى
قيم الأرض وهى منها أثارت   فى سمائى رواسب الأغوار
لم أزل أذكر السماء فتهوى   فى أحلامها لغير قرار !
بين جنبى خفقة لو رأوها   لأصابت قلوبهم بالدُّوار

ذهب الركب والتقيت بنفسى   فى مهب الأسى ومهوى ارتفاعى
وذكرت الشفاء فى اليم حتى   ذهبت ريحه ومال شراعى !
وتوسدت خيبتى ورجاء   مزقته وساوس الأوجاع
وتواريت فى بقايا كيان   أتملى فضاءها وأراعى !
بعدت غايتى وقصر عزمى   حرجُ الضعف واشتباه الدواعى
وجنونى بما شربت عليه   غير كأس من القذى والخداع
وانطوائى على فراغ وخوف   سكرات المنى وهول الصراع
وانتفاضى لما أهاجت بصدرى   عثرات الجدود والأوضاع
من جراح تمرغت فى دماها   سابحات البلى ومرضى الأفاعى
وخطوب تعفنت واشتهتها   آكلات الرميم دود البقاع
ضاقت الأرض والسماء ومالى   غير نفس قليلة الأطماع
غاية العيش عندها أن ترانى   فوق مرمى العيون والأسماع
أهب الحب والرجاء وتسرى   نفحات السلام خلف شعاعى
ويح هذا الذى أمامىَ أمسِى   ووراءى غدِى ففيم اندفاعى ؟!

ذهب الركب والتقيت بنفسى   فى اشتياق عليه لون الفراق !!
وزماناً ذكرته حين هبت   ريح أيامه على آفاق ...
وحياة أضعت حظى منها   فى جنونى بها وفى إغراق !
وشباباً زويت يومى عنه   بانطوائى على غد واحتراق !
وأمانٍ ذهبن إلا هشيما   ليس فيه تفاؤلى واشتياق ! !
وأمانٍ تشربتنى ومصت   دفء قلبى وحكمة الأعماق !
أذهلتنى عن الحياة ودست   فى شعورى تمائم الأخفاق !
وأمانٍ تهافتت يوم صحوى   صوراً من تزيدى واختلاقى !
وأمانٍ أرقت فيها وجودى   ثم جاءت فلم تجد أشواقى !
وأمان من الذرى وإليها   طال فيها مع المدى إطراقى
علمتنى الذرى محبة نفسى   وكفى الغيرَ بسمةُ الإشفاق !
علمتنى وباركت فى طموحى   نشوة الكبر ساعة الأغداق !
فسلام على الذرى ... ولنفسى   ما تمنيت من جزاء وفاق !
خفق الحظ بالجنوح فإما   لغروب خطاى أو إشراق !

(الزقازيق — كفر الحمام)   محمد العلائى

أمثولة قصصيــــة ...

للأســتاذ نجاتي صدقي

زارني صديق أديب وقال لي : إنني أميل إلى كتابة القصة ، لـكنني غير متمكن من قواعدها ، فهل لك أن تعينني على ذلك ؟ أرشدني إلى أساليبها ، وأطلعني على كيفية بنائها ، وكن على يقين من أنني لن أنسى لك هذا المعروف ما حييت .

فأجبته : القصة فن قائم بذاته يا صديقي يعتمد بالدرجة الأولى على مواهب القاص ، ودقة إحساسه ، ومستوى ثقافته ، ومدى اختباره للحياة ، وعلى ذلك تراني عاجزاً عن تلبية رغبتك .

قال : إنني درست بعض قواعد القصة ، وقد رسخت في ذهني ، لـكنني لم أوفق بعد في وضع قصة قوية في عقدتها ، مثيرة في خاتمتها .

قلت : إذا كنت درست فن القصة ، فـكيف تحدده ؟

قال : استناداً إلى ما رواه أبو العباس الشريشي في (شرح المقامات الحريرية) : « فالقصة هي نقل الحديث من صاحبه إلى طالبه » ... وجاء في مقـدمة كتاب (جمع الجواهر في الملح والنوادر) لأبي إسحاق الحصري القيرواني : « أن القصة هي التي ترتاح إليها الأرواح ، وتطيب لهـا القلوب ، وتشحذ بها الأذهان ، وتطلق النفس من رباطها فتعيد بها نشاطها إذا ما انقبضت بعد انبساطها » ... وقال بديع الزمان الهمذاني في (المقامات) : « وربما كان للقصة سبب لا تطيب إلا به ، ومقدمات لا تحسن إلا معها فعلى المحدث أن يسوقها » .

قلت : إن ما ذكرته لي من أقوال في القصة لأدباء العربية الأقدمين لا يساعدك على وضع قصة ... فللقصة العصرية خمس قواعد فنية دقيقة وهي : الصدر ، والعقدة ، وتطور الحوادث ، والقِمة ، والخاتمة .

قال : اضرب لي مثلاً في مادة تصلح لأن تؤلف قصة ، وطَبِّق عليها هذه القواعد ، مرحلة فمرحلة .

فارتجلت هذا المثل البسيط : كان لعزيز جار ، وكانت علاقتهما جد سطحية ، لا تتعدى تبادل التحيات في الصباح أو المساء ، والتبريك في المواسم أو الأعياد ، لـكنهما كانا يجتمعان في كثير من الأحايين في حلقة ذكر ، أو حفلة مولد ، أو فرح بمناسبة عقد قران ، أو طهور أطفال ، حتى وفي هذه الاجتماعات العامة كانت علاقتهما لا تتجاوز التحية أيضاً ، والسؤال عن الطقس ، والأحوال العامة ، والثناء على صاحب الدعوة ، والتنويه بـكرمه ولطفه .

وفي فجر أحد الأيام ، استيقظ عزيز كما استيقظت الحارة كلها على عويل صبايا ، وصراخ أطفال وولولة عجائز ، فعلم من ذلك أن أسرة من الأسر أصيبت بمـكروه ، فأطل برأسه من النافذة ، فشاهد رؤوساً كثيرة تُطل من نوافذها أيضاً ، متتبعة مصدر الأصوات ، مستفهمة عما حدث ... وبعد قليل من الوقت نُعي إلى عزيز أن جاره قضى نحبه ، فتمتم قائلاً : لا حول ولا قوة إلا بالله ... إنا لله وإنا إليه راجعون .

ورأى أن الواجب يدعوه لأن يسير في جنازة جاره عملاً بالتقاليد المرعية منذ قرون . فتعطل عن عمله في ذلك النهار ، وخرجت الجنازة حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً ، وسار عزيز خلفها ، وكان الطقس حاراً ، والشمس تسطع في كبد السماء ، وبعبارة أخرى كان ذلك في العشرين من تموز (يوليو) ، وكانت درجة الحرارة وقتئذ تشير إلى الأربعين سنتغراد ، وهي الدرجة التي يـكتب في الموازين إزاءها كلمة (سنيغال) ... أي ما فوق حرارة الإنسان .

سار عزيز خلف نعش جاره وسار إلى جانبه شخص لا يعرفه ، ولما كانت المقبرة تقع على مسيرة نصف ساعة رأى ذلك الشخص أن يقطع الوقت بالتحدث إلى عزيز ، فاستهل كلامه قائلاً : حر لا يطاق ! ... فأجاب عزيز : جهنم ...

— إن عزرائيل لا يرحم ! ...

— لا يرحم المشيعين فقط ... أما الميت ، فسيان عنده الحر أو البرد .

— أنت تعرف المرحوم ؟ ...

— أعرفه معرفة سطحية مع أننا جيران ... غير أن المشهور عنه في الحارة أنه كان دمث الأخلاق .

وهنا اعترضت الجنازة سيارة شحن فعرقلت حركة المرور ، وسدَّت الطريق على باقي السيارات فاختلطت في بعضها ، مما اضطر المشيعين إلى الوقوف مدة عشر دقائق ... وكان عزيز يكاد يجن من شدة القيظ فتارة يجفف العرق المتصبب من وجهه بمنديله ، وتارة يضع هذا المنديل على رأسه ، ويغطيه بطربوشه ، وطوراً يرفع الطربوش والمنديل ويضع راحته على رأسه ، وطوراً آخر

يغتنم فرصة وجود شخص ضخم الجسم يسير أمامه فيستفيء في ظله ...

ثم تابعت الجنازة سيرها ، وتابع رفيق عزيز حديثه قائلا : السير وراء الميت رحمة ...

فأجابه عزيز : لا شك في ذلك ، غير أنني أفضل تشييع الجنازات بالسيارات .

— ماذا ؟ ... بالسيارات ؟ ... هذا لا يجوز أبداً .

— لماذا ؟ ...

— لأن الناس يستنتجون من ذلك أن المشيعين يريدون التخلص من الفقيد على عجل ...

وبلغت الجنازة مسجداً في الطريق ، فوقف المشيعون ، وأدخلوا النعش في المسجد ، ودخل بعضهم في أثره ليصلوا على روح الفقيد ، وظل عزيز واقفاً خارج المسجد وكان يحس أن رأسه سينفجر من شدة الحر ، فيشرب ماء ويتحول هذا الماء في لحظات إلى عرق منهمر .

ثم يخرج النعش ، وتتابع الجنازة سيرها إلى أن تصل المقبرة .

وبعد أن أنزل الميت في لحده ، ووري التراب وقرأ الشيخ عبارات التلقين المعتادة ، وقُرئت سورة (الفاتحة) على روحه ، وقف أهل الفقيد في صفوف طويلة ليتقبلوا التعازي ، وكان عددهم يناهز الخمسين ... ووقف الناس في صفوف طويلة أيضاً ليقوموا بواجبهم في التعزية ... ولسوء حظ عزيز أنه كان يقف في آخر تلك الصفوف .

وبدأ الناس يصافحون أهل الفقيد ، فرداً فرداً قائلين : عظَّم الله أجركم .

فيجيبونهم : كرَّم الله سعيكم ...

وبعد نصف ساعة على وجه التقريب ، جاء دور عزيز في تأدية واجبه ... وكان منظره يبعث الألم في النفس .

وعاد إلى بيته منهوك القوى ، وهو يشعر بدوران شديد ، فانطرح على فراشه في شبه غيبوبة ... وعند فجر اليوم التالي استيقظت الحارة على عويل صبايا ، وصراخ أطفال ، وولولة عجائز ... فتساءل الناس عن الخبر فقيل لهم إن عزيزاً قضى نحبه ... وكان موته ناتجاً عن ضربة شمس ! ..

***

قلت لجليسي : وإليك الآن مقاييس هذه الأمثولة القصصية :

الصدر : إن عزيزاً له جار ، وكانت علاقته به سطحية ، لكنهما كانا يجتمعان في الحفلات والمواسم ، فمات جار عزيز واقتضت التقاليد أن يسير عزيز في جنازته .

العقدة : إن التقاليد تقتضي أن يحتمل عزيز وطأة الحر الشديد ، وكان يسير وراء النعش متبرماً ، غير راض عن تأدية هذا الواجب .

تطور الحوادث : اضطراب حركة المرور ، وتوقف الجنازة عن المسير مدة عشر دقائق ، والدخول بالميت إلى المسجد .

القمة : وقوف عزيز في صفوف المعزِّين وهو في حالة شديدة من الأعياء وانهيار القوى .

الخاتمة : موت عزيز :

ارتاح زائري لهذه الأمثولة في فنِّ القصة ، ونهض قائلاً : سأحاول وضع قصة مبنية على هذه القواعد .

قلت : وفقك الله ... ولكن لا تنس أن تتدبر المواهب ! ...

نجاتي صدقي



بين (أومن بالإنسان) و (هذى هى الأغلال):

لقد أخذتني فرحة هزتني حين تصفحت بسرعة كتاب (هذى هى الأغلال) للأستاذ عبد الله القصيمي النجدى، فرأيته يتناول بالشرح والتأييد القضيتين اللتين يدور حولهما فكرى ويكاد يقف على الدعوة إليهما قلمى منذ ست سنوات أو تزيد، وهما قضية «الإيمان بالإنسانية» وقضية الاعتقاد أن «الحياة صادقة» وذوو الفلسفات الذين يزرون عليها وينادون بالحرمان من ينابيعها كاذبون، لأننى أعتقد أن اعتناق هاتين الفكرتين أمر جدير أن يحدث انقلاباً عظيماً فى نظرة الناس إلى أنفسهم وإلى الحياة وإلى واهب الحياة، إذ هما الشيء الواحد الجديد الذى يمكن تقديمه للبشرية جميعها الآن ويمكن اللقاء بينها فى مجاله، ويمكن به إمدادها بكثير من عوامل التأميل والإسعاد والتفاؤل.

فما إن رأيت أن الفصل الأول من (هذى هى الأغلال) عنوانه (لقد كفروا بالإنسان — الإيمان به أول) حتى قلت الحمد لله ثم الحمد لله! إذ أرى عالماً من نجد — وما أدراك ما علماء نجد فى محافظتهم! — يعتنق الفكرة ويدعو لها بحماس ويصدر بها كتابه.

وما إن رأيت كذلك أغلب فصول الكتاب يستعرض أقوالا معدودة فى سجل الحكم والفضائل عند كثير من المسلمين وتنحى عليها بالنقض ثم تجعلها فى سجل الرذائل المدمرة للحياة والدين، حتى ثنيت الشكر لله على أن ما سبق أن قلته فى مقالات (الحياة صادقة) فى هذه المجلة فى أوائل سنة ١٩٤٢ وما بعدها قد وجد صدى مدوياً. ولكن ما لبثت هزة الفرح والابتهاج أن انقلبت إلى أسى ووجوم واشمئزاز! إذ رأيت الكتاب يخلو من أدنى إشارة إلى تسجيل سبق فى هذه الدعوة، وإذ رأيت صاحبه مع ذلك يحدث ضجة مفتعلة حوله، ويصدر غلافه بهذه الجملة «سيقول مؤرخو الفكر: إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل ...» وإنه «ثورة فى فهم الدين والعقل والحياة ...» كأن مؤرخى الفكر عميان لا يتلمسون مصادر الآراء!

وإنى أعجب كيف يجرؤ كاتب أو مفكر يحترم رأى الناس ويستحيى من نفسه أن يسبق التاريخ ويصدر حكمه على عمله بهذه الدرجة من الافتتان والزعم!

إن المفكر الواثق من أنه أتى بجديد حقاً يضع آثاره بين يدى التاريخ فى صمت ويدع له أن يحكم ولا يتعجل الحكم حتى تعلنه الأيام سواء فى حياته أم بعد مماته .. والمفكر الأمين الثقة الغيور على الحق وحرية الفكر يترفع عن أن يغمط حق غيره وعن أن يغطى جهود من سبقوه بالدعاوة الجريئة لنفسه، لأن هذا إن جاز فى مجال الإعلان عن المتاجر والمهن فلن يجوز فى رحاب الفكر والخلق ولكن ما للمؤلف وللحديث عن الأخلاق، وهو كما روى عنه الأستاذ سيد قطب فى مجلة السوادى يرى «أنه يجب أن ننفى العنصر الأخلاقى من حياتنا، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية ولا قيمة لها فى الرقى والاستعلاء ...».

ومما زاد أسفى أن أرى المؤلف يتجاهل حين سأله الأستاذ قطب أن يكون قد علم بسبقى إلى الفكرة. فعلى فرض أنه لم يطلع على (أومن بالإنسان) بعد ظهوره مجموعاً فى سنة ١٩٤٥ فهل يكون من المقبول أو المعقول أنه لم يقرأ حتى بعض مقالات (أومن بالإنسان) التى تقارب العشرين حول تلك القضية أثناء بسطها فى «الرسالة» وأحياناً فى الثقافة فى مدى خمس سنين تقريباً، ولا أزال أبسطها للآن ويتناولها بعض الكتاب بالمناقشة؟ أم هو يزعم أنه لم يقرأ «الرسالة» أيضاً طول هذه المدة!!

ولئن كان سرورى بانتشار الفكرة برغم انتحال ناشرها لها قد قعد بى ما يزيد على شهرين بعد اطلاعى مصادفة على كتاب (هذى هى الأغلال) لدى الأستاذ الجليل محب الدين الخطيب، دون أن أنبه القراء، يضاف إلى ذلك أننى كنت على ثقة من أن النقد اليقظ سيرد الأمر إلى صاحبه ... لئن كان ذلك هو ما قعد بى عن التنبيه فاننى حين اطلعت على مقال الأستاذ سيد قطب فى مجلة (السوادى) فى الأسبوع الماضى ورأيته يكشف عن خبايا كبيرة فى آراء القصيمى الشخصية وسلوكه السياسى نحو محطمى أمجاد الاسلام والأديان ومهدرى كرامة الانسان ... شعرت أن الواجب يقتضينى أن أنبه القراء إليه.

ولعلى أجد من الوقت ما يسمح بتتبع الالتواء الذى خرج به المؤلف عن جادة الفكرة الأصيلة التى تبناها فى حياة أبيها ...

عبد المنعم خلاف

إلى الأستاذ حسنين مخلوف :

قرأت شاكراً ما كتبت وكتبت اليد ذات السوار وكتب الأستاذ فؤاد السيد خليل ، ورضيت ووافقت فى الجملة ، وأنا رجل لا أكره النقد ولا أطيل النزاع فى أدبى وأسلوبى ، لأنى أعرف من نقائصهما أضعاف ما يتنبه له الناقدون ، وما ادعيت لهما الكمال قط ، ولكنى أنازع فيما أجد فيه خروجاً على الجادة ومضرة للناس كقولك : « ولعلى أصدقك ، وقد كنت فى ماضى حياتى معلماً فى مدارس البنات ، فهذه المخاوف التى استولت على ذهنك كنا نتصورها ، أو قريباً منها ، حتى إذا وجدنا أنفسنا فى هذا الوسط ، أحسسنا أن هؤلاء البنات بناتنا ، والمعلمات أخواتنا ، وزال هذا الخوف الأسود من مشاعرنا ، وصارت الحياة عادية ، وهذا شأن سائر المعلمين فى مدارس البنات

« فرفقاً بالناس وحنانيك ، وإنصافاً ، يا حضرة القاصى ، فالأمر إن شاء الله على ما تحب بفضل القدوة الصالحة ، والتهذيب الصحيح ، وإلا فلتغلق مدارس البنات ، والسلام »

يا أستاذ ، إن القضية أهم من أن نضيع الحق فيها فى غمرة المجاملات ، وإن لها من الأثر فى حياتنا ما يوجب علينا إيجاباً الكلام فيها بصراحة ووضوح ، كما يتكلم الطبيب فى المرض ابتغاء علاجه ، وعلى ذلك أقول لك إننا ، وما قلت (نا) على سبيل تعظيم نفسى ، بل أردت الجمع الحقيقى ، وأنا أتكلم عن نفسى وعن كل من قال أنا عربى ، وكل من شهد أنه لا إله إلا الله ، وأسوق قضايا لا أظن أن فى الدنيا عربياً أو مسلماً يعارض فيها .

أقول لك : إننا لا نجد مدارس البنات فى الشام على ما نحب ، بل على ما نكره أشد الكراهية ، وعلى ما نألم منه ونشكو ونستغيث ، وإذا فتشنا عن القدوة الصالحة فى مصر وجدنا مدارس مصر أدهى وأمر ، ووجدنا أن مدارس البنات فى الشام إذا قيست بمدارس مصر كانت مساجد ، وأشهد أنه ماجاءنا هذا الذى نشكو منه إلامن مدارسكم ومجلاتكم وأفلامكم . ولا تحسب أنى أتعصب للشام ، ولا تأخذك عصبية لمصر ، فأنا أيضاً مصرى الأصل طنطاوى ، ولقد أحببت مصر وعشت فيها زمناً ، وأنا قادم إليها الآن لأعيش فيها زمناً آخر ، ومن محبتى لها أذكر عيوبها ...

ونحن ، يا أستاذ ، نريد العلم للرجال والنساء ، ومن ذا الذى لا يريد العلم ؟ ولكنا نريد الدين أيضاً ورضا الله ، ونريد الأخلاق والعفاف والشرف ، ولا نستطيع أن نصدق ولو أكدت القول لنا ، أن فى الدنيا شاباً متدفق الشباب رجلا ناضج الرجولة ، يعيش بين بنات ناضجات الأنوثة ، كاشفات الوجوه والأيدى والسوق يقفزن أمامه ويلعبن ، ويمزحن ويضحكن ، ويقرأن عليه فى الدروس أشعار الحب والغزل . ويقرأن وحدهن هذه المجلات المصورة الملونة ، ويرين هذه الأفلام الدنسة ، لا يصلين وكيف يصلين مكشوفات العورة ، ولا يعرفن الحلال ولا الحرام ، ثم يحس أن هؤلاء البنات بناته ، وأن المعلمات أخواته ، وتصير الحياة عادية ، ويكون هذا شأن سائر المعلمين فى مدارس البنات ، هكذا على التعميم بلا استثناء !

إذا كانت هذه الحياة عادية ، ليس فيها شىء غريب ولا شاذ ، كانت قوانين الطبيعة التى وضعها الله ، وكانت أحكام العقل ، وكانت مقررات الشرع هى الشاذة الغريبة ، فانظر رحمك الله ما تقول !

يا أستاذ ، أنت رجل مسلم ، فهل تعتقد أن الله حرم شيئاً عبثاً ، ومنعه لهواً وتسلية ، تعالى الله عن ذلك ، أم لحكمة بالغة ، ومنفعة شاملة ؟ وهب أن الحكمة من أمر أو نهى خفيت علينا ، فهل يملك مسلم تعدّى حدود الله ؟ وإذا هو استحل ما حرم الله ، فهل يبقى مسلماً ؟

فقل لى : هل يجوز فى دين الله أن تعيش وبعيش الشباب فى هذا الوسط ، ولو كان المستحيل وصارت الحياة عادية ، ورأيت البنات كبناتك ، والمعلمات كأخواتك ؟ أريد الحكم الفقهى الشرعى لا أريد الآراء والخطابيات ، فإن مصدر دينها الرسمى الإسلام!

وهل يجوز وهذا هو حكم الله ، والغرائز بعدُ موجودة ، والميول قائمة ، والنفس أمارة بالسوء ، والشيطان عامل للشر كادح ، أن تقيم وزارتكم مهرجاناً رياضياً فى أول الصيف الماضى ، نرى صورة له فى مجلة مصورة ، فنرى من التكشف (تكشف البنات اللائى هن كبناتك) . ومن الأوضاع الرخيصة الفظيعة ما يذكر بأخبث ما يشاهد فى السينما الخليعة ، وأن تفتح مسبحاً للبنات ونبصر صورهن منشورة وهن يسبحن فيه أمام الرجال ؟



دعوة فى وقتها :

الرســـالة الخالدة . . .

بقلم الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا

الأمين العام لجامعة الدول العربية

عرض وتعليق

للاســـتاذ عبد المنعم خلاف

— ٣ —

وقد بين المؤلف أخوة الذمة والعهد وحقوق الذمى وواجباته مما يتضح منه أن غنمه أكثر من غرمه . وبين الفرق الكبير بين نظام الذمة الإسلامى ونظام الحماية الحديث الذى كل همه الاستيلاء على المواد والاستعلاء على الأقوام ، وبين أن أى عهد بين المسلمين وغيرهم هو فى كفالة الله وشهادته عليه ، فهو فى حماية العقيدة وحراسة الضمير الناصح المخلص الذى لا يخدع ولا ينافق .

ولا تملى شرائط الصلح عوامل الخوف أو الطمع ، وليس للحرب إلا غاية واحدة هى أن يستقر السلام والعدل وبين أن حرمة العهود فوق صلة الدين : « وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » وهو مبدأ يفخر به المسلمون وتعتز به البشرية كلها

وقد أكرم الفرد واحترم كلمته التى يقولها فى تأمين محارب أو إجارة مستجير ولو كان ذلك الفرد عبداً أو امرأة . . . واحترم الكلمة ولو لم تكتب ما دام قد سبق عليها اتفاق ، وبين أن الحالة الوحيدة التى يجوز فيها نقض العهد هى حالة التوجس وخيفة الخيانة من المعاهد . وهو نقض يجب الإعلان والنبذ به على سواء .

والحق أن ما فى فصول هذا الباب شىء عظيم جداً يجب أن يوضع على أعين الأشهاد فى المجال الدولى لأنه طريق السلام والأمان . وقد اضطررت إلى خطف بعض مسائله الهامة خطفاً لا يغنى .

فى أسباب الاضطراب العالمى

فى الفصول الخمسة لهذا الباب تتجلى عقلية المؤلف كرجل عالمى مهتم بقضايا الإنسانية كلها مشخص لأدوائها ، واسع المعرفة بدخائل حياتها فى المشرق والمغرب . وإذا كان تشخيص الداء فى الطب هو أول وسائل العلاج ، فإن ذلك صحيح فى الاجتماع أيضاً . وإذا كان ذلك لا يتأتى إلا للملهمين من الأطباء ، فإن هذا لا يتأتى إلا للملهمين من علماء الاجتماع .

لقد حصر الأسباب الرئيسية للاضطراب العالمى فى الاستعمار ، وفى النزاع بين الطبقات على النظم الاقتصادية ، وفى الإفراط فى النزعة الوطنية والعنصرية وإنكار حقوق الآخرين ، وفى طغيان المادية وحب الترف ، وفى انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية مما ترتب عليه تبلبل الأخلاق والعقائد والعرف الصالح ، وفى تفشى فلسفة الكذب والغدر والنفاق فى السياسة .

وقد بين بالوقائع والأسانيد أن الاستعمار خراب وأن فرائسه هى فرسانه ! وأنه سرداب لا تملأ أمواجه ملغقة . . . وأنه سبب الحروب فى القرنين الأخيرين ، وأنه شر على الغالب وشر على المغلوب فى الغرب وفى الشرق ، وأنه لابد من التضحية به لنجاة الحضارة ، وأن الرسالة الخالدة تنكره وتنكر مبرراته !

أما نزاع الطبقات ، فقد صار فى العصر الحديث عنصراً للاضطراب العالمى بين الفقراء والأغنياء والعمال والصناع والملاك

فهل يجوز هذا فى شرعة العروبة وغيرتها وشهامتها ؟ هل يجوز فى دين الدولة المصرية الرسمى ؟ هل يجوز عند أهل العقل الذين يعلمون بعقولهم ما هى نتائجه وإلى أين يوصل ؟

أهذه هى القدوة الصالحة ؟ أهذا هو التهذيب الصحيح ؟ أنصف أنت أيضاً ، فما يطلب الإنصاف من القضاة وحدهم . . . إنه ليطلب من المفتشين !

أما القصة التى انتقدتها ، فإنى أحلف لك بالله الذى لا يجرؤ على الحلف به كذباً مسلم ، إنها واقعة وإنها ليست متخيلة ، وإنى ماصنعت فيها إلا ما يصنعه إذ يكتب القصة الواقعية الأديب ، وإن الطالبة كتبت له الشعر وزارته فى الدار ، ولك أن تصدق أو تكذب ، أنت حر !

(دمشق) علي الطنطاوى

والمدين . وقد ضاعف التعقيد العصرى المذاهب والدعوات فى خطر هذا العنصر ، وكذلك ضاعف استخدام البخار والكهرباء فى عوامل استفحاله بين رأسمالية الآلة والعمال ، وتفرق الناس من أجل فلسفات هذا النزاع بين الشيوعية والرأسمالية والفاشية والنازية والديمقراطية . ولا شىء يستطيع أن يقاوم التعقيد فى هذا العنصر إلا البساطة الدينية فى معالجة مشكلات المال . فقد جعلت للمحروم حقه الثابت فى أموال الناس جميعاً وهذا المبدأ الثابت يتناوله التنفيذ المرن بحسب الظروف . والقرآن أوجب الزكاة ، وعلى الإمام أن يوجهها حسب الحاجة . وكل مصلحة اجتماعية فهى سبيل الله ، فتشمل التأمين الاجتماعى والصحى مثلا. ولم تكتف هذه البساطة أيضاً بفرض هذا الحق المعلوم فى أموال القادرين للمحتاجين ، بل جعلت الدولة كفيلة على إقامة التوازن الاجتماعى ، سواء أكان بالزكاة أم بغيرها إن لم تكف الزكاة الحاجات العامة . وحيثما كانت المصلحة والعدل فثم شرع الله ودينه . وفى التاريخ الإسلامى أمثلة رائعة لتصرف الدولة حسب الظروف مع عدم تقيدها بالنصوص القرآنية فى أهم المسائل الاقتصادية والسياسية . وقد ضرب منها مثلا فى تصرف أبى بكر فى مساواة السابقين إلى الإسلام واللاحقين فى الأعطية وتفضيل السابقين فى عهد عمر ، ومثلا آخر فى عهد عمر حين رأى عدم تقسيم أرض العراق والشام كفىء على المحاربين وأجرى لهم أعطية من خراجها مع بقائها فى أيدى الأجراء يعملون فيها محافظة على حقوق الذريات والأجيال الآتية ، مع أن النص القرآنى صريح فى تقسيمها كفىء على فاتحيها .

وقد ألزم الإسلام السلطان بمنع النزاع بين الطبقات وبالتأمين والتوازن الاجتماعى بالتهذيب الروحى ومحاربة الترف والبذخ والجمع بين الوجدان والسيف

أما النزعات القومية والوطنية ، فقد صارت عصبية حديثة أوحاها التشدد فى الحدود الجغرافية والجنسية ، وهى نزعات لم تكن بهذا الاستفحال فى العصور القديمة والوسطى حين كانت الدولة الواحدة يشترك فى خدمتها عناصر وأجناس متفرقة كلها ترقى سلم المناصب الرفيعة فيها بحسب المواهب فى خدمتها . فليست هذه النزعات الحديثة سبباً فى الاستقرار بل عاملا لزيادة الاضطراب لأن الحدود السياسية الحالية للأوطان حدود صناعية كثيراً ما تفرق بين جنس واحد وتضم أجناساً مختلفة . وقد مر قرنان على أوربا وقد غرقت فى الدماء من جراء النزاع على الحدود وتحرير الأقليات بين الفرنسيين والألمان ، وبين النمسويين والألمان وبين هؤلاء وهؤلاء والصقالبة ، وبين النمسا وإيطاليا ، وبين البلقانيين جميعاً ، وبينهم وبين الدولة العثمانية وبين روسيا وغيرها من جيران الشرق والغرب ، وبين المجر والتشك والبولونيين والرومانيين .

وقد انتقلت هذه العصبيات إلى الشرق لتأدبه بأدب الغرب ، فعلى سنجق الأسكندرونه خلاف بين سوريا وتركيا ، وعلى شط العرب خلاف بين العراق وإيران ، وقد ابتدأوا ينسون الأدب المحمدى فى النظرة إلى أشبار الأرض ...

وقد لجأت الدول إلى الهجرة الإجبارية فلم يستفد منها أحد ، وحاولت عصبة الأمم حل مشكلات الأقليات فلم تحصل على طائل

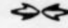
والإسلام لا يعرف الوطنية والعنصرية إلى هذا الحد الوثنى ، ويضع العلاقات البشرية على أساس معنوى ، فإن الخلاف فيه أخف من الخلاف فى المجال المادى الذى يثير أخس الغرائز وأعنفها وليس لديه اعتراف بسيادة أو عبودية ، بل بالأخوة الشاملة . أما هزيمة القوى المعنوية ، فهى أثر من آثار السيطرة على المادة ، وسرعة التطور المادى وبطء التطور الروحى ، وتباعد الفروق بين الناس تبعاً لحظوظهم من العلم المادى ولعلاج ذلك يجب التوفيق السريع بين الروح والمادة قبل الكارثة الكبرى التى ستهدم الحضارة . والإسلام قد وفق بين الحياتين لئلا تستحيل نعم المادة إلى نقم كما وقع فى الحربين الأخيرتين التى حطمت مدنيتنا مرتين فى ربع قرن . ولا ملجأ للقوى المعنوية إلا بالرجوع إلى منابع الرحمة والهدى فى الأديان

عبد المنعم خلاف

العدد ٧٠٠ — الاثنين ٢ ديسمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد



٤٥ ٥ ٢٧

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 700

Lundi — 2 — 12 — 1946

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧٠٠ « القاهرة فى يوم الإثنين ٨ محرم سنة ١٣٦٦ — ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

ساعة فاصـــلة . . . !

للأســـتاذ محمود محمد شاكر

إذا المرء لم يحْـتَلْ وقد جَـدَّ جِدُّه
أضاع وقاسَى أمرَه وهو مُدْبِرُ
ولـكن أخو الحزْمِ : الذى ليس نازلا
به الخطْبُ إلا وهو للقصْـد مُبصرُ
فذاك قريع الدهر، ماعاش ، حُـوّلٌ
إذا سُـدَّ منه مَـنْخِـرٌ جاش مَنخرُ

وأىُّ خطب ! ! فنحن أمة قد عاشت أكثر من أربع وستين سنة تجاهد عدُواً لدوداً ، واسع الحيلة ، كثيرَ الأعوان ، ينفثُ سمه حيث مشى ، ويُخفى غوائله ليـكون فتـكه أخْـفى وأنـكى وأشدَّ . فاتخذ لنفسه من صميم هذا الشعب رجالا خدعهم عن عقولهم ، وزيّن لهم أن يعملوا فى الدسيسة للأرض التى أنبتتْ عليهم شحومهم ولحومهم وحملتهم على ظهْـرها هم وآباءهم وأبناءهم وذَرَاريهم ، وأظلَّـتهم سماؤها بالظلّ الوارف الظليل ، وسكَـبَـتْ فى نفوسهم سرّ الحياة ، وسقاهم نيلها بدَرِّه الذى اشتدّت عليه أبدانهم وأحوالهم ، ومهّـد لهم من المتاع ما أطغاهم وكان خليقاً أن يملأْ قلوبهم شكراً ، وألسنتهم حمـداً وثناء .

وزاد فأطلق فى جنَبات هذا الوادى أسراباً من صعاليك الأفاعى الأجنبية ، أخافت الوَادِع ، ولدَّغت السليم ، وذادَتْ عن سُهول هذا الوادى كل حىٍّ من أبنائه حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبتْ وضاقت عليهم أنفسهم . ولم يزل ذلك دأبنا ودأب عدوِّنا حتى أتاح الله الحرب العالمية الأولى فاستعلن من ضغينته وبغضائه ما اكتتم ، وأعلن الحماية على أرض مصر . فلما خرج ذلك العدوّ من لأوائها منصوراً مظفَّراً ، لم يبال الشعب المصرى العزيز بسطوة ولا بأس ولا قوةٍ من حديد ونارٍ ، فثار ثورته العجيبة فى أوائل سنة ١٩١٩ ، وما كان يخيّل للعدو الباغى أن ذلك شىء ممكن ، وبعد لأى ما تحقّقَ من أنه شعب حديدُ العزم لا تُرْهبه القوة الباطشة ولا العدوان الغشوم . فاحتال له حيلة أخرى يفرّق بها بين الرجل وأخيه ، والأب وبنيه ، والأمّ وفلذات أكبادها ، فرمانا بالداهية الدَّهياء التى حملت الناس يختلفون بينهم على غير شىء إلا الُحكم والسلطان ، وتدسَّس إلى قلوب الرجال شيطانٌ مريدٌ هو : تلك الحزبيـة والعصبية للأشخاص ، فـكادت تنقض بناء هذه الأمة حجراً حجراً .

ثم كان من رحمة الله أن جاءت الحرب العالمية الثانية ، فخرج منها عدوُّنا مرة أخرى منصوراً مظفراً ، فلم يبالِ الشعب المصرى وخرج يقول له : « اخرجْ من بلادى ، ورُدَّ علىّ جنوب الوادى » وكادَ يكون ما كان فى سنة ١٩١٩ ، ولـكن العدو كان أسرع حيلة وأرشق حركة ، فنَـصَّبَ رجالا منَّـا ليحملوا بلادهم على

سبيل مضَلَّة . فكانت هذه المفاوضات الخبيثة التى ظلّت تدور شهراً بعد شهرٍ إلى غير نهاية إلى يومنا هذا ، بيد أن الشعب نفسه ظل هادئاً متربصاً طوال هذه الشهور وهو عالمٌ أن المفاوضة كلامٌ لا يغنى فتيلا ، وأن « الجلاء » حقٌ لاينازعه فيه أحد ، وأن ضمّ السودان إلى أخته مصر حقٌ لن يعوقه عنه بطشٌ ولا جبروت ، وأن الحرية حقٌ البشر منذ يولدون إلى أن تُطمّ عليهم القبورُ . ومضت الأيام والشعبُ يسمع لَجاج المفاوضة وهو غيرُ راضٍ ، ولكنه استنكف أن يحولَ بين طائفة من أبنائه وبين ما يظنون فيه الخير لبلادهم ، فتركهم يعملون ليعرفوا أخيراً ماعرفه هو بفطرته النقيّة : أنْ لاخير فى مفاوضة الغاصب القوىّ حتى يردّ على المغصوب الضعيف ما سلَبَ منه ، وأن الإباء هو خُلُق الأحرارِ ، وأن العزْمَ هو المنقذ من ضلال السياسة ، وأن اجتماع الكلمة على الجهاد فى سبيل الحق هو الخلاصُ وهو سبيل الحرية .

وقد انتهت الآن هذه المفاوضات وجاءنا المشروع الذى يرادُ لنا أن نصدّق عليه ونقبله ، فللأمة حقُّها اليوم أن تقول كلمتها ، ولكل مصرىّ أن يقول كلمته ، وليس لهيئة المفاوضة ولا لرئيس الوزارة أن يفتاتَ على حقّ الشعبِ بشىء لا يرتضيه الشعبُ ، فإن هذه ساعة حاسمةٌ فى تاريخ الشعب المصرىّ ، بل ساعة حاسمة فى حياة أبنائنا الذى يدبُّون على الأرضِ ، وحياة النَّسْل المصرى الذى يسرى فى الأصلاب حتى يأتى قدرُه .

وإنه لهولٌ أى هول أن ينفرد رجُلٌ أو فئة من رجالٍ بالتصرُّف فى هذه الأنفُس البشرية كأنهم أصحابها وخالقوها والنافخو الحياة فى أبدانها . فالله الله أيها الرجال فى مصاير بلادِكم وأبنائِكم وورثة المجد القديم الذى يطالبهم كما يطالبنا بأن نعيش أحراراً فى بلادنا ، وبناةً لأمجادِنا ، وحَفَظةً على تاريخ أجدادنا .

وليأذن لنا أولئك الذين يظنون أنهم كما قال الشاعر :

وعلمتُ حتى ما أسائل واحداً عن عِلمِ واحدةٍ لكى أزدادها

وليأذن لنا أولئك الذين يظنون أنهم مالكو رقابِ هذا الشعب بمالهم أو جاههم أو سلطانهم ، وليأذن لنا أولئك الذين هانت عليهم أنفسهم فضاقوا ذرعاً بإباء هذا الشعب أن يكون كَكلْب الرُّفقة يشركهم فى فضلة الزّادِ ، فإذا ضجروا به قالوا له اخسأ أيها الكلب ، وليأذن لنا المخلصون من الكُتّاب الذين يظنون أن التساهل والتغاضى لا بأسَ به ما دُمنا لا نملك أسطولا ولا طائراتٍ ولا سلاحاً ولا قنابل ذرّية ، وأنه لذلك لا بد لنا من أن نحالف حليفاً قوياً ينصرنا إذ بُغى علينا ، ويردّ عنا إذا زحف عدو إلينا — ليأذن لنا أولئك جميعاً أن نتكلم بلسان مصر المظلومة المهضومة ؛ فإنها هى وحدها التى ينبغى أن تنطق وتقول ، فإن قولها هو القول الفصْل — لا قول العلماء الذين يرون أن لاعلم إلا علمهم ، ولا قول أصحاب المال والسلطان ولا قول المتهاونين الذين يرضون من نيل الحق أيسر ما ينال .

إن هذه المعاهدة الجديدة التى تمخضت عنها المفاوضات الطويلة تقوم على أربعة آساس :

الأول : أن الجلاء سيتم بعد ثلاث سنين

الثانى : أن تعهد مصر بأن تقوم مع انجلترا بالعمل الذى تتبيّن ضرورته فى حالة تهديد سلامة أى دولة من الدول المتاخمة .

الثالث : مجلس دفاعٍ مشترك يقرّر الرأى فى الذى سموه « تهديد السلامة » وجعلوا له حق تنظيم الأسباب التى تسهّل مهمة اشتراك الجيش المصرى مع الجيش الإنجليزى فى الحرب .

الرابع : أن تكون الأهداف الأساسية فى مسألة السودان هى تحقيق رفاهية السودانيين وتنمية مصالحهم وإعدادهم «إعداداً فعلياً » للحكم الذاتى ، وممارسة حق اختيار النظام المستقبل للسودان ، وإلى أن يتم ذلك بعد التشاور مع السودانيين تظل اتفاقية سنة ١٨٩٩ سارية وكذلك المادة ١١ من معاهدة ١٩٣٦ — هذا محصَّل ما تقوله المعاهدة الجديدة .

ومَصر تقول إنها لا تثق بالمواعيد الإنجليزية المتعلقة بالجلاء فقد بلتْ ذلك أكثر من ستين عاماً فلم تر إلا شراً ، وإنها لاتريد أن تُقرّ ساعة واحدة للانجليز بالبقاء الشرعى فى بلادها فكيف ترضاه وتوقع عليه وتعترف بشرعيته ثلاث سنوات طوالا .

وتقول إن تحديد السنوات خداع ووبيل العواقب غير مأمون المغبة فإنها لا تدرى ماذا عسى أن يكون غداً أو بعد غد ، وإن الإنجليز قادرون إذا شاؤوا على الجلاء فى أقل من ستة أشهر جلاء كاملا

عن كل بقعة من بقاع هذا الوادى ، فالإطالة مُرادَةٌ لنفسها لأسباب جهلها من جهلها وعلمها من علمها . وقبيح بامرىء ذاق الذل من وعود الانجليز ستين عاماً أن يجهل شيئاً عن مثل هذا الوعد المدخول المكتم بالأسرار .

أما الأساس الثانى : فان مصر تقول إن بلاء البلاد المتاخمة لمصر هو كبلائها مثلا بمثل . فالانجليز هم الجاذب الداعى إلى أن يعتدى عليها معتدٍ طاغٍ يريد أن يضرب انجلترا فى مكامنها ، كما كانوا سبباً فى عدوان الألمان والإيطاليين على مصر فى الحرب الأخيرة السالفة . فلماذا يريد الإنجليز أن يتخذونا أعواناً وأنصاراً على إذلال جيراننا ، وأن يجعلونا نعترف ضمناً بأن لهم حق الدفاع عن هذه البلاد التى سلطوا عليها بَغْى استعمارهم ؟ ولماذا تسفك مصر دماء أبنائها فى سبيل المحافظة على هذه الامبراطورية التى ملأت رحاب الأرض جوراً ؟

ثم إن هذا العدوان إذا وقع ، فهو النذير العريان بالحرب العالمية الثالثة ، والمعتدى فيه معروف منذ اليوم للانجليز ولغير الانجليز . والأسباب الداعية إلى انفجار هذا البارود راجع إلى أسباب أخرى غير الرغبة فى التوسع . وهو جشع الاستعمار القائم اليوم فى هذا الشرق الأوسط والشرق الأدنى والهند . يوم يقع هذا العُدوان فالدُّنيا كلها ستهبّ هَبة رجل واحد ، ولا يدرى أحدٌ منذ اليوم كيف يكون الأمر غداً وأين تكون مصلحته ، فعلام تريدنا إنجلترا أن نتعجّل ، وأن ندْخلَ نحن فى حروبها التى ضرّمتْ نيرانها منذ كانت ، وأن نفرض على أنفسنا منذ اليوم قيداً لعلّ غداً يأمرنا أن نعيد إلى خلافه حتى لانكون طعمة للمنصور إذا كانت إنجلترا هى الخاسرة ؟ أليس يقول لنا ذلك المنصور يومئذ ، لقد قاتلتمونى وحاربتمونى فأنا أستحلّ دياركم وبلادكم وأقداركم بحكم الفتح ؟ فماذا تقول مصر يومئذ ؟ ومن زَعَمَ أن سياسة الدنيا سوف تجرى غداً على النهج الذى جرت عليه حتى اليوم ، فقد أنكر عقله وأنكر تلك القوى العاملة التى تؤثر فى سياسات العالم . ثم لماذا تريد إنجلترا أن تكون قيّمةً على مستقبلنا ونحن شعبٌ حىٌّ حرٌّ يريد أن تكون بلاده ملكا له ليتوخى لها مراشدها التى ينبغى أن يتوخاها ؟ وإذا كان الانجليز يؤمنون بأن مصلحتنا غداً ستكون فى أن نكون معهم يداً واحدة ، فعلام الجزع إذن ؟ أو يظنون أننا نخرج غاضباً من بلادنا ثم ندعها نُهْبى تتعاورها أيدى لصوص الأمم فلا نؤازرهم فيما نرى أن لنا فيه منفعة وصلاحاً ؟ اللهم إن الانجليز يعلمون أننا على حق فى هذا كله وأنهم هم المبطلون ، وإنما يريدون بهذا النص أن يمكثوا فى بلادنا سادة يستضعفوننا ويمنعوننا أن نفعل فى بلادنا ما نريد ، أى أن نظل أمة لاجيش لها ، ولا مصانع فيها ولا قوة لها ، وأن تظل « مجالا حيويا » لها ولأشياعها وأفاعيها من نفايات الأمم وحثالات الشعوب ، وأن يكون وجودهم بيننا معواناً لهم على تفريق كلمتنا وتشتيت قلوبنا ، وأن يظل المصرى يحس بهذا الاحساس القبيح الذى يوهن القوى ، وهو أنه غريب فى بلاده .

أما الاساس الثالث : فهو شىء باطل كله لأنه مبنى على الثانى ، ولأنه شىء لامثيل له فى تاريخ معاهدات الدنيا كلها ، ولأن أخطاره على مصر أخطار موبقة . فان كلمة القوى هى العليا ؛ فاذا قلنا لانجلترا إننا نرى كذا وكذا ، وقال إنجليز هــذا المجلس ، كلا إن هذا ليس لنا برأى ! فمن يكون الفَيْصل بيننا يومئذ ؟ أليست هى قوة الانجليز نفسها ؟ وإذا كانت مصر تخرج اليوم من استعباد خمس وستين سنة ، فهل تظن أن الرجل المصريين الذين سيضمهم هذا المجلس ، سوف يكونون أو يختارون إلا ممن ترضى عنهم إنجلترا وتقول إنها تستطيع « العمل معهم » ؟ هل يظن غير هذا عاقل ؟ يالهذه من سخرية بنا وبعقولنا وبعقول كل من يقرأ هذه السفسطة الانجليزية ! .

أما الأساس الرابع ، فان مصر لم تعترف قط باتفاقية سنة ١٨٩٩ ولن تعترف بها ، وهذه المعاهدة تريدنا أن نعترف بها ، وتريدنا أيضا أن نرضى سَلفاً عن أبشع المبادىء التى لاعقل فيها . وهى بتر جنوب مصر عن شمالها . فالسودان ليس أمة نحن مستعبدوها بل هى جزء من مصر من أقدم عصور التاريخ ، وهى أهم لمصر من مصر نفسها بشهادة عقلاء الساسة من إنجليز وغيرهم . ولو فرضنا أن فئة أضلتها الأموال الانجليزية والوعود البريطانيــة والأكاذيب الملفقة ، قامت فى السودان وقالت : إنى أريد أن أكون أمة وحدى ودولة وحدى ، فهل يُقبل هذا إلا إذا قبلت إنجلترا مثلا أن تقوم أسكتلندة — وبين الاسكتلنديين

على هامش النقد :

من مفارقات التفكير ... !

الأستاذ إسماعيل مظهر وكتاب الأغلال

للأستاذ سيد قطب

لا يزال الإنسان يصادف بين آونة وأخرى صنوفا من مفارقات التفكير ، ما كان ليتصورها لو لم تقع فعلا فى الحياة ، وتبدو آثارها للعيان . فقد تجد الرجل المحقق المتفوق فى علم أو فن ، يبدى فيه الرأى ، فإذا له الكلمة الصائبة ، والنظرة النافذة ... ثم يجاوز مادة تخصصه إلى شأن آخر ، فيأتى بالكلام الذى لا تصدق نسبته إليه إلا إذا قامت لك البراهين على أنه هو قائله ؛ لأنك تجد عندئذ رجلا آخر لا تعرفه ، دون ذلك الرجل بمراحل ومسافات .

وأقرب مثل يحضرنى اليوم هو الأستاذ اسماعيل مظهر . فما لا شك فيه عندى أن الرجل مثقف مطلع ، ذو مشاركة طيبة فى الحركة الفكرية المعاصرة .. ولكننى رأيته يكتب فى جريدة الكتلة مرة ومرة عن كتاب « هذى هى الأغلال » بطريقة عجيبة ، فمرة يقول : إنه يساوى ثقله ذهباً ؛ ومرة يرتفع بصاحبه على مقام جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ! ويخلو أسلوبه على كل حال من التمحيص والاتزان اللذين أعهدهما فيه ...

وعجبت من أن يكتب رجل كالأستاذ اسماعيل بمثل هذا الأسلوب ، وأن يعتقد فى مثل هذا الكتاب وصاحبه ذلك الاعتقاد ... وظللت متحيراً فى هذه الظاهرة العجيبة . وكنت قد قرأت الكتاب فوجدت صاحبه يتعلق بالتافه من خرافات العوام ، ومن الأضاليل الخرافية التى حاربها الزمن فى البيئة الإسلامية وانتهى من حربها منذ خمسين عاما أو تزيد . يتعلق بهذا التافه فيصول ويجول فى الكفاح والنزال ، ويبدو — كما قلت فى مجلة السوادى — فى هيئة « دون كيشوت » يطعن فى الهواء يحسب طواحين الهواء فرسانا ، وزقاق الخمر قساوسة !

والانجليز من الفروق ما لا يوجد مثله بين مصر والسودان — فتقول : سوف أكون أمة وحدى ودولة وحدى . أفترى إنجلترا تقول يومئذ نعم ونعمة عين وتخلى بينهم وبين ما يريدون ، أم تخضعهم يومئذ بقوة السلاح وبالحديد والنار كعادتها فى كل بقاع الدنيا ؟ ونحن ولله الحمد ليس بيننا وبين السودان مثل هذا ، بل السودان كله ، إلا من طمس مال الانجليز قلبه ، كلمة واحدة على أنه جنوب مصر لا أنه أمة وحده أو دولة وحده . إن مصر لا تستطيع أن تفرط فى بتر السودان من جسمانها ، فان فى ذلك هلاكها وهلاك السودان جميعاً . فليقلع عن هذا الرأى كل من غفل عن حقيقة الوطن المصرى أو الوطن السودانى ، فمعناهما سواء .

بقى شىء واحد هو أن إنجلترا قد خرجت من هذه الحرب فى المرتبة الثالثة من دول العالم . فإذا جاءت الحرب الثالثة فانجلترا خارجة منها لا محالة كما خرجت فرنسا — أى إنها سوف تخرج ولا تملك غير الجزيرة البريطانية إن بقيت لها ، فعلام نربط مصايرنا بمصير مظلم يُفزّع أهله منذ وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ؟

وكان ينبغى أيضاً أن لا يغيب عن أذهان أولئك الأذكياء أن هذه الفرصة إذا أفلتت فلن تعود ، فإن انجلترا اليوم لا تملك أن ترغمنا على شىء ، وإنما تهددنا وتبدئ وتعيد فى تهديدها ، ولكننا إذا صبرنا وعزمنا وأبينا ميسمَ الذل الذى تريد أن تسمنا به ، فهى لن تملك إلا التسليم بلا قيد ولا شرط . فكان عليهم أن يكونوا أبصر بخير هذه الأمة المجاهدة المصرية ، وأجرأ على تلك الأمة الانجليزية ، ولو فعلوا لرأوا عجباً ، فإننا إنما أتينا من قبل الخوف والهيبة والعجز عن إمضاء العزيمة على وجهها ولكن لم يفت الأوان بعد ، فاحملوا على أنفسكم أيها المفاوضون المصريون واملأوا قلوبكم إيماناً بالله ، وإخلاصاً للوطن ، وأجمعوا رأيكم وارفعوا النير عن هذا الشعب بالإباء والأنفة والحميّة ، ورفض المفاوضة والمعاهدة ، فإن إنجلترا لن تملك يومئذ صرفاً ولا عدلا ، فإن لم تفعلوا فالله من ورائكم محيط . واحذروا غضبة الشعوب فان لغضباتها مواسم كمواسم النار هى ذل الدهر وسُبّة الأبد .

محمود محمد شاكر

ثم ينتهى فى التواء إلى أن هذه هى العقلية الدينية الإسلامية ؛ فهى إذن عقلية لا تصلح للحياة ولا لوراثة الأرض . بينما الأوربيون يتبعون منطق الحياة ، فهم إذن أولى بوراثة الأرض من أصحاب العقلية الدينية . وإذن فما يحق للشرق أن يثور على استعمار ولا أن يحنق على مستعمرين ! وتلك هى النتيجة الحتمية لكل مقدمات الكتاب . ولعلها هى الهدف الأول الذى لف فى طواياه !

ولا ينتهى الرجل إلى هذه النتيجة وحدها ، عن هذا الطريق الملتوى الملىء بالمغالطات ، إنما ينتهى إلى نتيجة أخرى — لعلها هى التى قادته إلى سلوك هذا المسلك المريب ؛ ولعلها كانت رائده فى كتابه وفى حياته .. تلك أن العنصر الأخلاقى يجب أن ينفى من الحياة . فكل ما يقال له روح وضمير وخلق ودين ... إن هو إلا « أغلال » ومعوقات وتعلات فارغة لا تجدى ؛ والمعول فى الحياة على القوة المادية : قوة الصناعة والتجارة والمال !

ولعل الرجل يطبق فى كتابه وسلوكه تلك المبادئ الذهبية ! أقول عجبت من أن يبذل الأستاذ مظهر إعجابه كله لمثل هذا الكتاب المريب فى هذا الأوان ، إلى درجة أن يستخفه الإعجاب ، فيفارقه ما عرف به من النفاذ والتؤدة والاتزان ... ولكن أخيراً تكشف لى السبب ، فبطل منى العجب ؛ وذلك فى كلمة افتتاحية فى المقتطف الأخير عن كتاب « هذى هى الأغلال » أيضاً !

إن الأستاذ اسماعيل فيما يظهر قد استغرقته الدراسات الفلسفية والدراسات العلمية — وفى أوربا خاصة — فلم يجد وقتاً يتتبع فيه الحركة الفكرية فى الشرق العربى — وفى مصر خاصة . فظل يعتقد مخلصاً فى اعتقاده أن أهم ما يشغل بال المسلمين فى الآونة الحاضرة من أمور دينهم ودنياهم مسائل من نوع : [الكلام فى مثل ما تكلم فيه السيوطى فى كتابه « كشف المعمى فى فضائل الحمى » وكتابه « الطرثوث فى فضل البرغوث » أو ما تكلم فيه ابن حجر العسقلانى فى كتابه « بذل الماعون فى فضل الطاعون » أو ما ترى فى كتب المناقب وغير كتب المناقب فى الخرافات التى تهلع لها قلوب الأحرار ، والأساطير التى تهتز لها الأرض وتفزع السماء ، أو البحث فى من يحمل فوق ظهره قربة ملئت فُساء هل تصح صلاته بها أم ينتقض وضوؤه] كما كتب فى هذه الافتتاحية العجيبة !

وهذه هى الخرافات التوافه التى أخذ المؤلف يبدئ فيها وفى أمثالها ويعيد ، ويصم التفكير الإسلامى كله بأنه يصدر عنها ؛ ثم أخذ ينازلها كما نازل « دون كيشوت » طواحين الهواء ، ويشقها بسيفه كما شق « دون كيشوت » زقاق الخمر ! والتى خيل للأستاذ مظهر أنها كذلك تشغل بال المسلمين فى هذه العصور ، فأخذ بالقوة التى يهاجمها بها مؤلف الأغلال ، فقال :

«أنتصر لهذا الكتاب ، لأنى أشتم فيه ريح القوة والجبروت والعزة التى هى من صفات الإسلام ، وليست من صفات المسلمين ! !

وهنا زال عجبى وعرفت القصة . فالأستاذ اسماعيل مظهر بقدر ما هو عالم ومطلع فى الفلسفة الحديثة والعلم الحديث ، بعيد كل البعد عن حركة الفكر الإسلامى فى القديم أو فى الحديث . فكل حديث عنها فى نظره إعجاز وإبداع ! !

ومثل إعجابه البالغ الذى لا يتحفظ فيه بهذا الكتاب كمثل من يعجب أشد الإعجاب برجل يشنها حرباً شعواء على من يقولون : إن الأرض محمولة على قرن ثور . فما تزيد معظم الخرافات التى تصدى لها المؤلف فى أهميتها اليوم وفى مقدار اعتقاد الناس فيها ، على اعتقاد بعض العامة أن الأرض محمولة على قرن ثور !

ويا ليت إخلاصاً يبدو فى ثنايا الكتاب ، حتى مع هذا التمحل وهذا التزوير المدسوس على عقلية الشعوب الإسلامية فى العصر الذى نعيش فيه ؛ إنما هنالك الريبة التى تخالج القارئ حين يذهب فى القراءة إلى النهاية ، فيشم رائحة غير نظيفة تشيع بطريقة ملتوية خبيثة ، رائحة إشعار الأمم الشرقية بأنها لا تستحق وراثة الأرض ، ولا تستحق سوى العبودية والذل ، وأن الأمم الأوربية هى التى تستحق هذه الوراثة ، وأن العرب خاصة فى حاجة إلى حماية الانجليز والأمريكان لهم ، لأن الخطر الصهيونى يتهددهم وهم عُزل من كل قوة ، ولا سند لهم إلا قوة خصومهم من الانجليز والأمريكان!

ترى هذه هى « ريح القوة والجبروت والعزة التى يتحدث عنها الأستاذ اسماعيل ؟ اللهم إن رجلا بعيداً عن كل اتصال بحركة الفكر الإسلامية ، راعته البديهيات الساذجة التى يسوقها رجل مريب ، فلم يتنبه فى — زحمة الروعة — لهذا العنصر المريب !!

***

وكتب الأستاذ « عبد المنعم خلاف » فى عدد « الرسالة » الماضى يشير إلى ما نبهت إليه من سرقة المؤلف لأفكاره فى كتابه « أومن بالإنسان » وادعائه أنه لم يسمع بموضوع هذا الكتاب!

قلت فى كلمتى بمجلة (السوادى) إننى لم أحترم هذا التجاهل ، لأنه ليس سمة الباحثين المخلصين . وقال الأستاذ عبد المنعم بعد أن قرر أنه فرح لانتشار فكرته التى دعا إليها ست سنوات ، فكرة الإيمان بالإنسان والاعتقاد بأن الحياة صادقة .

«ولكن ما لبثت هزة الفرح والابتهاج أن انقلبت إلى أسى ووجوم واشمئزاز إذ رأيت الكتاب يخلو من أدنى إشارة إلى تسجيل سبقى فى هذه الدعوة ، وإذ رأيت صاحبه مع ذلك يحدث ضجة مفتعلة حوله ، ويصدر غلافه بهذه الجملة :

(سيقول مؤرخو الفكر : إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل .. وإنه ثورة فى فهم الدين والعقل والحياة ...) كأن مؤرخى الفكر عميان لا يتقصون مصادر الآراء !

«وإنى أعجب كيف يجرؤ كاتب أو مفكر يحترم رأى الناس ، ويستحى من نفسه . أن يسبق التاريخ ويصدر حكمه على عمله بهذه الدرجة من الافتتان والزعم !

«إن المفكر الواثق من أنه أتى بجديد حقاً ، يضع آثاره بين يدى التاريخ فى صمت ، ويدع له أن يحكم ، ولا يتعجل الحكم حتى تعلنه الأيام سواء فى حياته أو بعد مماته ... والمفكر الأمين الثقة الغيور على الحق وحرية الفكر يترفع عن أن يغمط حق غيره ، وعن أن يغطى جهود من سبقوه بالدعاوة الجريئة لنفسه ، لأن هذا إن جاز فى مجاز الإعلان عن المتاجر والمهن ، فلن يجوز فى رحاب الفكر والخلق .

ولكن ما للمؤلف وللحديث عن الأخلاق ، وهو كما روى عنه الأستاذ سيد قطب فى مجلة « السوادى » يرى (أنه يجب أن ننفى العنصر الأخلاقى من حياتنا ، فالحياة لا تعرف العناصر الخلقية ، ولا قيمة لها فى الرقى والاستعلاء) » .

والأستاذ عبد المنعم يحاكم الرجل إلى مبادئ ومثل يقول هو عنها : إن التشبث بها هو سبب تأخر الشرق وجموده . فما الخلق ؟ وما الضمير ؟ وما الحياة ؟ إنها كلها « أغلال » تقيد الخطو وتخلق العثرات . إنما المهم كما يقول هى الأخلاق الصناعية والتجارية والمالية ! !

والواقع أنها جرأة عجيبة ، ولكن لماذا لا يجرؤ الرجل ، وفى مصر كتاب كبار لا يتنبهون لهذه الجرأة العجيبة ، فيسبغون على فكرة مسروقة ومستغلة استغلالا مريباً كل هذا الاهتمام والإعجاب ؟

ولكننى أعود فأستدرك ، فلعل هناك اتهاماً للأستاذ عبد المنعم ، وطعناً فى ضميره وخلقه ووطنيته حين نذكر أن فكرة الأغلال مسروقة من كتابه « أومن بالإنسان » .

إنها مسروقة نعم فى عمومها وفى الكثير من قضاياها ، ولكن الأستاذ عبد المنعم كان يعالج فكرته فى استقامة ونزاهة ، ويحسب للدين وللخلق وللضمير حسابها فى قيم الحياة ، وحين دعا إلى الإيمان بالإنسان مستدلا بما أبدع فى الأرض بفكره ويده ، لم ينس أنه يهدف إلى قضية أكبر ، وهى قضية الإيمان بخالق هذا الإنسان وقضية التسامى بضمير هذا الإنسان .

ولقد وافقت الأستاذ عبد المنعم على قضيته وأهدافه ، وخالفته فى طريقة استشهاده ، ووددت أن يفسح للوجدانات الروحية ، وللأعمال الفنية مكانا أكبر فى الاستشهاد على عظمة هذا الإنسان ، ليكون نشيد الإيمان به أوسع وأشمل ، حين نضم إلى إبداع فكره ويده إبداع وجدانه ومشاعره .

أما هذا الرجل ، صاحب الأغلال ، فيأخذ الفكرة لينحدر بها انحداراً عن مستواها ، وليبدو فيها ضيق الآفاق لا يتصور أن الإنسان جسم وروح ، وأن الحياة مادة ومعنى . ثم ليستخدم الفكرة فى الزراية على الشرق عامة والمسلمين خاصة ، وليحطم فى نفوسهم كل شعور بالعزة ، وليسود عليهم مستعمريهم ، وليثبت هم أنهم فى حاجة إلى قوة هؤلاء المستعمرين ، إلى أن يتخذوا طريقهم فى الإنتاج !

وما يخدم قضية الاستعمار فى طورها الحالى كما يخدمها بث هذه الروح . وإذا كان الشرق يعتز فى جهاده للاستعمار بماضيه وبعقائده وبكرامته القومية ، وبعدد من مثل هذه المعنويات . فهذا رجل منه يقول له : إنما تعتز بترهات جوفاء . والمستعمر أحق بوراثة الأرض منك ، فلتحن هامتك إذن ، فتلك سنة الحياة!

وبدلا من أن ينبه النقاد الكبار إلى هذا الاتجاه المريب يؤخذون بالدعاوة المفتعلة ، ويبذلون إعجابهم المطلق للكتاب وصاحب الكتاب ! والرجل والحق يقال : ماهر فى الدعاوة ، لا تقيده فيها الأغلال ! !

ألا إنه لكتاب يساوى ثقله ذهباً ، كما قال الأستاذ مظهر . ولعل من تهمهم مثل هذه الكتب لم يبخسوا الكتاب قدره وكل الدلائل تشير إلى أنهم لم يبخسوه قدره ، والحمد لله !

سيد قطب

نحو عالم جديد :

أندريه مالـــرو

André Malraux

فنه وتفكيره

للاستاذ علي كامل

لعل من النادر أن نرى بين أدباء الغرب المعاصرين أديباً يمثل روح العصر الحاضر مثل الأديب الفرنسي الشاب أندريه مالرو . وهو من هذه الناحية ومن حيث تأثير فنه على عقلية شباب هذا الجيل الذى نعيش فيه يقف إلى جانب الكاتب الكبير أندريه جيد . إلا أن كلا منهما يتميز من حيث المشكلة التى يطرقها ويسعى لحلها . فأندريه جيد يكاد يقتصر فنه على معالجة المشكلة الجنسية التى يعتبرها مشكلة المشاكل، بينما يطرق مالرو الشخصية الإنسانية بأكملها ، بكامل غرائزها ساعياً لتحديد موقفها فى هذا العصر المضطرب الطافح بالانقلابات والتطورات .

كان أندريه مالرو منذ ابتداء حياته الأدبية كاتباً اجتماعياً لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للأديب أن يبتعد عن معالجة مشاكل المجتمع الذى يعيش فيه واتخاذ موقف محدد حياله . كان ألد عدو لذلك النفر من الأدباء الذين اتخذوا من خيانة الفكر مذهباً أسموه (الفن للفن) أو (البرج العاجى) يقبعون فيه غير عابثين بما يدرر حولهم من مآسى الحياة ونكباتها حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار أن مجرد المساس بحقائق الحياة المحزنة الدامية تشويه « للجمال » فنهم ! ! ؟ إن هذه الزمرة من الأدباء فى نظر مالرو ونظرائه من الأدباء الاجتماعيين ما هى إلا طائفة من المرائين الذين اتخذوا القلم سلماً للوصول والنفعية ، وهم قبل كل شىء يعملون — بوعى أو بغير وعى — لخدمة مصالح الطبقات المميزة فى المجتمع الإنسانى ، وهذه الطبقات لا يهمها معالجة مشاكل الحياة القاسية لأنها لا تعانى ويلاتها بل من مصلحتها — إذا لمحتها فى طريقها — التغاضى عنها وتعمد تجاهلها ؛ لأن أنانيتها لا تتفق وافتضاح الخلل فى المجتمع الذى تعيش على حساب تعاسته ، وتصعد قمة المجد على جماجم شهدائه

على أن مالرو لم يقتصر على استخدام قلمه لخدمة المجتمع الانسانى، بل كان يهب كلما سنحت الفرصة ليخدم بقوة السلاح المبادئ السامية التى يؤمن بعدالتها . فلم تكد تنشب ثورة الصين التحررية حتى سافر إليها يعمل إلى جانب جيوش الوطنيين فى سبيل المثل الأعلى الذين يدافعون عنه . وعندما قامت الثورة الأسبانية الجمهورية بادر بالسفر إلى أسبانيا ليعمل فى جيوش الجمهورية الشابة كطيار مدافعاً عن سماء مدريد الشهيدة . وأخيراً لم تكد تخر فرنسا على ركبتيها عام ١٩٤٠ صريعة الخيانة حتى عاد مالرو إلى حياة الكفاح العملى فأبى أن يهجر وطنه فى محنته وانضم إلى العصابات الفرنسية الداخلية ليكافح الغاصب . وعلى رغم هذه الحياة المضطربة الخطرة لم يهمل مالرو قلمه وهو سلاحه الأول للتعبير عن تفكيره فاشتغل فى كتابة قصة طويلة من ثلاثة أجزاء بعنوان : (الصراع مع الملاك) La lutte avec L' Ange وانتهى من الجزء الأول وهو (أشجار التنبرج) Les Noyers de L' Altenburg الذى نشر فى سويسرا عام ١٩٤٣

***

كانت أول أعمال مالرو إصداره كتاباً صغيراً بعنوان: (إغراء الغرب) La Tentation de L' Occident وهو عبارة عن رسائل يقارن فيها الكاتب بين المدنيتين: الشرقية والغربية ، ونحس حين قراءتها بألمه وخيبة آماله فى مدنية الغرب . وسرعان ما لفت هذا الكتاب الأنظار إلى مؤلفه الذى أحس النقاد بنواحى التجديد فى تفكيره وما يختزن فى صدره بما يبشر بظهور لون جديد من ألوان الأدب العالمى . وفى عام ١٩٢٨ ظهر كتاب مالرو الثانى الفاتحون Les Conquérants وهو أقرب إلى تحقيق صحفى منه إلى قصة . وفى عام ١٩٣١ ظهر كتابه الثالث (الطريق الملكي) La voie Royale . وفى عام ١٩٣٣ أخرج مالرو قصته : (الطبيعة الإنسانية) La Condition Humaine التى نال بها جائزة جونكور لذلك العام ؛ وهى أكبر الجوائز الأدبية الفرنسية .

وتفكير مالرو الذى يسيطر على جميع أعماله يتحدد منذ صدور كتابه الفاتحون ثم يجلو ويبلغ أقصى وضوحه فى (الطبيعة الإنسانية) . كانت هاتان القصتان حدثاً جديداً فى الأدب الغربى

إذ لم يسبق أن عالج الفن القصصى مشاكل المدنية الغربية بالطريقة التى عالجها بها مالرو فى هذين الكتابين ، وسار على نهجهما فى كتبه التالية ؛ وذلك من حيث التجديد فى الفكرة وحرارة الأسلوب وطهارة الإخلاص .

يرى مالرو أن الإنسان منذ فجر التاريخ يميل « بطبيعته » إلى الثورة على الأمر الواقع وتحسين الحالة الراهنة واكتشاف ما يحيطه من المجهول ، وكانت الأديان أقوى وسيلة لتهدئة هذا الجموح الطبيعى وإطفاء هذا الغليان الغريزى ، وظل تأثيرها قوىّ المفعول مدى قرون طويلة وأحقاب عديدة . ولكن الآن والمدنية الغربية قد بلغت مرحلة لا احترام فيها للعقائد ولا مراعاة لسنن الأديان ، بل ولا اعتبار للأسس التى قامت عليها هذه المدنية التى أوشكت أن تنهار دعائمها بعد أن طفحت القلوب بالشك فى قيمتها . الآن ، ما هو موقف (الإنسان) و(النفس الإنسانية)؟ ما هو موقف الفرد الأوروبى أو غير الأوروبى إذا كان من أبناء المدنية الحديثة التأثرين بتياراتها التحررين من كل قيد تقليدى ؟ يرى مالرو أن الإنسان الجديد يقف أمام أحد أمرين لا ثالث لهما : فإما الاستسلام للأمر الواقع والتردى فى هذه الفوضى الفاشحة التى لا ضابط لها ولا حياد فيها ؛ وإما التعلق بمثل أعلى لخدمة نفسه وخدمة المجتمع البشرى كما يتعلق الغريق المحتضر بقارب النجاة .

أما الأمر الأول فهو طريق الضعفاء فضلا عن أنه لا يتضمن جمال الإحساس بالقيام بعمل سام جميل . وأما الأمر الثانى فهو الطريق السوىّ الطبيعى لذوى النفوس العالية ، والإنسانية الواسعة ، وهو الطريق الذى اختاره أندريه مالرو لأبطاله مصوراً حياتهم وطريقة تفكيرهم ، وضروب تضحيتهم وسمو إيمانهم . فنرى (جارين) فى قصة (الفاتحون) و(كيو) فى قصة (الطبيعة الإنسانية) شخصيتين من تلك الشخصيات التى لا تستطيع الخضوع لحياة لا غرض لها إلا قضاء أيام متشابهة مملة . فهما يعانيان ذلك المرض الذى لا يختلف كثيراً عن المرض الذى يسمونه مرض القرن والذى — كما يرى مالرو — هو بالنسبة لفئة من الناس مرض جميع القرون ... إن هذه الدنيا لا تكفيهم . إنها لا قيمة لها إذا لم تمنحهم الفرصة لانفجار كل نواحى الكفاح والنشاط فيهم . إن حياتهم لا مبرر لها ولا قيمة إذا لم يحققوا للانسانية أفكاراً سامية .

ولما كانت كل مصائب المجتمع الحاضر مبعثها الظلم الاجتماعى وعلاجها إيجاد مجتمع بشرى تسوده العدالة الاجتماعية والإخاء الإنسانى . لهذا تعمد مالرو اختيار أبطاله من رجال المثل العليا فى السياسة والاجتماع . فإصلاح المجتمع فى نظره وتسييره فى الطريق الذى تفرضه روح العصر هو الأساس الذى بغيره لا يرجى إصلاح فى العلم أو الفن أو الأدب أو الأخلاق أو غيرها .

كان (جارين) ثائراً على كل شىء . كان ثائراً على المجتمع ، كان ثائراً على الغرب وماديته فهجره إلى الصين حيث اللايين الحاشدة ينشر بينها تعاليمه الاشتراكية ويبين لها حقها فى الحياة . كان ثائراً على الدين لأن الأديان فى نظره كانت دائماً على مر القرون هى الميناء الذى تهدأ عنده ثورة النفوس البشرية ويخمد جموحها . كانت العزاء والملاذ الأخير لكل منكوب (إذ كيف يمكن لمصاب بالبرص — كما يقول — أن يستسلم لمصيره ولا يسمم الآبار التى يقترب منها إذا لم يفض قلبه بالأمل فى حياة ثانية حيث تعوضه العدالة عن مصيبته وينال النعيم الأزلى ؟) .

فجارين يريد أن يعيش واقعياً بكل ما فى هذه الكلمة من معان . إنه يريد أن يحقق الجنة الأرضية لأنه مثالى يؤمن بالمثل العليا ويوقن بامكان تحقيقها بالجهاد والتضحية . إنه يستهين بالمخاطر ويواجه الموت إلى جانب الأحرار الصينيين فى ثورة كنتفرن راضياً مطمئناً . ومثل شخصية جارين نرى شخصية (كيو) وشخصية الطالب (تشن) فى قصة (الطبيعة الإنسانية) . هذين الشابين الصينيين اللذين آمنا إيمان المؤمن بدينه بعدالة قضية الصين فى جهادها التحريرى . هذه الشخصيات الثلاث نراها جميعاً تلقى بنفسها فى ذلك المحيط الثورى بقوة عنيفة ودافع خفى مستعذبين كل تضحية ؛ لأن المثل الأعلى عندهم دين كسائر الأديان ، والدين فى حاجة إلى شهداء . ومن ذلك نرى أن أندريه مالرو لا يعتقد أن هناك فرقاً بين هؤلاء المثاليين وأولئك المتدينين الأوائل الذين كانوا يحطمون الأوثان وأقصى آمالهم فى الحياة أن يتعذبوا من أجل عقيدتهم الدينية . فتصوير هذا النوع الشائع من الشبان المثاليين المتحمسين هو أهم ما يطبع كتب مالرو بطابع القوة والعظمة .

وللقارىء أن يتساءل لم اختار مالرو حوادث قصته (الفاتحون) و (الطبيعة الإنسانية) فى الصين النائية كما ذكرنا . أليس فى بلاد الغرب مجال لظهور هذه الشخصيات ؟ ألم يجد فى غير الصين

مجالا لظهور الأبطال وأعمال البطولة ؟ إن مالرو العالمي التفكير يتتبع النهضات القومية أينما هبت . فكما اشترك بنفسه في كفاح الصينيين القومي مما أوحى إليه كتابة قصتيه هاتين ، كذلك حارب في صفوف الجمهوريين الأسبان كما عرفنا ، وكتب عن الجمهورية الشابة قبل أن تتئدها الرجعية الفاشية كتابه المشهور (الأمل) Espoir (١٩٣٧) . لقد وجد مالرو في هذه البلاد الحية بحركاتها الشعبية مجالا خصباً لذلك النوع من الأبطال الذين اختارهم لقصصه . فهو يرى أن العالم الغربي أصبحت تسوده للأسف الوطنية المتعصبة . فالحدود مغلقة ، والمادية تطغى على كل شيء ، والفردية يلمسها المرء أينما حل . فأوروبا الحاضرة في نظر مالرو لم يعد فيها إلا نوعان من الكفاح : الأول كفاح العالِم الذي يفني السنين في اكتشاف علمي وهذا الأمر ليس في متناول غير العلماء المتخصصين ، والثاني كفاح رجال الأعمال لتكوين الأموال مما صبغ الحياة كلها بالمادية البذيئة التي لا تعرف الرحمة . أما هناك ، هناك في الشرق البعيد حيث ألف بين الناس البؤس المشترك والشقاء العميم ، حيث وحد بين قلوب الملايين الفقيرة الإيمان القوي والقلق العام والحساسية المرهفة ؛ هناك الحقل اليانع لأصحاب المبادئ السامية والمثل العليا الجريئة التي سرعان ما تتشبث بها الجماهير وتتفانى في خدمتها بمجرد إحساسها بأنها طريق الخلاص ، واقفة منها موقف المؤمن بدين جديد جاء ليغير حياته ويبعثه بعثاً جديداً .

* * *

ولقد كانت في الحرب الحاضرة ومحنة فرنسا مادة غزيرة أمام أندريه مالرو لدراسة الشخصية الإنسانية في ظروف جديدة وأماكن غير الأماكن التي وقعت فيها حوادث قصصه السابقة . فكتب كتابه الأخير (أشجار التنبرج) وهو كما ذكرنا الجزء الأول من قصة طويلة في ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) .

و (أشجار التنبرج) عبارة عن ثلاثة أقسام : القسم الأول تقع حوادثه في يونية عام ١٩٤٠ في أحد السجون في بلدة شاتز بفرنسا . وفي القسم الثاني يصف الكاتب حياة والده حتى الحرب العالمية الأولى فنعرف منه أن والده الزاسي المولد بقي في الألزاس حتى عام ١٨٧٠؛ ثم عين مدرساً في جامعة استانبول واختير بعد ذلك مستشاراً للجنرال أنور باشا ، ثم أرسل في مهمة إلى أفغانستان وبعد سنين طويلة في تلك البلاد الشرقية يعود إلى وطنه الألزاس حيث يموت والده (جد الكاتب) بعد وصوله بفترة قصيرة . وفي الألزاس يشترك في (أحاديث التنبرج) وهي أحاديث تدور على موضوعات معينة في كنيسة قديمة حيث يجتمع تحت زعامة عمه (والتر) نخبة من المثقفين والعلماء والأساتذة من مختلف البلدان ، وفي عام ١٩١٥ تقوده الحرب إلى جبهة الفستولا ، حيث يشترك في هجوم بمساعدة الغازات السامة . وهناك يترك المؤلف والده مغشياً عليه في ساحة القتال ؛ منهك القوى أثر المناظر الوحشية التي شاهدها ومن تأثير الغاز . يتركه ليعود إلى نفسه ، وعندئذ يبدأ القسم الثالث من القصة فنرى أنفسنا في عام ١٩٣٩ نصحب المؤلف في سيارته المدرعة حيث يواجه مع رفاقه الموت الحاصد الذي يخرجون منه بأعجوبة فينظرون إلى العالم تحت ضوء فجر جديد لامع ، وبعيون جديدة ، عيون نسيت الماضي ولم تعد تعرف غير الحاضر . وهنا تنتهي قصة (أشجار التنبرج) أول جزء من قصة (الصراع مع الملاك) .

ومنذ بداية هذه القصة أيضاً في ذلك السجن الموحش المعزول عن العالم الخارجي ، نرى أندريه مالرو يعود إلى موضوعه الرئيسي وشاغله الأول في كل ما كتبه وهو (الإنسان) ... اسمعه وهو يقول : (منذ عشر سنوات لا يشغلني ككاتب غير موضوع واحد هو الإنسان . ذلك هو الموضوع الأساسي في فني) . وهذا الشاغل نفسه يتملك والده أيضاً حين يقص علينا مالرو حياته ويروي لنا (مقابلاته) مع الإنسان ، وهي مقابلاته الشخصية مع الموت والقـوة الانسانية والقدر الغامض . يقول والده : (إن اللغز الأكبر ليس في أنه ألقي بنا دون حساب بين المواد المتفجرة الغزيرة وبين الكواكب . بل إننا ونحن في هذا السجن كنا نستمد من أنفسنا صوراً قوية لتكذب واقع حياتنا وهو أننا كائنات لا وجود لها) وهذا اللغز هو ما تريد (أحاديث التنبرج) أن تكشفه . فكل المناقشات تدور حول هذه المسألة . هل يمكن إيجاد تحديد معين لمعنى كلمة إنسان ؟ (إن الإنسان بمعناه الحقيقي ما هو إلا أسطورة . هو حلم في ذهن المفكر) . فما الذي نعرفه عن الإنسان ؟ إننا لا نكاد نعرف شيئاً (فحتى الثقافة لا تعلمنا شيئاً عنه . إنها تعلمنا بكل بساطة ماهية الرجل المثقف بقدر ما هو عليه من ثقافة) إننا نعرف

فقط (أننا لم نخيَّر حين ولادتنا وأننا سوف لا نخيَّر عند موتنا، وأننا لم نختر والدينا، وأننا لا نستطيع شيئاً حيال الزمن، وأن بين كل منا وبين العالم فاصلا معيناً. وعند ما أقول إن كل إنسان يحس بقوة بوجود القدر فأننى أقصد أنه يحس — بحرارة ومن وقت لآخر على الأقل — باستقلال الكون عنه وإهمال المجتمع لشأنه).

هذا الإحساس المرير من جانب الفرد بعزلته فى هذا العالم مما دفعه إلى التعلق بالقدرة والاستعانة بالخيالات والأوهام لتبرير حياته والرضى بما هو فيه من هوان هو فى نظر مالرو نتيجة تفكك الروابط الاجتماعية فى حياتنا الحاضرة وطغيان المادية على كل اعتبار حتى هانت القيم البشرية، وأصبح الاستهتار بكرامة الإنسان وحياته وتضحيتهما هشيما مهلا فى سبيل المآرب الذاتية، أمراً ما أهونه فى هذا العصر الذى سماه أندريه مالرو بحق وأطلقه عنواناً لأحد كتبه الخالدة (عصر الازدراء) للمخلوق البشرى!
Temps de mepris

ما القدَر الذى نصادفه دائماً فى قصص مالرو؟ هو ذلك الملاذ الغامض الذى يلجأ إليه الإنسان حين يحس بوحشته فى هذا العالم وتتوالى المظالم والنكبات عليه دون أن يعرف لها مبرراً أو تفسيرا ... فلكى ننتزع الإنسان من استعباد القدرية ونحرر شخصيته ونرد له اعتباره يجب كما يرى مالرو أن نخلق له مجتمعاً واقعياً تسوده قوانين العلم والمنطق؛ مجتمعاً يحس فيه بوجوده ويدرك بين أحضانه أنه يعمل للمجموع ويعمل المجموع له. وهذا المجتمع لا يتحقق إلا بنظام اجتماعى تسوده العدالة والأخاء البشرى وتبرز فى ظلاله قوى الفرد ونواحى نشاطه لتتسلط بقوة العقل على قوى الطبيعة الغاشمة وتخضعها لخدمة الإنسان بدل أن تخضعه هى لطيشها وعتوها.

وأسلوب مالرو أسلوب حزين، عميق كتفكيره، جامح كفنه الرائع. ذلك الفن الذى يضعه فى مقدمة كتاب العصر التقدميين والذى تنبض أرجاؤه بتلك العالمية الواسعة وذلك الهم الذى يحمله فوق ظهره فى سبيل الأنسانية وخيرها.

على كامل

خواطر مسجوعة:

الصديق...

للأستاذ حامد بدر

الدمعة إن مسها الراحة جفت، والنازلة إن شورك فيها خفت، والطود الذى عظم، ينقص لو قسم؛ وكلنا هدف لنوب الزمان، لم يأخذ أحد لنفسه الأمان!

نشرب الكأس حلوة مَرة، ومَرة مُرة. ومن وجدته فى الضيق، فذلك هو الصديق، وذلك هو الكنز الثمين، والساعد اليمين ...!

الصديق الذى يواسيك، فى مآسيك، ويؤثرك على ذاته، ويقيك بحياته. فإن ظفرت بذلك، ولا إخالك، فاهدم حجة من قال: وجود الوفى محال!

وعندى لا صديق غير هذا الطراز، إلا على سبيل المجاز. فصاحب الصديق المجازىّ على عيبه وداره، وعالجه بإقالة عثاره. وقدر الفضل لأهله وإن قل، ولا تجحد البعض إن لم تنل الكل. وأحسن الظن بالصريح البرىء، وتغاض كرماً عن عيب المسىء؛ فالصاحب إن نقدته فقدته، والعيب إن تفقدته وجدته!

أدعو إلى الصداقة ولا أنهى، وإن كنت طعينا منها! صاحبت أخداناً وخلاناً، وخصصت بالثقة فلاناً، وتوالى الجديدان، وطال الزمان، وزعمت أنى ظفرت من دنياى، بما لم يظفر به سواى، وفاخرت بصديق الصحاب، وجعلته حديثى المستطاب. وكل همى إقامة البرهان، على أنه صفوة الإخوان، وأنه الذى لا يتغير عند انتياب الصروف، ولا يتنكر بتنكر الظروف؛ فإن قيل لا وفىّ قلت كلا، هذا هو المستثنى بالا. ولكنه برغم أنى أعرب، بحجة تقطع شك المريب، على أنه اسم معرب، يتغير بتغير التراكيب!

(الزنكلون) **حامد بدر**

شهادات للاســـلام

من غير المسلمين

للاســـتاذ محمد عبد الوهاب فايد

قال (جول مهل): العرب والرومان أقدر الشعوب فى التشريع:

وقال (الأستاذ نيس) : إن شريعة الحرب والأنظمة العسكرية عند الأسبانيين تأثرت كثيراً بشريعة الحرب عند المسلمين ، كما تأثرت فلسفتهم بفلسفتهم وآدابهم بآدابهم .

وقال (فاندنبرغ) : لقد وضع للرقيق فى الإسلام قواعـد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه الرسول وأتباعه من الشعور الإنسانى النبيل ، ففيها نجد من محامد الإسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها إلى عهـد قريب شعوب تدعى أنها تمشى فى طليعة الحضارة .

وقال(يورغا) : ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع ، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها ، ويأكلون لحوم القتلى فى أيام القحط ، وقد أسرفوا فى القسوة حتى أنهم كانوا يبقرون البطون ويبحثون فى الأمعاء عن الدنانير . أما صلاح الدين فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين ، ووفى لهم كل الوفاء بالشروط المعقودة ، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم ، حتى أن الملك العادل شقيق السلطان أعتق ألف رقيق ، ونودى بأن كل من يخرج من باب معين فى المدينة يكون آمنـاً ، ومنّ على جميع الأرمن ، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيســة ، وأبيح للأميرات والملكة فى مقدمتهن بزيارة أزواجهن . وكان الجنود الذين يصحبون اللواتى أمرن بالجلاء يعطفون عليهن أشد عطف ويواسونهن كل المواساة . ولا يمكن أن يظهر فضل صلاح الدين وكمال خلقه بأحسن من تهديده السفن الإيطالية حتى ترد أولئك البائسين إلى ديارهم وكذلك كانت سيرة الملك الكامل لما أخذ بمخنق الصليبيين فى واقعة دمياط فأحاط بهم النيل وهددتهم المجاعة وإليك ما وصف المسلمين به أحد الذين حضروا الواقعة من مؤرخى النصارى قائلا: هؤلاء الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وإخوتهم وأخواتهم بطرق شتى ... هؤلاء الذين سلبناهم أموالهم وأخرجناهم عراة من منازلهم ، تداركونا وسدوا خلتنا وأطعمونا بعد أن أهلكنا الجوع ، ومازالوا يحسنون إلينا حتى غمرونا ببرهم وإحسانهم لما كنا فى ديارهم وفى قبضـة أيمانهم ، فلو ضاع لأحدنا عير لما أبطأ رده إلى صاحبه .

وقال الأستاذ فارس الخورى :

إن محمداً أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بعد بمثله . والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها ، وإن محمداً أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل الذى دعا الناس إليها باسم الله وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم والحقائق العلمية . إن محمداً أعظم عظماء الأرض سابقهم ولاحقهم ، فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئـذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها .

وقال الأستاذ أيضاً : البون شاسع بين شريعتى موسى ومحمد عليهما السلام ، فالأولى : تأمر بالتقتيل بلا إنذار ولا عهد ولا صلح ولا دعوة لإيمـان ، فلا يقبل من الأعداء اليهود ، ولا يعصمهم من القتل والفناء الإيمان ، خوفاً من الارتداد فيما بعد ، ولا يسمح لهم بالرحيل والجلاء عن بـلادهم لتخلو لليهود الفاتحين ، خوفاً من استجمام القوى والكر على الغاصبين . والثانية : تأمر بدعوتهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا الدعوة عصموا دماءهم وأعراضهم وأموالهم ، وإن أبوا فالجزية ، وإن أبوا فالقتال. وهذه دعوة دينية قبل كل شىء .

وقال أيضاً : المقايسة بين الشرع الإسلامى والشرع الرومانى لا نراها تستقيم لنا بالنظر لاختلاف الهدف والسنة بين الشرعين : الأول منهما قائم على قواعد العدل المطلق ومقتضيات المعقول . والثانى على المصالح والمنافع الدنيوية . فيبنى على هذا التخالف أن الأساس فى الشرع الإسلامى مصلحة الفرد فى الدنيا والآخرة : وفى الشرع الرومانى مصلحة الجماعة فقط . وهذه المبادىء ظاهرة آثارها فى كل صفحة من صفحات هذين الشرعين تفرق بينهما تفريقاً يتعاصى على المزج والتوحيـد ، حتى إن الحكيم يكاد

يستنبط استنباطاً الحكم بالمسائل المعروضة فى كل من الشرعين إذا اعتبر بهذه القواعد ورجع إليها . وفى الأعم الأغلب يكون ظنه يقيناً ؛ مثال ذلك مرور الزمان ، إما أن يسقط الحق وإما أن يسقط الدعوى ؛ فالشرع الإسلامى لا يمكن أن يقول بسقوط الحق لأن الحق يبقى فى الذمة ، والفرد لا تبرأ ذمته إلا بالوفاء أو بالإبراء ، مهما مر من الزمان على الحق ، ولذلك قال إن الحق لا يسقط بتقادم الزمان وإنما يمنع الحاكم من سماع الدعوى . فلم يكتف الشارع الإسلامى بتأمين مصلحة الدنيا بل استهدف مصلحة الآخرة أيضاً ، فى حين أن الشارع الرومانى اتخذ الجانب الآخر وقال إن الحق المتروك يسقط والساقط لا يعود . ولم يكترث بأثقال الذمة وعقاب الآخرة . لذلك ترى أنه ليس من السلامة القول بأن أحد هذين الشرعين مأخوذ عن الآخر . وإذا طالعت أقوال فقهاء الأمتين فى إحدى المسائل تجد كل فئة تعلل اجتهادها بطريقتها الخاصة مراعية المبادىء المتقدم ذكرها ، غير متأثرة بالأساليب وطرق التعليل التى سلكتها الفئة الأخرى .

وقال الأستاذ كذلك : من أين لأمير من أمراء القرون الوسطى غير مأخوذ بالعاطفة الدينية وغير حريص على سلامة آخرته أن يجعل رائده تقوى الله فى حروبه وغزواته ، ويحرص على كل ما ينيله ثواب الخلود والمرتبة العالية فى الجنة بالتزام العدل والرحمة والبعد عما يشوب طهارة النفس وفضائل الأخلاق ؟ ذلك ما نراه شائعاً بين أمراء المسلمين وقوادهم ، وأمثلته كثيرة .

ومن أحسن ما نذكره فى هذا القبيل أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص ومن معه من الأجناد : (ونح منازل جنودك عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم ففوا لهم). ففى هذا الأمر الصريح لا يكتفى أمير المؤمنين ابن الخطاب بالتوصية الحسنة بأهل الصلح والذمة ، بل تجاوز فى الرفق بهم العهود المقطوعة لهم ، وفيها أنهم يضيفون عسكر المسلمين ثلاثة أيام ، أما هو فأمر بتنحية العسكر عن قراهم حتى لا يصابوا بأذى ولا معرة . وفى هذه الفقرة بيان يدلى به هذا الإمام العظيم عن ثقل وطأة الفاتحين على أهل البلاد ، ومرارة نفس الغالب فى عدم الاعتداء على مغلوبه ، فقال لقومه : إنكم ابتليتم بالوفاء بحرمة أهل الصلح وذمتهم ، كما ابتلوا أيضاً بالصبر على تغلبكم وتحكمكم بهم فى بلادهم فعليهم الصبر وعليكم الوفاء .

وقال أيضاً : فى الإسلام كثير من الأمور التى تستوقف نظر المطلع فيعجب عندها من فكرة العدل المجرد الراسخة فى نفوس زعماء العرب وحرصهم على النهج القويم والصراط المستقيم فى أفعالهم وصلاتهم مع محاربيهم ومعاهديهم ، من ذلك الأصول التى وضعت للنبذ عند جوازه ، فإذا فسخوا الصلح وأصبحوا فى حالة حرب لا يناجزون خصومهم إلا بعد إعلامهم بالفسخ ، ومضى الوقت الكافى ليخبر الملك رعاياه فى أطراف البلاد وعند تخوم المسلمين ، حتى إذا هاجمهم هؤلاء لا يكونون مأخوذين على غرة وغفلة . وهذه درجة من الإنصاف قصر عنها أهل زماننا مع ما عندهم من حقوق الدول وقواعد الحرب ، فإن دول العصر الحاضر تبدأ بالهجوم وسائر أعمال الاعتداء حالما تعلن الحرب ، دون أن تكون مجبرة على الانتظار بعد الإعلان ، حتى إن بعضها تهاجم قبل إعلان الحرب بصورة رسمية كما فعلت اليابان بالمدرعات الروسية الراسية فى ميناء سيبول فى كوريا سنة ١٩٠٤ وغير ذلك .

ومن هذا القبيل قاعدة عدم أخذ العامة بجرائر الخاصة ، وهذا مستند للآية الكريمة (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فنهوا عن تحميل المغارم أهل القرى بالجملة لأجل الجرائم التى يقترفها أفراد منهم . وأنت ترى أن حكومات هذا العصر تفرض الغرامات على القرى وتأخذ الطائعين فيها بجريرة العاصين . وأمامنا حوادث التقتيل والتهجير فى القرن العشرين بمرأى أوربة ومسمعها ، وإن شئت فقل برضاها ، تدلنا على أن العرب فى عنفوان دولتهم كانوا أقرب إلى العدل والإنصاف من أكثر أهل هذا الزمان .

وقد شرعوا أيضاً أن خروج الشراذم من المعاهدين واعتداءهم على بلاد المسلمين بغير إذن ملكهم لا يعد نقضاً للعهد ولا يوجب الغرم على الملك المعاهد أو على قومه بصورة عامة . وهذا مبلغ من الإنصاف جدير باحترام أرقى الصور وأعلقها بالإنسانية والعدل .

وما زالت الدول غير خاضعة لهذه القاعدة ولا عاملة بها ، فقد حملت إيطاليا الغرم دولة اليونان بسبب اعتداء بعض اليونانيين على البعثة الإيطالية فى اليابان ، وفرضت عليها غرامة خمسين مليون فرنك مع أشياء أخرى واحتلت جزيرة كورفو ضماناً لإنفاذ

هذه المطالب . وفعلت انكلترا مثل ذلك مع الحكومة المصرية فى مقتل السر لى ستاك باشا فأخذتها بجريمة بعض الشبان .

وجرى فى بلاد الشام حوادث شتى من هذا القبيل فى أثناء الحرب العامة السابقة ، وبعدها فى أيام الثورة ، كما أخذت النمسا حكومة الصرب بجناية اغتيال ولى العهد بيد فتى صربى ، وكان ذلك سبباً مباشراً لاضطرام الحرب الكونية (الماضية) ، وغير ذلك .

ومن المبادىء العربية العالمية اجتناب قتل النساء والأطفال ، وهذا أيضاً تقاصرت عنه المدنية الحديثة فإن وقائع الحرب المالية وحوادث ثورة دمشق سنة ١٩٢٥ و١٩٢٦- وما لا يحصى غيرها من فواجع القتال أدلة ناطقة على أن قواعد حقوق الحرب التى تحظر على المحاربين إطلاق القنابل على الأماكن غير المحصنة لا توجد إلا فى بطون الأوراق والدفاتر .

وقال (هولتز ندورف) و (رينى) : إنه يوجد فى الفقه الإسلامى جميع القواعد الجوهرية التى تتعلق بشريعة الحرب ، ولم تقتصر على الفتح والغنيمة بل تجاوزتها إلى فرض الضرائب وذكر المواد المحرمة على التجارة ونظائرها ، مما لا يختلف إلا اسمه عما يستعمل فى يوم الناس هذا .

وقال (غولد زيهر) : إن معاملة الفاتحين من المسلمين لأصحاب الأديان الأخرى فى هذا العهد الأول الذى وضعت فيه أسس الشرع الإسلامى كانت معاملة رفق ورحمة ، وليست الخطط التى تسير عليها الدول الإسلامية فى هذا العصر مما يقرب فى أخلاقها السياسية من التسامح إلا وهى مقتبسة من القواعد التى وضعت فى النصف الأول من القرن السابع ، ومن إطلاق الحرية لغير المسلمين من الموحدين فى القيام بفروضهم الدينية... وكما أنهم كانوا أحراراً فى دينهم فقد كان على المسلمين أن يحاسنوهم فى شؤون دنياهم ، وعد ظلم أهل الذمة من الذنوب والكبائر .

وقال (المسيو لوران) المؤرخ الفرنسى : إن أرمينية التى سبق لها أن دخلت فى طاعة هرقل ، أحسنت بعد ذلك استقبال المسلمين للتحرر من ربقة بيزنطة ، ولتستعين بهم على مقاتلة الخزر ، فعاملهم العرب معاملة حسنة ، وتركوا لهم أوضاعهم التى ألفوها وساروا عليها .

أما الأساس الشرعى لاستقلال أرمينية المحلى ، فهو عهد أعطاه معاوية سنة ٦٥٣ إلى القائد تيودور رختونى ولجميع أبناء جنسه ، فكانت اضطهادات بيزنطة الدينية دافعاً للأرمن على الدخول فى هذا العقد على عجل والرضا بسيادة العرب الذين هم أكثر تسامحاً من الروم . وهذا الشرط الذى منح لأرمينية انتهى أمره بأن أصبح قاعدة للعلاقات بين العرب وجميع النصارى القاطنين فى الولايات الأرمينية . وقد أعطى به معاوية عهده للأرمن ما داموا راغبين فيه ، ومن جملته ألا يأخذ منهم جزية مدة ثلاث سنين ، ثم يبذلون له بعد ذلك ما شاءوا كما عاهدوه وواثقوه ، وعليهم أن يقوموا بحاجة ١٥ ألف فارس منهم ينفق عليهم من أموال الجزية ، ولا يستدعى هؤلاء الفرسان إلى الشام ولكنه يرسلهم إلى سواها حيث يشاء ، ولا يرسل إلى معاقل أرمينية أمراء ولا قواداً ولا خيلا ولا قضاة ، وإذا أغار عليها الروم أمدها بكل ما تريده من نجدات . وهو يشهد الله على قوله .

فعلى هذا العقد أصبح الأرمن مستقلين فى بلادهم تابعين لسيادة الخليفة العليا ، على شروط ارتضوها ، فاحتفظوا بأمرائهم ورؤسائهم وأوضاعهم العسكرية وطبقاتهم الدينية ، وكان الخليفة يكتب إليهم عهوده كما يكتب إلى أمراء المسلمين ، ويلبس الأمير الجديد فى موكب حافل تاجاً وخلعة فاخرة وسيفاً ويركب فرساً ويقلد كل رسوم الأمارة وشاراتها ، ثم يستعرض الجند فى أحسن هيئاتهم وهم يرتلون الأناشيد ويعزفون بالموسيقا ، ويتلى بعد ذلك عهد الخليفة .

هذا وعلى ما كان يتمتع به أمراء الأرمن من الاستقلال ، فقد كان يشرف عليهم ويراقبهم أمير من لدن الخليفة ، وقد يكون فى الغالب عامل إحدى الولايات المجاورة .

وقال (الدكتور جب) المستشرق الإنجليزى :

لابد للباحث عن مصير الإسلام أن يتساءل عما إذا كان من الممكن أن يحتفظ المسلمون بوحدتهم الدينية أمام هجمات العلوم الأوربية ، وتجاه الفوارق السياسية .

ولا بد له أن يفكر فيما إذا كان الإسلام عدواً للمدنية الغربية أو نصيراً لها ، وفيما إذا كان اقتباس المسلمين لهذه المدنية سيوجد بينهم فوارق فكرية تجعل منهم أمماً مختلفة الآراء والثقافة ؟

يظهر لأول وهلة أن الإجابة على هذا السؤال مستحيلة ، إلا أنه يمكن الباحث أن يتنبأ من سير الحوادث بشىء عن مستقبل الإسلام .

لاشك فى أن البلاد العربية المتجانسة كمصر والجزيرة وسورية والعراق ستلعب دوراً يكون له الشأن الأول فى مصير الإسلام.

لهذه البلاد المتجانسة ثقافة راقية تتقدم يوماً فيوماً بفضل اللغة العربية الفصحى وسهولة المواصلات، مما يساعد على توحيد الثقافة فيها توحيداً تاماً.

إن يقظة الإسلام فى مصر وفلسطين والجزيرة والعراق وسورية حقيقة لا تنكر، ولن تقف فى سبيل هذه اليقظة عقبة، خصوصاً وأن من المستحيل أن يجرى فى البلاد العربية ماجرى فى بلاد الأتراك.

العرب يتمسكون بلغتهم وأدبهم، ويتغنون بمجد الإسلام، ولم تقم فى بلادهم أية حركة وطنية إلا كانت الروح الإسلامية أساسها. فهل يفكر العرب بعد هذا بإبدال حروف لغتهم بالحروف اللاتينية، أو أن يتنحوا عن لغة القرآن التى تربطهم بالعالم الإسلامى كافة؟ هذا مستحيل، وستبقى الروح الإسلامية تسود بلادهم وتتقدم أبداً بلا كلل ولا ملل، ولا يطرأ عليها أى ضعف أو وهن. العرب بحاجة ماسة إلى هذه الروح لأنها أساس حياتهم القومية، ويجب على كل مسلم أن يتمسك بأهدابها إن كان للمسلمين أخلاق ولا أظنهم إلا متمسكين بها.

ستصبح القاهرة والقدس بمرور الزمان فى الدرجة الثانية عند المسلمين بعد مكة، وسيؤمها طلاب العلم من كل قطر إسلامى، وستزودهم هاتان البلدتان بدعاية قوية للفكرة الشرقية يبثونها فى بلادهم، وتساعدهم على بثها الصحافة العربية التى بلغت من الرقى والتهذيب درجة سامية. أما الفوارق السياسية التى يخشى جانبها فلا تؤثر أبداً فى إسلامية الشرق العربى.

وقال مستر بلانت (فى الجزء الثانى من مذكراته) بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٩ كتب إلى برنارد شو يقول: أخشى أننا سنلاقى أوقاتاً عصيبة فى الهند ولكن على الهنود وعلى المصريين أيضاً أن يعملوا على تحقيق حرياتهم، فليس فى وسعنا أن نطلق سراحهم من تلقاء أنفسنا ما لم يتخلصوا هم من بين أيدينا عنوة، وما لم تجابهنا الهزيمة ويتداعى صرح الأمبراطورية فى جهات أخرى، فيضطرنا كل ذلك إلى الخروج من تلك البلاد كما خرج الرومان من بريطانية.

محمد عبد الوهاب فايد

صحائف مطوية :

عمر بن الخطاب الأديب

للشيخ محمد رجب البيومى

أنصف المؤرخون عمر بن الخطاب رضى الله عنه كخليفة عظيم ، فكتبوا عنه الأسفار المتنوعة التى تبرز سياسته الفذة فى حل المعضلات وتوجيه الأمور ، ولكننا لا نجد فصلا واحداً منها تعرض إلى ما كان له رضى الله عنه من ذوق سليم فى نقد الشعر وقدم راسخة فى تفهم مراميه ، مما انتثر فى كتب الأدب عقده ، دون أن يظفر بمن يجمع نظامه فى سلك خاص . وهكذا نجد كثيراً من عظماء التاريخ قد تعددت مواهبهم ، وتشعبت نواحى عبقريتهم فكتب المؤرخون عن أبرز ناحية فى شمائلهم ، تاركين ماعداها فى ذمة النسيان والخمول !

والحق أن عمر رضى الله عنه كان واسع المحفوظ من جيد الكلام ، حتى قال محمد بن سلام الجمحى : « ما عرض لابن الخطاب أمر إلا واستشهد فيه بالشعر » ورجل يملك هذه الثروة الواسعة من القوافى ، لا بد أن يكون ذا ولوع بالمعانى الجيدة ، والأساليب الرائعة ، فهو ينظر فيما يسمعه نظرة الباحث الناقد ، ثم يحفظ ما يروقه ويعجبه ، مستشهداً به فى موضعه ، مثنياً على صاحبه بما يستحق من تقدير .

ولقد كان يقول « أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها فى حاجته ، يستعطف بها قلب الكريم ويستميل فؤاد اللئيم » ويقول أيضاً « الشعر جذل من كلام العرب تسكن به ثائرتهم ، ويطفأ غيظهم ويبلغ به القوم فى ناديهم ، ويعطى به السائل » وفى هذا ما يكشف لنا عن غرامه بالشعر والشعراء ...

وإذا كانت الطيور لا تقع إلا على أشكالها ، فإن أبا حفص قد تفرس فى أصحابه فوجد عبد الله بن عباس يروى القصائد الجيدة وينتقد ما يعرض له من أبيات فقربه واجتباه ، وكثيراً ما اختلى به الساعات الطويلة يتناشدان ويتطارحان ، قال ابن عباس « خرجنا مع ابن الخطاب فى سفر فقال : ألا تزاملون ؟ أنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا فلان زميل فلان ، وأنت يا ابن عباس زميلى ، وكان لى محبا ومقربا ، حتى كان كثير من الناس ينفسون على مكانتى منه فزاملته فأخذ ينشد :

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد

ثم قال : يا ابن عباس ، ألا تنشدنى لشاعر الشعراء ؟ قلت ومن شاعر الشعراء ؟ قال زهير ، فقلت لم صيرته كذلك ؟ قال : «لأنه لا يعاظل بين الكلامين ، ولا يتتبع الوحشى ، ولا يمدح أحدا بغير ما هو فيه » فعمر يفضل زهيراً على من عداه ، مبينا أوجه التفضيل ، وهذه سنة حميدة فى النقد . فلقد كان من قبل عمر من الرواة ، إذا نقدوا شعرا قالوا إنه برود يمنية تطوى وتنشر ، أو قالوا إنه سمط الدهر ، أو قالوا إنه مزاد لا يقطر منه شىء إلى آخر هذه التشبيهات المجملة التى لا تفصل حكما ولا تعلل رأياً ، فجاء عمر فى نقده بالتفصيل الواضح ، والتعليل المقبول .

وليس من الغريب أن يخالف الفاروق ما أجمع عليه كثير من أئمة النقد فى الأدب ، فيفضل زهيراً على امرىء القيس ، لأن عمر ذواقة ، يسبر الشعر بعقله فلا يعجبه منه إلا ما جاء متمشياً مع المنطق السليم ، فكان نبيل الغرض ، رائع الحكمة ، وزهير حكيم فذ يزن الأشياء بميزانها الدقيق ، فلا يفحش فى غزله ، ولا يتعابث فى تصابيه ، بل يسوق الحكمة تلو الحكمة رائعة ساطعة . تجذب إليها كل مفكر حصيف . أما امرؤ القيس فمن المحال أن يرضى عنه عمر ، وجل شعره فى مغازلة الحسان ، ومعاقرة الخمور ، والاسترسال مع الصبوة إلى أبعد شوط ، وهذه أغراض لا يهش لها الحكماء من قادة الرأى وأساطين الفكر كعمر بن الخطاب .

سمع رضى الله عنه مرة قول زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

فأخذ يحرك رأسه فى عجب ويقول فى تبسم : « إنما أراد أن يبين أن مقطع الحقوق يمين أو حكومة أو دية كما جاء به الإسلام

ولقد كان النابغة الذبيانى يلى زهيراً فى المنزلة لدى الفاروق لأن زياداً أقرب إلى زهير منه إلى امرىء القيس ، فقد كان متئد التفكير ، شريف الغرض ؛ وإعجاب عمر به يرجع إلى ما سمعه من أبياته التى تتحد مع أبيات زهير فى المنطق والسداد « اتى عمر

ابن الخطاب وفد غطفان فقال : أى شعرائكم الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

فقالوا النابغة . قال فمن القائل :

فإنك كالليـل الذى هو مـدركى   وإن خلت أن المنتآى عنك واسع

فقالوا النابغة . قال فمن القائل :

أتيتـك عاريا خلقا ثيابى   على وجل تظن بى الظنون

فقالوا النابغة . قال ذلك أشعر شعرائكم » .

وإذن فزهير عنده شاعر الشعراء ، أما النابغة فهو شاعر غطفان! وطبيعى أن يكون عمر مع هذا النظر الثاقب فى الشعر قادرا على أن يلعب به كيف يشاء ، ويوجهه حيث يريد شأن الذين يتبحرون فى مادة من المواد فلا يكتفون بسردها على الوجه المعروف ، بل يذهبون فى تأويلها إلى مدى بعيد ، لا يقدر على تفهمه واستنباطه غير من فهمها فهما دقيقا ، فقد يأتى إليه البيت وهو صريح الدلالة على معنى خاص ، فيستخرج أبو حفص منه معنى آخر كما يبين مما يلى :

كان بنو العجـلان يفخرون بهذا الاسم ، لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قرى الأضياف ، إلى أن هجاهم النجاشى فضجروا وسبوا به ، واستعدوا عليه عمر ، فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا أبشع هجاء ، فقال : ما ذا قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهـل لؤم ورقـة   فعادى بنى العجـلان رهط بن مقبل

فقال عمر : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب ، فقالوا إنه قال :

قبيلته لا يغدرون بذمـة   ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك ، قالوا فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشـية   إذا ورد الوراد آخر منهل

فقال عمر : وما فى ذلك ، هذا أقل للزحام ، قالوا فإنه قال :

تعاف الـكلاب الضاريات لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه ، قالوا فإنه قال :

وما سمى العجلان إلا لقولهم   خذ القعب واحلب أيهـا العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وسيد القوم خادمهم » .

فهذه أبيات كلها سب صريح ولـكن عمر يتصرف فيها كما شاء له افتنانه ، ولقد كان لا يخفى عليه — وهو الباقعة الألمعى — ما تتضمنه من هجو لاذع ، ولـكنه كان كما يقول صاحب العمدة : « يدرأ الحدود بالشبهات » .

ولقد كان الفاروق على علم تام بشعراء عصره يستطلع أخبارهم ويستفسر عن أحوالهم ، وربما ذكر له الشاعر فجعل يسأل عن كنيته ولقبه وأوصافه الجسمية والخلقية وكأنه يريد أن يفهم شعره على ضوء حياته ، قام مرة يصلى الصبح فوجد رجلا قصير القامة أعور متنكباً قوساً ، وبيده هراوة ، فقال له : أنت متمم ابن نويرة ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين . فقال : هكذا وصفت لى ، فأنشدنى مراثيك فى مالك أخيك فأخذ ينشده حتى وصل إلى قوله :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة   من الدهر حتى قيل لن نتصدعا

فلما تفرقنا كأنى ومالكا   على طول وصل لم نبت ليلة معاً

فقال : عمر والله هذا هو التأبين ، ولوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيداً بمثل مارثيت به أخاك ، فقال متمم : لو أن أخى يا أمير المؤمنين مات على ما مات عليه أخوك من الايمان مارثيته ، فقال عمر : ماعزانى أحد عن أخى بمثل ماعزانى به متمم»

ونحن لو فتشنا جميع مراثى متمم هذا ، ما وجدنا أحسن من البيتين اللذين وقف عندهما الفاروق ، وفى ذلك الدليل القوى على سلامة ذوقه ، ودقة شعوره بمعانى الـكلام . ولقد جاء بعد عمر من هام بهذين البيتين من أئمة الأدب فـكتبهما على قبر أخيه

على أن أبا حفص كان ينفعل انفعالا شديداً يظهر أثره فى وجهه حين يسمع شعراً يقال فى مناوأة الدعوة المحمدية فقد أسكت من أنشده شعر أمية بن الصلت فى رثاء قتلى بدر ، وكأنه يربأ بالشعر أن ينحط إلى درجة تجعـله يحيد عن الحق ويميل إلى الباطل . ولطالما توعد من يقول شعراً فى هذا الموضوع البغيض ، حتى إن كراهته لأعداء الرسالة من الشعراء ظلت كامنة فى قلبه برغم إسلامهم بعد ذلك ، فقد كان أبو شجرة بن الخنساء شاعراً مثلها وقد لحق بأهـل الردة وأخذ يقول الشـعر فى تحريضهم على أصحاب محمد وكان مما قاله :

فرويت رُمحى من كتيبة خالد   وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

ولما أخفق فى تحريضه ورأى الناس يرجعون إلى الإسلام رجع إليه صاغراً ، وقبل منه ذلك أبو بكر ، وعفا عنه فيمن عفا عنهم . فلما كانت خلافة عمر ، قال : يا أمير المؤمنين أعطنى فإنى ذو حاجة . فقال عمر : من أنت ؟ فلما عرفه صاح : أى عدو الله ! ألست القائل :

فروّيت رُمحى من كتيبة خالد ... وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

ثم جعل يعلوه بالدرة على رأسه ، فطار عدوا إلى ناقته ، وارتحل عائداً إلى قومه من بنى سليم ، وعمر يكرر البيت فى تهكم واستهزاء .

ولقد كان برغم صرامته فى الحق يعطف على الشعراء المجيدين . وقصة النجاشى السابقة تؤكد لنا هذا المعنى أبلغ تأكيد ، وحسبك أن الحطيئة كان يلقى منه — على سلاطة لسانه وقبح هجوه — كل تسامح محمود ، فقد حبسه عمر رضى الله عنه حين هجا الزبرقان بن بدر فنظم عدة أبيات عاطفية يستميل بها قلبه ومنها :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ ... زغب الحواصل لاماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة ... فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فرق له عمر ، وأطلقه من سجنه ومنحه دراهم كثيرة على ألا يتعرض لهجو المسلمين .

ولقد شاع فى الناس حبه للشعر وتأثره به أيما تأثر فعمد كثير من أصحاب الحاجات إلى عرض مطالبهم عليه فى أسلوب شعرى فكان يردهم أحسن رد ، قال عثمان بن أبى العاص : كنت عند عمر فأتاه شيخ كبير يسمى أمية بن حرثان فأنشده

لمن شيخان قد نشدا كلابا ... كتاب الله لو قبل الكتابا

أناديه فيعرض فى إباء ... فلا وأبى كلاب ما أصابا

فإنك وابتغاء الأجر بعدى ... كباغى الماء يتبع السرابا

تركت أباك مرعشة يداه ... وأمك لا تطيق لها شرابا

إذا غنت حمامة بطن وج ... على بيضاتها ذكرت كلابا

فقال عمر : مم ذاك يا أخا العرب ؟ فقال : هاجر كلاب إلى الشام فى جيش الحرب ، وترك أبوين كبيرين ولا من عائل لهما : فبكى عمر حتى ما تتبين كلامه ثم كتب إلى يزيد بن أبى سفيان فى أن يرحله ، فقدم عليه ، فقال عمر : بر أبويك إلى أن يموتا ؟

وكان لا يطوف فى شارع أو زقاق ويسمع شعراً ينشد إلا وقف يتسمعه حتى ينقطع الصوت ، وله فى ذلك غرائب عجيبة ، سمع أعرابية تنشد :

فمنهن من تسقى بعذب مبرد ... نقاخ فتلكم عند ذلك قرت

ومنهن من تسقى بأخضر آجن ... أجاج ولولا خشية الله فرت

فعلم ما تريد ، وبعث إلى زوجها فوجده متغير الفم ، فخيره بين خمسمائة درهم أو جارية من الفىء ، على أن يطلق زوجته ، فاختار الدراهم وطلقها ، وهذان البيتان لا يدرك مرماهما غير من له بصيرة عمر وذكاؤه ، ولو سمعهما غيره لظنهما شعراً ينشد وكفى ولكن عمر الدقيق يصل إلى المراد بألمعيته المتوقدة .

وطاف ذات ليلة ببعض خيام المدينة فسمع أعرابية تنشد

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه ... وأرقنى أن لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله لا شىء غيره ... لزلزل من هذا السرير جوانبه

وبت ألاهى غير بدع ملعن ... لطيف الحشا لا يجتويه مصاحبه

يلاعبنى طورا وطورا كأنما ... بدا قمر فى ظلمة الليل حاجبه

يسر به من كان يلهو بقربه ... يعاتبنى فى حبه وأعاتبه

فسأل عنها فقيل إن زوجها غائب فى جيش القتال من عام ، فذهب إلى زوجته وسألها كم تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : مائة وعشرين ليلة ، فأمر أن يمكث المتزوج أربعة أشهر ويستبدل به غيره . ولو أردنا أن نستقصى ما ورد عن عمر من هذا القبيل لطال بنا حبل الكلام .

على أن ذوق الأديب يظهر واضحاً فى قوله ، وكذلك ذوق عمر ، فقد كانت عبارته ممتعة ، ورده بارعا ، مر يوم بمنزل أنيق فقال : لمن هذا ؟ فقيل لعامل فلان ، فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها . وتنازع عبد الله وعاصم ابناه ، فسألاه أيهما أفضل من أخيه ، فقال أنتما كحمارى العبادى ، فيل له أى حماريك شر ؟ فقال هذا ثم هذا ! وقال : « الكوفة جمجمة العرب ، وكنز الأمصار ، ورمح الله فى الأرض » وكتب الأدب مملوءة بلآلىء عمر الفريدة فليقتنصها من شاء .

رحم الله الفاروق ، فلقد كان فذا فى سياسته ، فذا فى أخلاقه فذا فى أدبه ونقده ، ولله ما أصدق الحطيئة حين قال فيه :

ما آثروك بها إذ قدموك لها ... لكن لأنفسهم كانت بك الإثر

محمد رجب البيومى

هـلال المحرم

[بين مولد عام، ومأتم عام يجد الشاعر مجالا للتأمل]

للأستاذ طاهر محمد أبو فاشا

عاد بعد النوى وألقى الرحالا   صامتٌ قام يخطبُ الأجيالا
وشهيدٌ على الزمان قديمٌ   كالزمان القديمِ يأبى الزوالا !
وكأن الظلام حَولَ معانيـ   ـه غبارُ الدهور مرَّت ثِقالا
والزمان العجوز .. داهية يَرْ   تجلُ الموتَ والحياةَ ارتجالا .!
والزمان العنيدُ .. أحمق يَرْتا   دُ المنايا، ويركب الأهوالا !
والزمان العجيب أسطورة يَنْـ   ـسجها الوهم للوجود خيالا .

صامت قام يخطب الأجيالا   وَدَّ لو ترجمَ الضياء مقالا
وبوا كيرُ مِنْ سناء تهادَى   كتباشيرَ من رجاء تلالا
خطَّه الغيب في السماوات سطراً   وَهِمَ الناس إذ دَعوهُ هلالا
هو همسٌ في خاطر الكون مشبو   بٌ يقصُّ التاريخَ والأبطالا
هو فنٌّ على السماء، ومعنًى   كالمعاني، وهجرة تتوالى
هو شيء غيرُ الأهاليل، يُوفى   كل عام فيــوقظ الآمالا
خنجرٌ في يد المحرَّم مَسلو   لٌ على عالم يضج خبــالا
قد لواه الطُّعان في لجبِ الدَّهـ   ـر.. وعنف الطعان يلوى النصالا

هيه يا أولَ الطريق من العا   م يميناً فنهتدى .. أم شمالا ؟!
أي شيء صوَّرتَهُ حين صوَّرْ   تَ من النور جابةً وسؤالا ؟
أترانا على الطريق أم انْبَتَّـ   ـت بنا السُّبْل وانتحرنا جدالا ؟
وخرجنا إلى الحياةِ مَشا كيـ   ـلَ يجيدُ النُّواحَ، والإعوالا
ووقفنا من المعاركِ بالوَصْـ   ـفِ، وخُضنا غِمارَها أقوالا
ونَصَبْنا لكلِّ ساع شراكا   وملأنا طريقــه أوحالا
واحتمينا من الحقائق بالجهـ   ـلِ، وسرنا وراءه أشكالا
الذي صار عند قوم حراماً   كان في يومه القريب حلالا !
ضَلَّةٌ للَّجاج يختل قومى   ويريهم أقوالهم أعمالا .
يا هلالا في طلعة العام أطْلُو   بةَ يَسوقُ الأيام وهى كسالى
هات من ذكريات يومك يوماً   يَقرعُ الغافلين، والجهَّالا
وأعِدْ قصة الخلود على العا   لمِ، واضرب فصولَها أمثالا
هي ميراثُ أمة غالَها الخُـ   ـفُ وصاغت من جهلها أغلالا
قصة ترسُمُ البطولة في أحْـ   ـداثها العزم صارماً والنضالا
قصةُ الرأى حين تجحده الأر   ض عناداً من حمقها، أو ضلالا
قصةٌ تُلْهمُ التأمل مَسرا   هُ، وتُضفى على الوجود جلالا
ما نظمت التاريخ فيها : ولكـ   ـنى ضربت التاريخَ فيها مثالا

من ديوان عالمي الصغير...

للأستاذ العوضى الوكيل

١ — حديقة

أقمتُ ببيتٍ ماله من حديقة
يطوِّف «ممدوح» بها «ودسوق»(١)
وقد يُرويان الزرع ريَّى سناها   بشعر كأفياء الخيالِ رقيق
وقد يقطفان الزهر بعد نموه   ويرنو شقيق منهما لشقيق
وقد يخطران الصبح فيها بعشية   تسدُّ إلى هم الحياة طريق !
وقد يجملان العشب فيها مقاعداً   تبا كرها أيدى الندى برحيق

وليديَّ يسرى في عروقى هوا كما   فتخفق بالحب الطهور عروق
وفي مهجتى روض من الحب ناضر
نأى عن رعود للحيا وبُروق
تَهب عليه نسمة من هوا كما   فتخفق في الأكمامِ أىَّ خفوق
فإن تقطفا أزهاره فقصائد
كلمحة «ممدوح» وصوت «دسوق»

٢ — ممدوح والحب

ممدوح مالك تهوى   من البنات، الحسانا
تهفو إلى قبــلات   منهنَّ آنا فآنا
وإن أُتيح عناق   غنمته نشــوانا
إني عهدتك تهوى الـ   تفاحَ والرمانــا
وقد عرفتك تستم   لحُ القدود اللدانا
ترق في القول حتى   ترى حبيبك لانا
هيهات تسلو الغوانى   وإن لقيتَ هوانا

احذر بنيَّ فإن الـ   غرامَ داء عُضالُ
الغيد تفلت منـــه   ويصطليه الرجالُ
فما لهنَّ قلوب   لكن لهنَّ حِبالُ

(١) ممدوح ودسوق ابنا صاحب الديوان .

صداح النيـــل

[مهداة إلى صاحب السعادة الأستاذ عزيز أباظة باشا ، لمناسبة عودته من مصيفه بلبنان]

للأستاذ (ابن محمود)

على النيل صداح الأغاريد ساحر   لعذب أغانيه تحن المزاهر
له فى ظلال الأيك عش منغم   موارده مخضلة والمصادر
يظلل به ما بين غاد ورائح   تماسيه أطياف المنى وتباكر
إذا ما تغنى ردد الطير شدوه   ومالت بأنسام الأصيل الأزاهر
وهدّأت الأمواج فى النهر جريها   يجاذبها من لذة الصوت آسر
ورجعت الشطئان أصداء لحنه   فنى كل شط قينة ومزامر
أشاعر وادى النيل هل أنت سامعى   وهل أنت للشادى المقصر عاذر ؟
أعدت إلى ملك القريض مكانه   فعاد وعدنا بالقريض نفاخر
مضت فترة من بعد شوقى كأنها   على الشعر ليل مظلم الأفق عاكر
تعاجم فيها بالنظيم جماعة   وأثخن فيها بالجراح معاشر
يقولون بالتجديد ، ضعف قريحة   وعجمة أسلوب ، به البى ظاهر
وعندهم التجديد شكوى وآهة   وبَرْح هوى فيه التخنث سافر
فكلهمو فى الشعر مجنون عامر   ولو عاصروه طلق الشعر عاصر

أمير القوافى جبت لبنان زائرا   فهل حل فى لبنان مثلك زائر ؟
كأنى بتلك الشامخات تحركت   للقياك ترحيبا وراحت تسار
وبالأرز قد مال عليك غصونه   كما انسدلت خوف الحرور الستائر
ويارب سفح كالبساط منضر   مشيت عليه وهو بالوشى زاهر
يخصك بالإعجاب حيث تخصه   فما أنتما إلا فؤاد وناظر
يقول أهذا قيس لبنى بعينه   ولبناه ؟ أم حلم على الأرز عابر
فياسعد لبنان ، تملأ قلبه   بقربكما منه وقرت نواظر
رأى الحسب الوضاح يسطع نجمه   مع النسب العالى ، فنعم الأواصر

عزيز ! كتمت الحب ، لكن هاتفا   من القلب نادانى فرحت أجاهر
وما أنا والمدح الذى إن أردته   نهانى علمى أن باعى قاصر
أنابغة الأشعار هل أنت سامع   لشعرى ؟ وهل صدقت أنى شاعر ؟

أنغـــام وأسرار

للشاعر إبراهيم محمد نجا

لمن هذه القطعة الساحره   توقعها روحك الشاعره ؟
وكيف جرت فوق هذا البيان   أنا ملك الحلوة الناضره ؟
وما كنت أعلم يا فتنتى   بأنك مفتنَّة قادره
تُصور بالنغم العبقرىّ   كما ترسم الريشة الماهره !
كأنى أرى مخدعاً للغرام   تقوم به غادة ساهره
مدلهة أسلمت نفسها   لنشوة إحساسها الغامره
تعانق أطياف معشوقها   وتلثم أصداءه الطائره
تضم يديها إلى صدرها   كقديسة برة طاهره
وتهتف فى وَلَهٍ ضارع   وفى لهفة بالجوى زاخره :
ظمئت إلى الحب يا ساحرى   فأين إذن خمرك المائره ؟
وصرت كريحانة تشتكى   بصحرائها وقدة الهاجره
فأنزلْ عليها نداك الرطيب   وأطلعْ لها شمسك الباكره

على وجنتيك شعاع يرف   وفى مقلتيك رُؤى باهره
وثغرك يبسم فى رقة   ولكنها رقة آسره !
وصدرك يهتز مثل الغدير   تداعبه النسمة العابره
وروحك تسبح مثل الفراش   ترفرف فى الليلة النائره
ويغمرنى منك سحر عجيب   به دفء أنفاسك العاطره
وعيناك تخترقان الأثير   إلى جنة بالهوى زاهره
أراك بها جد مسحورة   فيالك مسحورة ساحره !

لقد ذاع سرك يا فتنتى   أذاعته أنغامك الثائره
فلا تحزنى إن سر الهوى   أذاعته أشعارى الحائره
هو الفن يُظهر ما فى الضمير   ويترك أسرارنا سافره !

الجامعة فى النضال

من أجل التقدم الاجتماعى

للأستاذ جوستافو كولونيتى

مدير المجلس القومى للأبحاث العلمية فى روما

[مهدى إلى القائمين على جامعتى فؤاد وفاروق]

إن الذين يشاهدون بقلق وضع أوربا المحزن ، ويتتبعون باهتمام الجهود المضنية التى تبذلها فى سبيل تجديد إنشائها وتعميرها ، ليتساءلون أحياناً عما ينقص القارة فى هذه الآونة .

وأعتقد أنه ينبغى أن نجيب دون تردد أن أهم ما تحتاج إليه أغلب أقطارنا ، إنما هو نخبة جديدة من الرجال يكون بمقدورها قيادة بلادها نحو المستقبل وفى المستقبل .

والواقع أن الطبقة الحاكمة لما قبل الحرب قد أفلست ، فقد حسبت أنها قد لبت حاجة المرء إلى الحرية ضمن نطاق الاقتصاد الحر ، ولكن هذا الاقتصاد أدى إلى مساوئ الرأسمالية الأكثر أنانية والأكثر ضلالة . وقد ظنت أنها قد لبت حاجة الجميع إلى النظام والعدالة ، ولكن ذلك لم يحصل إلا عن طريق دفاع لا هوادة فيه عن الحقوق المزعومة للطبقات المتمتعة بالامتيازات الأمر الذى أدى بصورة مذهبية إلى إعاقة التطور الطبيعى للنظام الاجتماعى نحو توزيع أعدل لخيرات الأرض . وقد خيل إليها أنها قد لبت الحاجة إلى التقدم باستخدام العلم والرقى الفنى كأدوات للقوة والجبروت ، ولكن ظهر فى الوقت المناسب أن العلم والرقى الفنى صالحان لزرع الخراب والموت فحسب

ويبدو الآن هذا الإفلاس جلياً فى ضمير جميع الشعوب ، وأن اللامبالاة التى استسلمت بها الشعوب إلى الطغاة (الديكتاتوريين) ، والتردد الخطر الذى تظهره هذه الشعوب فى محاولاتها تحقيق الرجوع إلى الأشكال الديمقراطية . كل ذلك يعطينا مقياساً عن فقدانها المطلق للثقة فى حكامها السابقين ، وعن حاجتها الماسة إلى رجال جدد . ومن واجب الجامعة تهيئة هؤلاء الرجال وتكوين النخبة الصالحة منهم .

ومن ذلك تبدو لنا المسئولية التى تقع على عاتق الجامعة لأنها لم تعرف فى الماضى كيف تخرج لنا رجالا قادرين على المعرفة والتنبؤ وتدبير الأمور . ونستنتج من ذلك ضرورة تجديد كيان الجامعة وتحملها للمهمة الثقيلة وهى قيادة الإنسانية نحو نظام جديد

وهى فى الحقيقة مهمة ثقيلة الأعباء مفعمة بالمصاعب ، ملأى بكل مجهول ، إذ لا يعنى ذلك إعادة إنشاء ما أصابه التدمير مادياً فحسب ، بل اجتناب الحكم بالتدمير من جديد وبأقرب وقت على ما سنشرع ببنائه . ومن السهل علينا تمييز أسباب الحرب ومسئولياتها ، ولكن لو ذهبنا فى تعمق الأشياء إلى أبعد من ذلك ، لرأينا وجوب التسليم بأن الحرب ما كانت إلا المظهر الخارجى الفاجع لاستحالة استمرار الإنسانية على العيش فى ظروف مادية وعلاقات متبادلة ، ثبت أن العالم قد تخطى العصر الذى وجدت فيه

ولقد تعينت معالم هذا التخطى عن طريق التقدم العلمى والرقى الفنى ، هذا التقدم الذى وضع تحت تصرف الإنسانية كمية فى تضخم مستمر من الثروة لا تستفيد منها إلا بعض الطبقات الاجتماعية

ولكن هذا الحادث لا يزال فى دور التخطيط ؛ فالتقدم العلمى والرقى الفنى سيستمران فى النمو بشكل يزداد على الدوام سرعة ووزناً فى النتائج فى كافة النواحى

ويوشك أن ينهار بنياننا الاجتماعى الذى لم يستطع مقاومة الغزوات الفنية للنصف الأول من هذا القرن ، وستقل مقاومته لصدمة الغزوات الفنية التى ستطبع بلا ريب السنوات القادمة .

ولقد أضحى التقسيم الحالى للبشرية إلى طبقات بالياً ومحكوماً عليه بالزوال وستلغيه فجأة ثورة دامية لا مثيل لها فى التاريخ ، إذا لم نعرف منذ الآن كيف نتغلب عليها بإيجاد نظام جديد تتاح فيه للناس دون ما تمييز فى الطبقات نفس الظروف للتمتع بالخيرات التى وضعها التقدم العلمى والرقى الفنى تحت تصرفنا بمقياس واسع وبشكل دائم الاستمرار

فبإيجاد هذا النظام الجديد ، وصياغته بشكل يتفق واطراد الرقى الفنى إلى حد لا يستطاع تحويله كما جرى غالباً فى الماضى إلى أدوات اضطهاد فى يد فئة قليلة من أصحاب الامتيازات توجهها نحو كتل بشرية محرومة من وسائل الدفاع فاقدة الأمل والاعتراف لجميع البشر ، بحق الاقتسام العادل لخيرات الأرض وإمكانية

مساهمتهم فى التقدم المشترك والتمتع به بصورة مشتركة . هذه هى مهمة الغد العظمى النبيلة الشاقة التى لا تقبل أى تأجيل أو تسويف

واليكم فى الوقت ذاته تحديدا للصورة الجديدة لجامعة الغد : على جامعة الغد أن تكون أول من يبادر إلى تحقيق زوال التفاوت الطبقى ، وذلك بأن تتقبل فى أحضانها كل شاب يتصف بالذكاء وحسن النية ، بهما كانت ظروف أسرته الاقتصادية والاجتماعية ومهما كانت موارده محدودة

ولقد أضحى هذا الاقتراح منذ مدة مكاناً شائعاً ، فنعثر عليه فى برامج مختلف الأحزاب السياسية فى كافة الأقطار ، ولكن علينا ألا نحسب أنه نتيجة مكتسبة ومسلم بها ، فهو على النقيض من ذلك ، نصر لا يمكن إحرازه إلا مقابل أعنف المعارك وأهولها

وفى الحقيقة إن أغلب أولئك الذين يسلمون نظرياً فى كثير من السهولة برأينا لا يقصدون سوى ازدياد قل أو كثر لكرامى الدراسة المجانية التى كان يحسب فيما مضى إمكان حل المشكلة عن طريقها

بيد أن هذه الكرامى المجانية قد أتاحت لعدد من هؤلاء الشباب الخروج بل الهرب من الطبقة العاملة ليأخذوا أمكنتهم بين الطبقة البرجوازية أو الطبقة الحاكمة

وإذا كان من العدل أن نعترف بحسن نية أولئك الذين أسسوا هذه الكرامى الدراسية رغبة منهم فى مساعدة أفضل أبناء الشعب على ارتياد مناهل العلم والتربية ، فينبغى التسليم أيضاً بأن هذه المؤسسات قد ساعدت على تعيين معالم هذا التسابق نحو إحراز شهادة تعتبر كوسيلة وحيدة لبلوغ أعلى الدرجات فى السلم الاجتماعى ، هذا التسابق الذى أفسد بصورة خطرة كل حياتنا الجامعية

فالإكثار من الكرامى الدراسية المجانية يبقى المشكلة الاجتماعية على حالها دون أن يحمل إليها حلا ، إذ ليس القصد توسيع أبواب الدخول إلى الجامعات ، بل انتخاب أولئك الذين يدعون لدخولها وانتخابهم بشكل أوسع وفى محيط اجتماعى أرحب . وهدفنا من ذلك منح إمكانيات أعلى مراتب الثقافة لكل الذين يحوزون من المواهب الفكرية ما يسمح لهم ببلوغها ولهؤلاء فقط

والغرض من ذلك فى الوقت ذاته حمل الرأى العام على تقدير كل شكل آخر من أشكال النشاط المنتج الذى لا تقل حاجة المجتمع إليه عن حاجتها إلى العلماء ، وتوجيه جميع الذين يعتقدون الآن بأن لهم الحق فى الدراسة لا لشىء إلا لكونهم ينتسبون إلى الطبقات المتمتعة بالامتيازات فيجعلون الجامعات مزدحمة بهم ، ليصبحوا فى المستقبل من المتخلفين عن مراتبهم Déclassés ، لا فائدة فيهم لأنفسهم ولا للآخرين ، توجيه هؤلاء نحو هذه الأشكال الأخرى وإعدادهم لها بصورة تدريجية

ولا يمكن بلوغ هذه النتيجة إلا بقلب الوضع الحالى رأساً على عقب ، وهو قلب لا تستطيع تحقيقه إلا الدولة ، وذلك بإدخال الدراسات العليا ضمن نطاق الوظائف الاجتماعية واعتبار النفقات التى تتطلبها بين تلك التى على المجتمع أن يحتمل أعباءها فى سبيل المصلحة العامة

وفى هذا المعنى ينبغى الاعتراف بأن قطراً واحداً قد اقتحم المشكلة بكل اتساعها إلى الآن ، ألا وهو الاتحاد السوفياتى

ولقد كانت التقاليد فى الأقطار الغربية حائلا دون أى تجديد . وسترى عما قريب ما إذا كانت هذه التقاليد التى نعتز بها بحق ، ستعرف أن تكون نقطة الانطلاق لنظام جديد يتلاءم فيه الماضى المجيد مع مقتضيات الوضع الجديد

وليس من شك فى أننا سننجح بهذا الثمن فقط فى الإبقاء على مركزنا على رأس الحركة نحو التقدم الاجتماعى وفى إنقاذ ما تبقى من حضارتنا

وينبغى أن تتجدد الجامعة لا فى انتخاب الطلاب فحسب ، بل فى جهازها الداخلى أيضاً ، وذلك لسببين اثنين يجب التسليم بهما: أولا : لأنها لم تكافح الفاشية دائماً عند ما كان ثمة فسحة فى الوقت لمكافحتها فى المجال المذهبى terrain Doctrinal كمبدأ لا يتلاءم مع أى شكل من أشكال الحياة الفكرية والبحث الحر عن الحقيقة

ثانياً: لأنها بالغت فى تنامى دورها فى تكوين العقول وخلق معنى مسئولية الفكر تجاه الوقائع والتاريخ

لقد كونت الجامعة أساتذة فلقنتهم أغمض أسرار الرق الفنى وفتحت أمامهم مسالك العلم السرية ، ولكنها أغفلت توجيه

انتباههم نحو الخير والشر للذين كان فى مقدور العلم والرقى الفنى دفعهما إلى البشر ، وإفهامهم أنهم مسئولون إلى حد ما عن هذا الخير والشر. ولقد أهملت إفهامهم أيضاً أنه ليس من حقهم التجرد وعدم المبالاة بالروابط التى تربط دراساتهم بحياة البشرية ، وتراخت عن تلقينهم أن جهودهم لا تكون نبيلة ولها ما يبررها إلا إذا كانت تتوخى عيشة أفضل للانسانية جمعاء .

فعلى الجامعة إذن أن تستعيد السيادة على نفسها . عليها أن تضع حداً للتخصص المفرط وتوسع نطاق التعليم الفنى . وعليها أن تبذل عنايتها ، لا فى تخريج علماء وفنيين فحسب ، بل فى تكوين رجال بأوسع معانى الكلمة وأجدرها بالفهم والإنسانية ، رجال لا يبحثون إلا عن الحقيقة ، ويعرفون أنه لا يمكن بلوغها إلا فى جو من الحرية

وسيتخذ النضال ضد الفاشية مكانه ضمن نطاق الحياة الجامعية فوراً وبصورة طبيعية ، لأن الفاشية إذا كانت قد انهزمت عسكرياً فتوارت عن المسرح السياسى مؤقتاً ، فإنها لا تزال تعيش بين ظهرانينا بشكلها المزدوج وهو الكذب وروح الشدة والاقتسار ، فينبغى الاستمرار فى مكافحتها تحت هذا الشكل المزدوج .

أما الجامعة ، فهى المكان الذى يعارض فيه الكذب بالبحث الأمين المجرد عن الحقيقة . الجامعة هى المكان الذى يمكن فيه إلحاق الهزيمة بروح الشدة والاقتسار عن طريق هذه الحرية التى يطالب بها الفكر بالحاح كأعظم النعم الإلهية .

فعلينا إذن أن نعيد فى الجامعة ، إلى الحقيقة والحرية ، الإجلال والقدسية ، وذلك بأن نقصى عنهما كل من قاد زمامهما بالاستسلام إلى الخداع والتهديد أو التضليل

يجب المطالبة والظفر بإكبار الحقيقة وتمجيدها وحتى إعلانها فى الجامعة ولا سيما حين لا تروق فى عيون ذوى السلطان فى الأرض .

يجب أن تكون الجامعة حصناً للحرية ، وعلينا أن نطالب وأن نظفر بعدم التنكر لها فى الجامعة ، وينبغى ألا نضن بالحرية إلا على أولئك الذين يرغبون فى استخدامها من أجل قتلها

وعندئذ تمسى الجامعة هيئة يصبح أعضاؤها ويشعرون شخصياً أساتذة وطلاباً أنهم مسئولون عن الشكل الذى يؤدون به رسالتهم الاجتماعية ، وسيصبحون ويشعرون أنهم أعضاء نخبة ممتازة مدعوة إلى قيادة العالم نحو مصير أفضل، نخبة ممتازة لا تباعد فيما بين أفرادها الحدود السياسية ، وسيكون هذا أولى الصور لهذا المجتمع الدولى الذى سيجنب وحده أوربا كوارث جديدة

وسيكون فى وسع البشر أن يصبحوا أخيراً ، فى عالم حر مغرم بالحرية ، سادة مصائرهم ، وسيكيف التقدم العلمى والرقى الفنى عن ترويعنا ، ويستخدمان عندئذ لجعل الحياة أقل خشونة وجفافاً وأجدر بأن نعيشها .

[عن مجلة L' université] ترجمة
غالب عارف طوقان

من يد ذات سوار

إلى يد ذات سوار ...

لى – ياسيدتى – يدٌ ذات سوار كيدك ، وأناملُ ناعمة نعومةَ أناملك ، ونفسٌ مرهفٌ حسُّها إرهاف حسك . فأما يدى فأصدقُ سعيها أن تصول فى عالم الكتابة وتجول ؛ وأما أناملى فأحبُّ ملمسها أوتارُ قيثارة خالدة توقّع عليها ألحان البيان الرفيع ؛ وأما نفسى ففناية مُتمناها أن تصور مايجيش فى أحنائها تصويراً واضح الفكرة قوى الحبكة رائع الأسلوب ، يبوّئها فى ميدان الأدب مكاناً عليًّا ترنو اليه الأبصار فتهوى اليه القلوب ..

وانى – بلا ريب – لم أبعث إلى « الرسالة الغراء » بمقالى هذا لأفتح لكِ نفسى فتفتحى لى نفسك ، فان لنا فى أرجاء المجتمع الوسيع لَغَناءً عن التعارف على صفحات مجلة حملت – وما انفكت تحمل – مشعل الأدب العربى الصميم ، وسمحت وما برحت تسمح للاقلام الرقيقة الأنيقة ، أقلامنا معشر ذوات الأساور ، أن تقوى وتشتد لنكتب فى بعض أبوابها فصولا من معتصرات أدمغتنا ، بها ندافع عن كرامتنا ان خدشت ، وعن شعورنا ان جرح ، وبها نقيم دعائم نهضتنا حين تنقض فرقا من صواعق الرجعيين الجامدين ، أو هلعا من زلازل المجددين المتطرفين ! .

جميلٌ منك – ياسيدتى – أن تثيرك مقالات الأستاذ « الطنطاوى » الأخيرة فتبعثك على الطمع فى المثول بين يديه مثول التلميذ بين يدى معلمه .

وجميل من « الرسالة » أن ترضى ما صبت اليه نفسك ، فتنشر ماجادت به براعتك ، ليشهد فيه « صاحب الناظرة الهادئة » صورة صادقة التعبير عن الأدب النسائى المتزن بفكره الثاقب ونظره البعيد .

وانه لجميل جدا من الأستاذ « الزيات » صاحب هذه المجلة الغراء أن ينقع غلتى فينشر كلمتى ، ويسمح لى بايضاح فكرتى ، على عجز قلمى وضعف مُنتى ...

غير أنى لا أطمع – ياسيدتى – فى شرف طمعت فيه : فلأنى أبقى طيلة حياتى فى صومعة النسيان أكتب لنفسى فلا يحس بى قريب أو بعيد – أحبُّ إلىَّ من أن تكون لى « دالة خفيفة » أو ثقيلة ، « مشفوعة بالأدب والطواعية » أو غير مشفوعة ، على علم من أعلام الأدب العربى لا أستبعد أن يرى بعينيه النقادتين الحادتين من الضعف فيما أكتب اليه خاصة مالا يراه فيما أكتب إلى الآخرين ، فيحاسبنى فى حاضره حسابا عسيرا على مستقبلى : وإذا نفخة واحدة من نفخات قلمه العاصف – وهو يهتز تأثراً – تذهب بجميع مايستوقده أدبى الناشىء من نار ، وما يحاول أن يرمى به من شرر ، فلا ألقى بعد إلا يأسا فى قرارة النفس عميقاً ، وزهادة بين الضلوع موغلة ، وأستوحش شيئاً فشيئاً من الأدب والأدباء ، ومن الكتابة والكاتبين .

لا . لست متشائمة يا صديقتى . . ولا والله ما أحب أن تتشاءمى من حديثى هذا اليك ؛ فانى لأعلم أنك – بعد أن تقدمت إلى الأستاذ الطنطاوى بمقالك الجرىء الذى أحسنت سبكه وأحكمتِ ربطه ، وعرفتِ بأى لطف وظرف وكياسة تعرضينه – لن تراعى إذا ماجلجلت مقالات الاستاذ من جديد ، فانها إذا خطفت ببرقها بصركِ ، أو أصمّت برعدها سمعك ، لن تزيد فى زلزالها عما تعودت من قوتها وتهدارها ، ولن يهولكِ فيها إذاً آتيها بعد الذى مضى ، ولا مُقبلها بعد الذى خلا ... ولكن ...

إن يكن فى وسع سيدتى أن تصبر على حملات « الطنطاوى » بعد أن تثيره ، فليس فى وسعى ولا أحب أن يكون فى وسعى أن أصبر على حملة من حملاته من غير أن تخضلّ عيناى بدموع من الاخلاص سواكب ، لأنى آمنت بأنه لايحمل إلا إذا كان على حق ، وأيقنت بأن الحدة لاتخرج دفاقة من بين ثنايا مقالاته إلا إذا آلمه الشىء النكر ؛ وأنَّى لمثلى – وهى التى يوشك أن يجرفها التيار كما جرف الكثيرات من قبل – أن تصبر على جراح قلم سِلم للحق ، حرب على النكر ؛ يجاهد فى سبيل الله ولا يخاف لومة لائم ! .

إنى – على إعجابى بما جاء فى مقالك ياصديقتى – لمقتنعة بسداد الأستاذ فى موضوعه (مناظرة هادئة) وما سبقه من الموضوعات فى معناه: إذ مهما يكن الرجل قواما على المرأة ، ومهما يكن حاملا من أوزارها ، فلتقمنّ على عاتقها تبعات كثيرة ، ومسئوليات

جسيمة ، ولاسيما إذا كانت مثقفة ، عالمة بأوضاع الحياة المختلفة وإذاً لاغرابة إذا أرسل الأستاذ « الطنطاوى » شواظاً من نار كلماته الغضبى على سواد المتعلمات اللاتى أهملن رسالاتهن بعد عرفانها ، ونقضن مواثيقهن بعد توكيدها ، فاستحققن من « الطنطاوى » وغيره أن يصفهن بالجمادات الخرساء ولو حملن أعلى الشهادات من بكالوريا ودبلوم وليسانس وماجستير .

لا غرابة فى هذا كله .

ولا غرابة فى أن يناظر الأستاذ أولئك المتعلمات مناظرة (هادئة) رفقاً منه بالقوارير ، وحنانا من لدنه على لابسات الحرير . .

ولكن الغرابة حقاً فى أن تثورى لنا من دوننا جميعاً معشر صاحبات « نون النسوة » فتدافعى عن عدد قليل من المتعلمات تصفينه بالجم الغفير ، وتبرزين من سداد رأيه واستقلال فكره وبعد نظره الشىء الكثير ، حتى لكأنى بك تحسبين أن الطنطاوى جاهل أو متجاهل ذلك العدد القليل الذى غاليت فى تمداحه ، أو أنه كتب مقالاته من قبل أن يدرس نفسيته وأطواره .

عفواً يا أختاه ! .

لقد قلبت الآية فجعلت الكثير قليلا ، والقليل كثيراً .

ألا إن أكثر المتعلمات حظا من الحيوية والنشاط واستقامة المبدأ لأقلهن عدداً . وإن أقل المتعلمات خلاقا من الخير والفضيلة وحسن الاتجاه لأكثرهن سواداً .

ولئن عرفتِ جماً غفيراً من صديقاتك المتعلمات اللاتى يعجبن السامعين بحوارهن ونقاشهن فان أخوف ما أخافه أن يكون حماسك لنا — نحن بنات جنسك — قد بعثك على المغالاة فى نثر المديح ، فانى عرفت مثلك جماً غفيراً من السيدات والفتيات المتعلمات ، لكنى أبيت أن أتخذهن صديقات إلا مارحم ربى ، إذ ألفيتهن إلا قليلا منهن — على كثرة مافى رؤوسهن من المعلومات — يرددن ما يحفظن ترديد الببغاء .

وما أحسبك تنكرين الصلة الوثيقة بين العلم والدين ، وبين الثقافة والفضيلة ، وأنك حين تشايعين الأستاذ على مايقوله فى فتاة العصر من ناحية الدين — والدين كما تعلمين ينبوع الفضائل — فقد شايعتِه على كل ما يلوم عليه أكثر فتيات هذا العصر ، لأن علومهن وفنونهن وآدابهن لاتؤتى أكلها المطلوب ، ولا ثمراتها المنشودة .

إن الأستاذ الطنطاوى لايريد من وراء مقالاته أن يسىء إلى شعورنا معشر الجنس اللطيف ، ولا أن يجرح كرامة المتعلمات وأنصاف المتعلمات بَلْهَ العاميات اللاتى لايفقهن مما يقول حديثاً ، ولكنه — كما فهمتُ من غضون كلماته — يقصد إلى تذكيرنا جميعاً بواجبات طال علينا الأمد فى الغفلة عنها ، فاختار لذلك أعمق الأساليب أثراً ، ليكون فى توالى صيحاته عبرة لمن يخشى .

ألست معى فى أنَّ كثيراً منا بات لايعتبر إلا بالكلام الجارح ، والخطاب الصادع ؟ .

ألستِ معى فى أن أنوثة الكثيرات من المتعلمات فينا قد فقدت غير قليل من جمالها حين استبدلت خشونة مشاركة الرجل فى أعماله بنعومة تدبير المنزل وتربية الأطفال ؟ .

أو لستِ معى أخيراً فى أن ثقافة هؤلاء المتعلمات لم تحل دون تقليد الأجنبيات على عمى ، وأن الرقة فى خطابهن واللطف فى مناقشتهن والهدوء فى مناظرتهن لم تزدهن إلا عشقاً لكل جديد ولو كان فيه الموت ، وهربا من كل قديم ولو كان فيه الحياة ؟

اغفرى لى يا صديقتى إذا قلت : لا سبيل إلى إصلاحنا معشر النساء إلا صرخات مدوية . وغارات متوالية ، تهيب بنا أن نوثق عرى اسلامنا قبل أن تنفصم ، وأن نجدد شباب عروبتنا قبل أن يهرم ، وأن نبث روح الفضيلة فى جيلنا قبل أن يموت ...

فشكراً لك ياسيدى الطنطاوى على نفثات قلمك ... ولتمسك بيدك القوية الثابتة مع أيدى إخوانك من الرجال المخلصين بأيدينا الناعمة المرتبكة ؛ فقد كنتم معشر الرجال وما تزالون أقوى منا بأساً ، وأشد منا ساعداً ، وأثبت منا جناناً ، وأربط منا جأشاً ؛ غير أن الحياة لم تصلح فى عهد من العهود إلا على يدين اثنتين : يد الجنس الخشن ويد الجنس اللطيف .

وأما أنت ياسيدتى ذات السوار فاغتنمى هذه الفرصة التى هيأتها لك بالكتابة مرة أخرى إلى الأستاذ الطنطاوى معتذرة ، واذكرى ما غشت تلك التى استعارت اسمك المستعار .

يد ذات سوار رقم ٢



إلى الأستاذ على الطنطاوى :

لشد ما تتجلى فيما تكتب غيرتك الصادقة على أن تشيع فينا الفضيلة الإسلامية فى أجمل مظاهرها ؛ فالتحلى بحلى الدين خلة شريفة كريمة هى أعز ما نحرص عليه . وليست المسألة يا سيدى أن مصر أو غير مصر أنكرت فضائل دينها عامدة متعمدة ، إنما هى أمراض اجتماعية نريد أن نوفق إلى علاجها ، وليس المجال أن تسألنى : أحرام تكشف الفتاة أم حلال ؟ فما اختلفنا من قبل فى حكمة الله الخالدة ، وليس مناط البحث أننى راض عما أنكرت حتى يصل النقاش إلى هذه المرحلة الخطيرة .

وإنما الأمم حين تتسلط عليها أشعة الحضارة المنسابة من غيرها ممن هى أعلى شأنا وأقوى مُنة تكون فى حالة أقرب إلى الخبل . فإلى أى حد تحتفظ بحضارتها القديمة ، وأى قدر تأخذ من الحضارة الجديدة ؟ هنا تتراقص المغريات العاجلة ، والآراء السطحية وغير السطحية وهذا ما يسمى بدور الانتقال عند الأمم الحديثة حتى إذا ملكت قواها وتماسكت أعصابها عادت إلى رشدها ، وأفاقت من غفلتها .

لقد لفت نظرى فى كلمتك الموجهة إلىّ (ولا نستطيع أن نصدق ، ولو أكدت القول لنا أن فى الدنيا شابا متدفق الشباب يعيش بين بنات ناضجات الأنوثة ... إلى آخر ما قلت) ثم سقت الحديث إلى تصوير المعلمين والتلميذات تصويراً جانبيا ثم بنيت عليه أحكاما عامة ورتبت قضايا خطيرة .

ولا يسعنى إلا أن أستفتى سماحة القاضى : ما قولكم دام فضلكم فى خمسة أو عشرة من الرجال ارتكبوا ذنباً فى مدينة من المدن ، ولم يثبت لدى القاضى ثبوتا قطعياً أن أهل المدينة شاركوهم فى هذا الذنب : أيقول القاضى سدًّا للذرائع : اذهبوا بأهل المدينة جميعاً إلى النار ؟

أما الرجال فى مدارس البنات المصرية فالواقع أن وزارة المعارف تنتقيهم بقدر جهدها من خيرة المعلمين دينا وعقلا وخلقا وهم متزوجون فى غالب الأحيان . والذى بينهم وبين التلميذات هو رسالة العلم وحدها . والرجل مضطر أن يزن سلوكه وحديثه فلو أفلتت منه كلمة تؤول تأويلا سيئاً حذره أخوه فى المدرسة وإلا أكل يوماً كل الثور الأبيض ، وقد اعتادت الرياح أن تنقل كل ما يخالف الواجب والقانون إلى وزارة المعارف ، وأقل ما يلقاه هذا المعلم وأمثاله أن يروا أنفسهم سريعاً فى مدارس البنين الثانية . هذا المعلم وأمثاله يعدهم المعلمون فى مدارس البنات بُلهاً قصار النظر . ومع ذلك فكلما اتسع التعليم العالى للبنات وتخرج العدد الكافى من مدارس المعلمات استغنى عن الرجال على التدريج

واقبل يا سيدى الأستاذ تحياتى وشكرى لهذه الغيرة المحمودة على الدين والأخلاق . والله الهادى إلى سواء السبيل .

حسنين حسن مخلوف
المفتش بوزارة المعارف

جحا قال :

عزيزى المحترم الأستاذ كامل كيلانى :

حظيت اليوم بنسخة من قصص جحا « سارق الحمار » وكنت حظيت من قبل بنسخة من « برميل العسل » وغيرها ؛ ولقد تصفحت الأولى وعاودت قراءتها وقدمتها للصغار من أولادى هدية فإذا الكبار يستولون عليها ويجدون فى قراءتها لذة ومتعة شهدت تباشيرها على أساريرهم وآثارها فى نقاشهم ، وما كدت أدخل عليهم بالثانية حتى هبوا يختطفونها ويتسابقون لبلوغ الأولوية فى الفوز بمطالعتها . ولو شهدت أنت يا سيدى مثل هذا المنظر لكان فيه ما يرضيك ككاتب وفنان وما يرضى كبرياء نفسك كمبدع لهذا النوع من القصص الفكه المظهر والعميق المغزى ، والجزل اللفظ والمتين المبنى . قواك الله وجزاك عن أطفال الجيل أجل الجزاء ؛ إذ أنك بما تكتب تدعم بناء صرح جيل صالح مستنير ، ما أحوجنا — فى إبان نهضتنا هذه — إلى صفاء ذهنه ونقاء معلوماته ونظافة خلقه وطهارة لفظه وعفة نفسه . والسلام

أمين ابراهيم كحيل
مدير الجامعة الشعبية

حول كتاب « دور القرآن فى دمشق » :

تكرم الأستاذ عبد الرحمن محمد عبد الوهاب فدلنى على تراجم بعض الأعلام الذين وردت أسماؤهم فى كتاب دور القرآن ، ولم أعثر على ترجمة لهم فله منى الشكر الخالص .

وألفت نظر الأستاذ إلى ما يلى :

١ — ذكر الأستاذ أن الخضر بن المنير هو الخضر بن كامل بن سالم بن سبيع الدمشقي السروجي المعبر المتوفى سنة ٦٠٨ ثمان وستمائة (شذرات ٥ / ٣٣).

ويعلم الأستاذ أن اسم الخضر قد ورد في كتابي عند الكلام على أن وجيه الدين ابن المنجا — شيخ الحنابلة بدمشق — المولود سنة ثلاثين وستمائة، ٦٣٠ هـ، والمتوفى سنة إحدى وسبعماية، ٧٠١ هـ — (دور القرآن ص ٥١ — شذرات ج ٦ ص ٣) — قد سمع حضوراً من الخضر بن المقير.

فإذا كان ابن المنجا قد ولد سنة ثلاثين وستمائة، فلا يعقل أن يسمع الحديث ممن توفى سنة ثمان وستمائة.

وعلى هذا، فإن الخضر المذكور في دور القرآن، هو غير الذى تفضل الأستاذ بإيراد ترجمته.

٢ — ورد اسم (أبو مسلم الكاتب) خطأ مع الذين لم أهتد إلى تراجمهم. والواقع أنى أوردت ترجمته فى ص ٨٥ من كتابي برقم ٢٠. فمعذرة.

وللكاتب الفاضل أجمل تحية وأصدق شكر.

(دمشق) **صلاح الدين المنجد**

على هامش النقد:

الأستاذ النابغة سيد قطب ناقد من الطراز الأول، وله فكرة خاصة فى النقد أبرزها فى كتابه «التصوير الفنى فى القرآن»، وهو كتاب جدير بالإعجاب والتقدير.

ولعل من ذيول هذه الفكرة ما كتبه أخيراً فى «الرسالة» عن «مواضع النقد». وهو يرى أن ملاحظة الشعور العام هو أهم ما يعنى الناقد فى الآثار الأدبية، وأن الناقد يجب أن ينظر أولا فى صاحب الأثر هل أحس إحساساً صادقاً بالصورة الفنية التى يرسمها، أم أنه لم يحس بها أو أحس إحساساً كاذباً، والذى يدلنا على مدى هذا الإحساس من الصدق أو الكذب أن نتأمل ما يهيجه الأثر الأدبى من الشعور، فإن بعث فى نفس القارىء شعوراً واحداً فصاحبه قد أحس به إحساساً صادقاً، وإن بعث شعورين متناقضين كان إحساس الشاعر أو الكاتب به مزوراً، وضرب لذلك مثلا قول شاعرنا شوقى:

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضًّا سابحات به وأبدين بضا

فالبيت الأول يبعث فى النفس شعور الذعر والخوف، والبيت الثانى يبعث البهجة والانشراح. وقد ذكرت حين انتهيت من مقاله قول الله سبحانه وتعالى «انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون، انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغنى من اللهب، إنها ترمى بشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر، ويل يومئذ للمكذبين» فرأيت أننا لو سايرنا الأستاذ فيما ذهب إليه لغُمّ علينا الأمر فى هذه الآيات، فالجو العام للآيات هو تهديد وإنذار وتخويف، يقذف باللهب؛ ويرمى بالشرر، ولكن التشبيه لا يبعث فى النفس إلا الطمأنينة والهدوء والظل الأبيض الناصع. نعم، إن منظر الجمال الصفر متتابعة مختلطة متحركة فى تموج واضطراب هو هو منظر الشرر، ولكن هذا المنظر لا يبعث فى النفس ولا سيما نفس العربى إلا المسرة والبهجة والشعر والجمال، فالجمل أليف إلى نفسه حبيب إليها، وهو حين يكون أصفر يزيد فى إعجابه وبهجته فهذا اللون من الألوان المحببة، ولذلك جاء فى وصف بقرة بنى إسرائيل أنها «صفراء فاقع لونها تسر الناظرين»

وإنى سائل الأستاذ سيد قطب رأيه فى هذا الجو البيانى؟ ولست أتعجل فأنقض عليه رأيه قبل أن أعرف كيف يذهب فى تطبيق نظريته على مثل هذا وللأستاذ تحياتى وتقديرى.

على العمارى
(المدرس بمعهد القاهرة)



دعوة فى وقتها :

الرسالة الخالدة . . .

بقلم الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا
الأمين العام لجامعة الدول العربية

عرض وتعليق

للاستاذ عبد المنعم خلاف

(تتمة)

أما ثالوث الفساد فهو الغدر والكذب والنفاق ، وقد أصبح اصطناع هذه القباحات فلسفة سياسية خطرة . والغدر غير الخدعة فى الحرب ، فإن الخدعة قدرة أمرها متعارف عليه مباح فى قوانين الحرب بخلاف الغدر فهو خسة وعجز عن المواجهة بالقوة . وهو قبيح حتى بين الأشقياء واللصوص ، والكذب فى السياسة والرياء فيها صارا طابعاً عصرياً يفخر به ساسة هذه العصور المتأخرة منذ أن سن لهم (مكيافللى) طريقته التى ينكرها الإسلام الذى لا يعرف إلا سياسة الوضوح والصدق ، ويرى الكذب والنفاق صفتين أدنأ من الكفر « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار »

فى البحث عن سند روحى للحضارة

فى فصول هذا الباب الستة يتجلى عزام باشا كرائد إنسانى عظيم من الباحثين عن سلام العالم ونظام جديد له ، وهو يقف فى الشرق الأدنى بين العقلية الشرقية والعقلية الغربية حين يحاكم آراء (ويلز) و(سانسكى) فى الغرب و(غاندى) و(نهرو) فى الشرق

وهو يبدأ بالسؤال الآتى : هل الوصاية على الحضارة للأقوى أم للأتقى ؟ ويستقرئ مراحل تاريخ المدنية للاجابة على هذا السؤال فيراها شعلة متنقلة بين الأجناس لم تثبت فى مكان واحد ولا دامت لقوم وحدهم ، مما يدل على أن التاريخ يأبى أن يشهد لقوم دون قوم بالصلاح الذاتى والاختصاص بالقدرة على حمل رسالة الحضارة

وقصور علم الإنسان (أنثروبولوجى) عن إدراك الفروق الروحية بين الأنواع لا يسمح لنا بالاعتماد عليه فى تفضيل قوم على قوم والفروق البدنية لا تكيف الحضارة ، لأن أغلب الأنواع خليط من دماء وأجناس مختلفة قبل الحدود الأخيرة وإنما الحضارة بجميع نتاجها المادى والأدبى أثر للحالات النفسية وغير لازمة للصفات البدنية التى تميز قوماً على قوم . وهذا مصداق للقانون القرآنى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

وتداول العلم والجهل دليل على استعداد مشترك ومتساو للخير والشر ، وهو يشير إلى وحدة الروح وتساويها ، وبعبارة أخرى وحدة القوى الذهنية أو تشابهها . وهذا يكفى لنفى امتياز عنصر على عنصر بصفات ذهنية تجعل لأحدهما رجحاناً دائماً .

ومتى وضح ذلك انهارت الدعاوى العنصرية وانهار معها مبدأ القوة كسند للحضارة . فالقول بالحق للأقوى هو قول يرجح بعض الأقوام على بعض دون سبب طبيعى ، ويبيح استبداد القادرين بالمستضعفين ، وهو أمر تأباه الحقيقة الدينية والشريعة المحمدية خصوصاً كل الإباء ، فهى قد جعلت الناس سواسية ، وجعلت الوصاية للأتقى والأبر

وقيام المدنية ودوامها رهين بالقانون القرآنى « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فما من قوم خرجوا على الدنيا برسالة العمران والعرفان إلا كانوا مهيئين لذلك بإيمان قوى وأدب قوى ودعوة قوية . وذلك الإيمان والأدب والعرف الصالح هو بارود القذيفة تدفع الأمم بقدر ما فيها من قوة واستقامة . وساعة الفصل بين التقدم والتأخر رهينة بحلول السيطرة المادية محل السيطرة الروحية ، حين تغلب شهوات الأبدان شهوات الأرواح ويتغلب الترف الذى يورث أهله الضعف عن حمل أمانات الحضارة

ولا منقذ لهذه الحضارة الحالية من وعيد الله ، إلا أن يرزق الله العالم بقوم خماص البطون يحبون الكفاح للحق كما يحب المترفون المال والمتاع ، ويرثون هذه الحضارة ويردون للدنيا ذلك العقل الضائع والإيمان القوى

ولا بد من وضع نظام جديد للعالم يجعل الوصاية على الحضارة دائماً للأتقى ، ولأجل ذلك يجب أن نتحرر من النظريات القديمة التى كانت موضوعة للعالم قبل أن يضيق نطاقه وتتقارب مسافاته

بسرعة النقل . والمدنية فى رأى (كبلنج) هى النقل . وعلى ذلك يكون الفرق بين عالمنا والعالم القديم هو ما بين سرعة النقل فى العالمين

ويجب أن نراعى فى وضع النظام الجديد فروق السرعة بين ما فى عالمنا وعالم الغد ، فلا نضع نظاماً جامداً بل مرناً يسمح بالتصرف فى الأزمان الآتية ، وهذا يكون بوضع نظام سلبى نمتنع فيه بتاتاً عن تسليط ما بأيدينا من قوى التدمير والتخريب وعن مضاعفة العوامل التى اضطرب لها وجودنا ، ولا أمل فى شيوخ الساسة والعامة ، بل الأمل فى القدرة العليا التى جعلت الحياة الإنسانية مرنة تتكيف بحسب الظروف . ولنؤجل النظم المثالية المجردة ولنبدأ بعمل الواجب قبل المطالبة بالحق ، ولندرب الناشئين على فهم ذلك ، لأنه هو الطريق المجرب فى الاصلاح دائماً ، ولنجعل أعمال الواجب والتضحية هى أعمال الفخر والتقدير ، ولنحول الغرائز ونتسام بها ، ولنصلح الرأسمالية بعد أن تضاعف خطرها باستخدام الآلة التى ضاعفت من مشكلة التعطل ، ولنضح بالاستعمار لنجاة الحضارة ، ولنفهم أن عالمنا واحد لا يتجزأ السلم فيه ، فيجب أن تكون له قيادة عالية مشتركة تتدرج إلى حكومة عالية . وسبيل ذلك أن نوجه النشء إلى أن تكون الحكومة العالية هى أملهم وذلك باتخاذ تربية عالية بجوار التربية القومية وبتعويدهم الغض للمصلحة العالمية العامة .

ويجب أن نتعهد النواة الصالحة فى « هيئة الأمم المتحدة » ونحذر اليأس ونصبر ونصابر حتى تصير هذه الهيئة محكمة حقيقية للأمم تضحى فى سبيل استمرارها وقدرتها كثيراً من حقوق السيادة عن طيب خاطر .

فى انتشار الدعوة

فصول هـذا الباب الأربعة تعتبر ملحقاً بالكتاب يبين تاريخ انتشار الإسلام منذ ظهوره ، والمقصود بهذا الباب هو دفع التهم والأوهام التاريخية فى زعم أن الإسلام انتشر بالسيف والإكراه . ولا بد من إدراك ما فى هذه الفصول كخطوة أولى فى سبيل فهم القوة الذاتية للاسلام ، تلك القوة التى تدفعه إلى الانتشار بما فيه من الحق والصلاح والاقتناع ، لا بالإكراه ولا بقوة السلاح .

وقد بين المؤلف تاريخ انتشار الإسلام فى الوثنيين وانتشاره فى الأمم المسيحية المحيطة بمهده الأول ، وانتشاره فى « الصليبيين » الذين جاءوا لمحوه ومحو أهله فسحر كثيراً منهم وجندهم له .

ثم بين تاريخ انتشاره فى الأمم الأوروبية . وفى كل هذا البيان اعتمد على المراجع الأوروبية المنصفة وعلى الأسانيد والتحليل للعوامل والظروف ، بما جلى تاريخ انتشار الإسلام بالحجة والاقتناع

ختـــام

وقد ختم الكتاب بهذه العبارة التى تناشد الروح الجديدة فى الشرق أن ينهض برسالة الإنقاذ . قال :

« وبعد » فهل يكتب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين تتعلق نفوسهم دائماً برحمة الله وتترقب هداه إذا اشتدت الكروب والظلمات ، أن ينهضوا مرة أخرى بميراثهم السامى الذى يقوم من عوج النزاع الفكرى والاقتصادى والعنصرى ، ويلطف من حدة المزاج الغربى ، حتى يؤمن بالأخوة الإنسانية ويعمل لخدمة السلام العام بإخلاص نية وحسن توجيه ، بما مكن الله له فى الأرض !

ذلك ما نسأل الله رب العالمين أن يعجل بتهيئة أسبابه « إن الله بالناس لرءوف رحيم »

هذا ختام الكتاب ، ولكنه بدء دعوة ستجد من يحملها بقوة وإيمان ، لأنها نداء الحياة والزمان وروح الحضارة العالمية التى اشترك فى حمل شعلتها جميع الأمم ، والحياة الحالية نبوة ! نبوة الطبيعة وقوانينها وحقائق الأشياء وبراهينها فلا تحتمل شكا أو جدلا فى قيمتها ، وإنما تحتاج إلى الفهم والإيمان والإخلاص والعمل لإنقاذ الإنسانية وإنقاذ الحضارة من فلسفات الشك والهدم والمادية الصماء .

عبد المنعم خلاف

ظهرت حديثاً :

الطبعة الجديدة من كتاب :

فى أصول الأدب

للأستاذ

احمد حسن الزيات

فى ٢٤٢ صفحة من القطع المتوسط

يطلب من دار الرسالة

ومن سائر المكاتب الشهيرة وثمنه **٢٥** قرشاً

عدا أجرة البريد

الأستاذ ساطع الحصرى

يقـــدم :

إلى المعلمين والمربين والوالدين والمفكرين

١ — آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية

٢ — آراء وأحاديث فى التربية والتعليم

وهما خلاصة مطالعات ، وزبدة تجارب ، فى ترتيب منطقى ، وأسلوب سهل ، وصورة مشوقة ....

يطلبان من إدارة الرسالة ومن سائر المكاتب الشهيرة

٢٠ قرشاً للأول و **٣٠** قرشاً للثانى

عدا أجرة البريد

سكك حديد الحكومة المصرية

تسيير قطارات درجة أولى فاخرة على خط حلوان

يتشرف المدير العام بأعلان الجمهور أنه بمناسبة موسم الشتاء تسير قطارات فاخرة درجة أولى ما بين باب اللوق وحلوان وتقف بالمعادى فقط اعتباراً من أول ديسمبر سنة ١٩٤٦ فى المواعيد الآتية :

باب اللوق	(قيام)	٠٨ر١٠	١٠ر٠٥	١٣ر١٠	١٨ر١٠
المعادى	»	٠٨ز٢٦	١٠ر٢١	١٣ر٢٦	١٨ر٢٦
حلوان	(وصول)	٠٨ر٤٠	١٠ر٣٥	١٣ر٤٠	١٨ر٤٠
حلوان	(قيام)	٠٩ر٠٠	١٠ر٤٥	١٧ر١٥	١٩ر٠٥
المعادى	»	٠٩ر١٥	١١ر٠٠	١٧ر٣٠	١٩ر٢٠
باب اللوق	(وصول)	٠٩ر٣٠	١١ر١٥	١٧ر٤٥	١٩ر٣٥

العدد ٧٠١ — الاثنين ٩ ديسمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

صفحة

٤٧ ه ٢٧

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 701

Lundi — 9 — 12 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٧٠١ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٥ محرم سنة ١٣٦٦ — ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الأمثال العـــالمية

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتب إلى الأستاذ عبد القادر الكرمانى بحلب خطاباً ينبئنى فيه « أنه يضع كتاباً عن الأمثال العالمية بلغة الضاد ، وينقل إلى لغتنا العزيزة ما وصلت إليه يده من أمثال الأمم الأخرى على اختلاف أجناسها وأصقاعها ، وقد أرهف نفسه للسؤال عن ناحية هامة فى المثل وهى : هل وضع الأمثال مقصور على الأسلاف فقط؟ وهل لنا معشر الخلف أن نضع أمثالا أسوة بمن سبقونا ؟ وإذا جاز وضع الأمثال لناوضربها فى مختلف شئون الحياة فما هى الشروط التى يجب أن تتوافرفيما نود أن نتخذه مثلا ؟ وإذا كان وضع المثل محصوراً فيمن تقدمونا فلم هذا الحصر وما هو الباعث له ؟ وهل اتفقت الأمم جمعاء على السير فى منهاج واحد ؟ أم أن هناك اختلافاً بين شعوب الأرض ؟ ... »

وأقول : إن مكان هذا الكتاب الذى يشتغل به الأستاذ الكرمانى لا يزال ناقصاً فى اللغة العربية ؛ لأنها اللغة الوحيدة فيما نعلم بين لغات الحضارة التى خلت من كتاب جامع لأمثال الأمم أو للأمثال العالمية على حسب موضوعاتها أو على حسب أقوامها ، وهو الموضوع الذى جمعت فيه باللغات الأوربية أسفار ضخام تجمع تلك الأمثال بترتيب أغراضها تارة وبترتيب أقوامها تارة أخرى

وأحسب أن اللغة العربية أحوج إلى هذه المجموعة من اللغات الأوربية ، لأن العرب «سلفيون» يكثرون الرجوع إلى الأمثال ، ولأن الناقلين الأوربيين يخطئون فيما ينقلونه من أمثالهم وينسبونه إلى الأمم الشرقية الأخرى لاشتراك هذه الأمم جميعاً فى الدين وفى أحكام آدابه التى تضرب بها الأمثال . ويبلغ من خطئهم فى هذا أننا رأينا آيات قرآنية وأحاديث نبوية منسوبة إلى الفرب أو إلى الهند لأنها وردت فى أقوال الحكماء والمتصوفة من أبناء الأمم الهندية أو الفارسية ، فإذا اهتم أديب عربى بجمع الأمثال العالمية فهو أحق الناس بتصحيح هذه الأخطاء وتمييز الأمثال الشرقية على حسب الأجناس واللغات . ولا شبهة فى لزوم هذا التمييز ، لأن الخلط بين أمثال العرب والفرس والهند مخالف للواقع من جهة ، ومضلل للباحث فى مقابلات الأمثال من جهة أخرى ؛ إذ لا يخفى أن مسألة الأمثال مسألة « اثنولوجية » لها دلالتها على أطوار الأمم وعاداتها وبواعث تفكيرها ووسائل تعبيرها . فلا يشعر الفارسى بالحقيقة الواحدة كما يشعر بها العربى فى البادية أو الحاضرة ، ولا تقع المقارنة بين الحقيقة كما يعبر عنها المثل العربى والحقيقة كما يعبر عنها المثل الفارسى إلا ظهرت من هذه المقارنة خصائص الأمتين وعادات كلتيهما فى المعيشة وأسلوبهما فى الملاحظة والتعبير ، وقد يكون للمثلين شاهد واحد أو موضع استشهاد

واحد ، ولكن الاختلاف بين الشاهدين هو الذى يدلنا على اختلاف الخصائص والعادات ويفيدنا تلك الفائدة الأثنولوجية التى يبحث عنها علماء الأجناس والسلالات

فكتاب الأستاذ الكرمانى منتظر ومطلوب ومفيد ، ونرجو له التوفيق فى إتمامه على الوجه المنتظر المطلوب الذى تتحقق به فائدة اللغة العربية وفائدة المعرفة الإنسانية على التعميم .

أما سؤال الأستاذ عن حق الخلف فى وضع الأمثال ، فهو كحق السلف فى اعتقادنا بلا اختلاف ، لأن أبناء الجيل الحاضر سلف بالنسبة إلى الأجيال التى تعقبهم وتقتبس من حكمتهم وتجربتهم وتروى ما بقى من آثارهم وأخبارهم ، فإذا تلقى الأعقاب عنهم كلمات صالحة للرواية والاستشهاد ، ودارت هذه الكلمات دورتها على الألسنة كما دارت من قبلها كلمات آبائنا وأجدادنا ، فتلك هى الأمثال يضربها أبناء جيل لأبناء الأجيال ، وذلك هو الحق الوحيد الذى يستند إليه واضع الأمثال .

ولكننى أحسب الأستاذ يسأل عن الأمثال التى يضعها أبناء الجيل الحاضر لأبناء الجيل الحاضر ، ويرى لها موقعاً مختلفاً من موقع الأمثال الموروثة عن الأجيال الغابرة ، وله الحق فيما يراه .

فالأمثال « سلفية » فى طبيعتها ودلالتها ، وقيمة هذه الدلالة آتية من اعتقاد الناس أنها دالة على إجماع التجارب واتفاق العبر بين الغابرين والحاضرين . فإذا حدثت الحادثة اليوم وسمعنا مثلا يلخص لنا الحكم على حادثة مثلها وقعت قبل مئات السنين ونظر الناس إليها يومئذ كما ننظر إليها اليوم ، فهذه هى عبرة الأمثال ، وهذه هى دلالتها لمن يروونها ويستشهدون بها فى مواقعها ، وهذه هى قوة الإقناع التى تستفاد من تجارب السلف ويتخذها الخلف رائداً له فى حوادث الحياة .

لهذا ترجح أمثال الجيل الغابر على أمثال الجيل الحاضر ، فهى حجة القدم واتفاق التجربة دون غيرها ، وهى حجة لا تتاح لأقوال المعاصرين فى زمانهم إلا إذا طال بها العهد حتى توافت علىها العبر وتكررت عليها الشواهد وصح بها الاستدلال

لكن الثقة بالسلف ليست هى الثقة الوحيدة فى مقام الاستشهاد ، ونحن نؤكد الرأى بإسناده إلى زعيم موثوق بعقله وصدقه كما نؤكده بالإسناد إلى الآباء والأجداد .

ولهذا يجوز أن يصدر المثل من الجيل الحاضر للجيل الحاضر ، ويجوز أن ينهض الزعيم الموقر بين قومه فيتخذ له شعاراً يجرى بينهم مجرى الأمثال ويكررونه فى مقام الاستشهاد والاستدلال .

ولا شروط لشيوع المثل تكفل له البقاء على سبيل الحتم والإلزام ، فإن شيوع المثل لا يتأتى بإرادة واضعه ولا بإرادة مروجيه ، وإنما يتأتى بشيوع الحاجة إلى تكراره ارتجالا بغير روية ولا اتفاق ، فتسقط أقوال كثيرة مع بلاغتها ، لأنها لا تخطر على البال فى أعم المناسبات وأدعاها إلى الاعتبار ، وتسرى أقوال كثيرة مع بساطتها لأنها تخطر على البال فى كل مناسبة وتعبر عن « الحالة » فى نفوس قائليها والمستشهدين بها .

ولكن الملحوظ فى جميع الأمثال السارية أنها تجمع بين السهولة والبساطة ودواعى الشعور المشترك بين العديد الأكبر من جملة الطوائف والطبقات ، وإن الحكم للمصادفة فيها أقوى من الحكم للموازنة والاختيار .

وقد تنسب الكلمة إلى زعيم فتشيع لأنها نسبت إليه وهو لم يفه بها ولم يقصد بها قط ما قصده المرددون والمستشهدون ، ومن أمثلة ذلك أن عامة المصريين يقولون فى بعض المناسبات : سعد باشا قال : « مفيش فايدة .. »

وسعد باشا لم يقل هذه الكلمة فى المناسبات التى يريدونها ، وإنما قالها عدلى باشا بالإنجليزية على مسمع من سعد باشا واللورد ملنر فغضب منها سعد وأنكر أن يعدل المتكلمون عن اللغة التى كانوا يتكلمونها إلى اللغة الإنجليزية ليقولوا بها عن مناقشته ما معناه بالعامية : « مفيش فائدة »

إلا أن الكلمة كان لها شأن خطير فى السياسة المصرية ، وعرف عامة المصريين ما كان لها من الأثر فى علاقات الزعماء والعلاقات بين مصر والدولة البريطانية ، ونسوا مناسبتها ولم يذكروا إلا كلمة « مفيش فايدة » ... وإن سعد باشا قالها ونفض يديه من المحادثات الملترية فى ذلك الحين . فسارت مثلا لأنها سجلت « حالة » من حالات زعيم كبير ، وهى حالة قابلة للتكرار فى كل يوم ، فليس أكثر من الحالات التى تنفض منها اليدان ويرفضها المرء مغضباً وهو يقول : « مفيش فايدة ! »

على أن الأجيال تختلف فى المليقة « المثلية » أو فى السليقة

إلى وزارة المعارف :

وعلى هذا فنحن ندور . . .

للأستاذ كامل السيد شاهين

— ٢ —

فإذا طرَّحنا النظر فى منهج التعليم الابتدائى ألفيناه مؤلفاً من : قواعد ، وإنشاء ، ومحفوظات ، وإملاء ، وخط . وبنظرة فاحصة فى كل فرع من هذه ، تنثال علينا مثالب لا نجد إلى ردها سبيلا . ولْنتعقبها فرعاً فرعاً لعلنا نجد من تكشيف هذه العيوب سبيلا إلى الإصلاح ، وعوناً على العلاج

فأما القواعد ، فقد وضعت الوزارة بين أيدى تلاميذ السنة النهائية كتاباً ضاق غلافه — على سمته — بأسماء المؤلفين والمراجعين ، ومع هذا فقد خرج الكتاب غير مناسب لروح التطور التربيبى ، فهو يعقد الباب بعنوان ، ثم يجرى وراء الأمثلة فيجمعها من كل طريق ، مثال من الصحراء ، وآخر من السماء ، وثالث من الحيوان ، غير مراع نسقاً خاصاً ، ولاحافل بانسجام ، ثم يناقش الأمثلة أو بعضها ويخلص إلى القاعدة

وقد كان هذا كافياً وجميلا فى وقت ما ، أما اليوم فلا كفاية فيه ولا جمال ، ذلك بأن التلميذ يتلقى القواعد تلقياً جافاً لا روح فيه فيمجُّها ويملها ، وقد درسنا ولا زال المربون يدرسون أن التربية الصحيحة تُملى أن يكون درس القواعد بسبب من الإنشاء وأن تكوّن الأمثلة مرتبطة موضوعاً ، أو شبه موضوع ، يقوم فى ذهن التلميذ ويتحيز ، ويدرك منه أن هناك رباطاً وثيقاً بين هذه وتلك ، ويفيد من ذلك ترابط المعلومات وتغذية ملكة الإنشاء وطرافة العرض ، ومن ثم فنستطيع أن نقول إن الأسلوب الذى

التى تنشئ الأمثال وتجريها على الأفواه

وربما كان العصر الحاضر من أقل العصور قدرة على تسيير المثل بعد إنشائه ، وأقلها قدرة على إنشائه قبل تسييره

وترجع هذه الخاصة فيه إلى سببين : أحدهما أن توقير السلف فيه ضعيف ، والآخر أنه عصر السرعة — بل العجلة — فلا يصلح من ثم لتدعيم الكلام بالشواهد والأمثال

فأما ضعف التوقير فى عصرنا لكل قديم ، فهو من لوازم الجموح الذى اقترن بالحرية « الشخصية » وخلق لكل فرد من الأفراد اعتداداً بنفسه يخرجه أحياناً عن سلطان الجماعة أو سلطان القبيلة كما عرفوه ووقروه فى الزمن القديم ، ويصرفه عن التماس الشواهد مما قاله الأقدمون ، لأنه لا يتوخى فى أعماله أن توافق آراء الأقدمين ، بل لعله يفخر أحياناً بتعمد المخالفة والشذوذ اغتراراً منه بمعنى المخالفة والشذوذ ، وهو القدرة على التحدى والاستقلال

وأما علاقة السرعة بالأمثال ، فهى ظاهرة من الفرق بين طبيعة الأحاديث التى يسترسل بها المتحدث إلى سوق الشواهد والأمثال ، وبين طبيعة الأحاديث التى يخطفها المتحدث خطفاً ولا يكاد يبدأها حتى ينتقل منها إلى موضوع منقطع عنها ، فإن الجالس فى المنظرة ليقضى السهرة كلها فى قعدة واحدة يستطرد إلى المثل تارة وإلى العبرة تارة أخرى فلا تقع عند السامع موقع الاستغراب ، بل موقع الانتظار والارتقاب

ولكنه إذا جلس فى مرقص الجازبند أو فى رحلة السيارة أو فى القهوة التى تموج بالداخلين والخارجين فآخر ما يخطر على البال أنه يسترسل بالحديث إلى سوق الشواهد وضرب الأمثال .

وتظهر علاقة السرعة بالأمثال فى معرض آخر من معارض العصر الحاضر ، وهو معرض التفرقة بين مناسبات الكلام فى محافل الوعظ والتعليم ومناسبات الكلام فى الصحف والمجالس النيابية وأحاديث المذياع وروايات المسارح والصور المتحركة . فهذه كلها تتجدد لمحة بعد لمحة ولا يأبى اللاحق منها حتى يرخى ذيول النسيان على ما سبق منذ لحظات أو منذ ساعات أو منذ أيام ، وليست معارض الحديث بالأمس على هذا المنوال ، لأنها كانت تتكرر بين الحين والحين ويتسع لها مقام التأمل والاستقرار والترديد .

ولعمرى إنه لسبب آخر من أسباب العناية بجمع الأمثال وتقريبها إلى أبناء الجيل ؛ لأن هذه العناية تستنقذ أثراً من الآثار الماضية يخشى عليه من طيات النسيان الفضفاضة ، وتلقن أبناء الجيل « حالات نفسية » قد تؤدى بهذه العجلة الخاطفة إلى شىء من التؤدة والأناة .

عباس محمود العقاد

اتخذه الكتاب أسلوب لا يسد الحاجة ، ولا يسير طويلا فى طريق التربية الحديثة ، ولا يساعد على تغذية وتنمية ملكة الإنشاء ، ويضرب فى الجفاف والعقم إلى حد بعيد .

فإذا ما ضربنا عن الأسلوب صفحاً ، ورحنا نبحث فى ترتيب المعلومات وتبويبها ، ألفينا الجناية الكبرى التى لا تخص مرحلة دون مرحلة ولا جيلا دون جيل — ذلك بأن القوم فى الأزهر ودار العلوم داروا حول كتاب واحد لا يجدون عنه حِوَلاً ، هو ألفية ابن مالك ، فهم يدرسونه بشرح ابن عقيل ، ثم بأوضح المسالك ، ثم بالأشمونى ؛ ومن ثم نجد أن طابعه قد مثل فى أذهانهم وتبويبه وترتيبه قد استقر فيها ، فتجدهم لا يسيغون طريقة المفصل للزمخشرى ، ولا ينظرون فى كافية ابن الحاجب ، وأهملوا الكتب والأصول شر إهمال ، فلم يدرسوا شيئاً قط من كتاب سيبويه ، ولم يعرفوا شيئاً قط عن مقتضب المبرد ، وكانت عقبى ذلك أن اتجهوا اتجاهاً خاصاً هو اتجاه ابن مالك فى بعض كتبه ، وفاتهم بهذا الإهمال أن يوازنوا بين اتجاهه واتجاه غيره من النحاة فى الترتيب والتبويب ، فذلك عسىٌّ أن يقودهم إلى اختيار أى السبل أهدى وأقوم

وقد جنت هذه المتابعة على تلاميذنا شر جناية ، لأن الأساتذة المؤلفين لم يكلفوا أنفسهم رهقاً ، فلم يبحثوا عن طريق غير الطريق التى رسمها لهم ابن مالك ، ومن يدرى فلعلهم لا يعرفون أن هناك سبيلا آخر يصل بهم إلى هذه الغاية .

ابن مالك — ومن ورائه مؤلفونا الفضلاء — يرسم كتابه على : الكلام وما يتألف منه — ثم المعرب والمبنى — ثم النكرة والمعرفة ، ثم المرفوعات فالمنصوبات فالمجرورات — ثم التوابع .

مسلك الرجل فى الكتاب مسلك من ينظر إلى الصنعة النحوية فقط ، مسلك من يهمه آخر الكلمة رُفع أو نُصب أو جُر ، ولا يهمه تناسق المعانى ، أو افتراقها ، وتنافرها أو انسجامها . حسبه أن هذا الحرف ينصبُ فيجب أن يكون فى باب المنصوبات وأن هذا الحرف يجر ، فيجر إلى باب المخفوض ، وهلم خلطاً ومزجاً والشر فى هذا أكبر من أن يُهوَّن ، فالتلميذ يعرف أن « لن » تنصب ، ويعرف أن « لم » تجزم ويعرف أن « ليس » تنصب الخبر ، وأن « ما » فى النفى لا تعمل شيئاً ، وكذلك « لا » ، ولكنه إذا طُلبَ إليه نفى جملة إسمية أو فعلية ، دار بين هذه جميعها وحار ، أينفى بلن ، أم بلم ... الخ . والجناية على المعانى جد عظيمة ولا تعدلها بحال الجناية على الضبط ، فالذى يقول : لم يتفق المفاوضون ، أخف جرماً من الذى يقول لم المفاوضون متفقون ، وإذن فلا بد أن تكون المعانى مساوقة للاعراب إصبعاً إصبعا فيعقد باب للنفى تجمع فيه أدواته وتبين خواص كل أداة ، وفى ذلك من اللذة والفائدة ما فيه . ولكن طريقة ابن مالك ومتابعيه لا تعبأ بهذا ، بل ترى (لم) فى صندوق الجوازم لأنها تجزم ، و(لن) فى صندوق النواصب لأنها تنصب ، و(ليس) فى صندوق النواسخ ناصبة الخبر ، ولا تعرض لما ، لماذا ؟ لأنها مسكينة فارغة ، متصعلكة لا عمل لها فى اللفظ ، أما أثرها فى المعنى فليس للقوم على بال ، وكذلك « لا » مستضعفة فارغة فلا ذكر لها ولا وجود !

والجناية فى التوكيد مثلها فى النفى ؛ « فإن — المفعول المطلق المؤكد — ونون التوكيد — والتوكيد المعنوى » كلها مبثوثة فى الكتاب ولكنها مختصمة متفرقة أيدى سبأ ، كل منها فى باب ، فتوكيد الجملة الإسمية تجده فى الحروف النواسخ ، وتوكيد الفعل بالإسم تجده فى المفعول المطلق ، وتوكيد الفعل بالحروف تجده فى بناء المضارع وبناء الأمر ، وتوكيد الإسم بالإسم تجده فى التوابع ، فإذا رُمت أن يؤكد لك التلميذ جملة إسمية فقد رميت به فى متاهة لأنك بذكر لفظ « التوكيد » قد صرفت ذهنه كله إلى الباب المعقود للتوكيد ، وليس فيه إلا الألفاظ التوابع وهى من الضآلة فى العربية ما هى .

تلك جناية اللفتة السقيمة إلى آخر الكلمة ، تفرق ما بين اللِّفق ولفقه ، وتصيب عقل الوليد بالالتواء والتشويش .

لابد أن نعقد أبواب النحو على طريقة أخرى تتوخى فيها المعانى ، فنعقد باباً للتوكيد ، وباباً للنفى ، وباباً للربط ، وباباً للطلب . أمره . ونهيه . واستفهامه . ودعائه . وتمنيه ، وهلم جرا ؛ فذلك أعود بالفائدة وأقرب إلى أن تكون الدراسة ممتعة شائقة غير جافة غثة باردة تعلق نظر الغلام بآخر الكلمة لا يعدوه .

وقد رأيت أن متابعة طريقة ابن مالك قد عادت على المؤلفين بوضع أبواب لا فائدة من دراستها فى المرحلة الابتدائية ، ذلك

بأن مَحَط الخطأ إنما هو الإعراب ، أما المبنى فهو بعيد عن مجال الخطأ كل البعد ، وقد جاءت الحروف مبنية ، والأفعال كذلك ، ونصبُ المضارع وجزمه سَهل التدبير ، فإن أدواتهما معدودة محدودة ، ومدار الخطأ إنما هو فى معرب الأسماء التى يتلون آخرها بالضم والكسر والفتح ، والذى يتولى كِبرَ الضلال من هذه الأحوال إنما هو الفتح ، فأما الضم فإنه يدور حول محور واحد وهو الإسناد ، فإسناد الإسم أو الإسناد إليه مقتض رفعه ، لايخرجه عن ذلك إلا ناسخ ، وأما الجر فإنه يكون بحرف أو إضافة — فإذا حُدِّدَ الإسم المرفوع وذلك هين ، والمجرور وهو أهون ، فما بقى من اسم فهو منصوب لايكون إلا كذلك ، فأما أنه منصوب على المفعولية أو الحالية ، فذلك مما لايعنى مادمت أحرص على النطق السليم الصحيح ، فأنا أبيح التلميذ أن ينصب الإسم متى ظهر أنه ليس مسنداً إليه ولا مسنداً ، ولا مستحقاً للجر بالإضافة أو الحرف ، وليس فى الناس من يقول إن التلميذ لا يفهم معنى « عاد التلميذ مصاباً » حتى يعرف أن مصابا حال ، فحسبه إذن أن يقول إنها فضلة . وبذلك وحده نكون قد اختصرنا ثلث النحو ، ونستطيع أن نستغل الفراغ فى نواحى أخر أجدى وأعود بالفائدة . وبذلك نكون قد خففنا من هول هذا الشبح المفزع الذى يتراءى للتلميذ فى يقظته ويَرُوعه فى منامه ، وهو شبح القواعد .

ولست أزعم أننى مبدع هذا النسق من الدراسة والاختصار فقد سبق إليه الأستاذ ابراهيم مصطفى فى كتابه « إحياء النحو » ولكنه واضيعتاه لم يجر عليه فى كتب صغار التلاميذ التى هو أحدُ أحدَ عشر كوكباً رَقَّشوا غلافها بأعلامهم الكريمة !

وهنا نترك أمر التبويب والترتيب والاختصار والحشو ، إلى أمر آخر أقذى فى العين ، وأشجى للنفس ، فإن الكتاب كثيرا ما يغفل عن المقرر إلى أى حد وقف ، وعن التلميذ إلى أى مدى درس ، فيطلب منه أعراب شىء ما عرفه بعد ، فيقف التلميذ حائرا مبهوتاً دهشاً ، أو يجتازه على ضرب من الحدس والتخمين ، وما شر من ذلك إلا هذا ، فأما المعلم فإنه يبيت — من رحمته بتلميذه وإشفاقه عليه — قلق الجنبين غير مُوَسَّد ! .

خذ مثلا : مطالبته فى آخر تمرين على الضمائر بإعراب الجملة « إننا سَلَّمْنا على القادمين » على حين أن التلميذ لم يعرف بعد أن من الخبر ما هو جملة ، وبينه وبين معرفة ذلك مدى طويل ، فالله أنشدكم ماذا يقول المدرس ؟ وكيف يتخلص من أسئلة تصوب إليه فى حرص وقوة ؟ وكيف فات ذلك المؤلفين الستة والمراجعين السبعة ؟

وخذ مثلا آخر : مطالبته بإعراب : « أمسى القانع وهو مغتبط » آخر باب الحال ، وأمسى هنا دائرة بين التمام والجملة بعدها حال ، أو النقصان والواو زائدة كما قالوا فى « فأمسى وهو عريان » فأى البابين أفتح على التلميذ الغض ، باب تمام أمسى ، وهو لا يطيقه ، أم باب زيادة الواو ، وهو لا يسيغه ؟ على أن الواضع — عفا الله عنه — إنما قصد إلى الأول لأنه ذَيَّل بهذا المثال باب الحال . واللجوء إليه يصدم عقول الأطفال الصدمة المضللة بين الناقص والتام ، ويفتح عليهم بابا من التخليط ليس له رتاج !

وبينما تجد الكتاب فى تطبيقاته يحاور التلميذ محاورة اللغز المحاجى ، تجده يقف عند بعض الأمثلة فى بابين متباعدين لا يعدوهما ، فهو يمثل فى باب الحال ، لشبه الجملة بقوله « وزنت القطن فى غِرارة » فإذا عددت خمسة أبواب بعدها تقع فى نحو خمس عشرة ورقة ، وجدته يمثل فى باب النعت ، لشبه الجملة بقوله : « رأيت قطنا فى غرارة » يا لله ، أضاق الأفق عن كل شىء إلا عن القطن والغرارة ، يحيرهما بين باب الحال وباب النعت ؟ ولو أن الواضع أجرى موازنة بين المثالين فى البابين لقلنا حكمة حكيمة ، ولكن الذى اضطره إلى ذلك الكسل العقلى ، ولا نقول الإجداب العقلى ، فذلك ما لا نرضاه وصفاً للجلة الفضلاء .

وبعد : أفأنتم مصرون بَعْدُ على أن نذوق غصص هذا الكتاب وهذا المنهج ؟ إن كان ذلك فحسبكم الله على ما فرطتم فى جنب التلاميذ ، والأساتيذ ! ولى عودة فى نقد المطالعة والمحفوظات إذا شاء الله .

كامل السيد شاهين
المدرس بالمدارس الأميرية

تجار الأدب . . .

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

لا نقصد أولئك الذين يبيعون الكتب ناشرين أو وراقين ، بل نعنى أولئك الذين يتصدون للآداب والعلوم والفنون والفلسفة فيؤلفون فيها ، ويطلعون على الجمهور بثمرة قرائحهم ، لا يخدمون بذلك أدباً ولا يفيدون علماً ، بل يطلبون ربحا ويطمعون فى ثروة فجعلوا من الأدب تجارة ، وأنزلوا العلم منزلة السلع الرخيصة .

ومن سوء الحظ أن هذه الظاهرة صحبت الحرب الأخيرة منذ بدايتها ، إذ انقطعت أسباب الحصول على الورق ، وتسنى لهؤلاء القوم بأساليب لا تمت إلى الشرف بصلة أن يحصلوا على الورق اللازم للطبع ، ووجدوا المطابع متعطشة فدفعوا إليها بهذه الثمار الفجة ، وخرجت إلى السوق هذه الكتب العجيبة . ليس فيها أثر من جهد أو بارقة من تفكير ، وإنما هى ألفاظ مرصوصة يسود بها أصحابها صحائف الورق ، ويملأون دفتى الكتب .

وكيف تريد أن يكون الأمر غير ذلك ، وبعض هذه الطائفة يخرج فى كل شهر كتاباً ، لو أنفق فيه عالم يمتاز بالضمير ويتصف بالتثبت أعواماً لوجد أنه فى حاجة إلى مزيد من الأعوام .

سئل أحد الناشرين : كيف تطبع لفلان ؟ فقال : « إن الجمهور يقبل عليها كما يقبل على الفول السودانى » وهو تشبيه يقصد به إلى المدح والذم على السواء . ولعله كان يرمى إلى التحقير فما عهدنا أن الكتب توصف بالتشبيهات المادية القليلة الشأن .

ولقد مضى زمن الحرب الذى انقلبت فيه الأوضاع ، فعادت سوق الأدب إلى سابق حريتها ، ووجد الفضلاء سبيلهم إلى المطابع بالطرق الكريمة التى لا تنافى الذوق أو الشرف ، فانكشف أمر أولئك القوم وباءت كتبهم بالخسران ، وزحمت رفوف الوراقين وأكبر الظن أن مصيرها سوف يكون إلى باعة « الفول السودانى » يلفون فيها بضاعتهم فى « القراطيس » .

ولعلك تعجب معى وتسأل عن السر فى بضاعة القوم كيف يتسنى لهم التأليف فى كل شهر ، وهل اتسعت مداركهم ، وسمت عقولهم ، وارتقى تفكيرهم إلى الحد الذى يسمح لهم بتسويد صحائف كتاب جديد كلما طلع الهلال الجديد .

إنهم يفعلون أحد أمرين : الأول السطو على بعض الكتب الأجنبية ، ثم نقل فكرتها نقلاً خاطئا ، ثم ينسبون الكتاب إلى أنفسهم زوراً وبهتاناً . وهذه المسألة تعرف بالسرقة الأدبية . وهؤلاء هم لصوص الأدب . يريدون أن يقول الناس عنهم إنهم من كبار المؤلفين الذين يُرْجع إليهم ، وهى نزعة تخلو من الأمانة على كلا الحالين ، فهم غير أمناء فى نسبة موضوع إلى أنفسهم وحقيقته لغيرهم ، وغير أمناء فى نقل الفكر ، ولو كانوا قادرين على النقل وحسن التعريب لأعلنوا ذلك .

والأمر الثانى أن يتجهوا إلى الترجمة الصريحة ، وقد زادت هذه الحركة فى الأيام الأخيرة ولكننا نرى المتصدين لها ، أو أغلبهم ، لا يحسنون التصرف ولا يجيدون التعريب ، لقلة خبرتهم ، ونقص علمهم بالموضوع ، وعجزهم فى كلتا اللغتين الأجنبية التى ينقلون عنها ، والعربية التى ينقلون إليها .

ولكنه بريق الكسب يستهوى هؤلاء وأولئك فيدفعهم إلى التسرع ، والسرعة كما قال الزيات فى مطلع كتابه « دفاع عن البلاغة » إحدى آفاتها . وهى لعمرى إن كانت مزية الحضارة الحديثة فهى آفة الإنتاج الجيد فى كل شىء ، ماديا كان أم معنويا ، وهى فى الآثار العلمية والأدبية أخطر .

كنا فى صدر الشباب نحضر العلم فى الجامعة المصرية على أستاذنا الدكتور منصور فهمى ، ومن أقواله المأثورة التى لا يزال طلابه يحفظونها عنه ويروونها فى المناسبات « اطلبوا العلم للعلم » وكان بعضنا يتحدث إليه فى وجوب السعى لدى أولى الأمر فى الحكومة ليفسحوا المجال للخريجين فى الجامعة والحاصلين على إجازة كلية الآداب فى وظائف الدولة ، فكان يرد عليهم بقولته المأثورة « اطلبوا العلم للعلم » . وما كنا فى ذلك الوقت نحسن تفسير هذا الكلام أو نفهم مراميه البعيدة . هل يطلب العلم للعلم وهل يفضل أحدنا العلم على المال ؟ وهل يغنى العلم وحده فى سد مطالب الحياة ؟

لا نقول إن العلم سبيل الحصول على المال ، ولو عكسنا القضية لصح المقال ، إذ الواقع من التاريخ أن المال كان غذاء العلم ، ولقد

عاش العلماء فى قديم الزمان على بذل الملوك والأمراء والأغنياء وما كانوا ينفقونه عن سعة فى سبيل العلم ، وأوقاف الأغنياء المحبوسة على مصلحة العلم والعلماء خير شاهد على ذلك . وكان العلماء من جهتهم زاهدين لا يحفلون بملبس أو مشرب أو مأ كل لأن همهم كله منصرف إلى طلب العلم ولذتهم فى تحصيله . وكانت أيديهم تزخر فى بعض الأحيان بالمال فينفقونه فى أوجه الخير والبر .

الخلاف إذن فى الغاية ، هل العلم غاية فى ذاته تطلب لذاتها أم وسيلة لغاية أخرى هى المال ؟

ولا مراء فى أن التضحية بالعلم والأدب فى سبيل الأهداف المادية هو الإنحطاط والإسفاف ، ومَن كانت غايته الثروة فليطلبها فى تجارة السلع المختلفة فهى أكثر للمال إدراراً . ولقد حكى أرسطو فى كتاب السياسة أن أحد فلاسفة اليونان الأقدمين عيّره القوم بقلة ذات اليد والانصراف عن الدنيا ، فاعتزم فى نفسه أمراً ، فذهب فى الشتاء إلى أصحاب المعاصر واستأجرها منهم بأجر زهيد ، فقالوا : هذا مجنون ماذا يفعل بالمعاصر فى هذا الوقت وليس لها عمل ؟ فلما جاء الصيف ، وأراد الزراع عصر العنب لاستخراج النبيذ ، طلب منهم أجرة مضاعفة ، ولم يسعهم إلا الدفع لأنه كان قد احتكر جميع المعاصر . وأثرى من هذا الأمر ثروة كبيرة ، فأثبت للقوم أن الفلاسفة لو أرادوا المال لحصلوا عليه ، ولكن بغير طريق الفلسفة !

والسؤال الآن : هل نترك هذه الطائفة أحراراً فى أعمالهم يسيئون إلى العلم والأدب ، ويفسدون الذوق ، ويُشيعون الخطأ ، ويذيعون الباطل ، أم يوكل أمر الكتب إلى هيئة تميز بين الغث والسمين والصحيح والفاسد فلا تجيز إلا الصالح ؟

يقول قوم نحن فى عصر الديمقراطية وأساسها الحرية وعلى الخصوص حرية الرأى والفكر ، فكيف تريد أن تحد من هذه الحرية التى ناضلت البشرية فى سبيلها أجيالاً طويلة ؟ إنكم لو فعلتم ذلك ، لرددتم الإنسانية إلى أظلم عصورها وأحلك أزمنتها ، يوم كان عقاب الأحرار أن تحرق كتبهم ويلقى أصحابها فى غياهب السجون .

والقياس هنا مع الفارق ، لأن فلاسفة القرون الوسطى كانوا يطلعون على الناس بثمرة أفكار جديدة ينتقدون فيها الآراء الشائعة من قديم الزمان ، أما مؤلفو مصر فى هذا الزمان ، فإنهم لا يفكرون تفكيرا جديداً ، ولا ينتقدون قديما ، ولا يبتدعون كشوفاً حديثة ، بل ينسخون كتب غيرهم ويغيرون عليها .

مهما يكن من شىء ، فأنا من أنصار الديمقراطية والحرية ، ولا أحب أن أحجر على فكر الناس ، ولا على الطريقة التى يذيعون بها أفكارهم ، ولكن من واجب الناقدين أن يبصروا الجمهور بحقيقة ما يظهر من تآليف ، وقد كثر عندنا المتعلمون الذين يحسنون تقدير المؤلفين ... فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

أحمد فؤاد الأهوانى

لمحات قضائية
فى قتل عثمان

للاستاذ عبد المتعال الصعيدي

هذه لمحات جديدة فى قتل عثمان من ناحيته القضائية ، تضع الحق فى نصابه ، وتبين هل كان فى قتـله قصاص أولا ، وهل سلك المطالبون بدمه الطريق المشروع له أولا ، كما تبين كيف سكتوا عن ذلك بعد أن صار أمر المسلمين بيدهم .

فأما عن الأمر الأول فإن الثائرين على عثمان رأوا أن يأخذوه غيلة بعد أن طال حصارهم له ، فتسوّروا داره من دار مجاورة لها ، ونزل عليه جماعة منهم فيهم محمد بن أبى بكر ، ولم يكن عنده إلا زوجه نائلة بنت الفرافصة ، لأن أهله ومواليه كانوا يشتغلون بالدفاع عنه أمام باب داره ، فدخل عليه محمد بن أبى بكر فأخذ بلحيته ، فقال له : يا محمد ! والله لو رآك أبوك لساءه مكانك . فتراخت يد محمد حين سمع هذا من عثمان ، وخرج عنه ولم يفعل به شيئاً ، فلما خرج دخل عليه رجلان من الذين تسوّروا داره فقتلاه ثم خرجا .

فصعدت زوجه نائلة بعد خروجهما وصرخت : قتل أمير المؤمنين . فدخل من كان يدافع عنه فوجدوه قد فاضت نفسه ، ولم يمكنهم أن يسألوه عمن قتله .

فانحصر شهود قتله فى زوجه نائلة ، وقد قام على بن أبى طالب بالتحقيق فى ذلك عقب وقوعه ، فذهب إلى نائلة وقال لها : من قتله وأنت كنت معه ؟ فقالت : دخل إليه رجلان ، وقصت خبر محمد بن أبى بكر .

فأحضر على محمداً وسأله عن ذلك ، فلم ينكر محمد ما قالت نائلة ، وقال : والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله ، فلما خاطبنى بما قال خرجت ، ولا أعلم بتخلف الرجلين عنى ، والله ما كان لى فى قتله سبب ، ولقد قتل وأنا لا أعلم قتله .

وقد انتهى تحقيق على فى قتل عثمان بذلك ، فلم تعرف فيه نائلة ممن دخل على عثمان إلا محمد بن أبى بكر ، ولكنها لم تشهد بأنها رأته يقتله ، بل ظاهر شهادتها أن قتله كان بيد ذينك الرجلين اللذين لم تعرفهما ، وحينئذ يكون قاتله مجهولا ، وإذا كان قاتله مجهولا فإنه لا يكون فى قتله قصاص ، بل يكون نصيب قضيته أن تحفظ إلى أن يظهر قاتله ، كما يفعل الآن فى كل جناية لا يوجد شهود لها ، ولا يصح أن يؤخذ محمد بن أبى بكر فيها بشىء ، لأنه عزم ولم يفعل ، والعزم لا يؤاخذ عليه فى الشريعة الإسلامية ولا فى غيرها من الشرائع .

وأما عن الأمر الثانى فإنه لما بويع على بالخلافة طالبه طلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام ومعاوية بن أبى سفيان وعائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم بدم عثمان ، ولكنهم لم يطلبوا ذلك بالطرق السلمية المشروعة فى القضايا ، بل ذهب طلحة والزبير فى عدة من الصحابة إلى على فقالوا له : يا على ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هـذا الرجل ، وأحلُّوا بأنفسهم .

فقال لهم على : ياإخوتاه ، إنى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شىء مما تريدون ؟

قالوا : لا

فقال لهم : إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هـذا ، حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق ، فاهدؤوا عنى ، وانظروا ماذا يأتيكم ؟ ثم عودوا .

ولا شك أنها كانت فتنة جامحة ، وقد اشترك فيها ألوف من الناس ، فلا بد من التريث فى أمرها كما رأى على ، ولا سيما أنه لم يعلم من قام منهم بقتل عثمان ، حتى يتعين فيه القصاص ، ويؤخذ دمه بدمه ، ثم يحكم على من عداه بقدر تبعته فى تلك الفتنة ، وقد كانوا من الكثرة بحيث يجهل أكثرهم ، ولا يمكن تمييزهم إلا بعد مضى زمن يكفى لتمييزهم .

ولكن هذا لم يرض طلحة ولا الزبير ولا معاوية ولا عائشة ، فنادوا بالحرب ، وانتقل الأمر بذلك من قضية يجب أن تؤخذ

بالسلم كما تؤخذ سائر القضايا إلى حرب مفاسدها أكثر مما يرونه مفسدة ، فقابلهم على حرباً بحرب ، وجرى الأمر بينهم فى ذلك إلى أن قتل طلحة والزبير وعلى ، وآل أمر المسلمين بعدهم إلى معاوية .

وأما عن الأمر الثالث ، فإن معاوية لما آل الأمر إليه لم يعد النظر فى قضية عثمان ، ولا شك أنه وجد نفسه أمام جناية قتل لا يعلم القاتل فيها بيقين ، فلا يمكنه أن يأخذ أحداً فيها بقصاص ، كما وجد نفسه أمام كلة قد اجتمعت ، وأرادت أن تنسى الماضى بما له وما عليه ، لتأسو الجروح ، وتقضى على الفتن ، فيجتمع الشمل ، ويعود المسلمون إخواناً ، ويتموا ما بدأ به السلف الصالح من الفتوح ، ويعملوا متعاونين على إعلاء كلة الإسلام .

فلم يجد معاوية مع هذا إلا أن يترك أيضاً أمر النظر فيمن اشترك فى تلك الفتنة ، حرصاً على جمع الكلمة ، ونزل فى ذلك على مثل ما نزل عليه على ، رضى الله عنهم جميعاً .

عبد المتعال الصعيدى

علوم البلاغة فى الجامعة

للأستاذ على العمارى

— ٥ —

يعيب علينا بعض الكاتبين أننا نستأنس بما كتبه المتقدمون فى مقالاتنا هذه التى ننقد بها بعض آراء الجامعة فى البلاغة ، ويزعمون أن المتقدمين كانوا أصحاب أذواق مريضة ، ومن العجب أن حجة الكاتب على مايكتب هو ماينقله عن بعض كتابنا المحدثين ، أفيحرم علينا أن نستضىء بإمام البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، ويحل له أن يتكىء على مايقوله بعض المحدثين ؟ ليفتنا هؤلاء العلماء الاعلام الذين وجدوا فى أدب عبد القاهر وبلاغته غذاءهم وريهم ، وإذا أنكر منكر على هذا الامام شيئاً فلن يكون هذا الشىء ذوقه . يعرف ذلك العالمون المنصفون ، ثم أنى كنت اعتزمت أن أرد على هذا الذى يجادلنى على صفحات « الرسالة » ، ولم أجد سبيلا أهدى إلى الحق من أن أحتكم إلى عقول قراء « الرسالة » وكثيرون منهم يفهمون هذه المسائل على وجوهها الصحيحة ، وهى بين أيديهم .

وعجيب أن نعيب على المتقدمين جهودهم فى خدمة علوم البلاغة ونحن لم نفعل شيئاً ، لقد ظل علماء البلاغة منذ القرن الثانى للهجرة إلى أوائل القرن السابع وهم يُنشّئون هذه العلوم وينمونها ، حتى اكتملت قواعدها على يد أبى يعقوب يوسف السكاكى ، فلما جاء من بعدهم من العلماء وقف بهم الاجتهاد ، ولكنهم جاهدوا وجهدوا ، وخدموا هذه العلوم بما لانرى موضعاً لتفصيله الآن ، فماذا صنعنا نحن ؟ ملأنا أذهان التلاميذ ، وغرف الدراسة بالعيب على المتقدمين والنيل منهم ، والطعن فى كفاياتهم ، ولكن من غير أن نبنى قاعدة ، أو نهدم على بصيرة ونصفة قاعدة ، وإنى لأرى خير مايتمثل به فى هذا الموضع المثل العربى : « أسمع جعجعة ولا أرى طِحنا ».

وقد سمعت أن فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولى يريد أن يرد على مقالاتنا هذه التى يسميها « حركة الرسالة » بكتاب فى البلاغة يخرجه للناس ؛ وإنا منتظرون بفارغ الصبر هذا الكتاب انتظار المتعطش إلى التجديد فى هذه العلوم ، وقد نكون أول من يرفع الصوت فى امتداحه إذا وجدنا فيه مايعدون به ، ولعله لا يكون صورة لهذه الرسائل الصغيرة التى أخرجها الشيخ ونقدنا بعضها ، ثم نعود إلى مناقشته فى بعض مسائل القصر اتماما لما كنا بدأنا به .

٢ — لا يرتضى تعريف العلماء لقصر الاضافى فيطالعنا هو بتعريف آخر دعاه اليه — فيما نظن — رغبته فى أن يربط علوم البلاغة بعلم النفس وهو نوع من التجديد ، ووجد أنسب مايلصقه بالقصر الاضافى هذا الذى يسميه علماء النفس « تداعى المعانى » فما يمنع أن يكون القصر الاضافى نظر فيه إلى هذه الفكرة النفيسة ؟ والذى حفظناه عن مشايخنا وقرأناه فى كتب العلماء أن القصر الإضافى يكون حين تتمثل صفتان فى ذهن ، فقد يعتقد اجتماعهما فى موصوف وأنت تريد أن تبين له خطأ هذا الاعتقاد فيكون قصر الافراد ، وقد يعتقد ثبوت احداهما دون الأخرى وأنت تريد أن تعكس عليه اعتقاده فيكون قصر القلب ؛ وقد يحار فى أمر الصفتين فاذا أثبت له إحداهما ونفيت الأخرى كان قصر التعيين ؛ فمدار القصر الاضافى اذن على صفتين أو

أكثر فى ذهن المخاطب وأمام بصيرته ، وله فيهما اعتقاد ، لكن الشيخ يقول : « وأساس القصر الاضافى مايقرره النفسيون ، ويسمونه تداعى المعانى ، أى أن المعانى يرتبط بعضها ببعض بطريقة الضدية أو المناقضة أو المنافاة أو التلازم أو التكامل . والقصر الاضافى فى الكلام قائم على إفراد معنى من المعانى لا على أنه لايوجد سواه فى الموصوف ، ولكن على أساس أن تبعد سواه هذا عن تفكير المخاطب ، أى أن هذا النوع حاجز بين الصفة التى تريد إثباتها للمتحدث عنه وبين ما يمكن أن يقفز إلى ذهنه من الصفات عند ذكر هذه الصفة ، فمثلا تقول ما نريد إلا رياضى ، فعند ذكر كلة رياضى يحدث تداع فى المعانى فتجول فى الذهن صفات أخرى نحو مهندس . فلكى . موسيقى . مخترع . أديب ولكن إذا قصرت وأتيت بالأسلوب على هذا النحو فقد أبعدت كل هذه الوجوه » وهذا كلام واضح وصريح فى أن المقصود من القصر هو إبعاد ماعسى أن يجول بذهن المخاطب من الصفات التى تتصل بهذه الصفة المثبتة ، وكأنه ليس عند المخاطب صفة ينكرها وأخرى يثبتها ، وينبنى على هذا – ولا شك – فساد هذا التقسيم الذى ذكره العلماء للقصر الاضافى . وقبل أن نرد على الشيخ نحب أن نذكر له وإن يعيب علينا استدلالنا بكلام المتقدمين ، أن الشيخ عبد القاهر رحمه الله ، تنبه لهذه الفكرة ، ولكنه لم يكن يعرف تداعى المعانى أو تناديها فلم يملأ الجو صياحا وعجيجا ، بل مر يذكر المسألة فى بساطة وسهولة فقال فى كتابه دلائل الاعجاز «واعلم أن قولنا فى الخبر إذا أخر نحو ما زيد الا قائم » أنك اختصصت القيام من بين الاوصاف التى يتوهم كون زيد عليها ونفيت ماعدا القيام عنه ، فانما نعنى أنك نفيت عنه الأوصاف التى تنافى القيام نحو أن يكون جالساً أو مضطجعا أو متكئا أو ما شاكل ذلك ، ولم ترد أنك نفيت ماليس من القيام بسبيل إذ لسنا ننفى عنه بقولنا : ماهو إلا قائم أن يكون أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيراً أو عالما أو جاهلا ، كما أنا إذا قلنا : ماقائم إلا زيد لم نرد أنه ليس فى الدنيا قائم سواه ، وإنما نعنى ماقائم حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك » ونلاحظ أن الشيخ عبد القاهر كان دقيقا كل الدقة فلم يقل إن هذا فى القصر الاضافى ، وانما ساقه على أنه فكرة عامة فى القصر ، وأمثلته صالحة لأن تكون قصرا حقيقيا تحقيقيا أو ادعائيا ، وأن تكون للقصر الاضافى ولكن بشرط أن يعين المخاطب فى ذهنه المثبت والمنفى . ثم نرد على الأستاذ فنقول له : ارجع إلى شواهد القصر الاضافى فسترشدك إلى أن النزاع يكون فى شيئين ماثلين فى ذهن المخاطب ، ولنسق نحن جملة من الشواهد الفصيحة يقول الله تعالى : إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر . وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير . ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا . لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون . ويقول صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب . إنما أنا قاسم والله يعطى . وهكذا إذا تتبعنا الأمثلة التى صرح فيها بالمثبت والمنفى وجدنا أن كليهما معلوم للمخاطب وله فيه نظرة ، فاذا كان المنفى عاما لم يكن هذا من القصر الاضافى ، ولذلك يقول بعض العلماء إن قول القطمَّش الضبى :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى   أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

من القصر الحقيقى ، ولست – والله – أدرى من أين جاء للشيخ أن الغرض من القصر الاضافى أن نحول بين ذهن السامع وبين صفات أخر تتوارد عليه لها بهذه الصفة المثبتة صلة ورباط ؟ !

٣ – وقد انتهى العلماء منذ زمن بعيد من تقسيم القصر الاضافى ، ووقفوا عند قصر الافراد والقلب والتعيين باعتبار حال المخاطب فى اعتقاد الشركة أو العكس أو التردد ، ولكن الأستاذ يتنبه إلى أن القسمة العقلية كانت تقتضى قسما رابعاً وذلك فى حال ما إذا كان المخاطب خالى الذهن ، وينعى على العلماء اهمالهم هذا القسم الرابع يقول « وعلى ذلك يتضح لنا أن اغفال الحالة الرابعة وهى حالة خلو الذهن فى باب القصر غير مبنى على نظر صحيح » . « فمثلا يجوز لك أن تقول لخالى الذهن عاما : لا اله إلا الله اعتمادا على ما يقدرونه فى علم النفس من أن الخطأ الأول يصعب إصلاحه ، والصورة الأولى يعسر محوها » .

« أما نحن فنقول لهم إن أسلوبكم يقتضى أن ترددوا مواقف المخاطب بين هذه الأحوال الأربعة فلم أغفلتم الحالة الرابعة ؟ » والذى نؤكده أن تقسيم العلماء مبنى على نظر صحيح ، وأنه لاحالة

رابعة هناك حتى نتهمهم بأنهم أغفلوها ، وأدنى نظر فى طبيعة القصر الاضافى يرشدنا إلى ذلك فلا يدفعه أن يكون المخاطب عارفا بالمثبت والمنفى فأنت تقول له : شوقى شاعر لا كاتب إذا كان يعلم هاتين الصفتين فى شوقى فيثبتهما معا أو ينفى احداهما أو يتردد فيهما ، أما إذا قلت له هذا القول وهو يجهل كل الجهل شاعرية شوقى وكتابته كان كلامك خلفاً من القول ، وبعيدا عن اعتبار البلغاء ، فاذا أردت أن تلاحظ هذه العلة النفسية ، وأن تؤكد له من بادىء الأمر رجعنا إلى جهة أخرى وهى إخراج الكلام على مقتضى الظاهر ، ويقال حينئذ إن المتكلم نزل المخاطب الخالى الذهن منزلة المنكر أو المتردد أو العاكس ويرجع الأمر إلى قسم من هذه الأقسام الثلاثة ، والعلماء إنما يذكرون المقاسم الأصلية ، أما الأمور المنزلة فيرجعونها إلى مشابهاتها ، ومعروف ذلك عند من درس فهم يجعلون أضرب الخبر ثلاثة ، ثم ينزلون المنكر منزلة غير المنكر ، وينزلون غير المنكر منزلة المنكر ، وهكذا . ولا يحق لنا أن نقول إن هذه أضرب أخرى للخبر ، على أن المثال الذى ذكره الأستاذ (لا اله الا الله) لخالى الذهن لا يصح مطلقاً أن نجعله من القصر الاضافى ، وانما القصر فيه حقيقى تحقيقى ، وهذه الأقسام الثلاثة كما هو معروف لاتتأتى فى القصر الحقيقى .

٤ — وهذا بحث جديد يريد أن يطالعنا به أستاذ الجامعة . العلماء قصروا فى أغراض القصر ، وحصروها فى النفى والاثبات وهو أمر يجب أن نؤاخذهم به « والذى نأخذه على صاحب الابضاح ومن لف لفه من البلاغيين أن شعورهم كان يجب أن يتسع حتى يشمل ماوراء القصر بانما من أنواع القصر ، فكان يجب أن يوسعوا حسهم اكثر من ذلك فليس القصر للاثبات والنفى بل هو للتضييق والتحديد » . « فلعله ثبت مما قلناه إن للقصر مرامى أخرى وراء المعنى النحوى أهملها البلاغيون » وهذه الأغراض التى ذكرها ومثل لها هى غرضان : التوهين ومثل له بقوله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » والتأنيب ومثل له بقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام « ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » قال : إذا نظرنا إلى قوله تعالى : ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وجدنا أن التعبير بكلمة رسول عنصر أساسى فى المعنى قصد به التوهين من شأن الرسول فى هذا المقام . محمد ده يطلع إيه ؟ مرسال زى بقية المراسيل بيجى ويروح . القصر هنا واضح فى أن المقصود به التوهين من أثر الرسول فى الدين ولذلك جاءت تسميته هنا برسول ولو قال نذير . هاد . سراج . لقطع الطريق على هذا الغرض » وقال : « ماقلت لهم .. الآية . هذا التأنيب المؤلم مستفاد من وراء الألفاظ ، وهو هنا المرمى البلاغى للقصر ويدل عليه » وقبل أن نرد على هذا الكلام المتداعى نذكر ماقاله العلماء فى أغراض القصر حتى ننفى عنهم تهمة أنهم ضيقوا حسهم أو قصروا . قالوا من دواعى القصر (١) داعى القصر الحقيقى التحقيقى بيان الواقع (٢) داعى القصر الادعائى المبالغة وعدم الاكتراث بما عدا المقصور عليه (٣) الرد على المخاطب فى قصر القلب وقصر الأفراد (٤) تعيين المبهم عند المخاطب فى قصر التعيين (٥) قد يقصد من القصر مجاراة الخصم (٦) التنبيه على أمر هو مقتضى الكلام والغرض منه وجعل القصر وسيلة اليه وذلك كثير فى انما (٧) تنزيل غير المنكر منزلة المنكر لاعتبار مناسب فيخاطب بأسلوب القصر [1] .

أما ردنا على ما ذكره من أغراض فواضح أنه ليس القصد فى الآيات الاولى الحط من مقام الرسالة فى الدين ، وهل يريد الله سبحانه وتعالى أن يقول إن محمدا ليس شيئاً ؟ ! لا . ياشيخ ! المسألة أن الله يقول لهم : لامعنى لتعلق الدين بمحمد فان الرسل قبله ماتوا وسيموت هو مثلهم ولا ينتهى الدين الذى يدعون اليه بانتهائهم لأن مهمتهم الرسالة والتبليغ ، والرسالة ولو أنها أمر له قيمته وخطره لكن لايجب أن يتعلق ايمان الناس بمدة حياة صاحبها فهو انما يدعو الى الله . ولعل مما يدل على ذلك أن العرب لم يفهموا أن القصد التوهين من شأن الرسالة ، وهذا أبو بكر يستشهد بها يوم وفاة الرسول ، فهل كان يريد أن يقول لهم : إن محمدا ليس شيئاً فى الدين ؟ مانظن ذلك ولا نرضى لمسلم أن يظنه . وأما التأنيب فى الآية الثانية فليس مستفاداً من القصر وإنما هو مستفاد من السياق . استفهام تعجبى ، واتخاذ آلهة من دون الله ، وهو صادر عن النبى ، وهو المدعى عليه أنه دعاهم

(١) مذكرات الشيخ سليمان نوار ص ١٨٨

الأدب في سير أعلام :

ملتن ...

للاستاذ محمود الخفيف

— ٣٤ —

الفردوس المفقود : موضوع القصيدة الكبرى : —

في سنة ١٦٥٨ أخذ ملتن كما أسلفنا يتوفر على نظم قصيدته الكبرى ، ومن ثم تعد هذه السنة بدء هذا العمل العظيم وإن كانت أجزاء قليلة من القصيدة قد نظمت قبل ذلك كما يقول ابن أخته إدوارد فيلبس ، ولم تنته سنة ١٨٦٣ حتى فرغ الشاعر الضرير كما يقول إدوارد كذلك من هذه القصيدة العظيمة التي تبلغ زهاء خمسة آلاف وخمسمائة سطر ، والتي تستغرق نيفا وثلثمائة صفحة متوسطة الحجم ، والتي تعد من أعظم الآثار الأدبية في أدب الدنيا قديمه وحديثه ، والتي يتبوأ بها ملتن مكانه بين أفذاذ شعراء الملاحم الثلاثة : هوميروس ودانتي وفرجيل إن لم يبزعهم جميعاً في أكثر من ناحية من القول كما يذكر كثير من النقدة الملحوظي المكانة في نقد الأدب والشعر .

ويمكن تلخيص موضوع القصيدة في كلمات قليلة ؛ فهي قصة إبليس بعد أن فسق عن أمر ربه ، فقد تمرد هذا الشيطان الأكبر ومن اتبعه من الغاوين واجترأ على محاربة خالقه فأخذهم الله أخذاً قويا فإذا بهم جميعاً في جهنم جثيا ؛ ثم خلقت جنات عدن وخلق آدم وحواء ودلهما الله على الشجرة المحرمة ونهاهما ربهما أن يقربا هذه الشجرة ، فوسوس لهما الشيطان فأكلا منها وعصيا ربهما فأخرجهما من الجنة .

وحق للمرء أن يعجب كيف يخلق الشاعر من هذه القصة على بساطتها قصيدة بلغت هذا الذي بلغته من الطول ، وما فيها منظر أو فكرة مما يصح حذفه ، ثم ما فيها موضع تطرق اليه شيء من الضعف أو شيء مما يبعث السأم في نفس القارىء ، بل إنها جميعاً تبلغ من السمو والقوة مدى يتخاذل دونه جهد المبدعين ويتقاصر عنه افتتان المفتنين فما يقع المرء فيها إلا على مايعجب ويطرب وما يشيع في النفس نشوة روحية قوية تشعرها بسر العبقرية وسلطانها وتذرها مسحورة مأخوذة حتى ينقضي هذا الحلم الجميل .

ولكن دواعي العجب لاتلبث أن تزول إذا ذكر المرء مبلغ ما أوتي الشاعر من خصوبة الخيال وقوته ، ومارزق من دقة الوصف وروعته ، وماوهب من قدرة على الابتكار والتفنن في خلق الصور الذهنية الأخاذة والتصرف في مذاهب البيان ، هذا إلى مايشيعه في قصته من فلسفة وعلم ، وما يدخله بين الفينة والفينة من أساطير الأغريق وآلهتهم وسائر مخلوقاتهم مما يملأ قصيدته بألوان من السحر وأفانين من كل مايفيد ويمتع .

والقصيدة ليست بنت هاتيك السنوات الخمس التي نظمها فيها ، وإنما هي متجه خياله وأرب نفسه منذ أول عهده بالشباب ، فقد كان أمله الذي ملأ خياله منذ حداثته أن ينظم قصيدة تجعل له ولأمته مكانا عليا في أدب هذه الدنيا ؛ وإلى ذلك أشار في قصيدته التي ناجى فيها لغة قومه وهو في سن التاسعة عشرة كما سلف أن ذكرنا ذلك في موضعه ، وإن لم يك عين موضوع تلك القصيدة بعد .

ولم يتعجل ملتن النظم ، بل أخذ يتهيأ لما يطمح إليه فينهل من المعرفة مايسعه أن ينهل ، وفي نفسه أمل يلازمه ولا يبرح يذكره أنه سوف ينظم في يوم ما ملحمة كبرى تسلكه في الخالدين النابهين من شعراء الدنيا ، أما ماذا تدور عليه اللحمة فذلك أمر لم يتبينه يومئذ وحسبه أن يطلب لنفسه ماوسعه من زاد في الفلسفة والعلم .

وكان يفكر كما ذكرنا قبل في الملك آرثر وعصره وبطولته وسيرته علّه يستخرج من ذلك ملحمة قومية كان يريد أن

إلى عبادته وأمه « أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلـٰهين من دون الله ؟ » هذا كثير ، ومدعاة إلى تأنيبهم ، أما القصر فلا يفيد التأنيب ، وهب عيسى عليه السلام لم يقل إلا جملة القصر أكان يستفاد منها التأنيب ؟ وبذلك تسقط دعواه أن التوهين والتأنيب غرضان من أغراض القصر ، ووقفنا عند الأغراض التي ذكرها المتقدمون ، ولا نزال في انتظار الجديد .

علي العماري

المدرس بمعهد القاهرة الثانوي

يسميها الآرثريادا ، وتقع إشارتان منه إلى ذلك إحداهما فى قصيدة أخرى نظمها عقب عودته إلى وطنه ؛ ولكنه مالبث أن طرح موضوع الملك آرثر جانباً ولم يعد إليه بعد ذلك .

وظل ملتن متعلقا بأمله فى نظم قصيدة كبرى ، وكان هذا التعلق المتصل بالأمل المنشود هو الفكرة المتسلطة فى حياته كلها من جميع أقطارها ولذلك لم يأل جهداً فى الافادة مما حوله فكان انقطاعه للدراسة فى هورتون ، وكانت رحلته إلى إيطاليا وكان منصبه فى الدولة وكانت كتاباته الدينية والسياسية ، كل أولئك كان جوانب لدراسته وموارد لثقافته قصد إلى ذلك أم لم يقصد إليه .

وانقطعت صلته بالشعر زهاء عشرين عاما إلا ما كان من مقطوعاته ، ولكن خيال القصيدة الكبرى لم يبارحه قط ، وليس أدل من ذلك على شدة إيمانه بأنه خلق لرسالة فى الشعر وعلى عظم إخلاصه لفنه ، ولقد رأينا ما أحاط به من المحن والكوارث فلم يصرفه ذلك عما خصص له حياته ، وإن واحدة منها لكفيلة بأن تقعد بالمرء عما يخف كثيراً عن ذلك الذى اضطلع به من عبء .

وربما كان خيراً له وللأدب أنه لم ينظم ملحمته الكبرى إلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره فلعلنا كنا لو نظمها فى صدر شبابه لانظفر منه بما ظفرنا به من آثار خبرته بالحياة والناس وطول باعه فى البيان وضلاعته فى المعرفة وانصقال فنـــه وما اكتسب شعره من فحولة وقوة . ولقد حال بينه وبين تحقيق أمله فى شبابه ورغبته كما رأينا فى الاستزادة من الثقافة استزادة تكافىء ما يطمع أن ينهض به من عمل ضخم فى دنيا الفن ، ثم حيرته فى اختيار الموضوع الذى تدور حوله قصيدته ، وجاءت بعد ذلك حربه على القساوسة ثم اشتغاله بالسياسة فأخرته على رغمه تلك السنوات الطويلة .

ولقد هم قبل تلك الشواغل سنة ١٦٤١ بالنهوض بما منته نفسه به ، إذ أنه يتبين من قائمة كتبها الشاعر بين سنتى ١٦٤٠ ، ١٦٤٢ أنه فكر فيما يقرب من مائة موضوع ، وكان ثلثا هاتيـــك الموضوعات مقتبساً من الانجيل ، وكان همه متجها إلى واحد من بينها سماه تارة « الفردوس المفقود » وتارة « آدم يخرج من الجنة » فقد وجد فى هذه القائمة بيان بأسماء شخصيات لدرامة يرسمها وبيان لما تكون عليه تلك الدرامة وقد وضع لذلك عدة صور لعله كان يفاضل بينها ، ولا زالت تلك القائمة محفوظة كأثر من آثار الشاعر العظيم فى مكتبة كلية ترينتى بجامعة كمبردج .

ويتبين من ذلك أن ملتن كان يومئذ يريد أن يلبس موضوعه لباس الدرامة لا الملحمة ، ويؤيد هـذا الرأى ما ذكره فى هذا الصدد إدوارد فيلبس ، وذلك أن الأسطر التى يخاطب بها الشيطان الشمس فى أوائل الكتاب الرابع من الملحمة قد نظمت قبل بدء الشاعر فى نظم الملحمة بنحو خمسة عشر أو ستة عشر عاما وأنها نظمت لتكون فى مستهل عرض لمأساة .

ثم انصرف ملتن كما رأينا عن الشعر وانشغل عن أمنيتـه الكبرى حتى كانت سنة ١٦٥٨ فتوفر على موضوعه ، فلما أتمه كان ملحمة تضاف إلى الملاحم الكبرى فى أدب العالم وسميت الفردوس المفقود .

ونظمت الملحمة فى ستة أقسام أو ستة كتب ، ولقد أوجزنا موضوعها فى أول هذا الفصل فلنبسط هنا بعض البسط ، ولا نجد خيراً من أن نقص خلاصة هاتيك الكتب الستة التى تتألف منها القصة .

افتتح الشاعر الكتاب الأول بمناشدة إله الشعر أو إلاهته[1] العون فيما هو بسبيله على عادة شعراء الملاحم عند بدء ملاحمهم ، ثم يعرض الشاعر الموضوع كله فيذكر أول عصيان للانسان وما يترتب عليه من إخراجه من الجنة حيث كان موطنه ، ويشير إلى غواية الشيطان ، ويذكر عصيانه وتمرده على خالقه واستطاعة ضم أكثر من قبيل من الملائكة إليه ، حتى طرده الله من الجنة ومن اتبعـه وألقى بهم فى قرار من جهنم سحيق ؛ ثم يصف الشاعر كيف كان هذا الهبوط من الجنة حتى يرينا الشيطان ومن معه فى قرار الجحيم ، فى ظلمات بعضها فوق بعض ؛ ويظل هؤلاء على وجوههم وعلى جنوبهم فى هذا العماء زمناً يتقلبون فى بحيرة هائلة تتلظى بالحمم واللهب وفى نفوسهم رهبة ودهشة مما أخذهم من صاعقة ، ثم يفيق الشيطان بعد لحظة من هذه

---

(١) Muse ، وكانت عند الاغريق تطلق على بنات زيوس التسع ملهمات الشعر والموسيقى ، وفى ملحمتى هوميروس كان يقصد بها إله الشعر الذى يوحى إلى الشعراء ماليس لهم به علم ؛ أما اليهود والمسيحيون فأحلوا روح القدس محل ذلك ، ويجمع ملتن بين الاثنين فبعد أن خاطب الموز عاد يخاطب روح القدس :

الغاشية فينادى أقرب أتباعه منه منزلة وأولهم بعده مكانة وهو يصلى النار الحامية إلى جواره ويتحاورن فيما أصابهم من هذا الهبوط ؛ ويتكلم الشيطان الأكبر فى الأباء والعناد والأصرار قائلا إنه لخير له أن يحكم فى النار من أن يخدم ويطيع فى الجنة ؛ ثم يدعو الشيطان أتباعه ولم يزالو مكبين فى النار على وجوههم فينهضون فيسوى صفوفهم ويعدهم للقتال ويختار من بينهم قادتهم وكبراءهم ثم يناديهم فيعدهم ويمنيهم باسترجاع مكانهم فى الجنة وينبئهم بدنيا جديدة تخلق ونوع جديد من المخلوقات يدب فيها وكل أولئك يجىء وفق نبوءة أو نبأ ترامى اليه وهو فى الجنة ولكى يعلم مبلغ ما تحقق من هذه النبوءة وماذا يكون موقفهم من هذه الدنيا يشير إلى مجلس ينتظمهم جميعاً حيث ينظرون ماذا يفعلون ! ثم يشير الشاعر إلى مأوى الشياطين أو قصر الشيطان الأكبر وقد استوى قائما منبعثاً من أعماق الماء وهناك يجلس كبار شياطين الجحيم ليوافيهم أتباعهم ليتشاوروا فيما بينهم كما أراد كبير الشياطين أجمعين ؛ وتتزاحم الشياطين على قصر رئيسهم وقد مدوا فى اللهب أجنحتهم وملأوا الجحيم حفيفاً بهذه الأجنحة الممتدة ، ثم يتساقطون جماعات جماعات حتى يضيق بهم القصر على سعته .

وفى الكتاب الثانى تبدأ المشاورة فيجلس الشيطان الأكبر على عرش هائل ويتحدث إلى أتباعه متسائلا هل هو خير لهم أن يشنوا معركة أخرى لاسترجاع الجنة التى أخرجوا منها ويدعو كل من يحسن الرأى أن يتكلم بما يرى .

ويتتابع عدد من الشياطين كل يدلى برأيه ويبسط حجته ، فكانوا فريقين ، فريق رأيه الحرب وآخر يخشى عاقبتها ولا ينصح بها ، والشيطان الأكبر يوازن بين حجج كل فريق ولكنه لا يقطع أمراً ، حتى ينبعث صوت بمقترح مؤداه أن يدعوا الحرب إلى أمر آخر هو النظر فى مبلغ صحة تلك النبوءة أو الرواية التى علمت فى الجنة عن خلق دنيا جديدة ، ونوع آخر من المخلوقات يساوى الملائكة منزلة أو هو لا ينزل كثيراً عن مستواهم وهذا هو وقت خلقهم ، وتتجه أفئدة الجميع إلى هذا المقترح وسرعان ما يجتمعون عليه ، ولكنهم يحارون منذا يذهب فى تلك الرحلة العظيمة العسيرة فيستطلع لهم مايريدون ؛ ولا تطول حيرتهم فهذا كبيرهم يعلن أنه يذهب وحده فيأتيهم بنبأ يقين ، ويمجده الشياطين شاكرين له هاتفين به ؛ وينتفض عن شياطينه المجلس فيذهب كل إلى حيث يقضى الوقت ريثما يعود كبيرهم من رحلته

ويطير الشيطان الأكبر فيقطع فى رحلته أرجاء الجحيم حتى يأتى أبوابها فإذا هى مغلقة وعلى كل باب ثلاث طبقات من الحديد وثلاث من النحاس وثلاث من الحجر الصلد ، وتحرس هذه الأبواب أنماط من الحرس هى فى أشكالها أليق ما تكون بحراسة أبواب الجحيم ، لا هى من الجن ولا من الوحش ولا من الأفاعى وإنما هى مزيج من هذا كله ركب بعضه فى بعض ، وهى أشباح للخوف والوباء والموت ، ويزجر الخوف الشيطان ويأمره أن يعود إلى مكانه فى النار ، ولكنه لن يزال يطلب أن يفتح له باب حتى يفتح له الموت باباً فيلج منه إلى خارج الجحيم فى عسر شديد ، ويرى مدى مابين الجنة وجهنم من أمد ، ومازال الشيطان يسبح بأجنحته فى الماء فى عناء وعسر حتى يصبح بمرأى من الدنيا الجديدة فتقع عليها عيناه .

(يتبع) الخفيف

الأمير عبد القـــادر
وتحرير الجزائر

لمناسبة مضى ٦٥ سنة على وفاته

(مهداة إلى الأمير سعيد الجزائرى)

للأستاذ محمد عبد الوهاب فايد

الدره الأفيق[1] كبير زعماء الجزائر ، وموحد اتجاهها السياسى ، ومؤلف شتاتها ، الأمير العظيم ، العالم الشاعر الباسل عبد القادر بن محيى الدين بن مصطفى الحسنى .

ولد بوهران سنة ١٢٢٣ هـ فى مهد العلم والتقوى ، وتلقى علوم الشريعة والأدب والتاريخ والحكمة العقلية وغيرها ، حتى حذقها ، وتوفر على الثاقفة بالسلاح وركوب الخيل ، فجمع بين السيف والقلم ، واشتهر بالذكاء والفصاحة والطلاقة وسمو الفكر وقوة البدن وشدة البأس والإقدام وصلابة الرأى فيما يزمع والإخلاص وقوة الإيمان .

فعلقت به القلوب واتجهت إليه الأنظار ، كل ذلك مع ما كان لأبيه وأجداده من المكانة الرفيعة فى البلاد .

رحل إلى المشرق حوالى سنة ١٢٤١ مع والده وجماعة من أهله وحاشيته بقصد الحج ، فمروا بمصر فأنزلهم محمد على باشا منزلا كريما ، ثم حجوا وزاروا المدينة المنورة والشام وبغداد ، فازداد عبد القادر بهذه الرحلة التى استغرقت أكثر من سنتين رسوخاً فى العالم وخبرة بالسياسة .

وفى أواخر عام ١٨٣٠ م احتلت فرنسة عاصمة الجزائر ، وأخذت تفكر فى الاستيلاء على سائر القطر الجزائرى ، فبدأت الحرب بين أهل الجزائر والفرنسيين ، واقتحم أهل وهران الحرب بقيادة السيد محيى الدين ، فبدا فى هذا القتال من بسالة عبد القادر ومواهبه الحربية وأصالة رأيه وثورة نفسه الإسلامية الحرة وإخلاصه لقضية أمته وبلاده وقوة إيمانه بصدق جهاده ما عقد به أمانى الناس .

ولما أراد أهالى تلك البلاد مبايعة السيد محيى الدين أميراً عليهم اعتذر بعلو سنه ، فبايعوا ولده عبد القادر عام ١٨٣٢ م فاتخذ مدينة المعسكر عاصمة ، ولمّ شعث القبائل ، وجمع الأمة كلها على معنى واحد لا يتغير ، ودفعها بروح دينية واحدة لا تختلف ، وجعل عرق الجهاد يفور كما يفور العرق المجروح بالدم ، وبعث صولة الحياة فى الشعب كله ، ورتب جنده وكان يتقدم جيشه ببسالة عجيبة ، وكأن بينه وبين أرواح جنده نسباً شابكا ، فله معنى أبوة الأب فى أبنائه لا يراه من يراه منهم إلا أحس أنه شخصه الأكبر ، فكانت فيه التكملة الإنسانية لجنده ، وكأنه خلق خاصة لإثبات أن غير المستطاع مستطاع ، وأن القوى الشديدة تعمل كالعدوى فيمن اتصل بها أو صاحبها ، فالأمير قد عدى جنده بقوة شجاعته العجيبة .

ومن نظمه :

تسائلنى أم البنين وإنها لأعلم من تحت السماء بأحوالى
ألا فاسألى جنس الفرنسيس تعلمى بأن منايام بسيفى وعسّالى
ومن عادة السادات بالجيش تحتمى وبى يحتمى جيشى وتمنع أبطالى

واستمر فى الحرب حتى دانت له كل عمالة وهران تقريباً بعد محاصرته للجنرال بويه وجيشه . ثم تولى قيادة الجيش الفرنسى الجنرال دميشيل ، فكانت بينه وبين الأمير معارك انتهت بعقد المعاهدة المشهورة (بمعاهدة دميشيل عام ١٨٣٤) التى اعترفت بها فرنسة للأمير بجميع العمالة الوهرانية عدا مدينة وهران وآرزاو ومستغانم ، وكان له الحق بموجب هذه المعاهدة أن يعين قناصل فى وهران والجزائر ومستغانم وغيرها ، وأن يستورد الأسلحة من أى جهة شاء ؛ فعظم شأن الأمير وامتد سلطانه وصار الأمير الشرعى لجميع أهالى الجهات الغربية من المغرب الأوسط . ثم مد رواق ملكه على البلاد التى لم تكن داخلة فى حدوده مثل ميدية ومليانة ، وأقام فيها معامل للأسلحة ، مع احتجاج حاكم الجزائر العام .

(١) الدره كبير : السيد الشريف ، والمقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال ، والأفيق البالغ النهاية فى الكرم أو فى العلم أو فى الفصاحة وجميع الفضائل .

وفى غضون ذلك ثار على الأمير قبيلتا الدوائر والزمالة وانضمتا إلى فرنسة ، فطلب الأمير تسليم رؤسائهم إليه فأبى الجنرال تريزيل ، فبرز عبد القادر إلى القتال فانتصر على الفرنسيين فى (يوم المقطع) فى ٢٦ يولية ١٨٣٥، فأرسلت فرنسة جيشاً كثيفاً بقيادة المارشال كلوزل فاستولى على عاصمته (المعسكر) وناوشه من ورائه بقية من الأتراك كانوا فى قلعة تلمسان ، وبعثت فرنسة الجنرال بوجو لإغاثة الجنرال دارلنج الذى حصره الأمير ، فانهزم عبد القادر ولكنه بقى ثابت العزم ، واستطاع بدهائه السياسى عقد صلح مع الفرنسيين على شروط ضمنت له أكثر مما ضمنته معاهدة دميشيل ، وذلك فى (معاهدة التفنة) فى ٣٠ مارس ١٨٣٧ التى اعترفت فرنسة له فيها بجميع عمالة وهران وقسم كبير من عمالة الجزائر .

وشرع بعد ذلك يقوى سلطته على البلاد التى أدخلت حديثاً تحت حكمه ، وأخضع عرب الأزارقة ، وأنشأ معامل للأسلحة والعدد الحربية وملابس الجند فى تلمسان ولاغوات وميجانة وزيبان ، وبنى حصوناً لخزائن بيت المال ، وأقام على كل حصن بلدة ، منها تاقدت وتازة وسعيدة وبوغار وعريب وسبدو وغيرها

ثم رتب جيشاً منظماً على نمط جيوش الدول ، وقسمه إلى فرسان ومشاة سماهم العسكر المحمدى ، ومدفعية وسماهم الرماة ، واختار لتدريبه ضباطاً من الجيش التونسى ومن الجند التركى الذى بطرابلس ومن الفارين من الجيش الفرنسى ، ووضع لهذا الجيش قانوناً لمأكله وملبسه ورواتبه ومدة التعليم وشروط الترقى فيه ومنح الأوسمة ، ونظام المرابطة والحرب ، وضرب نقوداً سماها المحمدية ، وعنى بشؤون الزراعة والتجارة والتعليم ، وأقام دهاليز لادخار الحبوب وأنابير للاقوات ورمم القلاع ، ولم يهمل شيئاً مما يجب لتأسيس الحكومات الشرعية . ولم تكن همته زمن السلم أضعف منها إبان الحرب .

ولما كانت معاهدات الدول الاستعمارية مع الأقطار التى تود الاستيلاء عليها هى فى الغالب منازل استجمام بين مراحل الحرب فقد تعللت فرنسة فى تفسير بعض فقرات (معاهدة التفنة) وأرادت التخلص منها بعد أن أعدت العدد وعززت الجيش ، مع أن الأمير كان يعمل بها ، فاستؤنف القتال بينهما فزحف المارشال فالى والدوق دومال ، فنادى الأمير بالجهاد فى ٢٠ نوفبر ١٨٣٩ فاستمرت الحرب من هذا التاريخ إلى عام ٨٤٣ بلا انقطاع وقام فيها الأمير مقامه المحمود الذى طار ذكره فى الآفاق ، وأثبت فيه عبد القادر للدنيا كلها أن الجزائر الجبارة متى شاءت بنت الرجال من أمثاله فى العظمة والشهرة والمنزلة والقوة .

وعدم تكافؤ القوتين المتقابلتين سبب سقوط أكثر حصون الأمير واحتلال العدو أكثر معاقله ومدنه مثل تاغدت والمعسكر وتازة ووادى الشليف ، فتحول إلى الغرب ، فزحف العدو إلى تلمسان ونواحى ندرومة واحتلها ، فقصد الأمير إلى الجنوب فباغته الدوق دومال وغنم كثيراً من عتاده ، ففت هذا الحادث فى عضده وخذله أكثر أعوانه ففر إلى المغرب ، وسعى لحمل سلطان المغرب الأقصى على شد أزره فأمده بجيش فكانت بينه وبين الجيش الفرنسى (واقعة إيسلى) فى ١٢ أغسطس ١٨٤٤ .

ولما كان المغاربة يعوزهم من أدوات القتال ما يملكه الفرنسيون انتصر الجنرال بوجو على الجيش المغربى ، وكانت بوارج فرنسة ضربت طنجة ومغادور ، فاضطر سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام إلى عقد الصلح بالشروط التى تريدها فرنسة وأولها منع الأمير عبد القادر من تجاوز حدود الجزائر ، فلبث زهاء سنتين متربصاً غرة من العدو ينتهزها ، فلما بدت له فى ثورة عام ١٨٤٦ انقض على بلاد الجزائر ثانية وأمعن فى الغارة حتى بلغ بلاد البربر ، واستأنف الأمر كما بدأ ، إلا أن قوته كانت قد تناقصت ، وقدم الفرنسيين قد رسخت فى الجزائر فلم تستمر غارته ، وأحاطت به الجيوش من كل ناحية ، فرجع إلى الحدود المراكشية ، فطلبت فرنسة من سلطان المغرب تسليمه وما زالت تلح فى ذلك حتى ناصرهم وساق عليه قوة عظيمة دهمته فإذا هو بين نارين ، فاشتد به الغضب ، فاشترط شروطا للاستسلام رضى بها الفرنسيون ، وسلم نفسه على يد الجنرال لاموريسيال فى ديسمبر ١٨٤٧ واتفقوا على أن يسافر بأسرته من الجزائر إلى الأسكندرية أو عكا ، ولكن فرنسة أخذته إلى طولون ثم إلى إنبواز وأنزلته فى قصرها معتقلا إلى عام ١٨٥٢ إذ بشره لويس نابليون بنفسه بإخلاء سبيله فى يوم اهتزت له باريس احتفالا بمقدم الأمير .

أجل لم ينتصر البطل بعد جهاد ١٥ سنة جهاداً عزيز المثال فى تاريخ الأبطال ، ولكن الأمم احتفت به لأنه يمثل كمالا من نوع آخر هو سر الانتصار .

ثم سافر الأمير إلى الآستانة وزار السلطان عبد المجيد ، ثم

أقام ببرصا ، وفى سنة ١٨٥٥ هاجر إلى دمشق ، ومن ببيروت فقام واليها وامق باشا بالحفاوة به . ثم بجبل لبنان فاحتفل به مشايخ الجبل وأمراؤه . فلما أشرف على دمشق خفت المدينة إلى استقبال مدره الإسلام ، وتقدم الجمع محمود نديم باشا والى دمشق ، وعزت باشا رئيس العسكرية ، والعلماء والأعيان ، ثم دخلوا المدينة تتقدمهم الجنود بموسيقاها ، ونزل ضيفاً بدار عزت باشا ، إلى أن اختاروا له دار القباقيبى التى كانت مقر الحكومة فحط رحله فيها .

وقضى بقية حياته بدمشق فى مثافنة العلماء ، والتحقيق العلمى ولا سيما التصوف . ومن أمتع آثاره العلمية المطبوعة (كتاب المواقف) الذى يدل على رسوخه فى التصوف علماً وعملا ، و(ذكرى العاقل) فى الحكمة والشريعة و(ديوان شعره)

وقد صرح مؤرخو الفرنج أن مملكته العلمية والدينية كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التى أسسها ، وأنه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه بالسنان .

وقال الماريشال سوليت الفرنسى فى سنة ١٨٤٠ (لا يوجد الآن أحد فى العالم يستحق أن يلقب بالأكبر إلا ثلاثة رجال كلهم مسلمون وهم : الأمير عبد القادر ، ومحمد على باشا ، والشيخ شامل) .

ولما وقعت بدمشق حادثة سنة ١٨٦٠ عنى الأمير عبد القادر بحماية المسيحيين وإنقاذهم ورد العوادى عنهم ، فأخلى لهم دوره والدور المجاورة لها حتى هدأت الفتنة ، فأجمعت صحف العالم على حمده وشكره ، واستحق بهذا الصنيع ثناء الجميع ، فأرسل إليه الخليفة السلطان عبد المجيد وفرنسة وأمريكا وأكثر الدول الأوربية أوسمة رفيعة مع رسائل الشكر والحمد .

وفى عام ١٨٦٣ حج ثانية . ودعاه الخديو اسماعيل باشا فيمن دعا من أعيان العالم وملوكه وأمرائه لحضور الاحتفال بفتح قنال السويس .

وما زال مثالا للبر والإحسان والتقوى والأخلاق الكريمة يتهجد الليل ويمارس فى رمضان رياضة الخلوة على طريقة الصوفية ، إلى أن قبض رضى الله عنه سنة ١٣٠٠ هـ ودفن إلى جانب ضريح الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى بصالحية دمشق . وذاع نعيه فى الآفاق وأسف عليه الملوك والأمراء ومن عرفه من الخاصة والعامة ، ورثاه الكتاب والشعراء ، وأبنه العلماء والأدباء .

هذا موجز من سيرة الأمير الكبير ، وتاريخ حياته وأخبار نضاله مع الفرنسيين مبسوطة فى كثير من كتب المسلمين والفرنج . وللعالم الجليل السيد أحمد أخى الأمير تاريخ مفصل لحياة أخيه لم يطبع بعد ، فيه حقائق لا توجد فى « تحفة الزائر »

وأذكر بهذه المناسبة أن الشيخ شهاب الدين محموداً قال : عدت قاضى القضاة ابن خلكان فأنشدنى لبعض أهل الأدب شعراً فى نقيب الأشراف بالمدائن خلب عقلى ، وهو هذا :

قد قلت للرجل المولى غسله	هلا أطاع وكنت فى نصحائه
جنبه ماءك ثم غسله بما	أذرت عيون المجد عند بكائه
وأزل أوانى للحنوط ونحها	عنه وحنطه بطيب ثنائه
ومر الملائكة الكرام بنقله	شرفاً ألست تراهم بإزائه
لاتوهِ أعناق الرجال بحمله	يكفى الذى حملوه من نعمائه

قال الشيخ شهاب الدين فوقع فى نفسى أنه أحق الناس بهذا الرثاء وأنه نعى نفسه فمات فى ذلك الأسبوع ، وقال الصوفى الذائق السيد محيى الدين بن أخى الأمير عبد القادر : وأحق الناس بهذا الرثاء أستاذى العارف الربانى أمير العلماء وعالم الأمراء سيدى الأمير عبد القادر الحسنى الجزائرى .

محمد عبد الوهاب فايد

أفلاطون الشاعر
ونظريته فى التقمص

للاستاذ جبريل خزام

نظم أفلاطون الشعر قبل أن يعرف الفلسفة وقبل ان يتصل بسقراط ، وله مسرحيات شعرية ولكنها ضاعت كلها ولم يصل إلينا شيء منها ... وليست تهمنا هنا هذه المسرحيات فى شيء ، ولكن الذى يجدر بنا أن نعرفه أنه كان شاعراً قبل أن يكون فيلسوفا ... ثم تعلم الفلسفة على يدى أقرا طيلوس العالم الطبيعى القديم الذى كان يعتقد بالتغير المستمر للأشياء ، ثم عرف سقراط وأعجب به ، ولم يلبث أن صار من تلاميذه المقربين .

وهجر أفلاطون الشعر لسببين : أولهما تحوله تحولا كليا إلى الفلسفة التى بهره بها أستاذه الكبير سقراط . وثانيهما أن سقراط كان لا يرضى عن الشعراء لاعتقاده أنهم يزيفون الحقيقة ويقلبون الحق باطلا والباطل حقاً . ولكن الذى لا ريب فيه أن أفلاطون وإن كان قد هجر الشعر إلى غير رجعة ، إلا أن تأثره الشعرى القديم كان عاملا كبيرا من العوامل التى أثرت فى فلسفته تأثيراً ملحوظاً ، فجاءت ممزوجة ببعض الخيال ، ويتجلى ذلك فى (فيدون) عند استعماله ألفاظاً شعرية فى حديثه من أمثال : يلوح لى أو يبدو لى أو إن ما أراه ... تلك التى دعت الكثيرين إلى الشك فى نظرية الخلود التى احتوتها هذه المحاورة المعروفة ، حتى قيل إن هذه النظرية محض اختلاق ، وإنها خيال شاعر أكثر منها فلسفة حكيم .

وأفلاطون يؤمن بأن التأثير الشعرى فى النفس سابق للتأثير العقلى . فنحن حين ننظر فى الوجود وفى الأشياء المحيطة بنا أو عندما نسمع رأيا من الآراء لا نعتبر فى حالة قبول تام مباشر لأننا لسنا كالإناء يصب منه الماء ، ولكن لنا إحساساتنا وعواطفنا التى نسبر بها غور الأشياء أولا قبل أن يستقبلها العقل ؛ فالعين تنفعل إذا وقعت عليها الأضواء والألوان ، وهى تضطرب مشاعرها وإحساساتها . ثم يتدرج ذلك إلى الشعور العقلى والإحساس الذهنى ، فتدرك العين ماهية هذا الشيء الذى يسقط عليها ، ويستطيع جفناها أن ينفرجا تدريجياً .

ومنهجه فى الجدل دليل آخر على تفكيره الفلسفى الذى يخالطه الخيال الشعرى المتغلغل فى نفسه منذ صباه . ومنهجه هذا يتمثل فى دورين : جدل صاعد وفيه يصعد أفلاطون من المحسوسات إلى المعقولات ، كأن يفكر مثلا فى وجود الأشياء الطبيعية حتى ينتهى إلى الله الذى هو كائن معقول غير محسوس ، ثم جدل نازل وفيه يهبط الدرجات من عالم المعقولات إلى عالم المحسوسات ليرى هل هى بعينها تلك التى صادفها فى صعوده . فأفلاطون يصعد أولا إلى المعقولات غير المستجدة ، وينحدر من عالم المحسوس ليصل إلى نقطة نهائية وهى إثبات وجود الخالق ، ثم هو يبدأ فى النزول من خالق مضطراً له اضطراراً ، مكرهاً عليه إكراها لكى يتأكد من صحة الخطوات التى صعدها ، ليعلم بصواب ما ذهب إليه فى تفكيره .

وهذا المنهج الجدلى يختلف تمام الاختلاف عن منهج سقراط ، فسقراط يطلب من محدثه أن يحدد له الألفاظ التى يستخدمها فى حديثه وله فى طريقته خطوتان هما : التهكم والتوليد ، ففى الأولى يوجه إلى محدثه أسئلة يطالبه بالإجابة عنها حتى إذا اعترف المحدث بعجزه عن الإجابة عنها وقصوره عن إدراك الحقيقة كاملة خطا سقراط خطوته الثانية فيشرح له — عن طريق الأسئلة التوضيحية — رأيه الخاص فى الموضوع الفلسفى الذى كان موضوع المناقشة .

وهذه الطريقة العملية البحتة فى الجدل ، تختلف تماما عن طريقة أفلاطون الصاعدة والنازلة والتى ينزع فيها إلى المعقول ثم إلى المحسوس . زد على ذلك أن سقراط كان جدله بينه وبين الناس ... أما أفلاطون فكان جدله يجرى بينه وبين نفسه ، وهذا ما أسماه بمناقشة النفس نفسها أى التفكير المنفرد الذى هو أشبه بالمناجاة الشعرية الفلسفية منه بالتفكير الفلسفى المحض .

وقد قسّم أفلاطون العلوم إلى : حساب وهندسة وموسيقى ؛ وقد رتبها هذا الترتيب لأن كل علم لا حق يعتمد على العلوم السابقة له ، ثم يزيد عليها . فالهندسة تعتمد على الحساب وكذلك الفلك ، كما أن الموسيقى تعتمد عليها جميعاً .

وقد ذهب إلى أن هذه العلوم تظهرنا على أن فينا قوة تترفع عن الإحساس المادى وهى العقل . وأفلاطون فى جميع فلسفته يحاول أن يسمو على الإحساس المقيّد إلى التفكير العقلى المطلق ؛ ثم هو لا يقف عند هذه الدرجة ، بل يقول بأن العقل فى جميع مراحله السابقة لا يقنع ، ذلك أن العلوم فى هذه المرحلة القاصرة

تستخدم مبادئ أعلى منها ولا تبرهن على وجودها ، مثال قولنا إن هذا الشيء أصغر من ذاك أو أكبر منه أو مساو له . ويخرج أفلاطون بهذا إلى العلوم والمعارف الإنسانية ، فالعدالة والظلم والقبح والجمال والصغر والكبر والمساواة معان كلية عامة لا نستطيع أن نقول إنها موضوع علم بعينه كالحساب أو الهندسة ولكنها دائرة أوسع وأكثر شمولا للمعرفة العقلية من هذه العلوم . ويخرج أفلاطون من ذلك كله إلى أن الإحساس وحده لا يكفي لإقامة العلم ، ويستدل عليه بأن الحيوان يعتمد على إحساسه المادي ولكنه لا يصل إلى مرتبة المعرفة العلمية .

ويتساءل أفلاطون عن كيفية حصولنا على هذه المعاني الكلية فيقول : إننا لم نحصل عليها عن طريق التجربة ، لأن هذه المعاني هي نفسها التي ساعدتنا على فهم التجربة ، فلا يبقى لنا إلا أن نقول إنها في النفس منذ الميلاد ، وما الميلاد عند هذا الفيلسوف الشاعر ؟ إنه نزول النفس إلى الجسم بعد أن كانت في عالم الأرواح ، أو نزولها من العالم المعقول إلى العالم المحسوس . وهذا ألهمه إياه خياله الشعري القديم . فهو يعتقد أن النفوس الإنسانية وجدت أول الأمر أرواحا هائمة في عالم الأرواح غير متصلة بمادة ما ، وأدركت في ذلك العالم الأمور الروحية ومنها المعاني التي ذكرناها والتي أطلق عليها اسم المُثُل . فلما هبطت هذه النفوس إلى الأجسام المادية وسكنتها اعتراها نسيان لاتصالها بهذه المادة الكثيفة ، فبقيت كأنها لا تعرف شيئا حتى تنبهت بإدراك الحواس . وكلما أدركت شيئا ما من حياتها الأرضية كان هذا تذكرا لما حدث مثاله في حياتها الروحية السابقة ، وهذا هو أصل العلم عند أفلاطون . والنفس الإنسانية في رأيه قد تعود إلى هذا العالم أكثر من مرة ما دامت لم تتطهر من التعلق بالأشياء المادية المحسوسة ، وفي رجوعها قد تتقمص جسما حيوانيا كما قد تتقمص جسما بشريا . وهذا ما يعرف بالتقمص أو التناسخ

والواقع أن أفلاطون قد مزج فلسفته بالخيال فجاءت مزاجا عجيبا معجبا في آن واحد ... عجيبا لأن الشعر والفلسفة متناقضان على خط واحد ، فهذا ينشد الخيال في السماء ، وتلك غالبا ما تبحث عن الحقيقة في الأرض ؛ ومعجبا كذلك لأن فلسفته هذه الممزوجة بالخيال جعلت أسلوبه الجدلي أقرب إلى الفلسفة الأدبية الشائقة منه إلى الفلسفة العلمية الجافة .

جبرئيل غزام

غرام الكهولة ...

للأستاذ عثمان حلمي

قلت للنفس حين لجَّ هواكِ أنتِ إياكِ والهوى إياكِ
جدَّ بي العمرُ فاهدأى واطمئنى وكفانى مما مضى وكفاكِ
واجعلى ما أصبتُ فى الغىِّ يا نفـس ختاماً فإنَّ فيه هُداكِ
وقفةٌ تلك بين عقلى وقلبى يا لنفسى ما بين هذا العراكِ
ثم يا لى أرجو السلامةَ فى عمـرىَ هذا من قائدى للهلاكِ
عاصف من هواكِ يعصفُ بالقلـب وعاتٍ يسوقنى فى هواكِ
وعنيد لا أستطيع خلاصاً منه مما يحوك لى من شباكِ
يا لَقلبٍ خلا من الحب دهراً ثم صادفتِ خالياً فاصطفاكِ
فأطاع الهوى فلا هو يسلو كِ على ضعفه ولا ينساكِ
وأطعتُ الغرام فيك برغمى ولو أنى فى الحق لستُ فتاكِ
لا أذود الغرامَ بالعزم إلا خاننى العزمُ فيك حين لقاكِ
فتبسمتُ بالرضى وتبسمـت وشمَّتْ لىَ بالرضى مقلتاكِ
غمرَ العطفُ منك من كان يخشا
كِ وشجّعتِه فما يخشاكِ
فاستمرتُ الشبابَ من بعد أن ولـى شبابى لرغبتى فى رضاكِ
وتجمّلتُ فى خريف حياتى ومشى بى الهوى على الأشواكِ
وكأنى أصبحتُ غيرىَ فى الدنـيا وأضحيتُ غير هذا الشاكى
كيف أشكو النوى وأنتِ أمامى لم يعكر صفاء عيشى نواكِ
ولقد أتقى لأجلك فى القر ب فضولَ العيون فيما عساكِ
فأدارى العيونَ حتى كأنَّ الـقلبَ خالٍ أو أنه ما حواكِ
وإذا ما التقتْ بعينكِ عينى خالَ من خالَ أننى لا أراكِ
وأنادى على سواكِ فما أنـطقُ إمَّا ناديتُ باسم سواكِ
فكأنى عقدتُ باسمك يا « زينـ » لسانى فما له من فكاكِ
أنتِ فى مقلتىَّ أنىَّ توجهـتُ أمامى وأين كنتِ أراكِ
صورةٌ منك لا تفارقُ عينى كل حسنٍ لها إذا غبتِ حاكِ
لستُ أدرى ما ذا يخبئ لى الغيـبُ وما ذا يطوى لمثلى هواكِ
فلقد حرتُ بعد عمرىَ هذا كيف لا أستطيعُ أنْ أنساكِ

من « لزوميات مخيمر » (*)

للأستاذ أحمد مخيمر

[إلى أصدقائى الشعراء : عبد الرحمن الخميسى ، وعبد العليم عيسى ، والملاّنى . .]

غنـوة ...

سألتكِ هل تدرين أنك غنوةٌ تغنّت بها الآزالُ ، فالتفت الدهرُ
وعشتِ زماناً فى ذَراها صغيرةً
ومهدكِ ينمو حوله العشب والزهرُ
وقد كان مثواكِ المغاور والربا وملعبكِ الغاب المظلل ، والنهرُ
فلم تعلمى إذ ذاكِ أنك رغبةٌ وأشواق روح فى جوانحها بهرُ
وأنَّ الليالى أسرعت بك دونها فكم صرعت شهراً ليتبعه شهرُ
فمن أجلكِ انسابت على الأفق شمسها
ورفّتْ على الظلماء أنجمها الزهرُ ...

منـارة الحب ...

خبَّ بنا يا ليلَ ركبُ الهوى فى جسدٍ من شوقه ناحلِ
لغـايةٍ لم يدر ما سرها من لم يكنْ يا ليلَ بالراحل
منارةٌ أنتِ لـيمّ الهوى أقامها الشوق على الساحل
كأنما فى خلدى نورها غمامةٌ فى بلدٍ قاحل ...

لقـيا ...

سرورى بلقياك سلوانيهْ فلا تبعدى الخطو يا غانيهْ
لئن صح ما زعم الزاعمون فويلٌ لأيامنا الفانيه
ويا أسفا إن طوتكِ المنون فرحتِ ، ويا طول أحزانيه
سيخرس بعدكِ هذا اللسان ، وتُطبَقُ بعدكِ أجفانيه
فما أبتغى نعمةً لا تدوم ، وما أشتهى لذةً فانيه
وكيف ؟ وهذا المحيا الجميل وقد رفَّ مبعث إيمانيه
أرى فى سناه الوجود الرحيب وأكشفُ أعماق وجدانيه

(*) عنوان ديوان يصدر قريبا



على هامش النقد :

كتب الأستاذ على العمارى فى عدد الرسالة الماضى يسألنى رأيى فى الآيات :

« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون . انطلقوا إلى ظلٍّ ذى ثلاثِ شُعبٍ ، لا ظليلٍ ولا يُغنى من اللهب . إنها ترمى بشررٍ كالقصر ، كأنه جِمالةٌ صُفر » .

فهو يرى أن حكمى على بيتى شوقى عن قصر أنس الوجود :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضا سابحات به وأبدين بضـــا

بأنهما يكشفان عن تزوير فى الشعور ، لأنهما يبعثان شعورين متناقضين فى النفس ، ويدلان على أن الشاعر لم يحس بالموقف الذى يصوره إحساساً صادقاً ... الخ

وأوقن أن رحاب السماء إذا ما دنا أصبحت دانيـه
ويبعث بى فرحـــة بالبقاء تبـدّد شكّى وأشجانيه
فيا قبسَ الخلد لا تبعـدى فأنتِ على الأرض سلوانيه
ظمئتُ لينبوع تلك الشفاه فهاتى لى القبـلة الثانية
كأنى بها قطرة من ندى ترفّ على وردة قانيـــه
إذا نلتهـا خلتُ أنى إله أصرّف بالعزم أكوانيـــه
ويا ملكا غادياً بالحنان تمرّدَ فى الصدر شيطانيه
أنازعه جاهداً أن يقرّ ويستمرئ الدهر عصيانيـه
تعالىْ إلى روضتى فى الخيال فأسقيك من ماء غدرانيه
وأطعمكِ الثمـــر المشتهى تدلّى بأطراف أغصانيـه
نما ، وحلا ، وغدا فى الغصو ن يرتقب الأيدى الجانيـه
تخالينه فى حوافى الظلال كواكب مشرقةً دانيـه
ويا فرحاً فى ضمير الزمان بدا بعـــد لأى فأغرانيه
وكنتُ ذكرتُ شقاء الوجود فلما بدا لىَ أنسانيـــه
وزين لى كل شىء أراه ، وجمّل بالنـــور أزمانيه
وأفعم بالحب رحب الفضاء فقد خلته مهجة حانيــــه
لأمرٍ أرتِ ظلام الحياة فأبصرت الأعين الرانيه
وجَلَّيْتِ لى خطرات الوجود وما كنّ قبلكِ من شانيه

يرى أن حكمى هذا يصطدم بهذه الآيات القرآنية .

ويقول فى تعليل هذا :

« فالجو العام للآيات هو تهديد وإنذار وتخويف ، يقذف باللهب ، ويرمى بالشرر ؛ ولكن التشبيه لا يبعث فى النفس إلا الطمأنينة والهدوء والظل الأبيض الناصع . نعم إن منظر الجمال الصفر متتابعة مختلطة متحركة فى تموج واضطراب هو هو منظر الشرر ، ولكن هذا المنظر لا يبعث فى النفس ، ولاسيما نفس العربى إلا المسرة والبهجة والشمر والجمال ، فالجمل أليف إلى نفسه حبيب إليها ، وهو حين يكون أصفر يزيد فى إعجابه وبهجته . الخ»

وهذا المشهد من مشاهد القيامة قد تحدثت عنه بتوسع فى كتاب « مشاهد القيامة فى القرآن » ، وهو فى المطبعة الآن . فأكتفى هنا بكلمة قصيرة إلى أن يظهر الكتاب !

ولست أرى وجهاً هنا للبس ولا للموازنة بين البيتين والآيات ؛ فإن مشهداً يصور جهنم ، وقد انبعث منها الدخان الكثيف المتشعب كأنه الظل ، ولكن « لا ظليل ولا يغنى من اللهب » ! وهى لضخامتها وهولها ترمى بالشرر كل واحدة منها فى حجم القصْرة — أى الشجرة الغليظة — أو فى حجم الجمل ... وهى تقذف بها فى عنف وشدة « ترمى بشرر كالقصر » لا متتابعة فى هينة وهدوء كما يريد الأستاذ أن يصور المشهد

وإن مشهداً مفزّعاً كهذا المشهد ، لا يدع للحس فرصة ولا فسحة ، يتملى فيها على هينة واتئاد ، وراحة بال واطمئنان خاطر ... منظر الجمال المتتابعة فى رتابة وجمال ، ومتتابعة مختلطة متحركة فى تموج واضطراب » فكل هذا لا أثر له هنا .

وقد استقلت لفظتا « القصر » — جمع قصرة — و « جمالة » جمع جمل — استقلتا بتصوير الضخامة — وهى المقصودة أولا فى المشهد — واستقلت كلمة « ترمى » بتصوير العنف — وهى المقصود ثانياً فى المشهد — ثم جاءت كلمة « صفر » لتعطى لهذا المشهد مجرد اللون ، ولتتم الصورة بحجمها وحركتها ولونها على طريقة التصوير فى القرآن .

ولو أراد مجرد الضخامة واللون دون العنف لقال مثلا : ترسل بشرر ولم يقل « ترمى بشرر » ، فكلمة « ترمى » تجىء هنا لتكمل خاصة معينة للصورة

واللون الأصفر فى مثل هذا المجال لايشيع فى المشهد ما أراد الأستاذ أن يشيع من الوضاءة والهدوء والصفاء !

وأنا أعيذ الأستاذ أن يقف لحظة أمام هذا المشهد الوضىء ! ولو - لا قدر الله - شهده ، ووقف حياله وقفة المهدد به ، لما أغنى اللون الأصفر فتيلا فى تخفيف هوله ، ولما وجد فى خاطره فسحة لتملى وضاءته ! فى ظل ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولايغنى من اللهب ، وهى ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر . إنها هنا صفرة النار التى ترمى بالشرر لا صفرة الظل الأبيض الناصع الذى يمتع النظر !

سيد قطب

تأبين المرحوم الأستاذ طه الراوى :

ستقوم دار المعلمين العالية ببغداد بالاتفاق مع وزارة المعارف العراقية ولجنة الترجمة والتأليف والنشر العراقية بحفلة تأبينية كبرى للمرحوم الأستاذ طه الراوى أستاذ الأدب العربى بدار المعلمين العالية ببغداد سابقاً ، وذلك فى ذكرى وفاته السنينية فى اليوم العشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦ . وقد تشكلت لجنة لتنظيم هذا الاحتفال برئاسة عميد دار المعلمين العالية وعضوية الأساتذة : محمد هاشم عطية ، والدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور عبد العزيز الدورى ، الأساتذة فى المعهد . وقد رأت اللجنة الاتصال بكافة الهيئات والمؤسسات والشخصيات التى لها صلة وثيقة بالمرحوم لتساهم فى الحفلة التأبينية . فنرجو ممن له هذه الصلة ورغب فى المساهمة فى الحفلة المنوه عنها أن يتفضل بإرسال كلمته إلى الملحق الثقافى بالمفوضية الملكية العراقية فى القاهرة (٧ شارع محمد مظهر باشا بالزمالك) ليقوم بدوره بإرسالها إلى لجنة التأبين

إلى البد ذات السوار رقم ٢ :

لم تأمريننى بالاعتذار ياسيدتى ؟ أبهذا الأسلوب - أسلوب الأمر - تسوق الأديبة طلبها ؟ مم أعتذر ؟ لم أجن ذنبا ولا جريرة أستحق عليهما اللوم والتثريب . إننى لم أسىء إلى قلم الأستاذ الطنطاوى فى كثير ولا قليل . وأشهد الله على ما فى نفسى أنى أحمل له كل توقير وتبجيل ، ولو كنتِ غصتِ إلى أغوار مقالتى لأدركتِ الرأى الذى أبديه ، والقصد الذى أبغيه

وما كان لى أن أستتر تحت اسم مستعار من تلقاء نفسى . ولكن المقام اضطرنى إلى هذا على غير رغبة منى . وإن كنتِ تخشين أن يحاسبك الناس فى حاضرهم حسابا عسيرا على مستقبلك فإنى والله لا أخشى إلا الذى برأنى وسوّانى . وإن تلك النفخة التى تخافين منها على أدبك الناشىء ، فلله الحمد ليس لى حتى كتابة هذه السطور شىء أرتاع لمرآه إن طيّره نفخ النافخين ، أو أتت عليه أقلام الكاتبين . وعلى كل حال إن المستقبل بيد الله

إن مقالتك لم تبعث فى نفسى وحشة ولا يأسا ، وإنما زادتنى أُنْساً بالأدب والأدباء . لو كان فى مقالى شىء من التجريح لمَا احتاج الأمر إلى دفاعك ، ولهب الأستاذ من فوره يسوق إلىّ النقاش ، وهو الأديب الأريب الذى له - ولزملائه كتاب الرسالة - مكان الثريا فى سماء الأدب .

وما دخل التشاؤم فى موضوعنا ؟ إن من سعادة الحياة أن أنظر إليها من خلال منظار التفاؤل ، ومن حسن الطالع أن حبانى ربى صديقات هن مبعث فرحتى ومصدر مسرتى .

دعى هذا يا سيدتى ، وتعالى لتشاهدى ضربا من الحياة جديدا . هل سمعتِ أو رأيتِ الأصم الأبكم كيف يتكلم ؟ إن تلاميذى وتلميذاتى من هذه الشرذمة البائسة التى قُضى عليها بفقدان السمع والنطق . وها نحن أولاء أخواتك ذوات الأساور نخفف بلواهم ، ونسعى إلى تحقيق مُناهم ، حتى تربطهم بالحياة وشائج يستطيعون معها مسايرة المجتمع .

لعلك اقتنعت بوجهة نظرى بما سقته إليك فى هذه العجالة ، ولست أختم حديثى بالاسم المستعار الذى استعرته لنفسك ، لأنى فى الواقع ممن لا يألفن التحلى بالسوار . وهأنذى أكشف لك عن حقيقتى كما أحب أن تكشفى لى عن حقيقتك ، وإلا ذهبت بى الظنون مذاهب شتى . وعسى أن يكون اصطفاق قلمينا فاتحة صداقة كنت أنت البادئة بها . ومما يشرفنى ويعلى قدرى أن نبرم سويا عهد هذه الصداقة تحت ظلال دوحة الرسالة الغراء التى لها الشكر أولا وآخرا ، إذ أفسحت وما تزال تفسح لنا فى رحابها مكانا لنشر أحاديثنا ، والسلام ؟

ربيعة محمد نسيم الله

مدرسة بمعهد الصم والبكم - بمطرية القاهرة

هواء الخالدة :

قصة مسرحية ألفها الأستاذ محمود تيمور بك ، وأخرجها الأستاذ زكي طليمات ، ومثلتها الفرقة المصرية بدار الأوبرا الملكية

وبطلا القصة عنترة بن شداد العبسي وصاحبته عبلة ، وليست القصة كما روتها أو زعمتها كتب التاريخ والقصص القديمة محيطة بطليها بهاويل البطولة والحب ، وإنما اتخذ المؤلف من زمانها ومكانها وأشخاصها ، جوا جديداً ، ومادة جديدة ، لعمل فنى جديد ، قوامه التحليل وعرض العواطف والميول الإنسانية على طبيعتها .

فعبلة امرأة تزهى بحب الرجل إياها ، وتتخذه لعبتها ، فتشتط فى مطالبها ، ولا تبالى أن تدفعه إلى الأهوال ، وتحمله على ترك الديار وتجشم الأسفار ، لتحقيق رغباتها التى يمليها مجرد العبث والزهو .

وعنترة رجل شجاع محب ، ذو بأس وذو قلب ، يبطش بالفوارس ، وترتد عن صفحاته الأسنة ، ولكن تنفذ إليه سهام الأنوثة ويفعل به سحرها ، فينصاع لعبلته ، ويسعى فى إجابة مطالبها غير مكترث بما فى طريقها من المشاق والمصاعب ؛ وترمى به الحبيبة المدللة فى سفر بعيد يمتد به الزمن ، ثم يؤوب كمن صحا قلبه فسلا وأقصر باطله ، ولكن لا يلبث أن يتسلل نشيد الحب إلى مكمنه فى فؤاده ، فيعود به إلى مغانيه ، ويظل يروض تلك القطة المزهوة الشرسة حتى ينالها ...

وواضح من سياق القصة أن المؤلف أراد أن يصور المرأة فى إدلالها وزهوها وتمنعها وتحايلها وأفانينها فى اللعب بالرجل — تصويراً أريد أن أقول إنه (كاريكاتورى) مستعيرا له هذه التسمية من ذلك التصوير الذى يقوم على المبالغة فى إبراز الخصائص ، وعلى هذا يمكن أن نحمل تلك المواطن التى بدت فيها عبلة على خلاف ما يجرى به العادة فى واقع الحياة ، كدؤوبها على العبث واللهو بعد ما قيل من موت عنترة ، وكفتورها فى استقباله بعد غيبته الطويلة على رغم حبها له .

ولكن ما بال عنترة يستقبل منافسه فى خطبة عبلة بالترحيب والتكريم حيث كانت تقتضى طبيعة الموقف وطبيعة الفارس البدوى أن يلقاه بسيفه ؟ حدث ذلك عند ما جاء هذا المنافس بعد إحضاره النياق العصفورية التى طلبتها منه عبلة ، فوجد عندها عنترة ، وكان عنترة أيضا قد عاد من سفره الطويل الذى دفعته إليه لجلب حجر الزمرد الذى اشترطته ليتم زواجها ، ونراه بعد أن يأتى لها به وبعد ما تجشم فى سبيله يستقبل خاطبها الآخر ويهنئهما ... وقد يقال إن أحداث السفر قد غيرته وجعلته يسلو ، ولكن ماذا يبرر ذلك الموقف الغريب حينما بُعث حبه ، وعاد فى هواه سيرته الأولى ، واستحرّ العناق بينه وبين عبلة ، وفاجأهما منافسه ، وإذا عنترة الفارس الذى استعاد صبابته يسلم إلى هذا المنافس حبيبته التى أفلتت من بين ذارعيه ، ويخاطبه كالمعتذر ... ويغادرهما ذاهباً إلى شأنه . ؟

وهنا نقول إن المؤلف آثر المرأة بعنايته ، إذ كان يهدف إلى إبراز خصائصها بذلك التصوير (الكاريكاتورى) ولكنه أهمل الرجل فصوره ذلك التصوير العجيب ، ولم يدبر أمره على سنن الواقع ومقتضيات الطبيعة ، ولم يبد لنا من هذا الصنيع هدف يبرره

وقد كانت هذه الرواية على مسرح الأوبرا مَجْلى الإخراج الفنى البارع المتقن ، وعرس اللغة العربية فى جلوتها ورنين جرسها على ألسنة الممثلات اللائى أثبتن أنها لغة رقيقة ... رقيقة ...

وهى مدعاة إلى استخذاء مؤلفى التمثيليات باللغة العامية الذين صدعوا رءوسنا بهرائهم ، ووجموا قلوبنا بادعاءاتهم التى لا تدل إلا على العجز المبين

ومن العجيب أنهم يمثلون بالعربية الروايات المترجمة ، ويؤلفون بالعامية التمثيليات المصرية ، كأن العربية فى البيئة الغربية أبين منها فى البيئة المصرية ! وأعجب العجب تمثيل قصص باللغة العامية وقعت فى العصور العربية من جاهلية وأموية وعباسية ! وما تزال أغانيها العامية تتردد على الألسنة كسلامة القسّ مثلا ! فإلى متى يظل هذا التهريج الفنى ؟ ومتى يرتفع الفن بالأذواق الساذجة بدلا من تملقها والانحدار إليها ؟

وأخيراً ، نسوق الحديث إلى محطة الإذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية ، لعل عربية (حواء الخالدة) تقنعها باصطناع اللغة الفصيحة فى إذاعة التمثيليات القصيرة التى أكثرت أخيراً من إذاعتها بالعامية ، وأهملت الفصحى فى هذا المجال كل الإهمال فيما عدا المترجم الذى تقدم العجب من الاقتصار عليه فى التمثيل بالعربية .

عباس حسان خضر



كتب قرأتها :

يقظة العــرب

تأليف المرحوم جورج أنطونيوس

ترجمة الأستاذ على حيدر الركابي

بقلم الأستاذ حبيب الزحلاوى

يقول مؤلف هذا الكتاب المرحوم جورج أنطونيوس فى مقدمته إنه « لا يرمى إلى تدوين التاريخ النهائى لليقظة العربية ... بل إلى رسم الخطوط الكبرى لأصول تلك الحركة » هذه الحركة التى مهدت تربتها ، وبذرت بذورها ، ونبت نبتها ، ونضج حبها ، وتم حصدها فى خلال نصف قرن ، لا بأفاعيل طافرة ، أو وثبات غير متزنات ، بل بعزيمة جبارة ، ومثابرة عنيدة ، مستمدتين من إرادة أمة موحدة لها فى بطون التاريخ فصول كتبها أجداد عباقرة أسمعوا الدنيا نداءهم ، ولقنوا العالم تعاليمهم ، وما هؤلاء الأحفاد سوى جيل وبعض جيل من أبناء الشام أيقظتهم حركة الانقلاب العثمانى عام ١٩٠٨ فاستنهضتهم فنهضوا إلى العمل فعملوا دائبين ملبين غريزة الجد فى طبيعتهم ، وقد دفعوا كل ثمن وبذلوا كل ما يستطاع بذله ، وجادوا بأقصى غايات الجود ، ونالوا نصيب المجاهد المؤمن ، وفازوا بتحقيق أمانيهم واستقلال بلادهم وحريتها ولم يكن ما قربوه من أرواح وأموال فى سبيل الوطن بالثمن الفادح الباهظ

تكاد تكون سطور هذا الكتاب بأبوابها وفصولها ووقائعه بأحداثها وتقلباتها وعظاته بعناصرها وأهوالها . أقول : تكاد تكون وقائعى « أنا » بالذات ، وما أوفر عدد من يقول « أنا » فى كتاب يقظة العرب ، إذ ما من فتى فى بلاد الشام سمع نداء الحرية يهدر كالسيل العرم متدفقاً من حناجر الآباء للاستقلال والحرية إلا تيقظ روحه لها وتلفح وعيه بجوهرها ، وسار على منوال أبيه فى اتباع أعمال الرجال الرصناء لنيلهما ، وقد نالهما بفضل إخلاصه لوطنه وقوميته وفنائه فى أمته

مؤلف كتاب « يقظة العرب » عالم بحاثة بفطرته ، لا يأخذ بالظواهر فيعود إلى البواطن ، ولا تجذبه الفروع فى الشجرة ، ولا الجذور المطمورة فى التربة ، بل يرضيه أن يفتش عن مصادر غذاء تلك الجذور وأنواعها ليعلم الدواعى الباعثة على تلك التغذية والغاية المرومة منها .

نعلم « كلنا » أبناء هذا الجيل أن العامل الأكبر فى يقظتنا يعود كما قلت إلى عام ١٩٠٨ وعندنا على هذا العلم شبه أدلة استوحيناها من استقراء عقلية آبائنا ومن مبلغ وعيهم القومى وإحساسهم بالوطنية العربية ، ولكن المؤلف البحاثة قد عاد بنا إلى البذور الأولى ، إلى الفواصل بين الدعوة إلى العروبة والدعوة إلى الإسلام والصلة الروحية بينهما ، ثم إلى الفتح العثمانى .

للحكم العثمانى آثار واضحة المعالم فى نفوس العرب ، لم يكتف المؤلف بتقصيها فى عهد السلطان عبد الحميد ، وهى جامعة للأسباب شاملة للنتائج التى قلبت الأوضاع العربية ، من مطالبته بالإصلاح فى ظل الحكم العثمانى ، إلى العمل سراً على الانفصال عن الترك ، إلى العوامل التى دفعت بجماعة « الاتحاد والترقى » الذين خلعوا السلطان عبد الحميد الطاغية ليقيموا أنفسهم طغاة مثله ، فكانت هى نفسها عوامل فعالة دفعت الأمة العربية إلى عمل إيجابى وهو بناء دولة عربية لحماً ودماً . أقول : لم يكتف المؤلف بهذا ، بل عاد بنا القهقرى إلى عهد محمد على وفتوح الشام على يده ، وشروعه فى تشييد مملكة عريقة ، واختلاف ابنه ابراهيم معه فى الرأى ، لأن الأول كان فى طبيعته خلاقاً للممالك ، بينما كان الثانى يعمل على الاحتفاظ بتلك الممالك ، وإن الأول كان يرى أن العرب ليسوا أهلا للحكم أنفسهم ، بينما كان الثانى يعتقد عكس رأى أبيه ، ولم ينس المؤلف موقف الإنجليز من محمد على وصدهم إياه عن تأليف المملكة العربية ، وقد خلص من هذا البيان المقتضب إلى ذكر تأليف جمعية أدبية فى بيروت قبل مستهل هذا القرن ، كان النصارى هم القائمين بها ، فما لبثت أن دخلها المسلمون والدروز ، ويقول إنها كانت البذرة الأولى لنهضة الفكر القومى

ويسهب فى وصف الإرساليات ونشرها المعارف ، وتزاحم أقطابها وتنافسهم فى تعليم أبناء البلاد علومهم ، وكيف لم تكن تعاليمهم خيراً محضاً ، وكيف تولدت الطائفية عند أبناء البلاد من جراء هاتيك التعاليم المتضاربة الأسباب والغايات . يمضى المؤلف البارع فى سبيله يتتبع سير الحوادث ، وقد اطردت بانتظام حتى انقدت نيران الحرب العالمية عام ١٩١٤ فيذكر مجىء الشريف عبد الله إلى مصر ومحادثه إلى كتشنر والعروض التى تقدمت للانتقاض على الحكم التركى ومخاوف الإنجليز من عواقب إعلان الترك للجهاد الدينى وقيام هؤلاء فعلا بإعلانه ، ونشر الراية المحمدية ، ووقوف سورية على مفترق الطرق توازن بين الوقوف إلى جانب الأتراك ، وبين شد عضد الشريف حسين المتحفز للثورة

يعرج المؤلف على ذكر العهود التى قطعتها بريطانيا العظمى للشريف حسين ورسائل مكماهون ، فنرى الثورة العربية تعلن فى مكة وتندلع نارها وتمتد حتى تدخل قواتها مدينة دمشق ويحتل رجالها البلاد السورية ، ونقرأ فى فصل الكتاب الثالث عهود الحلفاء المتناقضة ونرى مبلغ تكالبهم على اقتسام غنائم الدولة التركية وتنافسهم فى اغتصاب البلاد العربية واتفاق سيكس بيكو ورسالة بلفور إلى الملك حسين ومفاوضات لويد جورج للصهيونيين ووعد بلفور لليهود ، ثم التصريح البريطانى الفرنسى . ولعل أمتع ما فى هذا الفصل خيانة بريطانيا للعهد ومؤتمر القاهرة وأعمال لورنس والانتدابات على العراق ولبنان وسورية ، وقيام الثورات متعاقبة فى سورية ، ثم يأتى دور عقدة فلسطين ، وحق العرب وادعاء اليهود ، وهى العقدة الباقية تنتظر الحل العادل

وددت لو يتسع المجال فأقف برهة ليست بالقصيرة حيال بعض رسوم خطوط هذا السفر الجليل أضم بعض حلقات مفقودة لهذه السلسلة المحكمة العقد ، وأزعم أن لو اتصل المرحوم جورج أنطونيوس مؤلف هذا الكتاب بالكثيرين ممن ألجأهم المرض ، أو السن ، أو الضرورات ، إلى التخلف عن ركب الجهاد ، أو بالذين خلوا الطريق للمتقدمين الطامحين ، أو النهازة المتفرصين ، لكان استوفى أكثر بحوثه وشارف بها على الكمال

اضطلع بترجمة هذا السفر النفيس حضرة الأستاذ على حيدر الركابى فحق له الشكر الطيب والثناء العاطر يسديه إليه كل عربى بعد إذ يسر لأبناء العربية مراجعة سجل حياتهم وقد سلكوا فيها مسالك بناة الملك .

أبو زيد الهلالى

تأليف الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

لهذا الإسم بريق ولمعان ، وماض مجيد ، وحاضر خافت راكد ، ولكن هذا الحاضر مع خفوته وركوده لم يذهب ببهاء هذا الإسم ، ونضارته ، وما له فى نفوس العامة من أفراد الشعب من التجلة والاحترام . فيكاد يعرفه العامة أكثر مما يعرفه الخاصة — وأعنى بالمعرفة وفرة المعلومات وكثرتها ، لا واقعيتها وحقيقتها — فهو متصل بنفوسهم وحياتهم اتصالا وثيقاً ... يسمعون عن بطولته فى المقاهى والأندية الشعبية ، ما يلهب حماستهم ، ويشعل قلوبهم وأفئدتهم شجاعة وإقداماً ، ويقدم لهم لونا من الخيال الحبيب ، يرضيهم ويطربهم ، ولا يرتضون بغيره بديلا . . !!

وإذا كان من لوازم الأدب التأثير فى النفس ، فإن هذه القصة ، بلغت درجة لم تبلغها قصة غيرها على كثرة ما كان ينشر ويذاع بين هذه الطبقات ... إذ ظلت حديث المجتمع المصرى ثمانية قرون ، وظل شاعر الربابة يحدث بها الناس من العهد الفاطمى إلى اليوم ، بيد أن شعر القصة اليوم أصبح شبحاً ماثلا ولوناً حائلا يتلاشى صوته فى ضجيج العصر ، وجلجلة المذياع .

وليس من السهل تناول هذا الموضوع ، فلا يزال حظ الهلالية فى التاريخ قليل ، وأدباؤنا لا يعنون العناية اللائقة بهذا القصص الشعبى ، بل تركوه فى أيدى الوارقين — من الذين لا يعنيهم إلا جمع القرش — يتناولونه بالتحريف والتصحيف . حتى أصبح من العسير الوصول إلى الحقائق الناصعة ، والنتائج السليمة التى ترضى الباحث ويطمئن إليها الخاصة ، ولا يرتابون فيما يقرءون . . وويل للموضوع يفقد ثقة الخاصة ، ولا ينال تقديرهم واحترامهم ... !!

وبنو هلال وسليم من بطون مضر الكثيرة المتعددة ، الذين كانوا يعيشون قبل الاسلام عيشة البداوة والخشونة . ثم

دخلوا حظيرة الإسلام ، وحملوا رايته ، ورفعوا لواءه ، أيام بنى أمية فى الشام ، وبنى العباس فى العراق ، ثم بنى أمية فى الأندلس

ولأمر ما نزحوا من نجد ، وجاءوا إلى مصر ، فأسكنهم الخليفة الفاطمى صعيد مصر ، بيد أنهم لم يستقم لهم أمر ، فعاثوا فى الأرض فساداً ، وأصبحوا خطراً على الدولة ، فرمى بهم المستنصر ُ ملكَ صنهاجـة والقيروان المعز بن باديس ، وذلك لانحرافه عن مذهب الشيعة إلى مذهب أهل السنة ، وفى ذلك كتب اليازورى وزير المستنصر الفاطمى إلى المعز بن باديس يقول :

« أما بعد ، فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا ، وحملنا عليها رجالا كهولا ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ... » !!

وبذلك ضرب المستنصر عصفورين بحجر واحـد ، وهنا تتجلى بطـولة هؤلاء الأعراب ، وفروسيتهم التى عمـل فيها الخيال الطليق ، ما كاد يخرجها من عالم الحقيقة إلى عالم الخرافات والأوهام ...

ومهما يكن من شىء فقد تناول صديقى وزميلى الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف هذا الموضوع فى سلسلة « إقرأ » ، وهو أديب ناقد ، تخرج فى مدرسة « الرسالة » الغراء ، وكان له فيها جولات ، وقد رزقه الله قلماً يعرف كيف يصل به إلى نفوس القارئين . فلا عجب إذا لمَّ المتفرّق ، وجمع الشتيت ، جمع الناقد الفاحص ، واتخذ من هذا كله مادته فى هذا الموضوع ، فخلق منه بحثاً قيما مفيداً ، يجدر بكل أديب أن يمتع نفسه به فترة من الزمن ، ليجد ألواناً من الفكر المتزن . فيها جدة ، وفيها جرأة ، وفيها طرافة ولذة ...

ولصديقى فهمى عذره فى تَرداد اسم ابن خلدون كثيراً ، فهو يكاد يكون المؤرخ العربى الوحيد ، الذى عنى بالكتابة عن الهلاليين ، كتابة فيها مقنع إلى حدٍّ ما ... وعسى أن تتاح الفرصة لصديقى فهمى ، فيجلو بعض ما فى الكتاب من غموض يسير ، ويوضح بعض ما فيه من إجمال ، أعتقد أن ضيق المقام ، وتقيده بعدد الصفحات هو الذى اضطره إلى ذلك . والكتاب بعد هذا تحفة أدبية لا غنى عنها لأديب .

كتب من مراكش :

عصر المنصور الموحدى

تأليف الأستاذ محمد الرشيد ملين

للأستاذ عبد الكريم غلاب

وهذا كتاب آخر نقدمه إلى قراء مجلة الرسالة الغراء أصدرته الطبعة المراكشية حديثاً لمؤلف شاب استهل إنتاجه العلمى بهذا الكتاب الذى يقول عنه : « إنه حلقة من سلسلة « العصور الذهبية المغربية » التى اعتزم إصدارها

وقد كتب المؤلف كتابه عن شخصية وعصر . فصاحب الترجمة هو المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ، شخصية فذة فى تاريخ مراكش ، استطاع الكاتب أن يجعل من تاريخ حياته عصراً يتميز فى خططه السياسية والحربية ويتميز فى حياته العلمية والفكرية ، وبذلك أصبح عصره هذا جديراً بالدراسة والتأليف .

وقد وصل المنصور إلى الخلافة عقب وفاة والده يوسف بن عبد المؤمن عند رجوعه من حرب البرتغال ، فتحمل المنصور الأمانة وهو شاب لا تقوى ساعداه على تحمل المسؤولية ، وكانت أمانة الملك ثقيلة بأعبائها التى تركها له والده : كان البرتغاليون والأسبانيون يغيرون على أطراف المملكة الإسلامية فى الأندلس ، وكان على الموحدين أن يردوا هذا الاعتداء بصفتهم الحارس الأمين على دولة الإسلام فى تلك البقاع . وكان ابن غانية — وهو الذى بقى من نسل المرابطين — يريد أن يرجع دولتهم ، فبدأ بمحاربة الموحدين فى جزر البليار ، ثم انتقل إلى الجزائر وتونس ، محاولا أن يكون دولة مرابطية جديدة ، وأن يقضى على دولة الموحدين . وكان هناك بعض أعمامه واخوته ينقمون عليه أنه تولى الخلافة وهو أصغرهم ، ويرجعون ذلك إلى المصادفة التى جعلته يحضر الغزوة التى توفى فيها أبوه متأثراً بجراحه

كان على المنصور أن يواجه هذه الأعباء بلباقة وحزم ، حتى يستطيع أن يحتفظ بامبراطوريته الواسعة ، التي تمتد إلى الأندلس شمالا ، ثم إلى شمال أفريقيا ، بما فى ذلك طرابلس وبرقة غرباً . ولذلك كانت حياته سلسلة من المعارك الطاحنة التي اشترك فيها الجيش والأسطول ، فقد غزا الأندلس عدة مرات ، وكانت أشهر معركة خاضها هى معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ ، تلك المعركة التي تذكرنا بمعركة الزلاقة فى عهد يوسف بن تاشفين ، فقد انهزم حماة النصرانية فى الأندلس فى كلتا المعركتين واستتبت سيطرة المراكشيين على الأراضى الإسلامية هناك

أما على بن غانية ، فقد كان خصما عنيداً لم يكن من السهل القضاء عليه ، وخاصة بعد ما استولى على بجاية فى الجزائر ، وأخذ من رجال الصحراء جيشاً قوياً ليحمى به مملكته الجديدة ، ويعيد بها مجد أجداده المرابطين ، ويقضى على مملكة المنصور . ولكن المنصور تعجل الأمر فبعث إليه جيشاً مكوناً من عشرين ألف مقاتل أردفه بأسطول ضخم تحت قيادة أحمد الصقلى أمهر القواد البحريين فى ذلك العصر . ولم يفد ابن غانية التجاؤه إلى الصحراء ثم فراره أخيراً إلى تونس ، فقد تتبعه المنصور فى معركة أخرى كان من نتائجها أن استولى على كل هذه البلاد ، وقضى على خصمه الألد ، بل قضى على أتباع قراقوش الذين كانوا يساعدونه. وبذلك خضعت الأمبراطورية كلها لرئيسها الأعلى المنصور الموحدى

أما العقبات التي أثارها أعمامه واخوته الذين تأخروا عن مبايعته ، أو أرادوا أن يثوروا عليه أثناء مرضه ، فقد عالجها المنصور بلباقة وحزم ، جعلت أعمامه يخضعون ، وجعلته يتمكن من أخيه الذى حاول الثورة ويقضى عليه بسهولة

ذلك هو الجانب السياسى والحربى من حياة المنصور ؛ بيد أن هناك ناحية أخرى فى حياته لا تقل روعة عن هذا النجاح الحربى ، تلك هى ناحية العلم والإصلاح . فقد كان المنصور عالماً يعقد المجالس للعلماء ليساجلهم فيما يعرضون من أفكار وآراء ، وقد كان من أبرز علماء هذه المجالس ابن رشد الفيلسوف وابن زهر الطبيب . وكان إلى جانب ذلك أديباً وشاعراً ، كما كان فقيهاً ومحدثاً . وبذلك اصطبغ عصره بالصبغة العلمية التي جعلته من أزهى عصور التاريخ المراكشى . ونزعة المنصور الإصلاحية واضحة التأثير فى العصر الذى نتحدث عنه ، فقد وجه جهوده إلى القضاء على كل أسباب الفوضى الإدارية والقضائية والاجتماعية ، كما وجه همته إلى محاربة الأمية : فجعل التعليم إجبارياً للذكور والإناث ، ويكفى أن نقول إنه حارب فكرة عصمة المهدى (مؤسس الدولة الموحدية) ، وهى التي قامت على أساسها هذه الدولة

ذلك موجز لكتاب « عصر المنصور الموحدى » ، وقد وفق المؤلف فى عرضه لهذين الجانبين من عصر المنصور ، فكان ترتيب الفصول طبيعياً ومتسلسلا ، وخاصة فى الناحية السياسية. وبذلك توفر فى الكتاب نوع من التنظيم قل أن نجده فى كتب التاريخ . أما أسلوب الكتاب ، فهو سلس وفيه بريق ولا يخلو من مسحة شعرية . ومما يتصل بذلك أن المؤلف لا يكثر من سرد النصوص التاريخية ، ولكنه يكتفى بعرض الحوادث فى أسلوبه الخاص مشيراً إلى المصدر فى أمانة وإخلاص

غير أن لى بعض الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب : منها أن كتابة التاريخ لم تعد سرداً للحوادث ولا تلخيصاً لما كتبه القدماء ، ولكنها أصبحت فناً يقوم على شىء من التفكير وشىء من الفلسفة . ورب حادثة بسيطة لا تسترعى الانتباه تقوم عليها حياة العصر ، ولو وقف عندها المؤرخ قليلا ووهبها شيئاً من نفسه وتفكيره لشرحت له دقائقه وأسراره . ولكنا لم نجد فى كتاب عصر المنصور أى مجهود من هذا القبيل ، ومن أمثلة ذلك أن المنصور تحول عن عقائد الموحدين وآرائهم التي قامت على أساسها دولتهم ، وأنه وقف من ابن رشد موقفاً غريباً ، فقد كان راضياً عنه مقرباً له ، ثم غضب عليه ، ثم عاد فاستدعاه إليه وقربه . يعرض المؤلف هاتين الحادثتين كما رواها المؤرخون ، ولكن لماذا حصل كل ذلك؟ وكيف؟ لا نجد فى الكتاب تبريراً لذلك

ومن الملاحظات الهامة أن دولة الموحدين قامت على عقائد معينة أتى بها المهدى بن تومرت وأقام الدولة على أساسها عبد المؤمن جد المنصور . وقد كان حرياً بالمؤلف أن يعقد فصلا لهذه الأفكار

عدد «الرسالة» الممتاز

سيصدر بعون الله عدد « الرسالة » الممتاز في الأسبوع الأول من شهر يناير سنة ١٩٤٧

والعقائد التي قامت عليها الدولة

ومما يؤخذ على المؤلف أنه يسبق الحوادث أحياناً فيدلى بالنتائج قبل أن يسرد الوقائع التاريخية .

وقد قلت من قبل إن الكتاب نظم تنظيما دقيقاً ، ولكن المؤلف يعرض أحياناً لبعض الإصلاحات الإدارية والعمرانية والاجتماعية والقضائية ضمن ما كتبه عن الحياة السياسية . فقد كان حرياً به أن يعقد فصلا مستقلا لما قام به المنصور من إصلاحات

وكنت أحب أن لا أعرض لما وقع فيه المؤلف من أخطاء إملائية ونحوية ولغوية ، ولكن الأخطاء كثرت بحيث لا تكاد تخلو منها صحيفة من صحائف الكتاب ولعل فى ذلك أيضاً مايغنيني عن ضرب الأمثلة . ويجب أن أنبه إلى أن مثل هذه الأخطاء تنقص من قيمة الكتاب . وتشوه من جمال أسلوبه

ولست فى حاجة إلى القول بأن هذه الملاحظات لا تغض من قيمة الكتاب العلمية ، وحسبى أن أهنئ المؤلف على مجهوده ، وأن أرجو له التوفيق فيما سيصدره من كتب عن العصور الذهبية المراكشية .

العدد ٧٠٢ — الاثنين ١٦ ديسمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

٢٧ . ٤٩

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 702

Lundi — 16 — 12 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ـــــ
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العــدد ٧٠٢ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٢ محرم سنة ١٣٦٦ — ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

احذرى أيتها العرب

للاستاذ محمود محمد شاكر

اليوم ، لقدْ أحدَّ الجزَّار شفرته وشمّر عن ساعديه ، وأقبل على الذبيحة يريدُ أن ينحرَها نحراً فذاً ، وهي راضيةٌ عنه داعيةٌ له ، مستسلمة بين يديه ، مقرَّةٌ له بأن ذَبْحَها هو نجاتُها ، وأن شفرته هي كما قال الراجزُ في دَلْوِه : « قاتِلَتى ومِلؤُها حياتى » ! !

وبالأمس — في سنة ١٨٨٢ — وطئت إنجلترا أرضَ مصر لتدعم ما تزعزع من أركان عرشها ، كما زعمت وزعم لها من لا يتورّع ولا يتحرّج ، ومنذ ذلك اليوم والسكّين ماضٍ في تمزيق أشلاء ذلك البدَن المخدَّر بالأكاذيب وبالغفلة وبالجهل وبالخيانة ، والذي كان يسمّى العالمَ العربي والعالم الإسلامىّ .

وما مضى إلاّ قليلٌ حتى طارَتْ أشلاء هذا البدن بدداً متفرقة مفصَّلةً ، ذهبتْ مصر وحدها ، وذهب الشامُ وَحْدَه ، وذهب العراق وحده ، وذهبت مراكش وحدها ، وذهبت طرابُلس وحدها ، وذهبت تركيا وحدها ، وقطعت عُنُق الخلافة ، وقضى الأمرُ .

واليوم يوشِكُ أن يكون ما كان بالأمس ولكن على أسلوب آخر : أن تُحشَد هذه المِزَقُ المقطعة حشداً جديداً لتساق إلى يوم الحشر ، لتساق مخدَّرة بالأكاذيب وبالغفلة وبالجهل وبالخيانة مرّةً أخرى إلى الهُوَّةِ المضطرمة التي لا تُبْقى على حيٍّ ، إلى الحرب الثالثة .

***

هذه إنجلترا تريدُ مرّةً أخرى أن تعود بخيلها ورجالها وأعوانها وصنائعها ، وبمداوراتها وسياساتها ، لتضرب الضربة الأولى كما ضربتْها في سنة ١٨٨٢ ، ولتخضع أعناق المصريين شاهدَهم وغائبَهم لأحكام معاهدةٍ عجيبة ظاهرها فيه الرحمة (أى الدفاع عن مصر والشرق) وباطنُها من قِبَله العذاب (أى نكال الحرب الثالثة) . ولن تفرغ منها — إذا قدّرَ الله أن تفرغَ ، ولا قدَّر — حتى تحملها لتدور بها على أمم العرب واحدةً بعد واحدةٍ ، لتنال منها صكاً مكتوباً ، بالأسلوب الإنجليزى ولا ريب ، يجعلها جميعاً في قبضة الأسد البريطانى ليوم الحشر ، فعندئذ تسوقهم جميعاً كعادتها إلى المجزرة الكبرى مُقدَّمين في الصفّ الأول ليكونوا قُرْباناً لجبّار الحروب ، ووقاءً للدّمِ الإنجليزى أن يُهراق منه في حروب الإمبراطورية البريطانية إلاّ ما لا بُدَّ منه تحِلّةَ القسم وردَّ العين الحاسدة ، كما حدث في الحرب الأولى والحرب الثانية ، حيث لم يُسْفَك

من الدم الإنجليزى إلا الأقل ، وحملت العبء كله تلك الأنعام البشرية التى جُمِعت من الأسود والأبيض ، من بقاع إفريقية وأرجاء الهند ومن نواحى هذه الإمبراطورية التى تقبّل الشمسُ مواطىء أقدامها حيثما دارت فى مدارها .

فاحذرى أيتها العرب ... احذرى .

إن السياسة البريطانية هى السياسة البريطانية ، أى هى الجشعُ المحتالُ المخادعُ الذى يستلُّ منك أعزَّ ما تحرصُ عليه بالشدّ والإرخاء والترغيب والترهيب والظهور والاختفاء ، حتى تنهارَ النفوسُ وتسكُنَ من جهْدٍ أو إعياء . انظرى ماذا فعلت ، أو ماذا كانت تريد أن تفعلَ بمصر . شهرٌ بعد شهرٍ بعد شهرٍ والدُّنيا كلُّها من حولنا تعج عجيجاً بالمفاوضة والمعاهدة وبالأخذ والردّ ، وبالموافقة والمعارضة ، وباللين والشدة ، وبالسكينة والصخب ، حتى دارت الرؤوس على أعناقها ، وتحيّرت العيون فى محاليقها ، وتشتّت منارُ الهُدَى وخيفَ على صاحب الرأى أن يزول عن رأيه ، وما زالت إنجلترا تمدُّ للطامعين مدّاً وهُمْ يسمَوْن وراء ألفاظها الخلاّبة حتى أعيتْهم ، وكادت لهم كيداً شديداً حتى أطفَتْهم فطفئوا ، وأرادوا أن يضربوا على عقول هذه الأمة وألسنتها بالقهر والعنف والاستبداد حتى تدعَ العقلَ واللسانَ ، وتقبلَ منهم ما أرادوا هم أن يفرضوه علينا فرضاً .

ولكن يأبى الله أن يكونَ لهذا الكيد كله قرارٌ ، فهذه الفئة التى ظنَّت أنها سوف تخدعُ إنجلترا عن نياتها الملفّقة فى الألفاظ الكاذبة ، قد جاءها البرهان الساطعُ القاطِعُ ، بأن هذه الدولة « المفاوضة » تضع الألفاظ على قدرِ ما تريدُ ، لا على قدر ما يريدُ مفاوضُها أن يفهم . فإذا خيّلت له نفسُه أنه فاهمٌ من النصِّ ليقول لها ويبين عن فحوى ألفاظها أرسلت عليه شيئاً يردّه إلى صوابه . فبالأمس كان المفاوض المصرىّ يزعم لمصر أنه جاءها « بوحدة وادى النيل » ، وأن النصّ المتعلق بالسودانِ كان خيراً كلّه ، وأنّ وأنّ ... فما أصبح الصباحُ حتى طلع عليه شىءٌ من أشياء بريطانيا يقول له : جاوزتَ حدَّك فاستبقِ ، وأن بريطانيا لا ترضى هذا التفسير المصنوع من جانب واحد ، وأن السودان وديعة فى اليد البريطانية ، والودائع مستردّة ، والخيانة فيها تفريطٌ لا يليقُ بالشرف البريطانى ! فنحنُ فى السودان أمناء عليه ، ولن ندعَه لِمصر العادية الباغية تفعل فيه ما تشاء كأنه جزءٌ مِنها ! ! بل لا بُدّ لنا من أن نبقى هناك حرّاساً حتى يبلغ السودان رشده بعد السنين التى يقتضيها بلوغه الرُّشْد ! وعندئذ يكون للسودان أن يختار بعد أن يكون قد تهيأ لحكم نفسه بنفسه .

هذه هى السياسة الصريحة المتكشفة ، وهذه هى بريطانيا على حقيقتها ، وهذه هى ألفاظها المكتوبة مفسرةً فى تصريح حاكم السودان . فليت شِعْرى ما الذى يظنّه امرؤٌ فى نَفْسه ذَرّةٌ من الإيمان بحقّ الإنسان فى الحرّية . ما الذى يظنه كائناً بعد ذلك فى تفسير نصوص المعاهدة التى يُرَادُ لنا أن نرتبط بها مع هذه الإمبراطورية ؟ ومهما تكن نصوصُ المعاهدة ، ومهما يُقَلْ فى تسويغها أو تقريظها ، وسواءٌ أكانتْ هذه المعاهدة المعروضة اليوم أم غيرُها ، فهل يحِلُّ لمصرىّ أو عربىّ أن يأمنَ على بلادِه بعد هذه الخديعة التى لا تعرفُ وَرَعاً ولا حياء ؟ !

وليس هذا فحسب ، لقد قال حاكم السودان ما شاء ، فماذا كان جواب الحكومة المصرية على هذا التصريح العجيب ! كان الجواب أن ينشر رئيس الوزراء كلمة يحتج فيها على تصرف حاكم السودان ، وأنه قد تجاوز حدود وظيفته من حيث هو حاكم إدارى ، ومن حيث هو موظف مصرى بريطانى معاً ! أيكون حقاً حاكم السودان هو المسئول عن تصريحه ، وهو ينسبُ مايقول إلى الحكومة البريطانية بلسانه ! هذا ، ومن الغفلة أن يظن ظانٌّ أن رجلا إنجليزياً يدير شيئاً من أمور هذه الامبراطورية يجرؤ أن يتكلم من ذات نفسه بالنيابة عن حكومته ويوقعها فى ورطة سياسية كهذه الورطة . إذن أفما كان أولى وأجل وأكرم وأنبل وأشجع أن يوجه الاحتجاج رأساً إلى الذى أنطق هذا الرجل بما نطق به وأن يقال لهذه الحكومة البريطانية « المفاوضة » إنك أنت اللومة لا هذا

الرجل ! ولكن هكذا كان .

فما الذي سيكون غداً أيها الرجال الدافعون بأقلامكم وألسنتكم إذا جاءتكم لجنة الدفاع المشترك ، وجاء البريطانى ، ونطق لسانه بما لا تطيقه هذه الأمة ولا ترضى عنه ؟ أتظنون أن موقف الرجال المصريين الذين سيختارون ليكونوا أعضاء فى هذه اللجنة ممن تستطيع أن « تعمل معهم » ، سوف يكون أكرم أو أولى أو أشجع من موقف رئيس الوزارة السابق حيال تصريح حاكم السودان ؟ ستقولون كما قلتم : هذا مطعن فى الضمير الوطنى المصرى ... وكلا ! ليس هذا مطعناً ، فإن الرجال الذين سيختارون لهذه اللجنة سيكونون ممن « صُنعوا على عين بريطانيا » منذ احتلت مصر فى سنة ١٨٨٢ إلى هذا اليوم . ولأن يقال إن هذا الذى نقول مطعن خير من أن تُلقى مصر كلها تحت أقدام بريطانيا وفى تنور حروبها ، لتكون دماء أبنائها فداء للدم البريطانى الطاهر المقدس .

* * *

أيتها العرب احذرى ... احذرى هذا المصير الذى يرادُ لمصر لا قدر الله أن تصير إليه . ولئن كان هذا يومنا نحن ، فغداً يومكم ليُعرض عليكم مثل الذى عُرض علينا لتكون لكم « لجنة دفاع مشترك » كلجنتنا نحن ، فاحذرى أيتها العرب ، ولا تقرى بينك وبين بريطانيا معاهدة أبداً ، فإن بريطانيا تريد بجمعكم اليوم على مثل هذه المعاهدة ، كالذى أرادته بكم جميعاً يوم وطئت أقدامها أرض مصر فى سنة ١٨٨٢ ، تريد أن تمزقكم بعد أن تكونوا وقوداً لنيران الحرب الثالثة .

أيتها العرب احذرى ... فإذا كنت نازلة فى ميدان الحرب الثالثة فانزليها حرة لتموتى حرة ، ولكن لا تُلقى بفلذات الأكباد فى أتون الحرب المسعورة ، ليكونوا هناك عبيداً ويموتوا عبيداً ، كما تريد المعاهدات الإنجليزية بنا وبأبنائنا وبناتنا وأوطاننا

أيتها العرب احذرى ...لقد لبثت إنجلترا تدس لكم وعليكم وتنشِّئ فيكم أجيالا من الخلق صاروا لها صنائع وأعواناً ، أرادوا ذلك أو لم يريدوه ، وعرفوه أو جهلوه ، وعين إنجلترا بصيرة نفاذة فهى تختارهم وتمهد لهم ، وتحملهم بسلطانها وبحيلها وبتهديدها حتى ترفعهم إلى الذروة التى تجعلهم أهلا للمكانة فى بلادهم ، ثم لا تزال تعمل هنا وهناك بأنامل بصيرة قادرة متدسسة حتى يتم اختيارهم ، فيتولوا هم زمام هذه الشعوب المسكينة ، ثم تقول لهم كما قال الأول :

فعِث فيما يليك بغير قصد فإنى عائثٌ فيما يلينى

وإذا هؤلاء المساكين الذين ارتفعوا إلى غير أقدارهم ومنازلهم يكيدون لأممهم من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون ، وإذا سياسة الأمم الناهضة فى أيد لا تُحسن إلا العيث والفساد ، ومصايرها على ألسنة لا تُحسن إلا التغرير والدهان والمالقة .

أيتها العرب احذرى . . ودعى المفاوضة والمعاهدة بينك وبين بريطانيا حتى ترد إليك كل حقوقك كاملة غير منقوصة ولا متهضَّمة ، فإذا فعلت فانظرى فى مراشدك . أما إذا قال لك هؤلاء : وماذا تفعلين أيتها العرب إذا لم تفاوضى إنجلترا وتعاهديها ؟ إذا ألقوا إليك هذا السؤال العاقل الحكيم الذى يفرض عليك أن تتركى نصيباً من الحرية من أجل كواذب الآمال والوعود ، فاعلمى أن هذا التعاقل « الشديد » فسادٌ فى الطبائع التى تلقيه عليك :

يرى الجبناء أن العجزَ عقلٌ وتلك خديعةُ الطبع اللئيم

* * *

وأنتم أيها الكتاب العرب : هذه أمانة القلم تعرض اليوم عليكم ، وهى أثقل الأمانات ، فاحملوها بحقها أو دعوها بحقها ، فإن الأيام أسرع مُضياً من البرق فى حواشى الغمام . ومن حمل أمانته فعليه أن ينذر قومه قبل أن يأتى يوم لا تغنى فيه النُّذر ، وقبل أن يأتى يوم لا يردّ فيه البكاء على فائت !

محمود محمد شاكر

على هامش النقد :

غفلة النقد فى مصر

للأستاذ سيد قطب

فى تقديرى أن الضجة المفتعلة التى أثيرت حول ذلك الكتاب المريب ، كتاب الشيخ عبد الله القصيمى ، والتى ازلق فيها بعض الكبار مخدوعين بما صوره لهم المؤلف من مخاوف تحيط به وبكل تفكير حر فى المملكة السعودية ، هذه المخاوف التى تدنيه من حبل المشنقة بسبب كتابه ... إلى آخر ما أجاد المؤلف تمثيله من الأدوار ...

فى تقديرى أن هذه الضجة وذلك الانزلاق فضيحة أدبية لمصر ، وقد تؤخذ دليلا على غفلة النقد فيها إلى حد مخجل .

ولقد قُدّم إلىّ هذا الكتاب ، وأديرت على سمعى « الاسطوانة » التى أديرت على أسماع الكثيرين ، وتأثرت ساعتها وتحمست ؛ لحياة كاتب ليست بالشىء الهين ؛ وإهدار هذه الحياة بسبب رأى أو فكرة مسألة لا يحتملها القرن العشرون فوق ما فى الفكر الإسلامى من سماحة تبرئه من الجنوح إلى طريقة محاكم التفتيش .

ولكننى حين عدت فقرات الكتاب بردت هذه الحماسة ، وفتر ذلك التأثر ؛ لأننى لم أجد إلا كاتباً مريباً ، يتناول مسائل ميتة فى الغالب ، ومشاكل محاولة — حلها الزمن فى البيئة الإسلامية منذ نصف قرن على الأقل — ويزيد عليها فكرة مسروقة بنصها وبجزئياتها وبشواهدها من كاتب شاب يعيش وكتابه حديث الصدور لم يبعد به الزمن فينسى ... ليتخذ من ذلك كله ستاراً طويلا عريضا يلف به دعوة غير نظيفة ، للاستعمار والمستعمرين .

ولم أشعر أن الرجل فى خطر ، فأمثال هؤلاء يعرفون طريقهم جيداً — كما قلت فى مرة ؛ ولا خوف عليهم من الشنق ولا غيره . ولو كانوا يعرفون أن الشنق ينتظرهم حقاً ، لما أقدموا على فعلتهم ؛ لأن الحياة على كل حال أغلى من كل ثمن سواها قد يأتى به الكتاب !

ووجدت أنه من المهانة لمصر أن تنزلق فأكتب عن كتاب تافه مريب مسروق كهذا الكتاب ، يسلك صاحبه هذا السلوك فى الاحتيال لبعث الاهتمام به ، وإثارة الضجة حوله ؛ كما أنه يثبت على غلافه شهادة من نفسه لنفسه ، هذه الجملة التبجحة :

« سيقول مؤرخو الفكر : إنه بهذا الكتاب بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » !

ثم ما أشعر إلا وضجة عجيبة يثيرها بعضهم حوله . وهنا فقط وجدت أن لا بد من كشف الستار . فهى فضيحة . وفضيحة لمصر خاصة ، أن تبلغ غفلة النقد فيها هذا المستوى العجيب !

***

لكى ننقد كتابا يعالج مشكلات اجتماعية ونفسية وإنسانية يجب أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة الثلاثة :

١ — هل يعالج الكتاب مشكلات حية تعيش فى هذا الأوان ؟

٢ — هل نفذ إلى صميم هذه المشكلات ، وصورها التصوير الصحيح ، واقترح لها الحلول المناسبة .

٣ — هل كان أصيلا فى تصورها وعلاجها ؟

وقد سألت نفسى هذه الأسئلة ، وكان الجواب باختصار :

١ — إن المؤلف « دون كيشوت » جديد يطعن برمحه طواحين الهواء يحسبها فرساناً ، ويشق بها زقاق الخمر يحسبها قساوسة ! ويحمل حملات شعواء على أولئك الذين يمدحون الجهل ويذمون العلم ، ويقررون أن الجنة لا يدخلها إلا البله ، ويؤمنون بأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنما بعثت بخراب العالم ...

ولكنه لا يقول : إن هذا كله كان من أوهام العوام ، كان خرافات سوداء فى عهود الظلام ، ثم انتهت بانتهاء هذه العهود المظلمة ... لا يقول هذا ، إنما يتهم العقلية الإسلامية بأن هذه هى أهم مشكلاتها وعقائدها دائما أبدا ليصل من هذا الطريق الملتوى إلى تحقير هذه العقلية فى جميع الأزمان ، وإلى إيثار العقلية الأوربية لأنها خلعت ربقة الدين ، وربقة الخلق ، وربقة التطلع إلى الله ،

وانطلقت تهدف إلى الأرض وحدها ، ولا تعلق نظرها مرة واحدة بالسماء . لأن التطلع إلى الله كفيل بإفساد الحياة !

وفى ثنايا هذا الذى يبدو تحررا فكريا فى ظاهره ، يخدع المخدوعين ممن يحسبون التحرر الفكرى مجرد التحلل من الأديان والأخلاق على أى وضع من الأوضاع ، فى ثنايا هذا يدس ما لعل الكتاب كله قد ألف لأجله : يدس الإيحاء للشرق العربى المسلم بأن لا حق له فى كراهة الاستعمار والمستعمرين ، لأنهم ورثة الأرض الذين يستحقون كنوزها وخيراتها ، لأنهم يتطامون إلى الأرض وأسبابها ، ولا يعلقون أنظارهم بالله ولا بالسماء !

وهناك مسألة أو مسألتان حيتان فى الكتاب ، ولا تزالان تعيشان ، لأنهما إنسانيتان : مشكلة الإيمان بالإنسان ، ومشكلة الإيمان بالأديان .

فأما الأولى فهى قضية الأستاذ عبد المنعم خلاف فى كتابه « أومن بالإنسان » . وقد شغلت من كتاب « هذى هى الأغلال » نحو أربعين صفحة أولا ، وتغلغلت فى ثنايا الكتاب كله أخيراً .

وأما المشكلة الثانية فقد عولجت بسلسلة من المغالطات والأغلاط تتلخص فى أن روح التدين تخالف روح الحياة ، وأن المتدين لا يمكن أن يكون رجل دنيا ... وهذا منطق لا يستحق الاحترام لأن الشواهد الواقعة تنفيه ، ولأن الدين روح حافز للعمل ولا سيما فى الإسلام الذى يصب عليه المؤلف جميع أوزار التأخر والانحطاط وإن عاد فالتوى ونفى عن الدين ذاته هذه الأوزار فى نفاق ظاهر يستحق الاشمئزاز دائما ، ولا يثير الاحترام .

٢ - ولعل الجواب عن السؤال الثانى يكون قد اتضح من الجواب على السؤال الأول ؛ فالنفاذ إلى صميم المشكلات يستدعى قسطا من الاستقامة والإخلاص . وهذان العنصران مفتقدان فى الكتاب كله .

فهو مثلا يستخلص سمات التفكير الإسلامى من أوهام العامة وخرافاتهم ، ومن أقوال لبعض المتصوفة وأمثالهم ، بدل أن يستخلصها من مجموعة المفكرين والمشرعين والفاتحين والعاملين فى التاريخ الإسلامى الطويل . فالحضارة الإسلامية كلها وعمارة الأرض وسياستها فى جميع العصور ليست داخلة فى حساب المؤلف ، وليست دليلا على شىء من خصائص العقلية الإسلامية . إنما الذى يصور هذه العقلية وحده دون سواه . أقوال كهذه الأبيات :

من أنت يا رسطو ومن أفلاط قبلك قد تجرد
ما أنتمو إلا الفراش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفســـه ولو اهتدى رشداً لأبعد

وكلمات للمتصوفة والزهاد يذمون الدنيا والعلم والعقل ، ويمدحون الزهد والبلاهة والغيبوبة .

أولئك هم جميع المسلمين فى نظر المؤلف ، وهذه هى عقليتهم الإسلامية التى يجرد قلمه لينسفها نسفا ، فيقف جماعة من النقاد فى مصر يعجبون بهذا القلم القوى البتار !!!

وبمثل هذا الالتواء المريب يواجه مسألة التدين ومسألة الأخلاق ، ومسألة الأرض والسماء ، فلا ينفذ إلى صميم مشكلة واحدة ، لأن عنصرى الاستقامة والإخلاص لا يتوافران .

٣ - أما الجواب عن السؤال الثالث فهو فضيحة الفضائح فما عهدت أن يعمد مؤلف إلى مؤلف حى ، فيقبض فصولا كاملة من كتابه قبضا ، ويمهرها بتوقيعه ويطلع بها على الناس .

جرأة نادرة . ولكنها جازت على النقد فى مصر !

لقد كنت - وما زلت - أفهم ، أن الناقد قارىء متتبع لسير الفكر . فهذا هو الشرط الأول للناقد كيما يستطيع أن يؤرخ خطوات الفكر ، ويعرف من السابق ومن اللاحق .

وأنه يتحرج أشد التحرج من إصدار حكم بالسبق والأهمية ، إذا لم يكن قد اطلع على كل ما سبقه أو جله ، لأنه مسئول عن تقرير أحكامه للضمير وللتاريخ وللقراء .

فما بال كتاب صدر منذ عهد قريب ، ونشر قبل ذلك فصولا فى مجلتين مقروءتين ، ثم يجىء كاتب ، فيهجم هجوما بشعا على فكرته ، وطريقة عرضها ، وبراهينها وأدلتها ، ثم لا يجد ناقداً يقول له : مكانك فهذا استغفال !

لقد عملها الرجل ، ولم يجد من يقول له هذه الكلمة فى مصر إلا بعد حين !

لقد عملها وهو يتحدى : « سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » !

ترى كان الرجل يتوقع هذه الغفلة ، أم إنه وقد نزع عن نفسه « الأغلال » لم يكن يبالى وقد صدّقت الأيام ظنه أو تكاد !

***

إن فى مصر غفلة نقد منشؤها أن كثيراً من الكبار الذين كانوا يتولون حركة النقد لم يعودوا يقرأون . وإذا قرأوا لم يقرأوا للشبان ، استصغاراً منهم لما ينشىء أولئك الشبان .

وهم أحرار فى هذا ، ولا يستطيع أحد أن يجبرهم على قراءة معينة . فهم فى دور الكهولة والشيخوخة كثيرو المتاعب ، ولأنفسهم عليهم حق ، ولهم أن يقضوا أوقاتهم فى لذائذهم الحسية والفكرية حسبما يشتهون . فإن من حقهم أن ينالوا الراحة والحرية بعد الجهاد الطويل .

ولكن عليهم فى مقابل الراحة والحرية ألا يتعرضوا للنقد ، فيصدروا فيه الأحكام إلا بعد تتبع لحركة الفكر فى كل كتاب يصدر فى الفن الذى يريدون نقده ، وإصدار حكم عليه فذلك هو واجب الضمير الأدبى فى أضيق الحدود .

إن القراء يثقون بهم إلى حد ، وهذه الثقة تدعو إلى تحرى الدقة ، فلا يفتون بغير علم ، أو بعلم ناقص . فتلك تبعة ثقيلة على الرقاب .

وأنا واثق أن بعض الذين كتبوا عن كتاب الأغلال ، ما كانوا ليكتبوا لو أنهم أولا قرأوا الكتاب كله ولم يكتفوا بتصفح بعض فصوله . ثم لو أنهم ثانيا كانوا قد قرأوا كتاب الأستاذ عبد المنعم خلاف ، مهما تكن حيلة الرجل بارعة ومهارته فى الدعاية قوية .

***

وقبل أن أنهى هذه الكلمة أوجه إلى فريق آخر من المتزمتين لم يقابلوا الكتاب هذه المقابلة . بل ثاروا عليه وناهضوه وشغلوا أنفسهم بالاحتجاج عليه . وقيل لى : إن بعضهم أخذ يؤلف كتبا فى الرد عليه .

هؤلاء يشاركون — من غير قصد — فى الضجة المفتعلة التى يثيرها الرجل حول كتابه وحول نفسه .

هونوا على أنفسكم ، فالدنيا بخير !

لقد ترددت مرة ومرة فى أن أكتب عن هذا الكتاب التافه المريب ؛ لأن كل ضجة حوله تبلغ به الغاية التى أرادها له صاحبه ومن يهمهم نشر مثل هذه الكتب فى الشرق العربى الناهض لمجاهدة الاستعمار .

ولقد كان رجال الإرساليات التبشيرية فى الشرق يتعمدون إثارة الضجيج حول حوادثهم فى مصر منذ سنوات ، فى خطف بعض الفتيان والفتيات ، ليبرهنوا للجمعيات التى أرسلتهم أنهم ذوو خطر ، وأن لحركاتهم فى دار الإسلام صدى .

أقول كانوا يتعمدون إثارة الخواطر ، بافتضاح الحوادث ليبلغوا هذه الغاية ، وصاحبنا فى طرائقه ليس ببعيد عن هؤلاء .

فلا تبلغوه غايته من وراء الضجيج والصياح ! إنكم أناس طيبون أيها المتزمتون . فلا عليكم من الكاتب والكتاب .

ضجة فارغة حول كتاب مريب أمطرتنا دور الدعاية بعشرات مثله فى أيام الحرب . دعوه ليموت فإنه ميت ، ولن تنفخ فيه الحياة ضجة مفتعلة ، منشؤها الخداع والإيهام .

ولولا أن أنفى عن النقد فى مصر تهمة الغفلة ما كتبت هذه الكلمات .

سيد قطب

صور من العصر العباسي :

أطباء الخلفاء العباسيين

للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

كان أهل جنديسابور يعنون بالطب . وكان لهم حذق بهذه الصناعة وعلم من زمن الأكاسرة . ذلك أن سابور لما تزوج ابنة القيصر فيليبس بعد افتتاحه انطاكية بنى لها مدينة على شكل قسطنطينية ، وهي مدينة جنديسابور ونقلها إليها ، فانتقل معها من كل صنف من أهل بلدها ممن هي محتاجة إليه ، ومنهم أطباء أفاضل . فلما أقاموا فيها ، بدأوا يعلمون أحداثاً من أهلها ، ولم يزل أمرهم يقوى في العلم ، ويتزايدون فيه ، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم ، حتى برزوا في الفضائل ، وصار أناس يفضلون طريقتهم على اليونانيين والهند ، لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم دساتير وقوانين وكتباً جمعوا فيها كل حسنة . ولم يزالوا كذلك حتى جاءت الدولة العباسية ، فأصبح أهل جنديسابور أطباء للخلافة والخلفاء ما عدا قلائل منهم [1] .

وقد كان هؤلاء الأطباء من أهل جنديسابور ينالون منزلة كبرى في كل مكان . وكان وجودهم في بلد ما سبباً لكساد الأطباء الآخرين . وقد ذكر الجاحظ عن أسد بن جاني الطبيب البغدادي أنه أكسد مرة . فقال له قائل : السنة وبئة والأمراض فاشية ، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة . فمن أين تؤتى في هذا الكساد ؟ قال : أما (واحدة) فإني عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب ، لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون في الطب . واسمي (ثانية) أسد . وكان ينبغي أن يكون صليبا ومرايل ويوحنا ... وكنيتي أبو الحارث ، وكان ينبغي أن تكون (أبو عيسى) (وأبو زكريا) ... وعلىّ رداء قطن أبيض ، وكان ينبغي أن يكون رداء حرير أسود . (وأخيراً) لفظي لفظ عربي ، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور [1] .

والحق أن الخلفاء حفلوا بهؤلاء الأطباء . وكانت أسرة بختيشوع ذات مكانة كبرى عندهم ، ومنها كان أطباؤهم ووزراؤهم ومنها كان أيضاً الأطباء المحترفون ، وأطباء البيمارستانات ، ومعلمو الطب والفلسفة [2] .

***

أول من تقدم باحضار رأس هذه الأسرة إلى بغداد ، هو المنصور . فإنه لما بنى مدينة السلام ببغداد سنة ثمان وأربعين ومائة للهجرة أدركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلة شهوة وكان كلما عالجه الأطباء ازداد مرضه ، فتقدم إلى الربيع بجمعهم ، فلما اجتمعوا قال لهم المنصور : أريد من الأطباء في سائر المدن ، طبيباً ماهراً . فقالوا : ما في عصرنا أفضل من جورجيس بن بختيشوع رئيس أطباء جنديسابور ؛ فهو ماهر في الطب . فأمر المنصور باحضاره ، فأنفذه العامل بجنديسابور إلى حضرة الخلافة بعد ما امتنع عن الخروج ، ووصى ولده بختيشوع بالبيمارستان وأموره التي تتعلق به هناك . واستصحب معه تلميذيه إبراهيم وعيسى . فلما وصل إلى مدينة السلام أمر المنصور باحضاره . فلما أحضر دعا للمنصور بالفارسية والعربية . فعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره ، وأمره بالجلوس ، وسأله عن أشياء أجابه عنها بسكون . فقال : قد ظفرت منك ياجورجيس بما كنت أطلب . وخبره بابتداء علته ، وكيف جرى أمره منذ ابتداء مرضه . فداواه حتى برئ ، وعاد إلى الصحة فأنزل في أجمل موضع من دوره ، وأمر أن يجاب إلى كل ما يسأل . وأهدى إليه ثلاث جوار روميات حسان مع ثلاثة آلاف دينار . فأنكر جورجيس أمرهن وقال لتلميذه عيسى : يا تلميذ الشيطان ! لم أدخلت هؤلاء إلى منزلي ؟ ردهن إلى أصحابهن . فأعادهن . فسأله المنصور لم رددت الجواري ؟ قال : لا يجوز أن يكون مثل هؤلاء في منزلي ،

(١) تاريخ الحكماء (ليبسك) ص ١٣٣ .

(١) الخلا (ليدن) ص ١٠٩ .

(٢) انظر مقالة مايرهـ ف ، ز محاضر جلسات الأكاديمية الروسية للعلوم مجلد ٢٣ سبتمبر ١٩٣٠ . ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتاب : « التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية » ١٩٤٠ .

لأنا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة واحدة ، فما دامت المرأة حية فلا نأخذ غيرها . فحسن موقع هذا من الخليفة ، وأمر فى الوقت أن يدخل جورجيس إلى حظاياه وحرمه بلا إذن ، وزاد موضعه عنده .

وظل جورجيس يخدم المنصور حتى مرض سنة اثنتين وخمسين ومائة مرضاً صعباً . وكان المنصور يرسل إليه فى كل يوم يتعرف خبره . فلما اشتد مرضه أمر بحمله على سرير إلى دار العامة وخرج ماشياً إليه وتعرف خبره وسأله عن حاله . فخبره جورجيس بها ، وقال له : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى الانصراف إلى بلدى لأنظر أهلى وولدى ؛ فإن مت قبرت مع آبائى . قال له : يا جورجيس اتق الله وأسلم ، وأنا أضمن لك الجنة . قال جورجيس : قد رضيت حيث آبائى ؛ فى الجنة أو النار . ثم خلف بين يدى المنصور تلميذه عيسى ، ومضى إلى جنديسابور ومعه عشرة آلاف دينار وخادم ، فوصلها حياً[١] .

وحل عيسى محل جورجيس . فأخذ يبسط يده فى التشارر والأذية ، خاصة على الأساقفة والمطارنة ، ومطالبتهم بالرشى وأخذ أموالهم . وكان فيه شرارة وطمع . فلما خرج المنصور فى بعض سفراته ووصل إلى قرب (نصيبين) كتب عيسى إلى مطران نصيبين يتهدده ويتوعده إن منع عنه ما التمسه . وكان عيسى قد التمس أن ينفذ له من آلات البيعة أشياء جليلة ثمينة لها قدر ، وكتب فى كتابه : أليس تعلم أن أمر الملك فى يدى ، إن أردت أمرضته ، وإن أردت شفيته . فاحتال المطران فى التوصل إلى الربيع وشرح له صورة الحال وأقرأه الكتاب ، فأوصله الربيع إلى الخليفة ، فأمر المنصور بأخذ جميع ما يملكه عيسى ، وتأديبه ، ونفيه ، ففعل به ذلك[٢] .

ثم إن المنصور سأل عن جورجيس ليؤتى به . فامتنع لضعفه وأنفذ إلى الخليفة تلميذه إبراهيم . فقربه المنصور وأكرمه وخلع عليه ، ووهب له مالا ، واستخلصه لخدمته . ولم يزل فى الخدمة إلى أن مات المنصور[٣] .

(١) عيون الأنباء ج ١ ص ١٢٤ ، وتاريخ الحكماء ص ١٦٠ .
(٢) تاريخ الحكماء ص ٢٤٨ .
(٣) عيون الأنباء ج ١ ص ١٢٥

وكان أبو قريش طبيب المهدى . وكان يعرف بعيسى الصيدلانى ، ولم يكن طبيباً ، وإنما كان صيدلانيا ضعيف الحال جداً ، فتشكت حظية للمهدى ذات يوم ، وتقدمت إلى جاريتها بأن تخرج القارورة إلى طبيب غريب لا يعرفها . وكان أبو قريش بالقرب من قصر المهدى . فلما وقع نظر الجارية عليه أرته القارورة ، فقال لها : لمن هذا الماء ؟ فقالت : لامرأة ضعيفة . فقال : بل لملكة عظيمة الشأن ، وهى حبلى بملك ! وكان هذا القول منه على سبيل الرزق . فانصرفت الجارية من عنده وأخبرت الحظية بما سمعته منه ، ففرحت فرحاً شديداً ، وقالت ينبغى أن تضع علامة على دكانه حتى إذا صح قوله اتخذناه طبيبا لنا . وبعد مدة ظهر الحبل ، وفرح به المهدى فرحاً شديداً ؛ فأنفذت الحظية إلى أبى قريش خلعتين فاخرتين وثلاثمائة دينار . وقالت : استعن بهذا على أمرك ، فإن صح ما قلته استصحبناك . فعجب أبو قريش من ذلك وقال : هذا من عند الله ، لأننى ما قلته للجارية إلا وقد كان هاجساً من غير أصل . ولما ولدت الحظية ، وهى الخيزران ، موسى الهادى ، سُرّ المهدى به سروراً عظيما . وحدّثته جاريته بالحديث ، فاستدعى أبا قريش وخاطبه ، فلم يجد عنده علماً بالصناعة ، إلا شيئاً يسيراً من علم الصيدلة . إلا أنه اتخذه طبيباً لما جرى منه واستخصه وأكرمه غاية الإكرام وحظى عنده ، وخاصة عندما علم أنه عنّين[١] .

***

واستبقاه الهادى ، وظل مكرماً عنده . وعندما مرض الهادى جمع الأطباء وكان فيهم أبو قريش ، فقال لهم : أنتم تأكلون أموالى وجوائزى وفى وقت الشدة تتغافلون عنى . فقال له أبو قريش : علينا الاجتهاد ، والله يهب السلامة[٢] .

ثم استدعى له بختيشوع بن جورجيس من جنديسابور ، فداواه وشفى . ثم كادت له الخيزران فأعاده المهدى إلى جنديسابور[٣] .

وكان ممن حظى عند الهادى الطيفورى المتطبب ، وكان

(١) عيون الأنباء ج ١ ص ١٥٣ .
(٢) تاريخ الحكماء ص ٤٣١
(٣) المصدر السابق ص ١٠١ .

حاذقاً ، وكان متطببه ومربيه فى رضاعه وطفولته وكبره . وهو جد إسرائيل بن زكريا الطيفورى طبيب الفتح بن خاقان[١] .

***

أما الرشيد ، فقد أعاد بختيشوع ؛ فقد مرض سنة ١٧١ هـ . من صداع لحقه ، فقال ليحيى بن خالد : هؤلاء الأطباء ليسوا يفهمون شيئاً . فقال له يحيى : لما مرض أخوك الهادى ، أرسلوا إلى جنديسابور ، فأحضروا رجلا يُعرف ببختيشوع . فقال الرشيد : كيف أعاده وتركه ؟ قال لما رأى والدتك ، والطبيب عيسى أبا قريش يحسدانه ، أذن له بالإنصراف إلى بلده ، فأمر الرشيد بحمله . فورد بختيشوع ودخل على الرشيد فداواه وأكرمه الرشيد وخلع عليه خلعة سنية . ووهب له مالاً وافراً ، وقال له : تكون رئيس الأطباء ، ولك يسمعون ويطيعون[٢] .

ثم حل جبرئيل بن بختيشوع عند الرشيد محل أبيه . وقد خص بادىء أمره بجعفر بن يحيى ؛ وذلك أن جعفر هذا مرض ، فتقدم الرشيد إلى بختيشوع بن جورجيس بأن يخدمه . وكان من أدب الطبيب إذا كان خاصاً بالملك أن لا يخدم أحداً من أصحابه إلا بأمره ، ولما أفاق جعفر من مرضه قال لبختيشوع : أريد أن تختار لى طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه . قال له بختيشوع . لست أعرف فى هؤلاء أحذق من ابنى جبرئيل . وهو من أمهر مَنْ فى الصناعة . فقال : أحضرنيه . فلما أحضره شكا إليه مرضاً كان يُخفيه ، فدبره فى مدة ثلاثة أيام وبرأ . فأحبه جعفر مثل نفسه وصيره رئيس الأطباء ، وكان لا يصبر عنه ساعة ، ومعه يأكل ويشرب[٣] .

وقد اتصل جبرئيل بالرشيد بسبب حظية له . فقد كان للرشيد حظية فُتن بها ، تمطت ذات يوم ورفعت يدها ، فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها . والأطباء يعالجونها بالتمريخ والأدهان فلا ينفع ذلك شيئاً . فقال الرشيد لجعفر بن يحيى : قد بقيت هذه الصبية بعلتها . قال له جعفر : لى طبيب ماهر ، وهو ابن بختيشوع تدعوه وتخاطبه فى معنى هذا المرض ، فلعل عنده حيلة فى علاجه . فأمر باحضاره . ولما حضر قال له الرشيد : ما اسمك ؟ قال : جبرئيل . قال : أى شىء تعرف من الطب ؟ قال : أبرد الحار ، وأسخن البارد ، وأرطب اليابس ، وأجفف الرطب . فضحك الرشيد وسر . وشرح له حال الصبية . فقال جبرئيل : إن لم يسخط على أمير المؤمنين فلها عندى حيلة . قال له الرشيد : ما هى ؟ قال : تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريده ، وتمهل على ولا تعجل بالسخط ، فأمر الرشيد باحضار الجارية ، فخرجت ، وحين رآها جبرئيل أسرع إليها ونكس رأسه ، وأمسك ذيلها كأنه يريد أن يكشفها ، فانزعجت الجارية ، ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها ، وبسطت يدها إلى أسفل وأمسكت ذيلها . فقال جبرئيل : قد برأت يا أمير المؤمنين . فقال الرشيد للجارية : ابسطى يدك يمنة ويسرة ، ففعلت ، فعجب الرشيد وكل من كان حاضراً ، وأمر لجبرئيل فى الوقت بخمسمائة ألف درهم ، وأحبه ، وجعله رئيساً على جميع الأطباء[١] .

وكان محله يقوى ويعلو ، حتى أن الرشيد قال لأصحابه : كل من كانت له حاجة إلى فليخاطب فيها جبرئيل ، لأنى أفعل كل ما يسألنيه ويطلبه منى . فكان القواد يقصدونه فى كل أمورهم . ومنذ يوم خدم الرشيد إلى أن انقضت خمس عشرة سنة لم يمرض الرشيد ، فحظى عنده حظوة كبرى[٢] .

ونستطيع أن نعلم حال هذا الطبيب وأبوه وجده من كلمة له قالها لابراهيم بن المهدى : « إن عيش جبرئيل ، وبختيشوع أبيه ، وجورجيس جده ، لم يكن من الخلفاء ، وإنما كان من الخلفاء ، وولاة العهد ، وإخوة الخلفاء ، وعمومتها ، وقراباتها ، ووجوه مواليها ، وقوادها . ولى أبوان خدما الخلفاء وأفضلوا عليهما ، وأفضل عليهما غيرهم ممن هو دونهم . وقد أفضل على الخلفاء ، ورفعونى من حد الطب إلى المعاشرة والمسامرة ، وليس لأمير المؤمنين أخ ولا قرابة ولا قائد ولا عامل إلا وهو يدارينى إن لم يكن مائلا بمحبته وشاكراً لى ، على علاج عالجته به ، ومحضر جميل حضرته له ، ووصفته وصفاً حسناً عند الخليفة فنفعه[٣] » .

(له بقية)

صلاح الدين المنجد

(١) عيون الأنباء ج ١ ص ١٥٣ .
(٢) تاريخ الحكما ص ١٠١ ، وعيون الأنباء ج ١ ص ١٢٦ .
(٣) عيون الأنباء ج ١ ص ١٢٧ .

(١) تاريخ الحكماء ص ١٣٤ .
(٢) تاريخ الحكماء ص ١٣٥ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣٩ .

في ركب الوحدة العربية:

الأدب في فلسطين...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

- ٤ -

مع الأدباء العلميين

تحدثت في آخر فصل وقفت عنده (من هذا البحث[١]) عن عالم فلسطين الرياضي الأستاذ قدري حافظ طوقان، ولم أبلغ نهاية التعريف بآثاره، لضيق في المجال الذي أعددته (يومذاك) ولذا فإنني أقف اليوم بالقارىء الكريم (وقفة يسيرة)، عند أثر قيم من آثاره، وهو كتابه «تراث العرب العلمي» في الرياضيات والفلك. ولعلنا نقدر مبلغ عنايته بإخراجه، حين نسمعه يقول في مقدمته:

«شغلت نفسي بهذا الكتاب أكثر من عشر سنين، وهو خلاصة بحث مرهق ودراسات مضنية، اعتمدت فيها على مظان عديدة قديمة وحديثة، عربية وافرنجية، ومخطوطات نفيسة حصلت عليها بمساعدة بعض الأصدقاء، من القاهرة وطنجة وتطوان والقدس ...».

وقد جعل الأستاذ (طوقان) كتابه في قسمين، الأول منهما يحتوي على سبعة فصول، ستة منها تبحث في الرياضيات قبل الإسلام، ومآثر العرب في الحساب والجبر، والهندسة والمثلثات والفلك. والسابع يتناول الرياضيات في (الشعر العربي) وهو فصل طريف لعله الأول من نوعه، أحصى فيه ما قاله شعراء العربية في الجاهلية والإسلام من الشعر الرياضي. فأورد شعر «زرقاء اليمامة» في سرب من الحمام، أبصرته فأحصته عدداً فقالت:

ليت الحمام لِيَهْ ونصفه قَدِيَهْ
إلى حمامتيَهْ صار الحمام مِيَهْ

وهي مسألة حسابية معقدة (كما ترى)، بسطتها (حذام معجزة الدهر في قوة الأبصار) بقالبٍ شعري لطيف.

كما أورد في ذلك الفصل أيضاً، قول الشاعر الرياضي المرح الإمام أبي القاسم البديع الأسطر لابي حين يتغزل فيقول:

وذي (هيئة) يزهو بخال (مهندس)
أموت به في كل حين وأبعث
(محيط) بأوصاف الملاحة وجهه
كأن به (اقليدس) يتحدث
فعارضه (خط استواء) وخاله
به (نقطة) والخد (شكل مثلث)

ولقد استلفت نظري (هنالك) أرجوزة «ابن الياسمين» التي جمع فيها بين الأدب والرياضيات، فعرف علم الحساب والجبر وشرحهما ومثل عليهما شعراً. ومن ذلك قوله في تعريف الجبر:

على ثلاثة يدور الجبرُ: (المال) و(الأعداد) ثم (الجذر)
ف(المال): كل عدد مربع و(جذره): واحد تلك الأضلع
و(العدد المطلق): ما لم ينسب للمال أو للجذر. فافهم تصب
و(الجذر) و(الشيء) بمعنى واحد كالقول في لفظ أب ووالد ...

ثم يمثل عليه في (حل معادلة) كان قد أسلف ذكرها في أقسام المعادلات فيقول:

ف(ربع) النصف من (الأشياء) واحمل على (الأعداد) باعتناء
وخذ — من الذي تناهى — (جذره)
ثم انقص (التنصيف[١]) تفهم سره

ويحصي (الأستاذ طوقان) بعد ذلك شعراً ما أعذبه وأطلّه، كثيراً ما تمثلت به لطلابي (في دروس البلاغة)، دون أن أتنبه لما فيه من البراعة في استخدام الألفاظ، مما استنبطه الأستاذ من معانيها في الرياضيات والفلك.

وأما القسم الثاني من الكتاب فيحتوي تسعة فصول،

(١) نشر ذلك الفصل في العدد ٦٨٩ من الرسالة الزاهرة، ولعل كلمتي (على هامش الأدب في فلسطين) رداً تقبله المربية الفاضلة الأديبة (ليلى عبد السلام من المنصورة)، على كلمتها التي تكرمت بتوجيهها إلى وإلى آخرين في العدد ٦٩٦ من الرسالة أيضاً.

(١) تحل هذه المعادلة (حسب الطرق المعروفة في كتب الجبر) على الصورة الآتية:

سه^٢ + ١٠ سه = ٧٥، سه^٢ + ١٠ سه + (١٠/٢)^٢ = ٧٥ + (١٠/٢)^٢، أي أن سه^٢ + ١ سه + ٢٥ = ١٠٠، أي أن (سه + ٥)^٢ = ١٠٠ ∴ سه + ٥ = ١٠ ∴ سه = ٥

يسرد فيها سير عظماء من الرياضيين والفلكيين ، وانتاجهم العلمي ، ومؤلفاتهم وانتقالها إلى أوربة ، وأثرها في تقدم العلوم فيما بعد .

وتتجلى في الأستاذ روح العالم العامل بعلمه ، حين يقول لك : إنه توخى في هذا الكتاب « الإخلاص للحق والحقيقة وإنصاف حضارة العرب ، والكشف عن أمجادهم الفكرية في الرياضيات والفلك ... » .

وما دمت في صدد العلم (حين ينسلك في نطاق الأدب) ، فلا بأس من أن أذكر (علماء متأدبين) آخرين . ساروا في هذا السبيل ، فقطعوا فيه شوطاً محموداً ، والفوا فيه ما لا يتيسر من غير جهد ، ولا يبلغ بعد هذا الشأو من الجودة إلا نضوج مكتمل.

وبين يدي (أشتات أنباء) عن ثلاثة من هؤلاء (العلماء) وكلهم مارس صناعة التعليم عمراً من عمره ، وربما كان لذلك أثر بين في بعض انتاجهم ، وبعض وجهات نظرهم . وأول هؤلاء الثلاثة :

الأستاذ محمد أديب العامري . وقد كان إلى أمد (ليس بعيداً) مديراً لكلية السلط ، وكانت له في ذلك العمل تجارب كثيرة ، فألف (بوحي منها) كتباً لتدريس العلوم الطبيعية ، في صفوف مختلفة من مراحل التعليم ، طبع بعضاً منها والبعض الآخر في أثره

وتتألف هذه السلسلة من قسمين ، الأول منها (مبادئ حفظ الصحة) للمراحل الابتدائية المتوسطة ، والثاني (مبادىء العلوم) وينقسم إلى أجزاء تزامل الطالب حتى تبلغ به المرحلة الثانوية . وترتكز هذه الكتب (في سائر أجزائها) ، على أسلوب محدث وطريقة مبتكرة ، يراعى فيها الانتقال من التدرج في الوصف ، إلى التعريف والتحديد فالاستقراء والاستنباط .

كما الف كتابه (فصائل النباتات الشهيرة) للمراحل الثانوية العالية ، وصرف في إعداده مجهود (أعوام ثلاثة) في البحث والدرس ، والإقتباس عن أشكال الطبيعة مباشرة ، وهذا الكتاب وحيد في أسلوبه وطريقة تنسيقه : يشتمل على ما يفتقر اليه الطالب العربي من أركان هذا العلم ، وسائر تفصيلاته .

كما ترجم بوحي من ذلك العمل (أيضاً) ، كتاب (الكيمياء العملية) للدكتور « كلوز Close » رئيس دائرة الكيمياء في الجامعة الأمريكية . فأكمل بذلك جانباً كبيراً من النقص الذي يفتقر اليه الطالب العربي في هذا الباب ..

وله فيما عدا ذلك إنتاج آخر ، يدفعه اليه ميله (السياسي الاجتماعي) ، وهذا الميل متأصل في نفسه ـ رغم تخصصه الجامعي في دراسة علم الحياة ـ وطالما استحوذ عليه ، فإذا هو منسرب في مسالكه ، منساق إلى أهدافه ، متطلع إلى مراميه ...

وهو إبان هذا الاستسلام المطلق ، يكتب في (القصة) آناً ، ويكتب في (فلسفة الحياة) آناً آخر . وحين أعرفه لك في الحال الأول ، أقفك عند كتابه « شعاع النور » ، لكي تستعرض معي (متمهلا) هذه الفقرة من مقدمته إذ يقول فيها :

« ... إن هنالك شعاعاً من النور ينتظم سيرة الحياة ، وهذا الشعاع ذاته هو الذي يومض في نفوس هؤلاء الناس ، الذين أقدمهم اليك وأصلهم بك ، ولولا هذا الوميض الذي يستمد نوره وحرارته من طبيعة الحياة ، الحياة الخالدة المتسامية ، لما كان سبيل هؤلاء الناس إلا أن يتلاشوا في العدم ، ولكنهم لا يتلاشون .. »

وأما قصص هؤلاء الناس (الذين يصلهم بك) فانها ـ يا أخي القارىء ـ ليست من هذا الطراز الذي الفنا قراءته وتكراره ، ولكنها ضرب جديد في القصص ، (جديد إلى أبعد ما في خيالك من تصور للجديد) ، ما رأيت من مثلها فأقرّ بها اليك تشبيها ، ولكنني أصفها . وأين الخَبَرُ من الخُبْر ؟!:

إنك لو وقفت حيال هذه القصص ، لألفيتها قائمة على التحليل النفسي للطبيعة البشرية ، وعلى تصوير الانفعالات المستندة إلى العوامل الموروثة ، التي تمثل نوازع الإنسانية العميقة تمثيلا صادقاً . وهو في خلال ذلك كله يستهدف الإصلاح الاجتماعي، شاملا من جميع نواحيه .

وله في هذا الباب قصة أخرى عنوانها (سليم افندي) ، وهي تحليل شامل لما يعترض النفس الإنسانية من اضطراب وقلق ، ولما يؤدي اليه مركب النقص من تصرفات وأوضاع ، والقصة في إجمالها وتفصيلها تنحصر في دائرة القصة السالفة من جميع نواحيها .

وحين أعرف لك الأستاذ العامري في الحال الثاني (أي حين يكتب في فلسفة الحياة) ، أقفك كذلك عند كتابه (نحو الحياة) . وهذا الكتاب سرد من التفاؤل المطلق ، مرتكز على المحاكة والإستقراء ، وقائم على منطق التدرج . فهو يرى فيه أن طبيعة الحياة إيجابية ، وأنها تتقدم من تلقاء نفسها باطراد إلى الأمام ، وأن مستقبل البشرية إلى خير ، على الرغم مما يبدو في

فى جوها — وما بدا إلى الآن — من اكفهرار واضطراب . واليك نمطاً يبين لك الأسلوب الذى يلتزمه فى مثل هذا الحال ، وذلك حين يقول :

« ... طبيعة الحياة نفسها تأبى الردة ، الإنسان والحيوان والنبات ، هذه الأحياء كلها تبحث عن الجمال والقوة . والحياة تنتج باستمرار أجيالا أقوى وأجمل . فلو يركّب فى الناس ذوق (من مثل حب القبيح) ، ولو كان (الظلم) هو ماتهواه الطبيعة البشرية فى قرارتها ، لفكرت أن الحياة يمكن أن تتأخر !!.

الناس اليوم أطول أعماراً من آبائهم الأولين ، والناس اليوم أكثر إحساساً بالكرامة ، وأرفع مستوى فى العيش مما كانوا من قبل . وتوزيع الثروة (وإن يكن اليوم منطوياً على إجحاف) أكثر انتشاراً منه فيما مضى من قريب . والمظلوم اليوم أجرأ وأرفع صوتاً فى المطالبة بحق . وحالتنا الحاضرة — فى بعض البلاد الراقية — خير من بعض صور (المدينة الفاضلة) كما رآها بعض المفكرين .

فالى أية غاية ترمى هذه النزعات الطاهرة ، الخالصة الصادقة التى لاتكبح ؟!... »

وما زال بين يدى الأستاذ مواضيع مختلفة ، ينصرف لمعالجتها والتفرغ لدرسها ، على رغم المسئولية التى يضطلع بحملها فى (دار الإذاعة الفلسطينية) فى القدس ، ولقد كتب فى الرسالة الغراء وغيرها ، دراسات كثيرة ، فى العلوم والآداب والأبحاث النفيسة ، التى يميل فيها إلى المذهب التحليلى على طريقة (ادلر) .

وله مجموعة مقالات — مما أذاع به أو القاه فى الأندية كلها تحوم حول الأهداف التى أسلفت الإشارة اليها . وهى تقع فى كتاب ضخم جاهز للطبع .

وأما الباحثان الآخران ، فقد ألف أحدهما بوحى (من عمله التدريسى أيضاً) كتباً علمية لمراحل الدراسة الثانوية ، ثم انطلق على سجيته بعد ذلك فاذا هو يكتب فى الأدب حيناً ، فيؤلف فيه أشتاتاً من الأقاصيص ، وألواناً من الدراسات . يعالج فيها جميعاً كثيراً من المشاكل الإنسانية المعقدة ، والأدواء الاجتماعية المستعصية . ثم إذا هو (حيناً آخر) يكتب فى الفلسفة العلمية ويحلق فى أجوائها ، فينتهى من ذلك بمجموعة من الكتب القيمة ، كل واحد منها يتوجه فى سبيل ، وينتهى إلى غاية ، ثم تأتلف أخيراً لتتحد فى ثناياها صورة مشرقة من صور (الأدب العلمى) .

وأما الثانى فقد ألف كذلك (بوحى من عمله التدريسى) ، ولكنه خالف سابقيه فيما ألف ، فخرج من محيط المدرسة إلى محيط الجمهور . وهو محيط أشمل وأعم . سرعان مايشعر التعليم فيه ويؤتى أُكُله . ثم إذا هو يصنع له من العلم (الجاف المعقد) مادة هينة لينة ، رقيقة الحواشى مهلهلة الأطراف ، هى على حد قول الإمام الثعالبى :

« يكاد الهواء يسرقها لطفاً ، والهوى يعشقها ظرفا .. »

ويكوّن من هذه المادة كتاباً لطيف الحجم عظيم النفع ، مايكاد يخرج إلى (هذا الجمهور) ، حتى تتخاطفه الأيدى ، وينتشر فى كل مكان ، ويقبل الناس عليه أيما إقبال .

ويلمس هذا الباحث مقدار نجاحه ، فيمضى فى طريقه قدماً ، فاذا هو يعيد الكرة من غير ماتريث ، ويفاجىء الناس بثانى كتبه ، ليظفر بما يترقبه من نجاح ، بعد أن مهد له السبيل إلى تلك الغاية ذلك الكتاب الذى سبقه . ووقف المؤلف بعدها يستعد لإخراج دروس جديدة ، يلحقها بذينك ، ليؤدى رسالته على الوجه الذى ارتضاه .

وأما هذان الباحثان فأولهما : الأستاذ عبد الله الريحاوى ، وثانيهما الأستاذ على شمث . وسوف أحدثك عنهما مفصلا .

القدس : محمد سليم الرشدان

* أستاذ العربية وآدابها فى كليتى التجارة والأمة

الأدب في سير أعلامه :

ملتن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣٥ —

الفردوس المفقود : موضوع القصيدة الكبرى

ويفتتح الكتاب الثالث بمناجاة النور مناجاة تعد من أروع ما في القصيدة من مواضع الجمال ، وقد أراد الشاعر بهذه الفاتحة أن يمهد للانتقال من الجحيم والعماء إلى الجنة وما فيها من زينة وبهجة .

ثم يتحدث الشاعر عن الله وقد استوى على العرش وعن يمينه ابنه ، وقد رأى الشيطان طائراً صوب الدنيا وقد تم خلقها قريباً ، ويُرى الله ابنه هذا الشيطان في رحلته وينبئه بما سيكون من نجاحه في إضلال بني آدم وغوايتهم . ويبرئ الله عدالته وحكمته من كل مظنة أو لبس فقد خلق الإنسان حراً قادراً تام القدرة على أن يقاوم مضله الوسوسله ؛ ومع ذلك فأن الله يكشف عما يشاء لعباده من هدى وسعادة وذلك لأن الإنسان لم يعص كالشيطان بدافع من الشر ، وإنما عصى بدافع من الغواية التي لاحقه بها الشيطان حتى أذله وأخرجه مما كان فيه .

ويرفع ابن الله شكرانه لأبيه على ما أظهره عليه من نية ومشيئة في إسعاد الانسان ؛ ولكن الله يعود فيعلن أن رحمته سوف لا تنال الإنسان إلا على أساس ما ينبغي للعدالة الإلهية من كمال ؛ فقد أساء الإنسان إلى جلال ربه بطموحه إلى الألوهية واقتطافه الثمرة المحرمة ، ولذلك قدر عليه أن يموت ولابد أن يدركه وذريته الموت ، وما له من خلود إلا أن يوجد من هو كفء لأن يسأل عن خطيئته ويكفرعنها بما يحتمل من ألم وعقاب ؛ ويتقدم ابن الله طائعاً مختاراً لكي يكون هو الفداء للانسان ، ويتقبل الأب منه هذا الذي يعرضه ، ويأمر به فيتجسد ويتمثل بشراً سوياً ويرفعه الله مكاناً علياً ؛ فهو فوق كافة الأسماء في الجنة وفي الأرض ويدعو الله الملائكة فيأمرهم أن يسجدوا له ويتعبدوا ، فيفعلون طائعين ويسبحون بحمد الأب والابن وتمجيدهما مرتلين نشيد الحمد جميعاً في نغمة واحدة ترددها أوتار قيثاراتهم .

وفي تلك الأثناء يسقط الشيطان حتى يقترب من كوكب خارجي قصي عن هذه الكرة التي هي الدنيا ، كوكب يفصل بين الأرض وبين العماء والظلمة الممتدة إلى الجحيم من تحته ؛ وهناك يجد بعد تجوله مكاناً سوف يكون فيما بعد جنة المغفلين ويصف الشاعر هنا من سوف يسكنون هذه الجنة فثمة من مات من الأطفال قبل تعميدهم وثمة البلهاء والبسطاء والذين ماتوا قبل أن ينزل الدين .

ويتابع الشيطان طيرانه صاعداً حتى يرى على بعد باب الجنة ، وينظر الشيطان فإذا هو بالغ الروعة والبهاء والزينة ، ليس كمثله بناء فيما سيخلق الانسان في الأرض ، فهو معقود من الذهب والماس ويرتفع الداخل فيه صعدا على سلم من الذهب الوهاج ، وحوله أنهار من اللؤلؤ المذاب ؛ ويستمر الشيطان محلقاً حتى يأتي كوكب الشمس ويجد عنده حارسه أُرْيِل ، فيتنكر ويظهر في صورة ملك من الملائكة الذين هم دون أريل في المرتبة إذ أن أريل من الملائكة المقربين ، ويتوسل إلى أريل أن يدله على ذلك الانسان الذي خلقه الله حديثاً والذي سوف يهبه دنيا جديدة واسعة يعيش فيها وينعم بها . ويقول الشيطان في ضراعة إنه ما قطع هذه الرحلة الطويلة منفرداً إلا ليطلع على بديع ما خلق الله مما سمع عنه هو ورهطه من الملائكة ، وذلك لكي يزداد تمجيداً لله وتسبيحاً بحمده ؛ ويستطيع الشيطان أن يخدع أريل نفسه فيشير أريل إلى مكان ما ويقول للشيطان انظر فهذه هي الجنة حيث يقيم آدم وهذه البقعة الداكنة التي ترى هي عشه ، وينطلق الشيطان بكل ما في وسعه من سرعة فما يزال طائراً حتى يبلغ حيث أراه أريل .

ويبدأ الكتاب الرابع والجنة على مرأى من الشيطان ، وقد أصبح على مقربة من المكان الذي يسكن فيه آدم وزوجه ، والذي سوف يحاول فيه محاولاته الجريئة التي عقد العزم على أن يضطلع بها وحده ضد الله وضد الإنسان ؛ ولكنه قبل أن يقدم

على عمله أخذت تساوره وهو على مقربة من الجنة هواجس من الشك واليأس ، كما أخذت تهجس فى نفسه عواطف الخوف والحسد والبغض ؛ وبعد لأى ينطلق من عقال هذه الهواجس جميعاً ويصمم على الشر الذى جاء من أجله ، ويسرع صوب الجنة حتى يبلغها .

وبعد أن يصف الشاعر وصفاً ممتعاً رائعاً منظر الجنة الخضراء ويتحدث عن أشجارها وثمارها ويبين أين تنبت شجرة الحياة وأين تنبت شجرة المعرفة ، يرينا كيف يتسلل الشيطان فيدخل الجنة واثباً فوق أسوارها .

وفى الجنة يحيل الشيطان نفسه إلى ثعبان ويزحف حتى يستقر فوق شجرة الحياة وهى أعلى الأشجار ، ويدور بعينيه من فوق الشجرة ينظر ماذا يرى حوله . وهنا يتحدث الشاعر عما يرى الشيطان فيأتى بوصف آخر للجنة فى داخلها ويبلغ فى ذلك من الروعة والقوة ما لا يتعلق بمثله وهم شاعر غيره .

وتقع عينا الشيطان على آدم وحواء فيرى أول ذكر وأول أنثى من البشر ، ويتفكر الشيطان فيما هو بسبيله من إغواء ، ويقارن بين ما هما فيه من نعيم وبين ما سوف يدفعهما إليه من شقاء ؛ ويهبط من فوق الشجرة فيتشكل بأشكال ما تقع عليه عيناه من حيوانات حتى يقترب من آدم وحواء فيسترق السمع وهما يتحاوران ويتحدثان ؛ ويعلم منهما أن الله نهاهما عن شجرة المعرفة ، فان أكلا منها أخرجهما ربهما من الجنة وكتب عليهما وعلى ذريتهما الموت . ويقع الشيطان هنا على بغيته فقد وجد سبيله إلى إضلالهما فما عليه إلا أن يغويهما بالثمرة المحرمة حتى يأكلا منها فاذا هما من الهالكين ؛ ثم يدعهما الشيطان ريثما يعلم من أمرهما أكثر مما علم بما سوف يعده لذلك من وسائل .

وفى ذلك الوقت ينزل أرئيل على شعاع من أشعة الشمس ، فيحذر جبريل وهو حارس باب الجنة وينبئه أن روحا خبيثا صاعدا من السماء السفلى قد مر وقت الظهيرة بكوكبه متنكرا فى شكل ملك كريم ، وأنه اتجه بعد ذلك صوب الجنة ، وقد فطن إلى ذلك بعد أن تدبر فى الأمر ؛ ويجيبه جبريل بأنه سوف يبحث عنه فيأخذه قبل أن ينبلج الصبح .

وينزل الليل فيميل آدم وحواء إلى الراحة ويتحاوران فى ذلك ؛ ويأويان إلى عشهما فى الجنة ويصليان لله صلاتهما ؛ ويصف الشاعر هذا العش وهذه الصلاة وصفا رقيقا جميلا

ويعس جبريل فى الجنة على رأس فريق من الملائكة هم من عسسها ، ويضع على عش آدم ملكين قويين غليظين مخافة أن ينالهما بالأذى ذلك الروح الخبيث أثناء نومهما ؛ وينظر الملكان فإذا بذلك الروح يوسوس لحواء فى أذنها وهى نائمة فتحلم بالذى يقول ، ويأخذه الملكان فيجرانه جرا إلى جبريل ، ويسأله جبريل عن فعلته ، فيجيب مستكبرا مستهزئا ، ويتأهب للعنف والمقاومة ، ولكنه لا يلبث أن يجد نفسه ، وقد منع ذلك منعا بقوة من السماء فيطير ويهرب من الجنة .

ويتنفس الصبح فتقص حواء على آدم ما كان من حلمها الذى شغل نفسها ؛ وبهذا يفتتح الشاعر الكتاب الخامس ؛ ويكره آدم هذا الحلم وينفر منه ولكنه يعمل على تهدئتها ويجتهد أن يصرف عنها ما يشغلها من وساوس .

ويقبل آدم وحواء على عملهما اليومى ويقرآن صلاتهما عند باب عشهما وينشدان نشيدهما يسبحان بحمد ربهما ؛ ولكيلا يكون للانسان على الله حجة يرسل الله روفائيل ليذكرهما بطاعته وامتثال مانهاهما عنه ، ولينذرهما أن الشيطان لهما عدو وأنه على مقربة منهما ، وليبين لهما لم كان الشيطان لهما عدوا مبينا إلى غير ذلك مما يجب أن يعلمه آدم من علم ينفعه .

ويهبط روفائيل فيدخل الجنة ، ويصف الشاعر ظهوره فى ربوعها ؛ وتأخذه عينا آدم من بعد وهو جالس بباب عشه ، فينهض للقائه ويسلم عليه ويدعوه إلى مقره ، ويقدم له أطيب ما اختارته حواء من فاكهة الجنة ؛ ويتحاور آدم وروفائيل حول الخوان ؛ وينبئه روفائيل بما جاء من أجله ويحذره من الشيطان ويذكر له ما يضمره له ولزوجه من العداوة والبغضاء ؛ ويقص عليه استجابة لطلبه من هو هذا العدو وكيف أصبح لهما عدوا ، ولماذا ينطوى على العداوة قلبه مبتدئاً بما كان من تمرده فى السماء على خالقه وما أعقب ذلك من غضب الله عليه وإلقائه فى الجحيم .

وهنا يصف الشاعر على لسان روفائيل تلك المعركة التى أدارها الشيطان الأكبر على رأس قبيله ، والتى أجمل الشاعر الإشارة إليها فى مفتتح القصيدة

ويستطرد روفائيل فى أول الكتاب السادس ليتم كيف دارت المعركة فيصف كيف أرسل ميكال وجبريل ليحاربا الشيطان وهو ثائر متمرد على رأس جنده ، وكيف وقف القتال فى اليوم الأول عند نزول الليل ، وكيف جمع الشيطان مجلسا من أعوانه الثائرين فابتكروا أسلحة أوقعت ميكال وجنده فى شىء من الحيرة والاضطراب ، وكيف استحر القتال فاقتلع ميكال وجمعه الجبال وقذفوا بها الشيطان وأعوانه فزلزلوا زلزالا شديدا وأدخلوا على قلوبهم الرعب والدهشة فى اليوم الثانى ؛ وكيف أصر الشيطان على الرغم من ذلك ، فصاول وتطاول ولج فى شره وعناده حتى أرسل الله فى اليوم الثالث ابنه المسيح الذى احتفظ له بالنصر ومجده وفخاره ؛ وكيف سوى المسيح الملائكة صفا وفى روحه قوة أبيه ، وقذف فى صفوف أعدائه بالرعد القاصف ، ووثب فى مركبته فدفعهم دفعا إلى أسوار السماء ؛ وكيف فتحت أبوابها . فألقى العصاة منها جماعات قد امتلأت رعبا وهوت إلى قرار سحيق أعد لها فى الظلام والجحيم نكالا من الله ؛ وكيف عاد المسيح بعد ذلك ظافرا إلى أبيه .

هذا هو موضوع القصيدة الكبرى أتيت على سرده كى أستطيع بعد ذلك أن أتكلم عن فلسفة القصيدة ثم عن الشعر فيها موضحا ماذا يرمى إليه الشاعر فى هذا الموضوع مفصلا ما أجملت من حوادث القصيدة ومواضع الوصف فيها مبينا على قدر ما يسمه جهدى مبلغ ملتن فيها من الشاعرية مستعرضا ما أثبته نقدة الأدب الأعلام من آراء، وما عقدوه من موازنة بين هذه القصيدة وبين مثيلاتها من الملاحم الطويلة .

فلسفة القصيدة الكبرى :

تدور هذه القصيدة على فكرتين أساسيتين : أولاهما هبوط الملائكة من السماء إلى الجحيم ؛ وثانيتهما هبوط آدم أو الإنسان من الجنة إلى الأرض ؛ والغرض من هذه القصيدة كما جاء فى مقدمتها على لسان الشاعر هو أن يبرر أحكام الله ومشيئته تلقاء الإنسان .

وقبل أن نبسط القول فى فلسفة القصيدة يجدر بنا أن نشير إلى أمر كان له أهميته فى خلق الكثير من آراء الشاعر ، وكان له أثره فى توجيه ذهنه اتجاها خاصا بحيث أثر ذلك فى فلسفة القصيدة على العموم ، وذلك أن ملتن لم يجعل من القصيدة وسيلة لعرض آرائه الدينية مجردة فحسب كما قد يتبادر إلى الذهن بمجرد النظر فى موضوع قصيدته ، وإنما جعل الشاعر بالإضافة إلى ذلك موضوع قصيدته فى أكثر من موضع مجالا للاشارة إلى ما فى نفسه من معان تتصل بحياته الخاصة أو بحياته العامة وحياة قومه من ناحيتيها الاجتماعية والسياسية . وهذا كما ذكرنا جانب من فلسفة القصيدة ، إذا أغفلناه نقصت فى قيمتها كعمل فنى نقصا كبيرا ، بيد أننا نؤثر أن ندع بيان ذلك حتى نعقد له فصلا خاصا نكشف فيه عن ملتن وحياته فى الفردوس المفقود ، ولنقصر همنا الآن على ما أراده من الأفكار الدينية .

ولكى نستطيع أن نتبين هذه الأفكار ، يجدر بنا أولا أن ننظر لم اختار الشاعر هذا الموضوع المستمد من الإنجيل ، ونتبين الدوافع التى دفعته إلى ذلك دون غيره .

(يتبع) **الخفيف**

ضيزناباذ

للأستاذ شكري محمود أحمد

موقعها :

أجمعت المصادر القديمة على أن هذه المدينة « موضع بين الكوفة والقادسية ، على حافة الطريق على جادة الحج ، وبينها وبين القادسية ميل(١) » كما ذكر ياقوت في معجمه .

والذي يظهر لنا أن صاحب معجم البلدان نقل هذا الكلام عن كتاب الديارات لأبي الحسن علي بن محمد الشابستي حيث قال في الكلام على دير سرجس(٢) « وهذا الدير كان بطيزناباذ وهو بين الكوفة والقادسية على ساقة الطريق ، وبينها وبين القادسية ميل(٣) » ، وقد نقل هذا الخبر ابن فضل الله العمري في كتابه « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار(٤) » .

تقع آثار هذه المدينة اليوم في الشمال الغربي من قضاء أبي صخير في لواء الديوانية ، وبينهما تسعة أكيال ، ولا تزال أطلالها ماثلة للعيان يتراوح ارتفاعها بين ١٥ ، ٣٠ متراً ، وعلى جوانب هذه الأطلال آثار أبنية قديمة العهد تشبه أحجارها أحجار الخورنق . وتمتد هذه الأطلال إلى مسافة كيلين تبتدئ من موضع يسمى اليوم « المصاد(٥) » وتنتهي إلى ما يقرب من قصر الخورنق .

ولا تعرف اليوم هذه المدينة « طيزناباذ » باسمها المشهور ، وإنما يطلق عليها الأعراب وسكان تلك المناطق اسم « طُمَيزات » لأنهم استثقلوا هذا الاسم الأعجمي في وزنه وتركيبه فاستبدلوه بما هو أخف منه على اللسان .

ضبط هذا الاسم :

ضبط ياقوت هذا الاسم بالحرف فقال : طيزناباذ بكسر أوله وسكون ثانيه ثم زاي مفتوحة ثم نون وبعد الفاء باء موحدة

(١) ياقوت معجم البلدان ج ٠ ص ٨٩ .
(٢) يسمى ياقوت هذا الدير سرجس وبكس نسبة إلى راهبين بنجران ج ٤ ص ١٤٥ .
(٣) الشابستي ورقة ١٠٢ .
(٤) مسالك الأبصار ص ٢٨٤
(٥) المصاد على بعد مرحلة من النجف فيه أبنية قديمة العهد جليلة الوضع .

وآخره ذال معجمة(١) ، وشكلها ابن خرداذبة والطبري بفتح الطاء وسكون الياء .

وقد صحفت هذه اللفظة كثيراً كشأن غيرها من الألفاظ الأعجمية فقال بعضهم طيزناباذ وقال غيره طرناباد ، أما الأستاذ محمد سعيد العريان مصحح كتاب العقد الفريد فقد ضبطه «طيرناناذ(٢) » وذلك عند الكلام على ضروب العروض شعراً ، حيث وردت هذه اللفظة في بيت من أربعة أبيات في كل بيت منها تصحيف مشين .

معناها :

هذه الكلمة أعجمية في معناها وتركيبها فهي مكونة من « ضيزن » و « أباذ » ، والضيزن ملك الحضر . قال ياقوت : « وسبب تسميته بهذا الاسم « طيزناباذ » أنه من عمارة الضيزن والد النضيرة بنت الضيزن ملك الحضر ، وأن الفرس ليس في كلامهم الضاد فتكلموا بها بالطاء فغلبت عليها ومعناها « عمارة الضيزن » لأن أباذ العمارة(٣) » .

وعلى هذا الرأي أيضاً البلاذري حيث ذكر : كانت طيزناباذ تدعى ضيزناباذ نسبت إلى ضيزن بن معاوية بن عمرو بن العبيد السليحي(٤) ، وعلى هذا الرأي أيضاً الكلبي .

ولما غلب الفرس على هذه المواضع غلبت لغتهم على هذه الأرجاء ، فاستبدلوا الضاد بالطاء لخلو لغتهم منها ، فاشتهرت باسمها الأخير « طيزناباذ » .

تاريخها :

كانت طيزناباذ عاصمة الحضر ، وكان ملكها « ضيزن بن معاوية » معاصراً لسابور ذي الأكتاف ملك الفرس ، وكانت بين الضيزن والروم علاقة صداقة وحلف ، فتقدم سابور ليخضع هذا الذي تحالف مع أعدائه ، وترك رجاله يغيرون على العراق والسواد .

فلما نزل سابور الحضر تحصن الضيزن بالحصن وأقام فيه مدة طويلة ، فحاصره سابور شهراً لا يجد سبيلا إلى اقتحام الحصن ، ولا حيلة لدخوله .

(١) ياقوت ج ٦ ص ٧٩
(٢) العقد الفريد ج ٦ ص ٣٣٦ .
(٣) ياقوت ، معجم البلدان ج ٦ ص ٧٩ .
(٤) ياقوت ج ٦ ص ٧٩ .

تقول الروايات والقصص إن النضيرة بنت الضيزن نظرت فى أحد الأيام وقد أشرفت على الحضر إلى سابور فهويته وأعجبها جماله ، وكان سابور من أجمل الناس شكلا ، وأمدهم قامة ، وأرشقهم جسما ، فبعثت إليه إن ضمن لها الزواج منه هدته إلى فتح الحصن ، فضمن لها ذلك ، فأرسلت إليه أن يذهب إلى نهر الثرثار[1] — وهو نهر فى أعلى الحصن — فيرمى فيه التبن ثم ينظر أين يدخل التبن فيدخل رجاله من ذلك المدخل ، لأن ذلك المكان يفضى إلى الحصن ففعل .

ولم يشعر أهل الحصن إلا وجنود سابور معهم فى حصنهم ، يعملون فيهم قتلا وأسراً . ثم عمدت النضيرة إلى أبيها فسقته الخمر حتى أسكرته طمعاً منها فى زواجهـا من سابور ، ولكن سابور عند ما احتل الحصن قتل أباها ، وأمر بهدم الحصن .

هذه هى قصة هدم حصن أبى الضيزن ، وقد أكثرت كتب الأدب والسير من ذكر الضيزن وحصنه ، وخيانة ابنته له ، وزوال ملكه ، وضربت بذلك الأمثال .

كل ذلك كان بين سنة ٢٣٦ وسنة ٣٢٨ بعد الميلاد .

ما قيل فيها :

هى من المواضع التى ذكرت بالجمال والتهتك وشرب الخمر لأنهـا كانت محفوفة بالكروم والشجر والحانات والمعاصر ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة ، وقد وصفها بهذا الوصف ياقوت والشابشتى والعمرى[2] ، وغيرهم من المؤرخين الذين ذكروها ، ولهذا السبب جعلها الفرس مصيفاً لهم ، يصطاف بها أمراؤهم وسراتهم .

وقد بقيت هـذه المدينة عامرة جليلة القدر ، يؤمها الخلفاء والفتاك ، من أهل المجون والبطالات حتى الفتح الاسلامى حين بدأ الخراب يدب فيهـا . ففى معركة القادسية جعلها رستم قائد الفرس مباءة لجيشه ، قال البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان[3]

« وقدم رستم ذو الأكتاف فكان معسكراً بطيزناباذ » .

وسقطت هذه المدينة بأيدى المسلمين فى جملة ما سقط من المدن سنة ١٥ هـ ٥٣٦ م فدب إليها الخراب ولكنها استعادت بعض مجدها فى عهد المسلمين حيث اقتطعت للأشعث بن قيس الكندى[1] فعمرت بعد الخراب ، وازدهرت بعد الاضمحلال ، وصار للأشعث بن قيس فيها قصر فخم فى عهد الأمويين ، وكان هذا القصر يعتبر من القصور المشهورة ، والمواقع المذكورة[2] .

ثم سما شأنها فى عهد العباسيين حيث صارت من أنزه المواضع وأجملها يقصدها الشعراء ويؤمها الفتاك ، وقد ذكر ياقوت فيها « لأهل الخلاعة فيهـا أخبار بطول ذكرها » وقد قال فيها أبو نواس[3] :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم : ... أرجو الإله وأخشى طيزناباذا
أخشى قُضَيب كروم أن ينازعنى ... رأس الخطام[4] إذا أسرعت إغذاذا
فان سلمت ومانفسى[5] على ثقة ... من السلامة لم أسلم ببغداذا
ما أبعد الرشد ممن قد تضمنه ... قُطْرُبُلٌ فقرى بُنَّا فكلواذا

وذكرها أبو نواس فى مواطن أخرى مثل قوله :

فتنتنى ضيزناباذ ... وقد كنت تقيـــا
إذ تركت الماء فيها ... وشربت الخسرويـــا
أرض كرم تنبت الدهـــر ... شراباً ســـابريا

ثم هى أجمل من بغداد وقصفها ولهوها ، بل هى أجمل من أى موضع فى العراق لأن أبا نواس قال فيها :

وقائل هل تريد الحج قلت له : ... نعم إذا فنيت لذات بغداذ
أمَّا وقطربل مـــنى بحيث أرى ... ففتنة الفِرْك[6] من أكناف كلواذى[7]
فالصالحية فالكرخ التى جمعت ... شذاذ بغداد ما هم لى بشذاذ
فكيف بالحج لى مادمت منغمساً ... فى بيت قوادة أو بيت نباذ

---

(١) فى الكامل للمبرد أن هـذا النهر بين سنجار وتكريت ، ويظهر فى هذا الخبر أن هذا النهر فى وسط العراق ، وقد ذكره ياقوت ج ٤ ص ١٢٠ عند هذا الكلام على دير أبون حيث قال : وفيه يقول بعضهم يذكر محبوبة له كردية عشقها بقربه :

فياظبية الوعسا هل فيك مطمع ... لصاد إلى تقبيل خديك ظمآن
وأنى بالثرثار والحضر حلق ... ودارك دير أبود أو دير مهران
سقى الله ذاك الدير غيثا وأهله ... وما قد حواه من قلال ورهبان

(٢) الشابشتى ورقة ١٠٢ والعمرى ص ٢٨٤ وياقوت ج٦ ص ٧٩

(٣) البلاذرى ص ٣٦٤ .

(١) فى معجم البلدان « إنها كانت إقطاعا للأشعث بن قيس بن عمر بن الخطاب » .

(٢) لغة العرب السنة الثانية .

(٣) هذه القصيدة فى الديوان ثمانية أبيات .

(٤) فى الديوان رأس القطار ، وفى العمرى فضل الخطام .

(٥) فى الديوان والعمرى وما قلبى .

(٦) الفرك بكسر الفاء وسكون الكاف قرية كانت قرب كلواذى

(٧) طسوج قرب بغداد ، وبنا من نواحى بغداد أيضا بينها نحو فرسخين وهى تحت كلواذى .

وهبك من قصف بغداد تخلصني كيف التخاص لى من طيزناباذ

جاء فى ياقوت (١) : قال على بن يحيى حدثنى محمد بن عبيد الكاتب قال قدمت من مكة فلما صرت إلى طيزناباذ ذكرت قول أبى نواس حيث قال :

بطيزناباذ كرم ما مررت به إلا تعجبت ممن يشرب الماء (٢)

إن الشراب إذا ما كان من عنب داء وأى لبيب يشرب الداء

فهتف بى هاتف أسمع صوته ولا أراه فقال :

وفى الجحيم حميم ما تجرعه خلق فأبقى له فى الجو أمعاء (٣)

أقول أخطأ ياقوت فى ترتيب هذه الأبيات إذ أن المعنى مضطرب جداً فى البيتين الأولين ، ولأجل أن يستقيم المعنى يجب أن يكون هذا البيت « إن الشراب إذا ما كان ... » قبل هذا البيت « وفى الجحيم حميم ما تجرعه » .

وقد ذكر هذا الموضع الحسين بن الضحاك (٤) فى قصيدة مطلعها :

أخوىّ ، هُبّا للصبوح صباحاً !

هُبّا ولا تعدا النديم رواحا (٥)

ثم ذكر الدير الذى فى طيزناباذ واسمه دير سرجس فقال :

هل تعذران بدير سرجس صاحباً

بالصحو ، أو تريان ذاك جناحا

هذه هى أخبار طيزناباذ ، وقد اعتمدنا فى هذا على المصادر الآتية :

ياقوت : ج ٦ ص ٦٩ ، ج ٦ ص ٣٩٧ ، ج ٤ ص ١٤٥

مراصد الاطلاع مادة « طيزناباذ » .

الطبرى ج ٢٢٦٤،١، ٢٨٥٥، ج ٧١٨،٣٠ الطبعة الأفرنجية

ابن خرداذبة ص ٧١ الطبعة الأفرنجية .

لغة العرب : السنة الثانية .

ابن الفقيه : ص ١٨٣ الطبعة الأفرنجية .

البلاذرى : ص ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٨٤ الطبعة الأفرنجية .

العمرى : ص ٢٨٤ دار الكتب .

ديوان أبى نواس : ١٨٩٨ طبعة اسكندر آصاف ص ٢٧٢، ٣٥٤

الشابستى : مخطوط فى مكتبتنا ص ١٠٢ ، ١٠٣

شكرى محمود أحمد

(بغداد) مدرس العربية بدار المعلمين الابتدائية

---

(١) ج ٦ ص ٧٩ وهذا الخبر ينسب لأبى نواس أيضا ابن منظور ج ١ ص .

(٢) هذه الأبيات غير موجودة فى الديوان .

(٣) لابن منظور رواية أخرى لهذا البيت .

(٤) هذا الاسم فى ياقوت الحسين بن الضحاك ج ٤ ص ١٤٥ .

(٥) هذه القصيدة فى العمرى سبعة أبيات وفى الشابستى اثنى عشر بيتا

تعقيبات . . .

للأستاذ عباس حسان خضر

أبكار الهموم وعونها — عثرتان — زواج أم كلثوم — آه من الأسمار .

أبكار الهموم وعونها :

كتب الأستاذ محمود محمد شاكر بعدد مضى من الرسالة(١) في موضوع أبيات من شعر بعض الأعراب ، تحدث فيها الشاعر الأعرابي عن قصته مع أميمة (حوانه) التي أنكرته إذ رأته « شاحباً مهزولا رثاً أسوأ حالا مما عهدته(٢) » ، وكان قد آب من سفره الذي دفع فيه لتحقيق أحلامها ، وجعلت تسائله مساءلة المتجاهل المزدري : من أي الناس أنت ، ومن تكون ؟ فإني أراك في حال لا تليق براعي إبل ، فضلا عن محب يطمع في مثلي ! فقال لها — وقد تكشفت له حقيقة حواء — : إذا كان مطلبك وغاية نفسك رونق الجسم واكتناز اللحم والشحم فعليك براعي غنم يعيش في خفض ورغد من لبنها وزبدها . . . إلى أن قال مكملا وصف هذا الراعي :

سمين الضواحي ، لم تؤرّقه ، ليلةً
— وأنعم — أبكارُ الهموم وعُونُها(٣)

ووقف الأستاذ شاكر عند كلمة « أبكار الهموم وعونها » نخال فيها ما لا أراه يُخال ، إذ قال إن هذا الأعرابي « قد أراد أن يعلم (أميمته) الباغية أنها إذا كانت تؤثر عليه امرأ غضاً ناضراً ناعماً لم تؤرقه هموم النفس ولم يضر به الكدح في بوادي الأحلام والآلام والآمال ، فإنه غني عنها ، وعن سائر نساء العالمين — وأن أمثالها لسن له بهم ، وأن له من حاجات نفسه وهمومها (أبكاراً) كأبكار النساء و (عوناً) كعونها » ، وقال فيما يريد بالأبكار : « فإن للنفس الشاعرة هموماً (أبكاراً) لم تمسسها يد ولا فكر ولا حلم » وقال فيما يقصد بالعون : « وللنفس أيضاً هموم (عون) قد أصاب الناس منها ما أصابوا ولكن بقيت منها للنفس الشاعرة بقية فاتنة بما فيها من دلال وكبرياء وقدرة على الامتناع عند الإمكان ونبل في الخضوع والتسليم عند العجز » .

فهل لهذه الكلمة الفطرية « أبكار الهموم وعونها » قِبَلٌ بتحمل كل هذا ؟ وهل كانت نفس ذلك الأعرابي في باديته وحياته الساذجة تنطوي حقاً على كل هذه الأحاسيس المزدحمة المعقدة . . ؟

يخيل إليّ أن الأستاذ محمود محمد شاكر قد تراءت له في هذه الكلمة أحاسيسه هو ، فخالها أحاسيس الأعرابي . . . وهي أمثل به منه ، فما أحسب الأعرابي يريد بأبكار الهموم وعونها أكثر من جديد الهموم وقديمها ، على أن استعمال « الأبكار » في الجديد من الهم أدنى إلى المعنى الحقيقي من استعمالها في المختص منه ، وكذلك استعمال « العون » في قديم الهم أليق من أخذها إلى مشتركه .

أما تلك الظلال التي مد الأستاذ شاكر رواقها حول البيت فهي ظلال نفسه المترفعة الآنفة الساخرة العائشة على المثل والمعاني وأما الشاعر البدوي فما يبغي بأميمته بديلا ، مهما تدللت أو بغت عليه ، فإن عاتبها أو غاضبها فإنها بعدُ هوى نفسه ولديها محط رحاله ، وما يليق به وهو ابن الحياة الفطرية الساذجة أن يدعها ويضرب في بيداء المعاني ليتصيد منها أبكار الخيال وعونه

عثرتان :

ليس من دأبي تتبع سقطات الأقلام في اللغة وقواعدها ، ولكن يهولني أن يعثر قلم من الأقلام التي يستأنس بها ويتأثرها الناشئون ومن في حكمهم من غير الدارسين . والذي نحن الآن بصدد التعقيب على جموح قلمه ، هو الأستاذ ميخائيل نعيمة ، وهو من أدباء المهجر الذين جروا في ميدان الأدب العربي الحديث أشواطاً بعيدة ، ولكنهم أحياناً يصطدمون — في عدوهم — بأوضاع اللغة ، فلا يعبئون بها !

---

(١) الرسالة عدد ٦٩٦ .

(٢) من كلام الأستاذ شاكر ، وكذلك الشرح التالي :

(٣) الضواحي : ما برز من الإنسان كالمنكبين والكتفين ، يريد ممتلىء البدن من الراحة والدعة وسكون النفس . والأبكار : جمع بكر ، وهي المرأة لم تتزوج بعد . والعون : جمع عوان ، وهي المرأة كان لها قبل ذلك زوج . أما قوله : « وأنعم » فهي كلمة معترضة أراد بها أن قد طال على ذلك الراعي ماهو فيه من خفض ورغد وراحة ورفاهية حتى ربا وسمن وزاد ، فلم يشغله شيء يضنيه أو يأكل من بدنه .

كتب الأستاذ ميخائيل نعيمة فى مجلة « الكتاب[1] » مقالا عنوانه « مهماز البقاء » جاء فيه : « فمثلما نجوع إلى أشياء وأشياء كذلك تجوع إلينا أشياء وأشياء ، فنحن أبداً جائعون ومجيعون ، وآكلون ومأكولون » .

فهو يصوغ من الفعل « جاع » اللازم اسم المفعول دون صحبة ظرف أو جار ومجرور ، على أن الصياغة نفسها غير صحيحة إذ جعل واو « مجوع » ياء ، ولو تروى قليلا لقال : « فنحن جائعون ومجوع إلينا » .

تلك واحدة ، والثانية فى قوله بنفس المقال : « لكم نخاطب الأموات ويخاطبونا » فقد حذف نون الرفع من الفعل المضارع المتصل بواو الجماعة المجرد من الناصب والجازم فقال : « ويخاطبونا » والصواب أن يقول « ويخاطبوننا » فهذا هو الاستعمال القياسى للأفعال الخمسة الذى يجب أن تجرى عليه الألسنة والأقلام ، دون التفات إلى الشاذ ، مثل :

أبيت أسرى وتبيتى تدلكى ... وجهك بالعنبر والمسك الذكى

زواج أم كلثوم :

نشرت الصحف أخيراً نبأ زواج أم كلثوم ، وقد فوجىء الناس بهذا النبأ ، وقابلوه بشىء من القلق وشىء من الارتياح ! وكأنه قد استقر لديهم أن أم كلثوم - بانقطاعها لفن الغناء — قد خلصت لهم مفردة طليقة ، فما ينبغى أن ينافسهم فيها منافس يستأثر بها . . .

والذى دعا إلى الارتياح أن زوجها الأستاذ محمود الشريف من رجال الفن الموسيقى ، فيرجى ألا يكون حائلا بينها وبين المستمعين الذين تنقلهم — بصوتها الساحر — من أماكنهم إلى حيث تحلق بفنها الرفيع . . .

وليت شعرى هل كان أبو الفتح كشاجم يطوى الزمن فيصف « بحة أم كلثوم » إذ قال :

آه من بحة بغير انقطاع ... لفتاة موصولة الإيقاع

أتعبت صوتها وقد يجتنى من ... تعب الصوت راحة الأسماع

وإذ قال :

أشتهى فى الغناء بحة حلق ... ناعم الصوت متعب مكدود

كأنين المحب أضعفه الشو ... ق فضاهى به أنين العود

لا أحب الأوتار تعلو كما لا ... أشتهى الضرب لازماً للعود

ولعل أم كلثوم تواصل حفلاتها الشهرية التى تذيعها محطة الإذاعة ، فالناس يتجاوزون للمحطة من أجلها عن كثير . . .

وبعد فإن من حق أم كلثوم التى تبعث إلى قلوبنا البهجة والغبطة — أن نفرح لفرحها ونتمنى لها أطيب التمنيات .

آه من الأسعار :

قال لى صاحبى ، وقد لمحت على وجهه ما دلنى على أنه ظفر بشىء عزيز المنال : أتحب أن ترى شيئاً من « السماعيات » التى تسمع وتقرأ عنها فى هذه الأيام ؟ ودس يده فى جيبه بعناية ، فأخرج قلماً ثميناً من (ماركه) مشهورة . فتناولته من يده ، وأجريته على القرطاس ، فجرى ليناً ، يكاد يجر اليد إلى الكتابة جراً ... بل يكاد يمتح من القريحة متحاً . . . فرددت بصرى بين وجه صاحبى الظافر . . . وبين القلم الذى يقول لى : هيت لك ! ثم رجع البصر إلىّ خاسئاً وهو حسير . . وأعجلنى صاحبى — سامحه الله — فى رد قلمه ، وهو مغتبط بالحديث عنه قائلا :

— أتدرى ما ثمن هذا القلم ؟

— أعلم أنه يباع فى السوق بنحو خمسة عشر جنيهاً ، فمن لك به ... ؟

— أحضره فلان من أمريكا بمائتين وخمسين قرشاً !

عجباً ! قلم يصنعه الصانع فى أمريكا ، يشترى مواده ، ويحليه بالذهب ، ويبذل فيه بارع فنه ، ثم يشتريه التاجر هناك ليبيعه بربح ، فيكون الثمن بعد كل هذا مائتين وخمسين قرشاً ، فإذا ما جاء إلى مصر بلد العجائب صار ثمنه خمسة عشر جنيهاً ... ! يا ضيعة المنتج والمستهلك بين أظفار التاجر !

ولقد كنا نتلمس الأسباب لغلاء المستورد من الخارج إلى مصر ، ونحار لما يدعو إلى غلاء لحمها وسمنها وفولها وعدسها وبصلها ... فإذا الحيرة تتردد بين هذا وذاك ، وتجول هنا وهناك ، كما يجول الكلب الشرطى ، وتتشمم كما يتشمم ، فتكاد تمسك بالتاجر ، وأنى لها أن تنال منه وقد انتفخ وبدا « سمين الضواحى » فلا تملك إلا أن تردد ما قال شوقى فى غلاء ما بعد الحرب التى قبل الماضية :

(١) عدد ديسمبر الحالى

وفاء الشعراء

قضية

[مهداة إلى صاحب « أنات حائرة »]

للاستاذ عبد الرحمن صدقى

قضيةُ أرملٍ نذر الوفاءَ حكاها الناسُ أياماً وِلاء
حكوْا أنّ الفتى عدِم الرجاء وراح يصبُّ كالحمِ البكاء
وقالوا ضاقت الدنيا عليه وما يجدنّ فى امرأةٍ غَناء
وزادوا أنه نظم المراثى وخلّدَ ذِكر زوجته رثاء
وأقسَم أن يعيشَ بلا شريكٍ وأفرط فى تحدّيه القضاء
وصار على الوفاء لِواءَ صدْقٍ وقد عقدوا له فيه اللّواء
فيالله من نفرٍ حيارَى فما يدرُون أحسنَ أم أساء
حكوا أن قد تزوج بعد حينٍ وضمّ إليه من حسبٍ كفاء
وزادوا أنّ أفراحاً أُقيمت وأنّ عجيجها ملأَ الفضاء
أجل ، من بعد أعوامٍ طوالٍ وكانت باللظى الكاوى مِلاء
أجل ، قد أعرس الرجل المعنّى ولكن ، هل نفى هذا الوفاء ؟ !
عجيبٌ أمرُ هذا الناسِ تعشو نواظرُهم فلا تعدو الغِطاء
هو القلب الصديع ترون شطْراً أمامكم ، وسائرُه وَراء

عبد الرحمن صدقي

لجسمك ...

للأديب محمد محمد على

لجسمك أنغام يشيع أُهتافها بروحى ، وأنسام يهب عبيرها
ودنيا من الأحلام منى قريبة يفيض بقلبى بشرها وحبورها
وسحر يلف الآن روحى نعيمه فتنمو بها أهواؤها وشعورها

***

لجسمك نجوى يا فتاتى سمعتها ورن بأعماق الفؤاد صداها
تحدثنى من غير صوت ولا فم وأسمع منها صفوها ورضاها
كأنك أشواق مجسمة بدت لعينى ، أرى أحلامها ورؤاها

***

لمستك يا أختى بجسمىَ مرة
فأحسست روحى من ملامسه تنمو
وصرت أرى فى كل موضع لمسة عبير أزاهير يجسمها الوهم
وللجسم مثل الروح حلم يروده وآفاق حب بين أقطارها يسمو

***

تعالى نعش فى جنة الأرض ساعة تحيط بنا غدرانها وطيورها
فما هى إلا هدأة ثم بعدها
خُطاً نحو أفق الروح ، سوف نسيرها
ومن لم يجب للجسم داعيه لم تزل على روحه ألفافها دستورها

محمد محمد على

عبادك رب قد جاءوا بعصر أنيلا سقت فيهم أم سرابا
حنانك واهدِ للحسنى تجاراً بها ملكوا المرافق والرقابا
ورقق للفقير بها قلوباً محجرة وأكباداً صلابا
أمن أكل اليتيم له عقاب ومن أكل الفقير فلا عقابا ؟ !
أصيب من التجار بكل ضارٍ أشد من الزمان عليه نابا
يكاد إذا غذاه أو كساه ينازعه الحشاشة والإهابا

يا ولاة الأمر ، إنا نستعديكم على هؤلاء التجار ، وإلا فإنا نستعدى عليكم الشعراء ، فإن لم يهبوا فحسبنا أمير الشعراء ، فإن لم يغنِ فحسبنا الله ونعم الوكيل .

عباس حسان خضر



مات الأمير شكيب أرسلان :

مات الأمير شكيب أرسلان ! بهذا هتف الناعى عشية يوم الإثنين الماضى ، فوجمت النفوس للنبأ الأليم ، وجزع أبناء العروبة لفقد ذلك الرجل العظيم ، واستفاضت الحسرات أسىً ولوعة على علم من أعلام البيان العربى ، ورسول من رسل الأصلاح الأسلامى ، وقف حياته الطويلة الحافلة على الجهاد للحق ، والدفاع عن الحرية ، حتى غلبه الموت ، وهو الذى طالما غلب الأهوال وارتفع على الشدائد والأحداث .

لقد كان الأمير شكيب — رضوان الله عليه — بالفكرة التى يمثلها ، والغاية التى عاش لها ، علماً من أعلام تلك المدرسة المنجبة المنتجة التى وضع أساسها باعث الشرق السيد جمال الدين الأفغانى ، وتولى رعايتها المصلح العظيم الأستاذ الإمام محمد عبده ؛ فكان يرى الاسلام عقيـدة جامعة ، والعروبة رابطة شاملة ، والاحتفاظ بتراث السلف دعامة لنهوض الخلف ، فكان هذا هو جماع الفكرة فيما يكتب وينصح به ويجاهد له .

كان الأمير شكيب فى كل ما يكتب يرعى حق الدين وحق الاصلاح الشامل ، وكان يفزع لكل مسألة إسلامية ، ويزأر لكل نازلة شرقية ، ويجاهد لكل قضية عربية ، ويوجه خطابه دائما إلى أحرار المسلمين ، ويهيب بجميع أبنـاء العروبة . ولقد كان له من طيب الأرومة ، ونباهة المحتد ، واتساع الثقافة والصلة بالناس ما ارتفع بمكانته ، وأسمع بكلمته .

وكان الأمير شكيب فى مطلع هذا القرن ينهض بفكرته تحت لواء الخلافة العثمانية ، وكان يعمـل على توفيق الصلة بين الترك والعرب دائماً ، وكان يرجو أن تتمازج الوحدة العربية وما يسمونه بالوحدة الطورانية لتكونا وحدة إسلامية جامعة للصفوف ، مانعة من تلصص الاستعمار الغربى . فلما تقلص ظل الخلافة عن الآستانة ، ونزل الهلال عن قصور آل عثمان ، وقف الأمير شكيب يدعو العرب للوحدة فى وجه الاستعمار والتكاتف ضد الدخيل الأجنبى . وفى هذا السبيل كم احتمل رحمه الله ما احتمل من الأحداث الرهيبة حتى قضى عليه ذلك أن يعيش غريباً عن أهله ، نائياً عن وطنه ، فأمضى النصف الأخير من حياته يطوف آفاق أوربا ، وكان يؤثر الاقامة إما فى فرنسا لأنها أكثر مقصداً لرجالات العرب ، وإما فى سويسرا لأنها موطن الأحرار .

وعلى أى فقد كان وجوده فى أوربا كأنه الديدبان للأمة العربية ، فما كانت تمر كلمة فى صحيفة أو فكرة فى مجالس السياسة تمس الاسلام وتنال من العروبة إلا تصدى لها وكتب فى تفنيدها . وكان وهو فى مطارح الغربة يملأ الصحف فى سائر الأقطار العربية بمقالاته وبحوثه الضافية ، وما شغلته مشاغل الحياة وأعباء الغربة عن القراءة والكتابة ونشاط الذهن لحظة .

ومنذ عام أذاعت الصحف أن الأمير فى غربته يشكو مرض القلب ، وأن كل ما يرجوه عند موته ويتمناه على الله قبل أن يدركه الموت أن يرى والدته التى حرم رؤيتها منذ سنوات ، وأنه لا يوصى بشىء إلا أن يدفن رفاته فى تراب وطنه . وبعد مشاورات بين رجالات العروبة والسلطات الأجنبية تم الاتفاق على عودة الأمير ، فعاد وهو يحمل ثقل الداء المتمكن وأقام بين عشيرته زمناً يغالب الموت حتى غلبه الموت .

مات الأمير شكيب ، ولكنه خلف من ورائه سيرة عابرة بالجهاد للحرية ، وحياة حافلة بالكفاح للقومية ، وتراثاً من الفكر يضن به الزمن على البلى . وليست هذه الكلمة العاجلة العابرة بشىء فى جانب ما أسدى وأجدى وخدم به القضية العربية والفكرة الإسلامية ، فموعدنا بوفائه سلسلة من المقالات نترحم بها لحياته ونعرض فيها لتراثه فى الأعداد القادمة من الرسالة إن شاء الله .

محمد فهمى عبد اللطيف

حفلة المجمع اللغوى لاستقبال الأعضاء الجدد :

كانت الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الخميس الماضى موعداً للجلسة العلنية التى عقدها مجمع فؤاد الأول للغة العربية لاستقبال الأعضاء العشرة الذين عينوا به أخيراً .

وقد حضر إلى دار المجمع فى الموعد المحدد — عدا الأعضاء القدماء والجدد — طائفة من رجال العلم والأدب ، فافتتح الحفل سعادة رئيس المجمع أحمد لطفى السيد باشا بكلمة وجيزة رحب فيها بالأعضاء الجدد ، وقال إن أمام المجمع مهام جسيمة ترجو

بعمونتهم أن نسير فيها ، وأشار إلى أن أعضاء المجمع قد بلغوا الأربعين ، وهو أقصى مايمكن أن تتسع له حجرة الاجتماع ، وهو لذلك يذكر الحكومة بضيق مكان المجمع الحالى .

ثم ألقى الأستاذ أحمد أمين بك كلة المجمــــع فى استقبال الأعضاء الجدد ، فبدأ ببيان مادل عليه كلة « مجمع » وذكر تعريف كاتب انجليزى للمجمع بأنه هيئة متعاونة غرضها تهذيب وترقية الأدب والعلم والفن ، يدعوها إلى ذلك العشق الخالص لغرضها . وأشاد الأستاذ بكلمة « عشق الغرض » وأثرها فى الإنتاج ، وقال إن هذا العشق لم يكن بعيداً عنا نحن الشرقيين فقد قامت منا أفراد بما تقوم به المجامع كالأزهرى وابن منظور ، وذكر أن أمام المجمع مشاكل لابد أن يجد لها حلولا ، وأن له غايات ومطالب ، منهـا وضع معجم واف بحاجات العصر ، ومعجم تاريخى مطول ، وأن يكون المجمع محكمة عليا للانتاج الأدبى فى العالم العربى ، وأن يكون حارساً على اللغة ليشرف على ما يكتب فى الصحف وما يستعمل من ألفاظ وأساليب ، وأن يستحث الحكومة والأغنياء على التبرع بالمال لتشجيع الأدباء على الانتاج .

وقال إنه وجهت إلى المجمع نقود كثيرة من أن نتاجه قليل أو أنه يختار ألفاظاً لم يستسغها الجمهور ؛ ودفع بأن طبيعة المجمع دائماً طبيعة محافظة ، وأن طبيعة العلماء تميل إلى التدقيق والبطء ، وتفضل النتاج الصحيح القليل على النتاج الكثير فى غير نضج ، وبأن ليس للمجمع استقلال مالى يشعره بالحرية فى العمل . ثم رحب بالأعضاء الجدد وعرف كلا منهم بكلمة قصيرة . ومن الطريف أنه قال عقب ذلك « هذا — أيها السادة — عرض سريع لهذه العشرة الطيبة » فضحك الحاضرون من كلمة « العشرة الطيبة »

ثم قام الدكتور ابراهيم مدكور ، فألقى كلة الأعضاء الجدد فأشاد بفضل المجمع وبين حاجة البلاد اليه ؛ وشكر هيئـة المجمع على الحفاوة به وبزملائه الجدد ، وقال إن المجمع يمتـاز بخصائص ثلاثة : عمل صامت ، وتعـاون صادق ، واعتدال وحكمة . ثم أفاض فى الحديث عن قوانين علم اللغات المقارن التى من أهمها أن اللغات جميعها تخضع لقانون السير والحركة والتغير والتحول إلى أن قال» إن اللغات فى حركة مستمرة ، فمن العبث أن نعترضها ونقف فى طريقها ، أو أن نفرض عليها قوالب جامدة لاتلبث أن تخرج عليها . وإن الصورة المثالية القديمة التى كانت تفرض للغات لا يقرها العلم المعاصر ولا يقول بهـا وأصبح يدعو إلى مثالية أخرى عملية ونافعة فاللغة المثالية هى التى تصدر عن روح العصر وتتمشى مع حاجته ومطالبه ، على أخصر صورة وأوضح مظهر »

وبهذه المناسـبة نذكر أن عدد أعضاء المجمع وقت إنشائه سنة ١٩٣٢ كان عشرين عضواً ، وفى سنة ١٩٤٠ زاد عشرة فصاروا ثلاثين ، وفى ٢٨ نوفمبر الماضى صدر مرسوم بتعيين عشرة جدد ، هم : الدكتور عبد الرازق السنهورى باشا ، والدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، والدكتور عبـد الوهاب عزام بك ، والدكتور أحمد زكى بك ، والدكتور محمد شرف بك ، وزكى المهندس بك ، والدكتور مصطفى نظيف بك ، والشيخ محمود شلتوت . ومحمد فريد أبو حديد بك ، والشيخ عبدالوهاب خلاف

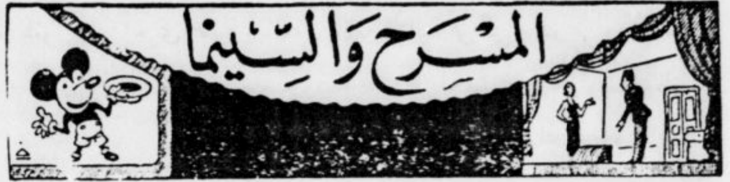
وكنا نأمل أن نرى بين هؤلاء الأعضاء الذين عينوا أخيراً بعض أبناء الأمم الشقيقة ، وخاصة غير الممثلة فى المجمع كفلسطين وفيها الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى ، وهو — كما يعلم الجميع — من أعلام العصر فى اللغة والأدب .

(ع . ح . خ)

مجلة الأزهر فى عهدها الجديد :

الرسالات الروحية مجال واسع للدرس العميق ؛ والتحليل الدقيق ؛ والإسلام ينال من عناية هذه الدراسات المختلفة فى جميع اللغات حظاً غير منقوص . والأزهر . وهو القوام على رعاية الرسالة الإسلامية ؛ الذائد عنها ؛ الممهد لها السبل فى غمرة هذا الزحام المتضاغط من الدعايات المذهبية التى تناهض تلك الرسالات ؛ وأمضى سلاح فى يد تلك المذاهب ماترى به عن قوس الصحافة ، لذلك كانت الجهود المبذولة لترقية مجلة الأزهر وتدعيمها تقابل بالتأييد ، وتحف بالتشجيع . وقد جاءت — المجـلة — حاملة خلاصة مصـفاة لتلك الدراسات التى تتناول الجوانب الخليقة بالتناول من تلك الرسالة الخالدة ؛ وهذه نفحة من نفحات الأستاذ الأكبر الذى مكنته حياته العلمية النشيطة من الوقوف على ثقافة الجامعات الأوربية وأنظمتها وأهدافها ؛ وهذا خير ماتتطلبه الحياة الجامعية الأزهرية . وتتجلى فيهـا أيضاً من مجهودات الأستاذ الباحث الموفق — فريد بك وجدى — رئيس تحريرها ومدير دفتها ، حتى تستطيع أن تؤدى رسالتها فى خدمة الشرق والإسلام .

محمد عبد الحليم أبو زيد



بمناسبة مشاهدة وفود الجامعة العربية لرواية :

حواء الخـــالدة

بدار الأوبرا الملكية

للأديب خليل منصور الرحيمي

مسرحية ألفها الكاتب الكبير (محمود تيمور بك) وأخرجها الأستاذ الكبير زكى طليمات ، ومثلتها الفرقة المصرية . وقد استطاعت هذه المسرحية أن تفرض نفسها على الجماهير — خاصتهم وعامتهم — أياما وأياما . كانت طيالها حديث المشاهد العادى وشغل الأديب والناقد . فهل أتيح لها ذلك كله اعتباطا وعفو المصادفة ، أم تهيأ لها ذلك بما أودعته من خصائص فنية هى وحدها الحكم فيما يكتب له الخلود من ثمرات القرائح . وما يكون نصيبه الموت فى ساعة ميلاده . ذلك ما سنحاول تبيين أمره فى نقدنا للمسرحية .

وقبل الدخول فى صميم النقد نحب أن ننبه إلى أمور لها دلالتها التى يجب ألا تفوت المعنيين بشئون الفن فى مصر . وبخاصة الفن المسرحى .

أولاها أن هذه المسرحية كتبت بلغة عربية فصيحة . وكان من الأراجيف الشائعة فى الأوساط الفنية ، أن لغتنا الفصحى لا تجد استجابة من الجماهير ، فضلا عن أنها تعوق المؤلف عن النفوذ إلى أغوار شخصياته مستجلياً خفاياها معبراً عن خلجاتها فكانت استجابة الجمهور لمسرحية (حواء الخالدة) شاهدا صادقا على كذب ما يرجف به القاصدون . فليس باللغة قصور ولا بالجماهير عقم ، ولم يعد من السائغ مد يد الملاينة إلى العامية المبتذلة جريا وراء ادعاء ثبت بطلانه .

وثانيتها أن المسرحية ، من المسرحيات ذات الموضوع ، وقد عولجت بطريقة علمية ، فلم يعمد فيها المؤلف إلى إثارة عواطف الجماهير بالحوادث والمفاجآت والمشوقات المفتسرة . ولـكنه استخدم الحوار للتعبير عن الحادث ومغزاه وسببه فى آن معاً ، فساوق بين العقل والعاطفة فى كشفه عما يختلج فى طوايا النفوس ومايستتر فى أعماقها. وتلك طرفة جديدة فى فن المسرحية المصرية ، تبعد بها عن (بهلوانيات) الحوادث المفتعلة والاعتماد فى التشويق على النكتة المتعمدة ... ومن هنا كانت هذه المسرحية بدء النقلة الجدية فى حياتنا الفنية ، والاتجاه بها وجهة سامية .

ونعود إلى المسرحية فنقول إنها موضوع وعلاج ، ثم عرض وإبراز . أما الموضوع والعلاج فن عمل المؤلف ؛ وأما العرض والإبراز فن عمـل المخرج والممثل ، ونبدأ حديثنا بالموضوع ، وكيف عولج .

تدور المسرحية على قصـة عنترة وعبلة ، تلك القصة التى انحدرت على ألسنة الرواة من أغوار الماضى ، ولا تزال شائعة على ألسنة الناس . فعنترة شاعر فارس تيمه الحب ، فلم يعد يرى من الدنيـا غير محبوبته ، يهجر من أجلها الديار ، ويركب فى سبيلها الأخطار ، ويرضى إكراما لها بالهوان وإن كان أشجع الشبان . وعبلة حسناء بدوية ، امتلأ قلبها بالحب لفارسها الأسود فزهدت وفاء له فى نعيم الحياة ، وانتظرت الهناء فى ظله وحده دون الناس جميعا .

فماذا فعل تيمور بتلك المادة التى تقدمها إليه أقاصيص الرواة بيد جامدة فى قفص صلب من جلال الماضى .

لقد ارتفع تيمور بالقصة على أوضاع الزمان والمكان والحادث الخاص ، فجعل منها قصـة إنسانية عامة ، دائمة الحدوث ودائمة التجدد ، غير متقيد بما يروى عنها من أخبار فالحادث لا يعنيه ، وإنمـا تعنيه دلالته ، وذاتيته لا تهمه ، وإنما تهمه إنسانيته ... فالفرد عنده وحدة تتركز فيها أهواء الإنسانية كلها ، بل أنموذج صـادق لنوازع النوع البشرى عامته ، على شتى تباين هذه النوازع . فالمسرحية إذا من مسرحيات النماذج البشرية ، التى لا تعرض الأشخاص بخصوصياتهم ولـكن بدلالاتهم الإنسانية . تلك الدلالات التى تهىء لهـا نوازع أصيلة واغلة فى أعماق النفوس . بدأت مع الناس منذ بدء الخليقة ، وصـاحبتهم فى موكب الحياة ، وستظل لهم مصاحبة أبدا . تلبس لهم كل لباس ، وتتبدى لهم فى كل لون .

فهى فى البادية حيية خجول ، تضع نقابها وعينها من ورائه

فاحصة . وهى فى الجاهل مروعة نفور تستتر بأوراق الشجر ، ونفسها مشرئبة متطلعة . وهى فى المدنية الحديثة متبرجة سافرة وحيلتها حاضرة عاملة ... إنها هى هى ، فى الماضى ، والحاضر ، وستكون هى عينها فى المستقبل ، فهى حواء التى لا تحول ، حواء الخالدة

من هذه الزاوية نظر تيمور إلى تلك القصة . فلم تكن عبلة غير امرأة ، امرأة من بنات حواء ، بل قل إنها حواء نفسها ؟ حواء التى مدت يدها إلى آدم بالكأس المرة اللذيذة منذ بدء الخليقة ، فتجرعها مستلذا مرارتها . ولم تزل تمد له يدها ولم يزل يتجرع الكأس ويستلذها ، وليس يعنيها من أمره إلا أن تراه أمامها ، بل وراءها ، بل محيطا بها من كل أقطارها . تحاربه لتحارب به وتدنيه لتصل به إلى غايتها ، ثم تقصيه لتشبع غرورها بلذة سعيه إليها ، غير باخلة عليه بكلمات الحب والإخلاص . ودموع العطف والرثاء . فمن هذا المزاج تملأ له تلك الكأس المرة اللذيذة ، التى يتجرعها مستلذا مرارتها . فما هو الدافع الخفى الذى يقف المرأة من الرجل هذا الموقف ؟ ؟ بل الذى يوجه غرائزها وطباعها إلى ذلك . أرادت أولم ترد ؟ ؟

إن المرأة تعبد القوة وتهيم بها — قوتها هى — تلك الهبة التى حرمتها منها الطبيعة فكان لزاما عليها أن تلتمسها فى غيرها ثم تفرض نفسها على ذلك الغير ، لتكون هى الدافعة والمحركة ، فهى القوة وهو آلتها ، أما وسيلتها إلى تحقيق تلك القوة أو أخذها قسرا من الرجل ، فهى شباك الطبيعة المعطاة لها من جمال ودلال ، تتلمس بهما إعجاب الرجل ، لتفرض عليه شخصها فإن بطل إعجابه بها ، فقد انهارت قوتها ، وحق لها أن تغدر وأن تخون

ونتلمس مدى صدق هذه النظرية فى عبلة فنراها تحب عنترة القوى بجسمه وروحه ، مفاخرة بنات حيها بذلك الحب . فهى (عن عنترة أخذت بلاغة الشعراء) ثم هى مفتونة به ، لأنها لا تجد سواه (من يحمى الذمار ويذود عن الحمى) ولكنها كما قلنا تحب القوة فى نفسها ، فلا بد أن يكون عنترة لها تبعا ، ومن هنا جاز أن تدفعه إلى المخاطرة بمصاولة الضرغام ، ليأتيها بجلده . والويل له إذا لم يأت به . لأنها لا تعرف إذ ذاك (ماذا تقول لنساء الحى إذا هو عاد صفر اليدين) . فنفسها وغرورها وفرض شخصيتها هو همها الأول .

ولكن للقوة مظاهر غير الشجاعة . فهناك قوة الجاه والثراء تعرض لها ممثلة فى شخص الأمير (عمارة الكندى) ، الذى يزور الحى فتلاقيه عبلة يدفعها الحنق عن غياب عنترة ، وتأخذ فى ملاطفته ، حتى إذا ما عاد بطلها حاملا إليها جلد الضرغام نسيت الأمير وجاهه ، لأن غرورها وجد وقوده . ولكنها تريد أن تتأكد لنفسها من أنها تستطيع استلاب هذا البطل أعز ما يملك ، ألا وهو سمة رجولته وعنوان شجاعته ، فتحتال عليه حتى يحلق لحيته . ثم لا يكون جزاؤه منها إلا التأبى ، لأنها لا تريد غير عنترة القوى ! ويذهب عنترة إلى فارس وتطول غيبته هناك ويجد الأمير فى غيابه منفذا إلى قلبها ، فترضاه خاطبا إن جلب لها مطلبها المرهق من النياق العصفورية . فيرحل هو الآخر فى طلبها .

ولكن نعى عنترة يأتيها فتبكى فيه حبها ؛ بل تبكى فيه الطبل الأجوف الذى ينشر أحاديث حبها ؛ وسرعان ما تسمع بمقدم الأمير فتخف لاستقباله مراعاة لأدب الضيافة . وأدب الضيافة أحد سيوف المرأة الفواتك . ولكن عنترة لم يمت ، فقد عاد إليها من (فارس) ، بقلب جديد ، لا يؤثر فيه نسيم الصحراء ، ولا يسبيه حديث الغرام ، ولا يأسره سحر العيون ... عاد عنترة المدنى الجديد ... فتحتال لاسترجاعه ، ولكن كيف ، وقد تفتحت عينه على ما لم يدر من الدنيا ، فتثور فيها الضغينة على قوتها المفقودة . وإذ ذاك تعد له الطعنة النجلاء ، بأن تعيده إلى رقها بما تملك من وسائل ، ثم تولى عنه انتقاما ، ويتم لها ذلك ، فتطعن عنترة الذى حركت فى قلبه الهوى ، وتنحاز إلى خاطبها الأمير ، معتذرة عن مداعبتها له بأنها كانت تلهو معه ، ولو صدقت لقالت (كنت ألهو به) ! !

وتزف إلى الأمير وإن قلبها لضائق به . وما إن يعرض لها ركب عنترة ، حتى تغرى أميرها بنزاله ، وتدفعه بيدها إلى الموت بسيف عنترة . ثم تعود لتنظر إليه ، وقد أصبح سيد الموقف ، وتغنى له النداء كما كانت تغنه . فتنسيه ما كابد بسببها من هوان ، وما تجشم من أخطار ، ويعود إليها منصاعا مغلوبا على أمره ... فأى شجاعة فى قلب هذا البطل المقحام . وما غناء شجاعته إذا كانت الحرب بينه وبين حواء ! ! !

لقد استطاع تيمور بحق أن يعرض لنا صورة عارية للمرأة ، تلك التى تلعب بالرجل لتعوض به نقصها ، بل لتسلبه قوته لنفسها ، وهو هو المطية الذلول ، سواء أكان أشجع الشجعان أم أهو من أهل الهوان ، كل هذا فى أسلوب شائق جذاب ، وحبك محكم يستحق عليه تهنئة الناقد وتقدير الأديب .

خليل منصور الرحيمى



وفـــاء....!

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم الأديب السيد كمال الحريري

كانت عربة القطار غاصة بالركاب منذ « كان » ، والأحاديث تدور على ألسنتهم ، بعد أن تعارفوا أو تآلفوا . وحين مر القطار « تاراسكون » قال أحدهم .

— في هذا المكان تجرى حوادث القتل . وهنا طفق الركب يتكلمون عن سفاك مجهول ، أعجز الأمن وأخذ منذ عامين يعيث فتكاً بأرواح المسافرين فكل أخذ يبدى عنه افتراضاته ويدلى برأيه ، أما النساء فكن ينظرن برعب إلى الليل البهيم من خلال زجاج العربة ، وقد خفن أن يبصرن فجأة رأس ذلك السفاح ، يطالعهن من باب غرفة القطار .

ثم أفاض المسافرون في سرد قصص مرعبة ومصادفات مفزعة ومجابهات مع المجانين في عربات القطار .

كل حاضر كان يعلم حادثة من هذا النوع راح يسردها على شرف جرأته . وما منهم على زعمه ، إلا سبق له أن خوف لصاً أو صرع مجرماً أو جندل أثيما : في ظروف غريبة وبديهة حاضرة وشجاعة فائقة . وأراد طبيب اعتاد كل شتاء عبور جنوب فرنسا أن يدلى بدلوه بين الدلاء فقال .

— أما أنا فلم يسعدنى الحظ باختبار شجاعتي في ظروف كهذه ، بيد أنى أعرف امرأة من زبائنى المرضى « وتوفيت الآن » حدث لها أغرب حادثة يمكن أن تحدث في هذا العالم .

لقد كانت روسية ، واسمها مارى بارانواى ، وهى من كرائم العقائل ، ذات جمال ساحر وحسن رائع . وأنتم تعلمون كم هن جميلات الروسيات ، أو على الأقل كم يظهرن لنا حساناً فاتنات بآنافهن الدقيقة ، وثغورهن الصغيرة ، وعيونهن الزرقاء السنجابية وإن فيهن مزيجاً غريباً من الوقاحة المغرية ، والكبرياء الحلوة والقسوة العطوف ، التى تجتذب قلب الفرنسي وتأسره .

وفى الحق قد يكون اختلاف الجنس هو الذى يرينى فيهن هذا النوع من الجمال .

لقد كان طبيبها منذ سنين عديدة ، يراها مهددة بمرض صدرى عضال ، وكان يسعى كثيراً أن يحملها على السفر إلى جنوب فرنسا للاستشفاء ولكنها كانت ترفض بإصرار مغادرة « بطرسبورغ » .

غير أنه ، في الخريف الأخير ، وقد أيقن الطبيب أنها هالكة توصل إلى إقناع زوجها الكونت ، بالإيعاز لها بالسفر إلى «مانتو» .

فاستقلت القطار وجلست في مقصورة وحدها بالعربة ، أما خدمها ومرافقوها ، فقد شغلوا غرفة خاصة بجانبها . وهناك لبثت حزينة ، بقرب نافذة القطار تطل على الجبال والدساكر والقرى ، وهى تمر مراً خاطفاً أمام عينيها . بيناهى وحيدة منبوذة من الحياة ، ليس لها ولد ولا قريب ، غير زوج زال حبها من قلبه ، فألقى بها إلى البلد النازح كما يبعث السيد بتابعه العليل إلى مصحة دون أن يرافقه . وعند كل محطة كان وصيفها « إيفان » يأتيها مستعلماً عما إذا كان هناك حاجة تنقصها . ولقد كان خادماً قديماً في خدمة مولاته ، متفانياً في إخلاصه لها ، مستعداً دائما لإنفاذ كل رغبة أو إشارة . واعتكر الليل والقطار يدوى ويهوى هوياً على السكة الحديدية ، وجفن « الكونتس » لم يغتمض لتهيج أعصابها وثوران نفسها . خطر لها فجأة أن تعد ماخلفه لها زوجها حين توديعه إياها من نقود ذهبية فرنسية . ففتحت حقيبتها الصغيرة وأفرغت منها على حجرها موجاً براقاً من المعدن الذهبى . ولكن على حين غرة هبت عليها نسمة باردة . وما كادت ترفع بصرها مذعورة مصعوقة من المفاجأة حتى أخذت قبضة باب العربة تتحرك وتهتز . فذعرت الكونتس وألقت بغتة على نقودها المنتشرة شالا كان فى حضنها ثم راحت تنتظر . ومرت لحظات ظهر بعدها رجل عارى الرأس ، جريح الذراع ، يلهث وهو في ثياب المساء . فأغلق باب العربة وجلس يحدق بعينين لامعتين ، إلى جارته . ثم إنه ربط كفه التى كانت تقطر دماً بمنديل . فشعرت الصبية بالخوف يهدها هداً ، وتحقق لديها أن الرجل عاينها وهى تعد النقود ، وإنما أتى إليها كى يقتلها ويستلبها ماعندها . كان يحدق بها منبهر الصدر لاهث النفس متشنج عضلات الوجه ، وهو متهيئ لأن يهاجمها ويسطو عليها بلا ريب . وقال بغتة .

— لا تراعى منى أيتها السيدة . فلم تنطق بكلمة لعجزها عن فتح فمها رعباً ، واستمعت له وقلبهـا خفاق من الذعر ، وأذناها تطنان طنيناً مدوياً . قال لها .

— إنى لست فاتـكا ولا مجرماً أيتها السيدة . بيد أنها ظلت ملتزمة جانب الصمت ، وبدت منها حركة فجائية ، اقتربت منها ركبتاها إلى بعضهما فجرى الذهب من حجرها إلى بساط الأرض ، كما يجرى المـاء من الأنبوب . ودهش الرجل ، فأخذ يحدق فى هذا الجدول الجارى من الذهب ... ثم مال فجأة إلى الأرض لالتقاطه . أما هى فريعت ونهضت ملقية على الأرض جميع ثروتها ، ثم هربت إلى باب عربة القطار تود أن تقذف بنفسها ؛ غير أنه أدرك ما عزمت عليـه ، فوثب من مكانه وأمسكها بيديه ، ثم أجبرها على الجلوس وقال لها وهى ترتعد بين يديه :

— إصغى إلى أيتها السيدة . لست شريراً ولا فاتـكا ، ودليلى على هذا أنى سألتقط هذه النقود وأردها إليك ... إنى رجل هالك ومحكوم على بالموت ، إن لم تعينينى على اجتياز الحدود الروسية . وليس بوسعى أن أبسط لك القول أكثر من هذا . ففى خلال ساعة سنصل آخر الحدود الروسية ، فان لم تنجدينى إنى إذاً من الهالـكين . ومع ذلك أيتها السيدة ، أقسم لك أنى لم أرتكب قتـلا ، ولا اقترفت سرقة أو جرماً يسئ الشرف ويخدش الـكرامة . أحلف لك على هذا ، وليس بمقدورى أن أزيدك فى القول . ثم جثا الشاب على ركبتيه ، وأخذ يلتقط النقود ، وينقب حتى عن أصغر قطعة متدحرجة منها ، وحين أفعمت محفظة النقود كما كانت ، ناولها لجارته دون أن ينبس بنت لسان ، ثم انتقل وجلس فى الزاوية الثانية من عربة القطار ، وظل الإثنان ساكنين ، لا يبديان حركة ، ولبثت هى فى صمتها وسهومها وجودها : أسـيرة الخوف الذى بدأ ينجلى عنها شيئاً فشيئاً . أما هو فلم يظهر حركة أيضاً ، ولم يبد إشارة . بل استمر مستقيم الجلسة تحدق عيناه إلى الأمام ، ووجهه مصفر اصفرار وجوه الموتى .

على أنها كانت من حين لآخر ترميه بنظرة خاطفة . كان رجلا فى الثلاثين من سنيه ، شديد الفتنة سليم القسمات ، فى وجهه سمة النبل والاستقامة . وظل القطار يخترق حجب الظلام ، ملقياً فى أذن الليل الدامس صفارته الحادة الصارخة ، ولا يكاد يهدأ من سيره ويخفف قليلا من سرعته حتى يستأنف لجبه وهويه وهديره ، ولـكن فجأة ، خفف من مشيته ، ثم انطلقت من قاطرته عدة صفارات ووقف تماماً عن السير .

وبدا الوصيف « إيفان » على باب الغرفة ، يتلقى أوامر سيدته فتأملت الـكونتس مارى مرة أخيرة رفيقها الغريب ، ثم قالت لتابعها بصوت أجش

— إيفان سـتعود إلى زوجى « الـكونت » ، لأنى لست بحاجة إليك الآن . فصعق الرجل وأطل عليها بعينين مفتوحتين دهشة ثم تمتم :

— ولـكن يا مولا ... فقاطعته

— لا ، لن تأتى معى ، لقد بدا لى فغيرت رأيى ، وأريد أن تبقى فى روسيا . هاك نفقة رجوعك ، وهيا ناولنى معطفك وقبعتك .

فتجرد الخادم المدهوش من معطفه ، وأنزل قبعته عن رأسه طائعاً دون كلمة ، لأنه تعود من مولاته كل إرادة فاجئة أو رغبة وهوى لا سبيل إلى مقاومته . ثم غادر عربة القطار ، وعيناه تفيضان من الدمع . وتحرك القطار ثم انقذف مخترقاً الحدود ، وحينئذ قالت « الـكونتس » لجارها :

— هذه الملابس هى لك ياسيدى ، فأنت منذ الآن « إيفان » تابعى . على أنى اشترط عليك شرطاً واحداً جزاء ما قدمته إليك من جميل الصنع : هو أن لا تكلمنى ولاتفتح معى باباً من حديث ، سواءاً كان من أجل شكرى ؛ أم من أجل توضيح هذا التصرف معك . فانحنى الرجل المجهول أمامها طائعاً ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة . وبعد قليل وقف القطار من جديد ، ثم طفق موظفون بملابس وبذلات خاصة ، يفدون إلى عربات القطار ، فمدت الـكونتس إليهم أوراق السفر ، ثم أشارت إلى الرجل الغريب القابع فى زاوية العربة وقالت :

— هذا تابعى « إيفان » ، وها كم جواز سفره . واستأنف القطار جريانه وهديره ، ومرّ عليهما الليـل بطوله ورأسها إلى رأسه لا ينطق ولا تنطق . وأقبل الصباح وقد جاز القطار قرية ألمانية فنزل الرجل المجهول من العربة ، ثم وقف على بابها يقول :

— اعذرينى أيتها السيدة ، إذا أخللت بشرطى معك ... ولـكنى حرمتك من خادمك ، فمن الظرف والعدل ، أن أحل

مكانه ... هل أنت محتاجة إلى أمر أنفذه ، فقالت فى برود .

— نعم استدع وصيفتى ، فغادر العربة ليقوم بما أمرته ثم اختفى عنها ...

ولما نزلت إلى مشرب المحطة « بوفيه » ، بصرت به عن بعد يرامقها النظر ثم ... ثم بلغ القطار « مانتون » .

وسكت الطبيب المتحدث لحظة ، ثم واصل كلامه يقول : ففى ذات يوم ، بينما كنت أتقبل زبائنى فى عيادتى ، شاهدت فتى غرانقاً يدخل علىّ ويقول :

— سيدى الطبيب ، لقد جئت أستعلم منك ، عن صحة الكونتس « مارى بارانواى » فإنى برغم كونى نكرة عندها ، صديق وفىّ لزوجها . فأجبته فى أسى : إنها مشرفة على التلف ، ولن ترجع إلى روسيا ثانية . فاستخرط الفتى فى بكاء مرّ . ثم نهض خارجاً من الغرفة ، وقد رنحه الخبر ومال بعطفه .

وفى نفس المساء ، أنهيت إلى الكونتس ، بأن غريباً جاء يستخبرنى عن أنباء صحتها ، فبدا عليها التأثر ، وراحت تقصّ كل ما سردته على مسمعكم ثم أضافت .

— هذا الرجل الذى ما كنت أعرفه قبل ذاك الوقت ، يتبعنى الآن كظلّى . وإنى لألتقى به الآن دائماً ، فى مراحى ومغداى . وأراه ينظر إلىّ نظرات غريبة دون أن يناقلنى الحديث ، ثم أطرقت لحظة واستأنفت .

— انظر . إنى لأراهنك على أنه الآن واقف تحت نافذتى . قالت هذا ، ثم غادرت كرسيها الطويل ، وراحت تزيح الستار عن النافذة . فإذا بها تبصر الرجل الذى استقبلته فى عيادتى . وكان جالساً على مقعد من مقاعد النزهة ، وعيناه شاخصتان إلى نافذة الفندق . وبمشاهدته إيانا . نهض وابتعد دون أن يلتفت إلينا ...

ومنذ يومئذ ، كنت شهيد مأساة غريبة : لحب صامت أخرس ، يقوم بين شخصين لا يعرف كل منهما عن الآخر شيئاً . أما هو فقد كان يتعلق بها قلبه ، وتهفو إليها جوانحه . بإخلاص الحيوان الشاكر منقذه من الموت . وفى كل مساء كان يزورنى متلهفاً .

— كيف حالها يا سيدى ؟ يقول هذا وهو يعلم أنى أفهم من يقصد . ولقد كان يستعبر عبرارة ، حين يعلم أن الضعف والمرض كانا يتخونانها يوماً بعد يوم . وكانت هى تقول لى :

— إنى لم أحاوره فى حياتى إلا مرة واحدة . ومع ذلك يخيل إلى أنى أعرفه منذ عشرين سنة . وكانا حين يلتقيان صدفة ويحييها ترد إليه تحيته فى ابتسامة وفورة فاتنة . وكنت أشيم دلائل السعادة فى وجهها : فهى المهجورة المتروكة من الزوج والأهل ، وهى التى استيقنت من موتها القريب ، كان يشيع فى وجهها الرضى والإطمئنان أن ترى نفسها محبوبة بمثل هذا الإحترام الخالص والشاعرية الملتهبة والإخلاص المحض . ومع هذا كانت ترفض بيأس استقباله والتعرف إلى شخصه أو اسمه . حتى ومكالمته ولو بكلمة ولقد كانت تقول :

« لا ، لا . إن ذلك ليفسد علينا ما نحن فيه من صداقة غريبة . وينبغى لكل منا أن يظل غريباً عن الآخر » .

وفى الحق ، لقد كان هذا الشاب ، صورة ثانية لشخصية « دون كيشوت » لأنه لم يحاول مرة الإقتراب منها ، كأنما كان يريد أن يستمسك حتى النهاية بالوعد الذى قطعه على نفسه فى القطار : أن لا يحدثها أبداً . وفى الغالب ، حين تشتد عليها نوبات مرضها وضعفها ، كانت تنهض من كرسيها ، وتروح تزيح الستار عن النافذة ، لترى إن كان هو هناك يرقبها ؛ وإذ تبصره جالساً على المقعد جلسته المتأملة الساكنة ، تعود إلى كرسيها وعلى شفتيها بسمة الرضى والسعادة ...

وماتت الكونتس، فى الساعة السادسة من صباح ذات يوم . فبينما كنت خارجاً من الفندق أقبل علىّ الفتى منطفىء اللون بادى الإضطراب وكان على علم بالنعى الأليم فقال ملتاعاً :

— أتمنى عليك يا سيدى رؤيتها لحظة ولو أمامك . فرافقته إلى غرفة المتوفاة ولما مثل أمام سرير الميتة ، تناول يدها وأخذ يلثمها لثمات حراراً طويلة مالها نهاية ... ثم انفلت من الغرفة كمن فقد صوابه وصمت الطبيب من جديد ، ثم قال :

ها كم يا سادتى أغرب حادثة أعرفها عن السفر ، ويجب الإعتراف بأن الرجال مصابون بالخبل . فتمتمت امرأة بصوت خافت :

— إن ذينك المخلوقين اللذين ذكرت هما أقل خبلا وجنوناً مما تظن . لقد كانا ... لقد كانا . بيد أنها لم تستطع متابعة جملتها لأن البكاء قطعها عليها . وبما أن الحاضرين انحرفوا بالحديث عن وجهته كى يهدئوا جأشها ، لم يعلم أحد أبداً ما كانت المرأة تود أن تتم به كلمتها ... لقد كانا ...

(حلب) **كمال الحريرى**

سكك حـــديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

دليل تليفونات الاسكندرية طبعة أبريل سنة ١٩٤٧

يمكنكم أن تحجزوا الاماكن التى تختارونها للاعلان عن أعمالكم فى دليل تليفونات الاسكندرية الذى سيصدر فى شهر أبريل سنة ١٩٤٧ .

والإعلان فى الدليل المذكور له مزايا خاصة إذ يتجدد كل يوم طوال مدة سريان الطبعة ويتداوله آلاف المشتركين وبه أماكن خالية تستطيعون استئجارها بأسعار زهيدة .

ولزيادة الإيضاح اتصلوا :— بقسم النشر والإعلانات بالادارة العامة — بمحطة مصر

العدد ٧٠٣ — الاثنين ٢٣ ديسمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

٢٧ ، ٥١ إ

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 703

Lundi — 23 — 12 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Litteraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧٠٣ « القاهرة في يوم الإثنين ٢٩ محرم سنة ١٣٦٦ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

تناسخ العـــادات

للأستاذ عباس محمود العقاد

ما ذا يقول السائح الغريب إذا نزل بالقاهرة يوم الأحد فرآها — أو رأى الكثير من أحيائها — مغلقة الدكاكين والمصارف ومكاتب الأعمال ؟

إنه سيحار في تعليل هذه الظاهرة

وربما رفع بصره إلى الأسماء ليتبين أديان أصحابها فيزداد حيرة على حيرة ، لأنه يرى بينها اسم محمد وحسن ومصطفى ، كما يرى بينها اسم جرجس ونيقولا وكوهين !

فليس اليوم يوم صلاة دينية عند جميع هؤلاء ، وليست البطالة لمعنى من معاني الدين يتفق عليه أصحاب الدكاكين أجمعين

ألعل القوم إذن خاضعون لحكومة مسيحية ؟

ولا هذا أيضاً هو سبب البطالة في يوم الأحد . فإن حكومة البلاد حكومة إسلامية ، ولم يكن حكامها الأجانب — يوم كانوا يحكمونها — ممن يقترفون هذه الغلطة السياسية التي لا تؤمن عقباها ، وهي غلطة الإكراه في مسائل المعتقدات

ولا شك أن الحيرة ستزداد وتزداد إذا طال المقام بالسائح الغريب إلى العيد السنوي المشهور باسم عيد الميلاد

أي إلى اليوم الخامس والعشرين من الشهر الثاني عشر من السنة الميلادية

فإنه سيرى أناساً من المسلمين يسهرون في ليلة هذا العيد ويحتفلون به في المنازل والمحافل ، ويطربون فيه ويقصفون

أتراهم يقصدون الاحتفال لمعنى من معاني الدين ؟

كلا . ولعلهم لا يذكرون ما معناه على التحقيق . ولكن العادة الاجتماعية هي التي حسنت لهم هذا الاحتفال على سبيل المحاكاة ، والعادة الاجتماعية تعززها المصالح الاقتصادية هي التي عممت بين فريق من المسلمين بطالة يوم الأحد ، لأنهم يرتبطون بالمصارف والشركات التي تنقطع عن العمل فيه ، فلا يحبون أن ينقطعوا يومين كل أسبوع ، ولا يستطيعون أن يهملوا أيام الأسبوع كله . فبطالة الأحد إذن أيسر الحالين

لكن ما العمل إذا كان السائح الغريب من أبناء القرن الأول للميلاد ورأى هذه الأعياد الأسبوعية ، وهذا العيد السنوي ، في لندن أو باريس أو رومة أو برلين ، ولا نقول في القاهرة أو دمشق أو بغداد ؟

أيخطر على البال أنه لا يرى في الأمر عجباً ولا يحار كما حار صاحبه من إحياء هذه الأعياد بين المسلمين في العصر الحديث ؟

أيخطر على البال أنه سيرى الأمر طبيعياً مألوفاً لا يوجب

التساؤل ولا يتطلب التفسير ؟

كلا . فإن حيرته لأصعب ، وإن مجيبه لأعجب ! لأن الخامس والعشرين من شهر ديسمبر لم يكن قط عيد الميلاد فى القرن الأول ولا فى القرن الثانى ولا فى القرن الثالث للسيد المسيح

ولم يكن يوم الأحد قط يوماً يحتفل به المسيحيون فى تلك القرون الأولى

بل كان يوم الأحد يوماً يحييه عباد الشمس ، لأنه كان عندهم يوم الشمس كما يسمى بالانجليزية إلى اليوم Sun day .

وكان اليوم الخامس والعشرون من شهر ديسمبر هو يوم انتصار الشمس على أعدائها الثائرين عليها ، وهم أرباب الظلام .

ففى هذا اليوم — كما ظهر لهم من حسابهم — يأخذ الليل فى القصر ويأخذ النهار فى الطول ، وفى هذا اليوم — على هذا الاعتبار — ترتد جيوش الظلام أمام جيوش النور ، وترجع للشمس حصتها الوافية من الزمن ، فلا يسلبها الظلام حصتها من الملوين .

فكان المصريون يحتفلون فى هذا الموعد بعيد حوريس ، وكان اليونان الأسيويون يحتفلون فيه بعيد مترا إله النور ، وكان الرومان يقيمون فى الأسبوع كله — من اليوم السابع عشر إلى اليوم الرابع والعشرين — عيداً يسمونه الزحلى Saturnalia . ويتبادلون فيه الهدايا ويقدمون القرابين إلى الأرباب

ولم تتفق كلمة الكنيسة الغربية على الاحتفال باليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر إلا فى منتصف القرن الرابع للميلاد . أى سنة ٣٥٤ .

وكان رؤساء الكنائس قبل ذلك يرون أتباعهم يقبلون على محافل الوثنيين فى تلك الأعياد فيصرفونهم عنها ويحببون إليهم أن يشهدوا الصلوات تكريما للسيد المسيح بدلا من شهود المقاصف والملاهى ومعابد الوثنية التى تفتنهم عن الايمان الصحيح .

ولكنهم لم يفعلوا ذلك لأنهم يثبتون تاريخ الميلاد وم الاحتفال ، بل لأنهم يرون السيد المسيح أحق بالتكريم والذكرى من مترا وحوريس والشمس وغيرها من الكواكب . ثم تدرجوا إلى الاحتفال بميلاد السيد المسيح بديلا من ميلاد تلك الأرباب .

على أن المتطهرين الذين اشتهروا باسم « البيوريتان » فى البلاد الانجليزية حرموا الاحتفال باليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر واستصدروا بذلك قرارا من البرلمان سنة ١٦٤٤ ، وعللوه باستنكارهم لإحياء السنن الوثنية القديمة ، واستندوا إلى التواريخ الاغريقية والرومانية القديمة وإلى تاريخ الانجليز أنفسهم قبل التدين بالديانة المسيحية . فقد ذكر مؤرخهم الكبير بيد Bede الملقب بأبى التاريخ الانجليزى أن القبائل الانجليزية الأولى كانت تحيى ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر وتسميها ليلة الأمومة modranecht لأنهم كانوا يقيمون احتفالهم بها قبيل الفجر استقبالا لمولد النور وهو فى باكورة أيامه ، ولم يكن « بيد » من المخالفين للكنيسة بل كان من كبار رجال اللاهوت ، وعاش فى القرن السابع للميلاد بين القساوسة والرهبان .

فعادات اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر مزيج من عادات عشرين أمة أو تزيد ، وبعض هذه العادات سابق لمولد السيد المسيح وبعضها لاحق له بل متأخر إلى أيام القرون الوسطى .

فأما العادات السابقة فقد ألممنا بطرف منها فيما تقدم .

وأما العادات اللاحقة فمنها عادة الشجرة التى تسمى بشجرة عيد الميلاد وهى من شعائر البلاد الشمالية ولا سيما بلاد الجرمان .

ومنها عادة تعليق الجوارب إلى جانب الفراش وهى مأخوذة من الفرنسيين والبلجيكيين .

ومنها تسمية القديس الذى يطوف بالهدايا على الاطفال وهم نائمون ، وهى مأخوذة من الهولنديين . واسم القديس سانتا كلوز من أسماء التدليل والاعزاز للقديس نكولا الذى سجنه القيصر دقلديانوس وأطلقه القيصر قسطنطين .. فليس هو من الهولنديين فى أصله ولا من الأوروبيين على التعميم ؛ لأنه من أبناء آسيا الصغرى

على أشهر الأقوال ، واسمه كلوز هو الاسم الذى يستخف على ألسنة الأطفال الصغار للتدليل والتحبيب .

شىء من آسيا الصغرى ، وشىء من فلسطين ، وشىء من هولندة ، وشىء من أوربة على الاجمال ، ويحتفل به المشارقة والمغاربة فى آسيا وأفريقية ... ومنهم مسلمون .

فأى دواء لعصبية العادات والشعائر أصح من هذا الدواء ؟ وأى سخف فى المعقول أسخف من عداوة إنسان لانسان أو أمة لأمة لاختلاف عادة يقال إنها عادة دينية ،وقد رأينا كيف يشترك اليوم الواحد فى احتفال عباد الشمس وعباد حوريس وعباد الله وعباد سائر الأديان بين سائر الأقوام ؟

ومن الطريف أن أناسا من هنود أمريكا الحمر تعودوا أن يقطعوا الجبن فى ليلة عيد الميلاد ولا يدرون فيم هذه العادة حين يسألون عنها .

ولكن الانجليز حملوها معهم إلى القارة الأمريكية فأصبحت من العادات الاجتماعية التى لا علاقة لها بشعائر الدين .

وهل لهـا مع ذلك علاقة بالدين عند الانجليز أنفسهم قبل الهجرة إلى القارة الامريكية ؟

كلا ... بل هى من بقايا عادات «القلت» التى كان يباشرها كهانهم المعروفون باسم الدرود Druid ... وكانوا يباشرونها قبل غزوة الرومان للجزر البريطانية .

وأطرف من هذا فى باب تسلسل العادات أن ولائم هذا العيد لا تخلو فى الشرق والغرب من الديك الذى يسميه المصريون بالديك الرومى ، ويسميه أهل الصعيد منهم بالديك المالطى ، ويسميه الانجليز بالديك التركى ، ويسميه الفرنسيون بالديك الهندى poule d' inde ومنها أخذنا كلمة «الدندى» التى نسمى بها هذا الديك فى بعض الأحيان .

فما علاقة هـذا الديك الموزع الأسماء بين الأمم بعيد ميلاد السيد المسيح ؟

أكان له شأن فى قرابين عيد الميلاد التى اصطلح عليها المسيحيون الأسبقون ؟

لم يكن له شأن قط بذلك العيد بين المسيحيين الأولين . بل لم يكن معروفا فى الدنيا القديمة قبل كشف القارة الأمريكية . لأنه كان من طيور أمريكا الشمالية ، ونقل منها إلى جنوب أوربة فأخطأوا فى نسبته إلى الشرق ، كعادتهم يومئذ فى نسبة كل وارد جديد إلى البلاد الشرقية .

ومع هذا يراه السائح الغريب حتما على مائدة الشرق والغرب فى ليلة عيد الميلاد ، فيحار ولا يرى آخر الأمر مناصا من نبذ الحيرة ظهريا فى أمثال هذه الشؤون .

فالعادات الاجتماعية وراثة بين البشر أجمعين ، وقلما تنحصر عادة من عادات المحافل العامة فى قبيل واحد يستأثر بها من البداية إلى النهاية .

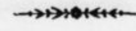
إنها أسرة واحدة ... ففيم الخلاف على العادات والشعائر والأيام والأعياد ؟ ؟

عباس محمود العقاد

مقالات فى كلمات :

فى أثنـــاء المرض ... !

للأستاذ على الطنطاوى



موازين الرجال :

أصبحت من أيام فوجدت رأسى من ثقله كأنه حجر رحى رُكّب بين كتفىّ ، وكأنه من الصداع يدقّ من داخله بالداقّ ، وكأن جفنىّ قد شدًّا إلى الأرض فما أفتحهما حتى يعودا فينطبقا ، ووجدت فى حلقى إذ أبتلع ريقى مثـل حزّة الشفرة ، وفى كل مفصل من مفاصلى ألماً ، وفى أعصابى من الخَدَر مثـل مشى النّمال ، ووقفت فاصطكت ركبتاى ، ودِير بى ، فعمدت إلى الفراش ...

ولم يصدق أهل الدار أنى مريض ؛ لأنهم لم يروا علىّ لمرض أثراً ، ولأن المريض عندهم إنما هو الشاحب المهزول البادى العظام ، وأكّدت لهم القول فلبثوا مكذّبين ، يعتقدون أنى أتدلل عليهم وأنى أتكاسل وأوثر الراحـة والاستمتاع برعاية المرض ، على إرهاق النفس بمعالجة نسـوان المحكمة ، وصبيان المدرسة ... ويئست من إقناعهم بمرضى فأعرضت عنهم وتشاغلت بالتفكير .

***

فـكرت فى هؤلاء الناس إذا كانوا لا يميزون المريض من الصحيح ، والمرض شىء ظاهرة آثاره ، بادية أماراته ، فـكيف يميزون الطيب من الخبيث ، والصالح من الطالح ؟ وكيف يقيسـون أقدار الناس ، وكيف تكون عندهم موازين الرجال ؟ أو لا يخطئون فى أحكامهم على الناس خطـأ أهلى فى الحـكم على مرضى ، إذ يقيسون المرض بالشحوب والهزال ، ورب شاحب هزيل ما فيه إلا جلد على عظم وهو الصحيح المعافى الأيّد القوى ، ورب سمين يكاد يَنْفَزِر[1] من كثرة الشحم واللحم ، وهو يَحْمِل أمراض وهو الضعف مجسّما والعجز ؟

وفـكرت فىّ أنا . كيف أحكم على الناس ؟ فذكرت أنه يدخل علىّ الرجل لا أعرفه فأحكم عليه بادى الرأى بثيابه ، فإن كان يلبس العمامة والجبة أنزلته من نفسى منازل العلماء ، وإن كان بزى الفلاحين أحللته محال الفلاحين ، فإذا تـكلم بدلت رأيى فيه وحكمت عليه بكلامه ، فإذا عاملته كان الحـكم عليه بمعاملته ، فهذه عدة مقاييس : الثياب والـكلام والمعاملة ، فأيها هو الصحيح ؟

ثم إن للناس مقاييس غيرها تعلو وتنخفض ، وتتسع وتضيق ، وتصح وتفسـد ، فهم يقيسـون عظمة الرجـل بتقاه ، وبعلمه ، وبماله وبجماله ، وبقوته ، وبمنصبه ، بل إن فيهم من يتخذ مقاييس أعجب وأدنى ، فصبّاغ الأحذية يقيس عظمـة الرجال بلمعان أحذيتهم لا بعلمهم ولا بفضلهم ، والخياط يعتبرهم بطولهم وعرضهم ، ومفتش القطار بدرجات ركوبهم ، ونادل القهوة بحلوانهم[1] وأهل السجن يقيسـون عظمة النزيل عليهم بجريمته ، فالقاتل أعظم من السارق ، وكلما عظم الجرم عظم القدر ، وعامة الناس العظمة عندهم بالشهرة[2] فإذا نزلت بلدهم المغنية أو الرقاصة ارتج لها البلد وتسامع بها الناس وتباشروا بمقدمها وهُرعوا كلهم إليها ، وإذا هبطه الأديب المفرد ، أو العلاّمة العَـلَم ؛ لم يدر بمهبطه إلا القليل ، ولم يَسْـعَ للسلام عليه إلا الأقلّ منهم ، وتقرأ على أحدهم المقالة تخبره أنها لرجل مغمور فيوسعها ذماً وقدحاً ، فإذا أخبرته أنها للـكاتب المشهور انقلب القدح مدحاً والذم ثناء وإكباراً ...

ولو سألت الخاصة ما هى مقاييس العظمة لوجدتهم مختلفين ، وقديماً قال المثل السائر : « لو قلت للفرنسى فلان عظيم ، قال لك : ما هى شهاداته ؟ والإنجليزى يقول : ما هى معلوماته ؟ والألمانى يقول : ما هى أعماله ؟ والأمريكى يقول : ما هى آثاره ؟ » . أما نحن فنقول : من هو أبوه ؟ لأن القاعدة عندنا اليوم ، أن من قصّر به نسبه أو نشبه ، لم يسرع به علمه ولا أدبه !

فما هو الميزان الصحيح لأقدار الرجال ؟

نقابة الأشراف :

ولولا أن الفضل عندنا بالنسب لمـا قامت قيامة جماعة منا ، إذ ألغت الحـكومة نقابة الأشراف ، ولمـا نادوا بالويل والثبور

---

(١) فزره فانفزر ، فهو مفزور من أعرق الـكلمات فى العامية الشامية والمصرية وهي من الفصيح ، ومن استعمرى و .د عامية الشام أفصح اللهجات العامية

(١) النادل : صبي القهوة والحلوان : البقشيش

(٢) الشهرة لا تـكون فى الأصل إلا فى القبيح .

وعظائم الأمور ، ولما زعموا أنه هدّ ركن الدين ، وهوت قبة الإسلام ، وأحدث الحدث الأكبر الذى لا يزيله إلا غسل صحيفة هذا القرار سبعاً إحداهنّ بالأشنان والتراب الأحمر ...

ولقد كانت نقابة الأشراف ملغاة فأعيدت من خمس سنين ، فما خسرنا بإلغائها شيئاً فى ديننا ولا فى دنيانا ، وما ربحنا بعودتها إلا ثمن عشرين ذراعاً من الحرير الأخضر اتخذها النقباء عمائم ، ولا شىء فوق هذا ولا تحته ...

وأنا أفهم أن يكون للمحامين نقيب لأن المحامين طبقة خاصة من لم يكن منها كان خارجاً عنها ، وللأطباء نقيب ، ولعمال الطباعة ، وسائقى السيارات .

أما الأشراف ... ؟ فهل تريدون أن تسيئوا إلى الإسلام كذبا وافتراء فتوهموا الأجانب أن الشرف عندنا بالنسب ؟ وأن من شعائر الدين أن يكون لأشرافكم هؤلاء ... نقيب ؟ وإذا كان الشىء يعرف بضده فهل يكون كل خارج عن هذه (النقابة ...) غير شريف ، أى رذيلاً ؟ وهل ترون أن نطالب نحن أيضاً الحكومة أن تعمل لنا نقابة أرذال ، أو إذا شئتموها على الوزن ... « نقابة أشرار » ؟

إنكم ستسبوننى ... الله يسامحكم ! بسْ قولوا لى من فضلكم : كيف لم يدرك الصحابة والتابعون أن الشرف بالنسب ، وحسبوه (جهلا منهم) بالدين والمعاملة والتقوى ؟ وكيف لبثوا فى الصدر الأول الذى هو خير القرون مئات من السنين بلا نقيب أشراف ولم تنقض عرى الإسلام ؟

كيف يا أيها السادة ؟ كيف ... بالله عليكم ؟ ؟ ألم يخطر على بالكم ذلك أبداً ؟ ؟

وظائف الإنشاء :

ودخل علىّ الطبيب ، وهو ابن عمى ولِدَتى[1] ورفيق فى مدرستى ، فرآنى أكتب . فقال : ما هذا ؟ أتجبر نفسك على الكتابة وأنت مريض ، أهى وظيفة إنشاء ؟ قبح الله وظائف الانشاء . قلت : ولم ؟ قال : لأنى ما أفلحت فيها قط ولاأحسنت كتابتها . قلت : ليس بعجيب وأنت طبيب أنك لم تكن تفلح فيها ، ولكن العجب بى أنا ، إذ لم آخذ فى الإنشاء ما دون الدرجة الوسطى ، ولم يكن معلم يعتقد أنى أصلح للكتابة ، وذلك أنهم كانوا يكلفوننا الكتابة فى موضوعات لا يكتب فيها ، ولقد سئلنا مائة مرة هذا السؤال : (ماذا تحب أن تكون فى مستقبلك ؟) كأن الدنيا تمشى على ما أحب وما أكره ، وكانوا يقدرون الدرجة لا على حسن الكتابة بل على بعد المطمح . ولقد أبعدت فتمنيت أن أكون ملكا وحاكما بأمره وشيخ إسلام وقائداً فاتحاً وما شئت من بعيد الآمال فما أعجب المعلم شىء من ذلك ، ولا أعجبه أن أكون معلماً ولاشرطياً ولا تاجراً ولا لصاً . وسئلنا عشرين مرة أن نكتب فى (وصف روضة) ، فكنت أكتب وصف بستان أعرفه ، فيه مزبلة وراء الباب وساقية ماؤها عكر ، وغربان تصيح على الأشجار ، فلا يرضى عنه لأنه يريد روضة ماؤها سلسبيل وحصباؤها درّ . وعلى دوحها المنادل والشحارير ، ومن أين أصل إلى هذه الروضة حتى أصفها ؟ وأعجب من هذا أنهم كانوا يكلفوننا إنشاء الحوار على ألسنة الحمير والقطط وأنواع البهائم ، وكيف لى بأن أفكر بعقل حمار حتى أتكلم بلسانه ، كما يفكر الأستاذ المحترم حين يصحح الأوراق ويميز صادقها من كاذبها !

وما كان المدرسون ينظرون إلى صورة بارعة أو معنى مبتدع ، إنما ينظرون إلى كلمة جاءت على غير الفصيح ، أو فعل عدّى بغير الحرف الذى يتعدى به ، هذا لأن المدرسين كانوا لا يفهمون إلا النحو والصرف واللغة ، أما اليوم فلم يبق ولا هذا ، مع الأسف ، لأن أكثر المدرسين تعلموا العربية فى باريز على أصمعى العصر الشيخ مارسيه ... والذين نجوا من هذه السّبة بعثوهم الآن ليتعلموا فى بلجيكا وسويسرا ، أى والله ، بل إن شيخاً مدرساً فى الجامع الأموى ، سيبعثونه ليتعلم علوم الدين فى لندن !

على أن الذين تعلموا من طلابنا فى الأزهر وجامعة مصر ، لم يكونوا أقوى ولا أحسن من أولئك ... وهذه كلمة حق قلتها ورزق على الله !

فيمة الفلسفة والأدب :

ولعلّ المرض قد جعلنى متشائماً أرى كل شىء فى الدنيا أسود ... وكذلك الإنسان يصيبه صداع يحتاج إلى حبة (اسبرين) أو إمساك دواؤه شربة (زيت خروع) فتبدل نظرته إلى الحياة وآراؤه فيها ؛ فلو كان فيلسوفا لكان متشائماً ، ولو كان شاعراً

(١) اللدة للرجل والمداب كالترب والأتراب للمرأة .

لكان شاعر أحزان ، ولو كان قصصياً لكان مؤلف مآس وفواجع ..

أفتكون قيمة الفلسفة المتشائمة والأدب الباكى ، قيمة حبة أسبرين وشربة زيت خروع ؟ !

ثمرات درس الأخلاق :

ونظرت من الشباك أتسلى ، وكان تحته كومة رمل أبيض وضعها جارنا ووكل رجلا وولده بنقلها إلى حديقته . فأقبل تلاميذ المدرسة ، فقال عفريت منهم : تعالوا نسرق من هـذا الرمل ، فقالوا : إن الولد يرانا . قال : نعمل مثل الراعى الكذاب الذى قال لنا المعلم قصته ، حين نادى : الذئب الذئب ، فجاءوا فلم يروا شيئاً ، وضحك منهم ، فلما طرقه الذئب حقيقة ونادى لم يجئه أحد ، قالوا : وكيف نفعل ؟ قال العفريت : انظروا .

وأقبل كأنه يريد أن يسرق فنادى الولد أباه ، فترك عمله فى الحديقة وأقبل ، فلم ير شيئاً ورأى التلاميذ يضحكون فرجع ، وجعل التلاميذ يأخذون من الرمل والولد ينادى فلا يردّ أبوه ولا يصدقه ..

وكانت هذه ثمرة درس الأخلاق فى المدرسة ! !

ألف جنيه مصري :

وتركت الشباك ، وأخذت جرائد عتيقة فجعلت أصفحها ، فوجدت فى إحداها إعلانا عن جائزة قدرها ألف جنيه مصرى لصاحب أحسن اقتراح يقدم إلى المجمع اللغوى لإصلاح الكتابة العربية ... فعجبت من هذه الخرافة التى لا تزال تتردد على الألسنة ، خرافة فساد الكتابة العربية وحاجتها إلى الإصلاح ، وكنا نُعظم أن نسمعها من بعض الكتاب المجددين المفسدين ، فانعكس الزمان حتى صرنا نسمعها من ألسنة من أقيموا حراسا للغة القرآن وتراث الجدود ، بل لقد سمعنا من كبير فيهم قاصمة الظهر التى أنكرناها على الأتراك ، وذاقوهُم غصصها ، فلما أبَتْها هذه الأمة وأبى لها عقلها ودينها قبولها ، جاؤوهم بها فى ثوب جديد ، هو إصلاح الكتابة ، وأنا لا أدرى والله أيجدّ هؤلاء القوم أم هم يريدون شيئا يعملونه ويتسلون به حتى لا يقال أنهم يجتمعون على غير شىء ، ويأخذون المرتبات فى غير عمل ، فإن كانوا جادين فليعلموا أن كل تبديل فى كتابتنا مهما قلّ يقطع صلتنا بماضينا ، ويجعل هذه الكتب بالنسبة للناشىء الجديد كأنها مكتوبة بالكوفى لا يفهمها إلا الخاصة ، وهو كما يبدو أقصر طريق لإبادة كتب الدين واللغة ، والقضاء على المكتبة العربية حتى تصير من الآثار القديمة ، وتعود كأنها اللغة الأجنبية التى لا تفهم إلا بترجمة . ثم ما عيب كتابتنا ؟ مالها ؟ أنا أراها كاملة لا تحتاج إلى زيادة ، صحيحة لا يعوزها الإصلاح ، بل هى تفضل من جهات كثيرة كتابة الأمم الأخرى .

ومن قال لهؤلاء الناس المحترمين ، إننا أتباع لهم فى كل ما يقررون ، نطيع أوامرهم ، ونمشى على آثارهم ، ونأتم بهم : نركع إن كبروا ، ونرفع إن حمدوا ، كلا والله ، ولو أن مصر — لا سمح الله — قبلت بهذا ، ما قبلنا به نحن ، ولا أقررنا أى تبديل فى كتابتنا ، لأننا نثلج بذلك صدور أعداء الله وأعداء العربية الذين لا يغيظهم منا إلا أننا نتمسك بماضينا وعلومنا ، فنتخذ منها دافعا إلى المعالى ، وعاصماً من التردّى فى هوّة الالحاد والضياع .

ألا إن هذه الألف ، وهى تعدل تسعة آلاف ليرة سورية وزيادة ، ربح لمثلى عظيم ، وثروة ما ملكتها قط ، وإنى أستطيع كما يستطيع كل واحد ، أن يحصر ذهنه ساعة فيتخيل لها نوعا من (الإصلاح ...) كما يتخيل إصلاح رجل من الرجال بتقصير أنفه ، وترقيق شفته ، وتطويل قامته ، ولكنى لا أريد أن آخذ هذا المال حراما وقد جمع من أيدى الفقراء والمساكين ، وربما كان ثمن ألف فراش يبيع بالمزاد العلنى ، أخذ من تحت المكلف لما عجز عن أداء الضريبة ... فإذا كان يزيد عن حاجتكم ولم يكن من إنفاقه بدّ فردّوه على هؤلاء الفقراء ، فما زلنا نسمع منكم ، وتقول جرائدكم ، إن فى مصر المرض والفقر والجهل ، فهل داويتم هذا كله وأصلحتموه ولم يبق إلا إصلاح الكتابة ؟ !

يا سادة ، إن الكتابة العربية التى صلحت خمسة عشر قرناً ، وكتب بها عشرة ملايين كتاب ، تصلح قرنا آخر لتكتبوا بها كل سنة خمسة آلاف كتاب ، منها كتب الكفر والتضليل والتقليد الأعور والسخف المضحك ككتاب « هذه هى الأغلال » !

فكفوا عنا ، اتركونا ... إننا راضون بما نحن عليه ، فأريحونا واستريحوا !

(دمشق) **على الطنطاوى**

فرنسا تبرُّ العرب !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

كل من شاهد الجريدة الفرنسية السينمائية التى عرضت فى الأسبوع الماضى فى بعض دور السينما فى القاهرة ، لاشك قد امتلأ قلبه بكثير من التقزز والإشمئزاز والسخط لمنظر من مناظرها . هو منظر هذه « القطع الآدمية » المشوهة التى جمعتها الدعاية الفرنسية ضد الجزائر والغرب لتعرضها على عيون الناس فى العالم كله كنموذج لبرها بعرب الجزائر ! لقد جمعت قطعاً من الفقر والتشوه والعرى والجهومة والضياع لتؤكلهم ثريداً فى عيد الأضحى ..! واجتهدت أن تأخذ لهم صوراً من مقاطع تبرز صوراً فنية للفقر والشناعة ! ولو عرضت علينا صوراً لمجموعة من الذباب أو الكلاب الضالة لارتاحت اليها العيون بعض راحة لم تجدها فى منظر هؤلاء التعساء ! وإن منظر العرايا من زنوج المجاهل العائشين وراء التاريخ ، المنقطعين عن العالم لأجمل كثيراً من مناظر هؤلاء الكرام الذين أضناهم البؤس وأضواهم الحكم الذل المرهق ، وجعل على وجوههم سمات من العذاب والضيق ؛ فإن الزنوج يتمتعون بالصحة الطبيعية والحرية الطبيعيـة والمجال الحر فى مجاهلهم ومتقلباتهم الواسعة ، أما أولئك العرب الذين كانوا مثال الرقة الأندلسية والنظافة الإسلامية والحرية العربيـة والذكاء اللامع والمشاركة الناجحة فى الحضارة ، فقد حولهم الحـكم الفرنسى إلى مجموعة أشنع من مجاميع الذباب والـكلاب الضالة . وإن الـكلاب الضالة ربما لا تجد القوت الميسر ولا السهر على مصالحها ، ولـكنها على كل حال تجد حرية العيش ، أما هؤلاء فلا يجدون إلا قيوداً من التعس والذل والحرمان من مقومات الأجسام ومقومات الأرواح .

إننى لا أستطيع أن أفهم من عرض مثل هذه المناظر إلا اهتمام فرنسا بأن تبرهن للعالم على أن هؤلاء العرب الذين ابتلوا بحكمها منذ مائة وعشرين سنة قوم هم حثالة الناس وفى المستوى الأدنى من الحياة ، فهم أبعد الناس عن منحهم حق تقرير المصير والحريات العامة ، وأقرب الناس إلى فرض القسوة الفرنسية عليهم .

ولا أستطيع أن أفهم إصرار فرنسا على إفنائهم عن طريق الجهل والفقر والحرمان والتعس — مع أن فرنسا فى زعمها أمة الرقة والجمال وتسجيل حقوق الإنسان — إلا أنها تضمر لتلك الـكتلة العربية والإسلامية عداوة وحقداً موروثاً لأسباب تاريخية لا يجهلها أحد ، فهى تثأر منهم وتنكل بهم وتحرمهم أبسط حقوق الإنسان وهو حق الحياة وحق التعلم وحق الصحة ...

إن عاراً على فرنسا أن تظل جامدة فى أسلوب حكمها للمغرب العربى مع أن الإنجليز ابتدأوا يخففون وطأة حكمهم فى الهند ، درة تاجهم . وأصل بلاء العالم العربى بالاستعمار هو وقوعه على طريق الهند .

وإن من العار أيضاً عليها أن تعرض مثل هذه المناظر للذين ابتلوا بحكمها . لأنها هى المسئولة عما هم فيه من تخلف وحرمان ولو شاءت لرفعتهم واجتهدت فى وصلهم بقافلة الإنسانية السائرة . والذين يملـكون حظائر للحيوانات يجتهدون أن يعرضوا منها على عيون الناس للفخر بما تصل اليه من شبع وسمن وصحة وسعادة ، ولو أنها تذهب بتلك الحيوانات أخيراً للمذبح ، أو تجز صوفها أو تأخذ لبنها أو تستخدمها فى حرث الأرض وزرعها . فلماذا تعرض فرنسا مثل هذه المناظر التاعسة لهؤلاء الذين انحطت بهم عن مستوى الحيوان؟! ألا إنها شهادة مسجلة على فرنسا ، سجلتها بيدها لتثير بذلك لعنات الأحرار وسخطهم عليها ! .

لقد طالما ذكرنا فرنسا برسالتها الإنسانية التى هى تاج مجدها الحقيق ، والعنصر الباقى لفخرها على مدى الزمان ، ولـكن الذين فى مصر من الفرنسيين وأصدقائهم يلوح لى أنهم لا يحركون ساكنا ولا يأبهون للتذكير ، وقد أخذتهم سكرة الثقة بقوة فرنسا وغلبها على هؤلاء الضعفاء المبتلين بها .

ولـكن لتعلم فرنسا أن الفجر الدولى قد سطع على أوكار الرجعية السياسية الجامدة التى تنقل جراثيم الطغيان والجهالة إلى محيط العالم الواسع كله ، فلم تعد العين الانسانية تطيق أن ترى مثل هذه المناظر التى تذكرها بأشنع صور القسوة الجاهلية ، ولتعلم فرنسا أيضا أن مجدها قد أخذ فى الأفول منذ أن تخلت عن رسالتها الانسانية ، رسالة ثورتها ، وأن سمعتها قد ساءت بواسطة

حكمها للمغرب العربى ذلك الحكم العنيف المظلم الذى يحرم المحكومين النور والصحة والعلم ثم يعرضهم على رءوس الاشهاد ليسمع بهم وليمن عليهم بأكلة ثريد ! بينما يأكل أكبادهم بالمرض ويطمس وجوههم بالفقر ، وعقولهم بالجهل ، ثم يشنع عليهم وينسب إليهم وإلى دينهم ونظام حياتهم ماهم فيه من شقاء .

وإن وجوه هؤلاء الأطفال الذين خصهم ذلك الشريط السينمائى بالتفاتة لها مغزاها فى التشنيع على هيئة شعرهم وعيونهم كان من الممكن ، لو أرادت فرنسا ، أن تخرج منها وجوه علماء وأطباء ومحامين ومهندسين وقواد وغيرهم ، ولكن فرنسا أرادت أن تعطل قوى الحياة فى هذه الأجسام لإفناء أمتهم وضم أرضها إلى أرض فرنسا ... ولكن الله العادل الرحيم المقتص من الظالمين قد أراد أن يفنى فرنسا ويحطم مجدها ويبلبل عقائدها ويضرب بعضها ببعض وقد دنس بنعال أعدائها حرمات أرضها قبل أن تفنى هؤلاء ، وتقضى عليهم القضاء الأخير الذى تتربصه منذ مائة وعشرين سنة . وسترى فرنسا أن هذه الأمة المغربية ستنهض وتشترك فى تجديد رسالة العلم والحضارة الحقيقية .

وما فى فرنسا من براكين الاختلاف كفيل بأن يدمر حياتها ووقوعها بين قوتى الشرق الروسى والمغرب الانجلوأمريكان سيجعل أرضها مجالا للصراع المدمر الآتى لا محالة ، وبدلا من أنها كانت تجد فى شمال إفريقية مجالا لشد أزرها لو أنها أحسنت صنعاً إلى المغاربة وحكمت قلوبهم بالحب ، ستجد فى هذا المغرب إلباً عليها وقوة تشترك فى هدمها . وقد فات أوان الظلام واختلف الحساب وانعكس عليها قصدها من إفناء المغاربة بعد سطوع الفجر الدولى .

وإن الذين يشهدون محافل المغاربة فى مصر ليرى العزم المصمم والإيمان الراسخ والجهاد الهازىء بالآلام فى سبيل الحرية والحياة .

وإن قلوب المشارقة من العرب والمسلمين لتغلى غليان السخط والمداوة والاحتقار للحكم الفرنسى فى شمال إفريقية كلما رأت هذه النخبة الممتازة من شباب تونس والجزائر ومراكش الذين كان من حسن حظ العرب والمغرب عموما أنهم استطاعوا الإفلات من الأغلال الفرنسية ليلفتوا النظر إليها من الخارج متعاونين مع المشارقة . وإنهم لنماذج صالحة تثير الفرح بمستقبل المغرب إذا ما انزاح عنه النير الفرنسى ، وإنهم أيضاً ليثيرون السخط على فرنسا حينما نرى وجوههم السميحة وألسنتهم الفصيحة ونقارنها بما رأيناه مع هذه الوجوه المطموسة بسمات الحرمان وأمارات النكال فى هذا الشريط السينمائى الذى أرادته فرنسا دعاية لها فكان دعاية عليها .

وإننا لنحس إحساساً صادقاً أن المغرب العربى المبتلى بفرنسا يغلى غلياناً تفور له قلوب العرب فى الشرق بالغضب والسخط على ذلك الحكم القاسى الذى يربط على الجناح الأيسر للعروبة بالحديد ويوقد عليه بالنار ويحبسه أن يخفق طليقا موازياً للجناح الأيمن لها حتى ينهض العرب معا .

فإذا كانت فرنسا لا تحسب حساباً لصداقة العرب وهم أمة كبيرة فى البحر الأبيض على الأقل ولا تعاملهم بقانون الجوار والمصالح المشتبكة فإنها تبرهن بذلك على أنها لاتنظر إلا لحاضرها وانظر إلى أمة لا تنظر حاضرها ولا تسعى لمستقبلها بكسب صداقة سبعين مليوناً من الجيران الداعين المعتدلين الأوفياء الأشراف .

عبد المنعم خلاف

من نكبات الحزبية فى تاريخنا

للأستاذ سعيد الأفغانى

ليس هذا خوضاً فى السياسة ، فأنا امرؤ ساء ظنه فى محترفيها جميعاً ؛ وعلى أنى منذ خمسة وعشرين عاماً مولع بتتبع أحداثها فى الأقطار العربية وخاصة فى الشام ومصر ، شغف بعشرة الخبيرين بخفاياها . . لم أخضها يوماً من الأيام كفاحاً وجهاً لوجه لا أنفة منها ، ولكن أنفة من حال الخائضين فيها . وإذا سألتنى عن السر فى تضييع الفرص على الشعوب العربية وحرمانها من خير لم تقصر فى السهر عليه والجهاد له ، أجبتك : « إنه فى داء واحد فى الأقطار جميعاً هو : أخلاق القادة ! »

ارجع بصرك فى أحداث الثلاثين سنة الأخيرة ، فستجد أن قطراً من الأقطار لم ين عن جهاد صادق سنة من هذه السنين ، ولم يبخل على قضيته بنفس ولا نفيس . لقد بذل فى سبيل ربه ووطنه دماءه وأمواله بسخاء كان مضرب الأمثال ، ولكن المتصدين للقيادة بهم داء الكلب والتناحر وصغار النفس والتعلق بالسفاسف ، لا يخافون الله فى أمة طوحوا بها فى المهالك من أجل تمتع بمنصب أو جاه أو مال ، أو تلذذ بقهر منافس أو معارض ... غير خجلين من أن يمدوا أيديهم ضارعين إلى أجنبى وصلوا إلى زعاماتهم بمجاهرة أمتهم بعدائه ، وهو يتربص بهم يوماً كهذا اليوم تقودهم فيه ضعة نفوسهم إليه صاغرين ، فيضرب بهم مستقبل أمتهم ويضيع عليها ثمرات نضالها الطويل ، ثم ينبذهم من بعد ذلك إليها نبذ النواة ، فإما أن يكون الله كشف عن بصيرة الأمة فجعلتهم نكالا ، وإما أن يستغلوا (طيبتها) ثانية فيستأنفوا زعامة من جديد .

ولست أطمع فى صلاح نفوس الساسة اليوم ، فالله وحده هو الذى يحيي الأرض بعد موتها ، ولكنى قوى الأمل فى الأجيال الناشئة التى لم تشهد أيام الإذعان لسيطرة الاحتلال ، ولا عاينت لعب صبيانه بلحى كبارنا وساستنا ، وإنما شهدت كفاح هذه القوى الشريرة فنشأت على الإباء والنضال .

إنى لأغتنم فرصة احتفال (الرسالة) بالعام الهجرى الجديد ، فأضع تحت أبصارهم عبرة ماثلة لا تنسى أبداً عسى أن يذكروها كلما حاول من سبقوهم أن يجعلوا منهم وقوداً لفتنة تضرمها الأهواء والنزوات ، أو كلما نزغ بهم فى المستقبل نزغ يحيد بهم عن خير أمتهم إلى إرضاء أهوائهم ، فيذكروا هول الخلاف الذى صلينا جحيمه فى صدر دولتنا وما تزال مرارته الأليمة فى كل نفس خيرة تدبرت عبر التاريخ .

إنى لا أخوض سياسة ، وإنما أطلع هذه النفوس المعصومة على عواقب أول خلاف سياسى فى الاسلام وما جر من ويلات متتابعات ، ناقلا إياه من كتاب انتهيت قريبا من عمله . وأنا أحب أن يحمل الناس بالهم أبداً — كما قرأوا التاريخ — إلى عبره وتجاربه فيأخذوا من كل شىء أحسنه ، ويربأوا بأنفسهم وأمتهم أن يغامروا فى تجربة ثبت ضررها وفسادها وخاصة إذا كان الثمن الذى قدمناه فيها دماء عشرات الألوف من أبطالنا :

لقد كان أمر المسلمين الأولين عجباً من العجب : امتلأت نفوسهم بكل ماحباهم ربهم من خير فى الإسلام ، فأحسنوا فهمه وأحسنوا الإستجابة لرسوله نساء ورجالا . فوطدوا أركانه فى الجزيرة ، ثم انتقل رسول الله إلى جوار ربه واندفع هؤلاء المسلمون الأخيار فى أقطار الأرض يريدون إعلاء كلمة الحق وإنقاذ عباد الله من كل الأجناس والأديان : من شرور الظلم والجهل وامتهان الإنسان ؛ فحرر الله على أيديهم بلداناً وشعوبا كثيرة ، فأشركوا الناس كافة فى سعادتهم وعدلهم وأمنهم . ومن عرف أنهم كانوا قبل عشرين عاماً فقط يأكل بعضهم بعضاً ويعدو قويهم على ضعيفهم ، قبائل متعادية ، وطوائف يغزو بعضها بعضاً ... عرف نعمة الله عليهم وعلى الإنسانية بهذا التوحيد الذى ألف بين قلوب ما كانت لتتألف ؛ وأدرك المعجزة التى أتى بها الإسلام فى توحيدهم وخلقهم خلقاً جديداً جعل من سفكة الدماء أنبياء رحمة ورسل هداية وإسعاد للبشر .

لقد أتوا — وكلهم واحدة — بالعجائب فى حروب التحرير والفتح ثم البناء والتنظيم ، وكان منهم كل الخير لأنفسهم ولغيرهم فلما صبت الدنيا خيراتها وكنوزها بين أيديهم ، وتقادم ما كان جديداً من روعة الدين وعهد الرسول وصاحبيه ، وكان أمر الشورى المعلوم ، وكثرت فى هذه الإمبراطورية الواسعة المناصب

والولايات ... بدأت نوازع الطموح تتحرك فى نفوس هؤلاء الأبرار فيكبتونها رهبة من الله . لكن عناصر الشر والغش والفساد من أهل النحل البائدة والأمم المغلوبة كانت أيقظ من أن تغفل عنهم وهى الخبيرة بمداخل الشر ومخارجه ، فما زالوا يفتلون لأولئك الطيبين فى الذروة والغارب حتى استجاب بعضهم لأهواء نفوسهم من حيث لا يشعرون ، ودب دبيب الخلاف بينهم واشتغل بعض ببعض ، ووقفت الفتوح أيام على رضى الله عنه حتى خيف على المسلمين من فلول الروم .

أرأيت مايفعل الخلاف فى الدولة القوية الفتية المتماسكة المتينة الآساس ؟ .

إنه يطمع فيها حتى المغلوب المشرف على الدمار ، دع ما أريق فى سبيله من دماء غالية بدأت بالخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رحمه الله ، ثم أرفدت بدماء عشرات الألوف . وهذا (يوم الجمل) وهو يوم واحد أسفر عن خمسة عشر ألف قتيل على أقل تقدير فى بضع ساعات ، فلا تسل عما بعده من (يوم النهروان) و (يوم صفين) وغيرهما من تلك الأيام التى أعملنا فيها سلاحنا فى أنفسنا فأوقعنا الوهى فى دولتنا والتفرقة فى صفوفنا والعداوة فى قلوبنا ... وكان الله قد غسل هذه القلوب وجمع تلك الصفوف.

ولو أن هذه القوى المتطاحنة يوم الجمل ويوم صفين ... اجتمعت على الخير فسارت إلى قوى الشر شرقاً وغرباً لأكلت الدنيا بقوتها ، ولأحالت العالم حينئذ جنة يتحدث بنعيمها وسعادة أهلها الركبان . لكن الله الذى أيد هذه الأمة أول أمرها قضى أن يكون بأسها بينها ، فامتلأ تاريخنا بالحروب الداخلية وتحول عن مجراه السعيد الذى كان جرى فيه لخير الإنسانية عامة ؛ قضاء من قضاء الله لاحيلة فيه . ولست أدرى ما يكون حال دنيانا الآن لو أن العرب لم يفسدها الخلاف والتطاحن ولم تنزل بأسها بينها ؟

ولو ذهب باحث يحصى هذه الدماء المهراقة فى سبيل الخلاف منذ قتل عثمان حتى اليوم ، فى المشرق والمغرب والأندلس .. إذاً لأفزعته هذه الملايين منها ، ملايين لو بذلت فى سبيل الحق لكان تاريخ العالم كله على غير ما نعرف ، ولكنا أهل الحضارة حتى الآن وإلى الأبد لا يلم بشمسنا أفول .

وقد خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته آثار الخلاف ، فسأل ربه - فيما سأل - أن يجنبهم إضراره ، إذ علم أن هذه القوى الهائلة المتراصة التى عمرها إيمان لم تعرف الأرض له مثيلا كفيلة بفتح الأرض كلها لدعوة الخير والحق ، لاتقف لها قوة إلا أن تنشق هى على نفسها فرووا عنه أنه قال : سألت ربى ثلاثاً فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة :

سألت ربى ألا يهلك أمتى بالسنة (القحط) فأعطانيها .

وسألت ربى ألا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها .

وسألت ربى ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها . »[1]

ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

« • »

انقضت الخلافة والخلاف بخيرها وشرها ، ولم يبق منها إلا هذا التاريخ بين أيدينا مملوءاً بالعبر : فلنتعظ به ، ولنحذر أى تفرقة بيننا بكل مانستطيع ، ولتكن تلك الدماء الذاهبة ضياعاً حافزة لنا على الوحدة وجمع الكلمة ، فلا نعيدن فاجعتها جذعة ، ولنهرب من كل خلاف وتفرقة هرب السليم من الأجرب فإنهما يبدآن صغيرين لايؤبه لهما ثم يعظمان حتى يلتهما الأخضر واليابس .

وإن أعجب لشىء فلأولئك الذين مازالوا يجتمعون ويتفرقون متجادلين فى هؤلاء الصحابة الأخيار : أيهم المؤمن وأيهم الكافر ؟ أيهم على الحق فيحمد وأيهم على الباطل فيذم ؟ ويتقربون إلى الله فى لعن رجال : ما منهم أحد إلا وله السوابق الحسان فى نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله والدفاع عن رسوله ، وما فيهم إلا من بذل ماله ودمه ودم أهله للخير العام ، نخلفوا لنا بفضل إخلاصهم هذه البلاد الواحدة على ترامى أطرافها . إنها وحدة جامعة عجزت ضربات الدهر وسطوات الدول ثلاثة عشر قرناً عن أن تنال منها مايقضى عليها ويمحوها ؛ فما زال العراقى إذا هبط أقصى المغرب فى مراكش لايحس بغربة عن أهل ولا وطن . أستغفر الله ، بل ما زال المسلم الصينى من أقصى الشرق إذا هبط ساحل بحر الظلمات تلقته القلوب بالبشر والترحاب لقد جمعهم الله بمحمد وصحبه على كلمة حق واحدة فلن يفرق أحد ماجمع الله بمحمد وصحبه .

---

(١) صحيح مسلم ٧ - ١٧١ (الآستانة سنة ١٣٣٣ م) وانظر مسند أحمد ١ - ١٧٥ .

لست بسبيل تمداد المآثر المشهورة لأولئك الأخيار الذين هم موضوع الخلاف كأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعائشة ... ، فأصغر أعمالهم عند الله يمحو كل ما يذكر خصومهم من أخطاء ، وقد ذهبوا إلى خالقهم الذى أرضوه بأعمالهم ورضى عنهم ، وسجل رضاه هذا فى قرآنه الكريم يتلى ما بقى على الأرض إنسان .

فلنمحضهم جميعاً محبة واحدة ، ولنستغفر لهم ولأنفسنا ، ولنذكرهم بكل خير جزاء ما خلفوا لنا من وحدة قوية ، ودولة مثالية بنوها بجهادهم فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، جهاداً أرخصوا فيه مهجهم وضحوا بأعز ما يملكون ؛ ولنطرح عن عواتقنا مخلفات عصور الانحطاط والشعوبيات ، ولنقتد بهؤلاء الأخيار أنفسهم حين يعرض بعض لذكر بعض ، فقد نزع الله ما فى صدورهم من غل وعادوا إخوانا متحابين كما أمرهم الله أن يكونوا .

وإن الله عز وجل لم يتعبد أحداً بشتم صحابى ولا لعنه ، بل عظم من شأنهم وغفر لهم ما أخطأوا قبل أن يخطئوا ، ولولاهم لكان العرب اليوم فى وثنية أو جاهلية ؛ فما هذا جزاء من أنقذنا به من الضلال والفرقة وخلف لنا ملكا سعيداً وماضياً مجيداً وتاريخاً حافلا بكل ما يرفع الرأس ويخلد أحسن الذكر وأطيب الثناء ...

***

فرقت السياسات قديما أمر المسلمين وشتتت شملهم ، ثم عززها أهل الكيد والدس بغشهم حتى جعلوها تتغلغل فى الأديان والعقائد ، وصار الدين الواحد أدياناً والأمة الواحدة طوائف شتى وما الأمر كله بالذى يستدعى بعض ذلك ، فلنأخذه بالتوسعة والتسامح ، ولكل رأيه فى السياسة وفهمه للتاريخ فلا يضيقن أحد بفهم أخيه ، ولا نجعلن خلاف الرأى فى السياسات الماضية (والحاضرة) والحزبيات البائدة (والحاضرة) مفرقا وحدتنا وصادعاً شملنا ومخمداً نارنا ، ولا نجعلن هذه الأحقاد والعداوات تتوارث إلى يوم الدين .

إن الأمم من حولنا كالجياع على القصاع ، فلن يجدينا فى موقفنا اليوم ذلك الجدل ولا تلك الفرقة ، بخويصة أنفسنا ما يشغلنا عن هذا الباطل ، وفى مطالب الحياة الجادة ما يلفتنا عن التفرق ... فلنقابلها صفا واحداً وأمة واحدة كما بدأنا الله ، ولننبذ عصور الظلام وآثار الجهل وضيق الأفق بمخلفاتها جميعا .

إن ربنا واحد وكتابنا واحد ورسولنا واحد ، فلنعد أمة كما أراد الله لنا ولنبرأ من كل فتنة وخلاف وفرقة . فالظروف عصيبة ونحن على مفترق الطرق ، وإننا لمحاطون بالأعداء داخلا وخارجا ، وهم دائبون على توسيع الشقة بيننا ؛ فلا نعينهم على أنفسنا ، ولا نضمن فى أيديهم السلاح الذى يقتلنا ويجعلنا لهم طعمة سائغة .

***

ليت الله إذ جمع على الهدى أمرنا لم يجعل للفرقة إلينا سبيلا ، ولا جعل بأسنا بيننا ، وليت هذه السابقة التى هونت على الأمة الواحدة أن يقاتل بعضها بعضاً لم تكن قط .

فليت الظامينة فى بيتها وليتك (عسكر) لم ترحل[1]

ثم ليتنا بعد هذا كله نعتبر بما فى الخلاف من ضرر بالغ فى كبير أمرنا وصغيره[2] !

سعيد الأفغانى

(١) عسكر اسم الجمل الذى ركبته السيدة عائشة على رأس جموعها فى أول فتنة قسمت العرب فى الاسلام صفين متعادين .

(٢) الفصل الأخير (عبرة الحوادث) من كتابنا (عائشة والسياسة) وسيطبع قريباً إن شاء الله .

إلى وزارة المعارف :

وعلى هذا فنحن ندور ...

للأســتاذ كامل السيد شاهين

— ٣ —

والظاهرة التى تتجلى فى وزارة المعارف بوضوح وقوة ، أنها لا تنظر إلى الدراسات التى تجد فى مصر نظرة المستفيد ، فقد قامت فى مصر ثورة قوية على البلاغة ودراساتها العتيقة ، حمل لواءها أول الأمر الدكتور طه حسين ثم الأستاذ أحمد أمين ، ورسما للنقد الأدبى منهجاً إن لم يكن واضحاً كل الوضوح ، فهو — على أية حال — يصح أن يتخذ بذرة لطرق الدراسة التى تصحح الذوق وتقوم الأديب . ورسم الأستاذ الزيات رسماً صحيحاً لطريقة تناول الدراسات الأدبية ، ولو أنه لم يعرض للناحية المنهجية ، ولكن وزارة المعارف لم تعبأ بهذه الصيحات ، وكأنها لا تعنيها هذه الثورة على تلك الدراسات القديمة العقيمة ، فليبق تلاميذ المدارس حيث هم — يتلون سورة الاستعارة التصريحية ، والمكنية ، ويخرجون المجاز المرسل والعقلى ، دون أن يصححوا ذوقاً ، أو يفهموا نقداً . وآية أخرى على غفلة الوزارة عن الدراسات العلمية أن الأستاذ ابراهيم مصطفى كتب كتابه « إحياء النحو » وفيه ثورة قوية على العوامل ، وتيسير كبير على الدارسين ، ولكن الوزارة مضت على غلوائها سادرة لا تتلفت ولا تنتظر ، ولا تقف لإهابة مهيب ، ولا تصيخ لصوت داع !.

وها هو ذا المجمع اللغوى يعزم عزمته لتيسير الكتابة ، وتسهيل القراءة ، ويجمع اللجان ويناقش الآراء ثم يكتب فى ذلك الكتب واسعة البسط ، وتلقى المحاضرات طويلة الذيل ، وتفحص الآراء فى المجلات الأدبية والصحف السيارة ، ووزارة المعارف مغمضة العين ، سائرة فى طريقها المعهودة ولو كانت ممتلئة بالأشواك والوحول .

ذكرت ذلك كله عند ما أمسكت بكتاب المطالعة المقرر على آخر سنة فى المرحلة الابتدائية فوجدته كله مضبوطاً ضبطاً تاماً ، على زعم أن فى هذا تسهيلا للقراءة ، وإفادة للقارىء ولكن المعن لا يجد فيه من هذا التسهيل شيئاً ، وأكاد أزعم أن فيه إرباكا له وتشويشاً عليه ، ولو أن الكاتب — سهل الله له — ضبط ما هو بحاجة إلى الضبط ، ولم يعن نفسه بالضبط التام ، لكان فى ذلك الخير كل الخير . خذ مثلا جملة : « حضارة قدماء المصريين » تجد أن الذى يحتاج إلى ضبط هو (تاء) حضارة (همزة) قدماء ، (ميم) المصريين ، وليس وراء ذلك مايدعو إلى تعنية الكاتب والطابع بضبط ما . شقاء للكاتب ، نقول : إنه هين ؛ وعناء للطابع قد نقول : إنه محتمل ، ولكن — لسوء الحظ — نجد فى هذا الإمعان فى الضبط مساءة إلى القارىء نفسه ، ومشغلة له عن القراءة ، فهو لا يستطيع أن يتابع الحروف والضبوط ، والمعانى فى وقت معاً .

ولو أن للوزارة عيناً ترى وأذناً تعى ، لفقهت ما قاله الأستاذ الجارم بك ، فى تقريره بشأن الضبط فهو يقرر أن القارىء للكلام التام الضبط « يقطع أوصال العبارات ، لأنه مشغول بتحديد البصر ، وإعمال الفكر ، تحسساً لضبط مايقرأ قبل أن يقرأ حتى يستطيع أن يقرأ » .

ولو عنيت بأبنائها لرحمتهم من تلك حال ، حال المطالعة فى كتابها المضبوط التى يقول فيها عبد العزيز باشا فهمى : « فتراه كالمجذوب المتوجد ، أو المكروب المتجلد ، جاحظ العينين تارة ، أخرزهما أو أخوصهما تارة أخرى ، مضروب اللسان باللعثمة أو التمتمة أو الفأفأة أو غيرها من ضروب الارتتاج » .

أفلا يجدر بنا — بعد — أن نقتصر على الضرورى فى الضبط ، حتى نخلص بالتلميذ إلى قراءة غير المضبوط ولقد جربت أن أقرىء التلاميذ فى بعض الجرائد بعد ضبط مانلجىء الضرورة إلى ضبطه فكنت أجدهم فى القراءة أسرع ، وعلى الفهم أقدر ، إذ لا يعتور ألسنتهم تلك العقل العاقلة التى تحبسها وتلويها وتحول بينها وبين الانطلاق والإسراع .

وإذن ، فما كان أجدر أن يشتمل كتاب المطالعة على موضوعات قصيرة يسيرة خالية من الشكل سهلة حتى يمكن التلميذ أداؤها فى ثقة واطمئنان ، وتكون محكا لاستفادته فى قواعد اللغة ، وامتحاناً لقدرته على ضبط أواخر الكلمات ومتونها .

فاذا جاوزنا الضبط ، وذهبنا نفتش موضوعات الكتاب وجدناها شكولا وأنماطاً ، مجموعة من كل ماتباعد وتناءى وازور ووجدنا الرابط بينها هو التنافر والتناكر ، فمكة المكرمة ، تجاور الموز وفائدته ، وسياسة الرعية تتاخم الورق ، وقناة السويس تصاحب الحية والأخوان ، والإمام على يرافق البريد فى مصر . فهذا الخلط الذى لا يرعى للقربى ذماماً ، محال من المحال أن يكون هذا الترابط الذى ننشده وتنشده المعلومات لتتداعى وتتماسك ، وأيا ما كان فالكتاب من حيث موضوعاته يعتبر ثورة قوية ناجحة على طريقة المشروع التى ترمى إلى تأليف المعلومات واجتذاب بعضها إلى بعض ! ولو أن ثمت لفتة يسيرة لأمكن أن يقوم الكتاب على وحدات متناسقة متآخذة ، فاذا جئنا بموضوع مثل مصر ، جاز أن نضم إليه : نهر النيل — قناة السويس — حضارة قدماء المصريين — مصر فى عصر فاروق — واجب المصرى — مصطفى كامل — سعد زغلول . الخ فنكون بذلك وحدة وثيقة خالية من التكرير المربك بعيدة عن التشتيت المزرى .

وأشنع من هذا وأبشع أن الكتاب — الذى يعاد طبعه كل عام — قد خلا من كل ما يتصل بالاحداث الجديدة التى شهدها التلاميذ وسرت فى عروقهم ، واستشرفوا للقراءة عنها والحديث فيها — كالحرب الأخيرة ، وغلاء الأسعار ، وجشع التجار ، واختراع القنبرة الذرية ، ولؤم الاستعمار ، وخطر الصهيونية ، ونكبة فلسطين ، فكل هذا يشوق التلميذ مطالعته وحرام أن نقتل هذا الشوق فى نفس التلميذ ونرميه بموضوعات جامدة صالحة لكل زمان ومكان لا تتغير بتغير الأحداث .

ومن المضحك المبكى أن نقرأ فى القطعة الثانية من الكتاب فنجده ، يتمدح بالمعاهدة معاهدة سنة ست وثلاثين وتسعمائة وألف ، وقد طواها الزمن فيما طوى ، وأطفأ لمعانها ، وأسقط شهابها ، وبرىء منها أهلها ، ونادت مصر كلها بسقوطها ، وطالبت بإلغائها ، ويتمجد بدخول مصر فى عصبة الأمم ، وقد أصبحت العصبة اليوم فى ذمة التاريخ ، وذهبت غير مذكورة ولا مشكورة .

ومما ينبغى الالتفات اليه بعين يقظى أن الدرسين يعمدون إلى كتاب المطالعة فيختارون منه قطعا شعرية يحفظها التلاميذ ، وقد خبرت هذه القطع فوجدت كثيراً منها خالياً من الروح الشعرية والجمال الفنى ، ميتا مدرجا فى كفن بال ، وما يصح قط أن يكون من محفوظات ذلك العصر الذى يعج عجاجه بالممتع الرائع من الشعر الحديث المتصل بالأحداث القائمة أو القريبة العهد . خذ مثلا قصيدة الإمام الشافعى رضى الله عنه ، فى الحث على السفر :

ما فى المقام لذى عقل وذى أدب
من راحة ، فدع الأوطان واغترب
سافر ، تجد عوضاً عمن تفارقه
وانصب ، فإن لذيذ العيش فى النصب

ابحث عن الروح الشعرية الجميلة بين هذا الرصف المرصوف فلن تجد لها أثراً ، بل لن تجد مزية له على الكلام المبتذل ، إلا مزية النظم ، وهى أهون المزايا . حكم ، وإن أردت التجديد فقل: نصائح ، لا قيمة لها فى وزن التلميذ ، وأكاد أكتب : لا قيمة لها فى نفسها . فهل بمثل : سافر تجد عوضاً ، يلتذ التلميذ ، ويجد النشوة والسرور ؟ وهل بمثل : فانصب فإن لذيذ العيش فى النصب يستفيد فكرة أو عبارة طريفة ؟ اللهم لا .

ثم ابحث معى عن كلمة واحدة شعرية فى البيتين فلن تجد ،وما أكثر ما تجد هذه الطرافة والجدة فى قصيدة مثل « العصفور الصغير » للأسمر ، و « أنا ... » لإيليا أبى ماضى وغيرهما مما يهز قلب التلميذ ، ويثير عواطفه ، ويفتح عينه وقلبه للحياة فتحا .

ولست أزعم أن ذلك خاص بالشعر الحديث فالقديم غنى حافل ففى رثاء « السلكة » « للسليك » وفى غزل « المنخل اليشكرى » وفى تهكمات « ابن الرومى » جمال وإمتاع وشاعرية نابضة قوية ممتنعة على عقول العلماء الذين يقتسرون الشعر اقتسارا ، ويعنفون عليه بقوة اللغة ، ولا يقودونه بفيض العاطفة ، وسلاسة الطبع ، وقوة الشاعرية !

ومما يؤسف أن يخصص للمطالعة حصتان قصيرتان لا تقرئان ولا تفيدان ، والمطالعة ، مادة العربية ، تستغل فى الثقافة فلابد من المعنى ، وفى الإملاء فلا بد من تكرير النظر إلى الكلمات الصعبة وفى الإنشاء فلا بد من استعادة الجميل من العبارات ، وإدخاله مدخلا كريما فى مناسبات جديدة ، وهيهات أن تتسع الحصتان لذلك كله .

فهذا كتاب المطالعة يا قوم ، لا عون فيه على القراءة ، ولا انسجام بين موضوعاته ولا تناول لطريف الأحداث ، ولا حسن اختيار لقطع الشعر ، فماذا بقى ؟

لا تبكوا على التلاميذ إذ يكبون فى الامتحان ، لا تصرخوا ولا تستصرخوا ...

أيها القوم ... السم فى الدواء ! !

كامل السيد شاهين
المدرس بالمدارس الأميرية

علوم البلاغة فى الجامعة

للأستاذ على العمارى

— ٦ —

قلت فيما سبق إن رجال الجامعة لم يصنعوا شيئا فى تجديد البلاغة العربية ، غير أن ملأوا غرف الدراسة ، وأذهان الطلاب بالطعن على المتقدمين ، والتنويه بقصورهم وتقصيرهم ، فلننظر فيما بين أيدينا من كتب لنرى مصداق ذلك . فى سنة ١٩٣١ ألقى فضيلة الأستاذ الشيخ أمين الخولى محاضرة فى الجمعية الجغرافية الملكية وسماها « بحثا تاريخيا تجديديا » تحدث فيها عن صلة الفلسفة بالبلاغة العربية ، وتكلم طويلا عن نشأة البلاغة وتطورها والمدارس التى احتضنتها ، ثم تحدث عن الدراسة فى كلية الآداب ودعا إلى تجديد البلاغة تجديداً شاملا وكان مما قاله « وهى — يعنى الكلية — فى إخلاص المجدد المستنير بالتاريخ تستطيع أن تختط طريق الدرس الفنى وتجعله واضح المعالم مغايراً لطريق البلاغة التى سميناها البلاغة العلمية ، كما عزمت على أن تتلافى ما كان من أثر الفلسفة فى تجدد البلاغة وقصور بحثها ، لأن إلزامها حدود دراسة الجملة قد حرمها من أبحاث ضرورية للفن الأدبى ، أبحاث نراها فى بلاغات اللغات الحية ويجب أن نتناولها بالدرس ، ومن تلك الأبحاث البحث فى الأسلوب واختلافه وأوجه تفاوته ، ومزايا أنواعه المختلفة ، ومن ذلك البحث فيما وراء المعنى الجزئى — تشبيه ، استعارة — كناية — من معنى كلى وغرض يقصد إليه الأدب ... الخ »

أبحاث كثيرة يدعو الأستاذ إلى تناولها بالدرس ، وبذلك يجدد البلاغة العربية .

ظفر فى فم الأمانى حلو ليت منه لنا قلامة ظفر

وتمضى خمسة عشر عاما كان يمكن أن ترى فيها أثرا لهذه الدعوة ، ولكننا نفاجأ فى سنة ١٩٤٦ بكتاب للشيخ أمين يسميه « فن القول » ويقول فى الصفحة الرابعة منه « إنى أحس إحساسا قويا عنيفا بحاجة حياتنا الأدبية واللغوية إلى دراسات كثيرة واسعة لم نقم بها ، ولاهيأنا السبيل لإتمامها ؛ ولو استطعنا أن نعرف بها ونقنع بضرورتها ، وندفع إليها ونقوم بمحاولات أولية فيها لنخلق الجيل الذى يقوم بها ويتمها فذلك خير ما نسدى لعصرنا ، وجل ما نؤدى به واجبنا . ولن أظن لحظة أننا قد أوفينا فى ذلك على الأمل المرجو ، والمثل المنشود أبدا ، لأن الميدان خال بل مقفر . وسترى فى البلاغة التى تزاول درسها هنا مثلا لذلك بينا » وإذن فالشيخ أمين لم يصنع شيئا فى هذه المدة الطويلة ، ولم يصنع غيره كذلك لأن الميدان « خال بل مقفر » فهل يكون هذا الكتاب الذى يخرجه هو العمل المرجو فى تجديد البلاغة ؟ هذه محاضرات ألقاها فى معهد الدراسات العليا ، وقد وصلنى منها ١٢٠ صفحة ، وباقيها فى المطبعة كما أظن ، وكان من حق الشيخ علينا أن ننتظر حتى يتم طبع المحاضرات ، ولكنا نقول هنا كلمة ولا يزال الباب مفتوحا ، مائة وعشرون صفحة هى مقدمة لعمل تجديدى فى البلاغة ، فماذا تناول فيها ؟ تحدث فى أربع عشرة صفحة عن التفسير الحيوى والاجتماعى لفكرة إنشاء المعهد ، ثم التفت إلى ما كان نشره من محاضرات ومقالات فأعاد نشرها بشىء من البسط والإسهاب ، فتكلم عن نشأة البلاغة وعن منهج دراستها عندنا وعند غيرنا ، وتحدث عن اللغة العامية واللغة الفصحى ومشكلات اللغة الفصحى كل ذلك فى هذا العدد الضخم من الصفحات اعتبره مقدمة لكتابه . أليس ذلك حسنا ؟ لقد ذكروا أن أحد الرجاز أتى نصر بن سيار والى خراسان ومدحه بأرجوزة تشبيبها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات ، فقال نصر : والله ماتركت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا إلا وقد شغلته عن مديحى بتشبيبك . وأنا أرجو

ألا يكون كتاب « فن القول » كهذه الأجوزة .

لكن جزءا من دعوة الشيخ أمين قد تحقق ، فقد أخرج الأستاذ أحمد الشايب كتاب « الأسلوب » وتكلم فيه عن كل المباحث التي دعا الشيخ إلى تناولها ، فهل هذا الكتاب عمل تجديدي ؟ لننظر . والذي نراه أن الأستاذ الشايب عمد إلى جهات ثلاث فاختطف منها كتابه .

(١) ترسم خطى أرسطو في خطابته ، فقد تحدث هذا عن الأسلوب وقيمته ووضوحه وصفاته الخاصة ، والشروط العامة للأسلوب ، وفتور الأسلوب وسلامته وشروط ذلك ، وشرح ثراء الاسلوب وبسطته ووسائط ذلك ، كما بين الأسلوب الكتابي والأسلوب الخطابي والأسلوب الشعري والأسلوب النثري وتحدث عن اختلاف الأسلوب باختلافات الموضوعات وغير ذلك .

(٢) سطا على أبحاث المتقدمين من أمثال عبد القاهر والجاحظ وقدامة وابن رشيق والآمدي وصاحب المثل الثائر والقلقشندي فاختطفها اختطافا ، وحسبك أن ترجع إلى ما كتبه العمدة عن فنون الشعر ، وما كتبه قدامة في نعت الوصف ونعت الهجاء ونعت الرثاء ونعت المديح ونعت التشبيه ، ثم تقرأ كلام الأستاذ الشايب فسوف تعتقد معي أن المسألة كما يقولون « حذو القذة بالقذة » .

وأما عبد القاهر فأمره معروف فقد كتب كتابا خاصا في النظم الذي يسميه الأستاذ « الأسلوب » قال « للخفة والشيوع » والجاحظ كتب عن صحة المعاني وفسادها ومناسبتها للألفاظ ، وحسبنا هنا الإشارة .

(٣) الغربيون — كما يقول الشيخ أمين — يعنون في البلاغة بدراسة الأسلوب ، ويقول غير مرة إن هذه الأبحاث التي يدعو إليها — وهي قوام كتاب الأستاذ الشايب — مما عني به الغربيون عناية تامة ، ويخص بالذكر كتاب الأسلوب الإيطالي lo stilela Italiano للباريني .

ولا نستبعد — بل إننا لنوقن — أن الأستاذ الشايب نظر طويلا في البلاغة الغربية وأخذ عنها ، وإذن فهل لنا أن نقول كما قال بعض النقاد الظرفاء : « لو قيل لكل معنى في شعر حميد بن ثور ارجع إلى صاحبك لما بقي في يده شيء » .

وأعتقد أنا لو حذفنا منه هذه الأبحاث القديمة العربية لبقي الكتاب أبيض مغسولا . على أنه فوق ذلك كتاب وصفي وعمل البلاغة إنما هو وضع القوانين التي إذا ترسمها الأديب استطاع أن ينشيء ، وهذا الكتاب في أكثر مباحثه أشد صلة بأدب اللغة منه بالبلاغة ، وإن ذكر مؤلفه أنه وضعه في البلاغة ، وقدم له بأبحاث فيها .

ومهما يكن من شيء فلا زلنا عند رأينا من أن الجامعيين تركوا البلاغة العربية كما كانت على عهد السكاكي ، وإذا كانوا صنعوا فإنهم لم يزيدوا على أن رجعوا إلى كتب البلاغة قبل السكاكي ، وكتب النقد الأدبي فاغترفوا منها ، وهذا عمل يشاركهم فيه كثير من أبناء دار العلوم ومن أبناء كلية اللغة العربية بالأزهر ، فأين هو التجديد يا رئيس الأمناء ؟ !

علي العماري
المدرس بمعهد القاهرة الثانوي

العلاقة بين بغداد والقاهرة

فى عهد الفواطم

للأستاذ عبد المنعم ماجد

لم تكن هناك فروق تميز أهل البيت من بنى العباس وبنى علىّ ، حتى وقت قيام الدولة الأموية على يد معاوية بن أبى سفيان الذى جمع فى يده سلطة قوية وحوّل الخلافة من بساطتها وديمقراطيتها إلى نوع من الأرستقراطية المتعجرفة المتعصبة ، لذلك أطلق العلويون على أنفسهم لقب الشيعة وعُرف أعداؤهم باسم بنى أمية . أما إسم أهل السنة فلم يكن له وجود ولم يظهر إلا بعد قيام الدولة العباسية . وبالرغم من أن العباسيين لم يكونوا قد طالبوا بالخلافة لأنفسهم أيام الخلفاء الراشدين إلا أنه أثناء قيام الدولة الأموية فى أواخر عهدها التجأوا إلى الدعوة للرضا من آل محمد ، أى من يقع عليه اختيار آل البيت يصير هو الخليفة . وقد وجدت هذه الدعوة أذناً صاغية وقبولاً من الشيعة ، وذلك لأنهم كانوا يأملون أن تؤول الدعوة إلى بنى علىّ ، وذلك لأن علياً كان أفضل من العباس باعتراف معظم أهل البيت لأنه زوج بنت رسول الله ولسيرته وسبقه فى الاسلام . أما العباس فلم تكن له سابقة ولا سيرة ... ثم بجانب هذا لم يكن العباس ولا ابنه عبد الله قد طالبوا بالخلافة ... ولكن لما نجحت الدعوة التى بشر بها أبو مسلم الخراسانى فى خراسان ، وانتهت بقلب الخلافة الأموية والإجهاز عليها فى موقعة الزاب حوّلوا الخلافة لأنفسهم وأقصوا الشيعة عنها وادعوا أن العم أحق بالخلافة من ابن العم ، ولذلك كانوا يرون أى فتق يجيء من غير ناحية العلويين سهل الرتق . أما هؤلاء أبناء علىّ فهم الخصم الألد الذى يخاف جانبه ويُخشى بأسه ، ولذلك طاردوهم ، وشردوهم ، وضيقوا عليهم الخناق .

إزاء هذا التعنت الذى ضاقوا به ذرعاً أخذ العلويون من أبناء فاطمة يدعون لأنفسهم سراً ؛ ليستردوا هذا الحق المغصوب ويقضوا على هؤلاء الذين أقصوهم عن حقهم الشرعى فى الخلافة ، فلما ضاقت بهم وبدعوتهم أرض المشرق اتجهوا للمغرب حيث كان مركز الخلافة ضعيفاً ، ونجحوا فى تأسيس دولة هناك ، وكان هذا مبدأ الاحتكاك الفعلى بينهم وبين العباسيين ، وأول ضربة توجه للخلافة العباسية فى جزء من أملاكها فى أفريقيا من أبناء فاطمة بالذات . . ولن تكون الضربة الأخيرة ... ! ! لأن غرضهم الأساسى كان القضاء على الخلافة العباسية التى اغتصبت ملكهم وشردتهم وطاردتهم . هذا فضلا عن رغبتهم فى نشر دعوتهم ونظرياتهم فى الدين . لذلك شهر المعز لدين الله الفاطمى سيفه فى وجه العباسيين ، وطعن الخلافة فى مصر والشام والحجاز واليمن ، ومنع الناس فى هذه الأرجاء لبس السواد شعار العباسيين ، وخطب له ولخلفائه على المنابر ، وارتفع صوت المؤذن منادياً : « حىّ على خير العمل » ، وهو آذان خاص بالفاطميين كما ظهر بطبيعة الحال كفاح وتنافس وحزازات بين الدولتين شأن كل قوتين تعتقد كل منهما أنها أحق بالخلافة والسلطان دون الأخرى . وسنلخص العلاقة بين هاتين القوتين المتزاحمتين فى ثلاث مراحل :

الأولى — تبدأ حيث عاصرت فيها الدولة الفاطمية عظماء بنى بويه وهم المتربعون فى الحكم فى بغداد والمتغلبون على الخلافة العباسية فيها .

الثانية — التى عاصرت فيها الدولة الفاطمية البويهيين إبان ضعفهم .

الثالثة — التى عاصرت فيها الدولة الفاطمية الدولة السلجوقية التى انتزعت الحكم من الدولة البويهية .

الفترة الأولى :

تبدأ من سنة ٣٥٨ هـ وهى السنة التى دخل فيها الفواطم مصر إلى سنة ٣٧٢ هـ أى إلى موت عضد الدولة البويهى آخر عظماء البويهيين .. استولى الفاطميون على مصر والشام ومست حدود الدولة الفاطمية أملاك العباسيين التى كانت آنذاك تحت رحمة البويهيين وهم الذين ملكوا زمام الدولة وصارت بيدهم

مقاليد الأمور منذ سنة ٣٣٤ هـ أو سنة ٩٤٥ م . فاسمهم يقرن باسم الخليفة العباسى فى خطب المساجد ، وتضرب الدفوف أمام القصر الملكى البويهى فى الضحى والمشى ، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غير الخليفة من قبل ، والبويهيون متشيعون كالفاطميين بل من الشيعة الغالية التى لا تعترف بالخلافة العباسية رغم سيطرتها عليها . بل وتعتبرها مغتصبة من العلويين الذين هم أحق بها فى نظرهم ، ولذلك فى مناسبات عدة يعملون دائماً على إذلال الخليفة العباسى وإشعاره ببطلان خلافته ؛ فمثلا الخليفة القاهر عُزل والمستكفى سُمل والطائع أهين ، والمطيع عزل حتى قال ت . و . أرنولد فى كتابه الخلافة :

" The lowest depths of degration that the Caliphate of Bayhded had ever reached "

ومعنى هذا أن الفواطم حينما امتد ملكهم شرقاً وجدوا تشيعاً فى بغداد ، ومركز الخلافة والأراضى الخاضعة لها فى العراق والمشرق ، وأن صاحب هذا التشيع هو صاحب الأمر والنهى ، وكان هذا بطبيعة الحال من شأنه أن يقرب بين الفواطم فى مصر والسيطرين على بغداد أصحاب الأمر والنهى ، وأن يوجد نوعاً من العلاقات الحسنة بينهما ، وإن كانت العلاقة الطيبة تظهر من ناحية البويهيين أكثر جلاء من ظهورها من ناحية الفواطم ، وكان هذا طبيعياً لأن الخليفة الفاطمى كان يُعد فى نظرهم إمامهم والرمز الروحى لهم ، وهو من النبعة الطاهرة التى يدينون بنحلتهم لها . نلمس هذه الروح والميل الصريح نحو الفواطم مما حاوله معز الدولة البويهى بالكشف عما فى قلبه بالبيعة للخليفة الفاطمى لولا أن أشار عليه أصحاب النظرة البعيدة من أتباعه بتركه هذا الأمرخوفا على سلطانه وسلطانهم ، ونفوذه ونفوذهم[1] فالخوف هو الحائل الوحيد فى سبيل إعلان الفاطميين أئمة عليهم ؛ ومع ذلك فالخضوع الروحى للفواطم كان يعلمه الملأ فى كل مكان وتحت سمع الخلافة السنية وبصرها ؛ فبدأ الاحتفاظ بسطوتهم فى بغداد لا يتنافى أبداً مع إظهار ولائهم للفاطميين ، ولعل العلاقة الرسمية لم تكن من القوة والصفاء مثلما كانت فى عهد عضد الدولة البويهى . وقد احتفظ لنا أبو المحاسن[2] برسالة من العزيز الفاطمى رداً على رسالة عضد الدولة فيها يشكره على ولائه وخضوعه ، وقد انتهز عضد الدولة هذه الفرصة ووصول مندوب العزيز بهذا المكتوب ليُذل الخلافة السُّنية فأمر المطيع وهو الخليفة السنى آنذاك بالخروج لاستقباله . بل تمادى عضد الدولة وقرأ الرسالة مع ما تحمله من خضوع سافر وولاء ظاهر للفواطم فى حضرته حتى دهش أبو المحاسن وتعجب ، وإن كان ليس هناك ما يدعو للعجب لاجتماع البويهيين والفواطم فى رمز واحد وإمام واحد هو « علىّ » . ويجمل بنا أن نعرض بعض ما جاء فى هذه الرسالة ففيها « ... إن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك فأدى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين .. ثم ذكر كلاماً طويلا فى المعنى » . أما بقية الكتاب فيستدل منها على أن العلاقة لم تقف عند تبادل عبارات المودة والصداقة بل تعدتها إلى تبادل الرأى والشورة فيما يحيط بهما فى العالم الإسلامى من خطر خارجى .

هذه هى مظاهر العلاقة الرسمية بين بغداد والقاهرة .. وهناك مظاهر أخرى لها تتمثل فى اشتراك أهل مصر من الشيعة وبغداد فى بعض الأعياد الدينية مثل النوح فى أيام عاشوراء ، وهذه الظاهرة استمرت منذ أن استقر البويهيون فى العراق ...

هذه هى مظاهر التفاهم بين بغداد والقاهرة ، والتى كانت نتيجة للرابطة التى بينهما كما ذكرت فخلقت هذه المعاملة الحسنة كما أنها هى التى منعت كلا من الفاطميين والبويهيين على أن يقضى الواحد منهما على الآخر ، وذلك بالرغم من أن غرض الفواطم الرئيسى كان تدمير العباسيين المغتصبين للخلافة ، ولكنهم لما وجدوا تشيعاً فى بغداد مالكا لها أحجموا عن اتخاذ هذه الخطوة العدائية . ولكن مع هذا لم تكن العلاقة صافية تماماً فى هذه الفترة ، لأن وجود قوتين متواجهتين يؤدى حتما إلى نوع من التنافس قد يتعدى إلى حوادث أخرى وبخاصة فى أول هذه الفترة ، ولكن رغم تقلب الحوادث سرعان ما تعود الأمور إلى مجراها بحكم اتفاقهم فى المبدأ ؛ فمثلا نرى عز الدولة بختيار قد أمدَّ القرامطة بالمال والسلاح عند ما تقدم الفواطم وكادت نارهم تلفح وجه العراق وقد كان مدفوعاً

(١) ابن الأثير ص ١٧٧ الجزء الثامن
(٢) الجزء الرابع النجوم الزاهرة ص ١٢٤

لاتخاذ هذه الخطوة خوفا على ملكهم ، ولكن سرعان ما عادت الحال إلى الصفاء بعد ذلك . إذ ظهرت بأجلى صورها فى عهد معز الدولة وعضد الدولة .

الفترة الثانية :

تأتى هذه الفترة بعد عضد الدولة إلى نهاية الدولة البويهية .

كان طبيعياً أن العلاقات الحسنة بين بغداد والقاهرة والتى استمرت على أتم صفاء ، وبلغت أقصاها فى عهد معز الدولة ، وعضد الدولة ألا تستمر إلى الأبد ، لأن السلطان البويهى الذى كان عاملا مهماً على التفاهم بدأ يضعف ، أصبح الخلفاء العباسيون قادرين على التدخل فى أمور الدولة والسياسة وانتهزوا فرصة هذا الضعف لاظهار ما يكنون من عواطف البُغض والحقد للدولة الفاطمية . لذلك يجب أن نعتبر أن العلاقة فى هـذه الفترة على نقيض الفترة السابقة إذ اتخـذت مظهراً آخر من القسوة والكفاح وظهرت نيات الطرفين واضحة بالبغضاء . ولعل أول مظهر لاسترداد الخلفاء العباسيين سلطانهم المفقود هو منعهم (كما يذكر أبو المحاسن) الرافضة من أهل الكرخ والطاق من النوح فى يوم عاشوراء ومن تعليق المسوح ، ولكن هذا التحرر نوعاً من قيود البويهيين لا يُعنى أن الخليفة العباسى قد أُطلقت يده أو أن فى استطاعته أن يعمل شيئاً إيجابياً فهذا من المحال . لأن الخلافة العباسية كانت فى أخريات أيامها عاجزة عن كل هجوم إيجابى على من قاسموهم سلطانهم وإن كانت لا تعجز عن الهجوم بسلاح آخر هو سلاح الكلام ، والطعن فى نسبهم إلى فاطمة ، خاصة أن الدولة تأسست على هذا الإدعاء ، وكانت دعوتهم قبل أن ينشرها داعيتهم أبو عبد الله الشيعى سرية ، وذلك خوفا على أئمتهم المستورين من ولاة العباسيين فى ذلك الوقت فساعد هذا الجو على الطعن فى الظلام ، ولذلك صدر محضران الأول فى سنة ٤٠٢ هـ فى عهـد القادر بالله المعاصر للخليفة الفاطمى المستنصر وذلك بعد مضى قرن على إنشاء الدولة الفاطمية ، وقد قرئت هذه المحاضر المملوءة بالقدح فى نسب الفاطميين ونسبهم إلى مجوس ، فى المساجد وأعلنت للناس . ولا يعنى هذا التجريح فى نسب الفاطميين بعد قرن أنه لم يكن موجوداً قبل ذلك أى قبل المحاضر فقد أيد هذا الطعن فى نسبهم بعض المؤرخين أمثال ابن خلدون ، وأما سبب ظهور هـذا الطعن بعد مضى قرن فيتحصل كما يظهر للأستاذ الأمير مامور فى كتابه :

"Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs"

١ — الكراهة المتأصلة فى العباسية من نسل على وفاطمة .

٢ — المرارة من مقاسمتهم أملاكهم وذلك حينما هددوا سلطانهم .

٣ — الحقد الذى تولد من منافسة القاهرة قاعدة الفواطم لبغداد قاعدة العباسيين كمركز للعلم والثقافة والفن والأدب الاسلامى

٤ — الخوف من امتداد سلطانهم لما بقى فى أيديهم .

٥ — الفرصة مواتية لاختلاف العلويين وعدم تضامنهم . فهذه هى الاثنا عشرية والفواطم والأدارسة .

٦ — إمكان التأثير على بعض العلويين وضمهم لجانبهم .

٧ — كذلك البويهيون لايعانون ؛ لأنه قد نالهم الضعف فقدروا الخطر الفاطمى حقَّ قدره .

٨ — إمكان إثارة العناصر السنية التى توجد فى الأجزاء التى امتلكها الفاطميون .

٦ — إعلان هذه المحاضر فى مثل هذه الظروف يضعف نفوذ الفواطم ، ومن ناحية ثانية فهولا ضرر منه على العباسيين .

١٠ — ملاءمة الوقت لوجود خليفة مكروه وهو الحاكم .

على أية حال كتب المحضران ، وحرص الخليفتان على أن يوقع عليهما كبار العلويين والقضاة والفقهاء وذلك حتى يحوز الطعن بعض الأهمية ولايتسرب الشك إلى الناس ويذكر ماموز فى كتابه رأى بعض المؤرخين فى المحاضر ؛ فمثلا قال جرابف فى دائرة المعارف الإسلامية « لم يظهر الشك فى نسب الفاطميين إلا فى وقت متأخر ، وكما يظهر بوضوح أراد العباسيون اتخاذ أى وسيلة شرعية للقضاء على منافسيهم الخطرين » .

(البقية فى العدد القادم)

عبد المنعم ماجد

حقائق عن المادة والفكر

أيهما أصلح طريقاً للمعرفة ؟

للأستاذ فؤاد طرزى

الحياة لا تعرف الثبات ولا الاستقرار؛ بل هى فى تغير مستمر وفى نزوع دائم نحو التجدد والتحول، تستقر فيها جراثيم التوالد التى لا تنى تنقلها من حال إلى حال منذ الأزل وإلى اليوم وحتى يدركها الفناء . وهذه الخاصة الحية هى نداء الضرورة المطلوبة لإيجاد التوافق بين التغييرات الطبيعية والتبدلات التى تشمل مظاهر الوجود، وبين الكائنات الحية التى لا توجد إلا وهى ساعية نحو الكمال والسمو مهما اختلفت الصور التى تختارها لتعرض نفسها على مسرح هذا الكون .

وقد أطلق على هذا الجوهر الأصيل فى طبيعة الحياة اسم التطور، وهو يدل على أن كل ظاهرة من ظواهر الوجود توجد فى آن واحد، أى أنها تعمل على خلق حال جديدة لها فى نفس الوقت الذى تحيا فيه على حال معين . وبعبارة أبسط إنها تتجدد وتتجدد إلى أن تهرم وتموت . سمه التطور أو الديالكتيك أو ماشئت له من المسميات ولكن بعد أن تعرف أنه الأساس الذى تقوم عليه الحياة وأنه مفروض على الأحياء والجمادات وهو يعمل من غير أن يُطلب أو تُراق لاستحضاره الدماء، بل إن كل ذلك لا يبدل غايته ولا يغير وجهته .

كل هذا الذى نقوله متفق عليه من جميع الفلاسفة وعلماء الإجتماع، وهو ثابت بالبراهين الجدلية والعلمية لا ينقضه برهان أو ينكره إثبات، ولكن الاختلاف هو فى ماهية هذا التطور أو فى الدافع الذى يحركه فى سيره الدائب : فنهم من يرجع هذا الدافع إلى عوامل مادية، فيقرر أن المادة هى السكل وهى التى تقود التاريخ وتوجه الأحياء، وهى الأصل الفرد الذى لا ينازعه أصل والإله الحقيقى الذى لا يشاركه إله، أو هى — كما يقول انجلز — دورات الوجود الأبدية التى تتم بها الحياة . وأما الآخرون فيؤمنون بأن الفكر الملهم هو الذى يسوس الوجود، وأن العقل المدبر هو الذى يمسك بزمام الطبيعة وهو الذى ينفث القوة فى المادة فتكتسب الحياة أو يتركها طينة باردة لا تقدر على الحركة والتحول والايجاد . فالفكر هو الخالق وهو المبدع، وفى خلقه وابداعه يستوحى سنة أبدية تعمل بغير انقطاع ؛ هاتان الفكرتان ظلتا تتنازعان تارة فى ميدان الفلسفة وحينا فى ميدان الإصلاح، وأخيراً ظهرت إحداهما وهى الفلسفة المادية فى شكل مذهب يريد إقامة المجتمعات وفق أصوله وقيمه .

وإذا أردنا النزول إلى ميدان البحث المقارن، ورغبنا فى وزنهما من حيث الأساس الذى قامتا عليه، وجدنا أن التفسير الفكرى أقرب إلى الحقيقة التى يتركب منها التطور وأدخل فى باب الشروح العميقة التى لا تحكم على المشاهدات المحسة ولا تقنع دون النزول إلى أبعد الأبعاد للتعرف على ماهية الموجودات وهذه جملة أدلة تثبت صحة ما نقوله :

(أولا) المادية امتداد والفكرية عمق . والفرق بين الامتداد والعمق ان الامتداد يشغل مكانا يظهر للعيون والأبصار، وأما العمق فيخلق من غير أن يظهر للحواس فهو يُعرف بالبحث المجرد والتأمل النظرى أو هو الحقيقة الفعالة وراء العضويات ينفث فيها الأكسير الذى لم يستطع العلم تحديده ... هذا الأكسير مادة أثيرية جرى العرف على تسميتها روح الحياة . وإذا أردنا أن نضرب الأمثال لنظهر الاختلاف فى هذا بين الماديين والفكريين فلنأخذ ظاهرة اجتماعية كبرى تكاد تكون حادثاً فاصلا فى التاريخ، وهى معروفة للجميع، ألا وهى الثورة الفرنسية .

فاذا قلت للماديين ما الذى أشعل نار هذه الثورة ؟ أجابوك بأنه السعى وراء الخبز أو الانقياد وراء المادة، يتمثل فى ثورة الجياع على المترفين، أو هى شكل من أشكال النضال الطبقى بين المحرومين والمتخومين . وكيف لا يكون ذلك وهذه الجماهير خرجت ثائرة تصرخ (نريد الخبز) . أيوجد أكثر من هذا السبب الواضح الذى يؤيد رأينا ؟ دون شك أنك تلاحظ أن هذا التفسير هو الذى سميناه التفسير الامتدادى، والذى عرفناه بأنه التفسير الذى لا يوغل فى الأعماق ولا يتعرف إلى الماهيات من معرفة أصولها وجواهرها، وأصحابه لا ينفذون إلى أبعد من مرأى العين ولا إلى ماوراء البصر، فى حين أن العين لا تستطيع

الأحاطة بأكناه الأشياء ، وأن البصر ليس بمقدوره أن يواتى البصيرة الوقادة التى تخترق الحجب وتهتك الأستار لأنها تدرى أن وراء الجسوم قوة مجهولة ووراء الأشكال الظاهرة عوامل مسيرة دافعة . إن الثورة الفرنسية تبدو ثورة من ثورات الجياع لمؤلهى المادة ، ولكنها فى الحقيقة ثورة أوقد نارها الفكر الثائر قبل أن يضرمها الخبز ، وانها لم تكن لتحدث لو لم يقدح زنادها هذا المشعل المحرق . ولنعلم أن الإحساس بالظلم لم يشعر به الكادحون الذين كانوا فى خدر لذيذ يرون العبودية جزءاً من الحياة لا محول عنها بعد أن لصقت كأشبه ما يكون بالقانون فى ضمائرهم ، بل ان الذين شعروا به هم المفكرون الذين أيقظوا النائمين ووضعوا خطط التحرير . فهؤلاء المفكرون أحسوا بالظلم وتألموا من الاستبداد فى الوقت الذى كان فيه الجائعون ينظرون إلى أسيادهم كأنهم من ظلال القدرة العلية فى الأرض . وعندما تألم هؤلاء عملوا فى سبيل وجود أفضل و«مجتمع أصلح» فأخذوا ينفثون القوة فى هؤلاء الذين استكانوا للظلم وراحوا يعلمونهم معنى الحق والعدل والحرية . هذه الألفاظ التى خلقوها خلقاً وأوجدوها ايجاداً . وأما المطالبة بالخبز فلم تكن إلا جانباً من الشعور بالحق ، هذا الشعور الذى ابتدأ فكرة مجردة ثم أخذ يعمل ليكون حقيقة واقعية . فبعد أن تمكنت فكرة الحق من النفوس عرف الناس أن من حقهم أن يشاركوا فى الرفاه والسعادة الأقلية المحتكرة . فالفكر هو الذى هدى وعلم ولم يكن أصحاب الخبز إلا تابعين يأتمرون بأمامته . كان الفكر هو المحرك وكانت المادة عنصراً من العناصر التى تعاونت معه . كان هو الأصل ... هو الحقيقة الاصلية ، وإن شئت فقل هو الجوهر الفرد الذى يتركب منه الكون . قل لأصحاب المادة — كما يقول لهم الأستاذ أحمد أمين — هذه عناصر الخلية اخلقوا لنا منها خلية كخلايا الوجود . وعندها ستعرف أنهم لا يستطيعون فعل ذلك مهما أوتوا من مقدرة علمية ، لأن جوهر الخلية كنه مجهول ينفث فيها الحياة ، وهو سر غامض لا ندرى ماهو وكل ما نعرفه عنه ما يبدو من آثاره .

(ثانيا) يجول الماديون ويصولون ويروحون ويجيئون فى دوائر جهنمية لاحدود ولا منتهى لها . وكل ذلك ليفسروا فلسفة عمياء كليلة لا تملك من مقدمات الأسس المنطقية ماتستطيع بها أن تحيط بالوجود من جميع جوانبه . وهم يريدون تفسير الوجود فكان أمامهم طريقان : إما أن يقولوا إن هناك قوة مدركة حية تحرك الكون وتدير الحياة وهى بمثابة العلة الأولى لكل هذه النتائج ، وإما أن يركبوا متن الشطط فيؤمنوا بالمادة الصماء التى لا تعقل ولا تحس ، فاختاروا التفسير الثانى وتركوا الأول . ولا أدرى لماذا نترك فلسفة تفسر الوجود بالوجود لنتعلق بأهداب فلسفة غامضة تفسر الوجود بالعدم . فأمامكم ياناس حركة وأمامكم حياة فلم لا تؤمنون بقوة الحركة وبقوة الحياة ، لتغوصوا فى أعماق مجهولة لتؤمنوا بالجماد الذى لايتحرك ولا يحس . إن مثلكم كمثل الذى يؤثر الظلمة على النور ، أو كمثل الذى يمسك بالحقيقة البينة ولكنه يدعها تفلت منه لأنه يستعذب الجرى والركض ولو إلى غير غاية .

(ثالثاً) ومهما تشعب القول فان هذه المادية منقوضة علما ومنطقا ، فهى لاتستطيع أن تفسر ما الأمل وما الطموح وما الأحلام . كما لا تستطيع أن تفسر لماذا يموت الجندى فى سبيل وطنه ، والتفسير المادى يقتضى منه أن يقدم ذاته على بلده . ولا تستطيع أن تفسر أيضاً كيف تفتدى الأم وليدها فى حين أن ظواهر الأشياء ومنطق التفسير المادى يفرضان عليها حب نفسها قبل غيرها . ويثبت المنطق أن الفكرة قوة من القوى والمادة شكل جامد ، وأن هذا الشكل لايكتسب الحركة إلا بعد أن تحل هذه القوة فى هيكله . فالفكرة هى التى تدفع وتوجه ، والمادة تتشكل وتتخذ أوضاعاً ظاهرة . وقد يقال لا موسيق بلا أوتار ، ولا بناء بلا أحجار ، ولا فكرة بغير مادة عصبية ؟ ولكن الكمنجة ليست هى الموسيقى ، والبناء ليس هو الأحجار ، والذهن ليس هو الفكر . إن لحنا من ألحان بتهوفن — كما يقول الفيلسوف رينان — موجود على الورق ، ولكن من يكسبه الحركة والحياة ؟ بلا شك العقل . وإن الفعل الارادى الذى يتمثل فى الاهتزاز هو الذى ينقله من عالم الجماد إلى عالم الحياة ، وهذا الاهتزاز حقيقة عضوية قابلة للوزن والقياس . إن الفكرة قوة تريد أن تكون والمادة تمنها وتنقلها إلى الكينونة والواقع . إن الفكرة هى الموجودة فى الواقع وهى وحدها الكامنة ،

وتطمح إلى الوجود التام بإيجاد التراكب الكيميائية لاظهارها.

من كل الذى ذكرناه نرى أن الفلسفة المادية لا يمكن أن تتوافق مع الغاية التى تتحول اليها الظواهر والشيات والكائنات ، لأن هذه كلها ترتفع من الأدنى إلى الأعلى ولا ترتد إلى حالة سابقة ولو تعاونت على ذلك كل قوى الانسان ، فى حين أن التوحيد المادى ارتداد رجعى إلى حالة سابقة حيث يتحكم كل شىء فى الإنسان فلا إرادة تستطيع أن تؤثر على ماجريات التقدم لأن هناك قدرا صارما يحكم ، ولا قوة عقلية تقدر أن توجه الأعمال إلى غايات مرسومة لأن الحلقة الآلية قد وضعت الحياة فى دائرتها فلا تدع لها الحرية فى العمل . وكل هذا يعاكس منطق الأشياء حيث نلاحظ أن الانسان كلما سار مع الزمن استطاع أن يخضع الطبيعة ويخضع التاريخ لمشيئته ، وانه كلما اتجه إلى الأمام ارتفع إلى الاعلى ليتحرر من قيود الظواهر المكانية والزمانية ومن دكتاتورية المعاش ويقرب من الغايات المعنوية فى كل موجود من موجوداته

إن علائم التقدم والتطور تجمع فى كلمتين اثنتين : «الحرية» و «التقدم المعنوى» فالتحرر علامة فارقة لقياس الحضارة ، والتقدم المعنوى عمود التطور إذا جسمنا كلمة التطور وألبسناها حلة التشبيه والتمثيل . وليس قولنا هذا محض سفسطة ومغالطة ، بل هو منقول عن الحياة بعد أن خضع لمعايير العلم وتجارب التاريخ وعبر الازمان . فالعلم يقرر أن الانسان كلما ارتفع صعداً فى سلم الحضارة دقت عضلاته ومرنت عظامه وخفت حركته ، أى كلما تقدم تحرر من قيود جسمه ليماشى الكون فى حركته الدائبة نحو الخروج ونحو الانفصال عن المركز إلى الخارج فى اندفاعاته الانتقالية . وتحطيم الذرة فى عصرنا الحديث ليس إلا مظهراً من مظاهر الشوق الوجودى إلى التحرر والانفصال عن الكتل والهيولى . إن كل ما فى الكون فى حركة دائمة يريد التحرر من المادة والدنو من الصورة ، ويعمل على أن يفك عنه قيود التجسم ليعود إلى النموذج والمثال . فالصراع بين الهيولى والصورة والذى كان لب فلسفة أرسطو العظيم هو ناموس الأبد ، بل قل جرثومة التطور وقانون الحياة .

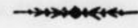
ولعل التقدم المعنوى هو فرع من ناموس الحرية الذى فرض ارادته على الحياة فى كل سبيل من سبلها . وإذا أردنا أن نشرح هـــذا أكثر ، فلنأخذ أشد الألفاظ لصوقا بالإنسان وأقدمها فى معاصرتها له ، ولنسر وإياها فى تاريخها الطويل ؛ فأننا سوف لا نجدها الاسائرة من التعبير عن ملابسات المادة إلى السمو والدلالة على تعبيرات الروح والفكر . خذ كلمة «الضحية» وهى الكلمة التى كتب عنها الأستاذ العقاد بحثاً قيماً فى عدد من أعداد الرسالة ، فهذه الكلمة أول ما وجدت فى الحياة ، وحياة الإنسان خاصة ، كانت تعنى «النذر» التى كانت تقدم للأرباب والمعبودين ، ولم تكن تعنى غير هذا المعنى المادى الملموس الدال على تقديم علائم الخضوع فى شكل أشياء مادية لاسترضاء الآلهة . ولكن بعد أن سار الإنسان أشواطاً جديدة فى ميدان الحضارة أخذت الكلمة تدل على معان جديدة وراحت ترتفع من الدلالة على الأشياء المادية إلى التعبير عن أشياء معنوية كأنكار الذات وفداء النفس فى سبيل الوطن أو فى سبيل الشرف أو لأراحة الضمير ونحوها من المجازات والدلالات على معانى الأخلاق السامية .

(بغداد) **فؤاد طرزى**

هـــاروت ...

أو الملك الثائر

للاستاذ عثمان حلمى



فى جنان الخلد مأواه   ملك أكرمه الله
ناعم فيهـا فما نظرت   ما يسيء النفسَ عيناه
همه تمجيـد مبدعه   من بسحر الخلد سوّاه
من بنور الحسن جمّله   وبحسن النور حلاّه
تفتن الألبابَ طلعته   ويثير الحبَّ خدّاه
فاتن ضاحٍ محياه   جل من سوّى محياه
ظل فى الفردوس يمرح فى   ظلها ، فى ظل مولاه
معجز فى حمـد بارئه   كل لحن يتغناه
لم يدُرْ يوما بخاطره   عالم الدنيا ولا ما هو
لا ولم تدرك مشاعره   من صميم الشر معناه
ما درى للشر من وطن   أو بأن الأرض دنياه
كاد ما يدريه من قدم   عن أبى الإنسان ينساه
نبأ ضـاعت معالمه   وانقضت فى الغيب ذكراه
قصة عن آدم سلفت   سجلت فيهـا خطاياه
آدم المسكين ضيعه   ما جنت فى الخلد حوّاه
قـد أراد الله فتنتـه   فليكن ما شـاءه الله
ذاك أقصى ما أحـاط به   ملك فى الخلد مثواه
ثم دار الدهـر دورته   غـيرت فى الدهر مجراه
دورة جدّت فما ونيت   أفقـدت هاروت سياه
فتولاه الأسى وبكى   ما قليـل ما تـولاه
لفتنة للأرض واحدة   بدلت منـه سجاياه
الطروب القلب يزعجه   هاتف بالهمّ يغشـاه
والقرير العين مكتئب   تتندى منه عيناه
ما الذى بدل فطـرته   ما الذى جدّ فأشجاه
قد رأى الدنيا وقد وسعت   كل شر كان يأباه
ظـالم فيهـا ومجترم   قاتل ضجت ضحـاياه

ليس يرضى بالدماء وقد   رضيت بالموت قتلاه
وأخ يرمى أخاه وما   من ضمير ثمَّ ينهاه
وعزيز الجاه ذو صلف   وضعيف الجاه يخشاه
وشرور ما لهـا عـدد   وبنو الإنسان أشباه
ووجود كلـه ألم   صارخ والموت عقباه
ذلك الإنسان أكفر من   خلق الله وسوّاه
يا لقلب جُن من هلع   لم يصـادف ما تمناه
يا له فى الخلد من ملك   فى رياض الخلد مثواه
ثار حتى لم يجد فرجاً   أو رجـاء يتملاه
وتولى سائلا جزعاً   ما الذى يقصده الله
لو سكنت الأرض كنت بها   مصـلحاً ترجى نواياه
أصلح الدنيا وأجعلها   مثلا للخير أرضـاه

***

صـوت :

لك هـذا ، إنه حسَن

هاروت :

ولك العـزة والجـاه

صـوت :

شهوة الإنسـان جامحة   ركبت فيـك ودنياه
آدمى أنت فى ملك   طاهر طـابت خفاياه
فامض واغسل بالطهارة من   عالم الدنيـا خطاياه
وإلى بابل إن بهـا   ما تؤمـله وتهـواه

***

فأتاها باسمـا فرحا   ليس يدرى ما سيلقاه
يسرت بالطهر يسراه   ومرت باليمن يمناه
إن رأى خيراً يمر به   أو أرى شراً تفـاداه
ورأته الغيد فابتهجت   وسباهن محيـاه
قلن ما أقواه من رجل   فى بنى الدنيا وأحلاه
وتمنت كل غانيـة   لو غـدت فيما تمناه
ورأى فيهن فاتنة   ولـه جبـلها الله
تخذت من قلبـه سكناً   ولمهـد الحب مأواه
واستبدت فى عواطفه   فهو يرجـوها وتأباه
قوة قد كان يجهل ما   سرها والحب أنشـاه

كم نهاه عقله فأبى أى عقل كان ينهاه
والهوى طاغ وأحسبه إن طغى جلت ضحاياه
إن أصاب العقل زلزله أو أصاب القلب أرداه
يا لهذا الحب كم جهلت كل ما يجنيه قتلاه
يا لهاروت القوى وقد بدل الحب سجاياه
يا لهاروت الضعيف وقد كان ما قد كان يخشاه
الهوى والسهد أعياه والجوى والوجد أضناه
ورأت من كان يعبدها أن سهم الحب أصماه
فدعته فانتشى طربا وهو لا يدرك عقباه
ثم أغرته بكأس طلى ما تأبَّى إذ تعاطاه
ثم أغرته بقتل فتى كان يقلاها وتهواه
فرماه فى الصميم وقد ختمت بالقتل بلواه
وأفاقا وهو فى جزع قاتل يلعنه الله
أى عذر بعد فعلته أى صفح يتلقاه

***

إن سر الخلق يستره عالم بالخلق أخفاه
غاية يضمر منشئها كنهها من يوم أنشاه

الغريبة (*)

[من ديوان « أغاني الليل » الذى سيطبع قريبا]

للاستاذ عمر أبو قوص

خرجتُ عند الأصيل منفرداً أضرب فى الأرض حاملاً شجنا
وكان فصل الخريف قد بدأت آفاقُه تحمل المُزُنا
وكانتِ الروحُ وهى والهةٌ تندب حباً رعيته زمنا
فأبصرت مقلتاى عن عرض غريبةً قد تهالكتْ وهنا
فقلت للنفس هاهنا فقفى أو فاطلبى الأفق بعدها وطنا

***

يا زهرة فى الحديقة انفردت اما ترين الأوراقَ والغصُنا
الركب ولّى وأنت باقيةٌ تحيين أمجادَهُ وما فطينا
أأنت قربانُ عاشقٍ دنفٍ قدّم للحب روحَهُ ثمنا
أم شاعر فى الحياة معتزل يحلمُ فيها ليقتلَ الزمنا
أم بسمة فى الخريف شاحبة لما تعرّى ليلبس الكفنا
أم نجمة فى النجوم شاردة حطّت على الأرض تبتغى سكنا
كأن فيك الكافورَ منتشراً يبعث فىّ الفتور والوهنا
فيذهب الوهم آخذاً بيدى حيث أزور القبور والدمنا
أىّ غريب مضى لطيته يطوى الفيافى والسهل والحَزَنا
حتى إذا مات لم يجد أحداً يبكى عليه ولم يجد سكنا
فكنت فى البر أنت شاهدة عليه تبكين قلبه حزنا
أم هو فى أهله وقد جهلوا أسراره والدموع والشجنا
غريب روحٍ مستوحش أبداً إن حلّ لم يسترح وإن ظعنا

***

وعدت للبيت والدجى ظهرت راياته والنهارُ قد جبُنا
وعاد كلٌّ لأهله فزعاً حتى إذا صار بينهم أمنا
وكانت الريح وهى ثائرة تعصف عصفاً والغيث قد هتنا

(*) اسم زهرة من زهور الخريف



الأستاذ على الطنطاوى فى القاهرة :

وُفقت وزارة العدل السورية إلى إيفاد القاضى الفاضل السيد على الطنطاوى إلى مصر سنة كاملة للوقوف على الأنظمة القضائية واللوائح الشرعية ، والاطلاع على تطور الأحوال الشخصية والدراسات القانونية فى المحاكم الشرعية والمعاهد الدينية والمجالس الحسبية ومقارنتها بالتتبع فى سورية لتهتدى الوزارة على ضوء أبحاثه ودراساته وتقاريره إلى تنفيذ ما تريد فى محاكمها من الاقتباس أو المحاكاة أو التعديل . والأستاذ الطنطاوى بثقافته الشرعية الأصيلة ، ومواهبه النادرة الجليلة ، وخبرته العملية الطويلة ، أقدر القضاة على الاضطلاع بهذه المهمة ، وقد ورد الأستاذ القاهرة مساء الخميس الماضى ، فعلى الرحب والسعة

١ — أسبوع الأمير :

كان الأمير شكيب أرسلان رحمة الله عليه أضخم شخصية عربية ، وكانت له مزايا جمة كل مزية منها تجعل صاحبها لو اقتصر عليها من عظماء الرجال ، منها أنه المؤلف المكثر المجود ، ولو لم يكن له إلا تعليقاته على حاضر العالم الإسلامى ، والحلل السندسية ، ولماذا تأخر المسلمون ، لكان بها من كبار المؤلفين . ومنها أنه الكاتب الذى ملأ الشرق والغرب نثراً بليغاً ، وكان لسان الإسلام ومدره العرب ؛ وأحسب أن مقالاته لو جمعت لجاء منها كتاب فى ضعف حجم الأغانى . ومنها أنه السياسى الأكبر الصادق الفراسة الصحيح الرأى البعيد النظر ، أنذر وحده العرب (لما قاموا باسم القومية يطعنون الأتراك إخوانهم فى الدين فى ظهورهم) وحذرهم عاقبة ما هم فيه ، وقال لهم إن الإنكليز لا وفاء لهم ، وإن الشام إن تخرجوه الآن من يد الترك تدخلوه فى أيدى غيرهم ؛ فكان والله ما قال ، فلما انقلب الأتراك وولوا وجوههم عن الإسلام لوى عنهم وجهه وكان حرباً عليهم . وهو الذى أثار الدنيا على الظهير البربرى ؛ وهو الذى أرجع عرب الجبل الأخضر ، وهو الذى كان سفيراً دائماً لنا فى ديار الغرب ، سفيراً بلا أبهة ولا رتب يرتضى حياة التقشف ويصبر على مر العيش . ومنها همته وثباته ؛ ما كتب إليه إنسان إلا أجابه ، ولا خاطبه رجل إلا رد عليه ، ورسائله تعد بعشرات الآلاف . ومنها وفاؤه ونبله ، وهذان كتابان عن شوقى والسيد رشيد يقومان دليلا ولا يعوزنا الدليل . ومنها — ولن تحصى هذه الكلمة مزاياه ، ما يحصيها إلا الدرس الطويل ؛ لذلك فكرت دمشق التى روعها نعى الأمير ، وجاءها نبأ وفاته وهى تعد العدة لاستقباله ، تأمل أن يجيئها أعز زائر وأكرمه وأعظمه ، فكرت فى أن :

١ — تقيم أسبوعا للأمير رحمه الله فى مدرج الجامعة السورية فى دمشق يتعاقب فيه الخطباء والمؤبنون .

٢ — تنشر ما ينشر من كتبه وتعيد نشر المطبوع منها .

٣ — تجمع رسائله الخاصة وتحصيها .

وتألفت لذلك لجنة تمهيدية برياسة صديق الفقيد الأستاذ السيد عارف النكدى رئيس مجلس شورى الدولة ، وعضوية الأساتذة السيد سامى العظم المفتش العام فى وزارة العدلية ، والسيد عز الدين التنوخى عضو المجمع العلمى العربى ، والسيد أنور العطار شاعر الشباب السورى ، والسيد مظهر العظمة مدير مدرسة التمدن الإسلامى ، وعلى الطنطاوى ، ورئيس الشرف فى هذه اللجنة الأمير عادل أرسلان ، لا لأنه وزير المعارف ، ولا لأنه أخو الفقيد ، بل لأنه صديقه وما كل أخ صديقاً ، ولأنه أعرف الناس به وأشدهم حباً له ، ولأنه الشاعر الفحل ، والوطنى المجاهد ، ولأنه الأمير عادل أرسلان . رحم الله الفقيد وألهم هذه الأمة الوفاء له ، والاقتداء به .

(ع . ط)

٢ — عالم بين الكتب :

من أنباء المعارف فى الشام التى تسر وقل فيها السار ، أن الوزارة ستجعل إدارة دار الكتب الظاهرية للأستاذ أبى قيس عز الدين التنوخى ، وهو اختيار موفق لأن دار العلم لا يجوز أن يقوم عليها إلا عالم

(ع)

١ — واجب الوفاء !

تألفت فى سورية عدة لجان لتأبين فقيد العروبة والبيان المغفور له الأمير شكيب أرسلان .

وسورية هى الوطن الذى ولد فيه الفقيد ، وفى ترابه دفن جثمانه العزيز ، فلا أقل من أن تنهض بهذا الواجب حكومة وشعباً جماعات وأفراداً ، نحو رجل من أبر أبنائها ، وعبقرى من أعظم شخصياتها .

ولكن ما بالنا لم نر أثراً لمثل هذا التفكير إلى الآن فى مصر وقد استوطنها الفقيد فترات من الوقت ، وكانت له برجالاتها صلات وثيقة ، وقد عاش طول حياته يفزع لأمورها كما كان يفزع لسورية وطنه ، ولكل قطر عربى ؟ ! .

لقد قضى المغفور له الأمير شكيب أرسلان حياته ينادى بالوحدة العربية ، ويدعو إلى تقويه الصلات الشرقية ، ويندد بشنائع الأستعمار فى كل بلد عربى ، فليس الأمر فى تأبينه وتخليد ذكراه أمر سورية وحدها ، ولا أمر مصر وحدها ، بل هو واجب على العالم العربى جميعه ، فهل للجامعة العربية وقد كان الفقيد من أكبر دعاتها ورعاتها فكرة حتى تمثلت عقيدة ثم أصبحت حقيقة ، أن تنهض بهذا الأمر ؟ وهل للأمين العام للجامعة سعادة عبد الرحمن عزام باشا أن يوجه الدعوة بذلك قياماً بالواجب ووفاء بالدين ؟ ! .

٢ — لن يترنم الأطفال بأناشيدهم !

جاء فى الأنباء البرقية الأخيرة أن سلطات الإحتلال فى ألمانيا حرمت على الأطفال أن ينشدوا أنشودة « الفارس المقدس » التى اعتادوا الترنم بها فى الإحتفالات الرسمية لعيد الميـــلاد ، والإحتفالات الشعبية التى ينظمها معلمو بساتين الأطفال فى مدينة شفيرين ، كما حرمت عليهم أيضاً إنشاد ترنيمة أخرى وضعها مكتب الشباب فى المدينة ؛ ومنعت المعلمين كذلك من اخراج روايات عيد الميلاد التى تظهر فيها الملائكة ! !

مساكين أولئك الأطفال فى ألمانيا ... لقد شردهم الجوع ، وقتلهم البرد ، وأفقدتهم الحرب الجهنمية ، الأب الحنون ، والأم الرؤوم ، والأسرة البرة الراعية ، وإن عيد الميلاد ليطالعهم بصبح متجهم .. يفتشون فيه عن اللقمة السائغة فلا يجدونها ، وعن اللعبة المسلية فلا يظفرون بها ، وعن البهجة المشرقة فتنخلع قلوبهم هولا مما يرون ، حتى أناشيدهم المحبوبة أصبحت حراماً على ألسنتهم . .

يقولون إن الانسانية تحضرت بالعلم ، وتهذبت بالفن ، ونضجت بالتجربة . . ولكن أين مظهر هذا وجدواه ، وما زالت الشريعة بين الغالب والمغلوب قائمة ولها ناب الأسد وظفره ، وشراهة النمر وفجوره ، ولكن ليس لها أى قلب . .

إن القسوة الغاشمة لاتربى النفوس أبداً على حب الخير والتسامح ، فحرمان الأطفال من أناشيدهم ، ومتعهم ، لن يربى عواطفهم إلا على الحقد والضغينة ؛ وغداً عند مايبلغ أولئك الأطفال مبلغ الرجال سيكون أول مايفرجون به عن عواطفهم المكبوتة هو الثأر من أولئك الذين حرموا عليهم كل شىء ، حتى الترنم فى العيد بأناشيدهم المحبوبة .

محمد فهمى عبد اللطيف



كتب وشخصيات

تأليف الأستاذ سيد قطب

هذا كتاب فى النقد ، نقد الأدب المعاصر ، جاء فى إبانه ، فقد أصبحت المكتبة العربية الحديثة كما قال المؤلف : (تستحق « ناقدا » ففيها أعمال أدبية ناضجة ، وفيها مذاهب فنية متبلورة كما أن فيها محاولات واتجاهات تستحق الاهتمام ، فالناقد خليق أن يجد له عملا فى هذه الظروف الجديدة ...) (١)

وقد تناول المؤلف بالنقد فى هذا الكتاب « كتباً » فى مختلف أنواع الأدب ، ومعها « شخصيات » مؤلفيها من شتى البلاد العربية ، وحرص على أن تكون هذه الشخصيات « من جميع الأنماط والمستويات والاتجاهات » كما حرص على أن يصور شخصية كل أديب تناول أحد كتبه بالنقد ، « فالكتاب وصاحبه فى هذا الكتاب موصوفان مرسومان مميزان » (١)

لاشك أنك الآن عرفت معنى اسم الكتاب « كتب وشخصيات » وتصورت موضوعه على وجه الإجمال ، ولا أسارع — كما فعل المؤلف فى أكثر كتبه وشخصياته — فأعطيك « مفتاح » شخصية مؤلفنا ، بل أرى أن نجول معا — أولا — فى أنحائه ، ونتعرف سماته وطرائقه على قدر ما تحتمله هذه المجالة.

بدأ الأستاذ سيد قطب بفصول فى النقد العام ، بين فيها أصولا وأسساً نظرية للنقد ، أهمها أو رؤوسها أن حق الناقد فى الحكم على صحة الحالات النفسية والصور الذهنية رهن بالنسبة بين رصيده ورصيد الفنان من الآفاق النفسية ، والتجارب الفنية على السواء .

وأن صعوبة فهم النصوص الأدبية لا ترجع إلى غرابة اللفظ ووعورة التركيب ، إنما « هى صعوبة التصور والإدراك بسبب نقص الرصيد النفسى من التجارب الحسية والذهنية والروحية »

و « أن الطبائع الفنية الممتازة ، والنفوس الفنية الموفورة الرصيد ، أقل عدداً فى هذه الحياة من الطبائع الشائعة المكرورة والنفوس المحدودة التجاريب » .

وأن مادة الفن الأصيلة هى التجارب الانسانية ، ومهمته أن يعرضها ويصف جزئياتها ، ويسجل الانفعالات التى صاحبتها ويصور ما أحاط بها من تصورات وأخيلة ، وأن قيمة العمل الفنى فى الاحتفاظ لهذا التصوير بالحرارة التى صاحبت الانفعال ، وأما من يلقى الحقيقة الأخيرة التى انتهى إليها من تجربته فإن عمله يفقد المتعة الفنية ولا يستثير الحس والخيال بالمشاركة الطويلة المفصلة

وأن التعبير الذى يرسم للمعنى صورة أو ظلا أدنى إلى الفن من التعبير الذى يلقى المعنى مجرداً .

وأن الشعر يستمد معظم مؤثراته وانفعالاته من وراء الوعى « وكلما فاض الشعور فطغى على الوعى ، وانطلق يستمد من الرواسب النفسية ويستوحى الظلال الشعورية ، كان يجرى فى ميدانه الأصيل ، وينشىء أجل آثاره ، وذلك مع عدم إغفال مقومات الشعر الأخرى من عمق وسعة واتصال بالحياة ونفاذ إلى الأسرار الكونية الخالدة » .

وبعد النقد العام بحثان : « النفس الإنسانية فى الشعر العربى » و « والطبيعة فى الشعر العربى » ثم يمضى الأستاذ إلى الكتب والشخصيات على ضوء الأسس العامة السابقة وما يشع من تفصيلات وفروع . وهو يعنى فى معظمها بالشخصيات أكثر من الكتب ، فكثيراً مايبدأ بتسليم « مفتاح الشخصية » دون أن يبين كيف صنع هذا المفتاح . ولعله يرمى بذلك إلى عرض نتيجة دراسته للشخصية فى مختلف آثارها ، ثم يسير مع القارىء فى الكتاب الذى ينقده . وهذا يفسر اهتمامه بالشخصيات أكثر من الكتب ، على أن حظه من التوفيق فى إبراز الشخصية كان أكثر فى الشخصيات التى جال فى أنحائها ودهاليزها وحجراتها قبل أن يعطى « مفتاحها » .

وقد تجلت براعة الأستاذ سيد خاصة فى أكثر الموازنات

(١) من كلام المؤلف فى الفصل الأول .

التى قام بها بين الشخصيات ومؤلفاتها ، كما صنع بين الدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم ، وقد خص الثانى بقسط كبير من عنايته فى تحليله وتبيين سماته وملامحه .

والجانب الذى يوجه إليه الأستاذ سيد أكبر همه فى الأعمال الأدبية ، هو الصور والظلال ، فهو يجسم أهميتها فى فصول النقد العام ، ويتلمسها عند كل أديب ، ويجعلها أكبر « صنجة » فى الميزان ، وله ألمعية نافذة فى الوقوف والدلالة عليها .

وقد أجاد فى تطبيق أسس النقد العام على الأمثلة التى اختارها لولا « شنشنة » ما كنا نود أن يكون « أخزمها » فقد حرص فى كل فصل من الفصول الأولى ، عند ذكر ميزات وقيم الفنون على أن يجرد أو ينقص نصيب الأدب العربى منها : فهذا الأدب يغلب عليه طابع المعانى العامة المتبلورة والقضايا الذهنية الشكلية ، ويطالع القارىء بنتيجة التجربة النفسية لا بطريقتها التى تشغل الحس وتستثير الخيال ؛ وهو فقير فى الصور والظلال ؛ والشعر العربى لا يستطيع أن يقف على قدميه أمام الشعر العالمى فيما يلمح وراء الألفاظ والمعانى من الظلال الإنسانية والحالات النفسية ؛ وأن الطبيعة لم تكن متصلة بإحساس الشعراء العرب اتصال الصداقة والألفة ، فالطبيعة فى الشعر العربى (تستعمل من الظاهر !)

والأستاذ سيد يطلق هذه القذائف فى وجه الأدب العربى ؛ ثم يخلو إلى قطع مختارة من الآداب الغربية والهندية والفارسية ، معظمها من كتاب « عرائس وشياطين » للأستاذ العقاد ، فيمكف على ما فيها من الميزات التى جرد منها الأدب العربى ، ويأتى من الشعر العربى بما يراه مجرداً من اللحم والدم ... وهذا صنيع عجيب لأن القطع غير العربية التى أتى بها مختارة ، والأستاذ سيد لم يطلع على كثير غيرها فى آدابها ، على أن الأستاذ العقاد الذى اختار هذه القطع من معادنها التى هو خبير بها لم يفعل شيئا مما فعله سيد قطب فى استخدامها فى الحملة على الأدب العربى

ولست أرى المجال هنا لإثبات ما نفاه المؤلف عن الأدب العربى ، لأننى هنا بصدد التعريف والنظرات العامة .

وأستطيع الآن أن أقول إن الأستاذ يجاوز ميدانه جاهداً ، فيثير غباراً تقذى به عيون ريثة ...

ولم يكن المؤلف منصفا كل الإنصاف فى الموازنة بين شوقى وعزيز أباظة فى الرواية الشعرية ، ومرد ذلك — فيما ألمح — إلى ما استقر عنده من هوان أمر شوقى فى الشعر ، وقد بدا تحامله على شوقى فى نقد الأبيات الآتية من « مجنون ليلى » :

لم إذن يا هند من قيس ومما قال تبرا

أنعم (مناز) مساء نعمت سعد مساء

أوغل الليل فلنقم

بل رويدا واسمى (ليل) خلى عنى دعنى

يأخذ عليه فى البيت الأول تسكين ميم (لم) وتسهيل الهمزة فى (تبرا) وفى الباقى ترخيم منازل وليلى بجعلهما (مناز) و(ليل) ويعد هذه ضرورات يعيبها عليه ... مع العلم أن تسكين هزة (لم) وتسهيل الهزة كثير جداً فى الشعر ، ولا غبار عليه ... أما ترخيم المنادى فليس من الضرورات ، فهو يكون فى النثر كما يكون فى الشعر ؛ وهذا ، وذاك ، وذلك ، أمور مستساغة ، بل كثيراً ما تستعذب وتستملح .

ومما أخطأه الإنصاف فيه نقده لتيمور إذ يصف فنه بالفتور ، وبأنه يؤثر اللطف والدعة على الانفعال والحيوية . وهو فى هذا يصنع موازين (غير مختومة ...) ويزن بها .

فهذا أديب وديع لطيف يصدر فى أدبه عن ذات نفسه ، فيؤثر فيه اللطف والدعة ، أليس هذا من « الصدق الذاتى » فى الأدب ؟ أولا يكون النتاج معجباً إلا إذا صخب فيه الأديب وعربد ... ؟

وعلى الرغم من كل ذلك فكتاب « كتب وشخصيات » مرحلة من مراحل النقد فى أدبنا الحديث ، فيها نضج كثير ودنو من المثال ، وأسلوب الكتاب هو أسلوب الأستاذ سيد قطب الذى يعرفه القراء دقيق التعبير نابضاً بالحياة ، وسيد قطب هو «الناقد اللازم» الآن للمكتبة العربية ، وعدته فى ذلك «رصيد» ضخم من الطبيعة الفنية ، ونفاذ بارع ، وجد بالغ ، وقدر لا بأس به من التجرد من عوائق مسير النقد فى سبيل الإنصاف ، على أن هذا القدر يعوز الكثيرين ...

عباس حسان خضر

أبو عبيدة بن الجراح

تأليف الأستاذ طه عبد الباقي سرور

كتاب تاريخي لعلم من الأعلام الخفاقة في الإسلام .. الزعيم العتيد أبو عبيدة بن الجراح ، ولا شك أنه شخصية عزيزة على الإسلام أثيرة عند المسلمين كان لها يد ناصعة في رفعة الإسلام وسيف بارق في فتح البلاد التي غزاها ... كان أبو عبيدة رجلا كاملا تجتمع فيه الصفات النبيلة كلها فلا يزهبه هذا بل يزيده تواضعاً إلى ربه وخشوعا .. كان يخاف المديح ويتحاشاه وهو الذي هزأ بالموت وتحداه حتى غلب على أمره . ولم يكن هذا صادراً إلا عن النفسية الإسلامية التي لاتنتظر الجزاء عند الناس بل يمتد أفقها إلى ماهو أعلى من الناس وأرفع . كان يأتي كل خير ونظره وفؤاده إلى الله وحده يرنوان ، فتراه حين يتفشى الطاعون في قومه المحاربين بالقدس يأبى أن يعود إلى المدينة ، ويرسل إليه عمر أمراً بعودته ويشفعه بأن هناك جليلا ينتظره فيعرف قصد عمر ويسر لعاطفة الأمير النبيلة لكنه يخالف الأمر لأول مرة في حياته

وتراه قبل ذلك وهو يستقبل عمر على أبواب القدس ، ويعرف عمر بالمرض المنتشر في المدينة فيفكر في الرجوع فيقوم أبو عبيدة في وجهه صارخاً « أفرار من قدَر الله يا عمر ! فيجيبه الفاروق في تأثر وخشوع : أجل ! فرار من قدر الله إلى قدر الله » ويظل النقاش دائراً حتى يأتي عثمان فيدلى اليهما بحديث عن النبي (ص) فينحسم النقاش ويرجع عمر أدراجه ، ويدخل أبو عبيدة القدس عارفاً بما ينتظره هناك فيتلقاه في رهبة أبي عبيدة وثباته .. ويجزع أن يجد الخير قد كثر والرزق قد انهمر عليه فيوزع ما لديه حتى لا يصبح عنده إلا ما يمنع العوز ويكفي السؤال . وهكذا عاش أبو عبيدة ، وهكذا مات ، يضرب الأمثال حيا وحين يموت فإذا هي خالدة تشرئب لذكرها أعناق المسلمين وترتفع بها هاماتهم مفاخرة مدلة بقواد الإسلام وأعلامه .

ولا يسعنا إلا أن نشكر للأستاذ طه سرور مجهوده القيم ، ولكن يبدو أن المصادر كانت قليلة بين يديه فدعاه ذلك إلى الكتابة بأسلوب إنشائي بعض الشيء سبك به القصص التي رواها ولكنه لم يرو عن تاريخ حياته ما يروي غلة القارىء ، وهذا شيء كنا أحوج اليه من الأقاصيص ... كما أن الأستاذ طه عمد إلى الإنشاء أيضا في التحليل الذي كان يستخلصه من الأقصوصة ، وهذا شيء نأخذه عليه ؛ لأن التحليل في القصص إنما يكون لرسم الخطوط الرئيسية في الشخصية حتى تخرج من آخر كل أقصوصة بخط جديد ، وهذا لايحتاج إلى الإنشاء بل إلى التغلغل في الناحية النفسية التي تبرزها تلك الأقصوصة .

وليس معنى هذا أننا نبخس المؤلف حقه ، إنما نطالبه بما كنا نأمل . وعسى أن تحقق آمالنا في البحث الآتي إن شاء الله .

ثروت أباظة

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

نظام حجز المقاعد مقدما بعربات الدرجة الأولى الفاخرة المجهزة بجهاز تكييف الهواء

يتشرف المدير العام باعلان الجمهور أنه ابتداء من يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ولحين صدور إعلان آخر تقرر إضافة عربة درجة أولى فاخرة مجهزة بجهاز تكييف الهواء على القطارين الآتيين :

١ — قطار رقم ٨٠ الذى يبرح القاهرة فى الساعة ٨٫٠٠ أيام الآحاد والثلاثاء والخميس من كل أسبوع إلى الأقصر .

٢ — قطار رقم ٨٣ الذى يبرح الأقصر فى الساعة ٥٫٣٠ أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من كل أسبوع إلى القاهرة .

وتسهيلا لركاب الدرجة الأولى المسافرين بهذين القطارين الذين يرغبون فى حجز مقاعد لهم مقدماً فى هذه العربات يتبع الآتى : —

أولاً — تقدم طلبات حجز المقاعد إلى ناظر محطة القيام (مصر أو الأقصر) فى أى وقت ما بين الساعة ٨٫٠٠ والساعة ١٨٫٠٠ بشرط أن يكون ذلك قبل قيام القطار المطلوب بثلاث ساعات على الأقل .

ثانياً — يحصل رسم إضافى قدره ٣٠٠ مليم عن كل مقعد محجوز ولا يرد هذا المبلغ بأى حال من الأحوال حتى ولو تخلف الراكب عن السفر من قطار إلى آخر أو عدل عن السفر .

ثالثاً — يعطى للراكب إيصال موضحاً به جهة القيام والوصول واسم الراكب ورقم المقعد والعربة والقطار ووقت وتاريخ القيام

رابعاً — لا يجوز حجز مقاعد للأطفال الذين يسافرون مجاناً (الذين لا تزيد سنهم عن أربع سنوات) والمصحوبين بغيرهم من الركاب

خامساً — يمكن حجز مقاعد بالمحطات المتوسطة التى يقف بها هذان القطاران شرطاً أن تقدم الطلبات لناظر المحطة فى مدة لا تقل عن ست ساعات قبل ميعاد قيام القطار من محطتى مصر أو الأقصر فإذا وجدت محلات خالية فيتحصل الرسم الاضافى المقرر ٣٠٠ مليم .

سادساً — إذا لم يطالب الركاب بمقعده المحجوز قبل وصول القطار إلى أول محطة مقرر وقوفه بها يمكن إشغال المقعد براكب آخر بالقطار بعد تحصيل الرسم الاضافى المقرر بمعرفة الكمسارى .

سابعاً — يجب على طالبى حجز المقاعد أن يكون معهم تذاكر سفر درجة أولى قانونية .

مطبعة الرسالة

العدد ٧٠٤ — الاثنين ٣٠ ديسمبر ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

الرسالة والرواية

فهرس العدد

صفحة

٢٧ . ٥٣

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

14 me Année No. 704

Lundi — 30 — 12 — 1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـدد ٧٠٤ « القاهرة في يوم الإثنين ٦ صفر سنة ١٣٦٦ — ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

مَنِ اسْتَرعَى الذئب ظَلَم

للأستاذ محمود محمد شاكر

في سنة ١٩٢٧ عرفت رجلاً إنجليزياً ، فنشأت بيني وبينه مودّة ، وكان رجلاً حريصاً على أن يعرف أشياء كثيرة على وجهها الصحيح ، وكان صادق اللسان فيما يبدو لي منه ، وإن كنت قَلِقَ الشكّ في صدق اللسان الإنجليزي ! وكانَ لطيف العشر طلق المحيَّا ، فيه دُعابة رقيقة لا تبلغُ العُنفَ ولا يتجاوز بها حدّها . وبقينا معاً سنة كاملة ؛ فكان كأكل الناس أدباً ، وأزكنهم عقلاً وأبعدهم عن الملاحاة والمغاضبة وسوء العشرة . وكان إذا تقصَّى منّي أمراً أخلصتُه القول ، فقد ظننتُ أني جرَّبْتُه وعرفته ونفذت في طوايا ضميره . وكان هو يحدّثني فلا أشكُّ أبداً أنه كسائر أهل جلدته ، بل كان خَلقاً غير الخلق منهم ، فهو يقول ويعني ما يقول ، وليس كأمثالهم يتسلّل من إهاب ليدخلَ في إهاب . ولم أزل أطمئنُّ إليه وإلى حديثه وإلى بثّـه ما في نفسي ونفس بلادي مِنْ شئون ، فكان لا يتردّدُ في إعطاء الحق لمن له الحقّ ، ولا يرضَى أن يكونَ ظالماً ولا متعنّتاً ولا مدافعاً بالعصبية أو الكبرياء أو المراءِ .

وفي سنة ١٩٢٨ جاءت امرأتـه من بلادها ودعاني مرّات فما لبثتُ أن رأيتُ هذا الرقيق الوديع المنصِف ينقلبُ خشناً جريئاً على الباطل جائراً في الحكومة ، متعنّتا فيما كان بالأمسِ يعطي النَّصفةَ فيه ، وإذا هو شديد اللَّدَد تيَّاه الخصومةِ ، وإذا هو ينسلخُ من إهاب ليدخلَ في إهابٍ كفعل سائر قومه ، فكانَ ذلكَ آخر عهدي به ، وكان من عاقبته أني كرهتُ هذه الإنجليزية العجيبة التي يقال فيها ما قال الشاعر : « كالعُرّ يكمُنُ حيناً ثم ينتشرُ » . فإنّ مجيء امرأته أعداهُ كما يُعْدِي الجَرَبُ ، فثار ما كمن فيه منه ثم استَشْرى ، فإذا هو وافِدُ قوم ٍ هُم ما هُم .

وفي هذه السنة التي انتفض عليه فيها عُرُ قومه ، جلسنا يوماً نتحدّث فجرى الحديث إلى ذكر السودان ، فقال لي إن قضية مصر في مسألة السودان ليست إلا دعْوَى لا خيرفيها ، فإن هذا النِّيل الذي تزعمون أنه ربط بين مصر والسودان رباطاً لا انفصام له لاينفعكم في إقرار الحجة لدعواكم أن مصر والسودان أمّة واحدة أو ينبغي أن تكون أمة واحدة . وقال : أرأيت إلى نهر الدَّانوب ، كيف يجوزُ في العقول أن يَدَّعي مُدَّعٍ ممن يعيش على مدّه أنه يُوجِب توحيد الأمم التي عليه لتكون أمة واحدة ؟ أو ليسَ إذا قام شعبٌ من شعوب الدانوب فادّعى بمثل ما تدّعون ، فإن الواقع كله يبطل حُجّته ، والعقل يوجب أنْ يشكَّ المرء في صحة إدراك هذا الشعب ؟ فهذه هذه ، فليس ينفعُ قضيّـة مصر أن تدّعي أن النيل ينفكما هو الرباط الذي

يوجب أن تصير مصر والسودان أمة واحدة . والعجب العجاب عندي أن حديث السودان كان قد جرى بيننا قبل أن يمسه عرق قومه ، فلم يقتصر يومئذ على أن يسكت ؛ بل كان قد وافقني على ما ذكرت له من حجة مصر في قضية السودان ، فإذا هو قد نسي كل هذا بعد أن ارتد إلى سنخه وطبيعته ... وهكذا الإنجليز .

ومضى الزمن ، وإذا بنا نسمع إحدى الببغاوات التي سلبت العقل وكسيت الريش الجميل ، تردد هذا القول المدخول الفاسد من جميع نواحيه . ولو كان قائله إنجليزياً لهان الأمر ، وهو هين على كل حال ، ولكنه مع أشد الأسف سوداني بالمولد والإهاب ، أما قلبه فقد بيع بالمزاد فوقع في قبضة الرجل الذي رفعته إنجلترا بين عشية وضحاها من وهدة البؤس والحرمان ، وكان فيهما رجلاً فاضلاً ، إلى ذروة الغنى والجاه ، فأصبح بعدها جانحاً إلى النقصان ساعة بعد ساعة .

زعمت الببغاء أن ليس في الدنيا شيء يقال له وحدة وادي النيل ، كما أنه ليس في الدنيا شيء يقال له وحدة نهر الدانوب ، وأن الذي يبطل هذه يبطل تلك في مقام الاحتجاج ، ويخرج من هذا إلى أن السودان ينبغي أن يكون أمة وحده ، وأن مصر أو أثرياء مصر ! « ينصبون فخاخاً تخفى أغراضهم الحقيقية ببراعة بالغة خلف الثوب اللامع من الدين واللغة والتاريخ ، وهو الثوب الذي اصطنعوه بأيديهم » . هكذا قالت الببغاء التي يزعمون أنها رئيس تحرير جريدة النيل وعضو في وفد حزب الأمة في لندن لهذا التاريخ !

فهذه الببغاء تجمع إلى نقيصة الترديد والتقليد نقائص كل واحدة منها شر من الأخرى هي الجهل بمعنى ما يقول ، والكذب على أهل السودان ، والجرأة في التهجم على الناس بما ليس يعلم ، والتدليس في التاريخ ، والعبث بمصير أمته المصرية السودانية ، ونشرهن جميعاً ما يلوح في خبيء كلامه من العداوة البغيضة التي يؤرثها هو والمستأجرون من أمثاله بين مصر والسودان .

وقصة هذا الدانوب الذي يحتج به ذلك الإنجليزي ثم احتجت به الببغاء الملقنة ، قصة فاسدة المبنى والمعنى ، والإغماض في الاحتجاج بها دال على ضيق التصور وقلة العقل وجثوم الجهل في جمجمة قائلها . فهذا النهر ينحدر من منبعه في بادن مخترقاً ألمانيا ثم النمسا ثم هنغاريا ثم يوغوسلافيا ثم بلغاريا ثم رومانيا حيث ينتهي إلى مصبه في البحر الأسود ، فهو مشترك بين ست دول كل واحدة منها لها خصائصها ، حتى يبلغ التباين بينها مبلغاً ليس بعده شيء ، في الألسنة والعادات والآداب والتاريخ وأسباب الحياة كلها تقريباً . هذه واحدة .

أما الثانية فهذا النهر واقع في قلب أوربة ، وهذه الدول كلها قائمة على حفافيه متاخمة لدول أخرى تحيط بها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، فهو ليس نهراً في صحراء جرداء كما ترى في نهر النيل الذي يحده من الشرق صحراء ، ومن الغرب صحراء ، ومن الشمال بحر ينتهي إليه مصبه ، وفيه دلتا مصر .

وأما الثالثة ، فهو أنه ليس نهراً تقوم على جوانبه الزراعة في خط ضيق في بلد واحد كالذي تراه في نيل مصر والسودان ، بل لعل أكبر فوائده هي النقل لا الزراعة وحدها .

وأما الرابعة فهي أن هذا النهر يمر في دول ست قوام حياتها الصناعة لا الزراعة وحدها . أما نهر النيل فالزراعة هي قوام حياة أهله وسبب أرزاقهم ، والذي فيه من مادة الخصب يوجب أن يكون نهراً للزراعة واستصلاح الأرضين البور التي تحف به من شرق وغرب .

وأما الخامسة فهي أن إقامة السدود على نهر الدانوب لا يمكن أن يراد بها إلحاق ضرر بالأرضين التي تقع على منحدره ، فإذا أراد ذلك مريد وعزم على أن يضر بلداً بمنع ماء الدانوب عنه فقد وقعت الواقعة بين ست دول كلها متأهب للحرب في سبيل رد هذا البغي . فهو كما ترى أمر مستحيل بطبيعته .

وهناك قول كثير ولكن حسبنا هذا لمن يريد أن يفهم فهماً ، لا أن يردد الأقوال ترديد الببغاوات التي تباع وتشترى للأغراض الخبيثة التي تريدها إنجلترا بهذه البلاد المسكينة . فهذه المقابلة السخيفة بين مسألة الدانوب ومسألة النيل لا تدل على شيء إلا على جهل الناطق المرددها ، ولا

تقوم حُجة إلا على خُبث النيات التى أخذت تندس لتفرق أوصال هذا الوادى وتزايل بين روابطه التى لن تنفصم ، باذن الله .

ونحن نحمد الله على أن الأحرارَ أهلَ السودان ليس لهم رأى أن يقطعوا أرحامَهم ، ويُخربوا بيوتهم بأيديهم ، ويمزّقوا هذه الوشائج الممتدّة من أقصى عُهود التاريخ إلى يومنا هذا . فنحن نسوق الحديث إلى هذه الببغاوات التى تنتسب إلى الشعب الأبىّ الحرّ لعلها تفىء إلى الحقّ ، وإلى الذين يهادنون فى الحق الأبلج مخافة أن يقالَ إن مصر تريد أن تبسط سلطانها على السُودان فى زمن تنادى فيه الأمم بالحق الأبلج أيضاً فى تقرير المصير . ولولا أن هذا كله تدليس خفىّ يرادُ أن تروّعَ به القلوبُ ، ثم يتغلغلَ خُفية إلى معانٍ بعيدة يُراد بها قتل السودانِ ومصر جميعاً ، لكان الردّ عليه هو إهماله وازدراؤه .

إن هذا النيل الجارى بين الصحراء الشرقية والصحراء الغربية من أقصى الجنوب إلى أدنى الشمالِ يُوجب أن يكون أمةً واحدةً ، فليس مثله كمثل الدانوب . فإنه إذا قدّر للسودان أن يكونَ وحده مستقلاً ، وهذا أبعد البعيد ، أو تحت سلطان انجلترا ، وهو الشىء الحادث والذى يُراد الإيغال فى إقراره بفصله فصلاً تاماً عن مصر ، فإن الخطر الداهم والداهية المصبوبة تكون على مصر جائحة حاضرةً فى كل أوانٍ ، فإن أسهل السّهل أن تُضارّنا إنجلترا فى ماء النيل ، وأن تمنع عنا رِفده متى شاءت وتتخذه سلاحاً مخوفاً مفزعاً وحشياً للتهديد والإرهاب بقطع مادّة الحياة فى مصر بل فى الشرق الأوسط كله ، فإن قحط مصر هو قحط الشرق الأوسط ، بل قحط جُزء عظيم من حوض البحر الأبيض المتوسط . فإذا كان ذلك فبمن نستنجد ؟ ومن أين نؤمّل النُصرة ؟ برمال الصحراء الشرقية وسوافى الصحراء الغربية ! ! إنه إذا كان مثل ذلك فى أى مكانٍ من الدانوب لهبّت أممٌ بأسرها — أم صناعية — تدفع البَغى دفعاً رادعاً رادّاً للحق مانعاً لاستمرار هذا البغى . أما مصر ، ناذا تصنع أيها المأجورون للدسيسة الإنجليزية ! أتدافع برجالٍ هدّهم الجوعُ والظمأ والوباء ؟ تعست الحماقة !

ولو كانت إنجلترا هى الأمة التى تسكن هذا الجزء من وادى النيل المسمى باسم مصر ، لما تردّدت ساعة واحدة من أجل هذا وحده أن تقتحم السودان فتحاً وتنهبه انتهاباً ، وتحتج لفعلاتها فيه بكل حجةٍ ، لأن النيل حياة إذا جاء بمده ، وموت إذا أمسك سَيبه . وهذه إنجلترا نفسُها ليس لها حُجة فى البقاء الذى تريده فى الشرق الأوسط وفى قناة السويسِ وفى نواح أخرى كثيرة ، إلا أنها إذا خُلّيتْ جلبت على الإمبراطورية كل شرّ ، وقطعت شُريان الحياة الذى يمدّها بالطعامِ والمال والقوة والسلطان . أفيجوز فى العقل أن تحتج إنجلترا بذلك فى سبيل أن تبقى عند قناة السويس وفى فلسطين ، ولا نحتجُ نحنُ بأضرارٍ محققةٍ إذا كان فى السودان إنسانٌ واحدٌ فى يده قدرةٌ على الإضرار بمصر إضراراً يصيب أبدان أهلها وأرواحهم ، ثم أبدان ملايين أخر من أهل الأمم التى تجاورنا ونستمين بها وتستمين بنا .

ونحن لا نقول هذا ولا نسوق الحجة على هذا الوجه لندعى — كما يُراد لنا اليومَ أن ندّعى — أنّ لمصر حقاً فى استعمار السودان أو احتلاله أو الوصاية عليه أو غير ذلك من الأباطيل المضللة ، بل لنقول إنّ هذا وحده يوجبُ عقلاً أن يكون وادى النيل كلّه دولةً واحدة ، لها حكومةٌ واحدة ، وتشريع واحدٌ ، ونظامٌ نيابى واحدٌ ، شأنُ السودان فيها كشأن أسوان ، وقنا وجرجا ومديريات مصر كلها ، فإن موقع أية مديرية من هذه المديريات كلها هو من الناحية الجغرافية كموقع السودان ؛ فلو جاز أن يُفصل السودان اليوم عن مِصر بحجة ، فهذه الحجة تنطبق كل الانطباق على أسوان ثم قنا ثم جرجا إلى أن تبتلع النيل كله . وأيضا فإن مكان السودان كمكانها من الناحية التاريخية والأدبية والأخلاقية والدينية . وإذن فالنيل يحدث بلسانٍ لا يكذبُ بأنه لا يمكن أن يتجزّأ إلا إذا جاز التجزؤ على هذه المديريات حتى تُصبح كلّ واحدة دولة قائمة برأسها . والشعب الذى يسكن أسفل الوادى (المعروف باسم مصر) ، والشعب الآخر الذى يسكنُ أعلاه :(المعروف باسم السودان) ،

شعبٌ واحدٌ ناطقٌ بلسان عربيٍّ مبين لا يعرف نفاق اللسان الإنجليزى ولا تكاذُبه وخداعَه، بأنّه أيضاً لا يستطيع أن يتجزأ، ولا هو قابل للتجزّؤ.

ولقد استزلّ الشيطانُ بعض ساستنا؛ فأخذوا يقولون إنّ مصر لا تريد أن تستعمر السودان، بل تريد أن تمنحه الاستقلال الذاتى! خلاً حلاً أيها الرجال، فإن هذا ما يريده الإنجليز، إنهم يريدون أن تقرُّوا بألسنتكم ما الحق شاهدٌ على بُطلانه، وهو أن الشعب المصرىّ شىء، والشعب السودانى شىءٌ آخر؛ ويريدون أن تقولوا إن النيل ممكنٌ أن يتجزّأ، ولو بعضَ التجزّؤ، فإن هذا حسبهم منكم اعترافاً وتقريراً.

فتوبوا أيها الساسة من هذا الإثم، ولا يُرهبكم حقُّ تقرير المصير، ولا مجلس الأمن، ولا هيئة الأمم المتحدة، فإن هذه الرهبة باطلٌ كلُّها. توبوا أيها السّاسة، ولا تخافوا من أكذوبة الدانوب، فهو النهر الوحيد الذى تتعدَّدُ الدُول على حفافيه، وهو نهر ليس له قيمة زراعيـة. واعلموا أنه لا يكاد يوجد فى الدنيا كلها نهرٌ زراعىٌّ وَاقِعٌ مجراه فى أكثر من أمةٍ واحدةٍ، وهذه الأمة الواحدة يكون لها كل السلطان عليه من منبعه إلى مصبّه. لا تخافوا أيها الساسة

وتوبوا وتبرأوا مما قلتم، وخيرٌ لكم أن تدرسوا طبيعة النيل والأضرار المخوفة من تمزيقه، وأن تعرفوا ماذا تريدُ إنجلترا بفصل السودان عن مصر وضمّه إلى الجزء المفضى إلى جنوب إفريقية والجنرال سمطس، فهناك البلاء الأعظم.

أيها المصريون السودانيون: إن النيل هو إفريقية كلُّها، فاحذروا أن تضيعوا أوطانكم، وتُذلوا بأمجادكم، وتضعوا أعناقكم فى نير العبودية السرمدية إذا احتوشتكُمْ العناصر الغريبة عن إفريقية النائمة التى بدأت تستيقظ من غفوة طالت عليها الآباد. احذروا كذب البغاة الطغاة المفسدين فى الأرض، واحذروا ببغاواتهم وصنعاءهم فإنهم الحارقة الآكلة إذا استمكنوا منكم وأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ويَسُومونكم ذُلاً مستوراً ببهرج الاستقلال وتقرير المصير. لا تخافوا مجلس الأمن ولا هيئة الأمم إذا قدمتم إليهم قضيَّة فيها كلّ دليل لا يبطله شىء من تاريخ ولا عقل ولا مصلحة.

وأنتم يا أخواننا وأهلنا وعشيرتنا فى السودان احذروا الدولة التى تريد استقلالكم، وتريد أن ترعاه لكم، كما رعت غيره من قبل!! فإن «من استرعى الذئبَ ظَلَم»!

محمود محمد شاكر

فى محطة القـــاهرة

للأســـتاذ على الطنطاوى

دخل (المحطة) فى اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٩٢٨ وخرج من (المحطة) فى اليوم التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٩٤٦ دخل من باب، وخرج من باب، وكانت المحطة كأنها النسخة المختصرة من كتاب الدنيا، وكأنها الصورة المصغرة لها: كل يركض إلى غايته، ويزحم بكتفه، ويدفع بيده، ويعتدى ويُعتدى عليه، والحمالون ينهبون أموال الناس ما استطاعوا، والناس يتقونه ما قدروا، والقطُر تصفّر وتزمجر وتملأ الجو دخاناً وشراراً، وتسرع لتفرق أحباباً، وتجمع أحباباً، وتريق دموعاً وتضحك أفواهاً، وكأن صفيرها لحن الوصال العـذب لناس، ونواح الفراق الأليم لآخرين، وكان الباب يفتح أبداً ويغلق، والناس يدخلون ويخرجون، لا يلتفت أحد إلى أحد، ولا يسأل سائل أخاه عن آلامه ولا عن آماله، فهو يستمتع بمسراته وحده ويتجرع أحزانه بلا معين ...

والمحطة كالدنيا تسعد وتشقى، وما تسعد المرء ولا تشقيه إلا نفسه وذكرياته. هذا يحبها لأنه دخلها فى مسرة، واستقبل فيها الحبيب، فهو يذكر كلما مرّ بها، أو سمع صفير قطُرها، تلك الساعة التى كانت عنده العمر، ساعة جاءه البشير بقدوم حبيبه فذهب إليها يكاد يطير من الشوق، وقام ينتظر القطار لا يستطيع أن يستقر فى مكان، واستبطأ الوقت فهـو يخرج ساعته كل دقيقة، يحسب الدقيقة من الانتظار دهراً، فيراها لا تتحرك عقاربها، حتى إذا صفر القطار وهدر خفق له قلبه، وغلى فى عروقه دمه، فركض إليه، فلما أبصره رأى سواده نوراً مشرقاً لأنه يحمل الحبيب، وناره المتقدة برداً على قلبه وسلاماً، ودخانه أرق من النسيم العليل؛ ورآه بثقله أخف من الطيف السارى وأقبل يزاحم الناس، يطأ بقدمه حيث لا يدرى لأن بصره

معلق بالنوافذ ينظر الوجوه فلا يحفل بهـا ويبصرها كالسرج المطفأة ، لأنه يريد وجهاً واحداً يراه مضيئاً بالسناء ، حتى إذا وصل إليه وصل إلى السعادة ... فهو يذكرها كما رأى المحطة .

وهذه تكرهها لأنها عرفت الشقاء فيها ، وذاقت غصة الحياة بين جدرانها ، فقد كانت سعيدة حتى حل الوداع ، ودنا السفر ، وصحبته إلى المحطة ، فوقفت معه ، ثم سايرته إلى رصيف القطار ، فصعدت معه إليه ، وقعدت تكلمه كما كانت تكلمه كل يوم ، تتحدث بتوافه الأمور ، ولو علمت أن هـذا آخر لقاء ما كان ذاك حديثها ؛ ثم صفر القطار فشدت على يده وعانقته عناقاً خفيفاً على استحياء من الناس ونزلت ، فوقفت تنظر إليه وهو في شباكه ، والقطار يبتعد .. ولكنها لا تزال تعيش بقربه لم تذق بعـد طعم الهجر ولم تعرفه ، حتى إذا اختفى عن ناظريها ورأت نفسها منفردة ، صحت كما يصحو النائم من الحلم الممتع ليس فى يده شىء منـه ، وتبدلت حياتها السعيدة بالوصال شقاء وألماً ، وانطفأ النور الذى كان يهديها السبيل ، وكانت المحطة هى خاتمة سعادتها ، وهى فاتحة شقائها ، فهى تحج إليها كل يوم ، تقوم حيث قام الحبيب آخر مرة ، وتشم عبقه وتتحسس موطئ أقدامه وتبحث عنه حيث تركته فى شباك القطار ، وتذكر كل حركة من حركاته ، وكلمة من كلماته ، حتى صار ذلك مدار أفكارها ، وعماد حياتها ، ولكنها كانت تكره المحطة ، لأنها هى سبب الفراق ...

وما فى الدنيا مكان تسفر فيه محجبات العواطف ، وتبرز مكنونات الضمائر كالمحطة ، وما فى الأمكنة ماهو أحفل بالذكريات منها ، ففى كل إصبع منها ذكرى عزيزة على قلب ، وقطعة من حياة إنسان .

هنالك تبصر المختلف من ألوان الحياة قد ائتلف فى هـذه الصورة المعروضة ، والشتيت قد اجتمع ، وهنالك أمام الحاجز الحديدى ذى الأبواب المؤدية إلى الأرصفة ، لا يفصل باباً عن باب ، ورصيفاً عن رصيف إلا جدار ... ترى جموع الناس فى مدّ وجزر ، كما تضرب أمواج البحر صخرة الشاطئ ، يدخل الرجل من الباب فيصل منه إلى البلد الطيب ، ويدخل الآخر من الباب إلى جنبه فيحمله إلى القرية المقفرة ، وهـذا الرصيف فيه لقاء الأحبة ، وهذا فيه الهجر والبعاد ، وكذلك الحظوظ فى الحياة تتقارب بداياتها وتتباعد نهاياتها :

يتردد الطالب إذ يخرج من المدرسة بين طريقين لا يفصل بينهما إلا القليل ، ولـكن هذا يمشى إلى الجنة وهذا إلى النار ، ويتردد التاجر بين أن يشترى البضاعة أو يدعها ، وما يتردد إلا بين الخسران والضياع والربح واليسار ...

* * *

دخل من باب وخرج من باب ، ولـكن المحطة لم تنظر إليه. فقد رأت من الناس وشاهدت من الأحداث ، وأبصرت من القبل والدموع ، ومن المسرات والأحزان ، ما جعلها تملّ ، فأغمضت عينيها ؛ وتركت هذا السيل البشرى يجرى على هواه يحمل معه ما شاء من لذاته وآلامه ، ونامت .

دخل شابا فى العشرين متوقدا حماسة ، يفور دمه ويتوثب يريد أن يبلغ الذروة بقفزة واحدة ، وخرج شيخا فى سن الشباب لا يفور دمه ولا يتوثب ، ولا يريد أن يبلغ الذروة ولا يفـكر فيها . لا يفـكر إلا فى شىء واحد هو أن يرى نفسه نائما على صفحة النسيم ، مرخى الأعصاب ، مغمض العينين ، لا يصنع شيئا ، ولا يعمل فـكره فى شىء حتى ... حتى يبلغ ساحل الموت .

دخل يحب الشهرة ويطمع فيها ، يريد أن يعرف الناس ويعرفوه ، وخرج زاهدا فى الشهرة ، خائفا من تـكاليفها ، يفزع من لقاء الناس لا يريد أن يعرف أحدا ولا يعرفه أحد .

دخل المحطة يستقبل الشام ، يدفعه الشوق إليها ، والغرام بها ، يستقبلها ببسمة تبدو من خـلال دموع الفرح ، كما تبدو شمس نيسان من خلال الغمام ، وترك من أجلها مقعده فى دار العـلوم ، ومستقبله فى مصر وخرج هاربا من دمشق يريد أن يبتعد عنها حتى لا يأسى على ما يرى فيها ، وما يكاد يرى فيها إلا ما يبعث الأسى ...

كان طالبا فى المدرسة همه الارتقاء من فصل إلى آخر ، وغايته الامتحان يريد النجاح فيه ، فصـار موظفا لم تعد له غاية يسعى إليها ، ولا هم يفـكر فيه فتشابهت أيامه ، وتماثلت لياليه ، وخلت من كل جديد ، يصبح خاملا متـكاسلا لأنه لا يرقب فى نهـاره شيئا ، ويمسى متـكاسلا خاملا لأنه لا ينتظر فى ليله شيئا ، ولم يعد يجد ما يعمله إلا أن يشغل نفسه ساعة كل أسبوع بالـكتابة للرسالة .

لقد كان إنسانا يحس ويشعر ، وكان له عقل يفكر ويدرس ، وقلب يحب ويصبو ، فعوّدته بالوظيفـة التـكسل ، وسهلت له

على هامش النقد :

القاهرة الجديدة

تأليف الأستاذ نجيب محفوظ

للأستاذ سيد قطب

من دلائل « غفلة النقد فى مصر » التى تحدثت عنها فى كلة سابقة ، أن تمر هذه الرواية القصصية « القاهرة الجديدة » دون أن تثير ضجة أدبية أو ضجة اجتماعية !.

ألأن كاتبها مؤلف شاب ؟ لقد كان « توفيق الحكيم » قبل خمسة عشر عاما مؤلفا شابا عندما أصدر أولى رواياته التمثيلية « أهل الكهف » فتلقاها الدكتور طه حسين ، وأثار حولها فرقعة هائلة . كانت هى مولد « توفيق الحكيم » الأدبى . ولم يمنع كونه فى ذلك الحين شابا من إثارة ضجة حوله ، أبرزت أدبه للناس فانتفعوا به ، كما انتفع هو نفسه لأنه وجد الطريق بعدها مفتوحاً أمامه للنشر والشهرة .

و « القاهرة الجديدة » شأنها شأن « خان الخليلى » للمؤلف نفسه لاتقل أهمية فى عالم الرواية القصصية فى الأدب العربى عن شأن « أهل الكهف » و « شهر زاد » لتوفيق الحكيم فى عالم الرواية التمثيلية .

فماذا حدث ؟

هل صحيح أن الملابسات الشخصية كانت أهم العوامل التى جعلت الدكتور يكشف عما فى « توفيق الحكيم » حينذاك من ذخيرة فنية ... ذلك أن ألقى توفيق بنفسه وبأدبه المغمور إذ ذاك فى أحضان الدكتور قائلا : إنه يضع نفسه وفنه ومستقبله بين يدى « عميد الأدب » وأن نجيب محفوظ وأمثاله من شبان هذه الأيام لايضعون أنفسهم ولا فنهم بين يدى أحد إلا جمهور القراء

أنا شخصياً لا أميل إلى قبول هذا الافتراض ؛ ولكنى أقدر أسبابا أخرى طبيعية :

فقبل خمسة عشر عاماً كانت « أهل الكهف » شيئاً فذا يلفت النظر بقوة . كان توفيق الحكيم يخطو خطوة واسعة جداً بالقياس إلى كل من سبقه فى التمثيلية العربية . حقيقة إنه لم يكن يفتح فصلا جديداً فى كتاب الأدب العربى ، كما قال الدكتور طه حينذاك . فهذا الفصل كان مفتوحاً فى الناحية الشكلية . إنما كان الجديد الذى له قيمة فنية حقيقية فى عمل توفيق الحكيم ، هو الانتفاع بالأساطير فى عمل فنى له قيمة أدبية . مع التقدم الواضح فى طريقة الحوار وسبكه وجريانه .

أما اليوم فعمل من نوع « خان الخليلى » و « القاهرة الجديدة » يبدو وليس فيه من البريق مايلفت النظر . فكثيرون كتبوا روايات قصصية ، وروايات تمثيلية ، وأقاصيص ... الخ .

ولكن كان على النقد اليقظ — لولا غفلة النقد فى مصر — أن يكشف أن أعمال « نجيب محفوظ » هى نقطة البدء الحقيقية فى إبداع رواية قصصية عربية أصيلة . فلأول مرة يبدو الطعم المحلى والعطر القومى فى عمل فنى له صفة إنسانية ؛ فى الوقت الذى

العيش ، حتى خلا رأسه من الفكر ، وقلبه من الحب ، ويده من الشغل ، وصار آلة (تعدد أياماً وتقبض راتباً) ، ولكنها لا تستبقى من هذا الراتب شيئاً ، فالكيس أيضاً خال من المال .

إنه لا يشكو الفقر ولا المرض ولا التعب ، ولكنه يشكو البطالة ، وأن قواه معطلة ، وأن عقله صدىء ، وأنه كالجواد الأصيل المصفد بالأغلال الذى لا يستطيع أن يتحرك .

هذا هو الرجل الذى خرج من المحطة يوم الخميس الماضى . إنه مدين بحياته للرسالة ؛ لا لأنها تنشر له وتذيع اسمه ، كلا ، فهذا أمر لم يعد له عنده نفع ، بل لأنها هى التى تشعره بأنه حى ، هى التى تجعل له كل أسبوع جديداً يرقبه ويعيش له . إن الأيام عنده السبت والأحد ويوم الرسالة . فاذا انقطع عنها أسبوعاً ، محى من عمره هذا اليوم الذى يجمل الأيام ونسى أنه يحيا كما يحيا الناس ، ويأمل فى الحياة أملا .

لقد خرج من باب المحطة إلى البلد الواسع ، ولكنه مايدرى ما يجد فيه ، فالضيق فى النفس لا فى البلد وأعظم المدن للقلب المغلق سجن ، والسجن للقلب المتفتح جنة فيحاء ...

اللهم اشرح قلبه ، وصب فيه الحياة ، حتى يجد القراء فى قلبه أدباً حياً .. فانه لا يخرج الأدب الحى قلم ميت ، يمده قلب مغلق ...

القاهرة — علي الطنطاوي

لا يهبط مستواه الفنى عن المتوسط من الناحية الفنية المطلقة . فهو من هذه الناحية الأخيرة يساوى أعمال توفيق الحكيم فى التمثيلية .

أم إنه لابد لنجيب محفوظ وأمثاله أن يلقوا بأنفسهم فى أحضان أحد ، ليقدمهم إلى الناس ؟ .

لقد فات الوقت الذى كانت هذه هى الوسيلة الوحيدة للظهور ، والجمهور لم يعد ينتظر هؤلاء الشيوخ ليقرأ ويحكم . فعلى هؤلاء الشيوخ أن يؤدوا واجبهم إذا شاءوا أن تظل الأنظار معلقة بهم كما كانت الحال ! .

القاهرة الجديدة ...

هى قصة المجتمع المصرى الحديث ، وما يضطرب فى كيانه من عوامل ، وما يصطدم فى أعماقه من اتجاهات .

قصة الصراع بين الروح والمادة ، بين العقائد الدينية والخلقية والاجتماعية والعلمية ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين الغنى والفقر ، بين الحب والمال ... فى مضمار الحياة .

وهى تبدأ فى نقطة الارتكاز فى الجامعة ، حيث تصطرع الأفكار الناشئة هناك بين طلابها — بفرض أن الجامعة ستكون هى « حقل التجارب والإكثار » للأفكار النظرية التى تسيِّر الجيل ... ثم تدفع بشتى الأفكار والنظريات النابتة فى هذا الحقل ، إلى مضمار الحياة الواقعية ، وغمار الحياة اليومية ، وتصور صراع النظريات مع الواقع خطوة خطوة ، تصوره انفعالات نفسية فى نفوس إنسانية ، وحوادث ووقائع وتيارات فى خضم الحياة .

وصفحة فصفحة نجدنا فى صميم الحياة المصرية اليومية . هذه الأفكار المجردة نعرفها ، وهذه الوجوه شهدناها من قبل ؛ وهذه الحوادث ليست غريبة علينا . نعم فيها شىء من القسوة السوداء فى بعض المواقف، ولكنها فى عمومها أليفة. تؤلمنا ولا ننكرها ، وتؤذينا أحيانا ، ولكننا نتقبلها !

هذا هو الصدق الفنى . فنحن نعيش فى الرواية لحظة لحظة . نعيش مصريين ، ونعيش آدميين ، وفى المواقف القاسية ، فى مواقف الفضيحة ، حيث تبدو الرذيلة كالحة شوهاء مريرة ، نود لو نديرأعيننا عنها كيلا نراها ، ولكننا نقبل عليها مضطرين فنى القبح جاذبية ! . إنها الدمامل والبثور فى جسم مصر وفى جسم الإنسانية كذلك ، وإذا انفعلنا لها مرة لأننا مصريون، انفعلنا لها أخرى ، لأننا ناس وإنسانيون .

***

لقد اختار المؤلف من بين طلاب الجامعة أربعة ليمثلوا الأفكار والاتجاهات التى تتصارع فى المجتمع الحديث ... !

الإيمان بالدين والخلق والفضيلة عن طريقه ، والالتجاء إليه طلباً للخلاص .

والإيمان بالمجتمع والعدالة الاجتماعية ، والصراع العملى لتحقيق الفضيلة الاجتماعية والشخصية من هذا الطريق .

والإيمان بالذات ، وعبادة المنفعة ، وتسخير المبادئ والمثل والأفكار جميعاً لخدمة هذا الإله الجديد !

وموقف المتفرج الذى يرقب هذا وذاك وذلك لمجرد التسجيل والنظر والمشاهدة ... !

ونستطيع أن نلمح فى ثنايا الرواية وفى خاتمتها ميل المؤلف لأن ينتصر للمبادئ على كل حال ، وأن يحقر الإيمان بالذات والتدهور الخلقى والاجتماعى ، والقذارة ، والانحلال .

ولكنه لم يلق خطبة منبرية واحدة فى خلال ثمانين ومائة صفحة ولم يفتعل حادثة واحدة افتعالا ...

لى بعض الملاحظات على سياقة بعض الحوادث وشكلها . فقد كان فيها قسوة فى مواجهة صاحب الإيمان الثالث بالتجارب التى يحك عليها إيمانه ومبادئه ! قسوة لم تكن الرواية فى حاجة إليها لتصل إلى أهدافها ... ولكنها على كل حال بعيدة عن التزوير والافتعال .

فثلا هذا الشاب الذى أسماه « محجوب عبد الدايم » ، ووصفه فى هذه السطور :

« كان صاحب فلسفة استعارها من عقول مختلفة كما شاء هواه ، وفلسفة الحرية كما يفهمها هو ، و « طظ » أصدق شعار لها. هى التحرر من كل شىء ، من القيم والمثل والعقائد والمبادئ ، من التراث الاجتماعى عامة ! وهو القائل لنفسه ساخراً : إن أسرتى لم تورثنى شيئاً أسعد به ، فلا يجوز أن أرث عنها ما أشقى به ! ، وكان يقول أيضاً : إن أصدق محاولة فى الدنيا هى :

الدين + العلم + الفلسفة + الأخلاق = طظ ، وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه . فهو يعجب بقول ديكارت : « أنا أفكر فأنا موجود » ويتفق معه على أن النفس أساس الوجود ! ثم يقول بعد ذلك إن نفسه أهم ما فى الوجود ! وسعادتها هى كل مايعنيه ؛ ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيون من أن المجتمع خالق القيم الأخلاقية والدينية جميعاً . ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة فى سبيل نفسه وسعادتها ! وإذا كان العلم هو الذى هيأ له التحرر من الأوهام ، فليس يعنى هذا أن يؤمن به أو أن يهبه حياته ، ولكن حسبه أن يستغله وأن يفيد منه ، فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين ، وإنما غايته فى دنياه : اللذة والقوة بأيسر السبل والوسائل ، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة .

لقد استعار هذه الفلسفة بإرشاد هواه ، ولكنّ تهيؤه لها نما معه منذ أمد بعيد . فهو مدين بنشأته للشارع والفطرة · كان والداه طيبين جاهلين ، ولظروفهما الخاصة ، أتم تكوينه فى طرق بلدة القناطر ، وكان لداته صبية شطاراً ينطلقون على فطرتهم بلا وازع ولاتهذيب . فسب وقذف وسرق ، واعتدى واعتدىَ عليه ، وتردى إلى الهاوية . ولما انتقل إلى جو جديد — المدرسة — أخذ يدرك أنه كان يحيا حياة قذرة ، وعانت نفسه مرارة العار والخوف والقلق والتمرد . ثم وجد نفسه فى بيئة جديدة ، طالباً من طلاب العلم بالجامعة ، ورأى حوله شباناً مهذبين يطمحون إلى الآمال البعيدة والمثل العالية ، ولكنه عثر كذلك على نزعات غريبة ، وآراء لم تدر له بخلد . عثر على موضة الإلحاد والتفسيرات التى يبشر بها علماء النفس والاجتماع للدين والأخلاق والظاهرات الاجتماعية الأخرى ، وسر بها سروراً شيطانياً ، وجمع من مخالتها فلسفة خاصة اطمأن بها قلبه الذى نهكه الشعور بالضعة . لقد كان وغداً ساقطاً مضمحلا ؛ فصار فى غمضة عين فيلسوفا ! المجتمع ساحر قديم . جمل من أشياء فضائل وجمل من أشياء رذائل ، ولقد وقف على سره وبرع فى سحره ، وسيجعل من الفضائل رذائل ، ومن الرذائل فضائل ، وفرك يديه سروراً ، وذكر ماضيه أطيب الذكر ، ورمق مستقبله بعين الاستبشار ، وألقى عن عاتقه شعور الضعة . بيد أنه أدرك منذ اللحظة الأولى أن فلسفته فلسفة سرية . يجوز أن يدعو « مأمون رضوان » إلى الإسلام جهاراً ، ويجوز أن يعلن « على طه » اعتناقه لحرية الفكر والاشتراكية . أما فلسفته هو فينبغى أن تظل سرية — لااحتراماً للرأى العام ، فإن من مبادئها احتقار كل شىء — ولكن لأنها لا تؤتى أكلها إلا إذا كفر الناس بها وآمن بها وحده ! ألا ترى أنه إذا آمن الناس جميعاً بالرذيلة لم يتميز بينهم بما يتيح له التفوق عليهم ؟ لذلك احتفظ بها لنفسه ، ولم يعلن منها إلا ما هو فى حكم الموضة كالإلحاد وحرية الفكر ؛ إلا إذا ضاق صدره أو غلبه شعور الوحشة ، فإنه ينفس عن قلبه بالمزاح والسخرية . فبدا للقوم ساخراً ماجناً ، لا شيطاناً مجرماً ، ومضى فى سبيله شاباً فقيراً بلاخلق ، يرصد الفرص ويتوثب للانقضاض عليها بحرارة لا تعرف الحدود » .

وهو تصوير معجب لشخصية هذا « النموذج » ، وقد صور زملاءه كذلك — كما صور كل شخصية جاءت فى الرواية — ويعجبنى فيه ذلك التعليل الصامت لاتجاهات « محجوب عبد الدايم » وزملائه . إنهم كلهم فى جامعة واحدة ، يدرسون نظريات واحدة ، ويخضعون لمؤثرات واحدة ، ولكن كلا منهم يختط طريقه فى التفكير والحياة بحكم مزاجه ووراثاته ورواسب شعوره ، ويخلق لنفسه فلسفة يعتمد فيها على نفس الأسباب والعلل التى يعتمد عليها الآخرون فى تكوين فلسفة مغايرة ! ويصدق سلوكهم فيما بعد هذه القواعد أيضاً .

حقيقة إن محجوب عبد الدايم لم يكن فى سلام مع شعوره دائماً وهو يواجه التجارب . فالنظريات شىء — مهما يكن الاقتناع بها ، ومهما تكن بواعثها — والتجارب العملية شىء آخر . ولكنه سار إلى نهاية الشوط ، ولم يقف إلا حين صدمته أنانية أخرى ففضحته ، وحين انفضحت الرذيلة فى القصة لم يكن ذلك ليقظة فى ضمير المجتمع فهو مجتمع مريض . وإنما كانت غلبة رذيلة على رذيلة ! !

ولكن - كما أشرت من قبل — آخذ على المؤلف قسوة لم تكن لها ضرورة فى بعض التجارب التى تواجه هذا الشاب . لقد خيرته الظروف بين أن يبقى بلا وظيفة . أو أن يكون

فى وظيفة مغرية (سكرتير وكيل وزارة ثم مدير مكتب حينما يصبح وزيراً) بثمن ! هو فى ذاته فادح . أن يتزوج بفتاة عبث بها الوكيل الوزير !

وأدى الثمن - حسب فلسفته — وتسلم البضاعة . وكان هذا حسبه ، وكان حسبه أن يقبل الوضع مموهاً من الخارج وهو يدرك حقيقته . ولكن المؤلف جعله يواجه الموقف سافراً بلا تمويه . أيقبل أن يكون زوجاً للفتاة التى هذا موقفها ؟ ... ثم أيقبل أن يكون مقره « جرسونيرة » البك ، وأن يواصل البك مابدأ به وفى يوم معين يعلمه محجوب وعليه أن يغادر البيت فيه ؟!

هذه قسوة لا مبرر لها ولا ضرورة . ومثلها أن تزف إليه (الفتاة) بلا احتفال . وكان من كمال السخرية أن يكون الاحتفال فخماً !

وشىء آخر آخذه على الرواية : لم جعل الفتى المؤمن المتدين لا تصطدم نظرياته بواقع الحياة ؟ لقد اصطدم « على طه » صاحب الإيمان بالمجتمع . اصطدم فى قلبه وشعوره . فقد كانت هذه الفتاة التى زفت إلى زميله هى فتاة أحلامه وموضع إيمانه الاجتماعى . ولكنه احتمل الصدمة ومضى يؤمن بالمجتمع الكبير . واصطدم محجوب صدمات شتى وجفَّ لها واضطرب ، ولكنه احتملها فى سبيل ذاته المقدسة ! فلم لم يصطدم أبداً « مأمون رضوان » ؟

هل يريد المؤلف أن يقول : إن إيمانه القوى بالله والدين والرجولة قد أعفاه من الاصطدام ، كلا . إن المجتمع الفاسد المنحل الذى صوره فى مصر — والذى هو مع الأسف واقع — لا بد أن يصطدم به كل صاحب إيمان ، سواء كان إيماناً بالمجتمع أو حتى إيماناً بالحياة !

وربما لاحظ أن التنسيق الفنى يحتّم عليه ألا يبرز على المسرح إلا شخصية واحدة رئيسية . ولكن لا . فالرواية القصصية من طبيعتها أن تسمح لأكثر من شخصية بالبروز ، والتنسيق الفنى يتحقق بتنويع درجات البروز .

هذه نقطة من نقط الضعف فى الرواية ، كالنقطة الأولى كذلك .

* * *

وبعد فهناك صفحات رائعة قوية فى تصوير المجتمع المصرى وما فيه من انحلال يشمل الطبقات الأرستقراطية ودوائر الحكومة وآثام الفقر والثراء ، وآفات المظاهر والرياء ... الخ ، ولكن يضيق عنها المقام ، وأنا معجل عنها إلى مسألة أخرى لها أهميتها فى وزن الرواية ، وفى وزن كل عمل فنى .

إن هذه الرواية على ما فيها من براعة فى العرض ، ومن قوة فى التصوير — تصوير النماذج وتصوير المجتمع وتصوير المشاعر والانفعالات — هى أصغر من قيمتها الإنسانية — وتبعاً لهذا فى قيمتها الفنية — من سابقتها « خان الخليلى » .

رواية خان الخليلى أضيق فى محيطها الداخلى ولكنها أوسع فى محيطها الخارجى . أضيق فى المجال الذى تعالجه وتضطرب فيه حوادثها . فهى قصة أسرة تفر من الموت بالقنابل فيخترم الموت أجمل زهراتها بلا قنابل ! وقصة قلب إنسانى شاخ قبل الأوان فانطوى على نفسه ورضى بنصيبه ، فإذا الأقدار تخايل له بقطرة ندية فيندى ، ثم تجف هذه القطرة قبل أن تبلغ فاه . يرشفها منه أعز إنسان عليه : أخوه المستهتر السادر . وحينما يجدّ هذا المستهتر ويقوّمه الحب العميق ، تخطفه الأقدار فيموت !

ولو استأنت الأقدار لحظة هنا أو هناك ، ولو تغير خيط واحد فى ذلك المنوال الأبدى لتغير وجه الحياة .

أما رواية « القاهرة الجديدة » فتعالج جيلا وتصور مجتمعاً . ومجالها مع هذا أضيق من مجال « خان الخليلى ! » .

فى « خان الخليلى » ننتهى من الرواية لنجد أنفسنا أمام رواية الحياة الكبرى : الإنسانية والأقدار ، الضعف الإنسانى والقوى الكونية ، أشواق الناس وأهدافهم أمام الغيب المجهول .

وفى « القاهرة الجديدة » نبدأ وننتهى ، ونحن أمام جيل من الناس ومجتمع قابل للزوال ، فلا تبقى إلا بعض الملامح الإنسانية الخالدة .

المجال هناك أوسع لأنه خالد بخلود الإنسان . والقيمة الإنسانية هناك أكبر ، وهى جزء من القيمة الفنية له أثره فى وزن الرواية ، وراء المهارة الفنية فى العرض والتنسيق والاختيار .

سيد قطب

في ركب الوحدة العربية :

الأدب في فلسطين ...

للأستاذ محمد سليم الرشدان

— ٥ —

مع الأدباء الصحفيين من أهل النثر :

قبل أن أمضي في الحديث عن (الأدباء الصحفيين) لا بد لي من البر بوعد قطعته على نفسي في الفصل الماضي ، وهو أن أسرد آثار الأستاذين الأخيرين ، ممن تحدثت عنهم في (الأدباء العلميين) فأقول : إن للأستاذ عبد الله الريماوي — عدا كتبه المدرسية — كتباً أخرى عديدة بين علمية وأدبية ، أذكر منها : (العقل في طريق التكوين) ، وقد ترجمه عن كتاب إنجليزي للأستاذ (جيمس هارفي روبنسن) أسماه Mind in the Makiqg وهو شرح مستوفي للحلقات التي تكون تاريخ الفكر البشري . ثم كتابه : (من طاليس إلى ناغاساكي) ويبسط فيه بشكل مختصر الأبحاث العلمية في حقلي الكيمياء والفيزياء ، التي انتهت أخيراً باكتشاف القنبلة الذرية . ثم كتابه (الحضارة العلمية) ، وفيه يحدد العلم في منابعه وأسلوبه ، ويعين مكان العلم وحضارته بين مظاهر الفكر البشري . فيبحث علاقته بالفلسفة والدين والفن والاجتماع ، وينتهي — بعد ذلك — ببحث رسالة العلم للانسانية .

ومن كتبه الأدبية : كتابه « مجمع العباقرة » ، وفيه يعالج كثيراً من المشاكل الاجتماعية ، ثم كتابه « تلك الأيام » وهو قصة يبسط في ثناياها الوضع الراهن في البلاد ، وينتقد أساليب التوجيه والغاية التي تهدف إليها .

وأما الأستاذ علي شعث ، فله كتابان أخرجهما للناس ، أولهما (من طرائف العلماء) وفيه يتخير عدداً من أساطين العلم ، الذين ساهموا في بناء صرحه الشامخ ، منذ فجر الإنسانية البعيد ، حتى ينتهي إلى علماء النهضة الحديثة في أوربة ، ويعرج في خلال ذلك على بعض أعلام العرب النابهين في هذا الميدان . وأما كتابه الثاني فهو : « من البنسلين إلى القنبلة الذرية » ، وفيه شرح بأسلوب فريد أخاذ للمراحل التي اجتازها العلم في تذليل العقبات الكأداء ، وإزالة العراقيل المؤذية من طريق الإنسانية . كما يورد فيه كثيراً من التنبؤات المبهجة ، التي ينتظر أن يحققها العلم عن طريق الذرة ، إذا استمر في سيره قدماً ، ولم يحل بينه وبين ذلك عارض مفاجيء . وللأستاذ شعث — فيما عدا ذلك — كثير من الأبحاث القيمة التي كثيراً ما حاضر أو أذاع بها في الأندية الثقافية في البلاد ، ومن دار الإذاعة الفلسطينية ...

الأدباء الصحفيون :

وحين أتحدث عن (الأدباء الصحفيين) ، لا بد لي من أن أعود بالقاريء إلى عام ١٩١١ ، لأقفه حيال شابين أخوين في مدينة يافا ، قد نهلا من الثقافة ما كشف لهما طريق الجهاد في سبيل وطنهما المغلوب على أمره ، فإذا هما يستهدفان خدمته عن طريق الصحافة ، وينشئان من أجل ذلك جريدتهما (فلسطين) ويكون أحدهما وهو الأستاذ عيسى العيسى (رئيس التحرير) ، والآخر وهو الأستاذ يوسف العيسى (المدير المسؤول) ، وتمضي جريدتهما في طريق محفوف بأشواك العنت التركي ، وإرهاق التحكم والاستبداد .

فقد أوقفت الحكومة التركية الجريدة بتهمة (التحريض العنصري) ، وذلك حين نبهت للخطر الصهيوني في تلك الأيام . ولكن المحكمة برأت ساحتها حين أثبتت أن مقاومة الحركة الصهيونية ليس معناه مقاومة اليهود .

وقد توقفت هذه الصحيفة (النصف أسبوعية) حين قامت الحرب الأولى ، فتفرق الأخوان ، إذ نزح أحدهما — وهو الأستاذ يوسف العيسى — إلى دمشق ، وهناك اتصل بجلالة المغفور له (الملك فيصل) فيما بعد ، وأخلص له الخدمة ، ثم أسس جريدة يومية ، تناصر المليكية وتعمل من أجلها ، وهذه الجريدة هي : (ألف باء) الغراء ، التي ما تزال تصدر في دمشق إلى اليوم ، وهي من أكثر الصحف انتشاراً هناك . وأما جريدة (فلسطين) فقد استأنفت صدورها في يافا بعد الحرب الأولى ، واستمرت نصف أسبوعية حتى عام ١٩٢٩ ، فصدرت يومية ، وما تزال

كذلك . وهى اليوم من أمهات الصحف عندنا ، وصاحبها الأستاذ عيسى العيسى — الذى هو شيخ الصحفيين بلا منازع — يعتبر من الأدباء المعدودين فى المكان الرفيع .

وأما الأستاذ يوسف العيسى ، فإنه عرف فى سوريا كما عرف فى فلسطين ، وقد التمع فى البلدين معاً . وكان — وما يزال — منذ أصدر جريدته يتولى كتابة افتتاحيتها بنفسه ، ثم يكتب بالإضافة إلى ذلك فصلا انتقادياً ، يعالج فيه كثيراً من المشاكل الاجتماعية ، ويجعله تحت عنوان (مباءة بحل) .

وقد اجتمع لدى الأستاذ من هذه الفصول مجلدات قيمة ، فى أبحاث مختلفة . منها ما هو فى السياسة ، ومنها ما هو فى النقد ، ومنها ما هو فى الأدب . وقد حدثنى الأستاذ فى صيف هذا العام (فى دمشق) ، أن لديه إلى جانب ذلك كله مذكرات يحرص عليها أشد الحرص ، ويعنى بترتيبها أيما عناية ، وقد أسمعنى بعضها وكان مما نشر فى جريدته إبان عهدها الأول .

ويعجبك من (هذا الأستاذ) نشاطه الدائم ودأبه المتواصل وهم برغم هذا الإنصراف الشديد — الذى ينصرفه للصحافة — ما تكاد تجلس إليه حتى تلمس فيه روح الأديب الفذ ، إذ ما يتناول القول عن شىء ، حتى يستشهد بحكمة أو مثل أو أبيات من الشعر وإليك شاهدا على ذلك من كلمته الافتتاحية فى العدد (٧٣٥٧) وعنوانها : « هذا عتابك إلا أنه مقة » ويقول فيها :

« إن أحسن مثل يضرب للصحف فى هذه الأيام ، هو ما قالته العرب : (مثقل استعان بذقنه) ، وهو الجمل يثقل حمله فيعجز عن القيام به . وهذه حالة الصحف يثقل حملها فى جميع أبواب نفقاتها ، فتمد عنقها إلى الحكومة ، فتكون (كالمستجير من الرمضاء بالنار) .

إن التحكم والاستبداد بمقدرات الصحافة ، أن تطلب جاب الورق فلا يسمح لها بذلك ، وأن تنضب مستودعات الحكومات فلا تجد ما تقدمه للصحف من الورق . أليس هذا ما يسمونه بـ (نقص القادرين على التمام) ؟ .... »

وقد نبهنى الأستاذ خليل مردم بك إلى أديب صحفى آخر ، عاش فى دمشق شطراً من عمره ومات فيها . وهذا الأديب هو الأستاذ (أحمد شاكر الكرمى) نسبة إلى « طولكرم » وهى بلدة فى فلسطين ، عرف أهلها بثباتهم الذى يبلغ حد العناد ، وعروبتهم الأبية الصادقة ، وإيمانهم الذى لا يتزعزع . وقد نشأ هذا الأديب فى عائلة توارثت (العلم والأدب والقضاء والافتاء) كابراً عن كابر ، فأبوه قاضى القضاة الشاعر الناثر الشيخ (سعيد الكرمى) ، وأخوه الشاعر الأستاذ (محمود الكرمى) ، وأخوه أيضاً الشاعر اللامع الأستاذ (عبد الكريم الكرمى) المعروف بـ (أبى سلمى) . وسأتحدث عنهم جميعاً حين أتحدث عن شعراء فلسطين

وقد أكمل الأستاذ (أحمد شاكر الكرمى) ، ثقافته فى الأزهر والجامعة المصرية . وهنالك بدأ حياته الأدبية بالكتابة فى جريدة (الكوكب) . ثم سافر إلى الحجاز ، وعمل هنالك محرراً فى جريدة (القبلة) ، ثم رجع منها إلى دمشق ، وحرر هنالك فى جريدة الفيحاء . ثم أصدر بعد حين مجلة (الميزان) أدبية سياسية . واستمر فى إصدارها حتى عام ١٩٢٧ . وإذ ذاك اهتصرته يد المنية وهو ما زال فى ريعان شبابه .

وله كتب مطبوعة ومخطوطة . منها كتابه (الكرميات) وهو مجموعة خواطر وآراء كلها قيم ، ثم قصص مترجمة عن الإنجليزية ، منها « خالد » ، وفيها تفصيل عن الصحراء ، وسرد لما يقع فى جنباتها . ثم « الوردة الحمراء » وهو صورة من الأدب الخالد ، ومؤلفها الكاتب الذائع الصيت (أوسكار وايلد) . ثم كتب فى النقد ، ومعظمها نشرت مادته فى الصحف التى عاصرته ، وكانت بتوقيع « قدامة » ، وهو الإسم الذى كان يحتجب وراءه .

وقد كان حجة فى اللغة العربية ، يراعى فى أسلوبه التحرر من قيود الرجعية والجمود . وحسبك أن يعترف له بفضل السبق علماء أجلاء ، كالمازنى والعقاد . وقد صدر عنهما ذلك فى حفل أقيم فى مصر ، وشهده أخوه (أبو سلمى) الذى نقل إلى طرفاً من حديثهما عنه حينذاك وثنائهما عليه وكالأستاذين خليل مردم بك ، والشيخ المغربى فى دمشق ، وقد حدثانى عنه حديثاً يستشف منه إعجابهما به وتقديرهما له .

وهنالك أدباء صحفيون كانوا هم الطليعة الأولى فى هذا الميدان . منهم الأستاذ رشدى شمث صاحب مجلة (المنهل) ، ثم الأستاذ جميل البحرى صاحب مجلة (الزهور) ، ثم الأستاذ حنا العيسى صاحب مجلة (الأصمعى) ، ثم الأستاذ خليل بيدس صاحب مجلة (النفائس) . وسوف أتحدث عنه مفصلا حين أتحدث عن (الأدباء القصصيين) إذ هو أحدهم . ثم الأستاذ نجيب نصار صاحب (الكرمل الجديد) ، ثم الأستاذ بولس شحادة صاحب

(مرآة الشرق) ، ثم الأستاذ الشيخ على الريحاوى وهو مؤسس أول مجلة فى فلسطين وهى مجلة (بيت المقدس) . وحين أوقفت لأسباب سياسية أسس جريدة (النجاح) . ولكنه شغل عنها بعد ذلك بالسياسة . فسافر إلى الآستانة مبعوثاً عن قضاء القدس وهنالك تعرف إلى كثيرين وعرفوا أدبه القيم . وهو شاعر فحل وسأورد نماذج من شعره حين أتحدث عن الشعراء .

ثم الأستاذ الشيخ سليمان الفاروقى . وهو مؤسس جريدة (الجامعة الإسلامية) التى صدرت عام ١٩٣٣ ، واستمرت حتى عام ١٩٣٧ ثم توقفت بعد ذلك بسبب إرهاق الحكومة لها . والأستاذ الفاروقى أديب مطبوع ، درس فى الأزهر ثم فى جامعة الحقوق فى الآستانة ، ثم اشتغل بالمحاماة أمداً من عمره ، وله شعر ونثر يجعلانه فى نظر المعجبين بأدبه (معرى فلسطين) ، وهو خطيب مصقع إذا تحدث (مرتجلا) ظننته يغترف من بحر ، وإذا (أملى) حسبته يستلهم من وراء الغيب . وإليك أبياتا من شعره ، تلمس فيها الكثير من سخطه ، وتتحسس بين ثناياها يأسه المرير وهى قوله :

ولما رأيت الناس ضلت حلومهم
فلا أحد يهدِى ولا أحد يهدَى
وشمت وجوه الناس قد غاض ماؤها
فلا وجنة تحمر أو جبهة تندى
يئست من الإنسان ! إنى وجدته
يصيب الهدى سهواً ويغشى الأذى عمداً

وأما نثره فإنه يحلق فيه إلى الذروة ، وإليك بعض ما يقوله فى كلمة عنوانها « الضحايا » يفتتح بها عدد العيد الممتاز الصادر فى صباح (١٥) آذار « مارس » عام ١٩٣٥ وقد جاء فيها :

« إذا خلا وجه الدهر لأمة ، فبسطت على العالم أجنحتها ، وسلكت الشعوب بدينها ومدنيتها ، وحشرتها فيها كأن لم تكن من قبل ذكرت ، وإذا ملأت أمة الماء عوائم ، والهواء حوائم ، والأرض ذوابل وصوارم ، والتاريخ جسائم وعظائم ، حقت بالعيد وجدرت ، وحقت بالفخر إذا افتخرت ... ليس العيد أن تلبس كفنك ، وتعبد وثنك ، وتجرى باطلك — سادراً — رسنك . وليس العيد ثوباً تستغشيه ، وعملا تؤديه ، أو مثالا تحتذيه . وإنما العيد حظ الروح ، وسمو القلب ، وإنما العيد فجوة ما بين جزأى التاريخ ، من كد وجهاد ، وراحة وجمام »

وهنالك (أيضاً) من الأدباء الصحفيين الأستاذ منيف الحسينى صاحب جريدة (الجامعة العربية) ، ثم الأستاذ عبد الله القلقيلى صاحب (الصراط المستقيم) ، ثم الأستاذ عيسى بندك صاحب جريدة (صوت الشعب) .

وهنالك جرائد محتجبة كثيرة كان يساهم فى تحريرها أدباء بارزون أذكر منها : « الكفاح » و « اللواء » و « الشباب » و « المطرقة » .

وقبل أن أختم الحديث فى هذا الفصل لا بد لى من أن أشير إلى أديب فلسطينى اتخذ القاهرة له داراً ، وأسس فيها جريدته : (الشورى) ثم جريدة (الشباب) ، وقد توقفتا كلتاهما ، بعد أن كافح فيهما ونافح وجاهد جهاد الأبطال ، وذلك الأستاذ هو الأديب المجاهد (محمد على الطاهر) رد الله غربته .

(له تكملة)

محمد سليم الرشدان
ماجستير فى الآداب واللغات السامية

قُطْرَبُّل (*)

للأستاذ شكرى محمود أحمد

قرية بين بغداد وعُكْبرا ، تنسب إليها الخمور وتكثر فيها المعاصر والحانات لكثرة ما فيها من الكروم . لذلك أمّها المجان، وطلبها أهل الفتك ، وتطرح فيها الخلعاء ، حتى فتنوا بغلمانها ، وشغفوا بظبائها ، فكثر ذكرها فى شعرهم ، ودار اسمها فى قصصهم .

كانت فى أنزه موضع وأجمل موقع ، تركب كاهل دجلة ، وتحاذى الصَراة الذى يفصل بينها وبين بادوريا ، هى فى غربه وبادوريا فى شرقه .

جمالها الضاحك الطروب جذب قلوب الشعراء فمالوا إليها ، واحتفظت بالمجان حتى عكفوا يرتضمون دَر الكأس ، ويبتزون النفس فى صبوح ضاحك ، وغبوق دافق بالمتع واللذاذة ، فطوراً هم بدجلة يصطبحون ، وطوراً بالصراة يغتبقون .

ولقطربل أخبار ، وفيها أشعار — كما يقول ياقوت — فى وسعه أن يجمع كتاباً فى أجلاد يسجل أخبار الخلعاء والمجان والشعراء والبطالين والمتفجرين فى هذه المدينة[1] .

تشوق إليها إبراهيم المدبر ، وطرب لذكراها قائلاً :

طربت إلى قطربل وبلشكر
وراجعت عما لست عنه بمقصر[2]

وحن لها البحترى فاهتز لمنظرها وقد بدت له مع الشروق ، فقال فى مدح ابن المدبر :

(*) قطر بل بالضم ثم السكون ، ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام . وقد روى بفتح أوله وطائه ، أما الباء فشددة فى الروايتين ، كانت إحدى طساسيج بغداد وهناك موضع مقابل مدينة آمد بديار بكر ، قال فيها محمد بن جعفر الحلى :

يقولون ها قطربل فوق دجلة ... عدمتك ألفاظاً بغير معان
أقلب طرفي لا أرى القفص دونها ... ولا النخل باد فى قرى البردان

(١) معجم البلدان ج ٧ ص ١٢٣ .

(٢) يا قوت ج ٢ ص ٢٧٠ وبالشكر من قرى البردان قرب بغداد تكاد تتصل بقطر بل

وقد ساءنى أن لم يهج من صبابتى
سنا البرق فى جنح من الليل أخفر
وأنى بهجر للمدام وقد بدا
لى الصبح من قطربل وبلشكر[1]

ووصفها البيغاء الشاعر ، ذاكراً مواطن الغزل والصبابة ، ومنازل اللهو والبطالة ، ومعاهد الأنس واللذة ، فقال يذكرها ويذكر كلواذى ، هى شمال بغداد ، وكلواذى فى جنوبها :

كم للصبابة والصبى من منزل
ما بين كلواذى الى قطربل
راضعتُ فيه الكأس أهيف ينثنى
نحوى بجيد رشاً وعينى مُغْزِل[2]

ذكرها جَحْظة البرمكى ، وما فيها من الخمور التى تعطر فى كل حين بقوله :

قد أسرفت فى العذل مشغولة ... بعذل مشغول عن العذّل
تقول هل أقصرت عن باطل ... أعرفه عن دينك الأول
فقلت : ما احسبنى مقصراً ... ما أعصرت خمر بقطربل
قالت : فأين الملتقى بعد ذا ... فقلت : بين الدن والمبزل[3]

أما الحسن بن هانىء فقد أكثر من ذكرها ، وأطال من حديثها ، لأنها كانت مسارب لهوه ، ومواطن خلاعته . فوصف حاناتها ورياضها ، وخمرها وسقاتها ، وذكر صحابته فيها . بل إنه أراد أن يدفن فيها .

خليلىَّ بالله لا تحفرا ... لى القبر إلا بقطربل
خلال المعاصر بين الكرو ... م ولا تدنيانى من السنبل
لعلى أسمع فى حفرتى ... إذا عصرت ضجة الأرجل[4]

كان الكرخ مصيفه ، وقطربل مربعه ، ترضعه درها ، وتلحفه بظلها .

قطربل مربعى،ولى بقرى الكر ... خ مصيف ، وأمى العنب
ترضعنى درها وتلحفنى ... بظلها ، والهجير يلتهب[5]

(١) يا قوت ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) يا قوت ج ٧ ص ١٢١ .

(٣) يا قوت ج ٧ ص ١٢١ .

(٤) ديوان أبي نواس طبعة أصاف ص ٣٢٣ .

(٥) الديوان ص ٢٤٢ .

وهو فى القصيدة الآتية يبدع فى وصفها ، فيذكر حانته بين الجنان الحدائق ، فى تلك الرياض المحفوفة بالشقائق ، وندمانه الغر السكماة الذين ذل لهم الدهر ، وساقيه الغرير المتوج بالريحان :

وبجلس خمار إلى جنب حانة بقطربل بين الجنان الحدائق
بجاه ميادين على جنباتها رياض غدت محفوفة بالشقائق
أتمنا بها مع فتية خضعت لهم رقاب صناديد السكماة البطارق
بمشمولة كالشمس يغشاك نورها
إذا ما تبدت فى نواحى المشارق
يدور بها ظبى غرير متـــوج
بتاج من الريحان ملك القراطق
إذا ما جرت فيـــه تغنى وقال لى
بسكر : الاهات اسقنا بالدوارق[١]

وقد كان أبو نواس معجباً بخمارها « ابن أذين »[٢] لأن هذا الخمار كان ظريفاً لبقاً مساعداً ، عنده شراب عتيق ، وغلمان صباح[٣] . وقد ذكره فى شعره قائلاً :

اسقنى يا ابن أذين من سلاف الزرجون[٤]
اسقنى حتى ترى بى جنة غير جنون
عتقت فى الدن حتى هى فى رقة دينى
ولنا ساق عليه حـلة من ياسمين[٥]

ويجمل الشرب فى قطربل على الورد فى نيسان ، لأن شرابها عتيق ، وليشرب الأغمار من العسل :

اشرب على الورد فى نيسان مصطبحاً
من خمر قطربل حمراء كالـكاذى
واخلع عـذارك لا تأتى بصالحة
ما دمت مستوطناً أطراف بغداذ
نعّم شبابك بالخمـــر العتيق ولا
تشرب كما يشرب الأغمار فى ماذى[٦]

(١) الديوان س ٣٠٧ .
(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار للعمرى س ٣٩٢ .
(٣) ذكر هـذا الخبر عدا العمرى ابن منظور فى الجزء الثانى من كتابه « أخبار أبى نواس » الذى سنعده للطبع هذا العام .
(٤) لزرجون فارسية مركبة من « زر » أى الذهب و « كون » أو اللون .
(٥) فى الديوان أحد عشر بيتاً .
(٦) الديوان س ٢٧٢

وما كان يطيب المقام لأبى نواس فى موضع من مواضع القصف والفتك على كثرتها إلا بقطربل فإنها كانت منقلبه ومرجعه .

ذكر ياقوت فى الكلام على القُفْص[١] بعد ماعرف بهذ الموضع ، وذكر ماقيل فيه من الأخبار والأشعار قصيدة لأبى نواس هى :

رددتنى فى الصبى على عقبى وسمت أهلى الرجوع فى أدبى
لولا هواؤك ما اغتربت ولا حطت ركابى بأرض مغترب
ولاتركت المدام بين قرى الكرخ فبُبورى فالجوسق الخرب
وباطُرنجى فالقفص ثم إلى قطربل مرجعى ومنقلبى
ولا تخطيت فى الصلاة إلى تبت يدا شيخنا أبى لهب[٢]

وذكر ياقوت هذا الموضع فى الكلام على « بِنّا » وأورد قصيدة لأبى نواس فيها وصف جميل لخمر قطربل يجمل أن نضمها بين أيدى القراء هى[٣] :

سقيا لبنا[٤] ولا سقياً لعانات سقياً لقطربل ذات اللذاذات
وإن فيها بنات الكرم ماتركت منها الليالى سوى تلك الحشاشات
كأنها دمعة فى عين غانية مرهاء رقرقها ذكر المصيبات
تنزو إذا مسها قرع المزاج كما تنزو الجنادب أوقات الظهيرات
وتكتسى لؤلؤات من تعطفها عند المزاج شبيهات بواوات

مر ذكر هذه القرية فى مواطن كثيرة من شعر أبى نواس غير ماذكرنا . ويجمل بنا أن نثبت أخيراً هذه القصة التى ذكرها الصولى عن بعض بنى نوبخت ورواها ياقوت فى معجمه[٥] قال : لما انصرف أبو نواس من مصر فى طريقه إلى العراق ، اجتاز بمدينة حمص ، فرأى كثرة خماريها وشهرة شرابها . فأقام بها مدة يغتبق ويصطبح ، وكان بها خمار يهودى إسمه « لاوى » فقال لأبى نواس : كيف رأيت مدينتنا هـذه ؟ فأجابه : حدثنا بعض

(١) ياقوت ج ٧ س ١٣٧ .
(٢) هـذه القصيدة غير موجودة فى الديوان وهى فى ياقوت ج ٧ س ١٣٧ .
(٣) ياقوت ج ٢ س ٢٨٦ .
(٤) فى الديوان : « سقياً لبنى ولا سقياً لعانات » والصحيح ماذكره ياقوت فى الجزء الثانى س ٢٨٦ . وهى فى ياقوت الثلاثة الأبيات الأولى
(٥) ياقوت ج ٧ س ١٢٢

سرفناده فسحناده :

خطر يهدد القصة المصرية

للأديب كمال رسم

... إن المتتبع للحركة الأدبية القصصية في مصر ، لا يستطيع أن يخفى خوفه من الخطر الذى بات يهدد أدب القصة ، وأقول « القصــة » وأعنى بذلك أن أحمل اللفظ أكبر معناه فتستوى عندى القصة الطويلة والأقصوصة !

... ليس فينا من ينكر أن الأدب القصصى مستحدث فى العربية ، وأن ظهوره كأدب ذاتى متميز لا يرجع إلى أبعد من هذا القرن العشرين . وأقول أدب ذاتى وأنا ألتمس للتعبير شيئاً غير قليل من التحفظ ، فإن لقائل أن يقول : وهل لنـا حقا أدب قصصى ذاتى ؟

والحق أن الإجابة عن هذا السؤال لا تتطلب كثيراً من الجهد متى توفرت لدى الـكاتب الشجاعة فيجيب من فوره بأن ليس فى مصر قصـَص ذاتى

... أعلم سلفاً أن قولى هـذا سيقيم ويقعد جماعة نصبوا أنفسهم آلهة للقصــة فى مصر ، وليس فى هؤلاء من يهمنى رضاهم أو سخطهم ما دمت أهدف إلى غرض سام أرجو من ورائه أن يعود على أدبنا بالخير والنفع ! ... ويبقى أن ندير السؤال على وجه آخر فنقول : هل القصــة المصرية موجودة بالفعل ... وهل ما تطالعنا به المجلات الأسبوعية قصص مستمدة من صلب الحياة المصرية ؟ أكبر الظن أن الإجابة عن هذا السؤال ستكون سلباً ... فالقصة المصرية لا تعبر عن روح المجتمع بل هى الصدى الشائه لمجتمعات غريبة وأجواء أجنبية ! إن مقياس الذاتية فى القصــة أن يجد الإنسان نفسه وأسرته وعاداته وأخلاقه وآماله وآلامه فى كل ما يكتب الـكاتب من القصص ، ذلك بأن القصة يراد بها أولا وقبل كل شىء تصوير المجتمع ، بل إن مقررى الحالات الاجتماعية لعصر من العصور فى بلد من البلاد ليعتمدون فى الـكثير الغالب على القصــة فى تقرير الحالة الاجتماعية لهذا العصر باعتبار أنها الصــدى الحاكى له .. وليكن المثال التالى مصدقا لما نقول :

رواتنا أن هذه هى الأرض المقدسة لبنى إسرائيل . فقال له الخمار : أيما أفضل هذه أم قطربل ؟ فقال : لولا صفاء شراب قطربل ، وركوبها كاهل دجلة ، ما كانت إلا بمنزلة حانة من حاناتها .

ثم مر أبو نواس بمدينة عانة فسمع اصطخاب الماء فى وجداولها فقال : أذكر فى هذا قول الأخطل :

من خمر عانة ينصاع الفؤاد لها　　بجدول صـَخِب الآذى موّار

فأقام فيهـا ثلاثاً يشرب . ثم قال لولا قربها من قطربل ومجاذبة الدواعى إليها لأقمت بها أكثر من ذلك . فلما دخـل الأنبار تسرع إلى بغداد وقال : ما قضيت حق قطربل ، فعدل إليها وأقام ثلاثاً أتلف فضـلة كانت معه من نفقته ، وباع رداءً معلماً من أردية مصر . ولما أراد الانصراف عنها اجتمع الخمارون للسلام عليه . قال الصولى : فما شبهتهم وإياه إلا بخاصة الرشيد عند تسليمهم عليه فى يوم حفل له . وقد قال فى ذلك قصيدة ظريفة هى[1] :

طـربت إلى قطربل فأتيتها　　بمال من البيض الصحاح وعين
ثمانين ديناراً جياداً أعدها　　فأتلفتها حتى شربت بدين
رهنت قميصاً سابرياً وجبة　　وبعت رداء معلم الطرفين
لخمارة دين ابن عمران دينها　　مهذبة تـكنى بأم حصين
وقلت لها إن لم تجودى بنائل　　فلا بد من تقبيلى الشفتين
فقالت : وهل ترضى بغيرهما هوى
با بلج كالدينـــار فاتر عين
وقد كنت فى قطربل إذ أتيتها　　أرى أننى من أيسر الثقلين
فروحت عنها معسراً غير موسر　　أقرطس فى الإفلاس من مائتين
وقال لى الخمار عنــــد وداعه　　وقد ألبستنى الخمر خف حنين
الاعش بزين أين سرت مودعاً　　وقدرحت منه حين رحت بشين

بغداد　　**شكرى محمود أحمد**

مدرس العربية بدار المعلمين الابتدائية

(١) هذه القصيدة فى ياقوت تسعة أبيات وفيها تصحيف كثير فى الأصل وصححناها على ما بأيدينا من شعره .

إن مصر تزرح فى الوقت الحاضر تحت عبء ثقيل من الآلام ، فأين القصة المصرية التى يمكن أن يعتمد عليها مؤرخ فى عصر متأخر ليصل منها إلى حقيقة هذا الوقت المصيب الذى تجتازه مصر ؟ لقد كتبت قصص فى بلاد اخرى كان مدارها علاج المشاكل الاجتماعية لتلك البلاد ، فقومت من الأخلاق وهذبت من العادات ، وأسقطت حكومات وأدلعت نيران ثورات ، فأين قصتنا المصرية من هذا كله ؟

أو ليس عجيبا والشعب يعانى عللا اجتماعية لا حصر لها ألا نجد من بين كتابنا القصصيين من يجعل من هذه العلل عقد قصصه ؟ ... بل ان النفس لتقطر أسى حينما نقلب بين أيدينا المجلات الأسبوعية فلا نقف فيها على غير قصص الحب ، كأنما الشعب الذى يؤود سواده أعباء الجهل والفقر والمرض يمضى كل وقته متغنياً بالحب وما يتصل بهذا الحب من العواطف والانفعالات ؟ . حتى هذا اللون من القصة الذى استغرق كل أدبها إنما هو لون واغل دخيل !

لقد دلت التجارب على أن الناسخ أو المقتبس لا يستطيع فى الغالب الأعم أن يخلق أو يبتكر ، وهذه الحقيقة معروفة لنفر غير قليل من هؤلاء الذين توفروا على النقل والاقتباس

ولكن ليس هذا كل ما فى الأمر من خطر ، ذلك بأن القصة غزت ميداناً واسعاً هو ميدان السينما وتأثيرها على العقول لا يحتاج إلى دليل ، فإن أولادنا وبناتنا وزوجاتنا يؤثرون دور العرض على غيرها من ضروب التسلية والترويح عن النفس ، وهكذا يبرز جلياً خطر عرض عادات وأخلاق غير عاداتنا وأخلاقنا على النشء والبنت والزوجة مما وضح أثره الأليم فى اصطناع هذه العادات والتخلق بهذه الأخلاق حتى أشفق المشفقون على مجتمعنا من الانحلال

وبعد فلعل ختام هذه الكلمة العاجلة هو ما كان ينبغى أن يكون مبدأها ، ذلك بأنى كتبت هذه الكلمة فى أعقاب قراءتى قصة لكاتب فى عدد المصور الأخير عنوانها « الأرض التى تكفيه » ، وقد نسبها الكاتب إلى نفسه ، وهى لروائى من أعظم روائيى العالم وأبعدهم صيتا وهو الروائى الروسى الكبير ليوتولستوى ... وهى القصة الموسومة باسم :

Hew Much Send Does a man require

« كم حاجة المرء من الأرض » . . . والنقل على هذه الصورة أبعد ما يتصوره الإنسان من الجرأة ، فلو أن الناقل نقل عن كاتب مغمور لالتمسنا له بعض العذر ، ولكن أن يضيف إلى نفسه عملا لكاتب لامع كتلستوى فهذا هو ما يحير عقلا كعقلى على الأقل .. فهل ظن الناقل أن أدب تولستوى لا يقرأه شخص عداه ؟ فإذا كان شأن أدباء القصة هنا مع مؤلف « السلم والحرب » و« أنا كارنينا » هو هذا الشأن فكيف شأنهم مع غيره ؟

هذه الظاهرة الخطيرة رأيتها كذلك فى أدب كاتب معروف هو الأستاذ توفيق الحكيم ، فقد ظهرت له قصة فى أحد أعداد مجلة أخبار اليوم بعنوان « ليلة الزفاف » وليست هذه القصة غير قصة "A usband to trust" « البحث عن زوج أمين » لكاتب أمريكى هو : Hester. G. Rabison . وهى منشورة بعدد مجلة « قصص الحب » الأمريكية Sove Story الصادر فى ٧ من يونيو سنة ١٩٤١ . وعذر الأستاذ الحكيم أن المؤلف الأصلى غير معروف لقراء العربية على الأقل ، فلم يجد حرجاً فى التغرير بعقول القراء ! ومهما كانت خطورة اعتماد الناقل فى أدبه على ما ينقله من أفكار الغرب ، فإن هذه الخطورة ستكون أبعد مدى فى تأثيرها فى المجتمع المصرى كما قدمت . ومن هنا حُقّ لى أن أنبه إلى مقاومة هذه الظاهرة والحد من تأثيرها ضناً على ذاتية أدبنا من جهة ، وإشفاقاً على التأثير السيء الذى تخلفه بعض هذه القصص فى مجتمعنا من جهة أخرى .

كمال رستم

العلاقة بين بغداد والقاهرة

في عهد الفواطم

للاستاذ عبد المنعم ماجد

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

يظهر أن أثر المحضر الأول كان بالغاً ، فالخليفة الفاطمى فى مصر وقتذاك وهو الحاكم بأمر الله الذى كان قد أباح للسنيين من أتباع مالك الحرية فى تدريس مذهبهم ؛ بل أنشأ مدرسة لتدريس هذا المذهب وخاصة من الناحية الفقهية ، فإنه لما سمع بالطعن فى نسبه فى المحضر ، ثارت ثائرته ، وحظر ما كان قد أباحه. ويقول أبو المحاسن إنه هان فى أعين الناس لكتابة العلماء فى فى المحضر وإنه قامت قيامته . والظاهر أن ثورته كانت شديدة حتى أنها تعدت إلى اليهود كما يذكر كردى سامى فى كتابه (الخليفة الحاكم بأمر الله ص ٣٣) .

كذلك شد هذا المحضر من أزر من يحقد على الفواطم ، فاتخذه كل عدو لهم سلاحا قويا ضدهم ، فحاكم المدينة ومكة أبو الفتوح (وكان حاكما من قِبل الفواطم) ألغي الخطبة له. هذان المحضران ظهرا بلاشك كنتيجة لضعف البويهيين فى هذه الفترة ، ومع سوء العلاقة فيها فإن التفاهم يكون ممكنا فى بعض الأحيان ما وُجد البويهيون . فمثلا استمر التضامن بين أهل الكرخ من الشيعيين فى بغداد والفواطم فى مصر فى الاحتفال ببعض أعياد الشيعة ، ولكن حينما زال حكم البويهيين ساءت العلاقة بمجيء السلاجقة ، وذلك لأنهم كانوا سنيين كالخلفاء العباسيين لا يعترفون بحق للفواطم بل هم أعداء لهم .

الفترة الثالثة :

وتبدأ من سنة ٤٤٧ ، وهى السنة التى دخل فيها طغرلبك زعيم السلاجقة بغداد ، ولذلك تعتبر بدء العهد السلجوقى . فى هذه الفترة تسوء العلاقة بين بغداد والقاهرة ، لأن السلاجقة على عكس البويهيين ، وقفوا موقفا عدائيا تاما من الدولة الفاطمية ، وذلك لأنهم أولا كانوا من أهل السنة لا يعتقدون بشرعية الخلافة الفاطمية . وثانياً لأن الدولة السلجوقية عملت على تقوية الخلافة العباسية فحفظت لها نفوذها الروحى وكان مفقوداً فى عهد البويهيين ، ولذا كان طبيعيا أن يظهر العداء بين الطرفين وأن يتحالف السلاجقة مع الخلفاء العباسيين على الشيعيين الفواطم ، فيجب أن نعتبر العلاقة فى هذه الفترة على أسوأ ما تكون بعكس ما كانت عليه فى الفترة الأولى حينما كان للبويهيين القوة ، وحتى فى الفترة الثانية كانت العلاقة متوسطة ، أما فى هذه الفترة فقد أصبح العداء سافراً . ولذلك سنجد كلا من الدولتين تعمل الواحدة منهما على القضاء على الأخرى ، ولعل أبرز مظاهر هذه العلاقة السيئة ثورة البساسيرى ، قام بها رجل يدعى أبو الحارث أرسلان البساسيرى من موالى الديلم ينسب إلى بلد فى فارس اسمها بسا ، وكان هذا الرجل من أصل تركى قربه الخليفة القائم إليه ، حتى لم يكن يأتى أمراً إلا بعد استشارته ، وقلده الأمور ، وخطب له على المنابر فى العراق وخوزستان إلا أنه كان شيعيا كالبويهيين لا يرى الخلافة الحقة إلا فى أولاد فاطمة ، وورث هذا عن سيده بهاء الدين البويهى فقد كان مملوكا له ، وربما يمكننا أن نفسر بهذا السبب انقلابه على الخليفة القائم وتجبره عليه حتى جفاه ، وقد رأينا من قبل كيف كان يفعل أسياده البويهيون بالخلفاء العباسيين ، وإن كان معظم المؤرخين يذهبون إلى أن سبب سوء العلاقة راجعة إلى جفائه حتى اضطر القائم إلى إبعاده ، وأيد رئيس رؤسائه فى عداوته له وفسد الأمر بينه وبين الخليفة حتى أدى الأمر إلى استنجاد القائم بالسلاجقة وما كاد طغرلبك يدخل بغداد حتى فر البساسيرى إلى الموصل .

وجدت الخلافة الفاطمية فى هذه الحوادث فرصة سانحة للانتقام والعمل على تقويض ملك العباسيين ، كما أدركت الخطر من بروز السلاجقة من موطنهم فى تركستان ، كقوة فتية على أبواب بغداد ، ولذلك مشت الرسل بينها ومدته بيد المساعدة . وفى أبى المحاسن نص يؤيد وصول هذه المساعدة (إن الذى وصل البساسيرى من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار ، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك ، وخمسمائة فرس ، وعشرة آلاف

قوس ، ومن السيوف ألوف ومن الرماح والنشاب شيء كثير) . من قيمة المساعدة يتبين مقدار حماس الفواطم ، كما يفسر قبول البساسيري لهذه المساعدة رغبته في الانتقام من أعدائه . ولذلك لم يتردد في المسير إلى بغداد بعد أن مهد لذلك بإيقاع الفتنة بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال ، وكان قد أطمعه في الملك ، حتى خالف أخاه وعصاه على أية حال بالمساعدة القيمة التي قدمها له الفواطم وبولاء أهل الكرخ الشيعيين في بغداد ، وبمساعدة حاكم الموصل تم له الاستيلاء على بغداد كلها وسارت جنوده في شوارعها ، حاملة الرايات المستنصرية ، وعليها ألقاب المستنصر صاحب مصر ، ثم خلع الخليفة العباسي ، وبايع الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وأرسل البردة والقضيب والمنبر إلى مصر .

وقد فرح المستنصر بنجاح ثورة البساسيري فرحاً شديداً ، حتى إنه لما غنته إحدى القيان :

يا بني العباس صدوا ملك الأمر معد

ملككم كان معاراً والعواري تسترد

وهبها هبة كبيرة . ويقول أبو المحاسن ، وكان ما وقع للمستنصر هذا تمام سعده ، والحقيقة أن ما وقع للمستنصر ما وقع لفاطمي قبله .

ولكن كانت هناك حقيقة عظيمة لا تغيب عن الذهن هي أن الدولة الفاطمية كانت قد بدأت بدورها تتدهور هي الأخرى ، ولذلك لم تتح لها مواردها السير في مشروعها ضد العباسيين إلى النهاية . كما أن المستنصر خاف من البساسيري فكف عن متابعة إمداده ، فما عاد طغرلبك إلى بغداد حتى تمكن من قتل البساسيري وفتك به ، وأجلس القائم بأمر الله ثانية على عرش أجداده ، وأعاد للخلافة قوة لم تكن تحلم بها في عهد البويهيين وإن كانت روحية أكثر منها مادية . والدولة السلجوقية دولة فتية . ولذلك نجدها تقوم بفتوحات تمتد شرقا وغربا ، فتشارك الفواطم ملكهم في الشام ، كما نجد أن أتابكة الشام السلاجقة يتدخلون في سياسة مصر وبخاصة أتابكة الدولة الزنكية ، وينتهي الأمر باستيلاء صلاح الدين على مصر فيما بعد .

كذلك كانت هناك حركة ثانية حديثة في عهد السلاجقة ، وتبين نوعاً من العلاقة بين الفواطم والعباسيين ، وإن كانت علاقة غير مباشرة . وهي حركة سرية تعتبر من أقوى ما عرف من الحركات في العالم . هذه الحركة هي حركة الحسن الصباح المشهور بالحميري . حدثت حركته في أواخر القرن الخامس الهجري ، وكان هذا الرجل من زملاء نظام الملك الوزير المشهور (في المدرسة) وعمر الخيام الشاعر والفلكي الذائع الصيت .. وكان يأمل أن يصل إلى الحكم كزميله نظام الملك مثلا ولكنه فشل في غرضه ، فذهب إلى بلاط القاهرة ، فتشبع بروح القاهرة الديني وأكرمه المستنصر كما يقول ابن الأثير وأعطاه مالا وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته . وعلى ذلك ذهب من مصر إلى آسيا فاستولى على قلعة ألموت ، وكون جماعة عرفت في أيام الصليبيين باسم الحشاشين ، ومنها أُخذت الكلمة الفرنسية Assassin بمعنى قاتل سفاك ، وكانت هذه تقاتل بالسيف والخناجر فأوجدت حالة من الفوضى في الخلافة العباسية فأضعفتها ، واستولى على أجزاء منها ، وكان يدعو في هذه الأجزاء للامام الفاطمي . وإن كان في آخر أيامه دعا لنفسه وادعى أن نسب المستنصر باطل ، وتسمى بالإمام ، كذلك تغالى في دعوته كما هو مذكور في كتاب الشهرستاني فاختلف عن الدعوة الفاطمية .

المهم في هذه الحركة أنها لاقت تأييداً من الخليفة المستنصر وكانت الفوضى التي أثارتها سببا دعا إلى سقوط الدولة العباسية فيما بعد بحيث أنهكت قواها الفتن والقلاقل وأضعفتها فلما جاء المغولي هولاكو ، وجدها لقمة مستساغة .

فالعلاقة في هذه الحركة لم تكن مباشرة بين بغداد والقاهرة كما كانت في عهد البساسيري ، تلك هي العلاقة بين بغداد والقاهرة في عهد الفواطم مرت بمراحل ثلاث كما ذكرت كانت في أولاها على أحسن ما تكون العلاقات وتدرجت في السوء حتى وصلت إلى العداء الصريح في الفترة الأخيرة ، تدرجا يتبع مدى تشيع أصحاب الأمر والنهي في بغداد للعقيدة الشيعية التي منها الفواطم .

وسينتهي الأمر بتحكم السلاجقة الشاميين وخاصة أتابكة الدولة الزنكية في شئون مصر الداخلية ، ويظهر صلاح الدين الأيوبي الذي يكون على يديه القضاء على الدولة الفاطمية في مصر وتكوين الدولة الأيوبية . فنجد أنفسنا بإزاء علاقة أخرى هي علاقة الشام بمصر ، ولذلك نتركها لفرصة أخرى .

عبد المنعم ماجد

اتحاد شمال أفريقيا

للأستاذ عبد المجيد بن جلون

مضى عصر الموت والانحلال فى شمال أفريقيا وبدأ عصر جديد يلوح فى الأفق ، وبذلك لاتضيع السنوات الطويلة التى قضاها فى الكفاح سدى . وقد تطورت قضايا تونس والجزائر بحيث أصبح من المستحيل تجاهلها . فلا بواق الإستعمار أن تزعم ماتشاء ، وللسلطات المحلية أن تتصرف كما تريد ، فإن الفترة الحالية لن تدوم طويلا . إن حالة الضغط والإضطهاد والفوضى التى تشمل اليوم هذه الأقطار العربية الشقيقة ، إنما هى مظاهر انهيار يشق طريقه إلى القبر بخطى حثيثة ، أما هذه النهضة الوطنية المكافحة الصابرة فهى طليعة عصر جديد . ذلك أن قضايا شمال أفريقيا تخرج من حدودها الضيقة المحدودة ، إلى حدود أوسع لم يكن لها عهد بها من قبل ، فصوتها يرتفع اليوم فى العواصم العربية كلها كما يرتفع فى باريس ولندن ونيويورك ، وليس هناك من يستطيع أن يقف فى وجه شعب صمم على أن يعيش مهما كان الثمن الذى يدفعه فى سبيل أن يعيش .

وللاستعمار القاسى الشديد مساوئ لاتحصى ، ولكن له حسنة فى هذه البلاد ، فقد عرف الناس بواسطته أن الحديد لا يفله إلا الحديد ، ولذلك لم يوجد فيها من يحاول اصطياد الفرص لأنه لاتوجد فرص ، وإنما عبأوا جهودهم للمقاومة الطويلة الحافلة بالصبر والكدح والشقاء ، فأكسبهم ذلك قوة قل أن يتسلح بها شعب دون أن تصل به إلى النجاح ، وبذلك برهنوا على أن بلادهم — بالرغم مما قاسته — غير قابلة للموت .

أضف إلى ذلك أن الوضعية فى شمال أفريقيا غير طبيعية ، فالناس فيها يحكمون بأساليب بعيدة كل البعد عن أن ترضى مايصبون إليه بعد أن تعرفوا إلى الحياة الحديثة ، ونزعوا إلى الحرية والإستقلال . وإذن فليس هناك بد من أن تتغير الحالة الحاضرة سواء رضى السادة المستعمرون أم كرهوا ؛ ذلك أنهم يقفون فى وجه التاريخ ، ولن يكون من اليسير الوقوف فى وجه التاريخ طويلا ...

ولست أكتب هذه الكلمة لأتحدث عن الإستعمار الفرنسى ومساوئه الشهيرة ، وإنما أريد أن أتحدث عن نوع النظام الذى يجب أن تخضع له هذه البلاد الشاسعة بعد أن يزحزح التاريخ هؤلاء السادة الواقفين فى وجهه . ماهى قواعد السياسة فى شمال أفريقيا الحرة ؟ هل يظل التقسيم الحالى قائما أم يقوم مقامه اتحاد ؟

يظن كثير من الناس أن تقسيم شمال أفريقيا الحالى يرجع إلى الإستعمار الفرنسى ، وهذا ليس بصحيح . فقد عرفت شمال أفريقيا على هذا النظام منذ زمن بعيد ، حتى قبل الإسلام خضعت أجزاؤه المختلفة إلى مقادير متباينة ، بحيث لم يستطع أحد أن يوحده فى ظل الحرية أو الإستعمار ، إلى أن جاء الإسلام ، ولم يكد ولاة القيروان يوحدون تلك الأراضى حتى تصدعت هذه الوحدة من جديد . ويكفى أن نقول إن شمال أفريقيا فى تاريخه الاسلامى الطويل لم يتوحد إلا مرتين ؛ أولاهما فى عصر الفاطميين إلى أن رحلوا إلى مصر ، وثانيتهما فى عصر الموحدين ملوك مراكش إلى أن انفصل عنهم بنو زيان فى الجزائر ، وبنو حفص فى تونس ، وهكذا تصدعت وحدة شمال أفريقيا لآخر مرة فى القرن السابع الهجرى بعد أن لم يكتب لها النجاح فى المحاولتين اللتين أسلفنا الاشارة اليهما . وكان هذا على أساس قيام ثلاث دول هى مراكش والجزائر وتونس ، وقد ظل الأمر على ذلك منذ هذا الحين .

ذلك هو التاريخ ، وهو دون شك عامل حيوى لايحمل إغفاله . بيد أن ظروف الحياة فى العصر الحديث قد تغيرت وبات نظام العالم يدعو إلى قيام كتل دولية كبيرة ، تقوم على أساس التعاون وتبادل المنفعة . فإذا أعدنا النظر فى اتحاد أو وحدة شمال أفريقيا على ضوء هذا استطعنا أن نلاحظ أشياء جديدة .

هذه البلاد شديدة التشابه من الناحية الجغرافية ؛ فهى مثل الجزيرة الخصبة المحصورة بين رمال الصحراء فى الجنوب والشرق ، ومياه البحر فى الشمال والغرب . والإختلاف فى الظواهر الطبيعية بينها جميعاً يشبه اختلاف هذه الظواهر فى كل قطر على حدة . ولذلك فإن هناك تشابها كبيراً بين السكان فى الجنس والعادات والخلقة والتنوع .

ولا توجد حدود طبيعية بين هذه الأقطار ، ولذلك ظلت حدودها مطاطة وغير مستقرة خلال عصور التاريخ .

وتاريخها شديد الإرتباط فى حوادثه بالرغم من انفصالها

السياسى ، وأغلبية السكان الساحقة مسلمون وهم متشابهون فى ظروف الحيــاة ، ومستوى الفـكر ، وتركيب العقلية ، وكل اختلاف فى طبائعهم يرجع إلى عوامل استثنائية لن تلبث أن تزول مع انهيار الأنظمة الحالية . أضف إلى ذلك خضوعها فى العصر الحديث لدولة واحدة هى فرنسا — مع استثناء الجزء الشمالى الصغير من مراكش الخاضع للنفوذ الاسبانى ولا يتعدى سكانه المليون نسمة — ومهما تتعدد الأنظمة وأسماؤها ، فقد اصطبغ الاستعمار الفرنسى فيهــا بصبغة واحدة ، لايختلف فى جوهره مطلقاً . قام فيها باصلاحات مادية واحدة ، وأثار فيها مشاكل واحدة أيضاً ، هى مشكلة العنصرية ونزع الأراضى وكبت الحريات العامة ومحاولة التوفيق بين التقدم الإقتصادى والاستثمار وبين الحيلولة دون تطور الأهالى واستفادتهم من التقدم الاقتصادى ، فنتجت عن ذلك حالة واحدة متشابهة .

ثم إن الموقف الفرنسى إزاء أمانى هذه البلاد القومية موقف واحد وهو موقف الحريص على الإحتفاظ بكل شىء وعدم التسامح حتى فى المسائل الصغيرة التى لا تقدم ولا تؤخر فى صميم النظام الحالى

وقد قلنا ونحن معتمدون على طبيعة الحياة وقانون التطور — إن هذه البلاد سوف تحقق أمانيها القومية مهما فعل الفرنسيون . فالسؤال الذى نريد أن نطرحه الآن هو : هل فى استطاعة هذه الأقطار أن تـكون بعد تحررها من النظام الحالى دولة واحدة أو أن تؤلف اتحاداً سياسياً ؟ .

لقد رأينا أن التاريخ لايقدم الينا أمثلة مشجعة على التفكير فى قيام دولة واحدة مؤلفة من شمال أفريقيا العربى ، ولذلك فنحن نرى استحالة قيامها فى المستقبل القريب . أما مايمكن أن يقوم فهو « اتحاد شمال افريقيا العربى » وهو مشروع يجب إطالة التفكير فيه ، ومحاولة بنائه على أسس مستمدة من التاريخ

كان هذا الاتحاد متعذراً فى الماضى يوم كان التاريخ لايسمح به لأسباب كثيرة لامجال لذكرها فى هذه العجالة . أما اليوم فإن المآسى الحديثة قد صهرت هذه الأقطار ، وقربت فيما بينها ، وجعلتها تفـكر فى مشاكل واحدة ، وتقاسى أرزاء واحدة ، وتكون على اتصال دائم بحكم النظام المتشابه الذى تخضع له ، وتبعيتها لدولة واحدة فى العصر الحديث .

كان سقوط الجزائر فى يد الأتراك إيذانا بسقوط تونس فى يدهم أيضاً . ثم سقطت الجزائر مرة أخرى فى يد الفرنسيين فكان سقوطها مقدمة لسقوط جارتيها معاً . وإذن فإن من أبسط الدواعى إلى قيام « اتحاد شمال أفريقيا العربى » هو أمن هذه البلاد الإجماعى فى المستقبل . وليس ذلك لأنها لن تستطيع الدفاع عن نفسها منفردة ، ولـكن لأن الحدود بينها ليست طبيعية ولذلك لايمكن أن يبنى الدفاع عن واحدة إلا على أساس الدفاع عنها جميعها . والحرب الأخيرة نفسها تقدم الينا أسطع مثال على هذا ، إذ كان مصير هذه الأقطار واحداً حين انتصر الألمـان ، وواحداً حين انتصر الحلفاء ، وعجز المارشال رومل عن الصمود فى تونس أمام جيوش الحلفاء التى احتلت الجزائر ومراكش .

وعلى ذلك فنستطيع أن نصل إلى نتيجة منطقية سليمة هى أن شمال أفريقيا لن يستطيع أن يكون إلا مجتمعاً ؛ وسوف يكون اتحاده مصدر قوة ، ولن تتمتع واحدة من بلاده باستقلالها كاملا مادامت إحدى جارتيها محتلة بالجيوش الأجنبية . وإن السبيل الوحيد إلى ذلك هو قيام « اتحاد شمال أفريقيا العربى » .

وإلا فسوف يكون من سخرية الأقدار أن يجمع بينهـا الاستعمار ثم يعجز عن ذلك الاستقلال .

عبد المجيد بن جلون

تعقيبات ...

للأستاذ عباس حسان خضر

أدب حرب — أدباء العروبة — علية بنت المهدى والمصائب — قصة زواج أم كلثوم .. ..

أدب حرب :

كان من فعل الحرب الماضية أن غمرت الأسواق مصنوعات رديئة ، خلت لها بانعدام البضائع الجيدة ، فلاقت الأولى ما لم تكن تلقاه الثانية من السعر والرواج ، واهتبل الفرصة كثير من صغار الصناع والدخلاء فى الصناعات ، فجدوا ، ولم يلبث كبارهم والمهرة منهم أن باروا أولئك فلم يأبهوا بالإتقان واختيار المادة ، وأزجى أولئك وهؤلاء بضاعتهم إلى السوق، ورزءوا بها المستهلكين

ونواحى الحياة من اقتصادية وأدبية وغيرهما مشتجرة متفاعلة فكان من الحتم أن يمتد ذلك التيار إلى الأدب ، وكان من النتائج ذات المقدمات أن نرى قوما قد استشرى بهم السعار ، فراحوا يؤلفون ، ويؤلفون ... أى ينتشون [1] من الكتب ويجمعون .. ويكونون من الأشتات والمنتوشات كتباً يطوفون بها على إدارات الصحف ومكاتب الصحفيين ، مرة للاعلان بالثمن ومراراً لرجاء التقريظ والتنويه !

أثار بنفسى تلك الشئون والشجون مقال الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى فى « تجار الأدب [2] » وإن كان الدكتور قصر حديثه على هؤلاء الدخلاء فإن الأمر — من حيث الإكثار وما يقتضيه من عدم الإجادة — قد امتد إلى كبار الكتاب ... فهذا كاتب يسود الصفحات ذات العدد ولم يبدأ قصته ، فإذا أخذ فى التعريف بأبطالها ترك البطل واقفا ينتظر عودة الكاتب من (مشوار) بعيد ... وذاك كاتب كثرت مقالاته بكثرة ما يصدر من الصحف والمجلات فى هذه الأيام ، فيجلس على (مصطبة) كل منها (يدردش) لا يكاد يرتفع حديثه عن هذر الأحلاس بالمقاهى ... وآخر يملأ الصفحة من حجم الجرائد اليومية بأمشاج من الأخلاط . كلمة من الشرق وكلمة من الغرب ، وشطحة لا تدرى من أين ... وأخرى لا تعرف إلى أين ... ولغيرهم فى مثل هذا طرائق قدد . ولا أريد أن أسمى أحداً ، فما للتجريح وجهت همى ، وإنما أقصد أن المعضلة هى مسألة هؤلاء الكبار .

أما أولئك المحتطبون فأمرهم ليس بذى بال ، فسينكشفون عن الأدب بتنبه القراء إلى زيفهم ، وأما كبارنا — ولهم فى الأدب والنتاج القيم ماض مجيد وبلاء محمود — فيظهر أنهم قد اغتروا بذلك واطمأنوا إليه وحسبوا أنهم بلغوا نهاية الشوط فأخلدوا إلى الراحة من عناء الدراسة والإجادة والإيجاز ... واستسهلوا الإكثار واستهواهم كسبه .

ولا أنكر على حملة القلم أن يكسبوا من كده ما يمكنهم من العيش الكريم ، بل أرى ذلك باعثاً على الإنتاج الأدبى ومشجعاً عليه ، ولكنا نريد جودة النتاج وعدم الذهاب إلى جشع التجار

أدباء العروبة

لعلك قرأت فى الصحف أخيراً أنباء أو نشرات عن جماعتين تسميان باسم واحد هو « جامعة أدباء العروبة » ولا بد أنك إذن عجبت ، فهو أمر يدعو حقاً إلى العجب ! على أن الأعجب منه أن تتصفح ما تتضمنه هذه النشرات من الأسماء فلا تجد بينها « معرفة » فى الأدب عدا واحد أو اثنين من غير الصف الأول!

فى أوائل هذا العام دعيت إلى تأليف جماعة أدبية قيل لى — فيما قيل — إنها ستؤلف من أدباء البلاد العربية ، فلبيت ، وأنا وإن كان بى انقباض عن المجتمعات إلا أننى مصاب بحب الاستطلاع ، فرأيت هناك أفراداً من مصر ، لقليل منهم بعض النشاط الأدبى ، وبعضهم من المتخلفين فى الأدب ، وسائرهم إما غنى « يدفع » أو صاحب « مكان وتليفون » أو مخبر فى جريدة ولكل وجهة ، وتلتقى الوجهات كلها عند الرغبة فى التسلق ... ووقع الاختيار على رجل كبير ، معروف — إلى جانب صفته السياسية بالشغف بالأدب ومودة الأدباء ، هو معالى ابراهيم دسوقى أباظة باشا الذى تفضل فشمل الجماعة بعطفه ...

وشرعت « جامعة أدباء العروبة » فى العمل ، وماذا يعملون؟

---

(١) من معانى النتش : الجذب والاستخراج .

(٢) الرسالة عدد ٧٠٢

حملهم رجل كريم فى سيارات إلى القناطر الخيرية ليجتلوا الربيع هناك ، ثم إلى الأهرام ليناجوا القمر ... ومكن لهم معالى الوزير من إسماع من لم « يقفلوا الراديو ! »

ومنذ شرعوا فى العمل ظهر بينهم شيء من « مفرزات مركب النقص » ما كدت ألمحه حتى نجوت بجلدى ... وظل « مركب النقص » يعمل حتى تنازعوا وانقسموا إلى فريقين : فريق لا يزال فى كنف معالى دسوقى باشا ، والآخر قد اختار لرياسته الأستاذ عبد الحميد عبد الحق ، وكل من الفريقين يتسمى بجامعة أدباء العروبة !

ونعود إلى العجب من تنازع الفريقين اسماً ليس أحدهما حقيقاً به ، لأن المتبادر إلى الذهن من هذا الاسم أنه علم على جامعة عربية أدبية ، أى جماعة من رءوس الأدباء فى البلاد العربية المختلفة ، وليس بين هؤلاء ولاهؤلاء واحد منهم ، على أن الصفة الغالبة على الرئيسين هى السياسة ، فلو أنهما تخليا عن هذه الرياسة لانصرف كل من الفريقين إلى شأنه

علية بنت المهدى والعصائب :

نشرت جريدة « أخبار اليوم » صورة كتبت تحتها : « تسريحة للشعر عرضت فى المؤتمر الدولى الثانى للحلاقة الذى عقد فى باريس ، ويلاحظ تأثير الذوق الشرقى فى الحلية التى تستر جزءاً من الجبين فى حالة اتساعه عن المألوف . »

صحيح أن هذا ذوق شرقى ، ولكن ما أصل هذا الذوق ؟ يخيل إلى أنه يرجع إلى علية بنت المهدى أخت الرشيد ، فقد أثر عنها أنها كانت من أجمل النساء ، ولكن كان بها عيب ، كان فى جبهتها سعة تشين وجهها ، فاتخذت العصائب المكللة بالجوهر لتستر بها جبينها ، قال صاحب الأغانى فى ذلك : « فأحدثت والله شيئاً ما رأيت فيما ابتدعته النساء وأحدثته أحسن منه »

وما إخال إلا أن هذه (المودة) قد انتشرت بمحاكاة علية ، وسارت بين النساء على اختلاف الأجيال وتعاقب الأزمان حتى الآن ، وها هى ذى تأخذ طريقها إلى باريس ...

وتلك هى سنة الناس فى ابتداع (المودات) وانتشارها ، وما أظن كثيراً من أوضاع الملابس التى نرتديها الآن ، كربطة العنق وثنية السروال ، إلا من عيب كان بأحد الناس فى سالف الزمن ، أو اضطرار لمواجهة حالة ، أو ما إلى ذلك .

قصة زواج أم كلثوم

إن كان حقيقياً ما يقال وما تدل عليه الدلائل فقد انخدعنا – كما انخدع سائر الناس — فى ما كتبنا بالتعقيبات الماضية عن زواج أم كلثوم ، إذ أيقنا أن هذا الزواج أو العزم عليه حقيقة واقعة ، وكانت طريقة إذاعة النبأ تحمل على الوثوق به ، ولكن يظهر أنها طريقة أمريكانية ...

أسبوع واحد جرت فيه الأعاجيب : استعداد تام لعقد الزواج الذى لا بد أن يكون قد فرغ من بحث مقدماته ، فإذا المقدمات تتأخر عن ظرفها حتى تبرز فى هذا الأسبوع المسحور فتعرف أم كلثوم أن خاطبها متزوج ، فترده ! ولا ينبغى أن تسأل لم لم تعرف من قبل ؟ وهل يخفى مثل ذلك فى مثل هذه الحال ؟ ! ليس لك هذا ، لأن الأسبوع المسحور يجب أن يتسع لكل شيء

قالوا لأم كلثوم : إن بعض (أفلامك) لم تنجح أخيراً ، لأنه لم يعمل لها الدعاية اللازمة ، وسنكفيك هذا الأمر ، فالرواية من عندنا ، والدعاية علينا ...

ويزاد على ذلك أن ما نشر عن هذا الزواج هو الحوادث الأولى فى (الفلم) الجديد الذى يلحن أغانيه محمود الشريف وقد يغنى فيه من قلبه المفجوع ... وتغنى أم كلثوم مصورة أحاسيسها وانفعالاتها ...

وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لم يكن فإن أم كلثوم ليست بحاجة إلى دعاية ولا إلى نجاح (أفلام) ففنها يتركز فى أنها « مطربة حفل » وهى ناجحة فيه (بدرجة فوق الممتاز) وهذا حسبها ، وأكثر ما يجنى من الدعاية للقائمين بها ... أما أن هذا لائق أو غير لائق فهو موضوع آخر ، وإن كان يجب ألا يغفل حسابه ...



فى النحو :

نقد الأستاذ عباس حسان خضر فى مقالة له فى (الرسالة الغراء) — ٧٠٢ — الأستاذ ميخائيل نعيمة فى مقالة له فى (الكاتب) الغراء فى قوله (مجيعون) لبنائه اسم الفاعل من (جاع) اللازم مثل هذا البناء وفى قوله (ويخاطبونا) لحذفه نون الرفع من الفعل . واليقين أن الأستاذ نعيمة بنى ما بنى من (أجاع) لا من (جاع) ومعناته أنا نجوع ونجيع غيرنا (جائعون ومجيعون) . وإذا كان للحماسى أن يقول :

كل له نية فى بغض صاحبه بنعمة الله نقليكم وتقلونا

وللامام محمد بن اسماعيل البخارى أن يروى فى كتابه المشهور :

« ... وذلك لقوله لا يسألونى خطة يعظمون بها الله إلا أعطيتهم إياها[1] » « ... قال إبراهيم وكانوا يضربونا على الشهادة والعهد ونحن صغار[2] » « . فقال أتبايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً[3] ... » .

إذا كان للحماسى أن يقول ما قال وللامام البخارى أن يروى ماروى فللأستاذ ميخائيل نعيمة أن يكتب (ويخاطبونا) . قال الإمام التبريزى فى (تقلونا) حذف النون الثانية عن الإعراب وهو لغة حجازية ، وعلى هذا قول الآخر : إلى من بالحنين تشوقينى » .

والحذف عند التقاء النونين فى كلام الأقدمين والمحدثين فى شعرهم ونثرهم — كثير .

(السهامى)

« حول كتب وشخصيات » :

كتب الأستاذ « عباس حسان خضر » فى عدد الرسالة الماضى كلمة مشكورة عن كتابى الأخير : « كتب وشخصيات »

وطبيعي أن يكون له ولغيره من القراء والنقاد وجهة نظر فى بعض المسائل تخالف وجهة نظرى ، ولا سيما فى كتاب نقد يتناول عدداً كبيراً من الشخصيات الأدبية تختلف حولهم الآراء .

ولكنى أحسب أنه من حقى كذلك أن أوضح وجهة نظرى للقراء فى مواضع الخلاف :

١ — قال : إننى قررت فى كتابى أن الأدب العربى « يغلب عليه طابع المعانى العامة المتبلورة ، والقضايا الذهنية الكلية ، ويطالع القارىء بنتيجة التجربة النفسية لا بطريقتها التى تشغل الحس وتستثير الخيال ، وهو فقير فى الصور والظلال . . الخ » ثم قال : « والأستاذ سيد يطلق هذه القذائف فى وجه الأدب العربى ، ثم يخلو إلى قطع مختارة من الآداب الغربية والهندية والفارسية معظمها من كتاب « عرائس وشياطين » للأستاذ العقاد فيعكف على ما فيها من الميزات التى جرد منها الأدب العربى ، ويأتى من الشعر العربى بما يراه مجرداً من اللحم والدم ... وهذا صنيع عجيب لأن القطع غير العربية التى أتى بها مختارة ، والأستاذ سيد لم يطلع على كثير غيرها فى آدابها ... الخ » وكان فيما قاله : « وقد أجاد فى تطبيق أسس النقد العام على الأمثلة التى اختارها ، لولا « شنشنة » ما كنا نود أن يكون « أخزمها » فقد حرص فى كل فصل من الفصول الأولى عند ذكر ميزات وقيم الفنون على أن يجرد أو ينقص نصيب الأدب العربى منها »

فأحب أن أقول للأستاذ : إنه ليس بينى وبين الأدب العربى عداوة تحملنى على أن « أحرص » على تجريده من المزايا . فثقافتى عربية ودائرة بحوثى على وجه عام هى الآداب العربية . ولكننى « ناقد » يجمع الخصائص ويقدر القيم ويضع القواعد . فإذا لاحظت من مجموع دراستى فقر الشعر العربى فى الصور والظلال بقدر احتشاده بالمعانى والأفكار — كما قلت — فان محبتى للأدب العربى لا يجوز أن تقف بى عند تقرير هذه الظاهرة بإخلاص .

أما مدى دراستى للشعر العربى وهى التى تخول لى إصدار

---

(١) جـ ٣ صـ ٢٥٥ .

(٢) جـ ٥ صـ ٣ .

(٣) جـ ٦ صـ ١٨٢ مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده .

هذا الحكم ، فتلك مسألة بيني وبين ضميري الأدبي ، وأنا مستريح من هذه الناحية . ولعل مما يطمئن الأستاذ أن لي بحثاً كاملا عن « الصور والظلال » في الشعر العربي رجعت فيه إلى كل ما يملك فرد أن يرجع إليه من مصادر الشعر العربي ، وهذا البحث لم ينشر بعد ولكنه بين يدي . والإحصاء الدقيق النسبي يقرر هذه القاعدة التي قررتها عن الشعر العربي بدون حاجة إلى الموازنة بين هذا الشعر والشعر العالمي الذي قد تنقصني مصادره على نحو واسع

وأحب مرة أخرى أن أقول للأستاذ إنني في الموازنة التي قمت بها لم يكن كل اعتمادي ولا جله على مجموعة « عرائس وشياطين » ففي المكتبة العربية الآن مجموعة من الشعر العالمي — ليست مختارات فحسب — تكفي لبيان الاتجاه العام في التعبير . وبينها وبين الشعر العربي فوارق أصيلة في طريقة تناول الموضوع والسير فيه ، وفي طريقة التعبير .

وإذا كانت للشعر العربي القديم ظروف تاريخية وعقلية خاصة جملته يختار طريقه ، ويكون تقاليده ، فان من واجب النقد في العصر الحديث أن يكشف عن الطرائق الأخرى لينتفع بها من يريدون التجديد الداخلي العميق لكيان الشعر في العصر الحديث .

على أنني حرصت على الاختيار من الشعر الفارسي والهندي والمصري القديم ، ومن « الكتاب المقدس » ، ومن « القرآن الكريم » لبيان خصائص التصوير والتظليل التي تقل في الشعر العربي ، وهي مصادر كاملة في المكتبة العربية لا مختارات .

ولو رجع الأستاذ إلى نقد : « ابن قتيبة » ، وأبي هلال العسكري للأبيات :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

أو للبيتين :

إن الأولى ذهبوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا

لعلم أن النقد العربي القديم لا يقيم وزنا للصور والظلال ولا يعدها قيمة فنية من قيم الشعر ... وهذا وحده يكفي .

٢ — قال : « ولم يكن المؤلف منصفا كل الإنصاف في الموازنة بين شوقي وعزيز أباظة في الرواية الشعرية . ومرد ذلك فيما ألمح إلى ما استقر عنده من هوان أمر شوقي في الشعر ، وقد بدا تحامله على شوقي في نقد الأبيات الآتية من مجنون ليلى :

لم إذن يا هند من قيس ومما قيل تبرا
أنعم « مناز » مساء سعدت سعد مساء
أوغل الليل فليقم . بل رويدا واسمي « ليل » ...

« يأخذ عليه في البيت الأول تسكين ميم « لم » وتسهيل الهمزة في « تبرا » وفي الباقي ترخيم منازل وليلى ، ويعد هذه ضرورات يعيبها عليه ، مع العلم بأن تسكين ميم لم ، وتسهيل الهمزة كثير جدا في الشعر ولا غبار عليه . أما ترخيم المنادى فليس من الضرورات ... وهذا وذاك وذلك أمور مستساغة بل كثيرا ما تستعذب وتستملح » .

وهنا أجدني آسفا لأن الأستاذ لم يعرض وجهة نظري كاملة . فلم تكن هذه الأشياء التعبيرية هي التي أخذتها على شوقي في الصميم ، إنما كان الذي أخذته هو الضعف في رسم الشخصيات والخوالج النفسية الإنسانية في أبطال الرواية ، والتفكك الفني في سياقها ، والخطأ في رسم نفسية « المجنون » وعواطفه ... الخ وقد برهنت على هذا بالأمثلة التي أستطيع نقلها هنا . أما هذه الضرورات فقد لاحظت كثرتها كثرة شديدة ، تخرج عما يستعذب ويستملح » ، مما لا يلجأ إليه إلا صغار النظامين الذين تعوزهم المرانة ... وقد استغربت هذا من شوقي فقلت :

« ومن العجيب أن تخون شوقي في رواياته الشعرية أقوى خصائصه التي بهرت أهل زمانه ، وهي قوة الأداء ، ووضوح التنغيم » فهذا عيب إذن خاص بالروايات لا بشوقي الشاعر ، كما بينت هناك في وضوح . وقد ذكرته على الهامش ولم يكن هو صميم النقد .

٣ — وقال : « ومما أخطأه الإنصاف فيه نقده لتيمور إذ يصف فنه بالفتور ، وبأنه يؤثر اللطف والدعة على الانفعال والحيوية . وهو في هذا يصنع موازين (غير مختومة) ويزن بها « فهذا أديب وديع لطيف يصدر في أدبه عن ذات نفسه فيؤثر فيه اللطف والدعة . أليس هذا من « الصدق الذاتي » في الأدب ؟ أو لا يكون النتاج معجبا إلا إذا صخب فيه الأديب وعربد ؟ » ...

ومرة أخرى أجدني آسفا لأن الأستاذ لم ينقل حقيقة رأيي

ولم يعرض مواضع نقدى « فأخطأه الإنصاف » فيما يقول :

فالذى يقوله الأستاذ هنا بديهية لا تبلغ بى الغفلة ألا ألتفت إليها . وليس كل أديب مكلفا أن يصخب ويعربد . وليست الدعة واللطف بأقل أصالة فى الفن من الصخب والعربدة .

ولكن أكان هذا مأخذى على فن تيمور :

أرجع إلى كتابى ص ١٨٥ فأجدنى أقول :

« لقد كان لتيمور الحق أن يتبوأ مكانه الذى ينسبه إليه بعض من يكتبون فى النقد فى هذه الأيام ، لو أنه وفق إلى منح الحياة لأبطال أقاصيصه وبث الحياة فى تضاعيفها — ولو إلى حد ، ولكنه — فيما عدا القليل من هذه الأقاصيص — يخونه التوفيق فى إطلاق روح الحياة المتحركة ... »

« ولطالما خيل إلى — وأنا أجول بين شخوص تيمور — أننى فى « متحف الشمع » ، فتماثيل الشمع هى التى تمثل هذه الشخوص أوضح التمثيل ... »

« ويحاول تيمور أن يرسم نماذج بشرية من خلال شخصيات محلية ، وهى محاولة لو أفلحت لأنشأت فنا إنسانيا رفيعا ؛ ولكنه فيما يخيل إلى بعيد كل البعد عن « الناس » وعن البيئة . فالناس — حيث كانوا — لا يتصرفون هذه التصرفات مجتمعة . والناس فى مصر ليسوا كما يتوهمهم المؤلف لا فى طبيعتهم ولا فى أحاديثهم ، ولا فى خلجاتهم النفسية ولا فى سمة من السمات المحلية الكثيرة التى تبرز طابعهم . إنهم ليسوا مصريين لأنهم ليسوا آدميين » !

هذه هى المآخذ الأساسية : فقدان الحياة . أما حكاية الصخب والعربدة فقد جاءت فى كتابى هكذا :

« إنه لا يخطر لهذه الشخوص — مرة واحدة — أن تنفعل انفعالا قويا — كما يقع للآدميين — وحين تنفعل يبدو التكلف والبعد عن الحقيقة البسيطة ... »

« والحركة العنيفة ليست مطلبا فى ذاته ؛ ولكنها علاقة من علامات الحياة تصدر من البنية الحية فى ميعادها فتدل على الحياة الكامنة فيها » .

هكذا قلت . وأحسبنى كنت أعرف هذه البديهية الواضحة . إن « تيمور بك » يجد دائما وفى كل عمل يعمله من يشيد بفضله على الفن ، ومن يصعد بفنه إلى السماء . دائما دائما يجد من يقول له هذا . فإذا وجد ناقد يملك أن يتخلص من كل الملابسات ليقول مرة واحدة كلمة حق ، فيجب أن يكون لهذه الكلمة مكان فى وسط التعاويذ والرقى ومجامر البخور !!!

وإلا فأسباب المودة الآسرة التى تربط تيمور بك بنقاده جميعا كانت كفيلة بأن تنطقنى بغير ما نطقت . فأنا أتمتع بها والحمد لله . وليس هناك ما يدعونى ألا أنصف ذلك الرجل الوديع الودود .

وبعد فشكرا للأستاذ عباس حسان خضر على جميع الحالات .

سيد قطب

ملتن :

بقى فى دراسة الأستاذ الخفيف للشاعر ملتن بعض الكلام أرجأه إلى أن تنشر هذه الدراسة القيمة كتابا حتى لا تتجزأ بين السنة الرابعة عشرة والسنة الخامسة عشرة من الرسالة .

فهرس الموضوعات للسنة الخامسة عشرة من الرسالة